حُسْنُ التَّحْرِير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

مُهَذَّبٌ وَمُخْتَصَرٌ وَمُحَقَّقٌ لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٤٤هـ

تهذيب واختصار وتحقيق

محمد الحمود النجدي

الجزء الأول

جمعية إحياء التراث الإسلامي
مكتبة دار الإمام أحمد بن حنبل

حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

جمعية إحياء التراث الإسلامي
فرع ضاحية صباح الناصر
ت: ٤٨٠٩٠٢٢ - ٤٨٠٩٠٣٣ - ٤٨٠٣٠٦٦
فاكس الإدارة: ٤٨٨٦٠٧٠ - فاكس اللجنة العلمية: ٤٨٨٢٥١١
ص.ب: ١٥٥١٦ العارضية - رمز بريدي: ٩٢٤٠٠ الكويت.

مكتبة دار الإمام أحمد بن حنبل
جليب الشيوخ - المجمعات التجارية
مجمع الواحة - الميزانين - محل رقم ٢ - ت: ٤٣٣٤٦٨٧ - ٤٣١١٣٧٩
فاكس: ٤٣٣٤٦٨٧
ص.ب: ٣٧٦ - الفردوس - الكويت.

حُسْنُ التَّحرِير

فِي تهذِيب

تفسِير ابن كثِير

مُهَذَّبٌ ومُختَصَرٌ وتحقيقٌ لتفسيرِ القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٤٤ هـ

تهذيب واختصار وتحقيق
محمد الحمود النجدي

الجزء الأول

جمعية إحياء التراث الإسلامي
مكتبة دار الإمام أحمد بن حنبل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أشهد أن محمداً عبده ورسوله ،

أما بعد : فإن أحسن الحديث كتاب الله ، و أحسن الهدي هدي محمد ﷺ و شر الأمور محدثاتها ، و كل محدثة بدعة ، و كل بدعة ضلالة ، و كل ضلالة في النار .

ثم أما بعد : فإن تفسير الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الشافعي ، من أشهر التفاسير وأحسنها و أصوبها ، و يأتي في الرُّتبة بعد تفسير الإمام العلامة الحافظ أبي جعفر ابن جرير الطبري شيخ المفسرين ، و هما كما قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى : «و لسنا نوازن بينهما و بين أي تفسير آخر مما بأيدينا ، فما رأينا مثلهما و لا ما يقاربهما» [١] .

و لا عجب في ذلك ! فقد سلك الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى أحسن الطُّرق في تفسير القرآن العظيم ، ففسر القرآن بالقرآن أولاً ، لأن ما أُجمل في موضع قد بيِّن وفُسر في موضع آخر ، و ما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر .

ثم فسر القرآن بالسنة النبوية ، فإنها تأتي شارحة للقرآن و موضحة له ، كما قال عز وجل : ﴿و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم و لعلهم يتفكرون﴾ (النحل : ٤٤)

ثم فسَّره بأقوال الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، فإنهم أعلم الناس بتفسيره ، فإنهم عاصروا التنزيل ، وشاهدوا التأويل ، و «لهم من الفهم التام و العلم الصحيح ، لا سيما علماؤهم و كبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين و الأئمة المهديين ، و عبد الله بن مسعود ، و الحبر البحر عبد الله بن عباس» [٢] و غيرهم .

ثم بأقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير ، و سعيد بن جبير ، و عكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبي رباح ، و الحسن البصري ، و مسروق بن الأجدع ، و سعيد بن المسيب ، و أبي العالية ، و الربيع بن أنس ، و قتادة ، و الضحاك بن مزاحم ، و غيرهم من التابعين ، و من بعدهم [٣] .

و هذا أحسن ما يكون في تفسير كتاب الله العزيز .

---

(١) مقدمة كتاب : عمدة التفسير .

(٢) مقدمة في أصول التفسير (صـ ٩٥ـ٩٦) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى باختصار .

(٣) انظر المصدر السابق (صـ ١٠٢) و ما بعدها .

«و لكني لمستُ الحاجة الماسّة، و الضّرورة الملحّة، لتقريب التفسير للمتوسطين من المثقفين، الذين لم يمارسوا دقائق العلم، و لم يتصلوا باصطلاحات العلماء الأئمة في الفنون، و لطلاب العلوم الإسلامية في شتى أنحاء العالم الإسلامي، فرأيت أن لا بدّ مما ليس منه بد»[1].

◆ **منهج الاختصار:**

لقد سِرْتُ في اختصاري للكتاب بما يقارب ما كتبه العلامة أحمد شاكر رحمه الله تعالى في اختصاره لتفسير ابن كثير، فقد قال في منهجه في كتابه «عمدة التفسير»:

١- «حافظتُ كل المحافظة على الميزة الأولى لتفسير ابن كثير، الميزة التي انفرد بها عن جميع التفاسير التي رأيناها، و هي تفسير القرآن بالقرآن، و جمع الآيات التي تدل على المعنى المراد من الآية المفسرة أو تؤيده وتقويه. فلم أحذف شيئاً مما قاله المؤلف الإمام الحافظ في ذلك[2].

٢- حافظتُ على آراء الحافظ المؤلف و ترجيحاته في تفسير الآيات، مجتهداً في إبقاء كلامه بحروفه ما استطعتُ.

٣- اخترتُ من الأحاديث التي يذكرها أصحها و أقواها إسناداً، و أوضحها لفظاً. فإن المؤلف رحمه الله كثيراً ما يذكر الحديث الواحد بروايات متعددة، و من أوجه مختلفة.

٤- حذفت أسانيد الأحاديث التي أذكرها، فإن الحافظ ابن كثير يذكر الأحاديث بأسانيدها مفصلة من دواوين السنة. فيقول مثلاً «قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا ...»، ثم يسوق الإسناد و الحديث، ثم كثيراً ما يذكر بعده تخريجه من الصحاح و السنن و غيرها، بأسانيدها كاملة أو بالإشارة إلى الأسانيد.

٥- فاكتفيت من ذلك بذكر الحديث عن الصحابي راويه، أو التابعي إذا كان الصحابي غير مُسمّى، ثم أذكر بعد ذلك من رواه من الأئمة، معتمداً في ذلك على ما ذكره المؤلف رحمه الله، و هو حجةٌ في ذلك، فلم أرجع إلى المصادر التي يذكرها إلا عند الضرورة القصوى، لتحقيق لفظ الحديث، أو لغير ذلك من المقاصد العلمية الدقيقة، التي تتعلق بالرواية أو الدراية، و لم أزد على تخريجه إلا ما لم يكن منه بدٌّ[3].

٦- حذفتُ كل حديث ضعيف أو معلول، إلا أن يكون إثباته في موضعه ضرورةً علميةً: لرفع شبهة، أو بيان معنى حديث صحيح بحديث ليس ضعيفاً بمرة، أو ردّ على احتجاج به لذي هوى أو ضغن على الإسلام و أهله،

---

(١) مقدمة «عمدة التفسير».

قال مقيده: و قد ظهر لتفسير ابن كثير مختصران: أولهما للشيخ/ نسيب الرفاعي رحمه الله تعالى، و ثانيهما لمحمد علي الصابوني، وعليهما مؤاخذات و ردود، لا سيما الثاني منهما، فإنه انتهج منهج الخلف في تأويل صفات الباري سبحانه، و أما من جهة الحديث فقد قال العلامة الألباني: «و هناك أشخاص آخرون ظهروا في ساحة التأليف و الكتابة فيما لا يحسنون، و أخص بالذكر منهم الشيخين الحلبيّين اللذَين اختصر كل منهما «تفسير الحافظ ابن كثير» سبق أن نبّهتُ في المجلد السابق على شيء من الأحاديث الضعيفة التي صححاها بجهل بالغ، وفي هذا المجلد أحاديث أخرى من ذلك القبيل. . . . » الضعيفة - (مقدمة المجلد الرابع).

(٢) و كذا في هذا الكتاب إلا في مواضع قليلة جداً.

(٣) و قد خرجنا بعض الأحاديث التي أوردها الحافظ ابن كثير و لم يعزها لمصدر، و هي قليلة.

أو غير ذلك من المقاصد العالية.

٧- حذفتُ المكرر من أقوال الصحابة في التفسير، و كثيراً من آراء التابعين، اكتفاء ببعضها، خصوصاً و أنها كثيراً ما تختلفُ لفظاً و تتفق أو تتقارب معنى، كما قال المؤلف الحافظ رحمه الله «و الكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن».

٨- نفيت عن كتابي هذا كل الأخبار الإسرائيلية و ما أشبهها، فإن المؤلف رحمه الله قد جَدَبها [1] في مواضع كثيرة من تفسيره، و أبان عن خطلها و ضررها، و أنحى بالأئمة على روايتها و رُواتها، و رسم لنفسه خطةً في شأنها. و مع ذلك فإنه ـ فيما يبدو لي ـ لم يستطع أن يسير على ما رسم، و غلبه ما وجد من الروايات في كثير من المواطن، فأثبت طائفة منها غير قليلة. فحذفتها كلها، و الحمد لله.

٩- حذفتُ أكثر ما أطال به المؤلف رحمه الله من الأبحاث الكلامية و الفروع الفقهية، و المناقشات اللغوية واللفظية، مما لا يتصل بتفسير الآية اتصالاً وثيقاً، و أبقيتُ من ذلك ما لم أجد منه بداً في إيضاح معنى الآية، أوتقوية المعنى الراجح المختار في تفسيرها.

١٠- أحياناً يذكر المؤلف الحافظ حديثاً طويلاً لمناسبة تفسير آية أو لمعنى يتعلق بها، و لا يكون كله في موضع الشاهد المتعلق بالآية، بل بعضه فقط.

فرأيت أن أقتصر في مثل هذه الحال على موضع الشاهد منه، لأن المقصد الأصليّ هو التفسير، لا رواية الحديث كله. و أشير بكلمة تدل على ذلك [2] . . .

١١- و أصنع نحو هذا فيما يذكر المؤلف من الأحاديث التاريخية المطولة، التي تتعلق بالتفسير» [3].

و لما كان هذا العمل كبيراً في حجمه، فإنه لا بد من وقوع الخلل و النقص.

فإنْ تجدْ عيباً فسُدَّ الخَلَلا جلَّ مَنْ لا عيبَ فيه و علا

و أخيراً: أسأل الله تعالى أن يوفقني لإتمام هذا المختصر، و أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يتقبل منا صالح أعمالنا، و يتجاوز عن سيئاتنا، و يتوفانا مع الأبرار، إنه هو الرحيم ذو العزة و الاقتدار. . .

و صلى الله على نبينا محمد و على آله و أصحابه و سلم.

و كتبه/
راجي عفو ربه
محمد بن حمد الحمود النجدي
لتسع بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ١٤١٩ هـ

---

(١) جدبها: أي ذمها و عابها.
(٢) أشرت إلى ذلك في كتابنا في الهامش.
(٣) مقدمة «عمدة التفسير». و لا يعني هذا أن كتابنا مطابق لعمدة التفسير، كما سيراه القارئ واضحاً أثناء قراءته إن شاء الله تعالى.

مقدمة تفسير ابن كثير

(قال الشيخ الإمام الأوحد، البارع الحافظ المتقي، عماد الدين أبو الفداء: إسماعيل بن الخطيب أبي حفص عمر ابن كثير الشافعي، رحمه الله تعالى و رضي عنه).

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الحمد لله رب العالمين ◆ الرحمن الرحيم ◆ مالك يوم الدين﴾ وقال تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجاً ◆ قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ◆ ماكثين فيه أبداً ◆ و ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ◆ ما لهم به من علم و لا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾ و افتتح خلقه بالحمد فقال تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات و الأرض و جعل الظلمات و النور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ و اختتمه بالحمد فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنة و أهل النار ﴿و ترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم و قضي بينهم بالحق و قيل الحمد لله رب العالمين﴾ و لهذا قال تعالى ﴿و هو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى و الآخرة و له الحكم و إليه ترجعون﴾ كما قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات و ما في الأرض و له الحمد في الآخرة و هو الحكيم الخبير﴾ فله الحمد في الأولى و الآخرة أي في جميع ما خلق و ما هو خالق، هو المحمود في ذلك كله كما يقول المصلي «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات ملء الأرض و ملء ما شئت من شيء بعد» و لهذا يُلهم أهل الجنة تسبيحه و تحميده كما يلهمون النَّفَس أي يسبحونه و يحمدونه عدد أنفاسهم، لما يرون من عظيم نعمه عليهم، و كمال قدرته، و عظيم سلطانه، و توالي منته و دوام إحسانه إليهم، كما قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ◆ دعواهم فيها سبحانك اللهم و تحيتهم فيها سلام و آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.

و الحمد لله الذي أرسل رسله ﴿مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ و ختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس و الجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات و الأرض لا إله إلا هو يحيي و يميت فآمنوا بالله و رسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله و كلماته و اتبعوه لعلكم تهتدون﴾ و قال تعالى: ﴿لأنذركم به و من بلغ﴾ فمن بلغه هذا القرآن من عرب و عجم و أسود و أحمر و إنس و جان فهو نذير له، و لهذا قال تعالى: ﴿و من يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده بنص الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فذرني و من يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ و قال رسول الله ﷺ: «بعثت إلى الأحمر و الأسود» قال مجاهد يعني الإنس و الجن. فهو صلوات الله و سلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين الإنس و الجن، مبلغاً لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ و قد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى فهمه فقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ و قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته و ليتذكر أولوا الألباب﴾ و قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

(فالواجب) على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، و تفسير ذلك و طلبه من مظانه، و تعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى: ﴿و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس و لا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئسما يشترون﴾ و قال تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله و أيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة و لا يكلمهم الله و لا ينظر إليهم يوم القيامة و لا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل إليهم، و إقبالهم على الدنيا و جمعها و اشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عمّا ذمهم الله تعالى به، و أن نأتمر بما أمرنا به تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، و تفهمه، و تفهيمه، قال تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله و ما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم و كثير منهم فاسقون ◈ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان و الهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسئول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم.

فإن قال قائل فما أحسن التفسير؟ (فالجواب) أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن و موضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله و لا تكن للخائنين خصيماً﴾ و قال تعالى: ﴿و ما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه و هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ وقال تعالى: ﴿و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم و لعلهم يتفكرون﴾ و لهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن و مثله معه» (١) يعني السنة. و السنة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله تعالى و غيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

و الغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة. و حينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن و لا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن و الأحوال التي اختصوا بها، و لما لهم من الفهم التام و العلم الصحيح و العمل الصالح، لا سيما علماؤهم و كبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، و الأئمة المهتدين المهديين، و عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم.

فعن مسروق قال: ابن مسعود: و الذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا و أنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت. و لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته. و قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم يستقرئون من النبي ﷺ و كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلّمنا القرآن والعمل جميعاً.

و منهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ و ترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه في الدين و علمه التأويل» و عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس. و هذا صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. و قد مات ابن مسعود رضي الله عنه في

(١) رواه أحمد و أبو داود من حديث المقدام بن معديكرب، و هو حديث صحيح.

سنة اثنتين و ثلاثين على الصحيح، و عمّر بعده عبد الله بن عباس ستاً و ثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟ و قال الأعمش عن أبي وائل: استخلف عليّ عبد الله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة - و في رواية سورة النور - ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم و الترك و الديلم لأسلموا.

و لهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس و لكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بلغوا عني و لو آية و حدثوا عن بني إسرائيل و لا حرج، و من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو و لهذا كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

و لكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد[1] فإنها على ثلاثة أقسام **(أحدها)** ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح **(والثاني)** ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه **(والثالث)** ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل و لا من هذا القبيل فلا نؤمن به و لا نكذبه، و تجوز حكايته لما تقدم، و غالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني. و لهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً. و يأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، و لون كلبهم، و عدتهم. و عصا موسى من أي الشجر كانت. و أسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضُرب به القتيل من البقرة، و نوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم و لا دنياهم.

ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى: **﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم و يقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب و يقولون سبعة و ثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً و لا تستفت فيهم منهم أحداً﴾** فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال ضعّف القولين و سكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلاً لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته فقال في مثل هذا **﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾** فإنه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه فلهذا قال: **﴿فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً﴾** أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، و لا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف، أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام و أن تنبه على الصحيح منها و تبطل الباطل، و تذكر فائدة الخلاف و ثمرته لئلا يطول النزاع و الخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حكى خلافاً في مسألة و لم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكى الخلاف و يطلقه و لا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً، فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، و كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً، و يرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيّع الزمان و تكثر بما ليس بصحيح فهو كلابس ثوبي زور، و الله الموفق للصواب.

(فصل) إذا لم تجد التفسير في القرآن و لا في السنة و لا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في

(١) و قد حذفناها في هذا المختصر، كما تقدم.

ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها. و لهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، و كسعيد بن جبير و عكرمة مولى ابن عباس و عطاء بن أبي رباح والحسن البصري و مسروق بن الأجدع و سعيد بن المسيب و أبي العالية و الربيع بن أنس و قتادة و الضحاك بن مزاحم و غيرهم من التابعين و تابعيهم و من بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عبارتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، و ليس كذلك فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، و منهم من ينص على الشيء بعينه، و الكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك و الله الهادي.

و قال شعبة بن الحجاج و غيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم و هذا صحيح. أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض و لا على من بعدهم، و يرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لأنه قد تكلف ما لا علم له به وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الأمر من بابه كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ و الله أعلم. و هكذا سمى الله القذفة كاذبين فقال: ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ فالقاذف كاذب، و لو كان قد قذف مَنْ زنى في نفس الأمر لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، و لو كان أخبر بما يعلم لأنه تكلف ما لا علم له به والله أعلم.

و لهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روى أبو معمر قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أي أرض تقلّني، و أي سماء تظلّني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. و عن أنس قال: كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه و في ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ ﴿وفاكهة و أباً﴾ فقال فما الأب؟ ثم قال: هو التكلف فما عليك أن لا تدريه؟ و هذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، و إلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، كقوله تعالى: ﴿فأنبتنا فيها حباً و عنباً﴾ الآية، و عن ابن مليكة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبى أن يقول فيها، إسناده صحيح، و عنه قال: سأل رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة؟ فقال له ابن عباس: فما ﴿يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾؟ فقال له الرجل إنما سألتك لتحدثني فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم. و عن عبيد الله بن عمر قال: لقد أدركت فقهاء المدينة و إنهم لَيُعَظِّمُونَ القول في التفسير منهم سالم بن عبد الله و القاسم بن محمد و سعيد بن المسيب و نافع. و عن مسروق قال: اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة و ما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه. فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة و شرعاً فلا حرج عليه، و لهذا روي عن هؤلاء و غيرهم أقوال في التفسير و لا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه و سكتوا عما جهلوه، و هذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لتبيننه للناس

ولا تكتمونه﴾ و لما جاء في الحديث الذي روي من طرق «من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار». و روى ابن جرير عن ابن عباس: إن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، و منه ما يعلمه العلماء و منه ما تعلمه العرب من لغاتها، و منه ما لا يعذر أحد في جهالته[1].

مقدمة مفيدة تذكر في أول التفسير قبل الفاتحة

روى أبو بكر بن الأنباري بسنده عن قتادة قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة و آل عمران و النساء و المائدة و براءة و الرعد و النحل و الحج و النور و الأحزاب و محمد و الفتح و الحجرات و الرحمن و الحديد و المجادلة والحشر و الممتحنة و الصف و الجمعة و المنافقون و التغابن و الطلاق و ﴿يا أيها النبي لم تحرم﴾ إلى رأس العشر و ﴿إذا زلزلت﴾ و ﴿إذا جاء نصر الله﴾ هؤلاء السور نزلت بالمدينة و سائر السور بمكة.

فأما عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال: فمنهم من لم يزد على ذلك، و منهم من قال: و مائتي آية و أربع آيات، و قيل: و أربع عشرة آية. وقيل: و مائتان و تسع عشرة آية وقيل: و مائتان و خمس و عشرون آية، أو ست و عشرون آية، و قيل: و مائتان و ست و ثلاثون، حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه البيان. و أما كلماته فقال الفضل بن شاذان عن عطاء بن يسار سبع و سبعون ألف كلمة وأربعمائة و تسع و ثلاثون كلمة، و أما حروفه فقال عبد الله بن كثير عن مجاهد: هذا ما أحصيناه من القرآن وهو: ثلاثمائة ألف حرف و أحد و عشرون ألف حرف و مائة و ثمانون حرفاً، و قال الفضل بن عطاء بن يسار ثلاثمائة ألف حرف و ثلاثة و عشرون ألفاً و خمسة عشر حرفاً.

و قال سلام أبو محمد الحماني: أن الحجاج جمع القراء و الحفاظ و الكتاب فقال: أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو؟ قال: فحسبنا فأجمعوا أنه ثلثمائة ألف و أربعون ألفاً و سبعمائة و أربعون حرفاً، قال: فأخبروني عن نصفه فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف ﴿و ليتلطف﴾ و ثلثه الأول عند رأس مائة آية من براءة و الثاني على رأس مائة أو إحدى و مائة من الشعراء، و الثالث إلى آخره.

و أما (التحزيب و التجزئة) فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس و غيرها، و قد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن، و الحديث في مسند الإمام أحمد و سنن أبي داود و ابن ماجه و غيرهم عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته كيف تحزبون القرآن؟ قالوا ثلث وخمس و سبع و تسع و أحد عشرة و ثلاث عشرة و حزب المفصل حتى تختم.

(فصل) و اختلف في معنى السورة مما هي مشتقة فقيل من الإبانة و الارتفاع قال النابغة:

ألم تر أنَّ اللهَ أعطاكَ سورةً ترى كل مَلِكٍ دونها يتذبذب

فكأن القارئ يتنقل بها من منزلته إلى منزلة. و قيل: لشرفها و ارتفاعها كسور البلدان، و قيل: سميت سورة لكونها قطعة من القرآن و جزءاً منه مأخوذ من أسآر الإناء و هو البقية. و على هذا فيكون أصلها مهموزاً، و إنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها. و قيل لتمامها و كمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة (قلت) و يحتمل أن يكون من الجمع و الإحاطة لآياتها كما يسمى سور البلد لإحاطته بمنازله و دوره. وجمع السورة سُوَر بفتح الواو، و قد يجمع على سُورَاتٍ و سُوْرَات.

و أما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها و انفصالها، أي هي بائنة عن أختها

(١) و في سنده ضعف، و معناه صحيح.

و منفردة قال الله تعالى : ﴿إن آية ملكه﴾

و قيل لأنها جماعة حروف من القرآن و طائفة منه كما يقال خرج القوم بآياتهم أي بجماعاتهم.

و قيل سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها، و أما الكلمة فهي اللفظة الواحدة و قد تكون على حرفين مثل ما و لا و نحو ذلك، و قد تكون أكثر، و أكثر ما تكون عشرة أحرف مثل ﴿ليستخلفنهم﴾ و﴿أنلزمكموها﴾ ﴿فأسقيناكموه﴾. و قد تكون الكلمة الواحدة آية مثل و الفجر و الضحى و العصر و كذلك ألم و طه و يس و حم في قول الكوفيين و (حم عسق) عندهم كلمتان و غيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول هذه فواتح السور، و قال أبو عمرو الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى : ﴿مدهامتان﴾ بسورة الرحمن.

(فصل) قال القرطبي : أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، و أجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كإبراهيم و نوح و لوط و اختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية، فأنكر ذلك الباقلاني و الطبري و قالا : ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات.

ترتيبها	سُورَةُ الفَاتِحَةِ	آياتها
١		٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يقال لها الفاتحة أي فاتحة الكتاب خطاً و بها تُفتتح القراءة في الصلوات، و يقال لها أيضاً أم الكتاب عند الجمهور، ذكره أنس. و قد ثبت في الصحيح عند الترمذي و صححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الحمد لله رب العالمين أم القرآن، و أم الكتاب، و السبع المثاني، و القرآن العظيم» و يقال لها (الحمد) و يقال لها (الصلاة) لقوله ﷺ عن ربه «قَسَمتُ الصلاة بيني و بين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله: «حمدني عبدي» الحديث. فسميت الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها، و يقال لها (الشفاء) لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعاً «فاتحة الكتاب شفاء من كل سم» و يقال لها (الرقية) لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول الله ﷺ «و ما يدريك أنها رقية» ؟.

و هي مكية قاله ابن عباس و قتادة و أبو العالية، و قيل مدنية قاله أبو هريرة و مجاهد و عطاء بن يسار والزهري و يقال نزلت مرتين: مرة بمكة و مرة بالمدينة، و الأول أشبه لقوله تعالى: ﴿**و لقد آتيناك سبعاً من المثاني**﴾ و الله تعالى أعلم. و هي سبع آيات بلا خلاف، و إنما اختلفوا في البسملة هل هي آية مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة و قول جماعة من الصحابة و التابعين و خلق من الخلف، أو بعض آية أو لا تعد من أولها بالكلية كما هو قول أهل المدينة من القراء و الفقهاء، على ثلاثة أقوال كما سيأتي تقريرها في موضعه إن شاء الله تعالى و به الثقة.

قالوا و كلماتها خمس و عشرون كلمة، و حروفها مائة و ثلاثة عشر حرفاً. قال البخاري في أول كتاب التفسير: و سميت أم الكتاب لأنه يُبدأ بكتابتها في المصاحف و يبدأ بقراءتها في الصلاة، و قيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته. قال ابن جرير: و العرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع: أماً، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ أم الرأس، و يسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أماً.

قال و سميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها، و جمعها ما سواها، و قيل: لأن الأرض دحيت منها.
ويقال لها أيضاً: الفاتحة لأنها تفتتح بها القراءة و افتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام و صح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة و إن كان للمثاني معنى آخر، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في أم القرآن: «هي أم القرآن و هي السبع المثاني و هي القرآن العظيم».

ذِكْر ما ورد في فضل الفاتحة

عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت، قال: فأتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني»؟ قال قلت: يا رسول الله إني كنت أصلي قال: ألم يقل الله تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾** ثم قال: «لأُعَلِّمَنَّك أعظم سورةٍ في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» قال: فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلتَ لأعلِّمنك أعظم سورة في القرآن، قال: «نعم **﴿الحمد لله رب العالمين﴾** هي السبع المثاني و القرآن العظيم الذي أوتيته». رواه البخاري.

و روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أُبي بن كعب، و هو يصلي قال: يا أُبي، فالتفت ثم لم يجبه، ثم قال: أبيّ، فخفف أبي ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك أي رسول الله قال «و عليك السلام ما منعك أي أبي إذ دعوتك أن تجيبني». قال: أي رسول الله إني كنت في الصلاة قال: أولست تجد فيما أوحى الله تعالى إلي **﴿استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾** قال: بلى يا رسول الله لا أعود، قال: «أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل لا في التوراة و لا في الإنجيل و لا في الزبور و لا في الفرقان مثلها»؟ قلت: نعم أي رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن لا أخرج هذا الباب حتى تعلمها»، قال: فأخذ رسول الله ﷺ بيدي يحدثني و أنا أتبطأ مخافة أن يبلغ قبل أن يقضي الحديث، فلما دنونا من الباب قلت: أي رسول الله ما السورة التي وعدتني؟ قال ما تقرأ في الصلاة؟ قال فقرأت عليه أم القرآن قال: «والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة و لا في الإنجيل و لا في الزبور و لا في الفرقان مثلها، إنها السبع المثاني»، ورواه الترمذي و النسائي.

و استدلوا بهذا الحديث و أمثاله على تفاضل بعض الآيات و السور على بعض، كما هو المحكي عن كثير من العلماء، منهم إسحاق بن راهويه و أبو بكر بن العربي و ابن الحفار من المالكية. و روى البخاري في فضائل القرآن عن أبي سعيد الخدري قال: كنا في مسير لنا، فنزلنا فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم و إن نفرنا غيب فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبنه برقية فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة و سقانا لبناً. فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية أو كنت ترقى؟ فقال: لا ما رقيت إلا بأم الكتاب، قلنا: لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي ونسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «و ما كان يُدريه أنها رقية، اقْسِموا و اضْرِبوا لي بسهم». و في بعض روايات مسلم لهذا الحديث أن أبا سعيد الخدري هو الذي رقى ذلك السليم يعني اللديغ يسمونه بذلك تفاؤلاً.

(حديث آخر): روى مسلم في صحيحه و النسائي في سننه من حديث ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل، إذ سمع نقيضاً فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال: «هذا باب قد فُتح من السماء ما فُتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يُؤتهما نبيٌ قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته» و هذا لفظ النسائي.

(حديث آخر) روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «منْ صلّى صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن

فهي خِداجٌ ثلاثاً غير تمام» فقيل لأبي هريرة إنا نكون خلف الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل: «قَسَمتُ الصلاة بيني و بين عبدي نصفين و لعبدي ما سأل فإذا قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله: حمدني عبدي، و إذا قال ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الله: أثنى عليّ عبدي، فإذا قال ﴿مالك يوم الدين﴾ قال الله: مجّدني عبدي، و قال مرة: فوّض إلي عبدي، فإذا قال ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال: هذا بيني و بين عبدي و لعبدي ما سَأل، فإذا قال ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا الضالين﴾ قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه

(أحدها) أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، و المراد القراءة كقوله تعالى: ﴿و لا تجهر بصلاتك و لا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا﴾ أي بقراءتك كما جاء مصرحاً به في الصحيح عن ابن عباس، و هكذا قال في هذا الحديث «قسمت الصلاة بيني و بن عبدي نصفين فنصفها لي و نصفها لعبدي و لعبدي ما سأل» ثم بين تفضيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظمة القراءة في الصلاة، و أنها من أكبر أركانها إذا طلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها، هو القراءة. كما أطلق لفظ القراءة و المراد به الصلاة في قوله: ﴿و قرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ و المراد صلاة الفجر كما جاء مصرحاً به في الصحيحين: «أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار» فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة و هو اتفاق من العلماء.

ثم إن مذهب الشافعي و جماعة من أهل العلم أنه تجب قراءتها في كل ركعة. و قال آخرون: إنما تجب قراءتها في معظم الركعات. و قال الحسن و أكثر البصريين: إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات أخذاً بمطلق الحديث «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» و قال أبو حنيفة و أصحابه و الثوري و الأوزاعي: لا تتعين قراءتها بل لو قرأ بغيرها أجزأه، لقوله تعالى ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ و الله أعلم [١].

(الوجه الثالث) هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء **(أحدها)** أنه تجب عليه قراءتها كما تجب على إمامه لعموم الأحاديث المتقدمة.

(و الثاني) لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة و لا غيرها و لا في الصلاة الجهرية و لا السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» و لكن في إسناده ضعف.

(و القول الثالث) أنه تجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم، و لا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبّر فكبّروا، و إذا قرأ فأنصتوا» و ذكر بقية الحديث، و رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول، و هو قول قديم للشافعي رحمه الله، و الله أعلم، و رواية عن الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى.

(١) ـ و هذا قول ضعيف لمخالفته الأحاديث السابقة.

والغرض من ذكر هذه المسائل ههنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور.

تفسير الاستعاذة و أحكامها

قال الله تعالى: ﴿خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين ❁ و إما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ و قال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ❁ و قل رب أعوذ بك من همزات الشياطين و أعوذ بك رب أن يحضرون﴾ و قال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم ❁ و ما يلقاها إلا الذين صبروا و ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ❁ و إما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، و هو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي و الإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المودة و المصافاة، و يأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة، إذ لا يقبل مصانعة و لا إحساناً ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل، كما قال تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ و قال تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ و قال: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ و قد أقسم للوالد آدم ﷺ أنه له لمن الناصحين و كذب، فكيف معاملته لنا و قد قال: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين ❁ إلا عبادك منهم المخلصين﴾ و قال تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ❁ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا و على ربهم يتوكلون ❁ إنما سلطانه على الذين يتولونه و الذين هم به مشركون﴾.

قالت طائفة من القراء و غيرهم: يتعوذ بعد القراءة و اعتمدوا على ظاهر سياق الآية و لدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة، و ممن ذهب إلى ذلك حمزة، وحكى القرطبي عن أبي بكر بن العربي عن المجموعة عن مالك رحمه الله: أن القارئ يتعوذ بعد الفاتحة، و استغربه ابن العربي. و حكى قولاً ثالثاً و هو الاستعاذة أولاً و آخراً جمعاً بين الدليلين، نقله الرازي. و المشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس عنها، و معنى الآية عندهم ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ أي إذا أردت القراءة كقوله تعالى ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم و أيديكم﴾ الآية: أي إذا أردتم القيام، و الدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك. روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته و كبر قال: «سبحانك اللهم و بحمدك، و تبارك اسمك، و تعالى جدك، و لا إله غيرك»، و يقول: «لا إله إلا الله» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه و نفثه» و قد رواه أهل السنن الأربعة، و قال الترمذي: هو أشهر شيء في هذا الباب، و قد فسر الهمز بالموتة و هي الخنق، و النفخ بالكبر، و النفث بالشعر، كما رواه أبو داود و ابن ماجه عن نافع بن جبير بن المطعم عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة قال: «الله أكبر كبيراً ثلاثاً، الحمد لله كثيراً ثلاثاً، سبحان الله بكرة و أصيلاً ثلاثاً، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه و نفخه و نفثه» قال عمرو: وهمزه الموتة و نفخه الكبر و نفثه الشعر.

روى البخاري عن عدي بن ثابت قال: قال سليمان بن صرد رضي الله عنه: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ و نحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبي ﷺ «إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقالوا للرجل ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ قال: إني لست بمجنون، و قد رواه مسلم.

و قد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها ههنا، و موطنها كتاب الأذكار و فضائل الأعمال، و الله أعلم.

(مسألة) وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة، ليست بمتحتمة يأثم تاركها، و حكى الرازي عن عطاء ابن أبي رباح وجوبها في الصلاة و خارجها كلما أراد القراءة، و احتج الرازي لعطاء بظاهر الآية (فاستعذ) و هو أمر ظاهره الوجوب و بمواظبة النبي ﷺ عليها، و لأنها تدرأ شر الشيطان، و ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولأن الاستعاذة أحوط و هو أحد مسالك الوجوب.

(مسألة) و قال الشافعي في الإملاء: يجهر بالتعوذ و إن أسرّ فلا يضر، و قال في الأم بالتخيير لأنه أسرّ ابن عمر و جهر أبو هريرة [1]. و اختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى هل يستحب التعوذ فيها؟ على قولين ورجح عدم الاستحباب، و الله أعلم.

(مسألة) ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة. و من لطائف الاستعاذة: أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو و الرفث و تطييب له، و هو لتلاوة كلام الله، و هي استعانة بالله و اعتراف له بالقدرة و للعبد بالضعف و العجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني، الذي لا يقدر على منعه و دفعه إلا الله الذي خلقه، و لا يَقبل مصانعة و لا يُدارى بالإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني، و قال تعالى: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان و كفى بربك وكيلاً﴾** و قد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيداً، و من قتله العدو الباطني كان طريداً، و من غلبه العدو الظاهري كان مأجوراً، و من قهره العدو الباطني كان مفتوناً أو موزوراً، و لما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه، استعاذ منه بالذي يراه و لا يراه الشيطان.

(فصل) و الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، و العياذة تكون لدفع الشر و اللياذ يكون لطلب جلب الخير، كما قال المتنبي:

يا مَن ألوذ به فيما أؤمله ... و مَن أعوذ به ممن أحاذره
لا يجبر الناس عَظْماً أنت كاسره ... و لا يهيضون عظماً أنت جابره

و معنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أودنياي أو يصدني عن فعل ما أُمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله.

و الشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَن إذا بَعُد فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، و بعيد بفسقه عن كل خير، و قيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، و منهم من يقول كلاهما صحيح في المعنى، و لكن الأول

---

(١) الصواب الإسرار بها لأن المنقول عن النبي ﷺ الإسرار بها و بالبسملة، كما في حديث أنس رضي الله عنه في الصحيحين.

أصح و عليه يدل كلام العرب.

و قال سيبويه: العرب تقول تشيطن فلان إذا فعل فعل الشياطين، و لو كان من شاط لقالوا تشيّط، فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح، و لهذا يسمون كل من تمرد من جني و إنسي و حيوان شيطاناً، قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس و الجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾.

و في صحيح مسلم عن أبي ذر أيضاً قال: قال رسول اللهﷺ «يَقْطَعُ الصلاةَ المرأةُ و الحمار و الكلب الأسود» فقلت يا رسول الله ما بال الكلب الأسود من الأحمر و الأصفر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان».

و الرجيم فعيل بمعنى مفعول أي أنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿و لقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ و قال تعالى: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب و حفظاً من كل شيطان مارد ◆ لا يسّمّعون إلى الملإ الأعلى و يقذفون من كل جانب◆ دحوراً و لهم عذاب واصب◆ إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ و قال تعالى: ﴿و لقد جعلنا في السماء بروجاً و زيناها للناظرين ◆ وحفظناها من كل شيطان رجيم◆ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) ﴾

١-افتتح بها الصحابة كتاب الله و اتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة أو من أول كل سورة كُتبت في أولها، أو أنها بعض آية من كل سورة أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها أو أنها إنما كُتبت للفصل لا أنها آية، على أقوال للعلماء سلفاً و خلفاً و ذلك مبسوط في غير هذا الموضع، و في سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللهﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ و أخرجه الحاكم.

و ممن حكي عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس و ابن عمر و ابن الزبير و أبو هريرة و علي و من التابعين عطاء و طاوس و سعيد بن جبير و مكحول و الزهري، و به يقول عبد الله بن المبارك و الشافعي و أحمد ابن حنبل في رواية عنه و إسحاق بن راهويه و أبو عبيد القاسم بن سلام رحمهم الله [1]. و قال مالك و أبو حنيفة و أصحابهما ليست آية من الفاتحة و لا من غيرها من السور. هذا ما يتعلق بكونها آية من الفاتحة أم لا.

فأما الجهر بها فمفرَّع على هذا، فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، و كذا من قال إنها آية من أولها، و أما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا، فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، و الحجة في ذلك أنها بعض الفاتحة فيجهر بهاكسائر أبعاضها، و أيضاً فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة و ابن حبان في صحيحيهما و الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة و قال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاةً برسول اللهﷺ، و صححه الدارقطني و الخطيب و البيهقي وغيرهم، وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبيﷺ فقال كانت قراءته مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله و يمد الرحمن و يمد الرحيم.

و ذهب آخرون أنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة، و هذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة و عبد الله بن مغفل وطوائف من سلف التابعين و الخلف و هو مذهب أبي حنيفة و الثوري و أحمد بن حنبل. و احتجوا بما في

(١) و هو الصحيح إن شاء الله تعالى وعليه الأدلة.

صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير و القراءة بالحمد لله رب العالمين، و بما في الصحيحين عن أنس بن مالك قال: صليت خلف النبي ﷺ و أبي بكر و عمر و عثمان فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين. و لمسلم: ولا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة و لا في آخرها. فهذه مآخذ الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة و هي قريبة لأنهم أجمعوا على صحة من جهر بالبسملة ومن أسر، و لله الحمد و المنة[1].

فصل في فضلها

و روى الإمام أحمد عن عاصم قال: سمعت أبا تميمة يحدث عن رديف النبي ﷺ قال عثر بالنبي ﷺ. فقلت تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان، فإن إذا قلتَ تعس الشيطان تعاظم و قال: بقوتي صرعته، و إذا قلت باسم الله تصَاغر حتى يصير مثل الذباب». فهذا من تأثير بركة بسم الله، و لهذا تستحب في أول كل عمل و قول.

و تستحب البسملة عند دخول الخلاء، لما ورد من الحديث في ذلك، و تستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد و السنن من رواية أبي هريرة و سعيد بن زيد و أبي سعيد مرفوعاً «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه» و هو حديث حسن، و من العلماء من أوجبها عند الذكر هنا، و منهم من قال بوجوبها مطلقاً، وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي و جماعة، و أوجبها آخرون عند الذكر، و مطلقاً في قول بعضهم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

و هكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبه عمر بن أبي سلمة: «قل بسم الله، و كُلْ بيمينك و كل مما يليك» و من العلماء من أوجبها و الحالة هذه، و كذلك تستحب عند الجماع لما في صحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنّبنا الشيطان و جنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً».

فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله تبركاً و تيمناً و استعانة على الإتمام و التقبل و الله أعلم.

﴿الله﴾ علم على الرب تبارك و تعالى، يقال: إنه الاسم الأعظم، لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى: **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو علام الغيب و الشهادة هو الرحمن الرحيم ◆ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ◆ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات و الأرض و هو العزيز الحكيم﴾** فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى: **﴿و لله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾** و قال تعالى: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾** و في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»، و هو اسم لم يسم به غيره تبارك و تعالى.

﴿الرحمن الرحيم﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، و رحمن أشد مبالغة من رحيم.

قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، و الرحيم إنما هو من

---

(١) و عدم الجهر بالبسملة هو الأقوى دليلاً و أصرح قيلاً، كما ترى.

جهة المؤمنين قال الله تعالى : ﴿و كان بالمؤمنين رحيماً﴾ و قال ابن عباس : هما اسمان رقيقان أحدهما أرقّ من الآخر ، أي أكثر رحمة .

و روى ابن جرير عن العزرمي يقول: الرحمن الرحيم قال: الرحمن لجميع الخلق ، الرحيم قال بالمؤمنين قالوا و لهذا قال ﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾ و قال ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته ، و قال ﴿و كان بالمؤمنين رحيماً﴾ فخصهم باسمه الرحيم ، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه ، و الرحيم خاصة بالمؤمنين . و اسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ و قال تعالى : ﴿و اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ و لما تجهرم مسيلمة الكذاب و تسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب ، و شهّر به فلا يقال إلا : مسيلمة الكذاب ، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر و أهل الوبر من أهل البادية و الأعراب .

و قد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لأنه أكّد به و المؤكد لا يكون إلا أقوى من المؤكد ، والجواب : أن هذا ليس من باب التأكيد ، و إنما هو من باب النعت و لا يلزم فيه ما ذكروه . و أما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره قال: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ كما وصف غيره بذلك من أسمائه كما قال تعالى ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ و الحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره ، و منها ما لا يسمى به غيره ، كاسم الله والرحمن و الخالق و الرازق و نحو ذلك فلهذا بدأ باسم الله و وصفه بالرحمن ، لأنه أخص و أعرف من الرحيم ، لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص .

و روى ابن أبي حاتم عن الحسن قال : الرحمن اسمٌ لا يستطيع الناس أن ينتحلوه ، تسمّى به تبارك و تعالى .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾

٢- قال أبو جعفر بن جرير معنى ﴿الحمد لله﴾ الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه ، و دون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يُحصيها العدد و لا يحيط بعددها غيره أحد ، في تصحيح الآلات لطاعته و تمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق ، و غذّاهم من نعيم العيش من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، و مع ما نبههم عليه و دعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً و آخراً . و قال : الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه و في ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال: قولوا الحمد لله .

و قال الجوهري : الحمد نقيض الذم ، تقول حمدت الرجل أحمده حمداً و محمدة فهو حميد و محمود والتحميد أبلغ من الحمد ، و الحمد أعم من الشكر ، و قال في الشكر هو : الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف ، يقال شكرته و شكرت له و باللام أفصح . و أما المدح فهو أعم من الحمد لأنه يكون للحي و للميت وللجماد أيضاً كما يمدح الطعام و المكان و نحو ذلك ، و يكون قبل الإحسان و بعده ، و على الصفات المتعدية واللازمة أيضاً فهو أعم .

ذكر ما ورد في فضل ذكر الحمد

روى الحافظ الترمذي و النسائي و ابن ماجه من حديث عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «أفضل الذكر لا إله إلا الله، و أفضل الدعاء الحمد لله». و روى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ».

قال القرطبي و غيره: أي لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا لأن ثواب الحمد لله لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى قال الله تعالى: **﴿المال و البنون زينة الحياة الدنيا و الباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾** وحكى القرطبي عن طائفة أنهم قالوا: قول العبد الحمد لله رب العالمين أفضل من قوله لا إله إلا الله، لاشتمال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد، و قال آخرون: لا إله إلا الله أفضل لأنها تفصل بين الإيمان والكفر، و عليها يُقاتَل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، كما ثبت في الحديث المتفق عليه، و في الحديث الآخر: «أفضلُ ما قلتُ أنا و النبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

(و الرب) هو المالك المتصرف و يطلق في اللغة على السيد و على المتصرف للإصلاح، و كل ذلك صحيح في حق الله، و لا يستعمل الرب لغير الله بل بالإضافة تقول: رب الدار، رب كذا، و أما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، و قد قيل: إنه الاسم الأعظم. و(العالمين) جمع عالم و هو كل موجود سوى الله عز وجل، والعوالم أصناف المخلوقات في السموات و في البر و البحر، و كل قرن منها و جيل يسمى عالماً أيضاً.

و قال الزجاج: العالم كل ما خلق الله في الدنيا و الآخرة، قال القرطبي: و هذا هو الصحيح إنه شامل لكل العالمين كقوله: **﴿قال فرعون و ما رب العالمين ۞ قال رب السموات و الأرض و ما بينهما إن كنتم موقنين﴾** والعالم مشتق من العلامة **(قلت)** لأنه عَلَم دال على وجود خالقه و صانعه و وحدانيته.

﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾

٣- تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن الإعادة، قال القرطبي: إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله رب العالمين، ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب، كما قال تعالى: **﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ۞ وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾** و قوله تعالى: **﴿إن ربك سريع العقاب و إنه لغفور رحيم﴾** قال: فالرب فيه ترهيب والرحمن الرحيم ترغيب، و في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «و لو يَعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، و لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد».

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾

٤- قرأ بعض القراء (مَلِك يوم الدين) و قرأ آخرون (مالك) و كلاهما صحيح متواتر في السبع، و مالك مأخوذ من الملك كما قال تعالى: **﴿إنا نحن نرث الأرض و من عليها و إلينا يرجعون﴾** و قال **﴿قل أعوذ برب الناس ملك الناس﴾** و مَلِك مأخوذ من المُلك كما قال تعالى: **﴿لمن المُلك اليوم لله الواحد القهار﴾** و قال **﴿قوله الحق وله الملك﴾** و قال: **﴿الملك يومئذ الحق للرحمن و كان يوماً على الكافرين عسيراً﴾** و تخصيص الملك بيوم الدين

لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين و ذلك عامّ في الدنيا و الآخرة، و إنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يَدّعى أحدٌ هنالك شيئاً، و لا يتكلم أحد إلا بإذنه كماقال تعالى: **﴿يوم يقوم الروح و الملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن و قال صواباً﴾** و قال تعالى: **﴿و خشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً﴾** و قال تعالى: **﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي و سعيد﴾**.

و المَلِكُ في الحقيقة هو الله عزوجل، قال الله تعالى: **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾** وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً «أَخْنعُ اسم عند الله، رجل تَسمَّى بملك الأملاك، و لا مالك إلا الله» وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال «يقبض الله الأرض و يطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟» و في القرآن العظيم **﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾** فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز، كما قال تعالى: **﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً﴾**.

(و الدين) الجزاء و الحساب كما قال تعالى: **﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾** و قال **﴿أئنا لمدينون﴾** أي مجيزون محاسبون. و قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، و زنُوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم **﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾**.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾

٥- العبادة في اللغة من الذلة يقال: طريق معبّد و بعير معبد أي مذلل، و في الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة و الخضوع و الخوف. و قدم المفعول و هو إياك و كرر للاهتمام و الحصر، أي لا نعبد إلا إياك و لا نتوكل إلا عليك و هذا هو كمال الطاعة، و الدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، و هذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، و سرها هذه الكلمة **﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾** فالأول تبرؤ من الشرك، و الثاني تبرؤ من الحول والقوة و التفويض إلى الله عز وجل، و هذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: **﴿فاعبده و توكل عليه و ما ربك بغافل عما تعملون﴾**، **﴿قل هو الرحمن آمنا به و عليه توكلنا﴾**، **﴿رب المشرق و المغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾**.

و قد سمى الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال: **﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾** **﴿و أنه لما قام عبد الله يدعوه﴾**، **﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾** فسماه عبداً عند إنزاله عليه و عند قيامه في الدعوة وإسرائه به، و أرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول: **﴿و لقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبّح بحمد ربك و كن من الساجدين ❁ و اعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾**.

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾

٦- لَمّا تقدّم الثناء على المسؤول تبارك و تعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال: «فنصفها لي و نصفها لعبدي ولعبدي ما سأل» و هذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته و حاجة إخوانه المؤمنين بقوله: **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾** لأنه أنجح للحاجة و أنجع للإجابة، و لهذا أرشد الله إليه لأنه الأكمل.

و الهداية ههنا: و الإرشاد و التوفيق، أي: ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا.

و أما الصراط المستقيم فقال أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط

المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف و الخلف في تفسير الصراط، و إنْ كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد و هو المتابعة لله و للرسول.

و روى الإمام أحمد في مسنده عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً و على جَنَبَتي الصراط سُوران فيهما أبواب مفتّحة، و على الأبواب ستورٌ مُرْخَاة، و على باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً و لا تَعْوَجُّوا، و داع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن فتحته تلجه، فالصراط الإسلام و السُوران حدود الله، و الأبواب المفتحة: محارم الله، و ذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، و الداعي من فوق الصراط واعظُ الله في قلب كل مسلم» رواه الترمذي و النسائي و هو إسناد حسن صحيح و الله أعلم.

و قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: و الذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي أعني. **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾**. أن يكون معنياً به: وفقنا للثبات على ما ارتضيته و وفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل ذلك هو الصراط المستقيم، لأن من وفق لما وفق له مَن أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين فقد وفق للإسلام و تصديق الرسل والتمسك بالكتاب و العمل بما أمره الله به، و الانزجار عما زجره عنه، و اتباع منهاج النبي ﷺ و منهاج الخلفاء الأربعة، و كل عبد صالح و كل ذلك من الصراط المستقيم.

(فإن قيل) فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة و غيرها و هو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب: أن لا، و لولا احتياجه ليلاً و نهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة و حالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية و رسوخه فيها، و تبصره و ازدياده منها واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً و لا ضراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعونة و الثبات و التوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله فإنه قد تكفل بإجابة الداعي إذا دعاه و لا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل و أطراف النهار، و قد قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله و رسوله والكتاب الذي نزل على رسوله و الكتاب الذي أنزل من قبل﴾** الآية: فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان و ليس ذلك من باب تحصيل الحاصل، لأن المراد الثبات و الاستمرار و المداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم. وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: **﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا و هب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾** و قد كان الصديق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً، فمعنى قوله تعالى **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾** استمر بنا عليه و لا تعدل بنا إلى غيره.

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾

٧-و قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾** إلى آخرها أن الله يقول «هذا لعبدي و لعبدي ما سأل» و قوله تعالى: **﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾** مفسر للصراط المستقيم. و الذين أنعم الله عليهم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى: **﴿و من يطع الله و الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقاً ۞ ذلك الفضل من الله و كفى بالله عليماً﴾**.

وقوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم و لا الضالين﴾ أي اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم و نعتهم، و هم أهل الهداية و الاستقامة و الطاعة لله و رسله، و امتثال أوامره و ترك نواهيه وزواجره، غير صراط ﴿المغضوب عليهم﴾ و هم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق و عدلوا عنه، و لا صراط ﴿الضالين﴾ و هم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق. و أكد الكلام بـ ﴿لا﴾ ليدل على أن ثَمّ مسلكين فاسدين، و هما طريقة اليهود و النصارى.

فطريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق و العمل به، و اليهود فقدوا العمل، و النصارى فقدوا العلم، ولهذا الغضب لليهود و الضلال للنصارى، لأن مَن عَلِم و ترك استحق الغضب خلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، و هو اتباع الحق، ضلوا، و كل من اليهود و النصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم ﴿من لعنه الله و غضب عليه﴾ و أخص أوصاف النصارى الضلال، كما قال تعالى عنهم ﴿قد ضلوا من قبل و أضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾.

(فصل) اشتملت هذه السورة الكريمة و هي سبع آيات على حمد الله و تمجيده، و الثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، و على ذكر المعاد و هو يوم الدين، و على إرشاده عبيده إلى سؤاله و التضرع إليه و التبرئ من حولهم و قوتهم إلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك و تعالى، و تنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، و إلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، و هو الدين القويم و تثبيتهم عليه حتى يقضي لهم بذلك إلى جواز الصراط الحسية يوم القيامة المفضي بهم إلى جنات النعيم، في جوار النبيين والصديقين و الشهداء و الصالحين، و اشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، و التحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة و هم المغضوب عليهم و الضالون.

(فصل) يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين مثل يس، و يقال أمين بالقصر أيضاً، و معناه اللهم استجب، و الدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد و أبو داود و الترمذي عن وائل بن حجر قال: سمعت النبي ﷺ قرأ ﴿غير المغضوب عليهم و لا الضالين﴾ فقال آمين مد بها صوته، و لأبي داود رفع بها صوته، و قال الترمذي هذا حديث حسن.

و في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه»، و لمسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم في الصلاة آمين و الملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه». قيل بمعنى: من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، و قيل في الإجابة، و قيل في صفة الإخلاص.

و في صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً «إذا قال - يعني الإمام - و لا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله».

و قد روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود فقال «إنهم لن يَحسدونا على شيء كما يحسدونا على الجمعة التي هَدَانا الله لها و ضَلّوا عنها، و على القِبْلة التي هَدَانا الله لها و ضلّوا عنها، و على قولنا خلف الإمام آمين».

ترتيبها ٢ — سورة البقرة — آياتها ٢٨٦

ذكر ما في فضلها

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان».

و روى البخاري عن أسيد بن حُضير رضي الله عنه قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة ـ و فرسه مربوطة عنده ـ إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه فلمّا أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدّث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا ابن حُضير» قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، و كان منها قريباً، فرفعت رأسي و انصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظُلّة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها، قال: «و تدري ما ذاك ؟» قال: لا، قال: «تلك الملائكة دنَتْ لصوتك و لو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم».

ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران

و روى مسلم عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «اقرؤوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة اقرؤوا الزهراوين البقرة و آل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فِرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة، ثم قال: اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة و تركها حسرة و لا تستطيعها البطلة».

ذكر ما ورد في فضل السبع الطوال

روى أبو عبيد عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ قال: «أُعطيت السبعَ الطِوال مكان التوراة، و أعطيت المئين مكان الإنجيل، و أعطيت المثاني مكان الزبور، و فُضِّلت بالمفصّل».

(فصل) و البقرة جميعها مدنية بلا خلاف و هي من أوائل ما نزل بها لكن قوله تعالى فيه **﴿و اتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾** الآية يقال إنها آخر ما نزل من القرآن و يحتمل أن تكون منها و كذلك آيات الربا من آخر ما نزل.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ①﴾

١ – قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، فمنهم من قال: «هي مما استأثر الله بعلمه فردّوا علمها إلى الله و لم يفسروها. و قيل: هي أسماء السور.

و عن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها (ق و ص و حم و طسم و الر) و غير ذلك هجاء موضوع، و قال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية و العشرين حرفاً كما يقول القائل: ابني يكتب في ـ ا ب ت ث ـ أي في حروف المعجم الثمانية و العشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير.

قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً و هي ـ ا ل م ص ر ك هـ ي ع ط س ح ق ن ـ يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. و هي نصف الحروف عدداً و المذكور منها أشرف من المتروك. و قال بعضهم: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه و تعالى عبثاً و لا سُدى، و من قال من الجهلة إن في القرآن ما هو تعبدٌ لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيراً، فتَعَيَّن أن لها معنى في نفس الأمر فإن صحّ لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به و إلا وقفنا حيث وقفنا و قلنا **﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾** و لم يجمع العلماء فيها على شيء معين، و إنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، و إلا فالوقف حتى يتبين هذا المقام.

و قال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكره فيها بياناً لإعجاز القرآن، و أن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، و قد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد و جمع من المحققين، و حكى القرطبي عن الفراء و قطرب نحو هذا، و قرره الزمخشري في كشافه و نصره أتم نصر، و إليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية، و شيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي و حكاه لي عن ابن تيمية.

(قلت): و لهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن و بيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء، و هو الواقع في تسع و عشرين سورة و لهذا يقول تعالى **﴿الم ۞ ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ ﴿الم ۞ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ۞ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه﴾ ﴿المص ۞ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ ﴿الر ۞ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم﴾ ﴿الم ۞ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ ﴿حم ۞ تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ ﴿حم ۞ عسق ۞ كذلك يوحي إليك و إلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾** و غير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، و الله أعلم.

و أما من زعم أنها دالة على معرفة المُدَد، و أنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث و الفتن و الملاحم، فقد ادعى ما ليس له، و طار في غير مطاره.

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾

٢- روي عن ابن عباس **﴿ذلك الكتاب﴾** أي هذا الكتاب، و كذا قال مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير والسدي و مقاتل بن حيان و زيد بن أسلم و ابن جريج، أن **﴿ذلك﴾** بمعنى هذا، و الكتاب القرآن، و الريب الشك، قال: و معنى الكلام هنا أن هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله، كما قال تعالى في السجدة **﴿الم ۞ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾** و قال بعضهم هذا خبر و معناه النهي أي لا ترتابوا فيه.

﴿هدى﴾ صفة للقرآن و خُصّت الهداية للمتقين كما قال **﴿قل هو للذين آمنوا هدى و شفاء و الذين لا يؤمنون في آذانهم وَقرٌ و هو عليهم عَمَى أولئك يُنادون من مكان بعيد﴾** **﴿و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾** إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن لأنه هو في نفسه هدى، و لكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى **﴿يا أيها الناس قد جاءتكم مَوعظةٌ من ربكم وشفاءٌ لما في الصدور و هدى و رحمة للمؤمنين﴾**، **﴿هدى للمتقين﴾** يعني نوراً **﴿للمتقين﴾** الذين يحذرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به. و قال قتادة للمتقين هم الذين نعتهم الله بقوله **﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾** الآية و التي بعدها.

و يطلق الهدى و يراد به ما يقرّ في القلب من الإيمان، و هذا لا يَقدر على خَلْقه في قلوب العباد إلا الله عز وجل قال الله تعالى **﴿إنك لاتهدي من أحببت﴾** و قال **﴿ليس عليك هداهم﴾** و قال **﴿من يضلل الله فلا هادي له﴾** وقال **﴿من يهد الله فهو المهتد و من يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾** إلى غير ذلك من الآيات، و يطلق و يراد به بيان الحق و توضيحه و الدلالة عليه و الإرشاد، قال الله تعالى **﴿و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾** و قال **﴿إنما أنت منذر و لكل قوم هاد﴾** و قال تعالى **﴿و أما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾** و قال **﴿وهديناه النجدين﴾** على تفسير من قال المراد بهما الخير و الشر، وهو الأرجح و الله أعلم.

و أصل التقوى التوقي مما يكره لأن أصلها وقوى من الوقاية.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾

٣-عن ابن عباس رضي الله عنهما: يؤمنون يصدّقون. قال ابن جرير: و الأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً و عملاً و اعتقاداً، و قد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله و كتبه و رسله و تصديق الإقرار بالفعل **(قلت)** أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، و قد يستعمل في القرآن و المراد به ذلك، كما قال تعالى **﴿يؤمن بالله و يؤمن للمؤمنين﴾** و كما قال إخوة يوسف لأبيهم **﴿و ما أنت بمؤمن لنا و لو كنا صادقين﴾**، و كذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال كقوله تعالى **﴿إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات﴾** فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً و قولاً و عملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي و أحمد بن حنبل و أبو عبيدة و غير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول و عمل يزيد و ينقص، و قد ورد فيه آثار كثيرة و أحاديث أفردنا الكلام فيها في أول شرح البخاري و لله الحمد و المنة. و منهم من فسره بالخشية كقوله تعالى: **﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب﴾** و قوله **﴿من خشي الرحمن بالغيب و جاء بقلب منيب﴾** و الخشية خلاصة الإيمان و العلم، كما قال تعالى: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**.

و أما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، و كلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد، فعن أبي العالية قوله تعالى: **﴿يؤمنون بالغيب﴾** قال: و يؤمنون بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و جنته وناره و لقائه، و يؤمنون بالحياة بعد الموت و بالبعث، فهذا غيب كله.

و روى سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فذكرنا أصحاب

النبيﷺ و ما سبقونا به، فقال عبد الله: إن أمر محمدﷺ كان بيّناً لمن رآه، و الذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ ﴿الم ❁ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ❁ الذين يؤمنون بالغيب - إلى قوله - المفلحون﴾ و هكذا رواه ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الحاكم.

و روى أحمد بسند صحيح عن ابن محيريز قال قلت لأبي جمعة: حدثنا حديثاً سمعته من رسول اللهﷺ قال نعم أحدثك حديثاً جيداً: تغدينا مع رسول اللهﷺ و معنا أبو عبيدة بن الجراح قال: يا رسول الله هل أحدٌ خير منا؟ أسلمنا معك و جاهدنا معك. قال «نعم قوم من بعدكم يؤمنون بي و لم يروني».

﴿ ويُقيمونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رزقْناهم يُنفِقونَ ③ ﴾

٣-قال ابن عباس: أي يقيمون الصلاة بفروضها، و قال: إقامة الصلاة إتمام الركوع و السجود و التلاوة والخشوع و الإقبال عليها فيها، و قال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها و إسباغ الطهور بها، و تمام ركوعها و سجودها، و تلاوة القران فيها و التشهد و الصلاة على النبيﷺ فهذا إقامتها.

و عن ابن عباس ﴿و مما رزقناهم ينفقون﴾ قال: زكاة أموالهم، و قال طائفة من أصحاب رسول اللهﷺ ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ قال: نفقة الرجل على أهله، و هذا قبل أن تنزل الزكاة.

و اختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة و النفقات فإنه قال: و أولى التأويلات و أحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدّين، زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل أو عيال و غيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة و الملك و غير ذلك لأن الله تعالى عم وصفهم و مدحهم بذلك، و كل من الإنفاق و الزكاة ممدوح به محمود عليه.

(قلت): كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة و الإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله و عبادته، و هي مشتملة على توحيده و الثناء عليه، و تمجيده و الابتهال إليه، و دعائه و التوكل عليه، و الإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، و أولى الناس بذلك القرابات و الأهلون والمماليك، ثم الأجانب فكل من النفقات الواجبة و الزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: ﴿و مما رزقناهم ينفقون﴾ و لهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللهﷺ قال: «بُني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله، و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و صوم رمضان و حج البيت» و الأحاديث في هذا كثيرة و أصل الصلاة في كلام العرب: الدعاء.

ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع و السجود و الأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة و صفاتها و أنواعها المشهورة.

و أما الزكاة فسيأتي الكلام عليها في موضعه إن شاء الله تعالى.

﴿ وَالَّذِينَ يؤْمِنونَ بِما أُنزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يوقِنونَ ④ ﴾

٤- قال ابن عباس: أي يصدقون بما جئت به من الله، و ما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم و لا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم ﴿و بالآخرة هم يوقنون﴾ أي بالبعث و القيامة و الجنة و النار و الحساب والميزان، و إنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا.

و هذه الآيات الأربع عامات في كل مؤمن اتصف بها، من عربي و عجمي و كتابي، من إنسي و جني، و ليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى و شرط معها فلا يصح الإيمان بالغيب و إقام الصلاة و الزكاة، إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ و ما جاء به من قبله من الرسل صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين، و الإيقان بالآخرة كما أن هذا لا يصح إلا بذلك، و قد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله و رسوله و الكتاب الذي نزّل على رسوله و الكتاب الذي أنزل من قبل﴾ الآية. و أخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه و المؤمنون كل آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ و قال تعالى: ﴿و الذين آمنوا بالله و رسله و لم يفرقوا بين أحد منهم﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله و رسله و كتبه، لكن للمؤمنين أهل الكتاب خصوصية، و ذلك أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلاً فإذا دخلوا في الإسلام، و آمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين، و أما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدم مجملاً، و لكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بعث به محمد ﷺ أتم و أكمل و أعم و أشمل من إيمان من دخل منهم في الإسلام، فهم و إن حصل لهم أجران من تلك الحيثية، فغيرهم يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم و الله أعلم.

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾

٥- يقول الله تعالى: ﴿أولئك﴾ أي المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب و إقام الصلاة، و الإنفاق من الذي رزقهم الله، و الإيمان بما أنزل إلى الرسول، و من قبله من الرسل و الإيقان بالدار الآخرة و هو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة و ترك المحرمات ﴿على هدى﴾ أي على نور و بيان و بصيرة من الله تعالى: ﴿و أولئك هم المفلحون﴾ أي في الدنيا و الآخرة، الذين أدركوا ما طلبوا، و نجوا من شر ما منه هربوا.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾

٦- يقول تعالى: ﴿إن الذين كفروا﴾ أي غطوا الحق و ستروه و قد كتب الله تعالى عليهم ذلك سواءٌ عليهم إنذارك و عدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به. كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون و لو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ و قال تعالى في حق المعاندين من أهل الكتاب ﴿و لئن أتيتَ الذين أوتوا الكتاب بكلّ آية ما تبعوا قبلتك﴾ الآية، أي: إنَّ من كَتب الله عليه الشقاوة فلا مُسعد له، و من أضلّه فلا هادي له فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، و بلّغهم الرسالة فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، و من تولّى فلا تحزن عليهم و لا يهمنك ذلك ﴿فإنما عليك البلاغ و علينا الحساب﴾ ﴿إنما أنت نذير و الله على كل شيء وكيل﴾.

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾

٧- قال السدي: ﴿ختم الله﴾ أي طبع الله، و قال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه، فختم الله على قلوبهم و على سمعهم، و على أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى، و لا يسمعون و لا يفقهون و لا يعقلون. و قال الأعمش أرانا مجاهد بيده فقال كانوا يرون أن القلب في مثل هذه يعني الكف، فإذا

أذنب العبد ضم منه و قال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضم و قال بأصبع أخرى، فإذا أذنب ضم و قال بأصبع أخرى هكذا، حتى ضم أصابعه كلها ثم قال: يطبع عليه بطابع. و قال مجاهد كانوا يرون أن ذلك الرّين. قال ابن جرير: و قال بعضهم إنما معنى قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ إخبار من الله عن تكبرهم و إعراضهم عن الاستماع لما دُعوا إليه من الحق، كما يقال إن فلاناً أصم عن هذا الكلام إذا امتنع من سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً، قال: و هذا لا يصح لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم. **(قلت)**: وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير ههنا، و تأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً و ما جرّأه على ذلك إلا اعتزاله، لأن الختم على قلوبهم و منعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه في اعتقاده! و لو فهم قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ و قوله: ﴿و نقلب أفئدتهم و أبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة و نذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ و ما أشبه من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم و حال بينهم و بين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم في الباطل و تركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن و ليس بقبيح، فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال، و الله أعلم.

قال القرطبي: و أجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم و الطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم، كما قال تعالى: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ و ذكر حديث تقليب القلوب «و يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك» و ذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيُّ قلبٍ أُشربها نُكِتَ فيه نكتة سوداء، و أي قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات و الأرض، و الآخر أسود مُرْباداً كالكوز مُجخّياً لا يعرف معروفاً و لا ينكر منكراً» الحديث. قال ابن جرير و الحق عندي في ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نُكتةً سوداء في قلبه، فإن تاب و نَزَعَ و استعتب صُقِل قلبه، و إنْ زادت زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ رواه الترمذي و قال حسن صحيح ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، و إذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى و الطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، و لا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم و الطبع الذي في قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم و على سمعهم﴾.

و اعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم و على سمعهم﴾ و قوله: ﴿و على أبصارهم غشاوة﴾ جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب و على السمع، و الغشاوة و هي الغطاء يكون على البصر.

و لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات ثم عرّف حال الكافرين بهاتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يُظهرون الإيمان و يُبطنون الكفر، و لما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفاتٍ متعددةٍ كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم و سورة المنافقين فيهم، و ذكرهم في سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتُجتنب و يُجتنب من تلبّس بها أيضاً. فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

٨- النفاق: هو إظهار الخير و إسرار الشر، و هو أنواع: اعتقادي، و هو الذي يُخلَّد صاحبه في النار. و عملي وهو من أكبر الذنوب كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى، و هذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، و سره علانيته، و مدخله مخرجه، و مشهده مغيبه، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرهاً و هو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة و كان بها الأنصار من الأوس و الخزرج، و كانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب، و بها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم و كانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاء الخزرج و بنو النضير و بنو قريظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة و أسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس و الخزرج، و قلّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضي الله عنه و لم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً، لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه الصلاة و السلام وَادَعَ اليهود و قبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر و أظهر الله كلمته و أعز الإسلام و أهله، قال عبد الله بن أبي بن سلول و كان رأساً في المدينة، و هو من الخزرج و كان سيد الطائفتين في الجاهلية، و كانوا قد عزموا على أن يُمَلِّكوه عليهم فجاءهم الخير و أسلموا و اشتغلوا عنه فبقي في نفسه من الإسلام و أهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد توَجَّه فأظهر الدخول في الإسلام و دخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، و آخرون من أهل الكتاب، فمن ثَمَّ وُجد النفاق في أهل المدينة و من حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر فيترك ماله و ولده و أرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.

عن ابن عباس ﴿و من الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر و ما هم بمؤمنين﴾ يعني المنافقين من الأوس والخزرج و من كان على أمرهم، و لهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، و من اعتقاد إيمانهم و هم كفار في نفس الأمر و هذا من المحذورات الكبار، أن يظن بأهل الفجور خير، فقال تعالى: ﴿و من الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ أي يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله و الله يعلم إنك لرسوله﴾ أي إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط لا في نفس الأمر، و لهذا يؤكدون في الشهادة بإنَّ ولام التأكيد في خبرها. أكدوا أمرهم قالوا: آمنا بالله و باليوم الآخر، وليس الأمر كذلك كما كذَّبهم الله في شهادتهم و في خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله تعالى: ﴿و الله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ و بقوله: ﴿و ما هم بمؤمنين﴾.

٩- و قوله تعالى: ﴿يخادعون الله و الذين آمنوا﴾ أي بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، و أن ذلك نافعهم عنده، و أنه يَرُوج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم و يحسبون أنهم على شيء ألا

إنهم هم الكاذبون﴾ و لهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿و ما يخدعون إلا أنفسهم و ما يشعرون﴾ يقول: و ما يغرون بصنيعهم هذا و لا يخدعون إلا أنفسهم، و ما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله و هو خادعهم﴾ و من القراء من قرأ ﴿و ما يخدعون إلا أنفسهم﴾ و كلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد.

و قال ابن جرير فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله و للمؤمنين مخادعاً و هو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟ قيل: لا تمتنع العرب أن تسمي من أعطى بلسانه غير الذي في ضميره تقية، لينجو مما هو له خائف مخادعاً، فكذلك المنافق سمي مخادعاً لله و للمؤمنين بإظهاره ما ظهر بلسانه تقية بما يخلص به من القتل و السبي و العذاب العاجل، و هو لغير ما أظهره مستبطن، و ذلك من فعله و إن كان خداعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا، فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيتها ويسقيها كأس سرورها، و هو مُوردها حياضَ عَطَبها، و مجرّعها به كأسَ عذابها، و مذيقها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به، فذلك خديعته نفسه ظناً منه مع إساءته إليها في أمر معادها أنه إليها محسن، كما قال تعالى: ﴿و ما يخدعون إلا أنفسهم و ما يشعرون﴾ إعلاماً منه عباده المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسخاطهم عليها ربهم، بكفرهم و شكهم و تكذيبهم غير شاعرين و لا دارين، و لكنهم على عمى أمرهم مقيمين.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾

١٠- روي عن ابن عباس و ابن مسعود و أناس من أصحاب النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿في قلوبهم مرض﴾ أي: شك فزادهم الله مرضاً قال: شكاً. و عن ابن عباس ﴿في قلوبهم مرض﴾ قال: نفاق ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ قال: نفاقاً و هذا كالأول. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿في قلوبهم مرض﴾ قال: هذا مرض في الدين و ليس مرضاً في الأجساد و هم المنافقون، و المرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ قال: زادهم رجساً، و قرأ ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً و هم يستبشرون ◊ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ قال: شراً إلى شرهم و ضلالة إلى ضلالتهم. و هذا الذي قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن و هو الجزاء من جنس العمل، و كذلك قاله الأولون وهو نظير قوله تعالى أيضاً ﴿و الذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم﴾ و قوله ﴿بما كانوا يكذبون﴾ و قرئ يكذّبون، و قد كانوا متصفين بهذا وهذا فإنهم كانوا كذَبة، و يكذبون بالغيب يجمعون بين هذا و هذا، و قد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفّه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين، مع علمه بأعيان بعضهم وذكروا أجوبة عن ذلك، منها: ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضي الله عنه «أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه» ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام، و لا يعلمون حكمة قتله لهم وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمداً يَقتل أصحابه، قال القرطبي و هذا قول علمائنا و غيرهم كما كان يُعطي المؤلفة مع علمه بسوء اعتقادهم. و قد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي بن سلول.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن

لا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

١١- هم المنافقون، و الفساد هو الكفر و العمل بالمعصية. يعني لا تعصوا في الأرض و كان فسادهم ذلك معصية الله لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة. قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، و ركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، و تضييعهم فرائضه، و شكّهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به و الإيقان بحقيقته، و كذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك و الريب، و مظاهرتهم أهل التكذيب بالله و كتبه و رسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فذلك إفساد المنافقين في الأرض، و هم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها.

فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل لأنه هو الذي غرّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، و والى الكافرين على المؤمنين، و لو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف، و لو أخلص العمل لله و تطابق قوله و عمله لأفلح و نجح، و لهذا قال تعالى **﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾** أي نريد أن نُداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، و نصطلح مع هؤلاء وهؤلاء.

١٢- يقول الله **﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾** يقول ألا إن هذا الذي يعتمدونه و يزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، و لكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

١٣- يقول تعالى و إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي كإيمان الناس بالله و ملائكته و كتبه و رسله والبعث بعد الموت و الجنة و النار، و غير ذلك مما أخبر المؤمنين به و عنه، و أطيعوا الله و رسوله في امتثال الأوامر و ترك الزواجر **﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾** يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم، يقول: أنصير نحن و هؤلاء بمنزلة واحدة و على طريقة واحدة و هم سفهاء؟ و السفهاء جمع سفيه كما أن الحكماء جمع حكيم و الحلماء جمع حليم، و السفيه هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح و المضار، و قد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال **﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾** فأكد وحصر السفاهة فيهم **﴿و لكن لا يعلمون﴾** يعني و من تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، و ذلك أردى لهم، و أبلغ في العمى، و البعد عن الهدى.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

١٤- يقول تعالى و إذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: آمنا و أظهروا لهم الإيمان و الموالاة و المصافاة، غروراً منهم للمؤمنين و نفاقاً و مصانعة و تقية، و ليَشركوهم فيما أصابوا من خير و مغنم **﴿و إذا خلوا إلى شياطينهم﴾**

يعني إذا انصرفوا و ذهبوا و خلصوا إلى شياطينهم، و شياطينهم سادتهم و كبراؤهم من أحبار اليهود و رؤوس المشركين و المنافقين كما قال تعالى: ﴿و كذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس و الجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ و قوله ﴿قالوا إنا معكم﴾ أي إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إنما نحن مستهزئون﴾ أي إنما نحن نستهزئ بالقوم و نلعب بهم.

١٥- و قوله تعالى جواباً و مقابلة على صنيعهم ﴿الله يستهزئ بهم و يمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ و قال ابن جرير: أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله تعالى ﴿يوم يقول المنافقون و المنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ الآية، و قوله تعالى: ﴿و لا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ الآية، قال: فهذا و ما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وسخريته و مكره و خديعته للمنافقين و أهل الشرك به.

﴿و يمدهم﴾ يُملي لهم، و قال مجاهد: يزيدهم، و قال تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال و بنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ و قال: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ قال بعضهم: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة و هي في الحقيقة نقمة. و قوله ﴿في طغيانهم يعمهون﴾ العمه: الضلال، أي في ضلالتهم، وكفرهم الذي غَمَرهم دنسه و عَلاهم رجسه، يترددون حيارى ضُلّالاً لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً، لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها، و أعمى أبصارهم عن الهدى و أغشاها، فلا يبصرون رشداً و لا يهتدون سبيلاً.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾

١٦- روي عن ابن عباس و ابن مسعود: أي أخذوا الضلالة و تركوا الهدى، و قال مجاهد: آمنوا ثم كفروا، وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى، و هذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود ﴿فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ قال تعالى ﴿فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ﴿و ما كانوا مهتدين﴾ أي راشدين في صنيعهم ذلك. و عن قتادة قال: قد و الله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ومن الجماعة إلى الفرقة، و من الأمن إلى الخوف، و من السنة إلى البدعة.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) ﴾

١٧، ١٨- و تقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، و صيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله و انتفع بها و أبصر بها ما عن يمينه و شماله و تأنس بها، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره و صار في ظلام شديد لا يبصر و لا يهتدي، و هو مع هذا أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، و استحبابهم الغي على الرشد، و في هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما

أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، و الله أعلم.

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

١٩- هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين و هم قومٌ يظهر لهم الحق تارة، و يشكّون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم و كفرهم و ترددهم ﴿كصيب﴾ و الصيب المطر، قاله ابن مسعود و ابن عباس وناس من الصحابة، نزل من السماء في حال ظلمات، وهي الشكوك و الكفر والنفاق، ورعد و هو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع، كما قال تعالى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ و قال: ﴿و يحلفون بالله إنهم لمنكم و ما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ◆ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدّخلاً لولّوا إليه و هم يجمحون﴾ ﴿و البرق﴾ هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان و لهذا قال ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت و الله محيط بالكافرين﴾ أي و لا يجدي عنهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بهم بقدرته و هم تحت مشيئته و إرادته، كما قال: ﴿هل أتاك حديث الجنود◆ فرعون و ثمود◆ بل الذين كفروا في تكذيب◆ و الله من ورائهم محيط بهم.

٢٠- ثم قال: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين، و روي عنه قال: أي لشدة ضوء الحق ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه و إذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به و اتبعوه، و تارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ يقول كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه و إذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله تعالى ﴿و من الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به﴾، و عنه أيضاً: أي يعرفون الحق و يتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين، و هو أصح و أظهر، و الله أعلم، و هكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ و أكثر من ذلك و أقل من ذلك، و منهم من يطفأ نوره تارة و يضيء أخرى، فيمشي على الصراط تارة و يقف أخرى، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية و هم الخلّص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم ﴿يوم يقول المنافقون و المنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾ و قال في حق المؤمنين ﴿يوم ترى المؤمنين و المؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبي و الذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا و اغفرلنا إنك أنت على كل شيء قدير﴾.

عن عبد الله بن مسعود ﴿نورهم يسعى بين أيديهم﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم مَن نوره مثل الجبل، و منهم من نوره مثل النخلة، و أدناهم نوراً من نوره في إبهامه يَتّقد مرة و يطفأ أخرى.

فإذا تقرر هذا صار الناس أقساماً: مؤمنون خُلّص و هم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة، و كفار خلص و هم الموصوفون بالآيتين بعدها و منافقون و هم قسمان: خلص و هم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم لمع الإيمان و تارة يخبو وهم أصحاب المثل المائي، و هم أخف حالاً من الذين قبلهم، و هذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذُكر في سورة النور، من ضرب مثل المؤمن و ما جعل الله في قلبه من الهدى و النور بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دري، و هي قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر و لا تخليط، كما سيأتي تقريره في موضعه إن شاء الله.

﴿و لو شاء الله لذهب بسمعهم و أبصارهم﴾ روي عن ابن عباس قال: لِمَا تركوا من الحق بعد معرفته ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ قال ابن عباس: أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير، و قال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه و سطوته و أخبرهم أنه بهم محيط، و على إذهاب أسماعهم و أبصارهم قدير، و معنى قدير قادر كما معنى عليم عالم.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاء بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾

شرع تبارك و تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود و إسباغه عليهم النعم الظاهرة و الباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشاً أي مهداً كالفراش، مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات، و السماء بناء و هو السقف، كما قال في الآية الأخرى ﴿و جعلنا السماء سقفاً محفوظاً و هم عن آياتها معرضون﴾ ﴿و أنزل لهم من السماء ماء﴾ و المراد به السحاب ههنا في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع و الثمار ما هو مشاهد رزقاً لهم و لأنعامهم كما قرر هذا في غير موضع من القرآن، و من أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض قراراً و السماء بناء و صوركم فأحسن صوركم و رزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾ و مضمونة: أنه الخالق الرازق مالك الدار و ساكنيها و رازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده و لا يشرك به غيره و لهذا قال: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ و في الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً و هو خلقك» الحديث، و كذا حديث معاذ «أتدري ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئاً» الحديث، و في الحديث الآخر «لا يقولن أحدكم ما شاء الله و شاء فلان، و لكن ليقل ما شاء الله ثم شاء فلان»[1].

و عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ للفريقين جميعاً من الكفار و المنافقين، أي وحدوا ربكم الذي خلقكم و الذين من قبلكم. ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ قال الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، و هو أن يقول: و الله و حياتك يا فلان و حياتي، و يقول لو لا

(١) رواه الإمام أحمد و أبو داود و النسائي من حديث حذيفة رضي الله عنه بنحوه.

كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة، و لولا البط في الدار لأتى اللصوص، و قول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت، و قول الرجل لولا الله و فلان لا تجعل فيها «فلان» هذا كله به شرك.

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

٢٣، ٢٤- ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ يعني محمداً ﷺ فأتوا بسورة من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به و استعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك، قال ابن عباس: شهداءكم أعوانكم، و قال مجاهد: و ادعوا شهداءكم قال ناس يشهدون به يعني حكام الفصحاء، وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين﴾ و قال في سورة سبحان ﴿قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ و قال في سورة هود: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات و ادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ و قال في سورة يونس: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله و لكن تصديق الذي بين يديه و تفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ◆ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله و ادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ و كل هذه الآيات مكية، ثم تحداهم بذلك أيضاً في المدينة فقال في هذه الآية ﴿وإن كنتم في ريب﴾ أي شك ﴿مما نزلنا على عبدنا﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ يعني من مثل القرآن.

و التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم و قد تحداهم بهذا في مكة و المدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له و بغضهم لدينه و مع هذا عجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا و لن تفعلوا﴾ و لن لنفي التأبيد في المستقبل أي و لن تفعلوا ذلك أبداً و هذه أيضاً معجزة أخرى، و هو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مقدماً غير خائف و لا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله أبد الآبدين و دهر الداهرين، و كذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا و لا يمكن، و أنى يتأتى ذلك لأحد و القرآن كلام الله خالق كل شيء، و كيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟ و من تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة و خفية من حيث اللفظ و من جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الر ◆ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ فأحكمت ألفاظه و فصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه و معناه فصيح لا يحاذى، و لا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت و وقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، و أمر بكل خير، و نهى عن كل شر، كما قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً و عدلاً﴾ أي صدقاً في الأخبار و عدلاً في الأحكام، فكله حق و صدق وعدل و هدى ليس فيه مجازفة و لا كذب و لا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب و غيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر إن أعذبه أكذبه، و تجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو

مخافة أو سبع أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعبر على التعبير على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجد له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد و سائرها هذر لا طائل تحته.

و أما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً و إجمالاً، ممن فهم كلام العرب و تصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة و سواء تكررت أم لا، و كلما تكرر حلا و علا، لا يخلق عن كثرة الرد، و لا يمل منه العلماء، و إن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، و إن وعد أتى بما يفتح القلوب و الآذان، و يشوق إلى دار السلام و مجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ و قال: ﴿و فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾ و قال في الترهيب: ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر﴾ ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف الأرض فإذا هي تمور ◆ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير﴾ و قال في الزجر: ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ و قال في الوعظ: ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة و البلاغة و الحلاوة، و إن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، و النهي عن كل قبيح رذيل دنيء، كما قال ابن مسعود و غيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه، و لهذا قال تعالى: ﴿يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التي كانت عليهم﴾ الآية، و إن جاءت الآيات في وصف المعاد و ما فيه من الأهوال، و في وصف الجنة و النار، و ما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم و الملاذ و العذاب الأليم، بشرت به و حذّرت و أنذرت، و دعت إلى فعل الخيرات و اجتناب المنكرات، و زهّدت في الدنيا و رغبت في الآخرة، و ثبتت على الطريقة المثلى، و هدت إلى صراط الله المستقيم و شرعه القويم، و نفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

و لهذا ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر، و إنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» - لفظ مسلم - و قوله ﷺ: «و إنما كان الذي أوتيته وحياً» أي الذي اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء و الله أعلم، و له عليه الصلاة و السلام من الآيات الدالة على نبوته و صدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر و لله الحمد و المنة.

و قوله تعالى: ﴿فاتقوا النار التي و قودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين﴾ أما الوقود، بفتح الواو، فهو ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب و نحوه، كما قال تعالى: ﴿و أما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً﴾ و قال تعالى: ﴿إنكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ◆ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها و كل فيها خالدون﴾ و المراد بالحجارة ههنا هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، و هي أشد الأحجار

حراً إذا حميت أجارنا الله منها.

و قوله تعالى: ﴿أعدت للكافرين﴾ الأظهر أن الضمير في أعدت عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، و يحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود، و لا منافاة بين القولين في المعنى لأنهما متلازمان و أعدت أي رصدت و حصلت للكافرين بالله و رسوله. و قد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى: ﴿أعدت﴾ أي أرصدت و هيئت و قد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها «تحاجت الجنة و النار» و منها «استأذنت النار بها فقالت رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء و نفس في الصيف» و حديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا حَجَرٌ به أُلقي به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها» و هو عند مسلم، و حديث صلاة الكسوف و ليلة الإسراء و غير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى، و قد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا و وافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس.

تنبيه ينبغي الوقوف عليه

قوله تعالى: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾ و قوله في سورة يونس: ﴿بسورة مثله﴾ يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أم قصيرة لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور و قصارها، و هذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً.

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥) ﴾

٢٥- لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به و برسوله من العذاب و النكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به و برسله، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، و هذا معنى تسمية القرآن «مثاني» على أصح أقوال العلماء كما سنبسطه في موضعه، و هو أن يذكر الإيمان و يتبع بذكر الكفر أو عكسه أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه، و حاصله ذكر الشيء و مقابله. و أما ذكر الشيء و نظيره فذاك التشابه كما سنوضحه إن شاء الله فلهذا قال تعالى: ﴿و بشر الذين آمنوا و عملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار أي من تحت أشجارها و غرفها، و قد جاء في الحديث: أن أنهارها تجري في غير أخدود، و جاء في الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف، و لا منافاة بينهما فطينها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ و الجوهر، نسأل الله من فضله إنه هو البر الرحيم.

وقوله تعالى: ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ أي أنهم أتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، قال ابن جرير: و قال آخرون: بل تأويل ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾ ثمار الجنة من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضاً لقوله تعالى: ﴿و أتوا به متشابهاً﴾ قالوا: يؤتى

أحدهم بالصَّحفة من الشيء فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيقول هذا الذي أتينا به من قبل، فتقول الملائكة: كُلْ فاللون واحد و الطعم مختلف. و عن ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء، و في رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء. و قال ابن أسلم في قوله تعالى: ﴿و أتوا به متشابهاً﴾ قال يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا التفاح بالتفاح و الرمان بالرمان، قالوا في الجنة هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا و أتوا به متشابهاً يعرفونه و ليس هو مثله في الطعم.

و قوله تعالى: ﴿و لهم فيها أزواج مطهرة﴾ عن ابن عباس: مطهرة من القذر و الأذى، و قال مجاهد: من الحيض و الغائط و البول و النخام و البزاق و المني و الولد.

و قوله تعالى: ﴿وهم فيها خالدون﴾ هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له و لا انقضاء، بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام، و الله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم، إنه جواد كريم بر رحيم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧) ﴾

٢٦- لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ و قوله: ﴿أو كصيب من السماء﴾ الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى و أجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿هم الخاسرون﴾ و قال قتادة: أي إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكر شيئاً ما قل أو كثر، و إن الله حين ذكر في كتابه الذباب و العنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾.

و قوله تعالى: ﴿فما فوقها﴾ فيه قولان: أحدهما فما دونها في الصغر و الحقارة كما إذا وصف رجل باللؤم والشح فيقول السامع نعم وهو فوق ذلك. يعني فيما وصفت. و هذا قول الكسائي و أبي عبيد، قال الرازي: وأكثر المحققين. و في الحديث «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء»[1] و الثاني: فما فوقها لما هو أكبر منها لأنه ليس شيء أحقر و لا أصغر من البعوضة، و هذا قول قتادة بن دعامة و اختيار ابن جرير، و يؤيده ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له بها درجة و محيت عنه بها خطيئة» فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً و لو كان في الحقارة و الصغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب و العنكبوت في قوله ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً و لو اجتمعوا له و إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب و المطلوب﴾ و قال: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً و إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي و غيره من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

وقال: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلا العالمون﴾ و في القرآن أمثال كثيرة، قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله قال: ﴿و تلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلا العالمون﴾ و قال مجاهد: في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾ الأمثال صغيرها و كبيرها يؤمن بها المؤمنون و يعلمون أنها الحق من ربهم و يهديهم الله بها.

و قال قتادة ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله، ﴿و أما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ كما قال في سورة المدثر ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة و ما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب و يزداد الذين آمنوا إيماناً و لا يرتاب الذين أوتوا الكتاب و المؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض و الكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء و يهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ و كذلك قال ههنا ﴿يضل به كثيراً و يهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾ يضل به كثيراً يعني به المنافقين و يهدي به المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله بما ضرب لهم، و أنه لما ضرب له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به، و يهدي به يعني المثل كثيراً من أهل الإيمان و التصديق فيزيدهم هدى إلى هداهم و إيماناً إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً و إقرارهم به و ذلك هداية من الله لهم به ﴿و ما يضل به إلا الفاسقين﴾ هم المنافقون، و عن ابن عباس ﴿و ما يضل به إلا الفاسقين﴾ قال يقول يعرفه الكافرون فيكفرون به. و قال قتادة ﴿و ما يضل به إلا الفاسقين﴾ فسقوا فأضلهم الله على فسقهم، والفاسق في اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضاً، و تقول العرب فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، و لهذا يقال للفأرة فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد، و ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل و الحرم: الغراب و الحدأة و العقرب والفأرة و الكلب العقور» فالفاسق يشمل الكافر و العصي، و لكن فسق الكافر أشد وأفحش، و المراد به من الآية الفاسق الكافر، و الله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ و هذه الصفات صفات الكافر المباينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى في سورة الرعد ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ◆ الذين يوفون بعهد الله و لا ينقضون الميثاق ◆ و الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل و يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾ الآيات، إلى أن قال ﴿و الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل و يفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة و لهم سوء الدار﴾ و قد اختلف أهل التفسير في معنى «العهد» الذي وُصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم هو: وصية الله إلى خلقه و أمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه و على لسان رسله، و نقضهم ذلك هو تركهم العمل به.

و قال آخرون: بل هي في كفار أهل الكتاب و المنافقين منهم، و عهد الله الذي نقضوه هو ما أخذ الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها و اتباع محمد ﷺ إذا بُعث و التصديق به و بما جاء به من عند ربهم، و نقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته، و إنكارهم ذلك و كتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليُبيننه للناس و لا يكتمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم و اشتروا به ثمناً قليلاً. و هذا

اختيار ابن جرير رحمه الله.

و قال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر و الشرك و النفاق، و عهده إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته و عهد إليهم في أمره و نهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثله، الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا و نقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة، و تكذيبهم الرسل و الكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق. و قال آخرون: العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله **﴿و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾** الآيتين، و نقضهم ذلك تركهم الوفاء به.

و قوله: **﴿و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾** قيل المراد به صلة الأرحام و القرابات كما فسره قتادة كقوله تعالى: **﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض و تقطعوا أرحامكم﴾** و رجحه ابن جرير، و قيل المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله و فعله فقطعوه و تركوه. و قال مقاتل بن حيان في قوله تعالى: **﴿أولئك هم الخاسرون﴾** قال في الآخرة، و هذا كما قال تعالى: **﴿أولئك لهم اللعنة و لهم سوء الدار﴾** و قال ابن جرير في قوله تعالى **﴿أولئك هم الخاسرون﴾** الخاسرون جمع خاسر، و هم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، و كذلك المنافق و الكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)﴾

٢٨- يقول تعالى محتجاً على وجوده و قدرته و أنه الخالق المتصرف في عباده **﴿كيف تكفرون بالله﴾** أي كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره **﴿و كنتم أمواتاً فأحياكم﴾** أي و قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود كما قال تعالى: **﴿أم خلقوا من شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات و الأرض بل لا يوقنون﴾** و قال تعالى: **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾** و الآيات في هذا كثيرة، و عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه **﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين و أحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا﴾** قال هي التي في البقرة **﴿و كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾** و عن ابن عباس: كنتم أمواتاً فأحياكم: أمواتاً في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم ثم يميتكم موتة الحق ثم يحييكم حين يبعثكم، قال و هي مثل قوله تعالى: **﴿أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾** و عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿ربنا أمتنا اثنتين و أحييتنا اثنتين﴾** قال كنتم تراباً قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى، فهذه ميتتان و حياتان، فهو كقوله **﴿كيف تكفرون بالله و كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾**.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾

٢٩- لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم و ما يشاهدونه من أنفسهم، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات

والأرض فقال ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾ أي قصد إلى السماء. و الاستواء ههنا مضمن معنى القصد و الإقبال، لأنه عُدّي بإلى، فسواهن أي فخلق السماء سبعاً، والسماء ههنا اسم جنس فلهذا قال ﴿فسواهن سبع سموات و هو بكل شيء عليم﴾ أي و علمه محيط بجميع ما خلق، كما قال: ﴿ألا يعلم من خلق﴾ و تفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة، و هو قوله تعالى ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين و تجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين♦ و جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها و قدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين♦ ثم استوى إلى السماء و هي دخان فقال لها و للأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين♦ فقضاهن سبع سموات في يومين و أوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح و حفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾ ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولاً ثم خلق السموات سبعاً، و هذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك، و قد صرح المفسرون بذلك كما سنذكره بعد هذا إن شاء الله. فأما قوله تعالى ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها♦ رفع سمكها فسواها♦ و أغطش ليلها و أخرج ضحاها♦ و الأرض بعد ذلك دحاها♦ أخرج منها ماءها و مرعاها♦ والجبال أرساها♦ متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ فقد قيل إن ثم ههنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر لا لعطف الفعل على الفعل، كما قال الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

و قيل إن الدحي كان بعد خلق السموات، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

و قد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها♦ رفع سمكها فسواها♦ و أغطش ليلها و أخرج ضحاها♦ و الأرض بعد ذلك دحاها♦ أخرج منها ماءها و مرعاها♦ و الجبال أرساها﴾ قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض، و في صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء، و أن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، و كذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً و حديثاً، و قد حررنا ذلك في سورة النازعات، و حاصل ذلك أن الدحي مفسّر بقوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها♦ أخرج منها ماءها و مرعاها♦ و الجبال أرساها﴾ ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية، دَحَى بعد ذلك الأرض فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها و صفاتها و ألوانها و أشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت و السيارة، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

و قد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه في تفسير هذه الآية الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خَلَقَ اللهُ التربةَ يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد و خلق الشجر فيها يوم الإثنين و خلق المكروه يوم الثلاثاء و خلق النور يوم الأربعاء وبثّ فيها الدواب يوم الخميس و خلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» و هذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، و قد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري و غير واحد من الحفاظ و جعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، و إنما اشتبه على بعض الرواة، فجعلوه مرفوعاً، و قد حرر ذلك البيهقي.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

٣٠- يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: **﴿و إذ قال ربك للملائكة﴾** أي و اذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة و اقصص على قومك ذلك، **﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾** أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، و جيلاً بعد جيل كما قال تعالى: **﴿هو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾** قال: **﴿و يجعلكم خلفاء الأرض﴾** و قال: **﴿و لو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾** وقال: **﴿فخلف من بعدهم خلف﴾**، و ليس المراد ههنا بالخليفة آدم ﷺ فقط كما يقوله طائفة من المفسرين، بل الظاهر أنه لم يرد آدم عيناً إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾** فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، و كأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون أو فهموا من **﴿الخليفة﴾** أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم و يردعهم عن المحارم و المآثم، قاله القرطبي، أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك، و قول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله و لا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين، و قد وصفهم الله تعالى بأنهم **﴿لا يسبقونه بالقول﴾** أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، و ههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً، قال قتادة: و قد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا: **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء﴾** الآية، و إنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك و نقدس لك أي نصلي لك كما سيأتي. أي و لا يصدر منا شيء من ذلك، و هلا وقع الاقتصار علينا ؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: **﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾** أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم فإني جاعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل، و يوجد منهم الصديقون و الشهداء و الصالحون و العباد والزهاد و الأولياء و الأبرار والمقربون و العلماء العاملون و الخاشعون و المحبون له تبارك و تعالى، المتبعون رسله صلوات الله و سلامه عليهم، و قد ثبت في الصحيح أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم و هو أعلم: كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون: أتيناهم و هم يصلون و تركناهم يصلون. و ذلك لأنهم يتعاقبون فينا و يجتمعون في صلاة الصبح و في صلاة العصر، فيمكث هؤلاء و يصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة و السلام: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار و عمل النهار قبل الليل» فقولهم: أتيناهم و هم يصلون و تركناهم و هم يصلون من تفسير قوله لهم: **﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾**، و قيل معنى قوله تعالى جواباً لهم: **﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾** إني لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء و الحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، قيل إنه جواب **﴿و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك﴾** فقال: **﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾** أي من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. و قيل بل تضمن قولهم: **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك﴾** طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى لهم: **﴿إني أعلم ما لا**

تعلمون﴾ من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها الرازي مع غيرها من الأجوبة، و الله أعلم.

و عن عبد الله بن عمرو قال: كان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي سنة، فأفسدوا في الأرض و سفكوا الدماء، فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوا بجزائر البحور فقال الله للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون.

و قوله تعالى: ﴿و نحن نسبح بحمدك و نقدس لك﴾ عن قتادة، قال: التسبيح التسبيح، و التقديس الصلاة. و قال ابن جرير: التقديس هو التعظيم و التطهير. و منه قولهم سبوح قدوس يعني بقولهم سبوح تنزيه له، و بقولهم قدوس طهارة و تعظيم له، و كذلك قيل للأرض أرض مقدسة يعني بذلك المطهرة، فمعنى قول الملائكة إذاً ﴿و نحن نسبح بحمدك﴾ ننزهك و نبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿و نقدس لك﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس و ما أضاف إليك أهل الكفر بك. و في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله و بحمده».

و قد استدل القرطبي و غيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه و يقطع تنازعهم و ينتصر لمظلومهم من ظالمهم و يقيم الحدود و يزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام و ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. و الإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل و العقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور، و حكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، و الله أعلم. أو بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدي ذلك إلى الشقاق و الاختلاف. و قد نص عليه الشافعي. و هل يجب الإشهاد على عقد الإمام؟ فيه خلاف، فمنهم من قال لا يشترط و قيل بلى ويكفي شاهدان.

و يجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً خبيراً سليم الأعضاء خبيراً بالحروب والآراء، قرشياً على الصحيح و لا يشترط الهاشمي، و لا المعصوم من الخطإ خلافاً للغلاة الروافض، و لو فسق الإمام هل ينعزل أم لا؟ فيه خلاف، و الصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة و السلام، «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان» و هل له أن يعزل نفسه فيه خلاف، و قد عزل الحسن بن علي رضي الله عنهما نفسه و سلم الأمر إلى معاوية لكن هذا لعذر و قد مدح على ذلك، فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام «مَنْ جاءكم و أمركم جميع يريد أن يُفرّق بينكم فاقتلوه كائناً من كان»[1] و هذا قول الجمهور، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين، و قالت الكرامية: يجوز نصب إمامين فأكثر كما كان علي و معاوية إمامين واجبي الطاعة، و حكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوّز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار و اتسعت الأقاليم بينهما و تردد إمام الحرمين في ذلك.

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

(١) رواه مسلم من حديث عرفجة رضي الله عنه، بلفظ «مَنْ أتاكم ...».

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾

٣١- هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم و هذا كان بعد سجودهم له، و إنما قدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين المقام و عدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون، و لهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى: **﴿و علم آدم الأسماء كلها﴾** قال الضحاك عن ابن عباس **﴿و علم آدم الأسماء كلها﴾** قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان و دابة و سماء و أرض و سهل و بحر وخيل و حمار و أشباه ذلك من الأمم و غيرها، و عن سعيد بن معبد عن ابن عباس **﴿و علم آدم الأسماء كلها﴾** قال علمه اسم الصَّحْفَة و القدر؟ قال: نعم حتى الفسوة و الفسية، و قال مجاهد **﴿و علم آدم الأسماء كلها﴾** قال علمه اسم كل دابة و كل طير و كل شيء، و اختار ابن جرير أنه علّمه أسماء الملائكة و أسماء الذرية لأنه قال **﴿ثم عرضهم﴾** وهذا عبارة عما يعقل، و هذا الذي رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب كما قال تعالى **﴿و الله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه و منهم من يمشي على رجلين و منهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾** وقد قرأ عبد الله بن مسعود **﴿ثم عرضهن﴾** و قرأ أبي بن كعب **﴿ثم عرضها﴾** أي المسميات. و الصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها و صفاتها و أفعالها كما قال ابن عباس حتى الفسوة و الفسية يعني أسماء الذوات و الأفعال المكبر و المصغر، و لهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من صحيحه عن أنس عن النبيﷺ قال «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده، و أسجد لك ملائكته و علّمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول لست هناكم، و يذكر ذنبه فيستحي. ائتوا نوحاً . . . » الحديث. فدل هذا على أنه علّمه أسماء جميع المخلوقات، و لهذا قال **﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾** يعني المسميات كما قال قتادة: ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة **﴿فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾** عن الحسن و قتادة في قوله تعالى: **﴿إن كنتم صادقين﴾** إني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه، فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، و عن ابن عباس و ابن مسعود و عن ناس من الصحابة **﴿إن كنتم صادقين﴾** أن بني آدم يفسدون في الأرض و يسفكون الدماء، وقال ابن جرير: و أولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس و من قال بقوله، و معنى ذلك **﴿فقال أنبئوني بأسماء﴾** من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء، من غيرنا أم منا فنحن نسبح بحمدك و نقدس لك؟ إن كنتم صادقين في قيلكم إني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته و أفسدوا و سفكوا الدماء و إن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي و التقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم و أنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين.

٣٢- ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ هذا تقديس و تنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء و أن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى و لهذا قالوا ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك و أمرك و في تعليمك من تشاء ، و منعك من تشاء ، لك الحكمة في ذلك و العدل التام .

٣٣- قوله تعالى : ﴿قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات و الأرض و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون﴾ قال زيد بن أسلم : قال أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت إسرافيل حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب . فلما ظهر آدم ﷺ على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء ، قال الله تعالى للملائكة ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات و الأرض و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون﴾ أي ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر و الخفي كما قال تعالى ﴿و إن تجهر بالقول فإنه يعلم السر و أخفى﴾ و كما قال إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات و الأرض و يعلم ما تخفون و ما تعلنون ۞ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ و قيل في قوله تعالى : ﴿و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون﴾ غير ما ذكرناه ، فروى الضحاك عن ابن عباس ﴿و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون﴾ قال يقول : أعلم السر كما أعلم العلانية يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار .

و اختار ذلك ابن جرير فقال : و أولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس و هو أن معنى قوله تعالى : ﴿و أعلم ما تبدون﴾ و أعلم مع علمي غيب السموات و الأرض و ما تظهرونه بألسنتكم و ما كنتم تخفون في أنفسكم ، فلا يخفى علي أي شيء سواء عندي سرائركم و علانيتكم ، و الذي أظهروه بألسنتهم قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ، و الذي كانوا يكتمون ما كان عليه منطوياً إبليس من الخلاف على الله في أوامره و التكبر عن طاعته ، قال : و صح ذلك كما تقول العرب : قُتل الجيش و هزموا ، و إنما قتل الواحد أو البعض و هزم الواحد أو البعض ، فيخرج الخبر عن المهزوم منه و المقتول مخرج الخبر عن جميعهم كما قال تعالى : ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ ذكر أن الذي نادى إنما كان واحداً من بني تميم ، قال : و كذلك قوله ﴿و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون﴾ .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ﴾

٣٤- و هذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، و قد دل على ذلك أحاديث أيضاً كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم ، و حديث موسى ﷺ «رب أرني آدم الذي أخرجنا و نفسه من الجنة ، فلما اجتمع به قال أنت آدم الذي خلقه الله بيده و نفخ فيه من روحه و أسجد له ملائكته» و قال و ذكر الحديث كما سيأتي إن شاء الله .

و الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، دخل إبليس في خطابهم ، لأنه و إن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبّه بهم و توسّم بأفعالهم ، فلهذا دخل في الخطاب لهم و ذُم في مخالفة الأمر ، و سنبسط المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله : ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ و روى ابن جرير عن الحسن قال : ما

كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، و إنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس، و هذا الإسناد صحيح عن الحسن، و هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء.

و قال قتادة في قوله تعالى: ﴿و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ فكانت الطاعة لله و السجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته، و قال بعض الناس كان هذا سجود تحية و سلام و إكرام كما قال تعالى: ﴿و رفع أبويه على العرش و خروا له سجداً و قال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾ و قد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية و لكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: «لا لو كنت آمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرتُ المرأة أنْ تسجد لزوجها من عظم حقّه عليها»[1] و رجحه الرازي، و قال بعضهم: بل كانت السجدة لله و آدم قبلة فيها كما قال تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ و في هذا التنظير نظر، و الأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لآدم إكراماً و إعظاماً واحتراماً و سلاماً، و هي طاعة لله عز وجل لأنها امتثال لأمره تعالى، و قد قواه الرازي في تفسيره و ضعف ما عداه من القولين الآخرين و هما كونه جعل قبلة إذ لا يظهر فيه شرف، و الآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء و وضع الجبهة على الأرض و هو ضعيف كما قال، و قال قتادة في قوله تعالى: ﴿فسجدوا إلا إبليس أبى و استكبر و كان من الكافرين﴾ حسد عدو الله إبليس آدم ﷺ ما أعطاه من الكرامة، وقال: أنا ناري و هذا طيني، و كان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم ﷺ، قلت: و قد ثبت في الصحيح «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر» و قد كان في إبليس من الكبر و الكفر والعناد، ما اقتضى طرده و إبعاده عن جناب الرحمة و حضرة القدس، قال بعض المعربين ﴿و كان من الكافرين﴾ أي و صار من الكافرين بسبب امتناعه كما قال ﴿فكان من المغرقين﴾ و قال: ﴿فتكونا من الظالمين﴾. أي قد صارت و قال ابن فورك: تقديره و قد كان في علم الله من الكافرين، و رجحه القرطبي.

و قد حكى الرازي و غيره قولين للعلماء: هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض أو عام في ملائكة السموات و الأرض؟ و قد رجّح كلاً من القولين طائفة، و ظاهر الآية الكريمة العموم ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس﴾ فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم، و الله أعلم.

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) ﴾

٣٥- يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم بعد أن أمر الملائكة بالسجود إلا إبليس و أنه أباح له الجنة يسكن منها حيث يشاء و يأكل منها ما شاء رغداً أي هنيئاً واسعاً طيباً. و قد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم أهي في السماء أم في الأرض؟ و الأكثرون على الأول، و حكى القرطبي عن المعتزلة و القدرية القول بأنها في الأرض! وسيأتي تقرير ذلك في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى، و سياق الآية يقتضي أن حواء خُلقت قبل دخول آدم الجنة و قد صرح بذلك محمد بن إسحاق حيث قال: لما فرغ الله من معاتبة إبليس أقبل على آدم و قد علمه

(١) رواه الإمام أحمد و الترمذي و غيرهما.

الأسماء كلها فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم إلى قوله : ﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾ قال ثم ألقيت السنة على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة و غيرهم من أهل العلم عن ابن عباس و غيره، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر و لأم مكانه لحماً، و آدم نائم لم يهب من نومه رآها حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة ليسكن إليها، فلما كشف عنه السنة وهب من نومه رآها إلى جنبه فقال فيما يزعمون و الله أعلم «لحمي و دمي وزوجتي» فسكن إليها، فلما زوجه الله و جعل له سكناً من نفسه قال له قبلاً: ﴿يا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما و لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾.

و أما قوله: ﴿و لا تقربا هذه الشجرة﴾ فهو اختبار من الله تعالى و امتحان لآدم و قد اختلف في هذه الشجرة ما هي ؟ قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : و الصواب في ذلك أن يقال إن الله عز وجل ثناؤه: نهى آدم عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها و لا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن و لا من السنة الصحيحة، وقد قيل: كانت شجرة البر و قيل كانت شجرة العنب و قيل كانت شجرة التين، و جائز أن تكون واحدة منها، و ذلك علمٌ إذا عُلم لم ينفع العالم به علمه، و إن جهله جاهل لم يضره جهله به، و الله أعلم، و كذلك رجح الإبهام الرازي في تفسيره وغيره و هو الصواب.

٣٦- و قوله تعالى: ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ يصح أن يكون الضمير في قوله ﴿عنها﴾ عائداً إلى الجنة فيكون معنى الكلام كما قرأ عاصم ﴿فأزالهما﴾ أي فنحاهما، و يصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين و هو الشجرة فيكون معنى الكلام كما قال الحسن و قتادة ﴿فأزلهما﴾ أي من قبل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أي بسببها، كما قال تعالى: ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي يصرف بسببه من هو مأفوك، ولهذا قال تعالى ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي من اللباس و المنزل الرحب و الرزق الهنيء و الراحة ﴿و قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو و لكم في الأرض مستقر و متاع إلى حين﴾ أي قرار و أرزاق و آجال - إلى حين - أي إلى وقت و مقدار معين ثم تقوم القيامة، و قد ذكر المفسرون من السلف كالسدي بأسانيده و أبي العالية ووهب ابن منبه و غيرهم ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية و إبليس، و كيف جرى من دخول إبليس الجنة ووسوسته، وسنبسط ذلك إن شاء الله في سورة الأعراف فهناك القصة أبسط منها ههنا، و الله الموفق.

و روى الحاكم عن ابن عباس قال: ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

و عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم و فيه أدخل الجنة و فيه أخرج منها» رواه مسلم و النسائي. و قال الرازي: اعلم أن في هذه الآية تهديداً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه (الأول) أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وَجَلٍ شديد من المعاصي، قال الشاعر:

يا ناظراً يرنو بعيني راقد ... ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب و ترتجي ... درج الجنان و نيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدما ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

و قال ابن القاسم:

و لكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا و نسلم

قال الرازي عن فتح الموصلي أنه قال: كنا قوماً من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نُرد إلى الدار التي أخرجنا منها. فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أخرج منها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة، و قد طرد من هنالك طرداً قدرياً، و القدري لا يخالف ولا يمانع؟ فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، كما قد بسطنا هذا في أول كتابنا البداية و النهاية، و أجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه السرقة و الإهانة، فلا يمتنع، و لهذا قال بعضهم: كما جاء في التوراة أنه دخل في فم الحية إلى الجنة. و قد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما و هو خارج باب الجنة. و قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما و هو في الأرض، و هما في السماء، ذكرها الزمخشري و غيره. و قد أورد القرطبي ههنا أحاديث في الحيات وقتلهن و بيان حكم ذلك، فأجاد و أفاد.

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾

٣٧- قيل إن هذه الكلمات مفسّرة بقوله تعالى: **﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾**. و عن ابن عباس فتلقى آدم من ربه كلمات، قال: قال آدم عليه السلام: يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قيل له: بلى، و نفخت فيّ من روحك؟ قيل له بلى، و عطست فقلت يرحمك الله، و سبقت رحمتك غضبك؟ قيل له بلى، و كتبت علي أن أعمل هذا؟ قيل له بلى، قال: أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم. وهكذا رواه العوفي و سعيد بن جبير و سعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه، و رواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن جبير عن ابن عباس، و قال صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

و عن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، قال: كلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفرلي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك و بحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم. و قوله تعالى **﴿إنه هو التواب الرحيم﴾** أي إنه يتوب على من تاب إليه وأناب كقوله **﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾** و قوله: **﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾** الآية، و قوله: **﴿و من تاب و عمل صالحاً﴾** و غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب، و يتوب على من يتوب، و هذا من لطفه بخلقه و رحمته بعبيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾

٣٨- يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم و زوجته و إبليس حين أهبطهم من الجنة، و المراد الذرية، أنه سينزل الكتب و يبعث الأنبياء و الرسل، كما قال أبو العالية: الهدى الأنبياء و الرسل و البينات و البيان، و قال مُقاتل

ابن حيان ﴿الهدى﴾: محمد ﷺ، و قال الحسن: ﴿الهدى﴾: القرآن، و هذان القولان صحيحان، و قول أبي العالية أعم ﴿فمن تبع هداي﴾ أي من أقبل على ما أنزلت به الكتب و أرسلت به الرسل ﴿فلا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿و لا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا كما قال في سورة طه ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل و لا يشقى﴾ قال ابن عباس: فلا يضل في الدنيا و لا يشقى في الآخرة ﴿و من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً و نحشره يوم القيامة أعمى﴾ كما قال ههنا:

٣٩- ﴿و الذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي مخلدون فيها لا محيد لهم عنها و لا محيص، و قد أورد ابن جرير ههنا حديثاً عن أبي سعيد و اسمه سعد بن مالك بن سنان الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهلُ النار الذي هم أهلها فلا يموتون فيها و لا يحيون، ولكن أقوامٌ أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أُذن في الشفاعة» و قد رواه مسلم.

و ذكر هذا الإهباط الثاني لما تعلق به ما بعده، من المعنى المغاير للأول، و زعم بعضهم: أنه تأكيد و تكرير، كما يقال: قم قم، وقال آخرون: بل الإهباط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، و الثاني من سماء الدنيا إلى الأرض، والصحيح الأول، و الله أعلم.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

٤٠- يقول تعالى آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، و متابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهيجاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل و هو نبي الله يعقوب ﷺ، و تقديره يا بني العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم افعل كذا، يا ابن الشجاع بارز الأبطال، يا ابن العالم اطلب العلم، ونحو ذلك. و من ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾ فإسرائيل هو يعقوب. عن عبد الله بن عباس: أن إسرائيل كقولك عبد الله و قوله تعالى ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى، و فيما سوى ذلك أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى، و نجّاهم من عبودية آل فرعون، و قال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب، قلت: و هذا كقول موسى ﷺ لهم ﴿يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ يعني في زمانهم، ﴿و أوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾ قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم أُنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار و الأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من إحداثكم. و قال الحسن البصري: هو قوله تعالى: ﴿و لقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل و بعثنا منهم اثني عشر نقيباً و قال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة و آتيتم الزكاة و آمنتم برسلي و عزرتموهم و أقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ الآية وقال آخرون: هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث

من بني إسماعيل نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب، و المراد به محمد ﷺ فمن اتبعه غفر الله ذنبه و أدخله الجنة وجعل له أجرين.

و قد أورد الرازي بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام بمحمد ﷺ، قال أبو العالية ﴿و أوفوا بعهدي﴾ قال عهده إلى عباده دين الإسلام و أن يتبعوه، و قال الضحاك عن ابن عباس: أوف بعهدكم؟ قال: أرض عنكم و أدخلكم الجنة، و كذا قال السدي و الضحاك و أبو العالية والربيع بن أنس، وقوله تعالى ﴿و إياي فارهبون﴾ أي فاخشون، قاله أبو العالية و السدي و الربيع بن أنس و قتادة، و قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿و إياي فارهبون﴾ أي أن أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التي قد عرفتم من المسخ وغيره، و هذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب فدعاهم إليه بالرغبة و الرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق و اتباع الرسول ﷺ والاتعاظ بالقرآن و زاجره و امتثال أوامره و تصديق أخباره، و الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، و لهذا قال:

٤١ - ﴿و آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم﴾ يعني به القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ النبي الأمي العربي بشيراً ونذيراً و سراجاً منيراً مشتملاً على الحق من الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من التوراة و الإنجيل، قال أبو العالية رحمه الله في قوله تعالى ﴿و آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم﴾ يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مُصدقاً لما معكم، يقول لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم في التوراة و الإنجيل و روي عن مجاهد والربيع ابن أنس وقتادة نحو ذلك، و قوله: ﴿و لا تكونوا أول كافر به﴾ قال بعض المعربين: أول فريق كافر به أو نحو ذلك، قال ابن عباس: و لا تكونوا أول كافر به و عندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم، قال أبو العالية: يقول: و لا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ، يعني من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه، و كذا قال الحسن و السدي و الربيع ابن أنس، و اختار ابن جرير أن الضمير في قوله ﴿به﴾ عائد على القرآن الذي تقدم ذكره في قوله ﴿بما أنزلت﴾ وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن، و أما قوله ﴿أول كافر به﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل، لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، و إنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم، و قوله تعالى: ﴿و لا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي و تصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، كما سئل الحسن البصري عن قوله تعالى ﴿ثمناً قليلاً﴾ قال: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها، وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿و لا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ إن آياته كتابه الذي أنزله إليهم، و إن الثمن القليل الدنيا وشهواتها، و قال السدي: ﴿و لا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ يقول: لا تأخذوا طمعاً قليلاً، و لا تكتموا اسم الله، فذلك الطمع هو الثمن، و عن أبي العالية في قوله تعالى ﴿و لا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجراً، قال: و هو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم علّم مجاناً كما عُلّمت مجاناً، و قيل: معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح و نشر العلم النافع بالكتمان و اللبس، لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب.

و في سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (من تعلّم علماً مما يُبتغى به وجه الله، لا

يتعلمه إلا ليصيبَ به عرضاً من الدنيا ، لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة» فأما تعليم العلم بأجرة ، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة ، و يجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله بأجره ، فإن لم يحصل له منه شيء و قَطَعه التعليم عن التكسب ، فهو كما لم يَتَعَيَّن عليه ، و إذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك و الشافعي و أحمد و جمهور العلماء كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد في قصة اللديغ «إن أحقّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله» و قوله ﷺ في قصة المخطوبة «زوجتكها بما معك من القرآن» .

فأما حديث عبادة بن الصامت ، أنه علّم رجلاً من أهل الصفّة شيئاً من القرآن فأهدى له قوساً فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال «إن أحببتَ أن تُطوّقَ بقوسٍ من نار فاقبله» فتركه ، رواه أبو داود ، و روي مثله عن أبي بن كعب مرفوعاً ، فإن صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم : أبو عمر بن عبد البر ، على أنه لما علّمه لله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس ، فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فإنه يصح ، كما في حديث اللديغ و حديث سهل في المخطوبة ، و الله أعلم .

و قوله ﴿و إياي فاتقون﴾ عن طلق بن حبيب قال : التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله ، و أن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله ، ومعنى قول ﴿و إياي فاتقون﴾ أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق ، و إظهار خلافه ، و مخالفتهم الرسول صلوات الله و سلامه عليه .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

٤٢ - يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل ، و تمويهه به ، و كتمانهم الحق ، وإظهارهم الباطل : ﴿و لا تلبسوا الحق بالباطل و تكتموا الحق و أنتم تعلمون﴾ فنهاهم عن الشيئين معاً ، وأمرهم بإظهار الحق و التصريح به ، و لهذا قال الضحاك عن ابن عباس ﴿و لا تلبسوا الحق بالباطل﴾ لا تخلطوا الحق بالباطل ، و الصدق بالكذب . و قال أبو العالية ﴿و لا تلبسوا الحق بالباطل﴾ يقول : و لا تخلطوا الحق بالباطل ، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمد ﷺ و يروى عن سعيد بن جبير و الربيع بن أنس نحوه ، و قال قتادة ﴿و لا تلبسوا الحق بالباطل﴾ ولا تلبسوا اليهودية و النصرانية بالإسلام ، و أنتم تعلمون دين الله الإسلام ، و أن اليهودية و النصرانية بدعة ليست من الله ، و روي عن الحسن البصري نحو ذلك ، و عن ابن عباس ﴿و تكتموا الحق و أنتم تعلمون﴾ أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي و بما جاء به ، و أنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم ، و روي عن أبي العالية نحو ذلك و قال مجاهد و السدي و قتادة و الربيع بن أنس ﴿وتكتموا الحق﴾ يعني محمداً ﷺ (قلت) و تكتموا يحتمل أن يكون مجزوماً ، و يحتمل أن يكون منصوباً ، أي لا تجمعوا بين هذا وهذا ، كما يقال : لا تأكل السمك و تشرب اللبن ، قال الزمخشري : و في مصحف ابن مسعود و تكتمون الحق أي في حال كتمانكم الحق ﴿و أنتم تعلمون﴾ حال أيضاً ، و معناه و أنتم تعلمون الحق ، و يجوز أن يكون المعنى : وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار إلى أن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم ، والبيان الإيضاح وعكسه الكتمان و خلط الحق بالباطل .

٤٣- ﴿و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة و اركعوا مع الراكعين﴾ قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب ﴿و أقيموا الصلاة﴾ أمرهم أن يصلوا مع النبيﷺ ﴿و آتوا الزكاة﴾ أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أي يدفعونها إلى النبيﷺ ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمدﷺ، يقول: كونوا معهم و منهم، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني بالزكاة طاعة الله و الإخلاص، و عن الحسن في قوله تعالى ﴿و آتوا الزكاة﴾ قال: فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها و بالصلاة، و عن الحارث العكلي في قوله تعالى ﴿و آتوا الزكاة﴾ قال: صدقة الفطر، و قوله تعالى: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أي و كونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، و من أخص ذلك وأكمله الصلاة، و قد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة، وأبسط ذلك في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله تعالى، و قد تكلم القرطبي على مسائل الجماعة و الإمامة فأجاد.

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

٤٤- يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، و أنتم تأمرون الناس بالبر و هو جماع الخير، أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، و أنتم مع ذلك تتلون الكتاب و تعلمون ما فيه على من قصَّر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنتبهوا من رقدتكم، وتتبصروا من عمايتكم، و هذا كما قال قتادة في قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر و تنسون أنفسكم﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله و بتقواه و بالبر، و يخالفون، فعيّرهم الله عز و جل، و كذلك قال السدي. و عن ابن عباس: ﴿و تنسون أنفسكم﴾ أي تتركون أنفسكم ﴿و أنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ أي تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة و العهد من التوراة و تتركون أنفسكم، أي و أنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، و تجحدون ما تعلمون من كتابي، والغرض: أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع، و نبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير و لا يفعلونه، و ليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف و هو واجب على العالم، و لكن الواجب و الأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، و لا يتخلف عنهم كما قال شعيبﷺ: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ فكل من الأمر بالمعروف و فعله واجبٌ لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصح قولي العلماء من السلف و الخلف، و ذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنه، و هذا ضعيف، و أضعف منه تمسكهم بهذه الآية فإنه لا حجة لهم فيها، والصحيح: أن العالِم يأمر بالمعروف و إن لم يفعله، و ينهى عن المنكر و إن ارتكبه، قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف و لا ينهى عن المنكر، حتى لا يكون فيه شيء، ما أمَر أحدٌ بمعروف و لا نهى عن منكر. قال مالك: و صدق من ذا الذي ليس فيه شيء ؟ (قلت) لكنه و الحالة هذه مذموم على ترك الطاعة و فعله المعصية لعلمه بها، و مخالفته على بصيرة فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم، ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك، كما روى الإمام أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير عن جندب بن عبد اللهؓ قال: قال رسول اللهﷺ: «مثل العالم الذي يُعَلِّم الناس الخير و لا يعمل به، كمثل

السِّراج يضيء للناس و يحرق نفسه» هذا حديث غريب من هذا الوجه[1].

حديث آخر: روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: قلت من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم و هم يتلون الكتاب أفلا يعقلون». و رواه عبد بن حميد في مسنده.

روى أحمد عن أبي وائل، قال: قيل لأسامة وأنا رديفه: ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم ترون أني لا أكلمه، ألا أسمعكم، إني لأكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتتح أمراً لا أحب أن أكون أول من افتتحه، و الله لا أقول لرجل إنك خير الناس و إن كان علي أميراً بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول: قالوا: و ما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار فتندلق به أقتابه[2]، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك، ألم تكن تأمرنا بالمعروف و تنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف و لا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه» و رواه البخاري و مسلم.

و قال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر و تنسون أنفسكم﴾ و قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ۞ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ وقوله إخباراً عن شعيب: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾

٤٥- يقول تعالى آمراً عبيده فيما يُؤمّلون من خير الدنيا و الآخرة بالاستعانة بالصبر و الصلاة، كما قال مقاتل ابن حيان في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض و الصلاة، فأما الصبر فقيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد، قال القرطبي و غيره: و لهذا يُسمى رمضان «شهر الصبر» كما نطق به الحديث.

و عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: الصبر صبران: صبرٌ عند المصيبة حسن، و أحسن منه الصبر عن محارم الله. و قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿و استعينوا بالصبر و الصلاة﴾ قال: على مرضاة الله، و اعلموا أنها من طاعة الله. و أما قوله: و الصلاة، فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: ﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب و أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر و لذكر الله أكبر﴾ الآية. و روى أحمد عن حذيفة، يعني ابن اليمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ، إذا حَزَبه أمر صلى، و رواه أبو داود و ابن جرير. و روى المروزي في «كتاب الصلاة» عن علي رضي الله عنه يقول: لقد رأيتنا ليلة بدر و ما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي و يدعو حتى أصبح.

و الضمير في قوله: ﴿إنها لكبيرة﴾ عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد و اختاره ابن جرير، و يحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام و هو الوصية بذلك، كقوله تعالى في قصة قارون ﴿و قال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن و عمل صالحاً و لا يُلقّاها إلا الصابرون﴾ و قال تعالى: ﴿و لا تستوي

(١) و هو حديث صحيح. (٢) أي: أمعاؤه

الحسنة و لا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم ❁ و ما يُلقّاها إلا الذين صبروا و ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ أي و ما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا، و ما يلقاها أي يؤتاها ويُلهمها إلا ذو حظ عظيم. وعلى كل تقدير فقوله تعالى: ﴿و إنها لكبيرة﴾. أي مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المصدّقين بما أنزل الله، و قال مجاهد: المؤمنين حقاً، و قال أبو العالية: إلا على الخاشعين الخائفين، و قال مقاتل بن حيان: إلا على الخاشعين يعني به المتواضعين، و قال الضحاك: وإنها لكبيرة، قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته، الخائفين سطوته، المصدقين بوعده و وعيده. و هذا يشبه ما جاء في الحديث «لقد سألت عن عظيم و إنه ليسير على مَن يسّره الله عليه».

و قال ابن جرير: معنى الآية: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء و المنكر، المقرّبة من رضا الله العظيمة إقامتها، إلا على الخاشعين أي المتواضعين المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته. هكذا قال، والظاهر أن الآية و إن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل، فإنهم لم يُقصدوا على سبيل التخصيص، و إنما هي عامة لهم و لغيرهم، و الله أعلم.

٤٦- و قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم و أنهم إليه راجعون﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي وإن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، أي يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة معروضون عليه، و أنهم إليه راجعون أي أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد و الجزاء، سهّل عليهم فعل الطاعات و ترك المنكرات، فأما قوله ﴿يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: العرب قد تسمي اليقين ظناً، و الشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سدفة، والمغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، و ما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء و ضده. قال: والشواهد من أشعار العرب و كلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تُحصر، و منه قول الله تعالى: ﴿و رأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾، و عن مجاهد قال: كل ظن في القرآن فهو علم، و هذا سند صحيح، و عن ابن جريج ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ علموا أنهم ملاقو ربهم كقوله ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ يقول علمت، و كذا قال ابن أسلم.

(قلت) و في الصحيح: أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة «ألم أزوّجك ألم أكرمك ألم أسخّر لك الخيل و الإبل و أذرك ترأس و تَرْبَع؟ فيقول بلى فيقول الله تعالى «أظننت أنك ملاقي؟» فيقول: لا، فيقول الله «اليوم أنساك كما نسيتني» و سيأتي مبسوطاً عند قوله تعالى ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ إن شاء الله تعالى.

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

٤٧- يذكرهم تعالى بسالف نعمه إلى آبائهم و أسلافهم، و ما كان فضّلهم به من إرسال الرسل منهم و إنزال الكتب عليهم و على سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿و لقد اخترناهم على علم على العالمين﴾ و قال تعالى: ﴿و إذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء و جعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ و عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿و أني فضلتكم على العالمين﴾ قال: بما أعطوا من المُلك و الرسل و الكتب على عالَم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالماً، و روي عن مجاهد

والربيع بن أنس وقتادة و إسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك ، و يجب الحمل على هذا لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى ، خطاباً لهذه الأمة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله و لو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم﴾ و في المسانيد و السنن عن معاوية بن حيدة القشيري ، قال : قال رسول الله ﷺ: «أنتم تُوفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله» ، و الأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾

٤٨- لما ذَكَّرهم تعالى بنعمه أولاً ، عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة ، فقال : ﴿و اتقوا يوماً﴾ يعني يوم القيامة ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ أي لا يغني أحدٌ عن أحد ، كما قال ﴿و لا تزر وازرة وزر أخرى﴾ و قال : ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ و قال : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم و اخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده و لا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ فهذا أبلغ المقامات أن كلاً من الوالد و ولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً ، و قوله تعالى : ﴿و لا يقبل منها شفاعة﴾ يعني من الكافرين كما قال : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ و كما قال عن أهل النار ﴿فما لنا من شافعين و لا صديق حميم﴾ وقوله تعالى : ﴿و لا يؤخذ منها عدل﴾ أي لا يقبل منها فداء ، كما قال تعالى : ﴿إن الذين كفروا و ماتوا و هم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً و لو افتدى به﴾ و قال : ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً و مثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم و لهم عذاب أليم﴾ و قال تعالى : ﴿و إن تعدل كل عدل لا يُؤخذ منها﴾ وقال : ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية و لا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم﴾ الآية . فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله و يتابعوه على ما بعثه به و وافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه ، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه ، و لا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهباً ، كما قال تعالى : ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة و لا شفاعة﴾ و قال : ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾ قال ابن عباس : ﴿و لا يؤخذ منها عدل﴾ قال : بدل ، والبدل : الفدية ، و قال السدي : أما عدل فيعدلها ، من العدل ، يقول : لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدى به ما تُقُبِّل منها ، و كذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، و عن أبي العالية في قوله : ﴿و لا يقبل منها عدل﴾ يعني فداء .

و قوله تعالى : ﴿و لا هم ينصرون﴾ أي و لا أحد يغضب لهم فينصرهم و ينقذهم من عذاب الله ، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة و لا ذو جاه ، و لا يقبل منهم فداء ، هذا كله من جانب التلطف ، و لا لهم ناصر من أنفسهم و لا من غيرهم ، كما قال : ﴿فما له من قوة و لا ناصر﴾ أي أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية و لا شفاعة ، و لا يُنقذ أحداً من عذابه منقذ ، و لا يخلص منه أحد ، و لا يجير منه أحد ، كما قال تعالى : ﴿و هو يجير ولا يجار عليه﴾ و قال : ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد و لا يوثق وثاقه أحد﴾ و قال : ﴿ما لكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون﴾ و قال : ﴿فلو لا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم﴾ الآية ، قال ابن جرير : و تأويل قوله : ﴿ولا هم ينصرون﴾ يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر كما لا

يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل و لا فدية، بطلت هنالك المحاباة، و اضمحلت الرّشا و الشفاعات، وارتفع من القوم التناصر والتعاون، و صار الحكم إلى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء و النصراء، فيجزي بالسيئة مثلها، وبالحسنة أضعافها، و ذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهم إنهم مسئولون♦ ما لكم لا تناصرون♦ بل هم اليوم مستسلمون﴾

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠) ﴾

٤٩- يقول تعالى: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، أي خلصتكم، و أنقذتكم من أيديهم صحبة موسى ﷺ، و قد كانوا يسومونكم أي يوردونكم و يذيقونكم ويولونكم سوء العذاب، و ذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني إسرائيل مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، و يقال بعد تحدث سُمّاره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة و رفعة، وهكذا جاء في حديث الفتون كما سيأتي في موضعه في سورة طه إن شاء الله تعالى، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل و أن تُترك البنات، و أمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال و أرذلها، ههنا فسر العذاب بذبح الأبناء، و في سورة إبراهيم عطف عليه كما قال: ﴿يسومونكم سوء العذاب و يذبحون أبناءكم و يستحيون نساءكم﴾ و سيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص إن شاء الله تعالى، به الثقة و المعونة و التأييد.

و إنما قال ههنا: ﴿يذبحون أبناءكم و يستحيون نساءكم﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم في قوله: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ ثم فسره بهذا لقوله ههنا: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ و أما في سورة إبراهيم فلما قال: ﴿و ذكّرهم بأيام الله﴾ أي بأياديه و نعمه عليهم فناسب أن يقول هناك: ﴿يسومونكم سوء العذاب و يذبحون أبناءكم و يستحيون نساءكم﴾ فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم و الأيادي على بني إسرائيل. و فرعون عَلَمٌ على كل من مَلَك مصر كافراً من العماليق و غيرهم، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافراً، و كسرى لمن ملك الفرس، و تُبّع لمن ملك اليمن كافراً، و النجاشي لمن ملك الحبشة، و بطليموس لمن ملك الهند.

و قوله تعالى: ﴿و في ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ قال ابن جرير: و في الذي فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك، و أصل البلاء الاختبار و قد يكون بالخير و الشر، كما قال تعالى: ﴿و نبلوكم بالشر و الخير فتنة﴾ و قال: ﴿و بلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ قال ابن جرير: و أكثر ما يقال في الشر بلوته أبلوه بلاء، و في الخير أبليه إبلاء بلاء.

و قيل: المراد بقوله: ﴿و في ذلكم بلاء﴾ إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء و استحياء

النساء، قال القرطبي: و هذا قول الجمهور و لفظه بعد ما حكى القول الأول، ثم قال: و قال الجمهور: الإشارة إلى الذبح و نحوه، و البلاء ههنا في الشر، و المعنى في الذبح مكروه و امتحان.

٥٠- و قوله تعالى: **﴿و إذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم و أغرقنا آل فرعون و أنتم تنظرون﴾** معناه: و بعد أن أنقذناكم من آل فرعون و خرجتم مع موسى عليه السلام، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً كما سيأتي في مواضعه، و من أبسطها ما في سورة الشعراء إن شاء الله، **﴿فأنجيناكم﴾** أي خلصناكم منهم و حجزنا بينكم و بينهم، و أغرقناهم و أنتم تنظرون، ليكون ذلك أشفى لصدوركم و أبلغ في إهانة عدوكم.

و قد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، فعن ابن عباس، قال: قَدِم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟» قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نَجَّى الله عز وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحقُّ بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ و أمر بصومه، روى هذا الحديث البخاري و مسلم و النسائي و ابن ماجه.

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) ﴾

٥١، ٥٢- يقول تعالى: و اذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم، لَمَّا عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة، و كانت أربعين يوماً و هي المذكورة في الأعراف في قوله تعالى: **﴿و إذ واعدنا موسى ثلاثين ليلة و أتممناها بعشر﴾** قيل: إنها ذو القعدة بكماله و عشر من ذي الحجة، و كان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر.

٥٣- و قوله تعالى: **﴿و إذ آتينا موسى الكتاب﴾** يعني التوراة **﴿و الفرقان﴾** و هو ما يفرّق بين الحق و الباطل والهدى و الضلالة **﴿لعلكم تهتدون﴾** و كان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف، و لقوله تعالى: **﴿و لقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾** و قيل: الواو زائدة، و المعنى و لقد آتينا موسى الكتاب الفرقان و هذا غريب، و قيل: عُطف عليه و إن كان المعنى واحداً.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾

٥٤- هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى **﴿و إذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾** فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع، حتى قال تعالى: **﴿و لما سقط في أيديهم و رأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾** الآية. قال: فذلك حين يقول موسى **﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾** و قال أبو العالية و سعيد بن جبير و الربيع بن أنس **﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾** أي إلى خالقكم، قلت: و في قوله ههنا **﴿إلى**

بارئكم﴾ تنبيه على عظم جُرمهم ، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم و قد عبدتم معه غيره .

عن ابن عباس ، قال : قال موسى لقومه : ﴿توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾ قال : أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا أنفسهم ، قال : وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا و قام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم و أصابتهم ظلمة شديدة ، فجعل يقتل بعضهم بعضاً ، فانجلت الظلمة عنهم و قد جلوا عن سبعين ألف قتيل ، كُلُّ مَن قُتل منهم كانت له توبة ، و كل من بقي كانت له توبة . و روى ابن جرير عن سعيد بن جبير و مجاهد في قوله تعالى ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ قالا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضاً ، لا يحنو رجل على قريب و لا بعيد ، حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم ، فكشف عن سبعين ألف قتيل ، و إن الله أوحى إلى موسى : أن حسبي فقد اكتفيت ، فذلك حين ألوى موسى بثوبه ، و روي عن علي رضي الله عنه نحو ذلك ، و قال قتادة : أمر القوم بشديد من الأمر فقاموا يتناحرون بالشِّفار ، يقتل بعضهم بعضاً ، حتى بلغ الله فيهم نقمته ، فسقطت الشفار من أيديهم ، فأمسك عنهم القتل فجعل لحيِّهم توبة ، و للمقتول شهادة . و قال الحسن البصري : أصابتهم ظلمة حندس ، فقتل بعضهم بعضاً ثم انكشف عنهم فجعل توبتهم في ذلك .

و قال الزهري : لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها برزوا و معهم موسى فاضطربوا بالسيوف و تطاعنوا بالخناجر ، وموسى رافع يديه حتى إذا فَتَر بعضهم ، قالوا : يا نبي الله ، ادع الله لنا ، و أخذوا بعضديه يسندون يديه ، فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قَبِلَ الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض فألقوا السلاح ، و حزن موسى و بنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم ، فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى ، ما يحزنك؟ أما من قُتِل منهم فحيٌّ عندي يرزقون ، و أما من بقي فقد قبِلتُ توبته ، فَسُرَّ بذلك موسى وبنو إسرائيل ، رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

٥٥- يقول تعالى : و اذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق إذ سألتم رؤيتي جهرة عياناً مما لا يستطاع لكم و لا لأمثالكم ، و قال أبو جعفر عن الربيع بن أنس : هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه ، قال : فسمعوا كلاماً ، فقالوا ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ قال : فسمعوا صوتاً فصعقوا يقول ماتوا ، و قال مروان بن الحكم ، فيما خطب به على منبر مكة : الصاعقة صيحة من السماء ، و قال السدي في قوله ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ الصاعقة : نار ، و قال عروة بن رويم في قوله ﴿و أنتم تنظرون﴾ قال : صعق بعضهم و بعض ينظرون ، ثم بعث هؤلاء و صعق هؤلاء ، و قال السدي ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ فماتوا ، فقام موسى يبكي ويدعو الله ، ويقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم و قد أهلكت خيارهم ﴿لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل ، ثم إن الله أحياهم فقاموا و عاشوا رجل رجل ، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ؟ قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ و قال الربيع بن أنس : كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت

ليستوفوا آجالهم، و كذا قال قتادة.

القول الثاني في الآية: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذي أمركم به و نهيكم الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا و الله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى؟ و قرأ قول الله ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ قال: فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون، قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، و قرأ قول الله ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا، فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم أحيينا، قال: خذوا كتاب الله؟ قالوا: لا، فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم. وهذا السياق يدل على أنهم كُلِّفوا بعد ما أحيوا.

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) ﴾

٥٧- لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النِّقَم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النِّعم، فقال: ﴿و ظللنا عليكم الغمام﴾ و هو جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يغم السماء أي يواريها و يسترها، و هو السحاب الأبيض ظُلِّلُوا به في التيه ليقيهم حر الشمس. و قوله تعالى: ﴿و أنزلنا عليكم المن﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المن ما هو؟ فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه، فيأكلون منه ما شاؤوا. و قال مجاهد: المن: صمغة، و قال عكرمة: المن: شيء أنزله الله عليهم مثل الطل شبه الرُّبِّ الغليظ، وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محلهم سقوط الثلج أشد بياضاً من اللبن و أحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى ذلك فسد و لم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه و يوم سابعه، لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته و لا يطلبه لشيء، و هذا كله في البرية، و قال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه.

و الغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، و منهم من فسره بالشراب، والظاهر، و الله أعلم، أنه كل ما امتن الله به عليهم به من طعام و شراب و غير ذلك مما ليس لهم فيه عمل و لا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً و حلاوة، و إن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، و إن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، و لكن ليس هو المراد من الآية وحده، و الدليل على ذلك ما رواه البخاري عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «الكمأة من المن، و ماؤها شفاء للعين». و عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «العَجْوةُ من الجنة، و فيها شفاء من السم، و الكمأة من المن، و ماؤها شفاء للعين» تفرد بإخراجه الترمذي [1].

(١) و قد أخرجه ابن ماجه برقم (٣٤٥٥) و هو في المسند أيضاً من وجوه أخر، و الحديث صحيح.

و أما السلوى فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السلوى طائر شبه بالسُّماني، كانوا يأكلون منه. وكذا قال مجاهد و الشعبي و الضحاك و الحسن و عكرمة و الربيع بن أنس رحمهم الله تعالى. و قال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسرين، و قد غلط الهذلي في قوله أنه العسل.

و قوله تعالى: **﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾** أمر إباحة و إرشاد و امتنان، و قوله تعالى: **﴿و ما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم و أن يعبدوا، كما قال **﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له﴾** فخالفوا و كفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات و المعجزات القاطعات، وخوارق العادات، و من ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمدﷺ و رضي الله عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم و عدم تعنتهم كما كانوا معه في أسفاره و غزواته منها عام تبوك في ذلك القيظ و الحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة و لا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على النبيﷺ لكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة، فدعا الله فيه و أمرهم فملؤوا كل وعاء معهم و كذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا و سقوا الإبل و ملؤوا أسقيتهم ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل في اتباع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسولﷺ.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

٥٨- يقول تعالى لائماً على نكولهم عن الجهاد و دخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام فأُمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، و قتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم و ضعفوا و استحسروا فرماهم الله في التيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى في سورة المائدة، و لهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس، و قد قال الله تعالى حاكياً عن موسى **﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم و لا ترتدوا﴾** الآيات. و قال آخرون هي أريحاء، و يحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد، و هذا بعيد لأنها ليست على طريقهم و هم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر، حكاه الرازي في تفسيره، و الصحيح الأول أنها بيت المقدس، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام و فتحها الله عليهم عشية جمعة، و قد حُبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، و لما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب باب البلد **﴿سجداً﴾** أي شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح و النصر و ردَّ بلدهم عليهم و إنقاذهم من التيه و الضلال، وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس في قوله **﴿و ادخلوا الباب سجداً﴾** قال: ركعاً من باب صغير، و قال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، و استبعده الرازي، و حكي عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته.

و قوله تعالى: **﴿و قولوا حطة﴾** عن ابن عباس قال: مغفرة استغفروا، و روي عن عطاء و الحسن و قتادة والربيع بن أنس نحوه، و قال الضحاك عن ابن عباس **﴿و قولوا حطة﴾** قال: قولوا هذا الأمر حق كما قيل

لكم، وقال عكرمة قولوا ﴿لا إله إلا الله﴾ وقال الحسن و قتادة أي احطط عنا خطايانا ﴿نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ و قال: هذا جواب الأمر، أي إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات و ضاعفنا لكم الحسنات، وحاصل الأمر أنهم أُمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل و القول، و أن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها و المبادرة إلى ذلك، من المحبوب عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ◆ و رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ◆ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر و الاستغفار عند الفتح و النصر، و فسره ابن عباس بأنه نعى رسول الله ﷺ أجله فيها و أقره على ذلك عمر رضي الله عنه، و لا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك، و نعى إليه روحه الكريمة أيضاً، و لهذا كان عليه الصلاة و السلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روي أنه كان يوم الفتح فتح مكة داخلاً إليها من الثنية العليا، وأنه لخاضع لربه حتى أن عثنونه ليمس مورك رحله شكراً لله على ذلك، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات و ذلك ضحى، فقال بعضهم: هذه صلاة الضحى، و قال آخرون: بل هي صلاة الفتح فاستحبوا للإمام و للأمير إذا فتح بلداً أن يصلي فيه ثماني ركعات عند أول دخوله، كما فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثماني ركعات، و الصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم، و قيل يصليها كلها بتسليم واحد، و الله أعلم.

٥٩- و قوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً و قولوا حِطّة. فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة» وحاصل ما ذكره المفسرون و ما دل عليه السياق أنهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فأمروا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا حطة، أي احطط عنا ذنوبنا و خطايانا، فاستهزؤوا فقالوا حنطة في شعيرة، و هذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه و عذابه بفسقهم، و هو خروجهم عن طاعته. و لهذا قال: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ و قال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب، و هكذا روي عن مجاهد و أبي مالك و السدي و الحسن و قتادة أنه العذاب، و قال الشعبي: الرجز إما الطاعون و إما البرد، و قال سعيد بن جبير: هو الطاعون، و عن سعد بن مالك و أسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذاب عُذِّب به من كان قبلكم» رواه النسائي. وأصل الحديث في الصحيحين «إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها» الحديث.

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾

٦٠- يقول تعالى: و اذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقاني لكم، و تيسيري لكم الماء وإخراجه لكم من حَجَر معكم، و تفجيري الماء لكم منه من اثنتي عشرة عيناً، لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن و السلوى و اشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم و لا كدّ، و اعبدوا الذي سخر لكم ذلك: ﴿و لا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ و لا تقابلوا النعم بالعصيان فتُسلبوها. و قد بسطه

المفسرون في كلامهم كما قال ابن عباس رضي الله عنه و جعل بين ظهرانيهم حجر مربع و أمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية منه ثلاث عيون ، و أعلم كل سبط عينهم يشربون منها لا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول. قال الزمخشري : و يحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر ، و عن الحسن لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، قال : وهذا أظهر في المعجزة و أبين في القدرة ، فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييبس ، و هذه القصة شبيهة بالقصة التي في سورة الأعراف و لكن تلك مكية ، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب لأن الله تعالى يقص على رسوله ﷺ ما فعل بهم . و أما في هذه السورة - و هي البقرة - فهي مدنية ، فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم ، و أخبر هناك بقوله : ﴿فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً﴾ و هو أول الانفجار ، و أخبر ههنا بما آل إليه الحال آخراً ، و هو الانفجار فناسب ذكر الانفجار ههنا و ذاك هناك ، والله أعلم .

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾

٦١- يقول تعالى : و اذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن و السلوى طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً ، واذكروا تبرّكم و ضجركم مما رزقناكم و سؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة من البقول و نحوها مما سألتم ، قال الحسن البصري : فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه ، و ذكروا عيشهم الذي كانوا فيه ، و كانوا قوماً أهل أعداس و بصل و بقول و فوم ، فقالوا : ﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها و قثائها و فومها و عدسها و بصلها﴾ و إنما قالوا على طعام واحد و هم يأكلون المن و السلوى ، لأنه لا يتبدل و لا يتغير كل يوم ، فهو مأكل واحد . فالبقول و القثاء و العدس و البصل كلها معروفة ، و أما الفوم ، فقد اختلف السلف في معناه ، فوقع في قراءة ابن مسعود و ثومها بالثاء ، و كذا فسره مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم عنه ، بالثوم . و كذا الربيع بن أنس و سعيد بن جبير ، قال ابن جرير : فإن كان ذلك صحيحاً ، فإنه من الحروف المبدلة كقولهم : وقعوا في عاثور شر و عافور شر ، و أثافي و أثاثي ، و مغافير و مغاثير و أشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء و الثاء فاء لتقارب مخرجيهما ، و الله أعلم . و قال آخرون : الفوم الحنطة ، و هو البر الذي يعمل منه الخبز ، و كذا قال علي بن أبي طلحة و الضحاك و عكرمة عن ابن عباس : أن الفوم الحنطة ، وحكى القرطبي عن عطاء و قتادة : أن الفوم كل حب يختبز .

و قوله تعالى : ﴿قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ فيه تقريع لهم و توبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد و الطعام الهنيء الطيب النافع ، و قوله تعالى : ﴿اهبطوا مصراً﴾ هكذا هو منون مصروف ، مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية و هو قراءة الجمهور بالصرف . و قال ابن جرير : و لا أستجيز القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف على ذلك . و قال ابن عباس ﴿اهبطوا مصراً﴾ قال : مصر من الأمصار ، رواه ابن أبي حاتم قال : و روي عن السدي و قتادة و الربيع بن أنس نحو ذلك ، و قال ابن جرير : وقع في قراءة أبي بن كعب و ابن مسعود ﴿اهبطوا مصر﴾ من غير إجراء ، يعني من غير صرف ثم

روى عن أبي العالية و الربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون، قال ابن جرير: و يحتمل أن يكون المراد: مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضاً . و يكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف كما في قوله تعالى: ﴿قواريرا قوارير﴾ ثم توقف في المراد ما هو أمصر فرعون أم مصراً من الأمصار؟ و هذا الذي قاله فيه نظر، والحق أن المراد: مصر من الأمصار كما روي عن ابن عباس و غيره، و المعنى على ذلك لأن موسى ﷺ يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه. و لهذا قال: ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم﴾ أي ما طلبتم، و لما كان سؤالهم هذا من باب البطر و الأشر و لا ضرورة فيه لم يجابوا إليه، والله أعلم.

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾

٦١-يقول تعالى: ﴿و ضربت عليهم الذلة و المسكنة﴾ أي وضعت عليهم و ألزموا بها شرعاً و قدراً أي لا يزالون مستذلين، مَنْ وجدهم استذلهم و أهانهم و ضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون. قال الضحاك عن ابن عباس: ﴿و ضربت عليهم الذلة و المسكنة﴾ قال: هم أصحاب القَبَالات يعني الجزية. وعن الحسن و قتادة في قوله تعالى: ﴿و ضربت عليهم الذلة﴾ قال: يعطون الجزية عن يد و هم صاغرون. و قال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم، و جعلهم تحت أقدام المسلمين، و لقد أدركتهم هذه الأمة و إن المجوس لتجبيهم الجزية، و قال أبو العالية و الربيع بن أنس و السدي: المسكنة الفاقة، و قوله تعالى: ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾ قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله، و قال الربيع بن أنس: فحَدَثَ عليهم غضب من الله، و قال ابن جرير: يعني بقوله: ﴿و باؤوا بغضب من الله﴾ انصرفوا و رجعوا، و لا يقال: باء إلا موصولاً إما بخير و إما بشر يقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به بوءاً و بواءاً، و منه قوله تعالى: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ يعني تنصرف متحملهما و ترجع بهما قد صارا عليك دوني.

فمعنى الكلام إذاً: رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب، و وجب عليهم من الله سخط. و قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة و المسكنة، و إحلال الغضب بهم من الذلة، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله، و إهانتهم حملة الشرع، و هم الأنبياء و أتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كفر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله، و قتلوا أنبياء الله بغير الحق، و لهذا جاء في الحديث المتفق على صحته: أن رسول الله ﷺ قال: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ و غَمْط الناس» يعني رد الحق، و انتقاص الناس، و الازدراء بهم، و التعاظم عليهم، و لهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله، وقتلهم أنبياءه، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، و كساهم ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاء و فاقاً.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله يعني ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ قتله نبي أو قتلَ نبياً، و إمام ضلالة، و ممثل من الممثلين» و قوله تعالى: ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ وهذه

علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون و يعتدون، فالعصيان فعل المناهي، و الاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه و المأمور به، و الله أعلم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾

٦٢ - لما بيَّن تعالى حال من خالف أوامره و ارتكب زواجره، و تعدَّى في فعل ما لا إذن فيه و انتهك المحارم، وما أحل بهم من النكال، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة و أطاع فإن له جزاء الحسنى، و كذلك الأمر إلى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، و لا خوف عليهم فيما يستقبلونه و لا هم يحزنون على ما يتركونه و يخلفونه، كما قال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم و لا هم يحزنون﴾ وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا و لا تحزنوا و أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾. و روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إن الذين آمنوا و الذين هادوا و النصارى و الصابئين من آمن بالله و اليوم الآخر﴾ الآية. قال فأنزل الله بعد ذلك ﴿و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه و هو في الآخرة من الخاسرين﴾ هذا الذي قاله ابن عباس إخباراً عن أنه لا يُقبل من أحد طريقة و لا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى و سبيل و نجاة.

فاليهود أتباع موسى ﷺ الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم. و اليهود من الهوادة و هي المودة، أو التهوّد و هي التوبة، كقول موسى ﷺ ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي تُبنا، فكأنهم سموا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض، و قيل: لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب، و قال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهوّدون أي يتحركون عند قراءة التوراة، فلما بُعث عيسى ﷺ وجب على بني إسرائيل اتباعه و الانقياد له، فأصحابه و أهل دينه هم النصارى، سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، و قد يقال لهم أنصار أيضاً، كما قال عيسى ﷺ ﴿من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ و قيل: إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها: ناصرة، قاله قتادة و ابن جريج، و روي عن ابن عباس أيضاً، و الله أعلم. و النصارى جمع نصران، كنشاوى جمع نشوان، و سكارى جمع سكران، و يقال للمرأة نصرانة.

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، و رسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، و طاعته فيما أمر، و الانكفاف عما عنه زجر، و هؤلاء هم المؤمنون حقا، و سميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم، و شدة إيقانهم و لأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية و الغيوب الآتية.

و أما الصابئون فقد اختلف فيهم، فقال مجاهد: الصابئون قوم بين المجوس و اليهود و النصارى و ليس لهم دين، و كذا روي عن عطاء و سعيد بن جبير نحو ذلك، و قال أبو العالية و الربيع بن أنس و السدي و أبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك و إسحاق بن راهويه: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، و لهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم و مناكحتهم، و عن الحسن قال: أُخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة، ويصلون الخمس قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية، قال: فخُبِّر بعد أنهم يعبدون الملائكة، و قال أبو

جعفر الرازي : بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة ، و يقرؤون الزبور و يصلون للقبلة ، و كذا قال قتادة.

و روى ابن أبي حاتم عن ابن أبي الزناد عن أبيه قال : الصابئون قوم مما يلي العراق و هم بكوثى ، و هم يؤمنون بالنبيين كلهم و يصومون من كل سنة ثلاثين يوماً ، و يصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات ، و سئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال : الذي يعرف الله وحده و ليست له شريعة يعمل بها و لم يُحدث كفراً ، و قال عبد الله بن وهب : قال عبد الرحمن بن زيد : الصابئون أهل دين من الأديان ، كانوا بجزيرة الموصل ، يقولون : لا إله إلا الله ، و ليس لهم عمل و لا كتاب و لا نبي إلا قول لا إله إلا الله ، قال : و لم يؤمنوا برسول ، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبيﷺ و أصحابه هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم ، يعني في قول لا إله إلا الله ، وحكى القرطبي عن مجاهد و الحسن و ابن نجيح ، أنهم قوم تَرَكَّبَ دينهم بين اليهود و المجوس ، و لا تؤكل ذبائحهم و لا تنكح نساؤهم ، قال القرطبي : و الذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحّدون و يعتقدون تأثير النجوم ، و أنها فاعلة ، و لهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم ، و اختار الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة و الدعاء ، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها ، قال و هذا القول هو المنسوب إلى الكشرانين الذين جاءهم إبراهيمﷺ راداً عليهم و مبطلاً لقولهم.

و أظهر الأقوال و الله أعلم ، قول مجاهد و متابعيه و وهب بن منبه : أنهم قوم ليسوا على دين اليهود و لا النصارى و لا المجوس و لا المشركين ، و إنما هم باقون على فطرتهم و لا دين مقرر لهم يتبعونه و يقتفونه ، و لهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ ، أي أنه قد خرج عن سائرأديان أهل الأرض إذ ذاك.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣)
ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) ﴾

٦٣- يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود و المواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له ، و اتباع رسله ، و أخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق ، و رفع الجبل فوق رؤوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه ، و يأخذوه بقوة و جزم و امتثال ، كما قال تعالى : **﴿و إذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلّة و ظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾** فالطور هو الجبل كما فسره به في الأعراف ، و نص على ذلك ابن عباس ومجاهد وعطاء و الحسن و الضحاك و الربيع بن أنس و غير واحد ، و هذا ظاهر ، و قال السدي : فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم ، فنظروا إليه و قد غشيهم فسقطوا سجداً فسجدوا على شق و نظروا بالشق الآخر ، فرحمهم الله فكشفه عنهم ، فقالوا : و الله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم ، فهم يسجدون كذلك ، و ذلك قول الله تعالى **﴿و رفعنا فوقكم الطور﴾** . وقال الحسن في قوله **﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾** يعني التوراة ، وقال أبو العالية و الربيع بن أنس : بقوة أي بطاعة ، و قال مجاهد بقوة بعمل ما فيه ، و قال قتادة **﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾** القوة : الجد و إلا قذفته عليكم ، قال : فأقروا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة ، و معنى قوله و إلا قذفته عليكم أي أسقطته عليكم ، يعني الجبل ، و قال أبو العالية و الربيع **﴿واذكروا ما فيه﴾** يقول : اقرؤوا ما في التوراة و اعملوا به.

٦٤- و قوله تعالى ﴿ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله﴾ يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكّد العظيم توليتم عنه و انثنيتم و نقضتموه ﴿فلولا فضل الله عليكم و رحمته﴾ أي بتوبته عليكم و إرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا و الآخرة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)﴾

٦٥- يقول تعالى: ﴿و لقد علمتم﴾ يا معشر اليهود ما أَحَلَّ من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده و ميثاقه، فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، و القيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص و الحبائل و البرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل و الحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك، مسخهم الله إلى صورة القردة و هي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء و حيلتهم، لما كانت مشابهة للحق في الظاهر و مخالفة له في الباطن، كان جزاءهم من جنس عملهم، و هذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً و يوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ القصة بكمالها، و قال السدي: أهل هذه القرية هم أهل أيله، و كذلك قال قتادة، و سنورد أقوال المفسرين هناك مبسوطة إن شاء الله و به الثقة.

و قوله تعالى: ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ روى ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ قال: مسخت قلوبهم و لم يمسخوا قردة. و إنما هو مثل ضربه الله ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ وهذا سند جيد عن مجاهد، و قول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره، قال الله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله و غضب عليه و جعل منهم القردة و الخنازير و عبد الطاغوت﴾ الآية، و قال شيبان النحوي عن قتادة ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ فصار القوم قردة تعاوى، لها أذناب بعد ما كانوا رجالاً ونساءاً فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم: أي بلى، و قال الضحاك عن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم يقول إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: و لم يعش مَسخٌ قط فوق ثلاثة أيام، و لم يأكل و لم يشرب و لم ينسلوا، وقد خلق الله القردة و الخنازير و سائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه، فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة، و كذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، و يحوله كما يشاء، و قال أبو جعفر عن الربيع، عن أبي العالية في قوله ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ قال: يعني أذلة صاغرين، و روي عن مجاهد و قتادة و الربيع و أبي مالك نحوه.

وقال السدي في قوله تعالى ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ قال: هم أهل أيلة، و هي القرية التي كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت، و قد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً، فلم يبق في البحر حوت إلا خرج حتى يخرجن خراطيمهن من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن سفل البحر فلم ير منهن شيء حتى يكون يوم السبت، فذلك قوله تعالى ﴿و سألهم عن القرية

التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً و يوم لا يسبتون لاتأتيهم﴾ فاشتهى بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفيرة و يجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فيها، فإذا كان يوم الأحد، جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوي السمك، فيجد جاره روائحه، فيسأله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماؤهم: ويحكم، إنما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم، فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه، قال الفقهاء: لا و لكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل، قال: وغلبوا أن ينتهوا. فقال بعض الذين نهوهم لبعض ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ يقول: لمَ تعظوهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم ﴿معذرة إلى ربكم و لعلهم يتقون﴾ فلما أبوا، قال المسلمون: و الله لا نساكنكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار وفتح المسلمون باباً و المعتدون في السبت باباً و لعنهم داودﷺ، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، و الكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم و لم يَفتح الكفارُ بابهم فلما أبطؤوا عليهم، تسور المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم فذهبوا في الأرض، فذلك قول الله تعالى: ﴿فلما عتوا عما نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ و ذلك حين يقول ﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود و عيسى بن مريم﴾ الآية، فهم القردة.

(قلت) و الغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة، بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً، بل الصحيح أنه معنوي وصوري، و الله أعلم.

٦٦ – و قوله تعالى: ﴿فجعلناها نكالاً﴾ قال بعضهم: الضمير في فجعلناها عائد على القردة، و قيل على الحيتان و قيل على العقوبة، و قيل على القرية حكاها ابن جرير، و الصحيح أن الضمير عائد على القرية، أي فجعل الله هذه القرية و المراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿نكالاً﴾ أي عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة، كما قال الله عن فرعون ﴿فأخذه الله نكال الآخرة و الأولى﴾. و قوله تعالى ﴿لما بين يديها و ما خلفها﴾ أي من القرى، قال ابن عباس: يعني جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى، كما قال تعالى: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى و صرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾ و منه قوله تعالى ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ الآية، على أحد الأقوال، فالمراد ﴿لما بين يديها و ما خلفها﴾ في المكان، و قال سعيد بن جبير: من بحضرتها من الناس يومئذ.

و حكى الرازي ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد بما بين يديها و ما خلفها، مَنْ تقدمها من القرى بما عندهم من العلم بخبرها بالكتب المتقدمة و من بعدها، والثاني: المراد بذلك من بحضرتها من القرى و الأمم. و الثالث: أنه تعالى، جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل و ما بعده، و هو قول الحسن (قلت) و أرجح الأقوال المراد بما بين يديها و ما خلفها، من بحضرتها من القرى، يبلغهم خبرها و ما حل بها، كما قال تعالى ﴿و لقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿و لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ فجعلهم عبرة و نكالاً لمن في زمانهم، و موعظة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، و لهذا قال ﴿و موعظة للمتقين﴾، و قال الحسن و قتادة ﴿و موعظة

للمتقين﴾ بعدهم فيتقون نقمة الله و يحذرونها ، و قال السدي و عطية العوفي ﴿و موعظة للمتقين﴾ قال أمة محمدﷺ (قلت) المراد بالموعظة ههنا الزاجر أي جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس و النكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله ، و ما تحيلوا به من الحيل ، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم ، كما روى الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبي هريرة: أن رسول اللهﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» و هذا إسناد جيد .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) ﴾

٦٧- يقول تعالى : و اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة ، و بيان القاتل من هو بسببها ، و إحياء الله المقتول ، و نصه على من قتله منهم .

ذكر بسط القصة

روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني ، قال : كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له ، و كان له مال كثير ، و كان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلاً ، فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه حتى تسلحوا و ركب بعضهم على بعض . فقال ذو الرأي منهم و النُّهى : علام يقتل بعضكم بعضاً ، و هذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسىﷺ ، فذكروا ذلك له ، فقال : ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ قال : فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، و لكنهم شددوا ، فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أُمروا بذبحها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : و الله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً ، فأخذوها بملء جلدها ذهباً ، فذبحوها ، فضربوه ببعضها فقام : فقالوا : من قتلك؟ فقال : هذا ـ لابن أخيه ، ثم مال ميتاً ، فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد ، و رواه ابن جرير عن عبيدة بنحو من ذلك ، و الله أعلم .

و هذه السياقات عن عبيدة و أبي العالية و السدي و غيرهم[1] فيها اختلاف ما ، و الظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل ، و هي مما يجوز نقلها ، و لكن لا تصدق و لا تكذب ، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا ، و الله أعلم .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا

---

(١) قد حذفنا ما جاء عن أبي العالية و السدي و غيرهما ، لضعف في السند و اكتفاء بما جاء عن عبيدة لمشابهته ما ورد عن غيره .

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

٦٨، ٦٩، ٧٠-أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل و كثرة سؤالهم لرسولهم، لهذا لما ضيّقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم، و لو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عباس و عبيدة و غير واحد، ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا: ﴿ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي ما هي البقرة و أي شيء صفتها، روى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها، و لكنهم شدّدوا فشدد عليهم - إسناد صحيح - و قد رواه غير واحد عن ابن عباس، و كذا قال أبو عبيدة و السدي و مجاهد و عكرمة وأبو العالية وغير واحد، قال: ﴿إنه يقول إنها بقرة لا فارض و لا بكر﴾ أي لا كبيرة هرمة و لا صغيرة لم يلحقها الفحل، كما قاله أبو العالية و السدي و مجاهد و عكرمة و عطية العوفي و عطاء الخراساني و وهب بن منبه والضحاك والحسن و قتادة، و قاله ابن عباس أيضاً، و هي أقوى ما يكون من الدواب و البقر، و أحسن ما تكون، و قال عطاء عن ابن عباس: من لبس نعلاً صفراء لم يزل في سرور ما دام لابسها، وذلك قوله تعالى: ﴿تسر الناظرين﴾ وكذا قال مجاهد و وهب بن منبه، و عن الحسن في قوله تعالى: ﴿بقرة صفراء فاقع لونها﴾ قال سوداء شديدة السواد، و هذا غريب، و الصحيح الأول و لهذا أكد صفرتها بأنّه ﴿فاقع لونها﴾ و قال سعيد ابن جبير ﴿فاقع لونها﴾ صافية اللون، و روي عن أبي العالية و الربيع بن أنس و السدي والحسن و قتادة نحوه، وقال السدي: ﴿تسر الناظرين﴾ أي تعجب الناظرين، و كذا قال أبو العالية و قتادة والربيع بن أنس. وقوله تعالى: ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أي لكثرتها، فميِّز لنا هذه البقرة وصِفْها و جلّها لنا ﴿وإنا إن شاء الله﴾ إذا بينتها لنا ﴿لمهتدون﴾ إليها.

٧١- ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض و لا تسقي الحرث﴾ أي إنها ليست مذللة بالحراثة و لا معدة للسقي في الساقية، بل هي مكرمة حسنة، وروى عبد الرزاق عن قتادة ﴿مسلمة﴾ يقول لا عيب فيها، و كذا قال أبو العالية و الربيع، و قال عطاء الخراساني: مسلمة القوائم و الخلق لا شية فيها، قال مجاهد: لا بياض ولا سواد، و قال عطاء الخراساني: لونها واحد بهيم، و كل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، ﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ قال قتادة: الآن بينت لنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: و قبل ذلك و الله قد جاءهم الحق ﴿فذبحوها و ما كادوا يفعلون﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: كادوا أن لا يفعلوا و لم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها، يعني أنهم مع هذا البيان و هذه الأسئلة و الأجوبة و الإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، و في هذا ذم لهم، و ذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها.

و قال محمد بن كعب و محمد بن قيس: فذبحوها و ما كادوا يفعلون لكثرة ثمنها، و في هذا نظر، لأن كثرة الثمن لم يثبت إلا من نقل بني إسرائيل كما تقدم من حكاية أبي العالية والسدي، و فيه اختلاف، ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك، و روى عبد الرزاق عن عكرمة، قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير، و هذا إسناد جيد عن عكرمة، و الظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضاً.

و قال ابن جرير: و قال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن اطلع الله على قاتل القتيل الذي اختصموا فيه، و لم يسنده عن أحد، ثم اختار أن الصواب في ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء

ثمنها و للفضيحة، وفي هذا نظر، بل الصواب، و الله أعلم، ما تقدم من رواية الضحاك عن ابن عباس على ما وجهناه، و بالله التوفيق.

(مسألة) استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق، على صحة السَّلم في الحيوان [1] كما هو مذهب مالك و الأوزاعي و الليث و الشافعي و أحمد و جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، بدليل ما ثبت في الصحيحين عن النبيﷺ: «لا تَنْعَتُ المرأةُ المرأةَ لزوجها كأنه ينظر إليها» و كما وصف النبيﷺ إبل الدية في قتل الخطأ، و شبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث، و قال أبو حنيفة و الثوري والكوفيون: لا يصح السلم في الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله، و حكي مثله عن ابن مسعود و حذيفة بن اليمان و عبد الرحمن بن سمرة و غيرهم.

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

٧٢، ٧٣- قال البخاري: ﴿فادارأتم فيها﴾ اختلفتم، و هكذا قال فيما رواه ابن أبي حاتم عنه، و قال ابن جريج: ﴿و إذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها﴾ قال بعضهم: أنتم قتلتموه، و قال آخرون: بل أنتم قتلتموه، و كذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿و الله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ قال مجاهد: ما تغيبون، و روى ابن أبي حاتم عن المسيب بن رافع قال: ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، و ما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، و تصديق ذلك في كلام الله ﴿و الله مخرج ما كنتم تكتمون ◆ فقلنا اضربوه ببعضها﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به، و خرق العادة به كائن، و قد كان معيناً في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيّنه الله تعالى لنا، و لكنه أبهمه و لم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله.

و قال أبو العالية: أمرهم موسىؑ، أن يأخذوا عظماً من عظامها فيضربوا به القتيل، ففعلوا فرجع إليه روحه، فسمَّى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان، و قوله تعالى: ﴿كذلك يحي الله الموتى﴾ أي فضربوه فحيي، ونبه تعالى على قدرته و إحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل: جعل تبارك و تعالى ذلك الصنع حجة لهم على المعاد، و فاصلاً ما كان بينهم من الخصومة و العناد، و الله تعالى قد ذكر في هذه القصة، و قصة الذين خرجوا من ديارهم و هم ألوف حَذَرَ الموت، و قصة الذي مرّ على قرية و هي خاوية على عروشها، و قصة إبراهيمؑ و الطيور الأربعة، و نبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميماً، كما روى أبو داود الطيالسي عن أبي رزين العقيليؓ، قال: قلت يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أما مَرَرتَ بوادٍ مُمحل، ثم مررتَ به خَضِراً»؟ قال بلى. قال: «كذلك النُّشور» أو قال: «كذلك يحيي الله الموتى». و شاهد هذا قوله تعالى: ﴿و آية لهم الأرض الميتة أحييناها و أخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ◆ و جعلنا فيها جنات من نخيل و أعناب و فجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره و ما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾.

---

(١) السلم: هو السلف، سمي سلماً لتسليم رأس ماله في المجلس، و سلفاً لتقديمه. و هو أن يقدم المشتري الثمن على أن يودي له البائع المبيع المعلوم بعد زمن معلوم.

(مسألة) استدل لمذهب الإمام مالك في كون قول الجريح: فلان قتلني لوثاً[1] بهذه القصة، لأن القتيل لما حيي سئل عمن قتله؟ فقال: فلان قتلني، فكان ذلك مقبولاً منه، لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق، و لا يُتهم والحالة هذه، و رجّحوا ذلك لحديث أنس أن يهودياً قتل جارية على أوضاح لها، فرضخ رأسها بين حجرين، فقيل: مَنْ فعل بكِ هذا؟ أفلان؟ أفلان؟ حتى ذكروا اليهودي، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودي، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر رسول الله ﷺ أن يُرضَّ رأسه بين حجرين، و عن مالك إذا كان لوثاً، حلف أولياء القتيل قسامة، و خالف الجمهور في ذلك، و لم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثاً.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤) ﴾

٧٤- يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل و تقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى و إحيائه الموتى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ كله، فهي كالحجارة التي لا تلين أبداً، و لهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم، فقال: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله و ما نزل من الحق و لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم و كثير منهم فاسقون﴾ روي عن ابن عباس: لما ضُرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني ثم قُبض، فقال بنو أخيه حين قبضه الله: و الله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد أن رأوه، فقال الله ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ يعني أبناء أخي الشيخ فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات و المعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها، أو أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية، و منها ما يشقق فيخرج من الماء و إن لم يكن جارياً، و منها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، و فيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال: ﴿تسبح له السموات السبع و الأرض و مَنْ فيهن و إنْ من شيء إلا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾ و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: إنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء، أو يتشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل، لمن خشية الله نزل بذلك القرآن.

و قد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز، و هو إسناد الخشوع إلى الحجارة، كما أُسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: ﴿يريد أن ينقض﴾ قال الرازي و القرطبي و غيرهما من الأئمة: و لا حاجة إلى هذا، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾ و قال: ﴿تسبح له السموات السبع و الأرض و من فيهن﴾ الآية، و قال: ﴿و النجم والشجر يسجدان﴾ ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله﴾ الآية، ﴿قالتا أتينا طائعين﴾ ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل﴾ الآية، ﴿و قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله﴾ الآية، و في الصحيح «هذا

(١) اللوث هو أن يشهد شاهد واحد على إقرار المقتول قبل أن يموت أن فلاناً قتلني، أو يشهد شاهدان على عداوة بينهما، أو تهديد منه له أو نحو ذلك، و هو من التلوث: التلطخ. (اللسان).

جبل يحبنا ونحبه» و كحنين الجذع المتواتر خبره، و في صحيح مسلم «إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلّم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن» و في صفة الحجر الأسود: إنه يشهد لمن استلم بحق يوم القيامة، و غير ذلك مما في معناه. وحكى القرطبي قولاً أنها للتخيير، أي: مثلاً لهذا و هذا و هذا، مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين، و كذا حكاه الرازي في تفسيره و زاد قولاً آخر: إنها للإبهام بالنسبة للمخاطب كقول القائل: أكلت خبزاً أو تمراً، و هو يعلم أيهما أكل، و قال آخر: إنها بمعنى قول القائل: كُلْ حلواً أو حامضاً، أي لا يخرج عن واحد منهما، أي و قلوبكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها، لا تخرج عن واحد من هذين الشيئين، و الله أعلم.

(تنبيه) اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: **﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾** بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: أو: ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهي كالحجارة و أشد قسوة، كقوله تعالى: **﴿و لا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾** **﴿عذراً أو نذراً﴾**، و قال آخرون: أو ههنا بمعنى بل فتقديره: فهي كالحجارة بل أشد قسوة، و كقوله: **﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾**، **﴿و أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾**، **﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾** و قال آخرون: معنى ذلك: **﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾** عندكم حكاه ابن جرير، و قال بعضهم: معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين، إما تكون مثل الحجارة في القسوة، و إما أن تكون أشد منها في القسوة. قال ابن جرير: و معنى ذلك على هذا التأويل: فبعضها كالحجارة قسوة، و بعضها أشد قسوة من الحجارة؛ و قد رجّحه ابن جرير مع توجيه غيره.

(قلت) و هذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: **﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾** مع قوله: **﴿أو كصيب من السماء﴾** وكقوله: **﴿و الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾** مع قوله: **﴿أو كظلمات في بحر لجي﴾** الآية، أي إن منهم من هو هكذا، و منهم من هو هكذا، و الله أعلم.

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) ﴾

٧٥- يقول تعالى: **﴿أفتطمعون﴾** أيها المؤمنون **﴿أن يؤمنوا لكم﴾** أي ينقادوا لكم بالطاعة هولاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك: **﴿و قد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾** أي يتأولونه على غير تأويله **﴿من بعد ما عقلوه﴾** أي فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة **﴿و هم يعلمون﴾** أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه و تأويله، و هذا المقام شبيه بقوله تعالى: **﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم و جعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه﴾** قال محمد بن إسحاق، فيما حدثني بعض أهل العلم: أنهم قالوا لموسى، قد حِيلَ بيننا و بين رؤية ربنا تعالى فأسمعنا كلامه حين يكلّمك، فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى، فقال: نعم، مرهم فليتطهروا و ليطهروا ثيابهم و يصوموا، ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيهم الغمام، أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجوداً،

وكلمه ربه ، فسمعوا كلامه يأمرهم و ينهاهم حتى عقلوا منه ما سمعوا ، ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل ، فلما جاؤوهم ، حَرَّف فريق منهم ما أمرهم به ، و قالوا : حين قال موسى لبني إسرائيل : إن الله أمركم بكذا و كذا ، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله إنما قال كذا و كذا خلافاً لما قال الله عز و جل لهم فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ ، و قال السدي : ﴿و قد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾ قال : هي التوراة حرفوها ، و هذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عباس و ابن إسحاق ، و إن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق ، فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، و قد قال الله تعالى : ﴿و إن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾ أي مبلغاً إليه ، و لهذا قال قتادة في قوله : ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون﴾ قال : هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه و وعوه ، و قال مجاهد : الذين يحرفونه و الذين يكتمونه هم العلماء منهم ، وقال أبو العالية : عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه ، و قال السدي ﴿وهم يعلمون﴾ أي أنهم أذنبوا ، و قال ابن وهب : قال ابن زيد في قوله : ﴿يسمعون كلام الله ثم يحرفونه﴾ قال : التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها ، يجعلون الحلال فيها حراماً و الحرام فيها حلالاً ، و الحق فيها باطلاً والباطل فيها حقاً ، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله ، و إذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق ، و إذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق و لا رشوة و لا شيء أمروه بالحق ، فقال الله لهم : ﴿أتأمرون الناس بالبر و تنسون أنفسكم و أنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ .

٧٦- و قوله تعالى : ﴿و إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا و إذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ الآية ، روي عن ابن عباس قال : أي أن صاحبكم رسول الله و لكنه إليكم خاصة ، و إذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لا تحدثوا العرب بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان فيهم ، فأنزل الله ﴿و إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا و إذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ أي تقرون بأنه نبي ، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر و نجد في كتابنا ، اجحدوه و لا تقروا به . يقول الله تعالى ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ و قال الضحاك عن ابن عباس : يعني المنافقين من اليهود ، كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا : آمنا ، و قال السدي : هؤلاء ناس من اليهود ، آمنوا ثم نافقوا . و كذا قال الربيع بن أنس و قتادة و غير واحد من السلف و الخلف . و كانوا يقولون إذا دخلوا المدينة : نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله ﷺ و أمره ، فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر ، فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم ، فلم يكونوا يدخلون ، و كان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون : أليس قد قال الله لكم كذا و كذا ، فيقولون : بلى ، فإذا رجعوا إلى قومهم ، يعني الرؤساء ، فقالوا : ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ الآية ، و قال أبو العالية ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ يعني بما أنزل الله في كتابكم من نعت محمد ﷺ ، و نحوه عن قتادة .

قول آخر في المراد بالفتح : و قال السدي : ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ من العذاب ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عُذِّبوا به ، فقال بعضهم لبعض ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ من العذاب ليقولوا : نحن أحب إلى الله منكم ، و أكرم على الله منكم . و قال عطاء الخراساني ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ يعني قضى لكم و عليكم . و قال الحسن

البصري: هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، و إذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم.

و قوله تعالى: ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون و ما يعلنون﴾ قال أبو العالية: يعني ما أسرّوا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، و هم يجدونه مكتوباً عندهم، و كذا قال قتادة، و قال الحسن ﴿إن الله يعلم ما يسرون﴾ قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ و خلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم، خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم ﴿وما يعلنون﴾ يعني حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: آمنا. كذا قال أبو العالية و الربيع وقتادة.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾

٧٨- يقول تعالى: ﴿و منهم أميون﴾ أي و من أهل الكتاب، قاله مجاهد، و الأميون جمع أمي، و هو الرجل الذي لا يُحسن الكتابة، قاله أبو العالية و الربيع و قتادة و إبراهيم النخعي و غير واحد، و هو ظاهر في قوله تعالى ﴿لا يعلمون الكتاب﴾ أي لا يدرون ما فيه. و لهذا في صفات النبي ﷺ: أنه الأمي، لأنه لم يكن يُحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿و ما كنتَ تتلو من قبله من كتاب و لا تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾ و قال عليه الصلاة و السلام: «إنا أمةٌ أميّة لا نكتب و لا نحسب، الشهر هكذا و هكذا و هكذا» الحديث[1]. أي لا نفتقر في عباداتنا و مواقيتنا إلى كتاب و لا حساب، و قال تبارك وتعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ وقال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب و لا يخط من الرجال إلى أمّه في جهله بالكتاب دون أبيه.

و قوله تعالى: ﴿إلا أماني﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: إلا أماني الأحاديث، و قال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إلا أماني﴾ يقول إلا قولاً يقولون بأفواههم كذباً. وقال مجاهد: إلا كذباً، و عنه أيضاً ﴿و منهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ قال أناس من اليهود، لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله و يقولون هو من الكتاب، أماني يتمنونها، و عن الحسن البصري نحوه، وقال أبو العالية و الربيع و قتادة: إلا أماني يتمنون على الله ما ليس لهم.

قال ابن جرير: والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس، و قال مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئاً، و لكنهم يتخرصون الكذب ويتخرصون الأباطيل كذباً و زوراً، و التمني في هذا الموضوع هو تخلق الكذب و تخرصه، و منه الخبر المروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ما تغنيتُ و لا تمنيتُ» يعني ما تخرصت الباطل و لا اختلقت الكذب، و قيل المراد بقوله ﴿إلا أماني﴾ بالتشديد و التخفيف أيضاً: أي إلا تلاوة، فعلى هذا يكون استثناء منقطعاً، و استشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إلا إذا تمنى -أي تلا- ألقى الشيطان في أمنيته﴾ الآية.

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

و قال مجاهد: ﴿و إن هم إلا يظنون﴾ يكذبون و قال قتادة و أبو العالية و الربيع: يظنون بالله الظنون بغير الحق.

٧٩- قوله تعالى: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾ الآية، هؤلاء صنف آخر من اليهود. و هم الدعاة إلى الضلال بالزور و الكذب على الله، و أكل أموال الناس بالباطل، و الويل: الهلاك و الدمار، و هي كلمة مشهورة في اللغة، و عن ابن عباس: الويل المشقة من العذاب، و قال الخليل بن أحمد: الويل شدة الشر، و قال سيبويه: ويل لمن وقع في الهلكة، ويح لمن أشرف عليها، و قال الأصمعي: الويل تفجع، و الويح ترحم، و عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ قال: هم أحبار اليهود، و كذا قال قتادة: و قال الزهري: أخبرني عبيد الله ابن عبد الله عن ابن عباس أنه قال: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، و كتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤونه غضًا لم يُشب، و قد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيّروه، و كتبوا بأيديهم الكتاب و قالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُساءلتهم، و لا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أُنزل عليكم» رواه البخاري، و قال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها. و قوله تعالى: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ أي فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب و البهتان و الافتراء، و ويل لهم مما أكلوا به من السحت.

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) ﴾

٨٠- يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه و ادّعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿قل أتخذتم عند الله عهداً﴾ أي بذلك، فإن كان قد وقع عهدٌ فهو لا يخلف عهده، و لكن هذا ما جرى و لا كان، و لهذا أتى بـ«أم» التي بمعنى بل، أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب و الافتراء عليه، عن مجاهد، عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون أن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، و إنما نعذب بكل ألف سنة يوماً في النار و إنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ إلى قوله ﴿خالدون﴾، و عن قتادة ﴿و قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ يعني الأيام التي عبدنا فيها العجل.

و روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي هريرة، قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ، شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ «اجمعوا لي من كان من اليهود ههنا» فقال لهم رسول الله ﷺ «من أبوكم»؟ قالوا فلان، قال: «كذبتم بل أبوكم فلان» فقالوا: صدقت و بررت، ثم قال لهم «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه»؟ قالوا نعم يا أبا القاسم، و إن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال رسول الله ﷺ: «من أهل النار»؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسئوا و الله لا نخلفكم فيها أبداً» ثم قال لهم رسول الله ﷺ «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه»؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال:

«هل جعلتم في هذه الشاة سماً» ؟ فقالوا: نعم، قال: «فما حملكم على ذلك» ؟ فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، و إن كنت نبياً لم يضرك، و رواه الإمام أحمد و البخاري و النسائي بنحوه.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

٨١- يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم و لا كما تشتهون، بل الأمر أنه من عمل سيئة و أحاطت به خطيئته وهو مَنْ وَافَى يوم القيامة و ليست له حسنة، بل جميع أعماله سيئات، فهذا من أهل النار، **﴿و الذين آمنوا و عملوا الصالحات﴾** أي آمنوا بالله و رسوله، و عملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة، و هذا المقام شبيه بقوله تعالى: **﴿ليس بأمانيكم و لا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجزَ به و لا يجد له من دون الله ولياً و لا نصيراً ﴾ و من يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى و هو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة و لا يظلمون نقيراً﴾**، يروى عن ابن عباس **﴿بلى من كسب سيئة﴾** أي عمل مثل أعمالكم و كفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره، فماله من حسنة، و في رواية عن ابن عباس، قال: الشرك، قال ابن أبي حاتم: و روي عن أبي وائل وأبي العالية و مجاهد و عكرمة و الحسن و قتادة و الربيع بن أنس نحوه، وقال الحسن أيضاً و السدي: السيئة الكبيرة من الكبائر، و قال ابن جريج، عن مجاهد **﴿و أحاطت به خطيئته﴾** قال: بقلبه، و قال أبو هريرة وأبو وائل وعطاء و الحسن **﴿و أحاطت به خطيئته﴾** قال: أحاط به شركه، و عن الربيع بن خيثم **﴿و أحاطت به خطيئته﴾** قال الذي يموت على خطاياه من قبل أنْ يتوب، و عن السدي و أبي رزين نحوه، و قال أبو العالية ومجاهد و الحسن في رواية عنهما، و قتادة و الربيع بن أنس **﴿و أحاطت به خطيئته﴾** الموجبة الكبيرة، و كل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، و الله أعلم.

و يذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومُحَقَّرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يُهلكنه، و إن رسول الله ﷺ ضَرَب لهم مثلاً كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، و الرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً، و أجّجوا ناراً فأنضجوا ما قذفوا فيها».

٨٢- قوله تعالى **﴿و الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾**، يروى عن ابن عباس قال: أي من آمن بما كفرتم و عمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها، يخبرهم أن الثواب بالخير و الشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

٨٣- يذكّر تبارك و تعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، و أخذه ميثاقهم على ذلك و أنهم تولّوا عن ذلك، كله، و أعرضوا قصداً و عمداً وهم يعرفونه، و يذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئاً،

وبهذا أمر جميع خلقه، و لذلك خلقهم كما قال تعالى: **﴿و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** و قال تعالى: **﴿و لقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾** و هذا هو أعلى الحقوق و أعظمها، و هو حق الله تبارك و تعالى أن يُعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم و أولاهم بذلك حق الوالدين، و لهذا يَقرِن تبارك و تعالى بين حقه و حق الوالدين، كما قال تعالى: **﴿أن اشكر لي و لوالديك إلي المصير﴾** و قال تبارك و تعالى: **﴿و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحساناً﴾** إلى أن قال **﴿و آت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل﴾** و في الصحيحين عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال «الجهاد في سبيل الله» و لهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله من أبر؟ قال «أمك» قال: ثم من؟ قال «أمك» قال: ثم من؟ قال «أباك، ثم أدناك ثم أدناك» (1). و قوله تعالى: **﴿لا تعبدون إلا الله﴾** قال الزمخشري خبر بمعنى الطلب و هو آكد، و قيل كان أصله **﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾** كما قرأها بعض السلف، فحذفت أن فارتفع، و حكي عن أبي و ابن مسعود أنهما قرآها **﴿لا تعبدوا إلا الله﴾** و نقل هذا التوجيه القرطبي في تفسيره عن سيبويه. قال: و اختاره الكسائي و الفراء. قال **﴿و اليتامى﴾** و هم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء، **﴿و المساكين﴾**: الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم و أهليهم، و سيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التي أمرنا الله تعالى بها صريحاً في قوله **﴿و اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾** الآية، و قوله تعالى **﴿و قولوا للناس حسناً﴾** أي كلموهم طيباً، و لينوا لهم جانباً، و يدخل في ذلك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري في قوله تعالى **﴿و قولوا للناس حسناً﴾** فالحُسنُ من القول: يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر و يحلم و يعفو و يصفح، و يقول للناس: حسناً كما قال الله، و هو كل خلق حسن رضيه الله.

و روى الإمام أحمد: عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال «لا تَحقِرَنَّ من المعروف شيئاً، و إن لم تجد فالقَ أخاك بوجهٍ منطلق» وأخرجه مسلم في صحيحه، و ناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس: حسناً بعدما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان: الفعلي والقولي، ثم أكد الأمر بعبادته و الإحسان إلى الناس بالمتعيّن من ذلك و هو الصلاة و الزكاة، فقال **﴿و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة﴾** و أخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أي تركوه وراء ظهورهم و أعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم، و قد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله **﴿و اعبدوا الله و لا تشركوا بالله شيئاً و بالوالدين إحساناً و بذي القربى واليتامى و المساكين و الجار ذي القربى و الجار الجنب و الصاحب بالجنب و ابن السبيل و ما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾** فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، و لله الحمد و المنة.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم

(1) رواه أحمد (٥/٣، ٥)، و البخاري في الأدب المفرد (٣) و أبو داود (١٥٣٩)، و الترمذي (١٩٥٩) لكن لفظه: «ثم أباك، ثم الأقرب فالأقرب» و سنده حسن، أما «أدناك ثم أدناك» فوردت في حديث أحمد (٢/ ٢٢٦)، و الطبراني و أبي يعلى و الحاكم و لفظه: «بر أمك وأباك، و أختك و أخاك، ثم أدناك أدناك» و هو صحيح.

بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٨٦)﴾

٨٤، ٨٥، ٨٦- يقول تبارك و تعالى مُنكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، و ما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس و الخزرج، و ذلك أن الأوس و الخزرج و هم الأنصار كانوا في الجاهلية عباد أصنام، و كانت بينهم حروب كثيرة، و كانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، و بنو النضير: حلفاء الخزرج، و بنو قريظة: حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، و قد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، و ذلك حرام عليهم في دينهم و نص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم وينتبهون ما فيها من الأثاث و الأمتعة و الأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، و لهذا قال تعالى: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض**﴾ و لهذا قال تعالى: ﴿**و إذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم و لا تخرجون أنفسكم من دياركم**﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً و لا يُخرجه من منزله و لا يُظاهر عليه، كما قال تعالى: ﴿**فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم**﴾ و ذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة و السلام «مثل المؤمنين في توادّهم و تراحمهم و تواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى و السهر» و قوله تعالى: ﴿**ثم أقررتم و أنتم تشهدون**﴾ أي ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق و صحته و أنتم تشهدون به، روي عن ابن عباس ﴿**ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم و تُخرجون فريقاً منكم من ديارهم**﴾ الآية، قال: أنبأهم الله بذلك من فعلهم، و قد حرّم عليهم في التوراة سفك دمائهم، و افترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع و هم حلفاء الخزرج و النضير، و قريظة و هم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس و الخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، و خرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم، و بأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم و ما لهم، و الأوس و الخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان و لا يعرفون جنة و لا ناراً و لا بعثاً و لا قيامة و لا كتاباً و لا حلالاً و لا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها، افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة و أخذاً به بعضهم من بعض، يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، و يفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، و يطلبون ما أصابوا من دمائهم، و قتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم، يقول الله تعالى ذكره حيث أنبأهم بذلك ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض**﴾ أي تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم، و في حكم التوراة أن لا يُقتل و لا يُخرج من داره، و لا يُظاهر عليه مَن يشرك بالله و يعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا؟ ففي ذلك من فعلهم مع الأوس و الخزرج فيما بلغني نزلت هذه القصة.

و الذي أرشدت إليه الآية الكريمة ، و هذا السياق ، ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها ، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة ، فلهذا لا يُؤمنون على ما فيها و لا على نقلها ، و لا يُصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله ﷺ و نعته و مبعثه و مخرجه و مهاجره ، و غير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام ، و اليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم ، و لهذا قال تعالى : ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ أي بسبب مخالفتهم شرع الله و أمره ﴿و يوم القيامة يُرَدُّون إلى أشد العذاب﴾ جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم ﴿و ما الله بغافل عما تعملون ◆ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي استحبوها على الآخرة و اختاروها ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿و لا هم ينصرون﴾ أي و ليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ، و لا يُجيرهم منه .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) ﴾

٨٧- ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو و العناد ، و المخالفة و الاستكبار على الأنبياء ، و أنهم إنما يتبعون أهواءهم ، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب و هو التوراة ، فحرفوها و بدلوها و خالفوا أوامرها و أولوها ، وأرسل الرسل و النبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى : ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا و الربانيون و الأحبار بما استُحفظوا من كتاب الله و كانوا عليه شهداء﴾ الآية : و لهذا قال تعالى : ﴿و قفينا من بعده بالرسل﴾ قال السدي عن أبي مالك : أتبعنا ، و قال غيره : أردفنا ، والكل قريب كما قال تعالى : ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾ حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم ، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ، و لهذا أعطاه الله من البينات و هي المعجزات ، قال ابن عباس : من إحياء الموتى ، و خلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، و إبراء الأسقام ، و إخباره بالغيوب ، وتأييده ﴿بروح القدس﴾ و هو جبريل ﷺ ، ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له ، و حسدهم و عنادهم لمخالفة التوراة في البعض ، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى : ﴿و لأُحِلَّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم و جئتكم بآية من ربكم﴾ الآية ، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ، فريقاً يكذبونه ، و فريقاً يقتلونه ، و ما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم و آرائهم ، و بالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها ، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم ، و ربما قتلوا بعضهم ، و لهذا قال تعالى : ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم و فريقاً تقتلون﴾ .

و الدليل على أن روح القدس هو جبريل ، كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية ، و تابعه على ذلك ابن عباس و محمد بن كعب و إسماعيل بن أبي خالد و السدي و الربيع بن أنس و عطية العوفي و قتادة مع قوله تعالى : ﴿نزل به الروح الأمين ◆ على قلبك لتكون من المنذرين﴾ ما رواه البخاري عن أبي هريرة و عن عائشة : أن رسول الله ﷺ ، وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد ، فكان يُنافح عن رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ «اللهم أيدّ حسانَ بروح القدس كما نافح عن نبيك» فهذا من البخاري تعليقاً ، و قد رواه أبو داود و الترمذي .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة: أن عمر بن الخطاب مر بحسان و هو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه فقال: قد كنت أُنشد فيه و فيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَجِبْ عني، اللهم أيده بروح القدس» فقال: اللهم نعم، و في بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم - أو هاجهم - و جبريل معك» و في شعر حسان قوله:

و جبريلُ رسولُ الله فينا و روحُ القُدُس ليس به خَفَاء

و في صحيح ابن حبان، عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نَفَث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها و أجلها، فاتقوا الله و أَجْملوا في الطلب».

و قال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقاً كذبتم و فريقاً تقتلون﴾ إنما لم يقل و فريقاً قتلتم، لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً، لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم و السحر، و قد قال ﷺ في مرض موته: «ما زالت أَكْلَةُ خيبر تعاودني، فهذا أوان انقطاع أبهري» (قلت) و هذا الحديث في صحيح البخاري و غيره.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨)﴾

٨٨- روي عن ابن عباس ﴿و قالوا قلوبنا غلف﴾ أي في أَكِنَّة، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ أي لا تفقه، و قال مجاهد: ﴿و قالوا قلوبنا غلف﴾ عليها غشاوة و قال عكرمة: عليها طابع، و قال أبو العالية: أي لا تفقه، و قال السدي: يقولون عليها غلاف، و هو الغطاء، و قرأ ابن عباس غلف، بضم اللام، و هو جمع غلاف، أي قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك، قاله ابن عباس وعطاء ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي طردهم الله و أبعدهم من كل خير ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ قال قتادة: معناه لا يؤمن منهم إلا القليل ﴿و قالوا قلوبنا غلف﴾ هو كقوله ﴿و قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله غلف، قال: تقول قلبي في غلاف فلا يَخلُص إليه مما تقول شيء، و قرأ ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ و هذا الذي رجحه ابن جرير.

قال تعالى: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾ أي ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال في سورة النساء: ﴿و قولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ و قوله: ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم، و قيل: فقليل إيمانهم، بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد و الثواب و العقاب، و لكنه إيمان لا ينفعهم لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ، و قال بعضهم: إنما كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال: فقليلاً ما يؤمنون و هم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط، تريد ما رأيت مثل هذا قط.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾

٨٩- يقول تعالى: ﴿و لما جاءهم﴾ يعني اليهود، ﴿كتاب من عند الله﴾ و هو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿مصدق لما معهم﴾ يعني التوراة، و قوله ﴿و كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ أي وقد كانوا من قبل

مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتلَ عاد و إرم، كما روى محمد بن إسحاق عن أشياخ من الأنصار: قالوا: فينا و الله و فيهم، يعني في الأنصار و في اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني: ﴿و لما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم و كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ قالوا: كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية، و نحن أهل شرك، و هم أهل كتاب، و هم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظَلَّ زمانه فنقتلكم معه قتل عاد و إرم، فلما بعث الله رسوله من قريش و اتبعناه، كفروا به، يقول الله تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾.

و قال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمدﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نعذب المشركين و نقتلهم. فلما بعث الله محمداًﷺ و رأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسداً للعرب و هم يعلمون أنه رسول اللهﷺ، فقال الله تعالى: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾.

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

٩٠- قال مجاهد: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ يهود شروا الحق بالباطل و كتمان ما جاء به محمدﷺ بأن يبينوه، و قال السدي ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يقول: بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمدﷺ عن تصديقه و موازرته و نصرته، و إنما حملهم على ذلك البغي والحسد و الكراهية ﴿أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ ولا حسد أعظم من هذا، ﴿فباءوا بغضب على غضب﴾ قال ابن عباس: في الغضب على الغضب، فغضب عليهم فيما كانوا ضيّعوا من التوراة وهي معهم، و غضب عليهم بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم (قلت) و معنى ﴿باءوا﴾ استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب، و قال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل و عيسى، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمدﷺ و بالقرآن، و عن عكرمة و قتادة مثله.

و قوله تعالى: ﴿و للكافرين عذاب مهين﴾ لَمَّا كان كفرهم سببه البغي و الحسد، و منشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة و الصغار في الدنيا و الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين راغمين، و قد روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبيﷺ، قال: «يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذّر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصَّغَار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له: بولس، تعلوهم نارُ الأنيار، يسقون من طينة الخَبَال عُصَارة أهل النار».

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ

﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) ﴾

٩١- يقول تعالى: ﴿و إذا قيل لهم﴾ أي لليهود و أمثالهم من أهل الكتاب ﴿آمنوا بما أنزل الله﴾ على محمد ﷺ و صدقوه و اتبعوه، ﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة و الإنجيل ولا نُقرُّ إلا بذلك ﴿و يكفرون بما وراءه﴾ يعني بما بعده ﴿و هو الحق مصدقاً لما معهم﴾ أي و هم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ ﴿الحق مصدقاً لما معهم﴾ أي في حال تصديقه لما معهم من التوراة و الإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ ثم قال تعالى: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم و الحكم بها و عدم نسخها، و أنتم تعلمون صدقهم؟! قتلتموهم بغياً وعناداً و استكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء و الآراء و التشهي، كما قال تعالى: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم و فريقاً تقتلون﴾.

٩٢- ﴿و لقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أي بالآيات الواضحات و الدلائل القاطعات على أنه رسول الله، و أنه لا إله إلا الله، و الآيات البينات هي: الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم و العصا و اليد، و فرق البحر و تظليلهم بالغمام و المن و السلوى و الحَجَر، و غير ذلك من الآيات التي شاهدوها، ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أي معبوداً من دون الله في زمان موسى و أيامه، و قوله ﴿من بعده﴾ أي من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿و اتخذ قوم موسى من بعده من حُليّهم عجلاً جسداً له خوار﴾، ﴿و أنتم ظالمون﴾، أي و أنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، و أنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى: ﴿و لما سُقِطَ في أيديهم و رأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا و يغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣) ﴾

٩٣- يُعدِّد سبحانه و تعالى عليهم خطأهم، و مخالفتهم للميثاق، و عتوهم و إعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه، ثم خالفوه و لهذا ﴿قالوا سمعنا و عصينا﴾ و قد تقدم تفسير ذلك. ﴿و أشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ عن قتادة قال: أشربوا حُبَّه حتى خَلُص ذلك إلى قلوبهم، و كذا قال أبو العالية و الربيع بن أنس.

و قوله ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي بئسما تعتمدونه في قديم الدهر و حديثه من كفركم بآيات الله، و مخالفتكم الأنبياء ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ و هذا أكبر ذنوبكم و أشد الأمر عليكم إذ كفرتم بخاتم الرسل و سيد الأنبياء و المرسلين، المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان، و قد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة: من نقضكم المواثيق، و كفركم بآيات الله، و عبادتكم العجل من دون الله؟.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

٩٤ - روي عن ابن عباس قال: يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: **﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾** أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ.

٩٥ - **﴿و لن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم و الله عليم بالظالمين﴾** أي بعلمهم بما عندهم من العلم بك و الكفر بذلك، و لو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات. و روى عبد الرزاق عن ابن عباس: لو تمنى يهود الموت، لماتوا. و روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه، وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس، و روى ابن جرير في تفسيره عن النبي ﷺ، قال «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، و لرأوا مقاعدهم من النار، و لو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً و لا مالاً» ورواه الإمام أحمد. و هذا الذي فسر به ابن عباس الآية، هو المتعين و هو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، و نقله ابن جرير عن قتادة و أبي العالية و الربيع بن أنس رحمهم الله تعالى، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة **﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين و لا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم و الله عليم بالظالمين ◆ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب و الشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** فهم عليهم لعائن الله تعالى، لما زعموا أنهم أبناء الله و أحباؤه، و قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوداً أو نصارى، دُعُوا إلى المباهلة و الدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين، لما نكلوا عن ذلك، علم كل أحد إنهم ظالمون، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه، لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا، علم كذبهم، و هذا كما دعا رسول الله وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة و عتوهم و عنادهم إلى المباهلة، فقال: **﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾** فلما رأوا ذلك، قال بعض القوم لبعض: و الله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرُف، فعند ذلك جنحوا للسلم، و بذلوا الجزية عن يد و هم صاغرون، فضربها عليهم، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أميناً، و مثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين **﴿قل من كان في الضلالة فليمدُدْ له الرحمنُ مداً﴾** أي من كان في الضلالة منا و منكم فزاده الله مما هو فيه، و مدّ له واستدرجه.

٩٦ - **﴿و لتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾** أي على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيء، و عاقبتهم عند الله الخاسرة، لأن الدنيا سجن المؤمن، و جنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم،

و ما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة، حتى و هم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، و هذا من باب عطف الخاص على العام، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿و من الذين أشركوا﴾ قال: الأعاجم، و كذا رواه الحاكم. وقال الحسن البصري: المنافق أحرص الناس، وأحرص من المشرك على حياة، يود أحدهم أي يود أحد اليهود، كما يدل عليه نظم السياق، و قال أبو العالية: يود أحدهم أي أحد المجوس، و هو يرجع إلى الأول ﴿لو يعمر ألف سنة﴾، و عن ابن عباس في قوله ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ قال هو قول الأعاجم: هزارسال نوروز و مهرجان، و قال مجاهد ﴿يود أحدهم لو يعمر ألف سنة﴾ قال: حَببت إليهم الخطيئة طول العمر.

﴿و ما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾ أي و ما هو بِمُنجّيه من العذاب، و ذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، و أن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي، بما ضيع ما عنده من العلم، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء، و قد ودّ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة، و ليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عُمّر، كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً، ﴿و الله بصير بما يعملون﴾ أي خبير بما يعمل عباده من خير و شر، و سيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

٩٧- قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، و أن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرة جرت بينهم و بين رسول اللهﷺ في أمر نبوته. روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أقبلت يهود إلى رسول اللهﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي و اتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: و الله على ما نقول وكيل، قال «هاتوا» قالوا: فأخبرنا عن علامة النبي. قال: «تنام عيناه و لا ينام قلبه» قالوا: أخبرنا كيف تؤنّث المرأة؟ و كيف يذكر الرجل؟ قال: يلتقي الماءان، فإذا علا ماءُ الرجل ماء المرأة أذكرتْ، و إذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثتْ» قالوا: أخبرنا ما حرَّم إسرائيل على نفسه؟ قال: «كان يشتكي عرق النسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا و كذا» قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل فحرم لحومها، قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملكٌ من ملائكة الله عز وجل موكلٌ بالسحاب بيديه أو في يديه مِخْراقٌ من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى» قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «صوته» قالوا: صدقت، قالوا: إنما بقيت واحدة و هي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبي إلا و له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام» قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب و القتال والعذاب، عدونا لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة و القطر و النبات لكان، فأنزل الله تعالى: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ إلى آخر الآية، و رواه الترمذي و النسائي.

و عن أنس بن مالك، قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول اللهﷺ و هو في أرض يخترف فأتى

النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة، و ما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهذه جبرائيل آنفاً» قال: جبريل؟ قال: «نعم» قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾ «و أما أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، و أما أول طعام يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد الحوت، و إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة، نزع الولد، و إذا سبق ماء المرأة نزعت» قال: أشهد أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله. يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يَبهتوني، فجاءت اليهود، فقال له رسول الله ﷺ: «أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرُنا و ابنُ خيرنا و سيدنا و ابن سيدنا، قال: «أرأيتم إن أسلم» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، و أشهد أن محمداً رسول الله. قالوا: هو شرُّنا و ابن شرنا و انتقصوه، فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله - انفرد به البخاري من هذا الوجه، و قد أخرجاه من وجه آخر عن أنس بنحوه، و في صحيح مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قريب من هذا السياق كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى، و عن عكرمة أنه قال: إن جبريل اسمه عبد الله، و ميكائيل اسمه عبد الله، إيل: الله، و عن ابن عباس مثله سواء، و كذا قال غير واحد من السلف كما سيأتي قريباً، و من الناس من يقول: إيل: عبارة عن عبد، و الكلمة الأخرى هي اسم الله، لأن كلمة إيل لا تتغير في الجميع.

و أما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾ أي من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم، على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي، و من عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول يلزمه الإيمان بجميع الرسل، و كما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله و يريدون أن يفرقوا بين الله و رسله و يقولون نؤمن ببعض و نكفر ببعض﴾ الآيتين، فحكم عليهم بالكفر المحقق إذا آمنوا ببعض الرسل و كفروا ببعضهم، و كذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله، لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه و إنما ينزل بأمر ربه، كما قال: ﴿و ما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿و إنه لتنزيل رب العالمين ◆ نزل به الروح الأمين ◆ على قلبك لتكون من المنذرين﴾، و قد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب» و لهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه، فقال تعالى: ﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة: ﴿و هدى و بشرى للمؤمنين﴾ أي هدى لقلوبهم و بشرى لهم بالجنة، و ليس ذلك إلا للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى و شفاء﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين﴾ الآية.

٩٨- ثم قال تعالى: ﴿من كان عدواً لله و ملائكته و رسله و جبريل و ميكال فإن الله عدو للكافرين﴾ يقول تعالى من عاداني و ملائكتي و رسلي - و رسله تشمل رسله من الملائكة و البشر، كما قال تعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً و من الناس﴾. ﴿و جبريل و ميكال﴾ و هذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل، ثم خُصصا بالذكر لأن السياق في الانتصار لجبرائيل، وهو السفير بين الله

وأنبيائه، و قرن معه ميكائيل في اللفظ، لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم، و ميكائيل وليهم، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر و عادى الله أيضاً، و لأنه أيضاً ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان، كما قرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، و لكن جبرائيل أكثر و هي وظيفته، وميكائيل موكل بالنبات و القطر، هذا بالهدى و هذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات و الأرض، عالم الغيب و الشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

و قوله تعالى: ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ فيه إيقاع المظهر مكان المضمر، حيث لم يقل: فإنه عدو بل قال: ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ و إنما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى و إظهاره و إعلامهم أن من عادى لله ولياً فقد عادى الله، و من عادى الله فإن الله عدو له، و من كان الله عدوه فقد خسر الدنيا و الآخرة، كما تقدم الحديث «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة».

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) ﴾

٩٩- قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿و لقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ الآية، أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات، دالات على نبوتك، و تلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، و مكنونات سرائر أخبارهم و أخبار أوائلهم من بني إسرائيل، و النبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم و علماؤهم، و ما حرّفه أوائلهم و أواخرهم و بدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه و لم يَدْعه إلى هلاكها الحسد و البغي، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر، و لا أخذ شيئاً منه عن آدمي، كما قال الضحاك عن ابن عباس ﴿و لقد أنزلنا إليك آيات بينات﴾ يقول: فأنت تتلوه عليهم و تخبرهم به غدوة و عشية و بين ذلك، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتاباً، و أنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه، يقول الله تعالى في ذلك عبرة وبيان،

وعليهم حجة لو كانوا يعلمون.

١٠٠-وقال الحسن البصري: في قوله ﴿بل أكثرهم لايؤمنون﴾ قال: نعم، ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غداً. وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ. وقال قتادة: نبذه فريق منهم، أي نقضه فريق منهم، وقال ابن جرير: أصل النبذ الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط منبوذاً، ومنه سمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء، قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعته وصفته وأخباره، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته، كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ الآية.

١٠١-وقال ههنا ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم﴾ الآية، أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أي تركوها كأنهم لايعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه، ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه في مشط و مشاقة و جف طلعة ذكر تحت راعوثة ببئر أروان، و كان الذي تولى ذلك رجل منهم يقال له: لبيد بن الأعصم لعنه الله و قبحه، فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، كما سيأتي بيانه. و قال قتادة في قوله ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون و لكنهم نبذوا علمهم وكتموه و جحدوا به. و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان، و كان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها. قال: فأكفره جهال الناس و سبوه، ووقف علماء الناس، فلم يزل جهال الناس يسبونه حتى أنزل الله على محمد ﷺ ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾ قال: كانت الشياطين تستمع الوحي فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها، فأرسل سليمان عليه السلام إلى ما كتبوا من ذلك، فلما توفي سليمان وجدته الشياطين و علمته الناس وهو السحر، وقال سعيد بن جبير: كان سليمان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فيأخذه منهم فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزانته فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه فدنت إلى الإنس فقالوا لهم أتدرون ما العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم، قالوا: فإنه في بيت خزانته وتحت كرسيه فاستثار به الإنس واستخرجوه و عملوا بها، فقال أهل الحجاز: كان سليمان يعلم بهذا و هذا سحر، فأنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى: ﴿و اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ وقال محمد بن إسحاق بن يسار: عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام، فكتبوا أصناف السحر، من كان يحب أن يبلغ كذا فليفعل كذا وكذا حتى إذا صنفوا أصناف السحر، جعلوه في كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان، وكتبوا في عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم، ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا، فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان ملك سليمان إلا بهذا،

فأفشوا السحر في الناس فتعلموه وعلموه، فليس هو في أحد أكثر منه في اليهود لعنهم الله، فلما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله سليمان بن داود وعدَّه فيمن عد من المرسلين، قال من كان بالمدينة من اليهود: ألا تعجبون من محمد يزعم أن ابن داود كان نبياً والله ما كان إلا ساحراً. وأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿**و اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان و ما كفر سليمان و لكن الشياطين كفروا**﴾ الآية، وقول الحسن البصري رحمه الله وكان السحر قبل زمان سليمان بن داود ـ صحيح لا شك فيه، لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى ﴿**ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى**﴾ الآية، ثم ذكر القصة بعدها وفيها ﴿**و قتل داود جالوت و آتاه الله الملك و الحكمة**﴾ وقال قوم صالح وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام لنبيهم صالح ﴿**إنما أنت من المسحَّرين**﴾ أي المسحورين على المشهور.

وقوله تعالى ﴿**وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت و ما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجه**﴾ اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية أعني التي في قوله: ﴿**و ما أنزل على الملكين**﴾ قال القرطبي: ما نافية و معطوف على قوله ﴿**و ما كفر سليمان**﴾ ثم قال ﴿**ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر و ما أنزل على الملكين**﴾ و ذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل و ميكائيل فأكذبهم الله و جعل قوله ﴿**هاروت وماروت**﴾ بدلا من الشياطين، قال: وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الإثنين كما في قوله تعالى: ﴿**فإن كان له إخوة**﴾ أو لكونهما لهما أتباع، أو ذكرا من بينهم لتمردهما، تقدير الكلام عنده: يعلمون الناس السحر ببابل هاروت و ماروت. ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية و أصح ولا يُلتفت إلى ما سواه، و روى ابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله ﴿**و ما أنزل على الملكين**﴾ قال: ما أنزل الله عليهما السحر، قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا ﴿**و اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان**﴾ من السحر و ما كفر سليمان و لا أنزل الله السحر على الملكين، و لكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت و ماروت، فيكون قوله ببابل هاروت و ماروت من المؤخر الذي معناه المقدم، قال: فإنْ قال لنا قائل: كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل وجه تقديمه أن يقال ﴿**واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان**﴾ من السحر وما كفر سليمان و ما أنزل الله السحر على الملكين، و لكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام، لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك، و أخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل و ميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين و أنها تعلم الناس ذلك ببابل، و أن الذين يعلمونهم ذلك رجلان: اسم أحدهما هاروت، و اسم الآخر ماروت، فيكون هاروت و ماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس و رداً عليهم. هذا لفظه بحروفه. وقال أبو العالية: لم ينزل عليهما السحر، يقول: عَلَّمَا الإيمان والكفر، فالسحر من الكفر، فهما ينهيان عنه أشد النهي، رواه ابن أبي حاتم، ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول، و أن «ما» بمعنى الذي، و أطال القول في ذلك و ادعى أن هاروت و ماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض و أَذِنَ لهما في تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً بعد أن بيَّنَ لعباده أن ذلك مما ينهى عنه ألسنة الرسل، وادعى أن هاروت و ماروت مطيعان في تعليم ذلك، لأنهما امتثلا ما أمرا به، و هذا الذي سلكه غريب

جداً، و أغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن، كما زعمه ابن حزم.

و ذهب آخرون إلى الوقف على قوله ﴿يعلمون الناس السحر﴾ وما نافية، و روى ابن جرير عن القاسم بن محمد و سأله رجل عن قول الله ﴿يعلمون الناس السحر و ما أنزل على الملكين ببابل هاروت و ماروت﴾ فقال: الرجلان يعلمان الناس ما أنزل عليهما و يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما، فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت.

وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، و أنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده رحمه الله كما سنورده إن شاء الله[1] و على هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ماورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصاً لهما فلا تعارض حينئذ كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق، و في قول إنه كان من الملائكة لقوله تعالى ﴿و إذقلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، مع أن شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من إبليس لعنه الله تعالى. و قد حكاه القرطبي عن علي وابن مسعود و ابن عباس و ابن عمر و كعب الأحبار و السدي والكلبي. و قد روي في قصة هاروت و ماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري و قتادة و أبي العالية والزهري و الربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، و قصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، و حاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، و ظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط و لا إطناب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، و الله أعلم بحقيقة الحال.

و قوله تعالى: ﴿و ما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ روي عن ابن عباس قال: فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي و قالا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، و ذلك أنهما علما الخير و الشر والكفر و الإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر، قال: فإذا أبى عليهما أمراه يأتي مكان كذا و كذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه، فإذا تعلمه خرج منه النور، فنظر إليه ساطعاً في السماء فيقول: يا حسرتاه، يا ويله ماذا صنع، و عن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية: نعم أنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس، فأخذ عليهم الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر، رواه ابن أبي حاتم، و قال قتادة نحوه. وأما الفتنة فهي المحنة و الاختبار، و كذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام حيث قال ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي ابتلاؤك و اختبارك وامتحانك ﴿تضل بها من تشاء و تهدي من تشاء﴾ و قد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، واستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبدالله قال: «من أتى كاهناً أوساحراً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمدﷺ» و هذا إسناد صحيح و له شواهد أخر، و قوله تعالى: ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجه﴾ أي فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين، مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف، و هذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله عن النبيﷺ قال: «إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس،

(١) ـ وهو حديث ضعيف لا يصح، بل هو مما أخذه ابن عمر عن كعب الأحبار، كما بين ابن كثير، و لذا فقد أعرضنا عن ذكر رواياته.

فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا و الله ما صنعت شيئاً ! و يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه و بين أهله قال : فيقربه و يدنيه و يلتزمه و يقول : نعم أنت ؛ وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك ، أو عقد أو بغضه أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة ، و المرء عبارة عن الرجل و تأنيثه امرأة و يثنى كل منهما و لا يجمعان و الله أعلم .

و قوله تعالى : ﴿و ما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ قال سفيان الثوري : إلا بقضاء الله ، و قال محمد بن إسحاق : إلا بتخلية الله بينه و بين ما أراد ، و قال الحسن البصري ﴿و ما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ قال : نعم ، من شاء الله سلطهم عليه ، ومن لم يشأ الله لم يسلط و لا يستطيعون من أحد إلا بإذن الله ، كما قال الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي يضرهم في دينهم وليس له نفع يوازي ضرره ﴿و لقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق﴾ أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم ذلك ، أنه ما له في الآخرة من خلاق ، قال ابن عباس و مجاهد والسدي : من نصيب ، و عن قتادة ﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾ يقال : و لقد علم أهل الكتاب فيم عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة ، و قوله تعالى ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا و اتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ يقول تعالى : ﴿ولبئس﴾ البديل ما استبدلوا به من السحر ، عوضاً عن الإيمان و متابعة الرسول ، لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿ولو أنهم آمنوا و اتقوا لمثوبة من عند الله خير﴾ أي ولو أنهم آمنوا بالله و رسله و اتقوا المحارم ، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به ، كما قال تعالى : ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً و لا يلقاها إلا الصابرون﴾ .

و قد استدل بقوله ﴿و لو أنهم آمنوا واتقوا﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر ، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف ، و قيل : بل لا يكفر ، ولكن حده ضرب عنقه ، لما رواه الشافعي و أحمد بن حنبل عن بجالة بن عبدة يقول : كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر و ساحرة ، قال : فقتلنا ثلاث سواحر ، وقد أخرجه البخاري في صحيحه أيضاً ، وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها ، فأمرت بها ، فقتلت ، قال الإمام أحمد بن حنبل : صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ في قتل الساحر . و روى الترمذي من حديث جندب الأزدي أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « حدُّ السَّاحر ضربةٌ بالسيف » (١) وحمل الشافعي رحمه الله قصة عمر و حفصة على سحر يكون شركاً والله أعلم . وقال أبو عبد الله القرطبي : و عندنا أن السحر حق و له حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء ، خلافاً للمعتزلة وأبي إسحاق الإسفراييني من الشافعية حيث قالوا : إنه تمويه وتخييل ، قال : و من السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة ، و الشعوذي البريد لخفة سيره ، قال القرطبي : و منه ما يكون كلاماً يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى ، و قد يكون من عهود الشياطين ، و يكون أدوية و أدخنة وغير ذلك ، قال : وقوله عليه السلام : « إن من البيان لسحراً » يحتمل أن يكون مدحاً كما تقوله طائفة ، ويحتمل أن يكون ذماً للبلاغة قال : و هذا أصح ، قال لأنها تصوب الباطل حتى توهم السامع أنه حق ، كما قال عليه

(١) الصحيح أنه موقوف على جندب رضي الله عنه

الصلاة والسلام: «فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له» الحديث.

(فصل) و قد ذكر الوزير أبو المظفر يحي بن محمد بن هبيرة رحمه الله في كتابه «الإشراف على مذاهب الأشراف» باباً في السحر فقال: أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فإنه قال: لاحقيقة له عنده، واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله، فقال أبو حنيفة و مالك و أحمد يكفر بذلك. و قال الشافعي رحمه الله: إذا تعلم الساحر قلنا له صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر، قال ابن هبيرة: وهل يقتل بمجرد فعله و استعماله؟ فقال مالك و أحمد: نعم، و قال الشافعي و أبو حنيفة: لا، فأما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يقتل عند مالك و الشافعي و أحمد، و قال أبو حنيفة: لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك في حق شخص معين، وإذا قتل فإنه يقتل حداً عندهم إلا الشافعي فإنه قال: يقتل والحالة هذه قصاصاً قال: و هل إذا تاب الساحر تقبل توبته؟ فقال مالك و أبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم: لا تقبل، و قال الشافعي و أحمد في الرواية الأخرى: تقبل، و أما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم، و قال مالك وأحمد والشافعي: لا يقتل يعني لقصة لبيد بن الأعصم، واختلفوا في المسلمة الساحرة فعند أبي حنيفة أنها لا تقتل ولكن تحبس، و قال الثلاثة حكمها حكم الرجل، و الله أعلم.

و قد نقل القرطبي عن مالك رحمه الله، أنه قال في الذمي يقتل إن قتل سحره، و حكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين في الذمي إذا سحر: إحداهما أنه يستتاب فإن أسلم و إلا قتل، و الثانية: أنه يقتل و إن أسلم، وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفراً كفر عند الأئمة الأربعة و غيرهم، لقوله تعالى: ﴿و ما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾. لكن قال مالك إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق، فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائباً قبلناه، فإن قتل سحره قتل. (مسألة) و هل يسئل الساحر حلاً لسحره فأجاز سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري، و قال عامر الشعبي: لا بأس بالنشرة و كره ذلك الحسن البصري، وفي الصحيح عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله هلا تنشرت، فقال: «أما الله فقد شفاني و خشيت أن أفتح على الناس شراً».

وحكى القرطبي عن وهب أنه قال: يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء و يقرأ عليها آية الكرسي و يشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فإنه يذهب ما به، و هو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته (قلت) أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله في ذهاب ذلك و هما المعوذتان، وفي الحديث «لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما»[1] و كذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشياطين.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾

(١) رواه النسائي (٨/ ٢٥١) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

١٠٤ - نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم و فعالهم، و ذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص، عليهم لعائن الله، فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا يقولون: راعنا، ويورون بالرُّعونة كما قال تعالى: **﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع و راعنا لياً بألسنتهم و طعناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا و أطعنا و اسمع و انظرنا لكان خيراً لهم و أقوم، و لكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾**، و كذلك جاءت الأحاديث بالأخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون: السام عليكم، و السام هو الموت، و لهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ «وعليكم»، وإنما يستجاب لنا فيهم و لا يستجاب لهم فينا، و الغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا و قولوا انظرنا و اسمعوا و للكافرين عذاب أليم﴾** و روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ «بُعثتُ بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبدَ الله وحده لا شريك له، و جُعِل رزقي تحت ظلّ رمحي، و جعلت الذّلة و الصَّغار على من خالف أمري، و من تَشبَّهَ بقوم فهو منهم». ففيه دلالة على: النهي الشديد، و التهديد و الوعيد، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم و أعيادهم وعباداتهم، و غير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولانقر عليها. عن ابن عباس **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾** قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنا سمعك و إنما راعنا، كقولك: عاطنا. و قال ابن أبي حاتم: و روي عن أبي العالية و أبي مالك و الربيع بن أنس، و عطية العوفي و قتادة نحو ذلك، قال ابن جرير: و الصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ راعنا، لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولها لنبيه ﷺ، نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا للعنب الكَرْم ولكن قولوا الحَبَلة، و لا تقولوا عبدي و لكن قولوا فتاي» و ما أشبه ذلك.

١٠٥ - و قوله تعالى: **﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب و لا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾** يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين، ليقطع المودة بينهم و بينهم، و نبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لنبيهم محمد ﷺ حيث يقول: **﴿والله يختص برحمته من يشاء و الله ذو الفضل العظيم﴾**.

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) ﴾

١٠٦، ١٠٧ - قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما **﴿ما ننسخ من آية﴾** ما نبدل من آية، و قال مجاهد **﴿ما ننسخ من آية﴾** أي ما نمحو من آية، و قال ابن أبي حاتم: يعني قبضها و رفعها، مثل قوله «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، و قوله «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً» و قال ابن جرير: **﴿ما ننسخ من آية﴾**، ماننقل من حكم آية إلى غيره، فنبدله و نغيره، وذلك أن نحول الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، و المحظور مباحاً و لا يكون ذلك، إلا في الأمر و النهي و الحظر و الإطلاق والمنع و الإباحة، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ و لا منسوخ، و أصل النسخ: من نسخ الكتاب و هو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله، و نقل عبارة إلى غيرها، و سواء

نسخ حكمها أو خطها، إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة. و أما علماء الأصول، فاختلفت عباراتهم في حد النسخ، والأمر في ذلك قريب، لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء و لَحَظَ بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر. فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل و عكسه و النسخ لا إلى بدله، و أما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوطة، في أصول الفقه.

و قوله تعالى: ﴿أو ننسها﴾، فقرئ على وجهين، ننسأها وننسها، فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها. قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس، ﴿ما ننسخ من آية أو ننسأها﴾، يقول ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها، و أما على قراءة ﴿أو ننسها﴾، فقال قتادة: كان الله عز و جل يُنسي نبيهﷺ مايشاء، و ينسخ ما يشاء. و روى البخاري عن ابن عباس قال: قال عمر: أقرؤنا أبي و أقضانا علي، وإنا لندع من قول أبي، و ذلك أن أُبيا يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول اللهﷺ، و قد قال الله: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾ وقوله ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾، أي في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال ابن عباس ﴿نأت بخير منها﴾ خير لكم في المنفعة و أرفق بكم. و قال قتادة: ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ يقول: آية فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهي، و قوله ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ◆ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض و ما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يُرشدعباده تعالى بهذا، إلى أنه المتصرِّف في خلقه، بما يشاء فله الخلق و الأمر و هو المتصرف، فكما خَلَقَهم كما يشاء، و يسعد من يشاء، و يشقي من يشاء و يصح من يشاء و يمرض من يشاء، و يوفق من يشاء، و يخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء و يبيح ما يشاءو يحظر ما يشاء و هو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، و لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، و يختبر عباده و طاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره و اتباع رسله في تصديق ما أخبروا، و امتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا.

و في هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود و تزييف شبهتهم لعنهم الله، في دعوى استحالة النسخ، إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، و إما نقلاً كما تخرّصه آخرون منهم افتراءوإفكاً، قال الإمام أبو جعفر ابن جرير رحمه الله و هذا الخبر وإن كان خطاباً من الله تعالى، لنبيهﷺ على وجه الخبر، عن عظمته فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود، الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة و جحدوا نبوة عيسى و محمد عليهما الصلاةو السلام، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله، بتغييرما غيرالله من حكم التوراة، فأخبرهم الله أن له ملك السموات و الأرض و سلطانهما، و أن الخلق أهل مملكته و طاعته، و عليهم السمع و الطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء و نهيهم عما يشاء، و نسخ ما يشاء، و إقرار ما يشاء، و إنشاء ما يشاء من إقراره و أمره و نهيه.

(قلت) الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ، إنما هو الكفر و العناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى، لأنه يحكم ما يشاء، كما أنه يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة و شرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، و كما أباح لنوح، بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، و كان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل و بنيه،

وقد حُرِّم ذلك في شريعة التوراة و ما بعدها، و أمر إبراهيم بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل، و أمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كي لا يستأصلهم القتل، و أشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك و يصدقون عنه و ما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية فلا يصرف الدلالة في المعنى، إذ هوالمقصود، و كما في كتبهم مشهوراً من البشارة بمحمدﷺ و الأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعته عليه الصلاة و السلام، و أنه لايقبل عمل إلا على شريعته، و سواء قيل إن الشرائع المتقدمة مغيّاة إلى بعثه عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً لقوله: ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾، و قيل: إنها مطلقة، و إن شريعة محمدﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب متابعته متعين، لأنه جاء بكتاب و هوآخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى، ففي هذا المقام بيّن تعالى جواز النسخ، رداً على اليهود عليهم لعنة الله، حيث قال تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ◆ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء ﴿ألا له الخلق و الأمر﴾ و قرئ في سورة آل عمران، التي نزل في صدرها خطاباً مع أهل الكتاب، وقوع النسخ في قوله تعالى ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه﴾ الآية، كما سيأتي تفسيره و المسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وكلهم قال بوقوعه، و قال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن، و قوله هذا ضعيف مردود مرذول.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

١٠٨ - نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبيﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم و إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، و لا تسألوا عن الشيء قبل كونه فلعله أن يُحرم من أجل تلك المسألة، و لهذا جاء في الصحيح: «إن أعظمَ المسلمين جُرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحُرِّم من مسألته» و لما سئل رسول اللهﷺ عن الرجل يجد امرأته مع رجلٍ فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، و إن سكت سكت على مثل ذلك، فكره رسول الله المسائل و عابها، ثم أنزل الله حكم الملاعنة، ولهذا ثبت في الصحيحين، من حديث المغيرة بن شعبة: أن رسول اللهﷺ كان ينهى عن قيل و قال، و إضاعة المال، و كثرة السؤال.

و في صحيح مسلم «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، و إن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» و هذا إنما قاله بعد ما أخبرهم، «أن الله كتب عليهم الحج، فقال رجل أكل عام: يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول اللهﷺ ثلاثاً، ثم قال عليه السلام: «لا، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم»، ثم قال «ذروني ما تركتكم» الحديث، و لهذا قال أنس بن مالك: نُهينا أن نسأل رسول اللهﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله و نحن نسمع.

و روى الحافظ أبو يعلى في مسنده عن البراء بن عازب، قال: إن كان ليأتي علي السنة، أريد أن أسأل رسول اللهﷺ عن الشيء، فأتهيب منه و إن كنّا لنتمنى الأعراب. وروى البزار عن ابن عباس، قال: ما رأيت

قوماً خيراً من أصحاب محمدﷺ، ما سألوه إلا عن اثنتي عشرة مسألة كلها في القرآن ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ و ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ ﴿ويسألونك عن اليتامى﴾، يعني هذا و أشباهه. و قوله تعالى: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل﴾ أي بل تريدون، أو هي على بابها في الاستفهام، و هو إنكاري، وهو يعم المؤمنين و الكافرين، فإنه عليه السلام رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ و قال مجاهد: أن يريهم الله جهرة، قال: سألت قريش محمداًﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، قال: «نعم و هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل»، فأبوا و رجعوا، و عن السدي و قتادة نحو هذا، و الله أعلم.

و المراد أن الله ذم من سأل الرسولﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً و تكذيباً و عناداً. قال الله تعالى: ﴿و من يتبدل الكفر بالإيمان﴾، أي و من يشتر الكفر بالإيمان ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل و الضلال. و هكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء، و اتباعهم و الانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم، و الاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت و الكفر، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً و أحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار﴾، و قال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)﴾

١٠٩، ١١٠ - يُحذِّر تعالى: عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، و يُعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن و الظاهر، و ماهم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم و فضل نبيهم، و يأمر عباده المؤمنين بالصفح و العفو و الاحتمال، حتى يأتي أمر الله من النصر و الفتح، و يأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، و يحثهم على ذلك و يُرغبهم فيه، و روى عبدالرزاق عن الزهري في قوله تعالى ﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾ قال: هو كعب بن الأشرف، و روى ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه أن كعب بن الأشراف اليهودي كان شاعراً، و كان يهجو النبيﷺ، و فيه أنزل الله ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم﴾ إلى قوله ﴿فاعفوا واصفحوا﴾.

و قول الله تعالى: ﴿كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ يقول من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئاً، و لكن الحسد حملهم على الجحود، فعيَّرهم ووبخهم و لامهم أشد الملامة، و شرع لنبيهﷺ وللمؤمنين، ما هم عليه من التصديق والإيمان و الإقرار بما أنزل الله عليهم، و بما أنزل من قبلهم، بكرامته و ثوابه الجزيل و معونته لهم، وقال أبوالعالية ﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾، من بعد ما تبين أن محمداً

رسول الله، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة و الإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً؛ إذ كان من غيرهم، و كذا قال قتادة والربيع بن أنس، و قوله: ﴿فاعفوا و اصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾، مثل قوله تعالى: ﴿ولتسمعُنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله، ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾، نَسخ ذلك قوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾، وقوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾، إلى قوله ﴿وهم صاغرون﴾، فنسخ هذا عفوه عن المشركين، وكذا قال أبو العالية و الربيع بن أنس و قتادة والسدي، إنها منسوخة بآية السيف، و يرشد إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾.

و روى ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين و أهل الكتاب، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير﴾ وكان رسول الله ﷺ، يتأول من العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل صناديد قريش، و هذا إسناد صحيح و لم أره في شيء من الكتب الستة، و لكن له أصل في الصحيحين عن أسامة. و قوله تعالى: ﴿و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة و ما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾، يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم، و تعود عليهم عاقبته يوم القيامة، من إقام الصلاة و إيتاء الزكاة، حتى يُمكّن لهم الله النصر في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد، ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة و لهم سوء الدار﴾، و لهذا قال تعالى: ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾، يعني أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، و لا يضيع لديه، سواء كان خيراً أو شراً، فإنه سيجازي كل عامل بعمله.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)﴾

١١١ - يبين تعالى اغترار اليهود و النصارى بما هم فيه، حيث ادّعتْ كل طائفة من اليهود والنصارى، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة، أنهم قالوا: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا، لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم، أنه لن تمسّهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، و رد عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل و لا حجة و لا بينة، فقال: ﴿تلك أمانيهم﴾، و قال أبو العالية: أماني تمنوها على الله بغير حق، و كذا قال قتادة و الربيع بن أنس، ثم قال تعالى ﴿قل﴾ أي يا محمد ﴿هاتوا برهانكم﴾ قال أبو العالية و مجاهد و السدي و الربيع بن أنس: حجتكم، وقال قتادة: بينتكم على ذلك، ﴿إن كنتم صادقين﴾، أي فيما تدعونه.

١١٢- ثم قال تعالى: ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾، أي من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾الآية، و قال سعيد بن جبير: ﴿بلى من أسلم﴾ أخلص ﴿وجهه﴾، قال دينه ﴿و هو محسن﴾ أي اتبع فيه الرسول ﷺ، فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما أن يكون صواباً خالصاً لله وحده، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، فمتى كان خالصاً و لم يكن صواباً لم يتقبل، و لهذا قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ»، رواه مسلم من حديث عائشة عنه عليه الصلاة و السلام، فعمل الرهبان و من شابههم، و إن فُرض أنهم مخلصون فيه لله، فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ، المبعوث إليهم و إلى الناس كافة، و فيهم و أمثالهم قال الله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ و قال تعالى: ﴿و الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا﴾، و قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية﴾، و روي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، أنه تأولها في الرهبان كما سيأتي، و أما إن كان العمل موافقاً للشريعة، في الصورة الظاهرة، و لكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضاً مردود على فاعله، و هذا حال المرائين و المنافقين، كما قال تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو يخادعهم و إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾، و قال تعالى: ﴿فويل للمصلين◆ الذين هم عن صلاتهم ساهون◆ الذين هم يراءون ◆و يمنعون الماعون﴾ و لهذا قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً و لا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ و قال في هذه الآية الكريمة: ﴿بلى من أسلم وجهه لله و هو محسن﴾، و قوله: ﴿فله أجره عند ربه و لا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾، ضَمِنَ لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، و آمنهم مما يخافونه من المحذور، ﴿فلا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلونه، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير، ﴿فلا خوف عليهم﴾ يعني في الآخرة، ﴿ولاهم يحزنون﴾ يعني لا يحزنون للموت.

١١٣- و قوله تعالى: ﴿و قالت اليهود ليست النصارى على شيء و قالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾، بين به تعالى تناقضهم و تباغضهم وتعاديهم و تعاندهم، و قال مجاهد في تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود و النصارى على شيء، و قال قتادة: ﴿و قالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ قال: بلى، قد كانت أوائل النصارى على شيء، و لكنهم ابتدعوا وتفرقوا، ﴿و قالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ قال: بلى، قد كانت أوائل اليهود على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، و عنه رواية أخرى كقول أبي العالية و الربيع بن أنس في تفسير هذه الآية: ﴿و قالت اليهود ليست النصارى على شيء و قالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، و هذا القول يقتضي، أن كلاً من الطائفتين صَدَقت فيما رمت به الطائفة الأخرى، ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك، و لهذا قال تعالى: ﴿وهم يتلون الكتاب﴾، أي و هم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، و لكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً و كفراً ومقابلة للفساد، كما تقدم عن ابن عباس و مجاهد و قتادة في الرواية الأولى عنه في تفسيرها، و الله أعلم.

و قوله: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾، بين بهذا جهل اليهود و النصارى فيما تقابلوا من

القول و هذا من باب الإيماء و الإشارة . وقد اختلف فيمن عني بقوله تعالى: ﴿الذين لايعلمون﴾ فقال الربيع بن أنس و قتادة : و قالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم ، و قال ابن جريج : قلت لعطاء من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال : أمم كانت قبل اليهود و النصارى و قبل التوراة و الإنجيل ، وقال السدي كذلك ﴿قال الذين لا يعلمون﴾ ، فهم العرب ، قالوا ليس محمد على شيء ، واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع ، وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال ، والحمل على الجميع أولى ، و الله أعلم .

و قوله تعالى : ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ ، أي أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ، و يفصل بينهم بقضاءه العدل ، الذي لايجور فيه و لا يظلم مثقال ذرة ، و هذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج : ﴿إن الذين آمنوا و الذين هادوا و الصابئين و النصارى و المجوس و الذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾ ، و كما قال تعالى : ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق و هو الفتاح العليم﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤) ﴾

١١٤ - اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله و سعوا فيخرابها ، على قولين : أحدهما ما رواه العوفي في تفسيره عن ابن عباس ، في قوله : ﴿و من أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾ قال : هم النصارى و قال مجاهد : هم النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى و يمنعون الناس أن يصلوا فيه ، وعن قتادة في قوله : ﴿و سعى في خرابها﴾ قال هو بختنصر وأصحابه ، خرب بيت المقدس ، و أعانه على ذلك النصارى . و قال قتادة : قال أولئك أعداء الله ، النصارى حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس ، (القول الثاني) ، ما رواه ابن جرير عن ابن زيد في قوله ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه و سعى في خرابها﴾ ، قال : هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، و بين أن يدخلوا مكة ، حتى نحر هديه بذي طوي ، و هادنهم و قال لهم : «ما كان أحد يصد عن هذا البيت ، و قد كان الرجل ، يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده» فقالوا : لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق ، وفي قوله : ﴿و سعى في خرابها﴾ قال إذ قطعوا من يعمرها بذكره و يأتيها للحج والعمرة . ثم اختار ابن جرير القول الأول ، و احتج بأن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة ، و أما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس ، (قلت) و الذي يظهر ، و الله يعلم ، القول الثاني كما قاله ابن زيد . وروي عن ابن عباس ، لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس ، كان دينهم أقوم من اليهود ، وكانوا أقرب منهم ، و لم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك ، لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

وأيضاً فإنه تعالى ، لما وجّه الذم في حق اليهود والنصارى ، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ و أصحابه من مكة ، و منعوهم من الصلاة في المسجد الحرام ، و أما إعتماده على أن قريشاً لم تَسْعَ في خراب الكعبة ، فأيُّ خَرابٍ أعظم مما فعلوا! أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه ، و استحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم ، كما قال تعالى : ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام و ما كانوا

أولياءه إن أولياءه إلا المتقون و لكن أكثرهم لا يعلمون﴾، و قال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم و في النار هم خالدون ◆ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله و اليوم الآخر و أقام الصلاة و آتى الزكاة و لم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ و قال تعالى: ﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام و الهدي معكوفاً أن يبلغ محله و لولا رجال مؤمنون و نساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ فقال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله و اليوم الآخر و أقام الصلاة و آتى الزكاة و لم يخش إلا الله﴾، فإذا كان من هو كذلك مطرودا منها مصدوداً عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك؟ و ليس المراد من عمارتها زخرفتها و إقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها و إقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك.

و قوله تعالى: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾، هذا خبر معناه الطلب، أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها، إلا تحت الهدنة و الجزية، و لهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة، أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادي برحاب منى: «ألا لا يحجّن بعد العام مشرك، و لا يطوفنّ بالبيت عريان، و من كان له أجل فأجله إلى مدته»، و هذا إنما كان تصديقاً و عملاً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾، و قال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين، على حال التهيب و ارتعاد الفرائص من المؤمنين، أن يبطشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليها و يمنعوا المؤمنين منها، والمعنى ما كان الحق و الواجب إلا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم، و قيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين، أنه سيظهرهم على المسجد الحرام و على سائر المساجد، و أنه يذل المشركين لهم، حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم، إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل، إن لم يُسلِم. وقد أنجز الله هذا الوعد، كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، و أوصى رسول الله ﷺ، أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، و أن يجلي اليهود و النصارى منها، و لله الحمد والمنة. و ما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة، بشيراً و نذيراً، صلوات الله و سلامه عليه، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا، لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صُدّوا عنه، و كما أجلوهم من مكة أجلوا عنها، ﴿و لهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، و امتهنوه من نصب الأصنام حوله، و دعاء غير الله عنده، و الطواف به عرياناً و غير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله و رسوله، و فسر الخزي في الدنيا: بخروج المهدي، عند السدي و عكرمة و وائل بن داود، و فسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون، والصحيح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله.

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾

١١٥- و هذا، و الله أعلم، فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه، الذين أخرجوا من مكة، و فارقوا مسجدهم ومصلاهم، و قد كان رسول الله ﷺ، يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة، وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، و لهذا يقول تعالى: ﴿ولله

المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾، روى أبوعبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ: عن ابن عباس قال: أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا، والله أعلم، شأن القبلة، قال الله تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ فاستقبل رسول الله ﷺ، فصلى نحو بيت المقدس و ترك البيت العتيق، ثم صرفه إلى بيته العتيق و نسخها. فقال ﴿و من حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، و كان أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً و كان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، و كان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ إلى قوله ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ فارتاب من ذلك اليهود، و قالوا: ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله ﴿قل لله المشرق و المغرب﴾، و قال: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ و قال عكرمة عن ابن عباس ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ قال: قبلة الله أينما توجهت شرقاً وغرباً، و قال مجاهد ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، و إنما أنزلها ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه، أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاؤوا من نواحي المشرق و المغرب، لأنهم لايوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية، إلا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه و تلك الناحية، لأن له تعالى المشارق والمغارب، قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام هكذا قال.

و قال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، إذناً من الله أن يصلي المتطوع، حيث توجه من شرق أو غرب، في مسيره في سفره، و في حال المسايفة وشدة الخوف. فعن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله ﷺ، كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾، رواه مسلم. و في صحيح البخاري من حديث نافع عن ابن عمر أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك، صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم و ركباناً مستقبلي القبلة و غير مستقبليها، قال نافع: ولاأرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ. قال ابن جرير: و قال آخرون: بل نزلت الآية في قوم عميت عليهم القبلة، فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله تعالى: لي المشارق و المغارب فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهي، وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية. روى الحافظ ابن مردويه في تفسيره عن جابر قال: بعث رسول الله ﷺ سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة، فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة هي ههنا قبل الشمال فصلوا وخطوا خطوطاً، فلما أصبحوا و طلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي ﷺ فسكت وأنزل الله تعالى: ﴿ولله المشرق و المغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾. و هذه الأسانيد فيها ضعف، ولعله يشد بعضه بعضاً، وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء، وهذه دلائل على عدم القضاء، و الله أعلم.

و روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بين المشرق و المغرب قبلة» ثم قال: هذا صحيح، قال ابن جرير: و يحتمل فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهنالك وجهي أستجيب لكم دعاءكم. و معنى قوله ﴿إن الله واسع عليم﴾ يسع خلقه كلهم بالكفاية و الجود و الإفضال، و أما قوله ﴿عليم﴾ فإنه يعني عليم

بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء و لا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (١١٧)﴾

١١٦ - اشتملت هذه الآية الكريمة و التي تليها على الرد على النصارى عليهم لعائن الله، و كذا من أشبههم من اليهود و من مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذبهم الله جميعهم في دعواهم و قولهم إن لله ولداً، فقال تعالى: ﴿سبحانه﴾ أي تعالى وتقدس و تنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ أي ليس الأمر كما افتروا، و إنما له ملك السموات و الأرض ومن فيهنّ، و هو المتصرف فيهم و هو خالقهم ورازقهم ومقدِّرهم و مسخِّرهم و مسيِّرهم ومصرِّفهم كما يشاء، والجميع عبيدٌ له و ملك له، فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، و هو تبارك وتعالي ليس له نظير و لا مشارك في عظمته وكبريائه و لا صاحبة له فكيف يكون له ولد؟ كما قال تعالى: ﴿بديع السموات و الأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة و خلق كل شيء و هو بكل شيء عليم﴾ وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً♦لقد جئتم شيئاً إداً♦تكاد السموات يتفطرن منه و تنشق الأرض و تخر الجبا ل هداً♦ أن دعوا للرحمن ولداً♦و ما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً♦ إن كل من في السموات و الأرض إلا آت الرحمن عبداً♦ لقد أحصاهم وعدهم عداً♦ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ و قال تعالى: ﴿قل هو الله أحد♦ الله الصمد♦ لم يلد ولم يولد♦ و لم يكن له كفواً أحد﴾، فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له و لا شبيه له، و أن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد؟ و لهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس عن النبيﷺ قال: «قال الله تعالى: كذّبني ابنُ آدم و لم له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدرُ أن أعيده كما كان، و أما شتمه إياي فقوله لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً»، و في الصحيحين عن رسول اللهﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً و هو يرزقهم و يعافيهم».

وقوله: ﴿كل له قانتون﴾ قال عكرمة و أبو مالك: ﴿كل له قانتون﴾ مقرون له بالعبودية، و قال سعيد بن جبير: ﴿كل له قانتون﴾، يقول الإخلاص، و قال الربيع بن أنس: أي: قائم يوم القيامة، و قال السدي: ﴿كل له قانتون﴾ أي: مطيعون يوم القيامة، و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: كل له قانتون مطيعون، قال: طاعة الكافر في سجود ظله و هو كاره، و هذا القول عن مجاهد - و هو اختيار ابن جرير - يجمع الأقوال كلها و هو أن القنوت هو الطاعة و الاستكانة إلى الله وهو شرعي وقدري، كما قال الله تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً و كرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾.

١١٧ - و قوله تعالى: ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي: خالقهما على غير مثال سبق؛ قال مجاهد والسدي: وهو مقتضى اللغة، و منه يقال للشيء المحدث بدعة، كما جاء في صحيح مسلم: «فإن كل محدثة بدعة» والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: «فإن كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة»، و تارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح و استمرارهم:

نعمت البدعة هذه.

قال ابن جرير: فمعنى الكلام سبحان الله أن يكون له ولد، و هو مالك ما في السموات و الأرض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية، و تقر له بالطاعة، و هو بارئها وخالقها وموجدها، من غير أصل و لا مثال احتذاها عليه، و هذا إعلام من الله لعباده، أن ممن يشهدله بذلك المسيح، الذي أضافوا إلى الله بنوته، و إخبار منه لهم، أن الذي ابتدع السموات و الأرض من غير أصل، و على غير مثال، هو الذي ابتدع المسيح عيسى، من غير والد بقدرته. و هذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد و عبارة صحيحة. و قوله تعالى: ﴿و إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ يبين بذلك تعالى كمال قدرته و عظيم سلطانه، و أنه إذا قدّر أمراً و أراد كونه، فإنما يقول له كن، أي: مرة واحدة فيكون، أي: فيوجد، على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾، و قال تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾، و قال تعالى: ﴿و ما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾.

و نبه بذلك أيضاً: على أن خلق عيسى بكلمة «كن» كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) ﴾

١١٨ - يروى عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه؛ فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿و قال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾، وقال مجاهد: ﴿و قال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾، قال: النصارى تقوله، وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهم، وفي ذلك نظر، و حكى القرطبي: ﴿لولا يكلمنا الله﴾، أي: يخاطبنا بنبوتك يا محمد، (قلت): و ظاهر السياق أعم، و الله أعلم، و قال أبو العالية و الربيع بن أنس وقتادة و السدي في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب ﴿كذلك قال الذين من قبلهم﴾، قال: هم اليهود والنصارى، و يؤيد هذا القول، و أن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: ﴿و إذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿و قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ إلى قوله: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾، وقوله تعالى: ﴿و قال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ الآية، و قوله تعالى: ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب و عتوهم و عنادهم و سؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر و المعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾، و قال تعالى: ﴿و إذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، و قوله تعالى: ﴿تشابهت قلوبهم﴾؛ أي أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر و العناد و العتو، كما قال تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من

قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به﴾ الآية.
وقوله تعالى: ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾، أي قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل، بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر و زيادة أخرى لمن أيقن و صدق و اتبع الرسل، و فهم ما جاؤوا به عن الله تبارك و تعالى، و أما من ختم الله على قلبه وسمعه، و جعل على بصره غشاوة، فأولئك قال الله فيهم: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون و لو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾

١١٩- قوله: ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ قراءة أكثرهم ولاتسأل بضم التاء، على الخبر وفي قراءة أبي ابن كعب: وما تسأل، و في قراءة ابن مسعود: و لن تسأل عن أصحاب الجحيم، نقلها ابن جرير، أي: لا نسألك عن كفر من كفر بك، كقوله: ﴿فإنما عليك البلاغ و علينا الحساب﴾، وكقوله تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾ الآية، و كقوله تعالى: ﴿نحن أعلم بما يقولون و ما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾، وأشباه ذلك من الآيات، و قرأ آخرون: ﴿و لا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ بفتح التاء على النهي، أي: لا تسأل عن حالهم.

وأخرج البخاري عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً و حِرْزاً للأميين، و أنت عبدي و رسولي سميتك المتوكل، لا فظٌ و لا غليظ ولا صخاب في الأسواق، و لا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو و يغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح به أعيناً عُمياً، و آذاناً صماً، وقلوباً غُلفاً.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)﴾

١٢٠- قال ابن جرير: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ولن ترضى عنك اليهود و النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ و ليست اليهود يا محمد و لا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، و أقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، و قوله تعالى: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أي: قل يا محمد إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل، ﴿و لئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾ فيه تهديد ووعيد شديد للأمة، عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن و السنة، عياذاً بالله من ذلك فإن الخطاب مع الرسول و الأمر لأمته.

و قد استدل كثير من الفقهاء بقوله: ﴿حتى تتبع ملتهم﴾ حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة، كقوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ فعلى هذا لا يتوارث المسلمون و الكفار، و كل منهم يرث قريبه سواء كان من أهل دينه أم لا، لأنهم كلهم ملة واحدة وهذا مذهب الشافعي و أبي حنيفة وأحمد في رواية عنه، و قال

في الرواية الأخرى كقول مالك، إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى، كما جاء في الحديث[1]، و الله أعلم.

١٢١- و قوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾ قال قتادة: هم اليهود و النصارى، و هو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و اختاره ابن جرير، و قال قتادة أيضاً: هم أصحاب رسول الله ﷺ، و قال ابن مسعود: و الذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يُحلَّ حلاله، و يُحرِّم حرامه، ويقرأه كما أنزل الله، و لا يحرِّف الكلم عن مواضعه، و لا يتأول منه شيئاً على غير تأويله. وقال الحسن البصري: يعملون بمحكمه و يؤمنون بمتشابهه، ويَكِلُون ما أشكل عليهم إلى عالمه، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: ﴿و القمر إذا تلاها﴾ يقول: اتبعها، قال: وروي عن عكرمة و عطاء ومجاهد وأبي رزين وإبراهيم النخعي نحو ذلك. و قوله: ﴿أولئك يؤمنون به﴾ خبر عن ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾ أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: ﴿و لو أنهم أقاموا التوراة و الإنجيل و ما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ الآية، ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة و الإنجيل و ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي: إذا أقمتموها حق الإقامة، و آمنتم بها حق الإيمان، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته و الأمر باتباعه و نصره و مؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق و اتباع الخير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ۞ ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾ أي: إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعاً، و قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ۞ و إذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ۞ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة و مما رزقناهم ينفقون﴾ وقال تعالى: ﴿و قل للذين أوتوا الكتاب و الأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا و إن تولوا فإنما عليك البلاغ و الله بصير بالعباد﴾ و لهذا قال تعالى: ﴿و من يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾ كما قال تعالى: ﴿و من يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ وفي الصحيحين: «و الذي نفسي بيده لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، يهوديٌّ و لا نصرانيٌّ ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار».

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

١٢٢، ١٢٣- قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، و كررت للتأكيد و الحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم نعته و اسمه و أمره و أمته فحذرهم من كتمان هذا، و كتمان ما أنعم به عليهم وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية و الدينية، و لا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، و لا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته و تكذيبه و الحيدة عن موافقته، صلوات الله و سلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

---

(١)- رواه أبو داود من حديث علي رضي الله عنه و هو حسن.

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾

١٢٤- يقول تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليله ﷺ وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يُقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر و النواهي، ولهذا قال: ﴿و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين و أهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم و ليسوا عليها، و إنما الذي هو عليها مستقيم فأنت و الذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر و النواهي ﴿فأتمهن﴾ أي: قام بهن كلهن كما قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾ أي: وفّى جميع ما شرع الله له فعمل به صلوات الله عليه وقال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ◆ شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ◆ وآتيناه في الدنيا حسنة و إنه في الآخرة لمن الصالحين ◆ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ و قال تعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ◆ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾، و قال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً و لا نصرانياً و لكن كان حنيفاً مسلماً و ما كان من المشركين ◆ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي و الذين آمنوا و الله ولي المؤمنين﴾.

وقوله تعالى: ﴿بكلمات﴾ أي: بشرائع و أوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، و يراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿و صدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ و تطلق، ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿و تمت كلمة ربك صدقاً و عدلاً﴾ أي: كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، و إما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً، و من ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾، أي: قام بهن قال: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ أي: جزاء على ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة، و إماماً يقتدى به و يحتذى حذوه.

وقد اختلف في تعين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل ﷺ، فروي عن ابن عباس في ذلك روايات، فروى عبد الرزاق عن ابن عباس: ابتلاه الله بالمناسك، وروى عبد الرزاق أيضاً عن ابن عباس ﴿و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾، قال: ابتلاه بالطهارة خمسٌ في الرأس و خمسٌ في الجسد، في الرأس قص الشارب و المضمضة و الاستنشاق و السواك وفَرْق الرأس، و في الجسد: تقليم الأظفار و حلق العانة والختان ونتف الإبط و غسل أثر الغائط والبول بالماء، قال ابن أبي حاتم: و روي عن سعيد بن المسيب و مجاهد والشعبي و النخعي، و أبي صالح و أبي الجلد نحو ذلك.

(قلت): و قريب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب و إعفاء اللحية و السواك واستنشاق الماء و قص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط و حلق العانة و انتقاص الماء، و نسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة». قال وكيع: انتقاص الماء يعني الاستنجاء، و في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الفطرة خمس: الختان و الاستحداد و قص الشارب و تقليم الأظفار و نتف الإبط»، و لفظه لمسلم. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقول في

تفسير هذه الآية: ﴿و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ قال: عشرٌ، ست في الإنسان، و أربع في المشاعر، فأما التي في الإنسان حلق العانة، و نتف الإبط و الختان، و كان ابن هبيرة يقول: هؤلاء الثلاثة واحدة، و تقليم الأظفار وقص الشارب والسواك و غسل يوم الجمعة، و الأربعة التي في المشاعر: الطواف و السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار و الإفاضة. و عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلي بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿و إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ قلت له: و ما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات في براءة ﴿التائبون العابدون﴾ إلى آخر الآية، و عشر آيات في أول سورة: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ و ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ و عشر آيات في الأحزاب: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة، قال الله: ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾ رواه الحاكم و ابن جرير و ابن أبي حاتم.

وروى ابن جرير عن قتادة قال: كان الحسن يقول: أي و الله لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه، ابتلاه بالكوكب والشمس و القمر، فأحسن في ذلك وعرف أن ربه دائم لايزول، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، و ما كان من المشركين، ثم ابتلاه بالهجرة، فخرج من بلاده وقومه، حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة، فصبر على ذلك، وابتلاه بذبح ابنه و الختان، فصبر على ذلك، قال أبو جعفر ابن جرير ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر، و جائز أن يكون بعض ذلك و لا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع، قال: و لم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد و لا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له.

وقوله: ﴿قال و من ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك و أخبر أنه سيكون من ذريته، ظالمون و أنه لا ينالهم عهد الله، و لا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم، والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿و جعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فكل نبي أرسله الله، و كل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله و سلامه عليه. و قال الربيع بن أنس: عهد الله الذي عهد إلى عباده: دينه، يقول: لا ينال دينه الظالمين، ألا ترى أنه قال: ﴿و باركنا عليه و على إسحاق و من ذريتهما محسن و ظالم لنفسه مبين﴾ يقول: ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق، وكذا روي عن أبي العالية و عطاء ومقاتل. واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر، أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه، كما تقدم عن مجاهد و غيره، والله أعلم.

و قال ابن خويز منداد المالكي: الظالم لايصلح أن يكون خليفة و لا حاكماً و لا مفتياً و لا شاهداً ولا راوياً.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى (١٢٥)﴾

١٢٥- روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿و إذ جعلنا البيت مثابة للناس﴾ يقول: لا يقضون فيه وطراً، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: مثابة للناس يقول يثوبون، رواهما ابن جرير. وروي عن ابن وهب قال: قال ابن زيد: ﴿و إذ جعلنا البيت مثابة للناس﴾ قال:

يثوبون إليه من البلدان كلها و يأتونه ، و مضمون ما فسر هؤلاء الأئمة هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاًبه شرعاً وقدراً ، من كونه مثابة للناس ، أي جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح ، وتحن إليه ، و لا تقضي منه وطراً و لو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى ، لدعاء خليله إبراهيمعليه السلام ، في قوله **﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾** إلى أن قال : **﴿ربنا و تقبل دعاء﴾** ويصفه تعالى بأنه جعله آمناً من دخله أمن ، و لو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً ، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه ، فلا يعرض له ، كما وصف في سورة المائدة في قوله تعالى : **﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾** أي يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء ، كما قال ابن عباس : لو لم يحج الناس هذا البيت ، لأطبق الله السماء على الأرض ، وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً ، وهو خليل الرحمن ، كما قال تعالى : **﴿و إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بي شيئاً﴾** . و قال تعالى : **﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً و هدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم و من دخله كان آمناً﴾** .

و في هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده ، فقال **﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** ، و قد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو؟ فروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** قال : مقام إبراهيم الحرم كله و روي عن مجاهد و عطاء مثل ذلك ، و روي عن ابن جريج قال : سألت عطاء عن **﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** فقال سمعت ابن عباس قال : أما مقام إبراهيم الذي ذكر ههنا ، فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد ، ثم قال : و **﴿مقام إبراهيم﴾** يعد كثير مقام إبراهيم الحج كله ، ثم فسره لي عطاء فقال : التعريف و صلاتان بعرفة ، والمشعر ، و منى ، و رمي الجمار ، و الطواف بين الصفا والمروة ، فقلت أفسره ابن عباس؟ قال لا . ولكن قال مقام إبراهيم الحج كله . قلت : أسمعت ذلك لهذا أجمع؟ قال : نعم سمعته منه . وعن سعيد بن جبير قال : الحجر مقام إبراهيم نبي الله قد جعله الله رحمة ، فكان يقوم عليه و يناوله إسماعيل الحجارة ، ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه .

روى البخاري : باب قوله **﴿و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** مثابة يثوبون يرجعون ، عن أنس بن مالك ، قال : قال عمر بن الخطاب : وافقت ربي في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت **﴿و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** ، و قلت : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب . قال : وبلغني معاتبة النبيﷺ بعض نسائه ، فدخلت عليهن فقلت : إن انتهيتُنّ أو ليُبدلَنّ الله رسوله خيراً منكن حتى أتيت إحدى نسائه ، قالت : يا عمر ، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ، فأنزل الله **﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات﴾** الآية . و روى مسلم عن جابر ، قال : استلم رسول اللهﷺ الركن ثلاثاً و مشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ **﴿و اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾** فجعل المقام بينه و بين البيت ، فصلى ركعتين ، وروى البخاري بسنده عن ابن عمر يقول : قدم رسول اللهﷺ فطاف بالبيت سبعاً و صلى خلف المقام ركعتين ، فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحَجَر الذي كان إبراهيمعليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة ، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيلعليه السلام به ليقوم فوقه و يناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار ، و كلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة ، و هو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها ، وهكذا

حتى تم جدران الكعبة كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخاري، و كانت آثار قدميه ظاهرة فيه، و لم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها، و لهذا قال أبو طالب في قصيدته اللامية:

وَموطئ إبراهيم في الصخر رَطْبة ... على قدميه حافياً غيرَ ناعِلِ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه كما روى عبد الله بن وهب عن ابن شهاب: أن أنس بن مالك حدثهم قال: رأيت المقام فيه أصابعه ﷺ وأخمص قدميه، غيرَ أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، و روى ابن جرير عن قتادة ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ إنما أُمروا أن يصلوا عنده و لم يؤمروا بمسحه. و قد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، و لقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى، (قلت): و قد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، و كان الخليل ﷺ لما فرغ من بناء البيت و ضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك و لهذا، و الله أعلم، أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، و إنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين و الخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم، و هو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ «اقتَدُوا باللذين مِنْ بعدي أبي بكر وعمر»[1] و هو الذي نزل القرآن بوفاته في الصلاة عنده، ولهذا لم ينكر أحد من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين. وروى عبد الرزاق عن مجاهد قال: أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) ﴾

١٢٥- قال الحسن البصري: قوله ﴿و عهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾ قال: أمرهما أن يطهراه من الأذى والنجس، و لا يصيبه من ذلك شيء، وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره. وعن ابن عباس قوله ﴿أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين﴾ قال: من الأوثان، و قال مجاهد وسعيد بن جبير ﴿طهرا بيتي للطائفين﴾ أن ذلك من الأوثان و الرفث وقول الزور و الرجس. قال ابن أبي حاتم، و روي عن عبيد بن عمير وأبي العالية و سعيد بن جبير ومجاهد و عطاء و قتادة ﴿أن طهرا بيتي﴾ أي بلا إله إلا الله من الشرك، و أما قوله تعالى: ﴿للطائفين﴾ فالطواف بالبيت معروف، و عن سعيد بن جبير أنه قال في قوله تعالى ﴿للطائفين﴾ يعني من أتاه من غربة ﴿والعاكفين﴾ المقيمين فيه، و هكذا روي عن قتادة والربيع بن أنس، أنهما فسرا العاكفين بأهله

(١)- حديث صحيح، رواه الإمام أحمد و الترمذي و ابن ماجه، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جبير، و روى ابن أبي حاتم عن ثابت، قال: قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلا مكلم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام، فإنهم يجنبون ويحدثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم فقال: هم العاكفون. و رواه عبد بن حميد.

(قلت)و قد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهوعزب.

و أما قوله تعالى: ﴿والركع السجود﴾ فعن ابن عباس قال: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود، و كذا قال عطاء وقتادة. قال ابن جرير رحمه الله: فمعنى الآية، وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين، والتطهير الذي أمرنا به في البيت هو تطهيره من الأصنام و عبادة الأوثان فيه ومن الشرك، ثم أورد سؤالاً فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه، وأجاب بوجهين: (أحدهما) أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماماً يقتدى به، (قلت)و هذا الجواب مفرع على أنه كان يُعْبَد عنده أصنام قبل إبراهيم ﷺ، و يحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد ﷺ. (الجواب الثاني) أنه أمرهما أن يخلصا بنائه لله وحده لا شريك له، فيبنياه مطهراً من الشرك والريب، كما قال جل ثناؤه: ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرأم من أسس بنيانه على شفا جرف هار﴾ قال: فكذلك قوله: ﴿و عهدنا إلى إبراهيم و إسماعيل أن طهرا بيتي﴾ أي ابنياه علي طهر من الشرك بي و الريب.

و قد اختلف الفقهاء أيهما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به؟ فقال مالك رحمه الله، الطواف به لأهل الأمصار أفضل. و قال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقاً، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام، والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا و يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والباد و من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها وركوعها وسجودها، و لم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سواء العاكف فيه و الباد﴾ و في هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين و العاكفين، و اكتفي بذكر الركوع والسجود عن القيام، لأنه قد عُلِم أنه لايكون ركوع و لا سجود إلابعد قيام، و في ذلك أيضاً رد علي من لا يَحُجُّه من أهل الكتابين اليهود والنصارى، لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، و يعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج و العمرة و غير ذلك و للاعتكاف والصلاة عنده، و هم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل و هم لا يفعلون ما شرع الله له؟ و قد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة و السلام، كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾.

و قد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة، فقيل: الملائكة قبل آدم، و فيه غرابة، و قيل: آدم ﷺ، و روي عن ابن عباس وكعب الأحبار و قتادة و عن وهب بن منبه: أن أول من بناه شيث ﷺ، و غالب من يذكر هذه إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يصدق ولا يكذب و لا يعتمد عليها بمجردها، و أما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين.

١٢٦ - و قوله تعالى : **﴿و إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً و ارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾** ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن إبراهيم حَرَّم بيت الله و أمنه ، و إني حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها و لا يقطع عضاهها» رواه مسلم ، و عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر ، جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : «اللهم بارك لنا في ثمرنا ، و بارك لنا في مدينتنا ، و بارك لنا في صاعنا ، و بارك لنا في مُدِّنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، و إني عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، و إني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ، و مثله معه» ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر ، و في لفظ «بركة مع بركة» ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان . لفظ مسلم .

و قد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات و الأرض كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة «إن هذا البلد حَرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة ، و إنه لم يحلّ القتال لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، و لا ينفر صيده ، و لا يلتقط لقطته ألا من عرّفها ولا يختلي خلاها» فقال العباس : يا رسول الله : إلا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : «إلا الإذخر» .

فإذا عُلِمَ هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها ، لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها و تحريمه إياها ، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها ، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوباً عند الله خاتم النبيين ، و إن آدم لمنجدل في طينته ، و مع هذا قال إبراهيم عليه السلام **﴿ربنا و ابعث فيهم رسولاً منهم﴾** الآية ، و قد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه و قدره . ولهذا جاء في الحديث أنهم قالوا : يارسول الله ، أخبرنا عن بدء أمرك ، فقال : «دعوة أبي إبراهيم عليه السلام ، و بُشرى عيسى ابن مريم ، و رأت أمي كأنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام» أي أخبرنا عن بدء ظهور أمرك ، كما سيأتي قريباً إن شاء الله .

و أما مسألة تفضيل مكة على المدينة كما هو قول الجمهور ، أو المدينة على مكة كما هو مذهب مالك وأتباعه ، فتذكر في موضع آخر بأدلتها إن شاء الله و به الثقة .

وقوله تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال : **﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾** أي من الخوف أي لا يرعب أهله ، وقد فعل الله ذلك شرعاً و قدراً ، كقوله تعالى : **﴿ومن دخله كان آمناً﴾** و قوله : **﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾** إلى غير ذلك من الآيات ، و قد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيه . و في صحيح مسلم عن جابر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح» وقال في هذه السورة **﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾** أي اجعل هذه البقعة بلداً آمناً ، وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة . و قال تعالى في سورة إبراهيم : **﴿و إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً﴾** و ناسب هذا هناك لأنه ـ و الله أعلم ـ كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت و استقرار أهله به ، و بعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سناً من إسماعيل بثلاث عشرة سنة ، ولهذا قال في آخر الدعاء **﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربي لسميع الدعاء﴾** .

وقوله تعالى: ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله و اليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ عن أبي بن كعب ﴿قال و من كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ قال: هو قول الله تعالى، و هذا قول مجاهد وعكرمة، وهو الذي صوبه ابن جرير رحمه الله، قال: و قرأ آخرون: ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار و بئس المصير﴾ فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم، و عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً و ارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله و اليوم الآخر﴾ قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله: و من كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقاً لا أرزقهم؟ أمتعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار و بئس المصير، ثم قرأ ابن عباس ﴿كلاً نمد هؤلاء و هؤلاء من عطاء ربك و ما كان عطاء ربك محظوراً﴾ رواه ابن مردويه، وروي عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضاً، و هذا كقوله تعالى: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ◆ متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ و قوله تعالى: ﴿و من كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ◆ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾.

وقوله: ﴿ثم أضطره إلى عذاب النار و بئس المصير﴾ أي ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا و بسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير، ومعناه أن الله تعالى ينظرهم و يمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿و كأين من قرية أمليت لها و هي ظالمة ثم أخذتها و إلي المصير﴾ وفي الصحيحين «لا أحد أصبرَ على أذى سَمِعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً و هو يرزقهم و يعافيهم» و في الصحيح أيضاً «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى و هي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

١٢٧ – و أما قوله تعالى: ﴿و إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت و إسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ◆ ربنا و اجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك و أرنا مناسكنا و تب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ فالقواعد جمع قاعدة وهي السارية والأساس، يقول تعالى: واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت و رفعهما القواعد منه، وهما يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ فهما في عمل صالح، و هما يسألان الله أن يتقبل منهما، و هذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص في قوله ﴿و الذين يؤتون ما آتوا﴾ أي يعطون ما أعطوا من الصدقات و النفقات و القربات ﴿و قلوبهم وجلة﴾ أي خائفة ألا يتقبل منهم، روى البخاري رحمه الله بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً ليعفّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم و بابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد و ليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر، و سقاء فيه ماء، ثم قفا إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت: ياإبراهيم أين تذهب و تتركنا بهذا الوادي ليس فيه أنيس؟ و لا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، و جعل لايلتفت إليها، فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيِّعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات و رفع يديه، فقال ﴿ربنا إني

أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ حتى بلغ ﴿يشكرون﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل و تشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها و جعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي: رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبيﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت «صه» - تريد نفسها - ثم تَسَمَّعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوِّضه و تقول بيدها هكذا، و جعلت تغرف من الماء في سقائها و هو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبيﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لوتركت زمزم - أوقال: لو لم تغرف من الماء - لكانت عيناً معيناً» قال: فشربت و أرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام و أبوه و إن الله لايضيع أهله، و كان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه و شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرهَم أوأهل بيت من جُرهَم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي و ما فيه ماء، فأرسلوا جريًا أو جريين، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبرهم بالماء، فأقبلوا، قال: و أم إسماعيل عند الماء، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبيﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس» فنزلوا و أرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، و أنفسَهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، و ماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ليطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم و هيئتهم، فقالت: نحن بشَر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك: فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، كأنه أنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا في جهد و شدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، و يقول غير عتبة بابك، ذاك أبي و قد أمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك، و طلقها وتزوج منهم بأخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم و هيئتهم، فقالت: نحن بخير و سعة، وأثنت على الله عز و جل، قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم و الماء، قال النبيﷺ: «و لم يكن لهم يومئذ حَبٌّ و لو كان لهم لدعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام و مُريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، و هو يقرأ عليك السلام، و يأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي و أنت

العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك و إسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، وصنعا كما يصنع الوالد بالولد و الولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: و تعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة و إبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، و هما يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت و هما يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

و قال البخاري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿و إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ الآية، القواعد: أساسه، واحدها قاعدة، والقواعد من النساء واحدتها قاعدة. و روى عن عائشة زوج النبيﷺ: أن رسول اللهﷺ قال: «ألم تري أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا على قواعد إبراهيم؟» فقلت: يارسول الله، ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال «لو لا حدثان قومك بالكفر» فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول اللهﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحِجْر، إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم. و روى البخاري بسنده عن الأسود قال: قال لي ابن الزبير: كانت عائشة تسر إليك حديثاً كثيراً، فما حدثتك في الكعبة؟ قال: قلت: قالت لي: قال النبيﷺ: «يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم - فقال ابن الزبير - بكفر لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين: باباً يدخل منه الناس، و باباً يخرجون منه» ففعله ابن الزبير. هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخربها ذو السويقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة».

و قوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك و من ذريتنا أمة مسلمة لك و أرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ قال ابن جرير: يعنيان بذلك و اجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، و لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، و لا في العبادة غيرك، و عن سلام ابن أبي مطيع في هذه الآية ﴿و اجعلنا مسلمين﴾ قال: كانا مسلمَين، ولكنهما سألاه الثبات. و قال السدي ﴿و من ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ يعنيان العرب. قال ابن جرير: و الصواب أنه يعم العرب و غيرهم، لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿و من قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون﴾، (قلت) و هذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي، فإن تخصيصهم بذلك لاينفي من عداهم، و السياق إنما هو في العرب، ولهذا قال بعده ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك و يعلمهم الكتاب و الحكمة ويزكيهم﴾ الآية. و المراد بذلك محمدﷺ، و قد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ و مع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر و الأسود، لقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ و غير ذلك من الأدلة القاطعة، و هذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله : ﴿و الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قرة أعين و اجعلنا للمتقين إماماً﴾ وهذا القدرمرغوب فيه شرعاً، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى، أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له. ولهذا لمّا قال الله تعالى لإبراهيمعليه السلام ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ قال ﴿و من

ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ و هو قوله ﴿و اجنبني و بنيّ أن نعبد الأصنام﴾ و قد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرةﷺ عن النبيﷺ، أنه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له».

﴿و أرنا مناسكنا﴾ قال عطاء: أخرجها لنا، علّمناها، و قال مجاهد ﴿أرنا مناسكنا﴾ مذابحنا. و روي عن عطاء أيضاً و قتادة نحو ذلك. و روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس، قال: إن إبراهيم لما أري أوامر المناسك، عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه إبراهيم ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى، قال: هذا مناخ الناس، فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به الجمرة القصوى فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى يذهب، فأتى به جمعاً، فقال: هذا المشعر، ثم أتى به عرفة، فقال: هذه عرفة، فقال له جبريل: أعرفت؟.

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾

١٢٩- يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، أي من ذرية إبراهيم، و قد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله و سلامه عليه رسولاً في الأميين، إليهم و إلى سائر الأعجمين من الإنس والجن، كما روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: قلت يا رسول الله: ما كان أول بدء أمرك؟ قال «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، و رأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» المراد أن أول من نوّه بذكره و شهره في الناس إبرهيمﷺ، و لم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً، و هو عيسى بن مريمﷺ، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال ﴿إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة و مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ و لهذا قال في هذا الحديث دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم.

و قوله: ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، قيل: كان مناماً رأته حين حلمت به، وقصته على قومها، فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة، و تخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه و نبوته ببلاد الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام و أهله، و بها ينزل عيسى بن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، و لهذا جاء في الصحيحين «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم و لا من خالفهم حتى يأتي أمر الله و هم كذلك» و في صحيح البخاري «و هم بالشام» و عن أبي العالية في قوله ﴿ربنا و ابعث فيهم رسولاً منهم﴾ يعني أمة محمدﷺ، فقيل له قد استجيب لك، و هو كائن في آخر الزمان، و كذا قال السدي و قتادة، وقوله تعالى: ﴿و يعلمهم الكتاب﴾ يعني القرآن، ﴿والحكمة﴾ يعني السنة، قاله الحسن و قتادة ومقاتل بن حيان و أبو مالك و غيرهم، وقيل: الفهم في الدين و لا منافاة، ﴿ويزكيهم﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني طاعة الله، و قوله ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي العزيز الذي لا يعجزه شيء، و هو قادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله و أقواله، فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته و عدله.

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾

١٣٠- يقول تبارك و تعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرَّد توحيد ربه تبارك و تعالى فلم يدعُ معه غيره و لا يشرك به طرفة عين، و تبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه، فقال ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون ◆ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات و الأرض حنيفاً و ما أنا من المشركين﴾ و قال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ◆ شاكراً لأنعمه اجتباه و هداه إلى صراط مستقيم ◆ و آتيناه في الدنيا حسنة و إنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ ولهذا و أمثاله قال تعالى: ﴿و من يرغب عن ملة إبراهيم﴾ عن طريقته و منهجه فيخالفها و يرغب عنها ﴿إلا من سفه نفسه﴾؟ أي ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اصطُفِي في الدنيا للهداية و الرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا و مسلكه و ملته، و اتبع طريق الضلال والغيّ، فأي سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود، أحدثوا طريقاً ليست من عند الله، و خالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، و يشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً و لا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً و ما كان من المشركين ◆ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه و هذا النبي والذين آمنوا و الله ولي المؤمنين﴾.

١٣١- و قوله تعالى ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ أي أمره الله بالإخلاص والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً، و قوله: ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب﴾ أي وصى بهذه الملة، وهي الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ لحرصهم عليها و محبتهم لها، حافظوا عليها إلى حين الوفاة، و وصوا أبناءهم بها من بعدهم، كقوله تعالى: ﴿و جعلها كلمة باقية في عقبه﴾ و قد قرأ بعض السلف ﴿ويعقوب﴾ بالنصب عطفاً على بنيه، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضراً ذلك، و الظاهر و الله أعلم، أن إسحاق وُلد له يعقوب في حياة الخليل و سارة، لأن البشارة وقعت بهما في قوله ﴿فبشرناه بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب﴾ و قد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، و قال في الآية الأخرى ﴿و وهبنا له إسحاق و يعقوب نافلة﴾ وهذا يقتضي أنه وجد في حياته، و أيضاً فإنه باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت: يارسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال «بيت المقدس»، قلت: كم بينهما؟ قال «أربعون سنة» الحديث، فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس - و إنما كان جدّده بعد خرابه و زخرفه - وبين إبراهيم أربعين سنة، و هذا مما أُنكر على ابن حبان، فإن المدة بينهما تزيد على ألوف السنين، والله أعلم، وأيضاً فإن وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريباً، و هذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين.

و قوله ﴿يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا و أنتم مسلمون﴾ أي أحسنوا في حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأنه من قصد الخير وفق له و يسر عليه، و من نوى صالحاً ثبت عليه. و هذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح «إن الرجلَ لَيَعملُ بعملِ أهلِ الجنة حتى ما يكون بينه و بينها إلا باعٌ أو ذراعٌ، فَيَسبقُ عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. و إن الرجلَ ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه و بينها إلا باع أوذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث «ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ويعمل أهل النار فيما يبدو للناس» و قد قال الله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى ❁ وصدق بالحسنى ❁ فسنيسره لليسرى ❁ و أما من بخل واستغنى ❁ وكذب بالحسنى ❁ فسنيسره للعسرى﴾.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) ﴾

١٣٣ - يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، و على الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة، وصّى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم ﴿ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك و إله آبائك إبراهيم و إسماعيل و إسحاق﴾ و هذا من باب التغليب، لأن إسماعيل عمه، قال النحاس: والعرب تسمي العم أباً، نقله القرطبي، و قد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أباً وحجب به الإخوة [1] كما هو قول الصديق، حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس و ابن الزبير، ثم قال البخاري: و لم يختلف عليه، و إليه ذهبت عائشة أم المؤمنين، و به يقول الحسن البصري وطاووس و عطاء، و هو مذهب أبي حنيفة و غير واحد من السلف و الخلف، و قال مالك و الشافعي و أحمد في المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة، و حكي ذلك عن عمر وعثمان و علي و ابن مسعود و زيدبن ثابت وجماعة من السلف و الخلف، و اختاره صاحبا أبي حنيفة القاضي أبويوسف و محمد بن الحسن، و لتقريرها موضع آخر. وقوله ﴿إلهاً واحداً﴾ أي نوحده بالألوهية و لانشرك به شيئاً غيره، ﴿و نحن له مسلمون﴾ أي مطيعون خاضعون، كما قال تعالى: ﴿و له أسلم من في السموات و الأرض طوعاً و كرهاً و إليه يرجعون﴾ والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة و إن تنوعت شرائعهم و اختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، و الآيات في هذا كثيرة والأحاديث، فمنها: قوله ﷺ «نحن معشر الأنبياء أولاد عَلات ديننا واحد» و قوله تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت﴾ أي مضت، ﴿لها ما كسبت و لكم ما كسبتم﴾ أي إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء و الصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها، و لكم أعمالكم ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ و قال أبو العالية و الربيع وقتادة ﴿ تلك أمة قد خلت﴾ يعني إبراهيم و إسحاق ويعقوب

(١) أي في الميراث.

والأسباط، ولهذا جاء في الأثر «مَن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[(١)].

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) ﴾

١٣٥- روي عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله عز و جل **﴿و قالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾** و قوله **﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفاً﴾** أي لانريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية و النصرانية بل نتبع **﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾** أي مستقيماً، قاله محمد بن كعب القرظي و عيسى بن جارية، و قال مجاهد: مخلصاً، و روى علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس حاجاً، و كذا روي عن الحسن و الضحاك و عطية و السدي، و قال أبو العالية: الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلاً. وقال مجاهد و الربيع بن أنس: **﴿حنيفاً﴾** أي متبعاً، و قال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، و قال قتادة: الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله، يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات و العمات، و ما حرم الله عز وجل، والختان.

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴾

١٣٦- أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل الله إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، و ما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، و أجمل ذكر بقية الأنبياء، و أن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم **﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله و رسله و يقولون نؤمن ببعض و نكفر ببعض و يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ۞ أولئك هم الكافرون حقاً﴾** الآية، و روى البخاري بسنده عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية و يفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم و قولوا آمنا بالله و ما أنزل إلينا».

و قد روى مسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ **﴿آمنا بالله و ما أنزل إلينا﴾** الآية، و الأخرى بـ **﴿آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾**.

وقال أبو العالية و الربيع وقتادة: الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً، ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا الأسباط. و قال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل، و قال الزمخشري في الكشاف: الأسباط قبائل بني إسرائيل، و هذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل، و ما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم **﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿و قطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً﴾** وروي عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح و هود و صالح و شعيب و إبراهيم و لوط وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة و السلام[(٢)].

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه. (٢) كذا! و قد ذكر تسعة.

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) ﴾

١٣٧- يقول تعالى : فإن آمنوا ، يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ، بمثل ما آمنتم به يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله و رسله و لم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فقد اهتدوا﴾ أي فقد أصابوا الحق و أرشدوا إليه ﴿وإن تولوا﴾ أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله﴾ أي فسينصرك عليهم ويُظفِرك بهم ﴿و هو السميع العليم﴾ . روى ابن أبي حاتم بسنده عن زياد بن يونس عن نافع ابن أبي نعيم ، قال : أُرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه ، قال زياد : فقلت له : إن الناس ليقولون إن مصحفه كان في حجره حين قتل فوقع الدم على ﴿فسيكفيكهم الله و هو السميع العليم﴾ فقال نافع : بصرت عيني بالدم على هذه الآية .

١٣٨- و قوله ﴿صبغة الله﴾ ، عن ابن عباس : دين الله ، وكذا روي عن مجاهد و أبي العالية وعكرمة و إبراهيم والحسن و قتادة و الضحاك و عبد الله بن كثير و عطية العوفي و الربيع بن أنس و السدي نحو ذلك . و انتصاب ﴿صبغة الله﴾ إما على الإغراء كقوله ﴿فطرة الله﴾ أي الزموا ذلك عليكموه ، و قال بعضهم : بدلاً من قوله ﴿ملة إبراهيم﴾ و قال سيبويه : هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله ﴿آمنا بالله﴾ كقوله ﴿وعد الله﴾ .

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) ﴾

١٣٩- يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين : ﴿قل أتحاجوننا في الله﴾ أي تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له و الانقياد واتباع أوامره و ترك زواجره ﴿و هو ربنا و ربكم﴾ المتصرف فينا و فيكم المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ﴿و لنا أعمالنا و لكم أعمالكم﴾ أي نحن براء منكم و مما تعبدون و أنتم براء منا ، كما قال في الآية الأخرى ﴿فإن كذبوك فقل لي عملي و لكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل و أنا بريء مما تعملون﴾ و قال تعالى : ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله و من اتبعن﴾ إلى آخر الآية ، ﴿و نحن له مخلصون﴾ أي : في العبادة والتوجه .

١٤٠- ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم و من ذكر بعده من الأنبياء والأسباط ، كانوا على ملتهم إما اليهودية و إما النصرانية ، فقال : ﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾ يعني بل الله أعلم ، و قد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى ، كما قال تعالى : ﴿ما كان إبراهيم يهودياً و لا نصرانياً و لكن كان حنيفاً مسلماً و ما كان من المشركين﴾ الآية و التي بعدها ، و قوله ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ قال الحسن البصري : كانوا يقرءون في كتاب الله الذي أتاهم إن الدين عند الله الإسلام ، و إن محمداً رسول الله ، و إن إبراهيم و إسماعيل و إسحاق ويعقوب و الأسباط ، كانوا براء من اليهودية والنصرانية فشهدوا الله بذلك ، و أقروا على أنفسهم لله ، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك ، و قوله ﴿و ما الله بغافل عما تعملون﴾ تهديد ووعيد شديد ، أي أن علمه

محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه.

١٤١- ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت﴾ أي مضت، ﴿لها ما كسبت و لكم ما كسبتم﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿و لا تسألون عما كانوا يعملون﴾ و ليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، و لا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله، واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد، فقد كفر بسائر الرسل، و لا سيما بسيد الأنبياء و خاتم المرسلين و رسول رب العالمين، إلى جميع الإنس و الجن من المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه، و على سائر أنبياء الله أجمعين.

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾

١٤٢- قيل: المراد بالسفهاء ههنا: مشركو العرب، قاله الزجاج، و قيل: أحبار يهود، قاله مجاهد، وقيل: المنافقون، قاله السدي، و الآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم. روى البخاري بسنده عن البراء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، و أنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، و صلى معه قوم فخرج رجل ممن كان يصلي معه، فمر على أهل المسجد و هم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، و كان الذي مات على القبلة قبل أن تُحوّل قِبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله ﴿و ما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ انفرد به البخاري من هذا الوجه، و رواه مسلم من وجه آخر، و روى محمد بن إسحاق بسنده عن البراء، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس، و يكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، و كيف بصلاتنا نحو بيت المقدس، فأنزل الله ﴿و ما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ و قال السفهاء من الناس، وهم أهل الكتاب: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ إلى آخر الآية، و قد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة و هو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة، تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس والجمهور، ثم اختلف هؤلاء، هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره على قولين؟ و حكى القرطبي في تفسيره عن عكرمة و أبي العالية و الحسن البصري: إن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه السلام، والمقصود: إن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ

المدينة ، و استمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً و كان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام ، فأجيب إلى ذلك و أمر بالتوجه إلى البيت العتيق ، فخطب رسول الله ﷺ الناس فأعلمهم بذلك ، وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر ، كما تقدم في الصحيحين من رواية البراء.

و وقع عند النسائي ، من رواية أبي سعيد بن المعلى أنها الظهر ، و قال : كنت أنا أول من صلى إلى الكعبة ، وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم : أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر ، وذلك في مسجد بني سلمة ، فسمي مسجد القبلتين ، و في حديث نويلة بنت مسلم : أنهم جاءهم الخبر بذلك و هم في صلاة الظهر ، قالت : فتحول الرجال مكان النساء و النساء مكان الرجال ، ذكره الشيخ أبوعمر ابن عبد البر النمري ، و أما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر اليوم الثاني ، كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه قال : بينما الناس بقباء في صلاة الصبح ، إذجاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن و قد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به ، و إن تقدم نزوله و إبلاغه ، لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء ، و الله أعلم . و لما وقع هذا ، حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب ، وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك ، و قالوا ﴿**ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها**﴾ أي قالوا : ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا ؟ فأنزل الله جوابهم في قوله ﴿**قل لله المشرق والمغرب**﴾ أي الحكم و التصرف و الأمر كله لله ﴿**فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾ و ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب و لكن البر من آمن بالله**﴾ أي الشأن كله في امتثال أوامر الله ، فحيثما وجهنا توجهنا ، فالطاعة في امتثال أمره و لو وجهنا في كل يوم مرات إلى جهات متعددة : فنحن عبيده وفي تصرفه ، وخدامه حيثما وجهنا توجهنا ، وهوتعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن ، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله في الأرض ، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام و لهذا قال : ﴿**قل لله المشرق و المغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ . و قد روى الإمام أحمد عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ ، يعني في أهل الكتاب : «إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها و ضلوا عنها ، و على القبلة التي هدانا الله لها و ضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام : آمين» .

١٤٣ – و قوله تعالى : ﴿**و كذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيداً**﴾ يقول تعالى : إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ، و اخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم ، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل ، والوسط ههنا الخيار ، والأجود كما يقال : قريش أوسط العرب نسباً وداراً ، أي خيرها ، و كان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه ، أي أشرفهم نسباً ، و منه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات و هي العصر ، كما ثبت في الصحاح و غيرها . و لما جعل الله هذه الأمة وسطاً ، خصها بأكمل الشرائع ، و أقوم المناهج ، وأوضح المذاهب ، كما قال تعالى : ﴿**هو اجتباكم و ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم و تكونوا شهداء على الناس**﴾ و روى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ

«يُدْعَى نوحٌ يوم القيامة ، فيقال له : هل بلغت؟ فيقول : نعم، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم؟ فيقولون : ماأتانا من نذير ، و ما أتانا من أحد ، فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد و أمته ، قال فذلك قوله : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ قال : والوسط العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم» ورواه البخاري . و روى الإمام أحمد أيضاً عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ « يجيء النبي يوم القيامة و معه الرجلان و أكثر من ذلك ، فيدعى قومه ، فيقال : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم ، فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد و أمته فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم ، فيقال : و ما علمكم؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا ، فذلك قوله عز وجل ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ قال : عدلاً ﴿لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيداً﴾ .

و روى أحمد أيضاً : عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ قال عدلاً . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة عن أبي الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها و قد وقع بها مرض ، فهم يموتون موتا ذريعاً ، فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأُثنِيَ على صاحبها خيرٌ ، فقال : وجبت وجَبَت ، ثم مر أخرى فأُثنِيَ عليها شرٌ ، فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله ﷺ «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة» قال : فقلنا وثلاثة؟ قال : فقال : «وثلاثة» قال : فقلنا و اثنان؟ قال : «واثنان» ، ثم لم نسأله عن الواحد . و كذا رواه البخاري . وروى ابن مردويه عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ بالنباوة يقول : «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم» قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : «بالثناء الحسن والثناء السيء ، أنتم شهداء الله في الأرض» ، و رواه ابن ماجه و أحمد .

وقوله تعالى : ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه و إن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾ يقول تعالى : إنما شرعنا لك يامحمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك و يطيعك ، ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبه ، أي مرتدا عن دينه ﴿و إن كانت لكبيرة﴾ أي هذه الفعلة و هو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ، أي وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس ، إلا على الذين هدى الله قلوبهم و أيقنوا بتصديق الرسول ، و أن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه ، و أن الله يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد ، فله أن يكلف عباده بما يشاء و ينسخ ما يشاء ، و له الحكمة التامة و الحجة البالغة في جميع ذلك بخلاف الذين في قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً ، كما يحصل للذين آمنوا إيقان و تصديق ، كما قال الله تعالى : ﴿و إذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ❁ و أما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ ، و قال تعالى : ﴿و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ .

ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك ، و توجه حيث أمره الله من غير شك و لا ريب من سادات الصحابة ، و قد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين و الأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين . و روى البخاري في تفسير هذه الآية بسنده عن ابن عمر قال : بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء

إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبي ﷺ قرآن و قد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة. وقد رواه مسلم، و هذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله. و انقيادهم لأوامر الله عز و جل رضي الله عنهم أجمعين. وقوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله، و في الصحيح من حديث البراء قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿و ما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها و بين ولدها فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله ﷺ «أترون هذه طارحة ولدها في النار و هي تقدر على أن لا تطرحه؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾

١٤٤ – قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان أول ما نسخ من القرآن: القبلة، و ذلك أن رسول الله ﷺ، لما هاجر إلى المدينة و كان أكثر أهلها اليهود، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، و كان يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو إلى الله و ينظر إلى السماء، فأنزل الله ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ إلى قوله: ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ فارتابت من ذلك اليهود وقالوا: ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق و المغرب﴾ و قال: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ و قال الله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ و قوله ﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾ في أحد قولي الشافعي رحمه الله، إن الغرض إصابة عين الكعبة، و القول الآخر و عليه الأكثرون: أن المراد المواجهة، و هذا قول أبي العالية و مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير و قتادة و الربيع بن أنس وغيرهم. وكما تقدم في الحديث الآخر «ما بين المشرق و المغرب قبلة».

و قوله: ﴿وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً و شمالاً و جنوباً، و لا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر فإنه يصليها حيثما توجه قالبه وقلبه نحو الكعبة، و كذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال. وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده و إن كان مخطئاً في نفس الأمر، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

(مسألة) وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعي وأحمد و أبوحنيفة، قال المالكية بقوله: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده لا حتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء و هو ينافي كمال القيام، و قال بعضهم: ينظر المصلي في قيامه إلى صدره. وقال شريك القاضي: ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة، لأنه أبلغ في الخضوع وآكد في الخشوع و قد ورد به الحديث، و أما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه، و في حال

سجوده إلى موضع أنفه ، و في حال قعوده إلى حجره . و قوله : ﴿و إن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي : و اليهود الذين أنكروا استقبالكم وانصرافكم عن بيت المقدس ، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما في كتبهم عن أنبياءهم من النعت و الصفة لرسول الله ﷺ و أمته ، و ما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ، و لكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً و عناداً ، و لهذا تهددهم تعالى بقوله : ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

١٤٥ - يخبر تعالى عن كفر اليهود و عنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه و تركو أهواءهم ، كما قال تعالى : ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ◊ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ و لهذا قال ههنا ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ و قوله ﴿و ما أنت بتابع قبلتهم﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم و أهوائهم ، فهو أيضاً مستمسك بأمر الله و طاعته و اتباع مرضاته ، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ، ولا كونه متوجهاً إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود ، و إنما ذلك عن أمر الله تعالى ، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى ، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره ، ولهذا قال مخاطباً للرسول و المراد به الأمة ﴿و لئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين﴾ .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

١٤٦ - يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب ، يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا ، كما جاء في الحديث : أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير «ابنك هذا» ؟ قال : نعم يا رسول الله أشهد به ، قال : «أما أنه لا يجني عليك و لا تجني عليه» .

قال القرطبي : و يروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وابني لا أدري ما كان من أمه . (قلت) و قد يكون المراد ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ من بين أبناء الناس كلهم ، لا يشك أحد و لا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق و الإتقان العلمي ﴿ليكتمون الحق﴾ أي ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ ﴿وهم يعلمون﴾ ، ثم ثبّت تعالى نبيه ﷺ و المؤمنين ، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه و لا شك ، فقال :

١٤٧ - ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ .

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

١٤٨- روي عن ابن عباس: ﴿ولكل وجهة هو موليها﴾ يعني بذلك أهل الأديان، يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ووجهة الله حيث توجه المؤمنون. وقال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليها، وللنصراني وجهة هو موليها، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة. وروي عن مجاهد و عطاء و الضحاك و الربيع بن أنس والسدي نحو هذا، و قال مجاهد في الرواية الأخرى، و الحسن: أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة، و قرأ ابن عباس و أبو جعفر الباقر و ابن عامر ﴿و لكل وجهة هو مولاها﴾، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً و لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة و لكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ وقال ههنا ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض، وإن تفرقت أجسادكم و أبدانكم.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

١٤٩، ١٥٠- هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، قد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات، فقيل: تأكيد، لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص فيه ابن عباس وغيره، و قيل: بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة، و الثاني لمن هو في مكة غائباً عنها، و الثالث لمن هو في بقية البلدان، هكذا وجهه فخر الرازي. و قال القرطبي: الأول لمن هو بمكة، و الثاني لمن هو في بقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار، و رجح هذا الجواب القرطبي، و قيل غيرذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، و قد بسطها الرازي و غيره، و الله أعلم.

وقوله، ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ أي: أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها، ربما احتجوا بها على المسلمين، و لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس، و هذا أظهر، قال أبو العالية: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صرف محمد إلى الكعبة. وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه و دين قومه، وكان حجتهم على النبي ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام، أن قالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد وعطاء و الضحاك و الربيع بن أنس و قتادة والسدي نحو هذا، و قال هؤلاء في قوله ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ يعني مشركي قريش. ووجه بعضهم حجة الظلمة و هي داحضة، أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم، فلم رجع عنه؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في ذلك ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم و هي الكعبة، فامتثل أمر الله في ذلك أيضاً، فهو صلوات الله و سلامه عليه مطيع لله في

جميع أحواله، لا يخرج عن أمر الله طرفة عين وأمته تبع له، و قوله، ﴿فلا تخشوهم و اخشوني﴾ أي لاتخشوا شُبَهَ الظلمة المتعنتين و أفردوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه، و قوله: ﴿ولأتم نعمتي عليكم﴾ عطف على ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾، أي، لأتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها ﴿ولعلكم تهتدون﴾ أي إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به، و لهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

١٥١- يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات، و يزكيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق، ودنس النفوس، و أفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور و يعلمهم الكتاب، و هو القرآن، و الحكمة وهي السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالعقول الغراء، فانتقلوا ببركة رسالته، و يُمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، و أصدقهم لهجة. و قال تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم﴾ الآية، و ذمّ من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمداً ﷺ، و لهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة و مقابلتها بذكره و شكره:

١٥٢- و قال: ﴿فاذكروني أذكركم و اشكروا لي و لا تكفرون﴾ قال مجاهد في قوله: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني، روى عبد الله بن وهب عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: «تذكرني و لا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، و إذا نسيتني فقد كفرتني» قال الحسن البصري و أبو العالية و السدي و الربيع بن أنس: إن الله يذكر من ذكره، و يزيد مَنْ شكره، و يعذّب مَن كفره، و قال بعض السلف في قوله تعالى، ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: هو أن يطاع فلا يعصى، و يذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، و قال الحسن البصري في قوله: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ قال: اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أَوجبتُ لكم على نفسي، و عن سعيد بن جبير: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، و في رواية: برحمتي. وعن ابن عباس في قوله: ﴿اذكروني أذكركم﴾ قال: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه.

وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزو جل: يا ابن آدم، إنْ ذَكَرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، إنْ ذكرتني في ملأٍ ذكرتك في ملأ من الملائكة - أو قال: في ملأ خير منه - و إن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً، و إن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، و إن أتيتني تمشي أتيتك هرولة»، وأخرجه البخاري. وقوله: ﴿و اشكروا لي و لا تكفرون﴾ أمر الله تعالى بشكره، ووعد على شكره بمزيد الخير فقال: ﴿و إذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم و لئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ و روى الإمام أحمد عن أبي رجاء العطاردي، قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك و لا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أنعمَ اللهُ عليه نعمةً فإن الله يُحب أن يرى أثرَ نعمتهِ على خلقه»، و قال روح مرة:

«على عبده».

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) ﴾

١٥٣ – لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر، شرع في بيان الصبر و الإرشاد و الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها، كما جاء في الحديث «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له»، وبيّن تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: ﴿و استعينوا بالصبر والصلاة و إنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾، و في الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى[1].

و الصبر صبران: فصبر على ترك المحارم و المآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، و الثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود. و أما الصبر الثالث: وهو الصبر على المصائب و النوائب، فذلك أيضاً واجب كالاستغفار من المعايب، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين: الصبر لله بما أحب و إن ثقل على الأنفس والأبدان، و الصبر لله عما كره و إن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يُسلّم عليهم إن شاء الله.

١٥٤ – و قوله تعالى: ﴿و لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء﴾، يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم: «أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا و أي شيء نبغي، و أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى، لما يرون من ثواب الشهادة. فيقول الرب جل جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون». و في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، و إن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفاً و تكريماً و تعظيماً.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾

١٥٥ – أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده، أي يختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى: ﴿و لنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم و الصابرين و نبلو أخباركم﴾ فتارة بالسراء و تارة بالضراء من خوف و جوع، كما قال تعالى: ﴿فأذاقها الله لباس الجوع و الخوف﴾ فإن الجائع و الخائف كل منهما يظهر ذلك عليه، و لهذا قال لباس الجوع والخوف.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٨٨) و أبو داود (٢/ ١٣١٩) و هو حسن.

وقال ههنا : ﴿بشيء من الخوف و الجوع﴾ أي بقليل من ذلك ﴿و نقص من الأموال﴾ أي ذهاب بعضها ﴿والأنفس﴾ كموت الأصحاب و الأقارب و الأحباب ﴿و الثمرات﴾ أي لا تغل الحدائق و المزارع كعادتها . قال بعض السلف : فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة ، و كل هذا و أمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه ، و من قنط أحل به عقابه ، و لهذا قال تعالى : ﴿و بشر الصابرين﴾ وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله ، و بالجوع صيام رمضان ، وبنقص الأموال الزكاة ، و الأنفس الأمراض ، والثمرات الأولاد ، و في هذا نظر ، و الله أعلم ، ثم بين تعالى من الصابرون الذي شكرهم فقال : ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون﴾ أي تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم ، و علموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء ، و علموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده ، و أنهم إليه راجعون في الدار الآخرة . و لهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك ، فقال : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم و رحمة﴾ أي ثناء من الله عليهم . قال سعيد بن جبير : أي أمنة من العذاب ﴿و أولئك هم المهتدون﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : نعم العدلان و نعمت العلاوة ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم و رحمة﴾ فهذان العدلان ﴿و أولئك هم المهتدون﴾ فهذه العلاوة وهي ما توضع بين العدلين ، و هي زيادة في الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم و زيدوا أيضاً .

و قد ورد في ثواب الاسترجاع و هو قول ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة ، فمن ذلك : ما رواه مسلم عن أم سلمة أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : ﴿إنا لله و إنا إليه راجعون﴾ اللهم أجرني في مصيبتي ، و أخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها» قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت : كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ . و روى الإمام أحمد عن أبي سنان قال : دفنت ابناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة يعني الخولاني فأخبرني و قال لي : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى قال : حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عازب عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ «قال الله : ياملك الموت قبضتَ ولد عبدي ؟ قبضتَ قرةَ عينه وثمرة فؤاده ؟ قال : نعم ، قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع . قال : ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» و رواه الترمذي .

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾

١٥٨- روى أحمد عن عروة عن عائشة ، قال : قلت أرأيت قول الله تعالى : ﴿إن الصفا و المروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ ، قلت : فوالله ما على أحد جناح أن لايتطوف بهما؟ فقالت عائشة : بئسما قلت يا ابن أختي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، و لكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يُهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلَّل ، وكان من أهلَّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا و المروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية . فأنزل الله عز و جل : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر

الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ قالت عائشة: ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما أخرجاه في الصحيحين. ثم روى البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الصفا و المروة من شعائر الله﴾.

(قلت) ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافاً و نائلة كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرين، فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عُبِدَا، ثم حولا إلى الصفا والمروة، فنصبا هنالك فكان من طاف بالصفا و المروة يستلمهما. وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل، و فيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا و هو يقول ﴿إن الصفا و المروة من شعائر الله﴾ ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به» و في رواية النسائي «ابدأوا بما بدأ الله به» وروى الإمام أحمد عن حبيبة بنت أبي تجراة قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا و المروة و الناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره و هو يقول: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا و المروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشافعي و من وافقه، و رواية عن أحمد و هو المشهور عن مالك. و قيل: إنه واجب وليس بركن، فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم، و هو رواية عن أحمد و به يقول طائفة، و قيل: بل مستحب، و إليه ذهب أبو حنيفة و الثوري والشعبي وابن سيرين، و روي عن أنس و ابن عمر و ابن عباس، وحكي عن مالك في العتبية، قال القرطبي: و احتجوا بقوله تعالى: ﴿و من تطوع خيراً﴾ و القول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما، و قال: « لتأخذوا عني مناسككم» فكل ما فعله في حجته تلك واجب لابد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، و الله أعلم، و قد تقدم قوله عليه السلام «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا و المروة من شعائر الله، أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج.

و قد تقدم في حديث ابن عباس، أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر و تردادها بين الصفا و المروة في طلب الماء لولدها لما نفد ماؤهما و زادهما حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك، و ليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك، ونفد ما عندهما، قامت تطلب الغوث من الله عز وجل، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا و المروة، متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز و جل، حتى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، و فرج شدتها، و أنبع لها زمزم التي ماؤها «طعام طُعْم، و شفاء سُقْم» فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره و ذله و حاجته إلى الله، في هداية قلبه و صلاح حاله و غفران ذنبه، و أن يلتجئ إلى الله عز و جل، لتفريج ما هو به من النقائص و العيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، و أن يثبته عليه إلى مماته و أن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال و الغفران و السداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام.

و قوله ﴿و من تطوع خيراً﴾ قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب، ثامنة و تاسعة ونحو ذلك[1]

(١) و هو قول غريب و لم يؤثر عن النبي ﷺ أنه زاد على السبع و لا عن أصحابه و لا التابعين، والصحيح هو القول الثاني و هو الذي اختاره ابن جرير.

وقيل: يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع، وقيل: المراد تطوع خيراً في سائر العبادات، حكى ذلك الرازي، وعزي الثالث إلى الحسن البصري، و الله أعلم، و قوله ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ أي يثيب على القليل بالكثير، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ثوابه، و ﴿لا يظلم مثقال ذرة و إن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢) ﴾

١٥٩- هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاء به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، و الهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله، قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد ﷺ، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، و الطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون، و قد ورد في الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة و غيره أن رسول الله ﷺ، قال: «مَنْ سُئِل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار» والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله، ما حدثت أحداً شيئاً ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات و الهدى﴾ الآية، وقال عطاء بن أبي رباح: كل دابة و الجن والإنس، و قال مجاهد: إذا أجدبت الأرض، قال البهائم: هذا من أجل عصاة بني آدم، لعن الله عصاة بني آدم، و قال أبو العالية و الربيع بن أنس وقتادة ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ يعني تلعنهم الملائكة والمؤمنون، وقدجاء في الحديث أن العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر، و جاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله و الملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضاً، و هم كل فصيح وأعجمي، إما بلسان المقال، أو الحال، أن لو كان له عقل و يوم القيامة و الله أعلم.

١٦٠- ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه، فقال: ﴿إلا الذين تابوا و أصلحوا و بينوا﴾ أي رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم، و بينوا للناس ما كانوا يكتمونه ﴿فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ و في هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه. و قد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة و نبي الرحمة صلوات الله و سلامه عليه.

١٦١- ثم أخبر تعالى عمن كفر به و استمر به الحال إلى مماته بأن ﴿عليهم لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين خالدين فيها﴾ أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ فيها أي لا ينقص عما هم فيه ﴿و لا هم ينظرون﴾ أي لا يغير عنهم ساعة واحدة و لا يفتر بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك. قال أبو العالية و قتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

(فصل) لا خلاف في جواز لعن الكفار، و قد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة، يلعنون الكفرة في القنوت و غيره، فأما الكافر المعين، فقدذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يُلعن، لأنا لا ندري بم يختم الله له، واستدل بعضهم بالآية **﴿إن الذين كفروا و ماتوا و هم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾** وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختاره الفقيه أبوبكر ابن العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف، و استدل غيره بقوله عليه السلام في قصة الذي كان يُؤتى به سكران فيحده، فقال رجل لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ **«لاتلعنه فإنه يحب الله و رسوله»** فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن، و الله أعلم.

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) ﴾

١٦٣ - يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، و أنه لاشريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو، الرحمن الرحيم وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة، ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السموات و الأرض و ما فيهما و ما بين ذلك مما ذرأ و برأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾

١٦٤ - يقول تعالى: **﴿إن في خلق السموات والأرض﴾** تلك في ارتفاعها و لطافتها و اتساعها و كواكبها السيارة والثوابت و دوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها و جبالها و بحارها و قفارها و وهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، واختلاف الليل و النهار، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر و يعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: **﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر و لا الليل سابق النهار و كل في فلك يسبحون﴾** وتارة يطول هذا و يقصر هذا، و تارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان، كما قال تعالى: **﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾** أي يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، **﴿و الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾** أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس، و الانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء، و ما عند أولئك إلى هؤلاء، **﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾** كما قال تعالى: **﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها و أخرجنا منها حباً فمنه يأكلون﴾** - إلى قوله - **﴿و مما لا يعلمون﴾** **﴿و بث فيها من كل دابة﴾** أي على اختلاف أشكالها و ألوانها و منافعها و صغرها و كبرها، وهو يعلم ذلك كله و يرزقه، لايخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: **﴿و ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾** **﴿وتصريف الرياح﴾** أي فتارة تأتي بالرحمة، و تارة تأتي بالعذاب، و تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، و تارة تجمعه، و تارة تفرقه، و تارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، و تارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صبا، و هي الشرقية التي

تصدم وجه الكعبة، وتارة دبوراً وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة. و قد صنف الناس في الرياح و المطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، و بسط ذلك يطول ههنا، و الله أعلم.

﴿و السحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ أي سائر بين السماء والأرض، مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالى، ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إن في خلق السموات و الأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب◆ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم و يتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾. وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن ابن عباس، قال: أتت قريش محمداً ﷺ فقالوا: يا محمد، إنا نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً فنشتري به الخيل والسلاح، فنؤمن بك و نقاتل معك، قال: «أوثقوا لي لئن دعوت ربي فجعل لكم الصفا ذهباً لتؤمنن بي» فأوثقوا له، فدعا ربه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين، قال محمد ﷺ «رب لا، بل دعني و قومي فلأدعهم يوماً بيوم»، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إن في خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ الآية، و رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر و زاد في آخره: و كيف يسألونك الصفا و هم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا؟.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾

١٦٥- يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا، و ما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أنداداً أي أمثالاً ونظراء، يعبدونهم معه و يحبونهم كحبه، و هو الله لا إله إلا هو، و لا ضد له و لا ندّ له، و لا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» وقوله: ﴿و الذين آمنوا أشد حباً لله﴾ و لحبهم لله و تمام معرفتهم به و توقيرهم و توحيدهم له، لا يشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده، و يتوكلون عليه، و يلجأون في جميع أمورهم إليه. ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك، فقال ﴿و لو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أي أن الحكم له وحده لا شريك له، و أن جميع الأشياء تحت قهره و غلبته و سلطانه ﴿و أن الله شديد العذاب﴾ كما قال ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد◆ ولا يوثق وثاقه أحد﴾ يقول: لو يعلمون ما يُعانونه هنالك و ما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم و كفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال.

١٦٦- ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم و تبري المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فيقول الملائكة: ﴿تبرأنا إليك ما

كانوا إيانا يعبدون﴾ ويقولون: ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾، والجن أيضاً تتبرأ منهم، ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿و من أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون۞ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء و كانوا بعبادتهم كافرين﴾ و قال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً۞ كلا سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضداً﴾ و قال الخليل لقومه ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار و ما لكم من ناصرين﴾، و قال تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم و ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني و لوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم و ما أنتم بمصرخيّ إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾.

و قوله: ﴿و رأوا العذاب و تقطعت بهم الأسباب﴾ أي عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل و أسباب الخلاص، و لم يجدوا عن النار معدلاً و لا مصرفاً. قال عطاء عن ابن عباس ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ قال: المودة، و كذا قال مجاهد في رواية ابن نجيح.

١٦٧- و قوله: ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا﴾ أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء و من عبادتهم، فلا نلتفت إليهم بل نوحد الله وحده بالعبادة، و هم كاذبون في هذا، بل لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه و إنهم لكاذبون، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك، و لهذا قال: ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ أي تذهب و تضمحل كما قال تعالى: ﴿و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ و قال تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿و الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء﴾ الآية، و لهذا قال تعالى: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (١٦٩) ﴾

١٦٨- لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، و أنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً، أي مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان و لا للعقول، و نهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، و هي طرائقه ومسالكه فيما أضل اتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب و الوصائل و نحوها، مما كان زينه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حمار الذي في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال «يقول الله تعالى: إن كل مال منحته عبادي فهو لهم حلال ـ و فيه ـ و إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»، وقوله: ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ تنفير عنه و تحذير منه، كما قال: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ و قال تعالى: ﴿أفتتخذونه و ذريته أولياء من دوني و هم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ و قال قتادة و السدي في قوله: ﴿و لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾: كل معصية لله فهي من

خطوات الشيطان، و قال عكرمة: هي نزغات الشيطان، و قال مجاهد: خطؤه أو قال خطاياه، و قال أبو مجلز: هي النذور في المعاصي، و قال الشعبي: نذر رجل أن ينحر ابنه، فأفتاه مسروق بذبح كبش، و قال: هذا من خطوات الشيطان، و عن مسروق: أُتي عبد الله ابن مسعود بضرع و ملح، فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم، فقال: لا أريده، فقال: أصائم أنت قال: لا، قال: فما شأنك؟ قال: حرَّمت أن آكل ضرعاً أبداً، فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فأطعم و كفّر عن يمينك، رواه ابن أبي حاتم.

١٦٩- و قوله: ﴿إنما يأمركم بالسوء و الفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، و أغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، و أغلظ من ذلك و هو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر و كل مبتدع أيضاً.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾

١٧٠- يقول تعالى: و إذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال و الجهل، قالوا في جواب ذلك: بل نتبع ما ألفينا، أي وجدنا عليه آباءنا، أي: من عبادة الأصنام والأنداد، قال الله تعالى منكراً عليهم: ﴿أولو كان آباؤهم﴾ أي الذين يقتدون بهم و يقتفون أثرهم ﴿لا يعقلون شيئاً و لا يهتدون﴾ أي ليس لهم فهم و لا هداية. ثم ضرب لهم تعالى مثلاً كما قال تعالى: ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ فقال:

١٧١- ﴿و مثل الذين كفروا﴾ أي فيما هم فيه من الغيّ و الضلال و الجهل، كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها بل إذا نعق بها راعيها، أي دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه مايقول و لا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط. هكذا روي عن ابن عباس وأبي العالية و مجاهد وعكرمة و عطاء و الحسن وقتادة و عطاء الخراساني والربيع بن أنس نحو هذا. و قيل: إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع و لا تبصر و لا تعقل شيئاً، اختاره ابن جرير، و الأول أولى، لأن الأصنام لا تسمع شيئاً و لا تعقله و لا تبصره و لا بطش لها و لا حياة فيها. و قوله ﴿صم بكم عمي﴾ أي صم عن سماع الحق، بكم لا يتفوهون به، عمي عن رؤية طريقه و مسلكه ﴿فهم لا يعقلون﴾ أي لا يعلمون شيئاً و لا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿و الذين كذبوا بآياتنا صم و بكم في الظلمات من يشأ الله يضلله و من يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) ﴾

١٧٢- يقول تعالى: آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، و أن يشكروه تعالى على ذلك إن

كانوا عبيده، و الأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء و العبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة. كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾، و قال ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، و مَطعمه حرامٌ و مشربه حرام و ملبسه حرام، وغُذّي بالحرام فأنى يُستجاب لذلك؟» و رواه مسلم في صحيحه والترمذي.

١٧٣- و لما امتن الله تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، و هي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية و سواء كانت منخنقة أوموقوذة أو مترددية أو نطيحة أو قد عدا عليها السبع، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أحل لكم صيد البحر و طعامه﴾ على ما سيأتي إن شاء الله، و حديث العنبر في الصحيح، و في المسند و الموطأ و السنن قوله عليه السلام في البحر «هو الطهور ماؤه و الحل ميتته» و روى الشافعي وأحمد و ابن ماجه و الدار قطني حديث ابن عمر مرفوعاً «أحل لنا ميتتان و دمان، السمك و الجراد و الكبد و الطحال» و سيأتي تقرير ذلك إن شاء الله في سورة المائدة.

(مسألة) و لبن الميتة و بيضها المتصل بها نجس عند الشافعي و غيره، لأنه جزء منها. و قال مالك في رواية: هو طاهر إلا أنه يتنجس بالمجاورة، و كذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف و المشهور عندهم أنها نجسة، و قد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس، فقال القرطبي في التفسير ههنا يخالط اللبن منها يسير، و يعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع، و كذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكي أم مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه، إما تغليباً أو أن اللحم يشمل ذلك، أو بطريق القياس على رأي، و كذلك حرم عليهم ما أهل به لغير الله، و هو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب و الأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له. و أورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها: أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون للمسلمين فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه، و كلوا من أشجارهم.

ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة و الاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال ﴿فمن اضطر غير باغ و لا عاد﴾ أي في غير بغي و لا عدوان و هو مجاوزة الحد ﴿فلا إثم عليه﴾ أي في أكل ذلك ﴿إن الله غفور رحيم﴾، و قال مجاهد: فمن اضطر غير باغ و لا عاد، قاطعاً للسبيل أو مفارقاً للأئمة، أو خارجاً في معصية الله، فله الرخصة، و من خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله فلا رخصة و إن اضطر إليه، و كذا روي عن سعيد بن جبير. و قال سعيد في رواية عنه و مقاتل بن حيان: غير باغ يعني غير مستحلة، و قال السدي: غير باغ، يبتغي فيه شهوته، و عن ابن عباس: لا يشبع منها، و فسره السدي بالعدوان، و عن ابن عباس ﴿غير باغ ولا عاد﴾ قال ﴿غير باغ﴾ في الميتة و لا عاد في أكله، و قال قتادة: غير باغ في الميتة أي في أكله أن يتعدّى حلالاً إلى حرام، و هو يجد عنه مندوحة، و حكى القرطبي عن مجاهد في قوله: فمن اضطر، أي أكره على ذلك بغير اختياره.

(مسألة) إذا وجد المضطر ميتة و طعام الغير بحيث لا قطع فيه و لا أذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف، كذا قال. ثم قال: وإذا أكله، و الحالة هذه، هل يضمن أم لا؟ فيه قولان هما روايتان عن

مالك، ثم أورده من سنن ابن ماجه من حديث عباد بن شرحبيل الغُبَري قال: أصابتنا عاماً مخمصة، فأتيت المدينة، فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلا ففركته و أكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما أطعمته إذ كان جائعاً أو ساغباً، و لا علمته إذ كان جاهلاً» فأمره فرد إليه ثوبه، و أمر له بوسق من طعام أو نصف وسق، إسناد صحيح قوي جيد و له شواهد كثيرة: من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده: سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق، فقال: «من أصاب منه من ذي حاجة بفيه غير متخذ خبنة، فلا شيء عليه» الحديث، و قال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾: فيما أكل من اضطرار، وبلغنا - والله أعلم - أنه لا يزاد على ثلاث لقم، و قال سعيد بن جبير: غفور لما أكل من الحرام، رحيم إذ أحل له الحرام في الاضطرار، و عن مسروق، قال: من اضطر فلم يأكل و لم يشرب ثم مات، دخل النار. و هذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة، قال أبو الحسن الطبري المعروف بالكيا الهراسي - رفيق الغزالي في الاشتغال -: و هذا هو الصحيح عندنا، كالافطار للمريض و نحو ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

١٧٤- يقول تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة و النبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم و ما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا و التحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك و هو نزر يسير، فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى و اتباع الحق و تصديق الرسول و الإيمان بما جاء عن الله، بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا و الآخرة، أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه و جعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، و صاروا عوناً له على قتالهم، و باءوا بغضب على غضب، و ذمهم الله في كتابه في غير موضع، فمن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب و يشترون به ثمناً قليلاً﴾ و هو عرض الحياة الدنيا ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق، ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً و سيصلون سعيراً﴾ و في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال، «الذي يأكل ويشرب في آنية الذهب و الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»، وقوله: ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة و لا يزكيهم و لهم عذاب أليم﴾ و ذلك لأنه تعالى غضبان عليهم، لأنهم كتموا و قد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم و لايزكيهم، أي يثني عليهم و يمدحهم بل يعذبهم عذاباً أليماً.

وقد ذكر ابن أبي حاتم و ابن مردويه، ههنا حديث أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، و لهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذابٌ، و عائل مستكبر».

١٧٥ - ثم قال تعالى مخبراً عنهم **﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾** أي اعتاضوا عن الهدى، و هو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه و البشارة به من كتب الأنبياء و اتباعه و تصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة، و هو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم **﴿و العذاب بالمغفرة﴾** أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، و هو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة، و قوله تعالى: **﴿فما أصبرهم على النار﴾** يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك، مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال و الأغلال، عياذاً بالله من ذلك، و قيل معنى قوله: **﴿فما أصبرهم على النار﴾** أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار.

١٧٦ - وقوله تعالى: **﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾** أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد، لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ و على الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه و كذبوه، و هذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، و هم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه و يكتمون صفته، فاستهزؤا بآيات الله المنزلة على رسله، فلهذا استحقوا العذاب والنكال، و لهذا قال **﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق و إن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾**.

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾

١٧٧ - اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب و بعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، و هو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، و امتثال أوامره، والتوجه حيثما وجّه واتباع ما شرع، فهذا هو البر و التقوى و الإيمان الكامل، و ليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب برٌ و لا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله و شرعه، و لهذا قال **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب و لكن البر من آمن بالله و اليوم الآخر﴾** الآية، كما قال في الأضاحي والهدايا **﴿لن ينال الله لحومها و لا دماؤها و لكن يناله التقوى منكم﴾** و قال أبو العالية: كانت اليهود تقبل قِبَل المغرب، و كانت النصارى تُقْبل قِبَل المشرق، فقال الله تعالى: **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾** يقول: هذا كلام الإيمان و حقيقته العمل، وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله؛ قال مجاهد: ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله عز و جل، وقال الضحاك: ولكن البر و التقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها، و قال

الثوري: ﴿و لكن البر من آمن بالله﴾ الآية قال: هذه أنواع البر كلها.

و صدق رحمه الله، فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عُرى الإسلام كلها، و أخذ بمجامع الخير كله، و هو الإيمان بالله و أنه لا إله إلا هو، و صدق بوجود الملائكة الذين هم سَفَرَةٌ بين الله ورسله ﴿والكتاب﴾ و هو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كل خير، و اشتمل على كل سعادة في الدنيا و الآخرة، و نسخ به كل ما سواه من الكتب قبله، و آمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله و سلامه عليه و عليهم أجمعين، وقوله ﴿و آتى المال على حبه﴾ أي أخرجه و هو محب له راغب فيه، نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً «أفضل الصدقة أن تصدق و أنتَ صحيحٌ شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر»، وعن ابن مسعود قال: قال رسول اللهﷺ «﴿وآتى المال على حبه﴾ أن تعطيه و أنت صحيح شحيح، تأمل العيش و تخشى الفقر» رواه الحاكم ثم قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، و قال تعالى: ﴿و يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً و أسيراً۝إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء و لاشكوراً﴾ و قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ و قوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة﴾ نمط آخر أرفع من هذا، و هو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه وهؤلاء أعطوا و أطعموا ما هم محبون له.

وقوله: ﴿ذوي القربى﴾ و هم قرابات الرجل و هم أولى من أعطى من الصدقة كما ثبت في الحديث «الصدقة، على المساكين صدقة، و على ذي الرحم اثنتان: صدقة و صلة»[1]. فهم أولى الناس بك و ببرك وإعطائك. وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز ﴿واليتامى﴾ هم الذين لا كاسب لهم، و قد مات آباؤهم و هم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، و قد روى عبد الرزاق، عن علي، عن رسول اللهﷺ قال: «لا يُتْمَ بعد حلم» ﴿والمساكين﴾ و هم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسُكّانهم، فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم، و في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة و التمرتان واللقمة و اللقمتان، و لكن المسكين الذي لا يجد غِنًى يغنيه و لا يفطن له فيتصدق عليه»، ﴿و ابن السبيل﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطي ما يوصله إلى بلده، و كذا الذي يريد سفراً في طاعة فيعطي ما يكفيه في ذهابه و إيابه، و يدخل في ذلك الضيف، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين، و كذا قال مجاهد و سعيد بن جبير و أبوجعفر الباقر و الحسن وقتادة و الضحاك والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان ﴿و السائلين﴾ و هم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، ﴿و في الرقاب﴾ و هم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم، و سيأتي الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى، و قوله ﴿وأقام الصلاة و آتى الزكاة﴾ أي و أتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها و خشوعها على الوجه الشرعي المرضي، و قوله: ﴿وآتى الزكاة﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس، و تخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله: ﴿قد أفلح من زكاها۝ و قد خاب من دساها﴾ وقول

(١)رواه أحمد و الترمذي و النسائي و ابن ماجه من حديث سلمان بن عامر ﷺ.

موسى لفرعون ﴿هل لك إلى أن تزكى ◆ وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ وقوله تعالى: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾ ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبير و مقاتل بن حيان، و يكون المذكور من إعطاء هذه الجهات و الأصناف المذكورين، إنما هو التطوع و البر والصلة.

و قوله: ﴿و الموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾، كقوله: ﴿الذين يوفون بعهد الله و لا ينقضون الميثاق﴾ وعكس هذه الصفة النفاق، كما صح في الحديث «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا ائتمن خان» و في الحديث الآخر: «و إذا حدث كذب، و إذا عاهد غدر، و إذا خاصم فجر» و قوله: ﴿والصابرين في البأساء و الضراء و حين البأس﴾ أي في حال الفقر و هو البأساء، و في حال المرض و الأسقام وهو الضراء ﴿وحين البأس﴾ أي في حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود و ابن عباس و أبو العالية ومرة الهمداني ومجاهد وسعيد بن جبير و الحسن وقتادة والربيع بن أنس و السدي و مقاتل بن حيان و أبو مالك والضحاك وغيرهم، و إنما نصب ﴿الصابرين﴾ على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدته وصعوبته والله أعلم، و هو المستعان و عليه التكلان، وقوله ﴿أولئك الذين صدقوا﴾، أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم، لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال و الأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وأولئك هم المتقون﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾

١٧٨- يقول تعالى: كُتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، حركم بحركم، و عبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، و لا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية و قهروهم، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به، بل يُفادى بمائة وسق من التمر، و إذا قتل القرظي النضري قتل به، و إن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضعف دية القرظي، فأمر الله بالعدل في القصاص، و لا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفراً وبغياً، فقال الله تعالى: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر و العبد بالعبد و الأنثى بالأنثى﴾ و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿و الأنثى بالأنثى﴾ و ذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، و لكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله: النفس بالنفس و العين بالعين، فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم و نساؤهم في النفس و فيما دون النفس، و جعل العبيد مستويين فيما بينهم من العمد في النفس و فيما دون النفس رجالهم و نساؤهم، و كذلك روي عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله ﴿النفس بالنفس﴾. (مسألة) ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، و إليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى و داود، و هو مروي عن علي و ابن مسعود وسعيد بن المسيب و إبراهيم النخعي و قتادة والحكم،

قال البخاري و علي بن المديني وإبراهيم النخعي و الثوري في رواية عنه : و يقتل السيد بعبده ، لعموم حديث الحسن عن سمرة «و من قتل عبده قتلناه ، و من جدع عبده جدعناه ، و من خصاه خصيناه»[1]، وخالفهم الجمهور فقالوا : لايقتل الحر بالعبد ، لأن العبد سلعة لو قُتل خطأ لم يجب فيه دية و إنما تجب فيه قيمته ، و لأنه لا يقاد بطرفه ففي النفس بطريق الأولى ، و ذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر ، لما ثبت في البخاري عن علي ، قال قال رسول الله ﷺ «و لايقتل مسلم بكافر» و لا يصح حديث و لا تأويل يخالف هذا ، و أما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة .

(مسألة) قال الحسن و عطاء : لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية ، و خالفهم الجمهور لآية المائدة و لقوله عليه السلام : «المسلمون تتكافأ دماؤهم» .

(مسألة) و مذهب الأئمة الأربعة و الجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد ، قال عمر في غلام قتله سبعة فقتلهم ، وقال : لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ، و لا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة ، و ذلك كالإجماع .

﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف و أداء إليه بإحسان﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ، و كذا روي عن أبي العالية و أبي الشعثاء و مجاهد و سعيد بن جبير وعطاء و الحسن و قتادة و مقاتل بن حيان ، وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ يعني : فمن ترك له من أخيه شيء يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم ، وذلك العفو ، ﴿فاتباع بالمعروف﴾ يقول : فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية ، ﴿و أداء إليه بإحسان﴾ يعني من القاتل من غير ضرر و لا مَعْك يعني المدافعة ، و روى الحاكم عن ابن عباس : و يؤدي المطلوب بإحسان ، و كذا قال سعيد بن جبير و أبو الشعثاء جابر بن زيد و الحسن وقتادة و عطاء الخراساني والربيع بن أنس و السدي ومقاتل بن حيان .

(مسألة) قال مالك رحمه الله في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور ، و أبو حنيفة و أصحابه ، والشافعي وأحمد في أحد قوليه : ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل ، و قال الباقون : له أن يعفو عليها و إن لم يرض .

(مسألة) و ذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو ، منهم الحسن و قتادة و الزهري و ابن شبرمة و الليث و الأوزاعي ، و خالفهم الباقون .

وقوله : ﴿ذلك تخفيف من ربكم و رحمة﴾ يقول تعالى : إنما شرع لكم أخذ الدية في العمل تخفيفاً من الله عليكم ، و رحمة بكم مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو ، كما روى سعيد بن منصور عن ابن عباس قال : كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى ، و لم يكن فيهم العفو ، فقال الله لهذه الأمة ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر و العبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد و قد رواه ابن حبان . و قال قتادة ﴿ذلك تخفيف من ربكم﴾ رحم الله هذه الأمة و أطعمهم الدية و لم تحل لأحد قبلهم ، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص و عفو ليس بينهم أرش وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به ، و جعل لهذه الأمة القصاص و العفو والأرش ، و هكذا روي عن سعيد بن جبير و مقاتل بن حيان والربيع بن أنس نحو هذا . و قوله ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ يقول تعالى : فمن قتل بعد أخذ الدية

(١) وهو حديث ضعيف .

أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجع شديد، و هكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء و عكرمة و الحسن و قتادة و الربيع بن أنس والسدي و مقاتل بن حيان.

١٧٩- و قوله ﴿و لكم في القصاص حياة﴾ يقول تعالى: و في شرع القصاص لكم، و هو قتل القاتل حكمة عظيمة وهي بقاء المهج و صونها، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للنفوس، و في الكتب المتقدمة: القتل أنفى للقتل، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ و أوجز ﴿و لكم في القصاص حياة﴾ قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل. و كذا روي عن مجاهد و سعيد بن جبير و أبي مالك و الحسن وقتادة والربيع بن أنس و مقاتل بن حيان ﴿يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾ يقول يا أولي العقول والأفهام و النهى، لعلكم تنزجرون و تتركون محارم الله و مآثمه، و التقوى اسم جامع لفعل الطاعات و ترك المنكرات.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

١٨٠- اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين و الأقربين، و قد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، و صارت المواريث المقدَّرة فريضة من الله، يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية و لا تحمل منّة الموصي، و لهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب و هو يقول «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث» و روى الإمام أحمد عن محمد بن سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية ﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين و الأقربين﴾ فقال: نُسخت هذه الآية، ورواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرطهما، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾ قال: كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين، فأنزل الله آية الميراث، فبين ميراث الوالدين و أقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت، و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾: نسختها هذه الآية ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون و للنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾ ثم قال ابن أبي حاتم: و روي عن ابن عمر و أبي موسى وسعيد بن المسيب و الحسن ومجاهد و عطاء و سعيد بن جبير و محمد بن سيرين و عكرمة و زيد بن أسلم و الربيع بن أنس وقتادة والسدي و مقاتل بن حيان و طاوس وإبراهيم النخعي و شريح و الضحاك و الزهري: أن هذه الآية منسوخة، نسختها آية الميراث.

و قال أبو مسلم: ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، و هو مذهب ابن عباس والحسن و مسروق وطاوس و الضحاك و مسلم بن يسار و العلاء بن زياد. (قلت): و به قال أيضاً سعيد بن جبير و الربيع بن أنس وقتادة و مقاتل بن حيان، ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر، لأن آية المواريث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن الأقربين أعم ممن يرث

و لا يرث، فرفع حكم من يرث بما عين له، و بقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى، و هذا إنما يتأتى على قول بعضهم: إن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت ندباً حتى نسخت، فأما من يقول: إنها كانت واجبة و هو الظاهر من سياق الآية، فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث كما قاله أكثر المفسرين و المعتبرين من الفقهاء، فإن وجوب الوصية للوالدين و الأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع، بل منهي عنه للحديث المتقدم «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث» فآية الميراث حكم مستقل، و وجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات، يرفع بها حكم هذه بالكلية، بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثلث استئناساً بآية الوصية و شمولها، ولما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا و وصيته مكتوبة عنده» قال ابن عمر: ما مرت عليّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي و الآيات والأحاديث بالأمر ببرّ الأقارب والإحسان إليهم كثيرة جداً.

و قوله ﴿إن ترك خيراً﴾ أي مالاً، قاله ابن عباس و مجاهد و عطاء و سعيد بن جبير و أبو العالية و عطية العوفي و الضحاك و السدي و الربيع بن أنس و مقاتل بن حيان و قتادة و غيرهم، ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قل المال أوكثر كالوراثة، و منهم من قال: إنما يوصي إذا ترك مالاً جليلاً، ثم اختلفوا في مقداره، روى ابن أبي حاتم عن عروة قال: قيل لعلي رضي الله عنه: إن رجلاً من قريش قد مات و ترك ثلثمائة دينار أو أربعمائة ولم يوص؟ قال: ليس بشيء إنما قال الله ﴿إن ترك خيراً﴾ و روى أيضاً عنه: إن علياً دخل على رجل من قومه يعوده، فقال: أوصي؟ فقال له علي: إنما قال الله ﴿إن ترك خيراً الوصية﴾ إنما تركت شيئاً يسيراً فاتركه لولدك، و قوله ﴿بالمعروف﴾ أي بالرفق و الإحسان، كما روى ابن أبي حاتم عن الحسن قوله ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ فقال: نعم، الوصية حق على كل مسلم أن يوصي إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر، والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربيه وصية لا تُجحف بورثته من غير إسراف و لا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً قال: يا رسول الله، إن لي مالاً و لا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: «لا» قال: فبالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثلث؟ قال «الثلثُ، و الثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»، و في صحيح البخاري أن ابن عباس قال: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال «الثلث، و الثلث كثير».

١٨١- و قوله ﴿فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم﴾ يقول تعالى: فمن بدّل الوصية و حرفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾ قال ابن عباس و غير واحد: و قد وقع أجر الميت على الله، و تعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك ﴿إن الله سميع عليم﴾ أي قد اطلع على ما أوصى به الميت و هو عليم بذلك و بما بدّله الموصي إليهم.

١٨٢- و قوله تعالى: ﴿فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً﴾ قال ابن عباس و أبو العالية و مجاهد والضحاك والربيع بن أنس و السدي: الجنف الخطأ، و هذا يشمل أنواع الخطأ كلها، بأن زادوا وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعة الشيء الفلاني محاباة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد بل بطبعه و قوة شفقته من غير تبصر، أو متعمداً آثماً في ذلك، فللوصي و الحالة هذه، أن يصلح

القضية ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي، ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه و أشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصي و الطريق الشرعي، و هذا الإصلاح والتوفيق، ليس من التبديل في شيء، و لهذا عطف هذا فبينه على النهي عن ذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، و الله أعلم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) ﴾

١٨٣- يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الآية، و آمراً لهم بالصيام و هو الإمساك عن الطعام و الشراب والوقاع، بنية خالصة لله عز و جل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها و تنقيتها من الأخلاط الرديئة و الأخلاق الرذيلة، و ذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيه أسوة، و ليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً و لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة و لكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات﴾** الآية، و لهذا قال ههنا **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾** لأن الصوم فيه تزكية للبدن، وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، و من لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» ثم بيّن مقدار الصوم وأنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه بل في أيام معدودات. و قد كان هذا في ابتداء الإسلام، يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتي بيانه. و قد روي أن الصيام كان أولاً كما كان عليه الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام عن معاذ و ابن مسعود و ابن عباس و عطاء وقتادة والضحاك بن مزاحم وزاد: لم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان. وقال الحسن البصري **﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ ﴿أياما معدودات﴾** فقال: نعم، و الله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت، كما كتبه علينا شهراً كاملاً، و أياما معدودات: عدداً معلوماً، وروي عن السدي نحوه. و روي عن ابن عباس **﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾** يعني بذلك أهل الكتاب، و روي عن الشعبي و السدي وعطاء الخراساني مثله.

ثم بيّن حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال: **﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾** أي المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر، لما في ذلك من المشقة عليهما بل يفطران و يقضيان بعد ذلك من أيام أخر، وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام و إن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، و إن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود و ابن عباس و مجاهد وطاوس ومقاتل ابن حيان وغيرهم من السلف، ولهذا قال تعالى: **﴿و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له و أن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾**.

و روى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل ﷺ، قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة

أحوال، فأما أحوال الصلاة فإن النبي ﷺ، قدم المدينة و هو يصلي سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، ثم إن الله عز و جل أنزل عليه: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾ الآية، فوجهه الله إلى مكة هذا حول، قال: و كانوا يجتمعون للصلاة و يؤذن بها بعضهم بعضاً، حتى نقسوا أو كادوا ينقسون (١) ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد بن عبد ربه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم، و لو قلت إني لم أكن نائماً لصدقت، إني بينا أنا بين النائم و اليقظان إذ رأيت شخصاً عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة، فقال: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله - مثنى - حتى فرغ من الأذان، ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذي قال، غير أنه يزيد في ذلك قد قامت الصلاة مرتين قال رسول الله ﷺ: «علمها بلالاً فليؤذن بها» فكان بلال أول من أذن بها، قال: وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، قد طاف بي مثل الذي طاف به، غير أنه سبقني. فهذان حالان، قال: و كانوا يأتون الصلاة سبقهم النبي ﷺ ببعضها، فكان الرجل يشير إلى الرجل إذن كم صلى؟ فيقول: واحدة أواثنتين فيصليهما، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم، قال: فجاء معاذ فقال: لا أجده على حال أبداً إلا كنت عليها، ثم قضيت ما سبقني، قال: فجاء وقد سبقه النبي ﷺ ببعضها، قال: فثبت معه فلما قضى رسول الله ﷺ قام فقضى، فقال رسول الله «إنه قد سنّ لكم معاذٌ فهكذا فاصنعوا» فهذه ثلاثة أحوال، و أما أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ، قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام و صام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، و أنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ إلى قوله ﴿و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ فكان من شاء صام و من شاء أطعم مسكيناً، فأجزأ ذلك عنه، ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ إلى قوله ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، و رخص فيه للمريض و المسافر، و ثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، فهذان حالان، قال: و كانوا يأكلون ويشربون و يأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له صرمة، كان يعمل صائماً حتى أمسى إلى أهله فصلى العشاء ثم نام، فلم يأكل و لم يشرب حتى أصبح فأصبح صائماً، فرآه رسول الله و قد جهد جهداً شديداً، فقال «ما لي أراك قد جهدت جهداً شديداً؟» قال: يا رسول الله، إني عملتُ أمس فجئت حين جئت، فألقيت نفسي فنمت، فأصبحت صائماً، قال: و كان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم - إلى قوله - ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ و أخرجه أبو داود في سننه، و الحاكم في مستدركه، و قد أخرجه البخاري و مسلم من حديث عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فما نزل فرض رمضان، كان من شاء صام و من شاء أفطر، و روى البخاري عن ابن عمر و ابن مسعود مثله.

و قوله تعالى: ﴿و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ كما قال معاذ رضي الله عنه: كان في ابتداء الأمر من شاء صام، ومن شاء أفطر و أطعم عن كل يوم مسكيناً، وهكذا روى البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت ﴿و على الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾: كان من أراد أن يفطر يفادي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها، و روى أيضاً من حديث ابن عمر قال: هي منسوخة، و قال السدي عن مرة عن عبد الله، قال لما نزلت هذه

(١) نقس: أي ضرب بالناقوس، و هو ما يضرب به النصارى لأوقات الصلاة.

الآية ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ قال: يقول ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي يتجشمونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام، و من شاء أفطر و أطعم مسكيناً ﴿فمن تطوع﴾ يقول: أطعم مسكيناً آخر ﴿فهو خير له وأن تصوموا خير لكم﴾ فكانوا كذلك حتى نسختها ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ و روى البخاري أيضاً عن عطاء: سمع ابن عباس: يقرأ ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لايستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً، فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ و أما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام، فله أن يفطر ولا قضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيهامن القضاء، و لكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جِدَة ؟ فيه قولان للعلماء: أحدهما لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسنّه، فلم يجب عليه فدية كالصبي، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها و هو أحد قولي الشافعي، و الثاني، و هو الصحيح وعليه أكثر العلماء، أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود و غيره، هو اختيار البخاري فإنه قال: و أما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس بعد ما كبر عاماً أوعامين عن كل يوم مسكيناً، خبزاً و لحماً وأفطر، و هذا الذي علقه البخاري قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أيوب بن أبي تميمة، قال: ضعف أنس عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم، ورواه عبد بن حميد.

و مما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان و يقضيان، و قيل: يفديان فقط و لا قضاء، و قيل يجب القضاء بلا فدية، وقيل: يفطران و لا فدية و لا قضاء، وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة في كتاب الصيام الذي أفردناه، و لله الحمد والمنة.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾

١٨٥ - يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم، و كما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء، روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن واثلة يعني ابن الأسقع: أن رسول الله ﷺ، قال «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت مضت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع و عشرين خلت من رمضان» و أما الصحف و التوراة والزبور والإنجيل، فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة، و أما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، و كان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ و قال ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ ثم نزل بعده مفرقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ، هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس، و في

رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال، أنزل القرآن في النصف من شهر رمضان إلى السماء الدنيا، فجعل في بيت العزة، ثم أنزل على رسول الله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس، و في رواية عكرمة عن ابن عباس، قال: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، على هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء، و لا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: **﴿و قال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك و رتلناه ترتيلاً﴾ و لا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق و أحسن تفسيراً﴾**. و قوله: **﴿هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان﴾** هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله لقلوب العباد ممن آمن به و صدقه واتبعه **﴿و بينات﴾** أي دلائل و حجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، و الرشد المخالف للغي، و مفرقاً بين الحق والباطل و الحلال والحرام.

و قوله: **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر، أي كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر و يفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه، و لما حتّم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر، أن يفطر بشرط القضاء، فقال **﴿و من كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾** معناه: و من كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه، أو كان على سفر، أي في حالة السفر، فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام، و لهذا قال **﴿يريد الله بكم اليسر و لا يريد بكم العسر﴾** أي إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض و السفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم.

و ههنا مسائل تتعلق بهذه الآية (إحداها) أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيماً في أول الشهر ثم سافر في أثنائه، فليس له الإفطار بعذر السفر و الحالة هذه، لقوله **﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾** و إنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر و هومسافر، وهذا القول غريب، نقله أبو محمد بن حزم في كتابه «المحلى» عن جماعة من الصحابة والتابعين، و فيما حكاه عنهم نظر، و الله أعلم، فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح، فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر، و أمر الناس بالفطر، أخرجه صاحبا الصحيح. (الثانية) ذهب آخرون من الصحابة و التابعين إلى وجوب الإفطار في السفر لقوله **﴿فعدة من أيام أخر﴾** و الصحيح قول الجمهور أن الأمر في ذلك على التخيير و ليس بحتم، لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان، قال: فمنا الصائم و منا المفطر، فلم يعب الصائم على المفطر، و لا المفطر على الصائم، فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، و ما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ و عبد الله ابن رواحة. (الثالثة) قالت طائفة منهم الشافعي: الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبي ﷺ كما تقدم، و قالت طائفة: بل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم في السفر، فقال: «من أفطر فحسن، و من صام فلا جناح عليه» و قال في حديث آخر «عليكم برخصة الله التي رخص

لكم» و قالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله، إني كثير الصيام أفأصوم في السفر؟ فقال «إن شئت فصم، و إن شئت فأفطر» و هو في الصحيحين، و قيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل، لحديث جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظُلِّل عليه فقال: «ما هذا؟» قالوا: صائم، فقال «ليس من البر الصيام في السفر» أخرجاه، فأما إن رغب عن السنة و رأى أن الفطر مكروه إليه، فهذا يتعين عليه الإفطار، و يحرم عليه الصيام و الحالة هذه، (الرابعة) القضاء هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق فيه قولان: (أحدهما) أنه يجب التتابع لأن القضاء يحكي الأداء، (و الثاني) لا يجب التتابع، بل إن شاء فرق و إن شاء تابع، و هذا قول جمهور السلف و الخلف، و عليه ثبتت الدلائل، لأن التتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان، فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر، و لهذا قال تعالى: ﴿فعدة من أيام أخر﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يريد الله بكم اليسر و لا يريد بكم العسر﴾ روى الإمام أحمد عن أبي قتادة عن الأعرابي الذي سمع النبي ﷺ يقول «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره». و روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «يسروا و لا تعسروا و سكّنوا و لا تنفّروا» أخرجاه في الصحيحين. و في الصحيحين: أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ و أبي موسى حين بعثهما إلى اليمن «بشرا و لا تنفرا و يسرا و لا تعسرا وتطاوعا و لا تختلفا» و في السنن و المسانيد أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». ومعنى قوله ﴿يريد الله بكم اليسر و لا يريد بكم العسر و لتكملوا العدة﴾ أي إنما أرخص لكم في الإفطار للمريض والسفر ونحوهما من الأعذار، لإرادته بكم اليسر و إنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم، و قوله: ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي و لتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ و قال ﴿فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض و ابتغوا من فضل الله و اذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ و قال ﴿و سبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و قبل الغروب ◆ ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾ ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح و التحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات، و قال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير، ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية: ﴿و لتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ حتى ذهب داود ابن علي الأصبهاني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر، لظاهر الأمر في قوله: ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ و في مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنه لا يشرع التكبير في عيد الفطر! والباقون على استحبابه على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم.

و قوله: ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته، بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾

١٨٦- روى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله في غزوة، فجعلنا لا نصعد شرفاً

و لا نعلو شرفاً و لا نهبط وادياً ، إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير ، قال : فدنا منا ، فقال «يا أيها الناس ، اربَعُوا على أنفسكم ، فإنكم لا تَدعون أصمَّ و لا غائباً ، إنما تدعون سميعاً بصيراً ، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ، يا عبد الله بن قيس ، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لا حول و لا قوة إلا بالله» أخرجاه في الصحيحين و بقية الجماعة ، و روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه : أن النبي ﷺ ، قال : «يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعاني» . وروى أيضاً عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ ، يقول : «قال الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه» .

(قلت) و هذا كقوله تعالى : ﴿إن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون﴾ ، و قوله لموسى و هارون عليهما السلام ﴿إنني معكما أسمع و أرى﴾ و المراد من هذا أنه تعالى لا يخيب دعاء داع ، و لا يشغله عنه شيء ، بل هو سميع الدعاء ، ففيه ترغيب في الدعاء ، و أنه لا يضيع لديه تعالى ، كما روي عن سلمان يعني الفارسي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الله تعالى ليستحيي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبتين» ، وقد رواه أبو داود و الترمذي و ابن ماجه .

وروي أيضاً عن أبي سعيد : أن النبي ﷺ ، قال «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم و لا قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يُعجّل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الأخرى ، و إما أن يَصرف عنه من السوء مثلها» قالوا : إذاً نُكْثر ؟ قال : «الله أكثر» ، وروى الإمام مالك عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ ، قال «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لي» أخرجاه في الصحيحين ، و روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم ، أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل ، قيل : يا رسول الله ، وما الاستعجال ؟ قال «يقول قد دعوتُ و قد دعوت ، فلم أر يستجاب لي ، فيَستَحسر عند ذلك و يَدَعُ الدعاء» ، وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام ، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر ، و في مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي و ابن ماجه عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، و دعوة المظلوم ، يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة و تفتح لها أبواب السماء ، ويقول : بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين» .

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)﴾

١٨٧ – هذه رخصةٌ من الله تعالى للمسلمين ، ورفعٌ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل و الشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم

عليه الطعام و الشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة، و الرفث هنا الجماع، قاله ابن عباس وعطاء و مجاهد و سعيد بن جبير و طاوس وسالم بن عبد الله و عمرو بن دينارو الحسن و قتادة والزهري والضحاك و إبراهيم النخعي و السدي وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان، و قوله ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ قال ابن عباس ومجاهد و سعيد بن جبير و الحسن وقتادة والسدي و مقاتل بن حيان: يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن، و قال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن، وحاصله: أن الرجل و المرأة كل منهما يخالط الآخر و يماسه ويضاجعه، فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا.

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويل، و روى البخاري ههنا عن البراء، قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، و كان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم و عفا عنكم﴾ وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء، حرم عليهم النساء و الطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء و الطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن﴾ الآية، و قوله ﴿فالآن باشروهن﴾ يعني جامعوهن ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ يعني الولد، و قيل: الجماع، وقال قتادة: ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم، يقول: ما أحل الله لكم، واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله.

قوله ﴿و كلوا و اشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أباح تعالى الأكل و الشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل، و عبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، و رفع اللبس بقوله ﴿من الفجر﴾ كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري: عن سهل بن سعد، قال: أنزلت ﴿و كلوا و اشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ و لم ينزل ﴿من الفجر﴾ و كان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض و الخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بَعدُ ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه يعني الليل و النهار. و روى الإمام أحمد عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية ﴿و كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ عمدت إلى عقالين: أحدهما أسود و الآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما، فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله فأخبرته بالذي صنعت، فقال «إن وسادك إذاً لعريض إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل» أخرجاه في الصحيحين، و معنى قوله: إن وسادك إذاً لعريض، أي إن كان ليسع الخيطين: الخيط الأسود والأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل، فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب، و هكذا وقع في رواية البخاري مفسراً.

و في إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب، و لهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور ففي الصحيحين عن أنس قال:

قال رسول الله ﷺ «تسحروا فإن في السحور بركة» و في صحيح مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «إن فصل ما بين صيامنا و صيام أهل الكتاب أَكْلَةُ السحور». و روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «السحور أكله بركة فلا تدعوه، و لو أن أحدكم تجرع جرعة ماء، فإن الله و ملائكته يصلون على المتسحرين» و قد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة ماء تشبهاً بالآكلين، و يستحب تأخيره إلى وقت انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور ؟ قال: قدر خمسين آية. و روى الإمام أحمد عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الإفطار و أخروا السحور» و قد ورد أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سماه الغداء المبارك، و حكى أبو جعفر بن جرير في تفسيره عن بعضهم: أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها. (قلت) و هذا القول ما أظن أحداً من أهل العلم يستقر له قدم عليه، لمخالفته نص القرآن في قوله ﴿و كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ و قد ورد في الصحيحين من حديث القاسم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم، فإنه ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر» لفظ البخاري، وروى عبد الرزاق عن عطاء: سمعت ابن عباس يقول: هما فجران، فأما الذي يسطع في السماء فليس يحل و لا يحرم شيئاً، و لكن الفجر الذي يستنير على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب، و قال عطاء فأما إذا سطع سطوعاً في السماء، وسطوعه أن يذهب في السماء طولاً، فإنه لا يحرم به شراب الصائم ولا صلاة و لا يفوت به الحج، و لكن إذا انتشر على رؤوس الجبال، حرم الشراب للصيام و فات الحج، و هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس و عطاء، وهكذا روي عن غير واحد من السلف رحمهم الله.

(مسألة) ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام يستدل على أنه من أصبح جنباً فليغتسل و ليتم صومه و لا حرج عليه، و هذا مذهب الأئمة الأربعة و جمهور العلماء سلفاً و خلفاً، لما رواه البخاري و مسلم من حديث عائشة و أم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل و يصوم و في حديث أم سلمة عندهما: ثم لا يفطر و لا يقضي، و في صحيح مسلم عن عائشة، أن رجلاً قال: يا رسول الله، تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم ؟ فقال رسول الله ﷺ «و أنا تدركني الصلاة و أنا جنب فأصوم» فقال: لست مثلنا يا رسول الله، فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر، فقال «و الله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي».

﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أقبل الليل من ههنا، و أدبر النهار من ههنا أفطر الصائم» و عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» أخرجاه، و روى أحمد عن ليلى امرأة بشير بن الخصاصية قالت: أردتُ أن أصوم يومين مواصلة، فمنعني بشير وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنه وقال «يفعل ذلك النصارى، ولكن صوموا كما أمركم الله وأتموا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا» و لهذا وردفي الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال، وهو أن

يصل يوماً بيوم و لا يأكل بينهما شيئاً، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا تواصلوا» قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، قال «فإني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» قال: فلم ينتهوا عن الوصال فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالمنكّل لهم، وأخرجاه في الصحيحين. فقد ثبت النهي عنه من غير وجه وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ و أنه كان يقوى على ذلك ويُعان، و الأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسياً، و إلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي، و لكن كما قال الشاعر:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب و تلهيها عن الزاد

أما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السَّحَر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر» قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله ﷺ، قال «إني لستُ كهيئتكم، إني أبيتُ لي مُطْعِمٌ يطعمني، و ساقٍ يسقيني» أخرجاه في الصحيحين أيضاً.

قوله تعالى: ﴿ولا تباشروهن و أنتم عاكفون في المساجد﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه، وقال الضحاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء، فقال الله تعالى: ﴿ولا تباشروهن و أنتم عاكفون في المساجد﴾ أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد و لا في غيره. و كذا قال مجاهد و قتادة و غير واحد، والأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، و لو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد منها، فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل، وليس له أن يقبل امرأته و لا أن يضمها إليه، و لا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه و هو مار في طريقه، وللاعتكاف أحكام مفصلة في بابها، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء و منها ما هو مختلف فيه، و قد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام، و لله الحمد والمنة، و لهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبّه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم.

و في ذكره تعالى، الاعتكاف بعد الصيام إرشاد و تنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده، أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، و في الصحيحين أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي ﷺ و هو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة ثم قامت لترجع إلى منزلها، وكان ذلك ليلاً، فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتى تبلغ دارها، و كان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة.

ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل و معانقة و نحو ذلك، فأما معاطاة الشيء و نحوه فلا بأس به، فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يدني إلي رأسه فأرجله و أنا حائض، و كان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان، قالت عائشة: ولقد كان المريض يكون في

البيت ، فما أسأل عنه ، إلا وأنا مارة ، وقوله ﴿تلك حدود الله﴾ أي هذا الذي بيّناه وفرضناه وحددناه من الصيام و أحكامه و ما أبحنا فيه و ما حرمنا وذكرنا غاياته و رخصه و عزائمه ، حدود الله أي شرعها الله و بيّنها بنفسه ، ﴿فلا تقربوها﴾ أي لا تجاوزوها وتتعدوها ، ﴿كذلك يبين الله آياته للناس﴾ أي كما بيّن الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله ، كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده و رسوله محمدﷺ ﴿للناس لعلهم يتقون﴾ أي يعرفون كيف يهتدون و كيف يطيعون ، كما قال تعالى : ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور و إن الله بكم لرؤوف رحيم﴾ .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ﴾

١٨٨- قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : هذا في الرجل يكون عليه مال و ليس عليه فيه بينة ، فيجحد المال و يخاصم إلى الحكام و هو يعرف أن الحق عليه ، و هو يعلم أنه آثم آكل الحرام ، و كذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة و الحسن و قتادة و السدي و مقاتل بن حيان و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا : لا تخاصم و أنت تعلم أنك ظالم ، و قد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول اللهﷺ ، قال «ألا إنما أنا بشر ، وإنما يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له ، فمن قضيتُ له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها»

فدلت هذه الآية الكريمة و هذا الحديث على أن حُكم الحاكم لا يُغير الشيء في نفس الأمر ، فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام ، ولا يحرم حلالاً هو حلال ، وإنما هو ملزم في الظاهر ، فإن طابق في نفس الأمر فذاك ، و إلا فللحاكم أجره و على المحتال وزره ، و لهذا قال تعالى : ﴿و لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم و أنتم تعلمون﴾ أي تعلمون بطلان ما تدعونه و ترجونه في كلامكم ، قال قتادة : اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً و لا يحق لك باطلاً ، و إنما يقضي القاضي بنحو ما يرى و تشهد به الشهود ، والقاضي بشر يخطئ ويصيب ، واعلموا أن من قُضي له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة ، فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضي به للمبطل على المحق في الدنيا .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) ﴾

١٨٩- روي عن ابن عباس : سأل الناس رسول اللهﷺ عن الأهلة ، فنزلت هذه الآية ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾ يعلمون بها حل دينهم و عدة نسائهم و وقت حجهم ، و عن أبي العالية : بلغنا أنهم قالوا : يا رسول الله لم خلقت الأهلة ؟ فأنزل الله ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت﴾ يقول جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم و عدة نسائهم و محل دينهم ، كذا روي عن عطاء و الضحاك و قتادة و السدي والربيع بن أنس نحو ذلك ؛ و روي عبد الرزاق عن ابن عمر ، قال : قال رسول اللهﷺ «جعل الله الأهلة

مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته و أفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوماً» و رواه الحاكم في مستدركه، و قال محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه، قال: قال رسول الله: «جعل الله الأهلة، فإذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين» و كذا روي من حديث أبي هريرة ومن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

و قوله ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها و لكن البر من اتقى و أتوا البيوت من أبوابها﴾ روى البخاري: عن البراء، قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية، أتوا البيت من ظهره فأنزل الله ﴿و ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها و لكن البر من اتقى و أتوا البيوت من أبوابها﴾ و كذا رواه أبو داود الطيالسي عن البراء قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم، لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية، وعن جابر: كانت قريش تدعى الحُمْس، و كانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، و كانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينا رسول الله ﷺ في بستان، إذ خرج من بابه، و خرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا: يا رسول الله، إن قطبة بن عامر رجل تاجر، و إنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلته، ففعلت كما فعلت، فقال: إني أحمس، قال له: فإن ديني دينك، فأنزل الله ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ رواه ابن أبي حاتم، وقال الحسن البصري: كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً، و خرج من بيته يريد سفره الذي خرج له، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم و يدع سفره، لم يدخل البيت من بابه و لكن يتسوره من قبل ظهره، فقال الله تعالى: ﴿و ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ الآية.

و قوله: ﴿و اتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي اتقوا الله، فافعلوا ما أمركم به و اتركوا ما نهاكم عنه ﴿لعلكم تفلحون﴾ غداً إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال.

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) ﴾

١٩٠- روي عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، و يكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وفي هذا نظر، لأن قوله ﴿الذين يقاتلونكم﴾ إنما هو تهييج و إغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام و أهله، أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: ﴿و قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾.

١٩١-ولهذا قال في الآية: ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم و أخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾أي لتكون همتكم

منبعثة على قتالهم، كما همتهم منبعثة على قتالكم، و على إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً.
وقوله: ﴿و لاتعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي قاتلوا في سبيل الله، و لا تعتدوا في ذلك و يدخل في ذلك ارتكاب المناهي، كما قاله الحسن البصري؛ من المُثْلة و الغلول و قتل النساء والصبيان و الشيوخ، الذين لا رأي لهم و لاقتال فيهم، والرهبان و أصحاب الصوامع، و تحريق الأشجار، و قتل الحيوان لغيرمصلحة، كما قال ذلك ابن عباس و عمربن عبد العزيز و مقاتل بن حيان و غيرهم، و لهذا جاء في صحيح مسلم، عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزوا في سبيل الله و قاتلوا من كفر بالله، اغزوا و لا تغلوا و لا تغدروا و لا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد و لا أصحاب الصوامع» رواه الإمام أحمد و عن ابن عباس مثله. و في الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان.

و لما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله، أبلغ و أشد و أعظم وأطم من القتل، ولهذا قال: ﴿و الفتنة أشد من القتل﴾ قال أبو مالك: أي ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل. ولهذا قال: ﴿و الفتنة أشد من القتل﴾، يقول الشرك أشد من القتل، و قوله: ﴿و لا تقاتلوهم عند المسجد الحرام﴾ كما جاء في الصحيحين «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خَلَقَ السموات و الأرض فهو حَرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، و لم يحل إلا ساعةً من نهار و إنها ساعتي هذه، حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَد شجره و لا يختلى خلاه، فإن أحد ترخّص بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا إن الله أذن لرسوله و لم يأذن لكم»، يعني بذلك صلوات الله و سلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة و قتلت رجال منهم عند الخندمة، و قيل صلحاً لقومه «من أغلق بابه فهو آمن، و من دخل المسجد فهو آمن، و من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

و قوله: ﴿حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ يقول تعالى: و لا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدؤوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف و الأحابيش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال ﴿و هوالذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ و قال ﴿و لو لا رجال مؤمنون و نساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم مَعَرةٌ بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء، لو تزيّلُوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾.

١٩٢- وقوله: ﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾ أي فإن تركوا القتال في الحرم و أنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله يغفر ذنوبهم، و لو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه.

١٩٣- ثم أمر الله بقتال الكفار ﴿حتى لا تكون فتنة﴾ أي شرك، قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد و الحسن وقتادة و الربيع ومقاتل بن حيان و السدي و زيد بن أسلم ﴿ويكون الدين لله﴾ أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية و يقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»، و قوله: ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ يقول تعالى فإن انتهوا عما هم فيه من

الشرك و قتال المؤمنين فكفوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد أن لا يقاتل إلا من قاتل، أو يكون تقديره فإن انتهوا تخلصوا من الظلم و هو الشرك، فلا عدوان عليهم بعد ذلك، والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة و المقاتلة كقوله: **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾** وقوله: **﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ ﴿و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾** و لهذا قال عكرمة و قتادة: الظالم الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله، و روى البخاري عند قوله: **﴿و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾** الآية، عن ابن عمر قال: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس ضيعوا و أنت ابن عمر وصاحب النبيﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، قالا: ألم يقل الله **﴿و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾**؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة و كان الدين لله، و أنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، و حتى يكون الدين لغير الله.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

١٩٤- قال عكرمة: عن ابن عباس، و الضحاك والسدي و قتادة و مقسم و الربيع بن أنس و عطاء و غيرهم: لما سار رسول اللهﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدوه بمن معه من المسلمين، في ذي القعدة و هو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية هو و من كان من المسلمين، و أقصه الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية **﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾** و روى الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسول اللهﷺ يغزو في الشهر الحرام، إلا أن يُغزى و يُغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ. هذا إسناد صحيح؛ ولهذا لما بلغ النبيﷺ، و هو مخيم بالحديبية أن عثمان قتل، و كان قد بعثه في رسالة إلى المشركين، بايع أصحابه و كانوا ألفاً و أربعمائة تحت الشجرة، على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل، كف عن ذلك و جنح إلى المسالمة و المصالحة، فكان ما كان. و كذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين، وتحصن فلّهم بالطائف، عدل إليها فحاصرها، و دخل ذو القعدة و هو محاصر لها بالمنجنيق، و استمر عليه إلى كمال أربعين يوماً، كما ثبت في الصحيحين عن أنس، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها و لم تفتح، ثم كر راجعاً إلى مكة و اعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين، و كانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضاً، عام ثمان صلوات الله و سلامه عليه.

و قوله: **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾** أمر بالعدل حتى في المشركين، كما قال: **﴿و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾** و قال: **﴿و جزاء سيئة سيئة مثلها﴾** وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أن قوله: **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾**، نزلت بمكة حيث لا شوكة و لا جهاد، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة، وقد رد هذا القول ابن جرير، و قال: بل الآية مدنية بعد عمرة القضية، وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله، و قوله: **﴿و اتقوا الله و اعلموا أن الله مع المتقين﴾** أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخباره بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر و التأييد في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

١٩٥- روى البخاري عن حذيفة ﴿و أنفقوا في سبيل الله و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قال: نزلت في النفقة، و قال ابن أبي حاتم: و روي عن ابن عباس و مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير و عطاء و الضحاك والحسن و قتادة و السدي و مقاتل بن حيان نحو ذلك. وروى أبو داود عن أسلم أبي عمران: كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، و على أهل الشام رجل، يريد فضالة بن عبيد، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، فصففنا لهم فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه، فقالوا: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب: يا أيها الناس، إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل، و إنما نزلت فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه و كثر ناصروه، قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله هذه الآية. و قال رجل للبراء بن عازب: إن حملتُ على العدو وحدي فقتلوني، أكنتُ ألقيت بيدي إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله لرسوله: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ و إنما هذه في النفقة، رواه ابن مردويه و أخرجه الحاكم في مستدركه، و قال صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، ورواه الترمذي، فذكره و قال بعد قوله ﴿لا تكلف إلا نفسك﴾: و لكن التهلكة إن يذنب الرجل الذنب فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب، و قال الحسن البصري ﴿و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قال: هو البخل، و عن النعمان بن بشير، في قوله: ﴿و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ أن يذنب الرجل الذنب فيقول: لا يغفر لي، فأنزل الله: ﴿و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة و أحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ رواه ابن مردويه، و قال ابن أبي حاتم، و روي عن عبيدة السلماني و الحسن وابن سيرين و أبي قلابة نحو ذلك، يعني نحو قول النعمان بن بشير، أنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له، فيلقي بيده إلى التهلكة، أي يستكثر من الذنوب فيهلك. و لهذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: التهلكة عذاب الله، و روى ابن أبي حاتم و ابن جرير عن القرظي محمد بن كعب، أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قال: كان القوم في سبيل الله، فيتزود الرجل، فكان أفضل زاداً من الآخر، أنفق البائس من زاده حتى لا يبقى من زاده شيء، أحب أن يواسي صاحبه فأنزل الله ﴿و أنفقوا في سبيل الله و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾.

و مضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله، في سائر وجوه القربات و وجوه الطاعات، و خاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، و بذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، و الإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك و دمار لمن لزمه و اعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، و هو أعلى مقامات الطاعة، فقال: ﴿و أحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾.

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾

١٩٦- لماذكر تعالى أحكام الصيام، و عطف بذكر الجهاد، شرع في بيان المناسك فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما، و لهذا قال بعده: فإن أحصرتم، أي صددتم عن الوصول إلى البيت، و منعتم من إتمامهما، و لهذا اتفق العلماء، على أن الشروع في الحج و العمرة مُلْزِم، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها، كما هما قولان للعلماء، و قد ذكرناهما بدلائلهما في كتابنا الأحكام، مستقصى و لله الحمد و المنة. و قال السدي في قوله: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ أي أقيموا الحج والعمرة، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿و أتموا الحج و العمرة لله﴾ يقول: من أحرم بحج أو بعمرة فليس له أن يحل، حتى يتمهما، تمام الحج: يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة، و طاف بالبيت و بالصفا و المروة فقد حل. و عن علقمة أنه قال: و أقيموا الحج و العمرة إلى البيت، و كذا روي عن إبراهيم، أنه قرأ: و أقيموا الحج والعمرة إلى البيت. و قرأ الشعبي: ﴿و أتموا الحج و العمرة لله﴾ برفع العمرة، وقال: ليست بواجبة. و روي عنه خلاف ذلك، و قد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ جمع في إحرامه بحج وعمرة، و ثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هدي فليهل بحج وعمرة»، وقال في الصحيح أيضاً: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة».

و قوله ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾ ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ و بين الوصول إلى البيت، و أنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها، و أنزل لهم رُخصةً أن يذبحوا ما معهم من الهدي، و كان سبعين بدنة، و أن يحلقوا رؤوسهم و أن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام أن يحلقوا رؤوسهم و أن يتحللوا، فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ، حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس، و كان منهم من قصر رأسه و لم يحلقه، فلذلك قال ﷺ «رحم الله المحلقين» قالوا: و المقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة «و المقصرين»، و قد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة، و كانوا ألفاً وأربعمائة، و كان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، و قيل بل كانوا على طرف الحرم، فالله أعلم.

ولهذا اختلف العلماء: هل يختص الحصر بالعدو فلا يتحلل إلا من حصره عدو لا مرض و لا غيره على قولين، فروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، أنه قال: لا حصر إلا حصر العدو، فأما من أصابه مرض أو وجع أوضلال فليس عليه شيء، إنما قال الله تعالى: ﴿فإذا أمنتم﴾ فليس الأمن حصراً، قال: و روي عن ابن عمر وطاووس و الزهري وزيد بن أسلم نحو ذلك، و القول الثاني: إن الحصر أعم من أن يكون بعدوٍ أو مرض أوضلال، و هو التوهان عن الطريق أونحو ذلك، و روى الإمام أحمد عن الحجاج بن عمرو الأنصاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من كُسِرَ أو وجع أو عرج فقدحل و عليه حجة أخرى» قال: فذكرت ذلك لابن عباس و أبي هريرة فقالا: صدق، وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة و رواه ابن أبي حاتم ثم قال: و روي عن ابن مسعود و ابن الزبير و علقمة وسعيد ابن المسيب و عروة بن الزبير و مجاهد و النخعي و عطاء ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: الإحصار من عدو أو مرض أوكسر، وقال الثوري: الإحصار من كل شيء آذاه، و ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يارسول الله إني أريد الحج و أنا شاكية، فقال «حجي و اشترطي أن محلي حيث حبستني» ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله،

فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث، و قد علق الإمام محمد بن إدريس الشافعي القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث، قال البيهقي و غيره من الحفاظ: و قد صح و لله الحمد.

وقوله ﴿فما استيسر من الهدي﴾ قال ابن عباس: الهدي من الأزواج الثمانية من الإبل و البقر و المعز والضأن، و روى الثوري عن ابن عباس في قوله ﴿فما استيسر من الهدي﴾ قال: شاة، و كذا قال عطاء و مجاهد و طاوس وأبوالعالية و محمد بن علي بن الحسين و عبد الرحمن بن القاسم و الشعبي و النخعي والحسن و قتادة والضحاك و مقاتل بن حيان و غيرهم: مثل ذلك، و هو مذهب الأئمة الأربعة، و روى ابن أبي حاتم عن عائشة و ابن عمر: أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدي إلا من الإبل و البقر. قال: و روي عن سالم والقاسم وعروة بن الزبير و سعيد ابن جبير نحو ذلك(قلت)و الظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديبية، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة، وإنما ذبحوا الإبل و البقر، ففي الصحيحين عن جابر، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقركل سبعة منا في بقرة، و روى عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله ﴿فما استيسر من الهدي﴾ قال: بقدر يسارته، و عنه: إن كان موسراً فمن الإبل، و إلا فمن البقر، و إلا فمن الغنم. و قال هشام بن عروة عن أبيه ﴿فما استيسر من الهدي﴾ قال: إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء، والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجزاء ذبح الشاة في الإحصار: أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي أي مهما تيسر مما يسمى هدياً، والهدي من بهيمة الأنعام، و هي الإبل و البقر و الغنم، كما قاله الحبر البحر ترجمان القرآن و ابن عم رسول الله ﷺ و قد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: أهدى النبي ﷺ مرة غنماً.

وقوله ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾ معطوف على قوله ﴿وأتموا الحج و العمرة لله﴾ وليس معطوفاً على قوله ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي﴾ كما زعمه ابن جرير رحمه الله، لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق ﴿حتى يبلغ الهدي محله﴾ و يفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتعاً، كماثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلوا من العمرة، و لم تحل أنت من عمرتك ؟ فقال «إني لبَّدْتُ رأسي وقلَّدت هديي، فلا أحل حتى أنحر».

و قوله ﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أوصدقة أو نسك﴾ روى البخاري عن عبد الله بن معقل قال: قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - فسألته عن فدية من صيام، فقال: حملت إلى النبي ﷺ، و القمل يتناثر على وجهي، فقال «ما كنتُ أرى أن الجهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة»؟ قلت: لا، قال: «صُمْ ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك» نزلت فيّ خاصة و هي لكم عامة. وعن ابن عباس في قوله ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ قال: إذا كان «أو» فأيه أخذت أجزأ عنك، قال ابن أبي حاتم: و روي عن مجاهد وعكرمة وعطاء و طاوس والحسن وحميد الأعرج و إبراهيم و النخعي و الضحاك نحو ذلك. (قلت) و هو مذهب الأئمة الأربعة، و عامة العلماء

أنه يخير في هذا المقام، إن شاء صيام و إن شاء تصدق بفرق، و هو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدان، و إن شاء ذبح شاة و تصدق بها على الفقراء أيّ ذلك فعل أجزأه، و لما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ و لما أمر النبيﷺ كعب بن عجرة بذلك، أرشده إلى الأفضل فالأفضل، فقال: أنسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام، فكل حسن في مقامه، ولله الحمد و المنة. و عن طاوس أنه كان يقول: ما كان من دم أوطعام فبمكة، و ما كان من صيام فحيث شاء، و كذا قال مجاهد و عطاء والحسن.

و قوله ﴿فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾ أي فإذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج، و هو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها أحرم بالحج، و هذا هوالتمتع الخاص، و هو المعروف في كلام الفقهاء، و التمتع العام يشمل القسمين، كما دلت عليه الأحاديث الصحاح، فإن من الرواة من يقول: تمتع رسول اللهﷺ و آخر يقول: قرن ولا خلاف أنه ساق هدياً، و قال تعالى: ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾ أي فليذبح ما قدر عليه من الهدي، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر، لأن رسول اللهﷺ ذبح عن نسائه البقر، و عن أبي هريرة: أن رسول اللهﷺ ذبح البقرعن نسائه و كن متمتعات، رواه أبو بكر بن مردويه، وفي هذا دليل على مشروعية التمتع، كما جاء في الصحيحين عن عمران بن حصين، قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله و فعلناها مع رسول اللهﷺ ثم لم ينزل قرآن يحرمها و لم ينه عنها، حتى مات، قال رجل برأيه ما شاء. قال البخاري يقال: إنه عمر، و هذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول: إن نأخذ بكتاب الله يأمر بالتمام، يعني قوله ﴿وأتموا الحج و العمرة لله﴾ و في نفس الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محرماً لها، إنما كان ينهى ليكثر قصد الناس للبيت حاجين و معتمرين، كما قد صرح به رضي الله عنه.

و قوله ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج و سبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾ يقول تعالى: فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج، أي في أيام المناسك، قال العلماء: و الأولى أن يصومها قبل عرفة في العشر، قاله عطاء، أو من حين يحرم قاله ابن عباس و غيره لقوله ﴿في الحج﴾ و منهم من يُجوّز صيامها من أول شوال، قاله طاوس و مجاهد وغير واحد، و جوز الشعبي صيام يوم عرفة و قبله يومين، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والسدي و عطاء وطاوس و الحكم و الحسن وحماد و إبراهيم و أبو جعفر الباقر والربيع ومقاتل ابن حيان، و قال العوفي عن ابن عباس: إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث، فقد تم صومه، و سبعة إذا رجع إلى أهله، و كذا روي عن ابن عمر قال: يصوم يوماً قبل التروية، و يوم التروية، و يوم عرفة، وروي عن علي أيضاً[1] فلولم يصمها أو بعضها قبل العيد، فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء وهما للإمام الشافعي أيضاً، القديم منهما: أنه يجوز له صيامها لقول عائشة و ابن عمر في صحيح البخاري: لم يرخص في أيام التشريق أن يُصمن إلا لمن لم يجد الهدي، هكذا رواه مالك و بهذا يقول عبيد بن عمير الليثي عن عكرمة و الحسن البصري وعروة بن الزبير، و إنما قالوا ذلك لعموم قوله ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾ و الجديد من القولين أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق لما رواه

(١) و الأولى ترك صيام يوم عرفة و صيام ما قبله لكراهة صيامه للحاج للحديث الوارد.

مسلم عن قتيبة الهذلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل و شرب، و ذكر الله عز وجل»[١].

وقوله ﴿و سبعة إذا رجعتم﴾ فيه قولان: (أحدهما) إذا رجعتم إلى رحالكم، و لهذا قال مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامهافي الطريق، و كذا قال عطاء بن أبي رباح. (و القول الثاني) إذا رجعتم إلى أوطانكم، و روى عبد الرزاق عن ابن عمر قال: إذا رجع إلى أهله، وكذا روي عن سعيد بن جبير و أبي العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة و الحسن و قتادة و الزهري والربيع بن أنس، و حكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع، و قد روى البخاري أن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، و أهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة، فأهلَّ بعمرة، ثم أهل بالحج، فتمتع الناس مع رسول الله ﷺ، و بدأ رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج، فكان من الناس من أهدى فساق الهدي، و منهم من لم يُهد، فلما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس: «من كان منكم أهدى فإنه لا يَحِلُّ بشيءٍ حرم منه حتى يقضي حجه، و من لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة و ليقصر و ليحلَّل ثم ليهل بالحج، فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج، و سبعة إذا رجع إلى أهله» و ذكر تمام الحديث، و قوله ﴿تلك عشرة كاملة﴾ قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، و كتبت بيدي، وقال الله تعالى: ﴿و لا طائر يطير بجناحيه﴾ و قال ﴿ولا تخطه بيمينك﴾ وقال ﴿و واعدنا موسى ثلاثين ليلة و أتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ و قيل: معنى كاملة: الأمر بإكمالها وإتمامها، اختاره ابن جرير، و قيل معنى كاملة أي مجزئة عن الهدي، و عن الحسن البصري في قوله ﴿تلك عشرة كاملة﴾ قال: من الهدي.

و قوله ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ قال ابن جرير: واختلف أهل التأويل فيمن عنى بقوله ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به و أنه لا متعة لهم، فقال بعضهم: عنى بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم، ثم روى عن ابن عباس قال: هم أهل الحرم، وكذا روى ابن المبارك عن الثوري، و زاد الجماعة عليه، وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول: يا أهل مكة، لا متعة لكم، أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم، إنما يقطع أحدكم وادياً، أو قال: يجعل بينه و بن الحرم وادياً، ثم يهل بعمرة، و روى عبد الرزاق عن طاوس قال: المتعة للناس لا لأهل مكة، من لم يكن أهله من الحرم. و كذا قول الله عز و جل ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ قال: و بلغني عن ابن عباس مثل قول طاوس، و قال آخرون: هم أهل الحرم و من بينه و بين المواقيت، كما روى عبد الرزاق عن عطاء، قال: من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع، و عن مكحول في قوله ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ قال: من كان دون الميقات و قال ابن جريج عن عطاء ذلك لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام قال: عرفة و مزدلفة و عرنة و الرجيع، وروى عبد الرزاق عن الزهري يقول: من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع، و في رواية عنه: اليوم واليومين، و اختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم، و من كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة، لأن من كان كذلك يعد حاضراً لا مسافراً، و الله أعلم. و قوله: ﴿واتقوا الله﴾ أي فيما أمركم و نهاكم ﴿و اعلموا أن الله شديد العقاب﴾ أي لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره.

---

(١) القول الأول أقوى لأنه صريح في الرخصة لمن لا يجد الهدي.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾

١٩٧ - اختلف أهل العربية في قوله **﴿الحج أشهر معلومات﴾** فقال بعضهم: تقديره الحج حج أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام فيما عداها و إن كان ذاك صحيحاً، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السَّنَة مذهب مالك و أبي حنيفة و أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه، و به يقول إبراهيم النخعي والثوري و الليث بن سعد، واحتج لهم بقوله تعالى: **﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس و الحج﴾** و بأنه أحد النسكين، فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة. و ذهب الشافعي رحمه الله، إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به و هل ينعقد عمرة، فيه قولان عنه. والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مروي عن ابن عباس و جابر، و به يقول عطاء وطاوس لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مروي عن ابن عباس و جابر، و به يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله، و الدليل عليه قوله **﴿الحج أشهر معلومات﴾** و ظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة، و هو أن وقت الحج أشهر معلومات فخصصه بها من بين سائر شهور السنة، فدل على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة، و روى ابن خزيمة عن ابن عباس قال: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم في أشهر الحج. و هذا إسناد صحيح، و قول الصحابي من السنة كذا في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن و هو ترجمانه. وقد ورد فيه حديث مرفوع، رواه ابن مردويه عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبيﷺ أنه قال «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج» و إسناده لا بأس به، لكن رواه الشافعي و البيهقي من طرق عن ابن جريج، عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل: أيهلّ بالحج ؟ قبل أشهر الحج ؟ فقال: لا، و هذا الموقوف أصح و أثبت من المرفوع، و يبقى حينئذٍ مذهب صحابي يتقوّى بقول ابن عباس من السُّنَّة: أن لا يحرم بالحج إلا في أشهره، و الله أعلم.

و قوله **﴿أشهر معلومات﴾** قال البخاري: قال ابن عمر: هي شوال و ذو القعدة و عشر من ذي الحجة، وهذا الذي علقه البخاري بصيغة الجزم، رواه ابن جرير موصولاً بإسناد صحيح، (قلت) و هو مروي عن عمر وعلي و ابن مسعود وعبد الله بن الزبير و ابن عباس وعطاء و طاوس و مجاهد و إبراهيم النخعي و الشعبي والحسن وابن سيرين و مكحول و قتادة و الضحاك بن مزاحم و الربيع بن أنس و مقاتل بن حيان، و هو مذهب الشافعي و أبي حنيفة و أحمد بن حنبل وأبي يوسف وأبي ثور رحمهم الله، و اختار هذا القول ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين و بعض الثالث للتغليب، كما يقول العرب: رأيته العام و رأيته اليوم، وإنما وقع ذلك في بعض العام و اليوم **﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾** و إنما تعجل في يوم و نصف يوم، وقال الإمام مالك بن أنس و الشافعي في القديم: هي شوال و ذو القعدة و ذو الحجة بكماله، و هو رواية عن ابن عمر أيضاً، و روى ابن أبي حاتم عن ابن جريج، قال: قلت لنافع: أسمعت عبد الله بن عمر يسمي شهور الحج. قال: نعم، كان عبد الله يسمي شوالاً و ذا القعدة و ذا الحجة، قال ابن جريج: و قال ذلك ابن شهاب وعطاء وجابر بن عبد الله صاحب النبيﷺ، و هذا إسناد صحيح إلى ابن جريج، و قد حكى هذا أيضاً عن طاوس

ومجاهد و عروة بن الزبير و الربيع بن أنس وقتادة.

وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذي الحجة بمعنى أنه مختص بالحج ، فيكره الاعتمار في بقية ذي الحجة ، لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر ، روى ابن أبي حاتم عن عبد الله : الحج أشهر معلومات ، ليس فيها عمرة ، وهذا إسناد صحيح ، قال ابن جرير : و إنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال و ذو القعدة و ذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة إنما هي للحج ، و إن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى ، كما قال محمد ابن سيرين : ما أحد من أهل العلم يشك في أن عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج ، و قال ابن عون : سألت القاسم بن محمد عن العمرة في أشهر الحج فقال : كانوا لا يرونها تامة . (قلت) و قد ثبت عن عمر و عثمان رضي الله عنهما ، أنهما كانا يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج وينهيان عن ذلك في أشهر الحج ، والله أعلم .

و قوله **﴿فمن فرض فيهن الحج﴾** أي أوجب بإحرامه حجاً ، فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه ، قال ابن جرير : أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والإلزام ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿فمن فرض فيهن الحج﴾** يقول : من أحرم بحج أو عمرة ، و قال عطاء : الفرض الإحرام . و كذا قال إبراهيم و الضحاك وغيرهم . و روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال **﴿فمن فرض فيهن الحج﴾** فلا ينبغي أن يلبي بالحج ثم يقيم بأرض . قال ابن أبي حاتم : روي عن ابن مسعود و ابن عباس و ابن الزبير و مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وعكرمة و الضحاك و قتادة وسفيان الثوري و الزهري ومقاتل بن حيان : نحو ذلك ، وقال طاوس والقاسم بن محمد : هو التلبية . وقوله **﴿فلا رفث﴾** أي من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث ، وهو الجماع ، كما قال تعالى : **﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾** وكذلك يحرم تعاطي دواعية من المباشرة و التقبيل و نحو ذلك ، كذلك التكلم به بحضرة النساء ، روى ابن جرير أن عبد الله بن عمر كان يقول : الرفث إتيان النساء و التكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم ، و روى ابن جرير عن أبي حصين بن قيس ، قال : أصعدت مع ابن عباس في الحج ، و كنت خليله ، فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عباس : فأخذ بذنب بعيره فجعل يلويه ويرتجز ويقول :

و هن يمشين بنا هميسا إن تصدقُ الطير ننك لميسا

قال فقلت : أترفث و أنت محرم ؟ فقال : إنما الرفث ما قيل عند النساء . و قال عبد الله بن طاوس عن أبيه : سألت ابن عباس عن قول الله عز وجل : **﴿فلا رفث و لا فسوق﴾**؟ قال : الرفث التعريض بذكر الجماع ، و هي العرابة في كلام العرب ، و هو أدنى الرفث ، و قال طاوس : هو أن يقول للمرأة إذا حللت أصبتك ، و كذا قال أبو العالية ، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الرفث غشيان النساء و القبلة و الغمز ، وأن يعرض لها بالفحش من الكلام و نحو ذلك ، و قال ابن عباس أيضاً وابن عمر : الرفث غشيان النساء ، و كذا قال سعيد بن جبير و عكرمة ومجاهد و إبراهيم و أبو العالية عن عطاء ومكحول وعطاء الخراساني و عطاء بن يسار و عطية وإبراهيم النخعي و الربيع و الزهري و السدي و مالك بن أنس و مقاتل بن حيان و عبد الكريم بن مالك والحسن وقتادة و الضحاك و غيرهم .

و قوله **﴿ولا فسوق﴾** قال مقسم و غير واحد ، عن ابن عباس : هي المعاصي ، و كذا قال عطاء و مجاهد

وطاوس و عكرمة و سعيد بن جبير و محمد بن كعب و الحسن و قتادة وإبراهيم النخعي و الزهري والربيع بن أنس و عطاء بن يسار و عطاء الخراساني و مقاتل بن حيان، و عن ابن عمر أنه كان يقول: ﴿الفسوق﴾ إتيان معاصي الله في الحرم، وقال آخرون: الفسوق ههنا: السباب، قاله ابن عباس وابن عمر و ابن الزبير ومجاهد والسدي و إبراهيم النخعي و الحسن، وقد يتمسك هؤلاء بما ثبت في الصحيح «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» و لهذا رواه ههنا الحبر أبو محمد بن أبي حاتم. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق ههنا الذبح للأصنام، قال الله تعالى: ﴿أو فسقاً أهل لغير الله به﴾، و قال الضحاك: الفسوق التنابز بالألقاب، و الذين قالوا: الفسوق ههنا هو جميع المعاصي الصواب معهم، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، و إن كان في جميع السنة منهياً عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم آكد، و لهذا قال ﴿منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ و قال في الحرم ﴿و من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ واختار ابن جرير أن الفسوق ههنا ارتكاب ما نهى عنه في الإحرام من قتل الصيد وحلق الشعر و قلم الأظفار و نحو ذلك، كما تقدم عن ابن عمر، وما ذكرناه أولى و الله أعلم، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث و لم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وقوله ﴿ولا جدال في الحج﴾ فيه قولان: (أحدهما) و لا مجادلة في وقت الحج في مناسكه، و قد بينه الله أتم بيان، و وضحه أكمل إيضاح، كما قال مجاهد ﴿ولاجدال في الحج﴾: قد بين الله أشهر الحج فليس فيه جدال بين الناس. و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ولاجدال في الحج﴾ قال: لا شهر ينسأ و لا جدال في الحج قد تبين، ثم ذكر كيفية ما كان المشركون يصنعون في النسيء الذي ذمهم الله به. و قال مالك: قال الله تعالى: ﴿و لا جدال في الحج﴾ فالجدال في الحج - و الله أعلم - أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، و كانت العرب و غيرهم يقفون بعرفة، و كانوا يتجادلون يقول هؤلاء: نحن أصوب ويقول هؤلاء: نحن أصوب، فهذا فيما نرى، والله أعلم، و قد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال، و هو قطع التنازع في مناسك الحج، والله أعلم. (و القول الثاني) أن المراد بالجدال ههنا المخاصمة. روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: المراء تماري صاحبك حتى تغضبه، و كذا قال أبو العالية و عطاء و مجاهد وسعيد بن جبير و عكرمة و جابر بن زيد و عطاء الخراساني ومكحول والسدي و مقاتل بن حيان وعمرو بن دينار والضحاك و الربيع بن أنس و إبراهيم النخعي وعطاء بن يسار و الحسن و قتادة و الزهري و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿و لا جدال في الحج﴾ المراء والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك، فنهى الله عن ذلك، و عن ابن عمر كان يقول: الجدال في الحج السباب و المراء والخصومات، و روى ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿و لا جدال في الحج﴾ و الجدال الغضب، أن تُغضب عليك مسلماً، إلا أن تستعتب مملوكاً فتغضبه من غير أن تضربه، فلا بأس عليك إن شاء الله. (قلت) ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن أسماء بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجاً حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله ﷺ فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ وجلست إلى جانب أبي، و كانت زمالة أبي بكر و زمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه، فأطلع و ليس معه بعيره، فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضللته البارحة، فقال أبو بكر: بعير واحد تضله؟ فطفق يضربه و رسول الله ﷺ يبتسم و يقول «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع» و هكذا

أخرجه أبو داود و ابن ماجه و من هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال: من تمام الحج ضرب الجمال، و لكن يستفاد من قول النبي ﷺ عن أبي بكر رضي الله عنه «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع» كهيئة الإنكار اللطيف أن الأولى ترك ذلك، والله أعلم.

و قوله ﴿و ما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً و فعلاً، حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به، و سيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة، و قوله ﴿و تزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ روى البخاري عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يحجون و لا يتزودون ويقول: نحن المتوكلون، فأنزل الله ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ و كذا قال ابن الزبير و أبو العالية و مجاهد و عكرمة و الشعبي والنخعي وسالم بن عبد الله و عطاء الخراساني وقتادة والربيع بن أنس و مقاتل بن حيان، وروى وكيع عن ابن عمر قال: إن من كرم الرجل طيب زاده في السفر.

وقوله ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، و هو استصحاب التقوى إليها، كما قال ﴿و ريشاً و لباس التقوى ذلك خير﴾ لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي، و هو الخشوع و الطاعة و التقوى، و ذكر أنه خير من هذا و أنفع، و قوله ﴿و اتقون يا أولي الألباب﴾ يقول: و اتقوا عقابي و نكالي و عذابي لمن خالفني و لم يأتمر بأمري، يا ذوي العقول و الأفهام.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ﴾

١٩٨- روى البخاري عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ و مجنة و ذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتّجروا في الموسم، فنزلت ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ في مواسم الحج. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام و بعده، و هكذا فسرها مجاهد وسعيد بن جبير و عكرمة و منصور بن المعتمر وقتادة و إبراهيم النخعي و الربيع بن أنس وغيرهم، وروى ابن جرير عن أبي أميمة، سمعت ابن عمر سئل عن الرجل يحج و معه تجارة، فقرأ ابن عمر ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ و هذا موقوف، و هو قوي جيد، و قد روي مرفوعاً، فروى أحمد عن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنّا نكري فهل لنا من حج؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المُعرَّف، و ترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قال: قلنا: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله عن الذي سألتني، فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ فدعاه النبي ﷺ، فقال «أنتم حجاج».

و قوله تعالى: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ إنما صرف «عرفات» و إن كان عَلَماً على مؤنث، لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات، سمي به بقعة معينة فروعي فيه الأصل فصرف، اختاره ابن جرير، و عرفة موضع الوقوف في الحج، و هي عمدة أفعال الحج، ولهذا روى الإمام أحمد و أهل السنن بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات - ثلاثاً - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، و أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه،

ومن تأخر فلا إثم عليه» . و وقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر، لأن النبيﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال «لتأخذوا عني مناسككم» وقال في هذا الحديث «فمن أدرك قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» و هذا مذهب مالك و أبي حنيفة و الشافعي، رحمهم الله، و ذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة، واحتجوا بحديث الشعبي عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لام الطائي، قال: أتيت رسول اللهﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت: يا رسول الله، إني جئت من جبلي طيء، أكللت راحلتي، و أتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه فهل لي من حج ؟ فقال رسول اللهﷺ: من شهد صلاتنا هذه، فوقف معنا حتى ندفع، و قد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد تم حجه وقضى تفثه» رواه الإمام أحمد و أهل السنن، و صححه الترمذي، ثم قيل: إنما سميت عرفات لما رواه عبد الرزاق عن علي بن أبي طالب: بعث الله جبريلعليه السلام إلى إبراهيمﷺ فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عرفة، و عن عطاء قال: إنما سميت عرفة لأن جبريل كان يُرى إبراهيم المناسك فيقول: عرفت عرفت، فسميت عرفات، و روي نحوه عن ابن عباس و ابن عمر و أبي مجلز، فالله أعلم، وتُسمى عرفات المشعر الحرام، المشعر الأقصى، وإلال على وزن هلال، و يقال للجبل في وسطها: جبل الرحمة، وعن المسور بن مخرمة، قال: خطبنا رسول اللهﷺ و هو بعرفات، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال «أما بعد ـ و كان إذا خطب خطبة قال: أما بعد ـ فإن هذا اليوم الحج الأكبر، ألا و إن أهل الشرك و الأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجهها، و إنا ندفع بعد أن تغيب الشمس، و كانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها، و إنا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفاً هدينا هدي أهل الشرك»، هكذا رواه ابن مردويه، و هذا لفظه، والحاكم في مستدركه و قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

و روى وكيع عن المعرور بن سويد، قال: رأيت عمررضي الله عنه حين دفع عن عرفة كأني أنظر إليه رجل أصلع على بعير له يُوضع و هو يقول: إنا وجدنا الإفاضة هي الإيضاع، و في حديث جابر بن عبد الله الطويل الذي في صحيح مسلم، قال فيه: فلم يزل واقفاً ـ يعني بعرفة ـ حتى غربت الشمس، وبدت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، و أردف أسامة خلفه، ودفع رسول اللهﷺ و قد شَنَقَ للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، و يقول بيده اليمنى: «أيها الناس السكينة السكينة» كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب و العشاء بأذان واحد و إقامتين، ولم يُسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر، حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله و كبره و هلله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس، و في الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه سئل: كيف كان يسير رسول اللهﷺ حين دفع ؟ قال: كان يسير العَنَقَ، فإذا وجد فجوة نص، والعنق هو انبساط السير، و النص فوقه، و روى ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة قوله **﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾** و هي الصلاتين جميعاً، و روى عبد الرزاق عن ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها. و روي عن ابن عباس و سعيد بن جبيروعكرمةو مجاهد والسدي والربيع بن أنس و الحسن

وقتادة أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين. و قال ابن جريج: قلت لعطاء: أين المزدلفة؟قال: إذا أفضت من مأزمي عرفة فذلك إلى مُحَسِّر، قال: و ليس المأزمان عرفة من المزدلفة، و لكن مُفاضاهما، قال: فقف بينهما إن شئت، قال: و أحب أن تقف دون قزح هلم إلينا من أجل طريق الناس. (قلت)والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام، لأنها داخل الحرم، و هل الوقوف بها ركن في الحج لايصح إلا به، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي منهم القفال و ابن خزيمة لحديث عروة بن مضرس ؟ أو واجب كما هو أحد قولي الشافعي يجبر بدم ؟ أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر ؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر غير هذا، و الله أعلم.

و قد روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم، عن النبيﷺ قال «كُلُّ عرفاتٍ موقف، وارفعوا عن عُرَنَة، وكل مزدلفة موقف، وارفعوا عن محسّر، و كل فجاج مكة مَنْحَر، و كل أيام التشريق ذبح»، و قوله **﴿و اذكروه كما هداكم﴾** تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان و الإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليلعليه السلام، و لهذا قال **﴿و إن كنتم من قبله لمن الضالين﴾** قيل: من قبل هذا الهدى، و قبل القرآن، وقبل الرسول، والكل متقارب و متلازم و صحيح.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾

١٩٩– ثم ـ ههنا ـ لعطف خبر على خبر و ترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، و أمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحِلِّ، و يقولون: نحن أهل الله في بلدته وقُطّان بيته، روى البخاري عن عائشة، قالت: كانت قريش و من دان دينها يقفون بالمزدلفة، و كانوا يسمون الحمس، و كان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر النبيﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله **﴿من حيث أفاض الناس﴾**. و كذا قال ابن عباس و مجاهد وعطاء و قتادة و السدي و غيرهم، و اختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع. و عن جبير بن مطعم قال: أضللت بعيراً لي بعرفة فذهبت أطلبه، فإذا النبيﷺ واقف، قلت: إن هذا من الحمس ما شأنه ههنا؟ أخرجاه في الصحيحين، ثم رواه البخاري من حديث ابن عباس: ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار، فالله أعلم. و حكاه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم فقط. قال: والمراد بالناس: إبراهيمعليه السلام، و في رواية عنه: الإمام، قال ابن جرير: ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح.

وقوله **﴿و استغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾** كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات، و لهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول اللهﷺ، كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً، و في الصحيحين أنه ندب إلى التسبيح و التحميد والتكبير ثلاثاًو ثلاثين. و أورد ابن مردويه ههنا الحديث الذي رواه البخاري عن شداد بن أوس قال: قال رسول اللهﷺ «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، و أنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، و أبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت، من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، و من قالها في يومه

فمات دخل الجنة»، و في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً و لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، و ارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» والأحاديث في الاستغفار كثيرة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾

٢٠٠- يأمر تعالى بذكره و الإكثار منه بعد قضاء المناسك و فراغها، و قوله ﴿كذكركم آباءكم﴾ اختلفوا في معناه، فقال ابن جريج عن عطاء: هو كقول الصبي أبه أمه، يعني كما يلهج الصبي بذكر أبيه و أمه، فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك، و كذا قال الضحاك و الربيع بن أنس، و عن ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات، و يحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾، قال ابن أبي حاتم: و روى السدي، عن أنس بن مالك و أبي وائل و عطاء بن أبي رباح في أحد قوليه وسعيد بن جبير وعكرمة في أحد رواياته، ومجاهد و السدي و عطاء الخراساني و الربيع بن أنس و الحسن و قتادة و محمد بن كعب و مقاتل بن حيان نحو ذلك، و هكذا حكاه ابن جرير عن جماعة و الله أعلم، و المقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل، و لهذا كان انتصاب قوله ﴿أو أشد ذكراً﴾ على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً، و أو - ههنا - لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ وقوله ﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ ﴿فأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ فليست ههنا للشك قطعاً، و إنما هي لتحقيق الخبر عنه كذلك أو أزيد منه.

ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنة الإجابة، و ذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه و هو معرض عن أخراه، فقال ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا و ما له في الآخرة من خلاق﴾ أي من نصيب و لا حظ، و تضمن هذا الذم و التنفير عن التشبه بمن هو كذلك، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، و عام خصب، و عام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا و ما له في الآخرة من خلاق﴾ و كان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار﴾ فأنزل الله ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا و الله سريع الحساب﴾.

٢٠١، ٢٠٢- و لهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى، فقال: ﴿و منهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا و صرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، و دار رحبة، وزوجة حسنة، و رزق واسع، و علم نافع، و عمل صالح، ومركب هنيء، و ثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، و لا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا، و أما الحسنة في الآخرة، فأعلى ذلك دخول الجنة و توابعه من الأمن من الفزع

الأكبر في العرصات ، و تيسير الحساب و غير ذلك من أمور الآخرة الصالحة ، و أما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم و الآثام و ترك الشبهات و الحرام ، و قال القاسم بن عبد الرحمن : من أعطي قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وجسداً صابراً ، فقد أوتي في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، و وقي عذاب النار .

و لهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء ، فروي البخاري عن أنس بن مالك ، قال : كان النبيﷺ يقول : «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، و قنا عذاب النار» وروى أحمد عن قتادة أنه سأل أنساً : أي دعوة كان أكثر ما يدعوها النبيﷺ ؟ قال : يقول «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، و في الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار» و كان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، و إذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها ، و رواه مسلم ، وروى ابن أبي حاتم عن عبد السلام بن شداد يعني أبا طالوت ، قال : كنت عند عند أنس بن مالك ، فقال له ثابت : إن إخوانك يحبون أن تدعولهم ، فقال : «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، و في الآخرة حسنة ، و قنا عذاب النار» و تحدثوا ساعة ، حتى إذا أرادوا القيام قال : يا أبا حمزة ، إن إخوانك يريدون القيام ، فادع الله لهم ، فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور ؟ إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة ، و في الآخرة حسنة ، ووقاكم عذاب النار ، فقد آتاكم الخير كله ، و روى أحمد أيضاً عن أنس : أن رسول اللهﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ ، فقال له رسول اللهﷺ «هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه ؟ قال : نعم ، كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي في الآخرة فعجله لي في الدنيا ، فقال رسول اللهﷺ : «سبحان الله لا تطيقه أو لا تستطيعه ، فهلا قلت ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، و في الآخرة حسنة ، و قنا عذاب النار﴾ » قال : فدعا الله فشفاه ، انفرد بإخراجه مسلم ، و روى الإمام الشافعي عن عبد الله بن السائب : أنه سمع النبيﷺ يقول فيما بين الركن اليماني والركن الأسود : ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، و في الآخرة حسنة ، و قنا عذاب النار﴾ . وروى الحاكم عن سعيد بن جبير ، قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني ، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم ، أفيجزي ذلك ؟ فقال : أنت من الذين قال الله : ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ ثم قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) ﴾

٢٠٣- قال ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق ، و الأيام المعلومات أيام العشر ، و قال عكرمة ﴿و اذكروا الله في أيام معدودات﴾ يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر . و روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : قال رسول اللهﷺ : «يوم عرفة ، ويوم النحر ، و أيام التشريق ، عيدنا أهل الإسلام ، و هي أيام أكل و شرب» ، و روى أحمد أيضاً عن نبيشة الهذلي قال : قال رسول اللهﷺ : «أيام التشريق أيام أكل و شرب و ذكر الله» و رواه مسلم أيضاً ، و تقدم حديث جبير بن مطعم «عرفة كلها موقف ، وأيام التشريق كلها ذبح» و تقدم أيضاً حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي «وأيام منى ثلاثة فمن تعجل في

يومين فلا إثم عليه، و من تأخر فلا إثم عليه» و روى ابن جرير عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة يطوف في منى: «لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب و ذكر الله عز وجل».

و عن ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة بعده، و روي عن ابن عمر و ابن الزبير وأبي موسى مثل ذلك. و قال علي بن أبي طالب: هي ثلاثة: يوم النحر و يومان بعده اذبح في أيهن شئت، و أفضلها أولها، و القول الأول هو المشهور، و عليه دلّ ظاهر الآية الكريمة حيث قال **﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه و من تأخر فلا إثم عليه﴾** فدل على ثلاثة بعد النحر، ويتعلق بقوله **﴿و اذكروا الله في أيام معدودات﴾** ذكر الله على الأضاحي، و قد تقدم أن الراجح في ذلك مذهب الشافعي رحمه الله و هو أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر التشريق، و يتعلق به أيضاً: الذكر المؤقت خلف الصلوات، والمطلق في سائر الأحوال، و في وقته أقوال للعلماء أشهرها الذي عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق، و هو آخر النفر الآخر، و قد جاء فيه حديث رواه الدار قطني لكن لا يصح مرفوعاً، و الله أعلم.

و قد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكبر في قبته فيكبر هل السوق بتكبيره حتي ترتج منى تكبيراً، و يتعلق بذلك التكبير و ذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق، و قد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: «إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا و المروة و رمي الجمار لإقامة ذكر الله عز و جل»[1] و لما ذكر الله تعالى النفر الأول و الثاني، وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم و الآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والموقف، قال **﴿و اتقوا الله و اعلموا أنكم إليه تحشرون﴾** كما قال **﴿و هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾**.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) ﴾

٢٠٤- قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ، و أظهر الإسلام و في باطنه خلاف ذلك، و عن ابن عباس، أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع و عابوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين، و مدح خبيب و أصحابه **﴿و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾** وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم و في المؤمنين كلهم، هذا قول قتادة ومجاهد و الربيع بن أنس وغير واحد، وهوالصحيح. وروى ابن جرير: عن القرظي عن نوف و هو البكالي وكان ممن يقرأ الكتب، قال: إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل: قوم يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، و قلوبهم أمرّ من الصبر، يلبسون للناس مسوك الضأن، و قلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله تعالى: فعليّ يجترئون و بي يغترون، حلفت بنفسي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران، قال القرظي: تدبرتها في

(١) و فيه ضعف.

القرآن فإذا هم المنافقون فوجدتها ﴿و من الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه﴾ الآية، وهذا الذي قاله القرظي، حسن صحيح، و أما قوله ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ فقرأه ابن محيصن ﴿ويشهد الله﴾ بفتح الياء و ضم الجلالة ﴿على ما في قلبه﴾ و معناها أن هذا و إن أظهر لكم الحيل لكن الله يعلم من قلبه القبيح، كقوله تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله و الله يعلم إنك لرسوله و الله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ و قراءة الجمهور بضم الياء و نصب الجلالة ﴿يُشهد الله على ما في قلبه﴾ و معناه أنه يظهر للناس الإسلام و يبارز الله بما في قلبه من الكفر و النفاق، كقوله تعالى: ﴿يستخفون من الناس و لا يستخفون من الله﴾ الآية، هذا معنى ما روي عن ابن عباس، و قيل: معناه أنه إذا أظهر الإسلام حلف و أشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسانه، و هذا المعنى صحيح، و قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير و عزاه إلى ابن عباس و حكاه عن مجاهد، و الله أعلم.

و قوله ﴿و هو ألد الخصام﴾ الألد في اللغة الأعوج ﴿و تنذر به قوماً لداً﴾ أي عوجاً، وهكذا المنافق في حال خصومته، يكذب و يُزور عن الحق و لا يستقيم معه، بل يفتري و يفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، و إذا عاهد غدر، و إذا خاصم فجر». و روى البخاري عن عائشة ترفعه، قال «إن أبغضَ الرجال إلى الله الألد الخصم».

٢٠٥- و قوله ﴿و إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث و النسل و الله لا يحب الفساد﴾ أي هو أعوج المقال سيء الفعال، فذلك قوله و هذا فعله، كلامه كذب، و اعتقاده فاسد، و أفعاله قبيحة، و السعي - ههنا - هو القصد، كما قال إخباراً عن فرعون ﴿ثم أدبر يسعى ❁فحشر فنادى ❁فقال أنا ربكم الأعلى❁ فأخذه الله نكال الآخرة و الأولى❁ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلي ذكر الله﴾ أي اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها و أنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة و الوقار» فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث، و هو محل نماء الزروع و الثمار، و النسل و هو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما، و قال مجاهد: إذا سعى في الأرض إفساداً، منع الله القطر فهلك الحرث و النسل ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أي لا يحب من هذه صفته، و لا من يصدر منه ذلك.

٢٠٦- و قوله ﴿و إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ أي إذا وُعظ هذا الفاجر في مقاله وأفعاله، و قيل له اتق الله و انزع عن قولك وفعلك و ارجع إلي الحق، امتنع وأبى و أخذته الحمية و الغضب بالإثم، أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، و هذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ تَعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يَسْطون بالذين يتلون عليهم آياتنا، قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾ و لهذا قال في هذه الآية ﴿فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ أي هي كافيته عقوبة في ذلك.

٢٠٧- و قوله ﴿و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال ﴿و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ قال ابن عباس و أنس و سعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي و عكرمة و جماعة: نزلت في صهيب بن سنان الرومي و ذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، و إن أحب أن يتجرد منه و يهاجر فعل، فتخلص منهم و أعطاهم

ماله، فأنزل الله في هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب و جماعة إلى طرف الحرة و قالوا له: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم و ما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه الآية، ويروى أن رسول الله ﷺ قال له «ربح البيع صهيب» روى ابن مردويه عن أبي عثمان النهدي عن صهيب، قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش يا صهيب قدمت إلينا، و لا مال لك وتخرج أنت و مالك، والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي، فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال «ربح صهيب ربح صهيب» مرتين.

وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله، كما قال تعالى: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، فيَقتلون و يُقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة و الإنجيل و القرآن، و من أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به و ذلك هو الفوز العظيم﴾** و لما حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب و أبو هريرة و غيرهما، و تلوا هذه الآية **﴿و من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله و الله رؤوف بالعباد﴾**.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) ﴾

٢٠٨- يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عُرى الإسلام و شرائعه، والعمل بجميع أوامره، و ترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك، قال العوفي عن ابن عباس و مجاهد وطاوس و الضحاك و عكرمة و قتادة و السدي و ابن زيد في قوله **﴿ادخلوا في السلم﴾** يعني الإسلام، و قال الضحاك، عن ابن عباس و أبو العالية و الربيع بن أنس **﴿ادخلوا في السلم﴾** يعني الطاعة. و قال قتادة أيضاً: الموادعة. وقوله **﴿كافة﴾** قال ابن عباس و مجاهد و أبو العالية و عكرمة و الربيع بن أنس و السدي و مقاتل بن حيان و قتادة و الضحاك: جميعاً، و قال مجاهد: أي اعملوا بجميع الأعمال و وجوه البر. و من المفسرين من يجعل قوله **﴿كافة﴾** حالاً من الداخلين أي ادخلوا في الإسلام كلكم، والصحيح الأول و هو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان و شرائع الإسلام، و هي كثيرة جداً ما استطاعوا منها، كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس **﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾** كذا قرأها بالنصب، يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التي أنزلت فيهم، فقال الله **﴿ادخلوا في السلم كافة﴾** يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ و لا تدعوا منها شيئاً وحسبكم الإيمان بالتوراة و ما فيها، و قوله **﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾** أي اعملوا بالطاعات، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان فـ **﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء و أن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾**، و **﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾** و لهذا قال **﴿إنه لكم عدو مبين﴾** قال مطرف: أغشُ عباد الله لعبيد الله الشيطان.

٢٠٩- و قوله **﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات﴾** أي عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج، فاعلموا أن الله عزيز: أي في انتقامه لايفوته هارب و لا يغلبه غالب، حكيم في أحكامه و نقضه و إبرامه، ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: عزيز في نقمته حكيم في أمره. و قال محمد بن إسحاق: العزيز

في نصره ممن كفر به إذا شاء ، الحكيم في عذره وحجته إلى عباده .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٢١٠) ﴾

٢١٠- يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه **﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام و الملائكة﴾** يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين و الآخرين ، فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، و إن شراً فشر ، و لهذا قال تعالى : **﴿و قضي الأمر و إلى الله ترجع الأمور﴾** كما قال الله تعالى : **﴿كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً﴾ و جاء ربك و الملك صفاً صفاً﴾ وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان و أنى له الذكرى﴾** و قال **﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك﴾** الآية . و قد ذكر الإمام أبو جعفر ابن جرير - ههنا - حديث الصور بطوله من أوله عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ ، و هو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد و غيرهم ، وفيه : أن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فمن بعده فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ ، فإذا جاؤوا إليه قال «أنا لها أنا لها» فيذهب فيسجد لله تحت العرش ، و يشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله ، ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ، إلى السابعة ، وينزل حملة العرش . . . قال : و ينزل الجبار عز و جل في ظلل من الغمام و الملائكة . . . و هي كقوله **﴿و يوم تشقق السماء بالغمام و نزل الملائكة تنزيلاً﴾** .

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) ﴾

٢١١- يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل : كم شاهدوا مع موسى من آية بينة أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به ، كيده و عصاه و فلقه البحر و ضربه الحجر ، و ما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر ، و من إنزال المن والسلوى ، وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار ، و صدق من جرت هذه الخوارق على يديه ، و مع هذا أعرض كثير منهم عنها ، و بدلوا نعمة الله كفراً ، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها **﴿و من يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾** كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش **﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً و أحلوا قومهم دار البوار﴾ جهنم يصلونها و بئس القرار﴾** .

٢١٢- ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها ، و اطمأنوا إليها وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها ، مما يرضي الله عنهم ، و سخروا من الذين آمنوا ، الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم ، و بذلوه ابتغاء وجه الله ، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد و الحظ الأوفر يوم معادهم ، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسيرهم و مأواهم ، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين ، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين ، ولهذا قال تعالى : **﴿و الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾**

أي يرزق من يشاء من خلقه و يعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر و لا تعداد في الدنيا و الآخرة، كما جاء في الحديث «ابن آدم أنفق أنفق عليك»[1] و قال النبيﷺ «أنفق بلالاً و لا تخش من ذي العرش إقلالاً»[2] و قال تعالى: ﴿و ما أنفقتم من شيء فهويخلفه﴾ و في الصحيح «أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» و في الصحيح «يقول ابن آدم: مالي مالي، و هل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيت، و ما لبست فأبليت، و ما تصدقت فأمضيت، و ما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للناس».

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢١٣) ﴾

٢١٣- روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: كان بين نوح و آدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله ﴿كان الناس أمة واحدة فاختلفوا﴾. و رواه الحاكم ثم قال: صحيح الإسناد، و لم يخرجاه، و روى عبد الرزاق عن قتادة في قوله ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ قال: كانوا على الهدى جميعاً ﴿فاختلفوا فبعث الله النبيين﴾ فكان أول من بعث نوحاً. وهكذا قال مجاهد، كما قال ابن عباس أولاً. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ يقول: كانوا كفاراً ﴿فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين﴾ والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً و معنى، لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاًﷺ فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. ولهذا قال تعالى: ﴿و أنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه و ما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم، و ما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه و الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة في قوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ الآية، قال: قال النبيﷺ «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا و أوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع فغداً لليهود، و بعد غد للنصارى».

و قال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه في قوله ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوافيه من الحق بإذنه﴾ فاختلفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، و النصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمدﷺ ليوم الجمعة، و اختلفوا في القبلة فاستقبلت النصارى المشرق و اليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة، و اختلفوا في الصلاة، فمنهم من يركع و لا يسجد، و منهم من يسجد ولا يركع، و منهم من يصلي وهو يتكلم، و منهم من يصلي و هو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، و اختلفوا في الصيام،

(١) متفق عليه. (٢) رواه البزار و البيهقي في شعب الإيمان.

فمنهم من يصوم بعض النهار، و منهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في إبراهيمﷺ، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، و جعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في عيسىﷺ، فكذبت به اليهود و قالوا لأمه بهتاناً عظيماً، و جعلته النصارى إلهاً و ولداً، و جعله الله روحه و كلمته، فهدى الله أمة محمدﷺ للحق من ذلك، وكان أبو العالية يقول في هذه الآية: المخرج من الشبهات و الضلالات و الفتن. و قوله ﴿بإذنه﴾ أي بعلمه بهم وبما هداهم له، قاله ابن جرير. ﴿والله يهدي من يشاء﴾ أي من خلقه ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي و له الحكمة والحجة البالغة، و في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة: أن رسول اللهﷺ، كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» و في الدعاء المأثور: «اللهم أرنا الحق حقاً، و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إماماً».

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾

٢١٤- يقول تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ قبل أن تبتلوا و تختبروا و تمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم، و لهذا قال ﴿و لما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء و الضراء﴾ وهي الأمراض والأسقام و الآلام و المصائب والنوائب. قال ابن مسعود و ابن عباس وأبوالعالية و مجاهد و سعيد بن جبير ومرة الهمداني والحسن و قتادة و الضحاك و الربيع و السدي ومقاتل بن حيان: ﴿البأساء﴾ الفقر ﴿و الضراء﴾ السقم ﴿وزلزلوا﴾ خوفاً من الأعداء زلزالاً شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت، قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعوالله لنا؟ فقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يُوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يَصرفه ذلك عن دينه، و يمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال «و الله ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله و الذئب على غنمه، و لكنكم قومٌ تستعجلون» وقال الله تعالى: ﴿الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا يفتنون ❁ و لقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا و ليعلمن الكاذبين﴾ وقد حصل من هذا جانبٌ عظيم للصحابة رضي الله تعالى عنهم في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم و إذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ❁ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ❁ و إذ يقول المنافقون و الذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ الآيات. و لما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال سجالاً، يُدال علينا و ندال عليه. قال: كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة.

وقوله ﴿مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ أي سُنَّتهم كما قال تعالى: ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشاً و مضى مثل الأولين﴾ و قوله ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول و الذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ أي يستفتحون على أعدائهم

ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال و الشدة، قال الله تعالى: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ كما قال ﴿فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً﴾ و كما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها، و لهذا قال ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾.

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾

٢١٥- قال مقاتل بن حيان: هذه الآية في نفقة التطوع. وقال السدي: نسختها الزكاة، و فيه نظر، و معنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس و مجاهد، فبين لهم تعالى ذلك، فقال ﴿قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى و المساكين و ابن السبيل﴾ أي اصرفوها في هذه الوجوه. كما جاء الحديث «أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك»، و تلا ميمون ابن مهران هذه الآية، ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلاً و لا مزماراً و لا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان. ثم قال تعالى: ﴿و ما أنفقتم من خير فإن الله به عليم﴾ أي مهما صدر منكم من فعل معروف، فإن الله يعلمه و سيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾

٢١٦- هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفُّوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام، و قال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استُعين أن يُعين، و إذا استُغيث أن يُغيث، وإذا استنفر أن ينفر، و إن لم يحتج إليه قعد. (قلت) ولهذا ثبت في الصحيح «من مات ولم يغز ولم يُحدِّث نفسه بالغزو، مات ميتة جاهلية»، و قال عليه السلام يوم الفتح: «لاهجرة بعد الفتح و لكن جهاد و نية، و إذا استنفرتم فانفروا» و قوله ﴿و هو كره لكم﴾ أي شديد عليكم ومشقة وهو كذلك، فإنه إما أن يُقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء. ثم قال تعالى: ﴿و عسى أن تكرهوا شيئاً و هو خير لكم﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء و الاستيلاء على بلادهم و أموالهم وذراريهم و أولادهم. ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ وهذا عام في الأمور كلها قد يحب المرء شيئاً وليس له فيه خيرة و لا مصلحة، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد و الحكم. ثم قال تعالى: ﴿و الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما في دنياكم و أخراكم، فاستجيبوا له وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا

وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

٢١٧، ٢١٨- روى ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً، و بعث عليهم أباعبيدة ابن الجراح، فلما ذهب ينطلق بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ فحبسه فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً و أمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا و كذا، و قال «لاتكرهن أحداً على السير معك من أصحابك» فلما قرأ الكتاب استرجع، و قال: سمعاً و طاعة لله ولرسوله، فخبرهم الخبر و قرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان و بقي بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، و لم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾** الآية، وعن ابن عباس **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾** و ذلك أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ و ردوه عن المسجد في شهر حرام، قال: ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل، فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتال في شهر حرام، فقال الله **﴿وصد عن سبيل الله وكفر به المسجد الحرام و إخراج أهله منه أكبر عند الله﴾** من القتال فيه، و أن محمداً ﷺ بعث سرية، فلقوا عمرو بن الحضرمي و هو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى و أول ليلة من رجب، و أن أصحاب محمد ﷺ كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى و كانت أول رجب، و لم يشعروا، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه، وإن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك، فقال الله تعالى: **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير و صد عن سبيل الله و كفر به والمسجد الحرام و إخراج أهله منه﴾** إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذي أصاب أصحاب محمد ﷺ، و الشرك أشد منه. و قال ابن إسحاق في السيرة: أنزل الله على رسول الله ﷺ: **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير و صد عن سبيل الله و كفر به و المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله و الفتنة أكبر من القتل﴾** أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، و عن المسجد الحرام، و إخراجكم منه وأنتم أهله **﴿أكبر عند الله﴾** من قتل من قتلتم منهم **﴿والفتنة أكبر من القتل﴾** أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل **﴿و لايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾** أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين و لا نازعين، قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة.

قال ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش و أصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عز و جل:

٢١٨- **﴿إن الذين آمنوا و الذين هاجروا و جاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله و الله غفور رحيم﴾** فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء، و قد استقصى ذلك الحافظ أبوبكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ

﴿مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾

٢١٩- روى الإمام أحمد عن عمر أنه قال: لما أُنزل تحريم الخمر، قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة ﴿يسألونك عن الخمر و الميسر قل فيهما إثم كبير﴾ فدُعي عمر، فقُرئت عليه فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في النساء ﴿يا أيها الذين امنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر، فقرئت عليه فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعي عمر فقُرئت عليه فلما بلغ ﴿فهل أنتم منتهون ؟﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا. هكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي. و قال علي بن المديني: هذا إسناد صالح صحيح، و صححه الترمذي، و زاد ابن أبي حاتم بعد قوله انتهينا: إنها تذهب المال وتذهب العقل، وسيأتي هذا الحديث أيضاً مع ما رواه أحمد من طريق أبي هريرة أيضاً عند قوله في سورة المائدة ﴿إنما الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ الآيات، فقوله ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ أما الخمر، فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه كل ما خامر العقل، كما سيأتي بيانه في سورة المائدة، و كذا الميسر و هو القمار. وقوله ﴿قل فيهما إثم كبير و منافع للناس﴾ أما إثمهما فهو في الدين، و أما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن و تهضيم الطعام و إخراج الفضلات وتشحيذ بعض الأذهان و لذة الشدة المطربة التي فيها، و كذا بيعها و الانتفاع بثمنها، وما كان يقمشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿و إثمهما أكبر من نفعهما﴾، و لهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة، و لهذا قال عمر رضي الله عنه لما قرئت عليه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ❁ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة و البغضاء في الخمر والميسر و يصدكم عن ذكر الله و عن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ و يأتي الكلام على ذلك في سورة المائدة إن شاء الله تعالى و به الثقة. قال ابن عمر و الشعبي ومجاهد و قتادة و الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن هذه أول آية نزلت في الخمر ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر.

وقوله ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ قرئ بالنصب وبالرفع و كلاهما حسن متجه قريب. عن ابن عباس ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ قال: مايفضل عن أهلك، كذا روي عن ابن عمر و مجاهد و عطاء وعكرمة و سعيد بن جبير و محمد بن كعب و الحسن وقتادة و القاسم و سالم و عطاء الخراساني و الربيع بن أنس و غير واحد، أنهم قالوا في قوله ﴿قل العفو﴾ يعني الفضل، و عن أبي هريرة، قال: قال رجل: يا رسول الله، عندي دينار، قال «أنفقه على نفسك» قال: عندي آخر، قال: «أنفقه على أهلك» قال: عندي آخر قال: «أنفقه على ولدك» قال: عندي آخر قال: «فأنت أبصر». و قد رواه مسلم وأخرجه أيضاً عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فَضَلَ شيءٌ عن أهلك فلذي

قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا». و عنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى، و اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول» و في الحديث أيضاً «ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، و إن تمسكه شر لك، و لا تلام على كفاف» ثم قد قيل إنها منسوخة بآية الزكاة، كما رواه علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس، و قاله عطاء الخراساني والسدي، و قيل مبينة بآية الزكاة، قاله مجاهد و غيره، و هو أوجه.

و قوله ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ أي كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه و وعده و وعيده، لعلكم تتفكرون في الدنيا و الآخرة. قال علي ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني في زوال الدنيا وفنائها، و إقبال الآخرة و بقائها. وروى ابن أبي حاتم عن الصعق العيشي، قال: شهدت الحسن وقرأ هذه الآية من البقرة ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا و الآخرة﴾ قال: هي و الله لمن تفكر فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء، و ليعلم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء، وهكذا قال قتادة وابن جريج و غيرهما، وروى عبد الرزاق عن قتادة: لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا. و في رواية عن قتادة: فآثروا الآخرة على الأولى.

٢٢٠- و قوله ﴿و يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير و إن تخالطوهم فإخوانكم و الله يعلم المفسد من المصلح و لو شاء الله لأعنتكم﴾ الآية، روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ و ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً و سيصلون سعيراً﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه و شرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير و إن تخالطوهم فإخوانكم﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم و شرابهم بشرابهم. و هكذا رواه أبو داود والنسائي و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و الحاكم، وعن ابن مسعود بمثله، و هكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد و عطاء و الشعبي و ابن أبي ليلى و قتادة و غير واحد من السلف و الخلف، فقوله ﴿قل إصلاح لهم خير﴾ أي على حدة، ﴿و إن تخالطوهم فإخوانكم﴾ أي وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم، لأنهم إخوانكم في الدين، ولهذا قال ﴿و الله يعلم المفسد من المصلح﴾ أي يعلم من قصده و نيته الإفساد أو الإصلاح، و قوله ﴿ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾ أي ولوشاء الله لضيق عليكم و أحرجكم، و لكنه وسّع عليكم، و خفف عنكم، و أباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر، أو مجاناً كما سيأتي بيانه في سورة النساء، إن شاء الله و به الثقة.

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) ﴾

٢٢١- هذا تحريم من الله عز و جل على المؤمنين، أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها

مراداً، و أنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية و وثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله **﴿و المحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين﴾** قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله **﴿و لا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾**: استثنى الله نساء أهل الكتاب، و هكذا قال مجاهد وعكرمة و سعيد بن جبير و مكحول و الحسن والضحاك و زيد بن أسلم و الربيع بن أنس وغيرهم. و قيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، و لم يرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول، و الله أعلم.

و قال أبوجعفر بن جرير رحمه الله: بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات، و إنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات أو لغير ذلك من المعاني. ثم روى بسنده عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خلّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام، فأخلي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، و لكني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن. و هذا إسناد صحيح، وروى ابن جرير عن عمر أيضاً: المسلم يتزوج النصرانية، و لا يتزوج النصراني المسلمة، قال: وهذا أصح إسناداً من الأول، ثم روى عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ «نتزوج نساء أهل الكتاب و لا يتزوجون نساءنا» ثم قال: وهذا الخبر و إن كان في إسناده ما فيه، فالقول به لإجماع الجميع من الأمة عليه، كذا قال ابن جرير رحمه الله. و قد روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر، أنه كره نكاح أهل الكتاب، و تأول **﴿و لا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾**. و قال البخاري: و قال ابن عمر: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: ربها عيسى، و روى أبو بكر الخلال الحنبلي عن أحمد بن حنبل في قول الله **﴿و لا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾** قال: مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام. و قوله **﴿و لأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾**، قد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «تُنكح المرأةُ لأربع: لمالها و لحسبها و لجمالها و لدينها، فاظفرْ بذات الدِّين، تربت يداك» و لمسلم عن جابر مثله، و له عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «الدنيا مَتَاعٌ، و خيرُ متاعها المرأة الصالحة».

و قوله **﴿و لا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾** أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: **﴿لاهنّ حل لهم و لا هم يحلون لهنّ﴾** ثم قال تعالى: **﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾** أي ولرجل مؤمن ـ و لو كان عبداً حبشياً ـ خير من مشرك، و إن كان رئيساً سرياً **﴿أولئك يدعون إلى النار﴾** أي معاشرتهم و مخالطتهم، تبعث على حب الدنيا واقتنائها و إيثارها على الدار الآخرة، و عاقبة ذلك وخيمة **﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾** أي بشرعه وما نهى عنه **﴿و يبين الله آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾**.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾

٢٢٢- روى الإمام أحمد عن أنس: أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يُواكلوها و لم يجامعوها في البيوت فسأل أصحابُ النبي ﷺ النبيَّ ﷺ فأنزل الله عز و جل **﴿و يسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا**

النساء في المحيض و لا تقربوهن حتى يطهرن﴾ حتى فرغ من الآية، فقال رسول الله ﷺ «اصْنَعُوا كُلَّ شيءٍ إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً، إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير و عباد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا و كذا أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وَجَدَ عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما فعَرَفَا أن لم يجد عليهما، رواه مسلم.

فقوله ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ يعني الفرج، لقوله «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» و لهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم، إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج، روى أبو داود أيضاً عن عكرمة، عن بعض أزواج النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً يلقي على فرجها ثوباً، و روى أبو جعفر بن جرير أن مسروقاً ركب إلى عائشة فقال: السلام على النبي و على أهله، فقالت عائشة: مرحباً مرحباً، فأذنوا له فدخل فقال: إني أريد أن أسألك شيئاً عن شيء و أنا أستحي، فقالت: إنما أنا أمك و أنت ابني، فقال: ما للرجل من امرأته و هي حائض؟ فقالت له: كل شيء إلا فرجها. و هذا قول ابن عباس و مجاهد والحسن و عكرمة، (قلت) و يحل مضاجعتها و مواكلتها بلا خلاف، قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه و أنا حائض، و كان يتكئ في حجري و أنا حائض فيقرأ القرآن. و في الصحيح عنها، قالت: كنت أتعرّق العَرْق و أنا حائض، فأعطيه النبي ﷺ فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، و أشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب منه، و روى أبو داود عن خلاس الهَجَري قال: سمعت عائشة تقول: كنت أنا و رسول الله ﷺ في الشعار الواحد و أنا حائض طامث، فإن أصابه مني شيء غسل مكانه لم يعده، و إن أصاب - تعني ثوبه - شيء غسل مكانه لم يعده و صلى فيه. و قال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار، كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت و هي حائض، و روى الإمام أحمد و أبو داود و الترمذي و ابن ماجه عن حزام بن حكيم، عن عمه عبد الله بن سعد الأنصاري أنه سأل رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: ما فوق الإزار. و هو رواية عن عائشة كما تقدم و ابن عباس و سعيد بن المسيب و شريح.

فهذه الأحاديث و ما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل ما فوق الإزار منها، و هو أحد القولين في مذهب الشافعي رحمه الله، الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم، ومأخذهم أنه حريم الفرج فهو حرام لئلا يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله عز و جل، الذي أجمع العلماء على تحريمه و هو المباشرة في الفرج، ثم من فعل ذلك فقد أثم فيستغفر الله و يتوب إليه، و هل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا؟ فيه قولان (أحدهما) نعم، لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته و هي حائض، يتصدق بدينار أو نصف دينار، وفي لفظ للترمذي «إذا كان دماً أحمر فدينار، و إذا كان دماً أصفر فنصف دينار» [1] (و القول الثاني) وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي و قول الجمهور أنه لا شيء في ذلك، بل يستغفر الله عز و جل لأنه لم يصح عندهم رفع الحديث، فإنه قد روي مرفوعاً كما تقدم، و موقوفاً و هو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث، فقوله تعالى: ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ تفسير قوله ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ و نهى عن قربانهن بالجماع

(١) ثبت من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

ما دام الحيض موجوداً، و مفهومه حله إذا انقطع.

وقوله **﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾** فيه ندب و إرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال، وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله **﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾** وليس له في ذلك مستند، لأن هذا أمر بعد الحظر. و فيه أقوال لعلماء الأصول منهم من يقول إنه على الوجوب كالمطلق، هؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم، و منهم من يقول: إنه للإباحة، و يجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له من الوجوب، وفيه نظر، و الذي ينهض عليه الدليل أنه يرد عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجباً، فواجب كقوله **﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾** أو مباحاً فمباح كقوله **﴿و إذا حللتم فاصطادوا﴾** **﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾** و على هذا القول تجتمع الأدلة، و قد حكاه الغزالي وغيره، فاختاره بعض أئمة المتأخرين و هو الصحيح.

و قد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه، إلا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول، فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض و هو عشرة أيام عنده: أنها تحل بمجرد الانقطاع و لا تفتقر إلى غسل، و الله أعلم، و قال ابن عباس **﴿حتى يطهرن﴾** أي من الدم **﴿فإذا تطهرن﴾** أي بالماء، وكذا قال مجاهد و عكرمة والحسن و مقاتل بن حيان و الليث بن سعد وغيرهم. و قوله **﴿من حيث أمركم الله﴾** قال ابن عباس و مجاهد و غير واحد: يعني الفرج. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾** يقول: في الفرج و لا تعدوه إلى غيره، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى. وقال ابن عباس و مجاهد و عكرمة **﴿من حيث أمركم الله﴾** أي تعتزلوهن، و فيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء في الدبر، كما سيأتي تقريره قريباً إن شاء الله تعالى. و قال أبو رزين و عكرمة والضحاك و غير واحد **﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾** يعني طاهرات غير حيّض، و لهذا قال **﴿إن الله يحب التوابين﴾** أي من الذنب و إن تكرر غشيانه **﴿ويحب المتطهرين﴾** أي من المتنزهين عن الأقذار و الأذى، و هو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأتى.

٢٢٣- و قوله **﴿نساؤكم حرث لكم﴾** قال ابن عباس: الحرث موضع الولد **﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** أي كيف شئتم، سمعت جابراً قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** و رواه مسلم و أبو داود. و روى ابن أبي حاتم عن محمد بن المنكدر حدثهم: أن جابر بن عبد الله أخبره أن اليهود قالوا للمسلمين: مَن أتى امرأة و هي مدبرة جاء الولد أحول، فأنزل الله **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** قال ابن جريج في الحديث: فقال رسول الله ﷺ «مُقبلةً و مُدبرةً إذا كان في الفرج». و في حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه، عن جده، أنه قال: يارسول الله، نساؤنا ما نأتي منها و ما نذر؟ قال «حرثك ائت حرثك أنى شئت، غير أن لا تضرب الوجه، و لا تُقبح و لا تَهجر إلا في البيت» الحديث، رواه أحمد وأهل السنن.

حديث آخر- و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله ابن عباس، قال: أتى ناس من حمير إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن أشياء، فقال له رجل: إني أحب النساء فكيف ترى في؟ فأنزل الله **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** و رواه الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: أنزلت هذه الآية **﴿نساؤكم حرث لكم﴾** في أناس

من الأنصار أتوا النبيﷺ فسألوه، فقال النبيﷺ «ائتها على كل حالٍ إذا كان في الفرج».

حديث آخر - روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول اللهﷺ فقال: يا رسول الله هلكت، قال ما الذي أهلكك؟ قال: حولت رحلي البارحة، قال فلم يرد عليه شيئاً. قال: فأوحى الله إلى رسول اللهﷺ هذه الآية **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** «أَقْبِل و أَدْبِر و اتقِ الدُّبر والحيضة». ورواه الترمذي. و روى النسائي عن أبي النضر أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر، أنه قد أكثر عليك القول، أنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى أن تؤتى النساء في أدبارهن! قال: كذبوا عليّ، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر، إن ابن عمر عرض المصحف يوماً و أنا عنده حتى بلغ **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا قال، إنا كنا معشر قريش نجبي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منها ما كنا نريد، فإذا هن قد كرهن ذلك و أعظمنه، و كانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود إنما يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله **﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾** و هذا إسناد صحيح، وقد رواه ابن مردويه عن الطبراني.

و قد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله و تعاطيه (أي إتيان النساء في الأدبار) فروى الحسن بن عرفة عن جابر قال: قال رسول اللهﷺ «استحيوا إن الله لا يستحي من الحق، لا يحل أن تأتوا النساء في حشوشهن».

و روى الإمام أحمد عن خزيمة بن ثابت، أن رسول اللهﷺ نهى أن يأتي الرجل امرأته في دبرها.

حديث آخر - روى أبوعيسى الترمذي والنسائي عن ابن عباس، قال: قال رسول اللهﷺ «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه، و صححه ابن حزم أيضاً، و روى عبدٌ عن طاوس أن رجلاً سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها، قال: تسألني عن الكفر! إسناده صحيح، و كذا رواه النسائي.

حديث آخر - روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، أن النبيﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى». و روى أحمد أيضاً عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللهﷺ «ملعون من أتى امرأته في دبرها»، و هكذا رواه أبو داود و النسائي.

(طريق أخرى) - رواها الإمام أحمد و أهل السنن من حديث أبي هريرة، أن رسول اللهﷺ قال «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدّقه، فقد كفر بما أنزل على محمد». و عن أبي جويرية، قال: سأل رجل علياً عن إتيان المرأة في دبرها، فقال: سفلت، سفَّل الله بك، ألم تسمع قول الله عز و جل: **﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾**.

و قد تقدم قول ابن مسعود و أبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس و عبد الله بن عمرو في تحريم ذلك، و هو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه يحرمه. و روى الدارمي عن سعيد بن يسار أبي الحباب، قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجواري أيحمض لهن؟ قال: و ما التحميض؟ فذكر الدبر، فقال: و هل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟ و هذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك. فكل ما ورد عنه مما يحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم. و روى أبو بكر بن زياد النيسابوري سألت مالك بن أنس: ما تقول في

إتيان النساء في أدبارهن ؟ قال : ما أنتم إلا قوم عرب ، هل الحرث إلا موضع الزرع ، لا تعدو الفرج ، قلت : يا أبا عبدالله ، إنهم يقولون : إنك تقول ذلك ؟ قال : يكذبون علي يكذبون علي ، فهذا هو الثابت عنه ، و هو قول أبي حنيفة و الشافعي و أحمد بن حنبل و أصحابهم قاطبة ، و هو قول سعيد بن المسيب و أبي سلمة وعكرمة ، و طاوس و عطاء وسعيد بن جبير و عروة بن الزبير و مجاهد بن جبر و الحسن و غيرهم من السلف ، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار ، و منهم من يطلق على فعله الكفر وهو مذهب جمهور العلماء ، و قد حكي في هذا شيء عن بعض فقهاء المدينة حتى حكوه عن الإمام مالك ، و في صحته نظر .

و قوله ﴿و قدموا لأنفسكم﴾ أي من فعل الطاعات مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ، و لهذا قال ﴿و اتقوا الله و اعلموا أنكم ملاقوه﴾ أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿و بشر المؤمنين﴾ أي المطيعين الله فيما أمرهم ، التاركين ما عنه زجرهم . و روى ابن جرير عن عطاء ، قال : أراه عن ابن عباس ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ قال : تقول باسم الله ، التسمية عند الجماع ، و قد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله ، قال : باسم الله ، اللهم جَنِّبْنَا الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولد في ذلك ، لن يضره الشيطان أبداً» .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) ﴾

٢٢٤- يقول تعالى : لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر و صلة الرحم إذا حلفتم على تركها ، كقوله تعالى : ﴿و لا يأتل أولو الفضل منكم و السعة أن يؤتوا أولي القربى و المساكين و المهاجرين في سبيل الله وليعفوا و ليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير ، كما روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة» و قال رسول الله ﷺ «و الله لأن يلجّ أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه» و هكذا رواه مسلم ، ثم روى البخاري عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ «من استلج في أهله بيمين فهو أعظم إثماً ، ليس تغني الكفارة» . و قال علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ قال : لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ، و لكن كفر عن يمينك و اصنع الخير ، و كذا قال مسروق و الشعبي وإبراهيم النخعي و مجاهد و طاوس و سعيد بن جبير و عطاء و عكرمة و مكحول و الزهري والحسن و قتادة ومقاتل بن حيان و الربيع بن أنس و الضحاك و عطاء الخراساني و السدي رحمهم الله ، و يؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إني و الله إن شاء الله ، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير و تحللتها» و ثبت فيهما أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة «يا عبد الرحمن بن سمرة ، لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها من غير مسألة أُعنتَ عليها ، و إن أُعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها ، وَ إذا حَلفتَ على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأتِ الذي هو خير ، و كفِّر عن يمينك» . و روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه ، و ليفعل الذي هو خير» .

٢٢٥- و قوله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا يعاقبكم و لا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، و هي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «من حلف فقال في حلفه: باللات والعزى، فليقل لا إله إلا الله» فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية، قد أسلموا و ألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد، فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه، و لهذا قال تعالى: ﴿و لكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ الآية، و في الآية الأخرى ﴿بما عقدتم الأيمان﴾. و قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ قال: «اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته: كلا و الله، و بلى و الله» رواه أبو داود. و روى عبد الرزاق عن عائشة في قوله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ قالت: هم القوم يتدارؤون في الأمر، فيقول هذا: لا والله، بلى والله، و كلا والله، يتدارؤون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم، و قال ابن أبي حاتم بعد أن روى نحوه: و روي عن ابن عمر و ابن عباس في أحد قوليه. (الوجه الثاني) روي أيضاً عن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية؛ يعني قوله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ وتقول: هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه، ثم قال: و روي عن أبي هريرة و ابن عباس في أحد قوليه. (أقوال أخر). روى عبد الرزاق عن إبراهيم: هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه. و قوله ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ قال ابن عباس ومجاهد و غير واحد: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب، قال مجاهد و غيره: و هي كقوله تعالى: ﴿و لكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ الآية. ﴿و الله غفور حليم﴾ أي غفور لعباده حليم عليهم.

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) ﴾

٢٢٦- الإيلاء الحلف، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، و عليها أن تصبر وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة، و هذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ آلى من نسائه شهراً فنزل لتسع و عشرين، و قال «الشهر تسع و عشرون»، و لهما عن عمر بن الخطاب نحوه. فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر، إما أن يفيء أي يجامع، و إما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا، أو هذا لئلا يضر بها، و لهذا قال تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم﴾ أي يحلفون على ترك الجماع عن نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور ﴿تربص أربعة أشهر﴾ أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف و يطالب بالفيئة أو الطلاق، و لهذا قال ﴿فإن فاءوا﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه و هو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس و مسروق و الشعبي و سعيد ابن جبير و غير واحد و منهم ابن جرير رحمه الله ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ ما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين، و قوله ﴿فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم﴾ فيه دلالة لأحد قولي العلماء، و هو القديم عن الشافعي أن المولي إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه، و الذي عيه الجمهور و هو الجديد من مذهب الشافعي أن

عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف، كما تقدم أيضاً في الأحاديث الصحاح، و الله أعلم.

٢٢٧- و قوله ﴿وإن عزموا الطلاق﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر، كقول الجمهور من المتأخرين، و ذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطليقة، و هو مروي بأسانيد صحيحة عن عمر و عثمان و علي و ابن مسعود و ابن عباس و ابن عمر و زيد بن ثابت، ثم قيل: إنها تَطْلقُ بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية، قاله سعيد بن المسيب و أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام و مكحول و ربيعة والزهري ومروان بن الحكم، و قيل: إنها تَطْلقُ طلقة بائنة، روي عن علي و ابن مسعود و عثمان و ابن عباس وابن عمر و زيد بن ثابت، و به يقول أبو حنيفة، فكل من قال: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة، إلا ما روي عن ابن عباس وأبي الشعثاء: أنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها، و هو قول الشافعي، و الذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف فيطالب إما بهذا وإما بهذا و لا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق، وروى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف، فإما أن يطلق و إما أن يفيء، و أخرجه البخاري.

و روى الشافعي رحمه الله عن سليمان بن يسار، قال: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يوقف المولي، قال الشافعي: و أقل ذلك ثلاثة عشر، و رواه الشافعي عن علي رضي الله عنه أنه يوقف المولي، ثم قال: و هكذا نقول، و هو موافق لما رويناه عن عمر و ابن عمر و عائشة و عثمان و زيد بن ثابت و بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ، وروى ابن جرير عن أبي صالح قال: سألت اثني عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته، فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة أشهر فيوقف، فإن فاء و إلا طلق، و رواه الدارقطني. (قلت) و هو يروى عن عمر و عثمان وعلي و أبي الدرداء و عائشة أم المؤمنين و ابن عمر و ابن عباس، و به يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز و مجاهد و طاوس و محمد بن كعب و القاسم، و هو مذهب مالك و الشافعي وأحمد بن حنبل و أصحابهم رحمهم الله، و هو اختيار ابن جرير أيضاً، و هو قول الليث وإسحاق بن راهويه و أبي عبيد و أبي ثور و داود، و كل هؤلاء قالوا: إن لم يفيء ألزم بالطلاق، فإن لم يطلق طلق عليه الحاكم، و الطلقة تكون رجعية، له رجعتها في العدة، و انفرد مالك بأن قال، لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة و هذا غريب جداً.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾

٢٢٨-هذا أمر من الله سبحانه و تعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء، ثم تتزوج إن شاءت، و قد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم «الأمَة» إذا طُلّقت، فإنها تعتد عندهم بقرأين لأنها على النصف من الحرة، و القرء لا يتبعض فكمل لها قرآن، و قد روي عن ابن عمر من قوله، و هكذا روي عن عمر بن الخطاب قالوا: و لم يعرف بين الصحابة خلاف، و قال بعض السلف: بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية، و لأن هذا أمر جِبلّي، فكان الحرائر

و الإماء في هذا سواء، حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن محمد بن سيرين و بعض أهل الظاهر و ضعفه.

و قد اختلف السلف و الخلف و الأئمة في المراد بالأقراء ما هو على قولين: **(أحدهما)** أن المراد بها الأطهار، وروى مالك عن عروة، عن عائشة أنها انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة، فذكرت ذلك لعمرة بنت عبد الرحمن، فقالت: صدق عروة، و قد جادلها في ذلك ناس فقالوا: إن الله تعالى يقول في كتابه **﴿ثلاثة قروء﴾**. فقالت عائشة: صدقتم، و تدرون ما الأقراء ؟ إنما الأقراء الأطهار، و روى مالك عن أبي بكر بن عبد الرحمن يقول: ماأدركت أحداً من فقهائنا إلا و هو يقول ذلك، يريد قول عائشة، و روى مالك عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته، فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها، و قال مالك: و هو الأمر عندنا وروى مثله عن ابن عباس و زيد بن ثابت و سالم والقاسم و عروة و سليمان بن يسار، و أبي بكر بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان و عطاء بن أبي رباح و قتادة والزهري و بقية الفقهاء السبعة، و هو مذهب مالك و الشافعي و غير واحد و داود و أبو ثور، وهو رواية عن أحمد و استدلوا عليه بقوله تعالى: **﴿فطلقوهن لعدتهن﴾** أي في الأطهار و لما كان الطهر الذي يُطلّق فيه محتسباً، دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها و لهذا قال هؤلاء: إن المعتدة تنقضي عدتها و تبين من زوجها بالطعن في الحيضة الثالثة، و أقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها اثنان و ثلاثون يوماً ولحظتان، **(والقول الثاني)** - أن المراد بالأقراء، الحيض، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها، و أقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة و ثلاثون يوماً ولحظة، روى الثوري عن علقمة قال: كنا عند عمر بن الخطاب ﷺ فجاءته امرأة فقالت: إن زوجي فارقني بواحدة أو اثنتين فجاءني و قد نزعت ثيابي و أغلقت بابي فقال عمر لعبد الله بن مسعود: أراها امرأته ما دون أن تحل لها الصلاة قال: و أنا أرى ذلك، و هكذا روي عن أبي بكر الصديق وعمر و عثمان و علي و أبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك و ابن مسعود و معاذ، وأبي ابن كعب و أبي موسى الأشعري و ابن عباس و سعيد بن المسيب و علقمة و الأسود و إبراهيم ومجاهد و عطاء و طاوس و سعيد بن جبير وعكرمة و محمد بن سيرين والحسن و قتادة والشعبي و الربيع و مقاتل بن حيان و السدي ومكحول و الضحاك و عطاء الخراساني أنهم قالوا: الأقراء الحيض، و هذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه و أصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل، و حكى عنه الأثرم أنه قال: الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: الأقراء الحيض، و هو مذهب الثوري والأوزاعي و ابن أبي ليلى وابن شبرمة و الحسن بن صالح بن حي و أبي عبيد و إسحاق بن راهويه، و يؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود و النسائي عن فاطمة بنت أبي حبيش، أن رسول الله ﷺ قال لها «دعي الصلاة أيام أقرائك» فهذا لو صح لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض [1] و قال ابن جرير: أصل القرء في كلام العرب: الوقت لمجيء الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم، و لإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم، و هذه العبارة تقتضي أن يكون مشتركاً بين هذا و هذا، و قد ذهب إليه بعض الأصوليين، والله أعلم. و هذا قول الأصمعي أن القرء هو الوقت. و قال أبو عمر بن العلاء: العرب تسمي الحيض قرءاً، و تسمي الطهر قرءاً و تسمي الطهر والحيض

(١) الحديث صحيح لشواهده.

جميعاً قرءاً. و قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض، و يراد به الطهر، و إنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين.

و قوله: ﴿و لا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ أي من حبل أو حيض، قاله ابن عباس و ابن عمر و مجاهد و الشعبي و الحكم بن عيينة والربيع بن أنس و الضحاك و غير واحد، و قوله: ﴿إن كن يؤمن بالله و اليوم الآخر﴾ تهديد لهن على خلاف الحق، دل هذا على أن المرجع في هذا إليهن، لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن و يتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك، فرد الأمر إليهن و توعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحق، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة أو رغبة منها في تطويلها لما لها في ذلك من المقاصد، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة و لا نقصان. وقوله: ﴿و بعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحا﴾ أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها، ما دامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح و الخير، وهذا في الرجعيات، فأما المطلقات البوائن، فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن. و إنما كان ذلك لما حصروا في الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية، فكان الرجل أحق برجعة امرأته و إن طلقها مائة مرة، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات، صار للناس مطلقة بائن، و غير بائن و إذا تأملت هذا، تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين من استشهادهم على مسألة عود الضمير، هل يكون مخصصاً لما تقدمه من لفظ العموم أم لا بهذه الآية الكريمة، فإن التمثيل بها غير مطابق لما ذكروه، والله أعلم.

وقوله ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر، ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، و لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، و لهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف». و في حديث معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يارسول الله ما حق زوجة أحدنا؟ قال «أن تطعمها إذا طعمت، و تكسوها إذا اكتسيت، و لا تضرب الوجه، و لا تقبح، و لا تهجر إلا في البيت». وروى وكيع عن ابن عباس، قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة، لأن الله يقول ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ و رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم، و قوله ﴿و للرجال عليهن درجة﴾ أي في الفضيلة في الخلق و الخلق و المنزلة و طاعة الأمر و الإنفاق و القيام بالمصالح و الفضل في الدنيا و الآخرة، كما قال تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم﴾. و قوله ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره و شرعه وقدره.

﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا

حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

٢٢٩- هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه من الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة و الثنتين، و أبانها بالكلية في الثالثة، فقال ﴿**الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**﴾ روى أبو داود في (باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث) عن ابن عباس ﴿**و المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء و لا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن**﴾ الآية، و ذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال ﴿**الطلاق مرتان**﴾ الآية، و رواه النسائي، و روى ابن أبي حاتم عن هشام بن عروة، عن أبيه أن رجلاً قال لامرأته : لا أطلقك أبداً و لا آويك أبداً، قالت : كيف ذلك ؟ قال : أطلق حتى إذا دنا أجلك راجعتك، فأتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله عز و جل ﴿**الطلاق مرتان**﴾، وهكذا رواه ابن جرير و عبد بن حميد، و رواه الترمذي والحاكم عن عائشة.

و قوله ﴿**فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**﴾ أي إذا طلقتها واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها و الإحسان إليها، و بين أن تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك و تطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضار بها. و قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال : إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين، فليتق الله في ذلك، أي في الثالثة، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً. و روى ابن أبي حاتم عن أبي رزين يقول : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله، أرأيت قول الله عز وجل ﴿**فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**﴾ أين الثالثة ؟ قال : «التسريح بإحسان» ورواه عبد بن حميد، و رواه ابن مردويه عن أنس. و قوله : ﴿**و لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً**﴾ أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه، كما قال تعالى : ﴿**ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة**﴾ فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها، فقد قال تعالى : ﴿**فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً**﴾ و أما إذا تشاقق الزوجان، و لم تقم المرأة بحقوق الرجل و أبغضته و لم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، و لا حرج عليها في بذلها له، و لا حرج عليه في قبول ذلك منها، و لهذا قال تعالى : ﴿**و لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به**﴾ الآية، فأما إذا لم يكن لها عذر، و سألت الافتداء منه، فقد روى ابن جرير عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة»، و هكذا رواه الترمذي و قال حسن، و رواه أبو داود و ابن ماجه.

حديث آخر - روى ابن جرير عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ «إن المختلعات المنتزعات هن المنافقات» ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف : إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق و النشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿**و لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله**﴾ قالوا : فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة، فلا يجوز في غيرها إلا

بدليل، والأصل عدمه، ممن ذهب إلى هذا ابن عباس وطاوس و إبراهيم و عطاء و الحسن والجمهور حتى قال مالك و الأوزاعي: لوأخذ منها شيئاً وهو مضار لها، وجب رده إليها، و كان الطلاق رجعياً، قال مالك: و هو الأمر الذي أدركت الناس عليه، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرى، و هذا قول جميع أصحابه قاطبة، وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستذكار له عن بكر بن عبد الله المزني، أنه ذهب إلى أن الخلع منسوخ بقوله: **﴿و آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا﴾** ورواه ابن جرير عنه، و هذا قول ضعيف و مأخذ مردود على قائله، و قد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس و امرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، و لنذكر طرق حديثها واختلاف ألفاظه، روى الإمام مالك عن حبيبة بنت سهل الأنصارية، أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، و أن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح، فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس، فقال رسول الله ﷺ «من هذه ؟» قالت: أنا حبيبة بنت سهل. فقال: «ما شأنك ؟» فقال: لا أنا و لا ثابت بن قيس لزوجها، فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ «هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر» فقالت حبيبة: يا رسول الله كل ما أعطاني عندي، فقال رسول الله ﷺ «خذ منها» فأخذ منها و جلست في أهلها. وهكذا رواه الإمام أحمد و رواه أبو داود والنسائي.

حديث آخر - فيه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال البخاري عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس، أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعيب عليه في خُلُق و لا دين، و لكن أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «أتردين إليه حديقته» ؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ «اقبل الحديقة و طلقها تطليقة»، و في بعض الطرق أنها قالت: لا أطيقه يعني بغضاً. و قد اختلف الأئمة رحمهم الله في أنه هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاها، فذهب الجمهور إلى جواز ذلك لعموم قوله تعالى: **﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾**. وقال البخاري: و أجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها. و روى عبد الرزاق أن الربيع بنت معوذ بن عفراء قالت: كان لي زوج يقل علي الخير إذا حضرني، و يحرمني إذا غاب عني، قالت: فكانت مني زلة يوماً فقلت له: أختلع منك بكل شيء أملكه، قال: نعم، قالت: ففعلت، قالت: فخاصم عمي معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان، فأجاز الخلع و أمره أن يأخذ عقاص رأسي فما دونه، أو قالت: ما دون عقاص الرأس. و معنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير و لا يترك لها سوى عقاص شعرها، و به يقول ابن عمر و ابن عباس و مجاهد و عكرمة و إبراهيم النخعي و قبيصة بن ذؤيب والحسن بن صالح و عثمان البتي، و هذا مذهب مالك و الليث و الشافعي و أبي ثور، و اختياره ابن جرير، و قال أصحاب أبي حنيفة: إن كان الإضرار من قبلها، جاز أن يأخذ منها ما أعطاها، ولا يجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز في القضاء، و إن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً، فإن أخذ، جاز في القضاء. و قال الإمام أحمد و أبو عبيد و إسحاق بن راهويه: لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها، و هذا قول سعيد بن المسيب و عطاء وعمرو بن شعيب و الزهري وطاوس والحسن والشعبي و حماد بن أبي سليمان و الربيع بن أنس، و قال معمر و الحكم: كان علي يقول: لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها، و قال الأوزاعي: القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها.

(قلت): ويستدل لهذا القول بما روى عن ابن عباس في قصة ثابت بن قيس، فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها

الحديقة و لا يزداد، وحملوا معنى ﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي من الذي أعطاها لتقدم قوله: ﴿و لا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي من ذلك، وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس ﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به منه﴾ رواه ابن جرير، لهذا قال بعده ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها و من يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾.

(فصل) قال الشافعي: اختلف أصحابنا في الخلع، ثم روى عن ابن عباس في رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد، يتزوجها إن شاء لأن الله تعالى يقول: ﴿الطلاق مرتان. قرأ إلى. أن يتراجعا﴾ ثم روى عن عكرمة قال: كل شيء أجازه المال فليس بطلاق، و روى غير الشافعي عن ابن عباس: أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص سأله قال: رجلٌ طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أيتزوجها؟ قال: نعم، ليس الخلع بطلاق، ذكر الله الطلاق في أول الآية و آخرها، و الخلع فيما بين ذلك، فليس الخلع بشيء، ثم قرأ ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ و قرأ: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾ و هذا الذي ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من أن الخلع ليس بطلاق و إنما هو فسخ، هو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان و ابن عمر، و هو قول طاوس وعكرمة، و به يقول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه و أبو ثور و داود بن علي الظاهري، و هو مذهب الشافعي في القديم، و هو ظاهر الآية الكريمة، و القول الثاني في الخلع: أنه طلاق بائن إلا أن ينوي أكثر من ذلك، و قد روي عن عمر وعلي و ابن مسعود و ابن عمر، و به يقول سعيد بن المسيب و الحسن و عطاء و شريح والشعبي وإبراهيم و جابر بن زيد، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة و أصحابه والثوري و الأوزاعي وأبو عثمان البتي و الشافعي في الجديد، غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالع تطليقة أو اثنتين أو أطلق، فهو واحدة بائنة، وإن نوى ثلاثاً فثلاث، وللشافعي قول آخر في الخلع، و هو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق، و عَرِيَ عن البينة، فليس هو بشيء بالكلية. (مسألة) و ذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد و إسحاق بن راهويه في رواية عنهما، و هي المشهورة، إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء، إن كانت ممن تحيض، و روي ذلك عن عمر وعلي وابن عمر، قال الترمذي: و هو أكثر أهل العلم من الصحابة و غيرهم، و مأخذهم في هذا أن الخلع طلاق، فتعتد كسائر المطلقات، و القول الثاني: أنها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها. روى ابن أبي شيبة عن ابن عمر أن الربيع اختلعت من زوجها، فأتى عمها عثمان رضي الله عنه، فقال: تعتد بحيضة. قال: و كان ابن عمر يقول: تعتد ثلاث حيض، حتى قال هذا عثمان، فكان ابن عمر يفتي به، و يقول: عثمان خيرنا و أعلمنا. و به يقول عكرمة و أبان بن عثمان و كل من تقدم ذكره ممن يقول أن الخلع فسخ يلزمه القول بهذا واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود و الترمذي عن ابن عباس، أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي ﷺ، فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة.

حديث آخر. روى الترمذي عن الربيع بنت معوذ بن عفراء، أنها اختلعت على عهد رسول الله ﷺ، فأمرها النبي ﷺ أو أُمرت أن تعتد بحيضة. قال الترمذي: الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة. (مسألة) و ليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة و جمهور العلماء، لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء. و روي عن ابن أبي أوفى و ماهان الحنفي و سعيد بن المسيب و الزهري أنهم قالوا: إن رد

إليها الذي أعطاها جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها، و هو اختيار أبي ثور رحمه الله . (مسألة) وهل له أن يوقع عليها طلاقاً آخر في العدة ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء : (أحدهما) ليس له ذلك، لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه ، وبه يقول ابن عباس و ابن الزبير و عكرمة و جابر بن زيد و الحسن البصري و الشافعي و أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه و أبو ثور.

(و الثاني) قال مالك : إن أتبع الخلع طلاقاً من غير سكوت بينهما وقع ، و إن سكت بينهما ، لم يقع ، قال ابن عبد البر : و هذا يشبه ما روي عن عثمان ﷺ . (و الثالث) أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة ، و هو قول أبي حنيفة و أصحابه و الثوري و الأوزاعي ، و قوله ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها و من يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم . هي حدوده فلا تتجاوزوها ، كما ثبت في الحديث الصحيح «إن الله حدّ حدوداً فلا تعتدوها ، و فرض فرائض فلا تضيعوها ، و حرم محارم فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها» . و قد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام ، كما هو مذهب المالكية و من وافقهم ، و إنما السنة عندهم أن يطلق واحدة لقوله ﴿الطلاق مرتان﴾ ثم قال ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها و من يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ ويقوُّون ذلك بحديث محمود بن لبيد الذي رواه النسائي في سننه عن محمود بن لبيد ، قال : أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام غضبان ثم قال : «أيلعب بكتاب الله و أنا بين أظهركم» ؟ حتى قام رجل فقال : يا رسول الله ، ألا أقتله . فيه انقطاع[1] .

٢٣٠ – و قوله تعالى : ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ ، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح ، فلو وطئها واطئ في غير نكاح و لو في ملك اليمين ، لم تحل للأول ، لأنه ليس بزوج ، وهكذا لو تزوجت و لكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول ، و قد روى أبو جعفر ابن جرير عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ ، في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة ، فيتزوجها زوج آخر ، فيطلقها قبل أن يدخل بها ، أترجع إلى الأول ؟ قال «لا ، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها» و رواه الإمام أحمد و النسائي .

حديث آخر - و روى ابن جرير عن عائشة : أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً ، فتزوجت زوجاً ، فطلقها قبل أن يمسها ، فسئل رسول الله ﷺ : أتحل للأول ؟ فقال «لا ، حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول» أخرجه البخاري و مسلم . (فصل) والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة ، قاصداً لدوام عشرتها ، كما هو المشروع من التزويج ، واشترط الإمام مالك مع ذلك ، أن يطأها الثاني وطأ مباحاً ، فلو وطئها و هي محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف لم تحل للأول بهذا الوطء ، و كذا لو كان الزوج الثاني ذمياً لم تحل للمسلم بنكاحه ، لأن أنكحة الكفار باطلة عنده . فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول ، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذمه و لعنه ، و متى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة .

---

(١) و الراجح اتصاله و صحته ، و انظر «غاية المرام» (٢٦١) للألباني حفظه الله .

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

(الحديث الأول) عن عبد الله قال: لعن رسول الله ﷺ: الواشمة و المستوشمة و الواصلة و المستوصلة و المحلِّل والمحلَّل له و آكل الربا وموكله، رواه أحمد و الترمذي و النسائي، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم عمر و عثمان و ابن عمر، و هو قول الفقهاء من التابعين، و يروى ذلك عن علي و ابن مسعود وابن عباس.

(طريق أخرى) روى الإمام أحمد والنسائي عن عبد الله بن مسعود، قال: آكل الربا و موكله و شاهداه و كاتبه إذا علموا به، و الواصلة و المستوصلة، و لاوي الصدقة و المعتدي فيها، والمرتد على عقبيه أعرابياً بعد هجرته، و المحلِّل والمحلَّل له، ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة.

(الحديث الثاني) عن عمر بن نافع عن أبيه أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليُحلها لأخيه، هل تحل للأول؟ فقال: لا إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ، رواه الحاكم، و هذه الصيغة مشعرة بالرفع.

٢٣٠- و قوله ﴿فإن طلقها﴾ أي الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا﴾ أي المرأة و الزوج الأول ﴿إن ظنا أن يقيما حدود الله﴾ أي يتعاشرا بالمعروف. قال مجاهد: إنْ ظنا أن نكاحهما على غير دلسة ﴿وتلك حدود الله﴾ أي شرائعه و أحكامه ﴿يبينها﴾ أي يوضحها ﴿لقوم يعلمون﴾.

و قد اختلف الأئمة رحمهم الله فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين و تركها حتى انقضت عدتها، ثم تزوجت بآخر، فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها، ثم تزوجها الأول، هل تعود إليه بما بقي من الثلاث، كما هو مذهب مالك و الشافعي وأحمد بن حنبل، وهو قول طائفة من الصحابة رضي الله عنهم، أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، وحجتهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث فلأن يهدم ما دونها بطريق الأولى و الأحرى، والله أعلم.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) ﴾

٢٣١- هذا أمر من الله، عز و جل للرجال، إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها، و لم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يمسكها، أي يرتجعها إلى عصمة نكاحه، بمعروف و هو أن يشهد على رجعتها، و ينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرحها، أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن، من غير شقاق و لا مخاصمة و لا تقابح، قال الله تعالى:

﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾، قال ابن عباس، ومجاهد و مسروق و الحسن و قتادة والضحاك والربيع و مقاتل بن حيان و غير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعَّدهم عليه، فقال: ﴿و من يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى.

و قوله تعالى: ﴿و لا تتخذوا آيات الله هزواً﴾، قال مسروق: هو الذي يطلق في غير كنهه، و يضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة، وقال الحسن وقتادة و عطاء الخراساني و الربيع و مقاتل ابن حيان: هو الرجل يطلق و يقول: كنت لاعباً، أو عتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً. فأنزل الله ﴿و لا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ فألزم الله بذلك، وروى ابن أبي حاتم عن الحسن هو البصري نحوه و المشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي و ابن ماجه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، و هزلهن جد: النكاح و الطلاق و الرجعة». و قوله ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾، أي في إرساله الرسول بالهدى و البينات إليكم ﴿و ما أنزل عليكم من الكتاب و الحكمة﴾، أي السنة ﴿يعظكم به﴾ أي يأمركم وينهاكم و يتوعدكم على ارتكاب المحارم، ﴿و اتقوا الله﴾، أي فيما تأتون و فيما تذرون، ﴿و اعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية و الجهرية و سيجازيكم على ذلك.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ﴾

٢٣٢- قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أوطلقتين، فتنقضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها و أن يراجعها، و تريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى الله أن يمنعوها. و كذا قال مسروق و إبراهيم النخعي و الزهري و الضحاك: إنها أنزلت في ذلك، و هذا الذي قالوه ظاهر من الآية، و فيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تُزوج نفسها، و أنه لا بد في النكاح من ولي، كما قاله الترمذي و ابن جرير عند هذه الآية، كما جاء في الحديث «لا تزوج المرأة المرأة، و لا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها» و في الأثر الآخر «لا نكاح إلا بولي مرشد و شاهدي عدل» و في هذه المسألة نزاع بين العلماء، محرر في موضعه من كتب الفروع، و قد قررنا ذلك في كتاب الأحكام، و لله الحمد و المنة[1].

و قد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني و أخته، فروى البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية عن الحسن، أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها، فأبى معقل، فنزلت ﴿ولا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ و هكذا ذكر غير واحد من السلف، أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار وأخته. و قوله ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله و اليوم الآخر﴾ أي هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف يأتمر به، و يتعظ به، وينفعل له ﴿من كان منكم﴾ أيها الناس ﴿يؤمن بالله و اليوم الآخر﴾ أي يؤمن بشرع الله، و يخاف وعيد الله و عذابه، في الدار

(١) و الراجح في المسألة ما وافق الكتاب و السنة من أنه لا نكاح إلا بولي، و لا يصح للمرأة أن تزوج نفسها و لو كانت ثيباً.

الآخرة، و ما فيها من الجزاء ﴿ذلكم أزكى لكم و أطهر﴾ أي اتباعكم شرع الله، في رد الموليات إلى أزواجهن، و ترك الحمية في ذلك أزكى لكم و أطهر لقلوبكم ﴿و الله يعلم﴾ أي من المصالح، فيما يأمر به و ينهى عنه ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ أي الخيرة فيما تأتون، ولافيما تذرون.

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾

٢٣٣- هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، و هي سنتان فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك، و لهذا قال ﴿لمن أرادأن يتم الرضاعة﴾ و ذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرّم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود و عمره فوقهما لم يحرم. روى الترمذي في (باب ماجاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين) عن أم سلمة، قالت: قال رسول اللهﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي و كان قبل الفطام» هذا حديث حسن صحيح، و العمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول اللهﷺ و غيرهم، أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، و ما كان بعد الحولين الكاملين، فإنه لا يحرم شيئاً، ومعنى قوله «إلا ما كان في الثدي» أي في محل الرضاعة قبل الحولين، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن البراء بن عازب، قال: لما مات إبراهيم ابن النبيﷺ، قال: «إن ابني مات في الثدي، إن له مرضعاً في الجنة» هكذا أخرجه البخاري، و إنما قال عليه السلام ذلك، لأن ابنه إبراهيم عليه السلام، مات و له سنة وعشرة أشهر، فقال: إن له مرضعاً، يعني تكمل رضاعه، و يؤيده ما رواه الدارقطني عن ابن عباس، قال: قال رسول اللهﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين»، و تمام الدلالة من هذا الحديث في قوله تعالى: ﴿و فصاله في عامين أن اشكر لي﴾ و قال ﴿و حمله و فصاله ثلاثون شهراً﴾ و القول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين، يروى عن علي وابن عباس و ابن مسعود و جابر و أبي هريرة و ابن عمر و أم سلمة و سعيد بن المسيب و عطاء والجمهور، و هو مذهب الشافعي و أحمد وإسحاق و الثوري و أبي يوسف و محمد و مالك في رواية، و قد روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم، و هو قول عطاء بن أبي رباح و الليث بن سعد.، و كانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها، فترضعه، و تحتج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث أمر النبيﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه و كان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، و أبى ذلك سائر أزواج النبيﷺ، و رأين ذلك من الخصائص، و هو قول الجمهور، و حجة الجمهور و هم الأئمة الأربعة، و الفقهاء السبعة، و الأكابر من الصحابة، و سائر أزواج رسول اللهﷺ، سوى عائشة ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول اللهﷺ قال: «انظرن مَنْ إخوانكن فإنما الرضاعة من المجاعة» و سيأتي الكلام على مسائل الرضاع وفيما يتعلق برضاع الكبير، عند قوله

تعالى: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم﴾.

و قوله: ﴿و على المولود له رزقهن و كسوتهن بالمعروف﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات و كسوتهن بالمعروف، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف و لا إقتار، بحسب قدرته في يساره، وتوسطه و إقتاره، كما قال تعالى: ﴿لينفق ذو سعة من سعته و من قُدِر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها و كسوتها بالمعروف. و قوله: ﴿و لا تضار والدة بولدها﴾ أي بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، و لكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبأ الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت، و لكن إن كانت مضارة لأبيه، فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها، و لهذا قال: ﴿و لا مولود له بولده﴾ أي بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها، قاله مجاهد وقتادة و الضحاك و الزهري والسدي و الثوري و ابن زيد و غيرهم. و قوله تعالى: ﴿و على الوارث مثل ذلك﴾ قيل: في عدم الضرار لقريبه، قاله مجاهد و الشعبي و الضحاك، و قيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل و القيام بحقوقها و عدم الإضرار بها، و هو قول الجمهور، وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره، و قد استدل بذلك من ذهب من الحنفية و الحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، و هو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف، و يرجح ذلك بحديث الحسن عن سمرة مرفوعاً «مَنْ مَلَكَ ذا رحم محرم، عتق عليه»[1] و قد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو في عقله. و روي عن علقمة: أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين، فقال: لا ترضعيه. و قوله: ﴿فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما و تشاور فلا جناح عليهما﴾ أي فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، و رأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك و أجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، و لا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثوري و غيره، وهذا فيه احتياط للطفل و إلزام للنظر في أمره، و هو من رحمة الله بعباده حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما، و أرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه، كما قال في سورة الطلاق ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف و إن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾.

وقوله تعالى: ﴿و إن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ أي إذا اتفقت الوالدة و الوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها أو العذر له، فلا جناح عليهما في بذله، و لا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، و استرضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف، قاله غير واحد. و قوله: ﴿و اتقوا الله﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿و اعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم و أقوالكم.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾

(١) رواه الإمام أحمد و أبو داود و الترمذي و ابن ماجه، و هو صحيح.

٢٣٤- هذا أمر من الله للنساء اللاتي يُتوفى عنهن أزواجهن، أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن و غير المدخول بهن بالإجماع، و مستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة، و هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد و أهل السنن و صححه الترمذي: أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها، و لم يدخل بها و لم يفرض لها، فترددوا إليه مراراً في ذلك، فقال أقول فيها برأيي، فإن يك صواباً فمن الله، و إن يك خطأ فمني و من الشيطان، و الله و رسوله بريئان منه: لها الصداق كاملاً، وفي لفظ: لها صداق مثلها لا وَكْس و لا شطط، و عليها العدة، و لها الميراث، فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال: سمعت رسول الله ﷺ، قضى به في بروع بنت واشق، ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً.

و لا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، و هي حامل، فإن عدتها بوضع الحمل و لو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ و كان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين، و هذا مأخذ جيد ومسلك قوي، لو لا ما ثبتت به السنة في حديث سبيعة الأسلمية المخرج في الصحيحين من غير وجه، أنها توفي عنها زوجها سعد ابن خولة و هي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، و في رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تعلت من نفاسها، تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر و عشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك، جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي، قال أبو عمر بن عبد البر: و قد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة، يعني لما احتج عليه به، قال: و يصحح ذلك عنه، أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة.

و كذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران و خمس ليال على قول الجمهور، لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد، فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة. و من العلماء كمحمد بن سيرين و بعض الظاهرية من يسوي بين الزوجات الحرائر و الإماء في هذا المقام لعموم الآية، و لأن العدة من باب الأمور الجبليّة التي تستوي فيها الخليقة، و قد ذكر سعيد بن المسيب، و أبو العالية وغيرهما، أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر و عشراً، لاحتمال اشتمال الرحم على حمل، فإذا انتظر به هذه المدة، ظهر إن كان موجوداً، كما جاء في حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين و غيرهما «إنّ خَلْقَ أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح» فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر، و الاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه، و الله أعلم.

و من ههنا ذهب الإمام أحمد، في رواية عنه، إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا، لأنها صارت فراشاً كالحرائر، وللحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عمرو ابن العاص أنه قال: لا تلبسوا علينا سنة نبينا، عدة أم الولد، إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر و عشر. ورواه أبو داود و ابن ماجه و قد ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف، منهم: الأوزاعي و إسحاق بن راهويه و أحمد بن حنبل في رواية عنه، و قال أبو حنيفة

وأصحابه، و الثوري والحسن بن صالح بن حيي: تعتد بثلاث حيض، وهو قول علي و ابن مسعود وعطاء وإبراهيم النخعي. و قال مالك و الشافعي و أحمد في المشهور عنه: عدتها حيضة، و به يقول ابن عمر والشعبي و مكحول و الليث و أبو عبيد و أبو ثور والجمهور، وقال الليث: و لو مات وهي حائض، أجزأتها. و قال مالك: فلو كانت ممن لا تحيض، فثلاثة أشهر. و قال الشافعي و الجمهور: شهر و ثلاثة أحب إلي، و الله أعلم.

و قوله: ﴿فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف و الله بما تعملون خبير﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها لما ثبت في الصحيحين عن غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ، قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله و اليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر و عشراً»، و في الصحيحين أيضاً عن أم سلمة أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها و قد اشتكت عينها أفنكحلها؟ فقال «لا» كل ذلك يقول - لا - مرتين أوثلاثاً، ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة» قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها، دخلت حِفشاً و لبست شر ثيابها، و لم تمس طيباً ولا شيئاً حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فَتُعطى بعرة فترمي بها، ثم تُوتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتفتضُّ به، فقلما تفتض بشيء إلا مات. و من ههنا ذهب كثيرون من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها، و هي قوله: ﴿و الذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ الآية، كما قاله ابن عباس وغيره، و في هذا نظر كما سيأتي تقريره. و الغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب و لبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي و غير ذلك، و هو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، و هل يجب في عدة البائن فيه قولان. و يجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحرة و الأمة و المسلمة و الكافرة، لعموم الآية، و قال الثوري و أبوحنيفة و أصحابه: لا إحداد على الكافرة، وبه يقول أشهب و ابن نافع من أصحاب مالك، و حجة قائل هذه المقالة قوله ﷺ «لا يحل لامرأة تؤمن بالله و اليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر و عشراً» قالوا: فجعله تعبداً، و ألحق أبوحنيفة و أصحابه و الثوري الصغيرة بها لعدم التكليف، و ألحق أبو حنيفة و أصحابه الأمة المسلمة لنقصها، ومحل تقرير ذلك كله في كتب الأحكام و الفروع، و الله الموفق للصواب.

و قوله ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي انقضت عدتهن، قاله الضحاك والربيع بن أنس، ﴿فلا جناح عليكم﴾ قال الزهري: أي على أوليائها. ﴿فيما فعلن﴾ يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن، قال العوفي عن ابن عباس: إذا طُلِّقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين و تتصنع وتتعرض للتزويج، فذلك المعروف. و روي عن مقاتل بن حيان نحوه، و قال مجاهد ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ قال: النكاح الحلال الطيب، وروي عن الحسن و الزهري نحو ذلك.

﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ

﴿الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

٢٣٥- يقول تعالى: ﴿و لا جناح عليكم﴾ أن تعرّضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح، قال ابن عباس: التعريض أن يقول: إني أريد التزويج، وإني أحب امرأة مِنْ أمرها و مِن أمرها- يعرض لها بالقول المعروف- و في رواية: وددت أن الله رزقني امرأة، و نحو هذا، و لا ينتصب للخطبة، و رواه البخاري تعليقاً عن ابن عباس: هو أن يقول: إني أريد التزويج، و إن النساء لمن حاجتي، و لوددت أنه ييسر لي امرأة صالحة، و هكذا قال غير واحد من السلف والأئمة في التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة، و هكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، و قال لها: فإذا حللت فآذنيني، فلما حلت، خطب عليها أسامة بن زيد مولاه، فزوجها إياه، فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها و لا التعريض لها، و الله أعلم.

وقوله ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن، وهذا كقوله تعالى ﴿و ربك يعلم ما تُكِنُّ صدورهم و ما يعلنون﴾ و كقوله ﴿و أنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ و لهذا قال ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ أي في أنفسكم، فرفع الحرج عنكم في ذلك. ثم قال: ﴿و لكن لا تواعدوهن سراً﴾ يعني: الزنا، و هو معنى رواية العوفي عن ابن عباس، و اختاره ابن جرير، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و لكن لا تواعدوهن سراً﴾ يعني: الزنا، و هو معنى رواية العوفي عن ابن عباس، و اختاره ابن جرير، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و لكن لا تواعدوهن سراً﴾ لاتقل لها: إني عاشق و عاهديني ألا تتزوجي غيري، ونحو هذا، و كذا روي عن سعيد بن جبير و الشعبي و عكرمة و أبي الضحى و الضحاك و الزهري و مجاهد والثوري، و هو أن يأخذ ميثاقها أن لا تتزوج غيره. وعن مجاهد: هو قول الرجل للمرأة: لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك، و قال قتادة: هو أن يأخذ عهد المرأة و هي في عدتها أن لا تنكح غيره، فنهى الله عن ذلك، وقدم فيه و أحل الخطبة، و القول بالمعروف، و قال ابن زيد ﴿و لكن لا تواعدوهن﴾ هو أن يتزوجها في العدة سراً، فإذا حلت أظهر ذلك، و قد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك، لهذا قال ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ قال ابن عباس و غيره: يعني به ما تقدم من إباحة التعريض كقوله: إني فيك لراغب و نحو ذلك، و قال محمد بن سيرين: قلت لعبيدة: ما معنى قوله ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾؟ قال: يقول لوليها: لا تسبقني بها، يعني لا تزوجها حتى تعلمني، رواه ابن أبي حاتم.

و قوله ﴿و لاتعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ يعني ولاتعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة. قال ابن عباس و غيره: ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ يعني: ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة، و قد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في العدة. و اختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها، فإنه يفرق بينهما، وهل تحرم عليه أبداً؟ على قولين: الجمهور على أنها لا تحرم عليه، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها. و ذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأبيد، و احتج في ذلك بما رواه عن عمر رضي الله عنه قال: أيما امرأة نكحت في عدتها، فإن كان زوجها الذي تزوج بها لم يدخل بها فُرِّقَ بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها

الأول، و كان خاطباً من الخطاب ، و إن كان دخل بها فرّق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم اعتدت من الآخر، ثم لم ينكحها أبداً، و قالوا : و مأخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أحل الله، عوقب بنقيض قصده، فحرمت عليه على التأبيد كالقاتل يحرم الميراث . و قد روى الشافعي هذا الأثر عن مالك . قال البيهقي : و ذهب إليه في القديم و رجع عنه في الجديد، لقول علي : أنها تحل له. (قلت) قال: ثم هو منقطع عن عمر . و قد روى الثوري أن عمر رجع عن ذلك، و جعل لها مهرها وجعلهما يجتمعان. و قوله : ﴿و اعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ توعّدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء، و أرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيسهم من رحمته ، و لم يقنطهم من عائدته فقال: ﴿و اعلموا أن الله غفور حليم﴾.

﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) ﴾

٢٣٦- أباح تبارك و تعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها، و قبل الدخول بها. قال ابن عباس وطاوس و إبراهيم والحسن البصري : المس النكاح، بل و يجوز أن يطلقها قبل الدخول بها و الفرض لها، إن كانت مفوضة و إن كان في هذا انكسار لقلبها، و لهذا أمر تعالى بإمتاعها و هو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره، و على المقتر قدره. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إن كان موسراً متعها بخادم أو نحو ذلك، و إن كان معسراً أمتعها بثلاث أثواب. و قال الشعبي : أوسط ذلك درع و خمار و ملحفة وجلباب، و روى عبد الرزاق عن ابن سيرين، قال: كان يمتع بالخادم أو بالنفقة أوبالكسوة. و ذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها. و قال الشافعي في الجديد: لايجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة، و أحب ذلك إلي أني أستحسن ثلاثين درهماً، كما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

و قد اختلف العلماء أيضاً: هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها، على أقوال: أحدها أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى: ﴿و للمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ و لقوله تعالى: ﴿ياأيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا و زينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً﴾ و قد كن مفروضاً لهن و مدخولا بهن، وهذاقول سعيد بن جبير و أبي العالية والحسن البصري، و هو أحد قولي الشافعي و منهم من جعله الجديد الصحيح، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

(و القول الثاني) أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، و إن كانت مفروضاً لها، لقوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾ فعن سعيد بن المسيب قال: نسخت هذه الآية التي في الأحزاب الآية التي في البقرة. وقد روى البخاري في صحيحه، عن سهل بن سعد وأبي أسيد، أنهما قالا :تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شرحبيل، فلما أُدخِلت عليه، بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين.

(القول الثالث): أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها و لم يفرض لها، فإن كان قد دخل بها، وجب لها

مهر مثلها إذا كانت و إن كان قد فرض لها و طلقها قبل الدخول ، وجب لها عليه شطره ، فإن دخل بها استقر الجميع ، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة ، وإنما المصابة التي لم يفرض لها و لم يدخل بها ، فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها ، هذا قول ابن عمر و مجاهد ، و من العلماء من استحبها لكل مطلقة ممن عدا المفوّضة المفارقة قبل الدخول ، و هذا ليس بمنكور ، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب ، و لهذا قال تعالى : ﴿على الموسع قدره و على المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ و للمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ و من العلماء من يقول : إنها مستحبة مطلقاً. روى ابن أبي حاتم عن الشعبي : ، قال : ذكروا له المتعة ، أيحبس فيها؟ فقرأ ﴿على الموسع قدره و على المقتر قدره﴾قال الشعبي : و الله ما رأيت أحداً حبس فيها ، و الله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة.

﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلاَ تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

٢٣٧- و هذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى ، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول ، فإنه لو كان ثَمَّ واجب آخر من متعة لبينها لا سيما و قد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية ، و الله أعلم . و تشطير الصداق و الحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء ، لا خلاف بينهم في ذلك ، فإنه متى كان قد سمى لها صداقاً ثم فارقها قبل دخوله بها ، فإنه يجب لها نصف ما سمى من الصداق ، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها ، وهو مذهب الشافعي في القديم ، و به حكم الخلفاء الراشدون . و قوله : ﴿إلا أن يعفون﴾ أي النساء ، عما وجب لها على زوجها ، فلا يجب لها عليه شيء ، عن ابن عباس في قوله : ﴿إلا أن يعفون﴾ قال : إلا أن تعفو الثيب فتدع حقها . قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله : و روي عن شريح وسعيد بن المسيب و عكرمة ومجاهد والشعبي والحسن و نافع و قتادة و جابر بن زيد و عطاء الخراساني و الضحاك والزهري و مقاتل بن حيان و ابن سيرين و الربيع بن أنس و السدي نحو ذلك . قال : و خالفهم محمد بن كعب القرظي فقال : ﴿إلا أن يعفون﴾ يعني الرجال ، و هو قول شاذ لم يتابع عليه ، انتهى كلامه . و قوله : ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ روى ابن أبي حاتم عن شريح قال : سألني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح ، فقلت له : هو ولي المرأة ، فقال علي : لا ، بل هو الزوج ، ثم قال : و في إحدى الروايات عن ابن عباس و جبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وشريح في أحد قوليه ، و سعيد بن جبير و مجاهد و الشعبي و عكرمة و نافع و محمد بن سيرين و الضحاك ومحمد بن كعب القرظي وجابر بن زيد و أبي مجلز و الربيع بن أنس وإياس بن معاوية ومكحول و مقاتل بن حيان ، أنه الزوج .

(قلت) : و هذا هو الجديد من قولي الشافعي ، ومذهب أبي حنيفة و أصحابه ، و الثوري و ابن شبرمة والأوزاعي ، و اختاره ابن جرير ، و مأخذ هذا القول : أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقةً : الزوج ، فإن بيده عقدها و إبرامها و نقضها وانهدامها ، و كما أنه لا يجوز للولي أن يهب شيئاً من مال المولية للغير ، فكذلك في

الصداق. قال: و الوجه الثاني: عن ابن عباس ـ في الذي ذكر الله بيده عقدة النكاح ـ قال: ذلك أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه. و روي عن علقمة و الحسن و عطاء و طاوس و الزهري وربيعة و زيد بن أسلم وإبراهيم النخعي و عكرمة في أحد قوليه، و محمد بن سيرين في أحد قوليه أنه الولي. و هذا مذهب مالك، وقول الشافعي في القديم، ومأخذه أن الولي هو الذي أكسبها إياه، فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها. و روى ابن جرير عن عكرمة، قال: أذن الله في العفو وأمر به، فأي امرأة عفت جاز عفوها، فإن شحّت و ضنت عفا وليها جاز عفوه، و هذا يقتضي صحة عفو الولي و إن كانت رشيدة، و هو مروي عن شريح، لكن أنكر عليه الشعبي، فرجع عن ذلك و صار إلى أنه الزوج و كان يباهل عليه.

و قوله: ﴿وأن تعفو أقرب للتقوى﴾. قال ابن جرير: قال بعضهم: خوطب به الرجال و النساء، روى بسنده عن ابن عباس ﴿و أن تعفو أقرب للتقوى﴾ قال: أقربهما للتقوى الذي يعفو، و كذا روي عن الشعبي وغيره. و قال مجاهد و النخعي والضحاك و مقاتل بن حيان و الربيع بن أنس والثوري: الفضل ـ ههنا ـ أن تعفو المرأة عن شطرها أو إتمام الرجل الصداق لها، ولهذا قال ﴿و لاتنسوا الفضل بينكم﴾ أي الإحسان، قاله سعيد، وقال الضحاك و قتادة و السدي و أبو وائل المعروف يعني لاتهملوه بينكم، ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم و أحوالكم، وسيجزى كل عامل بعمله.

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

٢٣٨ - يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها و حفظ حدودها و أدائها في أوقاتها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة في وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قال: حدثني بهن رسول الله ﷺ و لو استزدته لزادني.

وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى، و قد اختلف السلف و الخلف فيها أي صلاة هي؟ فقيل: إنها الصبح، حكاه مالك في الموطأ بلاغاً عن علي و ابن عباس، و روى ابن جرير عن ابن عباس، أنه صلى الغداة في مسجد البصرة، فقنت قبل الركوع، و قال: هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه، فقال: ﴿حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ و روي أيضاً عن أبي العالية، قال: صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة، فقلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ إلى جانبي: ما الصلاة الوسطى؟ قال: هذه الصلاة. و حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عمر و أبي أمامة و أنس و هو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله، محتجاً بقوله تعالى: ﴿و قوموا لله قانتين﴾ والقنوت عنده في صلاة الصبح، و منهم من قال: هي الوسطى باعتبار أنها لا تقصر، و هي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين، و ترد المغرب، وقيل: لأنها بين صلاتين ليل جهريتين و صلاتي نهار سريتين، و قيل: إنها صلاة الظهر. روى أبو داود الطيالسي في مسنده عن زهرة يعني ابن معبد، قال: كنا جلوساً ند زيد بن ثابت، فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي الظهر، كان رسول الله ﷺ يصليها بالهجير، وروى أحمد عن زيد بن ثابت، قال: كان رسول

اللهﷺ يصلي الظهر بالهاجرة، و لم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول اللهﷺ منها، فنزلت ﴿**حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى و قوموا لله قانتين**﴾ و قال: إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين، و رواه أبو داود. و ممن روى عنه أنها الظهر: ابن عمر، و أبو سعيد و عائشة، على اختلاف عنهم، وهو قول عروة بن الزبير و عبد الله بن شداد بن الهاد، و رواية عن أبي حنيفة رحمهم الله.

و قيل إنها صلاة العصر. قال الترمذي و البغوي رحمهما الله: و هو قول أكثر علماء الصحابة و غيرهم. و قال القاضي الماوردي: هو قول جمهور التابعين: و قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. و قال أبو محمد بن عطية في تفسيره: و هو قول جمهور الناس. و قال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي في كتابه المسمى «بكشف المغطى في تبيين الصلاة الوسطى» و قد نص فيه: أنها العصر، و حكاه عن عمر و علي و ابن مسعود و أبي أيوب و عبدالله بن عمرو و سمرة بن جندب و أبي هريرة و أبي سعيد و حفصة و أم حبيبة و أم سلمة و عن ابن عباس و عائشة على الصحيح عنهم، و هو مذهب أحمد بن حنبل. قال القاضي الماوردي: و الشافعي. قال ابن المنذر: و هو الصحيح عن أبي حنيفة، و أبي يوسف و محمد، و اختاره ابن حبيب المالكي، رحمهم الله.

ذكر الدليل على ذلك: روى الإمام أحمد عن علي، قال: قال رسول اللهﷺ يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم و بيوتهم ناراً» ثم صلاها بين العشاءين المغرب و العشاء، وكذا رواه البخاري و مسلم، وحديث يوم الأحزاب، و شغل المشركين رسول اللهﷺ و أصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ، مروي عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نصّ منهم في روايته، أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر. و قد رواه مسلم أيضاً من حديث ابن مسعود و البراء بن عازب رضي الله عنهما. فهذه نصوص في المسألة لا تحتمل شيئاً، و يؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، و قولهﷺ في الحديث الصحيح عن سالم، عن أبيه، أن رسول اللهﷺ قال: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِر أهله و ماله». و في الصحيح أيضاً عن بريدة بن الحصيب عن النبيﷺ، قال: «من ترك صلاة العصر، فقد حبط عمله». و روى أحمد عن أبي تميم عن أبي بصرة الغفاري، قال: صلى بنا رسول اللهﷺ في واد من أوديتهم، يقال له الحميص، صلاة العصر، فقال «إن هذه الصلاة عرضت على الذين من قبلكم فضيعوها، ألا و من صلاها ضعّف له أجره مرتين، ألا ولا صلاة بعدها حتى تروا الشاهد»، رواه مسلم، وعن أبي يونس مولى عائشة، قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، قالت: إذا بلغت هذه الآية ﴿**حافظوا علي الصلوات و الصلاة الوسطى**﴾ فآذني، فما بلغتها آذنتها، فأملت عليّ ﴿**حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين**﴾ قال: سمعتها من رسول اللهﷺ، رواه مسلم. و ورد نحوه عن حفصة رضي الله عنها، رواه ابن جرير، و تقرير المعارضة: أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة، فدل ذلك على أنها غيرها، و أجيب عن ذلك بوجوه: أحدها: أن هذا إن روي على أنه خبر، فحديث علي أصح وأصرح منه، و هذا يحتمل أن تكون الواو زائدة، كما في قوله ﴿**و كذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين**﴾ ﴿**و كذلك نري إبراهيم ملكوت السموات و الأرض و ليكون من الموقنين**﴾ أو تكون لعطف الصفات لا لعطف الذوات، كقوله ﴿**و لكن رسول الله و خاتم النبيين**﴾ و كقوله ﴿**سبح اسم ربك**

الأعلى ﴿الذي خلق فسوى﴾ ﴿والذي قدر فهدى﴾ ﴿و الذي أخرج المرعى﴾ وأشباه ذلك كثيرة. و قد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل: مررت بأخيك و صاحبك، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه، و الله أعلم، وأما إن روي على أنه قرآن، فإنه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن، و لهذا لم يثبته أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في المصحف، ولا قرأ ذلك أحد من القراء الذين ثبتت الحجة بقراءتهم، لا من السبعة و لا من غيرهم.

ثم قد روي ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث، روى مسلم عن البراء بن عازب قال: نزلت ﴿حافظوا على الصلوات و صلاة العصر﴾ فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله، ثم نسخها الله عز وجل، فأنزل ﴿حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى﴾ فقال له زاهر رجل كان مع شقيق: أفهي العصر؟ قال: قد حدثتك كيف نزلت، و كيف نسخها الله عز و جل. فعلى هذا تكون هذه التلاوة و هي تلاوة الجادة ناسخة للفظ رواية عائشة و حفصة و لمعناها إن كانت الواو دالة على المغايرة، و إلا فلفظها فقط، و الله أعلم.

و قيل: إن الصلاة الوسطى هي صلاة المغرب، رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، و في إسناده نظر، ووجّه هذا القول بعضهم بأنها وسطى في العدد بين الرباعية و الثنائية، وبأنها وتر المفروضات، و بما جاء فيها من الفضيلة، و الله أعلم.

و قيل: إنها العشاء الأخير، اختاره علي بن أحمد الواحدي في تفسيره المشهور، و قيل: هي واحد من الخمس لا بعينها و أبهمت فيهن، كما أبهمت ليلة القدر في الحول أو الشهر أو العشر، و يحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب و شريح القاضي و نافع مولى ابن عمر، والربيع بن خيثم، و نقل أيضاً عن زيد بن ثابت واختاره إمام الحرمين الجويني في نهايته. وقيل: بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس، رواه ابن أبي حاتم عن ابن عمر، و في صحته أيضاً نظر، و العجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمرو بن عبد البر النمري إمام ما وراء البحر، و إنها لإحدى الكبر إذ اختار مع اطلاعه و حفظه ما لم يقم عليه دليل من كتاب و لا سنة ولا أثر. و قيل: إنها صلاة العشاء و صلاة الفجر. وقيل: بل هي صلاة الجماعة. و قيل: صلاة الجمعة. وقيل: صلاة الخوف. وقيل: بل صلاة عيد الفطر. وقيل: بل صلاة الأضحى. وقيل: الوتر وقيل: الضحى. وتوقف آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة، و لم يظهر لهم وجه الترجيح، و لم يقع الإجماع على قول واحد، بل لم يزل النزاع فيها موجوداً من زمان الصحابة و إلى الآن. روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا و شبك بين أصابعه، و كل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها، و إنما المدار و معترك النزاع في الصبح و العصر، و قد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها.

وقد روى الإمام ابن أبي حاتم الرازي رحمهما الله في كتاب الشافعي رحمه الله: قال الشافعي: كل ما قلت فكان عن النبي ﷺ بخلاف قولي مما يصح، فحديث النبي ﷺ أولى و لا تقلدوني، و كذا روى الربيع والزعفراني و أحمد بن حنبل عن الشافعي، وقال موسى أبو الوليد بن أبي الجارود عن الشافعي: إذا صح الحديث و قلت قولاً، فأنا راجع عن قولي وقائل بذلك، فهذا من سيادته وأمانته و هذا نفس إخوانه من الأئمة رحمهم الله، و رضي الله عنهم أجمعين، آمين، و من ههنا قطع القاضي الماوردي بأن مذهب الشافعي رحمه

الله أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، و إن كان قد نصَّ في الجديد و غيره أنها الصبح لصحة الأحاديث أنها العصر، و قد وافقه على هذه الطريقة جماعة من محدثي المذهب الشافعي، وصمموا على أنها الصبح قولاً واحداً، قال الماوردي: و منهم من حكى في المسألة قولين، ولتقرير المعارضات و الجوابات موضع آخر غير هذا و قد أفردناه على حدة و لله الحمد و المنة. وقوله تعالى: ﴿و قوموا لله قانتين﴾ أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، و هذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها، و لهذا لما امتنع النبي ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلَّم عليه و هو في الصلاة، اعتذر إليه بذلك و قال «إن في الصلاة لشغلاً». و في صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة «إن هذه الصلاة لا يَصْلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنما هي التسبيح و التكبير و ذكر الله»، وروى الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم قال: كان الرجل يكلِّم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فأمرنا بالسكوت، رواه الجماعة سوى ابن ماجه، و قد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام في الصلاة كان بمكة قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى الحبشة، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذي في الصحيح، قال: كنا نُسلِّم على النبي ﷺ قبل أن نهاجر إلى الحبشة وهو في الصلاة فيرد علينا، قال: فلما قدمنا سلمت عليه فلم يرد عليّ، فأخذني ما قرب و ما بعد، فلما سلم قال «إني لم أرد عليك إلا أني كنت في الصلاة، و إن الله يُحدِث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أنْ لا تكلّموا في الصلاة» و قد كان ابن مسعود ممن أسلم قديماً و هاجر إلى الحبشة، ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم فهاجر إلى المدينة، وهذه الآية ﴿وقوموا لله قانتين﴾ مدنية بلا خلاف، فقال قائلون: إنما أراد زيد بن أرقم بقوله: كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة، الإخبار عن جنس الكلام، و استدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها، والله أعلم، و قال آخرون: إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها، و يكون ذلك قد أبيح مرتين و حرم مرتين، كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم، و الأول أظهر، و الله أعلم.

و قوله ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ لما أمر الله تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات و القيام بحدودها، و شدّد الأمر بتأكيدها، ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب، فقال ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً﴾ أي فَصلُّوا على أي حال كان رجالاً أو ركباناً يعني مستقبلي القبلة و غير مستقبليها، كما قال مالك عن نافع: أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وَصَفَها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم، أو ركباناً يعني مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها، قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ، ورواه البخاري و هذا لفظ مسلم، و لمسلم أيضاً عن ابن عمر قال: فإن كان خوف أشد من ذلك، فَصَلِّ راكباً أو قائماً تومئ إيماءً، و في حديث عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلي ليقتله، وكان نحو عرفة أو عرفات، فلما واجهه حانت صلاة العصر، قال فخشيت أن تفوتني فجعلت أصلي و أنا أومئ إيماء، الحديث بطوله رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد.

و هذا من رخص الله التي رخَّص لعباده و وضعه الآصار و الأغلال عنهم، وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: في هذه الآية يصلي الراكب على دابته و الراجل على رجليه، و قد ذهب الإمام أحمد فيما نص

عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان، و على ذلك يُنزّل الحديث الذي رواه مسلم و أبو داود والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، و في السفر ركعتين، و في الخوف ركعة، و به قال الحسن البصري و قتادة و الضحاك و غيرهم. وروى ابن جرير عن شعبة قال: سألت الحكم وحماداً و قتادة عن صلاة المسايفة، فقالوا: ركعة، و هكذا روى الثوري عنهم سواء، وروى ابن جرير أيضاً عن جابر عن عبد الله قال: صلاة الخوف ركعة. واختار هذا القول ابن جرير، و قال البخاري: (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو). و قال الأوزاعي: إن كان تهيأ الفتح و لم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخَّروا الصلاة حتى ينكشف القتال، و يأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة و سجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزيهم التكبير و يؤخرونها حتى يأمنوا. و به قال مكحول، و قال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر و اشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نُصَلِّ إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها و نحن مع أبي موسى، ففتح لنا. قال أنس: و ما يسرني بتلك الصلاة الدنيا و ما فيها. هذا لفظ البخاري.

ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره ﷺ صلاة العصر يوم الخندق لعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس، وبقوله ﷺ بعد ذلك لأصحابه لما جهزهم إلى بني قريظة «لا يُصلينَّ أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فمنهم من أدركته الصلاة في الطريق فصلوا، و قالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير، و منهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بني قريظة، فلم يُعَنِّف واحداً من الفريقين، و هذا على اختيار البخاري لهذا القول، و الجمهور على خلافه، و يعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد بها القرآن في سورة النساء، و وردت بها الأحاديث، لم تكن مشروعة في غزوة الخندق، و إنما شرعت بعد ذلك، و قد جاء مصرحاً بهذا في حديث أبي سعيد و غيره، وأما مكحول والأوزاعي و البخاري فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك، لأن هذا حال نادر خاص، فيجوز فيه مثل ما قلنا بدليل صنيع الصحابة زمن عمر في فتح تستر و قد اشتهر و لم ينكر، و الله أعلم.

و قوله ﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله﴾ أي أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتموا ركوعها و سجودها و قيامها وقعودها و خشوعها و هجودها، ﴿كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ أي مثل ما أنعم عليكم و هداكم للإيمان، وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا و الآخرة، فقابلوه بالشكر و الذكر، كقوله بعد صلاة الخوف ﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ وستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ الآية.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢) ﴾

٢٤٠- قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، و هي قوله ﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ روى البخاري عن ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان ﴿و الذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً﴾ قد نسختها الآية

الأخرى، فلِمَ تكتبها أو تدعها، قال يا ابن أخي، لا أغير شيئاً منه من مكانه. و معنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نُسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين، بأن هذا أمر توقيفي، و أنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿و الذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾** فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها في الدار سنة، فنسخها آية المواريث فجعل لهن الثمن أو الربع مما ترك الزوج، ثم قال: وروي عن أبي موسى الأشعري و ابن الزبير و مجاهد و إبراهيم و الحسن و عكرمة و قتادة و الضحاك و زيد بن أسلم والسدي و مقاتل بن حيان و عطاء الخراساني و الربيع بن أنس أنها منسوخة.

وروى من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: كان الرجل إذا مات و ترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد **﴿والذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾** فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً، فعدتها أن تضع ما في بطنها، و قال **﴿و لهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم﴾** فبين ميراث المرأة و ترك الوصية والنفقة، وروى البخاري عن مجاهد **﴿والذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً﴾** قال: كانت هذه للمعتدة، تعتد عند أهل زوجها واجب، فأنزل الله **﴿وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾** قال: جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة، وصية إن شاءت سكنت في وصيتها و إن شاءت خرجت، و هو قول الله **﴿غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم﴾** فالعدة كما هي واجب عليها، زعم ذلك عن مجاهد رحمه الله، وقال عطاء: قال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شاءت، و هو قول الله تعالى: **﴿غير إخراج﴾** قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها و سكنت في وصيتها، و إن شاءت خرجت، لقول الله **﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن﴾** قال عطاء: ثم جاء الميراث، فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت، و لا سكنى لها، ثم أسند البخاري عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه بهذا القول، الذي عول عليه مجاهد و عطاء، من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سَنَة، كما زعمه الجمهور، حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة الأشهر و عشر، و إنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات بأن يمكّن من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً إن اخترن ذلك، و لهذا قال **﴿وصية لأزواجهم﴾** أي يوصيكم الله بهن وصية كقوله **﴿يو صيكم الله في أولادكم﴾** الآية.

و قوله: **﴿وصية من الله﴾** و قيل: إنما انتصب على معنى فلتوصوا لهن وصية، و قرأ آخرون بالرفع (وصيةٌ) على معنى كتب عليكم وصية و اختارها ابن جرير، و لا يمنعن من ذلك لقوله **﴿غير إخراج﴾** فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، و اخترن الخروج و الانتقال من ذلك المنزل، فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله **﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾** و هذا القول له اتجاه، و في اللفظ مساعدة له، و قد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية ورده آخرون، منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر، و قول عطاء ومن تابعه، على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلّم، و إن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر و عشر لا تجب في تركة الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة و هما

قولان للشافعي رحمه الله ، و قد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج ، بما رواه مالك في موطئه أن الفريعة بنت مالك بن سنان و هي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة ، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كان بطرف القُدُوم لحقهم فقتلوه قالت : فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة ، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه و لا نفقة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ «نعم» قالت : فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمَرني فنوديت له فقال «كيف قلت»؟ فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي ، قال «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت : فاعتددت فيه أربعة أشهر و عشراً ، قالت : فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي فسألني عن ذلك ، فأخبرته فاتبعه و قضى به ، و كذا رواه أبو داود و الترمذي و النسائي.

٢٤١- و قوله ﴿و للمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ قد استدل بهذه الآية ، من ذهب من العلماء ، إلى وجوب المتعة لكل مطلقة ، سواء كانت مفوضة ، أو مفروضاً لها ، أو مطلقة قبل المسيس ، أو مدخولاً بها ، وهو قول عن الشافعي رحمه الله ، و إليه ذهب سعيد بن جبير ، و غيره من السلف ، و اختاره ابن جرير ، ومن لم يوجبها مطلقاً ، يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى : ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة و متعوهن على الموسع قدره و على المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ وأجاب الأولون بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم ، فلا تخصيص على المشهور المنصوص ، والله أعلم.

٢٤٢- و قوله ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي في إحلاله و تحريمه و فروضه و حدوده ، فيما أمركم ونهاكم عنه ، بينه و وضحه و فسره ، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي تفهمون وتتدبرون.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾

٢٤٣- روي عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف ، و عنه كانوا ثمانية آلاف ، و قال أبو صالح : تسعة آلاف ، وعن ابن عباس أربعون ألفاً ، و قال وهب بن منبه و أبو مالك : كانوا بضعة و ثلاثين ألفاً. و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كانوا أهل قرية يقال لها داوردان. و كذا قال السدي و أبو صالح و زاد: من قبل واسط ، وقال سعيد بن عبد العزيز : كانوا من أهل أذرعات ، وروى وكيع بن الجراح في تفسيره عن ابن عباس ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم و هم ألوف حذر الموت﴾ قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت ، حتى إذا كانوا بموضع كذا و كذا قال الله لهم ﴿موتوا﴾ فماتوا ، فمر عليهم نبي من الأنبياء ، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم ، فذلك قوله عز و جل ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم و هم ألوف حذر الموت﴾ الآية. و ذكر غير واحد من السلف ، أن هؤلاء القوم ، كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل

استوخموا أرضهم، و أصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت، هاربين إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح، فملؤوا ما بين عَدْوتيه، فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما من أسفل الوادي، و الآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد، فحيزوا إلي حظائر، وبني عليهم جدران و قبور، وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر، مرّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل، يقال له حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، و أمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً و عصباً و جلداً، فكان ذلك و هو يشاهد، ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره فقاموا أحياءً ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة و هم يقولون: سبحانك لا إله إلا أنت.

و كان في إحيائهم عبرة و دليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، و لهذا قال: **﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾**، أي فيما يريهم من الآيات الباهرة و الحجج القاطعة و الدلالات الدامغة **﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾** أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم.

و في هذه القصة عبرة و دليل، على أنه لن يغني حذر من قدر، و أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء، طلباً لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، و جاءهم الموت سريعاً في آن واحد. و من هذا القبيل، الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة ابن الجراح و أصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فذكر الحديث، فجاءه عبد الرحمن بن عوف، و كان متغيباً لبعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض و أنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، و إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدِموا عليه» فحمد الله عمر ثم انصرف، وأخرجاه في الصحيحين.

٢٤٤- و قوله: **﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾** أي كما أن الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد و تجنبه، لا يقرب أجلاً و لا يبعده، بل الأجل المحتوم و الرزق المقسوم، مقدَّر مقنن لا يزاد فيه و لا ينقص منه، كما قال تعالى: **﴿الذين قالوا لإخوانهم و قعدوا لو أطاعونا ما قُتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾** و قال تعالى: **﴿و قالوا ربنا لم كتبتَ علينا القتال لولا أخَّرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل و الآخرة خير لمن اتقى و لا تُظلمون فتيلاً * أينما تكونوا يدرككم الموت و لو كنتم في بروج مشيدة﴾** و روينا عن أمير الجيوش، و مقدم العساكر، و حامي حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه: أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه، أنه قال و هو في سياق الموت: لقد شهدت كذا و كذا موقفاً، و ما من عضو من أعضائي إلا و فيه رمية أو طعنة أو ضربة، و ها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء، يعني أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب، و يتأسف على ذلك، و يتألم أن يموت على فراشه.

٢٤٥- و قوله: **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾**، يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله، و قد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع، و في حديث النزول أنه يقول تعالى: «من يقرض غير عديم و لا ظلوم» و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود، قال: لما نزلت **﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾**، قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، و إن الله عز وجل

ليريد منا القرض ؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح». قال: أرني يدك يا رسول الله. قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي، قال: و حائط له فيه ستمائة نخلة، و أم الدحداح فيه و عيالها. قال فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك. قال: اخرجي، فقد أقرضته ربي عز وجل. و قد رواه ابن مردويه عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه، و قوله: ﴿قرضاً حسناً﴾ روي عن عمر و غيره من السلف هو: النفقة في سبيل الله، و قيل: هو النفقة على العيال، و قيل: هو التسبيح و التقديس. و قوله: ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ كما قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة و الله يضاعف لمن يشاء﴾ الآية، و سيأتي الكلام عليها. و في معنى هذا ما رواه الترمذي و غيره عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، أن رسول الله ﷺ، قال «من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد، و هو على كل شيء قدير. كتب الله له ألف ألف سنة حسنة، و محا عنه ألف ألف سيئة» الحديث. وقوله ﴿و الله يقبض و يبسط﴾ أي أنفقوا و لا تبالوا، فالله هو الرازق يضيق على من يشاء من عباده في الرزق، و يوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿و إليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٢٤٦)﴾

٢٤٦- روى عبد الرزاق عن قتادة: هذا النبي هو يوشع بن نون، قال ابن جرير: يعني ابن أفرايم بن يوسف بن يعقوب، و هذا القول بعيد لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل، و كان ذلك في زمان داود عليه السلام، كما هو مصرح به في القصة، و قد كان بين داود و موسى ما ينيف عن ألف سنة، والله أعلم. و قال السدي: هو شمعون. و قال مجاهد: هو شمويل عليه السلام، و كذا قال وهب بن منبه و غيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث، و عبد بعضهم الأصنام، و لم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، و أسروا خلقاً كثيراً، و أخذوا منهم بلاداً كثيرة، و لم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه، و ذلك أنهم كان عندهم التوراة، و التابوت الذي كان في قديم الزمان، وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة و السلام، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب، و أخذوا التوراة من أيديهم، و لم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، و لم يبق من سبط لاوى الذي يكون فيه من الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها و قد قتل، فأخذوها فحبسوها في بيت، و احتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم، و لم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً، فسمع الله لها و وهبها غلاماً، فسمته شمويل، أي سمع الله دعائي، و منهم من يقول: شمعون، و هو بمعناه، فشب ذلك الغلام، و نشأ فيهم، و أنبته الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، و أمره بالدعوة إليه و توحيده، فدعا بني إسرائيل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، و كان الْمُلْك أيضاً قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا

تقاتلوا و تفوا بما التزمتم من القتال معه، **﴿قالوا و ما لنا ألا نقاتل في سبيل الله و قد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾** أي و قد أُخذت منا البلاد و سبيت الأولاد، قال الله تعالى: **﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم و الله عليم بالظالمين﴾** أي ما وفّوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم، و الله عليم بهم.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) ﴾

٢٤٧- أي لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم، فعين لهم طالوت، و كان رجلاً من أجنادهم، و لم يكن من بيت الملك فيهم، لأن الملك كان في بسط يهوذا، و لم يكن هذا من ذلك السبط، فلهذا قالوا: **﴿أنى يكون له الملك علينا﴾**، أي كيف يكون ملكاً علينا **﴿و نحن أحق بالملك منه و لم يؤت سعة من المال﴾** أي هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، و قد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، و قيل: دباغاً، و هذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، و كان الأولى بهم طاعة و قول معروف، ثم قد أجابهم النبي قائلاً: **﴿إن الله اصطفاه عليكم﴾** أي اختاره لكم من بينكم، و الله أعلم به منكم، يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك، **﴿و زاده بسطة في العلم و الجسم﴾** أي و هو مع هذا، أعلم منكم، و أنبل، و أشكل منكم، وأشد قوة و صبراً في الحرب و معرفة بها، أي أتم علماً وقامة منكم، و من ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن، و قوة شديدة في بدنه و نفسه؛ ثم قال **﴿و الله يؤتي الملك من يشاء﴾** أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل، و لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه و حكمته و رأفته بخلقه، ولهذا قال **﴿و الله سميع عليم﴾** أي هو واسع الفضل، يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) ﴾

٢٤٨- يقول لهم نبيهم: إن علامة بركة مُلك طالوت عليكم، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أُخِذ منكم **﴿فيه سكينة من ربكم﴾** قيل معناه: وقار و جلالة. رواه عبد الرزاق عن قتادة و قال الربيع: رحمة، و كذا روي عن ابن عباس. و قال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله **﴿فيه سكينة من ربكم﴾**؟ قال: ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه، و كذا قال الحسن البصري. و روى سفيان الثوري عن علي قال: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، ثم هي روح هفافة. و روى ابن جرير نحوه. و قا ل مجاهد: لها جناحان و ذَنَب. وقوله **﴿و بقية مما ترك آل موسى و آل هارون﴾** روى ابن جرير عن ابن عباس في هذه الآية **﴿و بقية مما ترك آل موسى و آل هارون﴾** قال: عصاه، و رضاض الألواح، و كذا قال قتادة و السدي و الربيع بن أنس و عكرمة، وزاد: والتوراة. قال أبو صالح **﴿و بقية مما ترك آل موسى﴾** يعني عصا موسى، وعصا هارون، و لوحين من التوراة، و المنّ. و قال عطية بن سعد: عصا موسى، و عصاهارون، وثياب موسى، و ثياب هارون، ورضاض الألواح. و قال عبد الرزاق: سألت الثوري عن قوله **﴿و بقية مما ترك آل موسى و آل هارون﴾**، فقال: منهم من

يقول: قفيز من منّ، و رضاض الألواح، و منهم من يقول: العصا و النعلان. وقوله ﴿تحمله الملائكة﴾ قال ابن جرير: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى و ضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، قال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فآمنوا بنبوة شمعون، و أطاعوا طالوت. و قوله ﴿إن في ذلك لآية لكم﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به من النبوة، و فيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي بالله و اليوم الآخر.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾

٢٤٩- يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده، و من أطاعه من ملأ بني إسرائيل، و كان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً، فالله أعلم، أنه قال ﴿إن الله مبتليكم﴾ أي مختبركم بنهر، قال ابن عباس وغيره: و هو نهر بين الأردن وفلسطين، يعني نهر الشريعة المشهور، ﴿فمن شرب منه فليس مني﴾ أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ﴿و من لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾، أي فلا بأس عليه، قال الله تعالى: ﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾ روى عن ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو. و كذا قال قتادة وابن شوذب، و قال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، و تبقى معه أربعة آلاف، كذا قال. و قد روى ابن جرير عن البراء بن عازب، قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمدﷺ، الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة و بضعة عشر، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، و ما جازه معه إلا مؤمن، ورواه البخاري بنحوه، و لهذا قال تعالى: ﴿فلما جاوزه هو والذين معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد و لا عُدد. و لهذا قالوا ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله و الله مع الصابرين﴾.

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) ﴾

٢٥٠- أي لما واجه حزب الإيمان، و هم قليل من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت، وهم عدد كثير ﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي أنزل علينا صبراً من عندك ﴿و ثبت أقدامنا﴾ أي في لقاء الأعداء، و جنبنا الفرار و العجز ﴿و انصرنا على القوم الكافرين﴾.

٢٥١- قال الله تعالى : ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ أي غلبوهم و قهروهم بنصر الله لهم ﴿و قتل داود جالوت﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده ، رماه به فأصابه فقتله ، و كان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ، ويشاطره نعمته ، ويشركه في أمره ، فوفّى له ثم آل الملك إلى داود ﷺ مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ، و لهذا قال تعالى : ﴿و آتاه الله الملك﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿والحكمة﴾ أي النبوة بعد شمويل ﴿و علمه مما يشاء﴾ أي مما يشاء الله من العلم الذي اختص به ﷺ ثم قال تعالى : ﴿و لو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ أي لو لا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت و شجاعة داود لهلكوا كما قال تعالى : ﴿و لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع و صلوات و مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ الآية . و قوله ﴿و لكن الله ذو فضل على العالمين﴾ أي ذو مَنٍّ عليهم و رحمة بهم ، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً ، و له الحكم والحكمة و الحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله .

٢٥٢-ثم قال تعالى : ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق و إنك لمن المرسلين﴾ أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق ، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل ، ﴿و إنك﴾ يا محمد ﴿لمن المرسلين﴾ وهذ هو توكيد و توطئة للقسم .

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾

٢٥٣- يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض ، كما قال تعالى : ﴿و لقد فضلنا بعض النبيين على بعض و آتينا داود زبوراً﴾ ، و قال ههنا ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله﴾ يعني موسى ومحمداً ﷺ ، و كذا آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه ﴿و رفع بعضهم درجات﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عزوجل ، (فإن قيل) فما الجمع بين هذه الآية و بين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة ، قال استب رجل من المسلمين و رجل من اليهود ، فقال اليهودي في قسم يقسمه : لا و الذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده ، فلطم بها وجه اليهودي ، فقال : أي خبيث ؟ و على محمد ﷺ ؟ فجاء اليهودي إلى النبي ﷺ ، فاشتكى على المسلم ، فقال رسول الله ﷺ : «لا تفضلوني على الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور ؟ فلا تفضلوني على الأنبياء» و في رواية «لاتفضلوا بين الأنبياء» فالجواب من وجوه : أحدها : أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل ، و في هذا نظر . الثاني : أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع ، الثالث : أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر . الرابع : لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية . الخامس :

ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله عز و جل، و عليكم الانقياد والتسليم له، و الإيمان به. و قوله **﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات﴾** أي الحجج و الدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد الله و رسوله إليهم **﴿وأيدناه بروح القدس﴾** يعني أن الله أيده بجبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: **﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات و لكن اختلفوا فمنهم من آمن و منهم من كفر و لو شاء الله ما اقتتلوا﴾** أي كل ذلك عن قضاء الله و قدره، لهذا قال **﴿و لكن الله يفعل ما يريد﴾**.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾

٢٥٤- يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير، ليدّخروا ثواب ذلك عند ربهم و مليكهم، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا، **﴿من قبل أن يأتي يوم﴾** يعني يوم القيامة **﴿لا بيع و لا خلة و لا شفاعة﴾** أي لا يباع أحد من نفسه و لا يفادي بمال لو بذل، و لو جاء بملء الأرض ذهباً، و لا تنفعه خلة أحد، يعني صداقته بل و لا نسابته، كما قال **﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ و لا يتساءلون﴾** و لا شفاعة: أي و لا تنفعهم شفاعة الشافعين. و قوله **﴿والكافرون هم الظالمون﴾** مبتدأ محصور في خبره، أي و لا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً، و قد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال **﴿والكافرون هم الظالمون﴾** و لم يقل: و الظالمون هم الكافرون.

﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) ﴾

٢٥٥- هذه آية الكرسي، و لها شأن عظيم، و قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله. روى الإمام أحمد عن أبي هو ابن كعب، أن النبي ﷺ، سأله «أي آية في كتاب الله أعظم»؟ قال: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً، ثم قال: آية الكرسي، قال «ليهنك العلم أبا المنذر، و الذي نفسي بيده، إن لها لساناً و شفتين تقدس الملك عند ساق العرش» و قد رواه مسلم. و ليس عنده زيادة: و الذي نفسي بيده إلخ.

حديث آخر - عن أبي أيضاً في فضل آية الكرسي، روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن عبد الله بن أبي بن كعب، أن أباه أخبره أنه كان له جرن فيه تمر، قال: فكان أبي يتعاهده، فوجده ينقص، قال: فحرسه ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، قال: فقلت: ما أنت؟ جني أم إنسي؟ قال: جني. قال: ناولني يدك، قال فناولني يده، فإذا يد كلب و شعر كلب، فقلت: هكذا خلق الجن. قال: لقد علمت الجن ما فيهم أشد مني. قلت: فما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغني أنك رجل تحب الصدقة، فأحببنا أن نصيب من طعامك. قال: فقال له أبي: فما الذي يجيرنا منكم؟ قال: هذه الآية، آية الكرسي، ثم غدا إلى النبي فأخبره، فقال النبي ﷺ «صدق الخبيث» و هكذا رواه الحاكم. و قد ذكر البخاري هذه القصة عن أبي هريرة، قال: و كلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته

وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، فقال : دعني فإني محتاج و عليّ عيال و لي حاجة شديدة ، قال : فخليت عنه فأصبحت ، فقال النبي ﷺ «يا أبا هريرة ما فعل بك أسيرك البارحة ؟» قال : قلت يا رسول الله ، شكا حاجة شديدة وعيالاً ، فرحمته وخليت سبيله ، قال «أما إنه قد كذبك و سيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ «إنه سيعود» فرصدته ، فجاء يحثو الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فأنا محتاج و عليّ عيال ، لا أعود . فرحمته وخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ ، «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟» قلت : يا رسول الله ، شكا حاجة وعيالاً ، فرحمته و خليت سبيله . قال «أما إنه قد كذبك وسيعود» ، فرصدته الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، و هذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود ، فقال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت : و ما هي ؟ إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ حتى تختم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، و لا يقربك شيطان حتى تصبح . فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ «ما فعل أسيرك البارحة ؟» قلت : يا رسول الله ، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها ، فخليت سبيله . قال «و ما هي ؟» قال لي : إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ و قال لي : لايزال عليك من الله حافظ و لا يقربك شيطان حتى تصبح ، و كانوا أحرص شيء على الخير ، فقال النبي ﷺ «أما إنه صدقك و هو كذوب ، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟» قلت : لا . قال «ذاك شيطان» رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم ، و قد رواه النسائي في اليوم و الليلة .

حديث آخر ـ في اشتمالها علي اسم الله الأعظم : روى ابن مردويه عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً قال «اسم الله الأعظم الذي إذادعي به أجاب في ثلاث : سورة البقرة ، وآل عمران و طه» و قال هشام و هو ابن عمار خطيب دمشق أما البقرة ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ و في آل عمران ﴿**ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ وفي طه ﴿**و عنت الوجوه للحي القيوم**﴾ .

حديث آخر ـ عن أبي أمامة في فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة ، رواه أبو بكر بن مردويه عن أبي أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ «من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي ، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة و أخرجه ابن حبان في صحيحه و هو إسناد على شرط البخاري ، و قد ورد في فضلها أحاديث أخر ، تركناها اختصاراً لعدم صحتها و ضعف أسانيدهاكحديث علي في قراءتها عند الحجامة ، أنها تقوم مقام حجامتين . و حديث أبي في كتابتها في اليد اليسرى بالزعفران سبع مرات ، و تلحس للحفظ و عدم النسيان ، أوردهما ابن مردويه ، وغير ذلك .

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة

فقوله ﴿**الله لا إله إلا هو**﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿**الحي القيوم**﴾ أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً ، القيم لغيره . و كان عمر يقرأ (القيّام) فجميع الموجودات مفتقرة إليه ، و هو غني عنها ، لا قوام لها بدون أمره ، كقوله ﴿**و من آياته أن تقوم السماء و الأرض بأمره**﴾ و قوله ﴿**لاتأخذه سنة و لا نوم**﴾ أي لا يعتريه

نقص و لا غفلة و لا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، و لا يخفى عليه خافية، و من تمام القيومية أنه لايعتريه سنة و لا نوم، فقوله **﴿لا تأخذه﴾** أي لا تغلبه سنة وهي الوسن و النعاس، و لهذا قال: و لا نوم لأنه أقوى من السِّنَة. و في الصحيح عن أبي موسى، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات، فقال «إن الله لا ينام، و لا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط و يرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، و عمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، أن بني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربه عز وجل يا موسى، سألوك هل ينام ربك، فخذ زجاجتين في يديك، فقم الليلة، ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلث نعس، فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل نعس، فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال: يا موسى، لو كنت أنام لسقطت السموات و الأرض فهلكت كما هلكت الزجاجتان في يديك. فأنزل الله عز و جل على نبيه ﷺ آية الكرسي. و قوله **﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾** إخبار بأن الجميع عبيده و في ملكه، و تحت قهره و سلطانه، كقوله **﴿إن كل من في السموات إلا آت الرحمن عبداً ۞ لقد أحصاهم وعدهم عداً ۞ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾**. وقوله **﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾** كقوله **﴿و كم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضى﴾** وكقوله **﴿و لا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾** و هذا من عظمته وجلاله و كبريائه عز و جل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: «آتي تحت العرش فأخر ساجداً، فيدعني ما شاء الله ما شاء الله أن يدعني. ثم يقال: ارفع رأسك و قل تسمع و اشفع تشفع. قال. فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة». وقوله: **﴿يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم﴾** دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيها وحاضرها و مستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة **﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا و ما خلفنا و ما بين ذلك و ما كان ربك نسيّاً﴾**. و قوله: **﴿و لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾** أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل و أطلعه عليه. و يحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته و صفاته، إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: **﴿و لا يحيطون به علماً﴾**.

و قوله: **﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾**، روي ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: **﴿وسع كرسيه السموات و الأرض﴾** قال: علمه، و كذا رواه ابن جرير قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبير مثله، ثم قال ابن جرير: و قال آخرون: الكرسي موضع القدمين، ثم رواه عن أبي موسى و السدي و الضحاك و مسلم البطين. و قد رواه وكيع في تفسيره عن ابن عباس، قال: الكرسي موضع القدمين، و العرش لا يقدر أحد قدره. و قد رواه الحاكم. وقوله: **﴿ولا يؤده حفظهما﴾** أي لا يثقله و لا يكرثه حفظ السموات و الأرض، و من فيهما، و من بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، و هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء و لا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره، و لا رب سواه، فقوله: **﴿وهو العلي العظيم﴾** كقوله: **﴿و هو الكبير المتعال﴾** و هذه الآيات و ما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح، أمروها كما جاءت من غير تكييف و لا تشبيه.

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)﴾

٢٥٦- يقول تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح، جلي دلائله و براهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، و شرح صدره، و نور بصيرته، دخل فيه على بينة، و من أعمى الله قلبه و ختم على سمعه و بصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً، و قد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، و إن كان حكمها عاماً. روى ابن جرير عن ابن عباس، قال: كانت المرأة تكون مقلاة، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز و جل ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾، و قد رواه أبو داود و النسائي و ابن أبي حاتم و ابن حبان في صحيحه، و هكذا ذكر مجاهد و سعيد بن جبير و الشعبي و الحسن البصري و غيرهم، أنها نزلت في ذلك. و قد ذهب طائفة كثيرة من العلماء، أن هذه محمولة على أهل الكتاب، و من دخل في دينهم قبل النسخ و التبديل إذا بذلوا الجزية، و قال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، و إنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف، دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه، و لم ينقد له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل، و هذا معنى الإكراه، قال الله تعالى ﴿ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ و قال تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار و المنافقين و اغلظ عليهم﴾ و قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة و اعلموا أن الله مع المتقين﴾ و في الصحيح «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل» يعني الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثائق و الأغلال و القيود و الأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم و سرائرهم فيكونون من أهل الجنة. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل «أسلم»، قال: إني أجدني كارهاً، قال: «و إن كنت كارهاً» فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له، بل هي كارهة، فقال له: أسلم و إن كنت كارهاً، فإن الله سيرزقك حسن النية و الإخلاص.

و قوله: ﴿فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها و الله سميع عليم﴾ أي من خلع الأنداد و الأوثان، و ما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحّد الله فعبده وحده، و شهد أنه لا إله إلا هو ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي فقد ثبت في أمره، و استقام على الطريق المثلى، و الصراط المستقيم، روى أبو القاسم البغوي عن عمر رضي الله عنه: إن الجبت السحر، و الطاغوت الشيطان، و إن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، و يفر الجبان من أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه، و إن كان فارسياً أو نبطياً. و هكذا رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم، ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان، قوي جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان و التحاكم إليها، والاستنصار بها. و قوله: ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، و شبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، هي في نفسها محكمة مبرمة قوية و ربطها قوي

شديد، ولهذا قال ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ الآية، قال مجاهد: العروة الوثقى يعني الإيمان، و قال السدي: هو الإسلام، و قال سعيد بن جبير و الضحاك: يعني لا إله إلا الله، والبغض في الله، و كل هذه الأقوال صحيحة، و لا تنافي بينها. و قال معاذ بن جبل في قوله: ﴿لا انفصام لها﴾ دون دخول الجنة، وقال مجاهد و سعيد بن جبير ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ ثم قرأ ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وروى الإمام أحمد عن محمد بن قيس بن عباد، قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه فحدثته، فلما استأنس، قلت له: إن القوم لما دخلت المسجد، قالو: كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، و سأحدثك لم، إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، قصصتها عليه، رأيت كأني في روضة خضراء - قال ابن عون فذكر من خضرتها و سعتها - و في وسطها عمود حديد أسفله في الأرض و أعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي اصعد عليه، فقلت: لا أستطيع، فجاءني منصف - قال ابن عون هو الوصيف - فرفع ثيابي من خلفي، فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، فاستيقظت و إنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه فقال «أما الروضة، فروضة الإسلام، و أما العمود فعمود الإسلام وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت» قال: وهو عبد الله بن سلام. أخرجاه في الصحيحين.

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧) ﴾

٢٥٧- يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، و أن الكافرين إنما وليهم الشيطان، يزين لهم ما هم فيه من الجهالات و الضلالات، ويخرجونهم و يحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر و الإفك ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ و لهذا وحد تعالى لفظ النور، و جمع الظلمات، لأن الحق واحد و الكفر أجناس كثيرة ولكنها باطلة، كما قال ﴿و أن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، و لا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ و قال تعالى ﴿وجعل الظلمات و النور﴾ و قال تعالى ﴿عن اليمين و الشمائل﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق و انتشار الباطل وتفرده و تشعبه.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾

٢٥٨- هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح و هو قول مجاهد و غيره، قال مجاهد: و مَلَكَ الدنيا مشارقها و مغاربها أربعة: مؤمنان و كافران، فالمؤمنان سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمروذ و بختنصر، و الله أعلم. ومعنى قوله: ﴿ألم تر﴾ أي بقلبك يا محمد ﴿إلى

الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ أي وجود ربه، و ذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره، كما قال بعده فرعون لملئه ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾. و ما حمله على هذا الطغيان و الكفر الغليظ و المعاندة الشديدة، إلا تجبره، و طول مدته في الملك، وذلك أنه يقال: أنه مكث أربعمائة سنة في ملكه، ولهذا قال: ﴿أن آتاه الله الملك﴾ و كان طلب من إبراهيم دليلاً، على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم ﴿ربي الذي يحيي و يميت﴾ أي إنما الدليل على وجوده، حدوث هذه الأشياء، المشاهدة بعد عدمها، و عدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار، ضرورة، لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدها، و هو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج ـ و هو النمروذ ـ ﴿أنا أحيي و أميت﴾. قال قتادة و محمد بن إسحاق والسدي و غير واحد: و ذلك أني أوتى بالرجلين، قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما ـ فيقتل، و آمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء و الإماتة ـ و الظاهر والله أعلم ـ أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قاله إبراهيم، و لا في معناه لأنه غير مانع لوجود الصانع، و إنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً و مكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك، و أنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ ولهذا قال له إبراهيم، لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾ أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي و تميت، فالذي يحيي و يميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذراته وتسخير كواكبه و حركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت، فأت بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه و أنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، بهت، أي أخرس، فلا يتكلم، و قامت عليه الحجة، قال الله تعالى: ﴿و الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يلهمهم حجة و لا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، و عليهم غضب، ولهم عذاب شديد، و هذا التنزيل على المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين، إن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه و ليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني، و يبين بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول و الثاني، و لله الحمد و المنة.

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾

٢٥٩- تقدم قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ وهو في قوة قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه، و لهذا عطف عليه بقوله ﴿أو كالذي مر على قرية و هي خاوية على عروشها﴾ اختلفوا في هذا المار من هو، فروى ابن أبي حاتم عن ناجية بن كعب عن علي بن أبي طالب أنه قال: هو عزير. و رواه ابن جرير عن ناجية نفسه، و حكاه ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن عباس و الحسن و قتادة و السدي و سليمان بن بريدة، و هذا القول هو المشهور و قال وهب بن منبه و عبد الله بن عبيد، هو أرميا بن حلقيا. وقال مجاهد بن

جبر: هو رجل من بني إسرائيل، و أما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها ﴿و هي خاوية﴾ أي ليس فيها أحد، من قولهم خوت الدار تخوي خوياً. وقوله ﴿على عروشها﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، و قال ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟﴾ و ذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها و بعدها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ قال: و عمرت البلاد بعد مضي سبعين سنة من موته، و تكامل ساكنوها، و تراجع بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته، كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه: كيف يحيي بدنه، فلما استقل سوياً قال الله له، أي بواسطة الملك: ﴿كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ قال: و ذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك و شرابك لم يتسنه﴾ وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب و تين و عصير، فوجده كما تقدم لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال، و لا التين حمض و لا أنتن، و لا العنب نقص ﴿و انظر إلى حمارك﴾ أي كيف يحييه الله عزوجل، و أنت تنظر ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ أي دليلاً على المعاد ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾ أي نرفعها، فيركب بعضها على بعض. و قد روى الحاكم في مستدركه عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿كيف ننشزها﴾ بالزاي ثم قال: صحيح الإسناد، و لم يخرجاه. و قرئ ﴿ننشرها﴾ أي نحييها، قاله مجاهد ﴿ثم نكسوها لحماً﴾. و قال السدي و غيره: تفرقت عظام حماره حوله يميناً و يساراً، فنظر إليها و هي تلوح من بياضها، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحما و عصباً و عروقاً وجلداً، و بعث الله ملكاً فنفخ في منخري الحمار، فنهق بإذن الله عزوجل، و ذلك كله بمرأى من العزير، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ أي أنا عالم بهذا، و قد رأيته عياناً، فأنا أعلم أهل زماني بذلك، و قرأ آخرون «قال اعْلَمْ» على أنه أمر له بالعلم.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

٢٦٠- ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسباباً منها أنه قال لنمروذ ﴿ربي الذي يحيي و يميت﴾ أحبَّ أن يترقى من علم اليقين بذلك، إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى و لكن ليطمئن قلبي﴾ فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى، و لكن ليطمئن قلبي». و كذا رواه مسلم، فليس المراد ههنا بالشك، ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف، و قد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة أحدها. و قوله ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك﴾ اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي، وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن، فروي عن ابن

عباس أنه قال هي الغرنوق و الطاوس والديك و الحمامة، وقوله ﴿فصرهن إليك﴾ أي: قطعهن، قاله ابن عباس و عكرمة و سعيد بن جبير و أبو مالك و أبو الأسود الدؤلي و وهب بن منبه و الحسن و السدي و غيرهم. و قال العوفي عن ابن عباس ﴿فصرهن إليك﴾ أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير، فذبحهن ثم قطعهن و نتف ريشهن و مزقهن و خلط بعضهن ببعض، ثم جزأهن أجزاءً، و جعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل أربعة أجبل، و قيل سبعة، قال ابن عباس: و أخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، و الدم يطير إلى الدم، واللحم إلى اللحم، و الأجزاء من كل طائر، يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، و أتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، و جعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم ﷺ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله و قوته، و لهذا قال ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء، و لا يمتنع من شيء، و ما شاء كان بلا ممانع، لأنه القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله و شرعه و قدره. و روى ابن أبي حاتم عن ابن المنكدر أنه قال: التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أي آية في القرآن أرجى عندك، فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عز و جل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا﴾ الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول قول الله عز و جل: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى﴾ فرضي من إبراهيم قوله ﴿بلى﴾، قال فهذا معنى لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان، و هكذا رواه الحاكم ثم قال: صحيح الإسناد، و لم يخرجاه.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾

٢٦١- هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله و ابتغاء مرضاته، و أن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾. قال سعيد بن جبير: يعني في طاعة الله. و قال مكحول: يعني به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل و إعداد السلاح و غير ذلك. و قال ابن عباس: الجهاد و الحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف، و لهذا قال تعالى: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عزوجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، و قد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف. روى الإمام أحمد: عن ابن مسعود أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ «لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة» و رواه مسلم و النسائي ولفظ مسلم: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله، فقال: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة».

حديث آخر- روى أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ماشاء الله، يقول الله إلا الصوم فإنه لي و أنا أجزي به، يدع طعامه و شرابه من

أجلي، و للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، و فرحة عند لقاء ربه، و لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، الصوم جنة، الصوم جنة» و كذا رواه مسلم.

حديث آخر- روى أحمد عن خريم بن فاتك، قال: قال رسول الله ﷺ «من أنفق نفقة في سبيل الله، تضاعف بسبعمائة ضعف». وقوله ههنا ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ أي بحسب إخلاصه في عمله ﴿و الله واسع عليم﴾ أي فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق و من لا يستحق، سبحانه و بحمده.

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾

٢٦٢- يمدح تبارك و تعالى الذين ينفقون في سبيله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مناً على من أعطوه، فلا يمنون به على أحد، و لا يمنون به لا بقول و لا بفعل. و قوله ﴿ولا أذى﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه. ﴿و لا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة. ﴿و لا هم يحزنون﴾ أي على ما خالفوه من الأولاد، و لا ما فاتهم من الحياة الدنيا و زهرتها لا يأسفون عليها، لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

٢٦٣- ثم قال تعالى: ﴿قول معروف﴾ أي من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿و مغفرة﴾ أي عفو وغفر عن ظلم قولي أو فعلي ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾. ﴿و الله غني﴾ عن خلقه، ﴿حليم﴾ أي يحلم و يغفر و يصفح ويتجاوز عنهم، و قد وردت الأحاديث بالنهي عن المن في الصدقة، ففي صحيح مسلم من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، و لا ينظر إليهم، و لا يزكيهم، و لهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، و المسبل إزاره، و المنفق سلعته بالحلف الكاذب» وروى ابن مردويه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال «لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر، و لا مكذب بقدر». وروى أحمد و ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، و مدمن خمر، والمنان بما أعطى».

٢٦٤- و لهذا قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن و الأذى﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن و الأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن و الأذى، ثم قال تعالى: ﴿كالذي ينفق ماله رئاء الناس﴾ أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن و الأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، و إنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس، أو يقال إنه كريم، و نحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى و ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، و لهذا قال ﴿و لا يؤمن

بالله و اليوم الآخر﴾، ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه، قال الضحاك: والذي يتبع نفقته مناً أوأذى، فقال ﴿فمثله كمثل صفوان﴾ و هو جمع صفوانة، فمنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً و هو الصفا و هو الصخر الأملس، ﴿عليه تراب فأصابه وابل﴾ وهو المطر الشديد ﴿فتركه صلداً﴾ أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أي أملس يابساً، أي لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أي و كذلك أعمال المرائين تذهب و تضمحل عند الله و إن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، و لهذا قال ﴿لايقدرون على شيء مما كسبوا و الله لا يهدي القوم الكافرين﴾.

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) ﴾

٢٦٥- و هذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم في ذلك، ﴿وتثبيتاً من أنفسهم﴾ أي وهم متحققون متثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، و نظير هذا في معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح المتفق على صحته «من صام رمضان إيماناً و احتساباً» أي يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه، قال الشعبي: ﴿وتثبيتاً من أنفسهم﴾ أي تصديقاً و يقيناً، و كذا قال قتادة وأبو صالح و ابن زيد، و اختاره ابن جرير وقال مجاهد و الحسن: أي يتثبتون أين يضعون صدقاتهم. و قوله ﴿كمثل جنة بربوة﴾ وهو عند الجمهور: المكان المرتفع من الأرض، و زاد ابن عباس و الضحاك و تجري فيه الأنهار. قال ابن جرير رحمه الله: و في الربوة ثلاث لغات: هن ثلاث قراءات: بضم الراء، و بها قرأ عامة أهل المدينة و الحجاز و العراق، وفتحها و هي قراءة بعض أهل الشام، و الكوفة، و يقال إنها لغة تميم، و كسر الراء، و يذكر أنها قراءة ابن عباس.

و قوله ﴿أصابها وابل﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم، فآتت ﴿أكلها﴾ أي ثمرتها ﴿ضعفين﴾ أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾ قال الضحاك: هو الرذاذ و هو اللين من المطر، أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً، بل يتقبله الله و يكثره و ينميه كل عامل بحسبه، ولهذا قال ﴿و الله بما تعملون بصير﴾ أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) ﴾

٢٦٦- روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل و أعناب﴾ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أولا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء ياأمير المؤمنين، فقال عمر: ياابن أخي قل و لا تحقر نفسك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضربت مثلاً بعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله، و هو من أفراد البخاري رحمه الله، و في هذا الحديث كفاية في تفسيرهذه الآية، و تبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن

العمل أولاً، ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، و احتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل منه شيء و خانه أحوج ما كان إليه، و لهذا قال تعالى: ﴿و أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار﴾ وهو الريح الشديد ﴿فيه نار فاحترقت﴾ أي أحرق ثمارها و أباد أشجارها، فأي حال يكون حاله؟. و لهذا قال تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم الأيات لعلكم تتفكرون﴾ أي تعتبرون و تفهمون الأمثال و المعاني و تنزلونها على المراد منها. كما قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾

٢٦٧- يأمر تعالى: عباده المؤمنين بالإنفاق و المراد به الصدقة ههنا، قاله ابن عباس. من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها، قال مجاهد: يعني التجارة بتيسيره إياها لهم، و قال علي والسدي ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ يعني الذهب والفضة، و من الثمار و الزروع التي أنبتها لهم من الأرض، قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال و أجوده و أنفسه، و نهاهم عن التصدق برذالة المال و دنيئه و هو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل الله إلا طيباً، و لهذا قال: ﴿و لا تيمموا الخبيث﴾ أي تقصدوا الخبيث ﴿منه تنفقون و لستم بآخذيه﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون، و قيل معناه ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ أي: لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه، والصحيح القول الأول، روى ابن جرير رحمه الله عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قول الله ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم و مما أخرجنا لكم من الأرض و لا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ الآية، قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعقلوه على حبل، بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك ﴿و لا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾، ورواه ابن ماجه و ابن مردويه و الحاكم في مستدركه و قال صحيح على شرط البخاري ومسلم، و لم يخرجاه. و قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾ يقول: لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم، لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه، قال فذلك قوله: ﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾ فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، و حقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه؟ رواه ابن أبي حاتم، و ابن جرير. وقوله: ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ أي و إن أمركم بالصدقات و بالطيب منها، فهو غني عنها، و ما ذاك إلا أن يساوي الغني الفقير، كقوله ﴿لن ينال الله لحومها و لا دماؤها و لكن يناله التقوى منكم﴾ وهو غني عن جميع خلقه و جميع خلقه فقراء إليه، و هو واسع الفضل، لا ينفد ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب

طيب، فليعلم أن الله غني واسع العطاء، كريم جواد، و يجزيه بها، ويضاعفها له أضعافاً كثيرة، من يقرض غير عديم و لاظلوم، و هو الحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله و شرعه و قدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

٢٦٨- و قوله : ﴿الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء و الله يعدكم مغفرة منه و فضلاً و الله واسع عليم﴾ روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «إن للشيطان لمة بابن آدم و للملَك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر و تكذيب بالحق، و أما لمة الملك فإيعاد بالخير والتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، و من وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان» ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء و الله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ الآية، و هكذا رواه الترمذي والنسائي، و معنى قوله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلاتنفقوه في مرضاة الله. ﴿و يأمركم بالفحشاء﴾ أي مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي و المآثم و المحارم و مخالفة الخلاق، قال تعالى: ﴿و الله يعدكم مغفرة منه﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء. ﴿و فضلاً﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿والله واسع عليم﴾.

٢٦٩- وقوله: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، و محكمه ومتشابهه، و مقدمه و مؤخره، و حلاله و حرامه، و أمثاله، و قال مجاهد: يعني بالحكمة الإصابة في القول، و قال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة، و قال إبراهيم النخعي: الحكمة الفهم، و قال أبو مالك: الحكمة السنة، قال زيد بن أسلم: الحكمة العقل، قال مالك: و إنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، و أمر يدخله الله في القلوب من رحمته و فضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها، و تجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه، عالماً بأمر دينه بصيراً به، يؤتيه الله إياه و يحرمه هذا، فالحكمة الفقه في دين الله، و قال السدي: الحكمة النبوة و الصحيح أن الحكمة كما قال الجمهور: لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها، و أعلاها النبوة، و الرسالة أخص، و لكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع، و روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، و رجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها و يعلمها» و هكذا رواه البخاري و مسلم. و قوله: ﴿و ما يذّكّر إلا أولوا الألباب﴾ أي و ما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل، يعني به الخطاب و معنى الكلام.

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠) إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾

٢٧٠- يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات و المنذورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه و رجاء موعوده، وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره، وكذب خبره، و عبد معه غيره، فقال ﴿و ما للظالمين من أنصار﴾ أي يوم القيامة ينقذونهم من

عذاب الله و نقمته .

٢٧١-و قوله : ﴿إن تبدو الصدقات فنعما هي﴾ أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي . وقوله : ﴿و إن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها ، لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به ، فيكون أفضل من هذه الحيثية ، و قال رسول الله ﷺ «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة و المسر بالقرآن كالمسر بالصدقة»[1] و الأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية ، ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ «سبعة يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، و رجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه و تفرقا عليه ، و رجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، و رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، و رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله رب العالمين ، و رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» ، وفي الحديث المروي «صدقة السر تطفئ غضب الرب عزوجل»[2] ثم إن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة أو مندوبة لكن روى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسيره هذه الآية ، قال: جعل الله صدقة السر تفضل علانيتها ، فقال : بسبعين ضعفاً ، و جعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها ، فقال : بخمسة وعشرين ضعفاً . و قوله : ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ أي بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سراً ، يحصل لكم الخير في رفع الدرجات و يكفر عنكم السيئات و قد قرئ ويكفر بالجزم عطفاً على محل جواب الشرط و هو قوله : ﴿فنعما هي﴾ كقوله : ﴿فأصدّق وأكن﴾ و قوله : ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزيكم عليه .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) ﴾

٢٧٢- قال أبو عبد الرحمن النسائي عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا[3] لأنسابهم من المشركين ، فسألوا فرخص لهم ، فنزلت هذه الآية ﴿ليس عليك هداهم و لكن الله يهدي من يشاء ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، و ما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، و ما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ . وسيأتي عند قوله تعالى : ﴿لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾ الآية ، حديث أسماء بنت الصديق في ذلك . و قوله : ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ كقوله ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾ و نظائرها في القرآن كثيرة . و قوله ﴿و ما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾ قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه و لا ينفق

---

(١) ـ رواه أبو داود و الترمذي و النسائي ، و هو حديث صحيح . (٢) رواه الطبراني في الأوسط الصغير ، و غيره و هو صحيح .

(٣) يرضخوا: أي يعطوا و يتصدقوا .

المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله، و قال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ماكان عمله. و هذا معنى حسن و حاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله، فقد وقع أجره على الله، و لا عليه في نفس الأمر لمن أصاب أ لبرٌ أو فاجر أومستحق أو غيره، وهو مثاب على قصده، ومستند هذا تمام الآية **﴿و ما تنفقوا من خير يوفَّ إليكم و أنتم لا تظلمون﴾** و الحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «قال رجل لأتصدقنَّ الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تصدق على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقنَّ الليلة بصدقة فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غني، قال: اللهم لك الحمد على غني، لأتصدقنَّ الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على زانية و على غني وعلى سارق، فأتي فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت، و أما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، و لعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، و لعل السارق أن يستعف بها عن سرقته».

٢٧٣- وقوله **﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾** يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله و إلى رسوله وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و **﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾** يعني سفراً للتسبب في طلب المعاش والضرب في الأرض هو السفر، قال الله تعالى: **﴿و إذاضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾** وقال تعالى: **﴿علم أن سيكون منكم مرضى و آخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله و آخرون يقاتلون في سبيل الله﴾** الآية. و قوله **﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾** أي الجاهل بأمرهم و حالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم و حالهم و مقالهم، و في هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة و التمرتان، واللقمة واللقمتان، و الأكلة و الأكلتان، و لكن المسكين الذي لايجد غنىً يغنيه و لا يفطن له فيتصدق عليه، و لا يسأل الناس شيئاً». رواه أحمد من حديث ابن مسعود أيضاً. وقوله **﴿تعرفهم بسيماهم﴾** أي بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى: **﴿سيماهم في وجوههم﴾** وقال **﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾** وفي الحديث الذي في السنن «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنورالله» ثم قرأ **﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾**. وقوله: **﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾** أي لا يلحون في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن سأل و له ما يغنيه عن المسألة، فقد ألحف في المسألة، روى البخاري عن أبي هريرة فقال: قال رسول الله ﷺ «ليس المسكين الذي ترده التمرة و التمرتان، و لا اللقمة و اللقمتان، و إنما المسكين الذي يتعفف، اقرءوا إن شئتم يعني قوله **﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾** وقد رواه مسلم، وروى الإمام أحمد عن رجل من مزينة أنه قالت له أمه: ألا تنطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله فوجدته قائماً يخطب، وهو يقول «و من استعف أعفه الله، و من استغنى أغناه الله، و من يسأل الناس و له عدل خمس أواق، فقد سأل الناس إلحافاً» فقلت بيني و بين نفسي: لناقة لي خير من خمس أواق، و لغلامي ناقة أخرى فهي خير من خمس أواق، فرجعت ولم أسأل. وقوله **﴿و ما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾** أي لا يخفى عليه شيء منه و سيجزي عليه أوفر الجزاء و أتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه.

٢٧٤- و قوله **﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً و علانية فلهم أجرهم عند ربهم و لا خوف عليهم**

ولاهم يحزنون﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله و ابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل ونهار، والأحوال من سر وجهر، حتى أن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضاً عام الفتح، وفي رواية عام حجة الوداع «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في في امرأتك». وروى الإمام أحمد عن أبي مسعود رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة»، وعن ابن عباس في هذه الآية، قال: هم الذين يعلفون الخيل في سبيل الله، رواه ابن أبي حاتم ثم قال: و كذا روي عن أبي أمامة وسعيد بن المسيب و مكحول، و قوله ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أي يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات ﴿و لا خوف عليهم و لاهم يحزنون﴾ تقدم تفسيره.

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) ﴾

٢٧٥- لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر و الصدقات لذوي الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والأوقات، شرع في ذكر أكلة الربا و أموال الناس بالباطل و أنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم و قيامهم منها، إلى بعثهم ونشورهم، فقال ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾، أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه، و تخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. و قال ابن عباس: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق، رواه ابن أبي حاتم، قال: وروي عن عوف بن مالك و سعيد بن جبير و السدي و الربيع بن أنس و قتادة و مقاتل بن حيان نحو ذلك، و حكي عن عبد الله بن عباس وعكرمة و سعيد بن جبير والحسن وقتادة و مقاتل بن حيان أنهم قالوا في قوله ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ يعني لا يقومون يوم القيامة، و كذا قال مجاهد والضحاك و ابن زيد، وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، و قرأ ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ و ذلك حين يقوم من قبره. وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل: فأتينا على نهر، حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، و إذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، و إذا ذلك السابح يسبح، ثم يأتي الذي قد جمع الحجارة عنده، فيفغر له فاه فيلقمه حجراً، فذكر في تفسيره أنه آكل الربا. وقوله ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا و أحل الله البيع و حرم الربا﴾ أي إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، و ليس هذا قياساً منهم للربا على البيع، لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن و لو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ أي هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ و هذا اعتراض منهم على الشرع، أي هذا مثل هذا، و قد أحل هذا و حرم هذا، و قوله تعالى: ﴿وأحل الله البيع و حرم الربا﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام رداً عليهم، أي على ما قالوه من الاعتراض،

مع علمهم بتفريق الله بين هذا و هذا حكماً، و هو العليم الحكيم الذي لا معقب لحكمه و لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، و هو العالم بحقائق الأمور ومصالحها، و ما ينفع عباده فيبيحه لهم، و ما يضرهم ينهاهم عنه، و هو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل، و لهذا قال: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف و أمره إلى الله﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: ﴿عفا الله عما سلف﴾ و كما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة «وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدميّ هاتين، و أول ربا أضعه ربا العباس» و لم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف، كما قال تعالى: ﴿فله ما سلف و أمره إلى الله﴾ قال سعيد بن جبير و السدي: ﴿فله ما سلف﴾ ما كان أكل من الربا قبل التحريم. وروى ابن أبي حاتم أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها أم محبة أم ولد لزيد ابن أرقم: يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم، قالت: فإني بعته عبداً إلى العطاء بثمانمائة، فاحتاج إلى ثمنه، فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة، فقالت: بئس ما شريت و بئس ما اشتريت، أبلغي زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ، إن لم يتب، قالت: فقلت أرأيت إن تركت المائتين و أخذت الستمائة؟ قالت: نعم ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف﴾ وهذا الأثر مشهور [1] و هو دليل لمن حرم مسألة العينة، مع ما جاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة في كتاب الأحكام، و لله الحمد و المنة، ثم قال تعالى: ﴿ومن عاد﴾ أي إلى الربافعله بعد بلوغه نهي الله عنه، فقد استوجب العقوبة، و قامت عليه الحجة، و لهذا قال: ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. و إنما حرمت المخابرة وهي المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض و المزابنة: و هي اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، و المحاقلة و هي اشتراء الحب في الحقل بالحب على وجه الأرض، إنما حرمت هذه الأشياء و ما شاكلها حسماً لمادة الربا، لأنه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف، و لهذا قال الفقهاء: الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة، و من هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا و الوسائل الموصلة إليه، و تفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، و قد قال تعالى: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم، و قد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد، و الكلالة، وأبواب من أبواب الربا - يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا، و الشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله، لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين و الحرام بين، و بين ذلك أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، و من وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه» وفي السنن عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» و في الحديث الآخر: «الإثم ما حاك في القلب و ترددت فيه النفس و كرهت أن يطلع عليه الناس» وفي رواية «استفت قلبك و إن أفتاك الناس وأفتوك» و قال ابن عباس: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ، آية الربا، رواه البخاري. ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات، الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عائشة، قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد

(١) - رواه الدارقطني (٣/ ٥٢).

فقرأهن، فحرم التجارة في الخمر، وقد أخرجه الجماعة، سوى الترمذي. قال بعض من تكلم هذا الحديث من الأئمة: لما حرم الربا و وسائله حرم الخمر و ما يفضي إليه من تجارة و نحو ذلك، كما قالﷺ في الحديث المتفق عليه: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها» و قد تقدم في حديث علي وابن مسعود و غيرهما، عند لعن المحلل في تفسير قوله: **﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾** قولهﷺ «لعن الله آكل الربا وموكله و شاهديه و كاتبه»، قالوا: و ما يشهد عليه و يكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي، و يكون داخله فاسداً، فالاعتبار بمعناه لا بصورته، لأن الأعمال بالنيات، و في الصحيح: «إن الله لاينظر إلى صوركم و لا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم، وأعمالكم» وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية، كتاباً في إبطال التحليل، تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل، و قد كفى في ذلك وشفى، فرحمه الله و رضي عنه.

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) ﴾

٢٧٦- يخبر الله تعالى أنه يمحق الربا، أي يذهبه إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعدمه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة، كما قال تعالى: **﴿قل لا يستوي الخبيث و الطيب و لو أعجبك كثرة الخبيث﴾** وقال تعالى: **﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم﴾** وقال **﴿و ما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله﴾** الآية، و قال ابن جرير: في قوله **﴿يمحق الله الربا﴾** و هذا نظير الذي روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الربا و إن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل، و هذا الحديث قد رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود عن النبيﷺ، قال: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل»، و قد رواه ابن ماجه. و هذا من باب المعاملة بنقيض المقصود. وقوله **﴿ويربي الصدقات﴾** قرئ بضم الياء و التخفيف، من ربا الشيء يربو و أرباه يربيه، أي كثره ونماه ينميه، وقرئ يربي بالضم و التشديد من التربية، روى البخاري عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللهﷺ «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، و لا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه، حتى يكون مثل الجبل»، وقوله **﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾** أي لا يحب كفور القلب أثيم القول و الفعل، و لا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، و لا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل. ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، و أنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال:

٢٧٧- **﴿إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات وأقاموا الصلاة و آتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم و لا هم يحزنون﴾**.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾

٢٧٨- يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه و يبعدهم عن رضاه، فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾** أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون **﴿و ذروا ما بقي من الربا﴾** أي اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع و تحريم الربا و غير ذلك.

٢٧٩- **﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾** و هذا تهديد و وعيد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار، قال ابن عباس: **﴿فأذنوا بحرب﴾** أي استيقنوا بحرب من الله ورسوله، و تقدم أنه قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ **﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله و رسوله﴾** فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه، كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع و إلا ضرب عنقه، و روى ابن أبي حاتم عن الحسن و ابن سيرين، أنهما قالا: والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا، و إنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله، و لو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم، فإن تابوا و إلا وضع فيه السلاح. و قال قتادة: أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون، و جعلهم بهرجاً أين ما أتوا، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا، فإن الله قد أوسع الحلال و أطابه، فلا يلجئنكم إلى معصيته فاقة. رواه ابن أبي حاتم، و قال السهيلي: و لهذا قالت عائشة لأم محبة مولاة زيد بن أرقم في مسئلة العينة: أخبريه أن جهاده مع النبي ﷺ قد بطل إلا أن يتوب، فخصت الجهاد لأنه ضد قوله: **﴿فأذنوا بحرب من الله و رسوله﴾** قال: و هذا المعنى ذكره كثير. ثم قال تعالى: **﴿وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتَظلِمون﴾** أي بأخذ الزيادة **﴿ولاتُظلَمون﴾** أي بوضع رؤوس الأموال أيضاً، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه و لا نقص منه، و روى ابن أبي حاتم عن عمرو بن الأحوص قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فقال «ألا إن كل رباً كان في الجاهلية موضوع عنكم كله، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون و لا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب، موضوع كله».

٢٨٠- و قوله **﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: **﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾** لا كما كان أهل الجاهلية، يقول أحدهم لمدينه إذا حلّ الدين: إما أن تقضي و إما أن تربي، ثم يندب إلى الوضع عنه و يعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال: **﴿و أن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** أي و أن تتركوا رأس المال بالكلية و تضعوه عن المدين، و قد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ بذلك.

فالحديث الأول - عن أبي أمامة أسعد بن زرارة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فلييسر على معسر أو ليضع عنه» رواه الطبراني.

حديث آخر - عن بريدة قال: سمعت النبي ﷺ يقول «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة» قال: ثم سمعته يقول: «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة» قلت: سمعتك يا رسول الله تقول «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة». ثم سمعتك تقول «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة»، قال: «له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدَّين، فإذا حل الدين فأنظره، فله بكل يوم مثلاه صدقة» رواه أحمد.

حديث آخر - عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري أنه كان له دين على رجل، و كان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي، فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خزيرة، فناداه، فقال: يا فلان، اخرج فقد أخبرت أنك ههنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عني؟ فقال إني معسر و ليس عندي شيء، قال: آلله أنك معسر؟ قال: نعم، فبكى أبو قتادة، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من نفس عن غريمه، أومحا عنه، كان في ظل العرش يوم القيامة»، ورواه مسلم في صحيحه.

حديث آخر - روى الإمام أحمد عن حذيفة أن رجلاً أتى به الله عز وجل، فقال: ماذا عملت في الدنيا؟ فقال له الرجل: ما عملت مثقال ذرة من خير، فقال ثلاثاً، و قال في الثالثة: إني كنت أعطيتني فضلاً من المال في الدنيا، فكنت أبايع الناس، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر. فقال تبارك و تعالى: نحن أولى بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي، فغفر له. قال أبو مسعود: هكذا سمعت من النبي ﷺ، وهكذا رواه مسلم.

٢٨١- ثم قال تعالى يعظ عباده، و يذكرهم زوال الدنيا، و فناء ما فيها من الأموال و غيرها، وإتيان الآخرة، والرجوع إليه تعالى، و محاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، و مجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: **﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾**، وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الاية تسع ليال، ثم مات يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، رواه ابن أبي حاتم، وقد رواه النسائي من حديث عبد الله بن عباس قال: آخر شيء نزل من القرآن **﴿و اتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)﴾

٢٨٢- هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، فقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل**

مسمى فاكتبوه﴾ هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون أحفظ لمقدارها و ميقاتها وأضبط للشاهد فيها، و قد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: ﴿ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة و أدنى أن لا ترتابوا﴾، و عن ابن عباس، قال: أشهد السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله و أذن فيه، ثم قرأ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى﴾، رواه البخاري، وثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال قدم النبيﷺ المدينة و هم يسلفون في الثمار السنة والسنتين و الثلاث، فقال رسول اللهﷺ «من أسلف فليسلف في كيل معلوم، و وزن معلوم، إلى أجل معلوم»، و قوله: ﴿فاكتبوه﴾ أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة و الحفظ، فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول اللهﷺ «إنا أمة أمية لا نكتب و لا نحسب» فما الجمع بينه و بين الأمر بالكتابة؟ فالجواب: أن الدَّين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلاً، لأن كتاب الله قد سهل الله و يسر حفظه على الناس، و السنن أيضاً محفوظة عن رسول اللهﷺ، و الذي أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب كما ذهب إليه بعضهم، و قال أبو سعيد و الشعبي و الربيع بن أنس و الحسن و ابن جريج وابن زيد و غيرهم: كان ذلك واجباً، ثم نسخ بقوله: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد اؤتمن أمانته﴾ و الدليل على ذلك أيضاً الحديث الذي حكى عن شرع من قبلنا مقرراً في شرعنا و لم ينكر عدم الكتابة و الإشهاد. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن رسول اللهﷺ، أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداء أشهدهم. قال: كفى بالله شهيداً، قال ائتني بكفيل قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت، فدفعها إلى أجل مسمى فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار و صحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بذلك، و سألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بذلك، و إني قد جهدت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً و إني استودعتكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما كسرها وجد المال و الصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه، فأتاه بألف دينار و قال: و الله مازلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه قال: هل كنت بعثت إليّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بألفك راشداً، وهذا إسناد صحيح و قد رواه البخاري في سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقاً بصيغة الجزم. وقوله: ﴿فليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ أي بالقسط و الحق و لا يَجُرْ في كتابته على أحد، و لا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة و لا نقصان. و قوله ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب﴾ أي و لا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس و لا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث «إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق» وفي الحديث الآخر «من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» و قال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب، و قوله: ﴿وليملل الذي عليه الحق و ليتق الله ربه﴾ أي وليملل

المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين وليتق الله في ذلك ﴿ولا يبخس منه شيئاً﴾ أي لا يكتم منه شيئاً ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً﴾ محجوراً عليه بتبذير و نحوه ﴿أو ضعيفاً﴾ أي صغيراً، أو مجنوناً ﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾ إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه ﴿فليملل وليه بالعدل﴾.

وقوله: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾ و هذا إنما يكون في الأموال، و ما يقصد به المال، و إنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما روى مسلم عن أبي هريرة عن النبيﷺ أنه قال «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جزلة: و ما لنا يارسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن، و تكفرن العشير، مارأيت من ناقصات عقل و دين أغلب لذي لب منكن» قالت: يا رسول الله ما نقصان العقل والدين؟ قال «أما نقصان عقلها، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، و تمكث الليالي لا تصلي و تفطر في رمضان فهذا نقصان الدين». وقوله: ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، و هذا مقيد حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً. وقوله: ﴿أن تضل إحداهما﴾ يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾ أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد، و بهذا قرأ آخرون فتذكر بالتشديد من التذكار، و من قال: إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد. و الصحيح الأول، و الله أعلم. وقوله: ﴿ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ قيل: معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة و الربيع بن أنس، و هذا كقوله: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب﴾ ومن ههنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية، و هو مذهب الجمهور، و المراد بقوله: ﴿و لا يأب الشهداء إذا ما دعوا﴾ للأداء، لحقيقة قوله: ﴿الشهداء﴾، والشاهد حقيقة فيمن تحمل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت و إلا فهو فرض كفاية، و الله أعلم، وقال مجاهد و أبو مجلز وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، و إذا شهدت فدعيت فأجب، و قد ثبت في صحيح مسلم و السنن عن زيد بن خالد، أن رسول اللهﷺ قال «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها» فأما الحديث الآخر في الصحيحين «ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا» و كذا قوله: «ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهاداتهم، و تسبق شهاداتهم أيمانهم» و في رواية «ثم يأتي قوم يشهدون و لا يستشهدون» و هؤلاء شهود الزور، و قد روي عن ابن عباس و الحسن البصري أنها تعم الحالين التحمل، و الأداء. و قوله: ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾ هذا من تمام الإرشاد و هو الأمر بكتابة الحق صغيراً أو كبيراً، فقال: و لا تسأموا أي لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان القلة و الكثرة إلى أجله، وقوله: ﴿ذلكم أقسط عند الله و أقوم للشهادة و أدنى أن لا ترتابوا﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو أقسط عند الله، أي أعدل وأقوم للشهادة، أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً ﴿و أدنى أن لا ترتابوا﴾ و أقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة.

و قوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها﴾ أي إذا كان البيع

بالحاضر يداً بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها. فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿و أشهدوا إذا تبايعتم﴾ يعني أشهدوا على حقكم إذا كان في أجل أولم يكن فيه أجل، فأشهدوا على حقكم على كل حال، قال وروي عن جابر بن زيد و مجاهد و عطاء والضحاك نحو ذلك، و قال الشعبي و الحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾ وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب لا على الوجوب، و الدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري، و قد رواه الإمام أحمد عن عمارة بن خزيمة الأنصاري أن عمه حدثه و هو من أصحاب النبيﷺ أن النبيﷺ، ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبيﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبيﷺ وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، و لا يشعرون أن النبيﷺ ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبيﷺ، فنادى الأعرابي النبيﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلا بعته، فقال النبيﷺ حين سمع نداء الأعرابي، قال: أوليس قد ابتعته منك؟ قال الأعرابي: لا والله ما بعتك، فقال النبيﷺ «بل قد ابتعته منك» فطفق الناس يلوذون بالنبيﷺ، والأعرابي، وهما يتراجعان فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن النبيﷺ لم يكن يقول إلا حقاً حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبيﷺ ومراجعة الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك، قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبيﷺ على خزيمة فقال«بم تشهد»؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله فجعل رسول الله شهادة خزيمة بشهادة رجلين، وهكذا رواه أبو داود والنسائي، و لكن الاحتياط هو الإشهاد لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مردويه والحاكم عن أبي موسى عن النبيﷺ، قال «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، و رجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلاً مالاً فلم يشهد» ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

و قوله تعالى: ﴿و لا يضارّ كاتب و لا شهيد﴾ قيل: معناه لا يضارّ الكاتب و لا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملى، و يشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلية، و هو قول الحسن وقتادة و غيرهما. و قيل: معناه لا يضرّ بهما. قال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة و مجاهد وطاوس و سعيد بن جبير و الضحاك و عطية ومقاتل ابن حيان و الربيع بن أنس و السدي نحو ذلك، و قوله: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ أي إن خالفتم ما أمرتم به أو فعلتم ما نهيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم لا تحيدون عنه، وقوله ﴿واتقوا الله﴾ أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره ﴿ويعلمكم الله﴾ كقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ وكقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و آمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته و يجعل لكم نوراً تمشون به﴾ وقوله: ﴿و الله بكل شيء عليم﴾ أي هو عالم بحقائق الأمور و مصالحها و عواقبها فلا يخفى عليه شيء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات.

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾

٢٨٣- يقول تعالى : ﴿وإن كنتم على سفر﴾ أي مسافرين و تداينتم إلى أجل مسمى ﴿و لم تجدوا كاتباً﴾ يكتب لكم، قال ابن عباس : أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة أو قلماً ، فرهان مقبوضة ، أي فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة أي في يد صاحب الحق ، و قد استدل بقوله : ﴿فرهان مقبوضة﴾ على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض كما هو مذهب الشافعي و الجمهور ، واستدل بها آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن ، و هو رواية عن الإمام أحمد ، و ذهب إليه طائفة ، و استدل آخرون من السلف بهذه الآية ، على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر ، قاله مجاهد و غيره ، و قد ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ توفي و درعه مرهون عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير رهناً قوتاً لأهله ، و تقرير هذه المسائل في كتاب الأحكام الكبير ، و لله الحمد و المنة ، و به المستعان . و قوله ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾ روى ابن أبي حاتم بإسناد جيد عن أبي سعيد الخدري أنه قال : هذه نسخت ما قبلها . و قال الشعبي : إذا ائتمن بعضكم بعضاً فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا . و قوله : ﴿وليتق الله﴾ يعني المؤتمن . قوله : ﴿و لا تكتموا الشهادة﴾ أي لا تخفوها و تغلوها ، ولا تظهروها . قال ابن عباس و غيره : شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك ، و لهذا قال ﴿و من يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ قال السدي : يعني فاجر قلبه ، وهذه كقوله تعالى : ﴿و لا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين﴾ وقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين و الأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ و هكذا قال ههنا ﴿و لا تكتموا الشهادة و من يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾ .

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾

٢٨٤- يخبر تعالى أن له ملك السموات و الأرض و ما فيهن و ما بينهن ، و أنه المطلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر و لا السرائر و الضمائر وإن دقت و خفيت ، و أخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه و ما أخفوه في صدورهم ، كما قال تعالى : ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله و يعلم ما في السموات وما في الأرض و الله على كل شيء قدير﴾ وقال ﴿يعلم السر وأخفى﴾ و الآيات في ذلك كثيرة جداً ، و قد أخبر في هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك ، و لهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم ، و خافوا منها ، و من محاسبة الله لهم على جليل الأعمال و حقيرها ، و هذا من شدة إيمانهم و إيقانهم . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿لله ما في السموات و ما في الأرض و إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء و الله على كل شيء قدير﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب و قالوا : يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق ، الصلاة و الصيام والجهاد و الصدقة و قد أنزلت عليك هذه الآية ، ولا نطيقها . فقال رسول الله ﷺ «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا؟ بل قولوا : سمعنا و أطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما أقر بها القوم و ذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله في أثرها ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه

من ربه و المؤمنون كل آمن بالله و ملئكته وكتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله و قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله : ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت و عليها ما اكتسبت ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ إلى آخره. ورواه مسلم منفرداً به مثله و لفظه: فلما فعلوا ذلك نسخها الله ، فأنزل الله ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت و عليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: نعم، ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ قال: نعم ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ قال: نعم ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال: نعم.

(طريق أخرى) روى ابن جرير عن سالم أن أباه قرأ ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ فدمعت عيناه ، فبلغ صنيعه ابن عباس فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن لقد صنع كما صنع رسول الله ﷺ حين أنزلت ، فنسختها الآية التي بعدها ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس ، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس رواه البخاري عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أحسبه ابن عمر ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ قال :نسختها الآية التي بعدها ، و هكذا روي عن علي و ابن مسعود وكعب الأحبار و الشعبي و النخعي و محمد بن كعب القرظي و عكرمة و سعيد بن جبير و قتادة ، أنها منسوخة بالتي بعدها ، و قد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل» . و في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «قال الله : إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة ، و إذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشراً» لفظ مسلم ، زاد في رواية «ولا يهلك على الله إلا هالك» ، و في حديث أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال «وقد وجدتموه» ؟ قالوا: نعم ، قال: «ذاك صريح الإيمان» . و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ فإنها لم تنسخ ، و لكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول: إني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم بما لم يطلع عليه ملائكتي ، فأما المؤمنون فيخبرهم و يغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم ، وهو قوله ﴿يحاسبكم به الله﴾ يقولون: يخبركم ، وأما أهل الشك و الريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب ، وهو قوله ﴿فيغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء﴾ وهو قوله ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ أي من الشك و النفاق . وروى ابن جرير عن مجاهد و الضحاك نحوه ، و عن الحسن البصري أنه قال: هي محكمة لم تنسخ ، واختار ابن جرير ذلك واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة ، و أنه تعالى قد يحاسب و يغفر ، و قد يحاسب و يعاقب ، بالحديث الذي رواه عند هذه الآية قائلاً عن صفوان بن محرز قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف ، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر ، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنبه فيقول له : هل تعرف كذا؟ فيقول : رب أعرف ، مرتين ، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ ، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم ، قال: فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله

على الظالمين﴾ وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما.

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)﴾

٢٨٥- (ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما)

(الحديث الأول) - روى البخاري عن ابن مسعود و أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ بالآيتين - من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» وقد أخرجه بقية الجماعة.

(الحديث الثاني) - روى الإمام أحمد عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي» قد رواه ابن مردويه.

(الحديث الثالث) - روى مسلم عن عبد الله، قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها، و إليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها، قال **﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾** قال: فراش من ذهب، قال: أعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، و أعطي خواتيم سورة البقرة، و غفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات.

(الحديث الرابع) - روى أبو عيسى الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات و الأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرأ بهن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان» وهكذا رواه الحاكم و قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(الحديث الخامس) - قد تقدم في فضائل الفاتحة عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ و عنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال له: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب و خواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته، رواه مسلم و النسائي و هذا لفظه.

فقوله تعالى: **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه﴾** إخباراً عن النبي ﷺ بذلك، وقوله **﴿و المؤمنون﴾** عطف على الرسول، ثم أخبر عن الجميع فقال **﴿كل آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾** فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. و يصدقون بجميع الأنبياء والرسل و الكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين و الأنبياء، لايفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذين تقوم الساعة على

شريعته، و لا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين، و قوله ﴿وقالوا سمعنا و أطعنا﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه، و قمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه، ﴿غفرانك ربنا﴾ سؤال للمغفرة و الرحمة واللطف. و قوله ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ أي لا يكلف أحداً فوق طاقته، و هذا من لطفه تعالى بخلقه و رأفته بهم و إحسانه إليهم، و هذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ أي هو وإن حاسب و سأل، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس و حديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، و كراهية الوسوسة السيئة من الإيمان، وقوله ﴿لها ما كسبت﴾ أي من خير ﴿وعليها ما اكتسبت﴾ أي من شر و ذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف. ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله، و قد تكفل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أي إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي. و قد تقدم في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، قال «قال الله: نعم» و لحديث ابن عباس، قال الله «قد فعلت». و روى ابن ماجه في سننه و ابن حبان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ و النسيان و ما استكرهوا عليه». و قوله ﴿ربنا و لا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة و إن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال و الآصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ، نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح، و قد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال «قال الله: نعم»، و عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، قال «قال الله قد فعلت». وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة». وقوله ﴿ربنا و لا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ أي من التكليف والمصائب و البلاء لا تبتلنا بما لا قبل لنا به، و قد قال مكحول في قوله ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ قال: العزبة و الغلمة، رواه ابن أبي حاتم، قال الله: نعم، وفي الحديث الآخر: قال الله: قد فعلت. و قوله ﴿واعف عنا﴾ أي فيما بيننا و بينك مما تعلمه من تقصيرنا و زللنا ﴿واغفر لنا﴾ أي فيما بيننا و بين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا و أعمالنا القبيحة ﴿وارحمنا﴾ أي فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه و بينه، و أن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره. و قد تقدم في الحديث أن الله قال: نعم، و في الحديث الآخر: قال الله: قد فعلت. و قوله ﴿أنت مولانا﴾ أي أنت ولينا و ناصرنا، وعليك توكلنا، و أنت المستعان، و عليك التكلان، ولا حول لنا و لا قوة إلا بك، ﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك، و عبدوا غيرك وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا و الآخرة، قال الله: نعم. و في الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس، قال الله: قد فعلت.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة البقرة.

سورة آل عمران

ترتيبها ٣ — آياتها ٢٠٠

هي مدنية ، لأن صدرها إلى ثلاث و ثمانين آية منها نزل في وفد نجران و كان قدومهم في سنة تسع من الهجرة ، كما سيأتي بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها ، إن شاء الله تعالى ، وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة أول البقرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ ﴾

١ ، ٢- قد ذكرنا الحديث الوارد في اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ و ﴿ألم الله لا إلا هو الحي القيوم﴾ عند تفسير آية الكرسي و قد تقدم الكلام على قوله ﴿ألم﴾ في أول سورة البقرة بما يغني عن إعادته ، وتقدم الكلام على قوله : ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ في تفسير آية الكرسي .

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۝٣ ﴾

٣- وقوله تعالى : ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق ، أي شهيداً ، وقوله : ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء ، فهي تصدقه بما أخبرت به ، وبشرت في قديم الزمان ، و هو يصدقها ، لأنه طابق ما أخبرت به ، وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه . و قوله : ﴿وأنزل التوراة﴾ أي على موسى بن عمران ، ﴿والإنجيل﴾ أي على عيسى ابن مريم عليهما السلام .

﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝٤ ﴾

٤- ﴿من قبل﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿هدى للناس﴾ أي في زمانهما . ﴿وأنزل الفرقان﴾ وهو الفارق بين الهدى و الضلال ، و الحق و الباطل ، والغي و الرشاد ، بما يذكره الله تعالى من الحجج و البينات و الدلائل الواضحات ، و البراهين القاطعات ، و يبينه و يوضحه و يفسره و يقرره ويرشد إليه و ينبه عليه من ذلك . و قال قتادة والربيع بن أنس ﴿الفرقان﴾ ههنا القرآن . و اختار ابن جرير أنه مصدر ههنا لتقدم ذكر القرآن في قوله : ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ وهو القرآن . وقوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل ، ﴿لهم عذاب شديد﴾ أي يوم القيامة ، ﴿والله عزيز﴾ أي منيع الجناب عظيم السلطان ، ﴿ذو انتقام﴾ أي ممن كذب بآياته و خالف رسله الكرام و أنبياءه العظام .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ۝٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦ ﴾

٥، ٦- يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء و الأرض، لايخفى عليه شيء من ذلك، ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر و أنثى، وحسن و قبيح، وشقي وسعيد، ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ أي هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، و له العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام. وهذه الآية فيها تعريض، بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر، لأن الله صوّره في الرحم و خلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى، عليهم لعائن الله، و قد تقلب في الأحشاء و تنقل من حال إلى حال؟ كما قال تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)﴾

٧- يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات، هن أم الكتاب، أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، و منه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكّم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى و من عكس انعكس ولهذا قال تعالى ﴿هن أم الكتاب﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿و أخر متشابهات﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ و التركيب لا من حيث المراد. وقد اختلفوا في المحكم و المتشابه فروي عن السلف عبارات كثيرة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: المحكمات ناسخة وحلاله وحرامه و أحكامه وحدوده و فرائضه وما يؤمر به ويعمل به، وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: المحكمات قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾ والآيات بعدها. وقوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى ثلاث آيات بعدها ورواه ابن أبي حاتم وحكاه عن سعيد بن جبير به. وقيل في المتشابهات: المنسوخة و المقدم والمؤخر والأمثال فيه و الأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقيل هي الحروف المقطعة في أوائل السور قاله مقاتل بن حيان، و عن مجاهد: المتشابهات يصدق بعضها بعضاً وهذا إنما هو في تفسير قوله ﴿كتاباً متشابهاً مثاني﴾ هناك ذكروا أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار و ذكر حال الأبرار وحال الفجار ونحو ذلك. وأما ههنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم، قال: ﴿منه آيات محكمات﴾ فهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم الباطل ليس لهن تصريف عما وضعن عليه، قال: و المتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف و تحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ويحرفن عن الحق. و لهذا قال تعالى ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ أي وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ أي إنما

يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة و ينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه لأنه دافع لهم وحجة عليهم ، و لهذا قال الله تعالى: ﴿**ابتغاء الفتنة**﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله و كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه و تركوا الاحتجاج بقوله ﴿**إن هو إلا عبد أنعمنا عليه**﴾ وبقوله ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾ وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله و عبد و رسول من رسل الله.

وقوله تعالى ﴿**وابتغاء تأويله**﴾ أي تحريفه على ما يريدون ، و قال مقاتل بن حيان والسدي: يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن ، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قرأ رسول اللهﷺ ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب و أخر متشابهات**﴾ إلى قوله ﴿**أولوا الألباب**﴾ فقال: «فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم» ، وقد روى هذا الحديث البخاري و مسلم.

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة يحدث النبيﷺ في قوله تعالى: ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه**﴾ قال «هم الخوارج». وفي قوله تعالى: ﴿**يوم تبيض وجوه و تسود وجوه**﴾ قال «هم الخوارج» وقد رواه ابن مردويه ، وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي ، ومعناه صحيح ، فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج ، و كان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبيﷺ غنائم حنين ، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ، ففاجؤوه بهذه المقالة ، فقال قائلهم وهو ذو الخويصرة ـ بقر الله خاصرته ـ: اعدل فإنك لم تعدل ، فقال له رسول اللهﷺ «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ، أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني» ، فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب ـ وفي رواية خالد بن الوليد ـ رسول الله في قتله ، فقال «دعه فإنه يخرج من ضئضىء هذا ـ أي من جنسه ـ قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم» ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب رضي الله عنه و قتلهم بالنهروان ، ثم تشعبت منهم شعوب ، وقبائل و آراء ، و أهواء ، و مقالات ، ونحل كثيرة منتشرة ، ثم نبغت القدرية ، ثم المعتزلة ، ثم الجهمية ، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوقﷺ في قوله «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «من كان على ما أنا عليه و أصحابي» أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة. وقوله تعالى ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله**﴾ اختلف القراء في الوقف ههنا ، فقيل: على الجلالة ، كما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، و تفسير يعلمه الراسخون في العلم ، و تفسير لا يعلمه إلا الله ، ويروى هذا القول عن عائشة و عروة وأبي الشعثاء و أبي نهيك و غيرهم . وروى عبد الرزاق عن ابن عباس أنه كان يقرأ: (وما يعلم تأويله إلا الله ، ويقول الراسخون آمنا به) وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز و مالك ابن أنس أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله ، وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود: (إن تأويله إلا عند الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به) وكذا عن أبي بن كعب ، واختار ابن جرير هذا

القول. ومنهم من يقف على قوله: ﴿و الراسخون في العلم﴾، وتبعهم كثير من المفسرين و أهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد، و قد روي عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله، وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله و يقولون آمنا به، و كذا قال الربيع بن أنس، و قال محمد ابن جعفر بن الزبير: ﴿وما يعلم تأويله﴾ الذي أراد ما أراد ﴿إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾، ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فاتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضاً، فنفذت الحجة، و ظهر به العذر، و زاح به الباطل، و دفع به الكفر، و في الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس، فقال «اللهم فقهه في الدين و علمه التأويل»

ومن العلماء من فصل في هذا المقام وقال: التأويل يطلق، ويراد به في القرآن معنيان: أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء و ما يؤول أمره إليه، و منه قوله تعالى: ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ وقوله ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عز وجل، ويكون قوله ﴿والراسخون في العلم﴾ مبتدأ و﴿يقولون آمنا به﴾ خبره، و أما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر، وهو التفسير و البيان و التعبير عن الشيء كقوله ﴿نبئنا بتأويله﴾ أي بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على ﴿والراسخون في العلم﴾ لأنهم يعلمون و يفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ماهي عليه، وعلى هذا يكون قوله: ﴿يقولون آمنا به﴾ حالاً منهم، و ساغ هذا، و أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم و أموالهم - إلى قوله - يقولون ربنا اغفرلنا و لإخواننا﴾ الآية، و قوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ أي وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً. وقوله إخباراً عنهم ﴿يقولون آمنا به﴾، أي المتشابه، ﴿كل من عند ربنا﴾ أي الجميع من المحكم، و المتشابه حق وصدق، و كل واحد منهما يصدق الآخر و يشهد له، لأن الجميع من عند الله و ليس شيء من عند الله بمختلف و لا متضاد، لقوله: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ أي إنما يفهم ويعقل و يتدبر المعاني على وجهها أولوا العقول السليمة و الفهوم المستقيمة.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمرو قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارؤون، فقال «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما أنزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا به، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه».

وقد روى أبو يعلى الموصلي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «نزل القرآن على سبعة أحرف، و المراء في القرآن كفر - قالها ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه جل جلاله» وهذا إسناد صحيح، وروى ابن المنذر في تفسيره عن نافع بن يزيد قال: يقال: الراسخون في العلم المتواضعون لله، المتذللون لله، في مرضاته، لا يتعاظمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم.

٨- ثم قال تعالى مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾، أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه و لا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، و لكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم، ﴿وهب لنا من لدنك﴾ أي من عندك ﴿رحمة﴾ تثبت بها قلوبنا وتجمع بها شملنا،

وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً، ﴿إنك أنت الوهاب﴾. وروى ابن مردويه عن أسماء بنت يزيد بن السكن: إن رسول الله ﷺ كان يكثر من دعائه «اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» قالت قلت: يا رسول الله، و إن القلب ليتقلب؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا قلبه بين إصبعين من أصابع الله عزوجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه» فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب. وهكذا رواه ابن جرير، ولكن أصله ثابت في الصحيحين و غيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة، وروى عبد الرزاق عن أبي عبد الله الصنابحي أنه صلى وراء أبي بكر الصديق رضي الله عنه المغرب، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن و سورتين من قصار المفصل، وقرأ في الركعة الثالثة، قال: فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ الآية. قال أبو عبيد: وأخبرني عبادة بن نسي أنه كان عند عمر بن عبد العزيز في خلافته، فقال عمر لقيس: كيف أخبرتني عن أبي عبد الله؟ قال عمر: فما تركناها منذ سمعناها منه وإن كنت قبل ذلك لعلى غير ذلك، فقال له رجل: على أي شيء كان أمير المؤمنين قبل ذلك، قال: كنت أقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾، وقوله ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه﴾ أي يقولون في دعائهم: إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزي كلاً بعمله و ما كان عليه في الدنيا من خير وشر.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

١٠- يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم و لهم اللعنة و لهم سوء الدار﴾ وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال و الأولاد بنافع لهم عند الله، و لا بمنجيهم من عذابه و أليم عقابه، كما قال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم و لا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا و تزهق أنفسهم و هم كافرون﴾ و قال تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، متاع قليل ثم مأواهم جهنم و بئس المهاد﴾، و قال ههنا ﴿إن الذين كفروا﴾ أي بآيات الله، و كذبوا رسله، و خالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ﴿لن تغني عنهم أموالهم و لا أولادهم من الله شيئاً و أولئك هم وقود النار﴾ أي حطبها الذي تسجر به، و توقد به، كقوله: ﴿إنكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ الآية.

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

١١- ﴿كدأب آل فرعون﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: كصنيع آل فرعون، و كذا روي عن عكرمة و مجاهد و أبي مالك و الضحاك و غير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، و كفعل آل فرعون، و كشبه آل فرعون، و الألفاظ متقاربة، و الدأب بالتسكين و التحريك كنهر و نهر، هو الصنيع و الحال و الشأن و الأمر والعادة، كما يقال لا يزال هذا دأبي و دأبك، و المعنى في الآية أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال و لا الأولاد، بل يهلكون و يعذبون كما جرى لآل فرعون و من قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاؤوا به من آيات الله وحججه، ﴿و الله شديد العقاب﴾ أي شديد الأخذ أليم العذاب لا يمتنع منه أحد و لا يفوته شيء، بل هو الفعال لما يريد الذي قد غلب كل شيء و ذلّ له كل شيء، لا إله غيره و لا رب سواه.

﴿ قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾

١٢- يقول تعالى: قل يامحمد للكافرين **﴿ستغلبون﴾** أي في الدنيا، **﴿و تحشرون﴾** أي يوم القيامة **﴿إلى جهنم و بئس المهاد﴾** و قد ذكر محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة، أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، و رجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، و قال «يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب الله قريشاً». فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك و الله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، و أنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله في ذلك قوله **﴿قل للذين كفروا ستغلبون و تحشرون إلى جهنم و بئس المهاد - إلى قوله - لعبرة لأولي الأبصار﴾**.

١٣- و لهذا قال تعالى: **﴿قد كان لكم آية﴾** أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم **﴿آية﴾** أي دلالة على أن الله معز دينه، و ناصر رسوله، و مظهر كلمته، و معل أمره **﴿في فئتين﴾** أي طائفتين **﴿التقتا﴾** أي للقتال **﴿فئة تقاتل في سبيل الله و أخرى كافرة﴾** وهم مشركو قريش يوم بدر، و قوله: **﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾** قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم، و هذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، و هي أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحزر لهم المسلمين، فأخبرهم بأنهم ثلثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون، وهكذا كان الأمر. كانوا ثلثمائة و بضعة عشر رجلاً، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم.

و القول الثاني: أن المعنى في قوله تعالى: **﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾** أي ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم، أي ضعفيهم في العدد، و مع هذا نصرهم الله عليهم، و كأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ و السير و أيام الناس، و خلاف المعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى ألف، لكن وجه ابن جرير هذا و جعله صحيحاً كما تقول: عندي ألف، و أنا محتاج إلى مثليها، و تكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف، كذا قال، و على هذا فلا إشكال، لكن بقي سؤال آخر و هو وارد على القولين، و هو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية و بين قوله تعالى في قصة بدر **﴿و إذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً و يقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾** فالجواب أن هذا كان في حالة و الآخر كان في حالة أخرى، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: **﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا﴾** الآية، قال: هذا يوم بدر، و قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً، وذلك قوله تعالى: **﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً و يقللكم في أعينهم﴾** الآية. فعندما عاين كل من الفريقين الآخر، رأى المسلمون المشركين مثليهم، أي أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا و يتوجهوا و يطلبوا الإعانة من ربهم عز وجل، و رأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب و الخوف و الجزع و الهلع، ثم لما حصل التصاف و التقى الفريقان، قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، و هؤلاء في أعين هؤلاء، ليقدم كل منهما

على الآخر ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي ليفرق بين الحق و الباطل، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان، و يعز المؤمنين و يذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿و لقد نصركم الله ببدر و أنتم أذلة﴾ و قال ههنا ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة و فهم يهتدي به إلى حكمة الله و أفعاله و قدره الجاري بنصره عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنياو يوم يقوم الأشهاد.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) ﴾

١٤- يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء و البنين، فبدأ بالنساء، لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال «ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء» فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف و كثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج و الاستكثار منه، و أن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء، و قوله ﷺ «الدنيا متاع، و خير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليهاسرته، و إن أمرها أطاعته و إن غاب عنها حفظته في نفسها و ماله» و قوله في الحديث الآخر «حبب إليّ النساء و الطيب، و جعلت قرة عيني في الصلاة». و حب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة، فهو داخل في هذا، و تارة يكون لتكثير النسل و تكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح كما ثبت في الحديث «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» و حب المال كذلك تارة يكون للفخر و الخيلاء و التكبر على الضعفاء و التجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات و صلة الأرحام و القرابات و وجوه البر و الطاعات، فهذا ممدوح محمود شرعاً و قد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، و حاصلها أنه المال الجزيل كما قاله الضحاك و غيره، وقيل: ألف دينار، و قيل: ألف و مائتا دينار، و قيل: اثنا عشر ألفاً، و قيل: أربعون ألفاً، و قيل: ستون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً، و قيل: ثمانون ألفاً، و قيل غير ذلك، و روى ابن جرير عن معاذ بن جبل و ابن عمر، وحكاه ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة و أبي الدرداء أنهم قالوا: القنطار ألف و مائتا أوقية، و روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال: القنطار ملء مسك الثور ذهباً.

و **حب الخيل على ثلاثة أقسام**: تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون، و تارة تربط فخراً و نواء لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزر، و تارة للتعفف و اقتناء نسلها، و لم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر، كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل﴾ الآية، و أما المسومة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: المسومة الراعية، و المطهمة الحسان، و كذا روي عن مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير و عبد الرحمن ابن عبد الله بن أبزى و السدي و الربيع بن أنس و أبي سنان و غيرهم، و قال مكحول: المسومة الغرة والتحجيل وقيل: غير ذلك، و قد روى الإمام أحمد عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «ليس من فرس

عربي إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول: اللهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم، فا جعلني من أحب ماله و أهله إليه، أو أحب أهله و ماله إليه» و قوله تعالى ﴿و الأنعام﴾ يعني الإبل و البقر و الغنم، ﴿والحرث﴾ يعني الأرض المتخذة للغراس و الزراعة، ثم قال تعالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿و الله عنده حسن المآب﴾ أي حسن المرجع و الثواب.

١٥- و لهذا قال تعالى: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذلكم﴾ أي قل يا محمد للناس: أؤخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها و نعيمها الذي هو زائل لا محالة، ثم أخبر عن ذلك فقال: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تنخرق بين جوانبها و أرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن و الخمر و الماء و غير ذلك مما لا عين رأت و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولاً، ﴿و أزواج مطهرة﴾ أي من الدنس و الخبث و الأذى و الحيض والنفاس و غير ذلك مما يعتري نساء الدنيا ﴿و رضوان من الله﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً، و لهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة ﴿و رضوان من الله أكبر﴾ أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم، ثم قال تعالى: ﴿و الله بصير بالعباد﴾ أي يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء.

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) ﴾

١٦- يصف تبارك و تعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل، فقال تعالى: ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمنا﴾ أي بك و بكتابك و برسولك، ﴿فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي بإيماننا بك و بماشرعته لنا، فاغفرلنا ذنوبنا و تقصيرنا من أمرنا بفضلك و رحمتك، ﴿و قنا عذاب النار﴾.

﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧) ﴾

١٧- ﴿الصابرين﴾ أي في قيامهم بالطاعات و تركهم المحرمات، ﴿و الصادقين﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة، ﴿و القانتين﴾ و القنوت الطاعة و الخضوع ﴿و المنفقين﴾ أي من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، و صلة الأرحام و القرابات، و سد الخلات، و مواساةذوي الحاجات ﴿و المستغفرين بالأسحار﴾ دلّ على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، و قد قيل: إن يعقوب ﷺ، لما قال لبنيه ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ إنه أخرهم إلى وقت السحر و ثبت في الصحيحين و غيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة، إن رسول الله ﷺ، قال «ينزل الله تبارك و تعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له؟» الحديث، و قد أفرد الحافظ أبو الحسن الدار قطني في ذلك جزءً على حدة، فرواه من طرق متعددة، و في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «مِنْ كلّ الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه و آخره، فانتهى وتره إلى السَّحَر»، و كان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يانافع، هل جاء السحر ؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء و الاستغفار حتى يصبح، رواه ابن أبي حاتم.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ

﴿الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

١٨- شهد تعالى و كفى به شهيداً و هو أصدق الشاهدين و أعدلهم، و أصدق القائلين ﴿أنه لا إله إلا هو﴾ أي المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، و أن الجميع عبيده و خلقه و فقراء إليه، و هو الغني عما سواه، كما قال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ الآية، ثم قرن شهادة ملائكته و أولي العلم بشهادته، فقال ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم﴾ و هذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿قائماً بالقسط﴾ منصوب على الحال و هو في جميع الأحوال كذلك ﴿لا إله إلا هو﴾ تأكيد لما سبق، ﴿العزيز الحكيم﴾ العزيز الذي لا يرام جنابه عظمة و كبرياء، الحكيم في أقواله و أفعاله و شرعه و قدره.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

١٩- ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، و هو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سَدَّ جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل، كما قال تعالى: ﴿و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ الآية، و قال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾، ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول، إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل إليهم و إنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿و ما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ أي بغى بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق لتحاسدهم و تباغضهم و تدابرهم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله و أفعاله و إن كانت حقاً، ثم قال تعالى: ﴿و من يكفر بآيات الله﴾ أي من جحد ما أنزل الله في كتابه ﴿فإن الله سريع الحساب﴾ أي فإن الله سيجازيه على ذلك و يحاسبه على تكذيبه، و يعاقبه على مخالفته كتابه.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

٢٠- ﴿فإن حاجوك﴾ أي جادلوك في التوحيد ﴿فقل أسلمت وجهي لله و من اتبعن﴾ أي فقل: أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له و لا ند له، و لا ولد له، و لا صاحبة له، ﴿و من اتبعن﴾ أي على ديني يقول كمقالتي، كما قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا و من اتبعني﴾ الآية، ثم قال تعالى آمراً لعبده و رسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته و دينه و الدخول في شرعه و ما بعثه الله به، الكتابيين من الملتين و الأميين من المشركين، فقال تعالى: ﴿فقل للذين أوتوا الكتاب و الأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا و إن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ أي و الله عليه حسابهم و إليه مرجعهم و مآبهم، و هو الذي يهدي من يشاء و يضل من يشاء و له الحكمة البالغة، و الحجة الدامغة و لهذا قال تعالى: ﴿و الله بصير بالعباد﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، و هو الذي ﴿لا يسأل عما يفعل و هم يسألون﴾ و ما ذلك إلا لحكمته

ورحمته ، و هذه الآية و أمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله و سلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، و كما دل عليه الكتاب و السنة في غير ما آية و حديث ، فمن ذلك قوله تعالى : **﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾** و قال تعالى : **﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾** وفي الصحيحين و غيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق و طوائف بني آدم من عربهم و عجمهم كتابيهم و أميهم امتثالاً لأمر الله له بذلك ، و قد روى عبد الرزاق عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي و لا نصراني و مات و لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار» رواه مسلم وقال ﷺ «بعثت إلى الأحمر والأسود» ، و قال «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة و بعثت إلى الناس عامة» .

و روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه : أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ، و يناوله نعليه ، فمرض ، فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه و أبوه قاعد عند رأسه فقال النبي ﷺ «يافلان قل لا إله إلا الله» فنظر إلى أبيه فسكت أبوه ، فأعاد عليه النبي ﷺ ، فنظر إلى أبيه ، فقال أبوه : أطع أبا القاسم ، فقال الغلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فخرج النبي ﷺ و هو يقول «الحمد لله الذي أخرجه بي من النار» رواه البخاري في الصحيح ، إلى غير ذلك من الآيات و الأحاديث .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) ﴾

٢١- هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم و المحارم في تكذيبهم بآيات الله ، قديماً و حديثاً ، التي بلغتهم إياها الرسل استكباراً عليهم ، و عناداً لهم ، و تعاظماً على الحق ، و استنكافاً عن اتباعه ، و مع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب و لا جريمة منهم إليهم ، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق **﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾** و هذا هو غاية الكبر ، كما قال النبي ﷺ «الكبر بطر الحق وغمط الناس» ، و لهذا لما أن تكبروا عن الحق و استكبروا على الخلق ، قابلهم الله على ذلك بالذلة و الصغار في الدنيا ، و العذاب المهين في الآخرة فقال تعالى : **﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾** أي موجع مهين .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) ﴾

٢٢ ، ٢٣- يقول تعالى منكراً على اليهود و النصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم ، و هما التوراة و الإنجيل ، و إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ ، تولوا وهم معرضون عنهما ، و هذا في غاية ما يكون من ذمهم و التنويه بذكرهم بالمخالفة و العناد .

٢٤- ثم قال تعالى : **﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾** أي إنما حملهم و جرأهم على مخالفة

الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً و قد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة. ثم قال تعالى: ﴿و غرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ أي ثبتهم على دينهم الباطل، ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات، و هم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم و اختلقوه و لم ينزل الله به سلطاناً.

٢٥- قال الله تعالى متهددا لهم و متوعداً ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أي كيف يكون حالهم و قد افتروا على الله، و كذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه، و العلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف، و الناهين عن المنكر، و الله تعالى سائلهم عن ذلك كله و محاسبهم عليه و مجازيهم به، و لهذا قال تعالى: ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أي لا شك في وقوعه و كونه، ﴿و وفيت كل نفس ما كسبت و هم لا يظلمون﴾.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

٢٦- يقول تبارك و تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد معظماً لربك و شاكراً له و متوكلا عليه ﴿اللهم مالك الملك﴾ أي لك الملك كله ﴿تؤتي الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء و تعز من تشاء و تذل من تشاء﴾ أي أنت المعطي، وأنت المانع، و أنت الذي ما شئت كان، و ما لم تشأ لم يكن، و في هذه الآية تنبيه و إرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ و هذه الأمة، لأن الله تعالى حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي، خاتم الأنبياء على الإطلاق، و رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس و الجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، و خصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء، و لا رسولاً من الرسل في العلم بالله وشريعته، و اطلاعه على الغيوب الماضية و الآتية، و كشفه له عن حقائق الآخرة، و نشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، و إظهار دينه و شرعه على سائر الأديان و الشرائع، فصلوات الله و سلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل و النهار. و لهذا قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ الآية، أي أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تعالى على من يحكم عليه في أمره حيث قال ﴿و قالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾، قال الله رداً عليهم حيث ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ الآية، أي نحن نتصرف فيما خلقنا كما نريد بلا ممانع و لا مدافع، و لنا الحكمة البالغة، و الحجة التامة في ذلك، و هكذا يعطي النبوة لمن يريد، كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ و قال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ الآية.

٢٧- و قوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار و تولج النهار في الليل﴾ أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا، فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان، و هكذا في فصول السنة ربيعاً و صيفاً وخريفاً وشتاء، و قوله تعالى: ﴿و تخرج الحي من الميت و تخرج الميت من الحي﴾ أي تخرج الزرع من الحب، و الحب من الزرع، و النخلة من النواة، و النواة من النخلة، و المؤمن من الكافر، و الكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة، و البيضة من الدجاجة، و ما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿و ترزق من تشاء بغير

حساب﴾ أي تعطي من شئت من المال ما لا يعد و لا يقدر على إحصائه، و تقتر على آخرين لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة و المشيئة و العدل.

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) ﴾

٢٨- نهى تبارك و تعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، و أن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك، فقال تعالى: **﴿و من يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾** أي و من يرتكب نهي الله في هذا، فقد برئ من الله، كما قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي و عدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة - إلى أن قال - و من يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾**، و قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾** و قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود و النصارى أولياء بعضهم أولياء بعض و من يتولهم منكم فإنه منهم﴾** الآية، و قال تعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين من المهاجرين و الأنصار و الأعراب **﴿و الذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض و فساد كبير﴾**، و قوله تعالى: **﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾** أي إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه و نيته، كما قال البخاري عن أبي الدرداء: أنه قال: «إنا لنكشر في وجوه أقوام و قلوبنا تلعنهم». و قال ابن عباس: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان، وكذا قال أبو العالية و أبو الشعثاء و الضحاك و الربيع بن أنس. و يؤيد ما قالوه قول الله تعالى: **﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان﴾** الآية. و قال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى: **﴿و يحذركم الله نفسه﴾** أي يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته و عذابه، لمن والى أعداءه وعادى أولياءه. ثم قال تعالى: **﴿و إلى الله المصير﴾** أي إليه المرجع و المنقلب ليجازي كل عامل بعمله.

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾

٢٩- يخبر تبارك و تعالى عباده أنه يعلم السرائر و الضمائر و الظواهر، و أنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال و الأزمان و الأيام و اللحظات و جميع الأوقات، و جميع ما في الأرض والسموات لا يغيب عنه مثقال ذرة، و لا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض و البحار و الجبال، **﴿و الله على كل شيء قدير﴾** أي و قدرته نافذة في جميع ذلك، و هذا تنبيه منه لعباده على خوفه و خشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه و ما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، و هو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، و إن أنظر من أنظر منهم، فإنه يهمل، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر.

٣٠- و لهذا قال بعد هذا **﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾** الآية، يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير و من شر، كما قال تعالى **﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم و أخر﴾** فما رأى من أعماله حسناً

سره ذلك و أفرحه، و ما رأى من قبيح ساءه و غاظه و ود لو أنه تبرأ منه، و أن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشيطانه الذي كان مقروناً به في الدنيا، و هو الذي جرأه على فعل السوء ﴿يا ليت بيني و بينك بُعد المشرقين فبئس القرين﴾، ثم قال تعالى مؤكداً و مهدداً و متوعداً ﴿و يحذركم الله نفسه﴾ أي يخوفكم عقابه، ثم قال جل جلاله مرجيا لعباده لئلا ييئسوا من رحمته و يقنطوا من لطفه ﴿و الله رؤوف بالعباد﴾ قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه، و قال غيره: أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم، و دينه القويم وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾

٣١- هذه الآية الكريمة حاكمة علي كل من ادعى محبة الله، و ليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، و الدين النبوي في جميع أقواله و أفعاله و أحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ، أنه قال «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» و لهذا قال: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه و هو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تحب، إنما الشأن أن تُحَب. و قال الحسن البصري و غيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

ثم قال تعالى: ﴿ويغفر لكم ذنوبكم، و الله غفور رحيم﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ، يحصل لكم هذا كله من بركة سفارته.

٣٢- ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص و عام ﴿قل أطيعوا الله و الرسول فإن تولوا﴾ أي خالفوا عن أمره ﴿فإن الله لا يحب الكافرين﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، و الله لا يحب من اتصف بذلك، و إن ادعى و زعم في نفسه أنه محب لله و يتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل و رسول الله إلى جميع الثقلين: الجن و الإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه، و الدخول في طاعته، و اتباع شريعته، كما سيأتي تقريره عند قوله تعالى: ﴿و إذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ الآية.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾

٣٣، ٣٤- يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم عليه السلام، خلقه بيده، و نفخ فيه من روحه، و أسجد له ملائكته، و علّمه أسماء كل شيء و أسكنه الجنة، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة، و اصطفى نوحاً عليه السلام و جعله أول رسوله بعثه إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، و أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، و انتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله ليلاً و نهاراً، سراً و جهاراً،

فلم يزدهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، و لم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به، و اصطفى آل إبراهيم، و منهم سيد البشر و خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، و آل عمران والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليه السلام، و عيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام، إن شاء الله تعالى، و به الثقة.

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

٣٥- امرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام، وهي حنة بنت فاقوذ، قال محمد بن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل، فرأت يوماً طائراً يزق فرخه، فاشتهت الولد، فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً، فاستجاب الله دعاءها، فواقعها زوجها، فحملت منه، فلما تحققت الحمل، نذرت أن يكون محرراً أي خالصاً مفرغاً للعبادة، ولخدمة بيت المقدس، فقالت: ﴿رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيتي، و لم تكن تعلم ما في بطنها: أذكراً أم أنثى؟

٣٦- ﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى و الله أعلم بما وضعت﴾ قرئ برفع التاء، على أنها تاء المتكلم، وأن ذلك من تمام قولها، و قرئ بتسكين التاء، على أنه من قول الله عز وجل، ﴿و ليس الذكر كالأنثى﴾ أي في القوة و الجلد في العبادة و خدمة المسجد الأقصى ﴿و إني سميتها مريم﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قبلنا، و قد حكي مقرراً، و بذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال «وُلِد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم» أخرجاه، و كذلك ثبت فيهما: أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنكه و سماه عبد الله، و في صحيح البخاري: أن رجلاً قال: يارسول الله ولد لي الليلة ولد فما أسميه؟ قال «اسم ولدك عبد الرحمن»، و ثبت في الصحيح أيضاً: أنه لما جاءه أبو أسيد ليحنكه، فذهل عنه، فأمر به أبوه، فرده إلى منزلهم، فلما ذكر رسول الله ﷺ في المجلس سماه المنذر، فأما حديث سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ، قال «كل غلام رهين بعقيقته، يذبح عنه يوم سابعه، و يسمى و يحلق رأسه» فقد رواه أحمد و أهل السنن، و صححه الترمذي بهذا اللفظ، و روي: ويُدَمَّى، و هو أثبت وأحفظ، و الله أعلم[1].

و قوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت ﴿و إني أعيذها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم﴾ أي عوذتها بالله عز وجل من شر الشيطان، و عوذت ذريتها و هو ولدها عيسى عليه السلام، فاستجاب الله لها ذلك، كما روى عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مسه إياه، إلا مريم و ابنها» ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿و إني أعيذها بك و ذريتها من الشيطان الرجيم﴾، أخرجاه من حديث عبد الرزاق.

(١) و الأحاديث تدل على أن التسمية تجوز في يوم الولادة، و يجوز تأخيرها إلى السابع، و الأمر فيه واسع كما قرره ابن القيم في تحفة المودود.

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾

٣٧- يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة، و أنه ﴿أنبتها نباتاً حسناً﴾، أي جعلها شكلاً مليحاً و منظراً بهيجاً، ويسر لها أسباب القبول، و قرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم و الخير و الدين، فلهذا قال ﴿و كفّلها زكريا﴾ و في قراءة: ﴿و كفّلها زكريا﴾ بتشديد الفاء، و نصب زكريا على المفعولية، أي جعله كافلاً لها.

قال ابن إسحاق: و ما ذلك إلا أنها كانت يتيمة. و ذكر غيره: أن بني إسرائيل أصابتهم سنة جدب، فكفل زكريا مريم لذلك، و لا منافاة بين القولين؛ و الله أعلم. و إنما قدر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً و عملاً صالحاً، و لأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق و ابن جرير و غيرهما، وقيل: زوج أختها، كما ورد في الصحيح «فإذا بيحيى و عيسى و هما ابنا الخالة» و قد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها، و قد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب، و قال «الخالة بمنزلة الأم».

ثم أخبر تعالى عن سيادتها و جلالتها في محل عبادتها، فقال ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً﴾. قال مجاهد وعكرمة و سعيد بن جبير و أبو الشعثاء و إبراهيم النخعي و الضحاك و قتادة و الربيع بن أنس و عطية العوفي والسدي: يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، و فاكهة الشتاء في الصيف. و عن مجاهد ﴿وجد عندها رزقاً﴾ أي علماً، أو قال: صحفاً فيها علم، رواه ابن أبي حاتم، و الأول أصح و فيه دلالة على كرامات الأولياء. و في السنة لهذا نظائر كثيرة، فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿قال يامريم أنى لك هذا﴾ أي يقول من أين لك هذا؟ ﴿قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١) ﴾

٣٨- لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف و فاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد و كان شيخاً كبيراً قد وهن منه العظم و اشتعل الرأس شيباً، و كانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً، لكنه مع هذا كله سأل ربه و ناداه نداء خفياً، و قال ﴿رب هب لي من لدنك﴾ أي من عندك ﴿ذرية طيبة﴾ أي ولداً صالحاً ﴿إنك سميع الدعاء﴾.

٣٩- قال تعالى: ﴿فنادته الملائكة و هو قائم يصلي في المحراب﴾ أي خاطبته الملائكة شفاهاً خطاباً، أسمعته وهو

قائم يصلي في محراب عبادته و محل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته. ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة ﴿أن الله يبشرك بيحيى﴾ أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى. قال قتادة و غيره: إنما سمي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان. و قوله ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾، روي عن ابن عباس، و قال الحسن و قتادة و عكرمة ومجاهد و أبو الشعثاء و السدي و الربيع بن أنس و الضحاك وغيره في هذه الآية ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ أي بعيسى ابن مريم. و قال الربيع بن أنس: هو أول من صدق بعيسى ابن مريم. و قال قتادة: و على سنته ومنهاجه. قوله: ﴿وسيداً﴾ قال أبو العالية و الربيع بن أنس و قتادة و سعيد بن جبير و غيرهم: الحكيم. قال قتادة: سيداً في العلم و العبادة. و قال ابن عباس والثوري والضحاك: السيد الحكيم التقي. قال سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم. و قوله: ﴿وحصوراً﴾ روي عن ابن مسعود و ابن عباس و مجاهد و عكرمة و سعيد ابن جبير و أبي الشعثاء و عطية العوفي، أنهم قالوا: الذي لا يأتي النساء. و عن أبي العالية و الربيع بن أنس: هو الذي لا يولد له و قال الضحاك: هو الذي لا ولد له و لا ماء له. روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: ليس أحد من خلق الله لا يلقاه بذنب غير يحيى بن زكريا. ثم قرأ سعيد ﴿و سيداً وحصوراً﴾ ثم أخذ شيئاً من الأرض، فقال: الحصور من كان ذكره مثل ذي. و أشار يحيى بن سعيد القطان بطرف إصبعه السبابة، فهذا موقوف أصح إسناداً من المرفوع بل وفي صحة المرفوع نظر و الله أعلم. و رواه ابن المنذر. وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «كل ابن آدم يلقى الله بذنب يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه، إلا يحيى بن زكريا فإنه كان سيداً و حصوراً و نبياً من الصالحين» ثم أهوى النبي ﷺ إلى قذاة من الأرض، فأخذها و قال: «و كان ذكره مثل هذه القذاة».

و قد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿حصوراً﴾ ليس كما قاله بعضهم إنه كان هيوباً أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، و نقاد العلماء، و قالوا: هذه نقيصة و عيب، و لا تليق بالأنبياء عليهم السلام، و إنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها كأنه حصر عنها. وقيل مانعاً نفسه من الشهوات. و قيل ليست له شهوة في النساء، و قد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة، ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام، ثم هي في حق من قدر عليها، و قام بالواجب فيها، و لم تشغله عن ربه درجة عليا، و هي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن و قيامه عليهن و إكسابه لهن وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، و إن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حبب إلي من دنياكم» هذا لفظه. و المقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو و غيره: أنه معصوم عن الفواحش و القاذورات، و لا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال و غشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾ كأنه قال: ولداً له ذرية و نسل و عقب، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

و قوله: ﴿و نبياً من الصالحين﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، و هي أعلى من الأولى، كقوله لأم موسى ﴿إنا رادوه إليك و جاعلوه من المرسلين﴾.

٤٠- فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة، أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿قال رب أنى يكون لي

غلام و قد بلغني الكبر و امرأتي عاقر قال﴾ أي المَلَك ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ أي هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء، و لا يتعاظمه أمر.

٤١- ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي علامة أستدل بها على وجود الولد مني ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾ أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح، كما في قوله: ﴿ثلاث ليال سوياً﴾ ثم أمر بكثرة الذكر و التسبيح في هذه الحال، فقال تعالى: ﴿و اذكر ربك كثيراً و سبح بالعشي و الإبكار﴾ و سيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾

٤٢- هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك، أن الله قد اصطفاها أي اختارها لكثرة عبادتها و زهادتها و شرفها و طهارتها من الأكدار و الوسواس، و اصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين، روى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب، في قوله تعالى: ﴿إن الله اصطفاك و طهرك و اصطفاك على نساء العالمين﴾ قال: كان أبو هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ «خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، و أرعاه على زوج في ذات يده، و لم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط» ولم يخرجه من هذا الوجه سوى مسلم، و عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «خير نسائها مريم بنت عمران، و خير نسائها خديجة بنت خويلد» أخرجاه في الصحيحين، و عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، و لم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، و مريم بنت عمران، و إن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» أخرجه الجماعة إلا أبا داود.

٤٣- ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة و الخشوع و الركوع و السجود و الدأب في العمل، لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله و قضاه بما فيه محنة لها، و رفعة في الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فقال تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك و اسجدي و اركعي مع الراكعين﴾ أما القنوت فهو الطاعة في خشوع، كما قال تعالى: ﴿بل له ما في السموات و الأرض كل له قانتون﴾. و قال مجاهد: كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها، و القنوت هو طول الركود في الصلاة، يعني امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ قال الحسن: يعني اعبدي لربك، ﴿و اسجدي و اركعي مع الراكعين﴾ أي كوني منهم.

٤٤- ثم قال تعالى لرسوله بعد ما أطلعه على جلية الأمر ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ أي ما كنت عندهم يامحمد فتخبرهم عنهم معاينة عما جرى بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر و شاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، و ذلك لرغبتهم في الأجر. و قد ذكر عكرمة و السدي و قتادة و الربيع ابن أنس و غير واحد، دخل حديث بعضهم في بعض، أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن، و اقترعوا هنالك على أن

يلقوا أقلامهم فأيهم يثبت في جرية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت ويقال إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء، و كان مع ذلك كبيرهم و سيدهم و عالمهم و إمامهم و نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه و على سائر النبيين.

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

٤٥- هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير. قال الله تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي يقول له: كن فيكون، و هذا تفسير قوله: ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ كما ذكر الجمهور على ما سبق بيانه ﴿اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾ أي يكون مشهوراً بهذا في الدنيا، و يعرفه المؤمنون بذلك و سمي المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. و قيل: لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما، و قيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى. و قوله: ﴿عيسى ابن مريم﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له. ﴿وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ أي له وجاهة و مكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به، و في الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

٤٦- وقوله: ﴿و يكلم الناس في المهد و كهلاً﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره، معجزة و آية، و في حال كهولته حين يوحي الله إليه بذلك ﴿ومن الصالحين﴾ أي في قوله و عمله، له علم صحيح و عمل صالح. و روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، و صبي كان في زمن جريج، و صبي آخر».

٤٧- فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عزو جل، قالت في مناجاتها ﴿رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾ تقول كيف يوجد هذا الولد مني و أنا لست بذات زوج، و لا من عزمي أن أتزوج، و لست بغياً حاشا لله؟ فقال لها الملك عن الله عز وجل في جواب ذلك السؤال ﴿كذلك الله يخلق ما يشاء﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء، وصرح ههنا بقوله: ﴿يخلق ما يشاء﴾ و لم يقل: يفعل، كما في قصة زكريا، بل نص ههنا على أنه يخلق لئلا يبقى لمبطل شبهة، و أكد ذلك بقوله: ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي فلا يتأخر شيئاً بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة كقوله: ﴿و ما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ أي إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر.

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ

وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

٤٨- يقول تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام: أن الله يعلمه ﴿الكتاب والحكمة﴾، فالتوراة هو الكتاب ههنا الكتابة، و الحكمة تقدم تفسيرها في سورة البقرة، و ﴿التوراة والإنجيل﴾، فالتوراة هو الكتاب الذي أنزل على موسى بن عمران، والإنجيل الذي أنزل على عيسى بن مريم عليهما السلام. و قد كان عيسى عليه السلام يحفظ هذا و هذا.

٤٩- و قوله: ﴿و رسولاً إلى بني إسرائيل﴾ أي يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلاً لهم ﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ وكذلك كان يفعل، يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل، الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله ﴿وأبرئ الأكمه﴾ قيل: أنه الذي يبصر نهاراً و لا يبصر ليلاً، و قيل بالعكس. و قيل: الأعمش. و قيل: هو الذي يولد أعمى و هو أشبه، لأنه أبلغ كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر و تعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار و حيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، و صاروا من عباد الله الأبرار. و أما عيسى عليه السلام، فبعث في زمن الأطباء و أصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، و بعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد. و كذلك محمد ﷺ، بعث في زمان الفصحاء و البلغاء و نحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل، لو اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، لم يستطيعوا أبداً و لو كان بعضهم لبعض ظهيراً، و ما ذاك إلا لأن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً.

و قوله: ﴿و أنبئكم بما تأكلون و ما تدخرون في بيوتكم﴾ أي أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر له في بيته لغد، ﴿إن في ذلك﴾ أي في ذلك كله ﴿لآيات لكم﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به ﴿إن كنتم مؤمنين. و مصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾.

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾

٥٠- أي مقرراً لها و مثبتاً ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، و هو الصحيح من القولين، و من العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً، و إنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ، فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى ﴿و لأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ و الله أعلم. ثم قال ﴿و جئتكم بآية من ربكم﴾ أي بحجة و دلالة على صدقي فيما أقول لكم ﴿فاتقوا الله و أطيعون﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)﴾

٥١- ﴿إن الله ربي و ربكم فاعبدوه﴾ أي أنا و أنتم سواء في العبودية له و الخضوع والاستكانة إليه ﴿هذا صراط مستقيم﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾

٥٢- يقول تعالى: ﴿فلما أحس عيسى﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر و الاستمرار على الضلال، ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله. و قال سفيان الثوري و غيره: أي من أنصاري مع الله، و قول مجاهد أقرب. و الظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبيﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر «من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي. فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» حتى وجد الأنصار، فآووه و نصروه و هاجر إليهم، فواسوه و منعوه من الأسود و الأحمر، رضي الله عنهم وأرضاهم. و هكذا عيسى ابن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به و وازروه و نصروه و اتبعوا النور الذي أنزل معه، و لهذا قال الله تعالى مخبراً عنهم ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله و اشهد بأنا مسلمون ❁ ربنا آمنا بما أنزلت و اتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ الحواريون قيل: كانوا قصارين، و قيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم، و قيل: صيادين. و الصحيح أن الحواري: الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول اللهﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير ثم ندبهم، فانتدب الزبير رضي الله عنه، فقال النبيﷺ: «لكل نبي حواري، و حواريي الزبير»، و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ قال: مع أمة محمدﷺ و هذا إسناد جيد.

ثم قال تعالى مخبراً عن ملإ بني إسرائيل، فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام، و إرادته بالسوء و الصلب حين تمالؤوا عليه، و وشوا به إلى ملك ذلك الزمان، و كان كافراً، أن هنا رجلاً يضل الناس و يصدهم عن طاعة الملك و يفسد الرعايا، ويفرق بين الأب و ابنه، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم و رموه به من الكذب، و أنه ولد زنية حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه و يصلبه و ينكل به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به، نجاه الله تعالى من بينهم و رفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء، و ألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى، فأخذوه و أهانوه و صلبوه، و وضعوا على رأسه الشوك، و كان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه و رفعه من بين أظهرهم و تركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم، و أسكن الله في قلوبهم قسوة و عناداً للحق ملازماً لهم، و أورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد.

و لهذا قال تعالى: ﴿ومكروا و مكر الله و الله خير الماكرين﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ

فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

٥٥- اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿إني متوفيك و رافعك إلي﴾ فقال قتادة و غيره: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره إني رافعك إلي و متوفيك، يعني بعد ذلك. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إني متوفيك، أي مميتك. و قال ابن جرير: توفيه هو رفعه، و قال الأكثرون: المراد بالوفاة ههنا النوم، كما قال تعالى: ﴿و هو الذي يتوفاكم بالليل﴾ الآية. و قال تعالى ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها و التي لم تمت في منامها﴾ الآية، و كان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا» الحديث، وقال تعالى: ﴿و بكفرهم و قولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴿و قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه و ما صلبوه و لكن شبه لهم - إلى قوله - و ما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه و كان الله عزيزاً حكيماً﴾ و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته و يوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ و الضمير في قوله ﴿قبل موته﴾ عائد على عيسى ﷺ، أي و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، و ذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة على ما سيأتي بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم، لأنه يضع الجزية و لا يقبل إلا الإسلام. وقوله تعالى: ﴿و مطهرك من الذين كفروا﴾ أي برفعي إياك إلى السماء ﴿و جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ و هكذا وقع فإن المسيح ﷺ، لما رفعه الله إلى السماء، تفرقت أصحابه شيعاً بعده، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله و رسوله و ابن أمته، و منهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، و آخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة.

و قد حكى الله مقالاتهم في القرآن و رد على كل فريق، فاستمروا على ذلك قريباً من ثلثمائة سنة، ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفاً، و قيل: جهلاً منه إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه، و زاد فيه و نقص منه و وضعت له القوانين، و الأمانة الكبرى التي هي الخيانة الحقيرة، و أحل في زمانه لحم الخنزير، و صلوا له إلى المشرق، و صوروا له الكنائس والمعابد و الصوامع، و زاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون، و صار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس و المعابد والصوامع و الديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، و بنى المدينة المنسوبة إليه، و اتبعه الطائفة الملكية منهم، وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم الله عليهم، لأنهم أقرب إلى الحق منهم، و إن كان الجميع كفاراً عليهم لعائن الله، فلما بعث الله محمداً ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله على الوجه الحق، كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي العربي، خاتم الرسل و سيد ولد آدم على الإطلاق، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته و طريقته، مع ما قد حرفوا و بدلوا، ثم لو لم يكن شيء من ذلك، لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق الذي لا

يغير و لا يبدل إلى قيام الساعة، و لا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض و مغاربها، و اجتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، و كسروا كسرى، و قصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما، و أنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل في قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم و ليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم و ليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ الآية. فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً، سلبوا النصارى بلاد الشام وألجؤوهم إلى الروم فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، و لا يزال الإسلام و أهله فوقهم إلى يوم القيامة.

و قد أخبر الصادق الصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيئون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً، لم ير الناس مثلها و لا يرون بعدها نظيرها، و قد جمعت في هذا جزءاً مفرداً، ولهذا قال تعالى: ﴿و جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينهم فيما كنتم فيه تختلفون ◆ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا و الآخرة وما لهم من ناصرين﴾ و كذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي، و أخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، و في الدار الآخرة عذابهم أشد و أشق ﴿وما لهم من الله من واق﴾ ﴿و أما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم﴾ أي في الدنيا و الآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، و في الآخرة بالجنات العاليات ﴿و الله لا يحب الظالمين﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات و الذكر الحكيم﴾ أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى و مبدأ ميلاده و كيفية أمره، وهو مما قاله تعالى و أوحاه إليك و نزل عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه و لا شك، كما قال تعالى في سورة مريم ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ◆ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، و هاهنا قال تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)﴾

٥٩- يقول جل و علا: ﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿كمثل آدم﴾ حيث خلقه من غير أب و لا أم بل ﴿خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ فالذي خلق آدم من غير أب، قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى و الأحرى، و إن جاز ادعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، و معلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواها في عيسى أشد بطلاناً و أظهر فساداً، و لكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر و لا من أنثى، و خلق حواء من ذكر بلا

أنثى، و خلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر و أنثى، و لهذا قال تعالى في سورة مريم **﴿ولنجعله آية للناس﴾**.

٦٠- و قال ههنا: **﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾** أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال. ثم قال تعالى آمراً رسولهﷺ، أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان.

٦١- **﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا وأنفسكم﴾** أي نحضرهم في حال المباهلة **﴿ثم نبتهل﴾** أي نلتعن **﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾** أي منا ومنكم.

و كان سبب نزول هذه المباهلة و ما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران، أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى و يزعمون فيه ما يزعمون من البُنوَّة الإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم.

روى البخاري عن حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب و السيد صاحبا نجران إلى رسول اللهﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فو الله لئن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن و لا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا و ابعث معنا رجلاً أميناً و لا تبعث معنا إلا أميناً، فقال «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرف لها أصحاب رسول اللهﷺ، فقال «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام، قال رسول اللهﷺ «هذا أمين هذه الأمة» و رواه مسلم. و روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال أبوجهل قبحه الله، إن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته، قال: فقال «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا و لرأوا مقاعدهم من النار، و لو خرج الذين يباهلون رسول اللهﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً و لا أهلاً»، و قد رواه الترمذي و النسائي.

و الغرض أن وفودهم كان في سنة تسع، لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول اللهﷺ، و آية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح، و هي قوله تعالى **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله و لا باليوم الآخر﴾** الآية، و روى أبو بكر بن مردويه عن جابر قال: قدم على النبيﷺ العاقب و الطيب، فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة، قال: فغدا رسول اللهﷺ، فأخذ بيد علي و فاطمة و الحسن و الحسين، ثم أرسل إليهما، فأبيا أن يجيبا و أقرا له بالخراج، قال: فقال رسول اللهﷺ: «و الذي بعثني بالحق لو قالا: لا، لأمطر عليهم الوادي ناراً» و فيهم نزلت **﴿ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم﴾** قال جابر **﴿أنفسنا و أنفسكم﴾** رسول اللهﷺ و علي بن أبي طالب **﴿و أبناءنا﴾** الحسن و الحسين **﴿و نساءنا﴾** فاطمة. وهكذا رواه الحاكم.

٦٢، ٦٣- ثم قال تعالى: **﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾** أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه و لا محيد **﴿و ما من إله إلا الله و إن الله لهو العزيز الحكيم ❁ فإن تولوا﴾** أي عن هذا إلى غيره **﴿فإن الله عليم بالمفسدين﴾** أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد و الله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، و هو القادر الذي لا يفوته شيء، سبحانه و بحمده و نعوذ به من حلول نقمته.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾

٦٤- هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود و النصارى و من جرى مجراهم. **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة﴾** و الكلمة تطلق على الجملة المفيدة، كما قال ههنا، ثم وصفها بقوله **﴿سواء بيننا و بينكم﴾** أي عدل ونصف نستوي نحن و أنتم فيها، ثم فسرها بقوله: **﴿أن لا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئاً﴾** لا وثناً و لا صليباً ولا صنماً و لا طاغوتاً و لا ناراً و لا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، و هذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: **﴿و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** و قال تعالى **﴿و لقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله و اجتنبوا الطاغوت﴾**.

ثم قال تعالى **﴿و لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾**، قال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، و قال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض **﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾** أي فإن تولوا عن هذا النصف و هذه الدعوة، فأشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم. و قد ذكرنا في شرح البخاري عند روايته عن ابن عباس عن أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر، فسأله عن نسب رسول الله ﷺ، و عن صفته و نعته و ما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، مع أن أبا سفيان كان إذ ذاك مشركاً، لم يسلم بعد، و كان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح، كما هو مصرح في الحديث، و لأنه لما سأله: هل يغدر؟ قال: فقلت: لا، و نحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها، قال: و لم يمكني كلمة أزيد فيها شيئاً سوى هذه، و الغرض أنه قال: ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فأسلم تسلم، و أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و **﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئاً و لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾

٦٥- ينكر تبارك و تعالى على اليهود و النصارى في محاجتهم في إبراهيم عليه السلام، و دعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، و قالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى: **﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾** الآية، أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً، و قد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى؟ و كيف تدّعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً و إنما حدثت النصرانية

بعد زمنه بدهر؟ و لهذا قال تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾.

٦٦- ثم قال تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ الآية. هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإن اليهود و النصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، و لو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثه محمد ﷺ، لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون، فأنكر الله عليهم ذلك، و أمرهم برد ما لا علم لهم به إلى علم الغيب و الشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها و جلياتها، و لهذا قال تعالى: ﴿و الله يعلم و أنتم لا تعلمون﴾.

٦٧- ثم قال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً و لا نصرانياً و لكن كان حنيفاً مسلماً﴾ أي متحنفاً عن الشرك قاصداً إلى الإيمان ﴿و ما كان من المشركين﴾ و هذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة ﴿و قالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ الآية.

٦٨- ثم قال تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه و هذا النبي و الذين آمنوا و الله ولي المؤمنين﴾ يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه و هذا النبي، يعني محمداً ﷺ، و الذين آمنوا من أصحابه المهاجرين و الأنصار و من تبعهم بعدهم. روى سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل نبي ولاة من النبيين، و إن وليي منهم أبي و خليل ربي عز وجل» ثم قرأ ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه﴾ الآية، و قد رواه الترمذي و البزار. و قوله ﴿و الله ولي المؤمنين﴾ أي ولي جميع المؤمنين برسله.

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

٦٩- يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين، و بغيهم إياهم الإضلال، و أخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم و هم لا يشعرون أنهم ممكور بهم.

٧٠- ثم قال تعالى منكراً عليهم ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله و أنتم تشهدون﴾ أي تعلمون صدقها وتتحققون حقها.

٧١- ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل و تكتمون الحق و أنتم تعلمون﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ، و أنتم تعرفون ذلك و تتحققونه.

٧٢- ﴿و قالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار و اكفروا آخره﴾ الآية، هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، و هو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، و يصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم

إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة و عيب في دين المسلمين، و لهذا قالوا ﴿لعلهم يرجعون﴾ . و هكذا روي عن ابن عباس و مجاهد و قتادة و السدي و الربيع و أبي مالك.

٧٣ ، ٧٤- و قوله تعالى: ﴿و لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا سركم و ما عندكم إلا لمن تبع دينكم، و لا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به و يحتجوا به عليكم. قال الله تعالى: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده و رسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، و الدلائل القاطعات، و الحجج الواضحات؛ و إن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين. و قوله ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، و يساووكم فيه و يمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند ربكم، أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة، وتتركب الحجة في الدنيا و الآخرة، قال الله تعالى: ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ أي الأمور كلها تحت تصرفه، و هو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان و العلم و التصور التام، و يضل من يشاء فيعمي بصره و بصيرته و يختم على قلبه و سمعه، و يجعل على بصره غشاوة، و له الحجة التامة و الحكمة البالغة ﴿والله واسع عليم ۞ يختص برحمته من يشاء و الله ذو الفضل العظيم﴾ أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحد و لا يوصف بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء، و هداكم به إلى أكمل الشرائع.

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) ﴾

٧٥- يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة و يحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿من إن تأمنه بقنطار﴾ أي من المال ﴿يؤده إليك﴾ أي و ما دونه بطريق الأولى أن يؤده إليه ﴿و منهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً﴾ أي بالمطالبة و الملازمة و الإلحاح في استخلاص حقك، و إذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليه. و قد تقدم الكلام على القنطار في أول السورة، و أما الدينار فمعروف. ومناسب أن يذكر ههنا الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: ائتني بالكفيل، كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مركباً يركبها ليقدم عليه في الأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني استسلفت فلاناً ألف دينار فسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، وسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً فرضي بذلك، و أني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، و إني أستودعتكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف و هو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه لينظر لعل مركباً يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما كسرها وجد المال و الصحيفة، ثم قدم الرجل كان تسلف

منه، فأتاه بألف دينار، و قال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بألف دينار راشداً. رواه الإمام أحمد.

و قوله ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين و هم العرب، فإن الله قد أحلها لنا، قال الله تعالى: ﴿و يقولون على الله الكذب و هم يعلمون﴾ أي و قد اختلقوا هذه المقالة، و ائتفكوا بهذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها و إنما هم قوم بهت.

٧٦- ثم قال تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده و اتقى﴾ أي لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بُعث، كما أخذ العهد و الميثاق على الأنبياء و أممهم بذلك، و اتقى محارم الله، و اتبع طاعته و شريعته التي بعث بها خاتم رسله و سيدهم ﴿فإن الله يحب المتقين﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ﴾

٧٧- يقول تعالى: إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ و ذكر صفته للناس و بيان أمره، و عن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة، و هي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي لا نصيب لهم فيها و لا حظ لهم منها ﴿و لا يكلمهم الله و لا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ أي برحمة منه لهم، يعني لا يكلمهم الله كلام لطف بهم و لا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿و لا يزكيهم﴾ أي من الذنوب و الأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿و لهم عذاب أليم﴾. و قد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر.

الحديث الأول: روي الإمام أحمد، عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، و لا ينظر إليهم يوم القيامة، و لا يزكيهم، و لهم عذاب أليم» قلت: يا رسول الله، من هم؟ خسروا و خابوا، قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال «المسبل، و المنفق سلعته بالحلف و الكاذب، و المنان»، و رواه مسلم وأهل السنن.

الحديث الثاني: روى أحمد عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين هو فيها فاجرٌ، ليقتطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله عز وجل و هو عليه غضبان». فقال الأشعث: فيَّ و الله كان ذلك؛ كان بيني و بين رجل من اليهود أرض فجحدني، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ: «ألك بينة؟ قلت: لا، فقال لليهودي: احلف. قلت: يا رسول الله، إذاً يحلف فيذهب مالي. فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله و أيمانهم ثمناً قليلاً﴾ الآية، أخرجاه.

الحديث الثالث: روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن أبي أوفى، أن رجلاً أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يعط، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ الآية، و رواه البخاري.

الحديث الرابع: روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، و لا ينظر إليهم، و لا يزكيهم، و لهم عذاب أليم: رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، و رجل حلف على سلعة بعد العصر، يعني كاذباً، و رجل بايع إماماً فإن أعطاه و فّى له و إن لم يعطه لم يف له»** و رواه أبو داود و الترمذي.

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

٧٨- يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه، و يبدلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، و ينسبونه إلى الله و هو كذب على الله، و هم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا و افتروا في ذلك كله، و لهذا قال الله تعالى: **﴿و يقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾**. و قال مجاهد و الشعبي و الحسن و قتادة و الربيع بن أنس: **﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾** يحرفونه، و هكذا روى البخاري عن ابن عباس أنهم يحرفون و يزيدون، و ليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله.

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

٧٩- أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب و الحكمة و النبوة، أن يقول للناس اعبدوني من دون الله، أي مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي و لا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى و الأحرى، ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته، قال: و ذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً، يعني أهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم و رهبانهم، كما قال الله تعالى: **﴿اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أرباباً من دون الله﴾** الآية، و في المسند و الترمذي كما سيأتي أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله ما عبدوهم. قال **«بلى إنهم أحلّوا لهم الحرام و حرّموا عليهم الحلال، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»**. فالجهلة من الأحبار والرهبان و مشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم و التوبيخ، بخلاف الرسل و أتباعهم من العلماء العاملين فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به، و بلغتهم إياه رسله الكرام، و إنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه و بلغتهم إياه رسله الكرام، فالرسل صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله و بين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة و إبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم القيام، و نصحوا الخلق، و بلغوهم الحق، و قوله: **﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾** أي و لكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين، قال ابن عباس و أبو رزين و غير واحد: أي حكماء علماء حلماء، و قال الحسن و غير واحد: فقهاء، و كذا روي عن ابن عباس و سعيد بن جبير و قتادة و عطاء الخراساني و عطية العوفي و الربيع بن أنس و عن الحسن أيضاً: يعني أهل عبادة و أهل تقوى، وقال الضحاك في قوله: **﴿بما كنتم تعلمون الكتاب و بما**

كنتم تدرسون﴾ : حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أي تفهمون معناه، و قرئ ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد من التعليم ﴿وبما كنتم تدرسون﴾ تحفظون ألفاظه.

٨٠- ثم قال الله تعالى: ﴿و لا يأمركم أن تتخذوا الملائكة و النبيين أرباباً﴾ أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله، و من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، و الأنبياء إنما يأمرون بالإيمان و هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ و قال تعالى: ﴿و لقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله و اجتنبوا الطاغوت﴾ الآية، و قال ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ و قال إخباراً عن الملائكة ﴿و من يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

٨١- يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام، لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، و بلغ أي مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به و لينصرنه، و لا يمنعه ما هو فيه من العلم و النبوة من اتباع مَنْ بُعث بعده و نصرته، و لهذا قال تعالى و تقدس ﴿و إذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتاب و حكمة ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به و لتنصرنه قال أأقررتم و أخذتم على ذلكم إصري﴾ و قال ابن عباس و مجاهد و الربيع بن أنس و قتادة و السدي: يعني عهدي، و قال محمد بن إسحاق ﴿إصري﴾ أي ثقل ما حملتم من عهدي، أي ميثاقي الشديد المؤكد ﴿قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾.

٨٢- ﴿فمن تولى بعد ذلك﴾ أي عن هذا العهد و الميثاق ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾، قال علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمداً و هو حي ليؤمنن به و ينصرنه، و أمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بُعث محمدٌ و هم أحياء ليؤمنن به و لينصرنه، وقال طاوس و الحسن البصري و قتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، و هذا لا يضاد ما قاله علي و ابن عباس و لا ينفيه، بل يستلزمه و يقتضيه، ولهذا روى عبد الرزاق عن طاوس مثل قول علي و ابن عباس، و قد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني مررت بأخ لي يهودي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال، فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت، قلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، و بالإسلام ديناً، و بمحمد رسولاً، قال: فسُرّي عن النبي ﷺ و قال «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام، ثم اتبعتموه و تركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم و أنا حظكم من النبيين».

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ

آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

٨٣- يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه، و أرسل به رسله، و هو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي **﴿له أسلم من في السموات و الأرض﴾** أي استسلم له من فيها طوعاً و كرهاً، كما قال تعالى: **﴿ولله يسجد من في السموات و الأرض طوعاً و كرهاً﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين و الشمائل سجداً لله و هم داخرون ◆ و لله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة و الملائكة و هم لا يستكبرون ◆ يخافون ربهم من فوقهم و يفعلون ما يؤمرون﴾** فالمؤمن مستسلم بقلبه و قالبه لله، و الكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير و القهر و السلطان العظيم الذي لا يخالف و لا يمانع، و قد ورد في الصحيح «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل» و سيأتي له شاهد من وجه آخر، و لكن المعنى الأول للآية أقوى، و قد روى وكيع عن مجاهد قال: هو كقوله **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات و الأرض ليقولن الله﴾** وروى أيضاً عن ابن عباس **﴿و له أسلم من في السموات والأرض طوعاً و كرهاً﴾** قال: حين أخذ الميثاق، **﴿و إليه يرجعون﴾** أي يوم المعاد فيجازي كلا بعمله.

٨٤- ثم قال تعالى: **﴿قل آمنا بالله و ما أنزل علينا﴾** يعني القرآن، **﴿و ما أنزل على إبراهيم و إسماعيل وإسحاق و يعقوب﴾** أي من الصحف و الوحي، **﴿و الأسباط﴾** و هم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل- و هو يعقوب- الإثني عشر، **﴿و ما أوتي موسى و عيسى﴾** يعني بذلك التوراة و الإنجيل، **﴿و النبيون من ربهم﴾** و هذا يعم جميع الأنبياء جملة **﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾** يعني: بل نؤمن بجميعهم **﴿و نحن له مسلمون﴾** فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، و بكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم يصدقون بما أُنزل من عند الله، و بكل نبي بعثه الله.

٨٥- ثم قال تعالى: **﴿و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾** الآية، أي من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله، فلن يُقبل منه **﴿و هو في الآخرة من الخاسرين﴾** كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ».

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

٨٦- روي ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد و لحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إليه قومه أن سَلُوا لي رسول الله، هل لي من توبة؟ فنزلت **﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم- إلى قوله- فإن الله غفور رحيم﴾** فأرسل إليه قومه فأسلم، و هكذا رواه النسائي و الحاكم و ابن حبان، فقوله تعالى:

﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم و شهدوا أن الرسول حق و جاءهم البينات﴾ أي قامت عليهم الحجج و البراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، و وضح لهم الأمر ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية، و لهذا قال تعالى: ﴿و الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

٨٧- ثم قال تعالى ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين﴾ أي يلعنهم الله، و يلعنهم خلقه.

٨٨- ﴿خالدين فيها﴾ أي في اللعنة، ﴿لا يخفف عنهم العذاب و لا هم ينظرون﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة.

٨٩- ثم قال تعالى: ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك و أصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ وهذا من لطفه و بره و رأفته و رحمته و عائدته على خلقه أن من تاب إليه، تاب عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

٩٠- يقول تعالى متوعداً و مهدداً لمن كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً، أي استمر عليه إلى الممات، و مخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات، كما قال تعالى: ﴿و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ الآية، و لهذا قال ههنا ﴿لن تقبل توبتهم و أولئك هم الضالون﴾ أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي، روى الحافظ أبو بكر البزار، عن ابن عباس: أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم﴾ و إسناده جيد.

٩١- ثم قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا و ماتوا و هم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً و لو افتدى به﴾ أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً. و لو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان و كان يقري الضيف و يفك العاني و يطعم الطعام: هل ينفعه ذلك؟ فقال «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر: ربي اغفر لي خطيئتي يوم الدين». و كذلك لو افتدى بملء الأرض ذهباً ما قُبل منه، كما قال تعالى: ﴿و لا يقبل منها عدل و لا تنفعها شفاعة﴾ و قال ﴿و لا بيع فيه و لا خلال﴾، و قال ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً و مثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّل منهم و لهم عذاب أليم﴾. و لهذا قال تعالى ههنا: ﴿إن الذين كفروا و ماتوا و هم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾ فعطف ﴿و لو افتدى﴾ به على الأول، فدل على أنه غيره، و ما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة، و الله أعلم، و يقتضي ذلك أن لا ينقذه من عذاب الله شيء و لو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، بوزن جبالها و تلالها و ترابها و رمالها و سهلها و وعرها وبرها وبحرها.

و روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو

كان لك ما على الأرض من شيء، أكنت مُفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم، فيقول الله : قد أردتُ منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك» و هكذا أخرجه البخاري ومسلم.

و لهذا قال ﴿أولئك لهم عذاب أليم و ما لهم من ناصرين﴾ أي: و ما لهم من أحدٍ ينقذهم من عذاب الله، و لا يُجيرهم من أليم عقابه.

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

٩٢- روي عن عمرو بن ميمون ﴿لن تنالوا البر﴾ قال: الجنة، و روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، و كان أحب أمواله إليه بَيرُحاء، و كانت مستقبلة المسجد، و كان النبيﷺ يدخلها و يشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾، و إنّ أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برّها و ذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبيﷺ «بخ بخ ذاك مالٌ رابح، ذاك مال رابح، و قد سمعت و أنا أرى أن تجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبوطلحة في أقاربه و بني عمه، أخرجاه، و في الصحيحين أن عمر قال: يا رسول الله لم أُصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به ؟ قال: «حبِّس الأصل و سبِّل الثمرة» و روى الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله بن عمر قال: حضرتني هذه الآية ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فذكرت ما أعطاني الله، فلم أجد شيئاً أحب إليّ من جارية لي رومية، فقلت: هي حرة لوجه الله، فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها، يعني تزوجتها.

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

٩٣- روى أحمد عن ابن عباس قال: أقبلت يهود إلى رسول اللهﷺ فقالوا يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي و اتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال ﴿و الله على ما نقول وكيل﴾ قال « هاتوا» قالوا: أخبرنا عن علامة النبي قال: «تنام عيناه و لا ينام قلبه»، قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة، و كيف تذكر؟ قال: «يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة، أذكرت، و إذا علا ماء المرأة أنثت» قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «كان يشتكي عرق النسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا و كذا - قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل - فحرم لحومها» قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيده - أو في يده - مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله عز وجل» قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: «صوته». قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة، و هي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك؟ قال:

«جبريل ﷺ»، قالوا: جبريل ذاك ينزل بالحرب و القتال و العذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة و النبات و القطر لكان، فأنزل الله تعالى: **﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه و هدى و بشرى للمؤمنين﴾** و الآية بعدها، و قد رواه الترمذي و النسائي.

و قوله **﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾** أي حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، قلت: و لهذا السياق بعدما تقدم مناسبتان، **إحداهما**: أن إسرائيل ﷺ حرم أحب الأشياء إليه و تركها لله، و كان هذا سائغاً في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾** فهذا هو المشروع عندنا، و هو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه، كما قال تعالى: **﴿و آتى المال على حبه﴾** و قال تعالى: **﴿و يطعمون الطعام على حبه﴾** الآية.

المناسبة الثانية: لما تقدم بيان الرد على النصارى، و اعتقادهم الباطل في المسيح و تبيين زيف ما ذهبوا إليه وظهور الحق و اليقين في أمر عيسى و أمه، كيف خلقه الله بقدرته و مشيئته و بعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تبارك و تعالى، شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالى و بيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً ﷺ لما خرج من السفينة، أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل و ألبانها فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، و أشياء أخرى زيادة على ذلك، و كان الله عزوجل قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، و قد حرم ذلك بعد ذلك، و كان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم ﷺ، و قد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، و قد حُرِّمَ مثل هذا في التوراة عليهم، و كذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً، وقد فعله يعقوب ﷺ جمع بين الأختين، ثم حرم عليهم ذلك في التوراة، و هذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، و هذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح ﷺ، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه و خالفوه؟ و كذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم، والصراط المستقيم، و ملة أبيه إبراهيم، فما بالهم لايؤمنون؟ و لهذا قال تعالى: **﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾** أي كان حلاً لهم، جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل، ثم قال تعالى: **﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾** فإنها ناطقة بما قلناه.

٩٤- **﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾** أي فمن كذب على الله و ادعى أنه شرع لهم السبت و التمسك بالتوراة دائماً، و أنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله بالبراهين و الحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ و ظهور ما ذكرناه **﴿فأولئك هم الظالمون﴾**.

٩٥- ثم قال تعالى: **﴿قل صدق الله﴾** أي قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به و فيما شرعه في القرآن، **﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾** أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ فإنه الحق الذي لا شك فيه و لا مرية، و هي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها و لا أبين و لا أوضح و لا أتم، كما قال تعالى: **﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم * ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾** و قال تعالى: **﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾**.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

٩٦ ، ٩٧- يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس لعبادتهم و نسكهم، يطوفون به، و يصلون إليه، ويعتكفون عنده ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل ﷺ الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه و منهجه، و لا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك و نادى الناس إلى حجه، و لهذا قال تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي وضع مباركاً ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾. و قد روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد» و أخرجه البخاري و مسلم.

و قوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بكة من أسماء مكة على المشهور، قيل: سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة و الجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها و يخضعون عندها، و قيل: لأن الناس يتباكّون فيها أي يزدحمون. قال قتادة: إن الله بكَّ به الناس جميعاً، فيصلي النساء أمام الرجال و لا يفعل ذلك ببلد غيرها، و كذا روي عن مجاهد وعكرمة و سعيد بن جبير و عمرو بن شعيب و مقاتل بن حيان. و عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: مكة من الفج إلى التنعيم، و بكة من البيت إلى البطحاء، و عن إبراهيم: بكة البيت و المسجد، و كذا قال الزهري. و قال عكرمة في رواية، و ميمون بن مهران: البيت و ما حوله بكة. و ما وراء ذلك مكة، و كذا قال أبو صالح و إبراهيم النخعي و عطية العوفي و مقاتل بن حيان، و قد ذكروا لمكة أسماء كثيرة: مكة، و بكة، و البيت العتيق، والبيت الحرام، و البلد الأمين، و المأمون، و أم رحم، و أم القرى، و صلاح، و العرش، على وزن بدر، و القادس لأنها تطهر من الذنوب، و المقدسة، و الناسة بالنون، و بالباء أيضاً والحاطمة، و النسّاسة، و الرأس، و كوثى، و البلدة، و البنية، و الكعبة.

و قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، و أن الله عظمه و شرفه، ثم قال تعالى: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه و الجدران، حيث كان يقف عليه و يناوله إسماعيل، و قد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطُّوَّاف منه، و لا يُشَوِّشون على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ و قد قدمنا الأحاديث في ذلك فأغنى عن إعادتها ههنا، و لله الحمد و المنة. و قال مجاهد: أثر قدميه في المقام آية بينة، و كذا روى عن عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة و السدي و مقاتل بن حيان و غيرهم. و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: الحجر كله مقام إبراهيم.

و قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، و كذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري و غيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة و يدخل

الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج. و قال الله تعالى: **﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً و يتخطف الناس من حولهم﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف﴾** و حتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها و تنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها و قلع حشيشها، كما ثبتت الأحاديث و الآثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً. ففي الصحيحين و اللفظ لمسلم عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح فتح مكة «لا هجرة و لكن جهاد و نية، و إذا استُنفِرتم فانفروا» و قال يوم الفتح فتح مكة «إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات و الأرض، فهو حرام بحرمة الله، إلى يوم القيامة، و إنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، و لا ينفر صيده، و لا تلتقط لقطته إلا من عرفها، و لا يختلى خلاها» فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لقَيْنِهم و لبيوتهم، فقال «إلا الإذخر»، و لهما عن أبي هريرة مثله أو نحوه.

و عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح» رواه مسلم.
و عن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ و هو واقف بالحَزْوَرَة بسوق مكة، يقول «والله إنك لخير أرض الله، و أحب أرض الله إلى الله، و لو لا أني أُخرجت منك ما خرجت». رواه الإمام أحمد، و هذا لفظه و الترمذي و النسائي و ابن ماجه.

و قوله **﴿و لله علي الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾** هذه آية وجوب الحج عند الجمهور. و قيل: بل هي قوله **﴿و أتموا الحج و العمرة لله﴾**، و الأول أظهر. و قد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام و دعائمه و قواعده، و أجمع المسلمون علي ذلك إجماعاً ضرورياً، و إنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص و الإجماع. روى الإمام أحمد رحمه الله، عن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ «لو قلت نعم لوجبت و لما استطعتم» ثم قال «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم، و إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، و إذا نهيتكم عن شيء فدعوه» ورواه مسلم.

و أما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، و تارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام، روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من الحاج يا رسول الله؟ قال «الشَّعِثُ التَّفِل» فقام آخر فقال: أي الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: «العَجُّ و الثَّجُّ»، فقام آخر فقال: ما السبيل يارسول الله؟ قال: «الزاد و الراحلة» و هكذا رواه ابن ماجه، و رواه ابن أبي حاتم من طريق آخر ثم قال: و قد روي عن ابن عباس و أنس و الحسن و مجاهد و عطاء و سعيد بن جبير و الربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك، و قد روي هذا الحديث من طرق أخرى من حديث أنس و عبد الله بن عباس و ابن مسعود وعائشة كلها مرفوعة، و لكن في أسانيدها مقال كما هو مقرر في كتاب الأحكام، و الله أعلم، ورواه الحاكم من حديث أنس رضي الله عنه.

و روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ «تعجلوا إلى الحج - يعني الفريضة - فإن

أحدكم لا يدري ما يعرض له» . وقوله تعالى : ﴿و من كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ قال ابن عباس و مجاهد و غير واحد : أي و من جحد فريضة الحج فقد كفر و الله غني عنه . و قد روى أبو بكر الإسماعيلي الحافظ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : من أطاق الحج فلم يحج ، فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً ، وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه .

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)﴾

٩٨ ، ٩٩- هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق ، و كفرهم بآيات الله ، و صدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم و طاقتهم ، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله ، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين و السادة المرسلين صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين ، و ما بشروا به ونوّهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم ، و خاتم الأنبياء ، و رسول رب الأرض والسماء ، و قد توعدهم الله على ذلك ، و أخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء و معاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب و الجحود و العناد ، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون ، أي وسيجزيهم على ذلك ﴿يوم لا ينفع مال و لا بنون﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾

١٠٠- يحذر تبارك و تعالى عباده المؤمنين ، عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب ، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله و ما منحهم به من إرسال رسوله ، كما قال تعالى : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ الآية ، و هكذا قال ههنا ﴿إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ .

١٠١- ثم قال تعالى : ﴿و كيف تكفرون و أنتم تتلى عليكم آيات الله و فيكم رسوله﴾ يعني أن الكفر بعيد منكم و حاشاكم منه ، فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً و نهاراً ، و هو يتلوها عليكم و يبلغها إليكم ، و هذا كقوله تعالى : ﴿و ما لكم لا تؤمنون بالله و الرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم و قد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾ الآية بعدها . ثم قال تعالى : ﴿و من يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ أي و مع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية ، و العدة في مباعدة الغواية ، و الوسيلة إلى الرشاد ، و طريق السداد وحصول المراد .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ

إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠٣)﴾

١٠٢- روى ابن أبي حاتم عن عبد الله هو ابن مسعود ﴿**اتقوا الله حق تقاته**﴾ قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، و أن يشكر فلا يكفر، و هذا إسناد صحيح موقوف، ثم قال ابن أبي حاتم: و روي نحوه عن مرة الهمداني و الربيع بن خثيم و عمرو بن ميمون و إبراهيم النخعي و طاوس و الحسن و قتادة و أبي سنان والسدي نحو ذلك. و روي عن أنس أنه قال: لا يتقي الله العبد حق تقاته حتى يخزن لسانه. و قد ذهب سعيد ابن جبير و أبو العالية، و الربيع بن أنس و قتادة و مقاتل بن حيان و زيد بن أسلم و السدي و غيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**اتقوا الله حق تقاته**﴾ قال: لم تنسخ، و لكن ﴿**حق تُقاته**﴾ أي يجاهدوا في سبيله حق جهاده، و لا تأخذهم في الله لومة لائم، و يقوموا بالقسط و لو على أنفسهم و آبائهم و أبنائهم. و قوله تعالى: ﴿**و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون**﴾ أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم و سلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، و من مات على شيء بُعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ « ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته و لا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾ و لو أن قطرة من الزقوم قُطِرت لأمَرَّتْ على أهل الأرض عيشتهم، فكيف بمن ليس له طعام إلا الزقوم؟» و هكذا رواه الترمذي و النسائي و ابن ماجه و ابن حبان في صحيحه و الحاكم.

و روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ «من أحبَّ أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله و اليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يُؤتى إليه». و روى الإمام أحمد أيضاً عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث «لا يموتن أحدكم إلا و هو يحسن الظن بالله عز وجل» ورواه مسلم.

١٠٣- و قوله تعالى: ﴿**و اعتصموا بحبل الله جميعاً و لا تفرقوا**﴾ قيل ﴿**بحبل الله**﴾ أي بعهد الله، كما قال في الآية بعدها ﴿**ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله و حبل من الناس**﴾ أي بعهد و ذمة، و قيل ﴿**بحبل من الله**﴾ يعني القرآن و روى وكيع عن عبد الله: إن هذا الصراط مُحتضر يحضره الشياطين. يا عبدالله هذا الطريق، هلم إلى الطريق فاعتصموا بحبل الله، فإن حبل الله القرآن.

و قوله: ﴿**و لا تفرقوا**﴾ أمرهم بالجماعة و نهاهم عن التفرقة، و قد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، و الأمر بالاجتماع و الائتلاف، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، و يسخط لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئاً، و أن تعتصموا بحبل الله جميعاً و لا تفرقوا، و أن تناصحوا مَنْ ولاّه أمركم، و يسخط لكم ثلاثاً: قيلَ و قال، و كثرةَ السؤال، وإضاعة المال» و قد ضُمِنتْ لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضاً، وخيف عليهم الافتراق و الاختلاف، و قد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث و سبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة و مسلمة من عذاب النار، و هم الذين على ما كان عليه النبي ﷺ و أصحابه.

و قوله تعالى: ﴿و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ إلى آخر الآية، و هذا السياق في شأن الأوس و الخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، و عداوة شديدة و ضغائن و إحن و ذحول، طال بسببها قتالهم و الوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام، فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخواناً متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر و التقوى، قال الله تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره و بالمؤمنين و ألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم و لكن الله ألف بينهم﴾ إلى آخر الآية، و كانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فأنقذهم الله منها أن هداهم للإيمان، و قد امتنَّ عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قسم غنائم حنين، فعتب من عتب منهم، بما فضل عليهم في القسم، بما أراه الله، فخطبهم فقال «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلَّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، و عالة فأغناكم الله بي؟» فكلما قال شيئاً قالوا: الله و رسوله أمنّ.

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (١٠٩) ﴾

١٠٤- يقول تعالى: ﴿و لتكن منكم أمة﴾ منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، ﴿و أولئك هم المفلحون﴾، قال الضحاك: هم خاصة الصحابة و خاصة الرواة، يعني المجاهدين والعلماء. و المقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، و إن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه و ذلك أضعف الإيمان» و في رواية: «و ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». و روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان، أن النبي ﷺ قال: «و الذي نفسي بيده، لتأمرنَّ بالمعروف و لتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم» و رواه الترمذي و ابن ماجه، و الأحاديث في هذا الباب كثيرة، مع الآيات الكريمة، كما سيأتي تفسيرها في أماكنها.

١٠٥- ثم قال تعالى: ﴿و لا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ الآية، ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم و اختلافهم و تركهم الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، مع قيام الحجة عليهم. روى الإمام أحمد عن أبي عامر عبد الله بن لحي قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان فلما قدمنا مكة، قام حين صلى الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين و سبعين ملة، و إن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة و سبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا

واحدة - و هي الجماعة - و إنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه، لا يبقى منه عرقٌ و لا مفصل إلا دخله» و الله يا معشر العرب، لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به، و هكذا رواه أبو داود و قد ورد هذا الحديث من طرق.

١٠٦، ١٠٧- و قوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه و تسود وجوه﴾ يعني يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، و تسود وجوه أهل البدعة و الفرقة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ قال الحسن البصري: و هم المنافقون ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ و هذا الوصف يعم كل كافر ﴿و أما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ يعني الجنة ماكثون فيها أبداً لا يبغون عنها حِولاً، و قد روى أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية عن أبي غالب، قال: رأى أبو أمامة رؤوساً منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة: كلابُ النار شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى مَنْ قتلوه، ثم قرأ ﴿يوم تبيض وجوه و تسود وجوه﴾ إلى آخر الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً - حتى عدّ سبعاً - ما حدثتكموه، ثم قال: هذا حديث حسن، و قد رواه ابن ماجه، و أخرجه أحمد.

١٠٨- ثم قال تعالى: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك﴾ أي هذه آيات الله و حججه و بيناته نتلوها عليك يا محمد ﴿بالحق﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا و الآخرة ﴿و ما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ أي ليس بظالم لهم بل هو الحكم، العدل الذي لا يجور، لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه.

١٠٩- و لهذا قال تعالى: ﴿و لله ما في السموات و ما في الأرض﴾ أي الجميع مُلْكٌ له و عبيد له ﴿و إلى الله ترجع الأمور﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا و الآخرة.

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ﴾

١١٠- يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، فقال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، و هكذا قال ابن عباس و مجاهد و عطية العوفي و عكرمة و عطاء والربيع ابن أنس ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ يعني خير الناس للناس، و المعنى أنهم خير الأمم و أنفع الناس للناس، و لهذا قال ﴿تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله﴾، روى أحمد عن عبد الله بن عميرة، عن زوج دُرّة بنت أبي لهب، عن درّة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ و هو على المنبر، فقال: يا رسول

الله أي الناس خير؟ قال «خَيرُ الناس أقرؤهم و أتقاهم لله، و آمرهم بالمعروف، و أنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم»، و روى أحمد و النسائي و الحاكم عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾** قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة.

و الصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه، و خير قرونهم الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى **﴿و كذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾** أي خياراً **﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾** الآية. و في مسند الإمام أحمد و جامع الترمذي و سنن ابن ماجه و مستدرك الحاكم من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «أنتم تُوفُّون سبعين أمة، أنتم خيرها و أنتم أكرم على الله عز وجل» و هو حديث مشهور، وقد حسنه الترمذي، و يروى من حديث معاذ بن جبل و أبي سعيد نحوه، و إنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله و سلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله و أكرم الرسل على الله، و بعثه الله بشرع كامل لم يعطه نبي قبله و لا رسول من الرسل، فالعمل على منهاجه و سبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه. و قد وردت أحاديث يناسب ذكرها ههنا، روى الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «أُعطيتُ سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي عز وجل فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً» قال أبو بكر رضي الله عنه: فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى و مصيب من حافات البوادي.

حديث آخر: روى مسلم بن الحجاج في صحيحه عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال، أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، و لكني لدغت، قال: فما صنعت؟ قلت: أنا، ثم قلت: استرقيت، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: و ما حدثكم الشعبي؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب الأسلمي أنه قال «لا رقية إلا من عينٍ أو حُمَة»، قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، و لكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضت عليّ الأمم فرأيت النبي و معه الرهيط، و النبي و معه الرجل و الرجلان، و النبي وليس معه أحد، إذ رُفعَ لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى و قومه، و لكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك و معهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب و لا عذاب» ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب و لا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، و قال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، و ذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال «ما الذي تخوضون فيه؟» فأخبروه، فقال «هم الذين لا يرقون و لا يسترقون، و لا يتطيرون و على ربهم يتوكلون» فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت منهم»، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «سبقك بها عكاشة» و أخرجه البخاري و ليس عنده: لا يرقون.

حديث آخر: روى الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنن له عن أبي أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً، لا حساب

عليهم و لا عذاب، و ثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل» و كذا رواه الطبراني و هذا إسناد جيد.

نوع آخر: من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة و شرفها و كرامتها على الله عز وجل، و أنها خير الأمم في الدنيا و الآخرة، روى الإمام أحمد عن جابر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إني لأرجو أن يكون من يتبعني من أمتي يوم القيامة ربع الجنة» قال: فكبَّرنا، ثم قال: «أرجو أن يكونوا ثلث الناس» قال: فكبرنا، ثم قال: «أرجو أن تكونوا الشطر» وهو على شرط مسلم.

و ثبت في الصحيحين من حديث عن عبد الله بن مسعود، قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟» فكبرنا، ثم قال: «أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟» فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة».

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن ابن بريدة عن أبيه، أن النبي ﷺ قال «أهل الجنة عشرون و مائة صف، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً». و روى عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا و أوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، الناس لنا فيه تبع، غداً لليهود للنصارى بعد غد» رواه البخاري و مسلم.

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم و المدح، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها، رأى من الناس سرعة، فقرأ هذه الآية ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ ثم قال: من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله فيها، رواه ابن جرير، و من لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ الآية، و لهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات، شرع في ذم أهل الكتاب و تأنيبهم، فقال تعالى: ﴿و لو آمن أهل الكتاب﴾ أي بما أنزل على محمد ﷺ ﴿لكان خيراً لهم منهم المؤمنون و منهم الفاسقون﴾ أي قليل منهم من يؤمن بالله و ما أنزل إليكم و ما أنزل إليهم، و أكثرهم على الضلالة و الكفر و الفسق و العصيان.

١١١- ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين و مبشراً لهم أن النصر و الظفر لهم، على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال تعالى: ﴿لن يضروكم إلا أذى و إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾ و هكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله و أرغم أنوفهم، و كذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع و بني النضير و بني قريظة كلهم أذلهم الله، و كذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، و سلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، و لا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك، ويحكم بملة الإسلام وشرع محمد عليه أفضل الصلاة و السلام، فيكسر الصليب و يقتل الخنزير ويضع الجزية، و لا يقبل إلا الإسلام.

١١٢- ثم قال تعالى: ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله و حبل من الناس﴾ أي ألزمهم الله الذلة و الصغار أينما كانوا فلا يأمنون ﴿إلا بحبل من الله﴾ أي بذمة من الله، و هو عقد الذمة لهم و ضرب الجزية عليهم، و إلزامهم أحكام الملة ﴿و حبل من الناس﴾ أي أمان منهم لهم، كما في المهادن و المعاهد والأسير

إذا أمّنه واحد من المسلمين، و لو امرأة، و كذا عبد على أحد قولي العلماء. قال ابن عباس ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ أي بعهد من الله و عهد من الناس و كذا قال مجاهد و عكرمة و عطاء و الضحاك و الحسن وقتادة و السدي و الربيع بن أنس. و قوله ﴿و باؤوا بغضب من الله﴾ أي ألزموا بغضب من الله و هم يستحقونه ﴿و ضربت عليهم المسكنة﴾ أي ألزموها قدراً و شرعاً. و لهذا قال ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله و يقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي و إنما حملهم على ذلك الكبر و البغي والحسد فأعقبهم ذلك الذلة و الصغار و المسكنة أبداً، متصلاً بذل الآخرة، ثم قال تعالى: ﴿ذلك بما عصو و كانوا يعتدون﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله و قتل رسل الله، وقيضوا لذلك أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله عز وجل و الغشيان لمعاصي الله، و الاعتداء في شرع الله، فعياذاً بالله من ذلك، و الله عز وجل المستعان.

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾

١١٣- روي عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ قال: لا يستوي أهل الكتاب و أمة محمد ﷺ، و هكذا قال السدي. و يؤيد هذا القول الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن ابن مسعود قال: أخّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال «أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحدٌ يذكر الله هذه الساعة غيركم» قال: فنزلت هذه الآيات ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب - إلى قوله - و الله عليم بالمتقين﴾ و المشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد ابن إسحاق و غيره، و رواه العوفي عن ابن عباس - أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام و أسد بن عبيد و ثعلبة بن سعية و أسيد بن سعية و غيرهم، أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، و هؤلاء الذين أسلموا، و لهذا قال تعالى: ﴿ليسوا سواء﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن و منهم المجرم، و لهذا قال تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ أي قائمة بالأمر الله مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله فهي قائمة، يعني مستقيمة ﴿يتلون آيات الله آناء الليل و هم يسجدون﴾ أي يقومون الليل ويكثرون التهجد، و يتلون القرآن في صلواتهم.

١١٤- ﴿يؤمنون بالله و اليوم الآخر و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يسارعون في الخيرات و أولئك من الصالحين﴾ و هؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿و إن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله و ما أنزل إليكم و ما أنزل إليهم خاشعين لله﴾ الآية.

١١٥- و لهذا قال تعالى ههنا ﴿و ما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ أي لا يضيع عند الله، بل يجزيهم به أوفر

الجزاء ﴿و الله عليم بالمتقين﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل، و لا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً.

١١٦- ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه ﴿لن تغني عنهم و لا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لا يرد عنهم بأس الله و لا عذابه إذا أراده بهم ﴿و أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

١١٧- ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار، قاله مجاهد و الحسن و السدي، فقال تعالى: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر﴾ أي برد شديد، قاله ابن عباس و عكرمة و سعيد بن جبير والحسن و قتادة و الضحاك و الربيع بن أنس وغيرهم. و قال عطاء: برد وجليد، و عن ابن عباس أيضاً ومجاهد ﴿فيها صر﴾ أي نار و هو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد- و لا سيما الجليد- يحرق الزروع والثمار، كما يُحْرق الشيء بالنار ﴿أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته﴾ أي فأحرقته، يعني بذلك السفعة[1] إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه أو حصاده، فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه. فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا و ثمرتها، كما أذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه. و كذلك هؤلاء بنوها على غير أصل و على غير أساس ﴿و ما ظلمهم الله و لكن أنفسهم يظلمون﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾

١١٨، ١١٩- يقول تبارك و تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، و المنافقون بجهدهم و طاقتهم، لا يألون المؤمنين خبالاً، أي يسعون في مخالفتهم و ما يضرهم بكل ممكن، و بما يستطيعون من المكر و الخديعة، و يودّون ما يعنت المؤمنين و يحرجهم و يشق عليهم، و قوله تعالى: ﴿لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ أي من غيركم من أهل الأديان، و بطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخلة أمره. و قد روى البخاري و النسائي و غيرهما، من حديث أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال «ما بَعَث الله من نبي و لا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانةٌ تأمره بالخير و تحضُّه عليه، و بطانة تأمره بالسوء و تحضُّه عليه، و المعصوم من عصم الله». و روى ابن أبي حاتم أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً، فقال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين.

ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على

(١)- السوافع: لوافح السموم.

المسلمين، و اطلاع على دواخل أمورهم، التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب، و لهذا قال تعالى: ﴿لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتم﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم و ما تخفي صدورهم أكبر﴾ أي قد لاح على صفحات وجوههم، و فلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام و أهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل، و لهذا قال تعالى: ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾.

١١٩ – و قوله تعالى: ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم و لا يحبونكم﴾ أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين، بما يظهرونه لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك، و هم لا يحبونكم لا باطناً و لا ظاهراً، ﴿و تؤمنون بالكتاب كله﴾ أي ليس عندكم في شيء منه شك و لا ريب، و هم عندهم الشك و الريب و الحيرة. ﴿و إذا لقوكم قالوا آمنا و إذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ و الأنامل أطراف الأصابع، قاله قتادة. و قال ابن مسعود و السدي و الربيع بن أنس: الأنامل الأصابع، و هذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان و المودة، و هم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿و إذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ و ذلك أشد الغيظ و الحنق.

قال الله تعالى: ﴿قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين و مكمل دينه، و مُعْلٍ كلمته و مظهر دينه، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم و تُكِنُّه سرائركم من البغضاء و الحسد والغلّ للمؤمنين، و هو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون، و في الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها لا محيد لكم عنها، و لا خروج لكم منها.

١٢٠ – ثم قال تعالى: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤكم و إن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ و هذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين، و هو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب و نصر و تأييد و كثروا و عزَّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، و إن أصاب المسلمين سنة أي جدب أو أُديل عليهم الأعداء، لما لله تعالى في ذلك من الحكمة ـ كما جرى يوم أحد ـ فرح المنافقون بذلك، قال الله تعالى مخاطباً للمؤمنين ﴿و إن تصبروا و تتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ الآية، يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار و كيد الفجار، باستعمال الصبر و التقوى، و التوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول و لا قوة لهم إلا به. و هو الذي ما شاء كان، و ما لم يشأ لم يكن، و لا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره و مشيئته، و من توكل عليه كفاه. ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد و ما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، و التمييز بين المؤمنين و المنافقين و بيان صبر الصابرين فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾

١٢١ – المراد بهذه الوقعة يوم أحد عند الجمهور، قاله ابن عباس و الحسن و قتادة و السدي و غير واحد. وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة. و كان سببها أن المشركين حين قُتل من قتل من أشرافهم يوم بدر و سلمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان، فلما رجع قفلهم إلى مكة قال

أبناء من قتل و رؤساء من بقي لأبي سفيان: أرصد هذه الأموال لقتال محمد فأنفقوها في ذلك، فجمعوا الجموع والأحابيش، و أقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أحد تلقاء المدينة، فصلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة، فلما فرغ منها صلى على رجل من بني النجار يقال له مالك بن عمرو، و استشار رسول الله ﷺ الناس أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؛ فأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، و إن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم، و رماهم النساء و الصبيان بالحجارة من فوقهم، و إن رجعوا رجعوا خائبين، و أشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدراً بالخروج إليهم، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته وخرج عليهم، وقد ندم بعضهم و قالوا: لعلنا إستكرهنا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إن شئت أن نمكث، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمَتَه أن يرجع حتى يحكم الله له» فسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كانوا بالشوط، رجع عبد الله بن أُبي في ثلث الجيش مغضباً لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم، و لكننا لا نراكم تقاتلون اليوم. و استمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي، و جعل ظهره و عسكره إلى أحد، و قال «لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال» و تهيأ رسول الله ﷺ للقتال و هو في سبعمائة من أصحابه، و أمّر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو ابن عوف. و الرماة يومئذ خمسون رجلاً، فقال لهم «انضحوا الخيل عنا و لا نؤتين من قبلكم والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، و إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم» و ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، و أعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار. و أجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ و أرجأ آخرين حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين، و تعبّأت قريش و هم ثلاثة آلاف، و معهم مائتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، و على الميسرة عكرمة بن أبي جهل، و دفعوا اللواء إلى بني عبد الدار، ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في مواضعه عند هذه الآيات إن شاء الله تعالى، و لهذا قال تعالى: **﴿و إذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾** أي تنزلهم منازلهم، وتجعلهم ميمنة و ميسرة وحيث أمرتهم **﴿و الله سميع عليم﴾** أي سميع لما تقولون، عليم بضمائركم.

و قد أورد ابن جرير ههنا سؤالاً حاصله: كيف تقولون إن النبي ﷺ سار إلى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة وقد قال الله تعالى: **﴿و إذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾** الآية؟ ثم كان جوابه عنه: أن غدوه ليبوأهم مقاعد إنما كان يوم السبت أول النهار.

١٢٢- و قوله تعالى: **﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾** الآية، روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: فينا نزلت **﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾** الآية، قال: نحن الطائفتان بنو حارثة و بنو سلمة. و ما نحب - وقال سفيان مرة - و ما يسرني أنها لم تنزل لقوله تعالى: **﴿و الله وليهما﴾** و كذا رواه مسلم.

١٢٣- و قوله تعالى: **﴿و لقد نصركم الله ببدر﴾** أي يوم بدر، و كان يوم الجمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، و هو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام و أهله، و دمغ فيه الشرك، وخرب محله و حزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلثمائة و ثلاثة عشر رجلاً، فيهم فرسان وسبعون بعيراً، و الباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه. و كان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد و البيض، و العدة الكاملة، و الخيول المسومة و الحلي الزائد، فأعز الله

رسوله و أظهر وحيه و تنزيله ، و بيض وجه النبي و قبيله ، و أخزى الشيطان و جيله ، و لهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين و حزبه المتقين ﴿و لقد نصركم الله ببدر و أنتم أذلة﴾ أي قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد و العُدد ، و لهذا قال تعالى في الآية الأخرى ﴿و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً. إلى ـ غفور رحيم﴾ . و بدر : محلة بين مكة و المدينة تعرف ببئرها ، منسوبة إلى رجل حفرها ، وقوله ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ أي تقومون بطاعته.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

١٢٤ ، ١٢٥ - اختلف المفسرون في هذا الوعد ، هل كان يوم بدر أو يوم أحد ؟ على قولين ، أحدهما : أن قوله ﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ متعلق بقوله : ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ و روي هذا عن الحسن البصري و عامر الشعبي والربيع بن أنس و غيرهم ، و اختاره ابن جرير ، و قال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف ، فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول ، و بين قوله تعالى في قصة بدر : ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ـ إلى قوله ـ إن الله عزيز حكيم﴾ ؟ فالجواب أن التنصيص على الألف ـ ههنا ـ لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها ، لقوله : ﴿مردفين﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم . و هذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران . فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر ، و الله أعلم . القول الثاني : إن هذا الوعد متعلق بقوله : ﴿و إذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ و ذلك يوم أحد ، و هو قول مجاهد و عكرمة والضحاك و الزهري و موسى بن عقبة و غيرهم ، لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف لأن المسلمين فروا يومئذ ، زاد عكرمة : و لا بالثلاثة الآلاف لقوله تعالى : ﴿بلى إن تصبروا و تتقوا﴾ فلم يصبروا بل فروا فلم يُمدوا بملك واحد ، و قوله : ﴿بلى إن تصبروا و تتقوا﴾ يعني تصبروا على عدوكم ، وتتقوني و تطيعوا أمري . وقوله تعالى : ﴿و يأتوكم من فورهم هذا﴾ قال الحسن و قتادة و الربيع والسدي : أي من وجههم هذا ، و قال مجاهد و عكرمة و أبو صالح : أي من غضبهم هذا ، و قال الضحاك : من غضبهم و وجههم . و قوله تعالى : ﴿يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ أي معلمين بالسيما . روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه في هذه الآية ﴿مسومين﴾ قال : بالعهن الأحمر ، و قال مجاهد : ﴿مسومين﴾ أي محذفة أعرافها ، معلمة نواصيها بالصوف الأبيض في أذناب الخيل . و قال قتادة و عكرمة ﴿مسومين﴾ أي بسيما القتال ، و قال مكحول : مسومين العمائم . و روى ابن أبي حاتم أن الزبير رضي الله عنه ، كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجراً بها ،

فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر، و رواه ابن مردويه.

١٢٦- و قوله تعالى: ﴿و ما جعله الله إلا بشرى لكم و لتطمئن قلوبكم به﴾ أي و ما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم و تطييباً لقلوبكم و تطميناً، و إلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، و من غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال ﴿ذلك و لو شاء الله لانتصر منهم و لكن ليبلو بعضكم ببعض و الذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ◆ سيهديهم و يصلح بالهم ◆ و يدخلهم الجنة عرفها لهم﴾ و لهذا قال ههنا ﴿و ما جعله الله إلا بشرى لكم و لتطمئن قلوبكم به و ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ أي هو ذو العزة التي لا ترام، و الحكمة في قدره و الأحكام.

١٢٧- ثم قال تعالى: ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ أي أمركم بالجهاد و الجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، و لهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهَدِين، فقال: ﴿ليقطع طرفاً﴾ أي ليهلك أمة ﴿من الذين كفروا أو يكبتهم﴾ أي يخزيهم و يردهم بغيظهم، لما لم ينالوا منكم ما أرادوا. و لهذا قال: ﴿أو يكبتهم فينقلبوا﴾ أي يرجعوا ﴿خائبين﴾ أي لم يحصلوا على ما أملوا.

١٢٨- ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا و الآخرة له وحده لا شريك له، فقال تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي بل الأمر كله إليّ، كما قال تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ و علينا الحساب﴾ و قال ﴿ليس عليك هداهم و لكن الله يهدي من يشاء﴾ و قال ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ قال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم، ثم ذكر تعالى بقية الأقسام، فقال ﴿أو يتوب عليهم﴾ أي مما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة ﴿أو يعذبهم﴾ أي في الدنيا و الآخرة على كفرهم و ذنوبهم، و لهذا قال ﴿فإنهم ظالمون﴾ أي يستحقون ذلك.

وروى البخاري عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر «اللهم العن فلاناً و فلاناً» بعدما يقول «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية و هكذا رواه النسائي. و روى أحمد عن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة، قال: فأنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إلى آخر الآية، قال: و هداهم الله للإسلام. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد، أو يدعو لأحد، قنت بعد الركوع و ربما قال: إذا قال «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد: اللهم أنج الوليد بن الوليد، و سلمة بن هشام و عياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، و اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» يجهر بذلك. وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر «اللهم العن فلاناً و فلاناً» لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية.

و روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كُسِرت رباعيته يوم أحد، وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم، و هو يدعوهم إلى ربهم عز وجل؟» فأنزل الله ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ انفرد به مسلم.

١٢٩- ثم قال تعالى: ﴿و لله ما في السموات و ما في الأرض﴾ أي الجميع ملك له، و أهلها عبيد بين يديه ﴿يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء﴾ أي هو المتصرف فلا معقب لحكمه، و لا يسأل عما يفعل و هم يسألون

﴿والله غفور رحيم﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

١٣٠- يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة كما كانوا في الجاهلية يقولون: إذا حل أجل الدَّين، إما أن تقضي و إما أن تُربي، فإن قضاه، و إلا زاده في المدة، و زاده الآخر في القدر، وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً، و أمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى و الأخرى.

١٣١، ١٣٢- ثم توعدهم بالنار و حذرهم منها، فقال تعالى: ﴿و اتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴾ ﴿و أطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾.

١٣٣- ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات و المسارعة إلى نيل القربات، فقال تعالى: ﴿و سارعوا إلى مغفرة من ربكم و جنة عرضها السموات و الأرض أعدت للمتقين﴾ أي كما أعدت النار للكافرين، و قد قيل: إن معنى قوله ﴿عرضها السموات والأرض﴾ تنبيهاً على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة ﴿بطائنها من إستبرق﴾ أي فما ظنك بالظهائر؟، و قيل: بل عرضها كطولها لأنها قبة تحت العرش، و الشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، و قد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة و أوسط الجنة، و منه تفجّر أنهار الجنة و سقفها عرش الرحمن» و هذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم و جنة عرضها كعرض السماء و الأرض﴾ الآية.

و عن طارق بن شهاب: إن ناساً من اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جنة عرضها السموات والأرض، فأين النار؟ فقال لهم عمر: أرأيتم إذا جاء النهار أين الليل؟ و إذا جاء الليل أين النهار؟ فقالوا: لقد نزعت مثلها من التوراة، رواه ابن جرير، ثم روى نحوه عن ابن عباس. و هذا يحتمل معنيين: **أحدهما**: أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان، و إن كنا لا نعلمه، و كذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل، وهذا أظهر. **الثاني**: أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشّى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش و عرضها، كما قال الله عز وجل ﴿كعرض السماء و الأرض﴾ و النار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السموات و الأرض و بين وجود النار، و الله أعلم.

١٣٤ – ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال ﴿الذين ينفقون في السراء و الضراء﴾ أي في الشدة و الرخاء و المنشط و المكره و الصحة و المرض، و في جميع الأحوال، كما قال ﴿الذين ينفقون أموالهم سراً و علانية﴾ و المعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى و الإنفاق في مراضيه، و الإحسان إلى خلقه من قراباتهم و غيرهم بأنواع البر. و قوله تعالى: ﴿و الكاظمين الغيظ و العافين عن الناس﴾ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه، و عفوا مع ذلك عمن أساء إليهم. و روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «ليس الشديد بالصُّرَعَة، و لكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» و قد رواه الشيخان. و روى الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله و هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله «أيكم مالُ وارثه أحب إليه من ماله» قال: قالوا: يارسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال «اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله، مالك من مالك إلا ما قدمت، و مال وارثك ما أخرت» قال: و قال رسول الله ﷺ «ما تعدون الصرعة فيكم؟» قلنا: الذي لا تصرعه الرجال، قال: «لا و لكن الذي يملك نفسه عند الغضب». قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تعدون فيكم الرَّقُوب؟» قلنا: الذي لا ولد له. قال «الذي لم يقدم من ولده شيئاً» أخرج البخاري الفصل الأول منه، و أخرج مسلم أصل هذا الحديث.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن جارية بن قدامة السعدي أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لي قولاً ينفعني و أقلل عليّ لعلي أعيه، فقال رسول الله ﷺ: «لا تغضب» فأعاد عليه حتى أعاد مراراً كل ذلك يقول «لا تغضب».

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله أوصني، قال: «لا تغضب» قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله، انفرد به أحمد.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس، عن أبيه أن رسول الله قال «من كظم غيظاً و هو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء» و رواه أبو داود و الترمذي و ابن ماجه. فقوله تعالى: ﴿و الكاظمين الغيظ﴾ أي لا يُعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم، و يحتسبون ذلك عند الله عز وجل. ثم قال تعالى: ﴿و العافين عن الناس﴾ أي مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، و هذا أكمل الأحوال، و لهذا قال ﴿و الله يحب المحسنين﴾ فهذا من مقامات الإحسان، و في الحديث «ثلاث أُقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، و ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، و من تواضع لله رفعه الله»[1].

١٣٥، ١٣٦ – و قوله تعالى: ﴿و الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ أي إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة و الاستغفار. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «إن رجلاً أذنب ذنباً فقال: رب إني أذنبت ذنباً فاغفره، فقال الله عز وجل: عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره

(١) رواه مسلم في صحيحه.

لي، فقال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره، فقال عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء». أخرجاه في الصحيح. و يتأكد الوضوء و صلاة ركعتين عند التوبة لما رواه الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً، نفعني الله بما شاء منه. و إذا حدثني عنه غيره استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، و إن أبا بكر رضي الله عنه حدثني - و صدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ قال «ما من رجل يُذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء - قال مسعر - فيصلي - و قال سفيان - ثم يصلي ركعتين، فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له» و هكذا رواه أهل السنن و ابن حبان في صحيحه، و بالجملة فهو حديث حسن، و هو من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن خليفة النبي أبي بكر الصديق رضي الله عنهما. و مما يشهد بصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أشهد أن محمداً عبده و رسوله، إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء».

و في الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم وضوء النبي ﷺ، ثم قال: سمعت النبي ﷺ يقول «من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يُحَدِّث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه» فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، عن سيد الأولين و الآخرين، و رسول رب العالمين، كما دل عليه الكتاب المبين، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين، و قد روى عبد الرزاق عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية ﴿و الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ الآية، بكى.

وقوله تعالى: ﴿و من يغفر الذنوب إلا الله﴾ أي لا يغفرها أحد سواه، و قوله ﴿و لم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ أي تابوا من ذنوبهم و رجعوا إلى الله عن قريب، و لم يستمروا على المعصية و يصروا عليها غير مقلعين عنها، و لو تكرر منهم الذنب تابوا عنه، و قوله ﴿و هم يعلمون﴾ قال مجاهد و عبد الله بن عبيد ابن عمير ﴿وهم يعلمون﴾ أن من تاب تاب الله عليه، و هذا كقوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ وكقوله ﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ ونظائر هذا كثيرة جداً. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال و هو على المنبر «ارحموا تُرحموا، و اغفروا يُغفَر لكم، ويل لأقماع القول[1] ويل للمصرين الذين يُصِرّون على ما فعلوا و هم يعلمون» تفرد به أحمد.

١٣٦- ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾ أي جزاؤهم على هذه الصفات ﴿مغفرة من ربهم و جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من أنواع المشروبات ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها ﴿و نعم أجر العاملين﴾ يمدح تعالى الجنة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ

(١) - أقماع القول: هم الذين يسمعون القول و لا يعونه و لا يحفظونه و لا يعملون به، شبههم بالأقماع جمع قمع يمر به السائل أو المائع اجتيازاً و لا تعي ما يفرغ فيها. (انظر النهاية لابن الأثير).

لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

١٣٧ – يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد و قتل منهم سبعون **﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾** أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم، و الدائرة على الكافرين، و لهذا قال تعالى: **﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**.

١٣٨ – ثم قال تعالى: **﴿هذا بيان للناس﴾** يعني القرآن فيه بيان الأمور على جليتها، و كيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم **﴿و هدى و موعظة﴾** يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم. و **﴿هدى﴾** لقلوبكم، و **﴿و موعظة للمتقين﴾** أي زاجر عن المحارم و المآثم.

١٣٩ – ثم قال تعالى مسلياً المؤمنين **﴿و لا تهنوا﴾** أي لا تضعفوا بسبب ما جرى **﴿و لا تحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾** أي العاقبة و النصرة لكم أيها المؤمنون.

١٤٠ – **﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾** أي إن كنتم قد أصابتكم جراح و قُتل منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل و جراح **﴿و تلك الأيام نداولها بين الناس﴾** أي نديل عليكم الأعداء تارة، و إن كانت لكم العاقبة، لما لنا في ذلك من الحكمة، و لهذا قال تعالى: **﴿و ليعلم الله الذين آمنوا﴾** قال ابن عباس: في مثل هذا لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء **﴿و يتخذ منكم شهداء﴾** يعني يُقتلون في سبيله و يبذلون مهجهم في مرضاته **﴿و الله لا يحب الظالمين﴾**.

١٤١ – **﴿و ليمحص الله الذين آمنوا﴾** أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب. و إلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به. و قوله **﴿و يمحق الكافرين﴾** أي فإنهم إذا ظفروا بغوا و بطروا، فيكون ذلك سبب دمارهم و هلاكهم و محقهم و فنائهم.

١٤٢ – ثم قال تعالى: **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابرين﴾** أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة و لم تُبتلوا بالقتال و الشدائد، كما قال تعالى في سورة البقرة **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء و الضراء و زلزلوا﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا يفتنون﴾** الآية، و لهذا قال ههنا **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يعلم الله الذين جاهدوا منكم و يعلم الصابرين﴾** أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا و يرى الله منكم المجاهدين في سبيله، و الصابرين على مقاومة الأعداء.

١٤٣ – و قوله **﴿و لقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه و أنتم تنظرون﴾** أي قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم، تتمنون لقاء العدو و تتحرقون عليهم و تودون مناجزتهم و مصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي

تمنيتموه و طلبتموه، فدونكم فقاتلوا و صابروا، و قد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتمنوا لقاء العدو، و سلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، و اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» و لهذا قال تعالى: **﴿فقد رأيتموه﴾** يعني: الموت شاهدتموه وقت لمعان السيوف، و حد الأسنة و اشتباك الرماح، و صفوف الرجال للقتال، و المتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل. و هو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس كما تتخيل الشاة صداقة الكبش، و عداوة الذئب.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) ﴾

١٤٤- لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد و قتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قمئة إلى المشركين، فقال لهم: قتلت محمداً، و إنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس و اعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل، و جوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام، فحصل ضعف و وهن و تأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: **﴿و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾** أي له أسوة بهم في الرسالة، و في جواز القتل عليه، ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف **﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾** أي رجعتم القهقرى **﴿و من ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً و سيجزي الله الشاكرين﴾** أي الذين قاموا بطاعته و قاتلوا عن دينه، و اتبعوا رسوله حياً و ميتاً. و كذلك ثبت في الصحاح و المسانيد و السنن و غيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع، و قد ذكرت ذلك في مسندي الشيخين أبي بكر و عمر رضي الله عنهما أن الصديق رضي الله عنه، تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ.

و روى البخاري عن أبي سلمة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم رسول الله ﷺ و هو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه و قبله و بكى، ثم قال: بأبي أنت و أمي و الله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها، و قال ابن عباس: أن أبا بكر خرج و عمر يحدث الناس فقال: اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه و تركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، و من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: **﴿و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل - إلى قوله - و سيجزي الله الشاكرين﴾** قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله

أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها، و أن عمر قال: و الله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض.

١٤٥ - و قوله تعالى: ﴿و ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ أي لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له، و لهذا قال ﴿كتاباً مؤجلاً﴾ كقوله ﴿و ما يعمر من معمر و لا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ و كقوله ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً و أجل مسمى عنده﴾ و هذه الآية فيها تشجيع للجبناء و ترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام و الإحجام لا ينقص من العمر و لا يزيد فيه. و قوله ﴿و من يرد ثواب الدنيا نؤته منها، و من يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾ أي من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب، و من قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا. كما قال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه و من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها و ماله في الآخرة من نصيب﴾ و قال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * و من أراد الآخرة سعى لها سعيها و هو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ و لهذا قال ههنا ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ أي سنعطيهم من فضلنا و رحمتنا في الدنيا و الآخرة، بحسب شكرهم و عملهم.

١٤٦، ١٤٧، ١٤٨ - ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد ﴿و كأين من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾ قيل: معناه كم من نبي قُتل وقُتل معه ربيون من أصحابه كثير. و هذا القول هو اختيار ابن جرير فإنه قال: و أما الذين قرأوا ﴿قتل معه ربيون كثير﴾ فإنهم قالوا: إنما عنى بالقتل النبي و بعض من معه من الربيين دون جميعهم، و إنما نفى الوهن و الضعف عمن بقي من الربيين ممن لم يقتل، قال: و من قرأ ﴿قاتل﴾ فإنه اختار ذلك، لأنه قال: لو قتلوا لم يكن لقول الله ﴿فما وهنوا﴾ وجه معروف لأنه يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا و لم يضعفوا بعد ما قتلوا، ثم اختار قراءة من قرأ ﴿قتل معه ربيون كثير﴾ لأن الله عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد، و تركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قد قتل، فعذلهم الله على فرارهم و تركهم القتال، فقال لهم ﴿أفإن مات أو قتل﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم و ﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ وقيل: و كم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير، و كلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولاً آخر، فإنه قال: وكأين من نبي أصابه القتل و معه ربيون أي جماعات فما وهنوا بعد نبيهم، و ما ضعفوا عن عدوهم، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله و عن دينهم، و ذلك الصبر ﴿و الله يحب الصابرين﴾ فجعل قوله ﴿معه ربيون كثير﴾ حالاً، و قد نصر هذا القول السهيلي و بالغ فيه، و له اتجاه لقوله ﴿فما وهنوا لما أصابهم﴾ الآية، و كذا حكاه الأموي في مغازيه عن كتاب محمد بن إبراهيم و لم يحك غيره.

و قرأ بعضهم ﴿قاتل معه ربيون كثير﴾ روى سفيان الثوري عن ابن مسعود ﴿ربيون كثير﴾ أي ألوف. و قال ابن عباس ومجاهد و سعيد بن جبير و عكرمة والحسن و قتادة و السدي و الربيع و عطاء الخراساني: الربيون الجموع الكثيرة، و روى عبد الرزاق عن الحسن ﴿ربيون كثير﴾ أي علماء كثير، و عنه أيضاً: علماء صبر أبرار وأتقياء. و حكى ابن جرير عن بعض نحاة البصرة أن الربيين هم الذين يعبدون الرب عز وجل، قال: و رد بعضهم عليه فقال: لو كان كذلك لقيل: الربيون بفتح الراء، و قال ابن زيد: الربيون الأتباع و الرعية، و الربانيون الولاة. ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله و ما ضعفوا و ما استكانوا﴾ قال قتادة و الربيع بن أنس ﴿و ما

ضعفوا﴾ بقتل نبيهم ﴿وما استكانوا﴾ يقول : فما ارتدوا عن بصيرتهم و لا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله ، و قال ابن عباس ﴿وما استكانوا﴾ تخشعوا ، و قال السدي و ابن زيد : و ما ذلوا لعدوهم ، و قال محمد بن إسحاق و السدي و قتادة : أي ما أصابهم ذلك حين قتل نبيهم ﴿و الله يحب الصابرين ﴿ و ما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا و ثبت أقدامنا و انصرنا على القوم الكافرين﴾ أي لم يكن لهم هجيرى إلا ذلك ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ أي : النصر و الظفر و العاقبة ﴿و حسن ثواب الآخرة﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا ﴿و الله يحب المحسنين﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ﴾

١٤٩ - يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين و المنافقين ، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا و الآخرة ، و لهذا قال تعالى : ﴿إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾.

١٥٠ - ثم أمرهم بطاعته و موالاته و الاستعانة به و التوكل عليه ، فقال تعالى : ﴿بل الله مولاكم و هو خير الناصرين﴾.

١٥١ - ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم و الذلة لهم بسبب كفرهم و شركهم ، مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب و النكال ، فقال ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً و مأواهم النار و بئس مثوى الظالمين﴾ و قد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال : «أُعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، و جعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً ، و أُحلت لي الغنائم ، و أُعطيت الشفاعة ، و كان النبي يبعث إلى قومه خاصة و بعثت إلى الناس عامة» و روى سعيد بن منصور أن رسول الله ﷺ قال : «نصرت بالرعب على العدو» رواه مسلم.

١٥٢ - و قوله تعالى : ﴿و لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾ قال ابن عباس : وعدهم الله النصر ، و قد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين في قوله تعالى : ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴿ بلى إن تصبروا و تتقوا و يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ أن ذلك كان يوم أحد ، لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل ، فلما واجهوهم كان الظفر و النصر أول النهار للإسلام ، فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة و فشل بعض المقاتلة ، تأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالثبات و الطاعة ، و لهذا قال ﴿و لقد صدقكم الله وعده﴾ أي أول النهار ﴿إذ تحسونهم﴾ أي تقتلونهم

﴿بإذنه﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم ﴿حتى إذا فشلتم﴾ قال ابن عباس: الفشل الجبن ﴿و تنازعتم في الأمر وعصيتم﴾ كما وقع للرماة ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ و هو الظفر منهم ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ و هم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿و منكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ ثم أدالهم عليكم ليختبركم و يمتحنكم ﴿ولقد عفا عنكم﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع، و ذلك ـ و الله أعلم ـ لكثرة عدد العدو وعددهم، و قلة عدد المسلمين و عددهم، قال ابن جريج: قوله ﴿و لقد عفا عنكم﴾ قال: لم يستأصلكم، وكذا قال محمد بن إسحاق: رواهما ابن جرير ﴿و الله ذو فضل على المؤمنين﴾.

و روى البخاري عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ و أجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة و أمّر عليهم عبدالله بن جبير، و قال: «لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، و إن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا» فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن، قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة. فقال عبد الله بن جبير: عهد إلي النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال له: كذبت يا عدو الله قد أبقى الله لك ما يحزنك، قال أبو سفيان: اعْلُ هُبل. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال «قولوا: الله أعلى و أجل». قال أبو سفيان: لنا العزى و لا عزى لكم. فقال النبي ﷺ «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال «قولوا: الله مولانا و لا مولى لكم». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، و تجدون مثلة لم آمر بها و لم تسوءني.

و روى البخاري أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كان يوم أحد هزم المشركون، فصرخ إبليس: أي عباد الله أخراكم، فرجعت أولاهم فاجْتَلَدَتْ هي و أخراهم، فبصر حذيفة، فإذا هو بأبيه اليمان فقال: أي عباد الله أبي أبي. قال: قالت: فو الله ما احتجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فو الله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله عز وجل. و قال عبد الله بن مسعود: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا ـ حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد ﴿منكم من يريد الدنيا و منكم من يريد الآخرة﴾ و قد روي من غير وجه عن ابن مسعود، و كذا روي عن عبد الرحمن بن عوف و أبي طلحة، رواهن ابن مردويه في تفسيره.

و قوله تعالى: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ روى البخاري عن أنس بن مالك أن عمه يعني أنس بن النضر، غاب عن بدر فقال: غِبتُ عن أول قتال النبي ﷺ لئن أشهدني الله مع رسول الله لَيَرَيَنَّ الله ما أجد، فلقي يوم أحد فَهُزِم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ و أبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل، فما عُرِف حتى عرفته أخته ببنانه بشامة، و به بضع وثمانون من طعنة و ضربة و رمية بسهم، هذا لفظ البخاري، و أخرجه مسلم.

و روى البخاري أيضاً عن عثمان بن موهب، قال: جاء رجل حج البيت فرأى قوماً جلوساً، فقال: من هؤلاء القعود؟ قالوا: هؤلاء قريش. قال من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر فأتاه فقال: إني أسألك عن شيء

فحدثني، قال: سل، قال: أنشدك بحرمة هذا البيت، أتعلم أن عثمان بن عفان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم. قال: فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. فكبَّر، فقال ابن عمر: تعال لأخبرك و لأبين لك عما سألتني عنه، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه، و أما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله ﷺ و كانت مريضة، فقال له رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً و سهمه» و أما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه فبعث عثمان، فكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال النبي ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده فقال: «هذه يد عثمان» اذهب بها الآن معك.

١٥٣- و قوله تعالى: ﴿إذ تصعدون و لا تلوون على أحد﴾ أي صرفكم عنهم إذ تصعدون أي في الجبل هاربين من أعدائكم. و قرأ الحسن و قتادة ﴿إذ تَصْعَدون﴾ أي في الجبل ﴿و لا تلوون على أحد﴾ أي و أنتم لا تلوون على أحد من الدهش و الخوف و الرعب ﴿و الرسول يدعوكم في أخراكم﴾ أي و هو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء، و إلى الرجعة و العودة و الكرة. قال السدي: لما شد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم دخل بعضهم المدينة، و انطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها. فجعل الرسول ﷺ يدعو الناس «إليّ عباد الله، إليّ عباد الله» فذكر الله صعودهم إلى الجبل، ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إياهم، فقال ﴿إذ تصعدون و لا تلوون على أحد و الرسول يدعوكم في أخراكم﴾ وكذا قال ابن عباس و قتادة والربيع و ابن زيد.

و قد روى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاّء وقى بها النبي ﷺ - يعني يوم أحد - وفي الصحيحين من حديث أبي عثمان النهدي قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ، في بعض الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ - إلا طلحة بن عبيد الله و سعد عن حديثهما. و روى الحسن بن عرفة عن سعد بن أبي وقاص قال: نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد و قال: «ارم فداك أبي و أمي»، و أخرجه البخاري.

و ثبت في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقاص قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ و عن يساره رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم و لا بعده، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام. و قال أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار، و اثنين من قريش، فلما أرهقوه قال «من يردهم عنا و له الجنة - أو و هو رفيقي في الجنة» فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، ثم أرهقوه أيضاً، فقال «من يردهم عنا و له الجنة» فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، فلم كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه «ما أنصفنا أصحابنا» رواه مسلم.

و عن عروة بن الزبير، قال: كان أبي بن خلف أخو بني جمح قد حلف و هو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ، فلما بلغت رسول الله حلفته، قال «بل أنا أقتله إن شاء الله» فلما كان يوم أحد، أقبل أُبي في الحديد مقنّعاً و هو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه، فقُتل مصعب بن عمير، و أبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع و البيضة و طعنه فيها بحربته، فوقع إلى الأرض عن فرسه، و لم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه و هو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ

«بل أنا أقتل أبياً» ثم قال: و الذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي، بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين، فمات إلى النار ﴿فسحقاً لأصحاب السعير﴾ و قد رواه موسى بن عقبة في مغازيه.

و ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله ﷺ و هو حينئذ يشير إلى رباعيته، و اشتدَّ غضبُ الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله».

و قد ثبت في الصحيحين عن سهل بن سعد، أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: جرح وجه رسول الله ﷺ و كسرت رباعيته و هشمت البيضة على رأسه ﷺ، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم و كان علي يسكب عليه الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم.

و قوله تعالى: ﴿فأثابكم غماً بغم﴾ أي فجزاكم غماً على غم، كما تقول العرب: نزلت ببني فلان، و نزلت على بني فلان. و قال ابن جرير: وكذا قوله ﴿و لأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي على جذوع النخل، قال ابن عباس: الغم الأول بسبب الهزيمة، و حين قيل قتل محمد ﷺ، و الثاني: حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبي ﷺ: «اللهم ليس لهم أن يعلونا» و عن عبد الرحمن بن عوف: الغم الأول بسبب الهزيمة، و الثاني: حين قيل قتل محمد ﷺ كان ذلك عندهم أشد و أعظم من الهزيمة، رواهما ابن مردويه، و روي عن عمر بن الخطاب نحو ذلك، و ذكر ابن أبي حاتم عن قتادة نحو ذلك أيضاً.

و قال السدي: الغم الأول بسبب ما فاتهم من الغنيمة و الفتح، و الثاني بإشراف العدو عليهم، و قال محمد بن إسحاق ﴿فأثابكم غماً بغم﴾ أي كرباً بعد كرب، قتل مَنْ قتل من إخوانكم، و علو عدوكم عليكم، وما وقع في أنفسكم من قول من قال: قتل نبيكم، فكان ذلك متتابعاً عليكم غماً بغم، قال ابن جرير: و أولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال ﴿فأثابكم غماً بغم﴾ فأثابكم بغمكم أيها المؤمنون بحرمان الله إياكم غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم، و ما أصابكم من القتل و الجراح، يومئذ بعد الذي كان قد أراكم في كل ذلك ما تحبون بمعصيتكم أمر ربكم، و خلافكم أمر نبيكم ﷺ غم ظنكم أن نبيكم قد قتل، و ميل العدو عليكم بعد فلولكم منهم. و قوله تعالى: ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم﴾ أي على ما فاتكم من الغنيمة و الظفر بعدوكم ﴿ولا ما أصابكم﴾ من الجراح و القتل، قاله ابن عباس و عبد الرحمن بن عوف و الحسن و قتادة و السدي، ﴿والله خبير بما تعملون﴾ سبحانه و بحمده لا إله إلا هو جل و علا.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)﴾

١٥٤، ١٥٥ - يقول تعالى ممتناً على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة و الأمنة، و هو النعاس الذي غشيهم وهم مستلئمو السلاح في حال همهم و غمهم، و النعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ الآية، و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس في القتال من الله، و في الصلاة من الشيطان، و روى البخاري عن أبي طلحة قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط و آخذه، و يسقط و آخذه، و قد رواه الترمذي و النسائي و الحاكم عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أحد و جعلت أنظر و ما منهم يومئذ أحد إلا يميل تحت حجفته من النعاس.

و الطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم و أرعبه و أخذله للحق ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ أي إنما هم كذبة أهل شك و ريب في الله عز وجل، قال عز و جل ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم﴾ يعني أهل الإيمان و اليقين و الثبات و التوكل الصادق، و هم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله و ينجز له مأموله، و لهذا قال: ﴿و طائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق و الجزع و الخوف ﴿يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول و المؤمنون إلى أهليهم أبدا﴾ إلى آخر الآية، و هكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة و أن الإسلام قد باد و أهله، و هذا شأن أهل الريب و الشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يقولون﴾ في تلك الحال ﴿هل لنا من الأمر شيء﴾ فقال تعالى: ﴿قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ.

روى ابن إسحاق عن الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فو الله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا، فحفظتها منه، و في ذلك أنزل الله ﴿يقولون لو كان من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ لقول معتب، ورواه ابن أبي حاتم. قال الله تعالى: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ أي هذا قدرٌ قدره الله عز وجل و حكم حتم لا محيد عنه و لا مناص منه، و قوله تعالى: ﴿و ليبتلي الله ما في صدوركم و ليمحص ما في قلوبكم﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب و يظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال و الأفعال ﴿و الله عليم بذات الصدور﴾ أي بما يختلج في الصدور من السرائر و الضمائر.

١٥٥ - ثم قال تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ أي ببعض ذنوبهم السابقة كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، و إن من جزاء السيئة السيئة بعدها، ثم قال تعالى ﴿و لقد عفا الله عنهم﴾ أي عما كان منهم من الفرار ﴿إن الله غفور حليم﴾ أي يغفر الذنب و يحلم عن خلقه و يتجاوز عنهم، و قد تقدم حديث ابن عمر في شأن عثمان و توليه يوم أحد و أن الله قد عفا عنه مع من عفا عنهم عند قوله ﴿و لقد عفا الله عنكم﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) ﴾

١٥٦- ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار و الحروب، لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، فقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا و قالوا لإخوانهم﴾** أي عن إخوانهم **﴿إذا ضربوا في الأرض﴾** أي سافروا للتجارة ونحوها **﴿أو كانوا غزى﴾** أي كانوا في الغزو **﴿لو كانوا عندنا﴾** أي في البلد **﴿ما ماتوا و ما قتلوا﴾** أي ما ماتوا في السفر، وما قتلوا في الغزو، و قوله تعالى: **﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾** أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتهم و قتلهم، ثم قال تعالى رداً عليهم **﴿و الله يحيي و يميت﴾** أي بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، و لا يحيا أحد و لا يموت أحد إلا بمشيئته و قدره، و لا يُزاد في عمر أحد و لا ينقص منه شيء إلا بقضائه و قدره **﴿و الله بما تعملون بصير﴾** أي علمه و بصره نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء.

١٥٧- وقوله تعالى: **﴿و لئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله و رحمة خير مما يجمعون﴾** تضمن هذا أن القتل في سبيل الله و الموت أيضاً، وسيلة إلى نيل رحمة الله و عفوه و رضوانه، و ذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني.

١٥٨- ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره و مرجعه إلى الله عز وجل، فيجزيه بعمله إن خيراً فخير، و إن شراً فشر، فقال تعالى: **﴿و لئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾**.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾

١٥٩- يقول تعالى مخاطباً رسوله، ممتناً عليه و على المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره، التاركين لزجره، و أطاب لهم لفظه **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾** أي: أيُّ شيء جعلك لهم ليناً، لولا رحمة الله بك

وبهم، و قال قتادة ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ يقول فبرحمة من الله لنت لهم، و «ما» صلة، و قال الحسن البصري هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به، و هذه الآية الكريمة شبيه بقوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ وروى الإمام أحمد عن أبي راشد الحبراني قال: أخذ بيدي أبو أمامة الباهلي و قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال «يا أبا أمامة إن من المؤمنين مَنْ يلين لي قلبه»[1] تفرد به أحمد، ثم قال تعالى: ﴿و لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ و الفظ الغليظ، والمراد به ههنا غليظ الكلام، لقوله بعد ذلك ﴿غليظ القلب﴾ أي لو كنت سيء الكلام، قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك و تركوك، و لكن الله جمعهم عليك، و ألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: «إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة إنه ليس بفظ، و لا غليظ، و لا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، و لكن يعفو و يصفح»، و لهذا قال تعالى: ﴿فاعف عنهم و استغفر لهم و شاورهم في الأمر﴾ و لذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطييباً لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، و لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، و لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: «اذهب أنت و ربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، و لكن نقول اذهب، فنحن معك، و بين يديك، و عن يمينك، و عن شمالك مقاتلون» و شاورهم أيضاً أين يكون المنزل، حتى أشار المنذر بن عمرو المُعْنِق ليموت، بالتقدم إلى أمام القوم. و شاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم، و شاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى ذلك عليه السعدان سعد بن معاذ و سعد بن عبادة، فترك ذلك، و شاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجئ لقتال أحد و إنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال، و قال ﷺ في قصة الإفك «أشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي و رموهم، وايم الله ما علمت على أهلي من سوء، و أبنوهم بمن؟ والله ما علمت عليه إلا خيراً» و استشار علياً و أسامة في فراق عائشة رضي الله عنها.

فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها، و قد اختلف الفقهاء هل كان ذلك واجباً عليه أو من باب الندب تطييباً لقلوبهم؟ على قولين. و قد روى الحاكم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿و شاورهم في الأمر﴾ قال: أبو بكر و عمر رضي الله عنهما، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، و لم يخرجاه، و قد روى ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «المستشار مؤتمن» و رواه أبو داود و الترمذي، وحسنه النسائي، و قوله تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر و عزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾.

١٦٠، ١٦١- و قوله تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم و إن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ و هذه الآية كما تقدم من قوله: ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ ثم أمرهم بالتوكل عليه، فقال ﴿و على الله فليتوكل المؤمنون﴾ و قوله تعالى: ﴿و ما كان لنبي أن يغل﴾ قال ابن عباس ومجاهد و الحسن و غير واحد: ما ينبغي لنبي أن يخون. و روى ابن مردويه عن ابن عباس قال: اتهم

(١) معنى «يلين لي قلبه» أي يميل إليّ بالمحبة و المودة، و دليل ذلك الاتباع له كما قال سبحانه ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

المنافقون رسول الله ﷺ بشيء فُقِد ، فأنزل الله تعالى : ﴿و ما كان لنبي أن يغل﴾ و روي من غير وجه عن ابن عباس نحو ما تقدم ، و هذا تنزيه له صلوات الله و سلامه عليه من جميع وجوه الخيانة ، في أداء الأمانة ، و قسم الغنيمة و غير ذلك . و قال محمد بن إسحاق ﴿و ما كان لنبي أن يغل﴾ بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلغه أمته . و قرأ الحسن البصري و طاوس و مجاهد و الضحاك ﴿و ما كان لنبي أن يُغَل﴾ بضم الياء أي : يخان . ثم قال تعالى : ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ و هذا تهديد شديد و وعيد أكيد ، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة ، روى الإمام أحمد عن المستورد بن شداد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «مَنْ وَلِي لنا عملاً و ليس له منزل فليتخذ منزلاً ، أوليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً ، أو ليست له دابة فليتخذ دابة ، و من أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غال» .

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن أبي حميد الساعدي قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللُّتبية على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم و هذا أهدي لي . فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال «ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول : هذا لكم و هذا أهدي لي ، أفلا جلس في بيت أبيه و أمه فينظر أيُهدى إليه أم لا ؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ، إن كان بعيراً له رُغاء ، أو بقرة لها خُوار ، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ، ثم قال «اللهم هل بلغت» ثلاثاً . و زاد هشام ابن عروة فقال أبو حميد : بصرته بعيني و سمعته بأذني ، و اسألوا زيد بن ثابت ، أخرجاه .

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن عدي بن عميرة الكندي قال : قال رسول الله ﷺ «يا أيها الناس من عمل لنا منكم عملاً فكتمنا منه مخيطاً فما فوقه ، فهو غلٌ يأتي به يوم القيامة» قال : فقام رجل من الأنصار أسود ، قال مجالد : هو سعد بن عبادة كأني أنظر إليه . فقال : يا رسول الله اقبل عني عملك . قال «و ما ذاك ؟» قال : سمعتك تقول : كذا و كذا ، قال «و أنا أقول ذاك الآن ، مَنْ استعملناه على عملٍ فليجئ بقليله وكثيره ، فما أوتي منه أخذه ، و ما نُهي عنه انتهى» و كذا رواه مسلم و أبو داود .

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : فلان شهيد و فلان شهيد ، حتى أتوا على رجل فقالوا : فلان شهيد ، فقال رسول الله ﷺ «كلا إني رأيته في النار في بُردة غلّها ، أو عباءة» ثم قال رسول الله ﷺ «يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس : إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون» قال : فخرجت فناديت : ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، و كذا رواه مسلم والترمذي .

١٦٢ – و قوله تعالى : ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله و مأواه جهنم و بئس المصير﴾ أي لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله و جزيل ثوابه ، و أجير من وبيل عقابه ، و من استحق غضب الله و ألزمه فلا محيد له عنه ، و مأواه يوم القيامة جهنم و بئس المصير ، و هذه الآية لها نظائر كثيرة في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ ، و كقوله ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ الآية .

١٦٣ – ثم قال تعالى : ﴿هم درجات عند الله﴾ ، قال الحسن البصري و محمد بن إسحاق : يعني أهل الخير

وأهل الشر درجات، و قال أبو عبيدة و الكسائي: منازل، يعني متفاوتون في منازلهم و درجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار، كقوله تعالى: ﴿ولكل درجت مما عملوا﴾ الآية، و لهذا قال تعالى: ﴿و الله بصير بما يعملون﴾ أي و سيوفيهم إياها، لا يظلمهم خيراً و لا يزيدهم شراً، بل يجازي كل عامل بعمله.

١٦٤- و قوله تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته و سؤاله، و مجالسته و الانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾ أي من جنسكم، و قال تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿و ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام و يمشون في الأسواق﴾ و قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً توحي إليهم من أهل القرى﴾ و قال تعالى: ﴿يا معشر الجن و الإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته و مراجعته في فهم الكلام عنه، و لهذا قال تعالى: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ يعني القرآن ﴿و يزكيهم﴾ أي يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم، و تطهر من الدنس و الخبث، الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم و جاهليتهم، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ يعني القرآن و السنة، ﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي من قبل هذا الرسول ﴿لفي ضلال مبين﴾ أي لفي غيّ و جهل، ظاهر جلي بيّن لكل أحد.

﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾

١٦٥- يقول تعالى: ﴿أولما أصابتكم مصيبة﴾ و هي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم ﴿قد أصبتم مثليها﴾ يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً، و أسروا سبعين أسيراً، ﴿قلتم أنى هذا﴾ أي من أين جرى علينا هذا ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ روى ابن أبي حاتم: عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل، عُوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، و فرّ أصحاب رسول الله ﷺ عنه، و كُسِرت رباعيته، و هشمت البيضة على رأسه، و سال الدم على وجهه، فأنزل الله ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل من عند أنفسكم﴾ بأخذكم الفداء. و هكذا رواه الإمام أحمد، و هكذا قال الحسن البصري، و روي عن جرير عن علي رضي الله عنه، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله قد كره ما صنع قومك في أخذهم الأسارى، و قد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم، و بين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم، قال: فدعا رسول الله ﷺ الناس، فذكر لهم ذلك فقالوا: يا رسول الله، عشائرنا و إخواننا ألا نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا، ويستشهد منا عدتهم، فليس في ذلك ما نكره؟ قال: فقُتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً، عدة أسارى أهل بدر، و هكذا رواه النسائي والترمذي.

و قال محمد بن إسحاق و ابن جريج و الربيع بن أنس و السدي ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم يعني بذلك الرُّماة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي : يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه .

١٦٦- ثم قال تعالى : ﴿و ما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم و قتلهم لجماعة منكم و جراحتهم لآخرين ، كان بقضاء الله و قدره ، و له الحكمة في ذلك ﴿و ليعلم المؤمنين﴾ أي الذين صبروا و ثبتوا و لم يتزلزلوا .

١٦٧- ﴿و ليعلم الذين نافقوا و قيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق ، فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال و المساعدة ، و لهذا قال ﴿أو ادفعوا﴾ قال ابن عباس و عكرمة وسعيد بن جبير و الضحاك و أبو صالح والحسن و السدي : يعني كَثِّروا سواد المسلمين ، و قال الحسن بن صالح : ادفعوا بالدعاء ، و قال غيره : رابطوا ، فتعللوا قائلين ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ قال مجاهد : يعنون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم ، و لكن لا تلقون قتالاً . قال الله عز وجل : ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال ، فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، و في حال أقرب إلى الإيمان ، لقوله : ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ . ثم قال تعالى : ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ يعني أنهم يقولون القول و لا يعتقدون صحته ، و منه قولهم هذا ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاؤوا من بلاد بعيدة ، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سَرَاتهم يوم بدر ، و هم أضعاف المسلمين ، أنه كائن بينهم قتال لا محالة . و لهذا قال تعالى : ﴿و الله أعلم بما يكتمون﴾ .

١٦٨- ثم قال تعالى : ﴿الذين قالوا لإخوانهم و قعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قُتلوا مع من قتل ، قال الله تعالى : ﴿قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي إن كان القعود يَسْلم به الشخص من القتل و الموت ، فينبغي أنكم لا تموتون ، و الموت لا بد آتٍ إليكم و لو كنتم في بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . قال مجاهد عن جابر بن عبد الله : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ
اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ
وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ
النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾
فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا

﴿ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾

١٦٩ ، ١٧٠ - يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم و إنْ قُتلوا في هذه الدار ، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار . روى ابن جرير عن أنسَ بن مالك في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله ﷺ إلى أهل بئر معونة ، قال : لا أدري أربعين أو سبعين ، و على ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري ، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء ، فقال - أراه ابن ملحان الأنصاري - أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فخرج حتى أتىَ حياً منهم فاختبأ أمام البيوت ، ثم قال : يا أهل بئر معونة ، إني رسول رسول الله إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده و رسوله ، فآمنوا بالله و رسوله ، فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح ، فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر ، فقال : الله أكبر فُزْتُ و رب الكعبة ، فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل ، و قال إسحاق : حدثني أنس بن مالك أن الله أنزل فيهم قرآناً : «بلِّغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا و رضينا عنه» ، ثم نُسِخت فرُفعت بعد ما قرأناها زماناً ، وأنزل الله تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ .

و قد روى مسلم عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال «أرواحهم في جوف طيرٍ خُضر ، لها قناديل معلَّقة بالعرش ، تَسْرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطِّلاعة فقال : هل تشتهون شيئا؟ فقالوا : أي شيء نشتهي و نحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا ، قالوا : يا ربِ نُريد أن تَردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتلَ في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة ، تُركوا» .

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «ما من نفسٍ تموت لها عند الله خير ، يَسرُّها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد ، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فَيُقتل مرة أخرى ، لما يرى من فضل الشهادة» تفرد به مسلم .

و قد ثبت في الصحيحين و غيرهما : أن أبا جابر و هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنه ، قتل يوم أحد شهيداً . روى البخاري عن ابن المنكدر : سمعت جابراً قال لما قتل أبي : جعلت أبكي و أكشف الثوب عن وجهه ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني و النبي ﷺ لم ينه ، و قال النبي ﷺ «لا تبكيه - أو ما تبكيه - ما زالت الملائكة تُظلُّه بأجنحتها حتى رُفع» .

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «لما أُصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في أجوافِ طيرٍ خُضر ، ترد أنهار الجنة ، و تأكل من ثمارها ، و تأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم و مأكلهم ، و حسن منقلبهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنعَ الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ، و لا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله عز وجل هذه الآيات ﴿و لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ و ما بعدها» ، وكذا رواه ابن

جرير و رواه أبو داود و الحاكم.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة و عشياً» تفرد به أحمد. و قد رواه ابن جرير و هو إسناد جيد. و كأن الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، و منهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، و قد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر، فيجتمعون هنالك، و يُغدى عليهم برزقهم هناك و يراح، و الله أعلم. و قد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها، و تأكل من ثمارها، و ترى ما فيها من النضرة و السرور، و تشاهد ما أعده الله لها من الكرامة، و هو إسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، فإن الإمام أحمد رحمه الله، رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله، عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «نسمة المؤمن طائر يَعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» قوله «يعلق» أي يأكل، و في هذا الحديث إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة، و أما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿**فرحين بما آتاهم الله**﴾ إلى آخر الآية، أي الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند ربهم، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة و الغبطة، و مستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، و أنهم لا يخافون مما أمامهم و لا يحزنون على ما تركوه وراءهم، نسأل الله الجنة.

قال محمد ابن إسحاق ﴿**و يستبشرون**﴾ أي و يسرون بلحوق من خلفهم من إخوانهم، على ما مضوا عليه من جهادهم، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم.

و قد ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غَدَاة واحدة، و قنت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم و يلعنهم، قال أنس: و نزل فيهم قرآن قرأناه حتى رُفع «أن بَلِّغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا و أرضانا».

١٧١- ثم قال تعالى: ﴿**يستبشرون بنعمة من الله و فضل و أن الله لا يضيع أجر المؤمنين**﴾ قال محمد بن إسحاق: استبشروا و سُرُّوا لما عاينوا من وفاء الموعود و جزيل الثواب. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء و غيرهم، و قلما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء و ثواباً أعطاهم الله إياه، إلا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم.

١٧٢- و قوله تعالى: ﴿**الذين استجابوا لله و الرسول من بعد ما أصابهم القرح**﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين، كروا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تمموا على أهل المدينة و جعلوها الفيصلة، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليُرعبهم و يريهم أن بهم قوة و جلداً، و لم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، لما سنذكره، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح و الإثخان، طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ. روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما رجع المشركون عن أحد، قالوا: لا محمداً قتلتم، و لا

الكواعب أردفتم، بئس ما صنعتم، ارجعوا، فسمع رسول الله ﷺ بذلك، فندب المسلمين، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد - أو بئر أبي عيينة - الشك من سفيان - فقال المشركون: نرجع من قابل، فرجع رسول الله ﷺ، فكانت تعد غزوة، فأنزل الله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله و الرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم و اتقوا أجر عظيم﴾ و رواه ابن مردويه عن عكرمة عن ابن عباس فذكره.

و روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ﴿الذين استجابوا لله و الرسول﴾ الآية، قلت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير و أبو بكر رضي الله عنهما، لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، و انصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، فقال «مَنْ يرجع في أثرهم؟» فانتدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر و الزبير رضي الله عنهما.

١٧٣- و قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً﴾ الآية، أي الذين توعدهم الناس بالجموع و خوفهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك، بل توكلوا على الله و استعانوا به، ﴿وقالوا حسبنا الله و نعم الوكيل﴾. روى البخاري عن ابن عباس ﴿حسبنا الله و نعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، و قالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا الله و نعم الوكيل.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس في قوله: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾، قال: قال رسول الله ﷺ «كيف أنعم وصاحبُ القرن قد التقم القرن، و حَنَى جبهته يَسمع متى يؤمر فينفخ؟» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما نقول؟ قال «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا» و قد روي هذا من غير وجه، و هو حديث جيد.

١٧٤- و لهذا قال تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء﴾ أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم و ردّ عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم ﴿بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء﴾ مما أضمر لهم عدوهم ﴿و اتبعوا رضوان الله و الله ذو فضل عظيم﴾. و قال مجاهد في قول الله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ قال: هذا أبو سفيان، قال لمحمد ﷺ، موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا. فقال محمد ﷺ «عسى» فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدراً، فوافقوا السوق فيها، فابتاعوا، فذلك قول الله عز وجل: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله و فضل لم يمسسهم سوء﴾ الآية، قال: و هي غزوة بدر الصغرى، رواه ابن جرير.

١٧٥- ثم قال تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ أي يخوفكم أولياءه، و يوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال الله تعالى: ﴿فلا تخافوهم و خافون إن كنتم مؤمنين﴾ أي إذا سوّل لكم و أوهمكم فتوكلوا علي والجأوا إلي، فإني كافيكم و ناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده و يخوفونك بالذين من دونه﴾ إلى قوله ﴿قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾ و قال تعالى: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ وقال تعالى: ﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ و قال تعالى ﴿كتب الله لأغلبن أنا و رسلي إن الله قوي عزيز﴾ و قال ﴿و لينصرن الله من ينصره﴾ و قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا و الذين آمنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد ❁ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم و لهم اللعنة و لهم سوء الدار﴾.

﴿وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾

١٧٦- يقول تعالى لنبيه ﷺ: **﴿و لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾** و ذلك من شدة حرصه على الناس، كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة و العناد و الشقاق، فقال تعالى: لا يحزنك ذلك **﴿إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾** أي حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته و قدرته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة **﴿و لهم عذاب عظيم﴾**.

١٧٧- ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقرراً: **﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان﴾** أي استبدلوا هذا بهذا **﴿لن يضروا الله شيئاً﴾** أي و لكن يضرون أنفسهم **﴿و لهم عذاب أليم﴾**.

١٧٨- ثم قال تعالى **﴿و لا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً و لهم عذاب مهين﴾** كقوله **﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال و بنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾** و كقوله **﴿فذرني و من يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾** و كقوله **﴿و لا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا و تزهق أنفسهم و هم كافرون﴾**.

١٧٩- ثم قال تعالى: **﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾** أي لا بد أن يعقد سبباً من المحنة، يظهر فيه وليُّه و يفضح به عدوه، يُعرف به المؤمن الصابر، و المنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم و صبرهم و جلدهم و ثباتهم و طاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين فظهر مخالفتهم و نُكُولهم عن الجهاد و خيانتهم لله ولرسوله ﷺ و لهذا قال تعالى: **﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾** قال مجاهد: ميّز بينهم يوم أحد، و قال قتادة: ميز بينهم بالجهاد و الهجرة، روى ذلك كله ابن جرير. ثم قال تعالى: **﴿و ما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾** أي أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه، حتى يميز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك. ثم قال تعالى: **﴿و لكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾** كقوله تعالى: **﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه و من خلفه رصداً﴾** ثم قال تعالى: **﴿فآمنوا بالله و رسله﴾** أي أطيعوا الله و رسوله و اتبعوه فيما شرع لكم **﴿وإن تؤمنوا و تتقوا فلكم أجر عظيم﴾**.

١٨٠ - و قوله تعالى : ﴿و لا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم﴾ أي لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه ، بل هو مضرة عليه في دينه ، و ربما كان في دنياه . ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة ، فقال ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ ، روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك» ثم تلا هذه الآية ﴿و لا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم﴾ إلى آخر الآية . و قوله تعالى ﴿و لله ميراث السموات و الأرض﴾ أي ﴿فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل . فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿و الله بما تعملون خبير﴾ أي بنياتكم و ضمائركم .

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾

١٨١ ، ١٨٢ - روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه بيت المدراس فوجد من يهود أناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، و كان من علمائهم و أحبارهم ، و معه حبر يقال له أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله و أسلم ، فو الله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة و الإنجيل . فقال فنحاص : و الله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، و إنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، و إنا عنه لأغنياء ، و لو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا و يعطناه ، و لو كان غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، و قال : و الذي نفسي بيده لو لا الذي بيننا و بينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : «ما حملك على ما صنعت ؟» فقال : يا رسول الله ، إن عدو الله قد قال قولاً عظيماً ، زعم أن الله فقير و أنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك ، غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه ، فجحد فنحاص ذلك ، و قال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير و نحن أغنياء﴾ الآية ، رواه ابن أبي حاتم . و قوله ﴿سنكتب ما قالوا﴾ تهديد و وعيد ، و لهذا قرنه تعالى بقوله : ﴿و قتلهم الأنبياء بغير حق﴾ أي هذا قولهم في الله ، و هذه معاملتهم لرسل الله ، و سيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ، و لهذا قال تعالى : ﴿و نقول ذوقوا عذاب الحريق ♦ ذلك بما قدمت أيديكم و أن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً و توبيخاً و تحقيراً و تصغيراً .

١٨٣- و قوله تعالى: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾ يقول تعالى تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم، أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته، فتُقُبِّلت منه، أن تنزل نار من السماء تأكلها، قاله ابن عباس و الحسين وغيرهما: قال الله عز وجل: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات﴾ أي بالحجج و البراهين، ﴿و بالذي قلتم﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة، ﴿فلم قتلتموهم﴾ أي فلم قابلتموهم بالتكذيب و المخالفة و المعاندة وقتلتموهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنكم تتبعون الحق، و تنقادون للرسل.

١٨٤- ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات و الزبر والكتاب المنير﴾ أي لا يهيدنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل، الذين كُذِّبوا مع ما جاءوا به من البينات، و هي الحجج و البراهين القاطعة، ﴿و الزبر﴾ و هي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين، ﴿و الكتاب المنير﴾ أي البين الواضح الجلي.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦) ﴾

١٨٥- يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام﴾ فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت، و الجن و الإنس يموتون، وكذلك الملائكة و حملة العرش، و ينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة و البقاء، فيكون آخراً كما كان أولاً، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة و فرغت النطفة التي قدر الله وجودها في صلب آدم و انتهت البرية، أقام الله القيامة و جازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها و قليلها، كبيرها و صغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، و لهذا قال تعالى: ﴿و إنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾. و قوله: ﴿فمن زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز﴾ أي من جُنِّب النار و نجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز. روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «موضعُ سوطٍ في الجنة خير من الدنيا و ما فيها، اقرؤوا إن شئتم ﴿فمن زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز﴾» هذا حديث ثابت في الصحيحين، من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة. و تقدم عند قوله تعالى: ﴿و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون﴾ ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ «مَنْ أحب أن يُزحزح عن النار و أن يدخل الجنة، فلتدركه منيته و هو يؤمن بالله و اليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس ما يحب أن يُؤتى إليه». و قوله تعالى: ﴿و ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ تصغير لشأن الدنيا، و تحقير لأمرها، و أنها دنيئة فانية، قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا ❁ و الآخرة خير و أبقى﴾ و قال تعالى ﴿و ما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا و زينتها و ما عند الله خير و أبقى﴾ و في الحديث «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما

يغمس أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع إليه» و قال قتادة في قوله تعالى: ﴿و ما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ قال: هي متاع، هي متاع، متروكة، أوشكت ـ و الله الذي لا إله إلا هو ـ أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم، و لا قوة إلا بالله.

١٨٦ـ و قوله تعالى: ﴿لتبلون في أموالكم و أنفسكم﴾ كقوله تعالى: ﴿و لنبلونكم بشيء من الخوف و الجوع ونقص من الأموال و الأنفس و الثمرات﴾ إلى آخر الآيتين، أي لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، و يبتلى المؤمن على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء ﴿و لتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم و من الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسلياً لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب و المشركين، و آمراً لهم بالصفح و الصبر و العفو حتى يفرج الله، فقال تعالى: ﴿و إن تصبروا و تتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾.

و قد روى البخاري عن أسامة بن زيد حدثه أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكية، و أردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول، قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، و إذا في المجلس أخلاط من المسلمين و المشركين عبدة الأوثان و أهل الكتاب اليهود و المسلمين، و في المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة، خمَّر عبد الله بن أبي أنفه بردائه و قال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ، ثم وقف فنزل، ودعاهم إلى الله عز وجل و قرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء، إنه لا أُحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا. ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: بل يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون و المشركون و اليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ «يا سعد ألم تسمع إلى ما قاله أبو حباب» يريد عبد الله بن أبي، قال: كذا و كذا، فقال سعد: يا رسول الله، اعف عنه و اصفح، فوالله الذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، و لقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه و يعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله، شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ و كان رسول الله ﷺ، و أصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، و يصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿و لتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم و من الذين أشركوا أذى كثيراً﴾ الآية و قال تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا و اصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ الآية، و كان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن له فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال عبد الله بن أبي بن سلول و من معه من المشركين و عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام و أسلموا.

فكل من قام بحق أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر فلا بد أن يؤذى فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله و الرجوع إلى الله عز وجل.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) ﴾

١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ – هذا توبيخ من الله و تهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمدﷺ، و أن ينوهوا بذكره في الناس، ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا و الآخرة بالدون الطفيف، و الحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، و بئست البيعة بيعتهم، و في هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، و لا يكتموا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبيﷺ، أنه قال: «مَنْ سُئِل عن علم فكتمه أُلجمَ يوم القيامة بلجام من نار».

و قوله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا و يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا، كما جاء في الصحيحين عن النبيﷺ «مَنْ ادَّعى دعوةً كاذبة ليتكثر بها، لم يزده الله إلا قلة». و في الصحيح أيضاً «المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زُور» و روى الإمام أحمد أن مروان قال: لبوابه اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى، و أحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون. فقال ابن عباس: و ما لكم و هذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس ﴿و إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس و لا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم و اشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ◆ لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا و يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية. و قال ابن عباس: سألهم النبيﷺ عن شيء فكتموه إياه و أخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، و فرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه، و هكذا رواه البخاري و مسلم.

وروى البخاري عن أبي سعيد الخدريرضي الله عنه: أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول اللهﷺ كان إذا خرج رسول اللهﷺ إلى الغزو وتخلفوا عنه، و فرحوا بمقعدهم خلاف رسول اللهﷺ فإذا قدم رسول اللهﷺ من الغزو اعتذروا إليه و حلفوا، و أحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا و يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية، و كذا رواه مسلم. و لا منافاة بين ما ذكره ابن عباس و ما قاله هؤلاء، لأن الآية عامة في جميع ما ذُكر، والله أعلم. و قوله تعالى: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، و بالياء على الإخبار عنهم، أي لا يحسبون أنهم ناجون من العذاب بل لا بد لهم منه، و لهذا قال تعالى: ﴿و لهم عذاب أليم﴾ ثم قال تعالى ﴿و لله ملك السموات و الأرض و الله على كل شيء قدير﴾ أي هو مالك كل شيء، و القادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، فهابوه و لا تخالفوه، و احذروا غضبه و نقمته فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، و القدير الذي لا أقدر منه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)﴾

١٩٠- و معنى الآية أن الله تعالى يقول: **﴿إن في خلق السموات و الأرض﴾** أي هذه في ارتفاعها و اتساعها، و هذه في انخفاضها و كثافتها و اتضاعها، و ما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت و بحار و جبال و قفار و أشجار و نبات، و زروع و ثمار، و حيوان و معادن، و منافع مختلفة الألوان والروائح و الطعوم و الخواص، **﴿و اختلاف الليل و النهار﴾** أي تعاقبهما و تقارضهما الطول و القصر، فتارة يطول هذا و يقصر هذا، ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، و يقصر الذي كان طويلاً. وكل ذلك تقدير العزيز العليم، و لهذا قال تعالى **﴿لآيات لأولي الألباب﴾** أي العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، و ليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم **﴿و كأين من آية في السموات و الأرض يمرون عليها و هم عنها معرضون ❁ و ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾**.

١٩١- ثم وصف تعالى أولي الألباب، فقال: **﴿الذين يذكرون الله قياماً و قعوداً و على جنوبهم﴾**. كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ قال «صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك» أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم و ضمائرهم و ألسنتهم، **﴿و يتفكرون في خلق السموات و الأرض﴾** أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق و قدرته، و علمه وحكمته و اختياره و رحمته. و قال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة و لي فيه عبرة، و عن الحسن البصري أنه قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، و قال الفضيل قال الحسن: الفكرة مرآة تريك حسناتك و سيئاتك، و قال سفيان بن عيينة: الفكرة نور يدخل قلبك. وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله عز وجل حسن، و الفكرة في نعم الله أفضل العبادة. و قال الحسن البصري: يا ابن آدم، كل في ثلث بطنك، و اشرب في ثلثه، و دع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة. و قال بشر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه.

و قد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته و صفاته و شرعه و قدره و آياته، فقال **﴿وكأين من آية في السموات و الأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾** و مدح عباده المؤمنين **﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً و على جنوبهم و يتفكرون في خلق السموات و الأرض﴾** قائلين **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾** أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً، بل بالحق لتجزي الذين أساؤوا بما عملوا، و تجزي الذين أحسنوا بالحسنى. ثم نزهوه عن العبث و خلق الباطل، فقالوا **﴿سبحانك﴾** أي عن أن تخلق شيئاً باطلاً **﴿فقنا عذاب النار﴾** أي يا من خلق

الخلق بالحق و العدل، يامن هو منزه عن النقائص و العيب و العبث، قنا من عذاب النار بحولك و قوتك وقيضنا لأعمال ترضى بها عنا. و وفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، و تجيرنا به من عذابك الأليم.

١٩٢- ثم قالوا **﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾** أي أهنته و أظهرت خزيه لأهل الجمع **﴿و ما للظالمين من أنصار﴾** أي يوم القيامة لا مجير لهم منك. و لا محيد لهم عما أردت بهم.

١٩٣- **﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾** أي داعياً يدعو إلى الإيمان، و هو الرسول ﷺ **﴿أن آمنوا بربكم فآمنا﴾** أي يقول آمنوا بربكم فآمنا، أي فاستجبنا له و اتبعناه، أي بإيماننا و اتبعنا نبيك، **﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾** أي استرها، **﴿و كفر عنا سيئاتنا﴾** فيما بيننا و بينك، **﴿و توفنا مع الأبرار﴾** أي ألحقنا بالصالحين.

١٩٤- **﴿ربنا و آتنا ما وعدتنا على رسلك﴾** قيل: معناه على الإيمان برسلك، و قيل: معناه على ألسنة رسلك. و هذا أظهر. **﴿و لا تخزنا يوم القيامة﴾** أي على رؤوس الخلائق، **﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾** أي لا بد من الميعاد الذي أَخْبرتْ عنه رسلك، و هو القيام يوم القيامة بين يديك، و قد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فروى البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بتُّ عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء، فقال **﴿إن في خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولي الألباب﴾** الآيات، ثم قام فتوضأ و استنَّ، فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى بالناس الصبح. وهكذا رواه مسلم.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾

١٩٥- يقول تعالى: **﴿فاستجاب لهم ربهم﴾** أي فأجابهم ربهم، و معنى الآية: أنَّ المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم، عقَّب ذلك بفاء التعقيب، كما قال تعالى: **﴿و إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي و ليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾** و قوله تعالى: **﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر و أنثى﴾** هذا تفسير للإجابة، أي قال لهم مجيباً لهم أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى، و قوله **﴿بعضكم من بعض﴾** أي جميعكم في ثوابي سواء، **﴿فالذين هاجروا﴾** أي تركوا دار الشرك و أتوا إلى دار الإيمان، و فارقوا الأحباب و الإخوان و الخلان والجيران، **﴿و أخرجوهم من ديارهم﴾** أي ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجؤوهم إلى الخروج من بين أظهرهم، و لهذا قال **﴿و أوذوا في سبيلي﴾** أي إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: **﴿يخرجون الرسول و إياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾** و قال تعالى: **﴿و ما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾**.

و قوله تعالى: **﴿و قاتلوا و قتلوا﴾** و هذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده و يعفر وجهه بدمه و ترابه، و قد ثبت في الصحيحين أن رجلاً قال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلتُ في سبيل الله صابراً

محتسباً مقبلاً غير مدبر، أيكفر الله عني خطاياي؟ قال «نعم ثم قال: كيف قلت؟ فأعاد عليه ما قال، فقال: نعم، إلا الدَّين، قاله لي جبريل آنفاً» و لهذا قال تعالى: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم و لأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري في خلالها من أنواع المشارب من لبن و عسل و خمر و ماء غير آسن، و غير ذلك مما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر. و قوله ﴿ثواباً من عند الله﴾ أضافه إليه و نسبه إليه، ليدل على أنه عظيم، لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً.

و قوله تعالى: ﴿و الله عنده حسن الثواب﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً. روى ابن أبي حاتم(١) عن شداد بن أوس كان يقول: يا أيها الناس، لا تتهموا الله في قضائه، فإنه لا يبغي على مؤمن، فإذا نزل بأحدكم شيء مما يحب، فليحمد الله، و إذا أنزل به شيء مما يكره، فليصبر و ليحتسب، فإن الله عنده حسن الثواب.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)﴾

١٩٦، ١٩٧- يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة و الغبطة و السرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم و يصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجاً، و جميع ما هم فيه ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم و بئس المهاد﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد﴾، و قال تعالى: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾، و قال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ وقال تعالى: ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ أي قليلاً، و قال تعالى: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾.

١٩٨- و هكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا و ذكر أن مآلهم إلى النار، قال بعده ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله و ما عند الله خير للأبرار﴾. و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود: ما من نفس برة و لا فاجرة إلا الموت خير لها، لئن كان براً لقد قال الله تعالى ﴿و ما عند الله خير للأبرار﴾ و كذا رواه عبد الرزاق عنه و قرأ ﴿و لا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً و لهم عذاب مهين﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾

١٩٩- يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، و يؤمنون بما أنزل على محمد مع

(١)- قال ابن أبي حاتم: ذكر عن دحيم بن إبراهيم ثم ساق سنده إلى شداد، و لكن لمعناه الجميل أبقيته.

ماهم مؤمنون به من الكتب المتقدمة، و أنهم خاشعون لله أي مطيعون له، خاضعون متذللون بين يديه، ﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾، أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارات بمحمدﷺ و ذكر صفته و نعته و مبعثه وصفة أمته، و هؤلاء هم خيرة أهل الكتاب و صفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى، و قد قال تعالى في سورة القصص: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ❁ و إذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ❁ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ الآية. و قال تعالى: ﴿و من قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون﴾، و قال تعالى: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل و هم يسجدون﴾، و قال تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً و يقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ❁ و يخرون للأذقان يبكون و يزيدهم خشوعاً﴾.

و هذه الصفات توجد في اليهود، و لكن قليلاً كما وُجد في عبد الله بن سلام و أمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، و لم يبلغوا عشرة أنفس، و أما النصارى فكثير منهم يهتدون و ينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا و لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ الآية، و هكذا قال ههنا ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾ الآية، وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالبرضي الله عنه، لما قرأ سورة «كهيعص» بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطاركة و القساوسة، بكى و بكوا معه حتى أخضبوا لحاهم، و ثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نعاه النبيﷺ إلى أصحابه و قال «إن أخاً لكم بالحبشة قد مات، فصلوا عليه» فخرج إلى الصحراء فصفهم و صلى عليه. وروى ابن أبي حاتم و الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أنس بن مالك، قال: لما توفي النجاشي قال رسول اللهﷺ «استغفروا لأخيكم» فقال بعض الناس: يأمر أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة، فنزلت ﴿و إن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله و ما أنزل إليكم و ما أنزل إليهم خاشعين لله﴾ الآية، و رواه عبد بن حميد. و قال مجاهد ﴿و إن من أهل الكتاب﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب، و قال عباد بن منصور: سألت الحسن البصري عن قول الله ﴿و إن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ الآية، قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمدﷺ فاتبعوه، وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين: للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمدﷺ و بالذي اتبعوا محمداًﷺ، رواهما ابن أبي حاتم.

و قد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى، قال: قال رسول اللهﷺ «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين» فذكر منهم: و رجلٌ من أهل الكتاب من آمن بنبيه و آمن بي، و قوله تعالى: ﴿لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المرذولة منهم، بل يبذلون ذلك مجاناً، و لهذا قال تعالى: ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾، قال مجاهد: ﴿سريع الحساب﴾ يعني سريع الإحصاء، رواه ابن أبي حاتم و غيره.

٢٠٠- و قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا و صابروا و رابطوا﴾ قال الحسن البصري رحمه الله: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم و هو الإسلام، فلا يَدَعوه لسراء و لا لضراء و لا لشدة و لا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، و أن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم، و كذا قال غير واحد من علماء السلف، و أما

المرابطة: فهي المداومة في مكان العبادة و الثبات، و قيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله ابن عباس و سهل بن حنيف و محمد بن كعب القرظي و غيرهم، و روى ابن أبي حاتم ههنا الحديث الذي رواه مسلم و النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا و يرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، و كثرة الخُطَا إلى المساجد، و انتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط». و قيل: المراد بالمرابطة ههنا مرابطة الغزو في نحور العدو، و حفظ ثغور الإسلام و صيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين، و قد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك و ذكر كثرة الثواب فيه، فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ، قال «رباطُ يومٍ في سبيل الله خير من الدنيا و ما عليها».

حديث آخر: و روى مسلم عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ أنه قال «رباط يوم و ليلة خير من صيام شهر و قيامه، و إن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، و أُجرى عليه رزقه و أَمِنَ الفتّان».

حديث آخر: و روى الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «كل ميتٍ يُختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله، فإنه ينمي له عمله إلى يوم القيامة، و يأمن فتنة القبر» و هكذا رواه أبو داود و الترمذي.

حديث آخر: روى الترمذي عن ابن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، و عين باتت تحرس في سبيل الله».

و قوله تعالى: ﴿**و اتقوا الله**﴾ أي في جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن «اتق الله حيثما كنت، و أتبعِ السيئة الحسنة تمحها، و خالق الناس بخلق حسن» ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ أي في الدنيا و الآخرة، و روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول في قول الله عز وجل ﴿**و اتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾ اتقوني فيما بيني و بينكم لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتموني.

انتهى تفسير سورة آل عمران، و لله الحمد و المنة،

نسأله الموت على الكتاب و السنة، آمين...

سورة النساء
ترتيبها ٤ آياتها ١٧٦

روى الحاكم عن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا و ما فيها ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ الآية، و ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ الآية، و ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ و ﴿لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك﴾ الآية، ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه فقد اختلف في ذلك. و روى الحاكم عن ابن عباس يقول: سلوني عن سورة النساء فإني قرأت القرآن و أنا صغير. ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، و لم يخرجاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١)﴾

١- يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه، و هي عبادته وحده لا شريك له، و منبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة، و هي آدم عليه السلام ﴿و خلق منها زوجها﴾ و هي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر، من خلفه و هو نائم، فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها و أنست إليه، و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: خلقت المرأة من الرجل فجعل نهمتها في الرجل، و خلق الرجل من الأرض فجعل نهمته في الأرض، فاحبسوا نساءكم. و في الحديث الصحيح: «إن المرأة خلقت من ضلع، و إن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، و إن استمتعت بها استمتعت بها و فيها عوج». وقوله: ﴿و بث منهما رجالاً كثيراً و نساء﴾ أي وذرأ من آدم و حواء رجالاً كثيراً و نساء، و نشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم و صفاتهم و ألوانهم و لغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد و المحشر.

ثم قال تعالى: ﴿و اتقوا الله الذي تساءلون به و الأرحام﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه. قال إبراهيم و مجاهد والحسن ﴿الذي تساءلون به﴾ أي كما يقال: أسألك بالله و بالرحم، وقال الضحاك: و اتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به، و اتقوا الأرحام أن تقطعوها و لكن بروها و صلوها، قاله ابن عباس و عكرمة و مجاهد و الحسن والضحاك و الربيع و غير واحد. و قرأ بعضهم: و الأرحام بالخفض على العطف على الضمير في به أي تساءلون بالله و بالأرحام، كما قال مجاهد و غيره. و قوله: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم، كما قال: ﴿و الله على كل شيء شهيد﴾. وفي الحديث الصحيح «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك» و هذا إرشاد و أمر بمراقبة الرقيب. ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد و أم واحدة ليعطف بعضهم على بعض، و يحننهم على ضعفائهم. و قد ثبت في صحيح مسلم من حديث جرير ابن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر و هم مجتابو النِّمار - أي من عُرِيِّهم وفقرهم - قام

فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ ، حتى ختم الآية و قال : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و لتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ ، ثم حضهم على الصدقة فقال : «تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من صاع بره ، من صاع تمره» و ذكر تمام الحديث ، و هكذا رواه أحمد و أهل السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة ، و فيها ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ الآية .

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ﴾

٢- يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة ، و ينهى عن أكلها و ضمها إلى أموالهم ، ولهذا قال : ﴿و لا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ قال سفيان الثوري عن أبي صالح : لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدر لك . و قال سعيد بن جبير : لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم ، يقول : لا تبذروا أموالكم الحلال و تأكلوا أموالهم الحرام . و قال سعيد بن المسيب والزهري : لا تعط مهزولاً و تأخذ سميناً . و قال إبراهيم النخعي و الضحاك : لا تعط زائفاً و تأخذ جيداً . و قال السدي : كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ، و يجعل مكانها الشاة المهزولة و يقول : شاة بشاة ، ويأخذ الدرهم الجيد و يطرح مكانه الزيف و يقول درهم بدرهم . و قوله ﴿و لا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير و مقاتل بن حيان و السدي و سفيان بن حسين : أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً . و قوله : ﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾ قال ابن عباس : أي إثماً كبيراً عظيماً . و روي هكذا عن مجاهد و عكرمة وسعيد بن جبير والحسن و ابن سيرين و قتادة ومقاتل بن حيان و الضحاك و أبي مالك و زيد بن أسلم و أبي سنان مثل قول ابن عباس . و المعنى : إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم و خطأ كبير فاجتنبوه .

٣- و قوله : ﴿و إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى﴾ ، أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة و خاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء ، فإنهن كثير و لم يضيق الله عليه .
وروى البخاري عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿و إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾ ، قالت : ياابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله و يعجبه مالها و جمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن . و يبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، و أمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة : قالت عائشة : و إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿ويستفتونك في النساء﴾ ، قالت عائشة : و قول الله عز وجل في الآية الأخرى ﴿و ترغبون أن تنكحوهن﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال و الجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في ماله و جماله من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال . وقوله : ﴿مثنى و ثلاث و رباع﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين و إن شاء

ثلاثاً، وإن شاء ثلاثاً، و إن شاء أربعاً. كما قال الله تعالى: ﴿جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى و ثلاث ورباع﴾ أي منهم من له جناحان، و منهم من له ثلاثة، و منهم من له أربعة، و لا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع، فمن هذه الآية كما قال ابن عباس و جمهور العلماء، لأن المقام مقام امتنان و إباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره. قال الشافعي: و قد دلت سنة رسول اللهﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول اللهﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة، و هذا الذي قاله الشافعي رحمه الله مجمع عليه بين العلماء إلا ما حكى عن طائفة من الشيعة، أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع. و قال بعضهم: بلا حصر. و قد يتمسك بعضهم بفعل رسول اللهﷺ في جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيحين، و إما إحدى عشرة كما جاء في بعض ألفاظ البخاري، و قد علقه البخاري، و قد روينا عن أنس أن رسول اللهﷺ تزوج بخمس عشرة امرأة، و دخل منهن بثلاث عشرة، و اجتمع عنده إحدى عشرة، ومات عنه تسع. و هذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع، و لنذكر الأحاديث في ذلك، روى الإمام أحمد أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم و تحته عشرنسوة فقال له النبيﷺ «اختر منهن أربعاً» فلما كان عهد عمر طلق نساءه، و قسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك، و لعلك لا تمكث إلا قليلاً، وايم الله لتراجعن نساءك و لترجعن في مالك أو لأورثهن منك و لآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال. وهكذا رواه الشافعي والترمذي و ابن ماجه و الدار قطني و البيهقي و غيرهم، و رجاله ثقات على شرط الشيخين. فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوّغ له رسول اللهﷺ سائرهن في بقاء العشرة و قد أسلمن معه فلما أمره بإمساك أربع و فراق سائرهن دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال، فإذا كان هذا في الدوام، ففي الاستئناف بطريق الأولى و الأحرى، و الله سبحانه و تعالى أعلم بالصواب،

(حديث آخر في ذلك) روى أبو داود و ابن ماجه في سننهما عن الحارث بن قيس بن عميرة الأسدي قال: أسلمت و عندي ثمان نسوة فذكرت للنبيﷺ فقال: «اختر منهن أربعاً» و هذا الإسناد حسن. فهذه كلها شواهد بصحة ما تقدم من حديث غيلان كما قاله البيهقي رحمه الله. و قوله: ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾، أي فإن خشيتم من تعداد النساء أن لاتعدلوا بينهن، كما قال تعالى ﴿و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة أو على الجواري السراري فإنه لا يجب قسم بينهن، و لكن يستحب فمن فعل فحسن، و من لا فلا حرج، و قوله: ﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ قال بعضهم ذلك أدنى ألا تكثر عيالكم، قاله زيد بن أسلم و سفيان بن عيينة و الشافعي رحمهم الله، و هو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿و إن خفتم عيلة﴾ أي فقراً ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾

و تقول العرب: عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر، و لكن في هذا التفسير ههنا نظر، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السراري أيضا، و الصحيح قول الجمهور ﴿ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ أي لا تجوروا، يقال: عال في الحكم إذا قسط و ظلم و جار.

٤- و قوله تعالى: ﴿و آتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: النحلة المهر، و قال مقاتل و قتادة و ابن جريج: نحلة أي فريضة. زاد ابن جريج: مسماة، و قال ابن زيد: النحلة في كلام العرب:

الواجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها و ليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، و لا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق، و مضمون كلامهم: أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، و أن يكون طيب النفس بذلك كما يمنح المنيحة و يعطي النحلة طيباً بها كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً، و لهذا قال: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾.

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾

٥- ينهى سبحانه و تعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، أي تقوم بها معايشهم من التجارات و غيرها، و من ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء و هم أقسام، فتارة يكون الحجر للصغر، فإن الصغير مسلوب العبارة، و تارة يكون الحجر للجنون، و تارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة للفلس، و هو ما إذا أحاطت الديون برجل و ضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه، حجر عليه، و قال الضحاك عن ابن عباس، في قوله ﴿و لا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ قال: هم بنوك و النساء، و كذا قال ابن مسعود و الحكم بن عيينة و الحسن و الضحاك: هم النساء و الصبيان، و قال سعيد بن جبير: هم اليتامى، و قال مجاهد و عكرمة و قتادة: هم النساء، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، يقول: لا تعمد إلى مالك و ما خولك الله و جعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنيك ثم تنظر إلى ما في أيديهم و لكن أمسك مالك و أصلحه و كن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم و مؤنتهم و رزقهم، و روى ابن جرير عن أبي موسى قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، و رجل أعطى ماله سفيهاً، و قد قال: ﴿و لا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾، و رجل كان له على رجل دين فلم يُشهد عليه[1]. و قال مجاهد: ﴿و قولوا لهم قولاً معروفاً﴾ يعني في البر و الصلة، و هذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة و من تحت الحَجْر بالفعل من الإنفاق في الكساوي و الأرزاق و الكلام الطيب و تحسين الأخلاق.

٦- و قوله تعالى: ﴿و ابتلوا اليتامى﴾ قال ابن عباس و مجاهد و الحسن و السدي و مقاتل بن حيان: أي اختبروهم ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ قال مجاهد: يعني الحلم، قال الجمهور من العلماء البلوغ في الغلام تارة يكون بالحلم، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد، و في سنن أبي داود عن علي قال: حفظت من رسول الله ﷺ «لا يتم بعد احتلام و لا صمات يوم إلى الليل». و في الحديث الآخر عن عائشة و غيرها من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاثة، عن الصبي حتى يحتلم، و عن النائم حتى يستيقظ، و عن المجنون حتى يفيق»[2]. أو يستكمل خمس عشرة سنة و أخذوا ذلك من الحديث الثابت في

(١) و قد رواه الحاكم مرفوعاً (٢/ ٣٠٢) و صححه الشيخ الألباني حفظه الله في الصحيحة (١٨٠٥). (٢) رواه الإمام أحمد و أبو داود والترمذي و ابن ماجه و غيرهم و هو حديث صحيح.

الصحيحين عن ابن عمر ، قال : عُرِضتُ على النبي ﷺ يوم أحد و أنا ابن أربع عشرة فلم يجزني ، و عرضت عليه يوم الخندق و أنا ابن خمس عشرة فأجازني ، فقال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث : إن هذا الفرق بين الصغير و الكبير . و اختلفوا في إنبات الشعر الخشن حول الفرج ، و هي الشِّعرة ، هل تدل على بلوغ أم لا ؟ على ثلاثة أقوال ، يفرق في الثالث بين صبيان المسلمين فلا يدل على ذلك لاحتمال المعالجة ، و بين صبيان أهل الذمة فيكون بلوغاً في حقهم لأنه لا يتعجل بها ضرب الجزية عليه . فلا يعالجها ، والصحيح أنها بلوغ في حق الجميع لأن هذا أمر جبلي يستوي فيه الناس و احتمال المعالجة بعيد ، ثم قد دلت السنة على ذلك في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عطية القرظي رضي الله عنه قال : عرضنا على النبي ﷺ يوم قريظة ، فكان من أنبت قتل و من لم ينبت خُلِّي سبيله ، فكنت فيمن لم يُنبت فخلي سبيلي ، و قد أخرجه السنن الأربعة بنحوه ، و قال الترمذي : حسن صحيح و إنما كان كذلك لأن سعد بن معاذ كان قد حكم فيهم بقتل المقاتلة و سبي الذرية .

و قوله عز وجل : ﴿فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم﴾ قال سعيد بن جبير : يعني صلاحاً في دينهم وحفظاً لأموالهم . و كذا روي عن ابن عباس و الحسن البصري و غير واحد من الأئمة ، و هكذا قال الفقهاء : متى بلغ الغلام مصلحاً لدينه و ماله انفك الحجر عنه ، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه بطريقه ، و قوله : ﴿و لا تأكلوها إسرافاً و بداراً أن يكبروا﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية ﴿إسرافاً وبداراً﴾ أي مبادرة قبل بلوغهم ، ثم قال تعالى : ﴿و من كان غنياً فليستعفف﴾ من كان في غنية عن مال اليتيم فليستعفف عنه و لا يأكل منه شيئاً ، و قال الشعبي : هو عليه كالميتة و الدم ﴿و من كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ روى ابن أبي حاتم : عن عائشة : ﴿و من كان فقيراً فيلأكل بالمعروف﴾ نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه و يصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه ، و روى أيضاً عن عائشة قالت : أنزلت هذه الآية في والي اليتيم ﴿و من كان غنياً فليستعفف و من كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ بقدر قيامه عليه ، و رواه البخاري . قال الفقهاء : له أن يأكل أقل الأمرين : أجرة مثله أو قدر حاجته ، و اختلفوا هل يرد إذا أيسر ؟ على قولين : أحدهما : لا ، لأنه أكل بأجرة عمله و كان فقيراً ، و هذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي ، لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل ، روى أحمد عن ابن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال : ليس لي مال و لي يتيم ؟ فقال : «كل من مال يتيمك غير مسرف و لا مبذر ، و لا مُتأثِّل مالاً ، ومن غير أن تقي مالك - أو قال - تفدي مالك بماله» . و روى ابن حبان في صحيحه و ابن مردويه عن جابر أن رجلاً قال : يا رسول الله فيم أضرب يتيمي ؟ قال : «ما كنت ضارباً منه ولدك ، غير واق مالك بماله ، و لا متأثل منه مالاً» ويهذا القول و هو عدم أداء البدل ، يقول عطاء بن أبي رباح وعكرمة و إبراهيم النخعي و عطية العوفي و الحسن البصري . و الثاني : نعم ، لأن مال اليتيم على الحظر ، و إنما أبيح للحاجة فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة ، و قد روى ابن أبي الدنيا عن عمر رضي الله عنه : إني أنزلت نفسي من هذا المال بمنزلة والي اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، و إن احتجت استقرضت ، فإذا أيسرت قضيت .

و له طريق أخرى رواها سعيد بن منصور عنه و إسنادها صحيح ، و روى البيهقي عن ابن عباس نحو ذلك ، وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿و من كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ يعني القرض ، قال : و روي عن عبيدة و أبي العالية و أبي وائل و سعيد بن جبير في إحدى الروايات و مجاهد والضحاك و السدي نحو ذلك ، و روي عن ابن عباس في قوله ﴿فليأكل بالمعروف﴾ قال : يأكل بثلاث أصابع ،

وقال عامر الشعبي: لا يأكل منه إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة، فإن أكل منه قضاه، رواه ابن أبي حاتم **﴿ومن كان فقيراً﴾** أي منهم **﴿فليأكل بالمعروف﴾** أي بالتي هي أحسن كما قال في الآية الأخرى **﴿و لا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾** أي لا تقربوه إلا مصلحين له، فإن احتجتم إليه أكلتم منه بالمعروف.

و قوله: **﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم﴾** يعني بعد بلوغهم الحلم و إيناسكم الرشد منهم، فحينئذ سلّموا إليهم أموالهم فإذا دفعتم إليهم أموالهم **﴿فأشهدوا عليهم﴾** و هذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم و سلموا إليهم أموالهم، لئلا يقع من بعضهم جحود و إنكار لما قبضه و تسلمه، ثم قال: **﴿و كفى بالله حسيباً﴾** أي و كفى بالله محاسباً و شهيداً و رقيباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم للأموال: هل هي كاملة موفرة، أو منقوصة مبخوسة مدخلة، مروج حسابها، مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله، و لهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، و إني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنَّ على اثنين، و لا تَلِينَّ مال يتيم».

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

٧- قال سعيد بن جبير و قتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار و لا يورثون النساء و لا الأطفال شيئاً، فأنزل الله: **﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون﴾** الآية، أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستوون في أصل الوراثة، و إن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء، فإنه لُحمةٌ كلحمة النسب.

٨- و قوله: **﴿و إذا حضر القسمة﴾** الآية، قيل: المراد و إذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث **﴿واليتامى و المساكين﴾** فليُرضَخ لهم من التركة نصيب، و أن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام، و قيل يستحب. و اختلفوا هل هو منسوخ أم لا على قولين، فروى البخاري عن ابن عباس: **﴿و إذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى و المساكين﴾**. قال: هي محكمة و ليست بمنسوخة. و عن مجاهد في هذه الآية قال: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم، و هكذا روي عن ابن مسعود و أبي موسى و عبد الرحمن بن أبي بكر و أبي العالية والشعبي و الحسن، و قال ابن سيرين و سعيد بن جبير و مكحول و إبراهيم النخعي و عطاء ابن أبي رباح و الزهري ويحيى بن يعمر: إنها واجبة، و روى ابن أبي حاتم عن ابن سيرين قال: و لي عبيدة وصية فأمر بشاة فذبحت فأطعم أصحاب هذه الآية و قال: لولا هذه الآية لكان هذا من مالي.

ذكر من ذهب إلى أن ذلك أمرٌ بالوصية لهم

روى عبد الرزاق: أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، قسم ميراث أبيه عبد الرحمن و عائشة حية، قالا:

فلم يدع في الدار مسكيناً و لا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه ، قالا : و تلا ﴿و إذا حضر القسمة أولوا القربى﴾ ، قال القاسم : فذكرت ذلك لابن عباس ، فقال: ما أصاب ، ليس ذلك له إنما ذلك إلى الوصية ، و إنما هذه الآية في الوصية يريد الميت يوصي لهم ، رواه ابن أبي حاتم .

ذكر من قال هذه الآية منسوخة بالكلية

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿و إذا حضر القسمة أولوا القربى و اليتامى و المساكين﴾ نسختها آية الميراث فجعل لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدان و الأقربون مما قل منه أو كثر . و روى عن سعيد بن المسيب أنه قال: إنها منسوخة ، كانت قبل الفرائض ، كان ما ترك الرجل من مال أعطى منه اليتيم و الفقير و المسكين وذوي القربى إذا حضروا القسمة ، ثم نسخ بعد ذلك نسختها المواريث فألحق الله بكل ذي حق حقه ، و صارت الوصية من ماله يوصي بها لذوي قرابته حيث شاء . و هكذا روي عن عكرمة و أبي الشعثاء و القاسم بن محمد و أبي صالح و أبي مالك و زيد بن أسلم و الضحاك و عطاء الخراساني و مقاتل بن حيان و ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنهم قالوا : إنها منسوخة ، و هذا مذهب جمهور الفقهاء و الأئمة الأربعة و أصحابهم .

﴿و إذا حضر القسمة﴾ هي قسمة الميراث ، هكذا قال غير واحد ، و المعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون و اليتامى و المساكين قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه ، إذا رأوا هذا يأخذ و هذا يأخذ ، و هم يائسون لا شيء يعطونه ، فأمر الله تعالى و هو الرؤوف الرحيم أن يرضخ لهم شيء من الوسط ، يكون براً بهم و صدقة عليهم ، و إحساناً إليهم و جبراً لكسرهم . كما قال الله تعالى : ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر و آتوا حقه يوم حصاده﴾ و ذم الذين ينقلون المال خفية خشية أن يطلع عليهم المحاويج و ذوو الفاقة . كما أخبر عن أصحاب الجنة ﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين﴾ أي بليل . و قال ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون ✽أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ فـ ﴿دمّر الله عليهم و للكافرين أمثالها﴾ فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه .

٩- و قوله تعالى : ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم﴾ الآية . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هذا في الرجل يحضره الموت ، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته ، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب . فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة ، و هكذا قال مجاهد و غير واحد ، و ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده ، قال : يا رسول الله ، إني ذو مال و لا يرثني إلا ابنة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال «لا» . قال: فالشطر ؟ قال «لا» . قال : فالثلث ؟ قال : «الثلث ، و الثلث كثير» . ثم قال رسول الله ﷺ «إنك إن تذَرْ ورثتك أغنياء ، خيرٌ من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس» و في الصحيح عن ابن عباس قال : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع ، فإن رسول الله ﷺ قال «الثلث ، و الثلث كثير» قال الفقهاء : إن كان ورثة الميت أغنياء ، استحب للميت أن يستوفي في وصيته الثلث ، و إن كانوا فقراء استحب أن ينقص الثلث ، و قيل : المراد بالآية فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿و لا يأكلوها إسرافاً و بداراً أن يكبروا﴾ ، حكاه ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ، و هو قول حسن يتأيّد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً ، ، أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم .

١٠- ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلماً، فإنما يأكل في بطنه ناراً، و لهذا قال **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً و سيصلون سعيراً﴾** أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة. و في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، و ما هن؟ قال: «الشرك بالله، و السحر، و قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، و أكل مال اليتيم، و التولي يوم الزحف، و قذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

و روى ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أُحَرِّج مال الضعيفين: المرأة و اليتيم» أي أوصيكم باجتناب مالهما، و تقدم في سورة البقرة عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾** الآية، انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه و شرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله **﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾** الآية، قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، و شرابهم بشرابهم.

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ﴾

١١- هذه الآية الكريمة و التي بعدها و الآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، و هو مستنبط من هذه الآيات الثلاث و من الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك. و لنذكر منها ما هو متعلق بتفسر ذلك. و أما تقرير المسائل و نصب الخلاف و الأدلة، و الحجاج بين الأئمة، فموضعه كتب الأحكام، و الله المستعان.

و قد ورد الترغيب في تعلم الفرائض، و هذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك، قال ابن عيينة: إنما سمي الفرائض نصف العلم، لأنه يبتلى به الناس كلهم. و روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن جابر بن عبد الله قال: عادني رسول الله ﷺ و أبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رش علي فأفقت، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت **﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾** و كذا رواه مسلم و النسائي.

حديث آخر عن جابر في سبب نزول الآية: روى أحمد عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً، و إن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، و لا ينكحان إلا ولهما مال، قال: فقال «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، و أمهما الثمن، و ما بقي فهو لك». و قد رواه أبو داود و الترمذي و ابن ماجه. و الظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسبب الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي من هذه السورة كما سيأتي، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات، و لم يكن له بنات، و إنما كان يورث كلالة،

ولكن ذكرنا الحديث ههنا تبعاً للبخاري رحمه الله فإنه ذكره ههنا، و الحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية، و الله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة و الكلفة و معاناة التجارة والتكسب و تحمل المشاق، فناسب أن يُعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى، و قد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء في الحديث الصحيح و قد رأى[1] امرأة من السبي فُرِّق بينها و بين ولدها، فجعلت تدور على ولدها، فلما وجدته من السبي أخذته فألصقته بصدرها وأرضعته. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه «أترون هذه طارحةً ولدها في النار و هي تقدر على ذلك»؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال «فو الله لله أرحمُ بعباده من هذه بولدها». و روى البخاري ههنا عن ابن عباس قال: كان المال للولد، و كانت الوصية للوالدين، فنسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، و جعل للأبوين لكل واحد منهما السدس و الثلث، و جعل للزوجة الثمن و الربع، و للزوج الشطر و الربع.

و قوله ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ قال بعض الناس: قوله ﴿فوق﴾ زائدة، و تقديره فإن كن نساء اثنتين كما في قوله ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ و هذا غير مسلم لا هنا و لا هناك. فإنه ليس في القرآن زائد لا فائدة فيه، و هذا ممتنع، ثم قوله ﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾ لو كان المراد ما قالوه لقال: فلهما ثلثا ما ترك و إنما استفيد كون الثلثين للبنتين من حكم الأختين في الآية الأخيرة، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين. و إذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى. و قد تقدم في حديث جابر أن النبي ﷺ، حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين، فدل الكتاب و السنة على ذلك، و أيضاً فإنه قال ﴿و إن كانت واحدة فلها النصف﴾ فلو كان للبنتين في حكم الثلاث، و الله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿و لأبويه لكل واحد منهما السدس﴾ إلى آخره، الأبوان لهما في الإرث أحوال: أحدها: أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة، فرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس؛ و أخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له و الحالة هذه بين الفرض والتعصيب. الحال الثاني: أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم و الحالة هذه الثلث، و يأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، و يكون قد أخذ ضعفي ما فرض للأم، و هو الثلثان، فلو كان معهما - و الحالة هذه - زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف و الزوجة الربع. ثم اختلف العلماء ماذا تأخذ الأم بعد فرض الزوج و الزوجة، على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها تأخذ ثلث الباقي في المسألتين، لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما. و قد جعل الله لها نصف ما جعل للأب. فتأخذ ثلث الباقي ويأخذ الأب ثلثيه، هذا قول عمر و عثمان، و أصح الروايتين عن علي، و به يقول ابن مسعود و زيد بن ثابت، و هو قول الفقهاء السبعة و الأئمة الأربعة و جمهور العلماء. والثاني: أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله ﴿فإن لم يكن له ولد و ورثه أبواه فلأمه الثلث﴾ فإن الآية أعم من أن

(١) أي النبي ﷺ

يكون معها زوج أو زوجة أو لا ، و هو قول ابن عباس . و روي عن علي و معاذ بن جبل نحوه . و به يقول شريح وداود الظاهري . و اختاره أبو الحسين محمد بن عبد الله بن اللبان البصري في كتابه «الإيجاز في علم الفرائض» وهذا فيه نظر، بل هو ضعيف ، لأن ظاهر الآية إنما هو إذا استبد بجميع التركة ، و أما هنا فيأخذ الزوج أو الزوجة الفرض و يبقى الباقي كأنه جميع التركة ، فتأخذ ثلثه كما تقدم ، و **القول الثالث** : أنها تأخذ ثلث جميع المال في مسألة الزوجة خاصة ، فإنها تأخذ الربع و هو ثلاثة من اثني عشر ، و تأخذ الأم الثلث و هو أربعة ، فيبقى خمسة للأب ، و أما في مسألة الزوج فتأخذ ثلث الباقي لئلا تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال . فتكون المسألة من ستة : للزوج النصف ثلاثة و للأم ثلث الباقي بعد ذلك و هو سهم ، و للأب الباقي بعد ذلك و هو سهمان . و يحكى هذا عن ابن سيرين و هو قول مركب من القولين الأولين ، موافق كلا منهما في صورة و هو ضعيف أيضاً ، والصحيح الأول ، و الله أعلم .

و **الحال الثالث من أحوال الأبوين** : و هو اجتماعهما مع الإخوة ، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم ، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً ، و لكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس ، فإن لم يكن وارث سواها و سوى الأب ، أخذ الأب الباقي . وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور .

عن زيد أنه قال : الأخوان تسمى إخوة ، و قد أفردت لهذه المسألة جزءاً على حدة . و روى ابن أبي حاتم عن قتادة قوله **﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾** أضروا بالأم و لا يرثون ، و لا يحجبها الأخ الواحد من الثلث ويحجبها مافوق ذلك ، و كان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم عن الثلث أن أباهم يلي إنكاحهم ، و نفقته عليهم دون أمهم ، و هذا كلام حسن . لكن روي عن ابن عباس بإسناد صحيح أنه كان يرى أن السدس الذي حجبوه عن أمهم يكون لهم ؛ و هذا قول شاذ رواه ابن جرير في تفسيره ثم قال : و هذا قول مخالف لجميع الأمة .

و قوله **﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾** أجمع العلماء من السلف و الخلف على أن الدَّين مقدم على الوصية وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة .

و قوله **﴿آباؤكم و أبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾** أي إنما فرضنا للآباء و الأبناء ، و ساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية ، و على خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، من كون المال للولد و للأبوين الوصية ، كما تقدم عن ابن عباس ، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا ففرض لهؤلاء و لهؤلاء بحسبهم ، لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي أو الأخروي أو هما من أبيه ما لا يأتيه من ابنه ، و قد يكون بالعكس ، و لذا قال **﴿آباؤكم و أبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾** أي كأن النفع متوقع و مرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر ، فلهذا فرضنا لهذا وهذا ، و ساوينا بين القسمين في أصل الميراث ، والله أعلم .

و قوله **﴿فريضة من الله﴾** أي هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث ، و إعطاء بعض الورثة أكثر من بعض ، هو فرض الله حكم به و قضاه ، و الله عليم حكيم الذي يضع الأشياء في محالها ، و يعطي كلاً ما يستحقه بحسبه ، ولهذا قال **﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾** .

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن

بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) ﴾

١٢- يقول تعالى: ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم إذا متن من غير ولد، فإن كان لهن ولد، فلكم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدَّين. وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب، ثم قال ﴿ولهن الربع مما تركتم﴾ إلى آخره وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه. وقوله: ﴿من بعد وصية﴾ الخ الكلام عليه كما تقدم، وقوله تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ الكلالة مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه، والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه. وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس قال: كنت آخر الناس عهداً بعمر، فسمعته يقول: القول ما قلت وما قلت وما قلت، قال: الكلالة من لا ولد له ولا والد. وهكذا قال علي وابن مسعود وصح عن غير وجه عن ابن عباس وزيد بن ثابت، وبه يقول الشعبي والنخعي والحسن وقتادة وجابر بن زيد والحكم، وبه يقول أهل المدينة وأهل الكوفة والبصرة، وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف، بل جميعهم، وقد حكى الإجماع عليه غير واحد، وورد فيه حديث مرفوع.

وقوله تعالى: ﴿وله أخ أو أخت﴾ أي من أم كما هي في قراءة بعض السلف، منهم سعد بن أبي وقاص. ﴿فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه: أحدها: أنهم يرثون مع من أدلوا به، وهي الأم. **الثاني**: أن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء. **الثالث**: أنهم لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة، فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن. **الرابع**: أنهم لا يزادون على الثلث، وإن كثر ذكورهم وإناثهم.

واختلف العلماء في المسألة المشتركة، وهي زوج وأم أو جدة واثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين، فعلى قول الجمهور للزوج النصف، وللأم أو الجدة السدس ولولد الأم الثلث ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم، وقد وقعت هذه المسألة في زمن أمير المؤمنين عمر، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم، فقال له أولاد الأبوين: يا أمير المؤمنين، هب أن أبانا كان حماراً، ألسنا من أم واحدة؟ فشرك بينهم وصح التشريك عنه وعن عثمان، وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح القاضي ومسروق وطاوس ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز والثوري وشريك، وهو مذهب مالك والشافعي وإسحاق بن راهويه، وكان علي بن أبي طالب لا يشرك بينهم، بل يجعل الثلث لأولاد الأم، ولا شيء لأولاد الأبوين، والحالة هذه لأنهم عصبة. وقال وكيع بن الجراح: لم يختلف عنه في ذلك. وهذا قول أبي بن كعب وأبي موسى الأشعري. وهو المشهور عن ابن عباس. وهو مذهب الشعبي وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف

و محمد بن الحسن و الحسن بن زياد و زفر بن الهذيل و الإمام أحمد بن حنبل و يحيى بن آدم و نعيم بن حماد و أبي ثور و داود بن علي الظاهري ، و اختاره أبو الحسين بن اللبان الفرضي رحمه الله في كتابه الإيجاز . و قوله : **﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار﴾** أي لتكون وصيته على العدل لا على الإضرار و الجور و الحيف ، بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه ، أو يزيده على ما قدّر الله له من الفريضة ، فمن سعى في ذلك ، كان كمن ضاد الله في حكمته ، و قسمته .

روى النسائي عن ابن عباس موقوفاً «الإضرار في الوصية من الكبائر» و كذا رواه ابن أبي حاتم . و في بعضها: ويقرأ ابن عباس **﴿غير مضار﴾** ، و لهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث ، هل هو صحيح أم لا ؟ على قولين ، **أحدهما** : لا يصح لأنه مظنة التهمة أن يكون قد أوصى له بصيغة الإقرار . و قد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ، فلا وصية لوارث» . و هذا مذهب مالك و أحمد بن حنبل و أبي حنيفة ، و القول القديم للشافعي رحمهم الله ، و ذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار . و هو مذهب طاوس و عطاء و الحسن و عمر بن عبد العزيز و هو اختيار أبي عبد الله البخاري في صحيحه ، واحتج بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفزارية عما أغلق عليه بابها ، قال : و قال بعض الناس لا يجوز إقراره لسوء الظن به للورثة ، و قد قال النبي ﷺ «إياكم و الظن ، فإن الظن أكذب الحديث» و قال الله تعالى : **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾** فلم يخص وارثاً و لا غيره ، انتهى ما ذكره . فمتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً لما في نفس الأمر ، جرى فيه هذا الخلاف ، و متى كان حيلة و وسيلة إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم ، فهو حرام بالإجماع و بنص هذه الآية الكريمة **﴿غير مضار وصية من الله و الله عليم حليم﴾** . ثم قال تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾

١٣ ، ١٤- أي هذه الفرائض و المقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت و احتياجهم إليه و فقدهم له عند عدمه ، هي حدود الله ، فلا تعتدوها و لا تجاوزوها ، و لهذا قال **﴿و من يطع الله و رسوله﴾** أي فيها فلم يزد بعض الورثة لم ينقص بعضها بحيلة و وسيلة ، بل تركهم على حكم الله و فريضته و قسمته **﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و ذلك الفوز العظيم ❖ و من يعص الله و رسوله و يتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها و له عذب مهين﴾** أي لكونه غيّر ما حكم الله به و ضاد الله في حكمه ، و هذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله و حكم به ، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم .

﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

١٥- كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة ، حُبست في بيتٍ فلا تُمكّن من الخروج منه

إلا أن تموت، و لهذا قال: ﴿اللاتي يأتين الفاحشة﴾ يعني الزنا ﴿من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور، فنسخها بالجلد أو الرجم، وكذا روي عن عكرمة، و سعيد بن جبير و الحسن و عطاء الخراساني و أبي صالح و قتادة و زيد بن أسلم والضحاك، أنها منسوخة، و هو أمر متفق عليه. روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي، أثر عليه، و كرب لذلك، و تربّد وجهه، فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم، فلما سري عنه، قال: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً، الثيب بالثيب، و البكر بالبكر، الثيب جلدُ مائةٍ و رجم بالحجارة، و البكر جلد مائة ثم نفي سَنَة»، و قد رواه مسلم و أصحاب السنن.

و قد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث، و هو الجمع بين الجلد و الرجم في حق الثيب الزاني، و ذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية و اليهوديين، و لم يجلدهم قبل ذلك، فدل على أن الرجم ليس بحتم، بل هو منسوخ على قولهم، والله أعلم.

١٦ - و قوله تعالى: ﴿و اللذان يأتيانها منكم فآذوهما﴾ أي و اللذان يأتيان الفاحشة فآذوهما، قال ابن عباس رضي الله عنهما و سعيد بن جبير و غيرهما: أي بالشتم و التعيير و الضرب بالنعال، و كان الحكم كذلك، حتى نسخه الله بالجلد و الرجم، و قال عكرمة و عطاء و الحسن و عبد الله بن كثير: نزلت في الرجل و المرأة إذا زنيا. و قال السدي: نزلت في الفتيان من قبل أن يتزوجوا. و قال مجاهد: نزلت في الرجلين إذا فعلا - لا يكنى، وكأنه يريد اللواط - و الله أعلم، و قد روى أهل السنن من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل و المفعول به». و قوله: ﴿فإن تابا و أصلحا﴾ أي أقلعا و نزعا عما كانا عليه و صلحت أعمالهما و حسنت، ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي لا تعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾. و قد ثبت في الصحيحين «إذا زنت أَمَةُ أحدكم، فليجلدها الحد و لا يُثرِّب عليها» أي ثم لا يعيّرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)﴾

١٧ - يقول سبحانه و تعالى: إنما يتقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ثم يتوب و لو قبل معاينة المَلَك روحه قبل الغرغرة. قال مجاهد و غير واحد: كل من عصى الله خطأً أو عمداً، فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب، وعن أبي العالية أنه كان يحدث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة، رواه ابن جرير. وروى عبد الرزاق عن قتادة، قال: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى الله به، فهو جهالة عمداً كان أو غيره، و قال عطاء بن أبي رباح نحوه. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ قال: ما بينه و بين أن ينظر إلى ملك الموت. و قال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب. و قال قتادة و السدي:

ما دام في صحته، و هو مروي عن ابن عباس. و قال الحسن البصري ﴿ثم يتوبون من قريب﴾، مالم يغرغر. وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب.

و روى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ، قال «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر» رواه الترمذي وابن ماجه.

و روى الإمام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال «قال إبليس: و عزتك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله عز وجل: و عزتي و جلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني» فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل و هو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة، و لهذا قال تعالى ﴿فأولئك يتوب الله عليهم و كان الله عليما حكيماً﴾ و أما متى وقع الإياس من الحياة، و عاين الملك، و حشرجت الروح في الحلق، و ضاق بها الصدر، و بلغت الحلقوم، و غرغرت النفس صاعدة في الغلاصم، فلا توبة مقبولة حينئذ، و لات حين مناص.

١٨- و لهذا قال ﴿و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ و هذا كما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا﴾ و هذا كما قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾ الآيتين، و كما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها في قوله تعالى: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ الآية، و قوله ﴿و لا الذين يموتون و هم كفار﴾ يعني أن الكافر إذا مات على كفره و شركه لا ينفعه ندمه و لا توبته، و لا يقبل منه فدية و لو بملء الأرض. قال ابن عباس و أبو العالية و الربيع بن أنس ﴿و لا الذين يموتون وهم كفار﴾ قالوا: نزلت في أهل الشرك. و لهذا قال الله تعالى: ﴿أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ أي موجعاً شديداً مقيماً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) ﴾

١٩- روى البخاري عن ابن عباس ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ قال: كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها، و إن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الاية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾. و روى أبو داود عن ابن عباس قال ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً و لا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ و ذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته فيعضلها حتى تموت أو ترد إليه صداقها، فأحكم الله تعالى عن ذلك، أي نهى عن ذلك. و روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ قال: كان الرجل إذا مات و ترك جارية، ألقى عليها حميمه ثوبه فمنعها من الناس، فإن كانت

جميلة تزوجها ، و إن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها ، و روى أبو بكر بن مردويه عن سهل بن حنيف قال : لما توفي أبو قيس بن الأسلت ، أراد ابنه أن يتزوج امرأته ، و كان لهم ذلك في الجاهلية ، فأنزل الله **﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾** و رواه ابن جرير . و قال مجاهد في هذه الآية : كان الرجل يكون في حجره اليتيمة هو يلي أمرها ، فيحبسها رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها أو يزوجها ابنه ، رواه ابن أبي حاتم . ثم قال : و روي عن الشعبي وعطاء بن أبي رباح و أبي مجلز و الضحاك و الزهري و عطاء الخراساني و مقاتل بن حيان ، نحو ذلك . قلت : فالآية تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية و ما ذكره مجاهد ، و من وافقه ، و كل ما كان فيه نوع من ذلك ، و الله أعلم .

و قوله **﴿و لا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾** أي لا تُضارّوهن في العشرة ، لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك ، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها و الاضطهاد . و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله **﴿و لا تعضلوهن﴾** يقول : و لا تقهروهن **﴿لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾** يعني الرجل ، تكون له امرأة و هو كاره لصحبتها ، و لها عليه مهر فيضرها لتفتدي ، و كذا قال الضحاك و قتادة ، و اختاره ابن جرير . وقوله **﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾** قال ابن مسعود و ابن عباس ، و سعيد بن المسيب و الشعبي و الحسن البصري و محمد ابن سيرين و سعيد بن جبير ومجاهد و عكرمة و عطاء الخراساني و الضحاك و أبو قلابة و أبو صالح و السدي و زيد ابن أسلم و سعيد بن أبي هلال : يعني بذلك الزنا ، يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها ، وتضاجرها حتى تتركه لك ، و تخالعها ، كما قال تعالى في سورة البقرة : **﴿و لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾** الآية ، و قال ابن عباس و عكرمة و الضحاك : الفاحشة المبينة النشوز والعصيان ، و اختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله : الزنا و العصيان ، و النشوز و بذاء اللسان ، و غير ذلك . يعني أن هذا كله يُبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه و يفارقها ، و هذا جيد ، و الله أعلم .

قال عكرمة و الحسن البصري : و هذا يقتضي أن يكون السياق كله كان في أمر الجاهلية ، و لكن نُهي المسلمون عن فعله في الإسلام ، و قال مجاهد في قوله **﴿و لا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾** هو كالعضل في سورة البقرة . و قوله تعالى : **﴿و عاشروهن بالمعروف﴾** أي طيبوا أقوالكم لهن ، و حسنوا أفعالكم و هيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت بها مثله ، كما قال تعالى : **﴿و لهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾** وقال رسول الله ﷺ «خيركم خيركم لأهله ، و أنا خيركم لأهلي» و كان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر ، يداعب أهله ، و يتلطّف بهم و يوسعهم نفقته ، و يضاحك نساءه حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنا ، يتودد إليها بذلك ، قالت : سابقني رسول الله ﷺ فسبقتُه ، و ذلك قبل أن أحمل اللحم ، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبَقني ، فقال «هذه بتلك» ، و يجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي تبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكُل معهن العشاء في بعض الأحيان ، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها ، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شِعار واحد ، يضع عن كتفيه الرداء و ينام بالإزار ، و كان إذا صلى العشاء يدخل منزله يَسْمُر مع أهله قليلاً قبل أن ينام ، يؤانسهم بذلك ﷺ . و قد قال الله تعالى **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾** و أحكام عشرة النساء و ما يتعلق بتفصيل ذلك موضعه كتب الأحكام ، و لله الحمد .

و قوله تعالى **﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً و يجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾** أي فعسى أن يكون صبركم مع إمساككم لهن و كراهتهن فيه ، خير كثير لكم في الدنيا و الآخرة ، كما قال ابن عباس في هذه الآية : هو أن

يعطف عليها فيرزق منها ولداً، و يكون في ذلك الولد خير كثير، و في الحديث الصحيح «لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنة، إن سخط منها خُلُقاً رضي منها آخر»[(١)].

٢٠، ٢١- و قوله تعالى: **﴿و إن أردتم استبدال زوج مكان زوج و آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً و إثماً مبيناً﴾** أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة و يستبدل مكانها غيرها فلا يأخذ مما كان أصدق الأولى شيئاً و لو كان قنطاراً من المال، و قد قدمنا في سورة آل عمران الكلام على القنطار بما فيه كفاية عن إعادته ههنا. و في هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، و قد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق، ثم رجع عن ذلك، كما روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تَغْلُوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله، كان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه و لا أُصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، و إن كان الرجل ليبتلى بصدقة امرأته حتى يكون لها عداوة في نفسه، و حتى يقول: كلفت إليك علق القربة، و رواه أهل السنن.

و قال تعالى: **﴿و أخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾** روي عن ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبير، أن المراد بذلك: العقد. و روي عن ابن عباس في قوله **﴿و أخذن منكم ميثاقا غليظا﴾** قال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. قال ابن أبي حاتم: و روي عن عكرمة و مجاهد و أبي العالية و الحسن و قتادة و يحيى بن أبي كثير و الضحاك والسدي نحو ذلك. و في صحيح مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال فيها «و استوصوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله و استحللتم فروجهن بكلمة الله».

٢٢- و قال تعالى: **﴿و لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾** الآية، يحرم الله تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم، وإعظاماً و احتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم عن الابن بمجرد العقد عليها، و هذا أمر مُجمع عليه. و قد زعم السهيلي أن نكاح نساء الاباء كان معمولاً به في الجاهلية، و لهذا قال **﴿إلا ما قد سلف﴾** كما قال **﴿و أن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾** قال: و قد فعل ذلك كنانة بن خزيمة، تزوج بامرأة أبيه، فأولدها ابنه النضر بن كنانة، قال: و قد قال ﷺ «وُلِدتُ من نكاح لا من سفاح» قال: فدل على أنه كان سائغاً لهم ذلك، فإن أراد أنهم كانوا يعدونه نكاحاً فيما بينهم. فقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يُحرّمون ما حرم الله إلا امرأة الأب و الجمع بين الأختين، فأنزل الله تعالى **﴿و لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾** **﴿و أن تجمعوا بين الأختين﴾**، و هكذا قال عطاء و قتادة، و لكن فيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر، و الله أعلم، و على كل تقدير فهو حرام في هذه الآية، مبشّع غاية التبشّع، و لهذا قال تعالى: **﴿إنه كان فاحشة و مقتاً و ساء سبيلاً﴾** و قال **﴿و لا تقربوا الفواحش ما ظهر منها و ما بطن﴾** وقال **﴿و لا تقربوا الزّنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾** فزاد ههنا **﴿و مقتاً﴾** أي بغضاً أي هو أمر كبير في نفسه، و يؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله، و لهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبي ﷺ و هو كالأب، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله و سلامه عليه.

و قال عطاء بن أبي رباح في قوله **﴿و مقتاً﴾** أي يمقت الله عليه، **﴿و ساء سبيلاً﴾** أي و بئس طريقاً لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فَيُقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال. كما رواه الإمام أحمد و أهل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

السنن من طرق عن البراء بن عازب ، عن خاله أبي بردة ـ و في رواية : ابن عمر ، و في رواية : عن عمه ـ أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله و يأخذ ماله .

مسألة : و قد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو مُلك أو شبهة ، و اختلفوا فيمن باشرها بشهوة دون الجماع ، أو نظر إلى مالا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية ، فعن الإمام أحمد رحمه الله أنها تحرم أيضاً بذلك .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) ﴾

٢٣ ، ٢٤ – هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب و ما يتبعه من الرضاع و المحارم بالصهر ، كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : حُرِّمت عليكم سبع نسباً و سبع صهراً ، و قرأ **﴿حرمت عليكم أمهاتكم و بناتكم و أخواتكم﴾** الآية ، و قد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه ، بعموم قوله تعالى : **﴿و بناتكم﴾** فإنها بنت ، فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة و مالك و أحمد بن حنبل ، و قد حُكي عن الشافعي شيء في إباحتها لأنها ليست بنتاً شرعية ، فكما لم تدخل في قوله تعالى : **﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾** فإنها لا ترث بالإجماع ، فكذلك لا تدخل في هذه الآية ، و الله أعلم .

و قوله تعالى : **﴿و أمهاتكم اللاتي أرضعنكم و أخواتكم من الرضاعة﴾** أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك ، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك ، و لهذا ثبت في الصحيحين من حديث عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال «إن الرضاعة تُحرِّم ما تحرم الولادة» و في لفظ لمسلم «يَحْرُم من الرضاعة ما يحرم من النسب» ، و قال بعض الفقهاء : كل ما يحرم من النسب يحرم بالرضاع إلا في أربع صور ، و قال بعضهم : ست صور هي مذكورة في كتب الفروع و التحقيق أنه لا يُستثنى شيء من ذلك ، لأنه يوجد مثل بعضها من النسب ، و بعضها إنما يحرم من جهة الصهر فلا يرد على الحديث شيء أصلاً البتة ، و لله الحمد و به الثقة .

ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة ، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية ، و هذا قول مالك ، و يروى عن ابن عمر ، و إليه ذهب سعيد بن المسيب و عروة بن الزبير و الزهري . و قال آخرون : لا يحرم أقل من ثلاث رضعات ، لما ثبت في صحيح مسلم من طريق عائشة ، أن رسول الله ﷺ ، قال : «لا تحرم المصة و لا المصتان» و ممن ذهب إلى هذا القول : الإمام أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه ، و أبو عبيد و أبو ثور ، و هو مروي عن علي و عائشة و أم الفضل و ابن الزبير و سليمان بن يسار و سعيد بن جبير رحمهم الله . و قال آخرون :

لا يحرم أقل من خمس رضعات، لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان فيما أُنزل من القرآن «عشر رضعات معلومات يحرمن» ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي النبي ﷺ و هنّ فيما يُقرأ من القرآن، و بهذا قال الشافعي و أصحابه، ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور. وكما قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة عند قوله ﴿يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾. ثم اختلفوا هل يحرم لبن الفحول، كما هو قول جمهور الأئمة و غيرهم، أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط، و لا ينتشر إلى ناحية الأب، كما هو قول لبعض السلف؟ على قولين، تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير (١).

و قوله ﴿و أمهات نسائكم و ربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾، أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على ابنتها، سواء دخل بها أو لم يدخل، و أما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم بمجرد العقد على أمها حتى يدخل، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، و لهذا قال ﴿و ربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ في تزويجهن، فهذا خاص بالربائب و حدهن. و قد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات و الربائب، فقال: لا تحرم واحدة من الأم و لا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها، لقوله ﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾. و جمهور العلماء على أن الربيبة لا تحرم بالعقد على الأم بخلاف الأم، فإنها تحرم بمجرد العقد. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه كان يقول: إذا طلق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها، و روي أنه قال: إنها مبهمة، فكرهها. ثم قال: وروي عن ابن مسعود و عمران بن حصين و مسروق وطاوس و عكرمة و عطاء و الحسن و مكحول و ابن سيرين و قتادة و الزهري نحو ذلك. و هذا مذهب الأئمة الأربعة و الفقهاء السبعة، و جمهور الفقهاء قديماً وحديثاً، و لله الحمد و المنة. قال ابن جرير: و الصواب قول من قال: الأم من المبهمات، لأن الله لم يشترط معهن الدخول كما اشترطه مع أمهات الربائب، مع أن ذلك أيضاً إجماع من الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه.

و أما قوله تعالى: ﴿و ربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ فالجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل، أو لم تكن في حجره، قالوا: و هذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿و لا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾. و في الصحيحين أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان، و في لفظ لمسلم عزة بنت أبي سفيان، قال «أو تحبين ذلك؟» قالت: نعم لست لك بمخلية، و أحب من شاركني في خير أختي، قال «فإن ذلك لا يحل لي». قالت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال «بنت أم سلمة؟» قالت: نعم، قال «إنها لو لم تكن ربيبتي في حِجْري ما حلَّت لي، إنها لبنت أخي من الرضاعة، أرضعتني و أباسلمة ثويبة، فلا تَعرِضْن علي بناتكن و لا أخواتكن» و في رواية للبخاري «إني لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي»، فجعل المناط في التحريم مجرد تزوجه أم سلمة، و حكم بالتحريم لذلك، و هذا هو مذهب الأئمة الأربعة و الفقهاء السبعة و جمهور الخلف و السلف. و قد قيل: بأنه لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في حجر الرجل، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم. و أما الربيبة في ملك اليمين فقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله: لا خلاف بين

---

(٢) و الصواب هو الأول للحديث الوارد فيه عن عائشة رضي الله عنها في الصحيح و غيره.

العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة و بنتها من ملك اليمين، لأن الله حرم ذلك في النكاح، قال ﴿و أمهات نسائكم و ربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم﴾ وملك اليمين عندهم تبع للنكاح، إلا ما روي عن عمر و ابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى و لا من تبعهم. و معنى قوله ﴿اللاتي دخلتم بهن﴾ أي نكحتموهن، قاله ابن عباس و غير واحد. و قال ابن جرير: و في إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا يحرّم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها و مباشرتها، أو قبل النظر إلى فرجها بشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع.

و قوله تعالى: ﴿و حلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ أي و حرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية. كما قال تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ الآية، و قال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله ﴿و حلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾. قال: كنا نحدث ـ و الله أعلم ـ أن النبي ﷺ لما نكح امرأة زيد، قال المشركون بمكة في ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿و حلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ ونزلت ﴿و ما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾، و نزلت ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾، و روى ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد: أن هؤلاء الآيات مبهمات ﴿و حلائل أبنائكم﴾ ﴿و أمهات نسائكم﴾ ثم قال: و روي عن طاوس و إبراهيم والزهري و مكحول، نحو ذلك. (قلت) معنى مبهمات أي عامة في المدخول بها و غير المدخول، فتحرم بمجرد العقد عليها، و هذا متفق عليه، فإن قيل: فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة كما هو قول الجمهور، و من الناس من يحكيه إجماعاً و ليس من صلبه، فالجواب من قوله ﷺ «يَحرُم من الرضاع ما يحرم من النسب»، و قوله تعالى: ﴿و أن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾ الآية. أي و حرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج، و كذا في ملك اليمين إلا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عنه و غفرناه. فدل على أنه لا مثنوية فيما يستقبل و لا استثناف فيما سلف، كما قال ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، و قد أجمع العلماء من الصحابة و التابعين و الأئمة قديماً و حديثاً على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح، و من أسلم و تحته أختان، خُيِّر فيمسك إحداهما و يطلق الأخرى لا محالة.

روى الإمام أحمد عن الضحاك بن فيروز عن أبيه، قال: أسلمت و عندي امرأتان أختان، فأمرني النبي ﷺ أن أُطلق إحداهما. و رواه الترمذي و ابن ماجه. و أما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية. وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين، فكرهه فقال له ـ يعني السائل: يقول الله تعالى: ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ فقال له ابن مسعود رضي الله عنه: و بعيرك مما ملكت يمينك. و هذا هو المشهور عن الجمهور و الأئمة الأربعة و غيرهم، و إن كان بعض السلف قد توقف في ذلك. روى الإمام مالك عن قبيصة بن ذؤيب: أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين في ملك اليمين، هل يجمع بينهما؟ فقال عثمان: أحلتهما آية، و حرمتهما آية، و ما كنت لأصنع ذلك، فخرج من عنده، فلقي رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فسأله عن ذلك، فقال: لو كان لي من الأمر شيء ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالاً. قال مالك: قال ابن شهاب: أراه علي بن أبي طالب. قال: و بلغني عن الزبير بن العوام مثل ذلك. قال أبو عمر ابن عبد البر: و قد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس، و لكنهم اختلف عليهم، و لم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار و الحجاز

و لا العراق و لا ما وراءهما من المشرق و لا المغرب، إلا من شذ عن جماعتهم باتباع الظاهر و نفي القياس، و قد ترك من يعمل ذلك ما اجتمعنا عليه، و جماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطء، كما لا يحل ذلك في النكاح. و قد أجمع المسلمون على أن معنى قوله **﴿حرمت عليكم أمهاتكم و بناتكم و أخواتكم﴾** إلى آخر الآية، أن النكاح و ملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، فكذلك يجب أن يكون نظراً و قياساً الجمع بين الأختين و أمهات النساء والربائب. و كذلك هو عند جمهورهم، و هم الحجة المحجوج بها من خالفها و شذ عنها.

و قوله تعالى: **﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾** أي و حرّم عليكم من الأجنبيات المحصنات، و هن المزوجات **﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾**، يعني إلا ما ملكتموهن بالسّبي فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن، فإن الآية نزلت في ذلك. روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا سبايا يوم أوطاس، لهن أزواج من أهل الشرك، فكأن أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ كفوا و تأثموا من غشيانهن، قال: فنزلت هذه الآية في ذلك **﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم﴾** و هكذا رواه مسلم و أبو داود و النسائي.

وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً لها من زوجها أخذا بعموم هذه الآية، و روى ابن جرير عن ابن عباس قال: طلاق الأمة ست[1] بيعها طلاقها، و عتقها طلاقها، و هبتها طلاقها، و براءتها طلاقها، وطلاق زوجها طلاقها، وروى عبد الرزاق عن ابن المسيب قوله **﴿و المحصنات من النساء﴾** قال: هنّ ذوات الأزواج حرّم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك، فبيعها طلاقها. قال معمر: و قال الحسن مثل ذلك، و قد خالفهم الجمهور قديماً و حديثاً، فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقاً لها لأن المشتري نائب عن البائع، و البائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة و باعها مسلوبة عنها، و اعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرّج في الصحيحين وغيرهما، فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها و نجّزت عتقها، و لم ينفسخ نكاحها من زوجها مغيث، بل خيّرها رسول الله ﷺ، بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ وقصتها مشهورة، فلو كان بيع الأمة طلاقها كما قال هؤلاء ما خيرها النبي ﷺ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية المسبيات فقط، والله أعلم.

و قوله تعالى: **﴿كتاب الله عليكم﴾** أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، فالزموا كتابه، و لا تخرجوا عن حدوده، و الزموا شرعه و ما فرضه. و قال عبيدة و عطاء و السدي في قوله **﴿كتاب الله عليكم﴾** يعني الأربع. وقال إبراهيم **﴿كتاب الله عليكم﴾** يعني ما حرم عليكم. و قوله تعالى: **﴿و أحل لكم ما وراء ذلكم﴾** أي ما عدا من ذُكرن من المحارم، هن لكم حلال، قاله عطاء و غيره. و قال قتادة: **﴿و أحل لكم ما وراء ذلكم﴾** يعني ما ملكت أيمانكم، و قوله تعالى: **﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾** أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع، أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي، و لهذا قال **﴿محصنين غير مسافحين﴾**. و قوله تعالى: **﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾** أي كما تستمتعن بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك، كما قال تعالى: **﴿و كيف تأخذونه و قد أفضى بعضكم إلى بعض﴾** و كقوله تعالى: **﴿و آتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾**، وكقوله **﴿و لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾** وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، و لاشك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، و قد ذهب الشافعي و طائفة من العلماء إلى أنه أبيح ثم نسخ

(١) هكذا جاء او قد ذكر خمساً.

مرتين. و قال آخرون: أكثر من ذلك. و قال آخرون: إنما أبيح مرة ثم نسخ مرة، ثم نسخ، و لم يُبَح بعد ذلك. وقد روي عن ابن عباس و طائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة، و هو رواية عن الإمام أحمد. و لكن الجمهور على خلاف ذلك.

و العمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قال: نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة، و عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر. و لهذا الحديث ألفاظ مقررة هي في كتاب الأحكام. وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني، عن أبيه أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس إني كنت أذنتُ لكم في الاستمتاع من النساء، و إن الله حَرَّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، و لا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً» و في رواية لمسلم: في حجة الوداع.

و قوله تعالى: ﴿و لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ من حمل هذه الآية على نكاح المتعة إلى أجل مسمى، قال: فلا جناح عليكم إذا انقضى الأجل أن تراضوا على زيادة به، و زيادة للجعل، قال السدي: إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى، يعني الأجر الذي أعطاها على تمتعه بها قبل انقضاء الأجل بينهما، فقال: أتمتع منك أيضاً بكذا وكذا، فازداد قبل أن يستبرئ رحمها يوم تنقضي المدة، و هو قوله تعالى: ﴿و لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾. قال السدي: إذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، و هي منه بريئة و عليها أن تستبرئ ما في رحمها، و ليس بينهما ميراث، فلا يرث واحد منهما صاحبه، و من قال بهذا القول الأول جعل معناه كقوله ﴿و آتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ الآية، أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك و لا عليها في ذلك. و روى ابن جرير عن سليمان التيمي قال: زعم الحضرمي أن رجالاً كانوا يفرضون المهر، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة، فقال: و لا جناح عليكم أيها الناس فيما تراضيتم به من بعد الفريضة. يعني إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ. و اختار هذا القول ابن جرير. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ و التراضي أن يوفيها صداقها ثم يخيرها، يعني في المقام أو الفراق. و قوله تعالى: ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات.

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) ﴾

٢٥- يقول تعالى: ﴿و من لم يستطع منكم طولاً﴾ أي سعة و قدرة ﴿أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ أي الحرائر العفائف المؤمنات. ﴿فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ أي فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون، و لهذا قال ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾، قال ابن عباس و غيره: فلينكح من إماء المؤمنين، و كذا قال السدي و مقاتل بن حيان. ثم اعترض بقوله ﴿و الله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور

وسرائرها، و إنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور؛ ثم ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ فدل على أن السيد هو ولي أمته لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولي عبده ليس له أن يتزوج بغير إذنه، كما جاء في الحديث «أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر»[1] أي زان. فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج المرأة بإذنها لما جاء في الحديث «لا تزوج المرأةُ المرأةَ و لا المرأة نفسها، فإن الزانية التي تزوج نفسها»[2].

وقوله تعالى: ﴿و آتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي و ادفعوا مهورهن بالمعروف، أي عن طيب نفس منكم، و لا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات، و قوله تعالى: ﴿محصنات﴾ أي عفائف عن الزنا لا يتعاطينه، و لهذا قال ﴿غير مسافحات﴾ و هن الزواني اللاتي لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة، و قوله تعالى: ﴿و لا متخذات أخدان﴾، قال ابن عباس: (المسافحات) هن الزواني المعلنات، يعني الزواني اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بالفاحشة و﴿ومتخذات أخدان﴾ يعني أخلاءً، و كذا روي عن أبي هريرة و مجاهد و الشعبي و الضحاك و عطاء الخراساني ويحيى بن أبي كثير و مقاتل بن حيان و السدي، قالوا: أخلاء. و قال الحسن البصري: يعني الصديق. وقال الضحاك أيضاً ﴿و لا متخذات أخدان﴾ ذات الخليل الواحد المقرة به، نهى الله عن ذلك. يعني تزويجها ما دامت كذلك.

و قوله تعالى: ﴿فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ اختلف القراء في أحصن، فقرأه بعضهم بضم الهمزة و كسر الصاد مبني لما لم يسم فاعله، و قرئ بفتح الهمزة و الصاد فعل لازم، ثم قيل: معنى القراءتين واحد، و اختلفوا فيه على قولين، أحدهما: أن المراد بالإحصان ههنا الإسلام، و روي ذلك عن عبد الله بن مسعود و ابن عمر و أنس، و الأسود بن يزيد وزر بن حبيش و سعيد بن جبير وعطاء و إبراهيم النخعي و الشعبي و السدي، وهذا هو القول الذي نص عليه الشافعي في رواية الربيع، قال: وإنما قلنا ذلك استدلالاً بالسنة، و إجماع أكثر أهل العلم. و قال القاسم و سالم: إحصانها إسلامها و عفافها. وقيل: المراد به ههنا التزويج، و هو قول ابن عباس و مجاهد و عكرمة و طاوس و سعيد بن جبير و الحسن وقتادة و غيرهم. ونقله أبو علي الطبري في كتابه الإيضاح عن الشافعي، فيما رواه ابن عبد الحكم عنه. و عن مجاهد أنه قال: إحصان الأمة أن ينكحها الحر، و إحصان العبد أن ينكح الحرة، و كذا روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس، رواهما ابن جرير في تفسيره. و ذكره ابن أبي حاتم عن الشعبي و النخعي. و قيل: معنى القراءتين متباين. فمن قرأ: أُحصن بضم الهمزة فمراده التزويج، و من قرأ بفتحها فمراده الإسلام. اختاره أبو جعفر بن جرير في تفسيره و قرّره و نصره، و الأظهر ـ و الله أعلم ـ أن المراد بالإحصان ههنا التزويج، لأن سياق الآية يدل عليه، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿و من لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ والله أعلم. و الآية الكريمة سياقها كلها في الفتيات المؤمنات فتعيّن أن المراد بقوله: ﴿فإذا أحصن﴾ أي تزوجن، كما فسره ابن عباس و من تبعه، وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور، و ذلك أنهم يقولون: إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة، سواء كانت مسلمة أو كافرة، مزوجة أو بكراً، مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حدّ على غير المحصنة ممن زنى من الإماء. و قد اختلفت أجوبتهم عن ذلك، فأما الجمهور فقالوا: لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم. و قد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء، فقدمناها على مفهوم الآية. فمن ذلك ما رواه مسلم

(١) رواه أحمد و أبو داود و الترمذي و هو صحيح. (٢) رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة و هو صحيح.

في صحيحه عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس أقيموا على أرقّائكم الحد من أحصن منهم ومن لم يحصن، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت، فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك لنبي الله ﷺ فقال: «أحسنت اتركها حتى تماثل»، و عند عبد الله بن أحمد عن غير أبيه «فإذا تعالت من نفسها حدّها خمسين». و عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها، فليجلدها الحد، و لا يُثرّب عليها، ثم إن زنت الثانية، فليجلدها الحد، و لا يثرّب عليها، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها. فليبعها و لو بحبل من شعر»، و لمسلم «إذا زنت ثلاثاً فليبعها في الرابعة»، و روى مالك عن عبد الله ابن عياش بن أبي ربيعة المخزومي قال: أمرني عمر بن الخطاب في فتية من قريش، فجلدنا ولائد من ولائد الإمارة خمسين خمسين في الزنا.

الجواب الثاني: جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت و لم تحصن فلا حد عليها، و إنما تضرب تأديباً، و هو المحكي عن ابن عباس رضي الله عنه. و إليه ذهب طاوس و سعيد بن جبير و أبو عبيد القاسم بن سلام و داود بن علي الظاهري في رواية عنه و عمدتهم مفهوم الآية، و هو من مفاهيم الشرط، و هو حجة عند أكثرهم فقدّم على العموم عندهم، و حديث أبي هريرة و زيد بن خالد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ قال: «إن زنت فحدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم بيعوها و لو بضفير». قال ابن شهاب: لا أدري بعد الثالثة أو الرابعة، و أخرجاه في الصحيحين. و عند مسلم قال ابن شهاب: الضفير الحبل. قالوا: فلم يؤقّت فيه عدد كما أُقّت في المحصنة، و كما وقّت في القرآن بنصف ما على المحصنات من العذاب، فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك، و الله أعلم. قالوا: و حديث علي و عمر قضايا أعيان، و حديث أبي هريرة عنه أجوبة[1].

و قال أبو عبد الله الشافعي رحمه الله: و لم يختلف المسلمون في أن لا رجم على مملوك في الزنا، و ذلك لأن الآية دلت على أن عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، و الألف و اللام في المحصنات للعهد، و هن المحصنات المذكورات في أول الآية: **﴿و من لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾** والمراد بهن الحرائر فقط من غير تعرض لتزويج غيره، و قوله: **﴿نصف ما على المحصنات من العذاب﴾** يدل على أن المراد من العذاب الذي يمكن تنصيفه و هو الجلد لا الرجم، و الله أعلم. و قوله تعالى: **﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾** أي إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، و شق عليه الصبر عن الجماع، و عنت بسبب ذلك كله، فله حينئذ أن يتزوج بالأمة، و إن ترك تزوجها و جاهد نفسه في الكف عن الزنا، فهو خير له لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها إلا أن يكون الزوج عربياً، فلا تكون أولاده منها أرقاء في قول قديم للشافعي، ولهذا قال **﴿و أن تصبروا خير لكم و الله غفور رحيم﴾** و من هذه الآية الكريمة، استدل جمهور العلماء في جواز نكاح الإماء على أنه لا بد من عدم الطول لنكاح الحرائر، و من خوف العنت لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد، و لما فيهن من الدناءة في العدول عن الحرائر إليهن.

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن

(١) تركنا إيرادها اختصاراً، و بقية الأقوال الضعيفة.

يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

٢٦ ، ٢٧- يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم و حرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها ، ﴿و يهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ يعني طرائقهم الحميدة و اتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها ، ﴿ويتوب عليكم﴾ أي من الإثم و المحارم ، ﴿و الله عليم حكيم﴾ أي في شرعه و قدره و أفعاله وأقواله .

و قوله : ﴿و يريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً .

٢٨- ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ أي في شرائعه و أوامره و نواهيه و ما يقدره لكم ، و لهذا أباح الإماء بشروط ، كما قال مجاهد و غيره ﴿و خلق الإنسان ضعيفاً﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه ، و ضعف عزمه وهمته . وروى ابن أبي حاتم عن طاوس ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ أي في أمر النساء . و قال وكيع : يذهب عقله عندهن . وقال موسى الكليم ﷺ لنبينا محمد ﷺ ، ليلة الإسراء حين مر عليه راجعاً من عند سدرة المنتهى ، فقال له : ماذا فرض عليكم ، فقال : أمرني بخمسين صلاة في كل يوم و ليلة ، فقال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا ، و إن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً و قلوباً ، فرجع ، فوضع عشراً . ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك حتى بقيت خمساً ، الحديث .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

٢٩- ينهى تبارك و تعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل ، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا و القمار ، و ما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل ، و إن ظهرت في غالب الحكم الشرعي ، مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا . و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : لما أنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل أموالنا ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد ، فكيف للناس ؟ فأنزل الله بعد ذلك ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ الآية ، و كذا قال قتادة ، و قوله تعالى : ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ قرئ تجارة بالرفع وبالنصب و هو استثناء منقطع ، كأنه يقول : لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال ، ولكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع و المشتري فافعلوها ، و تسببوا بها في تحصيل الأموال ، كما قال تعالى : ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ ، و كقوله ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ .

و من هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول ، لأنه يدل على التراضي نصاً بخلاف المعاطاة ، فإنها قد لا تدل على الرضى و لابد ، و خالف الجمهور في ذلك مالك و أبو حنيفة و أحمد وأصحابهم ، فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً ، فصححوا بيع المعاطاة مطلقاً ،

و منهم من قال: يصح في المحقرات و فيما يعده الناس بيعاً و هو احتياط نظر من محققي المذهب، و الله أعلم.

وقال مجاهد **﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾** بيعاً أو عطاء يعطيه أحد أحداً، رواه ابن جرير، و من تمام التراضي إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا» و في لفظ البخاري «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا» و ذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث أحمد والشافعي و أصحابهما و جمهور السلف و الخلف، و من ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام بحسب ما يتبين فيه حال البيع، و لو إلى سنة في القرية و نحوها، كما هو المشهور عن مالك رحمه الله، و قوله **﴿و لا تقتلوا أنفسكم﴾** أي بارتكاب محارم الله، و تعاطي معاصيه، وأكل أموالكم بينكم بالباطل **﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾** أي فيما أمركم به و نهاكم عنه.

و روى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل، قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقتُ إن اغتسلت أن أهلك، فتيمّمت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال «يا عمرو صليتَ بأصحابك وأنت جنب؟» قال: قلت: يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلتُ أن أهلك، فذكرت قول الله عز وجل **﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾** فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ و لم يقل شيئاً، و هكذا رواه أبو داود. و أورد ابن مردويه عند هذه الآية الكريمة حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده، يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، و من قتل نفسه بسمٍّ فسمُّه في يده، يتحسّاه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، و من تردّى من جبل فقتل نفسه، فهو متردٍ في نار جهنم خالداً فيها أبداً» و هذا الحديث ثابت في الصحيحين، و في الصحيحين من حديث الحسن عن جندب بن عبد الله البجلي، قال: قال رسول الله ﷺ: كان رجل ممن كان قبلكم و كان به جرحٌ فأخذ سكيناً نحر بها يده، فلما رقأ الدم حتى مات، قال الله عز وجل «عبدي بادرني بنفسه، حرّمتُ عليه الجنة».

٣٠- و لهذا قال تعالى: **﴿و من يفعل ذلك عدواناً و ظلماً﴾** أي و من يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه أي عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه **﴿فسوف نصليه ناراً﴾** الآية، و هذا تهديد شديد و وعيد أكيد، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع و هو شهيد.

٣١- و قوله تعالى: **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾** الآية، أي إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نُهيتم عنها، كفّرنا عنكم صغائر الذنوب و أدخلناكم الجنة، و لهذا قال **﴿و ندخلكم مدخلاً كريماً﴾** و قد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر:

ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، و ما هن؟ قال «الشركُ بالله، و قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، و السّحر، و أكل الربا، و أكل مال اليتيم، و التولّي يوم الزحف، و قذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

طريق أخرى عنه: روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال «الكبائر سبع: أولها الإشراك بالله، ثم قتل النفس بغير حقها، و أكل الربا، و أكل مال اليتيم إلى أن يكبر، و الفرار من الزحف، و رمي المحصنات، والانقلاب إلى الأعراب بعد الهجرة»، فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر، لا ينفي ما عداهن إلا عند من يقول

بمفهوم اللقب، و هو ضعيف عند عدم القرينة و لا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم، كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع، فمن ذلك ما رواه الحاكم عن عمير بن قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع «ألا إن أولياء الله المصلون من يقيم الصلوات الخمس التي كُتبت عليه، و يصوم رمضان و يحتسب صومه، يرى أنه عليه حق، و يُعطي زكاة ماله يحتسبها، و يجتنب الكبائر التي نهى الله عنها»، ثم إن رجلاً سأله فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ فقال «تسع: الشرك بالله، وقتل نفس مؤمن بغير حق، و فرار يوم الزحف، و أكل مال اليتيم، و أكل الربا، و قذف المحصنة، و عقوق الوالدين المسلمين، و استحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء و أمواتاً، ثم قال: لا يموت رجل لا يعمل هؤلاء الكبائر، و يقيم الصلاة و يؤتي الزكاة إلا كان مع النبي ﷺ في دار أبوابها مصاريع من ذهب»، هكذا رواه الحاكم مطولاً، وقد أخرجه أبو داود و الترمذي مختصراً.

حديث آخر فيه ذكر شهادة الزور: روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، أو سئل عن الكبائر، فقال «الشرك بالله، و قتل النفس، و عقوق الوالدين»، و قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور ـ أو شهادة الزور ـ» أخرجاه.

حديث آخر فيه ذكر قتل الولد: و هو ثابت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ و في رواية أكبر، قال «**أن تجعل لله نداً و هو خلقك**». قلت: ثم أي؟ قال «أن تقتل ولدك خشيةَ أن يَطعم معك». قت: ثم أي؟ قال «أن تُزاني حليلة جارك» ثم قرأ ﴿**و الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر** ـ إلى قوله ـ **إلا من تاب**﴾.

حديث آخر فيه ذكر شرب الخمر: روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو قال: سألت رسول الله ﷺ عن الخمر، فقال: «هي أكبر الكبائر، و أم الفواحش، مَنْ شرب الخمر ترك الصلاة، و وقع على أمه و خالته وعمته».

حديث آخر: عن عبد الله بن عمرو و فيه ذكر اليمين الغموس: روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال «أكبر الكبائر الإشراك بالله، و عقوق الوالدين، أو قتل النفس ـ شعبة الشاك ـ واليمين الغموس» رواه البخاري و الترمذي و النسائي.

حديث آخر: عن عبد الله بن عمرو في التسبب إلى شتم الوالدين: وى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «من الكبائر أن يشتم الرجل والديه، قالوا: و كيف يشتم الرجل والديه؟ قال «يسبُّ الرجلُ أبا الرجل، فيسب أباه، و يسب أمه، فيسب أمه» أخرجه البخاري و مسلم. و ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «سباب المسلم فسوق و قتاله كفر».

حديث آخر في الجمع بين الصلاتين من غير عذر: و روى ابن أبي حاتم عن أبي قتادة يعني العدوي، قال: قُرِئَ علينا كتاب عمر: من الكبائر جمع بين الصلاتين ـ يعني بغير عذر ـ و الفرار من الزحف، و النهبة، و هذا إسناد صحيح. و الغرض أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر و العصر، تقديماً أو تأخيراً، وكذا المغرب والعشاء هما من شأنه أن يجمع بسبب من الأسباب الشرعية، فإذا تعاطاه أحد بغير شيء من تلك الأسباب يكون مرتكباً كبيرة، فما ظنك بترك الصلاة بالكلية، و لهذا روى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال «بين العبد و بين الشِّرك ترك الصلاة». و في السنن مرفوعاً عنه عليه الصلاة و السلام أنه قال «العهدُ بيننا و بينهم الصلاة، من تركها فقد كفر» و قال «مَن ترك صلاة العصر فقد حَبط عمله» و قال «من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهلَه

وماله».

حديث آخر: فيه اليأس من روح الله، و الأمن من مكر الله: روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رسول اللهﷺ كان متكئاً، فدخل عليه رجل فقال: ما الكبائر فقال «الشرك بالله، و اليأس من روح الله، و القنوط من رحمة الله، و الأمن من مكر الله، و هذا أكبر الكبائر» و قد رواه البزار. و روى ابن جرير عن ابن مسعود: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، و اليأس من روح الله، و القنوط من رحمة الله، و الأمن من مكر الله».

حديث في منع فضل الماء: و في الصحيحين عن النبيﷺ أنه قال «لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ»، وفيهما عن النبيﷺ أنه قال «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، و لا يزكيهم، و لهم عذاب أليم: رجلٌ على فَضلِ ماء بالفلاة يمنعه ابن السبيل» و ذكر تمام الحديث. و في مسند الإمام أحمد من حديث ابن عمرو مرفوعاً «من منع فضل الماء و فضل الكلأ، منعه الله فضله يوم القيامة». و روى ابن أبي حاتم عن عائشة، قالت: ما أخذ على النساء من الكبائر، قال ابن أبي حاتم: يعني قوله تعالى: **﴿على أن لا يشركن بالله شيئاً و لا يسرقن و لا يزنين ولا يقتلن أولادهن و لا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن و أرجلهن و لا يعصينك﴾**.

اقوال ابن عباس في ذلك

روى ابن جرير عن طاوس، قال: ذكروا عند ابن عباس الكبائر فقالوا: هي سبع، فقال: هي أكثر من سبع وسبع، قال: فلا أدري كم قالها من مرة، و روى عبد الرزاق، قال: قيل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال: هن إلى السبعين أقرب، و كذا قال أبو العالية الرياحي رحمه الله. و روى ابن جرير عن سعيد بن جبير: أن رجلاً قال لابن عباس: كم الكبائر، سبع؟ قال: هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع إستغفار، ولا صغيرة مع إصرار، و كذا رواه ابن أبي حاتم و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾** قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، رواه ابن جرير.

اقوال التابعين

روى ابن أبي حاتم عن مغيرة قال: كان يقال: شتم أبي بكر و عمر رضي الله عنهما من الكبائر. قلت: و قد ذهب طائفة من العلماء إلى تكفير من سبّ الصحابة، و هو رواية عن مالك بن أنس رحمه الله. و قال محمد بن سيرين: ما أظن أحداً ينتقص أبا بكر و عمر و هو يحب رسول اللهﷺ، رواه الترمذي. و روى ابن أبي حاتم أيضاً عن زيد بن أسلم في قول الله عز وجل **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾** من الكبائر: الشرك بالله، والكفر بآيات الله و رسله، و السّحر، و قتل الأولاد، و من دعى لله ولداً أو صاحبة ـ و مثل ذلك من الأعمال، والقول الذي لا يصلح معه عمل. و أما كل ذنب يصلح معه دين، و يقبل معه عمل، فإن الله يغفر السيئات بالحسنات. و روى ابن جرير: عن قتادة **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾** الآية: إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر؛ و روى عبد الرزاق

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» إسناد صحيح على شرط الشيخين. و قد رواه الترمذي. و في الصحيح شاهد لمعناه و هو قوله ﷺ بعد ذكر الشفاعة «أترونها للمؤمنين المتقين؟ لا و لكنها للخاطئين المتلوثين» و قد اختلف علماء الأصول و الفروع في حد الكبيرة، فمن قائل: هي ما عليه حد في الشرع، و منهم من قال: هي ما عليه وعيد مخصوص من الكتاب و السنة، وقيل غير ذلك.

و ذكر القاضي أبو سعيد الهروي أن الكبيرة كل فعل نص الكتاب على تحريمه، و كل معصية توجب في جنسها حداً من قتل أو غيره، و ترك كل فريضة مأمور بها على الفور، و الكذب في الشهادة و الرواية واليمين، هذا ما ذكروه على سبيل الضبط، ثم قال: و فصّل القاضي الرّوياني فقال: الكبائر سبع. قتل النفس بغير الحق، والزنا، واللواطة، و شرب الخمر، و السرقة، و أخذ المال غصباً، و القذف، و زاد في الشامل على السبع المذكورة: شهادة الزور، و أضاف إليها صاحب العدة: أكل الربا و الإفطار في رمضان بلا عذر، و اليمين الفاجرة، و قطع الرحم، وعقوق الوالدين، و الفرار من الزحف، و أكل مال اليتيم، و الخيانة في الكيل والوزن، و تقديم الصلاة على وقتها، و تأخيرها عن وقتها بلا عذر، و ضرب المسلم بلا حق، و الكذب على رسول الله ﷺ عمداً، و سب أصحابه، و كتمان الشهادة بلا عذر، و أخذ الرشوة، و القيادة بين الرجال والنساء، و السعاية عند السلطان، و منع الزكاة، و ترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر مع القدرة، و نسيان القرآن بعد تعلمه، و إحراق الحيوان بالنار، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب، و اليأس من رحمة الله، والأمن من مكر الله، و يقال: الوقيعة في أهل العلم، وحملة القرآن، و مما يعد من الكبائر: الظهار، و أكل لحم الخنزير و الميتة إلا عن ضرورة، ثم قال الرافعي: وللتوقف مجال في بعض هذه الخصال. قلت: و قد صنّف الناس في الكبائر مصنفات، منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي، الذي بلغ نحواً من سبعين كبيرة[1]. و إذا قيل: إن الكبيرة ما توعد عليها الشارع بالنار بخصوصها، كما قال ابن عباس و غيره و ما تُتُبِّع ذلك، اجتمع منه شيء كثير، و إذا قيل كل ما نهى الله عنه فكثير جداً، و الله أعلم.

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٣٢) ﴾

٣٢- روى الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، يغزو الرجال و لا نغزو، و لنا نصف الميراث، فأنزل الله ﴿و لا تتمنوا ما فضل الله به بعضهم على بعض﴾. و رواه الترمذي و ابن أبي حاتم و ابن جرير، و ابن مردويه والحاكم. و روى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عباس في الآية، قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ قالت: يا رسول الله، للذكر مثل حظ الأنثيين، و شهادة امرأتين برجل، فنحن في العمل هكذا، إن عملت امرأة حسنة كُتبت لها نصف حسنة، فأنزل الله هذه الآية ﴿و لا تتمنوا﴾ الآية، فإنه عدل مني و أنا صنعته. و قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في الآية، قال: و لا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان و أهله، فنهى الله عن ذلك، و لكن ليسأل الله من فضله، و قال الحسن و محمد بن سيرين و عطاء و الضحاك، نحو هذا؛ و هو الظاهر من الآية و لا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق فيقول رجل: لو أن

(١) و هو مطبوع متداول.

لي مثل ما لفلان لعملت مثله فهما في الأجر سواء [1] فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية، و ذلك أن الحديث حض على تمني مثل نعمة هذا، و الآية نهت عن تمني عين نعمة هذا، فقال **﴿و لا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾** أي في الأمور الدنيوية، و كذا الدينية أيضاً، لحديث أم سلمة و ابن عباس. و هكذا قال عطاء بن أبي رباح: نزلت في النهي عن تمني ما لفلان، و في تمني النساء أن يكن رجالاً فيغزون، رواه ابن جرير، ثم قال **﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا و للنساء نصيب مما اكتسبن﴾** أي كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير، و إن شراً فشر، هذا قول ابن جرير، و قيل: المراد بذلك في الميراث، أي كل يرث بحسبه، رواه الترمذي عن ابن عباس، ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم، فقال **﴿و اسئلوا الله من فضله﴾** لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض، فإن هذا أمر محتوم، والتمني لا يجدي شيئاً، و لكن سلوني من فضلي أعطكم، فإني كريم وهاب.

ثم قال **﴿إن الله كان بكل شيء عليما﴾** أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، و بمن يستحق الفقر فيفقره، و عليم بمن يستحق الآخرة فيُقيضه لأعمالها، و بمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير و أسبابه، لهذا قال **﴿إن الله كان بكل شيء عليما﴾**.

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾

٣٣- قال ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبير و أبو صالح و قتادة و زيد بن أسلم و السدي و الضحاك و مقاتل بن حيان و غيرهم، في قوله **﴿و لكل جعلنا موالي﴾** أي ورثة، و عن ابن عباس في رواية: أي عصبة، قال ابن جرير: و العرب تسمي ابن العم مولى.

و يعني بقوله **﴿مما ترك الوالدان و الأقربون﴾**، من تركة والديه و أقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبة يرثونه مما ترك والداه و أقربوه من ميراثهم له. وقوله تعالى: **﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾** أي و الذين تحالفتم بالإيمان المؤكدة أنتم و هم، فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم في تلك العهود و المعاقدات، و قد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا، و لا ينشئوا بعد نزول هذه الآية معاقدة. روى البخاري عن ابن عباس **﴿و لكل جعلنا موالي﴾** قال: ورثة، **﴿و الذين عقدت أيمانكم﴾** كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأُخُوَّة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت **﴿ولكل جعلنا موالي﴾** نسخت، ثم قال **﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾** من النصر و الرفادة و النصيحة و قد ذهب الميراث و يوصى له، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: **﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾** فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول: ترثني وأرثك، و كان الأحياء يتحالفون، فقال رسول الله ﷺ «كل حِلْف كان في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة، ولا عقد و لا حلف في الإسلام» فنسختها هذه الآية **﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾**، ثم قال: و روي عن سعيد بن جبير و مجاهد و عطاء والحسن و ابن المسيب و أبي صالح و سليمان ابن يسار و الشعبي وعكرمة و السدي و الضحاك و قتادة و مقاتل ابن حيان، أنهم قالوا: هم الحلفاء،

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٩/ ٧٣) بنحوه.

و روى ابن جرير عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال «شهدت حلف المُطَيَّبين و أنا غلام مع عُمومتي، فما أحب أن لي حُمر النَّعم، و أني أنكثه»، و قد ألّف رسول الله ﷺ بين قريش و الأنصار. و هكذا رواه الإمام أحمد. و روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم، قال: قال رسول الله ﷺ «لا حلف في الإسلام و أيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شِدَّة». و هكذا رواه مسلم.

وهذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم، كما هو مذهب أبي حنيفة و أصحابه، و رواية عن أحمد بن حنبل رحمه الله، والصحيح قول الجمهور و مالك و الشافعي و أحمد في المشهور عنه، و لهذا قال تعالى: **﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان و الأقربون﴾** أي ورثة من قراباته من أبويه و أقربيه، هم يرثونه دون سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر» أي اقسموا الميراث على أصحاب الفروض الذين ذكرهم الله في آيتي الفرائض، فما بقي بعد فأعطوه للعصبة.

و قوله **﴿و الذين عقدت أيمانكم﴾** أي قبل نزول هذه الآية فآتوهم نصيبهم، أي من الميراث، فأيما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له، و قد قيل: إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل و حكم الحلف الماضي أيضاً، فلا توارث به، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله **﴿و الذين عقدت أيمانكم﴾** قال: كان الرجل يعاقد الرجل أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله تعالى **﴿و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين و المهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾** يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، و هذا هو المعروف، و هكذا نص غير واحد من السلف أنها منسوخة بقوله **﴿و أولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾** الآية.

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) ﴾

٣٤- يقول تعالى: **﴿الرجال قوامون على النساء﴾** أي الرجل قيم على المرأة، أي هو رئيسها و كبيرها و الحاكم عليها و مؤدبها إذا اعوجت، **﴿بما فضّل الله بعضهم على بعض﴾** أي لأن الرجال أفضل من النساء، و الرجل خير من المرأة، و لهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، و كذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ «لن يُفلح قومٌ و لوا أمرهم امرأة» رواه البخاري من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، و كذا منصب القضاء و غير ذلك، **﴿و بما أنفقوا من أموالهم﴾** أي من المهور و النفقات و الكلف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه و سنة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، و له الفضل عليها و الإفضال، فناسب أن يكون قيماً عليها، كما قال الله تعالى: **﴿و للرجال عليهن درجة﴾** الآية، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿الرجال قوامون على النساء﴾** يعني أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها به من طاعته، و طاعته أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله، و كذا قال مقاتل و السدي و الضحاك.

و قال الشعبي في هذه الآية **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما أنفقوا من أموالهم﴾** قال: الصداق الذي أعطاها، ألا ترى أنه لو قذفها لاعنها، و لو قذفته جلدت. و قوله تعالى **﴿فالصالحات﴾** أي من

النساء ﴿قانتات﴾ قال ابن عباس و غير واحد : يعني مطيعات لأزواجهن ﴿حافظات للغيب﴾ و قال السدي و غيره : أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها و ماله . وقوله ﴿بما حفظ الله﴾ أي المحفوظ مَنْ حَفِظه الله . روى ابن جرير عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ «خيرُ النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك ، و إذا أمرتها أطاعتك ، و إذا غبت عنها حفظتك في نفسها و مالك» قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ إلى آخرها ، ورواه ابن أبي حاتم و أبو داود الطيالسي . و روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ «إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، و حفِظت فرجها ، و أطاعت زوجها ، قيل لها : ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت» تفرد به أحمد .

و قوله تعالى : ﴿و اللاتي تخافون نشوزهن﴾ أي و النساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن ، والنشوز هو الارتفاع ، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها ، التاركة لأمره ، المعرضة عنه ، المبغضة له ، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها و ليخوفها عقاب الله في عصيانه ، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته و حرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل و الإفضال ، و قد قال رسول الله ﷺ «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقّه عليها» ، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه ، لعنتها الملائكة حتى تصبح» ، رواه مسلم ، ولفظه «إذا باتتْ المرأة هاجرةً فراش زوجها ، لعنتها الملائكة حتى تصبح» ، و لهذا قال تعالى : ﴿و اللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن﴾ .

و قوله ﴿و اهجروهن في المضاجع﴾ قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الهجر هو أن لا يجامعها ، ويضاجعها على فراشها و يوليها ظهره ، و كذا قال غير واحد . و زاد آخرون منهم السدي والضحاك وعكرمة و ابن عباس في رواية : و لا يكلمها مع ذلك و لا يحدثها . و قال علي بن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس : يعظها فإن هي قبلت و إلا هجرها في المضجع ، و لا يكلمها من غير أن يذر نكاحها ، و ذلك عليها شديد . و قال مجاهد و الشعبي و إبراهيم و محمد بن كعب و مقسم و قتادة : الهجر هو أن لا يضاجعها . و في السنن و المسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال «أن تطعمها إذا طعمتَ ، و تكسوها إذا اكتسيت ، و لا تضرب الوجه ، و لا تقبح ، و لا تهجر إلا في البيت» . وقوله : ﴿و اضربوهن﴾ ، أي إذا لم يرتدعن بالموعظة و لا بالهجران ، فلكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح ، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع «و اتقوا الله في النساء ، فإنهن عندكم عَوَان ، و لكم عليهن ألا يُوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، و لهن عليكم رزقهن و كسوتهن بالمعروف» . و كذا قال ابن عباس و غير واحد : ضرباً غير مبرح ، قال الحسن البصري : يعني غير مؤثر ، قال الفقهاء : هو أن لا يكسر فيها عضواً و لا يؤثر فيها شيئاً ، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يهجرها في المضجع ، فإن أقبلت و إلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح ، و لا تكسر لها عظماً ، فإن أقبلت و إلا فقد أحل الله لك منها الفدية .

و عن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب قال : قال النبي ﷺ «لا تضربوا إماء الله» فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال : «ذَئِرتْ النساءُ على أزواجهن ، فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن ، فأطَاف بآل رسول الله نساءٌ كثير يشكون أزواجهن ، فقال رسول الله ﷺ «لقد أطَاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم» رواه أبو داود و النسائي و ابن ماجه .

و قوله تعالى: ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، و ليس له ضربها و لا هجرانها. و قوله ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليُّهن، و هو ينتقم ممن ظلمهن و بغى عليهن.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً (٣٥) ﴾

٣٥- ذكر الحال الأول و هو إذا كان النفور و النشوز من الزوجة. ثم ذكر الحال الثاني و هو إذا كان النفور من الزوجين، فقال تعالى: ﴿و إن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله و حكماً من أهلها﴾ وقال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين، أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما و يمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما و طالت خصومتهما، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة و ثقة من قوم الرجل ليجتمعا فينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق، و تشوَّف الشارع إلى التوفيق، و لهذا قال تعالى: ﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، و رجلاً من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا عنه امرأته، و قصروه على النفقة، و إن كانت المرأة هي المسيئة، قصروها على زوجها و منعوها النفقة، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا، فأمرهما جائز، فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين و كره الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذي رضي يرث الذي لم يرض و لا يرث الكاره الراضي، رواه ابن أبي حاتم و ابن جرير، وروى عبد الرزاق عن ابن عباس قال: بعثتُ أنا و معاوية حكمين، قال معمر: بلغني أن عثمان بعثهما، و قال لهما: إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا. و روى عبد الرزاق عن عبيدة قال: شهدت علياً و جاءته امرأة و زوجها مع كل واحد منهما فئام من الناس، فأخرج هؤلاء حكماً و هؤلاء حكماً، فقال علي للحكمين: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي و علي، و قال الزوج: أما الفرقة فلا، فقال علي: كذبت و الله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله عز وجل لك و عليك، رواه ابن أبي حاتم و ابن جرير، و قد أجمع جمهور العلماء على أن الحكمين لهما الجمع و التفرقة حتى قال إبراهيم النخعي: إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا، و هو رواية عن مالك، و قال الحسن البصري: الحكمان يحكمان في الجمع لا في التفرقة، و كذا قال قتادة و زيد بن أسلم، و به قال أحمد بن حنبل و أبو ثور و داود، و مأخذهم قوله تعالى: ﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ و لم يذكر التفريق، و أما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما في الجمع و التفرقة بلاخلاف، و قد اختلف الأئمة في الحكمين، هل هما منصوبان من جهة الحاكم، فيحكمان وإن لم يرض الزوجان. أو هما وكيلان من جهة الزوجين؟ على قولين و الجمهور على الأول، لقوله تعالى: ﴿فابعثوا حكماً من أهله و حكماً من أهلها﴾ فسماهما حكمين و من شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه، و هذا ظاهر الآية، و الجديد من مذهب الشافعي و هو قول أبي حنيفة و أصحابه، الثاني منهما بقول علي رضي الله عنه للزوج حين قال: أما الفرقة فلا، قال: كذبت حتى تقرَّ بما أقرت به، قالوا: فلو كانا حكمين لما افتقر إلى إقرار الزوج، و الله

أعلم.

قال الشيخ أبو عمر ابن عبد البر: و أجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قولهما فلا عبرة بقول الآخر، وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع و إن لم يوكلهما الزوجان، و اختلفوا هل ينفذ قولهما في التفرقة، ثم حكي عن الجمهور أنه ينفذ قولهما فيها أيضاً من غير توكيل.

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) ﴾

٣٦- يأمر تبارك و تعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات و الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه و لا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل «أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله و رسوله أعلم، قال: «أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم». ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، و كثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته و الإحسان إلى الوالدين، كقوله ﴿أن اشكر لي و لوالديك﴾، و كقوله ﴿و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحساناً﴾ ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال و النساء كما جاء في الحديث «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة و صلة»[1]. ثم قال تعالى: ﴿و اليتامى﴾ و ذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم و من ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم و الحنو عليهم، ثم قال ﴿و المساكين﴾ و هم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفايتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم و تزول به ضرورتهم، و سيأتي الكلام على الفقير و المسكين في سورة براءة، و قوله ﴿و الجار ذي القربى و الجار الجنب﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿و الجار ذي القربى﴾ يعني الذي بينك و بينه قرابة، ﴿و الجار الجنب﴾ الذي ليس بينك و بينه قرابة، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد و ميمون بن مهران و الضحاك و زيد بن أسلم و مقاتل بن حيان و قتادة، و قال نوف البكالي في قوله ﴿والجار ذي القربى﴾ يعني الجار المسلم ﴿و الجار الجنب﴾ يعني اليهودي و النصراني، رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم، و قد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار، فلنذكر منها ما تيسر، و بالله المستعان.

الحديث الأول: روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» أخرجاه في الصحيحين.

الحديث الثاني: روى أحمد أيضاً: عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، و خير الجيران عند الله خيرهم لجاره» رواه الترمذي.

الحديث الثالث: روى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرام حرمه الله و رسوله فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره»، قال «ما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله و رسوله، فهي حرام،

(١) رواه الإمام أحمد و الترمذي و النسائي و ابن ماجه من حديث سلمان بن عامر و هو صحيح.

قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره» تفرد به أحمد، و له شاهد في الصحيحين من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: : «أن تجعل لله نداً و هو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يَطعم معك». قلت ثم أي؟ قال: «أن تُزاني حليلة جارك».

الحديث الرابع: روى الإمام أحمد عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: إن لي جارين فإلى أيهما أُهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً»، و رواه البخاري.

الحديث الخامس: روى أحمد عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول خصمين يوم القيامة جاران» و قوله تعالى: ﴿و الصاحب بالجنب﴾ روي عن علي و ابن مسعود، قالا: هي المرأة، و قال ابن أبي حاتم: و روي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى و إبراهيم النخعي و الحسن و سعيد بن جبير في إحدى الروايات، نحو ذلك.

و قال ابن عباس و مجاهد و عكرمة و قتادة: هو الرفيق في السفر، و قال سعيد بن جبير: هو الرفيق الصالح، وقال زيد بن أسلم: هو جليسك في الحضر و رفيقك في السفر، و أما ﴿ابن السبيل﴾، فعن ابن عباس وجماعة: هو الضيف، و قال مجاهد و أبو جعفر الباقر و الحسن و الضحاك و مقاتل: هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر، وهذا أظهر، و إن كان مراد القائل بالضيف المار في الطريق، فهما سواء، و سيأتي الكلام على أبناء السبيل في سورة براءة، و بالله الثقة و عليه التكلان. و قوله تعالى: ﴿و ما ملكت أيمانكم﴾ وصية بالأرقاء، لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس، فلهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول: «الصلاةَ الصلاةَ و ما ملكت أيمانكم» فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه، و روى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ «ما أطعمتَ نفسك فهو لك صدقة، و ما أطعمتَ ولدك فهو لك صدقة، و ما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، و ما أطعمت خادمك فهو لك صدقة» رواه النسائي وإسناده صحيح، و لله الحمد.

و عن عبدالله بن عمرو أنه قال لقهرمان له: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا، قال: فانطلق فأعطهم، فإن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يَحبس عمن يملك قوتهم» رواه مسلم. و عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه و كسوته، و لا يكلف من العمل إلا ما يطيق» رواه مسلم أيضاً، و عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يُجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين، أو أكلة أكلتين، فإنه وَلِي حَرَّه وعلاجه»، و عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، و لا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» أخرجاه، وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾، أي مختالاً في نفسه، معجباً متكبراً فخوراً على الناس، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير، و هو عند الله حقير، و عند الناس بغيض، قال مجاهد في قوله ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً﴾ يعني متكبراً ﴿فخوراً﴾ يعني يعدُّ ما أعطى، و هو لا يشكر الله تعالى يعني يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، و هو قليل الشكر لله على ذلك، و روى ابن جرير: عن عبد الله بن واقد أبي رجاء الهروي قال: لا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، و تلا ﴿و ما ملكت أيمانكم﴾ الآية، و لا عاقاً إلا وجدته جباراً شقياً، و تلا ﴿و براً بوالدتي و لم يجعلني جباراً شقياً﴾، و روى ابن أبي حاتم عن العوام بن حوشب مثله في المختال الفخور، و روي عن مطرف قال: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقائه، فلقيته، فقلت: يا أباذر، بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم «إن الله يحب ثلاثة و يبغض ثلاثة»؟ فقال: أجل، فلا إخالني، أكذب على

خليلي ثلاثاً؟ قلت: من الثلاثة الذين يبغض الله؟ قال: المختال الفخور. أوليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل، ثم قرأ الآية **﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾**، و روي عن رجل من بَلْهُجَم قال: قلت: يا رسول الله، أوصني، قال: «إياك و إسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة، و إن الله لا يحب المخيلة».

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩)﴾

٣٧- يقول تعالى ذاماً الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين و الإحسان إلى الأقارب، و اليتامى، و المساكين، و الجار ذي القربى، و الجار الجنب، و الصاحب بالجنب، و ابن السبيل، و ما ملكت أيمانكم من الأرقاء، و لا يدفعون حق الله فيها، و يأمرون الناس بالبخل أيضاً، و قد قال رسول الله ﷺ: «وأيُّ داءٍ أدوأ من البخل» [١]، و قال: «إياكم و الشح، فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا» [٢].

و قوله تعالى: **﴿و يكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾** فالبخيل جحود لنعمة الله لا تظهر عليه و لا تبين، لا في مأكله و لا في ملبسه و لا في إعطائه و بذله، كما قال تعالى: **﴿إن الإنسان لربه لكنود * و إنه على ذلك لشهيد﴾** أي بحاله و شمائله **﴿و إنه لحب الخير لشديد﴾** و قال هٰهنا **﴿و يكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾** و لهذا توعدهم بقوله: **﴿و أعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾** و الكفر هو الستر و التغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها، فهو كافر لنعم الله عليه، و في الحديث «إن الله إذا أنعم نعمةً على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه» [٣] وفي الدعاء النبوي «و اجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك قابليها، و أتممها علينا» [٤] و قد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ و كتمانهم ذلك، و لهذا قال تعالى: **﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾** و روي عن ابن عباس، و قاله مجاهد و غير واحد، ولا شك أن الآية محتملة لذلك، و الظاهر أن السياق في البخل بالمال، و إن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى، فإن السياق في الإنفاق على الأقارب و الضعفاء، و كذلك الآية التي بعدها، و هي قوله **﴿الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾** فإنه ذكر الممسكين المذمومين و هم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة و أن يحمدوا بالكرم، و لا يريدون بذلك وجه الله، و في حديث الثلاثة الذين هم أول من تسجّر بهم النار و هم: العالم، والغازي، و المنفق، المراؤون بأعمالهم، «يقول صاحب المال: ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك، فيقول الله: كذبت إنما أردت أن يقال: جواد، فقد قيل» أي فقد أخذت جزاءك في الدنيا و هو الذي أردت بفعلك، و في حديث آخر: أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جدعان: هل ينفعه إنفاقه و إعتاقه؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر ربِّ اغفرلي خطيئتي يوم الدين»، ولهذا قال تعالى: **﴿و لا يؤمنون بالله و لا باليوم**

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٦) و الطبراني في الأوسط و الصغير و غيرهما. (٢) رواه أحمد و أبو داود و هو صحيح. (٣) رواه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه. (٤) رواه أبو داود (٩٦٩) و الحاكم (١/ ٢٦٥) و الطبراني في الدعاء (١٤٣٠).

الآخر﴾ الآية، أي إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح، و عدولهم عن فعل الطاعة على وجهها: الشيطان، فإنه سوّل لهم و أملى لهم، و قارنهم فحسّن لهم القبائح، و لهذا قال تعالى: ﴿و من يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾.

و لهذا قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل و سَلْ عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

٣٩- ثم قال تعالى: ﴿و ماذا عليهم لو آمنوا بالله و اليوم الآخر و أنفقوا مما رزقهم الله﴾ الآية، أي و أيُّ شيء يضرهم لو آمنوا بالله و سلكوا الطريق الحميدة، و عدلوا عن الرياء إلى الإخلاص، و الإيمان بالله، و رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملاً، و أنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله و يرضاها. و قوله: ﴿وكان الله بهم عليماً﴾ أي و هو عليم بنياتهم الصالحة و الفاسدة، و عليم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويهمه رشده، و يقيضه لعملٍ صالح يرضى به عنه، و بمن يستحق الخذلان و الطرد عن الجناب الأعظم الإلهي الذي مَنْ طُرِدَ عن بابه، فقد خاب و خسر في الدنيا و الآخرة، عياذاً بالله من ذلك.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾

٤٠- يقول تعالى مخبراً: إنه لا يظلم أحداً من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل و لا مثقال ذرة، بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿و نضع الموازين القسط﴾ الآية، و قال تعالى مخبراً عن لقمان أنه قال: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ❁ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ❁ و من يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ و في الصحيحين من حديث عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، و فيه «فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجوه من النار» و في لفظ: «أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقاً كثيراً» ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ الآية، و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود: يؤتى بالعبد و الأمة يوم القيامة فينادي مناد على رؤوس الأولين و الآخرين: هذا فلان بن فلان، من كان له حق فليأت إلى حقه، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أمها أو أخيها أو زوجها، ثم قرأ ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ و لا يتساءلون﴾ فيغفر الله من حقه ما يشاء، و لا يغفر من حقوق الناس شيئاً، فينصب للناس فينادى: هذا فلان بن فلان، من كان له حقٌ فليأت إلى حقه. فيقول: رب فَنِيتْ الدنيا من أين أوتيهم حقوقهم؟ فيقول: خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر طَلِبته، فإن كان ولياً لله فَفَضَل له مثقالَ ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة ثم قرأ علينا ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة و إن تك حسنة يضاعفها﴾ وقال: ادخل الجنة، و إن كان عبداً شقياً قال المَلَك: رب فنيتْ حسناته وبقي طالبون كثير، فيقول: خذوا من سيئاتهم فأضعفوها إلى سيئاته، ثم صكوا له صكاً إلى النار، و رواه ابن جرير، ولبعض هذا الأثر شاهد في الحديث الصحيح.

و روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿و إن تك حسنة يضاعفها﴾ فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة و لا يخرج من النار أبداً، و قد استدل له بالحديث الصحيح أن العباس قال: يا رسول الله، إن عمك أبا طالب كان يحوطك و ينصرك، فهل نفعته بشيء؟ قال: «نعم هو في ضَحْضَاح من نار، و لو لا أنا لكان في الدَّرك الأسفل من النار» و قد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يُثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، و أما الكافر فيطعم بها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم يكن حسنة» و قال أبو هريرة و عكرمة و سعيد بن جبير و الحسن و قتادة والضحاك في قوله: ﴿و يؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾: يعني الجنة، نسأل الله رضاه و الجنة.

٤١- و قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة و شدة أمره و شأنه، فكيف يكون الأمر و الحال يوم القيامة، حين يجيء من كل أمة بشهيد، يعني الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿و أشرقت الأرض بنور ربها و وضع الكتاب و جيء بالنبيين و الشهداء﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿و يوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم﴾ الآية، و روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي» فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أُنزل؟ قال: «نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فقال «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان، و رواه مسلم أيضاً.

وأما ما ذكره أبو عبد الله القرطبي في التذكرة حيث قال: باب ما جاء في شهادة النبي ﷺ على أمته، عن سعيد ابن المسيب يقول: ليس من يوم إلا تُعرض فيه على النبي ﷺ أمته غدوة و عشية، فيعرفهم بأسمائهم و أعمالهم، فلذلك يشهد عليهم، يقول الله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فإنه أثر و فيه انقطاع، فإن فيه رجلاً مبهماً لم يسم، و هو من كلام سعيد بن المسيب لم يرفعه.

٤٢- و قوله تعالى: ﴿يومئذ يود الذين كفروا و عصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض و لا يكتمون الله حديثاً﴾ أي لو انشقت و بلعتهم مما يرون من أهوال الموقف و ما يحل بهم من الخزي و الفضيحة و التوبيخ، كقوله: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ الآية، و قوله: ﴿و لا يكتمون الله حديثاً﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه و لا يكتمون منه شيئاً. و روى ابن جرير عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال له: سمعت الله عز وجل يقول- يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا-: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ و قال في الآية الأخرى: ﴿و لا يكتمون الله حديثاً﴾ فقال ابن عباس: أما قوله: ﴿و الله ربنا ما كنا مشركين﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام، قالوا: تعالوا فلنجحد، فقالوا ﴿و الله ربنا ما كنا مشركين﴾ فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم و أرجلهم ﴿و لا يكتمون الله حديثاً﴾ و رواه عبد الرزاق بنحوه [1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

---

(١) رواه ابن أبي حاتم بنحوه أيضاً.

٤٣- ينهى تبارك و تعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السُّكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب، إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مُكث، و قد كان هذا قبل تحريم الخمر، كما دل عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر و الميسر﴾ الآية. فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر، فقال «اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً»، فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات، فلما نزل قوله: ﴿يا أيها الذين إنما الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ فقال عمر: انتهينا انتهينا. وفي رواية عن عمر بن الخطاب في قصة تحريم الخمر، فذكر الحديث و فيه: فنزلت الآية التي في النساء ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادي: أن لا يقربنّ الصلاة سكران، لفظ أبي داود.

و ذكروا في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن سعد قال: نزلت فيّ أربع آيات، صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين و أناساً من الأنصار، فأكلنا و شربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا، فرفع رجل لَحْيَ بعير ففزر به أنف سعد، فكان سعد مفزور الأنف، و ذلك قبل تحريم الخمر، فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى﴾ الآية، و الحديث بطوله عند مسلم.

سبب آخر: روى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، و حضرت الصلاة فقدموا فلاناً، قال فقرأ: قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله ﴿يا أيها الذين لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ و كذا رواه الترمذي و ابن جرير و أبو داود و النسائي. و روى عبد الرزاق عن قتادة: كانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات ثم نسخ بتحريم الخمر. و قال الضحاك في الآية: لم يعن بها سكر الخمر و إنما عنى بها سكر النوم، رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم، ثم قال ابن جرير: و الصواب أن المراد سكر الشراب، قال: و لم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب، لأن ذاك في حكم المجنون، و إنما خوطب بالنهي الثمل الذي يفهم التكليف، وهذا حاصل ما قاله، و قد ذكره غير واحد من الأصوليين، و هو أن الخطاب يتوجه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذي لا يدري ما يقال له فإن الفهم شرط التكليف، و قد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل و النهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً، و الله أعلم، و على هذا فيكون كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين اتقوا الله حق تقاته و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون﴾ و هو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام و المداومة على الطاعة لأجل ذلك.

و قوله: ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذي لا يدري ما يقول، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة و عدم تدبره و خشوعه فيها. و قد روى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعس أحدكم و هو يصلي، فلينصرف فلينَم حتى يعلم ما يقول» انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم، و في بعض ألفاظ الحديث «فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه» و قوله: ﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ قال: لا تدخلوا المسجد و أنتم جنب، إلا

عابري سبيل، قال: تمر به، و لا تجلس[1] ثم قال: و روي عن عبد الله بن مسعود، و أنس، و أبي عبيدة، و سعيد ابن المسيب، و أبي الضحى، و عطاء، و مجاهد، و مسروق، وإبراهيم النخعي، و زيد بن أسلم، و أبي مالك، وعمرو بن دينار، والحكم بن عتيبة، و عكرمة، و الحسن البصري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، و ابن شهاب، وقتادة نحو ذلك، وروى ابن جرير عن يزيد بن أبي حبيب عن قول الله عزو جل **﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل﴾** أن رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، فكانت تصيبهم الجنابة و لا ماء عندهم، فيريدون الماء و لا يجدون ممراً إلا في المسجد، فأنزل الله **﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل﴾** و يشهد لصحة ما قاله يزيد بن أبي حبيب رحمه الله، ما ثبت في صحيح البخاري: أن رسول اللهﷺ قال: «سدّوا كل خَوخةٍ في المسجد إلا خوخة أبي بكر» و هذا قاله في آخر حياتهﷺ، علماً منه أن أبا بكرؓ سيلي الأمر بعده، و يحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمور المهمة فيما يصلح للمسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد، إلا بابهؓ، و من روى إلا باب علي، كما وقع في بعض السنن فهو خطأ، والصواب ما ثبت في الصحيح.

و من هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد، و يجوز له المرور، و كذا الحائض و النفساء أيضاً في معناه، إلا أن بعضهم قال: يمنع مرورهما لاحتمال التلويث، و منهم من قال: إن أمنَتْ كل واحدة منهما التلويث في حال المرور، جاز لهما المرور، وإلا فلا. و قد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول اللهﷺ: «ناوليني الخُمْرة من المسجد» فقلت: إني حائض، قال: «إن حيضتك ليست في يدك» و له عن أبي هريرة مثله، ففيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، و النفساء في معناها، و الله أعلم، و روى أبو داود عن عائشة، قالت: قال رسول اللهﷺ: «إني لا أحلّ المسجدَ لحائض و لا جنب»، قال أبو مسلم الخطابي: ضعف هذا الحديث جماعة[2].

حديث آخر: في معنى الآية. روى ابن أبي حاتم عن علي **﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل﴾** قال: لا يقرب الصلاة، إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء فيصلي، حتى يجد الماء، قال: و روي عن ابن عباس في إحدى الروايات، و سعيد بن جبير و الضحاك، و نحو ذلك. و قد رواه ابن جرير عن علي و عن ابن عباس، فذكره. و رواه عن سعيد بن جبير، و عن مجاهد و الحسن بن مسلم و الحكم بن عتيبة و زيد بن أسلم، و ابنه عبد الرحمن مثل ذلك. و روي عن عبد الله بن كثير قال: كنا نسمع أنه في السفر.

و يستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه أحمد و أهل السنن من حديث أبي ذر، قال: قال رسول اللهﷺ: «الصّعيد الطيب طهور المسلم، و إن لم تجد الماء عشر حجج، فإذا وجدت الماء فأمسِسْه بشرتك، فإن ذلك خير لك» ثم قال ابن جرير بعد حكايته القولين: و الأولى قول من قال **﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل﴾** أي إلا مجتازي طريق فيه، و ذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء و هو جنب، في قوله **﴿و إن كنتم مرضى أو على سفر﴾** إلى آخره، فكان معلوماً بذلك أن قوله **﴿و لا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾** لو كان معنياً به المسافر، لم يكن لإعادة ذكره في قوله **﴿و إن كنتم مرضى أو على سفر﴾** معنى مفهوم، و قد مضى حكم ذكره قبل ذلك، فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها، و أنتم سكارى، حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضاً جنباً، حتى تغتسلوا، إلا عابري سبيل، قال: و العابر السبيل: المجتاز مراً و قطعاً، يقال منه:

---

(١) و في سنده ضعف. (٢) و هو ضعيف كما قال، ضعفه البيهقي و الحافظ ابن حجر كما في التلخيص.

عبرت هذا الطريق، فأنا أعبره عبراً و عبوراً، و منه يقال عبر فلان النهر، إذا قطعه و جاوزه، و منه قيل للناقة القوية على الأسفار، هي عبر الأسفار لقوتها على قطع الأسفار، و هذا الذي نصره، هو قول الجمهور، و هو الظاهر من الآية، و كأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة، تناقض مقصودها، و عن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة و هي الجنابة المباعدة للصلاة، و لمحلها أيضاً، و الله أعلم.

و قوله ﴿حتى تغتسلوا﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة، أبو حنيفة و مالك و الشافعي، أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم، إن عدم الماء، أو لم يقدر على استعماله بطريقه، و ذهب الإمام أحمد: إلى أنه متى توضأ الجنب، جاز له المكث في المسجد، لما روى هو و سعيد بن منصور في سننه بسند صحيح: أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك. روى سعيد بن منصور عن عطاء بن يسار قال: رأيت رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ، يجلسون في المسجد و هم مجنبون، إذا توضؤوا وضوء الصلاة. و هذا إسناد على شرط مسلم، و الله أعلم.

و قوله ﴿و إن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ أما المرض المبيح للتيمم، فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء، فوات عضواً أو شينه أو تطويل البرء، و من العلماء من جوز التيمم بمجرد المرض، لعموم الآية، و السفر معروف، و لا فرق فيه بين الطويل والقصير، و قوله ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ الغائط هو المكان المطمئن من الأرض، كنى بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر، و أما قوله ﴿أو لامستم النساء﴾ فقرئ ﴿لمستم﴾ و ﴿لامستم﴾ و اختلف المفسرون و الأئمة في معنى ذلك على قولين: أحدهما: أن ذلك كناية عن الجماع، لقوله تعالى: ﴿و إن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ و قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿أو لامستم النساء﴾ قال: الجماع. وروي عن علي و أبي بن كعب و مجاهد و طاوس والحسن و عبيد بن عمير و سعيد بن جبير والشعبي و قتادة و مقاتل بن حيان نحو ذلك، و روى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: ذكروا اللمس، فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع، و قال ناس من العرب: اللمس هو الجماع، قال: فأتيت ابن عباس فقلت له: إن ناساً من الموالي و العرب اختلفوا في اللمس، فقالت الموالي: ليس بالجماع، و قالت العرب: الجماع، قال: فمن أي الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالي، قال: غُلب فريق الموالي. إن اللمس و المس و المباشرة: الجماع، و لكن الله يكني ما شاء بما شاء، ثم قال ابن جرير: و قال آخرون: عنى الله تعالى بذلك كلَّ لمس بيد أو بغيرها من أعضاء الإنسان، و أوجبوا الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه، ثم روى عن عبد الله ابن مسعود قال: اللمس ما دون الجماع، وروى الطبراني بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال: يتوضأ الرجل من المباشرة و من اللمس بيده و من القبلة، وكان يقول في هذه الآية ﴿أو لامستم النساء﴾ هو الغمز، و روى ابن جرير عن ابن عمر كان يتوضأ من قبلة المرأة، و يرى فيها الوضوء و يقول: هي من اللماس. و قال ابن أبي حاتم: و روي عن ابن عمر و عبيدة و أبي عثمان النهدي و أبي عبيدة يعني عبد الله بن مسعود و عامر الشعبي و ثابت بن الحجاج وإبراهيم النخعي و زيد بن أسلم نحو ذلك.

(قلت) و روى مالك عن عبد الله بن عمر أنه كان يقول: قبلة الرجل امرأته و جسه بيده من الملامسة، فمن قبّل

امرأته أو جسّها بيده فعليه الوضوء، و روى الدار قطني عن عمر بن الخطاب نحو ذلك، ولكن روينا عنه من وجه آخر: أنه كان يقبل امرأته ثم يصلي و لا يتوضأ، فالرواية عنه مختلفة، فيحمل ما قاله في الوضوء إن صح عنه، على الاستحباب، و الله أعلم. و القول بوجوب الوضوء من المس، هو قول الشافعي و أصحابه مالك و المشهور عن أحمد بن حنبل رحمهم الله، قال ناصر هذه المقالة: قد قرئ في هذه الآية لامستم و لمستم، و اللمس يطلق في الشرع على الجس باليد، قال تعالى: ﴿و لو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ أي جسوه، وقال رسول الله ﷺ لماعز حين أقر بالزنا، يعرّض له بالرجوع عن الإقرار: «لعلك قبلت أو لمست»، و في الحديث الصحيح «واليد زناها اللمس»[1] و قالت عائشة رضي الله عنها: قلّ يوم إلا ورسول الله ﷺ يطوف علينا فيقبل و يلمس[2]، ومنه ما ثبت في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة، و هو يرجع إلى الجس باليد، على كلا التفسيرين، قالوا: و يطلق في اللغة على الجس باليد، كما يطلق على الجماع.

قال ابن جرير: و أولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله: ﴿أو لامستم النساء﴾ الجماع، دون غيره من معاني اللمس، لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قبّل بعض نسائه، ثم صلى و لم يتوضأ، ثم روى عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يتوضأ، ثم يُقبّل ثم يُصلي، و لا يتوضأ. و رواه أحمد و أبو داود و النسائي.

و قوله تعالى: ﴿فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية: أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد طلب الماء، فمتى طلبه فلم يجده، جاز له حينئذ التيمم، و قد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع، كما هو مقرر في موضعه، كما هو في الصحيحين من حديث عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يُصلّ في القوم، فقال «يا فلان ما منعك أن تصلي مع القوم، ألست برجل مسلم؟»قال: بلى يا رسول الله، و لكن أصابتني جنابة و لا ماء، قال «عليك بالصّعيد فإنه يكفيك». و لهذا قال تعالى: ﴿فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ فالتيمم في اللغة، هو القصد، تقول العرب: تيمّمك الله بحفظه، أي قصدك.

و الصعيد قيل: هو كل ما صعد على وجه الأرض، فيدخل فيه التراب و الرمل و الشجر و الحجر و النبات، وهو قول مالك، و قيل: ما كان من جنس التراب، كالرمل و الزرنيخ و النورة، و هذا مذهب أبي حنيفة، وقيل: هو التراب فقط، و هو مذهب الشافعي و أحمد بن حنبل و أصحابهما، و احتجوا بقوله تعالى: ﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾ أي تراباً أملس طيباً، و بما ثبت في صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضّلنا على الناس بثلاث: جُعلتْ صفوفنا كصفوف الملائكة، و جعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» و في لفظ «و جُعل ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» قالوا: فخصص الطهورية بالتراب، في مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه، و الطيب ههنا قيل: الحلال، وقيل: الذي ليس بنجس، كما رواه الإمام أحمد و أهل السنن، إلا ابن ماجه من حديث أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصّعيد الطيب طهور المسلم، و إن لم يجد الماء عشر حجج، فإذا وجده فليمسه بشرته فإن ذلك خير». و قال ابن عباس: أطيب الصعيد تراب الحرث، رواه ابن أبي حاتم.

و قوله: ﴿فامسحوا بوجوهكم و أيديكم﴾ التيمم بدل عن الوضوء في التطهر به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه و اليدين فقط بالإجماع، و لكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال: أحدها

(١) رواه مسلم (٢) و رواه أبو داود (٣٥١٢) بنحوه، و هو حسن.

و هو مذهب الشافعي في الجديد : أنه يجب أن يمسح الوجه و اليدين إلى المرفقين بضربتين ، لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين ، و على ما يبلغ المرفقين ، كما في آية الوضوء ، و يطلق و يُراد بهما ما يبلغ الكفين ، كما في آية السرقة ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ قالوا : و حَمْلُ ما أطلق ههنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية .

و القول الثاني : أنه يجب مسح الوجه و اليدين إلى الكفين بضربتين ، و هو قول الشافعي في القديم . والثالث : أنه يكفين بضربة واحدة . روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبزى أن رجلاً أتى عمر فقال : إني أجنبت فلم أجد ماء ، فقال عمر لا تصل ، فقال عمار : أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا و أنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء ، فأما أنت فلم تصل ، و أما أنا فتمعكت في التراب فصليت ، فلما أتينا النبيﷺ ذكرت ذلك له ، فقال : «إنما كان يكفيك ، وضرب النبيﷺ بيده الأرض ، ثم نفخ فيها و مسح بها وجهه و كفيه» ، و قال تعالى في آية المائدة : ﴿فامسحوا بوجوهكم و أيديكم منه﴾ استدل بذلك الشافعي ، على أنه لا بد في التيمم ، أن يكون بتراب طاهر ، له غبار يعلق بالوجه و اليدين منه شي .

و قوله : ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ أي في الدين الذي شرعه لكم ﴿و لكن يريد ليطهركم﴾ فلهذا أباح لكم ، إذا لم تجدوا الماء ، أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد ، ﴿و ليتم نعمته لعلكم تشكرون﴾ و لهذا كانت هذه الأمة مخصوصة بمشروعية التيمم ، دون سائر الأمم ، كما ثبت في الصحيحين ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال : قال رسول اللهﷺ : «أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، و جعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل» و في لفظ «فعنده طهوره و مسجده ، وأُحلت لي الغنائم و لم تحل لأحد قبلي ، و أعطيت الشفاعة ، و كان النبي يُبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة» و تقدم في حديث حذيفة عند مسلم «فضّلنا على الناس بثلاث ، جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، و جعلت لنا الأرض مسجداً و تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء» و قال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿فامسحوا بوجوهكم و أيديكم إن الله كان عفواً غفوراً﴾ أي و من عفوه عنكم و غفرانه لكم أن شرع التيمم ، و أباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء ، توسعةً عليكم و رخصة لكم ، و ذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة ، أن تفعل على هيئة ناقصة ، من سكر حتى يصحو المكلف و يعقل ما يقول ، أو جنابة حتى يغتسل ، أو حدثَ حتى يتوضأ ، إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء ، فإن الله عز وجل قد أرخص في التيمم ، و الحالة هذه رحمة بعباده و رأفة بهم ، و توسعة عليهم ، و لله الحمد و المنة .

ذكر سبب نزول مشروعية التيمم : و إنما ذكرنا ذلك ههنا لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة ، و بيانه أن هذه نزلت قبل تحتم تحريم الخمر ، و الخمر إنما حرم بعد أحد بيسير يقال : في محاصرة النبيﷺ لبني النضير ، و أما المائدة فإنها من أواخر ما نزل و لا سيما صدرها ، فناسب أن يُذكر السبب ههنا ، وبالله الثقة .

روى أحمد عن عائشة أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت ، فبعث رسول اللهﷺ رجالاً في طلبها فوجدوها ، فأدركتهم الصلاة و ليس معهم ماء فصلوا بغير وضوء ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ، فأنزل الله آية التيمم ، فقال أُسيد بن الحُضير لعائشة : جزاكِ الله خيراً ، فو الله ما نزل بكِ أمر تكرهينه ، إلا جعل الله لكِ و للمسلمين فيه

خيراً(١).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً (٤٦) ﴾

٤٤- يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله، و يتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ، ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا، ﴿و يريدون أن تضلوا السبيل﴾ أي يودون لو تكفرون بما أُنزل عليكم أيها المؤمنون، و تتركون ما أنتم عليه من الهدى و العلم النافع.

٤٥- ﴿و الله أعلم بأعدائكم﴾ أي هو أعلم بهم و يحذركم منهم، ﴿و كفى بالله ولياً و كفى بالله نصيراً﴾ أي كفى به ولياً لمن لجأ إليه، و نصيراً لمن استنصره.

٤٦- ثم قال تعالى: ﴿من الذين هادوا﴾ «من» في هذا لبيان الجنس كقوله ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾، وقوله ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي يتأولون الكلام على غير تأويله، و يفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصداً منهم و افتراء ﴿و يقولون سمعنا و عصينا﴾ أي يقولون سمعنا ما قلته يا محمد و لا نطيعك فيه، ، هكذا فسره مجاهد وابن زيد، و هو المراد، و هذا أبلغ في كفرهم و عنادهم و أنهم يتولون عن كتاب الله بعد ما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم و العقوبة، و قوله ﴿و اسمع غير مسمع﴾ أي اسمع ما نقول، لا سمعت، رواه الضحاك عن ابن عباس، و قال مجاهد و الحسن: و اسمع غير مقبول منك، قال ابن جرير: والأول أصح، و هو كما قال، و هذا استهزاء منهم و استهتار، عليهم لعنة الله، ﴿و راعنا لياً بألسنتهم و طعناً في الدين﴾ أي يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم راعنا، و إنما يريدون الرعونة بسبهم النبي، و قد تقدم الكلام على هذا عند قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا و قولوا انظرنا﴾ و لهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يُظهرونه ﴿لياً بألسنتهم و طعناً في الدين﴾ يعني بسبهم النبي ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿و لو أنهم قالوا سمعنا و أطعنا واسمع و انظرنا لكان خيراً لهم و أقوم و لكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم، و قد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ والمقصود أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً (٤٨) ﴾

(١) و رواه البخاري و مسلم مطولاً.

٤٧ – يقول تعالى آمراً أهل الكتاب بالإيمان بما نزّل على عبده و رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، و متهدداً لهم إنْ لم يفعلوا بقوله: **﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾** قال بعضهم: معناه من قبل أن نطمس وجوهاً، فطمسها هو ردها إلى الأدبار و جعل أبصارهم من ورائهم، و يحتمل أن يكون المراد: من قبل أن نطمس وجوهاً فلا نُبقي لها سمعاً و لا بصراً و لا أثراً، و مع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار. قال العوفي عن ابن عباس في الآية و هي **﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾** و طمسها أن تعمى **﴿فنردها على أدبارها﴾** يقول: نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم، فيمشون القهقرى، و نجعل لأحدهم عينين من قفاه، و كذا قال قتادة و عطية العوفي، و هذا أبلغ في العقوبة و النكال، و هو مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق و ردهم إلى الباطل، و رجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سُبُل الضلالة، يهرعون و يمشون القهقرى على أدبارهم، و هذا كما قال بعضهم في قوله **﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ◆ و جعلنا من بين أيديهم سداً﴾** الآية: إن هذا مثل ضربه الله لهم في ضلالهم، و منعهم عن الهدى. قال مجاهد: **﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾**، يقول: عن صراط الحق فنردها على أدبارها، أي في الضلال. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس و الحسن نحو هذا. قال: نرجعها كفاراً و نردهم قردة. و قد ذُكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية.

و قد روى ابن أبي حاتم عن أبي إدريس عائذ الله الخولاني قال: كان أبو مسلم الجليلي معلم كعب، و كان يلومه في إبطائه عن رسول الله ﷺ قال: فبعثه إليه لينظر أهو هو؟ قال كعب: فركبت حتى أتيت المدينة، فإذا تالٍ يقرأ القرآن يقول: **﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها﴾** فبادرت الماء فاغتسلت، و إني لأمس وجهي مخافة أن أطمس ثم أسلمت. و قوله **﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾** يعني الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد، و قد مسخوا قردة وخنازير، و سيأتي بسط قصتهم في سورة الأعراف. و قوله **﴿و كان أمر الله مفعولاً﴾** أي إذا أمر بأمر فإنه لا يُخالَف و لا يمانع.

٤٨ – ثم أخبر تعالى أنه **﴿لا يغفر أن يشرك به﴾**، أي لا يغفر لعبد لقيه و هو مشرك به، **﴿و يغفر ما دون ذلك﴾** أي من الذنوب **﴿لمن يشاء﴾**، أي من عباده و قد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر:

الحديث الأول: روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله ثلاثة: ديوانٌ لا يعبأ الله به شيئاً، و ديوانٌ لا يترك الله منه شيئاً، و ديوان لا يغفره الله، فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله عز وجل: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾** الآية، و قال: **﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾**، و أما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه فيما بينه و بين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها، فإن الله يغفر ذلك و يتجاوز إن شاء، و أما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة» تفرد به أحمد.

الحديث الثاني: روى الإمام أحمد عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنبٍ عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» و رواه النسائي.

الحديث الثالث: روى الإمام أحمد عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقول: يا عبدي ما عبدتني ورجوتني، فإني غافرٌ لك على ما كان فيك، يا عبدي إنك إن لقيتني بقُرابِ الأرض خطيئة ما لم تشرك بي، لقيتك

بقُرابها مغفرة» تفرد به أحمد.

الحدي الرابع: روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «ما عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك، إلا دخل الجنة، قلت: و إن زنى و إن سرق؟ قال: و إن زنى و إن سرق، قلت: و إن زنى و إن سرق؟ قال: و إن زنى و إن سرق ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر»، قال: فخرج أبو ذر و هو يجر إزاره و هو يقول: و إن رغم أنف أبي ذر، و كان أبو ذر يحدث بهذا و يقول: و إن رغم أنف أبي ذر. أخرجاه.

الحديث الخامس: روى عبد بن حميد عن جابر قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان، قال: «مَنْ مات لا يشرك بالله شيئاً وجَبتْ له الجنة، و من مات يشرك بالله شيئاً وجبت له النار»[1].

الحديث السادس: روى الحافظ أبو يعلى عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما تركت حاجة و لا ذا حاجة إلا قد أتيت، قال: «أليس تشهد أن لا إله إلا الله، و أن محمداً رسول الله؟» ثلاث مرات، قال: نعم، قال: «فإن ذلك يأتي على ذلك كله».

الحديث السابع: روى الإمام أحمد عن ضمضم بن جوس اليمامي قال: قال لي أبو هريرة: يا يمامي لا تقولن لرجل: و الله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة أبداً. قلت: يا أبا هريرة، إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب قال: لا تقلها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان في بني إسرائيل رجلان: كان أحدهما مجتهداً في العبادة، و كان الآخرُ مسرفاً على نفسه، و كانا متآخيين، و كان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب فيقول: يا هذا أَقصر، فيقول: خلّني و ربي أبُعثتَ علي رقيباً؟ قال: إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال له: ويحك أَقصر! قال: خلني و ربي، أبعثتَ علي رقيباً؟ فقال: و الله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة أبداً، قال: فبعَث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما، و اجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، و قال للآخر: أكنت بي عالماً؟ أكنت على ما في يدي قادراً؟ اذهبوا به إلى النار: قال: فو الذي نفس أبي القاسم بيده لتكلّم بكلمة أوبقت دنياه و آخرته»، و رواه أبو داود.

و روى البزار عن ابن عمر قال: كنا نُمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبينا ﷺ يقول: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ و قال: «أخرتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة».

و هذه الآية التي في سورة ﴿تنزيل﴾ مشروطة بالتوبة، فمن تاب من أي ذنب و إن تكرر منه، تاب الله عليه، ولهذا قال: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ أي بشرط التوبة، و لو لم يكن كذلك لدخل الشرك فيه، و لا يصح ذلك لأنه تعالى قد حكم ههنا بأنه لا يغفر الشرك، و حكم بأنه يغفر ما عداه لمن يشاء، أي: و إن لم يتب صاحبه فهذه أرجى من تلك من هذا الوجه، والله أعلم.

وقوله ﴿و من يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ كقوله ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ و ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً و هو خلقك» و ذكر تمام الحديث.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ

(١) و قد أخرجه مسلم في الإيمان.

بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴿٥٢﴾ ﴾

٤٩- قال الحسن و قتادة: نزلت هذه الآية و هي قوله: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ في اليهود و النصارى حين قالوا: نحن أبناء الله و أحباؤه، و قال ابن زيد: نزلت في قولهم: ﴿نحن أبناء الله و أحباؤه﴾، و في قولهم ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، و قال مجاهد: كانوا يقدّمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم و يزعمون أنهم لا ذنب لهم، و كذا قال عكرمة و أبو مالك، و روى ابن جرير، و قال الضحاك: قالوا: ليس لنا ذنوب كما ليس لأبنائنا ذنوب، فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ فيهم، و قيل: نزلت في ذم التمادح و التزكية، و قد جاء في الحديث الصحيح عند مسلم عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول اللهﷺ أن نَحْثو في وجوه المداحين التراب، و في الحديث الآخر المخرج في الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه: أن رسول اللهﷺ سمع رجلاً يثني على رجل، فقال: «ويحك قَطَعْتَ عُنُقَ صاحبك»، ثم قال: «إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة، فليقل أحسبه كذا، و لا يزكي على الله أحداً».

و روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب: من قال: أنا مؤمن فهو كافر، و من قال هو عالم فهو جاهل، و من قال هو في الجنة فهو في النار. و رواه ابن مردويه. و روى الإمام أحمد عن معبد الجهني قال: كان معاوية قلّما يحدث عن النبيﷺ، قال: و كان قلما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبيﷺ يقول: «مَنْ يُرِد الله به خيراً يفقهه في الدين، و إن هذا المال حُلوٌ خَضِرٌ، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، و إياكم و التمادح فإنه الذبح» و روى ابن ماجه منه «إياكم و التمادح فإنه الذبح». و سيأتي الكلام على ذلك مطولاً عند قوله تعالى ﴿فلا تزكوا أنفسهم هو أعلم بمن اتقى﴾ و لهذا قال تعالى: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله عز وجل لأنه أعلم بحقائق الأمور و غوامضها، ثم قال تعالى: ﴿و لا يظلمون فتيلاً﴾ أي و لا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل، قال ابن عباس و مجاهد و عكرمة و عطاء و الحسن و قتادة و غير واحد من السلف: هو ما يكون في شق النواة. و عن ابن عباس أيضاً: هو ما فتلت بين أصابعك، و كلا القولين متقارب.

٥٠- و قوله: ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ أي في تزكيتهم أنفسهم و دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، و قولهم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾ و إتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة، و قد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت و لكم ما كسبتم﴾ الآية، ثم قال: ﴿و كفى به إثماً مبيناً﴾ أي و كفى بصنيعهم هذا كذباً و افتراء ظاهراً.

٥١- و قوله: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت و الطاغوت﴾ أما الجبت، فروى محمد بن إسحاق عن عمر بن الخطاب أنه قال: الجبت السحر، و الطاغوت الشيطان. و هكذا روي عن ابن عباس وأبي العالية و مجاهد و عطاء و عكرمة و سعيد بن جبير و الشعبي و الحسن و الضحاك و السدي. و عن ابن عباس و أبي العالية و مجاهد و عطاء و عكرمة و سعيد بن جبي و الشعبي و الحسن و عطية: الجبت الشيطان، و زاد ابن عباس: بالحبشية و عن ابن عباس أيضاً: الجبت حيي بن أخطب، و عن مجاهد: الجبت كعب بن الأشرف، و قال العلامة

الجوهري في كتابه الصحاح: الجبت كلمة تقع على الصنم و الكاهن و الساحر و نحو ذلك. و قد تقدم الكلام على الطاغوت في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا. و روى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله أنه سئل عن الطواغيت، فقال: هم كهان تنزل عليهم الشياطين. و قال مجاهد: الطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه، و هو صاحب أمرهم. و قال الإمام مالك: الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل. و قوله: ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، و قلة دينهم، و كفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم.

و روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خيرٌ منا و نحن أهل الحجيج و أهل السدانة، و أهل السقايه؟ قال: أنتم خير، قال فنزلت ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ و نزل ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب - إلى - نصيراً﴾، و هذا لعنٌ لهم و إخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة، لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، و إنما قالوا لهم ذلك، ليستميلوهم إلى نصرتهم، و قد أجابوهم و جاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبيﷺ و أصحابه حول المدينة الخندق، فكفى الله شرهم ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً و كفى الله المؤمنين القتال و كان الله قوياً عزيزاً﴾.

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً (٥٥) ﴾

٥٣- يقول تعالى: أم لهم نصيب من الملك، و هذا استفهام إنكاري، أي ليس لهم نصيب من الملك، ثم وصفهم بالبخل، فقال: ﴿فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾، أي لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك و التصرف لما أعطوا أحداً من الناس و لا سيما محمداًﷺ شيئاً، و لا ما يملأ النقير، و هو النقطة التي في النواة في قول ابن عباس والأكثرين.

و هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾ أي خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا يتصور نفاده، و إنما هو من بخلكم و شحكم، و لهذا قال تعالى: ﴿و كان الإنسان قتوراً﴾ أي بخيلاً.

٥٤- ثم قال: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ يعني بذلك حسدهم النبيﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، و منعهم من تصديقهم إياه حَسَدهم له، لكونه من العرب و ليس من بني إسرائيل. قال الله تعالى: ﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب و الحكمة و آتيناهم ملكاً عظيماً﴾ أي فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة و أنزلنا عليهم الكتب و حكموا فيهم بالسنن، و هي الحكمة، و جعلنا منهم الملوك.

٥٥- و مع هذا ﴿فمنهم من آمن به﴾، أي بهذا الإيتاء و هذا الإنعام، ﴿و منهم من صد عنه﴾ أي كفر به و أعرض عنه و سعى في صدّ الناس عنه، و هو منهم و من جنسهم أي من بني إسرائيل. فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد و لست من بني إسرائيل؟ و قال مجاهد: ﴿فمنهم من آمن به﴾ أي بمحمدﷺ، ﴿و منهم من صد عنه﴾، فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك، و أبعد عما جئتهم به من الهدى، و الحق المبين، و لهذا قال متوعداً لهم: ﴿و كفى

بجهنم سعيراً﴾ أي و كفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم و عنادهم، و مخالفتهم كتب الله و رسله.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧) ﴾

٥٦- يخبر تعالى عما يُعاقبُ به في نار جهنم من كفر بآياته و صد عن رسله، فقال: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا﴾ الآية، أي ندخلهم ناراً دخولاً يحيط بجميع أجرامهم و أجزائهم، ثم أخبر عن دوام عقوبتهم و نكالهم، فقال: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ قال ابن عمر: إذا احترقت جلودهم بُدّلوا جلوداً غيرها بيضاء أمثال القراطيس، رواه ابن أبي حاتم. و روى ابن أبي حاتم عن الحسن قوله: ﴿كلما نضجت جلودهم﴾ قال: تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة، و عنه قال: كلما أنضجتهم فأكلت لحومهم قيل لهم عودوا فعادوا.

و قد ورد في الحديث ما هو أبلغ من هذا، روى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يُعظَّم أهلُ النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، و إن غلظ جلده سبعون ذرعاً، وإن ضرسه مثل أُحُد».

٥٧- و قوله: ﴿و الذين آمنوا و عملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها، و محالها و أرجائها حيث شاءوا و أين أرادوا، و هم خالدون فيها أبداً، لا يحولون و لا يزولون و لا يبغون عنها حولاً. و قوله: ﴿لهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي من الحيض و النفاس و الأذى و الأخلاق الرذيلة، و الصفات الناقصة، كما قال ابن عباس: مطهرة من الأقذار و الأذى. و كذا قال عطاء و الحسن و الضحاك و النخعي و أبو صالح و عطية و السدي.

و قال مجاهد: مطهرة من البول و الحيض و النخام و البزاق و المني و الولد. و قال قتادة: مطهرة من الأذى والمآثم، و لا حيض و لا كلف. و قوله: ﴿و ندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ أي ظلاً عميقاً كثيراً غزيراً أنيقاً. روى ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها: شجرة الخلد»[(١)].

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨) ﴾

٥٨- يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها. و في حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «أدِّ الأمانة إلى مَن ائتمنكَ، و لا تخن من خانك» رواه الإمام أحمد و أهل السنن، و هذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلوات و الزكوات و الصيام و الكفارات والنذور و غير ذلك، مما هو مؤتمن عليه و لا يطلع عليه العباد، و من حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا

(١) هو في الصحيحين بنحوه، دون قوله: شجرة الخلد.

أُخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لتُؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجمّاء من القرناء».

و روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة، و إن كان قتل في سبيل الله، فيقال: أدِّ أمانتك، فيقول فأنى أؤديها و قد ذهبت الدنيا؟ فتمثل له الأمانة في قعر جهنم فيهوى إليها فيحملها على عاتقه، قال: فتنزل عن عاتقه فيهوي على أثرها أبد الآبدين. قال زاذان: فأتيت البراء فحدثته، فقال: صدق أخي: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾. و قال محمد بن الحنفية: هي مُسْجَلة للبر و الفاجر، و قال أبو العالية: الأمانة ما أُمروا به و نُهوا عنه.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال: من الأمانة أن المرأة ائتمنت على فرجها. و قال الربيع بن أنس: هي من الأمانات فيما بينك و بين الناس. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾، قال: قال يدخل فيه وعظ السلطان النساء يوم العيد، وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة القرشي العبدري حاجب الكعبة المعظمة، و هو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية، و فتح مكة، هو و خالد بن الوليد و عمرو بن العاص، و أما عمه عثمان بن أبي طلحة، فكان معه لواء المشركين يوم أُحد، و قتل يومئذ كافراً، و سبب نزولها فيه لمّا أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه. و روى محمد بن إسحاق في غزوة الفتح عن صفية بنت شيبة: أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة و اطمأن الناس خرج حتى جاء البيت، فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة فَفُتِحت له، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان، فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة و قد استكفّ الناس في المسجد، قال ابن إسحاق: فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة، فقال: «لا إله إلا الله و حده لا شريك له، صدق وعده، و نصر عبده، و هزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت و سقاية الحاج» و ذكر بقية الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ إلى أن قال: ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب و مفتاح الكعبة في يده، فقال: يارسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعي له، فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء و بر».

و هذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، و سواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام، و لهذا قال ابن عباس و محمد بن الحنفية: هي للبر و الفاجر، أي هي أمر لكل أحد، وقوله: ﴿و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ أمر منه تعالى بالحكم و العدل بين الناس، و لهذا قال محمد ابن كعب و زيد بن أسلم و شهر بن حوشب: إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء، يعني الحكام بين الناس، و في الحديث «إن الله مع الحاكم ما لم يَجُر، فإذا جار و كله الله إلى نفسه»(١) و في الأثر «عدل يوم كعبادة أربعين سنة»، و قوله: ﴿إن الله نعما يعظكم به﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات و الحكم بالعدل بين الناس، و غير ذلك من أوامره و شرائعه الكاملة العظيمة الشاملة. و قوله تعالى: ﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ أي سميعاً لأقوالكم، بصيراً بأفعالكم، كما روى ابن أبي

(١) رواه ابن ماجه و غيره بلفظ: «إن الله مع القاضي ...» و هو حديث حسن.

حاتم عن عقبة بن عامر قال: رأيت رسول الله ﷺ و هو يُقرئ هذه الآية ﴿سميعاً بصيراً﴾ يقول: بكل شيء بصير، و قد روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يقرأ هذه الآية ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ إلى قوله: ﴿إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ و يضع إبهامه على أذنه، و التي تليها على عينه، ويقول: هكذا سمعت رسول الله يقرؤها و يضع إصبعيه. قال أبو زكريا: و صفه لنا المقرئ، و وضع أبو زكريا إبهامه اليمني على عينه اليمنى، و التي تليها على الأذن اليمنى، و أرانا فقال: هكذا و هكذا. رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه، و الحاكم في مستدركه، و ابن مردويه في تفسيره.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾

٥٩- روى البخاري عن ابن عباس ﴿أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم﴾ قال: نزلت في عبد الله ابن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية، و هكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجه. و روى الإمام أحمد عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية و استعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وَجَدَ[1] عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: اجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنّها، قال: فهمّ القوم أن يدخلوها قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإنْ أَمَركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف»، أخرجاه في الصحيحين. و روى أبو داود عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ، قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب و كره، ما لم يؤمر بمعصية فإذا أُمر بمعصية فلا سمعَ و لا طاعة» أخرجاه. وعن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع و الطاعة، في مَنشطنا و في مكرهنا، وعسرنا و يسرنا، وأثرة علينا، و أن لا ننازع الأمر أهله، قال: «إلا أن تروا كفراً بَوَاحاً عندكم فيه من الله برهان»، أخرجاه.

و في الحديث الآخر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا و أطيعوا، و إن أُمِّرَ عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبة»، رواه البخاري. و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي أن أسمع و أطيع، و إن كان عبداً حبشياً مجدّع الأطراف، رواه مسلم. و عن أم الحصين أنها سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع يقول: «ولو استعمل عليكم عبدٌ يقودكم بكتاب الله، اسمعوا له و أطيعوا» رواه مسلم، و في لفظ له «عبداً حبشياً مجدوعاً». و عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تَسوسهم الأنبياء كلما هلك نبيٌّ خلفه نبي، و إنه لا نبيَّ بعدي و سيكون خلفاء فيكثرون» قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، و أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»، أخرجاه.

و عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر، فإنه ليس أحدٌ يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية»، أخرجاه. و عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) أي: غَضِبَ عليهم.

«مَنْ خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حُجَّة له، و من مات و ليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية» رواه مسلم.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: **﴿و أولي الأمر منكم﴾** يعني أهل الفقه و الدين، و كذا قال مجاهد و عطاء و الحسن البصري و أبو العالية: **﴿و أولي الأمر منكم﴾** يعني العلماء، و الظاهر و الله أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء و العلماء كما تقدم. و قد قال تعالى: **﴿لو لا ينهاهم الربانيون و الأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾** و قال تعالى: **﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾** و في الحديث الصحيح المتفق عليه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، و من عصاني فقد عصى الله، و من أطاع أميري فقد أطاعني، و من عصى أميري فقد عصاني»، فهذه أوامر بطاعة العلماء و الأمراء، ولهذا قال تعالى: **﴿أطيعوا الله﴾** أي: اتبعوا كتابه **﴿و أطيعوا الرسول﴾** أي: خذوا بسنته **﴿و أولي الأمر منكم﴾** أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح «إنما الطاعة في المعروف».

و قوله: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله و الرسول﴾** قال مجاهد و غير واحد من السلف: أي إلى كتاب الله و سنة رسوله. و هذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين و فروعه، أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب و السنة كما قال تعالى: **﴿و ما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾** فما حكَم به الكتاب و السنة و شهدا له بالصحة فهو الحق، و ماذا بعد الحق إلا الضلال، و لهذا قال تعالى: **﴿إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر﴾** أي ردوا الخصومات و الجهالات إلى كتاب الله و سنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم **﴿إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر﴾** فدل على أن من لم يتحاكموا في محل النزاع إلى الكتاب والسنة و لا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله و لا باليوم الآخر، و قوله: **﴿ذلك خير﴾** أي التحاكم إلى كتاب الله و سنة رسوله، و الرجوع إليهما في فصل النزاع خير **﴿و أحسن تأويلاً﴾** أي و أحسن عاقبة و مآلاً كما قاله السدي و غير واحد. و قال مجاهد: و أحسن جزاء، و هو قريب.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) ﴾

٦٠- هذا إنكار من الله عز وجل على ما يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله و علي الأنبياء الأقدمين، و هو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله و سنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار و رجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني و بينك محمد، و ذاك يقول: بيني و بينك كعب بن الأشرف، و قيل: في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن

يتحاكموا إلى حكّام الجاهلية، و قيل غير ذلك، و الآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامةٌ لمن عدل عن الكتاب والسنة. و تحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، و هو المراد بالطاغوت ههنا، و لهذا قال: **﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾** إلى آخرها.

٦١- و قوله: **﴿و يصدون عنك صدوداً﴾** أي يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك، كما قال تعالى عن المشركين: **﴿و إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾** و هؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم: **﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله و رسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا و أطعنا﴾** الآية.

٦٢- ثم قال تعالى في ذم المنافقين: **﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾** أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تَطْرقهم بسبب ذنوبهم، و احتاجوا إليك في ذلك **﴿ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً و توفيقاً﴾** أي يعتذرون إليك و يحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، و تحاكمنا إلى أعدائك إلا الإحسان و التوفيق، أي المداراة و المصانعة لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: **﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى - إلى قوله - فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾**. و قد روى الطبراني عن ابن عباس قال: كان أبو برزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناسٌ من المسلمين، فأنزل الله عز وجل **﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنفسهم أنهم آمنوا بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك - إلى قوله - إن أردنا إلا إحساناً و توفيقاً﴾**.

٦٣- ثم قال تعالى: **﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾** هذا الضرب من الناس هم المنافقون، و الله يعلم ما في قلوبهم و سيجزيهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية، فاكتف به يا محمد فيهم، فإنه عالم بظواهرهم و بواطنهم. و لهذا قال له: **﴿فأعرض عنهم﴾** أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم **﴿و عظهم﴾** أي و انههم عما في قلوبهم من النفاق و سرائر الشر، **﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾** أي و انصحهم فيما بينك و بينهم بكلام بليغ رادع لهم.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾

٦٤- يقول تعالى: **﴿و ما أرسلنا من رسول إلا ليطاع﴾** أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم. و قوله: **﴿بإذن الله﴾** قال مجاهد: أي لا يطيع أحد إلا بإذني، يعني لا يطيعهم إلا مَن وفّقته لذلك، كقوله: **﴿و لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾** أي عن أمره و قدره و مشيئته و تسليطه إياكم عليهم. و قوله: **﴿و لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾** الآية، يرشد تعالى العصاة و المذنبين إذا وقع منهم الخطأ و العصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده و يسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم و رحمهم و غفر لهم، ولهذا قال: **﴿لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾**.

٦٥- و قوله: **﴿فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾** يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكّم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حَكَم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً

وظاهراً، و لهذا قال: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت و يسلموا تسليماً﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، و ينقادون له في الظاهر و الباطن، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة و لا مدافعة و لا منازعة. روى البخاري عن عروة قال: خاصم الزبير رجلاً في شُرَيج من الحَرَّة، فقال النبيﷺ: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك» فقال الأنصاري: يا رسول الله أنْ كان ابن عمتك، فتلوَّنَ وجه رسول اللهﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك». و استوعى النبيﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، و كان أشار عليهماﷺ بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك ﴿فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ الآية.

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) ﴾

٦٦- يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أُمروا بما هم مرتكبون من المناهي لما فعلوه، لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، و هذا من علمه تبارك و تعالى بما لم يكن، أو كان فكيف كان يكون، و لهذا قال تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم﴾ الآية، قال تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ أي و لو أنهم فعلوا ما يؤمرون به و تركوا ما ينهون عنه ﴿لكان خيراً لهم﴾ أي من مخالفة الأمر و ارتكاب النهي ﴿و أشد تثبيتاً﴾، قال السدي: أي و أشد تصديقاً.

٦٧- ﴿و إذاً لآتيناهم من لدنا﴾ أي من عندنا ﴿أجراً عظيماً﴾ يعني الجنة.

٦٨- ﴿و لهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ أي في الدنيا و الآخرة،

٦٩- ثم قال تعالى: ﴿و من يطع الله و الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقاً﴾. أي من عمل بما أمره الله به و ترك ما نهاه الله عنه و رسوله فإن الله عز وجل، يُسكنه دار كرامته و يجعله مرافقاً للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة و هم الصديقون، ثم الشهداء والصالحون الذين صلحت سرائرهم و علانيتهم، ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿و حسن أولئك رفيقاً﴾ و روى البخاري عن عائشة قالت: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا و الآخرة» و كان في شكواه التي قُبِضَ فيها أخذته بَحَّةٌﷺ شديدة فسمعته يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين» فعلمت أنه خُيِّر، و كذا رواه مسلم. و هذا معنى قولهﷺ في الحديث الآخر «اللهم الرفيق الأعلى» ثلاثاً ثم قضى، عليه أفضل الصلاة و التسليم.

ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة

روى أبو بكر بن مردويه عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، و أحب إلي من أهلي، و أحب إلي من ولدي، و إني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، و إذا ذكرتُ موتي و موتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، و إن دخلت الجنة خشيت ألا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه ﴿و من يطع الله و الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا﴾. و هكذا رواه الحافظ المقدسي في كتابه في صفة الجنة ثم قال: لا أرى بإسناده بأساً، و الله أعلم.

و ثبت في صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيتُ عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي «سَلْ» فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أوَغير ذلك؟» قلت: هو ذاك. قال: «فأعِنِّي على نفسك بكثرة السجود».

و أعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحيح و المسانيد و غيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ سُئِل عن الرجل يحب القوم و لما يلحق بهم، فقال: «المرْءُ مَع مَنْ أحبّ»، قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. و في رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر و عمر رضي الله عنهما، و أرجو أن الله يبعثني معهم و إن لم أعمل كعملهم، و روى الإمام مالك عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تراءون الكوكب الدُّرّي الغابر في الأفق المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى، و الذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله و صدقوا المرسلين»، أخرجاه في الصحيحين. و لهذا قال تعالى: ﴿ذلك الفضل من الله﴾ أي من عند الله برحمته، و هو الذي أهّلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿و كفى بالله عليماً﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية و التوفيق.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾

٧١- يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، و هذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله ﴿ثبات﴾ أي جماعة بعد جماعة، و فرقة بعد فرقة، و سرية بعد سرية، والثبات جمع ثبة، و قد تجمع الثبة على ثبين، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله: ﴿فانفروا ثبات﴾ أي عصباً، يعني سرايا متفرقين ﴿أو انفروا جميعاً﴾ يعني كلكم، و كذا روي عن مجاهد و عكرمة و السدي

وقتادة و الضحاك و عطاء الخراساني و مقاتل بن حيان و خصيف الجزري .

٧٢- و قوله تعالى : ﴿و إن منكم لمن ليبطئن﴾ قال مجاهد و غير واحد : نزلت في المنافقين ، و قال مقاتل بن حيان : ﴿ليبطئن﴾ أي ليتخلفن عن الجهاد ، و يحتمل أن يكون المراد أنه يتبطأ هو في نفسه ، و يبطئ غيره عن الجهاد كما كان عبد الله بن أبي بن سلول ـ قبحه الله ـ يفعل ، يتأخر عن الجهاد و يثبط الناس عن الخروج فيه . وهذا قول ابن جريج و ابن جرير ، و لهذا قال تعالى إخباراً عن المنافق أنه يقول : إذا تأخر عن الجهاد ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ أي قتل و شهادة و غلب العدو لكم ، لما لله في ذلك من الحكمة ﴿قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ أي إذ لم أحضر معهم وقعة القتال يعدّ ذلك من نعم الله عليه ، و لم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل .

٧٣- ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ أي نصر و ظفر و غنيمة ﴿ليقولن كأن لم تكن بينكم و بينه مودة﴾ أي كأنه ليس من أهل دينكم ﴿يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ أي بأن يُضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه . وهو أكبر قصده ، و غاية مراده .

٧٤- ثم قال تعالى : ﴿فليقاتل﴾ أي المؤمن النافر ﴿في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا ، و ما ذلك إلا لكفرهم و عدم إيمانهم ، ثم قال تعالى : ﴿و من يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي كل من قاتل في سبيل الله سواء قُتل أو غُلب فله عند الله مثوبة عظيمة و أجر جزيل ، كما ثبت في الصحيحين ، و تكفل الله للمجاهدين في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة .

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾

٧٥- يحرض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله ، و على السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال و النساء و الصبيان المتبرمين من المقام بها ، و لهذا قال تعالى : ﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية﴾ يعني مكة ، كقوله تعالى : ﴿و كأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ ، ثم وصفها بقوله : ﴿الظالم أهلها و اجعل لنا من لدنك ولياً و اجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ أي سخر لنا من عندك ولياً و ناصراً ، روى البخاري عن ابن عباس قال : كنت أنا و أمي من المستضعفين . و روى أيضاً أن ابن عباس تلا ﴿إلا المستضعفين من الرجال و النساء و الولدان﴾ قال : كنت أنا و أمي ممن عذر الله عزو جل .

٧٦- ثم قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله و الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴾ أي المؤمنون يقاتلون في طاعة الله و رضوانه ، و الكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان ، ثم هيّج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله : ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) ﴾

٧٧-كان المؤمنون في ابتداء الإسلام و هم بمكة مأمورين بالصلاة و الزكاة، و إن لم تكن ذات النُصب[1]، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، و كانوا مأمورين بالصفح و العفو عن المشركين و الصبر إلى حين، و كانوا يَتحرقون و يودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، و لم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدوهم، و منها: كونهم كانوا في بلدهم، و هو بلد حرام، أشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار و منعة و أنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودُّونه، جزع بعضهم منه، و خافوا مواجهة الناس خوفاً شديداً **﴿و قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لو لا أخرتنا إلى أجل قريب﴾** أي لو لا أَخّرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، و يتم الأولاد، و تأيُّم النساء، و هذه الآية كقوله تعالى: **﴿و يقول الذين آمنوا لو لا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال﴾** الآيات، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف و أصحاباً له أتوا النبيﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزّة و نحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: «إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»، فلما حوّله الله إلى المدينة، أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله **﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾** الآية، و رواه النسائي و الحاكم و ابن مردويه.

﴿لو لا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ و هو الموت. قال الله تعالى: **﴿قل متاع الدنيا قليل و الآخرة خير لمن اتقى﴾**. و قال مجاهد: إن هذه الآية نزلت في اليهود، رواه ابن جرير، و قوله: **﴿قل متاع الدنيا قليل و الآخرة خير لمن اتقى﴾** أي آخرة المتقي خير من دنياه. **﴿و لا تظلمون فتيلاً﴾** أي من أعمالكم بل توفّونها أتم الجزاء، وهذه تسليةٌ لهم عن الدنيا، و ترغيب لهم في الآخرة، و تحريض لهم على الجهاد.

٧٨- و قوله تعالى: **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت و لو كنتم في بروج مشيدة﴾** أي أنتم صائرون إلى الموت لا محالة و لا ينجو منه أحد منكم، كما قال تعالى: **﴿كل من عليها فان﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿كل نفس ذائقة الموت﴾**، و قال تعالى: **﴿و ما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾** و المقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء سواء جاهد أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتوماً، و مقاماً مقسوماً، كما قال خالد بن الوليد حين جاء الموت على فراشه: لقد شهدتُ كذا و كذا موقفاً، و ما من عضو من أعضائي إلا و فيه جرح من

(١) جمع نصاب، و هو القدر الذي تجب فيه الزكاة.

طعنة أو رمية، و ها أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء، و قوله: ﴿و لو كنتم في بروج مشيدة﴾ أي حصينة منيعة عالية رفيعة، أي لا يغني حذرٌ و تحصن من الموت.

ثم قيل: المشيَّدة هي المَشِيدة كما قال: ﴿و قصر مشيد﴾ و قيل: بل بينهما فرق، و هو أن المشيدة بالتشديد هي المطولة، و بالتخفيف هي المزينة بالشّيد و هو الجص.

و قوله: ﴿و إن تصبهم حسنة﴾ أي خصب و رزق من ثمار و زروع و أولاد و نحو ذلك، هذا معنى قول ابن عباس و أبي العالية و السدي ﴿يقولوا هذه من عند الله و إن تصبهم سيئة﴾ أي قحط و جدب و نقص في الثمار و الزروع أو موت أولاد أو إنتاج أو غير ذلك، كما يقوله أبو العالية و السدي ﴿يقولوا هذه من عندك﴾ أي من قبلك و بسبب اتباعنا لك و اقتدائنا بدينك، كما قال تعالى عن قوم فرعون ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى و من معه﴾ و كما قال تعالى: ﴿و من الناس من يعبد الله على حرف﴾ الآية، وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً و هم كارهون له في نفس الأمر، و لهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم النبيﷺ.

﴿قل كل من عند الله﴾ أي الجميع بقضاء الله و قدره، و هو نافذ في البر و الفاجر و المؤمن و الكافر. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿قل كل من عند الله﴾ أي الحسنة و السيئة. و كذا قال الحسن البصري. ثم قال تعالى منكراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك و ريب، و قلة فهم و علم، و كثرة جهل وظلم ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾.

٧٩- ثم قال تعالى مخاطباً لرسولهﷺ و المراد جنس الإنسان ليحصل الجواب ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ أي من فضل الله و منه و لطفه و رحمته ﴿و ما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ أي فمن قِبَلك، و من عملك أنت، كما قال تعالى: ﴿و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير﴾ قال السدي و الحسن البصري و ابن جريج و ابن زيد ﴿فمن نفسك﴾ أي بذنبك. و قال قتادة في الآية ﴿فمن نفسك﴾ عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك. و في الصحيح «و الذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن همٌّ و لا حزن، و لا نصب، حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّرَ الله عنه بها من خطاياه» و قال أبو صالح ﴿و ما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ أي بذنبك و أنا الذي قدرتها عليك، رواه ابن جرير، و روى ابن أبي حاتم: عن مطرف بن عبد الله قال: ما تريدون من القدر أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء ﴿و إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله و إن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك﴾؟ أي من نفسك و الله ما وكلوا إلى القدر و قد أمروا و إليه يصيرون، و هذا كلام متين قوي في الرد على القدرية و الجبرية أيضاً. و لبسطه موضع آخر.

و قوله تعالى: ﴿و أرسلناك للناس رسولاً﴾ أي تبلغهم شرائع الله و ما يحبه الله و يرضاه، و ما يكرهه و يأباه ﴿و كفى بالله شهيداً﴾ أي على أنه أرسلك، و هو شهيد أيضاً بينك و بينهم، و عالم بما تبلغهم إياه، و بما يردون عليك من الحق كفراً و عناداً.

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى

﴿ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١) ﴾

٨٠- يخبر تعالى عن عبده و رسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله، و من عصاه فقد عصى الله، و ما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله و من عصاني فقد عصى الله، و من أطاع الأمير فقد أطاعني، و من عصى الأمير فقد عصاني» و هذا الحديث ثابت في الصحيحين. و قوله: ﴿و من تولى فما أرسلناك حفيظاً﴾ أي ما عليك منه، إن عليك إلا البلاغ فمن اتبعك سعد و نجا، و كان لك من الأجر نظير ما حصل له، و من تولى عنك خاب و خسر و ليس عليك من أمره شيء، كما جاء في الحديث «من يطع الله و رسوله فقد رشد، و من يعص الله و رسوله فإنه لا يضر إلا نفسه».

٨١- و قوله: ﴿و يقولون طاعة﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة و الطاعة ﴿فإذا برزوا من عندك﴾ أي خرجوا و تواروا عنك ﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ أي استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك، فقال تعالى: ﴿و الله يكتب ما يبيتون﴾ أي يَعلَمه و يكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد، و المعنى في هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه و يسرونه فيما بينهم، و ما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ و عصيانه، و إن كانوا قد أظهروا له الطاعة و الموافقة، و سيجزيهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿و يقولون آمنا بالله و بالرسول و أطعنا﴾ الآية، و قوله: ﴿فأعرض عنهم﴾ أي اصفح عنهم و احلم عليهم و لا تؤاخذهم، و لا تكشف أمورهم للناس، و لا تخف منهم أيضاً ﴿و توكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ أي كفى به ولياً و ناصراً و معيناً، لمن توكل عليه و أناب إليه.

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيراً (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣) ﴾

٨٢- يقول تعالى آمراً لهم بتدبر القرآن و ناهياً لهم عن الإعراض عنه، و عن تفهم معانيه المحكمة و ألفاظه البليغة، و مخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه و لا اضطراب، و لا يتعارض لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق، و لهذا قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾، ثم قال: ﴿و لو كان من عند غير الله﴾ أي لو كان مفتعلاً مختلقاً، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين و المنافقين في بواطنهم لوجدوا فيه اختلافاً، أي اضطراباً و تضاداً كثيراً، أي و هذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله، كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ أي محكمه و متشابهه حق، فلهذا ردّوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، و الذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغوُوا، و لهذا مدح تعالى الراسخين و ذم الزائغين.

روى الإمام أحمد عن ابن عمرو قال: لقد جلست أنا و أخي مجلساً ما أحب أن لي به حُمر النعم، أقبلت أنا و أخي و إذا مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً حتى احمر وجهه

يرميهم بالتراب و يقول: «مهلاً يا قوم بهذا أُهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، و ضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، إنما نزل يُصدّق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، و ما جهلتم منه فردوه إلى عالمه» و رواه ابن ماجه بنحوه.

و روى أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: هَجّرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، فإنا لجلوس إذ اختلف اثنان في آية، فارتفعت أصواتهما، فقال: «إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم في الكتاب». و رواه مسلم و النسائي.

٨٣- و قوله: ﴿و إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ إنكار على مَنْ يُبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها و يفشيها و ينشرها، و قد لا يكون لها صحة. و قد روى مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يُحدِّث بكل ما سمع» و كذا رواه أبو داود. و في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة، أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل و قال، أي الذي يُكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبُّت و لا تدبر و لا تبين. و في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «بئس مطية الرجل زعموا». و في الصحيح «من حدّث بحديث و هو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين».

و لنذكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلّق نساءه، فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على النبي ﷺ فاستفهمه أطلقت نساءك فقال: «لا» فقلت: الله أكبر و ذكر الحديث بطوله. و عند مسلم فقلت: أطلقتهن؟ فقال: «لا» فقُمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي، لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، و نزلت هذه الآية ﴿و إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به و لو ردوه إلى الرسول و إلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر، و معنى يستنبطونه أي يستخرجونه من معادنه، يقال: استنبط الرجل العين إذا حفرها و استخرجها من قعورها. و قوله: ﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المؤمنين. و روى عبد الرزاق عن قتادة: ﴿لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً﴾ يعني كلكم.

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً (٨٤) مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾

٨٤- يأمر تعالى عبده و رسوله محمداً بأن يباشر القتال بنفسه، و من نكل عنه فلا عليه منه، و لهذا قال ﴿لا تكلف إلا نفسك﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق قال: سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدو فيقاتل فيكون ممن قال الله فيه: ﴿و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾؟ قال: قد قال الله تعالى لنبيه: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك و حرّض المؤمنين﴾. و رواه الإمام أحمد عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: إن الله بعث رسوله ﷺ و قال:

﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ إنما ذلك في النفقة، و كذا رواه ابن مردويه.

و قوله: ﴿و حرض المؤمنين﴾ أي على القتال و رغّبهم فيه و شجعهم عليه، كما قال لهمﷺ يوم بدر و هو يسوي الصفوف: «قوموا إلى جنةٍ عرضها السموات و الأرض» و قد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «من آمن بالله و رسوله، و أقام الصلاة و آتى الزكاة، و صام رمضان، كان حقاً على الله أن يُدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلد فيها». قالوا: يارسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، بين كل درجتين كما بين السماء و الأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنةو أعلى الجنة، و فوقه عرش الرحمن و منه تَفجَّر أنهار الجنة».

و عن أبي سعيد الخدري أن سول اللهﷺ قال: «يا أبا سعيد، مَنْ رَضِي بالله رباً، و بالإسلام ديناً، و بمحمدﷺ رسولاً و نبياً وجبت له الجنة»، قال: فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعِدْها علي يا رسول الله، ففعل ثم قال رسول اللهﷺ: «و أخرى يرفع الله العَبد بها مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». قال: و ما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» رواه مسلم. و قوله: ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مُنَاجزة الأعداء، و مدافعتهم عن حوزة الإسلام و أهله، و مقاومتهم و مصابرتهم. و قوله تعالى: ﴿و الله أشد بأساً و أشد تنكيلاً﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا و الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم و لكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ الآية.

٨٥- و قوله: ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له منها﴾ أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير، كان له نصيب من ذلك، ﴿و من يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها﴾ أي يكون عليه وِزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته، كما ثبت في الصحيح عن النبيﷺ أنه قال: «اشْفعوا تُؤجروا، و يقضي الله على لسان نبيه ما شاء»، وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض. و قال الحسن البصري: قال الله تعالى: ﴿من يشفع﴾ و لم يقل من يُشَفَّعْ، و قوله: ﴿و كان الله على كل شيء مقيتاً﴾. قال ابن عباس و عطاء وعطية وقتادة و مطر الوارق ﴿مقيتاً﴾ أي حفيظاً. و قال مجاهد: شهيداً، و في رواية عنه: حسيباً. و قال سعيد ابن جبير و السدي و ابن زيد: قديراً.

٨٦- وقوله: ﴿و إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ أي إذا سَلّمَ عليكم المُسلِّم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم، فالزيادة مندوبة، و المماثلة مفروضة.

و روى الإمام أحمد عن عمران بن حصين أن رجلاً جاء إلى رسول اللهﷺ فقال: السلام عليكم يا رسول الله، فرد عليه ثم جلس فقال: «عَشرٌ»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم يا رسول الله، فرد عليه ثم جلس، فقال: «عشرون»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم و رحمة الله و بركاته، فرد عليه ثم جلس، فقال: «ثلاثون»، و كذا رواه أبو داود و البزار. و قال قتادة: ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ يعني للمسلمين ﴿أو ردوها﴾ يعني لأهل الذمة، و هذا التنزيل فيه نظر كما تقدم في الحديث من أن المراد أن يرد بأحسن مما حيّاه به، فإن بلغ اللمسلم غاية ما شُرِع في السلام، رد عليه مثل ما قال، فأما أهل الذمة فلا يبدؤون بالسلام و لا يزادون، بل يرد

عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليكم، فقل: و عليك». و في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، و إذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه».

و عن الحسن البصري قال: السلام تطوع و الرد فريضة، و هذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة، أن الرد واجب على من سلم عليه، فيأثم إن لم يفعل، لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «و الذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» (١).

٨٧- و قوله: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ إخبار بتوحيده و تفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، و تضمن قسماً لقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ و هذه اللام موطِّئة للقسم، فقوله ﴿الله لا إله إلا هو﴾ خبر و قسم أنه سيجمع الأولين و الآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله، و قوله تعالى: ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه و خبره و وعده، فلا إله إلا هو و لا رب سواه.

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾

٨٨- يقول تعالى منكراً على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين: و اختلف في سبب ذلك، فروى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى «أحد» فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، و فرقة تقول: لا، هم المؤمنون، فأنزل الله ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة و إنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد» أخرجاه في الصحيحين، و قد ذكر محمد بن إسحاق في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش، رجع بثلثمائة و بقي النبي ﷺ في سبعمائة.

و قوله تعالى: ﴿و الله أركسهم بما كسبوا﴾ أي ردهم و أوقعهم في الخطأ، قال ابن عباس ﴿أركسهم﴾ أي أوقعهم، و قال قتادة: أهلكهم، و قال السدي: أضلهم، و قوله: ﴿بما كسبوا﴾ أي بسبب عصيانهم

(١) و هو في صحيح مسلم.

ومخالفتهم الرسول و اتباعهم الباطل ﴿أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي لا طريق له إلى الهدى، و لا مَخْلص له إليه.

٨٩- و قوله: ﴿و ردوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ أي هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم و إياهم فيها، و ما ذاك إلا لشدة عداوتهم و بغضهم لكم، و لهذا قال: ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا﴾ أي تركوا الهجرة، قاله العوفي عن ابن عباس، و قال السدي: أظهروا كفرهم ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم و لا تتخذوا منهم ولياً و لا نصيراً﴾ أي لا توالوهم و لا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك.

٩٠- ثم استثنى الله من هؤلاء، فقال: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم و بينهم ميثاق﴾ أي إلا الذين لجؤوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة، أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم، و هذا قول السدي و ابن جرير، و في صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية: فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش و عهدهم، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ و أصحابه و عهدهم، و قد روي عن ابن عباس أنه قال: نسخها قوله: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ الآية.

و قوله: ﴿أو جاؤوكم حصرت صدورهم﴾ الآية، هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم و هم الذين يجيئون إلى المصاف، و هم حَصِرة صدورهم، أي ضيقة صدورهم مبغضين أن يقاتلوكم، و لا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم و لا عليكم ﴿و لو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم و ألقوا إليكم السلم﴾ أي المسالمة ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، و هؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال، و هم كارهون كالعباس و نحوه، و لهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس و أمر بأسره.

٩١- وقوله: ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم﴾ الآية، هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، و لكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي ﷺ و لأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم و أموالهم و ذراريهم، و يصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم و هم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿و إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم﴾ الآية، و قال ههنا ﴿كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أي انهمكوا فيها، و قال السدي: الفتنة ههنا الشرك، و حكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا و ههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا و يصلحوا ولهذا قال تعالى: ﴿فإن لم يعتزلوكم و يلقوا إليكم السلم﴾ المهادنة و الصلح، ﴿و يكفوا أيديهم﴾ أي عن القتال، ﴿فخذوهم﴾ أُسراء، ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي أين لقيتموهم، ﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي بيناً واضحاً.

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى

أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾

٩٢- يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجهٍ من الوجوه، و كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَحلُّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، و أني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، و الثيب الزاني، التارك لدينه المفارق للجماعة» ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث، فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، و إنما ذلك إلى الإمام أو نائبه، و قوله: ﴿إلا خطأ﴾ قالوا: هو استثناء منقطع.

و قوله: ﴿و من قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة و دية مسلمة إلى أهله﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما الكافرة لما ارتكبه من الذنب العظيم و إن كان خطأ، و من شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة، و حكى ابن جرير عن ابن عباس و الشعبي و إبراهيم النخعي و الحسن البصري أنهم قالوا: لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصداً للإيمان، و اختار ابن جرير أنه إن كان مولوداً بين أبوين مسلمين أجزأ و إلا فلا، والذي عليه الجمهور أنه متى كان مسلماً صح عتقه عن الكفارة سواء كان صغيراً أو كبيراً، و روى الإمام أحمد عن رجل من الأنصار أنه جاء بأَمةٍ سوداء، فقال: يا رسول الله، إن عليّ عتق رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقها، فقال لها رسول الله ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟» قالت: نعم. قال: «أتشهدين أني رسول الله؟» قالت: نعم قال: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟» قالت: نعم. قال: «أعتقها». و هذا إسناد صحيح وجهالة الصحابي لا تضره، و في صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم: أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء، قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا» قالت: رسول الله ﷺ. قال: «أعتقها فإنها مؤمنة».

و قوله: ﴿و دية مسلمة إلى أهله﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل و أهل القتيل عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم، و هذه الدية إنما تجب أخماساً، كما رواه الإمام أحمد و أهل السنن من حديث ابن مسعود قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض، و عشرين بني مخاض ذكوراً، و عشرين بنت لبون، وعشرين جذعة، و عشرين حِقَّة، لفظ النسائي، و هذه الدية على العاقلة لا في ماله، قال الشافعي رحمه الله: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة و هو أكثر من حديث الخاصة، و هذا الذي أشار إليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: «اقْتَتَلَتْ امرأتان من هذيل فرَمَتْ إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها و ما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنينها غرة عبد أو أمة، و قضى بدية المرأة على عاقلتها، و هذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً لشبهة العمد، و في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يُحْسِنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صَبَأنا صبأنا فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرفع يديه و قال: «اللهم إني أبرأ

إليك مما صنع خالد» و بعث علياً فَوَدَى قتلاهم و ما أتلف من أموالهم حتى ميلغة الكلب، و هذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال.

وقوله: ﴿**إلا أن يصدقوا**﴾ أي فتجب فيه الدية مسلّمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب، و قوله: ﴿**فإن كان من قوم عدو لكم و هو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة**﴾ أي إذا كان القتيل مؤمناً و لكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، و على القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير، و قوله: ﴿**و إن كان من قوم بينكم و بينهم ميثاق**﴾ الآية، أي فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، و كذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء، و قيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، و قيل: ثلثها، كما هو مفصل في كتاب الأحكام، و يجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة ﴿**فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين**﴾ أي لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف، و اختلفوا في السفر هل يقطع أم لا، على قولين، و قوله: ﴿**توبة من الله و كان الله عليماً حكيماً**﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين، و اختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام، هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهار، على قولين أحدهما: نعم كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار، و إنما لم يُذكر ههنا، لأن هذا مقام تهديد و تخويف و تحذير، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص، و القول الثاني: لا يعدل إلى الطعام، لأنه لو كان واجباً لما أُخّر بيانه عن وقت الحاجة ﴿**و كان الله عليماً حكيماً**﴾ قد تقدم تفسيره غير مرة.

٩٣- ثم لما بيّن تعالى حكم القتل الخطأ، شرَع في بيان حكم القتل العمد، فقال: ﴿**و من يقتل مؤمناً متعمداً**﴾ الآية، و هذا تهديد شديد و وعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان ﴿**و الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر و لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق**﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً**﴾ الآية، والآيات و الأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول اللهﷺ: «أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء»، و في الحديث الآخر الذي رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول اللهﷺ: «لا يزال المؤمن مُعْنِقاً صالحاً ما لم يُصب دماً حراماً، فإذا أصاب دماً حراماً بلّح». و في حديث آخر: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»، وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً، و روى البخاري عن ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية ﴿**و من يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم**﴾ هي آخر ما نزل، و ما نسخها شيء، و رواه مسلم.

و روى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رجلاً أتى إليه فقال: أرأيت رجلاً قتل رجلاً عمداً؟ فقال: جزاؤه جهنم خالداً فيها، الآية، قال: لقد نزلت من آخر ما نزل، ما نسخها شيء حتى قُبض رسول اللهﷺ، و ما نزل وحي بعد رسول اللهﷺ قال: أرأيت إن تاب و آمن و عمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال: و أنى له بالتوبة، و قد سمعت رسول اللهﷺ يقول: «ثكلته أمه رجل قتل رجلاً متعمداً يجيء يوم القيامة آخذاً قاتله بيمينه أو بيساره. أو آخذاً رأسه بيمينه أو بشماله. تشخب أوداجه دماً من قِبل العرش، يقول: يا رب، سل عبدك فيم قتلني» و قد

رواه النسائي و ابن ماجه . و ممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف زيد بن ثابت و أبو هريرة و عبد الله بن عمر و أبو سلمة بن عبد الرحمن و عبيد بن عمير و الحسن و قتادة و الضحاك بن مزاحم نقله ابن أبي حاتم ، و في الباب أحاديث كثيرة ، فمن ذلك ما رواه أبو بكر بن مردويه الحافظ في تفسيره عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «يجيء المقتول متعلقاً بقاتله يوم القيامة آخذاً رأسه بيده الأخرى فيقول يا رَبِّ سَلْ هذا فيم قتلني ؟ قال : فيقول: قتلتُه لتكون العزة لك ، فيقول: فإنها لي ، قال: و يجيء آخر متعلقاً بقتله فيقول: ربِّ سَلْ هذا فيم قتلني ؟ قال: فيقول : قتلته لتكون العزة لفلان ، فإنها ليست له بُؤْ بإثمه ، قال: فيهوي في النار سبعين خريفاً» وقد رواه النسائي .

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن معاوية رضي الله عنه يقول: سمعت النبي ﷺ يقول : كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يَمُوتُ كافراً ، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» وكذا رواه النسائي .

و الذي عليه الجمهور من سلف الأمة و خَلَفها أن القاتل له توبة فيما بينه و بين الله عز وجل ، فإن تاب وأناب ، و خشع و خضع و عمل عملاً صالحاً بدّل الله سيئاته حسنات ، و عوض المقتول من ظُلامته ، قال الله تعالى : ﴿و الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر - إلى قوله - إلا من تاب و آمن و عمل عملاً صالحاً﴾ الآية ، و هذا خبر لا يجوز نسخه و حمله على المشركين و حمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر ، و يحتاج حمله إلى دليل ، و الله أعلم .

و قال تعالى : ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ الآية ، و هذا عام في جميع الذنوب من كفر و شرك و شك و نفاق و قتل و فسق و غير ذلك ، كل من تاب أي من أي ذلك تاب الله عليه ، قال الله تعالى : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك ، و هي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية و قبلها لتقوية الرجاء ، و الله أعلم . و ثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم سأل عالماً هل لي من توبة ؟ فقال : و من يَحُولُ بينك و بين التوبة ؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه فهاجر إليه فمات في الطريق فقبضته ملائكة الرحمة ، كما ذكرناه غير مرة ، و إذا كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى ، لأن الله وضع عنا الآصار و الأغلال التي كانت عليهم ، و بعث نبينا بالحنيفية السمحة .

فأما الآية الكريمة و هي قوله تعالى : ﴿و من يقتل مؤمناً متعمداً﴾ الآية ، فقد قال أبو هريرة و جماعة من السلف : هذا جزاؤه إن جازاه ، و معنى هذه الصيغة أن هذا جزاؤه إن جوزي عليه ، و كذا كل وعيد على ذنب ، لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة ، تمنع وصول ذلك الجزاء إليه على قولي أصحاب الموازنة والإحباط ، و هذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد ، و الله أعلم بالصواب ، و بتقدير دخول القاتل في النار ، أما على قول ابن عباس و من وافقه أنه لا توبة له ، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به فليس بمخلد فيها أبداً ، بل الخلود هو المكث الطويل ، و قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ : «أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان» ، و أما حديث معاوية «كلُّ ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً ، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» فعسى للتَّرجِّي ، فإذا انتفى التَّرجِّي في هاتين الصورتين ، لا ينتفي وقوع ذلك في أحدهما و هو القتل لما ذكرنا من الأدلة ، و أما من مات كافراً فالنص أن الله لا يغفر له البتة ، و أما

مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين، و هي لا تسقط بالتوبة، و لكن لا بد من ردها إليهم و لا فرق بين المقتول و المسروق منه، و المغصوب منه و المقذوف وسائر حقوق الآدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة، و لكنه لا بد من ردها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلا بد من المطالبة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يَفْضُل له أجر يدخل به الجنة أو يعوّض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة و نعيمها، ورفع درجته فيها و نحو ذلك و الله أعلم.

ثم لقاتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة، فأما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه، قال الله تعالى: **﴿و من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾** الآية، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثاً، ثلاثون حقة، و ثلاثون جدعة، و أربعون خلفة، كما هو مقرر في كتاب الأحكام، و اختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام، على أحد القولين كما تقدم في كفارة الخطأ، على قولين فالشافعي و أصحابه و طائفة من العلماء يقولون نعم، يجب عليه، لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ فلأن تجب عليه في العمد أولى، فطردوا هذا في كفارة اليمين الغموس، و اعتضدوا بقضاء الصلاة المتروكة عمداً كما أجمعوا على ذلك في الخطأ، و قال أصحاب الإمام أحمد و آخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفّر فلا كفارة فيه، و كذا اليمين الغموس و لا سبيل لهم إلى الفرق بين هاتين الصورتين و بين الصلاة المتروكة عمداً، فإنهم يقولون بوجوب قضائها إذا تركت عمداً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) ﴾

٩٤- روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: مرّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبيﷺ يرعى غنماً له فسلّم عليهم، فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوّذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، و أتوا بغنمه النبيﷺ، فنزلت هذه الآية **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** إلى آخرها، و رواه الترمذي. و روى البخاري عن ابن عباس **﴿و لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾** قال: قال ابن عباس: كان رجل في غُنَيمة له فلحقه المسلمون فقال: السلام عليكم فقتلوه و أخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك **﴿و لا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾** قال ابن عباس: عَرَضُ الدنيا تلك الغنيمة، و قرأ ابن عباس **﴿السلام﴾**.

و أما قصة محلم بن جثامة، فروى الإمام أحمد رحمه الله عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حدردرضي الله عنه قال: بعثنا رسول اللهﷺ إلى إضم فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربعي، و محلم بن جثامة ابن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم، مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له، معه متيع له ووطب من لبن، فلما سلّم علينا، فأمسكنا عنه، و حمل عليه محلم بن جثامة فقتله، لشيء كان بينه و بينه، وأخذ بعيره و متيعه، فلما قدمنا على رسول اللهﷺ و أخبرناه الخبر نزل فينا **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله - إلى قوله تعالى - خبيراً﴾** تفرد به أحمد.

و روى البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ للمقداد: «إذا كان رجل مؤمن يُخْفي إيمانه مع قوم كفار فقتلته، فكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة من قبل» هكذا ذكره البخاري معلقاً مختصراً.

و قوله: ﴿**فعند الله مغانم كثيرة**﴾ أي خير مما رغبتم فيه عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام، و أظهر لكم الإيمان فتغافلتم عنه و اتهموه بالمصانعة و التقية لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا.

و قوله: ﴿**كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم**﴾ أي قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يُسر إيمانه ويخفيه من قومه، كما تقدم في الحديث المرفوع آنفاً، و كما قال تعالى: ﴿**و اذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض**﴾ الآية، و هذا مذهب سعيد بن جبير في قوله: ﴿**كذلك كنتم من قبل**﴾ قال: تخفون إيمانكم في المشركين.

و هذا اختيار ابن جرير، و قال ابن أبي حاتم: و ذكر عن سعيد بن جبير قوله: ﴿**كذلك كنتم من قبل**﴾ لم تكونوا مؤمنين ﴿**فمن الله عليكم**﴾ أي تاب عليكم فحلف أسامة لا يقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله بعد ذلك الرجل، و ما لقي من رسول الله ﷺ به، و قوله: ﴿**فتبينوا**﴾ تأكيد لما تقدم، و قوله: ﴿**إن الله كان بما تعملون خبيراً**﴾ قال سعيد بن جبير: هذا تهديد و وعيد.

﴿ **لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٩٦)** ﴾

٩٥- روى البخاري عن البراء قال: لما نزلت ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين**﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله ﴿**غير أولي الضرر**﴾، و روى البخاري أيضاً عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى علي ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين و المجاهدون في سبيل الله**﴾ فجاءه ابن أم مكتوم و هو يُمليها علي، قال: يا رسول الله، و الله لو استطع الجهاد لجاهدت، و كان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ، و كان فخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفتُ أن تُرضَّ فخذي، ثم سرّي عنه، فأنزل الله ﴿**غير أولي الضرر**﴾. و عن ابن عباس أخبره ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين**﴾ عن بدر و الخارجون إلى بدر، انفرد به البخاري. فقوله: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين**﴾ كان مطلقاً، فلما نزل بوحي سريع ﴿**غير أولي الضرر**﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمى و العرج و المرض، عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم و أنفسهم. ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين، قال ابن عباس: ﴿**غير أولي الضرر**﴾، و كذا ينبغي أن يكون، كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير، و لا قطعتم من واد، إلا و هُم معكم فيه» قالوا: و هم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم، حبسهم العذر»، و هكذا رواه أحمد.

و قوله : ﴿و كلاً وعد الله الحسنى﴾ أي الجنة و الجزاء الجزيل . و فيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية . قال تعالى : ﴿و فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ .

٩٦- ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجنان العاليات، و مغفرة الذنوب و الزلات، وحلول الرحمة و البركات، إحساناً منه و تكريماً، و لهذا قال: ﴿درجات منه و مغفرة و رحمة و كان الله غفوراً رحيماً﴾ .

و قد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللهﷺ قال: «إنَّ في الجنة مائة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء و الأرض» .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠) ﴾

٩٧- روى البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال: قُطِع على أهل المدينة بَعثٌ[(١)] فاكتتبتُ فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يُكثّرون سوادهم على عهد رسول اللهﷺ، يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم، فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ .

و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا و كانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم بفعل بعض. قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين و أكرهوا فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ الآية. قال عكرمة: فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم. قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون، فأعطوهم التقية، فنزلت هذه الآية ﴿و من الناس من يقول آمنا بالله﴾ الآية.

قال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول اللهﷺ بمكة و خرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين، و هو قادر على الهجرة و ليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع، و بنص هذه الآية، حيث يقول تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ أي بترك الهجرة ﴿قالوا فيم كنتم﴾ أي لم مكثتم ههنا وتركتم الهجرة ﴿قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد، و لا الذهاب في الأرض ﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة﴾ الآية. و روى أبو داود عن سمرة بن جندب قال: أما بعد، قال: قال رسول

(١) أي أنهم ألزموا بإخراج جيش لقتال أهل الشام.

اللهﷺ: «مَنْ جامعَ المشرك و سكن معه فإنه مثله».

٩٨–و قوله: ﴿إلا المستضعفين﴾ إلى آخر الآية، هذه عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة، و ذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، و لهذا قال: ﴿لا يستطيعون حيلة و لا يهتدون سبيلاً﴾، قال مجاهد و عكرمة و السدي: يعني طريقاً.

٩٩– ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ أي يتجاوز الله عنهم بترك الهجرة، و عسى من الله موجبة، ﴿و كان الله عفواً غفوراً﴾، روى البخاري عن أبي هريرة قال: بينا رسول اللهﷺ يصلي العشاء إذ قال: سمع الله لمن حمده، ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف».

و روى البخاري أيضاً عن ابن عباس ﴿إلا المستضعفين﴾ قال: كنت أنا و أمي ممن عذر الله عز وجل.

١٠٠– و قوله: ﴿و من يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾، هذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين، و أن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مَنْدوحة و ملجأ يتحصن فيه، و المراغم قال ابن عباس: المراغم التحول من أرض إلى أرض. و كذا روي عن الضحاك و الربيع بن أنس و الثوري. و قال مجاهد: ﴿مراغماً كثيراً﴾ يعني متزحزحاً عما يكره. و قال سفيان بن عيينة: مراغماً كثيراً يعني بروجاً، والظاهر ـ و الله أعلم ـ أنه المنع الذي يُتحصن به و يراغم به الأعداء. قوله ﴿و سعة﴾ يعني الرزق، قاله غير واحد منهم قتادة حيث قال في قوله: ﴿يجد في الأرض مراغماً كثيراً و سعة﴾ أي من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى، و قوله: ﴿و من يخرج من بيته مهاجراً إلى الله و رسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ أي و من يخرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين و غيرهما من الصحاح و المسانيد و السنن عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول اللهﷺ: «إنما الأعمالُ بالنيّات و إنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله و رسوله، و مَن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». و هذا عام في الهجرة و في جميع الأعمال. و منه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة و تسعين نفساً، ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سأل عالماً: هل له من توبة؟ فقال له: و من يحول بينك و بين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد آخر يعبد الله فيه. فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الآخر أدركه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائباً، و قال هؤلاء إنه لم يَصِلْ بعد، فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه، و هذه أن تبعد، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. و في رواية: لما جاءه الموت ناء بصدره إلى الأرض التي هاجر إليها.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج ضمرة بن جندب إلى رسول اللهﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول اللهﷺ، فنزلت ﴿و من يخرج من بيته مهاجراً إلى الله و رسوله﴾ الآية.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِين

كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) ﴾

١٠١ - يقول تعالى : ﴿و إذا ضربتم في الأرض﴾ أي سافرتم في البلاد، كما قال تعالى : ﴿علم أن سيكون منكم مرضى و آخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ الآية. و قوله : ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ أي تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية، و استدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك، فمن قائل : لا بد أن يكون سفر طاعة من جهاد، أوحج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، و غير ذلك، كما هو مروي عن ابن عمر و عطاء و يحكى عن مالك في رواية عنه نحوه، لظاهر قوله : ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾، و من قائل : لا يشترط سفر القربة، بل لا بد أن يكون مباحاً، لقوله : ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم﴾ الآية، كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصياً بسفره، و هذا قول الشافعي و أحمد و غيرهما من الأئمة، ومن قائل : يكفي مطلق السفر سواء كان مباحاً أو محظوراً، حتى لو خرج لقطع الطريق، و إخافة السبيل، ترخص لوجود مطلق السفر، و هذا قول أبي حنيفة و الثوري و داود لعموم الآية و خالفهم الجمهور.

و أما قوله تعالى : ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة. و سائر الأحيان حرب للإسلام و أهله، و المنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، كقوله تعالى : ﴿و لا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾، و كقوله تعالى : ﴿و ربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم﴾ الآية، و روى الإمام أحمد عن يعلى بن أمية قال : سألت عمر بن الخطاب قلت له : قوله : ﴿و ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ و قد أمن الناس؟ فقال لي عمر رضي الله عنه : عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال : «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته». و هكذا رواه مسلم و أهل السنن. و روى أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس قال : صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة و المدينة و نحن آمنون لا نخاف بينهما ركعتين ركعتين. و هكذا رواه النسائي والترمذي. و روى البخاري عن أنس يقول : خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت أقمتم بمكة شيئاً؟ قال : أقمنا بها عشراً، و هكذا أخرجه بقية الجماعة.

و روى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب الخزاعي قال : صليت مع النبي ﷺ الظهر و العصر بمنى أكثر ما كان الناس، و آمنه ركعتين. و رواه الجماعة سوى ابن ماجه.

و روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال : صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين، و أبي بكر و عثمان صدراً من إمارته، ثم أتمها، و كذا رواه مسلم.

فهذه الأحاديث دالة صريحاً على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف، و لهذا قال من قال من العلماء : إن المراد من القصر هها إنما هو قصر الكيفية لا الكمية، و هو قول مجاهد و الضحاك و السدي كما سيأتي بيانه، و اعتضدوا أيضاً بما رواه الإمام مالك عن عائشة رضي الله عنها قالت : فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفرو الحضر، فأقرت صلاة السفر، و زيدت في صلاة الحضر، و قد روى هذا الحديث البخاري و مسلم،

قالوا: فإذا كان أصل الصلاة في السفر هي الثنتين، فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية، لأن ما هو الأصل لا يقال فيه: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ و أصرح من ذلك دلالة على هذا ما رواه الإمام أحمد: عن عمر رضي الله عنه قال: صلاة السفر ركعتان، و صلاة الأضحى ركعتان، و صلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر، على لسان محمد ﷺ، و هكذا رواه النسائي و ابن ماجه و ابن حبان، وهذا إسناد على شرط مسلم.

و روى مسلم عن عبد الله عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، و في الخوف ركعة، فكما يصلي في الحضر قبلها و بعدها فكذلك يصلي في السفر. فهذا ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما، و لا ينافي مما تقدم عن عائشة رضي الله عنها، لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان، و لكن زيد في صلاة الحضر، فلما إستقر ذلك، صح أن يقال: إن فرض صلاة الحضر أربع، كما قاله ابن عباس - و الله أعلم - لكن اتفق حديث ابن عباس و عائشة على أن صلاة السفر ركعتان، و أنها تامّة غير مقصورة، كما هو مصرح به في حديث عمر رضي الله عنه، و إذا كان كذلك فيكون المراد بقوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ قصر الكيفية كما في صلاة الخوف، و لهذا قال: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ الآية، و لهذا قال بعدها: ﴿و إذا كنتَ فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ الآية، فبين المقصود من القصر ههنا وذكر صفته و كيفيته، و لهذا لما عقد البخاري كتاب صلاة الخوف صدّره بقوله تعالى: ﴿و إذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ إلى قوله: ﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾ و قال أسباط عن السدي في قوله: ﴿و إذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم﴾ الآية، إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر، فهي تمام التقصير لا يحل إلا أن يخاف من الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة فالتقصير ركعة. و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ يوم كان النبي ﷺ و أصحابه بعسفان، و المشركون بضجنان، فتوافقوا، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بركوعهم سجودهم و قيامهم معاً جميعاً، فهَمَّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم و أثقالهم، روى ذلك ابن أبي حاتم، و رواه ابن جرير عن مجاهد و السدي وعن جابر وابن عمر، و اختار ذلك أيضاً فإنه قال بعد ما حكاه من الأقوال في ذلك: وهو الصواب.

روى ابن جرير عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف، ولا نجد قصر صلاة المسافر، فقال عبد الله: إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به. فقد سمى صلاة الخوف مقصورة و حمل الآية عليها لا على قصر صلاة المسافر و أقره ابن عمر على ذلك، و احتج على قصر الصلاة في السفر بفعل الشارع لا بنص القرآن.

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن

كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) ﴾

١٠٢- صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تُجاه القبلة، و تارة يكون في غير صوبها، و الصلاة تارة تكون رباعية، و تارة تكون ثلاثية كالمغرب، و تارة تكون ثنائية كالصبح و صلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، و تارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة و غير مستقبليها ورجالاً و ركباناً، و لهم أن يمشوا و الحالة هذه و يضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة. و من العلماء من قال: يصلون و الحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم، و به قال أحمد بن حنبل. قال المنذري في الحواشي: و به قال عطاء و جابر و الحسن و مجاهد و الحكم و قتادة و حماد و إليه ذهب طاوس و الضحاك، وقد حكى أبو عاصم العبادي عن محمد بن نصر المروزي: أنه يرى رد الصبح إلى ركعة في الخوف، و إليه ذهب ابن حزم أيضاً. و قال إسحاق بن راهويه: أما عند المسايفة فيجزيك ركعة واحدة تُومئ بها إيماءً، فإن لم تقتد فسجدة واحدة لأنها ذكر الله، و قال آخرون: تكفي تكبيرة واحدة، فلعله أراد ركعة واحدة، كما قاله الإمام أحمد بن حنبل و أصحابه، و به قال جابر بن عبد الله و عبد الله بن عمر و كعب و غير واحد من الصحابة و السدي، و رواه ابن جرير، و لكن الذي حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة، كما هو مذهب إسحاق ابن راهويه.

و من العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال و المناجزة، كما أخّر النبيﷺ يوم الأحزاب الظهر و العصر فصلاّهما بعد الغروب، ثم صلى بعدهما المغرب، ثم العشاء، و كما قال بعدها يوم بني قريظة حين جهز إليهم الجيش: لا يُصلّين أحدٌ منكم العصر إلا في بني قريظة، فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يرد منا رسول اللهﷺ إلا تعجيل المسير، و لم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق، و أخّر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب، و لم يعنّف رسول اللهﷺ أحداً من الفريقين، و قد تكلمنا على هذا في كتاب السيرة و بينا أن الذين صلوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمر، و إن كان الآخرون معذورين أيضاً، والحجة ههنا في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد، من الطائفة الملعونة اليهود.

و أما الجمهور فقالوا: هذا كله منسوخ بصلاة الخوف، فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك، و هذا بينٌ في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه الشافعي رحمه الله و أهل السنن، و لكن يُشْكل عليه ما حكاه البخاري في صحيحه حيث قال:

(باب الصلاة عند مناهضة الحصون و لقاء العدو) قال الأوزاعي: إن كان تهيأ الفتح و لم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماء كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء، أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال، أو يأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة و سجدتين، فإن لم يقدروا فلا يجزئهم التكبير و يؤخرونها حتى يأمنوا، وبه قال مكحول. و قال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تُسْتَر عند إضاءة الفجر، و اشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها و نحن مع أبي موسى، ففُتح لنا،

قال أنس: و ما يسرني بتلك الصلاة الدنيا و ما فيها انتهى ما ذكره، ثم أتبعه بحديث تأخير الصلاة يوم الأحزاب، ثم بحديث أمره إياهم أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، و كأنه كالمختار لذلك، و الله أعلم.

و لمن جنح إلى ذلك له أن يحتج بصنيع أبي موسى و أصحابه يوم فتح تستر فإنه يشتهر غالباً، و لكن كان ذلك في إمارة عمر بن الخطاب، و لم ينقل أنه أنكر عليهم و لا أحد من الصحابة، و الله أعلم، قال هؤلاء: وقد كانت قبل الخندق في قول الجمهور علماء السير و المغازي، و قال البخاري و غيره: كانت ذات الرقاع بعد الخندق لحديث أبي موسى و ما قدم إلا في خيبر، و الله أعلم.

فقوله تعالى: **﴿و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾** أي إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف، و هذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة كما دل عليه الحديث ـ فرادى و رجالاً و ركباناً مستقبلي القبلة و غير مستقبليها، ثم ذكر حال الاجتماع و الائتمام بإمام واحد، و ما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة، حيث اغتُفِرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلو لا أنها واجبة لما ساغ ذلك.

و لنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها، فروى الإمام أحمد عن أبي عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، و هم بيننا و بين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم و أنفسهم، قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر و العصر **﴿و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾** قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح، قال: فصفنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه و الآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا و قاموا، جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم إلى مَصافّ هؤلاء، و جاء هولاء إلى مصاف هؤلاء ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ و الصف الذي يليه و الآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلّم عليهم، ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين: مرة بعسفان، و مرة بأرض بني سليم.

و هذا إسناد صحيح و له شواهد كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام النبي ﷺ و قام الناس معه، فكبر و كبروا معه، و ركع و ركع ناس منهم، ثم سجد و سجدوا معه، ثم قام للثانية فقام الذين سجدوا و حرسوا إخوانهم، و أتت الطائفة الأخرى فركعوا و سجدوا معه و الناس كلهم في الصلاة، و لكن يحرس بعضهم بعضاً.

و روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة، فجاء رجل منهم يقال له غورث بن الحارث حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله»، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: «و من يمنعك مني؟» قال: كن خيرَ آخذٍ. قال: «أتشهد أن لا إله إلا الله و أني رسول الله؟» قال: لا، و لكن أعاهدك أن لا أقاتلك و لا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فأتى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس، فلما حضرت الصلاة، صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فكان الناس طائفتين: طائفة بإزاء العدو، و طائفة صلوا مع رسول الله ﷺ، فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين وانصرفوا، فكانوا مكان الطائفة الذين كانوا بإزاء العدو، ثم انصرف الذين كانوا بإزاء العدو فصلوا مع رسول

الله ﷺ ركعتين، فكأن لرسول الله ﷺ أربع ركعات، و للقوم ركعتين ركعتين.

تفرد به من هذا الوجه. و قد رواه عن جابر جماعة كثيرون في الصحيح و السنن و المسانيد.

و أما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية، وهو أحد قولي الشافعي، و يدل عليه قول الله تعالى: ﴿و لا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم و خذوا حذركم﴾ أي بحيث تكونون على أهبة، إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٠٤)﴾

١٠٣ - يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف، و إن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها، و لكن ههنا آكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، و من الرخصة في الذهاب فيها و الإياب، و غير ذلك مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ و إن كان هذا منهياً عنه في غيرها، و لكن آكد لشدة حرمتها و عظمتها، و لهذا قال تعالى: ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً و قعوداً وعلى جنوبكم﴾ أي في سائر أحوالكم، ثم قال تعالى: ﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة﴾ أي فإذا أمنتم و ذهب الخوف، و حصلت الطمأنينة ﴿فأقيموا الصلاة﴾ أي فأتموها و أقيموها كما أمرتم بحدودها، و خشوعها، وركوعها، و سجودها، وجميع شؤونها.

و قوله تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ قال ابن عباس: أي مفروضاً، و قال أيضاً: إن للصلاة وقتاً كوقت الحج، و كذا روي عن ابن مسعود، و مجاهد و سالم بن عبد الله و علي بن الحسين ومحمد ابن علي و الحسن و مقاتل و السدي و عطية العوفي. و قال زيد بن أسلم ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ قال: منجّماً كلما مضى نجم جاء نجم، يعني كلما مضى وقت جاء وقت.

١٠٤ - و قوله تعالى: ﴿و لا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدّوا فيهم وقاتلوهم، و اقعدوا لهم كل مرصد ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون﴾ أي كما يصيبكم الجراح و القتل كذلك يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ ثم قال تعالى: ﴿و ترجون من الله ما لا يرجون﴾ أي أنتم و إياهم سواء فيما يصيبكم، و إياهم من الجراح و الآلام، و لكن أنتم ترجون من الله المثوبة و النصر و التأييد، كما وعدكم إياه في كتابه و على لسان رسوله ﷺ و هو وعد حق، و خبر صدق، و هم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم و أشد رغبة فيه، و في إقامة كلمة الله و إعلائها، ﴿و كان الله عليماً حكيماً﴾ أي هو أعلم و أحكم فيما يقدّره و يقضيه و ينفذه و يمضيه من أحكامه الكونية و الشرعية وهو المحمود على كل حال.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (١٠٨) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩)﴾

١٠٥، ١٠٦، ١٠٧- يقول تعالى مخاطباً لرسوله محمدﷺ: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ أي هو حق من الله، و هو يتضمن الحق في خبره و طلبه، و قوله: ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كانﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، و بما ثبت في الصحيحين عن زينب بنت أم سلمة أن رسول الله سمع جَلَبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشرٌ و إنما أقضي بنحو مما أسمع، و لعل أحدكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعةٌ من النار فليحملها أو ليذرها».

و ذكر مجاهد و عكرمة و قتادة و السدي و ابن زيد و غيرهم في هذه الآية: إنها نزلت في سارق بني أبيرق على اختلاف سياقاتهم و هي متقاربة [1].

١٠٨- و قوله تعالى: ﴿يستخفون من الناس و لا يستخفون من الله﴾ الآية، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلا ينكروا عليهم و يجاهرون الله بها، لأنه مطلع على سرائرهم و عالم بما في ضمائرهم، و لهذا قال: ﴿و هو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول و كان الله بما يعملون محيطاً﴾ تهديد لهم و وعيد.

١٠٩- ثم قال تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾ الآية، أي هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أُبدي لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر و هم متعبدون بذلك، فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى الذي يعلم السر و أخفي؟ و من ذا الذي يتوكل لهم يومئذ يوم القيامة في ترويج دعواهم؟ أي لا أحد يومئذ يكون لهم وكيلاً، و لهذا قال: ﴿أم من يكون عليهم وكيلاً﴾.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً

(١) و قد روى القصة الترمذي (٣٢٤٠) و ابن جرير و غيرهما و هي حسنة الإسناد. و حاصلها: أن بشير من بني أبيرق سرق طعاماً وسلاحاً من رفاعة بن زيد عم قتادة بن النعمان فشكى ذلك قتادة لرسول اللهﷺ فجاء بنو أبيرق إلى رسول اللهﷺ فأنكروا ذلك و ادعوا الصلاح فقال النبيﷺ لقتادة: «عمدت إلى أهل بيت ذُكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير بينة و لا ثبت» فحزن قتادة لذلك، قال: فلم نلبث أن نزل القران ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله و لا تكن للخائنين خصيماً﴾ يعني بني أبيرق، ﴿و استغفر الله﴾ أي مما قلت لقتادة ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً ◆ و لا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم- إلى قوله -رحيماً﴾ أي لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿و من يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه -إلى قوله- إثماً مبيناً﴾ قولهم للبيد ﴿و لو لا فضل الله عليك و رحمته- إلى قوله- فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ فلما نزل القرآن أتى رسول اللهﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة، فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح و كان شيخاً قد عسى أو عشي في الجاهلية و كنت أرى إسلامه مدخولاً لما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد بن سمية، فأنزل الله تعالى: ﴿و من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم و ساءت مصيراً ◆ إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء و من يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾.

فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)﴾

١١٠- يخبر تعالى عن كرمه و جوده أن كل من تاب إليه، تاب عليه من أي ذنب كان. فقال تعالى: **﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾** قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: أخبر الله عباده بعفوه و حلمه و كرمه، و سعة رحمته و مغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً **﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾** و لو كانت ذنوبه أعظم من السموات و الأرض و الجبال، رواه ابن جرير، و روى أيضاً عن عبد الله قال: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كُتِب كفارة ذلك الذنب على بابه، و إذا أصاب البول منه شيئاً قرضه بالمقراض، فقال رجل: لقد آتى الله بني إسرائيل خيراً، فقال عبد الله رضي الله عنه: ما آتاكم الله خير مما آتاهم، جعل الماء لكم طهوراً، و قال تعالى: **﴿و الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾**، و قال: **﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾**، و روى أيضاً عن حبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل فسألته عن امرأة فَجَرتْ فحبلت فلما ولدت قتلت ولدها، قال عبد الله بن مغفل: لها النار، فانصرفت وهي تبكي فدعاها ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين **﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾** قال: فمسحت عينها ثم مضت.

روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، و حدثني أبو بكر- و صدق أبو بكر- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يُذنب ذنباً، ثم يتوضأ ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله لذلك الذنب، إلا غفر له» و قرأ هاتين الآيتين **﴿و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾** الآية، **﴿و الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾**، الآية. و قد تقدم بعض ذلك في سورة آل عمران أيضاً.

١١١- و قوله: **﴿و من يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾** الآية، كقوله تعالى: **﴿و لا تزر وازرة وزر أخرى﴾** الآية، يعني أنه لا يغني أحد عن أحد، و إنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها، و لهذا قال تعالى: **﴿و كان الله عليماً حكيماً﴾** أي من علمه و حكمته، و عدله و رحمته كان ذلك.

١١٢- ثم قال: **﴿و من يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً﴾** الآية، يعني كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح و قد كان بريئاً و هم الظلمة الخونة، كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ، ثم هذا التقريع وهذا التوبيخ عام فيهم و في غيرهم، ممن اتصف بصفتهم فارتكب مثل خطيئتهم، فعليه مثل عقوبتهم.

١١٣- و قوله: **﴿و لو لا فضل الله عليك و رحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك و ما يضلون إلا أنفسهم و ما يضرونك من شيء﴾** امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، و عصمته له، و ما أنزل عليه من الكتاب و هو القرآن و الحكمة، و هي السنة **﴿و علمك ما لم تكن تعلم﴾** أي قبل نزول ذلك عليك، كقوله: **﴿و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب﴾** إلى آخر السورة، و قال تعالى: **﴿و ما كنت ترجو أن**

يلقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ و لهذا قال: ﴿و كان فضل الله عليك عظيماً﴾.

﴿لاخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً (١١٥)﴾

١١٤- يقول تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ يعني كلام الناس ﴿إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ أي إلا نجوى من قال ذلك.

روى الإمام أحمد عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس فيَنْمي خيراً، أو يقول خيراً»، وقالت لم أسمعه يرخّص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب، و الإصلاح بين الناس، و حديث الرجل امرأته، و حديث المرأة زوجها، و كانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ، و قد رواه الجماعة سوى ابن ماجه.

و روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضلَ من درجة الصيام، والصلاة، و الصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إصلاح ذات البَيْن»، قال: «و فساد ذات البين هي الحالقة». و رواه أبو داود و الترمذي. ولهذا قال: ﴿و من يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله﴾ أي مخلصاً في ذلك محتسباً ثواب ذلك عند الله عز وجل، ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي ثواباً جزيلاً كثيراً واسعاً.

١١٥- و قوله: ﴿و من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى﴾ أي و من سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق، و الشرع في شق، و ذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق، و تبين له و اتضح له.

و قوله: ﴿و يتبع غير سبيل المؤمنين﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، و لكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، و قد تكون لِمَا أجمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم و تعظيماً لنبيهم، و قد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك، قد ذكرنا منها طرفاً صالحاً في كتاب أحاديث الأصول، و من العلماء من ادعى تواتر معناها، و الذي عوّل عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته: هذه الآية الكريمة بعد التروي و الفكر الطويل، و هو من أحسن الاستنباطات و أقواها، و إن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك، و لهذا توعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿نوله ما تولى و نُصله جهنم و ساءتْ مصيراً﴾ أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره و نزينها له استدراجاً له، كما قال تعالى: ﴿فذرني و من يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾، و قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، و قوله: ﴿و نذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ و جعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا و أزواجهم﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿و رأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها و لم يجدوا عنها مصرفاً﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١١٦) إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢٠) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢)﴾

١١٦- قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة، و ذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة. وقوله: **﴿و من يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾** أي فقد سلك غير الطريق الحق، و ضل عن الهدى و بَعُد عن الصواب، و أهلك نفسه و خسرها في الدنيا و الآخرة، و فاتته سعادة الدنيا و الآخرة.

١١٧- و قوله: **﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾** روى ابن أبي حاتم عن أبي ابن كعب قال: مع كل صنم جنية، وروى عن عائشة **﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾** قالت: أوثاناً. و روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن و عروة ابن الزبير و مجاهد و أبي مالك و السدي و مقاتل بن حيان نحو ذلك. و روي عن الضحاك في الآية، قال المشركون: إن الملائكة بنات الله، و إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: فاتخذوهن أرباباً، و صوّروهن جواري فحكموا و قلدوا، و قالوا: هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده، يعنون الملائكة، و هذا التفسير شبيه بقول الله تعالى: **﴿أفرأيتم اللات و العزى﴾** الآيات، و قال تعالى: **﴿و جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾** الاية، و قال: **﴿و جعلوا بينه و بين الجنة نسباً﴾** الآيتين.

و قوله: **﴿و إن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾** أي هو الذي أمرهم بذلك و حَسَّنه و زيَّنه لهم، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر، كما قال تعالى: **﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان﴾** الآية. و قال تعالى إخباراً عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادّعوا عبادتهم في الدنيا **﴿بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾**.

١١٨- و قوله: **﴿لعنه الله﴾** أي طرده و أبعده من رحمته، و أخرجه من جواره، و قال: **﴿لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾** أي معيناً مقدراً معلوماً. قال مقاتل بن حيان: من كل ألف، تسعمائة و تسعة و تسعون إلى النار، و واحد إلى الجنة.

١١٩- **﴿و لأضلنهم﴾** أي عن الحق، **﴿و لأمنينهم﴾** أي أزين لهم ترك التوبة، و أعدهم الأماني، وآمرهم بالتسويف و التأخير، و أغرهم من أنفسهم، و قوله: **﴿و لآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾**. قال قتادة و السدي وغيرهما: يعني تشقيقها و جعلها سمة و علامة للبحيرة و السائبة و الوصيلة، **﴿و لآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾**، قال ابن عباس: يعني بذلك خصي الدواب، و قد روي عن ابن عمر و أنس و سعيد بن المسيب و عكرمة و أبي عياض و قتادة و أبي صالح و الثوري، و قد ورد في حديث النهي عن ذلك، و قال الحسن البصري: يعني

بذلك الوشم، و في صحيح مسلم: النهي عن الوشم في الوجه، و في لفظ: لعن الله من فعل ذلك، و في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات و المستوشمات و النامصات و المتنصمات و المتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل، ثم قال: ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ و هو في كتاب الله عز و جل، يعني قوله: ﴿و ما آتاكم الرسول فخذوه و ما نهاكم عنه فانتهوا﴾.

و قال ابن عباس في رواية عنه و مجاهد وعكرمة و إبراهيم النخعي و الحسن و قتادة و الحكم و السدي والضحاك و عطاء الخراساني في قوله: ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ يعني دين الله عز وجل، هذا كقوله: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ على قول من جعل ذلك أمراً، أي لا تُبدِّلوا فطرة الله و دعوا الناس على فطرتهم، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولود يُولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تُولد البهيمة بهيمة جَمعاء هل تجدون بها من جدعاء» و في صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، و حرَّمت عليهم ما أحللت لهم».

ثم قال تعالى: ﴿و من يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة، و تلك خسارة لا جبر لها و لا استدراك لفائتها.

١٢٠ - و قوله تعالى: ﴿يعدهم و يمنيهم و ما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ و هذا إخبار عن الواقع، فإن الشيطان يعد أولياءه و يمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا و الآخرة، و قد كذب و افترى في ذلك، و لهذا قال الله تعالى: ﴿و ما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾، كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد ﴿و قال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق و وعدتكم فأخلفتكم و ما كان لي عليكم من سلطان - إلى قوله - و إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾.

١٢١ - و قوله: ﴿أولئك﴾ أي المستحسنون له فيما وعدهم و منّاهم ﴿مأواهم جهنم﴾ أي مصيرهم و مآلهم يوم القيامة ﴿و لا يجدون عنها محيصاً﴾ أي ليس لهم عنها مندوحة و لا مصرف، و لا خلاص، و لا مناص.

١٢٢ - ثم ذكر تعالى حال السعداء و الأتقياء و ما لهم في مآلهم من الكرامة التامة، فقال تعالى: ﴿و الذين آمنوا و عملوا الصالحات﴾ أي صدقت قلوبهم و عملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، و تركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يصرفونها حيث شاؤوا و أين شاؤوا ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي بلا زوال و لا انتقال ﴿وعد الله حقاً﴾ أي هذا وعد من الله، و وعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، و لهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، و هو قوله حقاً، ثم قال تعالى: ﴿و من أصدق من الله قيلاً﴾ أي لا أحد أصدق منه قولاً، أي لا إله إلا هو و لا رب سواه، و كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: «إن أصدق الحديث كلام الله، و خير الهدي هدي محمد ﷺ، و شر الأمور محدثاتها، و كل محدثة بدعة، و كل بدعة ضلالة، و كل ضلالة في النار».

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا

يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾

١٢٣- المعنى في هذه الآية أن الدِّين ليس بالتحلي و لا بالتمني، و لكن ما وَقَر في القلوب و صدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، و لا كل من قال إنه هو على الحق سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان، و لهذا قال تعالى: ﴿ليس بأمانيكم و لا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾ أي ليس لكم و لا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه و اتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام، و لهذا قال بعده ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾، كقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره* و من يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ و قد روي أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة.

روى سعيد بن منصور عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿من سوءاً يجز به﴾ شق ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «سَدِّدوا و قاربوا، فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى الشوكة يُشاكها، و النَّكبة يَنكبُها»، هكذا رواه أحمد. و عن أبي سعيد و أبي هريرة: أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المسلم من نصب و لا وصب و لا سقم و لا حزن، حتى الهم يُهمه، إلا كفَّر الله من سيئاته» أخرجاه.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا، ما لنا بها؟ قال: «كفارات». قال أُبي: و إن قَلَّت؟ قال: «حتى الشوكة فما فوقها» قال: فدعا أُبي على نفسه أنه لا يفارقه الوعك حتى يموت في أن لا يشغله عن حج و لا عمرة و لا جهاد في سبيل الله و لا صلاة مكتوبة في جماعة، فما مسه إنسان إلا وجد حره حتى مات رضي الله عنه، تفرد به أحمد.

١٢٤- و قوله: ﴿و من يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى و هو مؤمن﴾ الآية، لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا و هو الأجود له، و إما في الآخرة و العياذ بالله من ذلك، ونسأله العافية في الدنيا و الآخرة، و الصفح و العفو و المسامحة، شرع في بيان إحسانه و كرمه و رحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده، ذُكرانهم و إناثهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة و لا يظلمهم من حسناتهم و لا مقدار النقير، و هو النقرة التي في ظهر نواة التمرة، و قد تقدم الكلام على الفتيل وهو الخيط في شق النواة، و هذا النقير و هما في نواة التمرة، و كذا القطمير و هو اللفافة التي على نواة التمرة، و الثلاثة في القرآن.

١٢٥- ثم قال تعالى: ﴿و من أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيماناً واحتساباً، ﴿و هو محسن﴾ أي اتبع في عمله ماشرعه الله له، و ما أرسل به رسوله من الهدى و دين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي يكون: خالصاً صواباً، و الخالص أن يكون لله، و الصواب أن يكون متابعاً للشريعة فيصح ظاهره بالمتابعة، و باطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمتى فقد الإخلاص كان منافقاً و هم الذين يراءون الناس، و من فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً، و متى جمعهما كان عمل المؤمنين ﴿الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا و نتجاوز عن سيئاتهم﴾، الآية. و لهذا قال

تعالى: ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ و هم محمد و أتباعه إلى يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه و هذا النبي﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً و ما كان من المشركين﴾ و الحنيف هو المائل عن الشرك قصداً، أي تاركاً له عن بصيرة، و مقبل على الحق بكليته لا يصده عنه صاد، و لا يرده عنه راد.

و قوله: ﴿و اتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ و هذا من باب الترغيب في اتباعه، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة، و ما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به في قوله: ﴿و إبراهيم الذي وفى﴾، قال كثير من علماء السلف: أي قام بجميع ما أمر به في كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، و لا كبير عن صغير، و قال تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً و لم يك من المشركين﴾ الآية، و الآية بعدها، و روى البخاري عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح، فقرأ ﴿و اتخذ إبراهيم خليلاً﴾ فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم. وإنما سُمي خليل الله لشدة محبة ربه عز وجل، له لما قام به من الطاعة التي يحبها و يرضاها، و لهذا ثبت في الصحيحين من رواية أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها، قال: «أما بعد، أيها الناس فلو كنتُ متخذاً من أهل الأرض خليلاً، لاتخذتُ أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً، و لكن صاحبكم خليلُ الله» و جاء من طريق جندب بن عبد الله البجلي و عبد الله بن عمرو بن العاص و عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً».

و قال ابن عباس أنه قال: أتعجبون من أن تكون الخلة لإبراهيم، و الكلام لموسى، و الرؤية لمحمد صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين، رواه الحاكم، و كذا روي عن أنس بن مالك و غير واحد من الصحابة و التابعين والأئمة من السلف و الخلف.

١٢٦- و قوله: ﴿و لله ما في السموات و الأرض﴾ أي الجميع ملكه و عبيده و خلقه، و هو المتصرف في جميع ذلك، لا رادّ لما قضى و لا معقب لما حكم، و لا يسأل عما يفعل لعظمته و قدرته و عدله و حكمته و لطفه ورحمته. و قوله: ﴿و كان الله بكل شيء محيطاً﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية من عباده، و لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات و لا في الأرض و لا أصغر من ذلك و لا أكبر، و لا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين و ما توارى.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧) ﴾

١٢٧- روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها ﴿و يستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن - إلى قوله - وترغبون أن تنكحوهن﴾ قالت عائشة: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها و وارثها، فأشركته في ماله حتى في العذق، فيرغب أن ينكحها و يكره أن يزوجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية،

و كذلك رواه مسلم، كلاهما عن أسامة، و روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله ﴿و يستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن و ما يتلى عليكم في الكتاب﴾ الآية، قال: و الذي ذكر الله أنه يتلى عليه في الكتاب، الآية الأولى التي قال الله ﴿و إن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ و بهذا الإسناد عن عائشة قالت: و قول الله عز وجل: ﴿و ترغبون أن تنكحوهن﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال و الجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها و جمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن. و أصله ثابت في الصحيحين.

و المقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمره الله أن يمهرها أسوة بأمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسّع الله عز وجل، و هذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة، و تارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده، أو في نفس الأمر، فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج، خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه و بينها، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية.

و قال في قوله: ﴿و المستضعفين من الولدان﴾ كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار و لا البنات، و ذلك قوله: ﴿لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ فنهى الله عن ذلك، و بيّن لكل ذي سهم سهمه، فقال: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ صغيراً أو كبيراً، و كذا قال سعيد بن جبير و غيره، و قوله: ﴿و ما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ تهييجاً على فعل الخيرات و امتثالاً للأوامر، و إن الله عز وجل عالم بجميع ذلك، و سيجزي عليه أوفر الجزاء و أتمه.

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) ﴾

١٢٨- يقول تعالى مخبراً و مشرعاً من حال الزوجين تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، و تارة في حال اتفاقه معها، و تارة في حال فراقه لها، فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها، فلها أن تُسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقها عليه، و له أن يقبل ذلك منها فلا حرج عليها في بذلها ذلك له، و لا عليه في قبوله منها، و لهذا قال تعالى: ﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً﴾ ثم قال: ﴿و الصلح خير﴾ أي من الفراق، و قوله: ﴿و أحضرت الأنفس الشح﴾ أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق، و لهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها فصالحته على أن يمسكها و تترك يومها لعائشة، فقبل ذلك منها و أبقاها على ذلك.

(ذكر الرواية بذلك) في الصحيحين عن عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهَبَتْ يومها لعائشة، فكان النبيﷺ يقسم لها بيوم سودة.

و روى الحاكم عن عائشة أنها قالت له: يا ابن أختي، كان رسول اللهﷺ لا يفضّل بعضنا على بعض في مكثه عندنا، و كان قَلَّ يوم إلا و هو يطوف علينا، فيدنو من كان امرأة من مسيس حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها، و لقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت و فزغت أن يفارقها رسول اللهﷺ: يا رسول الله، يومي هذا لعائشة، فقبل ذلك رسول اللهﷺ، قالت عائشة: ففي ذلك أنزل الله **﴿و إن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾** و كذلك رواه أبو داود. و روى البخاري عن عائشة **﴿و إن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾** قال: الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية.

و روى ابن جرير عن عائشة **﴿و إن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً و الصلح خير﴾** قالت: هذا في المرأة تكون عند الرجل، فلعله لا يكون بمستكثر منها، و لا يكون لها ولد و يكون لها صحبة فتقول: لا تُطلقني و أنت في حل من شأني. و روى عنها أيضاً قالت: هو الرجل يكون له امرأتان: إحداهما قد كبرت، أو هي دميمة، و هو لا يستكثر منها فتقول: لا تُطلقني و أنت في حل من شأني، و هذا الحديث ثابت في الصحيحين.

و كذا فسرها ابن عباس و عبيدة السلماني ومجاهد بن جبير و الشعبي و سعيد بن جبير و عطاء و عطية العوفي و مكحول و الحسن و الحكم بن عتيبة و قتادة و غير واحد من السلف و الأئمة، و لا أعلم في ذلك خلافاً أن المراد بهذه الآية هذا، و الله أعلم.

و قوله: **﴿و الصلح خير﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني التخيير أن يخير الزوج لها بين الإقامة و الفراق خير من تمادي الزوج على أثرة غيرها عليها، و الظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج و قبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبيﷺ سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة رضي الله عنها و لم يفارقها، بل تركها من جملة نسائه، و فعله لتتأسى به أُمته في مشروعية ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة و السلام، و لما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق، قال: **﴿والصلح خير﴾** بل الطلاق بغيض إليه سبحانه و تعالى، و لهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود و ابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول اللهﷺ: «أبغضُ الحلال إلى الله الطلاق».

و قوله: **﴿و إن تحسنوا و تتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾** و إن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن و تقسموا لهن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك و سيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء.

١٢٩- و قوله تعالى: **﴿و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء و لو حرصتم﴾** أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه و إن وقع القَسْم الصوري ليلة و ليلة، فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة و الجماع، كما قاله ابن عباس و عبيدة السلماني و مجاهد و الحسن البصري و الضحاك بن مزاحم، وروى ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة، قال: نزلت هذه الآية **﴿و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء و لو حرصتم﴾** في عائشة، يعني أن النبيﷺ كان يحبها أكثر من غيرها، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد

و أهل السنن عن عائشة قالت: كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تَلُمْني فيما تملك و لا أملك» يعني القلب، هذا لفظ أبي داود، و هذا إسناد صحيح.

و قوله: ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ أي فإذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿فتذروها كالمعلقة﴾ أي فتبقى هذه الأخرى معلقة. قال ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبير و الحسن و الضحاك و الربيع ابن أنس و السدي و مقاتل بن حيان: معناها لا ذات زوج و لا مطلقة. و روى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانت له امرأتان فمالَ إلى إحداهما، جاء يوم القيامة و أحد شقيه ساقط»، وهكذا رواه الإمام أحمد و أهل السنن.

١٣٠- ثم قال تعالى: ﴿و إن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته و كان الله واسعاً حكيماً﴾ و هذه هي الحالة الثالثة، وهي حالة الفراق و قد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها و يغنيها عنه، بأن يعوضه الله من هو خير له منها، و يعوضها عنه بمن هو خير لها منه، ﴿و كان الله واسعاً حكيماً﴾ أي واسع الفضل، عظيم المن، حكيماً في جميع أفعاله و أقداره و شرعه.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيراً (١٣٣) مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً (١٣٤) ﴾

١٣١- يخبر تعالى أنه مالك السموات و الأرض و أنه الحاكم فيهما، و لهذا قال: ﴿و لقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم و إياكم﴾ أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له. ثم قال: ﴿و إن تكفروا فإن لله ما في السموات و ما في الأرض﴾ الآية كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه ﴿إن تكفروا أنتم و من في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾. و قال: ﴿فكفروا و تولوا و استغنى الله و الله غني حميد﴾ أي غني عن عباده، (حميد)أي محمود في جميع ما يقدره و يشرعه.

١٣٢- و قوله: ﴿و لله ما في السموات و ما في الأرض و كفى بالله وكيلاً﴾ أي هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء.

١٣٣- و قوله: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس و يأت بآخرين و كان الله على ذلك قديراً﴾ أي هو قادر على إذهابكم و تبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، و كما قال: ﴿و إن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ و قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره. و قال تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد ۞ و ما ذلك على الله بعزيز﴾ أي و ما هو عليه بممتنع.

١٣٤- و قوله: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا و الآخرة﴾ أي يامن ليس له همة إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا و الآخرة، و إذا سألته من هذه أغناك و أعطاك و أقناك، كما قال تعالى: ﴿فمن

الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا و ما له في الآخرة من خلاق۝ و منهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار۝ أولئك لهم نصيب مما كسبوا﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد - إلى قوله - انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ الآية.

و قوله: ﴿فعند الله ثواب الدنيا و الآخرة﴾ ظاهر في حصول الخير في الدنيا و الآخرة، أي بيده هذا و هذا، فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر و النفع، و هو الله الذي لا إله إلا هو الذي قد قسم السعادة و الشقاوة بين الناس في الدنيا و الآخرة، و عدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا و ممن يستحق هذا، ولهذا قال: ﴿و كان الله سميعاً بصيراً﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾

١٣٥ - يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل، فلا يعدلوا عنه يميناً و لا شمالاً، و لا تأخذهم في الله لومة لائم و لا يصرفهم عنه صارف، و أن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه، و قوله: ﴿شهداء لله﴾ كما قال: ﴿و أقيموا الشهادة لله﴾ أي ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً خالية من التحريف و التبديل و الكتمان، و لهذا قال: ﴿و لو على أنفسكم﴾ أي اشهد الحق و لو عاد ضررها عليك، و إذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه و لو عادت مضرته عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً و مخرجاً من كل أمر يضيق عليه. و قوله: ﴿أو الوالدين و الأقربين﴾ أي و إن كانت الشهادة على والديك و قرابتك فلا تراعهم فيها بل اشهد بالحق و إن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد.

و قوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ أي لا ترعاه لغناه و لا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما بل أولى بهما منك و أعلم بما فيه صلاحهما. و قوله: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية و بغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم و شؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: ﴿و لا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾، و من هذا القبيل قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبيﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم و زروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: و الله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي، و لأنتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة و الخنازير، و ما يحملني حبي إياه، و بغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات و الأرض، و سيأتي الحديث مسنداً في سورة المائدة إن شاء الله تعالى[1] و قوله: ﴿و إن تلووا أو تعرضوا﴾ قال مجاهد و غير واحد من السلف: تلووا، أي تحرّفوا الشهادة و تغيروها، و اللّيّ هوالتحريف وتعمد الكذب، قال تعالى: ﴿و إن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ الآية، و الإعراض هو كتمان الشهادة و تركها، قال تعالى: ﴿و من

(١) لم يذكره في موضعه.

يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ و قال النبي ﷺ: «خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها»[1] و لهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي و سيجازيكم بذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)﴾

١٣٦- يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان شعبه و أركانه و دعائمه و ليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل و تقريره و تثبيته والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي بصرنا فيه و زدنا هدى و ثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به و برسوله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و آمنوا برسوله﴾. و قوله: ﴿و الكتاب الذي نزل على رسوله﴾ يعني القرآن، ﴿و الكتاب الذي أنزل من قبل﴾، ثم قال تعالى: ﴿و من يكفر بالله و ملائكته و كتبه ورسله و اليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى و بعد عن القصد كل البعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾

١٣٧- يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان، ثم رجع عنه، ثم عاد فيه، ثم رجع و استمر على ضلاله و ازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، و لا يغفر الله له، و لا يجعل له مما هو فيه فرجاً و لا مخرجاً، و لا طريقاً إلى الهدى، و لهذا قال: ﴿لم يكن ليغفر لهم و لا ليهديهم سبيلاً﴾. قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ قال: تموا على كفرهم حتى ماتوا.

١٣٨- ثم قال: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ يعني أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم و يسرون إليهم بالمودة، و يقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون، أي بالمؤمنين، في إظهارنا لهم بالموافقة، قال الله تعالى منكراً عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين ﴿أيبتغون عندهم العزة﴾، ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له و لمن جعلها له، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾. و قال تعالى: ﴿و لله العزة و لرسوله و للمؤمنين و لكن المنافقين لا يعلمون﴾، و المقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله و الإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا، و يوم يقوم الأشهاد.

١٤٠- و قوله: ﴿و قد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها و يستهزأ بها فلا تقعدوا معهم

(١) رواه أحمد و ابن ماجه من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه.

حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم﴾ أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم و رضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله و يستهزأ و ينتقص بها، و أقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه، فلهذا قال تعالى: ﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ في المأثم، كما جاء في الحديث «مَنْ كان يومن بالله و اليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر» (١).

و الذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام، و هي مكية ﴿و إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ الآية، قال مقاتل بن حيان: نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام، يعني نُسخ قوله: ﴿إنكم إذاً مثلهم - إلى قوله - و ما على الذين يتقون من حسابهم من شيء لعلهم يتقون﴾. و قوله: ﴿إن الله جامع المنافقين و الكافرين في جهنم جميعاً﴾ أي كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نارجهنم أبداً، و يجمع بينهم في دار العقوبة و النكال، و القيود و الأغلال، وشراب الحميم و الغسلين لا الزلال.

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١) ﴾

١٤١- يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء بمعنى ينتظرون زوال دولتهم، و ظهور الكفر عليهم وذهاب ملتهم، ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ أي نصر و تأييد و ظفر و غنيمة ﴿قالوا ألم نكن معكم﴾ أي يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة، ﴿و إن كان للكافرين نصيب﴾ أي إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان كما وقع يوم أُحد، فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة ﴿قالوا ألم نستحوذ عليكم و نمنعكم من المؤمنين﴾ أي ساعدناكم في الباطن، و ما ألوناهم خبالاً و تخذيلاً حتى انتصر عليهم، و قال السدي: ﴿نستحوذ عليكم﴾ نغلب عليكم، كقوله: ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾ و هذا أيضاً تودد منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عندهم و يأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم و قلة إيقانهم، قال تعالى: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ أي بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة فلا تغتروا بجريان الأحكام الشريعة عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر و يحصل ما في الصدور.

و قوله: ﴿و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ و روى عبد الرزاق عن يسيع الكندي، قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال: كيف هذه الآية ﴿و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ فقال علي رضي الله عنه: أدنه أدنه، ثم قال: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾.

و كذا روي عن ابن عباس قال: ذاك يوم القيامة، وكذا عن أبي مالك الأشجعي، و قال السدي: سبيلاً أي حجة، و يحتمل أن يكون المعنى ﴿و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ أي في الدنيا بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، و إن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين

(١) رواه الترمذي و الحاكم من حديث جابر رضي الله عنه و هو حديث حسن.

في الدنيا و الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا و الذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ الآية، و على هذا يكون رداً على المنافقين فيما أملوه و رجوه و انتظروه من زوال دولة المؤمنين، و فيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كماقال تعالى: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم - إلى قوله - نادمين﴾ و قد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء، و هو المنع من بيع العبد المسلم للكافر، لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه و الإذلال، و من قال منهم بالصحة، يأمره بإزالة ملكه عنه في الحال لقوله تعالى: ﴿و لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)﴾

١٤٢ - قد تقدم في أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يخادعون الله و الذين آمنوا﴾، و قال ههنا: ﴿إن المنافقين يخادعون الله و هو خادعهم﴾ و لا شك أن الله لا يُخادَع، فإنه العالم بالسرائر و الضمائر، و لكن المنافقين لجهلهم و قلة علمهم و عقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس و جرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة و أن أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة و السداد، و يعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، كما قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ الآية، و قوله: ﴿هو خادعهم﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم و ضلالهم، و يخذلهم عن الحق و الوصول إليه في الدنيا، و كذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يوم يقول المنافقين و المنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم - إلى قوله تعالى - و بئس المصير﴾ و قد ورد في الحديث «مَنْ سمّع سمع الله به، و مَنْ راءى راءى الله به»[1].

و قوله: ﴿و إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ الآية، هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال و أفضلها خيرها، و هي الصلاة إذا قاموا إليها، قاموا و هم كسالى عنها، لأنهم لا نية لهم فيها و لا إيمان لهم بها و لا خشية، و لا يعقلون معناها كما روى ابن مردويه عن ابن عباس قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة و هو كسلان، و لكن يقوم إليها طلق الوجه عظيم الرغبة شديد الفرح، فإنه يناجي الله و إن الله تُجاهه يغفر له ويجيبه إذا دعاه، ثم يتلو هذه الآية ﴿و إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾. هذه صفة ظواهرهم كما قال: ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿يراؤون الناس﴾ أي لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الصلاة تقية من الناس و مصانعة لهم، و لهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يرون فيها غالباً كصلاة العشاء في وقت العتمة، و صلاة الصبح في وقت الغلس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء و صلاة الفجر، و لو يعلمون ما فيهما لأتوهما و لو حبواً، و لقد هممت أنْ آمرَ بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال و معهم حُزَم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار». و في رواية «و الذي

(١) متفق عليه.

نفسي بيده، لو علم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين لشهد الصلاة».

وقوله: ﴿و لا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ أي في صلاتهم لا يخشعون و لا يدرون ما يقولون بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، و عما يراد بهم من الخير معرضون، و قد روى الإمام مالك عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» و كذا رواه مسلم و الترمذي و النسائي.

١٤٣ - و قوله: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء﴾ يعني المنافقين محيرين بين الإيمان و الكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً و باطناً، و لا مع الكافرين ظاهراً و باطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين، و بواطنهم مع الكافرين، و منهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء و تارة يميل إلى أولئك ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ الآية، و قال مجاهد ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء﴾ يعني أصحاب محمد ﷺ ﴿و لا إلى هؤلاء﴾ يعني اليهود. و روى ابن جرير عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة و إلى هذه مرة و لا تدري أيتهما تتبع»، تفرد به مسلم. و روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: مثل المؤمن و المنافق و الكافر مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى واد، فوقع أحدهم فعبر، ثم وقع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي: ويلك أين تذهب إلى الهلكة، ارجع عودك على بدئك، و ناداه الذي عبر: هلم إلى النجاة، فجعل ينظر إلى هذا مرة و إلى هذا مرة، قال: فجاءه سيل فأغرقه، فالذي عبر هو المؤمن، و الذي غرق المنافق ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء﴾ و الذي مكث الكافر.

و روى ابن جرير عن قتادة ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء﴾ يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين، ولا مشركين مصرّحين بالشرك، و لهذا قال تعالى: ﴿و من يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي و من صرفه عن طريق الهدى ﴿فلن تجد له ولياً مرشداً﴾، و لا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل و هم يسألون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾

١٤٤ - ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني مصاحبتهم و مصادقتهم و مناصحتهم و إسرار المودة إليهم، و إفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين و من يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة و يحذركم الله نفسه﴾ أي يحذركم عقوبته في ارتكابكم نهيه، و لهذا قال هنا: ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ أي حجة عليكم في عقوبته إياكم. قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿سلطاناً مبيناً﴾ قال كل سلطان في

القرآن حجة ، و هذا إسناد صحيح ، و كذا قال مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير و محمد بن كعب القرظي والضحاك و السدي و النضر بن عربي.

ثم أخبرنا تعالى ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ أي يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ. قال الوالبي عن ابن عباس ﴿في الدرك الأسفل من النار﴾ أي في أسفل النار، و قال غيره : النار دركات كما أن الجنة درجات. و روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ قال: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم و من فوقهم، و روى ابن جرير عن ابن مسعود ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ قال: في توابيت من نار تطبق عليهم أي مغلقة مقفلة، و رواه ابن أبي حاتم.

﴿ و لن تجد لهم نصيراً﴾ أي ينقذهم مما هم فيه و يخرجهم من أليم العذاب، ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا، تاب عليه و قَبِلَ ندمه إذا أخلص في توبته و أصلح عمله ، و اعتصم بربه في جميع أمره، فقال تعالى : ﴿إلا الذين تابوا و أصلحوا و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله﴾ أي بدلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح و إن قلَّ، ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ أي في زمرتهم يوم القيامة ﴿و سوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾.

١٤٧ - ثم قال تعالى مخبراً عن غناه عما سواه، و أنه إنما يعذب العباد بذنوبهم فقال تعالى : ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم و آمنتم﴾ أي أصلحتم العمل و آمنتم بالله و رسوله ﴿و كان الله شاكراً عليماً﴾ أي مَنْ شكر شكر له ، و من آمن قلبه به عَلِمه و جازاه على ذلك أوفر الجزاء.

﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيماً (١٤٨) إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩) ﴾

١٤٨ - قال أبي طلحة عن ابن عباس في الآية يقول: لا يحب الله أن يدعو أحدٌ على أحد إلا أن يكون مظلوماً فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه و ذلك، قوله: ﴿إلا من ظلم﴾ و إن صبر فهو خير له ، و قال الحسن البصري : لا يدع عليه ، و ليقل : اللهم أعني عليه، و استخرج حقي منه، و في رواية عنه قال : قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه.

و قال عبد الكريم بن مالك الجزري في هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه، و لكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه، لقوله : ﴿و لمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾ . و روى أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المستبان ما قالا ، فعلى البادئ منهما ما لم يعتد المظلوم» و روى عبد الرزاق عن مجاهد في قوله : ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ قال: ضَافَ رجل رجلاً فلم يؤد إليه حق ضيافته، فلما خرج أخبر الناس فقال: ضفت فلاناً فلم يؤد إلي حق ضيافتي، قال: فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم حتى يؤدي الآخر إليه حق ضيافته. و كذا روي عن غير واحد عن مجاهد نحو هذا، و قد روى الجماعة سوى النسائي و الترمذي عن عقبة بن عامر قال: قلنا: يا رسول الله، إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرونا، فما ترى في ذلك ؟ فقال: «إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف، فاقبلوا منهم، و إن لم يفعلوا فخذوا منهم حقَّ الضيف الذي ينبغي لهم».

و روى أحمد عن المقدام بن معديكرب أبي كريمة سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليلة الضيف واجبة على كل مسلم، فإن أصبح بفنائه محروماً كان دَيناً له عليه، فإن شاء اقتضاه و إن شاء تركه». و رواه أبو داود.

و من هذه الأحاديث و أمثالها، ذهب أحمد و غيره إلى وجوب الضيافة، و من هذا القبيل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق» فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فكل مَن مَرَّ به قال: ما لك؟ قال: جاري يؤذيني، فيقول: اللهم العنه، اللهم أخزه، قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، و الله لا أوذيك أبداً، و قد رواه أبو داود.

١٤٩- و قوله: ﴿إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً﴾ أي إن تظهروا أيها الناس خيراً أو أخفيتموه أو عفوتم عمن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله و يجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم، و لهذا قال: ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾. و في الحديث الصحيح «ما نقص مالٌ من صدقةٍ، و لا زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، و من تواضع لله رفعه»[1].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾

١٥٠- يتوعد تبارك و تعالى الكافرين به و برسله، من اليهود و النصارى حيث فرقوا بين الله و رسله في الإيمان فآمنوا ببعض الأنبياء و كفروا ببعض بمجرد التشهي و العادة، و ما ألفوا عليه آباءهم لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك، بل بمجرد الهوى والعصبية، فاليهود ـ عليهم لعائن الله ـ آمنوا بالأنبياء إلا عيسى و محمد عليهما الصلاة و السلام، و النصارى آمنوا بالأنبياء و كفروا بخاتمهم و أشرفهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبيٍّ بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، و المجوس يقال إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له رزادشة، ثم كفروا بشرعه فَرُفع من بين أظهرهم، و الله أعلم، و المقصود أن مَنْ كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن ردّ نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي، تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض و هوى و عصبية، و لهذا قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون﴾ بالله و رسله فوسمهم بأنهم كفار بالله و رسله، ﴿و يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ أي في الإيمان، ﴿و يقولون نؤمن ببعض و نكفر ببعض و يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ أي طريقاً و مسلكاً.

١٥١- ثم أخبر تعالى عنهم فقال: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به، لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله، لآمنوا بنظيره و بمن هو أوضح دليلاً و أقوى برهاناً منه، أو نظروا حق النظر في نبوته.

(١) رواه مسلم.

و قوله : ﴿و أعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ أي كما إستهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله و إعراضهم عنه و إقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه ، و إما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته ، كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة و خالفوه و كذبوه و عادوه و قاتلوه ، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي ﴿وضربت ليهم الذلة و المسكنة و باؤوا بغضب من الله﴾ في الدنيا و الآخرة.

١٥٢ - و قوله : ﴿و الذين آمنوا بالله و رسله و لم يفرقوا بين أحد منهم﴾ يعني بذلك أمة محمد ﷺ ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله و بكل نبي بعثه الله ، كما قال تعالى : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه و المؤمنون كل آمن بالله﴾ الآية ، ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل ، و الثواب الجليل ، و العطاء الجميل ، فقال : ﴿أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ على ما آمنوا بالله و رسله ﴿و كان الله غفوراً رحيماً﴾ أي لذنوبهم ، أي إن كان لبعضهم ذنوب.

﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُّبِيناً ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ﴿١٥٤﴾ ﴾

١٥٣ - قال محمد بن كعب القرظي و السدي و قتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزّل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة ، قال ابن جريج : سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان و فلان و فلان بتصديقه فيما جاءهم به ، و هذا إنما قالوه على سبيل التعنت و العناد و الكفر و الإلحاد ، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك ، كما هو مذكور في سورة سبحان ﴿و قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات ، و لهذا قال تعالى : ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ أي بطغيانهم و بغيهم ، و عتوهم و عنادهم ، و هذا مفسر في سورة البقرة حيث يقول تعالى : ﴿و إذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة و أنتم تنظرون ◆ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾.

و قوله تعالى : ﴿ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي من بعدما رأوا من الآيات الباهرة و الأدلة القاهرة على يد موسى ﷺ في بلاد مصر ، و ما كان من إهلاك عدوهم فرعون و جميع جنوده في اليم ، فما جاوزوه إلا يسيراً ، حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى : ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ الآيتين ، ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة الأعراف ، و في سورة طه ، بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل ، ثم لما رجع و كان ما كان ، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه و ابتدعوه أنْ يَقتل من لم يعبد العجل منهم مَنْ عبده ، فجعل يقتل بعضهم بعضاً ، ثم أحياهم الله عز وجل ، و قال الله تعالى : ﴿فعفونا عن ذلك و آتينا موسى سلطناً مبيناً﴾.

ثم قال: ﴿و رفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ و ذلك حين امتنعوا من الالتزام بالأحكام بالتوراة، و ظهر منهم إباءٌ عما جاءهم به موسى عليه السلام، و رفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم ألزموا فالتزموا و سجدوا، و جعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم، خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى: ﴿و إذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة و ظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ الآية، ﴿و قلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ أي فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجداً و هم يقولون حطة، أي: اللهم حُطَّ عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد و نكولنا عنه، حتى تهنا في التيه أربعين سنة، فدخلوا يزحفون على أستاههم و هم يقولون: حنطة في شعرة ﴿و قلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ أي وصيناهم بحفظ السبت و التزام ما حرّم الله عليهم، ما دام مشروعاً لهم ﴿و أخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ أي شديداً، فخالفوا و عصوا و تحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عزوجل، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله: ﴿و اسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ الآيات.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (١٥٩)﴾

١٥٥- و هذه من الذنوب التي ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم و طردهم و إبعادهم عن الهدى، و هو نقضهم المواثيق و العهود التي أُخذت عليهم، و كفرهم بآيات الله، أي حججه و براهينه، و المعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام، قوله: ﴿و قتلهم الأنبياء بغير حق﴾ و ذلك لكثرة إجرامهم و اجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمعاً غفيراً من الأنبياء عليهم السلام. و قولهم: ﴿قلوبنا غلف﴾ قال ابن عباس ومجاهد و سعيد بن جبير و عكرمة و السدي و قتادة و غير واحد: أي في غطاء، و هذا كقول المشركين ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ الآية، و قيل معناه: أنهم ادعوا أن قلوبهم غلف للعلم، أي أوعية للعلم قد حوته و حصّلته، و قد تقدم نظيره في سورة البقرة، قال الله تعالى: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول، لأنها في غلف و في أكنة، قال الله: بل هي مطبوع عليها بكفرهم، و على القول الثاني: عكس عليهم ما ادّعوه من كل وجه، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي تمرنت قلوبهم على الكفر و الطغيان، و قلة الإيمان.

١٥٦- ﴿و بكفرهم و قولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني أنهم رموها بالزنا، و كذلك قال السدي و جويبر و محمد بن إسحاق و غير واحد، و هو ظاهر من الآية، أنهم رموها و ابنها بالعظائم، فجعلوها زانية و قد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم: و هي حائض، فعليهم لعائن الله المتتابعة

إلى يوم القيامة.

١٥٧ - ﴿و قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه، وهذا منهم من باب التهكم و الاستهزاء، كقول المشركين ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله و سخطه و غضبه و عقابه، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات و الهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة و المعجزات الباهرات، التي كان يبرئ بها الأكمه و الأبرص و يحيي الموتى بإذن الله، و يصور من الطين طائراً، ثم ينفخ فيه، فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها و أجراها على يديه، و مع هذا كذبوه و خالفوه و سعوا في أذاه بكل ما أمكنهم حتى جعل نبي الله ﷺ لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو و أمه عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك، حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان، و كان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، و كان يقال لأهل ملته اليونان، و أنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس و يضلهم، و يفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا و كتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، و أن يصلبه و يضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه على الناس، فلما وصل الكتاب امتثل والي بيت المقدس ذلك، و ذهب هو و طائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى ﷺ، و هو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر، و قيل سبعة عشر نفراً، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصروه هنالك. فلما أحس بهم و أنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيكم يُلقَى عليه شبهي و هو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية و ثالثة، و كل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، و ألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، و فتحت روزنة من سقف البيت، و أخذت عيسى ﷺ سنة من النوم، فرفع إلى السماء و هو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك و رافعك إلي﴾ الآية، فلما رفع خرج أولئك النفر، فلما رأى أولئك ذلك الشاب، ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل و صلبوه، و وضعوا الشوك على رأسه، و أظهر اليهود أنهم سعوا في صَلْبِه، و تبجّحوا بذلك و سلم لهم طوائف من النصارى، ذلك لجهلهم و قلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه. و أما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود، أن المصلوب هو المسيح بن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال إنه خاطبها، و الله أعلم، و هذا كله من امتحان الله عباده، لما له في ذلك من الحكمة البالغة.

و قد أوضح الله الأمر و جلاّه و بيّنه، و أظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات و البينات و الدلائل الواضحات، فقال تعالى و هو أصدق القائلين و رب العالمين، المطلع على السرائر و الضمائر، الذي يعلم السر في السموات و الأرض، العالم بما كان و ما يكون، و ما لم يكن لو كان كيف يكون ﴿و ما قتلوه و ما صلبوه و لكن شبه لهم﴾ أي رأوا شبهه فظنوه إياه، و لهذا قال: ﴿و إن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ يعني بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود، و من سلّمه إليهم من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك و حيرة و ضلال و سُعُر، و لهذا قال: ﴿و ما قتلوه يقيناً﴾ أي و ما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين.

١٥٨- ﴿بل رفعه الله إليه و كان الله عزيزاً﴾ أي منيع الجناب، لا يرام جنابه، و لا يضام من لاذ ببابه، ﴿حكيماً﴾ أي في جميع ما يقدره و يقضيه من الأمور التي يخلقها، و له الحكمة البالغة و الحجة الدامغة والسلطان العظيم والأمر القديم. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه و في البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين، يعني فخرج عليهم من عين في البيت، و رأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، قال: ثم قال: أيكم يُلقى عليه شبهي فيقتل مكاني و يكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام ذلك الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب، فقال: هو أنت ذاك، فألقى عليه عيسى، و رفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، قال: و جاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، و افترقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية، و قالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه و هؤلاء النسطورية، و قالت فرقة: كان فينا عبد الله و رسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه و هؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ، و هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، و رواه النسائي، و كذا ذكره غير واحد من السلف، أنه قال لهم: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، و هو رفيقي في الجنة.

و قال ابن جرير عن مجاهد: صلبوا رجلاً شبه بعيسى، و رفع الله عز وجل عيسى إلى السماء حياً، و اختار ابن جرير أن شبه عيسى ألقي على جميع أصحابه.

١٥٩- و قوله تعالى: ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ يعني قبل موت عيسى يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، و هي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم ﷺ.

ذِكْر مَنْ قال ذلك:

عن ابن عباس ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: قبل موت عيسى ابن مريم ﷺ. و قال أبو مالك في قوله: ﴿إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: ذلك عند نزول عيسى، و قبل موت عيسى ابن مريم ﷺ، لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به.

و روى ابن جرير عن الحسن ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: قبل موت عيسى، و الله إنه لحي عند الله، و لكن إذا نزل آمنوا به أجمعون. و روى ابن أبي حاتم (نحوه)، و كذا قال قتادة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و غير واحد، و هذا القول هو الحق، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله و به الثقة وعليه التكلان. قال ابن جرير: و قال آخرون: يعني بذلك ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به﴾ بعيسى قبل موت الكتابي، ذكر من كان يُوجه ذلك إلى أنه إذا عاين عَلِم الحق من الباطل، لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال: لا يموت

يهودي حتى يؤمن بعيسى، و عن مجاهد في قوله: ﴿إلا ليؤمنن قبل موته﴾ كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته قبل موت صاحب الكتاب، قال ابن عباس: لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى، و عن ابن عباس ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى عليه السلام و إن ضرب بالسيف تكلم به، قال: و إن هوى تكلم به و هو يهوي، و كذا روى أبو داود الطيالسي، فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس، و كذا صح عن مجاهد و عكرمة و محمد بن سيرين، و به يقول الضحاك و جويبر والسدي و حكاه عن ابن عباس، و نقل قراءة أبي بن كعب: قبل موتهم، و قال آخرون: معنى ذلك و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت صاحب الكتاب.

ذِكْر من قال ذلك: عن عكرمة قال: لا يموت النصراني و لا اليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ، يعني قوله: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ ثم قال ابن جرير: و أولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام، و لا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلّم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن كذلك، و إنما شُبّه لهم، فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، و إنه باقٍ حي، و إنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التي سنوردها إن شاء الله قريباً، فيَقتل مسيح الضلالة، و يكسر الصليب، و يقتل الخنزير، ويضع الجزية يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ و لا يتخلف عن التصديق به واحد منهم، و لهذا قال: ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ أي قبل موت عيسى عليه السلام الذي زعم اليهود و من وافقهم من النصارى أنه قتل و صلب ﴿و يوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ أي بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء و بعد نزوله إلى الأرض.

فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام، فهذا هو الواقع، و ذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلاً به، فيؤمن به، و لكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له، إذا كان قد شاهد المَلَك، كما قال تعالى في أول هذه السورة ﴿و ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده﴾ الآيتين، و من تأمل جيداً و أمعن النظر، اتضح له أنه هو الواقع، لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا، بل المراد بها الذي ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام و بقاء حياته في السماء، و أنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، ليكذب هؤلاء و هؤلاء من اليهود و النصارى، الذين تباينت أقوالهم فيه، وتصادمت وتعاكست و تناقضت و خلت عن الحق، ففرط هؤلاء اليهود، و أفرط هؤلاء النصارى تنقّصه اليهود بما رموه به و أمه من العظائم، و أطراه النصارى بحيث ادعوا فيه ما ليس فيه، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عما يقول هؤلاء و هؤلاء علواً كبيراً، و تنزه و تقدس لا إله إلا هو.

ذكر الأحاديث الواردة في نزول عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء في آخر الزمان قبل يوم القيامة و أنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له

روى البخاري رحمه الله في «كتاب ذكر الأنبياء» من صحيحه المتلقى بالقبول: نزول عيسى ابن مريم ﷺ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «و الذي نفسي بيده، ليُوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب [1] و يقتل الخنزير [2] و يضع الجزية [3] و يفيض المال حتى لا يقبله أحد، و حتى تكون السجدة خيراً لهم من الدنيا و ما فيها»، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته و يوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾، و كذا رواه مسلم.

طريق أخرى: روى الإمامُ أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليهلنّ عيسى بفج الروحاء بالحج أو العمرة، أو ليثنينهما جميعاً»، و كذا رواه مسلم.

طريق أخرى: روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم و إمامكم منكم» و أخرجه مسلم.

طريق أخرى: روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، و دينهم واحد، و إني أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن نبيٌّ بيني و بينه، و إنه نازلٌ فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع إلى الحمرة و البياض، عليه ثوبان ممصّران [4] كأن رأسه يقطر و إن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، و يقتل الخنزير، و يضع الجزية، و يدعو الناس إلى الإسلام، و يُهْلِك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، و يهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأُسود مع الإبل، و النِّمار مع البقر، و الذئاب مع الغنم، و يلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة ثم يتوفى، و يصلي عليه المسلمون» و كذا رواه أبو داود.

حديث آخر: روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا، قالت الروم: خلّوا بيننا و بين الذين سُبوا منا نقاتله، فيقول المسلمون: لا و الله، لا نخلّي بينكم و بين إخواننا، فيقاتلونهم فيُهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، و يُقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله، و يفتح الثلث لا يفتنون أبداً، فيفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقسمون الغنائم قد علّقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون و ذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف، إذا أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم فيؤمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لذاب حتى يهلك، و لكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته» [5].

(١) لأن الصليب شعار الكفر و قد عُبد من دون الله تعالى. (٢) فيه دليل على وجوب قتل الخنازير و بيان أن أعيانها نجسة، و ذلك أن عيسى صلوات الله عليه إنما يقتل الخنزير في حكم شريعة نبينا محمد ﷺ لأن نزوله إنما يكون في آخر الزمان، و شريعة الإسلام باقية، قاله الخطابي. (٣) أي لا يقبل من اليهود و النصارى غير دين الحق، فلا يقبل منهم الجزية. (٤) الممصر من الثياب الملون بالصفرة، و ليست صفرته بالمشبعة (خطابي). (٥) و قد ذكر ابن كثير ههنا حديث النواس بن سمعان في خبر الدجال، الذي رواه مسلم و قد تركناه اختصاراً.

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، و الدخان، والدابة، و خروج يأجوج و مأجوج، و نزول عيسى ابن مريم و الدجال، و ثلاثة خسوف: خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، و خسف بجزيرة العرب، و نار تخرج من قعر عدن تسوق - أو تَحشر - الناس تبيت معهم حيث باتوا، و تقيل معهم حيث قالوا» و هكذا رواه مسلم و أهل السنن.

فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة و ابن مسعود و عثمان بن أبي العاص، و أبي أمامة و النواس بن سمعان و عبد الله بن عمرو بن العاص و مجمع بن جارية و أبي سريحة و حذيفة بن أسيد رضي الله عنهم، وفيها دلالة على صفة نزوله و مكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية، و أن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح، و قد بُنيت في هذه الأعصار في سنة إحدى و أربعين و سبعمائة منارة للجامع الأموي بيضاء من حجارة منحوتة عوضاً عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - و كان أكثر عمارتها من أموالهم، و قويت الظنون أنها هي التي ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، فيقتل الخنزير و يكسر الصليب و يضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم في الصحيحين، و هذا إخبار من النبي ﷺ بذلك و تقرير و تشريع و تسويغ له على ذلك في ذلك الزمان، حيث تنزاح عللهم و ترتفع شبههم من أنفسهم، و لهذا كلهم يدخلون في دين الإسلام متابعة لعيسى عليه السلام و على يديه، و لهذا قال تعالى: ﴿و إن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ الآية، و هذه الآية كقوله: ﴿و إنه لعلم للساعة﴾ و قرئ ﴿لَعَلَمٌ﴾ بالتحريك، أي أمارة و دليل على اقتراب الساعة، و ذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال فيقتله الله على يديه، كما ثبت في الصحيح «أن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء» و يبعث الله في أيامه يأجوج و مأجوج فيهلكهم الله تعالى ببركة دعائه، و قد قال تعالى: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج و مأجوج وهم من كل حدب ينسلون ۞ و اقترب الوعد الحق﴾ الآية.

صفة عيسى عليه السلام

قد تقدم في حديث أبي هريرة «فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع إلى الحمرة و البياض، عليه ثوبان ممصران[1]، كأن رأسه يقطر و إن لم يصبه بلل»، و في حديث النوّاس بن سمعان «فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين[2] واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطَر، و إذا رفعه تحدَّر منه مثل جُمان اللؤلؤ، لا يحل لكافر أن يجد ريح نَفَسه إلا مات، و نَفَسُه ينتهي حيث انتهى طرفه».

و روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أسري بي لقيت موسى» قال: فنَعَتَه «فإذا رجل - حبسته قال -: مضطرب رجْلُ الرأس كأنه من رجال شنوءة» قال: «و لقيت عيسى» فنعته النبي ﷺ فقال: «ربعة أحمر كأنه خرج من ديماس» يعني الحمام، «و رأيت إبراهيم و أنا أشبه ولده به» الحديث.

(١) المُمصَّرة من الثياب: التي فيها صُفْرةٌ خفيفة (نهاية). (٢) أي في شُقَّتين أو حُلَّتين. و قيل: الثوب المهرود: الذي يُصبغ بالورس ثم بالزعفران (نهاية).

و روى البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت موسى و عيسى و إبراهيم، فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر، و أما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط».

و قد تقدم في حديث أبي هريرة أن عيسى عليه السلام يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة، ثم يتوفى و يصلي عليه المسلمون. و في حديث عبد الله بن عمر عند مسلم أنه يمكث سبع سنين فيحتمل ـ و الله أعلم ـ أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه و بعد نزوله، فإنه رفع و له ثلاث و ثلاثون سنة، في الصحيح و قد ورد ذلك في حديث في صفة أهل الجنة: أنهم على صورة آدم و ميلاد عيسى ثلاث و ثلاثين سنة.

و قوله تعالى: **﴿و يوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾** قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلّغهم الرسالة من الله وأقر بعبودية الله عز وجل، و هذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة **﴿و إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس ـ إلى قوله ـ العزيز الحكيم﴾**.

﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٦١) لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (١٦٢) ﴾

١٦٠ـ يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة، حرم عليهم طيبات كان أحلّها لهم، كما روى ابن أبي حاتم قال: قرأ ابن عباس: طيبات كانت أُحلّتْ لهم. و هذا التحريم قد يكون قدرياً بمعنى أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا في كتابهم، و حرّفوا و بدلوا أشياء كانت حلالاً لهم فحرموها على أنفسهم، تشديداً منهم على أنفسهم و تضييقاً و تنطعاً، و يحتمل أن يكون شرعياً بمعنى أنه تعالى حرّم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك، كما قال تعالى: **﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾** و قد قدمنا الكلام على الآية، و أن المراد أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً لهم من قبل أن تنزل التوراة، ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل و ألبانها، ثم إنه تعالى حرّم أشياء كثيرة في التوراة، كما قال في سورة الأنعام: **﴿و على الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر و من البقر و الغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم و إنا لصادقون﴾** أي إنما حرمنا عليهم ذلك، لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيهم و طغيانهم، و مخالفتهم رسولهم و اختلافهم عليه، و لهذا قال: **﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم و بصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾** أي صدوا الناس و صدوا أنفسهم عن اتباع الحق، و هذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر و حديثه، و لهذا كانوا أعداء الرسل، و قتلوا خلقاً من الأنبياء، و كذبوا عيسى و محمداً صلوات الله و سلامه عليهما.

١٦١ـ و قوله: **﴿و أخذهم الربا و قد نهوا عنه﴾** أي أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه و أخذوه و احتالوا عليه بأنواع من الحيل و صنوف من الشُّبه، و أكلوا أموال الناس بالباطل، قال تعالى: **﴿و أعتدنا للكافرين منهم عذاباً**

أليماً﴾.

١٦٢- ثم قال تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ أي الثابتون في الدين لهم قَدَمٌ راسخة في العلم النافع. و قد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران. ﴿و المؤمنون﴾ عطف على الراسخين و خبره ﴿يؤمنون بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك﴾ قال ابن عباس: أنزلت في عبد الله بن سلام و ثعلبة بن سعية و أسد و زيد بن سعية و أسد بن عبيد، الذين دخلوا في الإسلام، و صدّقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ.

و قوله: ﴿و المقيمين الصلاة﴾ هكذا هو في جميع مصاحف الأئمة، و كذا هو في مصحف أبي بن كعب، وذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود ﴿و المقيمون الصلاة﴾، قال: و الصحيح قراءة الجميع ثم رد على من زعم أن ذلك من غلط الكُتّاب، ثم ذكر اختلاف الناس فقال بعضهم: هو منصوب على المدح، كما جاء في قوله: ﴿و الموفون بعهدهم إذا عاهدوا و الصابرين في البأساء و الضراء و حين البأس﴾ قال: و هذا سائغ في كلام العرب.

و قال آخرون: هو مخفوض عطفاً على قوله: ﴿بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك﴾ يعني و بالمقيمين الصلاة، و كأنه يقول: و بإقامة الصلاة أي يعترفون بوجوبها و كتابتها عليهم، أو أن المراد بالمقيمين الصلاة: الملائكة، و هذا اختيار ابن جرير، يعني يؤمنون بما أنزل إليك و ما أنزل من قبلك و بالملائكة، و في هذا نظر، والله أعلم. و قوله: ﴿و المؤتون الزكاة﴾ يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال، و يحتمل زكاة النفوس، ويحتمل الأمرين، و الله أعلم. ﴿و المؤمنون بالله و اليوم الآخر﴾ أي يُصدِّقون بأنه لا إله إلا الله، و يؤمنون بالبعث بعد الموت، و الجزاء على الأعمال خيرها و شرها. و قوله: ﴿أولئك﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ يعني الجنة.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)﴾

١٦٣- روي عن ابن عباس قال: قال سُكَين و عدي بن زيد: يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح و النبيين من بعده﴾ إلى آخر الآيات (١). ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده و رسوله محمد ﷺ، كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين، فقال: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح و النبيين من بعده﴾ إلى قوله: ﴿و آتينا داود زبوراً﴾ و الزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود ﷺ و سنذكر ترجمة كل واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم من الله أفضل الصلاة و السلام عند قصصهم من سورة الأنبياء إن شاء الله و به الثقة و عليه التكلان.

١٦٤- و قوله: ﴿و رسلاً قد قصصناهم عليك من قبل و رسلاً لم نقصصهم عليك﴾ أي من قبل هذه الآية،

(١) رواه عنه ابن إسحاق و في سنده ضعف.

يعني في السور المكية و غيرها و هذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن و هم: آدم و إدريس و نوح و هود و صالح و إبراهيم و لوط و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و يوسف و أيوب و شعيب و موسى وهارون و يونس و داود و سليمان و إلياس و اليسع و زكريا و يحيى و عيسى، و كذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، و سيدهم محمدﷺ.

و قوله: ﴿و رسلاً لم نقصصهم عليك﴾ أي خلقاً آخرين لم يُذكروا في القران، و قد اختلف في عدة الأنبياء و المرسلين، و المشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل، و ذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله في تفسيره عن أبي ذر قال: يا رسول الله، كم الأنبياء ؟ قال: «مائة ألف و أربعة و عشرون ألفاً». قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم ؟ قال: «ثلثمائة و ثلاثة عشر جمٌّ غَفير». قلت: يا رسول الله، من كان أولهم ؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله، نبي مرسل ؟ قال: «نعم، خلقه الله بيده، ثم نفخ فيه من روحه، ثم سواه قبيلاً». الحديث.

و قد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستي في كتابه و قد وسمه بالصحة، و خالفه أبو الفرج بن الجوزي فذكر هذا الحديث في كتابه الموضوعات و اتهم به إبراهيم بن هشام هذا، و لا شك أنه تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح و التعديل من أجل هذا الحديث و الله أعلم[1].

قوله: ﴿و كلم الله موسى تكليماً﴾ و هذا تشريف لموسىﷺ بهذه الصفة، و لهذا يقال له: الكليم، و قد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن عبد الجبار بن عبد الله قال: جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال: سمعت رجلاً يقرأ ﴿وكلم اللهَ موسى تكليماً﴾، فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر، قرأت على الأعمش، و قرأ الأعمش على يحيى بن وثاب، و قرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي، و قرأ أبو عبد الرحمن السلمي على علي ابن أبي طالب، و قرأ علي بن أبي طالب على رسول اللهﷺ ﴿و كلم اللهُ موسى تكليماً﴾.

و إنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك، لأنه حرّف لفظ القرآن و معناه، و كان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلّم موسىﷺ أو يكلم أحداً من خلقه، كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ ﴿و كلم اللهَ موسى تكليماً﴾ فقال له: يا ابن اللخناء، كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿و لما جاء موسى لميقاتنا و كلّمه ربُّه﴾ ؟ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف، و لا التأويل.

١٦٥- و قوله: ﴿رسلاً مبشرين و منذرين﴾ أي يبشرون من أطاع الله و اتبع رضوانه بالخيرات، و ينذرون من خالف أمره و كذب رسله بالعقاب و العذاب، و قوله: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل و كان الله عزيزاً حكيماً﴾ أي أنه تعالى أنزل كتبه و أرسل رسله بالبشارة و النذارة، و بيّن ما يحبه و يرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذر، كما قال تعالى: ﴿و لو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل و نخزى﴾، و كذا قوله: ﴿و لو لا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ الآية. و قد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول اللهﷺ: «لا أحدَ أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، و لا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين و منذرين»، و في لفظ آخر: «من أجل

(١) و هو حديث صحيح لطرقه، و قد ذكره العلامة الألباني في الصحيحة (٢٦٦٨).

ذلك أرسل رسله و أنزل كتبه».

﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠) ﴾

١٦٦- لما تضمن قوله تعالى: **﴿إنا أوحينا إليك﴾** إلى آخر السياق، إثبات نبوته ﷺ و الرد على من أنكر نبوته من المشركين و أهل الكتاب، قال الله تعالى: **﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾** أي و إن كفر به من كفر به ممن كذبك و خالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب، و هو القرآن العظيم الذي **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾** و لهذا قال: **﴿أنزله بعلمه﴾** أي في علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات و الهدى و الفرقان، و ما يحبه الله و يرضاه، و ما يكرهه و يأباه، و ما فيه من العلم بالغيوب من الماضي و المستقبل، و ما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل، و لا ملك مقرّب إلا أن يُعْلمه الله به، كما قال تعالى: **﴿و لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾** و قال: **﴿و لا يحيطون به علماً﴾**.

روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن السائب قال: أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، و كان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله: **﴿أنزله بعلمه و الملائكة يشهدون و كفى بالله شهيداً﴾**، قوله: **﴿و الملائكة يشهدون﴾** أي بصدق ما جاءك و أوحى إليك و أنزل عليك مع شهادة الله تعالى بذلك **﴿و كفى بالله شهيداً﴾**.

١٦٧، ١٦٨- و قوله: **﴿إن الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾** أي كفروا في أنفسهم، فلم يتبعوا الحق، و سعوا في صد الناس عن اتباعه و الاقتداء به، قد خرجوا عن الحق و ضلوا عنه، و بعدوا منه بعداً عظيماً شاسعاً، ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته و كتابه و رسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك وبالصد عن سبيله، و ارتكاب مآثمه و انتهاك محارمه بأنه لا يغفر لهم **﴿و لا يهديهم طريقاً﴾** أي سبيلاً إلى الخير.

١٦٩- **﴿إلا طريق جهنم﴾** و هذا استثناء منقطع **﴿خالدين فيها أبداً﴾** الآية.

١٧٠- ثم قال تعالى: **﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم﴾** أي قد جاءكم محمد صلوات الله و سلامه عليه بالهدى و دين الحق و البيان الشافي من الله عز وجل، فآمنوا بما جاءكم به و اتبعوه، يكن خيراً لكم. ثم قال: **﴿و إن تكفروا فإن لله ما في السموات و الأرض﴾** أي فهو غني عنكم و عن إيمانكم، و لا يتضرر بكفرانكم، كما قال تعالى: **﴿و قال موسى إن تكفروا أنتم و من في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾** و قال ههنا: **﴿و كان الله عليماً﴾** أي بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، و بمن يستحق الغواية فيغويه،

﴿حكيماً﴾ أي في أقواله و أفعاله و شرعه و قدره.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١)﴾

١٧١- ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو و الإطراء، و هذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيّز النبوة، إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه. بل قد غلوا في أتباعه و أشياعه ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة، و اتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أوباطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، و لهذا قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الآية.

و روى الإمام أحمد عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم. فإنما عبد فقولوا: عبد الله و رسوله». و رواه البخاري و لفظه: «إنما أنا عبد فقولوا عبد الله و رسوله».

و روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا محمد يا سيدنا و ابن سيدنا، و خيرنا و ابن خيرنا؛ فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس عليكم بقولكم و لا يستهويكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، و الله ما أُحبّ أن تعرفوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل» تفرد به من هذا الوجه.

و قوله تعالى: ﴿و لا تقولوا على الله إلا الحق﴾ أي لا تفتروا عليه و تجعلوا له صاحبة و ولداً، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً، و تنزه و تقدس و توحّد في سؤدده و كبريائه و عظمته، فلا إله إلا هو، و لا رب سواه، و لهذا قال: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه﴾ أي إنما هو عبد من عباد الله وخَلْقٌ من خلقه، قال له: كن فكان، ورسوله من رسله و كلمته ألقاها إلى مريم، أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذنه ربه عز وجل، فكان عيسى بإذنه عز وجل، و كانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب و الأم، والجميع مخلوق الله عز وجل، و لهذا قيل: لعيسى: إنه كلمة الله و روح منه، لأنه لم يكن له أب تولّد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان، و الروح التي أرسل بها جبريل قال الله تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل و أمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾. و قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾. و قال تعالى: ﴿و التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا و جعلناها و ابنها آية للعالمين﴾ و قال تعالى: ﴿و مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ إلى آخر السورة، و قال تعالى إخباراً عن المسيح: ﴿إنْ هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه﴾ الآية.

و روى عبد الرزاق عن قتادة ﴿و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه﴾ هو قوله: ﴿كن فيكون﴾. و روى ابن أبي حاتم عن شاذّ بن يحيى في قول الله ﴿و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى

و لكن بالكلمة صار عيسى، و هذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله : ﴿ألقاها إلى مريم﴾ أي أعلمها بها، كما زعمه في قوله: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ أي يعلمك بكلمة منه و يجعل ذلك كقوله تعالى: ﴿و ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام. و روى البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، و أن محمداً عبده و رسوله، و أن عيسى عبده و رسوله وكلمته ألقاها إلى مريم و روح منه، و أن الجنة حق و النار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». زاد مسلم «من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء».

فقوله في الآية و الحديث «وروح منه» كقوله: ﴿و سخر لكم ما في السموات و ما في الأرض جميعاً منه﴾ أي من خلقه و من عنده و ليست «من» للتبعيض - كما تقوله النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة - بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى، وقد قال مجاهد في قوله: ﴿و روح منه﴾ أي و رسول منه، و قال غيره: و محبة منه، و الأظهر الأول و هو أنه مخلوق من روح مخلوق و أضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة و البيت إلى الله في قوله: ﴿هذه ناقة الله﴾ و في قوله: ﴿و طهر بيتي للطائفين﴾ و كما روي في الحديث الصحيح: «فأدخل على ربي في داره» أضافها إليه إضافة تشريف، و هذا كله من قبيل واحد و نمط واحد.

و قوله: ﴿فآمنوا بالله و رسله﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد، لا ولد له و لا صاحبة، و اعلموا و تيقنوا بأن عيسى عبد الله و رسوله، و لهذا قال تعالى: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ أي لا تجعلوا عيسى و أمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، و هذه الآية كالتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة و ما من إله إلا إله واحد﴾ و كما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿و إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني﴾ الآية، و قال في أولها ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ الآية، فالنصارى - عليهم لعائن الله - من جهلهم ليس لهم ضابط، و لا لكفرهم حد، بل أقوالهم و ضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده شريكاً، و منهم من يعتقده ولداً، و هم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، و أقوال غير مؤتلفة. و لقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً.

و كل هذه الفرقة تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح و يختلفون في كيفية ذلك، و في اللاهوت و الناسوت على زعمهم هل اتحدا أو ما اتحدا، أو امتزجا، أو حلّ فيه، على ثلاث مقالات و كل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة، و لهذا قال تعالى: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ أي يكن خيراً لكم ﴿إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد﴾ أي تعالى و تقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿له ما في السموات و ما في الأرض و كفى بالله وكيلاً﴾ أي الجميع ملكه و خلقه، و جميع ما فيهما عبيده و هم تحت تدبيره و تصريفه، و هو وكيل على كل شيء، فكيف يكون لله منهم صاحبة و ولد، كما قال في الآية الأخرى: ﴿بديع السموات و الأرض أنى يكون له ولد﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿و قالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً - إلى قوله - فرداً﴾.

﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ

وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ﴿١٧٣﴾ ﴾

١٧٢- روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿**لن يستنكف**﴾ لن يستكبر. و قال قتادة: لن يحتشم ﴿**المسيح أن يكون عبداً لله و المقربون**﴾ و قد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: ﴿**و لا الملائكة المقربون**﴾ و ليس له في ذلك دلالة، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع، و الملائكة أقدر على ذلك من المسيح، فلهذا قال: ﴿**و لا الملائكة المقربون**﴾ و لا يلزم من كونهم أقوى و أقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل. و قيل: إنما ذُكروا لأنهم اتخذوا آلهة مع الله كما اتخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده و خلق من خلقه، كما قال تعالى: ﴿**و قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل عباد مكرمون**﴾ الآيات، و لهذا قال: ﴿**و من يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً**﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة، و يفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه، و لا يحيف.

١٧٣- و لهذا قال: ﴿**فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم و يزيدهم من فضله**﴾ أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة، و يزيدهم على ذلك من فضله و إحسانه و سعة رحمته و امتنانه. ﴿**و أما الذين استنكفوا واستكبروا**﴾ أي امتنعوا من طاعة الله و عبادته و استكبروا عن ذلك ﴿**فيعذبهم عذاباً أليماً و لا يجدون لهم من دون الله ولياً و لا نصيراً**﴾ كقوله: ﴿**إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴿١٧٥﴾ ﴾

١٧٤- يقول تعالى مخاطباً جميع الناس و مخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، و هو الدليل القاطع للعذر والحجة المزيلة للشبهة، و لهذا قال: ﴿**و أنزلنا إليكم نوراً مبيناً**﴾ أي ضياء واضحاً على الحق، قال ابن جريج وغيره: و هو القرآن.

١٧٥- ﴿**فأما الذين آمنوا بالله و اعتصموا به**﴾ أي جمعوا بين مقامي العبادة، و التوكل على الله، في جميع أمورهم، و قال ابن جريج: آمنوا بالله و اعتصموا بالقرآن. رواه ابن جرير ﴿**فسيدخلهم في رحمة منه وفضل**﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة، و يزيدهم ثواباً و مضاعفة و رفعاً في درجاتهم من فضله عليهم و إحساناً إليهم، ﴿**و يهديهم إليه صراطاً مستقيماً**﴾ أي طريقاً واضحاً قصداً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف و هذه صفة المؤمنين في الدنيا و الآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة، و طريق السلامة، في جميع الاعتقادات والعمليات، و في الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات.

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً

﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)﴾

١٧٦- روى البخاري عن البراء قال: آخر سورة نزلت براءة، و آخر آية نزلت ﴿يستفتونك﴾.

و روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: دخل علي رسول الله ﷺ و أنا مريض لا أعقل، فتوضأ ثم صب علي، أو قال: صبُّوا عليه، فعقلت فقلت: إنه لا يرثني إلا كلالة، فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض. أخرجاه في الصحيحين، و في بعض الألفاظ: فنزلت آية الميراث ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ الآية، و كأن معنى الكلام ـ و الله أعلم ـ يستفتونك عن الكلالة ﴿قل الله يفتيكم﴾ فيها، فدل المذكور على المتروك. و قد تقدم الكلام على الكلالة و اشتقاقها، و أنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه لهذا فسّرها أكثر العلماء بمن يموت و ليس له ولد و لا والد، و من الناس من يقول: الكلالة من لا ولد له، كما دلتْ عليه الآية ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾، و قد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: ثلاثٌ وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد و الكلالة و باب من أبواب الربا. و روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب: ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بإصبعيه في صدري، وقال: «يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء» هكذا رواه مختصراً، و أخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا.

و كأن المراد بآية الصيف أنها نزلت في فصل الصيف، و الله أعلم، و لما أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها، فإن فيها كفاية نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها، و لهذا قال: فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلي من أن يكون لي حمر النعم.

ذكر الكلام على معناها

و بالله المستعان و عليه التكلان. قوله تعالى: ﴿إن امرؤ هلك﴾ أي مات، قال الله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ كل شيء يفنى، و لا يبقى إلا الله عز وجل، كما قال: ﴿كل من عليها فان ۞ و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام﴾. قوله: ﴿ليس له ولد﴾ تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد، و هو رواية عن عمر بن الخطاب، رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه، و لكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور و قضاء الصديق: أنه الذي لا ولد له و لا والد، و يدل على ذلك قوله: ﴿و له أخت فلها نصف ما ترك﴾ و لو كان معها أب لم ترث شيئاً لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن، و لا والد بالنص عند التأمل أيضاً، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية.

و قد نقل ابن جرير و غيره عن ابن عباس و ابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت: ترك بنتاً و أختاً إنه لا شيء للأخت لقوله ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك﴾ قال: فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً فلا شيء للأخت، و خالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة للبنت النصف بالفرض، و للأخت النصف الآخر بالتعصيب بدليل غير هذه الآية، و هذه الآية نصت أن يفرض لها في هذه الصورة، و أما وراثتها بالتعصيب فلما

رواه البخاري عن الأسود قال: قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ، النصف للبنت و النصف للأخت، ثم قال سليمان: قضى فينا و لم يذكر على عهد رسول الله ﷺ، و في صحيح البخاري أيضاً عن هزيل بن شرجبيل قال: سئل أبو مسى الأشعري عن ابنة و ابنة ابن و أخت، فقال: للابنة النصف، و للأخت النصف، و أت ابن مسعود فسيتابعني، فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذاً و ما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ النصف للبنت، و لبنت الابن السدس تكملة الثلثين و ما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحَبر فيكم.

و قوله: ﴿و هو يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ أي و الأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالة، و ليس لها ولد أي ولا والد، لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ من أم، و صرف الباقي إلى الأخ، لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ألحقوا الفرائضَ بأهلها، فما أبقت الفرائض فلأولي رجل ذكر». و قوله: ﴿فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾ أي فإن كان لمن يموت كلالة أختان، فرض لهما الثلثان و كذا ما زاد على الأختين في حكمهما، و من ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين، كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾.

و قوله: ﴿و إن كانوا إخوة رجالاً و نساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ هذا حكم العصبات من البنين و بني البنين و الإخوة إذا اجتمع ذكورهم و إناثهم، أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين، و قوله ﴿يبين الله لكم﴾ أي يفرض لكم فرائضه، و يحد لكم حدوده، و يوضح لكم شرائعه. و قوله: ﴿أن تضلوا﴾ أي لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿و الله بكل شيء عليم﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور و مصالحها و ما فيها من الخير لعباده، و ما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربة من المتوفى.

روى ابن جرير عن طارق بن شهاب قال: أخذ عمر كتفاً و جمع أصحاب رسول الله ﷺ ثم قال: لأقضين في الكلالة قضاء تحدث به النساء في خدورهن، فخرجت حينئذ حية من البيت فتفرقوا، فقال: لو أراد الله عز وجل أن يتم هذا الأمر لأتمه، و هذا إسناد صحيح.

و روى الحاكم عن عمر قال: ثلاث لأن يكون النبي ﷺ بيَّنهن لنا أحب إلي من الدنيا و ما فيها: الخلافة، والكلالة، و الربا، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه. و بهذا الإسناد عن ابن عباس قال: كنت آخر الناس عهداً بعمر، فسمعته يقول: القول ما قلت: و ما قلت؟ قال: قلت: الكلالة من لا ولد له، ثم قال: صحيح على شرطهما، و لم يخرجاه.

و كان أبو بكر رضي الله عنه يقول: هو ما عدا الولد و الوالد.

و هذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين و الأئمة في قديم الزمان و حديثه، و هو مذهب الأئمة الأربعة و الفقهاء السبعة، و قول علماء الأمصار قاطبة، و هو الذي يدل عليه القرآن، كما أرشد الله أنه قد بيّن ذلك و وضحه في قوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا و الله بكل شيء عليم﴾، و الله أعلم.

تم الجزء الأول، و يليه الجزء الثاني

و أوله سورة المائدة.

حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

تهذيب ومختصر وتحقيق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي

المتوفى سنة ٧٧٤هـ

تهذيب واختصار وتحقيق

محمد الحمود النجدي

الجزء الثاني

جمعية إحياء التراث الإسلامي

مكتبة دار الإمام أحمد بن حنبل

حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

جمعية إحياء التراث الإسلامي
فرع ضاحية صباح الناصر
ت: ٤٨٠٩٠٢٢ - ٤٨٠٩٠٣٣ - ٤٨٠٣٠٦٦
فاكس الإدارة: ٤٨٨٢٠٧٠ - فاكس اللجنة العلمية: ٤٨٨٢٥١١
ص ب: ١٥٥١ العارضية - رمز بريدي: ٩٢٤٠٠ الكويت.

مكتبة دار الإمام أحمد بن حنبل
جليب الشيوخ - المجمعات التجارية
مجمع الواحة - الميزانين - محل رقم ٢ - ت: ٤٣٣٤٦٨٧ - ٤٣١١٣٧٩
فاكس: ٤٣٣٤٦٨٧
ص ب: ٣٧٦ - الفردوس - الكويت.

حسن التحرير
في تهذيب
تفسير ابن كثير

مهذب ومختصر وتحقيق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

تهذيب واختصار وتحقيق
محمد الحمود النجدي

الجزء الثاني

جمعية إحياء التراث الإسلامي
مكتبة دار الإمام أحمد بن حنبل

طبعت هذه النسخة :
على نفقة فاعلة خير
آجرها الله تعالى فيما أعطتْ
و بارك لها فيما أبقتْ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، و سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، و من يضلل فلا هادي له ، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أشهد أن محمداً عبده و رسوله ،

أما بعد :

فبين يديك - أخي القارئ الكريم - المجلد الثاني من كتابنا : «حسن التحرير في تهذيب تفسير ابن كثير» نقدمه لك راجين حسن الانتفاع به ، و بتيسيره و تقريبه ، و الذي حرصنا على أن يكون سمة له ، تعين طلاب العلم و الباحثين على المراجعة و الاستفادة ، وكلفنا ذلك جهداً و وقتاً نحتسبه عند الله تعالى .

فهو - جزء - في ظني من المشروع العظيم الذي دعا إليه مجدِّد علم الحديث في عصره ، و علامة الشام ، شيخنا الشيخ/ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً ، و أسكنه فسيح جناته ، ألا وهو مشروع «التصفية» ، تصفية كتب الحديث ، والتفسير ، و العقيدة ، و الفقه ، و السيرة ، و غيرها ، من الأحاديث الضعيفة و الواهية ، والقصص الإسرائيلية الباطلة ، المخالفة للكتاب الذي جعله الله تعالى مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ، و مُهيمناً عليه ، أي : رقيباً و شاهداً على ما سبقه ، فما وافقه فهو الحق ، و ما خالفه فهو الباطل .

و لَكَمْ راجت تلك الأحاديث و الأقاصيص على فئام من المسلمين ، بَلْهَ الوعاظ والكُتَّاب ، ومن ينسب إلى العلم و التحقيق!!(١) .

---

(١) فلقد رأيت مختصراً لهذا التفسير (تفسير ابن كثير) باسم : «المصباح المنير» ، كتب على غلافه : إعداد جماعة من العلماء!! بإشراف الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ، فيه من الأحاديث الضعيفة ما يعرفه المبتدئ في هذا الشأن! بل الواهية و المتروكة! وقد نبه عليها أو على أكثرها الحافظ ابن كثير! فيورد الحديث و يترك تعليق الحافظ ابن كثير عليه!!

و هذه بعض الأمثلة :

١- في صفحة (١٦) أورد في مختصره حديث أم سلمة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة و عدَّها آية .

و هذا الحديث ضعيف ، ضعفه الحافظ ابن كثير نفسه! حيث قال : لكنه من رواية عمر بن هارون البلخي و فيه ضعف ، اهـ .

فحذف المختصر كلام الحافظ ابن كثير ، و أبقى الحديث!!

٢- و في صفحة (١٧) أورد حديث ابن عباس : إن عثمان بن عفان سأل رسول الله ﷺ عن «بسم الله الرَّحْمنِ الرَّحِيم» فقال : «هو اسم من أسماء الله ، و ما بينه و بين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العينين و بياضهما من القرب» .

الحديث أورده الذهبي في الميزان في ترجمة : سلام بن وهب الجندي ، و قال : عن ابن طاوس بخبر منكر ، بل كذب ، ساقه العقيلي ثم ذكر الحديث عن ابن عباس .

٣- في صفحة (١٧) أيضاً أورد حديث بريدة : أن رسول الله ﷺ قال : أنزلت عليَّ آية لم تنزل على نبي غير سليمان بن داود وغيري ،

و قد بذلت جَهْدي في تنقية هذا التفسير من تلك الأحاديث الضعيفة ، كما حاولت قدر المستطاع تقريبه للقارئ بحذف التكرار ، و الأقوال الشاذة . . . إلخ ما ذكرته في مقدمة الجزء الأول .

فأسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل و سائر الأعمال ، و أن يجعلها خالصة لوجهه ، و ألا يجعل فيها لأحدٍ شيئاً ، إنه ولي ذلك و القادر عليه .

و صلى الله و سلم و بارك و أنعم على نبينا محمد و آله و صحبه أجمعين .

كتبه

محمد الحمود النجدي الأثري

لعشر بقين من محرم سنة ١٤٢٢

وهي «بسم الله الرَّحْمن الرَّحيم» ، و الحديث ضعفه ابن كثير نفسه ، في تفسيره لسورة النمل ، فقال : حديث غريب و إسناده ضعيف .

٤- في صفحة (١٧) أيضاً : أورد حديث «كل أمر لا يبدأ فيه بـ «بسم الله الرَّحْمن الرَّحيم» فهو أجذم . و عزاه في الهامش إلى كنز العمال!! وهو حديث ضعيف جداً ، رواه السبكي في «طبقات الشافعية» (١/ ٦) بلفظ فهو «أبتر» ، و فيه : أحمد بن محمد بن عمران ، ضعيف متهم . انظر الإرواء (١/ ٢٩) .

٥- في صفحة (١٨) : أورد حديث : الحكم بن عمير قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قلت الحمد لله رب العالمين ، فقد شكرت الله فزادك» رواه الطبري . و الحديث ضعيف جداً ، فيه : عيسى بن إبراهيم وهو ابن طهمان الهاشمي ، قال البخاري : منكر الحديث ، و قال يحيى : ليس بشيء ، و قال أبو حاتم و النسائي : متروك (كما في الميزان) ، و فيه أيضاً : موسى بن أبي حبيب وهو الحمصي ، قال أبو حاتم : ضعيف الحديث (الجرح و التعديل : ٨/ ١٤٠) .

٦- في صفحة (١٩) أورد حديث : الأسود بن سريع قال : قلت : يا رسول الله ، ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي تبارك و تعالى ، فقال : أما إن ربك يحب الحمد» رواه أحمد (٣/ ٤٣٥) ، و النسائي في الكبرى(٧٧٤٥) . و الحديث منقطع ، فهو من رواية الحسن وهو ابن البصري عن الأسود ، و لم يسمع منه ، قاله علي بن المديني كما في التهذيب (٢/ ٢٦٨) ، للحافظ ابن حجر . وكذا قاله البزار في مسنده ، المصدر السابق .

٧- في صفحة (١٩) أيضاً : أورد حديث ابن عمر : أن رسول الله ﷺ حدثهم : «أن عبداً من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك و عظيم سلطانك . . . » الحديث ، رواه ابن ماجة (٣٨٠١) .

قال البوصيري في الزوائد : في إسناده قدامة بن إبراهيم ، ذكره ابن حبان في الثقات ، و صدقة بن بشير ، لم أرَ من جرَّحه و لا من وثقه ، وباقي رجال الإسناد ثقات ، اهـ .

قلت : أما قدامة ، فقال الحافظ في التقريب : مقبول ، أي : حيث يتابع ، و إلا فلين الحديث . و كذا الأمر بالنسبة لصدقة .

و الحديث ضعفه الشيخ الألباني رحمه الله في السنن (٣٨٠١) و الترغيب .

٨- في صفحة (١٩) أيضاً : أورد حديث : «اللهم لك الحمد كله ، و لك الملك كله ، و بيدك الخير كله ، و إليك يرجع الأمر كله» الحديث ، و عزاه إلى الترغيب و الترهيب!

و الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤٠٨٨ ـ ط السلفية) من حديث أبي سعيد الخدري به بنحوه .

و قال : قال أبو عبد الله : تفرد به خالد بن يزيد العمري عن ابن أبي ذئب ، اهـ .

قلت : و خالد بن يزيد أبو الهيثم ، قال البخاري فيه : ذاهب الحديث ، و كذبه أبو حاتم .

و قال ابن حبان : منكر الحديث ، يروي الموضوعات عن الثقات . انظر المجروحين (١/ ٢٧٨) و الميزان (١/ ٦٤٦) .

و هذه أمثلة ، و إلا فالأحاديث الضعيفة الموجودة في المختصر كثيرة ، فضلاً عن الآثار و الموقوفات!

كما أنه يكرر بعض الأحاديث المتشابهة دون زيادة فيها أو فائدة ـ كما في (ص ١٨) : «إني لأعلم كلمة لو قالها . . . » ، و هذا مما ينافي الاختصار كما هو معلوم .

ترتيبها ٥ سورة المائدة - مدنية آياتها ١٢٠

روى أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة و هو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها. تفرد به أحمد. و قد روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة و الفتح.

و روى الحاكم: في مستدركه نحو رواية الترمذي ثم قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

و روى الحاكم أيضاً: عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه و ما وجدتم من حرام فحرموه، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، و رواه الإمام أحمد و زاد: وسألتها عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: القرآن، و رواه النسائي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) ﴾

١-روى ابن أبي حاتم: أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. و روى عن الزهري قال: إذا قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ افعلوا فالنبي ﷺ منهم. و روى عن خيثمة قال: كل شيء في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو في التوراة: يا أيها المساكين. و روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال: هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذي كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن يُفقّه أهلها ويُعلّمهم السنة، و يأخذ صدقاتهم، فكتب له كتاباً و عهداً و أمره فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ عهد من محمد رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون.

وقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال ابن عباس و مجاهد و غير واحد يعني بالعقود: العهود. و حكى ابن جرير الإجماع على ذلك. قال: و العهود ما كانوا يتعاقدون عليه من الحِلْف و غيره. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني العهود، يعني ما أحلّ الله و ما حرّم، و ما فرض و ما حدّ في القرآن كله، و لا

تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدّد في ذلك فقال تعالى: ﴿و الذينَ ينقُضُونَ عهدَ اللهِ مِن بعدِ ميثاقِهِ و يقطَعُونَ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿سوءُ الدَّار﴾ . و قال الضحاك نحوه . و قال زيد بن أسلم ﴿أوفُوا بالعُقُودِ﴾ قال: هي ستة: عهد الله، و عقد الحلف، و عقد الشركة، و عقد البيع، و عقد النكاح، و عقد اليمين. و قال محمد بن كعب: هي خمسة، منها: حلف الجاهلية، شركة المفاوضة.

و قد استدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية ﴿أوفُوا بالعُقُودِ﴾ قال: فهذه تدل على لزوم العقد و ثبوته، فيقتضي نفي خيار المجلس، و هذا مذهب أبي حنيفة و مالك، و خالفهمافي ذلك الشافعي و أحمد و الجمهور. و الحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَيِّعَان بالخيار ما لم يَتَفرّقا». و في لفظ آخرللبخاري: «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا»، و هذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع، و ليس هذا منافياً للزوم العقد بل هو من مقتضياته شرعاً، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود.

و قوله تعالى: ﴿أحِلَّتْ لَكُم بَهيمَةُ الأنعام﴾ هي الإبل و البقر و الغنم. قاله الحسن و قتادة و غير واحد. قال ابن جرير: و كذلك هو عند العرب. و قد استدل ابن عمر و ابن عباس و غير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وُجِدَ ميتاً في بطن أمه إذا ذُبِحت. و قد ورد في ذلك حديث رواه أبو داود: عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: «ذكاةُ الجنين ذكاةُ أُمّه» تفرد به أبو داود. و قوله: ﴿إلاّ مَا يُتْلَى عَليكُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني بذلك: الميتة و الدم و لحم الخنزير. و قال قتادة: يعني بذلك: الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه. و الظاهر ـ و الله أعلم ـ أن المراد بذلك: قوله: ﴿حُرِّمتْ عَليكُم المَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الخِنزيرِ و مَا أُهلّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ و المُنخَنِقَةُ وَ المَوقُوذةُ وَ المُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطيحَةُ وَ ما أكَلَ السَّبُعُ﴾ فإن هذه ـ و إن كانت من الأنعام ـ إلا أنها تحرم بهذه العوارض، و لهذا قال: ﴿إلا مَا ذكَّيتُمْ وَ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ يعني منها، فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحقه، و لهذا قال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهيمَةُ الأنعام إلاّ مَا يُتْلَى عَليكُمْ﴾ أي: إلا ما سيُتلَى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال. و قوله تعالى: ﴿غيرَ مُحِلّي الصَّيدِ وأنتُمْ حُرُمٌ﴾ قال بعضهم: هذا منصوب على الحال، و المراد بالأنعام: ما يعم الإنسي من الإبل و البقر والغنم، و ما يعم الوحشي كالظباء و البقر و الحمر، فاستثنى من الإنسي: ما تقدم، و استثنى من الوحشي: الصيد في حال الإحرام. و قيل: المراد: أحللنا لكم الأنعام إلا ما استثنى منها، لمن التزم تحريم الصيد و هو حرام، لقوله: ﴿فمَن اضْطُرَّ غيرَ باغٍ و لاَ عادٍ فإنَّ اللهَ غفُورٌ رَّحيمٌ﴾ أي: أبحنا تناول الميتة للمضطر، بشرط أن يكون غير باغ و لا متعد، و هكذا هنا، أي كما أحللنا الأنعام في جميع الأحوال، فحرِّموا الصيد في حال الإحرام، فإن الله قد حكم بهذا، و هو الحكيم في جميع ما يأمر به و ينهى عنه، و لهذا قال تعالى: ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾.

٢ـ ثم قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ لاَ تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك مناسك الحج، وقال مجاهد: الصفا و المروة، و الهدي و البدن من شعائر الله محارمه أي: لا تحلوا محارم الله التي حرمها الله تعالى، و لهذا قال تعالى: ﴿و لا الشَّهرَ الحرَامَ﴾ يعني بذلك تحريمه و الاعتراف بتعظيمه، و ترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه، من الابتداء بالقتال، و تأكيد اجتناب المحارم، كما قال تعالى: ﴿يسألونكَ عن الشَّهرِ الحرامِ قتالٍ فيهِ قُلْ قِتالٌ فيهِ كبيرٌ﴾ و قال تعالى: ﴿إنَّ عدَّةَ الشُّهورِ عندَ اللهِ اثنا عشرَ شهراً﴾ الآية، و في صحيح

البخاري: عنْ أبي بكرة، أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «إن الزمان قد استَدَارَ كهيئته يوم خلق السموات و الأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعةٌ حُرُم: ثلاث متواليات: ذو القعدة و ذو الحجة والمحرّم، و رجب مُضَرَ الذي بين جمادى وشعبان». و هذا يدلّ على استمرار تحريمها إلى آخر وقت، كما هو مذهب طائفة من السلف.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَ لا الشَّهرَ الحَرامَ﴾ يعني لا تستحلوا القتال فيه، و كذا قال مقاتل بن حيان و عبد الكريم بن مالك الجزري، و اختاره ابن جرير أيضاً. وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ، و أنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، و احتجوا بقوله تعالى: ﴿فَإذا انسَلَخَ الأشهُرُ الحُرُمُ فَاقتُلُوا المُشرِكينَ حَيثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ و المراد أشهر التسيير الأربعة، قالوا: فلم يستثن شهراً حراماً من غيره، و قد حكى الإمام أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحلّ قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها و غيرها من شهور السنة، قال: و كذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلّد عنقه أو ذراعيه بلحاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أماناً من القتل، إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان، و لهذه المسئلة بحث آخر له موضع أبسط من هذا.

و قوله تعالى: ﴿و لاَ الهدْيَ وَ لاَ القَلائِدَ﴾ يعني: لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام، فإن فيه تعظيم شعائر الله، و لا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام، و ليُعلم أنها هدْيٌ إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء، و تَبْعث مَنْ يراها على الإتيان بمثلها، فإنّ مَنْ دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. و لهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة ـ و هو وادي العقيق ـ فلما أصبح طاف على نسائه ـ و كن تسعاً ـ ثم اغتسل و تطيب و صلى ركعتين، ثم أشعر هديه وقلده وأهل للحج والعمرة، و كان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال و الألوان، كما قال تعالى: ﴿ذلكَ و مَن يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإنَّها مِن تَقْوى القُلُوبِ﴾ و قال بعض السلف: إعظامها: استحسانها واستسمانها، قال علي ابن أبي طالب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين و الأذن. رواه أهل السنن. وقال مقاتل بن حيان قوله: ﴿وَ لا القَلائِدَ﴾ فلا تستحلوه، و كان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم قلّدوا أنفسهم بالشعر و الوبر، و تقلّد مشركو الحرم من لحاء شجره فيأمنون به. رواه ابن أبي حاتم. ثم روى عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نُسخ من هذه السورة آيتان آية القلائد، وقوله: ﴿فإن جَاؤكَ فاحْكُم بينَهُمْ أو أعرِضْ عنهُمْ﴾. و روى عن ابن عون قال: قلت للحسن: نُسخ من المائدة شيء؟ قال: لا، و قال عطاء: وكانوا يتقلدون من شجر الحرم فيأمنون، فنهى الله عن قطع شجره. وكذا قال مطرف بن عبد الله.

و قوله تعالى: ﴿و لاَ آمّينَ البيتَ الحرامَ يبتَغونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَ رِضْواناً﴾ أي: و لا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، الذي مَن دخله كان آمناً، و كذا من قصده طالباً فضل الله و راغباً في رضوانه، فلا تصدوه و لا تمنعوه و لا تهيجوه. قال مجاهد و عطاء و أبو العالية و مطرف بن عبد الله و عبد الله ابن عبيد بن عمير و الربيع بن أنس و مقاتل بن حيان و قتادة و غير واحد في قوله: ﴿يبتَغونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني بذلك: التجارة. و هذا كما تقدم في قوله: ﴿ليسَ عليكمْ جناحٌ أن تَبتغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُم﴾. و قوله:

﴿ورضواناً﴾ قال ابن عباس: يترضّون الله بحبهم. و قد ذكر عكرمة و السدي و ابن جرير: أن هذه الآية نزلت في الحُطم بن هند البكري كان قد أغار على سرح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا عليه في طريقه إلى البيت، فأنزل الله عز وجل **﴿و لا آمّينَ البيتَ الحَرامَ يبتَغونَ فَضلاً مّن ربّهمْ وَ رِضْواناً﴾**.

و قد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان، و إنْ أمّ البيت الحرام أو بيت المقدس، و أن هذا الحكم منسوخٌ في حقهم، و الله أعلم. فأما من قصده بالإلحاد فيه و الشرك عنده والكفر به، فهذا يمنع، قال الله تعالى: **﴿يا أيها الذينَ آمَنُوا إنّما المُشرِكونَ نَجَسٌ فلاَ يَقربُوا المَسجدَ الحرامَ بعدَ عامِهِمْ هذَا﴾** ولهذا بعث رسول اللهﷺ عام تسع لمـا أمّر الصديق على الحجيج علياً، و أمره أن يُنادي على سبيل النيابة عن رسول اللهﷺ ببراءة، و أن لا يحج بعد العام مشركٌ، و لا يطوف بالبيت عريان. و قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: **﴿و لا آمّينَ البيتَ الحَرامَ﴾** يعني من توجّه قِبَل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعدها **﴿إنّمَا المُشركونَ نجسٌ فلاَ يقربُوا المَسجدَ الحرامَ بعدَ عامِهِمْ هذَا﴾** الآية. و قال تعالى: **﴿مَا كانَ للمُشْركينَ أن يعمُروا مَساجِدَ اللهِ﴾** وقال: **﴿إنّما يَعمرُ مساجدَ اللهِ مَن آمنَ باللهِ و اليومِ الآخِرِ﴾** فنفى المشركين من المسجد الحرام.

و روى عبد الرزاق عن قتادة في قوله تعالى: **﴿و لاَ القَلاَئدَ و لا آمّينَ البيتَ الحَرامَ﴾** قال: منسوخ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلّد من الشجر، فلم يعرض له أحد، فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد، و كان المشرك يومئذ لا يُصَدُّ عن البيت، فأمروا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام، و لا عند البيت فنسخها قوله: **﴿اقتلُوا المُشركينَ حيثُ وَجدتُّموهمْ﴾**. و قد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: **﴿و لاَ القَلاَئدَ﴾** يعني: أن تقلدوا قلادة من الحرم فأمّنوهم، قال: و لم تزل العرب تُعَيِّر من أخفر ذلك.

و قوله تعالى: **﴿و إذا حَلَلْتُمْ فاصْطادُوا﴾** أي: إذا فرغتم من إحرامكم و أحللتم منه، فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد، و هذا أمرٌ بعد الحظر، و الصحيح الذي يثبت على السبر أنه يَردُ الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي، فإن كان واجباً رده واجباً، و إن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فمباح، ومن قال: إنه على الوجوب، ينتقض عليه بآيات كثيرة، و من قال: إنه للإباحة يرد عليه آيات أخرى، و الذي ينتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول، و الله أعلم.

و قوله: **﴿و لا يَجرِمَنّكُمْ شَنَآنُ قومٍ أن صَدُّوكُمْ عَنِ المَسجِدِ الحَرامِ أن تَعتَدُوا﴾** من القراء من قرأ **﴿أن صَدُّوكُمْ﴾** بفتح الألف من «أن» ومعناها ظاهر، أي: لا يحملنكم بغض مَن قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام ـ و ذلك عام الحديبية ـ على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلماً و عدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد. و هذه الآية كما سيأتي من قوله: **﴿و لا يَجرِمَنّكُمْ شَنَآنُ قومٍ على أن لاّ تعدِلُوا اعدِلُوا هُوَ أقربُ لِلتّقْوَى﴾** أي: لا يحملنكم بغضُ قوم على ترك العدل، فإنّ العدل واجبٌ على كل أحد، في كل أحد في كل حال. و قال بعض السلف: ما عاملتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. و العدل به قامت السموات و الأرض. و الشنآن: هو البغض، قاله ابن عباس و غيره، و هو

مصدر من شَنأتُه أشنؤه شنآناً بالتحريك.

و قوله تعالى: ﴿و تَعاونُوا علَى البرِّ و التقوَى و لا تعاونُوا علَى الإثمِ و العُدوانِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر، و ترك المنكرات وهو التقوى، و ينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم و المحارم. قال ابن جرير: الإثم ترك ما أمر الله بفعله، و العدوان مجاوزة ما فرض الله عليكم و في غيركم. و قد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، فقيل: يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: «تَحجُزُه و تمنعه من الظلم، فذاك نصره»، أخرجاه. و روى أحمد: عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «المؤمنُ الذي يُخالط الناسَ و يصبر على أذاهم، أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس، و لا يصبر على أذاهم» و هكذا رواه الترمذي و ابن ماجه. وروى الحافظ أبو بكر البزار: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الدالّ على الخير كفاعله»، قلت: و له شاهد في الصحيح «مَن دعا إلى هُدى، كان له من الأجر مثلَ من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، و مَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحمُ الْخنزيرِ وَمَا أُهِلَّ لغَيْرِ اللَّهِ به وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) ﴾

٣- يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات، من الميتة: و هي ما مات من الحيوان حَتف أنفه، من غير ذكاة و لا اصطياد، و ما ذاك إلا لما فيها من المضرّة، لما فيها من الدم المحتقن، فهي ضارّة للدين والبدن، فلهذا حرّمها الله عز وجل، و يستثنى من الميتة: السمك فإنه حلال، سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك في موطئه و الشافعي و أحمد في مسنديهما و أبو داود و الترمذي و النسائي وابن ماجه في سننهم وابن خزيمة و ابن حبان في صحيحيهما: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ سُئل عن ماء البحر فقال: «الطَّهورُ ماؤه، الحِلُّ ميتته». و هكذا الجراد لما سيأتي من الحديث. و قوله: ﴿و الدَّمُ﴾ يعني به المسفوح، كقوله: ﴿أوْ دماً مَسفُوحاً﴾ قاله ابن عباس و سعيد بن جبير. و قد روى الشافعي عن ابن عمر مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أُحِلَّ لنا ميتتان و دمان، فأما الميتتان: فالسمكُ و الجراد، و أما الدمان: فالكبد و الطحال» و كذا رواه أحمد بن حنبل و ابن ماجه و الدارقطني و البيهقي. و ما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق:

و إياك و الميتات لا تَقْرِبنّها و لا تَأْخُذَنْ عَظْماً حديداً فَتَفْصِدا

أي: لا تفعل فعل الجاهلية، و ذلك أن أحدهم كان إذا جاع يأخذ شيئاً محدّداً من عظم و نحوه، فيفصد

به بعيره أو حيواناً من أي صنف كان، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه، و لهذا حرّم الله الدم على هذه الأمة. ثم قال الأعشى:

و ذا النّصبُ المنصوب لا تأتينّه و لا تعبـد الأوثانَ و اللهَ فاعبدا

قوله: ﴿و لحمُ الخنزيرِ﴾ يعني إنسيه و وحشيه، و اللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، و لا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم ههنا و تعسفهم في الاحتجاج بقوله: ﴿فإنّه رجسٌ أو فسقاً﴾ يعنون قوله تعالى: ﴿إلا أن يكونَ ميتةً أو دماً مّسفوحاً أو لَحمَ خِنزيرٍ فإنّه رِجسٌ﴾ أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير حتى يعم جميع أجزائه، و هذا بعيد من حيث اللغة، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه. والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب، و من العرف المطرد. و في صحيح مسلم: عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «مَنْ لَعبَ بالنّردشير، فكأنما صَبَغ يده في لحم الخنزير ودمه».

فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس فكيف يكون التهديد و الوعيد الأكيد على أكله و التغذي به. و فيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم و غيره. و في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرَّمَ بيع الخمر و الميتة و الخنزير و الأصنام» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، و يستصبح بها الناس فقال: «لا هو حرام». و في صحيح البخاري: من حديث أبي سفيان أنه قال لهرقل ملك الروم: نهانا عن الميتة و الدم.

و قوله: ﴿و ما أُهِلَّ لِغيرِ اللهِ بِهِ﴾ أي: ما ذُبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام، لأن الله تعالى أوجب أن تُذبح مخلوقاتُه على اسمه العظيم، فمتى عَدَلَ بها عن ذلك، و ذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات، فإنها حرام بالإجماع. و إنما اختلف العلماء في متروك التسمية إما عمداً أو نسياناً، كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام. روى أبو داود عن عكرمة يقول: إن رسول الله ﷺ نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل [1]. قوله: ﴿و المُنخَنِقَةُ﴾ و هي التي تموت بالخنق إما قصداً، و إما اتفاقاً بأن تتخبل في وثاقتها فتموت به، فهي حرام. و أما ﴿المَوقوذَةُ﴾ فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كما قال ابن عباس و غير واحد: هي التي تضرب بالخشبة حتى يوقذها فتموت. قال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها. و في الصحيح: أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أَرمي بالمِعْرَاضِ الصَّيد فأصيب، قال: «إذا رميتَ بالمِعراض فَخَزَقَ فَكُلْه، و إنْ أصابَ بعرضه فإنما هو وَقيذٌ فلا تأكله». ففرّق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق و نحوه بحده فأحله، و ما أصاب بعرضه فجعله و قيذاً لم يحله، و هذا مجمع عليه عند الفقهاء. و اختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله، ولم يجرحه، على قولين، هما قولان للشافعي رحمه الله، (أحدهما): لا يحل كما في السهم، و الجامع أن كلا منهما ميت بغير جرح فهو وقيذ (و الثاني): أنه يحل لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب و لم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه لأنه قد دخل في العموم، و قد قررت لهذه المسألة فصلاً فليكتب ههنا.

(فصل) اختلف العلماء رحمهم الله تعالى: فيما إذا أرسل كلباً على صيد فقتله بثقله و لم يجرحه،

---

(١) مرسل، رجاله ثقات، لكن له شاهد عند البيهقي في الشعب و غيره، انظر الصحيحة (٦٢٦).

أوصدمه هل يحل أم لا؟ على قولين (أحدهما): أن ذلك حلال، لعموم قوله تعالى: «فكلوا مما أمسكن عليكم» و كذا عمومات حديث عدي بن حاتم، و هذا قول حكاه الأصحاب عن الشافعي رحمه الله، وصححه بعض المتأخرين منهم كالنووي و الرافعي. (قلت): و ليس ذلك بظاهر من كلام الشافعي في الأم والمختصر، فإنه قال في كلا الموضعين يحتمل معنيين، ثم وجه كلا منهما، فحمل ذلك الأصحاب منه فأطلقوا في المسئلة قولين عنه، اللهم إلا إنه في بحثه للقول بالحل رشّحه قليلاً، و لم يصرح بواحد منهما و لا جزم به. و القول بذلك ـ أعني الحل ـ نقله ابن الصباغ عن أبي حنيفة من رواية الحسن بن زياد عنه، و لم يذكرغير ذلك. و أما أبو جعفر بن جرير فحكاه في تفسيره عن سلمان الفارسي و أبي هريرة و سعد بن أبي وقاص و ابن عمر. و هذا غريب جداً، وليس يوجد ذلك مصرحاً به عنهم، إلا أنه من تصرفه رحمه الله ورضي عنه (و القول الثاني): أن ذلك لا يحل، و هو أحد القولين عن الشافعي رحمه الله و اختاره المزني، ويظهر من كلام ابن الصباغ ترجيحه أيضاً، و الله أعلم. و رواه أبو يوسف و محمد عن أبي حنيفة، وهو المشهور عن الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه، و هذا القول أشبه بالصواب، و الله أعلم، لأنه أجرى على القواعد الأصولية، و أمس الأصول الشرعية، و احتج ابن الصباغ له: بحديث رافع بن خديج، قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غدواً و ليس معنا مُدى أفنذبح بالقصب؟ قال: «ما أَنهَرَ الدم و ذكر اسم الله عليه فكلوه» الحديث بتمامه، و هو في الصحيحين.

و هذا و إن كان وارداً على سبب خاص، فالعبرة بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء في الأصول والفروع، كما سئل عليه السلام عن البتع و هو نبيذ العسل، فقال: «كلُّ شراب أَسكر فهو حرامٌ» (١). أفيقول فقيه إنَّ هذا اللفظ مخصوص بشراب العسل؟ و هكذا هذا، كما سألوه عن شيء من الذكاة، فقال لهم كلاماً عاماً يشمل ذاك المسؤول عنه و غيره، لأنه عليه السلام كان قد أوتي جوامع الكلم، إذا تقرر هذا، فما صدمه الكلب أو غَمَّه بثقله، ليس مما أنهر دمه، فلا يحل، لمفهوم هذا الحديث.

(مسلك آخر) و هو أن قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ عام فيما قتلن بجرح أو غيره، لكن هذا المقتول على هذه الصورة المتنازع فيه، لا يخلو إما أن يكون نطيحاً أو في حكمه، و أياً مّا كان فيجب تقديم هذه الآية على تلك لوجوه (أحدها): أن الشارع قد اعتبر حكم هذه الآية حالة الصيد، حيث يقول لعدي بن حاتم: «وإنْ أصابه بعَرْضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله» و لم نعلم أحداً من العلماء فصّل بين حكم و حكم من هذه الآية، فقال: إن الوقيذ معتبر حالة الصيد، و النطيح ليس معتبراً، فيكون القول بحل المتنازع فيه خرقاً للإجماع لا قائل به، و هو محظور عند كثير من العلماء. (الثاني): أن تلك الآية ﴿فَكُلُوا مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ليست على عمومها بالإجماع بل مخصوصة بما صدن من الحيوان المأكول، و خرج من عموم لفظها الحيوان غير المأكول بالاتفاق، و العموم المحفوظ مقدّم على غير المحفوظ.

(المسلك الآخر) أن هذا الصيد و الحالة هذه في حكم الميتة سواء، لأنه قد احتقن فيه الدماء و ما يتبعها من الرطوبات فلا تحل قياساً على الميتة. (المسلك الآخر) أن آية التحريم ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ إلى آخرها محكمة لم يدخلها نسخ و لا تخصيص، و كذا ينبغي أنْ تكون آية التحليل محكمة، أعني قوله تعالى:

---

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿يسألونكَ ماذا أُحلّ لهُمْ قُلْ أُحلّ لهُم الطّيّباتُ﴾ الآية، فينبغي أن لا يكون بينهما تعارض أصلاً، و تكون السنة جاءت لبيان ذلك، و شاهد ذلك قصة السهم، فإنه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية، و هو ما إذا خَزَقه المعراض فيكون حلالاً، لأنه من الطيبات و ما دخل في حكم تلك الآية آية التحريم، و هو ما إذا أصابه بعرض فلا يؤكل، لأنه وقيذ فيكون أحد أفراد آية التحريم، و هكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء: إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل في حكم آية التحليل، و إنْ لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله، فهو نطيح أو في حكمه، فلا يكون حلالاً.

(فإن قيل) فلم لا فصّل في حكم الكلب فقال ما ذكرتم: إن جرحه فهو حلال، و إن لم يجرحه فهو حرام؟ (فالجواب) أن ذلك نادر لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابه أو بهما معاً، و أما اصطدامه هو والصيد فنادر، و كذا قتله إياه بثقله، فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره، أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة و المنخنقة و الموقوذة و المتردية و النطيحة. و أما السهم و المعراض فتارة يخطئ لسوء رمي راميه، أو للهو أو نحو ذلك، بل خطؤه أكثر من إصابته فلهذا ذكر كلاً من حكميه مفصلاً، و الله أعلم.

و لهذا لما كان الكلب من شأنه أنه يأكل من الصيد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد فقال: «إنْ أكَلَ فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أَمسك على نفسه» و هذا صحيح ثابت في الصحيحين، و هو أيضاً مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين، لا يحل ما أَكَلَ منه الكلب. حُكي ذلك عن أبي هريرة و ابن عباس، و به قال الحسن و الشعبي و النخعي و إليه ذهب أبو حنيفة و صاحباه و أحمد بن حنبل و الشافعي في المشهور عنه.

وروى ابن جرير في تفسيره عن علي و سعيد وسلمان و أبي هريرة و ابن عمر و ابن عباس: أن الصيد يُؤكل وإنْ أَكل منه الكلب حتى قال سعيد و سلمان وأبو هريرة و غيرهم: يؤكل و لو لم يبق منه إلا بضعة، و إلى ذلك ذهب مالك و الشافعي في قوله القديم، و أما في الجديد إلى قولين قال ذلك الإمام أبو نصر بن الصباغ و غيره من الأصحاب عنه، و قد روى أبو داود بإسناد جيد قوي عن أبي ثعلبة الخشني عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب: «إذا أرسلت كلبك و ذكرت اسم الله فكُلْ، و إنْ أكل منه، و كُلْ ما ردَّت عليك يدك» و رواه أيضاً النسائي فذكر نحوه.

و أما الجمهور فقدّموا حديث عدي على ذلك، و راموا تضعيف حديث أبي ثعلبة و غيره، و قد حمله بعض العلماء على أنه إن أكل بعد ما انتظر صاحبه فطال عليه الفصل ولم يجئ، فأكل منه لجوعه و نحوه، فإنه لا بأس بذلك و الحالة هذه، لا يخشى أنه إنما أمسك على نفسه، بخلاف ما إذا أكل منه أول وهلة، فإنه يظهر منه أنه أمسك على نفسه، و الله أعلم (١).

فأما الجوارح من الطيور فنص الشافعي على أنها كالكلب، فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور، و لا يحرم عن الآخرين. و اختار المزني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور و الجوارح، و هو مذهب أبي حنيفة وأحمد، قالوا: لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب و نحوه. و أيضاً فإنها لا تعلم إلا بأكلها من الصيد فيُعفى عن ذلك. و أيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير، و الله سبحانه و تعالى

(١) و هو بنحوه كلام الإمام ابن القيم في تهذيب السنن كما في عون المعبود (٨/ ٥٧ - ٥٩). و قال الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٨٢): لكن قوله: «و إن أكل منه» منكر.

أعلم.

وأما ﴿المُتَرَدِّيَةُ﴾ فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال فتموت بذلك فلا تحل، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: المتردية التي تسقط من جبل. و قال قتادة: هي التي تتردى في بئر. و قال السدي: هي التي تقع من جبل أو تتردى في بئر.

و أما ﴿النَّطِيحَةُ﴾ فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام، و إن جرحها القرن و خرج منها الدم ولو من مذبحها. و النطيحة فعيلة بمعنى مفعولة، أي: منطوحة، و قوله تعالى: ﴿و ما أكلَ السَّبُعُ﴾ أي ما عدا عليها أسدٌ أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام و إن كان قد سال منها الدم ولو من مذبحها، فلا تحل بالإجماع. و قد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقر أو نحو ذلك، فحرّم الله ذلك على المؤمنين.

و قوله: ﴿إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة و فيه حياة مستقرة، و ذلك إنما يعود على قوله: ﴿والمُنْخَنِقَةُ والمَوقُوذَةُ و المُتَرَدِّيَةُ و النَّطِيحَةُ و ما أكلَ السَّبُعُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يقول: إلا ما ذبحتم من هؤلاء و فيه روح فكلوه، فهو ذكي. و كذا روى عن سعيد بن جبير والحسن البصري والسدي. و روى ابن أبي حاتم عن علي في الآية قال: إنْ مَصَعَتْ بذنبها أو ركضت برجلها أو طرفت بعينها فكل. و روى ابن جرير نحوه. و هكذا روى عن طاوس والحسن و قتادة و عبيد بن عمير والضحاك و غير واحد: أن المذكّاة من تحرّكت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهي حلال، و هذا مذهب جمهور الفقهاء، و به قال أبو حنيفة و الشافعي و أحمد بن حنبل، قال ابن وهب: سئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السبع حتى تخرج أمعاؤها، فقال مالك: لا أرى أن تذكى أي شيء يذكى منها؟ هذا مذهب مالك رحمه الله، و ظاهر الآية عام فيما استثناه مالك رحمه الله من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها، فيحتاج إلى دليل مخصص للآية، و الله أعلم.

و في الصحيحين عن رافع بن خديج أنه قال قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غداً و ليس معنا مدى أفنذبح بالقصب؟ فقال: «ما أَنهر الدمَ و ذكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السِّن و الظفر، و سأحدثكم عن ذلك: أما السن فعظم، و أما الظفر فمدى الحبشة». فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد و أهل السنن عن أبي العشراء الدارمي عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أما تكون الذكاة إلا من اللبة و الحلق؟ فقال: «لو طعنتَ في فخذها لأجزأ عنك» و هو حديث صحيح [1]، و لكنه محمول على مالا يُقدر على ذبحه في الحلق واللبة.

وقوله: ﴿و ما ذُبِحَ علَى النُّصُبِ﴾ قال مجاهد و ابن جريج: كانت النصب حجارة حول الكعبة. قال ابن جريج: و هي ثلاثمائة و ستون نصباً كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها، و ينضحون ما أقبلَ منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، و يشرحون اللحم و يضعونه على النصب. و كذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرّم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب، حتى و لو كان يُذكر عليها اسم الله في الذبائح عند النصب من الشرك الذي حرّمه الله و رسوله. و ينبغي أن يحمل هذا لأنه قد تقدم تحريم

(١) كذا قال ابن كثير رحمه الله! و قد ضعف الحديث الحافظ الذهبي في الميزان و أعله بأبي العشراء، إذ قال: و لا يدرى من هو و لا من أبوه! انفرد عنه حماد بن سلمة. وكذا ضعفه الحافظ في التلخيص (٤/ ١٣٤).

ما أهل به لغير الله .

و قوله تعالى : ﴿و أن تَستَقسِمُوا بِالأزلَامِ﴾ أي حرّم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام، واحدها : زلم، و قد تفتح الزاي ، فيقال : زلم، و قد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك و هي عبارة عن قداح ثلاثة ، على أحدها مكتوب : افعل، و على الآخر : لا تفعل، و الثالث : غفل ليس عليه شيء . و من الناس من قال : مكتوب على الواحد : أمرني ربي ، و على الآخر : نهاني ربي ، و الثالث : غفل ليس عيه شيء ، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله ، أو النهي تركه ، و إنْ طلع الفارغ أعاد . و الاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام . هكذا قرّر ذلك أبو جعفر بن جرير . و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿و أن تَستَقسِمُوا بِالأزلَامِ﴾ قال : الأزلام قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور . و كذا روى عن مجاهد و إبراهيم النخعي والحسن البصري ومقاتل بن حيان . و ذكر محمد بن إسحاق و غيره : أن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له : هبل ، منصوب على بئر داخل الكعبة فيها توضع الهدايا و أموال الكعبة ، و كان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم ، فما خرج منها رجعوا إليه و لم يعدلوا عنه .

و ثبت في الصحيحين : أن النبيﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم و إسماعيل مصوّرين فيها ، و في أيديهما الأزلام ، فقال : «قاتلهم الله ! لقد علموا أنهما لم يَستقسما بها أبداً» . و في الصحيح : أن سراقة بن مالك بن جعشم لما خرج في طلب النبيﷺ و أبي بكر و هما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين ، قال : فاستقسمت بالأزلام هل أضرهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره : لا يضرهم ، قال : فعصيت الأزلام و أتبعتهم ، ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة ، كل ذلك يخرج الذي يكره لا يضرهم ، و كان كذلك ، و كان سراقة لم يُسْلم إذ ذاك ، ثم أسلم بعد ذلك . وروى ابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قال رسول اللهﷺ : «لن يلج الدرجات مَن تكهّن ، أو استقسم ، أو رجع من سفر طائراً» . و قال مجاهد في قوله : ﴿و أن تَستَقسِمُوا بِالأزلَامِ﴾ قال : هي سهام العرب ، و كعاب فارس والروم كانوا يتقامرون بها . و هذا الذي ذكرعن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار فيه نظر ، اللهم إلا أن يقال : إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة ، و في القمار أخرى ، و الله أعلم ، فإن الله سبحانه قد قرن بينها و بين القمار و هو الميسر ، فقال في آخر السورة : ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إنَّما الخمرُ و المَيسِرُ و الأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيطانِ فاجتَنبوهُ لعلَّكمْ تُفلحونَ * إنَّما يُريدُ الشَّيطانُ أن يوقعَ بينكُم العداوةَ والبَغضاءَ ـ إلى قوله ـ مُّنتَهونَ﴾ و هكذا قال ههنا : ﴿و أن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ أي : تعاطيه فسق و غي وضلالة وجهالة و شرك .

و قد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه ، بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه ، كما رواه الإمام أحمد و البخاري و أهل السنن : عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول اللهﷺ يعلّمنا الاستخارة في الأمور ، كما يعلّمنا السورة من القرآن ، و يقول : «إذا هَمَّ أحدُكم بالأمر ، فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، و أستقدرك بقدرتك ، و أسألك من فضلك العظيم ، فإنك تَقْدِرُ و لا أَقْدِرُ ، و تَعْلَمُ و لا أَعْلمُ ، و أنتَ علاَّمُ الغيُوب ، اللهم إنْ كنتَ تَعْلَمُ أنَّ هذَا الأمْرَ ـ و يسمّيه باسمه ـ خيرٌ لي في دينِي و مَعاشِي و عَاقبة أمْري ـ أو قال : عاجل أمري و آجله ـ فاقدُرْهُ لي و يسِّرْهُ لي ثم باركْ لي فيه ، اللهمَّ وإنْ كنتَ تعلمُ أنه شرٌّ لي في ديني و معاشي و عاقبة أمري ، فاصرفني عنه و اصرفه عني ، و اقدُرْ لي الخير

حيثُ كان، ثم رَضِيَنِي به» لفظ أحمد.

و قوله: ﴿اليومَ يئِسَ الذينَ كَفرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني يئسوا أن يُراجعوا دينهم. و كذا روى عن عطاء بن أبي رباح و السدي و مقاتل بن حيان. و على هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الشيطانَ قدْ يَئِسَ أنْ يَعبدَه المصلّون في جزيرة العرب، و لكنْ بالتحريش بينهم». و يحتمل أن يكون المراد: أنهم يئسوا من مشابهة المسلمين، لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك و أهله. و لهذا قال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يصبروا و يثبتوا في مخالفة الكفار، و لا يخافوا أحداً إلا الله فقال: ﴿فلا تَخشوهُمْ و اخْشَونِ﴾ أي لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم، و اخشوني أنصركم عليهم و أبيدهم و أُظفركم بهم، و أشف صدوركم منهم، و أجعلكم فوقهم في الدنيا و الآخرة.

و قوله: ﴿اليومَ أكمَلتُ لكُمْ دينَكُمْ و أتمَمْتُ عليكُمْ نِعمتِي و رَضيتُ لكُم الإسلامَ دِيناً﴾ هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره، و لا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، و لهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، و بعثه إلى الإنس و الجن، فلا حلال إلا ما أحله و لا حرام إلا ما حرمه، و لا دين إلا ما شرعه، و كل شيء أخبر به فهو حقٌّ و صدقٌ لا كذب فيه و لا خُلْف، كما قال تعالى: ﴿وَ تمَّتْ كلمَةُ ربِّكَ صِدقاً وَ عَدلاً﴾ أي: صدقاً في الأخبار، و عدلاً في الأوامر والنواهي. فلما أكمل لهم تمت عليهم النعمة، و لهذا قال تعالى: ﴿اليومَ أكمَلتُ لكُمْ دينَكُمْ و أتمَمْتُ عليكُمْ نِعمتِي و رَضيتُ لكُم الإسلامَ دِيناً﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه الله و رسوله و رضيه، وبعثه به أفضل الرسل الكرام، و أنزل به أشرف كتبه، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿اليومَ أكمَلتُ لكُمْ دينَكُمْ﴾ وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ المؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، و قد أتمه الله فلا ينقصه أبداً، و قد رضيه الله فلا يسخطه أبداً. و قال ابن جريج و غيرواحد: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً، رواه ابن جرير.

و روى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا يا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: و أي آية؟ قال: قوله: ﴿اليومَ أكمَلتُ لكُمْ دينَكُمْ و أتمَمْتُ عليكُمْ نِعمتِي﴾ فقال عمر: و الله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ و الساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ نزلتْ عشية عرفة في يوم جمعة. و رواه البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي. و قد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها و الله أعلم. و قد رُوِي هذا الحديث من غير وجه عن عمر. و قال ابن جرير: و قد قيل ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس. ثم روي ذلك من طريق العوفي عن ابن عباس ثم روى عن أبي هريرة: أنه اليوم حجة الوداع، و لا يصح لا هذا و لا هذا، بل الصواب الذي لاشك فيه و لا مرية أنها أنزلت يوم عرفة و كان يوم جمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب و علي بن أبي طالب، و أول ملوك الإسلام معاوية بن أبي سفيان، و ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، و سمرة بن جندب رضي الله عنه، و أرسله الشعبي و قتادة بن دعامة و شهر بن حوشب و غير واحد من الأئمة و العلماء. و اختاره ابن جرير الطبري رحمه الله.

و قوله: ﴿فَمن اضطُرَّ في مَخمَصةٍ غَيرَ مُتجانِفٍ لإثمٍ فإنَّ اللهَ غفُورٌ رَحيمٌ﴾ أي فمن احتاج إلى تناول

شيء من هذه المحرّمات التي ذكرها الله تعالى، لضرورة ألجأته إلى ذلك، فله تناوله، و الله غفور رحيم له، لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطرّ، و افتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه و يغفر له. و في المسند و صحيح ابن حبان: عن ابن عمر مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يُحبُّ أنْ تُؤتَى رُخصتُه، كما يَكره أنْ تُؤتَى معصيتُه» لفظ ابن حبان.

و لهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان و هو ما إذا خاف على نفسه و لم يجد غيرها، و قد يكون مندوباً، و قد يكون مباحاً بحسب الأحوال، و اختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق؛ أو له أنْ يَشبع، و يتزوّد؟ على أقوال كما هو مقرر في كتاب الأحكام، و فيما إذا وجد ميتة و طعام الغير، أو صيداً و هو محرّم، هل يتناول الميتة، أو ذلك الصيد و يلزمه الجزاء، أو ذلك الطعام و يضمن بدله؟ على قولين هما قولان للشافعي رحمه الله.

و ليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً، كما قد يتوهمه كثير من العوام و غيرهم، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له، و قد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: «إذا لم تصطبحوا، و لم تغتبقوا، و لم تحتفئوا بها بقلاً، فشأنكم بها» تفرد به أحمد من هذا الوجه و هو إسناد صحيح على شرط الصحيحين، وكذا رواه ابن جرير. و معنى قوله: «مالم تصطبحوا» يعني به الغداء «و مالم تغتبقوا» يعني به العشاء «أو تحتفئوا بقلاً[1] فشأنكم بها» فكلوا منها. و قال ابن جرير: يروى هذا الحرف يعني قوله: «أوتحتفئوا» على أربعة أوجه: تحتفؤا بالهمزة «و تحتفيوا» بتخفيف الياء و الحاء، و تحتفوا بتشديد و تحتفوا بالحاء و بالتخفيف، و يحتمل الهمز كذا رواه في التفسير.

(حديث آخر) روى أبو داود: عن جابر بن سمرة أن رجلاً نزل الحرة و معه أهله و ولده، فقال له رجل: إنَّ ناقتي ضلت فإنْ وجدتها فأمسكها، فوجدها و لم يجد صاحبها، فمرضت فقالت له امرأته: انحرها فأبى، فنفقت، فقالت له امرأته: اسلخها حتى نُقدِّد شحمها و لحمها فنأكله، قال: لا حتى أسأل رسول الله ﷺ، فأتاه فسأله فقال: «هل عندك غِنىً يغنيك» قال: لا، قال: «فكلوها» قال: فجاء صاحبها فأخبره الخبر، فقال: هلا كنتَ نحرتها؟ قال: استحييت منك. تفرد به. و قد يحتج به من يجوّز الأكل و الشبع و التزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها، و الله أعلم.

و قوله: ﴿غَيرَ مُتَجانِفٍ لِإثمٍ﴾ أي: متعاطٍ لمعصية الله، فإنَّ الله قد أباح ذلك له و سكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ اضطُرَّ غَيرَ باغٍ و لا عادٍ فَلا إثمَ عليهِ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾ و قد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر، لأن الرخص لاتنال بالمعاصي، و الله أعلم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا

(١) قال أبو عبيد: من الخطأ و هو أصل البردي الأبيض الرطب منه، و قد يؤكل، يقول: مالم تقتلعوا هذا بعينه فتأكلوه. و يروى: «مالم تحتفوا» من احتففت الشيء إذا أخذته كلَّه، كما تحف المرأة وجهها من الشعر. و قيل: غير ذلك (نهاية).

عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾

٤ – لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها ، إما في بدنه ، أو في دينه ، أو فيهما ، و استثنى ما استثناه في حالة الضرورة ، كما قال : ﴿و قد فصّل لكم ما حرّم عليكم إلاّ ما اضطررتم إليه﴾ قال بعدها : ﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم قل أحلّ لكم الطيّبات﴾ كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات ، و يحرم عليهم الخبائث . و قال مقاتل : الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه ، و هو الحلال من الرزق ، و قد سئل الزهري عن شرب البول للتداوي ، فقال : ليس هو من الطيبات ، رواه ابن أبي حاتم . و قال ابن وهب : سُئِلَ مالك عن بيع الطين الذي يأكله الناس ، فقال : ليس هو من الطيبات . و قوله تعالى ﴿و ما علّمتم مّن الجوارح مكلّبين﴾ أي أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها والطيبات من الرزق ، و أحل لكم ما صدمتموه بالجوارح و هي من الكلاب و الفهود و الصقور و أشباهها ، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين و الأئمة ، وممن قال ذلك علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿و ما علّمتم مّن الجوارح مكلّبين﴾ وهن الكلاب المعلمة و البازي و كل طير يعلم للصيد ، و الجوارح يعني الكلاب الضواري و الفهود و الصقور وأشباهها . رواه ابن أبي حاتم ، ثم قال : و رُوي عن خيثمة وطاوس و مجاهد و مكحول ويحيى بن أبي كثير نحو ذلك ، و روى عن الحسن أنه قال : الباز و الصقر من الجوارح ، وروى عن علي بن الحسين مثله ، ثم روى عن مجاهد أنه كره صيد الطير كله ، و قرأ قوله : ﴿و ما علّمتم مّن الجوارح مكلّبين﴾ قال : و روى عن سعيد بن جبير نحو ذلك ، و نقله ابن جرير عن الضحاك و السدي ، ثم روى عن ابن عمر قال : أما ما صاد من الطير البازات و غيرها من الطير ، فما أدركت فهو لك و إلا فلا تطعمه .

قلت : و المحكي عن الجمهور : أن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب ، لأنها تكلّبُ الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب فلا فرق ، و هو مذهب الأئمة الأربعة و غيرهم ، و اختاره ابن جرير . و استثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود ، لأنه عنده مما يجب قتله و لا يحل اقتناؤه ، لما ثبت في صحيح مسلم : عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : «يَقْطعُ الصلاةَ : الحمار و المرأة و الكلب الأسود» فقلت : ما بالُ الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال : «الكلبُ الأسود شيطان» . و في الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب ، ثم قال : «ما بالهم وبال الكلاب ، اقتلوا منها كلَّ أسود بهيم» . و سميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهنّ جوارح : من الجرح و هو الكسب ، كما تقول العرب : فلان جرح أهله خيراً ، أي كسبهم خيراً ، و يقولون : فلان لا جارح له ، أي : لا كاسب له ، و قال الله تعالى : ﴿ويعلمُ ما جرحتُم بالنّهار﴾ أي ما كسبتم من خير و شر .

و قد ذكر سبب نزول هذه الآية الشريفة ، الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم : عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ : أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب ، فقتلت ، فجاء الناس فقالوا : يا رسول الله ، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فسكت فأنزل الله ﴿يسألونكَ ماذا أُحلّ لهم قُل أُحلّ لكُم الطّيبات و مَا علّمتم مّن الجَوارحِ مُكلّبينَ﴾ الآية ، فقال النبي ﷺ : «إذا أرسلَ الرجل كلبه و سمّى فأمسك عليه ، فليأكل مالم يأكل» . وهكذا رواه ابن جرير بإسناده : عن رافع قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ ليستأذن عليه فأذن له ، فقال : قد أذن

لك يا رسول الله ، قال : أجل ، و لكنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ، قال أبو رافع : فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة ، حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها ، فتركته رحمة لها ، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلته ، فجاؤا فقالوا : يا رسول الله ، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ ، قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات و ما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ و رواه الحاكم و قال : صحيح و لم يخرجاه .

و قوله تعالى : ﴿مكلبين﴾ يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿علمتم﴾ فيكون حالاً من الفاعل ، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول و هو ﴿الجوارح﴾ أي : و ما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد ، و ذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها ، فيستدل بذلك و الحالة هذه : أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته لا بمخلابه و ظفره ، أنه لا يحل ، كما هو أحد قولي الشافعي و طائفة من العلماء ، و لهذا قال : ﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾ و هو أنه إذا أرسله استرسل ، و إذا أشلاه استشلى ، و إذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ، و لا يمسكه لنفسه ، و لهذا قال تعالى : ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم و اذكروا اسم الله عليه﴾ فمتى كان الجارح معلماً و أمسك على صاحبه ، و كان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله ، حلّ الصيد وإن قتله بالإجماع .

و قد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، كما ثبت في الصحيحين : عن عدي بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ، إني أُرسل الكلابَ المعلَّمة ، و أذكر اسم الله ، فقال : «إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم ، وذكرتَ اسم الله ، فكُلْ ما أمسك عليك» قلت : و إنْ قَتَلن؟ قال : «و إنْ قَتلن ، ما لم يشركها كلبٌ ليس منها ، فإنك إنما سميتَ على كلبك ، و لم تُسَمِّ على غيره» قلت : فإني أرمي بالمِعْرَاض الصيد؟ فقال : «إذا رميتَ بالمعراض فخزق فكله ، و إن أصابه بعرض فإنه وقيذ فلا تأكله» و في لفظ لهما «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله ، فإن أمسك عليك فأدركته حياً فاذبحه ، و إنْ أدركته قد قتلَ و لم يأكل منه ، فكله فإنْ أخذَ الكلب ذكاته» . و في رواية لهما «فإنْ أكلَ فلا تأكل فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه» . فهذا دليل للجمهور ، و هو الصحيح من مذهب الشافعي و هو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً ، و لم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث ، وحكى عن طائفة من السلف أنهم قالوا لا يحرم مطلقاً .

ذكر الآثار بذلك

روى ابن جرير : عن سلمان الفارسي : كُلْ و إنْ أكلَ ثلثيه ، يعني الصيد إذا أكل منه الكلب . و روى ابن جرير : عن حميد بن مالك بن خيثم الدؤلي أنه سأل سعد بن أبي وقاص عن الصيد يأكل منه الكلب فقال : كُلْ و إنْ لم يبق منه إلا حِذْيَة يعني بضعة . و روى ابن جرير : عن أبي هريرة قال : إذا أرسلت كلبك فأكل منه فإن أكل ثلثيه وبقي ثلثه فكله . و روى ابن جرير عن عبد الله بن عمر قال : إذا أرسلت كلبك المعلّم ، و ذكرت اسم الله فكُل ما أمسكَ عليك ، أكل أو لم يأكل .

فهذه الآثار ثابتة عن سلمان و سعد بن أبي وقاص و أبي هريرة و ابن عمر، و هو محكي عن علي وابن عباس و اختلف فيه عن عطاء و الحسن البصري، و هو قول الزهري و ربيعة و مالك، وإليه ذهب الشافعي في القديم و أومأ إليه في الجديد. لكن قد روى هذا المعنى مرفوعاً من وجوه أخر[1].

فهذه آثار دالة على أنه يُغتفر و إن أكل منه الكلب، و قد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه، كما تقدم عمن حكيناه عنهم. و قد توسط آخرون فقالوا: إن أكل عقب ما أمسكه، فإنه يحرم لحديث عدي بن حاتم، و للعلة التي أشار إليها النبيﷺ «فإنْ أكلَ فلا تأكل، فإني أخافُ أن يكون أمسكَ على نفسه» وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه و جاع فأكل منه لجوعه، فإنه لا يؤثر في التحريم و حملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني. و هذا تفريق حسن، و جَمْعٌ بين الحديثين صحيح. و قد تمنى الأستاذ أبو المعالي الجويني في كتابه «النهاية» أنْ لو فَصَّل مفصل هذا التفصيل، و قد حقق الله أمنيته، و قال بهذا القول و التفريق طائفة من الأصحاب منهم، و قال آخرون قولاً رابعاً في المسألة، و هو: التفرقة بين أكل الكلب فيحرم لحديث عدي، و بين أكل الصقور و نحوها، فلا يحرم لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكل.

و قوله تعالى: ﴿فكُلوا مِمَّا أمسَكنَ عليكُمْ و اذكُروا اسمَ اللهِ عليهِ﴾ أي عند إرساله كما قال النبيﷺ لعدي بن حاتم «إذا أرسلتَ كلبكَ المعلّم و ذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك» وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً «إذا أرسلتَ كلبكَ فاذكر اسم الله، و إذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله» و لهذا اشترط من اشترط من الأئمة كالإمام أحمد رحمه الله في المشهور عنه: التسمية عند إرسال الكلب، و الرمي بالسهم، لهذه الآية و هذا الحديث، و هذا القول هو المشهور عن الجمهور أن المراد بهذه الآية: الأمر بالتسمية عند الإرسال، كما قال السدي و غيره. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿و اذكُروا اسمَ اللهِ عليهِ﴾ يقول: إذا أرسلت جارحك فقل: بسم الله، و إنْ نَسيتَ فلا حرج. و قال بعض الناس المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول اللهﷺ عَلَّم ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال: «سم الله، و كُلْ بيمينك، و كل مما يليك». و في صحيح البخاري: عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول، إن قوماً يأتوننا ـ حديثٌ عهدهم بكفر ـ بلُحْمان، لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: «سموا الله أنتم وكلوا».

(حديث آخر) و روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول اللهﷺ كان يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال النبيﷺ: «أما إنه لو كان ذَكر اسم الله لَكفَاكم، فإذا أكل أحدكم طعاماً فليذكر اسم الله، فإنْ نَسي أنْ يذكر اسم الله في أوّله، فليقل: باسم الله أوّله و آخره» و هكذا رواه أبو داود والترمذي و النسائي و ابن ماجه.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد عن حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع النبي على طعام لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسولُ الله فيضع يده، و إنا حضرنا معه طعاماً مّا، فجاءت جارية كأنما تُدْفع فذهبتْ تَضع يدها في الطعام فأخذ رسول اللهﷺ بيدها، و جاء أعرابيٌ كأنما يُدفع فذهب يضع يده في الطعام، فأخذَ رسول اللهﷺ بيده، فقال رسول اللهﷺ: «إنَّ الشيطانَ يَستحلُّ الطعامَ إذا لم يُذكر اسم الله عليه، و إنه جاء بهذه الجارية ليستحلَّ

(١) و قد سبق ذكر رواية أبي داود، فتركناها هنا اختصاراً.

بها، فأخذت بيدها، و جاء بهذا الأعرابي ليستحلَّ به فأخذت بيده، والذي نفسي بيده إنَّ يده في يدي مع يديهما» يعني الشيطان. و كذا رواه مسلم و أبو داود و النسائي.

(حديث آخر) روى مسلم و أهل السنن إلا الترمذي: عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجلُ بيته فذكرَ اللهَ عنددخوله و عند طعامه، قال الشيطان: لا مبيتَ لكم و لا عشاءَ، و إذا دخل و لم يَذكر اسم الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيتَ، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء» لفظ أبي داود.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل وما نشبع! قال: «فلعلكم تأكلون متفرقين؟ اجتمعُوا على طعامكم، و اذكروا اسم الله، يُبارك لكم فيه» ورواه أبو داود و ابن ماجه.

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥) ﴾

٥- لما ذكر تعالى ما حرَّمه على عباده المؤمنين من الخبائث، و ما أحله لهم الطيبات، قال بعده: ﴿اليومَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود و النصارى فقال: ﴿و طعامُ الذينَ أوتُوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس و أبو أمامة و مجاهد و سعيد بن جبير و عكرمة و عطاء و الحسن و مكحول وإبراهيم النخعي و السدي و مقاتل بن حيان: يعني ذبائحهم. و هذا أمرٌ مجمع عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلال للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، و لا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، و إن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه تعالى و تقدس. و قد ثبت في الصحيح: عن عبد الله بن مغفل قال: أدلي بجراب من شحم يوم خيبر فحضنته، و قلت: لا أُعطي اليوم من هذا أحداً، و التفتُّ فإذا النبي ﷺ يبتسم. فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة و نحوها من الغنيمة قبل القسمة، و هذا ظاهر و استدل به الفقهاء الحنفية و الشافعية و الحنابلة على أصحاب مالك، في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم كالشحوم و نحوها مما حرم عليهم، فالمالكية لا يجوّزون للمسلمين أكله، لقوله تعالى: ﴿وطعامُ الذينَ أوتُوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قالوا: و هذا ليس من طعامهم، و استدل عليهم الجمهور بهذا الحديث، و في ذلك نظر! لأنه قضية عين، و يحتمل أن يكون شحماً يعتقدون حِلَّه كشحم الظهور و الحوايا ونحوهما، و الله أعلم.

و أجود منه في الدلالة: ما ثبت في الصحيح: أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ شاةً مَصْلية و قد سَمُّوا ذراعها، و كان يعجبه الذراع، فتناوله فنهش منه نهشة، فأخبره الذراع أنه مسموم، فَلَفَظَه و أَثَّر ذلك في ثنايا رسول الله ﷺ و في أبهره، و أكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات، فقَتَل اليهودية التي سمتها، وكان اسمها زينب، فَقَتَلَت بشر بن البراء. و وجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها و من معه، و لم يسألهم هل نزعوا

منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا . و في الحديث الآخر : أنّ رسول اللهﷺ أضافه يهوديٌّ على خبز شعير ، و إهالة سَنْخَة يعني : وَدَكاً زنخاً[(١)] . و روى ابن أبي حاتم عن مكحول قال : أنزل الله ﴿و لا تأكلُوا مِمَّا لَمْ يُذكَر اسمُ اللهِ عليهِ﴾ ثم نسخه الرب عز وجل ، و رحم المسلمين فقال : ﴿اليومَ أُحِلَّ لَكم الطَّيِّباتُ و طعامُ الذينَ أوتُوا الكتابَ﴾ فنسخها بذلك و أحل طعام أهل الكتاب . و في هذا الذي قاله مكحول رحمه الله نظر! فإنه لا يلزم من إباحته طعام أهل الكتاب ، إباحة أكل ما لم يذكر اسم الله عليه ، لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم و قرابينهم ، و هم متعبدون بذلك ، و لهذا لم يُبح ذبائح من عداهم من أهل الشرك و من شابههم ، لأنهم لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم ، بل و لا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة ، بل يأكلون الميتة بخلاف أهل الكتابين و من شاكلهم من السامرة و الصابئة ، و من يتمسك بدين إبراهيم و شيث و غيرهما من الأنبياء ، على أحد قولي العلماء . و نصارى العرب كبني تغلب و تنوخ و بهرا و جذام و لخم و عاملة و من أشبههم ، لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور .

و قال أبو جعفر بن جرير : عن علي قال : لا تأكلوا ذبائح بني تغلب لأنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر . و كذا قال غير واحد من الخلف و السلف . و قال قتادة عن سعيد بن المسيب و الحسن أنهما كانا لا يريان بأساً بذبيحة نصارى بني تغلب .

و أما المجوس فإنهم و إنْ أُخِذت منهم الجزية تبعاً و إلحاقاً لأهل الكتاب ، فإنهم لا تُؤكل ذبائحهم ، ولا تنكح نساؤهم ، خلافاً لأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي ، أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي و أحمد بن حنبل . و لما قال ذلك و اشتهر عنه ، أنكر عليه الفقهاء ذلك ، حتى قال عنه الإمام أحمد : أبو ثور كاسمه . يعني في هذه المسألة ، و كأنه تمسك بعموم حديثٍ رُوي مرسلاً عن النبيﷺ أنه قال : «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب» . و لكن لم يثبت بهذا اللفظ ، و إنما الذي في صحيح البخاري : عن عبد الرحمن بن عوف : أن رسول اللهﷺ أَخَذَ الجزية من مجوس هَجَر . و لو سلم صحة هذا الحديث فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية ﴿وَ طعامُ الذينَ أوتُوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ فدل بمفهومه ـ مفهوم المخالفة ـ على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل .

و قوله تعالى : ﴿و طعامُكمْ حِلٌّ لَهمْ﴾ أي : و يحل لكم أن تطعموهم من ذبائحهم ، و ليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم ، اللهم إلا أن يكون خبراً عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه ، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها ، و الأول أظهر في المعنى ، أي : و لكم أن تطعموهم من ذبائحكم ، كما أكلتم من ذبائحهم ، و هذا من باب المكافأة و المقابلة و المجازاة . كما ألبس النبيﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي بن سلول حين مات و دفنه فيه ، قالوا : لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه فجازاه النبيﷺ ذلك . فأما الحديث الذي فيه «لا تَصْحبْ إلا مؤمناً ، و لا يأكل طعامك إلا تقي»[(٢)] فمحمول على الندب و الاستحباب ، و الله أعلم .

و قوله : ﴿و المحصَنَاتُ مِن المؤمناتِ﴾ أي : و أحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات ، وذكر هذا توطئة لما بعده ، و هو قوله تعالى : ﴿و المُحصناتُ مِن الذينَ أوتُوا الكتابَ مِن قَبلِكُمْ﴾

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ٢١٠ - ٢١١) من حديث أنس ﷺ بسند صحيح .

(٢) رواه الإمام أحمد (٣/ ٣٨) و أبو داود (٤٨٣٢) و ابن ماجه (٢٣٩٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بسند حسن .

فقيل أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء. حكاه ابن جرير عن مجاهد، و إنما قال مجاهد: المحصنات الحرائر، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، و يحتمل أن يكون أراد بالحرة العفيفة، كما قال في الرواية الأخرى عنه. و هو قول الجمهور ههنا، و هو الأشبه لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية، و هي مع ذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالكلية، و يتحصَّل زوجها على ما قيل في المثل: «حَشَفاً[1] و سوء كَيْلة».

و الظاهر من الآية: أن المراد بالمحصنات: العفيفات عن الزنا، كما قال تعالى في الأخرى: ﴿مُحصناتٍ غيرَ مُسافِحاتٍ و لا مُتَّخذاتِ أخدانٍ﴾. ثم اختلف المفسرون و العلماء في قوله تعالى: ﴿والمحصناتُ مِن الذينَ أوتُوا الكتابَ مِن قبلِكُمْ﴾ هل يعمُّ كل كتابية عفيفة سواء كانت حرة أو أمة، حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف ممن فسر المحصنة بالعفيفة. و قيل: المراد بأهل الكتاب ههنا: الإسرائيليات، وهو مذهب الشافعي. و قيل: المراد بذلك: الذميات دون الحربيات، لقوله: ﴿قاتِلُوا الذينَ لاَ يُؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ﴾ الآية. و قد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية، و يقول: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: إنَّ ربَّها عيسى، و قد قال الله تعالى: ﴿و لا تنكحُوا المُشركاتِ حتَّى يُؤمنَّ﴾ الآية. و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿و لا تنكحُوا المُشركاتِ حتَّى يُؤمنَّ﴾ فحجز الناس عنهن، حتى نزلت الآية التي بعدها ﴿و المُحصناتُ من الذينَ أوتُوا الكتابَ مِن قَبلِكُمْ﴾ فَنَكَح الناسُ نساء أهل الكتاب. و قد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى و لم يروا بذلك بأساً، أخذاً بهذه الآية الكريمة ﴿و المُحصناتُ من الذينَ أوتُوا الكتابَ مِن قَبلِكُمْ﴾ فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة ﴿و لا تَنكحُوا المُشركاتِ حتَّى يُؤمنَّ﴾ إنْ قيل بدخول الكتابيات في عمومها، و إلا فلا معارضة بينها و بينها، لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يكُنِ الذينَ كفرُوا مِنْ أهلِ الكتابِ و المُشركينَ مُنفكِّينَ حتَّى تأتِيَهُم البيِّنةُ﴾ و كقوله: ﴿و قُل لِّلَّذينَ أوتُوا الكتابَ و الأُمِّيِّينَ ءَأسلمتُمْ فإنْ أسلَمُوا فقَد اهتَدَوا﴾ الآية.

و قوله: ﴿إذا آتيتُموهنَّ أُجورَهُنَّ﴾ أي: مهورهنّ، أي: كما هنّ محصنات عفائف، فابذلوا لهنّ المهور عن طيب نفس. و قد أفتى جابر بن عبد الله و عامر الشعبي و إبراهيم النخعي و الحسن البصري: بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها، أنه يفرق بينهما، و تَردُّ عليه ما بذل لها من المهر. رواه ابن جرير عنهم.

و قوله: ﴿مُحصِنينَ غيرَ مُسافِحينَ وَ لا مُتَّخذِي أخْدانٍ﴾ فكما شَرَطَ الإحصان في النساء و هي العفة عن الزنا، كذلك شرطها في الرجال، و هو أن يكون الرجل محصناً عفيفاً، و لهذا قال: ﴿غيرَ مُسافِحينَ﴾ و هم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية، و لا يردون أنفسهم عمن جاءهم ﴿وَ لا مُتَّخذِي أخْدانٍ﴾ أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن، كما تقدم في سورة النساء سواء. و لهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه: لا يصح نكاح المرأة البغي حتى تتوب، و ما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجلٍ عفيف، و كذلك لا يصح عنده عقدُ الرجل الفاجر على عفيفة، حتى يتوب و يُقلع عما هو فيه الزنا، لهذه الآية وللحديث «لا ينكح الزاني المَجْلودُ إلا مِثْلَه»[2]. و سيأتي الكلام على هذه المسألة مستقصى عند قوله: ﴿الزاني لا ينكحُ إلاَّ زانيةً أو مُشرِكةً و الزانيةُ لاَ ينكِحُها إلاَّ زانٍ أوْ مُشركٌ و حُرِّمَ ذلكَ علَى المُؤمنينَ﴾ و لهذا قال

(١) الحشف: أردأ التمر. انظر: «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» لأبي عبيد البكري (ص ٣٧٤).

(٢) حديث صحيح، رواه أحمد (٢/ ٣٢٤) و أبو داود (٢٠٥٢) و غيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى ههنا: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)﴾

٦- قال كثيرون من السلف في قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ يعني: و أنتم مُحْدِثون. و قال آخرون: إذا قمتم من النوم إلى الصلاة، و كلاهما قريب. و قال آخرون: بل المعنى أعم من ذلك، فالآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، و لكن هو في حق المحدث واجب، و في حق المتطهر ندب. و قد قيل: إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام ثم نُسخ. و روى الإمام أحمد بن حنبل عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان النبيﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ و مسح على خفيه، و صلى الصلوات بوضوءٍ واحد، فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله! قال: «إني عمداً فعلته يا عمر». وهكذا رواه مسلم و أهل السنن. و روى أحمد عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال: أرأيت وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة، طاهراً كان أو غير طاهر عمن هو؟ قال: حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب أن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل حدثها: أن رسول اللهﷺ كان أُمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر، فلما شقَّ ذلك عليه أُمر بالسواك عند كل صلاة، و وضع عنه الوضوء إلا من حَدَث، فكان عبد الله يرى أن به قوّة على ذلك، كان يفعله حتى مات. و هكذا رواه أبو داود و هو إسناد صحيح، و قد صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث والسماع. وفي فعل ابن عمر هذا، و مداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة، دلالة على استحباب ذلك، كما هو مذهب الجمهور.

و روى ابن جرير: عن ابن سيرين: أن الخلفاء كانوا يتوضؤن لكل صلاة. و روى عن النزال بن سبرة قال: رأيت علياً صلى الظهر، ثم قعد للناس في الرحبة، ثم أتى بماء فغسل وجهه و يديه ثم مسح برأسه ورجليه، وقال: هذا وضوء مَنْ لم يُحدث. و روى عن إبراهيم: أن علياً اكتال من حب فتوضأ وضوءاً فيه تجوّز، فقال: هذا وضوء مَن لم يُحدث. و هذه طرق جيدة عن علي يقوي بعضها بعضاً.

و روى ابن جرير: أيضاً عن أنس قال: توضأ عمر بن الخطاب وضوءاً فيه تجوز خفيفاً، فقال: هذا وضوء من لم يحدث. و هذا إسناد صحيح. و روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك يقول: كان النبيﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت: فأنتم كيف تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات كلها بوضوء واحد، ما لم نُحدث. وقد رواه البخاري و أهل السنن.

و قال ابن جرير: و قد قال قوم: إن هذه الآية نزلت إعلاماً من الله، أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة، دون غيرها من الأعمال، و ذلك لأنه عليه السلام كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى

يتوضأ[١]. و روى أبو داود عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقُدِّم إليه طعام فقالوا: ألا نأتيك بوضوء؟ فقال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة». و كذا رواه الترمذي و النسائي.

و روى مسلم: عن ابن عباس قال: كنا عند النبي ﷺ فأتى الخلاء، ثم إنه رَجَع فأتي بطعام، فقيل: يا رسول الله، ألا تتوضأ؟ فقال: «لم أُصلِ فأتوضأ».

و قوله: ﴿**فاغسِلُوا وُجوهَكُمْ**﴾ قد استدل طائفة من العلماء بقوله تعالى: ﴿**إذا قُمتمْ إلَى الصَّلاةِ فاغسِلُوا وُجوهَكُمْ**﴾ على وجوب النية في الوضوء، لأن تقدير الكلام ﴿**إذا قُمتمْ إلَى الصَّلاةِ فاغسِلُوا وُجوهَكُمْ**﴾ كما تقول العرب: إذا رأيت الأمير فقم، أي: له. و قد ثبت في الصحيحين حديث «الأعمالُ بالنيات، و إنما لكل امرئ ما نوى». و يستحب قبل غسل الوجه أنْ يذكر اسم الله تعالى على وضوئه، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا وُضوءَ لمن لم يذكر اسم الله عليه». و يستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء، و يتأكد ذلك عند القيام من النوم، لما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدُكم من نومه فلا يُدخل يده في الإناء، قبل أنْ يغسلها ثلاثاً، فإنَّ أحدَكم لا يدري أين باتت يده». و حَدُّ الوجه عند الفقهاء: ما بين منابت شعر الرأس ـ و لا اعتبار بالصلع و لا بالغَمَم ـ إلى منتهى اللحيين و الذقن طولاً، و من الأذن إلى الأذن عرضاً، و في النزعتين و التحذيف خلاف هل هما من الرأس أو الوجه؟ و في المسترسل من اللحية عن محل الفرض قولان: (أحدهما) أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة. و قال مجاهد: هي من الوجه، ألا تسمع إلى قول العرب في الغلام إذا نبتت لحيته: طلع وجهه، و يستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثيفة. و روى الإمام أحمد: عن شقيق قال: رأيت عثمان توضأ، فذكر الحديث قال: و خلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه، ثم قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلت. رواه الترمذي و ابن ماجه و قال الترمذي: حسن صحيح و حسنه البخاري.

و روى أبو داود: عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت حنكه يخلل به لحيته و قال: «هكذا أمرني به ربي عز وجل». قال البيهقي: و روينا في تخليل اللحية عن عمار وعائشة و أم سلمة عن النبي ﷺ، ثم عن علي و غيره، و روينا في الرخصة في تركه عن ابن عمر و الحسن بن علي، ثم عن النخعي و جماعة من التابعين.

و قد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح و غيرها، أنه كان إذا توضأ تمضمض و استنشق، فاختلف الأئمة في ذلك هل هما واجبان في الوضوء و الغسل، كماهو مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله، أو مستحبان فيهما، كما هو مذهب الشافعي و مالك، لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن و صححه ابن خزيمة: عن رفاعة بن رافع الزرقي أن النبي ﷺ قال للمسيء صلاته: «توضأ كما أمرك الله» أو يجبان في الغسل دون الوضوء، كما هو مذهب أبي حنيفة، أو يجب الاستنشاق دون المضمضة، كما هو رواية عن الإمام أحمد، لما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ توضّأ فليستنشق». و في رواية «إذا توضأ أحدكم فليجعلْ في مَنْخريه من الماء ثم لينتثر» و الانتثار: هو المبالغة في الاستنشاق.

(١) الحديث الوارد في ذلك ضعفه الحافظ ابن كثير، و قال: غريب جداً.

و روى الإمام أحمد: عن ابن عباس: أنه توضأ فغسل وجهه أخذ غُرفَةً من ماء فتمضمض بها و استنثر، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا ـ يعني أضافها إلى يده الأخرى ـ فَغَسل بها وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه ثم أخذ غرفة من ماء ثم رشَّ على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يعني يتوضأ. و رواه البخاري.

و قوله: ﴿و أيدِيَكُمْ إِلَى المَرافِقِ﴾ أي مع المرافق، كما قال تعالى: ﴿و لا تأكُلُوا أمْوالَهُمْ إِلَى أمْوالِكمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً﴾.

و يستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه، لما روى البخاري و مسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أمتي يُدْعونَ يوم القيامة غُراً مُحَجَّلينَ من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّته فليفعل». و في صحيح مسلم: عن أبي هريرة قال: سمعت خليلي ﷺ يقول: «تَبلغُ الحِلْيةُ من المؤمن حيثُ يبلغ الوضوء».

و قوله تعالى: ﴿و امسَحُوا برُؤُسِكُمْ﴾ اختلفوا في هذه الباء هل هي للإلصاق، و هو الأظهر، أو للتبعيض؟ و فيه نظر، على قولين. و من الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة، و قد ثبت في الصحيحين: عن عمرو بن يحيى عن أبيه أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم ـ و هو جد عمرو بن يحيى وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء فأفرغ على يديه فغسلَ يديه مرتين مرتين، ثم مضمض و استنشق ثلاثاً، و غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسحَ رأسَه بيديه فأقبل بهما و أدبر، بدأ بمقدّم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردّهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. و في حديث عبد خير عن علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا. و روى أبو داود عن معاوية و المقداد بن معديكرب في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله.

ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أُجمل في القرآن. و قد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس، و هو مقدار الناصية. و ذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح، و لا يتقدَّر ذلك بحد لو مسح بعض شعرة من رأسه أجزأه. و احتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة قال: تخلّف النبي ﷺ فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: «هل معك ماء» فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كُمُّ الجُبة، فأخرج يديه من تحت الجبة و ألقى الجبة على منكبيه، فغسل ذراعيه و مسح بناصيته، و على العمامة و على خفيه. و ذكر باقي الحديث و هو في صحيح مسلم وغيره.

فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كَمَّل مسح بقية الرأس على العمامة، و نحن نقول بذلك، أنه يقع عن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة، و أنه كان يمسح على العمامة و على الخفين، فهذا أولى، و ليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية، أو بعض

الرأس من غير تكميل على العمامة، و الله أعلم.

ثم اختلفوا في أنه: هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً، كما هو مذهب أحمد بن حنبل و من تابعه، على قولين، فروى عبد الرزاق عن حمران بن أبان قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما، ثم تمضمض و استنشق ثم غسلَ وجهه ثلاثاً ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ تَوضَّأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «مَنْ تَوضَّأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدِّثُ فيهما نفسَه، غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه» أخرجه البخاري و مسلم.

و في سنن أبي داود: من رواية عبيد الله بن أبي مليكة عن عثمان في صفة الوضوء: و مسح برأسه مرة واحدة. و كذا من رواية عبد خير عن علي مثله.

و احتج من استحب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: عن عثمان رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ توضَّأ ثلاثاً ثلاثاً. و روى أبو داود عن حمران قال: رأيت عثمان بن عفان توضَّأ، فذكر نحوه و لم يذكر المضمضة و الاستنشاق، قال فيه: ثم مسح رأسه ثلاثاً، ثم غسل رجليه ثلاثاً، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضَّأ هكذا و قال: «مَنْ توضَّأ هكذا كفاه» تفرد به أبو داود [١]، ثم قال: و أحاديث عثمان في الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة.

قوله: ﴿و أرجُلَكمْ إلَى الكَعبَينِ﴾ قرئ و أرجلكم بالنصب عطفاً على ﴿فاغسِلوا وُجوهَكُمْ و أيدِيَكُمْ﴾ وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنه قرأها ﴿و أرجُلَكمْ﴾ يقول: رجعتْ إلى الغسل. و روى عن عبد الله ابن مسعود و عروة و عطاء و عكرمة و الحسن و مجاهد و إبراهيم و الضحاك و السدي و مقاتل بن حيان والزهري و إبراهيم التيمي نحو ذلك، و هذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل كما قاله السلف. و من ههنا ذهب مَن ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء، كما هو مذهب الجمهور، خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب، بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه و غسل يديه، ثم وجهه أجزأه ذلك! لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء، و الواو لا تدل على الترتيب.

و قد سلك الجمهور في الجواب عن هذا البحث طُرُقاً، فمنهم من قال: الآية دلّت على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة، لأنه مأمور بفاء التعقيب و هي مقتضية للترتيب، و لم يقل أحدٌ من الناس بوجوب غسل الوجه أوّلاً ثم لا يجب الترتيب بعده، بل القائل اثنان، أحدهما: يُوجب الترتيب كما هو واقع في الآية، والآخر: يقول لا يجب الترتيب مطلقاً، و الآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء، فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع، حيث لا فارق.

و منهم من قال: لا نسلم أن «الواو» لا تدل على الترتيب، بل هي دالة كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة و بعض الفقهاء، ثم نقول بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي هي دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أنه يرتب، و الدليل على ذلك: أنه ﷺ لما طاف بالبيت، خرج من باب الصفا و هو يتلو قوله تعالى: ﴿إنَّ الصَّفَا و المَروةَ مِن شَعائِرِ اللهِ﴾ ثم قال: «أَبدأُ بما بَدأَ الله به» لفظ مسلم، و لفظ النسائي

---

(١) و فيه عبد الرحمن بن وردان، قال الدارقطني: ليس بالقوي، و قال الحافظ: مقبول، أي حيث يتابع، فمثله لا يعارض بروايته أحاديث الصحيحين، و الله أعلم.

«ابدؤا بما بدأ الله به» و هذا لفظُ أمر ، و إسناده صحيح . فدل على وجوب البداءة بما بدأ الله به ، و هو معنى كونها تدل على الترتيب شرعاً ، و الله أعلم .

و منهم من قال : لما ذكر الله تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب فقطع النظير عن النظير ، وأدخل الممسوح بين المغسولين دلَّ ذلك على إرادة الترتيب . و منهم من قال : لا شك أنه قد روى أبو داود وغيره : من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ توضأ مرة مرة ثم قال : «هذا وضوءٌ لا يقبل الله الصلاةَ إلابه» . قالوا : فلا يخلو إما أن يكون توضأ مرتباً فيجب الترتيب ، أو يكون توضأ غير مرتب فيجب عدم الترتيب ، و لا قائل به فوجب ما ذكرناه .

و أما القراءة الأخرى ، و هي قراءة مَن قرأ ﴿و أرجلِكمْ﴾ بالخفض . فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين ، لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس . و قد رُوي عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح . فروى ابن جرير : قال موسى بن أنس لأنس و نحن عنده : يا أبا حمزة ، إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه فذكر الطهور ، فقال : اغسلوا وجوهكم و أيديكم و امسحوا برؤوسكم و أرجلكم ، و أنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه ، فاغسلوا بطونهما و ظهورهما و عراقيبهما ، فقال أنس : صدق الله وكذب الحجاج ، قال الله تعالى : ﴿و امسَحوا برُؤسِكُمْ و أرجُلِكمْ﴾ قال : و كان أنس إذا مسح قدميه بَلَّهما ، إسناد صحيح إليه . و روى ابن جرير عن أنس قال : نزل القرآن بالمسح ، و السنة بالغسل ، و هذا أيضاً إسناد صحيح . و روى ابن جرير : عن ابن عباس قال : الوضوء غسلتان و مسحتان . و كذا روى قتادة . و روى ابن جرير : عن أيوب قال : رأيت عكرمة يمسح على رجليه قال : و كان يقوله . و روى ابن جرير عن الشعبي قال : نزل جبريل بالمسح ، ثم قال الشعبي : ألا ترى أن التيمم أن يمسح ما كان غَسْلاً ، و يلغى ما كان مسحاً . فهذه آثار غريبة جداً ، و هي محمولة على أن المراد بالمسح هو الغَسْل الخفيف ، لما سنذكره من السنة الثابتة في وجوب غسل الرجلين ، و إنما جاءت هذه القرآءة بالخفض إما على المجاورة و تناسب الكلام ، كما في قول العرب : جحر ضبٌ خَرِبٍ ، و كقوله تعالى : ﴿عاليهم ثيابُ سندسٍ خُضْرٌ و إستبرقٌ﴾ و هذا سائغ ذائع في لغة العرب شائع . ومنهم من قال : هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان . قاله أبو عبد الله الشافعي رحمه الله ، و منهم من قال : هي دالةٌ على مسح الرجلين و لكن المراد بذلك الغسل الخفيف ، كما وردت به السنة .

و على كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بد منه ، للآية و الأحاديث التي سنوردها ، و من أحسن ما يستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي : عن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر ثم قعد في حوائج الناس في رحبة الكوفة ، حتى حضرت صلاة العصر ، ثم أتى بكوز من ماء ، فأخذ منه حفنةً واحدة فمسح بها وجهه و يديه و رأسه و رجليه ، ثم قام فشرب فَضْلَته و هو قائم ، ثم قال : إنَّ ناساً يكرهون الشرب قائماً ، و إنَّ رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ، و قال : «هذا وضوء من لم يُحْدِث» رواه البخاري في الصحيح ببعض معناه .

و من أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف ، فقد ضلَّ و أَضل ، و كذا مَنْ جَوَّز مسحهما و جوَّزَ غسلهما فقد أخطأ أيضاً ، و من نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث ، و أوجب مسحهما

للآية، فلم يحقق مذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب دلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء، لأنهما يليان الأرض و الطين و غير ذلك، فأوجب دلكهما ليذهب ما عليهما، و لكنّه عبَّر عن الدلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين و مسحهما، فحكاه من حكاه كذلك! و لهذا يستشكله كثير من الفقهاء و هو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل، سواء تقدم أو تأخر عليه، لاندراجه فيه، و إنما أراد الرّجُل ما ذكرته، و الله أعلم. ثم تأملت كلامه أيضاً: فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله: ﴿و أرجلِكم﴾ خفضاً على المسح و هو الدلك، و نصباً على الغسل فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه و هذه.

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين و أنه لا بد منه

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان و علي و ابن عباس و معاوية و عبد الله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معديكرب أن رسول الله ﷺ غَسَلَ الرجلين في وضوئه، إما مرةً و إما مرتين أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم و في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه، ثم قال: «هذا وضوءٌ لا يَقْبلُ اللهُ الصلاةَ إلا به».

و في الصحيحين من رواية عبد الله بن عمرو قال: تَخَلَّف عنا رسول الله ﷺ في سَفْرةٍ سافرناها، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة صلاة العصر، و نحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته «أسبغوا الوضوء، ويلٌ للأعقاب من النار» و كذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة.

و في صحيح مسلم: عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «أسبغوا الوضوء، ويلٌ للأعقابِ من النار».

وعن عبد الله بن الحرث بن جزء أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ويل للأعقاب و بطون الأقدام من النار» رواه البيهقي و الحاكم، و هذا إسناد صحيح.

و روى الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ويل للعراقيب من النار» ورواه ابن ماجه. و وجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، و ذلك أنه لو كان فرضُ الرجلين مسحهما، أو أنه يجوز ذلك فيهما، لما توعّد على تركه، لأنَّ المسح لا يستوعب جميع الرجل، بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف. و هكذا وجَّه هذه الدلالة على الشيعة: الإمامُ أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى. وقد روى مسلم في صحيحه: عن عمر بن الخطاب أن رجلاً توضأ فترَكَ موضعَ ظفر على قدمه، فأبصره النبي ﷺ و قال: «ارجعْ فأحسنْ وضوءك».

و روى الإمام أحمد: عن بعض أزواج النبي ﷺ رأى رجلاً يُصلّي و في ظهر قدمه لُمعة قَدَر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء. و رواه أبو داود و زاد: و الصلاة. و هذا إسناد جيد قوي صحيح، و الله أعلم.

و في حديث حمران: عن عثمان في صفة وضوء النبي ﷺ أنه: خلَّل بين أصابعه. و روى أهل السنن: عن عاصم بن لقيط بن صبرة عن أبيه قال: قلت يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء؟ فقال: «أسبغ الوضوء،

وخلِّلْ بين الأصابع، و بالغْ في الاستنشاق، إلا أنْ تكونَ صائماً».

و قال الإمام أحمد: عن أبي أمامة حدثنا عمرو بن عبسة قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء؟ قال: «ما منكم من أحدٍ يُقرِّب وضوءه، ثم يتمضمض و يستنشق و ينتثر إلا خَرَّت خطاياه من فمهِ وخياشيمه مع الماء حين ينتثر، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خَرَّت خطايا وجهه من أطراف لِحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خَرَّت خطايا يديه من أطراف أَنامله، ثم يمسح رأسه إلا خَرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خَرَّت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء، ثم يقوم فيحمد الله و يثني عليه بالذي هو له أهل، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» قال أبو أمامة: ياعمرو انظر ما تقول، سمعتَ هذا من رسول اللهﷺ؟ أيُعطى هذا الرجل كله في مقامه؟ فقال عمرو بن عبسة: يا أبا أمامة، لقد كَبُرت سني، و رقَّ عظمي، و اقترب أجلي، و مابي حاجة أن أكذب على الله و على رسول الله ﷺ، لو لم أسمعه من رسول اللهﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً. لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك. وهذا إسناد صحيح، و هو في صحيح مسلم من وجه آخر. و فيه «ثم يغسل قدميه كما أمره الله» فدلَّ على أن القرآن يَأمر بالغسل.

و من ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن علي أن رسول اللهﷺ رش على قدميه الماء و هما في النعلين فدلكهما. إنما أراد غَسلاً خفيفاً و هما في النعلين، و لا مانع من إيجاد الغسل و الرِّجل في نعالها، و لكن في هذا رد على المتعمقين و المتنطعين من الموسوسين. و هكذا الحديث الذي أورده ابن جرير على نفسه عن حذيفة قال: «أتى رسول اللهﷺ سُباطة قوم فبال قائماً، ثم دعا بماء فتوضأ و مَسَح على نعليه» و هو حديث صحيح. و قد أجاب ابن جرير عنه: بأن الثقات الحفاظ رووه عن حذيفة قال: فبال قائماً ثم توضأ ومسح على خفيه.

قلت: و يحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجليه خفان و عليهما نعلان. و هكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أوس بن أبي أوس قال: رأيت رسول اللهﷺ توضّأ و مسح على نعليه ثم قام إلى الصلاة. وقد رواه أبو داود، و رواه ابن جرير ثم قال: و هذا محمول على أنه توضأ كذلك و هو غير محدث، إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله و سنن رسوله متنافية متعارضة، و قد صح عنهﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء، بالنقل المستفيض القاطع عذر من انتهى إليه و بلغه، و لما كان القرآن آمراً بغسل الرجلين كما في قراءة النصب، و كما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليه، توهّم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين. و قد روي ذلك عن علي بن أبي طالب و لكن لم يصح إسناده، ثم الثابت عنه خلافه و ليس كما زعموه، فإنه قد ثبت أن النبيﷺ مَسَح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة.

و قال الإمام أحمد: عن جرير بن عبد الله البجلي قال: أنا أَسلمتُ بعد نزول المائدة، و أنا رأيت رسول اللهﷺ يمسح بعد ما أَسلمتُ. تفرد به أحمد.

و في الصحيحين: عن همام قال: بال جرير ثم توضأ و مسح على خفيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت رسول اللهﷺ بال ثم توضأ و مسح على خفيه. قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث، لأن إسلامَ جرير كان بعد نزول المائدة. لفظ مسلم. و قد ثبت بالتواتر عن رسول اللهﷺ مشروعية المسح على

الخفين قولاً منه و فعلاً، كما هو مقرر في كتاب «الأحكام الكبير» مع ما يحتاج إلى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه، كما هو مبسوط في موضعه.

و قد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند، بل بجهل و ضلال، مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما ثبت في الصحيحين عنه عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة و هم يستبيحونها، و كذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين، مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ وفق ما دلت عليه الآية الكريمة، و هم مخالفون لذلك كله و ليس لهم دليلٌ صحيح في نفس الأمر، و لله الحمد. و هكذا خالفوا الأئمة و السلف في الكعبين اللذين في القدمين، فعندهم أنهما في ظهر القدم، فعندهم في كل رجل كعب، و عند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق و القدم. قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء: هما الناتئان، و هما مجمع مفصل الساق و القدم، هذا لفظه. فعند الأئمة رحمهم الله في كل قدم كعبان، كما هو المعروف عند الناس، و كما دلت عليه السنة ففي الصحيحين: عن عثمان: أنه توضأ فَغَسل رجله اليمنى إلى الكعبين، و اليسرى مثل ذلك.

و روى البخاري تعليقاً مجزوماً به و أبو داود و ابن خزيمة في صحيحه: عن النعمان بن بشير قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه، فقال: «أقيموا صفوفكم ـ ثلاثاً ـ و اللهِ لَتُقيمُنَّ صفوفكم، أو ليخالفنَّ اللهُ بين قلوبكم» قال: فرأيت الرجل يُلْزق كعبه بكعب صاحبه، و ركبتيه بركبة صاحبه، و منكبه بمنكبه. لفظ ابن خزيمة.

فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه، إلا و المراد: العظم الناتئ في الساق، حتى يحاذي كعب الآخر، فدل ذلك على ما ذكرنا من أنهما العظمان الناتئان، عند مفصل الساق و القدم، كما هو مذهب أهل السنة.

و قوله تعالى: **﴿و إن كنتُم مَّرضَى أو علَى سفرٍ أوْ جاءَ أحدٌ مِّنكُم مِّن الغائطِ أو لامَستُم النساءَ فلَمْ تجدُوا ماءً فتَيَمَّمُوا صَعيداً طَيِّباً فامسَحُوا بوجُوهِكُمْ و أيدِيكُم مِّنهُ﴾** كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته لئلا يطول الكلام. و قد ذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك، لكن البخاري روى ههنا حديث خاصاً بهذه الآية الكريمة، عن عائشة قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء و نحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ و نَزلَ فثَنَى رأسه في حِجْري راقداً، فأقبل أبو بكر فَلَكَزَني لكزة شديدة، و قال: حبستِ الناس في قلادة! فتمنيت الموت لمكان رسول الله ﷺ مني، و قد أوجعني، ثم إن النبي ﷺ استيقظ و حضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت: **﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا إذا قُمتمْ إلَى الصَّلاةِ فاغسِلُوا وُجوهَكُمْ﴾** إلى آخر الآية، فقال أُسيد بن الحُضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم.

و قوله تعالى: **﴿ما يُريدُ اللهُ ليَجعلَ علَيكُم مِّنْ حَرجٍ﴾** أي: فلهذا سَهَّل عليكم و لم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض، و عند فقد الماء، توسعةً عليكم و رحمة بكم، و جعله في حق من شرع له يقوم مقام الماء، إلا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه، و كما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير.

و قوله تعالى: **﴿وَ لكِن يُريدُ ليُطهِّركُمْ وَ ليُتِمَّ نِعمَتَهُ عليَكُمْ لَعلَّكُمْ تشكُرونَ﴾** أي: لعلكم تشكرون نِعَمَه

عليكم، فيما شرعه لكم من التوسعة و الرأفة و الرحمة و التسهيل و السماحة.

و قد وردت السُّنَّة بالحث على الدعاء عقب الوضوء، بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد و مسلم و أهل السنن: عن عقبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل فجاءت نوبتي فرَوَّحتها بعشى، فأدركت رسول الله قائماً يحدث الناس، فأدركتُ من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيُحْسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه و وجهه، إلا وجبت له الجنة» قال: قلت: ما أجودَ هذه! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود منها، فنظرت فإذا عمر رضي الله عنه، فقال: إني قد رأيتك جئت آنفاً قال: «ما منكم من أحدٍ يتوضأ فيُبلغ أو فيُسبغ الوضوء يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، و أن محمداً عبده و رسوله، إلا فُتِحَت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء» لفظ مسلم.

و عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن، فغسل وجهه خَرَج من وجهه كلُّ خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب» رواه مسلم. و روى مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: «الطُّهور شَطْرُ الإيمان...». و في صحيح مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَقبلُ الله صَدَقةً من غُلول، و لا صلاة بغير طهور».

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

٧- يقول تعالى مُذكِّراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، و إرساله إليهم هذا الرسول الكريم، و ما أَخَذَ عليهم من العهد و الميثاق في مبايعته على متابعته و مناصرته و مؤازرته، و القيام بدينه وإبلاغه عنه و قبوله منه فقال تعالى: **﴿و اذكُرُوا نِعمةَ اللهِ علَيكُمْ و مِيثاقَهُ الذِي واثَقَكُم بِهِ إذْ قُلتُمْ سمِعنَا وأطَعنَا﴾** و هذه هي البيعة التي كانوا يُبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم، كما قالوا: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا و مكرهنا، و أَثَرةٍ علينا، و أن لا نُنازعَ الأمر أهله. و قال الله تعالى: **﴿و ما لكُمْ لا تُؤمِنونَ باللهِ وَ الرَّسولُ يَدعُوكُمْ لِتُؤمِنُوا بِرَبِّكُمْ و قَدْ أخذَ مِيثَاقَكمْ إن كنتُم مُّؤمنينَ﴾** و قيل: هذا تذكارٌ لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق و العهود، في متابعته محمد ﷺ و الانقياد لشرعه. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. و قيل: هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صُلبه، وأشهدهم على أنفسهم **﴿ألستُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بلَى شهِدنَا﴾** قاله مجاهد و مقاتل بن حيان. و القول الأول أظهر،

و هو المحكي عن ابن عباس و السدي، و اختاره ابن جرير.

ثم قال تعالى: ﴿و اتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيدٌ و تحريضٌ على مواظبة التقوى في كل حال. ثم أعلمهم أنه يعلم ما يَتَخالج في الضمائر من الأسرار و الخواطر، فقال: ﴿إنَّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ﴾.

٨- و قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا كونُوا قوّامِينَ للهِ﴾ أي: كونوا قوامين بالحق لله عز وجل، لا لأجل الناس والسُّمعة، و كونوا ﴿شُهداءَ بالقِسطِ﴾ أي بالعدل لا بالجور. و قد ثبت في الصحيحين: عن العمان بن بشير أنه قال: نَحلَني أبي نِحْلاً، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد عليه رسول الله ﷺ، فجاءه ليُشهده على صدقتي، فقال: «أكلّ ولدك نحلتَ مثله؟» قال: لا، قال: «اتقوا الله و اعدلوا في أولادكم ـ و قال ـ إني لا أشهد على جَور» قال: فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة.

و قوله تعالى: ﴿و لاَ يَجرِمَنَّكمْ شَنَآنُ قوم علَى أن لاَّ تعدِلُوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقاً كان أو عدواً، و لهذا قال: ﴿اعدِلُوا هُو أقربُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه. و قوله: ﴿هُو أقربُ لِلتَّقْوَى﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أصحابُ الجَنَّةِ يومئذٍ خيرٌ مُّستقَرّاً و أحْسَنُ مَقيلاً﴾ و كقول بعض الصحابيات لعمر: أنت أفظُّ و أغلظ من رسول الله ﷺ. ثم قال تعالى: ﴿و اتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تَعملُونَ﴾ أي: و سيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها، إنْ خيراً فخير و إنْ شراً فشر.

٩- و لهذا قال بعده: ﴿وعدَ اللهُ الذينَ آمنُوا وَ عَمِلوا الصَّالحاتِ لَهُم مَّغفِرَةٌ﴾ أي لذنوبهم ﴿و أجرٌ عَظيمٌ﴾ و هو الجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم، بل برحمة منه و فضل، و إنْ كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، و هو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته و فضله و عفوه ورضوانه، فالكلُّ منه وله، فله الحمد و المنة.

١٠- ثم قال: ﴿و الذينَ كفرُوا و كذَّبُوا بآياتِنا أولئكَ أصحابُ الجَحيمِ﴾ و هذا من عدله تعالى، وحكمته وحكمه الذي لا يجور فيه، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير.

١١- و قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا اذكرُوا نعمَةَ اللهِ عليكُمْ إذْ هَمَّ قومٌ أن يَبسُطُوا إليكُمْ أيديَهُمْ فكفَّ أيديَهُمْ عَنكُمْ﴾ روى عبد الرزاق: عن جابر: أن النبي ﷺ نَزلَ منزلاً، و تفرّق الناس في العضاه يستظلون تحتها، و علّق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسلّه، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: مَنْ يمنعك مني؟ قال: «الله عز وجل» قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك مني؟ والنبي ﷺ يقول: «الله» قال: فشام الأعرابي السيف، فدعا النبي ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي، و هو جالس إلى جنبه و لم يعاقبه. وقصة هذا الأعرابي و هو غورث بن الحرث ثابتة في الصحيح. و قال أبو مالك: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه، حين أرادوا أن يغدروا بمحمد و أصحابه في دار كعب بن الأشرف رواه ابن أبي حاتم..

و ذكر محمد بن إسحاق بن يسار و مجاهد و عكرمة و غير واحد: أنها نزلت في شأن بني النضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين و وكّلوا عمرو بن

جحش بن كعب بذلك ، وأمروه إنْ جلس النبيﷺ تحت الجدار ، و اجتمعوا عنده ، أنْ يُلقى تلك الرَّحى من فوقه ، فأطْلعَ الله النبيﷺ على ما تمالؤا عليه ، فرجع إلى المدينة و تبعه أصحابه ، فأنزل الله في ذلك هذه الآية .

و قوله تعالى : ﴿و علَى اللهِ فليتَوكَّلِ المُؤمنُونَ﴾ يعني مَنْ توكَّل على الله كفاه الله ما أهمه ، و حفظه من شر الناس و عصمه . ثم أمر رسول اللهﷺ أن يغدو إليهم ، فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) ﴾

١٢ – لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده و ميثاقه ، الذي أخذه عليهم على لسان عبده و رسوله محمدﷺ ، و أمرهم بالقيام بالحق و الشهادة بالعدل ، و ذكَّرهم نِعَمَه عليهم الظاهرة و الباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى ، شَرعَ يبين لهم كيف أخذ العهود و المواثيق على مَن كان قبلهم ، من أهل الكتابين اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده و مواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه لهم ، و طرداً عن بابه و جنابه ، و حجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى و دين الحق ، و هو العلم النافع و العمل الصالح ، فقال تعالى : ﴿و لقَدْ أخذَ اللهُ ميثَاقَ بَني إسرَائيلَ وبَعثْنا مِنهُم اثنَيْ عشرَ نَقيباً﴾ يعني : عُرفاء على قبائلهم بالمبايعة و السمع و الطاعة لله و لرسوله و لكتابه .

و قد ذكر ابن عباس و ابن إسحاق و غير واحد : أن هذا كان لما توجه موسىعليه السلام لقتال الجبابرة ، فأمر بأن يقيم نقباء ، من كل سبط نقيب . و هكذا لما بايع رسول اللهﷺ الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيباً ، ثلاثة من الأوس ، و هم : أسيد بن الحضير و سعد بن خيثمة و رفاعة بن عبد المنذر ، و يقال بدله : أبو الهيثم ابن التيهانرضي الله عنه ، و تسعة من الخزرج ، و هم : أبو أمامة أسعد بن زرارة و سعد بن الربيع و عبد الله بن رواحة ورافع بن مالك بن العجلان و البراء بن معرور و عبادة بن الصامت و سعد بن عبادة و عبد الله بن عمرو بن حرام والمنذر بن عمرو بن حنيش رضي الله عنهم . و قد ذكرهم كعب بن مالك في شعر له ، كما أورده ابن إسحاق رحمه الله . و المقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذ ، عن أمر النبيﷺ لهم بذلك ، و هم الذين وَلُوا المعاقدة و المبايعة ، عن قومهم للنبيﷺ على السمع و الطاعة .

و في الصحيحين : من حديث جابر بن سمرة قال : سمعت النبيﷺ يقول : «لا يزال أمرُ الناس ماضياً ، ما وَليهم اثنا عشرَ رَجلاً» ثم تكلم النبيﷺ بكلمةٍ خَفِيتْ عليَ ، فسألت أبي : ماذا قال النبيﷺ؟ قال : كلهم من

قريش. و هذا لفظ مسلم.

و معنى هذا الحديث: البشارة بوجود اثنى عشر خليفة صالحاً، يُقيم الحق و يعدل فيهم، و لا يلزم من هذا تواليهم و تتابع أيامهم، بل قد وُجد منهم أربعة على نَسق، و هم: الخلفاء الأربعة أبو بكر و عمر و عثمان وعلي رضي الله عنهم، و منهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة، و بعض بني العباس، و لا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة. و الظاهر أن منهم المهدي، المُبَشَّر في الأحاديث الواردة بذكره، فذكر أنه يُواطئ اسمُه اسم النبيﷺ، و اسم أبيه اسم أبيه، فيملأ الأرض عدلاً و قسطاً، كما مُلِئتْ جوراً و ظلماً.

و ليس هذا بالمنتظر الذي تتوهَّم الرافضة وجوده، ثم ظهوره من سرداب سامراً، فإن ذلك ليس له حقيقة، ولا وجود بالكلية، بل هو من هوس العقول السخيفة، و توهم الخيالات الضعيفة. و ليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر: الأئمة الاثنى عشر، الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض لجهلهم و قلة عقلهم.

و في التوراة البشارة بإسماعيل علي‍عليه السلام وأن الله يقيم من صلبه اثنى عشر عظيماً، و هم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث سمرة، و بعض الجهلة ممن أسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة، يُوهمونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر، فيتشيع كثيرٌ منهم جهلاً و سفهاً، لقلة علمهم، و علم من لقَّنهم ذلك، بالسنن الثابتة عن النبيﷺ.

و قوله تعالى: ﴿و قَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بحفظي و كلاءتي و نصري ﴿لَئِنْ أَقَمْتُم الصَّلَاةَ و آتَيْتُم الزَّكَاةَ وآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ أي: صدّقتموهم فيما يجيؤنكم به من الوحي ﴿و عزرتموهم﴾ أي: نصرتموهم ووازرتموهم على الحق ﴿و أقرَضتُم اللهَ قَرضاً حَسَناً﴾ و هو الانفاق في سبيله و ابتغاء مرضاته ﴿لأكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي ذنوبكم أمحوها و أسترها، لا أؤاخذكم بها ﴿و لأُدخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ﴾ أي: أدفع عنكم المحذور و أحصل لكم المقصود. و قوله: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعدَ ذلكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلَ﴾ أي: فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده و توكيده و شدّه، و جحده و عامله معاملة من لا يعرفه، فقد أخطأ الطريق الواضح، و عدل عن الهدى إلى الضلال.

١٣ – ثم أخبر تعالى عما حلَّ بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه، و نقضهم عهده، فقال: ﴿فَبِمَا نَقضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنّاهُمْ﴾ أي: فبسبب نقضهم الميثاق الذي أُخذ عليهم، لعناهم، أي: أبعدناهم عن الحق، وطردناهم عن الهدى ﴿وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً﴾ أي: فلا يتَّعظون بموعظة لغلظها و قساوتها ﴿يُحرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ أي: فسدت فُهومهم، و ساء تصرفهم في آيات الله، و تأوّلوا كتابه على غير ما أنزله، و حملوه على غير مراده، و قالوا عليه ما لم يقل، عياذاً بالله من ذلك ﴿و نَسُوا حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: و تركوا العمل به رغبة عنه. و قال الحسن: تركوا عُرَى دينهم، و وظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها. و قال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، و لا فطر مستقيمة، و لا أعمال قويمة. ﴿و لا تزالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنهُمْ﴾ يعني: مكرهم و غدرهم لك و لأصحابك. وقال مجاهد و غيره: يعني بذلك: تمالؤهم على الفتك برسول اللهﷺ. ﴿فاعْفُ عنهُمْ وَ اصفَحْ﴾ و هذا هو عين النصر و الظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملتَ مَن عصى الله فيك، بمثل أنْ تُطيع الله فيه. و بهذا يحصل لهم تأليفٌ و جمع على الحق،

و لعل الله أن يهديهم ، و لهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحسنينَ﴾ يعني به : الصفح عمن أساء إليك . و قال قتادة : هذه الآية ﴿فاعفُ عنهُمْ وَ اصفحْ﴾ منسوخةٌ بقوله ﴿قاتِلُوا الذينَ لا يُؤمنونَ باللهِ و لا باليَومِ الآخِرِ﴾ الآية .

١٤- و قوله تعالى : ﴿و مِنَ الذينَ قالُوا إِنَّا نصارَى أخَذْنا ميثاقَهُمْ﴾ أي : و من الذين ادّعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام ، ليسوا كذلك ، أخذنا عليهم العهود و المواثيق على متابعة الرسول ﷺ ، ومناصرته و موازرته ، و اقتفاء آثاره ، و على الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق و نقضوا العهود . و لهذا قال تعالى : ﴿فنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّروا به فأغْرينا بينهم العداوةِ والبَغضاءِ إلَى يومِ القِيامةِ﴾ أي : فألقينا بينهم العداوة و البغضاء لبعضهم بعضاً ، و لا يزالون كذلك إلى قيام الساعة .

ولذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين ، يُكفِّر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، فكل فرقة تُحَرِّم الأخرى و لا تدعها تلج معبدها ، فالملكية تكفر اليعقوبية ، و كذلك الآخرون ، و كذلك النسطورية و الآريوسية ، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا و يوم يقوم الأشهاد .

ثم قال : ﴿وسوفَ يُنَبِّئُهُم اللهُ بما كانُوا يَصنعُونَ﴾ و هذا تهديد و وعيدٌ أكيد للنصارى ، على ما ارتكبوه من الكذب على الله و رسوله ، و ما نسبوه إلى الرب عز وجل و تعالى و تقدّس عن قولهم علواً كبيراً ، مِنْ جعلهم له صاحبة وولداً ، تعالى الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد و لم يولد ، و لم يكن له كفواً أحد .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾

١٥- يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة ، أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى و دين الحق ، إلى جميع أهل الأرض عربهم و عجمهم ، أميهم و كتابيهم ، و أنه بعثه بالبينات ، و الفرق بين الحق و الباطل ، فقال : ﴿يا أهلَ الكتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسولُنا يُبَيِّنُ لكمْ كثيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخفونَ مِن الكِتابِ و يَعفُو عَن كثيرٍ﴾ أي : يبين ما بدّلوه وحرّفوه و أوّلوه ، و افتروا على الله فيه ، و يَسكت عن كثير مما غيروه و لا فائدة في بيانه .

و قد روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مَن كفر بالرجم ، فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب ، قوله : ﴿يا أهلَ الكتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسولُنا يُبَيِّنُ لكمْ كثيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخفونَ مِن الكِتابِ﴾ فكان الرجم مما أخفوه . ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

١٦- ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال : ﴿قدْ جاءَكُم مِّن اللهِ نورٌ وكتابٌ مُّبينٌ * يَهدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ أي : طرق النجاة و السلامة و مناهج الاستقامة ﴿ويُخرِجُهُم مِّن الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بإذْنِهِ وَ يهدِيهِمْ إِلَى صِراطٍ مُّستقيمٍ﴾ أي : يُنجيهم من المهالك ، و يوضح لهم أبين المسالك ، فيصرف عنهم المحذور ، و يحصل لهم أحب الأمور ، و ينفي عنهم الضلالة ، و يرشدهم إلى أقوم

حالة .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) ﴾

١٧ - يقول تعالى مخبراً و حاكياً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم ، و هو عبدٌ من عباد الله وخلق من خلقه ، أنه هو الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء ، وكونها تحت قهره و سلطانه ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ مَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ أي : لو أراد ذلك ، فمن الذي كان يمنعه منه ، أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك .

ثم قال : ﴿و لِلَّهِ مُلْكُ السَّمواتِ و الأرضِ و مَا بينَهُمَا يَخلُقُ ما يَشاءُ﴾ أي : جميع الموجودات ملكه وخلقه ، و هو القادر على ما يشاء ، لا يُسئل عما يفعل بقدرته و سلطانه ، و عدله و عظمته . و هذا ردٌّ على النصارى ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

١٨ - ثم قال تعالى رداً على اليهود و النصارى في كذبهم و افترائهم ﴿و قالَتِ اليهودُ و النَّصارَى نحنُ أبناءُ اللهِ و أحِبَّاؤه﴾ أي : نحن منتسبون إلى أنبيائه و هم بنوه ، و له بهم عناية ، و هو يحبنا . و نقلوا عن كتابهم : أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل : أنت ابني بكري . فحملوا هذا على غير تأويله و حرفوه . و قد ردّ عليهم غيرُ واحدٍ ممن أسلم من عقلائهم و قالوا : هذا يطلق عندهم على التشريف و الإكرام ، كما نقل النصارى من كتابهم أن عيسى قال لهم : إني ذاهب إلى أبي و أبيكم ، يعني ربي و ربكم . و معلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من النبوّة ما ادّعوها في عيسى عليه السلام ، و إنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه ، و حظوتهم عنده ، و لهذا قالوا ﴿نحنُ أبناءُ اللهِ و أحِبَّاؤه﴾ .

قال الله تعالى راداً عليهم ﴿قُلْ فلِمَ يُعذِّبُكم بذُنوبِكُم﴾ أي لو كنتم كما تدّعون أبناؤه و أحباؤه ، فلم أعددتُ لكم نار جهنم على كفركم و كذبكم و افترائكم؟ و قد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن ، أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه فتلا عليه الصوفية هذه الآية ﴿قُلْ فلِمَ يُعذِّبُكم بذُنوبِكُم﴾ .

و هذا الذي قاله حسن ، و له شاهد في المسند للإمام أحمد حديث روى عن أنس قال : مر النبيﷺ في نفر من أصحابه ، و صبيٌّ في الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطأ ، فأقبلت تسعى و تقول : ابني ابني ، و سمعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ، ما كانت هذه لتلقى ولدها في النار؟ قال : فخفّضهم النبيﷺ فقال : «و لا الله ما يُلقي حبيبه في النار» تفرد به أحمد .

﴿بَلْ أنتم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَق﴾ أي : لكم أسوة أمثالكم من بني آدم ، و هو سبحانه الحاكم في جميع عباده

﴿يَغفِرُ لِمَن يشَاءُ و يُعذِّبُ مَن يَشاءُ﴾ أي: هو فعال لما يريد، لا معقب لحكمه و هو سريع الحساب ﴿و لله مُلكُ السَّمواتِ و الأرضِ وَ مَا بَينَهُمَا﴾ أي: الجميع ملكه وتحت قهره و سلطانه ﴿و إليه المصير﴾ أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عباده ما يشاء، و هو العادل الذي لا يجور. و رُوي عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء و بحري بن عمرو وشاس بن عدي، فكلموه و كلمهم رسول الله ﷺ، و دعاهم إلى الله، و حذّرهم نقمته. فقالوا: ما تخوفنا يا محمد! نحن و الله أبناء الله و أحباؤه، كقول النصارى فأنزل الله فيهم ﴿و قالَتِ اليَهودُ و النَّصارَى نحنُ أبناءُ اللهِ و أحِبَّاؤهُ﴾ إلى آخر الآية. رواه ابن أبي حاتم و ابن جرير.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) ﴾

١٩ - يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود و النصارى، بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً ﷺ خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده و لا رسول، بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال ﴿على فترة من الرسل﴾، أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله و عيسى ابن مريم. و قد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي؟ فقال أبو عثمان النهدي و قتادة في رواية عنه: كانت ستمائة سنة. و رواه البخاري: عن سلمان الفارسي. و عن قتادة: خمسمائة و ستون سنة. والمشهور هو القول الأول، و هو أنها ستمائة سنة. و منهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة، ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، و الآخر أراد قمرية و بين كل مائة سنة شمسية و بين القمرية نحو من ثلاث سنين، و لهذا قال تعالى تعالى في قصة أهل الكهف ﴿و لبِثُوا في كَهفِهِم ثلاثَ مِائةٍ سِنينَ وَ ازدادُوا تِسْعاً﴾ أي قمرية لتكميل ثلاثمائة الشمسية، التي كانت معلومة لأهل الكتاب. و كانت الفترة بين عيسى ابن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل، و بين محمد خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما ثبت في صحيح البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أولى الناسِ بابنِ مريم لأنا، ليس بيني و بينه نبيٌّ». و هذا فيه ردٌّ على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يُقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القضاعي و غيره.

و المقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترةٍ من الرسل، و طموس من السُّبل، و تغير الأديان، و كثرة عبادة الأوثان و النيران و الصلبان. فكانت النعمة به أتم النعم، و الحاجة إليه أمر عمَم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، و الطغيان و الجهل قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود و عباد النصارى و الصابئين، كما روى الإمام أحمد: عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه: أن النبي ﷺ خطَب ذات يوم فقال في خطبته: «و إنَّ ربي أمرني أن أعلِّمكم مما جهلتم مما علمني في يومي هذا، كل مالٍ نحلته عبادي حلال، و إني خلقت عبادي حُنَفاء كلَّهم، و إن الشياطين أتتهم فأضلَّتهم عن دينهم، و حَرَّمت عليهم ما أحللت لهم، و أمرتهم أن يُشركوا بي ما لم أُنزل به سلطاناً، ثم إن الله عز وجل نَظَر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم و عجمهم، إلا بقايا من بني إسرائيل، و قال: إنما بعثتُك لأَبتليك و أبتلي بك، و أنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرأه نائماً و يقظاناً، ثم إن الله أمرني أنْ أُحرق قريشاً، فقلت: يا رب إذ يَثْلَغوا رأسي فيدعوه خبزةً، فقال: استخرجهم كما استخرجوك، و اغزهم نُغْزِك،

وأنفق عليهم فسننفق عليك، و ابعث جيشاً نَبعَث خمساً أمثاله، و قاتل بمن أطاعك من عصاك . . . »، ورواه مسلم و النسائي.

و المقصود من إيراد هذا الحديث قوله: « و إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم و عربهم إلا بقايا من بني إسرائيل» و في لفظ مسلم «من أهل الكتاب» فكان الدِّين قد التبسَ على أهل الأرض كلهم، حتى بعث الله محمداًﷺ فهدى الخلائق، و أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، و تركهم على المحجة البيضاء، والشريعة الغراء، و لهذا قال تعالى: ﴿أن تقُولُوا مَا جاءَنا مِن بَشيرٍ و لاَ نذيرٍ﴾ أي: لئلا تحتجوا وتقولوا يا أيها الذين بدّلوا دينهم و غيروه: ما جاءنا من رسول يبشر بالخير، و ينذر من الشر، فقد جاءكم بشير و نذير، يعني محمداًﷺ ﴿و اللهُ علَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ قال ابن جرير: معناه: إني قادر على عقاب من عصاني، و ثواب من أطاعني.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾

٢٠- يقول تعالى مخبراً عن عبده و رسوله و كليمه موسى بن عمرانعليه السلام، فيما ذكَّر به قومه نعم الله عليهم، وآلائه لديهم، في جمعه لهم خير الدنيا و الآخرة، لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: ﴿و إذ قالَ موسَى لِقومِهِ يا قومِ اذكرُوا نعمةَ اللهِ عليكُمْ إذ جعلَ فيكُمْ أنبياءَ﴾ أي كلما هلك نبيٌّ قام فيكم نبي، من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده، و كذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله، و يحذرون نقمته، حتى خُتِموا بعيسى ابن مريمعليه السلام، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء و الرسل على الإطلاق: محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيمعليه السلام، و هو أشرف من كل مَنْ تقدّمه منهمﷺ.

﴿و جعلَكُم مُّلوكاً﴾ روى عبد الرزاق عن ابن عباس في قوله: ﴿و جعلَكُم مُّلوكاً﴾ قال: الخادم و المرأة و البيت. و رواه الحاكم عن ابن عباس قال: المرأة و الخادم، ﴿و آتاكُم مَّا لَمْ يُؤتِ أحَداً مِّن العالَمينَ﴾ قال: الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه. و روى ابن جرير: عن عبد الله بن عمرو بن العاص و سأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك. و قال الحسن البصري: هل المُلك إلا مركب و خادم و دار. رواه ابن جرير،

ثم روى عن الحكم و مجاهد و منصور و سفيان الثوري نحواً من هذا، و قد ورد في الحديث «مَنْ أصبحَ منكم مُعافى في جسده، آمناً في سِرْبه، عنده قوت يومه، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها»(١).

و قوله: ﴿و آتاكُم مَّا لَمْ يُؤتِ أحَداً مِّن العالَمينَ﴾ يعني عالمي زمانكم، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان و القبط و سائر أصناف بني آدم، كما قال: ﴿و لقدْ آتينَا بَنِي إسرائيلَ الكتابَ و الحُكْم والنُّبوَّةَ ورَزقناهُم مِّنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ علَى العَالمينَ﴾ و قال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴿قالَ إنَّكُمْ قومٌ تَجهَلُونَ * إنَّ هؤلاءِ مُتبَّرٌ مَّا هُمْ فيهِ و باطِلٌ مَّا كانوا يَعمَلونَ * قالَ أغيرَ اللهِ أبغيكُمْ إلهاً وهُوَ فَضَّلَكُمْ علَى العَالمينَ﴾ و المقصود أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم و أفضل عند الله، و أكمل شريعةً، و أقوم منهاجاً، و أكرم نبياً، و أعظم مُلكاً، و أغزر أرزاقاً، و أكثر أموالاً و أولاداً، وأوسع مملكة، و أدوم عزاً، قال الله تعالى: ﴿و كذلكَ جعَلناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتكونُوا شُهَداءَ علَى النَّاسِ﴾.

و قد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة، و شرفها و كرمها عند الله، عند قوله تعالى: ﴿كنتُمْ خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من سورة آل عمران. و قيل: المراد: ﴿و آتاكُم مَّا لَمْ يُؤتِ أحَداً مِّن العالَمينَ﴾ يعني بذلك ما كان تعالى نَزَّله عليهم من المَنِّ و السلوى، و يظللهم به من الغمام، و غير ذلك ما كان تعالى يخصهم من خوارق العادات، فالله أعلم.

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد، و الدخول إلى بيت المقدس، الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو و بنوه و أهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام، ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى، فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين قد استحوذوا عليها و تملكوها، فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها و بقتال أعدائهم، و بشرهم بالنصرة و الظفر عليهم، فنكلوا وعصوا و خالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه، و التمادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون إلى مقصد، مدة أربعين سنة، عقوبةً لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى.

٢١، ٢٢- فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال: ﴿يا قَومِ ادخُلُوا الأرضَ المُقدَّسةَ﴾ أي: المطهرة. وقال ابن عباس قال: هي الطور و ما حوله. و كذا قال مجاهد و غير واحد.

و قوله تعالى: ﴿الَّتِي كتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ أي: التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل: أنه وراثة من آمن منكم ﴿و لا ترتدوا على أدباركم﴾ أي: و لا تنكلوا عن الجهاد ﴿فتَنقَلِبُوا خاسِرينَ * قالُوا يا مُوسَى إنَّ فيهَا قَوماً جَبَّارِينَ و إنَّا لَن نَّدخُلَهَا حَتَّى يَخرُجُوا مِنها فإن يَخرُجُوا مِنها فإنَّا داخِلونَ﴾ أي: اعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها، و قتال أهلها قوماً جبارين، أي: ذوي خلقٍ هائلةٍ و قوى شديدةٍ، و إننا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم، و لا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإنْ يخرجوا منها دخلنا و إلا فلا طاقة لنا بهم.

و قد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بني إسرائيل في عظمة خَلْق هؤلاء الجبارين، وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام، و أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع و ثلاثمائة و ثلاثة و ثلاثون ذراعاً، و ثلث ذراع تحرير الحساب! و هذا شيء يستحى من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ

---

(١) حديث حسن، رواه الترمذي (٢٤٦٣) و ابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري رضي الله عنه.

قال: «إنَّ الله خَلَقَ آدم و طوله ستون ذراعاً، ثم لم يَزَلْ الخَلْق ينقص حتى الآن». ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، و أنه كان ولد زنية، و أنه امتنع من ركوب سفينة نوح و أن الطوفان لم يصل إلى ركبته! و هذا كذب و افتراء، فإن الله تعالى ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال: ﴿ربِّ لا تَذَرْ علَى الأرضِ مِنَ الكافرينَ دَيَّاراً﴾ و قال تعالى: ﴿فأنجَيناهُ و مَن مَّعهُ في الفُلكِ المَشحونِ * ثُمَّ أغرَقنا بَعدُ الباقينَ﴾ و قال تعالى: ﴿لاَ عاصِمَ اليومَ مِنْ أمْرِ اللهِ إلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ و إذا كان ابن نوح الكافر غرق، فكيف يبقى عوج بن عنق و هو كافر و ولد زنية؟! هذا لا يسوغ في عقل و لا شرع، ثم في وجود رجل يقال له: عوج بن عنق نظر، و الله أعلم.

٢٣- و قوله تعالى: ﴿قالَ رَجُلانِ مِن الذينَ يَخافونَ أنعمَ اللهُ عليهِما﴾ أي: فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله و متابعة رسول الله موسى ﷺ، حَرَّضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، و هما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه، و قرأ بعضهم ﴿قالَ رجُلانِ مِنِ الذِينَ يُخَافونَ﴾ أي: ممن لهما مهابةٌ و موضع من الناس. ويقال إنهما: يوشع بن نون و كالب بن يوفنا. قاله ابن عباس و مجاهد و عكرمة و عطية و السدي و الربيع بن أنس وغير واحد من السلف و الخلف رحمهم الله، فقالا: ﴿ادخُلوا علَيهِم البابَ فإذا دخَلتمُوهُ فإنَّكمْ غالِبونَ * وعلَى اللهِ فتوَكَّلُوا إن كُنتُم مُّؤمنينَ﴾ أي: إن توكلتم على الله، و اتبعتم أمره و وافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم، و أيدكم و ظفركم بهم، و دخلتم البلد التي كتبها لكم. فلم ينفع ذلك فيهم شيئاً.

٢٤- ﴿قالُوا يا مُوسَى إنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أبَداً مَّا دَامُوا فِيهَا فاذهَبْ أنتَ و رَبُّكَ فقاتِلا إنَّا ههُنَا قاعِدونَ﴾ و هذا نكول منهم عن الجهاد و مخالفة لرسولهم، و تخلف عن مقاتلة الأعداء، و يقال: إنهم لما نكلوا عن الجهاد، وعزموا على الانصراف و الرجوع إلى مصر، سجد موسى و هارون عليهما السلام قدّام ملأ من بني إسرائيل، إعظاماً لما هَمُّوا به، و شق يوشع بن نون و كالب بن يوفنا ثيابهما، و لاَمَا قومهما على ذلك. فيقال: إنهم رجموهما، و جرى أمر عظيمٌ، و خطر جليل.

و ما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم، يوم بدر رسولَ الله ﷺ، حين استشارهم في قتال النفير الذين جاؤا لمنع العير، الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير، و اقترب منهم النفير، و هم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدّة و البيض و اليَلب، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، ثم تكلّم من تكلّم من الصحابة من المهاجرين و رسول الله ﷺ يقول: «أشيروا علي أيها المسلمون» و ما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ. فقال سعد بن معاذ: كأنك تُعَرِّض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، و ما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصبُرٌ في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقرّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد و نشَّطه ذلك. و روى أبو بكر بن مردويه: عن أنس: أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسولُ الله ﷺ، قالوا: إذاً لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿اذهَبْ أنتَ و رَبُّكَ فقاتِلا إنَّا ههُنَا قاعِدونَ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك، و رواه الإمام أحمد والنسائي و ابن حبان.

وكان ممن أجاب يومئذ المقداد بن عمرو الكندي رضي الله عنه، كما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن

مسعود رضي الله عنه : لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إليّ مما عدل به ، أتى رسول الله ﷺ و هو يدعو على المشركين فقال : والله يا رسول الله ، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿اذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلا إنّا ههُنا قاعِدونَ﴾ و لكنا نقاتل عن يمينك و عن يسارك ، و من بين يديك و من خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يُشرق لذلك و سُرَّ بذلك . و هكذا رواه البخاري .

٢٥- و قوله : ﴿قالَ ربِّ إنّي لا أملِكُ إلاّ نَفسِي وَ أخِي فافرُقْ بينَنا و بينَ القومِ الفاسِقينَ﴾ يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال ، غضب عليهم موسى عليه السلام . و قال داعياً عليهم : ﴿ربِّ إنّي لا أملِكُ إلاّ نَفسِي﴾ أي : ليس أحدٌ يطيعني منهم فيمتثل أمر الله ، و يجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا و أخي هارون ﴿فافرُقْ بينَنا و بينَ القومِ الفاسِقينَ﴾ عن ابن عباس : يعني اقض بيني و بينهم . كذا رواه علي بن أبي طلحة ، و قال غيره : افرق : افصل بيننا و بينهم .

٢٦- و قوله تعالى : ﴿فإنَّها مُحرَّمةٌ عليهِمْ أربعينَ سنةً يَتيهُونَ في الأرضِ﴾ الآية . لما دعا موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد ، حَكَم الله بتحريم دخولها عليهم قدرَ مدة أربعين سنة ، فوقعوا في التِّيه يسيرون دائماً لا يهتدون للخروج منه . و فيه كانت أمورٌ عجيبة ، و خوارق كثيرة ، من تظليلهم بالغمام ، و إنزال المنّ و السلوى عليهم ، و من إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تُحمل معهم على دابة ، فإذا ضربها موسى بعصاه ، انفجرت من ذلك الحجر اثنا عشر عيناً تجري لكل شعب عين ، و غير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران . وهناك نزلت التوراة ، و شرعت لهم الأحكام ، و عملت قبة العهد ، و يقال لها : قبة الزمان .

عن سعيد بن جبير سألت ابن عباس عن قوله : ﴿فإنَّها مُحرَّمةٌ عليهِمْ أربعينَ سنةً يَتيهُونَ في الأرضِ﴾ الآية . قال : فتاهوا في الأرض أربعين سنة ، يُصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار ، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه و أنزل عليهم المن والسلوى . و هذا قطعة من حديث الفتون ، ثم كانت وفاة هارون عليه السلام ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام ، و أقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام نبياً خليفة عن موسى بن عمران ، و مات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة ، و يقال : إنه لم يبق منه أحد سوى يوشع و كالب ، و من ههنا قال بعض المفسرين في قوله : ﴿قالَ فإنَّها مُحرَّمةٌ عليهِمْ﴾ هذا وقفٌ تام ، و قوله : ﴿أربعينَ سنةً﴾ منصوب بقوله ﴿يَتيهُونَ في الأرضِ﴾ فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام ، أو بمن بقي منهم و بسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني ، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر ، فلما تضيفت الشمس للغروب ، و خشي دخول السبت عليهم قال : إنك مأمورةٌ و أنا مأمور ، اللهم احبسها علي ، فحبسها الله تعالى حتى فتحها ، و أمر الله يوشع بن نون ، أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس ، أن يدخلوا بابها سجداً ، و هم يقولون : حِطَّةٌ ، أي : حُطَّ عنا ذنوبنا ، فبدلوا ما أُمروا به ، و دخلوا يزحفون على أستاهم ، وَهم يقولون : حبَّةٌ في شعرة ، و قد تقدم هذا كله في سورة البقرة .

و قد اختار ابن جرير أن قوله : ﴿فإنَّها مُحرَّمةٌ عليهِمْ﴾ هو للعامل في أربعين سنة ، و أنهم مكثوا لا يدخلونها أربعين سنة ، و هم تائهون في البرية لا يهتدون لمقصد ، قال : ثم خرجوا مع موسى عليه السلام ففتح بهم بيت المقدس ، قال : و أجمعوا على أن بلعام بن باعورا أعان الجبارين بالدعاء على موسى ، قال : و ما ذاك إلا

بعد التيه، لأنهم كانوا قبل التِّيه لا يخافون من موسى و قومه، هذا استدلاله.

و قوله تعالى: ﴿فلا تأسَ على القوم الفَاسِقين﴾ تسلية لموسى عليه السلام عنهم، أي: لا تأسف و لا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به، فإنهم مستحقون ذلك. و هذه القصة تضمنت تقريع اليهود، و بيان فضائحهم ومخالفتهم لله و لرسوله، و نكولهم عن طاعتهما فيما أمراهم به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء و مجالدتهم و مقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ و كليمه و صفيه من خلقه في ذلك الزمان، و هو يعدهم بالنصر و الظفر بأعدائهم، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون، من العذاب و النكال و الغرق له و لجنوده في اليم و هم ينظرون، لتقر به أعينهم، و ما بالعهد من قِدَم، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المِعْشار في عدّة أهلها و عددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، و افتضحوا فضيحةً لا يغطيها الليل، و لا يسترها الذيل، هذا و هم في جهلهم يعمهون، و في غيّهم يترددون، و هم البُغَضَاء إلى الله و أعداؤه، و يقولون مع ذلك نحن أبناء الله و أحباؤه، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير و القرود، و ألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، و يُقضى لهم بتأبيد الخلود، و قد فعل، و له الحمد من جميع الوجود.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾

٢٧- يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي و الحسد و الظلم، في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور، و هما: قابيل و هابيل، كيف عَدَا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه، و حسداً له فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل القربان الذي أخلص فيه عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام، و الدخول إلى الجنة، وخاب القاتل، ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين، فقال تعالى: ﴿و اتْلُ عليهِم نبأَ ابنَيْ آدمَ بالْحَقّ﴾ أي: اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة، إخوان الخنازير و القردة، من اليهود و أمثالهم و أشباههم: خبر ابني آدم، و هما هابيل و قابيل، فيما ذكره غير واحد من السلف و الخلف، و قوله: ﴿بالْحَقّ﴾ أي: على الجلية، و الأمر الذي لا لبس فيه و لا كذب و لا وهم، و لا تبديل و لا زيادة و لا نقصان، كقوله تعالى: ﴿إنَّ هذَا لَهُو الْقَصَصُ الحقُّ﴾ و قوله تعالى: ﴿نحنُ نَقُصُّ عليكَ نَبَأَهُم بِالحَقّ﴾ و قال: ﴿ذلكَ عيسَى ابنُ مريمَ قولَ الْحقّ﴾ و كان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف و الخلف، أن الله تعالى شَرَع لآدم عليه السلام أن يُزوّج بناته من بنيه لضرورة الحال، و لكن قالوا كان يولد له في كل بطن ذكر و أنثى، فكان يزوّج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة و أخت قابيل وضيئة، فأراد أن يستأثربها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يُقرّبا قرباناً

فمن تقبل منه فهي له، فتقبل من هابيل ولم يُتقبل من قابيل، فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه.

و روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها، و أمر أن ينكحها غيره من إخوتها، و كان يولد له في كل بطن رجل و امرأة، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة، و ولد له أخرى قبيحة دميمة، فقال أخو الدميمة: أنكحني أختك و أنكحك أختي، فقال: لا، أنا أحق بأختي، فقرّبا قرباناً فتقبل من صاحب الكبش، و لم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله. إسناد جيد.

و روى عن ابن عباس: قوله: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً﴾ فقرّبا قربانهما، فجاء صاحب الغنم بكبش أعين أقرن أبيض، و صاحب الحرث بصبرة من طعامه، فقبل الله الكبش فخزنه في الجنة أربعين خريفاً، و هو الكبش الذي ذبحه إبراهيمعليه السلام. إسناد جيد.

و روى ابن جرير: عن عبد الله بن عمرو قال: إن ابني آدم اللذين قرّبا قرباناً، فتقبل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر، كان أحدهما صاحب حرث، و الآخر صاحب غنم، و أنهما أُمرا أن يقرّبا قرباناً، و إنّ صاحب الغنم قرب أكرمَ غنمه و أسمنها و أحسنها، طيبةً بها نفسه، و إن صاحب الحرث قرب أشرَّ حرثه، الكودن والزُّوان غير طيبةٍ بها نفسه، و أن الله عز وجل تَقَبَّل قربانَ صاحب الغنم، و لم يتقبل قربان صاحب الحرث، وكان من قصتهما ما قَصَّ الله في كتابه، قال: وأيم الله، إنْ كان المقتول لأشدَّ الرجلين، و لكن منعه التحرّج أن يبسط يده إلى أخيه.

و روى العوفي عن ابن عباس قال: من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه، إنما كان القربان يقرّبه الرجل، فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا: لو قَرَّبنا قرباناً، و كان الرجل إذا قرب قرباناً فرضيه الله أرسل إليه ناراً فتأكله، و إنْ لم يكن رضيه الله خَبَت النار، فقرّبا قرباناً و كان أحدهما راعياً، و كان الآخر حراثاً، و إن صاحب الغنم قرب خير غنمه و أسمنها، و قرب الآخر بعض زرعه، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة، و تركت الزرع، و إن ابن آدم قال لأخيه: أتمشي في الناس، و قدعلموا أنك قربت قرباناً فتقبل منك، و ردّ عليّ! فلا و الله، لا ينظر الناس إليَّ و أنت خير مني، فقال: لأقتلنك، فقال له أخوه: ما ذنبي، إنما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير.

فهذا الأثر يقتضي أن تقريب القربان كان لا عن سبب، و لا عن تدارئ في امرأة، كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم، و هو ظاهر القرآن ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فالسياق يقتضي: إنه إنما غضب عليه و حسده بقبول قربانه دونه، ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرّب الشاة هو هابيل، و أن الذي قرب الطعام هو قابيل، و أنه تقبل من هابيل شاته، حتى قال ابن عباس وغيره: إنها الكبش الذي فدى به الذبيح، و هو مناسب، و الله أعلم، و لم يتقبل من قابيل.

كذلك نص عليه غير واحد من السلف و الخلف، و هو المشهور عن مجاهد أيضاً. و لكن روى ابن جرير عنه أنه قال: الذي قرب الزرع قابيل و هو المتقبل منه، و هذا خلاف المشهور و لعله لم يحفظ عنه جيداً، و الله أعلم.

و معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ممن اتقى الله في فعله ذلك. و روى ابن أبي حاتم: عن أبي الدرداء قال: لأن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاةً واحدةً، أحب إلي من الدنيا و ما فيها، إن الله يقول:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

و قوله : ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول له أخوه الرجل الصالح، الذي تقبل الله قربانه لتقواه، حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه : ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ أي: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: من أن أصنع كما تريد أن تصنع ، بل أصبر وأحتسب. قال عبد الله بن عمرو: وأيم الله، إنْ كان لأشد الرجلين و لكن منعه التحرج، يعني الورع.

و لهذا ثبت في الصحيحين: عن النبيﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل و المقتول في النار» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

و روى الإمام أحمد: عن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول اللهﷺ قال: «إنها ستكون فتنةٌ القاعد فيها خيرٌ من القائم، و القائم خيرٌ من الماشي، و الماشي خير من الساعي» قال: أفرأيت إنْ دخل على بيتي فبسط يده إلي ليقتلني؟ فقال: «كن كابن آدم» و كذا رواه الترمذي و في الباب عن أبي هريرة و خباب بن الأرت و أبي بكر و ابن مسعود و أبي واقد و أبي موسى و خَرَشَة. و روى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: ركب النبيﷺ حماراً و أردفني خلفه، وقال: «يا أبا ذر أرأيت إن أصاب الناس جوعٌ شديد، لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع» قال: قال الله و رسوله أعلم، قال: «تعفف» قال: «يا أبا ذر أرأيت إن أصابَ الناس موتٌ شديدٌ، يكون البيت فيه بالعبد ـ يعني القبر ـ كيف تصنع؟ قلت: الله و رسوله أعلم، قال: «اصبر» قال: «يا أبا ذر أرأيت إن قتل الناس بعضُهم بعضاً، يعني حتى تغرقَ حجارة الزيت من الدماء، كيف تصنع؟ قال: و الله أعلم، قال: «اقعد في بيتك، و أغلق عليك بابك» قال: فإنْ لم أُترك؟ قال: «فأتِ من أنتَ منهم، فكن فيهم» قال: فآخذ سلاحي؟ قال: «إذاً تشاركهم فيما هم فيه، و لكن إذا خشيتَ أن يروعك شعاعُ السيف، فألقِ طرفَ ردائك على وجهك، كي يبوء بإثمه و إثمك» و رواه مسلم و أهل السنن سوى النسائي.

٢٩- و قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي و إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ و ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد و الضحاك و قتادة و السدي في قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي و إِثْمِكَ﴾ أي: بإثم قتلي، وإثمك الذي عليك قبل ذلك. قاله ابن جرير. و قال آخرون: يعني بذلك إني أريد أن تبوء بخطيئتي، فتتحمل وزرها، و إثمك في قتلك إياي. و هذا قول وجدته عن مجاهد، و أخشى أن يكون غلطاً، لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه [1].

(قلت) و قد يتوهم كثير من الناس هذا القول، و يذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له: «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب» و قد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً يشبه هذا، و لكن ليس به، عن عائشة قالت: قال رسول اللهﷺ: «قَتْل الصَّبْر لا يمر بذنب إلا محاه» و هذا بهذا لا يصح، ولو صحَّ فمعناه: إن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تُحمل على القاتل فلا، و لكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص، و هو

(١) ثم ذكر الرواية عنه بمثل القول الأول.

الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العَرَصَات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته، فإنْ نَفَدت و لم يستوفِ حقه، أُخِذَ من سيئات المقتول فطُرحت على القاتل، فربما لا يبقى على المقتول خطيئته إلا وضعت على القاتل، و قد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، و القتل من أعظمها و أشدها و الله أعلم[(١)].

و أورد ابن جرير على هذا سؤالاً حاصله: كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله و إثم نفسه، مع أن قتله له محرّمٌ؟ و أجاب بما حاصله: أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله، بل يكف عنه يده طالباً إنْ وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه. قلت: و هذا الكلام متضمن موعظةً له لو اتعظ، و زجراً له لو انزجر، و لهذا قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي و إِثْمِكَ﴾ أي: تتحمل إثمي و إثمك ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ و ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ و قال ابن عباس: خوّفه بالنار، فلم ينته و لم ينزجر.

٣٠- و قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: فحَسَّنت و سوّلت له نفسه وشجعته على قتل أخيه، فقتله، أي: بعد هذه الموعظة و هذا الزجر. و قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في الدنيا و الآخرة، و أي خسارةٍ أعظم من هذه. و قد روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نَفسٌ ظُلماً، إلا كان على ابن آدم الأوّل كِفْلٌ من دمها، لأنه كان أوّلَ مَنْ سَنَّ القتل» وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود.

٣١- و قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء غرابٌ إلى غراب ميت، فبحث عليه من التراب حتى وَارَاه، فقال الذي قتل أخاه ﴿يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾ و قال الضحاك عن ابن عباس: مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة، حتى بعث الله الغرابين، فرآهما يبحثان فقال: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ فدفن أخاه.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد خسران. فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة، و كلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، و كما نطق به الحديث في قوله: «إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها، لأنه أول من سنّ القتل» و هذا ظاهرٌ جلي، ولكن روى ابن جرير عن الحسن هو البصري قال: كان الرجلان اللذان في القرآن، اللذان قال الله ﴿و اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ من بني إسرائيل، و لم يكونا ابني آدم لصلبه، و إنما كان القربان من بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات. و هذا غريب جداً، و في إسناده نظر.

و الظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة، كما ذكره مجاهد و ابن جرير أنه: علقت ساقه بفخذه إلى يوم القيامة، و جعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت، عقوبة له و تنكيلاً به. و قد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «ما من ذنبٍ أجدر أنْ يُعَجِّلَ اللهُ عُقوبته في الدنيا، مع ما يدّخرُ لصاحبه في الآخرة، من: البَغي و قطيعة الرحم»[(٢)].

---

(١) و اختاره ابن جرير كما ذكره عنه.

(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود (٤٩٠٢) و ابن ماجه (٤٢١١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

و قد اجتمع في فعل قابيل هذا و هذا، فإنا لله و إنا إليه راجعون.

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤) ﴾

٣٢- يقول تعالى: من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً و عدواناً **﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** أي: شرَعنا لهم وأعلمناهم **﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً و مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾** أي: من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب و لا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً، لأنه لا فرق عنده بين نفس و نفس، و من أحياها أي: حرّم قتلها و اعتقد ذلك، فقد سَلِمَ الناس كلهم منه بهذا الاعتبار، و لهذا قال: **﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾** و عن أبي هريرة قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئتُ لأنصرك، و قدطاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: يا أبا هريرة، أيسرُّك أن تقتل الناسَ جميعاً و إياي معهم؟ قلت: لا، قال: فإنك إنْ قتلت رجلاً واحداً، فكأنما قتلت الناس جميعاً، فانصرفْ مأذوناً لك، مأجوراً غير مأزور. قال: فانصرفتُ و لم أقاتل.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو كما قال الله تعالى: **﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً و مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾** و إحياؤها ألا يَقتل نفساً حَرَّمها الله، فذلك الذي أحيا الناس جميعاً. يعني أنه مَنْ حرّم قتلها إلا بحق، حيي الناس منه. و هكذا قال مجاهد: **﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾** أي: كفَّ عن قتلها. وقال سعيد بن جبير: من استحلَّ دَمَ مسلم، فكأنما استح دماء الناس جميعاً، ومن حرَّم دم مسلم فكأنما حرَّم دماء الناس جميعاً. هذا قول، هو الأظهر، و قال عكرمة و العوفي عن ابن عباس: من قتل نبياً، أو إمام عَدْل، فكأنما قتل الناس جميعاً، و من شدّ على عضد نبي، أو إمام عدل، فكأنما أحيا الناس جميعاً. رواه ابن جرير. و قال مجاهدفي رواية أخرى عنه: من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً، و ذلك لأن مَن قتل النفس فله النار، فهو كما لو قتل الناس كلهم. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: من قتل نفساً فكأنما قتل الناس، يعني فقد وجب عليه القصاص، فلا فرق بين الواحد و الجماعة، ومن أحياها أي: عفا عن قاتل وليه، فكأنما أحيا الناس جميعاً. و حكى ذلك عن أبيه. رواه ابن جرير. و قال مجاهد في رواية: **﴿و مَنْ أَحْيَاهَا﴾** أي: أنجاها من غرق أو حرق أو هلكة. و قال قتادة: عظيمٌ و اللهِ وِزْرها، وعظيمٌ والله أجرها. و عن سليمان بن علي الربعي قال قلت للحسن: هذه الآية لنا يا أبا سعيد، كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: أي، و الذي لا إله غيره، كما كانت لبني إسرائيل، و ما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا. و قال: **﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾** قال: وزراً، **﴿و مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾** قال:

أجراً.

قوله تعالى: ﴿و لقد جاءتهم رسلنا بالبينات﴾ أي: بالحجج و البراهين و الدلائل الواضحة ﴿ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ و هذا تقريعٌ لهم و توبيخ، على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت بنو قريظة و النضير و غيرهم من بني قينقاع، ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج، إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروه، و ودوا من قتلوه. و قد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة حيث يقول: ﴿و إذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم و أنتم تشهدون * ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم و تخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان و إن يأتوكم أسارى تفادوهم و هو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا و يوم القيامة يردون إلى أشد العذاب و ما الله بغافل عما تعملون﴾.

٣٣- قوله: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله و رسوله و يسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ الآية. المحاربة: هي المضادة و المخالفة، و هي صادقةٌ على الكفر، و على قطع الطريق، و إخافة السبيل، و كذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب: أن قرض الدراهم و الدنانير من الإفساد في الأرض، و قد قال الله تعالى: ﴿و إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث و النسل و الله لا يحب الفساد﴾.

ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين، روى أبو داود و النسائي: من طريق عكرمة عن ابن عباس ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله و رسوله و يسعون في الأرض فساداً﴾ نزلت في المشركين فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصابه. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم و بين النبيﷺ عهدٌ و ميثاق، فنقضوا العهد و أفسدوا في الأرض، فخيّر الله رسوله إن شاء أن يقتل، و إن شاء أن يقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف. رواه ابن جرير.

و عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: نزلت في الحرورية ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله و رسوله ويسعون في الأرض فساداً﴾ رواه ابن مردويه. و الصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين و غيرهم ممن ارتكب هذه الصفات، كما رواه البخاري و مسلم: من حديث أبي قلابة عن أنس بن مالك: أن نفراً من عُكْل ثمانية قدموا على رسول اللهﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا المدينة، و سقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول اللهﷺ ذلك، فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله، فتصيبون من أبوالها و ألبانها» فقالوا: بلى، فخرجوا فشربوا من أبوالها و ألبانها، فصحوا، فقتلوا الراعي و طردوا الإبل، فبلغ ذلك رسولَ اللهﷺ فبعث في آثارهم فأُدركوا، فجيء بهم فأمر بهم فقُطعت أيديهم و أرجلهم، و سُمرت أعينهم، ثم نُبذوا في الشمس حتى ماتوا. لفظ مسلم. و في لفظ لهما: من عكل أو عُرَيْنَة. و في لفظ: و ألقوا في الحَرَّة فجعلوا يستسقون فلا يسقون. و في لفظ لمسلم: ولم يحسمهم. و عند البخاري: قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا و قتلوا و كفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله. و عن أنس قال إنما سمل النبيﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء. رواه مسلم. وقد روى قصة العرنيين من حديث جماعة من الصحابة منهم جابر و عائشة و غير واحد، و قد اعتنى الحافظ

الجليل أبو بكر بن مردويه بتطريق هذا الحديث من وجوه كثيرة جدا، فرحمه الله وأثابه.

و قد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العرنيين هل هو منسوخ أو محكم؟ فقال بعضهم: هو منسوخ بهذه الآية، و زعموا أن فيها عتاباً للنبيﷺ، كما في قوله ﴿عفَا اللهُ عنكَ لِمَ أذِنتَ لَهُمْ﴾ و منهم من قال: هو منسوخ بنهي النبيﷺ عن المُثْلة. وهذا القول فيه نظر! ثم قائله مطالب ببيان تأخر الناسخ الذي ادعاه عن المنسوخ. وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تنزل الحدود، قاله محمد بن سيرين. و فيه نظر! فإن قصته متأخرة. و في رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها، فإنه أسلم بعد نزول المائدة، و منهم من قال: لم يسمل النبيﷺ أعينهم، و إنما عزم على ذلك حتى نزل القرآن فبين حكم المحاربين. و هذا القول أيضاً فيه نظر! فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سمل، و في رواية: سمر أعينهم. ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن حكم المحاربة في الأمصار و في السبلان على السواء، لقوله ﴿وَيَسعَوْنَ فِي الأرضِ فَسَاداً﴾ و هذا مذهب مالك و الأوزاعي والليث بن سعد و الشافعي و أحمد بن حنبل، حتى قال مالك في الذي يغتال الرجل فيخدعه، حتى يدخله بيتاً فيقتله، و يأخذ ما معه: أن هذه محاربة، و دمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول، و لا اعتبار بعفوه عنه في إسقاط القتل. و قال أبو حنيفة و أصحابه: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا، لأنه يلحقه الغَوْث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يُغيثه و يُعينه.

و قوله تعالى: ﴿أن يُقَتَّلُوا أوْيُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّعَ أيدِيهِمْ وَ أرجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أوْ يُنفَوْا مِنَ الأرضِ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: مَن شَهَرَ السلاح في فئة الإسلام، و أخاف السبيل، ثم ظَفَرَ به و قدر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار إنْ شاء قتله و إن شاء صلبه، و إن شاء قطع يده و رجله. و كذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد و عطاء و الحسن البصري و إبراهيم النخعي و الضحاك، و روى ذلك كله أبو جعفر بن جرير، وحكى مثله عن مالك بن أنس رحمه الله، و مستند هذا القول أن ظاهر «أو» للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن، كقوله في جزاء الصيد: ﴿فجزاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَسَاكِينَ أوْ عَدْلُ ذلكَ صِيَاماً﴾ و كقوله في كفارة الفدية ﴿فَمَن كانَ مِنكُم مَّرِيضاً أوْ بِهِ أذًى مِّن رَّأسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيامٍ أوْ صَدَقَةٍ أوْ نُسُكٍ﴾ و كقوله في كفارة اليمين ﴿فإطْعامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أوسَطِ مَا تُطْعِمونَ أهْليكُمْ أوْ كِسوَتُهمْ أوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ هذه كلها على التخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية.

و قال الجمهور هذه الآية منزلة على أحوال، كما روى أبو عبد الله الشافعي: عن ابن عباس: في قُطاع الطريق إذا قتلوا و أخذوا المال: قُتلوا و صلبوا، و إذا قَتَلوا و لم يأخذوا المال: قُتلوا و لم يُصلبوا، و إذا أخذوا المال و لم يَقْتلوا: قُطِّعت أيديهم و أرجلهم من خلاف، و إذا أخافوا السبيل و لم يأخذوا المال: نفوا من الأرض (١).

و قد رواه ابن أبي شيبة عن ابن عباس بنحوه، و عن أبي مخلد و سعيد بن جبير و إبراهيم النخعي والحسن و قتادة والسدي و عطاء الخراساني نحو ذلك، و هكذا قال غير واحد من السلف و الأئمة. و اختلفوا هل يصلب حياً ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام و الشراب؟ أو بقتله برمح أو نحوه؟ أو يقتل أولاً ثم يصلب تنكيلاً و تشديداً لغيره من المفسدين؟ و هل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل، أو يترك حتى يسيل صديده؟ في ذلك

---

(١) و في سنده ضعف، لكن له طرق يتقوى بها. و هو قول غير واحد من السلف كما ترى.

كله خلاف محرّر في موضعه، و بالله الثقة و عليه التكلان.

و أما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ قال بعضهم: هو أن يُطلب حتى يُقدر عليه فيقام عليه الحد، أو يهرب من دار الإسلام. رواه ابن جرير: عن ابن عباس و أنس بن مالك و سعيد بن جبير و الضحاك و الربيع ابن أنس و الزهري و الليث بن سعد و مالك بن أنس. و قال آخرون: هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر، أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية. و قال الشعبي ينفيه ـ كما قال ابن هبيرة ـ من عمله كله. و قال عطاء الخراساني: يُنفى من جند إلى جند سنين، و لا يخرج من دار الإسلام. و كذا قال سعيد بن جبير و أبو الشعثاء و الحسن والزهري و الضحاك و مقاتل بن حيان أنه: يُنفى و لا يخرج من أرض الإسلام.

و قال آخرون: المراد بالنفي ههنا: السجن. و هو قول أبي حنيفة و أصحابه. و اختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا: أن يُخرج من بلده إلى بلد آخر فليسجن فيه.

و قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي هذا الذي ذكرته من قتلهم، ومن صلبهم، و قطع أيديهم و أرجلهم من خلاف، و نفيهم خزيٌ لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا، مع ما ادّخرَ الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة. و هذا يؤيد قول من قال: إنها نزلت في المشركين.

فأما أهل الإسلام ففي صحيح مسلم: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: أَخَذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: ألا نشرك بالله شيئاً، و لا نسرق، و لا نزني، و لا نقتل أولادنا، و لا يعضه بعضنا بعضاً، فمن وَفَّى منكم فأجره على الله تعالى، و مَنْ أَصَاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، و مَن سَتره الله فأمره إلى الله، إن شاء عَذَّبه و إن شاء عفا عنه.

و عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنبَ ذنباً في الدنيا فعُوقب به، فالله أعدل من أن يُثنّي عقوبته على عبده، و من أذنب ذنباً في الدنيا فَستره الله عليه و عفا عنه، فالله أكرم من أن يعود عليه في شيءٍ قد عفا عنه» رواه الإمام أحمد و الترمذي و ابن ماجه، و قال الترمذي حسن غريب، و قد سئل الحافظ الدارقطني عن هذا الحديث، فقال: روى مرفوعاً و موقوفاً، قال: ورفعه صحيح.

و قال ابن جرير في قوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يعني: شرٌّ و عار و نكال، و ذلة و عقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا ـ في الآخرة مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا و العقوبة التي عاقبتهم بها فيها ـ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني عذاب جهنم.

و قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك، فظاهر، و أما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يَسقط عنهم: انحتام القتل و الصلب و قطع الرجل، و هل يَسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء، و ظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، و عليه عمل الصحابة. روى ابن جرير: أن علياً الأسدي حارب و أخاف السبيل، و أصاب الدم و المال، فطلبه الأئمة و العامة فامتنع، و لم يقدروا عليه، حتى جاء تائباً، و ذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

الرَّحِيمُ﴾ فوقف عليه، فقال: يا عبد الله، أعد قراءتها، فأعادها عليه، فغمد سيفه ثم جاء تائباً، حتى قدم المدينة من السَّحر فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح، ثم قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه فلما أسفروا عَرَفه الناس، فقاموا إليه فقال: لا سبيل لكم علي، جئت تائباً من قبل أن تقدروا علي، فقال أبو هريرة: صدق، و أخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم و هو أمير على المدينة في زمن معاوية، فقال: هذا علي جاء تائباً و لا سبيل عليه، و لا قتل، فترك من ذلك كله، قال: وخرج علي تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر، فلقوا الروم فقرنوا سفينته إلى سفينة من سفنهم، فاقتحم على الروم في سفينتهم، فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به و بهم، فغرقوا جميعاً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) ﴾

٣٥- يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، و هي إذا قُرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم و ترك المنهيات، و قد قال بعدها **﴿و ابْتَغُوا إليهِ الوَسيلَةَ﴾** روى سفيان الثوري عن ابن عباس: أي القربة. و كذا قال مجاهد و أبو وائل و الحسن و قتادة و عبد الله بن كثير و السدي و ابن زيد و غير واحد، وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته و العمل بما يرضيه، و قرأ ابن زيد **﴿أولئِكَ الذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسيلةَ﴾**. و هذا الذي قاله هؤلاء الأئمة، لا خلاف بين المفسرين فيه.

و الوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، و الوسيلة أيضاً عَلَمٌ على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ و داره في الجنة، و هي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، و قد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يَسمع النداء: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة و الفضيلة، و ابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حَلَّتْ له الشفاعة يوم القيامة».

(حديث آخر) في صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلَ ما يقول، ثم صلّوا علي، فإنه مَن صلى علي صلاةً، صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا إلي الوسيلة، فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، و أرجو أنْ أكونَ أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة».

و قوله: **﴿و جاهِدوا في سبيلِهِ لَعلَّكُمْ تُفلِحونَ﴾** لما أمرهم بترك المحارم و فعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار و المشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، و التاركين للدين القويم، و رغَّبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح و السعادة العظيمة الخالدة المستمرة، التي لا تبيد و لا تحول ولا تزول، في الغُرَف العالية الرفيعة، الآمنة الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي مَن سكنها ينعم لا

يبأس، ويحيى و لا يموت، لا تبلى ثيابه، و لا يفنى شبابه.

٢٦- ثم أخبر تعالى بما أعدَّ لأعدائه الكفار، من العذاب و النكال يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لو أنَّ أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً، و بمثله، ليفتدى بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتيقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه، و لا محيص له و لا مناص، و لهذا قال: ﴿وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع.

٢٧- ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ و مَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية. فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته و أليم مَسِّه، و لا سبيل لهم إلى ذلك، و كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فيردوهم إلى أسفلها ﴿و لَهمْ عذابٌ مُّقيمٌ﴾ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها، و لا محيد لهم عنها، و قد قال أنس بن مالك: قال رسول اللهﷺ: «يُؤتى بالرجل من أهل النار، فيقال له: يا ابن آدم، كيف وجدتَ مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقال: هل تفتدي بقُراب الأرض ذهباً؟ قال: فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كذبتَ، قد سألتُك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار» رواه البخاري و مسلم والنسائي.

ثم روى ابن مردويه: عن جابر بن عبد الله: أن رسول اللهﷺ قال: «يخرجُ من النار قومٌ فيدخلون الجنة» قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ و مَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ قال: اتلُ أول الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾ الآية، ألا إنهم الذين كفروا. و قد روى الإمام أحمد و مسلم هذا الحديث من وجه آخر عن جابر، و هذا أبسط سياقاً.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)﴾

٣٨- يقول تعالى حاكماً و آمراً بقطع السارق و السارقة. و روى الثوري أن ابن مسعود كان يقرؤها ﴿والسَّارقُ و السَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيمَانهُمَا﴾ و هذه قراءة شاذة، و إن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها، لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر. و قد كان القطع معمولاً به في الجاهلية فقرر في الإسلام، و زيدت شروط أخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى، كما كانت القَسَامة و الدِّية و القراض و غير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه، و زيادات هي من تمام المصالح. و قد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً، قُطعت يده به، سواء كان قليلاً أو كثيراً، لعموم هذه الآية ﴿والسَّارِقُ و السَّارِقَةُ فاقْطَعُو أيدِيَهُمَا﴾ فلم يعتبروا نصاباً و لا حِرزاً، بل أخذوا بمجرد السرقة. و تمسكوا بما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال: «لعن الله السارقَ يسرقُ البيضة فتُقطع يده، و يسرق الحبل فتُقطع يده».

و أما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة ، و إن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره ، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة ، فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله : النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة ، فمتى سرقها ، أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه ، وجب القطع . و احتج في ذلك بما رواه ابن عمر أن رسول الله ﷺ «قَطعَ في مِجَنٍّ ثمنه ثلاثة دراهم» أخرجاه في الصحيحين ، قال مالك رحمه الله : و قطع عثمان رضي الله عنه في أترجة قومت بثلاثة دراهم و هو أحب ما سمعت في ذلك . و هذا الأثر عن عثمان رضي الله عنه قد رواه مالك . قال أصحاب مالك : و مثل هذا الصنيع يشتهر و لم ينكر ، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي . و فيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية ، و على اعتبار ثلاثة دراهم ، خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم ، وللشافعية في اعتبار ربع دينار ، و الله أعلم . و ذهب الشافعي رحمه الله : إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار ، أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً ، و الحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان : عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : «تُقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً» و لمسلم : «لا تقطع يد السارق ، إلا في ربع دينارفصاعداً» . قال أصحابنا : فهذا الحديث فاصل في المسألة ، و نص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه ، قالوا : و حديث ثمن المجن ، و أنه كان ثلاثة دراهم ، لا ينافي هذا ، لأنه إذْ ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً ، فهي ثمن ربع دينار ، فأمكن الجمع بهذا الطريق . و يروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، و به يقول عمر بن عبد العزيز و الليث بن سعد و الأوزاعي و الشافعي وأصحابه ، و إسحاق بن راهويه في رواية عنه و أبو ثور و داود بن علي الظاهري رحمهم الله .

و ذهب الإمام أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه في رواية عنه : إلى أن كلَّ واحد من ربع الدينار ، والثلاثة دراهم ، مردٌ شرعي فمن سَرَق واحداً منهما ، أو ما يساويه ، قطع عملاً بحديث ابن عمر ، و بحديث عائشة رضي الله عنهما ، و وقع في لفظ عند الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «اقطعوا في ربع دينار و لا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك» و كان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم ، و الدينار اثني عشر درهماً . وفي لفظ للنسائي «لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن» قيل لعائشة : ما ثمن المجن؟ قالت : ربع دينار . فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم ، و الله أعلم .

و قد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية ، من حديث أبي هريرة «يسرق البيضة فتقطع يده ، و يسرق الحبل فتقطع يده» بأجوبة : (أحدها) أنه منسوخ بحديث عائشة . و في هذا نظر ! لأنه لا بد من بيان التاريخ . (والثاني) أنه مؤول ببيضة الحديد ، و حبل السفن . قاله الأعمش فيما حكاه البخاري و غيره عنه . (والثالث) أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة ، من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده . و يحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية ، حيث كانوا يقطعون في القليل و الكثير ، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة ، في الأشياء المهينة . و قد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء ، في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ، و نظم في ذلك شعراً دل على جهله ، و قلة عقله . و قد أجاب الناس في ذلك ، فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله أن قال : لما كانت أمينة ، كانت ثمينة ، و لما خانت هانت ، و منهم من قال : هذا من تمام الحكمة و المصلحة و أسرار الشريعة العظيمة ، فإن

في باب الجنايات ناسب أن تُعَظَّم قيمة اليد بخمسمائة دينار لئلا يُجنى عليها، و في باب السرقة، ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار، لئلا يُسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب.

ولهذا قال: ﴿جزاءً بما كَسَبَا نكالاً مِّنَ اللهِ و اللهُ عزيزٌ حكيم﴾ أي: مجازاة على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿نكالاً مِّنَ اللهِ﴾ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿و اللهُ عزيزٌ﴾ أي: في انتقامه ﴿حكيم﴾ أي: في أمره و نهيه و شرعه و قدره.

ثم قال تعالى: ﴿فمَن تابَ مِن بَعدِ ظُلمِهِ و أصلَحَ فإنَّ اللهَ يَتُوبُ عليهِ إنَّ اللهَ غَفورٌ رَّحيم﴾ أي: من تاب بعد سرقته و أناب إلى الله، فإن الله يتوب عليه فيما بينه و بينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردِّها إليهم، أو بَدَلها، عند الجمهور. وقال أبو حنيفة متى قطع و قد تلفت في يده، فإنه لا يرد بدلها.

و في الصحيحين: عن عائشة أن قريشاً أهمَّهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبيﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: مَنْ يكلم فيها رسول اللهﷺ؟ فقالوا: و مَنْ يَجترئُ عليه إلا أسامة بن زيد، حِبُّ رسول اللهﷺ، فأتى بها رسول اللهﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلوّن وجهُ رسول اللهﷺ فقال: «أتشفعُ في حدٍّ من حدود الله عز وجل» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العَشي قام رسول اللهﷺ فاختطبَ، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سَرقَ فيهم الشريف تركوه، و إذا سرق فيهم الضعيفُ، أقاموا عليه الحدّ، و إني و الذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمرَ بتلك المرأة التي سَرقت فقُطعت يدها. قالت عائشة: فَحُسنت توبتها بعد، وتزوجت، و كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول اللهﷺ. و هذا لفظ مسلم. و في لفظ له: عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع و تجحده، فأمر النبيﷺ بقطع يدها.

و عن ابن عمر قال: كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على ألسنة جاراتها و تجحده فأمر رسول اللهﷺ بقطع يدها. رواه الإمام أحمد و أبو داود و النسائي، و هذا لفظه. و في لفظ له: أن امرأة كانت تستعير الحلي للناس، ثم تمسكه، فقال رسول اللهﷺ: «لِتَتُب هذه المرأة إلى الله و إلى رسوله، و تردّ ما تأخذ على القوم» ثم قال رسول اللهﷺ: «قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها». و قد ورد في أحكام السرقة أحاديث كثيرة، مذكورة في كتاب الأحكام و لله الحمد و المنة.

٤٠- ثم قال تعالى: ﴿ألَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ و الأرضِ﴾ أي: هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه الذي لا معقب لحكمه، و هو الفعال لما يريد ﴿يَغفِرُ لِمَن يَشاءُ وَ يُعذِّبُ مَن يَشاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدير﴾.

﴿يا أَيُّها الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذينَ يُسارِعُونَ في الْكُفْرِ مِنَ الَّذينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتيتُمْ هَذا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ

اللَّه شيئًا أُولئك الَّذين لم يرد اللَّه أن يُطهِّر قُلوبَهُم لهم في الدُّنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ ﴿٤١﴾ سمَّاعون للكذب أكَّالون للسُّحت فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تُعرض عنهم فلن يضرُّوك شيئًا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إنَّ اللَّه يُحبُّ المُقسطين ﴿٤٢﴾ وكيف يُحكِّمونك وعندهُم التَّوراةُ فيها حُكمُ اللَّه ثُمَّ يتولَّون من بعد ذلك وما أُولئك بالمُؤمنين ﴿٤٣﴾ إنَّا أنزلنا التَّوراة فيها هُدًى ونورٌ يحكُمُ بها النَّبيُّون الَّذين أسلموا للَّذين هادوا والرَّبَّانيُّون والأحبار بما استُحفظوا من كتاب اللَّه وكانوا عليه شُهداء فلا تخشوُا النَّاس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً ومن لم يحكُم بما أنزل اللَّهُ فأُولئك هُمُ الكافرون ﴿٤٤﴾﴾

٤١ - نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله و رسوله، المُقدِّمين آراءهم و أهواءهم على شرائع الله عز وجل: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أظهروا الإيمان بزلستهم و قلوبهم خرابٌ خاوية منه، و هؤلاء هم المنافقون ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله، و هؤلاء كلهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: مستجيبون له منفعلون عنه ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد. و قيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، ويُنهونه إلى قوم آخرين، ممن لا يحضر عندك من أعدائك ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، و يبدّلونه من بعد ما عقلوه و هم يعلمون ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحصن منهم، فحرّفوه و اصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، و التحميم، و الإركاب على حمارين مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإنْ حكم بالجلد و التحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم و بين الله و يكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، و إنْ حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

و قد وردت الأحاديث بذلك، فروى مالك: عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤا إلى رسول الله فذكروا له أن رجلاً منهم و امرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرَّجم؟» فقالو: نفضحهم و يجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إنَّ فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها و ما بعدها. فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة» أخرجاه، و هذا لفظ البخاري.

و في لفظ له: قال لليهود: «ما تصنعون بهما؟» قالوا: نسخّم وجوهما و نخزيهما، قال: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فجاؤا فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها، فوضع يده عليه، فقال: «ارفع يدك» فرفع فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، و لكنا نتكاتمه بيننا، فأمر بهما فرُجما. و روى أبو داود عن ابن عمر قال: أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى

القف، فأتاهم في بيت المدارس فقالوا: يا أبا القاسم إن رجلاً منا زنى بامرأة فاحكم، قال: و وضعوا لرسول الله ﷺ و سادة فجلس عليها، ثم قال: «ائتوني بالتوراة» فأتي بها فنزع الوسادة من تحته و وضع التوراة عليها و قال: «آمنتُ بكِ و بمَنْ أنزلكِ» ثم قال: «ائتوني بأعلمكم» فأتي بفتى شاب، ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك.

وروى الإمام أحمد: عن البراء بن عازب قال: مَرَّ على رسول الله ﷺ يهودي محمَّم مجلود، فدعاهم، فقال: «أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟» فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» فقال: لا، و الله، لولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، و لكنه كَثُر في أشرافنا، فكنّا إذا أخذنا الشريفَ تركناه، و إذا أخذنا الضعيفَ أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه الشريف و الوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد، فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أول مَن أحيا أمرك إذْ أماتوه» قال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ أي: يقولون ائتوا محمداً، فإنْ أفتاكم بالتحميم و الجلد فخذوه، و إنْ أفتاكم بالرجم فاحذروا، إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: في اليهود إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: في اليهود ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال: في الكفار كلها، انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، و أبو داود و النسائي و ابن ماجه.

فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حَكَم بموافقة حكم التوراة، و ليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، و لكن هذا بوحي خاص من الله عز وجل إليه بذلك، و سؤاله إياهم عن ذلك ليتقرّرهم على ما بأيديهم مما تواطئوا على كتمانه و جحده، و عدم العمل به تلك الدهور الطويلة، فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه، بانَ زيغهم و عنادهم و تكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، و عدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ، إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به، و لهذا قالوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ أي: الجلد و التحميم ﴿فَخُذُوهُ﴾ أي: اقبلوه ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي: من قبوله و اتباعه. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

٤٢ - ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: الباطل ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي: الحرام و هو الرشوة كما قاله ابن مسعود و غير واحد، أي: و من كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه، و أنى يستجيب له ثم قال لنبيه ﴿فَإِن جَاءُوكَ﴾ أي: يتحاكمون إليك ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ أي: فلا عليك أن لا تحكم بينهم، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق، بل ما يوافق أهواءهم.

قال ابن عباس و مجاهد وعكرمة و الحسن و قتادة و السدي و زيد بن أسلم و عطاء الخراساني والحسن و غير واحد: هي منسوخة بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق و العدل، و إن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

٤٣ - ثم قال تعالى منكراً عليهم في آرائهم الفاسدة، و مقاصدهم الزائغة، في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً، ثم خرجوا عن حُكمه، و عدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه، و عدم لزومه لهم، فقال: **﴿وَ كيفَ يُحَكِّمونَكَ وَ عِندَهُم التَّوراةُ فِيها حُكمُ اللهِ ثُمَّ يَتولَّونَ مِن بَعدِ ذَلكَ وَ مَا أُولئِكَ بِالمُؤمِنينَ﴾**.

٤٤ - ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده و رسوله موسى بن عمران، فقال: **﴿إنَّا أنزَلنا التَّوراةَ فِيها هُدًى ونُورٌ يَحكُمُ بِها النَّبِيُّونَ الَّذينَ أسلَمُوا لِلَّذينَ هادُوا﴾** أي: لا يخرجون عن حكمها، و لا يبدلونها و لا يحرفونها **﴿والرَّبَّانِيُّونَ وَ الأحبارُ﴾** أي: و كذلك الربانيون، و هم: العلماء العباد، و الأحبار: و هم العلماء **﴿بِمَا استُحفِظُوا مِن كِتابِ اللهِ﴾** أي: بما استودعوا من كتاب الله، الذي أمروا أن يظهروه، و يعملوا به **﴿وكانُوا عليهِ شُهداءَ فلاَ تَخشَوُا النَّاسَ وَ اخشَونِي﴾** أي: لا تخافوا منهم و خافوا مني **﴿و لاَ تَشتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَليلاً ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزَلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾** فيه قولان سيأتي بيانهما.

سبب نزول هذه الآيات الكريمات

و روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: إن الله أنزل **﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزَلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾**، **﴿و أولئِكَ هُم الظَّالِمونَ﴾**، **﴿و أولئِكَ هُم الفَاسِقونَ﴾** قال: أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، و كانت إحداهما قد قَهرت الأخرى في الجاهلية، حتى ارتضوا و اصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، و كل قتيل قتلته الذليلة، من العزيزة فديته مائة وسق، فكانوا على ذلك حتى قدم النبيﷺ، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق، فقالت الذليلة و هل كان في حيين دينهما واحد، و نسبهما واحد، و بلدهما واحد، دية بعضهم نصف دية بعض، إنما أعطيناكم هذا ضَيماً منكم لنا و فَرَقا منكم، فأما إذا قدم محمد فلا نعطيكم، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول اللهﷺ بينهم، ثم ذكرت العزيزة فقالت: و الله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم، و لقد صدقوا، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم، فدسُّوا إلى محمد مَن يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حَكَّمتموه، و إن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه، فدسوا إلى رسول اللهﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول اللهﷺ، فلما جاءوا رسول اللهﷺ، أخبر الله رسولهﷺ بأمرهم كله و ما أرادوا، فأنزل الله تعالى: **﴿يا أيُّها الرَّسولُ لاَ يَحزُنكَ الَّذينَ يُسارِعونَ في الكُفرِ﴾** إلى قوله: **﴿الفاسقون﴾** ففيهم و الله أنزل، و إياهم عنى الله عز وجل، و رواه أبو داود.

و قد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله، و الله أعلم، و لهذا قال بعد ذلك: **﴿وَكَتَبْنَا عليهِمْ فيهَا أَنَّ النَّفسَ بِالنَّفسِ وَ العَيْنَ بِالعَيْنِ﴾** إلى آخرها. و هذا يقوى أن سبب النزول قضية القصاص، و الله سبحانه و تعالى أعلم.

و قوله تعالى: **﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزَلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾** قال البراء بن عازب و حذيفة بن اليمان و ابن عباس و أبو مجلز و أبو رجاء العطاردي و عكرمة و عبيد الله بن عبد الله و الحسن البصري وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب، زاد الحسن البصري: و هي علينا واجبة. و روى عبد الرزاق عن إبراهيم

قال: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل، و رضي الله هذه الأمة بها. و رواه ابن جرير. و روى ابن جرير عن علقمة ومسروق: أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة؟ فقال: من السحت. قال فقالا: و في الحكم؟ قال: ذلك الكفر، ثم تلا: ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، و من أقرَّ به فهو ظالم فاسق. رواه ابن جرير، ثم اختار أن الآية المراد بها: أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب.

و روى ابن جرير عن الشعبي: ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾ قال: هذا في المسلمين، ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الظَّالِمونَ﴾ قال: هذا في اليهود، ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الفَاسِقونَ﴾ قال: هذا في النصارى. و روى عبد الرزاق عن ابن طاوس عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم﴾ الآية، قال: هي به كفر. قال ابن طاوس: و ليس كمن يكفر بالله وملائكته و كتبه و رسله. و روى الثوري عن عطاء أنه قال: كفرٌ دون كفر، و ظلم دون ظلم، و فسق دون فسق. رواه ابن جرير. و روى وكيع عن طاوس ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾ قال: ليس بكفر ينقل عن الملة.

و روى ابن أبي حاتم عن طاوس عن ابن عباس في قوله: ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾ قال: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه. و رواه الحاكم و قال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه.

﴿ وكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) ﴾

٤٥- و هذا أيضاً مما وُبخت به اليهود، و قُرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة: أن النفس بالنفس، و هم يخالفون ذلك عمداً و عناداً، و يقيدون النضري من القرظي، و لا يقيدون القرظي من النضري، بل يعدلون إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، و عدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد و التحميم و الإشهار، و لهذا قال هناك: ﴿ومَن لَّمْ يَحكُم بِما أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرونَ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم و عناداً و عمداً، و قال هنا: ﴿فأولئِكَ هُم الظَّالِمونَ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم، في الأمر الذي أمر الله بالعدل و التسوية بين الجمع فيه، فخالفوا و ظلموا وتعدّوا على بعضهم بعضاً.

و قد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين و الفقهاء إلى: أنَّ شرعَ مَن قبلنا شرعٌ لنا، إذا حكى مقرراً ولم ينسخ، كما هو المشهور عن الجمهور، و كما حكاه الشيخ أبو إسحاق الأسفراييني عن نص الشافعي وأكثر الأصحاب بهذه الآية، حيث كان الحكم عندنا على وِفقها في الجنايات عند جميع الأئمة.

و قال الحسن البصري: هي عليهم و على الناس عامّة. رواه ابن أبي حاتم.

و قد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ رحمه الله في كتابه «الشامل» إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه، و قد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يُقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة. وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي و غيره أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم «أن الرجل يقتل بالمرأة». وفي الحديث الآخر «المسلمون تتكافأ دماؤهم». و هذا قول جمهور العلماء.

و كذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية، على أنه يقتل المسلم بالكافر، و على قتل الحر بالعبد. و قد خالفه الجمهور فيهما، ففي الصحيحين: عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُقتل مسلمٌ بكافر». و أما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة، أنهم لم يكونوا يَقيدون العبد من الحر، و لا يقتلون حراً بعبد، و جاء في ذلك أحاديث لا تصح، و حكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك، و لكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم، إلا بدليل مخصص للآية الكريمة.

و يؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك، كما روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن الربيع عمة أنس كَسَرت ثَنيّة جارية، فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فقال: «القصاص» فقال أخوها أنس بن النضر: تكسر ثنية فلانة؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس كتاب الله القصاص» قال: فقال: لا والذي بعثك بالحق، لا تكسر ثنية فلانة. قال: فرضي القوم فعفوا و تركوا القصاص، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ من عباد الله، مَنْ لو أقسم على الله لأبرّه» أخرجاه في الصحيحين.

و قد روى أبو داود عن عمران بن حصين: أن غلاماً لأناس فقراء، قطع أذن غلام لأناس أغنياء، فأتى أهله النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا أناس فقراء، فلم يجعل عليه شيئاً. و كذا رواه النسائي. و هذا إسناد قوي رجاله كلهم ثقات، وهو حديث مشكل، اللهم إلا أن يُقال: إن الجاني كان قبل البلوغ فلا قصاص عليه، و لعله تحمل أَرْشَ ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء، أو استعفاهم عنه.

و قوله تعالى: ﴿و الجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: تقتل النفس بالنفس، وتفقأ العين بالعين، و تقطع الأنف بالأنف، و تنزع السن بالسن، و تقتص الجراح بالجراح، فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم، رجالهم و نساؤهم، إذا كان عمداً في النفس و ما دون النفس، و يستوى فيه العبيد رجالهم و نساؤهم فيما بينهم، إذا كان عمداً في النفس و ما دون النفس. رواه ابن أبي جرير و ابن أبي حاتم.

قاعدة مهمة

الجراح تارة تكون في مَفصِل فيجب فيه القصاص بالإجماع، كقطع اليد و الرجل و لكف و القدم ونحو ذلك. و أما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم. فقال مالك رحمه الله: فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها، لأنه مخوف خطر. وقال أبو حنيفة و صاحباه: لا يجب القصاص في شيءٍ من العظام إلا في السن. وقال الشافعي: لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً. و هو مروي عن عمر بن الخطاب و ابن عباس، و به يقول عطاء و الشعبي و الحسن البصري و الزهري و إبراهيم النخعي و عمر بن عبد العزيز، و إليه ذهب سفيان الثوري و الليث بن سعد، و هو المشهور من مذهب الإمام أحمد. و قد احتج أبو حنيفة رحمه الله بحديث الربيع بنت النضر على مذهبه، أنه لا قصاص في عظم إلا في السن، و حديث الربيع لا حجة فيه، لأنه

ورد بلفظ: «كسرت ثنية جارية» و جائز أن تكون سقطت من غير كسر، فيجب القصاص و الحالة هذه بالإجماع.

ثم قالوا: لا يجوز أن يُقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجني عليه، فإن اقْتُص منه قبل الاندمال، ثم زاد جرحه فلا شيء له. و الدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رجلاً طعن رجلاً بقَرْن في ركبته فجاء إلى النبيﷺ فقال: أقدني، فقال: «حتى تبرأ» ثم جاء إليه فقال: أقدني، فأقاده فقال: يا رسول الله، عرجت، فقال: «قد نهيتك فعصيتني، فأبعدك الله، و بطل عرجك» ثم نهى رسول الله أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه. تفرد به أحمد.

(مسألة) فلو اقتص المجني عليه من الجاني، فمات من القصاص فلا شيء عليه، عند مالك و الشافعي وأحمد بن حنبل، و هو قول الجمهور من الصحابة و التابعين و غيرهم. و قال أبو حنيفة: تجب الدية في مال المقتص.

و قوله تعالى: **﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فمن عفا عنه وتصدق عليه، فهو كفارة للمطلوب، و زجر للطالب. و قال: ابن عباس أيضاً: فمن تصدق به فهو كفارة للجارح، وأجر المجروح على الله عز وجل. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: و روي عن خيثمة بن عبد الرحمن و مجاهد وإبراهيم في أحد قوليه و عامر الشعبي و جابر بن زيد نحو ذلك.

(الوجه الثاني): و روى ابن أبي حاتم: عن الهيثم بن العريان النخعي قال: رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية، أحمر شبيهاً بالموالي، فسألته عن قول الله **﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾** قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به. رواه ابن جرير. و روى الإمام أحمد: أن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «ما من رجلٍ يُجرحُ من جسده جراحةً، فيتصدّق بها، إلا كفَّر الله عنه مثل ما تصدّق به» و رواه النسائي.

و قوله: **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** قد تقدم عن طاوس و عطاء أنهما قالا: كفرٌ دون كفر، و ظلم دون ظلم، و فسق دون فسق.

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) ﴾

٤٦- يقول تعالى: **﴿و قَفَّيْنَا﴾** أي: أتبعنا على آثارهم، يعني أنبياء بني إسرائيل **﴿بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾** أي: مؤمناً بها، حاكماً بما فيها **﴿و آتيناهُ الإنجيلَ فيهِ هُدًى و نُورٌ﴾** أي: هدى إلى الحق، و نور يستضاء به في إزالة الشبهات، و حل المشكلات **﴿و مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يدَيهِ مِن التَّوراةِ﴾** أي: متبعاً لها، غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما بيّن لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل **﴿و لأُحِلَّ لَكُم بَعضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيكُمْ﴾** و لهذا كان المشهور من قول العلماء: أن الإنجيل نَسَخ بعض أحكام التوراة، و قوله تعالى: **﴿وَ هُدًى وَ مَوعِظَةً لِلمُتَّقِينَ﴾** أي: و جعلنا الإنجيل هدى يهتدي به وموعظة، أي: زاجراً عن ارتكاب المحارم و المآثم **﴿للمُتَّقِينَ﴾** أي: لمن اتقى الله،

و خاف وعيده و عقابه .

٤٧- و قوله تعالى: ﴿و لْيحكمْ أهلُ الإنجيلِ بما أنزلَ اللهُ فيهِ﴾ قرئ ﴿وَ لِيَحْكُمَ أهلُ الإنجيلِ﴾ بالنصب، على أن اللام لام كي، أي: و آتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم. و قرئ ﴿و لْيحكمْ﴾ بالجزم على أن اللام لام الأمر، أي: ليؤمنوا بجميع ما فيه، و ليقيموا ما أمروا به فيه، و مما فيه: البشارة ببعثة محمدﷺ والأمر باتباعه و تصديقه، إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يا أهْلَ الكِتابِ لَسْتُمْ على شيءٍ حتّى تُقيمُوا التّوراةَ وَالإنجيلَ وَ ما أُنزِلَ إليكم مِّن رّبِّكُمْ﴾ الآية. و قال تعالى: ﴿الذين يَتّبِعُونَ الرَّسُوْلَ النّبيَّ الأُمّيَّ الّذِي يَجدونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ في التّوراةِ﴾ إلى قوله ﴿المُفْلِحُونَ﴾ و لهذا قال ههنا: ﴿ومَن لّمْ يَحكم بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هُم الفاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق.

و قد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى، و هو ظاهر من السياق.

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

٤٨- لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه و مدحها، و أثنى عليها و أمر باتباعها، حيث كانت سائغة الاتباع، و ذكر الإنجيل و مَدَحه، و أمر أهله بإقامته و اتباع ما فيه، كما تقدم بيانه، شَرعَ في ذكر القرآن العظيم، الذي أنزله على عبده و رسوله الكريم، فقال تعالى ﴿و أنزَلْنا إليكَ الكِتابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَينَ يَدَيهِ مِنَ الكِتابِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره و مدحه، أنه سينزل من عند الله على عبده و رسوله محمدﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقاً عند حامليها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله و اتبعوا شرائع الله، و صدّقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ أوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إذا يُتْلَى عَليهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذقانِ سُجَّداً * وَ يَقُولونَ سُبحانَ رَبِّنا إن كانَ وَعدُ رَبِّنا لَمَفعُولاً﴾ أي: إنْ كان ما وَعدَنا الله على ألسنة رسله المتقدمين، من مجيء محمدعليه السلام لمفعولاً، أي: لكائناً لا محالة ولابد.

و قوله تعالى: ﴿وَ مُهَيمِناً عَلَيهِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: المهيمن الأمين. قال: القرآن أمينٌ على كل كتاب قبله. و رواه عن عكرمة و سعد بن جبير و مجاهد و محمد بن كعب و عطية و الحسن وقتادة وعطاء الخراساني و السدي و ابن زيد نحو ذلك. و قال ابن جرير: القرآن أمينٌ على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، و ما خالفه منها فهو باطل. و عن الوالبي عن ابن عباس: ﴿وَ مُهَيمِناً﴾ أي: شهيداً. و كذا قال مجاهد و قتادة و السدي. و قال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَ مُهَيمِناً﴾ أي حاكماً على ما قبله

من الكتب. وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين و شاهد وحاكم، على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله، آخر الكتب و خاتمها و أشملها وأعظمها و أكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، و زاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً و أميناً و حاكماً عليها كلها، و تكفّل تعالى حفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

فأما ما حكاه ابن أبي حاتم عن عكرمة و سعيد بن جبير و عطاء الخراساني و ابن أبي نجيح عن مجاهد أنهم قالوا: في قوله: ﴿و مُهَيمناً عليه﴾ يعني: محمداً ﷺ أمين على القرآن، فإنه صحيح في المعنى، و لكن في تفسير هذا بهذا نظر! و في تنزيله عليه من حيث العربية أيضاً نظر! و بالجملة فالصحيح الأول.

و قوله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بما أنزَلَ اللهُ﴾ أي: فاحكم يا محمد بين الناس عربهم و عجمهم، أميهم و كتابيهم، بما أنزل الله إليك من هذا الكتاب العظيم، و بما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء، ولم ينسخه في شرعك. هكذا وجهه ابن جرير بمعناه. روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ مخيراً: إنْ شاء حكم بينهم، و إنْ شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: ﴿و أنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أنزَلَ اللهُ و لاَ تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُمْ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا.

و قوله: ﴿و لاَ تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُمْ﴾ أي: آراءهم التي اصطلحوا عليها، و تركوا بسببها ما أنزل الله على رسله، ولهذا قال تعالى: ﴿و لاَ تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به، إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء.

و قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرعَةً وَمنهَاجاً﴾ روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾ قال: سبيلاً، ﴿و مِنهَاجاً﴾ قال: سُنَّة. و كذا روي عن مجاهد وعكرمة و الحسن البصري و قتادة والضحاك و السدي و أبي إسحق السبيعي أنهم قالوا في قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ أي: سبيلاً و سنّة. و عن ابن عباس و مجاهد أيضاً و عطاء الخراساني عكسه ﴿شِرْعَةً وَ مِنهَاجاً﴾ أي: سنة و سبيلاً. و الأول أنسب، فإنّ الشِّرعة و هي الشريعة أيضاً، و هي: ما يبتدأ فيه إلى الشيء، و منه يقال: شرع في كذا، أي: ابتدأ فيه، وكذا الشريعة و هي ما يشرع فيها إلى الماء. أما المنهاج: فهو الطريق الواضح السهل، و السنن: الطرائق، فتفسير قوله: ﴿شِرْعَةً وَ مِنْهَاجاً﴾ بالسبيل و السنة أظهر في المناسبة من العكس، و الله أعلم.

ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في صحيح البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلاّت، ديننا واحد» يعني بذلك التوحيد، الذي بعث الله به كل رسول أرسله، و ضمَّنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى ﴿وَ مَا أرسَلنا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إلَيهِ أنَّهُ لاَ إلَهَ إلاَّ أنَا فَاعبُدونِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَ لَقَدْ بعَثنَا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أنِ اعبُدوا اللهَ وَ اجتَنِبُوا الطَّاغوتَ﴾ الآية، و أما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً، ثم يحل في الشريعة الأخرى، و بالعكس، وخفيفاً فيزاد في الشدة في هذه دون هذه، و ذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، و الحجة الدامغة.

قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَاجاً﴾ يقول: سبيلاً و سنة، و السنن

مختلفة: هي في التوراة شريعة، و في الإنجيل شريعة، و في الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء و يحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، و الدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد، و الإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة و السلام.

و قيل: المخاطب بهذه الآية هذه الأمة. و معناه: لكل جعلنا القرآن منكم أيتها الأمة شرعة و منهاجاً، أي: هو لكم كلكم تقتدون به. هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله، و الصحيح القول الأول، ويدل على ذلك قوله تعالى بعده: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمة لما صح أن يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ و هم أمة واحدة، و لكن هذا خطاب و شريعة واحدة، لا يُنسخ شيءٌ منها، و لكنه تعالى شَرَع لكل رسول شريعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده و رسوله محمداًﷺ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، و جعله خاتم الأنبياء كلهم، و لهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾ أي: أنه تعالى شَرعَ الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم، و يثيبهم أو يعاقبهم على طاعته و معصيته، بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله. و قال عبد الله بن كثير ﴿فِيمَا آتَاكُمْ﴾ يعني: من الكتاب.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات، و المبادرة إليها، فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وهي طاعة الله، واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله، و التصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله، ثم قال تعالى: ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: معادكم أيها الناس، و مصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزي الصادقين بصدقهم، و يعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل و لا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة. و الحجج البالغة و الأدلة الدامغة، و قال الضحاك ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يعني أمة محمدﷺ، و الأول أظهر.

٤٩- و قوله: ﴿وَ أَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَ لاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تأكيدٌ لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه، ثم قال: ﴿و احْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ أي: و احذر أعداءك اليهود أن يُدلِّسوا عليك الحق، فيما ينهونه إليك من الأمور، فلا تَغترَّ بهم، فإنهم كذبةٌ كفرةٌ خونةٌ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: عما تحكم به بينهم من الحق، و خالفوا شرع الله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي: فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله و حكمته فيهم، أن يصرفهم عن الهدى، لما لهم من الذنوب السالفة، التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿و إِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أي: إن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق ناكبون عنه، كما قال تعالى: ﴿و مَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، و قال تعالى: ﴿و إِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية.

٥٠- و قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ينكر تعالى على مَن خرج عن حكم الله المحكم، المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، و عَدَل إلى ما سواه من الآراء والأهواء و الاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات و الجهالات، مما يضعونها بآرائهم و أهوائهم، و كما يحكم به التتار من السياسات المَلَكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم «الياسق»، و هو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها

عن شرائع شتى من اليهودية و النصرانية و الملة الإسلامية و غيرها ، و فيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره و هواه ، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً ، يقدمونها على الحكم بكتاب الله و سنة رسول الله ﷺ ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله و رسوله ، فلا يحكم سواه في قليل و لا كثير ، قال تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي : يبتغون و يريدون ، و عن حكم الله يعدلون .

﴿و مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي : و من أعدل من الله في حُكمه لمن عقل عن الله شرعه ، و آمن به و أيقن ، و علم أن الله أحكم الحاكمين ، و أرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء .

و روى ابن أبي حاتم عن الحكم قال : من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية . و روي عن ابن أبي نجيح قال : كان طاوس إذا سأله رجل : أفضّل بين ولدي في النحْل؟ قرأ : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ . و روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «أبغضُ الناس إلى الله عز وجل : مَنْ يبتغي في الإسلام سنةَ الجاهلية ، و طالب دم امرئ بغير حق ليُريق دمه» . و روى البخاري نحوه بزيادة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) ﴾

٥١ - ينهى تبارك و تعالى عباده المومنين عن موالاة اليهود و النصارى ، الذين هم أعداء الإسلام و أهله ـ قاتلهم الله ـ ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ، ثم تهدد و توعد من يتعاطى ذلك فقال : ﴿وَ مَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ الآية . روى ابن أبي حاتم : عن عياض : أن عمر أبا موسى الأشعري أن يرفعَ إليه ما أخذ و ما أعطى في أديم واحد ، و كان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك ، فعجب عمر و قال : إن هذا لحفيظ ، هل أنت قارئ لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام ، فقال : إنه لا يستطيع ، فقال عمر : أجنبٌ هو؟ قال : لا ، بل نصراني ، قال : فانتهرني وضرب فخذي ، ثم قال : أخرجوه ثم قرأ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية .

ثم روى عن محمد بن سيرين عن عبد الله بن عتبة قال : ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً ، و هو لا يشعر . قال : فظنناه يريد هذه الآية ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية .

و عن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال : كُلْ ، قال الله تعالى : ﴿و مَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ و روي عن أبي الزناد نحو ذلك .

و قوله تعالى : ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي : شك و ريب و نفاق يسارعون فيهم ، أي : يبادرون

إلى موالاتهم و مودتهم في الباطن و الظاهر، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، أي: يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمرٌ مِن ظَفَر الكافرين بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود و النصارى فينفعهم ذلك. عند ذلك قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ قال السدي: يعني فتح مكة. و قال غيره: يعني القضاء و الفصل ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ قال السدي: يعني ضرب الجزية على اليهود و النصارى ﴿فَيُصْبِحُوا﴾ يعني: الذين والوا اليهود و النصارى من المنافقين ﴿عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من الموالاة نادمين، أي: على ما كان منهم مما لم يُجدِ عنهم شيئاً، و لا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا و أظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يدري كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، و يحلفون على ذلك ويتأولون، فبان كذبهم و افتراؤهم.

٥٣- و لهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ و قد اختلف القراء في هذا الحرف، فقرأه الجمهور بإثبات الواو في قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ فتقديره: أن يأتي، و أن يقول، و قرأ أهل المدينة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بغير واو، و كذلك هو في مصاحفهم، على ما ذكره ابن جرير عن مجاهد.

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ تقديره حينئذ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السدي: أنها نزلت في رجلين، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد: أما أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي فآوي إليه، و أتهوّد معه، لعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث، و قال الآخر: أما أنا فإني ذاهبٌ إلى فلان النصراني بالشام فآوي إليه و أتنصر معه، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآيات. و قال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيد إلى حلقه، أي: إنه الذبح. رواه ابن جرير.

و روى ابن إسحاق: عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي وقام دونهم، و مشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، و كان أحد بني عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أُبي، فخلعهم إلى رسول الله و تبرأ إلى الله و رسوله من حلفهم، و قال: يا رسول الله، أبرأ إلى الله و رسوله من حلفهم، و أتولى الله و رسوله و المؤمنين، و أبرأ من حلف الكفار وولايتهم، ففيه و في عبد الله بن أبي، نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ

الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾

٥٤- يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة، أنه من تولّى عن نُصرة دينه، و إقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خيراً لها منه، و أشدّ منعة و أقوم سبيلاً، كما قال تعالى: **﴿وَ إِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾** و قال تعالى: **﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَ مَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾** أي بممتنع و لا صعب. و قال تعالى ههنا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾** أي: يرجع عن الحق إلى الباطل.

قال محمد بن كعب: نزلت في الولاة من قريش. و قال الحسن البصري: نزلت في أهل الردّة أيام أبي بكر.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ﴾ قال الحسن: هو و الله أبو بكر و أصحابه. رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو بكر بن أبي شيبة سمعت أبا بكر بن عياش يقول: هم أهل القادسية. و روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قوله: **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ﴾** قال: ناس من أهل اليمن، ثم من كندة من السكون.

و روى ابن أبي حاتم: عن أبي موسى الأشعري قال: لما نزلت: **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾** قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا». و رواه ابن جرير.

و قوله تعالى: **﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** هذه صفات المؤمنين الكُمّل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه، و وليه، متعززاً على خصمه و عدوه، كما قال تعالى: **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾**. و قوله عز وجل: **﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ لاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ﴾** أي: لا يردّهم عما هم فيه من طاعة الله، و إقامة الحدود، و قتال أعدائه، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، لا يردّهم عن ذلك راد، و لا يصدّهم عن صاد، و لا يحيك فيهم لوم لائم، و لا عذل عاذل.

روى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين، و الدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، و لا أنظر إلى من هو فوقي، و أمرني أن أصل الرحم و إنْ أدبرتْ، و أمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، و أمرني أن أقول الحقَّ و إنْ كان مُرّاً، و أمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، و أمرني أن أكثر من قول: لا حول و لا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش.

و روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يَمنعنّ أحدكم رهبةُ الناسِ أن يقول بحق، إذا رآه أو شهده، فإنه لا يُقرِّب من أجلٍ، و لا يُباعد من رزق، أن يقول بحق، أو أن يُذكِّر بعظيم» تفرد به أحمد.

و ثبت في الصحيح: «ما ينبغي للمؤمن أن يُذلَّ نفسه» قالوا: و كيف يُذلُّ نفسه يا رسول الله؟ قال: «يتحمَّل من البلاء ما لا يطيق»[1] **﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾** أي: من اتصف بهذه الصفات، فإنما هو من فضل الله عليه، و توفيقه له **﴿وَ اللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾** أي: واسع الفضل، عليمٌ بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه.

٥٥- وَ قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** أي: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله و رسوله و المؤمنين. و قوله: **﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات: مِن إقام الصلاة، التي هي أكبر أركان الإسلام، و هي عبادة الله وحده لا شريك له، و إيتاء الزكاة التي هي حقُّ المخلوقين، و مساعدة للمحتاجين من الضعفاء و المساكين. و أما قوله: **﴿وَهُمْ**

---

(١) الحديث ليس في الصحيح! و إنما رواه الترمذي (٢٣٦٩) و ابن ماجه (٤٠١٦) و هو صحيح.

﴿رَاكِعونَ﴾ فقد تَوهَّم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال، من قوله: **﴿و يؤتون الزكاة﴾** أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره، لأنه ممدوح، و ليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى، و حتى إن بعضهم ذكر في هذا أثراً عن علي بن أبي طالب، أن هذه الآية نزلت فيه، و ذلك أنه مر به سائلٌ في حال ركوعه فأعطاه خاتمه! و ليس يصح شيئ منها بالكلية لضعف أسانيدها، و جهالة رجالها. روى ابن مردويه بإسناده: عن ميمون بن مهران عن ابن عباس في قوله: **﴿إنما وَلِيُّكُم اللهُ وَ رَسُولُهُ﴾** نزلت في المؤمنين، و علي بن أبي طالب أولهم، و روى ابن جرير: عن عبد الملك عن أبي جعفر قال: سألته عن هذه الآية **﴿إنما وَلِيُّكُم اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ الذينَ آمَنُوا الذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ و يُؤتونَ الزكَاةَ و هُمْ رَاكِعُونَ﴾** قلنا: من الذين آمنوا؟ قال: الذين آمنوا، قلنا: أنها نزلت في علي بن أبي طالب، قال: علي مِن الذين آمنوا. و قال علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس: من أسلم فقد تولّى الله و رسوله و الذين آمنوا. رواه ابن جرير.

و قد تقدم في الأحاديث التي أوردناها، أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من حلف اليهود، ورضي بولاية الله و رسوله و المؤمنين.

و لهذا قال تعالى بعد هذا كله: **﴿و مَن يَتَولَّ اللهَ وَ رَسولَهُ و الذينَ آمَنُوا فإنَّ حِزبَ اللهِ هُم الغَالِبونَ﴾** كما قال تعالى: **﴿كَتبَ اللهُ لأغلِبَنَّ أنا وَ رُسُلي إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزيزٌ * لا تَجدُ قَوْماً يُؤمنونَ باللهِ وَ الْيوم الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ وَ رَسولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أوْ أبْناءَهُمْ أوْ إخوانَهُمْ أوْ عَشيرَتَهُمْ أولَئكَ كَتَبَ في قلُوبِهِمُ الإيمَانَ وَأيَّدَهُم بروحٍ مِنْهُ وَيُدخِلُهمْ جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِهَا الأنهارُ خَالدينَ فِيهَا رضِيَ اللهُ عنهُمْ و رَضَوْا عَنهُ أولَئكَ حِزبُ اللهِ ألاَ إنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ الْمُفلِحونَ﴾**. فكل من رضي بولاية الله ورسوله المؤمنين، فهو مفلح في الدنيا والآخرة، و منصور في الدنيا و الآخرة، و لهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة **﴿وَ مَن يَتَولَّ اللهَ ورَسُولَهُ وَالذينَ آمَنُوا فإنَّ حِزبَ اللهِ هُمُ الغَالِبونَ﴾**.

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ (٥٨) ﴾

٥٧- و هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام و أهله، من الكتابيين و المشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، و هي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة، المشتملة على كل خير دنيوي و أخروي، يتخذونها هزواً يستهزئون بها، و لعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، و فكرهم البارد، كما قال القائل:

و كم من عائب قولاً صحيحاً ... و آفته من الفهم السقيم

و قوله تعالى: **﴿مِنَ الذينَ أوتُوا الكِتابَ مِن قَبلِكُمْ وَ الكُفَّارَ﴾** «من» لبيان الجنس، كقوله: **﴿فَاجتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوثَانِ﴾** أي: لا تتخذوا هؤلاء و لا هؤلاء أولياء. و المراد بالكفار ههنا: المشركون. و كذا وقع في قراءة ابن مسعود فيما رواه ابن جرير **﴿لاَ تَتَّخِذُوا الذينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِّنَ الذينَ أوتُوا الْكِتابَ مِن قَبلِكُمْ وَ مِنَ الذينَ أشْرَكُوا﴾**. و قوله: **﴿و اتقُوا اللهَ إن كُنتُم مُؤمنينَ﴾** أي: اتقوا الله، أن تتخذوا هؤلاء الأعداء

لكم و لدينكم أولياء، إن كنتم مؤمنين بشرع الله، الذي اتخذه هؤلاء هزواً و لعباً، كما قال تعالى: **﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤمِنونَ الْكَافِرينَ أولِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤمِنينَ وَ مَن يَفعَلْ ذلكَ فَلَيسَ مِنَ اللهِ في شَيءٍ إلاَّ أن تَتَّقُوا مِنهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفسَهُ وَ إلَى اللهِ المَصيرُ﴾**.

٥٨- و قوله: **﴿و إذا نَادَيتُمْ إلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَ لَعِباً﴾** أي: و كذلك إذا أذّنتم داعين إلى الصلاة، التي هي أفضل الأعمال، لمن يعقل و يعلم من ذوي الألباب **﴿اتَّخَذُوهَا﴾** أيضاً **﴿هُزُواً وَ لَعِباً ذلكَ بأنَّهمْ قومٌ لاَّ يَعقِلونَ﴾** معاني عبادة الله و شرائعه، و هذه صفات أتباع الشيطان، الذي «إذا سمع الأذان أدبر وله حُصَاص، أي: ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى التأذين أقبل، فإذا ثُوِّب للصلاة أدبر، فإذا قضى التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء و قلبه، فيقول: اذكر كذا اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى؟ فإذا وَجَدَ أحدُكم ذلك فليسجد سجدتين قبل السلام» متفق عليه. و قال الزهري: قد ذكر الله التأذين في كتابه فقال: **﴿و إذا نَادَيتُمْ إلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَ لَعِباً ذلكَ بأنَّهمْ قومٌ لاَّ يَعقِلونَ﴾** رواه ابن أبي حاتم.

روى الإمام أحمد: عن أبي محذورة قال: خرجت في نفر و كنا في بعض طريق حُنين، مقفل رسول الله ﷺ من حنين، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق، فأذّن مؤذّنُ رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوتَ المؤذن و نحن متنكبون، فصرخنا نحكيه و نستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ فأرسل إلينا أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم الذي سمعتُ صوته قد ارتفع»؟ فأشار القوم كلهم إليّ، و صدقوا، فأرسل كُلَّهم و حبسني، وقال: «قم فأذّن» فقمتُ و لا شيء أكره إليّ من رسول الله ﷺ و لا مما يأمرني به، فقمت بين يدي رسول الله ﷺ فألقى علي رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه، قال: «قل: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله» ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيءٌ من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمرّها على وجهه، ثم بين ثدييه ثم على كبده، حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سُرَّةَ أبي محذورة، ثم قال رسول الله ﷺ: «باركَ الله فيك، و بارك عليك» فقلت: يا رسول الله مُرني بالتأذين بمكة، فقال: «قد أمرتك به» وذهبَ كلُّ شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة، و عاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ، فقدمت على عتّاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ فأذّنتُ معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ.

و قد أخرجه مسلم في صحيحه و أهل السنن الأربعة عن أبي محذورة، و اسمه: سمرة بن مِعْير بن لوذان، أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة، و هو مؤذن أهل مكة، و امتدت أيامه رضي الله عنه و أرضاه.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ

قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

٥٩- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هُزواً و لعباً، من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ و مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ مِن قَبلُ﴾ أي: هل لكم علينا مطعنٌ أو عيبٌ إلا هذا؟ و هذا ليس بعيب و لا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعاً، كما في قوله تعالى: ﴿و مَا نَقَمُوا مِنهُمْ إِلاَّ أَن يُؤمِنُوا بِاللهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ وقوله: ﴿و أنَّ أكثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوف على ﴿أن آمَنَّا بِاللهِ و مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ مِن قَبلُ﴾ أي: وآمنا بأنَّ أكثركم فاسقون، أي: خارجون عن الطريق المستقيم.

٦٠- ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً مِّن عِندِ اللهِ﴾ أي: هل أخبركم بشر جزاءٍ عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ و هم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات، المفسرة بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللهُ﴾ أي: أبعده من رحمته ﴿و غَضِبَ عَلَيهِ﴾ أي: غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وَ جَعَلَ مِنهُمُ القِرَدَةَ وَ الخَنَازِيرَ﴾ كما تقدم بيانه في سورة البقرة، و كما سيأتي إيضاحه في سورة الأعراف. و عن ابن مسعود قال: سُئل رسول اللهﷺ عن القردة والخنازير، أهي مما مسخ الله؟ فقال: «إنَّ الله لم يُهلك قوماً»، أو قال: «لم يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً و لا عقباً، و إن القردة و الخنازير كانت قبل ذلك» و قد رواه مسلم.

و قوله تعالى: ﴿و عَبَدَ الطاغوتَ﴾ قرئ: ﴿و عَبَدَ الطاغوتَ﴾ على أنه فعل ماض، و الطاغوت منصوب به، أي: و جعل منهم من عبدَ الطاغوت. و قرئ ﴿و عَبَدَ الطاغوتِ﴾ بالإضافة على أن المعنى: و جعل منهم خدم الطاغوت، أي: خدّامه و عبيده. و قرئ ﴿و عُبُد الطّاغُوتِ﴾ على أنه جمع الجمع، عبد و عبيد و عُبُد، مثل ثِمار و ثمر. و كل هذه القراءات يرجع معناها: إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا، الذي هو توحيد الله و إفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا و أنتم قد وُجد منكم جميع ما ذكر، و لهذا قال: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَ أَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ و هذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة، كقوله عز وجل ﴿أَصْحَابُ الجَنَّةِ يَومَئِذٍ خَيرٌ مُّستَقَرّاً وَ أَحسَنُ مَقِيلاً﴾.

٦١- و قوله تعالى: ﴿و إذا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ قَد دَّخَلُوا بِالكُفرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ و هذه صفة المنافقين منهم، أنهم يُصانعون المؤمنين في الظاهر، و قلوبهم منطوية على الكفر، و لهذا قال: ﴿وَ قَد دَّخَلُوا﴾ أي: عندك يا محمد بالكفر، أي: مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثم خرجوا و هو كامن فيها، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، و لا نجعت فيهم المواعظ و لا الزواجر، و لهذا قال: ﴿وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فخصهم به دون غيرهم. و قوله تعالى: ﴿و اللهُ أعلَمُ بِما كَانُوا يَكتُمُونَ﴾ أي: عالم بسرائرهم و ما تنطوي عليه ضمائرهم، و إن أظهروا لخلقه خلافَ ذلك، و تزيَّنوا بما ليس فيهم، فإنَّ عالم الغيب الشهادة أعلم بهم منهم، و سيجزيهم على ذلك أتم الجزاء.

٦٢- و قوله: ﴿و تَرَى كَثِيراً مِّنهُمْ يُسارِعونَ فِي الإِثمِ وَ العُدوانِ وَ أكلِهِمُ السُّحتَ﴾ أي: يُبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم و المحارم، و الاعتداء على الناس، و أكلهم أموال بالباطل ﴿لَبِئسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾

أي: لبئس العمل كان عملهم، و بئس الاعتداء اعتداؤهم.

٦٣ - و قوله تعالى: ﴿لولاَ يَنهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الأحبارُ عَن قَولِهِمُ الإثمَ وَ أكلِهِمُ السُّحتَ لَبِئسَ مَا كانُوا يَصنَعُونَ﴾ يعني: هَلاَّ كان ينهاهم الربانيون و الأحبار منهم عن تعاطي ذلك. و الربانيون: هم العلماء العُمَّال، أرباب الولايات عليهم. و الأحبار: هم العلماء فقط ﴿لَبِئسَ مَا كانُوا يَصنَعُونَ﴾ يعني: من تركهم ذلك، قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، و قال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها: أنا لا ننهى. رواه ابن جرير. و روى الإمام أحمد: عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن قوم يكون بين أظهرهم مَنْ يعملُ بالمعاصي، هم أعزُّ منه و أمنع، و لم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعذاب» تفرد به أحمد. و رواه أبو داود: عن جرير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجلٍ يكون في قوم يَعمل فيهم المعاصي، يقدرون أن يُغيروا عليه فلا يغيرون، إلا أصابهم الله بعقابٍ قبل أن يموتوا» و قد رواه ابن ماجه.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾

٦٤ - يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، بأنهم وصفوه ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ بأنه بخيل، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء، و عبروا عن البخل بأن قالوا: ﴿يد الله مغلولة﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة، و لكن يقولون: بخيل، يعني أمسك ما عنده بخلاً، تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً. و كذا روي عن مجاهد و عكرمة و قتادة و السدي و الضحاك وقرأ: ﴿و لاَ تَجعَلْ يَدَكَ مَغلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَ لاَ تَبسُطهَا كُلَّ البَسطِ فَتَقعُدَ مَلُوماً مَّحسُوراً﴾ يعني: أنه ينهى عن البخل و عن التبذير، وهو الزيادة في الإنفاق في غير محله، و عبَّر عن البخل بقوله: ﴿و لا تجعلْ يدَكَ مَغلُولَةً إلى عُنُقكَ﴾. و هذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله. و قد قال عكرمة: إنها نزلت في فنحاص اليهودي عليه لعنة الله، و قد تقدم أنه الذي قال: ﴿إنَّ اللهَ فَقيرٌ وَ نَحنُ أغنياءُ﴾ فضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

و قد ردّ الله عز وجل عليهم ما قالوه، و قابلهم فيما اختلقوه و افتروه و ائتفكوه، فقال: ﴿غُلَّتْ أيديهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ و هكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل و الحسد و الجبن و الذلة، أمرٌ عظيم، كما قال تعالى: ﴿أم لَهُمْ نَصيبٌ مِّنَ المُلكِ فَإذاً لاَّ يُؤتُونَ النَّاسَ نَقيراً * أم يَحسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتاهُم اللهُ مِن فَضلِهِ﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيفَ يَشاءُ﴾ أي: بل هو الواسعُ الفضل الجزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، و هو الذي ما بخلقه من نعمةٍ فمنه وحده لا شريك له، الذي خَلَقَ لنا كل شيء مما نحتاج إليه، في ليلنا و نهارنا، و حضرنا و سفرنا، و في جميع

أحوالنا، كما قال: ﴿و آتاكم مّن كلّ ما سألتموه و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إنّ الإنسان لظلوم كفّار﴾ والآيات في هذه كثيرة.

و قد روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «إنّ يمين الله ملأى لا يَغيضها نفقة، سحّاء الليل و النهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات و الأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه، قال: و عرشه على الماء، و في يده الأخرى القبض، يرفع و يخفض، و قال: يقول الله تعالى: أَنفقْ أُنفق عليك» أخرجاه في الصحيحين. و قوله تعالى: ﴿و ليزيدنّ كثيراً مّنهم مّا أنزل إليك من رّبّك طغياناً و كفراً﴾ أي: يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة، نقمة في حق أعدائك من اليهود و أشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً، و عملاً صالحاً، و علماً نافعاً، يزداد به الكافرون الحاسدون، لك و لأمتك ﴿طغياناً﴾ و هو المبالغة و المجاوزة للحدّ في الأشياء، ﴿و كفراً﴾ أي: تكذيباً، كما قال تعالى: ﴿قل هو للّذين آمنوا هدًى و شفاءٌ و رحمةٌ لّلمؤمنين و الّذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ و هو عليهم عمًى أولئك ينادون من مّكانٍ بعيدٍ﴾ و قال تعالى: ﴿و ننزّل من القرآن ما هو شفاءٌ و رحمةٌ لّلمؤمنين و لا يزيد الظّالمين إلاّ خساراً﴾.

و قوله تعالى: ﴿و ألقينا بينهم العداوة و البغضاء إلى يوم القيامة﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فرقهم، بعضهم في بعض دائماً، لأنهم لا يجتمعون على حق، و قد خالفوك وكذبوك. و قال إبراهيم النخعي: الخصومات و الجدال في الدين. رواه ابن أبي حاتم.

و قوله: ﴿كلّما أوقدوا ناراً لّلحرب أطفأها الله﴾ أي: كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها، و كلما أبرموا أموراً يحاربونك بها، أبطلها الله، و ردّ كيدهم عليهم، و حاق مكرهم السيء بهم ﴿و يسعون في الأرض فساداً و الله لا يحبّ المفسدين﴾ أي: من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، و الله لا يحب مَنْ هذه صفته.

٦٤- ثم قال جل و علا: ﴿و لو أنّ أهل الكتاب آمنوا و اتّقوا﴾ أي: لو أنهم آمنوا بالله و رسوله، و اتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم و المحارم ﴿لكفّرنا عنهم سيّئاتهم و لأدخلناهم جنّات النّعيم﴾ أي: لأزلنا عنهم المحذور، و أنلناهم المقصود ﴿و لو أنّهم أقاموا التّوراة و الإنجيل و ما أنزل إليهم مّن رّبّهم﴾ قال ابن عباس و غيره: هو القرآن ﴿لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم﴾ أي: لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه، من غير تحريف و لا تبديل و لا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق، و العمل بمقتضى ما بعث الله به محمداًﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه، و الأمر باتباعه حتماً لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء، النابت لهم من الأرض. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿لأكلوا من فوقهم﴾ يعني: لأرسل السماء عليهم مدراراً ﴿و من تحت أرجلهم﴾ يعني: يخرج من الأرض بركاتها. و كذلك قال مجاهد و سعيد ابن جبير وقتادة و السدي. كما قال تعالى: ﴿و لو أنّ أهل القرى آمنوا و اتّقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ مّن السّماء و الأرض﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر و البحر بما كسبت أيدي الناس﴾ الآية. و قال بعضهم معناه ﴿لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم﴾ يعني من غير كدّ و لا تعب، و لا شقاء و لا عناء.

روى الإمام أحمد: عن زياد بن لبيد أنه قال: ذكر النبيﷺ شيئاً فقال: «و ذاك عندَ ذهابِ العلم» قال:

قلنا: يا رسول الله، و كيف يذهب العلم، و نحن نقرأ القرآن، و نُقرئه أبناءنا، و أبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: «ثكلتكَ أمّك يا ابنَ أم لبيد، إنْ كنتُ لأراك من أفقه رجلٍ بالمدينة، أوليس هذه اليهودُ والنصارى يَقرءون التوراةَ و الإنجيلَ، و لا يَنتفعون بما فيهما بشيء». هكذا رواه ابن ماجه نحوه، و هذا إسناد صحيح.

و قوله تعالى: ﴿مِنهُمْ أُمَّةٌ مُّقتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِّنهُمْ سَاءَ مَا يَعمَلونَ﴾ كقوله: ﴿وَ مِن قَومِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهدُونَ بِالحَقِّ و بِهِ يَعدِلونَ﴾ و كقوله عن أتباع عيسى ﴿فَآتَينَا الذِينَ آمَنُوا مِنهُمْ أجْرَهُمْ﴾ الآية، فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، و هو أوسط مقامات هذه الأمة، و فوق ذلك رتبة السابقين، كما في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَورَثنَا الكِتابَ الذِينَ اصْطَفَينَا مِنْ عِبادِنَا فَمِنهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفسِهِ وَ مِنهُم مُّقتَصِدٌ وَ مِنهُمْ سَابِقٌ بِالخَيرَاتِ بِإذْنِ اللهِ ذلكَ هُوَ الفَضلُ الكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدخُلُونَهَا﴾ الآية. و الصحيح: أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، كلهم يدخلون الجنة.

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾

٦٧- يقول تعالى مخاطباً عبده و رسوله محمداًﷺ باسم الرسالة، و آمراً له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، و قد امتثل عليه أفضل الصلاة و السلام ذلك، و قام به أتم القيام. روى البخاري: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَنْ حدَّثك أن محمداً كتَم شيئاً مما أنزل الله عليه، فقد كذب» و هو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِليكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية، و كذا رواه مسلم.

و في الصحيحين عنها أيضاً: أنها قالت: لو كان محمدﷺ كاتماً شيئاً من القرآن، لكتم هذه الآية ﴿وتُخفِي في نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبدِيهِ وَ تَخشَى النَّاسَ وَ اللهُ أَحَقُّ أن تَخشَاهُ﴾.

و روى ابن أبي حاتم: عن هارون بن عنترة عن أبيه قال: كنت عند ابن عباس، فجاء رجل فقال له: إنَّ ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً، لم يُبده رسول اللهﷺ للناس؟! فقال ابن عباس: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ﴾ و الله، ما ورَّثنا رسولُ اللهﷺ سوداءَ في بيضاء. و هذا إسناد جيد

و هكذا في صحيح البخاري: من رواية أبي جحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالبرضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، و الذي فَلقَ الحبة، و بَرأَ النسمة، إلا فهماً يُعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: و ما في هذه الصحيفة؟ قال: العَقْل، و فِكاكُ الأسير، و أن لا يُقتلَ مسلمٌ بكافر.

و قال البخاريرحمه الله: قال الزهري: من الله الرسالة، و على الرسول البلاغ، و علينا التسليم.

و قد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة، و أداء الأمانة، و استنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته يوم حجة الوداع، و قد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً، كما ثبت في صحيح مسلم: عن جابر بن عبد الله: أن رسول اللهﷺ قال في خطبته يومئذ: أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا:

نشهد أنك قد بلّغتَ و أديت و نصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء و ينكسها إليهم، و يقول: «اللهم هل بلغت».

و قوله تعالى: ﴿و إن لَّمْ تَفعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني: و إنْ لم تؤد إلى الناس ما أَرسلتك به، فما بلغت رسالته، أي: و قد عَلِمَ ما يترتب على ذلك لو وقع. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: إنْ كتمتَ آية مما أنزل إليك من ربك، لم تبلغ رسالته. و قوله تعالى: ﴿و اللهُ يَعصِمُكَ مِن النَّاسِ﴾ أي: بلّغ أنت رسالتي، و أنا حافظك و ناصرك و مؤيدك على أعدائك، و مظفرك بهم، فلا تَخَفْ و لا تحزن، فلن يصل أحدٌ منهم إليك بسوءٍ يؤذيك، و قد كان النبيﷺ قبل نزول هذه الآية يُحْرَس، كما روى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث: أن رسول اللهﷺ سهر ذات ليلة و هي إلى جنبه، قالت فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة» قالت: فبينا أنا على ذلك، إذ سمعتُ صوت السلاح، فقال: «مَنْ هذا؟» فقال: أنا سعد بن مالك، فقال: «ما جاء بك» قال: جئتُ لأحرسك يا رسول الله، قالت: فسمعت غطيط رسول اللهﷺ في نومه. أخرجاه في الصحيحين. و روى ابن أبي حاتم: عن عائشة قال: كان النبيﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿و اللهُ يَعصِمُكَ مِن النَّاسِ﴾ قالت: فأخرج النبيﷺ رأسه من القُبة، و قال: «يا أيها الناس انصرفوا، فقد عَصَمَني الله عز وجل» و هكذا رواه الترمذي.

و من عِصْمة الله لرسوله: حفظه له من أهل مكة، و صناديدها و حُسَّادها و معانديها و مترفيها، مع شدة العداوة و البَغْضة، و نصب المحاربة له ليلاً و نهاراً، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته، و حكمته العظيمة، فَصَانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، و خَلَقَ الله في قلبه محبةً طبيعية لرسول اللهﷺ، لا شرعية، و لوكان أسلم لاجترأ عليه كفّارها و كبارها، و لكن لما كان بينه و بينهم قدرٌ مشتركٌ في الكفر، هابوه و احترموه، فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم قَيَّضَ الله له الأنصار، فبايعوه على الإسلام، و على أن يتحوّل إلى دارهم و هي المدينة، فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود، و كلما هَمَّ أحدٌ من المشركين و أهل الكتاب بسوء، كاده الله و ردَّ كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر، فحماه الله منهم، و أنزل عليه سورتي المعوذتين دواءً لذلك الداء. و لما سمَّه اليهود في ذراع تلك الشاة بخيبر، أعلمه الله به، و حماه منه، و لهذا أشباه كثيرة جدا يطول ذكرها. فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة:

روى أبو بكر بن مردويه: عن أبي هريرة قال: كنا إذا صحبنا رسول اللهﷺ في سفر، تركنا له زعظم شجرة وأظلها فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت شجرةٍ و علّق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه، فقال: يا محمد، مَنْ يمنعك مني؟ فقال رسول اللهﷺ: «الله يمنعني منك، ضعِ السيف» فوضعه، فأنزل الله عز وجل ﴿و اللهُ يَعصِمُكَ مِن النَّاسِ﴾ و كذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه.

و قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهدِي القَومَ الكَافِرِينَ﴾ أي: بلّغ أنت، و الله هو الذي يهدي من يشاء، و يضل من يشاء، قال تعالى: ﴿ليسَ عليكَ هُداهُمْ وَ لَكِنَّ اللهَ يَهدِي مَن يَشاءُ﴾ و قال: ﴿فإنَّمَا عَليكَ البَلاغُ وَ عَلَينَا الحِسَابُ﴾.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) ﴾

٦٨- يقول تعالى: قل يا محمد **﴿يا أهل الكتاب لستم على شيء﴾** أي: من الدِّين، حتى تُقيموا التوراة و الإنجيل، أي: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، و تعملوا بما فيها: الإيمان بمحمد، و الأمر باتباعهﷺ و الإيمان بمبعثه، و الاقتداء بشريعته. و لهذا قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله: **﴿و ما أُنزِلَ إليكم مِّن رَّبِّكُمْ﴾** يعني: القرآن العظيم. و قوله: **﴿وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً﴾** تقدم تفسيره **﴿فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** أي: فلا تحزن علهم، و لا يهيبنك ذلك منهم.

٦٩- ثم قال: **﴿إِنَّ الذينَ آمَنُوا﴾** و هم المسلمون **﴿و الذينَ هَادُوا﴾** و هم حملة التوراة **﴿وَ الصَّابِئُونَ﴾** لما طال الفصل حسن العطف بالرفع، و الصابئون طائفة من النصارى و المجوس ليس لهم دين، قاله مجاهد. و عنه: من اليهود و المجوس، و قال سعيد بن جبير: من اليهود و النصارى. و عن الحسن و الحكم: إنهم كالمجوس، وقال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، و يصلون إلى غير القبلة، و يقرؤون الزبور. و قيل غير ذلك [1].

و أما النصارى فمعروفون، و هم حملة الإنجيل. و المقصود أن كل فرقة آمنت بالله و باليوم الآخر، وهو الميعاد والجزاء يوم الدين، و عملت عملاً صالحاً، و لا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية، بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك **﴿فلا خوف عليهم﴾** فيما يستقبلونه و لا على ما تركوا وراء ظهورهم **﴿و لاَ هُمْ يَحزَنُونَ﴾** و قد تقدم الكلام على نظيراتها في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) ﴾

٧١- يذكر تعالى أنه أخذ العهود و المواثيق على بني إسرائيل، على السمع و الطاعة لله و لرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، و اتبعوا آراءهم و أهواءهم و قدَّموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردّوه، و لهذا قال تعالى: **﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لاَ تَهوى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ ❁ وَحَسِبُوا أَن لاَّ تَكونَ فِتنَةٌ﴾** أي: و حسبوا أنْ لا يترتب لهم شرٌ على ما صنعوا، فترتب، و هو أنهم عَمُوا عن الحق و صموا، فلا يسمعون حقاً، و لا يهتدون إليه، ثم تاب الله عليهم، أي: مما كانوا فيه **﴿ثُمَّ عَمُوا وصَمُّوا﴾** أي: بعد ذلك **﴿كَثيرٌ مِّنهُمْ وَ اللهُ بَصيرٌ بِما يَعمَلُونَ﴾** أي: مطلع عليهم، و علم بمن يستحق الهداية،

(١) و قد سبق تفصيل القول فيهم في سورة البقرة (آية: ٦٢).

ممن يستحق الغواية منهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾

٧٢- يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من: الملكية و اليعقوبية و النسطورية، ممن قال منهم: بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم و تنزه و تقدس علواً كبيراً. هذا و قد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها و هو صغير في المهد أن قال: إني عبد الله، و لم يقل: إني أنا الله، و لا ابن الله، بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِياً﴾ إلى أن قال: ﴿و إِنَّ اللهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعبُدُوهُ هذَا صِراطٌ مُّستَقِيمٌ﴾ و كذلك قال لهم في حال كهولته و نبوته، آمراً لهم بعبادة الله ربه و ربهم وحده لا شريك له، و لهذا قال تعالى: ﴿و قَالَ المَسيحُ يَا بَنِي إِسرائِيلَ اعبُدُوا اللهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشرِكْ باللهِ﴾ أي: فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عليهِ الجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ﴾ أي: فقد أوجبَ له النار، و حرم عليه الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يغفِرُ أن يُشرَكَ بهِ وَ يغفِرُ مَا دونَ ذلكَ لِمَن يَشاءُ﴾ و قال تعالى: ﴿و نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصحابَ الجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلينَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرينَ﴾.

و في الصحيحين: أن النبيﷺ بعثَ منادياً ينادي في الناس: «إنَّ الجنة لا يدخلها إلا نفسٌ مسلمة» وفي لفظ «مؤمنة». و تقدم في أول سورة النساء عند قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يغفِرُ أن يُشرَكَ بهِ﴾ حديث يزيد بن بابنوس عن عائشة: «الدواوين ثلاثة» فذكر منهم: ديواناً لايغفره الله، و هو الشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿ومَن يُشرِكْ باللهِ فقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَليهِ الجَنَّةَ﴾ و الحديث في مسند أحمد. و لهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّهُ مَن يُشرِكْ باللهِ فقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَليهِ الْجَنَّةَ وَ مأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالمينَ مِنْ أنصارٍ﴾ أي: وما له عند الله ناصر و لا معين، و لا منقذ مما هو فيه.

٧٣- و قوله: ﴿لقَدْ كَفرَ الذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ و الصحيح أنها أُنزلت في النصارى خاصة، قاله مجاهد و غير واحد. ثم اختلفوا في ذلك، فقيل: المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة، و هو: أقنوم الأب، و أقنوم الابن، و أقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. قال ابن جرير وغيره: و الطوائف الثلاثة من الملكية و اليعقوبية و النسطورية تقول بهذه الأقانيم، و هم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً، ليس هذا موضع بسطه و كل فرقة منهم تكفر الأخرى، و الحق: أن الثلاثة كافرة.

و قال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح و أمّه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدي: وهي كقوله تعالى في آخر السورة: ﴿و إذ قالَ اللهُ يَا عِيسَى ابنَ مَريمَ أأنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ

اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ الآية . و هذا القول هو الأظهر ، و الله أعلم . قال الله تعالى : ﴿وَ ما مِن إلهٍ إلاّ إلهٌ واحِدٌ﴾ أي : متعدداً ، بل هو وحده لا شريك له إله جميع الكائنات ، وسائر الموجودات . ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً : ﴿و إن لَمْ ينتهوا عمَّا يقولونَ﴾ أي : من هذا الافتراء و الكذب ﴿ليمسنَّ الذين كفَرُوا مِنهُمْ عذابٌ أليمٌ﴾ أي : في الآخرة من الأغلال و النكال .

٧٤- ثم قال تعالى ﴿أفلاَ يَتُوبونَ إِلَى اللهِ وَ يَسْتغفرونَهُ وَ اللهُ غفورٌ رَحيمٌ﴾ و هذا من كرمه تعالى وُجوده ، ولطفه و رحمته بخلقه ، مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء و الكذب و الإفك ، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه .

٧٥- و قوله تعالى : ﴿مَا المَسيحُ ابنُ مَريَمَ إلاَّ رَسولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي : له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، و أنه عَبْدٌ من عباد الله ، و رسول من رسله الكرام ، كما قال : ﴿إنْ هُوَ إلاَّ عَبدٌ أنعَمنا عَليهِ وَ جَعلنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائيلَ﴾ و قوله : ﴿وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي : مؤمنة به مُصدِّقة له ، و هذا أعلى مقاماتها ، فدل على أنها ليست بنبية ، كما زعمه ابن حزم و غيره ، ممن ذهب إلى نبوة سارّة أم إسحق ، و نبوة أم موسى ، ونبوة أم عيسى ، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارّة و مريم ، و بقوله : ﴿وَ أوحَينا إلَى أُمِّ مُوسَى أنْ أرضِعيهِ﴾ و هذا معنى النبوة ، و الذي عليه الجمهور : أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال ، قال الله تعالى : ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾ و قد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله : الإجماع على ذلك .

و قوله تعالى : ﴿كَانَا يَأكُلانِ الطَّعامَ﴾ أي : يحتاجان إلى التغذية به ، و إلى خروجه منهما ، فهما عبدان كسائر الناس و ليسا بإلهين ، كما زعمت فرق النصارى الجهلة ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ ثم قال تعالى : ﴿انظُرْ كيفَ نُبَيِّنُ لَهُم الآياتِ﴾ أي : نوضحها و نظهرها ﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾ أي : ثم انظر بعد هذا البيان و الوضوح و الجلاء ، أين يذهبون؟ و بأي قول يتمسكون؟ و إلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟ .

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) ﴾

٧٦- يقول تعالى منكراً على مَنْ عَبَدَ غيره من الأصنام و الأنداد و الأوثان ، و مبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية ، فقال تعالى : ﴿قُلْ﴾ أي : يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله ، من سائر فرق بني آدم ، و دَخَل في ذلك النصارى و غيرهم ﴿أتعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَملِكُ لَكُمْ ضَراً وَ لاَ نَفعاً﴾ أي : لا يقدر على دفع ضر عنكم ، ولا إيصال نفع إليكم ﴿و اللهُ هُوَ السَّميعُ العَليمُ﴾ أي : السميع لأقوال عباده ، العليم بكل شيء ، فَلِمَ عدلتم عنه إلى عبادة جمادٍ لا يسمع و لا يبصر ، و لا يعلم شيئاً ، و لا يملك ضراً و لا نفعاً ، لغيره و لا لنفسه .

٧٧- ثم قال : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتابِ لاَ تَغلُوا فِي دِينِكُمْ غَيرَ الحَقِّ﴾ أي : لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ، و لا تطروا مَنْ أُمرتم بتعظيمه ، فتبالغوا فيه حتى تُخرجوه عن حيز النبوة ، إلى مقام الإلهية ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبيٌ من الأنبياء ، فجعلتموه إلهاً من دون الله ، و ما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال ،

الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ﴿و أضلوا كثيراً و ضلوا عن سواء السبيل﴾ أي: و خرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية و الضلال.

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) ﴾

٧٨- يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزله على داود نبيه ﷺ، على لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله، و اعتدائهم على خلقه. قال العوفي عن ابن عباس: لُعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور و في الفرقان. ثم بيَّن حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم:

٧٩- فقال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: كان لا ينهى أحدٌ منهم أحداً عن ارتكاب المآثم و المحارم، ثم ذمهم على ذلك ليُحْذر أنْ يُركب مثل الذي ارتكبوه، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. و الأحاديث في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر كثيرة جداً، و لنذكر منها ما يناسب هذا المقام، قد تقدم حديث جابر عند قوله: ﴿لو لا ينهاهم الربانيون و الأحبار﴾ وسيأتي عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ حديث أبي بكر الصديق و أبي ثعلبة الخشني، فروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان: أن النبي ﷺ قال: «و الذي نفسي بيده لتَأْمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم» و رواه الترمذي.

و في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده، فإنْ لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، و ذلك أضعفُ الإيمان» رواه مسلم.

و روى أبو داود: عن العُرْس بن عَميرة عن النبي ﷺ قال: «إذا عُمِلَتْ الخطيئة في الأرض، كان مَنْ شهدها فكرهها ـ وقال مرة: فأنكرها ـ كان كمن غابَ عنها، و مَنْ غاب عنها فَرضِيها، كان كمن شهدها».

و في حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضَلُ الجهاد: كلمةُ حقٍّ عند سلطان جائرٍ» رواه أبو داود والترمذي و ابن ماجه.

و روى ابن ماجه: عن أبي سعيد الخدري يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ ليسأل العبد يوم القيامة، حتى يقول: ما منعَكَ إذا رأيت المنكر أنْ تُنكره؟ فإذا لقَّنَ الله عبداً حجته، قال: يا رب رجوتُكَ وفرقت من اللناس» تفرد به ابن ماجه، و إسناده لا بأس به.

٨٠- و قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال مجاهد: يعني بذلك المنافقين. وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني: بذلك موالاتهم للكافرين، و تركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، و أسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم، و لهذا قال: ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ و فسر بذلك ما ذمهم به. ثم أخبر عنهم أنهم ﴿فِي الْعَذَابِ خَالِدُونَ﴾ يعني يوم القيامة.

٨١- و قوله تعالى: ﴿و لَوْ كانُوا يُؤمِنونَ باللهِ و النَّبيِّ وَ مَا أُنزِلَ إلَيهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أوْلياءَ﴾ أي: لو آمنوا حق الإيمان بالله و الرسول و القرآن، لما ارتكبوا ما ارتكبوه، من موالاة الكافرين في الباطن، و معاداة المؤمنين بالله والنبي و ما أنزل إليه ﴿و لَكِنَّ كَثِيراً مِّنهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله و رسوله، مخالفون لآيات وحيه و تنزيله.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) ﴾

٨٢- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النَّجاشي و أصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة القرآن بكوا، حتى أخضلوا لحاهم. و هذا القول فيه نظر! لأن هذه الآية مدنية، وقص جعفر مع النجاشي قبل الهجرة. و قال عطاء بن أبي رباح: هم قومٌ من أهل الحبشة، أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين. و قال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين، و سمعوا القرآن أسلموا و لم يتلعثموا.

و اختار ابن جرير: أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أوغيرها.

فقوله تعالى: ﴿لتجِدَنَّ أشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الذينَ أشْرَكُوا﴾ و ما ذاك إلا لأنَّ كفر اليهود كفر عناد و جحود، و مباهتة للحق، و غمط للناس، و تنقُّص بحملة العلم، و لهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء، حتى هموا بقتل رسول اللهﷺ غير مرة، و سمُّوه و سحروه و ألَّبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

و قوله تعالى: ﴿و لتَجِدَنَّ أقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذينَ آمَنُوا الذينَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى﴾ أي: الذين زعموا أنهم نصارى، من أتباع المسيح، و على منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام و أهله في الجملة، و ما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة و الرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَ جَعَلْنَا في قُلُوبِ الذينَ اتَّبَعُوهُ رَأفَةً وَرَحْمَةً وَ رَهْبَانِيَّةً﴾ و في كتابهم: مَنْ ضَرَبَكَ على خدك الأيمن، فأدر له خدك الأيسر. و ليس القتال مشروعاً في ملتهم، و لهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأنَّ مِنهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهبَاناً وَ أنَّهُمْ لاَ يَستَكبِرونَ﴾ أي: يوجد فيهم القسيسون، و هم خطباؤهم و علماؤهم، واحدهم: قسيس و قس أيضاً، و قد يجمع على قسوس، و الرهبان جمع راهب، و هو العابد، مشتق من: الرهبة، و هي: الخوف، كراكب و ركبان و فارس و فرسان.

فقوله: ﴿ذَلِكَ بِأنَّ مِنهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهبَاناً وَ أنَّهُمْ لاَ يَستَكبِرونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق، و اتباعه و الإنصاف، فقال: ﴿و إذا سَمِعُوا ما أُنزِلَ إلَى الرَّسُولِ تَرَى

﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ يقولون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا و يؤمن به. و قد روى النسائي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي و في أصحابه ﴿و إذا سَمِعُوا ما أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

و هذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿و إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ﴾ الآية، و هم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.

٨٥- و لهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿و ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: في اتباعهم الحق و انقيادهم له، حيث كان، و أين كان ومع من كان.

٨٦- ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿و الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: جحدوا بها و خالفوها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: هم أهلها و الداخلون فيها.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾

٨٧- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهطٍ من أصحاب النبي ﷺ قالوا: نقطع مذاكيرنا، و نترك شهوات الدنيا، و نسيح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لكني أصوم و أفطر، و أصلي و أنام، و أنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني و من لم يأخذ بسنتي فليس مني» رواه ابن أبي حاتم.

و في الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها: أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، و قال بعضهم: لا أتزوج النساء، و قال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم: كذا و كذا، لكني أصوم و أفطر، وأنام وأقوم، و آكل اللحم، و أتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». و عن عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع النبي ﷺ و ليس معنا نساء، فقلنا: ألا نستخصي، فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، و رخّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ الآية، أخرجاه.

وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة، والله أعلم. و جاء معقل بن مقرن إلى عبد الله بن مسعود فقال: إني حرّمت فراشي، فتلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ الآية. و عن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فجيء بضرع، فتنحى رجل، فقال له عبد الله: ادنُ، فقال: إني

حَرَّمت أن آكله، فقال عبد الله: ادن فاطعم، و كفر عن يمينك، و تلا هذه الآية: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ الآية. رواهن ابن أبي حاتم، و روى الحاكم هذا الأثر الأخير في مستدركه.

و في صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه شبيه بهذا و فيه، و في هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي و غيره، إلى أن من حرّم مأكلاً أو ملبساً أوشيئاً ما عدا النساء، أنه لا يحرم عليه ولا كفارة عليه أيضاً، ولقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ و لأن الذي حرَّم اللحم على نفسه، كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبيﷺ بكفارة. و ذهب آخرون، منهم الإمام أحمد بن حنبل، إلى أن من حرَّم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً، أو شيئاً من الأشياء، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين، كما إذا التزم تركه باليمين، فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه، إلزاماً له بما التزمه، كما أفتى بذلك ابن عباس، و كما في قوله تعالى: ﴿يا أيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرضَاةَ أزْواجِكَ وَ اللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ﴾ الآية، و كذلك ههنا، لما ذكر هذا الحكم، عقَّبه بالآية المبنية لتكفير اليمين، فدل على أن هذا مُنَزَّلٌ منزلة اليمين في اقتضاء التكفير، و الله أعلم.

و روى ابن جرير عن مجاهد قال: أراد رجال منهم عثمان بن مظعون و عبد الله بن عمرو أن يتبتلوا ويُخصوا أنفسهم، و يلبسوا المسوح، فنزلت هذه الآية إلى قوله ﴿وَ اتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُم بِهِ مُؤمِنونَ﴾.

و عن عكرمة: أن عثمان بن مظعون و علي بن أبي طالب و ابن مسعود و المقداد بن أسود و سالماً مولى أبي حذيفة في أصحابه تَبَتَّلوا فجلسوا في البيوت، و اعتزلوا النساء، و لبسوا المسوح، و حرموا طيبات الطام واللباس، إلا ما يأكلُ و يلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، و همُّوا بالإخصاء، و أجمعوا لقيام الليل، وصيام النهار، فنزلت هذه الآية ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ و لاَ تَعتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾. يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد: ما حرموا من النساء و الطعام و اللباس، و ما أجمعوا له من قيام الليل، وصيام النهار، وما هموا به من الإخصاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول اللهﷺ فقال: «إنَّ لأنفسكم حقاً، و إنَّ لأعينكم حقاً، صوموا و أفطروا، و صلوا و ناموا، فليس منا من ترك سنتنا» فقالوا: اللهم سَلَّمنا واتبعنا ما أنزلتَ.

و قد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسلة، لها شاهد في الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين، كما تقدم ذلك، و لله الحمد و المنة.

و قوله تعالى: ﴿و لاَ تَعتَدُوا﴾ يحتمل أن يكون المراد منه: و لا تبالغوا في التضييق على أنفسكم، بتحريم المباحات عليكم، كما قاله من قاله من السلف. و يحتمل أن يكون المراد: كما لا تحرموا الحلال، فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقَدْر كفايتكم و حاجتكم، و لا تجاوزوا الحد فيه، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَ اشرَبُوا وَ لاَ تُسرِفُوا﴾ الآية، و قال: ﴿و الذينَ إذا أنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُروا وَ كَانَ بينَ ذلِكَ قَواماً﴾ فشَرْعُ الله عدلٌ بين الغالي فيه، و الجافي عنه، لا إفراط و لا تفريط، و لهذا قال: ﴿لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَ لاَ تَعتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعتَدِينَ﴾.

٨٨– ثم قال: ﴿و كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً﴾ أي: في حال كونه حلالاً طيباً ﴿وَ اتَّقُوا اللهَ﴾ أي: في جميع أموركم، و اتبعوا طاعته و رضوانه، و اتركوا مخالفته و عصيانه ﴿وَ اتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُم بِهِ مُؤمِنونَ﴾.

﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) ﴾

٨٩- و قد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا، و لله الحمد والمنة، وإنه قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله و بلى والله. و هذا مذهب الشافعي. و قيل: هو في الهزل. و قيل: في المعصية. و قيل: على غلبة الظن، و هو قول أبي حنيفة و أحمد. و قيل: اليمين في الغضب. وقيل: في النسيان. و قيل: هو الحلف على ترك المأكل و المشرب و الملبس و نحو ذلك، واستدلوا بقوله: ﴿لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾.

و الصحيح: أنه اليمين من غير قصد، بدليل قوله: ﴿وَ لَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيمَانَ﴾ أي: : بما صممتم عليه منها و قصدتموها ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ يعني: محاويج من الفقراء، و مَنْ لا يجد ما يكفيه.

وقوله: ﴿مِنْ أَوسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهلِيكُمْ﴾ قال ابن عباس و سعيد بن جبير و عكرمة: أي من أعدل ما تطعمون أهليكم. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون، و بعضهم قوتاً فيه سعة، فقال الله تعالى: ﴿مِنْ أَوسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهلِيكُمْ﴾ من الخبز و الزيت. و روي عن ابن عمر في قوله: ﴿مِنْ أَوسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهلِيكُمْ﴾ قال: الخبز و السمن، و الخبز و اللبن، و الخبز و الزيت، و الخبز والتمر، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز و اللحم. و رواه ابن جرير، ثم روى ابن جرير عن عبيدة والأسود و شريح القاضي و محمد بن سيرين و الحسن و الضحاك و أبي رزين، أنهم قالوا نحو ذلك، و حكاه ابن أبي حاتم عن مكحول أيضاً.

و اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿مِنْ أَوسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهلِيكُمْ﴾ أي: في القلة و الكثرة، ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم. قال الحسن و محمد بن سيرين: يكفيه أن يُطعم عشرة مساكين، أكلةً واحدةً خبزاً و لحماً، زاد الحسن: فإن لم يجد فخبزاً و سمناً، فإن لم يجد فخبزاً و زيتاً و خلاً، حتى يشبعوا.

و قال آخرون: يطعم كل واحد من العشرة: نصف صاع من بُر أو تمر و نحوهما. فهذا قول عمر و علي و عائشة ومجاهد و الشعبي و سعيد بن جبير و إبراهيم النخعي و ميمون بن مهران و أبي مالك و الضحاك والحكم ومكحول و أبي قلابة و مقاتل بن حيان. و قال أبو حنيفة: نصف صاع بر، و صاع مما عداه. و روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: مُدّاً من بر، يعني لكل مسكين و معه إدامه. ثم قال: و روى عن ابن عمر و زيد بن ثابت وسعيد بن المسيب و مجاهد و عطاء و عكرمة و أبي الشعثاء و القاسم و سالم و أبي سلمة بن عبد الرحمن و سليمان بن يسار و الحسن و محمد بن سيرين و الزهري نحو ذلك.

و قال الشافعي: الواجب في كفارة اليمين مُدٌّ بمد النبي رسول الله ﷺ لكل مسكين. و لم يتعرض للأدم واحتج بأمر النبي ﷺ للذي جامع في رمضان، بأن يطعم ستين مسكيناً، من مكتل يسع خمسة عشر صاعاً،

لكل واحدٍ منهم مد. و قال أحمد بن حنبل: الواجب مد من بُرٍّ أو مُدانِ من غيره، و الله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ قال الشافعي رحمه الله: لو دفع كل واحدٍ من العشرة ما يَصدُق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزأه ذلك. و اختلف أصحابه في القلنسوة هل تجزئ أم لا على وجهين؟. و الصحيح عدم الإجزاء. و قال مالك و أحمد بن حنبل: لا بد أن يُدفع إلى كل واحدٍ منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه، إن كان رجلاً أو امرأة، كلٌ بحسبه، و الله أعلم. و قال مجاهد: أدناه ثوب، و أعلاه ما شئت. و قال الحسن و أبو جعفر الباقر و عطاء و طاوس و إبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان و أبو مالك: ثوب ثوب.

و قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها، فقال: تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة، و قال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة، و أخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل، لاتحاد الموجب و إن اختلف السبب، و من حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي هو في موطأ مالك و مسند الشافعي و صحيح مسلم: أنه ذكر أن عليه عتق رقبة، و جاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ «أين الله؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا»؟ قالت: رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» الحديث بطوله.

فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع، و قد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أسهل و أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى، فإن لم يقدر المكلف على واحدةٍ من هذه الخصال الثلاث، كفَّر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾ و روى ابن جرير عن سعيد بن جبير و الحسن البصري أنهما قالا: من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام و إلا صام، و قال ابن جرير حاكياً عن بعض متأخري متفقهة زمانه: أنه جائز لمن يكن له فضل عن رأس مال يتصرف فيه لمعاشه، و من الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه، ثم اختار ابن جرير: أنه الذي لا يفضل عن قوت عياله في يومه ذلك، ما يُخرج به كفارة اليمين، و اختلف العلماء: هل يجب فيها التتابع، أو يستحب و لا يجب و يجزئ التفريق؟ قولان: أحدهما: لا يجب، و هذا منصوص الشافعي في كتاب الإيمان، و هو قول مالك لإطلاق قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ و هو صادق على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ و نص الشافعي في موضع آخر في الأم: على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفيه والحنابلة، لأنه قد روي عن أبي بن كعب و غيره: أنهم كانوا يقرؤنها: ﴿فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّام مُتَتَابِعاتٍ﴾ و قال الأعمش: كان أصحاب ابن مسعود يقرؤنها كذلك. و هذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً، فلا أقل أن يكون خبرُ واحد، أو تفسيراً من الصحابة و هو في حكم المرفوع.

و قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي: هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ قال ابن جرير: معناه: لا تتركوها بغير تكفير ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يُوضّحها و يفسّرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)﴾

٩٠- يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر و الميسر، و هو القمار، و روى ابن أبي حاتم: عن عطاء ومجاهد و طاوس أو اثنين منهم قالوا: كل شيء من القمار فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز. و روي عن راشد بن سعد و ضمرة بن حبيب مثله، و قالا: حتى الكعاب و الجوز و البيض التي تلعب بها الصبيان. وعن سعيد بن المسيب قال: كان ميسر أهل الجاهلية: بيع اللحم بالشاة و الشاتين.

و عن الأعرج قال: الميسر الضرب بالقداح على الأموال و الثمار. و قال القاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله و عن الصلاة، فهو من الميسر. رواهن ابن أبي حاتم.

و في صحيح مسلم: عن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بالنَّردشير، فكأنما صَبَغَ يده في لحم خنزير و دمه». و في موطأ مالك و مسند أحمد و سنني أبي داود و ابن ماجه: عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بالنَّرد فقد عَصَى الله و رسوله» و روى موقوفاً على أبي موسى من قوله، فالله أعلم.

و أما الشطرنج: فقد قال عبد الله بن عمر: أنه شر من النرد. و نص على تحريمه مالك و أبو حنيفة وأحمد، وكرهه الشافعي رحمهم الله تعالى. و أما الأنصاب: فقال ابن عباس و مجاهد و عطاء و سعيد بن جبير والحسن و غير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، و أما الأزلام: فقالوا أيضاً: هي قِدَاح كانوا يستقسمون بها. رواه ابن أبي حاتم، و قوله تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي سخطٌ من عمل الشيطان. و قال سعيد بن جبير: إثم، و قال زيد بن أسلم: أي شر من عمل الشيطان. ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الضمير عائد على الرجس، أي: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ و هذا ترغيب.

٩١- ثم قال تعالى: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾** و هذا تهديد و ترهيب.

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر

روى الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهمَّ بَيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾**، فدُعي عمر فقُرئت عليه، فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في سورة النساء **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾** فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قال: حي على الصلاة، نادى: لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً: فنزلت الآية التي في المائدة فَدُعي

عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ قول الله تعالى : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر : انتهينا . و هكذا رواه أبو داود والترمذي و النسائي ، و صحح هذا الحديث : علي بن المديني و الترمذي .

و قد ثبت في الصحيحين : عن عمر بن الخطاب أنه قال : في خطبته على منبر رسول الله ﷺ : أيها الناس ، إنه نَزَلَ تحريم الخمر و هي من خمسة : العنب و التمر و العسل و الحنطة و الشعير ، و الخمر ما خامر العقل .

و روى البخاري : عن ابن عمر قال : نزل تحريم الخمر و إن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة ، ما فيها شراب العنب .

(حديث آخر) : روى الإمام أحمد : أن عبد الرحمن بن وعلة قال : سألت ابن عباس عن بيع الخمر ، فقال : كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف ـ أو : من دوس ـ فلقيه يوم الفتح براوية خمر يديها إليه ، فقال رسول الله ﷺ : «يا فلان ، أما علمت أن الله حرَّمها؟» فأقبل الرجل على غلامه فقال : اذهب فبعها . فقال رسول الله ﷺ : «يا فلان ، بماذا أمرته؟» فقال : أمرته أن يبيعها . قال : «إن الذي حرم شربها حرم بيعها» . فأمر بها فأفرغت في البطحاء .

(حديث آخر) : روى الإمام أحمد عن أنس قال : كنتُ أسقى أبا عبيدة بن الجراح و أبي بن كعب وسهيل ابن بيضاء ، و نفراً من أصحابه عند أبي طلحة ، حتى كاد الشراب يأخذ منهم ، فأتى آتٍ من المسلمين ، فقال : أما شعرتم أن الخمر قد حُرّمت؟ فقالوا : حتى ننظر و نسأل ، فقالوا : يا أنس اسكبْ ما بقي في إنائك ، فوالله ما عادوا فيها ، و ما هي إلا التمر و البسر ، و هي خمرهم يومئذ . أخرجاه في الصحيحين .

و في رواية قال : كنتُ ساقي القوم يوم حُرِّمت الخمر في بيت أبي طلحة ، و ما شرابهم إلا الفَضيخ : البسر والتمر ، فإذا مناد يُنادي ، قال : اخرج فانظر ، فإذا منادٍ يُنادي : ألا إن الخمر قد حُرِّمت ، فَجَرَتْ في سكك المدينة ، فقال لي أبو طلحة : اخرج فأهرقها ، فهرقتها ، فقالوا أو قال بعضهم : قُتل فلان و فلان و هي في بطونهم ، قال : فأنزل الله ﴿ليسَ علَى الذينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالحاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية .

(حديث آخر) : روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ الله حَرَّم على أمتي الخمر و الميسر و المِزْر و الكُوبة و القِنِّين [1] و زادني صلاة الوتر» قال يزيد : القنين البرابط . تفرد به أحمد .

(حديث آخر) : روى الإمام أحمد : عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «لُعِنت الخمر على عشرة وجوه : لُعنت الخمر بعينها ، و شاربها ، و ساقيها ، و بائعها و مبتاعها ، و عاصرها و معتصرها ، و حاملها والمحمولة إليه ، و آكل ثمنها» و رواه أبو داود و ابن ماجه .

(حديث آخر) : روى الحافظ أبو بكر البيهقي : عن مصعب بن سعد عن سعد قال : أُنزلت في الخمر أربع آيات ، فذكر الحديث ، قال : وَضَع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا ، فشربنا الخمر قبل أن تحرم ، حتى انتشينا فتفاخرنا ، فقالت الأنصار : نحن أفضل ، و قالت قريش : نحن أفضل ، فأخذ رجلٌ من الأنصار لحي جَزورٍ فضرب به أنف سعد ففَزره ، و كانت أنف سعد مفزورة فنزلت ﴿إِنَّما الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله تعالى :

(١) المزر : شراب مسكر يتخذ من الذُّرة ، و الكوبة : هي الطبل ، و قيل : النرد . و القنّين : البربط و هو العود .

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أخرجه مسلم.

(حديث آخر): روى البخاري: عن جابر قال: صَبَّح أناس غداة أحد الخمر، فقُتلوا من يومهم شهداء، وذلك قبل تحريمها.

(حديث آخر): روى أبو داود الطيالسي عن البراء بن عازب قال: لما نَزلَ تحريم الخمر، قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم؟ فنزلت: ﴿ليسَ على الذينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالحاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية، و رواه الترمذي.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمراً؟ فقال: «أهرقها» قال: أفلا نجعلها خلاً؟ قال: «لا». و رواه مسلم و أبو داود و الترمذي.

(حديث آخر): روى أبو داود عن ابن عباس: عن النبي ﷺ قال: «كُلُّ مُخمَّرٍ خَمر، و كل مسكرٍ حرام، ومَنْ شَربَ مُسكراً بُخستْ صلاته أربعين صباحاً، فإن تابَ تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخَبَال» قيل: و ما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «صديدُ أهل النار. و من سقاه صغيراً لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال» تفرد به أبو داود.

(حديث آخر): روى الشافعي رحمه الله: عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ شَربَ الخمرَ في الدنيا، ثم لم يتب منها، حُرِمها في الآخرة» أخرجه البخاري و مسلم. و روى مسلم: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مُخمَّرٍ خَمر، و كل مسكرٍ حرام، و من شرب الخمر فمات و هو يُدْمنها و لم يتب منها، لم يشربها في الآخرة».

(حديث آخر): روى ابن وهب: عن عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا يَنظر اللهُ إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، و المُدْمن الخمر، و المنَّان بما أعطى» و رواه النسائي.

و عن عثمان بن عفان يقول: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجلٌ فيمن خلا قبلكم يتعبّد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها إنا ندعوك لشهادة، فدخل معها فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة، عندها غلام و باطية خمر، فقالت: إني و الله ما دعوتك لشهادة، و لكن دعوتك لتقع عليّ أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب الخمر، فسقته كأساً، فقال: زيدوني، فلم يَرم حتى وقع عليها، و قتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي و الإيمان أبداً، إلا أوْشك أحدهما أن يُخرج صاحبه. رواه البيهقي، و هذا إسناد صحيح، و قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه «ذم المسكر» مرفوعاً والموقوف أصح، و الله أعلم. و له شاهد في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن، و لا يسرق سرقةً حين يسرقها و هو مؤمن، و لا يشرب الخمر حين يشربها و هو مؤمن».

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ

كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

٩٤- قال الوالبي عن ابن عباس قوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال: هو الضعيف من الصيد و صغيره، يبتلي الله به عباده في إحرامهم، حتى لو شاؤا لتناولوه بأيديهم، فنهاهم الله أن يقربوه. و قال مجاهد: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني صغار الصيد و فراخه ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يعني: كباره. و قال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، فكانت الوحش و الطير و الصيد تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله و هم محرمون ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ يعني: أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي و الرماح، سراً و جهراً، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

و قوله ههنا: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ قال السدي و غيره: يعني بعد هذا الإعلام و الإنذار و التقدم ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لمخالفته أمر الله و شرعه.

٩٥- ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ و هذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام، و نهى عن تعاطيه فيه، و هذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول، و لو ما تولّد منه و من غيره، فأما غير المأكول من حيوانات البر، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها، و الجمهور على تحريم قتلها أيضاً، و لا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين: عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «خمسُ فواسق يُقْتلنَ في الحِلِّ و الحَرَم: الغراب و الحدأة و العقرب و الفأرة و الكلب العقور».

و رواه أيوب عن نافع عن ابن عمر مثله، قال أيوب: فقلت لنافع فالحية؟ قال: الحية لا شك فيها، و لا يختلف في قتلها. و من العلماء كمالك و أحمد مَنْ أَلْحق بالكلب العقور: الذئب و السبع و النمر و الفهد، لأنها أشد ضرراً منه، فالله أعلم. و قال زيد بن أسلم و سفيان بن عيينة: الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها. و استأنس من قال بهذا بما روى أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال: «اللهمّ سلّط عليه كلبك بالشام» فأكله السبع بالزرقاء، قالوا: فإنْ قَتَلَ ما عداهن فداه، كالضبع و الثعلب و الوبر، ونحو ذلك. قال مالك: و كذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها، و صغار الملحق بها من السباع العوادي. و قال الشافعي: يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه، و لا فرق بين صغاره و كباره، وجعل العلة الجامعة كونها لا تُؤكل. و قال أبو حنيفة: يقتل المحرم الكلب العقور و الذئب، لأنه كلب بري، فإنْ قتل غيرهما فداه، إلا أنْ يصول عليه سبع غيرهما فيقتله، فلا فداء عليه. و هذا قول الأوزاعي والحسن بن صالح ابن حي. و قال زفر بن الهذيل: يفدى ما سوى ذلك و إن صال عليه.

و قال بعض الناس: المراد بالغراب ههنا: الأبقع، و هو الذي في بطنه و ظهره بياض، دون الأدرع: وهو الأسود، و الأعصم: و هو الأبيض لما رواه النسائي[1] عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «خمس يقتلهن المحرم: الحية و الفأرة و الحدأة و الغراب الأبقع و الكلب العقور». و الجمهور على أن المراد به أعم من

(١) و هو في صحيح مسلم في كتاب الحج (٢/ ٨٥٦).

ذلك، لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه.

و قوله تعالى: **﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾** روى ابن أبي حاتم: عن أيوب قال: نُبئت عن طاوس أنه قال: لا يحكم على من أصاب صيداً خطأ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً. وهذا مذهب غريب عن طاوس، و هو متمسك بظاهر الآية. و قال مجاهد بن جبير: المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد، الناسي لإحرامه، فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه، فذاك أمره أعظم من أن يُكفّر، و قد بطل إحرامه. رواه ابن جرير و هو قول غريب أيضاً. و الذي عليه الجمهور: أن العامد و الناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. و قال الزهري: دل الكتاب على العامد، و جرت السنة على الناسي. و معنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد، و على تأثيمه بقوله: **﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾** و جاءت السنة من أحكام النبيﷺ و أحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد.

و أيضاً: فإنَّ قتل الصيد إتلافٌ، و الإتلاف مضمون في العمد و في النسيان، لكن المتعمد مأثوم، والمخطئ غير ملوم.

و قوله تعالى: **﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾** قرأ بعضهم بالإضافة و قرأ آخرون بعطفها **﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾** و حكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأ: **﴿فَجَزَاؤُهُ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾**. و في قوله: **﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾** على كل من القراءتين، دليل لما ذهب إليه مالك و الشافعي و أحمد و الجمهور، من وجوب الجزاء من مثل ما قَتَلَه المحرم، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله حيث أوجب القيمة، سواء كان الصيد المقتول مِثْلياً أو غير مثلي، قال: و هو مخير إن شاء تصدق بثمنه، و إن شاء اشترى به هدياً. و الذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع، فإنهم حكموا في النعامة ببدنة، و في بقرة الوحش ببقرة، و في الغزال بعنز، و ذِكر قضايا الصحابة و أسانيدها مقررٌ في كتاب الأحكام. و أما إذا لم يكن الصيد مثلياً، فقد حَكَمَ ابن عباس فيه بثمنه يحمل إلى مكة. رواه البيهقي.

و قوله تعالى: **﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾** يعني: أنه يحكم بالجزاء في المثل أو بالقيمة، في غير المثل: عدلان من المسلمين. و اختلف العلماء في القاتل، هل يجوز أن يكون أحد الحكمين؟ على قولين: **(أحدهما)**: لا، لأنه قد يُتّهم في حكمه على نفسه، و هذا مذهب مالك. **(و الثاني)**: نعم، لعموم الآية، و هو مذهب الشافعي و أحمد. و احتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة، و روى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران أن أعرابياً أتى أبا بكر فقال: قتلت صيداً و أنا محرم، فما ترى علي من الجزاء؟ فقال أبو بكرﷺ لأبي بن كعب و هو جالس عنده: ما ترى فيها؟ قال: فقال الأعرابي: أتيتك و زنت خليفة رسول اللهﷺ أسألك فإذا أنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: و ما تنكر؟ يقول الله تعالى: **﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾** فشاورت صاحبي، حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به، و هذا إسناد جيد لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق، و مثله يحتمل ههنا. فبيّن له الصديق الحكم برفق و تؤدة، لما رآه أعرابياً جاهلاً، وإنما دواء الجهل التعليم.

روى ابن جرير: عن أبي جرير البجلي قال: أصبت ظبياً و أنا محرم، فذكرت ذلك لعمر، فقال: ائت

رجلين من إخوانك، فليحكما عليك، فأتيت عبد الرحمن و سعد، فحكما علي بتيس أعفر. و روى ابن جرير عن طارق قال: أوطأ أريد ظبياً فقتله و هو محرم، فأتى عمر ليحكم عليه، فقال عمر: احكم معي، فحكما فيه جدياً قد جمع الماء و الشجر، ثم قال عمر: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ و في هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين، كما قاله الشافعي و أحمد رحمهما الله.

و اختلفوا: هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، و إن كان قد حكم في مثله الصحابة أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة؟ على قولين: فقال الشافعي و أحمد: يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة، و جعلاه شرعاً مقرراً لا يعدل عنه، و ما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين.

و قال مالك و أبو حنيفة: بل يجب الحكم في كل فرد فرد، سواء وُجد للصحابة في مثله حكم أم لا، لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

و قوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أي: واصلاً إلى الكعبة، و المراد: وصوله إلى الحرم بأن يُذبح هناك، ويُفرّق لحمه على مساكين الحرم. و هذا أمر متفق عليه في هذه الصورة. و قوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام: بين الجزاء و الإطعام و الصيام، كما هو قول مالك و أبي حنيفة و أبي يوسف و محمد ابن الحسن و أحد قولي الشافعي و المشهور عن أحمد رحمهم الله، لظاهر «أو» بأنها للتخيير.

و القول الآخر: أنها على الترتيب، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوَّم الصيد المقتول، عند مالك وأبي حنيفة و أصحابه و حماد و إبراهيم. و قال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يُشترى به طعام فيتصدق به، فيُصرف لكل مسكين مدٌّ منه عند الشافعي و مالك و فقهاء الحجاز، و اختاره ابن جرير. وقال أبو حنيفة و أصحابه: يطعم كل مسكين مدين، و هو قول مجاهد. و قال أحمد: مدٌّ من حنطةٍ أو مدان من غيره، فإن لم يجد أو قلنا بالتخيير، صام عن إطعام كل مسكين يوماً.

وقال ابن جرير: و قال آخرون: يصوم مكان كل صاع يوماً، كما في جزاء المترفه بالحلق و نحوه، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقاً بين ستة، أو يصوم ثلاثة أيام، و الفَرَق ثلاثة آصع.

و اختلفوا في مكان هذا الإطعام، فقال الشافعي: مكانه الحرم. و هو قول عطاء. و قال مالك: يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد، أو أقرب الأماكن إليه، و قال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحرم، و إن شاء أطعم في غيره.

ذكر أقوال السلف في هذا المقام

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ فإذا قتل المحرم شيئاً من الصيد حُكم عليه فيه، فإنْ قتل ظبياً أو نحوه، فعليه شاة تُذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل أيِّلاً أو نحوه فعليه بقرة، فإن لم يجدها أطعم

عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً، و إن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه، فعليه بدنة من الإبل، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً، رواه ابن أبي حاتم و ابن جرير، وزادوا: الطعام مدّ مدّ يشبعهم.

و عن عامر الشعبي و عطاء و مجاهد ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَاماً﴾ قالوا: إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدى. رواه ابن جرير، و كذا روى ابن جريج عن مجاهد و أسباط عن السدي: أنها على الترتيب. و قال عطاء وعكرمة مجاهد في رواية الضحاك و إبراهيم النخعي: هي على الخيار و هي رواية عن ابن عباس، و اختار ذلك ابن جرير رحمه الله.

و قوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي: أوجبنا عليه الكفارة ليذوق عقوبة فعله، الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام، و اتبع شرع الله و لم يرتكب المعصية، ثم قال: ﴿و مَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي: و من فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام، و بلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ قال ابن جريج: قلت لعطاء ما ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾؟ قال عما كان في الجاهلية، قال قلت: و ما ﴿و مَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ قال: و من عاد في الإسلام فينتقم الله منه، و عليه مع ذلك الكفارة، قال قلت: فهل في العود من حدٍّ تعلمه؟ قال: لا، قال: قلت: فترى حقاً على الإمام أنْ يعاقبه؟ قال: لا، هوذنبٌ أذنبه فيما بينه و بين الله عز وجل، و لكن يفتدي. و رواه ابن جرير.

و قيل: معناه: فينتقم الله منه بالكفارة، قاله سعيد بن جبير و عطاء، ثم الجمهور من السلف و الخلف: على أنه متى قتل المحرمُ الصيدَ، وجب الجزاء، و لا فرق بين الأولى و الثانية و الثالثة، و إن تكرر ما تكرر، سواء الخطأ في ذلك و العمد.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: من قتل شيئاً من الصيد خطأ، و هو محرم، يُحكم عليه فيه كلما قتله، فإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة، فإن عاد يقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله عز وجل. و هكذا قال شريح و مجاهد و سعيد بن جبير و الحسن البصري و إبراهيم النخعي. رواهن ابن جرير، ثم اختار القول الأول. و روى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري: أن رجلا أصاب صيداً، فتجوز عنه، ثم عاد فأصاب صيداً آخر، فنزلت نار من السماء فأحرقته، فهو قوله: ﴿و مَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.

و قال ابن جرير في قوله: ﴿وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ يقول عزّ ذكره: و الله منيعٌ في سلطانه، لا يقهره قاهر، و لا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، و لا من عقوبة من أراد عقوبته مانع، لأنَّ الخلق خلقه، و الأمر أمره، له العزة و المنعة، و قوله: ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ يعني: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا

﴿تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

٩٦- قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في رواية عنه، و سعيد بن المسيب و سعيد بن جبير و غيرهم، في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يعني: ما يصطاد منه طرياً ﴿وَطَعَامُهُ﴾ ما يتزود منه مليحاً يابساً، وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه: صيده ما أُخذ منه حياً ﴿وَطَعَامُهُ﴾ ما لفظه ميتاً، و كذا روي عن أبي بكر الصديق و زيد بن ثابت و عبد الله بن عمرو و أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم و عكرمة و أبي سلمة بن عبد الرحمن و إبراهيم النخعي و الحسن البصري.

و هكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه. و قوله: ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي: منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ و هم جمع سَيَّار، قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر و السفر. و قال غيره: الطري منه لمن يصطاد من حاضرة البحر، و طعامه ما مات فيه، أو اصطيد منه و مُلّح و قُدِّد، يكون زاداً للمسافرين، و النائين عن البحر. و قد روى نحوه عن ابن عباس و مجاهد و السدي و غيرهم.

و قد استدل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة و بما رواه الإمام مالك: عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قِبلَ الساحل، فأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح و هم ثلثمائة و أنا فيهم، قال: فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فَنِيَ الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله فكان مزودي تمر، قال: فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة، فقال فقد وجدنا فقدها حين فنيت، قال: ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوتٌ مثل الظَّرِب فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ثم أمر براحلة فرحِّلت و مرت تحتهما فلم تصبهما. و هذا الحديث مخرج في الصحيحين.

و عن أبي هريرة قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر نحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأ به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطهور ماؤه و الحل ميتته».

و قد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي و أحمد بن حنبل و أهل السنن الأربع، و صححه البخاري والترمذي و ابن خزيمة و ابن حبان و غيرهم، و قد روي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه.

و قد روى الشافعي عن ابن عباس: أنه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم.

و قد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء: إلى أنه تؤكل دواب البحر، و لم يستثن من ذلك شيئاً، و قد تقدم عن الصديق أنه قال: طعامه كل مافيه. و قد استثنى بعضهم الضفادع و أباح ما سواها، لما رواه الإمام أحمد و أبو داود النسائي عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي: أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع.

و قال آخرون: يؤكل من صيد البحر: السمك، و لا يؤكل الضفدع. و اختلفوا فيما سواهما، فقيل: يؤكل سائر ذلك، و قيل: لا يؤكل، و قيل: ما أُكل شبهه من البر، أكل مثله في البحر، و ما لا يُؤكل شبهه لايؤكل. و هذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى، و قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: لا يؤكل ما مات في البحر، كما لا يؤكل ما مات في البر، لعموم قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾. و قد ورد

حديث بنحوه ذلك، عن أبي الزبير عن جابر به و هو منكر، و قد احتج الجمهور من أصحاب مالك و الشافعي وأحمد بن حنبل بحديث العنبر المتقدم ذكره، و بحديث: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» و قد تقدم أيضاً. وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «أُحلت لنا ميتتان و دمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد، و أما الدمان فالكبد و الطحال» و رواه أحمد و ابن ماجه و الدارقطني و البيهقي، و له شواهد، وروى موقوفاً، و الله أعلم.

و قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيكُمْ صَيدُ البَرِّ مَا دُمتُمْ حُرُماً﴾ أي: في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد، ففيه دلالة على تحريم ذلك، فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً أثم و غرم، أو مخطئاً غرم و حرم عليه أكله، لأنه في حقه كالميتة، و كذا في حق غيره من المحرمين و المحلين، عند مالك و الشافعي في أحد قوليه، و به يقول عطاء و القاسم و سالم وأبو يوسف و محمد بن الحسن و غيرهم.

فإن أكله أو شيئاً منه فهل يلزمه جزاء ثان؟ فيه قولان للعلماء **(أحدهما)**: نعم، روى عبد الزراق عن عطاء قال: إنْ ذَبَحه ثم أكله فكفارتان، و إليه ذهب طائفة. **(و الثاني)**: لا جزاء عليه في أكله، نص عليه مالك ابن أنس، قال أبو عمر بن عبد البر: و على هذا مذاهب فقهاء الأمصار و جمهور العلماء، ثم وجّهه أبو عمر: بما لو وطئ ثم وطئ قبل أن يُحد، فإنما عليه حدٌ واحد، و قال أبو حنيفة: عليه قيمة ما أكل.

و أما إذا صاد حلالٌ صيداً فأهداه إلى محرم، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقاً، و لم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده من أجله أم لا؟ حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر عن: عمر بن الخطاب و أبي هريرة و الزبير ابن العوام، و كعب الأحبار و مجاهد و عطاء في رواية و سعيد بن جبير، و به قال الكوفيون. روى ابن جرير عن أبي هريرة: أنه سئل عن لحم صيدٍ صاده حلالٌ، أيأكله المحرم؟ قال: فأفتاهم بأكله، ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره، فقال: لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك. و قال آخرون: لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية، و منعوا من ذلك مطلقاً، لعموم هذه الآية الكريمة. و روى عبد الرزاق عن ابن عباس: أنه كره أكل الصيد للمحرم، و قال: هي مبهمة. يعني قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيكُمْ صَيدُ البَرِّ مَا دُمتُمْ حُرُماً﴾ و روي عن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال. قال ابن عبد البر: وبه قال طاوس و جابر بن زيد، و إليه ذهب الثوري و إسحاق بن راهويه في رواية، و قد روى نحوه عن علي بن أبي طالب، رواه ابن جرير.

و قال مالك و الشافعي و أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه ـ في رواية ـ و الجمهور: إنْ كان الحلال قد قصد الْمُحرم بذلك الصيد، لم يجز للمحرم أكله، لحديث الصعب بن جثامة: أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً، و هو بالأبواء أو بودّان، فردّه عليه فلما رأى ما في وجهه، قال: «إنا لم نَردّه عليك إلا أنا حُرُم». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، و له ألفاظ كثيرة، قالوا: فوجهه أن النبي ﷺ ظَنَّ أن هذا إنما صاده من أجله، فرده لذلك، فأما إذا لم يقصده بالاصطياد، فإنه يجوز له الأكل منه، لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وحشٍ و كان حلالاً لم يُحْرِم و كان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله، ثم سألوا رسول الله ﷺ، فقال: «هل كان منكم أحدٌ أشار إليها أو أعان في قتلها»؟ قالوا: لا، قال: «فكلوا» و أكل منها رسول الله ﷺ.

و هذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة.

و روى مالك: عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيت عثمان بن عفان بالعرج و هو محرم، في يوم صائف، قدغطى وجهه بقطيفة أرجوان، ثم أُتي بلحمِ صيدٍ فقال لأصحابه: كلوا، فقالوا: أولا تأكل أنت؟ فقال: إني لست كهيئتكم، إنما صِيدَ من أجلي.

﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) ﴾

١٠٠ - يقول تعالى لرسولهﷺ **﴿قُل﴾** يا محمد **﴿لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾** أي: يا أيها الإنسان **﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾** يعني: أن القليل الحلال النافع، خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء في الحديث «ما قلّ وكفى، خيرٌ مما كَثُر و ألهى»[1]. **﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾** أي: يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام و دعوه، و اقتنعوا بالحلال و اكتفوا به **﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** أي: في الدنيا والآخرة.

١٠١ - ثم قال تعالى: **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾** هذا تأديبٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين، و نهيٌ لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال و التنقيب عنها، لأنها إنْ أُظهرتْ لهم تلك الأمور، ربما ساءتهم و شق عليهم سماعها، و روى البخاري عن أنس بن مالك قال: خطب رسول اللهﷺ خطبةً ما سمعت مثلها قط، و قال فيها: «لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً و لبكيتم كثيراً» قال فغطّى أصحاب رسول اللهﷺ وُجوههم لهم حنين، فقال رجل: مَنْ أبي؟ قال: فلان، فنزلت هذه الآية **﴿لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾** و رواه مسلم و أحمد و الترمذي و النسائي.

و روى ابن جرير عن قتادة في قوله: **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾** الآية قال: فحدثنا أنس بن مالك حدثه: أن رسول اللهﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: «لا تسألوني اليوم عن شيءٍ إلا بيَّنته لكم» فأشفق أصحاب رسول اللهﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر، فجعلت لا ألتفت يميناً و لا شمالاً إلا وجدت كُلاً لافاً رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان يُلاحى فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله من أبي؟ قال: «أبوك حذافة» قال: ثم قام عمر أو قال فأنشأ عمر فقال: رضينا بالله رباً، و بالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائذاً بالله، أو قال: أعوذ بالله من شر الفتن، قال: و قال رسول اللهﷺ: «لم أر في الخير والشر كاليوم قط، صُوِّرت لي الجنة و النار، حتى رأيتهما دون الحائط» أخرجاه.

و روى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قومٌ يسألون رسول اللهﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: مَنْ أبي؟ و يقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: **﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾** حتى فرغ من الآية كلها. تفرد به البخاري.

و ظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا عَلمَ بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها،

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو يعلى (١/ ١٠٥٣) و صححه الضياء المقدسي في المختارة.

وتركها.

و قوله تعالى: ﴿و إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي: و إن تسألوا عن هذه الأشياء التي نُهيتم عن السؤال عنها، حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ، تُبيّن لكم ﴿وَ ذلك على الله يسير﴾، ثم قال: ﴿عفا الله عنها﴾ أي: عما كان منكم قبل ذلك ﴿و الله غفور حليم﴾. و قيل: المراد بقوله: ﴿و إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ أي: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق، و قد ورد في الحديث: «أعظم المسلمين جرماً مَنْ سَأل عن شيء لم يُحرم، فحُرِّم من أجل مسألته»[1]. ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة، فسألتم عن بيانها، بُيّنت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها ﴿عفا الله عنها﴾ أي: ما لم يَذكره في كتابه، فهو مما عفا عنه، فاسكتوا أنتم عنها، كما سكت عنها.

و في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك مَن كان قبلكم كثرة سؤالهم، و اختلافهم على أنبيائهم».

١٠٢ - ثم قال تعالى: ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ أي: قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قومٌ من قبلكم، فأجيبوا عنها، ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بها كافرين، أي: بسببها، أي: بُيّنت لهم فلم ينتفعوا بها، لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، بل على وجه الاستهزاء و العناد.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم و إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم﴾ قال: لما نزلت آية الحج، نادى النبي ﷺ في الناس فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد كتب عليكم الحجَّ فحُجُّوا» فقالوا: يا رسول الله، أعاماً واحداً أم كلَّ عام؟ فقال: «لا، بل عاماً واحداً، و لو قلت: كل عام لوجبت، ولو وجبت لكفرتم». ثم قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء﴾ إلى قوله: ﴿ثم أصبحوا بها كافرين﴾ رواه ابن جرير.

و أما عكرمة فقال: إنهم كانوا يسألونه عن الآيات، فنهوا عن ذلك، ثم قال: ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ رواه ابن جرير. يعني عكرمة رحمه الله: أن المراد بهذا: النهي عن سؤال وقوع الآيات، كما سألت قريش أن يجري لهم أنهاراً، و أن يجعل لهم الصفا ذهباً، و غير ذلك، و كما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، و قد قال الله تعالى: ﴿و ما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها و ما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ و قال تعالى: ﴿و أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله و ما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * و نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة و نذرهم في طغيانهم يعمهون * و لو أننا نزلنا إليهم الملائكة و كلمهم الموتى و حشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله و لكن أكثرهم يجهلون﴾.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)﴾

(١) رواه الشيخان.

١٠٣ - روى البخاري: عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع دَرُّها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، و السائبة كانوا يُسيبونها لآلهتهم، لا يحمل عليها شيء، قال: و قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ عمرو بن عامر الخزاعي يَجُرُ قُصْبه في النار، كان أول من سَيَّبَ السوائب». و الوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثني بعد بأنثى، و كانوا يسيبونها لطواغيتهم، إنْ وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، و الحام: فحل الإبل، يَضربُ الضِّراب المعدود، فإذا قضى ضِرابه و دَعُوه للطواغيت، وأعفوه عن الحمل فلم يُحمل عليه شيء، و سموه الحامي. و كذا رواه مسلم و النسائي.

فعمر و هذا هو ابن لحى بن قمعة، أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جُرهم، و كان أول من غَيَّر دين إبراهيم الخليل، فأدخل الأصنام إلى الحجاز، و دعا الرعاع من الناس إلى عبادتها، و التقرب بها، و شرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام و غيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام، عند قوله تعالى: ﴿و جعلُوا للهِ مِمَّا ذَرأَ مِنَ الحَرثِ و الأنعامِ نَصيباً﴾ إلى آخر الآيات في ذلك.

فأما البحيرة، فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي الناقة إذا نَتَجَت خمسة أبطن، نظروا إلى الخامس، فإنْ كان ذكراً ذبحوه، فأكله الرجال دون النساء، و إنْ كان أنثى جدعوا آذانها، فقالوا هذه بحيرة. وذكر السدي و غيره قريباً من هذا. و أما السائبة: فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فسرمن البحيرة، إلا أنها ما ولدت من ولد كان بينها و بينه ستة أولاد، كانت على هيئتها، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين، ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم. و قال محمد بن إسحاق: السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد، ليس بينهن ذكر، سيّبت فلم تُركب، و لم يجز وَبَرها، و لم يحلب لبنها إلا الضيف. و قال أبو روق: السائبة: كان الرجل إذا خرج فقُضيت حاجته، سيّب من ماله ناقة أو غيرها، فجعلها للطواغيت، فما ولدت من شيءٍ كان لها. و قال السدي: كان الرجل منهم إذا قُضيت حاجته، أو عوفي من مرضٍ، أو كثر ماله، سيّب شيئاً من ماله للأوثان، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا.

أما الوصيلة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن، نظروا إلى السابع، فإنْ كان ذكراً و هو ميت، اشترك فيه الرجال دون النساء، و إن كان أنثى استحيوها، و إن كان ذكراً و أنثى في بطن واحد، استحيوهما و قالوا: وصلته أخته فحرّمته علينا. رواه ابن أبي حاتم.

و روى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب ﴿وَلاَ وَصيلَةٍ﴾ قال: فالوصيلة من الإبل: كانت الناقة تبتكر من الأنثى، ثم ثنت بأنثى فسموها: ويقولون: وصَلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم. وكذا روى عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: و أما الحام: فالفحل من الإبل، إذا وُلد لولده قالوا: حمى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً و لا يجزون له وبراً، و لا يمنعونه من حمى رعي، و من حوض يشرب منه، و إن كان الحوض لغير صاحبه. و قد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية.

و قد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم: عن مالك بن نضلة قال: أتيت النبي ﷺ في خَلْقان من الثياب، فقال لي: «هل لك من مال؟» فقلت: نعم، قال: «من أيِّ المال» قال: فقلت: من كُل المال، من الإبل و الغنم والخيل و الرقيق، قال: «فإذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك»، ثم قال: «تنتج إبلك وافية آذانها؟» قال:

قلت: نعم، قال: «وهل تنتج الإبل إلا كذلك؟»، قال: «فلعلك تأخذ الموسَى فتقطع آذان طائفة منها، وتقول: هذه بحير وتشق آذان طائفة منها و تقول هذه حرم» قلت: نعم، قال: «فلا تفعل إنَّ كل ما آتاك الله لك حِلٌّ»(١).

و قوله تعالى: ﴿و لكنَّ الذينَ كفرُوا يَفترونَ علَى اللهِ الكَذِبَ وَ أكثرُهُمْ لاَ يَعقِلُونَ﴾ أي: ما شرعَ الله هذه الأشياء، و لا هي عنده قربة، و لكن المشركين افتروا ذلك، و جعلوه شرعاً لهم، و قُربة يتقربون بها إليه، وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبالٌ عليهم.

١٠٤ - ﴿و إذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إلَى مَا أنزَلَ اللهُ وَ إلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدنَا عَليهِ آبَاءَنَا﴾ أي: إذا دُعوا إلى دين الله و شرعه، و ما أوجبه و ترك ما حرمه، قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه الآباء و الأجداد، من الطرائق والمسالك، قال الله تعالى: ﴿أوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لاَ يَعلَمُونَ شَيئاً﴾ أي: لا يفهمون حقاً و لا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم و الحالة هذه؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم، و أضل سبيلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾

١٠٥ - يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، أن يُصلحوا أنفسهم، و يفعلوا الخير بجهدهم و طاقتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريباً منه أو بعيداً. قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: يقول تعالى إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال، و نهيته عنه من الحرام، فلا يضره مَن ضل بعده إذا عمل بما أمرته به. و كذا روى الوالبي عنه، و هكذا قال مقاتل بن حيان. فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمنوا عَليكُمْ أنفُسَكُمْ﴾ نصب على الإغراء ﴿لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ إلَى اللهِ مَرجِعُكُمْ جَميعاً فَيُنَبِّئُكُم بمَا كُنتُمْ تَعمَلُونَ﴾ أي: فيُجازي كل عاملٍ بعمله، إنْ خيراً فخير، و إنْ شراً فشر، وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، إذا كان فعل ذلك ممكناً.

و قد روى الإمام أحمد: عن قيس قال: قام أبوبكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله و أثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿يا أيهـا الذينَ آمنوا عَليكُمْ أنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ﴾ و إنكم تضعونها على غير موضعها، و إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا المنكر و لا يغيرونه، يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه» قال: و سمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس إياكم و الكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان. و قد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة و ابن حبان في صحيحه، و قد رجح رفعه الدارقطني وغيره.

و روى ابن جرير: عن سوار بن شبيب قال: كنت عند ابن عمر إذ أتاه رجل جليد العين، شديد اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن نفرٌستة، كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، و كلهم مجتهد لا يألو، و كلهم بغيض إليه أن يأتي دناءة إلا الخير، و هم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك، فقال رجلٌ من القوم: و أي دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض الشرك؟، فقال الرجل: إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ، فأعاد على عبد الله الحديث، فقال عبد الله: لعلك ترى لا أبالك أني سآمرك أن تذهب فتقتلهم، عظهم وانههم،

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٧٣) و أبو داود (٤٠٦٣) و النسائي (٤٨١٩)، وهو حديث صحيح.

وإنْ عصوك فعليك بنفسك ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكُمْ أنفسَكُمْ﴾ الآية .

و روى عن أبي مازن قال : انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة ، فإذا قوم من المسلمين جلوس ، فقرأ أحدهم هذه الآية ﴿عَلَيكُمْ أنفُسَكُمْ لاَ يَضرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ فقال : أكثرهم لم يجئ تأويل هذه الآية اليوم .

و قال سعيد بن المسيب : إذا أَمرتَ بالمعروف و نهيت عن المنكر ، فلا يضرك مَن ضلَّ إذا اهتديت . رواه ابن جرير . وكذا قال غير واحد من السلف .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾

١٠٦ – اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز ، قيل : إنه منسوخ ، و قال آخرون : و هم الأكثرون ـ فيما قاله ابن جرير ـ بل هو محكم ، و من ادعى نسخه فعليه البيان . فقوله تعالى : ﴿يا أيُّها الذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إذَا حَضَرَ أحَدَكُم المَوتَ حِينَ الوَصِيَّةِ اثنانِ﴾ هذا هو الخبر لقوله ﴿شهادة بينكم﴾ فقيل : تقديره : شهادة اثنين ، حُذف المضاف و أُقيم المضاف إليه مقامه . و قيل : دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان ، و قوله تعالى : ﴿ذَوَا عَدلٍ﴾ وصف الاثنين بأن يكونا عدلين ، و قوله : ﴿مِّنكُمْ﴾ أي : من المسلمين قاله الجمهور ، قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ذَوَا عَدلٍ مِّنكُمْ﴾ قال من المسلمين . رواه ابن أبي حاتم ، ثم قال : و رُوي عن عبيدة و سعيد بن المسيب و الحسن و مجاهد و يحيى بن يعمر و السدي و قتادة و مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم و غيرهم نحو ذلك . قال ابن جرير : و قال آخرون غير ذلك ﴿ذَوَا عَدلٍ مِّنكُمْ﴾ أي : من أهل الموصى ، و ذلك قولٌ روي عن عكرمة و عبيدة و عدة غيرهما .

و قوله : ﴿أوْ آخَرانِ مِنْ غَيرِكُمْ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿أوْ آخَرانِ مِنْ غَيرِكُمْ﴾ قال : من غير المسلمين يعني أهل الكتاب . ثم قال : و روى عن عبيدة و شريح و سعيد بن المسيب و محمد بن سيرين و يحيى بن يعمر و عكرمة و مجاهد و سعيد بن جبير و الشعبي و إبراهيم النخعي و قتادة و أبي مجلز والسدي ومقاتل بن حيان و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و غيرهم نحو ذلك . و على ما حكاه ابن جرير : عن عكرمة وعبيدة في قوله : ﴿مِنكُمْ﴾ أن المراد : من قبيلة الموصى يكون المراد ههنا ﴿أوْ آخَرانِ مِنْ غَيرِكُمْ﴾ أي : من غير قبيلة الموصى . و روى ابن أبي حاتم مثله عن الحسن البصري و الزهري رحمهما الله .

و قوله تعالى : ﴿إنْ أنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأرضِ﴾ أي : سافرتم ﴿فَأصابَتْكُم مُّصِيبَةُ المَوتِ﴾ و هذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين : أن يكون ذلك في سفر ، و أن يكون في وصية ، كما صرح بذلك

شريح القاضي. رواه ابن جرير. و روى نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، و هذه المسألة من أفراده وخالفه الثلاثة، فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين، و أجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً.

و قال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ هل المراد به أن يُوصي إليهما أو يشهدهما؟ على قولين: **(أحدهما)**: أن يوصي إليهما، **(و القول الثاني)**: أنهما يكونان شاهدين، و هو ظاهر سياق الآية الكريمة، فإن لم يكن وصيٌّ ثالث معهما، اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية و الشهادة، كما في قصة تميم الداري و عدي بن بداء كما سيأتي ذكرهما آنفاً إن شاء الله و به التوفيق، و قد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين، قال: لأنا لا نعلم حكماً يحلف فيه الشاهد، و هذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، و هو حكم مستقلٌ بنفسه، لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاص، بشهادة خاصة، في محل خاص، و قد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره، فإذا قامت قرينة الريبة، حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

و قوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: يعني صلاة العصر. و كذا قال سعيد بن جبير و إبراهيم النخعي و قتادة و عكرمة و محمد بن سيرين، وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين، وروي عن ابن عباس يعني: صلاة أهل دينهما. و روي عن عبيدة، و كذا قال إبراهيم و قتادة و غير واحد، والمقصود: أن يُقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي: فيحلفان بالله ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلاً، فيحلفان حينئذ بالله ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ أي: بأيماننا، قاله مقاتل بن حيان، ﴿ثَمَنًا﴾ أي: لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: و لو كان المشهود عليه قريباً لنا لا نحابيه ﴿و لا نكتم شهادة الله﴾ أضافها إلى الله تشريفاً لها، وتعظيماً لأمرها، ﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾ أي: إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية.

١٠٧ ـ ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي: فإن اشتهر و ظهر و تحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا، أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما، و ظُهر عليهما بذلك ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ هذه قراءة الجمهور، فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك: أي: متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما، فليقم اثنان من المورثة المستحقين للتركة، و ليكونا أولى من يرث ذلك المال ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا﴾ أي: لقولنا أنهما خانا، أحق و أصح و أثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أي: فيما قلنا فيهما من الخيانة ﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن كنا قد كذبنا عليهما، وهذا التحليف للورثة، و الرجوع إلى قولهما و الحالة هذه، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوثٌ في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمَّته إليهم، كما باب القسامة من الأحكام.

و قد وردت السنة بمثل ما دلت عليه الآية الكريمة: فروى الترمذي عن ابن عباس قال: خرج رجلٌ من بني سهم مع تميم الداري و عدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً

من فضة مخوصاً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، و وجدوا الجام بمكة فقيل: اشتريناه من تميم و عدي فقام رجلان من أولياء السهمي، فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، و أن الجام لصاحبهم و فيهم نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية، و كذا رواه أبو داود. و قد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين، منهم: عكرمة و محمد بن سيرين و قتادة، و ذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مرسلة: مجاهد و الحسن و الضحاك، وهذا يدل على اشتهارها في السلف و صحتها.

و من الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً: ما رواه أبو جعفر بن جرير: عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاً، قال: فحضرته الوفاة و لم يجد أحداً من المسلمين يُشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، قال: فقدما الكوفة فأتيا الأشعري - يعني أبا موسى الأشعري رضي الله عنه - فأخبراه، و قدما الكوفة بتركته و وصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، قال: فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا و لا كذبا، و لا بدّلا و لا كتما و لا غيّرا، و أنها لوصية الرجل و تركته، قال: فأمضى شهادتهما. رواه عن الشعبي: أن أبا موسى قضى به. و هذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي عن أبي موسى الأشعري، فقوله: «هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ» الظاهر - و الله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم و عدي بن بداء، و قد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري رضي الله عنه كان سنة تسع من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً، يحتاج مدَّعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام، و الله أعلم.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: فإن ارتيبَ في شهادتهما، استُحْلفا بعد العصر بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً، فإن اطّلعَ الأولياء على أن الكافرين كَذَبَا في شهادتهما، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله: أن شهادة الكافرين باطلة، و إنا لم نعتد، فذلك قوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً﴾ يقول: إن اطلع على أن الكافرين كذبا ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يقول: من الأولياء، فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة، وإنا لم نعتد فتردّ شهادة الكافرين، و تجوز شهادة الأولياء. و هكذا روى العوفي عن ابن عباس، رواهما ابن جرير.

و هكذا قرّر هذا الحكم، على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين و السلف رضي الله عنهم، و هو مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

و قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ أي: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضى، من تحليف الشاهدين الذميين و قد استريب بهما، أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضى. و قوله: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أن يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها، هو تعظيم الحلف بالله، ومراعاة جانبه و إجلاله، و الخوف من الفضيحة بين الناس، إنْ رُدّت اليمين على الورثة، فيحلفون ويَستحقون ما يدّعون، و لهذا قال: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أي: و أطيعوا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته، ومتابعة شريعته.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾

١٠٩ - هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة، عما أجيبوا به من أممهم، الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ و قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ و قول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ قال مجاهد و الحسن البصري و السدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم. روى عبد الرزاق عن مجاهد ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ فيفزعون فيقولون ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾. رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم.

و قال أسباط عن السدي: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم. رواه ابن جرير. ثم روى عن ابن جريج قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي: ماذا عملوا بعدكم، وماذا أحدثوا بعدكم، قال، قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يقولون للرب عز وجل: لا علم لنا، إلا علمٌ أنت أعلم به منّا. رواه ابن جرير، ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة، و لا شك أنه قولٌ حسن، و هو من باب التأدب مع الرب جل جلاله، أي: لا علمَ لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن و إنْ كنا قد أُجبنا، و عرفنا مَنْ أجابنا، ولكن منهم مَن كنّا إنما نطلع على ظاهره، لا علم لنا بباطنه، و أنت العليم بكل شيء، المطّلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم، فإنك ﴿أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

١١٠ - يذكر تعالى ما امتن به على عبده و رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات، و خوارق العادات، فقال: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أي: في خلقي إياك من أم بلا ذكر، وجعلي إياك آية، و دلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ حيث جعلتُكَ لها برهاناً، على براءتها مما نسبه الظالمون و الجاهلون إليها من الفاحشة ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ و هو جبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك و كبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، و اعترفت لي بالعبودية، و أخبرت عن رسالتي إياك، و دعوت إلى عبادتي، و لهذا قال: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: تدعو إلى الله الناس في صغرك و كبرك، و ضمن «تكلم» تدعو لأن كلامه الناس في كهولته، ليس بأمر عجيب، و قوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الخط و الفهم ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾ و هي المنزلة على موسى بن عمران الكليم، و قد يرد لفظ التوراة في الحديث، و يراد به ما هو أعم من ذلك،

وقوله: ﴿و إذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني﴾ أي: تصوّره و تشكّله على هيئة الطائر، بإذني لك في ذلك، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها، بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذا روح، تطير بإذن الله و خلقه.

و قوله تعالى: ﴿و تبرئ الأكمه و الأبرص بإذني﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته. و قوله: ﴿و إذ تخرج الموتى بإذني﴾ أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله، و قدرته و إرادته ومشيئته.

و قوله تعالى: ﴿و إذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي: و اذكر نعمتي عليكَ في كفي إياهم عنك، حين جئتهم بالبراهين و الحجج القاطعة على نبوّتك ورسالتك من الله إليهم، فكذبوك و اتهموكَ بأنك ساحر، و سعوا في قتلك و صلبك فنجيتك منهم، و رفعتك إليّ، و طهرتك من دنسهم، و كفيتك شرهم، و هذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة، وعبَّر عنه بصيغة الماضي، دلالة على وقوعه لا محالة، و هذا من أسرار الغيوب، التي أطلع الله عليها نبيه محمداً ﷺ.

١١١- وقوله: ﴿و إذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي و برسولي﴾ و هذا أيضاً من الامتنان عليه عليه السلام، بأن جعل لهأصحاباً و أنصاراً، ثم قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهام، كما قال تعالى: ﴿و أوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ الآية و هو وحي إلهام بلا خلاف، و كما قال تعالى: ﴿و أوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً و من الشجر و مما يعرشون ۞ ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ الآية، و هكذا قال بعض السلف في هذه الآية أي: ألهموا ذلك، فامتثلوا ما ألهموا. قال الحسن البصري: ألهمهم الله عز وجل ذلك. وقال السدي: قذف في قلوبهم ذلك. و يحتمل أن يكون المراد: وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله و برسوله، و استجابوا لك و انقادوا و تابعوك، فقالوا: ﴿آمنا بالله و اشهد بأننا مسلمون﴾.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾

١١٢- هذه قصة المائدة، و إليها تنسب السورة، فيقال: سورة المائدة، و هي مما امتن الله به على عبده و رسوله عيسى، لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية باهرة، و حجة قاطعة، و قد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الإنجيل، و لا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿إذ قال الحواريون﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك﴾ هذه

قراءة كثيرين ، و قرأ آخرون ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ﴾ أي : هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿أن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ و المائدة هي : الخوان عليه طعام ، وذكر بعضهم : أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم و فقرهم ، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم ، يقتاتون منها ، ويتقوون بها على العبادة ﴿قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي : فأجابهم المسيح عليه السلام قائلاً لهم : اتقوا الله ، و لا تسألوا هذا ، فعساه أن يكون فتنة لكم ، و توكلوا على الله في طلب الرزق ، إن كنتم مؤمنين .

١١٣ ـ ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ أي : نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿و تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿وَ نَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي : و نزداد إيماناً بك و علماً برسالتك ﴿و نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي : و نشهد أنها آية من عند الله ، و دلالة و حجة على نبوتك ، و صدق ما جئت به .

١١٤ ـ ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا﴾ قال السدي : أي : نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً ، نعظمه نحن و من بعدنا . و قال سفيان الثوري : يعني يوماً نصلي فيه . و قال قتادة : أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم . و عن سلمان الفارسي : عظة لنا و لمن بعدنا . وقيل : كافية لأولنا و آخرنا ﴿و آيَةً مِّنكَ﴾ أي : دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء ، و على إجابتك لدعوتي ، فيصدقوني فيما أبلغه عنك ﴿وَ ارْزُقْنَا﴾ أي : من عندك رزقاً هنيئاً ، بلا كلفة و لا تعب ﴿و أَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ .

١١٥ ـ ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ أي : فمن كذّب بها من أمتك يا عيسى ، وعاندها ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي : من عالمي زمانكم ، كقوله تعالى ﴿و يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ و كقوله ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ و قد روى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو قال : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، و من كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون .

ذكر أخبار رويت عن السلف في نزول المائدة على الحواريين

قال ابن عباس : كانت المائدة سمكة و أرغفة ، و قال مجاهد : هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : نزلت المائدة خبزاً و سمكاً . و قال عطية العوفي : المائدة سمك فيه طعم كل شيء . وعن سعيد بن جبير : أنزل عليها كل شيء إلا اللحم . و روى الثوري عن ميسرة قال : كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكل طعام ، إلا اللحم . و عن عكرمة : كان خبز المائدة من الأرز . رواه ابن أبي حاتم .

و كل هذه الآثار دالةٌ على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم ، إجابة من الله لدعوته ، كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الآية .

و قال قائلون : إنها لم تنزل ، فروى ابن جرير عن مجاهد قال : مائدةٌ عليها طعامٌ ، أَبَوها حين عُرض عليهم العذاب إن كفروا ، فأبوا أن تنزل عليهم . و روى عن قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قالوا : لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل ، و هذه أسانيد

صحيحة إلى مجاهد و الحسن ، و قد يتقوّى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى ، و ليس هو في كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله ، و كان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ، و لا أقل من الآحاد ، والله أعلم.

و لكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت ، و هو الذي اختاره ابن جرير ، قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى : ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال : ووعد الله و وعيده حقٌ و صدق . و هذا القول ـ و الله أعلم ـ الصواب ، كما دلت عليه الأخبار و الآثار عن السلف وغيرهم ، و قد ذكر أهل التاريخ : أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب ، وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ و أنواع الجواهر ، فبعث بها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق ، فمات و هي في الطريق ، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده ، فرآها الناس فتعجبوا منها كثيراً ، لما فيها من اليواقيت النفيسة و الجواهر اليتيمة . و يقال : إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام ، فالله أعلم .

و قد روى الإمام أحمد : عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبيﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك ، قال : «و تفعلون؟» قالوا : نعم ، قال : فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : إنْ شئتَ أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كَفَرَ منهم بعد ذلك عذّبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحتُ لهم باب التوبة و الرحمة . قال : «بل بابُ التوبةِ و الرحمة» . و رواه ابن مردويه و الحاكم .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾

١١٦ - هذا أيضاً مما يخاطبُ الله به عبده و رسوله عيسى ابن مريمعليه السلام ، قائلاً له يوم القيامة بحضرة مَنْ اتخذه وأمه إلهين من دون الله ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا تهديد للنصارى و توبيخ ، و تقريع على رءوس الأشهاد . هكذا قاله قتادة و غيره ، و استدل قتادة على ذلك بقوله تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ . و قال السدي : هذا الخطاب و الجواب في الدنيا . قال ابن جرير : هذا هو الصواب ، و كان ذلك حين رفعه إلى السماء الدنيا . و احتج ابن جرير على ذلك بمعنيين : (أحدهما) أن الكلام بلفظ المضي (و الثاني) قوله : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ ، ﴿إِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ .

و هذان الدليلان فيهما نظر ، لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذُكر بلفظ المضي ، ليدل على الوقوع والثبوت ، ومعنى قوله : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية : التبريْ منهم ، ورد المشيئة فيهم إلى الله ، و تعليق ذلك على الشرط ، لا يقتضي وقوعه ، كما في نظائر ذلك من الآيات ، و الذي قاله قتادة و غيره هو الأظهر ،

والله أعلم: أن ذلك كائن يوم القيامة، ليدل على تهديد النصارى، و تقريعهم و توبيخهم، على رءوس الأشهاد يوم القيامة.

و قوله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة قال: يلقى عيسى حجته، و لقّاه الله تعالى في قوله: ﴿و إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «فلقّاه الله ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ إلى آخر الآية.

و قوله: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ أي: إنْ كان صَدَر مني هذا فقد عَلِمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيءٌ، فما قلتُه و لا أردتُه في نفسي و لا أضمرته، و لهذا قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

١١٧ - ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ بإبلاغه ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ﴾ أي: ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به، و أمرتني بإبلاغه ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ﴾ أي: هذا هو الذي قلت لهم، و قوله: ﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم﴾ أي: كنتُ أشهدُ على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

و روى أبو داود الطيالسي عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله عز وجل حُفاةً عراةً غُرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ و إنَّ أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا و إنه يُجاءُ برجالٍ من أمتي، فيُؤخذُ بهم ذات الشمال، فأقول: «أصحابي»، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقولُ كما قال العبد الصالح ﴿و كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ و إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيقال: إنَّ هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم، منذ فارقتهم» و رواه البخاري.

و قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذا الكلام يتضمن ردَّ المشيئة إلى الله عز وجل، فإنه الفعال لما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل و هم يسألون، و يتضمن التبري من النصارى، الذين كَذَبُوا على الله و رسوله، و جعلوا لله نداً و صاحبة و ولدا ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ و هذه الآية لها شأن عظيم و نبأ عجيب، و قد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها.

روى الإمام أحمد: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صَلَّى النبي ﷺ ذاتَ ليلة فقرأ بآية حتى أصبح، يركع بها، ويسجد بها ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحتَ، تركع بها و تسجد بها؟ قال: «إني سألتُ ربي عز و جل الشفاعة لأمتي فأعطانيها، و هي نائلةٌ ـ إن شاء الله ـ لمن لا يشرك بالله شيئاً».

و روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ تلا قول عيسى ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه فقال: «اللهم أمتي» و بكى، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد ـ و ربك أعلم ـ فأسأله ما يبكيه؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـ و هو

أعلم ـ فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد ، فقُل : إنا سنرضيك في أمتك و لا نسوءك .

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) ﴾

١١٩ – يقول تعالى مجيباً لعبده و رسوله عيسى ابن مريم ﷺ ، فيما أنهاه إليه من التّبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله و على رسوله ، و مِنْ رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل ، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿هذا يوم يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس يقول : يوم ينفع الموحدين توحيدهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي : ماكثين فيها لا يحولون و لا يزولون ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿وَ رِضوانٌ مِّنَ اللهِ أكبَرُ﴾ و سيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث .

و قوله : ﴿ذَلِكَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ﴾ أي : هذا الفوز الكبير ، الذي لا أعظم منه ، كما قال تعالى : ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ و كما قال : ﴿وَ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ و قوله : ﴿للهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَ الأرْضِ وَمَا فيهِنَّ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي : هو الخالق للأشياء ، المالك لها ، المتصرف فيها ، القادر عليها ، فالجميع ملكه ، و تحت قهره وقدرته و في مشيئته ، فلا نظير له و لا وزير و لا عديل ، و لا والد و لا ولد ، و لا صاحبة ، و لا إله غيره و لا رب سواه .

ترتيبها ٦ — سورة الأنعام ـ مكية — آياتها ١٦٥

قال العوفي و عكرمة و عطاء عن ابن عباس : أنزلت سورة الأنعام بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ للَّه الَّذي خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَات وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) ﴾

١ - يقول الله تعالى مادحاً نفسه الكريمة ، و حامداً لها على خلقه السموات و الأرض قراراً لعباده ، وجعل الظلمات و النور منفعة لعباده في ليلهم و نهارهم ، فجمع لفظ الظلمات و وحَّد لفظ النور ، لكونه أشرف ، كقوله تعالى : ﴿عَنِ الْيَمِينِ و الشَّمَائِلِ﴾ و كما قال في آخر هذه السورة ﴿و أنَّ هذَا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ و لاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ثُمَّ الذينَ كفرُوا بربِّهِمْ يَعدِلونَ﴾ أي : و مع هذا كله كَفَرَ به بعض عباده ، و جعلوا له شريكاً و عدلاً ، و اتخذوا له صاحبة و ولداً ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً .

٢ - و قوله تعالى : ﴿هُوَ الذِي خلَقَكُمْ مِن طِينٍ﴾ يعني أباهم آدم الذي هو أصلهم ، و منه خرجوا فانتشروا في المشارق و المغارب . و قوله : ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ يعني : الموت ﴿وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ﴾ يعني : الآخرة . و هكذا روي عن مجاهد وعكرمة و سعيد ابن جبير و الحسن و قتادة و الضحاك و زيد بن أسلم و عطية و السدي و مقاتل بن حيان وغيرهم .

و قوله الحسن في رواية عنه : ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ و هو ما بين أن يخلق إلى أن يموت ﴿وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ﴾ وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث ، و يرجع إلى ما تقدم ، و هو تقدير الأجل الخاص . و هو عمر كل إنسان ، وتقدير الأجل العام : و هو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها و انقضائها و زوالها ، و انتقالها و المصير إلى الدار الآخرة . و عن ابن عباس و مجاهد ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ يعني : مدة الدنيا ﴿و أجلٌ مُسَمًّى عِندَهُ﴾ يعني : عمر الإنسان إلى حين موته . و كأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا ﴿وَ هُوَ الذِي يَتَوفَّاكُم بِاللَّيلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهارِ﴾ الآية .

و معنى قوله : ﴿عِندَهُ﴾ أي : لا يعلمه إلا هو ، كقوله : ﴿إنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ﴾ وكقوله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعةِ أَيَّانَ مُرسَاهَا ❁ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ❁ إلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ و قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمتَرونَ﴾ قال السدي و غيره : يعني تشكُّون في أمر الساعة .

٣- و قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول القائلين ـ تعالى عن قولهم علواً كبيراً ـ بأنه في كل مكان! حيث حملوا الآية على ذلك، فالأصح من الأقوال: أنه المدعو الله في السموات و في الأرض، أي: يعبده و يُوحده و يقرّ له بالإلهية مَنْ في السموات و من في الأرض، و يُسمونه الله و يدعونه رغباً و رهباً، إلا من كفر من الجن و الإنس، و هذه الآية على هذا القول، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أي: هو إله مَنْ في السماء، و إله من في الأرض، و على هذا فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبراً أو حالاً.

(و القول الثاني): أن المراد أنه: الله الذي يَعلم ما في السموات و ما في الأرض، من سرٍّ و جهر، فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ تقديره: و هو الله يعلم سركم و جهركم، في السموات و في الأرض، و يعلم ما تكسبون.

(و القول الثالث) أن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقفٌ تام، ثم استأنف الخبر فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ و هذا اختيار ابن جرير.

و قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: جميع أعمالكم، خيرها وشرها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

٤- يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين، أنهم كلما أتتهم آية، أي: دلالةٌ و معجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الله و صدق رسله الكرام، فإنهم يُعرضون عنها، فلا ينظرون إليها، و لا يبالون بها.

٥- قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ و هذا تهديدٌ لهم و وعيد شديد، على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتيهم خبرُ ما هم فيه من التكذيب، و ليجدن غِبَّه و ليذوقن وباله.

٦- ثم قال تعالى واعظاً لهم، و محذراً لهم أن يصيبهم من العذاب و النكال الدنيوي، ما حلّ بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة، الذين كانوا أشد منهم قوةً و أكثر جمعاً، و أكثر أموالاً و أولاداً، و استعلاء في الأرض و عمارة لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: من الأموال و الأولاد، و الأعمار و الجاه العريض، و السعة و الجنود، و لهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي: شيئاً بعد شيء ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ أي: كثرنا عليهم أمطار السماء، وينابيع الأرض، أي: استدراجاً و إملاء لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بخطاياهم و سيئاتهم التي اجترموها

﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب، و جعلناهم أحاديث ﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ أي: جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم، فأهلكوا كإهلاكهم، فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، و الرسول الذي كذّبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب، و معالجة العقوبة منهم، لو لا لطفه وإحسانه.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(١١) ﴾

٧- يقول تعالى مخبراً عن المشركين و عنادهم، و مكابرتهم للحق، و مباهتتهم و منازعتهم فيه ﴿و لَوْ نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ أي: عاينوه، و رأوا نزوله و باشروا ذلك، ﴿لقال الذين كفروا إنْ هذا إلاّ سحرٌ مُّبين﴾ و هذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات ﴿وَ لو فتحنا عليهم باباً مّن السّماء فظلّوا فيه يعرجون * لقالوا إنّما سُكّرت أبصارُنا بل نحن قوم مّسحورون﴾ و كقوله تعالى ﴿وَ إن يَرَوْا كِسفاً مّن السّماء ساقطاً يقولوا سحابٌ مّركوم﴾.

٨- ﴿و قالوا لَوْلاَ أُنزلَ عليه مَلَكٌ﴾ أي: ليكون معه نذيراً، قال الله تعالى: ﴿وَ لَوْ أنزلنا مَلَكاً لّقُضيَ الأمرُ ثُمّ لاَ يُنظَرُونَ﴾ أي: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه، لجاءهم من الله العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿مَا نُنَزّلُ الْمَلائِكَةَ إلاّ بالْحقِّ وَ مَا كانُوا إذاً مُّنظَرِينَ﴾ و قوله: ﴿يومَ يَرَونَ الْمَلائِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ الآية.

٩- و قوله تعالى: ﴿وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَ لَلَبَسْنَا عَلَيهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي: لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً، لكان على هيئة الرجل، ليُمْكِنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، و لو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشرى، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كانَ في الأرضِ مَلائكةٌ يَمشونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيهِم مِّنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسولاً﴾ فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، و ليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة و السؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤمنينَ إذْ بَعثَ فيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أنفُسِهِم يَتلُو عَلَيهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ﴾ الآية. قال الضحاك عن ابن عباس في الآية يقول: لو أتاهم ملكٌ ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور ﴿وَ لَلَبَسْنَا عَلَيهِم مَّا يَلْبِسونَ﴾ أي: ولخلطنا عليهم ما يخلطون. و قال الوالبي عنه: و لشبهنا عليهم.

١٠- و قوله: ﴿و لَقَد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذه تسلية للنبيﷺ في تكذيب مَنْ كذّبه من قومه، و وعدٌ له و للمؤمنين به بالنصرة، و العافية الحسنة في الدنيا والآخرة.

١١ - ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: فكروا في أنفسكم، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية، الذين كذبوا رسله و عاندوهم، من العذاب و النكال و العقوبة في الدنيا، مع ما ادُّخِر لهم من العذاب الأليم في الآخرة، و كيف نجّى رسله و عباده المؤمنين.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾

١٢ - يخبر تعالى أنه مالك السموات و الأرض و من فيهما، و أنه كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ لما خَلَقَ الخَلْق، كَتَبَ كتاباً عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي تَغْلِبُ غضبي» و قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ هذه اللام هي الموطّئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة، ليجمعن عباده ﴿إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ و هو يوم القيامة الذي لا ريب فيه، أي: لا شك فيه عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون. و قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصَدِّقون بالمعاد، و لا يخافون شرَّ ذلك اليوم.

١٣ - ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: كل دابة في السموات و الأرض، الجميع عباده وخلقه، و تحت قهره و تصرفه و تدبيره، لا إله إلا هو ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم و ضمائرهم و سرائرهم.

١٤ - ثم قال تعالى لعبده و رسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم، وبالشرع القويم، و أمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ و المعنى: لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما و مبدعهما على غير مثال سبق ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ أي: و هو الرزاق لخلقه، من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية، و قرأ بعضهم ههنا ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يَطْعَمُ﴾ أي: لا يأكل.

و في حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام فانطلقنا معه فلما طعم النبي ﷺ و غسل يديه قال: «الحمد لله الذي يُطعِم ولا يُطعَم، و مَنَّ علينا فهدانا، و أطعمنا وسقانامن الشراب، و كسانا من العُري، و كل بلاءٍ حَسَنٍ أبلانا، الحمد لله غير مودّع ربي و لا مكافئ و لا مَكفور، و لا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، و كسانا من العري، وهدانا من الضلال، و بصّرنا من العمى، و فضّلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين»[1].

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: من هذه الأمة ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

---

(١) حديث حسن، رواه النسائي في عمل اليوم و الليلة (٣٠١) و ابن السني (٤٨٦) و ابن حبان (٥٢١٩) و الحاكم (١/ ٥٤٦) و قال على شرط مسلم و وافقه الذهبي، و هو كما قالا.

١٥ - ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: يوم القيامة.

١٦ - ﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ أي: العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ يعني: فقد رحمه الله ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ و الفوز حصول الربح و نفي الخسارة.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)﴾

١٧ - يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر و النفع، و أنه المتصرّف في خلقه بما يشاء، لا معقّب لحكمه، و لا رادّ لقضائه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ و في الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا مانع لما أعطيتَ، و لا معطي لما منعتَ، و لا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ».

١٨ - و لهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، و ذلّت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، و قهر كل شيء، و دانتْ له الخلائق، و تواضعت لعظمة جلاله و كبريائه، وعظمته و علوه، وقدرته على الأشياء، و استكانت و تضاءلت بين يديه، و تحت قهره و حكمه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في جميع أفعاله ﴿الْخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء و محالها، فلا يعطى إلا من يستحق، و لا يمنع إلا من يستحق.

١٩ - ثم قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي: مَنْ أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو العالم بما جئتكم به، و ما أنتم قائلون لي ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ أي: و هو نذير لكل مَنْ بَلَغه، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ و قال الربيع بن أنس: حقٌّ على من اتبع رسول الله ﷺ أنْ يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، و أن يُنذر بالذي أنذر.

و قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ أيها المشركون، أي: ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ﴾ كقوله: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

٢٠ - ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب، أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به، كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار و الأنباء، عن المرسلين المتقدمين و الأنبياء، فإن الرسل كلهم بَشّروا بوجود محمد ﷺ، ونعته وصفته وبلده ومهاجره، و صفة أمته، و لهذا قال بعده: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا كل الخسارة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر، الذي بشرت به الأنبياء، و نوّهت به في قديم الزمان وحديثه.

٢١- ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أظلم ممن تقوّل على الله، فادّعى أنّ الله أرسله و لم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذّب بآيات الله، و حججه و براهينه و دلالاته ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يفلح هذا، و لا هذا، لا المفتري و لا المكذّب.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾

٢٢- يقول تعالى مخبراً عن المشركين ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد، التي كانوا يعبدونها قائلاً لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كقوله تعالى في سورة القصص ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

٢٣- و قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: حجتهم إلا أن قالوا: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قاله الضحاك عن ابن عباس. و قال عطاء الخراساني عنه: أي: معذرتهم. و كذا قال قتادة. و قال ابن جريج عن ابن عباس أي: قيلهم. و كذا قال الضحاك، و قال ابن جرير: و الصواب: ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم، اعتذاراً عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. و روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا ابن عباس سمعت الله يقول: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال أما قوله: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجحد، فيجحدون فيختم الله على أفواههم، و تشهد أيديهم و أرجلهم، و لا يكتمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا و نزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه.

و قال الضحاك عن ابن عباس: هذه في المنافقين. و فيه نظر! فإن هذه الآية مكية، و المنافقون إنما كانوا بالمدينة، و التي نزلت في المنافقين: آية المجادلة ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ الآية، و كذا قال في حق هؤلاء:

٢٤- ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ كقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ الآية.

٢٥- و قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: يجيئون ليستمعوا قراءتك، و لا تجزي عنهم شيئاً لأن الله ﴿جَعَلَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية لئلا يفقهوا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ أي: صمما عن السماع النافع لهم، كما قال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ الآية. و قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: مهما رأوا من الآيات و الدلالات، و الحجج البينات و البراهين، لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم و لا

إنصاف، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ الآية.

و قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي: يحاجونك و يناظرونك في الحق بالباطل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به، إلا مأخوذ من كتب الأوائل، و منقول عنهم.

٢٦- و قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ في معنى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قولان: **(أحدهما)**: أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، و تصديق الرسول، و الانقياد للقرآن ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: و يُبعدونهم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين: لا ينتفعون، و لا يدعون أحداً ينتفع. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ يردّون الناس عن محمدﷺ أن يؤمنوا به. و قال محمد بن الحنفية: كان كفار قريش لا يأتون النبيﷺ، و ينهون عنه. و كذا قال قتادة و مجاهد و الضحاك و غير واحد، و هذا القول أظهر، و الله أعلم، وهو اختيار ابن جرير. **(و القول الثاني)**: رُوي عن ابن عباس يقول: في قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قال: نزلت في أبي طالب، كان ينهى الناس عن النبيﷺ أن يؤذي. و كذا قال القاسم بن مخيمرة و حبيب بن أبي ثابت وعطاء بن دينار و غيره، أنها نزلت في أبي طالب. و قال سعيد بن أبي هلال: نزلت في عمومة النبيﷺ و كانوا عشرة فكانوا أشد الناس معه في العلانية، و أشد الناس عليه في السر، رواه ابن أبي حاتم، وقال محمد بن كعب القرظي ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن قتله.

و قوله: ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يتباعدون منه ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: و ما يهلكون بهذا الصنيع و لا يعود وباله إلا عليهم، و هم لا يشعرون.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)﴾

٢٧- يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، و شاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام و الأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتمنون أن يُردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً، و لا يكذبوا بآيات ربهم، و يكونون من المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: بل ظَهَرَ لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم، من الكفر و التكذيب و المعاندة، و إن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبله بيسير ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ❁ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾.

و يحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم، من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا، و إن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كقوله مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ الآية، و قوله تعالى مخبراً عن فرعون و قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾. و يحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين، الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس، و يبطنون

الكفر، و يكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة، من كلام طائفة من الكفار، و لا ينافي هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة و من حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية، وهي: العنكبوت، فقال: ﴿وَ لَيعلَمنَّ اللهُ الذينَ آمنُوا وَ لَيعلمَنَّ المُنافِقينَ﴾ و على هذا فيكون إخباراً عن قول المنافقين في الدار الآخرة، ، حين يعاينون العذاب، فظهرلهم حينئذ غِبّ ماكانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق، و الله أعلم.

٢٨- و أما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخفُونَ مِن قَبلُ﴾ فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة و محبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه، جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار، و لهذا قال: ﴿وَ لَوْ رُدُّوا لعادُوا لِمَا نُهوا عنهُ وَ إنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ أي: في طلبهم الرجعة رغبة و محبة في الإيمان، ثم قال مخبراً عنهم أنهم لو رُدُّوا إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نُهُوا عنه، من الكفر و المخالفة ﴿وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ أي: في قولهم: ﴿يا لَيتَنا نُرَدُّ وَ لا نكذِّبَ بآياتِ ربِّنا و نَكونَ مِنَ المُؤمِنِينَ﴾.

٢٩-﴿و قالُوا إنْ هيَ إلاّ حَياتُنا الدُّنيا وَ ما نحنُ بِمَبعُوثِينَ﴾ أي: لعادوا لما نُهوا عنه، و لقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا، أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، لا معادَ بعدها، و لهذا قال: ﴿و مَا نحنُ بِمبعُوثِينَ﴾.

٣٠- ثم قال: ﴿و لَوْ ترَى إذْ وُقِفُوا علَى رَبِّهِمْ﴾ أي: أوقفوا بين يديه، قال: ﴿أليسَ هذَا بالْحقِّ؟﴾ أي: أليس هذا المعاد بحق، و ليس بباطل كما كنتم تظنون ﴿قالُوا بلَى و رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعذابَ بِما كُنتُمْ تَكفُرونَ﴾ أي: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم مَسَّه ﴿أفَسِحرٌ هذَا أمْ أنتُمْ لاَ تُبصِرُونَ﴾.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٣٢) ﴾

٣١- يقول تعالى مخبراً عن خسارة مَن كذّب بلقائه، و عن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، و عن ندامته على ما فَرَّطَ من العمل، و ما أسلف من قبح الفعل، و لهذا قال: ﴿حتَّى إذا جاءَتْهُم السَّاعةُ بَغتةً قالُوا يَا حَسْرَتَنَا علَى ما فَرَّطْنا فِيهَا﴾ و هذا الضمير يحتمل عوده على الحياة، و على الأعمال، و على الدار الآخرة، أي: في أمرها. وقوله: ﴿و هُمْ يَحمِلونَ أوزارَهُمْ علَى ظُهُورِهِمْ ألاَ سَاءَ ما يَزِرُونَ﴾ أي: يحملون. و قال قتادة: يعملون.

٣٢- و قوله: ﴿و ما الحياةُ الدُّنيا إلاّ لعبٌ و لهوٌ﴾ أي: إنما غالبها كذلك ﴿و للدَّارُ الآخرةُ خيرٌ لِّلَّذينَ يَتَّقُونَ أفلاَ تعقِلونَ﴾.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا

فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)﴾

٣٣- يقول تعالى مسلياً لنبيهﷺ في تكذيب قومه له، و مخالفتهم إياه ﴿قد نعلم إنّه ليحزنُكَ الذي يقُولُونَ﴾ أي: قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك، و حزنك و تأسفك عليهم، كقوله: ﴿فلاَ تذهب نفسُكَ عليهم حسَرات﴾ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لعلَّكَ باخعٌ نَّفسَكَ أن لاَّ يكونُوا مُؤمنينَ﴾ ﴿فلعلَّكَ باخعٌ نفسَكَ على آثارهمْ إن لَّمْ يُؤمِنُوا بهَذا الحديثِ أسَفاً﴾ و قوله: ﴿فإنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالمينَ بآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر، ﴿و لكنَّ الظالمينَ بآيات اللهِ يجحَدونَ﴾ أي: ولكنهم يعاندون الحق، و يدفعونه بصدورهم.

٣٤- و قوله: ﴿و لقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حتَّى أتاهُمْ نَصرُنَا﴾ هذه تسلية للنبيﷺ، و تعزية له، فيمن كذّبه من قومه، و أمرٌ له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، و وعدٌ له بالنصر كما نصروا، و بالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم، و الأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة، و لهذا قال: ﴿و لا مُبدِّلَ لِكلماتِ اللهِ﴾ أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا و الآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿و لقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبادِنا الْمُرسلينَ * إنَّهُمْ لَهُم المنصُورُونَ * و إنَّ جُندَنا لَهُمُ الغَالِبونَ﴾ و قال تعالى: ﴿كتبَ اللهُ لأغْلِبَنَّ أنا وَ رُسُلِي إنَّ اللهَ قويٌّ عزيزٌ﴾.
وقوله: ﴿و لقَدْ جاءَكَ مِن نَّبإِ المُرسَلِينَ﴾ أي: من خبرهم، كيف نُصِرُوا و أيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة، و بهم قدوة.

٣٥- ثم قال تعالى: ﴿و إن كانَ كبُرَ عليكَ إعراضُهُمْ﴾ أي: إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فإنِ استطعتَ أن تَبتَغِيَ نفَقاً في الأرضِ أوسُلَّماً في السَّماءِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: النفق: السرب، فتذهب فيه ﴿فتأتِيَهُم بآيةٍ﴾ أو تجعل لك سلّماً في السماء فتصعد فيه، فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به فافعل. و كذا قال قتادة و السدي و غيرهما. و قوله: ﴿و لَوْ شاءَ اللهُ لَجمَعهُمْ على الْهُدَى فلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿و لوْ شاءَ ربُّكَ لآمنَ مَن في الأرضِ كلُّهمْ جميعاً﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿و لَوْ شاءَ اللهُ لَجمَعهُمْ على الْهُدَى﴾ قال: إن رسول اللهﷺ كان يحرص أن يُؤمِنَ جميع الناس، و يتابعوه على الهدى، فأخبر الله أنه لا يؤمن، إلا من قد سبق له من الله السعادة، في الذكر الأول.

٣٦- و قوله تعالى: ﴿إنَّما يَستجيبُ الذِينَ يَسمَعُونَ﴾ أي: إنما يستجيب لدعائك يا محمد، مَن يسمع الكلام ويعيه و يفهمه، كقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَ يَحِقَّ القَوْلُ على الْكافِرينَ﴾ و قوله: ﴿و المَوتَى يَبعَثُهُم اللهُ ثُمَّ إليهِ يُرجَعُونَ﴾ يعني بذلك: الكفار، لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات الأجساد، فقال: ﴿والمَوتَى يَبعَثُهُم اللهُ ثُمَّ إليهِ يُرجَعُونَ﴾ و هذا من باب التهكم بهم، و الازدراء عليهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ

إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)﴾

٣٧- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، أنهم كانوا يقولون: لولا نُزّل عليه آية من ربه، أي: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، و مما يتعنتون، كقولهم: ﴿لَن نُّؤمِنَ لكَ حتَّى تَفجُرَ لَنا مِن الأرضِ يَنبُوعاً﴾ الآيات ﴿قُلْ إنَّ اللهَ قَادِرٌ على أن يُنزِّلَ آيَةً و لَكنَّ أكثرَهُمْ لاَ يَعلَمُونَ﴾ أي: هو تعالى قادر على ذلك، و لكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك، لأنه لو أنزل وفق ما طلبوا، ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿و ما مَنَعَنَا أن نُرسِلَ بالآياتِ إلاَّ أن كذَّبَ بهَا الأوَّلُونَ وَ آتينَا ثَمودَ النَّاقةَ مُبْصِرَةً فظَلَمُوا بِها وَ ما نُرسِلُ بالآياتِ إلاَّ تَخويفاً﴾ و قال تعالى: ﴿إن نَّشأْ نُنزِّلْ عَلَيهِم مِّنَ السَّماءِ آيَةً فظَلَّتْ أعناقُهُمْ لَهَا خاضِعينَ﴾.

٣٨- و قوله: ﴿و ما مِن دابَّةٍ في الأرضِ و لاَ طائرٍ يطيرُ بجناحَيهِ إلاَّ أمَمٌ أمثالُكُمْ﴾ قال مجاهد: أي: أصنافٌ مصنَّفة تعرف بأسمائها. و قال قتادة: الطير أمَّةٌ، و الإنس أمة، و الجن أمة. و قال السدي: ﴿إلاَّ أُمَمٌ أمثالُكُمْ﴾ أي: خَلْقٌ أمثالكم. و قوله: ﴿مَا فَرَّطْنا في الكِتابِ مِن شيءٍ﴾ أي: الجميع علمهم عند الله، و لا ينسى واحداً من جميعها من رزقه و تدبيره، سواء كان برياً أو بحرياً، كقوله: ﴿و ما مِن دابَّةٍ في الأرضِ إلاَّ على اللهِ رِزقُها وَيعلَمُ مُستقَرَّها و مُستودَعَهَا كُلٌّ في كتاب مُّبِينٍ﴾ أي: مُفصح بأسمائها و أعدادها و مظانها، و حاصر لحركاتها وسكناتها، و قال تعالى: ﴿و كأيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَ تَحمِلُ رِزقَهَا اللهُ يرزقُها و إيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّميعُ العَليمُ﴾.

و قوله: ﴿ثُمَّ إلَى رَبِّهِمْ يُحشَرُونَ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ إلَى رَبِّهِمْ يُحشَرُونَ﴾ قال: حَشْرُها الموت. روى ابن أبي حاتم عن مجاهد و الضحاك مثله. (و القول الثاني) أن حشرها بعثها يوم القيامة، لقوله: ﴿و إذا الوُحوشُ حُشِرَتْ﴾ و روى الإمام أحمد: عن أبي ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ و ما يقلب طائرٌ جناحيه في السماء، إلا ذكر لنا منه علماً. و روى عبد الرزاق عن أبي هريرة في قوله: ﴿إلاَّ أُمَمٌ أمثالُكُم مَّا فَرَّطْنا في الكِتابِ مِن شيءٍ ثُمَّ إلَى رَبِّهِمْ يُحشَرُونَ﴾ قال: يُحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم و الدواب و الطير و كل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ: أن يأخذ للجمّاء من القرناء، ثم يقول: كوني تراباً، فلذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتَنِي كُنتُ تُراباً﴾ و قد روى هذا مرفوعاً في حديث الصور.

٣٩- و قوله: ﴿و الَّذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا صُمٌّ وَ بُكمٌ في الظُّلُماتِ﴾ أي: مثلهم في جهلهم، و قلة علمهم، وعدم فهمهم، كمثل أصم: و هو الذي لا يسمع، أبكم: و هو الذي لا يتكلم، و هو مع هذا في ظلمات لا يُبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه، كقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استَوقَدَ ناراً فلَمَّا أضاءتْ ما حَولَهُ ذَهَبَ اللهُ بنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ في ظُلماتٍ لاَ يُبصِرونَ* صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُمْ لاَ يَرجِعُونَ﴾ و كما قال تعالى: ﴿أو كَظُلُماتٍ في بَحرٍ لُّجِّيٍّ يَغشَاهُ مَوجٌ مِّن فَوقِهِ موجٌ مِّن فوقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعضُهَا فوقَ بَعضٍ إذا أخرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَن لَّمْ يَجعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِن نُّورٍ﴾ ولهذا قال: ﴿مَن يَشأِ اللهُ يُضلِلْهُ و مَن يَشأْ يَجعَلْهُ على صِراطٍ مُّستَقِيمٍ﴾ أي: هو المتصرف في خلقه بما يشاء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ

تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

٤٠- يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، و أنه لا معقّب لحكمه، و لا يقدر أحدٌ على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سُئل يجيب لمن يشاء، و لهذا قال: **﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾** أي: أتاكم هذا أو هذا **﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** أي: لا تَدعون غيره لعلمكم أنه لا يَقدر أحدٌ على رفع ذلك سواه، و لهذا قال: **﴿إن كنتم صادقين﴾** أي: في اتخاذكم آلهة معه.

٤١- **﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾** أي: في وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه، و تذهب عنكم أصنامُكم و أندادكم، كقوله: **﴿و إذا مَسَّكُم الضُّرُّ في الْبحرِ ضلَّ مَن تَدعونَ إلاَّ إيَّاهُ﴾** الآية.

٤٢- وقوله: **﴿و لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ﴾** يعني الفقر و الضيق في العيش **﴿والضَّرَّاءِ﴾** و هي: الأمراض و الأسقام و الآلام **﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾** أي: يدعون الله و يتضرعون إليه ويخشعون.

٤٣- قال الله تعالى: **﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾** أي: فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا، وتمسكنوا لدينا **﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾** أي: ما رَقَّت و لا خشعت **﴿و زَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** أي: من الشرك و المعاندة و المعاصي.

٤٤- **﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾** أي: أعرضوا عنه و تناسوه، و جعلوه وراء ظهورهم، **﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أبوابَ كلِّ شيءٍ﴾** أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، و هذا استدراجٌ منه تعالى، و إملاءٌ لهم، عياذاً بالله من مكره، و لهذا قال: **﴿حتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾** من الأموال و الأولاد و الأرزاق **﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾** أي: على غفلة **﴿فإذا هُم مُّبْلِسُونَ﴾** أي: آيسون من كل خير، قال الوالبي عن ابن عباس: المُبْلس: الآيس، و قال الحسن البصري: مَن وسَّع الله عليه، فلم يرَ أنه يُمكر به، فلا رأي له، و من قتر عليه، فلم يرَ أنه يُنظر له، فلا رأي له، ثم قرأ: **﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾** قال: مكر بالقوم و رب الكعبة، أُعطوا حاجتهم ثم أخذوا. رواه ابن أبي حاتم.

و قال قتادة: بغَت القومَ أمرُ الله، و ما أخذ الله قوماً قط، إلا عند سكرتهم و غرتهم و نعمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون. رواه ابن أبي حاتم أيضاً.

و قد روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتَ الله يُعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فلمّا نسُوا ما ذُكّرُوا به فتحنا عليهم أبوابَ كُلّ شيءٍ حتّى إذا فرِحُوا بما أُوتُوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مُبلِسُونَ﴾. و رواه ابن جرير و ابن أبي حاتم.

﴿ قُلْ أَرأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴾

٤٦ – يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: قل لهؤلاء المكذبين المعاندين ﴿أرأيتمْ إنْ أخذَ اللهُ سمعَكمْ وأبصاركمْ﴾ أي: سلبكم إياها كما أعطاكموها، كما قال تعالى: ﴿هُو الذي أنشأكُمْ وَ جعلَ لكمُ السّمْعَ والأبصارَ﴾ الآية. ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع الشرعي، و لهذا قال: ﴿وَ ختمَ على قُلوبكُمْ﴾ كما قال: ﴿أمّن يَملكُ السّمْعَ و الأبصارَ﴾ و قال: ﴿و اعلَمُوا أنّ اللهَ يَحولُ بينَ المرءِ و قلبِهِ﴾. و قوله: ﴿مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكُم بهِ﴾ أي: هل أحدٌ غيرُ الله يقدر على ردِّ ذلك إليكمْ إذا سلبه الله منكم، لا يقدر على ذلك أحدٌ سواه، و لهذا قال: ﴿انظرْ كيفَ نُصرّفُ الآياتِ﴾

أي: نبينها و نوضحها و نفسرها، دالة على أنه لا إله إلا الله، و أن ما يعبدون من دونه باطل و ضلال ﴿ثمّ هُمْ يَصدِفونَ﴾ أي: ثم هم مع هذا البيان، يصدفون، أي: يُعرِضون عن الحق، و يصدّون الناس عن اتباعه.

٤٧ – و قوله: ﴿قُلْ أرأيتكُمْ إنْ أتاكُمْ عذابُ اللهِ بَغتةً﴾ أي: و أنتم لا تشعرون به حتى بغتكم و فجأكم ﴿أوجَهرةً﴾ أي: ظاهراً عياناً ﴿هَلْ يُهلَكُ إلاّ القومُ الظّالِمونَ﴾ أي: إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله، و ينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم و لاهم يحزنون، كقوله: ﴿الذينَ آمنُوا وَ لَمْ يَلبِسُوا إيمَانَهُم بظُلْمٍ﴾ الآية.

٤٨ – و قوله: ﴿وما نُرسِلُ المُرسَلينَ إلاّ مُبشّرينَ وَ مُنذِرينَ﴾ أي: مبشرين عباداً بالله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين مَن كَفَر بالله النقمات و العقوبات، و لهذا قال: ﴿فمَنْ آمن وَ أصْلحَ﴾ أي: فمن آمن قلبه بما جاءوا به، و صلح عمله باتباعه إياهم ﴿فلاَ خوفٌ عليهِمْ﴾ أي: بالنسبة لما يستقبلونه ﴿وَ لاهُمْ يَحزَنونَ﴾ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم، و تركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا و صنيعها، الله وليهم فيما خلفوه، و حافظهم فيما تركوه.

٤٩ – ثم قال: ﴿و الذينَ كذّبُوا بآياتنا يَمَسُّهُم العَذابُ بِمَا كانُوا يَفسُقُونَ﴾ أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، و خرجوا عن أوامر الله و طاعته، و ارتكبوا من مناهيه و محارمه، و انتهاك حرماته.

﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ

إليَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)﴾

٥٠- يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: لست أملكها، و لا أتصرف فيها ﴿و لاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ﴾ أي: و لا أقول لكم إني أعلم الغيب، إنما ذاك من علم الله عز وجل، و لا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه: ﴿و لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: و لا أدّعي أني مَلَك، إنما أنا بشر من البشر، يوحى إلي من الله عز وجل، شرّفني بذلك و أنعم علي به، و لهذا قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إلاَّ ما يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: لست أخرج عنه قِيدَ شبر، و لا أدنى منه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى و البَصِيرُ﴾ أي: هل يستوي من اتبع الحق، و هُدي إليه، و من ضل عنه، فلم ينقد له ﴿أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ و هذه كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّما أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ الحقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾.

٥١- و قوله: ﴿و أَنذِرْ بِهِ الذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ و لاَ شَفِيعٌ﴾ أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿الذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ ﴿الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ ﴿الذِينَ يَخافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَيسَ لَهُم﴾ أي: يومئذ ﴿مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾ أي: لا قريبَ لهم، و لا شفيع فيهم من عذابه، إن أراد بهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله عز وجل ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فيعملون في هذه الدار عملاً، ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.

٥٢- و قوله تعالى: ﴿و لاَ تَطْرُدِ الذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بِالغَدَاةِ و العَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: لا تُبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك و أخصّاءك، كقوله: ﴿و اصبِرْ نَفسَكَ مَعَ الذِينَ يدعونَ رَبَّهُم بِالغَدَاةِ وَ العَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لاَ تَعْدُ عَينَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَياةِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغفَلْنا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ و قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أي: يعبدونه و يسألونه ﴿بِالغَدَاةِ وَ العَشِيِّ﴾ قال سعيد بن المسيب و مجاهد و الحسن و قتادة: المراد به: الصلاة المكتوبة، وهذا كقوله: ﴿و قَالَ رَبُّكُم ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: أتقبل منكم. و قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم، و هم مخلصون فيما هم فيه من العبادات و الطاعات.

و قوله: ﴿ما عَلَيكَ مِنْ حِسابِهِم مِّن شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسابِكَ عَلَيهِم مِّن شَيْءٍ﴾ كقول نوح ﷺ في جواب الذين ﴿قالُوا أَنُؤمِنُ لَكَ و اتَّبَعكَ الأَرذَلُونَ ۞ قالَ و مَا عِلمِي بِما كانُوا يَعمَلونَ ۞ إِنْ حِسابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي: إنما حسابهم على الله عز وجل، و ليس علي من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء، و قوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن فعلت هذا و الحالة هذه.

عن المقداد بن شريح عن أبيه قال: قال سعد: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ، منهم: ابن مسعود قال: كنا نستبق إلى رسول الله ﷺ و ندنو منه، و نسمع منه، فقالت قريش: تُدني هؤلاء دوننا! فنزلت: ﴿و لا تطردِ الذين يدعونَ ربَّهُم بالغداةِ و العشيِّ﴾ رواه الحاكم و ابن حبان [١].

٥٣- و قوله: ﴿و كذلكَ فتنَّا بعضَهُم ببعضٍ﴾ أي: ابتلينا و اختبرنا و امتحنا بعضهم ببعض ﴿ليقولوا أهؤلاءِ مَنَّ اللهُ عليهِم مِّن بينِنا﴾ و ذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثته، ضعفاء الناس، من الرجال والنساء، و العبيد و الإماء، و لم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿و ما نراكَ اتَّبعكَ إلاَّ الذينَ هم أراذِلُنا بادِيَ الرأيِ﴾ الآية، و كما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان، حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فأشراف الناس يتبعونه، أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرسل.

و الغرض: أن مشركي قريش كانوا بمن آمن من ضعفائهم، و يعذبون من يقدرون عليه منهم، و كانوا يقولون: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير ـ لو كان ما صاروا إليه خيراً ـ و يدعنا، كقولهم: ﴿لَوْ كانَ خيراً ما سبقونا إليهِ﴾ و كقوله تعالى: ﴿و إذا تُتلَى عليهِم آياتُنا بيِّناتٍ قالَ الذينَ كفروا للذينَ آمنوا أيُّ الفريقينِ خيرٌ مقاماً و أحسنُ نديّاً﴾ قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿و كم أهلكنا قبلَهُم مِّن قرنٍ هُمْ أحسنُ أثاثاً و رِئياً﴾ و قال في جوابهم حين قالوا: ﴿أهؤلاءِ مَنَّ اللهُ عليهِم مِّن بينِنا أليسَ اللهُ بأعلمَ بالشاكرينَ﴾ أي: أليس هو أعلم بالشاكرين له، بأقوالهم و أفعالهم و ضمائرهم، فيوفقهم و يهديهم سبل السلام، و يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، و يهديهم إلى صراط مستقيم، كما قال تعالى: ﴿و الذينَ جاهَدوا فينا لنهدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا و إنَّ اللهَ لمعَ المحسنينَ﴾. و في الحديث الصحيح: «إنَّ الله لا يَنظرُ إلى صُوَرِكم ولا إلى ألوانكم، و لكن يَنظرُ إلى قلوبكم و أعمالكم» [٢].

٥٤- و قوله: ﴿و إذا جاءكَ الذينَ يؤمنونَ بآياتِنا فقُلْ سلامٌ عليكُمْ﴾ أي: فأكرمهم بردّ السلام عليهم، وبشّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم، و لهذا قال: ﴿كتبَ ربُّكُمْ على نفسِهِ الرَّحمةَ﴾ أي: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه و إحساناً و امتناناً ﴿أنَّهُ مَن عَمِلَ منكُمْ سوءاً بجهالةٍ﴾ قال بعض السلف: كلُّ من عصى الله فهو جاهل، و قال عكرمة في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ منكُمْ سوءاً بجهالةٍ﴾ قال: الدنيا كلها جهالة. رواه ابن أبي حاتم ﴿ثُمَّ تابَ مِن بعدِهِ و أصلحَ﴾ أي: رجع عما كان عليه من المعاصي، و أقلع و عزم أن لا يعود، وأصلح العمل في المستقبل ﴿فأنَّهُ غفورٌ رحيمٌ﴾.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضَى اللهُ الخلق، كتَبَ في كتاب فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غَلَبَتْ غضبي» أخرجاه في الصحيحين. و سيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله: ﴿و رحمتِي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ﴾. و مما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضاً: قوله ﷺ لمعاذ ابن جبل: «أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ أنْ يَعبدوه و لا يُشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدري ما حقُّ العباد على الله، إذا هم فعلوا ذلك؟ أن لا يُعَذِّبهم» و قد رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي

(١) هو في صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٨)!

(٢) رواه مسلم في البر و الصلة (٤/ ١٩٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

٥٥- يقول تعالى و كما بينا ما تقدم بيانه من الحجج و الدلائل، على طريق الهداية و الرشاد، وذم المجادلة والعناد ﴿كذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ﴾ أي: التي يحتاج المخاطَبون إلى بيانها ﴿و لِتَستَبِينَ سَبِيلَ الْمُجرمِين﴾ أي: و لتظهر طريق المجرمين، المخالفين للرسل، و قرئ ﴿وَ لِيَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجرمِينَ﴾ أي: و ليستبين يا محمد، أو يا مخاطب، سبيل المجرمين.

٥٧- و قوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على بصيرة من شريعة الله، التي أوحاها الله إلي ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أي: بالحق الذي جاءني من الله ﴿مَا عِندِي مَا تَستَعجِلُونَ بِهِ﴾ أي: من العذاب ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ﴾ أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله، إن شاء عَجَّل لكم ماسألتموه من ذلك، و إن شاء أنظركم و أجَّلكم، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، و لهذا قال: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ و هُوَ خَيرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي: و هو خير من فصَّل القضايا، و خير الفاتحين في الحكم بين عباده.

٥٨- وقوله: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَستَعجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمرُ بَيْنِي و بَينَكُمْ﴾ أي: لو كان ذلك إلي، لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك ﴿وَ اللهُ أعلمُ بِالظَّالِمِينَ﴾. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية، و بين ما ثبت في الصحيحين: عن عائشة أنها قالت لرسول اللهﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يومٌ كان أشد من يوم أُحد؟ فقال: «لقد لقيتُ من قومك، و كان أشد ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذ عَرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردتُ، فانطلقت و أنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريلعليه السلام فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، و ما ردوا عليك، و قد بعث إليك مَلكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلّم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قولَ قومك لكِ، و قد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين، فقال رسول اللهﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً» و هذا لفظ مسلم.

فقد عرض عليه عذابهم و استئصالهم فاستأنى بهم، و سأل لهم التأخير، لعل الله أن يُخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً، فما الجمع بين هذا، و بين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَستَعجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمرُ بَيْنِي و بَينَكُمْ وَ اللهُ أعلمُ بِالظَّالِمِينَ﴾؟ فالجواب: و الله أعلم، أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له، لأوقعه بهم، و أما الحديث، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عَرَضَ عليه ملكُ الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين ـ و هما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً و شمالاً ـ فلهذا استأنى بهم و سأل الرفق لهم.

٥٩- و قوله تعالى: ﴿وَ عِندَهُ مفاتِحُ الْغَيبِ لاَ يَعلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن

أبيه : أن رسول الله ﷺ قال : «مفاتحُ الغيب خَمسٌ لا يعلمهن إلا الله : ﴿إنَّ اللهَ عِندهُ عِلمُ السَّاعةِ وَ يُنزّلُ الغيثَ وَيعلَمُ مَا فِي الأرحامِ وَ مَا تَدري نَفسٌ مَاذا تَكسِبُ غَداً وَما تَدرِي نَفسٌ بِأيِّ أرضٍ تَموتُ إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ﴾ .

و في حديث عمر : أن جبريل حين تبدّى له في صورة أعرابي ، فسأل عن الإيمان و الإسلام والإحسان ، فقال له النبي ﷺ فيما قال له : «خَمسٌ لا يعلمهن إلا الله» ثم قرأ : ﴿إنَّ اللهَ عندهُ عِلمُ السَّاعةِ﴾ الآية .

و قوله : ﴿وَ يعلمُ ما فِي البَرِّ وَ البَحرِ﴾ أي : يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات ، بريّها و بحريها ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، و لا مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء .

و قوله : ﴿وَ ما تَسقُطُ مِن وَرقَةٍ إلاّ يَعلَمُهَا﴾ أي : و يعلم الحركات حتى من الجمادات ، فما ظنك بالحيوانات ، و لا سيما المكلفون منهم ، من جهنم و إنسهم ، كما قال تعالى : ﴿يعلَمُ خائِنَةَ الأعيُنِ وَ مَا تُخفِي الصُّدُورُ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) ﴾

٦٠ - يقول تعالى أنه يتوَفّى عباده في منامهم بالليل ، و هذا هو التوفي الأصغر ، كما قال تعالى : ﴿إذْ قالَ اللهُ يَا عِيسَى إنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رَافِعُكَ إلَيَّ﴾ و قال تعالى : ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيهَا المَوتَ وَ يُرسِلُ الأُخرَى إلَى أجَلٍ مُسَمَّى﴾ فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى ، و هكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين : الصغرى ثم الكبرى ، فقال : ﴿وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيلِ وَ يَعلَمُ مَا جَرَحتُم بِالنَّهارِ﴾ أي : و يعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار ، و هذه جملة معترضة ، دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه ، في ليلهم و نهارهم ، في حال سكونهم و حال حركتهم ، كما قال : ﴿سواءٌ مِّنكُم مَّنْ أسَرَّ القَولَ وَ مَن جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُستَخفٍ بِاللَّيلِ وَ سَارِبٌ بِالنَّهارِ﴾ و كما قال تعالى : ﴿وَ مِن رَّحمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ وَ النَّهارَ لِتَسكُنُوا فِيهِ﴾ أي : في الليل ﴿وَ لِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ﴾ أي : في النهار ، كماقال : ﴿وَ جَعَلنَا اللَّيلَ لِبَاساً * وَ جَعَلنَا النَّهارَ مَعَاشاً﴾ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيلِ وَ يَعلَمُ مَا جَرَحتُم بِالنَّهارِ﴾ أي : ما كسبتم من الأعمال فيه ﴿ثُمَّ يَبعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي : في النهار ، قاله مجاهد و قتادة و السدي ، و قال عبد الله ابن كثير : أي في المنام . و الأول أظهر .

و قوله : ﴿لِيُقضَى أجلٌ مُسَمّى﴾ يعني به أجل كل واحد من الناس ﴿ثُمَّ إليهِ مَرجِعُكُمْ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ أي : فيخبركم ﴿بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ أي : و يجزيكم على ذلك ، إنْ خيراً فخير ، و إنْ شراً فشر .

٦١- و قوله : ﴿وَ هُوَ القَاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ﴾ أي : و هو الذي قهر كل شيء ، و خضع لجلاله و عظمته وكبريائه كل شيء ﴿و يُرسِلُ عَلَيكُمْ حَفَظَةً﴾ أي : من الملائكة يحفظون بدن الإنسان ، كقوله : ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِّن بَينِ يَدَيهِ وَ مِنْ خَلفِهِ يَحفَظُونَهُ مِنْ أمْرِ اللهِ﴾ و حفظة يحفظون عمله و يحصونه ، كقوله : ﴿و إنَّ عَلَيكُمْ لَحافِظِينَ﴾ الآية ، وكقوله : ﴿عَنِ اليَمِينِ و عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ * مَا يَلفِظُ مِن قولٍ إلاَّ لديهِ رَقيبٌ عَتِيدٌ﴾ و قوله :

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ الآية، و قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: احتُضر و حان أجله ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: ملائكةٌ موكلون بذلك، قال ابن عباس و غير واحد: لملك الموت أعوانٌ من الملائكة، يُخرجون الروح من الجسد، فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم، و سيأتي عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الأحاديث المتعلقة بذلك، الشاهدة لهذا المروي عن ابن عباس و غيره بالصحة، و قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها و ينزلونها حيث شاء الله عز وجل، إنْ كان من الأبرار ففي عليين، و إن كان من الفجار ففي سجين، عياذاً بالله من ذلك.

٦٢- و قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ قال ابن جرير ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ يعني الملائكة ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾. و نذكر هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الميِّتَ تحضره الملائكة، فإذا كان الرجلُ الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفسُ الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، و أبشري بروحٍ و ريحان، و ربٍ غير غضبان، فلا تزال يُقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيُقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال مرحباً بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة و أبشري بروح و ريحان، و رب غير غضبان، فلا تزال يُقال لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. و إذا كان الرجلُ السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، و أبشري بحميم و غسّاق، و آخر من شكله أزواج، فلا تزال يقال لها ذلك، حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يُفتح لك أبواب السماء، فتُرسل من السماء، ثم تصير إلى القبر، فيُجلس الرجل الصالح، فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، و يُجلس الرجل السوء، فيقال له مثل ما قيل في الحديث الثاني» هذا حديث غريب [(١)].

و يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ يعني الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة، فيحكم فيهم بعدله، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ و قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ و لهذا قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾

٦٣- يقول تعالى ممتناً على عباده في إنجائه المضطرين منهم، من ظلمات البر و البحر، أي: الحائرين الواقعين في المهامة البرية، و في اللُّجَج البحرية، إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يُفردون الدعاء له، وحده لا شريك له، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآية، و قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ

---

(١) المسند (٢/ ٣٦٤-٣٦٥) و إسناده صحيح، رجاله رجال الشيخين.

في البرِّ والبحرِ حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم بريحٍ طيبةٍ وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموجُ من كلِّ مكانٍ وظنوا أنهم أُحيطَ بهم دعَوا اللهَ مخلصينَ له الدينَ لئن أنجيتَنا من هذهِ لنكونَنَّ من الشاكرين﴾ الآية، وقوله: **﴿أمَّن يهديكم في ظلماتِ البرِّ والبحرِ ومن يُرسلُ الرياحَ بُشْراً بينَ يدَيْ رحمتِهِ أإلهٌ مع اللهِ تعالى اللهُ عمَّا يُشركون﴾**. وقال في هذه الآية الكريمة: **﴿قُلْ من يُنَجِّيكم من ظلماتِ البرِّ والبحرِ تدعونَهُ تضرُّعاً وخُفْيةً﴾** أي: جهراً وسراً **﴿لئن أنجانا﴾** أي: من هذه الضائقة **﴿لنكونَنَّ من الشاكرين﴾** أي: بعدها.

٦٤ - قال الله **﴿قُلِ اللهُ يُنجيكم منها ومن كلِّ كربٍ ثم أنتم تُشركون﴾** أي: تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى.

٦٥ - وقوله: **﴿قُلْ هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقِكم أو من تحتِ أرجلِكم﴾** لما قال: **﴿ثم أنتم تُشركون﴾** عقَّبه بقوله: **قُلْ هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً﴾** أي: بعد إنجائه إياكم، كقوله في سورة سبحان **﴿ربُّكم الذي يُزجي لكم الفُلْكَ في البحرِ لتبتغوا من فضلِهِ إنَّه كان بكم رحيماً * وإذا مسَّكم الضرُّ في البحرِ ضلَّ من تدعون إلا إيَّاه فلمَّا نجَّاكم إلى البرِّ أعرضتم وكان الإنسانُ كفوراً * أفأمنتم أن يخسفَ بكم جانبَ البرِّ أو يُرسلَ عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً * أم أمنتم أن يُعيدَكم فيه تارةً أُخرى فيُرسلَ عليكم قاصفاً من الريحِ فيُغرقَكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تَبيعاً﴾**. روى ابن أبي حاتم تعليقاً عن الحسن في قوله: **﴿قُلْ هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقِكم أو من تحتِ أرجلِكم﴾** قال: هذه للمشركين.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: لأمة محمد ﷺ وعفى عنهم.

ونذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك والآثار، وبالله المستعان وعليه التكلان وبه الثقة:

قال البخاري رحمه الله تعالى في هذه الآية: يلبسكم: يخلطكم من الالتباس، يلبسوا: يخلطوا، شيعاً: فرقاً. عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية **﴿قُلْ هو القادرُ على أن يبعثَ عليكم عذاباً من فوقِكم﴾** قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك» **﴿أو من تحتِ أرجلِكم﴾** قال: «أعوذ بوجهك» **﴿أو يلبسَكم شِيَعاً ويُذيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ﴾**، قال رسول الله ﷺ: «هذه أهون أو أيسر».

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن سعد بن أبي وقاص قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلاً، ثم قال: «سألتُ ربي ثلاثاً: سألته أنْ لا يُهلك أمتي بالغَرَق، فأعطانيها، وسألته أنْ لا يهلك أمتي بالسنة[1] فأعطانيها، وسألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم، فمنعنيها» انفرد بإخراجه مسلم.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن شداد بن أوس: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زَوَى لي الأرض، حتى رأيتُ مشارقها ومغاربها، وأنَّ مُلْكَ أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها، وإني قد أُعطيتُ الكنزين الأبيض والأحمر، وإني سألتُ ربي عز وجل أن لا يُهلك أمتي بسنةٍ عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامة، وأن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا محمد، إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يرد، وإني قد أعطيتك لأمتك: أن لا أُهلكهم بسنةٍ عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً ممن سواهم فيهلكهم بعامة، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً، وبعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبي بعضاً» قال: وقال النبي ﷺ: «إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين، فإذا وُضع السيفُ في أمتي لم يُرفع عنهم إلى يوم القيامة». ليس

(١) السنة: القحط والجدب.

في شيء من الكتب الستة، و إسناده جيد قوي، و قد رواه ابن مردويه بنحوه، و الله أعلم.

و روى ابن أبي حاتم: عن الحسن في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ﴾ الآية، قال: حُبِسَتْ عقوبتها حتى عمل ذنبها، فلما عمل ذنبها، أرسلت عقوبتها. و هكذا قال مجاهد و سعيد بن جبير و أبو مالك والسدي و ابن زيد و غير واحد في قوله: ﴿عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني الرَّجم ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: الخسف، وهذا هو اختيار ابن جرير.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني: أمراءكم ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: عبيدكم و سفلتكم، و حكى ابن أبي حاتم عن أبي سنان و عمرو بن هانئ نحو ذلك. قال ابن جرير: وهذا القول و إنْ كان له وجهٌ صحيح، لكن الأول أظهر و أقوى، وهو كما قال ابن جرير رحمه الله، و يشهد له بالصحة: قوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ و في الحديث: «ليكونن في هذه الأمة قذفٌ و خسف و مسخ»[1].

و ذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة و أشراطها، و ظهور الآيات قبل يوم القيامة، و ستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى.

و قوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ يعني: يجعلكم ملتبسين شيعاً فرقاً متخالفين. قال الوالبي عن ابن عباس: يعني الأهواء، و كذا قال مجاهد و غير واحد، و قد ورد في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقةً، كلُّها في النار، إلا واحدة».

و قوله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال ابن عباس و غير واحد يعني: يُسلِّط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل. و قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ أي: نبينها و نوضحها و نفسرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون و يتدبرون عن الله آياته و حججه و براهينه.

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) ﴾

٦٦- يقول تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن الذي جئتهم به و الهدى و البيان ﴿قَوْمُكَ﴾ يعني: قريشاً ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الذي ليس وراءه حق ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: لست عليكم بحفيظ، و لست بوكيل بكم، كقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ أي: إنما علي البلاغ، وعليكم السمع و الطاعة، فمن اتبعني سَعِد في الدنيا و الآخرة، و من خالفني فقد شَقِيَ في الدنيا و الآخرة.

٦٧- و لهذا قال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قال ابن عباس و غير واحد: أي: لكل نبأ حقيقة، أي: لكل خبر وقوع، و لو بعد حين، كما قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ و قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ و هذا تهديدٌ و وعيدٌ أكيد ولهذا قال بعده: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

(١) حديث صحيح لطرقه، رواه أحمد (٢/ ١٦٣) عن ابن عمرو، و رواه عن أبي أمامة (٥/ ٢٥٩) و الترمذي (٢٣٢٣) عن عمران بن حصين و غيرهم.

٦٨- و قوله: ﴿و إذا رأيتَ الذينَ يَخُوضونَ في آياتِنا﴾ أي: بالتكذيب و الاستهزاء ﴿فأعْرِضْ عَنْهُمْ حتَّى يَخُوضوا في حَديثٍ غَيرِهِ﴾ أي: حتى يأخذوا في كلام آخر، غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿و إمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيطانُ﴾ و المراد بذلك: كل فردٍ فردٍ من آحاد الأمة، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يُحرّفون آيات الله، ويضعونها على غير موضعها، فإنْ جلس أحد معهم ناسياً ﴿فلا تَقْعُدْ بَعدَ الذِّكْرَى﴾ بعد التذكر ﴿مَعَ القَومِ الظَّالِمينَ﴾ و لهذا ورد في الحديث «رُفع عن أمتي الخطأ و النسيان و ما استكرهوا عليه» (١).

و قال السدي عن أبي مالك و سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَ إمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيطانُ﴾ قال: إن نسيتَ فذكرتَ ﴿فلا تَقْعُدْ﴾ معهم، و كذا قال مقاتل بن حيان، و هذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿و قدْ نَزَّلَ عليكُمْ في الكِتابِ أنْ إذا سَمِعتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا و يُستَهزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حديثٍ غيرِهِ إنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُمْ﴾ الآية، أي: إنكم إذا جلستم معهم، وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم فيما هم فيه، و قوله: ﴿وما على الذينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِم مِّن شيءٍ﴾ أي: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برؤا من عهدتهم، و تخلصوا من إثمهم.

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾

٧٠- يقول تعالى: ﴿و ذرِ الذينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ أي: دَعْهم و أعرض عنهم، وأمهلهم قليلاً، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم، و لهذا قال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي: ذكّر بهذا القرآن، وحذّرهم نقمة الله و عذابه الأليم يوم القيامة،، و قوله تعالى: ﴿أنْ تُبسَلَ نَفسٌ بِما كَسَبَتْ﴾ أي: لئلا تُبسل. قال الضحاك عن ابن عباس و مجاهد و عكرمة و الحسن و السدي ﴿تُبسَلَ﴾: تُسْلِم. و قال الوالبي عن ابن عباس: تفتضح. و قال قتادة: تحبس، و قال مرة و ابن زيد: تؤاخذ.

و كل هذه الأقوال و العبارات متقاربة في المعنى، و حاصلها: الإسلام للهلكة، و الحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب، كقوله: ﴿كُلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رَهينَةٌ ۞ إلاَّ أصْحابَ اليَمينِ﴾ و قوله: ﴿ليسَ لَها مِن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَ لاَ شَفيعٍ﴾ أي: لا قريب و لا أحد يشفع فيها، كقوله: ﴿مِن قَبْلِ أن يَأتِيَ يَومٌ لاَ بَيعٌ فيهِ ولاَ خُلَّةٌ و لاَ شَفاعَةٌ وَ الكافِرُونَ هُم الظَّالِمونَ﴾. و قوله: ﴿و إن تَعدِلْ كُلَّ عَدلٍ لاَ يُؤخَذْ مِنها﴾ أي: و لو بذلَتْ كل مبذولٍ ما قُبل منها، كقوله: ﴿إنَّ الذينَ كفرُوا و ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فلَن يُقْبَلَ مِنْ أحَدِهِم مِّلْءُ الأرضِ ذَهَباً﴾ الآية، و كذا قال ههنا: ﴿أُولَئِكَ الذينَ أُبسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِّنْ حَميمٍ وَ عَذابٌ أليمٌ بِما كَانُوا يَكفُرونَ﴾.

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢)

(١) الحديث صحيح بلفظ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ . . . » رواه ابن ماجه و غيره.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)﴾

٧١- قال السدي: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا و اتركوا دين محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ أَندعوا مِن دونِ اللهِ مالاَ ينفَعُنا وَ لا يَضرُّنا وَ نُرَدُّ على أعقابِنا﴾ أي: في الكفر ﴿بَعْدَ إذْ هدانا اللهُ﴾ فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم، كمثل رجلٍ خرج مع قوم على الطريق، فضَلَّ الطريق فحيّرته الشياطين، و استهوته في الأرض و أصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: ائتنا فإنَّا على الطريق، فأبى أن يأتيهم، فذلك مَثَل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمدﷺ، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، و الطريق هو الإسلام. رواه ابن جرير. و قال قتادة: استهوته ﴿الشَّياطِينُ في الأرضِ﴾ أضلته في الأرض، يعني استهوته سَيَّرته، كقوله ﴿تَهوِي إليهِم﴾.

و قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: في قوله: ﴿أنَ أندعوا مِن دونَ اللهِ مالاَ ينفَعُنا وَ لا يَضرُّنا﴾ الآية، هذا مَثَلٌ ضربه الله للآلهة، و مَن يدعو إليها، و الدعاة الذين يدعون إلى هدى الله عز وجل، كمثل رجلٍ ضَلَّ عن الطريق تائهاً، إذ ناداه مناد: يا فلان ابن فلان، هلمّ إلى الطريق، و له أصحاب يدعونه: يا فلان هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يُلقيه إلى الهلكة، و إنْ أجاب مَن يدعوه إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق، و هذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء، حتى يأتيه الموت فيستقبل الندامة و الهلكة.

و قوله: ﴿كالَّذي استَهوَتْهُ الشَّياطِينُ في الأرضِ﴾ هم الغِيلان ﴿يَدعُونَه﴾ باسمه و اسم أبيه وجده فيتبعها، و هو يرى أنه في شيء، فيُصبح و قد رمته في هلكة، و ربما أكلته، أو تلقيه في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل مَن أجاب الآلهة التي تُعبد من دون الله عز وجل، رواه ابن جرير.

و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد، ﴿كالَّذي استَهوَتْهُ الشَّياطِينُ في الأرضِ حَيْرانَ﴾ قال: رجلٌ حيران يدعوه أصحابه إلى الطريق، و ذلك مَثَلُ من ضلَّ بعد أن هدي.

و تقدير الكلام: فيأبى عليهم و لا يلتفت إليهم، و لو شاء الله لهداه و لردّ به إلى الطريق، و لهذا قال: ﴿قُلْ إنَّ هُدى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ كما قال: ﴿وَ مَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُضِلٍّ﴾ و قال: ﴿إن تَحرِصْ على هُداهُمْ فإنَّ اللهَ لاَ يهدِي مَن يُضِلُّ وَ مالَهُم مِّن نَّاصِرينَ﴾ و قوله: ﴿وَ أُمِرنَا لِنُسلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ أي: نخلص له العبادة، وحده لا شريك له.

٧٢- ﴿و أنْ أقِيمُوا الصَّلاةَ وَ اتَّقُوهُ﴾ أي: و أمرنا بإقامة الصلاة، و بتقواه في جميع الأحوال ﴿وهُوَ الذِي إليهِ تُحشَرُونَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿وهُوَ الذِي خَلَقَ السَّمواتِ و الأرضَ بالحَقِّ﴾ أي: بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما، و المدبر لهما و لمن فيهما، و قوله: ﴿و يَومَ يقولُ كُن فَيَكونُ﴾ يعني: يوم القيامة، الذي يقول الله: «كن» فيكون عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب، و قوله: ﴿قَولُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ﴾ جملتان محلهما الجر على أنهما صفتان لرب العالمين، و اختلف المفسرون في قوله: ﴿يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ﴾ فقال بعضهم: المراد بالصور هنا جمع صُورة، أي: يوم ينفخ فيها فتحياً. و الصحيح: أن المراد بالصور: «القرن» الذي يَنفُخ فيه إسرافيلعليه السلام. قال ابن جرير: و الصواب عندنا: ما تظاهرت به الأخبار عن رسول اللهﷺ أنه قال: «إنَّ

إسرافيل قد التقم الصُّور، و حَنَى جبهته، ينتظر متى يُؤمر فَينفخ» رواه مسلم في صحيحه.

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: قال أعرابي: يا رسول الله ماالصُّورُ؟ قال: «قرنٌ يُنفخُ فيه».

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾

٧٤- روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس في قوله: ﴿و إذ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ آزرَ﴾ يعني بآزر الصنم. وأبو إبراهيم اسمه: تارح و أمه اسمها شاني، و امرأته اسمها سارة، و أم إسماعيل اسمها هاجر، و هي سرية إبراهيم [(١)].

و هكذا قال غير واحد من علماء النسب، أن اسمه تارح. و قال مجاهد و السدي: آزر اسم صنم.

قلت: كأنه غلب عليه آزر، لخدمته ذلك الصنم، فالله أعلم.

قال ابن جرير: و الصواب أن اسم أبيه آزر. ثم أورد على نفسه قول النَّسابين أن اسمه «تارح» ثم أجاب بأنه: قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً، و هذا الذي قاله جيد قوي، والله أعلم.

و المقصود أن إبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام و زجره عنها، و نهاه فلم ينته، كما قال: ﴿و إذ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ آزرَ أتتَّخذُ أصناماً آلهةً﴾ أي: أتتأله لصنم تعبده من دون الله ﴿إنِّي أراكَ و قومَكَ﴾ أي: السالكين مسلكك ﴿في ضلالٍ مُّبينٍ﴾ أي: تائهين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة و جهل، و أمركم في الجهالة والضلال بيّنٌ واضح، لكل ذي عقل سليم، و قال تعالى: ﴿وَ اذكُرْ في الكتابِ إبراهيمَ إنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَّبياً * إذْ قالَ لأبيهِ يا أبتِ لِمَ تَعبدُ ما لاَ يَسمعُ وَ لاَ يُبصِرُ وَ لاَ يُغني عنكَ شيئاً * يا أبتِ إنِّي قَدْ جَاءني مِن العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فاتَّبِعْني أهْدِكَ صِراطاً سَوِيّاً * يا أبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيطانَ إنَّ الشَّيطانَ كانَ للرَّحمنِ عَصِيّاً * يا أبتِ إنِّي أخافُ أن يَمسَّكَ عَذابٌ مِّنَ الرَّحمنِ فتكونَ للشَّيطانِ وَلِيّاً * قالَ أراغبٌ أنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبْرَاهِيمُ لئِن لَّمْ تَنتَهِ لأرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً * قالَ سَلامٌ عَليكَ سَأستَغفِرُ لكَ رَبِّي إنَّهُ كانَ بِي حَفِيّاً * وَ أعتَزِلُكُمْ وَ ما تَدعُونَ مِن دُونِ اللهِ وأدْعُو رَبِّي عسَى أن لاَّ أكونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾، فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك و تبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له و تبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَ ما كانَ استِغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبرأَ مِنهُ إنَّ إبراهيمَ لأوَّاهٌ حَليمٌ﴾.

و ثبت في الصحيح: أن إبراهيم يَلقى أباه آزر يوم القيامة، فيقول له آزر: يا بني اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أي رب، ألم تعدني أنك لا تخزني يوم الدين، و أيُّ خزيٍ أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم:

---

(١) و في سنده: شبيب بن بشر البجلي، قال أبو حاتم: لين الحديث، حديثه حديث الشيوخ. (الجرح: ٤/ ٣٥٧).

انظر ما وراءك، فإذا هو بذيخ[1] متلطِّخ، فَيُؤخذ بقوائمه فيُلقى في النار.

٧٥- و قوله: ﴿و كذلكَ نُرِي إبراهيمَ ملكوتَ السموات و الأرضِ﴾ أي: نُبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه و خلقه، و أنه لا إله غيره و لا رب سواه، كقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا ماذا في السمَواتِ و الأرضِ﴾ و قوله: ﴿أفلَمْ ينظُرُوا في ملكوتِ السمواتِ و الأرضِ﴾ و قال: ﴿أفلَمْ يرَوْا إلَى مَا بينَ أيديهِمْ و مَا خلفَهُم مِّنَ السَّماءِ و الأرضِ إن نَّشأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرضَ أو نُسقِطْ عَلَيهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّماءِ إنَّ في ذلكَ لآيَةً لِّكُلِّ عبدٍ مُّنيبٍ﴾. فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره، حتى رأى ذلك عياناً، و يحتمل أن يكون عن بصيرته، حتى شاهده بفؤاده و تحققه و عرفه، و علم ما في ذلك من الحكم الباهرة، و الدلالات القاطعة، كما رواه الإمام أحمد و الترمذي و صححه: عن معاذ بن جبل في حديث المنام: «أتاني ربي في أحسن صورةٍ فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا أدري يا رب، فوضع يده بين كتفي حتى وجدتُ بَرد أنامله بين ثديي فَتَجلّى لي كل شيء و عرفت ذلك» و ذكر الحديث. و قوله: ﴿و ليَكونَ مِنَ المُوقِنينَ﴾ قيل: الواو زائدة، تقديره: و كذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات و الأرض ليكون من الموقنين، كقوله: ﴿وكَذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ و لِتَستَبِينَ سَبيلُ المُجرِمينَ﴾ و قيل: هي على بابها، أي: نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً.

و قوله تعالى: ﴿فلمَّا جَنَّ عليهِ اللَّيلُ﴾ أي: تَغشَّاه و ستره ﴿رأى كَوكَباً﴾ أي: نجماً ﴿قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أفَلَ﴾ أي: غاب، قال محمد بن إسحاق: الأُفول الذهاب.

قال: ﴿لا أُحِبُّ الآفِلينَ﴾ قال قتادة: علمَ أن ربه دائمٌ لا يزول.

٧٧- ﴿فلمَّا رَأى القَمرَ بَازِغاً﴾ أي: طالعاً ﴿قالَ هذا رَبِّي فلمَّا أفَلَ قالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

٧٨- ﴿فلمَّا رَأى الشَّمسَ بازغةً قالَ هذا رَبِّي﴾ أي: هذا المنير الطالع ربي ﴿هذا أكبرُ﴾ أي: جرماً من النجم و من القمر، و أكثر إضاءة ﴿فلمَّا أفَلتْ﴾ أي: غابت ﴿قالَ يا قوم إنِّي بريءٌ مِّمَّا تُشرِكونَ﴾.

٧٩- ﴿إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمواتِ و الأرضَ حَنيفاً وَ مَا أنَا مِنَ المُشْرِكينَ﴾ أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمواتِ و الأرضَ﴾ أي: خلقهما و ابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنيفاً﴾ أي: في حال كوني حنيفاً، أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، و لهذا قال: ﴿وَ مَا أنَا مِنَ المُشْرِكينَ﴾.

قد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، و اختاره ابن جرير مستدلا بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ الآية.

و الحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم، الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، و إنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق و النصر، و غير ذلك مما يحتاجون إليه. و بيَّن في هذا المقام خطأهم و ضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، و هي: القمر و عطارد

(١) الذيخ: ذكر الضباع.

والزهرة و الشمس و المريخ و المشترى و زحل ، و أشدهن إضاءة و أشرفهن عندهم الشمس ، ثم القمر ، ثم الزهرة ، فبين أولاً صلوات الله و سلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، فإنها مسخّرة مقدرة بسير معين ، لا تزيغ عنه يميناً و لا شمالاً ، و لا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة ، لما له في ذلك من الحكم العظيمة ، و هي تطلع من المشرق ، ثم تسير فيما بينه و بين المغرب ، حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال ، و مثل هذه لا تصلح للإلهية . ثم انتقل إلى القمر ، فبين فيه مثل ما بين في النجم ، ثم انتقل إلى الشمس كذلك ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة ، التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، و تحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يا قوم إِنِّي بريءٌ مِّمَّا تُشركونَ﴾ أي : أنا بريء من عبادتهن و موالاتهن ، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون .

٧٩ - ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّموات و الأرضَ حَنيفاً وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي : إنما أعبد خالق هذه الأشياء ، و مخترعها و مسخرها و مقدرها و مدبرها ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، و ربه و مليكه وإلهه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السَّموات و الأرضَ في ستَّةِ أيَّام ثُمَّ اسْتَوَى على العَرْشِ يُغْشِي اللَّيلَ النَّهارَ يطلُبُهُ حَثيثاً وَ الشَّمْسَ و القَمرَ وَ النُّجومَ مُسَخَّراتٍ بأمْرِهِ ألاَ لَهُ الْخَلْقُ و الأمرُ تبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمينَ﴾ . وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام ، و هو الذي قال الله في حقه ﴿وَ لَقَدْ آتينا إبراهيمَ رُشْدَهُ مِن قبلُ و كُنَّا بِهِ عَالِمينَ * إذْ قال لأبيهِ و قومِهِ ما هذهِ التماثيلُ الَّتِي أنْتُمْ لَها عَاكِفُونَ﴾ الآيات .

وقال تعالى : ﴿إنَّ إبراهيمَ كانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنيفاً وَلَمْ يكُ مِنَ المُشركينَ * شَاكراً لأنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَ هَدَاهُ إِلَى صِراطٍ مُّستقِيم * وَ آتيناهُ في الدُّنيا حَسنةً وَ إنَّهُ في الآخِرةِ لَمِنَ الصَّالحينَ * ثُمَّ أوحَينَا إليكَ أنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنيفاً وَ مَا كانَ مِن المُشْرِكينَ﴾ . و قال تعالى : ﴿قُلْ إنَّني هَدانِي رَبِّي إلى صِراطٍ مُّستقِيمٍ * دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنيفاً وَ مَا كانَ مِن المُشْرِكينَ﴾ .

و قد ثبت في الصحيحين : عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «كل مولود يولد على الفطرة» .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ أنه قال : «قال الله إني خَلقتُ عبادي حُنَفاء» .

و قال الله في كتابه العزيز ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عليهَا لاَ تَبديلَ لِخَلقِ اللهِ﴾ ، و قال تعالى : ﴿و إذْ أخَذَ رَبُّكَ مِن بني آدمَ مِن ظُهورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ و أشْهَدَهُمْ علَى أنفُسِهِمْ ألستُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بلَى﴾ و معناه على أحد القولين : كقوله ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عليهَا﴾ كما سيأتي بيانه . فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل ، الذي جعله الله أمة قانتاً لله حنيفاً و لم يكن من المشركين ، ناظراً في هذا المقام؟ بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، و السجية المستقيمة ، بعد رسول الله ﷺ بلا شك و لا ريب ، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً ، لقومه فيما كانوا فيه من الشرك ، لا ناظراً ، قوله تعالى :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)﴾

٨٠- يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم، حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، و ناظروه بشبه من القول، أنه قال: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي: تجدلونني في أمر الله، و أنه لا إله إلا هو، و قد بصّرني وهداني إلى الحق، و أنا على بينة منه، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة، و شبهكم الباطلة. و قوله: ﴿و لا أخافُ ما تُشركونَ به إلاَّ أن يشاءَ ربِّي شيئاً﴾ أي: و من الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه، أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً، و أنا لا أخافها و لا أباليها، فإن كان لها كيدٌ فكيدوني بها و لا تنظرون، بل عاجلوني بذلك.

و قوله تعالى: ﴿لاَّ أن يشاءَ ربِّي شيئاً﴾ استثناء منقطع، أي: لا يضر و لا ينفع إلا الله عز وجل: ﴿وسعَ ربِّي كُلَّ شيءٍ علماً﴾ أي: أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا يخفى عليه خافية ﴿أفلا تتذكَّرُونَ﴾ أي: فيما بينته لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها، و هذه الحجة نظير ما احتج بها نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد، فيما قصَّ عنهم في كتابه، حيث يقول: ﴿قالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَ مَا نَحنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَولِكَ وَ مَا نَحنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتَرَاكَ بَعضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَ رَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ الآية.

٨١- و قوله: ﴿و كيفَ أخافُ ما أشركتُم﴾ أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿و لا تخافونَ أنَّكُمْ أشرَكتُم باللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيكُمْ سُلطاناً﴾ قال ابن عباس و غير واحد من السلف: أي حجة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ﴾ و قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسمَاءٌ سَمَّيتُمُوهَا أَنتُمْ و آبَاؤُكُم مَّا أنزلَ اللهُ بِهَا مِن سُلطَانٍ﴾. و قوله: ﴿فأيُّ الفريقَينِ أحقُّ بالأمنِ إن كُنتُمْ تَعلَمُونَ﴾ أي: فأي الطائفتين أصوب. الذي عَبَدَ من بيده الضر و النفع، أو الذي عَبَد من لا يضر و لا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟

٨٢- قال الله تعالى: ﴿الذينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَ هُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: هؤلاء الذي أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، و لم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

روى البخاري: عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: و أيُّنا لم يظلم نفسَه؟ فنزلت ﴿إن الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. و روى الإمام أحمد: عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الذينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ باللهِ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ﴾ إنما هو الشرك».

و روى ابن أبي حاتم نحوه، ثم قال: و روي عن أبي بكر الصدّيق و عمر و أبي بن كعب و سلمان وحذيفة و ابن عباس و ابن عمر و عمرو بن شرحبيل و أبي عبد الرحمن السلمي و مجاهد و عكرمة و النخعي

والضحاك وقتادة والسدي و غير واحد نحو ذلك.

٨٣- و قوله: ﴿و تلك حُجَّتُنَا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ﴾ أي: وجَّهنا حجته عليهم، قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: ﴿وَكيفَ أخافُ مَا أشركْتُمْ وَلاَ تخافونَ أنَّكُمْ أشركْتُم باللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عليكُمْ سُلطاناً فأيُّ الفريقَينِ أحقُّ بالأمنِ﴾ الآية، و قد صدّقه الله، و حكم له بالأمن و الهداية، فقال: ﴿الذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُم بظُلمٍ أولَئِكَ لهُمُ الأمنُ وَهُم مُهتَدُونَ﴾ ثم قال بعد ذلك كله: ﴿و تلكَ حُجَّتُنَا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ نرفَعُ درجاتٍ مَّن نَّشاءُ﴾ قُرئ بالإضافة و بلا إضافة كما في سورة يوسف، و كلاهما قريب في المعنى.

و قوله: ﴿إنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ﴾ أي: حكيم في أقواله و أفعاله، عليم، أي: بمن يهديه و من يضله، وإن قامت عليه الحجج و البراهين، كماقال: ﴿إنَّ الذينَ حَقَّتْ عليهمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤمِنونَ ۞ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتَّى يَرَوُا العَذابَ الأليمَ﴾ و لهذا قال ههنا: ﴿إنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

٨٤- ٨٦- يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق، بعد أن طعن في السن، و أيس هو و امرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، و قالت: ﴿يَا ويلتَى أألِدُ و أنَا عجوزٌ و هذا بَعلي شيخاً إنَّ هذا لَشيءٌ عَجيبٌ ۞ قَالُوا أتعجَبينَ مِنْ أمرِ اللهِ رَحمَةُ اللهِ وبَركاتُهُ عليكُمْ أهلَ البيتِ إنَّهُ حَميدٌ مَّجيدٌ﴾ فبشروهما مع وجوده بنبوته، و بأن له نسلاً و عقباً كما قال تعالى: ﴿وَ بَشَّرْنَاهُ بإسحاقَ نَبيّاً مِّنَ الصَّالِحينَ﴾ و هذا أكمل في البشارة، و أعظم في النعمة، و قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بإسْحاقَ وَمِن وَراءِ إسْحاقَ يَعقُوبَ﴾ أي: و يولد لهذا المولود ولدٌ في حياتكما، فتقرَّ أعينكما به، كما قرَّت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل و العقب، و لما كان ولد الشيخ و الشيخة قد يتوهّم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب، الذي فيه اشتقاق العَقِب و الذرية، و كان هذا مجازاةً لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه، وتركهم و نزح عنهم، و هاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوَّضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته، بأولادٍ صالحين من صلبه على دينه لتقر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعتزَلَهُمْ وَمَا يَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ وهَبنَا لهُ إسحاقَ ويَعقوبَ وَكُلاً جَعلْنَا نَبيّاً﴾ و قال ههنا: ﴿وَوهبنَا لهُ إسحاقَ و يعقوبَ كُلاً هَدَيْنَا﴾.

و قوله: ﴿و نُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبله هديناه كما هديناه، و وهبنا له ذرية صالحة، و كل منهما

له خصوصية عظيمة، أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، و هم الذين صحبوه في السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، و أما الخليل إبراهيم عليه السلام فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نوحاً و إبراهيم وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ﴾ و قال تعالى: ﴿أولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وَ إسرائيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آياتُ الرَّحمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيّاً﴾ و قوله في هذه الآية الكريمة ﴿و من ذريته﴾ أي: و هدينا من ذريته داود وسليمان الآية، و عود الضمير إلى نوح، لأنه أقربُ المذكورين ظاهر لا إشكال فيه، و هو اختيار ابن جرير. وعوده إلى إبراهيم لأنه الذي سيق الكلام من أجله حسن، لكن يُشكل عليه لوط، فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه هاران بن آزر، اللهم إلا أن يقال إنه دخل في الذرية تغليباً، كما في قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهداءَ إِذْ حضرَ يعقوبَ المَوْتُ إِذْ قالَ لِبنِيهِ مَا تَعبُدونَ مِن بَعدِي قَالُوا نَعْبُدُ إلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إبراهيمَ و إسماعِيلَ و إسْحاقَ إِلهاً وَاحِداً وَنحنُ لهُ مُسلِمونَ﴾ فإسماعيل عمه، دخل في آبائه تغليباً، و كما قال في قوله: ﴿فَسجدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجمَعُونَ * إلاّ إبْليسَ﴾ فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، و ذُمَّ على المخالفة، لأنه كان قد تشبَّه بهم فعومل معاملتهم، و دخل معهم تغليباً، و إلا فهو كان من الجن و طبيعته من النار، و الملائكة من النور.

و في ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر، دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل، لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام، فإنه لا أب له. فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه، و بنو بنيه، و احتجوا بقول الشاعر العربي:

بَنُونَا بنو أبنائنا و بناتنا   بنوهن أبناءُ الرجالِ الأجانب

و قال آخرون: و يدخل بنو البنات فيهم أيضاً، لما ثبت في صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ قال للحسن ابن علي: «إنَّ ابني هذا سيدٌ، و لعلّ الله أنْ يُصْلحَ به بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». فسماه ابناً فدلّ على دخوله في الأبناء. و قال آخرون: هذا تجوّز.

٨٧- و قوله: ﴿و مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ﴾ ذكر أصولهم و فروعهم، و ذوي طبقتهم، و أن الهداية والاجتباء شملهم كلهم، و لهذا قال: ﴿و اجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِراطٍ مُّستَقِيمٍ﴾.

٨٨- ثم قال تعالى: ﴿ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهدِي بِهِ مَن يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله، وهدايته إياهم ﴿وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنهُم مَّا كانُوا يَعمَلُونَ﴾ تشديدٌ لأمر الشرك، و تغليظ لشأنه، و تعظيم لملابسته، كقوله تعالى: ﴿و لقدْ أوحِيَ إِلَيكَ وَ إِلَى الَّذينَ مِن قَبلِكَ لَئِنْ أشركتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية، وهذا شرط، و الشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله: ﴿قُلْ إن كانَ لِلرَّحمَنِ وَلَدٌ فأَنا أَوَّلُ العَابدينَ﴾ و كقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخذناهُ مِن لَّدُنَّا إن كنَّا فَاعِلينَ﴾ و كقوله: ﴿لَوْ أرادَ اللهُ أن يتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخلُقُ مَا يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ﴾.

٨٩- و قوله تعالى: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ﴾ أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم، و لطفاً منّا بالخليقة ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بالنبوة، و يحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه

الأشياء الثلاثة: الكتاب و الحكم و النبوة، و قوله: ﴿هؤلاء﴾ يعني: أهل مكة. قاله ابن عباس و سعيد بن المسيب والضحاك و قتادة و السدي، و غير واحد ﴿فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ أي: إن يكفر بهذه النعم من كفرَ بها من قريش و غيرهم، من سائر أهل الأرض، من عرب و عجم، و مليين و كتابيين، فقد وكلنا بها قوماً آخرين، أي: المهاجرين و الأنصار، و أتباعهم إلى يوم القيامة ﴿ليسوا بها بكافرين﴾ أي: لا يجحدون منها شيئاً، و لا يردُّون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها، محكمها و متشابهها، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه وإحسانه.

٩٠- ثم قال تعالى مخاطباً عبده و رسوله محمداًﷺ: ﴿أولئك﴾ يعني الأنبياء المذكورين، مع مَن أُضيف إليهم من الآباء و الذرية و الإخوان، و هم الأشباه ﴿الذين هدى الله﴾ أي: هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿فبهداهم اقتده﴾ أي: اقتد و اتبع، و إذا كان هذا أمراً للرسولﷺ فأمته تَبعٌ له فيما يشرعه و يأمرهم به. و روى البخاري عند هذه الآية عن مجاهد أنه سأل ابن عباس: أفي ﴿ص﴾ سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا: ﴿وَ وَهَبْنَا لَهُ إسْحَاقَ وَيَعقُوبَ﴾ - إلى قوله - ﴿فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ ثم قال: هو منهم، زاد في رواية عن مجاهد، قلت لابن عباس فقال: نبيكمﷺ ممن أمر أنْ يقتدى بهم.

و قوله تعالى: ﴿قل لاَّ أسألكُمْ عليه أجراً﴾ أي: لا أطلب منكم، على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجراً، أي: أجرة و لا أريد منكم شيئاً ﴿إنْ هُوَ إلاَّ ذكْرَى للعَالِمينَ﴾ أي: يتذكرون به، فيرشدوا من العمى إلى الهدى، و من الغي إلى الرشاد، و من الكفر إلى الإيمان.

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) ﴾

٩١- يقول تعالى و ما عظّموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم. قال ابن عباس و مجاهد و عبد الله ابن كثير: نزلت في قريش. و اختاره ابن جرير، و قيل: نزلت في طائفة من اليهود. و الأول أصح، لأن الآية مكية، و اليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، و قريش و العرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمدﷺ، لأنه من البشر، كما قال: ﴿أكان للناس عَجباً أن أوحينا إلى رجُلٍ مِّنهمْ أنْ أنذرِ الناسَ﴾ و كقوله تعالى: ﴿وَ مَا منعَ النَّاسَ أن يُؤمِنُوا إذْ جاءَهُمُ الْهُدَى إلاَّ أن قَالُوا أبَعثَ اللهُ بشراً رَّسُولاً * قل لَوْ كانَ في الأرضِ ملائكةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عليهم مِّنَ السَّماءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾ و قال هنا: ﴿وَ مَا قَدَرُوا الله حقَّ قدرِهِ إذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِّن شَيءٍ﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أنْزَلَ الكِتابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نوراً وَ هُدَى لِّلنَّاسِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام، بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿مَنْ أنْزَلَ الكِتابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ و هو التوراة التي قد علمتم - و كل أحد - أن الله قد

أنزلها على موسى بن عمران نوراً و هدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، و يهتدى بها من ظلم الشبهات، وقوله: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها و تخفون كثيراً﴾ أي: تجعلون جملتها قراطيس، أي: قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي، الذي بأيديكم، و تُحرّفون منها ما تحرفون، و تُبدلون و تتأولون و تقولون هذا من عند الله، أي: في كتابه المنزل، و ما هو من عند الله، و لهذا قال: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها و تخفون كثيراً﴾.

و قوله تعالى: ﴿و علّمتم ما لم تعلموا أنتم و لا آباؤكم﴾ أي: و من أنزل القرآن الذي علّمكم الله فيه من خير ما سبق، و نبأ ما يأتي، ما لم تكونوا تعلمون ذلك، لا أنتم و لا آباؤكم، و قد قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب. و قال مجاهد: هذه للمسلمين. و قوله تعالى: ﴿قل الله﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: قل الله أنزله، و هذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معنى ﴿قل الله﴾ أي: لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة كلمة «الله» و هذا الذي قاله هذا القائل، يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب، و الإتيان بكلمة مفردة، لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها.

و قوله: ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ أي: ثم دعهم في جهلهم و ضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين، فسوف يعلمون ألهم العاقبة، أم لعباد الله المتقين؟.

٩٢- و قوله: ﴿و هذا كتاب﴾ يعني القرآن ﴿أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه و لتنذر أم القرى﴾ يعني مكة ﴿و من حولها﴾ من أحياء العرب، و من سائر طوائف بني آدم من عرب و عجم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ و قال: ﴿لأنذركم به و من بلغ﴾ و قال: ﴿و من يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ و قال: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ وقال: ﴿و قل للذين أوتوا الكتاب و الأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا و إن تولوا فإنما عليك البلاغ و الله بصير بالعباد﴾.

و ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أُعطيتُ خمساً لم يُعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي» و ذكر منهن «و كان النبي ﷺ يُبعثُ إلى قومه خاصة، و بُعث إلى الناس عامة». و لهذا قال: ﴿و الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ أي: كلُّ مَن آمن بالله و اليوم الآخر، يؤمن بهذا الكتاب المبارك، الذي أنزلناه إليك يا محمد، و هو القرآن ﴿و هم على صلاتهم يحافظون﴾ أي: يقومون بما فرض عليهم، من أداء الصلوات في أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾

٩٣- يقول تعالى: ﴿و من أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله،

فجعل له شركاء أو ولداً، أو ادّعى أن الله أرسله إلى الناس و لم يرسله، و لهذا قال تعالى: ﴿أو قالَ أوحِيَ إليَّ و لَمْ يُوحَ إليهِ شيءٌ﴾ قال عكرمة و قتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب ﴿و من قالَ سأُنزِلُ مِثْلَ ما أنزلَ اللهُ﴾ أي: ومَن ادّعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي، مما يفتريه من القول، كقوله تعالى: ﴿و إذا تُتْلَى عَلَيهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا﴾ الآية. قال الله تعالى: ﴿و لو تَرَى إذِ الظّالِمُونَ في غَمَراتِ المَوتِ﴾ أي: في سكراته و غمراته و كرباته ﴿و المَلائِكَةُ باسِطُوا أيديهِمْ﴾ أي: بالضرب، كقوله: ﴿لَئِن بَسَطتَ إلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ الآية، و قوله: ﴿يَبْسُطُوا إلَيكُمْ أيدِيَهُمْ وَ ألْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ﴾ الآية، و قال الضحاك و أبو صالح: ﴿باسِطُوا أيدِيهِمْ﴾ أي: بالعذاب، كقوله: ﴿و لَو تَرَى إذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا المَلائِكَةُ يَضرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أدبارَهُمْ﴾ و لهذا قال: ﴿و المَلائِكَةُ باسِطُوا أيدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب لهم حتى تخرجَ أنفسُهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: ﴿أخرِجُوا أنفُسَكُمْ﴾ و ذلك أن الكافر إذا احتضر بشَّرته الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال و السلاسل، و الجحيم و الحميم، و غضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحُه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم ﴿أخرِجُوا أنفُسَكُم اليَومَ تُجزَونَ عذابَ الهُونِ بِما تَقُولُونَ على اللهِ غَيرَ الحَقِّ﴾ الآية، أي: اليوم تُهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، و تستكبرون على اتباع آياته، و الانقياد لرسله.

و قد وردت الأحاديث المتواترة، في كيفية احتضار المؤمن و الكافر عند الموت، و هي مقررة عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثّابِتِ فِي الحياةِ الدُّنيا وَ فِي الآخِرَةِ﴾.

٩٤- و قوله: ﴿و لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾ أي: يُقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: ﴿وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئتُمُونا كَما خَلَقْناكُم أوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: كما بدأناكم أعدناكم، و قد كنتم تُنكرون ذلك و تستبعدونه، فهذا يوم البعث، و قوله: ﴿وَتَرَكْتُم مّا خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا، وراء ظهوركم، و ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي، و هل لك مِن مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدّقتَ فأمضيتَ، و ما سوى ذلك فذاهبٌ و تاركه للناس».

و قوله: ﴿وَ ما نَرَى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الذينَ زَعَمْتُمْ أنَّهُمْ فيكُمْ شُرَكاءُ﴾ تقريعٌ لهم و توبيخٌ، على ما كانوا اتخذوا في الدنيا، من الأنداد و الأصنام و الأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم و معادهم، إنْ كانَ ثَمَّ معاد، فإذا كان يوم القيامة تَقطَّعتْ بهم الأسباب، و انزاح الضلال، و ضلَّ عنهم ما كانوا يفترون، و يناديهم الربُّ جلَّ جلاله على رءوس الخلائق: ﴿أينَ شُرَكائِيَ الذينَ كُنتُمْ تَزعُمُونَ﴾ و قيل لهم: ﴿أينَ ما كُنتُمْ تعبُدونَ مِن دونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أوْ يَنتَصِرُونَ﴾ و لهذا قال هنا: ﴿و ما نَرَى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُم الذينَ زَعَمتُمْ أنَّهُمْ فيكُمْ شُرَكاءُ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسطٌ في استحقاق العبادة لهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قُرِئَ بالرفع، أي: شملكم، و بالنصب، أي: لقد تقطع ما بينكم من الأسباب، و الوصلات و الوسائل ﴿و ضَلَّ عَنكُمْ﴾ أي: ذهب عنكم ﴿ما كُنتُمْ تَزْعُمونَ﴾ من رجوى الأصنام والأنداد، كقوله تعالى: ﴿إذ تَبَرَّأ الذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا وَ رَأوُا العَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسبابُ ❁ وَ قالَ الذينَ اتَّبَعُوا لَوْ أنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنهُمْ كَما تَبَرَّأُوا مِنّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أعمالَهُمْ حسراتٍ علَيهِمْ و ما هُم بِخارِجِينَ

مِن النَّار﴾ و قال تعالى: ﴿فإذا نُفخ في الصُّور فلا أنساب بينهم يومئذٍ و لا يتساءلون﴾ و قال تعالى: ﴿إنَّما اتَّخذتم من دون الله أوثاناً مودَّة بينكم في الحياة الدُّنيا ثُمَّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النَّار وما لكم من نَّاصرين﴾ و قال: ﴿قيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ الآية، وقال: ﴿و يوم نحشرهم جميعاً ثُمَّ نقول للَّذين أشركوا﴾ إلى قوله: ﴿و ضلَّ عنهم مَّا كانوا يفترون﴾ و الآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) ﴾

٩٥- يخبر تعالى أنه فالق الحب و النوى، أي: يشقه في الثَّرى فتنبت منه الزروع، على اختلاف أصنافها من الحبوب، و الثمار على اختلاف ألوانها و أشكالها و طعومها من النوى، و لهذا فسَّر قوله: ﴿فالق الحبِّ والنَّوى﴾ بقوله ﴿يخرج الحيَّ من الميِّت ومخرج الميِّت من الحيِّ﴾ أي: يخرج النبات الحي من الحب و النوى، الذي هو كالجماد الميت، كقوله: ﴿و آية لَّهم الأرض الميتة أحييناها و أخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون﴾ إلى قوله: ﴿و من أنفسهم ممَّا لا يعلمون﴾ و قوله: ﴿و مخرج الميِّت من الحيِّ﴾ معطوف على ﴿فالق الحبِّ و النَّوى﴾ ثم فسَّره ثم عطف عليه قوله: ﴿و مخرج الميِّت من الحيِّ﴾ و قد عبروا عن هذا و هذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فَمِن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة و عكسه، و من قائل: يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه، و غير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية و تشملها.

ثم قال تعالى ﴿ذلكم الله﴾ أي: فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له: ﴿فأنَّى تؤفكون﴾ أي: كيف تُصرفون عن الحق، و تعدلون عنه إلى الباطل، فتعبدون معه غيره.

٩٦- و قوله: ﴿فالق الإصباح و جعل اللَّيل سكناً﴾ أي: خالق الضياء و الظلام، كما قال في أو ل السورة ﴿وجعل الظُّلمات و النُّور﴾ أي: فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، و يضمحل الظلام، و يذهب الليل بسواده و ظلام رواقه، و يجيء النهار بضيائه و إشراقه، كقوله: ﴿يغشي اللَّيل النَّهار يطلبه حثيثاً﴾ فبيّن تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة، الدالة على كمال عظمته و عظيم سلطانه، فذكر أنه فالق الإصباح، وقابل ذلك بقوله: ﴿و جعل اللَّيل سكناً﴾ أي: ساجياً مظلماً لتسكن فيه الأشياء، كما قال: ﴿و الضُّحى * و اللَّيل إذا سجى﴾ و قال: ﴿و اللَّيل إذا يغشى * و النَّهار إذا تجلَّى﴾ وقال: ﴿و النَّهار إذا جلَّاها * و اللَّيل إذا يغشاها﴾ و قال صهيب الرومي رضي الله عنه لامرأته و قد عاتبته في كثرة سهره: إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب، إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه، و إذا ذكر النار طار نومه. رواه ابن أبي حاتم.

و قوله: ﴿و الشَّمس و القمر حسباناً﴾ أي: يجريان بحساب مقنَّن مقدر، لا يتغير و لا يضطرب، بل

لكل منهما منازل يسلكها في الصيف و الشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل و النهار طولاً و قصراً، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ الآية، و كما قال: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ و قال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾. و قوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: الجميع جار بتقدير ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يمانع و لا يخالف، ﴿الْعَلِيمِ﴾ بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء، و كثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار و الشمس و القمر، يختم الكلام بالعزة و العلم، كما ذكر في هذه الآية، و كما في قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ولما ذكر خلق السموات و الأرض و ما فيهن في أول سورة «حم السجدة»، قال: ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

٩٧- و قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث، فقد أخطأ، و كذَبَ على الله سبحانه: أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات البر و البحر. و قوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ﴾ أي: قد بيّناها ووضّحناها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعقلون و يعرفون الحق، و يتجنبون الباطل.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾

٩٨- يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني آدم عليه السلام، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ و قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ اختلفوا في معنى ذلك، فعن ابن مسعود و ابن عباس و أبي عبد الرحمن السلمي و قيس بن أبي حازم و مجاهد و عطاء و إبراهيم النخعي و الضحاك و قتادة و السدي و عطاء الخراساني و غيرهم ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أي: في الأرحام، قالوا: أو أكثرهم ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي: في الأصلاب، و عن ابن مسعود و طائفة عكسه، وعن ابن مسعود أيضاً و طائفة: فمستقر في الدنيا، مستودع حيث يموت، و قال سعيد بن جبير: فمستقر في الأرحام، و على ظهر الأرض و حيث يموت، وقال الحسن البصري: المستقر الذي قد مات فاستقر به عمله، وعن ابن مسعود: ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في الدار الآخرة، و القول الأول أظهر، و الله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون و يعون كلام الله و معناه.

٩٩- و قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: بقدر مباركاً و رزقاً للعباد، و إحياء و غياثاً للخلائق، رحمة من الله بخلقه ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ﴾. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً﴾ أي: زرعاً و شجراً أخضر، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر، و لهذا قال تعالى:

﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً﴾ أي: يركب بعضه بعضاً، كالسنابل و نحوها ﴿وَ مِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي: جمع «قنو» و هي عذوق الرطب ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة من المتناول، كما قال علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس ﴿قِنوانٌ دَانِيةٌ﴾ يعني بالقنوان الدانية: قصار النخل، اللاصقة عذوقها بالأرض. رواه ابن جرير.

و قوله تعالى: ﴿و جَنَّاتٍ مِّنْ أعْنَابٍ﴾ أي: و نخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز، و ربما كانا خيار الثمار في الدنيا، كما امتن الله بهما على عباده، في قوله تعالى: ﴿ومِن ثَمراتِ النَّخِيلِ وَ الأعْنابِ تَتَّخِذونَ مِنهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً﴾ و كان ذلك قبل تحريم الخمر، و قال: ﴿وَجعلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَ أعْنابٍ﴾ و قوله تعالى: ﴿وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَيرَ مُتَشابِهٍ﴾ قال قتادة وغيره: متشابه في الورق و الشكل، قريب بعضه من بعض، و متخالف في الثمار شكلاً و طعماً و طبعاً.

و قوله: ﴿انظُرُوا إلَى ثَمَرِهِ إذَا أثْمَرَ وَ يَنعِهِ﴾ أي: نضجه، قاله البراء بن عازب و ابن عباس و الضحاك وعطاء الخراساني و السدي و قتادة و غيرهم، أي: فكّروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حطباً صار عنباً و رطباً، و غير ذلك مما خلق سبحانه و تعالى، من الألوان و الأشكال والطعوم و الروائح، كقوله تعالى: ﴿وَ في الأرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَّاتٌ مِّنْ أعْنَابٍ وَ زَرعٌ وَ نَخيلٌ صِنوَانٌ وَ غيرُ صِنوانٍ يُسقَى بِمَاءٍ وَاحدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعضَهَا عَلَى بَعضٍ في الأُكُلِ﴾ الآية، و لهذا قال ههنا: ﴿إنَّ في ذَلِكُمْ﴾ أيها الناس ﴿لآيَاتٍ﴾ أي: دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء، و حكمته و رحمته ﴿لِقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ أي: يصدقون به، ويتبعون رسله.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)﴾

١٠٠- هذا ردٌّ على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، و أشركوا به في عبادته، أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة، تعالى الله عن شركهم و كفرهم. فإن قيل: فكيف عُبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن، و أمرهم إياهم بذلك، كقوله: ﴿إن يَدعُونَ مِن دُونِهِ إلاّ إنَاثاً وَ إن يَدعُونَ إلاّ شَيطَاناً مَّرِيداً* لَعَنَهُ اللهُ وَ قَالَ لأتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَّفرُوضاً* وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأنْعَامِ وَ لآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَ مَن يَتَّخِذِ الشَّيطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسرَاناً مُّبِيناً* يَعِدُهُمْ و يُمَنِّيهِمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيطَانُ إلاّ غُرُوراً﴾ و كقوله تعالى: ﴿أفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أولِياءَ مِن دُونِي﴾ الآية، و قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أبتِ لاَ تَعبُدِ الشَّيطانَ إنَّ الشَّيطانَ كانَ لِلرَّحمنِ عَصِيّاً﴾ وكقوله: ﴿ألَمْ أعْهَدْ إلَيكُمْ يَا بَنِي آدمَ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيطانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ* وَ أنِ اعبُدُونِي هَذَا صِراطٌ مُّستَقِيمٌ﴾ و تقول الملائكة يوم القيامة ﴿سُبحانَكَ أنتَ وَلِيُّنا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعبُدونَ الْجِنَّ أكثَرُهُمْ بِهِم مُّؤمِنُونَ﴾.

و لهذا قال تعالى: ﴿وَ جَعلُوا للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: و قد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يُعبد معه غيره؟! كقول إبراهيم ﴿أتعبُدونَ مَا تَنحِتُونَ* وَ اللهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعمَلُونَ﴾ و معنى الآية أنه سبحانه و تعالى هو المستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

و قوله تعالى: ﴿وخرقوا له بنين و بنات بغير علم﴾ يُنبّه به تعالى على ضلال من ضَلَّ في وصفه تعالى، بأن له ولداً، كما يزعم من قاله من اليهود في عزير، و من قال من النصارى في عيسى، و من قال من مشركي العرب في الملائكة أنها بنات الله ﴿تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً﴾ و معنى ﴿خرقوا﴾ أي: اختلفوا وائتفكوا وتخرّصوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿و خرقوا﴾ يعني: تخرَّصوا، و قال العوفي عنه: كذبوا، و كذا قال الحسن، و قال الضحاك: و ضعوا، و قال السدي: قطعوا.

قال ابن جرير: و تأويله إذاً: و جعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياهم، و هو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين و لا ظهير ﴿و خرقوا له بنين و بنات بغير علم﴾ بحقيقة ما يقولون، و لكن جهلاً بالله وبعظمته، فإنه لا ينبغي لمن كان إلهاً أن يكون له بنون و بنات، و لا صاحبة، و لا أن يشركه في خلقه شريك.

و لهذا قال: ﴿سبحانه و تعالى عما يصفون﴾ أي: تقدس و تنزّه و تعاظم، عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون، من الأولاد و الأنداد، و النظراء و الشركاء.

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ﴾

١٠١ - ﴿بديع السموات و الأرض﴾ أي: مبدعهما و خالقهما و منشئهما و محدثهما على غير مثال سبق، كما قال مجاهد و السدي، و منه سُميت البدعة بدعة، لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿أنى يكون له ولد﴾ أي: كيف يكون له ولد ﴿و لم تكن له صاحبة﴾ أي: و الولد إنما يكون متولّداً بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه، لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له و لا ولد، كما قال تعالى: ﴿و قالوا اتخذ الرحمن ولداً ۝ لقد جئتم شيئاً إداً﴾ إلى قوله: ﴿و كلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾.

﴿و خلق كل شيء و هو بكل شيء عليم﴾ فبيَّن تعالى أنه الذي خلق كل شيء، و أنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه، و هو الذي لا نظير له، فأنى يكون له ولد تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا.

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾

١٠٢ - يقول تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي: الذي خلق كل شيء، و لا ولد له و لا صاحبة ﴿لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه﴾ أي: فاعبدوه وحده لا شريك له، و أقروا له بالوحدانية، و أنه لا إله إلا هو، و أنه لا ولد له و لا والد، و لا صاحبة له، ولا نظير و لا عديل ﴿و هو على كل شيء وكيل﴾ أي: حفيظ و رقيب، يدبّر كل ما سواه، و يرزقهم و يكلأهم بالليل والنهار.

١٠٣ - و قوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف (أحدها): لا تدركه في الدنيا، و إن كانت تراه في الآخرة، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح و المسانيد

والسنن، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: مَنْ زعمَ أن محمداً أبصر ربه فقد كذب، و في رواية: على الله، فإن الله تعالى قال: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ رواه ابن أبي حاتم. وثبت في الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه، و خالفها ابن عباس، فعنه: إطلاق الرؤية، و عنه: أنه رآه بفؤاده مرتين، والمسئلة تُذكر في أول سورة النجم إن شاء الله، وقال ابن أبي حاتم: ذكر محمد بن مسلم بسنده عن إسماعيل بن عُليَّة في قول الله ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: هذا في الدنيا، قال: و ذكر أبي عن هشام بن عبد الله أنه قال نحو ذلك.

و قال آخرون: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي: جميعها، و هذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة، و قال آخرون من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من الآية: أنه لا يرى في الدنيا و لا في الآخرة!

فخالفوا أهل السنة و الجماعة في ذلك، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دلَّ عليه كتاب الله و سنة رسوله.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ و قال تعالى عن الكافرين ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ قال الإمام الشافعي: فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك و تعالى.

و أما السنة: فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد و أبي هريرة و أنس و جرير و صهيب و بلال، و غير واحد من الصحابة، عن النبيﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العَرَصَات، و في روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه و كرمه، آمين.

و قال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية و نفي الإدراك، فإنَّ الإدراك أخص من الرؤية، و لا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ماهو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو، و إنْ رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر، فإنه لا يدركه حقيقته و كنهه و ماهيته، فالعظيم أولى بذلك و له المثل الأعلى.

و قال آخرون: الإدراك أخص من الرؤية، و هو الإحاطة، قالوا: و لا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من إحاطة العلم، عدم العلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ و في صحيح مسلم: «لا أُحْصِي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك». و لا يلزم منه عدم الثناء، فكذلك هذا.

و روى ابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قيل له: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ قال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكلها ترى؟ وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في الآية ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: هو أعظم من أن تدركه الأبصار.

و روى ابن جرير عن عطية العوفي في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: هم ينظرون إلى الله، لا تحيط أبصارهم به من عظمته، و بصره محيط بهم، فذلك قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

و قال آخرون في الآية: بما رواه الترمذي و ابن أبي عاصم عن عكرمة يقول: سمعت ابن عباس يقول: رأى محمدٌ ربه تبارك و تعالى، فقلت: أليس الله يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ الآية؟ فقال لي: لا أمَّ لك، ذلك نوره الذي هو نوره، إذا تجلَّى بنوره لا يدركه شيء. و في رواية: لا يقوم له شيء، قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، و في معنى هذا الأثر ما ثبت في الصحيحين: من حديث

أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً: «إنَّ الله لا ينام، و لا ينبغي له أن ينام، يخفضُ القِسط و يرفعه، يُرفع إليه عملُ النهار قبل الليل، و عملُ الليل قبل النهار، حجابه النور ـ أو النار ـ لو كَشَفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». و في الكتب المتقدمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات، و لا يابس إلا تدهده، أي: تدعثر، و قال تعالى: **﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبحانَكَ تُبْتُ إِلَيكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾**.

و نفي هذا الأثر الإدراك الخاص، لا ينفي الرؤية يوم القيامة، يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء. فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى و تقدس و تنزه، فلا تدركه الأبصار، و لهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تُثبت الرؤية في الدار الآخرة، و تنفيها في الدنيا، و تحتج بهذه الآية **﴿لاَ تُدرِكُهُ الأَبْصَارُ و هُوَ يُدرِكُ الأَبصَارَ﴾** فالذي نَفَته الإدراك، الذي هو بمعنى رؤية العظمة و الجلال على ما هو عليه، فإن ذلك غير ممكن للبشر، و لا للملائكة، و لا لشيء.

و قوله: **﴿و هُوَ يُدرِكُ الأَبصَارَ﴾** أي: يُحيط بها، و يَعْلَمها على ما هي عليه، لأنه خلقها كما قال تعالى: **﴿أَلاَ يَعلَمُ مَنْ خلقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** و قد يكون عبّرَ بالأبصار عن المبصرين، كما قال السدي في قوله: **﴿لاَ تُدرِكُهُ الأَبْصَارُ و هُوَ يُدرِكُ الأَبصَارَ﴾** لا يراه شيء، وهو يرى الخلائق.

و قال أبو العالية في قوله تعالى: **﴿وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** قال: اللطيف لاستخراجها، الخبير بمكانها، و الله أعلم. و هذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وَعَظَ به ابنه **﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمواتِ أَوْ فِي الأَرضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾**.

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥)﴾

١٠٤ ـ البصائر: هي البينات و الحجج التي اشتمل عليها القرآن، و ما جاء به الرسول ﷺ **﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفسِهِ﴾** كقوله: **﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفسِهِ وَ مَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيهَا﴾** و لهذا قال: **﴿وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيهَا﴾** لما ذكر البصائر قال: **﴿وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيهَا﴾** أي: إنما يعود وباله عليه، كقوله: **﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعمَى الأَبْصَارُ وَ لكِن تَعمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾**. **﴿وَ مَا أَنَا عَلَيكُم بِحَفِيظٍ﴾** أي: بحافظ و لا رقيب، بل إنما أنا مبلغ و الله يهدي من يشاء و يضل من يشاء.

١٠٥ ـ و قوله: **﴿و كَذلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾** أي: و كما فصلنا الآيات في هذه السورة، من بيان التوحيد، و أنه لا إله إلا هو، هكذا نوضّح الآيات و نفسرها و نبينها في كل موطن، لجهالة الجاهلين، و ليقول المشركون والكافرون المكذبون: دارست يا محمد، مَنْ قبلك من أهل الكتاب، و قارأتهم و تعلمت منهم، هكذا قاله ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبير و الضحاك و غيرهم. و هذا كقوله تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم **﴿وَ قَالَ الذينَ كفَرُوا إِنْ هذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيهِ قَومٌ آخَرونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَ زُوراً * وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾** الآية، و قال تعالى إخباراً عن زعيمهم و كاذبهم: **﴿إنه فَكَّرَ وَ قَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ و بَسَرَ * ثُمَّ أَدبَرَ و استَكبَرَ * فَقَالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحرٌ يُؤثَرُ * إِنْ هذَا إِلاَّ قَولُ**

البشر﴾.

و قوله: **﴿و لنبينه لقوم يعلمون﴾** أي: و لنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، و الباطل فيجتنبونه، فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، و بيان الحق لهؤلاء، كقوله تعالى: **﴿يضل به كثيراً و يهدي به كثيراً﴾** الآية، و كقوله: **﴿ليجعل مايلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم و إن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾** و قال تعالى: **﴿و ما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة و ما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب و يزداد الذين آمنوا إيماناً و لا يرتاب الذين أوتوا الكتاب و المؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض و الكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء و يهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾** و قال **﴿و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾** وقال تعالى: **﴿قل هو للذين آمنوا هدى و شفاء و الذين لا يؤمنون في آذانهم وقر و هو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾** إلى غير ذلك من الآيات، الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، و أنه يضل به من يشاء و يهدي به من يشاء، و لهذا قال ههنا: **﴿و كذلك نصرف الآيات و لنبينه لقوم يعلمون﴾** و قرأ بعضهم: **﴿و ليقولوا دَرَستَ﴾** قال التميمي عن ابن عباس **﴿دَرَستَ﴾** أي: قرأت و تعلمت، و كذا قال مجاهد و السدي و الضحاك و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و غير واحد. و روى عبد الرزاق عن الحسن **﴿و ليقولوا دَرَسَتْ﴾** يقول: تقادمت وانمحت. وروى عبد الرزاق عن ابن الزبير يقول: إن صبياناً يقرأون ههنا: **﴿دَارَسْتَ﴾** و إنما هي: **﴿دَرَسْتَ﴾** وقال شعبة حدثنا أبو إسحاق الهمداني قال: هي في قراءة ابن مسعود. قال ابن جرير: و معناه: انمحت و تقادمت، أي: أن هذا الذي تتلوه علينا، قد مرَّ بنا قديماً، و تطاولت مدته. وعن قتادة أنه قرأها: **﴿دُرِسَتْ﴾** أي: قُرِئت و تُعلِّمت.

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) ﴾

١٠٦- يقول تعالى آمراً لرسولهﷺ و لمن اتبع طريقته: **﴿اتبع ما أوحي إليك من ربك﴾** أي: اقتد به واقتف أثره، و اعمل به، فإنّ ما أوحي إليك من ربك، هو الحق الذي لا مرية فيه، لأنه لا إله إلا هو **﴿وأعرض عن المشركين﴾** أي: اعف عنهم و اصفح، و احتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك، و ينصرك و يظفرك عليهم، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعاً، ولو شاء لجمعهم على الهدى.

١٠٧- **﴿و لو شاء الله ما أشركوا﴾** أي: بل له المشيئة و الحكمة فيما يشاؤه و يختاره، لا يسأل عما يفعل و هم يسألون. و قوله تعالى: **﴿و ما جعلناك عليهم حفيظاً﴾** أي: حافظاً تحفظ أقوالهم و أعمالهم **﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾** أي: موكَّل على أرزاقهم و أمورهم، إنْ عليك إلا البلاغ، كما قال تعالى: **﴿فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر﴾** و قال: **﴿إنما عليك البلاغ و علينا الحساب﴾**.

﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾

١٠٨- يقول الله تعالى ناهياً لرسولهﷺ و المؤمنين، عن سبِّ آلهة المشركين، و إنْ كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، و هي مقابلة المشركين بسبب إله المؤمنين، وهو ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: قالوا يا محمد لَتَنتهينَّ عن سبك آلهتنا، أو لنهجونَّ ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ روى عبد الرزاق عن قتادة نحوه.

و من هذا القبيل، و هو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها، ما جاء في الصحيح: أن رسول اللهﷺ قال: «ملعونٌ مَنْ سبَّ والديه» قالوا: يا رسول الله، و كيف يسبُّ الرجل والديه؟ قال: «يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، و يسبُّ أمه فيسبُّ أُمَّهُ» أو كما قالﷺ.

و قوله: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: و كما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم، و المحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة، أي: من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، و لله الحجة البالغة، و الحكمة التامة، فيما يشاؤه و يختاره ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ أي: معادهم و مصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يجازيهم بأعمالهم، إنْ خيراً فخير، و إنْ شراً فشر.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾

١٠٩- يقول تعالى إخباراً عن المشركين، أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيماناً مؤكَّدة ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ أي: معجزة و خارق ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي: ليصدقنها ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات، تعنتاً و كفراً و عناداً، لا على سبيل الهدى و الاسترشاد، إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء جاءكم بها، و إن شاء ترككم.

و قال الله تعالى: ﴿وَ مَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ الآية. و قوله تعالى: ﴿وَ مَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ قيل المخاطب بما يشعركم: المشركون، و إليه ذهب مجاهد، كأنه يقول لهم: و ما يدريكم بصدقهم في هذه الأيمان التي تُقسمون بها. و على هذا فالقراءة ﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بكسر «إنَّ» على أنها على استئناف الخبر عنهم، بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها، و قرأ بعضهم ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ تُؤْمِنُونَ﴾ بالتاء المثناة من فوق، و قيل المخاطب بقوله: ﴿وَ مَا يُشْعِرُكُمْ﴾ المؤمنون، يقول: و ما يدريكم أيها المؤمنون، و على هذا فيجوز في قوله: ﴿أَنَّهَا﴾ الكسر كالأول، و الفتح على أنها معمول يشعركم، وعلى هذا فتكون «لا» في قوله: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ صلة، كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ وقوله: ﴿و حَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك، وحرام أنهم يرجعون، وتقديره في هذه الآية: و ما يدريكم ـ أيها المؤمنون الذين تودّون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم ـ أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون.

١١٠- و قوله تعالى: ﴿وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله، لَمْ تَثْبتْ قلوبهم على شيء، و رُدَّت عن كل أمر. وقال

مجاهد في قوله: ﴿وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ﴾: و نحول بينهم و بين الإيمان، و لو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم و بين الإيمان أول مرة. و كذا قال عكرمة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. و قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، و عملهم قبل أن يعملوه، وقال: ﴿و لاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ جل و علا، و قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ ـ إلى قوله ـ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبر الله سبحانه: أنهم لو رُدوا لم يقدروا على الهدى، و قال: ﴿وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ و قال تعالى: ﴿وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال: ولو ردوا إلى الدنيا، لحيل بينهم و بين الهدى، كما حلنا بينهم و بينه أول مرة و هم في الدنيا.

و قوله: ﴿وَ نَذَرُهُمْ﴾ أي: نتركهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ قال ابن عباس و السدي: في كفرهم، و قال أبو العالية و الربيع بن أنس و قتادة: في ضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال الأعمش: يلعبون، و قال ابن عباس و مجاهد وأبو العالية و الربيع و أبو مالك و غيره: في كفرهم يترددون.

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾

١١١ - يقول تعالى: و لو أننا أجبنا سؤال هؤلاء، الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم، لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، فنزلنا عليهم الملائكة، تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، كما سألوا فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَ الْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ ﴿وَ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾ ﴿و قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْ لاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَ عَتَوا عُتُوّاً كَبِيراً﴾.

﴿وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوتَى﴾ أي: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿وَ حَشَرْنَا عَلَيهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً﴾ قرأ بعضهم: قِبلاً بكسر القاف و فتح الباء، من المقابلة و المعاينة، و قرأ آخرون بضمهما، قيل معناه: من المقابلة والمعاينة أيضاً، كما رواه علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس، و به قال قتادة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. و قال مجاهد ﴿قُبُلاً﴾: أي: أفواجاً، قبيلاً قبيلاً، أي: تعرض عليهم كل أمة بعد أمة، فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ أي: إن الهداية إليه لا إليهم، بل يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، و هو الفعَّال لما يريد ﴿لا يُسأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسأَلُونَ﴾ لعلمه و حكمته، و سلطانه وقهره وغلبته. و هذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَ لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾

١١٢ - يقول تعالى: و كما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك و يعادونك و يعاندونك، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء، فلا يحزنك ذلك، كما قال تعالى: ﴿و لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو

عِقابٍ أليم﴾ و قال تعالى: ﴿وكذلِكَ جعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الآية. و قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: إنَّه لم يأتِ أحدٌ بمثل ما جئت به، إلا عُودي. و قوله: ﴿شَياطِينَ الإنسِ و الجِنِّ﴾ بدل من ﴿عَدُوّاً﴾ أي: لهم أعداء من شياطين الإنس و الجن، و الشياطين: كل من خرج عن نظيره بالشر، و لا يعادى الرسل إلا الشياطين، من هؤلاء و هؤلاء، قبحهم الله و لعنهم. روى عبد الرزاق عن قتادة في قوله: ﴿شَياطِينَ الإنسِ والجِنِّ﴾ قال: من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين، يُوحي بعضهم إلى بعض، كما روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أتيت النبي ﷺ و هو في المسجد فجلست، فقال: «يا أبا ذر هل صليت؟» قلت: لا، قال: «قم فصل» قال: فقمت فصليت، ثم جلست فقال: «يا أبا ذر، تَعَوَّذْ بالله من شر شياطين الإنس و الجن» قال: قلت: يا رسول الله و للإنس شياطين؟ فقال: «نعم» و ذكر تمام الحديث بطوله، و كذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه و ابن جرير من طريق أخرى، وابن أبي حاتم عن أبي أمامة. فهذه طرق لهذا الحديث و مجموعها يفيد قوته وصحته، و الله أعلم. و عن عكرمة في قوله: ﴿يُوحِي بَعضُهُمْ إِلَى بَعضٍ﴾. أما شياطين الإنس: فالشياطين التي تُضل الإنس، و شياطين الجن: التي تضل الجن، يلتقيان فيقول كل واحد منهما لصاحبه: أني أضللت صاحبي بكذا و كذا، فأضلَّ أنتَ صاحبك بكذا و كذا، فيُعَلِّم بعضهم بعضاً، فهم ابن جرير من هذا: أن المراد بشياطين الإنس عند عكرمة و السدي: الشياطين الجن الذين يضلون الناس، لأن المراد منه شياطين الإنس منهم، و لا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة، و أما كلام السدي فليس مثله في هذا المعنى و هو محتمل. وقد روى ابن أبي حاتم نحو هذا عن ابن عباس من رواية الضحاك عنه، و على كل حال، فالصحيح ما تقدم من حديث أبي ذر: إن للإنس شياطين منهم، و شياطين كل شيء مَارده، و لهذا جاء في صحيح مسلم: عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «الكلبُ الأسودُ شيطان» و معناه ـ و الله أعلم ـ شيطان في الكلاب.

و روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: قدمت علي المختار فأكرمني و أنزلني، حتى كاد يتعاهد مبيتي بالليل، قال فقال لي: اخرج إلى الناس فحدثهم، قال فخرجت فجاء رجل فقال: ما تقول في الوحي؟ فقلت: الوحي وحيان، قال الله تعالى ﴿بِمَا أَوْحَينا إِلَيكَ هَذا القُرآنَ﴾ و قال تعالى: ﴿شَياطِينَ الإنسِ و الجِنِّ يُوحِي بَعضُهُمْ إِلَى بَعضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾ قال: فهمُّوا بي أن يأخذوني، فقلت لهم: مالكم ذاك إني مفتيكم وضيفكم، فتركوني. و إنما عرَّض عكرمة بالمختار، و هو ابن أبي عبيد قبّحه الله، و كان يزعم أنه يأتيه الوحي، و قد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر، و كانت من الصالحات، و لما أُخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يُوحى إليه، قال: صدق، قال الله تعالى: ﴿و إِنَّ الشَّياطِينَ لَيوحُونَ إِلَى أَوْلِيائِهِمْ﴾.

و قوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعضُهُمْ إِلَى بَعضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾ أي: يُلقي بعضهم إلى بعض القول المزيَّن المزخرف، و هو: المزوَّق، الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره ﴿و لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: و ذلك كله بقدر الله و قضائه، و إرادته و مشيئته، أن يكون لكل نبي عدوّ من هؤلاء ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: فدعهم ﴿وَ مَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون، أي دع أذاهم، و توكل على الله في عداوتهم، فإن الله كافيك و ناصرك عليهم.

١١٣ - و قوله تعالى: ﴿و لِتَصْغَى إِلَيهِ﴾ و لتميل إليه. قاله ابن عباس: ﴿أَفئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي: قلوبهم و عقولهم و أسماعهم. و قال السدي: قلوب الكافرين ﴿و لِيَرضَوْهُ﴾ أي: يحبوه ويريدوه، و إنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى ﴿فإِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ ۞ مَا أَنتُمْ عَلَيهِ

بفائتين * إلاّ من هو صال الجحيم﴾ و قال تعالى: ﴿إنكم لفي قول مختلف * يؤفك عنه من أفك﴾.

و قوله: ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: و ليكتسبوا ما هم مكتسبون. و قال السدي و ابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون.

﴿ ولتصغىٰ إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون (١١٣) أفغير الله أبتغي حكمًا وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين (١١٤) وتمت كلمت ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم (١١٥) ﴾

١١٤- يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله غيره، الذين يعبدون غيره ﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ أي: بيني و بينكم ﴿و هو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ أي: مبيناً ﴿و الذين آتيناهم الكتاب﴾ أي: من اليهود و النصارى ﴿يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾، أي: بما عندهم من البشارات بك، من الأنبياء المتقدمين ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ كقوله ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ و هذا شرط، و الشرط لا يقتضي وقوعه، و لهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أشك و لا أسأل»(١).

١١٥- و قوله تعالى: ﴿و تمت كلمة ربك صدقاً و عدلاً﴾ قال قتادة: صدقاً فيما قال، و عدلاً فيما حكم. يقول صدقاً في الأخبار، و عدلاً في الطلب، فكل ما أخبره به فحق، لا مرية فيه و لا شك، و كل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، و كل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسده، كما قال تعالى: ﴿يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر﴾ إلى آخر الآية ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي: ليس أحد يعقّب حكمه تعالى، لا في الدنيا و لا في الآخرة ﴿و هو السميع﴾ لأقوال عباده ﴿العليم﴾ بحركاتهم و سكناتهم، الذي يُجازي كل عامل بعمله.

﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون (١١٦) إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١١٧) ﴾

١١٦- يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم، أنه الضلال، كما قال تعالى: ﴿و لقد ضل قبلهم أكثر الأولين﴾ و قال تعالى: ﴿و ما أكثر الناس و لو حرصت بمؤمنين﴾ و هم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، و إنما هم في ظنون كاذبة، و حُسْبان باطل ﴿إن يتبعون إلا الظن و إن هم إلا يخرصون﴾ فإن الخَرْص: هو الحَزْر، و منه خَرْص النخل: و هو حزر ما عليها من التمر، و ذلك كله عن قدر الله و مشيئته.

١١٧- و ﴿هو أعلم من يضل عن سبيله﴾ فييسره لذلك ﴿و هو أعلم بالمهتدين﴾ فييسرهم لذلك، وكلٌّ ميسر لما خُلِقَ له.

﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين (١١٨) وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله

(١) رواه ابن جرير (١٥/ ٢٠٢) عن قتادة مرسلاً، و انظر الدرر المنثور (٤/ ٣٨٩). و رواه عن سعيد بن جبير بلفظ: ما شك و ما سأل. و نحوه عن الحسن.

عليه وقد فصّل لكم مّا حرّم عليكم إلاّ ما اضطررتم إليه وإنّ كثيراً لّيضلّون بأهوائهم بغير علم إنّ ربّك هو أعلم بالمعتدين (١١٩) ﴾

١١٨ – هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذُكر عليه اسمه، و مفهومه: أنه لا يباح مالم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار قريش، من أكل الميتات، و أكل ما ذُبح على النُّصب وغيرها.

١١٩ – ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَن لاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قد بيّن لكم ما حرّم عليكم و وضّحه، و قرأ بعضهم ﴿فصّل﴾ بالتشديد، و قرأ آخرون بالتخفيف، و الكل بمعنى البيان و الوضوح ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلا في حال الاضطرار فإنه يباح لكم ما وجدتم. ثم بيّن تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة، من استحلالهم الميتات، و ما ذكر عليه غير اسم الله تعالى، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم باعتدائهم و كذبهم و افترائهم.

﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه إنّ الّذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون (١٢٠) ﴾

١٢٠ – قال مجاهد ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ معصيته في السر و العلانية. و في رواية عنه: هو ما ينوي مما هو عامل. و قال قتادة: أي: سره و علانيته، قليله و كثيره، و قال السدي: ظاهره الزنا مع البغايا ذوات الرايات، و باطنه الزنا مع الخليلة و الصدائق و الأخدان. و قال عكرمة: ظاهره نكاح ذوات المحارم. والصحيح: أن الآية عامة في ذلك كله، و هي كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الآية. و لهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ أي: سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه. و روى ابن أبي حاتم: عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال: «الإثمُ ماحاكَ في صدرك، و كرهتَ أن يطّلعَ الناسُ عليه».

﴿ ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه وإنّه لفسق وإنّ الشّياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنّكم لمشركون (١٢١) ﴾

١٢١ – استدل بهذه الآية الكريمة: من ذَهبَ إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يُذكر اسم الله عليها، و إن كان الذابح مسلماً، و قد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، و سواء متروك التسمية عمداً أو سهواً، و هو مروي عن ابن عمر، و نافع مولاه و عامر الشعبي ومحمد بن سيرين، و هو رواية عن الإمام مالك، و رواية عن أحمد بن حنبل، نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين و المتأخرين، و هو اختيار أبي ثور و داود الظاهري، و اختار ذلك أبو الفتوح من متأخري الشافعية.

و احتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، و بقوله في آية الصيد ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ﴾ ثم قد أكد في هذه الآية بقوله ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ و الضمير قيل: عائد على الأكل، و قيل: عائد على الذبح

لغير الله، و بالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة و الصيد، كحديثي عدي بن حاتم و أبي ثعلبة: «إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم، وذكرتَ اسم الله عليه، فكُل ما أمسك عليك» و هما في الصحيحين، و حديث رافع بن خديج: «ما أنهرَ الدم، و ذُكر اسمُ الله عليه فكلوه» و هو في الصحيحين أيضاً، و حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن «لكم كل عَظم ذُكر اسم الله عليه» رواه مسلم. و عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً قالوا: يا رسول الله، إنَّ قوماً يأتوننا باللحم، لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سَمُّوا عليه أنتم وكلوا» قالت: و كانوا حديثي عهد بالكفر، رواه البخاري. و وجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، و خشوا أن لا تكون وُجدت من أولئك لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح، إن لمْ تكن وُجدت، و أمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد، و الله أعلم.

و المذهب الثاني في المسألة: أنه لا يُشترط التسمية، بل هي مستحبة، فإنْ تركها عمداً أو نسياناً لا يضر، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله و جميع أصحابه، و رواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل، وهو رواية عن الإمام مالك، و نص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه، و حُكي عن ابن عباس و أبي هريرة وعطاء بن أبي رباح، و الله أعلم. و حمل الشافعي الآية الكريمة **﴿وَ لاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيهِ وَ إِنَّهُ لَفِسقٌ﴾** على ما ذُبح لغير الله، كقوله تعالى: **﴿أَو فِسقاً أُهِلَّ لِغَيرِ اللهِ بِهِ﴾** و قال ابن جريج عن عطاء **﴿و لاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيهِ﴾** قال: يَنهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان، و يَنهى عن ذبائح المجوس. و هذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي قوي. و روى الدارقطني عن ابن عباس أنه قال: «إذا ذَبَح المسلم و لم يَذكر اسم الله، فليأكل، فإنَّ المسلم فيه اسم من أسماء الله». و احتج البيهقي أيضاً بحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم: أن ناساً قالوا: يا رسول الله إن قوماً حديثي عهد بجاهلية، يأتوننا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه، أم لا؟ فقال: «سَمُّوا أنتم و كلوا» قالوا: فلو كان وجود التسمية شرطاً، لم يُرخِّص لهم إلا مع تحققها، و الله أعلم.

المذهب الثالث في المسألة: إنْ تركَ البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر، و إنْ تركها عمداً لم تحل، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك و أحمد بن حنبل، و به يقول أبو حنيفة و أصحابه، و إسحق بن راهويه، و هو محكي عن علي و ابن عباس و سعيد بن المسيب و عطاء و طاوس و الحسن البصري و أبي مالك و عبد الرحمن بن أبي ليلى و جعفر بن محمد و ربيعة بن أبي عبد الرحمن، و قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: مَنْ حرَّمَ ذبيحة الناسي، فقد خرج من قول جميع الحجة، و خالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك. يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «المسلم يكفيه اسمه إنْ نسي أن يُسمى حين يذبح فليذكر اسم الله و ليأكل» و هذا الحديث رفعه خطأ، (والموقوف) أصح، نص عليه البيهقي و غيره من الحفاظ. ثم نقل ابن جرير و غيره عن الشعبي و محمد بن سيرين أنهما: كرها متروك التسمية نسياناً. و السلف يُطلقون الكراهة على التحريم كثيراً، و الله أعلم، إلا أن من قاعدة ابن جرير، أنه لا يعتبر قول الواحد و لا الاثنين، مخالفاً لقول الجمهور، فيعده إجماعاً، فليُعلم هذا، و الله الموفق.

و احتج لهذا المذهب، بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه: عن ابن عباس و أبي هريرة و أبي ذر

وعقبة بن عامر و عبد الله بن عمرو: عن النبيﷺ: «إن الله وَضَع عن أمتي الخطأ و النسيان و ما استكرهوا إليه» و فيه نظر، و الله أعلم.

قال ابن جرير: و قد اختلف أهل العلم في هذه الآية، هل نُسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم يُنسخ منها شيء، و هي محكمة فيما عنيت به، و على هذا قول مجاهد و عامة أهل العلم، و روي عن الحسن البصري و عكرمة قالا: قال الله: **﴿فكلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليه إن كُنتُمْ بآياتِهِ مُؤمنِينَ﴾** و قال: **﴿و لاَ تأكلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيهِ و إنَّه لَفِسقٌ﴾** فنسخ و استثنى من ذلك، فقال: **﴿و طَعَامُ الذينَ أوتُوا الْكتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾**. و روى ابن أبي حاتم: عن مكحول قال: أنزل الله في القرآن **﴿و لاَ تأكلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيهِ﴾** ثم نسخها الرب، و رحم المسلمين، فقال: **﴿اليَومَ أُحِلَّ لَكُم الطَّيِّبَاتُ وَ طَعَامُ الذينَ أوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾** فنسخها بذلك، و أحل طعام أهل الكتاب، ثم قال ابن جرير: و الصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب، و بين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه.

و هذا الذي قاله صحيح، و من أطلق من السلف النسخ ههنا، فإنما أراد التخصيص، و الله سبحانه وتعالى أعلم.

و قوله تعالى: **﴿و إنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إلَى أوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ﴾** روى ابن أبي حاتم: عن أبي إسحاق قال: قال رجل لابن عمر: إن المختار يزعم أنه يُوحى إليه! قال: صدق، و تلا هذه الآية **﴿و إنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إلَى أوْلِيائِهِمْ﴾**. و قوله: **﴿لِيُجادِلُوكُمْ﴾** روى أبو داود: عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبيﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا، و لا نأكل مما قَتَل الله؟ فأنزل الله: **﴿و لاَ تأكلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيهِ﴾** الآية، وكذا رواه ابن جرير، و رواه البزار، و هذا فيه نظرٌ من وجوه ثلاثة: **(أحدها)**: أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا. **(الثاني)**: أن الآية من الأنعام، وهي مكية **(الثالث)**: أن هذا الحديث رواه الترمذي بلفظ: أتى ناسٌ النبيﷺ فذكره. و قال: حسن غريب[1]. و روى (أبو داود) و ابن جرير من طرق متعددة عن ابن عباس، و ليس فيه ذكر اليهود، فهذا هو المحفوظ لأن الآية مكية، و اليهود لا يحبون الميتة. و قال السدي في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضات الله، فما قتل الله فلا تأكلونه، و ما ذبحتم أنتم تأكلونه؟ فقال الله تعالى: **﴿و إنْ أطَعْتُمُوهُمْ﴾** في أكل الميتة **﴿إنَّكُمْ لَمُشْرِكونَ﴾** وهذا قاله مجاهد و الضحاك و غير واحد من علماء السلف.

و قوله تعالى: **﴿و إنْ أطَعْتُمُوهُمْ إنَّكُمْ لَمُشْرِكونَ﴾** أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم و شرعه، إلى قول غيره، فقدَّمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كقوله تعالى: **﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ﴾** الآية. و قد روى الترمذي في تفسيرها: عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم! فقال: «بلى، إنهم أَحَلُّوا لهم الحرام، و حَرَّموا عليهم الحلال، فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم».

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾

---

(١) و قال العلامة الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٤٥): صحيح، لكن ذِكْر اليهود فيه منكر، و المحفوظ: المشركين.

١٢٢ - هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن، الذي كان ميتاً، أي: في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، و هداه له، و وفقه لاتباع رسله ﴿وَ جَعلنَا لَهُ نوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي: يهتدي كيف يسلك، و كيف يتصرف به، و النور: هو القرآن. كما رواه العوفي و ابن أبي طلحة عن ابن عباس. و قال السدي: الإسلام، و الكل صحيح ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ﴾ أي: الجهالات و الأهواء و الضلالات المتفرقة ﴿لَيسَ بِخَارِجٍ مِّنهَا﴾ أي: لا يهتدي إلى منفذ، و لا مخلص مما هو فيه.

و في مسند الإمام أحمد: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم رشَّ عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى، و من أخطأه ضَلَّ». كما قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخرِجُهُم مِّنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولَئِكَ أَصحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، و قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمشِي مُكِبّاً عَلَى وَجهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ﴾، و قال تعالى: ﴿مَثَلُ الفَرِيقَينِ كَالأَعمَى وَالأَصَمِّ وَ البَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَستَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ و قال تعالى: ﴿وَ مَا يَستَوِي الأَعمَى وَ البَصِيرُ * وَلا الظُّلُماتُ وَ لاَ النُّورُ * وَ لاَ الظِّلُّ وَ لاَ الحَرُورُ * وَ مَا يَستَوِي الأَحيَاءُ وَ لا الأَموَاتُ إِنَّ اللهَ يُسمِعُ مَن يَشَاءُ وَ مَا أَنتَ بِمُسمِعٍ مَّن فِي القُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ و الآيات في هذا كثيرة، و وجه المناسبة في ضرب المثلين ههنا بالنور و الظلمات، ما تقدم في أول السورة ﴿وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ﴾.

و زعم بعضهم: أن المراد بهذا المثل رجلان معينان، فقيل: عمر بن الخطاب هو الذي كان ميتاً فأحياه الله، وجعل له نوراً يمشي به في الناس. و قيل: عمار بن ياسر. و أما الذي في الظلمات ليس بخارج منها: أبو جهل عمرو بن هشام لعنه الله. و الصحيح أن الآية عامة يدخل فيها كل مؤمن و كافر.

و قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ أي: حَسَّنَّا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة، قدراً من الله، و حكمة بالغة، لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

١٢٣ - يقول تعالى: و كما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين، و رؤساء و دعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، و إلى مخالفتك و عداوتك، و كذلك كانت الرسل من قبلك يُبتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: ﴿و كَذَلِكَ جَعَلنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ المُجرِمِينَ﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿و إِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهلِكَ قَريَةً أَمَرنَا مُترَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ الآية، قيل: معناه: أمرناهم بالطاعة فخالفوا، فدمرناهم. و قيل: أمرناهم أمراً قدرياً، كما قال ههنا ﴿لِيَمكُرُوا فِيهَا﴾.

و قوله تعالى: ﴿أَكَابِرَ مُجرِمِيهَا لِيَمكُرُوا فِيهَا﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: سلَّطنا شرارهم فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. و قال مجاهد وقتادة: ﴿أَكَابِرَ مُجرِمِيهَا﴾: عظماؤها.

قلت: و هكذا قوله تعالى: ﴿و مَا أَرسَلنَا فِي قَريَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُترَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرسِلتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحنُ أَكثَرُ أَموَالاً وَ أَولاداً وَ مَا نَحنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ و قال تعالى: ﴿و كَذَلِكَ مَا أَرسَلنَا مِن قَبلِكَ فِي قَريَةٍ مِّن

نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ و المراد بالمكر ههنا: دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال و الفعال، كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح ﴿و مكروا مكراً كباراً﴾، و كقوله تعالى: ﴿وَ لَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَ قَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾ الآية. و روى ابن أبي حاتم: عن سفيان قال: كل مكر في القرآن، فهوعمل.

و قوله تعالى: ﴿وَ مَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: و ما يعود وبال مكرهم ذلك، وإضلالهم من أضلوه، إلا على أنفسهم، كما قال تعالى ﴿وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، و قال: ﴿وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

و قوله تعالى: ﴿وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: إذا جاءتهم آية وبرهان، و حجة قاطعة، قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رُسل الله، أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، كقوله جل و علا: ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ الآية، و قوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي: هو أعلم حيث يضع رسالته، و من يصلح لها من خلقه، كقوله تعالى: ﴿وَ قَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ الآية، يعنون: لولا نُزِّل هذا القرآن، على رجل عظيم كبير، جليل مُبَجَّل في أعينهم ﴿من القريتين﴾ أي: من مكة و الطائف، و ذلك أنهم ـ قبحهم الله ـ كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله و سلامه عليه بغياً وحسداً، و عناداً و استكباراً، كقوله تعالى مخبراً عنه: ﴿وَ إِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ و قال تعالى: ﴿وَ إِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ و قال تعالى: ﴿وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذا و هم معترفون بفضله و شرفه و نسبه، و طهارة بيته و مرباه، و منشئه صلى الله و ملائكته والمؤمنون عليه، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أنْ يُوحى إليه «الأمين»، و قد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان، حين سأله «هرقل» ملك الروم: و كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا ـ الحديث بطوله الذي استدل ملك الروم بظاهر صفاته ﷺ، على صدق نبوته، و صحة ما جاء به.

و روى الإمام أحمد: عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله اصطفى مِنْ ولد إبراهيم إسماعيل، و اصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، و اصطفى من بني كنانة قريشاً، و اصطفى من قريش بني هاشم، و اصطفاني من بني هاشم» انفرد بإخراجه مسلم من حديث الأوزاعي، وهو: عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام به نحوه.

و في صحيح البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعثتُ من خير قرون بني آدم، قرناً فقرناً، حتى بُعثتُ من القرن الذي كنتُ فيه».

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود قال: إنَّ الله نَظَرَ في قلوب العباد فوجَدَ قلبَ محمدٍ ﷺ

خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن، و ما رآه المسلمون سيئاً، فهو عند الله سيء. و ذكر ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: عن ابن أبي حسين قال: أبصر رجلٌ ابن عباس و هو داخل من باب المسجد، فلما نظر إليه راعه، فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

و قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الآية، هذا وعيد شديد من الله، و تهديد أكيد، لمن تكبَّرَ عن اتباع رسله، و الانقياد لهم فيما جاءوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صَغَار، و هو: الذلة الدائمة، كما أنهم استكبروا، أعقبهم ذلك ذُلاً يوم القيامة، لَمَّا استكبروا في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

وقوله تعالى: ﴿و عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لَمَّا كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، و هو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة، جزاء وفاقاً ﴿وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تظهر المستترات و المكنونات و الضمائر.

و جاء في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُنصَبُ لكل غادر لواءٌ عند إسته يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرة فلان بن فلان». و الحكمة في هذا: أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾

١٢٥ - يقول تعالى: فمن يُرد الله أن يهديه شرح صدره للإسلام، أي: ييسره له و ينشطه، و يسهله لذلك، فهذه علامات على الخير، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ الآية، و قال تعالى ﴿وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ و قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾: يوسِّع قلبه للتوحيد و الإيمان به، و كذا قال أبو مالك و غير واحد، و هو ظاهر.

و قوله تعالى: ﴿و مَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقاً حَرَجاً﴾ قرئ: بفتح الضاد و تسكين الياء، والأكثرون ﴿ضَيِّقاً﴾ بتشديد الياء و كسرها، و هما لغتان كهيِّن و هيْن، و قرأ بعضهم ﴿حَرِجاً﴾ بفتح الحاء وكسر الراء، قيل بمعنى: أثم، قاله السدي. و قيل: بمعنى القراءة الأخرى ﴿حَرَجاً﴾ بفتح الحاء و الراء، و هو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، و لا يخلص إليه شيءٌمّا ينفعه من الإيمان، و لا ينفذ فيه. و قد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج، عن الحرجة؟ فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار، لا تصل إليها راعية، و لا وحشية و لا شيء، فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلب المنافق، لا يصل إليه شيء من الخير. وقال مجاهد و السدي: ﴿ضَيِّقاً حَرَجاً﴾: شاكاً. و قال ابن المبارك عن ابن جريج: ضيقاً حرجاً بلا إله إلا الله، حتى لا يستطيع أن تدخل قلبه، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه وقال السدي:

من ضيق صدره.

و عن عكرمة عن ابن عباس ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد و الإيمان قلبه، حتى يدخله الله في قلبه. و قال الأوزاعي: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ كيف يستطيع مَن جعل الله صدره ضيقاً، أن يكون مسلماً.

و قال الإمام أبو جعفر بن جرير: و هذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر، في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، يقول: فمثله في امتناعه من قبول الإيمان و ضيقه عن وصوله إليه، مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه و طاقته، و قال في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: كما يجعل الله صدر مَن أراد إضلاله ضيقاً حرجاً، كذلك يسلّط الله الشيطان عليه، و على أمثاله ممن أبى الإيمان بالله و رسوله، فيغويه و يصده عن سبيل الله. و قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿الرِّجْسَ﴾ الشيطان. و قال مجاهد: ﴿الرِّجْسَ﴾ كل ما لا خير فيه. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿الرِّجْسَ﴾ العذاب.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)﴾

١٢٦ - لمّا ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها، نبّه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى و دين الحق، فقال تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ منصوب على الحال، أي: هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد، بما أوحينا إليك هذا القرآن، هو صراط الله المستقيم، كما تقدم في حديث الحارث عن علي في نعت القرآن: «هو صراط الله المستقيم، و حبل الله المتين، و هو الذكر الحكيم» رواه أحمد والترمذي بطوله. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: وضحناها و بيناها و فسرناها ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لمن له فهم ووعي، يعقل عن الله و رسوله.

١٢٧ - ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ و هي الجنة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة، و إنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتفي أثر الأنبياء و طرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج، أفضوا إلى دار السلام ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أي: حافظهم و ناصرهم و مؤيدهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: جزاء على أعمالهم الصالحة، تولاّهم، و أثابهم الجنة بمَنّه و كرمه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)﴾

١٢٨ - يقول تعالى: و اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم و تنذرهم به ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني: الجن وأولياءهم من الإنس، الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، و يعوذون بهم و يطيعونهم، و يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي: ثم يقول: يا معشر الجن، و سياق

الكلام يدل على المحذوف، و معنى قوله: ﴿قَد اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإنس﴾ من إغوائهم و إضلالهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ❁ وَ أَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ❁ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَد اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإنسِ﴾ يعني: أضللتم منهم كثيراً. و كذا قال مجاهد و الحسن و قتادة. ﴿و قَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ يعني: أن أولياء الجن من الإنس، قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا. روى ابن أبي حاتم عن الحسن في هذه الآية، قال: استكثر ربكم أهل النار يوم القيامة، فقال: أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض، قال الحسن: و ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أنَّ الجن أمرت و عملت الإنس. وقال ابن جريج: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي، فذلك استمتاعهم، فاعتذروا به يوم القيامة، و أما استمتاع الجن بالإنس: فإنه كان فيما ذكر ما ينال الجن من الإنس، من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم، فيقولون قد سُدْنا الإنس و الجن.

﴿و بَلَغْنَا أَجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ قال السدي: يعني الموت ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ أي: مأواكم و منزلكم، أنتم و إياهم و أولياؤكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها مكثاً مخلداً، إلا ما شاء الله. قال بعضهم: يرجع معنى الاستثناء إلى البرزخ، و قال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا، و قيل غير ذلك من الأقوال، التي سيأتي تقريرها عند قوله تعالى في سورة هود ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمواتُ و الأرضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. و قد روى ابن جرير و ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية: من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال: إن هذه الآية آيةٌ لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، و لا ينزلهم جنة و لا ناراً.

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾

١٢٩ – قال قتادة في تفسيرها: إنما يُولّي الله الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولي المؤمن، أين كان و حيث كان، والكافر ولي الكافر، أينما كان و حيثما كان، ليس الإيمان بالتَّمني و لا بالتَّحلي. و اختاره ابن جرير، وقال قتادة في تفسير الآية: يولي الله بعض الظالمين بعضاً في النار، يتبع بعضهم بعضاً. و قال مالك بن دينار: قرأتُ في الزبور: إني أنتقم من المنافقين بالمنافقين، ثم أنتقم من المنافقين جميعاً، و ذلك في كتاب الله، قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾ قال: ظالمي الجن و ظالمي الإنس، و قرأ ﴿وَ مَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ قال: و نُسلِّط ظَلَمَة الجن على ظلمة الإنس.

و معنى الآية الكريمة: كما ولَّينا هؤلاء الخاسرين من الإنس، تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلّط بعضهم على بعض، و نهلك بعضهم ببعض، و ننتقم من بعضهم ببعض، جزاءً على ظلمهم و بغيهم.

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

قالوا شهدنا علىٰ أنفسنا وغرَّتهم الحياة الدُّنيا وشهدوا علىٰ أنفسهم أنَّهم كانوا كافرين (١٣٠) ﴾

١٣٠ - و هذا أيضاً: مما يُقرِّع الله به كافري الجن و الإنس يوم القيامة، حيث يسألهم ـ و هو أعلم ـ هل بلَّغتهم الرسل رسالاته؟ و هذا استفهام تقرير ﴿يا معشر الجنِّ و الإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم﴾ أي: من جملتكم، والرسل من الإنس فقط، و ليس من الجن رسل، كما نص على ذلك مجاهد و ابن جُريج و غير واحد من الأئمة، من السلف و الخلف. و قال ابن عباس: الرسل من بني آدم، و من الجن نذر. و حكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلاً، و احتج بهذه الآية الكريمة، و فيه نظر! لأنها محتملة وليست بصريحة، و هي ـ و الله أعلم ـ كقوله: ﴿مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان﴾ إلى أن قال: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ و المرجان﴾ و معلوم أن اللؤلؤ و المرجان، إنما يستخرجان من الملح لا من الحلو، و هذا واضح و لله الحمد، و قد ذكر هذا الجواب بعينه ابن جرير.

و الدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس، قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح و النبيين من بعده﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿رسلاً مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ و قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿و جعلنا في ذريته النبوة و الكتاب﴾ فحصر النبوة و الكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: أن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته، و قال تعالى: ﴿و ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام و يمشون في الأسواق﴾ و قال: ﴿و ما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾ و معلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب، و لهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق و إلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعي الله و آمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم و يجركم من عذاب أليم * و من لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض و ليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾.

و قد جاء في الحديث: الذي رواه الترمذي و غيره: أن رسول الله ﷺ تلا عليهم سورة الرحمن، و فيها قوله تعالى: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان * فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.

و قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يا معشر الجن و الإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي و ينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ أي: أقررنا أنَّ الرسل قد بلّغونا رسالاتك، و أنذرونا لقاءك، و أن هذا اليوم كائنٌ لا محالة، و قال تعالى: ﴿و غرتهم الحياة الدنيا﴾ أي: و قد فرَّطوا في حياتهم الدنيا، و هلكوا بتكذيبهم الرسل، و مخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا، و زينتها وشهواتها ﴿و شهدوا على أنفسهم﴾ أي: يوم القيامة ﴿أنهم كانوا كافرين﴾ أي: في الدنيا بما جاءتهم به الرسل صلوات الله و سلامه عليهم.

﴿ ذلك أن لم يكن ربُّك مهلك القرىٰ بظلمٍ وأهلها غافلون (١٣١) ولكلٍّ درجاتٌ ممَّا عملوا وما ربُّك بغافلٍ عمَّا يعملون (١٣٢) ﴾

١٣١ - يقول تعالى: ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم و أهلها غافلون﴾ أي: إنما أعذرنا إلى

الثقلين بإرسال الرسل، و إنزال الكتب، لئلا يُؤاخذ أحداً بظلمه، و هو لم تبلغه دعوة، و لكن أعذرنا إلى الأمم، و ما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿و إن مّن قريةٍ إلاّ خلا فيها نذير﴾ و قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كلّ أمّةٍ رسولاً أن اعبدُوا الله و اجتنبُوا الطّاغوت﴾ كقوله: ﴿و ما كنا معذّبين حتّى نبعث رسولاً﴾ و قال تعالى: ﴿كلّما ألقي فيها فوجٌ سألهُمْ خزنتُها ألم يأتِكمْ نذيرٌ* قالُوا بلى قدْ جاءنا نذيرٌ فكذّبْنا﴾ والآيات في هذا كثيرة. قال الإمام أبو جعفر بن جرير: و يحتمل قوله تعالى ﴿بظلْم﴾ وجهين: (أحدهما): ذلك من أجل ﴿أن لّمْ يكُن ربُّك مُهْلك القُرى بظُلْم﴾ أهلها بالشرك و نحوه ﴿وهُمْ غافلُون﴾ يقول: أن لم يكن يعالجهم بالعقوبة، حتى يبعث إليهم رسولاً ينبههم على حجج الله عليهم، و ينذرهم عذاب الله يوم معادهم، و لم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة، فيقولوا ما جاءنا من بشير و لا نذير. (و الوجه الثاني): لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه، و التذكير بالرسل و الآيات و العبر، فيظلمهم بذلك، و الله غير ظلام لعبيده. ثم شرع يرجّح الوجه الأول، و لا شك أنه أقوى، و الله أعلم.

قال: و قوله تعالى: ﴿ولِكُلٍّ درجاتٌ مّمّا عمِلُوا﴾ أي: ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته، مراتب ومنازل من عمله، يبلغه الله إياها، و يثيبه بها، إنْ خيراً فخير، و إنْ شراً فشر. (قلت): و يحتمل أن يعود قوله: ﴿ولِكُلٍّ درجاتٌ مّمّا عمِلُوا﴾ أي: من كافري الجن و الإنس، أي: و لكلٍّ درجة في النار بحسبه، كقوله ﴿قال لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾، و قوله: ﴿الذين كفرُوا و صدُّوا عن سبيل الله زدْناهُمْ عذاباً فوق العذاب بما كانُوا يُفسِدُون﴾ ﴿و ما ربُّك بغافلٍ عمّا يعملُون﴾ قال ابن جرير: أي: و كل ذلك من عملهم يا محمد، بعلمٍ من ربك يُحصيها و يثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه، و معادهم إليه.

﴿ وربُّك الْغنيُّ ذُو الرّحْمة إن يشأ يُذْهبْكُمْ ويسْتخْلفْ منْ بعْدكُم مّا يشاءُ كما أنشأكُم مّن ذُرّيّة قوْمٍ آخرين (١٣٣) إنّ ما تُوعدُون لآتٍ وما أنتُم بمُعْجزين (١٣٤) قُلْ يا قوْم اعْملُوا على مكانتكُمْ إنّي عاملٌ فسوْف تعْلمُون من تكُونُ لهُ عاقبةُ الدّار إنّهُ لا يُفْلحُ الظّالمُون (١٣٥) ﴾

١٣٣- يقول تعالى: ﴿و ربُّك﴾ يا محمد ﴿الغنيُّ﴾ أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ﴿ذُو الرّحْمة﴾ أي: و هو مع ذلك رحيم بهم، كما قال تعالى: ﴿إنّ الله بالنّاس لرءُوفٌ رّحيمٌ﴾ ﴿إن يشأ يُذْهبْكُمْ﴾ أي: إذا خالفتم أمره ﴿و يستخلفْ من بعْدكُم مّا يشاءُ﴾ أي: قوماً آخرين، أي: يعملون بطاعته ﴿كما أنشأكُم مّن ذُرّيّة قوم آخرين﴾ أي: هو قادرٌ على ذلك، سهل عليه يسير لديه، كما أذهب القرون الأولى، و أتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء و الإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إن يشأ يُذْهبْكُمْ أيها النّاسُ و يأتِ بآخرين و كان الله على ذلك قديراً﴾ و قال تعالى: ﴿يا أيُّها النّاسُ أنتُم الفُقراءُ إلى الله و اللهُ هُو الغنيُّ الحميدُ* إن يشأ يُذْهبْكُمْ و يأتِ بخلقٍ جديدٍ* و ما ذلك على الله بعزيزٍ﴾.

و قال تعالى: ﴿و اللهُ الغنيُّ و أنتُمُ الفُقراءُ و إن تتولّوْا يستبْدلْ قوماً غيركُمْ ثُمّ لا يكُونُوا أمثالكُمْ﴾ و روى محمد بن إسحاق عن أبان بن عثمان قال في هذه الآية: ﴿كما أنشأكُم مّن ذُرّيّة قوم آخرين﴾ الذرية: الأصل، و الذرية: النسل.

١٣٤- و قوله تعالى: ﴿إنّما تُوعدُون لآتٍ و ما أنتُم بمُعْجزين﴾ أي: أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون

به، من أمر المعاد، كائن لا محالة ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: و لا تعجزون الله، بل هو قادرٌ على إعادتكم، و إنْ صرتم تراباً رفاتاً و عظاماً، هو قادر لا يعجزه شيء.

١٣٥- و قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي: استمروا على طريقتكم و ناحيتكم، إنْ كنتم تظنون أنكم على هدى، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي، كقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾: ناحيتكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: أتكون لي، أو لكم.

و قد أنجز الله موعوده لرسوله صلوات الله و سلامه عليه، فإنه تعالى مكّنه في البلاد، و حَكّمه في نواصي مخالفيه من العباد، و فتح له مكة، و أظهره على من كذّبه من قومه و عاداه و ناوأه، و استقر أمره على سائر جزيرة العرب، و كذلك اليمن و البحرين، و كل ذلك في حياته، ثم فُتحت الأمصار و الأقاليم والرساتيق بعد وفاته، في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين، كما قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، و قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، و قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، و قال تعالى إخباراً عن رسله ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، و قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ الآية، و قد فعل الله ذلك بهذه الأمة المحمدية، و له الحمد و المنة، أولاً و آخراً، و ظاهراً و باطناً.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾

١٣٦- هذا ذمٌ و توبيخ من الله، للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً و كفراً و شركاً، و جعلوا لله شركاء وجزءًا من خلقه، و هو خالق كل شيء سبحانه و تعالى، و لهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق و برأ ﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ أي: من الزرع و الثمار ﴿وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ أي: جزءاً و قسماً ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾، و قوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حَرَثوا حرثاً، أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً، و للوثن منه جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان، حفظوه و أحصوه، و إنْ سقط منه شيء فيما سُمِّي للصَّمد ردّوه إلى ما جعلوه للوثن، و إنْ سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، و إن سقط شيءٌ من الحرث و الثمرة التي جعلوها لله، فاختلط بالذي جعلوه للوثن، قالوا: هذا فقير، و لم يردّوه إلى ما جعلوه لله، و إن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سُمي للوثن، تركوه للوثن، و كانوا يحرمون من أموالهم: البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام،

فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه قربةً لله، فقال الله تعالى: ﴿وَ جَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأنعام نَصِيباً﴾ الآية. وهكذا قال مجاهد و قتادة و السدي و غير واحد.

و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية: كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه، لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، و ما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه، و قرأ الآية حتى بلغ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما يقسمون، فإنهم أخطأوا أولاً القسم، لأن الله تعالى هو رب كل شيء و مليكه وخالقه، و له الملك، و كل شيء له، و في تصرفه و تحت قدرته و مشيئته، لا إله غيره و لا ربَّ سواه، ثم لما قسموا - فيما زعموا - القسمة الفاسدة، لم يحفظوها بل جاروا فيها، كقوله جل و علا: ﴿و يَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبحانَهُ وَ لَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾، و قال تعالى: ﴿وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾، و قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾ و قوله: ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) ﴾

١٣٧ - يقول تعالى: و كما زَيَّنَت الشياطين لهؤلاء، أن يجعلوا لله مما ذَرَأَ من الحرث و الأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، و وأد البنات خشية العار، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: زينوا لهم قتل أولادهم. و قال مجاهد: شركاؤهم: شياطنهم، يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العَيْلة. وقال السدي: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات، و أما ليردوهم فيهلكوهم، و أما ليلبسوا عليهم دينهم، أي: فيخلطون عليهم دينهم و نحو ذلك، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و قتادة: و هذا كقوله تعالى: ﴿و إذا بُشِّرَ أحدُهم بالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسوَدّاً وَ هُوَ كَظِيمٌ * يَتوارَى مِنَ القَومِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ الآية، و كقوله: ﴿وإذا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ و قد كانوا أيضاً يقتلون الأولاد من الإملاق، و هو الفقر، أو خشية الإملاق، أن يحصل لهم في تلف المال، و قد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك و إنما كانوا هذا كله من تزيين الشياطين و شرعهم ذلك، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: كان هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً، و له الحكمة التامة في ذلك، فلا يسأل عما يفعل و هم يسئلون ﴿فَذَرْهُمْ وَ مَا يَفتَرونَ﴾ أي فدعهم و اجتنبهم و ما هم فيه، فسيحكم الله بينك و بينهم.

﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) ﴾

١٣٨ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الحجر الحرام، حرموا من الوصيلة و تحريم ما حرموا، و كذلك قال مجاهد و الضحاك و السدي و قتادة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و غيرهما. و قال قتادة ﴿وَقالُوا هذهِ أنعامٌ و حَرْثٌ حِجْرٌ﴾ إنما احتجروها لآلهتهم؛ و قال السدي: ﴿لاَ يَطْعَمُها إلاَّ مَن نشاءُ بزعْمِهِم﴾ يقولون: حرام أن يطعم إلا من شئنا، و هذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ أرأيْتُم مَّا أنزلَ اللهُ لكُم مِّن رِّزقٍ فجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً و حلالاً قُلْ آللهُ أذِنَ لكمْ أم علَى اللهِ تفْتَرونَ﴾ و كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرةٍ و لاَ سائِبَةٍ و لاَ وَصِيلَةٍ و لاَ حامٍ و لكِنَّ الذِينَ كفَرُوا يَفْتَرُونَ علَى اللهِ الكَذِبَ و أكثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾.

و قال السدي : أما الأنعام التي حُرِّمت ظُهورها فهي : البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام ، و أما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها ، لا إذا ولدوها ، و لا إن نحروها . و عن عاصم بن أبي النجود قال لي أبو وائل : أتدري ما في قوله : ﴿و أنعامٌ حُرِّمتْ ظُهُورها و أنعامٌ لا يذكُرونَ اسْمَ اللهِ علَيْهَا﴾ ؟ قلت : لا ، قال : هي البحيرة ، كانوا لا يحجون عليها ، و قال مجاهد : كان من إبلهم طائفةٌ لا يذكرون اسم الله عليها ، ولا في شيء من شأنها ، لا إنْ ركبوا ، و لا إنْ حلبُوا ، و لا إنْ حملوا ، و لا إن نتجوا ، و لا إنْ عملوا شيئاً ﴿افتِراءً علَيهِ﴾ أي : على الله ، وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم في ذلك ، ولا رضيه منهم ﴿سَيجزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفتَرُونَ﴾ أي : عليه ، و يسندون إليه .

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) ﴾

١٣٩ – عن عبد الله بن أبي الهذيل عن ابن عباس و قالوا : ﴿مَا فِي بُطونِ هذِهِ الأنعامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ الآية ، قال : اللبن . و قال العوفي عن ابن عباس ﴿و قالُوا مَا فِي بُطونِ هذِهِ الأنعامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ فهو اللبن ، كانوا يحرمونه على إناثهم ، و يشربه ذكرانهم ، و كانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه ، و كان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تُركت فلم تذبح ، و إن كانت ميتة فهم فيه شركاء ، فنهى الله عن ذلك . و كذا قال السدي ، و قال الشعبي : البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال ، و إن مات منها شيء أكله الرجال و النساء ، و كذا قال عكرمة وقتادة و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، و قال مجاهد : هي السائبة و البحيرة .

و قال أبو العالية و مجاهد و قتادة في قول الله ﴿سَيَجزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي : قولهم الكذب في ذلك ، يعني كقوله تعالى : ﴿وَ لا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُم الْكَذِبَ هذَا حَلالٌ و هَذَا حَرامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الكَذِبَ إنَّ الذينَ يَفتَرُونَ عَلَى اللهِ الكذِبَ لاَ يُفلِحونَ* مَتاعٌ﴾ الآية ، ﴿إنَّهُ حكيمٌ﴾ أي : في أفعاله و شرعه و قدره ﴿عَليمٌ﴾ بأعمال عباده من خير و شر ، و سيجزيهم عليها أتم الجزاء .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴾

١٤٠ – يقول تعالى : قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا و الآخرة ، أما في الدنيا : فخسروا أولادهم بقتلهم ، و ضيقوا عليهم في أموالهم ، فحَرَّموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، و أما في الآخرة : فيصيرون إلى أسوأ المنازل ، بكذبهم على الله و افترائهم ، كقوله : ﴿إنَّ الذينَ يَفتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لاَ يُفلِحونَ* مَتاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إلينَا مَرجِعُهمْ ثُمَّ نُذِيقُهُم الْعذَابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكفُرونَ﴾ . و روى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب ، فاقرأ ما فوق الثلاثين و المائة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الذينَ قَتَلُوا أولاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيرِ عِلمٍ وَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُم اللهُ افتراءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ و هكذا رواه البخاري منفرداً ، في كتاب مناقب قريش من صحيحه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ﴾

١٤١ - يقول تعالى مبيناً أنه الخالق لكل شيء، من الزروع و الثمار و الأنعام، التي تَصَرَّفَ فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة، و قسموها و جزؤوها، فجعلوا منها حراماً و حلالاً، فقال: ﴿وَ هو الذي أنشأ جنّاتٍ مّعرُوشَاتٍ وَ غَيرَ مَعرُوشَاتٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: معروشات مسموكات، و في رواية: فالمعروشات: ما عرَّش الناس، و غير معروشات ما خرج في البر و الجبال من الثمرات، و قال ابن جريج: متشابهاً و غير متشابه، قال: متشابهاً في المنظر، و غير متشابه في المطعم، و قال محمد بن كعب ﴿كُلوا مِن ثَمرِهِ إذَا أثمَرَ﴾ قال: من رطبه و عنبه.

و قوله تعالى: ﴿و آتُوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ﴾ قال ابن جرير: قال بعضهم هي الزكاة المفروضة، قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و آتُوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ﴾ يعني: الزكاة المفروضة، يوم يكال و يعلم كيله، و كذا قال سعيد بن المسيب، و قال العوفي عن ابن عباس ﴿و آتُوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ﴾ و ذلك أنالرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده، لم يخرج مما حصد شيئاً، فقال الله تعالى: ﴿و آتُوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ﴾ و ذلك أن يُعلم ما كيلُه وحقه من كل عشرة واحد، و ما يلقط الناس من سنبله، و قد روى الإمام أحمد و أبو داود في سننه: عن جابر بن عبد الله: «أن النبيﷺ أمر من كل جاد عشرة أوسق من التمر، بقنو يعلق في المسجد للمساكين»[1]، و هذا إسناد جيد قوي، وقال طاوس و أبو الشعثاء و قتادة و الحسن و الضحاك و ابن جريج: هي الزكاة.

و قال الحسن البصري هي: الصدقة من الحب و الثمار، و كذا قال ابن زيد بن أسلم.

و قال آخرون: هو حقٌّ آخر سوى الزكاة. روى عبد الله بن المبارك و غيره عن عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿و آتُوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ﴾ قال: يُعطي مَنْ حضره يومئذ ما تيسر، و ليس بالزكاة. و قال مجاهد: إذا حضرك المساكين، طَرحتَ لهم منه. و روى عبد الرزاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿و آتُوا حَقَّهُ يومَ حَصادِهِ﴾ قال: عند الزرع يُعطي القبضة و عند الصرام يعطي القبضة، و يتركهم فيتبعون آثار الصِّرام، و روى الثوري عن إبراهيم النخعي قال: يعطي مثل الضغث.

و قال آخرون: هذا شيء كان واجباً، ثم نسخه الله بالعُشْر، أو نصف العُشر. حكاه ابن جرير: عن ابن عباس و محمد بن الحنفية، و إبراهيم النخعي و الحسن و السدي و عطية العوفي و غيرهم، و اختاره ابن جرير رحمه الله، قلت: و في تسمية هذا نسخاً نظر! لأنه قد كان شيئاً واجباً في الأصل، ثم إنه فصّل بيانه وبيّن مقدار المخرج و كميته، قالوا: و كان هذا في السنة الثانية من الهجرة، فالله أعلم.

و قد ذم الله سبحانه الذين يَصْرِمون و لا يتصدقون، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة «ن» ﴿إذْ أقسَمُوا لَيَصرِمُنَّهَا مُصبِحينَ ۞ وَ لاَ يَستَثْنُونَ ۞ فَطَافَ عَلَيهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَ هُمْ نَائِمونَ ۞ فَأصبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾

(١) - (جاد عشرة أوسق) قال الحربي: يريد قدراً من النخل يجذُّ منه عشرة أوسق، و تقديره: مجذوذ. و أراد بالقنو: العذق بما عليه من الرطب و البسر، يعلق للمساكين يأكلونه، و هذا من صدقة المعروف، دون الصدقة التي هي فرض واجب (خطابي).

أي: كالليل المدلهم، سوداء محترقة ﴿فتنادوا مصبحين ۞ أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ۞ فانطلقوا وهم يتخافتون ۞ أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ۞ وغدوا على حرد﴾ أي: قوة و جلد و همّة ﴿قادرين ۞ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ۞ بل نحن محرومون ۞ قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ۞ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ۞ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ۞ قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين ۞ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ۞ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾.

و قوله تعالى: ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ قيل معناه: لا تسرفوا في الإعطاء، فتعطوا فوق المعروف. و قال أبو العالية: كانوا يعطون يوم الحصاد شيئاً، ثم تباروا فيه و أسرفوا، فأنزل الله ﴿ولا تسرفوا﴾ و قال ابن جريج عن عطاء: نُهوا عن السرف في كل شيء، و قال إياس بن معاوية: ما جاوزتَ به أمر الله فهو سرف، و قال السدي: لا تعطوا أموالكم، فتقعدوا فقراء. و قال سعيد بن المسيب و محمد بن كعب في قوله: ﴿ولا تسرفوا﴾ قال: لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم، ثم اختار ابن جرير قول عطاء، أنه نهى عن الإسراف في كل شيء، و لا شك أنه صحيح، لكن الظاهر ـ و الله أعلم ـ من سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا﴾ أن يكون عائداً على الأكل، أي: لا تسرفوا في الأكل، لما فيه من مضرة العقل و البدن، كقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ الآية، و في صحيح البخاري تعليقاً: «كلوا و اشربوا و البسوا، من غير إسراف و لا مَخيلة» و هذا من هذا، و الله أعلم.

١٤٢- و قوله عز وجل: ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً﴾ أي: و أنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة، وما هو فرش. قيل: المراد بالحمولة: ما يُحمل عليه من الإبل، و الفرش: الصغار منها، كما روى الثوري عن عبد الله. و رواه الحاكم، و قال صحيح الإسناد و لم يخرجاه. و كذا قال ابن عباس و مجاهد. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً﴾ أما الحمولة: فالإبل و الخيل و البغال والحمير، و كل شيء يحمل عليه، و أما الفرش: فالغنم، و اختاره ابن جرير، قال: و أحسبه إنما سُمّي فرشاً لدنوه من الأرض، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحمولة ما تركبون، و الفرش ما تأكلون و تحلبون، شاة لا تحمل، تأكلون لحمها، و تتخذون من صوفها لحافاً و فرشاً. و هذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن، يشهد له قوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ۞ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾، و قال تعالى: ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ إلى أن قال: ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾ و قال تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ۞ ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ۞ ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون﴾.

وقوله تعالى: ﴿كلوا مما رزقكم الله﴾ أي: من الثمار و الزروع و الأنعام، فكلها خلقها الله، و جعلها رزقاً لكم ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: طريقه و أوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله أي من الثمار والزروع افتراء على الله ﴿إنه لكم﴾ أي: إن الشيطان أيها الناس لكم ﴿عدو مبين﴾ أي: مبين ظاهر العداوة، كما قال: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب

السّعير﴾، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.
والآيات في هذا كثيرة في القرآن.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤)﴾

١٤٣ - هذا بيانٌ لجهل العرب قبل الإسلام، فيما كانوا حرّموا من الأنعام، و جعلوها أجزاء و أنواعاً، بحيرة وسائبة و وصيلة و حاماً، و غير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام و الزروع و الثمار، فبيّن تعالى أنه أنشأ جنات معروشات و غير معروشات، و أنه أنشأ من الأنعام حمولة و فرشاً. ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم، و هو بياض و هو الضأن، و سواد و هو المعز ذكره و أنثاه، و إلى إبل ذكورها و إناثها، و بقر كذلك، وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك، و لا شيئاً من أولادها، بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلاً و ركوباً، و حمولة وحَلباً، و غير ذلك من وجوه المنافع، كما قال: ﴿و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ الآية.

و قوله تعالى: ﴿أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ ردٌ عليهم في قولهم ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا و محرّمٌ على أزواجنا﴾ الآية.

و قوله تعالى: ﴿نبّئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ أي: أخبروني عن يقين: كيف حَرَّم الله عليكم ما زعمتم تحريمه، من البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام و نحو ذلك؟.

و قوله تعالى: ﴿أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا﴾ تهكمٌ بهم فيما ابتدعوه و افتروه على الله، من تحريم ما حرّموه من ذلك ﴿فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ليُضلّ النّاس بغير علم﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ منه ﴿إنّ الله لا يهدي القوم الظّالمين﴾ و أول مَن دَخل في هذه الآية: عمرو بن لحي بن قمعة، لأنه أول من غيَّر دين الأنبياء، وأول من سبَّ السوائب، و وصل الوصيلة، و حمى الحامي، كما ثبت ذلك في الصحيح.

﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥)﴾

١٤٥ - يقول تعالى آمراً عبده و رسوله محمداً ﷺ ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حرّموا ما رزقهم الله، افتراء على الله ﴿لا أجدُ فيما أوحيَ إليّ محرّماً على طاعمٍ يطعمُهُ﴾ أي: آكل يأكله، قيل: معناه: لا أجد شيئاً مما حرّمتم حراماً سوى هذه. و قيل: معناه: لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه، فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة، و في الأحاديث الواردة رافعاً لمفهوم هذه الآية، و من الناس من يسمي هذا: نسخاً، و الأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً، لأنه من باب رفع مُباحِ الأصل، و الله

أعلم.

و قال عكرمة في قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾: لولا هذه الآية، لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود، وعن عمران بن حدير قال: سألت أبا مِجلَز عن الدم و ما يتلطخ من الذبيح من الرأس، و عن القِدْر يُرى فيها الحُمرة؟ فقال: إنما نَهَى الله عن الدم المسفوح. و قال قتادة: حرَّم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به.

و روى الحميدي، عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمون أن رسول اللهﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر، فقال: قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو عن رسول اللهﷺ و لكن أبى ذلك البحر يعني ابن عباس و قرأ ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِيمَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ الآية، و كذا رواه البخاري.

و روى أبو بكر بن مردويه و الحاكم: عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء، و يتركون أشياء تقذُّراً، فبعث الله نبيه، و أنزل كتابه، و أحل حلاله و حرَّم حرامه، فما أحل فهو حلال، و ما حرم فهو حرام، و ما سكت عنه فهو عفو، و قرأ هذه الآية ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِيمَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ الآية، و هذا لفظ ابن مردويه و رواه أبو داود، و قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

و روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله ماتت فلانة، تعني: الشاة، قال: «فلم لا أخذتم مَسْكها»؟ قالت: نأخذ مَسْكَ شاة قد ماتت؟! فقال لها رسول اللهﷺ: «إنما قال الله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِيمَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ و إنكم لا تطعمونه، إنْ تَدبغوه فتنتفعوا به» فأرسلت فسلخت مسكها فاتخذت منه قِربَةً، حتى تَخرّقت عندها، رواه أحمد و رواه البخاري و النسائي.

و قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة، و هو غير متلبس ببغي و لا عدوان ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: غفور له، رحيم به، و قد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية، و الغرض من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين، الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم، بآرائهم الفاسدة، من البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحام ونحو ذلك، فأمر رسوله أنْ يخبرهم: أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه، أن ذلك محرم، و إنما حرَّم ما ذكر في هذه الآية من الميتة، و الدم المسفوح، و لحم الخنزير، و ما أهل لغير الله به، و ما عدا ذلك فلم يحرم، و إنماهو عفوٌ مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام؟ و من أين حرمتموه و لم يحرمه الله؟

وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء أُخر فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الحمر الأهلية، و لحوم السباع، و كل ذي مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب العلماء.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾

١٤٦- قال ابن جرير: يقول تعالى: و حَرَّمنا على اليهود كل ذي ظفر، و هو البهائم و الطير، مالم يكن

مشقوق الأصابع، كالإبل و النعام و الأوز و البط، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿و على الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ و هو البعير و النعامة، و كذا قال مجاهد و السدي في رواية، و قال سعيد بن جبير: هو الذي ليس منفرج الأصابع، و في رواية عنه: كل مفترق الأصابع، و منه الديك. و قال قتادة: و كان يقال البعير و النعامة، و أشياء من الطير و الحيتان، و في رواية: البعير و النعامة، و حرم عليهم من الطير: البط وشبهه، و كل ليس بمشقوق الأصابع.

و قوله تعالى: ﴿وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ قال السدي: يعني الثَّرْب و شحم الكُليتين، و كانت اليهود تقول: إنه حرَّمه إسرائيل، فنحن نحرمه. و كذا قال ابن زيد، وقال قتادة: الثرب، وكل شحم كان كذلك ليس في عظم، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ يعني: ما علق بالظهر من الشحوم، و قال السدي و أبو صالح: الألية مما حملت ظهورهما. و قوله تعالى: ﴿أوِ الحَوَايَا﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: الحوايا جمعٌ واحدها حاوياء و حاوية و حوية، و هو ما تَحوَى من البطن فاجتمع واستدار، و هي بنات اللبن و هي المباعر، و تسمى المرابض و فيها الأمعاء. قال: و معنى الكلام: و من البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورهما، و ما حملت الحوايا. قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿أوِ الحَوَايَا﴾ و هي المبعر. و قال مجاهد: الحوايا المبعر و المربض، و كذا قال سعيد بن جبير و الضحاك و قتادة و أبو مالك و السدي، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و غير واحد، الحوايا: المرابض التي تكون فيها الأمعاء، تكون وسطها و هي بنات اللبن، و هي في كلام العرب تدعى المرابض.

و قوله تعالى: ﴿أوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يعني: إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحللناه لهم، و قال ابن جريج: شحم الألية ما اختلط بالعُصْعُص، فهو حلال، و كل شيء في القوائم و الجنب و الرأس و العين، و ما اختلط بعظم فهو حلال. و نحوه قال السدي.

و قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي: هذا التضييق إنما فعلناه بهم، و ألزمناهم به، مجازاةً على بغيهم، و مخالفتهم أوامرنا، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً﴾. و قوله: ﴿إنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي: و إنا لعادلون فيما جزيناهم به، و قال ابن جرير: و إنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد، من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أنَّ إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه، و الله أعلم.

و قال عبد الله بن عباس: بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن سمرة باع خمراً، فقال: قاتل الله. سمرة، ألم يعلم أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لعن اللهُ اليهودَ، حُرِّمتْ عليهم الشحوم، فجَملوها فباعوها» أخرجاه.

و عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - عام الفتح -: «إنَّ اللهَ و رسوله حرَّم بيع الخمر والميتةَ و الخنزير و الأصنام» فقيل: يا رسول الله، أرأيتَ شحوم الميتة، فإنها يُدهن بها الجلود، وتُطلى بها السفن، و يَستصبح بها الناس، فقال: «لا، هو حرام» ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إنَّ الله لما حرَّم عليهم شحومها جَمَلوه، ثم باعوه و أكلوا ثمنه» رواه الجماعة.

و روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد مستقبلاً الحِجْر، فنظر

إلى السماء فضحك، فقال: «لَعَنَ الله اليهود، حُرِّمتْ عليهم الشحوم، فباعوها و أكلوا أثمانها، و إنَّ الله حَرَّمَ على قومٍ أكل شيء، حرّم عليهم ثمنه» و رواه أبو داود.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

١٤٧- يقول تعالى: فإنْ كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين، و اليهود و من شابههم، فقل: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ و هذا ترغيبٌ لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، و اتباع رسوله ﴿و لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيبٌ لهم في مخالفتهم الرسول خاتم النبيين، و كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ و قال: ﴿وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ و إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ و قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ و قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَ قَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ و قال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ * وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

١٤٨- هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، و شبهة تشبث بها المشركون في شركهم، و تحريم ما حرموا، فإن الله مطلع على ما هم فيه، من الشرك و التحريم لما حرموه، و هو قادرٌ على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، ويَحُول بيننا و بين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته و إرادته و رضاه منا بذلك، و لهذا قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿و قَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ الآية، و كذلك الآية التي في «النحل» مثل هذه سواء، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: بهذه الشبهة ضلَّ مَنْ ضل قبل هؤلاء، و هي حجةٌ داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، و دَمَّر عليهم، و أدال عليهم رسله الكرام، و أذاق المشركين من أليم الانتقام.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي: فتظهروه لنا وتبينوه و تبرزوه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: الوهم و الخيال، والمراد بالظن ههنا: الاعتقاد الفاسد ﴿و إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون على الله فيما ادعيتموه، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿و لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، وقال ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ثم قال ﴿وَ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ فإنهم قالوا: عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى، فأخبرهم الله أنها لا تقربهم، فقوله: ﴿وَ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ يقول تعالى: لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين.

و قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا

محمد ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أي: له الحكمة التامة، و الحجة البالغة، في هداية مَنْ هدى، و إضلال من ضل ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكل ذلك بقدرته، و مشيئته و اختياره، و هو مع ذلك يرضى عن المؤمنين، ويبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿و لو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾، و قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمنَ مَن في الأرضِ﴾، و قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. قال الضحاك: لاحجة لأحدٍ عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده. و قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ أي: أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ أي: هذا الذي حرّمتموه، و كذبتم و افتريتم على الله فيه ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: لأنهم إنما يشهدون و الحالة هذه، كذباً و زوراً ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يشركون به، و يجعلون له عديلاً.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾

١٥١ – قال ابن مسعود رضي الله عنه: مَنْ أراد أنْ ينظرَ إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً - إلى قوله - لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. و أما تفسيرها: فيقول تعالى لنبيه و رسوله محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، و حرّموا ما رزقهم الله، و قتلوا أولادهم، و كل ذلك فعلوه بآرائهم، و تسويل الشياطين لهم ﴿قل﴾ لهم ﴿تعالوا﴾ أي: هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقصُّ عليكم، و أخبركم بما حَرَّم ربكم عليكم حقاً، لا تخرصاً و لا ظناً، بل وحياً منه، و أمراً من عنده ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ و كأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: و أوصاكم ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ و لهذا قال في آخر الآية ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. و تقول العرب: أمرتك ألا تقوم.

و في الصحيحين: من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فبشّرني: أنه مَنْ مات لا يُشرك بالله شيئاً من أمتك، دخل الجنة» قلت: و إنْ زنى و إنْ سرق؟! قال: «و إنْ زنى و إنْ سرق» قلت: وإنْ زنى و إنْ سرق؟ قال: «و إنْ زنى و إن سرق» قلت: و إنْ زنى و إنْ سرق و إنْ شرب الخمر؟ قال: «و إنْ زنى وإنْ سرق و إنْ شرب الخمر». و في بعض الروايات أنَّ قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ و أنه عليه الصلاة و السلام قال في الثالثة: «و إنْ رغم أنفُ أبي ذر»، فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: «و إنْ رغم أنف أبي ذر».

و في بعض المسانيد و السنن: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني، فإني أغفرُ لك على ما كان منك و لا أُبالي، و لو أتيتني بقُراب الأرض خطيئةً، أتيتك بقرابها مغفرة مالم تشرك بي شيئاً، و إنْ أخطأت حتى تبلغَ خطاياك عنانَ السماء، ثم استغفرتني غفرت لك».

ولهذا شاهدٌ في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

وفي صحيح مسلم: عن ابن مسعود «مَنْ ماتَ لا يُشرك بالله شيئاً دخل الجنة». و الآيات و الأحاديث في هذا كثيرة جداً، و روى ابن مردويه من حديث عبادة و أبي الدرداء: «لا تشركوا بالله شيئاً، و إنْ قُطِّعتم أو صُلِّبتم أو حُرِّقتم» و رواه ابن أبي حاتم.

و قوله تعالى: ﴿و بالوالدين إحساناً﴾ أي: و أوصاكم و أمركم بالوالدين إحساناً، أي: أنْ تُحسنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿و قضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إياه و بالوالدين إحساناً﴾ و قرأ بعضهم «و وصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحساناً» أي: أحسنوا إليهم، والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته و بر الوالدين، كما قال: ﴿أنِ اشكرْ لي و لوالديك إليَّ المصير * و إنْ جاهداك على أن تُشرك بي ما ليس لك به علم فلا تُطعهما و صاحبهما في الدُّنيا معروفاً و اتّبعْ سبيل مَنْ أناب إليَّ ثمّ إليَّ مرجعكم فأُنبّئكم بما كُنتم تعملون﴾ فأمر بالإحسان إليهما، و إنْ كانا مشركين بحسبهما، وقال تعالى: ﴿و إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلاّ الله و بالوالدين إحساناً﴾ الآية، و الآيات في هذا كثيرة.

و في الصحيحين: عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أفضل؟ قال: «الصلاةُ على وقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله ﷺ و لو استزدته لزادني.

و روى ابن مردويه بسنده: عن أبي الدرداء و عن عبادة بن الصامت كل منهما يقول: أوصاني خليلي رسول الله ﷺ «أطعْ والديك، و إنْ أمراك أن تخرجَ لهما من الدنيا فافعل» و لكن في إسنادهما ضعف[1] و الله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿و لا تقتلوا أولادكم مِّنْ إملاقٍ نّحنُ نرزقكم و إيّاهم﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء و الأحفاد، فقال تعالى: ﴿و لا تقتلوا أولادكم مِّنْ إملاقٍ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم، كما سوَّلت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خشية العار، و ربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، و لهذا ورد في الصحيحين: من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنه سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أنْ تجعل لله نداً و قد خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتلَ ولدك خشية أن يَطعمَ معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تُزاني حليلة جارك»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿و الّذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر و لا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق و لا يزنون﴾ الآية.

و قوله تعالى: ﴿مِّنْ إملاقٍ﴾ قال ابن عباس و قتادة و السدي و غيره: هو الفقر، أي: و لا تقتلوهم من فقركم الحاصل، و قال في سورة الإسراء: ﴿و لا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ﴾ أي: لا تقتلوهم خوفاً من الفقر في الآجل، لهذا قال هناك: ﴿نّحنُ نرزقهم و إيّاكم﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم، فهو على الله، و أما هنا فلما كان الفقر حاصلاً، قال: ﴿نّحنُ نرزقكم و إيّاهم﴾ لأنه الأهم ههنا، و الله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿و لا تقربوا الفواحش ما ظهر منها و ما بطن﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ إنّما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها و ما بطن و الإثم و البغي بغير الحقّ و أن تُشركوا بالله ما لم يُنزّلْ به سلطاناً و أن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ و قد تقدم تفسيرها في قوله تعالى: ﴿و ذروا ظاهر الإثم و باطنه﴾.

(١) و قد قوّاه الشيخ الألباني رحمه الله في «الترغيب» بشواهده (٥٦٧ - ٥٦٨).

و في الصحيحين: عن ابن مسعودﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «لا أحدَ أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن». و قال سعد بن عبادة: لو رأيتُ مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مُصْفح، فبلغ ذلك رسول اللهﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟! فو الله، لأنا أغيرُ من سعد، و اللهُ أغيرُ منّي، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن»، أخرجاه.

و روى الترمذي: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين».

و قوله تعالى: ﴿و لاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ و هذا مما نص تبارك و تعالى عن النهي عنه تأكيداً، و إلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، فقد جاء في الصحيحين: عن ابن مسعودﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «لا يحلُّ دمُ امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، و أني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، النفس بالنفس، و التارك لدينه المفارق للجماعة» و في لفظ لمسلم «و الذي لا إله غيره، لا يحل دم رجل مسلم».

و عن أمير المؤمنين عثمان بن عفانﷺ أنه قال - و هو محصور - : سمعت رسول اللهﷺ يقول: «لا يحلُّ دمُ امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس» فو الله ما زنيتُ في جاهلية و لا إسلام، و لا تمنيتُ أن لي بديني بدلاً منه بعد إذ هداني الله، و لا قتلت نفساً، فبم تقتلونني؟! رواه الإمام أحمد و الترمذي و النسائي و ابن ماجه.

و قد جاء النهي و الزجر و الوعيد في قتل المعاهد، و هو: المستأمن من أهل الحرب، فروى البخاري: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: عن النبيﷺ مرفوعاً: «منْ قَتَلَ معاهداً، له ذمة الله و ذمة رسوله، فقد أخفَرَ بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، و إن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً» رواه ابن ماجه و الترمذي وقال حسن صحيح.

و قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: هذا مما وصاكم به ﴿لعلكم تعقلون﴾ عن الله أمره ونهيه.

﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) ﴾

١٥٢- عن ابن عباس قال: لما أنزل الله ﴿و لاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً﴾ الآية، فانطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، و شرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيُحبس له حتى يأكله و يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول اللهﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. رواه أبو داود.

و قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الشعبي و مالك و غير واحد من السلف: يعني حتى يحتلم.

و قوله تعالى: ﴿و أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ و الإعطاء، كما

توعد على تركه في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ و قد أهلك الله أمةً من الأمم، كانوا يبخسون المكيال و الميزان. و في الترمذي: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل و الميزان: «إنكم وُلِّيتم أمراً، هلكتْ فيه الأمم السابقة قبلكم» ثم قال لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسين و هو ضعيف في الحديث. و قد رُوي بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفاً.

و قوله تبارك و تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: من اجتهد في أداء الحق و أخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وُسْعه، و بذل جهده، فلا حرج عليه.

و قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ الآية، و كذا التي تشبهها في سورة النساء، يأمر تعالى بالعدل في الفعال و المقال، على القريب والبعيد، و الله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، في كل وقت، و في كل حال، و قوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قال ابن جرير: يقول: و بوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا، و إيفاء ذلك بأنْ تُطيعوه فيما أمركم و نهاكم، وتعلموا بكتابه و سنة رسوله، و ذلك هو الوفاء بعهد الله ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى: هذا أوصاكم به و أكّد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون و تنتهون مما كنتم فيه قبل هذا، و قرأ بعضهم بتشديد الذال، و آخرون بتخفيفها.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾

١٥٣ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ و في قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ و نحو هذا في القرآن، قال: أمرَ الله المؤمنين بالجماعة، و نهاهم عن الاختلاف و التفرقة، أخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء و الخصومات في دين الله، و نحو هذا قاله مجاهد و غير واحد. و روى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيلُ الله مستقيماً» و خطَّ عن يمينه و شماله، ثم قال: «هذه السُّبُل، ليس منها سبيل إلا عليه شيطانٌ يدعوا إليه» ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ وكذا رواه النسائي و الحاكم، ورُوي موقوفاً عليه: فروى ابن جرير أن رجلاً قال لا بن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أدناه، و طَرفه في الجنة، و عن يمينه جواد و عن يساره جواد، ثمَّ رجال يدعون من مَرَّ بهم، فمن أخذ في تلك الجواد، انتهت به إلى النار، و مَنْ أخذ على الصراط، انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ الآية.

و قد روي من حديث النواس بن سمعان نحوه، فروى الإمام أحمد: عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ضربَ الله مثلاً صراطاً مستقيماً، و عن جَنْبي الصراط سُوران فيهما أبوابٌ مفتحة، و على الأبواب ستورٌ مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً و لا تفرقوا، و داع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إنْ

تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، و السوران: حدود الله، و الأبواب المفتحة: محارم الله، و ذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، و الداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم» و رواه الترمذي والنسائي.

و قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ إنما وحّدَ سبيله لأن الحقَّ واحد، و لهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها، كما قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) ﴾

١٥٤ - قال ابن جرير ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تقديره: ثم قل يا محمد مخبراً عنَّا بأنا آتينا موسى الكتاب، بدلالة قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ قلت: وفي هذا نظر، و «ثم» ههنا إنما هي لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب ههنا.

و ههنا لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله: ﴿و أنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ عَطفَ بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ و كثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن و التوراة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَ رَحْمَةً وَ هَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً﴾ و قوله أول هذه السورة ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَ هُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ الآية، وبعدها ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ الآية، و قال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ و قال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ الآية.

و قوله تعالى: ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلاً﴾ أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً، جامعاً لما يحتاج إليه في شريعته، كقوله: ﴿و كَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية. و قوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: جزاء على إحسانه في العمل، و قيامه بأوامرنا و طاعتنا، كقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ و كقوله: ﴿و إِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ و كقوله: ﴿وجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ وقال الربيع بن أنس: أحسن فيما أعطاه الله. و قال قتادة: مَنْ أحسن في الدنيا، تَمَّم له ذلك في الآخرة. و اختار ابن جرير أن تقديره ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً﴾ على إحسانه، فكأنه جعل «الذي» مصدرية، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: كخوضهم.

و قال آخرون: «الذي» ههنا بمعنى «الذين» قال ابن جرير: و ذكر عبد الله بن مسعود أنه كان يقرؤها: «تماماً على الذي أحسنوا»، و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: على المؤمنين و المحسنين، و كذا قال أبو عبيدة، و قال البغوي: المحسنون الأنبياء و المؤمنون، يعني أظهرنا فضله عليهم. قلت: كقوله تعالى: ﴿قَالَ

يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي و بكلامي﴾ ، و لا يلزم اصطفاؤه على محمدﷺ خاتم الأنبياء، والخليل عليهما السلام ، لأدلة أخرى .

و قوله تعالى : ﴿و تفصيلاً لكلّ شيء وَ هُدًى وَ رَحمَةً﴾ فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه ﴿لعَلَّهُم بلِقَاء ربِّهِمْ يُؤمنونَ* و هذَا كتابٌ أنزلناهُ مُبارَكٌ فاتَّبعوهُ وَ اتقُوا لَعَلَّكُمْ تُرحَمُونَ﴾ فيه الدعوة إلى اتباع القرآن، يُرغِّب سبحانه عباده في كتابه ، و يأمرهم بتدبره ، و العمل به ، و الدعوة إليه ، و وصفه بالبركة لمن اتبعه ، وعَمِل به في الدنيا و الآخرة ، لأنه حَبْلُ الله المتين .

﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) ﴾

١٥٦ - قال ابن جرير : معناه : و هذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا ﴿إنّما أُنزلَ الكتابُ علَى طائفتَينِ مِن قَبلِنَا﴾ يعني : لينقطع عذركم ، كقوله تعالى : ﴿و لولا أنْ تُصيبَهُم مُّصيبَةٌ بما قدَّمتْ أيديهمْ لقَالُوا ربَّنا لَولاَ أرسلتَ إلينا رَسولاً فنَتّبعَ آياتكَ﴾ الآية . و قوله تعالى : ﴿علَى طائفتينِ مِن قَبلِنَا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم اليهود و النصارى ، و كذا قال مجاهد و السدي و قتادة و غير واحد . و قوله : ﴿و إن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي : و ما كنا نفهم ما يقولون ، لأنهم ليسوا بلساننا ، و نحن في غفلة و شغل مع ذلك عما هم فيه .

و قوله : ﴿أو تقُولُوا لَوْ أنَّا أُنزلَ علَينَا الْكتابُ لَكُنَّا أهْدَى مِنهُمْ﴾ أي : و قَطَعنا تعللكم أن تقولوا : لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم ، لكُنَّا أهدى منهم فيما أوتوه ، كقوله : ﴿و أقسمُوا باللهِ جَهْدَ أيمانِهمْ لئِن جاءهمْ نذيرٌ لَيكونُنَّ أهدَى مِنْ إحدَى الأُمَمِ﴾ الآية ، و هكذا قال ههنا : ﴿فقَدْ جاءَكُم بيِّنَةٌ مِّن رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ﴾ يقول : فقد جاءكم من الله على لسان محمدﷺ النبي العربي قرآن عظيم ، فيه بيانٌ للحلال و الحرام ، و هدى لما في القلوب ، و رحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ، و يقتفون ما فيه . و قوله تعالى : ﴿فمَنْ أظلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وَ صَدَفَ عَنهَا﴾ أي : لم ينتفع بما جاء به الرسول ، و لا اتبع ما أرسل به ، و لا ترك غيره ، بل صَدَف عن اتباع آيات الله ، أي : صَرَف الناس و صدَّهم عن ذلك ، قاله السدي ، و عن ابن عباس و مجاهد و قتادة ﴿وَصَدَفَ عَنهَا﴾ أعرض عنها ، و قول السدي ههنا فيه قوة ، لأنه قال : ﴿فمَنْ أظلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنهَا﴾ كما تقدم في أول السورة ﴿وَهُمْ يَنهَونَ عَنهُ وَ ينأَونَ عَنهُ وَ إن يُهلكُونَ إلاَّ أنفُسَهُمْ﴾ و قال تعالى : ﴿الذينَ كفرُوا وَ صَدُّوا عَن سَبيلِ الله زِدْناهُمْ عَذاباً فَوقَ العَذابِ﴾ ، وقال في هذه الآية الكريمة ﴿سَنجزِي الذينَ يَصْدِفونَ عَن آياتنَا سُوءَ الْعذَابِ بمَا كانُوا يَصدِفُونَ﴾ .

و قد يكون المراد فيما قاله ابن عباس و مجاهد و قتادة ﴿فمَنْ أظلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وَ صَدَفَ عَنهَا﴾ أي : لا آمن بها و لا عمل بها ، كقوله تعالى : ﴿فلا صدَّقَ و لا صَلَّى* ولَكن كَذَّبَ و تولَّى﴾ و غير ذلك من الآيات الدالة على اشتمال الكافر على التكذيب بقلبه ، و ترك العمل بجوارحه ، و لكن كلام السدي أقوى وأظهر ـ و الله أعلم ـ لأن الله قال : ﴿فمَنْ أظلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وَ صَدَفَ عَنهَا﴾ كقوله تعالى : ﴿الذينَ

كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ(١٥٨) ﴾

١٥٨ - يقول تعالى متوعداً للكافرين به ، و المخالفين لرسله ، و المكذبين آياته ، و الصادّين عن سبيله ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ و ذلك كائنٌ يوم القيامة ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا﴾ و ذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة و أشراطها ، كما روى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعةُ حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن مَنْ عليها» فذلك حين ﴿لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ .

و روى أيضاً «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمسُ من مغربها» و في لفظ «فإذا طلعتْ و رآها الناس آمنوا أجمعون ، و ذلك حين لا يَنفع نفساً إيمانها لم تكن آمنتْ من قبل» ثم قرأ هذه الآية . و رواه مسلم .

(حديث آخر) عن أبي ذر الغفاري في الصحيحين و غيرهما : قال : قال رسول الله ﷺ : «أتدري أين تذهبُ الشمسُ إذا غربت ؟» قلت : لا أدري ! قال : «إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدةً ، ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعي ، فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت» و ذلك حين ﴿لا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ .

(حديث آخر) عن حذيفة بن أسيد بن أبي شريحة الغفاري رضي الله عنه : روى الإمام أحمد بن حنبل : عنه قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة و نحن نتذاكر الساعة ، فقال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعةُ حتى تَروا عشر آياتٍ : طلوعَ الشمس من مغربها ، و الدُّخان ، و الدابّة ، و خروج يأجوج مأجوج ، و خروج عيسى ابن مريم ، و خروج الدجال ، وثلاثة خسوف : خسفٌ بالمشرق ، و خسفٌ بالمغرب ، و خسفٌ بجزيرة العرب ، ونارٌ تخرجُ من قعر عَدن تسوق أو تحشر الناس ، تَبيتُ معهم حيث باتوا ، و تَقيلُ معهم حيث قالوا» ! و هكذا رواه مسلم و أهل السنن الأربعة .

(حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو : روى الإمام أحمد عن عمرو بن جرير قال : جلس ثلاثة من المسلمين إلى مروان بالمدينة ، فسمعوه وهو يحدِّث عن الآيات ، يقول : إنَّ أولها خروج الدجال ، قال : فانصرفوا إلى عبد الله بن عمرو ، فحدثوه بالذي سمعوه من مروان في الآيات ، فقال : لم يقل مروان شيئاً ، حفظتُ من رسول الله ﷺ يقول : «إنَّ أول الآيات خروجاً : طلوع الشمس من مغربها ، و خروج الدابة ضحى ، فأيتهما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على أثرها» ثم قال عبد الله : و كان يقرأ الكتب ، و أظن أولها خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، و ذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش و سجدت ، و استأذنت في الرجوع فأذن لها في الرجوع ، حتى إذا بدا الله أن تَطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل : أتتْ تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع ، فلم يردّ عليها شيء ثم استأذنت في الرجوع فلا يرد عليها شيء ، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب ، و عرفت أنه إذا أُذِنَ لها في الرجوع لم تُدرك المشرق ، قالت : رب ما أبعد

المشرق ! مَنْ لي بالناس ؟ حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع ، فيقال لها : من مكانك فاطلعي ، فطلعت على الناس من مغربها ، ثم تلا عبد الله هذه الآية : ﴿**لاَ ينفعُ نفساً إيمانُها لَمْ تكُنْ آمنتْ مِن قَبْلُ**﴾ الآية .

و أخرجه مسلم في صحيحه و أبو داود و ابن ماجه .

(حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو و عبد الرحمن بن عوف و معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين : روى الإمام أحمد عن ابن السعدي : أنّ رسول الله ﷺ قال : «لا تنقطع الهجرة مادام العدو يُقاتل» فقال معاوية و عبد الرحمن بن عوف و عبد الله بن عمرو بن العاص : أن رسو ل الله ﷺ قال : «إنَّ الهجرةَ خصلتان : إحداهما تهجر السيئات ، و الأخرى تُهاجر إلى الله و رسوله ، و لاتنقطع ما تُقُبِّلت التوبة ، و لا تزال التوبة تقبل حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت طُبِعَ على كل قلبٍ بما فيه ، و كفِيَ الناس العمل» هذا الحديث حسن الإسناد ، و لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، و الله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿**لاَ ينفعُ نفساً إيمانُها لَمْ تكُنْ آمنتْ مِن قَبْلُ**﴾ أي : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ ، لا يُقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإنْ كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم ، و إن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تُقبل منه توبته ، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة ، و عليه يحمل قوله تعالى : ﴿**أو كسَبتْ في إيمانِها خَيراً**﴾ أي : و لا يقبل منها كسبُ عملٍ صالح ، إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك .

و قوله تعالى : ﴿**قُل انتظِروُا إنَّا مُنتَظِرونَ**﴾ تهديدٌ شديد للكافرين ، ووعيد أكيد ، لمن سوّف بإيمانه وتوبته ، إلى وقت لا ينفعه ذلك ، و إنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها ، لاقتراب الساعة ، وظهور أشراطها ، كما قال : ﴿**فهَلْ يَنظرُونَ إلاَّ السَّاعةَ أن تَأتِيَهُم بَغتَةً فَقَدْ جاءَ أشْراطُها فَأنَّى لَهُمْ إذا جاءَتهُمْ ذِكْراهم**﴾ ، وقوله تعالى : ﴿**فلمَّا رَأوْا بَأسنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشرِكينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانُهمْ لَمَّا رَأوْا بَأسَنَا**﴾ الآية .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** (١٥٩) ﴾

١٥٩- قال مجاهد و قتادة و الضحاك و السدي : نزلت هذه الآية في اليهود و النصارى ، و قال العوفي عن ابن عباس قوله : ﴿**الذينَ فَرَّقُوا دِينَهم وَ كانُوا شِيَعاً**﴾ و ذلك أن اليهود و النصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ فتفرقوا ، فلما بُعث محمد ﷺ ، أنزل الله عليه ﴿**إنَّ الذينَ فَرَّقُوا دِينَهم وَ كانُوا شِيَعاً لَّستَ مِنهُمْ في شَيءٍ**﴾ الآية ، وقال أبو غالب عن أبي أمامة في قوله : ﴿**وَ كانُوا شِيَعاً**﴾ قال : هم الخوارج ، و رُوي عنه مرفوعاً و لايصح .

و الظاهر أن الآية عامة في كل مَنْ فارق دين الله ، و كان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى و دين الحق ليُظهره على الدين كله ، و شرعه واحد لا اختلاف فيه و لا افتراق ، فمن اختلف فيه ﴿**و كانوا شيعاً**﴾ أي : فرقاً كأهل الملل و النحل ، و الأهواء و الضلالات ، فإنَّ الله تعالى قد برأ رسوله ﷺ مما هم فيه ، و هذه الآية كقوله تعالى ﴿**شَرَعَ لكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الذِي أوْحَينَا إليكَ**﴾ الآية .

و في الحديث : «نحن معاشر الأنبياء أولاد علاّت ديننا واحد» (١) فهذا هو الصراط المستقيم ، و هو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له ، و التمسُّك بشريعة الرسول المتأخر ، و ما خالف ذلك

---

(١) رواه مسلم في صحيحه

فضلالات وجهالات، و آراء و أهواء، و الرسل برآء منها، كما قال الله تعالى: ﴿لست منهم في شيء﴾.

و قوله تعالى: ﴿إنّما أمرُهم إلى اللهِ ثمّ يُنبئُهم بما كانوا يفعلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿إنّ الّذينَ آمنُوا و الّذينَ هادُوا و الصّابئينَ والنّصارَى و المَجُوسَ و الّذينَ أشركُوا إنّ اللهَ يَفصِلُ بينَهُمْ يومَ القِيامةِ﴾ الآية.

ثم بيَّن لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة، فقال تعالى:

﴿ مَن جاءَ بالْحَسَنَةِ فَلَهُ عشْرُ أمْثالِهَا وَمَن جاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾

١٦٠- و هذه الآية الكريمة مُفَصِّلة لما أُجمل في الآية الأخرى، و هي قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالحَسَنةِ فَلَهُ خيرٌ مِّنهَا﴾ و قد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما روى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللهﷺ قال فيما يروي عن ربه تبارك و تعالى: «إنَّ ربكم عز و جل رحيم، مَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلم يعملها، كُتبتْ له حسنة، فإنْ عملها كتبتْ له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة. و من هَمَّ بسيئة فلم يعملها، كتبتْ له حسنة، فإنْ عملها كتبتْ له واحدة، أو يمحوها الله عز وجل، و لا يهلك على الله إلا هالك» و رواه البخاري و مسلم والنسائي.

و روى أحمد أيضاً: عن أبي ذرؓ قال: قال رسول اللهﷺ: «يقول الله عز وجل مَنْ عَمِلَ حسنةً فله عشر أمثالها وأزيد، و من عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أغفر، و من عمل قُراب الأرض خطيئة، ثم لقيني لا يُشرك بي شيئاً، جعلت له مثلها مغفرة، و مَن اقتربَ إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً، و من اقتربَ إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، و من أتاني يمشي أتيته هرولة» و رواه مسلم.

و اعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله، فهذا تُكتب له حسنة علي كفّه عنها لله تعالى، و هذا عملٌ و نية، و لهذا جاء: أنه يُكتب له حسنة كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: «فإنما تركها مِنْ جرائي» أي: من أجلي، و تارة يتركها نسياناً و ذهولاً عنها، فهذا لا له ولا عليه، لأنه لم ينو خيراً، ولا فعل شراً، و تارة: يتركها عجزاً و كسلاً عنها، بعد السعي في أسبابها، والتلبس بما يقرب منها، فهذا بمنزلة فاعلها، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبيﷺ أنه قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله هذا القاتل؟ فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».

و روى ابن أبي حاتم: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: عن النبيﷺ قال: «يَحضر الجمعة ثلاثةُ نفر: رجلٌ حضرها يلغو فهو حظه منها، و رجل حضرها بدعاء، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه و إنْ شاء منعه، و رجل حضرها بإنصاتٍ و سكون، و لم يتخطَّ رقبةَ مسلم، و لم يؤذ أحداً فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها، و زيادة ثلاثة أيام» و ذلك لأن الله عز وجل يقول: ﴿مَن جاءَ بالحسنةِ فلهُ عشرُ أمثالِها﴾.

و عن أبي ذرؓ قال: قال رسول اللهﷺ: «مَنْ صام ثلاثة أيام من كل شهر، فقد صام الدهر كله» رواه الإمام أحمد وهذا لفظه، و النسائي و ابن ماجه و الترمذي، و زاد: فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه ﴿مَن جاءَ بالحسنةِ فلهُ عشرُ أمثالِها﴾ اليوم بعشرة أيام. و قال ابن مسعود ﴿مَن جاءَ بالحسنةِ فلهُ عشرُ أمثالِها﴾ من جاء بلا إله إلا الله، و من جاء بالسيئة، يقول: بالشرك. و هكذا جاء عن جماعة من السلف رضي الله عنهم أجمعين.

و الأحاديث و الآثار في هذا كثيرة جداً، و فيما ذكر كفاية إن شاء الله، و به الثقة.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾

١٦١ – يقول تعالى آمراً نبيه ﷺ سيد المرسلين، أن يخبر بما أنعم به عليه، من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه و لا انحراف ﴿ديناً قيماً﴾ أي: قائماً ثابتاً ﴿ملّة إبراهيم حنيفاً و ما كانَ مِن المُشركينَ﴾ كقوله ﴿وَ مَن يَرغَبُ عَن مِلَّةِ إبراهيمَ إلاّ مَن سَفِهَ نَفسَهُ﴾، و قوله: ﴿و جاهِدوا في اللهِ حقَّ جِهادِهِ هُو اجْتَباكُمْ و مَا جَعلَ عَليكُمْ في الدينِ مِنْ حرَجٍ مِلَّةَ أبيكُمْ إبراهيمَ﴾، و قوله: ﴿إنَّ إبراهيمَ كانَ أمَّةً قانِتاً للهِ حَنيفاً ولَمْ يَكُ مِنَ المُشركينَ * شاكِراً لأنعُمِهِ اجتَباهُ و هداهُ إلَى صراطٍ مُستقيمٍ * وَ آتيناهُ في الدُّنيا حَسنةً وَ إنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالحينَ * ثُمَّ أوحَينا إليكَ أنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ حَنيفاً وَ مَا كانَ مِنَ المُشرِكينَ﴾ و ليس يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفة، أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها، لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً، و أكملت له إكمالاً تاماً، لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال، و لهذا كان خاتم الأنبياء، و سيد ولد آدم على الإطلاق، و صاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق، حتى الخليل عليه السلام.

و قد روى ابن مردويه: عن ابن أبزى عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، و كلمة الإخلاص، و دين نبينا محمد، و ملة أبينا إبراهيم حنيفاً، و ما كان من المشركين».

و روى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الحنيفية السمحة».

و روى أحمد أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: وَضَعَ رسول الله ﷺ ذقني على منكبه، لأنظر إلى زَفْن الحبشة حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه. قال عروة إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لِتَعْلم يهودُ أن في ديننا فُسحة، إني أُرسلت بحنيفية سمحة» أصل الحديث مخرج في الصحيحين، و الزيادة لها شواهد من طرق عدة، و قد استقصيتُ طرقها في شرح البخاري، و لله الحمد و المنة.

١٦٣ – وقوله تعالى: ﴿قُلْ إنَّ صَلاتِي وَ نُسكِي وَ مَحيايَ و مَماتِي للهِ ربِّ العَالمينَ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، و يذبحون لغير الله، و يذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإنَّ صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، و هذا كقوله تعالى: ﴿فَصلِّ لربِّكَ وَ انْحَرْ﴾ أي: أخلص له صلاتك وذبحك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام، و يذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، و الإقبال بالقصد و النية و العزم على الإخلاص لله تعالى. قال مجاهد: النسك: الذبح في الحج والعمرة، و قال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير ﴿وَ نُسُكِي﴾ قال: ذبحي، وكذا قال السدي و الضحاك.

و قوله: ﴿و أنَا أوَّلُ المُسْلِمينَ﴾ قال قتادة: أي من هذه الأمة، وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، و أصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَ ما أرسَلْنا مِن قَبلِكَ مِن

رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إليهِ أنَّهُ لا إلهَ إلاَّ أنا فَاعبُدونِ﴾ ، و قد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه : ﴿فإنْ توليتُمْ فَمَا سَألتُكُم مِّن أجرٍ إنْ أجْرِيَ إلاَّ علَى اللهِ و أُمِرْتُ أنْ أكونَ مِنَ المُسلِمينَ﴾ و قال تعالى : ﴿و مَن يَرغَبُ عَن مِّلَّة إبراهيمَ إلاَّ مَن سَفِهَ نَفسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ في الدُّنيا وَ إنَّه في الآخِرةِ لَمِنَ الصَّالحينَ ❁ إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أسْلِمْ قَالَ أسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالمينَ ❁ ووَصَّى بها إبراهيمُ بَنيهِ وَ يعقوبُ يَا بَنِيَّ إنَّ اللهَ اصطفَى لكُم الدِّينَ فلاَ تَموتُنَّ إلاَّ و أنتُم مُّسلِمونَ﴾ وقال يوسف عليه السلام ﴿رَبِّ قَد آتيتَنِي مِنَ المُلكِ وَ عَلَّمتَنِي مِن تَأوِيلِ الأحاديثِ فاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ أنتَ وليِّي في الدُّنيا والآخِرةِ تَوفَّنِي مُسلِماً وَ أَلحِقنِي بالصَّالِحينَ﴾ ، و قال موسى ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعَلَيهِ تَوكَّلُوا إن كُنتُم مُّسلمينَ ❁ فَقالُوا علَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنا لاَ تَجعَلْنا فِتنَةً لِّلقَومِ الظَّالِمينَ ❁ و نَجِّنا برحمَتِكَ مِنَ القومِ الكافِرينَ﴾ وقال تعالى : ﴿إنَّا أنزلْنا التَّوراةَ فِيهَا هُدًى وَ نورٌ يَحكُمُ بها النَّبيُّونَ الَّذِينَ أسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ والأحْبَارُ﴾ الآية ، و قال تعالى : ﴿و إذْ أوحيتُ إلَى الحَوارِيِّينَ أنْ آمِنُوا بِي و بِرَسولِي قالُوا آمَنَّا واشْهَدْ بأنَّنا مُسلِمونَ﴾ فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ، و لكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة ، التي ينسخ بعضها بعضاً ، إلى أن نُسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تُنسخ أبد الآبدين ، و لا تزال قائمة منصورة ، وأعلامها منشورة ، إلى قيام الساعة .

و لهذا قال عليه السلام : «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلاَّت ديننا واحد» . فإنَّ أولاد العلات : هم الأخوة من أب واحد و أمهات شتى ، فالدين واحد ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، و إن تَنوَّعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات ، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا : بنو الأم الواحدة من آباء شتى ، و الأخوة الأعيان : الأشقاء : من أب واحد و أم واحدة ، و الله أعلم .

و قد روى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان إذا كبَّر استفتح ، ثم قال : «وَجَّهت وجهي للذي فَطَر السموات و الأرض ، حنيفاً مسلماً و ما أنا من المشركين ، إنَّ صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين ، لا شريك له و بذلك أمرت و أنا من المسلمين ، اللهم أنتَ المَلِكُ ، لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي و اعترفت بذنبي ، فاغفرلي ذنوبي جميعاً ، لا يغفر الذنوب إلا أنت ، و اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، و اصْرِفْ عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، تباركت و تعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك» ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع و السجود و التشهد ، و قد رواه مسلم في صحيحه .

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)﴾

١٦٤- يقول تعالى : ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله ، في إخلاص العبادة له ، و التوكل عليه : ﴿أغيرَ اللهِ أبغِي رَبًّا﴾ أي : أطلب رباً سواه ﴿وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيءٍ﴾ يُربيني و يحفظني و يكلؤني ، و يدبر أمري ، أي : لا أتوكل إلا عليه ، و لا أنيب إلا إليه ، لأنه ربُّ كل شيء و مليكه ، و له الخلق و الأمر . ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، و هذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن ، كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له : ﴿إياك نعبد و إياك نستعين﴾ ، و قوله :

﴿فاعبُدْهُ وَ تَوكَّلْ عليهِ﴾ وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحمنُ آمنَّا بِهِ وَ عليهِ توكَّلنَا﴾، و قوله: ﴿ربُّ المشرقِ و المَغربِ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكيلاً﴾ وأشباه ذلك من الآيات.

و قوله تعالى: ﴿و لا تكسِبُ كُلُّ نفسٍ إلاَّ عليهَا وَ لا تزرُ وازرةٌ وِزرَ أُخرَى﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة، في جزاء الله تعالى و حكمه و عدله، أن النفوس إنما تُجازى بأعمالها، إن خيراً فخيراً، و إن شراً فشراً، و أنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد، و هذا من عدله تعالى، كما قال: ﴿و إنْ تَدْعُ مُثقلةٌ إلى حِمْلها لاَ يُحمَلْ مِنهُ شيءٌ وَ لَوْ كانَ ذَا قُربَى﴾ و قوله تعالى: ﴿فلاَ يخافُ ظُلماً وَ لاَ هَضْماً﴾ قال علماء التفسير: أي فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره، و لا يهضم بأن ينقص من حسناته، و قال تعالى: ﴿كُلُّ نفسٍ بِمَا كَسبَتْ رهينَةٌ إلاَّ أصْحابَ اليَمينِ﴾ معناه: كل نفس مرتهنة بعملها السيء، إلا أصحاب اليمين، فإنه قد يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم و قراباتهم، كما قال في سورة الطور: ﴿و الذينَ آمنُوا و اتَّبعتْهُمْ ذُرِّيَّتُهم بإيمانٍ ألحَقنا بهِمْ ذُريتهُم وَ ما ألَتْنَاهُم مِّنْ عمَلِهِم مِّن شيءٍ﴾ أي: ألحقنابهم ذريتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، و إنْ لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، و ما ألتناهم، أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً، حتى ساويناهم، و هؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء، ببركة أعمالهم، بفضله و منته، ثم قال: ﴿كُلُّ امرئٍ بما كسبَ رهينٌ﴾ أي: من شر.

و قوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستُعرضون و نعرض عليه، و ينبئنا و إياكم بأعمالنا و أعمالكم، و ما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كقوله: ﴿قُل لاَّ تُسألُونَ عَمَّا أجرَمْنَا وَ لاَ نُسألُ عمَّا تعمَلُونَ ❖ قُلْ يَجمَعُ بَينَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفتَحُ بَينَنَا بِالحَقِّ وَ هُوَ الفَتَّاحُ العَليمُ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ(١٦٥)﴾

١٦٥- يقول تعالى: ﴿وَ هُوَ الذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئفَ الأرضِ﴾ أي: جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، و خلفاً بعد سلف. قاله ابن زيد و غيره، كقوله تعالى: ﴿و لَوْ نشاءُ لَجعَلْنَا مِنكُم مَّلاَئكةً في الأرضِ يَخلُفُونَ﴾، و كقوله تعالى: ﴿وَ يَجعَلُكُمْ خُلفاءَ الأرضِ﴾، و قوله ﴿إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً﴾ وقوله: ﴿عسَى رَبُّكُمْ أن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَستَخْلِفَكُمْ في الأرضِ فينظُرَ كَيفَ تَعمَلُونَ﴾ و قوله: ﴿وَ رفَعَ بَعضَكُم فَوقَ بَعضٍ دَرجَاتٍ﴾ أي: فاوتَ بينكم في الأرزاق، و الأخلاق و المحاسن، و المساوئ و المناظر، والأشكال والألوان، و له الحكمة في ذلك، كقوله تعالى: ﴿نحن قَسَمْنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بَعضَهُم فَوقَ بَعضٍ دَرجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعضُهم بَعضاً سُخرياً﴾ و قوله: ﴿انظُرْ كيفَ فَضَّلْنا بَعضَهُمْ عَلَى بعضٍ وَلَلآخِرَةُ أكبَرُ دَرجاتٍ و أكبَرُ تَفضِيلاً﴾.

و قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فيمَا آتاكُمْ﴾ أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم، و امتحنكم به، ليختبر الغني في غناه و يسأله عن شكره، و الفقير في فقره و يسأله عن صبره. و في صحيح مسلم: من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوةٌ خضرةٌ، و إن الله مستخلفكم فيها

فناظرٌ ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا و اتقوا النساء، فإنَّ أولَ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

و قوله تعالى: ﴿إنَّ رَبَّكَ سريعُ الْعِقَابِ و إنَّهُ لَغَفورٌ رَّحيمٌ﴾ ترهيبٌ و ترغيب، أن حسابه و عقابه سريع فيمن عصاه، و خالف رسله ﴿و إنَّهُ لَغَفورٌ رَّحيمٌ﴾ لمن والاه، و اتبع رسله فيما جاؤا به من خبر و طلب. و قال محمد بن إسحاق: ليرحم العباد على ما فيهم، رواه ابن أبي حاتم.

و كثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كقوله: ﴿و إنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ علَى ظُلْمِهِمْ و إنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ و قوله: ﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذابُ الأَلِيمُ﴾، إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب و الترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة، و صفة الجنة و الترغيب فيما لديه، و تارة يدعوهم إليه بالرهبة، وذِكر النار و أنكالها و عذابها، و القيامة و أهوالها، وتارة بهما لينجع في كلٍّ بحسبه، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر، و ترك ما عنه نهى و زجر، و صدَّقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب، سميع الدعاء، جواد كريم وهاب.

و قد روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة مرفوعاً أن رسول اللهﷺ قال: «لو يَعلم المؤمنُ ما عند الله من العقوبة، ما طمعَ بجنته أحدٌ، و لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قَنطَ أحدٌ من الجنة، خلق اللهُ مائة رحمةٍ، فوضع واحدةً بين خلقه يتراحمون بها، و عند الله تسعة و تسعون» و رواه مسلم و الترمذي.

و عنه أيضاً قال: قال رسول اللهﷺ: «لما خلقَ الله الخلق، كَتبَ في كتاب فهو عنده فوق العرش إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي». و عنه أيضاً قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «جَعلَ الله الرحمةَ مائةَ جزءٍ، فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءاً، و أنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تَتَراحم الخلائق، حتى ترفعَ الدابةُ حافرها عن ولدها، خشيةَ من أن تُصيبه» رواه مسلم.

ترتيبها ٧ — سورة الأعراف مكية — آياتها ٢٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓصٓ (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾

١ - قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف و بسطه، و اختلاف الناس فيه.

٢ - قوله: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتابٌ أنزل إليك، أي من ربك ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ قال مجاهد و قتادة و السدي: شك منه، و قيل: لا تتحرَّج به في إبلاغه و الإنذار به ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ و لهذا قال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أي: أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: اقتفوا آثار النبي الأمي، الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم، من رب كلِّ شيءٍ و مليكه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، و قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية، و قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) ﴾

٤ - يقول تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: بمخالفة رسلنا و تكذيبهم، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا، موصولاً بذلِّ الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ و كقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ و قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾. و قوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه و نقمته ﴿بَيَاتًا﴾ أي: ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ من القيلولة و هي الاستراحة وسط النهار، و كلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، و قال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۞ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۞ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

٥ - و قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: فما كان قولهم عند

مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، و أنهم حقيقون بهذا ، كقوله تعالى : ﴿وكمْ قصمْنَا من قريةٍ كانتْ ظالِمةً - إلى قوله - خَامِدِينَ﴾ .

و قوله : ﴿فلنسألنَّ الذينَ أُرسِلَ إليهمْ﴾ الآية ، كقوله ﴿و يومَ يُناديهمْ فيقولُ ماذا أجبْتُمُ المرسَلينَ﴾ وقوله : ﴿يومَ يَجمعُ اللهُ الرُّسُلَ فيقولُ ماذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لنا إنكَ أنتَ علامُ الغُيُوبِ﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة ، عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، و يسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته ، و لهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : ﴿فلنسألنَّ الذين أُرسِلَ إليهمْ و لنسألنَّ المُرسَلينَ﴾ قال : عما بَلَّغوا .

قال ابن عباس في قوله : ﴿فَلَنَقصَّنَّ عليهِمْ بعِلمٍ وَ مَا كُنَّا غَائِبينَ﴾ يُوضع الكتاب يوم القيامة ، فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وَ مَا كُنَّا غَائِبينَ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة ، بما قالوا و بما عملوا ، من قليل وكثير وجليل و حقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، و لا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين و ما تخفي الصدور ﴿و ما تَسقُطُ من وَرَقةٍ إلاّ يَعلمُهَا و لا حبّةٍ في ظُلماتِ الأرضِ و لا رَطْبٍ و لا يابسٍ إلاّ في كِتابٍ مُبينٍ﴾ .

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

٨ ، ٩- يقول تعالى : ﴿و الوزنُ﴾ أي : للأعمال يوم القيامة ﴿الحَقُّ﴾ أي : لا يظلم تعالى أحداً كقوله : ﴿ونَضَعُ الموازينَ القِسطَ ليوم القيامةِ فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً و إن كانَ مثقالَ حبّةٍ منْ خردلٍ أتَينا بها و كفَى بنَا حاسِبينَ﴾ وقال تعالى : ﴿إنَّ اللهَ لاَ يَظلِمُ مثقالَ ذرةٍ و إن تكُ حسنةً يُضاعِفهَا و يُؤتِ مِن لَدُنْهُ أجراً عَظيماً﴾ وقال تعالى : ﴿فأمّا مَن ثَقُلَتْ مَوازِينُه فَهو في عيشةٍ راضيةٍ * و أمّا مَنْ خَفّتْ موازينُه فأمُّه هاويةٌ * و ما أدراكَ ماهيه * نَارٌ حاميةٌ﴾ و قال تعالى : ﴿فإذا نُفِخَ في الصُّورِ فلاَ أنسَابَ بينَهُمْ يومَئذٍ ولاَ يتساءَلُونَ * فَمن ثقُلَتْ موازِينُه فَأولئكَ هُمُ المُفلِحونَ *وَ مَنْ خَفّتْ موازِينُهُ فأولئكَ الذينَ خَسِرُوا أنفُسَهمْ في جَهنّمَ خَالِدونَ﴾ .

(فصل) و الذي يوضع في الميزان يوم القيامة ، قيل : الأعمال و إن كانت أعراضاً ، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً ، قال البغوي : يروى نحو هذا عن ابن عباس ، كما جاء في الصحيح من أنَّ البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صوافّ . و من ذلك في الصحيح [(١)] قصة القرآن ، و إنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون ، فيقول : من أنت؟ فيقول : أنا القرآن الذي أسهرتُ ليلك وأظمأت نهارك . و في حديث البراء في قصة سؤال القبر «فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح ، فيقول : من أنت؟ فيقول أنا عملك الصالح» و ذكر عكسه في شأن الكافر و المنافق .

و قيل : يوزن كتاب الأعمال ، كما جاء في حديث البطاقة ، في الرجل الذي يُؤتى به و يُوضع له في كفة تسعة و تسعون سجلاً ، كل سجل مدّ البصر ، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها : لاإله إلا الله ، فيقول : يا رب ، و ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى : إنك لا تُظلم ، فَتُوضع تلك البطاقة في كِفة الميزان ، قال رسول الله ﷺ : «فَطَاشَتِ السجلات و ثقلت البطاقة» رواه الترمذي بنحو من هذا و صححه .

و قيل : يوزن صاحب العمل ، كما في الحديث : «يُؤتى يومَ القيامة بالرجل السمين ، فلا يَزِنُ عند الله

(١) الحديث ليس في الصحيح ! و إنما رواه ابن ماجه في سننه (٣٧٨١) .

جناح بعوضة» ثم قرأ: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لهمْ يومَ القيامةِ وَزناً﴾ . و في مناقب عبد الله بن مسعود أن النبيﷺ قال: «أتعجبونَ من دقّة ساقيه ، و الذي نفسي بيده ، لهما في الميزان أثقلُ من أُحد» . و قد يمكن الجمع بين هذه الآثار ، بأن يكون ذلك كله صحيحاً ، فتارة توزن الأعمال ، و تارة تُوزن محالّها ، و تارة يوزن فاعلها ، و الله أعلم .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) ﴾

١٠- يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكّن لهم ، من أنه جعل الأرض قراراً ، و جعل فيها رواسي وأنهاراً ، وجعل لهم فيها منازل و بيوتاً ، أباح لهم منافعها ، و سخّر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها ﴿مَعايِشَ﴾ ، أي: مكاسب و أسباباً ، يكسبون بها و يتّجرون فيها ، و يتسببون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليلُ الشكر على ذلك ، كقوله: ﴿و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ وقد قرأ الجميع: ﴿مَعايِشَ﴾ بلا همز ، إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، فإنه همزها ، و الصواب الذي عليه الأكثرون: بلا همز ، لأن ﴿مَعايِشَ﴾ جمع معيشة ، من عاش يعيش عيشاً ، و الياء أصلية في الكلمة ، بخلاف مدائن وصحائف ، فإن الياء فيها زائدة ، و لهذا تجمع على فعائل .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) ﴾

١١- ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام ، على شرف أبيهم آدم ، و يبيّن لهم عداوةَ عدوهم إبليس ، و ما هو منطو عليه من الحسد لهم و لأبيهم آدم ، ليحذروه و لا يتبعوا طرائقه ، فقال تعالى: ﴿و لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلملائكةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ ، و هذا كقوله تعالى: ﴿و إذْ قالَ رَبُّكَ لِلْملائكةِ إنّي خَالِقٌ بَشَراً مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسنُونٍ ❖ فَإذَا سَوّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ و ذلك أنه تعالى لما خلق آدمعليه السلام بيده ، من طين لازب ، وصوّره بشراً سوياً ، و نفخ فيه من روحه ، أمرَ الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى و جلاله ، فسمعوا كلهم و أطاعوا ، إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، و قد تقدّم الكلام على إبليس في أول سورة البقرة ، و هذا الذي قررناه ، هو اختيار ابن جرير ، أن المراد بذلك كله آدمعليه السلام .

و روى الثوري عن ابن عباس ﴿و لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ قال: خُلقوا في أصلاب الرجال ، وصوّروا في أرحام النساء ، رواه الحاكم و قال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ، و نقل ابن جرير عن بعض السلف أيضاً: أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية .

و قال الربيع بن أنس و السدي و قتادة و الضحاك في هذه الآية ﴿و لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية ، وهذا فيه نظر ! لأنه قال بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلملائكةِ اسجُدُوا لآدمَ﴾ فدل على أن المراد بذلك آدم ، و إنما قيل ذلك بالجمع ، لأنه أبو البشر ، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبيﷺ ﴿وَظَلّلْنا عَليكُم الغمامَ و أنزَلْنَا عليكُم المَنَّ و السَّلْوَى﴾ و المراد بالآباء آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى ، ولكن لما كان ذلك منّةً على الآباء ، الذين هم أصلٌ ، صار كأنه واقع على الأبناء ، و هذا بخلاف قوله: ﴿و لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية ، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة ، و ذريته

مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد في خلقنا الإنسان الجنس لا معيناً، و الله أعلم.

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾

١٢- قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن لا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لا هنا زائدة، و قال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر: «ما إن رأيت و لا سمعت بمثله» فأدخل «إن» و هي للنفي على «ما» النافية لتأكيد النفي، قالوا و كذا هنا ﴿مَا مَنَعَكَ أَن لا تَسْجُدَ﴾ مع تقدم قوله: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ حكاهما ابن جرير وردهما، و اختار أن «منعك» مضمن معنى فعل آخر، تقديره: ما أحرجك و ألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك، و نحو هذا. و هذا القول قوي حسن، و الله أعلم.

و قول إبليس لعنه الله ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة، لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله: و أنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خُلق من نار، و النار أشرف مما خلقتَه منه، وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر، و لم ينظر إلى التشريف العظيم، و هو أن الله تعالى خلق آدم بيده، و نفخ فيه من روحه، و قاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فشذ من بين الملائكة لترك السجود، فلهذا أبلس من الرحمة، أي: أيس من الرحمة، فأخطأ - قبحه الله - في قياسه و دعواه: أن النار أشرفُ من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم، و الأناة و التثبت، و الطين محل النبات، و النمو و الزيادة و الإصلاح، و النار من شأنها الإحراق، والطيش و السرعة، ولهذا خان إبليس عنصره، و نفع آدم عنصره بالرجوع و الإنابة، و الاستكانة والانقياد، والاستسلام لأمر الله، و الاعتراف و طلب التوبة و المغفرة.

و في صحيح مسلم: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلقَتْ الملائكة من نُور، وخُلق إبليس من مَارج من نار، و خُلق آدم مما وصف لكم». و روى ابن جرير: عن الحسن في قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس. إسناده صحيح. و روى عن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، و ما عُبِدَتْ الشمس و القمر، إلا بالمقاييس. إسناده صحيح أيضاً.

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) ﴾

١٣- يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدري كوني ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: بسبب عصيانك لأمري، وخروجك عن طاعتي ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾و. قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها، في الملكوت الأعلى ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: الذليلين الحقيرين معاملةً له بنقيض قصده، و مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين، و سأل النظرة إلى يوم الدين، قال:

١٤- ﴿أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة و المشيئة، التي لا تخالف و لا تمانع، و لا معقب لحكمه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

١٦ - يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ و استوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فبما أغويتني لأقعدنّ لهمْ صراطَكَ المُستقيمَ﴾ أي: كما أغويتني. قال ابن عباس: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكتني، لأقعدنّ لعبادك الذين تخلقهم، من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه، على ﴿صراطكَ المُستَقيمَ﴾ أي: طريق الحق، و سبيل النجاة، و لأضلنهم عنها لئلا يعبدوك و لا يوحدوك، بسبب إضلالك إياي. وقال بعض النحاة: الباء هنا قسمية، كأنه يقول: فبإغوائك إياي، لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

قال مجاهد: يعني: الحق، و قال عون بن عبد الله: يعني طريق مكة، قال ابن جرير: الصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك.

(قلت) لما روى الإمام أحمد: عن سبرة بن أبي فَاكِه قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «إنَّ الشيطان قَعَدَ لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم و تذر دينك و دين آبائك، قال: فعصاه و أسلم، قال: و قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتُهاجر و تَدع أرضكَ و سماءك، و إنما مثل المهاجرين كالفرس في الطِّوَل، فعصاه و هاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس و المال، فقال: تقاتل فتقتل فتنكح المرأة و يقسم المال، قال: فعصاه و جاهد» و قال رسول اللهﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، و إنْ قُتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، و إنْ غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وَقَصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

و قوله: ﴿ثم لآتينّهم مِن بينِ أيديهمْ و مِنْ خَلفِهمْ﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لآتينّهم مِن بينِ أيديهمْ﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿و مِنْ خَلفِهمْ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿و عَنْ أيمَانِهمْ﴾ أُشبِّه عليهم أمر دينهم ﴿و عَنْ شَمائِلهمْ﴾ أشهّي لهم المعاصي. و قال ابن أبي طلحة في رواية، و العوفي، كلاهما عن ابن عباس: أما من بين أيديهم، فمن قِبل دنياهم و أما من خلفهم فأمر آخرتهم، و أما عن أيمانهم فمن قِبل حسناتهم، و أما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم.

و قال قتادة: أتاهم من بين أيديهم، فأخبرهم أنه لا بعث و لا جنة و لا نار، و من خلفهم من أمر الدنيا فزيّنها لهم، و دعاهم إليها، و عن أيمانهم من قِبل حسناتهم بطّأهم عنها، و عن شمائلهم زيّنَ لهم السيئات والمعاصي، و دعاهم إليها، و أمرهم بها، آتاك يا ابن آدم من كل وجهٍ، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك و بين رحمة الله. و كذا روى عن إبراهيم النخعي و الحكم بن عتيبة و السدي و ابن جريج، إلا أنهم قالوا: ﴿مِن بينِ أيديهمْ﴾ الدنيا، ﴿و مِنْ خَلفِهمْ﴾ الآخرة، و قال مجاهد: ﴿مِن بينِ أيديهمْ﴾ ﴿وَعَنْ أيمَانِهمْ﴾، من حيث يبصرون، ﴿وَمِن خلفهمْ﴾ ﴿وَعَنْ شَمائلِهمْ﴾ حيث لا يبصرون، واختار ابن جرير: أن المراد جميع طرق الخير و الشر، فالخير يصدهم عنه، و الشر يحسنه لهم. و قال عكرمة عن ابن عباس: لم يقل: من فوقهم لأن الرحمة تنزل من فوقهم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و لا تجدُ أكثرَهمْ شاكِرينَ﴾ قال: موحدين، و قول إبليس هذا إنما هو ظنٌّ منه و توهم، و قد وافق في هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿و لقدْ صدَّقَ عَليهمْ إبليسُ ظنَّه فاتَّبَعوهُ إلا فريقاً من المُؤمِنينَ ❁ و ما كان لهُ عليهم من سُلطانٍ إلا لِنعلمَ من يؤمنُ بالآخرةِ ممنْ هوَ منهَا فِي شكٍّ و ربُّكَ على كُلِّ شيءٍ حَفيظ﴾ و لهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان، من جهاته كلها. كما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمر يقول: لم يكن رسول الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الدعوات حين يُصبح وحين يمسي: «اللهم إني أسألك العافية، في الدنيا و الآخرة، اللهم إني أسألك العفو و العافية، في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي و آمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، و عن يميني و عن شمالي، و من فوقي، و أعوذ بعظمتك أنْ أُغتال من تحتي» قال وكيع: من تحتي: الخسف. ورواه أبو داود والنسائي و ابن ماجه و ابن حبان و الحاكم.

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴾

١٨- أكد تعالى عليه اللعنة و الطرد و الإبعاد و النفي، عن محل الملأ الأعلى بقوله: ﴿اخرج منها مذءوماً مدحوراً﴾ قال ابن جرير: أما المذءوم فهو المعيب، و الذأم غير مشدّد العيب، يقال ذأمه ذأماً فهو مذءوم، ويتركون الهمز فيقولون: ذمته أذيمه ذيماً و ذاماً، والذام و الذيم أبلغ في العيب من الذم، قال: والمدحور المُقْصى و هو المبعد المطرود. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما نعرف المذءوم و المذموم إلا واحداً، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: صغيراً مقيتاً، و قال السدي: مقيتاً مطروداً، و قال قتادة: لعيناً مقيتاً، و قال مجاهد: منفياً مطروداً.

و قوله تعالى: ﴿لمن تَبِعكَ منهمْ لأملأنَّ جهنَّمَ مِنكمْ أجمَعينَ﴾ كقوله: ﴿قالَ اذْهبْ فمَن تَبِعكَ منهمْ فإنَّ جهنَّمَ جزاؤُكمْ جزاءً موفوراً ❁ و استَفزِزْ مَنِ استَطعْتَ منهمْ بِصوتِكَ و أجْلِبْ عَليهمْ بخيْلِكَ و رَجِلِكَ وشَارِكْهمْ فِي الأموالِ و الأولادِ و عِدْهمْ و مَا يَعِدُهُم الشَّيطانُ إلا غُرُوراً ❁ إنَّ عِبادي ليسَ لكَ عليهمْ سُلطانٌ وكفَى بربِّكَ وكيلاً﴾.

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) ﴾

١٩، ٢٠- يذكر تعالى أنه أباح لآدم ﷺ و لزوجته حوّاء الجنة، أن يأكلا منها من جميع ثمارها، إلا شجرة واحدة، و قد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة، فعند ذلك حسدهما الشيطان، و سعى في المكر والوسوسة و الخديعة، ليسلبهما ما هما فيه من النعمة و اللباس الحسن ﴿وقال﴾ كذباً و افتراء ﴿مَا نهاكُما ربُّكمَا عنْ هذهِ الشَّجرَةَ إلا أنْ تكونَا مَلَكين﴾ أي: لئلا تكونا ملكين أو خالدين ههنا و لو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿قالَ يَا آدمُ هلْ أدُلُّكَ علَى شجرةِ الخُلْدِ و مُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾ أي: لئلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يُبيِّنُ اللهُ لكُم أنْ تَضِلُّوا﴾ أي: لئلا تضلوا ﴿و ألقَى فِي الأرضِ رواسيَ أن تميدَ بِكمْ﴾ أي: لئلا تميد

بكم، و كان ابن عباس و يحيى بن أبي كثير يقرآن ﴿إلا أن تكونا مَلِكين﴾ بكسر اللام، و قرأه الجمهور بفتحها.

٢١- ﴿و قاسمهما﴾ أي: حلفَ لهما بالله ﴿إني لكما من الناصحين﴾ فإني مِنْ قَبْلكما ههنا، و أعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة، و المراد أحد الطرفين. أي: حلف لهما بالله على ذلك، حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله. و قال قتادة في الآية: حلف بالله إني خُلقت قبلكما، و أنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما. و كان بعض أهل العلم يقول: مَنْ خدَعَنا بالله انخدعنا له.

﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾

٢٢- عن الحسن عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان آدم رجلاً طُوالاً كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة، بدتْ له عورته عند ذلك، و كان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة، فقال لها: أرسليني، فقالت: إني غير مرسلتك، فناداه ربه عز وجل: يا آدم، أمنّي تفر؟ قال: يا رب إني استحييتك. و قد رواه ابن جرير و ابن مردويه من طرق عن الحسن عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ مرفوعاً، و الموقوف أصح إسناداً.

و روى الثوري: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قال: ورق التين. صحيح إليه. و قال مجاهد: جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قال: كهيئة الثوب. و قال وهب بن منبه: كان لباس آدم و حوّاء نوراً على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما. رواه ابن جرير بسند صحيح إليه. وروى عبد الرزاق: عن قتادة قال: قال آدم: أي رب، أرأيتَ إنْ تُبتُ و استغفرتُ؟ قال: إذاً أُدخلك الجنة، و أما إبليس فلم يسأله التوبة، و سأله النظرة، فأعطَى كل واحد منهما الذي سأله. و روى ابن جرير: عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة، قيل له: لم أكلتَ من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً، و لا تضع إلا كرهاً، قال: فرنَّتْ عند ذلك حواء، فقيل لها: الرنة عليك و على ولدك.

و قال الضحاك بن مزاحم في قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ هي: الكلمات التي تَلَقَّاها آدم من ربه.

﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾

٢٤- قيل المراد بالخطاب في ﴿اهبطوا﴾ آدم و حواء و إبليس و الحية، و منهم من لم يذكر الحية، والله أعلم. والعمدة في العداوة: آدم و إبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه قال: ﴿اهبطا منها جميعاً﴾ الآية، وحواء تَبَعٌ لآدم، و الحية إنْ كان ذكرها صحيحاً فهي تبعٌ لإبليس، و قد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كلٌّ منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، و الله أعلم بصحتها، و لو كان في تعيين تلك البقاع

فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه، أو رسولهﷺ.

و قوله: ﴿ولكمْ فِي الأرضِ مُستقرٌ و مَتاعٌ إلَى حِينٍ﴾ أي: قرار و أعمار مضروبة، إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم، و أحصاها القدر، وسُطرت في الكتاب الأول. و قال ابن عباس ﴿مُستقرٌ﴾: القبور، وعنه قال: ﴿مُستقرٌ﴾ فوق الأرض و تحتها. رواهما ابن أبي حاتم.

و قوله: ﴿قالَ فِيها تَحيَوْنَ و فيهَا تموتُونَ و مِنها تُخرجُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مِنهَا خَلقْناكمْ و فِيهَا نُعيدُكُمْ ومِنها نُخرِجُكُم تَارةً أُخرَى﴾ يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم، و فيها مماتهم و قبورهم، و منها نشورهم ليوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين و الآخرين، و يجازي كلاً بعمله.

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) ﴾

٢٦- يمتن الله تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس و الريش، فاللباس: ستر العورات، و هي: السوآت، و الرياش و الريش: ما يُتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، و الريش من التكملات والزيادات. قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب الأثاث، و ما ظهر من الثياب. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس و حكاه البخاري عنه: الريش المال. و هكذا قال مجاهد و عروة بن الزبير و السدي و الضحاك وغير واحد.

و قوله تعالى: ﴿و لِباسُ التَّقْوَى ذلكَ خيرٌ﴾ قرأ بعضهم: و لباسَ التقوى بالنصب، و قرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، و ﴿ذلكَ خيرٌ﴾ خبره. و اختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم، و قال زيد بن علي و السدي و قتادة و ابن جريج: ﴿وَ لِباسُ التَّقْوَى﴾: الإيمان، وقال العوفي عن ابن عباس: العمل الصالح، وعن عروة بن الزبير: خشية الله، و كلها متقاربة.

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾

٢٧- يحذر تعالى بني آدم من إبليس و قبيله، مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدمعليه السلام، في سعيه في إخراجه من الجنة، التي هي دار النعيم، إلى دار التعب و العناء، و التسبب في هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه، و ما هذا إلا عن عداوة أكيدة، و هذا كقوله تعالى: ﴿أفَتَتَّخِذُونَه و ذُرِّيَّتَه أولياءَ مِن دُونِي وهمْ لكمْ عَدُوٌ بِئسَ للظَّالِمينَ بَدَلاً﴾.

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠)﴾

٢٨- قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضع المرأة على قُبُلها النِّسْعة أو الشيء، و تقول:

اليوم يَبدو بعضُه أو كلُّه و ما بدا منه فلا أُحلّه

فأنزل الله: ﴿وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيهَا آبَاءَنَا و اللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية. قلت: كانت العرب ـ ما عدا قريشاً ـ لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك: أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها! وكانت قريش ـ و هم الحُمْس ـ يطوفون بالبيت في ثيابهم، و من أعاره أحمسى ثوباً طاف فيه، و من معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملَّكه أحدٌ، و من لم يجدْ ثوباً جديداً و لا أعاره أحمسي ثوباً، طاف عرياناً، و ربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر، فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كلُّه و ما بدا منه فلا أُحلّه

و أكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، و كان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستندٌ إلى أمر من الله و شرع! فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيهَا آبَاءَنَا و اللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لمن ادّعى ذلك ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، و الله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: أتُسندون إلى الله من الأقوال مالا تعلمون صحته؟!

٢٩- و قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل و الاستقامة ﴿وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات، فيما أخبروا به عن الله، و ما جاءوا به من الشرائع، و بالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين، أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، و أن يكون خالصاً من الشرك.

و قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ إلى قوله ﴿الضَّلاَلَةُ﴾ اختلف في معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يحييكم بعد موتكم، و قال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء. و قال قتادة: بدأ فخلقهم و لم يكونوا شيئاً، ثم ذهبوا ثم يعيدهم. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخراً. و اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، و أيده بما رواه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حُفاةً عُراةً غُرْلا، كما بدأنا أول خلقٍ نُعيده، وعداً علينا إنا كنا فاعلين» و هذا الحديث مخرج في الصحيحين.

و عن مجاهد ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يبعث المسلمُ مسلماً، و الكافرُ كافراً. و قال أبو العالية ﴿كَمَا بَدأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: رُدُّوا إلى علمه فيهم. و قال سعيد بن جبير: كما كُتب عليكم تكونون. وفي رواية: كما

كنتم عليه تكونون. و قال محمد بن كعب القرظي: مَن ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل السعادة، و من ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه، و إن عمل بأعمال أهل الشقاء، كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتدؤا عليه.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً و كافراً، كما قال: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾** ثم يعيدهم يوم القيامة، كما بدأ خلقهم مؤمناً و كافراً.

(قلت): ويتأيد هذا القول: بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فو الذي لا إله غيره، إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه و بينها إلا باعٌ أو ذراع، فيَسبقُ عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، و إنَّ أحدَكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه و بينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة». و روى أبو القاسم البغوي: عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العبدَ لَيعملُ فيما يرَى الناس بعمل أهل الجنة، و إنه من أهل النار، و إنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار، و هو من الجنة، و إنما الأعمال بالخواتيم» هذا قطعة من حديث البخاري في قصة قزمان يوم أحد. و روى ابن جرير: عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «تُبعَثُ كل نفسٍ على ما كانت عليه» و هذا الحديث رواه مسلم و ابن ماجه ولفظه: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» و عن ابن عباس مثله. **(قلت)**: و يتأيد بحديث ابن مسعود.

(قلت): و لا بد من الجمع بين هذا القول ـ إنْ كان هو المراد من الآية ـ و بين قوله تعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطرتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيهَا﴾** و ما جاء في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه». و في صحيح مسلم: عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجْتالتهم عن دينهم» الحديث. و وجه الجمع على هذا: أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن، و كافر في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته و توحيده، و العلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك، وجعله في غرائزهم و فطرهم، و مع هذا قدَّر أن منهم شقياً و منهم سعيداً **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾**. و في الحديث: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها». و قَدرُ اللهِ نافذٌ في بريّته، فإنه هو **﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾** و **﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾**. و في الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسَيُيسَّر لعمل أهل السعادة، و أما من كان من أهل الشقاوة، فسَيُيسَّر لعمل أهل الشقاوة».

٣٠- و لهذا قال تعالى: **﴿فَرِيقاً هَدَى و فَرِيقاً حَقَّ عَلَيهِمُ الضَّلالةُ﴾** ثم علل ذلك، فقال: **﴿إِنَّهُم اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَولِيَاءَ مِن دُونِ اللهِ﴾**.

قال ابن جرير: وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها، أو ضلالة اعتقدها، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عناداً منه لربه فيها، لأنه لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة ـ الذي ضل وهو يحسب أنه مهتد ـ و فريق الهدى فرقٌ، و قد فرّق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية.

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾

٣١- هذه الآية الكريمة ردٌّ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عُراة، كما رواه مسلم والنسائي و ابن جرير و اللفظ له، عن ابن عباس قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال و النساء و الرجال بالنهار، والنساء بالليل، و كانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضُه أو كُلُّه و ما بدا منه فلا أُحله

فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُم عندَ كُلِّ مَسجدٍ﴾. و قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عندَ كُلِّ مَسجدٍ﴾ الآية، قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة، و الزينة: اللباس، و هو ما يُواري السوأة، و ما سوى ذلك من جيد البز و المتاع، فأُمِروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد. وهكذا قال مجاهد و عطاء و إبراهيم النخعي و سعيد بن جبير و قتادة و السدي و الضحاك و مالك عن الزهري، و غير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة، و لهذه الآية و ماورد في معناها من السنة، يستحب التجمل عند الصلاة، و لا سيما يوم الجمعة و يوم العيد، و الطِّيب: لأنه من الزينة، والسواك: لأنه من تمام ذلك، و من أفضل اللباس البياض، كما روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، و كَفِّنوا فيها موتاكم، و إنَّ خير أكحالكم الأثمد، فإنه يجلو البصر، و يُنبت الشعر» هذا حديث جيد الإسناد رجاله على شرط مسلم، ورواه أبو داود والترمذي و ابن ماجه. و روى الطبراني بسند صحيح: أن تميماً الداري اشترى رداء بألف، وكان يصلي فيه.

و قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الآية، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسرِفُوا﴾. و قال البخاري: قال ابن عباس: كُلْ مَاشئتَ، و البس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرفٌ و مخيلة. وروى ابن جرير: عن ابن عباس قال: «أحلَّ الله الأكل و الشرب، مالم يكن سَرَفاً أو مخيلة» إسناده صحيح، و روى الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا والبسوا و تصدقوا، من غير مخيلةٍ و لا سرفٍ، فإنَّ الله يُحب أن يرى نعمته على عبده» ورواه النسائي و ابن ماجه. و روى الإمام أحمد: عن المقدام بن معديكرب العبدي قال: سمعت رسول الله يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، حسبُ ابن آدم أكلاتٍ يُقمن صُلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلثٌ لطعامه، و ثُلثٌ لِشرَابِهِ، و ثُلثٌ لِنفَسِهِ» و رواه النسائي و الترمذي.

و قال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عُراة، يحرّمون عليهم الودك، ما أقاموا في الموسم، فقال الله تعالى لهم: ﴿كُلوا وَاشرَبُوا﴾ الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم. و قال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَلاَ تُسرِفُوا﴾ يقول: ولا تأكلوا حراماً، ذلك الإسراف. و قال ابن جرير: و قوله: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحبُّ المُسرِفينَ﴾ يقول الله تعالى: إن الله لا يحب المعتدين حدَّه في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل الله أو حرّم، بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، و لكنه يجب أن يُحلّل

ما أحل، و يُحرِّم ما حرَّم، و ذلك العدل الذي أمر به.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) ﴾

٣٢- يقول تعالى رداً على من حَرَّم شيئاً من المآكل أو المشارب أو الملابس، من تلقاء نفسه من غير شرع من الله، قل يا محمد لهؤلاء المشركين، الذين يحرّمون ما يحرّمون بآرائهم الفاسدة و ابتداعهم ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الآية، أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله، و عَبَده في الحياة الدنيا، و إن شَرَكهم فيها الكفار، حسّاً في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحدٌ من الكفار، فإنَّ الجنة محرمة على الكافرين.

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾

٣٣- روى الإمام أحمد: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحدَ أغيرُ من الله، فلذلك حَرَّم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن، و لا أحد أحبُّ إليه المدح من الله» أخرجاه في الصحيحين. و تقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها و ما بطن في سورة الأنعام. و قوله: ﴿و الإثم و البغي بغير الحق﴾ قال السدي: أما الإثم: فالمعصية، و البغي: أن تبغي على الناس بغير الحق. و قال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، و أخبر أن الباغي بغيه على نفسه. و حاصل ما فُسّر به الإثم: أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، و البغي: هو التعدي إلى الناس، فحرم الله هذا و هذا. و قوله تعالى: ﴿و أنْ تُشركُوا بالله مالم يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ أي: تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعلَمُونَ﴾ من الافتراء و الكذب، من دعوى أن له ولداً، و نحو ذلك مما لا علم لكم به، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ الآية.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) ﴾

٣٤- يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: قرن و جيل ﴿أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: ميقاتهم المقدر لهم ﴿لاَيستأخِرُونَ ساعةً و لاَ يَستَقدِمونَ﴾.

٣٥- ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته، و بشّر و حذّر، فقال: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المحرمات و فعَل الطاعات ﴿فَلاَ خوفٌ عليهمْ و لاهُمْ يَحزنُونَ ❁ و الذينَ كذَّبُوا بآياتِنا واستَكبَرُوا عنهَا﴾ أي: كذبت بها قلوبهم، و استكبروا عن العمل بها ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي: ماكثون فيها مكثاً مخلدا.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا

جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

٣٧- يقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله، أو كذّب بآياته المنزلة ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقال العوفي: ينالهم ما كتب لمن كذب على الله، أن وجهه مسوداً. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: نصيبهم من الأعمال: من عمل خيراً جُزي به، و من عمل شراً جزي به. و قال مجاهد: ما وعدوا به من خير وشر. و كذا قال قتادة و الضحاك و غير واحد، و اختاره ابن جرير.

و قال محمد بن كعب القرظي ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾: عمله و رزقه و عمره، و كذا قال الربيع بن أنس و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. و هذا القول قوي في المعنى، و السياق يدل عليه، و هو قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾. و يصير المعنى في هذه الآية، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۞ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، و قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ الآية.

و قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ الآية، يخبر تعالى: أن الملائكة إذا توفّت المشركين تقرعهم عند الموت، و قبض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا، وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله، ادعوهم يخلصونكم مما أنتم فيه، قالوا ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا عنا، فلا نرجوا نفعهم و لا خيرهم ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أقروا و اعترفوا على أنفسهم ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

٣٨- يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه، المكذبين بآياته ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي: من أمثالكم، و على صفاتكم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله ﴿فِي أُمَمٍ﴾ و يحتمل أن يكون ﴿فِي أُمَمٍ﴾ أي: مع أمم.

وقوله ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال الخليل عليه السلام ﴿ثم يوم القيامة يَكْفُر بعضكم ببعض﴾ الآية، و قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾. وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً﴾ أي: اجتمعوا فيها كلهم ﴿قالت أخراهم لأولاهم﴾ أي: أخراهم دخولاً، وهم: الأتباع لأولاهم، و هم: المتبوعون، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ

الذينَ أضَلُّونا فآتِهِمْ عذاباً ضِعفاً مِّنَ النَّارِ﴾ أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَومَ تُقلَّبُ وُجوهُهُمْ في النَّارِ يقُولونَ يَا لَيتَنا أطَعْنا اللهَ وأطَعْنا الرَّسُولاَ * وَ قَالُوا رَبَّنا إنَّا أطعْنا سَادَتَنَا وَ كُبَراءَنا فَأضَلُّونَا السَّبِيلاَ * رَبَّنا آتِهِمْ ضِعفَينِ مِنَ العَذابِ﴾ الآية.

و قوله: ﴿قالَ لِكُلٍّ ضِعفٌ﴾ أي: قد فعلنا ذلك، و جازينا كلا بحسبه، كقوله: ﴿الذينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْناهُمْ عَذاباً﴾ الآية، و قوله: ﴿وَ لَيَحمِلُنَّ أثقالَهُمْ وَ أثقالاً مَعَ أثقالِهِمْ﴾، و قوله: ﴿وَمِنْ أوزارِ الذينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيرِ عِلمٍ﴾ الآية.

٣٩- ﴿و قالَتْ أُولاهُمْ لأُخراهُمْ﴾ أي: قال المتبوعون للأتباع ﴿فَمَا كانَ لَكُمْ عَلَينَا مِن فَضلٍ﴾ قال السدي: قد ضللتم كما ضللنا ﴿فَذُوقُوا العَذابَ بِما كُنتُم تَكسِبُونَ﴾. و هذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم، في قوله: ﴿ولوتَرَى إذ الظالمون مَوقُوفونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرجِعُ بَعضُهُمْ إلَى بَعضٍ القَولَ يقولُ الذينَ استُضعِفُوا لِلَّذينَ استَكبَرُوا لَولاَ أنتُم لَكُنَّا مُؤمِنينَ * قالَ الذينَ استَكبَرُوا لِلَّذينَ استُضعِفُوا أنَحْنُ صددناكم عن الهُدَى بعد إذْ جاءكم بل كنتم مُجرمين * و قالَ الذينَ استُضعِفُوا للذين استَكبَرُوا بَلْ مَكرُ اللَّيلِ و النَّهارِ إذْ تَأمُرونَنا أن نَكفُرَ باللهِ وَ نجعلَ لَهُ أنداداً وَ أسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رأوُا العذابَ وَ جعلنَا الأغلالَ في أعناقِ الذينَ كفَرُوا هَلْ يُجزَونَ إلاَّ مَا كَانُوا يَعمَلونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)﴾

٤٠- قوله: ﴿لا تُفَتَّحُ لهمْ أبوابُ السَّماءِ﴾ قيل المراد: لا يرفع لهم منها عمل صالح و لا دعاء، قاله مجاهد وسعيد بن جبير، و رواه العوفي و علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. و قيل: المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء، رواه الضحاك عن ابن عباس، و قاله السدي و غير واحد. و يؤيده ما رواه ابن جرير عن البراء: أن رسول الله ﷺ ذَكَرَ قبضَ روح الفاجر، و أنه يُصعد بها إلى السماء، فيصعدون بها فلا تمر على ملأٍ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لا تُفَتَّحُ لهمْ أبوابُ السَّماءِ﴾ الآية، هكذا رواه و هو قطعة من حديث طويل، رواه أبو داود و النسائي و ابن ماجه.

و قد رواه الإمام أحمد بطوله عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر و لمّا يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ و جلسنا حوله، كأن على رءوسنا الطير، و في يده عود يَنكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر- مرتين أو ثلاثاً- ثم قال: إنَّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا و إقبال إلى الآخرة، نَزَلَ إليه ملائكةٌ من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، و حَنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله و رضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عين، حتى

يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، و في ذلك الحنوط ، و يخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة ، إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها ، إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، و أعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم و فيها أعيدهم و منها أخرجهم تارة أخرى ، قال : فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : مَنْ ربك؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : ما دينك؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ ، فيقولان له : و ما علمك؟ فيقول : قرأت كتاب الله ، فآمنت به و صدقت ، فينادي مناد من السماء : أنْ صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، و ألبسوه من الجنة ، و افتحوا له باباً إلى الجنة ، فيأتيه من رَوحها و طيبها ، ويفسح له في قبره مد البصر ، قال : و يأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي و مالي ، قال : و إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا و إقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سُود الوجوه معهم المُسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى سخط من الله و غضب ، قال : فتفرق في جسده فينتزعها ، كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يجعلوها في تلك المسوح ، و يخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة ، إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يُسمي بها في الدنيا ، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا ، فيُستفتح فلا يُفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿لاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السماءِ و لا يَدْخُلُونَ الجنَّةَ حتَّى يلِجَ الجملُ في سَمِّ الخِياطِ﴾** فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجّين ، في الأرض السفلى ، فتُطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ **﴿و من يُشرِكْ باللهِ فكأنَّما خَرَّ من السماءِ فتَخطَفُه الطَّيرُ أَو تَهوي بهِ الرِّيحُ في مكانٍ سَحيقٍ﴾** فتعاد روحه في جسده ، و يأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فيقولان : ما دينك؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء : أن كَذَبَ عبدي ، فأفرشوه من النار ، و افتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها و سمومها ، و يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، و يأتيه رجلٌ قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوءك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : ربِّ لا تقم الساعة».

و قد قال ابن جريج في قوله : **﴿لا تُفَتَّحُ لهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ﴾** لا تفتح لأعمالهم و لا لأرواحهم ، و هذا فيه جمع بين القولين ، و الله أعلم.

و قوله تعالى : **﴿و لا يدْخلُونَ الجَنَّةَ حتَّى يلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ﴾** هكذا قرأه الجمهور ، و فسروه بأنه : البعير. قال ابن مسعود : هو الجمل ابن الناقة ، و في رواية : زوج الناقة. و قال الحسن البصري : حتى

يدخل البعير في خرق الإبرة. و كذا قال أبو العالية و الضحاك، و كذا روى علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس. و قال مجاهد و عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقرؤها ﴿يلج الجُمَّل في سم الخياط﴾ بضم الجيم وتشديد الميم، يعني: الحبل الغليظ في خرق الإبرة. و هذا اختيار سعيد بن جبير، و في رواية: يعني قلوس السفن، وهي الحبال الغلاظ.

٤١- و قوله: ﴿لَهُم مِن جهَنَّم مِهادٌ﴾ قال محمد بن كعب القرظي ﴿مِهاد﴾ قال: الفرش ﴿و مِن فَوقِهِم غَواش﴾ قال: اللحف، و كذا قال الضحاك بن مزاحم و السدي ﴿و كذلكَ نَجزي الظَّالِمين﴾.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾

٤٢- لما ذكر تعالى حال الأشقياء، عطف بذكر حال السعداء فقال ﴿وَ الذينَ آمَنُوا و عَمِلُوا الصَّالحات﴾ أي: آمنت قلوبهم، و عملوا الصالحات بجوارحهم، ضد ﴿أُولئكَ الذينَ كفرُوا بآياتِ اللهِ و استكبَرُوا عنهَا﴾ وينبه تعالى: على أن الإيمان و العمل به سهل، لأنه تعالى قال: ﴿لا نُكلِّف نَفساً إلا وُسعَها أولئكَ أصحَابُ الجَنةِ هُمْ فيهَا خَالدونَ ❖ و نَزعْنا مَا في صُدورِهِم مِّنْ غِلّ﴾ أي: من حَسَد و بغض، كما جاء في صحيح البخاري: من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار، حُبسوا على قنطرة بين الجنة و النار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا و نقوا، أُذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسي بيده إنَّ أحدَهم بمنزله في الجنة، أدلّ منه بمسكنه كان في الدنيا».

و قال قتادة: قال علي رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا و عثمان و طلحة و الزبير، من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿و نَزعْنَا ما في صُدورهم مِّن غِلّ﴾. رواه ابن جرير. و روى عبد الرزاق عن الحسن يقول: قال علي: فينا و الله أهل بدر نزلت ﴿و نَزَعْنَا ما في صُدورهم مِّن غِلّ﴾[1].

و روى النسائي و ابن مردويه و اللفظ له: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أهلِ الجنة يَرَى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكراً و كل أهل النار يَرَى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني فيكون له حسرة».

و لهذا لما أُورثوا مقاعد أهل النار من الجنة، نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون، أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة، فدخلتم الجنة و تبوّأتم منازلكم بحسب أعمالكم. و إنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين: عنه ﷺ أنه قال: «و اعلموا أنَّ أحدكم لن يُدخله عملُه الجنة» قالوا: و لا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أنْ يتغمدني الله برحمةٍ منه و فضل».

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ

(١) الأثران رجالهما ثقات، لكن في سماع قتادة و الحسن عن علي رضي الله عنه نظر، و الله أعلم.

حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)﴾

٤٤- يخبر تعالى بما يخاطب أهل الجنة به أهل النار، على وجه التقريع و التوبيخ، إذا استقروا في منازلهم، ﴿أنْ قَد وجَدْنَا ما وَعدَنَا ربُّنا حقاً﴾ «أن» ههنا مفسرة للقول المحذوف، و «قد» للتحقيق، أي: قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا: نعم، كما أخبر تعالى في سورة الصافات، عن الذي كان له قرين من الكفار ﴿فاطَّلَعَ فرآه في سَوَاءِ الجحيم * قال تاللهِ إن كِدتَ لَتُردِين * ولَو لا نعمة ربي لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى و ما نحن بمعذبين﴾ أي: يُنكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا، و يقرعه بما صار إليه من العذاب و النكال، و كذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم ﴿هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبصِرُونَ * اصْلَوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيكُمْ إنَّما تُجزَوْنَ مَا كُنتمْ تعمَلونَ﴾.

و كذلك قرّع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر، فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، و يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة ـ و سمّى رؤوسهم ـ هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقا» و قال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جيَّفوا! فقال: «و الذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»[(١)].

و قوله تعالى: ﴿فأذَّنَ مُؤذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أعلم معلم، و نادى مناد ﴿أن لَعنَةُ اللهِ على الظَّالِمينَ﴾ أي: مستقرة عليهم.

٤٥- ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً﴾ أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله و شرعه، و ما جاءت به الأنبياء، و يبغون أن يكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرونَ﴾ أي: و هم بلقاء الله في الدار الآخرة ﴿كافِرُونَ﴾ أي: جاحدون مكذبون بذلك، لا يصدقونه و لا يؤمنون به، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول و العمل، لأنهم لا يخافون حساباً عليه و لا عقاباً، فهم شر الناس أقوالاً و أعمالاً.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)﴾

٤٦- لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبّه أن بين الجنة و النار حجاباً، و هو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة، قال ابن جرير: و هو السور الذي قال الله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بينهمْ بسُورٍ لهُ بابٌ باطنُهُ فيهِ الرَّحمةُ و ظاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَاب﴾ و هو الأعراف الذي قال الله تعالى: ﴿و على الأعرافِ رجالٌ﴾ ثم روى بإسناده: عن السدي أنه قال في قوله تعالى: ﴿و بَينَهُمَا حِجابٌ﴾ هو: السور، و هو الأعراف، و قال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة و النار، سور له باب، قال ابن جرير: و الأعراف جمع

(١) الحديث في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما.

عُرْف ، و كل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عُرفاً ، و إنما قيل لعرف الديك عُرفاً : لارتفاعه (ثم روى) عن عبد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول : الأعراف هو الشيء المشرف . و في رواية عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : الأعراف : تَلٌّ بين الجنة و النار ، حُبس عليه ناسٌ من أهل الذنوب بين الجنة و النار ، و في رواية عنه : هو سور بين الجنة والنار ، وكذا قال الضحاك و غير واحد من علماء التفسير ، و قال السدي : إنما سمى الأعراف أعرافاً ، لأن أصحابه يعرفون الناس .

و اختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف : من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو : أنهم قومٌ استوت حسناتهم و سيئاتهم ، نصَّ عليه حذيفة و ابن عباس و ابن مسعود ، و غير واحد من السلف والخلف رحمهم الله .

و روى ابن جرير : عن حذيفة أنه سُئل عن أصحاب الأعراف؟ فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، و خلفت بهم حسناتهم عن النار ، قال : فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم .

و قوله تعالى : ﴿يَعرفونَ كلاً بِسِيماهمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : يَعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، و أهل النار بسواد الوجوه . و كذا روى الضحاك عنه ، و قال العوفي عن ابن عباس : أنزلهم الله تلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة و النار ، و ليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ، و يتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم في ذلك يُحيُّون أهل الجنة بالسلام ، لم يدخلوها و هم يطمعون أن يدخلوها ، وهم داخلوها إن شاء الله . و كذا قال مجاهد و الضحاك و السدي و الحسن و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم . و قال معمر عن الحسن أنه تلا هذه الآية ﴿لَمْ يدخلُوهَا و هُمْ يَطمَعُونَ﴾ قال : و الله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم ، إلا لكرامة يريدها بهم . و قال قتادة : قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع .

٤٧- و قوله : ﴿و إذا صُرِفتْ أبْصارُهمْ تِلقاءَ أصْحابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لاَ تَجْعلنَا مَعَ القومِ الظَّالِمينَ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار ، و عرفوهم ، قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . و قال السدي : و إذا مروا بهم ـ يعني بأصحاب الأعراف ـ بزمرة يُذهب بها إلى النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . و قال عكرمة : تحدد وجوههم للنار ، فإذا رأوا أصحاب الجنة ، ذهب ذلك عنهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿و إذا صُرِفتْ أبصارُهمْ تلقاءَ أصحابِ النارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة ، و أعينهم مزرقة ﴿قالُوا ربَّنا لاَ تَجعلْنا مَعَ القَومِ الظَّالِمينَ﴾ .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

٤٨- يقول الله تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف ، لرجال من صناديد المشركين و قادتهم ، يعرفونهم في النار بسيماهم ﴿مَا أغنَى عنكمْ جَمعُكمْ﴾ أي : كثرتكم ﴿وَ ما كُنتمْ تَستكبِرونَ﴾ أي : لا ينفعكم كثرتكم و لا جموعكم من عذاب الله ، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب و النكال .

٤٩- ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني أصحاب الأعراف ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم و لا أنتم تحزنون﴾.

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين (٥٠) الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون (٥١)﴾

٥٠- يخبر تعالى عن ذلة أهل النار، و سؤالهم أهل الجنة من شرابهم و طعامهم، و أنهم لا يجابون إلى ذلك. قال السدي ﴿أو مما رزقكم الله﴾ يعني: الطعام. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم، و عن سعيد بن جبير في هذه الآية، قال: يُنادي الرجل أباه أو أخاه، فيقول له: قد احترقت فأفض علي من الماء، فيقال لهم: أجيبوهم، فيقولون: ﴿إن الله حرمهما على الكافرين﴾ و قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ﴿إن الله حرمهما على الكافرين﴾ يعني: طعام الجنة و شرابها.

٥١- ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا، باتخاذهم الدين لهواً و لعباً، و اغترارهم بالدنيا وزينتها و زخرفها، عما أُمروا به من العمل للآخرة، و قوله ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أي: يعاملهم معاملة من نسيهم، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء، و لا ينساه، كما قال تعالى ﴿في كتاب لا يضل ربي و لا ينسى﴾ و إنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كقوله: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ و قال: ﴿كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ و قال تعالى ﴿و قيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: نتركهم، كما تركوا لقاء يومهم هذا، و قال مجاهد: نتركهم في النار، و قال السدي: نتركهم من الرحمة، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا، و في الصحيحين: أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أُزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أُسخر لك الخيل و الإبل و أذرك تَرأس و تَربع؟ فيقول: بلى، فيقول: أظننتَ أنك مُلاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني»(١).

﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون (٥٢) هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٥٣)﴾

٥٢- يقول تعالى مخبراً عن إعذاره إلى المشركين، بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، و أنه كتاب مفصل مبين، كقوله: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت﴾ الآية، و قوله: ﴿فصلناه على علم﴾ للعالمين، أي: على علم منا بما فصلناه به، كقوله: ﴿أنزله بعلمه﴾ قال ابن جرير: و هذه الآية مردودة على قوله: ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ الآية، ﴿و لقد جئناهم بكتاب﴾ الآية، و هذا الذي قاله فيه نظر! فإنه قد طال الفصل، و لا دليل عليه، و إنما الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عللهم في الدنيا بإرسال الرسل، و إنزال الكتب، كقوله: ﴿و ما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ و لهذا قال: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي: ما وُعدوا به من العذاب و النكال، و الجنة و النار، قاله

(١) رواه مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مجاهد و غير واحد. وقال مالك: ثوابه. و قال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمرٌ، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، و أهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ.

و قوله: **﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾** أي: يوم القيامة. قاله ابن عباس **﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾** أي: تركوا العمل به، و تناسوه في الدار الدنيا **﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾** أي: في خلاصنا مما صرنا إليه، و مما نحن فيه **﴿أَوْ نُرَدُّ﴾** إلى الدنيا **﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾** كقوله: **﴿وَ لَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** كما قال ههنا: **﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار، و خلودهم فيها **﴿وَ ضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله، فلا يشفعون فيهم، و لا ينصرونهم، و لا ينقذونهم مما هم فيه.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾

٥٤- يخبر تعالى أنه خالق العالم، سمواته و أرضه، و ما بين ذلك، في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، و الستة أيام هي: الأحد و الاثنين و الثلاثاء و الأربعاء و الخميس و الجمعة، و فيه اجتمع الخلق كله، و فيه خلق آدم ﷺ. و اختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام؟ كما هو المتبادر إلى الأذهان، أو كل يوم كألف سنة؟ كما نص على ذلك مجاهد، و الإمام أحمد بن حنبل، و يروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس. فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، و منه سمي السبت، و هو: القطع.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «خَلَقَ اللهُ التربةَ يوم السبت، و خلق الجبال فيها يوم الأحد، و خلق الشجر فيها يوم الاثنين، و خلق المكروه يوم الثلاثاء، و خلق النور يوم الأربعاء، و بَثَّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل» فقد رواه مسلم في صحيحه و النسائي من غير وجه. و فيه استيعاب الأيام السبعة، و الله تعالى قد قال: **﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾** و لهذا تكلم البخاري و غير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، ليس مرفوعاً، و الله أعلم[1].

و أما قوله تعالى: **﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾** فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، و إنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، مالك و الأوزاعي و الثوري و الليث بن سعد والشافعي و أحمد و إسحاق بن راهويه، و غيرهم من أئمة المسلمين قديماً و حديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف و لا تشبيه، ولا تعطيل، و الظاهر المتبادر إلى أذهان المُشبِّهين منفي عن الله، فإن الله

---

(١) الحديث صحيح لا مطعن فيه، و لا يخالف القرآن، لأن الحديث يبين كيفية الخلق على الأرض وحدها، و نص القرآن في خلق السماوات و الأرض و مابينهما. و راجع تعليق العلامة الألباني على المشكاة (٥٧٣٤) و الصحيحة (١٨٣٣).

لا يُشبهه شيء من خلقه ، و ليس كمثله شيء ﴿وَ هوَ السَّميعُ البَصيرُ﴾ بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي ـ شيخ البخاري ـ قال : مَنْ شَبَّهَ الله بخلقه كَفَرَ ، و مَن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه و لا رسوله تشبيه .

فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة ، والأخبار الصحيحة ، على الوجه الذي يليق بجلال الله ، و نفى عن الله تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى .

و قوله تعالى : ﴿يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ يَطلُبُهُ حَثِيثاً﴾ أي : يذهبُ ظلام هذا بضياء هذا ، و ضياء هذا بظلام هذا ، و كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، أي : سريعاً لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا ، و عكسه ، كقوله : ﴿و آيةٌ اللَّيلِ نَسلَخُ مِنهُ النَّهارَ فإذا هُم مُظلِمُونَ * و الشَّمسُ تَجري لِمُستقرٍّ لَها ذلكَ تَقديرُ العَزيزِ العَليم * والقَمرَ قدَّرناهُ مَنازِلَ حتَّى عادَ كالعُرجونِ القَديم * لا الشَّمسُ يَنبَغِي لهَا أن تُدرِكَ القَمرَ و لاَ اللَّيلُ سابقُ النَّهارِ وكُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحونَ﴾ فقوله : ﴿و لا اللَّيلُ سابقُ النَّهارِ﴾ أي : لا يفوته بوقت يتأخر عنه ، بل هو في أثره بلا واسطة بينهما ، و لهذا قال : ﴿يطلبُهُ حَثِيثاً و الشَّمسَ و القَمرَ و النُّجومَ مُسَخَّراتٍ بأمرِهِ﴾ منهم من نصب ومنهم من رفع ، و كلاهما قريب المعنى ، أي : الجميع تحت قهره و تسخيره و مشيئته ، و لهذا قال منبهاً ﴿ألا له الخلق و الأمر﴾ أي : له الملك و التصرف ﴿تباركَ اللهُ ربُّ العالَمينَ﴾ كقوله : ﴿تباركَ الذِي جعَلَ في السَّماءِ بُروجاً﴾ الآية .

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾

٥٥- أرشد تبارك و تعالى عباده إلى دعائه ، الذي هو صلاحهم في دنياهم و أخراهم ، فقال : ﴿ادعُوا ربَّكمْ تَضرُّعاً و خُفيةً﴾ قيل : معناه تذللاً و استكانة ، كقوله : ﴿و اذكُر ربَّكَ في نفسِكَ﴾ الآية ، وفي الصحيحين : عن أبي موسى الأشعري قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول اللهﷺ : «أيها الناس اربَعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ و لا غائباً ، إن الذي تدعونه سميع قريب» الحديث ، وقال عطاء الخراساني [1] عن ابن عباس في قوله : ﴿تَضرُّعاً و خُفيَةً﴾ قال : السر . و قال : ابن جرير : ﴿تَضرُّعاً﴾ تذللاً واستكانة لطاعته ، ﴿و خُفيَةً﴾ يقول : بخشوع قلوبكم ، و صحة اليقين بوحدانيته و ربوبيته ، فيما بينكم و بينه ، لا جهاراً و لا مراءاةً . و عن الحسن قال : إنْ كان الرجلُ لقد جمع القرآن و ما يشعر به الناس ، و إنْ كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير و ما يشعر به الناس ، و إن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته ، و عنده الزوار و ما يشعرون به ، و لقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عملٍ يقدرون أن يعملوه في السر ، فيكون علانيته أبداً ، لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، و ما يُسْمع لهم صوتٌ ، إن كان إلا همساً بينهم و بين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ادعُوا ربَّكمْ تَضرُّعاً و خُفيَةً﴾ و ذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً ، رضي فعله ، فقال : ﴿إذ نادَى ربَّهُ نِداءً خَفِيّاً﴾ .

و قال ابن جريج : يُكْرَه رفع الصوت و النداء و الصياح في الدعاء ، و يؤمر بالتضرع و الاستكانة . ثم

(١) روايته عن ابن عباس مرسلة .

روى عن عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء، و لا في غيره، و قال أبو مجلز ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا يسأل منازل الأنبياء.

و روى أحمد: عن مولى لسعد: أن سعداً سمع ابناً له يدعو و هو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها، و نحواً من هذا، و أعوذ بك من النار و سلاسلها و أغلالها، فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوّذت به من شر كثير، و إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء» و في لفظ «يعتدون في الطهور و الدعاء» و قرأ هذه الآية ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً﴾ الآية، و إنَّ بحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنةَ و ما قرَّب إليها من قول أو عمل، و أعوذ بك من النار و ما قرب إليها من قول أو عمل. و رواه أبوداود.

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مغفل نحوه. و هكذا رواه ابن ماجه و أبو داود، و هو إسناد حسن لا بأس به، و الله أعلم.

٥٦- و قوله تعالى: ﴿و لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، و ما أضره بعد الإصلاح، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضر ما يكون على العباد، فنهى تعالى عن ذلك، و أمر بعبادته و دعائه و التضرع إليه، والتذلل لديه، فقال: ﴿وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ أي: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، و طمعا فيما عنده من جزيل الثواب، ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: إن رحمته مرصدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامره، و يتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿و رحمتي وسِعتْ كُلَّ شيءٍ فَسأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية. و قال: قريب، و لم يقل: قريبة، لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال قريب من المحسنين. و قال مطر الوراق: استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴾

٥٧- لما ذكر تعالى أنه خالق السموات و الأرض، و أنه المتصرف الحاكم المدبّر المسخر، و أرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر، نبه تعالى على أنه الرزاق، و أنه يعيد الموتى يوم القيامة، فقال: ﴿و هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نشراً﴾ أي: منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، و منهم من قرأ ﴿بُشْراً﴾، كقوله: ﴿وَ مِنْ آياته أنْ يُرسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ﴾ و قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رحْمتِه﴾ أي: بين يدي المطر، كما قال: ﴿و هوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِن بَعدِ ما قَنَطُوا و يَنشُرُ رحمَتَهُ و هوَ الوَلِيُّ الحميدُ﴾ و قال: ﴿فانظُرْ إِلَى آثارِ رحمةِ اللهِ كيفَ يُحيي الأرضَ بَعدَ مَوتِها إنَّ ذلكَ لَمُحيِي الْمَوتَى و هُوَ على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ و قوله: ﴿حتَّى إِذَا أقلَّتْ سحاباً ثِقالاً﴾ أي: حملت الرياح سحاباً ثقالاً، أي: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة.

و قوله: ﴿سقناه لبلد ميت﴾ أي: إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها، كقوله: ﴿و آية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾ الآية، و لهذا قال: ﴿فأخرجنا به من كلّ الثمرات كذلك نخرج الموتى﴾ أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميماً يوم القيامة، يُنزل الله سبحانه و تعالى ماءً من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها، كما ينبت الحب في الأرض، و هذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها، و لهذا قال: ﴿لعلّكم تذكّرون﴾.

و قوله: ﴿و البلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربّه﴾ أي: و الأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كقوله: ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾. ﴿و الذي خبث لا يخرج إلاّ نكداً﴾ قال مجاهد و غيره: كالسِّباخ و نحوها. و قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن و الكافر.

و روى البخاري: عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى و العلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقيَّةٌ قبلتْ الماء، فأنبتت الكلأ و العشب الكثير، و كانت منها أجادب أمسكتِ الماء، فنفع اللهُ بها الناسَ، فشربوا و سقوا و زرعوا، و أصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماءً و لا تنبت كلأً، فذلك مثل مَنْ فَقُه في دين الله، و نفعه ما بعثني الله به، فعلمَ و علَّم، ومثل مَنْ لم يَرفع بذلك رأساً، و لم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به» رواه مسلم و النسائي.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) ﴾

٥٩ـ لمّا ذكر الله تعالى قصة آدم في أول السورة، و ما يتعلق بذلك و ما يتصل به، و فرغ منه، شَرَعَ تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح ﷺ، فإنه أولُ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم ﷺ، و قد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

قال عبد الله بن عباس و غير واحد من علماء التفسير: و كان أول ما عُبدتْ الأصنام، أو قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد، و صَوَّروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم و عبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان، جعلوا أجساداً على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسمّوها بأسماء أولئك الصالحين: وَدّاً و سواعاً و يغوثَ و يعوقَ و نسراً، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى ـ و له الحمد و المنَّة ـ رسوله نوحاً، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: ﴿يا قوم اعبُدُوا اللهَ مالكم مِن إلهٍ غيرُهُ إنّي أخافُ عليكمْ عذابَ يوم عظيم﴾ أي: من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله و أنتم مشركون به.

٦٠ ـ ﴿قالَ الملأُ مِن قومِه﴾ أي: الجمهور و السادة و القادة و الكبراء منهم ﴿إنّا لنراكَ في ضلالٍ مُبين﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام، التي وجدنا آباءنا عليها، و هكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار في ضلالة، كقوله: ﴿و إذا رأوهمْ قالُوا إنّ هؤلاءِ لضالّونَ﴾، ﴿و قال الذينَ كفرُوا للذينَ آمنُوا لَو كانَ خيراً ما سبقُونا إليهِ و إذْ لمْ يهتدُوا بهِ فسيَقُولونَ هذا إفكٌ قديم﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

٦١- ﴿قالَ يا قومِ ليسَ بي ضلالةٌ و لكنّي رسولٌ ربِّ العالَمينَ﴾ أي: ما أنا ضال، و لكن أنا رسول من رب العالمين، رب كل شيء و مليكه.

٦٢- ﴿أبلِّغُكمْ رسالاتِ ربّي و أنصَحُ لكمْ و أعلمُ من اللهِ مالا تعلمونَ﴾ و هذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً، ناصحاً عالماً بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة - و هم أوفر ما كانوا و أكثر جمعاً - «أيهاالناس، إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهدُ أنك قد بلَّغتَ و أديتَ و نصحتَ، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء و ينكسها عليهم، و يقول: اللهم اشهد، اللهم اشهد».

﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) ﴾

٦٣- يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أوعجبتمْ﴾ الآية، أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب، أن يُوحي الله إلى رجل منكم، رحمةً بكم و لطفاً و إحساناً إليكم، لينذركم و لتتقوا نقمة الله، ولا تشركوا به ﴿لعلَّكمْ تُرحَمونَ﴾.

٦٤- قال الله تعالى: ﴿فكذَّبُوهُ﴾ أي: تمادوا على تكذيبه و مخالفته، و ما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه في موضع آخر ﴿فأنجَيناهُ و الذينَ معهُ في الفُلْكِ﴾ أي: السفينة، كما قال: ﴿فأنجَيناهُ و أصحابَ السَّفينةِ﴾. ﴿و أغرقْنا الذينَ كذَّبوا بآياتِنا﴾ كما قال ﴿ممَّا خَطيئاتِهِم أغرِقُوا فأُدخِلُوا ناراً فلمْ يجِدوا لهمْ من دونِ اللهِ أنصاراً﴾. و قوله: ﴿إنَّهمْ كانُوا قوماً عَمينَ﴾ أي: عن الحق لا يبصرونه و لا يهتدون له، فبيَّن تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله و المؤمنين، و أهلك أعداءهم من الكافرين، كقوله: ﴿إنَّا لننصرُ رُسلَنا﴾ الآية. وهذه سنة الله في عباده في الدنيا و الآخرة: أن العاقبة فيها للمتقين، و الظفر و الغلب لهم، كما أهلكَ قوم نوح بالغرق، و نجَّى نوحاً و أصحابه المؤمنين. و قال مالك عن زيد بن أسلم: كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل و الجبل. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما عذب الله قوماً، إلا والأرض ملآى بهم، و ليس بقعة من الأرض، إلا و لها مالك و حائز.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾

٦٥- يقول تعالى: و كما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح (قلت) هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله، و هم أولاد عاد بن إرم، الذين كانوا يأوون إلى العَمَد في البر، كما قال تعالى: ﴿ألم ترَ كيفَ فعلَ ربُّكَ بعادٍ، إرمَ

ذات العماد﴾ التي لم يُخلقْ مِثْلها في البلاد﴾ و ذلك لشدة بأسهم و قوتهم، كما قال تعالى: **﴿فأمّا عادٌ فاستكبرُوا في الأرضِ بغير الحقِّ و قالُوا مَنْ أشدُّ منّا قُوّةً أولم يَروْا أن اللهَ الذي خلقهمْ هو أشدُّ منهم قُوّةً و كانُوا بآياتِنا يَجحدُونَ﴾** و قد كانت مساكنهم باليمين بالأحقاف، وهي حبال الرمل[1]. هذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمين فإن هوداً ﷺ دفن هناك، و قد كان من أشرف قومه نسباً، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، و لكن كان قومه كما شُدِّد خَلقهم شدد على قلوبهم، و كانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود ﷺ إلى عبادة الله وحده لا شريك له، و إلى طاعته و تقواه.

٦٦- **﴿قالَ الملأُ الذينَ كفروا من قومِهِ﴾** و الملأ هم الجمهور و السادة و القادة منهم **﴿إنّا لَنَراكَ في سفاهةٍ و إنا لنظنُّكَ من الكاذبينَ﴾** أي: في ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام، و الإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد، فقالوا: **﴿أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً﴾** الآية.

٦٧- **﴿قالَ يا قومِ لَيسَ بي سَفاهَةٌ وَ لَكنّي رسولٌ مِن ربِّ العالَمينَ﴾** أي: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله، الذي خَلقَ كل شيء، فهو رب كل شيء و مليكه.

٦٨- **﴿أبلِّغكمْ رِسَالاتِ رَبّي و أنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أمينٌ﴾** و هذه الصفات التي يتصف بها الرسل: البلاغ والنصح والأمانة.

٦٩- **﴿أوَعَجِبْتُمْ أن جَاءَكُمْ ذِكرٌ مِّن ربِّكم عَلى رَجُلٍ منكمْ لِيُنذِرَكمْ﴾** أي: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم، لينذركم أيام الله و لقاءه، بل احمدوا الله على ذاكم **﴿و اذكرُوا إذ جعلَكمْ خُلفاءَ مِن بعدِ قَوْمِ نوحٍ﴾** أي: و اذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح، الذي أهلكَ الله أهل الأرض بدعوته، لمَّا خالفوه وكذبوه **﴿و زَادَكُمْ في الخَلقِ بَسْطَةً﴾** أي: زاد طولكم على الناس بسطة، أي: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كقوله في قصة طالوت **﴿وَ زَادَهُ بَسْطَةً في العِلْمِ وَ الجِسْمِ﴾**. **﴿وَ اذكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾** أي: نعمته و منته عليكم **﴿لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** و الآلاء جمع ألىً، و قيل: إلىً[2].

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

٧٠- يخبر تعالى عن تمردهم و طغيانهم و عنادهم، و إنكارهم على هود ﷺ **﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده﴾** الآية، كقول الكفار من قريش **﴿و إذ قالُوا اللهمَّ إنْ كانَ هَذا هوالحقَّ مِن عِندكَ فأمطِرْ علينَا حِجارةً مِّن السماءِ أو ائتنَا بعذابٍ أليمٍ﴾** و قد ذكر محمد بن إسحاق و غيره، أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له: صداً، وآخر يقال له: صموداً، و آخر يقال له: الهنا، و لهذا قال هود ﷺ **﴿قدْ وقعَ عليكم مِن ربِّكمْ رِجسٌ وغَضبٌ﴾** أي: قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس، قيل: هو مقلوب من: رجز، و عن ابن عباس معناه: سخط و غضب **﴿أتُجادِلونَني في أسماءٍ سمَّيتُموهَا أنتم و آباؤُكمْ﴾** أي: أتحاجوني في هذه

---

(١) حبال بالحاء جمع حبل، و هو الرمل المستطيل. (القاموس).

(٢) انظر ضبطها في تفسير القرطبي (٧/ ٢٣٧).

الأصنام التي سميتموها أنتم و آباؤكم آلهة، وهي لا تضر و لا تنفع، و لا جعل الله لكم على عبادتها حجة و لا دليلاً، و لهذا قال: **﴿ما نزّلَ اللهُ بها مِن سُلطانٍ فَانتظِرُوا إِنِّي معكم مِن المُنتظِرينَ﴾** و هذا تهديد و وعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه بقوله:

٧١- **﴿فأَنجيناهُ و الذينَ معهُ برحمةٍ منَّا و قطعْنَا دابِرَ الذينَ كذَّبُوا بآياتنَا و ما كانُوا مؤمنينَ﴾** و قد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذرمن شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، كما قال في الآية الأخرى: **﴿و أمَّا عادٌ فأُهلِكُوا بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ﴾ سخَّرها عليهمْ سبعَ ليالٍ وثمانِيةَ أيَّامٍ حُسوماً فترى القومَ فيها صَرعَى كأنهمْ أعجازُ نخلٍ خَاوِيةٍ﴾ فهلْ ترى لهمْ من بَاقِيةٍ﴾** لما تمردوا وعتوا، أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتثلغ رأسه، حتى تبينه من جثته، و لهذا قال: **﴿كأنَّهمْ أعجازُ نخلٍ خاويةٍ﴾**.

و قال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن بين عُمَان و حضرموت، و كانوامع ذلك قد فشوا في الأرض، و قهروا أهلها، بفضل قوّتهم التي آتاهم الله، و كانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام، و هو من أوسطهم نسباً، و أفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله، و لا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه و كذبوه، و قالوا: من أشد منا قوة، و اتبعه منهم ناس و هم يسير، يكتمون إيمانهم، فلما عتت عادٌ على الله، و كذبوا نبيه، و أكثروا في الأرض الفساد، و تجبروا و بنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع، كلمهم هود فقال: **﴿أتبنونَ بكلِّ رِيعٍ آيةً تعبثُونَ﴾ و تتخذون مصانع لعلكم تخلدونَ﴾ و إذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ فاتَّقُوا اللهَ و أطيعونِ﴾ قالُوا يا هودُ مَا جئتَنَا ببينةٍ و مَا نَحنُ بتَاركي آلهتِنا عن قَولكَ و مَا نَحنُ لكَ بمُؤمنِينَ﴾ إن نَّقولُ إلاَّ اعتراكَ بعضُ آلهتِنا بسوءٍ﴾** أي: بجنون **﴿قالَ إِنِّي أُشهِدُ اللهَ و اشهدُوا أنِّي بريءٌ ممَّا تُشركونَ﴾ مِن دونهِ فكِيدوني جميعاً ثم لاَ تُنظِرونِ﴾ إنِّي توكلتُ على اللهِ ربِّي وربِّكم ما مِن دابَّةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتِها إنَّ ربِّي علَى صراطٍ مُستقيمٍ﴾**. قال محمد بن إسحاق: فلما أبوا إلا الكفر به، أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين بما يزعمون، حتى جهدهم ذلك، قال: و كان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، و طلبوا من الله الفرج فيه، إنما يطلبونه بحرمته و مكان بيته، و كان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح.

و قد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله، فروى الإمام أحمد: عن الحارث البكري قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة، فإذا بعجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة هل أنت مُبلّغي إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاصٌ بأهله، و إذا راية سوداء تخفق، و إذا بلال متقلد سيفاً بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً، قال: فجلست، قال: فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه، فأذن لي فدخلت و سلمت، فقال: هل بينكم و بين تميم شيء؟ قلت: نعم، و كانت لنا الدائرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، و ها هي بالباب، فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء، فحَمِيت العجوز واستوفزت و قالت: يا رسول الله فإلى أين يضطر مضطرك؟

قال: قلت: إن مثلي مثل ما قال الأول: «معزى حملت حتفها» حملت هذه و لا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله و برسوله أن أكون كوافد عاد. قال لي: «و ما وافد عاد؟». و هو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه. قلت: إن عادا قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قيل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريض فأداويه، و لا إلى أسير فأفاديه، اللهم أسق عاداً ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سُود فنُودي منها: اختر، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رِمْدَدَا، لا تُبقي من عاد أحداً. قال: فما بلغني أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدْر ما يجري في خاتمي هذا، حتى هلكوا. قال أبو وائل: وصدق، قال: و كانت المرأة و الرجل إذا بعثوا وافداً لهم، قالوا: لاتكن كوافد عاد. و رواه الترمذي والنسائي و ابن ماجه و ابن جرير.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾

٧٣- قال علماء التفسير و النسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، و هو أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طَسْم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، و كانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز و الشام إلى وادي القرى وما حوله، و قد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم، و هو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع، روى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحِجْر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، و نصبوا لها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور، و علفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم، حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، و نهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبُوا، و قال: «إنِّي أخشى أنْ يُصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم».

و روى أحمد أيضاً: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ و هو بالحِجْر: «لا تَدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا بَاكين، فإنْ لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، أن يُصيبكم مثل ما أصابهم».

و أصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه.

و روى الإمام أحمد: عن أبي الزبير عن جابر قال: لمّا مرَّ رسول الله ﷺ بالحِجْر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألها قومُ صالحٍ فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفج، و تَصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، و كانت تشرب ماءهم يوماً، و يشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة، أهمد الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله» فقالوا: مَنْ هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال، فلما خرج من الحرم، أصابه ما أصاب قومه» و هذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة، و هو على شرط مسلم.

قوله تعالى: ﴿و إلى ثمودَ﴾ أي: و لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ﴿قالَ يا قوم اعبُدوا اللهَ مالكمْ مِن إلهٍ غيرُهُ﴾ فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿و ما أرسلنَا مِن قبلكَ مِن رسولٍ إلا نوحِي إليهِ أنهُ لا إلهَ إلاّ أنَا فاعبُدونِ﴾ و قال: ﴿و لقدْ بعثْنَا في كلِّ أمةٍ رسولاً أن اعبدُوا اللهَ واجتنبُوا الطاغوتَ﴾.

و قوله: ﴿قدْ جاءتكم بَينةٌ من ربِّكمْ هذهِ ناقةُ اللهِ لكمْ آيةً﴾ أي: قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، و كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، و اقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم ـ و هي صخرة منفردة في ناحية الحِجْر يقال لها: الكاتبة ـ فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عُشَراء تَمخضُ، فأخذ عليهم صالح العهود و المواثيق، لئن أجابهم الله إلى سؤالهم، و أجابهم إلى طلبتهم، ليؤمنن به و ليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم و مواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته، و دعا الله عزوجل، فتحركت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وَبْراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو، و من كان معه على أمره، و أراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، و الحباب صاحب أوثانهم . . .

و أقامت الناقة و فصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة، تشرب من بئرها يوماً، و تَدَعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملئون ما شاؤا من أوعيتهم و أوانيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ونبِّئهمْ أنَّ الماءَ قسمةٌ بينهمْ كلُّ شِربٍ مُحتضَرٌ﴾ و قال تعالى: ﴿هذهِ ناقةٌ لهَا شِربٌ و لكمْ شِربُ يومٍ مَعلومٍ﴾ و كانت تسرح في بعض تلك الأدوية، ترد من فج و تصدر من غيره، ليسعها، لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت على ما ذكر خلقاً هائلاً، ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم و اشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام، عزموا على قتلها ليسأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. قال قتادة: بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن و على الصبيان. قلت: و هذا هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿فكذَّبوهُ فعقرُوهَا فدَمدمَ عليهمْ ربُّهمْ بذنبِهمْ فسوَّاهَا﴾ و قال: ﴿و آتينَا ثمودَ النَّاقةَ مُبصِرةً فظلَموا بهَا﴾ و قال: ﴿فعقرُوا الناقةَ﴾ فأسند ذلك على مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك، و الله أعلم.

فلما فعلوا ذلك، و فرغوا من عقر الناقة، و بلغ الخبر صالحاً عليه السلام، فجاءهم و هم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، و قال: ﴿تمتَّعوا في داركمْ ثلاثةَ أيامٍ﴾ الآية، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، و قالوا إنْ كان صادقاً عجلناه قبلنا، و إن كان كاذباً ألحقناه بناقته ﴿قالُوا

تقاسمُوا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ و أهله ثم لَنَقولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شهدنَا مَهْلِكَ أهلهِ و إنَّا لصادِقونَ﴾ و مكرُوا مكراً و مكرنَا مكراً وهمْ لا يشعُرونَ﴾ فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ مكرِهمْ﴾ الآية فلما عزموا على ذلك، و تواطؤا عليه، و جاؤا من الليل ليفتكوا بنبي الله، فأرسل الله سبحانه و تعالى ـ وله العزة و لرسوله ـ عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، و أصبح ثمود يوم الخميس، و هو اليوم الأول من أيام النظرة و وجوههم مصفرَّة، كماوعدهم صالح عليه السلام، و أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل، و هو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع، و هو يوم السبت و وجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا و قعدوا ينتظرون نقمة الله و عذابه ـ عياذاً بالله من ذلك ـ لا يدرون ماذا يُفعل بهم، و لا كيف يأتيهم العذاب، و أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء، و رجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، و زهقت النفوس في ساعة واحدة **﴿فأصبحُوا في دارهمْ جاثِمينَ﴾** أي: صرعى لا أرواح فيهم، و لم يفلت منهم أحد، لا صغير و لا كبير، و لا ذكر و لا أنثى. . . .

قال علماء التفسير: و لم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح عليه السلام و من تبعه رضي الله عنهم، إلا أن رجلاً يقال له: أبو رغال، كان لما وقعت النقمة بقومه، مقيماً إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحِلِّ، جاءه حَجَرٌ من السماء فقتله، و قد تقدم في أول القصة حديث جابر بن عبد الله في ذلك. و ذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف، الذين كانوا يسكنون الطائف.

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾

٧٩- هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه و تمردهم على الله، و إبائهم عن قبول الحق، و إعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك، بعد هلاكهم تقريعاً و توبيخاً و هم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لمّا ظَهَر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها، ثم سار حتى وقف على القليب، قليب «بدر» فجعل يقول: «يا أبا جهل ابن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، و يا فلان بن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال له عمر: يا رسول الله، ما تكلّم من أقوام قد جَيَّفوا؟ فقال: «و الذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، و لكن لا يجيبون». و في السيرة أنه ﷺ قال لهم: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم. كذبتموني و صدقني الناس و أخرجتموني و آواني الناس، و قاتلتموني و نصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم».

و هكذا صالح عليه السلام قال لقومه **﴿لقدْ أبلغتُكمْ رسالةَ ربِّي و نصحتُ لكمْ﴾** أي: فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق، و لا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: **﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾** و قد ذكر بعض المفسرين: أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم حرم مكة، و الله أعلم.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ

الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

٨٠ ، ٨١- يقول تعالى ﴿وَ﴾ لقد أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ أو تقديره ﴿وَ﴾ اذكر ﴿لُوطاً إذ قال لقومه﴾ و لوط هو ابن هاران بن آزر، و هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، و كان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام، و هاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم و ما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل، و يأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم و المحارم و الفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم و لا غيرهم، و هو إتيان الذكور دون الإناث، و هذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده و لا تألفه، و لا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله.

و قال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق: لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً. و لهذا قال لهم لوط عليه السلام: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالَمين* إنكم لتأتونَ الرجالَ شهوةً من دونِ النساءِ﴾ أي: عدلتم عن النساء، و ما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، و هو إسراف منكم و جهل، لأنه وضع الشيء في غير محله، و لهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿قالَ هؤلاءِ بناتِي إن كنتمْ فاعلينَ﴾ فأرشدهم إلى نسائهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿قالوا لقدْ علمتَ ما لنَا في بناتكَ من حقٍ و إنكَ لتعلمُ ما نريدُ﴾ أي: لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء و لا إرادة، و إنك لتعلم مرادنا من أضيافك، و ذكر المفسرون: أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، و كذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضاً.

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

٨٢- أي: ما أجابوا لوطاً لا أن هموا بإخراجه، و نفيه و من معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين، وقوله تعالى: ﴿إنهمْ أناسٌ يتطهَّرونَ﴾ قال قتادة: عابوهم بغير عيب. و قال مجاهد: إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال و أدبار النساء. ورُوي مثله عن ابن عباس أيضاً.

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

٨٣- يقول تعالى فأنجينا لوطاً و أهله، و لم يؤمن به أحدٌ منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فأخرجنَا مَن كانَ فيهَا مِن المؤمنينَ* فما وجدنَا فيها غيرَ بيتٍ من المُسلِمينَ﴾ إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، تُمالئهم عليه، و تعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه، بإشارات بينها و بينهم، و لهذا لما أُمر لوط عليه السلام ليسري بأهله، أُمِرَ أنْ لا يُعلمها و لا يخرجها من البلد، و منهم من يقول: بل اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم، و الأظهر أنها لم تخرج من البلد، و لا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال ههنا: ﴿إلا امرأتَهُ كانتْ من الغابرينَ﴾ أي: الباقين، و قيل: من الهالكين، و هو تفسير باللازم.

٨٤- و قوله: ﴿و أمطرنَا عليهم مطراً﴾ مفسر بقوله: ﴿و أمطرنَا عليهَا حجارةً من سجِّيلٍ مَنضودٍ* مسوَّمةً عند ربكَ و ما هيَ من الظالمينَ ببعيدٍ﴾ و لهذا قال: ﴿فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المُجرمينَ﴾ أي: انظر يا محمد، كيف كان عاقبة مَن يَجترئ على معاصي الله عز وجل، و يكذّب رسله. و قد ذهب الإمام أبو حنيفة

رحمه الله : إلى أن اللائط يُلقى من شاهق، و يُتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، و ذهب آخرون من العلماء: إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن، و هو أحد قولي الشافعي رحمه الله، و الحجة ما رواه الإمام أحمد وأبوداود و الترمذي و ابن ماجه : من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَجدتموه يَعمل عَملَ قوم لوط فاقتلوا الفاعل و المفعول به». و قال آخرون : هو كالزاني فإنْ كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة و هو القول الآخر للشافعي.

و أما إتيان النساء في الأدبار: فهو اللوطية الصغرى و هو حرام بإجماع العلماء إلا قولاً شاذاً لبعض السلف، و قد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ، و قد تقدم الكلام عليها في سورة البقرة.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) ﴾

٨٥- قال محمد بن إسحاق: هم من سلالة مدين بن مديان بن إبراهيم، و شعيب هو ابن ميكيل بن يشجر، قال: واسمه بالسريانية: يثرون. **(قلت)**: مدين تطلق على القبيلة، و على المدينة، و هي التي بقرب «مَعَان» من طريق الحجاز، قال الله تعالى: **﴿و لما وردَ ماءَ مدينَ وجدَ عليهِ أمةً من الناسِ يَسقونَ﴾** و هم أصحاب الأيكة، كما سنذكره إن شاء الله، و به الثقة. **﴿قال يَا قومِ اعبُدو اللهَ مالكمْ من إلهٍ غيرُهُ﴾** هذه دعوة الرسل كلهم، **﴿قدْ جاءتكمْ بينةٌ من ربكمْ﴾**، أي: قد أقام الله الحجج و البينات على صدق ما جئتكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس، بأن يوفوا المكيال و الميزان، و لا يبخسوا الناس أشياءهم، أي: لا يخونوا الناس في أموالهم، ويأخذوها على وجه البخس، و هو نقص المكيال و الميزان خفية و تدليساً، كما قال تعالى: **﴿ويلٌ للمُطفِّفينَ﴾** ـ إلى قوله ـ **لربِّ العالَمينَ﴾** و هذا تهديد شديدٌ، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه، ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذي يقال له: خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته، و جزالة موعظته.

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ﴾

٨٦- ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي و المعنوي، بقوله **﴿و لا تقعُدُوا بكلِّ صراطٍ تُوعِدونَ﴾** أي: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي و غيره: كانوا عَشَّارين، و عن ابن عباس و مجاهد و غير واحد **﴿و لا تقعُدُوا بكلِّ صراطٍ تُوعِدونَ﴾** أي: تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه، و الأوّل أظهر، لأنه قال: **﴿بكلِّ صراطٍ﴾** و هو الطريق، وهذا الثاني هو قوله: **﴿و تصدّونَ عن سبيلِ اللهِ مَن آمنَ بهِ وتَبغُونها عِوَجاً﴾** أي: وتودّون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة **﴿و اذكرُوا إذ كنتمْ قليلاً فكثّركمْ﴾** أي: كنتم مستضعفين لقلتكم، فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك **﴿و انظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ المفسدِينَ﴾** أي: من الأمم الخالية و القرون الماضية، و ما حل بهم من العذاب و النكال،

باجترائهم على معاصي الله، و تكذيب رسله.

٨٧- و قوله: ﴿و إن كانَ طائفةٌ منكمْ آمنوا بالذي أرسلتُ بهِ و طائفةٌ لمْ يؤمِنُوا﴾ أي: قد اختلفتم عليَّ ﴿فاصبرُوا﴾ أي: انتظروا ﴿حتى يحكمَ اللهُ بيننَا﴾ و بينكم، أي: يفصل ﴿و هوَ خيرُ الحاكمينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، و الدمار على الكافرين.

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا من قَوْمِه لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ من قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾

٨٨- هذا خبر من الله تعالى، عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً، و من معه من المؤمنين، في توعدهم إياه و من معه بالنفي عن القرية، أو الإكره على الرجوع في ملتهم، والدخول معهم فيما هم فيه، و هذا خطاب مع الرسول و المراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة، و قوله: ﴿أولوْ كانوا كارهينَ﴾ يقول: أوَأنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه، فإنا إنْ رجعنا إلى ملتكم، و دخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفرية على الله، في جعل الشركاء معه أنداداً، و هذا تنفير منه عن اتباعهم ﴿و ما يكونُ لنا أن نعودَ فيها إلا أن يشاءَ اللهُ ربّنَا﴾ وهذا رد إلى الله المسبب، فإنه يعلم كل شيء، و قد أحاط بكل شيء.

٨٩- ﴿على اللهِ توكلنَا﴾ أي: في أمورنا ما نأتي منها و ما نذر ﴿ربَّنا افتحْ بيننَا وبينَ قومِنا بالحقِّ﴾ أي: احكم بيننا و بين قومنا، و انصرنا عليهم ﴿و أنتَ خيرُ الفاتحينَ﴾ أي: خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا من قَوْمِه لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) ﴾

٩٠- يخبر تعالى عن شدة كفرهم و تمردهم و عتوهم، و ماهم فيه من الضلال، و ما جُبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، و لهذا أقسموا، وقالوا ﴿لَئِنِ اتَّبعتُمْ شُعَيباً إنّكُمْ إذاً لّخاسِرُونَ﴾.

٩١- فلهذا عقَّبه بقوله: ﴿فأخَذَتهُمُ الرّجْفَةُ فَأصبَحُوا في دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ أخبر تعالى أنهم أخذتهم الرجفة، وذلك كما أرجفوا شعيباً و أصحابه، و توعدوهم بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود، فقال: ﴿ولَمّا جاءَ أمرُنا نَجّيْنا شُعَيْباً وَالّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ برَحْمَةٍ مِّنّا وَ أخذَتِ الّذِينَ ظَلَمُوا الصّيْحَةُ فَأصْبَحُوا في دِيارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ والمناسبة هناك ـ و الله أعلم ـ أنهم لما تهكّموا به في قولهم ﴿أصَلاتُكَ تَأمُرُكَ﴾ الآية، فجاءت الصيحة فأسكتتهم، و قال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأخَذَهُمْ عَذابُ يَومِ الظُّلّةِ إنّهُ كانَ عَذابَ يَومٍ عظِيمٍ﴾ و ما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة ﴿فأسقطْ علينا كسفاً من السماءِ﴾ الآية، فأخبر

أنه أصابهم عذاب يوم الظلة ، و قد اجتمع عليهم ذلك كله ﴿أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ و هي سحابة أظلتهم ، فيها شررٌ من نار و لهب و وهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ، و رجَّة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، و فاضت النفوس ، و خمدت الأجسام ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ .

٩٢- ثم قال تعالى : ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي : كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم ، التي أرادوا إجلاء الرسول و صحبه منها . ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم : ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ .

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾

٩٣- أي فتولى عنهم شعيب ﷺ ، بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب و النقمة و النكال ، و قال مُقَرِّعاً لهم وموبخاً : ﴿يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أي : قد أديت إليكم ما أُرسلت به ، فلا آسف عليكم ، و قد كفرتم بما جئتكم به ، فلهذا قال : ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) ﴾

٩٤- يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية ، الذين أرسل إليهم الأنبياء ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ﴾ يعني بالبأساء : ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض و أسقام ، و الضراء : ما يصيبهم من فقر و حاجة ، و نحو ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي : يدعون و يخشعون ، و يبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم . و تقدير الكلام : أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا ، فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم ، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ، ليختبرهم فيه .

٩٥- ولهذا قال : ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي : حوّلنا الحال من شدة إلى رخاء ، و من مرض وسقم إلى صحة و عافية ، و من فقر إلى غنى ، ليشكروا على ذلك فما فعلوا ، و قوله : ﴿حَتَّى عَفَوا﴾ أي : كثروا ، وكثرت أموالهم و أولادهم ، يقال : عفا الشيء إذا كثر ، ﴿وَّ قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَ هُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى : ابتليناهم بهذا و هذا ليتضرعوا ، وينيبوا إلى الله ، فما نجع فيهم لا هذا و لا هذا ، و لا انتهوا بهذا و لا بهذا ، و قالوا قد مسنا من البأساء و الضراء ، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان و الدهر ، و إنما هو الدهر تارات و تارات ، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ، و لا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين ، و هذا بخلاف حال المؤمنين ، الذين يشكرون الله على السراء ، ويصبرون على الضراء .

كما ثبت في الصحيحين : «عجباً للمؤمن لا يَقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، و إنْ أصابته سراء شكر فكان خيراً له»[1] . فالمؤمن مَنْ يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء ، ولهذا جاء في الحديث «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه ، و المنافق مثله كمثل

---

(١) الحديث في مسلم فقط بنحوه، رواه في الزهد (٤/ ٢٢٩٥)، و نبه عليه الألباني رحمه الله في السلسلة (١٤٨).

الحمار، لا يدري فيم ربطه أهله، و لا فيم أرسلوه» أو كما قال[١].

و لهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي: على بغتة و عدم شعور منهم، أي: أخذناهم فجأة، كما في الحديث «موتُ الفجأة رحمة للمؤمن، و أخذةُ أسف للكافر»[٢].

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون (٩٦) أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون (٩٧) أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون (٩٨) أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (٩٩)﴾

٩٦- يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى، الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فلو لا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا و ذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون* فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾ و قال تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾ أي: آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل، و صدقت به واتبعوه، واتقوا بفعل الطاعات، وترك المحرمات ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ أي: قطر السماء و نبات الأرض، قال تعالى: ﴿ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ أي: و لكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم و المحارم، ثم قال تعالى مخوفاً و محذراً من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجره.

٩٧، ٩٨- ﴿أفأمن أهل القرى﴾ أي: الكافرة ﴿أن يأتيهم بأسنا﴾ أي: عذابنا و نكالنا ﴿بياتا﴾ أي: ليلاً ﴿وهم نائمون* أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾ أي: في حال شغلهم و غفلتهم.

٩٩- ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ أي: بأسه و نقمته و قدرته عليهم، و أخذه إياهم في حال سهوهم و غفلتهم ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ و لهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات و هو مشفق وَجِلٌ خائف، و الفاجر يعمل بالمعاصي و هو آمن.

﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون (١٠٠)﴾

١٠٠- قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ أولم يتبين لهم، أنْ

---

(١) أما أوله فهو نحو حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه و ولده و ماله، حتى يلقى الله و ما عليه خطيئة» رواه الترمذي (٢٥٢٣) و قال حسن صحيح، و هو كما قال. و أما الشطر الثاني «و المنافق مثله كمثل الحمار...» فقد روى أبو داود (٣٠٨٩) حديث عامر الرام مرفوعاً: «إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه، كان كفارةً لما مضى من ذنوبه، وموعظةً له فيما يستقبل، و إن المنافق إذا مرض ثم أُعفيَ كان كالبعير عقَلَه أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لمَ عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه» وفيه أبو منظور مجهول، و ضعفه الألباني في المشكاة (١٥٧١).

(٢) ضعيف بهذا اللفظ، و قد روى أحمد (٣/ ٤٢٤) و أبو داود (٣١١٠) عن عبيد بن خالد مرفوعاً: «موت الفجأة أخذة أسف» و هو صحيح.

لو نشاء أصبناهم بذنوبهم . و كذا قال مجاهد و غيره . و قال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها : أولم يتبين للذين يستخلفون في الأرض ، من بعد إهلاك آخرين قبلهم ، كانوا أهلها فساروا سيرتهم و عملوا أعمالهم ، و عتوا على ربهم **﴿أن لو نشاءُ أصبْناهمْ بذُنوبهمْ﴾** يقول : أن لو نشاء فعلنا بهم ، كما فعلنا بمن قبلهم **﴿و نطبعُ على قلوبهمْ﴾** يقول و نختم على قلوبهم **﴿فهمْ لا يسمَعونَ﴾** موعظة و لا تذكيراً .

(قلت) : و هكذا قال تعالى : **﴿أفلمْ يهدِ لهمْ كمْ أهلكنَا قبلهمْ من القرونِ يمشونَ في مساكنهمْ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ أفلا يسمعونَ﴾** و قال : **﴿أولمْ تكونُوا أقسمتُمْ مِن قَبلُ مالكمْ مِّن زوالٍ ❊ و سكنتمْ في مساكنِ الذينَ ظلمُوا أنفسهمْ﴾** الآية ، و قال تعالى : **﴿و كمْ أهلكنَا قبلهمْ من قرنٍ هلْ تُحسُّ منهمْ مِّنْ أحدٍ أو تسمعُ لهمْ ركزًا﴾** أي : هل ترى لهم شخصاً ، أو تسمع لهم صوتاً ، و قال تعالى : **﴿أولم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكّنّاهمْ في الأرضِ ما لمْ نمكّن لكمْ و أرسلنَا السماءَ عليهمْ مدراراً و جعلنا الأنهارَ تجري من تحتهمْ فأهلكناهم بذنوبهمْ وأنشأنَا من بعدهمْ قرناً آخرينَ﴾** و قال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد **﴿فأصبحُوا لا يُرى إلاَّ مساكنهمْ كذلكَ نجزي القومَ المُجرمينَ ❊ و لقد مكّنّاهمْ فيمَا إن مكّنّاكمْ فيهِ و جعلنا لهمْ سمعاً و أبصاراً وأفئدةً فما أغنى عنهمْ سمعهمْ و لا أبصارهمْ و لا أفئدتهمْ من شيءٍ إذ كانوا يجحدُونَ بآياتِ اللهِ و حاقَ بهمْ ما كانوا به يستهزئونَ ❊ ولقد أهلكنا ما حولكم من القُرَى و صرّفنا الآياتِ لعلهمْ يرجعونَ﴾** و قال تعالى : **﴿وكذَّبَ الذينَ من قبلهمْ و ما بلغُوا مِعشارَ ما آتيناهمْ فكذَّبوا رُسلي فكيفَ كانَ نكيرِ﴾** وقال تعالى : **﴿و لقدْ كذَّب الذينَ من قبلهمْ فكيفَ كانَ نكيرِ﴾** و قال تعالى : **﴿فكأين من قريةٍ أهلكناها و هيَ ظالمةٌ فهيَ خاويةٌ علَى عروشهَا وبئرٍ مُعطَّلةٍ و قصرٍ مشيدٍ ❊ أفلمْ يسيروا في الأرضِ فتكونَ لهمْ قلوبٌ يعقلونَ بها أو آذانٌ يسمعونَ بها فإنها لا تعمَى الأبصارُ و لكن تعمَى القلوبُ التي في الصُّدورِ﴾** و قال تعالى : **﴿و لقد استُهزِئَ برُسلٍ من قبلكَ فحاقَ بالذينَ سخرُوا منهم ما كانُوا بهِ يستهزئونَ﴾** إلى غير ذلك من الآيات ، الدالة على حلول نقمه بأعدائه ، و حصول نعمه لأوليائه ، و لهذا عقب ذلك بقوله ، و هو أصدق القائلين ، و رب العالمين :

﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ﴾

١٠١ ، ١٠٢- لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبرَ قوم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب ، و ما كان من إهلاكه الكافرين ، و إنجائه المؤمنين ، و أنه تعالى أعذر إليهم ، بأن بيَّن لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين ، قال تعالى : **﴿تلك القُرَى نقصُّ عليكَ﴾** أي : يا محمد **﴿مِنْ أنبائِها﴾** أي : من أخبارها **﴿ولقد جاءتهم رسلهمْ بالبيناتِ﴾** أي : الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به ، كما قال تعالى **﴿وَ مَا كنَّا مُعذِّبينَ حتَّى نبعثَ رسولاً﴾** و قال تعالى : **﴿ذلكَ من أنباءِ القُرَى نقُصُّهُ عليكَ منها قائمٌ و حَصيدٌ ❊ وماظلمناهمْ و لكنْ ظلموا أنفسهمْ﴾** و قوله تعالى : **﴿فما كانُوا ليؤمنوا بما كذَّبوا بِهِ من قبلُ﴾** الباء سببية ، أي : فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل ، بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم ، حكاه ابن عطية رحمه الله ، وهو متجه حسن كقوله : **﴿و ما يُشعركمْ أنها إذا جاءتْ لا يؤمنونَ ❊ و نُقلِّبُ أفئدتهمْ و أبصارهمْ كما لم يؤمنُوا**

بِهِ أولَ مَرَّةٍ﴾ الآية ، و لهذا قال هنا ﴿كذلكَ يَطْبَعُ اللهُ علَى قُلُوبِ الكافرينَ ﴿و ما وجدنَا لأكثرهم﴾ أي : لأكثر الأمم الماضية ﴿مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أي : و لقد وجدنا أكثرهم فاسقين ، خارجين عن الطاعة والامتثال . و العهد الذي أخذه : هو ما جبلهم عليه ، و فطرهم عليه ، و أخذ عليهم في الأصلاب ، أنه ربهم ومليكهم ، و أنه لا إله إلا هو و أقروا بذلك ، و شهدوا على أنفسهم به و خالفوه و تركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره ، بلا دليل و لا حجة لا من عقل و لا شرع ، و في الفِطَر السليمةِ خلاف ذلك ، و جاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك ، كما جاء في صحيح مسلم : يقول الله تعالى : «إني خلقتُ عبادي حُنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، و حرَّمت عليهم ما أحللت لهم» .

و في الصحيحين : «كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة ، فأبواه يُهودانه و ينصرانه و يمجسانه» الحديث .

و قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿وَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ، و قوله تعالى : ﴿وَ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ، و قال تعالى : ﴿و لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

و قد قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿فما كانُوا ليُؤمنُوا بمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ ما رُوي عن أُبي بن كعب في قوله : ﴿فمَا كانُوا ليُؤمنُوا بمَا كَذَّبُوا مِن قَبلُ﴾ قال : كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق ، أي : فما كانوا ليؤمنوا ، لعلم الله منهم ذلك . و كذا قال الربيع بن أنس ، واختاره ابن جرير . و قال السدي : ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهاً ، وقال مجاهد في قوله : ﴿فمَا كانُوا ليؤمنوا بمَا كَذَّبُوا مِن قبلُ﴾ هذا كقوله : ﴿و لَوْ رُدُّوا لعادُوا﴾ الآية .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) ﴾

١٠٣ ـ يقول تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي : الرسل المتقدم ذكرهم ، كنوح و هود و صالح و لوط وشعيب صلوات الله و سلامه عليهم ، وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي : بحججنا و دلائلنا البينة إلى فرعون ، و هو ملك مصر في زمن موسى ﴿وَمَلَئِهِ﴾ أي : قومه ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي : جحدوا و كفروا بها ، ظلماً منهم و عناداً ، كقوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي : الذين صدوا عن سبيل الله ، و كذبوا رسله ، أي : انظر يا محمد كيف فعلنا بهم ، و أغرقناهم عن آخرهم ، بمرأى من موسى و قومه ، و هذا أبلغ في النكال بفرعون و قومه ، و أشفى لقلوب أولياء الله موسى و قومه من المؤمنين به .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) ﴾

١٠٤ ـ يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون ، و إلجامه إياه بالحجة ، و إظهاره الآيات البينات ، بحضرة

فرعون و قومه من قبط مصر ، فقال تعالى : ﴿و قالَ موسى يا فرعونُ إني رسولٌ من ربِّ العالمينَ﴾ أي : أرسلني الذي هو خالق كل شيء و ربه و مليكه .

١٠٥ - ﴿حقيقٌ علَى أن لا أقولَ على اللهِ إلا الحقَّ﴾ فقال بعضهم معناه : حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق ، أي : جديرٌ بذلك و حري به ، قالوا : و «الباء» و «على» يتعاقبان ، يقال : رميت بالقوس و على القوس ، و جاء على حال حسنة و بحال حسنة ، و قال بعض المفسرين معناه : و حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق ، و قرأ آخرون من أهل المدينة : «حقيق عليَّ» بمعنى واجب و حق علي ذلك ، أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق و صدق ، لما أعلم من عز جلاله ، و عظيم شأنه ﴿قدْ جئتكمْ ببينةٍ من ربِّكمْ﴾ أي : بحجة قاطعة من الله ، أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به ﴿فأرسِلْ معيَ بني إسرائيلَ﴾ أي : أطلقهم من أسرك و قهرك ، ودعهم و عبادة ربك و ربهم ، فإنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل ، و هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن .

١٠٦ - ﴿قالَ إن كنتَ جئتَ بآيةٍ فأتِ بها إنْ كنتَ من الصادقينَ﴾ أي : قال فرعون لست بمصدقك فيما قلت ، و لا بمعطيك فيما طلبت ، فإن كانت معك حجة ، فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) ﴾

١٠٧ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ثعبانٌ مبينٌ﴾ الحية الذكر ، و كذا قال السدي والضحاك . و قال السدي : الثعبان الذكر من الحيات ، فاتحة فاها واضعة لحيها الأسفل في الأرض ، و الآخر على سور القصر ، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه ، فلما رآها ذعر منها و وثب و أحدث ، ولم يكن يحدث قبل ذلك ، و صاح : يا موسى خذها و أنا أومن بك ، و أرسل معك بني إسرائيل ، فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا ، و روي عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا .

١٠٨ - و قوله : ﴿و نزعَ يده فإذا هي بيضاءُ للناظرينَ﴾ أي : أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه ، فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص و لا مرض ، كما قال تعالى : ﴿و أدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ الآية ، وقال ابن عباس ـ في حديث الفتون ـ من غير سوء يعني : من غير برص ، ثم أعادها إلى كمه فعادت إلى لونها الأول ، و كذا قال مجاهد و غير واحد .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) ﴾

١٠٩ ، ١١٠ - أي : قال الملأ ، و هم : الجمهور و السادة من قوم فرعون ، موافقين لقول فرعون فيه بعد ما رجع إليه روعه ، و استقر على سرير مملكته بعد ذلك ، قال للملأ حوله : ﴿إن هذاَ لساحرٌ عليمٌ﴾ فوافقوه وقالوا كمقالته ، و تشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره ، و كيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره ، و إخماد كلمته وظهور كذبه و افترائه ، و تخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون ، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم ، وإخراجه إياهم من أرضهم ، والذي خافوا منه وقعوا فيه ، كما قال تعالى ﴿و نُريَ فرعونَ و هامانَ وجنودَهما منهمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ﴾ فلما تشاوروا في شأنه و ائتمروا فيه ، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) ﴾

١١١ ، ١١٢ – قال ابن عباس : ﴿**أرجه**﴾ أخِّره . و قال قتادة : احبسه ﴿**و أرسل**﴾ أي : ابعث ﴿**في المدائن**﴾ أي في الأقاليم و مدائن ملكك ﴿**حاشرين**﴾ أي : من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ، و يجمعهم ، وقد كان السحر في زمانهم غالباً ، كثيراً ظاهراً ، و اعتقد من اعتقد منهم ، و أوهم من أوهم منهم ، أن ما جاء موسى بهعليه السلام من قَبيل ما تُشعبذه سحرتُهم ، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات ، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال : ﴿**أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ❁ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا موعداً لا نُخلفه نحن و لا أنت مكاناً سُوى ❁ قال موعدكم يوم الزينة و أن يحشر الناس ضحى ❁ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى**﴾ ، و قال تعالى ههنا :

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) ﴾

١١٣ ، ١١٤ – يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعونُ و السحرة ، الذين استدعاهم لمعارضة موسىعليه السلام ، إن غلبوا موسى ليثيبنَّهم و ليعطينهم عطاء جزيلاً ، فوعدهم و مَنَّاهم أن يعطيهم ما أرادوا ، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده ، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ﴾

١١٥ – هذه مبارزة من السحرة لموسىعليه السلام في قولهم ﴿**إمَّا أن تُلقِيَ و إمَّا أن نكونَ نحنُ المُلقِينَ**﴾ أي : قَبْلك ، كما قال في الآية الأخرى ﴿**و إمَّا أن نكونَ أولَ مَنْ ألقَى**﴾ .

١١٦ – فقال لهمعليه السلام : ألقوا ، أي أنتم أولاً ، قيل : الحكمة في هذا ـ و الله أعلم ـ ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه ، فإذا فرغوا من من بهرجهم و محالهم ، جاءهم الحق الواضح الجلي ، بعد التطلب له و الانتظار منهم لمجيئه ، فيكون أوقع في النفوس ، و كذا كان ، و لهذا قال تعالى : ﴿**فلمَّا ألقَوا سَحَرُوا أعيُنَ النَّاسِ واسْتَرْهَبُوهُمْ**﴾ أي : خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج ، و لم يكن إلا مجرد صنعة و خيال ، كما قال تعالى : ﴿**فإذا حبالُهمْ و عِصِيُّهمْ يُخَيَّلُ إليهِ مِن سِحرِهِمْ أنَّها تَسْعَى ❁ فأوجَسَ في نفسِهِ خيفةً مُّوسَى ❁ قُلْنَا لا تَخَفْ إنَّكَ أنتَ الأعلَى ❁ و ألقِ ما في يمينِكَ تَلَقَّفْ ما صَنَعُوا إنَّ ما صَنَعُوا كيدُ ساحرٍ و لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حيثُ أتَى**﴾ .

روى سفيان بن عيينة عن ابن عباس : ألقوا حبالاً غلاظاً ، و خشباً طوالاً ، قال : فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . و قال محمد بن إسحاق : صف خمسة عشر ألف ساحر ، مع كل ساحر حباله و عصيه ، وخرج موسىعليه السلام معه أخوه يتكئ على عصاه ، حتى أتى الجمع و فرعون في مجلسه مع إشراف أهل مملكته ثم قال السحرة : ﴿**يا موسى إما أن تلقي و إما أن نكون أول من ألقى ❁ قال بل ألقوا فإذا حبالهم و عصيهم**﴾ فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى و بصر فرعون ، ثم أبصار الناس بعد ، ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الحبال و العصى ، فإذا حيات كأمثال الجبال ، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) ﴾

١١٧-١٢٠- يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده و رسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم، الذي فرّق الله تعالى فيه بين الحق و الباطل، يأمره بأن يلقي مافي يمينه و هي عصاه **﴿فإذا هي تلقف﴾** أي: تأكل **﴿ما يأفكون﴾** أي: ما يلقونه و يوهمون أنه حق و هو باطلٌ. قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم و لا من خشبهم إلا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر، فخروا سجداً.

١٢١، ١٢٢- و قالوا **﴿آمنَّا بربِّ العالمين* ربِّ موسَى و هارونَ﴾** و قال محمد بن إسحاق: جعلت تتبع تلك الحبال و العصى واحدة واحدة، حتى ما يُرى بالوادي قليل و لا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً، قالوا آمنا برب العالمين رب موسى و هارون، لو كان هذا ساحراً ما غلبنا.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) ﴾

١٢٣- يخبر تعالى عما توعد به فرعون ـ لعنه الله ـ السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام، و ما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: **﴿إن هذا لمكرٌ مكرتموهُ في المدينةِ لتُخرِجُوا منهَا أهْلَهَا﴾** أي: إنْ غلبته لكم في يومكم هذا، إنما كان عن تشاور منكم، و رضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى **﴿إنهُ لكبيرُكم الذِي علَّمكمْ السِّحْرَ﴾** وهو يعلم و كل من له لب، أنَّ هذا الذي قاله من أبطل الباطل، فإنَّ موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، و أظهر المعجزات الباهرة، و الحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه و معاملة سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو و الملأ من قومه، و أحضرهم عنده، و وعدهم بالعطاء الجزيل، و لهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك، و على الظهور في مقامهم ذلك، و التقدم عند فرعون. و موسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم و لا رآه و لا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، و إنما قال هذا تستراً و تدليساً على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: **﴿فَاسْتخَفَّ قوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾** فإنَّ قوماً صدقوه في قوله: **﴿أنَا ربُّكم الأعْلَى﴾** من أجهل خلق الله و أضلهم. وقوله: **﴿لتُخرِجُوا منهَا أهلهَا﴾** أي: تجتمعوا أنتم و هو، و تكون لكم دولة و صولة، و تخرجوا منها الأكابر والرؤساء، و تكون الدولة و التصرف لكم **﴿فسوفَ تعلَمونَ﴾** أي: ما أصنع بكم.

١٢٤- ثم فسر هذا الوعيد بقوله: **﴿لأقطِّعنَّ أيديَكمْ و أرجلَكمْ مِن خلافٍ﴾** يعني يقطع يد الرجُل اليمنى ورجله اليسرى، أو بالعكس **﴿و لأُصلِّبنَّكمْ أجْمعينَ﴾** و قال في الآية الأخرى **﴿في جُذُوعِ النَّخْلِ﴾** أي: على

الجذوع. قال ابن عباس: و كان أول من صَلَبَ و أول من قَطَعَ الأيدي و الأرجل من خلاف: فرعون.

١٢٥- و قول السحرة ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي: قد تحققنا أنا إليه راجعون و عذابه أشد من عذابك، ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم و ما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبر اليوم على عذابك، لنخلص من عذاب الله.

١٢٦- و لهذا قالوا: ﴿ربَّنا أفرغْ علينا صَبْراً﴾ أي: عمنا بالصبر على دينك، و الثبات عليه ﴿و تَوفَّنا مُسلِمينَ﴾ أي: متابعين لنبيك موسى عليه السلام. و قالوا لفرعون ﴿فاقضِ ما أنتَ قاضٍ إنَّما تقضِي هذهِ الحياةَ الدُّنْيا* إنَّا آمنَّا بِرَبِّنَا لِيغفرَ لنَا خطايانَا و ما أكرَهتَنَا عليهِ مِن السِّحرِ و اللهُ خيرٌ و أبقَى* إنَّهُ مَن يأتِ ربَّهُ مُجرماً فإنَّ لهُ جهنَّمَ لاَ يموتُ فيهَا و لاَ يحيَى* و مَنْ يأتِهِ مُؤمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحاتِ فأُولئكَ لهم الدرجاتُ العُلَى﴾ فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة، قاله ابن عباس و عبيد بن عمير و قتادة و ابن جريج.

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾

١٢٧- يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون و ملأه، و ما أضمروه لموسى عليه السلام و قومه من الأذى و البغضة ﴿وقالَ الملأُ مِن قومِ فرعونَ﴾ أي: لفرعون ﴿أتذرُ موسَى و قومَهُ﴾ أي: أتَدَعهم ليفسدوا في الأرض، أي: يفسدوا أهل رعيتك، و يدعوهم إلى عبادة ربهم دونك. يالله العجب! صار هؤلاء يُشفقون من إفساد موسى وقومه! ألا إن فرعون و قومه هم المفسدون، و لكن لا يشعرون، و لهذا قالوا: ﴿و يذرَكَ و آلهتَكَ﴾ قال بعضهم: «الواو» هاهنا حالية، أي: أتَذَره و قومه يفسدون في الأرض و قد تَرَك عبادتك؟ و قرأ ذلك أبي بن كعب«و قد تركوك أن تعبد و آلهتك» حكاه ابن جرير. و قال آخرون: هي عاطفة، أي: أتدعهم يصنعون من الفساد، ما قد أقررتم عليه و على ترك آلهتك. و قرأ بعضهم «إلاهتك» أي: عبادتك، وروي ذلك عن ابن عباس و مجاهد وغيره. و على القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبده، قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السر، فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله ﴿سَنُقَتِّلُ أبناءَهمْ و نَستحْيِي نِساءَهمْ﴾ و هذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكَّل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام، حذراً من وجوده، فكان خلاف ما رامه، وضد ما قصده فرعون. وهكذا عومل في صنيعه أيضاً، لما أراد إذلال بني إسرائيل و قهرهم، فجاء الأمر على خلاف ما أراد؛ أعزّهم الله، وأذله و أرغم أنفه، و أغرقه و جنوده.

١٢٨- و لما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿قالَ موسَى لقومِهِ استعينُوا باللهِ واصبرُوا﴾ ووعدهم بالعاقبة، و أن الدار ستصير لهم في قوله: ﴿إنَّ الأرضَ للهِ يورثُها مَن يشاءُ مِنْ عبادِهِ والعاقبةُ للمُتَّقينَ* قالُوا أُوذِينَا مِن قبلِ أن تأتِيَنَا و مِن بعدِ مَا جِئتَنَا﴾ أي: قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال، من قبل ما جئت يا موسى و من بعد ذلك.

١٢٩- فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر، و ما يصيرون إليه في ثاني الحال ﴿عسَى ربُّكمْ أنْ يُهلِكَ

عدوكم﴾ الآية، هذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم و زوال النقم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾

١٣٠ - يقول تعالى: **﴿ولقد أخذنا آل فرعون﴾** أي: اختبرناهم و امتحناهم و ابتليناهم **﴿بالسنين﴾** و هي سني الجوع، بسبب قلة الزروع **﴿و نقص من الثمرات﴾** قال مجاهد: و هو دون ذلك، و قال رجاء بن حيوة: كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة **﴿لعلهم يذكرون﴾**.

١٣١ - **﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾** أي: من الخصب و الرزق **﴿قالوا لنا هذه﴾** أي: هذا لنا بما نستحقه **﴿وإن تصبهم سيئة﴾** أي: جدب و قحط **﴿يطيروا بموسى و من معه﴾** هذا بسببهم و ما جاؤا به **﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: **﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾** يقول: مصائبهم عند الله، **﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** و قال ابن جريج عن ابن عباس قال: **﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾** أي: من قبل الله.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥)﴾

١٣٢ - هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون، وعتوهم و عنادهم للحق، و إصرارهم على الباطل، في قولهم: **﴿مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾** يقولون: أي: آية جئتنا بها، ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك، و لا نؤمن بك و لا بما جئت به، قال الله تعالى **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾** اختلفوا في معناه، فعن ابن عباس في رواية: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع و الثمار. وبه قال الضحاك بن مزاحم، و عن ابن عباس في رواية أخرى: هو كثرة الموت، و كذا قال عطاء، و قال مجاهد: الطوفان: الماء و الطاعون على كل حال. و قال ابن عباس في رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ **﴿فطاف عليها طائف من ربك و هم نائمون﴾**.

و أما الجراد: فمعروف مشهور، و هو مأكول، لما ثبت في الصحيحين: عن أبي يعفور قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد؟ فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد، و روى الشافعي وأحمد بن حنبل و ابن ماجه: عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «أُحلَّتْ لنا ميتتان ودمان: الحوت و الجراد، والكبد و الطحال». و قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: في قوله تعالى: **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان و الجراد﴾** قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم، و تدع الخشب. و أما القمّل: فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من

الحنطة، وعنه: أنه الدبا، و هو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له، و به قال مجاهد و عكرمة و قتادة. و عن الحسن و سعيد بن جبير: القمل: دواب سود صغار، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: القمل البراغيث.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر و التمادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، فأخذه بالسنين و أرسل عليه الطوفان ثم الجراد ثم القمل ثم الضفادع ثم الدم آيات مفصلات.

فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، ثم ركد لا يقدرون على أن يحرثوا و لا أن يعملوا شيئاً، حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك **﴿قالُوا يا مُوسَى ادعُ لَنا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفتَ عنَّا الرِّجْزَ لَنُؤمِنَنَّ لَكَ و لَنُرسلَنَّ معكَ بني إسرائيلَ﴾** فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل عليهم القمل فذكر لي أن موسى ﷺ أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت و الأطعمة و منعهم النوم و القرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت و الأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً و لا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا، فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دماً لا يستقون من بئر ولا نهر، و لا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً. و قال زيد بن أسلم: يعني بالدم الرعاف. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾

١٣٦- يخبر تعالى أنهم لما عتوا و تمردوا، مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة، واحدة بعد واحدة، انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم، و هو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه و بنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم فلما استكملوا فيه، ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم، و ذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله، وتغافلهم عنها.

١٣٧- و أخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون و هم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، كما قال تعالى: **﴿و نريدُ أن نَمُنَّ علَى الذينَ استُضعِفُوا في الأرضِ و نَجعلَهمْ أئمَّةً و نَجعلَهم الوارثِينَ * ونُمَكِّنَ لهمْ في الأرضِ و نُرِيَ فرعونَ و هامانَ و جنودَهمَا منهم مَا كانُوا يَحذَرونَ﴾** و قال تعالى: **﴿كَم تَرَكُوا مِن جناتٍ وعُيونٍ * و زروعٍ و مقامٍ كريمٍ * و نَعمةٍ كانُوا فيهَا فاكِهينَ * كذلكَ و أورثنَاهَا قوماً آخَرينَ﴾** و عن الحسن البصري و قتادة في قوله: **﴿مشَارِقَ الأرضِ و مغاربَها التِي باركنَا فِيهَا﴾** يعني: الشام، وقوله: **﴿و تمَّتْ كلمةُ ربكَ الحُسنَى علَى بني إسرائيلَ بما صبرُوا﴾** قال مجاهد و ابن جرير: و هي قوله تعالى:

﴿و نُريدُ أن نَمُنَّ على الذينَ استُضعِفُوا في الأرضِ و نَجعلَهمْ أئمّةً و نَجعلهم الوارِثينَ* و نُمَكّنَ لهمْ في الأرضِ و نُرِيَ فرعونَ وهامانَ و جنودَهمَا منهم ما كانُوا يَحذرُونَ﴾ و قوله : ﴿و دمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه﴾ أي : وخربنا ما كان فرعون و قومه يصنعونه ، من العمارات و المزارع ﴿و ما كانوا يعرشون﴾ قال ابن عباس ومجاهد ﴿يَعرِشونَ﴾ : يبنون .

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) ﴾

١٣٨ – يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام ، حين جاوزوا البحر ، و قد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فأتَوا﴾ أي : فمروا على قوم يعكفون على أصنام لهم . قال بعض المفسرين : كانوا من الكنعانيين ، و قيل : كانوا من لخم . قال ابن جرير : و كانوا يعبدون أصناماً على صور البقر ، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك ، فقالوا : ﴿يا مُوسَى اجعل لنَا إلهاً كمَا لهمْ آلهةٌ قالَ إنّكُمْ قومٌ تجهلون﴾ أي : تجهلون عظمة الله و جلاله ، و ما يجب أن ينزه عنه ، من الشريك و المثيل .

١٣٩ – ﴿إن هؤلاء متبّر ما هم فيه﴾ أي : هالك ﴿و باطل ما كانوا يعملون﴾ وروى الإمام أبو جعفر بن جريرفي تفسير هذه الآية من حديث أبي واقد الليثي : أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، قال : و كان للكفار سِدْرَة يعكفون عندها ، و يُعَلِّقون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط ، قال فمررنا بسدرةٍ خضراء عظيمة ، قال فقلنا يا رسول الله : اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذات أنواط ، فقال : «قلتم و الذي نفسي بيده ، كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال : إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبّر ما هم فيه و باطل ما كانوا يعملون» . و رواه الإمام أحمد و لفظه : فقال النبي ﷺ : «الله أكبر ، هذا كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، إنكم تركبون سنن من قبلكم» أورده ابن جرير .

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾

١٤٠ ، ١٤١ – يُذكِّرهم موسى عليه السلام نعمَ الله عليهم ، من إنقاذهم من أسر فرعون و قهره ، و ما كانوا فيه من الهوان و الذلة ، و ما صاروا إليه من العزة و الاشتفاء من عدوهم ، و النظر إليه في حال هوانه و هلاكه ، وغرقه و دماره ، و قد تقدم تفسيرها في البقرة .

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾

١٤٢ – يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل ، بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام ، و إعطائه

التوراة، و فيها أحكامهم و تفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ﷺ ثلاثين ليلة. قال المفسرون: فصامها موسى ﷺ و طواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل العشرة أربعين. و قد اختلف المفسرون في هذه العشر ماهي؟ فالأكثرون على أن الثلاثين: هي ذو القعدة، و العشر عشرذي الحجة، قاله مجاهد و مسروق و ابن جريج، و رُوي عن ابن عباس و غيره، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى ﷺ، و فيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾. فلما تم الميقات، و عزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ الآية، فحينئذ استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون، و وصَّاه بالإصلاح و عدم الإفساد. هذا تنبيه و تذكير، وإلا فهارون ﷺ نبي شريف، كريم على الله، له وجاهة وجلالة، صلوات الله و سلامه عليه، و على سائر الأنبياء.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾

١٤٣- يخبر تعالى عن موسى ﷺ أنه لما جاء لميقات الله تعالى، و حصل له التكليم من الله، سأل الله تعالى أنْ ينظر إليه فقال ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ و قد أشكل حرف «لن» ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا و الآخرة، و هذا أضعف الأقوال، لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ و قوله تعالى إخباراً عن الكفار ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ و قيل: إنها لنفي التأبيد في الدنيا، جمعاً بين هذه الآية و بين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة. وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام، كالكلام في قوله تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ و قد تقدم ذلك في الأنعام. و في الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى ﷺ «يا موسى، إنه لا يراني حيٌّ إلا مات، و لا يابس إلا تدهده». و لهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾.

روى أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: عن أنس قال قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً﴾ قال: «و وضع الإبهام قريباً من طرف خنصره» قال: «فساخ الجبل» قال حميد لثابت يقول: هكذا؟ فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال: يقوله رسول الله ﷺ، و يقوله أنس وأنا أكتمه؟. و هذا رواه الإمام أحمد في مسنده و الحاكم في مستدركه، حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه، و رواه أبو محمد الخلال و قال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه. و عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ قال ما تجلى منه إلا قدر الخنصر ﴿جَعَلَهُ دَكّاً﴾ قال: تراباً ﴿وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ قال: مغشياً عليه، رواه ابن جرير. و قال قتادة: ﴿وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ قال: ميتاً. و قال سفيان الثوري: ساخ الجبل في الأرض

حتى وقع في البحر فهو يذهب معه. و قال الربيع بن أنس ﴿فلمّا تجلّى ربُّه للجَبَل جَعلَهُ دَكّاً و خَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ و ذلك أن الجبل حين كشف الغطاء و رأى النور صار مثل دك من الدكاك. و قال مجاهد في قوله: ﴿ولكِن انظُرْ إلَى الْجَبَلِ فإنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فسوفَ تَرَانِي﴾ فإنه أكبر منك و أشد خلقاً ﴿فلمّا تَجلَّى ربُّهُ للْجَبَلِ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك، و أقبل الجبل فدك على أوله، و رأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقاً. وقال عكرمة «جعله دكَّاء» قال: نظر الله إلى الجبل فصار صحراء تراباً. و قد قرأ بهذه القراءة بعض القراء، واختارها ابن جرير.

و المعروف أن الصعق: هو الغشي ههنا، كما فسره ابن عباس و غيره، لا كما فسره قتادة بالموت، و إنْ كان ذلك صحيحاً في اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّموَاتِ ومَن فِي الأرْضِ إلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرَى فإذَا هُمْ قيامٌ يَنظُرُونَ﴾ فإن هناك قرينة تدل على الموت، كما أن هنا قرينة تدل على الغشي، و هي قوله: ﴿فلمّا أفاقَ﴾ و الإفاقة لا تكون إلا عن غشي ﴿قال سبحانك﴾ تنزيهاً وتعظيماً و إجلالاً، أن يراه أحد في الدنيا إلا مات، و قوله: ﴿تُبْتُ إلَيْكَ﴾ قال مجاهد: أن أسألك الرؤية ﴿و أنَا أوَّلُ الْمُؤمِنينَ﴾ قال ابن عباس و مجاهد: من بني إسرائيل، و اختاره ابن جرير. و في رواية أخرى عن ابن عباس ﴿و أنَا أوَّلُ الْمُؤمِنينَ﴾ أنه لا يراك أحد. و كذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، و لكن يقول: أنا أوّل من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. و هذا قول حسن له اتجاه، و قد ذكر محمد بن جرير في تفسيره ههنا أثراً طويلاً فيه غرائب و عجائب، عن محمد بن إسحاق بن يسار، و كأنه تلقاه من الإسرائيليات، و الله أعلم.

و قوله: ﴿و خَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ فيه أبو سعيد و أبو هريرة: عن النبيﷺ، فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخاري في صحيحه هاهنا، قال: جاء رجل من اليهود إلى النبيﷺ قد لُطم وجهه، و قال: يا محمد، إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي، قال: ادعوه، فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله، إني مررت باليهود فسمعته يقول: و الذي اصطفى موسى على البشر، فقلت: وعلى محمد؟! و أخذتني غضبة فلطمته، قال: «لا تخيروني من بين الأنبياء، فإنَّ الناسَ يَصعَقون يوم القيامة فأكون أولَ من يُفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جُوزي بصعقة الطور» و قد رواه البخاري في أماكن كثيرة من صحيحه، و مسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه.

و أما حديث أبي هريرة: فروى الإمام أحمد عنه قال: استب رجلان، رجل من المسلمين و رجل من اليهود فقال المسلم: و الذي اصطفى محمداً على العالمين، فقال اليهودي: و الذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه فأتى اليهودي رسول اللهﷺ فسأله فأخبره، فدعاه رسول اللهﷺ فاعترف بذلك فقال رسول اللهﷺ فذكر نحو الحديث السابق، أخرجاه في الصحيحين.

و الكلام في قولهﷺ «لا تخيروني على موسى» كالكلام على قوله: «لاتفضلوني على الأنبياء و لا على يونس بن مَتّى» قيل: من باب التواضع، و قيل: قبل أن يعلم بذلك، وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب و التعصُّب، و قيل: على وجه القول بمجرد الرأي و التشهي، والله أعلم. و قوله «فإن الناس يصعقون يوم القيامة» الظاهر أن هذا الصعق يكون في عَرَصَات القيامة، يحصل أمرٌ يصعقون منه، و الله أعلم به، و قد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك و تعالى لفصل القضاء، و تجلى للخلائق الملك الديان، كما صعق

موسى من تجلي الرب تبارك و تعالى، و لهذا قال ﷺ «فلا أدري أفاق قبلي أم جُوزي بصعقة الطور».

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) ﴾

١٤٤- يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته و كلامه، و لا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين و الآخرين، و لهذا اختصه الله بأن جعله خاتم الأنبياء و المرسلين، الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة، و أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء كلهم، و بعده في الشرف و الفضل إبراهيم الخليل، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن ﷺ، و لهذا قال الله تعالى له: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أي: من الكلام و المناجاة ﴿و كُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: على ذلك و لا تطلب ما لا طاقة لك به.

١٤٥- ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة و تفصيلاً لكل شيء. قيل: كانت الألواح من جوهر، و أن الله تعالى كتب له فيها مواعظ و أحكاماً، مفصلة مبينة للحلال و الحرام، و كانت هذه الألواح مشتملة على التوراة، التي قال الله تعالى: ﴿و لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾. و قيل: الألواح أُعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم، و على كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤيا و منع منها، و الله أعلم. و قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ رُوي عن ابن عباس قال: أُمر موسى ﷺ أن يأخذ بأشد ما أمر قومه. و قوله: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري و خرج عن طاعتي، كيف يصير إلى الهلاك والدمار و التباب.

قال ابن جرير: و إنما قال: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري، على وجه التهديد و الوعيد، لمن عصاه و خالف أمره، نقل معنى ذلك عن مجاهد و الحسن البصري. و قيل: معناه: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ أي: من أهل الشام، و أعطيكم إياها. وقيل: منازل قوم فرعون. و الأول أولى، و الله أعلم، لأن هذا كان بعد انفصال موسى و قومه عن بلاد مصر، و هو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه، و الله أعلم.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) ﴾

١٤٦- يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: سأمنع فهم الحُجَج، والأدلة الدالة على عظمتي و شريعتي و أحكامي، قلوب المتكبرين عن طاعتي، و يتكبرون على الناس بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق، أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ

﴿وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ و قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ و قال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر. و قال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبداً. وقال سفيان ابن عيينة في قوله ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فَهْم القرآن، وأصرفهم عن آياتي، قال ابن جرير: و هذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة. **(قلت)**: ليس هذا بلازم، لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة، ولا فرق بين أحد و أحد في هذا، و الله أعلم.

و قوله: ﴿و إن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ◆ و لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتَّى يَرَوْا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾ و قوله: ﴿و إن يَرَوا سَبيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ أي: و إنْ ظهر لهم سبيل الرشد، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، و إنْ ظهر لهم طريق الهلاك و الضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذلكَ بأنَّهمْ كَذَّبُوا بآياتِنَا﴾ أي: كذبت بها قلوبهم ﴿وَكانُوا عَنها غَافِلِينَ﴾ أي: لا يعلمون شيئاً مما فيها.

١٤٧- و قوله: ﴿وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهمْ﴾ أي: من فعل منهم ذلك و استمر عليه إلى الممات، حبط عمله. و قوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إنْ خيراً فخير، و إن شراً فشر، و كما تدين تدان.

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) ﴾

١٤٨- يخبر تعالى عن ضلال مَن ضَلَّ من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حُلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً، ثم ألقى فيه القبضة من التراب، التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار، و الخوار: صوت البقر، و كان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك و هو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة ﴿قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِ مُوسَى وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾. و قد اختلف المفسرون في هذا العجل: هل صار لحماً و دماً له خوار، أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فَيُصَوِّتُ كالبقر؟ على قولين، و الله أعلم. و يقال: إنهم لمّا صَوَّت لهم العجل رقصوا حوله، و افتتنوا به و قالوا: هذا إلهكم و إله موسى فنسي، قال الله تعالى: ﴿أفَلا يَرَوْنَ ألاَّ يَرجِعُ إِلَيهِمْ قَولاً وَ لاَ يَملِكُ لَهمْ ضَراً ولاَ نَفْعاً﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَ لاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل، و ذهولهم عن خالق السموات و الأرض، و رب كل شيء و مليكه، أنْ عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار، لا يكلمهم و لا يرشدهم إلى خير، و لكن غَطَّى على أعين بصائرهم عَمَى الجهل و الضلال.

١٤٩- و قوله: ﴿وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على ما فعلوا ﴿و رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَمْ يَرْحَمْنَا وَ يَغْفِرْ لَنَا﴾ و قرأ بعضهم ﴿لَئِن لَمْ تَرْحَمْنَا﴾ بالتاء المثناة من فوق ﴿ربنا﴾ منادى ﴿و يغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: من الهالكين. و هذا اعتراف منهم بذنبهم، و التجاء إلى الله عز وجل.

﴿ ولَمَّا رجعَ موسىٰ إلىٰ قومه غضبانَ أسفًا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين (١٥٠) قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين (١٥١) ﴾

١٥١ - يخبر تعالى أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى، و هو غضبان أسف. قال أبو الدرداء: الأسف أشد الغضب ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ يقول: بئس ما صنعتم في عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم، و قوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم، و هو مقدر من الله تعالى. و قوله: ﴿وَ أَلْقَى الأَلْوَاحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ و في هذا دلالة على ما جاء في الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة»[1]. ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، و هذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، و روى ابن جرير: عن قتادة في هذا قولاً غريباً، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، و قد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء و هو جدير بالرد، و كأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، و فيهم كذابون و وضاعون وأفاكون وزنادقة.

و قوله: ﴿وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصّر في نهيهم، قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۞ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ و قال ههنا: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَ لاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تسوقني سياقهم و تجعلني معهم، وإنما قال: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ ليكون أرق و أنجع عنده، و إلا فهو شقيقه لأبيه و أمه، فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي﴾ فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي و لأَخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وروى ابنُ أبي حاتم: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله مُوسى، ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فُتنوا بعده فلم يُلق الألواح، فلما رآهم و عاينهم، ألقى الألواح».

﴿ إنَّ الذين اتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربهم وذلةٌ في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين (١٥٢) والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم (١٥٣) ﴾

١٥٢ - أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. و أما الذلة فأعقبهم ذلك ذلة و صغاراً في الحياة الدنيا.

وقوله ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذلّ البدعة و مخالفة الرشاد، متصلة

(١) حديث صحيح، رواه أحمد (١/ ٢٧١) و غيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

من قبله على كتفيه ، كما قال الحسن البصري : إنّ ذل البدعة على أكتافهم و إن هملجت بهم البغلات ، وطقطقت بهم البراذين . وهكذا روى أيوب السختياني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية **﴿و كذلِكَ نَجزي المُفتَرينَ﴾** فقال : هي و الله لكل مفتر إلى يوم القيامة . و قال سفيان بن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل .

١٥٣ – ثم نبه تعالى عباده و أرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان ، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ، و لهذا عقب هذه القصة بقوله : **﴿و الذينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِن بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إنَّ رَبَّكَ﴾** أي : يا محمد يا رسول التوبة ، و نبي الرحمة **﴿مِن بَعدِهَا﴾** أي : من بعد تلك الفعلة **﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** .

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود : أنه سُئل عن ذلك ـ يعني عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها ـ فتلا هذه الآية **﴿و الذينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِن بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إنَّ رَبَّكَ مِن بَعدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** فتلاها عبد الله عشر مرات ، فلم يأمرهم بها ، ولم ينههم عنها .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) ﴾

١٥٤ – يقول تعالى : **﴿وَ لَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الغَضَبُ﴾** أي : غضبه على قومه **﴿أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾** أي : التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل ، غيرةً لله و غضباً له **﴿و في نُسْخَتِهَا هُدًى و رَحمةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾** يقول كثير من المفسرين : إنها لما ألقاها تكسرت ، ثم جمعها بعد ذلك ، و لهذا قال بعض السلف فوجد فيها هدى و رحمة ، و أما التفصيل فذهب ، و زعموا أن رضاضها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية ، و الله أعلم بصحة هذا . و أما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها ، وهي من جوهر الجنة ، فقد أخبر تعالى أنه لما بعد ما ألقاها وجد فيها **﴿هُدًى وَ رَحمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرهَبُونَ﴾** ضمن الرهبة معنى الخضوع ، و لهذا عدّاها باللام .

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾

١٥٥ – قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلاً ، فاختار سبعين رجلاً فبرزهم ليدعوا ربهم ، و كان فيما دعوا الله قالوا : اللهم أعطنا ما لم تعط أحداً قبلنا ، و لا تعطه أحداً بعدنا ، فكره الله ذلك من دعائهم ، فأخذتهم الرجفة **﴿قَالَ رَبِّ لَو شِئتَ أَهْلَكتَهُمْ مِن قَبلُ و إِيَّايَ﴾** الآية ، و قال السدي : إن الله أمر موسى أن يأتيه في ثلاثين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ، و وعدهم موعداً **﴿وَ اختَارَ مُوسَى قَومَهُ سبعينَ رَجُلاً﴾** على عينيه ثم ذهب بهم ليعتذروا ، فلما أتوا ذلك المكان قالوا : **﴿لَن نُؤمِنَ لَكَ﴾** يا موسى **﴿حتى نرى الله جهرة﴾** فإنك قد كلمته فأرناه **﴿فأخذتهم الصاعقة﴾** فقام موسى يبكي و يدعو الله ، و يقول : رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم ، و قد أهلكت

خيارهم ﴿ربِّ لو شئتَ أهلكتهم من قبلُ و إيّايَ﴾.

و قال ابن عباس و قتادة و مجاهد و ابن جريج: إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يُزايلوا قومهم في عبادتهم العجل، و لا نهوهم، و يتوجه هذا القول بقول موسى ﴿أتهلكنا بما فعل السفهاءُ منّا﴾. و قوله: ﴿إنْ هِيَ إلاّ فتنتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك و اختبارك و امتحانك، قاله ابن عباس و سعيد بن جبير و أبو العالية و ربيع بن أنس و غير واحد من علماء السلف و الخلف، و لا معنى له غير ذلك، يقول: إن الأمر إلا أمرك، و إن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تُضل من تشاء و تهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، و لا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، و الحكم كله لك، لك الخلق و الأمر. و قوله: ﴿أنتَ وَليّنا فاغفر لنا وَ ارحمنا و أنتَ خيرُ الغافرين﴾ الغفر: هو الستر، و ترك المؤاخذة بالذنب. و الرحمة إذا قرنت مع الغفر، يُراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿و أنتَ خيرُ الغافرين﴾ أن لا يغفر الذنوب إلا أنت.

١٥٦ - ﴿وَ اكتُبْ لنا في هذهِ الدُّنيا حَسَنةً و في الآخرةِ﴾ هناك الفصل الأول من الدعاء في دفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿وَ اكتُبْ لنا في هذهِ الدُّنيا حَسَنةً وفي الآخرةِ﴾ أي: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة. ﴿إنّا هُدنا إليكَ﴾ أي: تبنا و رجعنا و أنبنا إليك، قاله ابن عباس وسعيد ابن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك و إبراهيم التيمي والسدي وقتادة وغير واحد، وهو كذلك لغة.

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾

١٥٦ - يقول تعالى مجيباً لنفسه في قوله: ﴿إنْ هيَ إلاّ فتنتُكَ﴾ الآية، قال ﴿عذابي أُصيبُ بهِ مَن أشاءُ ورحمتي وَسِعتْ كُلَّ شَيءٍ﴾ أي: أفعل ما أشاء و أحكم ما أريد، ولي الحكمة و العدل في كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو، و قوله تعالى: ﴿ورحمتي وَسِعتْ كُلَّ شَيءٍ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش، و من حوله أنهم يقولون: ﴿ربّنا وَسِعتَ كُلَّ شَيءٍ رحمةً و عِلماً﴾.

و روى أحمد: عن سلمان عن النبيﷺ قال: «إنّ لله عز وجل مائةَ رحمة، فمنها رحمة يَتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، و أخّر تسعةً و تسعينَ إلى يوم القيامة» تفرد بإخراجه مسلم.

و قوله: ﴿فسأكتبها للّذينَ يتّقونَ﴾ الآية، يعني: فسأوجب حصول رحمتي، مِنّة مني، و إحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿كَتبَ ربُّكم على نفسِهِ الرّحمةَ﴾ و قوله: ﴿للّذينَ يتّقونَ﴾ أي: سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، و هم أمة محمدﷺ ﴿الذينَ يتّقونَ﴾ أي: الشرك و العظائم من الذنوب.

قوله: ﴿و يؤتون الزكاة﴾ قيل: زكاة النفوس، و قيل: الأموال، و يحتمل أن تكون عامة لهما، فإن الآية مكية ﴿و الذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أي: يُصدّقون.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ

﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾

١٥٧ - ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، و بشّروا أممهم ببعثه، و أمروهم بمتابعته، و لم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماؤهم و أحبارهم. كما روى الإمام أحمد: عن أبي صخر العقيلي حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعي، قلت: لألقينَّ هذا الرجل فلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر و عمر يمشون، فبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها، يُعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان و أحسنها، فقال رسول الله ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك هذا صفتي و مخرجي؟» فقال برأسه هكذا، أي: لا، فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة، إنا لنجد في كتابنا صفتك و مخرجك، و إني أشهد أن لا إله إلا الله، و أشهد أنك رسول الله، فقال: «أقيموا اليهودي عن أخيكم» ثم تولى كفنه و الصلاة عليه.

هذا حديث جيد قوي، له شاهد في الصحيح عن أنس.

و رى ابن جرير: عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، و الله إنه لموصوفٌ في التوراة، كصفته في القرآن ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ و حرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، اسمك المتوكل، ليس بفظ و لا غليظ، و لا صخّاب في الأسواق، و لا يجزي بالسيئة السيئة، و لكن يعفو و يصفح و لن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، و يفتح به قلوباً غلفاً، و آذاناً صماً، وأعيناً عمياً. قال عطاء ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك، فما اختلف حرفاً، إلا أن كعباً قال: بلغته قال: قلوباً غلوفياً، و آذاناً صمومياً و أعيناً عمومياً.

و قد رواه البخاري نحوه. ويقع في كلام كثير من السلف، إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب، و قد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا، و الله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة و السلام، لا يأمر إلا بخير، و لا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه، ومن أهم ذلك و أعظمه: ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

وروى الإمام أحمد: عن أبي حميد و أبي أسيد رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، و تلين له أشعاركم و أبشاركم، و ترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، و إذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، و تنفر منه أشعاركم و أبشاركم، و ترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه» رواه الإمام أحمد رحمه الله بإسناد جيد، و لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب.

و روى الإمام أحمد: عن علي رضي الله عنه قال: إذا سمعتم رسول الله ﷺ حدثنا، فظنوا به الذي هو أهدى، والذي هو أهنأ و الذي هو أتقى.

و قوله ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أي: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم،

من البحائر و السوائب و الوصائل و الحام، و نحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، و يحرم عليهم الخبائث. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كلحم الخنزير و الربا، و ما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى. قال بعض العلماء: فكل ماأحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين، و كل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن و الدين، و قد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين، و أجيب عن ذلك بمالا يتسع هذا الموضع له، و كذا احتج بها من ذهب من العلماء، إلى أن المرجع في حل المآكل التي لم يُنَص على تحليلها و لا تحريمها، إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته، و فيه كلام طويل أيضاً.

و قوله: ﴿و يَضعُ عنهُمْ إصْرَهُمْ و الأغْلالَ التي كانتْ عليهِمْ﴾ أي: أنه جاء بالتيسير و السماحة، كما ورد الحديث من طرق: عن رسول اللهﷺ أنه قال: «بُعثتُ بالحنيفية السمحة». و قالﷺ لأميريه معاذ و أبي موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن: «بشّرا و لا تُنفّرا، و يسّرا ولا تُعسّرا، وتطاوعا و لا تختلفا»[1].

و قال صاحبه أبو برزة الأسلمي إني صحبت رسول اللهﷺ و شهدت تيسيره.

و قد كانت الأمم التي قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسّع الله على هذه الأمة أمورها و سهلها لهم، ولهذا قال رسول اللهﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حَدَّثت به أنفسها، مالم تَقل أو تعمل»[2]. و قال: «رُفعَ عن أمتي الخطأ و النسيان و ما استكرهوا عليه»[3].

و لهذا قال أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿ربّنا لا تُؤاخِذْنا إن نَسِينا أوْ أخطأنا ربّنا و لا تَحملْ علَينا إصْراً كمَا حَمَلْتَهُ علَى الذينَ مِن قَبلِنا ربّنا و لا تُحمِلْنا مَالاَ طاقَةَ لَنا بهِ واعفُ عَنَّا وَ اغفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنَا أنتَ مَولاَنَا فَانصُرْنَا علَى القَومِ الكَافِرِينَ﴾. و ثبت في صحيح مسلم: أن الله تعالى قال بعد كل سؤالٍ من هذه: قد فعلت قد فعلت.

و قوله: ﴿فالذينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ﴾ أي: عظموه و وقروه، و قوله: ﴿و اتَّبَعُوا النُّورَ الذِي أُنزِلَ معَهُ﴾ أي: القرآن و الوحي، الذي جاء به مبلغاً إلى الناس ﴿أولئك هم المفلحون﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾

١٥٨- يقول تعالى لنبيه و رسوله محمدﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ و هذا خطاب للأحمر والأسود، و العربي والعجمي ﴿إنّي رَسُولُ اللهِ إليكُمْ جَمِيعاً﴾ أي: جميعكم، وهذا من شرفه و عظمتهﷺ أنه خاتم النبيين، و أنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللهُ شَهيدٌ بيني وبينكُمْ وأُوحِيَ إليَّ هذَا القُرآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَ مَن بَلَغَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَ مَن يَكفُرْ بِهِ مِنَ الأَحزَابِ فالنَّارُ مَوعِدُهُ﴾ و قال تعالى: ﴿و قُل للَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ و الأُمِّيينَ أأَسلمتُمْ فإنْ أسلَمُوا فقَدِ اهتدَوْا و إن تولَّوْا فإنَّما عليكَ البلاغُ﴾ و الآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة، أنه صلوات الله

(١) متفق عليه. (٢) متفق عليه. (٣) سبق تخريجه في الجزء الأول.

وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم.

روى البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية عن أبي الدرداء رضي الله عنه يقول: كانت بين أبي بكر و عمر رضي الله عنهما محاورة فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً فأتبعه أبوبكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل، حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال أبوالدرداء و نحن عنده فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبُكم هذا فقد غَامرَ» أي: غاضب و حاقد، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلَّم وجلس إلى النبي ﷺ و قص على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبوالدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: و الله يارسول الله لأنا كنتُ أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تَاركو لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبتَ، وقال أبوبكر: صدقتَ» انفرد به البخاري.

و روى الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أُعطيتُ الليلة خمساً ما أُعطيهن أحدٌ قبلي، أما أنا: فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، و نُصرت على العدو بالرعب، و لو كان بيني و بينهم مسيرة شهر لملئ مني رعباً، وأحلت لي الغنائم أكلها، و كان مَن قبلي يعظمون أكلها، كانوا يخرقونها، و جُعلتْ لي الأرض مسجداً و طهوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسحت و صليت، و كان من قبلي يُعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في بِيَعهم و كنائسهم، والخامسة هي ماهي، قيل لي: سَلْ فإنَّ كل نبي قد سأل، فأخَّرتُ مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم، و لمن شهد أن لا إله إلا الله» إسناد جيد قوي أيضاً، و لم يخرجوه.

و روى أيضاً: «مَنْ سَمِعَ بي من أمتي أو يهودي أو نصراني، فلم يُؤمن بي لم يدخل الجنة» و هذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر. و قوله: **﴿الذِي لَهُ مُلكُ السَّموات و الأرضِ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ يُحيِي ويُميتُ﴾** صفة الله تعالى، في قوله: **﴿رَسولُ الله﴾** أي: الذي أرسلني: هو خالق كل شيء و ربه و مليكه، الذي بيده الملك و الإحياء و الإماتة، وله الحكم. و قوله: **﴿فَآمِنوا باللهِ و رَسوله النَّبيِّ الأُمِّي﴾** أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه و الإيمان به **﴿النَّبيِّ الأُمِّي﴾** أي: الذي وُعدتم به، و بشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك في كتبهم، ولهذا قال: **﴿النَّبيِّ الأُمِّي﴾**.

و قوله: **﴿الذِي يُؤمِنُ باللهِ و كَلِماتِه﴾** أي: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه **﴿واتَّبِعُوهُ﴾** أي: اسلكوا طريقه، و اقتفوا أثره **﴿لعلَّكُمْ تَهتدُونَ﴾** أي: الصراط المستقيم.

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) ﴾

١٥٩ - يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل، إن منهم طائفة يتبعون الحق، و يعدلون به، كما قال تعالى: **﴿مِنْ أهْلِ الكِتابِ أُمَّةٌ قَائِمةٌ يَتلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ و هُمْ يَسجُدونَ﴾** و قال تعالى: **﴿و إن مِّنْ أهْلِ الكِتابِ لَمَن يُؤمِنُ باللهِ و مَا أُنزِلَ إلَيكُم و مَا أُنزِلَ إليهِمْ خَاشِعينَ للهِ لاَ يَشترونَ بآياتِ اللهِ ثَمَناً قليلاً أُولئكَ لَهُمْ أجرُهُمْ عِندَ ربِّهِمْ إنَّ اللهَ سَريعُ الحِسابِ﴾** و قال تعالى: **﴿الذينَ آتيناهُم الكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤمِنُونَ * و إذا يُتْلَى عَليهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إنَّه الحَقُّ مِن رَبِّنا إنَّا كُنَّا مِن قَبلِه مُسلِمينَ * أولئكَ يُؤتَونَ أجْرَهُم مَرَّتَينِ بِمَا صَبَرُوا﴾** الآية،

وقال تعالى: ﴿الذينَ آتيناهُم الكِتابَ يَتلُونَهُ حقَّ تِلاوتِه أولئكَ يُؤمنونَ به﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ أُوتُوا العِلمَ مِن قبْلِه إذَا يُتْلَى عَليهِمْ يَخِرُّونَ للأذقانِ سُجَّداً ❁ ويَقُولونَ سُبحانَ ربِّنا إن كانَ وعدُ ربِّنا لَمفعولاً ❁ ويَخِرُّونَ للأذقَانِ يَبكونَ وَ يَزيدُهمْ خُشوعاً﴾.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾

١٦٠ - ١٦٢ - تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة، وهي مدنية، و هذا السياق مكي، و نبهنا على الفرق بين هذا السياق، و ذاك بما أغنى عن إعادته هنا، و لله الحمد و المنة.

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾

١٦٣ - هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿ولَقدْ علِمتمْ الذِينَ اعتدَوا مِنكُمْ في السَّبتِ﴾ الآية، يقول تعالى لنبيه صلوات الله و سلامه عليه ﴿و اسْألْهُمْ﴾ أي: و اسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك، عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم، و اعتدائهم و احتيالهم في المخالفة، و حذّر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم، لئلا يحل بهم ما حلَّ بإخوانهم و سلفهم، وهذه القرية هي «أيلة» وهي على شاطئ بحر القزم، روي عن ابن عباس و كذا قال عن عكرمة و مجاهد و قتادة و السدي.

وقوله: ﴿إذْ يَعْدُونَ في السَّبتِ﴾ أي: يعتدون فيه، و يخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك ﴿إذْ تَأتِيهمْ حِيتانُهمْ يومَ سبتِهمْ شُرَّعاً﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أي ظاهرة على الماء، و قال العوفي عن ابن عباس: شُرَّعاً من كل مكان.

قال ابن جرير: و قوله: ﴿وَ يومَ لاَ يَسْبِتونَ لاَ تأْتِيهمْ كذلكَ نَبلُوهمْ﴾ أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء، في اليوم المحرم عليهم صيده، و إخفائها عنهم، في اليوم الحلال لهم صيده و إخفائها عنهم، في اليوم الحلال لهم صيده ﴿كذلكَ نبلُوهمْ﴾ نختبرهم ﴿بِما كانُوا يَفسُقونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله، وخروجهم عنها، و هؤلاء قومٌ احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة، التي معناها في الباطن تعاطي الحرام.

و قد روى الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة رحمه الله: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَرتكبوا ما ارتكبَ اليهود، فتستحلُّوا محارمَ الله بأدنى الحيل» و هذا إسناد جيد.

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) ﴾

١٦٦ - يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور، و احتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة، و فرقة نهت عن ذلك و اعتزلتهم، و فرقة سكتت فلم تفعل و لم تنه، و لكنها قالت للمُنكِرة ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوماً اللهُ مُهلِكُهُمْ أوْ مُعذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً﴾ أي: لم تنهون هؤلاء و قد علمتم أنهم قد هلكوا، و استحقوا العقوبة من الله، فلا فائدة في نهيكم إياهم؟ قالت لهم المنكرة: ﴿مَعذِرةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقدير: هذا معذرة، و قرأ آخرون بالنصب، أي: نفعل ذلك ﴿مَعذِرةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي: فيما أخذنا علينا من الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر. ﴿و لَعلَّهمْ يَتَّقونَ﴾ يقولون: و لعل لهذا الإنكار يتقون ماهم فيه، و يتركونه و يرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم و رحمهم.

١٦٧ - قال تعالى ﴿فلمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أنجَيْنَا الذينَ يَنهونَ عَنِ السُّوءِ و أَخذْنَا الذينَ ظَلمُوا﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بعذابٍ بئيسٍ﴾ فنصَّ على نجاة الناهين، وهلاك الظالمين، و سكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يَستحقون مدحاً فيمدحوا، و لا ارتكبوا عظيماً، فيذموا، و مع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين، أو من الناجين؟ على قولين.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و إِذْ قالتْ أُمَّةٌ مِنهم لِمَ تعِظُونَ قَوماً اللهُ مُهلِكهُمْ أوْ مُعذِّبُهم عَذاباً شَديداً﴾ هي قرية على شاطئ البحر بين مصر و المدينة، يقال لها: أيلة، فحرّم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، و كانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً، في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها، فمضى على ذلك ما شاء الله، ثم إنَّ طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة و قالوا: تأخذونها وقد حرَّمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غياً و عتواً، و جعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم، قالت طائفة من النُّهاة: تعلمون أن هؤلاء قوم حقَّ عليهم العذاب ﴿لِمَ تعِظُونَ قَوماً اللهُ مُهلِكهُمْ﴾ وكانوا أشد غضباً لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿مَعذِرةً إِلَى رَبِّكُمْ و لعلَّهمْ يتَّقونَ﴾ وكل قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله، نجت الطائفتان اللتان قالوا: لم تعظون قوماً الله مهلكهم، و الذين قالوا معذرة إلى ربكم، و أهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة، و روى العوفي عن ابن عباس عنه قريباً من هذا. و قد قدمنا في سورة البقرة من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع و كفاية، و لله الحمد و المنة.

و (القول الثاني) أن الساكتين كانوا من الهالكين.

قال ابن عباس: كانوا أثلاثاً: ثلث نَهوا، و ثلث قالوا: ﴿لِمَ تعِظُونَ قَوماً اللهُ مُهلِكهُمْ﴾ و ثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا و هلك سائرهم، و هذا إسناد جيد عن ابن عباس، و لكن رجوعه إلى قول

عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا، لأنه تبين حالهم بعد ذلك، و الله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا، و﴿بَئِيسٍ﴾ فيه قرآت كثيرة، و معناه في قول مجاهد: الشديد، وفي رواية: أليم، و قال قتادة: موجع. و الكل متقارب والله أعلم، و قوله ﴿خَاسِئِينَ﴾ أي: ذليلين حقيرين مهانين.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) ﴾

١٦٧ - ﴿تَأَذَّنَ﴾ تَفعَّل من الأذان، أي: أعلم، قاله مجاهد، و قال غيره: أمر، و في قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، و لهذا أتبعت باللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: بسبب عصيانهم و مخالفتهم أوامر الله و شرعه، و احتيالهم على المحارم، ويقال: إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، و كان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين و الكشدانيين و الكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم، و أخذهم منهم الجزية و الخراج، ثم جاء الإسلام و محمد ﷺ فكانوا تحت قهره و ذمته، يؤدون الخراج و الجزية.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هي الجزية، و الذي يسومهم سوء العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمته إلى يوم القيامة، و كذا قال سعيد بن جبير و ابن جريج و السدي و قتادة، و روى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال: يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية. قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام، و ذلك آخر الزمان.

و قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه و خالف شرعه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه و أناب، و هذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب و الترهيب كثيراً، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) ﴾

١٦٨ - يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أمماً، أي: طوائف و فرقاً، كما قال: ﴿وَ قُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: فيهم الصالح و غير ذلك، كقول الجن: ﴿وَ أَنَّا مِنَّا

الصَّالحونَ و منّا دونَ ذلكَ كنّا طرائقَ قِدَدًا﴾ . **﴿وبَلوناهُم﴾** أي: اختبرناهم **﴿بالْحسَنات و السَّيئاتِ﴾** أي: بالرخاء و الشدة، و الرغبة و الرهبة، و العافية والبلاء **﴿لعلَّهُم يَرجِعونَ﴾**.

١٦٩ – ثم قال تعالى: **﴿فَخلفَ مِن بعدِهمْ خَلفٌ وَرِثوا الكِتابَ يأخذُونَ عَرضَ هذَا الأدنَى﴾** الآية، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح و الطالح، خَلْفٌ آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب، وهو التوراة. و قال مجاهد: همَ النصارى. و قد يكون أعم من ذلك **﴿يأخذُونَ عَرضَ هذَا الأدنَى﴾** أي: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، و يسوفون أنفسهم و يعدونها بالتوبة، و كلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه، و لهذا قال: **﴿و إن يَأتِهِمْ عَرَضٌ مِثلُهُ يَأخُذوهُ﴾** و كما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه و يعترفون لله، فإنْ عَرَضَ ذلك الذنب أخذوه.

و قال مجاهد في قوله تعالى: **﴿يأخذُونَ عَرضَ هذَا الأدنَى﴾** قال: لا يَشْرف لهم شيء من الدنيا، إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون المغفرة **﴿وَ يقولونَ سَيُغفَرُ لَنا و إن يَأتِهِمْ عَرَضٌ مِثلُهُ يَأخُذوهُ﴾** و قال قتادة في الآية: أي و الله لخلف سوء **﴿وَرِثُوا الكِتابَ﴾** بعد أنبيائهم و رسلهم أورثهم الله و عهد إليهم، و قال الله تعالى في آية أخرى: **﴿فَخلفَ مِن بعدِهمْ خلفٌ أضاعوا الصلاةَ﴾** الآية، قال: **﴿يأخذُونَ عَرضَ هذَا الأدنَى ويَقولونَ سَيُغفَرُ لَنا﴾** تمنوا على الله أماني، و غرة يغترون بها **﴿و إن يَأتِهِمْ عَرَضٌ مِثلُهُ يَأخُذوهُ﴾** لا يشغلهم شيء عن شيء، و لا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يبالون حلالاً كان أو حراماً.

و قال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، و إن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا و لا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفرلي، فتطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع و جعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي، يقول: و إن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه.

قال الله تعالى: **﴿ألَمْ يُؤخَذْ عَلَيهِمْ مِيثاقُ الكِتابِ أن لاَ يَقولوا علَى اللهِ إلاَّ الحَقَّ﴾** الآية، يقول تعالى منكراً عليهم في صنيعهم هذا، مع ما أخذ عليهم الميثاق، ليبين الحق للناس ولا يكتمونه، كقوله: **﴿و إذْ أخذَ اللهُ مِيثاقَ الذينَ أُوتوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنّاسِ و لاَ تَكتُمونَهُ فَنَبذُوهُ وراءَ ظُهورِهِمْ واشتَروْا بِهِ ثَمناً قَليلاً فَبئسَ مَا يَشتَرونَ﴾** الآية، و قال ابن جريج: قال ابن عباس: **﴿ألَمْ يُؤخَذْ عَلَيهِمْ مِيثاقُ الكِتابِ أن لاَ يَقولوا علَى اللهِ إلاَّ الحَقَّ﴾** قال: فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم، التي لا يزالون يعودون فيها و لا يتوبون منها، و قوله تعالى: **﴿و الدّارُ الآخرةُ خيرٌ لِلذينَ يتَّقونَ أفلاَ تَعقِلُونَ﴾** يرغبهم في جزيل ثوابه، و يحذرهم من وبيل عقابه، أي: و ثوابي و ما عندي خير لمن اتقى المحارم، و ترك هوى نفسه، و أقبل على طاعة ربه **﴿أفلاَ تَعقِلُونَ﴾** يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي، عقلٌ يردعهم عمّا هم فيه من السفه و التبذير.

١٧٠ – ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمدﷺ كماهو مكتوب فيه، فقال تعالى: **﴿وَ الذينَ يُمَسِّكُونَ بالكِتابِ﴾** أي: اعتصموا به، و اقتدوا بأوامره، و تركوا زواجره **﴿و أقامُوا الصَّلاةَ إنّا لاَ نُضيعُ أجرَ المُصْلِحِينَ﴾**.

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾

١٧١ - قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: رفعناه، و هو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ و روى الثوري عن ابن عباس: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم، و هو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾.

و رُوي عن ابن عباس قال: ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة، و أخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، و أمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم و أبوا أنْ يُقروا بها، حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ قال: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم. رواه النسائي بطوله[1].

ورُوي عن الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خَرَّ كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، و نظر بعينه اليمنى إلى الجبل، فرَقًا من أن يسقط عليه، فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رُفعت بها العقوبة.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) ﴾

١٧٢ - يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، و أنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك، و جبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ و في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة» و في رواية: «على هذه الملة، فأبواه يهودانه و ينصرانه ويمجسانه، كما تُولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء».

و في صحيح مسلم: عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقتُ عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، و حرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم».

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوتُ مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: «ما بالُ أقوام يتناولون الذرية» فقال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إنَّ خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة تولد إلا وُلدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبينُ عنها لسانها، فأبواها يهوّدانها و ينصّرانها» قال الحسن: و لقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية، و قد رواه الإمام أحمد و النسائي.

و قد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام، و تمييزهم إلى أصحاب اليمين و أصحاب

---

(١) وهو حديث الفتون و في سنده ضعف.

الشمال، و في بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم: روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيتَ لو كان لك ما على الأرض من شيء، أكنتَ مفتدياً به؟ قال: فيقول نعم، فيقول: قد أردتُ منكَ أهونَ من ذلك، قد أخذتُ عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي» أخرجاه في الصحيحين.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد: عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنشرها بين يديه، ثم كلمهم قُبُلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ* أَوْ تَقُولُوا ـ إلى قوله ـ الْمُبْطِلُونَ﴾.

و قد روى هذا الحديث النسائي و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ الآية، فقال عمر ابن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ سُئل عنها فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة و بعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار و بعمل أهل النار يعملون» فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار» و هكذا رواه أبو داود و النسائي و الترمذي.

(حديث آخر): روى الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمةٍ هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وَبيصاً من نور، ثم عَرَضهم على آدم، فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم، فأعجبه وبيص مابين عينيه، قال: أي رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم يقال له داود، قال: رب و كم جعلتَ عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي ربِّ، قد وهبتُ له من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمرُ آدم جاءه ملك الموت قال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود، قال: فجحد آدمُ فجحدت ذريته، و نسي آدم فنسيت ذريته، و خطئ آدم فخطئت ذريته» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، و رواه الحاكم و ابن أبي حاتم.

و روي عن مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير والحسن و قتادة والسدي، و غير واحد من علماء السلف، سياقات توافق هذه الأحاديث، اكتفينا بإيرادها عن التطويل في تلك الآثار كلها، وبالله المستعان.

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه، و ميّز بين أهل الجنة و أهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث ابن عباس و في حديث عبد الله بن عمرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم، و من ثمَّ قال قائلون من السلف و الخلف: إنَّ المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة و عياض بن حمار المجاشعي، و من رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسَّر الحسن الآية بذلك، قالوا: و لهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ

﴿مِن بَنِي آدَمَ﴾ و لم يقل: من آدم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ و لم يقل: من ظهره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، و قرناً بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿و هوَ الذِي جَعلَكُمْ خَلائِفَ الأرضِ﴾ و قال: ﴿و يجعلكم خلفاء الأرض﴾ وقال: ﴿كمَا أنشأكم مِن ذُرِّيَّةِ قوم آخَرِينَ﴾.

ثم قال: ﴿و أشهدَهمْ على أنفُسهمْ ألَستُ بِرَبِّكمْ قالُوا بلَى﴾ أي: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً و قالاً، و الشهادة تارة تكون بالقول، كقوله: ﴿قالُوا شهِدْنَا علَى أنفُسِنَا﴾ الآية، وتارة تكون حالاً، كقوله تعالى: ﴿مَا كانَ للمُشركِينَ أن يَعمرُوا مَساجِدَ الله شَاهدِينَ علَى أنفسِهِمْ بِالكُفرِ﴾ أي: حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك، و كذا قوله تعالى: ﴿و إنَّه علَى ذلكَ لَشهِيدٌ﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالمقال، وتارة يكون بالحال، كقوله: ﴿و آتاكُم مِن كُلِّ ما سألتُموهُ﴾ قالوا: و مما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال، لكان كل أحد يَذكره ليكون حجة عليه.

فإن قيل: إخبار الرسولﷺ به كافٍ في وجوده. فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا و غيره، و هذا جعل حجةً مستقلةً عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فُطِروا عليها من الإقرار بالتوحيد.

١٧٢ - و لهذا قال: ﴿أن تقُولُوا﴾ أي: لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿إنَّا كُنَّا عنْ هذَا﴾ أي: التوحيد ﴿غَافلِينَ * أوْ تقُولُوا إنَّما أشرَكَ آباؤنَا﴾ الآية.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) ﴾

١٧٥ - روى عبد الرزاق: عن عبد الله بن مسعودﷺ في قوله تعالى: ﴿و اتلُ عليهمْ نبأ الذي آتيناهُ آياتِنا فانسلخَ مِنهَا﴾ الآية، قال: هو رجل من بني إسرائيل، يقال له: بلعم بن باعوراء. و روى سفيان بن عيينة عن ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء، و كذا قال مجاهد و عكرمة. و روى ابن جرير عن ابن عباس قال: هو بلعام، وقالت ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت.

و عن عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿و اتلُ عليهمْ نبأ الذِي آتيناهُ آياتِنَا﴾ الآية، قال: هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت. و قدروى من غير وجه عنه، و هو صحيح إليه، و كأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يُشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، و لكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول اللهﷺ وبلغته أعلامه و آياته و معجزاته، و ظهرت لكل من له بصيرة، و مع هذا اجتمع به و لم يتبعه، و صار إلى موالاة المشركين و مناصرتهم و امتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة، قبحه الله. و قد جاء في بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه و لم يؤمن قلبه، فإن له أشعاراً ربانية، و حكماً و فصاحة، و لكنه

لم يشرح الله صدره للإسلام.

و أما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود و غيره من السلف. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين و من معه أتاه ـ يعني بلعم ـ بنو عمه و قومه، فقالوا: إنَّ موسى رجل حديد و معه جنود كثيرة، و إنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى و من معه، قال: إني إنْ دعوت الله أن يرد موسى ومن معه، ذهبت دنياي و آخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿**فانسلخَ مِنهَا فأتبَعهُ الشّيطانُ**﴾ الآية.

و قوله تعالى: ﴿**فأتبَعهُ الشّيطانُ**﴾ أي: استحوذ عليه و على أمره، فمهما أمره امتثل و أطاعه، و لهذا قال: ﴿**فكانَ مِنَ الغَاوينَ**﴾ أي: من الهالكين الحائرين البائرين. و قد ورد في معنى هذه الآية حديث، رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: عن حذيفة يعني ابن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مما أخاف عليكم رجلٌ قرأ القرآن، حتى إذا رُؤيتْ بهجته عليه، و كان رداؤه الإسلام، اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه و نبذه وراء ظهره، و سعى على جاره بالسيف، و رماه بالشرك» قال: قلت: يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟ قال: «بل الرامي»، هذا إسناده جيد.

و قوله تعالى: ﴿**و لوْ شِئنَا لرَفعْنَاهُ بِهَا و لكِنّهُ أخلدَ إلَى الأرضِ و اتّبعَ هواهُ**﴾ يقول تعالى: ﴿**ولوْ شئنَا لرفَعنَاهُ بهَا**﴾ أي: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا، بالآيات التي آتيناه إياها ﴿**و لكِنّهُ أخلدَ إلَى الأرضِ**﴾ أي: مال إلى زينة الحياة الدنيا و زهرتها، و أقبل على لذاتها و نعيمها، وغرَّته كما غرت غيره من أولي البصائر والنُهى.

و قوله تعالى: ﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلبِ إنْ تحمِلْ عليهِ يلهثْ أو تَترُكهُ يَلهثْ**﴾ اختلف المفسرون في معناه، فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم بن أبي النضر: أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره، فتشبيهه بالكلب في لهيثه في كلتي حالتيه، إنْ زُجر و إنْ تُرك ظاهر، و قيل: معناه: فصار مثله في ضلاله و استمراره فيه، و عدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان، و عدم الدعاء، كالكلب في لهيثه في حالتين: إن حملت عليه، و إن تركته، هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة و الدعوة إلى الإيمان، و لا عدمه، كما قال تعالى: ﴿**سواءٌ عليهِمْ ءَأنذَرتَهم أمْ لمْ تُنذِرهمْ لاَ يُؤمِنونَ**﴾ ﴿**استغفرْ لهمْ أو لاَ تَستغفِرْ لَهمْ إن تَستغفرْ لهمْ سبعِينَ مرةً فلَن يغفِرَ اللهُ لهمْ**﴾ و نحو ذلك: و قيل: معناه: أن قلب الكافر و المنافق و الضال: ضعيف فارغ من الهدى، فهو كثير الوجيب، فعبر عن هذا بهذا، نقل نحوه عن الحسن البصري و غيره.

و قوله تعالى: ﴿**فاقصُصِ القَصَصَ لعلّهمْ يتَفكّرونَ**﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿**فَاقصُصِ القَصَصَ لَعلّهمْ**﴾ أي: لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، و ما جرى له في إضلال الله إياه، و إبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه، في تعليمه الاسم الأعظم، الذي إذا سُئل به أعطى، و إذا دعي به أجاب، في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، و شَعْب الإيمان، أتباع عبده و رسوله في ذلك الزمان، كليم الله موسى بن عمران عليه السلام، و لهذا قال: ﴿**لعلّهمْ يتفكّرونَ**﴾ أي: فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً، و ميزهم على من عداهم من الأعراب، و جعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون

أبناءهم، فهم أحق الناس و أولاهم باتباعه و مناصرته و موازرته، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك و أمرتهم به، ولهذا مَن خالف منهم مافي كتابه، و كَتَمهُ فلم يعلم به العباد، أحلَّ الله به ذلاً في الدنيا، موصولاً بذل الآخرة.

١٧٧- و قوله: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب، التي لاهمة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم و الهدى، و أقبل على شهوة نفسه، و اتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب، و بئس المثل مثله. و لهذا ثبت في الصحيح: أن رسول اللهﷺ قال: «ليس لنا مثل السوء، العَائدُ في هبته كالكلب يعود في قيئه».

و قوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي: ما ظلمهم الله، و لكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى، و طاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، و الإقبال على تحصيل اللذات، وموافقة الهوى.

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾

١٧٨- يقول تعالى: مَن هداه اللهُ فإنه لا مضل له، و من أضله فقد خاب و خسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان، و مالم يشأ لم يكن، و لهذا جاء في حديث ابن مسعود «إن الحمد لله نحمده و نستعينه ونستهديه ونستغفره، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، و من يضلل فلا هادي له، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، و أشهد أن محمداً عبده و رسوله» الحديث بتمامه، رواه الإمام أحمد و أهل السنن و غيرهم.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾

١٧٩- يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي: خلقنا و جعلنا لجهنم ﴿كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ أي: هيأناهم لها، وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق، عَلِم ماهم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب، قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو أن رسول اللهﷺ قال: «إنَّ الله قَدَّر مقادير الخلق، قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة، كان عرشُه على الماء»(1).

و في صحيح مسلم أيضاً: من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: دُعي النبيﷺ إلى جنازة صبيٍّ من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء و لم يدركه، فقال رسول اللهﷺ: «أوغير ذلك يا عائشة؟ إنَّ الله خلق الجنةَ و خلق لها أهلاً، و هم في أصلاب آبائهم، و خلق النار، و خلق لها أهلاً، و هم في أصلاب آبائهم».

وفي الصحيحين: من حديث ابن مسعود «ثم يبعث الله إليه الملك فَيُؤمر بأربع كلمات: فيكتب رزقه وأجله و عمله، و شقي أم سعيد». و تقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه، وجعلهم فريقين أصحاب اليمين و أصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة و لا أبالي، و هؤلاء للنار و لا أبالي». و الأحاديث في هذا كثيرة، و مسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

و قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يعني

(١) لفظه عند مسلم: «كَتَبَ الله مقادير الخلائق . . .» إلخ، في القدر (٤/ ٢٠٤٤).

ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿و جعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدةً فما أغنَى عنهمْ سمعُهمْ و لا أبصارُهمْ و لا أفئدتُهمْ من شيءٍ إذْ كانُوا يَجْحدونَ بآياتِ اللهِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿صُمٌّ بكمٌ عُميٌ فهُمْ لاَ يَرجعونَ﴾ هذا في حق المنافقين، و قال في حق الكافرين ﴿صُمٌّ بكمٌ عُميٌ فهمْ لاَ يعقِلونَ﴾ و لم يكونوا صماًو لا بكماً و لا عمياً، إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿و لَوْ عَلمَ اللهُ فيهمْ خيراً لأَسمعَهمْ وَ لوْ أسْمعهُمْ لَتولَّوْا وَهمْ مُعرِضُونَ﴾ و قال: ﴿فإنَّها لاَ تَعمَى الأبصارُ و لكنْ تَعمَى القُلوبُ التِي فِي الصُّدورِ﴾ و قال: ﴿و مَن يَعشُ عَن ذِكرِ الرَّحمنِ نُقَيِّضْ لهُ شَيطاناً فهوَ لهُ قرينٌ * و إنَّهمْ ليَصدُّونهمْ عنِ السَّبِيلِ و يَحْسَبونَ أنَّهمْ مُهتدُونَ﴾.

و قوله تعالى: ﴿أولئكَ كالأنعامِ﴾ أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق و لا يعرفونه، و لا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة، التي لا تنتفع بهذه الحواس منها، إلا في الذي يقيتها من ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿ومثلُ الذينَ كفرُوا كَمثَلِ الذِي يَنعِقُ بمَا لاَ يَسمعُ إلاَّ دعَاءً و نداءً﴾ أي: و مثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان: كمثل الأنعام إذا دعا راعيها، لا تسمع إلا صوته، و لا تفقه ما يقول، و لهذا قال في هؤلاء ﴿بَلْ همْ أضلُّ﴾ أي: من الدواب، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها[1]، و إنْ لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء، ولأنها تفعل ما خُلقت له، إما بطبعها و إما بتسخيرها، بخلاف الكافر فإنه إنما خلق ليعبد الله ويُوحده، فكفر بالله و أشرك به.

و لهذا مَنْ أطاع الله من البشر، كان أشرف من مثله من الملائكة في مَعاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه، و لهذا قال تعالى: ﴿أولئكَ كالأنعامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ أولئكَ هُمْ الغَافِلونَ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) ﴾

١٨٠ – عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله تسعاً و تسعين اسماً، مائة إلا واحداً، مَنْ أحصاهادخل الجنة، و هو وترٌ يحب الوتر» أخرجاه في الصحيحين، و أخرجه الترمذي في جامعه مثله و زاد بعد قوله: «يحب الوتر»: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام . . . .» الحديث.
ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب، و قد روى من غير وجه عن أبي هريرة، و لا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. و رواه ابن حبان في صحيحه، و رواه ابن ماجه مرفوعاً، فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة و نقصان، والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ: أنَّ سرد الأسماء في هذا الحديث مدرجٌ فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم و عبد الله بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد، أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم، أنهم قالوا: ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن، و الله أعلم.

ثم ليُعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة و تسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد: عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط همٌ و لا حزن، فقال: اللهم إني عبدُك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أنْ تجعلَ القرآن

(١) هو قول الراعي لها: بس بس (مثلثة الباء).

العظيم ربيع قلبي، و نور صدري، و جلاء حزني، و ذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه و همه و أبدل مكانه فرحاً» فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: «بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها» و قد أخرجه الإمام أبو حاتم ابن حبان البستي في صحيحه بمثله.

و ذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه «الأحوذي في شرح الترمذي» أن بعضهم جمع من الكتاب و السنة، من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم.

و قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَ ذَرُوا الذينَ يُلحِدونَ في أسمَائِهِ﴾ قال: إلحاد الملحدين أنْ دعوا اللات في أسماء الله، و قال ابن جريج عن مجاهد ﴿وَ ذَرُوا الذينَ يُلحِدونَ في أسمَائِهِ﴾ قال: اشتقوا اللات من الله، و العُزى من العزيز؛ و قال قتادة: يلحدون يشركون في أسمائه. و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الإلحاد التكذيب، وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، و الميل و الجور والانحراف، و منه اللحد في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) ﴾

١٨١- يقول تعالى: ﴿و مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي: بعض الأمم ﴿أُمَّةٌ﴾ قائمة بالحق قولاً و عملاً ﴿يَهدونَ بالْحَقِ﴾ يقولونه و يدعون إليه ﴿و بِهِ يَعدِلونَ﴾ يعملون و يقضون، و قد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية، هي: هذه الأمة المحمدية، و في الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول اللهﷺ: «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ و لا من خالفهم، حتى تقوم الساعة» و في رواية «حتى يأتي أمرُ اللهِ و هم على ذلك» و في رواية «وهم بالشام».

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾

١٨٢، ١٨٣- يقول تعالى: ﴿و الذينَ كذَّبُوا بِآياتِنَا سَنَستدرِجهمْ مِنْ حيثُ لاَ يعلَمونَ﴾ و معناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق، و وجوه المعاش في الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه، و يعتقدون أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فلمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به فَتحنَا عليهمْ أبوابَ كلِّ شيءٍ حتّى إذَا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أخَذناهُمْ بَغتةً فَإذا هُم مُبلِسونَ ❁ فَقُطِعَ دابرُ القومِ الذينَ ظَلَمُوا وَ الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ﴾ و لهذا قال تعالى: ﴿و أملي لهم﴾ أي: وسأملي لهم، أي: أطوّل لهم ما هم فيه ﴿إنَّ كيدِي مَتينٌ﴾ أي: قوي شديد.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) ﴾

١٨٤- يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصاحِبِهِمْ﴾ يعني محمداًﷺ ﴿مِن جِنَّةٍ﴾ أي: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ أي: ظاهر لمن كان لبٌّ و قلب يعقل به، و يعي به، كما قال تعالى: ﴿وَ مَا صَاحِبُكُمْ بِمَجنُونٍ﴾ و قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِواحِدةٍ أن تقُومُوا للهِ مَثنَى و فُرادَى ثُمَّ تتفكَّرُوا مَا بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إلاَّ نَذيرٌ لَكُمْ بَينَ يدَيْ عذابٍ شديدٍ﴾ يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله، ليس فيه تعصب و لا عناد، مثنى و فرادى، أي: مجتمعين ومتفرقين، ثم تتفكروا في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله، أبه جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك،

بان لكم و ظهر أنه رسول الله حقاً و صدقاً.

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) ﴾

١٨٥ - يقول تعالى: أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا، في ملك الله و سلطانه في السموات و الأرض، و فيما خلق من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك، و يعتبروا به، و يعلموا أن ذلك لمن لا نظير له و لا شبيه، و مِن فِعْل من لا ينبغي أن تكون العبادة و الدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، و يصدقوا رسوله، و ينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد و الأوثان، و يحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، و يصيروا إلى عذاب الله، وأليم عقابه.

و قوله: ﴿فبأيِّ حديثٍ بعدَهُ يُؤمنُونَ﴾ يقول: فبأي تخويفٍ و تحذير و ترهيب، بعد تحذير محمدﷺ وترهيبه، الذي أتاهم به من عند الله، في آي كتابه يصدقون، إنْ لم يصدقوا بهذا الحديث، الذي جاءهم به محمد من عند الله عز وجل؟

ثم قال تعالى:

﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) ﴾

١٨٦ - يقول تعالى: من كُتب عليه الضلالة، فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزي عنه شيئاً ﴿و مَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَملِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيئاً﴾ و كما قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا في السَّمواتِ والأرضِ و مَا تُغنِي الآياتُ و النُّذُرُ عَن قومٍ لاَ يُؤمِنونَ﴾.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾

١٨٧ -يقول تعالى: ﴿يَسألُونَكَ عَنِ السَّاعةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَسألُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعةِ﴾ قيل: نزلت في قريش، و قيل: في نفر من اليهود، الأول أشبه، لأن الآية مكية، و كانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها، و تكذيباً بوجودها، كماقال تعالى: ﴿و يقولُونَ مَتَى هذَا الْوَعدُ إنْ كُنتمْ صادِقينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَستعجلُ بِها الذينَ لاَ يؤمنونَ بها والذينَ آمنوا مُشفِقونَ مِنها و يَعلمونَ أنَّها الْحقُ ألاَ إنَّ الذينَ يُمارونَ في السَّاعةِ لَفي ضَلالٍ بعيدٍ﴾ و قوله: ﴿أيَّانَ مُرسَاها﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: منتهاها، أي: متى محطها، و أيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة ﴿قُلْ إنَّما عِلمُها عندَ ربِّي لاَ يُجَلِّيها لِوَقْتِها إلاَّ هُوَ﴾ أمرَ تعالى رسولهﷺ إذا سُئل عن وقت الساعة، أنْ يَرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي ﴿يُجَلِّيها لِوَقْتِهَا﴾ أي: يعلم جلية أمرها، و متى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، و لهذا قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمواتِ وَ الأرضِ﴾.

روى عبد الرزاق عن قتادة في قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: ثقل علمها على أهل السموات و الأرض، أنهم لا يعلمون. و قال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السموات و الأرض، يقول: كبرت عليهم، و قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة، و قال ابن جريج: إذا جاءت: انشقت السماء، و انتثرت النجوم، وكورت الشمس، و سيرت الجبال، و كان ما قال الله عزوجل، فذلك ثقلها. و اختار ابن جرير رحمه الله أن المراد: ثَقُل علمُ وقتها على أهل السموات و الأرض، كما قال قتادة، و هو كما قالاه، كقوله: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات و الأرض، و الله أعلم.

و روى البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت و رآها الناس، آمنوا أجمعون، فذلك حين لا يَنفع نفساً إيمانها لم تكن آمنتْ من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً، و لتقومنَّ الساعة و قد نَشَر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه و لا يطويانه، و لتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقْحته فلا يَطعمه، و لتقومنَّ الساعة و هو يَليط حوضه فلا يَسقي فيه، ولتقومنَّ الساعة و الرجل قد رَفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» ورواه مسلم (مختصراً).

و قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه كما قال العوفي عن ابن عباس: كأن بينك و بينهم مودة، كأنك صديق لهم. و قال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ إن بيننا و بينك قرابة، فأسرَّ إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ و كذا رُوي عن مجاهد وعكرمة و أبي مالك و السدي، و هذا قول، و الصحيح عن مجاهد من رواية ابن نجيح و غيره ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال: استَحْفَيت عنها السؤال حتى علمت وقتها، و كذا قال الضحاك عن ابن عباس ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول كأنك عالم بها، لست تعلمها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّٰهِ﴾ و كذا قال معمر وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم و قرأ: ﴿إِنَّ اللّٰهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية، وهذا القول أرجح في المقام الأول، والله أعلم، و لهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّٰهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

و لهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد و سأله ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» أي: لست أعلم بها منك، و لا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ ﴿إِنَّ اللّٰهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية، و في رواية: فسأله عن أشراط الساعة، فبين له أشراط الساعة، ثم قال: «في خمسٍ لا يعلمهن إلا الله» و قرأ هذه الآية، وفي هذا كله يقول بعد كل جواب: صدقت، و لهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله و يصدقه، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

و لما سأله ذلك الأعرابي و ناداه بصوت جهوري، فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: «هاؤم» على نحو من صوته، قال: يا محمد متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك إن الساعة آتيةٌ فما أَعددتَ لها» قال: ما أعددتُ لها كبير صلاة و لا صيام، و لكني أحب الله و رسوله، فقال له رسول الله ﷺ: «المرءُ معَ مَنْ أحب» فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث. و هذا له طرق متعددة في الصحيحين و غيرهما، عن

جماعة من الصحابة عن رسول اللهﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب» و هي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين. ففيه أنهﷺ كان إذاسئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ماهو الأهم في حقهم، و هو الاستعداد لوقوع ذلك، و التهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته.

و لهذا روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول اللهﷺ سألوه عن الساعة، متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث إنسانٍ منهم، فيقول: «إنْ يَعشْ هذا لم يُدركه الهرم، قامت عليكم ساعتكم» يعني بذلك موتهم، الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة. و عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «تسألوني عن الساعة! و إنما علمها عند الله، و أُقسم بالله، ما على ظهر الأرض اليوم، من نفسٍ منفوسة تأتي عليها مائة سنة» رواه مسلم. و في الصحيحين عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: و إنما أراد رسول اللهﷺ انخرام ذلك القرن.

وروى الإمام أحمد: عن حذيفة قال: سُئل رسول اللهﷺ عن الساعة، فقال: «علمها عند ربي عز وجل، لا يجليها لوقتها إلا هو، و لكن سأخبركم بمشاريطها، و ما يكون بين يديها، إنَّ بين يديها فتنةً و هرجاً» قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، فما الهرج؟ قال بلسان الحبشة «القتل»، قال: «ويُلقى بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد يعرف أحداً» لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه.

و عن طارق بن شهاب قال: كان رسول اللهﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة، حتى نزلت **﴿يَسألُونَكَ عَنِ السَّاعةِ أيَّانَ مُرسَاهَا﴾** الآية. و رواه النسائي، و هذا إسناد جيد قوي.

فهذا النبي الأمي سيد الرسل و خاتمهم محمد صلوات الله عليه و سلامه، نبي الرحمة، و نبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب، و المقفى، و الحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح: من حديث أنس و سهل بن سعد رضي الله عنهما: «بُعثتُ أنا و الساعة كهاتين» وقرن بين أصبعيه السبابة و التي تليها، و مع هذا كله، قد أمره الله أنْ يردَّ علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: **﴿قُلْ إنَّما عِلمُها عِندَ اللهِ وَ لكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لاَ يَعلَمونَ﴾**.

﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ﴾

١٨٨ - أمره الله تعالى أن يفوِّض الأمور إليه، و أن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، و لا اطلاع له على شيء من ذلك، إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: **﴿عَالِمُ الْغَيبِ فلاَ يُظهِرُ عَلَى غَيبِهِ أحَداً﴾** الآية، وقوله: **﴿وَلَوْ كُنتُ أعلَمُ الغَيبَ لاستَكثَرتُ مِنَ الخَيرِ﴾** روى عبد الرزاق: عن مجاهد قال: لو كنت أعلم متى أموت، لعلمتُ عملاً صالحاً. و كذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد، و قال مثله ابن جريج، وفيه نظر! لأن عمل رسول اللهﷺ كان ديمةً (١)، و في رواية: كان إذا عَمل عملاً أثبته، فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله عزوجل في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أنْ يُرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم.

---

(١) أي: دائماً.

و الأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعلَمُ الْغَيبَ لاستَكثَرتُ مِنَ الْخَيرِ﴾ أي: من المال، و في رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، و لا يصيبني الفقر، وقال ابن جرير: وقال آخرون معنى ذلك: لو كنتُ أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة، و لوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر، قبل أن يكون واتقيته.

ثم أخبر أنه إنما هو نذير و بشير، أي: نذير من العذاب، و بشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّما يَسَّرْنَاهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوماً لُدّاً﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾

١٨٩- ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدمﷺ، و أنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقناكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتقاكُمْ﴾ و قال تعالى: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنهَا زَوجَها﴾ الآية، و قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ أي: ليألفها و يسكن بها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسكُنُوا إِلَيهَا وَجَعَلَ بَينَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، و لهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصَّل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه. ﴿فلمَّا تَغشَّاها﴾ أي: وطئها حملت حملاً خفيفاً، و ذلك أو ل الحمل لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة. و قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله، و روي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه، و قال قتادة ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾: استبان حملها، و قال ابن جرير: معناه استمرت بالماء، قامت به وقعدت ﴿فلمَّا أَثقَلَتْ﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها، و قال السدي: كبر الولد في بطنها ﴿دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيتَنَا صَالِحاً﴾ أي: بشراً سوياً، كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة. و كذلك قال أبوالبختري و أبو مالك: أشفقا أن لا يكون إنساناً. و قال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلاماً ﴿لَنَكونَنَّ مِنَ الشَّاكِرينَ * فَلَمَّا آتاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكاءَ فِيمَا آتاهُمَا فَتَعالَى اللهُ عمَّا يُشرِكونَ﴾ يذكر المفسرون ههنا آثاراً و أحاديث، سأوردها و أبين ما فيها، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله وبه الثقة.

و روى الإمام أحمد: عن الحسن عن سمرة عن النبيﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لايعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، و كان ذلك من وحي الشيطان و أمره» و هكذا رواه ابن جرير و الترمذي و الحاكم و ابن أبي حاتم و ابن مردويه. و هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه(١).

و روى ابن جرير: عن الحسن: عَنِي بها ذرية آدم من أشرك منهم بعده، يعني ﴿جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا

(١) انظر تفصيلها في الأصل إن شئت.

آتاهُمَا﴾ . وعن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود و النصارى، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا و نصّروا، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك، و هو من أحسن التفاسير، و أولى ما حملت عليه الآية، و لو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه، هو ولا غيره، و لا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبه و غيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما الآثار: فروي عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم لله، و يسميهم عبد الله وعبيد الله و نحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: إنكما لو سميتماه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال: فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله يقول: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾** ـ إلى قوله ـ **جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾** إلى آخر الآية.

و قد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس من أصحابه كمجاهد و سعيد بن جبير و عكرمة، و من الطبقة الثانية قتادة و السدي و غير واحد من السلف و جماعة من الخلف، و من المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، و كأنه ـ و الله أعلم ـ أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب كما رواه ابن أبي حاتم.

و هذه الآثار يظهر عليها ـ و الله أعلم ـ أنها من آثار أهل الكتاب، و قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم و لا تكذبوهم» ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام: فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، و منها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً، و منها ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام: «حدّثوا عن بني إسرائيل ولاحرج» و هو الذي لا يُصدَّق ولا يكذَّب لقوله: «فلا تصدّقوهم و لا تكذّبوهم» و هذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث، فيه نظر، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث.

و أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، و أنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، و إنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، و لهذا قال الله: **﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** ثم قال: فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهوكالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس، كقوله: **﴿و لَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾** الآية، و معلوم أن المصابيح و هي النجوم التي زينت بها السماء، ليست هي التي يرمي بها، و إنما هذا استطراد من شخص المصابيح، إلى جنسها، و لهذا نظائر في القرآن، والله أعلم.

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ

أَرجلٌ يمْشُونَ بها أَمْ لَهُمْ أَيدٍ يبْطشُونَ بهَا أَمْ لَهُم أَعينٌ يبصرُونَ بهَا أَمْ لَهُم آذانٌ يسْمعُونَ بهَا قُلِ ادعُوا شُركَاءكُم ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وليِّيَ اللَّهُ الَّذي نزَّلَ الْكتَابَ وَهُوَ يتَولَّى الصَّالحينَ (١٩٦) والَّذين تَدعُونَ من دُونه لا يستطيعُونَ نصرَكُمْ ولا أَنفُسهُمْ ينصرُونَ (١٩٧) وإِن تدعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يسمعُوا وتَراهُمْ ينظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصرُونَ (١٩٨)﴾

١٩١ – هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد و الأصنام و الأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، و لا تضر و لا تنفع، و لا تبصر و لا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك، ولا تسمع و لا تبصر، و عابدوها أكمل منها بسمعهم و بصرهم و بطشهم، و لهذا قال: ﴿أَيُشرِكونَ مالاَ يَخلقُ شَيئاً وَ همْ يُخلَقُونَ﴾ أي: أتشركون به من المعبودات مالا يخلق شيئاً، و لا يستطيع ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيئاً لاَ يَستَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ و المَطْلوبُ ۞ مَا قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عزيزٌ﴾ أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم، ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم و طارت، لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته و حاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ و لهذا قال تعالى: ﴿لاَ يَخلُقُ شَيئاً وَ همْ يُخلَقُونَ﴾ أي: بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل ﴿أَتعبُدونَ مَا تَنحِتُونَ﴾ الآية.

١٩٢ – ثم قال تعالى: ﴿وَ لاَ يَستَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً﴾ أي: لعابديهم ﴿وَ لاَ أَنفُسَهمْ يَنصُرُونَ﴾ يعني: و لا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة و السلام يكسر أصنام قومه، و يهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فراغَ عليهمْ ضَرباً باليَمينِ﴾ و قال تعالى: ﴿فجعلهمْ جُذاذاً إلاَّ كبيراً لهمْ لعلَّهمْ إليهِ يرجعُونَ﴾، و كما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما ـ و كانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ـ فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها و يتلفانها، ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك، و يرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح ـ و كان سيداً في قومه ـ صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه و يلطخانه بالعَذِرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله و يطيبه، و يضع عنده سيفاً و يقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك، و يعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت، و دلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح و رأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، و قال:

تالله لو كنتَ إلهاً مُستَدن   لم تكُ و الكلبُ جميعاً في قَرن

ثم أسلم فحسن إسلامه، و قتل يوم أحد شهيداً رضي الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه.

١٩٣ – و قوله: ﴿وَ إِن تَدْعوهُمْ إِلَى الهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ﴾ الآية، يعني: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاءَ مَن دعاها، و سواء لديها من دعاها و من دحاها، كما قال إبراهيم ﴿يَا أَبتِ لِمَ تَعبدُ مالاَ يَسمعُ و لاَ يُبصِرُ وَ لاَ يُغني عَنكَ شَيئاً﴾.

١٩٤، ١٩٥ – ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أي: مخلوقات مثلهم، بل الأناس أكمل منها،

لأنها تسمع و تبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

و قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، أي: استنصروا بها عليّ، فلا تؤخروني طرفة عين، و اجهدوا جهدكم.

١٩٦- ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي: الله حسبي و كافيني، و هو نصيري، وعليه متكلي و إليه ألجأ، و هو وليي في الدنيا و الآخرة، و هو ولي كل صالح بعدي، و هذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ و اشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي و رَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ و كقول الخليل ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ* أَنتُمْ و آبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ* فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ* الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ الآيات، و كقوله لأبيه و قومه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ* إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ* و جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

١٩٧- و قوله: ﴿وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ إلى آخر الآية، مؤكد لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذاك بصيغة الغيبة، و لهذا قال: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾.

١٩٨- و قوله: ﴿و إِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا وَ تَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ و هُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ الآية، و قوله: ﴿وَ تَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ و هُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾، إنما قال: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أي: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، و هي جماد، و لهذا عاملهم معاملة من يعقل، لأنها على صورة مصورة كالإنسان، ﴿وَ تَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ فعبر عنها بضمير من يعقل، وقال السدي: المراد بهذا المشركون، وروى عن مجاهد نحوه، و الأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، و قاله قتادة.

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾

١٩٩- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يعني خذ ما عفي لك من أموالهم، وما أتوك به من شيء فخذه، و كان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات و تفصيلها، و ما انتهت إليه الصدقات. قاله السدي، و قال الضحاك عن ابن عباس ﴿خذ العفو﴾ أنفق الفضل، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿خذ العفو﴾ قال: الفضل، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿خذ العفو﴾ أمره الله بالعفو و الصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم، و اختار هذا القول ابن جرير، و قال غير واحد عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿خذ العفو﴾ قال: من أخلاق الناس و أعمالهم من غير تجسس، وقال هشام بن عروة عن أبيه بنحوه.

و في صحيح البخاري: عن هشام عن أبيه عروة عن أخيه عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل خذ العفو من أخلاق الناس. و هذا أشهر الأقوال. و قال البخاري قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ العرف: المعروف، ثم روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة

فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، و كان من النفر الذين يدينهم عمر، و كان القُرَّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فدخل عليه، قال: هي يا ابن الخطاب، فو الله ما تُعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هَمَّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿خُذِ العَفوَ وَ أمُرْ بالعُرفِ و أعرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾ و إن هذا من الجاهلين، و الله ما جاوزها عمر حين تلا عليه، و كان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل.

انفرد بإخراجه البخاري.

و روى ابن أبي حاتم: أن سالم بن عبدالله بن عمر مَرَّ على عير لأهل الشام وفيها جرس، فقال: إن هذا منهيٌّ عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجُلجُل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به، فسكت سالم، وقال: ﴿و أعرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾.

و قول البخاري: العرف المعروف، نص عليه عروة بن الزبير و السدي و قتادة و ابن جرير و غير واحد، حكى ابن جرير أنه يقال: أوليته معروفاً و عارفاً و عارفةً، كل ذلك بمعنى المعروف، قال: و قد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، و بالإعراض عن الجاهلين، و ذلك و إن كان أمراً لنبيه ﷺ، فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم و اعتدى عليهم، لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله و جهل وحدانيته، و هو للمسلمين حرب.

و قال قتادة: هذه أخلاقٌ أمَرَ الله بها نبيه ﷺ، و دلّ عليها.

و قال بعض العلماء: الناس رجلان فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه، و لا تكلفه فوق طاقته، ولا ما يحرجه، و إما مسيء فمره بالمعروف، فإنْ تمادى على ضلاله و استعصى عليك، و استمر في جهله، فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ادفعْ بالتِي هيَ أحسنُ السيئةَ نحنُ أعلمُ بما يَصِفونَ ❁ وقُل رَبِّ أعوذُ بكَ مِنْ همزاتِ الشَّياطينِ ❁ وَ أعوذُ بكَ ربِّ أن يَحضُرونِ﴾ و قال تعالى: ﴿وَ لا تَستَوِي الحَسَنةُ ولاَ السَّيئةُ ادفَعْ بالتِي هيَ أحسنُ فإذَا الذِي بينكَ و بينَهُ عداوةٌ كأنّهُ وليٌّ حَميمٌ ❁ وَ ما يُلَقَّاهَا إلاَّ الذينَ صَبرُوا وَمَا يُلقَّاها إلاَّ ذو حظٍ عَظيمٍ﴾ أي: هذه الوصية ﴿و إمَّا ينزغَنَّكَ مِنَ الشَّيطانِ نزغٌ فَاستعِذْ باللهِ إنَّهُ هوَ السَّميعُ العليمُ﴾ و قال في هذه السورة الكريمة أيضاً ﴿وَ إمَّا ينزغَنَّكَ مِن الشَّيطانِ نزغٌ فَاستعِذْ باللهِ إنَّهُ سَميعٌ عليمٌ﴾ فهذه الآيات الثلاث، في الأعراف و المؤمنون و حم السجدة لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، و لهذا قال: ﴿فإذَا الذِي بينكَ و بينَهُ عداوةٌ كأنَّهُ وليٌّ حَميمٌ﴾ ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، و إنما يريد هلاكك و دمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك، و لأبيه من قبلك.

قال ابن جرير في تفسير قوله ﴿و إمَّا ينزغَنَّكَ مِنَ الشَّيطانِ نَزغٌ﴾: و إما يغضبنك من الشيطان غضب، يصدك عن الإعراض عن الجاهل، و يحملك على مجازاته ﴿فَاستعِذْ باللهِ﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغه ﴿إنَّهُ سَميعٌ عليمٌ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك، و الاستعاذة به من نزغه، و لغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، ﴿عليمٌ﴾ بما يُذهب عنك نزغ الشيطان، و غير ذلك من أمور خلقه.

(قلت) : و قد تقدم في أول الاستعاذة : حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمرغ غضباً ، فقال رسول الله ﷺ «إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقيل له فقال : مابي من جنون .

و أصل النزغ الفساد إما بالغضب أو غيره ، قال الله تعالى : **﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم﴾** والعياذ : الالتجاء و الاستناد و الاستجارة من الشر ، و أما الملاذ ففي طلب الخير .

و قد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته ههنا .

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾

٢٠١- يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، و تركوا ما عنه زجر ، أنهم إذا مسهم أي : أصابهم طيف ، و قرأ الآخرون **﴿طائف﴾** وقد جاء فيه حديث ، و هما قراءتان مشهورتان فقيل : بمعنى واحد ، وقيل : بينهما فرق ، و منهم من فسَّر ذلك بالغضب ، و منهم من فسَّره بمس الشيطان بالصرع و نحوه ، و منهم من فسَّره بالهمِّ بالذنب ، و منهم من فسَّره بإصابة الذنب ، وقوله : **﴿تذكَّروا﴾** أي : عقاب الله و جزيل ثوابه ، ووعده و وعيده ، فتابوا و أنابوا واستعاذوا بالله ، و رجعوا إليه من قريب **﴿فإذا هم مبصرون﴾** أي : قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه .

و قد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه ههنا : حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ و بها طيف ، فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يشفيني ، فقال : «إنْ شئتِ دعوتُ الله فشفاك ، و إن شئتِ فاصبري ولا حساب عليك» فقالت : بل أصبر و لا حساب علي . و رواه غير واحد من أهل السنن ، و عندهم : قالت يارسول الله ، إني أصرع و أتكشف ، فادع الله أن يشفيني ، فقال : «إنْ شئتِ دعوت الله أن يشفيك و إن شئتِ صبرت و لك الجنة» فقالت : بل أصبر ولي الجنة ، و لكن ادع الله أن لا أتكشف ، فدعا لها فكانت لا تتكشَّف . وأخرجه الحاكم .

٢٠٢- و قوله تعالى : **﴿و إخوانهم يمدُّونهم﴾** أي : و إخوان الشياطين من الإنس كقوله : **﴿إنَّ المبذِّرين كانوا إخوان الشياطين﴾** و هم أتباعهم ، و المستمعون لهم القابلون لأوامرهم **﴿يمدُّونهم في الغيِّ﴾** أي : تساعدهم الشياطين على المعاصي ، و تُسهِّلها عليهم و تحسنها لهم . و قال ابن كثير : المد الزيادة ، يعني يزيدونهم في الغي ، يعني الجهل و السفه **﴿ثمَّ لا يقصرون﴾** قيل : معناه : إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : **﴿و إخوانهم يمدُّونهم في الغيِّ ثمَّ لا يقصرون﴾** الآية ، قال : لا ، الإنس يقصرون عما يعملون ، و لا الشياطين تُمسك عنهم .

و قيل : معناه . كما رواه العوفي عن ابن عباس قال : هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس **﴿ثمَّ لا يقصرون﴾** يقول : لا يسأمون ، و كذا قال السدي و غيره : إن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ، و لا تسأم من إمدادهم في الشر ، لأن ذلك طبيعة لهم و سجية **﴿لا يقصرون﴾** لا تفتر فيه و لا تبطل عنه ، كما قال تعالى : **﴿ألم تر أنَّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهم أزًّا﴾** قال ابن عباس و غيره تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) ﴾

٢٠٣-قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لو لا تلقيتها، و قال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأنشأتها، وروى ابن جرير عن مجاهد قال: لولا اقتضيتها، قالوا تخرجها عن نفسك، و كذا قال قتادة و السدي و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و اختاره ابن جرير. و قال الضحاك ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء، و معنى قوله تعالى: ﴿و إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ أي: معجزة وخارق، كقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ يقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله، حتى تراها و تؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ أي: أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، و إنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إلي، فإن بعث آية قبلتها، و إن منعها لم أسأله ابتداء إياها، إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم.

ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات، و أبين الدلالات، و أصدق الحجج و البينات، فقال: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) ﴾

٢٠٤- لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس و هدى و رحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته، إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يتعمده كفار قريش المشركون، في قولهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ الآية، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، كما رواه مسلم في صحيحه: من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جُعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبّر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» و كذا رواه أهل السنن. و روى ابن جرير عن ابن مسعود قال: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة سلام على فلان، و سلام على فلان، فجاء القرآن ﴿و إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

و قد روى الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة، فقال: «هل قرأ أحدٌ منكم معي آنفاً»؟ قال رجل: نعم يا رسول الله، قال: «إني أقولُ مالي أنازع القرآن» قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ[1]، و قال الترمذي: هذا حديث حسن، و صححه أبو حاتم الرازي.

و عن الزهري قال: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام و إن لم يسمعهم صوته، و لكنهم يقرؤن فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم، و لا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به، سراً و لا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿و إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. قلت: هذا مذهب طائفة من العلماء، أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام، لا الفاتحة ولا غيرها، و هو أحد قولي الشافعية، وهو القديم كمذهب مالك، و رواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من

(١) قوله: «فانتهى الناس عن القراءة... إلخ. ليس مرفوعاً في الحديث، و إنما هو مدرج من قول الزهري، بينه الخطيب و اتفق عليه البخاري في التاريخ و أبوداود و يعقوب بن سفيان و الذهلي و الخطابي، انظر التلخيص الحبير للحافظ ابن حجر (١/ ٢٣١).

الأدلة المتقدمة. و قال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. و قال أبو حنيفة و أحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية و لا الجهرية، بما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته قراءة له»، و هذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً و هو عن جابر موقوفاً، و هذا أصح و هذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع، و قد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية و الجهرية أيضاً، و الله أعلم[١].

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قوله: ﴿و إذَا قُرِئَ القُرآنُ فَاستمِعُوا لهُ وَ أنصِتُو﴾ يعني في الصلاة المفروضة، كذا رُوي عن عبد الله بن المغفل. و روى ابن جرير: عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال: رأيت عبيد بن عمير و عطاء بن أبي رباح يتحدثان و القاص يقص، فقلت: ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود؟ قال: فنظرا إليّ ثم أقبلا على حديثهما، قال فأعدت فنظرا إلي و أقبلا علي حديثهما، قال: فأعدت الثالثة قال: فنظرا إلي فقالا: إنما ذلك في الصلاة ﴿و إذَا قُرِئَ القُرآنُ فَاستمِعُوا لهُ وَ أنصِتُوا﴾، وكذا روى سفيان الثوري عن مجاهد في قوله: ﴿و إذَا قُرِئَ القُرآنُ فَاستمِعُوا لهُ وَ أنصِتُوا﴾ قال: في الصلاة، وكذا رواه غير واحد عن مجاهد، و كذا قال سعيد بن جبير و الضحاك و إبراهيم النخعي و قتادة و الشعبي والسدي وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بذلك في الصلاة.

و روى شعبة عن مجاهد في هذه الآية ﴿و إذَا قُرِئَ القُرآنُ فَاستمِعُوا لهُ وَ أنصِتُوا﴾ قال: في الصلاة والخطبة يوم الجمعة، و كذا روى ابن جريج عن عطاء مثله، وعن سعيد بن جبير قال: الإنصات يوم الأضحى و يوم الفطر و يوم الجمعة، و فيما يجهر به الإمام من الصلاة.

و هذا اختيار ابن جرير: أن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة و في الخطبة، كما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام و حال الخطبة. وقال الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له.

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴾

٢٠٥- يأمر تعالى بذكره أول النهار و آخره كثيراً، كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحمدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمسِ وَ قَبلَ الغُرُوبِ﴾ و قد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية؛ و قال ههنا ﴿بِالغُدُوِّ﴾ و هو أول النهار ﴿و الآصَالِ﴾ جمع أصيل، كما أن الأيمان جمع يمين، و أما قوله: ﴿تَضرُّعاً و خُفيَةً﴾ أي: اذكر ربك في نفسك رغبة و رهبة، بالقول لا جهراً، و لهذا قال: ﴿وَ دُونَ الجهرِ مِنَ القَولِ﴾ و هكذا يُستحب أن يكون الذكر، لا يكون نداءً و جهراً بليغاً.

و في الصحيحين: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ: «يا أيها الناس اربَعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ و لا غائباً، إن الذي تدعونه سميعٌ قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».

---

(١) وهذا هو الصواب الراجح في المسألة، و الله أعلم.

و قد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: **﴿وَ لا تَجهرْ بِصلاتِكَ و لاَ تُخافِتْ بِهَا و ابْتغِ بينَ ذلكَ سَبِيلاً﴾** فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه، و سبوا من أنزله، و سبوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يُسمعهم، و ليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار؛ و كذا قال في هذه الآية الكريمة **﴿و دُونَ الجَهرِ مِنَ القولِ بِالغُدُوِّ وَ الآصالِ وَ لا تكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ﴾**.

و قد زعم ابن جرير و قبله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، أن المراد بها أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة.

و هذا بعيدٌ مناف للإنصات المأمور به، ثم إن المراد بذلك في الصلاة كما تقدم، أو في الصلاة والخطبة، و معلوم أن الإنصات إذْ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سراً أو جهراً، فهذا الذي قالاه لم يُتابعا عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو و الآصال، لئلا يكونوا من الغافلين.

و لهذا مدح الملائكة، الذين يسبحون الليل و النهار لا يفترون، فقال: **﴿إنَّ الذينَ عِندَ ربِّكَ لاَ يَستكْبِرونَ عَنْ عِبادَتِهِ﴾** الآية، و إنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم و عبادتهم؛ و لهذا شرع لنا السجود ههنا، لما ذكر سجودهم لله عز وجل، كما جاء في الحديث «ألا تَصفُّون كما تصف الملائكة عند ربها، يُتِمُّون الصفوف الأول فالأول، و يَتراصُّون في الصف».

و هذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها و مستمعها السجود بالإجماع.

ترتيبها ٨ — سورة الأنفال - مدنية — آياتها ٧٥

و هي مدنية . آياتها سبعون و ست آيات[١] . كلماتها ألف كلمة و ستمائة كلمة و إحدى و ثلاثون كلمة . حروفها خمسة آلاف و مائتان و أربعة و تسعون حرفاً ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) ﴾

١ - قال البخاري : قال ابن عباس : الأنفال المغانم (ثم روى) عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال؟ قال : نزلت في بدر . أما ما علقه عن ابن عباس ، فكذلك رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : «الأنفال» الغنائم كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ، و كذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء و الضحاك و قتادة و عطاء الخراساني و مقاتل بن حيان و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد : أنها المغانم .

و روى عبد الرزاق : عن القاسم بن محمد قال : قال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا سئل عن شيء قال لا آمرك و لا أنهاك ، ثم قال ابن عباس : و الله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجراً آمراً محللاً محرماً . قال القاسم : فسلط على ابن عباس رجل ، فسأله عن الأنفال ، فقال ابن عباس : كان الرجل يُنفَّل فرس الرجل وسلاحه ، فأعاد عليه الرجل ، فقال له مثل ذلك ، ثم عاد عليه حتى أغضبه ، فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقبيه أو على رجليه ، فقال الرجل : أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك . و هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسَّر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص ، من سلب أو نحوه بعد قَسم أصل المغنم ، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل ، والله أعلم .

و قال ابن مسعود و مسروق : لا نفل يوم الزحف ، إنما النفل قبل التقاء الصفوف . رواه ابن أبي حاتم عنهما ، وروى ابن المبارك و غير واحد عن عطاء بن أبي رباح في الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾ قال : يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال ، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع ، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء . و هذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفَيء ، وهو ما أُخذ من الكفار من غير قتال . قال ابن جرير : وقال آخرون : هي أنفال السرايا . و معنى هذا : ما ينفله الإمام لبعض السرايا ، زيادة على قسمهم مع بقية الجيش . وقد صرح بذلك الشعبي . و اختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم . و يشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية و هو ما رواه الإمام أحمد : عن سعد بن مالك قال : قلت يا رسول الله ، قد شفاني الله اليوم من المشركين ، فهب لي هذا السيف ، فقال : «إن هذا السيف لا لك ولا لي ، ضعه» قال : فوضعته ، ثم رجعت

(١) كذا ، و في تعداد آياتها في المصحف الذي بين أيدينا : خمس و سبعون .

فقلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لا يبلى بلائي، قال: فإذا رجل يدعوني من ورائي، قال: قلت: قد أنزل الله فيَّ شيئاً؟ قال: «كنتَ سألتني السيف، و ليس هو لي، و إنه قد وُهب لي فهو لك» قال: و أنزل الله هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ و رواه أبو داود و الترمذي النسائي و قال الترمذي حسن صحيح. وهكذا رواه أبو داود الطيالسي: عن سعد قال: نزلت فيَّ أربع آيات أصبت سيفاً يوم بدر، فأتيت النبيﷺ فقلت: نَفِّلْنيه، فقال: «ضَعْه من حيث أخذته» مرتين، ثم عاودته فقال النبيﷺ «ضعه من حيث أخذته» فنزلت هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ الآية، و قد رواه مسلم في صحيحه.

(سبب آخر في نزول الآية)

روى أبو داود و النسائي و ابن جرير و ابن مردويه و اللفظ له و ابن حبان و الحاكم من طرق: عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول اللهﷺ: «من صَنَع كذا و كذا فله كذا وكذا، فتسارع في ذلك شبان القوم، و بقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءاً لكم، لو انكشفتم لفئتم إلينا. فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

و قال الإمام أبو عبيد الله القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب الأموال الشرعية و بيان جهاتها ومصارفها: أما الأنفال فهي المغانم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى لرسول اللهﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله، من غير أن يُخَمِّسَها على ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى.

قلت: هكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس سواء؛ و به قال مجاهد و عكرمة و السدي، وقال ابن زيد: ليست منسوخة، بل هي محكمة.

قال أبو عبيد: و في ذلك آثار، و الأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخُمس منها مخصوص لأهله، على ما نزل به الكتاب و جرت به السنة. و معنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلاً، من غير أن يجب ذلك عليه؛ فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوّهم، و إنما هو شيء خصهم الله به تطوّلاً منه عليهم، بعد أن كانت المغانم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله تعالى هذه الأمة، فهذا أصل النفل؛ قلت: شاهد هذا ما في الصحيحين: عن جابرﷺ: أن رسول اللهﷺ قال: «أُعطيتُ خمساً لم يعطهن أحد قبلي - فذكر الحديث إلى أن قال - و أُحلت لي الغنائم و لم تحل لأحد قبلي» و ذكر تمام الحديث: ثم قال أبو عبيد: و لهذا سمى ما جعل الإمام للمقاتلة نفلاً، و هو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء، سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام، و النكاية في العدو.

و في النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع، لكل واحدة منهن موضع الأخرى: (فإحداهن): في النفل لاخُمس فيه، و ذلك السلب. (و الثانية): النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس، و هو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس. (والثالثة): في النفل من الخمس نفسه، و هو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمس فإذا صار الخُمس في يدي الإمام، نفَّل منه على قدر ما يرى. (و الرابعة): في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء، و هو أن

يعطي الأدلاء و رعاة الماشية و السواق لها، و في كل ذلك اختلاف.

قال الربيع: قال الشافعي: الأنفال أن لا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب. قال أبوعبيد: و الوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم، و ذلك من خمس النبيﷺ فإن له خُمس الخمس من كل غنيمة، فينبغي للإمام أن يجتهد، فإذا كثر العدو و اشتدت شوكتهم، و قل مَن بإزائه من المسلمين، نَفَّل منه اتباعاً لسنة رسول اللهﷺ و إذا لم يكن ذلك لم ينفل (و الوجه الثالث) من النفل إذا بَعَث الإمام سرية أو جيشاً فقال لهم قبل اللقاء: مَنْ غنم شيئاً فهو له بعد الخمس، فهو لهم على ما شرط الإمام، لأنهم على ذلك غزوا، و به رضوا انتهى كلامه، و فيما تقدّم من كلامه و هو قوله إن غنائم بدر لم تخمس نظر، و يرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شَارِفَيه اللذين حصلا له من الخُمس يوم بدر، و قد بينت ذلك في كتاب السيرة بياناً شافياً، و لله الحمد و المنة.

و قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: و اتقوا الله في أموركم، و أصلحوا فيما بينكم، ولا تظالموا و لا تخاصموا و لا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى و العلم، خير مما تختصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَ رَسُولَه﴾ أي: في قسمه بينكم على ما أراد الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف. و قال ابن عباس: هذا تحريج من الله و رسوله أن يتقوا و يصلحوا ذات بينهم، و كذا قال مجاهد، و قال السدي ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: لا تستبوا.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾

٢- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، و لا يؤمنون بشيء من آيات الله، و لا يتوكلون و لا يصلون إذا غابوا، و لا يؤدّون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدّوا فرائضه ﴿و إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: زادتهم تصديقاً ﴿وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره، و قال مجاهد ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت، أي: فزعت و خافت، و كذا قال السدي و غير واحد، و هذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره، و ترك زواجره، كقوله تعالى: ﴿وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ و كقوله تعالى: ﴿وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾.

و لهذا قال سفيان الثوري: سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهم بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيجل قلبه.

و قوله: ﴿و إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ كقوله: ﴿وَ إِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ و قد استدل البخاري و غيره من الأئمة بهذه

الآية وأشباهها : على زيادة الإيمان و تفاضله في القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة ، كالشافعي و أحمد بن حنبل و أبي عبيد ، كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري ، و لله الحمد و المنة .

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي : لا يرجون سواه ، و لا يقصدون إلا إياه ، و لا يلوذون إلا بجانبه ؛ و لا يطلبون الحوائج إلا منه ؛ و لا يرغبون إلا إليه ؛ و يعلمون أنه ما شاء كان و مالم يشأ لم يكن ؛ و أنه المتصرف في الملك لا شريك له ، و لا معقب لحكمه و هو سريع الحساب .

و لهذا قال سعيد بن جبير : التوكل على الله : جماع الإيمان .

٣- و قوله : ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ينبه تعالى بذلك على أعمالهم ، بعد ما ذكر اعتقادهم ، و هذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها ، وهو إقامة الصلاة و هو حق الله تعالى ، و قال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها و وضوئها و ركوعها و سجودها ، وقال مقاتل بن حيان : إقامتها المحافظة على مواقيتها و إسباغ الطهور فيها ، و تمام ركوعها و سجودها ، وتلاوة القرآن فيها ، و التشهد و الصلاة على النبي ﷺ هذا إقامتها ، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة ، و سائر الحقوق للعباد ، من واجب ومستحب . و الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه . قال قتادة في قوله : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ : فأنفقوا مما أعطاكم الله ، فإنما هذه الأموال عوارى و ودائع عندك يا ابن آدم ، أوشكت أن تفارقها .

٤- و قوله : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي : المتصفون بهذه الصفات ، هم المؤمنون حق الإيمان . وقال عمرو بن مرة : إنما أنزل القرآن بلسان العرب ، كقولك : فلان سيد حقاً ، و في القوم سادة ، و فلان تاجر حقاً وفي القوم تجار ، و فلان شاعر حقاً ، و في القوم شعراء .

و قوله : ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي : منازل ومقامات و درجات في الجنات ، كما قال تعالى : ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ . ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي : يغفر لهم السيئات ، و يشكر لهم الحسنات . و قال الضحاك في قوله : ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أهل الجنة بعضهم فوق بعض ، فيرى الذي هو فوق ، فضله على الذي هو أسفل منه ، و لا يرى الذي هو أسفل منه ، أنه فُضِّل عليه أحد .

و لهذا جاء في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : «إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم ، كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء» قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم ، فقال : «بلى و الذي نفسي بيده ، لرجال آمنوا بالله ، و صدقوا المرسلين» . و في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن : من حديث أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى ، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء ، و إن أبابكر و عمر منهم و أَنْعَمَا»[1] .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ⑤ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ⑥ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ⑦ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ⑧ ﴾

---

(١) و أنعما : أي زادا على المنزلة أو المرتبة . و قيل : حق لهما ذلك .

٥- قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فقال بعضهم: شُبِّهَ به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم، و إصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم لله ورسوله. ثم روى عن عكرمة نحو هذا، و معنى هذا: أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها، فانتزعها اللهُ منكم، و جعلها إلى قسمه و قسم رسوله ﷺ فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، و كذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، و هم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم، و إحراز عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال، بأن قدَّره لكم و جمع به بينكم و بين عدوكم على غير ميعاد، رشداً و هدى، و نصراً و فتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن جرير: وقال آخرون معنى ذلك ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم. ثم روى عن مجاهد نحوه أنه قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق. و قال السدي: أنزل الله في خروجه إلى بدر و مجادلتهم إياه فقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ لطلب المشركين ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر، فقالوا: أخرجتنا للعير و لم تعلمنا قتالاً فنستعد له.

(قلت): رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً لعير أبي سفيان، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين، مَنْ خَفَّ منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، و طلب نحو الساحل من على طريق بدر، و علم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة، فنهضوا في قريب من ألف مقنع ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فنجا، و جاء النفير فوردوا «ماء بدر» و جمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين، و نصرهم على عدوهم، و التفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانه.

و الغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير، أوحى الله إليه يَعده إحدى الطائفتين: إما العير و إما النفير، و رغب كثير من المسلمين إلى العير، لأنه كسبٌ بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾.

روى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: عن أبي أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ و نحن بالمدينة: «إني أُخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قِبَل هذه العير، لعل الله أن يغنمناها؟» فقلنا: نعم، فخرج و خرجنا، فلما سرنا يوماً أو يومين قال لنا: «ما ترون في قتال القوم إنهم قد أُخبروا بخروجكم؟» فقلنا: لا و الله، مالنا طاقة بقتال العدو، و لكنا أردنا العير، ثم قال: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: و إذاً لا نقول لك يا رسول الله، كما قال قوم موسى لموسى ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ قال: فتمنينا معشر الأنصار، أن لو قلنا كما قال المقداد، أحب إلينا من أن

يكون لنا مال عظيم ، قال فأنزل الله على رسولهﷺ : ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ و ذكر تمام الحديث . و رواه ابن أبي حاتم .

و قال مجاهد ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ في القتال ، و قال محمد بن إسحاق أي : كراهية للقاء المشركين ، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا له ، و قال السدي ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي : بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به . قال ابن جرير : و قال آخرون : عَنَى بذلك المشركين ، (ثم روى) عن ابن زيد قال : هؤلاء المشركين ، جادلوه في الحق ، كأنما يساقون إلى الموت حين يُدْعون إلى الإسلام ، و هم ينظرون . قال : و ليس هذا من صفة الآخرين . هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . ثم قال ابن جرير : و لا معنى لما قاله ، لأن الذي قبل قوله ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ خبر عن أهل الإيمان ، و الذي يتلوه خبر عنهم . والصواب قول ابن عباس و ابن إسحاق : أنه خبر عن المؤمنين .

و هذا الذي نصره ابن جرير هو الحق ، و هو الذي يدل عليه سياق الكلام ، و الله أعلم . و روى الإمام أحمد رحمه الله : عن ابن عباس قال : قيل لرسول اللهﷺ حين فرغ من بدر : عليك بالعير ليس دونها شيء ، فناداه العباس بن عبد المطلب ـ قال عبد الرزاق و هو أسير في وثاقة ـ إنه لا يصلح لك . قال : ولم؟ قال : لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين ، و قد أعطاك الله ما وعدك . إسناد جيد ولم يخرجه .

و معنى قوله تعالى : ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي : يحبون أن الطائفة التي لا حَدَّ لها ولا منعة و لا قتال تكون لهم ، و هي العير ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أي : هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة و القتال ، ليظفركم بهم و ينصركم عليهم ، و يظهر دينه ، يرفع كلمة الإسلام ، ويجعله غالباً على الأديان ، و هو أعلم بعواقب الأمور ، و هوالذي يدبركم بحسن تدبيره ، و إن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم ، كقوله تعالى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾

٩- روى الإمام أحمد : عن ابن عباس حدثني عمر بن الخطابرضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبيﷺ إلى أصحابه و هم ثلثمائة و نيف ، و نظر إلى المشركين فإذا هم ألفٌ و زيادة ، فاستقبل النبيﷺ القبلة و عليه رداؤه و إزاره ، ثم قال : «اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إنْ تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام ، فلا تعبد في الأرض أبداً» قال : فما زال يستغيث ربه و يدعوه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه ، ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فلما كان يومئذ التقوا فهزم الله المشركين ، فَقُتل منهم سبعون رجلاً و أسر منهم سبعون رجلاً ، و استشار رسول اللهﷺ أبابكر وعمر وعلياً ، فقال أبوبكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم و العشيرة و الإخوان ، و إني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، و عسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول اللهﷺ :

«ماترى ياابن الخطاب؟» قال: قلت: و الله ماأرى ما رأى أبوبكر، و لكني أرى أن تمكّني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه، و تمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه؛ و تمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هَوَادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم و أئمتهم و قادتهم. فهوى رسول الله ﷺ ماقال أبوبكر و لم يهو ما قلت، و أخذ منهم الفداء فلما كان من الغد، قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ و أبي بكر وهما يبكيان، فقلت: ما يبكيك أنتَ و صاحبكَ؟ فإنْ وجدتُ بكاء بكيت، وإنْ لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، قال النبي ﷺ: «للذي عَرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة من النبي ﷺ و أنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ فأحل لهم الغنائم. فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، و فرَّ أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، و هشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بأخذكم الفداء.

رواه مسلم وأبو داود و الترمذي و ابن جرير و ابن مردويه.

و هكذا روى علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية الكريمة قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ في دعاء النبي ﷺ و كذا قال يزيد بن يُثيع و السدي و ابن جريج. و روى البخاري في كتاب المغازي: باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ عن ابن مسعود قال: شهدت من المقداد ابن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عدل به، أتى النبي ﷺ و هو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ و لكنا نقاتل عن يمينك و عن شمالك و بين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه و سرَّه، يعني قوله.

ثم روى عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك و وعدك، اللهم إنْ شئت لم تُعبد» فأخذ أبوبكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: «سيهزم الجمع و يولون الدبر» و رواه النسائي.

و قوله تعالى: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي: يردف بعضهم بعضاً. كما قال هارون بن هبيرة عن ابن عباس ﴿مُرْدِفِينَ﴾: متتابعين. و يحتمل أن المراد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ لكم، أي: نجدةً لكم، كما قال العوفي عن ابن عباس ﴿مُرْدِفِينَ﴾ يقول: المدد، كما تقول أنت للرجل: زده كذا وكذا. و هكذا قال مجاهد و ابن كثير القارئ و ابن زيد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ مُمِدِّين، وقال قابوس عن أبيه عن ابن عباس ﴿يُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قال: وراء كل ملك ملك. و في رواية بهذا الإسناد ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قال بعضهم على أثر بعض، و كذا قال أبو ظبيان والضحاك و قتادة. و المشهور ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: و أمد الله نبيه ﷺ و المؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجَنِّبة، و ميكائيل في خمسمائة مجنبة.

و روى الإمام أبوجعفر ابن جرير و مسلم: عن ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذْ سمع ضربةً بالسوط فوقه، و صوت الفارس يقول: أقْدِمْ حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً، قال: فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه و شُق وجهه، كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة» فقتلوا

يومئذ سبعين و أسروا سبعين.

و قال البخاري: باب شهود الملائكة بدراً: (ثم روى) عن معاذ بن رفاعة رافع الزرقي عن أبيه ـ و كان أبوه من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهلَ بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين، أو كلمة نحوها» قال: «و كذلك مَنْ شهد بدراً من الملائكة» انفرد بإخراجه البخاري.

و في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

و قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى﴾ الآية. أي: و ما جعل الله بعث الملائكة، و إعلامه إياكم بهم، إلا بشرى ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ و إلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لاَنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، و قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ فهذه حِكَمٌ شرَعَ الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، و عاداً الأولى بالدبور، و ثمود بالصيحة، و قوم لوط بالخسف والقلب و حجارة السجيل، و قوم شعيب بيوم الظُّلَّة، فلما بعث الله تعالى موسى و أهلك عدوه فرعون و قومه بالغرق في اليم، ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار، و استمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ﴾.

و قَتْلُ المؤمنين للكافرين: أشد إهانة للكافرين، و أشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ و لهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم، الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم، أنكى لهم، و أشفى لصدور حزب الإيمان، فقَتَل أبي جهل في معركة القتال و حومة الوغى، أشد إهانة له من موته على فراشه، بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، و إنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، و رجموه حتى دفنوه، و لهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له العزة و لرسوله و للمؤمنين بهما في الدنيا و الآخرة، كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾.

﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم و إهلاكهم، بحوله و قوته سبحانه وتعالى.

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ

(١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)﴾

١١ - يُذكِّرُهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أماناً أمَّنهم به من خوفهم، الذي حصل لهم من كثرة عدوهم و قلة عددهم، و كذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ الآية. قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، و لقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط و آخذه، و يسقط و آخذه، و لقد نظرت إليهم يميدون، و هم تحت الحجف.

و روى الحافظ أبويعلى: عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا و ما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة و يبكي حتى أصبح[1]. و روى سفيان الثوري عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان. و قال قتادة: النعاس في الرأس، و النوم في القلب.

(قلت): أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، و أمر ذلك مشهور جداً، و أما الآية الشريفة إنماهي في سياق قصة بدر، و هي دالة على وقوع ذلك أيضاً، وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدة اليأس، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، و هذا من فضل الله و رحمته بهم، و نعمته عليهم، و كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾. و لهذا جاء في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه، وهما يدعوان، أخذتْ رسول الله ﷺ سِنَةٌ من النوم، ثم استيقظ متبسماً فقال: «أبشر يا أبابكر، هذا جبريل على ثناياه النقع» ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾.

و قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر و المشركون بينهم و بين الماء رملة دعصة[2] و أصاب المسلمين ضعف شديد، و ألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى، و فيكم رسوله، و قد غلبكم المشركون على الماء، و أنتم تصلون مُجْنبين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون و تطهروا، و أذهب الله عنهم رجز الشيطان، و ثبت الرمل حين أصابه المطر و مشى الناس عليه و الدواب، فساروا إلى القوم، و أمد الله نبيه ﷺ و المؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة مجنبة، و ميكائيل في خمسمائة مجنبة.

وكذا قال العوفي عن ابن عباس، و نحو ذلك روي عن قتادة و الضحاك و السدي، و قد روى عن سعيد ابن المسيب و الشعبي و الزهري و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنه طش أصابهم يوم بدر. و قال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار، و تلبدت به الأرض، و طابت نفوسهم، و ثبتت به أقدامهم.

و روى ابن جرير: عن علي رضي الله عنه قال: أصابنا من الليل طش من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر و الحجف نستظل تحتها من المطر، و بات رسول الله ﷺ و حرَّض

---

(١) و هذا يدل على شدة اهتمامه بحصول النصر في تلك المعركة، وحرصه على نجاح دعوته، و لجوئه إلى الله تعالى في وقت الكربة والشدة.

(٢) الدِّعصُ و الدِّعصة: قطعة من الرمل مستديرة، او الكثيب منه، المجتمع او الصغير. (القاموس)

على القتال.

و قوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من وسوسة أو خاطر سيء و هو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فهذا زينة الظاهر ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض، وهو زينة الباطن و طهارته ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وهو شجاعة الظاهر، و الله أعلم.

١٢- وقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و هذه نعمة خفية، أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، هو أنه تعالى و تقدّس و تبارك و تمجد أوحى إلى الملائكة، الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينه و بينهم، أنْ يُثبتوا الذين آمنوا، قال ابن إسحاق: و آزروهم، وقال غيره: قاتلوا معهم، و قيل: كثّروا سوادهم، و قيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجلَ من أصحاب النبيﷺ فيقول: سمعت هؤلاء القوم - يعني المشركين - يقولون: و الله لئن حملوا علينا لننكشفن، فيحدّث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك، فتقوى أنفسهم. حكاه ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه.

و قوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي: ثبتوا أنتم المؤمنين، و قوّوا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك، سألقي الرعب و الذلة و الصغار على من خالف أمري، و كذب رسولي ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: اضربوا الهام ففلقوها، و احتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم و أرجلهم. و قد اختلف المفسرون في معنى ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه اضربوا الرءوس. قاله عكرمة. و قيل معناه: أي: على الأعناق، و هي الرقاب. قاله الضحاك و عطية العوفي، ويشهد لهذا المعنى: أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾. و اختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب و فلق الهام. وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق و على البنان، مثل سمة النار قد أُحرق به. و قوله: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال ابن جرير: معناه و اضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف و مفصل، من أطراف أيديهم و أرجلهم، و البنان جمع بنانة.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني بالبنان الأطراف. و كذا قال الضحاك و ابن جرير و السدي، و قال عكرمة و عطية العوفي و الضحاك في رواية أخرى: كل مفصل، و قال الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال: اضربوا منه الوجه و العين و ارمه بشهاب من نار، فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك. فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة و ستين رجلاً، و أسر عقبة بن أبي معيط فقُتل صَبْراً، فوفّى ذلك سبعين يعني قتيلاً.

١٤- و لهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: خالفوهما فساروا في شق، و تركوا الشرع والإيمان به و اتباعه في شق، و مأخوذ أيضاً من شق العصا وهو جعلها فرقتين ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: هو الطالب الغالب لمن خالفه و ناوأه، لا يفوته شيء، و لا يقوم لغضبه شيء، تبارك وتعالى لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ هذا خطاب

للكفار، أي: ذوقوا هذا العذاب و النكال في الدنيا، و اعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا إذا لقيتُمُ الَّذين كفرُوا زحفًا فلا تُولُّوهُمُ الأدْبار (١٥) ومن يُولّهم يومئذ دُبُرهُ إلاَّ مُتحرّفًا لّقتال أوْ مُتحيّزًا إلىٰ فئة فقدْ باء بغضب مّن اللّه ومأْواهُ جهنَّمُ وبئْس الْمصيرُ (١٦) ﴾

١٥ - يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً﴾ أي: تقاربتم منهم و دنوتم إليهم ﴿فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ أي: تفروا و تتركوا أصحابكم.

١٦ - ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ﴾ أي: يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه، فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، نص عليه سعيد بن جبير و السدي. و قال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه، ليرى غِرة من العدوّ فيصيبها ﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ﴾ أي: فر من ههنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونونه، فيجوز له ذلك، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره، أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة. و كذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيدة، لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لو تحيَّز إليَّ لكنت له فئة. هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر، و في رواية أبي عثمان النهدي عن عمر قال: لما قتل أبو عبيدة قال عمر: أيها الناس أنا فئتكم، وقال مجاهد قال عمر: أنا فئة كل مسلم.

و روى ابن أبي حاتم: عن نافع أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نَثبت عند قتال عدونا، و لا ندري من الفئة إمامنا أو عسكرنا؟ فقال: إن الفئة رسول الله ﷺ، فقلت: إن الله يقول: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً﴾ الآية، فقال: إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر، لا قبلها و لا بعدها.

وقال الضحاك في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ﴾ المتحيز الفار إلى النبي و أصحابه، و كذلك من فر اليوم إلى أميره و أصحابه، فأما إن كان الفرار لاعن سب من هذه الأسباب، فإنه حرام و كبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري و مسلم في الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، و ماهن؟ قال: الشرك بالله، و السحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، و أكل الربا، و أكل مال اليتيم، و التولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» و له شواهد من وجوه أخر، و لهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ أي: رجع ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَ مَأْوَاهُ﴾ أي: مصيره و منقلبه يوم ميعاده ﴿جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

و روى الطبراني: عن بلال بن يسار بن زيد مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت أبي يحدث عن جدي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو و أتوبُ إليه، غُفر له، و إنْ كان قد فرَّ من الزحف» وهكذا رواه أبو داود و الترمذي[1].

و قد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة، لأنه كان فرض عين عليهم، و قيل: على الأنصار خاصة، لأنهم بايعوا على السمع و الطاعة في المنشط المكره. و قيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة. يروى هذا عن عمر و ابن عمر و ابن عباس و أبي هريرة و أبي سعيد و أبي نضرة و نافع مولى ابن عمر

(١) أبو داود (١٥١٧) و الترمذي (٣٨٣٠) بزيادة: «الحي القيوم».

وسعيد بن جبير و الحسن البصري و عكرمة و قتادة و الضحاك وغيرهم، و حجتهم في هذا: أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها إلا عصابتهم تلك، كما قال النبي ﷺ: «اللهم إنْ تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض».

و لهذا روى عبد الله المبارك عن الحسن في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم فإنْ انحاز إلى فئة أو مصر، أحسبه قال: فلا بأس عليه، و روى ابن المبارك عن يزيد بن أبي حبيب قال: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار، قال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ فلما كان يوم أحد بعد ذلك، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ❁ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾. و في سنن أبي داود و النسائي و مستدرك الحاكم و تفسير ابن جرير و ابن مردويه عن أبي سعيد: أنه قال في هذه الآية: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ إنما أُنزلت في أهل بدر.

و هذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف من الموبقات، كما هو مذهب الجماهير، و الله أعلم.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) ﴾

١٧ - بين تعالى أنه خالق أفعال العباد، و أنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير، لأنه هو الذي وفقهم لذلك و أعانهم، و لهذا قال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم، مع كثرة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم عليهم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ يُعلم تبارك و تعالى أن النصر ليس على كثرة العدد، و لا بلبس اللأمة و العدد، و إنما النصر من عنده تعالى، كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حَصَبَ بها وجوه الكافرين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه و تضرعه و استكانته، فرماهم بها، و قال: «شاهت الوجوه» ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، و لهذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي: هو الذي بلغ ذلك إليهم، و كبتهم بها لا أنت.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر، فقال: «يا رب إنْ تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض أبداً» فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه و منخريه و فمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين. و قد روي في هذه القصة عن عروة عن مجاهد و عكرمة و قتادة و غير واحد من الأئمة، أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر، و إن كان قد فَعَل ذلك يوم حنين أيضاً، و ههنا قولان آخران غريبان جداً (أحدهما) روى ابن جرير: عن عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخيبر

دعا بقوس فأتي بقوس طويلة، وقال: «جيئوني بقوس غيرها» فجاءوه بقوس كبداء فرمى النبي ﷺ الحصن فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ و هذا غريب، و إسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير، ولعله اشتبه عليه، أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله، وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم، والله أعلم. (والثاني) روى ابن جرير أيضاً و الحاكم في مستدركه بإسناد صحيح: إلى سعيد بن المسيب الزهري أنهما قالا: أنزلت في رمية النبي ﷺ يوم أحد أبي بن خلف بالحربة، وهو في لأمته فخدشه في ترقوته، فجعل يتدأدأ عن فرسه مراراً، حتى كانت وفاته بعد أيام قاسى فيها العذاب الأليم، موصولاً بعذاب البرزخ، المتصل بعذاب الآخرة، و هذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضاً جدا، و لعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها، لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم، والله أعلم.

و روى محمد بن إسحاق: عن عروة بن الزبير في قوله ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ أي: لِيُعرِّف المؤمنين نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم، مع كثرة عدوهم، و قلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه، ويشكروا بذلك نعمته. و هكذا فسره ابن جرير أيضاً، وفي الحديث «وكل بلاء حسن أبلانا».

و قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع الدعاء، عليم بمن يستحق النصر و الغلب.

١٨ - وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر، أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغر أمرهم، و أنهم كل مالهم في تبار و دمار، ولله الحمد و المنة.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) ﴾

١٩ - يقول تعالى للكفار ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أي: تستنصروا و تستقضوا الله و تستحكموه، أنْ يفصل بينكم و بين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، كما روى محمد بن إسحاق و غيره، أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم، و آتانا بمالا يعرف، فأحنه الغداة. و كان استفتاحاً منه، فنزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية. و رواه الإمام أحمد و النسائي و الحاكم. و قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ أي: عما أنتم فيه من الكفر بالله و التكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا و الآخرة، و قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ معناه: و إن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر و الضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة. و قال السدي ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ أي: إلى الاستفتاح ﴿نَعُدْ﴾ أي: إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له، وتظفيره على أعدائه. و الأول أقوى. ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإنَّ مَن كان الله معه، فلا غالب له ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الحزب النبوي، و الجناب المصطفوي.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ

عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ﴾

٢٠- يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته و طاعة رسوله ، و يزجرهم عن مخالفته و التشبه بالكافرين به ، المعاندين له ، و لهذا قال: ﴿وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: تتركوا طاعته و امتثال أوامره ، و ترك زواجره ﴿وَ أَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه.

٢١- ﴿وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: المراد المشركون. و اختاره ابن جرير ، وقال ابن إسحاق: هم المنافقون ، فإنهم يُظهرون أنهم قد سمعوا و استجابوا ، و ليسوا كذلك.

٢٢- ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم سيء الخلق و الخليقة ، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾ أي: عن سماع الحق ﴿الْبُكْمُ﴾ عن فهمه ، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهؤلاء شر البرية ، لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له ، و هؤلاء خُلقوا للعبادة فكفروا ، و لهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ الآية ، وقال في الآية الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش. رُوي عن ابن عباس و مجاهد ، و اختاره ابن جرير. و قال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قلت: و لا منافاة بين المشركين و المنافقين في هذا ، لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح ، و القصد إلى العمل الصالح.

٢٣- ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ، ولا قصد لهم صحيح ، لو فُرض أن لهم فهماً ، فقال: ﴿وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأفهمهم ، و تقدير الكلام: ﴿وَ﴾ لكن لا خير فيهم فلم يفهمهم ، لأنه يعلم أنه ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصداً و عناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾

٢٤- قال البخاري ﴿اسْتَجِيبُوا﴾: أجيبوا ، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: لما يصلحكم. (ثم روى) عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنتُ أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ، ثم أتيته فقال: «ما منعك أنْ تأتيني؟ ألم يقل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: «لأعلمنّك أعظمَ سورةٍ في القرآن قبل أن أخرج» فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له ، و قال: «هي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السبع المثاني» و قد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقه في أول تفسير الفاتحة.

و قال مجاهد في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال للحق ، وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه النجاة و البقاء والحياة. وقال السدي: ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر ، وروى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحرب التي أعزّكم الله تعالى بها بعد الذل ، وقوّاكم بها بعد الضعف ، و منعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

و قوله تعالى: ﴿وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن و بين الكفر ، وبين الكافر و بين الإيمان ، رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً ، وقال: صحيح و لم يخرجاه. و كذا

قال مجاهد وسعيد و عكرمة و الضحاك و أبو صالح و عطية و مقاتل بن حيان و السدي ، وفي رواية عن مجاهد في قوله : ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي : حتى يتركه لا يعقل ، وقال السدي : يحول بين الإنسان و قلبه فلا يستطيع أن يؤمن و لا يكفر إلا بإذنه . و قال قتادة هو كقوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ .

و قد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية ، وروى الإمام أحمد : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يُكثر أن يقول : «يا مُقلِّب القلوب ثبِّتْ قلبي على دينك» قال : فقلنا : يا رسول الله ، آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا؟ قال : «نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها» و هكذا رواه الترمذي .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد : عن النوّاس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : «مامن قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين ، إذا شاء أنْ يُقيمه أقامه ، و إذا شاء أنْ يُزيغه أزاغه» وكان يقول : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال : «و الميزان بيد الرحمن يخفضه و يرفعه» .

و هكذا رواه النسائي و ابن ماجه .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو : أنه سمع رسول الله يقول : «إنَّ قلوبَ بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلبٍ واحد يُصرِّفها كيف يشاء» ثم قال رسول الله ﷺ : «اللهم مُصرِّفَ القُلُوب ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا إلى طاعتك» انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري ، فرواه مع النسائي .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) ﴾

٢٥- يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة أي اختباراً و محنة يعم المسيء و غيره ، لا يخص بها أهل المعاصي ، ولا من باشر الذنب ، بل يعمهما حيث لم تدفع و ترفع ، كما روى الإمام أحمد : عن مُطرِّف قال : قلنا للزبير : يا أباعبدالله ، ما جاء بكم ! ضيعتم الخليفة الذي قُتل ، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ و أبي بكر و عمر و عثمان رضي الله عنهم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ لم نكن نحسب أنا أهلها ، حتى وقعت منا حيث وقعت . و قد رواه البزار . و روى النسائي عن الزبير نحو هذا ، وروى ابن جرير نحوه . و عن الحسن في هذه الآية قال : نزلت في علي و عمار و طلحة والزبير رضي الله عنهم ، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة . و قال في رواية له عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين أنْ لا يُقروا المنكرين بين ظهرانيهم ، فيعمهم الله بالعذاب . وهذا تفسير حسن جداً ، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ هي أيضاً لكم ، و كذا قال الضحاك ويزيد بن أبي حبيب ، و غير واحد ، و قال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، إن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن [1] رواه ابن جرير .

و القول بأن هذا التحذير يعم الصحابة و غيرهم ـ و إن كان الخطاب معهم ـ هو الصحيح ، و يدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن ؛ و لذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى ، كما فعله الأئمة

(١) و معنى قوله تعالى : ﴿إنما أموالكم و أولادكم فتنة﴾ أي : اختبار وابتلاء .

وأفردوه بالتصنيف؛ و من أخص ما يذكر ههنا ما رواه الإمام أحمد: عن عدي بن عميرة يقول: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «إنَّ الله عز وجل لاَ يُعَذِّب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أَنْ يُنكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك، عذَّب الله الخاصة و العامة».

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله قال: «و الذي نفسي بيده، لتَأمُرُنَّ بالمعروف، و لَتَنهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»، (و في رواية) «أو ليبعثن الله عليكم قوماً ثم تدعونه فلا يستجيب لكم».

(حديث آخر) روى الإمام أحمد أيضاً: عن النعمان بن بشيرؓ يخطب يقول ـ و أومأ بأصبعيه إلى أذنيه يقول: مَثَلُ القائم على حدود الله و الواقع فيها و المداهن فيها، كمثل قوم ركبوا سفينة، فأصاب بعضُهم أسفلها و أوعرها و شرها، و أصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء، مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خرقنا في نصيبنا خرقاً، فاستقينا منه و لم نُؤذِ من فوقنا، فإن تركوهم و أمرهم هلكوا جميعاً، و إنْ أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً». انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم و الترمذي.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: قال رسول اللهﷺ: «ما من قوم يعملون بالمعاصي، و فيهم رجل أعزُّ منهم و أمنع، لا يُغَيِّره إلا عَمَّهم الله بعقاب، أو أصابهم العقاب» و رواه أبو داود وابن ماجه، و روى الإمام أحمد: عن عائشة تبلغ به النبيﷺ: «إذا ظَهَرَ السوء في الأرض، أنزلَ اللهُ بأهل الأرض بأسه» فقالت: و فيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم، ثم يصيرون إلى رحمة الله».

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾

٢٦ـ ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، و إحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقوّاهم و نصرهم، و فقراء عالة فرزقهم من الطيبات، و استشكرهم فأطاعوه و امتثلوا جميع ما أمرهم. و هذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة: قليلين مستخفين مضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك و مجوسي و رومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم و عدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم، حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، و قيض لهم أهلها آووا و نصروا يوم بدر و غيره، وواسوا بأموالهم، و بذلوا مهجهم في طاعة الله و طاعة رسولهﷺ.

قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلا، و أشقاه عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً، و أبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم رُدِّي في النار، يؤكلون و لا يأكون، و الله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، و وسع به في الرزق، و جعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، و بالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، و أهل الشكر في مزيد من الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾

٢٧- قال عبد الله بن أبي قتادة و الزهري: أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك، و أشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة و رأى أنه قد خان الله و رسوله، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، و انطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، و أرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال يا رسول الله ﷺ: إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: «يجزيك الثلث أنْ تصدق به»(١).

و في الصحيحين: قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش، يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، و استحضر حاطباً فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله: ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله و رسوله و المؤمنين؟ فقال: «دعه، فإنه قد شهد بدراً، و ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

(قلت): و الصحيح أن الآية عامة، و إنْ صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. و الخيانة تعم الذنوب الصغار و الكبار اللازمة و المتعدية.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾** الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، يعني الفريضة، يقول: لا تخونوا: لا تنقضوها. و قال في رواية: **﴿لاَ تَخُونُوا اللهَ وَ الرَّسُولَ﴾** يقول: بترك سنته، وارتكاب معصيته.

و روى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير في هذه الآية: أي: لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم، ثم تخالفوه في السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، و خيانة لأنفسكم. و قال السدي: إذا خانوا الله والرسول، فقد خانوا أماناتهم. و قال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث، فيفشونه حتى يبلغ المشركين، وقال عبد الرحمن بن زيد: نهاكم أن تخونوا الله و الرسول كما صنع المنافقون.

٢٨- و قوله: **﴿وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** أي: اختبار و امتحان منه لكم، إذْ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها و تطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه، و تعتاضون بها منه، كما قال تعالى: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** و قال: **﴿وَ نَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً﴾** وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَ لاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾** و قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَ أَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾** الآية.

وقوله: **﴿وَ أَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾** أي: ثوابه و عطاؤه و جناته خير لكم، من الأموال و الأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، و أكثرهم لا يغني عنك شيئاً، و الله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا و الآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة. و في الأثر يقول الله تعالى: «يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإنْ وجدتَني وجدتَ كل شيء، و إن فتك فاتك كل شيء، و أنا أحب إليك من كل شيء» و في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) رواه الطبري في تفسيره.

«ثَلاثٌ من كن فيه وَجَدَ حلاوة الإيمان: مَن كان اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مما سواهما، و من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أنْ يُلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر، بعد إذ أنقذه الله منه».

بل حب رسول اللهﷺ مقدَّم على الأولاد و الأموال و النفوس، كما ثبت في الصحيح: أنهﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يُؤمن أحدكم حتى أكونَ أحب إليه من نفسه و أهله و ماله و الناس أجميعن».

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾

٢٩- قال ابن عباس و السدي و مجاهد و عكرمة و الضحاك و قتادة و السدي و مقاتل بن حيان ﴿فُرْقَانًا﴾: مخرجاً، زاد مجاهد: في الدنيا و الآخرة، وفي رواية عن ابن عباس ﴿فُرْقَانًا﴾: نجاة، و في رواية عنه: نصراً وقال محمد بن إسحاق ﴿فُرْقَانًا﴾ أي: فصلاً بين الحق و الباطل. و هذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم، وهو يستلزم ذلك كله، فإنَّ من اتقى الله بفعل أوامره، و ترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره، ونجاته و مخرجه من أمور الدنيا و سعادته يوم القيامة، و تكفير ذنوبه وهو محوها؛ و غفرها سترها عن الناس، و سبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾

٣٠- قال ابن عباس و مجاهد و قتادة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليقيدوك، وقال عطاء و ابن زيد: ليحبسوك، وقال السدي: الأثبات هو الحبس و الوثاق. و هذا يشمل ما قاله هؤلاء و هؤلاء، وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء. إن هذه القصة و اجتماع قريش على هذا الائتمار و المشاورة، على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة سواء، و كان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترءوا عليه، بسبب موت عمه أبي طالب الذي كان يحوطه و ينصره و يقوم بإعبائه.

و الدليل على صحة ماقلنا: ما روى الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي عن مجاهد عن ابن عباس: أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا له: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم، و لن يعدمكم رأيي و نصحي، قالوا: أجل ادخل، فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره، فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء، زهير و النابغة إنما هو كأحدهم؛ قال فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال: والله ماهذا لكم برأي، و الله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم؛ قالوا: صدق الشيخ، فانظروا في غير هذا، قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع. إذا غاب عنكم أذاه، واسترحتم و كان أمره في غيركم، فقال الشيخ النجدي: و الله ما هذا لكم برأي ألم

تروا حلاوة قوله، و طلاقة لسانه، و أخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ و الله لئن فعلتم ثم استعرض العرب، ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم، و يقتل أشرافكم؛ قالوا: صدق و الله، فانظروا رأياً غير هذا، قال: فقال أبوجهل لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، لا أرى غيره؛ قالوا: و ما هو؟ قال: تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسطاً نهداً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل و استرحنا و قطعنا عنا أذاه؛ قال: فقال الشيخ النجدي: هذا و الله الرأي، القول ما قال الفتى لا أرى غيره، قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له، فأتى جبريل النبيﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، و أخبره بمكر القوم فلم يَبتْ رسول اللهﷺ في بيته تلك الليلة، و أذن الله له عند ذلك بالخروج، و أنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال»، يذكر نعمه عليه و بلاءه عنده، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ و أنزل في قولهم: تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ فكان ذلك اليوم يسمى يوم «الزحمة» للذي اجتمعوا عليه من الرأي. و عن السدي نحو هذا السياق، و أنزل الله في إرادتهم إخراجه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ و كذا روى العوفي عن ابن عباس، و روى عن مجاهد و عروة بن الزبير و موسى ابن عقبة و قتادة ومقسم و غير واحد نحو ذلك.

و قد روى ابن حبان في صحيحه و الحاكم: من حديث ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول اللهﷺ وهي تبكي فقال: «ما يبكيك يا بنية؟» قالت: يا أبت، ومالي لا أبكي، و هؤلاء الملأ من قريش في الحجر، يتعاهدون باللات و العزى و مناة الثالثة الأخرى، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك، وليس منهم إلا من قد عَرَفَ نصيبه من دمك، فقال: «يا بنية ائتيني بوَضُوء» فتوضأ رسول اللهﷺ ثم خرج إلى المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا، فطأطؤا رؤوسهم و سقطت رقابهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول اللهﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، و قال: «شَاهَت الوجوه» فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته، إلا قُتل يوم بدر كافراً؛ ثم قال الحاكم صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه و لا أعرف له علة. و روى محمد بن إسحاق: عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم.

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾

٣١- يخبر تعالى عن كفر قريش و عتوهم و تمردهم و عنادهم، و دعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم، أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ و هذا منهم قول بلا فعل، و إلا فقد تُحدّوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله، فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، و إنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم، و من

تبعهم على باطلهم، وقد قيل: إن القائل لذلك هو: النضر بن الحارث لعنه الله، كما قد نص على ذلك سعيد ابن جبير والسدي و ابن جريج و غيرهم، فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس و تعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار، و لما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر، فحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد؟ و لهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر، ووقع في الأسارى، أمر رسول الله ﷺ أن تُضرب رقبته صبراً بين يديه، فَفُعل ذلك و لله الحمد، و كان الذي أسره المقداد بن الأسود رضي الله عنه، كما روى ابن جرير عن سعيد بن جبير.

و معنى ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ و هو جمع أسطورة، أي: كتبهم اقتبسها، فهو يتعلم منها و يتلوها على الناس. و هذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى ﴿وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب، فإنه يتقبل منه و يصفح عنه.

٣٢- و قوله: ﴿وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا من كثرة جهلهم، و شدة تكذيبهم، و عنادهم و عتوهم، و هذا مما عيبوا به، و كان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له و وفقنا لاتباعه، و لكن استفتحوا على أنفسهم، واستعجلوا العذاب و تقديم العقوبة، كقوله تعالى: ﴿وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ و قوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۞ مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ و كذلك قال الجهلة من الأمم السالفة، كما قال قوم شعيب له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ و قال هؤلاء: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

عن أنس بن مالك قال: هو أبو جهل بن هشام قال ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فنزلت: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ رواه البخاري. وروي عن ابن عباس قال: هو النضر بن الحارث بن كلدة، قال: فأنزل الله ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ و كذا قال مجاهد و عطاء و سعيد بن جبير و السدي: إنه النضر بن الحارث، زاد عطاء: فقال الله تعالى: ﴿وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ - و قال - وَ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ - وقال - سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِلْكَافِرِينَ﴾ قال عطاء: و لقد أنزل الله فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل.

وروى ابن مردويه: عن ابن بريدة عن أبيه قال: رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس وهو يقول: اللهم إنْ كان ما يقول محمد حقاً، فاخسف بي و بفرسي. و قال قتادة: قال ذلك سَفَهة هذه الأمة وجهلتها، فعاد الله بعائدته و رحمته على سفهة هذه الأمة و جهلتها.

٣٣- و قوله تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: ما كان الله ليعذب قوماً و أنبياؤهم بين أظهرهم، حتى يخرجهم، ثم قال:

﴿وَ مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول: و فيهم من قد سَبَقَ له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار، يستغفرون يعني: يصلون، يعني بهذا أهل مكة، و روى عن مجاهد و عكرمة و عطية العوفي وسعيد بن جبير والسدي نحو ذلك، و قال الضحاك و أبو مالك: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني: المؤمنين الذين كانوا بمكة.

و روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين، لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ماداما بين أظهرهم، فأمانٌ قبضه الله إليه، و أمانٌ بقي فيكم، قوله: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

و روى ابن مردويه و ابن جرير: عن أبي موسى الأشعري نحواً من هذا، و كذا رُوي عن قتادة و أبي العلاء النحوي المقرئ.

و يشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده و الحاكم في مستدركه: من حديث عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قال: و عزتك يا رب، لا أَبرح أُغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: و عزتي و جلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) ﴾

٣٤- يخبر تعالى أنهم أهلٌ لأنْ يعذبهم، و لكن لم يُوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، و لهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم و أسر سراتهم، و أرشد تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم ملتبسون بها من الشرك و الفساد، و قال قتادة و السدي و غيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا، و اختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين، لوقع بهم البأس الذي لا يُردُّ، و لكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَ نِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

و قد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم، روى ابن جرير: عن عكرمة و الحسن البصري قالا: قال في الأنفال: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنتَ فِيهِمْ وَ مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فنسختها الآية التي تليها ﴿وَ مَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ ـ إلى قوله ـ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فقاتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع و الضر، و كذا رواه ابن أبي حاتم. و روى أيضاً: عن ابن عباس: ﴿وَ مَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وَ مَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وقوله: ﴿وَ مَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ

﴿الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: و كيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة عنده و الطواف به، و لهذا قال: **﴿وَ مَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾** أي: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، و إنما أهله النبيﷺ و أصحابه، كما قال تعالى: **﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ وَ أَقَامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾**، و قال تعالى: **﴿وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ إِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ﴾** الآية. و قال عروة والسدي و محمد بن إسحاق في قوله تعالى: **﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾** قال: هم محمدﷺ و أصحابه رضي الله عنهم. و قال مجاهد: هم المجاهدون من كانوا و حيث كانوا.

٣٥- ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، و ما كانوا يعاملونه به، فقال: **﴿وَ مَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَ تَصْدِيَةً﴾** قال عبد الله بن عمرو و ابن عباس و مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير وأبورجاء العطاردي و محمد بن كعب القرظي و حجر بن عنبس و نبيط بن شريط و قتادة و عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: هو الصفير، و زاد مجاهد: و كانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم، و قال السدي: المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له: المكاء، و يكون بأرض الحجاز، و التصدية: التصفيق.

روى ابن أبي حاتم: عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس في قوله: **﴿وَ مَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَ تَصْدِيَةً﴾** قال: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر و تصفق، و المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق. و هكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس، و كذا روى عن ابن عمر ومجاهد و محمد بن كعب و أبي سلمة بن عبد الرحمن والضحاك و قتادة و عطية العوفي و حجر بن عنبس وابن أبزى نحو هذا، و قال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال. قال مجاهد: و إنما كانوا يصنعون ذلك، ليخلطوا بذلك على النبيﷺ صلاته، و قال الزهري يستهزئون بالمؤمنين، و عن سعيد بن جبير و عبد الرحمن بن زيد **﴿وَ تَصْدِيَةً﴾** قال: صدهم الناس عن سبيل الله عز وجل.

قوله: **﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾** قال الضحاك و ابن جريج و محمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل و السبي، و اختاره ابن جرير و لم يحك غيره، و روى ابن أبي حاتم: عن مجاهد: قال عذاب أهل الإقرار بالسيف، و عذاب أهل التكذيب بالصيحة و الزلزلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)﴾

٣٦- قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري و محمد بن يحيى بن حبان و عاصم بن عمر بن قتادة والحصين عبد الرحمن قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر و رجع فلهم إلى مكة، و رجع أبوسفيان بعيره، مشى عبد الله بن أبي ربيعة و عكرمة بن أبي جهل و صفوان بن أمية، في رجال من قريش أصيب آباؤهم و أبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أباسفيان ابن حرب و من كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر

قريش إن محمداً قد وتركم و قتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، ففعلوا، قال: ففيهم ـ كما ذكر عن ابن عباس ـ أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ـ إلى قوله ـ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ و كذا روى عن مجاهد و سعيد بن جبير و الحكم بن عيينة و قتادة و السدي و ابن أبزى: أنها نزلت في أبي سفيان و نفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ، و قال الضحاك: نزلت في أهل بدر.

و على كل تقدير فهي عامة: و إنْ كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة حيث لم تُجد شيئاً، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله، و ظهور كلمتهم على كلمة الحق، و الله متم نوره ولو كره الكافرون، و ناصر دينه، و معلن كلمته و مظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه، و سمع بأذنه ما يسوءه، ومَن قُتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي، و العذاب السرمدي؛ و لهذا قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

٣٧- وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء، و قال السدي: يميز المؤمن من الكافر، و هذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة، كقوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، و تكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله، أي: إنما أقدرناهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: مَن يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك، كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآية، و قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ و نظيرتها في براءة أيضاً.

فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، و أقدرناهم على إنفاق الأموال و بذلها في ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ﴾ أي: يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي: متراكماً متراكباً ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا و الآخرة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)﴾

٣٨- يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا﴾ أي: عمَّاهم فيه من الكفر و المشاقة و العناد،

ويدخلوا في الإسلام و الطاعة و الإنابة ﴿يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ أي: من كفرهم، و ذنوبهم و خطاياهم، كما جاء في الصحيح: من حديث أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أحسن في الإسلام، لم يُؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخذ بالأول و الآخر» و في الصحيح أيضاً: أن رسول الله قال: «الإسلام يَجُبُّ ما قبله، و التوبة تَجبُّ ما كان قبلها». وقوله: ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ أي: يستمروا على ماهم فيه ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: فقد مضت سنتنا في الأولين: أنهم إذا كذبوا و استمروا على عنادهم، أنا نعاجلهم بالعذاب و العقوبة. قال مجاهد في قوله: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: في قريش يوم بدر، وغيرها من الأمم، و قال السدي و محمد بن إسحاق: أي: يوم بدر.

٣٩- و قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ روى البخاري: عن ابن عمر: أن رجلاً جاء فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ الآية، فما يمنعك أنْ لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي أُعيَّر بهذه الآية و لا أقاتل، أحب إلي من أعيَّر بالآية التي يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾ إلى آخر الآية، قال: فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، إذْ كان الإسلام قليلاً، و كان الرجل يفتن في دينه، إما أنْ يقتلوه و إما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام قليلاً فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد، قال: فما قولكم في علي و عثمان؟ قال ابن عمر: ماقولي في علي و عثمان؟ أما عثمان، فكان الله قد عفا عنه، و كرهتم أن يعفو الله عنه، و أما علي فابن عم رسول الله ﷺ و ختنه، و أشار بيديه، وهذه ابنته أو بنته حيث ترون.

و روي: عن سعيد بن جبير قال: خرج علينا أو إلينا ابن عمر رضي الله عنهما فقال: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين، و كان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على المُلك. هذا كله سياق البخاري رحمه الله تعالى. و روى أبو عوانة: عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: قال ذو البطين ـ يعني أسامة بن زيد ـ: لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً. فقال سعد بن مالك: و أنا والله لا أقاتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبداً، فقال رجل: ألم يقل الله ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾؟ فقالا: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين كله لله. رواه ابن مردويه، و قال الضحاك عن ابن عباس ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ يعني: لايكون شرك، و كذا قال أبو العالية و مجاهد و الحسن و قتادة والربيع بن أنس و السدي و مقاتل بن حيان و زيد بن أسلم. و قال الحسن و قتادة و ابن جريج ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أن يقال: لا إله إلا الله. و قال محمد بن إسحاق: و يكون التوحيد خالصاً لله، ليس فيه شرك، و يخلع ما دونه من الأنداد.

و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ لا يكون مع دينكم كفر، و يشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم و أموالهم، إلا بحقها و حسابها على الله عز وجل». و فيهما عن أبي موسى الأشعري قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة و يُقاتل حمية، و يُقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله عز وجل؟ فقال: «مَنْ قاتل لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، فهو في سبيل الله عز وجل».

و قوله: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ أي: بقتالكم عماهم فيه من الكفر، فكفوا عنه و إن لم تعلموا بواطنهم ﴿فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ كقوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ الآية، و في الآية الأخرى ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ و قال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. و في الصحيح أن رسول الله قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال: لا إله إلا الله، فضربه فقتله، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة»؟ قال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذاً، قال: «هلا شققتَ عن قلبه»؟ و جعل يقول و يكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة»؟ قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ.

٤٠- و قوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي: و إن استمروا على خلافكم ومحاربتكم، فاعلموا أن الله مولاكم و سيدكم، و ناصركم على أعدائكم، فنعم المولى و نعم النصير.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾

٤١- يبين تعالى تفصيل ما شرعه، مخصصاً لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة، بإحلال الغنائم. و الغنيمة هي: المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل و الركاب، و الفيء: ما أُخذ منهم بغير ذلك كالأموال التي يصالحون عليها، أو يتوفون عنها و لا وارث لهم، و الجزية و الخراج و نحو ذلك، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف و الخلف، و من العلماء من يُطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة، وبالعكس أيضاً، و لهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ الآية، قال: فنسخت آية الأنفال تلك، و جعلت الغنائم: أربعة أخماس للمجاهدين، و خمساً منها لهؤلاء المذكورين. و هذا الذي قاله بعيد، لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، وتلك نزلت في بني النضير، و لا خلاف بين علماء السير و المغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر، و هذا أمرٌ لا يُشك فيه ولا يرتاب، فمن يفرق بين معنى الفيء و الغنيمة يقول: تلك نزلت في أموال الفيء، وهذه في الغنائم. و من يجعل أمر الغنائم و الفيء راجعاً إلى رأي الإمام، يقول: لا منافاة بين آية الحشر، و بين التخميس إذا رآه الإمام، و الله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ توكيدٌ لتخميس كل قليل و كثير، حتى الخيط و المخيط، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ و قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ اختلف المفسرون ههنا: فقال بعضهم: لله نصيبٌ من الخمس، يجعل في الكعبة. و قال آخرون: ذِكرُ الله ههنا استفتاح كلام للتبرك، و سهمٌ لرسوله ﷺ. (روي) عن ابن عباس رضي الله عنهما، و هكذا قال إبراهيم النخعي و الحسن بن محمد بن الحنفية و الحسن البصري و الشعبي وعطاء بن أبي رباح و عبد الله بن أبي بريدة و قتادة و مغيرة و غير واحد: أن سهم الله و رسوله واحد.

ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبوبكر البيهقي بإسناد صحيح: عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال: أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القرى وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «لله خمسها، وأربعة أخماسها للجيش» قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا، ولا السهم تستخرجه من جنبك، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم».

ثم اختلف قائلوا هذا القول، فروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كانت الغنيمة تخمس على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، و خمس واحد يقسم على أربعة أخماس، فربع لله وللرسول ﷺ، فما كان لله و للرسول: فهو لقرابة النبي ﷺ، و لم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً.

و روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن بريدة قال: الذي لله فلنبيه، و الذي للرسول لأزواجه، و قال عطاء بن أبي رباح: خمس الله و الرسول واحد، يحمل منه و يصنع فيه ما شاء، يعني النبي ﷺ. و هذا أعم وأشمل، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء، و يرده في أمته كيف شاء.

و يشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد: عن المقدام بن معديكرب الكندي: أنه جلس مع عبادة بن الصامت و أبي الدرداء و الحارث بن معاوية الكندي رضي الله عنهم، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا، في شأن الأخماس، فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وَبَرة بين أنملتيه، فقال: «إنَّ هذه من غنائمكم، و إنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس، و الخمس مردودٌ عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، و أكبر من ذلك و أصغر، و لا تغلوا، فإن الغلول عارٌ و نار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله القريب و البعيد، و لا تبالوا في الله لومة لائم، و أقيموا حدود الله في السفر و الحضر، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم، يُنجي الله به من الهم و الغم» هذا حديث حسن عظيم، و لم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه، و لكن روى الإمام أحمد أيضاً و أبو داود و النسائي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ نحوه، في قصة الخمس و النهي عن الغلول.

و قد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه، عبدٌ أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك، كما نص عليه محمد بن سيرين و عامر الشعبي، و تبعهما على ذلك أكثر العلماء. و روى الإمام أحمد و الترمذي وحسنه: عن ابن عباس أن رسول الله تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد.

و عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت صفيةُ من الصَّفي. رواه أبو داود في سننه.

و روى أيضاً بإسناده و النسائي أيضاً: عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمِرْبد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها، فإذا فيها «من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش: إنكم إنْ شهدتم أن لا إله إلا الله، و أن محمداً رسول الله، و أقمتم الصلاة، و آتيتم الزكاة، و أديتم الخمس من المغنم، و سهم النبي ﷺ، و سهم الصفي، أنتم آمنون بأمان الله و رسوله» فقلنا: مَنْ كَتَبَ هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ.

فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا و ثبوته، و لهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه، و قال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء. وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله: و هذا قول مالك و أكثر السلف، وهو أصح الأقوال.

فإذا ثبت هذا و علم، فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله ﷺ من الخمس، ماذا يُصنع به بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده، روى هذا عن أبي بكر و علي وقتادة وجماعة. وجاء فيه حديث مرفوع، و قال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين، و قال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل، اختاره ابن جرير. و قال آخرون: بل سهم النبي ﷺ و سهم ذوي القربى، مردودان على اليتامى و المساكين و ابن السبيل. قال ابن جرير: و ذلك قول جماعة من أهل العراق. و قيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى، كما رواه ابن جرير: عن قيس بن مسلم: سألت الحسن بن محمد ابن الحنفية رحمه الله تعالى عن قول الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ فقال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا و الآخرة.

ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبي ﷺ تسليماً للخليفة من بعده، و قال قائلون: لقرابة النبي ﷺ، وقال آخرون: سهم القرابة لقرابة الخليفة، و اجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل و العدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر و عمر رضي الله عنهما، قال إبراهيم: كان أبوبكر و عمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع و السلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان علي يقول فيه؟ قال: كان أشدهم فيه. و هذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله.

و أما سهم ذوي القربى فإنه يُصرف إلى بني هاشم و بني المطلب، لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، و دخلوا معهم في الشِّعْب غضباً لرسول الله ﷺ و حماية له، مسلمهم طاعة لله و لرسوله، و كافرهم حميةً للعشيرة، و أنفة و طاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ، و أما بنو عبد شمس و بنو نوفل، و إن كانوا بنو عمهم فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم و نابذوهم ومالؤا بطون قريش على حرب الرسول، و لهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية، أشد من غيرهم لشدة قربهم.

و قال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل: مشيت أنا و عثمان بن عفان يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، أعطيت بني المطلب من خمس خيبر و تركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم و بنو المطلب شيءٌ واحد» رواه مسلم. و في بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية و لا إسلام». و هذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم و بنو المطلب.

قال ابن جرير: و قال آخرون: هم بنو هاشم. ثم روى عن خصيف عن مجاهد قال: علم الله أن في هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة، و في رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة، ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك، قال ابن جرير: و قال آخرون: بل هم قريش كلها. ثم روى عن أبي معشر عن سعيد المقبري قال: كتب نجدة إلى عبد الله بن عباس يسأله: عن ذوي القربى فكتب إليه ابن عباس كنا نقول: إنَّا هم، فأبى علينا ذلك قومنا، و قالوا: قريش كلهاذو قربى. وهذا الحديث صحيح رواه مسلم و أبو داود و الترمذي و النسائي، من حديث سعيد المقبري عن يزيد بن هرمز: أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوي القربى فذكره، إلى قوله: فأبى ذلك علينا قومنا، والزيادة من أفراد أبي معشر نجيح ابن عبد الرحمن المدني، وفيه ضعف، و روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغبتُ

لكم عن غُسَالة الأيدي، لأنَّ لكم من خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم» هذا حديث حسن الإسناد، و الله أعلم.

و قوله: ﴿وَ الْيَتَامَى﴾ أي: أيتام المسلمين، و اختلف العلماء: هل يختص بالأيتام الفقراء، أو يعم الأغنياء و الفقراء؟ على قولين، و المساكين: هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم و مسكنتهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو المسافر، أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، و ليس له ما ينفقه في سفره ذلك، وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات من سورة براءة، إن شاء الله تعالى، و به الثقة و عليه التكلان.

و قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ وَ مَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ أي: امتثلوا ما شرعنا لكم، من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر، و ما أنزلنا على رسوله. و لهذا جاء في الصحيحين: من حديث عبد الله بن عباس في حديث وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم: «و آمركم بأربع، و أنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله، ثم قال: هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، و أن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، و أن تؤدوا الخمس من المغنم» الحديث بطوله، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان، وقد بوَّب البخاري على ذلك في كتاب الإيمان من صحيحه، فقال: (باب أداء الخُمس من الإيمان) ثم أورد حديث ابن عباس هذا، و قد بسطنا الكلام عليه في شرح البخاري، ولله الحمد المنة.

وقال مقاتل بن حيان ﴿وَ مَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي: في القسمة، وقوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينبه تعالى على نعمته و إحسانه إلى خلقه، بما فرق به بين الحق والباطل ببدر، و يسمى «الفرقان» لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، و أظهر دينه، و نصر نبيه وحزبه، قال علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس: يوم الفرقان يوم بدر، فرَّق الله فيه بين الحق والباطل، رواه الحاكم. و كذا قال مجاهد و مقسم و عبيد الله بن عبد الله و الضحاك و قتادة و مقاتل بن حيان وغير واحد: أنه يوم بدر، وروى عبد الرزاق: عن عروة بن الزبير في قوله: ﴿يوم الفرقان﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، و كان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان، و أصحاب رسول الله يومئذ ثلثمائة و بضعة عشر رجلاً، و المشركون بين الألف و التسعمائة، فهزم الله المشركين، و قُتل منهم زيادة على السبعين، و أسر منهم مثل ذلك، و قد روى الحاكم: عن ابن مسعود قال في ليلة القدر: تحروها لإحدى عشر يبقين، فإن في صبيحتها يوم بدر. و قال: على شرطهما.

و روى ابن جرير: عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: قال الحسن بن علي: كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان، إسناد جيد قوي [1] و رواه ابن مردويه عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب عن علي قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان، في صبيحتها ليلة الجمعة، لسبع عشر مضت من شهر رمضان، وهو الصحيح عند أهل المغازي و السير. و قال يزيد بن أبي حبيب إمام أهل الديار المصرية في زمانه: كان يوم بدر يوم الاثنين، ولم يتابع على هذا، و قول الجمهور مقدم عليه، و الله أعلم.

---

(١) مع أن ابن جرير رواه عن ابن حميد محمد الرازي، وهو حافظ ضعيف.

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) ﴾

٤٢ ـ يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا، القريبة إلى المدينة ﴿وَهُم﴾ أي: المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي: البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي: العير الذي فيه أبوسفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: مما يلي سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أي: أنتم و المشركون إلى مكان ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ قال محمد بن إسحاق وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم و منهم، ثم بلغكم كثرة عددهم و قلة عددكم، ما لقيتموهم ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليقضي الله ما أراد بقدرته، من إعزاز الإسلام و أهله، و إذلال الشرك و أهله، من غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه، وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ و المسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم و بين عدوهم على غير ميعاد[1].

و قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ قال محمد بن إسحاق: أي لِيَكْفُرَ مَنْ كَفَرَ بعد الحجة، لما رأى من الآية و العبرة، و يؤمن من آمن على مثل ذلك. و هذا تفسير جيد. و بسط ذلك: أنه تعالى يقول إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد، على غير ميعاد، لينصركم عليهم و يرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، و الحجة قاطعة، و البراهين ساطعة، و لا يبقى لأحد حجة و لا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك، أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره، أنه مبطل، لقيام الحجة عليه ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿عَن بَيِّنَةٍ﴾ أي: حجة و بصيرة، و الإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ و قالت عائشة في قصة الأفك: فهلك فيَّ من هلك، أي: قال فيها ما قال من البهتان و الإفك. وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أي: لدعائكم و تضرعكم واستغاثتكم به ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بكم، و أنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) ﴾

٤٣ ـ قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً، و أخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم. وكذا قال ابن إسحاق و غيرواحد، و حكى ابن جرير عن بعضهم: أنه رآهم بعينه التي ينام بها، و قد روى ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ قال: بعينك. و هذا القول غريب، و قد صرح بالمنام ههنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه. و قوله: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي:

---

(١) رواه البخاري في المغازي (٧/ ٢٨٥) و مسلم في التوبة (٤/ ٢١٢١).

لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: من ذلك بأن أراكهم قليلاً ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تجنه الضمائر، و تنطوي عليه الأحشاء ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

٤٤- وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ و هذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين، فيجرؤهم عليهم و يُطمعهم فيهم (روي) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنا ألفاً. رواه ابن أبي حاتم و ابن جرير. و قوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾ الآية، قال: حضض بعضهم على بعض. إسناد صحيح.

و قال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ أي: ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، و الإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته. و معنى هذا: أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، و قلّله في عينه ليطمع فيه، و ذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال، و أيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منهما حق و صدق، ولله الحمد و المنة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾

٤٥- هذا تعليم من الله لعباده المؤمنين آداب اللقاء، و طريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ ثبت في الصحيحين: عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدوّ، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدوّ، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، و اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قام النبي ﷺ و قال: «اللهم مُنْزِل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم و انصرنا عليهم».

و قال قتادة في هذه الآية، قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون عند الضرب بالسيوف.

و روى ابن أبي حاتم: عن عطاء قال: وجب الإنصات و ذكر الله عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم.

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء، و الصبر على مبارزتهم، فلا يفروا و لا ينكلوا و لا يجبنوا، و أن يذكروا الله في تلك الحال و لا ينسوه، بل يستعينوا به، و يتوكلوا عليه، و يسألوه النصر على أعدائهم، و أن يطيعوا الله و رسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، و ما نهاهم عنه انزجروا، و لا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا، فيكون سبباً لتخاذلهم و فشلهم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم و حدتكم، و ما كنتم فيه من الإقبال ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

و قد كان الصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة و الائتمار بما أمرهم الله و رسوله، و امتثال ما

أرشدهم إليه، مالم يكن لأحد من الأمم و القرون قبلهم، و لا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسولﷺ و طاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب و الأقاليم، شرقاً و غرباً، في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم و الفرس و الترك و الصقالبة و البربر و الجيوش و أصناف السودان و القبط و طوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، و ظهر دينه على سائر الأديان، و امتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض و مغاربها، في أقل من ثلاثين سنة فرضي الله عنهم و أرضاهم أجمعين، و حشرنا في زمرتهم، إنه كريم تواب.

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾

٤٧- يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، و كثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطراً، أي: دفعاً للحق ﴿وَ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ وهو المفاخرة و التكبر عليهم، كما قال أبوجهل لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله، لا نرجع حتى نَرِدَ ماء بدر و ننحر الجُزُر، ونشرب الخمر، و تعزف علينا القيان، و تتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحِمام، و رُكِموا في أطواء بدر مهانين أذلاء؛ صغرة أشقياء، في عذاب سرمدي أبدي، و لهذا قال: ﴿وَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما جاؤا به وله، و لهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم.

قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و الضحاك و السدي في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَطَراً وَ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ قالوا: هم المشركون الذين قاتلوا رسول اللهﷺ يوم بدر.

٤٨- و قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ الآية، حَسَّنَ لهم ـ لعنه الله ـ ما جاؤا له، و ماهموا به، و أطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر، فقال: إني جار لكم، و ذلك أنه تبدَّى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بني مدلج، كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشيطان، معه رايته، في صورة رجل من مدلج، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، و إني جار لكم، فلما اصطف الناس، أخذ رسول اللهﷺ قبضةً من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين، و أقبل جبريلعليه السلام إلى إبليس؛ فلما رآه و كانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع يده ثم ولى مدبراً و شيعته، فقال الرجل: يا سراقة، أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى مالا ترون، إني

أخاف الله، و الله شديد العقاب، و ذلك حين رأى الملائكة.

و روى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير (نحوه). و هكذا روى عن السدي و الضحاك و الحسن البصري و محمد بن كعب القرظي و غيرهم رحمهم الله، وقال قتادة: وَ ذُكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة، فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، و كذب عدو الله، و الله ما به مخافة الله، و لكن علم أنه لا قوة له و لا منعة، و تلك عادة عدو الله لمن أطاعه و استقاد له، حتى إذا التقى الحق و الباطل، أسلمهم شر مسلم، و تبرأ منهم عند ذلك.

قلت: يعني بعادته لمن أطاعه قوله تعالى: **﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾** و قوله تعالى: **﴿وَ قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.

فلما نزلت الملائكة و رآها إبليس، وأوحى الله إليهم: إني معكم فثبتوا الذين آمنوا، و تثبيتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه، فيقول له: أبشر فإنهم ليسوا بشيء، و الله معكم فكروا عليهم، فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه، و قال: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون، وهو في صورة سراقة، و أقبل أبو جهل يحضض أصحابه و يقول: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على موعد من محمد و أصحابه، ثم قال: و اللات و العزى لا نرجع حتى نقرن محمداً و أصحابه في الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً. هذا من أبي جهل لعنه الله، كقول فرعون للسحرة لما أسلموا: **﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾** و كقوله: **﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾** و هو من باب البهت والافتراء، ولهذا كان أبوجهل فرعون هذه الأمة.

و قوله: **﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: لما دنا القوم بعضهم من بعض: قلّل الله المسلمين في أعين المشركين، و قلّل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غرّ هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**.

و قال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين، قالوا: غرّ هؤلاء دينهم. و كذا قال معمر.

و روى ابن جرير: عن الحسن في هذه الآية، قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين.

و قوله: **﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾** أي: يعتمد على جنابه **﴿فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾** أي: لا يضام من التجأ إليه، فإن الله عزيزٌ منيع الجناب، عظيم السلطان **﴿حَكِيمٌ﴾** في أفعاله، لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، و يخذل من هو أهل لذلك.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) ﴾

٥٠- يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً، إذ يضربون وجوههم و أدبارهم، و يقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق. قال مجاهد: ﴿أَدْبَارَهُمْ﴾ أستاههم، قال: يوم بدر. و روى وكيع عن مجاهد و عن سعيد بن جبير: يضربون وجوههم و أدبارهم، قال: و أستاههم، ولكن الله يكني. وكذا قال عمر مولى غُفْرة.

و هذا السياق و إن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، و لهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ و في سورة القتال مثلها، و تقدم في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: باسطوا أيديهم بالضرب فيهم، بأمر ربهم، إذ استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد، أن تخرج قهراً، و ذلك إذا بشَّروهم بالعذاب و الغضب من الله، كما في حديث البراء: أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة، يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، إلى سَموم وحميم، و ظلٍّ من يَحموم، فتتفرق في بدنه، فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصوف المبلول، فتخرج معها العروق و العصب، و لهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

٥١- و قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: هذا الجزاء، بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحَكَم العدل، الذي لا يجور تبارك و تعالى و تقدس و تنزه، الغني الحميد. و لهذا جاء في الحديث الصحيح عند مسلم رحمه الله: من رواية أبي ذر رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: «يا عبادي إنّي حَرَّمتُ الظُّلم على نفسي، و جعلته بينكم مُحَرَّماً فلا تظالموا . . . يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، فمن وَجَدَ خيراً فليحمد الله، ومَن وَجَد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه». و لهذا قال تعالى:

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ﴾

٥٢- يقول تعالى: فَعَلَ هؤلاء ـ من المشركين المكذبين ـ بما أرسلت يا محمد، كما فَعَلَ الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي: عادتنا و سنتنا في أمثالهم، من المكذبين من آل فرعون، ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم أهلكهم، و أخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لا يغلبه غالب، و لا يفوته هارب.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾

٥٣- يخبر تعالى عن تمام عدله و قسطه في حُكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد، إلا بسبب

ذنب ارتكبه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَ إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾.

٥٤- و قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: كصنعه بآل فرعون و أمثالهم، حين كذبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم، و سلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم، من جنات و عيون، و زروع و كنوز و مقام كريم، و نعمة كانوا فيها فاكهين، و ما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) ﴾

٥٥، ٥٦- أخبر تعالى أن شر ما دبَّ على وجه الأرض: هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، و كلما أكَّدوه بالأيمان نكثوه، ﴿وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ﴾ أي: لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام.

٥٧- ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي: تغلبهم و تظفر بهم في حرب ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: نكِّل بهم. قاله ابن عباس و الحسن البصري و الضحاك و السدي و عطاء الخراساني و ابن عيينة، و معناه: غلِّظ عقوبتهم، و أثخنهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب و غيرهم، و يصيروا لهم عبرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ و قال السدي: لعلهم يحذرون أن ينكثوا، فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) ﴾

٥٨- يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أي: نقضاً لما بينك و بينهم من المواثيق و العهود ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: عهدهم على سواء، أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتى يبقى علمك و علمهم بأنك حرب لهم، و هم حرب لك، و أنه لا عهد بينك و بينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك.

و عن الوليد بن مسلم ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: على مهل ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ أي: حتى ولو في حق الكفار، لا يحبها أيضاً.

روى الإمام أحمد: عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير في أرض الروم و كان بينه و بينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدراً، إن رسول الله ﷺ قال: «و مَن كان بينه و بين قوم عهد، فلا يحلنَّ عقدة و لا يشدها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء» قال: فبلغ ذلك معاوية فرجع فإذا بالشيخ: عمرو بن عبسة رضي الله عنه. وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي وأبو داود و الترمذي و النسائي و ابن حبان في صحيحه.

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا

مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

٥٩- يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي: فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: يظنون. وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ و قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ❁ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

٦٠- ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب، لمقاتلتهم حسب الطاقة و الإمكان و الاستطاعة، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم﴾ أي: مهما أمكنكم ﴿مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾.

روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول و هو على المنبر: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ «ألا إنَّ القوة الرمي، ألا أن القوة الرمي» رواه مسلم و أبو داود و ابن ماجه.

و روى الإمام مالك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيلُ لثلاثةٍ، لرجلٍ أجرٌ، و لرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر: فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال بها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، و لو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين، كانت آثارها و أرواثها حسنات له، و لو أنها مرت بنهر فشربت منه، و لم يرد أن يسقي به، كان ذلك حسنات له، فهي لذلك الرجل أجر، و رجل ربطها تغنياً و تعففاً، ولم ينس حقَّ الله في رقابها و لا ظهورها، فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً و رياء و نواءً، فهي على ذلك وزر» و سئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر فقال: «ما أنزل الله علي فيها شيئاً، إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ❁ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ رواه البخاري و هذا لفظه، ومسلم.

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «الخيلُ ثلاثةٌ: ففرسٌ للرحمن، و فرس للشيطان، و فرس للإنسان، فأما فرس الرحمن: فالذي يُربط في سبيل الله، فعلفه و روثه و بوله و ذكر ما شاء الله، و أما فرس الشيطان: فالذي يُقامر أو يراهن عليه، و أما فرس الإنسان: فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي ستر من الفقر».

و قد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، و ذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، و قول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

و روى الإمام أحمد: أن معاوية بن خديج مرَّ على أبي ذر وهو قائم عند فرس له، فسأله: ما تعاني من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته، قال: و ما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذي نفسي بيده ما من فرسٍ إلا وهو يدعو كل سَحَر، فيقول: اللهم أنت خَوَّلتني عبداً من عبادك، و جعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله و ماله و ولده.

و روى (أيضاً): عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس من فرسٍ عربي، إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين، يقول: اللهم إنك خَوَّلتني من خولتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله و ماله إليه،

أو أحب أهله و ماله إليه» رواه النسائي.

و روى أبو القاسم الطبراني: عن الحسن أنه قال لابن الحنظلية ـ يعني سهلاً ـ حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، و أهلها مُعانون عليها، و مَن ربطَ فرساً في سبيل الله، كانت النفقة عليه، كالمادِّ يده بالصدقة لا يقبضها».

والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة.

و في صحيح البخاري: عن عروة بن أبي الجعد البارقي: أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر و المغنم».

و قوله: ﴿تُرْهِبُونَ﴾ أي: تخوفون ﴿بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَ عَدُوَّكُمْ﴾ أي: من الكفار ﴿وَ آخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ قال مجاهد: يعني بني قريظة، و قال السدي: فارس، و قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور. و قال مقاتل ابن حيان و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون، و هذا أشبه الأقوال، و يشهد له قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

و قوله: ﴿وَ مَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ أي: مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفي إليكم على التمام و الكمال، (و لهذا جاء) أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَ اللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَ اللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) ﴾

٦١ – يقول تعالى إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم ﴿و إن جَنَحُوا﴾ أي: مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ أي: المسالمة و المصالحة و المهادنة ﴿فاجنح لها﴾ أي: فمل إليها، و اقبَل منهم ذلك، و لهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح، و وضع الحرب بينهم وبين الرسول ﷺ تسع سنين، أجابهم إلى ذلك، مع ما اشترطوا من الشروط الأخر.

و قال ابن عباس و مجاهد و زيد بن أسلم وعطاء الخراساني و عكرمة و الحسن و قتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنونَ بِاللهِ وَ لاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية. و فيه نظر أيضاً، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة و لا نسخ و لا تخصيص، و الله أعلم. و قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك و ناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة، ليتقووا و يستعدوا.

٦٢، ٦٣– ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ﴾ أي: كافيك وحده. ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين، المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمعها على

الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك و موازرتك ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لما كان بينهم من العداوة و البغضاء، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿و اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَ كُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

و في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار، في شأن غنائم حنين، قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي، و كنتم متفرقين فألفكم الله بي» كلما قال شيئاً، قالوا: الله و رسوله أمنُّ، و لهذا قال تعالى: ﴿و لكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، ، حكيم في أفعاله و أحكامه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، قال: هم المتحابون في الله، و في رواية: نزلت في المتحابين في الله. رواه النسائي و الحاكم في مستدركه، و قال: صحيح، و روى عبد الرزاق: عن ابن عباس قال: إن الرحم لَتُقطع، و إنَّ النعمة لتكفر، و إنَّ الله إذا قارب بين القلوب، لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ رواه الحاكم أيضاً. و عن عبدة بن أبي لبابة عن مجاهد ـ ولقيته فأخذ بيدي ـ فقال: إذا التقى المتحابان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه، و ضحك إليه، تحاتت خطاياهما كما تحات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك، فإن الله يقول: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني. و كذا روى طلحة بن مصرف عن مجاهد، و قال ابن عون عن عمير بن إسحاق قال: كنا نتحدث أن أول ما يُرفع من الناس: الألفة، و روى الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمه الله: عن سلمان الفارسي: أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم، فأخذ بيده، تحاتتْ عنهما ذنوبهما، كما تتحات الورق عن الشجرة اليابسة، في يوم ريح عاصف، و إلا غفر لهما ذنوبهما، ولو كانت مثل زبد البحار»[(١)].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾

٦٤ ـ يُحرِّضُ تعالى نبيه ﷺ و المؤمنين على القتال، و مناجزة الأعداء، ومبارزة الأقران، و يخبرهم أنه حسبهم، أي: كافيهم و ناصرهم، و مؤيدهم على عدوهم، و إنْ كثرت أعدادهم، وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. روى ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله: ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ قال: حسبك الله، و حسب من شهد معك. قال: و روى عن عطاء الخراساني و عبد الرحمن بن زيد مثله.

---

(١) المعجم الكبير (٦/ ٢٥٦) و فيه: «مثل زبد البحر».

٦٥- و لهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم أو مُرهم عليه، و لهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند صفهم و مواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عددهم و عددهم: قوموا إلى جنة عرضها السموات و الأرض. فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: بَخ بخ، فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل فكَسَر جفن سيفه، و أخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، و قال: لئن أنا حييتُ حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه.

٦٦- ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين، و آمراً: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كل واحد بعشرة، ثم نُسخ هذا الأمر و بقيت البشارة. روى ابن المبارك عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين، حتى فَرَضَ الله عليهم أن لا يفر واحدٌ من عشرة، ثم جاء التخفيف فقال: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: خفف الله عنهم من العدة، و نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. و روى البخاري نحوه. وروى سعيد بن منصور: عن ابن عباس في هذه الآية قال: كُتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين. وروى البخاري نحوه. و روى علي بن أبي طلحة و العوفي عن ابن عباس نحو ذلك. قال ابن أبي حاتم: ورُوي عن مجاهد و عطاء و عكرمة و الحسن و زيد بن أسلم و عطاء الخراساني و الضحاك وغيرهم نحو ذلك.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) ﴾

٦٨- روى الإمام أحمد: عن أنس رضي الله عنه قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ، فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم، و إنما هم إخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، و أن تقبل منهم الفداء، قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم و قبل منهم الفداء، قال: و أنزل الله عز وجل: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. و قد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك.

و روى ابن مردويه أيضاً و اللفظ له و الحاكم عن ابن عمر عن النبي ﷺ لمّا أسر الأسارى يوم بدر، أُسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، و قد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه، فقال عمر:

أفآتهم؟ فقال: «نعم»، فأتى عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا، و الله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى؟ قالوا: فإنْ كان لرسول الله ﷺ رضى فخذه، فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له: يا عباس أسلم، فوالله لئن تسلم أحب إلي من أن يُسلم الخطاب، و ماذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: واستشار رسول الله ﷺ أبابكر فيهم، فقال أبو بكر: عشيرتك فأرسلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ الآية، قال الحاكم: صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

و عن علي رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر، فقال: خَيِّر أصحابك في الأسارى، إنْ شاءوا الفداء، و إن شاءوا القتل، على أن يقتل عاماً مقبلاً منهم مثلهم، قالوا: الفداء و يقتل منا. رواه الترمذي والنسائي و ابن حبان، و هذا حديث غريب جداً[(١)].

و روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: غنائم بدر قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب مَنْ عصاني، حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. و كذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد. و قال الأعمش: سبق منه أن لا يُعذب أحداً شهد بدراً. و رُوي نحوه عن سعد بن أبي وقاص و سعيد بن جبير و عطاء، و قال شعبة عن أبي هاشم عن مجاهد: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي: لهم بالمغفرة، ونحوه عن سفيان الثوري رحمه الله، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني: في أم الكتاب الأول، أن المغانم والأسارى حلالٌ لكم، لمسكم فيما أخذتم من الأسارى عذاب عظيم.

٦٩- قال الله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ الآية، و كذا روى العوفي عن ابن عباس، وروى مثله عن أبي هريرة و ابن مسعود و سعيد بن جبير و عطاء و الحسن البصري و قتادة و الأعمش أيضاً أن المراد ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله، و يستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ خمساً لَمْ يُعْطَهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر، و جُعلتْ لي الأرض مسجداً و طهوراً، و أُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي، و أعطيتُ الشفاعة، و كان النبي يُبعث إلى قومه و بُعثتُ إلى الناس عامة».

و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرءوس غيرنا»[(٢)]. و لهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ الآية، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

و قد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء، أن الإمام مخير فيهم، إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة، و إن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أُسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية و ابنتها، اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما و أخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، و إن شاء استرقَّ من أسر، هذا مذهب الإمام الشافعي و طائفة من العلماء، و في المسألة خلاف آخر بين الأئمة، مقرر في موضعه من كتب الفقه.

---

(١) رجال إسناده ثقات، و قد صححه الألباني كما في الإرواء (٥/ ٤٨).

(٢) حديث صحيح، رواه الترمذي (٣٢٩١) لكن فيه: «من قبلكم»، و تمامه: «كانت تنزل نارٌ من السماء فتأكلها».

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾

٧٠- في صحيح البخاري عن أنس بن مالك: أن رجالاً من الأنصار قالوا: يا رسول الله، ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، قال: لا، «والله لا تذرون منه درهماً» و روى يونس بن بكير عن الزهري عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول، فإنَّ الله يجزيك، و أما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك و ابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد الله، و حليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر»، قال: ماذاك عندي يا رسول الله؟ قال: «فأين المال الذي دفنته أنت و أم الفضل؟ قلتَ لها: إنْ أصبتُ في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل و عبد الله و قثم» قال: و الله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري و غير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي، فقال رسول الله: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه و ابني أخويه و حليفه، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية، في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل. و قد روى ابن إسحاق أيضاً عن ابن عباس في هذه الآية بنحو مما تقدم.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: كان العباس يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب، فقال العباس حين قرئت هذه الآية: لقد أعطاني الله عز وجل خصلتين ما أحب أن لي بهما الدنيا: إني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية، فآتاني أربعين عبداً، و إني لأرجو المغفرة التي وعدنا الله عز وجل.

(حديث آخر في ذلك) روى الحافظ أبوبكر البيهقي: عن أنس بن مالك قال: أُتي رسول الله بمالٍ من البحرين فقال: «انثروه في مسجدي»، قال: و كان أكثر مال أتى به رسول الله فخرج إلى الصلاة و لم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة و جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله، أعطني فإني فاديت نفسي، و فاديت عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ» فحثا في ثوبه، ثم ذهب يُقلُّه فلم يستطع، فقال: مُر بعضهم يرفعه إلي، قال: «لا»، قال: فارفعه أنت علي، قال: «لا» فنثر منه ثم احتمله على كاهله، ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره، حتى خفي عنه، عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثَمَّ منها درهم. و قد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم، و في بعض السياقات أتم من هذا.

٧١- وقوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ فيما أظهروا

لك من الأقوال ﴿فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بدر بالكفر به. ﴿فَأَمْكَنَ مِنهُمْ﴾ أي: بالأسارى يوم بدر ﴿وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بفعله، حكيم فيه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) ﴾

٧٢- ذكر تعالى أصناف المؤمنين، و قسمهم إلى مهاجرين: خرجوا من ديارهم و أموالهم، و جاءوا لنصر الله و رسوله، و إقامة دينه، و بذلوا أموالهم و أنفسهم في ذلك، و إلى أنصار و هم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم، وواسوهم في أموالهم، و نصروا الله و رسوله بالقتال معهم، فهؤلاء ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: كل منهم أحق بالآخر من كل أحد، و لهذا آخى رسو لالله ﷺ بين المهاجرين و الأنصار، كل اثنين إخوان، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث. ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس، و رواه العوفي و علي بن أبي طلحة عنه، وقاله مجاهد و عكرمة و الحسن و قتادة و غير واحد.

روى الإمام أحمد: عن جرير هو ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض، و الطلقاء من قريش و العتقاء من ثقيف، بعضهم أولياءُ بعض إلى يوم القيامة» تفرد به أحمد. و رواه الحافظ أبو يعلى عن ابن مسعود.

و قد أثنى الله و رسوله على المهاجرين و الأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال: ﴿وَ السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ و الأَنصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ وَ رَضُوا عَنهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهارُ﴾ الآية، وقال: ﴿لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الأَنصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَراءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَ رِضْواناً وَيَنصُرُونَ اللهَ و رَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۞ وَ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَ الإِيمانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَ يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَو كَانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ﴾ الآية.

و أحسن ما قيل في قوله: ﴿وَ لاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، و هذا أمرٌ مجمعٌ عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك.

و قوله تعالى: ﴿وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم﴾ قرأ حمزة ﴿وِلايتهم﴾ بالكسر، والباقون بالفتح، وهما واحد كالدِلالة و الدَلالة ﴿مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا و لم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، و لا في خمسها، إلا ما حضروا فيه القتال، كما روى أحمد: عن بريدة بن الحُصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بَعثَ أميراً على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، و بمن معه من المسلمين خيراً،

وقال: «اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا مَن كَفرَ بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث خصالٍ أو خلال، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقْبَل منهم، و كُفَّ عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، و أعلمهم إنْ فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإنْ أبوا و اختاروا دارهم، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، و لا يكون لهم في الفيء و الغنيمة نصيب إلا أنْ يجاهدوا مع المسلمين، فإنْ هم أَبَوا فادعهم إلى إعطاء الجزية. فإنْ أجابوا فاقبل منهم و كفّ عنهم، فإنْ أبوا فاستعن بالله و قاتلهم» انفرد به مسلم و عنده زيادات أخر.

و قوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ الآية، يقول تعالى، و إن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدوٍّ لهم، فانصروهم، فإنه واجبٌ عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾، أي: مهادنة إلى مدة فلا تخفروا ذمتكم، و لا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم. و هذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) ﴾

٧٣- لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قَطَع الموالاة بينهم و بين الكفار، كما روى الحاكم: عن أسامة عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، و لا يَرثُ مسلمٌ كافراً، و لا كافر مسلماً، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد و لم يخرجاه. قلت: الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلمُ الكافرَ، و لا الكافرُ المسلم».

و في المسند و السنن: من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى» و قال الترمذي حسن صحيح.

و قد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا بريءٌ من كل مسلمٍ بين ظهراني المشركين» ثم قال: «لا يتراءى ناراهما»(1).

و روى أبو داود في آخر كتاب الجهاد: عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «مَن جامع المشرك و سكن معه فإنه مثله».

و ذكر الحافظ أبوبكر بن مردويه: عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم مَن تَرضونَ دينه و خُلُقَه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض و فساد عريض» قالوا: يا رسول الله، و إنْ كان فيه؟ قال: قال: إذا أتاكم من ترضون دينه و خلقه فأنكحوه» ثلاث مرات، أخرجه أبو داود و الترمذي، ثم روى عن أبي هريرة رضي الله عنه (بنحوه).

و معنى قوله: «إلا تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض و فساد عريضٌ» أي: إنْ لم تجانبوا المشركين و توالوا المؤمنين، و إلا وقعت فتنةٌ في الناس، وهو التباس الأمر، و اختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس

(1) رواه أبو داود (٢٦٤٥) و الترمذي (١٦٠٤) و النسائي (٨/ ٣٦) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه. وهو حديث حسن.

فساد منتشر عريض طويل.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) ﴾

٧٤- لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر مالهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة، و أنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة، و الصفح عن الذنوب إنْ كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف، دائم مستمر أبداً، لا ينقطع و لا ينقضي، و لا يُسْأم ولا يُمل، لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أنَّ الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان، و العمل الصالح، فهم معهم في الآخرة، كما قال: ﴿و السَّابِقونَ الأوَّلونَ﴾ الآية، وقال: ﴿و الذينَ جاؤا مِن بعدهِم﴾ الآية.

و في الحديث المتفق عليه بل المتواتر، من طرق صحيحة: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْمرءُ مَعَ مَنْ أحَبَّ» و في الحديث الآخر: «مَنْ أَحبَّ قوماً فَهُوَ مِنْهُمْ» و في رواية: حُشِرَ معهم.

وروى الإمام أحمد: عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون و الأنصار بعضهم أولياء لبعض، والطلقاء من قريش و العتقاء من ثقيف، بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة».

أما قوله تعالى: ﴿بَعضُهمْ أَولَى بِبعضٍ فِي كِتابِ اللهِ﴾ أي: في حكم الله، و ليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فَرْضَ لهم و لاهم عصبة، بل يُدْلون بوارثٍ كالخالة و الخال و العمة و أولاد البنات و أولاد الأخوات و نحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، و يعتقد ذلك صريحاً في المسألة، بل الحق أن الآية عامة، تشتمل جميع القرابات، كما نص عليه ابن عباس و مجاهد و عكرمة و الحسن و قتادة و غير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالحِلْف و الإخاء، اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، و على هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص، و مَنْ لم يورثهم يحتج بأدلة، من أقواها حديث «إنَّ الله قد أعطى كلَّ ذي حق حقه، فلا وصيةَ لوارث» قالوا: فلو كان ذاحق، لكان ذافرض في كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، و الله أعلم.

آخر تفسير سورة الأنفال، ولله الحمد و المنة و عليه التكلان، وهو حسبنا و نعم الوكيل.

ترتيبها ٩ — سُورَةُ التوبة ـ مَدَنية — آياتها ١٢٩

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ① فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ② ﴾

١ ، ٢- هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، كما روى البخاري عن البراء قال: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وآخر سورة نزلت براءة. وإنما لم يبسمل في أولها، لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه [١]. و أول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم، وبعث أبابكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة، ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له، كما سيأتي بيانه.

فقوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: هذه براءة، أي: تبرؤ من الله ورسوله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ اختلف المفسرون ههنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهدٌ مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ الآية، ولما سيأتي في الحديث. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته. وهذا أحسن الأقوال وأقوالها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله، وروى عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسيحون في الأرض حيث شاؤا، وأجّل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم، فذلك خمسون ليلة، فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد، يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأُمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر، إلى عشر خلون من ربيع الآخر، أن يضع فيهم السيف أيضاً، حتى يدخلوا في الإسلام.

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ③ ﴾

٣- يقول تعالى: وإعلام ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وتقدمٌ وإنذار إلى الناس ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك، وأظهرها وأكبرها جميعاً ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي: بريء منهم أيضاً، ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فَهُوَ

(١) و هو رضي الله عنه متابع في هذا لرسول الله ﷺ إذ كانوا يكتبون الوحي بين يديه و بأمره.

﴿خَيرٌ لَّكُمْ وَ إن تَوَلَّيْتُم﴾ أي: استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فَاعلَموا أَنَّكُمْ غَيرُ مُعجِزي اللهِ﴾ بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته ﴿وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

روى البخاري رحمه الله: عن حميد عن أبي هريرة قال: بعثني أبوبكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر، يؤذنون بمنى: أنْ لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان. قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب، فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا عليٌّ في أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان. (و زاد في رواية): ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: «الأكبر» من أجل قول الناس الحج الأصغر، فَنَبَذَ أبوبكر إلى الناس في ذلك العام، لم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك. هذا لفظ البخاري في كتاب الجهاد.

و روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله بعثه ببراءة مع أبي بكر، فلما بلغ ذاالحليفة، قال: لا يُبَلِّغها، إلا أنا، أو رجلٌ من أهل بيتي، فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ورواه الترمذي في التفسير.

و روى الإمام أحمد عن زيد بن يثيع رجل من همدان: سألنا علياً: بأي شيءٍ بُعثت؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة ـ قال: بُعثتُ بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومَن كان بينه وبين النبي ﷺ عهدٌ فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا، ورواه الترمذي.

وروى عبد الرزاق: عن أبي إسحاق: سألت أباجحيفة عن يوم الحج الأكبر؟ قال: يوم عرفة، فقلت: أمن عندك أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك. وروى عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر يوم عرفة. وهكذا روى عن ابن عباس وعبدالله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاووس أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر. وقد ورد فيه حديث مرسل.

و القول الثاني: أنه يوم النحر. فعن علي رضي الله عنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وروى عبد الرزاق: عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر، و كذا روى عن أبي جحيفة وسعيد بن جبير وعبدالله ابن شداد بن الهاد ونافع بن جبير بن مطعم والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة وأبي جعفر الباقر والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر، واختاره ابن جرير، وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، وقد ورد في ذلك أحاديث أخر.

وروى ابن جرير: عن أبي بكرة قال: لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير به، وأخذ الناس بخطامه أو زمامه، فقال: «أي يوم هذا؟» قال: فسكتنا، حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر؟» وهذا إسناد صحيح، وأصله مخرج في الصحيح.

و قال سهل السراج: سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: مالكم وللحج الأكبر؟ ذاك عام حج فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله ﷺ، فخرج بالناس، رواه ابن أبي حاتم.

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) ﴾

٤ - هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث، ومَن كان له عهدٌ مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته، وذلك بشرط: أن لا ينقض المعاهد عهده، ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يُوفَّى له بذمته وعهده إلى مدته، ولهذا حَرَّضَ تعالى على الوفاء بذلك، فقال: ﴿إن الله يحب المتقين﴾ أي: الموفين بعهدهم.

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾

٥ - اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ماهي، فذهب ابن جرير: إلى أنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، قاله أبو جعفر الباقر، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم، وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً، وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة، المنصوص عليها بقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت الأشهر الأربعة، التي حرمنا عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم، لأن عَوْد العهد على مذكور، أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة، سيأتي بيان حكمها في آية أخرى، بعدُ في هذه السورة الكريمة.

و قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾أي: من الأرض، وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحَرَم بقوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: وأسروهم إنْ شئتم قتلاً، وإن شئتم أسراً، وقوله: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، الرصد في طرقهم ومسالكهم، حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

و لهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة، على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي: الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها، فإنَّ أشرَف أركان الإسلام بعد الشاهدتين: الصلاة الي هي حق الله عزوجل، وبعدها أداء الزكاة، التي هي نفعٌ متعدٍ إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة،

وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة» الحديث.

و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبابكر ما كان أفقهه.

روى الإمام أحمد: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا فقد حَرُمتْ علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها؛ لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم» ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه.

و هذه الآية الكريمة هي آية السيف، التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نَسَخت كل عهدٍ بين النبي ﷺ وبين أحدٍ من المشركين، وكل عقد وكل مدة.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد، إنْ لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمى لهم من العهد والميثاق؛ وأذهب الشرط الأول. وروى ابن أبي حاتم: عن علي بن أبي طالب: بُعث النبي ﷺ بأربعة أسياف: سيف في المشركين من العرب، قال الله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ هكذا رواه مختصراً[1]، وأظن أن السيف الثاني: هو قتال أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، (و السيف الثالث) قتال المنافقين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الآية. (والرابع) قتال الباغين في قوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ وقال قتادة بالعكس.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦)﴾

٦- يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أي: استأمنك فأجبه إلى طُلبته حتى يسمع كلام الله، أي: القرآن تقرؤه عليه، وتَذكر له شيئاً من أمر الدين، تقيم به عليه حجة الله ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان، حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما شَرَعْنَا أَمانَ مثل هؤلاء، ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله في عباده.

و من هذا كان رسول الله ﷺ يُعْطي الأمان لمن جاءه مسترشداً، أو في رسالة، كما جاء يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم: عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحداً بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسولَ الله ﷺ ما بهرهم، ومالم

---

(١) وفيه انقطاع.

يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

و لهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لو لا أن الرسل لا تقتل، لضربت عنقك» وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، و أمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه.

و الغرض: أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام، في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أُعْطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه؛ لكن قال العلماء: لا يجوز أن يُمكَّن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكَّن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي، وغيره من العلماء رحمهم الله.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) ﴾

٧- يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين، ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي: أمان ويُتركون فيما هم فيه، وهم مشركون بالله، كافرون به وبرسوله ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ الآية، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه، وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد، ومالؤا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومَكَّنه من نواصيهم، ولله الحمد والمنة، فأطْلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا: الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، و من استمر على كفره، وفرَّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان، والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء، ومنهم: صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) ﴾

٨- يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداتهم، والتبري منهم، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهدٌ لشركهم بالله تعالى، وكفرهم برسول الله ﷺ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين، وأديلوا عليهم، لم يُبقوا

ولم يَذروا، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة، قال علي بن أبي طلحة وعكرمة والعوفي عن ابن عباس: الإل: القرابة، والذمة: العهد، وكذا قال الضحاك والسدي. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الإل الله؛ وفي رواية: لا يرقبون الله ولا غيره، وروى ابن جرير: عن أبي مجلز قال: مثل قوله جبريل ميكائيل إسرافيل، كأنه يقول: لا يرقبون الله. والقول الأول أظهر وأشهر، وعليه الأكثر. وعن مجاهد أيضاً (الإل): العهد. وقال قتادة: (الإل): الحلف.

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾

٩ - ١١ - يقول تعالى ذماً للمشركين، وحثاً للمؤمنين على قتالهم ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله، بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي: منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ تقدم تفسيره وكذا الآية التي بعدها ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ إلى آخرها تقدمت.

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) ﴾

١٢ - يقول تعالى: ﴿وإن نكث﴾ هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم، أي: عهودهم ومواثيقهم ﴿وطعنوا في دينكم﴾ أي: عابوه وانتقصوه، ومن ههنا: أُخذ قتلُ من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام، أو ذكره بنقص، ولهذا قال: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لاَ أيمانَ لهم لعلهم ينتهون﴾ أي: يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال، وقد قال قتادة وغيره: أئمة الكفر كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدَّد رجالاً. وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: مر سعد برجل من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أئمة الكفر! فقال سعيد: كذبت، بل أنا قاتلت أئمة الكفر. رواه ابن مردويه. وروى عن حذيفة أنه قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد. وروى عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه مثله، والصحيح أن الآية عامة، وإنْ كان سبب نزولها مشركي قريش، فهي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم، و قال الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير: أنه كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى الناس، حين وجههم إلى الشام قال: إنكم ستجدون قوماً مُحَوَّقة رؤوسهم، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف، فو الله لأنْ أقتل رجلاً منهم أحب إلى من أن أقتل سبعين من غيرهم، وذلك بأن الله يقول: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ رواه ابن أبي حاتم.

﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ

وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) ﴾

١٣ - وهذا أيضاً تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿وَ إِذْ يَمكُرُ بِكَ الذينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَو يَقْتُلوكَ أَوْ يُخرجوكَ وَ يَمكُرُونَ وَيمكرُ اللهُ واللهُ خَيرُ الْمَاكِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يُخْرِجونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَن تُؤمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيستَفِزُّونَكَ مِنَ الأرضِ لِيُخرِجوكَ مِنهَا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَهم بَدَءُوكمْ أَولَ مَرَّةٍ﴾ قيل: المراد بذلك يوم بدر، حين خرجوا لنصر غيرهم، فلما نجت وعلموا بذلك، استمروا على وجههم طلباً للقتال، بغياً وتكبيراً، كما تقدم بسط ذلك، وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة، أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح، وكان ما كان، ولله الحمد والمنة.

و قوله: ﴿أَتخشونَهمْ فَاللهُ أَحقُّ أَن تَخشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤمنينَ﴾ يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فأنا أهل أنْ يَخشى العباد من سطوتي وعقوبتي، فبيدي الأمر، وما شئت كان ومالم أشأ لم يكن.

١٤، ١٥ - ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد، مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده ﴿قاتِلُوهُمْ يُعذِّبهمُ اللهُ بِأَيدِيكُمْ وَ يُخزِهمْ وَ ينصُرْكُمْ عليهِمْ وَ يَشْفِ صُدورَ قومٍ مُّؤمنينَ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم، وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية ﴿وَ يَشْفِ صُدورَ قومٍ مُّؤمنينَ﴾ يعني: خزاعة، وأعاد الضمير في قوله: ﴿وَ يُذهِبْ غَيظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضاً.

﴿وَ يَتوبُ اللهُ علَى مَن يَشاءُ﴾ أي: من عباده ﴿وَ اللهُ عَليمٌ﴾ أي: بما يصلح عباده ﴿حكيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم، الذي لا يجور أبداً، ولا يُضيِّع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازى عليه في الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) ﴾

١٦ - يقول تعالى أم حسبتم أيها المؤمنين أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَ لمَّا يَعلَمِ اللهُ الذينَ جاهَدُوا منكُمْ وَ لمْ يَتَّخِذُوا مِن دونِ اللهِ وَ لاَ رسُولِهِ ولاَ المؤمنينَ وليجَةً﴾ أي: بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكتفى بأحد القسمين، كما قال الشاعر:

و ما أدري إذا يَممت أرضاً أريد الخير أيهما يليني

و قد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُترَكُوا أَن يَقولُوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفتَنونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذينَ مِن قَبلِهِمْ فَلَيعلَمَنَّ اللهُ الذينَ صَدَقُوا وَ ليعلمنَّ الكَاذِبِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿مَا كانَ اللهُ لِيذَرَ الْمُؤمنينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيهِ﴾ الآية.

و الحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد، بيَّن أن له فيه حكمة، وهو: اختبار عبيده من يطيعه ممن

يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، ومالم يكن لو كان كيف كان يكون، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ماهو عليه، لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا راد لما قدَّره وأمضاه.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) ﴾

١٧- يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله، التي بينت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ: «مسجد الله» فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض، الذي بُني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له وأسسه خليل الرحمن، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السدي: لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، ولو سألت اليهودي: ما دينك؟ لقال: يهودي، والصابئ، والمشرك لقال: مشرك ﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ أي: بشركهم ﴿وفي النار هم خالدون﴾ وقال تعالى: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد. وروى عبد الرزاق عن عمرو بن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب محمدﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يُكرم مَن زاره فيها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصلي، فلا صلاة له، وقد عصى الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية، رواه ابن مردويه. وقد روى مرفوعاً من وجه آخر، وله شواهد من وجوه أخر، ليس هذا موضع بسطها[1].

وقوله: ﴿وأقام الصلاة﴾ أي: التي هي أكبر عبادات البدن ﴿وآتى الزكاة﴾ أي: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، وقوله: ﴿ولم يخش إلا الله﴾ أي: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾.

١٨- قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ يقول: مَن وحَّد الله وآمن باليوم الآخر، يقول: من آمن بما أنزل الله ﴿وأقام الصلاة﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿ولم يخش إلا الله﴾ يقول لم يعبد إلا الله، ثم قال: ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ يقول تعالى: إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيهﷺ ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ وهي: الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: و«عسى» من الله حق.

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

(١) والحديث قد صح مرفوعاً، ولله الحمد والمنة، ولفظه: «من سمعَ النداء فلم يأته، فلا صلاة له إلا من عُذر» رواه ابن ماجه (٧٩٣) والحاكم (١/ ٢٤٥، ٢٤٦) فقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وهو كما قالا، وكذا قال الحافظ في بلوغ المرام، وانظر الإرواء (٥٥١).

اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾

١٩- وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: قد نزلت في العباس بن عبد المطلب، حين أسر ببدر قال: لأنْ كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام، و نسقي ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ - إلى قوله - وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. يعني: أن ذلك كله كان في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك. وروى عبد الرزاق عن الشعبي قال: نزلت في علي والعباس رضي الله عنهما بما تكلما في ذلك، ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآية كلها، وهكذا قال السدي وذكر نحوه. وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هنا، فعن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أُبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام، إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خيرٌ مما قلتم، فزجرهم عمر بن الخطاب ﷺ، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - إلى قوله - وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ رواه مسلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾

٢٣- أمر تعالى بمباينة الكفار به، وإنْ كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا﴾، أي: اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية.

٢٤- ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته، على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي: إنْ كانتْ هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: فانتظروا ماذا يحلُّ بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

و روى الإمام أحمد: عن زهرة بن معبد عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله يا رسول الله، لأنتَ أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ «لا يُؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله:

«الآن ياعمر» انفرد بإخراجه البخاري. وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «و الذي نفسي بيده، لا يُؤمن أحدكم حتى أكونَ أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

و روى الإمام أحمد: وأبو داود واللفظ له: من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سَلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم».

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧) ﴾

٢٥- قال ابن جريج عن مجاهد: هذه أول آية نزلت من براءة.

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم، وإحسانه لديهم، في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره، لا بعددهم ولا بعددهم، ونبههم على أن النصر من عنده، سواء قل الجمع أو كثر، فإنَّ يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلاً، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده، وإنْ قلَّ الجمع، فكم من فئةٍ قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

و قد روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ الصحابة أربعة، وخيرُ السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن تُغلب اثنا عشر ألفاً من قِلَّة» وهكذا رواه أبو داود والترمذي.

و قد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة، في شوال سنة ثمان من الهجرة. وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة، وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أنَّ هوازن جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري، ومعه ثقيف بكمالها، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم، وجاءوا بقضهم وقضيضهم، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف، يقال له: حنين، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم، فعند ذلك وَلَّى المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل، وثبتَ رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو

ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة، ويقول: «إليَّ يا عباد الله، إليَّ أنا رسول الله» ويقول في تلك الحال «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ومنهم من قال: ثمانون، فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم، ثم أمر ﷺ عمه العباس ـ وكان جهير الصوت ـ أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة، يعني: شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على أن لا يفروا عنه، فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: ياأصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: يا لبيك يا لبيك، وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع، لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ، فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ، أمرهم ﷺ أنْ يَصْدُقُوا الحملة، وأخذ قبضة من التراب بعد ما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني»، ثم رَمَى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ. وروى الإمام أحمد (نحو ما سبق) وهكذا البيهقي في دلائل النبوة وابن إسحاق.

و في الصحيحين: عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوماً رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذٌ بلجام بغلته البيضاء، وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم، وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله، وتوكلا عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان.

٢٦ـ ولهذا قال تعالى: **﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾** أي: طمأنينته وثباته على رسوله **﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾** أي: الذين معه **﴿وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾** وهم الملائكة، كما روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن عبد الرحمن مولى أم برثن [1]: حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين، قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين، لم يقوموا لنا حلب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم، حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجالٌ بيض حِسان الوجوه، فقالوا لنا: «شاهت الوجوه، ارجعوا» قال: فانهزمنا وركبوا أكتافنا، فكانت إياها.

و روى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن ابن مسعود رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فولَّى عنه الناس، وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولم نُوَلِّهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة، قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قُدُماً، فحادت بغلته فمال عن السرج، فقلت: ارتفع رفعك الله، قال: «ناولني كفاً من التراب»، فناولته قال: فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً،

(١) في الأصل: مولى ابن برثن، و التصويب من تفسير ابن جرير (١٤/ ١٨٦)، و التهذيب و غيرهما، وهو ابن آدم، تابعي صدوق.

قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك، قال: «اهتف بهم» فهتفت فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب، وولى المشركون أدبارهم، ورواه الإمام أحمد. وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نُصرتُ بالرعب، وأتيت جوامع الكلم» ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أنزلَ اللهُ سكينَتهُ على رسولِه وعلى المُؤمنينَ وأنزلَ جُنوداً لَمْ تروهَا وعَذَّبَ الَّذينَ كفرُوا وذلكَ جَزاءُ الكَافِرينَ﴾.

٢٧- وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِن بَعدِ ذَلكَ عَلَى مَن يشَاءُ واللهُ غَفُورٌ رَّحيمٌ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن، فأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيَّرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير، ما بين صبي وامرأة، فردَّه عليهم، وقسم الأموال بين الغانمين، ونَفَّل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة: مالك بن عوف النَّصْري واستعمله على قومه، كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثله   في الناس كلِّهم بمِثل محمد

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾

٢٨- أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً، بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية، وكان نزولها في سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ، وأمره أن ينادي في المشركين. أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً. وروى عبد الرزاق: عن جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: ﴿إنَّما المُشركونَ نَجَسٌ فَلا يَقربُوا المسجِدَ الحرامَ بعدَ عامِهِمْ هذَا﴾ إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة.

و قال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إنَّما المُشركونَ نَجَسٌ﴾. وقال عطاء: الحرم كله مسجد لقوله تعالى: ﴿فَلا يَقربُوا المَسجِدَ الحرامَ بعدَ عامِهِمْ هذَا﴾ ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك، كما ورد في الصحيح: «المؤمن لا ينجس». وأما نجاسة بدنه: فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، لأن الله تعالى أحلَّ طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم.

و قوله: ﴿وإنْ خِفتُمْ عَيلةً فَسوفَ يُغنيكُمُ اللهُ مِن فَضلِهِ﴾ قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا لتقطعن عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة، وليذهبن عنّا ما كنا نصيب فيها من المرافق، فأنزل الله: ﴿وإنْ خِفتُمْ عَيلةً فَسوفَ يُغنيكُمُ اللهُ مِن فَضلِه﴾ من وجهٍ غير ذلك ﴿إن شَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من

الجزية ، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: فيما يأمر به وينهى عنه، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى، ولهذا عوّضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ فهم في نفس الأمر لمّا كفروا بمحمد ﷺ، لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد الرسل، ولا بما جاءوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لوكانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً، لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، لأن جميع الأنبياء بشّروا به وأمروا باتباعه، فلما جاء كفروا به وهو أشرف الرسل، عُلم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين، لأنه من الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم أفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

و هذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعد ما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، واستقامت جزيرة العرب، أمرَ الله ورسوله بقتال أهل الكتابين: اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جدب ووقت قيظ وحر، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك فنزل بها، وأقام بها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة مَنْ يرى أنه لا تُؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من أشبههم كالمجوس، كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هَجرَ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه، و قال أبو حنيفة رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب. وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك، ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا، والله أعلم.

و قوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي: إنْ لم يسلموا ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن قهر لهم وغلبة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة، ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه». ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة، في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحي منها ما كان خططاً للمسلمين، وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحدٌ من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل مَن رأينا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم، ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقاديم رؤوسنا، وأن نلزم زيناً حيثما كنا، وأن نشد الزنانير على أوساطنا، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا، وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا بعوثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم. قال: فلما أتيت عمر بالكتاب، زاد فيه: ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقَبلنا عليه الأمان، فإنْ نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم، ووظفنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾

٣٠- وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى، لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى، فأما اليهود: فقالوا في العزير: إنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: لا مستند لهم فيما ادّعوه سوى افترائهم واختلافهم ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ أي: يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

٣١- وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق: عن عَدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عَديّ إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء

وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «بلى، إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وأحلُّوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ: «يا عدي، ما تقول؟ أيُفرُّك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يفرُّك، أيفرُّك أن يقال لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «إنَّ اليهودَ مغضوب عليهم، والنصارى ضالون».

و هكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً﴾ أي: الذي إذا حرَّم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء، والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾

٣٢- يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي: ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بدَّ أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمى الليل كافراً، لأنه يستر الأشياء، والزارع كافراً لأنه يُغطِّي الحب في الأرض، كما قال: ﴿يُعْجِبُ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾.

٣٣- ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع، ودين الحق هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زَوَى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملكُ أمتي ما زُوِي لي منها».

و روى الإمام أحمد: عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيتَ مدرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله هذا الدين، يُعزُّ عزيزاً، ويذلُّ ذليلاً، عزاً يعزه الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر» فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية.

و في المسند أيضاً: عن عدي بن حاتم سمعه يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي أسلم تسلم» فقلت: إني من أهل دين، قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقلت: أنتَ أعلم بديني مني؟ قال: «نعم، ألستَ من الرَّكوسية، وأنت تأكل مرباع قومك؟» قلت: بلى! قال: «فإنَّ هذا لا يحل لك في دينك» قال: فلم

يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم مالذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضَعَفةُ الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد سمعتُ بها، قال: «فوالذي نفسي بيده، ليتمن الله هذا الأمر، حتى تخرج الظَّعينة من الحيرة حتى تطوفَ بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليُبذلن المال حتى لا يقبله أحد» قال عدي: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنتُ فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها.

و روى مسلم: عن عائشة رضي الله قالت: سمعت رسول ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللاتَ والعزى» فقلت: يا رسول الله، إنْ كنتُ لأظن حين أنزل الله عز وجل ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**﴾ الآية أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يَبعثُ الله ريحاً طيبة، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خَير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم».

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)** ﴾

٣٤- قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، وهو كما قال، فإنَّ الأحبار: هم علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿**لَوْلاَ يَنهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ**﴾ والرهبان: عباد النصارى، و القسيسون علماؤهم، كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً**﴾. والمقصود: التحذير من علماء السوء، وعُبَّاد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: مَنْ فَسَد من علمائنا كان فيه شَبَهٌ من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى.

و في الحديث الصحيح: «لتركبنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقُذَّة» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» وفي رواية: فارس والروم؟ قال: «فمن الناس إلا هؤلاء؟» والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿**لَيَأْكُلُونَ مِنْ أَموالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ**﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين، ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرفٌ، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها، وعوضهم الذل والصغار، وباؤا بغضب من الله تعالى.

و قوله تعالى: ﴿**وَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ**﴾ أي: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون. وقوله: ﴿**وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ**

الله﴾ الآية، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال ابن المبارك:

و هل أفسد الدين إلا الملوك　　　و أحبار سوء ورهبانها

و أما الكنز: فروى مالك عن ابن عمر: هو المال لا تؤدى زكاته، وروى الثوري وغيره عنه قال: ما أُدي زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز. وقد روي هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً، وقال عمر بن الخطاب نحوه، وروى البخاري: عن خالد ابن أسلم قال: خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال، وكذا قال عمر بن عبدالعزيز وعراك بن مالك: نسخها قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية.

و قد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة، وذم التكثرمنهما، أحاديث كثيرة، ولنورد منها هنا طرفاً يدل على الباقي.

روى الإمام أحمد: عن ثوبان قال: لما نزل في الذهب والفضة ما نزل. قالوا: فأي المال نتخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك، فأوضع على بعير فأدركه وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله، أي المال نتخذ؟ قال: «قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تُعين أحدكم على أمر الآخرة» ورواه الترمذي وابن ماجه.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر فنزل منزلاً فقال لغلامه: ائتنا بالشفرة نعبث بها، فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت، إلا وأنا أخطمها وأزمها، غير كلمتي هذه فلا تحفظوها علي، واحفظوا ما أقول لكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كَنَزَ الناس الذهب والفضة، فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ أي: يقال لهم هذا الكلام تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً، كما في قوله: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۞ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي: هذا بذاك، وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم، ولهذا يقال: مَنْ أحبَّ شيئاً وقدَّمه على طاعة الله عُذِّب به، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم، عُذِّبوا بها، كما كان أبولهب لعنه الله جاهداً في عداوة رسول الله ﷺ وامرأته تعينه في ذلك، كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضاً، في جيدها، أي: عُنُقها ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: تجمع من الحطب في النار، وتُلقي عليه ليكون ذلك أبلغ في عذابه، ممن هو أشفق عليه في الدنيا، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأموال على أربابها، كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحمى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرها، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. روى سفيان عن عبد الله بن مسعود: والذي لا إله غيره لا يكوى عبد بكنزٍ فيمس دينار ديناراً، ولا درهم درهماً، ولكن يوسَّع جلده، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته. وقد رواه ابن مردويه عن أبي هريرةمرفوعاً، ولا يصح رفعه، والله أعلم.

و روى الإمام أبو جعفر بن جرير: عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول: «مَن تَرَكَ بعده كنزاً مُثِّل له يوم

القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يتبعه ويقول: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزُك الذي تركته بعدك، ولا يزال يتبعه حتى يُلقمه يده فَيَقضمها ثم يتبعها سائر جسده» ورواه ابن حبان، وأصل هذا الحديث في الصحيحين.

و في صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجلٍ لا يُؤدي زكاة ماله، إلا جُعل له يوم القيامة صفائح من نار، فَيُكوى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر تمام الحديث.

و روى البخاري في تفسير هذه الآية: عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالربذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام فقرأت ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فقال معاوية: ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: فقلت: إنها لفينا وفيهم، ورواه ابن جرير فذكره، وزاد: فارتفع في ذلك بيني وبينه القول، فكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليّ عثمان أنْ أُقبل إليه، قال: فأقبلت إليه، فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ، فشكوت ذلك إلى عثمان، فقال: لي تنح قريباً، قلت: والله لن أدع ما كنتُ أقول.

(قلت): كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يُفتي بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ في خلافه، فنهاه معاوية فلم ينته، فخشي أن يضر بالناس في هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذة وحده، وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله، فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذي أتاه بها، فقال: إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب، فقال: ويحك إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به.

و هكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها عامة، وقال السدي: هي في أهل القبلة.

و قال الأحنف بن قيس: قدمت المدينة فبينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش، إذ جاء رجل أخشن الثياب، أخشن الجسد، أخشن الوجه، فقام عليهم فقال: بشِّر الكنازين برضف يحمى عليه في نار جهنم، فيوضع على حَلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ كتفه، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل، فوضع القوم رؤسهم فما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً، قال: وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية، فقلت: ما رأيتُ هؤلاء إلا كرهوا ما قلتَ لهم، فقال: إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً.

و في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «ما يَسرُّني أن عندي مثل أحدٍ ذهباً، يمر على ثلاثة أيام وعندي منه شيء، إلا دينار أرصده لدين». فهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي حَدَا بأبي ذر على القول بهذا.

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية، فجعلت تقضي حوائجه ففضلتْ معها سبعة، فأمرها أن تشتري به فلوساً، قال: قلت: لو ادخرته للحاجة تنوبك وللضيف ينزل بك؛ قال: إن خليلي عَهِدَ إلي أن أيما ذهبٍ أو فضةٍ أُوكئ عليه فهو جمرٌ على صاحبه، حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل. وزاد (في رواية) إفراغاً.

و روى الإمام أحمد: عن أبي أمامة صدى بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصُّفَّة فوُجِد في مئزره دينار، فقال رسول الله: «كية» ثم توفى رجل آخر، فوجد في مئزره ديناران، فقال رسول الله ﷺ: «كيتان» (١).

و قال ابن أبي حاتم: عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: «ما من رجلٍ يموت وعنده أحمر أو أبيض، إلا جَعل الله بكل قيراطٍ صفحةً من نار، يُكوى بها من قدمه إلى ذقنه».

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾

٣٦- روى الإمام أحمد: عن أبي بكرة: أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «ألا إنَّ الزمانَ قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مُضر الذي بين جمادى وشعبان» ثم قال: «ألا أي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكتَ حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذاالحجة؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم وأموالكم ـ وأحسبه قال ـ وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمةِ يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلاَّلاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ ألا ليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائب، فلعل مَن يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه» رواه البخاري في التفسير وغيره ومسلم.

و قوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» تقريرٌ منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيتٌ للأمر على ما جعله الله في أول الأمر، من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسئ ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حَرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة» وهكذا قال هنا: «إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض».

و قد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث: إن المراد بقوله: «قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض» أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء، يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة. وفي هذا نظر، كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء.

و قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم «البَسْل» كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقاً وتشديداً، وأما قوله: «ثلاثة متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما تظنه ربيعة من أنَّ رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبيَّن ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل أشهر الحج شهراً

(١) قال العلماء: هذا من التشديد على المدين إذا لم يُرد الوفاء، و عدم صلاة الفاضل عليه.

وهو ذو القعدة، لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرَّم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج، ويشتغلون بأداء المناسك، وحرَّم بعده شهراً آخر وهو المحرم، ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرَّم رجب في وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتمار به، لمن يَقْدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

و قوله: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحذو بها على ما سبق من كتاب الله الأول، قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: في هذه الأشهر المحرمة، لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام، ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قَتَل في الحرم أو قتل ذا محرم.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ﴾ الآية، فلا تظلموا فيهن أنفسكم في كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حراماً، وعظَّم حرماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم. وقال قتادة: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها، وإنْ كان الظلم على كل حال عظيماً، و لكن الله يُعظِّم من أمره ما يشاء. وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه: اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً، واصطفى من الكلام ذِكْره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر، فعظِّموا ما عظَّم الله، فإنما تعظم الأمور ما عظَّمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل.

و قال محمد بن إسحاق ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تجعلوا حرامها حلالاً، ولا حلالها حراماً، كما فعل أهل الشرك، فإنما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك زيادة في الكفر ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، وهذا القول اختيار ابن جرير.

و قوله: ﴿و قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أي: جميعكم ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ أي: جميعهم ﴿وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام، هل هو منسوخ أو محكم؟ على قولين: (أحدهما): وهو الأشهر: أنه منسوخ، لأنه تعالى قال ههنا: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً، ولو كان محرماً في الشهر الحرام، لأوشك أن يقيده بانسلاخها، ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة، كما ثبت في الصحيحين: أنه خرج إلى هوازن في شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم، ورجع فَلُّهم، لجؤوا إلى الطائف، فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً وانصرف ولم يفتتحها، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام.

و القول الآخر: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام، وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام، لقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ وقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَ الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وقال: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، وقد تقدم أنها الأربعة المقررة في كل سنة، لا أشهر التسيير على أحد القولين.

و أما قوله تعالى: ﴿وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه

حكم مستأنف، ويكون من باب التهييج والتحضيض، أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم، فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام، إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿الشَّهرُ الحرامُ بالشَّهر الحرام والحُرماتُ قِصاص﴾ وقال تعالى: ﴿وَ لا تُقاتلوهُمْ عندَ المسجدِ الحرام حتَّى يُقاتلوكُمْ فيه فإن قاتَلوكُمْ فاقتُلوهُمْ﴾ الآية.

و هكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدءوا القتال، وجمعوا الرجال، ودعوا إلى الحرب والنزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً، وكان ابتداؤه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ثم قفل عنهم، لأنه يُغتفر في الدوام مالا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرر، وله نظائر كثيرة، والله أعلم.

ولنذكر الأحاديث الواردة في ذلك(١).

و قد حررنا ذلك في السيرة، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)﴾

٣٧- هذا مما ذم الله تعالى به المشركين، من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة الغَضَبية والشهامية والحمية، ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم، المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم، فأخروه إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال، ليواطئوا عدة ما حرَّم الله: الأشهر الأربعة.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: النسيء: أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يُوافي الموسم في كل عام، وكان يكني أبا ثمامة فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال فيحلّه للناس، فيحرم صفراً عاماً، ويحرم المحرم عاماً، فذلك قول الله: ﴿إنَّمَا النَّسيءُ زِيادةٌ في الكُفرِ﴾ يقول: يتركون المحرم عاماً، وعاماً يحرمونه. وروى العوفي عن ابن عباس نحوه.

و قد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة كلاماً جيداً مفيداً حسناً، فقال: كان أول من نَسَأَ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله عز وجل: القَلَمَّس، وهو: حذيفة بن عبد فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك... فكانت العرب إذا فرغت من حجها، اجتمعت إليه فقام فيهم خطيباً، فحرَّم رجباً وذا القعدة وذا الحجة، ويحل المحرم عاماً، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرَّم الله، فيحل ما حرَّم الله، يعني ويحرم ما أحل الله. والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ

(١) لم يذكر المصنف رحمه الله الأحاديث التي وعد بها!

الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾

٣٨- هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، حين طابت الثمار والظلال، في شدة الحر وحمارة القيظ، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾ أي: إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿اثاقلتم إلى الأرض﴾ أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض، وطيب الثمار ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ أي: مالكم فعلتم هكذا؟ أرضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة، ثم زهَّد تبارك وتعالى في الدنيا، ورغَّب في الآخرة، فقال: ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ كما روى الإمام أحمد: عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة، إلا كما يَجعلُ أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع؟» وأشار بالسبابة، انفرد بإخراجه مسلم. فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل. وقال الأعمش: ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ قال: كزاد الراكب. وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة، قال: ائتوني بكفني الذي أُكفن فيه أنظر إليه، فلما وُضع بين يديه نظر إليه، فقال: أمالي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولّى ظهره فبكى وهو يقول: أف لك من دار، إنْ كان كثيرك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك في غرور.

٣٩- ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ أي: لنصرة نبيه، وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾.

﴿ولا تضروه شيئاً﴾ أي: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتثاقلكم عنه ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

و قد قيل: إن هذه الآية وقوله: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وقوله: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ أنهن منسوخات بقوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم، ورده ابن جرير، وقال: إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، فتعين عليهم ذلك، فلو تركوه لعوقبوا عليه، وهذا له اتجاه، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾

٤٠- يقول تعالى: ﴿إلا تنصروه﴾ أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين﴾ أي: عام الهجرة، لما همَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه،

فخرج منهم هارباً، صحبة صدّيقه وصديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام، ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثار، ثم يسيروا نحو المدينة، فجعل أبوبكر رضي الله عنه يجزع أن يطلع عليهم، فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يسكّنه ويثبته، و يقول: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما». كما روى الإمام أحمد: عن أنس: أن أبابكر حدَّثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، قال: فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» أخرجاه في الصحيحين.

و لهذا قال تعالى: ﴿فأنزلَ اللهُ سكينَتهُ علَيهِ﴾ أي: تأييده ونصره عليه، أي: على الرسول ﷺ، في أشهر القولين، وقيل: على أبي بكر، وروى عن ابن عباس وغيره قال: لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة. وهذا لا ينافي تجدُّد سكينة خاصة بتلك الحال، ولهذا قال: ﴿وَ أيّدهُ بجُنودٍ لَّمْ تَروهَا﴾ أي: الملائكة ﴿وَ جعلَ كَلمةَ الذينَ كفَروا السُّفْلَى وَ كلمةُ اللهِ هيَ العُلْيَا﴾ قال ابن عباس: يعني بكلمة الذين كفروا: الشِّرك، وكلمة الله هي: لا إله إلا الله.

و في الصحيحين: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله فهو في سبيل الله». وقوله: ﴿و اللهُ عزيزٌ﴾ أي: في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب لا يضام مَن لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿حَكيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾

٤١- أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله، من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال، في المنشط والمكره، والعسر واليسر، فقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾. وعن أنس: قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدُوا بأموالكمْ وأنفُسكمْ في سبيلِ اللهِ﴾ فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً، جهِّزوني يَا بنِيَّ، فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى فركب البحرفمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها، إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير فدفنوه فيها[1]. وهكذا روى عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح والحسن البصري وسهيل بن عطية ومقاتل ابن حيان والشعبي وزيد بن أسلم، أنهم قالوا: في تفسير هذه الآية ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ كهولاً وشباناً، وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغير واحد، وقال مجاهد: شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين، وكذا قال أبو صالح وغيره، وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضا: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

و قال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر، الناس إليها خفافاً وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل، نفر إليها خفافاً وثقالاً وركباناً ومشاة. وهذا تفصيل في المسألة، وقد روى عن

(١) حديث صحيح، رواه أحمد في الزهد (٢٥٠، ٢٥١) و ابن سعد (٣/ ٥٠٧) و الحاكم (٣/ ٣٥٣) و قال: صحيح على شرط مسلم.

ابن عباس ومحمد بن كعب وعطاء الخراساني وغيرهم: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله.

و روى ابن جرير عن محمد قال: شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدراً، ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عاماً واحداً، قال: وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً. وروى ابن جرير: عن أبي راشد الحبراني قال: وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عِظَمه يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك فقال: أتت علينا سورة البعوث[1] ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾.

ثم رغَّب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، لأنكم تَغرمون في النفقة قليلاً، فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ: «تكفَّل الله للمجاهد في سبيله إنْ توفاه، أن يُدخله الجنة، أو يَرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة»[2]، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كُتب عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

و من هذا القبيل: ما رواه الإمام أحمد: عن أنس عن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسْلم»، قال: أجدني كارهاً، قال: «أسلم ولو كنتَ كارهاً».

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)﴾

٤٢- يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا بعد ما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي: قريباً أيضاً ﴿لاتبعوك﴾ أي: لكانوا جاءوا معك لذلك، ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أي: المسافة إلى الشام ﴿وسيحلفون بالله﴾ أي: لكم إذا رجعتم إليهم ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي: لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم. قال الله تعالى: ﴿يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)﴾

٤٣- روى ابن أبي حاتم: عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة، فقال: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ وكذا قال مورق العجلي وغيره. وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إنْ شاء، فقال: ﴿فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾ الآية. وكذا روى عن عطاء الخراساني، وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا

(١) في ابن جرير (١٤/ ٢٦٨): البحوث، و انظر التعليق عليه.
(٢) الحديث في الصحيحين.

رسول الله ﷺ فإنْ أذن لكم فاقعدوا ، وإنْ لم يأذن لكم فاقعدوا ، ولهذا قال تعالى : ﴿حتَّى يَتبيَّنَ لكَ الذينَ صَدَقُوا﴾ أي : في إبداء الأعذار ﴿و تعلمَ الكاذِبِينَ﴾ يقول تعالى : هلا تركتهم لما استأذنوك ، فلم تأذن لأحد منهم في القعود ، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو ، وإنْ لم تأذن لهم فيه .

٤٤- ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو ، أحدٌ يؤمن بالله ورسوله ، فقال : ﴿لاَ يَستأذِنُكَ﴾ أي : في القعود عن الغزو ﴿الذينَ يؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ أن يُجاهِدُوا بأموالهمْ وأنفسهمْ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿و اللهُ عليمٌ بالمتقِينَ ❁ إنَّما يَستأذِنُكَ﴾ أي : في القعود ممن لا عذر له ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي : لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿وارتابتْ قلوبُهمْ﴾ أي : شكت في صحة ما جئتهم به ﴿فهمْ في رَيبِهمْ يتردَّدونَ﴾ أي : يتحيرون ، يُقدِّمون رجلاً ويؤخرون أخرى ، وليست لهم قدمٌ ثابتة في شيء ، فهم قومٌ حيارى هلكى ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً .

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾

٤٦- يقول تعالى : ﴿وَ لو أرادُوا الخُروجَ﴾ أي : معك إلى الغزو ﴿لأعَدُّوا لهُ عُدَّةً﴾ أي : لكانوا تأهبوا له ﴿ولَكِن كرِهَ اللهُ انبعاثَهمْ﴾ أي : أبغض أن يخرجوا معكم قدراً ﴿فَثَبَّطَهمْ﴾ أي : أخَّرهم ﴿وَ قيلَ اقعُدوا مَعَ القاعِدينَ﴾ أي : قدراً .

٤٧- ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين ، فقال : ﴿لوْ خرجُوا فيكُم مَّا زادُوكُمْ إلاَّ خَبالاً﴾ أي : لأنهم جبناء مخذولون ﴿وَ لأوْضعُوا خِلالَكمْ يبغُونكُمُ الفِتنَةَ﴾ أي : ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿وَ فيكُمْ سَمَّاعونَ لهمْ﴾ أي : مطيعون لهم ، ومستجيبون لحديثهم وكلامهم ، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدي إلى وقوع شرٍّ بين المؤمنين ، وفساد كبير . وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير ﴿وَ فيكُمْ سَمَّاعونَ لهمْ﴾ أي : عيون يسمعون لهم الأخبار ، وينقلونها إليهم . وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عامٌ في جميع الأحوال .

و المعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق ، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين .

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه ، فقال : ﴿وَ اللهُ عليمٌ بالظَّالِمينَ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون ، ومالم يكن لو كان كيف كان يكون ، ولهذا قال تعالى : ﴿لو خَرجُوا فيكُم مَّا زادُوكمْ إلاَّ خَبالاً﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ، ومع هذا ما خرجوا ، كما قال تعالى : ﴿وَلو رُدُّوا لعادُوا لما نُهُوا عنهُ وإنَّهمْ لكاذِبونَ﴾ وقال تعالى : ﴿ولو علمَ اللهُ فيهمْ خيراً لأسمَعَهمْ ولوْ أسمعهمْ لتولَّوا وَّهُم مُّعرِضُونَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَ لوْ أنَّا كتَبْنَا عليهِمْ أنِ اقتلُوا أنفسكمْ أو اخرجُوا مِن دِيارِكُم مَّا فَعلوهُ إلاَّ قليلٌ مِّنهمْ ولو أنَّهمْ فعلُوا مَا يُوعظونَ لهُ لكانَ خيراً لَّهمْ وأشدَّ تثبِيتاً ❁ وإذاً لآتيناهُم مِّن لَّدُنَّا أجْراً عظيماً ❁ ولهَديناهُمْ صِراطاً مُّستقِيماً﴾ والآيات في هذا

كثيرة.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨)﴾

٤٨- يقول تعالى مُحرِّضاً لنبيه ﷺ على المنافقين **﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور﴾** أي: لقد أعملوا فكرهم، وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك، وخذلان دينك وإخماده، مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة، رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نَصَره الله يوم بدر، وأعلا كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمرٌ قد توجَّه، فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله، غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: **﴿حَتَّى جاءَ الحقُّ وظهرَ أمرُ اللهِ وهمْ كارهونَ﴾**.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾

٤٩- يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك يا محمد **﴿ائْذَن لِّي﴾** في القعود **﴿ولاَ تفتِنِّي﴾** بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم. قال الله تعالى: **﴿ألاَ في الفتنةِ سقطُوا﴾** أي: قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا، كما قال محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة «هل لك يا جدُّ العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فو الله لقد عَرَف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنتُ لك» ففي الجد بن قيس نزلت هذه **﴿و مِنهم مَّن يقولُ ائذَن لِّي ولاَ تفتنِّي﴾** الآية.

أي: إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم. وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجد ابن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة. وفي الصحيح[1]: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجدُّ بن قيس، على إنا نُبخّله. فقال رسول الله ﷺ: «و أي داءٍ أدوأُ من البخل! ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض: بشر بن البراء بن معرور».

و قوله تعالى: **﴿و إنَّ جهنَّمَ لمُحيطةٌ بالكافِرينَ﴾** أي: لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾

٥٠- يُعْلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له، لأنه مهما أصابه من حسنة، أي: فتحٌ ونصر وظفر على الأعداء، مما يسره ويسر أصحابه، ساءهم ذلك **﴿و إن تُصبكَ مُصيبةٌ يَقولُوا قدْ أخذْنا أمرَنا مِن قبلُ﴾** أي:

---

(١) الحديث ليس في الصحيح! و إنما رواه الحاكم (٣/ ٢١٩) و أبو الشيخ في الأمثال (٩٤) و غيرهما بسند حسن. و له شاهد من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب مرسلاً، رواه يعقوب بن سفيان في تاريخه، و أبو الشيخ أيضاً. و له طرق و شواهد غير ما ذكرنا، راجع الإصابة (١/ ١٥٥). و لعل قد اشتبه على المصنف حديث جابر الذي رواه البخاري في الخمس (٦/ ٢٣٦) و في المغازي (٨/ ٩٥) لما سأل أبا بكر ثلاثاً ثم قال: إما أن تعطيني و إما أن تبخل عني، قال أبو بكر: قلتَ تبخل عني؟ و أي داء أدوأ من البخل..؟

قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿وَ يتولوا وَّهُمْ فَرِحونَ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿قُل﴾ أي: لهم ﴿لَّن يُصيبَنا إلاَّ مَا كَتبَ اللهُ لَنا﴾ أي: نحن تحت مشيئته وقدره ﴿وهوَ مولاَنَا﴾ أي: سيدنا وملجؤنا ﴿وَ علَى اللهِ فليتَوكَّلِ المُؤمنونَ﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) ﴾

٥٢- يقول تعالى: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿هَلْ تَرَبَّصونَ بِنا﴾ أي: تنتظرون بنا ﴿إلا إحدى الحُسنيَين﴾ شهادة أو ظَفرٌ بكم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم. ﴿و نحنُ نتربصُ بكمْ﴾ أي: ننتظر بكم ﴿أن يُصيبَكم اللهُ بعذابٍ مِّنْ عِندِهِ أوْ بأيدِينَا﴾ أي: ننتظر بكم هذا أو هذا، إما ﴿أن يُصيبَكُم اللهُ بعذابٍ مِّن عندِهِ أوْ بأيدِينا﴾ بسبي أو بقتل ﴿فتربَّصُوا إنَّا معكم مُّتربِّصونَ﴾.

٥٣- وقوله تعالى: ﴿قلْ أنفقوا طوعاً أو كَرهاً﴾ أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَن يَتقبَّلَ منكمْ إنَّكمْ كُنتمْ قوماً فَاسقينَ﴾.

٥٤- ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم، لأنهم ﴿كفروا بالله وبرسوله﴾ أي: والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿وَ لاَ يأتونَ الصَّلاةَ إلاَّ وهمْ كُسالى﴾ أي: ليس لهم قَدَم صحيح، ولا هِمَّةَ في العمل ﴿ولاَ يُنفِقونَ﴾ نفقة ﴿إلاَّ وهمْ كارهونَ﴾ وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ «أن الله لا يَملُّ حتى تملُّوا»[1] و «أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»[2] فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة، ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾

٥٥- يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿فلاَ تُعجبْكَ أموالهمْ ولا أولادُهمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿و لاَ تمدنَّ عينيْكَ إلىَ ما متَّعنا بهِ أزواجاً مِّنهمْ زَهرةَ الحياةِ الدُّنيا لنَفتِنهمْ فيهِ ورزقُ ربِّكَ خيرٌ وأبْقَى﴾ وقال: ﴿أيحسَبونَ أنَّ مَا نُمدُّهم بهِ من مالٍ وبنينَ ۞ نُسارعُ لهم في الخيراتِ بَل لاَّ يشعرونَ﴾.

و قوله: ﴿إنَّما يريدُ اللهُ ليعذِّبهم بها في الحياةِ الدُّنيا﴾ قال الحسن البصري: بزكاتها، والنفقة منها في سبيل الله، وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القولُ القوي الحسن.

و قوله: ﴿وتزهقَ أنفسُهم وهمْ كافرونَ﴾ أي: ويُريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر، ليكون ذلك أنكى لهم، وأشد لعذابهم، عياذاً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٠١)، (٣/ ٣٦) و مسلم (١/ ٥٤٢).

(٢) رواه مسلم في الزكاة (٢/ ٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) ﴾

٥٦- يخبر الله تعالى نبيهﷺ عن جزعهم وفزعهم، وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿يحلِفونَ باللهِ إنّهمْ لَمِنكُمْ﴾ يميناً مؤكدة ﴿وما هُم مِّنكمْ﴾ أي: في نفس الأمر ﴿وَلكنّهمْ قومٌ يَفرَقُونَ﴾ أي: فهو الذي حَمَلهم على الحلف.

٥٧- ﴿لَوْ يجدونَ مَلجأً﴾ أي: حصناً يتحصنون به، وحرزاً يتحرزون به ﴿أو مَغاراتٍ﴾ وهي التي في الجبال ﴿أو مُدّخلاً﴾ وهو السَّرَب في الأرض والنفق. قال ذلك في الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿لَولّوا إليهِ وَهُم يَجمَحُونَ﴾ أي: يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة، وودوا أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم، لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة، فلهذا كلما سرَّ المسلمون ساءهم ذلك، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين، ولهذا قال: ﴿لَوْ يَجدونَ مَلجأً أو مَغاراتٍ أو مُدّخلاً لَولّوا إليهِ وَهُم يَجمَحُونَ﴾.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) ﴾

٥٨- يقول تعالى ﴿وَمنهمْ﴾ أي: ومن المنافقين ﴿مَن يلمِزكَ﴾ أي: يعيب عليك ﴿في﴾ قسم ﴿الصّدَقاتِ﴾ إذا فرقتها ويتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم، ولهذا إن أعطوا من الزكاة رضوا ﴿وإن لّم يُعطَوا منها إذَا هُم يَسخَطونَ﴾ أي: يغضبون لأنفسهم، وقال قتادة: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات. وهذا الذي ذكره قتادة، يشبه ما رواه الشيخان من حديث أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة ـ واسمه حرقوص ـ لما اعترض على النبيﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل! فقال: «لقد خبتُ وخسرت إن لم أكن أعدل» ثم قال رسول اللهﷺ وقد رآه مقفياً: «إنه يخرجُ من ضِئضِئ هذا قومٌ، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدِّين مروق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شرُ قتلى تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث.

٥٩- ثم قال تعالى منبهاً لهم، على ما هو خير لهم من ذلك، فقال: ﴿وَلَوْ أنّهمْ رَضُوا مَا آتاهُمُ اللهُ ورسُولُه وقالُوا حَسبُنا اللهُ سَيُؤتِينا اللهُ مِن فضلِه ورسولِه إنّا إلَى اللهِ راغِبونَ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً، وسراً شريفاً، حيث جَعَل الرضا بما آتاه الله ورسوله، والتوكل على الله وحده. وهو قوله ﴿قالُوا حَسبُنا اللهُ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده، في التوفيق لطاعة الرسولﷺ، وامتثال أوامره، وترك زواجره، وتصديق أخباره، والاقتفاء بآثاره.

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾

٦٠- لمَّا ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبيﷺ، ولمزهم إياه في قسم الصدقات، بيَّنَ تعالى أنه هو الذي قسمها، وبيَّن حكمها، وتولَّى أمرها بنفسه، ولم يكل قَسْمها إلى أحد غيره، فجزَّأها لهؤلاء المذكورين.

و قد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية: هل يجب استيعاب الدفع إليها، أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين: **(أحدهما)** أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة **(و الثاني)** أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويُعطَى جميع الصدقة مع وجود الباقين. وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم: عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران، قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذُكرتْ الأصناف ههنا لبيان المصرف، لا لوجوب استيعاب الإعطاء، ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا، والله أعلم.

و إنما قدَّم الفقراء ههنا على البقية، لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور، ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة: أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، والجمهور على خلافه، وروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحد: أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف يتبع الناس، وقال قتادة: الفقير مَن به زمانة، والمسكين الصحيح الجسم.

و لنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية، فأما الفقراء: فعن ابن عمر قال: قال رسول اللهﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّةٍ سَوي» رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وعن أبي هريرة مثله.

و عن عبيد الله بن عدي بن الخيار: أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبيﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيهما البصر فرآهما جلدين فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب» رواه أحمد وأبوداود والنسائي بإسناد جيد قوي. و أما المساكين: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول اللهﷺ قال: «ليس المسكينُ بهذا الطوَّاف الذي يطوف على الناس، فتردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غِنىً يُغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً» رواه الشيخان.

و أما العاملون عليها: فهم الجباة والسعاة، يستحقون منها قسطاً على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول اللهﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة، لما ثبت في صحيح مسلم: عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث: أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسو اللهﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحلُّ لمحمدٍ ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس».

و أما المؤلفة قلوبهم فأقسام: منهم مَن يُعطى ليُسلم، كما أعطى النبيﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركاً، قال: فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إليَّ بعد أن كان أبغض الناس إلي، كما روى الإمام أحمد: عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول اللهﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما زال يُعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي. ورواه مسلم والترمذي. ومنهم مَن يُعطى ليحسن إسلامه، ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة، من صناديد الطلقاء وأشرافهم: مائة من الإبل، مائة من

الإبل، وقال: «إني لأعطي الرجلَ وغيره أحبُّ إليَّ منه، خشية أنْ يكبه الله على وجهه في نار جهنم».

و في الصحيحين: عن أبي سعيد أن علياً بعث إلى النبيﷺ بذُهيبة في تُربتها من اليمن، فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: «أتألفهم». ومنهم مَن يُعطى لما يُرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يُعطى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

و هل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبيﷺ؟ فيه خلاف، فروي عن عمر وعامر الشعبي وجماعة، أنهم: لا يعطون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله، ومكّن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد. وقال آخرون: بل يعطون، لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم.

و أما الرقاب: فروي عن الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد أنهم المكاتبون، وروى عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما. وقال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة. وهو مذهب أحمد ومالك وإسحاق، أي: أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشترى رقبة فيعتقها استقلالاً، و قد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها، حتى الفرج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل ﴿و ما تُجزَونَ إلاَّ ما كُنتُمْ تَعملونَ﴾. وعن أبي هريرةرضي الله عنه أن النبيﷺ قال: «ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يُريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف» رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود.

و في المسند: عن البراء بن عازب، قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله دُلّني على عمل يقربني من الجنة، ويباعدني من النار، فقال: «أعتق النَّسمة، وفك الرقبة» فقال: يا رسول الله أوليسا واحداً؟ قال: «لا، عتقُ النسمة أن تَفرَّدَ بعتقها، وفكُّ الرقبة أن تعين في ثمنها».

و أما الغارمون: فهم أقسام: فمنهم من تحمَّل حمالةً، أو ضمن ديناً فلزمه، فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه، أو في معصيةٍ ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم، والأصل في هذا الباب: حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحمَّلت حمالة فأتيت رسول اللهﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» قال: ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجلٌ تحمَّل حمالة فحَلَّت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحتْ ماله، فحلت له المسألة حتى يُصيب قواماً من عيش، أو قال: سداداً من عيش، ورجل أصابته فَاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قرابة قومه، فيقولون: لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال سداداً من عيش، فما سواهن من المسألة، سُحتٌ يأكلها صاحبها سحتاً» رواه مسلم.

و عن أبي سعيد قال: أُصيب رجل في عهد رسول اللهﷺ في ثمار ابتاعها، فكثر دينه، فقال النبي: «تصدَّقوا عليه» فتصدق الناس عليه، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبيﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك» رواه مسلم.

و أما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق: والحج من سبيل الله، للحديث، وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلدٍ، ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيُعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده، وإنْ كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أنشأ سفراً من بلده، وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه: من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني، إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجلٍ اشتراها بماله، أو غارمٍ، أو غازٍ في سبيل الله، أو مسكينٍ تُصدِّقُ عليه منها فأهدى لغني».

و قوله: ﴿فريضةً مِّن اللهِ﴾ أي: حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿والله عليمٌ حكيمٌ﴾ أي: عليم بظواهر الأمور وبواطنها، وبمصالح عباده ﴿حكيم﴾ فيما يقوله ويفعله ويشرعه، ويحكم به لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)﴾

٦١- يقول تعالى: ومن المنافقين قومٌ يؤذنون رسول الله ﷺ بالكلام فيه، ويقولون: ﴿هو أُذنٌ﴾ أي: من قال له شيئاً صدَّقه فينا، ومن حدثه صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا. روى معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قل أُذنُ خيرٍ لّكمْ﴾ أي: هو أُذنُ خيرٍ يعرف الصادق من الكاذب ﴿يُؤمنُ باللهِ ويُؤمنُ للمؤمنينَ﴾ أي: ويصدق المؤمنين ﴿ورحمةٌ للذينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أي: وهو حجة على الكافرين، ولهذا قال: ﴿والذينَ يُؤذونَ رسولَ اللهِ لهمْ عذابٌ أليمٌ﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)﴾

٦٢- قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يحلفونَ باللهِ لكمْ ليُرضُوكمْ﴾ الآية. قال: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير، قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار. قال فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدِّق الصادق وكذِّب الكاذب، فأنزل الله الآية [1].

٦٣- وقوله تعالى: ﴿ألمْ يعلمُوا أنّه مَن يُحادِدِ اللهَ ورسولَه﴾ الآية، أي: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عز وجل، أي: شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حد، والله ورسوله في حد ﴿فأنَّ لهُ نارَ جهنَّمَ خالداً فيها﴾ أي: مهاناً معذباً و﴿ذلكَ الخزيُ العظيمُ﴾ أي: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

---

(١) أخرجه عنه ابن جرير (١٤/ ٣٢٩) بإسناد حسن، و أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٦) عن أسباط عن السدي. و أسباط هو ابن نصر فيه ضعف، و لم أره مرفوعاً، و الله أعلم. و عزاه السيوطي في الدرر المنثور (٤/ ٢٢٨) لابن المنذر.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) ﴾

٦٤- قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا سرنا هذا. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وإذا جاءوك حيّوك بما لم يُحيّك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يُعذّبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾ وقال في هذه الآية: ﴿قل استهزؤا إنّ الله مُخرجٌ مّا تحذرون﴾ أي: إنّ سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم، كقوله تعالى: ﴿أم حسِبَ الذين في قلوبهم مرضٌ أن لّن يُخرجَ اللهُ أضغانَهم﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ولتعرفنّهم في لحنِ القول﴾ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة: الفاضحة، فاضحة المنافقين.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) ﴾

٦٥- روى عبد الله بن وهب: عن عبد الله بن عمر قال: قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المسجد: كذبتَ، ولكنك منافق، لأخبرنّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، فقال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقاً بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ تَنكُبُه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟﴾ الآية. وقد رواه الليث بنحو من هذا.

و قوله: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي: بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إن نّعفُ عن طائفة مّنكم نُعذّبْ طائفة﴾ أي: لا يُعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بأنهم كانوا مجرمين﴾ بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) ﴾

٦٧- يقول تعالى منكراً على المنافقين، الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم﴾ أي: عن الإنفاق في سبيل الله ﴿نسوا الله﴾ أي: نسوا ذكر الله ﴿فنسيهم﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿فاليومَ ننساكمْ كما نسيتُم لقاءَ يومِكمْ هذا﴾.

﴿إنّ المنافقينَ هُم الفاسِقونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة.

٦٨- وقوله: ﴿وعدَ اللهُ المُنافقينَ والمنافقاتِ والكُفّارَ نارَ جهنّمَ﴾ أي: على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿خالدينَ فيها﴾ أي: ماكثين فيها مخلدين هم والكفار ﴿هيَ حسبُهم﴾ أي: كفايتهم في العذاب ﴿ولعنهم اللهُ﴾ أي: طردهم وأبعدهم ﴿ولهُمْ عذابٌ مُّقيمٌ﴾.

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) ﴾

٦٩- يقول تعالى أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، كما أصاب من قبلهم، وقوله: ﴿بِخَلَاقِهِمْ﴾ قال الحسن: بدينهم. وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: في الكذب والباطل ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها، لأنها فاسدة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب.

روى ابن جرير: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتتبعُنَّ سَنَن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً بباع، حتى لو دخلوا جحرَ ضب لدخلتموه» قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب، قال: «فمن». وهذا الحديث له شاهد في الصحيح(١).

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾

٧٠- يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ألم تخبروا خبر مَنْ كان قبلكم، من الأمم المكذبة للرسل ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام ﴿وَعَادٍ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذّبوا هوداً عليه السلام ﴿وَثَمُودَ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام، وعقروا الناقة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كيف نَصَره الله عليهم، وأيّده بالمعجزات الظاهرة عليهم، وأهلك ملكهم نمروذ بن كنعان بن كوش الكنعاني لعنه الله ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة والصيحة، وعذاب يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قوم لوط، وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال في الآية الأخرى ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ أي: الأمة المؤتفكة. وقيل: أم قراهم، وهي: سدوم. والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل القاطعات ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: بإهلاكه إياهم، لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل، وإزاحة العلل.

﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾

٧١- لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال:

---

(١) رواه البخاري في الاعتصام (١٣/ ٣٠٠) من حديث أبي هريرة و أبي سعيد رضي الله عنها. و رواه مسلم في العلم (٤/ ٢٠٥٤) من حديث أبي سعيد.

﴿والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهمْ أولياءُ بعضٍ﴾ أي: يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبَّك بين أصابعه، وفي الصحيح أيضاً: «مثل المؤمنين في تَوادِّهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

و قوله: ﴿يأمرونَ بالمعروفِ وينهَونَ عَنِ المُنكَرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَ لتكُن مِّنكم أُمَّةٌ يَدْعونَ إِلَى الْخَيرِ ويَأمرونَ بالمعروفِ وينهَونَ عَنِ المُنكَرِ﴾ الآية. وقوله: ﴿و يُقيمونَ الصلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ﴾ أي: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿و يُطيعونَ اللهَ ورسولَه﴾ أي: فيما أَمَرَ، وترك ما عنه زجر ﴿أولئكَ سَيَرْحمُهمُ اللهُ﴾ من اتصف بهذه الصفات. ﴿إنَّ اللهَ عزيزٌ﴾ أي: يعز من أطاعه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حكيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾

٧٢- يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات، من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿جناتٍ تجري مِن تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها﴾ أي: ماكثين فيها أبداً ﴿و مساكنَ طيِّبةً﴾ أي: حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين: من حديث أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أنْ يَنظروا إلى ربهم، إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

و به قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤةٍ واحدةٍ مُجوَّفة، طولها ستون ميلاً في السماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً» أخرجاه.

و فيهما أيضاً: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو حبس في أرضه التي وُلد فيها» قالوا يا رسول الله أفلا نخبر الناس؟ قال: «إنَّ في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن». و عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون الغُرفة في الجنة، كما تراؤون الكوكب في السماء» أخرجاه في الصحيحين.

ثم ليُعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له: «الوسيلة» لقربه من العرش، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة. كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم علي فَسَلُوا الله لي الوسيلة» قيل: يا رسول الله وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجلٌ واحد، وأرجو أن أكون أنا هو».

و في صحيح مسلم: من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي، فإنه مَن صلَّى علي صلاةً واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا

لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حَلَّتْ عليه الشفاعة يوم القيامة».

و في مسند الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، حدِّثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبنةُ ذهبٍ ولبنةُ فضة، ومِلاَطها المسكُ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، مَن يدخلها ينعم لا ييأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»، وروى عن ابن عمر مرفوعاً نحوه.

و عند الترمذي: من حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنة لغُرفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها» فقام أعرابي فقال: يا رسول الله لمن هي؟ فقال: «لمن طيَّب الكلام، وأطعم الطعام، وأَدَامَ الصيام، وصلَّى بالليل والناس نيام» ثم قال حديث غريب. ورواه الطبراني من حديث عبد الله ابن عمرو وأبي مالك الأشعري، كل منهما عن النبي ﷺ بنحوه، وكلٌ من الإسنادين جيد حسن، وعنده أن السائل هو أبومالك الأشعري، فالله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم، مما هم فيه من النعيم، كما روى الإمام مالك رحمه الله: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله عز وجل يقول لأهل الجنة: فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا مالم تُعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: يارب، وأي شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» أخرجاه.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾

٧٣- أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة، وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: بُعِثَ رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ وسيف لكفار أهل الكتاب ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، وسيف للمنافقين ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، وسيف للبغاة ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير.

و قال ابن مسعود في قوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ قال بيده: «فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»[1] فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم؛ وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين

بالكلام وهو مجاهدتهم؛ وعن مقاتل والربيع مثله.

و قال الحسن وقتادة ومجاهد: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم.

وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا، بحسب الأحوال، والله أعلم.

٧٤- وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾. روى موسى بن عقبة عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: حزنت على من أصيب بالحرة من قومي، فكتب إلي زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني، يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار» وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار، قال ـ ابن الفضل ـ: فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم، فقال: هو الذي يقول له رسول الله ﷺ: «أوفى الله له بإذنه» قال: وذلك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول ورسول الله ﷺ يخطب: لئن كان صادقاً، فنحن شر من الحمير، فقال زيد بن أرقم: فهو والله صادق، ولأنت شر من الحمار. ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجحده القائل، فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد، يعني قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية، رواه البخاري في صحيحه ـ إلى قوله ـ هذا الذي أوفى الله له بإذنه.

و لعل ما بعده من قول موسى بن عقبة، والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة المصطلق، فلعل الراوي وَهِم في ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها، والله أعلم.

و روى الإمام أبو جعفر بن جرير: عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً تحت ظل شجرة، فقال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ فينظر إليكم بعيني الشيطان، فإذا جاء فلا تكلموه» فلم يلبثوا أنْ طلع رجلٌ أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتمني أنتَ وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، حتى تجاوز عنهم فأنزل الله عز وجل ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية.

و قوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قيل: أنزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال: لأخبرن رسول الله ﷺ. وقيل في عبد الله بن أُبي، هم بقتل رسول الله ﷺ، وقال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يُتَوِّجُوا عبد الله بن أبي، وإنْ لم يرض رسول الله ﷺ، وقد ورد أن نفراً من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي، في حال السير وكانوا بضعة عشر رجلاً. قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية، وذلك بين فيما رواه الإمام أحمد رحمه الله عن أبي الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً ينادي فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، فَغَشَوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة «قد قد» حتى هبط رسول الله ﷺ، فلما هبط نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار هل عرفت القوم؟» فقال: لقد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون، قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ راحلته فيطرحوه» قال: فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نشدتك بالله، كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلاً، فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر، قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة، قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أنَّ الأثنى عشر

(١) الزيادة من تفسير الطبري (١٤/ ٣٥٨) و رجاله ثقات، سوى شيخ الطبري و هو ابن وكيع، لكن عزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و أبى الشيخ و ابن مردويه و البيهقى فى الشعب.

الباقين، حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

و يشهد لهذه القصة بالصحة: ما رواه مسلم: عن أبي الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذْ سألك، فقال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنتَ منهم، فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حربٌ لله ولرسوله، في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذَرَ ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله، ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حرة يمشي، فقال: «إنَّ الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد» فوجد قوماً قد سبقوه، فلعنهم يومئذ.

و ما رواه مسلم أيضاً: عن حذيفة عن النبيﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها، حتى يَلج الجمل في سم الخياط: ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبيلَة، سراجٌ من نار تظهر بين أكتافهم، حتى ينجم في صدورهم» ولهذا كان حذيفة يقال له: صاحب السر الذي لا يعلمه غيره، أي: من تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعه عليهم رسول اللهﷺ دون غيره، والله أعلم.

و قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: وما للرسول عندهم ذنب، إلا أن الله أغناهم ببركته، ويُمن سعادته، ولو تَمَّت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قالﷺ للأنصار: «ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي» كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمنُّ.

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ﴾ الآية، وقولهﷺ: «ما يَنقم ابنُ جميل إلا أنْ كان فقيراً فأغناه الله».

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة، فقال: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أي: وإن يستمروا على طريقهم، يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا، أي: بالقتل والهم والغم، ﴿وَالآخِرَةِ﴾ أي: بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ أي: وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) ﴾

٧٥- يقول تعالى: ومن المنافقين مَن أعطى الله عهده وميثاقه، لئن أغناه من فضله، ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما وَفَّى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع: نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة، عياذاً بالله من ذلك.

و قد ذكر كثير من المفسرين منهم: ابن عباس والحسن البصري، أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في

ثعلبة بن حاطب الأنصاري. وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبي حاتم: عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة ابن حاطب الأنصاري: أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة، قليلٌ تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه».. الحديث [1].

و قوله تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الآية، أي: أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، كما في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا اؤتمن خان» وله شواهد كثيرة، والله أعلم.

٧٨- وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الآية، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم، وإنْ أظهروا أنه إنْ حصل لهم أموال تصدقوا منها، وشكروا عليها، فإنَّ الله أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علاَّم الغيوب، أي: يعلم كلَّ غيبٍ وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)﴾

٧٩- وهذا أيضاً من صفات المنافقين، لا يَسْلم أحدٌ من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إنْ جاء أحدٌ منهم بمال جزيل قالوا: هذا مُراء، وإنْ جاء بشيء يسير، قالوا: إنَّ الله لغني عن صدقة هذا. كما روى البخاري: عن أبي مسعود ؓ قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نُحامل على ظهورنا، فجاء رجلٌ فتصدَّق بشيءٍ كثير، فقالوا: مرائي، وجاء رجل فتصدَّق بصاع، فقالوا: إنَّ الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية. وقد رواه مسلم أيضاً. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية، قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ، وجاء رجلٌ من الأنصار بصاعٍ من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء. وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع. و هكذا روي عن مجاهد وغير واحد.

و روى الحافظ أبو بكر البزار: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدَّقوا، فإني أريد أن أبعثَ بعثاً» قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، فقال: يا رسول الله، عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربي، وألفين لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت، وبارك لك فيما أمسكت» وبات رجل من الأنصار، فأصاب صاعين من تمر، فقال: يا رسول الله أصبت صاعين من تمر، صاعٌ أقرضه لربي، وصاع لعيالي، قال: فلمزه المنافقون، وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ الآية.

و قوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم، واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر منهم، انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً، لأن الجزاء من جنس العمل.

(١) وهو حديث ضعيف منكر، علي بن يزيد هو الألهاني متروك، و معان لين الحديث، و قد ضعفه الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف فقال: إسناده ضعيف جداً، و كذا شيخه الحافظ العراقي في تخريج الأحياء، انظر الضعيفة للعلامة الألباني رحمه الله (١٦٠٧).

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾

٨٠- يخبر تعالى نبيهﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وقد قيل: إنَّ السبعين إنما ذكرت حَسْماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها، وقيل: بل لها مفهوم، كما روى الشعبي: لمَّا ثَقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه إلى النبيﷺ فقال: إن أبي قد احْتُضر، فأحب أن تشهده وتصلي عليه. . . فانطلق معه، حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلّى عليه، فقيل له: أتصلي عليه؟ فقال: «إن الله قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ولأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين».

و كذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد بن جبير وقتادة بن دعامة، ورواه ابن جرير بأسانيده [١].

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾

٨١- يقول تعالى ذامّاللمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول اللهﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه و﴿كَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض ﴿لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحرّ، عند طيب الظلال والثمار، فلهذا قالوا: ﴿لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسولهﷺ ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حراً من النار، كما روى الإمام مالك: عن أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال: «نارُ بني آدم التي توقدونها جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله، إنْ كانت لكافية، فقال: «فُضِّلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً» أخرجاه في الصحيحين.

و روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: «إنَّ ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضُرِبتْ في البحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعةً لأحد». وهذا أيضاً إسناده صحيح.

و عن النعمان بن بشير قال: قال رسول اللهﷺ: «إنَّ أهونَ أهل النار عذاباً يوم القيامة لَمَن له نعلان وشِرَاكان من نار جهنم، يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل، لا يَرَى أنَّ أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه، وإنه أهونهم عذاباً» أخرجاه في الصحيحين.

و الأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

و قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لو أنهم يفقهون

(١) وهو بنحوه في الصحيحين، و سيأتي عند قوله تعالى: ﴿و لا تصل على أحدٍ منهم . . .﴾ (٨٤).

ويفهمون، لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به من حر جهنم، الذي هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الآخر:

كالمُستجير مِن الرَّمْضاءِ بالنار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً﴾ الآية، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا، وصاروا إلى الله عزوجل، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً. وكذا قال أبو رزين والحسن وقتادة والربيع بن خثيم وعون العقيلي وزيد بن أسلم.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)﴾

٨٣- يقول تعالى آمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي: ردَّك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قال قتادة: ذُكر لنا أنهم كانوا اثنا عشر رجلاً ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي: معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي: تعزيزاً لهم، وعقوبةً ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية. فإن جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كقوله في عُمرة الحديبية ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة. وقال قتادة ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي: مع النساء، قال ابن جرير: وهذا لا يستقيم، لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال فاقعدوا مع الخوالف، أو الخالفات، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)﴾

٨٤- أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وأن لا يصلي على أحدٍ منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له، أو يدعو له، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه، وهذا حكمٌ عامٌ في كل من عُرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، كما روى البخاري: عن ابن عمر قال: لمَّا تُوفِّي عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيَّرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وسأزيده على السبعين» قال: إنه منافق. قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل آية ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ وكذا رواه مسلم.

و قد رُوي من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا: فروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لما تُوفي عبدالله بن أُبي، دُعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة، تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبي، القائل يوم كذا كذا وكذا ـ يُعدِّد أيامه ـ ؟ قال: ورسول الله ﷺ يبتسم، حتى إذا أكثرتُ عليه، قال: «أخِّرْ عني ياعمر، إنِّي خُيِّرتُ فاخترت، قد قيل لي: ﴿**استغفِرْ لهمْ**﴾ الآية. لو أعلم أني لو زدتُ على السَّبعين غُفرَ له لزدتُ» قال: ثم صلَّى عليه، ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه، قال: فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم. قال: فوالله ماكان إلا يسيراً، حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿**ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهمْ ماتَ أبداً**﴾ الآية، فما صلَّى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل.

و هكذا رواه الترمذي في التفسير ورواه البخاري.

و روى الإمام أحمد: عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبي أتى ابنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك إنْ لم تأته، لم تنزلْ نُعيَّر بهذا، فأتاه النبي ﷺ فوجده قد أُدخل في حفرته، فقال: «أفلا قبل أن تدخلوه؟» فأُخرج من حفرته، وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه، وألبسه قميصه. ورواه النسائي، وروى البخاري ومسلم نحوه. و قد ذكر بعض السلف: إنما كساه قميصه، لأن عبد الله بن أبي لما قدِمَ العباس، طُلبَ له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أُبي، لأنه كان ضخماً طويلاً. ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له، فالله أعلم، ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه، لا يصلي على أحد من المنافقين، ولايقوم على قبره، كما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دُعِي إلى جنازة سأل عنها، فإن أُثني عليها خيراً، قام فصلى عليها، وإنْ كان غير ذلك، قال لأهلها: «شأنكم بها» ولم يصل عليها.

و كان عمر بن الخطاب لا يُصلي على جنازة مَنْ جهل حاله، حتى يصلي عليها حذيفة بن اليمان، لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ، ولهذا كان يقال له: «صاحب السر» الذي لا يعلمه غيره، أي: من الصحابة، وقال أبو عبيد في كتاب الغريب في حديث عمر إنه أراد أن يصلي على جنازة رجل فمرزه حذيفة، كأنه أراد أن يصده عن الصلاة عليها، ثم حكى عن بعضهم أن «المرز» بلغة أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع.

ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين، فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل، كما ثبت في الصحاح وغيرها: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَن شهد الجنازة حتى يُصلي عليها فله قيراط، و من شَهدها حتى تُدفن فله قيراطان» قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أُحُد».

و أما القيام عند قبر المؤمن من إذا مات، فروى أبو داود: عن عثمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرَغَ من دفن الميت، وقف عليه، وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التَّثبيت، فإنَّه الآن يُسئل» انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله.

﴿ وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) ﴾

٨٥- تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة، ولله الحمد والمنة.

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٨٧) ﴾

٨٦- يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة، ووجود السَّعة والطَّول، واستأذنوا الرسول في القعود، وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار، والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمنٌ كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: عَلَتْ ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، وفي الحرب أجبن شيء، كما قال الشاعر:

أفي السِّلم أعياراً جفاءً وغلظةً ... وفي الحرب أشباهُ النساء العوارك؟

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۞ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب نكولهم عن الجهاد، والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون مافيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

﴿ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) ﴾

٨٨، ٨٩- لما ذكر تعالى ذمَّ المنافقين، وبيَّن ثناءه على المؤمنين، ومالهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم، وقوله: ﴿وَأُوْلَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي: في الدار الآخرة في جنات الفردوس، والدرجات العلى.

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) ﴾

٩٠- ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويُبيِّنون له ما هم فيه من الضَّعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة. قال الضحاك عن ابن عباس: إنه كان يقرأ ﴿وَجَاءَ الْمُعْذِرُونَ﴾ بالتخفيف، ويقول هم أهلُ العذر، وكذا عن مجاهد سواء.

وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية، لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لم

يأتوا فيعتذروا، وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بني غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله، وكذا قال الحسن وقتادة ومحمد بن إسحاق، والقول الأول أظهر، والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده ﴿وقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ ورسُولَهُ﴾ أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار. ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) ﴾

٩١، ٩٢- ثم بيَّن تعالى الأعذارَ التي لا حَرَج على مَن قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازمٌ للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد، ومنه: العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به، ومنها ماهو عارضٌ بسبب مرضٍ عَنَّ له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرجٌ إذا قعدوا، ونصحوا في حال قعودهم، ولم يُرجِفوا بالناس ولم يُثَبِّطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

و قال الأوزاعي: خرج الناس إلى الاستسقاء، فقام فيهم بلال ابن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر: ألستم مُقرِّين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنا نسمعك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ اللهم وقد أقررنا بالإساءة، فاغفر لنا وارحمنا واسقنا، ورفع يديه ورفعوا أيديهم، فَسُقُوا. وقال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني. وقال مجاهد: نزلت في بني مقرن من مزينة. (وقيل غيرهم). وفي الصحيحين: من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً، ولا سرتم مسيراً، إلا وهم معكم» قالوا: وهم بالمدينة؟! قال: «نعم، حبسهم العذر».

و روى الإمام أحمد: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خَلَّفتم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً، إلا شَرَكوكم في الأجر، حبسهم المرض» ورواه مسلم وابن ماجه.

٩٣- ثم ردَّ تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنَّبهم في رضاهم، بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرِّحال ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا

كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

٩٤- أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة، أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سَيُظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها، ويجزيكم عليها.

٩٥- ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم، معتذرين لتعرضوا عنهم، فلا تُؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، أي: خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون، أي: من الآثام والخطايا.

٩٦- وأخبر أنهم إنْ رضوا عنهم بحلفهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله، فإنَّ الفسق هو الخروج، ومنه سُميت الفأرة فويسقة، لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال: فسقت الرطبة، إذا خرجت من أكمامها.

﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾

٩٧- أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم، أعظم من غيرهم وأشد، ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي: أحرى أنْ لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «مَن سَكنَ البادية جَفَا، ومن اتبع الصيد غَفَل، ومن أتى السلطان افتتن» ورواه أبوداود والترمذي والنسائي.

و لما كانت الغِلْظة والجفاء في أهل البوادي، لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾.

و لما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ، فرد عليه أضعافها حتى رضي، قال: «لقد هممتُ أن لا أقبل هديةً، إلا من قرشي، أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي» لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن: مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب، لما في طباع الأعراب من الجفاء.

(حديث الأعراب في تقبيل الولد): روى مسلم: عن عائشة قالت: قَدِمَ ناسٌ من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكنّا والله ما نقبل، فقال رسول الله ﷺ: «و أَمْلكُ إن كان الله نَزَعَ منكم الرحمة!» وقال ابن نمير: «من قلبك الرحمة».

و قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بمن يستحق أن يُعلِّمه الإيمان والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين

عباده من العلم والجهل، والإيمان والكفر والنفاق، لا يُسأل عما يفعل لعلمه وحكمته.

٩٨- وأخبر تعالى أن منهم ﴿مَن يتخذُ مَا يُنفقُ﴾ أي: في سبيل الله ﴿مَغرَماً﴾ أي: غرامة وخسارة ﴿وَيتربّصُ بكُم الدّوائِرَ﴾ أي: ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿عَليهِمْ دائرةُ السَّوءِ﴾ أي: هي منعكسةٌ عليهم، والسوءُ دائرٌ عليهم ﴿وَ اللهُ سميعٌ عليمٌ﴾ أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

٩٩- وقوله: ﴿وَ مِنَ الأعرابِ مَن يُؤمِنُ باللهِ واليـومِ الآخرِ وَ يتخذُ مَا يُنفقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ وصَلواتِ الرّسولِ﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿ألاَ إنّهَا قُربةٌ لهمْ﴾ أي: ألا إنَّ ذلك حاصل لهم ﴿سَيُدخِلُهُمُ اللهُ في رَحمتِهِ إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾

١٠٠- يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم؛ قال الشعبي: السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار: من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رَضيَ عن السابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فياويل مَن أبغضهم أو سبّهم، أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول، وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر، والخليفة الأعظم: أبابكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإنَّ الطائفة المخذولة من الرافضة، يُعادون أفضل الصحابة، ويبغضونهم ويسبونهم، عياذاً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذْ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة: فإنهم يترضَّون عمن رضي الله عنه، ويسبون مَن سبه الله ورسوله، ويُوالون مَن يُوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون، وعباده المؤمنون.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) ﴾

١٠١- يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه: أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي: مَرَنوا واستمروا عليه، ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أي: عَتَا وتجبر، وقوله: ﴿لاَ تعلمُهمْ نحنُ نعلمُهمْ﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشاءُ لأَريناكَهُمْ فَلَعرفتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعرِفنَّهُمْ فِي لَحنِ القَوْلِ﴾، لأن هذا من باب التوسُّم فيهم بصفات يُعرفون بها، لا أنه يَعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين، و قد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإنْ كان يراه صباحاً ومساء، وتقدم في تفسير قوله: ﴿وهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا﴾

أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

و روى عبد الرزاق: عن قتادة في هذه الآية أنه قال: مابال أقوام يتكلفون عِلمَ الناس؟ فلانٌ في الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه، قال: لا أدري، لعمري أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلَّفتَ شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك، قال نبي الله نوح عليه السلام ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال نبي الله شعيب عليه السلام ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

و قال مجاهد في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعني: القتل والسبي، وقال في رواية: بالجوع وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب عظيم، وقال ابن جريج: عذاب الدنيا وعذاب القبر، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾: النار، وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا وعذاب في القبر، وكذا قال قتادة. وقال عبد الرحمن ابن زيد: أما عذاب في الدنيا: فالأموال والأولاد، وقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهذه المصائب لهم عذاب، وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال: النار.

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)﴾

١٠٢ - لما بيَّن تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبةً عنها، وتكذيباً وشكاً، شرَع في بيان حال المذنبين، الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقروا بها، واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أُخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين، المخلطين المتلوثين، و قد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة: إنه الذَّبح، وأشار بيده إلى حلقه.

و قال ابن عباس[1]: ﴿وَآخَرُونَ﴾ نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل: وسبعة معه، وقيل: وتسعة معه؛ فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحَلَفوا لا يحلُّهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم.

و روى البخاري: عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلةَ آتيان فابتعثاني، فانتهينا إلى مدينةٍ مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجالٌ، شطرٌ مَنْ خَلْقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطرٌ كأقبح ما أنت راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السُّوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنةُ عَدْنٍ، وهذا منزلك، قالا: وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حَسَن، وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، تجاوز الله عنهم» هكذا رواه البخاري

(١) وهو من رواية علي بن أبي طلحة عنه، كما في تفسير الطبري (١٤/ ٤٤٧ - ٤٤٨).

مختصراً في تفسير هذه الآية.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾

١٠٣ – أمر تعالى رسوله ﷺ بأنْ يأخذ من أموالهم صدقة، يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام، وإن أعاد بعضهم الضمير في «أموالهم» إلى الذين اعترفوا بذنوبهم، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب: أنَّ دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ، ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية، وقد ردَّ عليهم هذا التأويل، والفهم الفاسد، أبوبكر الصديق، وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عَنَاقاً ـ وفي رواية: عقالا ـ كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ، لأقاتلنهم على منعه.

و قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه: عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أُتي بصدقة قومٍ صلّى عليهم[(١)]، فأتاه أَبي بصدقته، فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى».

وفي الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله، صَلِّ علي وعلى زوجي، فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك»[(٢)].

وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قرأ بعضهم ﴿صَلَوَاتِكَ﴾ على الجمع، وآخرون قرءوا: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ على الإفراد. ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة: وقار، وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: لدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يستحق ذلك منك، ومن هو أهل له.

١٠٤ – وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ هذا تهييج إلى التوبة والصدقة، اللتين كل منهما يحط الذنوب، ويُمحِّصها ويمحقها، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومَن تصدَّق بصدقة من كسب حلال، فإنَّ الله تعالى يتقبلها بيمينه، فيربيها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أُحُد، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ، كما روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه، فيُربِّيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتكون مثل أُحُد» وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾، وقوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾.

و روى الثوري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الصدقة تقع في يد الله عز وجل، قبل أن تقع في يد السائل، ثم قرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

(١) أي: دعا لهم.

(٢) رواه أبوداود (١٥٣٣).

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾

١٠٥ - قال مجاهد: هذا وعيدٌ يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره، بأن أعمالهم ستُعرض عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين، وهذا كائنٌ لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ وقال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا.

و قال البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: إذا أعجبك حُسْن عملِ امرئ مسلم، فقل: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. و قد ورد في الحديث شبيه بهذا، روى الإمام أحمد: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أنْ تُعجبوا بأحدٍ حتى تنظروا بم يُختم له، فإنَّ العامل يَعمل زماناً من عمره، أو برهة من دهره بعملٍ صالح، لو مات عليه دخل الجنة، ثم يَتحوَّل فيعمل عملاً سيئاً، وإنَّ العبدَ ليعمل البرهة من دهره بعملٍ سيء، لو مات عليه دخل النار، ثم يتحوَّل فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته» قالوا: يا رسول الله، وكيف يستعمله؟ قال: يُوَفِّقه لعملٍ صالح، ثم يقبضه عليه» تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه.

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦) ﴾

١٠٦ - قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خُلِّفوا، أي: عن التوبة، وهم: مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة مَنْ قَعَد، كسلاً وميلاً إلى الدَّعة، والحفظ، وطيب الثمار والظلال، لا شكّاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأُرجئ هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية، وهي قوله: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ الآية، ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ الآية، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك.

و قوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هم تحت عفو الله، إنْ شاء فعل بهم هذا، وإنْ شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾

١٠٧ - سبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها، رجلٌ من الخزرج، يقال له: أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في

الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شَرِقَ اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، يُمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أُحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح وجهه، وكُسرت رباعيتهُ اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عيناً، يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر؛ وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أنْ يُسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أنْ يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومنَّاه، وأقام عنده، و كتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب، يَعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه، ويرده عما هو فيه؛ وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك؛ فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم، وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال: «إنا على سَفَر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر، والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم ـ مسجد قباء ـ الذي أُسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَن هدمه قبل مقدمه المدينة.

كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: هم أناس من الأنصار، بنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجندٍ من الروم، وأُخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ، فقالوا له: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله عز وجل: **﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾** إلى قوله: **﴿الظَّالِمِينَ﴾** وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء.

و روى محمد بن إسحاق بن يسار: عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمرو ابن قتادة وغيرهم (نحو ما سبق) وفيه: فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن ابن عدي، أو أخاه عامر بن عدي أخا بلعجلان، فقال: «انطَلِقا إلى هذا المسجدِ الظالم أهله، فاهْدماه وحَرِّقاه» فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل أهله فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد، وفيه أهله، فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا**

﴿مَسْجِداً ضِراراً وكُفراً﴾ إلى آخر القصة.

وقوله: **﴿وليَحلِفُنَّ﴾** أي: الذين بنوه **﴿إنْ أردْنا إلاّ الحُسْنَى﴾** أي: ما أردنا ببنيانه إلا خيراً، ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: **﴿واللهُ يشهدُ إنّهمْ لكاذِبونَ﴾** أي: فيما قصدوا وفيما نووا، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء، وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو: أبو عامر الفاسق، الذي يقال له: الراهب لعنه الله.

١٠٨- وقوله: **﴿لاَتَقمْ فيهِ أبداً﴾** نهي له ﷺ والأمة تَبَعٌ له في ذلك، عن أن يقوم فيه، أي: يصلي أبداً. ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء، الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهي: طاعة الله وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين، ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله، ولهذا قال تعالى: **﴿لَمسجدٌ أُسِّسَ علَى التّقْوَى مِنْ أوّلِ يومٍ أحقُّ أن تَقومَ فيهِ﴾** والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صلاةٌ في مسجد قباء كعمرة».

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً.

وروى أبوداود: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء **﴿فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أنْ يَتطهّرُوا﴾** قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية. رواه الترمذي وابن ماجه.

وروى الإمام أحمد: عن عويم بن ساعدة الأنصاري: أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء، فقال: «إنَّ الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطُهور، في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟» فقالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً، إلا أنه كان لنا جيرانٌ من اليهود، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا، ورواه ابن خزيمة في صحيحه.

وقد صرح جماعة من السلف بأنه مسجد قباء، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ورواه عبد الرزاق عن عروة بن الزبير، وقاله عطية العوفي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري، ونقله البغوي عن سعيد بن جبير وقتادة، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة، هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أُسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى.

(طريق أخرى) روى الإمام أحمد: عن ابن أبي سعيد عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أُسس على التقوى من أول يوم، فقال: أحدهما هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي» وكذا رواه الترمذي والنسائي، ورواه مسلم كما سيأتي.

(طريق أخرى) روى الإمام أحمد: عن حميد الخراط المدني: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد، فقلت: كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: إني أتيتُ رسول الله ﷺ فدخلتُ عليه في بيتٍ لبعض نسائه، فقلت: يا رسول الله: أين المسجد الذي أُسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا» ثم قال: سمعت أباك يذكره، رواه مسلم منفرداً به.

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروي عن عمر بن الخطاب، وابنه

عبدالله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير.

و قوله: ﴿لَمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى مِنْ أولِ يومٍ أحقُّ أن تقومَ فيه فيه رجالٌ يُحِبُّونَ أن يَتطهَّرُوا واللهُ يُحبُّ المُطَّهِّرِينَ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة، المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين، والعباد العاملين، المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات.

و قد روى الإمام أحمد: عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ صلَّى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فَأَوْهَمَ، فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن: إنَّ أقواماً منكم يصلون معنا لا يُحسنون الوضوء، فمن شَهِد الصلاة معنا فليُحسن الوضوء» ثم رواه من طريقين آخرين.

فدلَّ هذا على أن إكمال الطهارة يسهِّل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها، وإكمالها والقيام بمشروعاتها، وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿و اللهُ يُحبُّ المُطَّهِّرِينَ﴾ إنَّ الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب، وقال الأعمش: التوبة من الذنب والتطهر من الشرك، وقد ورد في الحديث المروي من طرق في السنن وغيرها: أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء: «قد أثنى الله عليكم في الطهور، فماذا تصنعون؟» فقالوا: نستنجي بالماء.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾

١٠٩ - يقول تعالى: لا يستوي مَن أَسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانٍ، ومَن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جُرف هارٍ، أي: طرف حفيرة مثاله ﴿في نارِ جهنَّمَ واللهُ لا يهدِي القومَ الظَّالمينَ﴾ أي: لا يصلح عمل المفسدين، قال جابر بن عبدالله: رأيت المسجد الذي بُني ضراراً، يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ، وقال ابن جريج: ذكر لنا أن رجالاً حفروا فوجدوا الدخان الذي يخرج منه، وكذا قال قتادة.

١١٠ - وقوله تعالى: ﴿لا يزالُ بُنيانُهم الذِي بَنَوا رِيبةً في قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكاً ونفاقاً، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم، كما أُشرب عابدو العجل حبه، وقوله: ﴿إلاَّ أن تَقطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: بموتهم. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدي وحبيب بن أبي ثابت والضحاك وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف ﴿و الله عليم﴾ أي: بأعمال خلقه ﴿حكيم﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾

١١١ – يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم، إذْ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قَبِل العوض عما يملكه، بما تفضل به على عبيده المطيعين له. ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم ـ والله ـ فأغلى ثمنهم. وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة، وَفَّى بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية. ولهذا يقال: مَن حَمَل في سبيل الله بايع الله، أي: قبِل هذا العقد ووفى به.

و قوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: سواء قَتَلوا أو قُتِلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة. ولهذا جاء في الصحيحين: «و تَكفَّل الله لمن خرج في سبيله، لا يُخرجه إلا جهادٌ في سبيلي، وتصديقٌ برسلي، بأن توفاه أن يُدخله الجنة، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه، نائلاً مانالَ من أجرِ أو غنيمةٍ».

و قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيدٌ لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة، وأنزله على رسله في كتبه الكبار، وهي التوراة المنزَّلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد. هذا كقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: فليستبشر مَن قام بمقتضى هذا العقد، و وفَّى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم.

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾

١١٢ – هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، بهذه الصفات الجميلة، والخلال الجليلة ﴿التَّائِبُونَ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش ﴿الْعَابِدُونَ﴾ أي: القائمون بعبادة ربهم، محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال. فمن أخص الأقوال: الحمد، فلهذا قال: ﴿الْحَامِدُونَ﴾ ومن أفضل الأعمال: الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام، والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا، ولهذا قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾ كما وصف أزواج النبيﷺ بذلك، في قوله تعالى: ﴿سَائِحَاتٍ﴾ أي: صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله، بأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق، ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

(بيان أن المراد بالسياحة الصيام): روى سفيان الثوري: عن عبد الله بن مسعود قال: ﴿السَّائِحُونَ﴾: الصائمون. وكذا روى عن سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة، هم: الصائمون. وكذا قال الضحاك رحمه الله، وهكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبير وعطاء وعبدالرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين:

(بيان أن المراد بالسياحة الصيام): روى سفيان الثوري: عن عبد الله بن مسعود قال: **﴿السَّائِحُونَ﴾**: الصائمون. وكذا روى عن سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كل ما ذكر الله في القرآن السياحة، هم: الصائمون. وكذا قال الضحاك رحمه الله، وهكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبير وعطاء وعبدالرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم: أن المراد بالسائحين: الصائمون، وقال الحسن البصري **﴿السَّائِحُونَ﴾** الصائمون شهر رمضان، وقال أبو عمرو العبدي **﴿السَّائِحُونَ﴾** الذين يديمون الصيام من المؤمنين، وهذا أصح الأقوال وأشهرها.

وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد: وهو ما روى أبوداود في سننه: من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يارسول الله، ائذن لي في السياحة. فقال النبي ﷺ: «سياحةُ أمتي: الجهاد في سبيل الله». وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون. رواهما ابن أبي حاتم.

وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرّد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلزال في الدِّين، كما ثبت في صحيح البخاري: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يُوشك أن يكون خيرُ مالِ الرجل: غَنمٌ يتْبعُ بها شَعفَ الجبال، ومواقع القطر، يَفر بدينه من الفتن».

وقال العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: **﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾** قال: القائمون بطاعة الله، وكذا قال الحسن البصري، وعنه رواية **﴿الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾** قال: لفرائض الله، وفي رواية: القائمون على أمر الله.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾

١١٣ - روى الإمام أحمد: عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبوجهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «أي عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله عز وجل» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغبُ عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبدالمطلب، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك مالم أنه عنك» فنزلت **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾** قال: ونزلت فيه **﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾** أخرجاه.

وروى الإمام أحمد: عن ابن بريدة عن أبيه قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه. وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله، مالك؟ قال: «إني سألتُ ربي عزَّ وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي، فَدَمعتْ عيناي رحمةً لها من النار، وإني كنتُ نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، لتذكركم زيارتها خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وأمسكوا ماشئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية،

فاشربوا في أي وعاء شئتم ، ولا تشربوا مُسْكراً» .

و روى ابن جرير : عن سليمان بن بريدة عن أبيه : أن النبيﷺ لما قدم مكة أتى رَسْمَ قبرٍ فجلس إليه فجعل يخاطب ، ثم قام مستعبراً ، فقلنا : يا رسول الله ، إنا رأينا ما صنعت . قال : «إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي ، فأذن لي ، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي» فما رُئي باكياً أكثر من يومئذ . و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية : كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية ، فأمْسَكُوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ، ثم أنزل الله ﴿وَ ما كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ﴾ الآية .

و عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مات رجلٌ يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه ، فذُكر ذلك لابن عباس ، فقال : فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ، ويدعو له بالصلاح مادام حياً ، فإذا ماتَ وَكَلَه إلى شأنه ، ثم قال ﴿و ما كَانَ استغفارُ إبراهيمَ ـ إلى قوله ـ تَبرأَ منهُ﴾ لم يدع .

و شهد له بالصحة : ما رواه أبوداود وغيره : عن عليرَضِيَ اللهُ عَنْهُ ؛ لما مات أبوطالب ، قلت : يا رسول الله ، إنَّ عمك الشيخ الضال قد مات ، قال : «اذهبْ فَوَارِه ولا تحدثنَّ شيئاً حتى تأتيني» فذكر تمام الحديث .

و قال عطاء بن أبي رباح : ما كنتُ لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا ، لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا على المشركين ، يقول الله عز وجل : ﴿ما كَانَ لِلنَّبِيِّ والَّذينَ آمَنُوا أن يَستغفِرُوا للمُشْرِكينَ﴾ الآية .

و قوله : ﴿فلمَّا تَبيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدوٌّ لِلهِ تَبرأَ مِنهُ﴾ قال ابن عباس : ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وفي رواية : لما مات تبين له أنه عدو لله . وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله . وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير : إنه يتبرأ منه يوم القيامة حين يلقى أباه ، وعلى وجه أبيه القَتَرة والغبرة ، فيقول : يا إبراهيم ، إني كنت أعصيك ، وإني اليوم لا أعصيك ، فيقول : أي رب ، ألم تعدني أن لا تُخْزني يوم يبعثون؟ فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقال : انظر إلى ما وراءك ، فإذا هو بذيخ متلطخ ـ أي : قد مُسخ ضبعاً ـ ثم يسحب بقوائمه ويُلقى في النار(١) .

و قوله : ﴿إنَّ إبراهيمَ لأَوَّاهٌ حليمٌ﴾ روى سفيان الثوري وغير واحد : عن عبد الله بن مسعود أنه قال : الأواه الدَّعَّاء . وكذا روي من غير وجه عن ابن مسعود . و روى الثوري : عن أبي العُبيدين أنه سأل ابن مسعود عن الأواه ، فقال : هو الرحيم . وبه قال مجاهد وأبي ميسرة عمرو بن شرحبيل والحسن البصري وقتادة وغيرهما ، أي : الرحيم ، أي : بعباد الله ، وروى ابن المبارك عن ابن عباس قال : الأواه الموقن ، بلسان الحبشة ، وكذا قال العوفي عن ابن عباس أنه : الموقن ، وكذا قال مجاهد والضحاك . وقال علي بن أبي طلحة ومجاهد عن ابن عباس : الأواه المؤمن ، زاد علي بن أبي طلحة عنه : هو المؤمن التواب ، وقال العوفي عنه : هو المؤمن بلسان الحبشة ، وكذا قال ابن جريج . وقال سعيد بن جبير والشعبي : الأواه : المسبح . وروى ابن وهب عن أبي الدرداءرَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : المحافظ على سبحة الضحى : الأواه .

قال الإمام أبو جعفر بن جرير : وأولى الأقوال قول من قال : إنه الدَّعَّاء ، وهو المناسب للسياق ، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدةٍ وعدها إياه ، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء ، حليماً

---

(١) ـ رواه البخاري في الأنبياء (٦/ ٣٨٧) و في التفسير (٨/ ٤٩٩) مختصراً من حديث أبي هريرةرَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

عمن ظلمه وأناله مكروهاً، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله: ﴿أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيمُ لئن لم تَنتهِ لأرجمنَّكَ واهجُرني مَليّاً ۞ قالَ سلامٌ عليك سأستغفرُ لكَ ربّي إنّهُ كانَ بي حَفيّاً﴾ فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إنَّ إبراهيمَ لأوَّاهٌ حليمٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)﴾

١١٥ - يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة، وحُكمه العادل، إنه لا يُضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿فأمَّا ثَمودُ فَهَدَيناهُمْ﴾ الآية، وقال مجاهد: بيان الله عزوجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم في معصيته وطاعته عامة، فافعلوا أو ذروا. وقال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال، بعد إذ رزقكم الهداية، ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدَّم إليكم بالنهي عنه فَتتركوا، فأما قبل أن يُبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه، فلم تضيعوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يَحكم عليكم بالضلال، فإنَّ الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما مَن لم يُؤمر ولم ينه، فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

١١٦ - وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ لهُ مُلكُ السَّمواتِ وَ الأرضِ يُحيي وَ يُميتُ وما لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَليٍّ ولاَ نصيرٍ﴾ قال ابن جرير: هذا تحريضٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأنهم يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولم يرهبوا من أعدائه، فإنه لأولى لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه.

و روى ابن أبي حاتم: عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: وما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمعُ أطيطَ السماء، وما تلام أنْ تئط، وما فيها من موضع شبرٍ، إلا وعليه ملكٌ ساجد أو قائم».

﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧)﴾

١١٧ - قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر، في سنة مُجْدبة، وحر شديد وعسر من الزاد والماء. قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم.

روى ابن جرير: عن عبد الله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العُسرة، فقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قَيظٍ شديد، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا

ستنقطع ، وحتى إنْ كان الرجل ليذهب يلتمس الماء ، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إنَّ الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبوبكر الصديق : يا رسول الله ، إنَّ الله عزوجل قد عَوَّدك في الدعاء خيراً ، فادع لنا ، فقال : «تحبُّ ذلك؟» قال : نعم ، فرفع يديه ، فلم يرجعهما حتى سالت السماء ، فأهطلت ثم سكنت ، فملؤا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر .

و قال ابن جرير في قوله : ﴿لقد تاب الله على النبيِّ والمهاجرينَ والأنصارِ الذينَ اتَّبعُوهُ في سَاعَةِ العُسرةِ﴾ أي : من النفقة والظهر والزاد والماء . ﴿مِن بَعدِ مَا كادَ يَزيغُ قُلوبُ فَريقٍ مِّنهُمْ﴾ أي : عن الحق ، ويشك في دين الرسول ﷺ ويرتاب ، للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيهِمْ﴾ يقول : ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم ، والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إنَّهُ بِهِمْ رءوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾

١١٨ - روى الإمام أحمد : عن عبيد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب من بنيه حين عمي ـ قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غَزَاة غزاها قط ، إلا في غزاة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ، ولم يعاتب أحدٌ تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، لقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، حين تواثقنا على الإسلام وما أُحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خَبَري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، واللهِ ما جمعتُ قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا وَرَّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز وعدواً كثيراً ، فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعب : فقلَّ رجلٌ يريد أنْ يتغيب إلا ظنَّ أن ذلك سيخفى عليه ، مالم ينزل فيه وحي من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر ، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعدما فَصَلُوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أنْ ارتحل فألحقهم وليتني أني فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لي ، فطفقت إذا خرجتُ في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عَذَره الله عزوجل ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : «ما فعل

كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله بُرداه، والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت، والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ. قال كعب بن مالك: قد بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلاً من تبوك حضرني بثي وطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاح عني الباطل وعرفت أني لم أَنجُ منه بشيء أبداً فأجمعت صِدْقَه فأصبح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلَّمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خَلَّفك، ألم تكن قد اشتريت ظهراً؟» فقلت: يارسول الله، إني لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أُعطيتُ جدلاً، ولكني والله، لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أنْ يسخطك علي، و لئن حدثتك بصدق تَجِدُ علي فيه، إني لأرجو عُقبى ذلك من الله عزوجل، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت وقام إليَّ رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فو الله ما زالوا يؤنبونني حتى أردتُ أنْ أرجع فأكذب نفسي، قال: ثم قلتُ لهم: هل لقي معي أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً، لي فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لي، قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة، من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي: حرَّك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرض عني؛ حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين، مشيت حتى تسوَّرت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلّمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضتْ عيناي وتوليت حتى تسوَّرت الجدار، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا أنا بنبطي من أنباط ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة، يقول: مَن يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً، فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، وأن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة، فألحقْ بنا نواسك. قال: فقلت حين قرأته: وهذا أيضاً من البلاء، قال: فتيممت به التنور فسجرته به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من

الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول: يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزلَ امرأتك، قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: بل اعتزلها ولا تقربها، قال: وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم، حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنَّ هلالاً شيخٌ ضعيفٌ ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك» قالت: فإنه والله ما به من حركة إلى شيء، وإنه والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنت فيها رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذِن لامرأة بلال ابن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته، وأنا رجل شاب، قال: فلبثنا عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليتُ صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سَلْع يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك، قال: فخررت ساجداً وعرفت أنْ قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبل صاحبيَّ مبشرون، وركض إلي رجل فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم، وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني، نزعتُ له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته له، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ، وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بتوبة الله، يقولون: ليَهْنِك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله، فقام إلي طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلّمت على رسول الله قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشرْ بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أُمُّك» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله» قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قَمَر، حتى يُعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله، إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: «أمسكْ عليك بعض مالك، فهو خيرٌ لك» قال: فقلت: فأنى أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإنَّ من توبتي أن لا أُحدِّث إلا صدقاً ما بقيت، قال: فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدتُ كذبةً منذ قلت لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿**لقد تَّابَ اللهُ علَى النَّبيِّ والمُهاجِرينَ والأنصارِ الذينَ اتَّبعوهُ في ساعةِ العُسرةِ مِن بعدِ ما كادَ يَزيغُ قلوبُ فريقٍ مِّنهمْ ثُمَّ تابَ عَليهمْ إنَّهُ بهمْ رءوفٌ رَّحيمٌ * وَعلَى الثلاثةِ الذينَ خُلِّفُوا حتَّى إذا ضاقَتْ عليهمُ الأرضُ بما رَحُبتْ وضاقَتْ عليهمْ أنفُسُهمْ وظَنُّوا أن لاَ مَلْجأَ مِنَ اللهِ إلاَّ إليهِ ثُمَّ تابَ عليهمْ ليَتوبُوا إنَّ اللهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحيمُ * يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقينَ**﴾ إلى آخر الآيات.

قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ، ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كَذَبوه، فإنَّ الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل

الوحي شرّ ماقال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَحلِفونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيهِمْ لِتُعرِضُوا عَنهُمْ فَأَعرِضُوا عَنهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكسِبُونَ ۞ يَحلِفونَ لَكُمْ لِتَرضَوْا عَنهُمْ فَإِن تَرضَوْا عَنهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾ قال: وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين خلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه، فلذلك قال الله عز وجل: ﴿وعَلَى الثلاثةِ الذِينَ خُلِّفُوا﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا، بتخليفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حَلفَ له واعتذر إليه فقبل منه.

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته، رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم، فقد تضمن هذا الحديث: تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا رُويَ عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما قال جابر ابن عبد الله في قوله تعالى: ﴿و عَلَى الثلاثةِ الذِينَ خُلِّفُوا﴾ قال: هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد. وقوله: فسموا رجلين شهدا بدراً. قيل: إنه خطأ من الزهري، فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدراً، والله أعلم.

١١٩- ولما ذكر تعالى ما فرَّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أي: مع سعتها، فسُدَّت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا معَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: اصدقوا والزموا الصِّدق تكونوا من أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً.

و قد روى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصِّدق، فإنَّ الصدقَ يهدي إلى البر، وإنَّ البر يَهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق، حتى يُكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب يَهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب، حتى يكتبَ عند الله كذاباً» أخرجاه في الصحيحين.

و عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الكذب لا يصلح منه جدٌّ ولا هزل، اقرأوا إنْ شئتم ﴿يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وكُونُوا معَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: مع محمد ﷺ وأصحابه، وقال الضحاك: مع أبي بكر وعمر وأصحابهما، وقال الحسن البصري: إنْ أردتَ أنْ تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا، والكف عن أهل الملة.

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾

١٢٠- يُعاتب تبارك وتعالى المُتخلِّفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر، لأنهم ﴿لاَ يُصيبُهُمْ ظَمأٌ﴾ وهو العطش ﴿وَ لاَ نَصَبٌ﴾ وهو التعب ﴿وَلاَ مَخْمَصَةٌ﴾ وهي المجاعة ﴿وَ لاَ يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغيظُ الْكُفَّارَ﴾ أي: ينزلون منزلاً يُرهب عدوهم ﴿وَ لاَ يَنالُونَ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه ﴿إلاَّ كُتِبَ لَهُم﴾ بهذه الأعمال، التي ليست داخلة تحت قدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿إنَّ اللهَ لاَ يُضيعُ أجْرَ الْمُحسنينَ﴾ كقوله ﴿إنا لاَ نُضيعُ أجْرَ مَنْ أحسنَ عملاً﴾.

﴿ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾

١٢١- يقول تعالى: ﴿وَ لاَ يُنْفِقونَ﴾ هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نَفَقةً صَغيرةً وَ لا كَبيرةً﴾ أي: قليلاً ولا كثيراً ﴿ولاَ يَقطعونَ وادياً﴾ أي: في السير إلى الأعداء ﴿إلاَّ كُتِبَ لَهُم﴾ ولم يقل ههنا به، لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿لِيَجزِيهُم اللهُ أحسنَ مَا كانُوا يَعملونَ﴾ وقد حَصَل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، من هذه الآية الكريمة حظٌّ وافر، ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة، والأموال الجزيلة، كما روى عبد الله بن الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه، حتى جهَّز النبي ﷺ جيش «العُسرة» قال: فصبها في حجر النبي ﷺ، فرأيت النبي ﷺ يقبِّلها يده، ويقول: «ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم» يرددها مراراً.

و قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ولاَ يَقطعونَ وادياً إلاَّ كُتِبَ لَهُم﴾ الآية، ما ازداد قومٌ في سبيل الله بُعداً من أهليهم، إلا ازدادوا قُرباً من الله.

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾

١٢٢- هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفافاً وثِقالاً﴾ وقال: ﴿مَا كانَ لأهلِ المدينةِ وَمَنْ حَولَهم مِّنَ الأعرابِ﴾ الآية، قال: فنسخ ذلك بهذه الآية، وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها، وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليَتَفقَّه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعين، وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي، إما للتفقه وإما للجهاد، فإنه فرض كفاية على الأحياء.

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده ﴿فَلولاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرقةٍ مِّنهُمْ طَائِفةٌ﴾ يعني: عصبة، يعني: السرايا ولا يَتَسروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا

وقد أُنزل بعدهم قرآنٌ تعلمه القاعدون مع النبي ﷺ، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً وقد تعلّمناه، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلّموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

و قال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا مَنْ وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً وأقبلوا من البادية كلهم، حتى دخلوا على النبي ﷺ فقال الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبغون الخير ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

و قال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله أنْ لا يُعَرُّوا نبيه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم. وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه، لم يحل لأحدٍ من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعذار، وكان إذا أقام وأسرى السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، وكان الرجل إذا أسرى فنزل بعده قرآن، تلاه نبي الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآناً، فَيُقْرِئونهم ويفقهونهم في الدين، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول إذا أقام رسول الله ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني بذلك: أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله تسرَّت السرايا، وقعد معه معظم الناس.

و قال علي بن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس في الآية: إنها ليست في الجهاد، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين، أجدبت بلادهم، و كانت القبيلة منهم تُقْبل بأسرها حتى يحلّوا بالمدينة من الجهد، ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ عليه وأجهدوهم، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرهم، وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ الآية[1].

و قال عكرمة: لما نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الآية، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو، الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه، وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية، ونزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. وقال الحسن البصري في الآية: ليتفقّه الذين خرجوا بما يُريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾

(١) و قد اختار الطبري أن معنى الآية: أن الله نهى بهذه الآية المؤمنين أن يخرجوا في غزو وجهادٍ و غير ذلك من أمورهم و يدعوا رسول الله ﷺ وحيداً، و لكن عليهم إذا سرَّى رسول الله ﷺ سريةً أن ينفر معها من كل قبيلة طائفة. وهو القول الأول عن ابن عباس هنا، و قول قتادة و الضحاك، و الله أعلم.

١٢٣ ـ أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً، شَرَعَ في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام، لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جَهْد الناس، وجَدْب البلاد وضيق الحال، وذلك سنة تسع من هجرته ﷺ. ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده.

و قام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلةً كاد أن ينجفل، فثبته الله تعالى به فوطَّد القواعد، وثبت الدعائم، وردّ شارد الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطَّغَام، و بيَّن الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الله.

و كان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده: الفاروق الأواب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمعَ الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً، وحُملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً. ففرَّقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي.

ثم لما مات شهيداً، وقد عاش حميداً، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار، على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار، فكسى الإسلام رياسة حلة سابغة، وامتدت الدعوة في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم، من العتاة الفجار، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذينَ آمنوا قاتِلُوا الذينَ يلُونكُم مِّنَ الكُفَّارِ**﴾.

و قوله تعالى: ﴿**وَ ليَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً**﴾ أي: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم، في قتالكم لهم، فإنَّ المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كقوله تعالى: ﴿**فسوفَ يأتِي اللهُ بقوم يُحبُّهمْ ويُحبُّونَهُ أذلَّةٍ علَى المُؤمنينَ أعِزَّةٍ علَى الكافِرينَ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**مُحمَّدٌ رسولُ اللهِ وَ الذينَ معَهُ أشِداءُ علَى الكُفَّارِ رُحَماءُ بَينَهُمْ**﴾ وقال تعالى: ﴿**يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمُنافِقينَ واغْلُظْ عليهِمْ**﴾ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضحوك القتال»[١] يعني أنه ضَحوك في وجه وليه، قتَّال لهامة عدوه.

و قوله: ﴿**و اعلَموا أنَّ اللهَ معَ المُتَّقينَ**﴾ أي: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أنَّ الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة ـ الذين هم خير هذه الأمة ـ في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار.

ثم لما وقعت الفتن والأهواء، والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها

(١) لم أجده مرفوعاً، و قد ذكره بعض العلماء في أسمائه كابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» (١/ ٨٧)، وهو من أوصافه عليه الصلاة و السلام.

فلم يمانعوها، لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملكٌ من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسئول المأمول أن يمكِّن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يُعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾

١٢٤- يقول تعالى: **﴿و إذا ما أُنزلت سورةٌ﴾** فمن المنافقين **﴿مَن يقولُ أيُّكمْ زادتْهُ هذهِ إيماناً؟﴾** أي: يقول بعضهم لبعض: أيكم زادته هذه السورة إيماناً، قال الله تعالى: **﴿فأمَّا الذينَ آمنُوا فَزادتْهُمْ إيماناً وهُمْ يَستَبشِرُونَ﴾** وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك. وقد بُسط الكلام على هذه المسئلة في أول شرح البخاري رحمه الله.

١٢٥- **﴿و أمَّا الذينَ في قُلوبِهم مَّرضٌ فزادَتْهُمْ رِجْساً إلَى رِجْسِهِمْ﴾** أي: زادتهم شكاً إلى شكهم، وريباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: **﴿و ننزل من القرآن ما هو شفاء﴾** الآية، وقوله: **﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شِفاءٌ وَالذينَ لا يُؤمِنونَ في آذانِهِمْ وَقرٌ وَهُوَ عَليهِمْ عَمًى أُولئكَ يُنادَونَ مِن مَكانٍ بَعيدٍ﴾** وهذا من جملة شقائهم، أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سيء المزاج لو غُذِّي بما غذي به، لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾

١٢٦- يقول تعالى أوَلا يَرى هؤلاء المنافقون **﴿أنهمْ يُفتَنونَ﴾** أي: يختبرون **﴿في كُلِّ عامٍ مرَّةً أوْ مَرَّتينِ ثُمَّ لاَ يَتوبونَ ولاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾** أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذّكرون فيما يستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يختبرون بالسَّنة والجوع. وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين. وفي الحديث عن أنس: . . . وما من عام إلا والذي بعده شر منه. سمعته من نبيكمﷺ.

١٢٧- وقوله: **﴿وَ إذا ما أُنزلتْ سورةٌ نَظَرَ بعضُهُمْ إلَى بَعضٍ هَلْ يَراكُم مِّنْ أحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأنَّهُمْ قَومٌ لاَّ يَفقَهونَ﴾** هذا أيضاً إخبار عن المنافقين، أنهم إذا أنزلت سورة على رسول اللهﷺ **﴿نظرَ بَعضُهُمْ إِلَى بَعضٍ﴾** أي: تلفتوا **﴿هَلْ يَراكُم مِّنْ أحدٍ ثُمَّ انصرَفُوا﴾** أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق، ولا يقبلونه ولا يفهمونه، كقوله تعالى: **﴿فَما لَهُمْ عَنِ التَّذكِرةِ مُعرِضينَ﴾**

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۞ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يميناً وشمالاً، هروباً من الحق، وذهاباً إلى الباطل.

و قوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شغل عنه، ونفور منه، فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾

١٢٨ - يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: منكم وبِلُغتكم. كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إنَّ الله بعث فينا رسولاً منَّا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته، وذكر الحديث.

و قال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: لم يُصبه شيء من ولادة الجاهلية. وقال ﷺ: «خرجتُ من نكاحٍ، ولم أخرج من سِفاح»[(١)]. و قد وصل هذا من وجه آخر، كما روى الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه «الفاصل بين الراوي والواعي»: عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «خرجتُ من نكاحٍ، ولم أخرج من سفاح، من لدنْ آدم إلى أنْ ولدني أبي وأمي، لم يمسني من سفاح الجاهلية شيء».

و قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعز عليه الشيء الذي يَعنتُ أمَّته، ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بُعثتُ بالحنيفية السَّمحة»[(٢)].

و في الصحيح: «إنَّ الدين يسر» وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على مَن يسَّرها الله تعالى عليه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، وروى الطبراني عن أبي ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلِّب جناحيه في الهواء، إلا وهو يَذكر لنا منه علماً. قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما بقي شيءٌ يُقرِّبُ من الجنة، ويباعد من النار، إلا وقد بيِّن لكم».

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لم يُحرِّم حُرمةً، إلا وقد علمَ أنه سيطلِّعها منكم مطلعٌ، ألا وإني آخذ بحجزكم أنْ تهافتوا في النار، كتهافت الفراش أو الذباب».

و قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كقوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

١٢٩ - وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة، المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله كافيَّ، لا إله إلا هو

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٥١) من حديث ابن عباس و عائشة رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة مطولاً و أوله: «إني لم أبعث باليهودية و لا بالنصرانية، و لكني بعثت بالحنيفية السمحة...»، و له شواهد أخرى عند ابن سعد (١/ ١٥١) و غيره.

عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ المَشْرِقِ والمغرِبِ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وكِيلاً﴾.

﴿وَهُوَ ربُّ العَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين ومافيهما وما بينهما، تحت العرش مقهورين بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

و د تقدم الكلام أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن، فأمر زيد بن ثابت فجمعه، وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك.

وفي الصحيح: أن زيداً قال: فوجدت آخر سورة سورة براءة مع خزيمة بن ثابت، أو أبي خزيمة. وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عند رسول الله ﷺ، كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها، والله أعلم.

ترتيبها ١٠	سورة يونس ـ مكية	آياتها ١٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تلْكَ آيَاتُ الْكتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ للنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾

١ - أما الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة.

﴿تلكَ آياتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾ أي: هذه آيات القرآن المحكم المبين.

٢ - وقوله: ﴿أكَانَ للناسِ عَجَباً﴾ الآية. يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار، من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضين من قولهم: ﴿أبشرٌ يَهْدُونَنا﴾ وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أوَعَجِبتُمْ أن جَاءَكُمْ ذِكرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ وقال تعالى مخبراً عن كُفَّار قريش، أنهم قالوا: ﴿أجَعَلَ الآلهَةَ إلَهاً واحِداً إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

و قوله: ﴿أنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ اختلفوا فيه: فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول. وقال العوفي عن ابن عباس: أجراً حسناً بما قدموا، وكذا قال الضحاك والربيع ابن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ بَأساً شَدِيداً﴾ الآية. وقال مجاهد ﴿أنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم. وقال قتادة أو الحسن: ومحمد ﷺ يشفع لهم، وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان، وقال قتادة: سلف صدق عند ربهم. واختار ابن جرير قول مجاهد، أنها الأعمال الصالحة التي قدموها، كما يقال له: قدم في الإسلام، كقول حسان: لنا القَدَمُ العُليا إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع

و قوله تعالى: ﴿قَالَ الكافِرونَ إنَّ هذَا لسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم، رجلاً من جنسهم، بشيراً ونذيراً ﴿قَالَ الكافِرونَ إنَّ هذَا لسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾

٣- يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام. قيل: كهذه الأيام، وقيل: يوم كألف سنة مما تعدّون كما سيأتي بيانه، ثم استوى على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

و قوله: ﴿يُدَبِّرُ الأمْرَ﴾ أي: يدبر أمر الخلائق ﴿لاَ يعزُبُ عنهُ مِثقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمَوَاتِ وَ لاَ في الأرضِ﴾ ولا يشغله شأنه عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار، والعمران والقفار ﴿وَ ما مِن دَابَّةٍ فِي الأرضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزقُهَا﴾ الآية ﴿وَ مَا تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ

إلاَّ يَعلَمُهَا وَ لاَ حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأَرضِ وَ لاَ رَطبٍ وَ لاَ يَابِسٍ إلاَّ في كِتابٍ مُّبِينٍ﴾.

و قوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إلاَّ مِن بَعدِ إذْنِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا الذي يَشفَعُ عِندَهُ إلاَّ بإِذْنِهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَ كَم مِّن مَّلَكٍ في السَّمواتِ لاَ تُغنِي شَفَاعَتُهُمْ شيئاً إلاَّ مِن بَعدِ أن يَأذَنَ اللهُ لِمَن يَشاءُ وَ يَرضَى﴾ وقوله: ﴿ولاَ تَنفَعُ الشَّفاعَةُ عِندَهُ إلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾. وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعبُدُوهُ أفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفردوه بالعبادة، وحده لا شريك له ﴿أفلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلهاً غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرّد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمواتِ السَّبعِ وَرَبُّ العَرشِ العَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

٤- يخبر تعالى أنَّ إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق، كذلك يُعيده ﴿وَهُوَ الذي يَبدأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وهُوَ أَهْوَنُ عَلَيهِ﴾ ﴿لِيَجزِيَ الذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالقِسطِ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوفى ﴿وَ الذينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب، من سموم وحميم، وظل من يحموم ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ * وَ آخَرُ مِن شَكلِهِ أزواجٌ﴾ ﴿هذِهِ جهنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِها المُجرِمُونَ * يَطوفُونَ بَينَها وَ بَينَ حَمِيمٍ آنٍ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

٥- يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدَّر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص، حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿وَ القَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرجُونِ القَدِيمِ * لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أن تُدرِكَ القَمَرَ وَ لاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ في فَلَكٍ يَسبَحُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَ الشَّمْسَ وَ القَمَرَ حُسْباناً﴾ الآية.

و قوله في هذه الآية الكريمة ﴿وَ قَدَّرَهُ﴾ أي: القمر ﴿مَنازِلَ لِتَعلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الحِسابَ﴾ فبالشمس تُعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿ما خَلَقَ اللهُ ذلكَ إلاَّ بالحَقّ﴾ أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وَ مَا خَلَقنَا السَّماءَ والأرضَ وَ مَا بَينَهُمَا باطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الذينَ كَفَرُوا فَوَيلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿أفَحَسِبتُمْ أنَّما خَلَقنَاكُمْ عَبَثاً وَأنَّكُمْ إلينا لاَ تُرجَعُونَ * فَتَعالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ رَبُّ العَرشِ الكَرِيمِ﴾.

و قوله: ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَومٍ يَعلَمُونَ﴾.

٦- وقوله: ﴿إنَّ في اختلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ﴾ أي: تعاقبهما، إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كقوله تعالى: ﴿يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ يَطلُبُهُ حَثِيثاً﴾ وقال: ﴿لاَ الشَّمسُ يَنبَغِي لَها أن تُدرِكَ القمرَ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فالقُ الإصباحِ وجَعلَ اللَّيلَ سَكَناً﴾ الآية.

و قوله: ﴿وما خَلقَ اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿وكأيِّن مِّن آيةٍ في السَّمواتِ والأرضِ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلِ انظُرُوا ماذا في السَّمواتِ والأرضِ ومَا تُغنِي الآياتُ والنُّذُرُ عَن قَومٍ لاَّ يُؤمِنونَ﴾ وقال: ﴿أفَلَم يَرَوا إلَى مَا بَينَ أيدِيهِمْ ومَا خَلفَهُم مِّنَ السَّماءِ والأرضِ﴾ وقال: ﴿إنَّ في خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ واختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الألبابِ﴾ أي: العقول، وقال ههنا: ﴿لآياتٍ لِّقَومٍ يتَّقونَ﴾ أي: عقاب الله وسخطه وعذابه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) ﴾

٧، ٨- يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء، الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة، ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا، واطمأنت إليها نفوسهم. قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها، وهم غافلون عن آيات الله الكونية، فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، فإن مأواهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم، من الآثام والخطايا والإجرام، مع ماهم فيه من الكفر بالله ورسله واليوم الآخر.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾

٩- هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم، يحتمل أنْ تكون الباء ههنا سببية، فتقديره أي: بسبب إيمانهم في الدنيا، يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم، حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يَهدِيهِمْ رَبُّهُمْ بإيمَانِهِمْ﴾ قال: يكون لهم نوراً يمشون به.

و قال ابن جريج في الآية: يمثَّل له عمله في صورة حسنة، وريح طيبة إذا قام من قبره، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهدِيهِمْ رَبُّهُمْ بإيمَانِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة، وريح منتنة، فيلزم صاحبه ويلادّه حتى يقذفه في النار. ورُوي نحوه عن قتادة مرسلاً، فالله أعلم.

١٠- وقوله: ﴿دَعواهُمْ فِيهَا سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعواهُمْ أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ﴾ أي: هذا حال أهل الجنة، قال ابن جريج: أُخبرت بأن قوله: ﴿دَعواهُمْ فِيهَا سُبحانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال: إذا مرَّ بهم الطير يشتهونه قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم فيأتيهم المَلَكُ بما يشتهونه، فيسلم عليهم

فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال مقاتل بن حيان وسفيان الثوري نحوه. وهذه الآية فيها شَبَهٌ من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ الآية. وقوله: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ۝ إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾ وقوله: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ الآية.

و قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حَمِدَ نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة، في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: «إنَّ أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد، كما يُلهمون النَّفس»[1].

و إنما يكون ذلك كذلك، لما يرون من تزايد نعم الله عليهم، فتكرّر وتعاد وتزداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) ﴾

١١- يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده، أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يَعلم منهم عدم القصد بالشر إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه، لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ الآية، أي: لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَدْعُوا على أنفسكم، لا تَدْعُوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا تُوافقوا من الله ساعةً فيها إجابة، فيستجيب لكم» ورواه أبو داود.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُو الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ الآية، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه، فلو يُعجّل لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير، لأهلكهم.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾

١٢- يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسَّه الشر، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة: قلق لها وجزع منها، وأكثرَ الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه، في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرَّج الله شدته، وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾.

(١) رواه مسلم في الجنة و صفة نعيمها و أهلها (٤/ ٢١٨١) من حديث جابر رضي الله عنه.

ثم ذمَّ تعالى مَن هذه صفته وطريقته، فقال: ﴿كذلك زُيِّنَ لِلمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعملونَ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد، والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كقوله تعالى: ﴿إلاَّ الذينَ صَبرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وكقول رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له: إنْ أصابته ضراءُ فصبر، كان خيراً له، وإنْ أصابته سراء فشكر، كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمنين»[1].

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾

١٣، ١٤- أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات، والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم: من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الدنيا حلوة خضرة، وإنَّ الله مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإنَّ أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾

١٥- يخبر تعالى عن تَعنُّتِ الكفار، من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحجته الواضحة، قالوا له: ﴿ائتِ بقُرآنٍ غيرِ هذا﴾ أي: رد هذا، وجئنا بغيره من نمط آخر ﴿أو بَدِّلْهُ﴾ إلى وضع آخر، قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿قُلْ مَا يَكونُ لِي أنْ أُبدِّلَهُ مِن تِلقَاءِ نَفسِي﴾ أي: ليس هذا إلي، إنما أنا عبدٌ مأمورٌ، ورسول مبلغ عن الله ﴿إنْ أتَّبِعُ إلاَّ ما يُوحَى إليَّ إنِّي أخافُ إنْ عَصيتُ ربِّي عذابَ يومٍ عَظيمٍ﴾.

١٦- ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قُل لَوْ شاءَ اللهُ مَا تَلوتُهُ عَليكُمْ وَلاَ أدرَاكُم بِهِ﴾ أي: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك، ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوَّله من عندي، ولا افتريته: أنكم عاجزون عن معارضته، وإنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم، إلى حين بعثني الله عزوجل، لا تنتقدون علي شيئاً تغمصوني به، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لبِثتُ فيكُمْ عُمُراً مِّن قَبلِهِ أفلاَ تَعقِلونَ﴾ أي: أفليس لكم عقولٌ تعرفون بها الحق من الباطل؟!

ولهذا لما سأل هرَقْل - ملك الروم - أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ، قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا، وكان أبوسفيان إذْ ذاك رأس الكفرة، وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، والفضلُ ما شَهِدت به الأعداء، فقال له هرقل: فقد أَعرفُ أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في الزهد (٤/ ٢٢٩٥) بنحوه، و أحمد (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣)، (٦/ ١٥، ١٦) و غيرهما.

و قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بَعَثَ الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه ﷺ بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثاً وأربعين سنة، والصحيح المشهور الأول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)﴾

١٧ - يقول تعالى: لا أحدَ أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ﴿ممن افترى على الله كذباً﴾ وتقوّل على الله وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جُرماً، ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء؟ فإنَّ مَن قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً، فلا بد أن الله يَنْصب عليه من الأدلة، على بره أو فجوره ما هو أظهره من الشمس، فإنَّ الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما، أظهر من بين وقت الضحى، وبين نصف الليل في حندس الظلماء، فمن شِيَم كلٌّ منهما وأفعاله وكلامه، يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ، وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي. قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، فكنتُ فيمن انجفل، فلما رأيتُه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه رجلٍ كذاب، قال: فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[1].

و لما قدم وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر، قال لرسول الله فيما قال له: مَنْ رفع هذه السماء؟ قال: «الله»، قال: ومَن نصب هذه الجبال؟ قال: «الله»، قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: «الله»، قال: فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض، آلله أرسلك إلى الناس كلِّهم؟ قال: «اللهم نعم»، ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام. ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلفُ له رسول الله ﷺ فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص.

فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، وقال حسَّان بن ثابت:

لو لم تكن فيه آياتٌ مُبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخَبَر

و أما مسيلمة فمن شاهده من ذي البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة، وكم من فرقٍ بين قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إلى آخرها، وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه: يا ضفدع بنت ضفدعين، نقّي كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين. وقوله قبحه الله: لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج منه نسمة تسعى، من بين صفاق وحشاً. وقوله خلده الله في نارجهنم، وقد فعل: الفيل، وما أدراك ما الفيل؛ له خرطوم طويل. وقوله أبعده الله عن رحمته: والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، إن قريشاً قوم يعتدون. إلى غير ذلك من الخرافات والهذيانات التي يأنف الصبيان أن يلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء، ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم الحديقة

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٥١) و الترمذي (٢٦١٦) و ابن ماجه (١٣٣٤، ٣٢٥١).

حتفه ، ومزّق شمله ، ولعنه صحبه وأهله . وقدموا على الصديق تائبين ، وجاءوا في دين الله راغبين ، فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنه ، أنْ يقرءوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة لعنه الله ، فسألوه أنْ يعفيهم من ذلك ، فأبى عليهم إلا أنْ يقرءوا شيئاً منه ، ليسمعه من لم يسمعه من الناس ، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم ، فقرءوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه ، فلما فرغوا قال لهم الصديق رضي الله عنه : ويحكم أين يذهب بعقولكم؟ والله إنَّ هذا لم يخرج من إلٍّ[(١)] .

و ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقاً له في الجاهلية ، وكان عمرو لم يسلم بعد فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو! ماذا أنزل على صاحبكم يعني رسول الله ﷺ في هذه المدة؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرءون سورة عظيمة قصيرة ، فقال : وماهي فقال : ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إلى آخر السورة ، ففكّر مسيلمة ساعة ، ثم قال : وأنا قد أنزل علي مثله ، فقال : وماهو؟ فقال : يا وبر يا وبر ، إنما أنت أذان وصدر ، وسائرك حفر نقر . كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو : والله إنك تعلم أني أعلم أنك تكذب .

فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه ، لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه ، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه ، فكيف بأولي البصائر والنُّهى؟ وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجا؟

و لهذا قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ ، و قال في هذه الآية الكريمة : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وكذلك مَن كذَّب بالحق الذي جاءت به الرسل ، وقامت عليه الحجج ، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث : «أعتى الناس على الله : رجلٌ قَتل نبياً أو قتله نبي»[(٢)] .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) ﴾

١٨ - ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله ، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تملك شيئاً ، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ، ولا يكون هذا أبداً ، ولهذا قال تعالى : ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ . وقال ابن جرير : معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟

ثم نزّه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم ، فقال : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

١٩ - ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادثٌ في الناس ، كائن بعد أن لم يكن ، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد ، وهو الإسلام . قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام . ثم وقع

---

(١) أي : لم يخرج من ربوبية و إلهية (اللسان) .

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٠٧) من حديث ابن مسعود مرفوعاً ، و لفظه : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة : رجلٌ قتله نبيٌ أو قتل نبياً ، و إمام ضلالة ، و ممثلٌ من الممثلين» . أما ما ذكره المصنف هنا ، فقريبٌ منه ما رواه أحمد أيضاً (٢/ ١٨٧) (٤/ ٣٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً : «إنَّ أعتى الناس على الله عز وجل : مَن قَتَل في الحرم ، أو قَتَل غير قاتله ، أو قتل بذُحول الجاهلية» وهو حديث صحيح أيضاً .

الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته، وحججه البالغة، وبراهينه الدامغة ﴿لِيهلكَ مَنْ هَلكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾. وقوله: ﴿ولَولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ﴾ الآية، أي: لولا ما تقدم من الله تعالى: أنه لا يُعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه قد أجّل الخلق إلى أجلٍ معدود، لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعد المؤمنين، وأعنت الكافرين.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) ﴾

٢٠- أي: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أُنزل على محمد آية من ربه، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يُحَوِّل لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين أو نهاراً، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تَبارَكَ الَّذِي إِن شاءَ جَعلَ لَكَ خَيراً مِن ذَلِكَ جَناتٍ تَجْرِي مِن تَحتِها الأَنهارُ وَيَجعل لَّكَ قُصوراً * بَل كَذَّبوا بِالسَّاعةِ وَأَعْتَدْنا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعةِ سَعيراً﴾ وكقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرسِلَ بِالآياتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِها الأَوَّلُونَ﴾ الآية. يقول تعالى: إنَّ سنتي في خلقي: أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة، ولهذا لما خُيِّر رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألوا، فإنْ آمنوا وإلا عُذِّبوا، وبين إنظارهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوا ﴿فَقُلْ إِنَّما الغَيبُ لِلهِ﴾ أي: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب في الأمور ﴿فانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ المُنتَظِرينَ﴾ أي: إنْ كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم، فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم.

هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا، حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق اثنتين: فرقة من وراء الجبل، فرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية، مما سألوا ومالم يسألوا.

و لو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وتثبتاً لأجابهم، ولكن عَلِمَ أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحدٌ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤمِنونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ الآية. و قوله تعالى: ﴿و لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنَا إِلَيهِمُ المَلائكةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوتَى وَحَشَرْنا عَلَيهِمْ كُلَّ شَيءٍ قُبلاً مَّا كانُوا لِيُؤمِنُوا إِلاَّ أَن يَشاءَ اللهُ﴾ الآية، و لما فيهم من المكابرة، كقوله تعالى: ﴿ولَوْ فَتَحنَا عَلَيهِم باباً مِّنَ السَّماءِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَروا كِسفاً مِّنَ السَّماءِ ساقِطاً﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلنا عَلَيكَ كِتاباً فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحرٌ مُّبِينٌ﴾.

فمثل هؤلاء أقل من أنْ يُجابوا إلى ما سألوا، لأنه لا فائدة في جوابهم، لأنه دائرٌ على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم، ولهذا قال: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ المُنتَظِرينَ﴾.

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ

يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾

٢١- يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط، ونحو ذلك ﴿إذا لهم مكرٌ في آياتنا﴾ قال مجاهد: استهزاء وتكذيب، كقوله: ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَو قَائِماً﴾ الآية؛ وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل ـ أي مطر ـ ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فذاك مؤمنٌ بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا، وكذا فذاك كافرٌ بي ومؤمن بالكوكب».

و قوله: ﴿قل اللهُ أسرعُ مَكراً﴾ أي: أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن الظانُّ من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غِرَّة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويُحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الجليل والحقير، والنقير والقطمير.

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هُو الذي يُسيِّرُكمْ في البَرِّ وَ البَحْرِ﴾ أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿حتى إذا كُنتُمْ في الفُلْكِ وَجَرينَ بهم بريحٍ طَيِّبةٍ وَ فَرِحُوا بِها﴾ أي: بسرعة سيرهم رافقين، فبينماهم كذلك إذ ﴿جاءَتْها﴾ أي: تلك السفن ﴿ريحٌ عاصفٌ﴾ أي: شديدة ﴿و جاءهُم المَوْجُ﴾ أي: اغتلم البحر عليهم ﴿وَ ظَنُّوا أنّهمْ أُحيطَ بهمْ﴾ أي: هلكوا ﴿دعَوا اللهَ مُخلصِينَ لهُ الدينَ﴾ أي: لايدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يُفردونه بالدعاء والابتهال، كقوله تعالى: ﴿وَ إذا مَسَّكم الضُّرُّ في البَحرِ ضلَّ مَن تَدْعونَ إلاَّ إيَّاهُ فلمَّا نَجَّاكُمْ إلَى البَرِّ أعرَضتُمْ وكان الإنسانُ كَفوراً﴾ وقال هاهنا: ﴿دعَوا اللهَ مُخلصِينَ لهُ الدينَ لئن أنجيتنا من هذه﴾ أي: هذه الحال ﴿لَنكونَنَّ مِن الشَّاكرينَ﴾ أي: لا نشرك بك أحداً، ولَنُفردنَّك بالعبادة هناك، كما أفردناك بالدعاء ههنا.

٢٣- قال تعالى: ﴿فلمَّا أنجاهُمْ﴾ أي: من تلك الورطة ﴿إذاهُمْ يَبغونَ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ﴾ أي: كأن لم يكن من ذلك شيء ﴿كأن لَّمْ يَدْعُنا إلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناسُ إنَّما بَغيُكمْ علَى أنفُسكُمْ﴾ أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذَنب أجدر من أنْ يُعجِّل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدَّخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم»[1].

و قوله: ﴿متاعُ الحياةِ﴾ أي: إنما لكم متاع، في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إلينا مَرجِعُكمْ﴾ أي: مصيركم ومآلكم ﴿فنُنبِّئُكمْ﴾ أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلومَنَّ إلا نفسه.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ﴾

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٠٢) و الترمذي (٢٦٤٢) و ابن ماجه (٤٢١١) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

٢٤ – ضَرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها ، وسرعة انقضائها وزوالها ، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض ، بماء أنزل الله من السماء ، مما يأكل الناس من زروع وثمار ، على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقَضْب وغير ذلك ﴿حتَّى إذا أخذَت الأرضُ زُخرُفَها﴾ أي : زينتها الفانية ﴿وازيَّنَتْ﴾ أي : حَسُنت بما خرج في رُباها من زهور نضرة ، مختلفة الأشكال والألوان ﴿وظنَّ أهْلُها﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أنَّهم قادِرونَ علَيها﴾ أي : على جُذاذها وحصادها ، فبينما هم كذلك ، إذْجاءتها صاعقة ، أو ريح شديدة باردة ، فأيبست أوراقها ، وأتلفت ثمارها ، ولهذا قال تعالى : ﴿أتاها أمرُنا لَيلاً أو نَهاراً فَجعَلْناها حَصيداً﴾ أي : يابساً بعد الخضرة والنضارة ﴿كأن لَّم تَغنَ بالأَمسِ﴾ أي : كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك .

و قال قتادة : ﴿كأن لَّم تَغنَ﴾ كأن لم تنعم ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن .

و لهذا جاء في الحديث : «يُؤتى بأنعمِ أهلِ الدنيا فيُغمس في النار غمسةً ، فيقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط ؟ فيقول : لا ، ويُؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا ، فيغمس في النعيم غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول : لا» [1] .

و قال تعالى إخباراً عن المهلكين : ﴿فأصبَحُوا في دارِهِمْ جاثِمينَ ❁ كأن لَّمْ يغنَوْا فيها﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿كذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ﴾ أي : نبين الحجج والأدلة ﴿لِقومٍ يَتفكَّرونَ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعاً ، مع اغترارهم بها ، وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها ، ونقلتها عنهم ، فإنَّ من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها ، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض ، في غير ما آيةٍ من كتابه العزيز ، فقال في سورة الكهف : ﴿و اضرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَياةِ الدُّنيا كَماءٍ أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاختلطَ بِهِ نباتُ الأرضِ فأصبحَ هَشيماً تَذْروهُ الرِّياحُ وَكانَ اللهُ علَى كُلِّ شيءٍ مُّقتَدِراً﴾ وكذا في سورة الزمر والحديد يضرب الله بذلك ، مثل الحياة الدنيا .

٢٥ – وقوله تعالى : ﴿و اللهُ يدْعُو إِلَى دارِ السَّلامِ﴾ الآية . لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها ، رغَّب في الجنة ودعا إليها ، وسمَّاها دار السلام ، أي : من الآفات ، والنقائص والنكبات ، فقال : ﴿و اللهُ يدْعُو إِلَى دارِ السَّلامِ وَيهدِي مَن يشاءُ إِلَى صِراطٍ مُّستَقيم﴾ . وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : «إني رأيت في المنام ، كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجلي ، يقول أحدهما لصاحبه : اضربْ له مثلاً ، فقال : اسْمع سمعتْ أذنك ، واعقل عَقَل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك : كمثل ملكٍ اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مأدُبة ، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فالله الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد الرسول ، فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها» رواه ابن جرير .

و عن أبي الدرداء مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من يوم طلعتْ فيه الشمس ، إلا وبجَنَبتيها ملكان يُناديان ، يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هَلُمُّوا إلىَ ربكم ، إنَّ ما قَلَّ وكفى ، خيرٌ مما كثر وألهى» قال : وأنزل في ذلك القرآن ، في قوله : ﴿و اللهُ يدْعُو إِلَى دارِ السَّلامِ وَيهدِي مَن يشاءُ إِلَى صِراطٍ مُّستَقيم﴾ الآية . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤) و مسلم في صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٢) و ابن ماجه و اللفظ له تقريباً ، من حديث أنس رضي الله عنه .

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾

٢٦- يُخبر تعالى أنَّ لمن أحسن العمل في الدنيا، بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هلْ جزاءُ الإحسانِ إلاَّ الإحسانُ﴾. وقوله: ﴿و زيادة﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرّة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادةٌ أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله ورحمته.

و قد رُوي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم: عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبيﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن صهيبرضي الله عنه: أن رسول اللهﷺ تلا هذه الآية: ﴿للذينَ أحسنُوا الحُسنَى وزِيادَةٌ﴾ وقال: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إنَّ لكم عند الله موعداً يريد أنْ يُنجزكموه، فيقولون: وماهو؟ ألم يُثقِّل موازيننا؟ ألم يبيِّض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويُجِرْنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقرَّ لأعينهم» وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة.

و قوله تعالى: ﴿و لا يرهَقُ وجوهَهمْ قتَرٌ﴾ أي: قتام وسواد في عَرَصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة، من القترة والغبرة ﴿ولا ذِلَّةٌ﴾ أي: هوان وصغار، أي: لا يحصل لهم إهانةٌ في الباطن ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فوقَاهُم اللهُ شرَّ ذلكَ اليومِ ولقَّاهُمْ نضرةً وسُروراً﴾ أي: نضرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته، آمين.

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) ﴾

٢٧- لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك ﴿وترهقهم﴾ أي: تعتريهم وتعلوهم ذلك، من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿و تراهم يُعرَضُونَ عليهَا خاشعِينَ مِن الذُّلِّ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ولا تَحسَبنَّ اللهَ غافلاً عمَّا يعملُ الظالمونَ ❁ إنَّما يُؤخِّرُهُمْ ليومٍ تشخَصُ فيهِ الأبصارُ ❁ مُهطعين مُقْنعِي رُءوسِهِمْ﴾ الآيات.

و قوله: ﴿ما لَهم مِّنَ اللهِ مِنْ عاصمٍ﴾ أي: مانع، ولا واق يقيهم العذاب، كقوله تعالى: ﴿يقولُ الإنسانُ يومئذٍ أينَ المَفرُّ ❁ كلاَّ لاَ وزرَ ❁ إلى ربِّكَ يومئذٍ المُستقرُّ﴾.

و قوله: ﴿كأنما أُغشيَتْ وُجوهُهمْ﴾ الآية، إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ فأمَّا الذينَ اسودَّتْ وجوهُهمْ أكفرتُمْ بعدَ إيمانِكُمْ فذُوقُوا العذابَ بما كُنتمْ

تكفُرونَ﴾ وَ أمَّا الذينَ ابيضَّتْ وجوهُهمْ ففِي رحمةِ اللهِ هُمْ فِيها خَالِدونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وُجوهٌ يومئذٍ مُسفِرةٌ﴾ ضَاحكةٌ مُستبشِرةٌ﴾ وَوُجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرةٌ﴾ الآية.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾

٢٨- يقول تعالى: ﴿و يومَ نَحشُرهُمْ﴾ أي: أهل الأرض كلهم، من جنٍّ وإنس وبر وفاجر، كقوله: ﴿وَحشَرْناهُمْ فلَمْ نُغادِرْ مِنهُمْ أحداً﴾. ﴿ثُمَّ نَقولُ لِلذينَ أشرَكُوا﴾ الآية، أي: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿و امتازُوا اليومَ أيُّها المُجرِمونَ﴾ وقوله: ﴿وَ يومَ تقومُ السَّاعةُ يومئذٍ يَتفرَّقونَ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿يَومئذٍ يَصدَّعونَ﴾ أي: يصيرون صِدْعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، ولهذا قيل: ذلك [1] يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى، أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كَوْم فوق الناس» [2].

و قال الله تعالى في هذه الآية الكريمة، إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة ﴿مَكانَكم أنتُمْ وَشُركاؤُكُمْ فزيَّلْنَا بَينَهُمْ﴾ الآية، أنهم أنكروا عبادتهم، وتبرءوا منهم، كقوله: ﴿كَلاَّ سَيَكفُرونَ بِعبادتِهِمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿إذْ تبرَّأ الذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا﴾ وقوله: ﴿وَ مَنْ أضلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَ يَستجيبُ لهُ إلَى يومِ القيامةِ وَهُمْ عَن دُعائِهِمْ غَافِلونَ﴾ وَ إذا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أعداءً﴾ الآية، وقوله في هذه الآية، إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم، عند ادعائهم عباداتهم:

٢٩- ﴿فكفَى باللهِ شَهيداً بينَنَا وبينَكمْ﴾ الآية، أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنَّا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبكيتٌ عظيمٌ للمشركين، الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به، ولا أراده، بل تبرأ منهم في وقتٍ أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿و لقدْ بَعثْنا في كلِّ أمَّةٍ رَسولاً أنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنهُم مَّنْ حَقَّتْ عَليهِ الضَّلالَةُ﴾. وقال تعالى: ﴿وَ مَا أرسَلنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إليهِ أنَّهُ لاَ إلهَ إلاَّ أنا فَاعبُدُونِ﴾ وقال: ﴿وَ اسألْ مَنْ أرْسَلنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسلِنا أجَعَلنا مِن دُونِ الرَّحمَنِ آلهةً يُعبَدونَ﴾ والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبيّن أحوالهم وأقوالهم، وردَّ عليهم فيما هم فيه أتم رد.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿هُنالِكَ تَبلُو كُلُّ نفسٍ مَّا أسلفتْ﴾ أي: في موقف الحساب يوم القيامة، تُختبر كل نفس، وتعلم ما سلف من عملها، من خير وشر، كقوله تعالى: ﴿يَومَ تُبلَى السَّرائِرُ﴾ وقال تعالى: ﴿يُنبَّأ الإنسانُ يومَئذٍ بِما قَدَّمَ وأخَّرَ﴾ وقال تعالى: ﴿و نُخرِجُ لَهُ يومَ القيامَةِ كِتاباً يَلقَاهُ مَنشُوراً﴾ اقرأْ كِتابَكَ كَفَى

(١) بياض بالأصل.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٤٥) و مسلم في الإيمان (١/ ١٧٧ ـ ١٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه. و الكوم: المكان المرتفع العالي.

بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾.

وقد قرأ بعضهم ﴿هنالك تتلو كل نفس ما أسلفت﴾ وفسرها بعضهم: بالقراءة، وفسرها بعضهم بمعنى: تتبعُ ما قدمت من خير وشر، وفسرها بعضهم بحديث: «لِتَتْبِع كل أُمَّةٍ ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمسَ الشمس، ويتبع مَن كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث[1].

و قوله: ﴿و ردُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النار النار ﴿وَ ضلَّ عنهم﴾ أي: ذهب عن المشركين ﴿ما كانوا يفترون﴾ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾

٣١- يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته، على وحدانيته الإلهية، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يرزقكم مِّن السَّماءِ والأرضِ﴾ أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته، فيخرج منها ﴿حبًّا * وعِنبًا وقَضبًا * وزيتونًا ونخلاً * وحدائق غُلبًا * وفاكهةً و أبًّا﴾ أإله مع الله؟ فسيقولون: الله ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾. وقوله: ﴿أمَّن يَملِكُ السَّمْعَ وَ الأبصارَ﴾ أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة؛ ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أنشأكُمْ وَ جَعلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الأبصارَ﴾ الآية؛ وقال: ﴿قُلْ أرَأيْتُمْ إنْ أخذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَ أبصارَكُمْ﴾ الآية.

و قوله: ﴿وَمَن يُخرِجُ الحيَّ مِنَ المَيِّتِ وَ يُخرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ﴾ أي: بقدرته العظيمة ومنته العميمة وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك، وأن الآية عامة لذلك كله.

و قوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الأمرَ﴾ أي: مَن بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴿يَسألُهُ مَن في السَّمواتِ والأرضِ كُلَّ يوم هُو في شَأنٍ﴾ فالملك كله العُلوى والسفلى، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيدٌ له، خاضعون لديه ﴿فَسيقُولونَ اللهُ﴾ أي: هم يعلمون ذلك، ويعترفون به ﴿فَقُلْ أفلا تَتَّقونَ﴾ أي: أفلا تخافون منه، أن تعبدوا معه غيره، بآرائكم وجهلكم.

٣٢- وقوله: ﴿فذَلِكُم اللهُ ربُّكُم الحقُّ﴾ الآية، أي: فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله، هو ربكم وإلهكم الحق، الذي يستحق أنْ يُفرد بالعبادة ﴿فمَاذا بعدَ الحَقِّ إلاَّ الضَّلالُ﴾ أي: فكل معبودٍ سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد لا شريك له ﴿فأنَّى تُصرَفونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه؟ وأنتم تعلمون أنه الربُّ الذي خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء.

٣٣- وقوله: ﴿كَذلِكَ حقَّتْ كَلمَةُ ربِّكَ عَلى الذِينَ فَسَقُوا﴾ الآية، أي: كما كفر هؤلاء المشركون، واستمروا على شركهم، وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق، المتصرف في الملك

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٦٤) من حديث أبي هريرة، و نحوه أيضاً من حديث أبي سعيد (١/ ١٦٧).

وحده، الذي بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمة الله: أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿قالُوا بَلَى ولَكنْ حقَّتْ كَلِمَةُ العذابِ علَى الكافرِينَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

٣٤- وهذا إبطالٌ لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: مَنْ بدأ خلق هذه السموات والأرض؟ ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق؛ ويفرِّق أجرام السموات والأرض، ويبدلهما بفناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً؟ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا، ويستقبل به وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل.

٣٥- ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضُّلَّال، ويقلِّب القلوب من الغي إلى الرشد: الله الذي لا إله إلا هو ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ أي: أفيتبع العبدُ الذي يَهدي إلى الحق، ويُبصِّر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه، كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يا أبتِ لِمَ تعبُدُ ما لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ ولا يُغنِي عنكَ شيئاً﴾ وقال لقومه: ﴿أتعبُدونَ ما تَنحِتُونَ * واللهُ خلَقَكُمْ وما تعمَلُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿فَما لَكُمْ كيفَ تَحكُمونَ﴾ أي: ما بالكم أنْ يُذهب بعقولكم، كيف سوّيتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الربَّ جلَّ جلاله ـ المالك الحاكم الهادي من الضلالة ـ بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة؟

٣٦- ثم بيَّن تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظنٌّ منهم، أي: توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً ﴿إنَّ اللهَ عليمٌ بما يفعَلُونَ﴾ تهديدٌ لهم، ووعيدٌ شديد، لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)﴾

٣٧- هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أنْ يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من

مثله ، لأنه بفصاحته وبلاغته ، ووجازته ، وحلاوته ، واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة ، النافعة في الدنيا والآخرة ، لا تكون إلا من عند الله ، الذي لا يشبهه شيءٌ في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله وأقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي : مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي : من الكتب المتقدمة ، ومهيمناً عليه ، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل . وقوله : ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي : وبيَّنا الأحكام ، والحلال والحرام ، بياناً شافياً كافياً ، حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين .

٣٨- وقوله : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي : إنْ ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله ، وقلتم كذباً وميناً إن هذا من عند محمد ، فمحمدٌ بشر مثلكم ، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن ، فأتوا أنتم بسورةٍ مثله ، أي : من جنس هذا القرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه ، من إنس وجان ؛ وهذا هو المقام الثالث في التحدي ، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إنْ كانوا صادقين في دعواهم ، أنه من عند محمد ، فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده ، وليستعينوا بمن شاءوا .

و أخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ، ولا سبيل لهم إليه ، فقال تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه ، فقال في أول سورة هود : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

ثم تنازل إلى سورة ، فقال في هذه السورة : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وكذا في سورة البقرة ـ وهي مدنية ـ تحداهم بسورة منه ، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً ، فقال : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ الآية . هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب ، ولكن جاءهم من الله مالا قِبَل لأحدٍ به ، ولهذا آمن منهم بما عَرَف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته ، وجزالته وطلاوته ، وإفادته وبراعته ، فكانوا أعلم الناس به ، وأفهمهم له ، وأتبعهم له ، وأشهرهم له انقياداً ، كما عَرَف السحرة ـ لعلمهم بفنون السحر ـ أنَّ هذا الذي فعله موسى عليه السلام ، لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد ، مرسل من الله ، وأن هذا لا يُستطاع لبشر إلا بإذن الله ، وكذلك عيسى عليه السلام بُعث في زمان علماء الطب ، ومعالجة المرضى ، فكان يُبرئ الأكمه والأبرص ، ويُحيي الموتى بإذن الله ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه ، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله .

و لهذا جاء في الصحيح : عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ، ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرهم تابعاً» .

٣٩- وقوله : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يقول : بل كذب هؤلاء بالقرآن ، ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي : ولم يُحصّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق ، إلى حين تكذيبهم به ، جهلاً وسفهاً ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي : من الأمم السالفة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي : فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً ، وكفراً وعناداً وجهلاً ، فاحذروا أيها المكذبون أنْ

يُصيبكم ما أصابكم .

٤٠- وقوله : ﴿وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ الآية ، أي : ومن هؤلاء الذين بُعثتَ إليهم يا محمد ، مَن يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك وينتفع بما أُرسلت به ﴿وَمِنهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بل يموت على ذلك ، ويبعث عليه ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي : وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، و مَن يستحق الضلالة فيضله ، وهو العادل الذي لا يجور ؛ بل يُعطي كلاً ما يستحقه ، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه ، لا إله إلا هو .

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(٤٤) ﴾

٤١- يقول تعالى لنبيه ﷺ : وإنْ كذَّبك هؤلاء المشركون ، فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ كقوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخرها ؛ وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين : ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية .

٤٢- وقوله : ﴿وَمِنهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي : يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن العظيم ، والأحاديث الصحيحة الفصيحة ، النافعة في القلوب والأديان والأبدان ، وفي هذا كفاية عظيمة ؛ ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم ، فإنك لا تَقدر على إسماع الأصم ، وهو : الأطرش ، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء ، إلا أن يشاء الله .

٤٣- ﴿وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي : ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التُّؤدة ، والسمت الحسن ، والخُلُق العظيم ، والدلالة الظاهرة على نبوّتك ، لأولى البصائر والنهى ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار ، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً﴾ الآية .

٤٤- ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً ، وإنْ كان قد هَدَى به من هدى ، وبصَّر به من العمى ، وفتح به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غُلْفاً ، و أضلَّ به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء ، الذي لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون ، لعلمه وحكمته وعدله ، ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

و في الحديث : عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : «يا عبادي ، إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ـ إلى أن قال في آخره : يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ، ثم أُوفيكم إياها ، فمن وَجَد خيراً فليحمد الله ، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه» رواه مسلم بطوله .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ

﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) ﴾

٤٥ - يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة، وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الآية، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ وكقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ الآيتين، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة، كقوله: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء، والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كلٌّ مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ الآيات.

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، ولا خسارة أعظم من خسارة مَن فُرِّق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) ﴾

٤٦ - يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: ننتقم منهم في حياتك، لتقرَّ عينك منهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك.

٤٧ - وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ الآية، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر، موضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً، أمة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة، وإنْ كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم، ويقضي لهم، كما جاء في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق». فأمته إنما حازت قَصَب السبق، بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه، دائماً إلى يوم الدين.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) ﴾

٤٨- يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين، في استعجالهم العذاب، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة لهم فيه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: كائنة لا محالة، وواقعة وإنْ لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم، فقال:

٤٩- ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ الآية، أي: لا أقول إلا ما علّمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به، إلا أن يطلعني الله عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة، وأنها كائنة، ولم يُطلعني على وقتها، ولكن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: لكل قرن مدة من العمر مقدَّرة، فإذا انقضى أجلهم ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ كقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ الآية.

٥٠، ٥١- ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: ليلاً أو نهاراً. ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ۞ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۞ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

٥٢- ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: يوم القيامة، يقال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً، كقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) ﴾

٥٣- يقول تعالى: ويستخبرونك: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ أي: المعاد، والقيامة من الأجداث، بعد صيرورة الأجسام تراباً ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: ليس صيرورتكم تراباً، بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم، فإنما ﴿أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن، إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أنْ يقسم به، على من أنكر المعاد في سورة سبأ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وفي التغابن ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٥٤- ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة، يودُّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) ﴾

٥٥ ، ٥٦ - يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنّ وعده حقٌّ كائن لا محالة، وأنه يحيي الموتى وإليه مرجعهم؛ وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرّق من الأجسام، وتمزق في سائر أقطار الأرض، والبحار والقفار.

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِّما في الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾

٥٧ - يقول تعالى ممتناً على خلقه، بما أنزله من القرآن العظيم، على رسوله الكريم ﴿يا أيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: زاجر عن الفواحش، وشفاء لما في الصدور، أي: من الشُّبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى؛ وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدّقين، الموقنين بما فيه، كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ الآية.

٥٨ - وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أي: بهذا الذي جاءهم من الله، من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: من حُطام الدنيا، ومافيها من الزهرة الفانية، الذاهبة لا محالة.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠) ﴾

٥٩ - قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و غيرهم: نزلت إنكاراً على المشركين، فيما كانوا يحلون ويحرمون، من البحائر والسوائب والوصايل، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ الآيات. وروى الإمام أحمد: عن أبي الأحوص ـ وهو عوف ابن مالك بن نضلة ـ يحدث عن أبيه قال: أتيتُ رسول الله ﷺ وأنا رَثُّ الهيئة، فقال: «هل لك مال؟» قلت: نعم، قال: «من أي المال؟» قال: قلت: من كل المال؛ من الإبل والرقيق والخيل والغنم، فقال: «إذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك» وقال: «هل تنتج إبلك صحاحاً آذانها، فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها، فتقول: هذه بُحُر، وتشق جلودها وتقول: هذه صُرُم، وتُحرِّمُها عليك وعلى أهلك» قال: نعم، قال: «فإن ما آتاك الله لك حلٌّ، ساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحدُّ من موساك» وذكر تمام الحديث. و هذا حديث جيد قوي الإسناد.

وقد أنكر الله تعالى على مَن حرَّم ما أحل الله، أو أحلّ ما حرم، بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها ولا دليل عليها.

٦٠ - ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ما ظنهم أنْ يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال ابن جرير: في تركهِ مُعاجلتهم بالعقوبة في الدنيا. قلت: ويحتمل أن يكون المراد: لذو فضل على الناس فيما أباح

لهم، مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يُحرِّم عليهم إلا ماهو ضارٌّ لهم، في دنياهم أو دينهم ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيِّقون على أنفسهم، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾

٦١- يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله، وأحوال أمته، وجميع الخلائق، في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة، في حقارتها وصغرها، في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر، إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار، وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة، في قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية، وإذا كان هذا علمه بحركاتِ هذه الأشياء، فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ أي: إذْ تأخذون في ذلك الشيء، نحن مشاهدون لكم راءون سامعون، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبُدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإن لَم تَكُن تراه فإنه يراكَ»(١).

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾

٦٢- يخبر تعالى أن أولياءه: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسَّرهم ربهم، فكل مَنْ كان تقياً، كان لله ولياً فـ ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم في الدنيا، وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين إذا رُؤوا، ذُكِر الله. وقد ورد هذا في حديث مرفوع، كما روى البزار: عن ابن عباس قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، مَن أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا، ذُكر الله».

و روى ابن جرير: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من عباد الله عباداً، يَغبطهم الأنبياءُ والشهداء»، قيل: مَنْ هم يا رسول الله، لعلنا نحبهم؟ قال: «هم قومٌ تحابوا في الله، من غير أموالٍ ولا أنساب، وجوههم نورٌ على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. ثم رواه أيضاً أبو داود من حديث عمر بمثله.

و روى الإمام أحمد: عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٣٧) من حديث عمر رضي الله عنه.

﴿الآخرة﴾ قال: «الرؤيا الصالحة يَراها المسلم، أو تُرى له» ورواه ابن جرير.

و روى الإمام أحمد أيضاً: عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر: أنه قال: يا رسول الله، الرجل يَعمل العمل، ويحمده الناس عليه، ويثنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بُشرى المؤمن» رواه مسلم.

و روى ابن جرير: عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: **﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**: «الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن، جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة».

و روى أيضاً ابن جرير: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ **﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾** قال: «في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له، وهي في الآخرة الجنة».

و روى ابن جرير: عن أم كُرز الكعبية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبتْ النبوة، وبقيتْ المبشرات».

و هكذا روي عن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وغيرهم، أنهم فسروا ذلك: بالرؤيا الصالحة. وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن، عند احتضاره بالجنة والمغفرة، كقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾**.

و في حديث البراء رضي الله عنه: أن المؤمن إذا حضره الموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة، إلى رَوْحٍ وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السِّقاء، وأما بشراهم في الآخرة: فكما قال تعالى: **﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾** وقال تعالى: **﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**.

و قوله: **﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾** أي: هذا الوعد لا يبدّل ولا يخلف، ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة **﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**.

﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) ﴾

٦٥- يقول تعالى لرسوله ﷺ **﴿وَلا يَحْزُنكَ﴾** قول هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه، فإنَّ العزة لله جميعاً، أي: جميعها له ولرسوله ﷺ وللمؤمنين **﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** أي: السميع لأقوال عباده، العليم بأحوالهم.

٦٦- ثم أخبر تعالى أنَّ له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهي لا تملك شيئاً، ولا ضراً ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم، وكذبهم وإفكهم.

٦٧- ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليَسكُنوا فيه، أي: يستريحون من نصبهم، وكلالهم وحركاتهم

﴿والنّهارَ مُبصِراً﴾ أي: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم، وأسفارهم ومصالحهم ﴿إنّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يسمعونَ﴾ أي: يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون بها، ويستدلون على عظمة خالقها، ومقدّرها ومُسيرها.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾

٦٨- يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ﴿ولداً سُبحانَهُ هُوَ الغَنِيُّ﴾ أي: تقدس عن ذلك، هو الغني عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه ﴿لهُ ما في السّمواتِ وما في الأرضِ﴾ أي: فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شيء مملوكٌ له، عبدٌ له ﴿إنْ عِندكُم مّن سُلطانٍ بهذا﴾ أي: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿أتقولونَ على الله مالا تعلمون﴾ إنكار ووعيد أكيد، وتهديد شديد، كقوله تعالى: ﴿وقالوا اتّخذَ الرّحمنُ ولداً * لقدْ جئتُمْ شيئاً إدّاً * تكادُ السّمواتُ يتفطّرنَ منهُ وتنشقُّ الأرضُ وتخرُّ الجبالُ هدّاً * أن دعَوا للرّحمنِ ولداً * وما ينبغي للرّحمنِ أن يتّخذَ ولداً * إن كُلُّ مَن في السّمواتِ والأرضِ إلاّ آتِي الرّحمنِ عبْداً * لقدْ أحصاهُمْ وعدّهُمْ عدّاً * وكُلّهُمْ آتيهِ يومَ القيامةِ فرْداً﴾.

٦٩- ثم توعّد تعالى الكاذبين عليه المفترين، ممن زعم أنه له ولداً، بأنهم لا يفلحون في الدنيا، ولا في الآخرة، فأما في الدنيا؛ فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم، متّعهم قليلاً ﴿ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ كما قال تعالى ههنا:

٧٠- ﴿متاعٌ في الدُّنيا﴾ أي: مدة قريبة ﴿ثُمّ إلينا مرجعُهُم﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثُمّ نُذيقُهُمُ العذابَ الشّديدَ﴾ أي: الموجع المؤلم ﴿بما كانُوا يكفرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم، وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ﴾

٧١- يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿واتلُ عليهِمْ﴾ أي: أخبرهم واقصص عليهم، أي: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نبأَ نُوحٍ﴾ أي: خَبَرَه مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله، ودمّرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أنْ يصيبهم من الهلاك والدمار، ما أصاب أولئك ﴿إذْ قالَ لقومهِ يا قومِ إن كانَ كبُرَ عليكُم﴾ أي: عظم عليكم ﴿مّقامي﴾ أي: فيكم بين أظهركم ﴿وتذكيري﴾ إياكم ﴿بآياتِ اللهِ﴾ أي: بحججه وبراهينه ﴿فعلى اللهِ توكّلتُ﴾ أي: فإني لا أبالي، ولا أكف عنكم، سواء عَظُم عليكم أولا ﴿فأجمِعُوا أمْرَكُمْ وشُركاءَكُمْ﴾ أي: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم، الذين تدعون من دون الله، من

صنم ووثن ﴿ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي، فإنْ كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلي ﴿وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ أي: ولا تتأخرون ساعة واحدة، أي: مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أبالكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء.

كما قال هود لقومه ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الآية.

٧٢- وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: كذَّبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: لم أطلب منكم على نُصحي إياكم شيئاً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإنْ تنوعت شرائعهم، وتعددت مناهلهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ قال ابن عباس: سبيلاً وسنة. فهذا نوح يقول ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالى عن إبراهيم الخليل ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ وقال السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ وقال خاتم الرسل وسيد البشرﷺ ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة.

ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلاَّت، وديننا واحد»[1].

أي: هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإنْ تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد علات» وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

٧٣- وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾ أي: على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهي السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ﴾ أي: في الأرض ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: يا محمد، كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾

٧٤- يقول تعالى ثم بعثنا من بعد نوح، ﴿رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: الحجج والأدلة والبراهين، على صدق ما جاؤهم به ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أو ما أرسلوا إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ الآية. وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: كما طبع الله على هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم

(١) رواه البخاري في الأنبياء (٦/ ٤٧٨) ومسلم في الفضائل (٤/ ١٨٣٧) من حديث أبي هريرة بنحوه.

المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

و المراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح ﷺ، فإنَّ الناس كانوا من قبله من زمان آدم ﷺ على الإسلام، إلى أنْ أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً ﷺ، ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنتَ أولُ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض.

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ الآية، وفي هذا إنذارٌ عظيم لمشركي العرب، الذين كذبوا سيد الرسل، وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذَّب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

٧٥- يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَى وهارونَ إلى فِرعونَ وَملَئِهِ﴾ أي: قومه ﴿بآياتنا﴾ أي: حججنا وبراهيننا ﴿فاستكبَرُوا وكانُوا قوماً مُّجرِمينَ﴾ أي: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، وكانوا قوماً مجرمين.

٧٦- ﴿فلمَّا جاءَهُمُ الحقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إنَّ هَذَا لَسِحرٌ مُّبِينٌ﴾ كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أنَّ ما قالوه كذبٌ وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أنفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوّاً﴾ الآية.

٧٧، ٧٨- ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَى﴾ منكراً عليهم: ﴿أتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أسِحرٌ هذَا وَ لاَ يُفلِحُ السَّاحِرونَ ❁ قَالُوا أجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: تثنينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا﴾ أي: الدِّين الذي كانوا عليه ﴿وَ تَكُونَ لَكُمَا﴾ أي: لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ أي: العظمة والرياسة ﴿في الأرضِ وما نحنُ لَكُمَا بِمُؤمِنِينَ﴾.

و كثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى ﷺ مع فرعون في كتابه العزيز، لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حَذِر من موسى كُلَّ الحذر، فسَخَّره القَدَر أنْ ربَّى هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته، بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله تعالى، وليس له وزير سوى أخيه هارون ﷺ، فتمرّد فرعون واستكبر؛ وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوي رأسه وتولى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله وعَتى وبغى، وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى ﷺ وأخاه هارون، ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التي لا تنام؛ و لم تزل المحاجَّة والمجادلة، والآيات تقوم على يد موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شيء، ولا يأتي به إلا مَن هو مؤيد من الله ﴿وَ مَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ إلاَّ هِيَ

﴿أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ وصمم فرعون وملؤه - قبحهم الله - على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يُرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) ﴾

٧٩، ٨٠- ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك، وفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء، وذلك أن فرعون - لعنه الله - أراد أنْ يبهرج على الناس، ويُعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعبذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له من ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۞ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فظنَّ فرعونُ أنه يستنصر بالسحَّار؛ على رسول الله عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ۞ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ وإنما قال لهم ذلك، لأنهم لمَّا اصطفُّوا وقد وُعدوا من فرعون بالتقريب، والعطاء الجزيل ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ۞ قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ فأراد موسى أنْ تكون البداءة منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم. ولهذا لما ألقوا، ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۞ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ۞ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.

٨١، ٨٢- فعند ذلك قال موسى لما ألقوا ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۞ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾. وروى ابن أبي حاتم: عن ليث وهو ابن أبي سليم قال: بلغني أنَّ هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تُقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي في سورة يونس ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۞ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ والآية الأخرى ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى آخر أربع آيات، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[1].

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾

٨٣- يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات، والحجج القاطعات، والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم: الشباب، على وَجَل وخوف منه ومن ملئه، أنْ يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأنَّ فرعون لعنه الله كان جباراً عنيداً، مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً.

---

(١) و سنده فيه لين.

و روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول: بني إسرائيل، وعن ابن عباس والضحاك وقتادة: الذرية القليل، وقال مجاهد: أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم. واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية، أنها من بني إسرائيل لا من قوم فرعون، لعود الضمير على أقرب المذكورين. وفي هذا نظر، لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب، وأنهم من بني إسرائيل، فالمعروف أنَّ بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى ﷺ واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته، والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأنَّ الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون، ويظهرهم عليه، ولهذا لما بلغ هذا فرعون، حذرَ كل الحذر، فلم يُجْدِ عنه شيئاً، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، و﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وإذا تقرر هذا، فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل؟

﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ أي: وأشراف قومه أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل مَن يُخاف منه أن يَفتن عن الإيمان، سوى قارون، فإنه ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ لكنه كان طاوياً إلى فرعون، متصلاً به متعلقاً بحباله. ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن، قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾

٨٤- يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: فإن الله كافٍ مَن توكل عليه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وكثيراً ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا:

٨٥- ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تُظفرهم بنا، وتُسلِّطهم علينا، فيظنوا أنهم إنما سُلِّطوا، لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك. هكذا رُوي عن أبي مجلز وأبي الضحى، وقال ابن أبي نجيح وغيره عن مجاهد: لا تعذبنا بأيدي آل فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عُذِّبوا، ولا سُلِّطنا عليهم، فيُفتنوا بنا، وروى عبد الرزاق: عن مجاهد ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لا تُسلِّطهم علينا فيفتنونا.

٨٦- وقوله: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾

٨٧- يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أنَّ الله

تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبَوّآ أي: يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبلَةً﴾ فروى الثوري وغيره: عن ابن عباس ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبلَةً﴾ قال: أُمروا أن يتخذوها مساجد. وعن إبراهيم قال: كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم. وكذا قال مجاهد وأبو مالك والربيع بن أنس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبوه زيد بن أسلم، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه، وضيّقوا عليهم، أُمروا بكثرة الصلاة، كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا استَعِينُوا بالصَّبرِ والصَّلاةِ﴾.

و في الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمرٌ صلى، أخرجه أبو داود.

و لهذا قال تعالى في هذه الآية ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وبَشِّر المُؤمِنينَ﴾ أي: بالثواب والنصر القريب. وقال مجاهد ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبلَةً﴾ لمَّا خاف بنو إسرائيل من فرعون أنْ يُقتلوا في الكنائس الجامعة، أُمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد، مستقبلة الكعبة، يصلون فيها سراً. و كذا قال قتادة والضحاك. وقال سعيد بن جبير ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبلَةً﴾ أي: يقابل بعضها بعضاً.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾

٨٨- هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه، لما أبَوا قبول الحق، واستمروا على ضلالهم وكفرهم، معاندين جاحدين، ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً، قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتيتَ فِرعَونَ وَ مَلأَهُ زِينةً﴾ أي: من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وَ أَمْوالاً﴾ أي: جزيلة كثيرة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الحياةِ الدُّنيا رَبَّنا لِيَضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ بفتح الياء، أي: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم، استدراجاً منك لهم، كقوله تعالى: ﴿لِنفتِنَهُمْ فيهِ﴾. وقرأ آخرون ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء، أي: ليفتتن بما أعطيتهم مَن شئتَ مِنْ خَلقك، ليظن مَن أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم، واعتنائك بهم ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أمْوالِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي: أهلِكها، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة، وقال محمد بن كعب القرظي: اجعل سُكَّرهم حجارة.

و قوله: ﴿و اشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: أي: اطبع عليها ﴿فَلاَ يُؤمِنوا حتَّى يرَوُا العَذابَ الأَلِيمَ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه، على فرعون وملئه، الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرضِ مِنَ الكَافِرينَ دَيَّاراً ۞ إنَّكَ إن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لاَ يَلِدُوا إلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة، التي أمَّنَ عليها أخوه هارون.

٨٩- فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعوَتُكُمَا﴾ قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس: دعا موسى وأمَّنَ هارون، أي: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون. وقد يحتج بهذه

الآية: مَن يقول: إنَّ تأمين المأموم على قراءة الفاتحة، يُنَزَّل منزلة قراءتها، لأن موسى دعا وهارون أمَّنَ، وقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ الآية، أي: كما أجيبت دعوتكما، فاستقيما على أمري.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾

٩٠- يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإنَّ بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام، وهم فيما قيل: ستمائة ألف مقاتل، سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً، فخرجوا به معهم فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين، يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة، لما يريده الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحدٌ ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان، وألحَّ أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال: كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أنْ أسلك ههنا، ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضربَ البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي: كالجبل العظيم، وصار اثنى عشر طريقاً، لكل سبطٍ واحد، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَىٰ﴾ وتخرَّق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك، ليرى كل قوم الآخرين، لئلا يظنوا أنهم هلكوا. وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف أدهم [1] سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب، وهم بالرجوع، وهيهات ولات حين مناص، نفذ القدر واستجيبت الدعوة. وجاء جبريل عليه السلام على فرس وديق حائل[2] فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها، وتقدَّم جبريل فاقتحم البحر ودخله، فاقتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً، فتجلد لأمرائه وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كُلُّهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهَمَّ أولهم بالخروج منه، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ❁ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

٩١- ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون، حين قال ما قال: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي: أهذا

(١) الأدهم: الأسود من الخيل.

(٢) الفرس الوديق: التي أرادت الفَحْل. و الحائل: التي لم تلقح (القاموس).

الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿وكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: في الأرض الذين أضلوا الناس ﴿وجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدعونَ إِلَى النَّارِ وَيومَ الْقِيامةِ لاَ يُنصَرونَ﴾ وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك، من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسولهﷺ، ولهذا روى أبو داود الطيالسي: عن ابن عباس قال: قال رسول اللهﷺ: «قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حَالِ البحر[1] فأدسُّه في فم فرعون، مخافة أنْ تُدركه الرحمة». وقد رواه أبو عيسى الترمذي وابن جرير.

و قوله: ﴿فاليومَ نُنجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيةً﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إنَّ بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أنْ يلقيه بجسده سوياً بلا روح، وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض ـ وهو المكان المرتفع ـ ليتحققوا موته وهلاكه. ولهذا قال تعالى: ﴿فاليومَ نُنجِّيكَ﴾ أي: نرفعك على نشز من الأرض ﴿بِبَدَنِكَ﴾ قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقال عبدالله بن شداد: سوياً صحيحاً، أي: لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه، وقال أبو صخر: بدرعك.

و كل هذه الأقوال لا منافاة بينها كما تقدم، والله أعلم.

و قوله: ﴿لِتكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيةً﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء ولهذا قرأ بعضهم ﴿لِتكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنا لَغافِلُونَ﴾ أي: لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء، كما روى البخاري: عن ابن عباس قال: قدم النبيﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يومٌ ظهرَ فيه موسى على فرعون. فقال النبيﷺ لأصحابه: «أنتم أحقُّ بموسى منهم، فصوموه».

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾

٩٣- يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل، من النعم الدينية والدنيوية. وقوله: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإنَّ الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده، استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿وَ أَورَثْنَا الْقَومَ الَّذِينَ كَانُوا يُستَضعفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَ مَغارِبَها الَّتِي بَارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسنَى عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصنَعُ فِرْعَونُ وَ قَومُهُ وَ مَا كَانُوا يَعرِشُونَ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿فَأَخْرَجْناهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيونٍ﴾ وَ كُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ كَذلِكَ وَ أَورَثْنَاهَا بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ وقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَ عُيونٍ﴾ الآيات، ولكن استمروا مع موسىﷺ طالبين إلى بلاد بيت المقدس، وهي بلاد الخليلﷺ، فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة، فَنَكل بنو إسرائيل عن قتالهم، فشرَّدهم الله تعالى في التِّيه أربعين سنة، ومات فيه هارون ثم موسىﷺ، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أنْ أخذهما منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان فكانت تحت أحكامهم مدة طويلة، وبعث الله عيسى بن مريمﷺ في تلك المدة، فاستعانت اليهود قبحهم الله على

(١) حال البحر: طينه الأسود.

معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أنَّ هذا يُفسد عليكم الرعايا، فبعثوا مَن يقبض عليه، فرفعه الله إليه، وشُبِّه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره، فأخذوه فصلبوه، واعتقدوا أنه هو ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ❁ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾.

ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلثمائة سنة، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية، وكان فيلسوفاً قبل ذلك فدخل في دين النصارى، قيل: تقية، وقيل: حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعاً أحدثوها، فبنى لهم الكنائس، والبيع الكبار والصغار، والصوامع والهياكل والمعابد والقلايات، وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر، على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب، ومخالفة لدين المسيح، ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامة والقفار، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقمامة وبيت لحم وكنائس ببلاد بيت المقدس ومدن حوران، كبصرى وغيرها من البلدان، بناءات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذ، وصلوا إلى الشرق وصوروا الكنائس وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة التي يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين وبسط هذا يطول.

والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد، إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً، وقوله: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أنْ يختلفوا وقد بيَّن الله لهم، وأزال عنهم اللبس، وقد ورد في الحديث: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقةً، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقةً، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار» قيل: مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ، وهو في السنن والمسانيد.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)﴾

٩٤، ٩٥- قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا أشكُّ ولا أسأل» وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري، وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أنَّ صفة نبيهم صلى الله عليه وسلم موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ الآية، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبِّسون

ذلك ويحرّفونه ويبدّلونه ولا يؤمنون به، مع قيام الحجة عليهم.

٩٦- ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ أي: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، ولهذا لما دعا موسى عليه السلام فرعون وملأه قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾. ثم قال تعالى:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾

٩٨- يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة، الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول، إلا كذّبه قومه أو أكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

وفي الحديث الصحيح: «عُرِضَ عليَّ الأنبياء، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس، والنبي يمر معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد» ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه، كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي.

و الغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم، ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس ـ وهم أهل نينوى ـ وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب، الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا له واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أنْ يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأُخِّروا، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

و اختلف المفسرون: هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي، أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط؟ على قولين: أحدهما: إنما كان ذلك في الحياة الدنيا، كما هو مقيد في هذه الآية. والثاني: فيهما، لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي، وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

قال قتادة: وذُكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل. وكذا روى عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف. وكان ابن مسعود يقرؤها ﴿فَهَلاَّ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾.

و تمام القصة سيأتي مفصلاً في سورة الصافات إن شاء الله.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا

كَانَ لِنفسٍ أَن تُؤمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾

٩٩- يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ أي: تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى: هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله.

١٠٠- ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ وهو الخَبَال والضلال ﴿عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ أي: حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك، في هداية مَنْ هَدى، وإضلال من ضل.

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾

١٠١- يُرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه، وما خلق الله في السموات والأرض، من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر والليل والنهار، واختلافهما وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار، وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخر مذلل للسالكين، يحمل سفنهم ويجري بها برفق، بتسخير القدير، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها، الدالة على صدقها ﴿عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

١٠٢، ١٠٣- وقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد، من النقمة والعذاب، إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم، من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ونهلك المكذبين بالرسل ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حقاً أوجبه الله على نفسه الكريمة، كقوله: ﴿كَتَبَ

ربكم على نفسه الرحمة﴾ وكما جاء في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله كتَبَ كتاباً، فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي سبقت غضبي».

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾

١٠٤- يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ﴾ من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف، الذي أوحاه الله إلي، فأنا لا ﴿أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ﴾ وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم، فإنْ كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً، فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتضرني، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع، هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أنْ أكون من المؤمنين.

١٠٥، ١٠٦- وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ الآية، أي: أخلص العبادة لله وحده ﴿حنيفاً﴾ أي: منحرفاً عن الشرك، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٠٧- وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر، إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده، لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

و قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: لمن تاب إليه، وتوكل عليه، من أي ذنبٍ كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾

١٠٨- يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس: أن الذي جاءهم به من عند الله، هو الحق الذي لا مرية فيه، و لا شك فيه، فمن اهتدى به واتبعه، فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما أنا موكل بكم، حتى تكونوا مؤمنين به، و إنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

١٠٩- وقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ أي: تَمَسَّكْ بما أنزل الله عليك، وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ أي: يفتح بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خير الحاكمين﴾ أي: خير الفاتحين، بعدله وحكمته.

ترتيبها ١١ — سورة هود ـ مكية — آياتها ١٢٣

روى أبو عيسى الترمذي: عن ابن عباس قال: قال أبوبكر: يا رسول الله، قد شِبْتَ. قال: «شيبتني هودٌ والواقعةُ و المرسلات وعم يتساءلون و إذا الشمس كورت». وفي رواية: «هودٌ و أخواتها».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) ﴾

١- قد تقدم الكلام على حروف الهجاء، في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا، و بالله التوفيق.

وأما قوله: ﴿أُحكِمتْ آياتُه ثمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى؛ هذا معنى ماروى عن مجاهد و قتادة، و اختاره ابن جرير. و معنى قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ﴾ أي: من عند الله الحكيم، في أقواله و أحكامه، خبير بعواقب الأمور.

٢- ﴿ألاَّ تَعبُدُوا إلاَّ اللهَ﴾ أي: نزل هذا القرآن المحكم المفصل، لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أرسَلْنا مِن قَبلِكَ مِن رَّسولٍ إلاَّ نُوحِي إليهِ أنَّه لاَ إلهَ إلاَّ أنَا فَاعبُدونِ﴾ وقال: ﴿وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أنِ اعبُدُوا اللهَ وَ اجتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. و قوله: ﴿إنَّني لَكُم مِّنهُ نَذيرٌ وَ بَشيرٌ﴾ أي: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، و بشير بالثواب إن أطعتموه. كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول اللهﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش، الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا فقال: «يا معشر قريش، أرأيتم لو خبرتكم أنَّ خيلاً تُصَبِّحكم، ألستم مصدقي؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

٣- و قوله: ﴿وَ أنِ استَغفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إليهِ يُمَتِّعكُم مَّتاعاً حَسَناً إلَى أجَلٍ مُّسَمَّى وَ يُؤتِ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: و آمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة، و التوبة منها إلى الله عزوجل فيما تستقبلونه، و أن تستمروا على ذلك ﴿يُمَتِّعكُم مَّتاعاً حَسَناً﴾ أي: في الدنيا ﴿إلَى أجَلٍ مُّسَمَّى وَ يُؤتِ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: في الدار الآخرة. قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾ الآية، وقد جاء في الصحيح: أنَّ رسول اللهﷺ قال لسعد: و إنك لن تنفق نفقةً تبتغي بها وجه الله، إلا أُجرتَ بها، حتى ما تجعل في في امرأتك».

و قوله: ﴿وَ إن تَوَلَّوْا فَإنِّي أخافُ عَلَيكُمْ عَذابَ يومٍ كَبيرٍ﴾ هذا تهديدٌ شديد، لمن تولّى عن أوامر الله تعالى، و كذّب رسله، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿إلَى اللهِ مَرجِعُكمْ﴾ أي: معادكم و مرجعكم يوم

القيامة ﴿وهُوَ علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وهو القادر على ما يشاء، من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، و إعادة الخلائق يوم القيامة؛ وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) ﴾

٥- قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية. روى البخاري: أن ابن عباس قرأ ﴿ألاَ إِنَّهُمْ تَثْنَوْني صُدورُهم﴾ الآية، فقلت يا أبا العباس ما تثنوني صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحيي، أو يتخلى فيستحيي، فنزلت ﴿ألاَ إِنَّهُمْ تَثْنَوْني صُدورُهم﴾.

وفي لفظ آخر له: قال ابن عباس: أناسٌ كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء، و أن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. ثم روى عن عمرو قال: قرأ ابن عباس ﴿ألاَ إِنَّهُمْ يُثْنوني صُدورهم لِيستَخفُوا مِنهُ ألاَ حينَ يَستغشُونَ ثِيابَهُمْ﴾. قال البخاري: و قال غيره عن ابن عباس ﴿يَستَغشُونَ﴾ يغطون رؤوسهم.

و قال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله، وعمل السيئات، وكذا روي عن مجاهد و الحسن و غيرهم، أي: أنهم كانوا يثنون صدورهم، إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿يَعلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول ﴿مَا يُعلِنونَ إنَّهُ عليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ﴾ أي: يعلم ما تكن صدورهم، من النيات و الضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

فلا تكتُمنَّ اللهَ مافي قلوبكم ليخفى ومهما يُكتم الله يَعلم
يُؤخَّر فيوضع في كتاب فيُدَّخر ليوم حساب أو يُعجل فيُنقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع، وعلمه بالجزئيات، و بالمعاد و بالجزاء، و بكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة.

و عود الضمير إلى الله أولى، لقوله: ﴿ألاَ حينَ يستَغشُونَ ثِيابَهمْ يعلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعلِنونَ﴾ و قرأ ابن عباس ﴿ألا إنَّهمْ تُثنوني صدورُهم﴾ برفع الصدور على الفاعلية، وهو قريب المعنى.

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) ﴾

٦- أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها و كبيرها، بحريها وبريها، وأنه ﴿يَعلَمُ مُستَقَرَّها و مُستَودَعَها﴾ أي: يعلم أين منتهى سيرها في الأرض، و أين تأوى إليه من وكرها، وهو مستودعها. وقال علي بن أبي طلحة و غيره عن ابن عباس ﴿وَيَعلَمُ مُستَقَرَّها﴾ أي: حيث تأوى ﴿ومُستَودَعَها﴾ حيث تموت، وعن مجاهد ﴿مُستَقَرَّها﴾ في الرحم ﴿ومُستَودَعَها﴾ في الصلب، كالتي في الأنعام، وكذا روي ابن عباس و الضحاك و جماعة، و ذكر ابن أبي حاتم أقوال المفسرين ههنا، كما ذكره عند تلك الآية، فالله أعلم، و أن جميع ذلك في كتاب عند الله، مبين عن جميع ذلك، كقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ في الأرضِ ولاَ طائرٍ يطيرُ بجناحيهِ إلاَّ أُمَمٌ أمثالُكم مَّا فَرَّطْنَا في الْكِتابِ مِن شَيءٍ ثُمَّ إلَى رَبِّهِمْ يُحشَرونَ﴾ وقوله:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيبِ لاَ يَعلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعلَمُ مَا فِي البَرِّ وَ البَحرِ وَمَا تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلاَّ يَعلَمُهَا وَ لاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الأَرضِ وَ لاَ رَطبٍ وَ لاَ يَابِسٍ إلاَّ فِي كتابٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾

٧- يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، و أنه خلق السموات و الأرض في ستة أيام، و أن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما روى الإمام أحمد: عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: قد بشَّرتنا فأعطنا، قال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن» قالوا: قد قَبلنا. فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان اللهُ قبل كلِّ شيءٍ، و كان عرشهُ على الماء، و كَتبَ في اللوح المحفوظ ذِكرَ كل شيءٍ» قال: فأتاني آتٍ، فقال: يا عمران انحلت ناقتك من عقالها، قال: فخرجتُ في إثرها فلا أدري ما كان بعدي. فهذا الحديث مخرج في صحيحي البخاري و مسلم بألفاظ كثيرة.

و في صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله قَدَّرَ مقاديرَ الخلائق، قبل أن يخلق السموات و الأرض بخمسين ألف سنة، و كان عرشه على الماء».

و روى البخاري في تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل أنفقْ أُنفق عليك» و قال: «يدُ الله ملأى، لا يغيضها نفقةٌ، سحَّاءَ الليل و النهار» و قال: «أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات و الأرض، فإنه لم يَغض مافي يمينه، وكان عرشه على الماء، و بيده الميزان يخفض و يرفع».

و قال مجاهد ﴿وكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ﴾: قبل أن يخلق شيئاً، و كذا قال وهب بن منبه و ضمرة وقتادة وابن جرير و غير واحد، و قال قتادة في قوله: ﴿وكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ﴾ ينبئكم كيف كان بدء خلقه، قبل أن يخلق السموات و الأرض. و قال ابن عباس: إنما سمى العرش عرشاً لارتفاعه.

و قال محمد بن إسحاق: فكان كما وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء و عليه العرش، و على العرش ذو الجلال و الإكرام، و العزة و السلطان، و الملك و القدرة، و الحلم و العلم، و الرحمة و النعمة، الفعَّال لما يريد.

و عن سعيد بن جبير قال: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿وكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: على مَتْن الريح.

و قوله تعالى: ﴿لِيبلُوَكمْ أيُّكمْ أحسَنُ عَمَلاً﴾ أي: خَلَق السموات و الأرض لنفع عباده، الذين خلقهم ليعبدوه و لا يشركوا به شيئاً، ولم يخلق ذلك عبثاً، كقوله: ﴿وَ مَا خَلَقنَا السَّماءَ وَ الأرضَ وَ مَا بينَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الذينَ كَفَرُوا فَوَيلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ و قال تعالى: ﴿أفَحَسِبْتُمْ أنَّما خَلَقنَاكُمْ عَبَثاً وَ أنَّكُمْ إلَينَا لاَ تُرجَعونَ * فَتعالَى اللهُ المَلكُ الحَقُّ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ رَبُّ العَرشِ الكَرِيمِ﴾ و قال تعالى: ﴿وَ مَا خَلقْتُ الجِنَّ وَ الإنسَ إلاَّ لِيَعبُدونِ﴾ الآية. وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم ﴿أيُّكُمْ أحسَنُ عَمَلاً﴾ و لم يقل أكثر عملاً، بل أحسن

عملاً، و لا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فَقَدَ العمل واحداً من هذين الشريطين، حبط و بطل.

و قوله: ﴿و لئِن قُلتَ إنَّكُم مَّبعوثُونَ مِن بَعدِ المَوتِ﴾ الآية، يقول تعالى، و لئن أخبرتَ يا محمد هؤلاء المشركين، أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَ لئِن سَألْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ ﴿وَ لئِن سَألْتَهُم مَّنْ خلَقَ السَّموات وَالأرضَ و سَخَّرَ الشَّمسَ وَ القَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ وهم مع هذا ينكرون البعث و المعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي يَبدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أهْوَنُ عليهِ﴾ و قال تعالى: ﴿مَا خَلقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إلاّ كَنَفسٍ واحدةٍ﴾. وقولهم ﴿إنْ هذَا إلاَّ سِحرٌ مُّبينٌ﴾ أي: يقولون كفراً وعناداً: ما نصدقك على وقوع البعث، و ما يذكر ذلك إلا مَنْ سَحَرْته، فهو يتبعك على ما تقول.

٨- و قوله: ﴿وَلَئِنْ أخَّرْنَا عَنهُمُ العَذَابَ إلَى أُمَّةٍ مَّعدُودَةٍ﴾ الآية. يقول تعالى: و لئن أخَّرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين، إلى أجل معدود و أمد محصور، و أوعدناهم إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيباً واستعجالاً: ﴿مَا يَحبِسهُ﴾ أي: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد أَلِفت التكذيب و الشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد.

و «الأمة» تستعمل في القرآن و السنة في معادن متعددة، فيراد بها: الأمد، كقوله في هذه الآية ﴿إلَى أُمَّةٍ مَّعدُودَةٍ﴾، و قوله في يوسف ﴿وَ قَالَ الَّذِي نَجَا مِنهُمَا وَ ادَّكَرَ بَعدَ أُمَّةٍ﴾. و تُستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إنَّ إبرَاهيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ المُشرِكِينَ﴾. و تُستعمل في الملة و الدين، كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا ﴿إنَّا وَجَدنا آبَاءَنا عَلَى أُمَّةٍ وَ إنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾. و تستعمل في الجماعة، كقوله: ﴿و لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسقُونَ﴾، و قوله: ﴿و لقَدْ بعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أنِ اعْبُدُوا اللهَ و اجْتَنِبوا الطَّاغوتَ﴾ وقال تعالى: ﴿ولِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فإذا جاءَ رسُولُهم قُضيَ بَينَهُم بالقِسطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمونَ﴾.

و المراد من الأمة ههنا: الذين يُبعث فيهم الرسول، مؤمنهم و كافرهم، كما في صحيح مسلم: «و الذي نفسي بيده، لا يَسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ و لا نصرانيٌّ، ثم لا يؤمن بي، إلا دخل النار».

و أما أمة الاتباع فهم المصدقون للرسل، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. و في الصحيح: «فأقول أمتي أمتي». و تُستعمل الأمة في الفرقة و الطائفة، كقوله تعالى: ﴿ومِن قَومِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهدُونَ بِالْحَقِّ وَبِه يَعدِلونَ﴾ و كقوله: ﴿مِنْ أهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قَائِمةٌ﴾ الآية.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴾

٩، ١٠- يخبر تعالى عن الإنسان و ما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حَصَل له يأسٌ و قنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، و كفرٌ و جحود لماضي

الحال، كأنه لم ير خيراً، و لم يرج بعد ذلك فرجاً، و هكذا إنْ أصابته نعمة بعد نقمة **﴿لَيقولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي﴾** أي: يقول ما ينالني بعد هذا ضيمٌ و لا سوء **﴿إنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾** أي: فرحٌ بما في يده، بطرٌ فخور على غيره.

١١ - قال الله تعالى: **﴿إلاَّ الذينَ صَبَرُوا﴾** أي: على الشدائد و المكاره **﴿وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾** أي: في الرخاء والعافية **﴿أولَئكَ لَهُم مَّغفِرةٌ﴾** أي: بما يصيبهم من الضراء **﴿و أجْرٌ كبيرٌ﴾** بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: «و الذي نفسي بيده، لا يصيبُ المؤمن همٌّ و لا غمٌّ، و لا نصبٌ و لا وَصَبَ، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّرَ الله عنه بها من خطاياه»[1].

و في الصحيحين: «و الذي نفسي بيده، لا يَقضي الله للمؤمن قضاءً، إلا كان خيراً له: إنْ أصابته سرَّاء فشكر، كان خيراً له، و إنْ أصابته ضرَّاء فصبر، كان خيراً له، و ليس ذلك لأحد غير المؤمن»[2].

و لهذا قال الله تعالى: **﴿و العَصرِ ۞ إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إلاَّ الذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ و تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾**. و قال تعالى: **﴿إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾** الآيات.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

١٢ - يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ عما كان يتعنَّت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول، كما أخبر تعالى عنهم في قوله: **﴿وَ قالوا مَا لِهَذا الرَّسُولِ يَأكُلُ الطَّعامَ وَ يَمشِي في الأسواقِ لَولاَ أُنزِلَ إليهِ مَلَكٌ فيكونَ مَعهُ نَذِيراً ۞ أو يُلقَى إليهِ كَنزٌ أوْ تَكونُ لهُ جَنَّةٌ يَأكلُ مِنها و قالَ الظَّالِمونَ إن تَتَّبِعونَ إلاَّ رَجُلاً مَّسْحوراً﴾** فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله و سلامه عليه و أرشده إلى [illegible] يَضيق بذلك منهم صدرُه، ولا يصدَّنه ذلك، و لا يُثنِينَّهُ عَن دعائهم إلى الله عز وجل، آناء الليل و أطراف النهار، كما قال تعالى: **﴿و لقد نعلم أنك يضيق صدرك بِمَا يَقولونَ﴾** الآية. و قال ههنا: **﴿فلعلَّكَ تارِكٌ بَعضَ ما يُوحَى إليكَ و ضائقٌ بِهِ صَدرُكَ أن يَقُولُوا﴾** أي: لقولهم ذلك، فإنما أنتَ نذير، و لك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كُذِّبوا و أوذوا، فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

١٣ - ثم بين تعالى إعجاز القرآن، و أنه لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله، و لا بعشر سور مثله، و لا بسورة من مثله، لأن كلام الرب تعالى لا يُشبه كلام المخلوقين، كما أنَّ صفاته لا تشبه صفات المحدثات، و ذاته لا يُشبهها شيء، تعالى و تقدس و تنزه، لا إله إلا هو، و لا رب سواه.

١٤ - ثم قال تعالى: **﴿فَإن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾** أي: فإنْ لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، و أنَّ هذا الكلام منزلٌ من عند الله، متضمن علمه و أمره و نهيه **﴿وَ أن لاَّ إلَهَ إلاَّ هُوَ فَهَلْ أنتُم مُّسْلِمُونَ﴾**.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في البر (٤/ ١٩٩٢، ١٩٩٣) بألفاظ مقاربة عن عائشة و أبي هريرة و أبي سعيد رضي الله عنهم.

(٢) الحديث بنحوه في صحيح مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٩٥) و لم يخرجه البخاري كما سبق التنبيه عليه.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) ﴾

١٥ ، ١٦ - قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: إنَّ أهل الرياء يُعطون بحسناتهم في الدنيا، و ذلك أنهم لا يظلمون نقيراً، يقول: مَنْ عمل صالحاً التماس الدنيا، صوماً أو صلاة أو تهجداً بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله تعالى: أُوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، و حبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين. و هكذا روي عن مجاهد و غير واحد. و قال أنس بن مالك و الحسن: نزلت في اليهود و النصارى.

و قال قتادة: مَنْ كانت الدنيا همه و سَدَمه[1] و نيته و طلبته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يُفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يُعْطى بها جزاء، و أما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا، و يثاب عليها في الآخرة، وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا[2].

و قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ ﴿كُلاً نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧) ﴾

١٧ - يخبر تعالى عن حال المؤمنين، الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وجهَكَ للدينِ حنيفاً فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عَلَيها﴾ الآية.

و في الصحيح: عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»؟ الحديث.

و في صحيح مسلم: عن عياض بن حمار رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إني خلقتُ عبادي حُنَفاء، فجاءتهم الشياطين فاجْتَالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، و أمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطاناً».

و في المسند و السنن: «كلُّ مولودٍ يولد على هذه الملة، حتى يُعْربَ عنه لسانه» الحديث.

فالمؤمن باق على هذه الفطرة.

و قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: وجاءه شاهدٌ من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء، من الشرائع

---

(١) السدم: الولوع بالشيء و اللهج به.

(٢) يريد ما أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٢) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا يظلم مؤمناً حسنة يُعطى بها في الدنيا و يجزى بها في الآخرة، و أما الكافر فَيُطعَمُ بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم يكن له حسنةٌ له يُجزى بها».

المطهرة، المكملة المعظمة، المختتمة بشريعة محمد صلوات الله و سلامه عليه و عليهم أجمعين. و لهذا قال ابن عباس ومجاهد و عكرمة و أبو العالية و الضحاك و إبراهيم النخعي و السدي و غير واحد أنه: جبريل ﷺ، و عن علي ﷺ و الحسن و قتادة: هو محمد ﷺ. و كلاهما قريب في المعنى، لأن كلاً من جبريل و محمد صلوات الله عليهما بلَّغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، و محمد إلى الأمة، و قيل: هو علي! وهو ضعيف، لا يَثبت له قائل، و الأول و الثاني هو الحق، و ذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة، و التفاصيل تُؤخذ من الشريعة، و الفطرة تصدقها و تؤمن بها، و لهذا قال تعالى: ﴿أفمَن كانَ على بيِّنةٍ من ربِّهِ و يَتلوهُ شاهِدٌ منهُ﴾ وهو القرآن، بلَّغه جبريل إلى النبي ﷺ، و بلغه النبي محمد ﷺ إلى أمته.

ثم قال تعالى: ﴿وَ مِن قَبْلِهِ كِتابُ مُوسَى﴾ أي: و من قبل القرآن: كتاب موسى، وهو التوراة ﴿إماماً وَرَحْمَةً﴾ أي: أنزل الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، و قدوة يقتدون بها، و رحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان، قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، و لهذا قال تعالى: ﴿أولئكَ يُؤمنونَ بهِ﴾. ثم قال متوعداً لمن كذَّب بالقرآن، أو بشيء منه ﴿وَمَن يَكفُرْ بهِ مِنَ الأحزابِ فالنَّارُ مَوعِدُهُ﴾ أي: ومَن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض، و مشركهم و كافرهم و أهل الكتاب، وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم و أجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿لأُنذِرَكُم بهِ ومَن بَلَغ﴾ و قال تعالى: ﴿قُلْ يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رَسولُ اللهِ إليكُمْ جَميعاً﴾ و قال تعالى: ﴿ومَن يَكفُرْ بهِ مِنَ الأحزابِ فالنَّارُ مَوعِدُهُ﴾.

و في صحيح مسلم: من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «و الذي نفسي بيده، لا يَسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي أو نصراني، ثم لا يُؤمن بي، إلا دخلَ النار».

و عن سعيد بن جبير قال: كنتُ لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه، إلا وجدت مصداقه، أو قال: تصديقه في القرآن فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، فلا يؤمن بي إلا دخل النار» فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ قال: و قلما سمعت رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن، حتى وجدتُ هذه الآية ﴿وَمَن يَكفُرْ بهِ مِنَ الأحزابِ فالنَّارُ مَوعِدُهُ﴾ قال: من الملل كلها.

و قوله: ﴿فلاَ تكُ في مِريةٍ منهُ إنَّهُ الحقُّ مِن ربِّكَ﴾ الآية، أي: القرآن حقٌّ من الله لا مرية و لا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿ألم * تنزيلُ الكتابِ لا ريبَ فيهِ مِن ربِّ العَالَمينَ﴾ وقال تعالى: ﴿ألم * ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيهِ﴾.

و قوله: ﴿و لكنَّ أكثرَ النَّاسِ لاَ يُؤمِنونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا أكثرُ النَّاسِ وَ لَوْ حرَصتَ بِمُؤمِنينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَ إن تُطعْ أكثرَ مَن في الأرضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبيلِ اللهِ﴾ وقال تعالى: ﴿و لَقَدْ صَدَّقَ عَليهِمْ إبليسُ ظَنَّهُ فاتَّبعوهُ إلاَّ فَريقاً مِّنَ المُؤمنينَ﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ

أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)﴾

١٨- يبين تعالى حال المفترين عليه، و فضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق، من الملائكة والرسل و الأنبياء و سائر البشر و الجان، كما روى الإمام أحمد: عن صفوان بن محرز قال: كنتُ آخذاً بيد ابن عمر، إذ عَرَضَ له رجلٌ، قال: كيفَ سمعت رسول الله ﷺ يقول في النَّجْوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: «إنَّ الله عزوجل يُدني المؤمن فيضع عليه كَنَفه، و يستره من الناس، و يُقرِّره بذنوبه، و يقول له: أتعرفُ ذنب كذا؟ أتعرفُ ذنب كذا؟ أتعرفُ ذنب كذا؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه، و رأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سَتَرتُها عليك في الدنيا، و إني أغفرها لك اليوم، ثم يُعطى كتاب حسناته، و أما الكفار و المنافقون فيقول: ﴿الأشهادُ هؤلاءِ الذينَ كذَبُوا على ربِّهمْ ألا لعنةُ اللهِ على الظالمينَ﴾ الآية.

أخرجه البخاري و مسلم في الصحيحين.

١٩- و قوله: ﴿الذينَ يَصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ و يبغُونهَا عِوَجاً﴾ أي: يردُّون الناس عن اتباع الحق، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل، و يجنبونهم الجنة ﴿و يبغُونهَا عِوَجاً﴾ أي: و يريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة ﴿وهم بالآخرةِ هم كافرون﴾ أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها و كونها.

٢٠- ﴿أولئك لم يَكُونوا مُعْجِزِينَ في الأرضِ و ما كانَ لهم من دونِ اللهِ من أولياءَ﴾ أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفي قبضته و سلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿و لكن يُؤخِّرُهم ليومٍ تَشخصُ فيه الأبْصارُ﴾. و في الصحيح: «إنَّ الله لَيُمْلِي للظالم، حتى إذا أَخَذه لم يُفْلِته».

و لهذا قال تعالى: ﴿يُضاعَفُ لَهمُ العَذابُ﴾ الآية، أي: يُضاعف عليهم العذاب، و ذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً و أبصاراً و أفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم و لا أبصارهم و لا أفئدتهم، بل كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار، كقوله: ﴿و قالُوا لَو كنا نَسْمعُ و نَعْقِلُ ما كُنّا في أصْحابِ السَّعيرِ﴾ و قال تعالى: ﴿الذينَ كَفروا و صَدُّوا عن سَبيلِ اللهِ زِدْنَاهُم عذاباً فوقَ العذابِ﴾ الآية، ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، و على كل نهي ارتكبوه، و لهذا كان أصح الأقوال: أنهم مكلفون بفروع الشرائع، أمرها و نهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

٢١- و قوله: ﴿أولئكَ الذينَ خَسِرُوا أنفُسهم و ضَلَّ عَنهمْ ما كانوا يفترونَ﴾ أي: خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يُفتَّر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿كُلَّما خَبَتْ زِدْناهمْ سَعِيراً﴾ ﴿و ضَلَّ عنهمْ﴾ أي: ذهب عنهم ﴿ما كانُوا يَفْتَرونَ﴾ من دون الله من الأنداد و الأصنام، فلم تُجْدِ عنهم شيئاً، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: ﴿و إذا حُشِرَ الناسُ كانُوا لهمْ أعداءً و كانُوا بعِبادتِهمْ كافِرينَ﴾ و قال تعالى: ﴿و اتَّخذوا من دونِ اللهِ آلهةً ليكونُوا لهم عِزاً * كلاَّ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهمْ ويَكُونُونَ عليهمْ ضِدّاً﴾.

و قال الخليل لقومه ﴿إنَّما اتَّخذتُم مِّن دُونِ اللهِ أوثَاناً مَّوَدَّةَ بينكمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ القِيَامةِ يَكفرُ بَعضُكم بِبَعْضٍ ويَلْعَنُ بعضُكُم بَعضاً و مَأْوَاكُمُ النَّارُ و ما لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ و قوله: ﴿إذْ تبرأَ الذينَ اتُّبِعُوا مِنَ

الذينَ اتُّبِعُوا وَ رَأَوُا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خُسرهم و دمارهم.

٢٢- و لهذا قال: ﴿لا جَرَمَ أَنَّهم في الآخرةِ هُمُ الأخسَرُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة، لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات، و اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، و عن شرب الرحيق المختوم، بسموم و حميم، و ظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن و رؤيته، بغضب الديان و عقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ﴾

٢٣- لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثَنَّى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا و عملوا الصالحات، فآمنت قلوبهم، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، قولاً و فعلاً، من الإتيان بالطاعات، و ترك المنكرات، و بهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، و السرر المصفوفات، و القطوف الدانيات، و الفرش المرتفعات والحسان الخيرات، و الفواكه المتنوعات، و المآكل المشتهيات، والمشارب المستلذات، و النظر إلى خالق الأرض و السموات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون و لا يهرمون، ولا يمرضون و لا ينامون، ولا يتغوطون و لا يبصقون و لا يتمخطون، إنْ هو إلا رَشحُ مِسْكٍ يَعْرقون.

٢٤- ثم ضرب تعالى مثل الكافرين و المؤمنين فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين بالسعادة، فأولئك كالأعمى و الأصم و هؤلاء كالبصير و السميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق، في الدنيا و في الآخرة، لا يهتدي إلى خير و لا يعرفه، أصم عن سماع الحجج، فلا يسمع ما ينتفع به ﴿ولَو عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ الآية، و أما المؤمن: ففطنٌ ذكيٌ لبيبٌ بصيرٌ بالحق يُمَيِّزُ بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميعٌ للحجة، يفرق بينها و بين الشبهة، فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا و هذا؟

﴿أفلاَ تذكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون فتفترقون بين هؤلاء و هؤلاء، كما قال في الآية الأخرى ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ و كقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى و الْبَصِيرُ﴾ و لاَ الظُّلُماتُ ولاَ النُّورُ﴾ ولاَ الظِّلُّ وَ لاَ الْحَرُورُ﴾ وَ مَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ و لا الأمواتُ إنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ و ما أنتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ إنْ أَنتَ إلاَّ نذيرٌ﴾ إنَّا أرْسَلْنَاكَ بالْحَقِّ بشيراً وَ نَذيراً و إن مِّنْ أُمَّةٍ إلاَّ خلاَ فيهَا نذيرٌ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾

٢٥- يخبر تعالى عن نوح عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، من المشركين عبدة الأصنام، أنه قال لقومه: ﴿إني لكمْ نَذيرٌ مُبينٌ﴾ أي: ظاهر النذارة لكم من عذاب الله، إنْ أنتم عبدتم غير الله؛ و لهذا قال: ﴿أن لا تَعبدُوا إلا اللهَ﴾ و قوله: ﴿إني أخافُ عليكمْ عذابَ يومٍ أليمٍ﴾ أي: إن استمررتم على ما

أنتم عليه، عَذَّبكم الله عذاباً أليماً، موجعاً شاقاً، في الدار الآخرة.

٢٦ - **﴿فقالَ الملأُ الذينَ كفرُوا من قومِه﴾** و الملأ هم السادة و الكبراء من الكافرين منهم **﴿ما نراكَ إلاّ بَشراً مِثلنا﴾** أي: لست بِمَلَك و لكنك بشرٌ، فكيف أوحي إليك من دوننا، ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا، كالباعة و الحاكة و أشباههم، و لم يتبعك الأشراف و لا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك، لم يكن عن تروٍّ منهم و لا فِكْرٍ و لا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك، و لهذا قالوا **﴿وَمَا نَرَاكَ اتبعكَ إلا الذينَ هم أراذلُنا بَادِيَ الرَّأْي﴾** أي: في أول بادئ الرأي **﴿وما نَرى لكمْ علَينا مِن فَضْلٍ﴾** يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق و لا خلق، و لا رزق و لا حال، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا.

﴿بل نَظُنُّكمْ كَاذِبِينَ﴾ أي: فيما تدعونه لكم من البر و الصلاح، و العبادة و السعادة، في الدار الآخرة إذ صرتم إليها، هذا اعتراض الكافرين على نوح ﷺ و أتباعه، وهو دليل على جهلهم و قلة علمهم و عقلهم، فإنه ليس بعارٍ على الحق رذالة من اتبعه، فإنَّ الحق في نفسه صحيحٌ، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه: أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، و الذين يأبونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، و الغالب على الأشراف والكُبراء مخالفته، كما قال تعالى: **﴿و كذلكَ مَا أَرْسلنا مِن قبْلِكَ في قَرْيةٍ مِن نَذيرٍ إلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إنَّا وَجَدْنا آباءَنَا على أُمَّةٍ و إنَّا عَلَى آثارِهم مُقْتَدونَ﴾**. و لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخربن حرب، عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضُعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

و قولهم: **﴿بادِيَ الرَّأْيِ﴾** ليس بمذمة و لا عيب، لأن الحق إذا وَضُح، لا يبقى للرأي و لا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق و الحالة هذه، لكل ذي زكاء وذكاء، بل لا يفكّر ههنا إلا غبي أو عَيي، والرسل - صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين - إنما جاءوا بأمر جلي واضح.

و قوله: **﴿وما نَرى لَكمْ علينا مِن فَضْلٍ﴾** هم لا يرون ذلك، لأنهم عميٌ عن الحق، لا يسمعون و لا يبصرون، بل هم في ريبهم يترددون، في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأرذلون، وهم في الآخرة هم الأخسرون.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) ﴾

٢٨ - يقول تعالى مخبراً عما ردّ به نوح على قومه في ذلك **﴿أرأيتمْ إن كُنتُ علَى بيِّنةٍ من ربِّي﴾** أي: على يقين وأمر جلي، و نبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به و بهم **﴿فعُمِّيَتْ عَليكُمْ﴾** أي: خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها، و لا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها و ردها **﴿أنلزمُكُموها﴾** أي: نغصبكم بقبولها، وأنتم لها كارهون!

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) ﴾

٢٩، ٣٠ - يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالاً، أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله

عز وجل ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ كأنهم طلبوا منه أنْ يطرد المؤمنين عنه، احتشاماً و نفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أنْ يطرد عنهم جماعة من الضعفاء، و يجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة و العشي﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ الآية.

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) ﴾

٣١- يخبرهم أنه رسول من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، و لا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو مَن لقيه من شريف و وضيع، فمن استجاب له فقد نجا، و يخبرهم أنه لا قُدرة له على التصرف في خزائن الله، و لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، و ليس هو بمَلَك من الملائكة، بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات، و لا أقول عن هؤلاء الذين تحقرونهم و تزدرونهم، إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم، ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ فإنْ كانوا مؤمنين باطناً ـ كما هو الظاهر من حالهم ـ فلهم جزاء الحسنى، ولو قطَع لهم أحدٌ بشرٌ بعد ما آمنوا، لكان ظالماً، قائلاً مالا علم له به.

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) ﴾

٣٢، ٣٣- يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله، و عذابه و سخطه، و البلاء مُوكَّلٌ بالمنطق. ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾ أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، و نحن لا نتبعك ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ أي: من النِّقمة و العذاب، ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعونا به ﴿إن كنت من الصادقين* قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾ أي: إنما الذي يعاقبكم و يعجلها لكم: الله الذي لا يُعجزه شيء.

٣٤- ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي: أيُّ شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم، و إنذاري إياكم ونصحي ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ أي: إغواءكم و دماركم ﴿هو ربكم و إليه ترجعون﴾ أي: هو مالك أزمّة الأمور، المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق و له الأمر، هو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) ﴾

٣٥- هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكد لها، مقرر لها، يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا، و افتعله من عنده ﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي﴾ أي: فإثم ذلك عليَّ ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ أي: ليس ذلك مفتعلاً و لا مفترى، لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ

الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) ﴾

٣٦- يخبر تعالى أنه أوحي إلى نوح، لما استعجل قومه نقمة الله بهم و عذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته، التي قال الله تعالى مخبراً عنه، أنه قال: **﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾** **﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾** فعند ذلك أوحى الله إليه **﴿إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾** فلا تحزن عليهم، و لا يهمَّنَّك أمرهم.

٣٧- **﴿و اصْنَعِ الفُلْكَ﴾** يعني: السفينة **﴿بِأَعْيُنِنَا﴾** أي: بمرأى منا **﴿وَوَحْيِنَا﴾** أي: تعليمنا لك ما تصنعه **﴿و لاَ تُخَاطِبْنَا فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾**.

فقال بعض السلف: أمَرَه الله تعالى أن يغرز الخشب و يقطعه و ييبسه، فكان ذلك في مائة سنة، و نجرها في مائة سنة أخرى. وقيل: في أربعين سنة، و الله أعلم. و ذكر محمد بن إسحاق عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج، و أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً و عرضها خمسين ذراعاً، و أن يُطلي باطنها وظاهرها بالقار، و أن يجعل لها جؤجؤاً أزوراً يشق الماء، و قال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين.

قالوا كلهم: و كان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب و الوحوش، و الوسطى للإنس، و العليا للطيور، و كان بابها في عرضها، و لها غطاء من فوقها مطبق عليها.

٣٨- و قوله: **﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾** أي: يهزءون به، و يكذبون بما يتوعدهم به من الغرق **﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾** الآية. وعيدٌ شديد و تهديد أكيد.

٣٩- **﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾** أي: يهينه في الدنيا **﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾** أي: دائم مستمر أبداً.

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾

٤٠- هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة، و الهتَّان الذي لا يُقلع ولا يفتر، بل هو كما قال تعالى: **﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ❁ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ❁ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ❁ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾**.

و أما قوله: **﴿و فَارَ التَّنُّورُ﴾** فعن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أي: صارت الأرض عُيُوناً تفور، حتى فار الماء من التنانير، التي هي مكان النار صارت تفور ماءً. و هذا قول جمهور السلف و علماء الخلف. فحينئذ أمر الله نوحاً عليه السلام أنْ يحمل معه في السفينة من كلٍّ زوجين اثنين، من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل: و غيرها من النباتات اثنين ذكراً و أنثى.

و قوله: ﴿و أهلكَ إلاّ مَن سبقَ عليه القولُ﴾ أي: واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته و قرابته ﴿إلاّ مَن سبقَ عليه القولُ منهُمْ﴾ ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه «يام» الذي انعزل وحده، و امرأة نوح و كانت كافرة بالله ورسوله، وقوله: ﴿وَ مَنْ آمنَ﴾ أي: من قومك ﴿وَ ما آمَنَ معَهُ إلاّ قليلٌ﴾ أي: نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين و سبعين نفساً، و قيل: كانوا عشرة، و قيل: إنما كان نوح و بنوه الثلاثة: سام وحام و يافث، وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة، و امرأة يام، و قيل: بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة! وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت، لأنها كانت على دين قومها فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، و الله أعلم و أحكم.

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾

٤١-يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام، أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة ﴿اركبُوا فيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْريهَا وَ مُرْسَاهَا﴾ أي: بسم الله يكون جريها على وجه الماء، و بسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رسوّها، و قرأ أبو رجاء العطاردي ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَ مُرْسِيهَا﴾ و قال تعالى: ﴿فإذَا اسْتَوَيْتَ أنتَ وَمَن مَعكَ عَلَى الفُلْكِ فَقُلِ الحمدُ للهِ الذي نَجَّانَا مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ وَقُل رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبارَكاً و أنتَ خَيرُ المُنْزلِينَ﴾ و لهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور. عند الركوب على السفينة، و على الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالذي خَلَقَ الأزْوَاجَ كُلَّهَا و جَعلَ لَكُمْ مِنَ الفُلْكِ وَ الأنعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۞ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ الآية، و جاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه، كما سيأتي في سورة الزخرف إن شاء الله، و به الثقة.

و قوله: ﴿إنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين، بإغراقهم أجمعين، فذكر أنه غفورٌ رحيم، كقوله: ﴿إنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ ۞ وإنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ و قال: ﴿و إنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ و إنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَابِ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، التي يقرن فيها بين رحمته و انتقامه.

٤٢- و قوله: ﴿و هيَ تَجْرِي بِهِمْ في مَوجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبق جميع الأرض، حتى طفت على رؤوس الجبال، و ارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، و قيل: بثمانين ميلاً، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله، وتحت كنفه و عنايته و حراسته و امتنانه، كما قال تعالى: ﴿إنَّا لمَّا طَغَى الماءُ حَمَلنَاكُمْ في الجَارِيَةِ ۞ لِنَجْعَلَهَا لكُمْ تَذكِرَةً وَ تَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ و قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ ألْوَاحٍ و دُسُرٍ ۞ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جزاءً لمنْ كانَ كُفِرَ ۞ و لقد تَرَكْنَاهَا آيَةً فهلْ مِن مُدَّكِرٍ﴾.

و قوله: ﴿و نَادَى نُوحٌ ابنَهُ﴾ الآية، هذا هو الابن الرابع، و اسمه يام، و كان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة، أن يؤمن و يركب معهم، و لا يغرق مثل ما يغرق الكافرون.

٤٣- فـ ﴿قَالَ سَآوِي إلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي من المَاءِ﴾ و قيل: إنه اتخذ له مركباً من زجاج، وهذا من

الإسرائيليات، و الله أعلم بصحته، و الذي نص عليه القرآن أنه قال: ﴿سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، و أنه لو تعلق في رأس جبل لنَجّاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عليه السلام ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله، و قيل: إن عاصماً بمعنى معصوم، كما يقال طاعم وكاس بمعنى مطعوم و مكسو ﴿و حال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾.

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾

٤٤- يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم، إلا أصحاب السفينة، أمَرَ الأرض أن تبلع ماءها، الذي نبع منها، و اجتمع عليها، و أمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿و غيض الماء﴾ أي: شرَع في النقص ﴿وقُضِيَ الأمر﴾ أي: فُرغ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله لم يبق منهم دَيَّار ﴿و استوت﴾ السفينة بمن فيها ﴿على الجودي﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق و تطاولت، وتواضع هو لله عز وجل فلم يغرق، و أرست عليه سفينة نوح عليه السلام. و قال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها. قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة[1]، عبرة و آية، حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها، فهلكت و صارت رماداً.

و قال الضحاك: الجودي جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو الطور!

و قوله: ﴿و قيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أي: هلاكاً و خساراً لهم، و بعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴾

٤٥- هذا سؤال استعلام و كشف، من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق، و قال ﴿رب إن ابني من أهلي﴾ أي: و قد وعدتني بنجاة أهلي، و وعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق و أنت أحكم الحاكمين؟

٤٦- ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ أي: الذين وعدتُ إنجاءهم، لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، و لهذا قال: ﴿و أهلك إلا من سبق عليه القول منهم﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره، و مخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام، و قد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، و إنما كان ابن زنية، و يحكى القول بأنه ليس بابنه، و إنما كان ابن امرأته، عن مجاهد والحسن و عبيد بن عمير و أبي جعفر الباقر و ابن جريج، و احتج بعضهم بقوله: ﴿إنه عمل غير صالح﴾ وبقوله: ﴿فخانتاهما﴾ فممن قاله: الحسن البصري، احتج بهاتين الآيتين و بعضهم يقول ابن امرأته، وهذا

(١) الجُودي: جبل في الشمال الشرقي من جزيرة ابن عمر، و الجزيرة: محافظة في الشمال الشرقي من سورية.

يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن، و أراد أنه نسب إليه مجازاً لكونه كان ربيباً عنده، فالله أعلم.

و قال ابن عباس و غير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال و قوله: ﴿إنَّهُ ليسَ مِن أهلكَ﴾ أي: الذين وعدتك نجاتهم. و قول ابن عباس في هذا هو الحق لا محيد عنه، فإن الله تعالى أغيرُ من أن يُمكِّن امرأة نبي هذه الفاحشة، و لهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبيﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا و أشاعوه، و لهذا قال تعالى: ﴿إنَّ الذينَ جاءوا بالإفكِ عُصْبَةٌ منكمْ لا تَحْسَبوهُ شراً لكمْ بلْ هو خيرٌ لكمْ لِكلِّ امْرِئٍ منهمْ ما اكْتَسَبَ مِن الإثمِ و الذي تَولَّى كِبْرَهُ منهم له عذابٌ عظيمٌ ـ إلى قوله ـ إذْ تَلقَّونَهُ بألْسِنَتِكمْ و تقولونَ بأفواهكمْ ما ليس لكم به علمٌ وتحسَبُونَهُ هيناً وهوَ عندَ اللهِ عظيمٌ﴾. و روى عبد الرزاق: عن ابن عباس قال: هو ابنه، غير أنه خالفه في العمل والنية، قال عكرمة في بعض الحروف: «إنه عَمِلَ عملاً غير صالح»، و الخيانة تكون على غير باب. و روى عبد الرزاق أيضاً: عن سليمان ابن قَتّة قال: سمعت ابن عباس سئل ـ وهو إلى جنب الكعبة ـ عن قول الله ﴿فخَانَتَاهما﴾ قال: أما إنه لم يكن بالزنا، و لكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف، ثم قرأ ﴿إنَّه عمل غير صالحٍ﴾. (وجاء) عن سعيد بن جبير قال: كان ابن نوح، إنَّ اللهَ لا يكذبُ، قال تعالى: ﴿و نَادى نوحٌ ابنه﴾ قال: و قال بعضُ العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط. و كذا روي عن مجاهد أيضاً و عكرمة و الضحاك و ميمون ابن مهران وثابت بن الحجاج، وهو اختيار أبي جعفر بن جرير، وهو الصواب الذي لا شك فيه.

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) ﴾

٤٨ – يخبر تعالى عما قيل لنوحﷺ حين أرست السفينة على الجودي، من السلام عليه و على من معه من المؤمنين، و على كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة. كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، و كذلك في العذاب و المتاع، كل كافر و كافرة إلى يوم القيامة.

و قال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان، أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر، و أبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿و قيلَ يا أرضُ ابْلَعي ماءكِ﴾ الآية، فجعل الماء ينقص و يغيض و يدبر.

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾

٤٩ – يقول تعالى لنبيهﷺ: هذه القصة و أشباهها ﴿مِن أنباءِ الغيبِ﴾ يعني: مِن أخبار الغيوب السالفة، نوحيها إليكَ على وجهها، كأنك شاهدها ﴿نُوحِيها إليكَ﴾ أي: نُعلمك بها وحياً منا إليكَ ﴿ما كُنتَ تَعلَمُها أنتَ ولا قومُكَ مِن قبلِ هذا﴾ أي: لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك: إنك تعلمها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب مَن كذَّبك مِن قومِك، و أذاهم لك، فإنا سننصرك و نحوطك بعنايتنا، و نجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا و الآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿إنّا لَنَنصُرُ رُسُلَنا و الذينَ

آمنوا﴾ الآية، وقال تعالى: **﴿وَ لقدْ سَبَقتْ كَلمتُنا لعبادِنا المُرْسَلينَ * إنَّهمْ لهمُ المَنصُورُونَ﴾** الآية، و قال تعالى: **﴿فاصبرْ إنَّ العاقبةَ للمُتَّقينَ﴾**.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) ﴾

٥٠، ٥١- يقول تعالى: **﴿وَ﴾** لقد أرسلنا **﴿إلى عادٍ أخاهمْ هُوداً﴾** آمراً لهمْ بعبادةِ الله وحدهُ لا شريكَ له، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها، و اختلفوا لها أسماء الآلهة، و أخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح و البلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره **﴿أفلا تَعْقِلونَ﴾** مَن يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة، من غير أجره.

٥٢- ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة، و بالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسَّر الله عليه رزقه، و سهَّل عليه أمره، وحفظ شأنه، و لهذا قال: **﴿يُرسلُ السماءَ عليكمْ مِدراراً﴾**.

و في الحديث: «مَنْ لزمَ الاستغفارَ، جعلَ اللهُ له مِن كُلِّ همٍّ فرجاً، ومِن كلِّ ضيقٍ مخرجاً، و رزقه مِن حيثُ لا يحتسبُ»(١).

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾

٥٣- يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم **﴿ما جِئْتَنا بِبيِّنةٍ﴾** أي: بحجة و برهان على ما تدعيه **﴿و ما نَحنُ بتاركِي آلهتِنا عَن قولِكَ﴾** أي: بمجرد قولكَ اتركوهم نتركهم **﴿و ما نحنُ لكَ بمؤْمنينَ﴾** بمصدقين.

٥٤، ٥٥- **﴿إن نَّقُولُ إلاَّ اعتَراكَ بعضُ آلهتِنا بسوءٍ﴾** يقولون ما نظنُّ إلا أنَّ بعضَ الآلهة أصابكَ بجنون وخبل في عقلك، بسبب نهيكَ عن عبادتها، و غيبك لها **﴿قالَ إنِّي أُشهِدُ اللهَ و اشْهَدُوا أنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشرِكُونَ * مِن دُونِه﴾** يقول: إني بريء من جميع الأنداد و الأصنام، **﴿فكيدُوني جميعاً﴾** أي: أنتمْ وآلهتكمْ إنْ كانت حقاً **﴿ثم لا تُنظرونِ﴾** أي: طرفة عين.

٥٦- وقوله: **﴿إني توكَّلت على اللهِ ربِّي و ربِّكمْ ما مِن دابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخذٌ بناصِيَتِها﴾** أي: تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم.

و قد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، و بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام، التي لا تنفع و لا تضر، بل هي جماد لا تسمع و لا تبصر، و لا توالي و لا تعادي، و إنما يستحق إخلاص العبادة: الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، و له التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه،

---

(١) رواه أبو داود (١٥١٨)، و ابن ماجه (٣٨١٩)، و أحمد (١/ ٢٤٨)، و الحاكم (٤/ ٢٦٢) و صححه و غيرهم، و صححه العلامة أحمد شاكر رحمه الله تعالى، و في سنده الحكم بن مصعب، مجهول، لكن تشهد له ظواهر الكتاب و السنة، و قد احتج به شيخ الإسلام ابن تيمية في غير موضع.

وقهره و سلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾

٥٧- يقول لهم هود **﴿فإنْ تولّوا﴾** عما جئتكم به من عبادة الله ربكم، وحده لا شريك له، فقد قامت الحجة، بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها **﴿و يستخلفُ ربِّي قوماً غيرَكم﴾** يعبدونه وحده لا يشركون به، و لا يبالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم، بل يعود وبال ذلك عليكم **﴿إنَّ ربّي على كلِّ شيءٍ حفيظ﴾** أي: شاهد وحافظ لأقوال عباده و أفعالهم، و يجزيهم عليها إنْ خيراً فخير، و إن شراً فشر.

٥٨- **﴿و لما جاءَ أمرُنا﴾** وهو الريح العقيم، فأهلكهم الله عن آخرهم، و نجّى هوداً و أتباعه، من عذاب غليظ، برحمته تعالى و لطفه.

٥٩- **﴿و تلكَ عادٌ جَحدُوا بآيات ربِّهم﴾** كفروا بها، و عصوا رسل الله، و ذلك أنَّ من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحدٍ منهم في وجوب الإيمان به، فعادٌ كفروا بهود، فنزِّل كفرهم منزلةَ مَن كفر بجميع الرسل. **﴿و اتّبعُوا أمرَ كلِّ جبّارٍ عنيد﴾** تركوا اتباع رسولهم الرشيد، و اتبعوا أمر كل جبار عنيد.

٦٠- فلهذا **﴿اتبعوا في هذهِ الدُّنيا لعنةً﴾** من الله و من عباده المؤمنين، كلما ذُكروا، و يُنادَى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد **﴿ألاَ إنَّ عاداً كفروا ربَّهم﴾** الآية، قال السدي: ما بُعث نبي بعد عاد، إلا لعنوا على لسانه.

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾

٦١- يقول تعالى ولقد أرسلنا **﴿إلَى ثَمودَ﴾**، وهم الذين كانوا يسكنون مدائن «الحِجْر» بين تبوك والمدينة، و كانوا بعد عاد فبعث الله منهم **﴿أخَاهُمْ صَالِحاً﴾**، فأمرهم بعبادة الله وحده، و لهذا قال: **﴿هو أنشأكمْ من الأرض﴾** أي: ابتدأ خلقكم منها، خَلَق منها أباكم آدم **﴿و استعمَرَكمْ فيها﴾** أي: جعلكم عُمّاراً تعمرونها و تستغلونها **﴿فاستغفروه﴾** لسالفِ ذُنوبكم **﴿ثم تُوبوا إليه﴾** فيما تستقبلونه **﴿إنَّ ربِّي قريبٌ مُجيب﴾** كما قال تعالى: **﴿و إذا سألكَ عِبادِي عنّي فإني قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دَعانِ﴾** الآية.

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾

٦٢- يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام و بين قومه، و ما كان عليه قومه من الجهل و العناد

في قولهم ﴿**قد كنتَ فينا مرجُوّاً قبل هذا**﴾ أي: كنا نرجوك في عقلك، قبل أن تقول ما قلت ﴿**أتنهانا أن نَعبدَ ما يَعبدُ آباؤنا**﴾ و ما كان عليه أسلافنا ﴿**و إنّنا لفي شكٍّ مما تَدْعُونا إليهِ مُريب**﴾ أي: شك كثير.

٦٣ - ﴿**قال يَا قومِ أرأيتُمْ إن كنتُ على بيِّنةٍ من ربِّي**﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين و برهان ﴿**و آتاني منه رحمةً فمن يَنصرُني من اللهِ إنْ عصَيتُه**﴾ و تركتُ دعوتكم إلى الحق، و عبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني و لما زدتموني ﴿**غيرَ تخسيرٍ**﴾ أي خسارة.

﴿ ويَا قَوْمِ هَذِه نَاقَةُ اللَّه لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّه وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) ﴾

٦٤ - ٦٨ - تقدم الكلام عليها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته، فلله الحمد و المنة[1].

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّه رَحْمَتُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾

٦٩ - يقول تعالى: ﴿**و لما جاءتْ رُسلُنا**﴾ و هم الملائكة ﴿**إبراهيمَ بالبُشْرى**﴾ قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط، و يشهد للأول قوله تعالى: ﴿**و لمّا ذهبَ عَنْ إبراهيمَ الرَّوْعُ و جاءتْهُ البُشْرَى يُجادلُنا في قومِ لوطٍ**﴾. ﴿**قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ**﴾ أي: عليكم، قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به، لأن الرفع يدل على الثبوت و الدوام ﴿**فما لبِثَ أن جاءَ بِعِجْلٍ حنيذٍ**﴾ أي: ذهب سريعاً فأتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتى البقر ﴿**حنيذٍ**﴾ مشوي على الرضْف، وهي الحجارة المحماة. هذا معنى ما روي عن ابن عباس و قتادة و غير واحد، كما قال في الآية الأخرى ﴿**فراغَ إلَى أهْلِهِ فجاءَ بعِجْلٍ سَمينٍ * فقرّبهُ إليهمْ قالَ ألاَ تأكُلون**﴾ و قد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

٧٠ - و قوله: ﴿**فلمّا رَأى أيديَهمْ لا تَصِلُ إليهِمْ نكِرَهمْ**﴾ تنكرهم ﴿**و أوجَسَ منهم خيفةً**﴾ وذلك أن الملائكة لا هِمَّةَ لهم إلى الطعام، و لا يشتهونه و لا يأكلونه، فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية، فعند ذلك نكرهم ﴿**وَ أوْجسَ منهمْ خِيفَةً**﴾. قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط، أقبلت تمشي في صور رجال شبان، حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم أجلهم ﴿**فراغَ إلَى أهلِهِ فجاءَ بعِجْلٍ سمينٍ**﴾ فذبحه ثم شواه في الرضف و أتاهم به، فقعد معهم و قامت سارة تخدمهم، فذلك حين

---

(١) انظر (ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧) من هذا المجلد.

يقول «وامرأته قائمة وهو جالس» في قراءة ابن مسعود ﴿فلمّا قرّبهُ إليهمْ قال ألا تأكُلُونَ﴾ قالوا يا إبراهيم: إنا لا نأكل طعاماً إلا بثمن، قال: فإن لهذا ثمناً، قالوا: و ما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، و تحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حُقَّ لهذا أنْ يتخذه ربه خليلاً. ﴿فلمّا رأى أيديَهمْ لا تَصلُ إليهم نكرهمْ﴾ يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم و أوجس منهم خيفة، فلما نظرت سارّة أنه قد أكرمهم و قامت هي تخدمهم، ضحكت و قالت: عجباً لأضيافنا هؤلاء، نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم، و هم لا يأكلون طعامنا!

و قوله تعالى إخباراً عن الملائكة ﴿قَالُوا لا تَخفْ﴾ أي: قالوا لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم.

٧١- فضحكت سارّة استبشاراً بهلاكهم، لكثرة فسادهم، و غلظ كفرهم و عنادهم، فلهذا جُوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس، و قال قتادة: ضحكت و عجبت أنّ قوماً يأتيهم العذاب، وهم في غفلة.

و قوله: ﴿وَمِن وَرَاءِ إسْحاقَ يَعْقُوبَ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: فضحكت أي: حاضت. وقال وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق. و هذا مخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها ﴿فبشرناها بإسحاقَ وَمِن وَرَاءِ إسْحاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: بولدٍ لها، يكون له ولد و عَقِبٌ و نسل، فإنَّ يعقوب ولد إسحاق، كما قال في سورة البقرة ﴿أم كنتمْ شهداءَ إذ حضرَ يعقوبَ المَوتُ إذ قالَ لبنيهِ مَا تَعبدُونَ من بعدي قالوا نَعبُدُ إلهكَ و إلهَ آبائكَ إبراهيمَ و إسحاقَ إلهاً واحداً و نحنُ لهُ مُسلمُونَ﴾.

و من ههنا استدل من استدل بهذه الآية: على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، و أنه يمتنع أنْ يكون هو إسحاق، لأنه وقعت البشارة به، و أنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعدُ يعقوب الموعود بوجوده، و وعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أنْ يُؤمر بذبح هذا و الحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال و أصحه و أبينه، ولله الحمد.

٧٢- ﴿قالتْ يَا وَيلتَى أألدُ و أنا عجوزٌ و هذا بَعْلِي شيخاً﴾ الآية، حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فإنها ﴿قالتْ يا وَيْلتَى أألدُ و أنا عَجوزٌ﴾ و في الذاريات ﴿فأقبلتْ امرأتُه في صَرّةٍ فصكّتْ وَجهَها و قالتْ عجوزٌ عقيمٌ﴾ كما جرت به عادة النساء، في أقوالهن و أفعالهن عند التعجب.

٧٣- ﴿قالُوا أتعجبينَ مِن أمرِ اللهِ﴾ أي: قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له «كن» فيكون. فلا تعجبي من هذا، و إن كنتِ عجوزاً عقيماً، و بعلك شيخاً كبيراً، فإن الله على ما يشاء قدير ﴿رحمةُ الله و بركاته عليكم أهلَ البيتِ إنهُ حميدٌ مجيدٌ﴾ أي: هو الحميد في جميع أفعاله و أقواله، محمود ممجد في صفاته و ذاته، و لهذا ثبت في الصحيحين: أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ قال: «قولوا اللهم صَلِّ على محمدٍ و على آل محمد، كما صليت على إبراهيم و آل إبراهيم، وبارك على محمد و على آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾

٧٤- يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة، حين لم يأكلوا، و بشروه بعد ذلك بالولد، و أخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية، قال: لما جاءه جبريل و من معه، قالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا، قال: ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ﴾ الآية، فسكت عنهم و اطمأنت نفسه، و قال قتادة و غيره قريباً من هذا.

و قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ مدحٌ لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة، و قد تقدم تفسيرها[1].

٧٦- وقوله تعالى: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الآية، أي: إنه قد نَفَذَ فيهم القضاء، وحقّت عليهم الكلمة بالهلاك، و حلول البأس الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين.

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) ﴾

٧٧- يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة، بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم و فارقوه، و أخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً عليه السلام، وهو على ما قيل في أرض له، و قيل: في منزله، و وردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون، على هيئة شُبَّان حسان الوجوه، ابتلاء من الله، و له الحكمة والحجة البالغة، فساءه شأنهم، و ضاقت نفسه بسببهم، و خشي إنْ لم يضفهم، أن يضيفهم أحدٌ من قومه فينالهم بسوء ﴿و قَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ قال ابن عباس و غير واحد: شديدٌ بلاؤه، و ذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم و يشق عليه ذلك، و ذكر قتادة: أنهم أتوه و هو في أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم، وقال لهم في أثناء الطريق كالمُعرِّض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه و الله يا هؤلاء، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كرره أربع مرات، قال قتادة: و قد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك، وقال السدي: و كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فقالوا: خل عنا فلنضيف الرجال، فجاء بهم، فلم يعلم بهم أحدٌ إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فجاءوا يهرعون إليه.

٧٨- وقوله: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يُسرعون و يُهرولون من فرحهم بذلك. وقوله: ﴿و مِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: لم يزل هذا من سجيتهم، حتى أُخِذوا وهم على ذلك الحال. و قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يُرشدُهم إلى نسائهم، فإنَّ النبيَّ للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا و الآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ❁ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ وقوله في الآية الأخرى: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ألم ننهك

(١) انظر الآية (١١٤) من سورة التوبة، في هذا المجلد.

عن ضيافة الرجال ﴿قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۞ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ و قال في هذه الآية الكريمة : ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال مجاهد : لم يكنَّ بناته ، و لكن كنَّ من أمته ، و كل نبي أبو أمته . وكذا روي عن قتادة و غير واحد .

وقال ابن جريج : أمرهم أن يتزوجوا النساء ، و لم يَعرض عليهم سفاحاً . وقال سعيد بن جبير : يعني نساءهم هن بناته ، هو نبيهم ، و يقال في بعض القراآت «النبيُّ أولَى بِالمؤمِنِينَ مِن أنفُسِهِمْ و أزواجُهُ أمهاتُهُمْ وهوَ أبٌ لهمْ» و كذا روي عن الربيع بن أنس و قتادة و السدي و محمد بن إسحاق وغيرهم .

و قوله : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ و لا تُخْزُونِ في ضَيْفِي﴾ أي : اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أي : فيه خير يقبل ما آمره به ، و يترك ما أنهاه عنه؟

٧٩- ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي : إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ، و لا نشتهيهن ﴿وإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي : ليس لنا غرض إلا في الذكور ، و أنت تعلم ذلك ، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ قال السدي ﴿وإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ : إنما نريد الرجال .

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾

٨٠- يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام : إنَّ لوطاً توعدهم بقوله : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ الآية ، أي : لكنتُ نَكَّلتُ بكم ، و فعلت بكم الأفاعيل ، بنفسي و عشيرتي ، ولهذا ورد في الحديث : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «رحمةُ اللهِ على لوط ، لقد كان يأوي إلى رُكنٍ شديد ـ يعني الله عز وجل ـ فما بَعَثَ الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه»[1] .

٨١- فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه ، و أنهم لا وصول لهم إليه ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ و أمروه أنْ يسري بأهله من آخر الليل ، و أن يتبع أدبارهم ، أي : يكون ساقة لأهله ﴿و لا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي : إذا سمعتَ ما نزل بهم ، و لا تهولنَّكمْ تلك الأصوات المزعجة ، و لكن استمروا ذاهبين ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ قال الأكثرون : هو استثناءٌ من المثبت ، وهو قوله : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ تقديره ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ و كذلك قرأها ابن مسعود ، و نصب هؤلاء ﴿امْرَأَتَكَ﴾ لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم ، و قال آخرون من القراء والنحاة : هو استثناء من قوله : ﴿و لا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتُكَ﴾ فجوزوا الرفع و النصب ، و ذكر هؤلاء : أنها خرجتْ معهم ، و أنها لما سمعت الوجْبة التفتت ، وقالت : وا قوماه ، فجاءها حجر من السماء فقتلها ، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له ، لأنه قال : لهم أهلكوهم الساعة ، فقالوا : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ .

هذا و قوم لوط وقوفٌ على الباب عكوف ، قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب ، و لوط واقف على الباب يدافعهم و يردعهم و ينهاهم عماهم فيه ، وهم لا يقبلون منه ، بل يتوعدونه و يتهددونه ، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ، فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق ، كما قال تعالى :

---

(١) عجز حديث رواه أحمد (٢/ ٣٣٢، ٣٤٨) و البخاري في الأدب المفرد (٦٠٥) والترمذي (٣٣٣٢) و غيرهم . و أصله في البخاري (٦/ ٤١٧) (٨/ ٣٦٢) دون ذكر لوط ، و مسلم في الفضائل (٤/ ١٨٣٩) .

﴿ولقدْ راودُوه عن ضيفِهِ فطمسنا أعينَهمْ فذُوقُوا عذابي و نُذُر﴾ الآية.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

٨٢- يقول تعالى: ﴿فلما جَاءَ أمرُنا﴾ و كان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جعلْنَا عاليَها﴾ و هي سدوم ﴿سافِلَها﴾ كقوله: ﴿فغشَّاها ما غشَّى﴾ أي: أمطرنا عليها حجارةً من سجيل، وهي بالفارسية: حجارة من طين، قاله ابن عباس و غيره. و قال بعضهم: أي: من «سنك» هو الحجر و «كل» وهو الطين، و قد قال في الآية الأخرى: ﴿حجارةً مِن طينٍ﴾ أي: مستحجرة قوية شديدة، وقال بعضهم: مشوية، و قال البخاري: «سجيل» الشديد الكبير، سجيل و سجين، اللام و النون أختان.

و قوله: ﴿مَنضُودٍ﴾ قال بعضهم: منضودة في السماء، أي: معدة لذلك. وقال آخرون ﴿مَنضُودٍ﴾ أي: يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم، وقوله: ﴿مُسوَّمَةً﴾ أي: معلَّمة مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجرٍ مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه، و قال قتادة و عكرمة ﴿مسوَّمَةً﴾: مطوقة بها نَضْحٌ من حمرة، و ذكروا: أنها نزلت على أهل البلد، و على المتفرقين في القرى مما حولها، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث، إذْ جاء حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمّره، فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم، فلم يبق منهم أحد، و قال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوطٍ من سَرْحهم و دورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، و رفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها، و كان حملهم على خوافي جناحه الأيمن، قال: و لما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها.

و قال قتادة: بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى، ثم ألوى بها إلى جوّ السماء حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم، ثم دمّر بعضهم على بعض، ثم أتبع شُذّاذ القوم صخراً، قال: و ذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى، في كل قرية مائة ألف، وفي رواية: ثلاث قرى، الكبرى منها: سدوم.

وقوله: ﴿وما هيَ مِن الظَّالمينَ ببعيدٍ﴾ أي: و ما هذه النقمة، ممن تشبَّه بهم في ظلمهم ببعيد عنه، و قد ورد في الحديث المروي في السنن: عن ابن عباس مرفوعاً: «مَن وَجدتموه يعملُ عملَ قوم لوطٍ، فاقتلُوا الفاعلَ والمفعُولَ به». و ذهب الإمام الشافعي في قول عنه و جماعة من العلماء: إلى أنَّ اللائطَ يُقتل، سواء كان مُحصناً أو غيرَ مُحصن، عملاً بهذا الحديث، و ذهب الإمام أبو حنيفة: إلى أنه يُلقَى من شاهق، و يُتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط، و الله سبحانه و تعالى أعلم بالصواب.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ ﴾

٨٤- يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى «مدين» وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز و الشام، قريباً من معان، بلاداً تعرف بهم يقال لها: مدين، فأرسل الله إليهم شعيباً، و كان من أشرفهم نسباً، و لهذا قال: ﴿أخاهمْ شعيباً﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، و ينهاهم عن التطفيف في المكيال و الميزان ﴿إني أراكمْ بخير و إني أخافُ عليكمْ عذابَ يومٍ محيطٍ﴾ أي: في معيشتكمْ و رزقكم، و إني أخافُ أنْ تُسلبوا

ما أنتمْ فيه، بانتهاككمْ محارم الله ﴿و إنّي أخافُ عليكمْ عذابَ يوم محيطٍ﴾ أي: في الدار الآخرة.

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾

٨٥- ينهاهمْ أولاً: عن نقص المكيال و الميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل و الوزن بالقسط، آخذين و معطين، و نهاهم عن العثو في الأرض بالفساد، و قد كانوا يقطعون الطريق.

٨٦- وقوله: ﴿بقيةُ اللهِ خيرٌ لكمْ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خير لكم. و قال الحسن: رزق الله خير لكمْ من بخسكمْ الناس، و قال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم، و قال مجاهد: طاعة الله، و قال قتادة: حظكم من الله خير لكم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الهلاك في العذاب، والبقية في الرحمة، و قال أبو جعفر بن جرير ﴿بقيةُ اللهِ خيرٌ لكمْ﴾ أي: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل و الميزان، خيرٌ لكم من أخذ أموال الناس، قال: و قد روي هذا عن ابن عباس.

قلت: و يشبه قوله تعالى: ﴿قُل لا يَسْتوِي الخبيثُ والطيبُ و لو أعْجبكَ كَثرةُ الخبيثِ﴾ الآية.

و قوله: ﴿و ما أنَا عليكمْ بحفيظٍ﴾ أي: برقيب و لا حفيظ، أي: افعلوا ذلك لله عز وجل، لا تفعلوه ليراكم الناس، بل الله عز وجل.

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾

٨٧- يقولون له على سبيل التهكم قبحهم الله: ﴿أصلواتُكَ﴾ قال الأعمش: أي: قراءتك ﴿تأمرُكَ أن نَترُكَ ما يَعبدُ آباؤُنا﴾ أي: الأوثان و الأصنام ﴿أو أن نفعلَ في أموالنَا ما نشاءُ﴾ فنترك التطفيف عن قولك، وهي أموالنا نفعل ما نريد، قال الحسن في قوله: ﴿أصلواتُكَ تأمركَ أن نتركَ ما يعبدُ آباؤنا﴾: إي والله، إنَّ صلاته لتأمرهم أنْ يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، و قال الثوري في قوله: ﴿أو أن نَفعلَ في أموالنَا ما نشاءُ﴾ يعنون: الزكاة.
و قولهم ﴿إنّكَ لأنتَ الحليمُ الرشيدُ﴾ قال ابن عباس و ميمون بن مهران و ابن جريج و أسلم و ابن جرير: يقولون ذلك ـ أعداء الله ـ على سبيل الاستهزاء قبحهم الله، و لعنهم عن رحمته، و قد فعل.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾

٨٨- يقول لهم أرأيتم يا قوم إن كنت ﴿علَى بيِّنةٍ من ربِّي﴾ أي: على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿و رزقني منهُ رزقاً حسناً﴾ قيل: أراد النبوة، و قيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين، و قال الثوري ﴿ومَا أُريدُ أنْ أُخالفكمْ إلَى مَا أنهاكمْ عنهُ﴾ أي: لا أنهاكم عن الشيء و أخالف أنا في السر، فأفعله خفية عنكم، كما قال قتادة في قوله: ﴿و مَا أُريدُ أنْ أُخالفكمْ إلى ما أنهاكمْ عنهُ﴾ يقول: لم أكن أنهاكم عن أمرٍ وأرتكبه ﴿إنْ أُريدُ إلا الإصلاحَ ما استَطَعْتُ﴾ أي: فيما آمركم و أنهاكم، إنما أريد إصلاحكم جهدي و طاقتي ﴿وما تَوْفيقِي﴾ أي: في إصابةِ الحق فيما أريده ﴿إلا باللهِ عليهِ توكلتُ﴾ في جميع أموري ﴿و إليه أُنيبُ﴾ أي: أرجع، قاله مجاهد.

روى الإمام أحمد: عن حكيم بن معاوية عن أبيه: أن أخاه مالكاً قال: يا معاوية إن محمداً أخذ جيراني، فانطلق إليه فإنه قد كلَّمك و عرفك، فانطلقت معه، فقال: دع لي جيراني، فقد كانوا أسلموا، فأعرض عنه فقام مغضباً، فقال: أما والله لئن فعلتَ، إنَّ الناس يزعمون أنك تأمر بالأمر و تخالف إلى غيره!! وجعلت أجرّه وهو يتكلم، فقال رسول الله: «ما تقول؟» فقال: إنك و الله لئن فعلتَ ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر، وتخالف إلى غيره، قال فقال: «أو قد قالوها ـ أو قائلهم ـ و لئن فعلتُ ذاك، ما ذاك إلا عليَّ، وما عليهم من ذلك من شيء، أرسلوا له جيرانه».

و من هذا القبيل: الحديث الذي رواه الإمام أحمد: سمعت أباحميد و أبا أسيد عنه ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم الحديثَ عني تعرفُه قُلوبُكم، و تَلينُ له أشعارُكمْ و أبشارُكمْ، وترون أنه منكمْ قريبٌ، فأنا أولاكم به، و إذا سمعتم الحديث عني تُنكره قلوبُكم، و تنفر منه أشعارُكم وأبشارُكم، و ترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه» إسناده صحيح. و معناه ـ و الله أعلم ـ مهما بلغكم عني من خير، فأنا أولاكم به، ومهما يكن من مكروه، فأنا أبعدكم منه **﴿وما أُريدُ أنْ أُخالفَكمْ إلى ما أنهاكمْ عنه﴾**.

و عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: تنهى عن الواصلة؟ قال: نعم، قالت: فَعَلَه بعض نسائك، فقال: ما حفظت وصية العبد الصالح إذاً **﴿وما أُريدُ أنْ أُخالفَكمْ إلى ما أنهاكمْ عنه﴾**.

و روى عثمان بن أبي شيبة: عن أبي سليمان الضبي قال: كانت تجيئنا كتبُ عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: و ما كنتُ من ذلك، إلا كما قال العبد الصالح **﴿ومَا تَوفيقِي إلاَّ باللهِ عليهِ توكلتُ وإليهِ أُنيبُ﴾**.

﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾

٨٩- يقول لهم: **﴿ويَا قومِ لا يَجْرِمَنَّكمْ شقَاقي﴾** أي: لا تحملنكم عداوتي و بغضي، على الإصرار على ما أنتمْ عليه من الكفر و الفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قومَ نوحٍ و قوم هودٍ و قوم صالح و قوم لوطٍ، من النقمة و العذاب، و قال قتادة: لا يحملنكم فراقي، و قال السدي: عداوتي، على أن تمادوا في الضلال والكفر، فيصيبكم من العذاب ما أصابهم.

و روى ابن أبي حاتم: عن ابن أبي ليلى الكندي قال: كنتُ مع موْلاي أُمْسكُ دابته، و قد أحاط الناس بعثمان بن عفان، إذْ أشرف علينا من داره، فقال: **﴿يا قومِ لا يَجْرِمنَّكمْ شقَاقِي أن يُصيبَكمْ مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قومَ صالحٍ﴾** يا قوم لا تقتلوني، إنكم إنْ قتلتموني كنتم هكذا: و شبَّك بين أصابعه.

و قوله: **﴿و ما قومُ لوطٍ منكمْ ببعيدٍ﴾** قيل: المراد في الزمان، قال قتادة: يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، و قيل: في المكان، و يحتمل الأمران.

٩٠- **﴿و استَغْفِرُوا ربَّكمْ﴾** من سالف الذنوب **﴿ثمَّ تُوبُوا إليه﴾** فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة.

وقوله: **﴿إنَّ ربِّي رحيمٌ ودودٌ﴾** أي: لمن تاب.

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ

عَلَيْنا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

٩١- يقولون ﴿يَا شُعَيبُ مَا نَفْقَهُ﴾ ما نفهمُ ﴿كثيراً﴾ من قولك ﴿وإنَّا لنَراكَ فينَا ضَعيفاً﴾ قال سعيد بن جبير والثوري: و كان ضرير البصر[1] و قال الثوري: كان يقال له خطيب الأنبياء. قال السدي ﴿و إنَّا لنَراكَ فينَا ضَعيفاً﴾: أنت واحد؛ و قال أبو روق: يعنون ذليلاً، لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿و لولاَ رهطُكَ لرجَمْناكَ﴾ أي: قومك لولا معزتهم علينا ﴿لَرجَمناكَ﴾ قيل: بالحجارة، و قيل: لسببناك ﴿وَمَا أنتَ علينَا بعَزيزٍ﴾ أي: ليس عندنا لك معزة.

٩٢- ﴿قَالَ يَا قوم أرَهْطِي أعزُّ عليكمْ مِن اللهِ﴾ يقول: أتتركوني لأجل قومي، و لا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك و تعالى، أن تنالوا نبيه بمساءة، و قد اتخذتم كتاب الله ﴿وراءكمْ ظِهرياً﴾ أي: نبذتموه خلفكم، لا تطيعونه و لا تعظمونه ﴿إنَّ ربِّي بما تعمَلونَ مُحيطٌ﴾ أي: هو يعلم جميع أعمالكم و سيجزيكم.

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

٩٣- لما يئس نبي الله شعيب من استجابتهم له، قال يا قوم ﴿اعمَلُوا علَى مَكانَتِكمْ﴾ أي: طريقتكم، وهذا تهديد شديد ﴿إنِّي عامِلٌ﴾ على طريقتي ﴿سوفَ تعلمُونَ مَن يأتيهِ عذابٌ يُخزيهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، ﴿ومَن هُوَ كاذبٌ﴾ أي: مني ومنكم ﴿و ارتَقِبُوا﴾ أي: انتظروا ﴿إنِّي معكمْ رقِيبٌ﴾.

٩٤- قال الله تعالى: ﴿و لمَّا جاء أمرُنا نجينا شُعيباً و الذينَ آمنُوا معهُ برحمةٍ منَّا و أخذت الذينَ ظلَمُوا الصَّيحةُ فأصبحُوا في ديَارهمْ جاثِمينَ﴾. و قوله: ﴿جاثِمينَ﴾ أي: هامدين لا حراك بهم، و ذكر هنا: أنه أتتهم صيحةٌ، و في الأعراف: رجفةٌ، و في الشعراء: ﴿عذابُ يوم الظُّلَّة﴾ و هم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، و إنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لما قالوا ﴿لنُخرجنَّكَ يا شُعيبُ والذينَ آمنُوا معكَ مِن قريتِنَا﴾ ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، و أرادوا إخراج نبيهم منها، وههنا لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم، ذكر الصيحة التي أسكتتهم و أخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا ﴿فأسقِطْ علَينَا كِسَفاً مِن السماءِ إنْ كنتَ مِن الصادِقينَ﴾ قال: ﴿فأخذَهم عذابُ يومِ الظُّلَّة إنَّه كانَ عذابَ يوم عظِيمٍ﴾ و هذا من الأسرار الدقيقة، و لله الحمد و المنة كثيراً دائماً.

٩٥- و قولُه: ﴿كأَن لمْ يَغنَوا فيها﴾ أي: يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿ألاَ بُعداً لِمَديَنَ كَما بَعِدتْ ثَمُودُ﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار، و شبيهاً بهم في الكفر و قطع الطريق، و كانوا عرباً مثلهم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ

(١) في الطبري (١٥/ ٤٥٨) عن الثوري: كان ضعيف البصر. و في وصفه بالعمي نظر! فإنَّ الأنبياءَ أكملُ الناس خلقاً و خُلُقاً، و الله أعلم.

لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

٩٦ ، ٩٧- يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته و دلالاته الباهرة ، إلى فرعون ملك القبط و ملئه ﴿فاتَّبعُوا أمرَ فرعونَ﴾ أي : منهجه و مسلكه ، و طريقته في الغي ﴿وَمَا أمرُ فِرْعونَ بِرشِيدٍ﴾ أي : ليس فيه رشد ولا هدى ، و إنما هو جهلٌ و ضلال ، و كفر و عناد ، و كما أنهم اتبعوه في الدنيا و كان مقدمهم و رئيسهم ، كذلك هو يَقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم ، فأوردهم إياها ، و شربوا من حياض رداها ، وله في ذلك الحظ الأوفر ، من العذاب الأكبر ، كما قال تعالى : ﴿فَعصَى فرعونُ الرَّسُولَ فأخَذْنَاهُ أخذاً وبيلاً﴾ ، و قال تعالى : ﴿فكَذَّبَ وعصَى ❁ ثُمَّ أدْبَرَ يَسعَى ❁ فحشَرَ فَنادَى ❁ فَقالَ أنَا ربُّكمُ الأعْلَى ❁ فأخَذَهُ اللهُ نَكالَ الآخرةِ وَ الأُولَى ❁ إنَّ في ذلكَ لعِبرةً لِمَن يَخشَى﴾ .

٩٨- و قال تعالى : ﴿يَقدُمُ قومَه يومَ القيامةِ فأوردَهُمُ النَّارَ و بِئسَ الوِردُ المَوْرُود﴾ . و كذلك شأن المتبوعين ، يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿لِكل ضِعف وَلكن لا تَعْلَمُون﴾ و قال تعالى إخباراً عن الكفرة أنهم يقولون في النار : ﴿ربَّنَا إنَّا أطعْنا سادتَنا و كُبَراءَنا فأضَلُّونا السَّبيلاَ ❁ ربَّنَا آتهمْ ضِعفَينِ مِن العَذابِ﴾ الآية .

٩٩- و قوله : ﴿و أُتبِعُوا في هذه لَعنةً و يومَ القِيامةِ﴾ الآية ، أي : أتبعناهم زيادة على عذاب النار ، لعنة في الدنيا ﴿ويومَ القيامةِ بئس الرفدُ المَرْفودُ﴾ قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة ، فتلك لعنتان ، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لعنة الدنيا و الآخرة ، و كذا قال الضحاك و قتادة ، وهو كقوله : ﴿و جعلنَاهمْ أئمةً يدعونَ إلى النار ويومَ القيامةِ لا يُنصرُونَ ❁ و أتبعناهمْ في هذه الدُّنْيا لعنةً و يومَ القيامةِ همْ مِن المَقْبوحينَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿النَّارُ يُعرَضُونَ عليهَا غُدُوّاً و عَشياً و يومَ تقومُ الساعةُ أدخِلُوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذابِ﴾ .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

١٠٠- لما ذكر تعالى خبر الأنبياء ، و ما جرى لهم مع أممهم ، و كيف أهلكَ الكافرين ، و نَجّى المؤمنين ، قال : ﴿ذلكَ مِن أنْباءِ القُرَى﴾ أي : أخبارهم ﴿نَقصُّهُ عليكَ مِنها قائمٌ﴾ أي : عامر ﴿و حَصيدٌ﴾ أي : هالك .

١٠١- ﴿و ما ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي : إذ أهلكناهم ﴿وَلكنْ ظَلَمُوا أنفُسَهمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا ، و كفرهم بهم ﴿فمَا أغنتْ عنهمْ آلِهتُهمْ﴾ أوثانهم التي يعبدونها و يدعونها ﴿مِن دونِ اللهِ مِن شيءٍ﴾ ما نفعُوهم ، و لا أنقذوهمْ لما جاءَ أمرُ الله بإهلاكهم ﴿و مَا زادُوهمْ غيرَ تَتْبيب﴾ قال مجاهد و قتادة و غيرهما : أي غير تخسير ، و ذلك أن سبب هلاكهم و دمارهم ، إنما كان باتباعهم تلك الآلهة ، فلهذا خسروا في الدنيا و الآخرة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

١٠٢- يقول تعالى : و كما أهلكنا أولئك القرون الظالمة ، المُكذِّبة لرسلنا ، كذلك نفعلُ بأشباههم ﴿إنَّ أخذَهُ أليمٌ شديدٌ﴾ و في الصحيحين : عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ اللهَ ليُملي للظَّالم ، حتى

إذا أخذه لم يُفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿و كذلك أخذُ ربِّكَ إذا أخَذَ القُرَى وهيَ ظالمةٌ﴾ الآية.

﴿إنَّ في ذلكَ لآيةً لِمَنْ خافَ عذابَ الآخرةِ ذلكَ يومٌ مَّجمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وذلكَ يومٌ مَّشهُودٌ (١٠٣) وما نُؤخِّرُهُ إلاَّ لأجلٍ مَّعدُودٍ (١٠٤) يومَ يأتِ لا تكلَّمُ نفسٌ إلاَّ بإذنِهِ فمنهُم شقيٌّ وسعيدٌ (١٠٥)﴾

١٠٣- يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين، و إنجائنا المؤمنين ﴿لآيةً﴾ أي: عظة و اعتباراً، على صدق موعودنا في الآخرة ﴿إنَّا لَننصرُ رُسُلَنا و الذينَ آمنُوا في الحياةِ الدُّنيا و يومَ يقومُ الأشهادُ﴾، و قال تعالى: ﴿فأوحَى إليهمْ ربُّهمْ لَنُهلِكَنَّ الظالمينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿ذلكَ يومٌ مَّجمُوعٌ لهُ النَّاسُ﴾ أي: أولهم و آخرهم، كقوله: ﴿وحشَرْناهُمْ فلَمْ نُغادِرْ منهُمْ أحداً﴾. ﴿و ذلكَ يومٌ مَّشهُودٌ﴾ أي: عظيم تحضره الملائكة، و يجتمع فيه الرسل، و تحشر الخلائق بأسرهم من الإنس و الجن، و الطير و الوحوش و الدواب، و يحكم فيه العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرة، و إنْ تكُ حسنةً يُضاعفها.

١٠٤- وقوله: ﴿و ما نُؤخِّرُهُ إلاَّ لأجَلٍ مَّعدُودٍ﴾ أي: ما نُؤخر إقامة القيامة، إلا أنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين، من ذرية آدم، و ضرب مدة معينة، إذا انقطعت و تكامل وجود أولئك المقدر خروجهم، قامت الساعة، و لهذا قال: ﴿و ما نُؤخِّرُهُ إلاَّ لأجَلٍ معدودٍ﴾ أي: لمدةٍ مؤقتة، لا يزاد عليها و لا ينتقص منها.

١٠٥- ﴿يومَ يأتِ لا تكَلَّمُ نفسٌ إلاَّ بإذنِهِ﴾ أي: يوم يأتي يوم القيامة، لا يتكلم أحدٌ إلا بإذن الله، كقوله: ﴿لا يتكلَّمونَ إلاَّ مَنْ أذِنَ لهُ الرَّحمنُ و قالَ صَواباً﴾ وقال: ﴿و خشعَتِ الأصواتُ للرَّحمنِ﴾ الآية.

و في الصحيحين من حديث الشفاعة: «ولا يتكلّم يومئذٍ إلا الرُّسلُ، و دعوى الرسل يومئذ: اللهمَّ سَلِّم سَلِّم». وقوله: ﴿فمنهمْ شقيٌّ و سعيدٌ﴾ أي: فمن أهل الجمع شقي، و منهم سعيد، كما قال: ﴿فريقٌ في الجنةِ و فريقٌ في السعيرِ﴾.

﴿فأمَّا الَّذينَ شقُوا ففي النَّارِ لهُمْ فيها زفيرٌ وشهيقٌ (١٠٦) خالدينَ فيها ما دامتِ السَّمواتُ والأرضُ إلاَّ ما شاءَ ربُّكَ إنَّ ربَّكَ فعَّالٌ لِّما يُريدُ (١٠٧)﴾

١٠٧- يقول تعالى لهم: ﴿فيهَا زَفيرٌ و شهيقٌ﴾ قال ابن عباس: الزفير في الحلق، و الشهيق في الصدر، أي: تنفسهم زفير، و أخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، عياذاً بالله من ذلك ﴿خالدينَ فيهَا ما دامَتِ السَّمواتُ و الأرضُ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً، قالت: هذا دائم دوام السموات و الأرض، و كذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل و النهار، و ما سَمَر أبناء سمير، و ما لألأت العير بأذنابها. يعنون بذلك كله أبداً، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بهم، فقال: ﴿خالدينَ فيهَا ما دَامت السَّمواتُ و الأرضُ﴾.

قلت: و يحتمل أن المراد بما دامت السموات و الأرض الجنس، لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ و السمواتُ﴾ و لهذا قال الحسن البصري: سماءٌ غير هذه السماء، و أرض غير هذه، فما دامت تلك السماء و تلك الأرض. و قال ابن أبي حاتم: ذكر عن مجاهد عن ابن عباس قوله: ﴿ما دَامت السمواتُ و الأرضُ﴾ قال: لكل جنة سماء و أرض، و قال عبد الرحمن بن

يزيد بن أسلم: ما دامت الأرض أرضاً، و السماء سماء.

و قوله: ﴿إلا مَا شاءَ ربُّكَ إنَّ ربَّكَ فعّالٌ لِما يُريدُ﴾ كقوله: ﴿النارُ مثْواكُمْ خالدينَ فِيهَا إلا ما شاءَ اللهُ إنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ﴾ و قد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة، حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه زاد المسير، و غيره من علماء التفسير، و نقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه، و اختار هو: ما نقله عن خالد بن معدان و الضحاك و قتادة و أبي سنان، و رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس و الحسن أيضاً، أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة و النبيين و المؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمةُ أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، و قال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك، من حديث أنس و جابر و أبي سعيد وأبي هريرة و غيرهم من الصحابة، و لا يبقى بعد ذلك في النار إلا مَن وَجَب عليه الخلود فيها، و لا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً و حديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة.

و قد رُوي في تفسيرها (عن الصحابة و التابعين و غيرهم من الأئمة) أقوال غريبة، و ورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير: عن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي، و لكن سنده ضعيف، و الله أعلم.

وقال قتادة: الله أعلم بثنياه. و قال السدي: منسوخة بقوله: ﴿خالدينَ فيهَا أبداً﴾.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾

١٠٨- يقول تعالى: ﴿و أمَّا الذينَ سُعِدُوا﴾ و هم أتباع الرسل ﴿فَفي الجنة﴾ أي: فمأواهم الجنة ﴿خالدينَ فِيها﴾ أي: ماكثين فيها أبداً ﴿ما دَامت السَّموات و الأرضُ إلاَّ مَا شاءَ ربُّكَ﴾ معنى الاستثناء ههنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسبيح و التحميد كما يلهمون النَّفَس. و قال الضحاك و الحسن البصري: هي في حق عصاة الموحدين، الذين كانوا في النار ثم أُخرجوا منها، و عقب ذلك بقوله: ﴿عطاءً غيرَ مجذوذٍ﴾ أي: غير مقطوع، قاله مجاهد و ابن عباس و أبو العالية و غير واحد، لئلاَّ يُتوهَّم بعد ذكره المشيئة، أن ثَمَّ انقطاعٌ أو لبس أو شيء، بل حتم له بالدوام و عدم الانقطاع، كما بيَّن هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته، و أنه بعدله و حكمته عذبهم، و لهذا قال: ﴿إنَّ ربَّكَ فعَّالٌ لِما يُريدُ﴾ كما قال: ﴿لا يُسئلُ عمَّا يَفعلُ وهمْ يُسئلون﴾ و هنا طيَّب القلوب، و ثبَّتَ المقصودُ بقوله: ﴿عطاءً غيرَ مَجذُوذٍ﴾.

و قد جاء في الصحيحين: «يُؤتى بالموتِ في صورة كبشٍ أملح، فيذبح بين الجنة و النار، ثم يقال: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، و يا أهل النار خلود فلا موت». و في الصحيحين أيضاً: «فيقال يا أهل الجنة، إنَّ لكم أنْ تعيشوا فلا تموتوا أبداً، و إنَّ لكم أنْ تشبوا فلا تَهرموا أبداً، و إنَّ لكم أنْ تصحُّوا فلا تسقموا أبداً، و إنَّ لكم أنْ تَنعمُوا فلا تَبأسوا أبداً».

﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ

غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

١٠٩- يقول تعالى: ﴿فلا تكُ في مِريةٍ مما يَعْبدُ هؤلاءِ﴾ المشركون إنه باطل و جهل و ضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي: ليس لهم مستندٌ فيما هم فيه، إلا اتباع الآباء في الجهالات، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء، فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً، و إن كان لهم حسنات، فقد وَفَّاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة. رُوي عن ابن عباس ﴿و إنّا لمُوفُّوهمْ نصيبَهم غيرَ منقوصٍ﴾ قال: ما وعدوا من خير أو شر. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص.

١١٠- ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به و من كافر به؛ فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يَغيظنَّك تكذيبهم لك، و لا يهمنك ذلك، ﴿ولَو لاَ كلمةٌ سبقتْ من ربكَ لقُضيَ بينَهمْ﴾ قال ابن جرير: لو لا ما تقدَّم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم، لقضى الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بـ «الكلمة» أنه لا يعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، و إرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿و ما كنّا معذِّبينَ حتى نَبْعثَ رسولاً﴾ فإنه قد قال في الآية الأخرى: ﴿ولَولاَ كلمةٌ سبقت مِن ربِّكَ لَكانَ لزاماً و أجلٌ مُسمّى ۞ فاصبرْ علَى ما يَقُولونَ﴾.

١١١- ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين و الآخرين من الأمم، و يجزيهم بأعمالهم إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، فقال: ﴿و إنَّ كلاً لمّا ليُوفّينَّهمْ ربُّكَ أعْمالَهم إنَّه بمَا يَعْملونَ خبير﴾ أي: عليمٌ بأعمالهم جميعاً، جليلها و حقيرها، صغيرها و كبيرها، و في هذه الآية قراآت كثيرة، يرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه، كما في قوله تعالى: ﴿و إن كلٌ لمّا جميعٌ لدينا مُحضَرُونَ﴾.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

١١٢- يأمر تعالى رسوله و عباده المؤمنين، بالثبات و الدوام على الاستقامة، و ذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، و مخالفة الأضداد، و نهى عن الطغيان وهو: البغي، فإنه مصرعة، حتى ولو كان على مشرك، و أعلَم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، و لا يخفى عليه شيء.

١١٣- وقوله: ﴿و لا تَركَنُوا إِلَى الذينَ ظَلَمُوا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تداهنوا.

وقال العوفي عن ابن عباس: هو الركون إلى الشرك، و قال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم، و قال ابن جريج عن ابن عباس: و لا تميلوا إلى الذين ظلموا. و هذا القول حسن، أي: لا تستعينوا بالظلمة، فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿فتَمسّكمُ النارُ وما لكمْ مِن دونِ الله مِن أولياءَ ثم لا تُنصرونَ﴾ أي: ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، و لا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

١١٤- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النهارِ﴾ قال: يعني الصبح والمغرب. وكذا قال الحسن و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، و قال الحسن ـ في رواية ـ و قتادة و الضحاك وغيرهم: هي الصبح و العصر. و قال مجاهد: هي الصبح في أول النهار، و الظهر و العصر مرة أخرى ﴿وزُلَفاً مِن اللَّيلِ﴾ قال ابن عباس و مجاهد و الحسن و غيرهم: يعني صلاة العشاء، وقال الحسن ـ في رواية ـ يعني: المغرب و العشاء، و كذا قال مجاهد و محمد بن كعب و قتادة و الضحاك.

و قد يحتمل أنْ تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، و في أثناء الليل قيام عليه و على الأمة، ثم نُسخ في حق الأمة و ثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً في قول، و الله أعلم.

و قوله: ﴿إنَّ الحسناتِ يُذهبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ يقول: إنَّ فعل الخيرات يكفر الذنوبَ السالفة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد و أهل السنن: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعتُ من رسول الله حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، و إذا حدَّثني عنه أحدٌ استحلفته، فإذا حَلَفَ لي صدقته، وحدثني أبو بكر ـ و صدق أبو بكر ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما مِن مُسلمٍ يُذنبُ ذنباً، فيتوضأ و يصلي ركعتين إلا غفر له». و في الصحيحين: عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضَّأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ، و قال: «مَن توضأ وضوئي هذا، ثم صلَّى ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدم من ذنبه».

و روى الإمام أحمد و أبو جعفر بن جرير: عن الحارث مولى عثمان قال: جلس عثمان يوماً و جلسنا معه، فجاءه المؤذن فدعا عثمان بماءٍ في إناءٍ، أظنه سيكون فيه قدر مد، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا، ثم قال: «مَن توضأ وضوئي هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر، غُفرَ له ما بينه و بين صلاة الصبح، ثم صلى العصر غُفر له ما بينه و بين صلاة الظهر، ثم صلى المغرب غفر له ما بينه و بين صلاة العصر، ثم صلى العشاء غفر له ما بينه و بين صلاة المغرب، ثم لعله يَبيتُ يتمرَّغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ و صلى الصبح غُفر له ما بينها و بين صلاة العشاء، وهنَّ الحسنات يذهبن السيئات».

و في الصحيح: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أنَّ بباب أحدكم نهراً غَمْراً يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمس مرات، هل يُبقي من درنه شيئاً؟» قالوا: لا، يا رسول الله، قال: «كذلك الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الذنوب و الخطايا».

و روى مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلواتُ الخمس، و الجمعة إلى الجمعة، و رمضان إلى رمضان، مُكفِّراتٌ لما بينهن ما اجتنبت الكبائر».

وروى البخاري عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلةً، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله ﴿فأقِمِ الصلاةَ طَرَفَي النهارِ وزُلَفاً مِن الليلِ إنَّ الحسَناتِ يُذهِبْنَ السيئاتِ﴾ فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم». و رواه مسلم و أحمد و أهل السنن إلا أبا داود.

و رواه الإمام أحمد و مسلم و الترمذي والنسائي و ابن جرير و هذا لفظه: عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني وجدتُ امرأةً في بستان، ففعلتُ بها كلَّ شيءٍ غير أني لم

أجامعها، قبلتها و لزمتها و لم أفعل غير ذلك، فافعل بي ما شئت؛ فلم يَقلْ رسول الله ﷺ شيئاً، فذهب الرجل، فقال عمر: لقد سَتَرَ اللهُ عليه، لو سَتَر على نفسه، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره، ثم قال: «ردُّوه علي» فرده عليه، فقرأ عليه ﴿أَقِمِ الصلاةَ طَرَفَي النهارِ و زُلَفاً مِن اللَّيل إنَّ الحسَنات يُذهِبْنَ السيِّئاتِ ذلكَ ذِكْرَى للذَّاكِرِينَ﴾ فقال معاذ - و في رواية عمر - : يا رسول الله أله وحده؟ أم للناس كافَّة؟ فقال: «بل للناس كافة».

﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) ﴾

١١٦- يقول تعالى: فهَلاَّ وُجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور، و المنكرات و الفساد في الأرض، و قوله: ﴿إلاَّ قليلاً﴾ أي: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه، و فجأة نقمته، و لهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة، أنْ يكون فيها مَن يأمر بالمعروف، و ينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿و لْتكن مِنكم أُمَّةٌ يَدْعونَ إِلَى الخَيرِ و يأمُرونَ بالمَعْروفِ و يَنهونَ عَنِ المُنكرِ و أُولئكَ هُمُ المُفْلِحونَ﴾.

و في الحديث: «إنَّ الناسَ إذا رأوا المنكرَ فلمْ يُغيِّروه، أوشك أن يَعمَّهم الله بعقاب».

و لهذا قال تعالى: ﴿فلَولاَ كانَ مِنَ القُرونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولو بَقِيَّةٍ يَنهَونَ عَنِ الفَسادِ في الأرضِ إلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أنجَيْنا مِنهُمْ﴾ و قوله: ﴿و اتَّبعَ الذينَ ظَلَمُوا ما أُترِفُوا فيه﴾ أي: استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، و لم يَلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجأهم العذابُ ﴿و كانوا مُجرِمينَ﴾.

١١٧- ثم أخبر تعالى أنه لم يُهلك قريةً، إلا وهي ظالمة لنفسها، و لم يأت قرية مُصلحة بأسه و عذابه قطُّ، حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿و ما ظَلَمْناهم و لكن ظَلَمُوا أنفسَهم﴾، و قال: ﴿و ما ربُّكَ بظلاَّمٍ للعبيدِ﴾.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾

١١٨- يخبر تعالى أنه قادرٌ على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان و كفران، كما قال تعالى: ﴿ولوْ شاءَ ربُّكَ لآمنَ مَنْ في الأرضِ كُلُّهمْ جَميعاً﴾. و قوله: ﴿وَلا يَزالُونَ مُختَلفِينَ * إلاَّ مَن رَحِمَ ربُّكَ﴾ أي: ولا يزال الخُلف بين الناس في أديانهم، و اعتقادات مللهم و نحلهم، و مذاهبهم و آرائهم، و قال عكرمة: مختلفين في الهدى. و قال الحسن البصري: مختلفين في الرزق، سخَّر بعضهم بعضاً، و المشهور الصحيح الأول.

و قوله: ﴿إلاَّ مَن رحِمَ ربُّكَ﴾ أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم، و لم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي و خاتم الرسل و الأنبياء، فاتبعوه وصدقوه ووازروه، ففازوا بسعادة الدنيا و الآخرة، لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء في الحديث المروي في

المسانيد والسنن من طرق يشد بعضه بعضاً: «إنَّ اليهودَ افترقتْ على إحدى و سبعين فِرْقة، و إنَّ النصارى افترقتْ على ثنتين و سبعين فرقة، و ستفترق هذه الأمة على ثلاثٍ و سبعين فِرقةً، كلُّها في النار إلاَّ فرقةً واحدة» قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه و أصحابي» رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة.

و قال عطاء ﴿ولاَ يزالُونَ مُختَلفِينَ﴾ يعني: اليهود و النصارى و المجوس ﴿إلاَّ مَن رحِمَ ربُّكَ﴾ يعني: الحنيفية. و قال قتادة: أهلُ رحمة الله: أهل الجماعة، و إنْ تفرقتْ ديارهم و أبدانهم، و أهل معصيته: أهل فرقة، و إن اجتمعت ديارهم و أبدانهم.

وقوله: ﴿و لذلكَ خلَقَهمْ﴾ قال الحسن البصري في رواية عنه: و للاختلاف خَلَقهم، و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: خَلَقَهم فريقين، كقوله: ﴿فمِنهمْ شقيٌّ و سعيدٌ﴾ و قيل: للرحمة خلقهم. و عن عكرمة عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم و لم يخلقهم للعذاب، و كذا قال مجاهد و الضحاك وقتادة.

و يرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿و مَا خَلقتُ الجنَّ و الإنسَ إلاَّ لِيعْبُدونِ﴾.

و قيل: بل المراد: و للرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿إلاَّ مَن رحمَ ربُّكَ﴾ فمن رَحمَ ربُّكَ غير مختلف، فقيل له ﴿لذلكَ خلقهمْ﴾ قال: خلق هؤلاء لجنته، و خلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لعذابه و كذا قال عطاء بن أبي رباح و الأعمش. و قال ابن وهب: سألت مالكاً عن قوله تعالى: ﴿و لاَ يزالوانَ مُختلفِينَ* إلاَّ مَن رَحِمَ ربُّكَ وَ لذلكَ خَلقهمْ﴾ قال: فريق في الجنة، و فريق في السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير و أبو عبيد و الفراء.

و قوله: ﴿و تمتْ كلمةُ ربِّكَ لأمْلأنَّ جهنمَ مِن الْجِنَّةِ و النَّاسِ أجْمعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره، لعلمه التام، و حكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، و منهم من يستحق النار، و أنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين: الجن و الإنس، و له الحجة البالغة، و الحكمة التامة.

و في الصحيحين: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة و النار، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضُعفاءُ الناس و سقطهم، و قالت النار: أُورثت بالمتكبرين و المتجبرين، فقال اللهُ عز وجل للجنة: أنتِ رحمتي أرحمُ بك من أشاء، و قال للنار: أنتِ عذابي أنتقم بك ممن أشاء، و لِكلٍّ واحدةٍ منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فَضْلٌ، حتى يُنشىء الله لها خَلْقاً يسكن فضْلَ الجنة، و أما النار فلا تزال تقول: هل مِنْ مزيد، حتى يضع عليها رب العزة قَدَمه فتقول: قَطْ قَطْ و عزتك».

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾

١٢٠- يقول تعالى: و كل أخبارٍ نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، و كيف جرى لهم من المحاجات و الخصومات، و ما احتمله الأنبياء من التكذيب و الأذى، و كيف نَصَر الله المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرون، كل هذا مما نُثبت به فؤادكَ يا محمد، أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة.

و قوله: ﴿وَجاءَكَ في هذه الحقُّ﴾ أي: هذه السورة، قاله ابن عباس و مجاهد و جماعة من السلف،

وعن الحسن في رواية عنه و قتادة في هذه الدنيا، و الصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، وكيف أنجاهم الله المؤمنين بهم، و أهلك الكافرين، جاءك فيها قصصُ حقٍ، ونبأ صدق، و موعظة يرتدع بها الكافرون، و ذكرى يتذكّر بها المؤمنون.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾

١٢٣ - يخبر تعالى: أنه عالم غيب السموات و الأرض، و أنه إليه المرجع و المآب، و سيؤتي كل عاملٍ عمله يوم الحساب، فله الخلق و الأمر؛ فزمر بعبادته و التوكل عليه، فإنه كافٍ من توكّل عليه و أناب إليه، و قوله: ﴿و ما ربُّكَ بغافلٍ عمَّا تعملونَ﴾ أي: ليس يخفى عليه ما عليه مكذّبوك يا محمد، بل هو عليمٌ بأحوالهم وأقوالهم، و سيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا و الآخرة، و سينصرك و حزبك عليهم في الدارين.

ترتيبها ١٢ — سورة يوسف - مكية — آياتها ١١١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾

١ - أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين، أي: الواضح الجلي، الذي يُفْصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويبينها.

٢ - ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه.

٣ - ولهذا قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن، وقد ورد في سبب نزول هذه الآيات، ما رواه ابن جرير: عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: أُنزلَ على النبيﷺ القرآن، قال، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا؟ فأنزل الله عز وجل ﴿الر تلك آياتُ الكتابِ المُبينِ﴾ إلى قوله: ﴿لعلكمْ تعقِلُونَ﴾ ثم تلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿اللهُ نزّلَ أحسنَ الحديثِ﴾ الآية، وذكر الحديث، ورواه الحاكم.

و مما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة، المشتملة على مدح القرآن، وأنه كافٍ عن كل ما سواه من الكتب، ما رواه الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله: أن عمر بن الخطاب أتى النبيﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبيﷺ قال: فغضب، وقال: «أمُتَهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاءَ نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحقٍ فتكذبونه، أو بباطلٍ فتصدقونه؛ والذي نفسي بيده، لو أنَّ موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني».

و رواه الإمام أحمد: عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول اللهﷺ فقال: يا رسول الله، إني مررتُ بأخ لي من قريظة، فكتبَ لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول اللهﷺ، قال عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول اللهﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، قال: فسُرِّيَ عن النبيﷺ، وقال: «و الذي نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظِّي من الأمم، وأنا حظُّكم من النبيين».

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾

٤- يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد، في قصصك عليهم من قصة يوسف، إذ قال لأبيه، وأبوه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، كما روى الإمام أحمد: عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» انفرد بإخراجه البخاري. وروى البخاري أيضاً: عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ أيُّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهمْ عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرمُ الناس: يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام إذا فقهوا». وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي.

و قد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أنَّ الأحد عشر كوكباً، عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه. روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره، وإخوته بين يديه **﴿و خرُّوا له سُجَّداً وقالَ يا أبتِ هذَا تأويل رُؤيايَ مِنْ قبلُ قدْ جعَلَهَا ربِّي حقّاً﴾**.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥)﴾

٥- يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف، حين قصَّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه، تعظيماً زائداً بحيث يخرّون له ساجدين، إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشي يعقوب عليه السلام أن يُحدِّث بهذا المنام أحداً من إخوته، فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسداً منهم له، ولهذا قال له: **﴿لا تَقْصُصْ رُؤياكَ علَى إخوتِكَ فيكيدُوا لكَ كيداً﴾** أي: يحتالون لك حيلة يردونك فيها، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدُكم ما يحبُّ فليحدِّث به، وإذا رأى ما يكره فليتحوّل إلى جنبه الآخر، وليَتْفِلْ عن يساره ثلاثاً، وليَسْتعذْ بالله من شرِّها، ولا يحدِّث بها أحداً، فإنها لن تضره».

و في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن: من رواية معاوية بن حميد القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رِجْل طائرٍ ما لم تُعَبَّرْ، فإذا عُبِّرتْ وقعتْ».

و من هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة، حتى تُوجد وتظهر، كما ورد في حديث: «استْعينوا على قضاءِ الحوائج بكتمانها، فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسود»[(١)].

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾

٦- يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف، إنه كما اختارك ربك، وأراك هذه الكواكب مع

(١) رواه ابن حبان في روضة العقلاء (ص ١٨٧) و السهمي في تاريخ جرجان (ص ١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و حسنه العلامة الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٤٥٣).

الشمس والقمر ساجدة لك ﴿كذلكَ يَجتبيكَ ربُّكَ﴾ أي: يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿و يُعلِّمكَ مِن تأويلِ الأحاديثِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا ﴿و يُتمُّ نِعْمتَهُ عليكَ﴾ أي: بإرسالك والإيحاء إليك. ولهذا قال: ﴿كما أتمَّها على أبوَيْكَ مِن قبلُ إبراهيمَ﴾ وهو الخليل ﴿و إسْحاقَ﴾ ولده وهو الذبيح في قول، وليس بالرجيح [1] ﴿إنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ﴾ أي: هو أعلم حيث يجعل رسالته، كما في الآية الأخرى.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾

٧- يقول تعالى لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته ﴿آياتٌ﴾ أي: عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبرٌ عجيب يستحق أنْ يستخبر عنه.

٨- ﴿إذْ قالُوا لَيوسُفُ وأخُوهُ أحبُّ إلَى أبِينا منَّا﴾ أي: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿أحبُّ إلَى أبِينا مِنَّا ونَحنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف أحبَّ ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿إنَّ أبانا لفي ضَلالٍ مُبينٍ﴾ يعنون في تقديمهما علينا، ومحبته إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقم دليلٌ على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس مَن يزعم أنه أُوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مُدَّعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمنَّا بالله وما أُنزِلَ إلينَا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ﴾ وهذا فيه احتمال، لأنَّ بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سِبْط من نسل رجلٍ من إخوة يوسف، ولم يقم دليلٌ على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم، والله أعلم.

٩- ﴿اقتُلُوا يُوسفَ أو اطرَحُوهُ أرضاً يَخلُ لكمْ وجهُ أبيكمْ﴾ يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، اعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأنْ تقتلوه، أو تلقوه في أرض من الأراضي، تستريحوا منه، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿و تكونُوا مِن بعدِه قوماً صالِحينَ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب.

١٠- ﴿قالَ قائلٌ منهم﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق: وكان أكبرهم واسمه روبيل. وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا، وقال مجاهد: هو شمعون. ﴿لا تَقتُلُوا يُوسُفَ﴾ أي: لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله، لأنَّ الله تعالى كان يريد منه أمراً، لا بد من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه، وإشارته عليهم بأنْ يلقوه في ﴿غَيابةِ الجُبِّ﴾ وهو أسفله. قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس.

﴿يلتَقِطهُ بعضُ السيارةِ﴾ أي: المارة من المسافرين، فتستريحوا منه بهذا، ولا حاجة إلى قتله ﴿إنْ كنتمْ فاعِلِينَ﴾ أي: إن كنتمْ عازمين على ما تقولون.

---

(١) و إنما الراجح أن الذبيح هو إسماعيل عليه الصلاة و السلام، و سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضَّرَع، الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبيبه، على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين أبيه، على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

١١- لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر، كما أشار به عليهم أخوهم روبيل، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام، فقالوا: ما بالك ﴿لاَ تأمنَّا علَى يُوسفَ وإنَّا له لَناصِحُونَ﴾ وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك، لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له.

١٢- ﴿أرسِلْهُ معَنا﴾ أي: ابعثه معنا ﴿غداً نرتعْ ونلعبْ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يرتعْ ويَلعبْ﴾ قال ابن عباس: يسعى وينشط. وكذا قال قتادة والضحاك والسدي وغيرهم ﴿و إنَّا لهُ لحافِظُونَ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

١٤- يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب، أنه قال لنبيه في جواب ما سألوا، من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء ﴿إنِّي لَيحْزُنُني أنْ تذْهَبوا بهِ﴾ أي: يشقُّ عليَّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أنْ يرجع، وذلك لفرط محبته له نما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة، والكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿و أخافُ أنْ يأكلَهُ الذئبُ وأنتمْ عنه غافِلُونَ﴾ يقول: وأخشى أنْ تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون.

فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة: ﴿لئنْ أكلَهُ الذئبُ ونحنُ عصبةٌ إنَّا إذاً لخاسرُونَ﴾ يقولُون: لئن عَدَا عليه الذئب، فأكله من بيننا ونحن جماعة، إنا إذاً لهالكون عاجزون.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

١٥- يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه، بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿و أجمعوا أنْ يَجعلُوهُ في غيابةِ الجبِّ﴾ هذا فيه تعظيمٌ لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهرونه له، إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه. فيقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له.

و قوله: ﴿و أوحينَا إليه لَتُنبّئنَّهم بأمرهمْ هذا وهمْ لاَ يشعُرونَ﴾ يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته، وإنزاله اليسر في حال العسر، أنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطييباً لقلبه، وتثبيتاً له، إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإنَّ لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويُعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع.

و قوله: ﴿و همْ لا يشعُرونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: ﴿وهم لا يشعُرون﴾ بإيحاء الله إليه. وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك.

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾

١٦- يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب، ثم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، ويَتَغمّمون لأبيهم.

١٧- وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا ﴿إنّا ذهبْنا نستبق﴾ أي: نترامى ﴿و تركْنا يوسُفَ عندَ متَاعنا﴾ أي: ثيابنا وأمتعتنا ﴿فأكلهُ الذّئبُ﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه. وقوله: ﴿و ما أنتَ بمُؤمنٍ لنا ولوْ كنّا صادقِينَ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا ـ والحالة هذه ـ لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا، لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

١٨- ﴿و جاءوا علَى قميصِه بدمٍ كَذِب﴾ أي: مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالؤا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة ـ فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد ـ فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أنَّ هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لمْ يرُجْ هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم، إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه: ﴿بل سوّلتْ لكم انفسُكم أمراً فصبرٌ جميلٌ﴾ أي: فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿و اللهُ المستَعانُ على ما تَصِفُون﴾ أي: على ما تذكرون من الكذب والمحال.

و روى الثوري: عن ابن عباس ﴿وَ جاءُوا علَى قَميصِه بدمٍ كذب﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص، وكذا قال الشعبي والحسن وقتادة وغير واحد، وقال مجاهد: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه. وقال عبد الرزاق، قال الثوري عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك. وذكر البخاري ههنا: حديث عائشة في الإفك، حتى ذكر قولها: والله، لا أجدُ لي ولكم مَثَلاً، إلا كما قال أبو يوسف ﴿فصبرٌ جميلٌ والله المُستعانُ علَى ما تصِفُونَ﴾.

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ

﴿بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

١٩ - يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً، فمكث في البئر ثلاثة أيام، فيما قاله أبو بكر بن عياش، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة فنزلوا قريباً من تلك البئر وأرسلوا واردهم، وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها، تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يا بُشرَى هذا غُلام﴾.

و قرأ بعض القراء ﴿يا بُشراي﴾ فزعم السدي أنه اسم رجل، ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه، معلماً له أنه أصاب غلاماً، وهذا القول من السدي غريب! لأنه لم يُسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا، إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم. و إنما معنى القراءة على هذا النحو، يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه، وحذف ياء الإضافة وهو يريدها، كما تقول العرب: يا نفس اصبري، ويا غلام أقبل، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذ والرفع، وهذا منه، وتُفسّرها القراءة الأخرى ﴿يا بُشراي﴾ والله أعلم.

و قوله: ﴿و أسرُّوهُ بضاعةً﴾ أي: وأسره الواردون من بقية السيارة، وقالوا اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء، مخافة أن يشاركوهم فيه. إذا علموا خبره، قاله مجاهد والسدي وابن جرير. هذا قول، وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿و أسروه بضاعة﴾ يعني: إخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه، مخافة أنْ يقتله إخوته، واختار البيع، فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه ﴿يا بُشرى هذا غلام﴾ يباع فباعه إخوته.

وقوله: ﴿و اللهُ عليمٌ بما يَعمَلونَ﴾ أي: عليمٌ بما يفعله إخوةُ يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمةٌ وقَدَر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدَّره وقضاه ﴿ألا لهُ الخلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ﴾. وفي هذا تعريضٌ لرسوله محمد ﷺ وإعلام له، بأني عالم بأذى قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكني سأملي لهم، ثم أجعل لك العاقبة، والحُكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

و قوله: ﴿وَشَروهُ بِثَمنٍ بَخسٍ دراهمَ معدُودة﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بثمن قليل. قال مجاهد وعكرمة: والبخس هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فلا يَخافُ بَخساً ولاَ رَهَقاً﴾ أي: اعتاض عنه إخوته بثمن دون قليل، ومع ذلك ﴿كانُوا فيهِ مِنَ الزاهِدينَ﴾ أي: ليس لهم رغبة فيه، بل لو سألوه بلا شيء لأجابوا.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك إن الضمير في قوله: ﴿و شَروهُ﴾ عائد على إخوة يوسف؛ وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة. و الأول أقوى، لأن قوله: ﴿وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ إنما أراد إخوته، لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به، وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿شروه﴾ إنما هو لإخوته.

و قيل: المراد بقوله: ﴿بخس﴾ الحرام؛ وقيل: الظلم، وهذا وإنْ كانَ كذلك، لكن ليس هو المراد

هنا ، لأن هذا معلوم يعرفه كلُّ أحدٍ ، أن ثمنه حرامٌ على كل حال وعلى كل أحد ، لأنه نبيٌّ ابن نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وإنما المراد هنا بالبخس : الناقص أو الزيوف أو كلاهما ، أي : إنهم إخوته وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان ، ولهذا قال : ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ فعن ابن مسعود رضي الله عنه : باعوه بعشرين درهماً ، وكذا قال ابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة ، وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً ، وقال محمد بن إسحاق وعكرمة : أربعون درهماً .

وقال الضحاك في قوله : ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل ، وقال مجاهد : لمَّا باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم : استوثقوا منه لا يأبق ، حتى وقفوه بمصر ، فقال : مَن يبتاعني وليبشر؟ فاشتراه الملك وكان مسلماً .

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)﴾

٢١- يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام ، أنه قيَّضَ له الذي اشتراه من مصر ، حتى اعتنى به وأكرمه ، وأوصى أهله به ، وتوسَّم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها ، وهو الوزير ؛ قال العوفي عن ابن عباس : وكان اسمه : قطفير . وقال محمد بن إسحاق : اسمه : اطفير بن روحيب ، وهو العزيز ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذ الريان ابن الوليد رجل من العماليق ، قال واسم امرأته : راعيل بنت رعائيل ، وقال غيره : اسمها زليخا . وعن عبد الله ابن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيزُ مصر حين قال لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ الآية ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما [(١)] .

يقول تعالى : كما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بلاد مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال مجاهد والسدي : هو تعبير الرؤيا . ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي : إذا أراد شيئاً فلا يرد ، ولا يمانع ولا يخالف ، بل هو الغالب لما سواه ، قال سعيد ابن جبير ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي : فعال لما يشاء ، وقوله : ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقولون : لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه ، وفعله لما يريد .

٢٢- وقوله : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي : يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي : استكمل عقله ، وتم خلقه ، ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ يعني : النبوة ، أنه حَبَاه بها بين أولئك الأقوام ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي : إنه كان مُحْسِناً في عمله ، عاملاً بطاعة الله تعالى ، وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده ، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة ، وعن ابن عباس : بضع وثلاثون (وقيل غير ذلك) . وقال الإمام مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : الأشد الحلم ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي

(١) هو من رواية أبي عبيدة عنه ، و فيها انقطاع ، و لكني أبقيته لصحة معناه و حسنه .

أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾

٢٣- يخبر تعالى عن امرأة العزيز، التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي: حاولته على نفسه، ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجمَّلت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها ﴿وقالتْ هيت لكَ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع ﴿وقال مَعاذَ الله إنهُ ربِّي أحسنَ مثوايَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير، أي: إنَّ بعلك ربي أحسن مثواي، أي: منزلي، وأحسن إلي، فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿إنَّه لا يُفْلحُ الظالِمونَ﴾ قال ذلك مجاهد والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

و قد اختلف القراء في قوله: ﴿هيتَ لكَ﴾ فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان التاء، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها، وقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس ﴿هيتَ لكَ﴾ تقول: هلم لك، وكذا قال زر بن حبيش وعكرمة والحسن وقتادة، وقال السدي: أي: هلم لك، وهي بالقبطية، وقال مجاهد: هي لغة عربية تدعوه بها، وقال البخاري: وقال عكرمة ﴿هيت لك﴾ أي: هلم لك بالحورانية، هكذا ذكره معلقاً، وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائي يحب هذه القراءة - يعني ﴿هيت لك﴾ - ويقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز، ومعناها: تعال، وقال أبو عبيد: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها.

و قرأ ذلك آخرون: ﴿هِئتُ لكَ﴾ بكسر الهاء والهمز وضم التاء، بمعنى تتهيأت لك، وممن روي عنه هذه القراءة: ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو وائل وعكرمة وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك. قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة، وقرأ عبد الله بن إسحاق: ﴿هَيتِ﴾ بفتح الحاء وكسر التاء وهي غريبة، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة ﴿هيتُ﴾ بفتح الهاء وضم التاء.

روى عبد الرزاق: عن أبي وائل قال: قال ابن مسعود - وقد سمع القراء متقاربين - فاقرؤا كما عُلِّمتمْ وإياكم والتنطع والاختلاف، وإنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال. ثم قرأ عبد الله: ﴿هيت لك﴾ فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن ناساً يقرؤنها ﴿هيتُ﴾ قال عبد الله: أن أقرأها كما علمت أحب إلي، وروى ابن جرير: عن ابن مسعود قال: ﴿هيتَ لكَ﴾ بنصب الهاء والتاء ولا تهمز، وقال آخرون: ﴿هِيتُ لك﴾ بكسر الهاء وإسكان الياء وضم التاء، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: هيت لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هيت لك، وهيت لكم، وهيت لكما وهيت لكُنَّ، وهيت لهن.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾

٢٤- اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وطائفة من السلف في ذلك ما رواه ابن جرير وغيره، والله أعلم، وقيل: المراد بهمه بها خَطَرات حديث النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي ههنا: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا همَّ عبدي بحسنةٍ فاكتبوها له حسنة، فإنْ عملَهَا فاكتبوها له بعشرِ أمثالها، وإنْ

همَّ بسيئة فلم يعملها، فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جَرائي، فإنْ عملها فاكتبوها بمثلها» هذا الحديث مخرَّج في الصحيحين، وله ألفاظ كثيرة هذا منها.

و قيل: هم بضربها، وقيل: تمناها زوجة، وقيل: **﴿همَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَأَى بُرهَانَ رَبِّهِ﴾** أي: فلم يهم بها، وفي هذا القول نظر من حيث العربية! حكاه ابن جرير وغيره. وأما البرهان الذي رآه، ففيه أقوال أيضاً، فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمد بن إسحاق وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب، عاضاً على أصبعه بفمه. وقيل عنه في رواية: فضرب في صدر يوسف.

قال ابن جرير: والصواب أنْ يقال: إنه رأى آية من آيات الله، تزجره عما كان همَّ به؛ وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة المَلَك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيئ من ذلك، فالصواب أنْ يُطلق كما قال الله تعالى.

و قوله: **﴿كذلكَ لنصرفَ عنه السوءَ والفحشاءَ﴾** أي: كما أريناه برهاناً صرَفَه عما كان فيه، كذلك نقيه السوء والفحشاء، في جميع أموره **﴿إنَّهُ مِنْ عِبادِنَا المُخْلَصينَ﴾** أي: من المجتبين المطهرين، المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾

٢٥- يخبر تعالى عن حالهما، حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقه في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه، فقدته قداً فظيعاً، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هارباً ذاهباً وهي في إثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متنصلة، وقاذفة يوسف بدائها **﴿ما جزاءُ مَن أرادَ بأهلِكَ سوءًا﴾** أي: فاحشة **﴿إلاَّ أنْ يُسجَنَ﴾** أي: يحبس **﴿أو عذابٌ أليم﴾** أي: يضرب ضرباً شديداً موجعاً.

٢٦- فعند ذلك انتصر يوسف ﷺ بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، و**﴿قال﴾** باراً صادقاً **﴿هيَ راوَدَتْني عن نفسِي﴾** وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها، حتى قدَّت قميصه **﴿و شهدَ شاهدٌ مِنْ أهْلِها إن كانَ قميصهُ قُدَّ مِن قُبُل﴾** أي: من قُدَّامه **﴿فَصدَقتْ﴾** أي: في قولها إنه راودها عن نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبَتْ عليه، دفعته في صدره فقدت قميصه، فيصح ما قالت.

٢٧- **﴿و إنْ كانَ قميصه قُدَّ مِن دُبُرٍ فكَذَبتْ وهُوَ مِن الصَّادِقينَ﴾** وذلك يكون كما وقع، لما هرب منها وتطلبته، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدت قميصه من ورائه؛ وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف: فعن ابن أبي مليكة عن ابن عباس: كان من خاصة الملك. وكذا

قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم: إنه كان رجلاً، وقال زيد بن أسلم والسدي: كان ابن عمها، وقال العوفي عن ابن عباس قال: كان صبياً في المهد، وكذا روي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم: أنه كان صبياً في الدار، واختاره ابن جرير، وقد ورد فيه حديث مرفوع [(١)].

٢٨- وقوله: ﴿فلمَّا رأى قميصهُ قُدَّ من دُبُرٍ﴾ أي: لما تحقق زوجها صدق يوسف، وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿قال إنَّهُ من كيدكُنَّ﴾ أي: إنَّ هذا البُهت واللطخ، الذي لطخت عرض هذا الشاب به، من جملة كيدكن ﴿إنَّ كيدكُنَّ عظيمٌ﴾.

٢٩- ثم قال آمراً ليوسف ﷺ بكتمان ما وقع ﴿يوسفُ أعرِضْ عنْ هذا﴾ أي: اضرب عن هذا صفحاً، أي: فلا تذكره لأحد ﴿و استغفري لذنبكِ﴾ يقول لامرأته - وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه عَذَرها لأنها رأت مالا صبر لها عنه - فقال لها: ﴿استغفري لذنبكِ﴾ أي: الذي وقع منك من إرادةِ السوء بهذا الشباب، ثم قذفه بما هو بريءٌ منه ﴿إنَّكِ كُنتِ من الخاطئين﴾.

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ﴾

٣٠- يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتى تحدث به الناس ﴿وقالَ نِسوةٌ في المَدينةِ﴾ مثل نساء الكُبراء والأمراء، ينكرن على امرأة العزيز - وهو الوزير - ويعبن ذلك عليها ﴿امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ فَتَاهَا عَن نفسهِ﴾ أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها ﴿قَدْ شغفَهَا حُبّاً﴾ أي: قد وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو: غلافه. قال الضحاك عن ابن عباس: الشَّغف: الحب القاتل، والشغف دون ذلك، والشغاف: حجاب القلب ﴿إنَّا لَنَراهَا في ضَلالٍ مُّبينٍ﴾ أي: في صنيعها هذا من حبها فتاها، ومراودتها إياه عن نفسه.

٣١- ﴿فَلَمَّا سَمِعتْ بِمَكْرِهِن﴾ قال بعضهم: بقولهن ذهب الحب بها، وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حُسْن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أرْسلَتْ إليهِن﴾ أي: دعتهنَّ إلى منزلها لتضيفهن ﴿و أعتدتْ لهنَّ مُتَّكأً﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدي وغيرهم: هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين، من أُترج ونحوه.

---

(١) و هو ضعيف سنداً، و من جهة النظر أيضاً، إذ لو كان كذلك لكان برهاناً قاطعاً، و معجزة ظاهرة ليوسف ﷺ و صدقه، و روى البخاري في صحيحه (٦/ ٤٧٦) و مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة...» فذكر عيسى ﷺ و صبي جريج وصبي بني إسرائيل. و انظر الضعيفة للعلامة الألباني رحمه الله (٨٨٠).

ولهذا قال تعالى: ﴿وآتتْ كلَّ واحدةٍ منهنَّ سِكِّيناً﴾ وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته ﴿و قالتْ اخرجْ عليهنَّ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر ﴿فلما﴾ خرج و﴿رأينَهُ أكْبَرْنَه﴾ أي: أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين. والمراد: أنهن حَزَزْن أيديهن بها، قاله غير واحد. وعن مجاهد وقتادة: قطعن أيديهن حتى ألقينها، فالله أعلم.

و قد ذكر غير واحد: أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجاً، وآتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكنَّ في النَّظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرجْ إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، فرجع وهن يحززن في أيديهن، فلما أحسسن بالألم جعلن يُوَلْوِلن، فقالت: أنتنَّ من نظرة واحدة فعلتن هذا؟ فكيف ألام أنا؟ ﴿فقُلن حاشَ للهِ ما هذَا بَشَراً إنْ هذا إلا ملكٌ كريم﴾ ثم قلن لها: وما نرى عليكِ من لوم بعد هذا الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه، ولا قريباً منه، فإنه ﷺ كان قد أُعطيَ شَطرَ الحُسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح: في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مَرَّ بيُوسف ﷺ في السماء الثالثة قال: «فإذا هو قد أُعطي شطر الحُسْن».

و عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطي يُوسُف وأمُّه شطر الحُسن»(1). قال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه أن يوسف ﷺ كان على النصف من حسن آدم ﷺ، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله، وكان يوسف قد أُعطي شطر حسنه.

فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته ﴿حاشَ لله﴾ قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله ﴿ما هذَا بَشراً﴾ وقرأ بعضهم ماهذا ﴿بِشِرى﴾ أي: بمشترى بشراء ﴿إنْ هذَا إلاَّ ملَكٌ كريم﴾.

٣٢- ﴿قالتْ فذلكنَّ الذي لُمتُنَّني فيه﴾ تقول هذا معتذرة إليهن، بأن هذا حقيقٌ أن يُحبَّ لجماله وكماله ﴿و لقدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَفْسِهِ فاستَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع، قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة، التي تخفى عنهن وهي «العفة» مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده ﴿و لَئِن لمْ يفعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسجَنَنَّ ولَيكوناً مِن الصَّاغِرينَ﴾.

٣٣- فعند ذلك استعاذ يوسف ﷺ من شرهن وكيدهن، وقال: ﴿ربِّ السِّجنُ أحبُّ إليَّ مما يَدْعُونني إليه﴾ أي: من الفاحشة ﴿و إلاَّ تصرفْ عنِّي كيدَهُنَّ أصبُ إليهِنَّ﴾ أي: إنْ وكلتني إلى نفسي، فليس لي منها قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان، وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي.

﴿أصبُ إليهنَّ وأكُن من الجاهلينَ ❁ فاستَجَابَ له ربُّه﴾ الآية. وذلك أن يوسف ﷺ عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال، أنه مع شبابه وجماله وكماله، تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله، ورجاء ثوابه.

و لهذا ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «سبعةٌ يظلهم في ظله، يومَ لا ظلَّ إلاَّ ظله: إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه مُعلَّقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلمَ شماله ما أنفقت يمينه، ورجلٌ

(١) رواه الطبراني في تفسيره (١٢/ ١٢٣) ـ ط بولاق ـ والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٧٠).

دعَته امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال، فقال: إنِّي أخافُ الله، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضتْ عيناه».

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

٣٥- يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه، أنهم يسجنونه إلى ﴿حِينٍ﴾، أي: إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءته، وظهرت الآيات، وهي: الأدلة على صدقه وعفته ونزاهته، وكأنهم ـ والله أعلم ـ إنما سجنوه لمَّا شاع الحديث، إيهاماً أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك، ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج، حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرّر ذلك، خرج وهو نقي العِرْض، صلوات الله وسلامه عليه، وذكر السدي: أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

٣٦- قال قتادة: كان أحدهما ساقي الملك والآخر خبازه.

قال السدي: كان سبب حبس الملك إياهما، أنه توهَّم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث، وحسن السمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير، والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به، وأحباه حباً شديداً، وقالا له: والله لقد أحببناك حباً زائداً، قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد، إلا دخل علي من محبته ضرر، أحبتني عمتي فدخل علي الضرر بسببها، وأحبني أبي فأُوذيت بسببه، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناماً، فرأى الساقي: أنه يعصر خمراً ـ يعني عنباً ـ وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود (إني أراني أعصر عنباً) ورواه ابن أبي حاتم. (وكذا قال الضحاك وزاد): وأهل عمان يسمون العنب خمراً.

و قال عكرمة: قال له: إني رأيت فيما يرى النائم: أني غرست حَبَلَة من عنب، فنبتت فخرج فيها عناقيد فعصرتهن، ثم سقيتهن الملك، فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقه خمراً، وقال الآخر وهو الخباز: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ الآية. والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه، أنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره.

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

٣٧- يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم، فإنه عارف بتفسيره، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه، ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ قال مجاهد: يقول ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ

﴿تُرزقانه﴾ في يومكما **﴿إلاّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾**، وكذا قال السدي.

٣٨- ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إياي، لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد **﴿و اتبعْتُ ملةَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ﴾** الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال مَن سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يُقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد **﴿ما كانَ لنا أن نُشركَ بالله من شيء ذلكَ من فضل اللهِ علينَا وعلى الناس﴾** هذا التوحيد، وهو: الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، **﴿مِن فضلِ الله علينا﴾** أي: أوحاه إلينا وأمرنا به **﴿و على الناس﴾** إذ جعلنا دعاةً لهم إلى ذلك **﴿و لكنّ أكثرَ الناس لا يشكرون﴾** أي: لا يعرفون نعمة الله عليهم، بإرسال الرسل إليهم، بل **﴿بدلوا نعمة الله كُفراً وأحلوا قومَهمْ دارَ البوارِ﴾**.

و روى ابن أبي حاتم: عن عطاء عن ابن عباس: أنه كان يجعل الجد أباً، ويقول: والله لمن شاء لاعنته عند الحِجْر، ما ذكر الله جداً ولا جدة، قال الله تعالى - يعني إخباراً عن يوسف -: **﴿و اتَّبعتُ مِلَّةَ آبائي إبْراهيمَ وَإسْحاقَ وَ يَعقُوبَ﴾**.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾

٣٩- ثم إن يوسف ﷺ أقبل على الفتيين بالمخاطبة، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: **﴿أأرباب مُتفرِّقونَ خيرٌ أمِ اللهُ الواحدُ القهَّارُ﴾** أي: الذي ذل كل شيء لعز جلاله، وعظمة سلطانه.

٤٠- ثم بيَّن لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة، إنما هي جَعلٌ منهم، وتسميه من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستندة من عند الله، ولهذا قال: **﴿ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطانٍ﴾** أي: حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أنَّ الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة، أن لا يعبدوا إلا إياه. ثم قال تعالى: **﴿ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾** أي: هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان، الذي يحبه ويرضاه **﴿و لكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلَمونَ﴾** أي: فلهذا كان أكثرهم مشركين **﴿و ما أكثرُ الناسِ ولو حرصتَ بمؤمنينَ﴾**.

و قد قال ابن جريج: إنما عَدَل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عرَفَ أنها ضارة لأحدهما، فأحب أن يشغلهما بغير ذلك، لئلا يعاودوه فيها، فعادوه فأعاد عليهم الموعظة.

و في هذا الذي قاله نظر! لأنه قد وعدهما أولاً بتعبيرها، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام، وَصلْةً وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير، والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شرَعَ في تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال، فقال:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾

٤١- يقول لهما: ﴿يا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أحدكما فيَسقِي ربَّهُ خَمراً﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولكنه لم يُعيِّنه لئلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿و أمَّا في الآخرُ فيُصلبُ فتأكلُ الطيرُ مِن رأسِهِ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، ثم أعلَمهما أن هذا فُرغَ منه، وهو واقع لا محالة، لأن الرؤيا على رِجْل طائرٍ ما لم تُعبَّرْ، فإذا عُبِّرَتْ وقعت.

و روى الثوري: عن عبد الله قال: لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئاً، فقال: ﴿قُضيَ الأمرُ الذي فيه تَستفتيانِ﴾. وكذا فسره مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، وحاصله: أن من تَحلَّم بباطل وفسَّره، فإنه يلزم بتأويله، والله تعالى أعلم. وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد: عن معاوية بن حيدة عن النبيﷺ قال: «الرؤيا على رجلِ طائرٍ ما لم تُعبر، فإذا عبّرت وقعت».

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)﴾

٤٢- ولما ظن يوسفعليه السلام أن الساقي ناجٍ، قال له يوسف خِفْيةً عن الآخر، والله أعلم ـ لئلا يشعره أنه المصلوب ـ قال له: ﴿اذكُرْني عند ربِّك﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك، وهو الملِك فنسي ذلك الموصَى أن يُذكِّرَ مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يَطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فأنساه الشيطانُ ذكرَ ربِّه﴾ عائد على الناجي، كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد. ويقال: إنَّ الضمير عائد على يوسفعليه السلام. رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضاً وعكرمة وغيرهم.

و أسند ابن جرير ههنا حديثاً: عن ابن عباس مرفوعاً قال: قال النبيﷺ: «لو لم يقل ـ يعني يوسف ـ الكلمة التي قال، ما لَبِثَ في السجن طول ما لبث، حيث يبتغي الفرج من عند غير الله!» وهذا الحديث ضعيف جداً، وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما، وهذه المرسلات ههنا، لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

و أما البضع: فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع.

و قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فلبِثَ في السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ قال: ثنتا عشرة سنة، وقال الضحاك: أربعة عشرة سنة.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ

يابِسات لَعلّي أرْجعُ إلى النّاسِ لعلَّهُم يعْلمُونَ ﴿٤٦﴾ قَال تزرَعُون سبْعَ سنين دأَبًا فما حصدتُم فذرُوهُ في سنْبُله إلاّ قليلاً ممَّا تأكُلون ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يأْتي من بعْد ذلك سبْعٌ شدادٌ يأْكُلن ما قدَّمْتم لهُنَّ إلاّ قليلاً ممَّا تُحْصنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يأْتي من بعْد ذلك عامٌ فيه يُغاثُ النّاسُ وفيه يعْصرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

٤٣ ـ هذه الرؤيا من ملك مصر، مما قدَّر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف ﷺ من السجن معززاً مكرماً، وذلك أنَّ الملك رأى هذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحُزَاة، وكبار دولته وأمراءه فقصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها:

٤٤ ـ ﴿أضغاثُ أحلامٍ﴾ أي: أخلاط أحلام، اقتضته رؤياك هذه ﴿و ما نحنُ بتأويلِ الأحلامِ بعالِمين﴾ أي: لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها.

٤٥ ـ فعند ذلك تذكَّر الذي نجا، من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصَّاه به يوسف من ذِكْر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿بعدَ أمةٍ﴾ أي: مدة، وقرأ بعضهم ﴿بعد أمِهٍ﴾ أي: بعد نسيان، فقال لهم، أي: للملك والذين جمعهم لذلك ﴿أنا أنبئكمْ بتأويلِهِ﴾ أي: هذا المنام ﴿فأرْسِلُون﴾ أي: فابعثُونِ إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام: فبعثوه فجاء فقال:

٤٦ ـ ﴿يوسفُ أيها الصديقُ أفتِنا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف ﷺ تعبيرها، من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصَّاه به، ومن غير استشراط للخروج قبل ذلك.

٤٧، ٤٨ ـ بل قال: ﴿تزرَعونَ سبعَ سِنِينَ دأَبًا﴾ أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسَّر البقر بالسنين، لأنها تُثيرُ الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين، فقال: ﴿فما حَصدتُم فذروه في سُنبُلِه إلا قليلاً مما تأكُلونَ﴾ أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب، فادخروه في سنبله ليكون أبقى له، وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المُحْل، التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان، لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿يأكلنَ ما قدمتمْ لهنَّ إلا قليلاً مما تُحصِنُونَ﴾.

٤٩ ـ ثم بشَّرهم بعد الجدب العام المتوالي، بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿عامٌ فيه يغاثُ الناسُ﴾ أي: يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عاداتهم، من زيت ونحوه وسكر ونحوه، حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضاً.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿و فيهِ يعْصِرونَ﴾ يحلبون.

﴿ وقَالَ الْملكُ ائتُوني به فلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارجعْ إلىٰ ربّك فاسأَلْهُ ما بالُ النّسْوة اللاَّتي قطَّعْن أَيْديهُنَّ إنَّ ربّي بكيْدهنَّ عليمٌ ﴿٥٠﴾ قال ما خطْبُكُنَّ إذْ راودتُّنَّ يُوسُفَ عن نّفْسه قُلْن حاشَ للّه ما علمْنا عليْه من سُوءٍ قالت امرأَتُ الْعزيزِ الآن حصْحص الْحقُّ أنا راودتُّهُ عن نّفْسه وإنَّهُ لمن

الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)﴾

٥٠- يقول تعالى إخباراً عن الملك، لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها، بما أعجبه وأينقه، فعَرف فضلَ يوسفﷺ، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على مَنْ ببلده من رعاياه، فقال ﴿ائتوني به﴾ أي: أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج، حتى يتحقَّق الملك ورعيته بَراءةَ ساحته، ونزاهة عرضه، مما نُسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمرٍ يقتضيه، بل كان ظُلماً وعدواناً، فقال: ﴿ارجع إلى ربِّك﴾ الآية.

و قد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه، وعلو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففي المسند والصحيحين: عن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «نحن أحقُّ بالشك مِن إبراهيم، إذ قال ﴿رَبِّ أَرِنِي كيفَ تُحيِي المَوتَى﴾ الآية، ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف، لأَجَبتُ الداعي».

و في لفظ لأحمد: عن أبي هريرة: عن النبيﷺ في قوله: ﴿فاسأَلْهُ ما بالُ النِّسوةِ اللاتي قطَّعْنَ أيديهُنَّ إنَّ ربِّي بكيدِهنَّ عليمٌ﴾ فقال رسول اللهﷺ: «لو كنتُ أنا لأسرعتُ الإجابة، وما ابتغيت العذر».

٥١- وقوله تعالى: ﴿قالَ ما خطبُكنَّ إذ راودتنَّ يوسفَ عَن نَّفسِه﴾ إخبارٌ عن الملك، حين جَمَع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن، وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز، وقال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿مَا خَطبُكنَّ﴾ أي: شأنكن وخبركن ﴿إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه﴾ يعني: يوم الضيافة ﴿قُلنَ حاشَ لله ما عَلمنا عليهِ من سُوءٍ﴾ أي: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسفُ متهماً، والله ما علمنا عليه من سوءٍ، فعند ذلك ﴿قالَت امْرأةُ العزيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: تقول الآن تبين الحق، وظهر وبرز ﴿أنا رَاوَدتُهُ عَن نَّفسِهِ وَ إنَّهُ لَمِنَ الصَّادقينَ﴾ أي: في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتنِي عَن نَّفسِي﴾.

٥٢، ٥٣- ﴿ذلكَ ليعلمَ أني لم أخُنهُ بالغيب﴾ تقول: إنما اعترفتُ بهذا على نفسي، ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقعَ المحذور الأكبر، و إنما راودتُ هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿و أنَّ اللهَ لا يَهْدِي كَيدَ الخَائِنينَ * ومَا أُبرِّئُ نَفسِي﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإنَّ النفس تتحدَّث وتتمنى، ولهذا راودته، لأن ﴿النفسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا من عصمه الله تعالى ﴿إنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا القول هو الأشهر، والأليق والأنسب بسياق القصة، ومعاني الكلام. وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة.

و قد قيل: إن ذلك من كلام يوسفﷺ، يقول ﴿ذلك ليعلمَ أنِّي لم أخُنهُ﴾ في زوجته ﴿بالغَيب﴾ الآيتين، أي: إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز ﴿أنِّي لم أخُنهُ﴾ في زوجته ﴿بالغَيبِ وأنَّ اللهَ لا يَهدِي كَيدَ الخائِنينَ﴾ الآية. وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه. و هكذا قال

مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وابن أبي الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدي. والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾

٥٤- يقول تعالى إخباراً عن الملك، حين تحقق براءة يوسف عليه السلام، ونزاهة عرضه مما نُسِبَ إليه، قال: **﴿ائتوني بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾** أي: أجعله من خاصتي، وأهل مشورتي **﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾** أي: خاطبه الملك، وعرفه ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خُلُق وخَلق وكمال، قال له الملك: **﴿إنكَ اليومَ لَدينا مَكينٌ أمينٌ﴾** أي: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة.

٥٥- فقال يوسف عليه السلام **﴿اجعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأرضِ إنِّي حفيظٌ عليمٌ﴾** مَدَح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره للحاجة، وذكر أنه **﴿حفيظٌ﴾** أي: خازن أمين **﴿عليمٌ﴾** ذو علم وبصيرة بما يتولاَّه.

و قال شيبة بن نعامة: حفيظ لما استودعتني، عليم بسني الجدب. رواه ابن أبي حاتم.

و سأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأله أن يجعل على خزائن الأرض، وهي: الأهرام التي يُجمع فيها الغَلاَّت، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له، ولهذا قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾

٥٦- يقول تعالى: **﴿و كذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾** أي: أرض مصر **﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾** قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرّف فيها كيف يشاء، وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء، بعد الضيق والحبس والإسار **﴿نُصيبُ بِرَحْمَتِنا مَن نَّشاءُ ولا نُضيعُ أَجْرَ المُحسِنينَ﴾** أي: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد **﴿و لا نُضيعُ أجْرَ المُحسِنينَ﴾**.

٥٧- **﴿و لأجرُ الآخرةِ خيرٌ للَّذينَ آمنُوا وكانُوا يَتَّقُونَ﴾** يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة، أعظم وأكثر وأجل، مما خوَّله من التصرف والنفوذ في الدنيا، كقوله في حق سليمان عليه السلام **﴿هذا عَطاؤُنَا فامنُن أو أمسكْ بغيرِ حِسابٍ * وإن له عندنَا لزُلفى وحُسنَ مآبٍ﴾**.

و الغرض أن يوسف عليه السلام ولاَّه ملكُ مصر «الريان بن الوليد» الوزارة في بلاد مصر، مكان الذي اشتراه من مصر، زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام. قاله مجاهد.

و قال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيته.

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ

ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾

٥٨- ذكر السدي ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسِّرين: أن السبب الذي أقدَم إخوة يوسف بلاد مصر: أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع سنين المخصبة، ثم تلتها السبع سنين المجدبة، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وهدايا متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حِمل بعير في السنة، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمةً من الله على أهل مصر.

و الغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يُعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يتعاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أُبهته ورياسته وسيادته، عرَفهم حين نظر إليهم ﴿وهُم لَهُ مُنكِرونَ﴾ أي: لا يعرفونه، لأنهم فارقوه وهو صغيرٌ حدث، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السدي وغيره: أنه شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميرة، قال فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله، قال وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا هَلكَ في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿و لَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهازِهِمْ﴾ أي: أوفَى لهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم، قال: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ألاَ تَرَونَ أني أُوفِي الكَيلَ وَ أَنا خَيرُ المُنزِلينَ﴾ يرغبهم في الرجوع إليه.

٦٠- ثم رهَّبهم فقال ﴿فإن لَّمْ تَأتوني بِهِ فلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ الآية، أي: إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية، فليس لكم عندي ميرة ﴿و لا تقرَبونِ﴾

٦١- ﴿قالوا سنراودُ عنه أباه وإنا لفاعلون﴾ أي: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، ولا نبقي مجهود لتعلم صدقنا فيما قلناه. وذكر السدي: أنه أخذ منهم رهائن، حتى يقدموا به معهم، وفي هذا نظر! لأنه أحسن إليهم ورغَّبهم كثيراً، وهذا لحرصه على رجوعهم ﴿و قال لفتيانه﴾ أي: غلمانه ﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ أي: التي قدموا بها، ليمتاروا عوضاً عنها ﴿في رحالهم﴾ أي: في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿لعلَّهمْ يَرجِعونَ﴾ بها؛ قيل: خشي يوسف عليه السلام أنْ لا يكون عندهم بضاعة أخرى، يرجعون للميرة بها، وقيل:

تذمم[1] أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام، وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم، تحرجاً وتورعاً، لأنه يعلم ذلك منهم، والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

٦٣- يقول تعالى عنهم إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿قالوا يا أبانا مُنعَ منّا الكيل﴾ يعنون بعد هذه المرة، إنْ لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل، وإنا له لحافظون. قرأ بعضهم بالياء، أي: يكتل هو ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ أي: لا تخف عليه، فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا في يوسف ﴿أرسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾.

٦٤- ولهذا قال لهم ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيهِ إلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخيهِ مِن قبلُ﴾ أي: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل؛ تغيبونه عني وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فالله خير حفظاً﴾ وقرأ بعضهم ﴿حافظاً﴾ ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ أي: هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كِبَري وضعفي، ووَجْدي بولدي، وأرجو من الله أن يَردَّه علي، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

٦٥- يقول تعالى: ولما فتحَ إخوة يوسف متاعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متاعهم ﴿قالُوا يا أبانا مَا نبغِي﴾ أي: ماذا نريد ﴿هذِهِ بضاعَتُنا رُدَّتْ إلَينَا﴾ كما قال قتادة: ما نبغي وراء هذا؟ إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفي لنا الكيل ﴿و نمير أهلنا﴾ أي: إذا أرسلت أخانا معنا، نأتي بالميرة إلى أهلنا ﴿وَ نحفَظُ أخَانا وَ نَزدادُ كيلَ بعِير﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام كان يُعطي كلَّ رجل حِمل بعير، وقال مجاهد: حمل حمار، وقد يسمى في بعض اللغات بعيراً. كذا قال! ﴿ذلكَ كيلٌ يسير﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي: إن هذا يسير، في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا.

﴿قالَ لَنْ أُرسِلَهُ مَعَكُمْ حتى تُؤتُونِ مَوثِقاً مِّنَ اللهِ﴾ أي: تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿لَتأتُنَّني بِهِ إلاَّ أن يُحاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه ﴿فلما آتَوهُ مَوثِقَهُمْ﴾ أكَّده عليهم فقال: ﴿اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكيلٌ﴾ قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك، لأنه لم يجد بُداً من بعثهم، لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا

(١) تذمَّم: استنكف. و أخذتني منه مذمَّة: أي: رقة و عار من ترك الحُرمة (القاموس).

عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

٦٧، ٦٨ - يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام، إنه أمر بنيه لما جهَّزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، أنْ لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبوابٍ متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد: إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمالٍ، وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشي عليهم أنْ يصيبهم الناس بعيونهم، فإنَّ العينَ حقٌّ، تستنزل الفارس عن فرسه. وروى ابن أبي حاتم: عن إبراهيم النخعي في الآية قال: علم أنه سيلقى إخوته في بعض تلك الأبواب.

و قوله: ﴿و ما أغنى عنكم مِّن اللهِ مِن شيءٍ﴾ أي: أن هذا الاحتراز لا يردُّ قدر الله وقضاءه، فإنَّ الله إذا أراد شيئاً لا يُخالَفُ ولا يمانع ﴿إنِ الحُكمُ إلاَّ للهِ عليهِ توكَّلتُ وَ عليهِ فليتوكَّلِ المُتوكِّلونَ* ولمَّا دخلوا مِن حيثُ أمرَهُمْ أبوهُم مَّا كانَ يُغني عنهُم مِّنَ اللهِ مِن شيءٍ إلاَّ حاجةً في نفسِ يعقوبَ قضاهَا﴾ قالوا: هي دفع إصابة العين لهم ﴿و إنَّهُ لذُو علمٍ لِّمَا علَّمْناهُ﴾. قال قتادة والثوري: لذو علم يعلمه، وقال ابن جرير: لذو علمٍ لتعليمنا إياه ﴿و لكنَّ أكثرَ النَّاسِ لاَ يعلَمُونَ﴾.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

٦٩ - يخبر تعالى عن إخوة يوسف، لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه «بنيامين» وأدخلهم دار كرامته، ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعرَّفه أنه أخوه، وقال له ﴿لا تبتئس﴾ أي: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمرَه بكتمان ذلك عنهم، وأنْ لا يُطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده، معززاً مكرَّماً معظماً.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

٧٠ - لما جهَّزهم وحمَّل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتيانه أنْ يَضع السقاية، وهي إناء من فضة، في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب. قال ابن زيد: كان يَشرب فيه ويكيل للناس به، من عزَّة الطعام إذ ذاك. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: صواع الملك قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى منادٍ بينهم ﴿أيَّتها العيرُ إنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾ فالتفتوا إلى المنادي، وقالوا:

٧١، ٧٢ - ﴿ماذا تَفْقِدُونَ* قالوا نفقدُ صُواعَ الملِكِ﴾ أي: صاعه الذي يكيل به ﴿ولِمن جاءَ به حِملُ بعيرٍ﴾ وهذا من باب: الجعالة ﴿و أنَا بهِ زَعيمٌ﴾ وهذا من باب: الضمان والكفالة.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ

بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾

٧٣- لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف ﴿تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنَّا سارقين﴾ أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنَّا ﴿ما جئنا لنُفسِدَ في الأرضِ وما كنَّا سارقينَ﴾ أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان:

٧٤- ﴿فما جزاؤه﴾ أي: السارق إنْ كان فيكم ﴿إن كنتمْ كاذبينَ﴾ أي: أيُّ شيءٍ يكون عقوبته، إنْ وجدنا فيكم من أخذه؟

٧٥- ﴿قالُوا جزاؤه من وُجِدَ في رحلِه فهو جزاؤه كذلكَ نَجْزي الظالمينَ﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام، أنَّ السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام.

٧٦- ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي: فتَّشها قبله تورية ﴿ثم استخرجها من وعاءِ أخيهِ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلكَ كِدْنا ليوسُفَ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد، الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

و قوله: ﴿مَا كانَ لِيأْخُذَ أخَاهُ في دينِ الْمَلِكِ﴾ أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره: وإنَّما قيَّض اللهُ له أنْ التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿نرفعُ درجاتٍ مَّن نشاءُ﴾ كما قال تعالى: ﴿يرفَع الله الذينَ آمنُوا منكم﴾ الآية.

﴿و فوقَ كلِّ ذي علم عليم﴾ قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهي إلى الله عز وجل، وكذا روى عبد الرزاق: عن سعيد بن جبير قال: كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب، فتعجَّب رجل فقال: الحمد لله، فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بئس ما قلت، الله العليم، فوق كل عالم. وهكذا قال عكرمة، وقال قتادة ﴿و فوقَ كُلِّ ذِي عِلم عَليم﴾: حتى ينتهي العلم إلى الله، منه بدئ وتعلَّمت العلماء، وإليه يعود. وفي قراءة عبد الله: ﴿و فوق كلِّ عالم عَليم﴾.

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾

٧٧- وقال إخوة يوسف، لما رأوا الصواع قد أُخرجَ من متاع بنيامين ﴿إن يَسرِقْ فقد سَرَقَ أخٌ لَّهُ مِن قبلُ﴾ يتنصَّلون إلى العزيز من التشبُّه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخٌ له من قبل، يعنون به: يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جبير وقتادة: كان يوسف عليه السلام قد سَرَق صنماً لجده أبي أمه، فكسره.

و قوله: ﴿فأسَرَّها يُوسُفُ في نَفسِهِ﴾ يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿أنتمْ شرٌّ مكاناً واللهُ أعلمُ بما تصفونَ﴾ أي: تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يُبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة، في منثورها وأخبارها وأشعارها، قال العوفي عن ابن عباس: ﴿فأسرَّها يوسفُ في نفسه﴾ قال أسر في نفسه: ﴿أنتمْ شرٌّ مكاناً والله أعلمُ بما تصفُونَ﴾.

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ

اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) ﴾

٧٨- لمَّا تعيَّن أخذ بنيامين، وتقرَّر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شَرَعوا يترققون له، ويُعطِّفُونه عليهم ﴿فقالُوا يا أيُّها العزيزُ إنَّ لهُ أباً شيخاً كبيراً﴾ يعنون: وهو يحبه حباً شديداً، ويتسلَّى به عن ولده الذي فقده ﴿فخُذْ أحدَنا مكانَه﴾ أي: بدله، يكون عندك عوضاً عنه ﴿إنَّا نَراكَ مِن المُحْسِنينَ﴾ أي: العادلينَ المُنصِفينَ، القابلينَ للخير.

٧٩- ﴿قال معاذَ اللهِ أن نأخذَ إلاَّ من وجدنا متاعنا عنده﴾ أي: كما قلتم واعترفتم ﴿إنَّا إذاً لظالِمُونَ﴾ أي: إنْ أخذنا بريئاً بسقيم.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾

٨٠- يخبر تعالى عن إخوة يوسف: أنهم لما يَئسوا من تخليص أخيهم «بنيامين» الذي قد التزموا لأبيهم بردِّه إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿خلصوا﴾ أي: انفردوا عن الناس ﴿نجياً﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿قال كبيرهم﴾ وهو: روبيل، وقيل: يهوذا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عند ما همُّوا بقتله، قال لهم ﴿ألمْ تعلمُوا أن أباكمْ قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ لتردنه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك، مع ما تقدَّم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي: لن أفارق هذه البلدة ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿أو يحكم اللهُ لي﴾ قيل: بالسيف، وقيل: بأن يُمكِّنني من أخذ أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾.

٨١- ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذراً لهم عنده، ويتنصلوا إليه، ويبرؤا مما وقع بقولهم. وقوله: ﴿وما كنَّا للغيب حافظينَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ما علمنَا أن ابنك يسرق.

و قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً، إنما سألنا ما جزاء السارق؟

٨٢- ﴿و اسأل القريةَ التي كنَّا فيها﴾ قيل: المراد مصر، قاله قتادة. وقيل: غيرها ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ أي: التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا، وحفظنا وحراستنا ﴿و إنا لصادقون﴾ فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾

٨٣- قال لهم، كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب، وأخبروه بما جرى، اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف، قال ﴿بل سوَّلت لكمْ أنفسُكُمْ أمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول، أسحب حكم الأول عليه، وصح قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ثم ترجَّى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين وروبيل، الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أنْ يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أنْ يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أن يأتيني بهم جميعاً إِنَّهُ هُوَ العليمُ﴾ أي: العليم بحالي ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره.

٨٤- ﴿و تولَّى عَنهُمْ وَ قالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ﴾ أي: أعرض عن بنيه، وقال متذكراً حُزنَ يوسف القديم ﴿يا أسَفَا على يُوسُفَ﴾ جدَّد له حزن الابنَين، الحزن الدفين. روى عبد الرزاق: عن سعيد بن جبير: أنه قال لم يُعطَ أحدٌ غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام ﴿يا أسفَا على يوسُفَ وابيضَّتْ عيْناهُ من الحُزْنِ فهو كظيمٌ﴾ أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق. قاله قتادة وغيره. وقال الضحاك: ﴿فهُوَ كَظيمٌ﴾ كئيب حزين.

٨٥- فعند ذلك رقَّ له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به، والشفقة عليه ﴿تاللهِ تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يوسُفَ﴾ أي: لا تفارق تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكونَ حَرَضاً﴾ أي: ضعيف القوة ﴿أوْ تَكونَ مِنَ الهَالِكينَ﴾ يقولون: إن استمرَّ بك هذا الحال، خشينا عليك الهلال والتلف.

٨٦- ﴿قالَ إنَّمَا أشْكُو بَثّي وحُزْني إلَى اللهِ﴾ أي: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إنَّمَا أشْكُو بَثّي وَ حُزْني﴾ أي: همي وما أنا فيه ﴿إلَى اللهِ﴾ وحده ﴿وَ أعلَمُ مِنَ اللهِ مَالاَ تَعلَمونَ﴾ أي: أرجو منه كل خير، وعن ابن عباس ﴿وَ أعلَمُ مِنَ اللهِ مَالاَ تَعلَمونَ﴾ يعني: رؤيا يوسف أنها صدق، وأن الله لا بدّ أنْ يُظهرها.

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾

٨٧- يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام إنه نَدَبَ بنيه على الذهاب في الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، والتَّحسس: يكون في الخير، والتجسس: يكون في الشر، ونهَّضهم وبشرهم، وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرمونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء، و﴿لاَ يَيأسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إلاَّ القَومُ الكَافِرُونَ﴾.

٨٨- وقوله: ﴿فلمَّا دخلُوا عليهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف ﴿قالُوا يَا أيُّها العزيزُ مسَّنا وَ أهْلَنا الضُّرُّ﴾ يعنون: من الجدب والقحط، وقلة الطعام ﴿و جئنا بِبضاعةٍ مُزجاةٍ﴾ أي: ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره، وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن وغير واحد، وقال ابن عباس: الرديء لا يَنْفَق، مثل خَلَق الغِرارة والحبل والشيء، وفي رواية عنه: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان. وكذا قال قتادة والسدي، وقال سعيد بن جبير: هي الدراهم الفُسول. وأصل الإزجاء: الدفع لضعف الشيء.

و قوله إخباراً عنهم: ﴿فأوفِ لنا الكيلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمن القليل، ما كنت تعطينا قبل ذلك. وقرأ ابن مسعود: ﴿فأوقر ركابنا وتَصدَّق علَينا﴾، وقال ابن جريج: وتصدق علينا برد أخينا إلينا، وقال سعيد بن جبير والسدي ﴿وتَصدَّقْ علَينا﴾ يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتَجوَّزْ فيها، وسئل سفيان بن عيينة: هل حُرِّمت الصدقت على أحد من الأنبياء، قبل النبيﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فأوفِ لَنَا الكيلَ وتَصدَّقْ علَينا إنَّ اللهَ يجزي المُتَصدِّقينَ﴾؟ رواه ابن جرير. وروي عن عثمان بن الأسود: سمعت مجاهداً: وسُئل هل يُكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علي؟ قال: نعم، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب.

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾

٨٩- يقول تعالى مخبراً عن يوسفعليه السلام، أنه لما ذَكَرَ له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق، وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة، ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدَرَه البكاء فتعرَّف إليهم، فيقال: إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة، وقال ﴿هَلْ عَلِمتُم مَّا فعَلتُم بِيُوسفَ وأخيهِ إذْ أنتُمْ جاهِلونَ﴾ يعني: كيف فرَّقوا بينه وبين أخيه ﴿إذْ أنتُمْ جاهِلونَ﴾ أي: إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف: كلُّ مَنْ عَصَى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ثم إنَّ رَبَّكَ للذينَ عمِلوا السُّوءَ بِجهالةٍ﴾ الآية.

و الظاهر ـ والله أعلم ـ أن يوسفعليه السلام إنما تعرَّف إليهم بنفسه، بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأولين، بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكنْ لما ضاق الحال، واشتد الأمر، فرَّج الله تعالى من ذلك الضيق، كما قال تعالى: ﴿فإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً* إنَّ مع العُسرِ يُسْراً﴾.

٩٠- فعند ذلك قالوا: ﴿أَئِنَّكَ لأنتَ يُوسُفُ﴾ وقرأ أبي بن كعب: ﴿إنك لأنت يوسف﴾ وقرأ ابن محيصن ﴿أنتَ يُوسُفُ﴾ والقراءة المشهورة هي الأولى، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام، أي: أنهم تعجبوا من ذلك، أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام ﴿أئِنكَ لأنتَ يوسفُ قال أنَا يوسفُ وهَذا أخِي﴾. وقوله: ﴿قد منَّ اللهُ علينا﴾ أي: بجمعه بيننا، بعد التفرقة وبُعد المدة ﴿إنَّه مَن يتقِ ويصبرْ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المُحسنينَ﴾.

٩١- ﴿قالُوا تاللهِ لقدْ آثركَ اللهُ علينَا﴾ الآية، يقولون معترفين له بالفضل، والأثرة عليهم في الخُلق والخَلق، والسعة والملك والتصرف، والنبوّة أيضاً، على قول من لم يجعلهم أنبياء، وأقرّوا بأنهم أساءوا إليه، وأخطأوا في حقه.

٩٢- ﴿قال لا تَثْرِيبَ عليكُم اليومَ﴾ يقول: أي: لا تأنيب عليكم، ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيد عليكم ذنوبكم في حقي بعد اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال ﴿يَغفرُ اللهُ لكُمْ وَهوَ أرحمُ الراحِمينَ﴾

قال السدي: اعتذروا إلى يوسف، فقال ﴿**لا تثريبَ عليكُم اليومَ**﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم، وقال ابن إسحاق والثوري: أي: لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ﴿**يغفرُ اللهُ لكُمْ**﴾ أي: يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿**وَهوَ أرحمُ الراحِمينَ**﴾.

﴿ **اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥)** ﴾

٩٣- يقول، اذهبوا بهذا القميص ﴿**فألقُوهُ علَى وجهِ أبي يأتِ بصيراً**﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء ﴿**وأتُوني بأهلِكُمْ أجْمعينَ**﴾ أي: بجميع بني يعقوب.

٩٤- ﴿**و لمَّا فَصلَت العيرُ**﴾ أي: خرجت من مصر، ﴿**قالَ أبوهُمْ**﴾ يعني: يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه ﴿**إني لأجِدُ ريحَ يُوسفَ لولاَ أنْ تُفَنِّدُونَ**﴾ تنسبوني إلى الفَنَد والكِبَر.

روى عبد الرزاق: عن أبي الهذيل قال: سمعت ابن عباس يقول: ﴿**و لمَّا فصلَت العيرُ**﴾ قال: لما خرجت العير، هاجت ريحٌ فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال ﴿**إني لأجِدُ ريحَ يُوسفَ لولاَ أن تُفَنِّدُونَ**﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام. و قوله: ﴿**لولاَ أنْ تُفَنِّدُونَ**﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير: تُسفهون، وقال مجاهد أيضاً والحسن: تُهَرِّمُون.

٩٥- وقولهم ﴿**إنَّكَ لفِي ضلالِكَ القَديمِ**﴾ قال ابن عباس: لفي خطئك القديم، وقال قتادة: أي من حب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه. قالوا لوالدهم كلمة غليظة، لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله ﷺ. وكذا قال السدي وغيره.

﴿ **فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)** ﴾

٩٦- قال ابن عباس والضحاك ﴿**البَشيرُ**﴾ البريد، وقال مجاهد والسدي: كان يهوذا بن يعقوب. قال السدي: إنما جاء به، لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً، وقال لبنيه عند ذلك ﴿**ألم أقل لكمْ إني من الله مالا تعلَمُونَ**﴾ أي: أعلم أن الله سيرده إليَّ، وقلت لكم ﴿**إني لأجِدُ ريحَ يُوسفَ لولاَ أن تُفَنِّدون**﴾.

٩٧- فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له ﴿**يَا أبَانَا استَغفِرْ لنَا ذُنُوبَنَا إنَّا كُنَّا خاطئينَ * قالَ سَوفَ أستغفرُ لكمْ ربِّي إنهُ هو الغفورُ الرَّحيمُ**﴾ أي: من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السَّحَر.

﴿ **فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ**

بي إذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾

٩٩- يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام، وقدومه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدَّم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أُخْبر يوسف عليه السلام باقترابهم، خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف، لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال: إنَّ الملك خرج أيضاً لتلقيه، وهو الأشبه.

و قد أشكل قوله: ﴿آوى إليه أبويْه وقالَ ادْخُلُوا مصرَ﴾ على كثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: وقال ادْخُلُوا مصرَ إن شاء اللهُ آمنِينَ، وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش. وردَّ ابن جرير هذا، وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السدي: أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد، قال ﴿ادخُلُوا مصرَ إن شاءَ اللهُ آمِنينَ﴾ وفي هذا نظر أيضاً! لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله: ﴿آوى إليه أخاه﴾ وفي الحديث: «مَنْ آوى محدثاً» وما المانع أن يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه، وآواهم إليه: ادخلوا مصر؟ وضمَّنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين، أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط؟

و يقال ـ والله أعلم ـ إن الله تعالى رَفَع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة، ببركة قدوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة، حين قال: «اللهمَّ أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف» ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم فرُفِعَ عنهم بقيةُ ذلك، ببركة دعائه عليه السلام. وقوله: ﴿آوَى إِلَيهِ أَبَوَيْهِ﴾ قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أبوه وخالته وكانت أمه قد ماتت قديماً! وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان. قال ابن جرير: ولم يقم دليلٌ على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها. وهذا الذي نَصَره هو المتصور الذي يدل عليه السياق.

١٠٠- وقوله: ﴿و رَفَعَ أبويْه على العَرْش﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني السرير، أي: أجلسهما معه على سريره ﴿و خَرُّوا لَهُ سُجداً﴾ أي: سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿وَقالَ يا أبتِ هذا تأويلُ رُؤْيايَ مِن قبلُ﴾ أي: التي كان قصَّها على أبيه من قبل ﴿إنِّي رأيتُ أحدَ عَشرَ كَوْكباً﴾ الآية، وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سَلَّموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرِّمَ هذا في هذه الملة، وجُعل السُّجود مختصاً بجانب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره.

و في الحديث: أن معاذاً قَدِمَ الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنتَ أحقُّ أنْ يُسجد لك يا رسول الله، فقال: «لو كنتُ آمراً أحداً أنْ يسجدَ لأحدٍ، لأمرتُ المرأةَ أنْ تسجدَ لزوجها، لعظم حقه عليها»[1].

و الغرض: أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خَرُّوا له سجداً، فعندها قال يوسف. ﴿يا أبتِ هذا

---

(١) رواه ابن ماجة (١/ ١٨٥٣) و ابن حبان (١٢٩٠ ـ زوائد) و غيرهما. انظر تعليقنا على الوصية الكبرى (ص ٥٠).

تأويلُ رُؤْيايَ مِن قبلُ قدْ جعَلهَا ربِّي حقاً﴾ أي: هذا ما آل إليه الأمر، فإنَّ التأويل يُطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: **﴿هلْ ينظرُونَ إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾** أي: يوم القيامة يأتيهم ما وُعدوا به من خير وشر.

و قوله: **﴿قد جعلهَا ربِّي حقاً﴾** أي: صحيحة صدقاً، يذكر نعم الله عليه **﴿و قد أحسنَ بي إذ أخرجني مِن السِّجْنِ وجاءَ بكمْ مِن البَدْوِ﴾** أي: البادية. قال ابن جرير وغيره: كانوا من أهل البادية وماشية، وقال: كانوا يسكنون بالعَرَبات مِن أرض فلسطين من غور الشام، قال: وبعض يقول كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمي، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل.

﴿مِن بعدِ أن نَّزغَ الشيطانُ بيني وبينَ إخوَتي إنَّ ربِّي لطيفٌ لما يشاءُ﴾ أي: إذا أراد أمراً، قيَّضَ له أسباباً، وقدَّره ويسَّره **﴿إنهُ هوَ العليمُ﴾** بمصالح عباده **﴿الحكيمُ﴾** في أقواله وأفعاله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده، قال أبو عثمان النهدي عن سلمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة. قال عبد الله بن شداد: وإليها ينتهي أقصى الرؤيا. رواه ابن جرير. وروى أيضاً: عن الحسن قال: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبدٌ أحب إلى الله من يعقوب. وقال محمد بن إسحاق: ذُكر ـ والله أعلم ـ أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثماني عشرة سنة، قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوبﷺ بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾

١٠١ - هذا دعاءٌ من يوسف الصديق دعا به ربه عز وجل، لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا، أنْ يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه، قاله الضحاك، وأن يلحقه **﴿بالصَّالِحينَ﴾** وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

و هذا الدعاء يحتمل أن يوسفﷺ قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول اللهﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «اللهمَّ في الرَّفيق الأعلى» ثلاثاً.

و يحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين، إذا جاء أجله وانقضى عمره، لا أنه سأله ذلك منجزاً، كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإسلام، ويقول الداعي: اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، ويحتمل أنه سأله ذلك منجزاً، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة قوله: **﴿توفَّني مُسلِماً وألحِقْني بالصالِحينَ﴾** لما جمعَ الله شمله وأقرَّ عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها، اشتاق إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس: يقول ماتمنى نبيٌّ قط الموت قبل يوسفﷺ، وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عباس: أنه أول نبي دعا بذلك. وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام، كما أن نوحاً أول من قال **﴿ربِّ اغفِرْ لِي ولوالِديَّ ولِمَن دخَلَ بيتيَ مُؤمناً﴾**.

و يحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك، وهو ظاهر سياق قول قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا،

روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: عن أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يتمنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ لضُرٍّ نزل به، فإنْ كانَ ولا بُدَّ مُتَمنِّياً المَوتَ، فليقُل: اللهمَّ أحيِني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي، وتوَفَّنِي إذا كانت الوفاةُ خيراً لِي» وأخرجاه في الصحيحين.

وعندهما: «لا يتمنَّينَّ أحدُكم الموتَ لِضُرٍّ نزَلَ به، إنْ كانَ مُحسِناً فيزدادُ، وإنْ كان مُسيئاً فلعلَّه يستعتبُ، ولكنْ ليقلْ: «اللهمَّ أحيِني ما كانت الحياةُ خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي».

و هذا فيما إذا كان الضُّرُّ خاصاً به، وأما إذا كان فتنة في الدين، فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة، لما أرادهم فرعون عن دينهم، وتهددهم بالقتل **﴿قالوا ربَّنا أفرغْ علينا صبراً وتوفَّنا مُسلمينَ﴾** وقالت مريم لما جاءها المخاض، وهو: الطلق إلى جذع النخلة **﴿يا لَيتَنِي مِتُّ قبلَ هذا وكنتُ نسياً منسيّاً﴾** لما عَلمتْ من أنَّ الناس يقذفونها بالفاحشة، لأنها لم تكن ذات زوج، وقد حملت ووضعت، وقد قالوا: **﴿يا مريمُ لقدْ جئتِ شيئاً فَرِيّاً ۞ يا أختَ هارونَ ما كانَ أبوكِ امرأَ سَوْءٍ وما كانتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾** فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً، وأنطق الصبيَّ في المهد بأنه عبد الله ورسوله، فكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه.

و في حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي: في قصَّة المنام والدعاء الذي فيه «و إذا أردتَ بقوم فتنةً، فاقبضْنِي إليك غيرَ مفتُون».

و روى الإمام أحمد: عن محمود بن لبيد مرفوعاً: أنَّ النبي ﷺ قال: «اثنتان يَكرَهُهما ابنُ آدم: يكره الموتَ، والموتُ خيرٌ للمؤمن من الفتن، ويكره قلةَ المال، وقلة المال أقل للحساب».

فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته، لما رأى أنَّ الأمور لا تَجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة، فقال: اللهمَّ خُذْني إليك، فقد سئمتهم وسئموني. وقال البخاري رحمه الله ـ لما وقعت له تلك الفتنة، وجرى له مع أمير خراسان ما وقع ـ قال: اللهمَّ توفَّني إليك.

و في الحديث: «إنَّ الرجلَ ليمرُّ بالقبر ـ أي في زمان الدجال ـ فيقول يا ليتني مكانك» لما يَرَى من الفتن والزلزال، والبلابل والأمور الهائلة، التي هي فتنة لكل مفترون، قال أبو جعفر بن جرير: وذُكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا، استغفر لهم فتاب الله عليهم، وعفا عنهم، وغفر لهم ذنوبهم.

و ذكر السدي: أن يعقوب عليه السلام لما حضرَه الموت، أوصى إلى يوسف بأن يُدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صبَّره وأرسله إلى الشام، فدفن عندهما عليه السلام.

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾

١٠٢- يقول تعالى لمحمد ﷺ لمَّا قصَّ عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد، من أخبار الغيوب السابقة **﴿نُوحيهِ إِلَيكَ﴾** ونعلمك به يا محمد، لما فيه من العبرة لك، والاتعاظ لمن خالفك **﴿وما كُنتَ لديهمْ﴾** حاضراً عندهم، ولا مشاهداً لهم **﴿إذ أجمعُوا أمرَهمْ﴾** أي: على إلقائه في الجب **﴿وهُمْ يَمكُرُونَ﴾**

به، ولكنَّا أعلمناك به وحياً إليك، وإنزالاً عليك، كقوله ﴿وما كنتَ لديهم إذ يُلقونَ أقلامَهمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وما كنتَ بجانبِ الغربيِّ إذْ قضينا إلى موسى الأمر﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وما كنتَ بجانبِ الطُّورِ إذ نادَيْنَا﴾ الآية، وقال: ﴿وما كنتَ ثاوياً في أهلِ مدينَ تتلُو عليهم آياتنَا﴾ الآية، وقال ﴿ما كانَ ليَ مِنْ علمٍ بالملأ الأعلى إذْ يختَصِمُونَ* إنْ يوحَى إليَّ إلا أنَّما أنا نذيرٌ مُّبِينٌ﴾.

يقول تعالى: إنه رسوله، وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق، مما فيه عبرة للناس، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال:

١٠٣- ﴿وَما أكثرُ النَّاسِ ولوْ حرصتَ بمُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَن في الأرضِ يُضِلُّوكَ عن سبيلِ اللهِ﴾، كقوله: ﴿إنَّ في ذلكَ لآيةً وما كانَ أكثرُهمْ مُؤْمِنينَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

١٠٤- وقوله: ﴿وما تسألُهمْ عليهِ مِنْ أجرٍ﴾ أي: ما تسألهمْ يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد ﴿مِنْ أجرٍ﴾ أي: من جعالة ولا أجرة، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحاً لخلقه ﴿إنْ هوَ إلاَّ ذكرٌ للعَالَمينَ﴾ أي: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة.

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧) ﴾

١٠٥- يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله، ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السموات والأرض، من كواكب زاهراتٍ، ثوابت وسيَّاراتٍ، وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات، وغير ذلك.

و قوله: ﴿وما يؤمنُ أكثرُهمْ بالله إلاَّ وهم مُشْرِكونَ﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: مَنْ خلقَ السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله وهم مشركون به. وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وفي الصحيحين: إن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وفي صحيح مسلم: إنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: «قد قد». أي: حَسْبُ حَسْبُ، لا تزيدوا على هذا.

و قال الله تعالى: ﴿إنَّ الشِّرْكَ لظُلْمٌ عظيمٌ﴾ وهذا هو الشرك الأعظم، يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين: عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أنْ تجعلَ لله نداً وهو خلقكَ».

و قال الحسن البصري في قوله: ﴿وما يُؤمنُ أكثرُهمْ باللهِ إلاَّ وهُمْ مُشْرِكونَ﴾ قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك، يعني قوله تعالى: ﴿إنَّ المنافقينَ يُخادِعُونَ اللهَ وهوَ خادِعُهمْ وإذا قامُوا إلَى الصلاةِ قامُوا كُسَالَى يُراءُونَ النَّاسَ ولا يذْكُرونَ اللهَ إلاَّ قليلاً﴾ وثَمَّ شرك آخر خفي، لا يشعر به غالباً

فاعله، كما روي عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً فقطعه ـ أو انتزعه ـ ثم قال: ﴿وما يُؤمنُ أكثرُهمْ باللهِ إلاَّ وهمْ مُشركونَ﴾.

و في الحديث: «مَنْ حَلفَ بغير الله فقدْ أشرك» رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر.

و في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرُّقَى والتَّمائم والتِّوَلة شركٌ». وفي لفظ لهما: «الطِّيَرةُ شرك، وما منَّا إلا، ولكن الله يُذْهبهُ بالتوكُّل».

و رواه الإمام أحمد بأبسط من هذا: عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق، كراهة أنْ يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الْحُمرة فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطاً، فقال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيطٌ رُقي لي فيه، فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرقى والتمائم والتولة شرك» قالت: قلت له: لم تقول هذا؟ وقد كانت عيني تَقذفُ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، فكان إذا رقاها سَكنتْ؟ فقال: إنما ذاك من الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقَاها كفَّ عنها، إنما كان يكفيك أن تقول كما قال النبي ﷺ: «إنما ذاك من الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كفَّ عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ: «أذهب البأس، ربَّ الناس، اشفِ وأنتَ الشافي، لا شفاءَ إلا شفاؤكَ، شفاءً لا يغادر سقماً».

و في مسند الإمام أحمد: من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ علَّقَ تميمةً فقد أشْركَ».

و عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا أغنَى الشُّركاء عن الشِّرك، مَنْ عَمِلَ عملاً أشركَ فيه معي غيري، تركتُه وشركه» رواه مسلم.

و عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جَمعَ الله الأوَّلين والآخرين ليوم لا ريب فيه، يُنادي منادٍ: مَنْ كان أشركَ في عملٍ عمله لله، فليطلبْ ثوابَه من عند غير الله، فإنَّ الله أغنَى الشُّركاء عن الشرك» رواه الإمام أحمد.

و روى أحمد: عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أخْوَفَ ما أخافُ عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة، إذا جازى الناس بأعمالهم، اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟».

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ردَّتْهُ الطيرةُ عن حاجته فقدْ أشركَ»، قالوا يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خيرَ إلا خيرك، ولا طيرَ إلا طيرك، ولا إله غيرك».

و روى الإمام أحمد: عن أبي علي رجلٍ من بني كاهل قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشِّرك، فإنه أخفى من دبيبِ النَّمل، فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرجن مما قلت، أو لنأتين عمر مأذوناً لنا أو غير مأذون، قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال: «يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل» فقال له مَنْ شاء الله أن يقول: فكيف

نتقيه ، وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: قولوا: «اللهمَّ إنَّا نعوذُ بكَ من أنْ نُشْركَ بك شيئاً نعلمه، ونستغفركَ لما لا نعلمه». وقد روي من وجه آخر، وفيه: أن السائل في ذلك هو الصديق.

و قد روى الإمام أحمد: وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي: من حديث أبي هريرة قال: قال أبوبكر الصديق، يا رسول الله، علِّمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي، قال: قل: «اللهمَّ فاطرَ السموات والأرض، عالم الغيبِ والشهادة، ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكه، أشهدُ أن لا إله إلا أنتَ أعوذُ بكَ من شرِّ نفسي، ومِن شرِّ الشيطان وشِرْكه». رواه أبو داود والنسائي وصححه، وزاد الإمام أحمد في رواية له: «و أنْ أقترفَ على نفسي سُوءاً، أو أُجرَّه إلى مسلم».

و قوله: ﴿أفأمنُوا أن تأتيهم غاشيةٌ من عذاب الله﴾ الآية، أي: أفأمن هؤلاء المشركون بالله، أن يأتيهم أمرٌ يغشاهم من حيث لا يشعُرون، كقوله تعالى: ﴿أفأمنَ الذينَ مَكَرُوا السَّيئاتِ أنْ يخسفَ اللهُ بهم الأرض أو يأتيهم العذابُ من حيثُ لا يشعُرونَ ❁ أو يأخُذَهمْ في تقلُّبهم فما هُمْ بمُعْجزينَ ❁ أو يأخذهمْ على تخوُّفٍ فإنَّ ربَّكمْ لرءوفٌ رحيمٌ﴾، و قوله: ﴿أفأمِنَ أهلُ القُرَى أنْ يأتيَهمْ بأسُنا بياتاً وهمْ نائمُونَ ❁ أوَأمِنَ أهلُ القُرَى أن يأتِيَهمْ بأسُنا ضُحَى وهمْ يَلْعَبُونَ ❁ أفأمنُوا مَكْرَ اللهِ فلا يَأمَنُ مكرَ اللهِ إلاَّ القومُ الخاسِرُونَ﴾.

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾

١٠٨ - يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس، آمراً له أنْ يخبر الناسَ أنَّ هذه سبيله، أي: طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكلُّ من اتبعه يعد إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ ﴿على بصيرةٍ﴾ ويقين وبرهان عقلي وشرعي. و قوله: ﴿و سُبحانَ اللهِ﴾ أي: وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه، عنْ أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتقدَّس وتنزَّه، وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً ﴿تُسبِّحُ له السموات السَّبعُ والأرضُ ومنْ فيهنَّ وإن مِّن شيءٍ إلاَّ يُسبِّحُ بحَمدِهِ ولكن لا تفقَهونَ تسبيحَهمْ إنَّهُ كانَ حليماً غفوراً﴾.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾

١٠٩ - يخبر تعالى أنه إنما أرسل رُسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة، إنَّ الله تعالى لم يُوح إلى امرأةٍ من بنات آدم وحْيَ تشريع، وزعم بعضهم: أنَّ سارّة امرة الخليل، وأمّ موسى، ومريم بنت عمران، وأمّ عيسى نبيات، واحتجوا بأنَّ الملائكة بشَّرت سارّة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿و أوحينا إلى أمِّ مُوسى أنْ أرضِعِيه﴾ الآية، وبأن الملك جاء إلى مريم، وبشَّرها بعيسى عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿إذْ قالت الملائكةُ يا مريمُ إنَّ اللهَ اصطفاكِ وطهَّركِ واصطفاكِ على نساءِ العالَمينَ ❁ يا مريمُ اقنُتي لربِّكِ واسجُدي واركَعي معَ الراكِعينَ﴾ وهذا القدر حاصل لهنَّ، ولكن لا يلزم من هذا أنْ يكنَّ نبيات بذلك، فإنْ أراد القائل بنبوتهنَّ هذا القدر من التشريف، فهذا لا شك فيه، ويبقى

الكلام معه: في أنَّ هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرّده، أم لا؟

الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم: أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهنَّ صدِّيقات، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهنَّ مريم بنت عمران، حيث قال تعالى: **﴿ما المَسيحُ ابنُ مَريمَ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانَا يَأكُلانِ الطَّعامَ﴾** فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدِّيقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صدِّيقة بنص القرآن.

و قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: **﴿وَ ما أرسَلْنا مِن قَبْلكَ إلاَّ رِجالاً نُوحِي إليهِم مِّنْ أهلِ القُرَى﴾** أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم. وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى: **﴿و ما أرسلنَا قبلكَ مِن المُرسَلينَ إلاَّ إنَهمْ ليأكُلونَ الطَّعامَ ويَمشُونَ في الأسواقِ﴾** الآية، وقوله تعالى: **﴿و ما جَعلنَاهمْ جسَداً لا يَأكُلونَ الطَّعامَ وما كانوا خالِدينَ ۞ ثمَّ صدقْناهمُ الوعدَ فأنجينَاهمْ ومن نشاءُ وأهلكنا المُسْرِفينَ﴾**، وقوله تعالى: **﴿قُلْ ما كنتُ بدعاً من الرسل﴾** الآية.

و قوله: **﴿مِنْ أهلِ القُرى﴾** المراد بالقرى المدن، لا أنهم من أهل البوادي، الذين هم من أجفى الناس طِباعاً وأخلاقاً، وهذا هو المعهود المعروف، أن أهل المدن أرق طباعاً، وألطف من أهل بواديهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي، ولهذا قال تعالى: **﴿الأعرابُ أشدُّ كُفراً ونفاقاً﴾** الآية، وقال قتادة في قوله: **﴿مِن أهل القُرَى﴾** لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمور.

و في الحديث الآخر: أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة، فلم يزل يُعطيه ويزيده حتى رضي، فقال رسول الله ﷺ: «لقد هممتُ أن لا أتَّهبَ هبةً، إلا من قرشي، أو أنصاري، أو ثقفي، أو دوسي»[١].

و روى الإمام أحمد: عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ ـ قال الأعمش: هو ابن عمر ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمنُ الذي يُخالطُ الناسَ ويصبر على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

و قوله: **﴿أفلَمْ يسيرُوا في الأرضِ﴾** يعني: هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض **﴿فينظُروا كيف كان عاقبةُ الذينَ من قبلهمْ﴾** أي: من الأمم المكذِّبة للرسل، كيف دمَّر الله عليهم، وللكافرين أمثالها **﴿أفلم يسيرُوا في الأرضِ فتكونَ لهمْ قلوبٌ يعقلونَ بها﴾** الآية، فإذا استمعوا خبر ذلك، رأوا أنَّ الله قد أهلكَ الكافرين، ونجَّى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، و لهذا قال تعالى: **﴿و لدار الآخرة خيرٌ للذين اتقوا﴾** أي: وكما نجينا المؤمنين في الدنيا، كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خيرٌ لهم من الدنيا بكثير، كقوله: **﴿إنَّا لننصرُ رُسُلَنَا والذينَ آمنُوا في الحياةِ الدنيا ويوم يقُومُ الأشهادُ ۞ يوم لا ينفعُ الظالمينَ معذرتُهمْ ولهم اللعنةُ ولهمْ سوءُ الدار﴾**.

و أضاف الدار إلى الآخرة، فقال **﴿و لدارُ الآخرة﴾** كما يقال: صلاة الأولى، ومسجد الجامع، وعام أول، وبارحة الأولى، ويوم الخميس.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) ﴾

---

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٢٩٥)، و معناه: أن لا أقبل هدية إلا من هؤلاء، لأنهم أصحاب مدن و قرى، وهم أعرف بمكارم الأخلاق... (نهاية).

١١٠ - يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال، وانتظار الفرج من الله، في أحوج الأوقات إلى ذلك، كقوله تعالى: **﴿و زُلْزِلُوا حتى يَقُولَ الرَّسولُ والذينَ آمَنُوا معهُ متى نصرُ الله﴾** الآية، وفي قوله: **﴿كُذِبُوا﴾** قراءتان: إحداهما بالتشديد **﴿قد كُذِّبُوا﴾**، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها. روى البخاري: عن عروة بن الزبير: عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: **﴿حتّى إذا استَيأسَ الرُّسُل﴾** قال: قلت: أَكُذِبُوا أمْ كُذِّبُوا؟ قالت عائشة: كُذِّبُوا، قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم، فما هو بالظن؟ قالت: أجل لعمري، لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: **﴿وَ ظَنُّوا أَنَّهمْ قَدْ كُذِبوا﴾** قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل، الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر **﴿حتى إذا اسْتيأسَ الرُّسُل﴾** ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك. وروى أيضاً عن عروة: فقلت: لعلها **﴿قد كُذِبُوا﴾** مخففة؟ قالت: معاذ الله، انتهى ما ذكره.

و عن ابن مليكة أن ابن عباس قرأها **﴿و ظَنُّوا أنهم قدْ كُذِبُوا﴾** خفيفة، قال عبد الله هو ابن أبي مليكة ثم قال لي ابن عباس: كانوا بشراً، ثم تلا **﴿حتى يَقُول الرسولُ والذينَ آمَنُوا معه متى نصرُ الله ألا إنَّ نصرَ الله قريبٌ﴾** وقال لي ابن أبي مليكة: وأخبرني عروة عن عائشة: أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعدَ الله محمداًﷺ من شيء، إلا قد علمَ أنه سيكونُ حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل، حتى ظنوا أنَّ مَن معهم من المؤمنين قد كذَّبُوهم. قال ابن أبي مليكة في حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها **﴿و ظَنُّوا أنهم قد كُذِّبُوا﴾** مثقلة من التكذيب.

وروى ابن أبي حاتم: عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسانٌ إلى القاسم بن محمد، فقال: إن محمد بن كعب القرظي قرأ هذه الآية **﴿حتَّى إذا اسْتَيأسَ الرُّسلُ وظنُّوا أنَّهمْ قَدْ كُذِبُوا﴾** فقال القاسم: أخبروه عني أني سمعت عائشة زوج النبيﷺ تقول **﴿حتَّى إذا اسْتَيأسَ الرُّسلُ وظنُّوا أنَّهمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾** تقول: كذبتهم أتباعهم. إسناد صحيح أيضاً. والقراءة الثانية بالتخفيف؛ واختلفوا في تفسيرها فقال ابن عباس ما تقدم.

و عن ابن مسعود: فيما رواه الثوري عنه أنه قرأ **﴿حتَّى إذا اسْتَيأسَ الرُّسلُ وظنُّوا أنَّهمْ قَدْ كُذِبُوا﴾** مخففة، قال عبد الله: هو الذي تكره. وهذا عن ابن عباس وابن مسعودرضي الله عنهما مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما عن ابن عباس: فروى مسلم عنه قال: لما أيست الرُّسل أن يستجيب لهم قومهم، وظنَّ قومهم أن الرسل قد كذبوهم، جاءهم النصر على ذلك **﴿فنُجّي من نشاءُ﴾**. وكذا روي عن سعيد بن جبير وعمران بن الحارث السلمي وعبد الرحمن بن معاوية وعلي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس بمثله.

و روى ابن جرير: عن إبراهيم بن أبي حرة الجزري قال: سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال: أخبرنا أباعبدالله، كيف هذا الحرف؟ فإني إذا أتيتُ عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة **﴿حتَّى إذا اسْتَيأسَ الرُّسلُ وظنُّوا أنَّهمْ قَدْ كُذِبُوا﴾** قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أنْ يصدقوهم، وظنَّ المرسل إليهم أنَّ الرسل قد كذبوا، فقال الضحاك بن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلاً يُدعى إلى علم فيتلكأ لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً. ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر: أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه، وقال: فرَّجَ الله عنك كما فرجت عني، وهكذا روى من غير وجه عن

سعيد ابن جبير أنه فسرها كذلك. وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف، حتى أن مجاهداً قرأها ﴿وظنُّوا أنهم قد كَذَبوا﴾ بفتح الذال. رواه ابن جرير.

إلا أن بعض من فسرها كذلك، يُعيد الضمير في قوله: ﴿وظنُّوا أنهم قد كُذِبُوا﴾ إلى أتباع الرسل من المؤمنين، ومنهم من يُعيده إلى الكافرين منهم، أي: وظن الكفار أن الرسل قد كذبوا، مخففة فيما وعدوا به من النصر.

و أما ابن مسعود فروى ابن جرير عن تميم بن حذلَم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ من إيمان قومهم أنْ يؤمنوا بهم، وظنَّ قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كُذبوا بالتخفيف. فهاتان روايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنكرت ذلك عائشة على مَن فسَّرها بذلك، وانتصر لها ابن جرير، ووجَّه المشهور عن الجمهور، وزيَّف القول الآخر بالكلية، وردَّه وأباه، ولم يقبله ولا ارتضاه، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾

١١١- يقول تعالى لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجَّينا المؤمنين، وأهلكنا الكافرين ﴿عبرةٌ لأولي الألبابِ﴾ وهي العقول ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ أي: وما كان لهذا القرآن أنْ يفترى من دون الله، أي: يكذب ويختلق ﴿و لكن تصديق الذي بين يديه﴾ أي: من الكتب المنزّلة من السماء، هو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

﴿و تفصيلَ كلِّ شيء﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات، وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجلية، وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى، بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان ﴿هدًى ورحمةً لقوم يُؤْمنُونَ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المُبْيَضَّة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودَّة وجوههم بالصفقة الخاسرة.

ترتيبها ١٣ سورة الرعد ـ مكية آياتها ٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾

١ - أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدَّم في أول سورة البقرة، وقدَّمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف، ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه، ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تلك آياتُ الكتابِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل. قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظر! بل هو بعيد.

ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: ﴿و الَّذي أُنزلَ إليكَ﴾ أي: يا محمد ﴿من ربِّك الحقُّ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿و الَّذي أنزل إليكَ من ربكَ﴾ هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة، واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة، أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا.

و قوله: ﴿و لكن أكثر الناسِ لا يؤمنونَ﴾ كقوله: ﴿و ما أكثرُ الناسِ ولوْ حرصتَ بمؤْمنِينَ﴾ أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق، والعناد والنفاق.

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾

٢ - يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه، أنه بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره، رفعها عن الأرض، بُعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها، من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبُعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينهما من بُعد المسير خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: ﴿اللهُ الذي خَلقَ سبْعَ سموات وَمِنَ الأَرضِ مِثلَهُنَّ﴾ الآية.

و قوله: ﴿بغيرِ عَمدٍ تَروْنهَا﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد، أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا تُرى، وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد. وكذا روي عن قتادة وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿و يُمسكُ السماءَ أن تَقعَ علَى الأرضِ إلا بإذْنهِ﴾ فعلى هذا يكون قوله: ﴿ترَوْنها﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة.

و قوله تعالى: ﴿ثُمَّ استَوَى على العَرْشِ﴾ تقدم تفسيره في سورةِ الأعراف، وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً.

و قوله: ﴿و سخَّرَ الشَّمسَ والقَمرَ كلٌّ يَجْري لأجلٍ مُسمًّى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿و الشمسُ تجْري لِمُستقرٍّ لها﴾. وقيل: المراد إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك، يكونون أبعد ما يكون عن العرش، لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة، قُبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأنَّ له قوائمَ وحملة يحملونه، ولا يُتصوَّر هذا في الفلك المستدير، هذا واضحٌ لمن تدبَّر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمدُ والمنة.

و ذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخَّر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لاَ تَسْجُدُوا للشَّمسِ ولا لِلْقمرِ واسجُدُوا للهِ الذي خَلَقَهنَّ إنْ كنتمْ إياهُ تعبدُونَ﴾ مع أنه قد صرَّح بذلك بقوله: ﴿وَالشمسَ والقمرَ والنُّجُوم مُسخَّراتٍ بأمرِهِ ألا لهُ الخلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالَمينَ﴾.

و قوله: ﴿يُفصِّلُ الآياتِ لعلَّكمْ بلقاءِ ربِّكمْ توقِنُونَ﴾ أي: يُوضِّح الآيات والدلالات، الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾

٣- لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرَع في ذِكر قدرته وحِكمته، وأحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وهوَ الذي مدَّ الأرضَ﴾ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسياتٍ شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، ليسقي ما جعل فيها من الثمرات، المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿مِن كلٍّ زوجَينِ اثنينِ﴾ أي: من كل شكلٍ صنفان ﴿يُغشي الليلَ النهارَ﴾ أي: جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان، كما يتصرف في المكان والسُّكَّان.

﴿إنَّ في ذَلكَ لآياتٍ لِّقوم يتفكَّرونَ﴾ أي: في آلاء الله وحكمه ودلائله.

٤- وقوله: ﴿وَ في الأرضِ قِطعٌ مُّتجَاوِراتٌ﴾ أي: أراضٍ يُجاوِر بعضُها بعضاً، مع أنَّ هذه طيِّبة تنبت ما ينفع الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبتِ شيئاً. هكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد، ويدخل في هذه الآية: اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل

متجاورات، فهذه نصفها وهذه نصفها الآخر، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلاهو ولا رب سواه. وقوله: ﴿وَجَنَّاتٌ مِن أعناب وزَرْعٌ ونَخيلٌ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون ﴿وَزَرْعٌ ونَخِيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب، فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

و قوله: ﴿صِنوانٌ وغَيرُ صِنوان﴾ الصنوان: هو الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين، وبعض النخيل ونحو ذلك؛ وغير الصنوان ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمى عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه».

و روى الثوري: عن البراء رضي الله عنه: الصنوان: هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان المتفرقات. وقاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد.

و قوله: ﴿يُسْقَى بماءٍ واحدٍ ونُفَضِّلُ بَعضَها على بعضٍ في الأُكُل﴾ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ﴿وَنُفَضِّلُ بَعضَها على بَعضٍ في الأُكُل﴾ قال: «الدَّقل والفارسي والحلو والحامض» رواه الترمذي. أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وذا عَفص، وهذا عذب، وهذا جَمَع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أزرق، وكذلك الزهورات، مع أنها كلها تستمد من طبيعةٍ واحدةٍ، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوتَ بين الأشياء، وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقوم يعقِلُونَ﴾.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾

٥- يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ ﴿وإنْ تعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه، ودلائله في خلقه، على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكوَّنها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذِّبُون خبره: في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا، ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم ﴿أئذا كُنَّا تُراباً أئنَّا لَفي خَلقٍ جديدٍ﴾ وقد علمَ كل عالم وعاقل، أنَّ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن مَنْ بدأ الخلق، فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى ﴿أولمْ يرَوا أنَّ اللهَ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ ولمْ يَعْيَ بِخَلْقِهنَّ بقادرٍ على أنْ يُحْيِيَ المَوْتَى بَلَى إنَّهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾.

ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أولئكَ الذينَ كفرُوا بربهم وأُولئكَ الأغلالُ في أعناقِهِمْ﴾ أي: يُسحبون بها في النار ﴿وَأولَئكَ أصْحابُ النارِ همْ فيهَا خالدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها أبداً، لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ

﴿ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) ﴾

٦- يقول تعالى: **﴿ويستعجلونك﴾** أي: هؤلاء المكذبون **﴿بالسيئة الحسنة﴾** أي: بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: **﴿وقالوا يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون* لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين* ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين﴾** وقال تعالى: **﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾** الآيتين، وقال تعالى: **﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾** وقال: **﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾** **﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا﴾** الآية، أي: عقابنا وحسابنا، كما قال مخبراً عنهم **﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾** الآية، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم، يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله.

قال الله تعالى: **﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾** أي: قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم، ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه، لعاجلهم بالعقوبة، كما قال: **﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾**، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة **﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾** أي: أنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار.

ثم قرن هذا الحكم بأنه: شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: **﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾** وقال: **﴿إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾** وقال: **﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم* وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾** إلى أمثال ذلك من الآيات، التي تجمع الرجاء والخوف.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾

٧- يقول تعالى إخباراً عن المشركين، أنهم يقولون كفراً وعناداً: لو لا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعنتوا عليه أنْ يجعل لهم الصَّفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال تعالى: **﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾** الآية، قال الله تعالى: **﴿إنما أنت منذر﴾** أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، و**﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾**.

وقوله: **﴿ولكل قوم هاد﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: لكلِّ قوم داعٍ، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم، وكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبير والضحاك وغير واحد، وعن مجاهد **﴿ولكل قوم هاد﴾** أي: نبي، كقوله: **﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾** وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد، وقال أبو صالح ويحيى بن رافع **﴿ولكل قوم هاد﴾** أي: قائد، وقال أبو العالية: الهادي القائد، والقائد الإمام، والإمام العمل، وعن عكرمة والضحاك **﴿ولكل قوم هاد﴾** قالا: هو محمد ﷺ. وقال مالك: **﴿ولكل قوم هاد﴾** يدعوهم إلى الله عز وجل.

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) ﴾

٨- يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿و يَعلَمُ ما في الأرحام﴾ أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كقوله تعالى: ﴿هو أعلمُ بكمْ إذْ أنشأكم من الأرضِ وإذ أنتم أجنة﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَخلُقُكمْ في بطونِ أُمَّهاتِكمْ خلقاً من بعد خلقٍ في ظلماتٍ ثلاثٍ﴾ أي: خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى: ﴿و لقدْ خلقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طين* ثمَّ جعلْناهُ نُطفةً في قرار مكين* ثمَّ خلقْنا النُّطفةَ علقَةً فخلقْنا العلقَةَ مُضْغةً فخلَقْنا المُضْغةَ عِظاماً فكسونا العِظامَ لحماً ثمَّ أنشأْناهُ خلقاً آخرَ فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالِقِينَ﴾.

و في الصحيحين: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ خلقَ أحدِكمْ يُجْمعُ في بطنِ أمِّه أربعينَ يوماً، ثمَّ يكونُ علقةً مثل ذلك، ثم يكونُ مُضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات: بكَتْبِ رزقِهِ وعمره وعمله وشقي أو سعيد» وفي الحديث الآخر: « فيقول: «المَلَكُ»: أي رب، أذكر أم أنثى؟ أي رب أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله ويكتب الملك».

و قوله: ﴿و مَا تَغيضُ الأرْحامُ ومَا تزْدادُ﴾ روى البخاري: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيحُ الغيب خمسٌ، لا يعلمهنَّ إلا الله، لا يَعلمُ ما في غدٍ إلاَّ الله، ولا يَعلَمُ ما تغيضُ الأرحامُ إلا الله، ولا يَعلم متى يأتي المطرُ أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت، ولا يعلمُ متى تقومُ الساعة إلا الله».

و قال العوفي عن ابن عباس ﴿و مَا تَغيضُ الأرْحامُ﴾ يعني: السقط ﴿و ما تزدادُ﴾ يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت، حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى. وقال الضحاك عن ابن عباس نحوه.

و قال مجاهد ﴿و مَا تَغيضُ الأرْحامُ ومَا تَزْدادُ﴾ قال: ما ترى من الدم في حملها، وما تزداد على تسعة أشهر، وبه قال عطية العوفي والحسن البصري وقتادة والضحاك، وقال مجاهد أيضاً: إذا رأت المرأة الدم دون التسعة، زاد على التسعة مثل أيام الحيض، وقاله عكرمة وسعيد بن جبير وابن زيد؛ وقال مجاهد أيضاً ﴿و مَا تَغيضُ الأرْحامُ﴾ إراقة المرأة حتى يخسَّ الولد ﴿و مَا تَزْدادُ﴾ إنْ لَم تهرق المرأة، تمَّ الولد وعظم.

و قال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب، ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها، فمن ثمَّ لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلاله استنكاره لمكانه؛ فإذا قُطعتْ سرته حول الله رزقه إلى ثديي أمه حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل، أنَّى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويحك! غذاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتددت وعقلت، قلت: هوالموت أو القتل، أنَّى لي بالرزق؟! ثم قرأ مكحول: ﴿اللهُ يعلمُ ما تَحْملُ كلُّ أنثَى﴾ الآية.

و قال قتادة ﴿و كلُّ شيءٍ عندهُ بمِقدارٍ﴾: أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلاً معلوماً. وفي الحديث الصحيح: أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن

يحضره، فبعث إليها يقول: «إنَّ لله ما أخَذَ وله ما أعطى، وكلُّ شيءٍ عنده بأجلٍ مسمى؛ فَمُرْها فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه.

و قوله: ﴿عَالِمُ الغيبِ والشَّهادةِ﴾ أي: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد، ومما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿الكبيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء ﴿المُتعَالِ﴾ أي: على كل شيء ﴿قد أحاطَ بكل شيءٍ علماً﴾ وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب، ودان له العباد، طوعاً وكرهاً.

﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾

١٠ - يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وإنه سواءٌ منهم من أسرَّ قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء، كقوله: ﴿و إنْ تجهرْ بالقولِ فإنه يعلمُ السرَّ وأخفى﴾ وقال: ﴿و يعلمُ ما تُخْفُونَ وما تُعْلِنُونَ﴾ وقالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وَسِعَ سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله ﴿قد سَمِعَ قولَ التي تجادِلُكَ في زوجِها وتشتكي إلى اللهِ واللهُ يسمعُ تحاوركمَا إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ﴾.

و قوله: ﴿و مَن هوَ مُسْتخفٍ بالليلِ﴾ أي: مختفٍ في قعر بيته في ظلام الليلِ ﴿و ساربٌ بالنَّهارِ﴾ أي: ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإنَّ كليهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: ﴿ألا حينَ يستغشُونَ ثيابَهُمْ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿و ما تكونُ في شأنٍ ومَا تَتْلُو منهُ مِن قُرآنٍ ولا تَعْملُونَ مِن عملٍ إلاَّ كُنَّا عليكمْ شُهوداً إذ تُفيضُونَ فيهِ وما يعزُبُ عن ربِّكَ مِن مثقالِ ذرةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ ولا أصغرَ من ذلكَ ولا أكبرَ إلاَّ في كتابٍ مُبينٍ﴾.

١١ - وقوله: ﴿لهُ مُعقِّباتٌ مِن بينِ يديهِ ومن خلفِهِ يحفظُونه من أمرِ اللهِ﴾ أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون، لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح: «يَتعاقبُون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذينَ باتُوا فيكم فيسألهم ـ وهو أعلم بكم ـ كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون».

و قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: والمعقبات من أمر الله: هي الملائكة. وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿يَحفَظونَهُ مِنْ أمرِ اللهِ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قَدَر الله خَلُّوا عنه. وقال مجاهد: ما من عبدٍ إلا له ملكٌ موكَّلٌ، يحفظه في نومه ويقظته، من الجنِّ والإنس والهوام، فما منها شيءٌ

يأتيه يريده، إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيءٌ أذِنَ الله فيه فيصيبه.

و روى الثوري: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: **﴿له مُعقِّباتٌ من بين يديْهِ ومِن خلفِهِ﴾** قال: ذلك ملِكٌ من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس، وقال عكرمة في تفسيرها: هؤلاء الأمراء المواكب من بين يديه ومن خلفه. وقال الضحاك: هو السلطان المحروس من أمر الله، وهم أهل الشرك. والظاهر ـ والله أعلم ـ أن مراد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا، أنَّ حرس الملائكة للعبد، يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم، وروى الإمام أحمد رحمه الله: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله؟! قال: «و إياي، ولكن الله أعانني عليه، فلا يأمرني إلا بخير» انفرد بإخراجه مسلم.

و قوله: **﴿يحفظونهُ من أمرِ اللهِ﴾** قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، رواه علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم. وقال قتادة: وفي بعض القراءات (يحفظونه بأمر الله)، وقال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي، فقال: احترس، فإنَّ ناساً من مراد يريدون قتلك، فقال: إنَّ مع كلِّ رجلٍ ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القَدرُ خليا بينه وبينه، وإنَّ الأجل جُنَّةٌ حصينةٌ. وقال بعضهم **﴿يحفَظونهُ من أمرِ اللهِ﴾** بأمر الله.

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾

١٢ – يخبر تعالى أنَّه هو الذي يسخِّر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع، ساطعاً من خلل السحاب. وقوله: **﴿خوفاً وطمعاً﴾** قال قتادة: خوفاً للمسافر، يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم، يرجو بركته، ويطمع في رزق الله **﴿و يُنشئُ السَّحابَ الثِّقالَ﴾** أي: ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد: **﴿السحاب الثقال﴾** الذي فيه الماء.

١٣ – قال: **﴿و يُسبِّحُ الرَّعدُ بِحَمدِهِ﴾** كقوله: **﴿و إن مِّن شيءٍ إلاَّ يُسبِّحُ بحمدِهِ﴾**.

روى الإمام أحمد: عن شيخ من بني غفار: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنَّ الله يُنشئُ السَّحابَ، فينطقُ أحسنَ النُّطق، ويضحكُ أحسنَ الضحك». والمراد ـ والله أعلم ـ أنَّ نطقها الرعد وضحكها البرق.

و روى عن علي رضي الله عنه: أنه كان إذا سَمِعَ صوت الرعد، يقول: سبحانَ مَن سبَّحتْ له[1]. و كذا روي عن ابن عباس وطاوس والأسود بن يزيد أنهم كانوا يقولون كذلك، وقال الأوزاعي كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد سبحان الله وبحمده لم تصبه الصاعقة. وعن عبد الله بن الزبير: أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته. ويقول: إن هذا لوعيدٌ شديد لأهل الأرض. رواه مالك في موطنه والبخاري في كتاب الأدب.

و قوله تعالى: **﴿وَ يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَن يشاءُ﴾** أي: يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا

(١) رواه عنه ابن جرير (١٦/ ٣٨٩) و سنده ضعيف جداً، لكنه حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما.

تكثر في آخر الزمان، كما روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تكثُرُ الصواعقُ عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم، فيقول: مَنْ صُعق قبلكمْ الغداة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان».

و قد روى في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: «أذهبْ فادعه لي» قال: فذهب إليه، فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: مَنْ رسول الله ﷺ؟ وما الله؟ أمن ذهب هو أم من فضة هو، أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي كذا وكذا، فقال: «ارجع إليه الثانية» أُراه فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى الرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك فقال: «ارجعْ إليه فادعه»، فرجع إليه الثالثة، قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يكلمه، إذْ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه فرعدتْ فوقعتْ منها صاعقة فذهبتْ بقحف رأسه، فأنزل الله عز وجل: **﴿و يُرسلُ الصَّواعِقَ﴾** الآية، ورواه ابن جرير والحافظ أبوبكر البزار عن أنس نحوه.

و قوله: **﴿و همْ يجادِلونَ في الله﴾** أي: يشكون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو **﴿وَهوَ شديدُ المِحالِ﴾** قال ابن جرير: شديدة مُماحلته في عقوبة من طغى عليه وعتى وتمادى في كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله: **﴿ومكرُوا مكراً ومكرنا مكراً وهمْ لا يشْعُرونَ ❁ فانظرْ كيفَ كان عاقبةُ مكرهمْ أنَّا دمَّرناهمْ وقومهمْ أجمعينَ﴾** وعن علي رضي الله عنه **﴿وهوَ شديدُ المحالِ﴾** أي: شديد الأخذ، وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤) ﴾

١٤- قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **﴿له دعوةُ الحق﴾** قال: التوحيد، رواه ابن جرير، وقال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر **﴿لهُ دعوةُ الحق﴾** لا إله إلا الله **﴿و الذينَ يدعونَ من دونِه﴾** الآية، أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله **﴿كباسط كفيه إلى الماءِ ليبلغَ فاهُ﴾** قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد **﴿كباسطِ كفيه﴾** يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه، فلا يأتيه أبداً. وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء.

كما قال الشاعر:

فإني وإياكم وشوقاً إليكم كقابض ماء لمْ تسقه أنامله

و معنى الكلام: أن الذي يبسط يده إلى الماء، إمَّا قابضاً وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه، الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً، في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: **﴿و ما دُعاءُ الكافرينَ إلا في ضلالٍ﴾**.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾

١٥- يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل

شيء ، طوعاً من المؤمنين ، وكرهاً من الكافرين **﴿و ظلالُهم بالغدوِّ﴾** أي : البُكْرات **﴿و الآصالِ﴾** وهو جمع أصيل ، وهو : آخر النهار ، كقوله تعالى : **﴿أولمْ يَرَوْا إلى ما خلقَ اللهُ مِن شيءٍ يتفيؤُ ظلالُهُ﴾** الآية .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخذْتُم مِّن دُونه أَوْلِيَاءَ لا يَمْلكُونَ لأَنفُسهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِه فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) ﴾

١٦ - يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو ، لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض ، وهو ربها ومدبرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لا نفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً ، أي : لا تحصل لهم منفعة ، ولا تدفع عنهم مضرة ، فهل يستوي مَنْ عَبَدَ هذه الآلهة مع الله ، ومَن عبد الله وحده لا شريك له ، فهو على نور من ربه؟

و لهذا قال : **﴿قُلْ هلْ يستوِي الأعْمى والبَصِيرُ أمْ هلْ تَستوِي الظُّلُماتُ والنورُ أم جَعلُوا للهِ شُركاءَ خَلقُوا كخَلْقِهِ فتشابهَ الخلقُ عليهمْ﴾** أي : أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب ، وتماثله في الخلق ، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي : ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ، ولا ند له ، ولا عدل له ، ولا وزير له ، ولا ولد ولا صاحبة **﴿تعالَى اللهُ عن ذلكَ علواً كبيراً﴾** ، وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة ، هم معترفون أنها مخلوقةٌ له عبيد له ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم : لبَّيكَ لا شريكَ لكَ ، إلاَّ شريكاً هوَ لكَ ، تملكهُ وما ملكَ . وكما أخبر تعالى عنهم في قوله : **﴿ما نَعْبُدهمْ إلاَّ ليُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى﴾** فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك ، وهو تعالى لا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه **﴿و لا تَنفعُ الشفاعةُ عِندَهُ إلا لمنْ أذنَ له﴾** **﴿و كمْ من ملكٍ في السَّمواتِ والأرضِ﴾** الآية ، وقال : **﴿إنْ كلُّ مَن في السمواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمنِ عَبْداً * لَقدْ أحصاهُمْ وعدَّهمْ عداً * وكلُّهمْ آتيهِ يومَ القيامةِ فرداً﴾** .

فإذا كان الجميع عبيداً ، فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان؟ بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع ، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك ، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله ، فكذبوهم وخالفوهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة **﴿و لا يَظلِمُ ربُّكَ أحداً﴾** .

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾

١٧ - اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين ، مضروبين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه ، فقال تعالى : **﴿أنزلَ مِن السماءِ ماءً﴾** أي : مطراً **﴿فسالتْ أودِيةٌ بقدرِها﴾** أي : أخذ كل واحد بحسبه ، فهذا كبيرٌ وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير فوسع بقدره ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علماً كثيراً ، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم ، بل يضيق عنها **﴿فاحتملَ السَّيلُ زبداً رابياً﴾** أي : فجاء على وجه

الماء الذي سال في هذه الأودية زبدٌ عال عليه، هذا مَثَل، وقوله: ﴿و مما يُوقدونَ عليه في النارِ ابتغاءَ حليةٍ أو متاعٍ﴾ الآية، هذا هو المثل الثاني، وهو ما يُسبكُ في النار، من ذهب أوفضة، ﴿ابتغاءَ حليةٍ﴾ أي: لِيُجعل حلية، أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه ﴿كذلكَ يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ﴾ أي: إذا اجتمعا، لا ثباتَ للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فأما الزَّبدُ فيذهبُ جُفاءً﴾ أي: لا يُنتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس، يذهب ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿و أمَّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ كذلكَ يضربُ اللهُ الأمثالَ﴾ كقوله تعالى: ﴿و تلكَ الأمثالُ نَضْرِبُها للناسِ وما يعقِلُها إلاَّ العالِمونَ﴾ وقال بعضُ السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه، بكيت على نفسي، لأن الله تعالى يقول: ﴿و ما يَعْقِلها إلاَّ العالِمُونَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أنزلَ من السماءِ ماءً فسالتْ أوديةٌ بقدَرِها﴾ الآية: هذا مثلٌ ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فأما الزَّبدُ﴾ وهو الشك ﴿فيذهبُ جفاءً وأما ما ينفَعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ﴾ وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار، فيؤخذ خالصه ويُترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين، ويترك الشك.

و قال العوفي عن ابن عباس، قوله: ﴿أنزلَ من السماءِ ماءً فسالتْ أوديةٌ بقدَرِها فاحتمَلَ السيْلُ زَبَداً رَّابياً﴾: احتمل السيل ما في الوادي من عودٍ ودمنة ﴿و مِمَّا يُوقِدونَ عَليهِ في النارِ﴾ فهو الذهب والفضة، والحلية والمتاع، والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت، فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله، فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار، فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك وينتفع أهل الحق بالحق.

و هكذا روى في تفسيرها عن مجاهد والحسن البصري وعطاء وقتادة وغير واحد من السلف والخلف، وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين: نارياً ومائياً، وهما قوله: ﴿مَثَلُهمْ كمَثَلِ الَّذِي استَوْقَدَ ناراً فلمَّا أضاءتْ ما حَولَهُ﴾ الآية، ثم قال: ﴿أوْ كصَيِّبٍ مِّنَ السَّماءِ فيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وبَرقٌ﴾ الآية، وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين: أحدهما: قوله: ﴿و الذينَ كَفرُوا أعمالُهمْ كسَرابٍ﴾ الآية، والسَّراب إنما يكون في شدة الحر، ولهذا جاء في الصحيحين: «فيقال لليهود يوم القيامة فما تريدون؟ فيقولون: أي ربنا عطشنا فأسقنا، فيقال: ألا تَردون؟ فيردون النار، فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً».

ثم قال تعالى في المثل الآخر: ﴿أوْ كَظُلُماتٍ في بحرٍ لُجِّيٍّ﴾ الآية، وفي الصحيحين: عن أبي موسى

الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مثلَ ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصابَ أرضاً، فكان منها طائفةٌ قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشَربوا ورعوا وسَقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تُمسكُ ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه الله بما بعثني ونفعَ به، فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومثل مَن لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»، فهذا مثل مائي.

وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثَلي ومَثَلكم كمثل رجلٍ استوْقدَ ناراً، فلما أضاءت ما حولها، جَعلَ الفَراش وهذه الدواب التي يقعن في النار، يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها» قال: «فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذٌ بحُجَزكم عن النار، هلمَّ عن النار، فتغلبوني فتقتحمون فيها» وأخرجاه في الصحيحين أيضاً، فهذا مثل ناري.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

١٨ - يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: **﴿للذينَ استجابُوا لربِّهمْ﴾** أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم **﴿الحسنى﴾** وهو الجزاء الحسن، كقوله تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال **﴿أما منْ ظلمَ فسوفَ نُعذِّبه ثم يُردُّ إلى ربِّه فيُعذِّبُه عذاباً نُكراً * وأمَّا منْ آمنَ وَعملَ صالحاً فلهُ جزاءً الحُسْنَى وسَنَقُولُ لهُ مِنْ أمرِنَا يُسْراً﴾** وقال تعالى: **﴿لِلَّذِينَ أحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادةٌ﴾**.

وقوله: **﴿و الذينَ لمْ يستَجيبُوا لهُ﴾** أي: لم يطيعوا الله **﴿لوْ أنَّ لهمْ ما في الأرضِ جميعاً﴾** أي: في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً **﴿أولئكَ لهمْ سوءُ الحِسابِ﴾** أي: في الدار الآخرة، أي: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عُذِّب، ولهذا قال: **﴿ومأْواهم جهنَّم وبئسَ المهادُ﴾**.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾

١٩ -يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي **﴿أنزل إليكَ﴾** يا محمد **﴿من ربك﴾** هو الحق الذي لا شك فيه، ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله حقٌّ يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: **﴿و تمتْ كلمةُ ربِّكَ صِدقاً وعدلاً﴾** أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الطلب.

فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلي خير لا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولااتبعه، كقوله تعالى: **﴿لاَ يستوي أصْحابُ النَّارِ وَ أصْحابُ الْجَنَّةِ أصحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الفائِزونَ﴾** وقال في هذه الآية الكريمة **﴿أفمنْ يعلمُ أنما أُنزِلَ إليكَ مِن ربِّكَ الحق كمنْ هوَ أعْمى﴾** أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء، وقوله: **﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾** أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل، أولو العقول السليمة

الصحيحة، جعلنا الله منهم.

﴿ الَّذين يُوفُونَ بعَهْد اللَّه ولا ينقُضُونَ الْميثَاقَ (٢٠) وَالَّذين يَصلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحسَاب (٢١) وَالَّذين صَبَرُوا ابْتغَاءَ وَجْه رَبّهمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا ممَّا رَزَقْنَاهُمْ سرًّا وَعَلانيَةً وَيَدْرَءُونَ بالْحَسَنَة السَّيّئَةَ أُوْلَئكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّار (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ منْ آبَائهمْ وَأَزْوَاجهمْ وَذُرّيَّاتهمْ وَالْمَلائكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهم مّن كُلّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بمَا صَبَرْتُمْ فَنعْمَ عُقْبَى الدَّار (٢٤) ﴾

٢٠- يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة، بأن لهم **﴿عُقْبَى الدَّار﴾** وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة **﴿الذينَ يوفونَ بعَهْدِ اللهِ ولاَ يَنقُضونَ الميثاقَ﴾** وليسوا كالمنافقينَ الذينَ إذا عاهدَ أحدُهمْ غدر، وإذا خاصمَ فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان.

٢١- **﴿و الذينَ يصِلُونَ ما أمرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ﴾** من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف **﴿و يَخْشونَ ربَّهمْ﴾** أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة، في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

٢٢- **﴿و الذينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ ربِّهمْ﴾** أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا أنفسهم عنها لله عزوجل، ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه **﴿و أقَامُوا الصلاة﴾** بحدودها ومواقيتها، وركوعها وسجودها وخشوعها، على الوجه الشرعي المرضي **﴿و أنفقُوا مما رزقْناهمْ﴾** أي: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين **﴿سراً وعلانية﴾** أي: في السر والجهر لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، آناء الليل وأطراف النهار **﴿و يدْرَءون بالحسنة السيئة﴾** أي: في السر والجهر لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار **﴿ويدْرَءون بالحسنة السيئة﴾** أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحدٌ قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً، وصفحاً وعفواً، كقوله تعالى: **﴿ادفعْ بالتي هيَ أحسنُ فإذا الذي بينكَ وبينهُ عداوةٌ كأنهُ وليٌّ حميمٌ ۞ وما يُلقَّاها إلاّ الذينَ صبروا وما يُلقَّاها إلاّ ذو حظٍّ عظيمٍ﴾** ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء، المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة، بأن لهم عقبى الدار.

٢٣- ثم فسر ذلك بقوله: **﴿جنَّات عدن﴾** والعدن الإقامة، أي: جنات إقامة يخلدون فيها. وقال الضحاك في قوله: **﴿جنات عدن﴾** مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد، والجنات حولها، رواه ابن جرير. وقوله: **﴿و منْ صلحَ من آبائهم وأزواجهمْ وذرياتهمْ﴾** أي: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها، من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقرّ أعينهم بهم، حتى أنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، امتناناً من الله وإحساناً، من غير تنقيص للأعلى عن درجته، كما قال تعالى: **﴿و الذينَ آمنُوا واتبعتْهمْ ذريتهمْ بإيمانٍ ألحقْنا بهمْ ذريتهمْ﴾** الآية.

و قوله: **﴿والملائكة يدخلُونَ عليهم من كلِّ بابٍ ۞ سلامٌ عليكمْ بما صبَرتمْ فنعمَ عُقْبَى الدَّار﴾** أي:

وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا ، للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها ، تفد عليهم الملائكة مُسَلِّمينَ مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

و روى الإمام أحمد رحمه الله : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : عن رسول الله ﷺ أنه قال : «هل تدرونَ أولَ من يدخُلُ الجنة مِنْ خَلْقِ الله؟» قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «أولُ منْ يدخلُ الجنة مِن خَلْقِ الله الفقراءُ المهاجرون ، الذين تُسدُّ بهم الثُّغُورُ ، وتُتَّقى بهم المكارهُ ، ويمُوتُ أحدُهمْ وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخِيرتك مِن خَلْقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم؟ فيقول : إنهم كانُوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، وتُسدُّ بهم الثغورُ ، وتتقى بهم المكاره ، ويموتُ أحدُهم وحاجته في صدره ، لا يستطيع لها قضاء ، قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب **﴿سلامٌ عليكمْ بما صبرتمْ فنعمَ عقْبَى الدار﴾**» ، ورواه أبو القاسم الطبراني .

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾

٢٥- هذا حال الأشقياء وصفاتهم ، وذكر مآلهم في الآخرة ، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا ، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، و هؤلاء **﴿ينقضُونَ عهدَ اللهِ مِن بَعدِ مِيثاقِهِ ويقْطعُونَ ما أمرَ اللهُ به أن يُوصلَ ويفسدونَ في الأرضِ﴾** ، كما ثبت في الحديث : «آيةُ المنافقِ ثلاث : إذا حدَّثَ كذب ، وإذا وَعَدَ أخلف ، وإذا ائْتُمنَ خانَ» . وفي رواية : «و إذا عاهَدَ غدرَ ، وإذا خاصمَ فجرَ» .

و لهذا قال : **﴿أولئكَ لهمُ اللعنةُ﴾** وهي : الإبعادُ عن الرحمة **﴿و لهمْ سوءُ الدار﴾** وهي : سوءُ العاقبة والمآل **﴿و مأواهمْ جهنم وبئسَ المهادُ﴾** .

و قال أبو العالية في قوله تعالى : **﴿و الذينَ ينقضُونَ عهدَ الله﴾** الآية ، قال : هي ست خصال في المنافقين ، إذا كان فيهم الظَّهرة على الناس أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفُوا ، وإذا ائتمنوا خانُوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا في الأرض ، وإذا كانت الظهرة عليهم ، أظهروا الثلاث خصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا وإذا ائتمنوا خانوا .

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (٢٦) ﴾

٢٦- يذكر تعالى أنه هو الذي يُوسّعُ الرزق على من يشاء ، ويقتره على من يشاء ، لما له في ذلك من الحكمة والعدل ، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا ، استدراجاً لهمْ وإمهالاً ، كما قال : **﴿أيحْسَبُونَ أنما نُمِدُّهمْ به منْ مالٍ وبنينَ * نُسارعُ لهمْ في الخيراتِ بل لا يَشعُرونَ﴾** . ثم حقَّر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما

ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، فقال: ﴿و ما الحياةُ الدُّنيا في الآخرة إلا متاع﴾ كما قال: ﴿قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمن اتقى ولا تُظلَمُونَ فتيلاً﴾، وقال: ﴿بل تؤثرونَ الحياةَ الدُّنيا* والآخرة خيرٌ وأبقى﴾.

و روى الإمام أحمد: عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعلُ أحدُكم أصبعهُ هذه في اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة، رواه مسلم في صحيحه.

و في الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ مرَّ بجدي أسك ميت - والأسك الصغير الأذنين - فقال: «و الله، للدنيا أهونُ على الله من هذا على أهله حين ألقوه» (١).

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) ﴾

٢٧- يخبر تعالى عن قيل المشركين ﴿لَوْ لا﴾ أي: هلاَّ ﴿أُنزِلَ عليهِ آيةٌ من ربِّه﴾ كقولهم ﴿فليأتنا بآيةٍ كما أُرسلَ الأولون﴾ وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا، وفي الحديث: إن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يُحوِّل لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين: «إنْ شئتَ يا محمد أعطيتهم ذلك، فإنْ كفروا أعذِّبهمْ عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإنْ شئتَ فتحتُ عليهم باب التوبة والرحمة» فقال: «بل تفتحُ لهم باب التوبة والرحمة»(٢).

و لهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يشاءُ ويهدِي إليهِ مَنْ أنابَ﴾ أي: هو المضل والهادي، سواء بَعَثَ الرسل بآية على وفق ما اقترحوا، أولم يجبهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿و مَا تُغنِي الآياتُ والنُّذُرُ عَن قوم لاَ يُؤمنونَ﴾، وقال: ﴿إن الذينَ حقتْ عليهم كلمةُ ربِّكَ لا يؤمنون* ولو جاءتهمْ كل آيةٍ حتى يروُا العذابَ الأليم﴾، وقال: ﴿و لوْ أنَّنا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيءٍ قُبلاً ما كانوا ليُؤمنوا إلا أن يشاء اللهُ ولكنَّ أكثرَهمْ يجهلُونَ﴾. ولهذا قال: ﴿قُل إنَّ الله يُضلُّ من يشاء ويهدي إليه منْ أنابَ﴾ أي: ويهدي إليه من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به وتضرع لديه.

٢٨- ﴿الذينَ آمنُوا وتطمئنُّ قُلُوبُهمْ بذِكرِ اللهِ﴾ أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: ﴿ألا بذِكرِ اللهِ تطمئنُّ القُلوبُ﴾ أي: هو حقيق بذلك.

٢٩- وقوله: ﴿الذين آمنُوا وعملُوا الصَّالحات طُوبَى لهمْ وحُسنَ مآب﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: فرحٌ وقرة عين. وقال عكرمة: نِعْمَ مالهم، وقال الضحاك: غبطة لهم، وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك، أي: أصبت خيراً. وقال في رواية: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾: حسنى لهم. ﴿و حُسْنَ مآب﴾ أي: مرجع. وهذه الأقوال شيءٌ واحد، لا منافاة بينها، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ قال: هي أرض الجنة بالحبشية، وقال سعيد بن مسجوح: طوبى اسم الجنة

(١) رواه مسلم أيضاً في الزهد (٤/ ٢٢٧٢) بنحوه، و قد ساقه المصنف هنا مختصراً.

(٢) رواه الإمام أحمد (١/ ٢٤٢) بنحوه.

بالهندية. وكذا روى السدي عن عكرمة ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أي: الجنة. وبه قال مجاهد.

و روى ابن جرير عن شهر بن حوشب قال: طوبى شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة. وهكذا رُوي عن أبي هريرة وابن عباس ومغيث بن سليمان وأبي إسحاق السبيعي، وغير واحد من السلف، أن طوبى: شجرة في الجنة، في كل دار منها غصن منها. وروى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: «طُوبى لمن رآني وآمن بي، وطُوبى ثم طوبى ثم طوبى، لمن آمن بي ولم يرني» قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرةٌ في الجنة، مسيرتها مائة عام، ثيابُ أهلِ الجنة تخرجُ من أكْمامها».

و روى البخاري ومسلم جميعاً: عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنةِ شجرةً، يسير الراكبُ في ظلِّها مائة عام لا يقطعها». قال: فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقي، فقال: حدثني أبو سعيد الخدري: عن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنةِ شجرة، يسيرُ الراكبُ الجوادَ المضمَّر السريعَ، مائة عام ما يقطعها».

و في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿و ظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ قال: «في الجنَّة شجرة، يسير الراكب في ظلها مائةَ عام، لا يقطعها».

و في صحيح مسلم: عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ: عن الله عز وجل: «يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني، فأعطيتُ كل إنسانٍ منهم مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر» الحديث بطوله.

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾

٣٠- يقول تعالى، وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لتتلُو عليهم الذي أوْحينَا إليكَ﴾ أي: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذِّبَ الرُّسل من قبلك، فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإنَّ تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿تالله لقدْ أرسلْنا إلَى أُمم من قبلكَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿و لقدْ كُذِّبتْ رُسلٌ من قبلكَ فصبروا علَى ما كُذِّبُوا وأوذُوا حتَّى أتاهُمْ نَصرُنا ولا مُبدِّلَ لكلمات الله ولقدْ جاءكَ من نبإِ المرسلين﴾ أي: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

و قوله: ﴿وَ همْ يَكْفُرونَ بالرحمن﴾ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن، لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله: بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري مالرحمن الرحيم. قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري، وقد قال الله تعالى: ﴿قل ادْعُوا اللهَ أو ادعُوا الرَّحمنَ أيّاً مَّا تَدعوا فله الأسماء الحسنى﴾. وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحبَّ الأسماء إلى الله تعالى: عبد الله وعبد الرحمن».

﴿قلْ هوَ ربِّي لا إله إلا هوَ﴾ أي: هذا الذي تكفرون به، أنا مؤمن به معترفٌ ومقر له بالربوبية

والألوهية، هو ربي لا إله إلا هو ﴿عليهِ توكَّلتُ﴾ أي: في جميعِ أموري ﴿و إليهِ مَتاب﴾ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحدٌ سواه.

﴿ ولَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾

٣١- يقول تعالى مادحاً للقرآن، الذي أنزله على محمدﷺ، مفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله ﴿ولوْ أنَّ قرآناً سيِّرتْ به الجبالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية، كتابٌ تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، مع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له ﴿بل للهِ الأمرُ جميعاً﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فما له من مضل.

و قد يُطلق اسم «القرآن» على كل من الكتب المتقدمة، لأنه مشتقٌ من الجمع. روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «خُفِّفَ على داود القرآن، فكان يأمر بدابته أن تُسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أنْ تُسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عملِ يديه» انفرد بإخراجه البخاري، والمراد بالقرآن هو: الزبور.

و قوله: ﴿أفلمْ ييأسِ الذينَ آمنُوا﴾ أي: من إيمان جميع الخلق، ويعلموا أو يتبينوا ﴿أن لَّوْ يشاءُ اللهُ لهدَى الناسَ جميعاً﴾ فإنه ليس ثمَّ حجة ولا معجزة، أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس، من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبل، لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وثبت في الصحيح: أن رسول اللهﷺ قال: «ما من نبيٍّ إلا وقدْ أُوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرهم تابعاً يوم القيامة». معناه: أن معجزة كل نبيٍّ انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصَمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله. وقال قتادة: لو فُعل هذا بقرآن غير قرآنكم، لفعل بقرآنكم.

و قوله: ﴿بل لله الأمرُ جميعاً﴾ قال ابن عباس: أي: لا يصنع من ذلك إلا ماشاء، ولم يكن ليفعل. رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً. وقال غير واحد من السلف في قوله ﴿أفلمْ ييأسِ الذينَ آمنُوا﴾ أفلم يعلم الذين آمنوا، وقرأ آخرون ﴿أفلمْ يتبيَّن الذين آمنُوا أن لو يشاء اللهُ لهدى الناسَ جميعاً﴾.

و قال أبو العالية: قد يئس الذين آمنوا أن يهْدُوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً.

و قوله: ﴿و لا يزالُ الذينَ كفرُوا تُصيبُهمْ بما صنعُوا قارعةٌ أو تحلُّ قريباً من دارهمْ﴾ أي: بسبب تكذيبهمْ، لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تُصيب من حولهم، ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿و لقدْ أهْلَكْنا مَا حوْلَكم مِّنَ القُرَى وَ صرَّفْنَا الآياتِ لَعلَّهُمْ يَرجِعُونَ﴾، وقال: ﴿أفلمْ يروا أنَّا نأتي الأرضَ ننقُصُها مِنْ

أطرافها أفهم الغالبُونَ﴾ .

قال قتادة عن الحسن **﴿أو تحلُّ قريباً من دارهمْ﴾** أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق، وروى أبو داود الطيالسي: سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: **﴿و لا يزالُ الذينَ كفرُوا تُصيبُهمْ بما صَنعُوا قارعة﴾** قال: سرية **﴿أو تحلُّ قريباً من دارهمْ﴾** قال: محمدﷺ **﴿حتَّى يأتي وعدُ الله﴾** قال: فتح مكة. وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد في رواية، وقال العوفي عن ابن عباس **﴿تصيبُهمْ بما صنعُوا قارعةٌ﴾** قال: عذاب من السماء ينزل عليهم **﴿أو تَحلُّ قريباً من دارهمْ﴾** يعني: نزول رسول اللهﷺ بهم، وقتاله إياهمْ. وكذا قال مجاهد وقتادة. وقال عكرمة في رواية عن ابن عباس **﴿قارعة﴾** أي: نكبة. وكلُّهم قال: **﴿حتى يأتيَ وعدُ الله﴾** فتح مكة. وقال الحسن البصري: يوم القيامة.

و قوله: **﴿إنَّ اللهَ لا يُخلفُ الميعادَ﴾** أي: لا ينقض وعده لرسله بالنصر لهم، ولأتباعهم في الدنيا والآخرة **﴿فلا تحسبنَّ الله مُخْلفَ وعدِهِ رُسُلَه إنَّ اللهَ عزيزٌ ذُو انتقام﴾** .

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾

٣٢- يقول تعالى مسلياً لرسوله في تكذيب من كذبه من قومه **﴿و لقد استُهزئَ برُسُلٍ من قبلِكَ﴾** أي: فلك فيهم أسوة **﴿فأمليتُ للذينَ كفرُوا﴾** أي: أنظرتهم وأجَّلتهم **﴿ثم أخذتُهمْ﴾** أخذة رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم، وأمليت لهم، كما قال تعالى: **﴿و كأيِّن من قريةٍ أمليتُ لها وهي ظالمةٌ ثم أخذتها وإليَّ المصيرُ﴾** .

و في الصحيحين: «إنَّ اللهَ ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته» ثم قرأ رسول اللهﷺ **﴿و كذلكَ أخْذُ ربِّكَ إذا أخذ القُرى وهي ظالمةٌ إن أخذهُ أليمٌ شديدٌ﴾** .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾

٣٣- يقول تعالى: **﴿أفمن هوَ قائمٌ على كُلِّ نفسٍ بما كسبتْ﴾** أي: حفيظ عليم رقيب، على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية **﴿و ما تكونُ في شأنٍ وما تتلُو منه من قرآنٍ ولا تعملُونَ من عملٍ إلا كنَّا عليكمْ شُهوداً إذ تُفيضونَ فيه﴾** وقال تعالى: **﴿و ما تسقطُ من ورقةٍ إلا يعلمُها﴾** وقال: **﴿و ما من دابَّةٍ في الأرضِ إلا على الله رزقُها ويعلمُ مُستقرَّها ومُستودَعها كلٌّ في كتابٍ مُبينٍ﴾** وقال: **﴿سواءٌ منكم من أسرَّ القولَ ومن جهرَ به ومن هوَ مُستخفٍ بالليلِ وساربٌ بالنهار﴾** وقال: **﴿يعلمُ السر وأخفى﴾** وقال: **﴿و هوَ معكمْ أينمَا كُنتمْ واللهُ بما تعْلمُونَ بصيرٌ﴾** .

أفمن هو كذلك، كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: **﴿و جعلُوا للهِ شُركاء﴾** أي: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان.

﴿قل سمُّوهم﴾ أي: أعلِمُونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم ولهذا قال: ﴿أمْ تُنبِّئُونه بما لاَ يعلمُ في الأرض﴾ أي: لا وجود له، لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية. ﴿أم بظاهرٍ من القول﴾ قال مجاهد: بظن من القول، وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول، أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة ﴿إنْ هيَ إلاَّ أسماء سميتمُوها أنتمْ وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعُون إلاَّ الظنَّ وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾.

﴿بَلْ زُيِّنَ للذِينَ كَفرُوا مَكْرُهُمْ﴾ قال مجاهد: قولهم أي: ما هم عليه من الضلال، والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كقوله تعالى: ﴿و قيضنا لهمْ قُرناءَ فزينُوا لهمْ﴾ الآية.

﴿و صُدُّوا عَن السَّبيل﴾ من قرأها بفتح الصاد، معناه: أنه لما زيَّن لهم ما هم فيه، وأنه حقٌّ دعوا إليه، وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل، ومن قرأها بالضم، أي: بما زيَّن لهم من صحة ماهم عليه، صدوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿و من يُضلل اللهُ فما له من هاد﴾ كما قال: ﴿و من يُرد الله فتنته فلن تملكَ لهُ من الله شيئاً﴾ وقال: ﴿إن تحرصْ على هُداهمْ فإنَّ الله لا يَهْدي من يُضلُّ وما لهمْ من ناصرين﴾.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)﴾

٣٤- ذكر تعالى عقابَ الكفار، وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين، وما هم عليه من الكفر والشرك ﴿لهمْ عذابٌ في الحياة الدُّنيا﴾ أي: بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً ﴿و لعذابُ الآخرة﴾ أي: المدخر، مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أشقُّ﴾ أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إنَّ عذابَ الدنيا أهون من عذاب الآخرة» وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه فإنَّ عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبداً، في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فيومئذٍ لا يعذبُ عذابهُ أحدٌ* ولا يُوثِقُ وثاقهُ أحدٌ﴾ وقال تعالى: ﴿و أعتدنا لِمن كذَّبَ بالساعةِ سعيراً* إذا رأتهمْ من مكانٍ بعيدٍ سمعُوا لها تغيُّظاً وزفيراً* وإذا أُلقُوا منها مكاناً ضيِّقاً مُقرَّنينَ دعوا هنالكَ ثُبوراً* لا تدْعُوا اليومَ ثُبُوراً واحداً وادْعُوا ثُبُوراً كثيراً* قُل أذلكَ خيرٌ أمْ جنةُ الخُلدِ التي وُعد المتَّقونَ كانتْ لهمْ جزاءً ومصيراً﴾ ولهذا قرن هذا بقوله: ﴿مثلُ الجنةِ التي وُعدَ المتَّقونَ﴾ أي: صفتها ونعتها ﴿تجري مِن تَحْتِها الأنهارُ﴾ أي: سارحة في أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيراً، أي: يصرفونها كيف شاءوا، أين شاءوا، كقوله: ﴿مَثَلُ الجنةِ التي وُعدَ المتقونَ فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمه وأنهارٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربينَ وأنهارٌ من عسلٍ مصفًى ولهمْ فيها من كلِّ الثمرات ومغفرةٌ﴾ الآية.

و قوله: ﴿أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها﴾ أي: فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء، وفي الصحيحين: من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه: قالوا يا رسول الله، رأيناك تناولتَ شيئاً في مقامك هذا، رأيناك تكعكعت، فقال: «إنِّي رأيتُ الجنة ـ أوْ أُريتُ الجنة ـ فتناولت منها عُنقُوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا».

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكلُ أهل الجنة ويشربون، ولا يتمخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم ذلك جُشاء كريح المسك، ويُلهَمُونَ التسبيح والتقديس، كما يُلهمونَ النَّفس» رواه مسلم. وروى الإمام أحمد والنسائي: من حديث زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، تزعم أنَّ أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: نعم، والذي نفس محمد بيده، إنَّ الرجلَ منهم، ليُعْطى قوة مائة رجلٍ في الأكلِ والشرب والجماع والشهوة، قال: إن الذي يأكل ويشرب، تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى، قال: «تكون حاجة أحدهم رَشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك، فيضمر بطنه».

وقد قال الله تعالى: **﴿وفاكهةٍ كثيرةٍ لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ﴾** وقال: **﴿ودانيةً عليهمْ ظلالها وذُلِّلتْ قُطوفُها تذليلاً﴾** وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: **﴿والذينَ آمنُوا وعملُوا الصالحات سنُدْخِلُهمْ جناتٍ تجري من تَحتها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً لهمْ فيها أزواجٌ مُطهَّرةٌ ونُدْخِلُهمْ ظلاً ظَليلاً﴾**.

وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنةِ شجرة يسير الراكب المُجِد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها» ثم قرأ **﴿وظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾**.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الجنة، ويحذر من النار، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده: **﴿تلكَ عُقْبى الذينَ اتقوا وعُقْبَى الكافِرينَ النار﴾** كما قال تعالى: **﴿لا يَسْتوي أصْحابُ النارِ وأصْحابُ الجنةِ أصْحابُ الجنةِ هُمُ الفَائِزُونَ﴾**.

وقال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه: عباد الله: هل جاءكم مخبرٌ يخبركم أن شيئاً من عبادتكم تقبل منكم، أو أن شيئاً من خطاكم غفرت لكم؟ **﴿أفحسبتمْ أنما خلقْناكمْ عبثاً وأنكمْ إلينا لا تُرْجعونَ﴾** والله لو عَجَّل لكم الثواب في الدنيا، لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم، أوَ ترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم، ولا تنافسون في جنة **﴿أُكُلُها دائمٌ﴾** رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) ﴾

٣٦- يقول تعالى: **﴿والذينَ آتيناهم الكتابَ﴾** وهم قائمون بمقتضاه **﴿يفرحونَ بما أُنزلَ إليكَ﴾** أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه، والبشارة به، كما قال تعالى: **﴿الذينَ آتيناهُمُ الكتاب يَتْلُونهُ حقَّ تلاوته﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿قُلْ آمِنُوا به أو لا تُؤْمِنُوا﴾** ـ إلى قوله ـ **إن كانَ وَعْدُ ربِّنا لمفعُولاً﴾** أي: إنْ كان ما وعدنا الله به في كتبنا، من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً، مفعولاً لا محالة وكائناً، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده **﴿ويخرُّون للأذقانِ يبْكُونَ ويزيدُهمْ خُشُوعاً﴾**.

وقوله: **﴿ومِن الأحزابِ من يُنكرُ بعضَهُ﴾** أي: ومن الطوائف مَن يُكذِّبُ ببعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد **﴿ومن الأحزاب﴾** أي: اليهود والنصارى **﴿من يُنكرُ بعضه﴾** أي: بعض ما جاءك من الحق، وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كما قال تعالى: **﴿وإن من أهلِ الكتابِ لمن يؤمن باللهِ﴾** الآية **﴿قُلْ**

﴿إنَّما أُمرتُ أن أعبدَ اللهَ ولا أُشركَ به﴾ أي: إنما بُعثتُ بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي **﴿إليه أدعُو﴾** أي: إلى سبيله أدعو الناس **﴿و إليهِ مآب﴾** أي: مرجعي ومصيري.

٣٧- وقوله: **﴿و كذلكَ أنزلناهُ حُكماً عربياً﴾** أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً، شرفناك به وفضلناك على من سواك، بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي **﴿لا يأتيه الباطلُ مِن بينِ يديهِ ولا مِن خلفِه تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ﴾**. وقوله: **﴿و لئن اتبعتَ أهواءهمْ﴾** أي: آراءهم **﴿بعدَ ما جاءَك من العلم﴾** أي: من الله سبحانه وتعالى: **﴿مالكَ من الله من وليٍّ ولا واقٍ﴾**. وهذا وعيد لأهل العلم، أنْ يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه، من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾

٣٨- يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً، كذلك قد بَعثنا المرسلين قبلك بشراً، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم **﴿و جعلْنا لهم أزواجاً وذرية﴾** وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم **﴿قل إنَّما أنا بشرٌ مثْلكمْ يوحَى إليَّ﴾**. وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصومُ وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمنْ رَغبَ عن سنتي فليس منّي».

و قوله: **﴿و ما كانَ لِرسولٍ أن يأتيَ بآيةٍ إلاَّ بإذنِ اللهِ﴾** أي: لم يكن يأتي بخارق، إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد **﴿لكلِّ أجلٍ كِتاب﴾** أي: لكل مدَّة مضروبة كتاب مكتوبٌ بها، وكل شيء عنده بمقدار **﴿ألم تعلمْ أنَّ اللهَ يعلَمُ ما في السَّماءِ والأرضِ إنَّ ذلكَ في كتابٍ إنَّ ذلكَ علَى اللهِ يَسيرٌ﴾**. وكان الضحاك ابن مزاحم يقول في قوله: **﴿لكلِّ أجلٍ كتابٌ﴾** أي: لكل كتاب أجل، يعني: لكلِّ كتابٍ أنزله من السماء، مدّة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا **﴿يَمْحُو اللهُ ما يَشاءُ﴾** منها **﴿ويُثْبِتُ﴾** يعني: حتى نُسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسول صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: **﴿يمحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثْبِتُ﴾** اختلف المفسرون في ذلك، فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: يدبر أمر السَّنة، فيمحو الله ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، و الحياة والموت، وفي رواية: **﴿يمحو اللهُ ما يشاءُ ويُثْبِتُ﴾** قال: كل شيء إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما قد فرغ منهما، وقال مجاهد **﴿يمحو اللهُ ما يشاءُ ويُثْبِتُ﴾** إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران.

و قال منصور: سألت مجاهداً فقلت: أرأيت دعاء أحدنا يقول: اللهم إنْ كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإنْ كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء، فقال: حسن، ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك، فقال: **﴿إنا أنزلناهُ في ليلةٍ مُباركةٍ﴾** الآيتين، قال: يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنة، من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب السعادة والشقاء فهو ثابت لا يغير. وقال الأعمش عن أبي وائل شقيق ابن سلمة: إنه كان كثيراً يدعو بهذا الدعاء: اللهم إنْ كنتَ كتبتنا أشقياء فامحه واكتبنا سعداء، وإنْ كنتَ كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، رواه ابن جرير.

و روي أيضاً: عن أبي عثمان النهدي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكي: اللهم إنْ كنتَ كتبت عليَّ شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة.

و عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً. ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يُستأنس لهذا القول: بما رواه الإمام أحمد: عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليُحرم الرزق بالذَّنب يُصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر» ورواه النسائي وابن ماجه.

و ثبت في الصحيح: أن صلة الرحم تزيد في العمر، وفي حديث آخر: «إنَّ الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض»(١). وقال عكرمة عن ابن عباس: الكتاب كتابان: فكتابٌ يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب. و روي عن سعيد بن جبير: أنها بمعنى ﴿يَغفِرُ لِمن يَشاءُ ويُعذِّبُ مَن يَشاءُ واللهُ علَى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثبتُ﴾ يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿و عندهُ أُمُّ الكتابِ﴾ وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت، كل ذلك في كتاب. وقال قتادة في قوله: ﴿يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثبتُ﴾ كقوله: ﴿مَا نَنسخْ مِن آيَةٍ أو نُنسِهَا﴾ الآية، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ ويُثبتُ﴾ قال: قالت كفار قريش لما نزلت ﴿و مَا كانَ لِرَسولٍ أنْ يأتيَ بآيَةٍ إلاَّ بإذْنِ اللهِ﴾ ما نرى محمداً يملكُ شيئاً، وقدْ فرغ من الأمر، فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهمْ، إنا إنْ شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونُحدث في كُلِّ رمضان، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، من أرزاق الناس ومصائبهمْ، وما يُعْطيهمْ وما يقسم لهم. وقال الحسن البصري ﴿يمحو اللهُ ما يشاءُ ويُثبتُ﴾ قال: من جاء أجله يذهب، ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

و قوله: ﴿و عِندَهُ أُمُّ الكتابِ﴾ قال: الحلال والحرام، وقال قتادة: أي: جملة الكتاب وأصله، وقال الضحاك: كتاب عند رب العالمين؛ وقال ابن جرير: عن ابن عباس ﴿وعِندَهُ أُمُّ الكِتابِ﴾ قال: الذكر.

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾

٤٠- يقول تعالى لرسوله: ﴿و إمَّا نُرينَّكَ﴾ يا محمد، بعضَ الذي نعد أعداءك، من الخزي والنكال في الدنيا ﴿أوْ نتوفَّينَّكَ﴾ أي: قبل ذلك ﴿فإنَّما عليكَ البلاغُ﴾ أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله، وقد فعلت ما أمرت به ﴿و علينَا الحِسابُ﴾ أي: حسابهمْ وجزاؤهمْ، كقوله تعالى: ﴿فذكر إنَّما أنتَ مُذكِّرٌ* لَستَ علَيهِم بِمُسيطِرٍ* إلاَّ مَن تَولَّى وكَفرَ* فيُعَذِّبُهُ اللهُ العَذابَ الأكبَرَ* إنَّ إلينَا إيَابهمْ* ثُمَّ إنَّ علينَا حِسَابَهمْ﴾.

٤١- وقوله: ﴿أولمْ يرَوْا أنَّا نأتي الأرضَ نَنقُصُهـا مِن أطرافِهـا﴾ قال ابن عباس: أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض، وقال في رواية: أولم يروا إلى القرية تخرب، حتى يكون العمران في ناحية. وقال مجاهد وعكرمة: ﴿ننقُصهَا مِنْ أطرافِها﴾ قال: خرابها، وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين

(١) رواه الطبراني في الدعاء (٣٣) و الحاكم (١/ ٤٩٢) و غيرهما. و يعتجلان: أي: يتصارَعان (نهاية).

على المشركين ، وقال العوفي عن ابن عباس : نقصان أهلها وبركتها . وقال مجاهد : نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض ، وقال الشعبي : لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حُشُك ، ولكن تنقص الأنفس والثمرات . وكذا قال عكرمة : لو كانت الأرض تنقص ، لم تجد مكاناً تقعد فيه ، ولكن هو الموت . وقال ابن عباس في رواية : خرابها بموت علمائها وفقهائها ، وأهل الخير منها ، وكذا قال مجاهد أيضاً : هو موت العلماء .

و القول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك ، قرية بعد قرية ، كقوله : **﴿و لقدْ أهْلكْنا ما حوْلكمْ مِن القُرى﴾** الآية ، وهذا اختيار ابن جرير .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) ﴾

٤٢- يقول تعالى : **﴿و قدْ مَكرَ الذينَ مِن قبْلهمْ﴾** برسلهم ، وأرادوا إخراجهم من بلادهم ، فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين ، كقوله : **﴿و إذْ يَمكرُ بكَ الذينَ كفرُوا ليُثبتُوكَ أوْ يَقتُلوكَ أوْ يُخرجوكَ ويَمكرُونَ ويَمكرُ اللهُ واللهُ خيرُ المَاكِرينَ﴾** ، وقوله تعالى : **﴿و مَكرُوا مَكراً ومَكرْنَا مكراً وهمْ لا يَشعُرونَ ﴿ فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ مَكرِهمْ أنَّا دمَّرْنَاهمْ وقومَهمْ أجمعينَ ﴿ فتلْكَ بيُوتُهمْ خاوية بِما ظَلَمُوا﴾** الآيتين .

و قوله : **﴿يَعْلمُ ما تكسِبُ كلُّ نَفسٍ﴾** أي : أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر ، وسيجزى كل عامل بعمله **﴿وسيعلمُ الكافر﴾** والقراءة الأخرى : الكفار **﴿لمنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾** لمن تكونُ الدائرة والعاقبة ، لهم أو لأتباع الرسل ، كلا ، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة ، ولله الحمد والمنة .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾

٤٣- يقول تعالى : يكذبك هؤلاء الكفار ، ويقولون **﴿لستَ مُرسَلاً﴾** أي : ما أرسلك الله **﴿قلْ كفَى باللهِ شهيداً بيني وبينَكمْ﴾** أي : حسبي الله ، هو الشاهد علي وعليكم ، شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان .

و قوله : **﴿و مَن عِندهُ عِلمُ الكِتابِ﴾** قيل : نزلت في عبد الله بن سلام . قاله مجاهد ، وهذا القول غريب ، لأن هذه الآية مكية ، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة ، والأظهر في هذا : ما قاله العوفي عن ابن عباس قال : هم من اليهود والنصارى ، وقال قتادة : منهم ابن سلام وسلمان وتميم الداري وقال مجاهد في رواية عنه : هو الله تعالى . وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ، ويقول هي مكية وكان يقرؤها **﴿و مَن عنده عُلِمَ الكِتابُ﴾** ويقول : من عند الله ، وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري .

و الصحيح في هذا أن **﴿و مَنْ عندهُ﴾** اسم جنس علماء أهل الكتاب ، الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة ، من بشارات الأنبياء به ، كما قال تعالى : **﴿ورَحْمتي وسِعتْ كلَّ شيءٍ فسأكتُبها للذينَ يتَّقونَ**

ويؤتونَ الزكاةَ والذينَ همْ بآياتنا يؤمنونَ* الذينَ يتَّبِعُونَ الرسولَ النبيَّ الأُميَّ الذي يجِدُونهُ مَكْتُوباً عندهمْ في التَّوراةِ والإنجيلِ﴾ الآية، وقال تعالى: **﴿أولمْ يكن لهمْ آية أن يعلمهُ علماءُ بني إسرائيلَ﴾** الآية، وأمثال ذلك مما فيه من الأخبار عن علماء بني إسرائيل، أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.

ترتيبها ١٤ — سورة إبراهيم ـ مكية — آياتها ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) ﴾

١- قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. **﴿كتابٌ أنزلناهُ إليكَ﴾** أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها، عربهم وعجمهم **﴿لتُخرِجَ الناسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾** أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي، إلى الهُدى والرشد، كما قال تعالى: **﴿اللهُ وليُّ الذينَ آمنُوا يُخرِجهمْ مِنَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ والذينَ كفرُوا أوْلياؤُهم الطّاغوتُ يُخرِجُونهمْ مِن النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿هُوَ الذي يُنزِّلُ علَى عَبدِهِ آياتٍ بيِّناتٍ ليُخرِجكمْ مِن الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾** الآية. وقوله: **﴿بِإِذنِ ربِّهِمْ﴾** أي: هو الهادي، لمنْ قدَّر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره. يهديهم **﴿إِلَى صراطِ العزيزِ الحميدِ﴾** أي: العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه **﴿الحَميدِ﴾** أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره.

٢- وقوله: **﴿اللهُ الذِي له مَا في السَّمواتِ وما في الأرضِ﴾** قرأ بعضهمْ مستأنفاً مرفوعاً، وقرأ آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كقوله تعالى: **﴿قُلْ يا أيُّها الناسُ إنِّي رسولُ اللهِ إليكمْ جميعاً الذي لهُ مُلكُ السمواتِ والأرضِ﴾** الآية.

و قوله: **﴿و ويلٌ للكافرينَ مِنْ عذابٍ شديدٍ﴾** أي: ويل لهم يوم القيامة، إذ خالفوك يا محمد وكذبوك.

٣- ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي: يقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهمْ **﴿و يصُدُّونَ عن سبيلِ اللهِ﴾** وهي اتباع الرسل **﴿و يبغُونها عِوجاً﴾** أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً، مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال، بعيد من الحق، لا يرجى لهم والحالة هذه صلاح.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾

٤- هذا من لطفه تعالى بخلقه، أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون، وما

أرسلوا به إليهم، كما روى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «لم يَبعث الله عز وجلَّ نبياً إلا بلغةِ قومه». وقوله: ﴿فيُضِلُّ اللهُ من يشاءُ ويهدي مَن يشاءُ﴾ أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿وهوَ العزيزُ﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿الحكيمُ﴾ في أفعاله فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك، وقد كانت هذه سنته في خلقه، أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد ابن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس.

كما ثبت في الصحيحين: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطيتُ خمساً لم يُعْطهنَّ أحدٌ من الأنبياءِ قبلي: نُصِرتُ بالرعبِ مسيرةَ شهر، وجُعلتْ لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، وأُحلتْ لي الغنائم ولم تحل لأحدٍ قبلي، وأعطيتُ الشفاعة، وكان النبي يُبعثُ إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة». وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: ﴿قُلْ يا أيُّها الناسُ إنِّي رسولُ اللهِ إليكمْ جميعاً﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) ﴾

٥- يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد، وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا. قال مجاهد: وهي التسع الآيات ﴿أنْ أَخرجْ قومكَ﴾ أي: أمرناه قائلين له ﴿أخرجْ قومكَ مِن الظُّلماتِ إلَى النُّورِ﴾ أي: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان ﴿و ذكِّرْهمْ بأيَّامِ اللهِ﴾ أي: بأياديه ونعمه عليهم، في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره، وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم، قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، و قد ورد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل في مسند أبيه: عن ابن عباس عن أُبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿و ذكِّرْهمْ بأيَّامِ اللهِ﴾ قال: «بنعم الله». ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

و قوله: ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِكلِّ صبَّارٍ شكُورٍ﴾ أي: إنَّ فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة ﴿لكل صبَّارٍ﴾ أي: في الضراء، ﴿شكورٍ﴾ أي: في السراء، كما قال قتادة: نِعْمَ العبدُ عبدٌ إذا ابتلي صبر، وإذا أعطى شكر.

و كذا جاء في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ أمرَ المؤمنِ كله عَجَب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له».

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) ﴾

٦- يقول تعالى مخبراً عن موسى، حين ذكَّرَ قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذْ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يُذبِّحون من وُجِدَ من أبنائهم ويتركون إناثهم، فأنقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال: ﴿و في ذلكُمْ بلاءٌ من ربِّكمْ عظيمٌ﴾ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها، وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بلاءٌ﴾ أي: اختبار عظيم، ويحتمل أنْ يكون المراد هذا ـ والله أعلم ـ كقوله تعالى: ﴿وبلَوْناهمْ بالحسَناتِ والسيِّئات لعلَّهمْ يرجِعونَ﴾.

٧- وقوله: ﴿و إذْ تأذَّن ربُّكمْ﴾ أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذْ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى: ﴿و إذْ تأذَّن ربُّكَ ليَبعثَنَّ عليهمْ إلى يوم القيامةِ﴾. وقوله: ﴿لئنْ شَكرتُمْ لأزيدَنَّكمْ﴾ أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ﴿و لئنْ كفرتُمْ﴾ أي: كفرتم النعم، وسترتموها وجحدتموها ﴿إنَّ عذابِي لشَديدٌ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء في الحديث: «إنَّ العبدَ ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه»(١).

٨- وقوله تعالى: ﴿و قَالَ موسَى إنْ تكفُروا أنتمْ ومَن في الأرضِ جميعاً فإنَّ اللهَ لغنيٌّ حميدٌ﴾ أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإنْ كفره مَن كفره، كقوله: ﴿إن تكفرُوا فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنكمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿فكفروا وتَولَّوا واستغنَى الله واللهُ غنيٌّ حميدٌ﴾.

و في صَحيح مسلم: عن أبي ذر: عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي لو أنَّ أوَّلكمْ وآخركم، وإنسكمْ وجنكم، كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكمْ، ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً، يا عبادي، لو أنَّ أولكمْ وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما نقصَ ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كل إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المِخْيط إذا دخل البحر» فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ﴾

٩- قال ابن جرير: هذا من تمام قول موسى لقومه، يعني وتذكيره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل، وفيما قال ابن جرير نظر! والظاهر أنه خبرٌ مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إنَّ قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه، وقصصه عليهم، لأوشك أن تكون هاتان القصتان في التوراة، والله أعلم. وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود، وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل ﴿جاءتهم رسلُهمْ بالبيِّناتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل، الواضحات الباهرات القاطعات.

و عن عبد الله أنه قال في قوله: ﴿لا يَعْلمهمْ إلاَّ اللهُ﴾: كذب النسَّابون. وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معدّ بن عدنان. وقوله: ﴿فردُّوا أيديَهمْ في أفواهِهمْ﴾ اختلف المفسرون في معناه، قيل:

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢) و ابن ماجة (٩٠) و حسَّنه العراقي، كما في الزوائد للبوصيري.

معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل، يأمرونهم بالسكوت عنهم، لمَّا دعوهم إلى الله عز وجل. وقيل: بل وَضعوا أيديهم على أفواههم، تكذيباً لهم، وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل. وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة: معناه أنهم كذَّبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم. قال ابن جرير: وتوجيهه أن «في» هنا بمعنى الباء، قال: وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة، يعنون في الجنة.

قلت: ويؤيد قول مجاهد، تفسير ذلك بتمام الكلام **﴿و قالوا إنَّا كفرنا بما أُرسلتم به وإنَّا لفي شكٍّ مما تدعُوننا إليه مُريب﴾** فكأن هذا ـ والله أعلم ـ تفسير لمعنى **﴿فردُّوا أيديَهمْ في أفواههمْ﴾**، وروى الثوري عن عبد الله قال: عضوا عليها غيظاً. وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجَّهه ابن جرير مختاراً له، بقوله تعالى عن المنافقين **﴿و إذا خلواْ عضُّوا عليكُم الأناملَ من الغيظِ﴾** وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله، عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، وقالوا: **﴿إنَّا كفرْنا بما أُرْسلتُمْ به﴾** الآية، يقولون: لا نصدِّقكم فيما جئتم به، فإنَّ عندنا فيه شكّاً قوياً.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾

١٠ ـ يخبر تعالى عما دار بين الكفار، وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل **﴿أفي اللهِ شكٌّ﴾**؟ وهذا يحتمل شيئين: أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإنَّ الفطر شاهدةٌ بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته، بأنه **﴿فاطرِ السَّموات والأرضِ﴾** الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير، ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني: في قولهم **﴿أفي اللهِ شكٌّ﴾** أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شكٌّ؟ وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإنَّ غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط، التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

و قالت لهم رسلهم **﴿يدعوكمْ ليغفِرَ لكمْ من ذنُوبكمْ﴾** أي: في الدار الآخرة **﴿و يؤخركمْ إلى أجلٍ مسمًّى﴾** أي: في الدنيا، كما قال تعالى: **﴿و أن استَغفِرُوا ربَّكمْ ثمَّ توبوا إليه يُمتِّعْكمْ متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويُؤتِ كلَّ ذي فضلٍ فضلَه﴾** الآية، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة، بعد تقدير تسليمهم المقام الأول، وحاصل ما قالوه **﴿إن أنتمْ إلا بشرٌ مثلنا﴾** أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولمَّا نر منكم

معجزة ﴿فأتونا بسلطانٍ مُبينٍ﴾ أي: خارق نقترحه عليكم.

١١ - ﴿قالتْ لهمْ رسُلُهمْ إن نحنُ إلاَّ بشرٌ مثلُكمْ﴾ أي: صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية ﴿ولكنَّ الله يمنُّ على من يشاءُ من عبادِهِ﴾ أي: بالرسالة والنبوة ﴿وما كانَ لنا أن نأتيَكمْ بسلطانٍ﴾ على وفق ما سألتم ﴿إلا بإذن الله﴾ أي: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا في ذلك ﴿وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنونَ﴾ أي: في جميع أمورهم.

١٢ - ثم قالت الرسل ﴿وما لنَا ألا نتوكَّلَ على اللهِ﴾ أي: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ولنَصبرنَّ على ما آذيتُمونَا﴾ أي: من الكلام السيء والأفعال السخيفة ﴿وعلى اللهِ فليَتوكَّلِ المُتوكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

١٣ - يخبر تعالى عما توعَّدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له، ولمن آمن به ﴿لنُخرِجنَّك يا شُعيبُ والذينَ آمَنُوا معكَ من قريتنَا﴾ الآية، وكما قال قوم لوط ﴿أخرجوا آلَ لوطٍ من قريتِكمْ﴾ الآية، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿وإن كادُوا ليستَفزُّونكَ من الأرضِ ليُخرجُوكَ منها وإذاً لا يَلبثُونَ خِلافكَ إلاَّ قليلاً﴾ وقال تعالى: ﴿وإذ يَمكرُ بكَ الذينَ كفَرُوا ليُثبِتوكَ أوْ يَقتُلوكَ أوْ يُخرجوكَ ويَمكُرونَ ويَمكرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرينَ﴾.

وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره، وجعَل له بسبب خروجه من مكة: أنصاراً وأعواناً، وجنداً يقاتلونَ في سبيلِ الله تعالى، ولم يزل يُرقِّيه تعالى من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكَّن له فيها، وأرغم أنوف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها، في أيسر زمان، ولهذا قال تعالى: ﴿فأوحَى إليهمْ ربُّهمْ لنُهلِكنَّ الظَّالِمينَ ۞ ولنُسكِننَّكمْ من بعدِهِمْ﴾ وكما قال: ﴿ولقدْ سبقتْ كلمتُنا لعبادِنا المرسلينَ ۞ إنَّهمْ لهمُ المنصُورونَ ۞ وإنَّ جُندَنَا لهمُ الغالِبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿كتبَ اللهُ لأغلبنَّ أنا ورُسُلِي إنَّ اللهَ قويٌّ عزيزٌ﴾ وقال تعالى: ﴿ولقدْ كتَبْنا في الزبُورِ من بعدِ الذِّكْرِ﴾ الآية، ﴿وقالَ موسَى لقومِهِ استَعِينُوا باللهِ واصْبِرُوا إنَّ الأرضَ للهِ يورِثُها مَن يشاءُ مِن عبادِهِ والعاقبةُ للمُتَّقينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وأورَثْنَا القومَ الذينَ كانُوا يُستَضْعَفُونَ مَشارِقَ الأرضِ ومغَارِبَها التي باركْنا فيها وتمَّتْ كلمةُ ربِّكَ الحُسنَى على بني إسرائيلَ ودمَّرنا ما كانَ يصنَعُ فرعونُ وقومُهُ وما كانُوا يعرِشُونَ﴾.

١٤ - وقوله: ﴿ذلكَ لِمنْ خافَ مقامِي وخافَ وعيدِ﴾ أي: وعيدي هذا: لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي، وهو: تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فأمَّا مَن طغَى ۞ وآثرَ الحياةَ الدُّنيا ۞ فإنَّ الجحيمَ هِيَ المأْوَى﴾ وقال: ﴿ولِمنْ خافَ مقامَ ربِّهِ جنَّتانِ﴾.

١٥- وقوله: ﴿و استفتحوا﴾ أي: استنصرت الرسل ربها على قومها، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللهمَّ إن كانَ هذا هُوَ الحقَّ مِن عندكَ فأمطِرْ علينَا حجارةً مِن السماءِ أو ائتِنا بعذابٍ أليمٍ﴾ ويحتمل أن يكون هذا مراداً، وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين ﴿إن تستَفْتِحُوا فقدْ جاءَكم الفتْحُ وإن تنتَهُوا فهُوَ خيرٌ لكمْ﴾ الآية، والله أعلم.

﴿و خابَ كُلُّ جبَّارٍ عنيدٍ﴾ أي: متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿ألقِيا في جهنَّمَ كُلَّ كفَّارٍ عنيدٍ* منَّاعٍ للْخيرِ مُعْتدٍ مريبٍ* الذِي جعلَ مع اللهِ إلهاً آخرَ فألقِيَاهُ في العذابِ الشديدِ﴾.

و في الحديث: «إنه يؤتى بجهنَّم يوم القيامةِ فتُنادِي الخلائق فتقولُ: إني وُكِّلتُ بكل جبارٍ عنيد» الحديث[1]. خاب وخسر، حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر.

١٦- وقوله: ﴿مِن ورائِه جهنَّم﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كقوله: ﴿و كانَ وراءهمْ ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غَصباً﴾ وكان ابن عباس يقرؤها ﴿و كانَ أمامهم ملكٌ﴾ أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلداً يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد. ﴿و يسقَى مِن ماءٍ صديدٍ﴾ أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا بارد في غاية البرد والنتن، كما قال: ﴿هذَا فليذُوقُوهُ حميمٌ وغسَّاقٌ* وآخرُ مِن شكْلِهِ أزواجٌ﴾ وقال مجاهد وعكرمة: الصديد من القيح والدم، وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم، وفي حديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: «صديدُ أهل النار»[2]، و في رواية: «عصارة أهل النار»[3].

و قوله: ﴿يتَجرَّعُه﴾ أي: يتغصَّصه ويتكرهه، أي: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿و لهمْ مقامعُ منْ حديدٍ﴾. ﴿و لا يكادُ يسيغُه﴾ أي: يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه، وحرارته أو برده، الذي لا يستطاع ﴿و يأتيهِ الموتُ مِن كلِّ مكانٍ﴾ أي: يألم له جميع بدنه، وجوارحه وأعضائه، قال عمر بن ميمون بن مهران: من كل عظم وعصب وعرق، وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره، وقال إبراهيم التيمي: من موضع كل شعرة، أي: من جسده حتى من أطراف شعره، وقال ابن جرير ﴿و يأتيهِ الموتُ من كلِّ مكانٍ﴾ أي: من أمامه وخلفه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحت أرجله، ومن سائر أعضاء جسده. وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿و يأتِيهِ الموتُ من كلِّ مكانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذِّبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، ليس منها نوعٌ، إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت، ولكن لا يموت، لأن الله تعالى قال: ﴿لاَ يُقْضَى عليْهِمْ فَيَمُوتوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنهما: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب، إلا إذا وَرَدَ عليه اقتضى أن يموت منه، لو كان يموت ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿و يأتِيهِ الموتُ من كلِّ مكانٍ وما هوَ بميِّتٍ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠) و الترمذي (٢٧١٣)، و الطبراني في الأوسط (٣٢٠) و غيرهم بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٦٠) و هو صحيح لغيره.

(٣) المصدر السابق (٥/ ١٧١).

وقوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: وله من بعد هذه الحال، عذابٌ آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد، أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم ﴿إنها شجرةٌ تخرجُ في أصلِ الجحيم﴾ طلعُها كأنَّهُ رؤوسُ الشياطينِ﴾ فإنهمْ لآكلونَ منها فمالئونَ منها البُطُونَ﴾ ثمَّ إنَّ لهمْ عليها لَشَوباً مِن حَميمٍ﴾ ثمَّ إنَّ مرجعَهمْ لإلَى الجحيمِ﴾.

فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردُّون إلى جحيم، عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَذِهِ جهنَّمُ التي يُكذِّبُ بها المُجْرِمونَ﴾ يطُوفونَ بينها وبينَ حميمٍ آنٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إنَّ شجرةَ الزقُّومِ طعامُ الأثيمِ﴾ كالمُهلِ يغلي في البُطونِ كغَلْيِ الحميمِ﴾ خُذُوهُ فاعتِلُوهُ إلَى سواءِ الجحيمِ﴾ ثمَّ صُبُّوا فوقَ رأسِهِ من عذابِ الحميمِ﴾ ذُقْ إنَّكَ أنتَ العزيزُ الكريمُ﴾ إنَّ هذا ما كنتمْ بهِ تمترونَ﴾، وقال: ﴿وأصحابُ الشِّمالِ ما أصْحابُ الشِّمالِ﴾ في سَمومٍ وحميمٍ﴾ وظلٍّ مِن يَحْمومٍ﴾لاَ باردٍ ولا كريمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿هذا وإنَّ للطَّاغينَ لشرَّ مآبٍ﴾ جهنَّمَ يصلونَها فبئسَ المهادُ﴾ هذا فليذُوقُوهُ حَميمٌ وغسَّاقٌ﴾ وآخرُ مِن شكْلِهِ أزواجٌ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله عز وجل، جزاءً وفاقاً ﴿و ما ربُّكَ بظلاَّمٍ للعبيدِ﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾

١٨ - هذا مَثلٌ ضربه الله تعالى لأعمال الكفار، الذين عبدوا معه غيره، وكذَّبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مثلُ الذينَ كفرُوا بربهمْ أعمالُهمْ﴾ أي: مثل أعمالهم يوم القيامة، إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء، فلم يجدوا شيئاً، ولا ألفوا حاصلاً، إلا كما يتحصَّل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿في يوم عاصفٍ﴾ أي: ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كقوله تعالى: ﴿و قدمنا إلى ما عمِلُوا مِن عملٍ فجعلْناهُ هباءً مَّنْثُوراً﴾، وقوله تعالى: ﴿مثلُ ما يُنفقونَ في هذه الحياةِ الدنيا كمثلِ ريحٍ فيها صِرٌّ أصابتْ حرثَ قومٍ ظلمُوا أنفسَهم فأهلكتهُ وما ظلمَهمُ اللهُ ولكنْ أنفُسَهمْ يَظلِمونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يا أيهَا الذينَ آمنُوا لاَ تُبطِلُوا صدقَاتِكمْ بالمَنِّ والأذَى كالذي يُنفقُ مالهُ رئاءَ الناسِ ولا يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فمثلُه كَمثَلِ صفوانٍ عليهِ تُرابٌ فأصابهُ وابلٌ فتركهُ صلداً لا يقْدِرونَ على شيءٍ مما كسَبُوا واللهُ لا يهدي القومَ الكافرينَ﴾.

و قوله في هذه الآية: ﴿ذلكَ هو الضَّلالُ البعيدُ﴾ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه ﴿ذلكَ هو الضَّلالُ البعيدُ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾

١٩، ٢٠ - يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض، التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قَدَر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها،

وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبراري وصحاري وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها ﴿أولمْ يروا أنَّ اللهَ الذي خلقَ السموات والأرضَ ولم يعيَ بخلقهنَّ بقادرٍ على أن يُحييَ الموتى بلى إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾، و قال تعالى: ﴿أولمْ يرَ الإنسان أنا خلقناهُ من نطفةٍ فإذا هو خَصيمٌ مُبينٌ* وضَربَ لنا مثلاً ونسيَ خلقهُ قالَ مَن يُحيي العِظامَ وهيَ رميمٌ* قُل يُحييها الذي أنشأها أولَ مرةٍ وهوَ بكلِّ خلقٍ عليمٌ* الذي جعلَ لكم مِن الشَّجرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتمْ منهُ تُوقِدُونَ* أوليسَ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ بقادرٍ علَى أن يخلقَ مثلهمْ بلَى وهو الخلاَّقُ العليمُ* إنَّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كُن فيكُونُ* فسُبحانَ الذي بيدِهِ مَلكوتُ كلِّ شيءٍ وإليهِ تُرجعُونَ﴾.

و قوله: ﴿إنْ يشأ يُذهبْكمْ ويأتِ بخلقٍ جديدٍ* وما ذلكَ علَى اللهِ بعَزيزٍ﴾ أي: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه، إذا خالفتم أمره، أنْ يذهبكم ويأت بآخرين، على غير صفتكم كما قال: ﴿يا أيها الناسُ أنتم الفُقَراءِ إلى اللهِ واللهُ هو الغنيُّ الحميدُ* إن يشأ يذهبكمْ ويأت بخلقٍ جديدٍ* وما ذلكَ علَى اللهِ بعَزيزٍ﴾ وقال: ﴿و إن تتولَّوا يستبدلْ قوماً غيرَكمْ ثمَّ لا يكُونُوا أمثالَكمْ﴾، وقال: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا مَن يرتدَّ منكمْ عن دينهِ فسوفَ يأتِ اللهُ بقومٍ يُحبُّهمْ ويُحبُّونَهُ﴾، وقال: ﴿إن يشأ يُذهبْكمْ ويأتِ بآخرينَ وكانَ اللهُ علَى ذلكَ قديراً﴾.

﴿ وَبرزُوا للَّه جَميعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ للَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لَكُمْ تبعًا فَهَلْ أَنتم مُّغْنُونَ عَنَّا منْ عَذَاب اللَّه من شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا من مَّحِيصٍ (٢١) ﴾

٢١- يقول تعالى: ﴿و برزُوا﴾ أي: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها، لله الواحد القهار، أي: اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ﴿فقال الضُّعفاءُ﴾ وهم: الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿للذينَ استكبرُوا﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، قالوا لهم ﴿إنَّا كنَّا لكم تبعاً﴾ أي: مهما أمرتمونا، ائتمرنا وفعلنا ﴿فهلْ أنتمْ مُغنُونَ عنا مِن عذابِ اللهِ من شيءٍ﴾ أي: فهل تدفعونَ عنا شيئاً من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لو هدانا اللهُ لهديناكمْ﴾ ولكن حقَّ علينا قول ربنا، وسبقَ فينا وفيكم قدرُ الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين. ﴿سواءٌ علَينا أجزِعنا أمْ صبرْنا ما لنا مِن مَحِيصٍ﴾ أي: ليس لنا خلاص مما نحن فيه، إنْ صبرنا عليه أو جزعنا منه.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار، بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿و إذ يَتحاجُّونَ في النار فيقُولُ الضعفاءُ للذينَ استكبَرُوا إنَّا كنَّا لكمْ تبعاً فهلْ أنتمْ مُغنُونَ عنا نصيباً من النَّارِ* قال الذينَ استكبروا إنَّا كلٌّ فيها إنَّ اللهَ قدْ حكَمَ بينَ العِبادِ﴾، وقال تعالى: ﴿قالَ ادْخُلُوا في أممٍ قدْ خلتْ مِن قبلِكمْ من الجنِّ والإنسِ في النار كلما دخلتْ أمةٌ لعنتْ أُختها حتى إذا ادَّاركُوا فيها جميعاً قالت أُخراهمْ لأولاهمْ ربنا هؤلاءِ أضلُّونَا فآتهمْ عذاباً ضعفاً من النار قالَ لكلٍّ ضعفٌ ولكِن لا تعلمُونَ* وقالتْ أولاهمْ لأُخراهمْ فما كانَ لكمْ علينا مِن فضلٍ فذُوقُوا العذابَ بما كنتمْ تكسِبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿ربَّنا أطَعْنا سَادَتَنا وَ كُبَراءنا فأضلُّونا السبيلاَ* ربنا آتهمْ ضعفينِ مِن العذابِ والعنْهمْ لعناً كبيراً﴾.

و أما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿و لوْ ترَى إذِ الظَّالِمونَ موقُوفونَ عندَ ربهمْ يرجعُ بعضُهمْ

إلى بعض القول يقولُ الذينَ استُضْعفُوا للذينَ استكبرُوا لولاَ أنتمْ لكنَّا مؤمنينَ ❁ قال الذينَ استكبرُوا للذينَ استُضعفُوا أنحنُ صددْناكمْ عن الهدى بعدَ إذْ جاءكمْ بل كنتمْ مجرمينَ ❁ وَقالَ الَّذينَ استُضعفُوا للذينَ استكبرُوا بل مكرُ الليلِ والنهارِ إذْ تأمرُوننا أن نكفرَ باللهِ ونجعلَ له أنداداً وأسرُّوا الندامةَ لمَّا رأوُا العذابَ وجعلنا الأغلالَ في أعناقِ الذينَ كفرُوا هلْ يُجزونَ إلا ما كانُوا يعملونَ﴾ .

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣)﴾

٢٢- يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه ، بعد ما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ، ليزيدهم حزناً إلى حزنهم ، وغَبناً إلى غبنهم ، وحسرة إلى حسرتهم ، فقال : ﴿إنَّ اللهَ وَعَدَكمْ وَعْدَ الحقِّ﴾ أي : على ألسنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً ، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم ، كما قال تعالى : ﴿يَعِدُهمْ وَيُمنّيهمْ وَمَا يعِدُهم الشيطانُ إلاَّ غُروراً﴾ . ثم قال : ﴿و ما كانَ لي عليكمْ من سُلطانٍ﴾ أي : ما كان لي دليل فيما وعدتكم إليه ، ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿إلاَّ أن دَعَوتُكُمْ فاستَجَبْتُمْ لي﴾ بمجرد ذلك ، هذا وقد أقامت عليكم الرسل : الحجج والأدلة الصحيحة ، على صدق ما جاؤكم به ، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فلا تلُومُوني﴾ اليوم ﴿و لُومُوا أنفُسكم﴾ فإن الذنب لكم ، لكونكم خالفتم الحجج ، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ما أنا بمُصرِخكمْ﴾ أي : بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿و ما أنتمْ بمُصرِخيَّ﴾ أي : بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال .

﴿إنّي كفَرْتُ بما أشرَكتُمونِ مِن قبلُ﴾ قال قتادة : أي : بسبب ما أشركتمون من قبل .

و قال ابن جرير : يقول إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل . وهذا الذي قاله هو الراجح ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أضَلُّ ممن يدْعُوا من دون الله من لا يستجيب لهُ إلى يوم القيامةِ وهم عن دُعائهمْ غافِلُونَ ❁ وإذا حُشِرَ الناسُ كانُوا لهمْ أعداءً وكانُوا بعبادتهمْ كافِرينَ﴾ ، وقال : ﴿كلاَّ سَيَكفُرونَ بعبادتهمْ ويكونونَ عليهمْ ضداً﴾ .

و قوله : ﴿إنَّ الظالِمينَ﴾ أي : في إعراضهمْ عن الحق ، واتباعهمْ الباطل ، ﴿لهمْ عذابٌ أليمٌ﴾ . والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا . وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله : لما قال أهل النار ﴿سواءٌ علينا أجزعنا أمْ صبرنا ما لنا من مَحيصٍ﴾ قال لهم إبليس ﴿إنَّ اللهَ وعدَكمْ وعدَ الحقِّ﴾ الآية ، فلما سمعوا مقالته ، مقتوا أنفُسهم فنُودوا ﴿لمقتُ اللهِ أكبَرُ مِن مقتكمْ أنفسَكمْ إذْ تُدعَونَ إلى الإيمانِ فتكفُرونَ﴾ وقال عامر الشعبي : يقوم خطيبان يوم القيامة على رءوس الناس ، يقول الله تعالى لعيسى

ابن مريم: ﴿أأنتَ قلتَ للناسِ اتخذُوني وأُمِّيَ إلهينِ مِن دونِ اللهِ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿قالَ اللهُ هذا يومُ ينفعُ الصادقِينَ صدقُهم﴾ قال: ويقوم إبليس لعنه الله، فيقول ﴿ما كانَ ليَ عليكمْ من سُلطانٍ إلاَّ أن دعوتُكمْ فاستجبْتُمْ لي﴾ الآية..

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء، وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيبهم إبليس، عطف بمآل السعداء، فقال: ﴿وَ أُدْخِلَ الذينَ آمنوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأنهارُ﴾ سارحة فيها حيث ساروا، وأين ساروا ﴿خالدينَ فيها﴾ ماكثين أبداً، لا يحولون ولا يزولون ﴿بإذنِ ربِّهمْ تحيَّتُهمْ فيها سلامٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿حتَّى إذا جاءُوها وفُتِحتْ أبوابها وقالَ لهمْ خَزَنَتُها سلامٌ عَليكمْ﴾، وقال تعالى: ﴿والملائكةُ يدخُلونَ عليهمْ مِن كلِّ بابٍ سلامٌ عليكمْ﴾، وقال تعالى: ﴿و يُلقَّونَ فيها تحيةً وسلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿دعواهمْ فيهَا سُبحانكَ اللهُمَّ وتحيَّتُهمْ فيها سلامٌ وآخرُ دعواهمْ أن الحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) ﴾

٢٤- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿مثلاً كلمةً طيِّبةً﴾: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كشجرةٍ طيِّبةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿أصلُها ثابتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿و فرعُها في السَّماءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. وهكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد: إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وأنَّ المؤمن كشجرة من النخل، لايزال يرفع له عمل صالح، في كل حين ووقت وصباح ومساء. وهكذا رُوي عن ابن مسعود قال: هي النخلة، وعن أنس، وكذا نص عليه مسروق ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم.

و روى البخاري: عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «أخبروني عن شجرةٍ تشبه ـ أو ـ كالرجل المسلم ـ لا يتحاتُّ ورقُها صيفاً ولا شتاءً، وتُؤتي أُكُلها كل حينٍ بإذن ربها» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهتُ أن أتكلَّم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهتُ أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحبُّ إلي من كذا وكذا.

و روى أحمد: عن مجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة فلم أسمعه يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأُتي بجُمَّار فقال: «من الشجر شجرة، مَثَلُها مَثَلُ الرجلِ المسلم» فأردتُ أن أقول هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» أخرجاه.

٢٥- وقوله: ﴿تؤتي أُكُلها كلَّ حينٍ﴾ قيل: غدوة وعشياً، وقيل: كل شهر، وقيل: كل شهرين، وقيل: كل ستة أشهر، وقيل: كل سبعة أشهر، وقيل: كل سنة، والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كلِّ وقتٍ، من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يُرفع له

عمل صالح، آناء الليل وأطراف النهار، في كل وقت وحين ﴿بإذن ربها﴾ أي: كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿و مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾ هذا مَثَلُ الكافر، لا أصل له ولا ثبات، مشبهٌ بشجرة الحنظل، ويقال لها: الشريان. رواه أبو بكر البزار عن أنس موقوفاً.

و قوله: ﴿اجتثت﴾ أي: استؤصلت ﴿من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾

٢٧- روى البخاري: عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سُئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة﴾» ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم.

و روى الإمام أحمد: عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولمَّا يُلْحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأنَّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه، فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إنَّ العبدَ المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل القطرة مِنْ في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها يعني على ملإ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنتُ به وصدقت، فينادي منادٍ من السماء: أنْ صَدَقَ عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوحها وطيبها، ويُفسح له في قبره مَدَّ بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال: وإن العبد الكافر، إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من

الآخرة، نَزَل إليه ملائكة من السماء سُود الوجوه، معهم المسوح فجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فَتَفرَّق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها، لم يَدَعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿لا تُفَتَّحُ لهمْ أبوابُ السماءِ ولا يدْخُلونَ الجنةَ حتى يلجَ الجملُ في سمِّ الخياطِ﴾** فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً، ثم قرأ **﴿ومَن يُشرِكْ باللهِ فكأنَما خرَّ من السماءِ فتخطفُهُ الطَّيرُ أو تَهوِي بهِ الريحُ في مكانٍ سحيقٍ﴾** فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: مَن ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء أنْ كذَب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنتَ تُوعد، فيقول: ومَن أنتَ، فوجهك الوجه يجيء بالشَّر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: ربِّ لا تُقِم الساعة». ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

و روى الإمام عبد بن حميد رحمه الله في مسنده: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العبدَ إذا وُضع في قبره، وتولَّى عنه أصحابه، وإنه ليسمعُ قرع نعالهمْ، فيأتيه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهدُ أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك اللهُ به مقعداً من الجنة» قال النبي ﷺ: «فيراهما جميعاً» قال قتادة: وذُكر لنا أنه يُفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملأ عليه خضراً إلى يوم القيامة. رواه مسلم عن عبد بن حميد به، وأخرجه النسائي.

و روى ابن حبان في صحيحه: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ المؤمن إذا قُبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي إلى رَوْح الله، فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه، حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض، ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشدُّ فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غمٍّ، فيقول: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولون: ذُهب به إلى أمه الهاوية، وأما الكافرُ فيأتيه ملائكة العذاب بمسح، فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فيذهب به إلى باب الأرض».

و روى الحافظ أبو عيسى الترمذي رحمه الله: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قُبر الميت - أو قال أحدُكمْ - أتاه ملكانِ أسودان أزرقان، يُقال لأحدهما: منكر والآخر نكير، فيقولان: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يُفسح له في قبره سبعونَ ذراعاً في سبعين، ويُنوَّر له فيه، ثم يقال له:

نَمْ، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم نومة العروس، الذي لا يوقظه إلاَّ أحبُّ أهلِه إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإنْ كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، فيقال للأرض: الْتئمي عليه، فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «ذلك إذا قيل له في القبر: من ربُّك، وما دينكَ، ومن نبيك؟ فيقول: ربِّي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، جاءنا بالبينات من عند الله، فآمنت به وصدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشتَ وعليه متَّ، وعليه تُبعث»(١).

و روى ابن جرير: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «و الذي نفسي بيده، إنَّ الميت ليسمَع خفق نعالِكمْ حين تولون عنه مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن يساره، وكان فِعلُ الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قِبل رأسه فتقول الصلاة: ما قِبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى عند رجليه فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخل، فيقال: اجلس، فيجلس قد مُثِّلت له الشمس قد دنت للغروب، فيقال له: أخبرنا عما نسألك فيقول: دعني حتى أصلي، فيقال له: إنك ستفعل، فأخبرنا عما نسألك، فيقول: عم تسألوني؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم، ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أمحمد؟ فيقال له: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدَّقناه، فيقال له: على ذلك حييتَ، وعلى ذلك متَّ، وعليه تُبعثُ إن شاء الله، ثمَّ يُفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويُنوَّر له فيه، ويُفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى ما أعدَّ الله لك فيها، فيزداد غبطةً وسُروراً، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طيرٌ أخضرُ يعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدئ من التراب» وذلك قول الله عزوجل ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ورواه ابن حبان، وذكر جواب الكافر وعذابه.

و روى عبد الرزاق: عن ابن طاوس عن أبيه ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ المسألة في القبر، وقال قتادة: أما الحياة الدنيا: فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ في القبر، و كذا روي عن غير واحد من السلف.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾

٢٨، ٢٩- قال البخاري: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ ألم تعلم؟ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ البوار: الهلاك، بار يبور بوراً، و ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين. ثم روى عن عطاء سمع ابن عباس ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة. وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: هو جبلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن

(١) رواه ابن جرير (١٥/ ٥٩٦).

عباس هو القول الأول، وإنْ كان المعنى يعم جميع الكفار، فإنَّ الله تعالى بعث محمداًﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قَبِلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفر دخل النار، وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول.

و روى ابن أبي حاتم: عن أبي الطفيل: أن ابن الكواء سأل علياً عن **﴿الذينَ بدَّلُوا نعمةَ اللهِ كفراً وأحلُّوا قومهمْ دار البوار﴾** قال: هم كفار قريش يوم بدر. وفي رواية قال: منافقو قريش. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن أبي حسين قال: قام علي بن أبي طالبرضي الله عنه فقال: ألا أحدٌ يسألني عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني، وإنْ كان من وراء البحار لأتيته؛ فقام عبد الله بن الكواء فقال: مَن **﴿الذينَ بدَّلُوا نعمةَ اللهِ كُفراً وَأحلُّوا قومَهمْ دار البوارِ﴾**؟ قال: مشركو قريش، أتتهم نعمة الله الإيمان، فبدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار.

و قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر. وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع عن ابن عمر.

٣٠- وقوله: **﴿و جعلُوا للهِ أنداداً ليُضِلُّوا عن سبيلِهِ﴾** أي: جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك. ثم قال تعالى مهدداً لهم، ومتوعداً لهم، على لسان نبيهﷺ **﴿قُلْ تمتَّعُوا فإنَّ مَصيرَكمْ إلَى النارِ﴾** أي: مهما قدرتمْ عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء **﴿فإنَّ مصيركمْ إلى النار﴾** أي: مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى: **﴿نُمتِّعهمْ قليلاً ثُمَّ نضطرُّهمْ إلَى عذابٍ غليظٍ﴾**، وقال تعالى: **﴿متاعٌ في الدُّنيا ثُمَّ إلينَا مرجعهمْ ثُمَّ نذيقُهم العذابَ الشديدَ بما كانُوا يكفُرونَ﴾**.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾

٣١- يقول تعالى آمراً عباده بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله، بأداء الزكوات والنفقة على القرابات، والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها: هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر، أي: في الخفية والعلانية، وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم **﴿مِن قبلِ أن يأتيَ يوم﴾** وهو يوم القيامة **﴿لا بيعٌ فيهِ ولا خلالٌ﴾** أي: ولا يقبل من أحد فدية أن تباع نفسه، كما قال تعالى: **﴿فاليومَ لاَ يُؤخذُ منكمْ فديةٌ ولا مِن الذينَ كفرُوا﴾**.

و قوله: **﴿و لا خِلالٌ﴾** قال ابن جرير: يقول ليس هنالك مخالة خليل، فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالَّته، بل هناك العدل والقسط، و الخلال مصدر، من قول القائل: خاللت فلاناً فأنا أخاله مخالّةً وخلالاً.

و قال قتادة: إن اللهَ قد علمَ أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً، يتخالُّون بها في الدنيا، فينظر الرجل من يخالل وعلام يصاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه.

قلت: والمراد من هذا: أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية؛ ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده؛ ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد، إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: **﴿و اتقُوا يوماً لا تجزِي نفسٌ**

عن نفس شيئاً ولا يقبلُ منها عَدلٌ ولا تنفعُها شفاعةٌ ولا همْ يُنصرونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذينَ آمَنُوا أنفِقُوا مِمَّا رزقْناكمْ مِن قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيهِ ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ والكافِرونَ هم الظالِمونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾

٣٢- يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلقَ لهم السموات سقفاً محفوظاً، والأرض فراشاً ﴿و أنزلَ مِن السماءِ ماءً فأخرجَ به أزواجاً من نباتٍ شتَّى﴾ ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها، ليقطعَ المسافِرونَ بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخَّر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقاً للعباد، من شرب وسقي، وغير ذلك من أنواع المنافع.

٣٣- ﴿و سخَّر لكم الشَّمسَ والقمرَ دائبينِ﴾ أي: يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿لا الشمسُ ينبغِي لها أن تُدرِكَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلٌّ في فَلَكٍ يسبَحونَ﴾ ﴿يُغشِي الليلَ النهارَ يطلبُهُ حثيثاً والشمسَ والقمرَ والنُّجومَ مُسخَّراتٍ بأمرِهِ ألا لهُ الخلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ﴾ فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر ﴿يولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ ويولِجُ النَّارَ في اللَّيلِ وسخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌّ يجرِي لأجلٍ مُسمّى ألا هوَ العزيزُ الغفَّارُ﴾.

٣٤- وقوله: ﴿و آتاكم مِن كلِّ ما سألتُموهُ﴾ يقول هيَّأ لكم كل ما تحتاجون إليه، في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، وقرأ بعضهم «و آتاكم مِن كلٍّ ما سألتمُوه». وقوله: ﴿و إن تَعُدُّوا نعمةَ اللهِ لا تُحصُوها﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم، فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إنَّ حق اللهِ أثقل من أنْ يقوم به العباد، وإنَّ نعم الله أكثر من أنْ يُحصيها العباد، ولكن أَصْبِحوا تائبين وأمسوا تائبين.

و في صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهمَّ لك الحمد، غير مكفي ولا مُودَّع، ولا مستغنى عنه ربنا»، وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الحمد لله الذي لا تُؤدَّى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمةٍ حادثة تُوجب على مؤديها شكره بها، وقال القائل في ذلك:

لـو كل جـارحـةٍ مني لهـا لـغـةٌ تُثني عليك بما أوليت من حَسَن
لكـان ما زاد شـكـري إذ شَكَرتُ بـه إليك أبلغَ في الإحسان والمنن

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦)﴾

٣٥- يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب، بأن البلد الحرام مكة، إنما وُضعت أول ما

وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه آهلة، تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن، فقال: ﴿ربِّ اجعلْ هذا البلد آمناً﴾ وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أولمْ يروا أنَّا جعلنا حرماً آمناً﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إنَّ أوّل بيتٍ وُضعَ للناس للذي بِبكةَ مباركاً وهدًى للعالمينَ ❁ فيه آياتٌ بيِّناتٌ مقامُ إبراهيمَ ومَن دخلهُ كانَ آمناً﴾ وقال في هذه القصة ﴿ربِّ اجعلْ هذا البلدَ آمناً﴾ فعرَّفه لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿الحمدُ لله الذي وهبَ لي علَى الكِبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ﴾ ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضاً، فقال: ﴿ربِّ اجعلْ هذا بلداً آمناً﴾ كما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطوّلاً.

و قوله: ﴿و اجنُبني وبنِيَّ أن نعبدَ الأصنامَ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

٣٦- ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبرأ ممن عبدها، وردَّ أمرهم إلى الله، إن شاء عذَّبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام ﴿إنْ تعذِّبهمْ فإنهمْ عبادُكَ وإن تغفرْ لهمْ فإنكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ﴾ وليس فيه أكثر من الردّ إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز وقوع ذلك.

روى عبد الله بن وهب: عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ربِّ إنهنَّ أضللْنَ كثيراً من الناسِ﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام ﴿إنْ تُعذِّبهمْ فإنهمْ عبادُكَ﴾ الآية، ثم رفع يديه، ثم قال: «اللهمَّ أمتي، اللهمَّ أمتي، اللهمَّ أمتي» وبكى، فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد ـ وربك أعلم ـ وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سنرضيك في أُمتك، ولا نسوؤك.

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾

٣٧- وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان، بعد الدعاء الأول الذي دعا به عند ما ولّى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿عندَ بيتِكَ المُحرَّمِ﴾، وقوله: ﴿ربنا لِيُقيمُوا الصلاةَ﴾ قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿المحرَّمِ﴾ أي: إنما جعلته مُحرَّماً، ليتمكَّن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فاجعلْ أفئدةً من الناسِ تهوِي إليهمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره: لو قال أفئدة الناس، لازدحم عليه فارس والروم، واليهود والنصارى، والناس كلهم، و لكن قال: ﴿من الناسِ﴾ فاختص به المسلمون.

وقوله: ﴿و ارزُقهمْ من الثمراتِ﴾ أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك كما قال: ﴿أولمْ نمكِّن لهم حرماً آمناً يُجبَى إليهِ ثمراتُ كلِّ شيءٍ رزقاً من لدنَّا﴾ وهذا من لطفه تعالى ورحمته وبركته، أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تُجبي إليها ثمرات ما حولها، استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾

٣٨- قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿ربَّنا إنكَ تعلمُ ما نُخفِي وما نُعلنُ﴾ أي: أنت تعلم قصدي في دعائي، وما أردت بدعائي لأهل البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء.

٣٩- ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الحمدُ لله الذي وهبَ لي علَى الكبَرِ إسماعيلَ وإسحاقَ إنَّ ربِّي لسميعُ الدعاء﴾ أي: أنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد.

٤٠- ثم قال: ﴿ربِّ اجعلْني مقيمَ الصلاةِ﴾ أي: محافظاً عليها مقيماً لحدودها، ﴿ومِن ذُريتي﴾ أي: واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿ربَّنا وتقبَّلْ دعاء﴾ أي: فيما سألتك فيه كله.

٤١- ﴿ربَّنا اغفرْ لِي ولوالدَيَّ﴾ قرأ بعضهم «ولِوالِدِي» بالإفراد، وكان هذا أن يتبرأ من أبيه، لما تبين له عداوته لله عزوجل ﴿وللمؤمنينَ﴾ أي: كلهم ﴿يومَ يقُومُ الحِسابُ﴾ أي: يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم، إنْ خيراً فخير، فخير وإن شراً فشر.

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣)﴾

٤٢- يقول تعالى: ولا تحسبنَّ الله يا محمد ﴿غافلاً عمَّا يعملُ الظالِمُونَ﴾ أي: لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجَّلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم، ويعده عليهم عداً ﴿إنَّما يؤخرهمْ ليوم تَشخصُ فيه الأبْصارُ﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة.

٤٣- ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم، وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿مُهطِعينَ﴾ أي: مُسرعِينَ، كما قال تعالى: ﴿مُهطِعينَ إلى الداعِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يومئذٍ يتبعُونَ الداعِيَ لا عِوَجَ له - إلى قوله - وعَنَت الوُجوهُ للحيِّ القيُّوم﴾، وقال تعالى: ﴿يومَ يخرجُونَ مِن الأجداثِ سراعاً﴾ الآية.

و قوله: ﴿مُقنِعِي رُءوسِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رءوسهم ﴿لا يَرتدُّ إليهِمْ طرفُهمْ﴾ أي: أبصارهم ظاهرة شاخصة، مديمون النظر لا يطرفون لحظة، لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة، و المخافة لما يحل بهم، عياذاً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: ﴿و أفئدتُهمْ هواءٌ﴾ أي: وقلوبهم خاوية خالية، ليس فيها شيء، لكثرة الوجل والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية، لأن القلوب لدى الحناجر، قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف، وقال بعضهم: هيَ خرابٌ لا تعي شيئاً، لشدة ما أخبر به تعالى عنهم. ثم قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ

وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾

٤٤- يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب ﴿ربَّنا أخِّرْنَا إِلَى أجلٍ قريبٍ نُجبْ دعوتَكَ ونتَّبعِ الرُّسُلَ﴾ كقوله: ﴿حتَّى إذا جاءَ أحدَهم الموتُ قالَ ربِّ ارجعُونِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تُلْهِكمْ أموالُكمْ﴾ الآيتين، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم ﴿ولوْ ترَى إذِ المُجرِمُونَ ناكِسُوا رُءوسِهِمْ﴾ الآية، وقال: ﴿ولوْ ترَى إذْ وُقِفُوا علَى النارِ فقالوا يا ليتَنا نُردُّ ولا نكذِّبَ بآياتِ ربِّنا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وهمْ يصطرِخُونَ فيها﴾ الآية، قال تعالى ردّاً عليهم في قولهم هذا: ﴿أولمْ تكُونُوا أقسمتُم مِّن قبلُ ما لكم مِّن زوالٍ﴾ أي: أولم تكُونُوا تحلفون من قبل هذه الحالة، أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذلك، قال مجاهد وغيره ﴿ما لكم مِّن زوالٍ﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كقوله: ﴿وأقسمُوا باللهِ جهْدَ أيمانِهمْ لا يَبْعثُ اللهُ مَن يموتُ﴾ الآية.

٤٥- ﴿وسكنتُمْ في مساكِنِ الذينَ ظلَمُوا أنفُسهمْ وتبيَّنَ لكمْ كيفَ فعلنَا بهمْ وضربْنا لكم الأمثالَ﴾ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حكمةٌ بالِغةٌ فما تُغنِي النُّذُرُ﴾. وفي قراءة عبد الله «وإن كادَ مكرُهمْ». قلت: وكذا روي عن أبي ابن كعب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنهما قرآ «وإن كاد» كما قرأ علي (كذلك).

وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كانَ مكرُهمْ لتزُولَ منهُ الجِبالُ﴾ يقول: ما كانَ مكرُهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير: بأني هذا الذي فعلوه بأنفسهم، من شركهم بالله وكفرهم به، ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم. قلت: ويشبه هذا قول الله تعالى: ﴿ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحاً إنكَ لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تبلُغَ الجبالَ طُولاً﴾.

والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وإن كانَ مكرُهم لتزُولَ منهُ الجبالُ﴾ يقول: شركهم، كقوله: ﴿تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ منهُ﴾ الآية، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾

٤٧- يقول تعالى مقرِّراً لوعده ومؤكِّداً ﴿فلا تحسبنَّ اللهَ مُخلِفَ وعدِهِ رُسُلَه﴾ أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة، لا يمتنع عليه شيءٌ أراده، ولا يغالَب، وذو انتقام ممن كَفَر به وجحده ﴿فويلٌ يومئذٍ للمُكذِّبينَ﴾.

ولهذا قال: ﴿يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ﴾ أي: وعده هذا حاصل يوم تبدَّل الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين: من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناسُ يوم القيامةِ على أرض بيضاء عَفْراء، كقُرصة النَّقي ليس فيها مَعْلَم لأحد».

و روى الإمام أحمد: عن عائشة أنها قالت: أنا أوّل الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية **﴿يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات﴾** قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط».

رواه مسلم منفرداً به دون البخاري، والترمذي وابن ماجه.

و روى الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنتُ قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حَبْر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يُصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سَمَّاه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ اسمي محمد، الذي سمَّاني به أهلي» فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيءٌ إنْ حدَّثتك»؟ قال: أسمع بأذني، فنكتَ رسولُ الله ﷺ بعودٍ معه، فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظُّلْمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازةً؟ فقال: «فقراء المهاجرين» فقال اليهودي: فما تُحفتُهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «يُنحرُ لهم ثور الجنة، الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمَّى سلسبيلاً» قال: صدقتَ، قال: وجئت أسألك عن شيءٍ لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض إلا نبي، أو رجل أو رجلان، قال: أينفعك إنْ حدَّثتك؟ قال: «أسمع بأذني»، قال: جئت أسألك عن الولد، قال: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعَلاَ منيُّ الرجل مني المرأة، أذْكَرا بإذن الله تعالى، وإذا علا منيُّ المرأة مني الرجل، آنثا بإذن الله» قال اليهودي: لقد صدقتَ، وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، ومالي علمٌ بشيءٍ منه، حتى أتاني الله به».

عن عمرو بن ميمون قال: قال عبد الله بن مسعود **﴿يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ﴾** قال: أرضٌ كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، حفاة عراة كما خلقوا، قياماً حتى يلجمهم العرق، وروي من (وجوه أخر)، أورد ذلك كله ابن جرير. وهكذا روى عن علي وابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد بن جبر: أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة. وعن سعيد بن جبير في قوله: **﴿يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ﴾** قال: تبدل الأرض خبزة بيضاء، يأكل المؤمن من تحت قدميه.

و عن قيس بن السكن قال: قال عبد الله: الأرض كلها نارٌ يوم القيامة، والجنة من ورائها، ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده، إنَّ الرجل ليفيض عرقاً حتى ترشح في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب، قالوا: مم ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس ويلقون.

و قوله: **﴿و برزُوا للهِ﴾** أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله **﴿الواحدِ القهّار﴾** أي: الذي قَهرَ كل شيءٍ وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب.

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) ﴾

٤٩- يقول تعالى: **﴿يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ﴾** وتبرز الخلائق لديانها، تَرى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم **﴿مقرّنين﴾** أي: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو

الأشكال منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿احشُرُوا الذينَ ظَلمُوا وأزواجَهمْ﴾ وقال: ﴿و إذا النُّفُوسُ زُوِّجتْ﴾ وقال: ﴿و إذا أُلقوا منهَا مكاناً ضيِّقاً مقرَّنينَ دعوْا هنالكَ ثُبوراً﴾ وقال: ﴿و الشياطينَ كلَّ بنَّاءٍ وغوَّاصٍ * وآخَرينَ مقرَّنينَ في الأصفادِ﴾ والأصفاد: هي القيود، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد، وهو مشهور في اللغة.

٥٠- وقوله: ﴿سَرابيلُهم مِن قَطِرانٍ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تُهْنأ به الإبل، أي: تُطلى. قال قتادة: وهو ألصق شيء بالنار. ويقال فيه: «قَطِرانٍ» بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها، وبكسر القاف وتسكين الطاء.

و كان ابن عباس يقول: القطران: هو النحاس المذاب، وربما قرأها: ﴿سرابيلهمْ مِن قطرانٍ﴾ أي: من نحاسٍ حار قد انتهى حره. وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة.

و قوله: ﴿وتغشَى وُجوههم النارُ﴾ كقوله: ﴿تلفَحُ وجوههم النارُ وهمْ فيها كالِحُونَ﴾. وروى الإمام أحمد رحمه الله: عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ في أمتِي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخرُ بالأحساب، والطعنُ في الأنساب، والاستسقاءُ بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سِرْبالٌ من قطران، ودِرعٌ من جَرَب» انفرد بإخراجه مسلم.

٥١- وقوله: ﴿ليَجْزِي اللهُ كُلَّ نفسٍ ما كسبتْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ليَجزيَ الذينَ أساءُوا بما عمِلُوا﴾ الآية، ﴿إنَّ اللهَ سريع الحسابِ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقتربَ للنَّاسِ حسابُهمْ وهمْ في غفلةٍ مُعرِضونَ﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده، سريع النَّجاز، لأنه يعلم كلَّ شيء، ولا يخفَى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قُدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ما خَلقكُمْ ولا بَعْثُكمْ إلاَّ كنفسٍ واحدةٍ﴾ وهذا معنى قول مجاهد ﴿سريعُ الحسابِ﴾ إحصاء.

و يحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ (٥٢) ﴾

٥٢- يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لأنذركمْ بِهِ ومَن بلغَ﴾ أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن، كما قال في أول السورة ﴿الر * كتابٌ أنزلناهُ إليكَ لتُخرجَ الناسَ من الظُّلماتِ إِلَى النورِ﴾ الآية، ﴿و ليُنْذَرُوا بِهِ﴾ أي: ليتعظوا به، ﴿و ليَعْلَمُوا أنَّما هوَ إلهٌ واحدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات، على أنه لا إله إلا هو ﴿و ليذَّكَّرَ أُولُوا الألبابِ﴾ أي: ذوي العقول.

ترتيبها ١٥ — سورة الحجر - مكية — آياتها ٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾

١ - قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. وقوله تعالى: **﴿رُبَما يودُّ الذينَ كفرُوا﴾** الآية، إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مع المسلمين، ونقل السدي في تفسيره بسنده المشهور: عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة، أن كفار قريش لما عُرضوا على النار تَمنَّوا أن لو كانوا مسلمين. وقيل: إن المراد: أنَّ كل كافر يود عند احتضاره، أنْ لو كان مؤمناً، وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كقوله تعالى: **﴿ولو ترى إذْ وُقفُوا على النّار فقالُوا يا ليتَنا نُردُّ ولا نُكذِّبَ بآيات ربنا ونكونَ من المؤمنين﴾**.

و روى سفيان الثوري: عن عبد الله في قوله: **﴿رُبما يودُّ الذينَ كفرُوا لوْ كانُوا مُسلمِينَ﴾** قال: هذا في الجهنميين، إذا رأوهم يخرجون من النار.

و روى عبد الرزاق: عن مجاهد قال: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك، قال الله: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، قال: فعند ذلك قوله: **﴿رُبَما يودُّ الذينَ كفرُوا لوْ كانُوا مُسلِمينَ﴾** وهكذا روي عن الضحاك وقتادة وأبي العالية وغيرهم، وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة.

فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتَمعَ أهل النار في النار، ومعهم مَنْ شاءَ اللهُ مِن أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام، وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخِذْنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمرَ بمن كان في النار من أهل القبلة فأُخرجوا، فلما رأى ذلك مَن بقي من الكفار، قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: **﴿الر * تلكَ آياتُ الكتابِ وقُرآنٍ مُبينٍ * رُبَما يَودُّ الذينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسلِمينَ﴾** ورواه ابن أبي حاتم، وزاد فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم» عوض الاستعاذة.

(الحديث الثاني) وروى الطبراني أيضاً: عن صالح بن أبي طريف قال: سألت أباسعيد الخدري فقلت له: هل سمعت رسول الله يقول في هذه الآية **﴿رُبَما يودُّ الذينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسلمينَ﴾**؟ قال: نعم، سمعته رسول الله ﷺ يقول: «يُخرج اللهُ ناساً من المُؤمنين من النار، بعدما يأخذ نقمته منهم» وقال: «لما أدخلهم الله النار مع المشركين، قال لهم المشركون: تزعمون أنكم أولياء الله في الدنيا، فما بالكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم، أذنَ في الشفاعة لهم، فتشفع لهم الملائكة والنبيون، ويشفع المؤمنون، حتى يخرجوا بإذن

الله ، فإذا رأى المشركون ذلك ، قالوا : يا ليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة ، فنخرج معهم ؛ قال : فذلك قول الله : ﴿ربما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ فيسمون في الجنة : الجهنميين ، من أجل سوادٍ في وجوههم ، فيقولون : يا ربِّ ، أذهب عنا هذا الاسم ، فيأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة ، فيذهب ذلك الاسم عنهم» .

٣- وقوله : ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾ تهديد شديد لهم ، ووعيد أكيد ، كقوله تعالى : ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ وقوله : ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ ولهذا قال : ﴿ويلههم الأمل﴾ أي : عن التوبة والإنابة ﴿فسوف يعلمون﴾ أي : عاقبة أمرهم .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) ﴾

٤ ، ٥- يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية ، إلا بعد قيام الحجة عليها ، وانتهاء أجلها ، و أنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ، ولا يتقدمون عن مدتهم ، وهذا تنبيهٌ لأهل مكة ، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه ، من الشرك والعناد والإلحاد ، الذي يستحقون به الهلاك .

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾

٦- يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم ﴿يا أيها الذي نزّل عليه الذكر﴾ أي : الذي تدّعي ذلك ﴿إنك لمجنون﴾ أي : في دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا .

٧- ﴿لوما﴾ أي : هلاّ ﴿تأتينا بالملائكة﴾ أي : يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون ﴿فلولا أُلقي عليه أسورةٌ من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ ، ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أُنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ۞ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً﴾ .

٨- وكذا قال في هذه الآية ﴿ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ وما كانوا إذاً منظرين﴾ وقال مجاهد في قوله : ﴿ما ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ﴾ بالرسالة والعذاب .

٩- ثم قرّر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر ، وهو «القرآن» وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى : ﴿له لحافظون﴾ على النبيﷺ ، كقوله : ﴿والله يعصمك من الناس﴾ والمعنى الأول أولى ، وهو ظاهر السياق .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (١٣) ﴾

١٠- يقول تعالى مسلّياً لرسولهﷺ في تكذيب مَن كذّبه من كفار قريش ، إنه أرسلَ من قبله من الأمم الماضية ، وأنه ما أتى أمة من رسول ، إلا كذبوه واستهزءوا به .

١١- ثم أخبر أنه سَلَكَ التكذيب في قلوب المجرمين ، الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى ، قال

أنس والحسن البصري ﴿كذلكَ نسلكهُ في قلُوب المُجرمينَ﴾ يعني: الشرك.

١٢- وقوله: ﴿قدْ خلتْ سُنَّةُ الأوَّلينَ﴾ أي: قد علم ما فعل تعالى بمن كذَّب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥) ﴾

١٤، ١٥- يخبر تعالى عن قوَّة كفرهم وعنادهم، ومكابرتهم للحق، أنه لو فتحَ لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه، لما صدَّقوا بذلك، بل قالوا: ﴿إنَّما سُكِّرَتْ أبْصارُنا﴾ قال مجاهد وابن كثير والضحاك: سدت أبصارنا، وقال قتادة عن ابن عباس: أُخذت أبصارنا، وقال العوفي عن ابن عباس: شُبِّه علينا وإنما سحرنا، وقال الكلبي: عميت أبصارنا، وقال ابن زيد ﴿سُكِّرَتْ أبْصارُنا﴾ السكران الذي لا يعقل.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) ﴾

١٦، ١٧، ١٨- يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها، وما زيَّنها به من الكواكب الثوابت والسيارات، لمن تأمل وكرَّر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة البروج ههنا: هي الكواكب.

(قلت): وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿تبارَكَ الذي جعَلَ في السماءِ بُروجاً﴾ الآية. ومنهم من قال: البروج هي منازل الشمس والقمر، وقال عطية العوفي: البروج ههنا هي قصور فيها الحرس.

و جعل الشهب حرساً لها من مَرَدَة الشياطين، لئلا يسَّمَّعُوا إلى الملأ الأعلى، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع، جاءه شهابٌ مبين فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به في الصحيح.

كما روى البخاري في تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة يبلغ به النبيﷺ قال: «إذا قَضَى اللهُ الأمر في السماء، ضربت الملائكةُ بأجنحتها خُضعاناً لقوله، كأنه سلسلةٌ على صَفوان» قال علي: وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فُزِّع عَن قُلوبهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقوا السمع، ومسترقوا السمع هكذا واحد فوق آخر ـ ووصف سفيانُ بيده وفرَّج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض ـ فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يَرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض، فتلقى على فم الساحر أو الكاهن، فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقاً، للكلمة التي سمعت من السماء».

١٩- ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومدَّه إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المناسبة، وقال ابن عباس ﴿من كُلِّ شيءٍ

﴿مَوْزُونٍ﴾ أي: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك ومجاهد والحكم بن عيينة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة. ومنهم من يقول: مقدر بقدر، وقال ابن زيد من كل شيء يوزن ويقدر بقدر، وقال: ما يزنه أهل الأسواق.

٢٠- وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض، في صنوف الأسباب، والمعايش وهي جمع معيشة. وقوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ قال مجاهد: هي الدواب والأنعام، وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام.

والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسَّر لهم من أسباب المكاسب، ووجوه الأسباب، وصنوف المعايش، وبما سخَّر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)﴾

٢١- يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهلٌ عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على جهة الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة. وروى ابن جرير: عن الحكم بن عتيبة في قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال: ما عام بأكثر مطراً من عام، ولا أقل، ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون، وربما كان في البحر، قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة، أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ أي: تلقح السحاب فتدر ماء، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها. وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها ووصفها بـ «العقيم» وهو عدم الإنتاج، لأنه لا يكون إلا بين شيئين فصاعدا. وعن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ قال: ترسل الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تَمْرِي السحاب، حتى تدر كما تدر اللَّقحة. وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة، وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب، فتلقحه فيمتلئ ماء، وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة فتقمُّ الأرض قمّاً، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾.

وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي: أنزلناه لكم عذباً، يمكنكم أن تشربوا منه، لو نشاء جعلناه أجاجاً، كما نبه على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ وفي قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾. وقوله: ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ قال سفيان الثوري: بمانعين. ويحتمل

أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً، حفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم في طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

٢٣- وقوله: ﴿وإنّا لنحن نُحْيي ونُميتُ﴾ إخبارٌ عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

٢٤- ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم، فقال: ﴿ولقدْ علِمنَا المُستَقْدِمينَ مِنكمْ﴾ الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما «المُستَقْدِمُونَ»: كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، و«المُستأخِرونَ» من هو حي، ومن سيأتي إلى يوم القيامة. و روى نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي وغيرهم، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله. وقد ورد فيه حديث غريب جداً: فروى ابن جرير: عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت تصلي خلف النبي ﷺ امرأة حسناء، قال ابن عباس: لا والله ما رأيت مثلها قط، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا، يعني: لئلا يروها، وبعض يستأخرون، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم، فأنزل الله ﴿ولقدْ علِمنَا المُستَقْدِمينَ مِنكمْ ولقدْ علِمنَا المُستأخِرينَ﴾ وكذا رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره ورواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما وابن ماجه من طرق، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة [1] وقد رواه عبد الرزاق عن أبي الجوزاء يقول في قوله: ﴿ولقدْ علِمنَا المستَقْدِمينَ مِنكمْ﴾ في الصفوف في الصلاة ﴿والمُستأخِرينَ﴾ فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر، وقد قال الترمذي: هذا أشبه، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

٢٦- قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس. والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خلقَ الإنسانَ مِن صلصالٍ كالفخّار * وخلقَ الجانَّ مِن مارجٍ مِن نارٍ﴾ وعن مجاهد أيضاً ﴿الصَّلْصَال﴾ المنتن، وتفسير الآية بالآية أولى. وقوله: ﴿مِن حَمَإٍ مسنُونٍ﴾ أي: الصلصال من حمأ وهو الطين. والمسنون الأملس.

و لهذا روي عن ابن عباس أنه قال: هو التراب الرطب، وعن ابن عباس ومجاهد أيضاً والضحاك أن الحمأ المسنون هو: المنتن، وقيل: المراد بالمسنون ههنا: المصبوب.

٢٧- وقوله: ﴿والجَانَّ خلقْناهُ مِن قبلُ﴾ أي: من قبل الإنسان ﴿مِن نار السَّمُوم﴾ قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل، وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار، ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحرور بالنهار. روى أبو داود الطيالسي: عن عبد الله بن مسعود يقول: هذه السموم جزءٌ من سبعين جزءاً، من السموم التي خلق منها الجان، ثم قرأ ﴿والجَانَّ خلقْناهُ مِن قبلُ مِن نارِ السَّمُوم﴾. وعن ابن عباس: إن الجان خُلق من لهب

(١) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله: تعليل الترمذي و ابن كثير ليس بعلة. (المسند ٤/ ٢٧٨).

النار، وفي رواية: من أحسن النار، وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس.

وقد ورد في الصحيح: «خُلِقت الملائكةُ مِن نور، وخُلقت الجان من مَارج من نار، وخُلق آدم مما وُصِفَ لكم». والمقصود من الآية: التنبيه على شرف آدم عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة محتده.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) ﴾

٢٨ - ٣٢- يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له، من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل.

٣٣- ولهذا قال: **﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾** كقوله: **﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾** وقوله: **﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾** الآية.

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) ﴾

٣٤- يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً، لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وأنه **﴿رَجِيمٌ﴾** أي: مرجوم، وأنه قد اتبعته لعنة لا تزال متصلة به، لاحقة له، متواترة عليه إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورنَّ رنَّةً فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها، رواه ابن أبي حاتم.

٣٥ - ٣٨- وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له، سأل ـ من تمام حَسَده لآدم وذريته ـ النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له، وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾

٣٩- يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه، أنه قال للرب **﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾** قال بعضهم أقسم بإغواء الله له **(قلت)** ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني **﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾** أي: لذرية آدم عليه السلام **﴿فِي الأَرْضِ﴾** أي: أحبب إليهم المعاصي، وأرغبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إزعاجاً **﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أي: كما أغويتني وقدرت على ذلك.

٤٠- **﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾** كقوله: **﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾**.

٤١ - قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً ﴿هذا صراطٌ عليَّ مستقيم﴾ أي: مرجعكم كلكم إليَّ، فأجازيكم بأعمالكم إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر، كقوله تعالى: ﴿إنَّ ربَّكَ لبالمرصَادِ﴾ وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي، قاله مجاهد والحسن وقتادة، كقوله: ﴿و على اللهِ قصدُ السبيلِ﴾ وقرأ قيس بن عبادة ومحمد بن سيرين وقتادة ﴿هذا صراطٌ عليٌّ مستقيم﴾ كقوله: ﴿و إنَّه في أمِّ الكتابِ لدينَا لعليٌّ حكيم﴾ أي: رفيع، والمشهور القراءة الأولى.

٤٢ - ﴿إنَّ عِبادِي ليسَ لكَ عليهمْ سلطانٌ﴾ أي: الذين قدَّرتُ لهم الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم ﴿إلاَّ مَن اتَّبعكَ مِن الغاوِينَ﴾ استثناء منقطع.

٤٣ - وقوله: ﴿و إنَّ جهنَّم لموعِدُهمْ أجمعينَ﴾ أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن ﴿و مَن يَكفُر به مِن الأحزابِ فالنَّارُ موعِدُهُ﴾.

٤٤ - ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مَقْسُوم﴾ أي: قد كُتِب لكل بابٍ منها جزءٌ من أتباع إبليس، يدخلونه لا محيد لهم عنه، أجارنا الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في دَرَك بقدر عمله. وعن أبي هارون الغنوي عن حطان بن عبد الله أنه قال: سمعت علي بن أبي طالب وهو يخطب قال: إنَّ أبواب جهنَّم هكذا ـ قال أبو هارون ـ أطباقاً بعضها فوق بعض، وعن هبيرة بن يريم عن علي رضي الله عنه قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تمتلئ كلها، وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق، وقال ابن جريج: سبعة أبواب أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية. روى الضحاك عن ابن عباس نحوه، وكذا روي عن الأعمش بنحوه أيضاً، وقال قتادة ﴿لها سبعةُ أبوابٍ لكلِّ بابٍ منهمْ جزءٌ مقسوم﴾: هي والله منازل بأعمالهم، رواهن ابن جرير. وروى ابن أبي حاتم: عن أبي نضرة عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لكلِّ بابٍ منهمْ جزءٌ مقسوم﴾ قال: «إنَّ مِن أهل النار مَن تأخذه النارُ إلى كعبه، وإنَّ منهم مَن تأخُذه النارُ إلى حُجْزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازلهم بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسُوم﴾»(١).

﴿إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ (٥٠)﴾

٤٥ - لما ذكر تعالى حال أهل النار، عَطَف على ذِكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون.

٤٦ - وقوله: ﴿ادخُلوها بسلام﴾ أي: سالمين من الآفات، مُسلَّمٌ عليكم ﴿آمِنِينَ﴾ أي: من كل خوفٍ وفزع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء.

٤٧ - وقوله: ﴿و نزعْنا ما في صُدورِهمْ مِن غلٍّ إخواناً على سُرُرٍ متقابِلينَ﴾، روى سُنيد في تفسيره: عن أبي أمامة قال: لا يدخل الجنة مؤمن، حتى يَنزع الله ما في صدره من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري. وهذا موافق لما في الصحيح: أن أبا سعيد الخدري حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «يَخلُص المؤمنون من النار،

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الجنة (٤/ ٢١٨٥) إلى قوله: «إلى ترقوته» و دون ذكر الآية.

فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا، أُذن لهم في دخول الجنة».

و روى ابن جرير: عن محمد هو ابن سيرين قال: استأذن الأشتر على علي رضي الله عنه، وعنده ابنٌ لطلحة فحبسه ثم أذن له، فلما دخل قال: إني لأراك إنما حبستني لهذا؟ قال: أجل، قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني؟ قال: أجل، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان، ممن قال الله تعالى: ﴿و نزعْنا ما في صُدُورهمْ مِن غِلٍّ إخواناً علَى سُرُرٍ متقابِلينَ﴾. و روي أيضاً: عن أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، فرحَّب به، وقال: إني لأرجو أنْ يجعلني الله وأباك، من الذين قال الله: ﴿و نزَعْنا ما في صدورِهمْ مِن غِلٍّ إخواناً علَى سُرُرٍ متقابِلينَ﴾.

و روى وكيع عن ربعي بن خراش عن علي نحوه، و قال فيه: فقام رجلٌ من همدان، فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين، قال فصاح به عليٌّ صيحة، فظننت أن القصر قد تدهده لها، ثم قال: إذا لم نكن نحن فمن هم؟، وروى سفيان الثوري: عن إبراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علي رضي الله عنه فحجبه طويلاً، ثم أذن له، فقال له: أما أهل البلاء فتجفوهم، فقال علي: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير، ممن قال الله: ﴿و نزَعْنا ما في صدورِهمْ مِن غِلٍّ إخواناً علَى سُرُرٍ متقابِلينَ﴾ وكذا روى الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بنحوه.

و قوله: ﴿متقابِلينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

٤٨- وقوله: ﴿لا يَمَسُّهُمْ فيها نَصَبٌ﴾ يعني المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيتٍ في الجنة من قَصَب، لا صَخبَ فيه ولا نصب».

و قوله: ﴿و ماهمْ منها بِمُخرَجِينَ﴾ كما جاء في الحديث: «يقال يا أهل الجنة إنَّ لكم أن تصحُّوا فلا تمرضوا أبداً، وإنَّ لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أنْ تَشبوا فلا تَهرموا أبداً، وإنَّ لكم أنْ تُقيموا فلا تظْعنُوا أبداً». وقال الله تعالى: ﴿خالِدينَ فيها لا يَبْغُونَ عنها حِوَلاً﴾.

٤٩- وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أنا الغفُورُ الرَّحيمُ* وأَنَّ عذابِي هو العذابُ الأليمُ﴾ أي: أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة، وذو عذاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾

٥١، ٥٢- يقول تعالى وأخبرهم يا محمد عن قصة ضيف إبراهيم، والضيف: يطلق على الواحد والجمع كالزَّوْر والسفر، ، وكيف دخلوا عليه فقالوا: سلاماً ﴿قالَ إنَّا منكمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم، لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ.

٥٣- ﴿قالُوا لا توْجَلْ﴾ أي: لا تخف ﴿و بشَّرُوهُ بغُلامٍ عليمٍ﴾ أي: إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة

هود.

٥٤- ثم ﴿قالَ﴾ متعجباً من كبره وكبر زوجته، ومتحققاً للوعد ﴿أبشَّرتُمُوني علَى أن مسَّنِيَ الكِبَرُ فبِمَ تُبشِّرُونَ﴾.

٥٥- فأجابوه مؤكدين لما بشروه به، تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿قالُوا بشَّرناكَ بالحقِّ فلاَ تكُن مِن القانِطِينَ﴾ وقرأ بعضهم (القنطين) فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإنْ كان قد كبر، وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قُدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) ﴾

٥٧- يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام، لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى، أنه شرَع يسألهم عما جاءوا له، فقالوا:

٥٨، ٥٩- ﴿إنَّا أُرسِلْنا إلى قومٍ مُجرِمينَ﴾ يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجُّون آل لوط من بينهم، إلا امرأته فإنها من الهالكين.

٦٠- ولهذا قالوا ﴿إلاَّ امرأتَهُ قدَّرنا إنَّها لَمِنَ الغابِرينَ﴾ أي: الباقين المهلكين.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) ﴾

٦١- يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره.

٦٢، ٦٣- قال: ﴿إنَّكمْ قومٌ مُنكَرونَ ❁ قالُوا بلْ جِئناكَ بما كانُوا فيه يَمْتَرُونَ﴾ يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم، الذي كانوا يَشكُّون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم.

٦٤- ﴿و أتيناكَ بالحقِّ﴾ كقوله تعالى: ﴿ما نُنزِّلُ الملائكةَ إلاَّ بالحقِّ﴾. و قوله: ﴿و إنَّا لصادِقُونَ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) ﴾

٦٥- يذكر تعالى عن الملائكة، أنهم أمروه أنْ يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأنْ يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم، ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو، وإنما يكون ساقةً يُزجي الضعيف، ويحمل المنقطع. وقوله: ﴿و لاَ يلتفتْ مِنكمْ أحدٌ﴾ أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حلَّ بهم من العذاب والنكال ﴿و امضُوا حيثُ تُؤمَرُونَ﴾ كأنه كان معهمْ من يهديهم السبيل.

٦٦- ﴿و قَضينَا إليه ذلكَ الأمرَ﴾ أي: تقدمنا إليه في هذا ﴿أنَّ دابرَ هؤلاءِ مقطوعٌ مُصْبِحينَ﴾ أي: وقت الصباح، كقوله في الآية الأخرى ﴿إنَّ موعِدَهُم الصُبحُ أليسَ الصُّبحُ بقريبٍ﴾.

﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾

٦٧- يخبر تعالى عن مجيئ قوم لوط لمَّا علموا بأضيافه، وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين.

٦٨، ٦٩- ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزُونِ﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله، كما قال في سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه.

٧٠، ٧١- فقالوا له مجيبين ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أو ما نهيناك أن تضيف أحداً؟ فأرشدهم إلى نسائهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته. هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبِّحهم من العذاب المنتظر.

٧٢- ولهذا قال تعالى لمحمدﷺ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريفٌ عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض. وعن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال: ما خَلَقَ اللهُ وما ذرأ وما برأ نفساً، أكرم عليه من محمدﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحدٍ غيره، قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ رواه ابن جرير.

وقال قتادة ﴿فِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: في ضلالتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يلعبون؛ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لعيشك ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يترددون.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾

٧٣، ٧٤- يقول تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وهي ما جاءهم به من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السِّجيل عليهم، وقد تقدم الكلام على «السِّجيل» في هود بما فيه كفاية.

٧٥- وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: إنَّ آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد، لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: المتفرسين، وعن ابن عباس والضحاك: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مالك عن بعض أهل المدينة ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: للمتأملين.

وروى ابن جرير: عن أنس بن مالك قال: قال النبيﷺ: «إنَّ لله عباداً يَعْرِفونَ الناسَ بالتَّوسُّم» ورواه الحافظ أبو بكر البزار.

٧٦- وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ أي: وإنَّ قرية سدوم التي أصابها ما أصابها، من القَلْب الصوري

والمعنوي، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة[١]، بطريق مهيع مسالكه مستمرة إلى اليوم، كقوله: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين* وبالليل أفلا تعقلون﴾ وقال مجاهد والضحاك ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾ قال: مُعَلَّم، وقال قتادة: بطريق واضح، وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد، وقال السدي: بكتاب مبين، يعني كقوله: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ ولكن ليس المعنى على ما قال ههنا، والله أعلم.

٧٧- وقوله: ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي: إن الذي صنعنا بقوم لوطٍ من الهلاك والدمار، وإنجائنا لوطاً وأهله، لدلالة واضحة جلية، للمؤمنين بالله ورسله.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩)﴾

٧٨- أصحاب الأيكة هم: قوم شعيب، قال الضحاك وقتادة وغيرهما: الأيكة الشجر الملتف، وكان ظلمهم بشركهم بالله، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة، وعذاب يوم الظُّلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان.

٧٩- ولهذا قال تعالى: ﴿وإنهما لبإمام مبين﴾ أي: طريق مبين، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره: طريق ظاهر، ولهذا لما أنذر شعيب قومه، قال في نذارته إياهم: ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)﴾

٨٠، ٨١- أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم عليه السلام، ومَن كذَّب برسول فقد كذب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات، ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم، بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم، لها شِرْبٌ ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها، قال لهم: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعدٌ غير مكذوب﴾ وقال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾.

٨٢- وذكر تعالى أنهم ﴿كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ أي: من غير خوفٍ ولا احتياج إليها، بل أشراً وبطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحِجْر، الذي مرَّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك، فقنَّع رأسه، وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوتَ القومِ المعذَّبين، إلاَّ أنْ تكونوا باكين، فإنْ لم تبكوا فتباكوا، خشيةَ أنْ يصيبَكم ما أصابهم»[٢].

٨٣- وقوله: ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ أي: وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم، التي ضَنُّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تُضيِّق عليهم في المياه، فما دفعتْ عنهم تلك الأموال ولا نفعتهمْ، لمَّا جاء أمر ربك.

---

(١) وهي المعروفة اليوم بـ «البحر الميت» ولا يعيش فيها شيء! نعوذ بالله من سخطه وعذابه.

(٢) الحديث في البخاري في الصلاة (١/ ٥٣٠) وفي الأنبياء (٦/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩) وفي التفسير (٨/ ٣٨١) ومسلم في الزهد (٤/ ٢٢٨٥ ـ ٢٢٨٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بألفاظ متقاربة.

وقوله هنا: «فإن لمْ تبكُوا فتباكوا» عزاها الحافظ في الفتح (٦/ ٣٨٠) لأحمد، ولم أجدها عنده، والله أعلم.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨٦) ﴾

٨٥- يقول تعالى: **﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية﴾** أي: بالعدل **﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا﴾** الآية، وقال تعالى: **﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾** وقال تعالى: **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا ترجعون* فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾** ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين، في أذاهم له، وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: **﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾**.

و قال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال.

وهو كما قالا، فإن هذه مكية، والقتال إنما شُرع بعد الهجرة.

٨٦- وقوله: **﴿إن ربك هو الخلاق العليم﴾** تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه **﴿الخلاق﴾** الذي لا يعجزه خلق شيء **﴿العليم﴾** بما تمزق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض، كقوله: **﴿أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم* إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون* فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾**.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾

٨٧- يقول تعالى لنبيه ﷺ كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرنَّ إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، حزناً عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك **﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾** أي: ألِنْ لهم جانبكَ، كقوله: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾** وقد اختلف في السبع المثاني ما هي؟ فقال ابن مسعودو ابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم: هي السبع الطُوَل، يعنون: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس، نص عليه ابن عباس وسعيد ابن جبير، وقال شعبة: بيَّن فيهنَّ الفرائض والحدود والقصص والأحكام، وقال ابن عباس: بين الأمثال والخبر والعبر.

و روى ابن أبي حاتم: عن سفيان: «المثاني» المئين: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة سورة واحدة. قال ابن عباس: ولم يعطهنَّ أحد إلا النبي ﷺ وأعطى موسى عليه السلام منهن ثنتين. وقال: أوتي النبي ﷺ سبعاً من المثاني: الطُوَل، وأوتي موسى عليه السلام ستاً، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقي أربع. وقال مجاهد: هي السبع الطوال، ويقال: هي القرآن العظيم.

(و القول الثاني): أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. روى ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس، قال ابن عباس: والبسملة هي الآية السابعة وقد خصكم الله بها(١)، وبه قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن عبيد

(١) ا رواه الطبري عن ابن جريج عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به، و هذا سند ضعيف، و الد ابن جريج عبد العزيز بن جريج، قال البخاري: لا يتابع في حديثه، و قال الحافظ: لين.

ابن عمير وابن أبي مليكة وشهر بن حوشب والحسن البصري ومجاهد، وقال قتادة: ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب، وأنهن يثنين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع، واختاره ابن جرير واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة في أول التفسير، ولله الحمد.

و قد أورد البخاري رحمه الله تعالى ههنا حديثين: أحدهما: عن أبي سعيد بن المعلى قال: مرَّ بي النبيﷺ وأنا أُصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت، فأتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني»؟ فقلت: كنتُ أُصلي، فقال: ألم يقل الله ﴿يا أيها الذينَ آمنُوا استجيبُوا لله وللرّسولِ إذا دعاكمْ﴾؟ ألا أعلِّمك أعظم سورةٍ في القرآن قبل أن أخرج من المسجد، فذهب النبيﷺ ليخرج فذكرتُ، فقال: «﴿الحمد لله ربِّ العالمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتُه».

الثاني: عن أبي هريرةرَضِيَ قال: قال رسول اللهﷺ: «أم القرآنِ هي: السبعُ المثاني والقرآن العظيم».

فهذا نصٌّ في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطول بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿اللهُ نزَّلَ أحسنَ الحديثِ كِتاباً مُتشَابهاً مَّثانِيَ﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإنَّ ذكر الشيء لا ينافي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

٨٨- وقوله: ﴿لا تمدَّنَّ عينيكَ إلى ما متَّعْنا به أزواجاً منهمْ﴾ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم، عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية، ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا مَنْ لم يتغنَّ بالقرآنِ»[(١)] إلى أنه يستغني به عما عداه، وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث، كما تقدم في أول التفسير.

قال العوفي عن ابن عباس ﴿لا تمدَّنَّ عينَيكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مالصاحبه. وقال مجاهد ﴿إلى ما متَّعْنا بهِ أزْواجاً منهمْ﴾ هم الأغنياء.

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

٨٩- ٩٠- يأمر تعالى نبيهﷺ أن يقول للناس: ﴿إنِّي أنا النَّذيرُ المُبينُ﴾ البيِّن النذارة، نذير للناس من عذاب أليم، أن يحل بهم على تكذيبه، كما حلَّ بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام.

و قوله: ﴿المقْتسِمينَ﴾ أي: المتحالفين، أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم ﴿قالُوا تقاسَمُوا باللهِ لنُبيِّتنَّه وأهلَه﴾ الآية، أي: نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا ﴿و أقسمُوا بالله جَهْدَ أيمَانهمْ لا يَبعَثُ اللهُ مَن يمُوتُ﴾ ﴿أولمْ تكُونُوا أقسَمتم مِّن قَبْلُ﴾ الآية، ﴿أهؤلاءِ الذينَ أقسمتمْ لا ينَالُهم اللهُ برحمةٍ﴾؟ فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء من الدنيا، إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبيتنَّه

(١) رواه البخاري في التوحيد (١٣/ ٥٠١).

وأهله.

وفي الصحيحين: عن أبي موسى عن النبيﷺ قال: «إنما مثلي ومثلُ ما بعثني الله به، كمثلِ رجلٍ أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيتُ الجيشَ بعيني، وإني أنا النذيرُ العُريان، فالنَّجاءَ النَّجاءَ، فأطاعه طائفةٌ من قومه فأدلجوا، وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذَّبه طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثلُ مَن أطاعني، واتَّبع ما جئتُ به، ومثل مَن عصاني، وكذَّب ما جئتُ به من الحق».

٩١- وقوله: ﴿الذينَ جَعلُوا القُرآن عِضِينَ﴾ أي: جزَّؤا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، روى البخاري: عن ابن عباس ﴿جَعلُوا القُرآن عِضِينَ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جزَّءوه أجزاء، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وعنه قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهود والنصارى، قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد والحسن والضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم نحو ذلك، وعن عكرمة عن ابن عباس ﴿جَعلُوا القُرآن عِضِينَ﴾ قال: السحر، وقال عكرمة: العضة: السحر بلسان قريش، تقول للساحرة: إنها العاضهة. وقال مجاهد: عضوه أعضاء، قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين، وقال عطاء: قال بعضهم ساحر، وقالوا: مجنون، وقالوا: كاهن فذلك العضين، وكذا روي عن الضحاك وغيره.

٩٢- قوله: ﴿لنسألنَّهمْ أجمعينَ* عمَّا كانُوا يعْملونَ﴾ وروى عبد الرزاق: عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لنسألنَّهمْ أجمعينَ* عمَّا كانُوا يعْملونَ﴾ قال: عن لا إله إلا الله. وقال ابن عيينة: عن عملك وعن مالك. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿فوربِّكَ لنسألنَّهمْ أجمَعينَ* عمَّا كانُوا يعمَلونَ﴾ ثم قال: ﴿فيومَئذٍ لا يُسئلُ عن ذنبهِ إنسٌ ولا جانٌّ﴾ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾

٩٤- يقول تعالى آمراً رسولهﷺ بإبلاغ ما بعثه به وإنفاذه، والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ﴾ أي: امضه، وفي رواية: افعَلْ ما تُؤمَرُ، وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبيﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ﴾ فخرج هو وأصحابه.

٩٥- وقوله: ﴿و أعرِضْ عَنِ المُشْرِكينَ* إنَّا كَفَيناكَ المُسْتَهزِئينَ﴾ أي: بلغ ما أُنزلَ إليكَ مِن ربِّك، ولا تلتفتْ إلى المشركين، الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿وَدُّوا لو تُدهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ولا تخفهم، فإنَّ الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الرَّسُولُ بلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِن ربِّكَ وإن لمْ تفْعلْ فما بلَّغتَ رسالَتَهُ واللهُ يعْصِمُكَ مِن النَّاسِ﴾. وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزئين ـ كما حدثني يزيد ابن رومان عن عروة بن الزبير ـ خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم من بني أسد بن عبد العزى بن قصي: الأسود بن المطلب أبو زمعة كان رسول اللهﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه،

فقال: «اللهمَّ أعم بصره وأثكله ولده» ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ومن بني سهم ابن عمرو بن هُصيص بن كعب بن لؤي: العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد، ومن خزاعة: الحارث بن الطلاطلة ابن عمرو بن الحارث بن عمرو بن ملكان، فلما تمادوا في الشر، وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿فاصدَعْ بما تُؤمَرُ وأعْرِضْ عن المُشْرِكين ۞ إنَّا كفَيْناكَ المُسْتهزئينَ﴾ - إلى قوله - ﴿فسوفَ يَعْلمُونَ﴾ قال ابن إسحاق: فحدَّثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء: أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه فمرَّ به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جراح بأسفل كعب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بسنتين وهو يجرُّ إزاره، وذلك أنه مرَّ برجل من خزاعة يريش نبلاً له، فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش، وليس بشيء، فانتقض به فتقتله، ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه، فخرج على حمار له يريد الطائف فربض على شِبْرقةٍ فدخلت في أخمص قدمه فقتلته، ومرَّ به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحاً فقتله.

وكذا روي عن مجاهد ومقسم وقتادة وغير واحد: أنهم كانوا خمسة، وقال الشعبي: كانوا سبعة، والمشهور الأول.

٩٦- وقوله: ﴿الذينَ يَجعَلُونَ مع اللهِ إلهاً آخرَ فسوفَ يعْلَمُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

٩٧، ٩٨- وقوله: ﴿ولقَدْ نَعْلَمُ أنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بما يقُولُونَ ۞ فسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ وكُن مِّنَ السَّاجدينَ﴾ أي: وإنا لنعلم يا محمد، أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض، فلا يهيدنك ذلك، ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل عليه، فإنه كافيك، وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله، وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة، ولهذا قال: ﴿فسبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ وكُن مِّنَ السَّاجدينَ﴾.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن نعيم بن هَمَّار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار، أكْفِكَ آخره» ورواه أبو داود والنسائي بنحوه.

ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى.

٩٩- وقوله: ﴿واعبُدْ ربَّكَ حتَّى يأتِيَكَ اليَقِينُ﴾ قال البخاري: قال سالم: الموت، وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر، كما رواه ابن جرير بسنده عنه. وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره، والدليل على ذلك قوله تعالى، إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿لَمْ نكُ مِنَ المُصَلِّينَ ۞ ولَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ ۞ وكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضينَ ۞ وكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدِّينِ ۞ حتَّى أتانَا اليَقِينُ﴾.

وفي الصحيح: عن أمِّ العلاء امرأة من الأنصار: أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه»؟ فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير».

و يستدل بهذه الآية الكريمة ، وهي قوله : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها ، واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً ، فيصلي بحسب حاله ، كما ثبت في صحيح البخاري : عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «صَلِّ قائماً ، فإنْ لم تستطعْ فقاعداً ، فإنْ لم تستطعْ فعلى جنب» .

و يستدل بها على تخطئة مَن ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين : المعرفة ! فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ! وهذا كفرٌ وضلال وجهل ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته ، وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أعبد الناس ، وأكثر الناس عبادةً ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين ههنا : الموت كما قدمناه ، ولله الحمد والمنة ، والحمد لله على الهداية ، وعليه الاستعانة والتوكل ، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها ، فإنه جواد كريم .

ترتيبها ١٦ — سورة النحل ـ مكية — آياتها ١٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①﴾

١ - يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها، معبراً بصيغة الماضي، الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: قرب ما تباعد ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على «الله» ويحتمل أن يعود على «العذاب» وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

و قد ذهبَ الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال في قوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: فرائضه وحدوده. وقد رده ابن جرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها، بخلاف العذاب، فإنهم استعجلوه قبل كونه استبعاداً وتكذيباً؛ قلت: كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

و روى ابن أبي حاتم: عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكمْ عند الساعة سحابةٌ سوداءُ مِن المغرب مِثل التِّرس، فما تزال ترتفعُ في السماء، ثم ينادي مناد فيها: أيها الناس، فيقبل الناس بعضهمْ على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس، فيقول الناس بعْضهمْ لبعض: هل سمعتمْ؟ فيقولون: نعم، ثم يُنادي الثالثة: أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعْجلوه» قال رسول الله ﷺ: «فوالذي نفسي بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإنَّ الرجل ليمدَّنَّ حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً ـ قال ـ ويشتغل الناس».

ثم إنه تعالى نزَّه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه، من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ②﴾

٢ - يقول تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أي: الوحي، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

و قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم: الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۞ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

و قوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوا﴾ أي: لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري،

وعَبَد غيري.

﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) ﴾

٣- يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي، وهو: السموات، والعالم السفلي، وهو: الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق، لا للعبث بل **﴿ليجزي الذينَ أساءُوا بما عَمِلُوا ويَجزيَ الذينَ أحسَنُوا بالْحُسْنَى﴾**. ثم نزَّه نفسه عن شرك مَن عَبَد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أنْ يُعْبد وحده لا شريك له.

٤- ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي: مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرَجَ إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إنما خُلقَ ليكون عبداً لا ضداً، كقوله تعالى: **﴿و هوَ الذي خلقَ مِن الماءِ بشراً فجَعَلهُ نَسَباً وصِهْراً وكانَ ربُّكَ قديراً* ويعْبُدُونَ مِن دونِ اللهِ مالاَ ينفعُهمْ ولا يضرُّهمْ وكانَ الكافرُ على ربِّهِ ظهيراً﴾** وقوله: **﴿أولمْ يرَ الإنسانُ أنَّا خلقْناهُ مِن نُطْفةٍ فإذا هوَ خصيمٌ مُبينٌ* وضربَ لنا مثلاً ونسيَ خلقَهُ قالَ مَن يُحْيي العِظامَ وهيَ رميمٌ* قُلْ يُحْييها الذي أنشأهَا أوَّلَ مرةٍ وهوَ بكلِّ خلقٍ عليمٌ﴾**.

و في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه: عن بشر بن جحاش قال: بَصَقَ رسولُ اللهِ ﷺ في كفِّه، ثم قال: يقول الله تعالى ابن آدم: أنى تُعْجزني وقد خلقْتكَ مِن مثل هذه، حتى إذا سويتُكَ فعدلتُكَ، مشيتَ بين بُرديكَ وللأرض منكَ وئيد، فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغَتِ الحلقوم، قلتَ: أتصدق؟ وأنى أوان الصدقة؟».

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾

٥، ٦- يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي: الإبل والبقر والغنم، كما فصَّلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها، يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، ومالهم فيها من الجَمال وهو الزينة، ولهذا قال: **﴿و لكمْ فيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾** وهو وقت رجوعها عيشاً من المرعى، فإنها تكون أمده خواصر، وأعظمه ضروعاً وأعلاه أسنمة **﴿و حينَ تَسرَحونَ﴾** أي: غُدوة حين تبعثونها إلى المرعى.

٧- **﴿و تَحْملُ أثقالكمْ﴾** وهي: الأحمال الثقيلة، التي تعجزون عن نقلها وحملها **﴿إلَى بلدٍ لمْ تكُونُوا بالغيهِ إلاَّ بشِقِّ الأنفُسِ﴾** وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك، تستعْملونها في أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كقوله: **﴿و إنَّ لكمْ في الأنعامِ لعِبْرةً نُسْقِيكمْ ممَّا في بُطُونهَا ولكمْ فيهَا منافعُ كثيرةٌ ومِنها تأكُلونَ* وعلَيْها وعلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾**، وقال تعالى: **﴿اللهُ الذي جَعَلَ لكم الأنعامَ لتَرْكبُوا مِنها ومِنها تأكُلُونَ* ولكمْ فيهَا مَنافعُ ولتَبلُغُوا عليهَا حاجةً في صدُورِكمْ وعلَيْها وعلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ* ويُريكمْ آياتِهِ فأيَّ آياتِ اللهِ تُنكِرُونَ﴾**.

ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النِّعم ﴿إنَّ ربَّكُمْ لرءوفٌ رحِيمٌ﴾ أي: ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كقوله: ﴿أولمْ يرَوْا أنَّا خَلَقْنَا لهمْ ممَّا عمِلتْ أيدِينَا أنعاماً فهمْ لهَا مالِكُونَ ❁ وذلَّلْنَاهَا لهمْ فَمِنهَا رَكُوبُهمْ ومِنهَا يأكُلُونَ﴾ وقال: ﴿و جَعَلَ لكمْ مِنَ الفُلْكِ والأنعام ما تَركَبُونَ ❁ لِتَستَوُوا على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذكُرُوا نِعْمةَ ربِّكمْ إذا استَوَيْتمْ عليهِ وتَقُولُوا سُبحانَ الذِي سَخَّرَ لَنا هذَا ومَا كُنَّا لهُ مُقْرِنينَ ❁ وإنَّا إلَى ربِّنَا لمُنقَلِبُونَ﴾.

قال ابن عباس ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ﴾ أي: ثيابٌ، والمنافع: ما ينتفعون به من الأطعمة والأشربة، وقال مجاهد: ﴿لكُمْ فِيهَا دِفءٌ﴾ أي: لباس يُنسَجُ ﴿و مَنافعُ﴾ مركبٌ ولحم ولبن، وقال قتادة: دفء ومنافع، يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة، وكذا قال غير واحد من المفسرين بألفاظ متقاربة.

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾

٨- هذا صنفٌ آخر مما خَلَقَ تبارك وتعالى لعباده، يمتنُّ به عليهم وهو الخيل والبغال والحمير، التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولمَّا فضَّلها من الأنعام وأفردها بالذكر، استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك، على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله، ومن وافقه من الفقهاء، بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير: عن مولى نافع بن علقمة عن ابن عباس: أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿و الأنعامَ خلقَهَا لكمْ فيها دفءٌ ومنافعُ ومِنها تأكُلونَ﴾ فهذه للأكل ﴿و الخيلَ والبغالَ والحَميرَ لتَركَبُوها﴾ فهذه للركوب، وكذا روي من طريق سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس بمثله، وقال مثل ذلك: الحكم ابن عتيبة أيضاً رحمه الله، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده: عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير. وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدم، وفيه كلام[1].

فلو صحَّ هذا الحديث لكان نصاً في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين: عن جابر بن عبد الله قال: نَهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحُمُر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل.

و رواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم: عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل.

و في صحيح مسلم: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة. فهذه أدلُّ وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء: مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم.

و روى عبد الرزاق: عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية، فذلَّلها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البغال. وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها، مع أنه قد نهى عن إنزاء الحمر على الخيل، لئلا ينقطع النسل، روى الإمام أحمد: عن دحية الكلبي قال: قلت: يا رسول الله، ألا أحمل لك حماراً أعلى فرس، فتنتج لك بغلاً فتركبها؟ قال: «إنما يفعلُ ذلك الذين لا يعْلمونَ».

---

(١) هو ضعيف الحديث، فالحديث لا يصح.

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) ﴾

٩- لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يُسار عليه في السُبل الحسية، نبَّه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كقوله تعالى: ﴿و تزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وقال تعالى: ﴿يابَنِي آدمَ قدْ أنزَلْنا عليكمْ لباساً يُوارِي سوآتِكمْ وريشاً ولباسُ التَّقْوَى ذلكَ خيرٌ﴾ ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها، ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة، والأسفار الشاقة؛ شَرَعَ في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبيَّن أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: ﴿و علَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ كقوله: ﴿و أنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ولاَ تتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بكمْ عن سبيلِهِ﴾ وقال: ﴿قالَ هذا صراطٌ عليَّ مُسْتَقيمٌ﴾. قال مجاهد في قوله: ﴿و علَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ قال: طريق الحق على الله، وقال السدي ﴿و علَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ الإسلام، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿و علَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يقول: وعلى الله البيان، أي: يبيِّن الهُدَى والضلالة، وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه، وكذا قال قتادة والضحاك، وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثَمَّ طرقاً تُسْلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة، والأعمال فيها مردودة.

و لهذا قال تعالى: ﴿و مِنْها جائِرٌ﴾ أي: حائد مائل زائغ عن الحق، قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية. وقرأ ابن مسعود ﴿و منكمْ جائِرٌ﴾.

ثم أخبر تعالى أن ذلك كله، كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: ﴿و لوْ شاءَ لهداكمْ أجْمَعِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿و لوْ شاءَ لآمنَ مَن في الأرضِ كلُّهمْ جمِيعاً﴾ وقال: ﴿و لوْ شاءَ ربُّكَ لجعَلَ الناسَ أمةً واحدةً ولا يزالُونَ مُخْتَلِفِينَ ◆ إلاَّ مَن رحمَ ربُّكَ ولذلكَ خلقَهمْ وتمَّتْ كلمةُ ربِّكَ لأملأنَّ جهنَّمَ مِن الجنَّةِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ﴾.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) ﴾

١٠- لما ذكَرَ تعالى ما أنعم به عليهمْ من الأنعام والدواب، شرَعَ في ذكر نِعْمتِهِ عليهم، في إنزال المطر من السماء، وهو العلو، مما لهم فيه بُلغةٌ ومتاع لهم ولأنعامهمْ، فقال: ﴿لكمْ مِّنْهُ شرابٌ﴾ أي: جعله عذْباً زُلالاً يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أُجاجاً ﴿و مِنهُ شجرٌ فيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم. وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد في قوله: ﴿فيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون، ومنه: الإبل السائمة، والسوم الرعي.

١١- وقوله: ﴿يُنبتُ لكمْ بهِ الزرْعَ والزيتُونَ والنَّخِيلَ والأعْنابَ ومِن كلِّ الثَّمراتِ﴾ أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: ﴿إنَّ في ذلكَ لآيَةً لقوم يتَفكَّرونَ﴾ أي: دلالة وحجة، على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أمَّنْ خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وأنزَلَ لكمْ مِّن السماءِ ماءً فأنبتْنا بهِ حدائِقَ ذاتَ بَهْجةٍ ما كانَ لكمْ أنْ تُنبِتُوا شَجَرها أَإلهٌ معَ اللهِ بلْ همْ

قومٌ يَعْدِلُونَ﴾. ثم قال تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) ﴾

١٢ - يُنبِّه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت، والسيارات في أرجاء السموات، نوراً وضياءً ليُهْتَدَى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مُقدَّرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه، وتسخيره وتقديره وتسهيله، كقوله: **﴿إنَّ ربَّكم اللهُ الذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ استوَى على العَرْشِ يُغْشِي الليلَ النَّهارَ يَطلُبُهُ حثيثاً والشَّمْسَ والقمرَ والنُّجُوم مسخَّراتٍ بأمرِهِ ألا لهُ الخَلْقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالَمِينَ﴾**. و لهذا قال: **﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يعْقِلُونَ﴾** أي: لدلالات على قدرته تعالى الباهرة، وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.

١٣ - وقوله: **﴿وما ذرأَ لكمْ في الأرضِ مُخْتلِفاً ألوانُهُ﴾** لما نبَّه تعالى على معالم السموات، نبه على ما خلق في الأرض، من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنبات والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص **﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يذَّكَّرونَ﴾** أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾

١٤ - يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتنُّ على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره، أي: تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح، وقيل: تمخره بجُؤجئها، وهو صدرها المُسَنَّم، الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثاً عن أبيهم نوح ﷺ، فإنه أول مَن ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسيّرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى هنا وما هنا إلى هناك، ولهذا قال تعالى: **﴿ولِتَبْتغوا مِن فضلِهِ ولعلَّكمْ تَشكُرونَ﴾** أي: نعمه وإحسانه.

١٥ - ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات، والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي: تضطرب بما عليها من الحيوانات، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: **﴿والجِبالَ**

أرْسَاهَا﴾ روى عبد الرزاق : عن قتادة سمعت الحسن يقول : لما خُلقت الأرض كانت تميد ، فقالوا : ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً ، فأصبحوا وقد خُلقت الجبال ، فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال .

و عن الحسن عن قيس بن عُباد نحوه .

و روى ابن جرير : عن علي بن طالب رضي الله عنه قال : لما خلق الله الأرض قمصت ، وقالت : أي رب تجعل عليَّ بني آدم يعملون الخطايا ، ويعْملون على الخبث ؟ قال : فأرسى الله فيها من الجبال ما ترون ومالا ترون ، فكان إقرارها كاللحم يترجرج .

و قوله : **﴿و أنهاراً وسُبُلاً﴾** أي : جعل فيها أنهاراً ، تجري من مكان إلى مكان آخر ، رزقاً للعباد ، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر ، فيقطع البقاع والبراري والقفار ، ويخترق الجبال والآكام ، فيصل إلى البلد الذي سُخِّر لأهله ، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة ، وجنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً ، ما بين صغار وكبار وأودية ، تجري حيناً وتنقطع في وقت ، وما بين نبع وجمع ، وقوي السير وبطئه ، بحسب ما أراد وقدَّر وسخر ويسر ، فلا إله إلا هو ولا ربَّ سواه .

و كذلك جعل فيها **﴿سُبُلاً﴾** أي : طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد ، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل ، حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً ، كما قال تعالى : **﴿و جَعَلْنا فيهَا فِجاجاً سُبُلاً﴾** الآية .

١٦- وقوله : **﴿و علامَاتٍ﴾** أي : دلائل من جبال كبار ، وآكام صغار ، ونحو ذلك يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطرق . وقوله : **﴿و بالنَّجْمِ همْ يَهْتَدُونَ﴾** أي : في ظلام الليلِ ، قاله ابن عباس . وعن مالك في قوله : **﴿و علاماتٍ وبالنَّجْمِ همْ يهْتدُونَ﴾** يقول : النجوم وهي الجبال .

١٧- ثمَّ نبَّه تعالى على عظمته ، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له ، دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً ، بل هم يخلقون ، ولهذا قال : **﴿أفمَن يَخلقُ كمَن لا يَخلقُ أفلاَ تذكَّرونَ﴾** ؟

١٨- ثم نبّههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم ، فقال : **﴿و إن تَعُدُّوا نِعمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إنَّ الله لغفُورٌ رحِيمٌ﴾** أي : يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ، ولو عذَّبكم لعذَّبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ويجازي على اليسير . وقال ابن جرير : يقول : **﴿إنَّ اللهَ لغفورٌ﴾** لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك ، إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته ، **﴿رحِيمٌ﴾** بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) ﴾

١٩- يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر ، كما يعْلم الظواهر ، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة ، إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشر .

٢٠- ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يَخلقون شيئاً ، وهم يُخلقون ، كما قال الخليل **﴿أتعبُدُونَ ما تَنحِتُونَ ❁ واللهُ خَلَقَكمْ وما تَعْمَلُونَ﴾** .

٢١- **﴿أمواتٌ غَيْرُ أحياءٍ﴾** أي : هي جمادات لا أرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعْقل **﴿و مَا**

﴿يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يُرتجى عند هذه نفعٌ أو ثواب أو جزاء؟ إنما يُرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾

٢٢- يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تُنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وقوله: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن عبادة الله، مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

٢٣- ولهذا قال هنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾

٢٤- يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ مُعرضين عن الجواب ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يُتلى علينا أساطيرُ الأولين، أي: مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: يفترون على الرسول، ويقولون أقوالا متضادة مختلفة، كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وذلك أن كل مَن خَرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلفه لهم شيخهم الوحيد، المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لما ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: يُنقل ويحكى، فتفرقوا عن قوله ورأيه، قبحهم الله.

٢٥- قال الله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: إنَّما قدّرنا عليهم أن يقولوا ذلك، ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي: يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم، واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «مَنْ دَعا إلَى هُدى كان له من الأجْر، مِثل أُجورِ من اتَّبعهُ، لا ينقصُ ذلكَ من أُجورِهمْ شيئاً، ومَن دعا إلى ضلالةٍ، كان عليهِ من الإثم مِثْلَ آثام مَن اتَّبعه، لا ينقص ذلكَ مِنْ آثامهمْ شيئاً»(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وهكذا روى العوفي عن ابن عباس في الآية (أنها مثلها)، وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم، وذنوب من أطاعهمْ، ولا يخفف عمن أطاعهمْ من العذابِ شيئاً.

---

(١) رواه مسلم في العلم (٤/ ٢٠٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) ﴾

٢٦- قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قال: هو النمرود الذي بنى الصرح، قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد نحوه. وروى عبد الرزاق: عن زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض النمرود، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جباراً أربعمائة سنة، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه، ثم أماته وهو الذي بنى الصرح إلى السماء، الذي قال الله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾.

و قال آخرون: بل هو بختنصر، وذكروا من المكر الذي حكاه الله ههنا، كما قال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

و قال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله، وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ أي: احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة، و أمالوهم إلى شركهم بكلّ وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾ الآية.

و قوله: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: اجتثه من أصله، وأبطل عملهم، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾، وقال الله ههنا: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾.

٢٧- ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تُجنّه ضمائرهم، فيجعله علانية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تظهر وتشتهر، كما في الصحيحين: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنصَبُ لكل غادر لواءٌ يوم القيامة عند إسته، بقدر غدرته، فيقال: هذه غَدْرةُ فلان بن فلان».

و هكذا هؤلاء يَظهر للناس ما كانوا يُسرونه من المكر، ويخزيهم الله على رءوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مُقرّعا لهم وموبخا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم، أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾.

فإذا توجَّهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقَّت عليهم الكلمة، وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله، وأشرك به مالا يضره ومالا ينفعه.

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا

كُنتم تعملون (٢٨) فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين (٢٩) ﴾

٢٨- يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم، ومجيء الملائكة إليهم، لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فألقوا السلم﴾ أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد، قائلين ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ كما يقولون يوم المعاد: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ قال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك: ﴿بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾.

٢٩- ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين﴾ أي: بئس المقيل والمقام والمكان، من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله، واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾ كما قال الله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾.

﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين (٣٠) جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين (٣١) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون (٣٢) ﴾

٣٠- هذا خبر عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ قالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً، إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا ﴿خيراً﴾ أي: أنزل خيرا، أي: رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أي: من أحسن عمله في الدنيا، أحسن الله إليه عمله في الآخرة والدنيا، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير، أي من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ وقال تعالى: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ وقال لرسوله ﷺ ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ ثم وصف الدار الآخرة فقال: ﴿ولنعم دار المتقين﴾.

وقوله: ﴿جنات عدن﴾ بدل من دار المتقين، أي: لهم في الآخرة جنات عدن، أي: مقام يدخلونها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي: بين أشجارها وقصورها ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ كقوله: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾، ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾ أي: كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه، وأحسن عمله.

٣٢- ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون، أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل

عليهم الملائكةُ أن لا تخافُوا ولا تحزنُوا وأبْشِرُوا بالجنّةِ التي كُنتمْ توعدُونَ﴾ نحنُ أولياؤُكمْ في الحَياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ ولكمْ فيهَا ما تَشْتَهِي أنفسكمْ ولكمْ فِيهَا ما تَدَّعُونَ﴾ نُزُلاً مِّن غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر، عند قوله تعالى: **﴿يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمنُوا بالقَولِ الثّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ ويُضِلُّ اللهُ الظّالِمِينَ ويفعَلُ اللهُ ما يشاءُ﴾**.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) ﴾

٣٣- يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل، واغترارهم بالدنيا، هل ينتظرون هؤلاء إلا الملائكة أنْ تأتيهم لقبض أرواحهم، قاله قتادة **﴿أو يأتِيَ أمرُ ربِّكَ﴾** أي: يوم القيامة، وما يعاينونه من الأهوال.

وقوله: **﴿كذلكَ فَعلَ الذينَ مِن قبْلِهِمْ﴾** أي: هكذا تمادى في شركهم: أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين، حتى ذاقوا بأسَ الله، وحلُّوا فيما هم فيه من العذاب والنكال **﴿ومَا ظلَمهم اللهُ﴾** لأنه تعالى أعذَرَ إليهم، وأقام حججه عليهم، بإرسال رسله، وإنزال كتبه **﴿ولكِن كانُوا أنفُسهمْ يظلِمُونَ﴾** أي: بمخالفة الرسل، والتكذيب بما جاءوا به.

٣٤- فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك **﴿وحاقَ بهمْ﴾** أي: أحاط بهم من العذاب الأليم **﴿ما كانُوا بهِ يستهزِئُونَ﴾** أي: يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله، فلهذا يقال لهم يوم القيامة **﴿هذهِ النارُ التِي كُنتمْ بهَا تُكذِّبُونَ﴾**.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧) ﴾

٣٥- يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك، واعتذارهم محتجين بالقَدَر، بقولهم: **﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما عبَدْنا مِن دونِهِ مِن شيءٍ نَّحنُ ولا آباؤُنا ولا حرَّمْنا مِن دونه مِن شيءٍ﴾** أي: من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، ما لم ينزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم: أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكَّننا منه!

قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم **﴿فهلْ علَى الرُّسُلِ إلاَّ البلاغُ المُبِينُ﴾** أي: ليس الأمر كما تزعمُون، أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي.

٣٦- وبَعَثَ **﴿في كلِّ أُمّةٍ﴾** أي: في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله، وينهون عن عبادة ما سواه **﴿أنِ اعبُدُوا اللهَ واجتَنِبُوا الطّاغُوتَ﴾** فلم يزلْ تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك،

منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: **﴿و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنّهُ لا إله إلاّ أنا فاعبُدُونِ﴾** وقوله تعالى: **﴿و اسئلْ مَنْ أرسلنا من قبلكَ من رُسُلنا أجعلنا من دونِ الرَّحمنِ آلهةً يُعبَدُونَ﴾** وقال تعالى في هذه الآية الكريمة **﴿و لقدْ بَعثْنا في كلّ أُمّةٍ رَسُولاً أن اعبُدوا اللهَ واجتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾** فكيف يسوغ لأحدٍ من المشركين بعد هذا أن يقول **﴿لوْ شاءَ اللهُ ما عبدْنا من دونه من شيءٍ﴾** فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله. وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلكَ قَدراً، فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها، من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: **﴿فمنهمْ مَّنْ هَدَى اللهُ ومِنهم مَّنْ حقّتْ عليهِ الضلالةُ فسيرُوا في الأرضِ فانظرُوا كيفَ كانَ عاقِبةُ المُكذِّبينَ﴾** أي: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل، وكذب الحق، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فقال: **﴿و لقدْ كذَّبَ الذينَ مِن قبْلِهمْ فكيفَ كانَ نكيرِ﴾**.

٣٧- ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أنَّ حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كقوله تعالى: **﴿و مَن يُرِدِ اللهُ فتنتَهُ فلَن تَملِكَ لهُ مِن اللهِ شيئاً﴾** وقال نوح لقومه **﴿و لاَ ينفعُكمْ نُصْحِي إنْ أردتُ أنْ أنصحَ لكمْ إنْ كـانَ اللهُ يُريدُ أن يُغـويكمْ﴾** وقـال في هذه الآية الكريمة **﴿إن تَحرِصْ على هُداهمْ فإنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾** كما قال الله: **﴿مَن يُضْلِلْ فلاَ هاديَ لهُ ويَذَرُهمْ في طُغْيانِهمْ يَعْمَهُونَ﴾** وقال تعالى: **﴿إنَّ الذينَ حقّتْ عليهمْ كَلِمةُ ربِّكَ لا يُؤمِنُونَ ۞ ولوْ جاءَتْهمْ كُلُّ آيةٍ حتّى يروُا العذابَ الأليمَ﴾**.

و قوله: **﴿فإنَّ اللهَ﴾** أي: شأنه وأمره أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلهذا قال: **﴿لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾** أي: من أضلَّه، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي: لا أحد **﴿و مَالهم مِّن ناصِرِينَ﴾** أي: ينقذونهم من عذابه ووثاقه، **﴿ألا لهُ الخَلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ﴾**.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) ﴾

٣٨- يقول تعالى مخبراً عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا **﴿باللهِ جَهْدَ أيمَانِهمْ﴾** أي: اجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان، على أنه **﴿لا يَبْعثُ اللهُ مَن يمُوتُ﴾** أي: استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذباً لهم، ورداً عليهم **﴿بلَى﴾** أي: بلى سيكون ذلك **﴿وعْداً عليهِ حقاً﴾** أي: لا بد منه **﴿و لكن أكثرَ الناسِ لاَ يَعلمُونَ﴾** أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر.

٣٩- ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد، وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: **﴿ليُبيِّنَ لهمْ﴾** أي: للناس **﴿الذِي يختلفُونَ فيهِ﴾** أي: من كل شيء **﴿و يجزِيَ الذينَ أساءُوا بما عملُوا ويجزيَ الذينَ أحسنُوا بالْحُسْنَى﴾** **﴿و ليَعْلَمَ الذينَ كفَرُوا أنّهمْ كانُوا كاذِبِينَ﴾** أي: في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت، ولهذا يُدَعُّونَ إلى نار جهنم دعّاً، وتقول لهم الزبانية: **﴿هذهِ النّارُ التِي كُنتمْ بها تُكذِّبُونَ ۞ أفسِحْرٌ هذا أمْ أنتمْ لاَ تُبْصِرُونَ ۞﴾**

اصْلَوْهَا فاصبِرُوا أوْ لاَ تَصْبِرُوا سواءٌ عليكمْ إنَّما تُجزَوْنَ ما كنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

٤٠ - ثم أخر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون، والمعاد من ذلك، إذا أراد كونه، فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كقوله: ﴿و ما أمرُنا إلاَّ واحِدةٌ كلمحٍ بالبَصَرِ﴾ وقال: ﴿ما خلقُكمْ ولاَ بَعْثُكمْ إلاَّ كنفسٍ واحِدةٍ﴾.

و قال في هذه الآية الكريمة: ﴿إنَّما قولُنا لشيءٍ إذا أردْناهُ أنْ نَقُولَ لهُ كُن فيكُونُ﴾ أي: أن نأمر به مرة واحدة، فإذا هو كائن.

أي: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه الواحد القهار العظيم، الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وو روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة يقول: قال الله تعالى: شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك. فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿و أقسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيمانِهِمْ لا يَبْعثُ اللهُ مَن يَمُوتُ﴾ قال: وقلت: ﴿بلَى وعداً عليهِ حقاً ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمُونَ﴾ وأما شتمه إياي فقال: ﴿إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ﴾ وقلت: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ❁ اللهُ الصَّمَدُ❁ لمْ يلِدْ ولمْ يُولَدْ❁ ولمْ يَكُن لهُ كُفُواً أحَدٌ﴾» هكذا ذكره موقوفاً، وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

٤١ - يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه. و يحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة، الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد، في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صدِّيق وصدِّيقة رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة، في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿لنُبوِّئنَّهمْ في الدُّنيا حسنةً﴾ قال ابن عباس والشعبي وقتادة: المدينة، وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد، ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإنَّ من ترك شيئاً لله عوَّضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكَّن الله لهم في البلاد، وحكَّمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكاماً، وكل منهم للمتقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿و لأجرُ الآخرةِ أكبَرُ﴾ أي: مما أعطيناهمْ في الدنيا ﴿لوْ كانُوا يعْلمونَ﴾ أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم، يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله.

٤٢ - ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الذينَ صبرُوا وعلَى ربِّهمْ يتوكَّلُونَ﴾ أي: صبروا على الأذى من قومهم، متوكلين على الله، الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ

وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾

٤٣- قال الضحاك عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكر العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله: **﴿أكانَ للنَّاسِ عَجَباً أنْ أوحَيْنَا إلَى رجُلٍ مِّنهُمْ أنْ أنذِرِ النَّاسَ﴾** الآية، وقال: **﴿و ما أرسَلْنَا مِن قبْلِكَ إلاَّ رِجالاً نُّوحِي إليهِمْ فاسألُوا أهلَ الذِّكْرِ إن كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾** يعني: أهل الكتب الماضية، أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإنْ كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً، فلا تنكروا أن يكون محمدﷺ رسولاً. قال تعالى: **﴿و ما أرْسلْنَا مِن قبْلِكَ إلاَّ رِجالاً نُّوحِي إليهمْ مِّنْ أهلِ القُرَى﴾** ليسوا من أهل السماء كما قلتم.

و كذا روى عن مجاهد عن ابن عباس، أنَّ المراد بأهل الذكر أهل الكتاب، قاله مجاهد والأعمش، وقول عبد الرحمن بن زيد: الذكر: القرآن، واستشهد بقوله: **﴿إنَّا نحنُ نزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لهُ لحافِظُونَ﴾** صحيح، لكن ليس هو المراد ههنا، لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه، وكذا قول أبي جعفر الباقر: نحن أهل الذكر، ومراده أن هذه الأمة: أهل الذكر، صحيح، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة. وعلماء أهل بيت رسول الله عليهم السلام والرحمة من خير العلماء، إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلي وابن عباس، وابني علي الحسن والحسين، ومحمد ابن الحنفية، وعلى بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسن وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعَرَف لكل ذي حق حقه، ونزَّل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله، واجتمعت عليه قلوب عباده المؤمنين.

و الغرض أن هذه الآية الكريمة، أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمدﷺ، كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: **﴿قُلْ سُبْحانَ ربِّي هلْ كنتُ إلاَّ بشَراً رسولاً﴾ ﴿وما منعَ النَّاسَ أن يُؤْمِنُوا إذْ جاءَهُم الهُدَى إلاَّ أن قالُوا أبَعثَ اللهُ بشَراً رسُولاً﴾**؟ وقال تعالى: **﴿و ما أرسلْنَا قبْلكَ مِنَ المُرْسَلِينَ إلاَّ إنَّهمْ ليأكُلُونَ الطَّعامَ ويمْشُونَ في الأسْواقِ﴾**، وقال تعالى: **﴿و ما جَعلْناهمْ جَسَداً لاَ يَأكُلُونَ الطَّعامَ وما كَانُوا خالِدِينَ﴾**، وقال: **﴿قُلْ ما كنتُ بِدْعاً مِن الرُّسُلِ﴾**، وقال تعالى: **﴿قُلْ إنَّما أنا بشَرٌ مِّثْلُكمْ يُوحَى إليَّ﴾**، ثم أرشد الله تعالى مَن شك في كون الرسل كانوا بشراً، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة، عن الأنبياء الذين سلفوا، هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة؟

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم **﴿بالبيِّناتِ﴾** أي: بالحجج والدلائل **﴿و الزُّبُرِ﴾** وهي: الكتب، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم، والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زَبرتُ الكتاب إذا كتبته. وقال تعالى: **﴿وكلُّ شيءٍ فعَلُوهُ في الزُّبُرِ﴾**، وقال: **﴿و لقدْ كتبْنا في الزَّبُورِ مِن بعدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يرِثُها عِبادِيَ الصالِحونَ﴾**.

ثم قال تعالى: **﴿و أنزلْنا إليكَ الذِّكْرَ﴾** يعني: القرآن **﴿لِتُبيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهِمْ﴾** أي: من ربهم، أي: لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك، وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق، وسيد ولد آدم، فتُفصِّل لهمْ ما أُجمل، وتبين لهم ما أَشكل **﴿و لعلَّهمْ يتفكَّرُونَ﴾** أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون، فيفوزون بالنجاة في الدارين.

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾

٤٥- يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة، الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على أنْ يخسف بهم الأرض، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كقوله تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ◆ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

٤٦- وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: في تقلُّبهمْ في المعايش، واشتغالهم بها في أسفار ونحوها من الأشغال الملهية. قال قتادة والسدي: تقلبهم أي: أسفارهم، وقال مجاهد والضحاك وقتادة ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ في الليل والنهار، كقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ ◆ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

و قوله: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه.

٤٧- وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد. ولهذا قال العوفي عن ابن عباس ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا روي عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: حيث لم يُعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين: «لا أحد أصبَرَ علَى أذًى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم». وفيهما: «إنَّ الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلته» ثم قرأ رسول اللهﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) ﴾

٤٨- يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه، الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها، جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أنَّ كل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشياً، فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس، سجد كل شيء لله عزوجل. وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم، وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيؤه، وذكر الجبال، قال: سجودها فيؤها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته.

٤٩- ونزّلهم منزلة مَن يعقل إذْ أسند السجود إليهم، فقال: ﴿و لله يَسْجُدُ ما في السَّموات وما في الأرض مِن دابَّةٍ﴾ كما قال: ﴿و لله يَسْجُدُ مَن في السَّموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالُهم بالغُدُوِّ والآصال﴾.

وقوله: ﴿و الملائكةُ وهم لا يستكبِرون﴾ أي: تسجد لله، أي: غير مستكبرين عن عبادته.

٥٠- ﴿يخافُونَ ربَّهم مِّن فوقهم﴾ أي: يسجدون، خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿ويفعلونَ مايُؤمرونَ﴾ أي: مثابرين على طاعته تعالى، وامتثال أوامره، وترك زواجره.

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾

٥١- يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه ﴿و لهُ الدِّينُ واصِباً﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدي وقتادة وغير واحد: أي: دائماً، وعن ابن عباس أيضاً: أي: واجباً، وقال مجاهد: أي: خالصاً، أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: ﴿أفغيرَ دينِ اللهِ يبْغونَ ولهُ أسلمَ مَن في السَّمواتِ والأرضِ طوعاً وكرهاً وإليه يُرْجعُونَ﴾ هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخير، وأما على قول مجاهد، فإنه يكون من باب الطلب، أي: ارهبوا أنْ تُشركوا بي شيئاً، وأخلصوا لي الطاعة، كقوله تعالى: ﴿ألا للهِ الدِّينُ الخالِص﴾.

٥٣- ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر، فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم ﴿ثمَّ إذا مسَّكم الضُرُّ فإليهِ تجأرُونَ﴾ أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه، وتسألونه وتُلحُّون في الرغبة إليه، مستغيثين به، كقوله تعالى: ﴿و إذا مسَّكُم الضُرُّ في البحرِ ضلَّ مَن تدعُونَ إلاَّ إيَّاهُ فلمَّا نجاكُم إلَى البرِّ أعرضتُمْ وكانَ الإنسانُ كفوراً﴾.

٥٤- وقال ههنا: ﴿ثمَّ إذا كشَفَ الضُرَّ عنكمْ إذا فريقٌ مِّنكمْ بربِّهمْ يُشرِكونَ ◆ ليكفُرُوا بما آتيناهمْ﴾ قيل: اللام ههنا لام العاقبة، وقيل: لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك.

٥٥- ﴿ليكفُروا﴾ أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً: ﴿فتمتَّعُوا﴾ أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فسوفَ تعلَمونَ﴾ أي: عاقبة ذلك.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) ﴾

٥٦- يخبر تعالى عن قبائح المشركين ، الذين عبدوا مع الله غيره ، من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم ، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله ، فقالوا : ﴿هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾ أي : جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله ، وفضّلوها على جانبه ، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ، ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه ، وليقابلنهم عليه ، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم ، فقال : ﴿تالله لتسألنّ عمّا كنتم تفترون﴾ .

٥٧- ثم أخبر تعالى عنهم : أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، و جعلوها بنات الله فعبدوها معه ، فأخطأوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ، ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد ، وهو : البنات ، وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما قال : ﴿ألكم الذكر وله الأنثى ◆ تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ وقوله ههنا : ﴿و يجعلون لله البنات سبحانه﴾ أي : عن قولهم وإفكهم ﴿ألا إنّهم من إفكهم ليقولون ◆ ولد الله وإنّهم لكاذبون ◆ أصطفى البنات على البنين ◆ ما لكم تحكمون﴾ وقوله : ﴿و لهم ما يشتهون﴾ أي : يختارون لأنفسهم الذكور ، ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

٥٨- فإنه ﴿إذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً﴾ أي : كئيباً من الهم ﴿وهو كظيم﴾ ساكتٌ ، من شدة ما هو فيه من الحزن .

٥٩- ﴿يتوارى من القوم﴾ أي : يكره أن يراه الناس ﴿من سوء ما بُشّر به أيُمسكهُ على هُونٍ أم يدسُّهُ في التُّراب﴾ أي : إنْ أبقاها أبقاها مُهانة ، لا يُورثّها ولا يعتني بها ، ويفضّل أولاده الذكور عليها ﴿أم يدسُّهُ في التُّراب﴾ أي : يئدها ، وهو أن يدفنها فيه حية ، كما كانوا يصنعون في الجاهلية ، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ، ويأنفون لأنفسهم عنه ، يجعلونه لله؟! ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ أي : بئسَ ما قالوا ، وبئس ما قسموا ، وبئس ما نسبوه إليه ، كقوله تعالى : ﴿و إذا بُشّر أحدهم بما ضرب للرّحمن مثلاً ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ .

٦٠- وقوله ههنا : ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السّوء﴾ أي : النقص إنما يُنسبُ إليهم ﴿و لله المثلُ الأعلى﴾ أي : الكمال المطلق من كل وجه ، وهو منسوب إليه ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾

٦١- يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ، ما ترك على ظهر الأرض من دابة ، أي : لأهلك جميع دواب الأرض ، تبعاً لإهلاك بني آدم ، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر ، ويُنظر ﴿إلى أجلٍ مُّسمّى﴾ أي : لا يعالجهم بالعقوبة ، إذ لو فعل ذك بهم لما أبقى أحداً .

روى سفيان الثوري : عن أبي الأحوص أنه قال : كاد الجُعل أن يعذب بذنب بني آدم ، وقرأ الآية : ﴿ولو يؤاخذُ اللهُ الناسَ بظلمهمْ ما تركَ عليها من دابّةٍ﴾ .

٦٢- وقوله : ﴿و يجعلونَ لله ما يكرَهونَ﴾ أي : البنات ، ومن الشركاء الذين هم عبيده ، وهم يأنفون أن

يكون عند أحدهم شريك له في ماله. وقوله: ﴿وتصفُ ألسنتُهم الكذبَ أنّ لهمُ الحُسنَى﴾ إنكارٌ عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثَمَّ معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿ولئنْ أذقنا الإنسانَ منّا رحمةً ثُمّ نزعناها منهُ إنّهُ ليؤوسٌ كفورٌ﴾ ولئنْ أذقناهُ نعماءَ بعدَ ضرّاءَ مسّتْهُ ليقولنّ ذهبَ السيّئاتُ عنّي إنّهُ لفرحٌ فخورٌ﴾، وقوله: ﴿ولئنْ أذقناهُ رحمةً منّا مِن بعدِ ضرّاءَ مسّتْهُ ليقولنّ هذا لي وما أظنُّ السّاعةَ قائمةً ولئن رُجعتُ إلى ربّي إنّ لي عندهُ للحُسنَى فلننبّئنّ الذينَ كفرُوا بما عملوا ولنُذيقنّهم مّن عذابٍ غليظٍ﴾، وقوله: ﴿أفرأيتَ الذي كفرَ بآياتنا وقال لأوتيَنّ مالاً وولداً﴾، وقال إخباراً عن أحد الرجلين إنه ﴿دخلَ جنّتَه وهوَ ظالمٌ لنفسِهِ فقالَ ما أظنُّ أن تبيدَ هذهِ أبداً﴾ وما أظنُّ السّاعةَ قائمةً ولئن رُددتُ إلى ربّي لأجدنّ خيراً منْهَا مُنقَلَباً﴾ فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسناً، وهذا مستحيل!

وقال مجاهد وقتادة ﴿وتَصِفُ ألسنتُهم الكَذِبَ أنّ لَهم الحُسنَى﴾ أي: الغلمان، وقال ابن جرير ﴿أنّ لَهم الحُسنَى﴾ أي: يوم القيامة. كما قدمنا بيانه، وهو الصواب، ولله الحمد، ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنيهم ذلك ﴿لاَ جَرَمَ﴾ أي: حقاً لا بد منه ﴿أنّ لَهُم النّارَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وأنّهُم مُفرطُونَ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون، وهذا كقوله تعالى: ﴿فاليومَ ننساهُمْ كمَا نسُوا لقاءَ يومِهِمْ هذا﴾ وعن قتادة أيضاً: ﴿مُفرَطونَ﴾، أي: معجلون إلى النار، من «الفرط» وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة، لأنهم يُعجَّل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها، أي: يخلدون.

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) ﴾

٦٣- يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً، فكُذّبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهيدنك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوا. ﴿فهوَ وليُّهم اليومَ﴾ أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريخ لهم، ولهم عذاب أليم.

٦٤- ثم قال تعالى لرسوله: أنه إنما أنزل عليك الكتاب، ليبين للناس يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿وهُدًى﴾ أي: للقلوب ﴿ورَحْمةً﴾ أي: لمن تمسك به ﴿لقومٍ يُؤمِنونَ﴾.

٦٥- وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يُحيي الأرض بعد موتها، بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿إنّ في ذلكَ لآيةً لقومٍ يَسمَعُونَ﴾ أي: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾

٦٦- يقول تعالى: ﴿وإنَّ لكمْ﴾ أيها الناس ﴿في الأنعام﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم ﴿لعِبْرة﴾ أي: لآيةً ودلالة على حكمة خالقها، وقدرته ورحمته ولطفه ﴿نُسقيكُم مِّمَّا في بُطونِهِ﴾ أفرده ههنا عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى ﴿ممَّا في بُطُونهَا﴾ ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كلا إنَّها تذكِرةٌ ◆ فَمَن شاءَ ذكرهُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿و إنِّي مُرْسِلةٌ إليْهِم بهَدِيَّةٍ فناظِرةٌ بِمَ يرجعُ المُرْسَلُونَ ◆ فلمَّا جاءَ سُليمانَ﴾ أي: المال.

و قوله: ﴿مِن بيْنِ فَرثٍ ودمٍ لَّبَناً خالِصاً﴾ أي: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته، من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كلٌّ إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به، وقوله: ﴿لبَناً خالِصاً سائِغاً للشَّارِبِينَ﴾ أي: لا يغص به أحد.

٦٧- ولما ذكر اللبن، وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً، ثنَّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿ومِن ثمَراتِ النَّخيلِ والأعْنابِ تتَّخِذُونَ منهُ سَكَراً﴾ دلَّ على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل، والمتخذ من العنب، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَراً ورِزْقاً حَسَناً﴾ قال: السكر ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما. وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله. يعني: ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء - وهو: الدبس - وخل ونبيذ حلال، يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك ﴿إنَّ في ذلكَ لآيةً لقومٍ يعقِلُونَ﴾ ناسب ذكر العقل ههنا، فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرَّم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة، صيانة لعقولها، قال الله تعالى: ﴿و جَعلْنا فِيها جنَّاتٍ مِّن نخيلٍ وأعْنابٍ وفجَّرْنا فيهَا مِن العُيُونِ لِيأكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وما عمِلتْه أيديهِمْ أفلاَ يشكُرُونَ ◆ سُبحانَ الذِي خلَقَ الأزْواجَ كُلَّها ممَّا تُنبتُ الأرضُ ومِنْ أنفُسِهِمْ ومِمَّا لاَ يَعلَمُونَ﴾.

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) ﴾

٦٨- المراد بالوحي هنا: الإلهام والهداية والإرشاد للنحل، أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها، بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً: أن تأكل من الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها، أي: مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل مِنْ فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

٦٩ - وقال قتادة وعبد الرحمن ن زيد بن أسلم ﴿فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ أي: مطيعة، فجعلاه حالاً من السالكة، قال ابن زيد وهو كقول الله تعالى: ﴿وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل ببيوته، من بلد إلى بلد، وهو يصبحهم؟ والقول الأول هو الأظهر، وهو أنه حالٌ من الطريق، أي: فاسلكيها مذللة لك، نص عليه مجاهد، وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح.

و قد روى أبويعْلى الموصلي: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عُمر الذباب أربعون يوماً، والذُّباب كلُّه في النار، إلا النَّحل»[1].

و قوله تعالى: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر، وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها.

و قوله: ﴿فيه شفاء للنَّاس﴾ أي: في العسل شفاء للناس، أي: من أدواء تعرض لهم، قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال: ﴿فيه شفاء للنَّاس﴾ أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوي بضده، وقال مجاهد وابن جرير في قوله: ﴿فيه شفاء للنَّاس﴾ يعني: القرآن. وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية، فإنَّ الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا، وإنما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾، وقوله تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾.

و الدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فيه شفاء للنَّاس﴾ هو العسل، الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال إن أخي إستطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقاً، قال: «اذهبْ فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صدقَ الله، وكذبَ بطنُ أخيكَ، اذهبْ فاسقِه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً فبرئ.

قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار، تحللت فأسرعت في الاندفاع فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره، وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن، استمسك بطنه، وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

و في الصحيحين: من حديث من حديث عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل. هذا لفظ البخاري.

و في صحيح البخاري: عن ابن عباس قال: قال رسول الله: «الشفاءُ في ثلاثة: في شَرْطةِ مِحْجم، أو شُربة عسل، أو كَيَّة بنار، وأنهى أمتي عن الكي». وروى البخاري: عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيءٍ من أدويتكم، أو يكون في شيءٍ من أدويتكم خير: ففي شَرْطة محجم، أو شربة عسلٍ، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحبُ أن اكتوى» ورواه مسلم.

و روى الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني: عن عبد الله هو ابن مسعود قال: قال رسول

(١) قوله: «و الذباب كلُّه في النار» ليعَذَّب بها أهلها، لا ليعذب هو، كذا قال الخطابي، انظر فيض القدير (٣/ ٥٦٩).

اللهﷺ: «عليكمْ بالشفاءين العسل والقرآن» وهذا إسناد جيد، تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً، وقد رواه ابن جرير موقوفاً وهو أشبه. وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالبرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء: فليكتب آيةً من كتاب الله في صحيفة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه كذلك فإنه شفاء. أي: من وجوه: قال الله تعالى: ﴿و نُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحمَةٌ لِلْمُؤمِنِينَ﴾، وقال: ﴿و أنزلْنَا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبَارَكاً﴾، وقال: ﴿فإنْ طِبْنَ لكُم عَن شيءٍ مِّنهُ نَفْساً فكُلُوهُ هنِيئاً مَّرِيئاً﴾، وقال في العسل: ﴿فيهِ شِفَاءٌ للنَّاسِ﴾.

و روى ابن ماجه أيضاً: عن إبراهيم بن أبي عبلة: سمعت أبا أبي بن أم حرام ـ وكان قد صلى القبلتين ـ يقول: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «عليكُم بالسَّنا والسَّنُوت، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام» قيل: يا رسول الله، وما السام؟ قال: «الموت». قال ابن أبي عبلة: «السنوت» الشِّبِتُّ، وقال آخرون: بل هو العسل الذي في زقاق السمن، وهو قول الشاعر:

هُمُ السَّمْنُ بالسَّنُوت لا أَلْس فيهِم وهم يمنعُونَ الجارَ أن يُقرَّدَا

كذا رواه ابن ماجه، وقوله: لا أَلْس فيهم، أي: لا خلط، وقوله: يمنعون الجار أن يقردا، أي: يُضطهد ويُظلم.

و قوله: ﴿إنَّ في ذلكَ لآيةً لقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ﴾ أي: إنَّ في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخِلْقة، إلى السلوك في هذه المهامة، والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء، لآية ﴿لقوم يتفكَّرونَ﴾ في عظمة خالقها ومقدرها، ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) ﴾

٧٠- يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم، وهو الضعف في الخلقة، كما قال تعالى: ﴿اللهُ الذِي خلَقَكُم مِّن ضعفٍ ثمَّ جعلَ مِن بعدِ ضعفٍ قوةً﴾ الآية، وقد روي عن عليرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿أرذل العُمُر﴾: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى، والخرف وسوء الحفظ، وقلة العلم، ولهذا قال: ﴿لكيلاَ يعلمَ بعدَ عِلمٍ شيئاً﴾ أي: بعد ما كان عالماً، أصبح لا يدري شيئاً من الفند والخرف.

و لهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية: عن أنس بن مالك: أن رسول اللهﷺ كان يدعو «أعوذُ بكَ مِن البُخْل والكسَلِ، والهرَم وأرذل العمر، و عذاب القبر، وفتنةِ الدَّجَّال، وفتنةِ المحْيا والمَمَات».

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) ﴾

٧١- يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم، فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك! تملكه وما ملك. فقال تعالى

منكراً عليهم: أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم!؟ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾. وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي، مالا ترضون لأنفسكم، وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثل الآلهة الباطلة، وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته، وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإنْ لم ترض لنفسك هذا، فالله أحق أن ينزه منك.

و قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فَضَّل بعض عباده على بعض في الرزق، بلاء يبتلي به كلاً، فيبتلي من بَسطَ له كيف شُكْره لله؟ وأداؤه الحق الذي افترض عليه رزقه وخوله؟ رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾

٧٢- يذكر تعالى نعمه على عبيده، بأنْ جعلَ لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعلَ الأزواج من نوع آخر، ما حصل الائتلاف والمودَّة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وهم الولد، وولد الولد.

و قال مجاهد: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ ابنه وخادمه. وقال في رواية: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدام، وقال طاوس وغير واحد: الحفدة الخدم. وكذا قال قتادة وأبو مالك والحسن البصري. وروى عبد الرزاق عن عكرمة أنه قال: الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك، قال الضحاك: إنما كانت العرب تخدمها بنوها. وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ يقول: بنو امرأة الرجل ليسوا منه. ويقال: الحفدة الرجل يعمل بين يدي الرجل. يقال: فلان يحفد لنا، أي: يعمل لنا، قال: وزعم رجال أن الحفدة أَخْتان الرجل. وهذا الأخير الذي ذكره ابن عباس، قاله ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد والقرظي، ورواه عكرمة عن ابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى «الحَفْد»، وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت: «وإليك نسعَى ونَحْفد»، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار، فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

قلت: فمن جعل ﴿وَحَفَدَةً﴾ متعلقاً بأزواجكم، فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد، أو الأصهار، لأن أزواج البنات وأولاد الزوجة. وكذا قال الشعبي والضحاك، فإنهم يكونون غالباً تحت كنف الرجل، وفي حجره وخدمته. وأما من جعل الحفدة الخدم، فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: جعل لكم الأزواج والأولاد خدماً.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره. وفي الحديث الصحيح: «إنَّ اللهَ يَقولُ للعبدِ يوم القيامةِ ممتنًا عليه: ألم أُزوِّجكَ؟ ألمْ أُكرمْكَ؟ ألمْ أُسخِّرْ لكَ الخَيْلَ والإبِلَ، وأذركَ تَرأس وتربع؟».

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾

٧٣- يقول تعالى إخباراً عن المشركين، الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل، الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان، ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدر على إنزال مطر، ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي: ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه.

٧٤- ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾

٧٥- قال العوفي عن ابن عباس: هذا مَثَلٌ ضربهُ الله للكافر والمؤمن. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً، هو المؤمن. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: هو مثلٌ مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً، لا يجهله إلا كل غبي، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾

٧٦- قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن، والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أي: عيال وكلفة على مولاه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أي: يبعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ مَنْ هذه صفاته ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط، فمقاله حق، وفعاله مستقيمة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. وبهذا قال السدي وقتادة

وعطاء الخراساني، واختار هذا القول ابن جرير.

و قال العوفي عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم.

و روى ابن جرير: عن يعلى بن أمية عن ابن عباس في قوله: **﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شيءٍ﴾** قال: نزلت في رجل من قريش وعبده، يعني قوله: **﴿عبداً مَملوكاً﴾** الآية، وفي قوله: **﴿و ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رجُلينِ أحدُهما أبْكَمُ - إلى قوله - وهوَ علَى صِراطٍ مُستقيم﴾** قال: هو عثمان بن عفان، قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير، قال: هو مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكلفه ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾

٧٧- يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك، إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: **﴿و ما أمرُنا إلاّ واحِدةٌ كَلَمْحٍ بالبَصَرِ﴾** أي: فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: **﴿و ما أمْرُ السَّاعَةِ إلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ أوْ هُوَ أقربُ إنَّ اللهَ علَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ﴾** كما قال: **﴿ما خَلْقُكُمْ ولا بَعْثُكُمْ إلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾**.

٧٨- ثم ذكر تعالى منّته على عباده، في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة وهي: العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارّها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً، كلما كبر زِيدَ في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده.

و إنما جَعَلَ تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوّة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: مَنْ عادَى لِي ولياً فقدْ بارزَني بالحرب؛ وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أفضل من أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزالُ عبدي يتقرَّب إلي بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يَسمعُ به، وبصره الذي يُبصرُ به، ويده التي يَبطشُ بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن دعاني لأجيبنَّه، ولئن استعاذ بي لأُعيذنَّه، وما ترددت في شيءٍ أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه».

فمعنى الحديث: أنَّ العبد إذا أخلص الطاعة، صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعيناً بالله في ذلك كله، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله: «و رجله التي يمشي بها»: «فبي يسمع، وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي». ولهذا قال تعالى: **﴿و جعلَ لكم السَّمعَ والأبْصارَ والأفئدةَ لعلَّكُمْ تشكُرونَ﴾**،

كقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ هوَ الذي أنشأكمْ وجَعلَ لكُم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدةَ قليلاً ما تشكرُونَ * قُلْ هوَ الذي ذرأكمْ في الأرضِ وإليهِ تُحشَرونَ﴾.

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جَعَله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخَّر الهواء يحملها، ويسَّر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك ﴿أولمْ يرَوْا إلى الطَّيْرِ فوقَهمْ صافَّاتٍ ويقبِضْنَ ما يُمْسِكُهنَّ إلاَّ الرَّحْمنُ إنَّهُ بكلِّ شيءٍ بصيرٌ﴾، وقال ههنا: ﴿إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يُؤمنونَ﴾.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) ﴾

٨٠- يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً ﴿مِن جُلُودِ الأنعامِ بيُوتاً﴾ أي: الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: ﴿تستخِفُّونها يومَ ظَعْنِكُمْ ويومَ إقَامَتِكمْ ومِنْ أصْوافِهَا﴾ أي: الغنم ﴿و أوْبارِها﴾ أي: الإبل ﴿و أشْعارِها﴾ أي: المعز، والضمير عائد على الأنعام ﴿أثاثاً﴾ أي: تتخذون منه أثاثاً، وهو المال، وقيل: المتاع، وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من الأثاث: البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالاً وتجارة، وقال ابن عباس: الأثاث المتاع. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفي وعطاء الخراساني والضحاك وقتادة، وقوله: ﴿إلَى حِينٍ﴾ أي: إلى أجلٍ مُسمًّى ووقت معلوم.

٨١- وقوله: ﴿و اللهُ جعلَ لكُم مِمَّا خلقَ ظِلالاً﴾ قال قتادة: يعني الشجر ﴿و جعلَ لكُمْ مِنَ الجبالِ أكْناناً﴾ أي: حصوناً ومعاقل، كما ﴿جعَلَ لكُمْ سرابِيلَ تقيكُم الحرَّ﴾ وهي: الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿و سرابِيلَ تقيكُم بأسَكُمْ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك ﴿كذلكَ يُتمُّ نِعْمتَهُ عليْكمْ﴾ أي: هكذا يجعلُ لكُم ما تستعينُون به على أمركم، وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿لعلَّكمْ تُسْلِمونَ﴾ هكذا فسَّره الجمهور، وقرءوه بكسر اللام من ﴿تُسْلِمون﴾ من الإسلام، وقال قتادة في قوله: ﴿كذلكَ يُتمُّ نِعْمتهُ عليكمْ﴾ هذه السورة تُسمَّى: سورة النعم.

و قال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿و اللهُ جعلَ لكُم مما خلقَ ظِلالاً وجعلَ لكُم مِن الجبالِ أكْناناً﴾ وما جعل لهم من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿و مِنْ أصْوافِها وأوبارِها وأشْعارِها أثاثاً ومتاعاً إلى حِينٍ﴾ وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿و يُنزِّلُ من السَّماءِ مِن جبالٍ

فيها من برد﴾ لعجبهم من ذلك، وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: **﴿سرابيل تقيكم الحر﴾** وما تقي من البرد أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حر.

٨٢- وقوله: **﴿فإن تولوا﴾** أي: بعد هذا البيان، وهذا الامتنان فلا عليك منهم **﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾** وقد أديته إليهم.

٨٣- **﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾** أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره، ويسندون النصر والرزق إلى غيره **﴿وأكثرهم الكافرون﴾**.

﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ﴿٨٤﴾ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴿٨٥﴾ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴿٨٦﴾ وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿٨٧﴾ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴿٨٨﴾﴾

٨٤- يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلّغها عن الله تعالى: **﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾** أي: في الاعتذار، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله: **﴿هذا يوم لا ينطقون* ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾** فلهذا قال: **﴿ولا هم يستعتبون﴾**.

٨٥- **﴿وإذا رأى الذين ظلموا﴾** أي: الذين أشركوا العذاب **﴿فلا يخفف عنهم﴾** أي: لا يفتر عنهم ساعة واحدة **﴿ولا هم ينظرون﴾** أي: لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بجهنم تُقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عُنقٌ منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وُكّلت بكل جبار عنيد، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وبكذا وبكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث، ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف، كما يلتقط الطائر الحب، قال الله تعالى: **﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً* وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً* لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾** وقال تعالى: **﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾** وقال تعالى: **﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون* بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون﴾**.

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها، فقال: **﴿وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم﴾** أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا **﴿قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون﴾** أي: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كما قال تعالى: **﴿ومن**

أضلُّ مِمَّن يَدْعوا مِن دونِ الله مَن لا يستجيبُ له إلَى يومِ القِيامةِ وهُمْ عَن دُعائِهِمْ غافِلُونَ * وإذَا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لهمْ أعداءً وكانُوا بعِبادتِهمْ كافِرينَ﴾ وقال تعالى: ﴿و اتَّخذُوا مِن دونِ الله آلِهةً ليكُونُوا لهمْ عِزًّا * كلاَّ سيَكفُرونَ بعِبادتِهمْ ويَكونونَ عليهِمْ ضِدًّا﴾ وقال الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ يومَ القِيامةِ يكفُرُ بعْضُكمْ ببَعْضٍ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿و قيلَ ادْعُوا شُركاءَكمْ﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة.

٨٧- وقوله: ﴿و ألْقَوْا إلَى اللهِ يومَئذٍ السَّلَمَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، وكقوله تعالى: ﴿أسْمِعْ بهِمْ وأبصِرْ يومَ يأتونَنا﴾ أي: ما أسْمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال: ﴿و لوْ تَرَى إذِ المُجْرِمونَ ناكِسُوا رُؤوسِهِمْ عندَ ربِّهِمْ ربَّنا أبْصَرْنا وسَمِعْنا﴾ الآية، وقال: ﴿و عَنَتِ الوُجُوهُ لِلحيِّ القيُّومِ﴾ أي: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت، وقوله: ﴿و ألقوا إلَى اللهِ يومئذٍ السَّلَمَ وضلَّ عنهمْ ما كانُوا يفترونَ﴾ أي: ذهب واضمحلَّ ما كانوا يعبدونه افتراء على الله، فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

٨٨- ثم قال تعالى: ﴿الذينَ كفَرُوا وصَدُّوا عَن سبيلِ اللهِ زِدْناهمْ عذاباً﴾ الآية، أي: عذاباً على كُفرهمْ، وعذاباً على صدِّهمْ الناس عن اتباع الحق، كقوله تعالى: ﴿وهمْ ينْهونَ عنهُ وينأونَ عنه﴾ أي: ينهون الناس عن اتباعه، ويبتعدون هم منه أيضاً ﴿و إن يُهْلِكونَ إلاَّ أنفُسهمْ وما يَشْعُرونَ﴾ وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قالَ لكُلٍّ ضِعْفٌ ولكِن لا تَعْلَمونَ﴾ وقد روى الحافظ أبو يعْلى: عن مسروق عن عبد الله في قول الله ﴿زِدْناهمْ عذاباً فوقَ العذابِ﴾ قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾

٨٩- يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ ﴿و يَومَ نَبْعثُ في كُلِّ أُمَّةٍ شَهيداً عليْهِمْ مِنْ أنفُسِهِمْ وَجِئْنا بكَ شهيداً علَى هؤلاءِ﴾ يعني أمتك. أي: اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود، حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله: ﴿فكَيْفَ إذا جِئْنا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بشَهيدٍ وجِئنا بكَ علَى هؤلاءِ شَهيداً﴾ فقال له رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ» فقال ابن مسعود رضي الله عنه: فالتفت فإذا عيناه تذرفان.

وقوله: ﴿و نزَّلْنا عليكَ الكتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شيءٍ﴾ قال ابن مسعود: قَدْ بُيِّن لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام، وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع، من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم ﴿و هُدًى﴾ أي: للقلوب ﴿و رحْمةً وبُشْرَى للمُسْلِمينَ﴾. وقال الأوزاعي ﴿ونزَّلْنا عليكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شيءٍ﴾ أي: بالسنة، ووجه اقتران قوله: ﴿و نزَّلْنا عليكَ الكتابَ﴾ مع قوله: ﴿وَجِئْنا بِكَ شهيداً علَى هؤلاءِ﴾ أن المراد ـ والله أعلم ـ إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك، سائلك عن ذلك يوم القيامة ﴿فلنسأَلنَّ الذينَ أُرْسِلَ إليهِمْ ولنسأَلنَّ المُرسَلينَ﴾، ﴿فوربِّكَ لنسأَلنَّهمْ أجمَعينَ * عمَّا

كانُوا يعْمَلُونَ﴾ ، ﴿يومَ يجْمعُ اللهُ الرُّسُلَ فيقُولُ ماذا أُجِبْتمْ قالُوا لا عِلْمَ لنا إنَّكَ أنتَ علاَّمُ الغُيُوبِ﴾ وقال تعالى : ﴿إنَّ الذِي فرَضَ عليكَ القُرآنَ لرادُّكَ إلَى معادٍ﴾ أي : إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن ، لرادُّك إليه ، ومعيدك يوم القيامة ، وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال ، وهو متجه حسن .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾

٩٠- يخبر تعالى أنه يأمرعباده بالعدل ، وهو : القسط والموازنة ، ويَندب إلى الإحسان ، كقوله تعالى : ﴿و إنْ عاقَبْتمْ فعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتمْ بِهِ ولئنْ صَبرتُمْ لَهوَ خيرٌ للصَّابرينَ﴾ ، وقوله : ﴿و جزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلهَا فمَنْ عفَا وأصْلحَ فأجْرُهُ علَى اللهِ﴾ وقال : ﴿و الجُرُوحَ قِصَاص فمَنْ تصَدَّقَ بِهِ فهوَ كفَّارةٌ لهُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل ، والندب إلى الفضل . وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدْلِ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال سفيان بن عيينة : العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية ، من كل عامل لله عملاً ، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته ؛ وقوله : ﴿و إيتاءِ ذِي القُرْبَى﴾ أي : يأمر بصلة الأرحام ، كما قال : ﴿وآتِ ذَا القُرْبَى حقَّهُ والمِسْكينَ وابنَ السَّبِيلِ ولا تُبذِّرْ تبْذِيراً﴾ .

و قوله : ﴿و ينْهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمُنكَرِ﴾ فالفواحش المحرمات ، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها ، ولهذا قال في الموضع الآخر ﴿قلْ إنَّما حرَّمَ ربِّيَ الفَواحِشَ ما ظهرَ منْها وما بطَنَ﴾ وأما البغي : فهو العدوان على الناس ، وقد جاء في الحديث : «ما من ذنب أجدر أنْ يُعجِّل اللهُ عقوبته في الدنيا ، مع ما يدَّخر لصاحبه في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم» .

و قوله : ﴿يعِظُكمْ﴾ أي : يأمركم بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿لعلَّكمْ تذكَّرونَ﴾ . وعن ابن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿إنَّ اللهَ يأمرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ﴾ الآية ، رواه ابن جرير . وعن قتادة : قوله : ﴿إنَّ اللهَ يأمرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ﴾ الآية ، ليس من خُلُقٍ حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه ، إلا أمر الله به ، وليس من خُلقٍ سيءٍ كانوا يتعايرونه بينهم ، إلا نهى الله عنه وقدم فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها .

قلت : ولهذا جاء في الحديث : «إنَّ اللهَ يُحبُّ معالي الأخلاق ، ويكره سَفاسِفهَا»(١) .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) ﴾

٩١- هذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة ، ولهذا قال : ﴿و لا تَنقُضُوا الأيْمانَ بعدَ توكِيدِها﴾ ولا تعارض بين هذا وبين قوله : ﴿وَ لاَ تَجْعلُوا اللهَ عُرضَةً

(١) رواه الحاكم (١/ ٤٨) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

﴿لأيمانِكُمْ﴾ الآية، وبين قوله تعالى: **﴿ذَلكَ كَفَّارَةُ أيمَانِكُمْ إذا حَلَفْتُمْ وَاحفَظُوا أيمَانَكُمْ﴾** أي: لا تتركوها بلا كفارة، وبين قوله ﷺ فيما ثبت عنه في الصحيحين: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إنِّي والله ـ إن شاء الله ـ لا أحلف على يمينٍ فأرى غيرها خير آمنها، إلا أتيت الذي هو خير، وتحللتها ـ وفي رواية ـ وكفَّرتُ عن يميني».

لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة ههنا، وهي قوله: **﴿و لا تَنقُضُوا الأيمانَ بعدَ توكِيدِها﴾** لأنَّ هذه الأيمان المراد بها: الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حثٍّ أو منع، ولهذا قال مجاهد في قوله: **﴿و لا تَنقُضُوا الأيمانَ بعدَ توكِيدِها﴾** يعني: الحِلْف، أي: حلف الجاهلية، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حِلْفَ في الإسلام، وأيما حلفٍ كان في الجاهلية، لم يزده الإسلام إلا شدّة» وكذا رواه مسلم.

ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف، الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإنَّ في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

و أما ما ورد في الصحيحين: عن أنس رضي الله عنه أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا. فمعناه: أنه آخى بينهم، فكانوا يتوارثونه به حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم. وروى ابن جرير عن مزيدة في قوله: **﴿وَ أوفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذا عاهَدتُمْ﴾** قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام فقال: **﴿وَ أوفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذا عاهَدتُمْ﴾** هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام **﴿و لا تَنقُضُوا الأيمانَ بعدَ توكِيدِها﴾** البيعة، لا يحملنَّكم قلة محمد وكثرة المشركين، أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام.

و روى الإمام أحمد: عن نافع قال: لما خلعَ الناسُ يزيد بن معاوية، جمعَ ابنُ عمر بنيه وأهله ثم تشهد، ثم قال: أما بعد، فإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الغادر يُنصَبُ له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان، وإنَّ من أعظم الغدر ـ إلا أن يكون الإشراك بالله ـ أن يبايع رجل رجلاً على بيعة الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعنَّ أحد منكم يداً، ولا يسرفنَّ أحد منكم في هذا الأمر، فيكون صَيلم[1] بيني وبينه». المرفوع منه في الصحيحين.

و قوله: **﴿إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تفعلُونَ﴾** تهديدٌ ووعيدٌ لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

٩٢- وقوله: **﴿و لاَ تكُونُوا كالتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِن بعدِ قُوَّةٍ أنكاثاً﴾** قال عبد الله بن كثير والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غَزَلَتْ شيئاً نقضتْه بعد انبرامه. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثلٌ لمن نقضَ عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا.

و قوله: **﴿أنكاثاً﴾** يحتمل أن يكون اسم مصدر **﴿نَقَضَتْ غزْلَها من بعدِ قُوَّةٍ أنكاثاً﴾** أي: أنقاضاً، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان، أي: لا تكونوا أنكاثاً، جمع نكث من ناكث، ولهذا قال بعده: **﴿تتَّخِذونَ أيمانَكمْ دَخَلاً بينَكُمْ﴾** أي: خديعة ومكراً **﴿أن تكونَ أمَّةٌ هيَ أربَى مِن أمَّةٍ﴾** أي: تحلِفُونَ للناس إذا كانُوا أكثر منكم، ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

و قد قدمنا ـ ولله الحمد ـ في سورة الأنفال: قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم، أغار عليهم وهم غارُّون لا يشعرون، فقال له

---

(١) الصيلم: القطيعة المنكرة، والداهية (نهاية).

عمرو بن عَبسة: الله أكبر يا معاوية، وفاءً لا غدراً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كان بينه وبين قوم أجل، فلا يَحلنَّ عقدةً حتى ينقضي أمدها» فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش.

قال ابن عباس ﴿أن تكونَ أُمَّةٌ هيَ أربَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: أكثر، وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز، فنهوا عن ذلك. وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه.

و قوله: ﴿إنّما يبْلُوكم اللهُ بِهِ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني بالكثرة. رواه ابن أبي حاتم، وقال ابن جرير: أي: بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿و ليُبيِّنَنَّ لكمْ يومَ القِيامةِ ما كُنتمْ فيهِ تَختلِفُونَ﴾ فيجازى كل عامل بعمله، من خير وشر.

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

٩٣- يقول الله تعالى: ﴿و لوْ شاءَ اللهُ لجعلكمْ﴾ أيها الناس أمة واحدة، كقوله تعالى: ﴿و لَوْ شاءَ ربُّكَ لآمنَ مَن في الأرضِ كلُّهمْ جميعاً﴾ أي: لوفَّق بينكم، ولما جعل اختلافاً، ولا تباغض ولا شحناء ﴿وَ لوْ شاءَ ربُّكَ لجعَلَ الناسَ أمَّةً واحدةً ولا يزالُونَ مُختلِفينَ إلاَّ مَن رحمَ ربُّكَ ولذلكَ خلقَهمْ﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿ولكِن يُضلُّ مَن يشاءُ ويهدِي مَن يشاءُ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها، على الفتيل والنقير والقطمير.

٩٤- ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان ﴿دخَلاً﴾ أي: خديعةً ومكراً، لئلا تزل قدمٌ بعد ثبوتها، مثلٌ لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة، المشتملة على الصدِّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده، ثم غدر به، لم يبق له وثق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: ﴿وَ تَذُوقو السُّوءَ بِما صَدَدتُمْ عَن سبِيلِ ربِّكُمْ وَ لكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ ثم قال: ﴿وَ لاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي: لا تعاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها، لكان ما عند الله هو خير له؛ أي: جزاء الله وثوابه، خير لمن رجاه وآمن به وطلبه، وحفظ عهده رجاء موعوده، ولهذا قال: ﴿إن كُنتمْ تَعلمونَ﴾.

٩٦- ﴿ما عندكمْ ينفَدُ﴾ أي: يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدَّر متناه ﴿و ما عِندَ اللهِ باقٍ﴾ ثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع، ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿و لَنَجْزينَّ الذينَ صَبرُوا أجْرَهمْ بأحْسنِ ما كانُوا يَعْمَلونَ﴾ قَسَم من الرب تعالى مؤكدٌ باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾

٩٧- هذا وعدٌ من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، من ذَكرٍ أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمنٌ بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة: تشتمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسَّروها: بالرزق الحلال الطيب، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها: بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إنها هي السعادة، وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة، وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانشراح بها.

و الصحيح: أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قَدْ أفلحَ مَنْ أسْلمَ، ورُزق كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه» ورواه مسلم.

و روى الإمام: أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا يظلِم المؤمن من حسنة، يُعطى بها في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيُطْعَم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً» انفرد بإخراجه مسلم.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴾

٩٨- هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ، إذا أرادوا قراءة القرآن: أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير، وغيره من الأئمة، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطة في أول التفسير، ولله الحمد والمنة.

و المعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة: لئلا يُلبس على القارئ قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة، وحُكي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد التلاوة، واحتجا بهذه الآية، ونقل النووي في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً، ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي، والصحيح الأول، لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقديمها على التلاوة، والله أعلم.

٩٩- وقوله: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وقال آخرون كقوله: ﴿**إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾.

١٠٠- ﴿**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ**﴾ قال مجاهد: يطيعونه، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله ﴿**وَهُم بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾ أي: أشركوا في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى، وقال آخرون: معناه أنه شَرَكهم في الأموال والأولاد.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾

١٠١ - يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين، وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها، قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وقال مجاهد ﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ أي: رفعناها وأثبتنا غيرها، وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية.

١٠٢ - قال تعالى مجيباً لهم: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: جبريل ﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق والعدل ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيصدقوا بما أنزل أولا وثانياً، وتخبت له قلوبهم ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين، الذين آمنوا بالله ورسله.

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾

١٠٣ - يقول تعالى مخبراً عن المشركين، ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت، أن محمداً إنما يُعلِّمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشرٌ، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير، بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى رداً عليهم في افترائهم ذلك ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: القرآن، أي: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل، كيف يُتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل.

و قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني، يقال له: جبر، عبد لبعض بني الحضرمي، فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ وكذا قال عبد الله بن كثير. وعن عكرمة وقتادة كان اسمه يعيش.

و قال الضحاك بن مزاحم: هو سلمان الفارسي! وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكية وسلمان إنما أسلم بالمدينة. وقال الزهري عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين: رجلٌ كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام، وافترى هذه المقالة قبحه الله.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) ﴾

١٠٤ - يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ، ولم يكن له

قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة.

١٠٥ - ثم أخبر تعالى أن رسولهﷺ ليس بمفتر ولا كذاب، لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسولهﷺ شرار الخلق ﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ من الكفرة والملحدين، المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمدﷺ كان أصدق الناس وأبرهم، وأكملهم علماً وعملاً، وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم، بحيث لا يُدْعى بينهم إلا بالأمين محمد.

و لهذا لما سأل هِرَقْل ملك الروم أباسفيان عن تلك المسائل، التي سألها من صفة رسول اللهﷺ كان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس، ويذهب فيكذب على الله عز وجل.

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)﴾

١٠٦ - ١٠٨ - أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشَرَحَ صدره بالكفر، واطمأن به، أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الرِّدة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً، فهم غافلون عما يراد بهم.

١٠٩ - ﴿لا جَرَمَ﴾ أي: لا بد ولا عجب، أن من هذه صفته ﴿أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

و أما قوله: ﴿إلاَّ مَنْ أُكرِهَ وقلبُهُ مُطْمئنٌّ بالإيمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه، ووافق المشركين بلفظه مكرهاً، لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

و قد روى العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمدﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبيﷺ، فأنزل الله هذه الآية. وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك.

و روى ابن جرير: عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبيﷺ، فقال النبيﷺ: «كيف تجد قلبك»؟ قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبيﷺ: «إن عادوا فعد». ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه: أنه سب النبيﷺ وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى النبيﷺ فقال: يا رسول الله، ما تُرِكْتُ حتى سببتك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كيفَ تَجِدُ قلبَكَ؟» قال: مطمئناً بالإيمان، فقال: «إنْ عَادُوا فعُدْ» وفي ذلك أنزل الله: ﴿إلاَّ مَنْ أُكرِهَ وقَلبُهُ مُطمئنٌّ

بالإيمان﴾ .

و لهذا اتفق العلماء: على أن المكره على الكفر، يجوز له أن يوالي إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يأبى، كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى أنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله، فيأبى عليهم، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، رَضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً، وهو ثابت على ذلك.

و روى الإمام أحمد: عن عكرمة أن علياً رضي الله عنه حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عباس، فقال: لم أكن لأحرقهم بالنار، إن رسول الله ﷺ قال: «لا تُعذِّبوا بعذاب الله» وكنتُ قاتلهم بقول رسول الله ﷺ: «مَنْ بدَّل دينهُ فاقتُلوه» فبلغ ذلك علياً فقال: ويح أم ابن عباس. رواه البخاري.

و روى الإمام أحمد أيضاً: عن أبي بردة قال: قدم على أبي موسى معاذُ بن جَبل باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجلٌ كان يهودياً فأسلم، ثم تهود، ونحن نريده على الإسلام منذ ـ قال: أحسبه ـ شهرين، فقال: والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه، فضربت عنقه، فقال: قضى الله ورسوله: «أن من رجع عن دينه فاقتلوه» أو قال: «من بدَّل دينه فاقتلوه». وهذه القصة في الصحيحين بلفظ آخر.

و الأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾

١١٠ - هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم، فوافقوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا فأخبر تعالى أنه **﴿مِن بَعْدِهَا﴾** أي: تلك الفعلة، وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم.

١١١ - **﴿يومَ تأتي كُلُّ نَفسٍ تُجادِلُ﴾** أي: تحاج **﴿عَن نَفْسِها﴾** ليس أحد يحاج عنها، لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة **﴿وَتُوفَّى كُلُّ نَفسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾** أي: من خير وشر **﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾** أي: لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزاد على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)﴾

١١٢، ١١٣ - هذا مثلٌ أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، يُتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: **﴿و قالُوا إن نَتَّبِع الهُدَى معكَ نُتخطَّفْ مِن أرضِنا أولَمْ نُمكِّن لهمْ حرَماً آمناً يُجْبَى إليهِ ثمراتُ كلِّ شيءٍ رِزقاً مِن لدُنَّا﴾** وهكذا قال ههنا: **﴿يأْتِيها رِزقُها رَغداً﴾** أي: هنيئاً

سهلاً ﴿مِن كُلِّ مكانٍ فَكَفَرتْ بِأنعُمِ اللهِ﴾ أي : جحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمدﷺ إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ألمْ ترَ إلَى الذينَ بدلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً وأحَلُّوا قَوْمَهمْ دارَ البَوارِ ۞ جهنَّمَ يَصلَوْنَهَا وبِئسَ القَرارِ﴾ ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما ، فقال : ﴿فأذاقَها اللهُ لِباسَ الجُوعِ والخَوْفِ﴾ أي : ألبسها وأذاقها الجوع ، بعد أن كان يجبي إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، وذلك أنهم استعصوا على رسول اللهﷺ وأبوا إلا خلافه ، فدعا عليهم بسبعٍ كسبعِ يوسف ، فأصابتهم سنةٌ أذهبت كل شيء لهم ، فأكلوا العلهز : وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه .

و قوله : ﴿وَ الخَوْفِ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً ، من رسول اللهﷺ وأصحابه ، حين هاجروا إلى المدينة ، من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل مالهم في دمار وسفال ، حتى فتحها الله على رسولهﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسولﷺ ، الذي بعثه الله فيهم منهم ، وامتنَّ به عليهم ، في قوله : ﴿لقدْ مَنَّ اللهُ على المُؤمِنِينَ إذْ بعثَ فيهمْ رسولاً مِن أنفُسِهمْ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿فاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الألبابِ ۞ الذينَ آمَنُوا قدْ أنزَلَ اللهُ إليكمْ ذِكْراً رسُولاً﴾ الآية ، وقوله : ﴿كمَا أرْسَلْنَا فيكُمْ رسولاً منْكمْ يَتْلُو عليكمْ آياتِنا ويُزكِّيكمْ ويُعلِّمُكُم الكِتابَ والحِكْمَةَ ـ إلى قوله ـ ولا تكْفُرونِ﴾ .

و كما أنه انعكس على الكافرين حالهم ، فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، فبدَّل اللهُ المؤمنين من بعد خوفهم أمناً ، ورزقهم بعد العيلة ، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم ، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم .

و هذا الذي قلناه : من أن هذا المثل ضُرِب لأهل مكة ، قاله العوفي عن ابن عباس ، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وحكاه مالك عن الزهري رحمهم الله .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) ﴾

١١٤ - يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين ، بأكل رزقه الحلال الطيب ، وبشكره على ذلك ، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء ، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له .

١١٥ - ثم ذكر تعالى ما حرَّمه عليهم ، مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم ، من الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أُهلَّ لغير الله به ، أي : ذُبح على غير اسم الله ، ومع هذا ﴿فَمَنِ اضطُرَّ﴾ إليه أي : احتاج من غير بغي ولا عدوان ، فإن الله غفور رحيم . وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة ، بما فيه كفاية عن إعادته ، ولله الحمد .

١١٦ - ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين ، الذين حلَّلوا وحرموا بمجرد ما وصفوه ، و اصطلحوا عليه من الأسماء ، بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وغير ذلك مما كان شرعاً لهم ، ابتدعوه في جاهليتهم ، فقال : ﴿و لاَ تَقُولُوا لِما تَصِفُ ألسِنَتُكُم الكَذِبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لِتفتَرُوا علَى اللهِ الكَذِبَ﴾ .

ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ، ليس له فيها مستند شرعي ، أوْ حلَّل شيئاً مما حرَّم الله ، أو حر شيئاً مما أباح

الله، بمجرد رأيه وتشهيه، و«ما» في قوله: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ مصورية، أي: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ الذينَ يفترُونَ علَى اللهِ الكذِبَ لا يُفْلِحونَ﴾ أي: في الدنيا ولا في الآخرة.

١١٧ ـ أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نُمتِّعُهمْ قليلاً ثمَّ نضطرُّهمْ إلى عذابٍ غليظٍ﴾، وقال: ﴿إنَّ الذينَ يفترُونَ علَى اللهِ الكذِبَ لا يُفْلِحونَ ۞ متاعٌ في الدُّنيا ثمَّ إلينا مرجعُهمْ ثمَّ نُذيقُهمُ العذابَ الشَّديدَ بما كانُوا يَكْفُرونَ﴾.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾

١١٨ ـ لما ذكر تعالى أنه حرَّم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وإنما أرخص فيه عند الضرورة ـ وفي ذلك توسعة لهذه الأمة، التي يريد الله بها اليسر، ولا يريد بها العسر ـ ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرَّمه على اليهود في شريعتهم، قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج، فقال: ﴿وعلى الذينَ هادُوا حرَّمنا ما قصَصْنا عليكَ من قبلُ﴾ أي: في سورة الأنعام، في قوله: ﴿وعلَى الذينَ هادُوا حرَّمْنا كلَّ ذِي ظُفُرٍ ومِن البَقَرِ والغَنَمِ حرَّمْنا عليهِمْ شُحُومهمَا إلاَّ ما حمَلَتْ ظُهُورُهما ـ إلى قوله ـ لصَادِقُونَ﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿و ما ظَلَمْناهُمْ﴾ أي: فيما ضيقنا عليهم ﴿و لكِن كانُوا أنفُسهمْ يظلِمونَ﴾ أي: فاستحقوا ذلك، كقوله: ﴿فبِظُلْمٍ مِن الذينَ هادُوا حرَّمْنَا علَيهِمْ طيِّباتٍ أُحِلَّتْ لهُمْ وبصَدِّهمْ عَن سبيلِ اللهِ كثِيراً﴾.

١١٩ ـ ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين، أن من تاب منهم إليه، تاب عليه، فقال: ﴿ثمَّ إنَّ ربَّكَ للذينَ عمِلُوا السوءَ بجهالةٍ﴾ قال بعض السلف: كلُّ من عصَى الله فهو جاهل. ﴿ثمَّ تابُوا مِن بعدِ ذلكَ وأصْلحُوا﴾ أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إنَّ ربَّكَ مِن بعدِها﴾ أي: تلك الفعلة والزلة ﴿لَغفُورٌ رحِيمٌ﴾.

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾

١٢٠ ـ يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إنَّ إبراهيمَ كانَ أُمَّةً قانتاً للهِ حنيفاً﴾ فأما «الأمة» فهو الإمام الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿و لمْ يكُ من المُشْركينَ﴾. روى سفيان الثوري: عن أبي العبيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت، فقال: الأمة مُعلِّم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله، وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم.

عن فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إنَّ معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي:

غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿إنَّ إبراهيمَ كانَ أمةً﴾ فقال: تدري ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله أعلم، فقال: الأمة: الذي يعلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله، وكذلك كان معاذ. وقد روي من غير وجه عن ابن مسعود، أخرجه ابن جرير، وقال مجاهد: ﴿أمة﴾ أي: أمة وحده، والقانت: المطيع، وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيم ﴿أمة﴾ أي: مؤمناً وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار، وقال قتادة: كان إمام هدى، والقانت المطيع لله.

١٢١- وقوله: ﴿شاكِراً لأنعُمهِ﴾ أي: قائماً بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: ﴿و إبراهِيمَ الذِي وَفَّى﴾ أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به، وقوله: ﴿اجْتَباه﴾ أي: اختاره واصطفاه، كقوله: ﴿و لَقَدْ آتَينا إبراهيمَ رُشْدَه مِن قبلُ وكُنّا بِهِ عالِمينَ﴾. ثم قال: ﴿وهَداهُ إلى صِراطٍ مُستقِيم﴾ وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، على شرع مرضى.

١٢٢- وقوله: ﴿و آتيْناهُ في الدُّنْيا حَسَنَةً﴾ أي: جمعنا له خير الدنيا، من جميع ما يحتاج المؤمن إليه، في إكمال حياته الطيبة ﴿و إنَّهُ في الآخرةِ لَمِن الصالِحينَ﴾ وقال مجاهد في قوله: ﴿و آتيْناهُ في الدُّنيا حسنةً﴾ أي: لسان صدق.

١٢٣- وقوله: ﴿ثُمَّ أوحيْنا إليكَ أن اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً﴾ أي: ومن كماله وعظمته، وصحة توحيده وطريقه، أنَّا أوحينا إليك، يا خاتم الرسل، وسيد الأنبياء ﴿أن اتَّبعْ ملةَ إبراهيمَ حنيفاً وَ ما كانَ مِن المُشْرِكينَ﴾، كقوله في الأنعام ﴿قُلْ إنَّني هداني ربِّي إلَى صِراطٍ مُسْتقيمٍ * ديناً قِيَماً مِلَّةَ إبراهيمَ حنيفاً وما كانَ من المُشْرِكينَ﴾.

ثم قال تعالى منكراً على اليهود:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ﴾

١٢٤- لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة، يوماً من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت فيه، وتمت النعمة على عباده، ويقال: إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت، لأنه اليوم الذي لم يَخلق فيه الربُّ شيئاً من المخلوقات، الذي كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، و وصَّاهم أن يتمسكوا به، وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمدﷺ إذا بعثه، وأخذ مواثيقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إنَّما جُعِلَ السَّبتُ علَى الذينَ اختلفُوا فيهِ﴾ قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة.

ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى بن مريم، فيقال: إنه حولهم إلى يوم الأحد، ويقال: إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها، وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رُفع، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيحين: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فَرَض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تَبعٌ، اليهود غداً، والنصارى بعد غد» لفظ البخاري.

وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخِرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، والمقضي بينهم قبل الخلائق» رواه مسلم.

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾

١٢٥ - يقول تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ: أن يدعو الخلقَ إلى الله بالحكمة. قال ابن جرير: هو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة، ﴿و المَوعِظةِ الحسنةِ﴾ أي: بما فيه من الزواجر، والوقائع بالناس، ذكِّرْهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله: ﴿و جادِلْهمْ بالتي هيَ أحسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: ﴿و لا تُجادِلُوا أهلَ الكِتابِ إلاَّ بالتِي هيَ أحسنُ إلاَّ الذينَ ظَلَمُوا منهم﴾ الآية. فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون، في قوله: ﴿فقُولا لهُ قولاً ليِّناً لعلَّهُ يتذكَّرُ أو يخْشَى﴾.

وقوله: ﴿إنَّ ربَّكَ هوَ أعلمُ بمَن ضلَّ عن سبيلِهِ﴾ الآية، أي: قد علِمَ الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده، وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على مَن ضلَّ منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم، إنما أنت نذير، عليك البلاغ وعلينا الحساب، ﴿إنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ﴾، ﴿ليسَ عليكَ هُداهُمْ ولكنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يشاءُ﴾.

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾

١٢٦ - يأمر تعالى بالعدل في القصاص، والمماثلة في استيفاء الحق، كما روى عبد الرزاق عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى: ﴿فعاقِبُوا بمِثْلِ ما عُوقِبْتمْ بِهِ﴾: إنْ أخذَ منكمْ رجلٌ شيئاً، فخذُوا مثله. وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم، واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجال ذو منعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذن الله لنا، لانتصرنا من هؤلاء الكلاب، فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد.

وقال محمد بن إسحاق: عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكية، إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أُحُد، حين قتل حمزة رضي الله عنه ومُثِّل به.

و روى عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه : عن أبي بن كعب قال : لما كان يوم أُحد قُتل من الأنصار ستون رجلاً ، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين ، لنمثلن بهم ، فلما كان يوم الفتح قال رجل : لا تُعرف قريش بعد اليوم ، فنادى مناد : أن رسول الله ﷺ أمَّنَ الأسود والأبيض ، إلا فلاناً وفلاناً - ناساً سماهمْ - فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿و إنْ عاقبْتُمْ فعاقبُوا بمثْلِ ما عُقبْتُم بهِ﴾ إلى آخر السورة ، فقال رسول الله ﷺ : «نصبرُ ولا نُعاقب» .

و هذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن ، فإنها مشتملة على مشروعية العدل ، والندب إلى الفضل ، كما في قوله : ﴿و جزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها﴾ ، ثم قال : ﴿فمَنْ عفَا وأصْلحَ فأجْرُهُ علَى اللهِ﴾ الآية . وقال : ﴿و الجُرُوح قِصَاص﴾ ثم قال : ﴿فَمَن تَصَدَّقَ به فَهُوَ كفَّارَةٌ لَّهُ﴾ وقال في هذه : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ ، ثم قال : ﴿و لئن صبرْتم لهوَ خيرٌ للصابرينَ﴾ .

١٢٧- وقوله تعالى : ﴿و اصْبِرْ وَ ماصَبْرُكَ إلاَّ باللهِ﴾ تأكيدٌ للأمر بالصبر ، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته ، وحوله وقوله ؛ ثم قال تعالى : ﴿و لاَ تَحْزَنْ عليهِمْ﴾ أي : على مَنْ خالفَكَ ، فإنَّ الله قدَّر ذلك ﴿و لاَ تكُ في ضَيقٍ﴾ أي : غم ﴿ممـا يَمْكُرونَ﴾ أي : مما يجهَدون أنفُسهمْ في عداوتِكَ ، وإيصال الشر إليك ، فإنَّ الله كافيكَ ، وناصرك ومؤيدك ومظهرك ، ومظفرك بهم .

١٢٨- وقوله : ﴿إنَّ اللهَ معَ الذينَ اتَّقَوا والذينَ هُم مُحْسِنونَ﴾ أي : معهم بتأييده ونصره ومعونته ، وهديه وسعيه ، وهذه معية خاصة ، كقوله : ﴿إذْ يُوحِي ربُّكَ إلَى الملائكةِ أنِّي معكمْ فثبِّتُوا الذينَ آمنُوا﴾ ، وقوله لموسى وهارون ﴿لا تَخافَا إنَّني معَكُما أسْمعُ وأرَى﴾ وقول النبي ﷺ للصدِّيق وهما في الغار : «لا تحزن إنَّ اللهَ معنا» .

و أما المعية العامة : فبالسمع والبصر والعلم ، كقوله تعالى : ﴿و هُوَ معكمْ أينَما كُنتمْ واللهُ بما تَعْملونَ بصيرٌ﴾ ، وكَقوله تعالى : ﴿ألمْ ترَ أنَّ الله يعْلمُ ما في السَّمواتِ وما في الأرض ما يَكونُ مِن نجْوَى ثلاثةٍ إلاَّ هو رابِعُهمْ ولا خَمْسةٍ إلاَّ هُوَ سادِسُهمْ ولا أدْنَى مِن ذلكَ إلاَّ هُو معهمْ أينمَا كانُوا﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ومَا تكونُ في شأنٍ وما تتْلُو منهُ مِن قُرآنٍ ولا تعْمَلونَ مِنْ عملٍ إلاَّ كنَّا عليكُمْ شُهوداً﴾ الآية .

و معنى ﴿الذينَ اتَّقَوْا﴾ أي : تركوا المحرمات ﴿و الذِينَ هُمْ مُحْسِنونَ﴾ أي : فعلوا الطاعات ، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم ، وينصرهم ويؤيدهم ، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم .

و روى ابن أبي حاتم : عن محمد بن حاطب قال : كان عثمان رضي الله عنه من الذين آمنوا ، والذين اتقوا ، والذين هم محسنون .

بعون الله تعالى تم طبع الجزء الثاني من تفسير الإمام الحافظ ابن كثير

و يليه الجزء الثالث إن شاء الله

و أوله تفسير سورة الإسراء

و الحمد لله أولاً و آخراً

****

حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

مهذب ومختصر وتحقيق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي

المتوفى سنة ٧٧٤هـ

تهذيب واختصار وتحقيق

محمد الحمود النجدي

الجزء الثالث

غراس

للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان

جمعية إحياء التراث الإسلامي

حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

مهذب ومختصر ومحقق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

تهذيب واختصار وتحقيق
محمد الحمود النجدي

الجزء الثالث

غراس للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان

جمعية إحياء التراث الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

مقدمة

الحمد لله على إحسانه ، والشكر له على توفيقه وامتنانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، تعظيماً لشأنه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فهذا هو المجلد الثالث من كتابنا «حسن التحرير في تهذيب تفسير ابن كثير» نسأل المولى جل شأنه أن ينفع به قارئه وكاتبه وناشره ، آمين .

وقد جرينا فيه على ما تقدم ذكره في المجلد الأول ، من حذف الأحاديث الضعيفة ، إلا ما كان في إبقائه ضرورة علمية ، وكذا الآثار الموقوفة الضعيفة ، التي يسوقها الحافظ ابن كثير بإسنادها ، كما حذفنا الأخبار الإسرائيلية ، والآراء الضعيفة ، والمكرر من الأحاديث ، إلا ما كان في إثباته زيادة فائدة .

وإذا كان البعض يرى أن هناك أكثر من عمل على هذا الكتاب ، أعني ـ تفسير ابن كثير ـ فإني أرجو أن يكون عملنا هذا متميزاً ـ إنْ شاء الله تعالى ـ يَلْحظ ذلك من له حظٌّ من العلم والنَّظر والفهم .

وحسبي أني أردتُ النفع لنفسي أولاً ، ثم لإخواني من طلبة العلم ، وبقية المسلمين والمسلمات .

و أخيراً ـ وليس آخراً ـ لا أنسى أنْ أشكر كلَّ مَنْ ساهم في إخراج هذا الجزء ، من مصحح وطابع ومتبرع وناشر ، آجرهم الله جميعاً .

فاللهم انْفعنا بما علَّمتنا ، وعلِّمنا ما ينفعنا ، وزِدْنا علماً ، إنك أنت العليم الحكيم .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

و كتبه/

محمد الحمود النجدي الأثري

الكويت ـ لخمس بقين من شهر ربيع الآخر سنة ١٤٢٥هـ

ترتيبها ١٧ — سورة الإسراء ـ مكية — آياتها ١١١

روى الإمام الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهنَّ من تلادي.

وروى الإمام أحمد: عن أبي لبابة سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة «بني إسرائيل» و«الزمر».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾

١ - يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على مالا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه، ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿لَيْلاً﴾ أي: في جنح الليل ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء، معدن الأنبياء، من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جُمِعوا له هناك كلهم، فأمَّهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدَّم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: في الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أي: محمداً ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي: العظام، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه ﷺ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم، فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء: رواية أنس بن مالك رضي الله عنه:

روى الإمام أبو عبد الله البخاري: عن شريك بن عبد الله قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة: أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى، فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه ـ وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ـ فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده، حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيماناً وحكمة، فحشا به صدره ولغاديده ـ يعني عروق حلقه ـ ثم أطبقه، ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها فناداه أهل السماء: مَن هذا؟ فقال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد، قالوا: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: نعم، قالوا: فمرحباً به وأهلاً، يستبشر به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في

الأرض حتى يعلمهم، فوجد في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه، فسلم عليه، وردَّ عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بابني، نِعْمَ الابنُ أنت، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان، فقال: «ما هذان النهران يا جبريل؟» قال: هذان النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به في السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هكذا الكوثر الذي خبأ لك ربك. ثم عرج به إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى: مَن هذا؟ قال: جبريل قالوا: ومن معك؟ قال: محمدﷺ، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحباً به وأهلاً، ثم عرج إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية، ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم، فوعيتُ منهم إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة، بتفضيل كلام الله تعالى، فقال موسى: رب لم أظن أن ترفع عليّ أحداً، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يوحي: خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة، ثم هبط به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: يامحمد، ماذا عهد إليك ربك؟ قال: «عهد إليَّ خمسين صلاة كل يوم وليلة»، قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم، فالتفت النبيﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه جبريل: أنْ نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس، فقال: وهو في مكانه: «يا رب خفف عنا، فإنَّ أمَّتِي لا تستطيع هذا» فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه، حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس، فقال: يا محمد، والله لقد راودتُ بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا، فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت النبيﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يا رب إنَّ أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم، فخفف عنا» فقال الجبار تبارك وتعالى: يا محمد، قال: «لبيك وسعديك»، قال: إنه لا يُبدَّل القول لديَّ، كما فرضتُ عليك في أم الكتاب، قال: فكل حسنةٍ بعشر أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك، فرجع إلى موسى، فقال: كيف فعلت؟ فقال: «خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها» قال موسى: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً، قال رسول اللهﷺ: «يا موسى، قد والله استحييت من ربي عز وجل، مما أختلف إليه» قال: فاهبط باسم الله، قال: واستيقظ وهو في المسجد الحرام».

هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد، ورواه في صفة النبيﷺ، ورواه مسلم عن سليمان قال: فزاد ونقص وقدم وأخر. وهو كما قال مسلم، فإن شريك بن عبد الله بن أبي نمر اضطرب في هذا الحديث، وساء حفظه ولم يضبطه، كما سيأتي بيانه إن شاء الله في الأحاديث الأخر.

ومنهم من يجعل هذا مناماً توطئةً لما وقع بعد ذلك، والله أعلم.

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي: في حديث شريك زيادة تفرد بها، على مذهب من زعم أنهﷺ رأى الله

عز وجل، يعني قوله: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى» قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصح. وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق، فإن أباذر قال: يا رسول الله، هل رأيتَ ربك؟ قال: «نورٌ أني أراه» وفي رواية «رأيت نوراً» أخرجه مسلم. وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ إنما هو جبريلﷺ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة، ولا يعرف لهم مخالفٌ من الصحابة، في تفسير هذه الآية بهذا.

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك أن رسول اللهﷺ قال: «أُتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيتُ بيتَ المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبتَ الفطرة، قال: ثم عرج بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم، فرحَّب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى، فرحَّبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه ففتح لنا، فإذا أنا بيوسفﷺ، وإذا هو قد أُعطي شطر الحُسن، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم يقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لنا، فإذا أنا بموسىﷺ فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ فقيل: وقد بعث إليه، قال: قد بُعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيمﷺ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت، فما أحدٌ من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها، قال: فأوحى الله إليَّ ما أوحى، وقد فرض عليَّ في كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، قال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإنَّ أمتك لا تطيق ذلك، وإني قد بلوت بني إسرائيل وخَبَرْتُهم، قال: فرجعت إلى ربي، فقلت: أي رب خفف عن أمتي، فحطَّ عني خمساً فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال: ما فعلت؟ فقلت: قد حطَّ عن خمساً، فقال: إن أمَّتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمَّتك، قال:

فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، ويحطّ عنّي خمساً خمساً، حتى قال: يا محمد، هنّ خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسَنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت عشراً، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب، فإنْ عملها كتبت سيئة واحدة. فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك، فقال رسول الله ﷺ: لقد رجعتُ إلى ربِّي حتى استحييتُ»، رواه مسلم بهذا السياق، وهو أصح من سياق شريك.

قال البيهقي: وفي هذا السياق دليلٌ على أن المعراج كان ليلة أسريَ به ﷺ، من مكة إلى بيت المقدس. وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية.

و روى الإمام أحمد: عن أنس أن النبي ﷺ أُتي بالبراق ليلة أسري به، مُسْرجاً مُلجماً ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبك قط، أكرم على الله منه. قال: فارفضَّ عَرقاً. ورواه الترمذي.

و روى أحمد أيضاً: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرِج بِي إلى ربي عز وجل، مررتُ بقوم لهم أظفارٌ من نُحاسٍ، يَخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعْراضهم» وأخرجه أبو داود.

و روى أيضاً: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلة أُسرِي بي على موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره» ورواه مسلم.

و روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، قال: وما كنتَ تسأله؟ قال: كنتُ أسأله هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سألته، فقال: «قد رأيته نوراً أني أراه» هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد، وأخرجه مسلم: عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ، هل رأيت ربك؟ قال: «نورٌ أنّى أراه».

(رواية بريدة بن الخصيب الأسلمي): روى الحافظ أبوبكر البزار: عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسري بي ـ قال ـ فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس، قال: فوضَع أصبعه فيها، فخرقها فشد بها البراق»، وقد رواه الترمذي.

(رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنه): روى الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذَّبتني قريش أُسري بي إلى بيت المقدس، قمتُ في الحِجْر فجلّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه» أخرجاه في الصحيحين.

(رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما): روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره، وبعلامة بيت المقدس، وبعيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدِّق محمداً بما يقول، فارتدوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبي جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزبداً فتزقموا؛ ورأى الدجال في صورته رؤيا عين، ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم، وسئل النبي ﷺ عن الدجال، فقال: «رأيته فيلمانياً أقمر هجان، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكبٌ دري، كأن شعر رأسه أغصان شجرة، ورأيت عيسى عليه السلام أبيض، جعد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق،

ورأيت موسى عليه السلام أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق، ونظرت إلى إبراهيم عليه السلام فلم أنظر إلى إرب منه، إلا نظرت إليه مني، حتى كأنه صاحبكم، قال جبريل: سلِّم على أبيك، فسلمت عليه» ورواه النسائي وهو إسناد صحيح.

(طريق أخرى): روى البيهقي عن قتادة عن أبي العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام مربوع الخَلق، إلى الحُمرة والبياض سبط الرأس» وأُري مالكاً خازن جهنم، والدجال، في آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِن لِقَائِهِ﴾ فكان قتادة يفسرها: أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: جعل اللهُ موسَى هُدًى لبني إسرائيل. رواه مسلم.

(طريق أخرى): روى الإمام أحمد أيضاً: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسري بي فأصبحت بمكة فظعتُ بأمري وعرفتُ أن الناس مكذبي، فقعدت معتزلاً حزيناً، فمر به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: وما هو؟ قال: «إني أُسري بي الليلة» قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم» قال: فلم ير أنْ يكذِّبه، مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه، فقال: أرأيت إنْ دعوتُ قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال: يا معشر بني كعب بن لؤي، قال: فانفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدِّثْ قومكَ بما حدثتني، فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة»، فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم»، قال: فمن بين مُصفِّق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب، قالوا: وتستطيع أنْ تنعتَ لنا المسجد، وفيهم مَن قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «فما زلت أنعتُ حتى التبس عليَّ بعض النَّعْت، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه، حتى وُضع دون دار عقيل أو عقال، فنعته وأنا أنظر إليه، قال: وكان مع هذا نعتٌ لم أحفظه، قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه. وأخرجه النسائي.

(رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه): روى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن عبد الله بن مسعود قال: لما أُسري برسول الله ﷺ فانتهى إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يُصْعد به حتى يُقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: غشيها فَرَاشٌ من ذهب، وأُعطي رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً المقحمات، يعني الكبائر. ورواه مسلم.

(رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه): روى الإمام أحمد: عن عبيد بن آدم وأبي مريم وأبي شعيب: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان بالجابية فذكر فتح بيت المقدس، قال عبيد بن آدم: سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب: أين ترى أن أصلي؟ فقال: إنْ أخذت عني صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر رضي الله عنه: ضاهيت اليهودية، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدم إلى القبلة فصلى، ثم جاء فبسط رداءه، وكنس الكُناسة في ردائه، وكنس الناس.

فلم يعظِّم الصخرة تعظيماً يصلي وراءها وهي بين يديه، كما أشار كعب الأحبار، وهو من قوم

يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم ، ولكن منَّ الله عليه بالإسلام فَهُدِي إلى الحق ، ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين عمر : ضاهيت اليهودية ، ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة ، من أجل أنها قبلة اليهود ، ولكن أماط عنها الأذى ، وكنس عنها الكناسة بردائه .

و هذا شبيه بما جاء في صحيح مسلم : عن أبي مرثد الغنوي قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها» .

(رواية أبي هريرة رضي الله عنه) : روى البخاري ومسلم في الصحيحين : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «حينَ أُسْري بي لقيتُ موسى عليه السلام ، فَنَعتَه فإذا رجل ـ حسبته قال ـ : مضطرب ، رَجْل الرأس كأنه من رجال شنوءة ، قال : ولقيت عيسى ـ فنعته النبي ﷺ قال ـ ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس ـ يعني : حمام ـ قال : ولقيتُ إبراهيم وأنا أشبه ولده به ، قال : وأتيتُ بإناءين ، في أحدهما لبن وفي الآخر خمر ، قيل لي : خُذ أيهما شئت ، فأخذت اللبن فشربت ، فقيل لي : هُديتَ الفطرة ، أو أصبت الفطرة ، أما إنك لو أخذت الخمر ، غوت أمتك» .

و في صحيح مسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : لقد رأيتني في الحِجْر ، وقريش تسألني عن مسراي ، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكربتُ كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلي انظر إليه ، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به ، وقد رأيتني في جماعةٍ من الأنبياء ، وإذا موسى قائمٌ يصلي ، وإذا هو رجل جَعْد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى قائمٌ يصلي ، أقرب الناسِ شَبَهاً به عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم قائمٌ يصلي ، أقربُ الناس شَبَهاً به صاحبكم ـ يعني نفسه ـ فحانت الصلاة فأممتُهم فلما فرغت ، قال قائل : يا محمد ، هذا مالك خازن جهنم ، فالتفتُّ إليه فبدأني بالسلام» .

(رواية عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها) : روى البيهقي : عن عروة عن عائشة قالت : لما أُسري برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى ، أصبح يُحدِّثُ الناس بذلك ، فارتد ناسٌ ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه ، وسعوا بذلك إلى أبي بكر فقالوا : هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس ، فقال : أو قال ذلك؟ قالوا : نعم ، قال : لئن كان قال ذلك ، لقد صدق ، قالوا : فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس ، وجاء قبل أن يصبح؟ ! قال : نعم ، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة ، فلذلك سُمِّي أبو بكر الصديق .

(فصل)

و إذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث ، صحيحها وحسنها وضعيفها ، يحصل مضمون ما اتفقت عليه ، من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وأنه مرة واحدة ؛ وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه ، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام . ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة ، فأثبت إسراآت متعددة ، فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ، ولم يتحصل على مطلب . وقد صرَّح بعضهم من المتأخرين ، بأنه عليه السلام أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ، ومرة من مكة إلى السماء فقط ، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء ، وفرح بهذا المسلك ! وأنه قد ظفر بشيء يتخلص به من الإشكالات ، وهذا بعيد جداً ، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ، ولو تعدَّد هذا التعدد ، لأخبر النبي ﷺ به أمته ، ولنقله الناس على التعدد والتكرر .

قال موسى بن عقبة عن الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة، وقال السدي: بستة عشر شهراً.

والحق أنه ﷺ أُسري به يقظة لا مناماً، من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البراق. فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أُتي بالمعراج وهو: كالسلم ذو درج، يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتيهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يَسمع فيه صَريف الأقلام، أي: أقلام القدر بما هوكائن، ورأى سدرةَ المنتهى، وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة، من فَراشٍ من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سدَّ الأفق، ورأى البيتَ المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مُسْندٌ ظهره إليه، لأنه الكعبة السماوية، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة.

ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خفَّفها إلى خمس، رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناءٌ عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبطَ إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة. ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه، لأنه لما مرَّ بهم في منازلهم، جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق، لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي، ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو وإخوانه من النبيين. ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك. ثم خرج من بيت المقدس، فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

و أما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء أو الجميع، فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء، ويحتمل أن يكون ههنا وههنا، لأنه كالضيافة للقادم، والله أعلم.

ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه ﷺ وروحه، أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أُسري ببدنه وروحه، يقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعد يقظة، لأنه كان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولمَا ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم.

وأيضاً: فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة: هي شجرة الزقوم. رواه البخاري.

و قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضاً: فإنه حُمل على البُراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح، لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم.

(فائدة) قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه: «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد، ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء، عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأُبي بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء وصهيب الرومي وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين، منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً (٣)﴾

٢- لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمدﷺ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله، وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب، ﴿هُدًى﴾ أي: هادياً لبني إسرائيل ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا﴾ أي: لئلا تتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ أي: ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله: أن يعبده وحده لا شريك له.

٣- ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح، فيه تهييج وتنبيه على المنة، أي: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة، تشبهوا بأبيكم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم، بإرسالي إليكم محمداًﷺ، وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف: أن نوحاًﷺ كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه، وشأنه كله، فلهذا سمي عبداً شكوراً.

و روى الإمام أحمد: عن أنس ابن مالكﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «إنَّ الله ليرضى عن العبد، أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة، فيحمد الله عليها» وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي.

وعن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال. وقد ذكر البخاري ههنا: حديث عن أبي هريرة: عن النبيﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» بطوله، وفيه: «فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، إنَّك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمَّاك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك» وذكر الحديث بكماله.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ

لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ﴿٧﴾ عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴿٨﴾﴾

٤- يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم، أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، ويعلون علواً كبيراً، أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ أي: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به.

٥- وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا﴾ أي: أولى الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: سلَّطنا عليكم جنداً من خلقنا، أولي بأس شديد، أي: قوة وعدة وعدد وسلطنة شديدة ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ أي: تملكوا بلادكم، وسلكوا خلال بيوتكم، أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين، لا يخافون أحداً، وكان وعداً مفعولاً.

و قد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلَّطين عليهم من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزري وجنوده، سُلِّط عليهم أولاً، ثم أديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت.

٦- ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده، وعنه أيضاً وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل. وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في كيفية ترقيه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مقعداً ضعيفاً، يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتل بها خلقاً كثيراً من بني إسرائيل.

و قد روى ابن جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة، مرفوعاً مطولاً، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب، كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية، لم أر تطويل الكتاب بذكرها، لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد. وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم.

وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا، سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا، وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء.

و قد روى ابن جرير: عن سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام، فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كِباً، فسألهم ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر، قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن.

و هذا صحيح إلى سعيد بن المسيب. وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى أنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقاً كثيراً أسرى، من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

٧- ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾. وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: الكرة الآخرة، أي: إذا أفسدتم الكرة الثانية، وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: يهينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي: بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي: يدمروا ويخربوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: ما ظهروا عليه ﴿تَتْبِيراً﴾.

٨- ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي: فيصرفهم عنكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا، مع ما ندخره لكم في الآخرة، من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أي: مستقراً، ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه. وقال ابن عباس: ﴿حَصِيراً﴾ أي: سجناً، وقال مجاهد: يحصرون فيها. وكذا قال غيره؛ وقال الحسن: فراشاً ومهاداً. وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي: محمداً ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٠)﴾

٩- يمدح تعالى كتابه العزيز، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل، ويبشر المؤمنين به، الذين يعملون الصالحات على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ أي: يوم القيامة.

١٠- ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿أَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)﴾

١١- يخبر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده وماله بالشر، أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ الآية. وكذا فسره ابن عباس ومجاهد وقتادة وقد تقدم في الحديث: «لا تَدْعُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ، ولاَ عَلَى أَموالِكُم، أَنْ تُوافقوا مِن الله ساعةَ إجابةٍ يستجيبُ فيها».

وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾.

وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس ههنا: قصة آدم ﷺ حين همَّ بالنهوض قائماً، قبل أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله، فقال الله: «يرحمك ربك يا ابن آدم» فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه، فهم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه، فلم يستطع؛ وقال: يا رب عجل قبل الليل.

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾

١٢ - يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها: مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل، وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع، والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة، للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك، ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: في معايشكم وأسفاركم، ونحو ذلك ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً، وأسلوباً متساوياً، لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ۞ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ۞ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، وقال: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۞ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

ثم إنه تعالى جعل الليل آية، أي: علامة يُعرف بها، وهي: الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي: النور وطلوع الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر، وضياء الشمس، ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ - إلى قوله - لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، و قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ الآية. قال عبد الله بن كثير في قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليل، وسدف النهار، وقال ابن جريج عن مجاهد: الشمس آية النهار والقمر آية الليل ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه الله تعالى، وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تُضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ السواد الذي في القمر.

و قد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكواء: سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك أما تقرأ القرآن؟ فمحونا آية الليل؟ فهذه محوه. وقال قتادة في قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: كنا نحدث أن محو آية الليل: سواد القمر الذي فيه، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم.

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) ﴾

١٣ - يقول تعالى بعد ذكر الزمان، وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي

﴿عُنُقِهِ﴾ وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: من خير وشر، ويلزم به ويجازى عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ والمقصود: أن عمل ابن آدم محفوظٌ عليه، قليله كثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساء.

و روى الإمام أحمد: عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لطائر كل إنسان في عنقه». قال ابن لهيعة: يعني الطيرة، وهذا القول من ابن لهيعة في تفسير هذا الحديث، غريب جداً، والله أعلم.

و قوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾ أي: نجمع له عمله كله، في كتاب يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقياً ﴿مَنشُوراً﴾ أي: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله، من أول عمره إلى آخره، ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾.

١٤- ولهذا قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي: أنك تعلم أنك لم تظلم، ولم يكتب عليك إلا ما عملت، لأنك ذكرتَ جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي. وقوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إنما ذكر العنق، لأنه عضوٌ من الأعضاء لا نظير له في الجسد، ومَن أُلزم بشيءٍ فيه، فلا محيد له عنه.

وعن الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يُختم عليه، فإذا مرضَ المؤمنُ قالت الملائكة: يا ربنا، عبدك فلانٌ قد حبسته، فيقول الرب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله، حتى يبرأ أو يموت» إسناده جيد قوي، ولم يخرجوه.

وقال معمر عن قتادة ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال: عمله ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصري ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ يا ابن آدم، بُسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك: فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك: فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا متَّ طُويت صحيفتك، فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ الآية، فقد عَدَل والله من جعلك حسيب نفسك. هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله.

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾

١٥- يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق، واقتفى أثر النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي: عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في

أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا، من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحمل عنهم شيئاً. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ أخبارٌ عن عدله تعالى، وأنه لا يعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، بإرسال الرسول إليه، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ* قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾، وكذا قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحد النار، إلا بعد إرسال الرسول إليه.

بقي هنا مسألة، قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديماً وحديثاً، وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوة، وقد ورد في شأنهم أحاديث، أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه، ثم نذكر فصلاً مخلصاً من كلام الأئمة، والله المستعان.

(فالحديث الأول): عن الأسود بن سريع: روى الإمام أحمد: عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال: «أربعةٌ يحتجون يوم القيامة: رجلٌ أصم لا يسمع شيئاً، ورجلٌ أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: ربِّ لقدْ جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي ماتَ في الفترة فيقول: ربِّ ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواثيقهم ليُطعنَّه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً».

وبالإسناد عن أبي هريرة مثله غير أنه قال في آخره: «فمن دخلها لكانت عليهم برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يُسحب إليها» وكذا رواه إسحاق بن راهويه والبيهقي في كتاب الاعتقاد وقال: هذا إسناد صحيح.

(الحديث الثاني): عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه: قد تقدم روايته مندرجة مع رواية الأسود بن سريع رضي الله عنه. وفي الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ مَوْلودٍ يُولد علَى الفطرة، فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانِه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟».

وفي رواية: قالوا: يا رسول الله، أفرأيتَ من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم عليه السلام».

و في صحيح مسلم: عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ: عن الله عز وجل أنه قال: «إني خَلقتُ عبادي حنفاء» وفي رواية لغيره: «مسلمين».

(الحديث الثالث): عن سمرة رضي الله عنه: رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه المستخرج على البخاري: عن

سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة» فناداه الناس: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين».

وروى الطبراني: عن سمرة قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين، فقال: «هم خَدَمُ أهل الجنة».

فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث[١]، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري: أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام، حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة، وحوله ولدان، فقال له، جبريل: هذا إبراهيم عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: «نعم، وأولاد المشركين»[٢]. ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله عليه السلام: «هم مع آبائهم». ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات، فمن أطاع دخل الجنة، وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة.

وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض. وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي ابن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الاعتقاد، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد.

و قد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمري بعض ما تقدم من أحاديث الامتحان، ثم قال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرونها، لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار، وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها؟!

(و الجواب) عما قال، إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح، كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها، وأما قوله: «إن الدار الآخرة دار جزاء» فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال، وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ الآية.

و قد ثبتَ في الصحاح وغيرها: أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأن المنافق لا يستطيع ذلك، ويعود ظهره كالصحيفة الواحدة طبقاً واحداً، كلما أراد السجود خرَّ لقفاه. وفي الصحيحين: في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها، أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى: يا ابن آدم ما أغدرك، ثم يأذن له في دخول الجنة.

و أما قوله: «فكيف يكلفهم الله دخول النار، وليس ذلك في وسعهم» فليس هذا بمانع من صحة الحديث،

---

(١) وهو حديث: «النبي في الجنة و الشهيد في الجنة و المولود في الجنة و الوئيد في الجنة» لكنه حديث ضعيف، رواه أحمد (٥/ ٨٥) وفيه: خنساء بنت معاوية، مجهولة، و مع ذلك فقد حسَّنه الحافظ في الفتح (٣/ ٢٤٦).

(٢) وهو اختيار البخاري رحمه الله تعالى، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/ ٢٤٦): و يؤيده ما رواه أبو يعلى من حديث أنس مرفوعاً: «سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم، فأعطانيهم» إسناده حسن. و ورد تفسير «اللاهين» بأنهم الأطفال من حديث ابن عباس مرفوعاً، أخرجه البزار، انتهى.

فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط ، وهو جسر على جهنم ، أحدُّ من السيف وأدق من الشعرة ، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم ، كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، ومنهم الساعي ومنهم الماشي ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم المكدوش على وجهه في النار ، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا ، بل هذا أطم وأعظم . وأيضاً فقد ثبتت السنة : بأن الدجال يكون معه جنة ونار ، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار ، فإنه يكون عليه برداً وسلاماً ، فهذا نظير ذاك .

و أيضاً : فإن الله تعالى أمر بني إسرائيل أنْ يقتلوا أنفسهم ، فقتل بعضهم بعضاً ، حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً ، يقتل الرجل أباه وأخاه ، وهم في عماية غمامة أرسلها الله عليهم ، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل ، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً ، لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور ، والله أعلم .

(فصل)

و ليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين ، فلا خلاف بين العمماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفرَّاء الحنبلي عن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة ، وهذا هو المشهور بين الناس ، وهو الذي نقطع به إن شاء الله عز وجل .

و لما كان الكلام في هذه المسألة ، يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة ، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع ، كره جماعة من العلماء الكلام فيها ، روي ذلك عن ابن عباس والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن الحنفية وغيرهم . وأخرج ابن حبان في صحيحه : عن ابن عباس رضي الله عنه وهو على المنبر يقول : قال رسول الله ﷺ : «لايزال أمر هذه الأمة مواتياً أو مقارباً ، ما لم يتكلموا في الولدان والقدر» قال ابن حبان : يعني أطفال المشركين ، وهكذا رواه أبو بكر البزار .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦) ﴾

١٦ - اختلف القراء في قراءة قوله : ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف ، واختلف المفسرون في معناها ، فقيل : معناه أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً ، كقوله تعالى : ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً﴾ فإنَّ الله لا يأمر بالفحشاء ، قالوا : معناه : أنه سخرهم إلى فعل الفواحش ، فاستحقوا العذاب ، وقيل : معناه : أمرناهم بالطاعات ، ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة . رواه ابن جريج عن ابن عباس ، وقاله سعيد بن جبير أيضاً .

وقال ابن جرير : يحتمل أن يكون معناه : جعلناهم أمراء . قلت : إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ ﴿أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ . قال علي بن طلحة عن ابن عباس قوله : ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول : سلطنا أشرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب ، وهو قوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ الآية ، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس .

وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿وإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ يقول أكثرنا عددهم ، وكذا قال عكرمة والحسن والضحاك وقتادة (و الزهري) .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧) ﴾

١٧ - يقول تعالى منذراً كفار قريش ، في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ ، بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسل من بعد نوح ، ودلَّ على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام ، كما قاله ابن عباس : كان بين

آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ومعناه: أنكم أيها المكذبون، لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل، وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ أي: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية، سبحانه وتعالى.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً (١٩)﴾

١٨- يخبر تعالى: أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أي: في الآخرة ﴿يَصْلاهَا﴾ أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُوماً﴾ أي: في حال كونه مذموما على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي ﴿مَدْحُوراً﴾ مبعداً مقصياً، حقيراً ذليلاً مهاناً.

١٩- و قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ﴾ أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: قلبه مؤمن، أي: مصدق موقن بالثواب والجزاء ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾.

﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١)﴾

٢٠- يقول تعالى ﴿كُلاًّ﴾ أي: كل واحد من الفريقين: الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي: هو المتصرف الحاكم، الذي لا يجور، فيعطى كلاً يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا رادَّ لحكمه، ولا مانع لما أعطَى، ولا مغير لما أراد، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ أي: لا يمنعه أحدٌ، ولا يرده راد، قال قتادة ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ أي: منقوصاً، وقال الحسن وغيره: أي: ممنوعاً.

٢١- ثم قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك.

﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العليا ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإنَّ الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض.

و في الصحيحين: «إنَّ أهل الدرجات العلى، ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء». ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾.

﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً (٢٢)﴾

٢٢- يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً﴾ أي: على إشراكك به ﴿مَّخْذُولاً﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو

لا يملك لك ضراً ولا نفعاً، لأن مالك الضر والنفع، هو الله وحده لا شريك له.

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أصابته فاقة، فأنزلها بالناس لم تُسد فاقته، ومَن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى، إما آجلاً وإما عاجلاً» ورواه أبو داود والترمذي.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

٢٣- يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر، قال مجاهد ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعني: وَصَّى، وكذا قرأ أبيّ ابن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم ﴿وَ وَصَّى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين، فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كقوله في الآية الأخرى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ أي: لا تُسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف، الذي هو أدنى مراتب القول السيء ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تنفض يدك عليهما، ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم.

٢٤- ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي: في كبرهما وعند وفاتهما، قال ابن عباس: ثم أنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

و قد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها: الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره: أن النبي ﷺ لما صعد المنبر قال: «آمين آمين آمين» قيل: يا رسول الله، علام أمّنت؟ قال: «أتاني جبريل، فقال: يا محمد رغم أنف رجل ذُكرتَ عنده فلم يُصلِّ عليكَ، قل: آمين، فقلت: آمين، ثم قال: رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، ثم خرج فلم يغفر له، قل: آمين، فقلت: آمين، ثم قال: رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين، فقلت: آمين»(١).

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن أبي مالك القشيري قال: قال النبي ﷺ: «مَن أدرَك والديه أو أحدهما، ثم دخل النار من بعد ذلك، فأبعدهُ اللهُ وأسحقه» ورواه أبو داود الطيالسي.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن معاوية بن جاهمة السلمي: أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردتُ الغزو وجئتك أستشيرك؟ فقال: «فهل لك من أم؟» قال: نعم، قال: «فالزمها فإنّ الجنة عند رجليها»، ثم الثانية، ثم الثالثة، في مقاعد شتى، كمثل هذا القول. ورواه النسائي وابن ماجه.

(حديث آخر) روى الإمام أحمد: عن المقدام بن معديكرب عن النبي ﷺ قال: «إنّ الله يُوصيكم بآبائكم، إنّ الله يوصيكم بأمهاتكم، إنّ الله يُوصيكم بأمّهاتكم، إنّ الله يُوصيكم بأمّهاتكم، إنّ الله يُوصيكم

---

(١) رواه ابن حبان والطبراني والبزار وغيرهم، انظر طرقه وألفاظه في الترغيب للمنذري (٢٤٩٠- ٢٤٩٥) بتحقيق العلامة الألباني.

بالأقرب فالأقرب» وأخرجه ابن ماجه.

(حديث آخر) روى أحمد: عن رجل من بني يربوع قال: أتيت النبي ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطي العليا، أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك».

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥) ﴾

٢٥- قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به، وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك، فقال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة، وعن ابن عباس: المسبحين، وفي رواية عنه: المطيعين المحسنين، وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين، وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى. وعن سعيد بن المسيب قال: الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون، ويصيبون الذنب ثم يتوبون. ورواه عبد الرزاق، وكذا قال عطاء بن يسار. وقال سعيد بن جبير ومجاهد: هم الراجعون إلى الخير. وقال مجاهد عن عبيد بن عمير في الآية: هو الذي إذا ذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها. ووافقه مجاهد في ذلك، وروى عبد الرزاق عنه أيضاً قال: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهمَّ اغفرلي ما أصبت في مجلسي هذا.

قال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الرجاع من المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه.

و هذا الذي قاله هو الصواب، لأن الأوَّاب مشتق من «الأوب» وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾. وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون»(١).

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً (٢٨) ﴾

٢٦- لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، وفي الحديث: «أُمك وأباك، ثم أدناك أدناك» وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب» وفي الحديث: «مَن أحبَّ أن يُبسطَ له في رزقه، ويُنسأَ لهُ في أجله، فليَصِلْ رَحِمه»(٢).

وقد تقدم الكلام على المساكين وأبناء السبيل في سورة براءة، بما أغنى عن إعادته ههنا.

قوله: ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ لما أمر بالإنفاق، نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ الآية.

٢٧- ثم قال منفراً عن التبذير والسرف ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: أشباههم في ذلك، قال ابن مسعود: التبذير الإنفاق في غير حق. وكذا قال ابن عباس، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق، لم يكن مبذراً، ولو أنفق مُدّاً في غير حق كان مبذراً. وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير

---

(١) رواه البخاري في مواضع، أولها: في العمرة (٣/ ٦١٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٢) رواه البخاري في الأدب (١٠/ ٤١٥) و مسلم في البر (٤/ ١٩٨٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

الحق، والفساد.

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: في التبذير والسفه، وترك طاعة الله، وارتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ أي: جحوداً لأنه أنكر نعمة الله عليه، ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته.

٢٨- وقوله: ﴿وإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ الآية، أي: إذا سألك أقاربك، ومن أمرناك بإعطائهم، وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة، ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾ أي: عدهم وعداً بسهولة ولين: إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، هكذا فسَّر قوله: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾ بالوعد: مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغير واحد.

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) ﴾

٢٩- يقول تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش، ذاماً للبخل، ناهياً عن السرف ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي: نسبوه إلى البخل تعالى وتقدس، الكريم الوهاب، وقوله: ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق، فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾ وهذا من باب اللف والنشر، أي: فتقعد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك، ويستغنون عنك. كما قال زهير بن أبي زهير في المعلقة:

و من كانَ ذامالٍ فيبخل بماله ... على قومه يُستغنَ عنه ويُذمم

و متى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدتَ بلا شيءٍ تنفقه، فتكون كالحسير، وهو كالدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت، ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى: الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل عن أن يَرَى عيباً، هكذا فسر هذه الآية ـ بأن المراد هنا البخل والسرف ـ: ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم.

و قد جاء في الصحيحين: عن أبي هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَثَلُ الْبَخِيلِ والمُنفِق، كمثل رجلين عليهما جُبّتان من حديد، من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا يُنفق إلا سبغَت أو وفرت على جلده، حتى تخفى بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيلُ فلا يريد أن يُنفق شيئاً إلا لزقت كل حلقةٍ منها مكانها، فهو يُوسِّعها فلا تتسع» هذا لفظ البخاري في الزكاة.

و في الصحيحين: عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفقي هكذا وهكذا، ولا تُوعي فيوعِي الله عليك، ولا تُوكِي فيُوكي الله عليك». وفي لفظ: «و لا تُحصِي فيحصِي الله عليك».

و في صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله قالَ لِي: أَنفق أُنفق عليك».

و في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من يوم يُصبح العباد فيه، إلا وملكان ينزلان من السماء، يقول أحدهما: اللهم أعْطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ أعْطِ مُمسِكاً تلفاً».

و روى مسلم: عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما نقص مالٌ من صدقةٍ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومَن تواضع لله رفعه الله».

و في حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً: «إياكم والشُّح، فإنه أهلكَ من كان قبلكم، أمرَهم بالبُخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفُجور ففجروا»[١].

٣٠- وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: خبير بصير بمن يستحق الغنى، ومن يستحق الفقر.

وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة، عياذاً بالله من هذا وهذا.

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) ﴾

٣١- هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه نهى عن قتل الأولاد، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يُورِّثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي: خوف أن تفتقروا في ثاني الحال، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم، فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وفي الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ أي: من فقر ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي: ذنباً عظيماً، وقرأ بعضهم ﴿كَانَ خَطَأً كَبِيراً﴾ وهو بمعناه.

و في الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود، قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أنْ تجعلَ لله نِداً وهوَ خلَقَكَ» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تَقْتُلَ ولدَكَ خشيةَ أن يطعمَ معكَ» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك».

﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾

٣٢- يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا، وعن مقاربته، ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي: ذنباً عظيماً ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: وبئس طريقاً ومسلكاً.

و قد روى الإمام أحمد: عن أبي أمامة: أن فتى شاباً أتى النبيﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: «ادنه» فدنا منه قريباً، فقال: «اجلس» فجلس، فقال: «أتحبُّهُ لأمِّكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يُحبونه لأمهاتهم» قال: «أفتحبُّه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «و لا الناس يُحبُّونه لبناتهم» قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «و لا الناس يُحبونه لأخواتهم» قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «و لا الناس يحبُّونه لعماتهم» قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «ولاالناس يحبونه لخالاتهم» قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهِّرْ قلبه، وأحْصِن فرجه» قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) ﴾

٣٣- يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول اللهﷺ قال:

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٥٩) وأبو داود (١٦٩٨).

«لا يحِلُّ دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتاركُ لدينه المفارق للجماعة».

و في السنن: «لزوال الدنيا أهونُ عند الله من قَتل مسلم»(١).

و قوله: ﴿و مَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ أي: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه: إن شاء قتله قَوَداً، وإنْ شاءَ عفًا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك، وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس، من عموم هذه الآية الكريمة، ولاية معاوية السلطنة، وأنه سيملك، لأنه كان ولي عثمان، وقد قتل عثمان مظلوماًرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان معاوية يطالب علياًرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يسلمه قتلته، حتى يقتص منهم، لأنه أموي، وكان عليرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يستمهله في الأمر، حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب علي من معاوية أن يسلمه الشام، فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة، وأبى أنْ يُبايع علياً هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه، كما قاله ابن عباس واستنبطه من هذه الآية الكريمة، وهذا من الأمر العجب.

وقوله: ﴿فَلاَ يُسرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ قالوا معناه: فلا يسرف الولي في قتل القاتل، بأن يُمثِّل به، أو يقتص من غير القاتل، وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾ أي: أن الولي منصور على القاتل شرعاً، وغالباً قدراً.

﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) ﴾

٣٤- يقول تعالى: ﴿و لاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: لا تتصرفوا في مال اليتيم، إلا بالغبطة ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً﴾

﴿وَ لاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُوا وَ مَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقد جاء في صحيح مسلم: أن رسول اللهﷺ قال لأبي ذر: «يا أباذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحبُّ لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنَّ على اثنين، ولا تولينَّ مال يتيم».

وقوله: ﴿و أَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أي: الذي تعاهدون عليه الناس، والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد، كل منهما يُسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ أي: عنه.

٣٥- وقوله: ﴿وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴿وَ زِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ قرئ بضم القاف وكسرها كالقرطاس، وهو: الميزان، قال مجاهد: هو العدل بالرومية.

وقوله: ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: الذي لا اعوجاج فيه، ولا انحراف ولا اضطراب ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أي: مآلاً ومنقلباً في آخرتكم. قال سعيد عن قتادة ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أي: خير ثواباً وأحسن عاقبة.

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾

٣٦- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يقول: لا تقل، وقال العوفي عنه: لا تَرم أحداً بما ليس لك به علم. وقال محمد ابن الحنفية: يعني شهادة الزور. وقال قتادة: لا تقل رأيتُ ولم تر، وسمعتُ ولم تسمع،

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي (١٤٢٧) و النسائي (٣٧٢١، ٣٧٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، و له شاهد من حديث بريدة رضي الله عنه عند النسائي (٣٧٢٥) و غيره.

وعلمتُ ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل الظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

وفي الحديث: «إياكم والظن، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث»(١).

وفي سنن أبي داود: «بئسَ مطيةُ الرجل زعموا»(٢).

وفي الحديث الآخر: «إنَّ أفرى الفرى، أن يُري الرجل عينيه ما لم تريا»(٣).

وفي الصحيح: «مَن تحلَّم حلماً، كُلف يوم القيامة أن يَعقد بين شعيرتين، وليس بفاعل»(٤).

و قوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أي: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ أي: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسأل عنه وعما عمل فيها. ويصح استعمال «أولئك» مكان «تلك».

﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨)﴾

٣٧- يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبختر في المشية ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ أي: متبختراً متمايلاً، مشي الجبارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾ أي: لن تقطع الأرض بمشيك، قاله ابن جرير.

و قوله: ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ أي: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في الصحيح: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بُردان يتبختر فيهما، إذ خُسفَ به الأرض، فهو يَتَجلجل فيها إلى يوم القيامة». وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون، أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض.

وفي الحديث: «مَنْ تواضع لله، رفعه الله» فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن استكبر وضعه الله، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير. و رأى البختري العابد رجلاً من آل علي يمشي وهو يخطر في مشيته، فقال له: ياهذا، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته، قال: فتركها الرجل بعد. ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته، فقال: إن للشياطين إخواناً. وقال خالد بن معدان: إياكم والخطر، فإنَّ الرجل يَدُه من سائر جسده. رواهما ابن أبي الدنيا.

وروى ابن أبي الدنيا: عن يُحَنِّس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مَشَتْ أمتي المُطيطاء، وخَدَمتهم فارس والروم، سلط بعضهم على بعض»(٥).

و قوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ أما من قرأ «سيئة» أي: فاحشةً، فمعناه: عنده كل هذا الذي نهينا عنه، من قوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾ إلى هنا، فهو سيئة مؤاخذ عليها، مكروهاً عند

---

(١) رواه البخاري في الأدب (١٠/ ٤٨٤) و مسلم في صحيحه في البر و الصلة (٤/ ١٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود (٤٩٧٢).
(٣) رواه البخاري في التعبير (١٢/ ٤٢٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٤) المصدر السابق، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) الحديث صحيح، وهو هنا مرسل، لكن قد رواه الترمذي (٢٣٧٧) و غيره من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، و انظر «الصحيحة» (٩٥٦). و المطيطاء: مشيةٌ فيها تبختر و مدُّ اليدين (نهاية).

الله، لا يحبه ولا يرضاه، وأما من قرأ «سيئه» على الإضافة، فمعناه: عنده كل هذا الذي ذكرناه، من قوله: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى هنا فسيئه، أي: فقبيحه مكروه عند الله، هكذا وجَّه ذلك ابن جرير رحمه الله.

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩) ﴾

٣٩- يقول تعالى هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد، لتأمر به الناس ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً﴾ أي: تلومك نفسك، ويلومك الله والخلق ﴿مَدْحُوراً﴾ أي: مُبعداً من كل خير، قال ابن عباس وقتادة: مطروداً.

والمراد من هذا الخطاب: الأمة بواسطة الرسول ﷺ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا (٤٠) ﴾

٤٠- يقول تعالى راداً على المشركين، الكاذبين الزاعمين ـ عليهم لعائن الله ـ أنَّ الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم، فأخطؤوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ أي: خصصكم بالذكور ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثاً﴾ أي: واختار لنفسه على زعمكم البنات.

ثم شدَّد الإنكار عليهم، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ أي: في زعمكم أن لله ولداً، ثم جَعْلكم ولده الإناث، التي تأنفون أن يكن لكم، وربما قتلتموهن بالوأد، فتلك إذاً قسمةٌ ضيزى، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً* تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً* أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً* وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً* إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً* وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾.

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤١) ﴾

٤١- يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: صرفنا فيه من الوعيد، لعلهم يذكرون مافيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: الظالمين منهم ﴿إِلاَّ نُفُوراً﴾ أي: عن الحق، وبعداً منه.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) ﴾

٤٢- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين، الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى، لو كان الأمر كما يقولون، وأن معه آلهة تُعبد لتقرِّب إليه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه، ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك

على ألسنة جميع رسله وأنبيائه.

٤٣ - ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوّاً كَبِيراً﴾ أي: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤) ﴾

٤٤ - يقول تعالى، تُقدِّسُه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره، عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته.

ففي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحدٌ.

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً ۞ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴾.

و قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات، إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين، كما ثبت في صحيح البخاري: عن ابن مسعود أنه قال: كنا نَسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وفي حديث أبي ذر: أن النبيﷺ أخذ في يده حصيات، فسُمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم. وهو حديث مشهور في المسانيد[1].

وعن عبد الله بن عمرو: أن الرجل إذا قال: لا إله إلا الله، فهي كلمة الإخلاص، التي لا يقبل الله من أحدٍ عملاً حتى يقولها، وإذا قال: الحمد لله، فهي كلمة الشكر، التي لم يشكر اللهَ عبدٌ قط حتى يقولها، وإذا قال: الله أكبر، فهي تملأ ما بين السماء والأرض، و إذا قال: سبحان الله، فهي صلاة الخلائق، التي لم يَدْعُ الله أحداً من خلقه إلاَّ قرَّره بالصلاة والتسبيح. وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: أسلم عبدي واستسلم.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: (قال) النبيﷺ: «إنَّ نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة، دعا ابنيه فقال: إني قاصٌ عليكما الوصية: آمركما باثنتين، وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشرك بالله والكِبْر، وآمركما بلا إله إلا الله، فإن السموات والأرض ومافيهما لو وضعت في كفة الميزان، ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى، كانت أرجح، ولو أن السموات والأرض كانتا حلقةً، فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتهما أو لفصمتهما، وآمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاةُ كل شيء، وبها يرزق كل شيء».

و قال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قال: الاسطوانة تسبح، والشجرة تسبح. الاسطوانة: السارية، وقال بعض السلف: صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وعن إبراهيم قال: الطعام يسبح. ويشهد لهذا القول آية السجدة في الحج. وقال آخرون: إنما يسبح ما كان فيه روح. يعنون من حيوان ونبات. قال قتادة: كل شيء فيه روح يسبح، من

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ١٤٢ - ١٤٣) وعنه أبو نعيم في دلائل النبوة (ص ٤٣١ - ٤٣٢). انظر تخريجه في «مناظرة في القرآن العظيم» لابن قدامة (ص ٤٥ - ٤٧) بتحقيقنا.

شجر أو شيء فيه ، وكذا قال الحسن والضحاك . وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس : أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال : «إنهما ليُعذَّبان ، وما يُعذَّبان في كبير ، أما أحدهما : فكان لا يَستنزه من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» ثم أخذ جَريدة رطبة فشقها نصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة ، ثم قال : «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا» أخرجاه في الصحيحين . قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء : إنما قال : «ما لم ييبسا» لأنهما يسبحان مادام فيهما خضرة ، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما ، والله أعلم .

و قوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ أي : إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، بل يؤجله وينظره ، فإن استمر على كفره وعناده ، أخذه أخذ عزيز مقتدر ، كما جاء في الصحيحين : «إنَّ الله لَيُملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفلِته» ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية .

و قال تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية ، وقال : ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآيتان ، ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ، ورجع إلى الله وتاب إليه ، تاب عليه ، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ الآية ، وقال ههنا : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ كما قال في آخر فاطر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ ، إلى أن قال : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ إلى آخر السورة .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) ﴾

٤٥ - يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن ، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً . قال قتادة وابن زيد : هو الأكنة على قلوبهم ، كما قال تعالى : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي : مانع حائل ، أن يصل إلينا مما تقول شيء . وقوله : ﴿حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾ بمعنى ساتر ، كميمون ومشؤوم بمعنى : يامن وشائم ، لأنه من يمنهم وشؤمهم . وقيل : مستوراً عن الأبصار فلا تراه ، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى ، ومال إلى ترجيحه ابن جرير رحمه الله .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي : عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنها قالت : لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ جاءت العوراء أم جميل ، ولها ولولة وفي يدها فِهْر ، وهي تقول : مذمماً أتينا ـ أو أبينا ـ قال أبوموسى : الشك مني ـ ودينه قَلينا ، وأمره عصينا ، ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك ، فقال : «إنها لن تراني» ، وقرأ قرآناً اعتصم به منها ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾ قال : فجاءت حتى قامت على أبي بكر ، فلم تر النبي ﷺ فقالت : يا أبابكر ، بلغني أن صاحبك هجاني ، فقال أبوبكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، قال : فانصرفت وهي تقول : لقد علمت قريش أني بنت سيدها .

٤٦ - وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ وهي جمع «كنان» الذي يغشى القلب ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي : لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن ، سماعاً ينفعهم ويهتدون به .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي : إذا وحدت الله في تلاوتك ، وقلت لا إله إلا الله

﴿وَلَّوْا﴾ أي: أدبروا راجعين ﴿عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ ونفور جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل ـ والله أعلم ـ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ الآية، قال قتادة في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ﴾ الآية، أن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم، وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها ويعليها وينصرها، ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلح، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها، ولا يقرون بها.

(قول آخر في الآية): وروى ابن جرير عن أبي الجوزاء عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ هم الشياطين. وهذا غريب جداً في تفسيرها، وإلا فالشياطين إذا قرئ القرآن، أو نودي بالأذان، أو ذكر الله، انصرفوا.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨)﴾

٤٧ - يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من «السِّحْر» على المشهور، أو من «السَّحْر» وهو: الرئة، أي: إن تتبعون إن اتبعتم محمداً إلا بشراً يأكل.

و قد صوَّب هذا القول ابن جرير، وفيه نظر! لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور، له رئي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ومنهم من قال: شاعر، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: مجنون، ومنهم من قال: ساحر.

٤٨ - ولهذا قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)﴾

٤٩ - يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ أي: تراباً، قاله مجاهد، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: غباراً ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: يوم القيامة بعد ما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر، كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۞ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ۞ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ الآيتين.

٥٠ - فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم، فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات.

٥١ - ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ روى ابن إسحاق عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت. وروى عطية عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن

جبير وأبو صالح والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم، ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى «الموت» الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده.

و قد ذكر ابن جرير ههنا حديثاً: «يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيُوقف بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، ثم يقال: يا أهل النار، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت».

وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني السماء والأرض والجبال، وفي رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم بعد موتكم، وقد وقع في التفسير المروي عن الإمام مالك عن الزهري في قوله: ﴿أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال: النبي ﷺ، قال مالك: ويقولون: هو الموت.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أي: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً، أو خلقاً آخر شديداً ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم، ولو صرتم إلى أي حال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء. وهذا الذي قالاه هو الذي تعرفه العرب من لغاتها، لأن الإنغاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل لـ «الظليم» وهو ولد النعامة: نغضاً، لأنه إذا مشى عجل بمشيته وحرك رأسه، ويقال نغضت سنه إذا تحركت وارتفعت من منبتها.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، وقوله: ﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً﴾ أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

٥٢- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي: الرب تبارك وتعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: إذا أمركم بالخروج منها، فإنه لا يُخالَف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ❁ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي: إنما هو أمرٌ واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فتستجيبون بحمده، أي: بأمره، وكذا قال ابن جريج، وقال قتادة: بمعرفته وطاعته، وقال بعضهم أي: وله الحمد في كل حال.

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي: يوم تقومون من قبوركم، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾، كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ❁ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً ❁ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ❁ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ❁ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) ﴾

٥٣- يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك، نَزَغَ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدوٌّ لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يُشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده، أي: فربما أصابه بها.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُشيرنَّ أحدُكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدُكم لعل الشيطان أن يَنْزِع في يده، فيقع في حفرة من النار» أخرجاه.

وروى (أيضاً) عن الحسن قال: حدثني رجل من بني سَليط قال: أتيتُ النبي ﷺ وهو في أزفلة من الناس، فسمعته يقول: «المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، التقوى ههنا» - قال حماد: وقال بيده إلى صدره - «وما توادَّ رجلان في الله، فتَفرَّق بينهما، إلا بحدثٍ يحدثه أحدهما، والمحدثُ شر، والمُحدثُ شر، والمُحدثُ شر».

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) ﴾

٥٤- يقول تعالى ربكم أعلم بكم أيها الناس، أي: أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق، إنْ يشأ يرحمكم بأن يوفقكم لطاعته، والإنابة إليه، أو إن يشأ يعذبكم، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ أي: إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار.

٥٥- وقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾، وكما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُفَضِّلُوا بين الأنبياء» فإنَّ المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دلَّ الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضل، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن: في سورة الأحزاب ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، وفي الشورى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، على المشهور، وقد بسطناه بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق.

و قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ تنبيهٌ على فضله وشرفه. روى البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «خُفِّفَ على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فكان يقرؤه قبل أن يَفرغ» يعني القرآن.

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (٥٧) ﴾

٥٦- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين، الذين عبدوا غير الله ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم لا يملكون ﴿كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾ أي: بالكلية ﴿وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ أي:

بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى: أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر. قال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ الآية، قال: كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون يعني: الملائكة والمسيح وعزيراً.

٥٧- وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية، روى البخاري: عن عبد الله في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: ناس من الجن كانوا يُعْبَدُونَ فأسلموا. وفي رواية قال: كان ناسٌ من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم. وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود (عنه أيضاً) قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: عيسى والعزير والملائكة.

واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ وهذا لا يُعبَّر به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة، وقال: والوسيلة هي «القُربة» كما قال قتادة، ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكفُّ عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ أي: ينبغي أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾

٥٨- هذا إخبار من الله عز وجل، بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعهم، أو يعذبهم ﴿عَذَاباً شَدِيداً﴾ إما بقتل، أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾، وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ الآيات.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩)﴾

٥٩- وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: سأل أهلُ مكة النبيﷺ أنْ يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يُنحي الجبال عنهم فيزدرعوا، فقيل له: إن شئتَ أن تستأني بهم، وإن شئتَ أن تؤتيهم الذي سألوا، فإنْ كفروا هلكوا، كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم، قال: «لا، بل أستأني بهم»، وأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ الآية [(١)]، ورواه النسائي وابن جرير به.

و روي أيضاً: عن عمران بن حكيم عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبيﷺ: ادعُ لنا ربَّكَ أنْ يجعلَ لنا الصَّفا ذهباً، ونؤمن بك، قال: «وتَفعلون؟» قالوا: نعم، قال: فدعا فأتاه جبريل، فقال: إنَّ ربَّك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إنْ شئتَ أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك، عذَّبته عذاباً لا أعذِّبه

---

(١) المسند (١/ ٢٥٨) و فيه اختلاف يسير.

أحداً من العالمين، وإنْ شئتَ فتحتُ لهم باب التوبة والرحمة، فقال : «بل بابُ التوبة والرحمة».

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾ أي: نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهلٌ علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذَّب بها الأولون بعد ما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم، أنهم لا يؤخرون إن كذَّبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة: ﴿قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية: ناقة تخرج من صخرة عيَّنوها، فدعا صالحﷺ ربه، فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا، فلما ظلموا بها، أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله، وعقروها، فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

و لهذا قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: دالة على وحدانية من خلقها، وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بها، ومنعوها شربها، وقتلوها فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾ قال قتادة: إن الله تعالى يُخَوِّفُ الناس بما شاء من الآيات، لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون؛ ذُكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعودﷺ، فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه. وهكذا روى أن المدينة زُلزلت على عهد عمر بن الخطابﷺ مرات، فقال عمر: أَحْدثتم، والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن.

وكذا قال رسول اللهﷺ في الحديث المتفق عليه: «إنَّ الشَّمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكن الله عز وجل يُخوفُ بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فَافزَعُوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره، ثم قال: يا أمة محمد، والله ما أحدٌ أغيَرُ من الله، أنْ يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً (٦٠)﴾

٦٠- يقول تعالى لرسولهﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته، وتحت قهره وغلبته. قال مجاهد وعروة بن الزبير والحسن وقتادة وغيرهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي: عصمك منهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية، روى البخاري: عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عين، أُريها رسول اللهﷺ ليلة أُسري به ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ شجرة الزقوم. وكذا رواه أحمد وعبد الرزاق، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس.

وهكذا فَسَّر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبدالرحمن ابن زيد وغير واحد. وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة مستقصاة، و لله الحمد والمنة.

وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعد ما كانوا على الحق، لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين، ولهذا قال: ﴿إِلاَّ فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً وامتحاناً.

وأما الشجرة الملعونة: فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل من هذا بهذا، ويقول: تزقموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا، حكى ذلك ابن عباس ومسروق وأبو مالك والحسن البصري وغير واحد. وكلٌّ من قال إنها ليلة الإسراء فسَّره كذلك بشجرة الزقوم.

وقيل: المراد بالشجرة الملعونة بنو أمية!! وهو غريب ضعيف. ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي: شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك. أي: في الرؤيا والشجرة. وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ أي: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾

٦١ - يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله لآدم وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر، وأبى أن يسجد له افتخاراً عليه، واحتقاراً له ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

٦٢ - وقال أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم وينظر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يقول لأستولين على ذريته إلا قليلاً. وقال مجاهد: لأحتوين. وقال ابن زيد: لأضلنهم. وكلها متقاربة، والمعنى: أرأيتك هذا الذي شرَّفته وعظمته عليَّ لئن أنظرتني لأضلن ذريته، إلا قليلاً منهم.

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾

٦٣ - لما سأل إبليس النظرة قال الله له: ﴿اذْهَبْ﴾ فقد أنظرتك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ أي: على أعمالكم ﴿جَزَاءً مَّوْفُوراً﴾ قال مجاهد: وافراً، وقال قتادة: موفوراً عليكم، لا ينقص لكم منه.

٦٤ - وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال: كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل. وقاله قتادة، واختاره ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خَيَّالتهم ورجلتهم، فإنَّ الرَّجْل جمع راجل، كما أن الركب جمع راكب، وصحب جمع صاحب، ومعناه: تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمرٌ قدري، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً، وقال ابن عباس ومجاهد في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قال: كلُّ راكب وماش في معصية الله. وقال قتادة: أن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه، تقول العرب: أجلب فلان على فلان، إذا صاح عليه.

ومنه «نهى في المسابقة عن الجَلَب والجنب»[١]. ومنه اشتقاق «الجلبة» وهي: ارتفاع الأصوات.

وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى، وقال عطاء: هو الربا، وقال الحسن: هو جمعها من خبيث، وإنفاقها في حرام. وكذا قال قتادة، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أما مشاركته إياهم في أموالهم: فهو ما حرموه من أنعامهم، يعني: من البحائر والسوائب ونحوها. وكذا قال الضحاك وقتادة، وقال ابن جرير: والأولى أن يُقال إن الآية تعم ذلك كله.

وقوله: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني: أولاد الزنا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم، وقال قتادة عن الحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد، مَجَّسُوا وهوَّدوا ونصَّروا، وصبغوا غير صبغة الإسلام، وجزءوا من أموالهم جزءاً للشيطان، وكذا قال قتادة سواء. وقال أبوصالح عن ابن عباس: هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان.

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عصى الله فيه بتسميته بما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه، لأن الله لم يخصص بقوله ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ما عصى الله فيه أو به، أو أطيع الشيطان فيه أو به، فهو مشاركته.

و هذا الذي قاله متجه، وكلٌّ من السلف رحمهم الله فسَّر بعض المشاركة، فقد ثبت في صحيح مسلم: عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال: «يقولُ الله عز وجل: إني خلقتُ عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم».

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «لوْ أنَّ أحدهم إذا أراد أنْ يأتي أهله قال: بسم الله، اللهمَّ جَنِّبْنا الشَّيطانَ، وَ جَنِّب الشَّيْطانَ ما رزَقْتَنا، فإنه إنْ يُقدَّر بينهما ولدٌ في ذلك، لم يضره الشيطان أبداً».

وقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذ حصحص الحق، يوم يقضى بالحق ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم وحراسته لهم، من الشيطان الرجيم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ومؤيداً ونصيراً، وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ المؤمن ليُنضِي شياطينه، كما يُنضي أحدُكم بعيره في السفر». ينضي أي: يأخذ بناصيته ويقهره.

﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)﴾

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود (١٥٩١ ـ ١٥٩٢) و الترمذي (١١٣٧) و النسائي (٣١٢٧، ٣١٢٨، ٣٣٥٧) و غيرهم بلفظ: «لاجَلَب و لا جنب، و لا شغار في الإسلام».

و الجلب: في السباق: هو أن يَتْبع الرجل فرسه فيزجره، و يجلب عليه و يصيح، حثّاً له على الجري، فنهى عن ذلك. (النهاية).

٦٦- يخبر تعالى عن لطفه بخلقه، في تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله، في التجارة من إقليم إلى إقليم، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ أي: إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم، ورحمته بكم.

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) ﴾

٦٧- يخبر تبارك وتعالى: أن الناس إذا مسَّهم ضرٌ دعوه منيبين إليه، مخلصين له الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل، لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يُغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله إنْ كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لاينفع في البر غيره، اللهم لك عليَّ عهد لئن أخرجتني منه، لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رءوفاً رحيماً؛ فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضي الله عنه وأرضاه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً﴾ أي: سجيته هذا ينسى النعم ويجحدها، إلا من عصم الله.

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) ﴾

٦٨- يقول تعالى: أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه، أن يخسف بكم جانب البر، أو يرسل عليكم حاصباً، وهو المطر الذي فيه حجارة، قاله مجاهد وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾، وقال: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ أي: ناصراً يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه.

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾

٦٩- يقول تبارك وتعالى: أم أمنتم أيها المعرضون عنا، بعد ما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر، أن يعيدكم في البحر مرة ثانية، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح، أي: يقصف الصواري ويغرق المراكب، قال ابن عباس وغيره: القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها. وقوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى. وقوله: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ قال ابن عباس: نصيراً. وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أي: يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) ﴾

٧٠- يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها، في الأمور الدينية والدنيوية ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال وفي ﴿الْبَحْرِ﴾ أيضاً على السفن الكبار والصغار ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من زروع وثمار ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم والأنعام المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة، من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

و قد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة.

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) ﴾

٧١- يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة، أنه يحاسب كل أمة بإمامهم، وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي: نبيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ الآية، وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث، لأن إمامهم النبي ﷺ. وقال ابن زيد: بكتابهم، الذي أنزل على نبيهم من التشريع. واختاره ابن جرير، وروي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: بكتبهم.

فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: بكتاب أعمالهم. وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك، وهذا القول هو الأرجح، لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ الآية.

ويحتمل أن المراد ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: كل قوم بمن يأتمون به، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾. وفي الصحيحين: «لِتَتبعْ كُلُّ أُمَّة مَّا كَانَتْ تعبد، فيتبع من كان يعبدُ الطواغيتَ الطَّواغيتَ» الحديث. وقال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وهذا لا يُنافي أن يُجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهداً على أمته بأعمالها، كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾.

ولكن المراد ههنا بالإمام هو: كتاب الأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرأه ويحب قراءته، كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ قد تقدم أن «الفتيل» هو الخيط المستطيل في شق النواة.

٧٢- وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ الآية، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد ﴿وَمَن

﴿كَانَ فِي هَٰذِهِ﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ أي: عن حجة الله وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: وأضل منه كما كان في الدنيا، عياذاً بالله من ذلك.

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) ﴾

٧٣- ٧٥- يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار، وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يَكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه، وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) ﴾

٧٦- قيل: نزلت في اليهود إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام، بلاد الأنبياء، وترك سكنى المدينة! وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك، وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفي صحته نظر. والأظهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾، ولقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ وغزاها ليقتص وينتقم، ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه، والله أعلم.

و قيل: نزلت في كفار قريش، هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع، فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم ـ بعد ما اشتد أذاهم له ـ إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلَّطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى ذراريهم.

٧٧- ولهذا قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ الآية، أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم، بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب، ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة، لجاءهم من النِّقَم في الدنيا مالا قِبَل لأحد به، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ الآية.

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) ﴾

٧٨- يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ قيل: لغروبها، قاله ابن مسعود ومجاهد وابن زيد. وقاله الشعبي عن ابن عباس: دلوكها: زوالها، ورواه نافع عن ابن عمر، ورواه مالك في تفسيره عن الزهري (عنه)، وقاله أبو برزة الأسلمي، وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن والضحاك وأبو جعفر الباقر وقتادة، واختاره ابن جرير، فعلى هذا

تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس، فمن قوله: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وهو ظلامه، وقيل: غروب الشمس أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

و قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الفجر، وقد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله، تفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه أهل الإسلام اليوم، مما تلقوه خلفاً عن سلف وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه، ولله الحمد.

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ عن ابن مسعود وعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ في هذه الآية ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»[1].

و روى البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «فَضْلُ صَلاَةِ الْجَمِيعِ عَلَى صَلاَةِ الْوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً، وَ تَجْتَمِعُ مَلائكةُ الليلِ وملائكةُ النَّهارِ في صَلاَةِ الْفَجْرِ» يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾.

وفي لفظ في الصحيحين: عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: «يَتَعاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَ ملائكةٌ بالنَّهار، ويَجْتَمِعُونَ في صلاةِ الصُّبْحِ وفي صلاةِ العصْرِ، فَيَعْرُجُ الذينَ باتُوا فيكُمْ فيسألُهم ربُّهم ـ وَهُوَ أعْلَمُ بكمْ ـ كَيفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فيقُولونَ: أتَيْناهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

وقال عبد الله بن مسعود: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء، ويقيم هؤلاء. وكذا قال إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة وغير واحد في تفسير هذه الآية.

٧٩- وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ أمرٌ له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في صحيح مسلم: عن أبي هريرة: عن رسول الله ﷺ: أنه سُئل: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل». ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد ما كان بعد نوم. قاله علقمة والأسود وإبراهيم النخعي وغير واحد، وهو المعروف في لغة العرب، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس وعائشة وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم، كما هو مبسوط في موضعه ولله الحمد والمنة، وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء، ويحمل على ما كان بعد النوم.

و اختلف في معنى قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة. رواه العوفي عن ابن عباس، وهو أحد قولي العلماء، وأحد قولي الشافعي رحمه الله، واختاره ابن جرير، وقيل: إنما جُعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص، لأنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه، قاله مجاهد، وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

و قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ أي: افعل هذا الذي أمرتك به، لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى. قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٧٤) والترمذي (٣٣٥٥) وابن ماجة (٦٧٠) وغيرهم، كما أورده المصنف في الأصل.

(ذكر من قال ذلك): (ثم روى): عن صلة بن زفر عن حذيفة قال: يجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خُلقوا، قياماً لا تكلم نفسٌ إلا بإذنه، ينادي: يا محمد، فيقول: «لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، ومنك وإليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت» فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عزوجل، وكذا رواه عبد الرزاق.

و قال ابن عباس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة، وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد، وقاله الحسن البصري، وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله تعالى: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾.

قلت: لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يَشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد، فهو أول من تنشق عنه الأرض، ويبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله، ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما تسأل الناسُ آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكلٌ يقول: لست لها، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها» كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع إن شاء الله تعالى، ومن ذلك: أنه يشفع في أقوام قد أُمر بهم إلى النار، فيردون عنها، وهو أول الأنبياء يُقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وهوَ أول شفيع في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصور إن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته، وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم، ويشفع في رفع درجاتِ أقوام لا تبلغها أعمالهم، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليق إلا له، وإذ أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة، شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدَّتهم إلا الله تعالى، ولا يشفع أحدٌ مثله ولا يساويه في ذلك، وقد بسطتُ ذلك مستقصى في آخر كتاب السيرة في باب الخصائص، ولله الحمد والمنة.

ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود، وبالله المستعان:

روى البخاري: عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً، كل أمةٍ تتبع نبيها، يقولون: يافلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً.

رو ى ابن جرير: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الشَّمسَ لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لست بصاحب ذلك؛ ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقةِ باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً. وهكذا رواه البخاري في الزكاة وزاد: «فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهلُ الجمع كلهم».

و روى البخاري: عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «مَن قَالَ حينَ يسمعُ النداء: اللهمَّ ربَّ هذه الدَّعْوةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ القائمةِ، آتِ مُحمَّداً الوسِيلَةَ والفضِيلَةَ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حَلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة» انفرد به دون مسلم.

(حديث أبي بن كعب): روى الإمام أحمد: عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه: عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، كنتُ إمامَ الأنبياء وخَطيبهم، وصاحبَ شفاعتهم، غير فخر» وأخرجه الترمذي، وقال

حسن صحيح، وابن ماجه. وقد قدمنا في حديث أبي بن كعب في قراءة القرآن على سبعة أحرف، قالﷺ في آخره: «فقلت: اللهمَّ اغفر لأمتي، اللهمَّ اغفر لأمتي، وأخرتُ الثالثةَ ليوم يرغبُ إليَّ فيه الخلق، حتى إبراهيمُ عليه السلام»(١).

(حديث أنس بن مالك): روى الإمام أحمد: عن قتادة عن أنس عن النبيﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذي أصاب فيستحيي ربه عز وجل من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن، فيأتونه فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا موسى، عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة، فيأتون موسى، فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم النفسَ التي قتل بغير نفس فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه، فيأتون عيسى، فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً، عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني ـ قال الحسن هذا الحرف ـ «فأقوم فأمشي بين سِمَاطين من المؤمنين» قال أنس: «حتى أستأذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له ـ أو خررت ـ ساجداً لربي، فيَدعني ما شاء الله أن يَدعني، قال: ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع واشفع تشفع، وسلْ تعطه، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحدّ لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه الثانية، فإذا رأيتُ ربي وقعت له أو خررت ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحدّ لي حداً فأدخلهم الجنة، قال: ثم أعود الثالثة، فإذا رأيت ربي وقعت ـ أو خررت ـ ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة، فأقول: يا ربِّ ما بقي إلا مَن حَبسه القرآن، فحدثنا أنس بن مالك أن النبيﷺ قال: «فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يَزِنُ شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن بُرَّة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذَرَّة» أخرجاه.

(حديث كعب بن مالك رضي الله عنه): روى الإمام أحمد: عن كعب بن مالك أن رسول اللهﷺ قال: «يُبعثُ النَّاسُ يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تلٍّ، ويكسوني ربي عز وجل حلةً خضراء، ثم يُؤذن لي فأقولُ ما شاء الله أن أقول، فذلك المقامُ المحمود».

(حديث أبي الدرداء رضي الله عنه): روى الإمام أحمد: عن أبي الدرداء قال: قال رسول اللهﷺ: «أنا أولُ مَن يُؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول مَن يُؤذن له أن يرفعَ رأسه، فأنظر إلى ما بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك» فقال رجل: يا رسول الله، كيفَ

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (١/ ٥٦٢).

تعرفُ أمتك من بين الأمم ، فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غرٌّ محجلون من أثر الوضوء ، ليس أحدٌ كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يُؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم يسعى بين أيديهم ذُرِّيَّتُهم» .

(حديث أبي هريرة ﷺ) : روى الإمام أحمد رحمه الله : عن أبي هريرة قال : أُتي رسولُ الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسةً ، ثم قال : «أنا سيدُ الناس يوم القيامة ، وهل تدرون مم ذلكَ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، يُسمعهم الداعي ، ويَنفذهم البصر ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم ، ألا تنظرون مَن يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ، فيأتون آدم ﷺ فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم : إن ربي قد غَضِب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيت نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً . . . (فذكر نحو حديث أنس) .

وروى مسلم : رحمه الله عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا سيدُ ولدِ آدم يوم القيامة ، وأول مَن ينشق عنه القبرُ يومَ القيامة ، وأولُ شافع وأول مُشفَّع» .

وروى ابن جرير : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ **﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾** سئل عنها فقال : «هي الشفاعة» ورواه الإمام أحمد .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾

٨٠- روى الإمام أحمد : عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ بمكة ، ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله : **﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾** . و قال الترمذي : حسن صحيح .

و قال الحسن البصري في تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة ، أمره أن يخرج إلى المدينة ، فهو الذي قال الله عز وجل : **﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾** الآية . وقال قتادة : **﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾** يعني المدينة **﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾** يعني : مكة ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وهذا القول هو أشهر الأقوال ، وقال العوفي عن ابن عباس : **﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾** يعني الموت **﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾** يعني الحياة بعد الموت ، وقيل غير ذلك من الأقوال ، والأول أصح ، وهو اختيار ابن جرير .

وقوله : **﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾** قال الحسن البصري في تفسيرها : وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له ، وملك الروم وعز الروم . وقال قتادة فيها : إن نبي الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإ قامة دين الله ، فإن السلطان رحمةٌ من الله ، جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض ، فأكل شديدهم ضعيفهم .

قال مجاهد: ﴿سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾ حجة بينة. واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح، لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ـ إلى قوله ـ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ الآية. وفي الحديث: «إنَّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[1] أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

٨١- وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ الآية: تهديدٌ ووعيدٌ لكفار قريش، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه، ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان، والعلم النافع، وزهق باطلهم، أي: اضمحل وهلك، فإنَّ الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.

وروى البخاري: عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود في يده[2] ويقول: «﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾، جاء الحق وما يبدئُ الباطلُ وما يعيد» وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢) ﴾

٨٢- يقول تعالى مخبراً عن كتابه، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، إنه ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة، وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة.

وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بُعداً وكفراً، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ والآيات في ذلك كثيرة.

قال قتادة في قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به، وحفظه ووعاه ﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ أي: لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاءً ورحمة للمؤمنين.

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (٨٤) ﴾

٨٣- يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو ـ إلا من عصمه الله تعالى ـ في حالتي السراء والضراء، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته، ﴿وَنَأَى

---

(١) ليس بحديث مرفوع! و إنما يروى عن عثمان رضي الله عنه، و لم أجده مسنداً عنه، انظر تهذيب الرياسة للقلعي (ص٩٥) ط. المنار، و عزاه المحقق لـ: التمثيل و المحاضرة للثعالبي (ص ٢٩) و الكامل في الأدب (١/ ١٥٧)، و غيرهما.

(٢) طعن النبي ﷺ لها لإذلالها و إذلال عابديها، و بيان أنها لا تضر و لا تنفع، بل و لا تدفع عن نفسها شراً.

بجانبه﴾ قال مجاهد: بَعُدَ عنا. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، وقوله: ﴿فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾.

وبأنه إذا مسَّه الشر وهو المصائب؛ والحوادث والنوائب ﴿كان يئوسا﴾ أي: قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير، كقوله تعالى: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور* ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور* إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾.

٨٤- وقوله تعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حدته وطبيعته. وقال قتادة: على نيته. وقال ابن زيد: دينه. وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى. وهذه الآية ـ والله أعلم ـ تهديدٌ للمشركين، ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم﴾ الآية. ولهذا قال: ﴿قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا﴾ أي: منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية.

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (٨٥)﴾

٨٥- روى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث المدينة، وهو متوكئ على عَسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم لا تسألوه، قال فسألوه عن الروح فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ قال: فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه. وهكذا رواه البخاري ومسلم.

و هذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي، أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية ﴿ويسألونك عن الروح﴾.

ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة، ما روى الإمام أحمد: عن عكرمة عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا سلوه عن الروح، فنزلت ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، قال: وأنزل الله: ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر﴾ الآية.

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا، على أقوال: **(أحدها)** أن المراد: أرواح بني آدم، وقيل: المراد بالروح ههنا: جبريل، قاله قتادة، قال: وكان ابن عباس يكتمه، وقيل: المراد به ههنا: ملكٌ عظيمٌ بقدر المخلوقات كلها، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿ويسألونك عن الروح﴾ يقول: الروح ملك.

و قوله: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ أي: من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ أي: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحدٌ بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى، والمعنى أن علمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم

يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى ، وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخضر أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة ، فنقر في البحر نقرة ، أي : شرب منه بمنقاره ، فقال : يا موسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله ، إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر ، أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ .

وقال السهيلي : قال بعض الناس : لم يُجبهم عما سألوا لأنهم سألوا على وجه التعنت . وقيل : أجابهم ، وعوَّل السهيلي على أن المراد بقوله : ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي : من شرعه ، أي : فادخلوا فيه ، وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة ، وإنما ينال من جهة الشرع .

وفي هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر ، والله أعلم .

ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها ، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء ، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر ، وقرَّر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين ، هي : النفس ، بشرط اتصالها بالبدن ، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم ، فهي إما نفس مطمئنة أو أمَّارة بالسوء . قال : كما أن الماء هو حياة الشجر ، ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً ، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار إما مُصْطاراً[١] أو خمراً ، ولا يقال له : ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز ، وكذا لا يقال للنفس : روح إلا على هذا النحو ، وكذا لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه ، فحاصل ما نقول : إنَّ الروح هي أصل النفس ومادتها ، والنفس مركبة منها ، ومن اتصالها بالبدن فهي هي من وجه ، لا من كل وجه . وهذا معنى حسن ، والله أعلم .

قلت : وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها ، وصنفوا في ذلك كتباً ، ومن أحسن من تكلم على ذلك : الحافظ ابن منده في كتاب سمعناه في : الروح[٢] .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧) قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٨٩) ﴾

٨٦ ، ٨٧- يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم ، على عبده ورسوله الكريم ﷺ ، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . قال ابن مسعود رضي الله عنه : يطرق الناس ريح حمراء - يعني في آخر الزمان - من قبل الشام ، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية ، ثم قرأ ابن مسعود ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية .

٨٨- ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم ، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله ، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا ، فإن

---

(١) هو الخمر الحامض ـ اللسان (صطر) .

(٢) وقد كتب الإمام ابن القيم رحمه الله في الروح كتاباً موسعاً جامعاً ، وهو مطبوع .

هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق؟ الذي لا نظير له ولا مثال له، ولا عديل له؟

٨٩- وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ الآية. أي: بينا الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ أي: جحوداً للحق، ورداً للصواب.

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَّسُولاً ﴿٩٣﴾﴾

٩٠- هذا المجلس[1] الذي اجتمع هؤلاء له، لو عَلِم اللهُ منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقيل لرسول الله ﷺ: إن شئتَ أعطيناهم ما سألوا، فإنْ كفروا عذَّبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإنْ شئتَ فتحت عليهم باب التوبة والرحمة. فقال: «بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة» كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزبير بن العوام أيضاً، عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً * تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾.

و قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعاً﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أنْ يجري لهم عيوناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل على الله تعالى يسير، لو شاء لفعله، ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ الآية.

٩١- وقوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أي: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء، وتهي وتدلي أطرافها، فعجل ذلك في الدنيا، وأسقطها كسفاً، أي: قطعاً، كقولهم ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، وكذلك سأل قوم شعيب منه، فقالوا ﴿أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبي الرحمة ونبي التوبة، المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً، و كذلك وقع، فإنَّ من هؤلاء الذين ذُكروا مَن أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، حتى عبد الله بن أبي أمية الذي تبع النبي ﷺ، وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأناب إلى الله عز وجل.

(١) قد ذكر المصنف ههنا قصة مطولة في مخاصمة قريش للنبي ﷺ في أمر دعوته، و عرضهم عليه المال و الزوجة و الجاه، ثم اقتراحهم عليه ما وردت به الآيات ههنا، و لكن قد ذكره عن ابن جرير بسند فيه راوٍ مبهم.

٩٣- وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: هو الذهب، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود (أو يكون لك بيت من ذهب). ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ قال مجاهد: أي: مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: سبحانه وتعالى وتقدس، أن يتقدم أحدٌ بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥)﴾

٩٤- يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أي: أكثرهم ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثه البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ الآية، وقال فرعون وملؤه ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ وكذلك قالت الأمم لرسلهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ والآيات في هذا كثيرة.

٩٥- ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده، أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكُّنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة، لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۞ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾. ولهذا قال ههنا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ أي: من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً، بعثنا فيكم رسلاً منكم لطفاً ورحمة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦)﴾

٩٦- يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ، إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به، إنه شاهد عليَّ وعليكم، عالمٌ بما جئتكم به، فلو كنتُ كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: عليماً بهم، بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة. ولهذا قال:

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧)﴾

٩٧- يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضل

له ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، أي : يهدونهم ، كما قال : ﴿مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ .

وقوله : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ روى الإمام أحمد : عن أنس بن مالك يقول : قيل : يا رسول الله ، كيف يُحشر الناس على وجوههم؟ قال : «الذي أمشاهم على أرجلهم ، قادرٌ على أن يمشيهم على وجوههم» وأخرجاه في الصحيحين.

و روى الإمام أحمد : عن حذيفة بن أسيد قال : قام أبو ذر فقال يا بني غفار ، قولوا ولا تحلفوا ، فإنَّ الصادق المصدوق حدثني : أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج ، فوج راكبين طاعمين كاسين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار ، فقال قائل منهم : هذان قد عرفناهما ، فما بال الذين يمشون ويسعون؟ قال : «يُلقي الله عز وجل الآفة على الظَّهر ، حتى لا يبقى ظهرٌ ، حتى إنَّ الرَّجل لتكون له الحديقة المُعْجبة ، فيعطيها بالشَّارف ذات القَتَب[1] فلا يقدر عليها» .

و قوله : ﴿عُمْيًا﴾ أي : لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ يعني : لا ينطقون ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون ، وهذا يكون في حال دون حال ، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق ، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَّأْوَاهُمْ﴾ أي : منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس : سَكَنَتْ ، وقال مجاهد : طفئت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي : لهباً ووهجاً وجمراً ، كما قال : ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ .

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩)﴾

٩٨- يقول تعالى : هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم ، جزاؤهم الذي يستحقونه ، لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي : بأدلتنا وحجتنا ، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ أي : بالية نخرة ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي : بعد ما صرنا إليه ، من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض ، نعاد مرة ثانية؟

فاحتج تعالى عليهم ، ونبههم على قدرته على ذلك ، بأنه : خلق السموات والأرض ، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك ، كما قال : ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ الآية ، وقال : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ❁ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ إلى آخر السورة ، وقال ههنا : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي : يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى ، كما بدأهم .

وقوله : ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي : جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ، ومدة

---

(١) الشارف ذات القتب : أي : الناقة العظيمة عليها الرحل .

مقدرة، لابد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾. وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلاَّ كُفُوراً﴾ إلاَّ تمادياً في باطلهم وضلالهم.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠)﴾

١٠٠- يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: قل لهم يا محمد، لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق، قال ابن عباس وقتادة: أي: الفقر، أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً، لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾ قال ابن عباس وقتادة: أي: بخيلاً منوعاً. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾ أي: لو أن لهم نصيباً في ملك الله، لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو ـ إلا مَن وَفَّقه الله وهداه ـ فإنَّ البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً* إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه.

و قد جاء في الصحيحين: «يدُ الله ملأى، لا يَغيضُها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغض ما في يمينه».

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)﴾

١٠١- يخبر تعالى أنه بعثَ موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته، وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، آيات مفصلات. قاله ابن عباس، وقال محمد بن كعب: هي اليد والعصا والخمس في الأعراف، والطَّمسة والحجر، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة: هي يده وعصاه والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

وهذا القول ظاهر جلي، حسن قوي، وجعل الحسن البصري «السنين ونقص الثمرات» واحدة وعنده أن التاسعة هي: تلقف العصا ما يأفكون. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾ أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها، وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً﴾ إلى آخرها لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى ـ وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات ـ ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ قيل: بمعنى ساحر، والله تعالى أعلم.

فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة، هي المرادة ههنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ﴾ إلى قوله: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبيَّن الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصَّلها، وقد أوتي موسى ﷺ آيات أخر كثيرة، منها: ضربه الحجر بالعصا وخروج الماء منه ومنها تظليلهم بالغمام وإنزال المنِّ والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع آيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم، فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً.

١٠٢ - ولهذا قال موسى لفرعون ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ أي: حججاً وأدلة، على صدق ما جئتك به ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ أي: هالكاً، قاله مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس: ملعوناً، وقال أيضاً هو والضحاك ﴿مَثْبُوراً﴾ أي: مغلوباً، والهالك كما قال مجاهد يشمل هذا كله.

و قرأ بعضهم برفع التاء من قوله: ﴿علِمتُ﴾ وروي ذلك عن علي بن أبي طالب، ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ الآية، فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات، إنما هي ما تقدم ذكره من العصا واليد والسنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى، ووجود الفاعل المختار الذي أرسله.

١٠٣ - وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ أي: يُخليهم منها، ويزيلهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً * وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾: وفي هذا بشارة محمد ﷺ بفتح مكة، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع، فإنَّ أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآيتين، ولهذا أورث اللهُ رسولَه مكة، فدخلها عَنْوة ـ على أشهر القولين ـ وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث اللهُ القومَ الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلادَ فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

١٠٤ - وقال ههنا: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ أي: جميعكم أنتم وعدوكم، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿لَفِيفاً﴾ أي: جميعاً.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦)﴾

١٠٥ - يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه ﴿بِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أي: متضمناً علم الله، الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه، وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً، لم يُشب بغيره، ولا زيد فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: يا محمد ﴿إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين.

١٠٦ - وقوله: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف، فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً منجّماً، على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، قاله

عكرمة عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضاً: أنه قرأ ﴿فرّقناه﴾ بالتشديد أي: أنزلناه آية آية، مبيناً مفسراً، ولهذا قال: ﴿لتقرأه على الناس﴾ أي: لتبلغه الناس، وتتلوه عليهم، أي: ﴿على مُكْثٍ﴾ أي: مهل ﴿ونزّلناه تنزيلاً﴾ أي: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ آمنوا به أوْ لا تؤمنوا إنّ الّذين أُوتوا الْعلْم من قبْله إذا يُتْلىٰ عليْهمْ يخرُّون للأذْقان سُجّدًا ﴿١٠٧﴾ ويقُولُون سُبْحان ربّنا إن كان وعْدُ ربّنا لمفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ ويخرُّون للأذْقان يبْكُون ويزيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾

١٠٧- يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد، لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به، من هذا القرآن العظيم ﴿آمنوا به أوْ لا تؤمنوا﴾ أي: سواء آمنتم به أم لا، فهو حقٌ في نفسه، أنزله الله ونوّه بذكره، في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله، ولهذا قال: ﴿إنّ الذين أوتوا العلم من قبله﴾ أي: من صالحي أهل الكتاب، الذين تمسكوا بكتابهم، ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إذا يُتلى عليهم﴾ هذا القرآن ﴿يخرّون للأذقان﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجّداً﴾ أي: لله عز وجل شكراً على ما أنعم به عليهم، من جَعْله إياهم أهلاً إنْ أدركوا هذا الرسول، الذي أُنزل عليه هذا الكتاب.

١٠٨- ولهذا يقولون ﴿سُبْحانَ ربّنا﴾ أي: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد، الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ، ولهذا قالوا: ﴿سُبْحانَ ربّنا إن كان وعْدُ ربّنا لمفعولاً﴾.

١٠٩- وقوله: ﴿ويخرّون للأذقان يبكون﴾ أي: خضوعاً لله عز وجل، وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله ﴿ويزيدهم خشوعاً﴾ أي: إيماناً وتسليما، كما قال: ﴿والّذين اهتدَوْا زادهُمْ هُدًى وآتاهُمْ تقْواهُمْ﴾ وقوله: ﴿ويخرّون﴾ عطف صفة على صفة، لا عطف السجود على السجود، كما قال الشاعر:

إلَى الملكِ القَرْمِ وابن الهُمام و ليث الكَتِيبة في المُزْدَحم

﴿قُلِ ادْعُوا اللّه أوِ ادْعُوا الرّحْمن أيًّا مّا تدْعُوا فلهُ الأسْماءُ الْحُسْنىٰ ولا تجْهرْ بصلاتك ولا تُخافتْ بها وابْتغ بيْن ذلك سبيلاً ﴿١١٠﴾ وقُل الْحمْدُ للّه الّذي لمْ يتّخذْ ولدًا ولمْ يكُن لّهُ شريكٌ في الْمُلْك ولمْ يكُن لّهُ وليٌّ مّن الذُّلّ وكبّرْهُ تكْبيرًا ﴿١١١﴾﴾

١١٠- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين، المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرّحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحُسنى﴾ أي: لا فرق بين دعائكم له باسم الله، أو باسم الرحمن، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلاّ هو عالمُ الغيب والشّهادة هو الرّحمن الرّحيم﴾ - إلى أن قال - ﴿له الأسماءُ الحُسنى يُسبّح له ما في السّموات والأرض﴾ الآية.

وقوله: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ الآية. روى الإمام أحمد: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوار بمكة ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تُخافت بها﴾ قال: كان إذا صلّى بأصحابه، رفعَ صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون، سَبُّوا القرآن، وسبُّوا من أنزله، ومن جاء به، قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿ولا تُخافت بها﴾ عن أصحابك، فلا تُسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ أخرجاه في الصحيحين.

وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس، وزاد: فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك، يفعل أي ذلك شاء. وهكذا قال عكرمة والحسن البصري وقتادة: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة. وعن ابن مسعود: لم يخافت بها مَنْ أسمع أذنيه.

وروى ابن جرير عن محمد بن سيرين قال: نُبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أناجي ربي عز وجل، قد علم حاجتي، فقيل: أحسنت. وقيل لعمر لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان، و أوقظ الوسنان، قيل: أحسنت، فلما نزلت ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً.

(و روي) عن ابن عباس: نزلت في الدعاء، وهكذا روى الثوري ومالك عن عائشة رضي الله عنها: أنها نزلت في الدعاء. وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو عياض ومكحول وعروة بن الزبير.

(قول آخر) روى ابن جرير عن عائشة رضي الله عنها: نزلت هذه الآية في التشهد ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾. وبه عن محمد بن سيرين مثله.

(قول آخر) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: لا تُصَلِّ مراآة للناس، ولا تدعها مخافة الناس، وروى الثوري عن الحسن البصري قال: لا تُحسن علانيتها وتسيء سريرتها. وكذا رواه عبد الرزاق.

١١١ - و قوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نزَّه نفسه عن النقائص، فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ بل هُوَ الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ أي: ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته، وحده لا شريك له.

قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ لم يحالف أحداً، ولم يبتغ نصر أحد ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ أي: عظِّمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

روى ابن جرير: عن القرظي أنه كان يقول في هذه الآية ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ الآية، قال: إن اليهود والنصارى قالوا اتخذ الله ولداً، وقالت العرب لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وقال الصابئون والمجوس: لو لا أولياء الله لذل، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾.

آخر تفسير سورة الإسراء

****

ترتيبها ١٨ | سورة الكهف ـ مكية | آياتها ١١٠

(ذكر ما ورد في فضلها و العشر الآيات من أولها و أنها عصمة من الدجال)

روى الإمام أحمد: عن البراء قال: قرأ رجل الكهف و في الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينةُ تنزل عند القرآن، أو تنزلت للقرآن» أخرجاه في الصحيحين. و هذا الرجل الذي كان يتلوها هو: أسيد بن الحضير، كما تقدم في تفسير سورة البقرة.

و روى الإمام أحمد: عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَفِظَ عشرَ آياتٍ من أول سورة الكهف، عُصِمَ من الدَّجال» رواه مسلم و أبوداود و النسائي و الترمذي.

و لفظ الترمذي «من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف» و قال حسن صحيح[1].

و روى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سورة الكهف في يوم الجمعة، سَطَع له نورٌ من تحت قدمه إلى عنان السماء، يُضيء له يوم القيامة، و غُفر له ما بين الجمعتين» و هذا الحديث في رفعه نظر، و أحسن أحواله الوقف[2].

و هكذا روى الإمام سعيد بن منصور في سننه: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «مَنْ قرأ سُورة الكهف يوم الجمعة، أضاءَ له من النور ما بينه و بين البيت العتيق». هكذا وقع موقوفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ ﴾

١ - قد تقدم في أول التفسير، أنه تعالى يَحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور و خواتمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى و الآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز، على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدى إلى صراط مستقيم، واضحاً بيناً جلياً، نذيراً للكافرين بشيراً للمؤمنين، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً.

٢ - ولهذا قال: ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيماً ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: لمن خالفه، وكذبه ولم يؤمن به

---

(١) عند الترمذي (٣٠٥٩): «من قرأ ثلاث آيات . . .»

(٢) هو مما لا يقال بالرأي، ثم يشهد له ما بعده، و انظر الإرواء (٦٢٦) و الترغيب للمنذري (٢٢٥، ٧٣٦، ١٤٧٣) بتحقيق العلامة الألباني رحمه الله.

ينذره ﴿بأساً شديداً﴾ عقوبة عاجلة في الدنيا، وآجلة في الأخرى ﴿من لدنه﴾ أي: من عند الله، الذي لا يُعذِّب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، ﴿ويبشر المؤمنين﴾ أي: بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ أي: مثوبة عند الله جميلة.

٣- ﴿ماكثين فيه﴾ في ثوابهم عند الله - وهو الجنة - خالدين فيه ﴿أبداً﴾ دائماً لا زوال له ولا انقضاء.

٤- وقوله: ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركوا العرب، في قولهم: نحن نعبد الملائكة، وهم بنات الله!

٥- ﴿ما لهم به من علم﴾ أي: بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه ﴿ولا لآبائهم﴾ أي: لأسلافهم ﴿كبرت كلمة﴾ نصب على التمييز، تقديره: كبرت كلمتهم هذه كلمة، وقيل: على التعجب، تقديره: أعظم بكلمتهم كلمة، كما تقول: أكرم بزيد رجلاً، قاله بعض البصريين، وقرأ ذلك بعض قراء مكة ﴿كبرت كلمة﴾ كما يقال: عظم قولك وكبر شأنك، والمعنى على قراءة الجمهور أظهر، فإن هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لإفكهم، ولهذا قال: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال: ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

٦- يقول تعالى مسلياً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان، وبُعْدهمْ عنه، كما قال تعالى: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾، وقال: ﴿ولا تحزن عليهم﴾، وقال: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ باخع أي: مهلك نفسك بحزنك عليهم، ولهذا قال: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾ يعني القرآن ﴿أسفاً﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفاً، قال قتادة: قاتل نفسك غضباً وحزناً عليهم، وقال مجاهد: جزعاً. والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

٧- ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية، مزينة بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار، لا دار قرار، فقال: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾.

عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوةٌ خضرة، وإنَّ الله مُستخلفكم فيها فناظرٌ ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإنَّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

٨- ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذهابها وخرابها، فقال تعالى: ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ أي: وإنا لمصيّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكاً، صعيداً جرزاً، لا ينبت ولا ينتفع به كما قال العوفي عن ابن عباس، وقال مجاهد: ﴿صعيداً جرزاً﴾ بلقعاً، وقال قتادة: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات، وقال ابن زيد: الصعيد الأرض التي ليس فيها شيء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ وقال محمد بن إسحاق: ﴿إنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ يعني: الأرض، وإن ما عليها لفان وبائد، وإن المرجع لإلى الله، فلا تأسَ ولا يحزنك ما تسمع وترى.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

٩- هذا إخبارٌ من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف، على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك، فقال ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة، الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء، أعجب من أخبار أصحاب الكهف، كما قال مجاهد: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك، وقال العوفي عن ابن عباس يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم. وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد، أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وأما الكهف: فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون، وأما الرقيم: فقال العوفي عن ابن عباس: هو واد قريب من إيلة. وكذا قال عطية العوفي وقتادة. وقال الضحاك: وأما الكهف: فهو غار الوادي، والرقيم: اسم الوادي. وقال مجاهد: الرقيم كان بنيانهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم. وعن عكرمة قال ابن عباس: ما أدري ما الرقيم؟ كتابٌ أم بنيان؟

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الرقيم الكتاب، وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب، ثم قرأ: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير، قال: الرقيم فعيل: بمعنى مرقوم، كما يقال: للمقتول قتيل، وللمجروح جريح، والله أعلم.

١٠- وقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم، لئلا يفتنوهم عنه، فهربوا منهم فلجؤا إلى غار في جبل، ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته، ولطفه بهم ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها، وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: وقدِّرْ لنا من أمرنا هذا رشداً، أي: اجعل عاقبتنا رشداً، كما جاء في الحديث: «وما قضيتَ لنا من قضاء، فاجعل عاقبته رشداً»(1).

١١- وقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة.

١٢- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه،

---

(1) حديث صحيح، رواه أحمد (٦/ ١٣٤) والبخاري في الأدب (٦٣٩) وابن حبان (٨٦٩) والحاكم (١/ ٥٢١- ٥٢٢) وصححه ووافقه الذهبي، وأوله: «اللهم إني أسلك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم. . .» واللفظ الذي ذكره للبخاري والحاكم.

كما سيأتي بيانه وتفصيله، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أي: المختلفين فيهم ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية، كقوله: سبق الجوادُ إذا استوى على الأمد.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)﴾

١٣- من ههنا شَرَعَ في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم ﴿فِتْيَةٌ﴾ وهم الشباب، وهم أقبلُ للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً، وقال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القِرطة، يعني: الحَلق، فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم، فآمنوا بربهم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو.

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة، كالبخاري وغيره، ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. وقد ذُكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم، فالله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم.

١٤- وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد، والسعادة والنعمة، فإنه قد ذَكَرَ غير واحد من المفسرين من السلف والخلف: أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملكٌ جبار عنيد، يقال له: دقيانوس، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه، ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آباءهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عَرَفُوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض، فجعل كلٌّ واحدٍ منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم، ويتبرز عنهم ناحية، فكان أول من جلس منهم أحدهم جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس إليها عنده، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحدٌ منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً: من حديث عمرة عن عائشة رضي الله

عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواحُ جنودٌ مُجنَّدةٌ، فما تعارفَ منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ.

و الناس يقولون: الجنسية عِلَّة الضَّم. والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم، إنه ما أخرجكم من قومكم، وأفردكم عنهم إلا شيء، فليظهر كلٌّ واحدٍ منكم بأمره. فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيئاً، هو الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة فصاروا يداً واحدة، وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرَفَ بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله عز وجل، ولهذا أخبر تعالى بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً﴾ و «لن» لنفي التأبيد، أي: لا يقع منا هذا أبداً، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال عنهم: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ أي: باطلاً وكذباً وبهتاناً.

١٥ - ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه، دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال: إنَّ ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم وتهدَّدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجّلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم، الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه، والفرار بدينهم من الفتنة.

وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء في الحديث: «يُوشك أن يكونَ خيرُ مالِ أحدكم، غَنمٌ يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفرُّ بدينه من الفتن»(١).

ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يَفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

١٦ - فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي أنتم فيه ﴿مِرْفَقاً﴾ أي: أمراً ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هراباً إلى الكهف فأووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتطلبهم الملك، فيقال: إنه لم يظفر بهم وعمَّى الله عليه خبرهم، كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق حين لجئا إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه، وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جزع الصديق، في قوله: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: «يا أبابكر، ما ظنك باثنين اللهُ ثالثُهما»(٢).

وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ

---

(١) رواه البخاري في المناقب (٦/ ٦١١) وفي الرقاق (١١/ ٣٣١) وفي الفتن (١٣/ ٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٨/ ٣٢٥) ومسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٨٥٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب، من قصة أصحاب الكهف.

وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم ووقفوا على باب الغار فقالوا: ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم، فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم، ففعلوا ذلك، وفي هذا نظر، والله أعلم، فإن الله تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشياً، كما قال تعالى:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧)﴾

١٧- فهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال، لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي: يتقلص الفيئ يمنة، كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة. ﴿تَزَاوَرُ﴾ أي: تميل، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها، حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بينٌ لمن تأمله، وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه: أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق، لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال، ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه ولله الحمد.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ تتركهم. وقد أخبر الله تعالى بذلك، وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أيِّ البلاد من الأرض، إذ لا فائدة لنا فيه، ولا قصد شرعي، وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً فتقدم عن ابن عباس أنه قال: هو قريب من أيلة، وقال ابن إسحاق: هو عند نينوى، وقيل: ببلاد الروم، وقيل: ببلاد البلقاء [(١)]، والله أعلم بأي بلاد الله هو؛ ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه، فقد قال ﷺ: «ما تركت شيئاً يُقرِّبُكم إلى الجنة، ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به» [(٢)].

فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يُعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم: تميل ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في متسع منه داخلاً، بحيث لا تصيبهم، إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾

---

(١) وفي الأردن الآن كهف مشهور ينسب إلى أهل الكهف، وفيه الصفات المذكورة في شرح المصنف، فالله أعلم.

(٢) حديث صحيح، أخرجه بنحوه الشافعي (٧) وعنه البيهقي (٧/ ٧٦) مرسلاً من حديث المطلب بن عبد الله. وأخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٦٤٧) من حديث أبي ذر مرفوعاً بلفظ: «ما بقي شيءٌ يقرِّبُ من الجنة، ويباعد من النار، إلا وقد بيِّن لكم» قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٦٤) ورجال الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، وهو ثقة. وهو في الصحيحة (١٨٠٣).

حيث أرشدهم إلى هذا الغار، الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه، لتبقى أبدانهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾.

ثم قال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الآية، أي: هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه مَنْ هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) ﴾

١٨ - ذكر بعض أهل العلم: أنهم لما ضَرَب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم لئلا يُسْرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينا، ويفتح عيناً، ثم يفتح هذه ويطبق هذه، وهو راقد، كما قال الشاعر:

يَنامُ بإحدى مُقلتيه ويتَّقي ... بأخرى الرَّزَايا فهو يقظان نائم

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين. قال ابن عباس: لو لم يُقَلَّبوا لأكلتهم الأرض. وقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: ﴿الْوَصِيدِ﴾ الفناء، وقال ابن عباس: بالباب، وقيل: بالصعيد وهو التراب، والصحيح: أنه بالفناء، وهو: الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبقة مغلقة، ، ويقال: وَصِيد وأصيد.

ربض كلبهم على الباب، كما جرت به عادة الكلاب، قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب، لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ـ كما ورد في الصحيح ـ ولا صورة ولا جنب ولا كافر، كما ورد به في الحديث الحسن[1].

وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن. وقد قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه، وقيل: كلب طباخ الملك، وقد كان وافقهم على الدين، وصحبه كلبه، فالله أعلم.

واختلفوا في لونه على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها، ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة، بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم، لما ألبسوا من المهابة و الذعر، لئلا يدنو منهم أحد، ولا تمسهم يد لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكمة، والحجة البالغة، والرحمة الواسعة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ

---

(١) رواه أبوداود (٤١٨٠) من حديث عمار بن ياسر مرفوعاً بلفظ: «ثلاثة لا تقربهم الملائكة: جيفة الكافر، والمتضمّخ بالخَلوق، والجُنُب إلا أن يتوضأ»

وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)﴾

١٩- يقول تعالى: كما أرقدناهم، بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: كم رقدتم ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار، ولهذا استدركوا فقالوا ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: الله أعلمُ بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم. ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ أي: فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها، وبقي منها، فلهذا قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينتكم التي خرجتم منها، والألف واللام للعهد ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ أي: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾ وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ ومنه: الزكاة التي تطيب المال وتطهره، وقيل: أكثر طعاماً، ومنه: زكا الزرع إذا كثر.

والصحيح الأول، لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان كثيراً أو قليلاً، وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه، يقولون: وليختفِ كل ما يقدر عليه ﴿وَلاَ يُشْعِرَنَّ﴾ أي: ولا يعلمنَّ ﴿بِكُمْ أَحَداً﴾.

٢٠- ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: إنْ علموا بمكانكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ يعنون: أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذِّبونهم بأنواع العذاب، إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها، أو يموتوا، وإنْ وافقتموهم على العود في الدين، فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١)﴾

٢١- يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أطلعنا عليهم الناس ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾ ذكر غير واحد من السلف: أنه كان قد حَصَل لأهل ذلك الزمان شكٌّ في البعث، وفي أمر القيامة، وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، فبعث الله أهل الكهف، حجة ودلالة وآية على ذلك، وذكروا: أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه، تنكر وخرج يمشي في غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة وذكروا أن اسمها «أفسوس» وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، كما قال الشاعر:

أما الديارُ فإنها كديارهم وأرى رجالَ الحيِّ غيرَ رجاله

فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها، لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه ويقول: لعل بي جنوناً أو مساً، أو أنا حالم، ويقول: والله مابي شيءٌ من ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها إلى جاره وجعلوا يتداولونها بينهم، ويقولون لعل هذا وجد كنزاً، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة، لعله وجدها من كنز، وممن أنت؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه البلدة، وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس، فنسبوه إلى الجنون فحملوه إلى وليِّ أمرهم فسأله عن شأنه وخبره، حتى أخبرهم بأمره وهو متحيرٌ في حاله، وماهو فيه، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال لهم: دعوني حتى أتقدمكم في الدخول، لأعلم أصحابي فدخل؛ فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال: بل دخلوا عليهم ورأوهم، وسلم عليهم الملك، واعتنقهم وكان مسلماً فيما قيل، واسمه: تيدوسيس، ففرحوا به وآنسوه بالكلام، ثم ودَّعوه وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله عز وجل، فالله أعلم[1].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيئاتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: في أمر القيامة، فمن مُثبتٍ لها، ومن مُنكرٍ، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي: سُدُّوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين: **(أحدهما)** إنهم المسلمون منهم. **(والثاني)**: أهل الشرك منهم، فالله أعلم.

والظاهر أن الذين قالوا ذلك: هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: «لعنَ اللهُ اليَهُودَ والنَّصارَى، اتَّخذُوا قُبورَ أنبيائهِمْ وَ صالحِيهِمْ مسَاجِدَ» يحذر ما فعلوا.

وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه لما وجدَ قبر دانيال في زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده فيها شيء من الملاحم وغيرها.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾

٢٢- يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدلَّ على أنه لا قائل برابع، ولما ضعف القولين الأولين، بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي: قول بلا علم، كمن يَرْمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه، أو قرَّره بقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فدلَّ على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر.

---

(١) هو معنى ما جاء عن ابن إسحاق، كما في تفسير ابن جرير.

وقوله : ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام ، ردُّ العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا . وقوله : ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ أي : من الناس . قال قتادة : قال ابن عباس : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل ، كانوا سبعة .

وكذا روى ابن جرير عن عطاء الخراساني عنه وعن عكرمة عن ابن عباس ، فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس ، أنهم كانوا سبعة ، وهو موافق لما قدمناه .

وروى محمد بن إسحاق عن مجاهد قال : لقد حدثت أنه كان على بعضهم من حداثة سنه وضَح الورِق . قال ابن عباس : فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم في عبادة الله ، يبكون ويستغيثون بالله ، وكانوا ثمانية نفر . . .

وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظرٌ في صحته ـ والله أعلم ـ فإنَّ غالب ذلك ملتقى من أهل الكتاب ، وقد قال تعالى ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي : سهلاً هيناً ، فإنَّ الأمر في معرفة ذلك ، لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي : فإنهم لا علم لهم بذلك ، إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي : من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد بالحق ، الذي لا شك فيه ولا مرية فيه ، فهو المقدَّم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾

٢٣ ، ٢٤- هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ ، إلى الأدب فيما إذا عَزمَ على شيء ليفعله في المستقبل ، أنْ يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب ، الذي يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، كما ثبت في الصحيحين : عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة ـ وفي رواية : تسعين امرأة ، وفي رواية : مائة امرأة ـ تلدُ كل امرأةٍ منهنَّ غلاماً يقاتل في سبيل الله فقيل له ـ وفي رواية قال له المَلَك ـ قُل إن شاء الله ، فلم يقل ، فطاف بهنَّ فلم يَلِدْ منهن إلا امرأة واحدة ، نصف إنسان ، فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ، لو قال : إن شاء الله لم يحنث ، وكانَ دركاً لحاجته» . وفي رواية : «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعين» .

وقوله : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل : معناه : إذا نسيت الاستثناء ، فاستثن عند ذكرك له ، قاله أبو العالية والحسن البصري ، وقال مجاهد : عن ابن عباس في الرجل يحلف ، قال له : أن تستثنى ولو إلى سَنَة ، وكان يقول : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك . ورواه الطبراني . ومعنى قول ابن عباس : أنه يستثني ولو بعد سنة ، أي : إذا نسي أن يقول في حلفه وفي كلامه : إن شاء الله ، ، وذكر ولو بعد سنة ، فالسُّنَّة له أن يقول ذلك ، ليكون آتياً بسنَّة الاستثناء ، حتى ولو كان بعد الحنث . قاله ابن جرير رحمه الله ، ونص على ذلك ، لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة . وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله ، هو الصحيح ، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه ، والله أعلم ، وقال عكرمة ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا غضبت . وهذا تفسير باللازم .

ويحتمل في الآية وجه آخر : وهو أن يكون الله تعالى ، قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله

تعالى ، لأن النسيان منشؤه من الشيطان ، كما قال فتى موسى ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ وذِكر الله تعالى يَطْرد الشيطان ، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان ، فذكر الله سببٌ للذكر ، ولهذا قال : ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ .

وقوله : ﴿وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أي : إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه ، فاسأل الله تعالى فيه ، وتوجَّه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك ، وقيل في تفسيره غير ذلك ، والله أعلم .

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾

٢٥ - هذا خبرٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ ، بمقدار ما لبث من أصحاب الكهف في كهفهم ، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله ، وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان ، وأنه كان مقداره ثلثمائة سنة ، تزيد تسع سنين بالهلالية ، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإنَّ تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال بعد الثلثمائة ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ .

٢٦ - وقوله : ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي : إذا سئلت عن لبثهم ، وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى ، فلا تَتَقدَّم فيه بشيء ، بل قل في مثل هذا : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : لا يعْلم ذلك إلا هو ، أو مَنْ أَطلعَهُ عليه من خلقه ، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير ، كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف .

وقال قتادة في قوله : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ الآية ، هذا قول أهل الكتاب ، وقد رده الله تعالى بقوله : ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قال : وفي قراءة عبد الله ﴿وَقَالُوا وَلَبِثُوا﴾ يعني : أنه قاله الناس . وهكذا قال قتادة ومطرف بن عبد الله ، وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر ! فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة ، من غير تسع ، يعنون بالشمسية ، ولو كان الله قد حكى قولهم ، لما قال : ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ والظاهر من الآية : إنما هو إخبار من الله ، لا حكاية عنهم ، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله ، ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة ، ثم هي شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور ، فلا يحتج بها والله أعلم .

وقوله : ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي : إنه لبصير بهم سميع لهم . قال ابن جرير : وذلك في معنى المبالغة في المدح ، كأنه قيل : ما أبصره وأسمعه ، وتأويل الكلام : ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع ، لا يخفى عليه من ذلك شيء . ثم روى عن قتادة في قوله : ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ فلا أبصر من الله ولا أسمع ، وقال ابن زيد ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ يرى أعمالهم ، ويسمع ذلك منهم سميعاً بصيراً .

وقوله : ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي : أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر ، الذي لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ، ولا شريك ومشير ، تعالى وتقدس .

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

٢٧ - يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز، وإبلاغه إلى الناس ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل. وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ عن مجاهد: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قال: ملجأ. وعن قتادة: ولياً ولا مولى، قال ابن جرير يقول: إنْ أنت يا محمد لم تتل ما أوحيَ إليك من كتاب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة.

٢٨ - وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ الآية، أي: اجلس مع الذين يذكرون الله، ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشياً، من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء، يقال: إنها نزلت في أشراف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، ليفرد أولئك بمجلسٍ على حدة، فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية.

وروى مسلم في صحيحه: عن سعد هو ابن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنتُ أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري.

وروى أحمد: عن أبي أمامة قال: خرج رسول الله ﷺ على قاص يقصُّ فأمسك، فقال رسول الله ﷺ: «قص، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس، أحبُّ إليَّ من أن أُعتق أربعَ رقاب».

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم منادٍ من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم، قَدْ بُدِّلَتْ سيئاتُكم حَسَنات» تفرد به أحمد رحمه الله.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم، يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: شغل عن الدين، وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفهٌ وتفريطٌ وضياعٌ، ولا تكن مُطيعاً له، ولا مُحباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

٢٩ - يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس: هذا الذي جئتكم به من ربكم، هو الحق الذي

لا مرية فيه ولا شك ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هذا من باب التهديد، والوعيد الشديد ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي: أرصدنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها.

وقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ الآية، قال ابن عباس: «المهل» الماء الغليظ مثل دردي الزيت، وقال مجاهد: هو كالدم والقيح، وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حره، وقال آخرون: هو كل شيء أذيب. وقال الضحاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود.

وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإنّ «المهل» يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار، ولهذا قال: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أي: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه، حتى تسقط جلدة وجهه فيه. ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب، بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ أي: بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي: حارّة، كما قال تعالى ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾، ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ أي: وساءت النار منزلاً ومقيلاً، ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (٣١)﴾

٣٠، ٣١- لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنّى بذكر السعداء، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم جنات عدن، و «العدن» الإقامة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت غرفهم ومنازلهم. قال فرعون: ﴿وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ الآية، ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ أي: من الحلية ﴿فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وقال في المكان الآخر ﴿وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وفصّله ههنا، فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ فالسندس: ثياب رفاع رقاق، كالقمصان وما جرى مجراها. وأما الاستبرق: فغليظ الديباج وفيه بريق.

وقوله: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾ الاتكاء قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس، وهو أشبه بالمراد ههنا، ومنه الحديث الصحيح: «أما أنا فلا آكل متكأ»[1] فيه القولان. و «الأرائك» جمع أريكة، وهي السرير تحت الحَجَلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالباشخاناه، والله أعلم.

روى عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة ﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ قال: هي الحجال. قال معمر: وقال غيره: السرر في الحجال.

وقوله: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ أي: نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ أي: حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً﴾ ثم ذكر صفات المؤمنين، فقال: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً﴾.

---

(١) رواه البخاري في «الأطعمة» (٩/ ٥٤٠).

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾

٣٢- يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم ولهم مَثَلاً برجلين، جَعَلَ الله ﴿لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة.

٣٣- ولهذا قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي: ولم تنقص منه شيئاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا.

٣٤- ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قيلَ: المراد به المال. رُوِيَ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقيل: الثمار وهو أظهر ههنا، ويؤيد القراءة الأخرى ﴿وَكَانَ لَهُ ثُمْرٌ﴾ بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثمرة كخشبة وخشب. وقرأ آخرون ﴿ثَمَرٌ﴾ بفتح الثاء والميم ﴿فَقَالَ﴾ أي: صاحب هاتين الجنتين ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أكثر خدماً وحَشَماً وولداً. قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر: كثرة المال، وعزة النفر، وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره، وإنكاره المعاد ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيهما من الزروع والثمار والأشجار، والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ، ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة.

ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي: ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله، ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ أي: في الدار الآخرة، تألى على الله عز وجل. وكان سبب نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) ﴾

٣٧- يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ الآية، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذي خلقه،

وابتدأ خلق الإنسان من طين ـ وهو آدم ـ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾ الآية، كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كلُّ أحدٍ يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحدٍ من المخلوقات، إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وُجد، وليس وجوده من نفسه، ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات، لأنه بمثابته، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء.

٣٨- ولهذا قال المؤمن ﴿لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾ أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

٣٩- ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ هذا تَحْضِيضٌ وحثٌّ على ذلك، أي: هلا إذْ أعْجبتْكَ حينَ دخلتها، ونظرت إليها، حمدتَ اللهَ على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف: مَن أعجبه شيءٌ من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد ثبت في الصحيح: عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على كنزٍ من كنوز الجنة؟ لا حولَ ولا قُوة إلا بالله».

وروى الإمام أحمد: عن عمرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، ألا أدلك على كنزٍ من كنوز الجنة تحت العرش؟ قال: قلت: نعم، فداك أبي وأمي، قال: «أن تقول لا قوة إلا بالله»، قال أبو بلج: وأحسب أنه قال: «فإن الله يقول: أسلم عبدي واستسلم»، قال عمرو: قلت لأبي هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: لا، إنها في سورة الكهف ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

٤٠- وقوله: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك في الدنيا، التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس والضحاك وقتادة ومالك عن الزهري: أي عذاباً من السماء. والظاهر أنه مطر عظيمٌ مزعجٌ، يقلع زرعها وأشجارها، ولهذا قال: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ أي: بلقعاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم، وقال ابن عباس: كالجرز الذي لا ينبت شيئاً.

٤١- وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾ أي: غائراً في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: جارٍ وسائح، وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾

٤٢- يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بأمواله، أو بثماره على القول الآخر، والمقصود: أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خوفه به المؤمن، من إرسال الحُسبان على جنته التي اغتر بها، وألهته عن الله عز وجل ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً، متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾.

٤٣ - ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ﴾ أي: عشيرة أوولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾.

٤٤ - ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ للهِ الْحَقِّ﴾ اختلف القراء ههنا، فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِراً هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الموطن، الذي حلَّ به عذاب الله، فلا منقذ له منه، ويبتدئ بقوله: ﴿الْوَلَايَةُ للهِ الْحَقِّ﴾. ومنهم من يقف على ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾ ويبتدئ بقوله ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ للهِ الْحَقِّ﴾ ثم اختلفوا في قراءة ﴿الْوَلَايَة﴾ فمنهم من فتح الواو من ﴿الْوَلَايَة﴾ فيكون المعنى: هنالك الموالاة لله، أي: هنالك كل أحد ـ مؤمن أو كافر ـ يرجع إلى الله، وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾، وكقوله: إخباراً عن فرعون ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ومنهم من كسر الواو من ﴿الولاية﴾ أي: هنالك الحكم لله الحق، ثم منهم من رفع ﴿الحقُّ﴾ على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ ومنهم من خفض القاف، على أنه نعت لله عز وجل، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ أي: الأعمال التي تكون لله عز وجل، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾

٤٥ - يقول تعالى: ﴿وَاضْرِبْ﴾ يا محمد للناس ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: ما فيها من الحب، فشبَّ وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿أَصْبَحَ هَشِيماً﴾ يابساً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي: تفرقه وتطرحه، ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ أي: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل، كما قال تعالى في سورة يونس ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ الآية، وقال في الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ الآية، وقال في سورة الحديد ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ الآية، وفي الحديث الصحيح: «الدنيا حلوة خضرة».

٤٦ - وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: الإقبال عليه، والتفرغ لعبادته، خيرٌ لكم من اشتغالكم بهم، والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف: الباقيات الصالحات: الصلوات الخمس.

وقال عطاء بن أبي رباح وسعيد بن جبير عن ابن عباس: الباقيات الصالحات: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وهكذا سُئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان: عن الباقيات الصالحات ماهي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إل بالله العلي العظيم. رواه الإمام أحمد. وروى مالك عن سعيد بن المسيب (نحوه). وعن نافع بن سرجس أنه سأل ابن عمر: عن الباقيات الصالحات، قال: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال ابن جريج: وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك، و(كذا) قال مجاهد. وروى عبد الرزاق عن الحسن وقتادة (مثله) وروى ابن جرير: عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات» قيل: وماهي يا رسول الله؟ قال: الملة، قيل: وماهي يا رسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله» وهكذا رواه أحمد.

روى ابن وهب: عن أبي أيوب الأنصاري أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول: «عُرِجَ بي إلى السماء فرأيت إبراهيم عليه السلام، فقال: يا جبريل، من هذا الذي معك؟ فقال: محمد فرحب بي وسهل، ثم قال: مُرْ أمتك فلتكثر من غِراس الجنة، فإنَّ تربتها طيبة، وأرضها واسعة، فقلت: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله».

وروى الإمام أحمد: عن أبي سلام عن مولى لرسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بخ بخ لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده وقال: بَخٍ بَخٍ لخمس من لقي الله مستيقناً بهن، دخل الجنة: يؤمن بالله واليوم الآخر، وبالجنة، وبالنار، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب».

وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة، وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة، ما دامت السموات والأرض. وقال العوفي عن ابن عباس: هي الكلام الطيب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها، واختاره ابن جرير رحمه الله.

﴿ ويوم نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وترى الأرض بارزةً وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً (٤٧) وعُرِضُوا على ربك صفًّا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعداً (٤٨) ووُضِعَ الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً (٤٩) ﴾

٤٧ - يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً﴾ أي: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾، وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾ يذكر تعالى أنه تذهب الجبال وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض قاعاً صفصفاً، أي سطحاً مستوياً لا عوج فيه، ولا أمتا، أي: لا وادي ولا جبل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: بادية ظاهرة، ليس فيها معلمٌ لأحد، ولا مكان يواري

أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم، لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهد وقتادة: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ لا حجر فيها ولا غيابة، قال قتادة: ولا بناء ولا شجر.

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: وجمعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحدا، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۞ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾.

وقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق، يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾. وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال مخاطباً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي: ما كان ظنكم أن هذا واقعٌ بكم، ولا أن هذا كائن.

٤٩- وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً، ولا عملاً وإن صغر إلا أحصاها، أي: ضبطها وحفظها.

وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي: من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: تظهر المخبآت والضمائر، روى الإمام أحمد: عن أنس عن النبيﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يُعرفُ به» أخرجاه في الصحيحين. وفي لفظ: «يُرفع لكلِّ غادرٍ لواءٌ يوم القيامة عند استِه بقدر غَدْرته، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان».

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعفو ويصفح، ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي، ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ الآية، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿حَاسِبِينَ﴾ والآيات في هذا كثيرة.

وروى الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله فقال: بلغني حديث عن رجل سمعه من النبيﷺ، فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلا، فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس فقلت للبواب: قل له جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله، قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديثٌ بلغني عنك أنك سمعته من رسول اللهﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «يحشرُ اللهُ عز وجل الناس يوم القيامة ـ أو قال: العباد ـ عُراةً غُرْلا بُهما، قلت: وما بُهما؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه مَن بَعُد كما يسمعه من قرُب: أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحدٍ من أهل الجنة حق، حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحدٍ

من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند رجل من أهل النار حق، حتى أقصه منه حتى اللطمة، قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله عز وجل حُفاةً عراةً غرلا بهما؟ قال: بالحسنات والسيئات».

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الجمَّاء لتقتص من القرناء يوم القيامة» رواه عبدالله ابن الإمام أحمد، وله شواهد من وجوه أخر.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾

٥٠ - يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم، ولأبيهم من قبلهم، ومقرِّعاً لمن اتبعه منهم، وخالف خالقه ومولاه، وهو الذي أنشأه وابتداه و بألطافه رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله وَالَى إبليس، وعادَى الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي: لجميع الملائكة كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أي: سجود تشريفٍ وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، وقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: خانه أصله، فإنه خُلِق من مَارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم: عن عائشة رضي الله عنها: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خُلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصفَ لكم».

فعند الحاجة نضَح كل وعاءٍ بما فيه، خانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة، وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة.

ونبه تعالى ههنا على أنه من الجن، أي: على أنه خلق من نار، كما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ قال الحسن البصري: ماكان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه[1]. وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء الدنيا.

وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غُنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وُضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء، والسادة والأتقياء، والبررة والنجباء، من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيف من منكره، وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانةً للجناب النبوي، والمقام المحمدي، خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ، أنْ يُنسب إليه كذب أو يحدَّث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي: فخرج عن طاعة الله، فإن الفسق: هو الخروج، يقال: فسقت الرُّطَبة، إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جحرها إذا خرجت منه للعيث والفساد.

---

(١) وهذا هو القول الصحيح، الموافق لحديث عائشة رضي الله عنها السابق.

ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً، لمن اتبعه وأطاعه ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ الآية، أي: بدلاً عني، ولهذا قال: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها، ومصير كل من الفريقين: السعداء والأشقياء، في سورة يس ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾

٥١- يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذوهم أولياء من دوني، عبيدٌ أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتُهُمْ خَلْقَ السَّموات والأرض، ولا كانوا إذْ ذاك موجودين؛ يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدي، ليس معي في ذلك شريك، ولا وزير ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الآية، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قال مالك: أعواناً.

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) ﴾

٥٢- يقول تعالى مخبراً عما يخاطب به المشركين يوم القيامة، على رءوس الأشهاد، تقريعاً لهم وتوبيخاً ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: في دار الدنيا، ادعوهم اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ كما قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ الآيتين، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

و قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال ابن عباس وقتادة وغير واحد: مهلكاً، وقال قتادة: ﴿مَّوْبِقًا﴾ وادياً في جهنم.

وقال الحسن البصري: ﴿مَّوْبِقًا﴾ عداوة. والظاهر من السياق ههنا أنه: المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره، والمعنى: أن الله تعالى بيَّن أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحدٍ من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك، وهول عظيم، وأمر كبير.

وأما إن جُعِل الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُم﴾ عائداً إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله بن عمرو: أنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

٥٣- وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: أنهم لما عاينوا جهنم، حين جيء بها تُقادُ بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك ﴿فَإِذَا رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ تحققوا

لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإنَّ توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه، عذابٌ ناجز. وقوله: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

٥٤- يقول تعالى ولقد بيَّنا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان، وهذا الفرقان، الإنسان كثيرُ المجادلة والمخاصمة، والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله، وبصَّره لطريق النجاة.

روى الإمام أحمد: عن علي بن أبي طالب أخبره أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة فقال: «ألا تُصَلِّيان»؟ فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئاً، ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه، ويقول: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ أخرجاه في الصحيحين.

٥٥- يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر، مع ما يشاهدون من الآيات، والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك، إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وُعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وآخرون قالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وقالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، ثم قال: ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ من غشيانهم بالعذاب، وأخذهم عن آخرهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ أي: يرونه عياناً مواجهة ومقابلة.

٥٦- ثم قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: قبل العذاب مبشرين من صدَّقهم وآمن بهم، ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم، ثم أخبر عن الكفار بأنهم ﴿يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أي: ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً﴾ أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بُعث بها الرسل، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُواً﴾ أي: سخروا منهم في ذلك، وهو أشد التكذيب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ

الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩) ﴾

٥٧- يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم، ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها، أي: تناساها وأعرض عنها، ولَمْ يُصغ لها، ولا ألقى إليها بالاً ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: من الأعمال السيئة، والأفعال القبيحة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وغشاوة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً معنوياً عن الرشاد ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

٥٨- وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: ربك يا محمد غفور، ذو رحمة واسعة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والآيات في هذا كثيرة. ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومَن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها، ولهذا قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ أي: ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل.

٥٩- وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: الأمم السالفة، والقرون الخالية، أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي: جعلناه إلى مدة معلومة، ووقت معين، لا يزيد ولا ينقص. أي: وكذلك أنتم أيها المشركون، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول، وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾

٦٠- سبب قول موسى لفتاه ـ وهو يوشع بن نون ـ هذا الكلام، أنه ذُكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الرحيل إليه، وقال لفتاه ذلك ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أي: لا أزال سائراً ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين.

قال قتادة وغير واحد: هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب، وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم، وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي: ولو أني أسير حقبا من الزمان. قال ابن جرير رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب، أن الحقب في لغة قيس: سنة، ثم قد روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحقب ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون خريفاً، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ قال: دهراً، وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك.

٦١- وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه،

وقيل: له متى فقدت الحوت فهو ثمة، فسارا حتى بلغا مجمع والبحرين، وهناك عين يقال لها عين الحياة، فناما هنالك وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام، وطفر من المكتل إلى البحر، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر، فجعل يسير في الماء، والماء له مثل الطّاق لا يلتئم بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: مثل السّرب في الأرض.

٦٢- وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: المكان الذي نسيا الحوت فيه، ونسب النسيان إليهما، وإن كان يوشع هو الذي نسيه، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من المالح ـ على أحد القولين ـ فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا﴾ أي: الذي جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ يعني تعباً.

٦٣- ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ قال قتادة: وقرأ ابن مسعود ﴿أن أذكُرَ لَهُ﴾ ولهذا قال ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أي: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

٦٤- ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي: هذا هو الذي نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَى آثَارِهِمَا﴾ أي: طريقهما ﴿قَصَصًا﴾ أي: يقصان آثار مشيهما، ويقفوان أثرهما.

٦٥- ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا هو الخضر عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري: عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم: أن موسى صاحب الخضر عليه السلام، ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل! قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتبَ اللهُ عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين، هو أعلم منك. قال موسى: يا رب، وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ، فأخذ حوته فجعله بمكتل، ثم انطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغداة قال موسى لفتاه ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، قال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً، فقال: ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً، قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسَجًّى بثوب فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام. فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: أتيتك لتعلِّمني مما عُلِّمتَ رُشداً ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علّمكه الله لا أعلمه. فقال موسى ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخضر ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في

السفينة، لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ۞ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ: «فكانت الأولى من موسى نسياناً» قال: وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فَنَقَرَ في البحر نقرة أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخَضِرُ غُلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ قال ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ قال: وهذه أشدُّ من الأولى، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ۞ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: مائلاً، فقال الخضر بيده ﴿فَأَقَامَهُ﴾ فقال موسى: قومٌ أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ۞ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وَدِدنا أن موسى كان صبرَ، حتى يَقصَّ الله علينا من خبرهما». قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: ﴿وَكَانَ أَمَامَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْباً﴾ وكان يقرأ ﴿وأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِراً وَكَانَ أَبواهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴾

٦٦- يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم ـ وهو الخضر ـ الذي خصَّه الله بعلم لم يطَّلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يُعْطِه الخضر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ سؤال تلطف، لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أي: أصحبك وأرافقك ﴿عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ أي: مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري، من علم نافع، وعمل صالح.

٦٧- فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ أي: أنك لا تقدر عن مصاحبتي، لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله، فكلٌّ منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي.

٦٨- ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر عليَّ ما أنت معذورٌ فيه، ولكن ما اطلعتَ على حكمته ومصلحته الباطنة، التي اطلعتُ أنا عليها دونك.

٦٩- ﴿قَالَ﴾ أي: موسى ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً﴾ أي: على ما أرى من أمورك ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ أي: ولا أخالفك في شيء، فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام.

٧٠- ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ أي: ابتداء ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ أي: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) ﴾

٧١- يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه - وهو الخضر - أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره، حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عَرَفُوا الخضر فحملوهما بغير نول، يعني: بغير أجرة، ، تكرمة للخضر، فلما استقلت بهم السفينة في البحر، ولججت، أي: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وهذه اللام لام العاقبة، لا لام التعليل. كما قال الشاعر: (لدوا للموت وابنوا للخراب).

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾ قال مجاهد: منكراً، وقال قتادة: عجباً، فعندها قال له الخضر، مذكِّراً بما تقدم من الشرط ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ يعني: وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطتُ معك، أن لا تنكر عليَّ فيها، لأنك لم تُحطْ بها خُبراً، ولها دخل هو مصلحة، ولم تعلمه أنت ﴿قَالَ﴾ أي: موسى ﴿لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ أي: لا تضيق عليَّ ولا تشدد عليّ، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً».

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾

٧٤- يقول تعالى: ﴿فَانطَلَقَا﴾ أي: بعد ذلك ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ﴾ وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمَدَ إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأضوأهم فقتله، وروى أنه احتز رأسه، وقيل: رضخه بحجر، وفي رواية: اقتلعه بيده، والله أعلم. فلما شاهد موسى عليه السلام هذا، أنكره أشد من الأول، وبادر فقال ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً﴾ أي: صغيرة لم تعمل الحنث، ولا عملت إثماً بعد، فقتلته ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير مستند لقتله ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً﴾ أي: ظاهرة النكارة.

٧٥- ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ فأكَّد أيضاً في التذكار بالشرط الأول.

٧٦- فلهذا قال له موسى ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: إن اعترَضتُ عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً﴾ أي: قد أعذرتَ إليَّ مرة بعد مرة.

روى ابن جرير: عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: كان النبي ﷺ إذا ذَكَرَ أحداً فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لو لبث مع صاحبه، لأبصر العجب، ولكنه قال ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً﴾».

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا

لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً (٧٨) ﴾

٧٧- يقول تعالى مخبراً عنهما أنهما ﴿انطَلَقَا﴾ بعد المرتين الأولتين ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ عن ابن سيرين أنها: الأيكة، وفي الحديث: «حتى إذا أتيا أهلَ قرية لئاماً» أي: بخلاء ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار، على سبيل الاستعارة، فإنَّ الإرادة في المحدثات، بمعنى: الميل، والانقضاض: هو السقوط، وقوله: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أي: فردَّه إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه: ردّه بيده، ودعمه حتى ردّ ميله. وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ أي: لأجل أنهم لم يضيفونا، كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً.

٧٨- ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام، أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾.

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (٧٩) ﴾

٧٩- هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره، ، وقد أظهر اللهُ الخَضرَ عليه السلام على حكمة باطنه، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها، لأنهم كانوا يمرون بها على ملِك من الظَّلَمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة، أي: جيدة ﴿غَصْباً﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابها المساكين، الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها. وقد قيل: إنهم أيتام.

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (٨١) ﴾

٨٠- قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه جيسور. وفي هذا الحديث: عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر، طُبع يوم طُبع كافراً» رواه ابن جرير. ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾ أي: يحملهما حُبُّه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قُتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإنَّ قضاء الله للمؤمن فيما يكره، خيرٌ له من قضائه فيما يحب. وصح في الحديث: «لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له» وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٨١- وقوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ أي: ولداً أزكى من هذا، وهما أرحم به منه. قاله ابن جريج، وقال قتادة: أبر بوالديه. وقد تقدم أنهما بُدِّلا جارية، وقيل: لما قتله الخضر، كانت أمه حاملاً بغلام مسلم، قاله ابن جريج.

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً (٨٢) ﴾

٨٢- في هذه الآية دليلٌ على إطلاق القرية على المدينة، لأنه قال أولاً ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾ وقال ههنا: ﴿فكان لغلامين يتيمين في المدينة﴾ كما قال تعالى: ﴿فكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ يعني: مكة والطائف.

ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحتُه لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنزٌ لهما. قال عكرمة وقتادة وغير واحد: كان تحته مالٌ مدفون لهما، وهو ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله، وقال العوفي عن ابن عباس: كان تحته كنز علم. وكذا قال سعيد بن ابن جبير، وقال مجاهد: صحفٌ فيها علم.

وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، لا ينافي قول عكرمة: أنه كان مالاً، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم كما جاء في القرآن، ووردت به السنة، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حُفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحاً، وتقدم أنه كان الأب السابع! فالله أعلم.

وقوله: ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما﴾ ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة﴾ وقال في السفينة: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿رحمة من ربك وما فعلته عن أمري﴾ أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا، من أصحاب السفينة ووالدي غلام وولدي الرجل الصالح ﴿وما فعلته عن أمري﴾ أي: لكني أمرت به، ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام[1]، مع ما تقدم من قوله: ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾ وقال آخرون: كان رسولاً، وقيل: بل كان مَلَكاً! نقله الماوردي في تفسيره، وذهب كثيرون: إلى أنه لم يكن نبياً، بل كان ولياً، والله أعلم.

وذكر ابن قتيبة في المعارف: أن اسم الخضر: بَلْيا بن مَلْكان . . . قالوا: وكان يكنى أبا العباس ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في «تهذيب الأسماء» وحكى هو وغيره، في كونه باقياً إلى الآن، ثم إلى يوم القيامة، قولين ومال هو و ابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات وآثار عن السلف وغيرهم، وجاء ذكره في بعض الأحاديث، ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها حديث التعزية وإسناده ضعيف، ورجَّح آخرون من المحدِّثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ ويقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهمَّ إن تَهْلك هذه العصابة، لا تُعبد في الأرض» وبأنه لم يُنقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده، ولا قاتل معه، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه، لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي»، وأخبر قبل مونه بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل[2].

---

(١) وهذا هو القول الصحيح، الذي عليه عامة السلف وتشهد له الأدلة المذكورة هنا وغيرها.

(٢) وهذا الذى اختاره الحافظ ابن كثير هو الحق لاسواه، بلا ريب ولا اشتباه.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في الخضر قال: «إنما سُمِّي خَضِراً، لأنه جلسَ على فَرْوة بيضاء، فإذا هي تهتز من تحته خضراء[1]». والمراد بالفروة ههنا: الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق. وقيل المراد بذلك وجه الأرض.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أنْ فسَّره له وبينه ووضحه، وأزال المشكل، قال: ﴿تَسْطِع﴾ وقبل ذلك، كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة، ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر، وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تَبَع، وقد صرَّح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها: أنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤)﴾

٨٣- يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ أي: عن خبره. وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من أخباره في كتاب «البداية والنهاية» بما فيه كفاية، ولله الحمد. وقال وهب بن منبه: كان ملكاً. وإنما سمي ذا القرنين، لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس! قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك الروم وفارس، وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين، وعن أبي الطفيل قال: سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين، فقال: كان عبداً ناصح الله فناصحه، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فسمي: ذا القرنين. ويقال: إنه إنما سمي ذا القرنين، لأنه بلغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب.

٨٤- وقوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أعطيناه ملكاً عظيماً، مُمكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي «ذا القرنين» لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقتادة والضحاك وغيرهم: يعني علماً، وقال قتادة أيضاً: منازل الأرض وأعلامها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال: تعليم الألسنة، قال: كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم. وقد قال الله في حق بلقيس ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب، أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضي، وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً، والله أعلم.

---

(١) وهو في صحيح البخاري في كتاب الأنبياء (٦/ ٤٣٣).

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

٨٥- قال ابن عباس ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يعني: بالسبب المنزل، وقال مجاهد ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب، وفي رواية عن مجاهد ﴿سَبَبًا﴾ قال: طرفي الأرض، وقال قتادة: أي: اتبع منازل الأرض ومعالمها، وقال الضحاك ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي المنازل، وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قال: علماً، وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى والسدي، وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك.

٨٦- وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذّر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار، من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاف زنادقتهم وكذبهم. وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه.

و(الْحَمِئَة) مشتقة على إحدى القراءتين من: الحمأة، وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي: طين أملس، وقد تقدم بيانه، وروى ابن جرير: عن نافع عن عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس يقول ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ثم فسرها: ذات حمأة. قال نافع: وسُئل عنها كعب الأحبار فقال: أنتم أعلم بالقرآن مني، ولكني أجدها في الكتاب: تغيب في طينة سوداء، وكذا روى غير واحد عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وغير واحد. وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾ يعني: حارة. وكذا قال الحسن البصري، وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب. قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذْ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل، ، وحمئة في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره.

وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: أمّة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم. وقوله: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ معنى هذا: أن الله تعالى مكّنه منهم، وحكّمه فيهم، وأظفره بهم، وخيّره إن شاء قتل وسبى، وإن شاء مَنّ أو فدى.

٨٧- فعُرِف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه، في قوله: ﴿أَمَّا مَن﴾ أي: استمر على كفره وشركه بربه، فسوف نعذبه. قال قتادة: بالقتل، وقال السدي: كان يحمي لهم بقر النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا. وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: شديداً بليغاً وجيعاً أليماً، وفي هذا إثبات المعاد والجزاء.

٨٨- وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ أي: تابعنا على ما ندعوه إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قال مجاهد: معروفاً.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

٨٩- يقول تعالى: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم، ودعاهم إلى الله عز وجل، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة، ما تستعين به جيوشه على قتال الأقليم المتاخم لهم، وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة، يجوب الأرض طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغارب.

٩٠- ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: أمة ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس، وقال سعيد بن جبير: كانوا حمراً قصاراً، مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك.

وروى أبو داود الطيالسي: عن الحسن: وسئل عن قول الله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: إن أرضهم لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه، وإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم. قال الحسن: هذا حديث سمرة. وقال قتادة: ذُكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم. وروى عبد الرزاق: عن قتادة قال: هم الزنج.

٩١- وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قال مجاهد والسدي: علماً. أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإنْ تفرقت أممهم، وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾

٩٢- يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض.

٩٣- ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان متناوحان، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل. ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام، كما ثبت في الصحيحين: «إنَّ الله تعالى يقول: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعثْ بَعْثَ النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كلِّ ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فحينئذ يَشيب الصغير، وتضعُ كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمَّتين، ما كانتا في شيء إلا كثَّرتاه، يأجوج مأجوج».

وقد حكى النووي رحمه الله في شرح مسلم: عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خُلِقُوا من مني خرج

من آدم فاختلط بالتراب ، فخلقوا من ذلك ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء! وهذا قول غريب جداً! لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل! ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب ، لما عندهم من الأحاديث المفتعلة ، والله أعلم.

قال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك ، وقال: إنما سُمّي هؤلاء «تُركاً» لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة ، وإلا فهم أقرباء أولئك ولكن كان في أولئك بغيٌ وفساد وجراءة ، وقد ذكر ابن جرير ههنا: عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجيباً ، في سير ذي القرنين وبنائه السد ، وكيفية ما جرى له ، وفيه طولٌ وغرابة ونكارة ، في أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم ، وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك أحاديث غريبة ، لا تصح أسانيدها ، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِما قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ أي: لاستعجام كلامهم ، وبُعدهم عن الناس.

٩٤- ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾ قال عطاء عن ابن عباس: أجراً عظيماً. يعني: أنهم أرادوا أنْ يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه ، حتى يجعل بينه وبينهم سداً.

٩٥- فقال ذو القرنين بعفةٍ وديانةٍ وصلاح ، وقصد للخير ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين ، خيرٌ لي من الذي تجمعونه ، كما قال سليمان ﷺ ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾ الآية ، وهكذا قال ذو القرنين ، الذي أنا فيه خيرٌ من الذي تبذلونه ، ولكن ساعدوني بقوة ، أي: بعملكم وآلات البناء ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾.

٩٦- ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ والزبر جمع زبرة ، وهي: القطعة منه ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، وهي كاللبنة ، يقال كل لبنةٍ زنة قنطار بالدمشقي ، أو تزيد عليه ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي: وَضَعَ بعضه على بعض ، من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طُولاً وعرضاً ، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ أي: أجج عليه النار ، حتى صار كله ناراً ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي: هو النحاس ، زاد بعضهم: المذاب ، ويستشهد بقوله تعالى ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ ولهذا يُشبَّه بالبُرد المحبَّر.

وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه ، وجهز معه جيشاً سرية ، لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا ، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد ، ومن مُلك إلى ملك ، حتى وصلوا إليه ، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس ، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً وعليه أقفال عظيمة ، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك ، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له ، وأنه عالٍ منيف شاهق لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال ، ثم رجعوا إلى بلادهم ، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين وشاهدوا أهوالاً وعجائب. ثم قال الله تعالى:

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) ﴾

٩٧- يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج: أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نَقْبه من أسفله، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه، قابل كُلاً بما يناسبه، فقال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه، ولا على شيء منه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ يأجوج ومأجوج ليحفرون السَّدَّ كلَّ يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أنْ يبعثهم على الناس، حَفَروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، فيستثني فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فيَنشفُون المياه، ويتحصَّن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهلَ الأرض، وعَلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نَغفاً في رقابهم فيقتلهم بها، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، إنَّ دوابَّ الأرض لَتَسْمَن، وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم». وكذا رواه ابن ماجة والترمذي وإسناده جيد قوي، ولكن متنه في رفعه نكارة، لأن ظاهر الآية يقتضي، أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه، لإحكام بنائه وصلابته وشدته.

ويؤيد ما قلناه، من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه(1)، ومن نكارة هذا المرفوع (ما رواه) الإمام أحمد: عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمرٌ وجهه، وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وحلّق، قلت: يا رسول الله، أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثُرَ الخَبَثُ» هذا حديث صحيح، اتفق البخاري ومسلم على إخراجه، وقد روي نحو هذا عن أبي هريرة أيضاً، رواه البزار، وأخرجه البخاري ومسلم.

٩٨- وقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: لما بناه ذو القرنين ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ أي: بالناس، حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً، يمنعهم من العَيث في الأرض والفساد ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: إذا اقترب الوعد الحق ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: ساواه بالأرض، تقول العرب: ناقة دكاء، إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: مساوياً للأرض. وقال عكرمة: طريقاً كما كان ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: كائنا لا محالة.

٩٩- وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ أي: الناس يومئذ، أي: يوم يدك هذا السد، ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس، ويفسدون على الناس أموالهم، ويتلفون أشياءهم. وهكذا قال السدي في قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۞ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾

---

(1) لكن هذا ليس على وجه الدوام، بل سيُنقب السَّد إذا شاء الله تعالى ذلك، قال العلامة الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٧٣٥) بعد نقله كلام الحافظ ابن كثير السابق: قلت: نعم، ولكن الآية لا تدل من قريب ولا من بعيد أنهم لن يستطيعوا ذلك أبداً، فالآية تتحدث عن الماضي، والحديث عن المستقبل الآتي، فلا تنافي ولا نكارة، بل الحديث يتمشى تماماً مع القرآن في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

الآية. وهكذا قال هنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ قال ابن زيد: هذا أول يوم القيامة ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ على أثر ذلك ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال إذا ماج الجن والإنس يوم القيامة يختلط الإنس والجن. روى ابن أبي حاتم عن هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: الإنس والجن، يموج بعضهم في بعض. وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ والصور كما جاء في الحديث «قرن يُنفخ فيه» والذي ينفخ فيه إسرافيل ﷺ، كما قد تقدم في الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة. وفي الحديث: عن عطية عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً: «كيف أنعمَ وصاحبُ القرن قد التقم القرن، وحَنى جبهته، واستمع متى يؤمر» قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا».

وقوله: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ أي: أحضرنا الجميع للحساب ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢)﴾

١٠٠ - يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة، أنه يَعْرض عليهم جهنم، أي: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم، وفي صحيح مسلم: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بجهنم تُقادُ يوم القيامة بسبعينَ ألف زمام، مع كلِّ زمام سبعون ألف ملك».

١٠١ - ثم قال مخبراً عنهم ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي: تغافلوا وتعاموا وتصامموا عن قبول الهدى، واتباع الحق، كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾، وقال هنا: ﴿وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه.

١٠٢ - ثم قال: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أي: اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك، وينتفعون به ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعدَّ لهم جهنم يوم القيامة مَنزلاً.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً (١٠٦)﴾

١٠٣ - روى البخاري: عن مصعب قال: سألت أبي يعني سعد بن أبي وقاص عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.

فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين .

وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد ، هم : الحرورية . ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه : أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية ، كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم ، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء ، بل هي أعم من هذا ، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى ، وقبل وجود الخوارج بالكلية ، وإنما هي عامة في كل من عَبَدَ الله على غير طريقةٍ مرضيةٍ ، يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول ، وهو مخطئ وعمله مردود ، كما قال تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾ وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ .

وقال في هذه الآية الكريمة ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي : نخبركم ﴿بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ .

١٠٤- ثم فسرّهم فقال : ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي : عملوا أعمالاً باطلة ، على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ أي : يعتقدون أنهم على شيء ، وأنهم مقبولون محبوبون .

١٠٥- وقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي : جحدوا آيات الله في الدنيا ، وبراهينه التي أقام على وحدانيته ، ، وصدق رسله ، وكذّبوا بالدار الآخرة ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ أي : لا نُثقِّلُ موازينهم ، لأنها خالية عن الخير ، روى البخاري : عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إنَّه ليأتي الرجلُ العظيمُ السَّمينُ يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال : اقرءوا إن شئتم ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾ وقد رواه مسلم .

١٠٦- وقوله : ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾ أي : إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم ، واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً ، استهزءوا بهم ، وكذَّبوهم أشد التكذيب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨)﴾

١٠٧- يخبر تعالى عن عباده السعداء ، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به ، أن لهم جنات الفردوس ، قال مجاهد : الفردوس : هو البستان بالرومية ، وقال كعب والسدي والضحاك : هو البستان الذي فيه شجر الأعناب ، وقال أبو أمامة : الفردوس سرة الجنة ، وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها ، وقد روى هذا مرفوعاً ، ففي الصحيحين : «إذا سألتم الله الجنة ، فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجَّر أنهار الجنة» . وقوله تعالى : ﴿نُزُلاً﴾ أي : ضيافة ، فإن النزل الضيافة .

١٠٨- وقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي : مقيمين ساكنين فيها ، لا يظعنون عنها أبداً ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ أي : لا يختارون عنها غيرها ، ولا يحبون سواها .

وفي قوله : ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ تنبيهٌ على رغبتهم فيها ، وحبهم لها ، مع أنه قد يُتوهَّم فيمن هو مقيم في المكان دائماً ، أنه قد يسأمه أو يمله ، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي ، لا يختارون عن مقامهم

ذلك متحولاً ولا ظعناً، ولا رحلة ولا بدلاً.

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾

١٠٩- يقول تعالى: قل يا محمد، لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يُكتب به كلمات الله، وحكمه وآياته الدالات ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جراً، بحور تمده ويكتب بها، لَـمَا نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله، كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾، يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة، لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول، وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا، أولها وآخرها في نعيم الآخرة، كحبةٍ من خردل في خلال الأرض كلها.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾

١١٠- روى الطبراني: عن معاوية بن أبي سفيان أنه قال: هذه آخر آية أنزلت[١].

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: قل لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: إنما أنا بشرٌ مثلكم، فمن زعم أني كاذب، فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه وإنما أخبركم أنما إلهكم الذي أدعوكم إلى عبادته، إله واحد لا شريك له.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي: ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذي يُرادُ به وجه الله وحدهُ لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أنْ يكونَ خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ، وروى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري قال: كنا نتناوب رسول الله ﷺ فنبيت عنده تكون له الحاجة، أو يطرقه أمرٌ من الليل، فيبعثنا، فكثر المحتسبون وأهل النُّوب، فكنا نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما هذه النجوى، ألم أنهكم عن النجوى؟» قال فقلنا: تبنا إلى الله، أي نبي الله، إنما كنا في ذكر المسيح، وفرَقْنا منه، فقال: «ألا أُخبركم بما هو أخوفُ عليكم من المسيح عندي؟» قال قلنا: بلى، قال: «الشرك الخفيُّ، أنْ يقومَ الرجلُ يصلي لمكان الرجل».

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال: «أنا خيرُ الشركاء،

---

(١) يأتي كلام الحافظ عليه في آخر السورة.

فمن عمل عملاً أشركَ فيه غيري ، فأنا بريءٌ منه ، وهو للذي أشرك» تفرد به من الوجه .

(حديث آخر) : روى الإمام أحمد : عن محمود بن لبيد : أن رسول الله ﷺ قال : «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشرك الأصغر» قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال : «الرياء ، يقول الله يوم القيامة ، إذا جزَى الناسَ بأعمالهم : اذهَبُوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا ، فانظروا هل تَجدون عندهم جزاء» .

(حديث آخر) : روى الإمام أحمد : عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري ـ وكان من الصحابة ـ أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إذا جَمَعَ اللهُ الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى منادٍ : مَن كانَ أشركَ في عملٍ عمله لله أحداً ، فليطلبْ ثوابه من عند غير الله ، فإنَّ الله أغنى الشركاء عن الشرك» وأخرجه الترمذي وابن ماجة .

(حديث آخر) : روى الإمام أحمد : عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ سمَّعَ سمَّعَ الله به ، ومَن رَاءَى رَاءَى الله به» ، رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (نحوه) .

وروى ابن جرير : عن عمرو بن قيس الكندي : أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الآية ، وقال : إنها آخرُ آية نزلت من القرآن . وهذا أثرٌ مشكل ، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ، ولا تغير حكمها ، بل هي مثبتة محكمة ، فاشتبه ذلك على بعض الرواة ، فروى بالمعنى على ما فهمه ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة الكهف

****

ترتيبها ١٩ — سورة مريم ـ مكية — آياتها ٩٨

وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة: من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل: عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾

١ - أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول سورة البقرة.

٢ - وقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا، وقرأ يحيى بن يعمر ﴿ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّاءَ﴾ وزكريا يُمد ويقصر، قراءتان مشهورتان. وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي صحيح البخاري: أنه كان نجاراً، يأكل من عمل يده في النجارة.

٣ - ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه، لئلا يُنسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره، حكاه الماوردي، وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله، كما قال قتادة في هذه الآية ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ إن الله يعلم القلب التقي، ويسمع الصوت الخفي، وقال بعض السلف: قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب يا رب يا رب، فقال الله له: لبيك لبيك لبيك.

٤ - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعفتْ وخارت القوى ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: اضطرم المشيب في السواد.

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة، وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك.

٥ - وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ قرأ الأكثرون بنصب الياء من (الموالي) على أنه مفعول، وعن الكسائي أنه سكن الياء.

وقال مجاهد وقتادة والسدي: أراد بالموالي العصبة، وقال أبو صالح: الكلالة، وروى عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه كان يقرؤها ﴿وَإِنِّي خَفَّتِ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ بتشديد الفاء، بمعنى: قلّت عصباتي من بعدي، وعلى القراءة الأولى: وَجْهُ خوفه أنه خَشِيَ أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً

يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً، من أن يُشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولدٌ ليجوزَ ميراثه دونهم، هذا وجه. **(الثاني)**: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً، ولا سيما الأنبياء فإنهم كانوا أزهدَ شيء في الدنيا. **(الثالث)**: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورث، ما تركنا صدقة»، وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحنُ معشر الأنبياء لا نورث».

وعلى هذا فتعين حمل قوله: **﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي﴾** على ميراث النبوة، ولهذا قال: **﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾** كقوله: **﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾** أي: في النبوة، إذ لو كان في المال، لَمَا خصَّه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبيرُ فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل، أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته: ما صح في الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث، ما تركنا فهو صدقةٌ». قال مجاهد في قوله: **﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾** كان وراثته علماً، وكان زكريا من ذرية يعقوب، وعن أبي صالح قال: يكون نبياً كما كانت آباؤه أنبياء، وروى عبد الرزاق: عن الحسن: يرث نبوته وعلمه، وقال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب. وعن زيد بن أسلم **﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾** قال: نبوتهم، وعن أبي صالح قال: يرث مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة. وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره.

وقوله: **﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾** أي: مرضياً عندك وعندَ خَلقِك، تحبه وتحببه إلى خلقك، في دينه وخُلقه.

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾

٧- هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه، فقيل له: **﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾** كما قال تعالى: **﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾**.

وقوله: **﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً﴾**، قال قتادة وابن جريج وابن زيد: أي: لم يُسمَّ أحدٌ قبله بهذا الاسم. واختاره ابن جرير رحمه الله، وقال مجاهد **﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً﴾** أي: شبيهاً. أخذه من معنى قوله: **﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾** أي: شبيهاً، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: لم تلد العواقر قبله مثله.

وهذا دليلٌ على أن زكريا ﷺ كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما، لا لعقرهما، ولهذا قال: **﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾** مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة، وقالت امرأته **﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾**.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ

﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾

٨- هذا تعجبٌ من زكريا عليه السلام حين أُجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يُولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها، مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أي: عَسَى عظمه ونحل، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع، والعرب تقول للعود إذا يبس: عَتَا يعتو عتياً وعتواً، وعسى يعْسُوا عسواً، وعسياً، وقال مجاهد ﴿عِتِيًّا﴾: يعني نحول العظم، وقال ابن عباس وغيره: عتياً يعني: الكبر. والظاهر أنه أخص من الكبر.

وروى ابن جرير: عن عكرمة عن ابن عباس قال: لقد علمتُ السُّنَّة كلها، غير أني لا أدري، أكان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر أم لا؟ ولا أدري كيف كان يقرأ هذا الحرف: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أو عسيّاً؟ ورواه الإمام أحمد وأبو داود.

٩- ﴿قَالَ﴾ أي: الملَك مجيباً لزكريا عما استعجب منه ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه، لا من غيرها ﴿هَيِّنٌ﴾ أي: يسير سهل على الله، ثم ذَكَر له ماهو أعجب مما سأل عنه، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)﴾

١٠- يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ أي: علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي، ويطمئن قلبي بما وعدتني، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ أي: علامتك ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: أن تَحبسَ لسانَكَ عَن الكلام ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة. قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة. قال ابن زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح، ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: متتابعات.

والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح، كما قال تعالى في آل عمران ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ وعن زيد بن أسلم: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ من غير خرس. وهذا دليلٌ على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها إلا رمزاً، أي: إشارة.

١١- ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي: الذي بشّر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: إشارة خفيفة سريعة ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: موافقة له فيما أُمر به في هذه الأيام الثلاثة، زيادة على أعماله، شكراً لله على ما أولاه. قال مجاهد ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار، وبه قال وهب وقتادة، وقال مجاهد في رواية عنه ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي: كتَبَ لهم في الأرض. وكذا قال السدي.

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) ﴾

١٢- وهذا أيضاً تضمن محذوفاً تقديره: أنه وُجد هذا الغلام المبشَّر به، وهو يحيى عليه السلام، وأنَّ الله علَّمه الكتاب وهو: «التوراة» التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا، للذين هادوا والربانيون والأحبار، وقد كان سِنُّه إذ ذاك صغيراً فلهذا نوَّه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أي: تعلَّم الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد وحرص واجتهاد ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: الفهم والعلم، والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث.

قال عبد الله بن المبارك قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ماللعب خلقنا! قال: فلهذا أنزل الله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

١٣- وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: ورحمة من عندنا. وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك وزاد: لايقدر عليها غيرنا، وزاد قتادة: رحم الله بها زكريا، وقال مجاهد: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ وتَعَطُّفاً من ربه عليه. وقال عكرمة: محبة عليه، وقال ابن زيد: أما الحنان فالمحبة، وقال عطاء بن أبي رباح ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال: تعظيماً من لدنا، وعن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: لا والله ما أدري ما حناناً. والظاهر من السياق أن قوله ﴿وَحَنَانًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: وآتيناه الحكم وحناناً ﴿وَزَكَاةً﴾ أي: وجعلناه ذاحنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل، كما تقول العرب: حَنَّت الناقة على ولدها، وحنت المرأة على زوجها، ومنه سميت المرأة حَنَّة من الحنة، وحنَّ الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة.

وقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ معطوف على ﴿وَحَنَانًا﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة: الزكاة العمل الصالح، وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكي، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَزَكَاةً﴾ قال: بركة ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ طهر فلم يعمل بذنب.

١٤- وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عَطَف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

١٥- ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال، وقال سفيان بن عيينة: أوحشُ ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يُبعثُ فيرى نفسه في محشر عظيم، قال: فأكرمَ اللهُ فيها يحيى بن زكريا، فخصَّه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ رواه ابن جرير.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا

فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً ﴿١٧﴾ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴿١٨﴾ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴿١٩﴾ قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً ﴿٢٠﴾ قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴿٢١﴾ ﴾

١٦- لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجدَ منه في حال كبره وعقم زوجته، ولداً زكياً طاهراً مباركاً، عطَفَ بذكر قصة مريم، في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها، من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محرَّرة أي: تخدم مسجد بيت المقدس وكانوا يتقربون بذلك ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾ ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة، والتبتل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك، وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في سورة آل عمران.

فلما أراد الله تعالى ـ وله الحكمة والحجة البالغة ـ أن يُوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام ﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾ أي: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس، قال السدي: لحيض أصابها، وقيل: لغير ذلك، عن ابن عباس قال: إن أهل الكتاب كُتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك ﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾ قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً، فصلوا قبل مطلع الشمس. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وقال قتادة ﴿مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾ شاسعاً متنحياً، وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلتها لتستقي الماء، وقال نوف البكالي: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه، فالله أعلم.

١٧- وقوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً﴾ أي: استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ أي: على صورة إنسان تام كامل. قال مجاهد والضحاك وقتادة وابن جريج ووهب بن منبه والسدي في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: جبرائيل عليه السلام. وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن، فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

١٨- ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾ أي: لما تبدَّى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها، فقالت ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾ أي: إن كنت تخافُ الله، تذكيرٌ له بالله، وهذا هو المشروع في الدفع، أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله عز وجل، روى ابن جرير: عن أبي وائل وذكر قصة مريم، فقال: قد عَلِمت أنّ

التقي ذو نُهية، حين قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: فقال لها الملك مجيباً لها، ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين، ولكني ﴿رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أي: بعثني الله إليك، ويقال: إنها لما ذكرت الرحمن، انتفض جبريل فرقاً، وعاد إلى هيئته، وقال:

١٩- ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِيَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهوري القراء، وقرأ الآخرون ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح، وكل تستلزم الأخرى.

٢٠- ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي: فتعجبت مريم من هذا، وقالت كيف يكون لي غلام، أي: على أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور، ولهذا قالت ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ والبغي هي: الزانية، ولهذا جاء في الحديث «النَّهي عن مهر البغي».

٢١- ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إنَّ الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل، ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر. ولهذا قال ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: دلالة وعلامة للناس على قُدرة بارئهم وخالقهم، الذي نوَّع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أُنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، فلا إله غيره، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: ونجعل هذا الغلام رحمة من الله، نبياً من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يحتمل أن هذا من كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمرٌ مقدر في علم الله تعالى وقدرته ومشيئته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمدﷺ، وأنَّه كنَّى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ قال محمد بن إسحاق ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: إنَّ الله قد عزم على هذا فليس منه بدٌّ، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره، ولم يحك غيره، والله أعلم.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣)﴾

٢٢- يقول تعالى مخبراً عن مريم، أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمتْ لقضاء الله تعالى، فَذَكَر غير واحد من علماء السلف: أن الملك وهو جبرائيلﷺ عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج، فحملت بالولد بإذن الله تعالى، فلما حملت ضاقت ذرعاً، ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا، وذلك أن زكرياﷺ كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك. فحملت امرأته فدخلت عليها مريم،

فقامت إليها فاعتنقتها وقالت: أشعرت يا مريم أني حبلى؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أني حبلى، وذكرت لها شأنها، وما كان من خبرها، وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تجد الذي في بطنها يسجد للذي في بطن مريم، أي: يعظمه ويخضع له، فإن السجود كان في ملتهم عند السلام مشروعاً، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام، ولكن حُرِّم في ملتنا هذه تكميلاً لتعظيم جلال الرب تعالى.

ثم اختلف المفسرون: في مدة حمل عيسى عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور: أنها حملت به تسعة أشهر، وقال عكرمة: ثمانية أشهر، قال: ولهذا لا يعيش ولد الثمانية أشهر، وروي عن ابن عباس ـ وسُئل عن حمل مريم ـ قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت. وهذا غريب! وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب، لكن تعقيب كل شيء بحسبه، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً﴾ فهذه الفاء للتعقيب بحسبها. وقد ثبت في الصحيحين: أن بين كل صفتين أربعين يوماً، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فالمشهور الظاهر ـ والله على كل شيء قدير ـ أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن.

وقوله: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي: فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع نخلة، في المكان الذي تنحَّت إليه، وقد اختلفوا فيه فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس، وفي رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، في قرية هناك يقال لها: بيت لحم. قلت: وقد تقدم في أحاديث الإسراء من رواية النسائي عن أنس رضي الله عنه والبيهقي عن شداد بن أوس رضي الله عنه، أن ذلك ببيت لحم، فالله أعلم. وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا يشك فيه النصارى، أنه ببيت لحم، وقد تلقَّاه الناس. وقدورد به الحديث إن صح.

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً﴾ فيه دليلٌ على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عَرَفَتْ أنها ستُبتلى وتمتحن بهذا المولود، الذي لا يَحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يُصدِّقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ أي: قبل هذا الحال ﴿وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً﴾ أي: لم أُخلق ولم أكُ شيئاً، قاله ابن عباس، وقال السدي: قالت وهي تطلق من الحبل، استحياء من الناس: يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه، والحزن بولادتي المولود من غير بعل. ﴿وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً﴾ نسي فتُرك طَلَبه، كخرق الحيض إذا أُلقيت وطرحت لم تُطلب ولم تذكر، وكذلك كل شيء نُسي وترك فهو نَسِيٌّ، وقال قتادة ﴿وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً﴾ أي: شيئاً لا يُعرف ولا يُذكر، ولا يدري من أنا، وقال الربيع بن أنس: هو السقط، وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط. وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت، إلا عند الفتنة، عند قوله ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ

تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

٢٤- قرأ بعضهم: ﴿مَن تحتها﴾ بمعنى: الذي تحتها، وقرأ الآخرون ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ على أنه حرف جر، واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال العوفي وغيره عن ابن عباس ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وعمرو بن ميمون والسدي وقتادة: أنه الملك جبرائيل عليه الصلاة والسلام، أي: ناداها من أسفل الوادي، وقال مجاهد ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾: عيسى ابن مريم. وكذا روى عبد الرزاق عن قتادة: قال: قال الحسن: هو ابنها، وهو إحدى الروايتين عن سعيد بن جبير أنه ابنها، قال: أولم تسمع الله يقول ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ واختاره ابن زيد وابن جرير في تفسيره.

وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي: ناداها قائلاً: لا تحزني ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال البراء بن عازب ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال: الجدول، وكذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «السَّرِيّ» النهر، وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تشرب منه، وقال مجاهد: هو النهر بالسريانية، وقال سعيد بن جبير: السري: النهر الصغير بالنبطية، وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز، وقال السدي: هو النهر. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال آخرون: المراد بالسري: عيسى ﷺ. وبه قال الحسن والربيع بن أنس ومحمد بن عباد بن جعفر، وهو إحدى الروايتين عن قتادة وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والقول الأول أظهر.

٢٥- ولهذا قال بعده: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي: وخذي إليك بجذع النخلة، قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس. وقيل: مثمرة، قال مجاهد: كانت عجوة، والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه، ولهذا امتن عليها بذلك، ، بأن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا﴾.

٢٦- ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾ أي: طيبي نفساً، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة. وقرأ بعضهم: ﴿تَسَّاقَطْ﴾ بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها، وقرأ أبونهيك ﴿تُسْقطْ عليكِ رُطباً جنياً﴾ وروى أبو إسحاق عن البراء أنه قرأها ﴿يُسَاقِطْ﴾ أي: الجذع، والكل متقارب.

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً﴾ أي: مهما رأيت من أحد ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا أنَّ المراد به القول اللفظي، لئلا ينافي ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ قال أنس بن مالك في قوله ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾ قال: صمتاً. وكذا قال ابن عباس والضحاك، وفي رواية عن أنس: صوماً وصمتاً، وكذا قال قتادة وغيرهما، والمراد: أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم، يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد.

وعن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلَّم أحدهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف أنْ لا يكلم الناس اليوم! فقال عبد الله بن مسعود: كلم الناس، وسلِّم عليهم، فإنَّ تلك

امرأة علمتْ أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج ـ يعني بذلك مريم عليها السلام ـ ليكون عذراً لها إذا سُئلت. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله.

وقال عبد الرحمن بن زيد لما قال عيسى لمريم ﴿لَا تَحْزَنِي﴾ قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي؟ لا ذات زوج ولا مملوكة، أي شيء عذري عند الناس؟ ياليتني مت قبل هذا، وكنت نسياً منسياً. قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾ قال: هذا كله من كلام عيسى لأمه، وكذا قال وهب.

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾

٢٧- يقول تعالى مخبراً عن مريم، حين أُمرت أن تصوم يومها ذلك، وأن لا تُكلم أحداً من البشر، فإنها ستُكفَى أمرها، ويُقام بحجتها، فسلَّمت لأمر الله عز وجل واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله، فلما رأوها كذلك، أعظموا أمرها، واستنكروه جداً، وقالوا ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾ أي: أمراً عظيماً. قاله مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد.

٢٨- ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ أي: شبيهة هارون في العبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ أي: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟ قال علي بن أبي طلحة والسدي: قيل لها ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ أي: أخي موسى، وكانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر. وقيل: نُسبت إلى رجلٍ صالح كان فيهم اسمه «هارون» فكانت تتأسى به في الزهادة والعبادة. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنهم شبهوها برجلٍ فاجر كان فيهم، يقال له: هارون! ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، وأغرب من هذا كله، ما رواه ابن أبي حاتم عن القرظي قال: هي أخت هارون لأبيه وأمه! وهي أخت موسى أخي هارون التي قصَّت أثر موسى ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

وهذا القول خطأ محضٌ! فإن الله تعالى قد ذكر في كتابه أنه قَفَّى بعيسى بعد الرسل، فدل على أنه آخر الأنبياء بعثاً، وليس بعده إلا محمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولهذا ثبت في صحيح البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا أولَى الناس بابن مريم، لأنه ليس بيني وبينه نبي». ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظي، لم يكن متأخراً عن الرسل سوى محمد، ولكان قبل سليمان بن داود، فإن الله قد ذكر أن داود بعد موسى عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وذكر القصة، إلى أن قال: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ الآية،

---

(١) وفي سنده: أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الشامي، ضعيف الحديث

وهذه هفوة وغلطة شديدة بل هي باسم هذه، وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم، كما روى الإمام أحمد: عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرءون ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعتُ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «ألاَ أخبرتَهم أنهم كانوا يُسمُّون بالأنبياء والصالحين قبلهم» انفرد بإخراجه مسلم والترمذي والنسائي. وروى ابن جرير: عن قتادة قوله: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ الآية، قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به، وكان هارونُ مُصلحاً محبباً في عشيرته، وليس بهارون أخي موسى، ولكنه هارون آخر.

٢٩- وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ أي: أنهم لما استرابوا في أمرها، واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا، معرِّضِينَ بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بها، ظانين أنها تزدري بهم، وتلعب بهم، ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ قال ميمون بن مهران: فأشارت إليه قالت: كلموه، فقالوا: على ما جاءت به من الداهية، تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبياً! وقال السدي: لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لسُخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي، أشد علينا من زناها. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾ أي: مَن هو موجود في مهده، في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟

٣٠- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ أول شيء تكلم به، أن نزَّه جناب ربه تعالى، وبرَّأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه. وقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ تبرئةٌ لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة. وقال عكرمة ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أي: قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى.

٣١- وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنتُ﴾ قال مجاهد وعمرو بن قيس والثوري: وجعلني معلِّماً للخير. وفي رواية عن مجاهد: نفَّاعاً. وروى ابن جرير: عن وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال: لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم، فقال له: يرحمك الله، ماالذي أُعْلِنُ مِن عملي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد أجمع الفقهاء على قول الله ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنتُ﴾ وقيل: وما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان.

وقوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. وقال عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس في قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ قال: أخبره بما هو كائنٌ من أمره إلى أن يموت، ما أَبْيَنها لأهل القدر.

٣٢- وقوله: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي﴾ أي: وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة ربه، لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ وقال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ أي: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته، وبر والدتي، فأشقى بذلك. قال سفيان الثوري: الجبار الشقي: الذي يقتل على الغضب، وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه، إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ قال: ولا تجد سيء الملكة، إلا وجدته مختالاً فخوراً، ثم قرأ ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن

﴿كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ .

٣٣- وقوله : ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ إثباتٌ منه لعبوديته لله عز وجل ، وأنه مخلوقٌ من خَلق الله ، يحيَا ويموت ويُبعثُ ، كسائر الخلائق ، ولكن له السلامة في هذه الأحوال ، التي هي أشق ما يكون على العباد ، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴾

٣٤- يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه : ذلك قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي : يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به ، ولهذا قرأ الأكثرون ﴿قَوْلُ الْحَقِّ﴾ برفع قول ، وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ ، وعن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى بنُ مَرْيَمَ قَالَ الحقَّ﴾ والرفعُ أظهر إعراباً ، ويشهد له قوله تعالى ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ .

٣٥- ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً ، نزه نفسه المقدسة ، فقال : ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ أي : عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون ، علواً كبيراً ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي : إذا أراد شيئاً ، فإنما يأمر به فيصير كما يشاء ، كما قال : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ❁ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ .

٣٦- وقوله : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي : ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده ، أنْ أخبرهم إذ ذاك ، أن الله ربه وربهم ، وأمرهم بعبادته ، فقال : ﴿فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي : هذا الذي جئتكم به عن الله ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي : قويم ، مَن اتبعه رَشَد وهدى ، ومن خالفه ضلَّ وغوى .

٣٧- وقوله : ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ أي : اختلف قول أهل الكتاب في عيسى ، بعد بيان أمره ، ووضوح حاله ، وأنه عبده ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فصمَّمَت طائفة منهم - وهم جمهور اليهود عليهن لعائن الله - على أنه ولد زنية ، وقالوا : كلامه هذا سحر ، وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله ! وقال آخرون : بل هو ابن الله ! وقال آخرون : ثالث ثلاثة ! وقال آخرون : بل هو عبد الله ورسوله ، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين . وقد روى نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقتادة ، وغير واحد من السلف والخلف .

وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم : أن قسطنطين جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم ، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً ، فاختلفوا في عيسى ابن مريم عليه السلام اختلافاً متبايناً جداً ، فقالت كل شرذمة فيه قولاً ، فمائة تقول فيه شيئاً ، وسبعون تقول فيه قولاً آخر ، وخمسون تقول شيئاً آخر ، ومائة وستون تقول شيئاً ، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلثمائة وثمانية منهم ، اتفقوا على قول وصمموا عليه ، فمال إليهم الملك وكان فيلسوفاً ، فقدمهم ونصرهم وطرد من

عداهم، فوضعوا له «الأمانة الكبيرة!» بل هي: الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين، وشرعوا له أشياء، وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحرفوا دين المسيح وغيروه، فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها، بلاد الشام والجزيرة والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثني عشر ألف كنيسة، وبنت أمه هيلانة قمامة على المكان الذي صُلب فيه المصلوب، الذي يزعم اليهود أنه المسيح، وقد كذبوا بل رفعه الله إلى السماء.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ شديد، لمن كذبَ على الله وافترى، وزعم أن له ولداً، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلَّهم، حلماً وثقة بقدرته عليهم، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين: «إنَّ الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وفي الصحيحين أيضاً: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحدَ أصبرُ على أذًى سمعه من الله، أنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم».

وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، ولهذا قال هنا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة، وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أنْ لاَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وأنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ، وأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّار حَقٌّ، أدخله اللهُ الجنةَ، على ما كان من العمل».

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾

٣٨- يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة، أنهم يكونون أسمعَ شيءٍ وأبصَره، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية، أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم، ولا يجدي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب، لكان نافعاً لهم، ومنقذاً من عذاب الله، ولهذا قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يُطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

٣٩- ثم قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي: أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فَصَلَ بين أهل الجنة وأهل النار، وصار كلٌّ إلى ما صار إليه مخلَّداً فيه ﴿وَهُمْ﴾ أي: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون به.

روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنة وأهل النار النار، يُجاء بالموت كأنه كبشٌ أملح، فيُوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون

وينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ويقال: يا أهل الجنة خلودٌ بلا موت، ويا أهل النار خلودٌ بلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ وأشار بيده ثم قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا» هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ولفظهما قريب من ذلك.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ من أسماء يوم القيامة، عظَّمه الله وحذره عباده، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ قال: يوم القيامة، وقرأ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يُخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون، ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدَّعي مُلكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً، ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

روى ابن أبي حاتم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإنَّ الله كتبَ على خلقه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل في كتابه الصادق، الذي حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على حفظه، أنه يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾

٤١- يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ واتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن، الذين هم من ذريته، ويدَّعون أنهم على ملته، وقد كان ﴿صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴾ مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام.

٤٢- فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً﴾ أي: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً.

٤٣- ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يقول: وإن كنتُ من صلبك، وتراني أصغر منك لأني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على مالم تعلمه أنت، ولا اطلعت عليه، ولا جاءك بعد ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ أي: طريقاً مستقيماً، موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المهروب.

٤٤- ﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك، والراضي به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً﴾ أي:

مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده و أبعده فلا تتبعه تَصِرْ مثله.

٤٥- ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: على شركك وعصيانك لما آمرك به ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني: فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولا مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾

٤٦- يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم، فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ يعني: أما تريد عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إنْ لم تنته عن ذلك، اقتصصت منك وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ قاله ابن عباس والسدي وابن جريج والضحاك وغيرهم، وقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق: يعني دهراً. وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً، وقال السدي: أبداً. وقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال: سوياً سالماً، قبل أن تصيبك مني عقوبة، وكذا قال الضحاك وقتادة وعطية الجدلي ومالك وغيرهم، واختاره ابن جرير.

٤٧- فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ ومعنى قول إبراهيم لأبيه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ يعني أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أي: في أن هداني لعبادته والإخلاص له. وقال قتادة ومجاهد وغيرهما: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال: عوّدَه الإجابة. وقال السدي: «الحفي» الذي يهتم بأمره، وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن وُلد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، في قوله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك، حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ الآية، يعني: إلا في هذا القول فلا تتأسوا به، ثم بيَّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

٤٨- وقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي﴾ أي: أجتنبكم وأتبرأ منكم، ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له ﴿عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾

٤٩- يقول تعالى فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، وَوهبَ له إسحاق ويعقوب يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ وقال: ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب، أي: جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء، أقرَّ الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ فلو لم يكن يعقوب قد نُبئ في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف، فإنه نبي أيضاً، كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: حين سُئل عن خير الناس، فقال: «يُوسفُ نبي الله، ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله، ابن إبراهيم خليل الله». وفي اللفظ الآخر: «إنَّ الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

٥٠- وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني الثناء الحسن. وكذا قال السدي ومالك بن أنس، وقال ابن جرير: إنما قال ﴿عَلِيًّا﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾

٥١- لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص في العبادة، روى الثوري عن أبي لبابة قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن المخلص لله؟ قال: الذي يعمل لله لا يحب أن يحمده الناس. وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار، أولى العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

٥٢- وقوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ أي: الجبل ﴿الْأَيْمَنِ﴾ من موسى، حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، فرآها تلوح فقصدها، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غربيه عند شاطئ الوادي، فكلمه الله تعالى وناداه، وقرّبه فناجاه، روى ابن جرير: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ قال: أُدني حتى سمعَ صَرِيف القلم. وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم، يعنون: صريف القلم بكتابة التوراة. وقال

السدي ﴿وقربناه نجيا﴾ قال: أدخل في السماء فكلم. وعن مجاهد نحوه، وروى عبد الرزاق عن قتادة ﴿وقربناه نجيا﴾ قال: نجا بصدقه.

٥٣- وقوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا﴾ أي: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾ وقال: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾ وقال: ﴿فأرسل إلى هارون ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحدٌ في أحد شفاعة في الدنيا، أعظم من شفاعة موسى في هارون، أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا﴾.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)﴾

٥٤- هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم، بأنه كان صادق الوعد. قال ابن جريج: لم يَعِد ربه عِدَةً إلا أنجزها، يعني: ما التزم عبادة قط بنذر، إلا قام بها ووفاها حقها. وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صادق الوعد﴾ لأنه قال لأبيه ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ فصدق في ذلك.

فصدقُ الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خلفه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ وقال رسول الله ﷺ: «آيةُ المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعدَ أخلَفَ، وإذا ائتمن خان».

ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبُّس بضدها بصفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا يَعد أحداً شيئاً إلا وفَّى له به، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: «حدَّثني فصدقني، ووعدني فوفَّى لي»[(١)].

ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق: مَنْ كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين، فليأتني أُنجز له، فجاءه جابر بن عبد الله فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد قال: «لو قد جاء مال البحرين، أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا، يعني ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين، أمر الصديق جابراً فَغَرف بيده من المال، ثم أمره بعدَّه فإذا هو خمسمائة درهم، فأعطاه مثليها معها»[(٢)].

وقوله: ﴿وكان رسولاً نبيا﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق، لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وُصف بالنبوة والرسالة، وقد ثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل» وذكر تمام الحديث، فدلَّ على صحة ما قلناه.

٥٥- وقوله: ﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا﴾ هذا أيضاً: من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان صابراً على طاعة ربه عزوجل، آمراً بها لأهله، كما قال تعالى

---

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة (٧/ ٨٥) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في الشهادات (٥/ ٢٨٩) وفي فرض الخمس (٦/ ٢٣٧) ومسلم في الفضائل (٤/ ١٨٠٦ - ١٨٠٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

لرسوله ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مُروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هَمَلاً فتأكلهم النار يوم القيامة.

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ» أخرجه أبو داود وابن ماجة.

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا اسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة واللفظ له.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)﴾

٥٦- ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه بأنه ﴿كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴾ وأن الله رفعه مكاناً عليا، وقد تقدم في الصحيح: أن رسول الله ﷺ مرَّ به في ليلة الإسراء، وهو في السماء الرابعة.

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن إدريس كان خياطاً، فكان لا يغرز إبرة إلا قال: سبحان الله، فكان يُمسي حين يُمسي، وليس في الأرض أحدٌ أفضل عملاً منه.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ قال: إدريس رُفع ولم يمت،، كما رفع عيسى، وروى سفيان عن مجاهد ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ قال: السماء الرابعة(1).

وقال الحسن وغيره في قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ قال: الجنة.

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً (٥٨)﴾

٥٨- يقول تعالى: هؤلاء النبيون - وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ الآية، قال السدي وابن جرير رحمه الله: فالذي عَنَى به من ذرية آدم: إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إبراهيم: إسْحاق ويعقوب وإسماعيل، والذي عنى به من ذرية إسرائيل: موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم، قال ابن جرير: ولذلك فرَّق أنسابهم، وإنْ كان يجمع جميعهم آدم، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس فإنه جد نوح.

قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام، وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذاً من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: «مرحباً بالنبي الصالح، والأخ

---

(١) وهذا موافق للحديث المرفوع في المعراج، رواه البخاري في مناقب الأنصار (٧/ ٢٠١) ومسلم في الإيمان (١/ ١٤٦) من حديث مالك ابن صعصعة رضي الله عنه.

الصالح» ولم يقل: والولد الصالح، كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام.

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

وفي صحيح البخاري: عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفي ص سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ فنبيكم ممن أُمرَ أن يقتدى بهم، قال: وهو منهم، يعني: داود.

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ أي: إذا سمعوا كلام الله، المتضمِّن حُجَجه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، حمداً وشكراً على ماهم فيه من النعم العظيمة، و«البُكِيُّ» جمع بَاكٍ، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا، اقتداءً بهم، واتباعاً لمنوالهم.

روى الثوري عن أبي معمر قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم فسجد، وقال: هذا السجود، فأين البُكِيُّ. يريد البكاء. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)﴾

٥٩ - لما ذكر تعالى حزب السعداء، وهم الأنبياء عليهم السلام، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله، التاركين لزواجره، ذكر أنه ﴿خَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: قرون أخر ﴿أَضَاعُوا الصَّلاَةَ﴾ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع، لأنها عماد الدين وقوامه، خير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون ﴿غَيّاً﴾ أي: خساراً يوم القيامة.

وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ههنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها: تركها بالكلية، قاله محمد بن كعب القرظي وابن زيد بن أسلم والسدي، واختاره ابن جرير، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة، كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي، إلى تكفير تارك الصلاة، للحديث: «بين العبدِ وبين الشِّرك، تركُ الصلاة». والحديث الآخر: «العَهْدُ الذي بيننا وبينهم الصلاة، فَمَن تركها فقد كفر».

وليس هذا محل بسط هذه المسألة.

وروى الأوزاعي عن القاسم بن مخيمرة في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ﴾ قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كفراً. وروى وكيع عن ابن مسعود: أنه قيل له: إنَّ الله يُكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ﴾، و﴿عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، و﴿عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فقال:

ابن مسعود على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك! قال: ذلك الكفر، وقال مسروق: لا يُحافظ أحد على الصلوات الخمس، فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهن: إضاعتهن عن وقتهن، وعن إبراهيم بن زيد: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت، وقال مجاهد ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ قال: عند قيام الساعة، وذهاب صالحي أمة محمدﷺ، يَنزُو بعضُهم على بعض في الأزقة. وروى جابر الجعفي عن مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح: أنهم من هذه الأمة يعنون في آخر الزمان.

وروى ابن أبي حاتم: عن الوليد بن قيس عن أبي سعيد الخدري يقول: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «يكون خَلْفٌ بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً، ثم يكون خَلْفٌ يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر». وقال بشير: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمن به، والمنافق كافر به، والفاجر يتأكّل به. وهكذا رواه أحمد.

وقال الحسن البصري: عطّلوا المساجد، ولزموا الضَّيعات. وروى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر قال: قال رسول اللهﷺ: «إنِّي أَخافُ على أُمَّتي اثنين: القرآنَ واللبن، أما اللبنُ فيتبعون الرِّيفَ، ويتبعون الشهوات، ويتركون الصلوات، وأما القرآنَ فَيَتعلَّمُهُ المنافقونَ فيجادلون به المؤمنين».

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي: خُسراناً، وقال قتادة: شراً. وروى سفيان الثوري وشعبة ومحمد بن إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال: وادٍ في جهنم، بعيد القعر، خبيث الطعم[1].

وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإنَّ الله يقبل توبته، ويُحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم. ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ وذلك لأن «التوبة تَجُبُّ ما قبلها» وفي الحديث الآخر: «التَّائِبُ مِن الذنب كمن لا ذنب له» ولهذا لا يُنقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً، ولا قُوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها، لأن ذلك ذَهَب هَدر، أو ترك نسياً وذهب مجاناً، من كرم الكريم، وحلم الحليم. وهذا الاستثناء ههنا، كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣)﴾

٦١ - يقول تعالى الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم، هي جنات عدن، أي: إقامة، التي وعد

(١) رواية أبو عبيدة عن أبية فيها انقطاع، لكن له شاهد عن ابن عمرو، رواه ابن جرير عند تفسير هذه الآية.

الرحمن عباده بظهر الغيب، أي: هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه، ذلك لشدة إيقانهم، وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً﴾ تأكيد لحصول ذلك، وثبوته واستقراره، فإنَّ الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿وَكَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ أي: كائناً لا محالة، وقوله ههنا: ﴿مَأْتِيّاً﴾ أي: العباد صائرون إليه وسيأتونه، ومنهم من قال ﴿مَأْتِيّاً﴾: بمعنى آتياً، لأنَّ كل ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت عليَّ خمسون سنة وأتيت علي خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد.

وقوله: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً﴾ أي: هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا، وقوله: ﴿إِلاَّ سَلاَماً﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾. وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ أي: في مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أنَّ هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقاتٍ تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجنة صُوَرهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها ولا يتغوَّطون، آنيتُهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألُوَّة، ورشحُهم المسك، ولكل واحدٍ منهم زوجتان، يرى مُخ ساقها من وراء اللحم من الحُسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجلٍ واحدٍ، يسبحون الله بُكرة وعشياً» أخرجاه في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد: عن محمود بن لبيد الأنصاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداءُ على بارق نهر بباب الجنة، في قُبَّة خضراء، يَخرجُ عليهم رزقهم من الجنة بُكرة وعشياً» تفرد به أحمد.

وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ قال: مقادير الليل والنهار، وروى ابن جرير: عن الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد عن قول الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ قال: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً، ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وبفتح الأبواب. وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ فيها ساعتان: بكرة وعشي، ليس ثَمَّ ليلٌ ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وقال مجاهد: ليس بكرة ولا عشي، ولكن يُؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا. وقال الحسن وقتادة وغيرهما: كانت العرب، الأنعُم فيهم من يتغدَّى ويتعشى، فنزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم، فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾.

وقوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً﴾ أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة، هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ، والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً (٦٤)
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً (٦٥) ﴾

٦٤ – روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «ما يَمنعكَ أن تزُورنا أكثر مما

تزورنا؟» قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية. انفرد بإخراجه البخاري فرواه عند تفسير هذه الآية. ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وعندهما زيادة في آخر الحديث: فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ، وقال العوفي عن ابن عباس: احتبس جبرائيل عن رسول الله ﷺ فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن، فأتاه جبرائيل وقال يا محمد ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية. وقال مجاهد (نحوه) قال: وهذه الآية كالتي في الضحى. وكذلك قال الضحاك بن مزاحم وقتادة والسدي وغير واحد: أنها نزلت في احتباس جبريل.

وقوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ قيل: المراد بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أمر الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أمر الآخرة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ما بين النفختين. هذا قول أبي العالية وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة في رواية عنهما والسدي والربيع بن أنس. وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما يستقبل من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي: ما مضى من الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: ما بين الدنيا والآخرة، يروى نحوه عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن جريج والثوري واختاره ابن جرير أيضاً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ قال مجاهد والسدي: معناه ما نسيك ربك. وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلالٌ، ومَا حرَّمَهُ فهوَ حرامٌ، وما سكتَ عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإنَّ الله لم يكن لينسى شيئاً» ثم تلا هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾.

٦٥- وقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه، والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً. وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغيرهم، وقال عكرمة عن ابن عباس: ليس أحدٌ يُسَمَّى الرحمن غيره تبارك وتعالى، وتقدَّس اسمه.

﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠) ﴾

٦٦- يخبر تعالى عن الإنسان، أنه يتعجَّب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وقال ههنا ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً﴾

٦٧- ﴿أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلَق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

وفي الصحيح: «يقول الله تعالى: كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له أن يُكذِّبني، وآذاني ابنُ آدم ولم يَكُن له أن يُؤذِيَني، أما تكذيبه إياي: فقوله لن يُعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من آخره، وأما أذاه إياي فقوله: إن لي ولداً، وأنا الأحدُ الصَّمَدُ، الذي لم يَلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»(١).

٦٨- وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الربُّ تبارك وتعالى بنفسه الكريمة، أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً، وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ قال العوفي عن ابن عباس: يعني قعوداً، كقوله: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ وقال السدي في قوله جثياً يعني قياماً، وروي عن مرة عن ابن مسعود مثله.

٦٩- وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني: من كل أمة. قاله مجاهد، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾. روى الثوري: عن ابن مسعود قال: يُحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة، أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾. وقال قتادة: ثم لننزعن من أهل كل دين، قادتهم ورؤساءهم في الشر. وكذا قال ابن جريج وغير واحد من السلف، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

٧٠- وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ «ثم» ههنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلمُ بمن يستحق من العباد أن يُصْلي بنار جهنم، ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب، كما قال في الآية المتقدمة ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾

٧١- روى عبد الرزاق: عن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حِجْر امرأته فبكى فبكت امرأته، قال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال: إني ذكرت قول الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا؟ وفي رواية: وكان مريضاً. وعن الحسن البصري قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: هل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قال: فما رُئيَ ضاحكاً حَتَّى لحِقَ بالله. وعن عطاء قال: قال أبو راشد الحروري ـ وهو نافع بن الأزرق ـ ﴿لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ فقال ابن عباس: ويلك أمجنون أنت؟ أين قوله ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ والله، إنْ كان دعاء مَنْ مَضَى: اللهمَّ أخرجْني مِنَ النَّار سَالِماً، وأدْخِلْني الجَنَّةَ غَانِماً.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قال رسول الله ﷺ: «يَرِدُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، ثم يصدرون عنها بأعْمالِهِمْ» ورواه الترمذي.

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٨/ ٧٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضع إبهامي قدميه، يمر فيتكفأ به الصراط، والصراط دَحْض مَزَلَّة، عليه حَسَكٌ كَحَسَك القتاد، حافتاه ملائكة معهم كَلاَلِيب من النار يختطفون بها الناس. وذكر تمام الحديث، رواه ابن أبي حاتم.

وروى ابن جرير: عن عبد الله قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حَدّ السَّيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البزائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهمّ سَلِّم سلِّم. ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما من رواية أنس وأبي سعيد وأبي هريرة وجابر، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

وروى الإمام أحمد: عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي لأرجو أنْ لا يدخل النارَ ـ إن شاء الله ـ أحدٌ شَهِدَ بَدْراً والحديبية» قالت فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قالت: فسمعته يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثةٌ من الولد، تمسُّه النَّار إلاَّ تَحِلَّةَ القَسَم».

وروى عبد الرزاق: عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ ماتَ له ثلاثةٌ، لم تمسَّه النارُ إلاَّ تحِلَّة القسم» يعني الورود، ورواه أبو داود الطيالسي (وزاد) قال الزهري: كأنَّه يريد هذه الآية ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً﴾.

وروى ابن جرير عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ يَعُودُ رجلاً من أصحابه وُعِكَ وأنا معه، ثم قال: «إنَّ الله تعالى يقول: هي ناري أُسَلِّطُهَا على عبدِي المؤمن، لتكون حظه من النار في الآخرة».

وروي عن مجاهد قال: الحمى حظُّ كُلِّ مؤمن من النار، ثم قرأ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾.

وروى عبد الرزاق: عن قتادة قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قال: هو الممر عليها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها وورود المشركين أن يدخلوها. وقال مجاهد ﴿حَتْماً﴾ قال: قضاء. وكذا قال ابن جريج.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: إذا مرَّ الخلائق كلهم على النار، وسَقَطَ فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم، نَجَّى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجوازهم على الصراط وسرعتهم، بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خَلقاً كثيراً قد أكلتهم النار، إلاَّ دَارَات وجوههم، وهي مواضع السجود، وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله، وإنْ لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ

نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤) ﴾

٧٣- يخبر تعالى عن الكفار حين تُتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة، بينة الحجة، واضحة البرهان، أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم **﴿خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾** أي: أحسن منازل، وأرفع دوراً، **﴿وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾**، وهو مجتمع الرجال للحديث، أي: ناديهم أعمر، وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم، ونحوها من الدور على الحق، كما قال تعالى مخبراً عنهم **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾** وقال قوم نوح **﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾** وقال تعالى: **﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾**.

٧٤- ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾** أي: وكم من أمةٍ وقرن من المكذبين، قد أهلكناهم بكفرهم **﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴾** أي: كانوا أحسن من هؤلاء، أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً. وعن أبي ظبيان عن ابن عباس **﴿خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾** قال: المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرئي: المنظر. وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمدﷺ في عيشهم خشونة، وفيهم قَشافة، فعرَّض أهل الشرك ما تسمعون **﴿أَيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾**. وكذا قال مجاهد والضحاك، ومنهم من قال في الأثاث: هو المال، ومنهم من قال: الثياب، ومنهم من قال: المتاع، والرئي: المنظر، كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، وقال الحسن البصري: يعني الصُّور. وكذا قال مالك **﴿أَثَاثاً وَرِئْياً﴾** أكثر أموالاً، وأحسن صوراً. والكل متقارب صحيح.

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) ﴾

٧٥- يقول تعالى، قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم، المدَّعين أنهم على الحق، وأنكم على الباطل **﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾** أي: منا ومنكم **﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً﴾** أي: فأمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقى ربه، وينقضي أجله، إمَّا **﴿العَذَابَ﴾** يصيبه **﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾** بغتة تأتيه **﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾** حينئذ **﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً﴾** في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام، وحسن الندى. قاله مجاهد في قوله **﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً﴾**: فليدعه الله في طغيانه، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدىً فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود، في قوله **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** أي: ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم، إن كنتم تدَّعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك.

وقد تقدم تقرير ذلك في سورة البقرة مبسوطاً، ولله الحمد، وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى في سورة آل عمران، حين صمموا على الكفر، واستمروا على الطغيان، والغلو في دعواهم أن عيسى ولد الله، ، وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال تعالى بعد ذلك ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ فنكلوا أيضاً عن ذلك.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦)﴾

٧٦- لما ذكر تعالى إمداد مَنْ هو في الضلالة فيما هو فيه، وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ الآيتين. وقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قد تقدم تفسيرها والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة الكهف. ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاءًا ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: عاقبة ومرداً على صاحبها.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)﴾

روى الإمام أحمد: عن مسروق عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دَين، فأتيته أتقاضاه منه، فقال: لا والله لا أقضيك، حتى تكفر بمحمد! فقلت: لا والله لا أكفر بمحمدﷺ، حتى تموت ثم تبعث، قال: فإني إذا مت ثم بعثت، جئتني ولي ثَمَّ مالٌ وولد، فأعطيتك. فأنزل الله ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ - إلى قوله - ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أخرجه صاحبا الصحيح وغيرهما، وفي لفظ البخاري: كنت قينا بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه فذكر الحديث، وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: موثقاً. وهكذا قال مجاهد وقتادة وغيرهم إنها نزلت في العاص بن وائل.

وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قرأ بعضهم بفتح الواو من «ولداً» وقرأ آخرون بضمها.

وقيل: إنَّ «الوُلْد» بالضم جمع، والولد بالفتح مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم.

٧٨- وقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ إنكار على هذا القائل ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يعني: يوم القيامة، أي: أعلم ماله في الآخرة، حتى تألَّى وحَلَف على ذلك ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخاري أنه: الموثق. وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله فيرجو بها. وقال محمد بن كعب القرظي ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

٧٩- وقوله: ﴿كَلَّا﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: من طلبه ذلك، وحكمه لنفسه بما يتمناه، وكفره بالله العظيم ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: في الدار الآخرة على قوله ذلك، وكفره بالله في الدنيا.

٨٠- ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: من مال وولد نسلبه منه، عكس ما قال إنه يُؤتى في الدار الآخرة مالاً وولداً زيادة على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾

أي: من المال والولد. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: نرثه، وقال مجاهد ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ ماله وولده، وذلك الذي قال العاص بن وائل. وروى عبد الرزاق عن قتادة ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾ وفي حرف ابن مسعود ﴿وَنَرِثُهُ مَا عِندَهُ﴾ وقال قتادة ﴿وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾: لا مال له ولا ولد. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال ما جمع من الدنيا، وما عمل فيها، قال ﴿وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾ قال: فرداً من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) ﴾

٨١- يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم، أنهم اتخذوا من دونه آلهة، لتكون تلك الآلهة ﴿عِزّاً﴾ يعتزون بها ويستنصرونها.

٨٢- ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طمعوا، قال: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ أي: بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ وقرأ أبو نهيك ﴿كل سيكفرون بعبادتهم﴾. وقال السدي ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: بعبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ أي: بخلاف ما رجوا منهم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ قال: أعواناً. قال مجاهد: عوناً عليهم، تخاصمهم وتكذبهم، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ قال: قرناء. وقال قتادة: قرناء في النار، يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض، وقال السدي ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ قال: الخصماء الأشداء في الخصومة. وقال الضحاك: أعداء، وقال ابن زيد: الضد البلاء، وقال عكرمة: الضد الحسرة.

٨٣- وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: تغويهم إغواء، وقال العوفي عنه: تحرضهم على محمد وأصحابه، وقال مجاهد: تُشْلِيهمْ إشلاء، وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله، وقال سفيان الثوري: تغريهم إغراء، وتستعجلهم استعجالاً، وقال السدي: تطغيهم طغياناً، وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾.

٨٤- وقوله: ﴿فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ أي: نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، وقال: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الآية، ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾ ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾ ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وقال السدي: إنما نعدُّ لهم عدَّ السنين والشهور والأيام والساعات، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ قال: نعد أنفاسهم في الدنيا.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧)﴾

٨٥- يخبر تعالى عن أوليائه المتقين، الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله، وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما زجروهم، أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه، والوفد: هم القادمون ركباناً، ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه.

٨٦- وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار ﴿وِرْدًا﴾ عطاشاً. قاله عطاء وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد، وههنا يقال ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؟

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ قال: ركباناً. وقال ابن جريج: على النجائب، وقال الثوري: على الإبل النوق، وقال قتادة ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ قال: إلى الجنة.

وقوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أي: عطاشاً.

٨٧- ﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أي: ليس لهم من يشفع لهم، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۞ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾. وقوله: ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو: شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: «العهد» شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله عز وجل.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾

٨٨، ٨٩- لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى ﷺ، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً، فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ أي: في قولكم هذا ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك: أي: عظيماً. ويقال ﴿إِدًّا﴾ بكسر الهمزة وفتحها ومع مدها أيضاً، ثلاث لغات أشهرها الأولى.

٩٠، ٩١- وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أي: يكاد يكون ذلك، عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له ولا نظير له، ولا ولد ولا صاحبة له ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد.

في كلِّ شيءٍ له آيةٌ   تدلُّ على أنَّه الواحد

• وروى ابن جرير: عن علي عن ابن عباس في قوله: ﴿تَكَادُ السَّموَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً ❁ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً﴾ قال: إنَّ الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لَقِّنُوا مَوتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته، وجبتْ له الجنة» فقالوا: يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟ قال: «تلك أَوْجَبُ وَأَوْجبُ» ثم قال: «والذي نفسي بيده، لو جيءَ بالسموات والأرضين، وما فيهن وما بينهن وما تحتهن، فوُضعن في كِفَّة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى، لرجحتْ بهنَّ» هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة، والله أعلم.

وقال الضحاك ﴿تَكَادُ السَّموَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: يتشققن فوقاً من عظمة الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَتَنشَقُّ الأَرْضُ﴾ أي: غضباً له عز وجل ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾ قال ابن عباس: هدماً. وقال سعيد بن جبير ﴿هَدّاً﴾: ينكسر بعضها على بعض متتابعات. وروى الإمام أحمد: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحدَ أصبَرُ عَلَى أذًى سَمِعَهُ من الله، أن يُشرَكَ به ويُجعلَ له ولد، وهو يُعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم» أخرجاه في الصحيحين. وفي لفظ: «أنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم».

٩٢- وقوله: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحمنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ أي: لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته، لأنه لا كفء له من خلقه، لأن جميع الخلائق عبيدٌ له.

٩٣، ٩٤- ولهذا قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِ الرَّحْمَنِ عَبْداً ❁ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ أي: قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنثاهم، وصغيرهم وكبيرهم.

٩٥- ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ أي: لا ناصر له ولا مجير، إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾.

٩٦- يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ وهي: الأعمال التي ترضي الله عز وجل، لمتابعتها الشريعة المحمدية، يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة، وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القَبول في الأرض، وإنَّ الله إذا أبغضَ عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فابغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله يُبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض» ورواه البخاري ومسلم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: حبًّا. وقال مجاهد عنه: محبة في الناس في الدنيا. وقال سعيد بن جبير عنه: يحبهم ويحبّبهم، يعني إلى خَلقه المؤمنين. كما قال مجاهد أيضاً والضحاك وغيرهم، وقال العوفي عن ابن عباس أيضاً: الود من المسلمين في الدنيا، والرزق الحسن، واللسان الصادق، وقال قتادة: أي والله في قلوب أهل الإيمان، وذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم. وقال قتادة: وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ما من عبد يعمل خيراً أو شراً، إلا كساه الله عز وجل رداء عمله.

وقد روى ابن جرير أثراً، أن هذه الآية نزلت في هجرة عبد الرحمن بن عوف، وهو خطأ! فإن هذه السورة بكمالها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة ولم يصح سند ذلك، والله أعلم.

٩٧- وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ يعني: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: يا محمد، وهو اللسان العربي، المبين الفصيح الكامل ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: المستجيبين لله المصدقين لرسوله ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي: عوجاً عن الحق، مائلين إلى الباطل. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: قوماً لُدّاً لا يستقيمون، وقال الضحاك: الألدُّ الخصم، وقال القرظي: الألدُّ الكذّاب، وقال الحسن البصري ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: صماً، وقال غيره صم آذان القلوب، وقال قتادة ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: يعني: قريشاً، وقال ابن زيد: الألد الظلوم، وقرأ قوله تعالى ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾.

٩٨- وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: هل ترى منهم أحداً، أو تسمع لهم ركزاً؟ قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد يعني: صوتاً، وقال الحسن وقتادة: هل ترى عيناً، أو تسمع صوتاً، و«الركز» في أصل اللغة هو: الصوت الخفي.

آخر تفسير سورة مريم

****

سورة طه - مكية
ترتيبها ٢٠ آياتها ١٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨) ﴾

١ - قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «طه» يا رجل. وهكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبي مالك وعطية العوفي والحسن وقتادة والضحاك والسدي وابن أبزى، أنهم قالوا: يا طه بمعنى يا رجل، وفي رواية عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري: أنها كلمة بالنبطية، معناها: يا رجل، وقال أبو صالح: هي معربة.

٢ - وقوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ قال جويبر عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى ﴿طه ۝ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾.

فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين: عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيراً يُفقِّههُ في الدِّين». وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾: هي كقوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة.

وقال قتادة: لا والله ما جعله شقاء، لكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة.

٣ - ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أن الله أنزل كتابه، وبعث رسوله رحمةً، رحم بها عباده، ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذِكرٌ أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

٤ - وقوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد، هو تنزيل من ربك رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العُلى في ارتفاعها ولطافتها، وقد جاء في الحديث الذي صححه الترمذي وغيره: «أن سُمْك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبُعد ما بينها والتي تليها مسيرة خمسمائة عام».

وقد أورد ابن أبي حاتم ههنا حديث الأوعال من رواية العباس عم رسول الله ﷺ رضي الله عنه(١).

٥ - وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن

---

(١) الحديث في سنده ضعف، رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة. انظر تعليقنا عليه في كتاب «العرش» لابن أبي شيبة (٩، ١٠).

إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف: إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل.

٦- وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أي: الجميع ملكه، وفي قبضته وتحت تصرفه، ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه، وإلهه لا إله سواه ولا رب غيره.

وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ قال محمد بن كعب: أي: ما تحت الأرض السابعة.

٧- وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي: أنزل هذا القرآن، الذي خلق الأرض والسموات العلى، الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر ما أسره ابن آدم في نفسه ﴿وَأَخْفَى﴾ ما أخفى على ابن آدم، مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علمٌ واحدٌ، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

وقال الضحاك ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر مَا تُحدِّث به نفسك، وأخفى ما لم تحدث به نفسك بعد. وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم، ولا تعلم ما تسر غداً، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غداً. وقال مجاهد ﴿وَأَخْفَى﴾ يعني: الوسوسة. وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير ﴿وَأَخْفَى﴾ أي: ما هو عامله مما لم يُحدِّث به نفسه.

٨- وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: الذي أنزل عليك القرآن، هو الله الذي لا إله إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى، في أواخر سورة الأعراف، ولله الحمد والمنة.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾

٩- من ههنا شرَعَ تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل، الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله، قيل: قاصداً بلاد مصر، بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليوري ناراً، كما جرت له العادة به فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرر ولا شيء.

١٠- فبينما هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور ناراً، أي: ظهرت له نارٌ من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: شهاب من نار، وفي الآية الأخرى ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ وهي: الجمر الذي معه لهب ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ دلَّ على وجود البرد. وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دلَّ على وجود الظلام. وقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: من يهديني الطريق. دلَّ على أنه قد تاه عن الطريق. كما روى الثوري: عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قال: من يهديني

إلى الطريق، وكانوا شاتين، وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إنْ لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق، آتيتكم بنار توقدون بها.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ⑪ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ⑫ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ⑬ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ⑭ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ⑮ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ⑯﴾

١١ - يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار واقترب منها ﴿نُودِيَ يَا مُوسَىٰ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ وقال ههنا: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أي: الذي يكلمك ويخاطبك.

١٢ - ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال علي بن أبي طالب وأبو ذر وأبو أيوب وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكي، وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبيعة، وقال سعيد بن جبير: كما يُؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة، وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل، وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿طُوًى﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو اسم للوادي، وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان، وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه، وقيل: لأنه قُدِّس مرتين، وطوى له البركة وكررت، والأول أصح، كقوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

١٣ - وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ أي: على جميع الناس من الموجودين في زمانه، وقد قيل: إن الله تعالى قال: يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا، قال: لأني لم يتواضع إليَّ أحد تواضعك، وقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أي: استمع الآن ما أقول لك، وأوحيه إليك.

١٤ - ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ هذا أول واجب على المكلفين، أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أي: وحِّدْني وقم بعبادتي من غير شريك ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قيل: معناه صلِّ لتذكرني. وقيل: معناه: وأقم الصلاة عند ذكرك لي. ويشهد لهذا الثاني: ما روى الإمام أحمد: عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رَقَدَ أحدُكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾».

وفي الصحيحين: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نام عن صلاةٍ أو نسيها، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك».

١٥ - وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أي: قائمة لا محالة، وكائنة لا بد منها. وقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها ﴿أكادُ أخفيها من نفسي﴾ يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: من نفسه. وكذا قال مجاهد وأبو صالح ويحيى بن رافع. وقال علي بن

أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يقول: لا أطلع عليها أحداً غيري. وقال السدي: ليس أحدٌ من أهل السموات والأرض، إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة، وهي في قراءة ابن مسعود ﴿إنّي أكادُ أُخفيها من نفسي﴾ يقول: كتمتها عن الخلائق، حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت، وقال قتادة: أكاد أخفيها وهي في بعض القراءات ﴿أخفيها من نفسي﴾ ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين، ومن الأنبياء والمرسلين.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ أي: أقيمها لا محالة، لأجزي كل عاملٍ بعمله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ ﴿وَإِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

١٦ - وقوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ الآية، المراد بهذا الخطاب: آحاد المكلفين، أي: لا تتبعوا سبيل مَن كذَّب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فَتَرْدَى﴾ أي: تهلك وتعطب، قال الله تعالى ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) ﴾

١٧ - هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر، دلَّ على أنَّه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ استفهام تقرير.

١٨ - ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ أي: أهز بها الشجرة، ليتساقط ورقها لترعاه غنمي، قال عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك: «الهش» أن يضع الرجل المحجن في الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخبط.

وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً.

وقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ أي: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت، فقيل: كانت تضيء له بالليل! وتحرس له الغنم إذا نام! ويغرسها فتصير شجرة تظله! وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه الصلاة والسلام صيرورتها ثعباناً، فما كان يفر منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية، وكذا قول بعضهم إنها كانت لآدم عليه الصلاة والسلام، وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة، وروي عن ابن عباس أنه قال كان اسمها ماشا، والله أعلم بالصواب.

١٩ - وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى، ألقها.

٢٠ - ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ أي: صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك حركة

سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جانٌّ، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة ﴿تَسْعَى﴾ أي: تمشي وتضطرب. وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ قال: فألقاها على وجه الأرض، ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون، يدب يلتمس كأنه يبتغي شيئاً يريد أخذه، . . . ثم قبض فإذا هي عصاه التي عهدها، وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين.

٢١- ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أي: إلى حالها التي تعرف قبل ذلك.

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾

٢٢- وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه، كما صرح به في الآية الأخرى، وههنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ وقال في مكان آخر ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وقال مجاهد ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾: كفه تحت عضده، وذلك أن موسى عليه السلام، كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر.

وقوله ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: من غير برص ولا أذى ومن غير شين. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم،، وقال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل، ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾.

٢٤- وقوله: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خرجت فاراً منه وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومُره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى.

٢٥، ٢٦- ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره، فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلها غيره، هذا وقد مكث موسى في داره مدةً وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً، يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أي: إنْ لم تكن أنتَ عوني ونصيري، وعضدي وظهيري، وإلا فلا طاقة لي بذلك.

٢٧، ٢٨- ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ وذلك لما كان أصابه من اللثغ حين عرض عليه

التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتي بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، .ل بحيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون، أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: يفصح بالكلام. وقال الحسن البصري ﴿احْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ قال: حلّ عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أُعطِي، وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يُعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً، ويتكلم عنه بكثير مما لا يُفصح به لسانه، فآتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه.

٢٩- وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي ۝ هَارُونَ أَخِي﴾ وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه، ووهو مساعدة أخيه هارون له. روي عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: نبئ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى عليهما السلام. وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن عائشة: أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: لا ندري. قال: أنا والله أدري؟ قالت: فقلت في نفسي: في حلفه لا يستثنى، إنَّه ليعلم أيُّ أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه. قال موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله. قلت: ومن هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى عليه السلام ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾.

٣١- وقوله: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ قال مجاهد: ظهري.

٣٢- ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أي: في مشاورتي.

٣٣، ٣٤- ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

٣٥- وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾ أي: في اصطفائك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، ، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾

٣٦- هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكير له بنعمه السالفة عليه، فيما كان من أمر أمه حين كانت تُرضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه، لأنه كان قد وُلد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان، فاتخذت له تابوتاً فكانت ترضعه، ثم تضعه فيه وترسله في البحر وهو النيل، وتمسكه إلى منزلها بحبل، فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها وذهب به البحر[1]، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ فذهب به البحر إلى

(١) وكذا قال! مع أن ظاهر الآيات أن إرساله إلى البحر كان بوحي الله تعالى لها، إذ يقول ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۝ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .....﴾.

دار فرعون ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ أي: قدراً مقدوراً من الله، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى، فحكم الله ـ وله السلطان العظيم والقدرة التامة ـ أن لا يُربىَ إلا على فراش فرعون، ويُغذَّى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له، ولهذا قال تعالى: ﴿يأخذه عدوٌ لي وعدوٌ له وألقيت عليك محبة مني﴾ أي: عند عدوك جعلته يحبك، قال سلمة بن كهيل ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ قال: حببتك إلى عبادي ﴿ولتصنع على عيني﴾ قال أبو عمران الجوني: تربى بعين الله. وقال قتادة: تُغذَّى على عيني. وقال معمر بن المثنى: بحيث أرى، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: أجعله في بيت الملك، ينعم ويترف، وغذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة.

٤٠- وقوله: ﴿إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع، فأباها، قال الله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ فجاءت أخته وقالت ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾ تعني: هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة، فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجزل.

وقال تعالى ههنا: ﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾ أي: عليك ﴿وقتلت نفساً﴾ يعني: القبطي ﴿فنجيناك من الغم﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً، حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾.

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾

٤٠- يقول تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: إنه لبث مقيماً في أهل «مدين» فاراً من فرعون وملئه، يرعى على صهره، حتى انتهت المدة، وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء، ولهذا قال: ﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾ قال مجاهد: أي: على موعد، وروى عبد الرزاق عن قتادة قال: على قدر الرسالة والنبوة.

٤١- وقوله: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ أي: اصطفيتك واجتبيتك رسولاً لنفسي، أي: كما أريد وأشاء، وروى البخاري عند تفسيرها: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس، وأخرجتهم من الجنة؟ فقال: آدم وأنت الذي اصطفاك الله برسالته، واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فوجدته مكتوباً عليَّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم فحج آدم وموسى» أخرجاه.

٤٢- وقوله: ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي﴾ أي: بحججي وبراهيني ومعجزاتي ﴿ولا تنيا في ذكري﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تبطئا، وقال مجاهد عن ابن عباس: لا تضعفا. والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له.

٤٣- وقوله: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أي: تمرّد وعتا وتجبر على الله وعصاه.

٤٤- ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، موسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لايخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾:

يَا مَنْ يتحبَّب إلى مَن يُعادِيه فكيف بمن يتولاَّه ويُناديه؟

وقال وهب بن منبه: قولا له إني إلى العفو والمغفرة، أقرب مني إلى الغضب والعقوبة. وعن عكرمة قال: لا إله إلا الله. وقال الحسن البصري ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: أَعْذِرا إليه، قولا له: إنَّ لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً. ورُوي عن علي قال: كنِّه. وكذا روي عن سفيان الثوري: كنّه بأبي مرة.

والحاصل من أقوالهم: أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق، لين سهل رفيق، ليكون أوقع في النفوس، وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

وقوله: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أي: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة ﴿أَوْ يَخْشَى﴾ أي: يوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ يَخْشَى﴾ فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة، وقال الحسن البصري ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون: أهلِكه قبل أن أعذر إليه.

وقوله عز وجل:

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨)﴾

٤٥- يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام، أنهما قالا مستجيرَين بالله تعالى، شاكيَين إليه ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾ يعنيان: أن يبدر إليهما بعقوبة، أو يعتدى عليهما فيعاقبهما، وهما لا يستحقان منه ذلك. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿أَن يَفْرُطَ﴾ يعجل. وقال مجاهد: يبسط علينا.

وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿أَوْ أَن يَطْغَى﴾: يعتدي.

٤٦- ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليَّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني، وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي.

٤٧- ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ قد تقدم في حديث الفتون: عن ابن عباس أنه قال: مكثا على بابه حيناً لا يؤذن لهما، حتى أذن لهما بعد حجاب شديد.

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: بدلالة ومعجزة من ربك ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً، كان أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني

أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين».

وكذلك لما كتب مسيلمة إلى رسول الله ﷺ كتاباً صورته: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك، أما بعد فإني قد أشركتك في الأمر، فلك المدر ولي الوبر، ولكن قريشاً قوم يعتدون. فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنَّ الأرضَ لله يُورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾.

٤٨ - ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم، أن العذاب متمحض لمن كذَّب بآيات الله، وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب بقلبه، وتولى بفعله.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢)﴾

٤٩ - يقول تعالى مخبراً عن فرعون، أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق، إله كل شيء وربه ومليكه، قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ أي: الذي بعثك وأرسلك من هو؟ فإني لا أعرفه، وما علمتُ لكم من إلهٍ غيري.

٥٠ - ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: خلق لكل شيء زوجه. وقال الضحاك عن ابن عباس: جعل الإنسان إنساناً، والحمار حماراً، والشاة شاة. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: سَوَّى خَلْق كل دابة. وقال سعيد بن جبير: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهيأ كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح. وقال بعض المفسرين: أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي: قدَّر قدراً وهدى الخلائق إليه، أي: كتب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذي خلق الخلق، وقدَّر القدر، وجبل الخليقة على ما أراد.

٥١ - ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ أصح الأقوال في معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله، هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره؟

٥٢ - فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه، فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ، وكتاب الأعمال ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى

شيئاً تبارك وتعالى وتقدّس وتنزّه، فإنّ علم المخلوق يعتريه نقصانين: أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر: نسيانه بعد علمه فنزه نفسه عن ذلك.

﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ منَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا به أَزْوَاجًا مّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إنَّ في ذَلكَ لآيَاتٍ لأُوْلي النُّهَىٰ (٥٤) منْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفيهَا نُعيدُكُمْ وَمنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦)﴾

٥٣- هذا من تمام كلام موسى، فيما وصف به ربه عز وجل، حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً﴾ وفي قراءة بعضهم ﴿مِهَاداً﴾ أي: قراراً تستقرون عليها، وتقومون وتنامون عليها، وتسافرون على ظهرها ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أي: من أنواع النباتات، من زروع وثمار، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع.

٥٤- ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم، لأقواتها خضراً ويبساً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: لدلالات وحجج وبراهين ﴿لِأُولِي النُّهَى﴾ أي: لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه.

٥٥- ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي: من الأرض مبدؤكم، فإنّ أباكم آدم مخلوق من تراب، من أديم الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وهذه الآية، كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

٥٦- وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ يعني: فرعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره، فكذَّب بها وأباها، كفراً وعناداً وبغياً، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ الآية.

﴿قَالَ أَجئْتَنَا لتُخْرِجَنَا منْ أَرْضنَا بسحْركَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتيَنَّكَ بسحْرٍ مّثْله فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعدًا لاَّ نُخْلفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعدُكُمْ يَوْمُ الزّينَة وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾

٥٧- يقول تعالى مخبراً عن فرعون: أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى ـ وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء ـ فقال: هذا سحرٌ جئت به لتسحرنا، وتستولي به على الناس فيتبعونك، وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإنّ عندنا سِحْراً مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه.

٥٨- ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً﴾ أي: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من

السحر في مكان معين، ووقت معين.

٥٩ - فعند ذلك قال لهم موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وهو يوم عيدهم ونيروزهم، وتفرغهم من أعمالهم، واجتماع جميعهم، ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية. ولهذا قال: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أي: جميعهم ﴿ضُحًى﴾ أي: ضحوة من النهار، ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم، بينٌ واضحٌ، ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل ليلاً، ولكن نهاراً ضحى. قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء. وقال السدي وقتادة وابن زيد: كان يوم عيدهم. وقال سعيد بن جبير: كان يوم سوقهم. ولا منافاة. قلت: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت في الصحيح. وقال مجاهد وقتادة ﴿مَكَاناً سُوًى﴾ منصفاً. وقال السدي: عدلاً. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مستو بين الناس وما فيه، لا يكون صوب، ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض، مستو حين يرى.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾

٦٠ - يقول تعالى مخبراً عن فرعون، أنه لما تواعد هو وموسى ﷺ، إلى وقت ومكان معلومين، تولى أي: شرَع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقا جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾. ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم، وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطفَّ له أكابر دولته، وقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئاً على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرِّضهم ويحثُّهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، يقولون ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

٦١ - ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي: لا تخيلوا للناس بأعمالكم، إيجاد أشياء لا حقائق لها، وإنها مخلوقة وليست مخلوقة، فتكون قد كذبتم على الله. ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي، وقائل يقول: بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ أي: تناجوا فيما بينهم ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ وهذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ ﴿إن هَذين لَسَاحِران﴾ وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى، بما ليس هذا موضعه. والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه ـ يعنون موسى وهارون ـ

ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم، ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة، ويقاتلان فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ أي: ويستبدا بهذه الطريقة، وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، ، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم، وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، ووتمحضت لهما الرياسة بها دونكم، وقال مجاهد ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ قال: أولو الشرف والعقل والأسنان. وقال أبو صالح: بطريقتكم المثلى أشرافكم وسرواتكم، وقال عكرمة: بخيركم، وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل، وكانوا أكثر القوم عدداً وأموالاً، فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما.

٦٤- وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي: اجتمعوا كلكم صفاً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ أي: منا ومنه، أما نحن فقد وَعَدَنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو: فينال الرياسة العظيمة.

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾

٦٥- يقول تعالى مخبراً عن السحرة، حين توافقوا هم وموسى عليه السلام، أنهم قالوا لموسى ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ أي: أنت أولاً ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾.

٦٦- ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أي: أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، وقال ههنا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ وذلك أنهم أودعوها من الزئبق، ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جماً غفيراً وجمعاً كثيراً، فألقى كل منهم عصا وحبلاً، حتى صار الوادي ملآن حيات، يركب بعضها بعضاً.

٦٧- وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾ أي: خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم، ويغتروا بهم، قبل أن يلقى ما في يمينه.

٦٨- فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة، أن ألق ما في يمينك ـ يعني عصاك ـ فإذا هي تلقف ما صنعوا، وذلك أنها صارت تنيناً عظيماً هائلاً، ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي، حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلقفته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرة، نهاراً ضحوة، فقامت المعجزة، واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ . وروى ابن أبي حاتم: عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أخذتم ـ يعني الساحر ـ فاقتلوه، ثم قرأ ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ قال: لا يؤمن من حيث وجد» وقد روى أصله الترمذي موقوفاً ومرفوعاً[1] .

فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين، أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا، إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله، وقالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون. ولهذا قال ابن عباس وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة. وروى ابن أبي حاتم: عن عكرمة عن ابن عباس: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء. روى ابن أبي حاتم: عن ابن المبارك قال: قال الأوزاعي: لما خرَّ السحرة سجداً، رُفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها. (وروى) عن سعيد بن جبير قوله: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قال: رأوا منازلهم تُبنى لهم وهم في سجودهم. وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزَّة.

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) ﴾

٧١- يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون، وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة، والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم، وغُلب كل الغلب، شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، ، فتهددهم وتوعدهم، وقال: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ أي: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي: وما أمرتكم بذلك وافتتم عليَّ في ذلك، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم، أنه بهتٌ وكذب ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه عليَّ وعلى رعيتي لتظهروه، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ .

ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: لأجعلنكم مُثلة، ولأقتلنكم ولأشهرنكم، قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك، ، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أنتم تقولون إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل.

٧٢- ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسماً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البينات، يعنون: لانختارك على فاطرنا وخالقنا، الذي أنشأنا من العدم، المبتدي خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت

---

(١) والصحيح أنه موقوف على جندب رضي الله عنه، كما قال الترمذي (١٥٠١). وانظر الضعيفة (١٤٤٦).

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما لك تسلط في هذه الدار، وهي دار الزوال، ونحن قد رغبنا في دار القرار.

٧٣- ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ أي: ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر، لتعارض به آية الله تعالى، ومعجزة نبيه. وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق رحمه الله، وقال محمد بن كعب القرظي ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: لنا منك إن أطيع ﴿وَأَبْقَى﴾ أي: منك عذاباً إن عصي، وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضاً. والظاهر أن فرعون لعنه الله صمم على ذلك، وفعله بهم رحمة لهم من الله، ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء.

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾

٧٤- الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وُعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد، فقالوا ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً﴾ أي: يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾ كقوله: ﴿لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ۞ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۞ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾.

وروى الإمام أحمد بن حنبل: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهلُ النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناسٌ تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً، أذن في الشفاعة، جيء بهم ضبائر ضبائر، فبُثُّوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية. وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح.

٧٥- وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: ومن لقي ربه يوم المعاد، مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات. روى الإمام أحمد: عن عبادة بن الصامت: عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس» ورواه الترمذي.

وفي الصحيحين: «إنَّ أهل عليين ليرون من فوقهم، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم، قالوا يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين». وفي السنن: «إن أبابكر وعمر لمنهم وأنعما».

٧٦- وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة، وهي بدل من الدرجات العلى ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين أبداً ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ أي: طهَّر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعَبَدَ الله وحده لا شريك له، واتبع المرسلين فيما جاءوا به من خبر وطلب.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) ﴾

٧٧- يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى ﷺ حين أبى فرعون، أنْ يُرسل معه بني إسرائيل، أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون، وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة، وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل، أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً، وأرسل في المدائن حاشرين، أي: من يجمعون له الجند من بلدانه ورساتيقه، يقول: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۞ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي: عند طلوع الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أي: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۞ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه أن اضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً في الْبَحْرِ يَبَساً فضرب البحر بعصاه، وقال انفلق عليَّ بإذن الله ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي: الجبل العظيم، فأرسل الله الريح على أرض البحر، فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض، فلهذا قال: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً﴾ أي: من فرعون ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ يعني: من البحر أن يغرق قومك.

٧٨- ثم قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ﴾ أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: الذي هو معروف ومشهور، وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ۞ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾. وقال الشاعر:

أنا أبو النجم وشِعْري شعري

أي: الذي يعرف وهومشهور، وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم، فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾.

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) ﴾

٨٠- يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام، ومننه الجسام، حيث أنجاهم من عدوهم فرعون، وأقرَّ أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا

﴿آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وروى البخاري: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه». رواه مسلم أيضاً في صحيحه، ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون، إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك، وفي غضون ذلك، عَبَدَ بنو إسرائيل العجل، كما يقصه الله تعالى قريباً. وأما المن والسلوى: فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها، فالمن: حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى: طائر يسقط عليهم فيأخذون من كلٍّ قدر الحاجة إلى الغد لطفاً من الله، ورحمة بهم وإحساناً إليهم.

٨١- ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمرتكم به ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: أغضب عليكم ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي: فقد شقي.

٨٢- وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: كل من تاب إليَّ تبت عليه، من أي ذنب كان، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل، وقوله تعالى: ﴿تَابَ﴾ أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق، وقوله: ﴿وَآمَنَ﴾ أي: بقلبه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: بجوارحه، وقوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي ثم لم يشكك، وقال سعيد بن جبير ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: استقام على السنة والجماعة، وروى نحوه عن مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف، وقال قتادة ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: لزم الإسلام حتى يموت، وقال سفيان الثوري ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: علم أنَّ لهذا ثواباً، و«ثمَّ» ههنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) ﴾

٨٣، ٨٤- لما سار موسى ﷺ ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشراً، فتمت أربعين ليلة، أي: يصومها ليلاً ونهاراً، فسارع موسى ﷺ مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أي: قادمون ينزلون قريباً من الطور ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾

أي: لتزداد عني رضا.

٨٥- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى، بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عَمِلَه لهم ذلك السامري. وفي الكتب الإسرائيلية أنه كان اسمه: هارون أيضاً، وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

٨٦- وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾ أي: بعد ما أخبره تعالى بذلك، في غاية الغضب والحنق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلُّم التوراة التي فيها شرف لهم، وهم قومٌ قد عبدوا غير الله، ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه، وسخافة عقولهم وأذهانهم، ولهذا قال رجع إليهم غضبان أسفاً، والأسف: شدة الغضب، وقال مجاهد: غضبان أسفاً، أي: جزعاً. وقال قتادة والسدي: أسفاً حزيناً على ما صنع قومه من بعده ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً﴾ أي: أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة، كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أيادي الله ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي: في انتظار ما وعدكم الله، ونسيان ما سلف من نعمه، وما بالعهد من قدم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «أم» ههنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا، أن يحل عليكم غضبٌ مِّن ربكم، فأخلفتم موعدي.

٨٧- ﴿قَالُوا﴾ أي: بنو إسرائيل في جواب ما أنبهم موسى وقرعهم ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: عن قدرتنا واختيارنا، ، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط، الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي: ألقيناها عنا.

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن هارون مرَّ بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضر ولا ينفع، فقال هارون: اللهم أعطه ما سأل على ما في نفسه، ومضى هارون، وقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور فخار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رءوسهم. ثم رواه من وجه آخر وقال: أعمل ما ينفع ولا يضر. ﴿فَقَالُوا﴾ أي: الضلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أي: نسيه ههنا وذهب يتطلبه. وبه قال مجاهد.

٨٩-قال الله تعالى رداً عليهم، وتقريعاً لهم، وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ أي: العجل، أفلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾ أي: في دنياهم ولا أخراهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا والله ما كان خواره، إلا أن يدخل الريح في دبره، فيخرج من فمه، فيُسمع له صوت.

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة: أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم، وعبدوا العجل! فتورعوا عن الحقير، وفعلوا الأمر الكبير! كما جاء في الحديث الصحيح: عن عبد الله بن عمر: أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب ـ يعني هل يصلى فيه أم لا ـ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ ـ يعني الحسين ـ وهم يسألون عن دم البعوضة!

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ⦗٩٠⦘ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ⦗٩١⦘ ﴾

٩٠- يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل، وإخباره إياهم إنما هذا فتنة لكم، وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد، فعال لما يريد ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ أي: فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه.

٩١- ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك، وحاربوه وكادوا أن يقتلوه.

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ⦗٩٢⦘ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ⦗٩٣⦘ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ⦗٩٤⦘ ﴾

٩٢، ٩٣- يخبر تعالى عن موسى عليه السلام، حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلأ عند ذلك غضباً، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه، وقد قدمنا في سورة الأعراف بسط ذلك، وذكرنا هناك حديث: «ليس الخبرُ كالمعاينة» وشرع يلوم أخاه هارون، فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي: فيما كنت قَدَّمت إليك، وهو قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

٩٤- ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ﴾ ترقق له بذكر الأم، مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ههنا، أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ الآية. هذا اعتذار من هارون عند موسى، في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، قال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم، وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أي: وما راعيت ما أمرتك به، حيث استخلفتك فيهم، ، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ⦗٩٥⦘ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ⦗٩٦⦘ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ⦗٩٧⦘ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ⦗٩٨⦘ ﴾

٩٥- يقول موسى عليه السلام للسامري، ما حملك على ما صنعت، وما الذي عَرَضَ لك حتى فعلت ما فعلت؟ روى محمد بن إسحاق: عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل باجرما، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل [1].

وقال قتادة: كان من قرية سامرا.

---

(١) وفي سنده: حكيم بن جبير، ضعيف.

٩٦- ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي: من أثر فرسه، هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم. وقال مجاهد ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قال: من تحت حافر فرس جبريل، قال: و«القبضة» ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع، قال مجاهد: نبذ السامري، أي: ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خوار حفيف الريح فيه، فهو خواره. وروى ابن أبي حاتم: عن عكرمة: أن السامري رأى الرسول فألقى في روعه: إنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها في شيء، فقلت له: كن فكان، فقبض قبضة من أثر الرسول فيبست أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلي آل فرعون، فقال لهم السامري: إنما أصابكم من أجل هذا الحلي فاجمعوه، فجمعوه فأوقدوا عليه فذاب، فرآه السامري فألقى في روعه: أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه، فقلت: كن، كان، فقذف القبضة وقال: كن فكان عجلاً جسداً له خوار، فقال: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾.

ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: ألقيتها مع من ألقى ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: حسَّنته وأعجبها إذ ذاك.

٩٧- ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: كما أخذتَ ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول: لا مساس، أي: لا تماس الناس ولا يمسونك ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّن تُخْلَفَهُ﴾ أي: لا محيد لك عنه، وقال قتادة ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال: عقوبة لهم، وبقاياهم اليوم يقولون: لا مساس. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ﴾ قال الحسن وقتادة وأبو نهيك: لن تغيب عنه.

وقوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ﴾ أي: معبودك ﴿الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ أي: أقمت على عبادته يعني العجل ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس والسدي: سحله بالمبارد وألقاه على النار، وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحماً ودماً، فحرقه بالنار، ثم ألقى رماده في البحر، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن علي رضي الله عنه قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه، عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلى نساء بني إسرائيل، ثم صوره عجلاً، قال: فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها، وهو على شط نهر، فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل، إلا اصفر وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً. وهكذا قال السدي، وقد تقدم في تفسير سورة البقرة.

٩٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ يقول لهم موسى عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، أي: لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإنَّ كل شيء فقير إليه، عبدٌ له. وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ نصب على التمييز أي هو عالم بكل شيء، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ والآيات في هذا كثيرة جدا.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١)﴾

٩٩- يقول تعالى لنبيه محمدﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده، على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية، كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ذكراً، وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، الذي لم يُعطَ نبيٌّ من الأنبياء منذ بعثوا، إلى أن ختموا بمحمدﷺ كتاباً مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق، وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه.

١٠٠، ١٠١- لهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: كذَّب به، وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى من غيره، فإنَّ الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم، ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً﴾ أي: إثماً كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ فكل من بلغه القرآن، فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه، ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أي: لا محيد لهم عنه ولا انفكاك ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ أي: بئس الحمل حملهم.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا (١٠٤)﴾

١٠٢- ثبت في الحديث: أن رسول اللهﷺ سئل عن الصُّور؟ فقال: «قرن ينفخ فيه»(١).

وجاء في الحديث: «كيف أنعم؟ وصاحبُ القرن التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له» فقالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»(٢).

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ قيل: معناه زرق العيون، ، من شدة ما هم فيه من الأهوال.

١٠٣- ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يتسارّون بينهم، أي: يقول بعضهم لبعض ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً﴾ أي: في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً، عشرة أيام أو نحوها.

١٠٤- قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: في حال تناجيهم بينهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: العاقل الكامل فيهم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾ أي: لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد، لأن الدنيا كلها وإنْ تكررت أوقاتها، وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها، كأنها يومٌ واحد، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ إلى قوله ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٩٢) والترمذي (٢٣٠، ٣٢٤٤) من حديث عبد الرحمن بن عمر رضي الله عنهما. وانظر سورة الأنعام (٢/ ١٢٧) من هذا الكتاب.

(٢) حديث صحيح، رواه أحمد (٣/ ٧) والترمذي (٢٤٣١، ٣٢٤٣) من حديث أبي سعيدﷺ. وفي الباب عن ابن عباس وزيد بن أرقم وجابر وأبي هريرة رضي الله عنهم.

﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ۞ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما كان لبثكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قدَّمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) ﴾

١٠٥ - يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً.

١٠٦ - ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: بساطاً واحداً، والقاع هو: المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه، والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم.

١٠٧ - ولهذا قال: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً. كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن البصري والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف.

١٠٨ - ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي، حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ وقال: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾. وقال محمد بن كعب القرظي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، ويطوي السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ وقال قتادة: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لا يميلون عنه، وقال أبو صالح: لا عوج عنه. وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ قال ابن عباس: سكنت. وكذا قال السدي: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني وطء الأقدام. وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وقتادة وابن زيد وغيرهم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ الصوت الخفي. وهو رواية عن عكرمة والضحاك، وقال سعيد بن جبير: الحديث، وسره، ووطء الأقدام. فقد جمع سعيد كلا القولين، وهو محتمل. أما وطء الأقدام: فالمراد سعي الناس إلى المحشر، وهو مشيهم في سكون وخضوع، وأما الكلام الخفي: فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) ﴾

١٠٩ - يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أي: عنده ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾

وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾، وقال: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ وقال: ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾.

وفي الصحيحين من غير وجه: عن رسول الله ﷺ ـ وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله عز وجل ـ أنه قال: «آتي تحت العرش، وأخرُّ لله ساجداً، ويفتح عليَّ بمحامد لا أحصيها الآن، فيَدَعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل تُسمع، واشفع تشفَّع» قال: «فيحدّ لي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود» فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

وفي الحديث أيضاً: «يقول تعالى: أخرجوا من النار، من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، فيخرجوا خلقاً كثيراً، ثم يقول: أخرجوا من النار، من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان، أخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرّة، من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان» الحديث.

١١٠ ـ وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يحيط علماً بالخلائق كلهم ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ كقوله: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾.

١١١ ـ وقوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: خضعت وذلّت، واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، وهو قيِّمٌ على كل شيء يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه، لا قوام له إلا به، وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ أي: يوم القيامة فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء، وفي الصحيح: «إياكم وَالظُّلم، فإنَّ الظلم ظلماتٌ يوم القيامة». والخيبة كل الخيبة، من لقي الله وهو به مشرك، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

١١٢ ـ وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً﴾ لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنّى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يُظلمون ولا يهضمون، أي: لا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة وغير واحد، فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً (١١٤)﴾

١١٣ ـ يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً، بلسان عربي مبين فصيح، لا لبس فيه ولا عيٌّ ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات.

١١٤ ـ ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: تنزه وتقدس الملك الحق، الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق، وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار،

وبعثه الرسل والإعذار إلى خلقه، لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ كقوله تعالى في سورة «لا أقسم بيوم القيامة» ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

وثبت في الصحيح: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية. يعني: أنه ﷺ كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشد الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه، لئلا يشق عليه، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي: أن نجمعه في صدرك، ثم تقرؤه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ وقال في هذه الآية ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك، فاقرأه بعده.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: زدني منك علماً، قال ابن عيينة رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة، حتى توفاه الله عز وجل. ولهذا جاء في الحديث: «إن الله تابع الوحي على رسوله، حتى كان الوحي أكثر ما كان، يوم تُوفي رسول الله ﷺ»(١).

وروى ابن ماجة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهمَّ انفعني بما علمتني، وعلِّمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله على كل حال» وأخرجه الترمذي والبزار.

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾

١١٥ - روى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إنما سُمي الإنسان، لأنه عهد إليه فنسي. وكذا رواه علي بن أبي طلحة عنه، وقال مجاهد والحسن: تَرَك.

١١٦ - وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً، وقد تقدم الكلام على هذه القصة: في سورة البقرة وفي الأعراف وفي الحجر والكهف، وسيأتي في آخر سورة ص، يذكر تعالى فيها خلق آدم، وأمره الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي: امتنع واستكبر.

١١٧ - ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعني: حواء عليهما السلام ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٩/ ٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿فَتَشْقَىٰ﴾ أي: إياك أن تسعى في إخراجك منها، فتتعب وتَعْنى وتشقى في طلب رزقك، فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء، بلا كلفة ولا مشقة.

١١٨ - ﴿إِنَّ لَكَ أَن لَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ إنما قرن بين الجوع والعري، لأن الجوع ذل الباطن، والعُرْي ذل الظاهر.

١١٩ - ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر.

١٢٠ - وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ قد تقدم أنه دلاَّهما بغرور ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد، يعني التي من أكل منها خلد ودام مكثه، وقد جاء في الحديث: ذكر شجرة الخلد: فروى أبو داود الطيالسي: عن أبي الضحى سمعت أبا هريرة يحدث عن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنة شجرة، يسير الراكب في ظلِّها مائةَ عام، ما يقطعها، وهي شجرة الخلد». ورواه الإمام أحمد.

١٢١، ١٢٢ - وقوله: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادة والسدي، وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال: ينزعان ورق التين، فيجعلانه على سوآتهما.

وقوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ روى البخاري: عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: «حاجَّ موسى آدم، فقال له: أنتَ الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله عليَّ، قبل أن يخلقني، أو قدَّر الله عليَّ قبل أن يخلقني، قال رسول الله ﷺ: فحجَّ آدم موسى». وهذا الحديث له طرق في الصحيحين، وغيرهما من المسانيد.

وروى ابن أبي حاتم: عن يزيد بن هرمز قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّ آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى، قال موسى: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك؟ قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقرَّبك نجياً، فبكم وجدتَ الله كتب التوراة قبل أنْ أُخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم: فهل وجدتَ فيها ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾؟ قال: نعم، قال: أفتلومني على أنْ عملت عملاً كَتَبَ اللهُ عليَّ أن أعمله، قبل أن يخلقني بأربعين سنة»، قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى».

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾

١٢٣- يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أي: من الجنة كلكم، وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته، وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

١٢٤- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه، وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعَّم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإنَّ قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: الشقاء. وقال الضحاك: هو العمل السيء، والرزق الخبيث. وكذا قال عكرمة ومالك بن دينار. وروى سفيان بن عيينة: عن أبي سعيد في قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: يُضيَّق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه فيه.

وروى البزار: عن أبي سلمة عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «عذاب القبر» إسناده جيد.

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ قال مجاهد وأبو صالح والسدي: لا حجة له. وقال عكرمة: عُمِّي عليه كل شيء إلا جهنم. ويحتمل أن يكون المراد: أنه يبعث أو يحشر إلى النار، أعمى البصر والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الآية، ولهذا يقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ أي: لما أعرضتَ عن آيات الله، وعاملتها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من نسيك ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه، والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد، والوعيد الشديد في ذلك.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾

١٢٧- يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله، في الدنيا والآخرة ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾، ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ أي: أشد ألماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعِنَين: «إنَّ عَذابَ الدُّنيا، أهون من عذاب الآخرة».

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) ﴾

١٢٨ - يقول تعالى: أفلم يهد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية، ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية، التي خلفوهم فيها يمشون فيها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي: العقول الصحيحة، والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وقال في سورة «الم السجدة» ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ الآية.

١٢٩ - ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لولا الكلمة السابقة من الله، وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى، الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة.

١٣٠ - ولهذا قال لنبيه مسلياً له ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبهم لك ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني: صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: صلاة العصر، كما جاء في الصحيحين: عن جرير ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربَّكُمْ، كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا» ثم قرأ هذه الآية.

وروى الإمام أحمد: عن عمارة بن رؤيبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلجَ النارَ أحدٌ صلَّى قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها» رواه مسلم.

وقوله: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي: من ساعاته فتهجد به. وحمله بعضهم على المغرب والعشاء ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

وفي الصحيح: «يقولُ الله تعالى: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربَّنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خَلقك! فيقول: إني أعطيكم أفضل من ذلك! فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

وفي الحديث الآخر: «يا أهل الجنة، إنَّ لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويُثقِّل موازيننا، ويزحزحنا عن النار، ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهي الزيادة».

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢)﴾

١٣١ - يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون، وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم، فإنما هو زهرةٌ زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادي الشكور، وقال مجاهد: ﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: الأغنياء فقد آتاك خيراً مما آتاهم، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة، أمر عظيم لا يحدُّ ولا

يوسف، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

وفي الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك الـمَشْرَبَة[١]، التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ، وأَهبة معلقة[٢]، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه فقال: «أوفي شكٌّ أنتَ يا ابن الخطاب؟ أولئكَ قومٌ عُجِّلَتْ لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا».

فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد، روى ابن أبي حاتم: عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أخْوَفَ مَا أخافُ عليكم: ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا» قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض».

وقال قتادة والسدي: زهرة الحياة الدنيا يعني زينة الحياة الدنيا. وقال قتادة: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبتليهم.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: استنقذهم من عذاب الله، بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾. وروى ابن أبي حاتم: عن زيد ابن أسلم عن أبيه: أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ[٣] وكان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ أقام يعني: أهله، وقال ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

وقوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يعني: إذا أقمت الصلاة، أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. ولهذا قال: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾. وقال الثوري: لا نسألك رزقاً أي: لا نكلفك الطلب. وروى ابن أبي حاتم: عن هشام عن أبيه: أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا، فرأى من دنياهم طرفاً، فإذا رجع إلى أهله فدخل الدار، قرأ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ثم يقول: الصلاة الصلاة رحمكم الله.

وقد روى الترمذي وابن ماجة: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابنَ آدم، تفرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غِنًى، وأَسدّ فقرك، وإنْ لم تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك».

وروى ابن ماجة عن ابن مسعود: سمعت نبيَّكم ﷺ يقول: «مَن جعلَ الهمومَ هماً واحداً، هم المعاد، كفاه الله هم دنياه، ومَن تشعَّبت به الهموم في أحوال الدنيا، لم يُبالِ الله في أي أوديته هلك». وروى أيضاً: عن زيد بن ثابت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن كانت الدنيا همه، فرّق الله عليه أمره، وجَعَلَ فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومَن كانت الآخرة نيته، جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة».

وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة لمن اتقى الله.

---

(١) أي: الغرفة.

(٢) أي: جلود للفرش ونحوه.

(٣) اسم مملوك لعمر.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «رأيتُ الليلة كأنّا في دار عقبة بن رافع، وأنا أتينا برُطب مِن رُطب ابن طاب، فأوّلت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا، والرفعة، وأنّ ديننا قد طاب».

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥)﴾

١٣٣ - يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هَلاّ يأتينا محمد بآية من ربه، أي: بعلامة دالة على صدقه، في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ يعني: القرآن الذي أنزله عليه، وهو أمي لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين، بما كان منهم في سالف الدهور، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإنّ القرآن مهيمن عليها، يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وفي الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات، ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيها عليه السلام، وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر، كما هو مودع في كتبه ومقرر في مواضعه.

١٣٤ - ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين، قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم، لكانوا قالوا ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا، حتى نؤمن به ونتبعه، كما قال: ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ يبين تعالى أنّ هؤلاء المكذبين، متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إلى قوله ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ الآيتين.

١٣٥ - ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لمن كذبك وخالفك، واستمر على كفره وعناده ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي: منا ومنكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: فانتظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي: الطريق المستقيم ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾.

آخر تفسير سورة طه

****

ترتيبها ٢١ | سورة الأنبياء ـ مكية | آياتها ١١٢

روى البخاري: عن عبد الله قال: بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء، هنَّ من العتاق الأول، وهنَّ من تلادي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

١ - هذا تنبيهٌ من الله عز وجل: على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي: لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها، وروى النسائي: عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: «في الدنيا». وقال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ الآية.

٢ - ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي، الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أي: جديد إنزاله ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كما قال ابن عباس: ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم، وقد حرَّفوه وبدَّلوه، وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله، تقرءونه مَحْضاً لم يشب. رواه البخاري بنحوه.

٣ - وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: قائلين فيما بينهم خفية ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبياً، لأنه بشر مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم، ولهذا قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفتتبعونه، فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر؟

٤ - فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلفوه من الكذب ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثله، إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض.

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوالكم، العليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

٥ - وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم، واختلافهم فيما يصفون به القرآن وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه

أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾. وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ يعنون: كناقة صالح وآيات موسى وعيسى، وقد قال الله ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ الآية.

٦- ولهذا قال تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ما آتينا قرية من القرى، الذين بعث فيهم الرسل، آية على يدي نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾. هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات، على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر، وأقطع وأقهر، مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩)﴾

٧- يقول تعالى رداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: جميع الرسل الذين تقدموا، كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحدٌ من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾ وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم، لأنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: اسألوا أهل العلم من الأمم، كاليهود والنصارى وسائر الطوائف، هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً، أو ملائكة؟ وإنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه، إذ بَعث فيهم رسلاً منهم، يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

٨- وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أي: بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ أي: قد كانوا بشراً من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم، ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون في قولهم ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ وخاصتهم أنهم يوحي إليهم من الله عز وجل، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه، مما يأمر به وينهى عنه.

٩- وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي: الذي وعدهم ربهم ﴿لَيُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ صدقهم الله وعده، وفعل ذلك، ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾ أي: أتباعهم من المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المكذبين بما جاءت به الرسل.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا

بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) ﴾

١٠- يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن، ومحرضاً لهم على معرفة قدره ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال ابن عباس: شرفكم. وقال مجاهد: حديثكم. وقال الحسن: دينكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: هذه النعمة وتتلقونها بالقبول، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

١١- وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ الآية. وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي: أمة أخرى بعدهم.

١٢- ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ أي: تيقنوا أن العذاب واقعٌ بهم لا محالة، كما وعدهم نبيهم ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يفرون هاربين.

١٣- ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ هذا تهكم بهم نزراً، أي: قيل لهم نزراً: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والمعيشة والمساكن الطيبة، قال قتادة: استهزاء بهم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعم.

١٤- ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعترفوا بذنوبهم، حين لا ينفعهم ذلك ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أي: ما زالت تلك المقالة ـ وهي الاعتراف بالظلم ـ هجيراهم حتى حصدناهم حصداً، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) ﴾

١٦- يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي: بالعدل والقسط، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

١٧- وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ يعني: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً، ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً، وقال الحسن وقتادة وغيرهما: اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن، وقال إبراهيم النخعي ﴿لَّاتَّخَذْنَاهُ﴾ من الحور العين، وقال عكرمة والسدي: المراد باللهو ههنا الولد، وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فنزه نفسه

عن اتخاذ الولد مطلقاً، ولا سيما عما يقولون من الإفك والباطل، من اتخاذ عيسى أو العزيز أو الملائكة ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾.

وقوله: ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ قال قتادة والسدي وإبراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم: أي: ما كنا فاعلين. وقال مجاهد: كل شيء في القرآن «إنْ» فهو إنكار.

١٨- وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أي: نبين الحق فيدحض الباطل، ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب مضمحل ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ أي: أيها القائلون: لله ولد ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: تقولون وتفترون.

١٩- ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ﴾ يعني: الملائكة ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أن يَكُونَ عَبْداً للهِ ولاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾. وقوله: ﴿وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يتعبون ولا يملون.

٢٠- ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. وروى ابن أبي حاتم: عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيطَ السَّماء وما تلام أن تئط، وما فيها موضع شبرٍ إلا وعليه ملك ساجد، أو قائم» غريب ولم يخرجوه.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) ﴾

٢١- ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض، أي: لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه.

٢٢- ثم أخبر تعالى: أنه لو كان في الوجود آلهة غيره، لفسدت السموات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ أي: في السموات والأرض ﴿لَفَسَدَتَا﴾ كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وقال ههنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يقولون: إن له ولداً أو شريكاً، سبحانه وتعالى وتقدس، وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

٢٣- وقوله: ﴿لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلمه وحكمته، وعدله ولطفه ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ أي: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ﴾.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾

٢٤- يقول تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: دليلكم على ما تقولون ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ يعني القرآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل، على كل نبي أرسل، ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه.

٢٥- ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ كما قال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فكل نبي بعثه الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾

٢٦- يقول تعالى رداً على من زعم: أنَّ له ـ تعالى وتقدس ـ ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، في منازل عالية، ومقامات سامية، وهم في غاية الطاعة، قولاً وفعلاً.

٢٧- ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيطٌ بهم، فلا يخفى عليهم منه خافية ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

٢٨- وقوله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ وقوله: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ في آيات كثيرة في معنى ذلك.

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ﴾.

٢٩- ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ﴾ أي: من ادعى منهم أنه إله من دون الله، أي: مع الله ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

﴿٣١ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ٣٢ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ٣٣﴾

٣٠- يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم، في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الجاحدون لإلهيته، العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره، أو يشرك به ما سواه، ألم يروا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً﴾ أي: كان الجميع متصلاً، بعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض، في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه فجعل السموات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء، وأنبتت الأرض، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع، الفاعل المختار، القادر على ما يشاء:

ففي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

روى سفيان الثوري: عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً، هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحنفي عن قوله: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ قال: كانت السماء واحدة، ففتق منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة، ففتق منها سبع أرضين، وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن السماء والأرض متماستين، وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه، وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: أصل كل الأحياء.

٣١- وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً أرسى الأرض بها، وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس، أي: تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم قرار عليها، لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء، وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات، ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلا تميد بهم، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً﴾ أي: ثغراً في الجبال، يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض: يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد، وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة، ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

٣٢- وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً﴾ أي: على الأرض، وهي كالقبة عليها، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وقال ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ والبناء: هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الإسلام على خمس» أي: خمسة دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام، كما تعهد العرب ﴿مَحْفُوظاً﴾ أي: عالياً محروساً أن ينال. وقال مجاهد: مرفوعاً. وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ كقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي: لا يتفكرون فيما خلق الله فيها، من الاتساع العظيم، والارتفاع

الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات، في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله، الذي قدرها وسخرها وسيرها.

٣٣- ثم قال منبهاً على بعض آياته ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ هذه لها نور يخصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة. قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾

٣٤- يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ أي: يا محمد ﴿الْخُلْدَ﴾ أي: في الدنيا بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وقد استدل بهذه الآية الكريمة، من ذهب من العلماء إلى أن الخضر ﷺ مات، وليس بحي إلى الآن، لأنه بشرٌ، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ وقوله: ﴿أَفَإِن مِّتَّ﴾ أي: يا محمد ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ أي: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كلٌّ إلى الفناء.

٣٥- ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. وقد روي عن الشافعي رحمه الله أنه أنشد:

تمنَّى رجالٌ أن أموتَ وإنْ أمت فتلكَ سبيلٌ لستُ فيها بأوحد

وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ يقول: نبتليكم، ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾: بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال. وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: فنجازيكم بأعمالكم.

﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾

٣٦- يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: يستهزئون بك وينتقصونك يقولون ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يعنون: أهذا الذي يسبُّ آلهتكم، ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

٣٧- وقوله: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ أي: في الأمور، قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شيء، من آخر النهار من يوم خلق الخلائق، فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه، ولم يبلغ أسفله، قال: يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس. وروى ابن أبي حاتم: عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «خيرُ يوم طلعتْ فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي ـ وقبض أصابعه يُقلِّلها ـ فسأل الله خيراً، إلاَّ أعطاه إياه» قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفتُ تلك الساعة، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهي التي خَلق الله فيها آدم، قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا: أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم، واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ لأنه تعالى يُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: نقمي وحكمي واقتداري على مَن عصاني، فلا تستعجلون.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠) ﴾

٣٨- يخبر تعالى عن المشركين: أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً، وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٣٩- قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة، لما استعجلوا به، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب، من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم، كما قال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ﴾.

٤٠- وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي: تأتيهم النار بغتة، أي: فجأة فتبهتهم، أي: تذعرهم فيستسلمون لها حائرين، لا يدرون ما يصنعون ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: ليس لهم حيلة في ذلك ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾

٤١- يقول تعالى مسلياً لرسوله، عما آذاه به المشركون، من الاستهزاء والتكذيب ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني: من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

٤٢- ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده، في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم، بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بدل الرحمن، يعني غيره.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لا يعترفون بنعمة الله عليهم، وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه.

ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا، ولا كما زعموا، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله، لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: أي: يُجارون. وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخير. وقال غيره ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾: يمنعون.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

٤٤- يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرَّهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم مُتِّعُوا في الحياة الدنيا ونُعِّموا، وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء. ثم قال واعظاً لهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة الرعد، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقال الحسن البصري: يعني بذلك: ظهور الإسلام على الكفر. والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة، والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين.

ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ يعني: بل هم المغلوبون، الأسفلون الأخسرون الأرذلون.

٤٥- وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ أي: إنما أنا مبلغ عن الله، ما أنذرتكم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إليَّ، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

٤٦- وقوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: ولئن مسَّ هؤلاء المكذبين، أدنى شيء من عذاب الله، ليعترفنَّ بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا.

وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: ونضع الموازين العدل ليوم

القيامة، الأكثر على أنه: إنما هو ميزان واحد، وإنما جُمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه، وقوله: ﴿فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ وقال: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ وقال لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتانِ خفيفتانِ على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلاً، كل سجل مدَّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، قال: أفلك عذرٌ أو حسنة؟ قال: فبُهت الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إنَّ لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كِفَّة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشتِ السجلاتُ، وثقلت البطاقة، قال: ولا يثقل شيءٌ بسم الله الرحمن الرحيم، ورواه الترمذي وابن ماجة.

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن عروة عن عائشة: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه، فقال: يا رسول الله، إنَّ لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يُحسبُ ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإنْ كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم، كان كِفافاً لا لك ولا عليك، وإنْ كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتصَّ لهم منك الفضل الذي بقي قبلك» فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «ما له لا يقرأ كتاب الله! ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾» فقال الرجل: يا رسول الله، ، ما أجدُ شيئاً خيراً من فراق هؤلاء ـ يعني عبيده ـ إني أُشهدك أنهم أحرارٌ كلهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠)﴾

٤٨ - قد تقدم التنبيه: على أنَّ الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ قال مجاهد: يعني: الكتاب. وقال أبو صالح: التوراة. وقال قتادة: التوراة، حلالهما وحرامها وما فرق بين الحق والباطل، وقال ابن زيد: يعني النصر.

وجامع القول في ذلك: أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية، ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: تذكيراً لهم وعظة.

٤٩ - ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ كقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون.

٥٠ - ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ يعني: القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي: أفتنكرونه، وهو في غاية الجلاء والظهور؟!

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) ﴾

٥١ - يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه آتاه رشده ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من صغره، ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع، وأنه خرج بعد أيام، فنظر إلى الكوكب والمخلوقات فتبصر فيها، وما قصَّه كثير من المفسرين وغيرهم، فعامتها أحاديث بني إسرائيل، فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه، لموافقته الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً، وما كان من هذا الضرب منها فقد رخَّص كثيرٌ من السلف في روايته، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم، لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة، والذي نسلكه في هذا التفسير: الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة.

والمقصود ههنا: أن الله تعالى أخبر: أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من قبل ذلك.

وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي: وكان أهلاً لذلك.

٥٢ - ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره: الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أي: معتكفون على عبادتها.

٥٣ - ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ لم يكن لهم حجة، سوى صنيع آبائهم الضلال، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم، كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم.

٥٤ - فلمَّا سفَّه أحلامهم، وضلَّل آباءهم، واحتقر آلهتهم.

٥٥ - ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾ يقولون هذا الكلام الصادر عنك، تقوله لاعباً أو محقاً فيه، فإنا لم نسمع به قبلك.

٥٦- ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أي: ربكم الذي لا إله غيره، هو الذي خلق السموات والأرض، وما حوت من المخلوقات، الذي ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾

٥٧- ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه: ليكيدن أصنامهم، أي: ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم، وبعد أن يولوا مدبرين، أي: إلى عيدهم وكان لهم عيد يخرجون إليه، قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد، قال أبوه: يا بني، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض، وقال: إني سقيم، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع، فيقولون: مه؟ فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم، وبقي ضعفاوهم قال: ﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ فسمعه أولئك.

وعن أبي الأحوص عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، مروا عليه فقالوا يا إبراهيم، ألا تخرج معنا؟ قال إني سقيم وقد كان بالأمس قال: ﴿﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ فسمعه ناس منهم.

٥٨- وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: حطاماً، كسرها كلها إلا كبيراً لهم، يعني: إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ذكروا أنه وضع القَدُّوم في يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها.

٥٩- ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: حين رجعوا، وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم، من الإهانة والإذلال، الدال على قدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في صنيعه هذا.

٦٠- ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: قال مَن سمعه يحلف أنه ليكيدنهم ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ أي: شاباً يذكرهم، يقال له: إبراهيم.

٦١-وقوله: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي: على رؤوس الأشهاد في الملإ الأكبر، بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام، أن يُبيِّن في هذا المحفل العظيم، كثرة جهلهم، وقلة عقلهم، في عبادة هذه الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يُطلب منها شيء من ذلك.

٦٢- ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يعني: الذي تركه لم يكسره ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ وإنما أراد بهذا: أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم، لأنه جماد.

وفي الصحيحين: من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ إبراهيم عليه السلام لم

يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ قال: وبينا هو يسير في أرض جبّار من الجبابرة ومعه سارة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك، معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إليّ، فانطلق إلى سارة، فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مسلمٌ غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم، ثم قام يصلي. فلما أن دخلت عليه فرآها، أهوى إليها فتناولها، فأُخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعى الله لي ولا أضرك، فدعت له فأُرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأُخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأخذ فذكر مثل المرتين الأولتين، فقال: ادعي الله فلا أضرك، فدعت فأُرسل، ثم دعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجتْ وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحسَّ إبراهيم بمجيئها، انفتل من صلاته، وقال: مَهْيَم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخدَمَني هاجر» قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة إذا حدَّث بهذا الحديث، قال: تلك أمكم يا بني ماء السماء.

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

٦٤- يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم، حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: في ترككم لها مهملة، لا حافظ عندها.

٦٥- ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ثم أطرقوا في الأرض، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ وقال السدي ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: في الفتنة، وقال ابن زيد: أي: في الرأي. وقول قتادة أظهر في المعنى، لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً، ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون؟ وأنت تعلم أنها لا تنطق.

٦٦- فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي: إذا كانت لا تنطق، وهي لا تنفع ولا تضر، فلم تعبدونها من دون الله؟!

٦٧- ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ! الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر، فأقام عليهم الحجة وألزم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ الآية.

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

٦٨- لما دَحَضت حجتهم وبان عجزهم، وظهر الحق واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم،

فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً، قال السدي: حتى إنْ كانت المرأة تمرض، فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في جَوْبَة من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شررٌ عظيم ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم ﷺ في كفة المنجنيق، بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد، فلما ألقوه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، كما رواه البخاري: عن ابن عباس أنه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحدٌ يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه. وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال: ﴿وَسَلَاماً﴾ لآذى إبراهيم بردها. وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ، وقال الزهري: أمر النبي ﷺ بقتله وسماه فويسقاً. وروى ابن أبي حاتم: عن مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً فقلت: يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ إبراهيم حين أُلقي في النار، لم يكن في الأرض دابةٌ إلا تطفئ النار، غير الوَزَغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله.

٧٠- وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ أي: المغلوبين الأسفلين، لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله، ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾

٧١- يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلّمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم، مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، وكذا قال أبو العالية أيضاً. وقال قتادة: كان بأرض العراق، فأنجاه الله إلى الشام، وكان يقال للشام: عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيد في الشام، وما نقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال: هي أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم ﷺ، وبها يهلك المسيح الدجال.

٧٢- وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال عطاء ومجاهد: عطية، وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عيينة (النافلة) ولد الولد، يعني: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً، فقال ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فأعطاه الله إسحاق، وزاده يعقوب نافلة ﴿وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: الجميع أهل خير وصلاح.

٧٣- ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: يقتدى بهم ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون إلى الله بإذنه، ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أي: فاعلين لما يأمرون الناس به.

٧٤، ٧٥- ثم عطف بذكر لوط، وهو لوط بن هاران بن آزر، كان قد آمن بإبراهيم ﷺ واتبعه وهاجر

معه، كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ فآتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه وجعله نبياً، وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله، ودمَّر عليهم، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز، ولهذا قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)﴾

٧٦- يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح ﷺ، حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ وقال نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ ولهذا قال هنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: الذين آمنوا به، كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصدون لأذاه، ويتواصون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، على خلافه.

٧٧- وقوله: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: ونجيناه وخلصناه منتصراً، من القوم ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أهلكهم الله بعامة، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحدٌ، كما دعا عليهم نبيهم.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)﴾

٧٨- قال ابن عباس: النفش: الرعي، وقال شريح والزهري وقتادة: النفش لا يكون إلا بالليل. زاد قتادة: والهَمْل بالنهار. وروى ابن جرير: عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: كَرْمٌ قد أنبتت عناقيده فأفسدته، قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله؟ قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتي يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان، دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾. وكذا روى العوفي عن ابن عباس. وروى ابن أبي حاتم عن مسروق نحوه. وهكذا قال شريح ومرة ومجاهد وقتادة وابن زيد وغير واحد.

وروى ابن جرير عن عامر قال: جاء رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: إن شياه هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهاراً أم ليلاً؟ فإن كان نهاراً، فقد برئ صاحب الشياه، وإن كان ليلاً ضمن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُودَ

﴿وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ الآية .

وهذا الذي قاله شريح ، شبيهٌ بما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة : من حديث عن حرام بن محيصة : أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار ، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها . وقد علل هذا الحديث ، وقد بسطنا الكلام عليه في كتاب الأحكام ، وبالله التوفيق .

٧٩- وقوله : **﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾** روى ابن أبي حاتم : عن حميد : أن إياس بن معاوية لما استقضى ، أتاه الحسن فبكى ، فقال : ما يبكيك؟ قال : يا أبا سعيد ، بلغني أن القضاة رجلٌ اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة ، فقال الحسن البصري : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكماً ، يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم ، قال الله تعالى : **﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾** فأثنى الله على سليمان ، ولم يذم داود ثم قال : يعني الحسن : إنَّ الله اتخذ على الحكام ثلاثاً : لا يشتروا به ثمناً قليلاً ، ولا يتبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحداً ، ثم تلا : **﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾** وقال : **﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾** وقال : **﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾** .

قلت : أما الأنبياء عليهم السلام ، فكلهم معصومون مؤيدون من الله عزوجل ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ، وأما من سواهم ، فقد ثبت في صحيح البخاري : عن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا اجتهَدَ الحَاكِمُ فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» فهذا الحديث يرد نصاً ما توهمه إياس ، من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار ، والله أعلم .

وفي السنن : القضاة ثلاثة : قاضٍ في الجنة وقاضيان في النار ، رجل عَلِمَ الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى خلافه فهو في النار» .

وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ، ما رواه الإمام أحمد : عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «بينما امرأتان معهما ابنان لهما ، إذْ جاءَ الذِّئبُ فأخذَ أحد الابنين ، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا ، فدعاهما سليمان ، فقال : هاتوا السكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : يرحمك الله ، هو ابنها لا تشقه ، فقضى به للصغرى» وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وبوَّب عليه النسائي في كتاب القضاة : **(باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق)** .

وقوله : **﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾** الآية ، وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنَّم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويباً ، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري ، وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب جداً ، فوقف واستمع لقراءته ، وقال : «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود»[(١)] قال : يا رسول الله ، لو علمتُ أنك تستمع ، لحبَّرتُه لك تحبيراً[(٢)] .

وقال أبوعثمان النهدي : ما سمعتُ صوت صنجٍ ولا بربط ولا مزمار ، مثل صوت أبي موسى رضي الله عنه ، ومع

---

(١) إلى هنارواه مسلم في صلاة المسافرين (١/ ٥٤٦) بنحوه .

(٢) وهذا الجزء رواه أبو يعلى (١٣/ ٧٢٧٩) والحاكم (٣/ ٤٦٦) وغيرهما ، وهو صحيح لطرقه . انظر تعليقنا على «الوصية الكبرى» (ص ٨١) .

هذا قال عليه الصلاة والسلام: «لقد أوتي مزماراً، من مزامير آل داود».

٨٠- وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ يعني: صنعة الدروع. قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أولُ مَن سَردَها حِلقاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي: لا توسع الحلقة فتقلق المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة، ولهذا قال: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ يعني: في القتال ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي: نِعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود، فعلَّمه ذلك من أجلكم.

٨١- وقوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: أرض الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة، والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أنْ تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير تقيه الحر، إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وحشمه، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وقال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

٨٢- وقوله: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي: في الماء، يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾. وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أي: يحرسه الله، أن يناله أحدٌ من الشياطين بسوء، بل كلٌ في قبضته وتحت قهره، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه، والقرب منه، بل هو يحكم فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء، ولهذا قال: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

٨٣- يذكر تعالى عن أيوب ﷺ، ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية، فابتُلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، يقال بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليمٌ سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق أحدٌ من الناس يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره، ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبي ﷺ: «أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل». وفي الحديث الآخر[1]: «يُبتلى الرجل على قدر دينه، فإنْ كان في دينه صلابة زيد في بلائه».

وقد كان نبي الله أيوب ﷺ غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك.

وقد روى ابن أبي حاتم: عن الزهري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريبُ والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان

---

(١) كذا قال! وهما حديث واحد! رواه أحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥) والترمذي (٢٥٢٢) وابن ماجة (٤٠٢٣) وغيرهم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين! فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة، لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب ﷺ: ما أدري ما تقول! غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهية أن يُذكر الله إلا في حق، وكان يخرج في حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، رفع هذا الحديث غريب جداً[(١)].

روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما عَافَى اللهُ أيوبَ، أمطر عليه جَراداً من ذَهَب، فجعل يأخذ منه بيده، ويجعله في ثوبه، قال: فقيل له: يا أيوب أما تشبع؟ قال: يا رب، ومن يشبع من رحمتك؟». أصله في الصحيحين، وسيأتي في موضع آخر.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعيانهم، كذا رواه العوفي عن ابن عباس أيضاً، وروى عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن وقتادة، وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته «رحمة» فإنْ كان أخذ ذلك من سياق الآية، فقد أبعد النجعة، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب، وصح ذلك عنهم، فهو مما لا يصدق ولا يكذب.

وعن أبي عمران الجوني عن نوف البكالي قال: أوتي أجرهم في الآخرة، وأُعطي مثلهم في الدنيا، قال فحدثت به مطرفاً، فقال ما عرفت وجهها قبل اليوم. وكذا روي عن قتادة والسدي وغير واحد من السلف، والله أعلم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: فعلناه به ذلك، رحمة من الله به ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ أي: وجعلناه في ذلك قدوةً، لئلا يظن أهل البلاء، أنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله، وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)﴾

٨٥، ٨٦- وأمّا إسماعيل: فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذا إدريس ﷺ، وأما: ذو الكفل، فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء، إلا وهو نبي، وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، والله أعلم.

قال ابن جريج عن مجاهد في قوله: ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ قال: رجل صالح غير نبي، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه، ويقيمهم له، ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمى ذا الكفل. وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد أيضاً.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ

(١) بل هو حديث صحيح، رواه البزار (٥٣٥٧ - زوائد) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٧٤ - ٣٧٥) وقال: غريب من حديث الزهري لم يروه عنه إلا عقيل، ورواته متفق على عدالتهم، تفرد به نافع اهـ. وصححه الضياء في المختارة والألباني في الصحيحة (١٧).

﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

٨٧- هذه القصة مذكورة ههنا، وفي سورة الصافات وفي سورة ن، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية نينوى، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرّقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه، ورغت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وسخالها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

وأما يونس عليه السلام: فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة، فلججت بهم وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم، يتخففون منه فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: وقعت عليه القرعة، فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر ـ فيما قاله ابن مسعود ـ حوتاً يشق البحار، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت: أن لا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك تكون له سجناً.

وقوله: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ يعني: الحوت، صحّت الإضافة إليه بهذه النسبة. وقوله ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً﴾ قال الضحاك: لقومه. ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: نضيق عليه في بطن الحوت. يُروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم، واختاره ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ وقال عطية العوفي: أي: فظن أن لن نقدر عليه، أي: نقضي عليه. كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قَدَر وقدَّر بمعنى واحد.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قدر. وقوله: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا روي عن ابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وقتادة. قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها، حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره، فعند ذلك وهنالك قال: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقال عوف الأعرابي: لما صار يونس في بطن الحوت ظن أنه قد مات، ثم حرك رجليه فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى: يا رب، اتخذت لك مسجداً، في موضع لم يبلغه أحد من الناس، وقال سعيد بن أبي الحسن البصري مكث في بطن الحوت أربعين يوماً. رواهما ابن جرير. وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إذا كانوا في الشدائد، ودعونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء.

روى الإمام أحمد: عن سعد هو ابن أبي وقاص رضي الله عنه قال: مررت بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني، ثم لم يرد عليَّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين هل

حَدَثَ في الإسلام شيء مرتين؟ قال: لا، وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد، فسلَّمت عليه فملأ عينيه مني فلم يرد عليَّ السلام، قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك أنْ لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت؟ قال: سعد: قلت: بلى حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررتَ بي آنفاً وأنا أحدِّث نفسي بكلمةٍ سمعتها من رسول الله ﷺ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تَغشىً بصري وقلبي غشاوة، قال سعد: فأنا أنبئك بها إن رسول الله ﷺ، ذكر لنا أولَ دعوةٍ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فأتبعته فلما أشفقتُ أن يسبقني إلى منزله، ضربتُ بقدمي الأرض فالتفتَ إليَّ رسول الله ﷺ: «من هذا، أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: «فمه؟» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أولَ دعوةٍ ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: «نعم، دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه لم يَدْعُ بها مسلمٌ ربَّه في شيءٍ قط، إلا استجاب له» ورواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة.

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾

٨٩- يخبر تعالى عن عبده زكريا، حين طلبَ أن يهبَه الله ولداً يكون من بعده نبياً، وقد تقدمت القصة مبسوطة في أول سورة مريم، وفي سورة آل عمران أيضاً، وههنا أخصر منها ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي: خفية عن قومه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي: لا ولد لي، ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة.

٩٠- قال الله تعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي: امرأته، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: كانت عاقراً لا تلد، فولدت. وفي رواية (عن عطاء): كان في خلقها شيء فأصلحها الله. وهكذا قال محمد بن كعب والسدي، والأظهر من السياق الأول.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: في عمل القربات والطاعات ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثوري: رغباً فيما عندنا ورهباً مما عندنا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: مصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقاً. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً. وعن مجاهد أيضاً ﴿خَاشِعِينَ﴾ أي: متواضعين. وقال الحسن وقتادة والضحاك ﴿خَاشِعِينَ﴾ أي: متذللين لله عز وجل. وكل هذه الأقوال متقاربة.

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾

٩١- هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، فيذكر أولاً قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم، لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر، لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهي أعجب، فإنها إيجاد ولدٍ من أنثى بلا ذكر، هكذا وقع في سورة آل عمران، وفي سورة مريم، وههنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها

بقصة مريم بقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعني: مريم عليها السلام، كما قال في سورة التحريم ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وهذا كقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾. وروى ابن أبي حاتم: عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين: الجن والإنس.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)﴾

٩٢- قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: دينكم دين واحد. وقال الحسن البصري في هذه الآية: يبين لهم ما يتقون وما يأتون. ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: سنتكم سنة واحدة. فقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ إنَّ واسمها، ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ خبر إنَّ، أي: هذه شريعتكم التي بينت لكم، ووضحت لكم، وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نصب على الحال، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «نحن معاشرَ الأنبياء أولاد عَلاَّت، ديننا واحد». يعني: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له، بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾.

٩٣- وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدِّق لهم ومكذب، ولهذا قال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيُجازى كلٌّ بحسب عمله، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٩٤- ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: قلبه مصدق، وعمل عملاً صالحاً ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾، كقوله: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ أي: لا يكفر سعيه، وهو عمله، بل يُشكر فلا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أي: يكتب جميع عمله، فلا يضيع عليه منه شيء.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)﴾

٩٥- يقول تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: وجب، يعني: قد قُدِّر أنَّ أهل كل قرية أُهلكوا، أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة، هكذا صرح به ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد، وفي رواية عن ابن عباس: ﴿أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ أي: لا يتوبون. والقول الأول أظهر، والله أعلم.

٩٦- وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضاً، من أولاد يافث أي: أبي الترك، والترك شرذمة منهم تُركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين، وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ الآية، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي: يسرعون في المشي إلى الفساد، والحَدَب: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري

وغيرهم. وهذه صفتهم في حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذي يعلم غيب السموات والأرض لا إله إلا هو.

روى ابن جرير: عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: رأى ابن عباس صبياناً ينزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج. وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية.

(فالحديث الأول): روى الإمام أحمد: عن محمود بن لبيد عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُفتح يأجوج ومأجوج، فيخرجون على الناس، كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابساً، حتى إن مَن بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان ههنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحدٌ في حصن أو مدينة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء، قال: ثم يهزُّ أحدُهم حَربته ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مُختَضِبَةً دماً، للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك بعث الله عز وجل دُوداً في أعناقهم، كنَغَف الجراد الذي يخرج في أعناقه، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجلٌ يَشْري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو، قال: فينحدر رجلٌ منهم محتسباً نفسه قد أوطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إنَّ الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويُسَرِّحُون مواشيهم، فما يكون لهم رعي إلا لحومهم، فتَشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط» ورواه ابن ماجة.

(الحديث الثاني): روى الإمام أحمد أيضاً: عن النواس بن سمعان الكلابي قال: ذَكر رسول الله ﷺ الدجالَ ذات غداةٍ فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في ناحية النخل، فقال: «غَيرُ الدجالِ أخوفني عليكم، فإنْ يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإنْ يخرج ولستُ فيكم فكلُ امرئٍ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه شابٌ جعدٌ قَطَط، عينه طافية، وإنه يخرج خلة بين الشام والعراق، فعاث يميناً وشمالاً، يا عباد الله اثبتوا» قلنا: يا رسول الله، ما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذي هو كسنة، أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، أقدروا له قدره» قلنا: يا رسول الله، فما إسراعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، قال: فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذُرى، وأمده خَوَاصر، وأسبغه ضروعاً، ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتتبعه أموالهم، فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النَّحل».

قال: «ويأمر برجل فيُقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جَزْلتين رَمْية الغرض، ثم يدعوه فيُقبل إليه، فبينما هم على ذلك، إذْ بعث الله عز وجل المسيحَ ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مَهْرودتين، واضعاً يديه على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه، فيقتله عند باب لدٍّ الشرقي». قال: «فبينما هم كذلك إذْ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: أني قد أخرجت عباداً من عبادي، لا يَدَانِ لك بقتالهم، فحَرِّزْ[1] عِبادي إلى الطور،

(١) وكذا هي في صحيح مسلم في كتاب الفتن (٤/ ٢٢٥٣) من الحرز: وهو الحصن. وفي نسخ: فَحوِّزْ، أي: اجمع.

فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج، كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيرغبُ عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم نغفاً في رقابهم، فيصبحون موتى كموت نفسٍ واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زَهَمُهم ونتنهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البُخْت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله» قال: «ويرسل الله مطراً، لا يَكُنُّ منه بيتَ مَدَرٍ ولا وبر أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقة، ويقال للأرض: انبتي ثمرك، ورُدِّي بركتك». قال: فيومئذ يأكل النفر من الرُّمانة، ويستظلون بِقِحْفها، ويبارك في الرِّسل، حتى إنَّ اللِّقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفي الفَخِذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت» قال: «فبيناهم على ذلك إذ بعثَ الله عز وجل ريحاً طيبة، فتأخذهم تحتَ آباطهم، فتَقبضُ روحَ كلِّ مسلم ـ أو قال مؤمن ـ ويبقى شِرارُ الناس، يَتَهارجون تهارج الحُمر، وعليهم تقوم الساعة» انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، ورواه مع بقية أهل السنن. والأحاديث في هذا كثيرة جداً والآثار عن السلف كذلك.

وقد ثبت في الحديث: أن عيسى ابن مريم يحج البيت العتيق، وروى الإمام أحمد: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ليحُجَّنَّ هذا البيت، وليعتمرن، بعد خروج يأجوج مأجوج» انفرد بإخراجه البخاري.

٩٧- وقوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعني: يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلزال والبلابل، أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت، قال الكافرون: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي: يقولون: يا ويلنا ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: في الدنيا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم، حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾

٩٨- يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش، ومَنْ دَانَ بدينهم من عبدة الأوثان ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن عباس: أي: وقودها، يعني: كقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ وقال ابن عباس أيضاً ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعني: شجر جهنم، وفي رواية قال: يعني: حطب جهنم بالزنجية. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حطبها. وهي كذلك في قراءة علي وعائشة رضي الله عنهما، وقال الضحاك ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: ما يرمى به فيها. وكذا قال غيره، والجميع قريب. وقوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي: داخلون.

٩٩- ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ يعني: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة، لما وردوا النار وما دخلوها ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: العابدون ومعبوداتهم، كلهم فيها خالدون.

١٠٠- ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن مسعود: إذا بقي مَن يخلَّد في النار، جُعلوا في توابيت من نار فيها مسامير

من نار، فلا يرى أحدٌ منهم أنه يعذَّب في النار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ﴾ ورواه ابن جرير.

١٠١- وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم، بسبب شركهم بالله، عَطَف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله، وهم الذين سبقتْ لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ فكما أحسنوا العمل في الدنيا، أحسن الله مآبهم وثوابهم ونجاهم من العذاب، وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: حريقها في الأجساد.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ فسلَّمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فأولئك أولياء الله، يمرون على الصراط مرّاً هو أسرع من البرق، ويبقى الكفار فيها جثياً، فهذا مطابق لما ذكرناه، وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عزير والمسيح، كما قال عطاء عن ابن عباس ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ فيقال: هم الملائكة وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل. وكذا قال عكرمة والحسن وابن جريج، وقال الضحاك عن ابن عباس قال: نزلت في عيسى ابن مريم وعزير عليهما السلام. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: عيسى وعزير والملائكة. وقال الضحاك: عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر. وكذا روي عن سعيد بن جبير وأبي صالح وغير واحد.

وذكر بعضهم قصة ابن الزبعري ومناظرة المشركين، روى أبو بكر بن مردويه: عن عكرمة عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن الزبعري إلى النبي ﷺ فقال: تزعم أنَّ الله أنزل عليك هذه الآية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ فقال ابن الزبعري: قد عُبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ فنزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ثم نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه الأحاديث المختارة.

وهذا الذي قاله ابن الزبعري خطأ كبير، لأنَّ الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام، التي هي جمادٌ لا تعقل، ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لعابديها، ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما؟! ممن له عملٌ صالح، ولم يرض بعبادة من عبده. وعوَّل ابن جرير في تفسيره في الجواب، على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب. وقد أسلم عبد الله بن الزبعري بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين، وقد كان يهاجي المسلمين أولا، ثم قال معتذراً:

يَا رَسُولَ المليكِ إنَّ لســاني ... راتِقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُورُ
إذ أجاري الشيطانَ في سنن الغي ... وَمَن مـالَ ميلـه مَثبـور

١٠٣- وقوله: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ قيل: المراد بذلك الموت. رواه عبد الرزاق عن عطاء. وقيل: المراد بالفزع الأكبر: النفخة في الصور. قاله العوفي عن ابن عباس، وأبو سنان سعيد بن سنان الشيباني، واختاره

ابن جرير في تفسيره. وقيل: حين يؤمر بالعبد إلى النار، قاله الحسن البصري. وقيل: حين تطبق النار على أهلها، قاله سعيد بن جبير وابن جريج. وقيل: حين يذبح الموت بين الجنة والنار، قاله أبو بكر الهذلي فيما رواه ابن أبي حاتم عنه. وقوله: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يعني: تقول لهم الملائكة، تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: فأملوا ما يسركم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾

١٠٤- يقول تعالى هذا كائن يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقد روى البخاري: عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ يقبضُ يوم القيامة الأرضين، تكون السموات بيمينه» انفرد به من هذا الوجه البخاري رحمه الله.

وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قيل: المراد بالسجل الكتاب، وقيل: المراد بالسجل ههنا ملك من الملائكة. وقال السدي في هذه الآية: السجل ملك موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل، فطواه ورفعه إلى يوم القيامة، وقيل: المراد به اسم رجل صحابي، كان يكتب للنبي ﷺ الوحي، روى ابن أبي حاتم عن أبي الجوزاء عن ابن عباس ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قال: السجل هو الرجل. وروى الخطيب البغدادي في تاريخه: عن نافع عن ابن عمر قال: السجل كاتب للنبي ﷺ. وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصح أصلاً، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس[1] من رواية أبي داود وغيره لا يصح أيضاً، وقد صرَّح جماعة من الحفاظ بوضعه، وإن كان في سنن أبي داود، منهم: شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزي، فَسَح الله في عمره ونسأ في أجله، وختم له بصالح عمله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدته ولله الحمد. وقد تصدَّى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، ورده أتم رد، وقال: لا يُعرف في الصحابة أحد اسمه «السجل» وكُتّاب النبي ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه: السجل.

وصدق رحمه الله في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث، وأما من ذكره في أسماء الصحابة فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره، والله أعلم؛ والصحيح عن ابن عباس: أن السجل هي الصحيفة، قاله علي بن أبي طلحة العوفي عنه، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير، لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب، أي: على الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني: هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع، لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

وروى الإمام أحمد: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورونَ إلى الله عز وجل حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا، كما بدأنا أولَ خلقٍ نُعيدُه، وعداً علينا إنَّا كُنَّا فَاعلين» وذكر تمام

---

(١) أي المرفوعة، وقد حذفناها.

الحديث أخرجاه في الصحيحين.

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾

١٠٥ – يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ وأخبر تعالى أن هذا مسطورٌ في الكتب الشرعية والقدرية، وهو كائن لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ قال الأعمش: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فقال: «الزبور» التوراة والإنجيل والقرآن، وقال مجاهد: «الزبور» الكتاب، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد: «الزبور» الذي أنزل على داود، والذكر التوراة. وعن ابن عباس: الذكر القرآن، وقال سعيد ابن جبير: الذكر الذي في السماء، وقال مجاهد: «الزبور» الكتب بعد الذكر، والذكر أم الكتاب عند الله. واختار ذلك ابن جرير رحمه الله، وكذا قال زيد بن أسلم هو الكتاب الأول، وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الزبور» الكتب التي نزلت على الأنبياء، و «الذكر» أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه، قبل أن تكون السموات والأرض، أن يورث أمة محمدﷺ الأرض: ويدخلهم الجنة وهم الصالحون.

وقال مجاهد عن ابن عباس ﴿إِنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال: أرض الجنة، وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري، وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون وقال السدي: هم المؤمنون.

١٠٦ – وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمدﷺ، ﴿لَبَلاغًا﴾ لمنفعة وكفاية ﴿لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

١٠٧ – وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمداًﷺ ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قَبل هذه الرحمة، وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومَن ردَّها وجحدها، خسر الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ وقال تعالى في صفة القرآن ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

وروى مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إني لم أُبعثْ لعَّاناً، وإنما بُعثتُ رحمةً» انفرد بإخراجه مسلم.

وفي الحديث الآخر: «إنما أنا رحمةٌ مُهداة». رواه أبو هريرة مرفوعاً[١].

وروى الإمام أحمد: عن عمرو بن أبي قرّة الكندي قال: كان حذيفة بالمدائن، فكان يذكر أشياء قالها رسول الله ﷺ، فجاء حذيفة إلى سلمان، فقال سلمان: يا حذيفة، إن رسول الله ﷺ خطب فقال: «أيما رجل سببتُه سبّةً في غضبي، أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، وإنما بعثني الله رحمة للعالمين، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة» رواه أبو داود.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾

١٠٨- يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه، أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له.

١٠٩- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم أني حرب لكم، كما أنكم حربٌ لي، بريءٌ منكم كما أنتم براءٌ منّي، كقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء، وهكذا ههنا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم ببراءتي منكم، وبراءتكم مني، لعلمي بذلك. وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده.

١١٠- ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: إنَّ الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في إجهارهم وإسرارهم، وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل.

١١١- وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم، ومتاع إلى حين. قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم، ومتاع إلى أجل مسمى. وحكاه عون عن ابن عباس، فالله أعلم.

١١٢- ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق. قال قتادة: كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك.

وقوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

آخر تفسير سورة الأنبياء

(١) رواه ابن سعد (١/ ١٩٢) وابن أبي شيبة (١١/ ٥٠٤) والبيهقي في دلائل النبوة (١/ ١٢٥) وابن الأعرابي في المعجم (١٠٨٨)، ورواه البزار (٣/ ١١٤ - زوائد) والطبراني في الصغير (١/ ٩٥) والحاكم (١/ ٣٥) موصولاً. وصححه الألباني في الصحيحة بطرقه (٤٩٠).

سورة الحج - مكية

ترتيبها ٢٢ — آياتها ٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② ﴾

١- يقول تعالى آمراً عباده بتقواه، ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة، وزلازلها وأحوالها، وقد اختلف المفسرون: في زلزلة الساعة، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم، إلى عرصات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ الآية، فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة، وروى ابن جرير: عن علقمة في قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ قال: قبل الساعة، ورواه ابن أبي حاتم قال: وروي عن الشعبي وإبراهيم وعبيد بن عمير نحو ذلك. وعن عامر الشعبي قال: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة، وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك في حديث الصور[1]. والغرض منه: أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هولٌ وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة في العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث: **(الأول)**: روى الإمام أحمد: عن الحسن عن عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره وقد تفاوت بين أصحابه السير، رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما دنوا حوله قال: «أتدرون أي يوم ذاك؟ ذاك يوم ينادي آدم ﷺ، فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم ابْعث بعثَك إلى النار، فيقول: يا رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار، وواحد في الجنة» قال: فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده، إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط، إلا كثَّرتاه: يأجوج ومأجوج، ومَنْ هلك من بني آدم وبني إبليس» قال: فسُرِّي عنهم، ثم قال: «اعْمَلُوا وأبشِرُوا، فوالذي نفس محمد بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشَّامة في جَنب البعير، أو الرَّقمة في ذراع الدابة» وهكذا رواه الترمذي

---

(١) والحديث ضعيف لا يصح، وقد مضى في سورة «طه».

والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما.

(الحديث الثاني) روى البخاري عند تفسير هذه الآية: عن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول لبيك وسعديك، فينادى بصوتٍ: إنَّ الله يأمرك أن تخرجَ من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف ـ أراه قال ـ: تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون، ومنكم واحد، أنتم في الناس كالشَّعرةِ السوداء في جَنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» فكبرنا، ثم قال: «ثلث أهل الجنة» فكبرنا، ثم قال: «شطر أهل الجنة» فكبرنا. وقد رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم والنسائي في تفسيره.

(الحديث الثالث) روى الإمام أحمد: عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إنكم تُحشرون إلى الله يوم القيامة، حُفاةً عُراة غُرْلاً» قالت عائشة: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، إنَّ الأمر أشدُّ من أن يهمهم ذاك» أخرجاه في الصحيحين.

والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار، كثيرة جداً، لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي: أمر عظيم، وخطب جليل، وطارق مفظع، وحادث هائل، وكائن عجيب، والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع، كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

٢- ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ هذا من باب ضمير الشأن، ولهذا قال مفسراً له ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: فتشتغل لهول ما ترى، عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدهش عنه في حال إرضاعها له، ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ ولم يقل مرضع، وقال: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ عن رضيعها قبل فطامه، وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: قبل تمامه لشدة الهول ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ وقرئ ﴿سُكْرَىٰ﴾ أي: من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه، قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾

٣- يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه، متبعاً في قوله وإنكاره وكفره، كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل البدع والضلال، المعرضين عن الحق المتبعين للباطل، يتركون ما أنزل الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: علم صحيح ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾.

٤- ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: يعني الشيطان كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه وقلَّده ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: يضله في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهو الحار المؤلم

المقلق المزعج، وقد قال السدي عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وكذلك قال ابن جريج.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) ﴾

٥- لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يُشاهد من بدئه للخلق، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: في شك ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾ وهو: المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: أصل برئه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوماً كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصير مضغة، قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي: كما تشاهدونها ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وتارة تستقر في الرحم، لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق. فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة، أرسل الله تعالى إليها مَلَكاً فنفخ فيها الروح، وسوَّاها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها وشقي أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين: عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق -: «إنَّ خَلْقَ أحدكُمْ يُجْمَعُ في بَطْنِ أُمِّهِ أربَعِينَ لَيْلَةً، ثم يكون عَلقةً مثل ذلك، ثم يكون مُضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه المَلَك، فيُؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وعمله وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح».

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير: عن علقمة عن عبد الله قال: النطفة إذا استقرت في الرحم، جاءها مَلَك بكفه، فقال: يا رب، مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قيل: غير مخلقة، لم تكن نسمة، وقذفتها الأرحام دماً، وإن قيل: مخلقة، قال: أي رب، ذكر أو أنثى؟ شقي أو سعيد؟ ما الأجل وما الأثر، وبأي أرض يموت؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله، فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله، فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة، قال: فتخلق فتعيش في أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك. ثم تلا عامر الشعبي: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع، فكانت نسمة، وإن كانتْ غير مخلقة قذفتها الأرحام دماً، وإن كانت مخلقة نكست نسمة.

وروى ابن أبي حاتم: عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: «يَدخُلُ المَلَكُ على النُّطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين يوماً أو خمس وأربعين، فيقول: أي رب، أشقي أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص، ورواه مسلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي: ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي: يتكامل القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب، وحسن المنظر ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى﴾ أي: في حال شبابه وقواه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهو الشيخوخة والهرم، وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر، ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي المُقْحلة التي لا ينبت فيها شيء. وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدي: ميتة ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات، في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: حسن المنظر طيب الريح.

٦ - وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الخالق المدبر الفعَّال لما يشاء ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: كما أحيى الأرض الميتة، وأنبت منها هذه الأنواع ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

٧ - ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمماً، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ والآيات في هذا كثيرة.

وروى الإمام أحمد: عن أبي رزين العقيلي ـ واسمه لقيط بن عامر ـ أنه قال: يا رسول الله، أكلُّنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به؟» قلنا: بلى، قال: «فالله أعظم» قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررتَ بوادي أهلك مُمحلاً؟» قال: بلى، قال: «ثم مررتَ به يهتزُّ خضراً» قال: بلى، قال: «فكذلك يُحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه». ورواه أبو داود وابن ماجة.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) ﴾

٨- لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال، من رءوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي والهوى، وقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ قال ابن عباس وغيره: مستكبر عن الحق إذا دعي إليه، وقال مجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ أي: لاوي عطفه، وهي: رقبته، يعني: يعرض عما يدعى إليه من الحق، ويثني رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ وقال لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: تميله عنهم استكباراً عليهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ الآية.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: هذه «لام العاقبة» لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون «لام التعليل». ثم إما أن يكون المراد بها: المعاندون، أو يكون المراد بها: أن هذا الفاعل لهذا، إنما جبلناه على هذا الخلق الدنيء، لنجعله ممن يضل عن سبيل الله.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه استكبر عن آيات الله، لقَّاه الله المذلة في الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة، لأنها أكبر همه ومبلغ علمه ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

١٠- ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۞ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۞ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) ﴾

١١- قال مجاهد وقتادة وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على شك، وقال غيرهم: على طرف، ومنه: حرف الحبل، أي: طرفه، أي: دخل في الدين على طرف، فإنْ وَجَدَ ما يحبه استقر، وإلا انشمر.

وقال البخاري: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإنْ ولدت امرأته غلاماً، ونتجت خيله، قال: هذا دينٌ صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله، قال: هذا دين سوء.

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإنْ وجدوا عام غيث وعام خصب، وعام ولاد حسن، قالوا: إن ديننا هذا لصالح، فتمسكوا به، وإنْ وجَدوا عام جدوبة، وعام ولاد سوء، وعام قحط، قالوا: ما في ديننا هذا خير، فأنزل الله على نبيه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ الآية.

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ والفتنة البلاء، أي: وإنْ أصابه وجع المدينة، وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبتَ منذ كنتَ على دينك هذا إلا شراً، وذلك الفتنة، وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج، وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، انقلب فلا يقيم على العبادة، إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختيار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر، وقال مجاهد في قوله: ﴿انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: ارتد كافراً.

وقوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾ أي: فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

١٢- وقوله: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾.

١٣- وقوله: ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة، أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن. وقوله: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ قال مجاهد: يعني: الوثن، يعني: بئس هذا الذي دعاه من دون الله، مولى، يعني: ولياً وناصراً ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر. واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب ﴿مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ وقول مجاهد أن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) ﴾

١٤- لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، في روضات الجنات، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء قال: ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦) ﴾

١٥- قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ، في الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: سماء بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو

الجوزاء وقتادة وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك. وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم، فإن المعنى: من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ الآية. ولهذا قال: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ قال السدي: يعني من شأن محمد ﷺ. وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفى ذلك ما يجد في صدره من الغيظ.

١٦- وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات في لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ أي: يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة، والحجة القاطعة في ذلك ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أما هو فلحكمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾

١٧- يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة، من المؤمنين ومن سواهم، من اليهود والصابئين، وقد قدمنا في سورة البقرة التعريف بهم، واختلاف الناس فيهم، والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره، فإنه تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويحكم بينهم بالعدل، فيُدخل مَن آمن به الجنة، ومَن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تُكِنُّ ضمائرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)﴾

١٨- يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كلُّ شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ وقال ههنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن، والدواب والطير ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص، لأنها قد عُبدت من دون الله، فبيَّن أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ الآية.

وفي الصحيحين: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر، فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت».

وفي المسند وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجة في حديث الكسوف : «إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله ، وإنهما لا ينكسفان لموتِ أحدٍ ولا لحياته» .

وقال أبو العالية : مافي السماء نجم ولا شمس ولا قمر ، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه .

وأما الجبال والشجر : فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل . وعن ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ، إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة ، فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودي ، فسمعتها وهي تقول : اللهم اكتبْ لي بها عندك أجراً ، وضَع عني بها وزراً ، واجعلها لي عندك ذخراً ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس : فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ثم سجد ، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة . رواه الترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه .

وقوله : ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ أي : الحيوانات كلها . وقوله : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي : يسجد لله طوعاً مختاراً ، متعبداً بذلك ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي : ممن امتنع وأبى واستكبر ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة ، اعتزل الشيطان يبكي ، يقول : يا ويله أُمر ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمرتُ بالسجود فأبَيتُ فلي النار» رواه مسلم .

وروى أبو داود وابن ماجة : من حديث عمرو بن العاص : أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن ، منها ثلاث في المفصل ، وفي سورة الحج سجدتان .

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

١٩ - ثبت في الصحيح : من حديث قيس بن عباد عن أبي ذر : أنه كان يُقسم قَسَماً أن هذه الآية ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه ، يوم برزوا في بدر . لفظ البخاري عند تفسيرها . ثم روى البخاري : عن قيس بن عباد : عن علي بن أبي طالب أنه قال : أنا أولُ مَنْ يَجثو بين يدي الرحمن للخُصومة يوم القيامة . قال قيس : وفيهم نزلت ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : عليٌّ وحمزة وعبيدة ، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . انفرد به البخاري .

وقال قتادة في قوله : ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال : مصدق ومكذب ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في هذه الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث ، وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية : هم المؤمنون والكافرون .

وقول مجاهد وعطاء أن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون ، يشمل الأقوال كلها ، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان ، وخذلان الحق وظهور الباطل ، وهذا اختيار ابن جرير ، وهو حسن . ولهذا قال : ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾

أي : فُصِّلت لهم مقطَّعات من النار ، قال سعيد بن جبير : من نحاس ، وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ .

٢٠- ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أي : إذا صُبَّ على رءوسهم «الحميم» وهو الماء الحار في غاية الحرارة ، وقال سعيد بن جبير : هو النحاس المذاب ، أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء . قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم . وكذلك تذوب جلودهم . وقال ابن عباس وسعيد : تساقط .

٢١- وقوله : ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قال ابن عباس : يضربون بها ، فيقع كل عضو على حياله ، فيدعون بالثبور ؛ وقوله : ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ وعن أبي ظبيان عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة ، لا يضيء لهبها ولا جمرها ، ثم قرأ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ وقال زيد بن أسلم : بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون ، وقال الفضيل بن عياض : والله ما طمعوا في الخروج ، إنَّ الأرجل لمقيدة ، وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم لهبها ، وتردهم مقامعها .

وقوله : ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كقوله : ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ومعنى الكلام : أنهم يُهانون بالعذاب قولاً وفعلاً .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾

٢٣- لما أخبر تعالى عن حال أهل النار ـ عياذاً بالله من حالهم ـ وما هم فيه من العذاب والنكال ، والحريق والأغلال ، وما أعد لهم من الثياب من النار ، ذكر حال أهل الجنة ، نسأل الله من فضله وكرمه ، فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي : تتخرَّق في أكنافها وأرجائها وجوانبها ، وتحت أشجارها وقصورها ، يصرفونها حيث شاؤا وأين أرادوا ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من الحلية ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي : في أيديهم ، كما قاله النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه : «تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ من المؤمن ، حيث يبلغ الوضوء» .

وقوله : ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار ، التي فُصِّلت لهم لباس هؤلاء ، من الحرير استبرقه وسندسه ، كما قال : ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ❁ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ . وفي الصحيح : «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج فإنه مَن لَبسه في الدنيا ، لم يلبسه في الآخرة» قال عبد الله بن الزبير : مَن لم يلبس الحرير في الآخرة ، لم يدخل الجنة ، قال الله تعالى : ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ .

٢٤- وقوله : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ كقوله تعالى : ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ، وقوله : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ❁ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ، وقوله : ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ❁ إِلاَّ قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً﴾ فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب ، وقوله : ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً

﴿وَسَلَامًا﴾ لا كما يُهان أهل النار بالكلام الذي يُوبِّخُونَ به، ويقرعون به، يقال لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي: إلى المكان الذي يَحْمدون فيه ربهم على ما أُحسن إليهم، وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء في الحديث الصحيح: «إنهم يُلهَمونَ التَّسبيح والتحميد، كما يلهمون النَّفَس». وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي: الطريق المستقيم في الدنيا.

وكل هذا لا يُنافي ما ذكرناه، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾

٢٥- يقول تعالى منكراً على الكفار، في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ الآية، وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية، كما قال في سورة البقرة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ وقال ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين، الذين هم أحقُّ الناس به في نفس الأمر، وهذا الترتيب في هذه الآية، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: ومن صفتهم: أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعاً سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ ومن ذلك استواء الناس في رِبَاع مكة وسكناها، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قال: ينزل أهلُ مكة وغيرهم في المسجد الحرام. وقال مجاهد: أهلُ مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل. وكذا قال أبو صالح وعبد الرحمن بن سابط وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وروى عبدالرزاق: عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله.

وهذه المسئلة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً، فذهب الشافعي رحمه الله: إلى أن رِبَاع مكة تملَّك وتُورث وتؤجر، واحتج بحديث أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رِبَاع؟» ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر». وهذا الحديث مخرج في الصحيحين. وبما ثبت: أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة، فجعلها سجناً بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاوس وعمرو بن دينار. وذهب إسحاق بن راهويه: إلى أنها لا تُورث ولا تؤجر، وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهويه بما رواه عبد الرزاق: عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة، ولا كراؤها. وروى أيضاً: عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن

تبويب دور مكة، لأن ينزل الحاج في عَرَصاتها، فكان أول من بوَّب داره سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأً تاجراً، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لي ظهري، قال: فلك ذلك إذاً. وتوسط الإمام أحمد فقال: تملك وتورث، ولا تؤجر، جمعاً بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء ههنا زائدة، كقوله: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ أي: تنبت الدهن، وكذا قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ تقديره إلحاداً.

والأجود أنه ضمن الفعل ههنا معنى «يهم» ولهذا عداه بالباء، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ أي: يهم فيه بأمرٍ فظيع من المعاصي الكبار. وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: عامداً قاصداً أنه ظلم، ليس بمتأول. كما قال ابن جريج عن ابن عباس: هو التعمد. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿بِظُلْمٍ﴾ بشرك، وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله، وكذا قال قتادة وغير واحد. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿بِظُلْمٍ﴾ هو أن تستحلَّ من الحَرَم ما حرَّم الله عليك، من إساءة أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وَجَب له العذاب الأليم. وقال مجاهد ﴿بِظُلْمٍ﴾: يعمل فيه عملاً سيئاً. وهذا من خصوصية الحرم أنه يُعاقب البادي فيه الشر، إذا كان عازماً عليه، وإن لم يُوقعه. كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره: عن عبد الله يعني ابن مسعود في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بِعَدَن أبين، لأذاقه الله من العذاب الأليم. قلت: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه، ولهذا صمم شعبة على وقفه من كلام ابن مسعود. وكذا قال الضحاك بن مزاحم. وروى سفيان الثوري: عن مجاهد: إلحادٌ فيه: لا والله وبلى والله، وروى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو مثله، وقال سعيد بن جبير: شتم الخادم ظلم، فما فوقه، وروى سفيان الثوري عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال تجارة الأمير فيه، وعن ابن عمر: بيع الطعام بمكة إلحاد، وقال حبيب بن أبي ثابت: المحتكر بمكة. وكذا قال غير واحد.

وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما همَّ أصحاب الفيل على تخريب البيت، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۞ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي: دمرهم، وجعلهم عبرة ونكالاً لكل من أراده بسوء، ولذلك ثبت في الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «يَغزُو هذا البيت جيشٌ، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِفَ بأَوَّلِهِمْ وآخِرِهم» الحديث.

وروى الإمام أحمد: عن إسحاق بن سعيد قال: أتى عبدُ الله بن عمر عبدَ الله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في حَرَم الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سَيُلحد فيه رجلٌ من قريش، لو تُوزن ذنوبه بذنوب الثقلين، لرجحت» فانظر لا تكن هو.

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾

٢٦- هذا فيه تقريعٌ وتوبيخٌ، لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، في البقعة التي أسست من أول يوم

على توحيد الله، وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوّأ إبراهيم ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: أرشده إليه وسلمه له، وأذن له في بنائه، واستدل به كثير ممن قال إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق، وإنه لم يبن قبله، كما ثبت في الصحيح: عن أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وُضع أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة».

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ الآيتين، وقال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته ههنا. وقال تعالى ههنا: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أي: ابنه على اسمي وحدي ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ قال قتادة ومجاهد: من الشرك ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أي: في الصلاة، ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فقرن الطواف بالصلاة، لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة، وفي الحرب وفي النافلة في السفر، والله أعلم.

٢٧- وقوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي: ناد في الناس داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت، الذي أمرناك ببنائه، فذُكر أنه قال: يا رب، كيف أبلّغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس، إنَّ ربّكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع مَن في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومَدَر وشجر، ومَنْ كَتَبَ الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك. هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف، والله أعلم. وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الآية، قد يستدل بهذه الآية مَن ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً - لمن قدر عليه - أفضل من الحج راكباً، لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم، وقوة هممهم، وشدة عزمهم. والذي عليه الأكثرون أن الحج راكباً أفضل، اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكباً، مع كمال قوته عليه السلام.

وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ يعني طريق، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾.

وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أي: بعيد. قاله مجاهد وعطاء والسدي وقتادة ومقاتل بن حيان والثوري وغير واحد، وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ فليس أحدٌ من أهل الإسلام، إلا وهو يحنُّ إلى رؤية الكعبة والطواف، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾

٢٨- قال ابن عباس: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة: فرضوان الله

تعالى، وأما منافع الدنيا: فما يصيبون من منافع البُدْن والذبائح والتجارات، وكذا قال مجاهد وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عن سعيد عن ابن عباس رضي الله عنهما: الأيام المعلومات أيام العشر. وعلقه البخاري عنه بصيغة الجزم به، ورُوي مثله عن أبي موسى الأشعري ومجاهد وقتادة وعطاء وسعيد بن جبير والحسن والضحاك وعطاء الخراساني وإبراهيم النخعي، وهو مذهب الشافعي والمشهور عن أحمد بن حنبل.

وروى البخاري: عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما العملُ في أيَّام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ يخرج يُخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء». رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة بنحوه. وفي الباب عن ابن عمر وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر، قلت: قد تقصيت هذه الطرق وأفردت لها جزءًا على حدة. فمن ذلك ما روى الإمام أحمد: عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أعظمُ عند الله، ولا أحب إليه العمل فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد». وقال البخاري: وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما. وقد روى أحمد: عن جابر مرفوعاً[1] أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾. وقال بعض السلف إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾.

وفي سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر. وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة، الذي ثبت في صحيح مسلم: عن أبي قتادة قال: سُئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحتسبُ على الله، أنْ يكفِّر به السنة الماضية والآتية». ويشتمل على «يوم النحر» الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث: «أنه أفضل الأيام عند الله»[2] وبالجملة فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، وفضَّله كثيرٌ على عشر رمضان الأخير، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك، من صلاة وصيام وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه. وقيل: ذلك أفضل، لاشتماله على ليلة القدر، التي هي خيرٌ من ألف شهر. وتوسَّط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل، وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

(قول ثان) في الأيام المعلومات: عن مقسم عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده، ويروى هذا عن ابن عمر وإبراهيم النخعي، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه.

(قول ثالث) روى ابن أبي حاتم: أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات: هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات: يوم النحر، ويومان بعده، والأيام المعدودات: ثلاثة أيام بعد يوم النحر، هذا إسناد صحيح إليه، وقال السدي، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس. ويعضد هذا القول والذي قبله، قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعني به: ذكر الله عند ذبحها.

(قول رابع) إنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده، وهو مذهب أبي حنيفة، وقال ابن وهب حدثني ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال: المعلومات: يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق.

---

(١) مسند أحمد (٣/ ٣٢٧) وهو من رواية أبي الزبير عنه، ولم يصرح بالسماع منه.

(٢) حديث صحيح، رواه أحمد (٤/ ٣٥٠) وأبو داود (١٧٦٥) من حديث عبد الله بن قرط رضي الله عنه.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعني: الإبل والبقر والغنم، كما فصَّلها تعالى في سورة الأنعام: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الآية. وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ استدل بهذه الآية: من ذَهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي، وهو قول غريب، والذي عليه الأكثرون: أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه، أَمرَ من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحَسَا من مرقها.

قال عبد الله بن وهب قال لي مالك: أحب أن يأكل من أضحيته، لأن الله يقول ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال ابن وهب: وسألت الليث فقال لي مثل ذلك. روى سفيان الثوري: عن إبراهيم ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم، فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن لم يشأ لم يأكل، ورُوي عن مجاهد وعطاء نحو ذلك. وعن مجاهد في قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال: هي كقوله: ﴿فَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾. وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره. واستدل من نصر القول بأن الأضاحي يتصدق منها بالنصف، بقوله في هذه الآية ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ فجزأها نصفين: نصف للمضحي، ونصف للفقراء، والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلثٌ له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به، لقوله تعالى في الآية: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ وسيأتي الكلام عليها عندها إن شاء الله وبه الثقة.

وقوله: ﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذي عليه البؤس، الفقير المتعفف، وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده، وقال قتادة: هو الزَّمِن، وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير. وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو وضع الإحرام، من حلق الرأس، ولبس الثياب، وقص الأظافر، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد عنه، وكذا قال عكرمة ومحمد بن كعب القرظي. وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفث المناسك. وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني نَحرُ ما نَذَر من أمر البدن، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: نذر الحج، والهدي، وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج، وقال أيضاً: الذبائح. وقال عكرمة ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: حجهم، وكذا روى الإمام أحمد وابن أبي حاتم: عن سفيان قال: نذور الحج، فكل من دخل الحج، فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة وعرفة ومزدلفة ورمي الجمار، على ما أمروا به. وروي عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال مجاهد: يعني الطواف الواجب يوم النحر. وروى ابن أبي حاتم: عن أبي حمزة قال: قال لي ابن عباس: أتقرأ سورة الحج، يقول الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق.

قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر، بدأ برمي الجمرة فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت، وفي الصحيحين: عن ابن عباس أنه قال: أُمر الناس أنْ يكون آخرَ عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض.

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحِجْر، لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت بهم النفقة، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحِجر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين لأنهما لم يتمما على قواعد

إبراهيم العتيقة. وقال قتادة عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قال: لأنه أول بيت وُضع للناس. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وعن عكرمة أنه قال: إنما سمى «البيت العتيق» لأنه أُعتق يوم الغرق زمان نوح، وقال خصيف: إنما سُمِّي «البيت العتيق» لأنه لم يظهر عليه جبار قط، وقال ابن أبي نجيح وليث عن مجاهد: أُعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه. وكذا قال قتادة. وعن مجاهد: لأنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك. وروى عبد الرزاق: عن ابن الزبير قال: إنما سُمي «البيت العتيق» لأن الله أعتقه من الجبابرة.

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾

٣٠- يقول تعالى، هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعليها من الثواب الجزيل. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: وَمَن يجتنب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أي: فله على ذلك خير كثير، وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير، وأجر جزيل، كذلك على ترك المحرمات، واجتناب المحظورات.

قال ابن جريج، قال مجاهد في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ قال: الحرمة مكة، والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد.

وقوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أحللنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من تحريم ﴿الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ الآية، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة، وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ «من» ههنا لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ومنه شهادة الزور.

وفي الصحيحين: عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال: «ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

وروى سفيان الثوري: عن ابن مسعود أنه قال: تعدل شهادة الزور الإشراك بالله، ثم قرأ هذه الآية.

٣١- وقوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ أي: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ ثم ضرب للمشرك مثلاً، في ضلاله وهلاكه، وبعده عن الهدى، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط منها ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي: تقطّعه الطيور في الهواء ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه. ولهذا جاء في حديث البراء: أن الكافر إذا توفّته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرحاً من هناك، ثم قرأ هذه الآية. وقد تقدم الحديث في «سورة إبراهيم» بحروفه وألفاظه وطرقه.

وقد ضرب تعالى للمشركين مثلاً آخر في سورة الأنعام، وهو قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ الآية.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)﴾

٣٢- يقول تعالى هذا ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي: أوامره ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال مقسم عن ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها. وروى ابن أبي حاتم: عن مجاهد عن ابن عباس (نحوه).

وقال أبو أمامة عن سهل: كنا نسمّن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون. رواه البخاري.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «دم عفراء، أحب إلى الله من دم سوداوين» رواه أحمد وابن ماجة[1]. قالوا: والعفراء: هي البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزئ أيضاً، لما ثبت في صحيح البخاري: عن أنس أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين.

وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن كحيل، يأكل في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد. رواه أهل السنن وصححه الترمذي. أي: فيه نكتةٌ سوداء في هذه الأماكن.

وفي سنن ابن ماجة: عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين، أقرنين أملحين مَوجوءين. وكذا رواه أبو داود وابن ماجة عن جابر. (موجوءين) قيل: هما الخَصِيان، وقيل: اللذان رُضّ خُصْياهما ولم يقطعهما، والله أعلم.

وعن علي رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وأن لا نضحي بمقابلة ولا مدابرة، ولا شرقاء ولا خرقاء. رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي، وأما المقابلة: فهي التي قطع مقدم أذنها، والمدابرة من مؤخر أذنها، والشرقاء: هي التي قطعت أذنها طولاً. قاله الشافعي والأصمعي، وأما الخرقاء: فهي التي خرقت السِّمة أذنها خرقاً مدوراً، والله أعلم.

وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ لا تجوز في الأضاحي: العوراء البيِّن عورها، والمريضة البيِّن مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والكسيرة التي لا تُنقي» رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي.

وهذه العيوب تُنقص اللحم، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي، لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزئ التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث، واختلف قول الشافعي في المريضة مرضاً يسيراً على قولين.

فهذه العيوب كلها مانعة من الإجزاء، فأما إن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية، فإنه لا يضر عند الشافعي، خلافاً لأبي حنيفة، ولهذا جاء في الحديث: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن» أي: أن تكونَ الهدية والأضحية سمينة حسنة. وقال الضحاك عن ابن عباس: «البدن» من شعائر الله. وقال محمد ابن

---

(١) الحديث ضعيف، رواه أحمد (٢/ ٤١٧) ولم أجده في سنن ابن ماجة، في سنده: أبو ثفال المري، قال أبو حاتم وأبو زرعة: مجهول، وقال البخاري: في حديثه نظر، وقال الحافظ في التقريب: مقبول! وفيه أيضاً: رباح بن عبد الرحمن، مجهول أيضاً، وفي سماعه من أبي هريرة نظر.

أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والحلق والبدن من شعائر الله، وقال ابن عمر: أعظم الشعائر «البيت».

٣٣- وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي: لكم في البدن منافع، من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها إلى أجل مسمى، قال مقسم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قال: ما لم تُسمَّ بدناً. وقال مجاهد في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سميت بدنة أو هدياً، ذهب ذلك كله. وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراساني وغيرهم.

وقال آخرون: بل له أنْ ينتفع بها وإن كانت هدياً، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت في الصحيحين: عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: «اركبها» قال: إنها بدنة، قال: «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة. وفي رواية لمسلم: عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف، إذا ألجئت إليها». وقال المغيرة ابن حذف[1] عن علي: أنه رأى رجلاً يسوق بدنة ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها، إلا ما فضل عن ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها.

وقوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي: محل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، ، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾، وقال: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ وقد تقدم الكلام على معنى «البيت العتيق» قريباً ولله الحمد. وقال عطاء: كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت فقد حَلَّ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾

٣٤- يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء، على اسم الله مشروعاً في جميع الملل، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قال: عيداً. وقال عكرمة: ذبحاً، وقال زيد بن أسلم: إنها مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها.

وقوله: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ كما ثبت في الصحيحين: عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبَّر، ووضع رجله على صفاحهما.

وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: معبودكم واحد، وإنْ تنوَّعت شرائع الأنبياء، ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: أخلصوا واستسلموا لحكمته وطاعته ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال مجاهد: المطمئنين. وقال الضحاك وقتادة: المتواضعين، وقال السدي: الوجلين. وقال عمرو ابن أوس: المخبتين الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا، وقال الثوري: المطمئنين، الراضين بقضاء الله،

---

(١) وفي بعض النسخ: ابن أبي الحر، ولعل الصواب ما أثبتناه، لأنه يروى عن حذيفة وعائشة، ويروي عنه زهير بن أبي ثابت، انظر الجرح والتعديل (٨/ ٢٢٠).

المستسلمين له.

٣٥- وأحسن ما يفسر بما بعده، وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت منه قلوبهم ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي: من المصائب، قال الحسن البصري: والله لنصبرن أو لنهلكن.

﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ قرأ الجمهور بالإضافة، السبعة وبقية العشرة أيضاً، وقرأ ابن السميفع: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ بالنصب، وعن الحسن البصري ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةَ﴾، وإنما حُذفت النون ههنا تخفيفاً، ولو حُذفت للإضافة لوجب خفض الصلاة، ولكن على سبيل التخفيف فنصبت. أي: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق، على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله، وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره في سورة براءة

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) ﴾

٣٦- يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما خلق لهم من البُدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تُهدَى إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدى إليه، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ الآية، قال ابن جريج: قال عطاء في قوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال: البقرة والبعير. وكذا روي عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصري، وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل.

(قلت) أما إطلاق البدنة على البعير، فمتفق عليه، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة، على قولين: أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً، كما صح الحديث، ثم جمهور العلماء على أنه تجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم: من رواية جابر بن عبد الله قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي، البدنة عن سبعة، البقرة عن سبعة. وقال إسحاق بن راهويه وغيره: بل تجزئ البقرة عن سبعة والبعير عن عشرة، وقد ورد به حديث في مسند الإمام أحمد وسنن النسائي وغيرهما[1]، فالله أعلم.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: ثواب في الدار الآخرة. وقال سفيان الثوري: كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ وقال مجاهد ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع، وقال: إبراهيم النخعي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ وعن جابر بن عبد الله قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «بسم الله والله أكبر، اللهمّ هذا عني، وعمن لم يُضحِّ من أمتي» رواه أحمد وأبوداود والترمذي. وعن أبي ظبيان عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ قال: قياماً على ثلاث قوائم، معقولة يدها اليسرى، يقول: بسم الله والله أكبر، لا إله إلا الله، اللهم

---

(١) حديث صحيح، وهو في المسند (١/ ٢٧٥) والترمذي (٩١٣، ١٥٥٣) والنسائي (٤٠٩٠) وابن ماجة (٣١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. والقول الأول هو الأشهر عند أهل العلم، والله أعلم.

منك ولك. وكذلك روي عن مجاهد وعلي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس نحو هذا. وقال ليث عن مجاهد: إذا عقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث، وروى ابن أبي نجيح عنه نحوه، وقال الضحاك (نحوه).

وفي الصحيحين: عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها، فقال: ابعثها قياماً مقيدة، سنة أبي القاسم ﷺ. وعن جابر أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها، رواه أبو داود[1].

وفي صحيح مسلم: عن جابر في صفة حجة الوداع، قال فيه: فنحر رسول الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بدنة، جعل يطعنها بحربة في يده.

وروى عبد الرزاق: عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود «صوافن» أي: معقلة قياماً. وروى سفيان الثوري: عن مجاهد: مَن قرأها «صوافن» قال: معقولة، ومن قرأها ﴿صَوَافَّ﴾ قال: تصف بين يديها. وقال طاوس والحسن وغيرهما ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ يعني: خالصة لله عز وجل. وكذا رواه مالك عن الزهري، وقال عبد الرحمن بن زيد: صواف ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: يعني سقطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان، وقال العوفي عن ابن عباس: فإذا وجبت جنوبها يعني: نحرت، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فإذا وجبت جنوبها يعني: ماتت. وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت، وتبرد حركتها.

ويؤيده حديث شداد بن أوس في صحيح مسلم: «إنَّ الله كَتَبَ الإحسان على كل شيء، فإذا قَتَلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليُحِدَّ أحدُكم شَفْرته، وليُرح ذبيحته». وعن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قُطِعَ من البهيمة وهي حية، فهو ميتة» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال بعض السلف قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر إباحة، وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يجب، وهو وجه لبعض الشافعية، واختلفوا في المراد بـ «القانع والمعتر» فقال العوفي عن ابن عباس: القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته، والمعتر الذي يتعرَّض لك، ويلم بك أن تعطيه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: القانع المتعفف، والمعتر السائل. وهذا قول قتادة وإبراهيم النخعي ومجاهد في رواية عنه، وقال ابن عباس وعكرمة وزيد بن أسلم والكلبي والحسن البصري ومقاتل بن حيان ومالك بن أنس: «القانع» هو الذي يقنع إليك ويسألك، «المعتر» الذي يعتريك، يتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن. وقال سعيد بن جبير: القانع هو السائل. قال أما سمعت قول الشَّماخ:

لمالُ المرءِ يُصلحه فيُغني مفاقِره أعفُّ من القُنُوع

قال: يعني من السؤال. وبه قال ابن زيد. وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذي يطوف، والمعتر: الصديق والضعيف الذي يزور. وهو رواية عن ابنه عبد الرحمن بن زيد أيضاً، وعن مجاهد أيضاً: القانع: جارك الغني الذي يُبصر ما يدخل بيتك، والمعتر: الذي يعتزل من الناس، وعنه: أن القانع هو الطامع، والمعتر:

---

(١) سنن أبي داود (١٧٦٧) عن جابر قال: وأخبرني عبد الرحمن بن سابط.

هو الذي يعتر بالبُدن من غَني أو فقير. وعن عكرمة نحوه. وعنه: القانع أهل مكة.

واختار ابن جرير: أن القانع هو السائل، لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر: من الاعتراء، وهو الذي يتعرض لأكل اللحم.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة: من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزأ ثلاثة أجزاء، فثُلثٌ لصاحبها يأكله، و ثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدَّق به على الفقراء، لأنه تعالى قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾. وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إني كنتُ نَهيتكم عن ادِّخار لحم الأضاحي فوق ثَلاث، فكلوا وادَّخِرُوا ما بدا لكم». وفي رواية: «فكلوا وادَّخِروا وتصدقوا» وفي رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدقوا». والقول الثاني: أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله في الآية المتقدمة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ ولقوله في الحديث: «فكلوا وادَّخِرُوا وتصدَّقوا». فإنْ أكلَ الكلَّ، فقيل: لا يضمن شيئاً، وبه قال ابن سُريج من الشافعية. وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها، وهو المشهور من مذهب الشافعي.

وأما الجلود: ففي مسند أحمد: عن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي: «فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها»(١). ومن العلماء من رخَّص في بيعها، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء فيها، والله أعلم.

(مسألة) عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أوَّل ما نبدأ به في يومنا هذا: أن نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل فقد أصابَ سنتنا، ومن ذبحَ قبل الصلاة، فإنما هو لحمٌ قدَّمه لأهله، ليس من النُسُكِ في شيء» أخرجاه. فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء: إن أول وقتِ ذبح الأضاحي: إذا طلعت الشمس يوم النحر، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين، زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء في صحيح مسلم: «وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام»(٢). وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوها، فلهم أنْ يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذْ لا صلاةَ عيد تشرع عنده لهم، وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام، والله أعلم.

ثم قيل: لا يُشرع الذبح إلا يوم النحر وحده، وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار، لتيسر الأضاحي عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر ويوم بعده للجميع، وقيل: ويومان بعده، وبه قال الإمام أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده وبه قال الشافعي لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق كلها ذبح» رواه أحمد وابن حبان(٣).

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى: من أجل هذا ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي:

---

(١) الحديث ضعيف، رواه أحمد (٤/ ١٥) من ثلاث طرق كلها ضعيفة. و لكن استدل من قال بمنع بيع الجلود، بحديث علي رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقوم على بُدنة، وأن أتصدق بلحومها وجلودها وأجِلَّتها، وأن لا أعطي الجازر منها شيئاً، وقال: «نحن نعطيه من عندنا» متفق عليه، فالقول بمنع شيء من الأضحية هو الصحيح.

(٢) الحديث لم يروه مسلم! انظر الأضاحي (٣/ ١٥٥٢) وما بعدها. لكن في سنن الدارمي في كتاب الأضاحي: باب في الذبح قبل الإمام (١٩٦٨). وذكر فيه حديث البراء: أن أبا بردة بن نيار ضحى قبل أن يصلي، فلما صلى النبي ﷺ دعاه فذكر له ما فعل، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما شاتك شاة لحم».. الحديث. وقد رواه أحمد أيضاً وأصحاب السنن.

(٣) وهو الراجح الموافق للحديث.

ذللناها لكم، وجعلناها منقادة لكم، خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. وقال في هذه الآية الكريمة ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾

٣٧- يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا، لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق، لا يناله شيءٌ من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالى هو الغني عما سواه، وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم، وضعوا عليها من لحوم قرابينهم، ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ كما جاء في الصحيح: «إنَّ اللهَ لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(١)]. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي: من أجل ذلك سخَّر لكم البدن ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أي: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه، وما يحبه ويرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وبشر يا محمد المحسنين، أي: في عملهم القائمين بحدود الله، المتبعين ما شُرع لهم، المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل.

(مسألة) وقد ذهب أبوحنيفة ومالك والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على مَن ملكَ نصاباً، وزاد أبوحنيفة: اشتراط الإقامة أيضاً، واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجة: بإسناد رجاله كله ثقات: عن أبي هريرة مرفوعاً: «مَنْ وَجَدَ سَعَةً فلمْ يُضحِّ، فلا يقربَنَّ مُصَلانَا» على أن فيه غرابة واستنكره أحمد بن حنبل[(٢)].

وقال الشافعي وأحمد: لا تجب الأضحية، بل هي مستحبةٌ، لما جاء في الحديث: «ليس في المال حق سوى الزكاة»[(٣)]. وقد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام ضحَّى عن أمته، فأسقط ذلك وجوبها عنهم، وقال أبو سَريحة: كنتُ جاراً لأبي بكر وعمر، فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما[(٤)].

قال بعض الناس: الأضحية سنة كفاية، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة أو بيت، سقطت عن الباقين، لأن المقصود إظهار الشعار. وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن وحسنه الترمذي: عن مِخنَف بن سليم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات: «على كل أهل بيتٍ في كل عام أضحاة وعتيرة، هل تدرون ما العتيرة؟ هي التي تدعونها الرجبية» وقد تكلم في إسناده.

وقال أبو أيوب: كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يُضحِّي بالشاة الواحدة، عنه وعن أهل بيته، فيأكلون

---

(١) الحديث رواه مسلم في البر والصلة (٤/ ١٩٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم...».

(٢) الحديث في سنده: عبد الله بن عياش، قال أبو داود والنسائي: ضعيف، وقال أبو حاتم: ليس بالمتين، صدوق يكتب حديثه، وقال الحافظ في التقريب: صدوق يغلط، أخرج له مسلم في الشواهد، والحديث رواه الحاكم (٤/ ٢٣٢) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١٠٢) وسنن ابن ماجة (٣١٢٣).

(٣) ضعيف مضطرب، رواه ابن ماجة (١٧٨٩).

(٤) رواه عبد الرزاق (٤/ ٣٨١) بنحوه، وسنده صحيح، أبو سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري، صحابي.

ويطعمون حتى تَبَاهى الناس، فصار كما ترى. رواه الترمذي وصححه وابن ماجة.

وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله. رواه البخاري.

وأما مقدار سن الأضحية، فقد روى مسلم: عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَذْبَحُوا إلاَّ مُسِنَّةً، إلاَّ أن يَعْسر عليكم فتذبحوا جَذعة من الضأن». ومن ههنا ذهب الزهري إلى أن الجذع لا يجزئ، وقابله الأوزاعي فذهب إلى أن الجذع يجزئ من كل جنس، وهما غريبان، والذي عليه الجمهور إنما يجزئ الثني من الإبل والبقر والمعز، أو الجذع من الضأن، فأما الثني من الإبل: فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة، ومن البقر: ماله سنتان ودخل في الثالثة، وقيل: ماله ثلاث ودخل في الرابعة، ومن المعز: ماله سنتان، وأما الجذع من الضأن: فقيل ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل في سنّه، وما دونه فهو حمل، والفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذع شعر ظهره نائم، قد انفرق صدعين، والله أعلم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) ﴾

٣٨- يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه، وأنابوا إليه، شر الأشرار، وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أي: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، لا يفي بما قال، والكفر: الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾

٣٩- قال العوفي عن ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه، حين أخرجوا من مكة، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف: كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير أن زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم: هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية.

وروى ابن جرير: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم! إنا لله وإنا إليه راجعون، ليَهلِكُنَّ، قال ابن عباس فأنزل الله عزوجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. ورواه الإمام أحمد وزاد: قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال، ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ

مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم﴾ وقال: ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون﴾ وقال: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ وقال: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ والآيات في هذا كثيرة.

ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ وقد فعل.

وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة، كان المشركون أكثر عدداً، فلو أُمِر المسلمون - وهم أقل من العشر - بقتال الباقين لشَقَّ عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي - يعنون: أهل منى ليالي منى - فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنّي لَمْ أُومَرْ بهذا». فلما بغى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَذَرَ مَذَر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام، ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير۝ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق﴾ قال العوفي عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعني: محمداً وأصحابه ﴿إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ أي: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له، وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، وأما عند المشركين فإنه أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾ وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق، ويقولون:

لاهمَّ لَوْلاَ أنتَ مَا اهتَدَيْنَا ❖ وَلاَ تَصَدَّقْنا وَلاَ صَلَّيْنَا ❖ فأنزلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إنْ لاَقَيْنَا ❖ إنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ❖ إذا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

فيوافقهم رسول الله ﷺ، ويقول معهم آخر كل قافية، فإذا قالوا: إذا أرادوا فتنة أبينا، يقول: أبينا يمد بها صوته.

ثم قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ أي: لولا أنه يدفع بقوم عن قوم، ويكف شرور أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدِّره من الأسباب، لفسدت الأرض، ولأهلك القويُّ الضعيف ﴿لهدمت صوامع﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم. وقال قتادة: هي معابد الصابئين. وفي رواية عنه: صوامع المجوس. وقال مقاتل بن حيان: هي البيوت التي على الطرق ﴿وبيع﴾ وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهي للنصارى أيضاً، قاله أبو العالية وقتادة والضحاك ابن صخر ومقاتل بن حيان وخصيف وغيرهم. وقوله: ﴿وصلوات﴾ قال العوفي عن ابن عباس: الصلوات الكنائس. وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة أنها: كنائس اليهود، وهم يسمونها صلوات. وقال أبو العالية وغيره: الصلوات معابد الصابئين، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: الصلوات مساجد لأهل الكتاب، ولأهل الإسلام بالطرق، وأما المساجد فهي للمسلمين.

وقوله: ﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ فقد قيل: الضمير في قوله: ﴿يذكر﴾ فيها عائد إلى المساجد، لأنها

أقرب المذكورات، وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب. وقال بعض العلماء: هذا ترقٍّ من الأقل إلى الأكثر، إلى أن انتهى إلى المساجد، وهي أكثر عماراً، وأكثر عباداً، وهم ذوو القصد الصحيح.

وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره، فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾

٤١ - روى ابن أبي حاتم: عن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا ربنا الله، ثم مُكِّنّا في الأرض، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي.

وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ. وقال الصباح بن سوادة الكندي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، ثم قال: ألا إنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه، إن لكم على الوالي من ذلكم: أن يأخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة، ولا المستكره بها، ولا المخالف سرها علانيتها.

وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقال زيد بن أسلم ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾: وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾

٤٢ - يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ، في تكذيب من خالفه من قومه ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ

﴿قَوۡمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أي: مع ما جاء به من الآيات البينات، والدلائل الواضحات ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: أنظرتهم وأخرتهم ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم. وذكر بعض السلف: أنه كان بين قول فرعون لقومه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وبين إهلاك الله له، أربعين سنة. وفي الصحيحين: عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الله لَيُملِي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾.

٤٥- ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ أي: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مكذبة لرسلها ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها، أي: قد خربت منازلها، وتعطلت حواضرها ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ أي: لا يُستقى منها، ولا يَرِدُها أحدٌ بعد كثرة وارديها، والازدحام عليها ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ قال عكرمة: يعني المبيض بالجص. وروي عن علي بن أبي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضحاك نحو ذلك، وقال آخرون: هو المنيف المرتفع. وقال آخرون (المشيد) المنيع الحصين. وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يحم أهلَه شدةُ بنائه، ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾.

٤٦- وقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بأبدانهم، وبفكرهم أيضاً، وذلك كاف. كما قال ابن أبي الدنيا في «كتاب التفكر والاعتبار»: قال بعض الحكماء: أحْيِ قَلْبَكَ بالمواعظ، ونوِّره بالتفكر، وموته بالزهد، وقوِّه باليقين، وذلله بالموت، وقرره بالفناء، وبصِّره فجائع الدنيا، وحذِّره صولة الدهر، وفحش تقلُّب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكِّره ما أصاب من كان قبله، وسيِّره في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا وأين حلوا، وعَمَّ انقلبوا.

أي: فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾ أي: فيعتبرون بها ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، إن كانت القوة الباصرة سليمة، فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر!

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)﴾

٤٧- يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ أي: هؤلاء الكفار الملحدون، المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ أي: الذي وعد من إقامة الساعة، والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه.

قال الأصمعي: كنت عند أبي عمرو بن العلاء فجاء عمرو بن عبيد، فقال: يا أبا عمرو، هل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا، فذكر آية وعيد، فقال له: أمن العجم أنت؟ إن العرب تَعدُّ الرجوع عن الوعد لؤماً، وعن الإيعاد كرماً، أما سمعت قول الشاعر:

ليرهب ابنَ العمِ والجار سَطْوتي ... ولا أنثني عن سَطْوة المتهدد

فإني وإنْ أوْعدتـه أو وَعدته لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنجز موْعدي

وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: هو تعالى لا يَعْجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه، كيوم واحد عنده، بالنسبة إلى حِلمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإن أجّل وأنظر وأملى، ولهذا قال بعد هذا:

٤٨- ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يَدْخُلُ فقراءُ المسلمين الجنة، قبل الأغنياء، بنصف يوم، خمسمائة عام» ورواه الترمذي والنسائي.

وقد رواه ابن جرير: عن أبي هريرة موقوفاً: عن سمير بن نهار قال: قال أبو هريرة: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم، قلت: وما مقدار نصف يوم؟ قال: أو ما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى؟ قال: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وروى أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه: عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأرجو أن لا تعجز أمتي عند ربها، أن يؤخرهم نصف يوم، قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة.

وروى ابن أبي حاتم: عن عكرمة عن ابن عباس ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض. ورواه ابن جرير، وبه قال مجاهد وعكرمة ونص عليه أحمد بن حنبل في كتاب «الرد على الجهمية» وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فقد مضت الستة أيام وأنتم في اليوم السابع، فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها، ففي أية لحظة ولدت كان تماماً.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾

٤٩، ٥٠- يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب، واستعجلوه به ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم، بين يدي عذاب شديد، وليس إليَّ من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله إنْ شاء عجل لكم العذاب، وإنْ شاء أخره عنكم، وإنْ شاءَ تاب على من يتوب إليه، وإنْ شاءَ أَضلَّ من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعَّال لما يشاء ويريد ويختار ﴿لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ و﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: مغفرة لما سَلَف من سيئاتهم، ومُجَازاةٌ حَسَنَةٌ على القليل من حسناتهم.

قال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

٥١- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ قال مجاهد: يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ. وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين، وقال ابن عباس ﴿مُعَاجِزِينَ﴾: مراغمين، ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وهي النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ

اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾

٥٢- قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم[(١)].

وقوله: ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، أي: لا يهيدنك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء، قال البخاري: قال ابن عباس ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حدَّث، ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان.

وقال مجاهد ﴿إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ يعني: إذا قال، ويقال أمنيته قراءته ﴿إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ يقرءون ولا يكتبون. قال البغوي: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿تَمَنَّىٰ﴾ أي: تلا وقرأ كتاب الله ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: في تلاوته قال الشاعر في عثمان حين قُتل:

تمنَّى كِتَابَ الله أول ليلةٍ   وآخرها لاقي حِمام المَقادر

وقال الضحاك ﴿إِذَا تَمَنَّىٰ﴾ إذا تلا. قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: فيبطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان، وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة، والحجة البالغة، ولهذا قال:

٥٣- ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌ وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك، واعتقدوا أنه صحيح من عند الله، وإنما كان من الشيطان. قال ابن جريج ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم: المنافقون ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم: المشركون. وقال مقاتل بن حيان: هم اليهود ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أي: من الحق والصواب.

٥٤- ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع، الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والمؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك، الذي أنزله بعلمه، وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب عزيز ﴿لاَّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: يصدقوه وينقادوا له ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخضع وتذل له قلوبهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى

---

(١) وهو الصواب الذي عليه المحققون من أهل العلم، وانظر كتاب: نصب المجانيق لإبطال قصة الغرانيق، لشيخنا علامة الشام الألباني رحمه الله تعالى.

الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿ ولا يزالُ الَّذينَ كفروا في مريةٍ منْهُ حتَّىٰ تأتيهُمُ السَّاعةُ بغتةً أوْ يأتيهُمْ عذابُ يومٍ عقيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يومئذٍ لِّلَّهِ يحكُمُ بينهُمْ فالَّذين آمنوا وعمِلُوا الصَّالحات في جنَّات النَّعيم (٥٦) والَّذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا فأولئكَ لهمْ عذابٌ مُّهينٌ (٥٧) ﴾

٥٥- يقول تعالى مخبراً عن الكفار، أنهم لا يزالون ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: في شك من هذا القرآن. قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وقال سعيد بن جبير وابن زيد: ﴿مِنْهُ﴾ أي: مما ألقى الشيطان ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ قال مجاهد: فجأة، وقال قتادة ﴿بَغْتَةً﴾: بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط، إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قال مجاهد: قال أبي بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير، قال عكرمة ومجاهد في رواية عنهما: هو يوم القيامة، لا ليل له. وكذا قال الضحاك والحسن البصري، وهذا القول هو الصحيح، وإن كان «يوم بدر» من جملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد، ولهذا قال:

٥٦- ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ كقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي: لهم النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد.

٥٧- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدته وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين.

﴿ والَّذينَ هاجروا في سبيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلوا أوْ ماتوا ليرزُقنَّهُمُ اللَّهُ رزقًا حسنًا وإنَّ اللَّهَ لهُوَ خيرُ الرَّازقينَ (٥٨) ليُدخلنَّهُم مُّدخلاً يرضونَهُ وإنَّ اللَّهَ لعليمٌ حليمٌ (٥٩) ذلكَ ومنْ عاقبَ بمثلِ ما عُوقبَ به ثُمَّ بُغيَ عليهِ لينصُرنَّهُ اللَّهُ إنَّ اللَّهَ لعفُوٌّ غفورٌ (٦٠) ﴾

٥٨- يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً في سبيل الله، ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلان، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ أي: في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ أي: حتف أنفهم، من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ أي: ليُجْرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة، ما تقرُّ به أعينهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

٥٩- ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ أي: الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ

﴿وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق، وجنة النعيم، كما قال ههنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ ثم قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ﴾ أي: بمن يهاجر ويجاهد في سبيله، وبمن يستحق ذلك ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه، فأما مَن قُتل في سبيل الله، من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حيٌّ عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ والأحاديث في هذا كثيرة كما تقدم، وأما من تُوفي في سبيل الله، من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة، إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

روى ابن أبي حاتم: عن شُرحبيل بن السِّمط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمر بي - سلمان يعني الفارسي رضي الله عنه فقال: إني - سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن ماتَ مُرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن من الفتَّانين، واقرءوا إن شئتم: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۞ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

وروى أيضاً: عن أبي قبيل وربيعة بن سيف المعافري قالا: كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، فمر بجنازتين إحداهما قتيل والأخرى متوفى، فمال الناس على القتيل، فقال فضالة: مالي أرى الناس مالوا مع هذا، وتركوا هذا؟ فقالوا: هذا القتيل في سبيل الله، فقال: والله ما أبالي من أيِّ حفرتيهما بُعثت، اسمعوا كتاب الله ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ حتى بلغ آخر الآية، ورواه ابن جرير.

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ الآية، ذكر مقاتل بن حيان وابن جرير: أنها نزلت في سرية من الصحابة، لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم، وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم ﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

٦١- يقول تعالى منبهاً على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ومعنى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل: إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما في الصيف. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية، في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

٦٢- ولما تبين أنه المتصرف في الوجود، الحاكم الذي لا معقب لحكمه، قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن،

وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عُبد من دونه تعالى فهو باطل، لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وقال: ﴿وَهُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو ولا رب سواه، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه عز وجل، عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)﴾

٦٣- وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه يرسل الرياح فتثير سحاباً، فتمطر على الأرض الجرز التي لا نبات فيها، وهي هامدة يابسة سوداء ممحلة ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ وقوله: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ الفاء ههنا للتعقيب، وتعقيب كل شيء بحسبه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ الآية. وقد ثبت في الصحيحين: أن بين كل شيئين أربعين يوماً، ومع هذا هو معقب بالفاء، وهكذا ههنا قال: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي: خضراء بعد يباسها ومحولها. وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز: أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وقال: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

٦٤- وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبدٌ لديه.

٦٥- وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ﴾ أي: من حيوان وجماد وزروع وثمار، كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ أي: من إحسانه وفضله وامتنانه ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بتسخيره وتسييره، أي: في البحر العجاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجائر وبضائع ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته، يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: مع ظلمهم، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٦٦- وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقوله: ﴿قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ ومعنى الكلام: كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جحود.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

٦٧- يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً، قال ابن جرير: يعني كل أمة نبي منسكاً، قال: وأصل المنسك في كلام العرب: هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه، إما لخير أو شر، قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لتردداد الناس إليها، وعكوفهم عليها.

فإن كان كما قال من أن المراد (لِكُلِّ أُمَّةِ نَبِيّاً جَعَلْنَا مَنسَكاً)، فيكون المراد بقوله: ﴿فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ أي: هؤلاء المشركون، وإن كان المراد ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً﴾ جعلاً قدرياً، كما قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: فاعلوه، فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أي: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق، ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح مستقيم، موصل إلى المقصود، وهذه كقوله: ﴿وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾.

٦٨- وقوله: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وقوله: ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

٦٩- ولهذا قال: ﴿اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ﴾ الآية.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

٧٠- يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيطٌ بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى عَلِم الكائنات كلها قبل وجودها، وكَتَب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله قدَّر مَقادير الخلائق، قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عَرْشه على الماء».

وفي السنن: من حديث جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلقَ اللهُ القَلَم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتبْ ما هو كائنٌ، فَجَرى القلمُ بما هو كائن إلى يوم القيامة».

وهذا من تمام علمه تعالى، أنه عَلم الأشياء قبل كونها، وقدَّرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه يسير.

﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُون اللَّه مَا لَمْ يُنَزِّلْ به سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم به علْمٌ وَمَا للظَّالمينَ من نَّصير (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات تَعْرِفُ فِي وُجُوه الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) ﴾

٧١- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله، ما لم ينزل به سلطاناً، يعني: حجة وبرهاناً، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سوَّل لهم الشيطان وزيَّنه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: وإذا ذُكِرتْ لهم آيات القرآن، والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء، قل: أي: يا محمد لهؤلاء ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: النار وعذابها ونكالها، أشد وأشق وأطم وأعظم، مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا، أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم. وقوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: وبئس النار مقيلاً ومنزلاً، ومرجعاً وموئلاً ومقاماً ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ﴾

٧٣- يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام، وسخافة عقول عابديها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي: لو اجتمع جميعُ ما تعبدون من الأصنام والأنداد، على أن يقدروا على خلق ذباب واحد، ما قدروا على ذلك، كما روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة مرفوعاً قال: «وَمَنْ أظلمُ ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا مثل خلقي ذرة، أو ذبابة، أو حبة». وأخرجه صاحبا الصحيح: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل «وَمن أظلمُ ممن ذَهَبَ يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة».

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: هم عاجزون عن خلق ذباب

واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطِّيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه، لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق، وقال السدي وغيره: ﴿الطَّالِبُ﴾ العابد ﴿الْمَطْلُوبُ﴾ الصنم.

٧٤- ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته، حين عبدوا معه غيره، ، من هذه التي لا تقاوم الذباب، لضعفها وعجزها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو القوي، الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: قد عزّ كل شيء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦)﴾

٧٥- يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً، فيما يشاء من شرعه وقدره، ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ لإبلاغ رسالاته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

٧٦- وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ أي: يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، كما قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم ناصر لجنابهم ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾

٧٧- اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه السجدة الثانية من سورة الحج، هل هو مشروع السجود فيها، أم لا؟ على قولين، وقد قدمنا عند الأولى حديث: عقبة بن عامر عن النبي ﷺ: «فُضِّلَت سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»[1].

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾. وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ما كلفكم ما لا

---

(١) الحديث ضعيف، رواه أبو داود (١٤٠٢) والترمذي (٥٨٣) وقال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده قوي.

تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم، إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين، تجب في الحضر أربعاً، وفي السفر تقصر إلى اثنتين، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، وتصلى رجالاً وركباناً، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط لعذر المرض، فيصليها المريض جالساً، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات، ولهذا قال ﷺ: «بُعِثْتُ بالحنيفية السمحة»(١). وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بَشِّرا وَلا تُنفِّرَا، ويَسِّرَا وَلا تُعسِّرَا». والأحاديث في هذا كثيرة.

ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني: من ضيق.

وقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال ابن جرير: نُصب على تقدير ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضيق، بل وسَّعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم، قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم. **قلت**: وهذا المعنى في هذه الآية، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ الآية.

وقوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ روى الإمام عبد الله بن المبارك: عن ابن عباس في قوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ قال: الله عز وجل. وكذا قال مجاهد وعطاء والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ يعني: إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ قال ابن جرير: وهذا لا وجه له، لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأمة في القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ قال مجاهد: الله سمَّاكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، وفي الذكر ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني: القرآن. وكذا قال غيره. **قلت**: وهذا هو الصواب، لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوَّه به من ذكرها، والثناء عليها في سالف الدهر، وقديم الزمان، في كتب الأنبياء يتلى على الأحبار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾ روى النسائي عند تفسير هذه الآية: عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دَعَا بدعوى الجاهلية، فإنه من جِثِيِّ جهنَّم» قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «نعم، وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله التي سمَّاكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله». وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ من سورة البقرة.

ولهذا قال: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً، مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفةٌ يومئذ بسيادتها وفضلها، على كل أمة سواها، فلهذا تُقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، في أن

---

(١) حديث حسن، رواه أحمد (٥/ ٢٦٦) وفيه ضعف، لكن له شواهد يتقوى بها.

الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾، وذكرنا حديث نوح وأمته بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، فأدوا حقَّ الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرَّم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب للفقير على الغنى، من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله في آية الزكاة، من سورة التوبة.

وقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: اعتضدوا بالله، واستعينوا به، وتوكلوا عليه، وتأيدوا به ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعني: نعم الولي، ونعم الناصر من الأعداء. قال وهيب بن الورد: يقول الله تعالى: «ابن آدم اذكرني إذا غضبت، أذكرك إذا غَضِبتُ، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظُلمت فاصبر، وارض بنصرتي، فإن نصرتي لك، خير من نصرتك لنفسك» رواه ابن أبي حاتم[(١)]، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الحج

****

(١) الأثر لعله من أخبار بني إسرائيل، وأبقيته لصحة معناه، والله أعلم.

ترتيبها ٢٣ — سورة المؤمنون ـ مكية — آياتها ١١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)
وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ
لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠)
الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾

١ ، ٢- روي عن كعب الأحبار ومجاهد وأبي العالية وغيرهم: لما خلق الله جنة عدن، وغرسها بيده، نظر إليها وقال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال كعب الأحبار: لِما أعدَّ لهم من الكرامة فيها. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك في كتابه. وقد روي ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، فروى أبو بكر البزار: عن أبي سعيد قال: خلق الله الجنة لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وغرسها، وقال لها: تكلمي، فقالت ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك منزل الملوك[1].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: قد فازوا وسعدوا، وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿خَاشِعُونَ﴾ خائفون ساكنون. وكذا رُوي عن مجاهد والحسن وقتادة والزهري، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الخشوع خشوع القلب. وكذا قال إبراهيم النخعي، وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح.

وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، قال محمد بن سيرين: وكانوا يقولون لا يجاوز بصره مُصَلاّه، فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. ثم روى ابن جرير عنه وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسلاً: أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، حتى نزلت هذه الآية.

والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرَّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين، كما قال النبي ﷺ في الحديث، الذي رواه الإمام أحمد والنسائي: عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ الطِّيب والنساء، وجُعلت قُرَّةُ عَيني في الصلاة».

وروى الإمام أحمد: عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة».

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبي على صهرٍ لنا من الأنصار،

---

(١) وقد روي مرفوعاً كما قال، وفيه نظر! وانظر صحيح الترغيب (٣٧١٤).

فحضرت الصلاة، فقال: يا جارية، ائتني بوضوء لعلي أُصلي فأستريح، فرآنا أنكرنا عليه ذلك، فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة».

٣- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي: عن الباطل، وهو يشمل الشرك، كما قاله بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا: زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فُرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ على أحد القولين في تفسيرهما. وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس، وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا، والله أعلم.

٥ - ٧- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، أو ما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الأزواج والإماء ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي: المعتدون.

وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه، على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

٨- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي: إذا ائتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّثَ كذب، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا اؤتُمِنَ خَانَ».

٩- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يواظبون عليها في مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» أخرجاه في الصحيحين، وفي مستدرك الحاكم قال: «الصلاة في أول وقتها».

وقال ابن مسعود ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يعني: مواقيت الصلاة، وكذا قال أبو الضحى وعلقمة بن قيس وسعيد بن جبير وعكرمة، وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها.

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها، كما قال رسول

الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة، والأفعال الرشيدة، قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن».

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا وله منزلان: منزلٌ في الجنة، ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله» فذلك قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾.

وعن مجاهد ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ قال: ما من عبدٍ إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة، ويبني بيته الذي في النار. وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك.

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار، لأنهم خُلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك، لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم: عن أبي بردة عن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «يجيء ناسٌ يوم القيامة من المسلمين بذنوبٍ أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويَضَعها على اليهود والنصارى» وفي لفظ له: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: هذا فكاكك من النار» فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك، قال: فحلف له.

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقد قال مجاهد وسعيد بن جبير: الجنة بالرومية هي الفردوس، وقال بعض السلف: لا يسمى البستان الفردوس، إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

١٢ - يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، خلقه الله من صلصال من حمإٍ مسنون. وعن أبي يحيى عن ابن عباس ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ قال: من صفوة الماء. وقال مجاهد ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾ أي: من منيّ آدم، وقال ابن جرير: إنما سمي آدم طيناً، لأنه مخلوق منه، وقال قتادة: استُلَّ آدم من الطين. وهذا أظهر في المعنى، وأقرب إلى السياق، فإن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمإ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾. وروى الإمام أحمد: عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِن قَبْضَةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك،

والخبيث والطيب، وبين ذلك» وقد رواه أبو داود والترمذي.

١٣ - ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني: الرحم معدٌّ لذلك مهيأ له ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ أي: مدة معلومة، وأجل معين، حتى استحكم وتنقل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة، ولهذا قال ههنا:

١٤ - ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: ثمَّ صيَّرنا النُّطفة، وهي: الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل - وهو ظهره - وترائب المرأة - وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة - فصارت علقةً حمراء على شكل العَلَقة مستطيلة. قال عكرمة: وهي دم. ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وهي: قطعة كالبضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ يعني: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين، بعظام وعصبها وعروقها، وقرأ آخرون ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عَظْمًا﴾ قال ابن عباس: هو عظم الصلب.

وفي الصحيح: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ جسد ابن آدم يبلى، إلا عَجْب الذَّنب، منه خلق ومنه يُركَّب».

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أي: جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرَّك وصار خلقاً آخر، ذا سمع وبصر وإدراك، وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. وروي عن أبي سعيد الخدري: أنه نفخ الروح. قال ابن عباس ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني: فنفخنا فيه الروح، وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبي والحسن وأبو العالية والضحاك والربيع بن أنس والسدي وابن زيد، واختاره ابن جرير، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعني: ننقله من حال إلى حال، إلى أنْ أخرج طفلاً ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم ثم صار شاباً، ثم كهلاً ثم شيخاً ثم هرماً. وعن قتادة والضحاك نحو ذلك، ولا منافاة فإنه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التنقلات والأحوال، والله أعلم.

روى الإمام أحمد في مسنده: عن عبد الله - هو ابن مسعود - رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق: «إنَّ أحَدَكُمْ لَيُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أربعينَ يوماً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلماتٍ: رزقه وأجله وعمله، وهل هو شقي أو سعيد. فوالذي لا إله غيره، إنَّ أحدكم ليعملُ بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلاذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها. وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها» أخرجاه.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي خيثمة قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود - إنَّ النطفة إذا وقعت في الرحم، طارت في كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوماً، ثم تعود في الرحم فتكون علقة.

وروى الإمام أحمد: عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخل الملك على النُّطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب ماذا؟ شقيٌّ أو سعيد، أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، فيكتبان، ويكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه، ثم تطوى الصحيفة، فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص» وقد رواه مسلم في صحيحه.

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعني: حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة، من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه، من الإنسان السوي الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

١٥ - وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعني: بعد هذه النشأة الأولى من العدم، تصيرون إلى الموت.

١٦ - ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يعني: النشأة الآخرة، ﴿ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ يعني: يوم المعاد، وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوافي كل عامل عمله، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾

١٧ - لما ذكر تعالى خَلق الإنسان عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وهكذا في أول ألم السجدة، التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة، في أولها خَلق السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سُلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

وقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قال مجاهد: يعني السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا﴾، ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي: ويعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير، وهو سبحانه لا يَحجب عنه سماءٌ سماء، ولا أرضٌ أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) ﴾

١٨ - يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تحصى، في إنزاله القطر من السماء بقدر، أي: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماءَ كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: الأرض الجُرز، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر، يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه، لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى. وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي: لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والقفار، لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا يُنتفع به لشُرب ولا لسقي، لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض بل ينجر على وجهها، لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه، ولا تنتفعون به، لفعلنا، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالاً، فيسكنه في الأرض، ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، ويسقى به الزروع والثمار، تشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتتطهرون منه وتتنظفون، فله الحمد والمنة.

١٩- وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعني: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات، أي: بساتين وحدائق ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: ذات منظر حسن، وقوله: ﴿مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي: فيها نخيل وأعناب، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل أقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم، ما يعجزون عن القيام بشكره. وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾. وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حُسنه ونضجه ومنه تأكلون.

٢٠- وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعني الزيتونة، والطور هو الجبل، وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عرى عنها سُمي جبلاً لا طوراً، والله أعلم، وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران ﷺ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون، وقوله ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره: تنبت الدهن، كما في قول العرب: ألقى فلان بيده، أي: يده، وأما على قول من يتضمن الفعل، فتقديره: تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن، ولهذا قال: ﴿وَصِبْغٍ﴾ أي: أدم، قاله قتادة ﴿لِّلْآكِلِينَ﴾ أي: فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، كما روى الإمام أحمد: عن أبي أسيد واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا الزَّيتَ، وادَّهنوا به، فإنه من شَجرةٍ مباركة».

٢١، ٢٢- وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ يذكر تعالى ما جعل لخلقه من الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها، الخارجة من بين فرث ودم، ويأكلون من حملانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويُحمِّلونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ

مَلائكَةً مَّا سَمعْنَا بهَذَا في آبَائنَا الأَوَّلينَ (٢٤) إنْ هُوَ إلاَّ رَجُلٌ به جنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا به حَتَّىٰ حين (٢٥) ﴾

٢٣- يخبر تعالى عن نوح ﷺ حين بعثه إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به، وخالف أمره، وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟!

٢٤- فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون: يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة، وهو بشر مثلكم، فكيف أوحى إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده، ولم يكن بشراً ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: ببعثة البشر ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية.

٢٥- وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْني بمَا كَذَّبُون (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إلَيْه أَن اصْنَع الْفُلْكَ بأَعْيُننَا وَوَحْينَا فَإذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فيهَا من كُلٍّ زَوْجَيْن اثْنَيْن وَأَهْلَكَ إلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْه الْقَوْلُ منْهُمْ وَلا تُخَاطبْني في الَّذينَ ظَلَمُوا إنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْك فَقُل الْحَمْدُ للَّه الَّذي نَجَّانَا منَ الْقَوْم الظَّالمينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْني مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلينَ (٢٩) إنَّ في ذَلكَ لآيَات وَإن كُنَّا لَمُبْتَلينَ (٣٠) ﴾

٢٦- يخبر تعالى عن نوح ﷺ أنه دعا ربه ليستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ وقال ههنا ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾.

٢٧- فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعه السفينة، وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي: ذكراً وأنثى، من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: من سبق عليه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي: عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخذنك رأفة بقومك، وشفقة عليهم وطمع في تأخيرهم، لعلهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مغرقون، على ما هم عليه من الكفر والطغيان، وقد تقدمت القصة مبسوطة في سورة هود بما يغني عن إعادة ذلك ههنا.

٢٨- وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۞ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

٢٩- وقد امتثل نوح ﷺ هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره، وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

٣٠- وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: إن في هذا الصنيع ـ وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ـ لآيات، أي: لحجج ودلالات واضحات، على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، قادر على كل شيء، عليم بكل شيء. وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: لمختبرين للعباد، بإرسال المرسلين.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)﴾

٣١- ٣٤- يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين، قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم، وقيل: المراد بهؤلاء ثمود، لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولاً منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوه وخالفوه، وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسولٍ بَشَري، وكذبوا بلقاء الله في القيامة، وأنكروا المعاد الجثماني.

٣٥، ٣٦- وقالوا ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: بعيد بعيد ذلك.

٣٨- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾(١) أي: فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة، والإخبار بالمعاد ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

٣٩- ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: استفتح عليهم الرسول، واستنصر به عليهم.

٤٠- فأجاب دعاءه ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أي: بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به.

٤١- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أي: وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة، مع الريح الصرصر العاصف القوي البارد ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي: صرعى هلكى كغثاء السيل، وهو الشيء الحقير التافه الهالك، الذي لا ينتفع بشيء منه ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بكفرهم وعنادهم، ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا

---

(١) كذا في الأصل، لم يذكر الحافظ قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤)﴾

٤٢- يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ أي: أمما وخلائق.

٤٣- ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ يعني: بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ، وعلمه قبل كونهم، أمة بعد أمة، وقرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وخلفاً بعد سلف.

٤٤- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ قال ابن عباس: يعني يتبع بعضهم بعضاً، وهذا كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾.

وقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ يعني: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وقوله: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي: أهلكناهم، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)﴾

٤٥- ٤٩- يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى ﷺ وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والانقياد لأمرهما، لكونهما بشرين، كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة، فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وبعد أن أنزل الله التوراة لم تهلك أمة بعد أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾

٥٠- يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام، أنه جعلهما آية للناس، أي: حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى، وقوله: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة، قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعني: ماء ظاهراً. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة. وقال مجاهد: ربوة مستوية، وقال سعيد بن جبير ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ استوى الماء فيها. وقال مجاهد وقتادة ﴿وَمَعِينٍ﴾ الماء الجاري.

ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة، من أي أرض هي؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ليس الربى إلا بمصر، والماء حين يسيل يكون الربى عليها القرى، ولولا الربى غرقت القرى، وروي عن وهب بن منبه نحو هذا، وهو بعيد جداً. وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: هي دمشق. قال: وروي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك.

وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وكذا قال الضحاك وقتادة ﴿إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ هو بيت المقدس فهذا ـ والله أعلم ـ هو الأظهر لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾

٥١- يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عونٌ على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً، ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً.

قال الحسن البصري في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال انتهوا إلى الحلال منه، وقال سعيد بن جبير والضحاك ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: الحلال. وفي الصحيح: «وما من نبي إلا رعى الغنم، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ - قال: «نعم، وأنا كنتُ أرعاها على قراريط لأهل مكة».

وفي الصحيح: «إن داود ﷺ كان يأكل من كسب يده».

وفي الصحيحين: «إن أحبَّ الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سُدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى».

وقد ثبت في صحيح مسلم وجامع الترمذي ومسند الإمام أحمد واللفظ له: من حديث عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيُّها الناس، إنَّ اللهَ طيبٌ، لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر الرجلَ يُطيل السفر، أشعث أغبر، ومطعمه حرامٌ، وملبسه حرام، وغُذِّيَ بالحرام، يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربُّ، يا ربُّ، فأنَّى يُستجاب لذلك».

٥٢- وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأنبياء. وإن قوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ منصوب على الحال.

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال، لأنهم يحسبون أنهم مهتدون.

٥٤- ولهذا قال مهدداً لهم ومتوعداً ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ أي: إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

٥٥- وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ يعني: أيظن هؤلاء المغرورون، أن ما نعطيهم من الأموالهم والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا! كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لقد أخطأوا في ذلك، وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً، وإنظاراً وإملاءً، ولهذا قال: ﴿بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ الآية، وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿عَنِيدًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية. والآيات في هذا كثيرة.

قال قتادة في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ قال: مَكَرُوا الله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) ﴾

٥٧- يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله، خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جَمَع إحساناً وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمناً.

٥٨- ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ أي: أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً، فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً، فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله.

٥٩- ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه، ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً، صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

٦٠- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي: يعطون العطاء وهم خائفون وجلون، أن لا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء، وهذا من باب

الإشفاق والاحتياط، كما روى الإمام أحمد: عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يُصلي ويصوم ويتصدَّق، وهو يخاف الله عز وجل» وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم بنحوه وقال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدَّقون، وهم يخافون ألا يتقبل منهم ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾. وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والحسن البصري في تفسير هذه الآية. وقد قرأ آخرون هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوا وقُلوبهمْ وَجِلةٌ﴾ أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون. والمعنى على القراءة الأولى - وهي قراءة الجمهور: السبعة وغيرهم - أظهر، لأنه قال: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى، لأوشك أن لا يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو المقصرين، والله أعلم.

﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) ﴾

٦٢- يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده، في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم، التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء، ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: كتاب الأعمال ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين.

٦٣- ثم قال منكراً على الكفار والمشركين من قريش ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي: في غفلة وضلالة من هذا، أي: القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ. وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ عن عكرمة عن ابن عباس ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ أي: سيئة من دون ذلك، يعني: الشرك ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال: لا بد أن يعملوها. وكذا روي عن مجاهد والحسن وغير واحد، وقال آخرون ﴿لَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي: قد كتبت عليهم أعمال سيئة، لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحق عليهم كلمة العذاب. وروي نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ظاهر قوي حسن، وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره، إن الرجل ليعملُ بعملِ أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها».

٦٤- وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يعني: حتى إذا جاء مترفيهم - وهم المنعمون في الدنيا - عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

٦٥- وقوله: ﴿لاَ تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ﴾ أي: لا يجيركم أحدٌ مما حلَّ بكم، سواء جأرتم أو

سكتم، لا محيد ولا مناص ولا وزرَ، لزم الأمر، ووجب العذاب.

٦٦- ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾.

٦٧- وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾ في تفسيره قولان: **(أحدهما)**: أن مستكبرين حال منهم، حين نكوصهم عن الحق، وإبائهم إياه استكباراً عليه، واحتقاراً له ولأهله، فعلى هذا الضمير في «به» فيه ثلاثة أقوال: **(أحدهما)** أنه الحرام، أي: مكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام. **(والثاني)**: أنه ضمير للقرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر إنه شعر إنه كهانة، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. **(والثالث)**: أنه محمدﷺ، كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون، فكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء.

وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: بالبيت يفتخرون به، ويعتقدون أنهم أولياؤه، وليسوا به، كما روى النسائي في التفسير من سننه: عن ابن عباس أنه قال: إنما كُره السَّمر، حين نزلت هذه الآية ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ﴾ فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله ﴿سَامِراً﴾، قال: كانوا يتكبرون ويسمرون فيه، ولا يعمرونه ويهجرونه، وقد أطنب ابن أبي حاتم ههنا بما هذا حاصله.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾

٦٨- يقول تعالى منكراً على المشركين، في عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له، وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصُّوا بهذا الكتاب، الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب، ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها، والقيام بشكرها، وتفهمهم والعمل بمقتضاها، آناء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم، ممن أسلم واتبع الرسولﷺ، ورضي عنهم. وقال قتادة ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ إذاً والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله، لو تدبره القوم عقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه منه، فهلكوا عند ذلك.

٦٩- ثم قال منكراً على الكافرين من قريش ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي: أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه، وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم؟ أي: أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه

وأمانته، وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك.

٧٠- وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ يحكى قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تَقَوَّلَ القرآن، أي: افتراه من عنده، أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله مالا يطاق ولا يدافع، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض، أن يأتوا بمثله إن استطاعوا، ولا يستطيعون أبد الآبدين، ولهذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ يحتمل أن تكون هذه جملة حالية، أي: في حالة كراهة أكثرهم للحق، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم.

٧١- وقوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ قال مجاهد وأبو صالح والسدي: الحق هو الله عز وجل. والمراد: لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ﴾ الآية، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾ ففي هذا كله تبيين عجز العباد، واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه، تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه، ولهذا قال: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: القرآن ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

٧٢- وقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً﴾ قال الحسن: أجراً، وقال قتادة: جعلاً ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلاً، ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ وقال: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ وقال: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً﴾.

٧٣- وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾. روى الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني مُمسكٌ بِحُجَزِكُم هلم عن النار، هلم عن النار، وتغلبونني تَتقاحمون فيها تقاحم الفَراش والجَنادِب، فأُوشك أن أُرسل حجزكم، وأنا فرطكم على الحوض، فتَرِدُونَ عليَّ معاً وأشتاتاً، أعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين، أي رب قومي، أي رب أمتي، فيقال: يا محمد، إنك لا تَدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القَهْقَرى على أعقابهم، فلأعرفنَّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاةً لها ثُغاء، ينادي: يا محمد، فأقول لا أملك لك من الله شيئاً، قد بلغت، ولأعرفنَّ أحدكم يحمل بعيراً له رُغاء، يُنادي: يا محمد يا محمد، فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرسا لها حَمحمة، فينادي: يا محمد، يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحملُ

سقاء من أدم، ينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغت».

٧٤- وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ أي: لعادلون حائرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق، إذا زاغ عنها.

٧٥- ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم، بأنه لو أزاح عنهم الضر، وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له، ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾. فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون، لو كان كيف يكون، قال الضحاك عن ابن عباس: كل ما فيه ﴿لَوْ﴾ فهو مما لا يكون أبداً.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) ﴾

٧٦- يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على غيهم وضلالهم ﴿مَا اسْتَكَانُوا﴾ أي: ما خشعوا ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية، وروى ابن أبي حاتم: عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز - يعني الوبر والدم - فأنزل الله ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ الآية، وكذا رواه النسائي.

وأصله في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا، فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف».

٧٧- وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: حتى إذا جاءهم أمر الله، وجاءتهم الساعة بغتة، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

٧٨- ثم ذكر تعالى نعمه على عباده، أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم، التي يدركون بها الأشياء، ويعتبرون بما في الكون من الآيات، الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ما أقل شكركم لله، على ما أنعم به عليكم، كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

٧٩- ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة، وسلطانه القاهر، في برئه الخليقة، وذرئه لهم في سائر أقطار

الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم.

٨٠- ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين، لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً، إلا أعاده كما بدأه ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي الرمم، ويميت الأمم ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: عن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ الآية. وقوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم، الذي قد قهر كل شيء، وعزّ كل شيء، وخضع له كل شيء.

٨١- ٨٣- ثم قال مخبراً عن منكري البعث، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يعني: يستبعدون وقوع ذلك، بعد صيرورتهم إلى البلى ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعنون: الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقّاها عن كتب الأولين واختلافهم، وهذا الإنكار والتكذيب منهم، كقوله إخباراً عنهم ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ الآيات.

﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠)﴾

٨٤- يقرر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ولهذا قال لرسوله محمدﷺ، أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئاً، ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾. فقال: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ أي: مَنْ مالكها الذي خلقها؟ ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات، وسائر صنوف المخلوقات؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٨٥- ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: فيعترفون لك: بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره.

٨٦- ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من هو خالق العالم العلوي، بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكة الخاضعين له، في سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب «العرش العظيم» يعني الذي هو سقف المخلوقات. وقال الضحاك عن ابن عباس: إنما سمي عرشاً لارتفاعه. وقال مجاهد: ما السموات والأرض في العرش، إلا كحلقة في أرض فلاة. وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن

عباس قال: العرش لا يقدر قدره أحد. وفي رواية: إلا الله عز وجل، وقال بعض السلف: العرش من ياقوتة حمراء. ولهذا قال ههنا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: الكبير، وقال في آخر السورة ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أي: الحسن البهي، فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو، والحسن الباهر، ولهذا قال من قال: إنه من ياقوتة حمراء، وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه.

٨٧- وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه، وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره، وإشراككم به؟

٨٨- ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بيده الملك ﴿مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي: متصرف فيها، وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا والذي نفسي بيده» وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لا ومقلِّب القلوب» فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخفَرُ في جواره، وليس لمن دونه أن يُجير عليه، لئلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه الذي لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وقال الله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أي: لا يُسئل عما يفعل لعظمته وكبريائه، وغلبته وقهره وعزته، وحكمته وعدله، فالخلق كلهم يسئلون عن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٨٩- وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: سيعترفون أن السيد العظيم، الذي يجير ولا يجار عليه، هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي: فكيف تذهب عقولكم، في عبادتكم معه غيره، مع اعترافكم وعلمكم بذلك.

٩٠- ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: في عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافهم، الحيارى الجهال، كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾

٩١- ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد، أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لو قُدِّرَ تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي، مرتبط بعضه ببعض، في غاية الكمال ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾. ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بـ «دليل التمانع» وهو أنه لو فُرض صانعان فصاعداً، فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال

إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً، فأما إنْ حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يقول الظالمون المعتدون، في دعواهم الولد أو الشريك، علواً كبيراً.

٩٢- ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨)﴾

٩٣، ٩٤- يقول تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: إنْ عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك، فلا تجعلني فيهم، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفني إليك غير مفتون».

٩٥- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ أي: لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن.

٩٦- ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسيء إليه، ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة، وبغضه محبة، فقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ وهذا كما قال في الآية الأخرى ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ الآية، أي: وما يُلهَمُ هذه الوصية، أو هذه الخصلة، أو الصفة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

٩٧- وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ أمره الله أنْ يستعيذ من الشياطين، لأنهم لا تنفع معهم الحيل، ولا ينقادون بالمعروف، وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من هَمْزِه ونَفْخِه ونفثه»[1].

٩٨- وقوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي: في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور، ولهذا روى أبو داود: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: «اللهم إنِّي أعوذ بك من الهَرَم، وأعوذ بك من الهَدم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت».

وروى الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: «بسم الله، أعوذُ بكلمات الله التَّامَّة، من غَضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون». ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

---

(١) انظر مقدمة الكتاب.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾

٩٩- يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت ، من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى ، وقيلهم عند ذلك ، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ، ولهذا قال : ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ❁ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ﴾ كما قال تعالى : ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ إلى قوله : ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ إلى قوله : ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ إلى قوله : ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ وقال تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ والآية بعدها . وقال تعالى : ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة ، فلا يجابون عند الاحتضار ، ويوم النشور ، ووقت العرض على الجبار ، وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم .

١٠٠- وقوله ههنا : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ كلا حرف ردع وزجر ، أي : لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه . وقوله تعالى : ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أي لا بد أن يقولها لا محالة ، كلُّ محتضر ظالم ، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله «كلا» أي : لأنها كلمة ، أي : سؤاله الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه ، وقول لا عمل معه ، ولو رُدَّ لما عمل صالحاً ، ولكان يكذب في مقالته هذه ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ قال قتادة : والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات ، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل ، فرحم الله امرأً عمل فيما يتمناه الكافر ، إذا رأى العذاب إلى النار . وقال محمد بن كعب القرظي ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال فيقول الجبار : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ . وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : إذا قال الكافر رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً ، يقول الله تعالى : كلا كذبت . وكان العلاء بن زياد يقول : لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت ، فاستقال ربه فأقاله ، فليعمل بطاعة الله تعالى .

وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى : ﴿وَمِن وَرَائِهِم﴾ يعني : أمامهم . وقال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة . وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ، ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ، ولا مع أهل الآخرة يجاوزون بأعمالهم . وقال أبو صخر : البرزخ المقابر ، لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة ، فهم مقيمون إلى يوم يبعثون . وفي قوله تعالى : ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ ، كما قال تعالى : ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ . وقوله تعالى : ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي : يستمر به العذاب إلى يوم البعث ، كما جاء في الحديث : «فلا يزال معذباً فيها» أي : في

الأرض.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)﴾

١٠١- يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرثي والدٌ لولده ولا عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: لا يسأل القريب عن قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه، ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ الآية، وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة، جمع الله الأولين والآخرين، ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه، قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده، أو ولده، أو زوجته، وإن كان صغيراً؛ مصداق ذلك في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وروى الإمام أحمد: عن المسور ـ هو ابن مخرمة ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فاطمة بَضعةٌ مِنّي، يَقبضني ما يقبضها، ويَبْسطني ما يبسطها، وإنَّ الأنسابَ تنقطع يوم القيامة، غير نَسبي وسببي وصهري».

وهذا الحديث له أصل في الصحيحين: عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بَضعة مني، يَريبني ما يَريبها، ويُؤذيني ما آذاها». وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضي الله عنه، أنه لما تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: أما والله مابي، إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة، إلا سببي ونسبي» رواه الطبراني والبزار والهيثم ابن كليب والبيهقي والحافظ الضياء في المختارة. وذكر أنه أصدقها أربعين ألفاً إعظاماً وإكراماً رضي الله عنه.

١٠٢- وقوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: مَن رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة، وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا.

١٠٣- ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خابوا وهلكوا، وفازوا بالصفقة الخاسرة. ولهذا قال تعالى: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها دائمون، مقيمون فلا يظعنون.

١٠٤- ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني عابسون، وروى الثوري عن عبد الله بن مسعود ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال: ألم تر إلى الرأس المُشيَّط[١]، الذي قد بدأ أسنانه وقلصت شفتاه.

(١) المشيط: المحترق كرأس الشاة إذا شوي، نسأل الله تعالى العافية.

﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) ﴾

١٠٥ - هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار، على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم، والمحارم والعظائم، التي أوبقتهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة، كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ إلى قوله: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

١٠٦ - ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: قد قامت علينا الحجة، لكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فضللنا عنها ولم نرزقها.

١٠٧ - ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أي: اردنا إلى الدنيا، فإنْ عُدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قال: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي: لا سبيل إلى الخروج، لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١) ﴾

١٠٨ - هذا جواب من الله تعالى للكفار، إذا سألوا الخروج من النار، والرجعة إلى هذه الدار. يقول: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ أي: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي. قال العوفي عن ابن عباس ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه. وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرد عليهم ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ قال: هانت دعوتهم ـ والله ـ على مالك، ورب مالك، ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۞ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: فوالله ما نَبسَ القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق.

١٠٩، ١١٠ - ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۞ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: فسخرتم منهم في دعائهم إياي، وتضرعهم إليَّ ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي: حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: من صنعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي: يلمزونهم استهزاء.

١١١ - ثم أخبر تعالى عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على أذاكم لهم، واستهزائكم به ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالسعادة والسلامة والجنة، والنجاة من النار.

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾

١١٢ - يقول تعالى منبهاً لهم، على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا، من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، لو صبروا في مدة الدنيا القصيرة، لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا.

١١٣ - ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أي: الحاسبين.

١١٤ - ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء، ولا استحققتم من الله سخطه، في تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته، كما فعل المؤمنون، لفزتم كما فازوا.

١١٥ - وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً، بلا قصد ولا إرادة منكم، ولا حكمة لنا، وقيل: للعبث، أي: لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم، لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة، وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ أي: لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ يعني: هملاً.

١١٦ - وقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق، المنزه عن ذلك ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أي: حسن المنظر، بهي الشكل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾

١١٧ - يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لاَ بُرْهَانَ لَهُ﴾ أي: لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أي: الله يحاسبه على ذلك، ثم أخبر ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة.

١١٨ - وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال.

آخر تفسير سورة المؤمنين

****

ترتيبها ٢٤ — سورة النور ـ مكية — آياتها ٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾

١ ـ يقول تعالى: هذه ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾، فيه تنبيهٌ على الاعتناء بها، ولا ينفي ما عداها ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قال مجاهد وقتادة: أي: بينّا الحلال والحرام، والأمر والنهي والحدود، وقال البخاري: ومن قرأ ﴿فَرَضْنَاهَا﴾ يقول فرضناها عليكم وعلى من بعدكم ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: مفسرات واضحات ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٢ ـ ثم قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ يعني: هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع، فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً، وهو الذي لم يتزوج، أو محصناً، وهو الذي قد وَطئ في نكاح صحيح، وهو حر بالغ عاقل، فأمّا إذا كان بكراً لم يتزوج، فإن حدّه مائة جلدة، كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يغرب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام، إن شاء غرّب وإن شاء لم يغرب.

وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفاً ـ يعني أجيراً ـ على هذا فزنا بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وإن على امرأة هذا: الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكما بكتاب الله تعالى، الوليدة والغنم ردٌّ عليك، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام. واغدُ يا أنيس ـ لرجل من أسلم ـ إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها فاعترفت فرجمها.

وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة، إذا كان بكراً لم يتزوج، فأما إذا كان محصناً وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح، وهو حر بالغ عاقل، فإنه يرجم، كماروى الإمام مالك: عن ابن عباس أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان، أن يقول قائل، : لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حقٌّ على من زنى، إذا أحصن من الرجال ومن النساء، إذا قامت البينة أو الحَبَل أو الاعتراف. أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً، وهذه قطعة منه فيها مقصودنا ههنا.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن عوف أن عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعته يقول: ألا وإن

ناساً يقولون ما بال الرجم؟ في كتاب الله! وإنما فيه الجلد، وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده. ولولا أن يقول قائل - أو يتكلم متكلم - أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه، لأثبتها كما نزلت. وأخرجه النسائي.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن كثير بن الصلت قال: كنا عند مروان وفينا زيد فقال زيد بن ثابت: كنا نقرأ: «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» قال مروان: ألا كتبتها في المصحف؟ قال: ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفيكم من ذلك، قال: قلنا: فكيف؟ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: فذكر كذا وكذا، وذكر الرجم، فقال: يا رسول الله، اكتب لي آية الرجم، قال: «لا أستطيع الآن» هذا أو نحو ذلك. وقد رواه النسائي. وهذه طرق كلها متعددة متعاضدة، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة، فنسخ تلاوتها، وبقي حكمها معمولاً به، والله أعلم.

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة، وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير، لما زنت مع الأجير، ورجم رسول الله ﷺ ماعزاً والغامدية، وكل هؤلاء لم يُنقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم، وإنما وردت الأحاديث الصحيحة، المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ، بالاقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد، ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله، وذهب الإمام أحمد رحمه الله: إلى أنه يجب أن يُجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية، والرجم للسنة، كما رُوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه لما أتي بشُراحة وكانت قد زنت وهي محصنة، فجلدها يوم الخميس، ورجمها يوم الجمعة، فقال: جلدتُها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ.

وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن الأربعة ومسلم: من حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلدُ مائةٍ وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله، أي: لا ترأفوا بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد، فلا يجوز ذلك. قال مجاهد ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: إقامة الحدود إذا رُفِعت إلى السلطان، فتقام ولا تعطل. وكذا رُوي عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وقد جاء في الحديث: «تعافوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حدٍّ، فقد وَجبَ»(١).

وفي الحديث الآخر: «الحدٌّ يُقام في الأرض، خيرٌ لأهلها من أن يُمطروا أربعين صباحاً»(٢).

وقيل: المراد ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم، وليس المراد الضرب المبرح. قال عامر الشعبي ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: رحمة في شدة الضرب. وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرِّح، وقال حماد بن سليمان: يُجلد القاذف وعليه ثيابه، والزاني تخلع ثيابه(٣)، ثم تلا ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ فقلت هذا في الحكم؟ قال: هذا في الحكم والجلد، يعني:

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٧٦) والنسائي (٤٥٣٨، ٤٥٣٩) وغيرهما من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٦٢، ٤٠٢) والنسائي (٤٥٥٥) وابن ماجة (٢٥٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) وهو قول مالك أيضاً، وقال ابن قدامة: «وجلد أصحاب رسول الله ﷺ، فلم ينقل عنهم مدٌّ ولا قيد ولا تجريد، ولا تنزع عنه ثيابه، بل يكون عليه الثوب والثوبان...» (المغني ١٢/ ٥٠٨)!

في إقامة الحد، وفي شدة الضرب.

وروى ابن أبي حاتم: عن عبيد الله بن عمر: أن جارية لابن عمر زنت، فضرب رجليها، قال نافع: أراه قال: وظهرها، قال: قلت ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ قال: يا بني، ورأيتني أخذتني بها رأفة؟! إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جلدها في رأسها، وقد أوجعت حين ضربتها.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: فافعلوا ذلك، وأقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرحاً، ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك، وقد جاء في المسند: عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله، إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال: «ولك في ذلك أجر».

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا فيه تنكيلٌ للزانيين، إذا جُلِدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريعاً وتوبيخاً وفضيحة، إذا كان الناس حضوراً، قال الحسن البصري في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: علانية. ثم قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الطائفة: الرجل فما فوقه. وقال مجاهد: الطائفة الرجل الواحد إلى الألف، وكذا قال عكرمة. ولهذا قال أحمد: إن الطائفة تصدق على واحد، وقال عطاء بن أبي رباح: اثنان، وبه قال إسحاق بن راهويه، وكذا قال سعيد بن جبير: الطائفة أربعة نفر فصاعداً، وقال الزهري: ثلاثة نفر فصاعداً، وقال عبد الله بن وهب عن الإمام مالك في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الطائفة أربعة نفر فصاعداً، لأنه لا يكفي شهادة في الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً. وبه قال الشافعي، وقال ربيعة: خمسة، وقال الحسن البصري: عشرة، وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما ﴿طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نفر من المسلمين، ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً.

وروى ابن أبي حاتم: عن بقية قال: سمعت نصر بن علقمة يقول في قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: ليس ذلك للفضيحة، إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة.

﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾

٣- هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي: لا يطاوعه على مراده من الزنا، إلا زانية عاصية، أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ﴾ أي: عاص بزناه ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يعتقد تحريمه. روى سفيان الثوري: عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال: ليس هذا بالنكاح، إنما هو الجماع، لا يزني بها إلا زان أو مشرك. وهذا إسناد صحيح عنه، وقد روي عنه من غير وجه أيضاً، وقد روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير والضحاك ومكحول ومقاتل بن حيان وغير واحد نحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تعاطيه، والتزويج بالبغايا، أو تزويج العفائف بالرجال الفجار. وروى أبو داود الطيالسي: عن ابن عباس ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: حرم الله الزنا على المؤمنين. وقال قتادة ومقاتل بن حيان: حرَّم الله على المؤمنين نكاح البغايا، وتقدَّم ذلك فقال: ﴿وَحُرِّمَ

﴿ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ الآية، ومن ههنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي، مادامت كذلك حتى تستتاب، فإن تابت صح العقد عليها، وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح، حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وروى الترمذي: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له: مَرْثَد بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها: عَنَاق، وكانت صديقة له، وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلي تحت الحائط، فلما انتهيت إليَّ عرفتني، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد، فقالت: مرحباً وأهلاً، هلم، فبت عندنا الليلة. قال: فقلت: يا عناق حرَّم الله الزنا، فقالت: يا أهل الخيام، هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية، ودخلت الخندمة[1]، فانتهيت إلى غار أو كهف فدخلت فيه، فجاءوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا فظل بولهم على رأسي، فأعماهم الله عني، قال: ثم رجعوا فرجعتُ إلى صاحبي فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيت إلى الإذخر ففككت عنه أَكْبُله فجعلت أحمله ويعيينني حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أنكح عناقاً، أنكح عناقاً - مرتين؟- فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد عليَّ شيئاً، حتى نزلت ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «يا مَرْثد، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، فلا تنكحها». وقد رواه أبو داود والنسائي في كتاب النكاح من سننيهما.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلودُ إلا مثله» وهكذا أخرجه أبو داود.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله: قال قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ لا يدخلون الجنة، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُّ والديه، والمرأة المترجِّلة المتشبهة بالرجال، والديُّوث. وثلاثةٌ لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُّ بوالديه، والمدمن الخمرَ، والمنَّان بما أعطى» ورواه النسائي.

وقال الإمام أبو النصر إسمعيل بن حماد الجوهري في كتابه «الصحاح» في اللغة: الديُّوث: القُنْذُع، وهو الذي لا غَيرة له، فأما الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب النكاح من سننه: عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن عندي امرأة من أحب الناس إليَّ، وهي لا تَمنع يَد لامس، قال: «طلقها» قال: لا صبر لي عنها، قال: «استمتع بها» ثم قال النسائي: هذا الحديث غير ثابت[2].

وقد اختلف الناس في هذا الحديث ما بين مضعف له، كما تقدم عن النسائي، ومنكر، كما قال الإمام

---

(١) جبل معروف في مكة.

(٢) النسائي في النكاح (٣٠٢٨)، وكرره في الطلاق (٣٢٤٢)، والحديث صححه العلامة الألباني في السنن، وهو كما قال. وقيل في معناه: أنها تتلذذ بمن يلمسها فلا ترد يده، وقال أحمد: لم يكن ليأمره بإمساكها وهي تفجر، وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٤٣- ١٤٦) وحاشية سنن النسائي (٦/ ٦٧).

أحمد: هو حديث منكر، وقال ابن قتيبة: إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلاً. وحكاه النسائي في سننه عن بعضهم. وردَّ هذا بأنه لو كان المراد لقال: لا تردُّ يد ملتمس، وقيل: المراد: أن سجيتها لا تردُّ يد لامس، لا أن المراد أن هذا واقع منها، وأنها تفعل الفاحشة، فإن رسول الله ﷺ لا يأذن في مصاحبة مَن هذه صفتها، فإن زوجها والحالة هذه يكون ديوثاً، وقد تقدم الوعيد على ذلك، ولكن لما كانت سجيتها هكذا، ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد، أمره رسول الله ﷺ بفراقها، فلما ذكر أنه يحبها، أباح له البقاء معها، لأن محبته لها محققة، ووقوع الفاحشة منها متوهم، فلا يصار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قالوا: فأما إذا حصلت توبة، فإنه يحل التزويج. وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء: أن هذه الآية منسوخة، روى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن المسيب قال: ذكر عنده ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ قال: كان يقال: نسختها التي بعدها ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ قال: كان يقال الأيامى من المسلمين. وهكذا رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد بن المسيب، ونص على ذلك أيضاً الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

٤ - هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة، وهي: الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضاً، وليس فيه نزاع بين العلماء، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله، درأ عنه الحد، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال، ثلاثة أحكام:

(أحدها) أن يجلد ثمانين جلدة. **(الثاني)**: أنه تردّ شهادته أبداً. **(الثالث)**: أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس.

٥ - ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ الآية. واختلف العلماء في هذا الاستثناء، هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط، فترفع التوبةُ الفسقَ فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً، وإنْ تاب أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ وأما الجلد: فقد ذهب وانقضى، سواء تاب أو أصرَّ، ولا حُكم به بعد ذلك بلا خلاف. فذهب الإمام مالك وأحمد والشافعي إلى أنه: إذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق، ونص عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً، وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط، فيرتفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة أبداً، وممن ذهب إليه من السلف: القاضي شريح وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومكحول وعبد الرحمن بن زيد بن جابر. وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب، إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ

لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

٦- هذه الآية الكريمة فيها فَرَجٌ للأزواج، وزيادة مخرج، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة، أن يُلاعنها كما أمر الله عز وجل، وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدّعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله، في مقابلة أربعة شهداء، ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: فيما رماها به من الزنا.

٧، ٨- ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان، عند الشافعية وطائفة كثيرة من العلماء، وحَرُمَت عليه أبداً، ويعطيها مهرها، ويتوجه عليها حد الزنا، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تُلاعن، فتشهد ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: فيما رماها به.

٩- ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ولهذا قال: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ يعني: الحد ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله، ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق، ثم يحيد عنه، ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم، فيما شرع لهم من الفَرَج والمخرج، من شدة ما يكون بهم من الضيق، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: لحرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ أي: على عباده، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه.

وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية، وذكر سبب نزولها، وفيمن نزلت فيه من الصحابة. فمنها ما رواه البخاري: عن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة، أو حدٌّ في ظهرك» فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدُنا على امرأته رجلاً، ينطلق يلتمس البينة؟! فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة، وإلا حدٌّ في ظهرك» فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلَنَّ الله ما يُبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ - فقرأ حتى بلغ - ﴿إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد والنبي ﷺ يقول: «إنَّ الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟» ثم قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقَّفُوها، وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت، حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي ﷺ: «أبصروها فإنْ جاءت به أكحل العينين، سابغَ الأليتين خدلَّج الساقين، فهو لشريك بن سمحاء» فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله، لكان لي ولها شأن» انفرد به البخاري من هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد: عن سعيد بن جبير قال: سُئلت عن المتلاعنين، أيفرق بينهما - في إمارة ابن الزبير؟- فما دريت ما أقول، فقمت من مكاني إلى منزل ابن عمر، فقلت: يا أبا عبد الرحمن المتلاعنان أيفرق

بينهما؟ فقال: سبحان الله، إنَّ أول مَن سأل عن ذلك فلان بن فلان، فقال: يا رسول الله، أرأيتَ الرجل يرى امرأته على فاحشة، فإنْ تكلم تكلم بأمرٍ عظيم، وإن سكت سكت على مثل ذلك، فسكت فلم يُجبه، فلما كان بعد ذلك أتاه، فقال: الذي سألتك عنه ابتليت به، فأنزل الله تعالى هذه الآيات في سورة النور ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ حتى بلغ ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فبدأ بالرجل فوعظه وذكَّره، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقال: والذي بعثك بالحق، ما كذبت، ثمَّ ثنَّى بالمرأة فوعظها وذكرها، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فقالت المرأة: والذي بعثك بالحق، إنه لكاذب. قال: فبدأ بالرجل، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثم فرق بينهما. رواه النسائي في التفسير، وأخرجاه في الصحيحين عن ابن عباس.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله قال: كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد، فقال رجل من الأنصار: أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً، إن قتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سَكَتَ سكت على غيظ، والله لإن أصبحت صحيحاً لأسألن رسول الله ﷺ، قال فسأله فقال: يا رسول الله، إنَّ أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً فقتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت على غيظ، اللهم احكم، قال: فنزلت آية اللعان، فكان ذلك الرجل أول من ابتلي به. انفرد بإخراجه مسلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾

١١ - هذه العشر الآيات، كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حين رماها أهل الإفك والبهتان، من المنافقين، بما قالوه من الكذب البحت، والفرية التي غار الله عز وجل لها، ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله تعالى براءتها، صيانة لعرض رسول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أي: جماعة منكم، يعني: ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدَّم في هذه اللعنة: عبد الله ابن أبيّ بن سلول، رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به، وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر، حتى نزل القرآن، وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة.

وروى الإمام أحمد: أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر، أقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمها خرجت مع رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أُحمل في هَودجي وأنزل في مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه، وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري فإذا عقد لي من جَزْع ظَفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي، فرحَّلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، قالت:

وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبِّلهنَّ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العُلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرَّس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني، فعرفني حين رآني وكان قد يراني قبل أن يُضربَ عليَّ الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يَريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «كيف تيكم» فذلك يَريبني، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت، وخرَجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو مُتبرَّزُنا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأُول في التنزه، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مِرْطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئسما قلت! تسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: أي هنتاه، أولم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلم، ثم قال: «كيف تيكم؟» قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه، ماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: أي بنية، هوِّني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله! أوقد تحدث الناس بها؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد، حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال أسامة: يا رسول الله، هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عز وجل عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «أي بريرة، هل رأيت من شيء يَريبك من عائشة؟» فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل، قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه، فقال: أنا أعذرك منه يا

رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. قالت: فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزرج ـ وكان رجلاً صالحاً ولكن اجتهلته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، إذ استأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت: أنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن، إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة ـ والله يعلم أني بريئة ـ لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت بأمر ـ والله يعلم أني بريئة ـ تصدقوني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً، إلا كما قال أبو يوسف **﴿فصبرٌ جميلٌ والله المُستعانُ على ما تصِفُونَ﴾** قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يُتلى، ولشأني كان أحقرَ في نفسي من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ من مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البُرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجُمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه. قالت: فلما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أما الله عز وجل فقد برأك» قالت: فقالت لي أمي قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل، هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله عز وجل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾** عشر آيات، فأنزل الله هذه الآيات براءتي، قالت: فقال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: **﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى﴾** إلى قوله: **﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه. وقال: لا أنزعها منه أبداً. قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري: «ما علمت أو ما رأيت أو ما بلغك؟» فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك. قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط. أخرجه البخاري ومسلم في

صحيحيهما.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾ أي: الكذب والبهت والافتراء ﴿عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة منكم ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ﴾ أي: يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا، ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم ﴿الَّذِي لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنها ـ وهي في سياق الموت ـ قال لها: أبشري، فإنك زوجة رسول الله ﷺ وكان يحبك، ولم يتزوج بكراً غيرك، ونزلت براءتك من السماء(١).

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ أي: لكل من تكلم في هذه القضية، ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة، نصيب عظيم من العذاب ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ قيل: ابتدأ به، وقيل: الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: على ذلك، ثم الأكثرون على المراد بذلك: إنما هو عبد الله بن أبي بن سلول ـ قبحه الله ولعنه ـ وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث، وقال ذلك مجاهد وغير واحد.

وقيل: المراد به حسان بن ثابت! وهو قول غريب! ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على إيراد ذلك، لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل و مناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذبُّ عن رسول الله ﷺ بشعره، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «هاجهم وجبريل معك».

وعن مسروق قال: كنت عند عائشة رضي الله عنها فدخل حسان بن ثابت، فأمرت فألقى له وسادة، فلما خرج قلت لعائشة: ما تصنعين بهذا؟ يعني يدخل عليك ـ وفي رواية ـ قيل لها: أتأذنين لهذا يدخل عليك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؟ قالت: وأيُّ عذاب أشد من العمى ـ وكان قد ذهب بصره ـ لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم، ثم قالت: إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ.

وفي رواية: أنه أنشدها عند ما دخل عليها شعراً يمتدحها به، فقال:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِن لحُومِ الغَوَافِلِ

فقالت: أما أنت فلست كذلك، وفي رواية: لكنك لست كذلك.

﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) ﴾

١٢ ـ هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها، حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء، وما ذكر من شأن الإفك، فقال تعالى: ﴿لَوْلاَ﴾ يعني: هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً﴾ أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم، فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى. وقد قيل: إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما، كما روى الإمام محمد بن إسحاق: أن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله

(١) رواه البخاري في التفسير (٨/ ٤٨٣) بنحوه.

عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنتِ فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا، والله ما كنتُ لأفعله، قال: فعائشة والله خيرٌ منك، قال: فلما نزل القرآن، ذكر الله عزوجل من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا، ثم قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية، أي: كما قال أبو أيوب وصاحبته.

وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلخ، أي: هلاَّ ظنوا الخير، فإنَّ أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، وقوله: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: بألسنتهم ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كذبٌ ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها، فإنَّ الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أنَّ مجيء أم المؤمنين راكبة جهرةً على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة، لم يكن هذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان هذا يكون لو قُدِّر خفية مستوراً، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة.

١٣- قال الله تعالى: ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هلاَّ ﴿جَآءُو عَلَيْهِ﴾ أي: على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: في حكم الله كاذبون فاجرون.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

١٤- يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة، بأن قَبِل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من قضية الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا فيمن عنده إيمانٌ يَقبل الله بسببه التوبة، كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين، كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا، ولا ما يعارضه، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة، أو ما يقابله من عملٍ صالحٍ يوازنه أو يرجع عليه.

١٥- ثم قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي: يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا.

وقرأ آخرون: ﴿إِذْ تَلِقُونَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ وفي صحيح البخاري: عن عائشة أنها كانت تقرأها كذلك، وتقول: هي من وَلْق اللسان، يعني الكذب الذي يستمر صاحبه عليه، تقول العرب: وَلَقَ فلان في السير إذا استمر فيه، والقراءة الأولى أشهر، وعليها الجمهور، ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة. ورواه ابن أبي حاتم (أيضاً عنها). قال ابن أبي مليكة: هي أعلم به من غيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: تقولون ما لا تعلمون.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي: تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين،

وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً ، ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً ، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء ، وسيد المرسلين؟ فعظيمٌ عند الله ، أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا ، وهو سبحانه وتعالى لا يُقدّر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك ، حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك ، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق ، في الدنيا والآخرة؟ ولهذا قال تعالى : ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ﴾ وفي الصحيحين : «إنَّ الرجلَ ليتكلم بالكلمة من سَخطَ الله ، لا يدري ما تبلغ ، يهوى بها في النار ، أبعد مما بين السماء والأرض» وفي رواية «لا يُلقي لها بالاً» .

﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) ﴾

١٦- هذا تأديب آخر بعد الأول ، الآمر بظن الخير ، أي : إذا ذُكر مالا يليق من القول في شأن الخيرة ، فأولى ينبغي الظن بهم خيراً ، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك . ثم إنْ عَلِق بنفسه شيء من ذلك ، وسوسة أو خيالاً ، فلا ينبغي أن يتكلم به ، فإن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدَّثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» أخرجاه في الصحيحين . وقال الله تعالى : ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أي : ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ، ولا نذكره لأحد ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ أي : سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله ، وحليلة خليله .

١٧- ثم قال تعالى : ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ أي : ينهاكم الله متوعداً ، أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً ، أي : فيما يستقبل ، ولهذا قال : ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي : إنْ كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله ﷺ ، فأما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر .

١٨- ثم قال تعالى : ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي : يوضح لكم الأحكام الشرعية ، والحكم القدرية . ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي : عليم بما يصلح عباده ، حكيم في شرعه وقدره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) ﴾

١٩- هذا تأديب ثالثٌ لمن سمع شيئاً من الكلام السيء ، فقام بذهنه شيء منه ، وتكلم به ، فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه ، فقد قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي : يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي : بالحد ، وفي الآخرة بالعذاب الأليم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي : فردوا الأمور إليه ترشدوا .

وروى الإمام أحمد : عن ثوبان عن النبي ﷺ قال : «لا تُؤذُوا عباد الله ولا تعيروهم ، ولا تَطلبوا عوراتهم ، فإنه مَن طلب عورة أخيه المسلم ، طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته» .

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾

٢٠- يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رءوفٌ بعباده، رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهَّر مَن طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم.

٢١- ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: طرائقه ومسالكه، وما يأمر به ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ هذا تنفير وتحذير من ذلك، بأفصح عبارة وأبلغها، وأوجزها وأحسنها، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ عمله. وقال عكرمة: نزغاته. وقال قتادة: كل معصيةٍ فهي من خطوات الشيطان، وقال أبو مجلز: النذور في المعاصي من خطوات الشيطان، وقال مسروق: سأل رجلٌ ابن مسعود فقال: إنِّي حرَّمت أن آكل طعاماً وسماه، فقال: هذا من نزغات الشيطان، كَفِّرْ عن يمينك وكُل. وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده: هذا من نزغات الشيطان، وأفتاه أنْ يذبح كبشاً.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي رافع قال: غضبت على امرأتي، فقالت: هي يوم يهودية، ويوم نصرانية، وكل مملوك لها حر، إنْ لم تطلق امرأتك، فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من نزغات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذ أفقه امرأة بالمدينة، وأتيت عاصم بن عمر فقال مثل ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودنسها، وما فيها من أخلاق رديئة، كل بحسبه، لما حصَّل أحدٌ لنفسه زكاة ولا خيراً ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي: من خلقه، ويضل من يشاء ويرديه، في مهالك الضلال والغي، وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال.

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾

٢٢- يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ من الأليَّة، وهي الحلف، أي: لا يحلف ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي: الطول والصدقة والإحسان ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أي: الجدة ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لا تحلفوا أنْ لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين، وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي: عما تقدم منهم من الإساءة والأذى، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه، مع ظلمهم لأنفسهم، وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه، حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعةٍ أبداً، بعد ما قال في عائشة ما قال، كما تقدم في الحديث، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه، شرع تبارك وتعالى ـ وله الفضل والمنة ـ يُعطِّف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له، إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها، وضُرب الحد عليها. وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف، له الفضل

والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر ذنبَ من أذنب إليك، يغفر الله لك، وكما تصفح يصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى، والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبداً. فلهذا كان الصديق هو الصديق، رضي الله عنه وعن بنته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾

٢٣ - هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، خرج مخرج الغالب، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما. وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن مَن سبَّها بعد هذا، ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر، لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآية، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية.

وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضي الله عنها، (روي) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وكذا قال سعيد ابن جبير ومقاتل بن حيان، وقد رواه ابن جرير: عن عائشة رضي الله عنها قالت: رُميت بما رُميت به وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك، قالت: فبينا رسول الله ﷺ جالس عندي إذ أوحي إليه، قالت: وكان إذا أوحي إليه أخذه كهيئة السُّبات، وإنه أوحي إليه وهو جالس عندي، ثم استوى جالساً يمسح على وجهه، وقال: «يا عائشة أبشري» قالت: فقلت بحمد الله لا بحمدك، فقرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ - حتى بلغ - أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

هكذا أورده وليس فيه أن الحكم خاص بها، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها، وإن كان الحكم يعمها كغيرها، ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله، والله أعلم.

وقال الضحاك وأبو الجوزاء وسلمة بن نشيط: المراد بها أزواج النبي خاصة، دون غيرهن من النساء.

وقال العوفي عن ابن عباس في الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية، يعني: أزواج النبي ﷺ رماهن أهل النفاق، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب، وباءوا بسخط من الله، فكان ذلك في أزواج النبي ﷺ، ثم نزل بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ - إلى قوله - فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأنزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تقبل، والشهادة ترد.

(وقيل): هي مبهمة، أي: عامة في تحريم قذف كل محصنة، ولعنته في الدنيا والآخرة. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا في عائشة، ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم في المسلمات، فله ما قال الله تعالى، ولكن عائشة كانت أماً في ذلك. وقد اختار ابن جرير عمومها، وهو الصحيح، ويعضد العموم ما رواه ابن أبي

حاتم: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وماهن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» أخرجاه في الصحيحين.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ روى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إنهم ـ يعني المشركين ـ إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، قالوا: تعالوا حتى نجحد، فيجحدون فَيُختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثاً.

وروى ابن أبي حاتم أيضاً: عن الشعبي عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مجادلة العبد لربه، يقول: يا رب ألم تُجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز علي إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام عليك شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لكنَّ وسُحقاً، فعنكن كنتُ أناضل» وقد رواه مسلم والنسائي.

وقال قتادة: ابن آدم، والله إنَّ عليك لشهوداً غير متهمة من بدنك، فراقبهم واتق الله في سرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، والظُّلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن، فليفعل، ولا قوة إلا بالله.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ قال ابن عباس ﴿دِينَهُمْ﴾ أي: حسابهم، وكل ما في القرآن دينهم، أي: حسابهم. وكذا قال غير واحد، ثم إن قراءة الجمهور بنصب «الحق» على أنه صفة لدينهم، وقرأ مجاهد بالرفع، على أنه نعت للجلالة، وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب: (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ الحقُّ دِينَهُمْ). وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي: وعده ووعيده، وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾

٢٦- قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول. قال: ونزلت في عائشة، وأهل الإفك. وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والشعبي والحسن بن أبي الحسن البصري وحبيب بن أبي ثابت والضحاك، واختاره ابن جرير، ووجهه: بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نَسَبَه أهلُ النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء. وهذا أيضاً يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم، أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجةً لرسول الله ﷺ، إلا وهي طيبة، لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له، لا شرعاً ولا قدراً، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ

﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هم بُعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

٢٧- هذه آداب شرعية، أدَّب الله بها عباده المؤمنين، وذلك في الاستئذان، أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم، حتى يستأنسوا، أي: يستأذنوا قبل الدخول، ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أُذِن له وإلا انصرف، كما ثبت في الصحيح: أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر: ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما أرجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يُؤذن لي، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يُؤذن له، فلينصرف» فقال عمر لتأتيني على هذا ببينة، وإلا أوجعتك ضرباً، فذهب إلى ملإ من الأنصار، فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق.

وروى الإمام أحمد: عن أنس أو غيره: أن النبي ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال: «السلام عليك ورحمة الله» فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ، حتى سلَّم ثلاثاً، وردَّ عليه سعد ثلاثاً، ولم يسمعه، فرجع النبي ﷺ فاتبعه سعد، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيباً، فأكل نبي الله فلما فرغ قال: «أكَلَ طعامكم الأبرار، وصلَّت عليكم الملائكة، وأفطر عندكم الصائمون».

ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل، أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره، لما رواه أبو داود: عن عبد الله بن بسر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم» وذلك أن الدُّور لم يكن عليها يومئذ ستور. انفرد به أبو داود.

وروى أبو داود أيضاً: عن هزيل قال: جاء رجل ـ قال عثمان: سعد ـ فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن، فقام على الباب ـ قال عثمان: مستقبل الباب ـ فقال له النبي ﷺ: «هكذا عنك، أو هكذا، فإنما الاستئذان من النَّظر» وقد رواه أبو داود الطيالسي.

وفي الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن امرأً اطَّلع عليك بغير إذنٍ، فحذفته بحصاة، ففقأت عينه، ما كان عليك من جُناح».

وأخرج الجماعة: عن جابر قال: أتيت النبي ﷺ في دَين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: «من ذا؟» فقلت: أنا، قال: «أنا أنا؟» كأنه كرهه. وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها، حتى يفصح باسمه

أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا فكل أحدٍ يُعبِّر عن نفسه: بأنا، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس المأمور به في الآية.

وقال العوفي عن ابن عباس: الاستئناس الاستئذان، وكذا قال غير واحد، وروى ابن جرير: عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس في هذه الآية ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ قال: إنما هي خطأ من الكتاب (حَتَّى تستَأذِنوا وتُسلِّموا) وزاد (في رواية): وكان ابن عباس يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه.

وهذا غريب جداً عن ابن عباس. وعن إبراهيم قال: في مصحف ابن مسعود (حَتَّى تُسلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا وَتَسْتَأْذِنُوا)، وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس، وهو اختيار ابن جرير.

وقد روى الإمام أحمد: عن كَلَدَة بن الحنبل أخبره: أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبإ وجداية وضغابيس[1] والنبي ﷺ بأعلى الوادي، قال: فدخلت على النبي ﷺ ولم أُسلِّم، ولم أستأذن. فقال ﷺ: «ارجع فقل السلام عليكم، أأدخل» وذلك بعد ما أسلم صفوان. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

وروى أبو داود: عن ربعي قال: أتى رجل من بني عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو في بيته، فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا، فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم أأدخل؟» فسمعه الرجل، فقال: السلام عليكم، أأدخل، فأذن له النبي ﷺ فدخل.

وعطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ثلاث آيات جحدهن الناس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ قال: ويقولون: إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً، قال: والأدب كله قد جحده الناس، قال: قلت: استأذن على أخواتي أيتام في حجري، معي في بيت واحد؟ قال: نعم، فرددت عليه ليرخص لي فأبى، فقال: تحب أن تراها عُريانة؟ قلت: لا، قال: فاستأذن، قال: فراجعته أيضاً، فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قال: قلت: نعم، قال: فاستأذن.

وعن ابن طاوس عن أبيه قال: ما من امرأةٍ أكره إليَّ أن أرى عورتها من ذات محرم، قال: وكان يشدد في ذلك. وقال ابن جريج قلت لعطاء: أيستأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا، وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يُعْلمها بدخوله، ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها.

وروى أبو جعفر ابن جرير: عن ابن أخي زينب امرأة عبد الله بن مسعود: عن زينب رضي الله عنها قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب، تنحنح وبزق، كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه. إسناده صحيح. وقال مجاهد ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ قال: تنحنحوا أو تنخموا.

وعن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال: إذا دخل الرجل بيته استُحب له أن يتنحنح، أو يحرك نعليه. ولهذا جاء في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً، وفي رواية: ليلاً، يَتخوَّنهم[2].

وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهاراً، فأناخ بظاهرها، وقال: «انتظروا حتى ندخل

---

(١) اللبأ: ما يحلب عند الولادة، والجداية: ما بلغ ستة أو سبعة أشهر من أولاد الظباء ذكراً كان أو أنثى. وضغابيس صغار القثاء.

(٢) متفق عليه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

عشاء ـ يعني آخر النهار ـ حتى تمتشط الشَّعثة وتستحدَّ المُغيبة»[١].

وقال قتادة في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع، أما الأولى فليسمع الحيَّ، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاءوا أذِنوا، وإن شاءوا ردوا، ولا تقفنَّ على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات، ولهم أشغال، والله أولى بالعذر.

وقال مقاتل بن حيان: كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه، ويقول: حُيِّيت صباحاً، وحييت مساء، وكان ذلك تحية القوم بينهم، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم، ويقول: قد دخلت، ونحو ذلك فيشق ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله، فغيَّر الله ذلك كله، في ستر وعفَّة، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الآية. وهذا الذي قاله مقاتل حسن، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني: الاستئذان خير لكم، بمعنى هو خير من الطرفين: للمستأذن ولأهل البيت ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

٢٨- وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: رجوعكم أزكى لكم وأطهر ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبتُ عمري كله هذه الآية، فما أدركتها أن أستأذن على بعض إخواني، فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال سعيد بن جبير في الآية: أي: لا تقفوا على أبواب الناس.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ الآية الكريمة أخص من التي قبلها، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد، إذا كان له متاع فيها بغير إذن، كالبيت المعدِّ للضَّيف، إذا أُذنَ له فيه أول مرة كفى. قال ابن جريج قال ابن عباس ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ ثم نسخ واستثنى، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾. وكذا روي عن عكرمة والحسن البصري.

وقال آخرون: هي بيوت التجار، كالخانات، ومنازل الأسفار، وبيوت مكة، وغير ذلك، واختار ذلك ابن جرير، وحكاه عن جماعة، والأول أظهر، والله أعلم. وقال مالك عن زيد بن أسلم: هي بيوت الشعر.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

٣٠- هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين، أنْ يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم، فإنْ اتفق أنْ وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعاً، كما رواه مسلم في صحيحه: عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألتُ النبي ﷺ عن نظرة الفَجأة، فأمرني أنْ أصرف بَصَري. وكذا رواه الإمام أحمد ورواه أبو داود والترمذي والنسائي. وفي رواية لبعضهم: فقال: «أطرقْ بَصَرَك» يعني انظر إلى الأرض، والصرف أعم، فإنه قد يكون

(١) متفق عليه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

إلى الأرض وإلى جهة أخرى، والله أعلم.

وروى أبو داود: عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ: «يا عليُّ، لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فإنَّ لك الأولى، وليس لك الآخرة» ورواه الترمذي.

وفي الصحيح: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكم والجلوس على الطرقات، قالوا: يا رسول الله، لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: «إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ - قال: «غضُّ البصر، وكفُّ الأذَى، وردُّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

وروى أبو القاسم البغوي: عن أبي أمامة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اكفلوا لي ستاً أكفل لكم الجنة: إذا حدَّث أحدُكم فلا يكذب، وإذا اؤتمن فلا يَخُن، وإذا وعد فلا يخلف، وغضُّوا أبصاركم وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم»[١].

وفي صحيح البخاري: «مَنْ يكفل لي ما بين لحييه، وما بين رجليه، أكفل له الجنة».

وروى عبد الرزاق عن عبيدة قال: كل ما عصى الله به فهو كبيرة، وقد ذكر الطَّرفين فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾.

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف: النظر سهم سمٌّ إلى القلب. ولذلك أمر الله بحفظ الفروج، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ الآية، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه، كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن: «احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك».

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أطهر لقلوبهم، وأتقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره، أورثه الله نوراً في بصيرته، ويروى: في قلبه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ وفي الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُتبَ على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النَّظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذُن الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخُطى، والنفس تَمنَّى وتَشْتَهي، والفرج يُصَدِّقُهُ أو يُكَذِّبُهُ» رواه البخاري تعليقاً ومسلم مسنداً من وجه آخر بنحو ما ذكر.

وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحدَّ الرجل نظره إلى الأمرد، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرمه طائفة من أهل العلم، لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيراً جداً.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا

---

(١) ورواه الطبراني (٨٠١٨)، وله شاهد، هو به حسن، انظر الصحيحة (١٥٢٥).

يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾

٣١- هذا أمرٌ من الله تعالى للنساء المؤمنات، وغَيْرةٌ منه لأزواجهن عباده المؤمنين، وتمييزٌ لهنَّ عن صفة نساء الجاهلية، وفعال المشركات. فقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ أي: عما حرَّم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة، ولا بغير شهوة أصلاً. واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي: عن نبهان مولى أم سلمة أنه حدثه أن أم سلمة حدثته: أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه ـ وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب ـ فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه» فقلت: يا رسول الله، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أوعمياوان أنتما؟ ألستما تُبصرانه»(1).

وذهب آخرون من العلماء: إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة، كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه، وهو يسترها منهم حتى مَلَّت ورجعت.

وقوله: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ قال سعيد بن جبير: عن الفواحش. وقال قتادة وسفيان: عما لا يحل لهن. وقال مقاتل: عن الزنا، وقال أبو العالية: كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج، فهو من الزنا، إلا هذه الآية ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أن لا يراها أحد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب، إلا ما لا يمكن إخفاؤه. قال ابن مسعود: كالرداء والثياب. يعني: على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه، لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه، ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها، وما لا يمكن إخفاؤه. وقال بقول ابن مسعود: الحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء وإبراهيم النخعي وغيرهم.

وعن ابن عباس ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وجهها وكفيها والخاتم. وروي عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء والضحاك وإبراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك، وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما روى أبو الأحوص عن عبد الله قال في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الزينة: القُرط والدُّملُوج والخلخال والقلادة، وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: الزينة زينتان: فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب: وهي الظاهر من الثياب. وقال الزهري: لا يبدين لهؤلاء الذين سمَّى الله ممن لا تحل له، إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة، من غير حسر، وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم، وقال مالك عن الزهري ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الخاتم والخلخال.

ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه، أرادوا تفسير ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور عند

---

(1) والحديث ضعيف، فيه نبهان مولى أم سلمة، قال الحافظ في التقريب: مقبول! أي: حيث يتابع، وإلا فلين. وقد أورده الذهبي في ذيل الضعفاء ونقل عن ابن حزم تجهيله له، وانظر الإرواء (١٨٠٦). ثم الحديث يخالف ما جاء في الصحيحين: إن النبي ﷺ قال لفاطمة بنت قيس: «اعتدي في بيت ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى، تضعين ثيابك فلا يراك».

الجمهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه: عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله عنها: أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثيابٌ رقاق، فأعرض عنها، وقال: «يا أسماء، إنَّ المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا» وأشار إلى وجهه وكفيه. لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي: هو مرسل، خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها، والله أعلم(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: المقانع يعمل لها صَنفات(٢) ضاربات على صدورهن، لتوارى ما تحتها من صدرها وترائبها، ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك، بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها، وذوائب شعرها، وأقرطة آذانها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾. وقال في هذه الآية الكريمة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ والخُمر: جمع خمار، وهو ما يخمر به، أي: يغطى به الرأس، وهي التي تسميها الناس: المقانع. قال سعيد بن جبير: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ وليشددن ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ يعني: على النحر والصدر، فلا يرى منه شيء.

وروى البخاري: عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأُول، لما أنزل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقن مُروطهن فاختمرن بها.

وروى أيضاً: أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ أخذن أزرهن فشَقَقنها من قبل الحواشي فاختمرن بها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة، يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها، ولكن من غير تبرج. وروى ابن المنذر: عن الشعبي وعكرمة: في هذه الآية ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ حتى فرغ منها، وقال: لم يذكر العم ولا الخال، لأنهما ينعتان لأبنائهما، ولا تضع خمارها عند العم والخال، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله، فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره.

وقوله: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني: تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات، دون نساء أهل الذمة، لئلا تصفهن لرجالهن، وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء، إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع، فأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تُباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها» أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود. وقال مجاهد في قوله: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ قال: نساؤهن المسلمات، ليس المشركات من نسائهن، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة.

وعن مكحول وعبادة بن نسى: أنهما كرها أن تقبل(٣) النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة.

---

(١) والحديث في سنده أيضاً: سعيد بن بشير، ضعيف، كما أن في متنه نكارة! فأسماء امرأة كبيرة وهي أكبر من عائشة، ومن بيت الصديق الأكبر، فكيف تدخل على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق؟!!

(٢) صَنفة الثوب: حاشيته.

(٣) أي: تكون لها قابلة تولدها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ قال ابن جرير: يعني من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها، وإن كانت مشركة لأنها أمتها، وإليه ذهب سعيد بن المسيب، وقال الأكثرون: بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود: عن أنس: أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبدٍ قد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قنَّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطَّت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس، إنما هو أبوك وغلامك».

وقوله تعالى: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ يعني: كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء، وهم مع ذلك في عقولهم ولَهٌ وخَوَثٌ، ولا همَّ لهم إلى النساء ولا يشتهونهن. قال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له. وقال مجاهد: هو الأبله، وقال عكرمة: هو المخنث الذي لا يقوم ذكره، وكذلك قال غير واحد من السلف، وفي الصحيح: من حديث عائشة: أن مخنثاً كان يدخل على أهل رسول الله، وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة، يقول: إنها إذا أقبلتْ أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما ههنا، لا يدخلنَّ عليكنَّ» فأخرجه فكان بالبيداء، يدخل يوم كل جمعة يستطعم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ يعني: لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم، وتعطفهنَّ في المشية، وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك، فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه، بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكن من الدخول على النساء، وقد ثبت في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والدخول على النساء» قيل: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الآية، كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق، وفي رجلها خلخال صامت لا يُعلم صوته، ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذا إذا كان شيء من زينتها مستوراً، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي، دخل في هذا النهي، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ إلى آخره.

ومن ذلك أنها تُنهى عن التعطُّر والتطيب عند خروجها من بيتها، فيشم الرجال طيبها، فقد روى أبو عيسى الترمذي: عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ عينٍ زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرَّت بالمجلس، فهي كذا وكذا» يعني: زانية. قال: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حسن صحيح. ورواه أبو داود والنسائي.

وروى أبو داود: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقيته امرأة شمَّ منها ريح الطيب ولذيلها إعصار، فقال: يا أمة الجبار، جئت من المسجد؟ قالت: نعم، قال لها: وله تطيبت؟ قالت: نعم، قال: إنِّي سمعت حِبِّي أبا القاسم ﷺ يقول: «لا يقبل الله صلاةَ امرأةٍ تطيبت لهذا المسجد، حتى ترجع فتغسل غسلها من الجنابة» ورواه ابن ماجة.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في السلام (٤/١٧١٦) دون زيادة: فأخرجه فكان بالبيداء... فقد رواه أبو داود (٤١٠٩).

ومن ذلك أيضاً: أنهنَّ ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج. روى أبو داود: عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري عن أبيه أنه سمع النبيﷺ وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول اللهﷺ للنساء: «استأخِرْن، فإنه ليس لكنَّ أن تَحْقُقن[١] الطريق، عليكنَّ بحافَّات الطريق». فكانت المرأة تلتصق بالجدار، حتى إن ثوبها ليتعلَّق بالجدار من لصوقها به.

وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا ما آمركم به من هذه الصفات الجميلة، والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية، من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهيا عنه، والله تعالى هو المستعان.

﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

٣٢- اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة، على جمل من الأحكام المحكمة، والأوامر المبرمة، فقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ إلى آخره، هذا أمرٌ بالتزويج. وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه، واحتجوا بظاهر قوله عليه السلام: «يا معشَر الشباب مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء» أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود. وقد جاء في السنن: من غير وجه أن رسول اللهﷺ قال: «تزوجوا الولود، تناسَلوا، فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة»[٢].

والأيامى: جمع أيم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له، وسواء كان قد تزوج ثم فارق، أو لم يتزوج واحد منهما، حكاه الجوهري عن أهل اللغة، يقال: رجل أيم، وامرأة أيم.

وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ الآية، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: رغَّبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعبيد، ووعدهم عليه الغنى، فقال: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في «النكاح» يقول الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ رواه ابن جرير[٣] وذكر البغوي عن عمر نحوه.

وعن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونهم: الناكح يريد العفاف،

---

(١) تحققن: أي: ليس لكنَّ أن تسرن وسطها.

(٢) رواه أبو داود (٢٠٥٠) والنسائي (٣٠٢٦) من حديث معقل بن يساررضي الله عنه وليس عندهما: «تناسلوا» ولم أجدها عند غيرهما، والله أعلم

(٣) وفي سنده انقطاع، القاسم بن الوليد الهمداني لم يسمع من ابن مسعود.

والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله» رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

وقد زوج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لم يجد عليه إلا إزاره، ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن. والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه، أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله، وأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث «تزوجوا فقراء يغنكم الله» فلا أصل له، ولم أره بإسناد قوي ولا ضعيف إلى الآن، وفي القرآن غُنيةٌ عنه، وكذا هذه الأحاديث التي أوردناها ولله الحمد والمنة.

٣٣- وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ هذا أمرٌ من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام، كما قال ﷺ: «يا معشَر الشباب مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء» الحديث، وهذه الآية مطلقة، والتي في سورة النساء أخص منها، وهي قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: صبركم عن تزوج الإماء خير لكم، لأن الولد يجيء رقيقاً ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال عكرمة في قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ قال: هو الرجل يرى المرأة، فكأنه يشتهي، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة، فلينظر في ملكوت السموات والأرض، حتى يغنيه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ هذا أمر من الله تعالى للسادة، إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يُكاتِبوهم، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب، يؤدى إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه، وقد ذهب كثير من العلماء: إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب، لا أمر تحتم وإيجاب، بل السيد مخير إذا طلب منه عبده الكتابة، إنْ شاء كاتبه، وإن شاء لم يكاتبه، روى الثوري: عن الشعبي: إن شاء كاتبه، وإن شاء لم يكاتبه، وكذا رُوي عن عطاء بن أبي رباح وكذا قال مقاتل بن حيان والحسن البصري.

وذهب آخرون: إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك، أن يجيبه إلى ماطلب، أخذاً بظاهر هذا الأمر. وروى البخاري عن ابن جريج: قلت لعطاء: أواجب عليَّ إذا علمت له مالاً، أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً. وقال عمرو بن دينار: قلت لعطاء: أتأثره عن أحد؟ قال: لا، ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتبة - وكان كثير المال - فأبى فانطلق إلى عمر رضي الله عنه فقال: كاتبه، فأبى فضربه بالدرة ويتلو عمر رضي الله عنه: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ فكاتبه. هكذا ذكره البخاري معلقاً، ورواه عبد الرزاق عن عطاء. وروى ابن جرير: عن أنس بن مالك: أن سيرين أراد أن يكاتبه فتلكأ عليه، فقال له عمر: لتكاتبنه. إسناده صحيح، وهذا هو القول القديم من قولي الشافعي، وذهب في الجديد إلى أنه لا يجب لقوله عليه السلام: «لا يحل مال امرئ مسلم، إلا بطيب نفس». وقال ابن وهب: قال مالك: الأمر عندنا: أنه ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده، قال مالك: وإنما ذلك أمر من الله تعالى، وإذن منه للناس، وليس بواجب. وكذا قال الثوري وأبو حنيفة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وغيرهم: واختار ابن جرير قول الوجوب، لظاهر الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال بعضهم: أمانة. وقال بعضهم: صدقاً، وقال بعضهم: مالاً، وقال بعضهم: حيلة وكسباً. وقوله تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ اختلف المفسرون فيه: فقال بعضهم: معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها، ثم قال بعضهم: مقدار الربع. وقيل: الثلث، وقيل: النصف، وقيل: جزء من الكتابة من غير حد، وقال آخرون: بل المراد من قوله: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ هو النصيب الذي فرضَ الله لهم من أموال الزكاة. وهذا قول الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبيه ومقاتل بن حيان، واختاره ابن جرير، وقال إبراهيم النخعي: حث الناس عليه، مولاه وغيره، وكذا قال بريدة الحصيب الأسلمي وقتادة، وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب، وقد تقدم في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثةٌ حق على الله عونهم» فذكر منهم: «المكاتب يريد الأداء» والقول الأول أشهر. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ قال: ضعوا عنهم من مكاتبتهم، وكذا قال مجاهد وعطاء والقاسم بن أبي مرة وعبد الكريم مالك الجزري والسدي، وقال محمد بن سيرين في الآية: كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته.

وروى ابن أبي حاتم: عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ربع الكتابة»، وهذا حديث غريب، ورفعه منكر، والأشبه أنه موقوف على علي رضي الله عنه، كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ الآية، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة، أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف: في شأن عبد الله بن أبي بن سلول، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغاء طلباً لخراجهن، ورغبة في أولادهن، ورياسة منه فيما يزعم!

(ذكر الآثار الواردة في ذلك)

عن أبي سفيان عن جابر في هذه الآية، قال: نزلت في أمةٍ لعبد الله بن أبي بن سلول، يقال لها: مُسَيْكَة كان يكرهها على الفجور، وكانت لا بأس بها فتأبى، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وروى النسائي عن أبي الزبير عن جابر نحوه، وكذا الحافظ أبوبكر البزار[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ هذا خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له.

وقوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: من خراجهن ومهورهن وأولادهن، وقد نهى رسول الله ﷺ عن: «كسب الحجام، ومهر البغي، وحلوان الكاهن»[(٣)]. وفي رواية: «مَهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث، وثمن الكلب خبيث»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لهن كما تقدم في الحديث عن

---

(١) متفق عليه من حديث أبي مسعود رضي الله عنه لكن عندهما: «ثمن الكلب» بدل «كسب الحجام».

(٢) والأثر ثابت عن علي رضي الله عنه موقوفاً كما قال المصنف، ورواه عبد الرزاق (٧/ ٣٧٥ - ٣٧٦).

(٣) والحديث قد رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٣٢٠) عن أبي سفيان عن جابر نحوه، والعجيب أن الحافظ ابن كثير لم يشر إليه، وقد ذكر أيضاً نحوه عن مقاتل قال: بلغني والله أعلم. . . !

(٤) رواه مسلم (٣/ ١١٩٩) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

جابر، وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: فإن فعلتم فإنَّ الله لهنَّ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وإثمهن على مَن أكرههنَّ، وكذا قال مجاهد وعطاء الخراساني والأعمش وقتادة. وروى أبو عبيد عن الحسن في هذه الآية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال: لهن والله. وعن الزهري وابن أسلم (نحوه)، حكاهن ابن المنذر في تفسيره بأسانيده. وفي الحديث المرفوع: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه».

٣٤- ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ يعني: القرآن في آيات واضحات مفسرات ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: خبراً عن الأمم الماضية، وما حلَّ بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ أي: زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: لمن اتقى الله وخافه. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن: «فيه حُكم ما بينكم وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم وهو الفصل ليس بالهزل، مَن تركه من جبارٍ قصمه الله، ومَن ابتغى الهدى من غيره أضله الله».

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾

٣٥- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول: هادي أهل السموات والأرض. قال مجاهد وابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبر الأمر فيهما، نجومهما وشمسهما وقمرهما، واختار هذا القول ابن جرير.

(وروي) عن أبي بن كعب يقرؤها (مَثَلُ نُورِ مَنْ آمنَ بِهِ) وهكذا رواه سعيد بن جبير وقيس بن سعد عن ابن عباس أنه قرأها كذلك، وقرأ بعضهم ﴿اللَّهُ نَوَّرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وعن الضحاك: الله نوَّر السموات والأرض، وقال السدي في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فبنوره أضاءت السموات والأرض.

وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق في السيرة: عن رسول الله ﷺ أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يَحِلَّ بي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[(١)].

وفي الصحيحين: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهمَّ لكَ الحمد، أنتَ نورُ السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن» الحديث.

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة (١/ ٤٢٠) دون إسناد. رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥) وقال: وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات اهـ. لكن ابن إسحاق إمام في المغازي والسير، وروايته ههنا منها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ في هذا الضمير قولان: أحدهما: أنه عائد إلى الله عز وجل، أي: مثل هداه في قلب المؤمن، قاله ابن عباس ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾. والثاني: أن الضمير عائد إلى المؤمن، الذي دل عليه سياق الكلام، تقديره: مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة، فشبه قلب المؤمن، وما هو مفطور عليه من الهدى، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه، بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستمد به من القرآن والشرع، بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل، الذي لا كدر فيه ولا انحراف.

فقوله: ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغير واحد، هو: موضع الفتيلة من القنديل، هذا هو المشهور، ولهذا قال بعده: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو: الذُّبالة التي تضيء[1]. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: هي الكُوَّة بلغة الحبشة. وزاد بعضهم فقال: المشكاة الكُوة التي لا منفذ لها. وعن مجاهد: المشكاة الحدائد التي يُعلَّق بها القنديل. والقول الأول أولى، وهو أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل، ولهذا قال: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو النور الذي في الذبالة؛ قال أبي بن كعب: المصباح: النور، وهو القرآن والإيمان الذي في صدره. وقال السدي: هو السراج. ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ أي: هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية، وقال أبي بن كعب وغير واحد: وهي نظير قلب المؤمن.

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة، من الدُّر، أي: كأنها كوكب من درّ. وقرأ آخرون: دِرِئ ودُرِئ، بكسر الدال وضمها مع الهمزة، من الدرء وهو الدفع، وذلك أن النجم إذا رُمي به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال، والعرب تُسمّي ما لا يعرف من الكواكب: دراري، وقال أبي بن كعب: كوكب مضيء، وقال قتادة: مضيء مبين ضخم ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ أي: يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: ليست في شرق بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا في غربها فيقلص عنها الفيء قبل الغروب، بل هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره، فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً. وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي بصحراء، وذلك أصفى لزيتها. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: ليست بشرقية لا تصيبها الشمس إذا طلعت، ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا غربت، ولكنها شرقية وغربية تصيبها إذا طلعت وإذا غربت. وعن سعيد بن جبير والسدي (نحوه).

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أنها في وسط الشجر، ليست بادية للمشرق ولا للمغرب. وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي وسط الشجر، لا تصيبها الشمس شرقاً ولا غرباً.

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: ليست شرقية ليس فيها شرق، ولا غربية ليس فيها غرب، ولكنها شرقية غربية. وقال محمد بن كعب

---

(٢) الذُّبالة هي الفتيلة.

القرظي ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي القبلية. وقال زيد بن أسلم ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: الشام. وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشجرة في الأرض، لكانت شرقية أو غربية، ولكنه مثل ضربه الله تعالى لنوره.

وأولى هذه الأقوال: القول الأول، وهو أنها في مستوى من الأرض، في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس، تفرعه من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف، كما قال غير واحد ممن تقدم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني كضوء إشراق الزيت.

وقوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: يعني بذلك إيمان العبد وعمله، وقال مجاهد والسدي: يعني نور النار، ونور الزيت، وقال أبي بن كعب ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة.

وقال السدي: نور النار ونور الزيت، حين اجتمعا أضاءا، ولا يضيء واحدٌ بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان، حين اجتمعا فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خَلَقَ خَلْقَهُ في ظُلمةٍ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأ ضلَّ، فلذلك أقول: جفَّ القلم على علم الله عز وجل» ورواه البزار.

وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداه في قلب المؤمن، ختم الآية بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية، ممن يستحق الإضلال.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾

٣٦- لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن، ما فيه من الهدى والعلم، بالمصباح في الزجاجة الصافية، المتوقد من زيت طيب، وذلك كالقنديل مثلاً، ذكر محلها وهي المساجد، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد، فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي: أمر الله تعالى بتعاهدها، وتطهيرها من الدنس واللغو، والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة قال: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها. وكذا قال عكرمة وأبو صالح والضحاك ونافع بن جبير وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وسفيان بن حسين، وغيرهم من العلماء المفسرين.

وقال قتادة: هي هذه المساجد، أمر الله سبحانه وتعالى ببنائها وعمارتها، ورفعها وتطهيرها.

وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد، واحترامها وتوقيرها، وتطييبها وتبخيرها، وذلك له محل

مفرد يذكر فيه، وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة، ولله الحمد والمنة، ونحن بعون الله تعالى نذكر هنا طرفاً من ذلك إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان:

فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن بنى مسجداً يبتغي به وجه الله، بنى الله له مثله في الجنة» أخرجاه في الصحيحين. والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدُّور، وأن تنظف وتطيب. رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي، ولأحمد وأبي داود عن سمرة بن جندب نحوه.

وقال البخاري: قال عمر: ابنِ للناس ما يكنهم، وإياك أن تُحمِّر أو تصفر فتفتن الناس. قال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد» رواه أحمد وأهل السنن إلا الترمذي.

وعن بريدة: أن رجلاً أنشد في المسجد، فقال: مَن دعا إلى الجمل الأحمر؟ فقال النبي ﷺ: «لا وجدتَ، إنما بُنيت المساجد لما بُنيت له» رواه مسلم.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتياع، وعن تناشد الأشعار في المساجد. رواه أحمد وأهل السنن، وقال الترمذي: حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم مَن يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالةً في المسجد فقولوا: لا ردها الله عليك» رواه الترمذي.

وقد روى ابن ماجة وغيره: من حديث ابن عمر مرفوعاً قال: «خصالٌ لا تنبغي في المسجد: لا يتخذ طريقاً، ولا يُشهر فيه سلاح، ولا ينبض فيه بقوس، ولا ينثر فيه نبل، ولا يمر فيه بلحم نيء، ولا يضرب فيه حد، ولا يقتص فيه أحد، ولا يتخذ سوقاً». وعن واثلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ قال: «جنِّبُوا المساجد صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم، وخصوماتكم ورفع أصواتكم، وإقامة حدودكم وسل سيوفكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر، وجمِّروها في الجمع» ورواه ابن ماجة أيضاً، وفي إسنادهما ضعف[1].

أما إنه لا يتخذ طريقاً: فقد كره بعض العلماء المرور فيه، إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه، وفي الأثر: إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه. وأما أنه لا يشهر فيه بسلاح، ولا ينبض فيه بقوس، ولا ينثر فيه نبل: فلِما يخشى من إصابة بعض الناس به لكثرة المصلين فيه، ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مرَّ رجلٌ بِسِهامٍ أن يقبض على نصالها، لئلا يُؤذي أحداً، كما ثبت ذلك في الصحيح[2].

وأما النهي عن المرور باللحم النيء فيه: فلما يخشى من تقاطر الدم منه، كما نُهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث. وأما أنه لا يضرب فيه حدٌّ، ولا يقتص: فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه، من المضروب أو المقطوع. وأما أنه لا يتخذ سوقاً: فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بُني لذكر الله والصلاة فيه، كما قال النبي ﷺ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد: «إن المساجد لم تُبنَ لهذا، إنما بُنيت لذكر الله، والصلاة فيها» ثم أمر بسَجْل من ماء، فأهريق على بوله، وفي الحديث الثاني: «جَنِّبُوا مسَاجِدَكم

---

(١) الحديثان ضعيفان، كما قال المصنف، لكن أبقيناهما لوجود شواهد لكثير من ألفاظهما، ثم لتعليقات المصنف عليهما كما ترى.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٤/ ٢٠١٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

صبيانكم» وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى صبياناً يلعبون في المسجد ضربهم بالمخفقة، وهي: الدِّرَّة، وكان يعُسُّ المسجد بعد العشاء، فلا يترك فيه أحداً «ومجانينكم» يعني: لأجل ضعف عقولهم، وسخر الناس بهم، فيؤدي إلى اللعب فيها، ولما يخشى من تقذيرهم المسجد، ونحو ذلك، «وبيعكم وشراءكم» كما تقدم «وخصوماتكم» يعني: التحاكم والحكم فيه ولهذا نص كثير من العلماء: على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية في المسجد، بل يكون في موضع غيره، لما فيه كثرة الحكومات والتشاجر، والألفاظ التي لا تناسبه، ولهذا قال بعده: «ورفع أصواتكم».

وروى البخاري: عن السائب بن يزيد الكندي قال: كنتُ قائماً في المسجد، فحَصَبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين فجئته بهما فقال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. قال: لو كنتما من أهل البلد، لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ.

وروى النسائي: عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال، أتدري أين أنت؟ وهذا أيضاً صحيح.

وقوله: «واتخذوا على أبوابها المطاهر» يعني: المراحيض التي يستعان بها على الوضوء، وقضاء الحاجة. وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله ﷺ آبار يستقون منها فيشربون، ويتطهرون ويتوضؤون وغير ذلك.

وقوله: «وجمّروها في الجمع» يعني: بخّرُوها في أيام الجمع، لكثرة اجتماع الناس يومئذ.

وقد ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الرجل في الجماعة، تُضعَّف على صلاته في بيته، وفي سوقه، خمساً وعشرين ضِعفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رُفع له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلّى لم تَزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهمَّ صلِّ عليه، اللهمَّ ارحمه. ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة».

وفي السنن: «بشِّر المشَّائين إلى المساجدِ في الظُّلَم، بالنور التَّام يوم القيامة»(١).

ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخاري(٢): عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا دخل المسجد يقول: «أعوذُ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم» قال: فإذا قال ذلك، قال الشيطان: حُفظ مني سائر اليوم.

وروى مسلم: بسنده عن أبي حميد أو أبي أسيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهمَّ افتح لي أبواب رحمتك. وإذا خرج فليقل: اللهمَّ إنِّي أسألكَ من فضلكَ» ورواه النسائي عنهما عن النبي ﷺ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليُسلِّم على النبي ﷺ، وليقل: اللهمَّ افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليسلِّم على النبي ﷺ، وليقل: اللهمَّ اعْصِمني من الشيطان الرجيم» ورواه ابن ماجة وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما.

فهذا الذي ذكرناه، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة في ذلك، كله محاذرة الطول، داخل في قوله

---

(١) عند أبي داود (٥٦١) والترمذي (٢٢٣) وابن ماجة (٧٨٠، ٧٨١) عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) كذا قال! وهو وهم، إنما رواه أبو داود (٤٦٦).

تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

وقوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي: اسم الله، كقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ قال ابن عباس: يعني يتلى كتابه، وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: في البكرات والعشيات. والآصال: جمع أصيل وهو آخر النهار. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كل تسبيح في القرآن هو الصلاة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني بالغدوّ: صلاة الغداة، ويعني: بالآصال: صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأحب أن يذكرهما، وأن يذكّر بهما عباده.

وكذا قال الحسن والضحاك ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يعني: الصلاة، ومن قرأ من القراء ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ بفتح الباء من ﴿يسبَّح﴾ على أنه مبني لما لم يسم فاعله، وقف على قوله: ﴿وَالْآصَالِ﴾ وقفاً تاماً، وابتدأ بقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وكأنه مفسر للفاعل المحذوف. كأنه قيل: مَن يسبح له فيها؟ قال: رجال. وأما على قراءة من قرأ ﴿يُسَبِّحُ﴾ بكسر الباء فجعله فعلاً وفاعله ﴿رِجَالٌ﴾ فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل، لأنه تمام الكلام. فقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عماراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

وأما النساء: فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن، لما رواه أبو داود: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «صلاةُ المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حُجْرتها، وصلاتها في مَخدعها أفضل من صلاتها في بيتها». وروى أحمد: عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي: أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني أحب الصلاة معك. قال: «قد علمتُ أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتُكِ في بيتكِ خيرٌ من صلاتك في حُجْرتك، وصلاتك في حجرتك خيرٌ من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خيرٌ من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خيرٌ من صلاتك في مسجدي» قال: فأمرت فبنى لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه، فكانت تصلي فيه حتى لقيت الله تعالى. لم يخرجوه.

هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال، بشرط أن لا تؤذي أحداً من الرجال، بظهور زينة، ولا ريح طيب، كما ثبت في الصحيح: عن عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» رواه البخاري ومسلم، ولأحمد وأبي داود: «وبيوتهن خير لهنّ» وفي رواية: «وليخرجن وهنّ تفلات» أي: لا ريح لهن.

وقد ثبت في صحيح مسلم: عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا شَهدت إحداكنّ المسجدَ، فلا تمس طيباً».

وفي الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ، ثم يرجعن مُتلفِّعاتٍ بمروطهن، مَا يُعرفن من الغَلَس.

وفي الصحيحين: عنها أيضاً أنها قالت: لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء، لَـمَنَعهُنّ المساجد، كما مُنِعَتْ نساءُ بني إسرائيل.

٣٧- وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ الآية. يقول تعالى لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها، وملاذ بيعها وربحها، عن ذكر ربهم، الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خيرٌ لهم، وأنفع مما بأيديهم، لأن ما عندهم ينفد، وما عند الله باق، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي: يقدمون طاعته ومراده ومحبته، على مرادهم ومحبتهم. وقال سعيد بن أبي الحسن والضحاك: لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة وقتها. وقال مطر الورّاق: كانوا يبيعون ويشترون، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده، خفضه وأقبل إلى الصلاة، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ يقول: عن الصلاة المكتوبة. وكذا قال مقاتل بن حيان والربيع بن أنس، وقال السدي: عن الصلاة في جماعة. وقال مقاتل بن حيان: لا يُلهيهم ذلك عن حضور الصلاة، وأن يقيموها كما أمرهم الله، وأن يحافظوا على مواقيتها، وما استحفظهم الله فيها.

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ أي: يوم القيامة، الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار، أي: من شدة الفزع، وعظمة الأهوال، كقوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾.

٣٨- وقوله تعالى ههنا: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي: هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم.

وقوله: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: يتقبل منهم الحسن، ويضاعفه لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ الآية، وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الآية، وقال: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وقال ههنا: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وعن ابن مسعود: أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً، فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً، ثم تلا قوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ رواه النسائي وابن أبي حاتم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)﴾

٣٩- هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين نارياً ومائياً، وكما ضرب لما يقرُّ في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد، مثلين مائياً ونارياً، وقد تكلمنا على كل منهما في موضعه بما أغنى عن إعادته ولله الحمد والمنة. فأما الأول من هذين المثلين: فهو للكفار الدعاة إلى

كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب، الذي يُرى في القيعان من الأرض عن بُعد، كأنه بحر طام، والقيعة: جمع قاع كجار وجيرة، والقاع أيضاً: واحد القيعان، كما يقال: جار وجيران، وهي: الأرض المستوية المتسعة المنبسطة، وفيه يكون السراب، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار، وأما الأول فإنما يكون أول النهار، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاجٌ إلى الماء يحسبه ماء، قصده ليشرب منه، فلما انتهى إليه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً، وأنه قد حصل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة، وحاسبه عليها، ونوقش على أفعاله، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قُبل، إما لعدم الإخلاص، أو لعدم سلوك الشرع، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾، وقال ههنا: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وهكذا رُوي عن أبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد.

وفي الصحيحين: أنه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله! فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من ولد، ماذا تبغون؟ فيقولون: يا رب، عطشنا فاسقنا، فيقال: ألا تَرِدُون؟ فتمثّل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً، فينطلقون فيتهافتون فيها:

وهذا المثال مثال لذوي الجَهل المركب، فأما أصحاب الجهل البسيط، وهم الطماطم الأغشام، المقلدون لأئمة الكفر، الصم البكم الذين لا يعقلون، فمثلهم كما قال تعالى:

٤٠ - ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ قال قتادة ﴿لُّجِّيٍّ﴾ هو العميق ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ أي: لم يقارب رؤيتها من شدّة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد، الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم، قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ الآية، يعني: بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ الآية، وكقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ الآية، وقال أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: فهو يتقلب في خمسة من الظلم: فكلامه ظلمة، وعلمه ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار. وقال السدي والربيع بن أنس نحو ذلك أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ أي: مَن لم يهده الله فهو هالك، جاهل حائر، بائر كافر، كقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن أيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً، وأن يعظم لنا نوراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)﴾

٤١ - يخبر تعالى أنه يسبح له من في السموات والأرض، أي: من الملائكة والأناسي والجان والحيوان، حتى الجماد، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ أي: في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده، بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا

قال تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عباد الله عز وجل.

ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

٤٢ - ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، فهو الحاكم المتصرف، الإله المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا معقب لحكمه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ الآية، فهو الخالق المالك، الإله الحكم في الدنيا والأخرى، وله الحمد في الأولى والآخرة.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) ﴾

٤٣ - يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته، أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي: يجمعه بعد تفرقه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي: متراكماً، أي: يركب بعضه بعضاً ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: من خلله. وكذا قرأها ابن عباس والضحاك.

قال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قماً، ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله.

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ قال بعض النحاة ﴿مِن﴾ الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، والثالثة لبيان الجنس. وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ معناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد، وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب، فإن ﴿مِنْ﴾ الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضاً، لكنها بدل من الأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد، فيكون قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ رحمة لهم، ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ أي: يؤخر عنهم الغيث، ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أي: بالبرد نقمة على من يشاء، لما فيه من نثر ثمارهم، وإتلاف زروعهم وأشجارهم، ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم.

وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ أي: يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار، إذا اتبعته وتراءته.

وقوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا، حتى يعتدلا، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، والله هو المتصرف في ذلك، بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: لدليلاً على عظمته تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وما بعدها من الآيات الكريمات.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن

يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾

٤٥- يذكر تعالى قدرته التامة، وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها من ماء واحد ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كالحية وما شاكلها ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات، ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: بقدرته، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾

٤٦- يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحُكْم والحِكَم، والأمثال البينة المحكمة، كثيراً جداً، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴾

٤٧- يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يُظهرون خلاف ما يُبطنون، يقولون قولاً بألسنتهم ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

٤٨- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، أي: إذا طلبوا إلى اتباع الهدى، فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾.

٤٩- وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم، جاءوا سامعين مطيعين، وهو معنى قوله: ﴿مُذْعِنِينَ﴾ وإذا كانت الحكومة عليه، أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله ثمَّ، فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه، ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره.

٥٠- ولهذا قال تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية، يعني: لا يخرج أمرهم: عن أن يكون في القلوب مرضٌ لازم لها، أو قد عَرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأيّاً مّا كان

فهو كفرٌ محض، والله عليم بكل منهم، وما هو منطوٍ عليه من هذه الصفات. وقوله تعالى: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون، من الحيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك.

٥١- ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعاً وطاعة، ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح، وهو نيل المطلوب، والسلامة من المرهوب، فقال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وقال قتادة في هذه الآية ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ذُكر لنا أن عبادة بن الصامت - وكان عقبياً بدرياً أحد نقباء الأنصار - أنه لما حضره الموت، قال لابن أخيه جنادة بن أبي أمية: ألا أنبئك بماذا عليك، وبماذا لك؟ قال: بلى، قال: فإن عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وأن لا تُنازع الأمر أهله، إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحاً، فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله، فاتبع كتاب الله(١).

وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله، ولرسوله، وللخليفة، وللمؤمنين عامة، قال: وقد ذكر لنا: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: عُروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين. رواه ابن أبي حاتم.

والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله، وسنة رسوله، وللخلفاء الراشدين والأئمة، إذا أمروا بطاعة الله، أكثر من أن تحصر في هذا المكان.

٥٢- وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ قال قتادة: يطع الله ورسوله فيما أمراه به، وترك ما نهيا عنه، ويخش الله فيما مضى من ذنوبه، ويتقه فيما يستقبل. وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني: الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كل شر، في الدنيا والآخرة.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾

٥٣- يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق، الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ، لئن أمرتهم بالخروج في الغزو ليخرجن، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ أي: لا تحلفوا، وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ قيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة، أي: قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ الآية، فهم من سجيتهم الكذب، حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ❁ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

---

(١) وهذا الأثر قريب مما رواه عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، كما في صحيح مسلم رحمه الله في الإمارة (٣/ ١٤٧٠).

وقيل: المعنى في قوله: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: ليكن أمركم طاعة معروفة، أي: بالمعروف من غير حَلِفٍ ولا إقسام، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف ولا إقسام، فكونوا أنتم مثلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هو خبير بكم، وبمن يطيع ممن يعصي، فالحلف وإظهار الطاعة والباطن بخلافه، وإن راج على المخلوق، فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى، لا يروج عليه شيء من التدليس، بل هو خبير بضمائر عباده، وإن أظهروا خلافها.

٥٤- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولوا عنه، وتتركوا ما جاءكم به ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: إبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: بقبول ذلك وتعظيمه، والقيام بمقتضاه ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾

٥٥- هذا وعدٌ من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليُبَدِّلَنَّهم من بعد خوفهم أمناً وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنة. فإنه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فتح الله عليه مكة، وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر واسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان، والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة، رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبوبكر الصديق فلمَّ شعث ما وَهى بعد موته ﷺ، وأخذ جزيرة العرب ومهدها، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد ابن الوليد رضي الله عنه، ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها. وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه، ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر؛ ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخالفيهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله عز وجل، واختار له ما عنده من الكرامة.

ومنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر أقليم فارس. وكَسر كسرى، وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية، امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت

بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص؛ وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقُتل كسرى وباد مُلكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله مَلكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن؛ ولهذا ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله زَوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها». فها نحن نتقلَّب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله، والقيام بشكره، على الوجه الذي يرضيه عنا.

روى الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال أمرُ الناس ماضياً، ما وَليهم اثنا عشر رجلاً» ثم تكلَّم النبي ﷺ بكلمةٍ خفيت عني، فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ؟ قال: قال: «كلهم من قريش» ورواه البخاري. وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادل، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر، فإن كثيراً من أولئك لم يكن لهم من الأمر شيء، فأما هولاء فإنهم يكونون من قريش يلُون فيعدلون وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعاً ومتفرقاً، وقد وُجد منهم أربعة على الولاء وهم أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، ثم كانت بعدهم فترة، ثم وُجد منهم من شاء الله، ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى، ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما مُلئت جوراً وظلماً.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي: من حديث سعيد بن جمهان عن سفينة مولى رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون مُلكاً عَضُوضاً»(١).

وقال بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حقٌ في كتاب الله، ثم تلا هذه الآية، وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد. وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ - إلى قوله - ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآيتين. وقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ الآية، كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه: «أتعرف الحيرة؟» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها، قال: «فوالذي نفسي بيده، ليُتمَّنَّ الله هذا الأمر، حتى تخرج الظَّعِينَةُ من الحيرة حتى تطوف بالبيت، في غيرجوار أحد، ولتُفتحنَّ كُنُوزُ كسرى بن هرمز»، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليُبذلنَّ المال حتى لا يقبله أحد» قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنتُ فيمن فتح كنوز

---

(١) ليس في المصادر التي ذكرها المصنف لفظة «عضوضاً». وإنما هي عند البيهقي في السنن (٨/ ١٥٩) من حديث أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ ابن جبل مرفوعاً وأوله: «إن بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة...» وفيه: ليث بن أبي سليم ضعيف، وابن سابط لم يسمع من أبي عبيدة ومعاذ.

كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها[1].

وروى الإمام أحمد عن أبيّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «بشّر هذه الأمة بالسَّناء والرِّفعة، والدِّين، والنَّصر والتمكين في الأرض، فمن عمِل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب».

وقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ روى الإمام أحمد: عن أنس أن معاذ بن جبل حدثه قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل، قال: «يا معاذ» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار سرعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على العباد؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» قال: ثم سار ساعة، ثم قال: «يا معاذ بن جبل» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك، فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً، فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل، وأطوعهم لله، كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكموا في سائر العباد والبلاد، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة». وفي رواية: «حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك». وفي رواية: «حتى يقاتلون الدجال». وفي رواية: «حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون» وكل هذه الروايات صحيحة، ولا تعارض بينها.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾

٥٦- يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ، أي: سالكين وراءه فيما به أمرهم، وترك ما عنه زجرهم، لعلَّ الله يرحمهم بذلك، ولا شك أن مَن فعل هذا أنَّ الله سيرحمه، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾.

٥٧- وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أي: لا تظنَّ يا محمد أن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: خالفوك وكذّبوك ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يعجزون الله، بل الله قادر عليهم، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المآل مآل الكافرين، وبئس القرار، وبئس المهاد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

---

(١) رواه البخاري في المناقب (٦/ ٦١٠) بنحوه.

مِن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)﴾

٥٨ - هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب، بعضهم على بعض، وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم، وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم، في ثلاثة أحوال: ﴿الأول﴾ من قبل صلاة الغداة، لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ أي: في وقت القيلولة، لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله ﴿وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ لأنه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال، أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يخشى أن يكون الرجل على أهله، أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال، فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم، ولا عليهم إن رأوا شيئاً من غير تلك الأحوال، لأنه قد أذن لهم في الهجوم، لأنهم ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الخدمة وغير ذلك، ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم.

ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن: أن النبي ﷺ قال في الهرة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطوّافين عليكم والطوافات».

ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء، وكان عمل الناس بها قليلاً جداً، أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس، كما روى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ إلى آخر الآية، والآية التي في سورة النساء ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ﴾ الآية، والآية التي في الحجرات ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

وروى أبو داود: عن ابن عباس يقول: لم يؤمن بها أكثر الناس «آية الإذن»، وإني لآمر جاريتي هذه تستأذن عليّ. قال أبو داود: وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس يأمر به، وقال الثوري عن موسى بن أبي عائشة: سألت الشعبي ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال: لم تنسخ، قلت: فإن الناس لا يعملون بها! فقال: الله المستعان. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس: أن رجلين سألاه عن الاستئذان في الثلاث عورات، التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: إن الله ستير يحب الستر، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حجال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو وَلده أو يتيمه في حجره وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا، في تلك العورات التي سمى الله، ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط الله عليهم الرزق، فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ورواه أبو داود.

وقال السدي: كان أناس من الصحابة رضي الله عنهم يحبون أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات،

ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان، أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن.

ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ، قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

٥٩ - ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: إذا بلغ الأطفال منكم الحلم، الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال، يعني بالنسبة إلى أجانبهم، وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

(وبنحوه) قال يحيى بن أبي كثير وسعيد بن جبير: وقال في قوله: ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه.

٦٠ - وقوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والضحاك وقتادة: هن اللواتي انقطع عنهن الحيض، ويئسن من الولد ﴿اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لم يبق لهنّ تشوُّف إلى التزوج ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: ليس عليهن من الحجر في التستر، كما على غيرهن من النساء. روى أبو داود: عن عكرمة عن ابن عباس ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ الآية، فنسخ واستثنى من ذلك: ﴿الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ الآية. قال ابن مسعود في قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ قال: الجلباب أو الرداء. وكذلك روي عن ابن عباس وابن عمر، ومجاهد وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والزهري والأوزاعي وغيرهم.

وقال أبو صالح: تضع الجلباب وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار. وقال سعيد بن جبير وغيره في قراءة عبد الله بن مسعود (أن يَضَعْنَ مِن ثِيَابهنّ) وهو الجلباب من فوق الخمار، فلابأس أن يضعن عند غريب أو غيره، بعد أن يكون عليها خمار صفيق. وقال سعيد بن جبير في الآية ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ما عليهن من الزينة. وقوله: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: وترك وضعهن لثيابهن ـ وإن كان جائزاً ـ خير وأفضل لهن، والله سميع عليم.

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾

٦١ - اختلف المفسرون رحمهم الله، في المعنى الذي رفع لأجله الحرج، عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا، فقال عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يقال: إنها نزلت في الجهاد. وجعلوا هذه الآية ههنا، كالتي في سورة الفتح، وتلك في الجهاد لا محالة، أي: أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد، لضعفهم وعجزهم، وكما قال تعالى في سورة براءة ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا

﴿يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿أَن لاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾.

وقيل: المراد ههنا: أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى، لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج، لأنه لا يتمكن من الجلوس، فيفتات عليه جليسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك. وهذا قول سعيد بن جبير ومقسم.

وقال الضحاك: كانوا قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع هؤلاء، تقذراً وتعززاً، ولئلا يتفضلوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية، وروى عبد الرزاق عن مجاهد في الآية، قال: كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض، إلى بيت أبيه أو أخيه أو بيت عمته أو بيت خالته، فكان الزَّمْنَى يتحرجون من ذلك، يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم، فنزلت هذه الآية رخصة لهم، وقال السدي: كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه، فتتحفه المرأة بشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثَمَّ، فقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ إنما ذكر هذا وهو معلوم، ليعطف عليه غيره في اللفظ، وليساويه ما بعده في الحكم، وتضمن هذا بيوت الأبناء، لأنه لم ينص عليهم، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في المسند والسنن من غير وجه: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنتَ ومالك لأبيك». وقوله: ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ هذا ظاهر، وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل في المشهور عنهما.

وأما قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ فقال سعيد بن جبير والسدي: هو خادم الرجل، من عبد وقهرمان، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يذهبون في النفير مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء فأنزل الله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾.

وقوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: بيوت أصدقائكم وأصحابكم، فلا جناح عليكم في الأكل منها، إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم، ولا يكرهون ذلك، وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك، فلا بأس أن تأكل بغير إذنه.

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: وذلك لما أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام من أفضل الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾. وكانوا أيضاً: يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده، حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم في ذلك فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾.

وقال قتادة : كان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية ، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل الله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ .

فهذه رخصة من الله تعالى ، في أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل ، كما روى الإمام أحمد : عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده : أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع ! قال : «لعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله ، يُبارك لكم فيه» ورواه أبو داود وابن ماجه .

وقوله : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ قال سعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والزهري : يعني فليسلِّم بعضكم على بعض . وقال أبو الزبير : سمعت جابر بن عبد الله يقول : إذا دخلت على أهلك ، فسلِّم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة . قال : ما رأيته إلا بركة ، وعن ابن طاوس أنه كان يقول : إذا دخل أحدكم بيته فليسلم . قال ابن جريج : قلت لعطاء : أواجبٌ إذا خرجت ثم دخلت أنْ أسلم عليهم؟ قال : لا ، ولا أوثر وجوبه عن أحد ، ولكن هو أحب إليَّ ، وما أدعه إلا ناسياً . وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وعن قتادة نحوه وقال : وحدثنا أن الملائكة ترد عليه .

وقوله : ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لما ذكر تعالى ما في هذه السورة الكريمة ، من الأحكام المحكمة ، والشرائع المتقنة المبرمة ، نبَّه تعالى عباده ، على أنه يبين لعباده الآيات بياناً شافياً ، ليتدبروها ويتعقلوها ، لعلهم يعقلون .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾

٦٢- وهذا أيضاً أدبٌ أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لا سيما إذا كانوا في أمرٍ جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، من صلاة جمعةٍ أو عيدٍ ، أو جماعة أو اجتماع ، في مشورة ونحو ذلك ، أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه ـ و الحالة هذه ـ إلا بعد استئذانه ومشاورته ، وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين ، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحدٌ منهم في ذلك ، أن يأذن له إن شاء ، ولهذا قال : ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ الآية .

وقد روى أبو داود : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلِّم ، فإذا أراد أن يقوم فليُسلِّم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة» وهكذا رواه الترمذي والنسائي .

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾

٦٣- قال الضحاك عن ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك ، إعظاماً لنبيه ﷺ ، قال فقولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير .

وقال قتادة: أمر الله أن يُهاب نبيهﷺ، وأن يبجَّل، وأن يعظم، وأن يسود. وقال مقاتل في قوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ يقول: لا تسموه إذا دعوتموه: يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله. وعن زيد بن أسلم قال: أمرهم الله أن يشرفوه.

هذا قول، وهو الظاهر من السياق، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ إلى آخر الآية، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ الآية، فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبيﷺ، والكلام معه وعنده، كما أمروا بتقديم الصدقة، قبل مناجاته.

والقول الثاني في ذلك: أن المعنى في ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره، كدعاء غيره، فإنَّ دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا.

حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصري وعطية العوفي، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ قال مقاتل بن حيان: هم المنافقون، كان يَثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة، ويعني بالحديث: الخطبة، فيلوذون ببعض أصحاب محمدﷺ حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصح للرجل أن يخرج من المسجد، إلا بإذن من النبيﷺ في يوم الجمعة بعد ما يأخذ في الخطبة، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبيﷺ فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبيﷺ يخطب بطلت جمعته. وقال السدي: كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض، حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم، وقال قتادة يعني: لواذاً عن نبي الله وعن كتابه، وقال سفيان: من الصف. وقال مجاهد في الآية: ﴿لِوَاذًا﴾ خلافاً.

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: عن أمر رسول اللهﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال، بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائناً من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما: عن رسول اللهﷺ أنه قال: «مَن عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرنا، فهو ردٌّ».

أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك، كما روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «مَثَلِي ومَثلكم، كمثل رجلٍ استوقدَ ناراً، فلما أضاءت ما حولها، جَعَلَ الفَراشُ وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يَحجزهنَّ ويغلبنه فيقتحمن فيها، قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار: هلمَّ عن النار، فتغلبوني وتقتحمون فيها» أخرجاه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾

٦٤- يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو عالم بما العباد

عاملون، في سرهم وجهرهم، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ و«قد» للتحقيق، كما قال قبلها: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً﴾ وقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ الآية، وقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وقال: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية. فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بـ «قد» كقول المؤذن تحقيقاً وثبوتاً: قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة.

فقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو عالم به، مشاهد له، لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: هو شهيد على عباده بما هم فاعلون، من خير وشر، وقال تعالى: ﴿أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وقال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ويوم يرجع الخلائق إلى الله، وهو يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير، وصغير وكبير، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾. ولهذا قال ههنا: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والحمد لله رب العالمين، ونسأله التمام.

آخر تفسير سورة النور

****

ترتيبها ٢٥ — سورة الفرقان ـ مكية — آياتها ٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) ﴾

١ - يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة، على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿تَبَارَكَ﴾ وهو تفاعل، من البركة المستقرة الثابتة الدائمة ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ نزَّل: فعَّل، من التكرر والتكثر، كقوله: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجماً مفرقاً مفصلاً، آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سور، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناء بمن أنزل عليه، كما قال في أثناء هذه السورة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ولهذا سماه ههنا «الفرقان» لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام.

وقوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ هذه صفة مدح وثناء، لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه، ونزول الملك إليه، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي: إنما خصَّه بهذا الكتاب المفصل، العظيم المبين المحكم، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ الذي جعله فرقاناً عظيماً، ليخصه بالرسالة، إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء، كما قال ﷺ: «بُعثتُ إلى الأحمر والأسود»[1]. وقال: «إنّي أعطيت خَمساً لَمْ يُعْطَهنَّ أحد من الأنبياء قبلي» فذكر منهن «أنه كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»[1]، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية. أي: الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض، الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال ههنا:

٢ - ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ ونزه نفسه عن الولد، وعن الشريك. ثم أخبر أنه خلق كل شيء فقدره تقديراً أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره، وتدبيره وتسخيره، وتقديره.

---

(١) رواه مسلم في المساجد (١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١) من حديث جابر رضي الله عنه.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا (٣) ﴾

٣- يخبر تعالى عن جهل المشركين، في اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء، المالك لأزمَّة الأمور، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام، ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعابديهم؟ ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً﴾ أي: ليس لهم من ذلك شيء، بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذي يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة، أولهم وآخرهم ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

فهو الله الذي لا إله غيره، ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا عديل ولا بديل، ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) ﴾

٤- يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار، في قولهم عن القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ﴾ أي: كذب افتراه، يعنون النبي ﷺ ﴿وَأَعَانَهُ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين. فقال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُوراً﴾ أي: فقد افتروا هم قولاً باطلاً، وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه.

٥- ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ يعنون: كتب الأوائل، أي: استنسخها ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي: في أول النهار وآخره، وهذا الكلام لسخافته وكذبه، وبهته منهم، يعلم كل أحد بطلانه، فإنه قد عُلم بالتواتر وبالضرورة: أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره، ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده، إلى أن بعثه الله، نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه ونزاهته، وبره وأمانته، وبعده عن الكذب والفجور، وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره، وإلى أن بُعث «الأمين» لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب. وقال الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾.

٦- وقال تعالى في جواب ما عاندوا ههنا وافتروا: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

الآية، أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين، إخباراً حقاً صدقاً، مطابقاً للواقع في الخارج، ماضياً ومستقبلاً ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أي: الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ دعاءٌ لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبارٌ لهم بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم، وفجورهم وبهتانهم، وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة!

﴿وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤)﴾

٧- يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقوله: ﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ يعنون: كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله، فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه، وهذا كما قال فرعون ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم.

٨- ولهذا قالوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: علم كنز ينفق منه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: تسير معه حيث سار، وهذا كله سهل يسير على الله، ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

٩- قال الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ أي: جاءوا بما يقذفونك به، ويكذبون به عليك، من قولهم: ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر، وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل، يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك، ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا﴾ أي: عن طريق الهدى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى، فإنه ضال حيثما توجه، لأن الحق واحد، ومنهجه متّحد، يصدق بعضه بعضاً.

١٠- ثم قال تعالى مخبراً نبيه، إنه إن شاء لأتاه خيراً مما يقولون في الدنيا، وأفضل وأحسن، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الآية. قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقريش يُسمون كل

بيتٍ من حجارة قصراً، كبيراً كان أو صغيراً.

١١ - وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أي: إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً، بل تكذيبهم بيوم القيامة، يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: أرصدنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾ أي: عذاباً أليماً حاراً لا يطاق في نار جهنم. روى الثوري عن سعيد بن جبير: «السعير» وادٍ من قيح جهنم.

١٢ - وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أي: جهنم ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: في مقام المحشر. قال السدي: من مسيرة مائة عام ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ أي: حَنَقاً عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها على من كفر بالله. روى ابن جرير: عن أبي وائل قال: قال: خرجنا مع عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ ومعنا الربيع بن خيثم، فمروا على حدَّاد فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، ونظر الربيع بن خيثم إليها، فتمايل الربيع ليسقط فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه، قرأ هذه الآية ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ فصعق يعني: الربيع، وحملوه إلى أهل بيته، فرابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق رضي الله عنه.

وروى أيضاً: عن مجاهد عن ابن عباس قال: «إن الرجل ليُجرُّ إلى النار فتنزوي، وتنقبض بعضها إلى بعض، فيقول لها الرحمن: مالك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي، وإنَّ الرجل ليجر إلى النار، فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك! فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي، وإن الرجل ليجر إلى النار، فتشهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحدٌ إلا خاف. وهذا إسناد صحيح.

وروى عبد الرزاق: عن عبيد بن عمير في قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ قال: إن جهنم لتزفر زفرة، لا يبقى مَلَكٌ مقرب، ولا نبيٌّ مرسل، إلا خرّ لوجهه، ترتعد فرائصه، حتى إن إبراهيمﷺ ليجثوا على ركبتيه، ويقول: رب لا أسألك اليوم إلا نفسي.

١٣ - وقوله: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ﴾ عن عبد الله بن عمرو قال: مثل الزُّج في الرمح. أي: من ضيقه. وقوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قال أبو صالح: يعني: مكتَّفين ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ أي: بالويل والحسرة والخيبة.

١٤ - ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً﴾ الآية. قال العوفي عن ابن عباس أي: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً، وادعوا ويلاً كثيراً، وقال الضحاك: الثبور الهلاك.

والأظهر: أن «الثبور» يجمع الهلاك والويل، والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ أي: هالكاً.

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً (١٦) ﴾

١٥ - يقول تعالى: يا محمد، هذا الذي وصفناه لك، من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتلقاهم بوجه عبوس، وتغيظ وزفير، ويلقون في أماكنها الضيق مقرنين، لا يستطيعون حراكاً ولا

استنصاراً، ولا فكاكاً مما هم فيه، أهذا خيرٌ، أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده؟ التي أعدها لهم، وجعلها لهم جزاء ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها.

١٦ - ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر وغير ذلك، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً، بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء، ولا يبغون عنها حولاً، وهذا من وعد الله الذي تفضَّل به عليهم، وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً﴾ أي: لا بد أن يقع وأن يكون، كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعْداً مَّسْئُولاً﴾ أي: وعداً واجباً. وعن ابن عباس ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً﴾ يقول: سلوا الذين واعدتكم، أو قال: أوعدناكم وتنجزوه، وقال محمد بن كعب القرظي أن الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾، وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة، قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا، فأنجز لنا ما وعدتنا، فذلك قوله: ﴿وَعْداً مَّسْئُولاً﴾.

وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة، كما ذكر تعالى في سورة الصافات حال أهل الجنة، وما فيها من النضرة والحبور، ثم قال: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً (١٩)﴾

١٧ - يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة، من تقريع الكفار في عبادتهم مَن عبدوا من دون الله، من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾. قال مجاهد: هو عيسى والعزير والملائكة ﴿فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ الآية، أي: فيقول تبارك وتعالى للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني؟ أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ الآية.

١٨ - ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجيب به المعبودون يوم القيامة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ قرأ الأكثرون بفتح «النون» من قوله: ﴿نَتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ

﴿يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ الآية. وقرأ آخرون: (مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أن تُتَّخَذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ) أي: ما ينبغي لأحدٍ أن يعبدنا، فإنا عبيدٌ لك، فقراء إليك، وهي قريبة المعنى من الأولى.

﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ أي: طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر، أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك، من الدعوة إلى عبادتك، وحدك لا شريك لك ﴿وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾ قال ابن عباس: أي: هلكى، وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري: أي لا خير فيهم.

١٩- قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله، فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾. وقوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً﴾ أي: لا يقدرون على صرف العذاب عنهم، ولا الانتصار لأنفسهم ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أي: يشرك بالله ﴿نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠)﴾

٢٠- يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين، أنهم كانوا يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التغذي به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمنافٍ لحالهم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة القاهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة، على صدق ما جاءوا به من الله، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع ممن يعصي، ولهذا قال: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ أي: بمن يستحق أن يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به، ومن لا يستحق ذلك، وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قال: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يُخالَفون، لفعلت، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم، وأبتليكم بهم.

وفي صحيح مسلم: عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إنِّي مبتليك ومبتلي بك».

وفي الصحيح: أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خُيِّر بين أن يكون نبياً مَلِكاً، أو عبداً رسولاً؟ فاختار أن يكون عبداً رسولاً[1].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً

(١) الحديث رواه الإمام أحمد (٢/ ٢٣١) والبزار (٢٤٦٢ – كشف) وأبو يعلى (٦١٠٥) وابن حبان (٦٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وإسناده صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجه صاحبا الصحيح!

(٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) ﴾

٢١- يقول تعالى مخبراً عن تعنت الكفار في كفرهم، وعنادهم في قولهم ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: بالرسالة كما تنزل على الأنبياء، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى ﴿قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فنراهم عياناً، فيخبرونا أن محمداً رسول الله، كقولهم ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ وقد تقدم تفسيرها في سورة سبحان. ولهذا قالوا ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ الآية.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم، وذلك يصدق على وقت الاحتضار، حين تبشرهم الملائكة بالنار، والغضب من الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: أخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، أخرجي إلى سموم وحميم، وظل من يحموم، فتأبى الخروج، وتتفرق في البدن فيضربونه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم، فإنهم يُبشرون بالخيرات، وحصول المسرات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾. وفي الحديث الصحيح: عن البراء بن عازب: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها النفس الطيبة، في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان.

وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ﴾ يعني: يوم القيامة. قاله مجاهد والضحاك وغيرهما، ولا منافاة بين هذا وما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين: يوم الممات ويوم المعاد، تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرم عليكم الفلاح اليوم.

وأصل الحِجْر: المنع، ومنه يقال: حجر القاضي على فلان، إذا منعه التصرف إما لفَلَس أو سفه أو صغر أو نحو ذلك، ومنه سمي «الحجر» عند البيت الحرام، لأنه يمنع الطوّاف أن يطوفوا فيه، وإنما يطاف من ورائه، ومنه يقال للعقل: حجر، لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق. والغرض أن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾

عائد على الملائكة. هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخراساني وخصيف وغير واحد، واختاره ابن جرير. وحكي عن ابن جريج أنه قال: ذلك من كلام المشركين ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: يتعوذون من الملائكة، وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة، يقول: ﴿حِجْراً مَّحْجُوراً﴾. وهذا القول وإن كان له مأخذ ووجه، ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد، لا سيما وقد نص الجمهور على خلافه، ولكن قد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: ﴿حِجْراً مَّحْجُوراً﴾ أي: عوناً معاذاً، فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريج، ولكن في رواية ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: ﴿حِجْراً مَّحْجُوراً﴾: عوذاً معاذاً، الملائكة تقول ذلك، فالله أعلم.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ الآية، هذا يوم القيامة، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصاً، وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً فتكون أبعد من القبول حينئذ، لهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾.

قال مجاهد والثوري ﴿وَقَدِمْنَا﴾ أي: وعمدنا. وكذا قال السدي، وبعضهم يقول: أتينا عليه. وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾ روى سفيان الثوري: عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿هَبَاءً مَّنثُوراً﴾ قال: شعاع الشمس إذا دخل الكوة، وكذا روي من غير هذا الوجه عن عليٍّ، وروي مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي والضحاك وغيرهم، وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أحدهم، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿هَبَاءً مَّنثُوراً﴾ قال: هو الماء المهراق، ورُوي عن علي ﴿هَبَاءً مَّنثُوراً﴾ قال: الهباء: رَهج الدواب، وروي مثله عن ابن عباس أيضاً، والضحاك وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة في قوله: ﴿هَبَاءً مَّنثُوراً﴾ قال: أما رأيت يبس الشجر إذا ذرته الريح؟ فهو ذلك الورق.

وحاصل هذه الأقوال، التنبيه على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء، فلما عُرضت على الملك الحكم العدل، الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، إذا إنها لا شيء بالكلية، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق، الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ وتقدم الكلام على تفسير ذلك، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات، والغرفات الآمنات، فهم في مقام أمين حسن المنظر طيب المقام ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات، والحسرات المتتابعات، وأنواع العذاب والعقوبات ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ أي: بئس المنزل منظراً، وبئس المقيل مقاماً، ولهذا قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ أي: بما عملوه من الأعمال المتقبلة، نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه، بخلاف أهل النار، فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي لهم دخول الجنة، والنجاة من النار، فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء، وأنه لا خير عندهم بالكلية، فقال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: إنما هي ضحوة، فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين. وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار، فيقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، قال الله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾.

وقال عكرمة: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر، إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة، فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة، فكانت قيلولتهم في الجنة، وأطعموا كبد حوت فأشبعهم كلهم، وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾.

وقال قتادة: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ مأوى ومنزلاً.

﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً (٢٥) الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً (٢٦) ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً (٢٧) يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً (٢٨) لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً (٢٩)﴾

٢٥- يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها، وانفراجها بالغمام وهو ظلل النور العظيم، الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء. قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ وقال أبو بكر بن عبد الله: إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم، شخصت إليه أبصارهم، ورجفت كُلاهم في أجوافهم، وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم إلى حناجرهم.

روى ابن جرير: عن عبد الله بن عمرو قال: يهبط الله عز وجل حين يهبط، وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب، منها النور والظلمة، فيصوت في تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب. وهذا موقوف على عبد الله بن عمرو من كلامه، ولعله من الزاملتين[1] والله أعلم.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وفي الصحيح: «إنَّ الله تعالى يطوي السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟». وقوله: ﴿وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ أي: شديداً صعباً، لأنه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾

(١) أي: ما أخذه عن أهل الكتاب.

فهذا حال الكافرين في هذا اليوم، وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ الآية.

٢٧- وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ الآية، يخبر تعالى عن ندم الظالم، الذي فارق طريق الرسول ﷺ، وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مرية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفاً، وسواء كان سبب نزولها في عقبة ابن أبي معيط، أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ الآيتين. فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه قائلاً: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾.

٢٨- ﴿يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني: من صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلال، من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما.

٢٩- ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ وهو القرآن ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أي: بعد بلوغه إليّ، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ أي: يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه.

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) ﴾

٣٠- يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ، أنه قال: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ الآية. فكانوا إذا تلي عليهم القرآن، أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعونه، فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به وترك تصديقه: من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه: من هجرانه، وترك العمل به، وامتثال أوامره واجتناب زواجره: من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره، من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام، أو طريقة مأخوذة من غيره: من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان، القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه، من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب.

٣١- وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما حصل لك ـ يا محمد ـ في قومك، من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضين، لأن الله جعل لكل نبيٍّ عدوًّا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ الآيتين. ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: لمن اتبع رسوله، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة، وإنما قال ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن، لئلا يهتدي أحدٌ به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن، فلهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) ﴾

٣٢- يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم، وكلامهم فيما لا يعنيهم، حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: هلا أُنزل عليه هذا الكتاب، الذي أوحى إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة، كالتوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكتب الإلهية، فأجابهم الله تعالى عن ذلك، بأنه إنما نزل مُنجَّماً في ثلاث وعشرين سنة، بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام، ليثبت قلوب المؤمنين به، كقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ ولهذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ قال قتادة: بيَّناه تبييناً. وقال ابن زيد: وفسرناه تفسيراً.

٣٣- ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصح في مقالتهم، قال سعيد ابن جبير عن ابن عباس ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الآية، أي: إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم، وما هذا إلا اعتناءٌ، وكبيرُ شرفٍ للرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل بالقرآن صباحاً ومساءً، وليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، وكل مرة كان يأتيه المَلَك بالقرآن، لا كإنزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله تعالى، وقد جمع الله للقرآن الصفتين معاً، ففي الملأ الأعلى أنزل جملة واحدة، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً، بحسب الوقائع والحوادث. وروى النسائي بإسناده: عن ابن عباس قال: أنزل القرآن جُملةً واحدةً إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾(1).

٣٤- ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار، في معادهم يوم القيامة، وحشرهم إلى جهنم في أسوإ الحالات، وأقبح الصفات ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وفي الصحيح: عن أنس: أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إنَّ الذي أمشاه على رجليه، قادرٌ أن يمشيه على وجهه يوم القيامة» وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة، وغير واحد من المفسرين.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) ﴾

٣٥، ٣٦- يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه، ومن خالفه، ومحذرهم

(1) في الكبرى (٧٩٣٥، ١١٣٠٨) وإسناده صحيح.

من عقابه وأليم عذابه، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله، فبدأ بذكر موسى، وأنه بعثه وجعل معه ﴿أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ أي: نبياً موازراً مؤيداً وناصراً، فكذبهما فرعون وجنوده ﴿فَدَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً ﷺ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل، إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول، فإنهم كانوا يكذبون.

٣٧- ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى الله عز وجل، ويحذرهم نقمه ﴿فَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ولهذا أغرقهم الله جميعاً، ولم يبق منهم أحداً، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي: عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ❁ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي: وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم، من إنجائكم من الغرق، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قد تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة ـ كسورة الأعراف ـ بما أغنى عن الإعادة. وأما أصحاب الرس: فقال ابن جريج عن ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود. وقال ابن جريج: قال عكرمة: أصحاب الرس بفَلَج، وهم أصحاب يس. وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة. وروى ابن أبي حاتم بسنده: عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قال: بئر بأذربيجان. واختار ابن جرير: أن المراد بأصحاب الرس: هم أصحاب الأخدود الذين ذُكروا في سورة البروج، فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: وأمماً بين أضعاف مَن ذُكر أهلكناهم كثيرة.

٣٩- ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: بينا لهم الحجج، ووضحنا لهم الأدلة، كما قال قتادة وأزحنا الأعذار عنهم ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: أهلكنا إهلاكاً، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ والقرن: هو الأمة من الناس، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ وحدَّه بعضهم بمائة وعشرين سنة، وقيل: بمائة، وقيل: بثمانين، وقيل: أربعين وقيل غير ذلك، والأظهر: أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر، كما ثبت في الصحيحين: «خير القرون قرني[1]، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» الحديث.

٤٠- ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني: قرية قوم لوط، وهي «سدوم» التي أهلكها الله بالقلب، وبالمطر من الحجارة التي من سجيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ❁ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ وقال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾. ولهذا قال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أي: فيعتبروا بما حلَّ بأهلها من العذاب والنكال، بسبب تكذيبهم بالرسول، وبمخالفتهم أوامر الله ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يعني: المارِّين بها من الكفار، لا يعتبرون لأنهم ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي: معاداً يوم القيامة.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا

---

(١) الحديث في الصحيحين وغيرهما بلفظ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي...». أما لفظ: «خيرُ القُرونِ قَرْنِي» فلا أصل له فيما نعلم.

أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴿٤٢﴾ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ﴿٤٣﴾ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴿٤٤﴾﴾

٤١- يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ، إذا رأوه، كما قال تعالى: ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ الآية، يعنون بالعيب والنقص، وقال ههنا: ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ أي: على سبيل التنقص والازدراء، فقبحهم الله، كما قال: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾ الآية.

٤٢- وقوله تعالى: ﴿إن كاد ليضلنا عن آلهتنا﴾ يعنون: أنه كاد يفتنهم عن عبادة الأصنام، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها. قال الله تعالى: متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب﴾ الآية.

٤٣- ثم قال تعالى لنبيه منبهاً، أنَّ من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحدٌ إلا الله عز وجل ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه، كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء﴾ الآية. ولهذا قال ههنا: ﴿أفأنت تكون عليه وكيلا﴾ قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه، عَبَد الثاني وترك الأول.

٤٤- ثم قال تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾ الآية، أي: هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تفعل ما خُلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلم يفعلوا، وهم يعبدون غيره، ويشركون به مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم.

﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ﴿٤٥﴾ ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ﴿٤٦﴾ وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ﴿٤٧﴾﴾

٤٥- من ههنا شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة، الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال تعالى: ﴿ألم تر كيف مد الظل﴾ قال ابن عباس وابن عمر وأبو العالية وأبو مالك ومسروق ومجاهد وسعيد بن جبير والنخعي والضحاك والحسن وقتادة: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ولو شاء لجعله ساكنا﴾ أي: دائماً لا يزول، كما قال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا﴾ الآيات، وقوله تعالى: ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ أي: لولا أن الشمس تطلع عليه، لما عُرف، فإن الضد لا يُعرف إلا بضده، وقال قتادة والسدي: دليلاً تتلوه وتتبعه، حتى تأتي عليه كله.

٤٦- وقوله تعالى: ﴿ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾ أي: الظل. وقيل: الشمس ﴿يسيرا﴾ أي: سهلاً، قال ابن عباس: سريعاً. وقال مجاهد: خفياً. وقال السدي: قبضاً خفياً، حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف، أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه، وقال أيوب بن موسى في الآية ﴿قبضا يسيرا﴾ قليلاً قليلاً.

٤٧- وقوله: ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباسا﴾ أي: يلبس الوجود ويغشاه، كما قال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾. ﴿والنوم سباتا﴾ أي: قاطعاً للحركة، لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة

الحركة، في الانتشار بالنهار في المعاش، فإذا جاء الليل وسكن، سكنت الحركات فاستراحت فحصل النوم، الذي فيه راحة البدن والروح معاً ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾ أي: ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ الآية.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾

٤٨- وهذا أيضاً من قدرته التامة، وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يكون قبل ذلك تقم الأرض، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ أي: آلة يتطهر بها، كالسَّحور والوجور وما جرى مجراهما، فهذا أصح ما يقال في ذلك، وأما من قال إنه فعول بمعنى فاعل، أو أنه مبني للمبالغة والتعدي، فعلى كل منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم، ليس هذا موضع بسطها، والله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم عن ثابت البناني قال: دخلت مع أبي العالية في يوم مطير وطرق البصرة قذرة، فصلى فقلت له، فقال ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ قال: طهره ماء السماء. وروى أيضاً: عن سعيد بن المسيب في هذه الآية قال: أنزله الله طهوراً لا ينجسه شيء.

وعن أبي سعيد قال: قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بضاعة؟. وهي بئر يُلقى فيها النتن ولحوم الكلاب؟ فقال: «إن الماءَ طهور لا ينجسه شيء» رواه الشافعي وأحمد وصححه وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي.

وروى ابن أبي حاتم بإسناده: عن خالد بن زيد قال: كنا عند عبد الملك بن مروان فذكروا الماء، فقال خالد بن زيد: منه ماء من السماء، ومنه ماء يسقيه الغيم من البحر فيُعْذِبه الرعد والبرق، فأما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات، فأما النبات فما كان من السماء. وروى عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبة، أو في البحر لؤلؤة، وقال غيره: في البرِّ برّ، وفي البحر در.

٤٩- وقوله تعالى: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً﴾ أي: أرضاً قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الحيا عاشت، واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ الآية. ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ أي: وليشرب منه الحيوان، من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة، لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الآية.

٥٠- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب يمر على الأرض، ويتعدَّاها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى، فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقاً، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة، والحكمة القاطعة، قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ أي: ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة، أنه قادر على إحياء الأموات

والعظام والرفات. أو: ليذكر مَن مُنع المطر، إنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيقلع عما هو فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ قال عكرمة: يعني الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا. وهذا الذي قاله عكرمة، كما صح في الحديث المخرج في صحيح مسلم: عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على إثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله ورحمته، فذاكَ مؤمنٌ بي، كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مُطِرْنَا بنوْءِ كذا وكذا، فذاك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب».

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (٥١) فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (٥٤) ﴾

٥١- يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل، ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ وفي الصحيحين: «بُعِثْتُ إلى الأحمرِ والأسود». وفيهما: «وكَانَ النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة».

٥٢- ولهذا قال تعالى: ﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ يعني: بالقرآن، قاله ابن عباس ﴿جِهَاداً كَبِيراً﴾، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الآية.

٥٣- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: خلق الله الماءين: الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال. قاله ابن جريج واختاره ابن جرير، وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحرٌ ساكن، وهو عذب فراتٌ؛ والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع، لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس، فرّقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه، أنهاراً وعيوناً في كل أرض، بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مالح مرّ زعاق لا يُستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق، وبحر القلزم، وبحر اليمن، وبحر البصرة، وبحر فارس، وبحر الصين والهند، وبحر الروم، وبحر الخزر، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر؛ ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت، حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر، شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشر، ثم تشرع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى ـ وهو ذو القدرة التامة ـ العادة بذلك، فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها ملحاً، كان هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة. ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سُئل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: «هُو الطَّهُورُ ماؤُه،

الحلُّ ميتته» رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً﴾ أي: بين العذب والمالح ﴿بَرْزَخاً﴾ أي: حاجزاً، وهو اليبس من الأرض ﴿وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ أي: مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر، كقوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

٥٤- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً﴾ الآية، أي: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسوَّاه وعدله، وجعله كامل الخلقة، ذكراً أو أنثى كما يشاء ﴿فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات، وكل ذلك من ماء مهين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾.

﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً (٦٠) ﴾

٥٥- يخبر تعالى عن جهل المشركين، في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك له ضراً ولا نفعاً، بلا دليل قادهم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء، والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ أي: عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله، لا تملك لهم نصراً، وهؤلاء الجهلة للأصنام جندٌ محضرون، يقاتلون عنهم، ويذبُّون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين، في الدنيا والآخرة. قال مجاهد ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ قال: يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه. وقال سعيد بن جبير: عوناً للشيطان على ربه، بالعداوة والشرك، وقال زيد ابن أسلم: موالياً.

٥٦- ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ أي: بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد، لمن خاف أمر الله.

٥٧- ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: على هذا البلاغ، وهذا الإنذار، من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾. ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي: طريقاً ومسلكاً ومنهجاً، يقتدى فيها بما جئت به.

٥٨- ثم قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ أي: في أمورك كلها، كن متوكلاً على الله

الحي الذي لا يموت أبداً، الذي هو ﴿الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الدائم الباقي السرمدي الأبدي، الحي القيوم، رب كل شيء ومليكه، اجعله ذخرك وملجأك، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: أقرن بين حمده وتسبيحه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ أي: بعلمه التام، الذي لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

٥٩- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ الآية، أي: هو الحي الذي لا يموت، هو خالق كل شيء وربه ومليكه، الذي خلق بقدرته وسلطانه، السموات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: يدبر الأمر، ويقضي الحق وهو خير الفاصلين.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ أي: استعلم عنه من هو خبير به، عالم به، فاتبعه واقتد به، وقد علم أنه لا أحدَ أعلم بالله ولا أخبر به، من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، سيد ولد آدم على الإطلاق، في الدنيا والآخرة، الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ فما قاله فهو الحق، وما أخبر به فهو الصدق، وهو الإمام المحكَّم، الذي إذا تنازع الناس في شيء، وجب رد نزاعهم إليه، فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق، وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله، كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾. قال مجاهد في قوله: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ قال: ما أخبرتك من شيء، فهو كما أخبرتك. وكذا قال ابن جريج. وقال شمر بن عطية في قوله: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾: هذا القرآن خبيرٌ به.

٦٠- ثم قال تعالى منكراً على المشركين، الذين يسجدون لغير الله، من الأصنام والأنداد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ أي: لا نعرف الرحمن! وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسم «الرحمن» كما أنكروا ذلك يوم الحديبية، حين قال النبي ﷺ للكاتب: «اكْتُبْ: بسم الله الرحمن الرحيم» فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهمَّ[(١)]. ولهذا أنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: هو الله وهو الرحمن.

وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ أي: لا نعرفه ولا نقر به ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لمجرد قولك ﴿وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ فأما المؤمنون، فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويفردونه بالإلهية ويسجدون له، وقد اتفق العلماء رحمهم الله، على أن هذه السجدة التي في الفرقان،

(١) رواه البخاري في الشروط (٥/ ٣٢٩ - ٣٣٣) من حديث المسور بن مخرمة ومروان.

مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها، كما هو مقرر في موضعه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾

٦١- يقول تعالى ممجداً نفسه ومعظماً، على جميل ما خلق في السموات من البروج، وهي الكواكب العظام، في قول مجاهد وسعيد بن جبير وأبي صالح والحسن وقتادة. وقيل: هي قصور في السماء للحرس، يروى هذا عن علي وابن عباس ومحمد بن كعب وإبراهيم النخعي وسليمان بن مهران الأعمش، وهو رواية عن أبي صالح أيضاً، والقول الأول أظهر، اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام، هي قصور للحرس، فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ وهي: الشمس المنيرة، التي هي كالسراج في الوجود، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.

﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ أي: مُشْرقاً مُضيئاً، بنور آخر من غير نور الشمس، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ وقال مخبراً عن نوح ﷺ أنه قال لقومه ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

٦٢- ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف كل واحد منهما صاحبه، يتعاقبان لا يفتران، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ الآية، وقال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ الآية، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: جعلهما يتعاقبان، توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل، فمن فاته عملٌ في الليل استدركه في النهار، ومَنْ فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح: «إنَّ اللهَ عزَّ وَجلَّ يَبْسطُ يده بالليل ليتوبَ مسيءُ النهار، ويَبسط يده بالنهار ليتوبَ مسيءُ الليل».

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: من فاته شيءٌ من الليل أن يعمله، أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل. وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحسن. وقال مجاهد وقتادة ﴿خِلْفَةً﴾ أي: مختلفين، أي: هذا بسواده، وهذا بضيائه.

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾

٦٣- هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بسكينة ووقار، من غير جَبَرية ولا استكبار، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ الآية، فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياءً، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ

«إذا مشى كأنما ينحط من صبَب»[١]. و«كأنما الأرض تُطوَى له»[٢].

وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر: أنه رأى شاباً يمشي رويداً، فقال: ما بالك أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدرَّة وأمره أن يمشي بقوة.

وإنما المراد بالهون هنا: السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيتم الصلاةَ فلا تأتوها وأنتم تسعون، وائتوها وعليكم السكينة، فما أدركتُم منها فصلُّوا، وما فاتكُم فأتِمُّوا».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السيء، لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ الآية. وروى الإمام أحمد: عن النعمان بن مقرن المزني قال: قال رسول الله ﷺ وسبَّ رجلٌ رجلاً عنده، فجعل المسبوب يقول: عليك السلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إن ملكاً بينكما يذبُّ عنك، كلما يشتمك هذا قال له: بل أنت وأنت أحق به، وإذا قال له: عليك السلام، قال لا بل لك أنت، وأنت أحق به» إسناده حسن ولم يخرجوه.

وقال مجاهد ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ يعني: قالوا سداداً، وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفاً من القول، وقال الحسن البصري: قالوا سلام عليكم إن جهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون.

٦٤- ثم ذكر أن ليلهم خير ليل، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أي: في طاعته وعبادته، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وقوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الآية.

٦٥- ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: ملازماً دائماً كما قال الشاعر:

إنْ يُعذِّبْ يَكُنْ غراماً وَإنْ يُعْـ ... ـطِ جَـزِيـلاً فَإنَّـهُ لاَ يُبَـالِي

ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام، وإنما الغرام اللازم ما دامت السموات والأرض. وكذا قال سليمان التيمي. وقال محمد بن كعب ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعني: ما نعموا في الدنيا، إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه، فأغرمهم فأدخلهم النار.

٦٦- ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: بئس المنزل منظراً، وبئس المقيل مقاماً.

٦٧- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ الآية، أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم، فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ الآية. وقال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف. وقال إياس بن

---

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي في الشمائل (٤) وفي المناقب من الجامع (٣٨٩٨) من حديث علي رضي الله عنه قال: «لم يكن النبي ﷺ بالطويل ولا بالقصير....». وأخرجه أحمد وغيره.

(٢) حديث ضعيف، رواه الترمذي في الشمائل (١٠٠) وأحمد (٢/ ٣٥٠، ٣٨٠) وغيرهما. وفيه ابن لهيعة.

معاوية: ما جاوزت به أمر الله تعالى، فهو سرف. وقال غيره: السرف: النفقة في معصية الله عز وجل.

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾

٦٨- روى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الذنب أكبر؟ قال: «أن تَجْعَلَ لله نداً وهو خلقك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تَقتل ولدَكَ خشية أن يطْعم معك» قال: ثم أي؟ قال: «أن تُزاني حليلة جارك» قال عبد الله وأنزل الله تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الآية. وهكذا رواه النسائي. وقد أخرجه البخاري ومسلم.

وروى النسائي: عن سلمة بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنما هي أربع» فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا.

وروى الإمام أحمد: عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرَّمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأن يزني الرجلُ بعشر نسوةٍ، أيسرُ عليه من أن يزني بامرأة جاره» قال: «فما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرَّمها الله ورسوله، هي حرام. قال: «لأن يسرق الرجلُ من عشر أبياتٍ، أيسرُ عليه من أن يسرق من بيت جاره». وعن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ الآية، ونزلت ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: ﴿أَثَامًا﴾ وادٍ في جهنم، وقال عكرمة: أودية في جهنم يعذب فيها الزناة. وكذا روى عن سعيد بن جبير ومجاهد، وقال قتادة ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ نكالاً: كنا نحدَّث أنه واد في جهنم. وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول: يا بني؛ إياك والزنا، فإن أوله مخافة، وآخره ندامة.

وقال السدي ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء. وهذا أشبه بظاهر الآية، وبهذا فسره بما بعده مبدلاً من، وهو قوله تعالى:

٦٩- ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يكرر عليه ويغلظ ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ أي: حقيراً ذليلاً.

٧٠- وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي: جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ أي: في الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه، وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ الآية، فإن هذه وإن كانت مدنية، إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتب لأن هذه مقيدة بالتوبة، ثم قد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا

(١) الحديث في البخاري في التفسير (٨/ ٤٨١٠) ومسلم في الإيمان (١/ ١١٣).

يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية .

وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل ، كما ذُكر مقرّراً من قصة الذي قتل مائة رجل ، ثم تاب فقبل الله توبته ، وغير ذلك من الأحاديث .

وقوله تعالى : ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ في معنى قوله : ﴿يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قولان : أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال : هم المؤمنون ، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغّب الله بهم عن السيئات ، فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات .

وقال عطاء بن أبي رباح : هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ، ثم يبدله الله بها خيراً . وقال سعيد ابن جبير : أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات . وقال الحسن البصري : أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً ، وأبدلهم بالفجور إحصاناً ، وبالكفر إسلاماً ، وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين .

والقول الثاني : أن تلك السيئات الماضية ، تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ، ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه ، فإنه لا يضره ، وينقلب حسنةً في صحيفته ، كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف رضي الله عنهم . فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إنّي لأعرف آخرَ أهل النار خروجاً من النار ، وآخرَ أهل الجنة دخولاً إلى الجنة ؛ يُؤتى برجلٍ فيقول : نَحُّوا عنه كبارَ ذنوبه ، وسلوه عن صغارها ، قال فيقال له : عملت يوم كذا ، كذا وكذا ، وعملت يوم كذا ، كذا وكذا ، فيقول : نعم ، لا يستطيع أن يُنكر من ذلك شيئاً ، فيقال : فإنَّ لك بكل سيئةٍ حسنة ، فيقول : يا رب ، عملت أشياء لا أراها ههنا» قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . انفرد بإخراجه مسلم .

وروى ابن أبي حاتم : عن سلمان قال : يعطى الرجل يوم القيامة صحيفة ، فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته ، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها ، فإذا حسناته ثم ينظر في أعلاها ، فإذا هي قد بُدِّلت حسنات .

وقال علي بن الحسين زين العابدين ﴿يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال : في الآخرة . وقال مكحول : يغفرها لهم فيجعلها حسنات . رواهما ابن أبي حاتم ، وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله .

روى ابن أبي حاتم عن مكحول قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه ، فقال : يا رسول الله ، رجلٌ غدر وفجر ، ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطعها بيمينه ، لو قُسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم ، فهل له من توبة؟ فقال النبي ﷺ : «أأسلمتَ؟ فقال : أما أنا ، فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أن محمداً عبده ورسوله ، فقال النبي ﷺ : «فإن الله غافرٌ لك ما كنت كذلك ، ومبدل سيئاتك حسنات» فقال يا رسول الله ، وغدراتي وفجراتي؟ فقال : «وغدراتك وفجراتك» فولّى الرجل يكبِّر ويهلل . وروى الطبراني (نحوه)(١) .

٧١- ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه ، من أي ذنب كان ،

---

(١) وهو حديث صحيح لطرقه ، ورواه أحمد (٤/ ٣٨٥) وغيره عن مكحول عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه بنحوه .

جليلاً أو حقيراً، كبيراً أو صغيراً، فقال تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً﴾ أي: فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الآية، أي: لمن تاب إليه.

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾

٧٢- وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن، أنهم ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام، وقيل: الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل، وقال محمد بن الحنفية: هو اللغو والغناء، وقال أبو العالية وطاوس وابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم: هو أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والخنا. وقال مالك عن الزهري: شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه، كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر»[1].

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره، كما في الصحيحين: عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ ثلاثاً ـ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الشركُ بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

والأظهر من السياق، أن المراد: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مَرُّوا كِرَاماً﴾.

٧٣- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾. وهذه أيضاً من صفات المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه، ولا يتغير عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه، وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾.

فقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ أي: بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله، فلا تؤثر فيه، فيستمر على حاله، كأن لم يسمعها أصم أعمى. قال مجاهد: لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً، وقال الحسن البصري رحمه الله: كم من رجلٍ يقرؤها، ويخر عليها أصم أعمى. وقال قتادة: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم ـ والله ـ قومٌ عقلوا عن الحق، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عون قال: سألت الشعبي قلت: الرجل يرى القوم سجوداً، ولم يسمع ما

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٦٥) وغيره، وهو حديث حسن.

سجدوا، أيسجد معهم؟ قال فتلا هذه الآية، يعني: أنه لا يسجد معهم، لأنه لم يتدبر أمر السجود، ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة، بل يكون على بصيرة في أمره، ويقين واضح بين.

٧٤- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يعنى: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم ومن ذرياتهم، من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له. قال ابن عباس: يعنون من يعمل بطاعة الله، فتقرُّ به أعينهم في الدنيا والآخرة. قال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين. وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال: أن يُري الله العبدَ المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه، طاعة الله، لا والله لا شيء أقرَّ لعين المسلم، من أن يرى ولداً، أو ولد ولدٍ، أو أخاً أو حميماً، مطيعاً لله عز وجل. قال ابن جريج في قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال: يعبدونك فيحسنون عبادتك، ولا يجرون علينا الجرائر، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام.

وروى الإمام أحمد: عن جبير بن نفير قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله ﷺ، لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت، فاستغضب المقداد، فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيراً، ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غَيَّبه الله عنه، لا يدري لو شهده كيف يكون فيه، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوامٌ أكبَّهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أولا تحمدون الله، إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم، مصدقين بما جاء به نبيكم، قد كفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشر حال بعث عليها نبياً من الأنبياء، في فترة جاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرّق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافراً، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان، يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وإنها التي قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه.

وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال ابن عباس والحسن والسدي وقتادة والربيع بن أنس: أئمة يقتدى بنا في الخير. وقال غيرهم: هداة مهتدين، دعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً، وأحسن مآباً، ولهذا ثبت في صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلا من ثلاثٍ: ولدٍ صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقةٍ جاريةٍ».

﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)﴾

٧٥- لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر، من الصفات الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة، قال بعد ذلك كله ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾ وهي: الجنة، قال أبو جعفر الباقر وسعيد بن جبير والضحاك والسدي: سُميت بذلك لارتفاعها ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على القيام بذلك

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي: يبتدرون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

٧٦- وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقيمين لا يظعنون ولا يحولون، ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: حسنت منظراً وطابت مقيلاً ومنزلاً.

٧٧- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾ أي: لا يبالي ولا يكترث بكم، إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه، ويسبحوه بكرة وأصيلاً. قال مجاهد وعمرو بن شعيب ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي﴾ يقول ما يفعل بكم ربي. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لولا إيمانكم، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان، كما حببه إلى المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: فسوف يكون تكذيبكم لزاماً، لكم يعني: مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم.

وقال الحسن البصري ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: يوم القيامة، ولا منافاة بينهما.

آخر تفسير سورة الفرقان

****

ترتيبها ٢٦ — سورة الشعراء ـ مكية — آياتها ٢٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (٣) إن نشأ
ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين (٤) وما يأتيهم من ذكر من الرحمن
محدث إلا كانوا عنه معرضين (٥) فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون (٦) أولم
يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم (٧) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين
(٨) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (٩) ﴾

١- أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تكلمنا عليه في أول سورة البقرة.

٢- وقوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي: هذه آيات القرآن المبين، البين الواضح الجلي، الذي يفصل بين الحق والباطل، والغي والرشاد.

٣- وقوله تعالى: ﴿لعلك باخع﴾ أي: مهلك ﴿نفسك﴾ أي: مما تحرص وتحزن عليهم ﴿ألا يكونوا مؤمنين﴾ وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ، في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ كقوله: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ الآية. قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعطية والضحاك والحسن وغيرهم ﴿لعلك باخع نفسك﴾ أي: قاتل نفسك.

٤- ثم قال تعالى: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ أي: لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكن لا نفعل ذلك، لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري. وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ الآية، فنفذ قدره، ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه، بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

٥- ثم قال تعالى: ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾ أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ وقال تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾ الآية.

٦- ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ أي: فقد كذبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾.

٧- ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه، وجلالة قدره وشأنه، الذي اجترءوا على مخالفة رسوله، وتكذيب كتابه، وهو القاهر القادر، الذي خلق الأرض، وأنبت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان.

٨- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض، ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره وارتكبوا نهيه.

٩- وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: بخلقه، فلا يعجل على من عصاه، بل يؤجله وينظره، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر. قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن إسحاق: العزيز في نقمته، وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره، وقال سعيد بن جبير: الرحيم بمن تاب إليه وأناب.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾

١٠ - ١٣- يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ﷺ، حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

١٤- وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي: بسبب قتل القبطي، الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر.

١٥- ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك، كقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي: بُرهاناً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

١٦، ١٧- ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: إنني معكما بحفظي وكلاءتي، ونصري وتأييدي ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كقوله في الآية الأخرى ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي: كل منا أرسل إليك ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أطلقهم من أسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين.

١٨، ١٩- فلما قال له موسى ذلك، أعرض فرعون هنالك بالكلية، ونظر إليه بعين الازدراء والغمص، فقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ الآية، أي: أما أنت الذي ربيناه فينا وفي بيتنا وعلى فراشنا، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة، أن قتلت منا رجلاً، وجحدت نعمتنا عليك. ولهذا قال: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الجاحدين. قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

٢٠- ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا﴾ أي: في تلك الحال ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: قبل أن يوحى إليَّ، وينعم الله عليَّ

بالرسالة والنبوة. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: الجاهلين، قال ابن جريج: وهو كذلك في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

٢١- ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ الآية، أي: انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطعته سلمت، وإن خالفته عطبت.

٢٢- ثم قال موسى ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: وما أحسنت إلي وربيتني، مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخدماً، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفيَفي إحسانك إلى رجل واحد منهم، بما أسأت إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرته شيئاً، بالنسبة إلى ما فعلت بهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

٢٣- يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده، في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك أنه كان يقول لقومه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى إني رسول رب العالمين، قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم، أن هذا سؤال عن الماهية، فقد غلط! فإنه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه.

٢٤- فعند ذلك، قال موسى لما سأله عن رب العالمين ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق جميع ذلك، ومالكه والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت، والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوانات ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطير، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيدٌ له خاضعون ذليلون ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة.

٢٥- فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله، من ملئه ورؤساء دولته، قائلاً لهم على سبيل التهكم والاستهزاء، والتكذيب لموسى فيما قاله ﴿أَلا تَسْتَمِعُونَ﴾ أي: ألا تعجبون من هذا، في زعمه أن لكم إلهاً غيري؟!

٢٦- فقال لهم موسى ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه.

٢٧- ﴿قَالَ﴾ أي: فرعون لقومه ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: ليس له عقل في دعواه أن ثَمَّ رباً غيري.

٢٨- ﴿قَالَ﴾ أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: هو الذي جعل المشرق مشرقاً، تطلع منه

الكواكب، والمغرب مغرباً، تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدَّرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً، فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً، والمغرب مشرقاً، كما قال تعالى عن: ﴿الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ الآية.

ولهذا لما غُلِب فرعون وانقطعت حجته، عَدلَ إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له، ونافذ في موسى عليه السلام. فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾

٢٩- لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

٣٠- فعند ذلك قال موسى ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أي: ببرهان قاطع واضح.

٣١، ٣٢- ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل مزعج.

٣٣- ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أي: من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي: تتلألأ كقطعةٍ من القمر.

٣٤- فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد، فقال للملإ حوله ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فاضل بارع في السحر، فروَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر، لا من قبيل المعجزة.

٣٥- ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به، فقال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ الآية، أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه، بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه، ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه، ماذا أصنع به؟!

٣٦، ٣٧- ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ أي: أخره وأخاه، حتى تجمع له من مدائن مملكتك، وأقاليم دولتك، كل سحَّار عليم، يقابلونه ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت، وتكون لك النصرة والتأييد، فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك، ليجتمع الناس في صعيد واحد، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه، على الناس في النهار جهرة.

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ

وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

٣٨، ٣٩- ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية، بين موسى ﷺ والقبط في سورة الأعراف وفي سورة طه وفي هذه السورة. وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ الآية. ولهذا لما جاء السحرة، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم، وأشدّهم تخييلاً في ذلك، وكان السحرة جمعاً كثيراً، وجماً غفيراً، قيل: كانوا اثني عشر ألفاً. وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: سبعة عشر ألفاً، وقيل: تسعة عشر ألفاً، وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً، وقيل: ثمانين ألفاً. وقيل غير ذلك، والله أعلم بعدتهم.

٤٠- واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ ولم يقولوا: نتبع الحق، سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم.

٤١- ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ أي: إلى مجلس فرعون، وقد ضربوا له وطاقاً، وجمع خدمه وحشمه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا، أي: هذا الذي جمعتنا من أجله. فقالوا: ﴿أَإِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾.

٤٢- ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: وأخص مما تطلبون، أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي، فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۞ قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾. وقد اختصر هذا ههنا.

٤٣، ٤٤- فقال لهم موسى ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ۞ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ وهذا كما تقول الجهلة من العوام، إذا فعلوا شيئاً: هذا بثواب فلان، وقد ذكر الله تعالى في سورة الأعراف، أنهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم، وجاءوا بسحر عظيم. وقال في سورة طه: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ - إلى قوله - وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

٤٥- وقال ههنا ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: تخطفه وتجمعه، من كل بقعة وتبتلعه، فلم تدع منه شيئاً، قال الله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ فكان هذا أمراً عظيماً جداً، وبرهاناً قاطعاً للعذر، وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم، وطلب منهم أن يغلبوا، غُلبوا وخضعوا، وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغُلِب فرعون غلباً لم يُشاهد العالم مثله، وكان وقحاً جريئاً، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم، ويقول: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الآية.

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ

﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)﴾

٤٩- تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، وذلك أنه قد كُشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم، من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيده به، وجعله له حجة ودلالة، على صدق ما جاء به من ربه، ولهذا لما قال لهم فرعون ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليَّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وهذه مكابرة، يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟! هذا لا يقوله عاقل.

٥٠- ثم توعدهم فرعون، بقطع الأيدي والأرجل والصَّلب، فقالوا ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا حرج، ولا يضرنا ذلك، ولا نبالي به ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: المرجع إلى الله عز وجل، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلتَ بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء.

٥١- ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ أي: ما قارفناه من الذنوب، وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان. فقتلهم كلهم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)﴾

٥٢، ٥٣- لما طال مقام موسى ﷺ ببلاد مصر، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله تعالى موسى ﷺ أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، ففعل موسى ﷺ ما أمره به ربه عز وجل. خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً، وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر، وذكر مجاهد رحمه الله: أنه كسف القمر تلك الليلة، فالله أعلم. وأن موسى ﷺ سأل عن قبر يوسف ﷺ، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه فاحتمل تابوته معهم. ويقال إنه هو الذي حمله بنفسه عليهما السلام وكان يوسف ﷺ قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم.

وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم رحمه الله: عن أبي موسى قال: نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه، فقال له رسول الله ﷺ: «تعاهَدنا» فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله ﷺ «ما حاجتك؟» قال: ناقة برحلها، وأعنز يحتلبها أهلي، فقال: «أعجزتَ أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل؟» فقال له أصحابه: وما عجوز بني إسرائيل يا رسول الله؟ قال: «إن موسى ﷺ لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق، فقال لبني إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماء بني إسرائيل: نحن نحدثك، أن يوسف ﷺ لما حضرته الوفاة، أخذ علينا موثقاً من الله، أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا، فقال لهم موسى: فأيكم يدري أين قبر يوسف؟ قالوا: ما يعلمه إلا عجوزٌ من بني إسرائيل، فأرسل إليها فقال لها: دليني على قبر يوسف، فقالت: والله لا

أفعل حتى تعطيني حكمي، فقال لها: وما حكمك؟ قالت: حكمي أن أكون معك في الجنة؛ فكأنه ثقل عليه ذلك، فقيل له: أعطها حكمها، قال: فانطلقت معهم إلى بحيرة ـ مستنقع ماء ـ فقالت لهم: انضبوا هذا الماء، فلما أنضبوه قالت: احفروا، فلما حفروا استخرجوا قبر يوسف، فلما احتملوه، إذا الطريق مثل ضوء النهار. وهذا حديث غريب جداً، والأقرب أنه موقوف، والله أعلم(1).

فلما أصبحوا وليس في ناديهم داعٍ ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون، واشتد غضبه على بني إسرائيل، لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين، أي: من يحشر الجند ويجمعه، كالنُّقباء والحُجَّاب.

٥٤- ونادى فيهم ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي: لطائفة قليلة.

٥٥- ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ أي: كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا.

٥٦- ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم. وقرأ طائفة من السلف ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾ أي: مستعدون بالسلاح، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبيد خضراءهم، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم.

٥٧، ٥٨- قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية، والبساتين والأنهار، والأموال والأرزاق، والملك والجاه الوافر في الدنيا.

٥٩- ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ الآيتين.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾

٦٠- ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير، هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحل والعقد، والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، فأما ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات، من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألف على خيل دهم! ففيه نظر! وقال كعب الأحبار: فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم، وفي ذلك نظر، والظاهر أن ذلك من مجازفات بني إسرائيل، والله سبحانه وتعالى أعلم(2).

---

(١) الحديث إسناده حسن، وقد أخرجه أبو يعلى (١٣/ ٧٢٥٤) والحاكم (٢/ ٤٠٤، ٤٠٥، ٥٧١، ٥٧٢) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وقال: على شرط البخاري ومسلم. قلت: إنما هو على شرط مسلم، فإن يونس بن عمرو بن أبي إسحاق لم يخرج له البخاري. وأورده الألباني رحمه الله في السلسلة (٣١٣).

(٢) سيأتي في أثر ابن مسعود أنهم كانوا: ستمائة ألف.

والذي أخبر به القرآن هو النافع، ولم يعين عدتهم، إذ لا فائدة تحته، لأنهم خرجوا بأجمعهم ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها.

٦١، ٦٢- ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أي: رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر ـ وهو بحر القلزم ـ فصار أمامهم البحر، وقد أدركهم فرعون بجنوده، فلهذا قالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي: لا يصل إليكم شيءٌ مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.

وكان هارون عليه السلام في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، أو مؤمن آل فرعون وموسى عليه السلام في الساقة.

٦٣- وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون، أو مؤمن من آل فرعون يقول لموسى عليه السلام: يا نبي الله، ههنا أمرك ربك أن تسير؟ فيقول: نعم. فاقترب فرعون وجنوده، ولم يبق إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر، فضربه وقال: انفلق بإذن الله.

قال الله تعالى: ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي: كالجبل الكبير. قاله ابن مسعود وابن عباس ومحمد بن كعب والضحاك وقتادة وغيرهم. وقال عطاء الخراساني: هو الفج بين الجبلين.

وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً، لكل سبط طريق، وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حيله كالحيطان، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار يبساً كوجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾.

٦٤- ٦٦- وقال في هذه القصة ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ أي: هنالك ﴿الْآخَرِينَ﴾ قال ابن عباس وعطاء الخراساني وقتادة والسدي ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ أي: قربنا من البحر فرعون وجنوده، وأدنيناهم إليه ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي: أنجينا موسى وبني إسرائيل، ومن اتبعهم على دينهم، فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك.

وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن مسعود: أن موسى عليه السلام حين أسرى ببني إسرائيل بلغ فرعون ذلك، فأمر بشاة فذبحت، وقال: لا والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلي ستمائة ألف من القبط، فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر، فقال له انفرق، فقال له البحر: قد استكبرت يا موسى، وهل انفرقت لأحدٍ من ولد آدم فأنفرق لك؟ قال: ومع موسى رجل على حصان له، فقال له ذلك الرجل: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه ـ يعني البحر ـ فأقحم فرسه فسبح به فخرج، فقال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه، قال: والله، ما كذب ولا كذبت، ثم اقتحم الثانية فسبح ثم خرج، فقال: أين أمرت يا نبي الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه، قال: والله ما كذب ولا كذبت، قال: فأوحى الله إلى موسى ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه موسى بعصاه فانفلق، فكان فيه اثنا عشر سبطاً، لكل سبط طريق يتراءون، فلما خرج أصحاب موسى، وتتامّ أصحاب فرعون، التقى البحر عليهم فأغرقهم.

٦٧، ٦٨- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد، لعباد الله المؤمنين، لدلالة وحجة قاطعة، وحكمة بالغة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

تقدم تفسيره.

﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾

٦٩- هذا إخبار من الله تعالى، عن عبده ورسوله وخليله إبراهيمعليه السلام، إمام الحنفاء، أمر الله تعالى رسوله محمداًصلى الله عليه وسلم أن يتلوه على أمته، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب، أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل.

٧٠- فقال: ﴿لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟

٧١- ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ أي: مقيمين على عبادتها ودعائها.

٧٢- ٧٤- ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ* قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يُهرعون.

٧٥- ٧٧- فعند ذلك قال لهم إبراهيم ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ* أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ* فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إن كانت هذه الأصنام شيئاً، ولها تأثير وتقدر، فلتخلص إليَّ بالمساءة، فإني عدو لها لا أبالي بها، ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوحعليه السلام ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ الآية، وقال هودعليه السلام ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ* إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ* وَجَعَلَهَا كَلِمَةً﴾ يعني: لا إله إلا الله.

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾

٧٨- يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أي: هو الخالق الذي قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، فكلٌّ يجري على ما قدَّر له، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء.

٧٩- ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ أي: هو خالقي ورازقي، بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المزن وأنزل الماء، وأحيى به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد، وأنزل الماء عذباً زلالاً، يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسي كثيراً.

٨٠- وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً، كما قال تعالى آمراً للمصلي أن يقول ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة، فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى، والغضب حذف فاعله أدباً، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ وكذا قال إبراهيم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي: إذا وقعت في مرض، فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه.

٨١- ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ أي: هو الذي يحيي ويميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد.

٨٢- ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة، إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعال لما يشاء.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾

٨٣- وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكماً. قال ابن عباس: وهو العلم، وقال عكرمة: هو اللب، وقال مجاهد: هو القرآن، وقال السدي: هو النبوة. وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم في الرفيق الأعلى» قالها ثلاثاً.

وفي الحديث في الدعاء: «اللهم أحينا مسلمين، وأمتنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدلين»(١).

٨٤- وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي، أُذكر به ويقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ يعني الثناء الحسن. قال مجاهد كقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الآية، كقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ الآية. قال ليث بن أبي سليم: كل ملة تحبه وتتولاه. وكذا قال عكرمة.

٨٥- وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أي: أنعم عليَّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم.

٨٦- وقوله: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾ الآية، كقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾. وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه، فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ - إلى قوله - وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

٨٧- وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: أجرني من الخزي يوم القيامة، ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم. وروى البخاري عند هذه الآية: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٢٤) والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٩) من حديث رفاعة الزرقي رضي الله عنه، وعندهما: «غير خزايا ولا مفتونين».

عليه الغَبرة والقترة». وفي رواية أخرى قال: يلقى إبراهيم أباه فيقول: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فيقول الله تعالى: إني حَرَّمت الجنة على الكافرين» هكذا رواه عند هذه الآية. وفي أحاديث الأنبياء لفظه: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَتَرة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني! فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إنّي حرَّمت الجنة على الكافرين، ثم يقول: يا إبراهيم: انظر تحت رجلك، فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار».

والذيخ: هو الذكر من الضباع، كأنه حول آزر إلى صورة ذيخ متلطخ بعذرته، فيلقى في النار كذلك.

٨٨- وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ أي: ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك وأهله.

٨٩- ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: سالم من الدَّنس والشرك. قال ابن سيرين: القلب السليم: أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وقال ابن عباس: القلب السليم: أن يشهد أن لا إله إلا الله. وقال مجاهد والحسن وغيرهما ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني: من الشرك؛ وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم: هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة، المطمئن إلى السنة.

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾

٩٠- ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي: قربت وأدنيت من أهلها، مزخرفة مزينة لناظريها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا، وعملوا لها في الدنيا.

٩١- ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أي: أظهرت وكشف عنها، وبدت منها عنق، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر.

٩٢، ٩٣- وقيل: لأهلها تقريعاً وتوبيخاً ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والأنداد لتغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم، حصب جهنم أنتم لها واردون.

٩٤- وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ قال مجاهد: يعني قد هووا فيها. وقال غيره: كبوا فيها، والكاف مكررة، كما يقال صرصر. والمراد: أنه ألقى بعضهم على بعض، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ أي: ألقوا فيها عن آخرهم ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: يقول الضعفاء للذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ﴾

٩٧، ٩٨- ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين.

٩٩- ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون.

١٠٠- ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ قال بعضهم: يعني من الملائكة، كما يقولون: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وكذا قالوا ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾.

١٠١- ﴿وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي: قريب. قال قتادة: يعلمون والله أن الصَّديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع.

١٠٢- ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أنهم يتمنون أن يردوا إلى دار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، والله تعالى يعلم أنهم لو ردوا إلى دار الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون؛ وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة «ص»، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

١٠٣، ١٠٤- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: أن في محاجة إبراهيم لقومه، وإقامة الحجج عليهم في التوحيد ﴿لآيَةً﴾ أي: لدلالة واضحة جلية، على أن لا إله إلا الله ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ﴾

١٠٥- هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، بعد ما عبدت الأصنام والأنداد، فبعثه الله ناهياً عن ذلك، ومحذراً من وبيل عقابه، فكذبه قومه، فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة، في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل، فلهذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾

١٠٦- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره.

١٠٧- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: إني رسول من الله إليكم أمين، فيما بعثني الله به، أبلغكم رسالات ربي، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها.

١٠٨، ١٠٩- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ الآية، أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أدخر ثواب ذلك عند الله.

١١٠- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي، ونصحي وأمانتي، فيما بعثني الله به وائتمنني عليه.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥)﴾

١١١- يقولون لا نؤمن لك، ولا نتبعك ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأرذلين، الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا، ولهذا قالوا ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾.

١١٢- ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه، لا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص، إنما عليَّ أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأكل سرائرهم إلى الله عزَّ وجل.

١١٣-١١٥- ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ويتابعوه، فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما بعثت نذيراً، فمن أطاعني واتبعني وصدقني، كان مني وأنا منه، سواء كان شريفاً أو وضيعاً، جليلاً أو حقيراً.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)﴾

١١٦- لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وكلما كرَّر عليهم الدعوة، صمموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي: لئن لم تنته عن دعوتك إيانا إلى دينك ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي: لنرجمنك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه، فقال:

١١٧، ١١٨- ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ الآية، كما قال في الآية الأخرى ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ إلى آخر الآية.

١١٩، ١٢٠- وقال ههنا ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ والمشحون هو المملوء بالأمتعة، والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، أي: أنجينا نوحاً ومن اتبعه كلهم، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين.

١٢١، ١٢٢- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ

بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) ﴾

١٢٣ - ١٢٧ - وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود ﷺ، أنه دعا قومه عاداً، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت، من جهة بلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارَّة، والأموال والجنات، والأنهار والأبناء، والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هوداً إليهم، رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً، فدعاهم إلى الله وحده، وحذَّرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه، فقال لهم كما قال نوح لقومه إلى أن قال:

١٢٨ - ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ اختلف المفسرون في «الريع» بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جواذ الطرق المشهورة، يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً، ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً﴾ أي: علماً بناء مشهوراً ﴿تَعْبَثُونَ﴾ أي: وإنما تفعلون ذلك عبثاً، لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو، وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم ﷺ ذلك، لأنه تضييع للزمان، وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة.

١٢٩ - ولهذا قال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ وقال مجاهد: المصانع البروج المشيدة، والبنيان المخلد، وفي رواية عنه: بروج الحمام. وقال قتادة: هي مأخذ الماء. قال قتادة: وقرأ بعض الكوفيين «وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ كَأَنَّكُمْ خَالِدُونَ» وفي القراءة المشهورة: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: لكي تقيموا فيها أبداً، وذلك ليس بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم.

١٣٠ - وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أي: يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت.

١٣١ - ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: اعبدوا ربكم، وأطيعوا رسولكم.

١٣٢ - ١٣٥ - ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم، فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم.

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾

١٣٦ - يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له، بعد ما حذَّرهم وأنذرهم، ورغَّبهم ورهبهم، وبيَّن لهم الحق ووضحه ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ أي: لا نرجع عما نحن عليه ﴿وَمَا

﴿نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهكذا الأمر، فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

١٣٧، ١٣٨ - وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ قرأ بعضهم ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾ بفتح الخاء وتسكين اللام، قال ابن مسعود، والعوفي عن عبد الله بن عباس، وعلقمة ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين، كما قال المشركون من قريش ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وقرأ آخرون ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ بضم الخاء واللام، يعنون: دينهم، وما هم عليه من الأمر، هو دين الأولين من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول: دين الأولين. وقاله عكرمة وعطاء الخراساني وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

١٣٩، ١٤٠ - وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي: استمروا على تكذيب نبي الله هود، ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله، وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن، بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية، أي: ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً، فكان سبب إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وهم عاد الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ وهم من نسل إرم بن سام بن نوح ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ الذين كانوا يسكنون العمد، ومن زعم أن «إرم» مدينة فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب، وليس لذلك أصل أصيل، ولهذا قال: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة، لقال التي لم يبن مثلها في البلاد، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

وقد قدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح، إلا مقدار أنف الثور، عتت على الخزنة فأذن الله لها في ذلك فسلكت، فحصبت بلادهم، فحصبت كل شيء لهم، كما قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: كاملة ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي: بقوا أبداناً بلا رءوس، وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه، فتشدخ دماغه وتكسر رأسه، وتلقيه كأنهم أعجاز نخل منقعر، وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ الآية.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)﴾

١٤١ - ١٤٥ - وهذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله صالح ﷺ، وأنه بعثه إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة «الحِجْر» التي بين واد القرى وبلاد الشام. ومساكنهم معروفة مشهورة، وقد قدمنا في سورة الأعراف الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم، حين أراد عبور الشام فوصل إلى تبوك، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك. وكانوا بعد عاد، وقيل: الخليل ﷺ. فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، وأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل. ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾

١٤٦، ١٤٧ - يقول لهم واعظاً لهم، ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم، ، ومذكراً بأنعم الله عليهم، فيما رزقهم من الأرزاق الدارة، وجعلهم في أمن من المحذورات، وأنبت لهم من الجنات، وفجّر لهم من العيون الجاريات، وأخرج لهم من الزروع والثمرات.

١٤٨ - ولهذا قال: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: أينع وبلغ فهو هضيم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ يقول: معشبة. وعن عمرو بن أبي عمرو - وقد أدرك الصحابة - عن ابن عباس في قوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: إذا رطب واسترخى. رواه ابن أبي حاتم. ثم قال: وروي عن أبي صالح نحو هذا. وعن أبي العلاء ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: هو المزبب من الرطب. وقال مجاهد: هو الذي إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر. وقال عكرمة وقتادة: الهضيم الرطب اللين. وقال الضحاك: إذا كثر حمل الثمرة، وركب بعضها بعضاً فهو هضيم. وقال مرة: هو الطلع حين يتفرق ويخضر. وقال الحسن البصري: هو الذي لا نَوَى له. وقال أبو صخر: ما رأيت الطلع حين ينشق عنه الكم، فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض، فهو الهضيم.

١٤٩ - وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني حاذقين، وفي رواية عنه: شرهين أشرين. وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً، وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم.

١٥٠ - ولهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه، وتسبحوه بكرة وأصيلاً.

١٥١، ١٥٢ - ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾

١٥٣- يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح ﷺ، حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: يعنون من المسحورين، وروى أبو صالح عن ابن عباس ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يعني: من المخلوقين. والأظهر في هذا قول مجاهد وقتادة، أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحورٌ لا عقل لك.

١٥٤- ثم قالوا ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يعني: فكيف أوحي إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، وقد اجتمع ملأهم وطلبوا منه، أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة، ناقة عشراء - وأشاروا إلى صخرة عندهم - من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا، ليؤمنن به وليتبعنّه، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح ﷺ فصلى، ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها، عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم.

١٥٥، ١٥٦- ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ يعني: تردُّ ماءكم يوماً، ويوماً تردونه أنتم ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر، ترد الماء وتأكل الورق والمرعى، وينتفعون بلبنها، يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً.

١٥٧- فلما طال عليهم الأمد، وحضر شقاؤهم تمالؤا على قتلها وعقرها ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة، اقتلعت القلوب من محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، وأصبحوا في ديارهم جاثمين.

١٥٨، ١٥٩- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) ﴾

١٦٠- ١٦٤- يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط ﷺ، وهو لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل ﷺ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة، في حياة إبراهيم عليهما السلام، وكانوا يسكنون «سدوم» وأعمالها التي أهلكها الله بها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور بناحية حيال البيت المقدس، بينها وبين بلاد الكرك والشوبك، فدعاهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم، مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله، من إتيان الذكور دون الإناث. ولهذا قال تعالى:

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) ﴾

١٦٥، ١٦٦ - لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم، اللاتي خلقهنَّ الله لهم، ما كان جوابهم له، إلا أن قالوا:

١٦٧ - ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ أي: عما جئتنا به ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي: ننفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه، وأنهم مستمرون على ضلالتهم، تبرأ منهم، وقال:

١٦٨ - ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أي: المبغضين، لا أحبه ولا أرضى به، وإني بريء منكم.

١٦٩ - ١٧١ - ثم دعا الله عليهم فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أي: كلهم ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ وهي امرأته، وكانت عجوز سوء، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود، وكذا في الحجر، حين أمره الله أن يسري بأهله، إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتوا إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود.

١٧٢ - ١٧٥ - ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ﴾

١٧٦ - هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم، للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً. ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم!

والصحيح أنهم أمة واحدة، وُصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء، وأمرهم بوفاء المكيال

والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهما أمة واحدة.

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤) ﴾

١٨١ - يأمرهم ﷺ بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: إذا دفعتم للناس فكملوا الكيل لهم، ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً، وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافياً، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون.

١٨٢ - ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ والقسطاس: هو الميزان. وقيل: هو القَبَّان. قال بعضهم هو معرب من الرومية، قال مجاهد: القسطاس المستقيم هو العدل بالرومية. وقال قتادة: القسطاس: العدل.

١٨٣ - وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: لا تنقصوهم أموالهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يعني: قطع الطريق، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾.

١٨٤ - وقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ يخوفهم بأس الله، الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى ﷺ ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والسدي وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول: خلق الأولين. وقرأ ابن زيد ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾.

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) ﴾

١٨٥ - يخبر تعالى عن جواب قومه له، بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها، تشابهت قلوبهم حيث قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يعنون من المسحورين، كما تقدم.

١٨٦ - ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: تتعمد الكذب فيما تقوله، لا أن الله أرسلك إلينا.

١٨٧ - ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال الضحاك: جانباً من السماء، وقال قتادة: قطعاً من السماء. وقال السدي: عذاباً من السماء. وهذا شبيهٌ بما قالت قريش، فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ إلى أن قالوا ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية.

١٨٨ - ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به، وهو غير ظالم لكم، وهكذا وقع بهم كما سألوا جزاء وفاقاً.

١٨٩- ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام، لا يكنّهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون إليها، يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها، أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار، ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة، وفي سورة هود قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وذلك لأنهم استهزءوا بنبي الله، في قولهم: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ الآية، وههنا قالوا ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

قال قتادة: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن الله سلّط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شيء، ثم إن الله أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها، فأصاب تحتها برداً وراحة، فأعلم بذلك قومه، فأتوها جميعاً فاستظلوا تحتها، فأججت عليهم نارا. وهكذا روي عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: بعث الله إليهم الظلة حتى إذا اجتمعوا كلهم، كشف الله عنهم الظلة وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى.

١٩٠، ١٩١- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)﴾

١٩٢- يقول تعالى مخبراً عن الكتاب، الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ الآية، ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أنزله الله عليك، وأوحاه إليك.

١٩٣- ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفي والسدي والضحاك والزهري وابن جريج، وهذا مما لا نزاع فيه. قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وقال مجاهد: مَنْ كلَّمه الروح الأمين لا تأكله الأرض.

١٩٤، ١٩٥- ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: نَزَل به مَلَكٌ كريم أمين، ذو مكانة عند الله، مطاع

في الملأ الأعلى ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد سالماً من الدنس والزيادة والنقص ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له. وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، أنزلناه باللسان العربي الفصيح، الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، دليلاً إلى المحجة.

وقال سفيان الثوري: لم ينزل وحيٌ إلا بالعربية، ثم ترجم كل نبي لقومه، واللسان يوم القيامة بالسريانية، فمن دخل الجنة تكلم بالعربية. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾

١٩٦- يقول تعالى: وإنَّ ذكر هذا القرآن والتنويه به، لموجودٌ في كتب الأولين، المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيباً في ملئه بالبشارة بأحمد ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ والزبر ههنا: هي الكتب، جمع زبرة، وكذلك الزبور، وهو كتاب داود، وقال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: مكتوب عليهم في صحف الملائكة.

١٩٧- ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك، أن العلماء من بني إسرائيل، يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد: العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ، ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ الآية.

١٩٨، ١٩٩- ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش، وعنادهم لهذا القرآن، أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته، لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۞ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ كما أخبر عنهم في الآية الأخرى ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الآية.

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) ﴾

٢٠٠- يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد، أي: أدخلناه في قلوب المجرمين.

٢٠١- ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالحق ﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

٢٠٢، ٢٠٣- ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: عذاب الله بغتة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي: يتمنون حين يشاهدون العذاب، أن لو أُنظروا قليلاً ليعملوا في زعمهم بطاعة الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ فكل ظالم وفاجر وكافر، إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً، هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۞ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ فأثرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ - إلى قوله - وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ الآيات.

٢٠٤- وقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إنكاراً عليهم وتهديداً لهم، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً: ائتنا بعذاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ الآيات.

٢٠٥- ٢٠٧- ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۞ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۞ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ أي: لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر، وحيناً من الزمان وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، أيُّ شيء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعيم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾.

وفي الحديث الصحيح: «يُؤتى بالكافر فَيُغمس في النار غَمسةً، ثم يقال له هل رأيت خيراً قط؟ هل رأيتَ نعيماً قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويُؤتى بأشد الناس بُؤساً كان في الدنيا، فيُصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيتَ بؤساً قط؟ فيقول: لا والله يا رب»[1] أي: ما كان شيئاً كان.

٢٠٨، ٢٠٩- ثم قال تعالى مخبراً عن عدله في خلقه، أنه ما أهلك أمة من الأمم، إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم، وبعثه الرسل إليهم، وقيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۞ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾

٢١٠- يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾.

٢١١- ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه ﴿مَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾ أي: ليس هو من

---

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٤/ ٢١٦٢) وأحمد (٣/ ٢٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه بنحوه.

بغيتهم، ولا من طلبتهم، لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾.
وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ولو انبغى لهم، لما استطاعوا ذلك، قال الله تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

٢١٢- ثم بين أنه لو انبغى لهم، واستطاعوا حمله وتأديته، لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، لأن السماء مُلئت حرساً شديداً وشهباً، في مدة إنزال القرآن على رسول الله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف، لئلا يشتبه الأمر، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ كما قال تعالى مخبراً عن الجن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً﴾.

﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)﴾

٢١٣- ٢١٥- يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أن من أشرك به عذَّبه، ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن يُنذر عشيرته الأقربين، أي: الأدنين إليه؛ وأنه لا يخلِّص أحداً منهم إلا إيمانه بربه عز وجل؛ وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله، كائناً من كان، فليتبرأ منه.

٢١٦- ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة، بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ وقال تعالى: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً﴾ وقال تعالى: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.

وفي صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهوديٌّ ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار».

وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة، فلنذكرها: (**الحديث الأول**) روى الإمام أحمد رحمه الله: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله عز وجل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه، ثم نادى: «يا صباحاه» فاجتمع الناس إليه، بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب؛ يا بني فهر؛ يا بني لؤي؛ أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟» قالوا: نعم، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(الحديث الثاني) روى الإمام أحمد: عن عائشة قالت: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سَلُوني من مالي ما شئتم» انفرد بإخراجه مسلم.

(الحديث الثالث) روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رَحِماً سَأَبُلُّها بِبَلالِها». وأخرجاه في الصحيحين.

(الحديث الرابع) روى الإمام أحمد: عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو قالا: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد رسول الله ﷺ رَضمة من جبل على أعلاها حجر، فجعل ينادي: «يا بني عبدِ مناف إنما أنا نذير، إنما مَثَلِي ومَثلكم، كرجلٍ رأى العدو فذهب يَرْبأ أهله، فخشي أن يسبقوه، فجعل ينادي ويهتف: يا صَبَاحاه» رواه مسلم والنسائي.

٢١٧- وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي: في جميع أمورك، فإنه مؤيدك وحافظك، وناصرك ومظفرك ومعلي كلمتك.

٢١٨- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: هو معتن بك، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال ابن عباس ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ يعني: إلى الصلاة. وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده، وقال الحسن: إذا صليت وحدك، وقال الضحاك: أي: من فراشك أو مجلسك. وقال قتادة: ﴿الَّذِي يَرَاكَ﴾ قائماً وجالساً، وعلى حالاتك.

٢١٩- وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ قال قتادة: في الصلاة يراك وحدك، ويراك في الجمع. وهذا قول عكرمة وعطاء الخراساني والحسن البصري. وقال مجاهد: كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه(١). ويشهد لهذا ما صح في الحديث: «سَوُّوا صُفُوفكم، فإنِّي أراكم من وراء ظهري».

وروى البزار وابن أبي حاتم من طريقين: عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي، حتى أخرجه نبياً.

٢٢٠- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ

---

(١) أي: في الصلاة فقط، كما هو ظاهر الحديث الذي استدل به الحافظ ابن كثير.

يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾

٢٢١، ٢٢٢- يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين، أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رِئِيٌّ من الجان، فنزَّه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم، أمين عظيم، وأنه ليس من قبل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم، من الكهان الكذبة. ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: أخبركم ﴿عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: كذوب في قوله، وهو الأفَّاك ﴿أَثِيمٍ﴾ وهو الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزّل عليه الشياطين من الكهان، وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة.

٢٢٣- ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما صح بذلك الحديث، كما رواه البخاري: من حديث عروة بن الزبير قال: قالت عائشة رضي الله عنها: سأل ناسٌ النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «إنهم ليسوا بشيء» قالوا: يا رسول الله، فإنهم يُحدِّثُون بالشيء يكون حقاً، فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمة من الحق، يخطفها الجني فيُقرقرها في أُذن وليِّه كقَرْقَرة الدجاج، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة».

وروى البخاري أيضاً: عن أبي هريرة يقول: إن النبي ﷺ قال: «إذا قَضَى الله الأمر في السماء، ضَرَبَت الملائكة بأجنحتها خُضْعانا لقوله، كأنها سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّع عن قُلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض - وصفه سفيان بيده فحرفها وبدَّد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يُلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء» تفرد به البخاري. وروى مسلم من حديث عن ابن عباس عن رجال من الأنصار قريباً من هذا، وسيأتي عند قوله تعالى في سبأ ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ الآية.

وروى البخاري: عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الملائكة تحدَّث في العَنان - والعنان الغمام - بالأمر في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة، فتقرُّها في أذن الكاهن، كما تُقَرّ القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة».

٢٢٤- وقوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن، وكذا قال مجاهد رحمه الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما، وقال عكرمة: كان الشاعران يتهاجيان، فينتصر لهذا فئامٌ من الناس، ولهذا فئام من الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾. وروى الإمام أحمد: عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ

بالعَرْج، إذ عَرضَ شاعر ينشد، فقال النبيﷺ: «خذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان - لأن يمتلئ جوفُ أحدكم قيحاً، خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً».

٢٢٥- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: في كل لغو يخوضون. وقال الضحاك عن ابن عباس: في كل فن من الكلام، وكذا قال مجاهد وغيره، وقال الحسن البصري: قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها، مرة في شتيمة فلان، ومرة في مديحة فلان. وقال قتادة: الشاعر يمدح قوماً بباطل، ويذمُّ قوماً بباطل.

٢٢٦- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه. وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما هو الواقع في نفس الأمر، فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم، فيتكثرون بما ليس لهم، ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حداً، هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون؟ على قولين.

ولهذا جاء في الحديث: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً يَرِيه، خير له من أن يمتلئ شعراً» والمراد من هذا: أن الرسولﷺ الذي أُنزل عليه القرآن، ليس بكاهن ولا بشاعر، لأن حاله مناف لحالهم، من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۞ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۞ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۞ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۞ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ۞ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

٢٢٧- وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ روى محمد بن إسحاق: عن أبي الحسن سالم البراد قال: لما نزلت: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول اللهﷺ وهم يبكون، قالوا: قد علِمَ الله حين أنزل هذه الآية أنَّا شعراء، فتلا النبيﷺ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: «أنتم» ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: «أنتم» ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قال: «أنتم» رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم وغير واحد، أن هذا استثناء مما تقدم. ولا شك أنه استثناء ولكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار؟ وفي ذلك نظر، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها والله أعلم، ولكن هذا استثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب، ورجع وأقلع، وعمل صالحاً، وذكر الله كثيراً، في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه.

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبيﷺ، وهو ابن عمه وأكثرهم له هجواً، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول اللهﷺ، وكان يمدح رسول اللهﷺ بعد ما كان

يهجوه، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه.

وهكذا روى مسلم في صحيحه: عن ابن عباس أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال: يا رسول الله، ثلاث أعطنيهن، قال: «نعم» قال: معاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال: «نعم»، قال: وتؤمرني حتى أقاتل الكفار، كما كنت أقاتل المسلمين، قال: «نعم» وذكر الثالثة.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قيل: معناه: ذكروا الله كثيراً في كلامهم. وقيل: في شعرهم، وكلاهما صحيح، مكفرٌ لما سبق. وقوله تعالى: ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قال ابن عباس: يردون على الكفار، الذين كانوا يهجون به المؤمنين. وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد، وهذا كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم - أو قال - هاجهم، وجبريل معك».

وروى الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه: أنه قال للنبي ﷺ: إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فقال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن يُجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأنَّ ما تَرمونهم به نَضح النبل».

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ الآية، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة».

قال قتادة بن دعامة في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ يعني: من الشعراء وغيرهم، وروى أبو داود الطيالسي: عن الحسن ومُرَّ عليه بجنازة نصراني، فقال ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وعن صفوان بن محرز: أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى، حتى أقول قد اندق قضيب زوره ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

وقيل: المراد بهم أهل مكة. وقيل: الذين ظلموا من المشركين. والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم.

آخر تفسير سورة الشعراء

****

ترتيبها ٢٧ سورة النمل ـ مكية آياتها ٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿طسٓ تلك آيات القرآن وكتاب مبين ① هدى وبشرى للمؤمنين ② الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ③ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ④ أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون ⑤ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ⑥﴾

١- قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقوله تعالى: ﴿تلك آيات﴾ أي: هذه آيات ﴿القرآن وكتاب مبين﴾ أي: بينٌ واضح.

٢، ٣- ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن، لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وأيقن بالدار الآخرة، والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً﴾.

٤- ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي: يكذبون بها، ويستبعدون وقوعها ﴿زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾ أي: حسنَّا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم، فهم يتيهون في ضلالهم، وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ الآية.

٥- ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي: في الدنيا والآخرة ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ أي: ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر.

٦- وقوله تعالى: ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي: ﴿وإنك﴾ يا محمد ﴿لتلقى﴾ أي: لتأخذ ﴿القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي: من عند حكيم عليم، أي: حكيم في أمره ونهيه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾.

﴿إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ⑦ فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ⑧ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ⑨ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ⑩ إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم ⑪

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

٧- يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ، مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام، كيف اصطفاه الله وكلمه وناجاه، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا، واستكبروا عن اتباعه والانقياد له. فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ﴾ أي: اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فآنس من جانب الطور ناراً، أي: رأى ناراً تأجج وتضطرم، فقال: ﴿لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: عن الطريق ﴿أَوْ آتِيكُم مِنْهَا بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون به، وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً.

٨- ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: فلما أتاها رأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها، والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء. قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهج، وفي رواية عن ابن عباس: نور رب العالمين. فوقف موسى متعجباً مما رأى ﴿فَنُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ قال ابن عباس تقدس ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: من الملائكة، قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة. وروى ابن أبي حاتم: عن أبي عبيدة عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «إنَّ الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفضُ القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل» زاد المسعودي: «وحجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه كل شيء أدركه بصره» ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم (١).

وقوله تعالى: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الذي يفعل ما يشاء ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المباين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد، المنزه عن مماثلة المحدثات.

٩- وقوله تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه، هو ربه الله العزيز، الذي عزّ كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أقواله وأفعاله.

١٠- ثم أمره أن يلقي عصاه من يده، ليظهر له دليلاً واضحاً، على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده، انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة، في غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ والجان ضرب من الحيات، أسرعه حركة، وأكثره اضطراباً. وفي الحديث: نهي عن قتل جنّان البيوت (٢). فلما عاين موسى ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: لم يلتفت من شدة فَرَقِهِ ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد

---

(١) مسلم في الإيمان رقم (١/ ١٦٢).

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق (٦/ ٣٥١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أن أصطفيك رسولاً ، وأجعلك نبياً وجيهاً .

١١ - وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على عمل شيء ، ثم أقلع عنه ورجع ، وتاب ، وأناب ، فإن الله يتوب عليه ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ وقال تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ الآية ، والآيات في هذا كثيرة جداً .

١٢ - وقوله تعالى : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار ، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها ، خرجت بيضاء ساطعة ، كأنها قطعة قمر ، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف .
وقوله تعالى : ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أي : هاتان ثنتان من تسع آيات ، أؤيدك بهن ، وأجعلهن برهاناً لك ، إلى فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ وهذه هي الآيات التسع ، التي قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ كما تقدم تقرير ذلك هنالك .

١٣ - وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي : بينة واضحة ظاهرة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم ، فغلبوا وانقلبوا صاغرين .

١٤ - ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أي : في ظاهر أمرهم ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أي : علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ أي : ظلما من أنفسهم ، سجيَّة ملعونة ﴿وَعُلُوّاً﴾ أي : استكباراً عن اتباع الحق ، ولهذا قال تعالى : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي : انظر يا محمد ، كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة .

وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون لمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى ، فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى ، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به ، وأخذ المواثيق له ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ⟨١٥⟩ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ⟨١٦⟩ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ⟨١٧⟩ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⟨١٨⟩ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ⟨١٩⟩ ﴾

١٥ - يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان عليهما السلام ، من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام في

الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٦- وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثة المال، إذ لو كان كذلك، لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مائة امرأة، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورث، ما تَركناه فهو صَدَقةٌ»[1].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سخَّر له الإنس والجن والطير، وكان يَعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيءٌ لم يعطه أحدٌ من البشر، فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله، ومن زعم من الجهلة والرعاع، أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود، كما قد يتفوَّه به كثير من الناس، فهو قول بلا علم، ولو كان الأمر كذلك، لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة، إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، وليس الأمر كما زعموا!! ولا كما قالوا! بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خُلقت، إلى زماننا هذا، على هذا الشكل والمنوال، ولكن الله سبحانه كان قد أفهم سليمان ما يخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها، ولهذا قال تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما يحتاج إليه الملك ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي: الظاهر البين لله علينا.

١٧- وقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: وجُمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حراً أظلته منه بأجنحتها.

وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُكف أولهم على آخرهم، لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له، قال مجاهد: جعل على كل صنف وَزَعة، يردون أولاها على أخراها، لئلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم.

١٨- وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ﴾ أي: حتى إذا مر سليمان عليه السلام، بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها.

١٩- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليَّ، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والديَّ بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ أي: عملاً تحبه وترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: إذا توفيتني، فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك، ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل فلا حاصل لها. والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسم ضاحكاً من

---

(١) حديث صحيح، على شرط الشيخين، رواه أحمد (٢/ ٤٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ذلك، وهذا أمر عظيم جداً.

وقد ثبت في الصحيح عند مسلم: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قَرَصت نبياً من الأنبياء نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة، أهلكتَ أمةً من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة؟»

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾

٢٠- قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً يدل سليمان ﷺ على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه، أمر سليمان ﷺ الجان فحفروا ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان ﷺ يوماً بفلاة من الأرض، فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: كان سليمان ﷺ إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير، وكان فيما يزعمون يأتيه نُوَبٌ من كل صنف من الطير، كل يوم طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره، إلا الهدهد ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ أخطأه بصري من الطير، أم غاب فلم يحضر؟

٢١- وقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: عن سعيد عن ابن عباس: يعني نتف ريشه، وقال عبد الله ابن شداد: نتف ريشه وتشميسه. وكذا قال غير واحد من السلف: إنه نتف ريشه، وتركه ملقى يأكله الذر والنمل. وقوله: ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ يعني: أقتله ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بعذر بين واضح، وقال سفيان بن عيينة وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدهد، قالت له الطير: ما خلفك؟ فقد نذر سليمان دمك، فقال: هل استثنى؟ قالوا: نعم، قال ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال: نجوت إذاً، قال مجاهد: إنما دفع الله عنه ببره بأمه.

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) ﴾

٢٢- يقول تعالى: ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: غاب زماناً يسيراً، ثم جاء فقال لسليمان ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أي: بخبر صدق حق يقين، وسبأ: هم حمير، وهم ملوك اليمن.

٢٣- ثم قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ، وقال قتادة: كانت أمها جنية، وكان مؤخر قدميها مثل حافر الدابة، من بيت مملكة.

وروى ابن أبي حاتم: عن مجاهد عن ابن عباس قال: كان مع صاحبة سليمان مائة ألف قَيْل، تحت كل قيل مائة ألف مقاتل، وقال الأعمش عن مجاهد: تحت يدي مملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل، تحت كل قيل مائة ألف مقاتل، وروى عبد الرزاق عن قتادة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ كانت من بيت مملكة، وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل، وكانت بأرض يقال لها: «مأرب» على ثلاثة أميال من صنعاء. وهذا القول هو أقرب، على أنه كثير على مملكة اليمن، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: سرير تجلس عليه، عظيم هائل، مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ. وقال ابن إسحاق: كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، وكان إنما يخدمها النساء، ولها ستمائة امرأة تلي الخدمة. قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد، رفيع البناء محكم، وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من مَشْرِقه، ومثلها من مغربه؛ قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساء.

٢٤- ولهذا قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: عن طريق الحق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

٢٥- وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ معناه ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ أي: لا يعرفون سبيل الحق، التي هي إخلاص السجود لله وحده، دون ما خلق من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وقرأ بعض القراء «ألاَ يا اسجُدوا لله» «ألا» الاستفتاحية و«يا» للنداء، وحذف المنادى تقديره عنده: ألا يا قوم اسجدوا لله.

وقوله ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعلم كل خبيئة في السماء والأرض، وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد، وقال سعيد بن المسيب: الخبء الماء، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خبء السموات والأرض: ما جعل فيهما من الأرزاق؛ المطر من السماء، النبات من الأرض. وهذا مناسب من كلام الهدهد، الذي جعل فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره، من أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه، من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

٢٦- وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: هو المدعو وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، أي: الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له نُهي عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرَد. إسناده صحيح.

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ

فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) ﴾

٢٧، ٢٨- يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان للهدهد، حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: أصدقت في إخبارك هذا ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في مقالتك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها، وأعطاه ذلك الهدهد فحمله، قيل في جناحه كما هي عادة الطير، وقيل بمنقاره، وجاء إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كوّة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها، وكبراء دولتها ومملكتها.

٢٩- ثم قالت لهم ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ تعني بكرمه: ما رأته من عجيب أمره، كون طائر جاء به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدباً، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك.

٣٠- ثم قرأته عليهم ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام، وأنه لا قِبل لهم به، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها. قال العلماء: لم يكتب أحد «بسم الله الرحمن الرحيم» قبل سليمان عليه السلام.

٣١- وقوله: ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ قال قتادة: يقول لا تجبروا عليَّ ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا عليَّ، وائتوني مسلمين. قال ابن عباس: موحدين، وقال غيره: مخلصين، وقال سفيان بن عيينة: طائعين.

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾

٣٢- لما قرأت عليهم كتاب سليمان، استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها، ولهذا قالت ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ أي: حتى تحضرون وتشيرون ﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: منوا إليها بعددهم وعُددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر، فقالوا: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: نحن ليس لنا عاقة، ولا بنا بأس، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه، فما لنا عاقة عنه، وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا رأيك نمتثله ونطيعه، قال الحسن البصري رحمه الله: فوّضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قِبَل لها بجنوده وجيوشه، وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً.

فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إليَّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا.

٣٤- ولهذا قالت ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾. قال ابن عباس: أي: إذا دخلوا بلداً عُنوة أفسدوه، أي: خربوه ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي: وقصدوا من فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر. قال ابن عباس: قالت بلقيس ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ قال الرب عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

٣٥- ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت ﴿إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: سأبعث إليه بهدية تليق بمثله، وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك منا، ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام، ونلتزم له بذلك، ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة رحمه الله: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس.

وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إنْ قبل الهدية، فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾

٣٦- ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم: أنها بعثت إليه بهدية عظيمة، من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك. وقال بعضهم: أرسلت بلبنة من ذهب، والصحيح: أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب(١).

والظاهر أن سليمان ﷺ لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية، ولا أعتني به، بل أعرض عنه، وقال منكراً عليهم ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي: أتصانعونني بمال، لأترككم على شرككم وملككم؟ ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود، خير مما أنتم فيه ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

٣٧- ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: بهديتهم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم بقتالهم ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً﴾ أي: ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: مهانون مدحورون.

فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعتْ وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان، ناوية متابعته في الإسلام، ولما تحقق سليمان ﷺ قدومهم عليه، ووفودهم إليه، فرح بذلك وسرَّه.

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن

---

(١) ذكر ابن كثير رحمه الله ههنا بعض الآثار، وقال: وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات، وقد أعرضنا عنها ههنا لعدم الفائدة.

شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم (٤٠)﴾

٣٨- قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان، قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرته شيئاً، وبعثت إليه إني قادمة عليك بملوك قومي، لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ، فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض، ثم أقفلت عليه الأبواب، ثم قالت لمن خَلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك وسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يرينه أحد حتى آتيك، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قَيْل من ملوك اليمن، تحت يدي كل قيل ألوف كثيرة، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده، فقال ﴿**يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾.

وقال قتادة لما بلغ سليمان أنها جائية وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه، وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستراً بالديباج والحرير، فكانت عليه تسعة مغاليق، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم. وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا، تحرم أموالهم ودماؤهم، فقال ﴿**يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾. وهكذا قال عطاء الخراساني والسدي وزهير بن محمد ﴿**قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾ فتحرم عليَّ أموالهم بإسلامهم.

٣٩- ﴿**قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ**﴾ قال مجاهد: أي: مارد من الجن، ﴿**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ**﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: قبل أن تقوم من مجلسك، وقال مجاهد: مقعدك، وقال السدي وغيره: وكان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام، من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿**وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ**﴾ قال ابن عباس: أي قوي على حمله، أمين على ما فيه من الجوهر، فقال سليمان عليه السلام: أريد أعجل من ذلك، ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير، إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وما سخّر له من الجنود، الذي لم يعطه أحدٌ قبله، ولا يكون لأحدٍ من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم، أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة.

٤٠- فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان، وكذا روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان: أنه آصف بن برخياء، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم، وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنس واسمه آصف، وكذا قال أبو صالح والضحاك وقتادة: أنه كان من الإنس، زاد قتادة: من بني إسرائيل، (وقيل غير ذلك).

وقوله: ﴿**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ أي: ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك، إلا وهو حاضر عندك، وقال وهب بن منبه: امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به. فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب، ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى، قال مجاهد: قال يا ذا الجلال والإكرام، وقال الزهري قال: يا إلهنا وإله كل شيء، إلهاً واحداً، لا إله إلا أنت، ائتني بعرشها، قال: فمثل بين يديه، قال مجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق وزهير بن محمد وغيرهم: لما دعا الله تعالى

وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس، وكان في اليمن وسليمان ﷺ ببيت المقدس، غاب السرير وغاص في الأرض، ثم نبع من بين يدي سليمان. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه. قال: وكان هذا الذي جاء به من عُبّاد البحر.

فلما عاين سليمان وملأه ذلك، ورآه مستقراً عنده ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: هذا من نعم الله عليَّ ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ أي: ليختبرني ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ وكقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾. وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي: هو غني عن العباد وعبادتهم ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كريم في نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجلٍ منكم، ما زادَ ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجلٍ منكم، ما نَقصَ ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثم أُوفِّيكم إياها، فمن وَجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه».

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

٤١- لما جيء سليمان ﷺ بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يُغير بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها، أو أنه ليس بعرشها، فقال ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ﴾ قال ابن عباس: نزع منه فصوصه ومرافقه، وقال مجاهد: أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر، وما كان أخضر جعل أحمر، وما كان أخضر جعل أحمر، غير كل شيء عن حاله، وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا. وقال قتادة: جعل أسفله أعلاه، ومقدمه مؤخره، وزادوا فيه ونقصوا ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي: عرض عليها عرشها وقد غيِّر ونكِّر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته، وإنْ غيِّر وبدل ونكر، فقالت ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي: يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم. وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قال مجاهد: يقوله سليمان.

٤٣- وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ هذا من تمام كلام سليمان ﷺ، في قول مجاهد وسعيد بن جبير رحمهما الله. أي: قال سليمان ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ وهي كانت قد صدَّها، أي: منعها من عبادة الله وحده ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حسن، وقاله ابن جرير أيضاً، ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون في قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله عز وجل، تقديره: ومنعها ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ﴾

أي: صدَّها عن عبادة غير الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

(قلت): ويؤيده قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما سيأتي.

٤٤- وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ وذلك أن سليمان ﷺ، أمر الشياطين فبنوا لها قصراً عظيماً من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه. واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان ﷺ إلى اتخاذه، فقيل: إنه عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه، ذكر له جمالها وحسنها ولكن في ساقيها هلب عظيم ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة. فساءه ذلك فاتخذها ليعلم صحته أم لا؟ هكذا قول محمد بن كعب القرظي وغيره، فلما دخلت وكشفت عن ساقيها رأى أحسن الناس ساقاً، وأحسنهم قدماً، ولكن رأى على رجليها شعراً لأنها ملكة ليس لها زوج، فأحب أن يذهب ذلك عنها، فقيل لها: الموسى، فقالت: لا أستطيع ذلك. وكره سليمان ذلك، وقال للجن: اصنعوا شيئاً غير الموسى يذهب به هذا الشعر، فصنعوا له النُّورة، وكان أول من اتخذت له النورة، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والسدي وابن جريج وغيرهم.

وقال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان: ثم قال لها: ادخلي الصرح، ليريها مُلكاً هو أعز من مُلكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لا تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله وحده، وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله.

وقال الحسن البصري: لما رأت العِلْجة الصرح، عرفتْ والله أن قد رأت مُلكاً أعظم من ملكها.

وأصل الصرح في كلام العرب هو: القصر وكل بناء مرتفع، قال الله سبحانه وتعالى إخباراً عن فرعون لعنه الله، أنه قال لوزيره هامان ﴿ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ الآيات. والصرح: قصر في اليمن عالي البناء، والممرد: المبني بناء محكماً أملس ﴿مِن قَوَارِيرَ﴾ أي: زجاج، وتمريد البناء تمليسه، ومارد: حصن بدومة الجندل.

والغرض أن سليمان ﷺ اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج، لهذه الملكة ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله، وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى، وعرفت أنه نبي كريم، وملِك عظيم، وأسلمت لله عز وجل وقالت ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بما سلف من كفرها وشركها، وعبادتها وقومها الشمس من دون الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له، الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديراً.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

٤٥- يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ﷺ، حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة

الله وحده لا شريك له ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال مجاهد: مؤمن وكافر، كقوله تعالى ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

٤٦ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته. ولهذا قال ﴿لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ* قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشقائهم، كان لا يصيب أحداً منهم سوءٌ، إلاَّ قال: هذا من قبل صالح وأصحابه، قال مجاهد: تشاءموا بهم. وهذا كما قال الله تعالى إخباراً عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ أي: بقضائه وقدره، وقال تعالى مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ* قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ الآية.

٤٧ - وقال هؤلاء ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ﴾ أي: الله يجازيكم على ذلك ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية. والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال.

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾

٤٨ - يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورءوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: أنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به، من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: مدينة ثمود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: تسعة نفر ﴿يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود، لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم. قال العوفي عن ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة، أي: الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم، قبحهم الله ولعنهم، وقد فعل ذلك، قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ وقال تعالى ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾.

وروى عبد الرزاق: عن عطاء - هو ابن أبي رباح - يقول ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ قال: كانوا يقرضون الدراهم. يعني: أنهم كانوا يأخذون منها، وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً، كما كان العرب يتعاملون. وروى الإمام مالك: عن سعيد بن المسيب أنه قال: قطع الذهب والورق من الفساد في الأرض.

والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة، كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها، فمنها

ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك.

٤٩ - ٥٣ - وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح ﷺ، فكادهم الله، وجعل الدائرة عليهم، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين، وقال قتادة: تواثقوا على أن يأخذوه ليلاً فيقتلوه؛ وذكر لنا: أنهم بينما هم مَعانيق إلى صالح ليفتكوا به، إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم، قال العوفي عن ابن عباس: هم الذين عقروا الناقة، قالوا حين عقروها: لنبيتن صالحاً وأهله فنقتله، ثم نقول لأولياء صالح ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به من علم، فدمرهم الله أجمعين. وقال محمد بن إسحاق: قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة، هلمَّ فلنقتل صالحاً، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته، فأتوه ليلاً ليبيتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم، أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثم هموا به، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم[1]: لما عقروا الناقة قال لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث، وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف، أي: غار هناك ليلاً، فقالوا إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم، فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم، فخشوا أن تشدخهم، فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل بقومهم. فعذب الله هؤلاء ههنا، وهؤلاء ههنا، وأنجى الله صالحاً ومن معه، ثم قرأ ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ أي: فارغة ليس فيها أحد ﴿بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨)﴾

٥٤ - يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط ﷺ، أنه أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة، التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، فقال ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: يرى بعضكم بعضاً، وتأتون في ناديكم المنكر.

٥٥ - ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي: لا تعرفون شيئاً، لا طبعاً

(١) في تفسير ابن أبي حاتم ط نزار الباز (٩/ ٢٩٠٣) عزاه لعبد الرحمن بن زيد!

ولا شرعاً، كما قال في الآية الأخرى ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

٥٦ - ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي: يتحرجون من فعل ما تفعلونه، ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم، فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها.

٥٧ - قال الله تعالى ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: من الهالكين مع قومها، لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش، تكرمة لنبي الله ﷺ لا كرامة لها.

٥٨ - وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي: حجارة من سجيل منضود، مسوَّمة عند ربك، وما هي من الظالمين ببعيد، ولهذا قال: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه، وهموا بإخراجه من بينهم.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)﴾

٥٩ - يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على نعمه على عباده، من النعم التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسله وأنبياؤه الكرام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام، هكذا قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وغيره، أن المراد بعباده الذين اصطفى هم: الأنبياء. قال: وهو كقوله ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقال الثوري والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم أجمعين. وروى نحوه عن ان عباس أيضاً، ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى.

والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه، بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة، والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار.

وقوله تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهام إنكار، على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى.

٦٠ - ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: خلق تلك السموات في ارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، والنجوم الزاهرة، والأفلاك الدائرة، وخلق الأرض في استفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأطواد، والسهول والأوعار، والفيافي والقفار، والزروع والأشجار، والثمار والبحار، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: جعله رزقاً للعباد ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أي: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: منظر حسن، وشكل بهي، ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك، وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة، من هو المتفرد بالخلق والرزق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أي: أإله مع الله يعبد، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضاً، أنه الخالق الرازق.

ومن المفسرين من يقول معنى قوله: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ فعل هذا، وهو يرجع إلى معنى الأول، لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه، بل هو المتفرد به، فيقال: فكيف تعبدون معه غيره، وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ الآية.

وقوله تعالى ههنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره: أمن يفعل هذه الأشياء، كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر، لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثم قال في الآية الأخرى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً، وهكذا قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيره، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر، من هذه الأصنام التي عبدوها؟ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها.

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾

٦١ - يقول تعالى ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قارة ساكنة ثابتة، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً، ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾.

﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة، شقها في خلالها وصرفها فيها، ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم، حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، وسيَّر لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً شامخة، ترسي الأرض وتثبتها، لئلا تميد بكم.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أي: مانعاً يمنعها من

الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا، وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً، يسقى الحيوان والنبات والثمار منها، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً، لئلا يفسد الهواء بريحها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أي: فعل هذا أو يعبد على القول الأول والآخر؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: في عبادتهم غيره.

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾

٦٢- ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه.

روى الإمام أحمد: عن أبي تيمية الهجيمي عن رجل من بلهجم قال: قلت: يا رسول الله إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وحده، الذي إنْ مسَّك ضُرٌّ فدعوته كَشف عنك، والذي إنْ أضللت بأرض قَفْر فدعوته ردَّعليك، والذي إنْ أَصابتْك سَنة فدعوته أنبت لك» قال: قلت: أوصني، قال: «لا تسبَّنَّ أحداً، ولا تزهدن في المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت مُنبسط إليه وجهك، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، واتزر إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المَخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة».

وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر، فذكر اسم الصحابي فقال: عن جابر بن سليم الهجيمي. وقد روى أبو داود والنسائي لهذا الحديث طرقاً، وعندهما طرف صالح منه.

وروى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي عن عبيد الله بن أبي صالح قال: دخل عليَّ طاوس يعودني، فقلت له: ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن، فقال: ادع لنفسك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه. وقال وهب بن منبه: قرأت في الكتاب الأول، إن الله تعالى يقول: بعزتي إنه مَن اعتصم بي، فإن كادته السموات بمن فيهن والأرض بمن فيهن، فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي، فإني أخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء فأكله إلى نفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ أي: يخلف قرناً لقرن قبلهم، وخلفاً لسلف، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً، كما قدمنا تقريره، وهكذا هذه الآية ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ أي: أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن

يجعلهم بعضهم من ذرية بعض، ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عنهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثّرهم غاية الكثرة، ويذرأهم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون، وأمماً بعد أمم، حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعدَّهم عدّاً، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله، إذا بلغ الكتاب أجله.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أي: يقدر على ذلك، أو إله مع الله يعبد؟ وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك، وحده لا شريك له؟

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)﴾

٦٣- يقول تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الآية، ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بين يدي السحاب، الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين الأزلين القنطين ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤)﴾

٦٤- أي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۞ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بما ينزل من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۞ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً، فيسلكه ينابيع في الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوان شتى ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أي: فعل هذا، وعلى القول الآخر بعد هذا ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦)﴾

٦٥- يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ، أن يقول معلماً لجميع الخلق، أنه لا يعلم أحدٌ من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع، أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل، فإنه

المنفرد بذلك وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ إلى آخر السورة، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة، كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.

وروى ابن أبي حاتم: عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: من زعم أنه يعلم ـ يعني النبي ﷺ ـ ما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفِرْية، لأن الله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾(1).

وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينةً للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك، فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن أناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة، من أعرس بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا، ومن وُلد بنجم كذا وكذا، كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والقصير والطويل، والحسن والذميم، وما عِلمُ هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب، وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله، وما يشعرون أيان يبعثون. رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه، وهو كلام جليل متين صحيح.

٦٦ـ وقوله: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: انتهى علمهم، وعجز عن معرفة وقتها. وقرأ آخرون ﴿بَلْ أَدرك علمهم﴾ أي: تساوى علمهم في ذلك، كما في الصحيح لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة: «مَا المسئول عنها بأعلم من السائل». أي: تساوى في العجز عن درك ذلك، علم المسئول والسائل. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: غاب، وقال قتادة ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ يعني: بجهلهم بربهم، يقول: لم ينفذ لهم علم في الآخرة. هذا قول. وروي عن ابن عباس ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: حين لم ينفع العلم، وبه قال عطاء الخراساني والسدي: أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وروى سفيان عن الحسن: أنه كان يقرأ ﴿بَلْ أَدرك علمهم﴾ قال: اضمحل علمهم في الدنيا، حين عاينوا الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ عائد على الجنس، والمراد الكافرون، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي: الكافرون منكم، وهكذا قال هُهنا: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي: شاكون في وجودها ووقوعها ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: في عماية، وجهل كبير في أمرها وشأنها.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ

(1) الحديث أصله في مسلم في الإيمان (١/ ١٥٩) مطولاً من حديث مسروق. ورواه البخاري أيضاً في التفسير (٨/ ٦٠٦) لكن ذكرت قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ بدل الآية السابقة.

إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) ﴾

٦٧- يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين، أنهم استبعدوا إعادة الأجساد، بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً.

٦٨- ثم قال: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً، وقولهم ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: أخذه قومٌ عمن قبلهم من كتبهم، يتلقاه بعض عن بعض، وليس له حقيقة.

٦٩- قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المكذبين بالرسل وبما جاءوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلَّت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله، ونجَّى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته.

٧٠- ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: المكذبين بما جئت به، ولا تأسف عليهم، وتَذهب نفسك عليهم حسرات ﴿وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: في كيدك ورد ما جئت به، فإنَّ الله مؤيدك وناصرك، ومظهر دينك على من خالفه وعانده، في المشارق والمغارب.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥) ﴾

٧١، ٧٢- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في سؤالهم عن يوم القيامة، واستبعادهم وقوع ذلك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال الله تعالى مجيباً لهم ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قال ابن عباس: أن يكون قرب، أو: أن يقرب بعض الذي تستعجلون. وهكذا قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني وقتادة والسدي، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وإنما دخلت اللام في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ لأنه ضمن معنى عجل لكم، كما قال مجاهد في رواية عنه ﴿عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ عجل لكم.

٧٣- ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: في إسباغه نعمه عليهم، مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم.

٧٤- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

٧٥- ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: وما من شيء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ

إلاَّ في كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١)﴾

٧٦- يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان، أنه يقص على بني إسرائيل ـ وهم حملة التوراة والإنجيل ـ ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل، أنه عبدٌ من عباد الله، وأنبيائه ورسله الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

٧٧- وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هدى لقلوب المؤمنين به، ورحمة لهم في العمليات.

٧٨- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أي: يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: في انتقامه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم.

٧٩- ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في جميع أمورك، وبلّغ رسالة ربّك ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أي: أنت على الحق المبين، وإن خالفك من خالفك، ممن كتبت عليه الشقاوة، وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية.

٨٠، ٨١- ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة، ، وفي آذانهم وقر الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ❁ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة الخاضع لله، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ (٨٢)﴾

٨٢- هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق، يُخرج الله لهم دابةً من الأرض، قيل: من مكة، وقيل: من غيرها، كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى، فتكلم الناس على ذلك. قال ابن عباس والحسن وقتادة ويروى عن علي رضي الله عنه: تكلمهم كلاماً، أي: تخاطبهم مخاطبة. وقال عطاء الخراساني: تكلمهم فتقول لهم: إن النَّاسَ كَانُوا بآياتنا لا يوقنون. ويروى هذا عن علي، واختاره ابن جرير، وفي هذا القول نظر لا يخفى، والله أعلم. وقال ابن عباس في رواية تجرحهم، وعنه رواية قال: كلاً تفعل، يعني هذا وهذا. وهو قول حسن، ولا منافاة، والله أعلم.

وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث، وآثار كثيرة، فلنذكر منها ما تيسر، وبالله المستعان.

روى الإمام أحمد: عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرفَ علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن

نتذاكر أمر الساعة، فقال: لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم ﷺ، والدجال. وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسفٌ بجزيرة العرب، ونارٌ تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس، تبيتُ معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا» وهكذا رواه مسلم وأهل السنن.

(حديث آخر): روى مسلم بن الحجاج: عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً، لم أنسه بعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أولَ الآياتِ خُروجاً: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضُحَى، وأيتهما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على أثرها قريباً».

(حديث آخر): روى مسلم في صحيحه: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طُلوعَ الشمس من مغربها، والدخانَ، أو الدجالَ، أو الدابة، أو خاصة أحدكم، أو أمر العامة» تفرد به.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ من كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) ﴾

٨٣- يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة، وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسوله، إلى بين يدي الله عز وجل، ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، ، تقريعاً وتوبيخاً، وتصغيراً وتحقيراً، فقال تعالى: **﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾** أي: من كل قوم وقرن **﴿فَوْجًا﴾** أي: جماعة **﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾** كما قال تعالى: **﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾** وقال تعالى: **﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾** وقوله تعالى: **﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما: يدفعون. وقال قتادة: وَزَعَةٌ: يرد أولهم على آخرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: يساقون.

٨٤- **﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾** ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة **﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** أي: فيسئلون عن اعتقادهم وأعمالهم، فلما لم يكونوا من أهل السعادة. وكانوا كما قال الله عنهم **﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۞ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾** فحينئذ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذرٌ يعتذرون به، كما قال الله تعالى: **﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۞ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾** الآية، وهكذا قال ههنا: **﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾** أي: بهتوا فلم يكن لهم جواب، لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد رُدوا إلى عالم الغيب والشهادة، الذي لا تخفى عليه خافية.

٨٦- ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم، وشأنه الرفيع، الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره، وتصديق أنبيائه فيما جاءوا به من الحق، الذي لا محيد عنه، فقال تعالى: **﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾** أي: في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه، وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم **﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾** أي: منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون في المعايش والمكاسب، والأسفار والتجارات، وغير ذلك من شئونهم التي يحتاجون إليها **﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**.

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) ﴾

٨٧- يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور، وهو كما جاء في الحديث «قرن ينفخ فيه».

وفي حديث الصور: إن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

وروى الإمام مسلم بن الحجاج: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: وجاءه رجل، فقال: ما هذا الحديث الذي تحدث، أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله، أو لا إله إلا الله، أو كلمة نحوهما، لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل، أمراً عظيماً يخرب البيت، ويكون ويكون، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين - لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ، في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان، إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخلَ في كَبَد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ، وقال: «فيبقى شرار الناس، في خفة الطير وأحلام السباع، لا يَعْرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثّل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقهم، حسنٌ عيشهم، ثم ينفخ في الصُّور، فلا يسمعه أحدٌ إلا أصْغى لِيتا ورفع لِيتا. قال: وأول من يسمعه رجلٌ يلُوطُ حوظ إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله أو قال: ينزل الله مطراً كأنّه الطَّل - أو قال: الظل شعبة الشاك - فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هلمُّوا إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسؤولون، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، قال: فذلك يوم يجعل الولدان شيباً، وذلك يوم يُكشف عن ساق».

وقوله: ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحدٌ إلا أصغى ليتا ورفع ليتا. الليت: صفحة العنق، أي: أمال عُنقه ليستمعه من السماء جيداً، فهذه نفخة الفزع، ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين، وهو النشور من القبور، لجميع الخلائق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ قرئ بالمد، وبغيره على الفعل، وكل بمعنى واحد، وداخرين أي: صاغرين مطيعين، لا يتخلف أحد عن أمره، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

٨٨- وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب، أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

وقوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

٨٩- ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ، فقال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قال قتادة: بالإخلاص. وقال زين العابدين: هي لا إله إلا الله. وقد بين تعالى في الموضع الآخر، أن له عشر أمثالها ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾.

٩٠- وقوله تعالى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: من لقي الله مسيئاً لا حسنة له، أو قد رجحت سيئاته على حسناته، كل بحسبه، ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقال ابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهم وأنس بن مالك وعطاء وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وإبراهيم النخعي وأبو وائل وأبو صالح ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم والزهري والسدي والضحاك والحسن وقتادة وابن زيد في قوله: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعني: بالشرك.

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾.

٩١- يقول تعالى مخبراً رسوله، وآمراً له أن يقول ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة، على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً، بتحريمه لها، كما ثبت في الصحيحين: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضدُ شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرَّفها، ولا يُختلى خلَاها» الحديث بتمامه. وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة، ورب كل شيء ومليكه، لا إله إلا هو ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الموحِّدين المخلصين، المنقادين لأمره المطيعين له.

٩٢- وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ أي: على الناس، أبلغهم إياه، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ الآية، أي: أنا مبلغ

ومنذر ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخلصوا من عهدتهم، وحساب أممهم على الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

٩٣- ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: لله الحمد، الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: بل هو شهيد على كل شيء.

روى ابن أبي حاتم عن عمر بن عبد العزيز قال: فلو كان الله مغفلاً شيئاً، لأغفل ما تعفى الرياح من أثر قدمي بني آدم. وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى: أنه كان ينشد هذين البيتين، إما له وإما لغيره:

إذا ما خلوتَ الدَّهرَ يوماً فلا تقلْ ... خلوتُ ولكن قُلْ عليَّ رقيب

ولا تحسَبَنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ... ولا أن ما يخفى عليه يغيب

آخر تفسير سورة النمل

****

ترتيبها ٢٨ — سورة القصص ـ مكية — آياتها ٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون (٣) إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين (٤) ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (٥) ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (٦) ﴾

١ - قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة.

٢ - وقوله: ﴿تلك﴾ أي: هذه ﴿آيات الكتاب المبين﴾ أي: الواضح الجلي، الكاشف عن حقائق الأمور، وعلم ما قد كان وما هو كائن.

٣ - وقوله: ﴿نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه، كأنك تشاهد وكأنك حاضر.

٤ - كما قال تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ أي: تكبر وتجبر وطغى ﴿وجعل أهلها شيعا﴾ أي: أصنافاً، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته. وقوله تعالى: ﴿يستضعف طائفة منهم﴾ يعني: بني إسرائيل، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سُلِّط عليهم هذا الملك الجبار العنيد، يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً، وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام، الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه، أنْ يوجد منهم غلام، يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل، فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام، حين ورد الديار المصرية، وجرى له مع جبارها ما جرى، حين أخذ سارة ليتخذها جارية، فصانها الله منه ومنعها منه بقدرته وسلطانه، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده، أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك مَلك مصر على يديه، فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذرٌ من قَدر، لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب.

٥ - ولهذا قال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿يحذرون﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ وقال تعالى: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه من ذلك، مع قدرة الملك العظيم، الذي لا يُخالف أمره القدري ولا يغلب، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم، بأن يكون هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزتَ من وجوده، وقتلتَ بسببه ألوفاً من الولدان، إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك،

وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السموات العلا، هو القاهر الغالب، العظيم القوي العزيز، الشديد المحال، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

٧- ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل، خافت القبط أن يفنى بني إسرائيل، فَيَلُون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة، فقالوا لفرعون: إنه يوشك إن استمر هذا الحال، أن يموت شيوخهم، وغلمانهم يقتلون، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك، فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدورون على النساء، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبلُها إلا نساء القبط، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذَّباحون بأيديهم الشفار المرهفة، فقتلوه ومضوا، قبحهم الله تعالى.

فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها، ولم تفطن لها الدايات، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً، وخافت عليه خوفاً شديداً، وأحبته حباً زائداً، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً، قال الله تعالى ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ فلما ضاقت به ذرعاً، ألهمت في سرها، وألقي في خلدها، ونفث في روعها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل، فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه، ذهبت فوضعته في ذلك التابوت وسيرته في البحر، وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت فوضعته في ذلك التابوت وأرسلته في البحر، وذهلت أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله، حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجواري فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتتن عليها في فتحه دونها، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله، وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه، وذلك لسعادتها، وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها.

٨- ولهذا قال: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ الآية، قال محمد بن إسحاق وغيره: اللام هنا لام العاقبة، لا لام التعليل، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل، لأن معناه: أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه، ليجعله عدواً لهم وحزناً، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية، في تكذيبهم بكتاب الله، وبأقداره النافذة في علمه السابق وموسى في عِلم الله السابق، لفرعون عدوٌ وحزن، قال الله تعالى:

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ وقلتم: أنتم لو شاء فرعون أن يكون لموسى ولياً وناصراً، والله تعالى يقول: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

٩- وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ الآية، يعني: أن فرعون لما رآه، همَّ بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل، فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه، وتذب دونه، وتحببه إلى فرعون، فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال فرعون: أما لك فنعم، وأما لي فلا، فكان كذلك، وهداها الله بسببه، وأهلكه الله على يديه.

وقوله: ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا﴾ وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به، وأسكنها الجنة بسببه، وقوله: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يدرون ما أراد الله منه، بالتقاطهم إياه، من الحكمة العظيمة البالغة، والحجة القاطعة.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

١٠- يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر، أنه أصبح فارغاً، أي: من كل شيء من أمور الدنيا، إلا من موسى. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والضحاك والحسن البصري وقتادة وغيرهم ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي: إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها، لتظهر أنه ذهب لها ولدٌ وتخبر بحالها، لولا أن الله ثبتها وصبرها، قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

١١- ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي: أمرت ابنتها، وكانت كبيرة تعي ما يقال لها، فقالت لها: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتبعي أثره، وخذي خبره، وتطلبي شأنه من نواحي البلد. فخرجت لذلك ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾.

قال ابن عباس: عن جانب. وقال مجاهد: عن بُعد.

وقال قتادة: جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده، وذلك أنه لما استقر موسى ﷺ بدار فرعون، وأحبته امرأة الملك، واستطلقته منه، عرضوا عليه المراضع التي في دارهم، فلم يقبل منها ثدياً، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك، فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته، فلما رأته بأيديهم عرفته، ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها.

١٢- قال الله تعالى ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: تحريماً قدرياً، وذلك لكرامته عند الله، وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه، ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه، لترضعه وهي آمنة، بعدما كانت خائفة، فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ قال ابن عباس: فلما قالت ذلك، أخذوها وشكوا في أمرها، وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له، وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه، رغبتهم في سرور الملك، ورجاء

منفعته، فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك، وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى امرأة الملك، فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة، ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك، ولكن إنْ أحببتِ أن أرضعه في بيتي فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية، قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً، في عز وجاه ورزق دارّ، ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل، يوم وليلة أو نحوه، والله أعلم، فسبحان من بيده الأمر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل همٍّ فرجاً، وبعد كل ضيق مخرجاً.

١٣- ولهذا قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أي: به ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: عليه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: فيما وعدها من رده إليها، وجعله من المرسلين، فحينئذ تحققت بردّه إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: حكم الله في أفعاله، وعواقبها المحمودة، التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس، وعاقبته المحمودة في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾

١٤- لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى، آتاه الله حكماً وعلماً.

قال مجاهد: يعني النبوة ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

١٥- ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدّره له، من النبوة والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي، الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين، فقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ عن عطاء بن يسار عن ابن عباس: كان ذلك نصف النهار. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقتادة ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي: يتضاربان ويتنازعان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ أي: إسرائيلي ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي: قبطي، قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق.

فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام، فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس، فعمد إلى القبطي ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: فوكزه، أي: طعنه بجمع كفه. وقال قتادة: وكزه بعصا كانت معه ﴿فَقَضَىٰ

عَلَيْهِ﴾، أي: كان فيها حتفه فمات ﴿فَقَالَ﴾ موسى ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٦، ١٧- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ أي: معيناً ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الكافرين بك، المخالفين لأمرك.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)﴾

١٨- يقول تعالى مخبراً عن موسى، لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا﴾ أي: من مَعَرَّة ما فعل ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر، فمرَّ في بعض الطرق، فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي، يقاتل آخر، فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر، فقال له موسى ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر الغواية كثير الشر.

١٩- ثم عزم على البطش بذلك القبطي، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته، أن موسى إنما يريد قصده، لما سمعه يقول ذلك، فقال يدفع عن نفسه ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى ﷺ، فلما سمعها ذلك القبطي لَقَفَها من فمه، ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده، فعلم فرعون بذلك، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠)﴾

٢٠- قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ وصفه بالرجولية، لأنه خالف الطريق، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بُعثوا وراءه، فسبق إلى موسى، فقال له: يا موسى ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ أي: من البلد ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾

٢١- لما أخبره ذلك الرجل، بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره، خرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك قبله، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يتلفت ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: من فرعون وملئه، فذكروا أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملكاً على فرس، فأرشده إلى الطريق، فالله أعلم.

٢٢- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: أخذ طريقاً سالكاً مهيعاً، فرح بذلك ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: الطريق الأقوم، ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً.

٢٣- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: لما وصل إلى مدين ورد ماءها، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي: جماعة يسقون ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تكفكفان غنمهما، أن ترد مع غنم أولئك الرعاء، لئلا يؤذيا، فلما رآهما موسى عليه السلام رقَّ لهما ورحمهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما خبركما لا تردان مع هؤلاء؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي: لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى.

٢٤- قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ روى أبو بكر بن أبي شيبة: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان، قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم. إسناد صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين، ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة. وقوله: ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود والسدي: جلس تحت شجرة، وروى ابن جرير: عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: أحثثت على جمل ليلتين حتى صبَّحت مدين، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى، فإذا هي شجرة خضراء ترف، فأهوى إليها جملي وكان جائعاً فأخذها جملي فعالجها ساعة، ثم لفظها، فدعوت الله لموسى عليه السلام، ثم انصرفت.

وفي رواية عن ابن مسعود: أنه ذهب إلى الشجرة التي كلم الله منها موسى، كما سيأتي إن شاء الله، فالله أعلم. وقال السدي: كانت الشجرة من شجر السمر. وقال عطاء بن السائب: لما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أسمعَ المرأة.

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾

٢٥- لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما، أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً، فسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه مافعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، قال الله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي: مشي الحرائر، كما روي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه قال: جاءت مستترة

بكم درعها، وروى ابن أبي حاتم: عن عمرو بن ميمون قال: قال عمر رضي الله عنه: جاءت تمشي على استحياء، قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع من النساء، ولاجة خراجة. هذا إسناد صحيح. قال الجوهري: السلفع من الرجال الجسور، ومن النساء الجريئة السليطة، ومن النوق الشديدة.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهذا تأدب في العبارة، لم تطلبه طلباً مطلقاً، لئلا يوهم ريبة بل ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعني ليثيبك، ويكافئك على سقيك لغنمنا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: ذكر له ما كان من أمره، وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: طِبْ نفساً وقَرَّ عيناً، فقد خرجت من مملكتهم، فلا حكم في بلادنا، ولهذا قال: ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو؟ على أقوال: أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد، ورواه ابن أبي حاتم: عن مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قص عليه موسى القصص قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وقال آخرون: بل كان ابن أخي شعيب. وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب. وقال آخرون: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة، لأنه قال لقومه ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة، تزيد على أربعمائة سنة، كما ذكره غير واحد. وما قيل إن شعيباً عاش مدة طويلة، إنما هو - والله أعلم - احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب، أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى، لم يصح إسناده كما سنذكره قريباً إن شاء الله، ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل، أن هذا الرجل اسمه ثيرون، والله أعلم.

وقال ابن جرير: الصواب أن هذا لا يدرك إلا بخبر، ولا خبر تجب به الحجة في ذلك.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ أي: قالت إحدى ابنتي هذا الرجل، قيل: هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام، قالت لأبيها ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي: لرعية هذه الغنم. قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لما قالت ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلف عليَّ الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه.

وروى سفيان الثوري: عن ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ وصاحبة موسى حين قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[1].

٢٧- قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ أي: طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير، أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين، قال شعيب الجبائي: وهما صفوراً وليا. وقال محمد بن إسحاق: صفوراً وشرفا، ويقال: ليا. وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع، فيما إذا قال: بعتك

---

(١) هو من رواية أبي عبيدة عامر عن أبيه، ولم يسمع منه، والله أعلم.

أحد هذين العبدين بمائة، فقال: اشتريت، أنه يصح، والله أعلم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: على أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي الثمان كفاية. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: لا أشاقك ولا أؤاذيك ولا أماريك. وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعي، فيما إذا قال: بعتك هذا بعشرة نقداً، أو بعشرين نسيئة، أنه يصح ويختار المشتري، بأيهما أخذه صح، وحمل الحديث المروي في سنن أبي داود: «مَن باع بيعتين في بيعة، فله أوكسهما أو الربا» على هذا المذهب، وفي الاستدلال بهذه الآية، وهذا الحديث على هذا المذهب نظر، ليس هذا موضع بسطه لطوله، والله أعلم.

ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم، في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية.

٢٨- وقوله تعالى إخباراً عن موسى ﷺ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت، من أنك استأجرتني على ثمان سنين، فإن أتممت عشراً فمن عندي، فأنا متى فعلت أقلهما، فقد برئت من العهد، وخرجت من الشرط، ولهذا قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: فلا حرج علي، مع أن الكامل وإن كان مباحاً، لكنه فاضل من جهة أخرى، بدليل من خارج، كما قال تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وقال رسول الله ﷺ لحمزة بن عمرو الأسلمي رضي الله عنه وكان كثير الصيام، وسأله عن الصوم في السفر، فقال: «إنْ شئت فصم، وإن شئت فأفطر»[1]. مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر.

هذا وقد دلَّ الدليل على أن موسى ﷺ إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما، روى البخاري: عن سعيد بن جبير قال: قال سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنهما فسألته، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. وقد روى ابن جرير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «سألتُ جبريل، أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما»[2].

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾

٢٩- قد تقدم في تفسير الآية قبلها، أن موسى ﷺ قضى أتم الأجلين، وأوفاهما وأبرهما وأكملهما

---

(١) رواه البخاري في الصوم (٤/ ١٧٩) ومسلم في الصيام (٢/ ٧٨٩).

(٢) قال ابن كثير بعد أن ذكر طرقاً لهذا الحديث: فهذه طرق متعاضدة. وقد ذكر العلامة الألباني رحمه الله الحديث في الصحيحة (١٨٨٠).

وأنقاهما، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة، حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي: الأكمل منهما، والله أعلم. وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قالوا كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله، فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة، فنزل منزلاً، فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً، فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً﴾ أي: رأى ناراً تضيء له على بعد ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ أي: حتى أذهب إليها ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ أي: قطعة منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفئون بها من البرد.

٣٠- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ﴾ أي: من جانب الوادي، مما يلي الجبل عن يمينه، من ناحية الغرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة، والجبل الغربي عن يمينه، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل، مما يلي الوادي، فوقف باهتاً في أمرها، فناداه ربه ﴿مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ قال قتادة: هي من العوسج وعصاه من العوسج. وقوله تعالى: ﴿أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء، لا إله غيره ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات، في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه.

٣١- وقوله: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي: التي في يدك، كما قرره على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ والمعنى: أما هذه عصاك التي تعرفها ﴿أَلْقِهَا فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ فعرَف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه، هو الذي يقول للشيء كن فيكون، كما تقدم بيان ذلك في سورة طه.

وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ أي: تضطرب ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً﴾ أي: في حركتها السريعة، مع عظم خلقتها وقوائمها، واتساع فمها، واصطكاك أنيابها وأضراسها، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها، تنحدر في فيها تتقعقع، كأنها حادرة في واد فعند ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يكن يلتفت، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك. فلما قال الله له: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول.

٣٢- ثم قال الله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: إذا أدخلت يدك في جيب درعك، ثم أخرجتها، فإنها تخرج تتلألأ، كأنها قطعة قمر في لمعان البرق، ولهذا قال: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: من غير برص. وقوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قال مجاهد: من الفزع. وقال قتادة: من الرعب. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية.

والظاهر أن المراد أعم من هذا، وهو أنه أمرﷺ إذا خاف من شيء، أن يضم إليه جناحه من الرهب، وهو يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء، فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

وقوله تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: إلقاء العصا وجعلها حية تسعى، وإدخاله يده في جيبه

فتخرج بيضاء من غير سوء، دليلان قاطعان واضحان، على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، مخالفين لأمره ودينه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾

٣٣- لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون، الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه، وخوفاً من سطوته ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ يعني: ذلك القبطي ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي: إذا رأوني.

٣٤- ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وذلك أن موسى ﷺ كان في لسانه لثغة، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة، حين خير بينها وبين التمرة أو الدرّة، ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فحصل فيه شدة في التعبير، ولهذا قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أي: يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة، إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد.

ولهذا قال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمري، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل، لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد، ولهذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ وقال محمد بن إسحاق ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أي: يبين لهم عني ما أكلمهم به، فإنه يفهم عني ما لا يفهمون.

٣٥- فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنقوي أمرك، ونعزّ جانبك بأخيك، الذي سألت له أن يكون نبياً معك، كما في الآية الأخرى ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ولهذا قال بعض السلف: ليس أحدٌ أعظم مِنَّةً على أخيه، من موسى على هارون عليهما السلام، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه، إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى في حق موسى ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي: حجة قاهرة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أي: لا سبيل لهم ـ إلى الوصول إلى أذاكما، بسبب إبلاغكما آيات الله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً ومؤيداً.

ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما، ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى آخر الآية. ووجه ابن جرير على أن المعنى: ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما، ثم يبتدئ فيقول: ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ تقديره: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا، ولا

شك أن هذا المعنى صحيح، وهو حاصل من التوجيه الأول، فلا حاجة إلى هذا، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)﴾

٣٦- يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة، والدلالة القاهرة، على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل، من توحيده واتباع أوامره، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك، وشاهدوه وتحققوه، وأيقنوا أنه من عند الله، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق، فقالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: مفتعل مصنوع، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه، فما صعد معهم ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون: عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى.

٣٧- فقال موسى ﷺ مجيباً لهم ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ﴾ يعني: مني ومنكم، وسيفصل بيني وبينكم، ولهذا قال: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي: من النصرة والظفر والتأييد ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المشركون بالله عز وجل.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾

٣٨- يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه، وافترائه في دعواه الإلهية لنفسه القبيحة ـ لعنه الله ـ كما قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ الآية، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم، وسخافة أذهانهم، ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ وقال تعالى إخباراً عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۞ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۞ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ يعني: أنه جمع قومه، ونادى فيهم بصوته العالي مصرحاً لهم بذلك، فأجابوه سامعين مطيعين، ولهذا انتقم الله تعالى منه، فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وحتى أنه واجه موسى الكليم بذلك فقال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ يعني: أمر وزيره هامان، ومدبر رعيته، ومشير دولته، أن يوقد له على الطين، يعني: يتخذ له آجراً لبناء الصرح، وهو القصر المنيف الرفيع العالي، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۞

﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى، فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون، ولهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: في قوله أن ثمَّ رباً غيري، لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله، لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا، فإنه قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ وقال ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وهذا قول ابن جرير.

٣٩- وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: طغوا وتجبروا، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

٤٠- ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

٤١- ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: لمن سلك وراءهم، وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل، وتعطيل الصانع ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ أي: فاجتمع عليهم خزي الدنيا، موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

٤٢- وقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون، على ألسنة المؤمنين من عباده، المتبعين لرسله، كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم، كذلك ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ قال قتادة: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)﴾

٤٣- يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه، بعد ما أهلك فرعون وملأه. وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ يعني: أنه بعد إنزال التوراة، لم يعذّب أمة بعامّة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾.

وروى ابن جرير: عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض، بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض، غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ الآية، ورواه ابن أبي حاتم بنحوه. وهكذا رواه أبو بكر البزار في مسنده: عن أبي سعيد موقوفاً. ثم عن أبي سعيد رفعه إلى النبي ﷺ قال: «ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض، إلا قبل موسى» ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ الآية.

وقوله: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي: من العمى والغي ﴿وَهُدًى﴾ إلى الحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي:

إرشاداً إلى العمل الصالح ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعل الناس يتذكرون به، ويهتدون بسببه.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾

٤٤ - يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ، حيث أخبر بالغيوب الماضية، خبراً كان سامعه شاهدٌ وراءِ لما تقدم، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الآية، أي: وما كنت حاضراً لذلك، ولكن الله أوحاه إليك، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه، وما كان من إنجاء الله له، وإغراق قومه، ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الآية، وقال في آخر السورة: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ وقال بعد ذكر قصة يوسف ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ الآية، وقال في سورة طه ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ الآية، وقال ههنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه، وتكليمه له ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ يعني: ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي، الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية، على شاطئ الوادي ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لذلك.

٤٥ - ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك، ليكون حجة وبرهاناً، على قرون قد تطاول عهدها، ونسوا حجج الله عليهم، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: وما كنت مقيماً في أهل مدين، تتلو عليهم آياتنا، حين أخبرتَ عن نبيها شعيب، وما قال لقومه وما ردوا عليه ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: ولكن نحن أوحينا إليك ذلك، وأرسلنا إلى الناس رسولاً.

٤٦ - ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ وروى أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه: عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ قال: نودوا أن: يا أمة محمد: أعطيتكم قبل أن تسألوني، وأجبتكم قبل أن تدعوني. وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

ورواه ابن جرير عن أبي زرعة وهو ابن عمرو ابن جرير أنه قال ذلك من كلامه، والله أعلم.

وقال مقاتل بن حيان ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أمتك في أصلاب آبائهم، أن يؤمنوا بك إذا بعثت. وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى، وهذا ـ والله أعلم ـ أشبه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك، وهو النداء كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ما كنتَ مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله تعالى أوحاه إليك، وأخبرك به، رحمة منه بك، وبالعباد بإرسالك إليهم ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل.

﴿وَلَوْلاَ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ الآية، أي: وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك، وهو القرآن ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ﴾

٤٨- يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذَّبهم قبل قيام الحجة عليهم، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول: أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمدﷺ، قالوا على وجه التعنت والعناد، والكفر والجهل والإلحاد: ﴿لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ الآية، يعنون ـ والله أعلم ـ من الآيات الكثيرة، مثل: العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة، والحجج القاهرة، التي أجراها الله تعالى على يدي موسىعليه السلام، حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبني إسرائيل، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه، بل كفروا بموسى وأخيه هارون، كما قالوا لهما ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾ أي: أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: تعاونا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ أي: بكل منهما كافرون، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهارون، دل ذكر أحدهما على الآخر، كما قال الشاعر:

فما أدري إذا يَمَّمت أرضاً أريدُ الخيرَ أيهما يليني

أي: فما أدري يليني الخير أو الشر. قال مجاهد: أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمدﷺ ذلك، فقال الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ قال: يعني: موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم ﴿تَظَاهَرَا﴾ أي: تعاونا وتناصرا، وصدق كل منهما الآخر، وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين في قوله: ﴿سَاحِرَانِ﴾ يعنون: موسى وهارون. وهذا قول جيد قوي، والله أعلم. وعن ابن عباس ﴿قَالُوا سَاحِرَانِ

تَظَاهَرَا﴾ قال: يعنون: موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، وهذا رواية الحسن البصري.

وأما من قرأ ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ فقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس: يعنون التوراة والقرآن. وكذا قال عاصم الجندي والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال السدي: يعني: صدَّق كل واحد منهما الآخر. وقال عكرمة: يعنون التوراة والإنجيل، وهو رواية عن أبي زرعة، واختاره ابن جرير. وقال الضحاك وقتادة: الإنجيل والقرآن. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

والظاهر على قراءة ﴿سِحْرَانِ﴾ أنهم يعنون: التوراة والقرآن، لأنه قال بعده: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ وقال في آخر السورة: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ الآية، وقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وقالت الجن ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وقال ورقة بن نوفل: هذا الناموس الذي أنزل على موسى. وقد عُلم بالضرورة لذوي الألباب، أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء، فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه، أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف، من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، وهو القرآن وبعده في الشرف والعظمة، الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام، وهو الكتاب الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة، ومُحلاً لبعض ما حُرِّم على بني إسرائيل.

٤٩، ٥٠- ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: فيما تدافعون به الحق، وتعارضون به من الباطل، قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي: فإن لم يجيبوا لك عما قلت لهم، ولم يتبعوا الحق ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: بلا دليل ولا حجة ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ﴾ أي: بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٥١- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ قال مجاهد: فصلنا لهم القول. وقال السدي: بينا لهم القول. وقال قتادة: يقول تعالى: أخبرهم كيف صُنع بمن مضى، وكيف هو صانع ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ قال مجاهد وغيره: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ يعني: قريشاً. وهذا هو الظاهر، لكن قال رفاعة هو ابن قرظة القرظي[1] نزلت ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ في عشرة أنا أحدهم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديثه.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة (٢/ ٢١١): قال أبو حاتم له رؤية. ثم ذكر حديثه هذا: وعزاه أيضاً للطبراني والباوردي. وهو في الطبراني الكبير (٤٥٦٤) وسنده صحيح.

٥٢ ، ٥٣ - يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب ، أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ﴾ وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ وقال تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ إلى قوله : ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

٥٤ - قال الله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي : هؤلاء المتصفون بهذه الصفة ، الذين آمنوا بالكتاب الأول ، ثم بالثاني ، ولهذا قال : ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أي : على اتباع الحق ، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس . وقد ورد في الصحيح : من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه ، ثم آمن بي ، وعبدٌ مملوك أدّى حق الله ، وحقّ مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدَّبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها فتزوجها» .

وروى الإمام أحمد : عن أبي أمامة قال : إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح ، فقال قولاً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : «من أسلم من أهل الكتابين ، فله أجره مرتين ، وله ما لنا ، وعليه ما علينا» .

وقوله تعالى : ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي : لا يقابلون السيء بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي : ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون ، على خلق الله في النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة ، من التطوعات وصدقات النفل والقربات .

٥٥ - وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي : لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ، بل كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ .

﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي : إذا سفه عليهم سفيه ، وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه ، أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ، ولهذا قال عنهم أنهم قالوا : ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي : لا نريد طريق الجاهلين ، ولا نحبها .

قال محمد بن إسحاق في السيرة : سألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا ، أنهن نزلت في النجاشي وأصحابه رضي الله عنهم ، والآيات اللاتي في سورة المائدة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً﴾ - إلى قوله - ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)﴾

٥٦ - يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه الآية أخص من هذا كله ، فإنه

قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية. وقد ثبت في الصحيحين: أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في صفه، ويحبه حباً شديداً، طبعياً لا شرعياً، فلما حضرته الوفاة وحان أجله، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه، واختطف من يده، فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة. روى سعيد بن المسيب عن أبيه ـ وهو المسيب بن حزن المخزومي ـ رضي الله عنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أباطالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة، حتى كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرَنَّ لك ما لَمْ أُنْهَ عنك» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أخرجاه.

وهكذ رواه مسلم في صحيحه والترمذي: عن أبي هريرة قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال: «ياعمَّاه، قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة» فقال: لولا أن تُعيرني بها قريش، يقولون: ما حمله عليه إلا جزع الموت، لأقررت بها عينك، لا أقولها إلا لأُقرَّ بها عينك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، ورواه الإمام أحمد. وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة: أنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول: لا إله إلا الله، فأبى عليه ذلك، وقال: أي ابن أخي، ملة الأشياخ، وكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب.

٥٧- وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار، وفي عدم اتباع الهدى، حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي: نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة، ويتخطفونا أينما كنا، قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ يعني: هذا الذي اعتذروا به كذبٌ وباطل، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين، وحرم معظم آمن منذ وضع، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق؟

وقوله تعالى: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من سائر الثمار مما حوله، من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

٥٨- يقول تعالى معرضاً بأهل مكة، في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: طغت وأشرت وكفرت نعمة الله، فما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً

كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۞ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ .

ولهذا قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي: دثرت ديارهم، فلا ترى إلا مساكنهم. وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: رجعت خراباً ليس فيها أحد.

٥٩- ثم قال تعالى مخبراً عن عدله، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له، وإنما يُهلك من أهلك، بعد قيام الحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ وهي مكة ﴿رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي، وهو محمد ﷺ المبعوث من أم القرى، رسولٌ إلى جميع القرى، من عرب وأعجام، كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ وقال: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ وتمام الدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً﴾ فأخبر تعالى أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى، لأنه رسول إلى أمها، وأصلها التي ترجع إليها.

وثبت في الصحيحين: عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «بُعثتُ إلى الأحمر والأسود». ولهذا ختم به النبوة والرسالة، فلا نبي بعده ولا رسول، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة.

وقيل: المراد بقوله: ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾ أي: أصلها وعظيمتها، كأمهات الرساتيق والأقاليم، حكاه الزمخشري وابن الجوزي وغيرهما، وليس ببعيد.

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

٦٠- يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنيئة، والزهرة الفانية، بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة، من النعيم العظيم المقيم، كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ وقال: ﴿وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ وقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وقال رسول الله ﷺ: «والله ما الحياةُ الدنيا في الآخرة، إلا كما يَغْمِسُ أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر ماذا يرجع إليه؟».

وقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة.

٦١- وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ يقول تعالى، أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال، من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده، فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ قال مجاهد وقتادة: من المعذبين. ثم قد قيل: إنها نزلت في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل. وقيل: في حمزة وعلي وأبي جهل. وكلاهما عن مجاهد، والظاهر أنها عامة، وهذا كقوله تعالى إخباراً

عن ذلك المؤمن، حين أشرف على صاحبه، وهو في الدرجات، وذلك في الدركات فقال: ﴿وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

٦٢- يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة، حيث يناديهم فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يعني: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا، من الأصنام والأنداد، هل ينصرونكم أو ينتصرون؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

٦٣- وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ يعني الشياطين والمردة، والدعاة إلى الكفر ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فشهدوا عليهم أنه أغووهم فاتبعوهم، ثم تبرؤا من عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ وقال الخليل ﷺ لقومه ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الآية، وقال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

٦٤- ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: ليخلصوكم مما أنتم فيه، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أي: فودُّوا حين عاينوا العذاب، لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۞ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

٦٥- وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ النداء الأول عن سؤال التوحيد، وهذا فيه إثبات النبوات: ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يُسئل العبد في قبره: من ربك ومن نبيك وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري. ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت، لأن من كان في هذه أعمى، فهو في الاخرة أعمى وأضل سبيلاً.

٦٦- ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءلُونَ﴾ قال مجاهد: فعميت عليهم الحجج، فهم لا يتساءلون بالأنساب.

٦٧- وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ أي: في الدنيا ﴿فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ أي: يوم القيامة، و«عسى» من الله موجبة، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة.

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾

٦٨- يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده، ومرجعها إليه. وقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ نفيٌ على أصح القولين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. وقد اختار ابن جرير أن ﴿مَا﴾ ههنا بمعنى الذي، تقديره: ويختار الذي لهم فيه خيرة، وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح، والصحيح: أنها نافية، كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره أيضاً، فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك، ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً.

٦٩- ثم قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم ما تكن الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

٧٠- وقوله: ﴿وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: هو المنفرد بالإلهية، فلا معبود سواه، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾ أي: في جميع ما يفعله هو المحمود عليه، بعدله وحكمته ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: الذي لا معقب له، لقهره وغلبته، وحكمته ورحمته ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: جميعكم يوم القيامة، فيجزي كل عامل بعمله، من خير وشر، ولا يخفى عليه منهم خافية، في سائر الأعمال.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾

٧١- يقول تعالى ممتناً على عباده، بما سخر لهم من الليل والنهار، اللذَين لا قوام لهم بدونهما، وبيَّن أنه لو جعل الليل دائماً عليهم، سرمداً إلى يوم القيامة، لأضرَّ ذلك بهم، ولسئمته النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ أي: تبصرون به، وتستأنسون بسببه ﴿أَفَلاَ تَسْمَعُونَ﴾.

٧٢- ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً، أي: دائماً مستمراً إلى يوم القيامة، لأضرَّ ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلت، من كثرة الحركات والأشغال، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

٧٣- ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي: بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي: في النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال، وهذا من باب اللف والنشر. وقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله، بأنواع العبادات في الليل والنهار، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار، أو بالنهار استدركه بالليل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ والآيات في هذا كثيرة.

﴿ ويَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ونَزَعْنَا من كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

٧٤- وهذا أيضاً نداء ثان، على سبيل التوبيخ والتقريع، لمن عبد مع الله إلهاً آخر، يناديهم الرب تعالى على رءوس الأشهاد، فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: في دار الدنيا ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال مجاهد: يعني رسولاً ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: على صحة ما ادعيتموه، من أن لله شركاء ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: لا إله غيره، فلم ينطقوا ولا يحيروا جواباً ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم.

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

٧٦- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ قال: كان ابن عمه، وهكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم: أنه كان ابن عم موسى عليه السلام. وقال ابن جريج: وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه، والله أعلم.
وقال قتادة بن دعامة: كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى، وكان يسمى المنوّر لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله. وقال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبراً طولاً، ترفعاً على قومه. وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ أي: الأموال ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ أي: ليثقل حملها الفئام من الناس، لكثرتها.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: وَعَظه فيما هو فيه صالحو قومه، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون: لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني المرحين، وقال مجاهد: يعني الأشرين البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

٧٧- وقوله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: استعمل ما وهبك الله من

هذا المال الجزيل، والنعمة الطائلة، في طاعة ربك، والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: مما أباح الله فيها، من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، فآت كل ذي حق حقه. ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أحسن إلى خلقه، كما أحسن هو إليك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تكن همتك بما أنت فيه، أن تفسد به في الأرض، وتسيء إلى خلق الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)﴾

٧٨- يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ أي: أنا لا أفتقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال، لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي، فتقديره: إنما أعطيته لعلم الله فيَّ، أني أهل له، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علم من الله بي، وكقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ أي: هذا أستحقه.

وقد روي عن بعضهم أنه أراد ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ أي: أنه كان يعاني علم الكيمياء! وهذا القول ضعيف، لأن علم الكيمياء في نفسه علمٌ باطل[1]، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحدٌ عليها إلا الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله: «وَمَن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة». وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله، في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل، فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات، إلى ماهية ذات أخرى! هذا زور ومحال، وجهل وضلال، وإنما يقدرون على الصبغ في الصورة الظاهرة، وهي كذبٌ وزغل وتمويه وترويج أنه صحيح في نفس الأمر، وليس كذلك قطعاً لا محالة، ولم يثبت بطريق شرعي، أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة، التي يتعاطاها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون، فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد، على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك، فهذا أمرٌ لا ينكره مسلم، ولا يرده مؤمن، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات، وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات، واختياره وفعله، كما روى عن حيوة بن شريح المصري رحمه الله، أنه سأله سائل فلم يكن عنده ما يعطيه، ورأى ضرورته فأخذ حصاة من الأرض، فأجالها في كفه ثم ألقاها إلى ذلك السائل، فإذا هي ذهب أحمر! والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً يطول ذكرها.

وقال بعضهم: إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم، فدعا الله به فتمول بسببه.

والصحيح المعنى الأول، ولهذا قال الله تعالى راداً عليه، فيما ادعاه من اعتناء الله به، فيما أعطاه من المال ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: قد كان من هو أكثر منه مالاً، وما كان ذلك عن محبة منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا

---

(١) المقصود به: ادعاء تحويل المعادن الرخيصة كالحديد والنحاس إلى ذهب وفضة، كما سيأتي بيانه من كلام الحافظ.

﴿يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لكثرة ذنوبهم. قال قتادة ﴿عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ على خير عندي، وقال السدي: على علم أني أهلٌ لذلك. وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فإنه قال في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ قال: لولا رضا الله عني، ومعرفته بفضلي، ما أعطاني هذا المال، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ الآية، وهكذا يقول مَن قلَّ علمه، إذا رأى من وسع الله عليه: لولا أنه يستحق ذلك لما أُعطي.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾

٧٩- يقول تعالى مخبراً عن قارون، أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمل باهر، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا، ويميل إلى زخارفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي ﴿قَالُوا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو حظ وافر من الدنيا.

٨٠- فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع، قالوا لهم ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: جزاء الله لعباده المومنين الصالحين في الدار الآخرة، خيرٌ مما ترون. كما في الحديث الصحيح: يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين، مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ قال السدي: ولا يلقى الجنة إلا الصابرون. كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم. قال ابن جرير: ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا، الراغبون في الدار الآخرة. وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك، وجعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) ﴾

٨١- لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته، وفخره على قومه، وبغيه عليهم، عقَّب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري: من حديث سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يجر إزاره، إذ خُسف به، فهو يتَجلجل في الأرض إلى يوم القيامة».

ثم رواه من حديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

وقد ذُكِر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي الله عليه السلام، واختلف في سببه، فعن ابن عباس والسدي: أن قارون أعطى امرأة بغياً مالاً على أن تبهت موسى بحضرة الملإ من بني إسرائيل، وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله تعالى، فتقول: يا موسى إنك فعلت بي كذا وكذا، فلما قالت ذلك في الملإ لموسى عليه السلام، أرعد من الفَرق، وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين، ثم قال: أنشدك بالله الذي فرقَ البحر وأنجاكم من فرعون، وفعل

كذا وكذا، لما أخبرتني بالذي حملك على ما قلت؟ فقالت: أما إذا أنشدتني، فإن قارون أعطاني كذا وكذا، على أن أقول ذلك لك، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فعند ذلك خرَّ موسى لله عز وجل ساجداً، وسأل الله في قارون، فأوحى الله إليه: أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره، فكان ذلك. وقال قتادة: ذكر لنا: أنه يخسف بهم كل يوم قامة، فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة، وقد ذكر ههنا إسرائيليات غريبة، أضربنا عنها صفحاً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: ما أغنى عنه ماله ولا جمعه، ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه، فلا ناصر له من نفسه، ولا من غيره.

٨٢- وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ﴾ أي: الذين لما رأوه في زينته ﴿قَالُوا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾، أي: ليس المال بدالٍّ على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة، والحجة البالغة. ﴿لَوْلا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ لولا لطف الله بنا، وإحسانه إلينا، لخسف بنا كما خسف به، لأنا وددنا أن نكون مثله ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ يعنون: أنه كان كافراً، ولا يفلح الكافر عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد اختلف النحاة في معنى قوله ههنا «ويكأنَّ» فقال بعضهم: معناه: ويلك اعلم أن، ولكن خفف فقيل: ويك، ودل فتح «أن» على حذف اعلم، وهذا القول ضعفه ابن جرير، والظاهر أنه قوي، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة «ويكان»، والكتابة أمر وضعي اصطلاحي، والمرجع إلى اللفظ العربي، والله أعلم. وقيل: معناها: ويكان أي: ألم تر أن، قاله قتادة، وقيل: معناها: وي كأن، ففصلها وجعل حرف «وي» للتعجب أو للتنبيه، وكأن بمعنى أظن وأحسب. قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة، أنها بمعنى: ألم تر أن.

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) ﴾

٨٣- يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم، الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علواً في الأرض، أي: ترفعاً على خلق الله، وتعاظماً عليهم، وتجبراً بهم ولا فساداً فيهم، كما قال عكرمة: العلو التجبر. وقال سعيد بن جبير: العلو البغي. وروى سفيان عن مسلم البطين: العلو في الأرض: التكبر بغير حق، والفساد: أخذ المال بغير حق، وقال ابن جريج ﴿لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ﴾ تعظماً وتجبراً ﴿وَلا فَسَادًا﴾ عملاً بالمعاصي. وروى ابن جرير: عن علي قال: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله، أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره، فإن ذلك مذموم، كما ثبت في

---

(١) الأثر في إسناده ضعف، أبقيته لتعليق المؤلف عليه.

الصحيح: عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أُوحي إليَّ: أن تواضعوا حتى لا يفخرَ أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد»[١]. وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمُّل، فهذا لا بأس به، فقد ثبت: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أحب أن يكون ردائي حسناً، ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن الله جميل يحب الجمال»[٢].

وقال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي: ثواب الله خير من حسنة العبد، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة، وهذا مقام الفضل، ثم قال: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا مقام الفصل العدل.

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾

٨٥- يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه، ببلاغ الرسالة، وتلاوة القرآن على الناس، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد، وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى يوم القيامة، فيسألك عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ وقال: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾. رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه مالك عن الزهري.

وروى الثوري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: إلى الموت. ولهذا طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي بعضها: لرادك إلى معدنك من الجنة، وقال مجاهد: يحييك يوم القيامة. وكذا روي عن عكرمة وعطاء وسعيد بن جبير وأبي قزعة وأبي مالك وأبي صالح. وقال الحسن البصري: أي، والله، إن له لمعاداً فيبعثه الله يوم القيامة، ثم يدخله الجنة. وقد روى عن ابن عباس غير ذلك، ، كما روى البخاري في التفسير من صحيحه: عن ابن عباس ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلى مكة. وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه وابن جرير، وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس: أي: لرادك إلى مكة، كما أخرجك منها. وقال ابن أبي حاتم: وقد روي عن ابن عباس ويحيى بن الخراز وسعيد بن جبير وعطية والضحاك نحو ذلك. وقد روى عبد الرزاق: عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: هذه مما كان ابن عباس يكتمها. وقد روى ابن أبي حاتم بسنده: عن نعيم القاري أنه قال في قوله: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلى بيت المقدس.

وهذا ـ والله أعلم ـ يرجع إلى قول من فسَّر ذلك بيوم القيامة، لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر، والله الموفق للصواب. ووجه الجمع بين هذه الأقوال: أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة وهو

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة (٤/ ٢١٩٩) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.
(٢) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٩٣) بنحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه.

الفتح، الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ، كما فسر ابن عباس سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة، أنه أجل رسول الله ﷺ نعي إليه، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب، ووافقه عمر على ذلك وقال: لا أعلم منها غير الذي تعلم. ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله: ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ بالموت، وتارة بيوم القيامة، الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة، التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله، وإبلاغها إلى الثقلين الإنس والجن، ولأنه أكمل خلق الله، وأفصح خلق الله، وأشرف خلق الله على الإطلاق.

وقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى﴾ من عنده ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: قل لمن خالفك وكذبك يا محمد، من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم، قل ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني، وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة.

٨٦- ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه، وعلى العباد إذ أرسله إليهم ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك، أن الوحي ينزل عليك ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك، وبالعباد بسببك، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً﴾ أي: معيناً ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم.

٨٧- ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك، وصدهم الناس عن طريقك، لا تلوي على ذلك ولا تباله، فإن الله مُعلٍ كلمتك، ومؤيد دينك، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان، ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٨٨- وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تليق العبادة إلا له، ولا تنبغي الإلهية إلا لعظمته. وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي، الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ههنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا إياه. وقد ثبت في الصحيح: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعر لبيد: أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ»

وقال مجاهد والثوري في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرر له، قال ابن جرير: ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر:

أستَغفرُ اللهَ ذنباً لَستُ مُحصيه ... رَب العبادِ إليه الوجهُ والعملُ

وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبارٌ عن كل الأعمال بأنها باطلة، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة، المطابقة للشريعة، والقول الأول مقتضاه: أن كل الذوات فانية وزائلة، إلا ذاته تعالى وتقدس، فإنه الأول الآخر، الذي هو قبل كل شيء، وبعد كل شيء.

وقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: الملك والتصرف، ولا معقب لحكمه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم، فيجزيكم بأعمالكم، إن كان خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

آخر تفسير سورة القصص

****

ترتيبها ٢٩ — سورة العنكبوت ـ مكية — آياتها ٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) ﴾

١ - أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في سورة البقرة.

٢ - وقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ استفهام إنكار، ومعناه: أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين، بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يبتلى الرجلُ على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيدَ له في البلاء».

وهذه الآية كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ ومثلها في سورة براءة، وقال في البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

٣ - ولهذا قال هنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: الذين صدقوا في دعوى الإيمان، ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة، وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ إلاَّ لنرى، وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود.

٤ - وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان، أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال، ما هو أغلظ من هذا وأطمّ، ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يفوتونا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما يظنون.

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) ﴾

٥ - يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة وعمل الصالحات، ورجا ما عند الله من

الثواب الجزيل، فإن الله سيحقق له رجاءه، ويوفيه عمله كاملاً موفراً، فإن ذلك كائنٌ لا محالة، لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات، ولهذا قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: من عمل صالحا فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله تعالى غني عن أفعال العباد، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم، ما زاد ذلك في ملكه شيئاً.

٦- ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ قال الحسن البصري: إنَّ الرجل ليجاهد، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف.

٧- ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم، ومع بره وإحسانه بهم، يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، ويجزي السيئة بمثلها، أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ وقال ههنا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)﴾

٨- يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين، بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق، والوالدة بالإشفاق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة، والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ أي: وإنْ حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، فلا تطعهما في ذلك، فإن مرجعكم إليَّ يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين، لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب، أي: حباً دينياً.

٩- ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ وروى الترمذي عند تفسير هذه الآية: عن مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال: نزلت فيَّ أربع آيات، فذكر قصته وقال: قالت أم سعد: أليس الله قد أمرك بالبر؟ والله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يُطعموها شَجَروا فاها، فنزلت: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ الآية. وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم، وأبو داود والنسائي أيضاً.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) ﴾

١٠ - يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين، الذين يدعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم، فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله. وكذا قال غيره من علماء السلف، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد، وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم، أي: إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ وقال تعالى مخبراً عنهم ههنا: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾. ثم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم، وإن أظهروا لكم الموافقة؟

١١ - وقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي: وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء، ليتميز هؤلاء من هؤلاء، من يطيع الله في الضراء والسراء، ومن إنما يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ وقال تعالى بعد وقعة «أُحُد» التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الآية.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾

١٢ - يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش، أنهم قالوا لمن آمن منهم، واتبع الهدى: ارجعوا من دينكم إلى ديننا، واتبعوا سبيلنا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي: وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا، وفي رقابنا كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتي، قال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما قالوه أنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحدٌ وزر أحد، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ

حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

١٣- وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم، وأوزاراً أخر، بسبب ما أضلوا من الناس، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية. وفي الصحيح: «مَن دعا إلى هُدًى، كان له من الأجر، مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم، مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً».

وفي الصحيح: «ما قُتلتْ نفسٌ ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها، لأنه أولُ من سنَّ القتل».

وقوله تعالى: ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون ويختلقون من البهتان.

وفي الصحيح: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، وقد ظلم هذا، وأخذ مال هذا، وأخذ من عرض هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا لم تبق له حسنة، أُخذ من سيئاتهم فطُرح عليه»(١).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥)﴾

١٤- هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، يخبره عن نوح عليه السلام، أنه مكث في قومه هذه المدة، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق، وإعراضاً وتكذيباً له، وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: بعد هذه المدة الطويلة، ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد، لا تأسف على من كفر بك من قومك، ولا تحزن عليهم، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وبيده الأمر، وإليه ترجع الأمور ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ الآية، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك ويكبتهم، ويجعلهم أسفل السافلين.

(رُوي) عن ابن عباس قال: بعث نوح وهو لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ستين عاماً، حتى كثر الناس وفشوا. وروى الثوري عن مجاهد قال: قال لي ابن عمر: كم لبث نوح في قومه؟ قال: قلت: ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال: فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم، وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا.

١٥- وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ أي: الذين آمنوا بنوح عليه السلام. وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في سورة هود، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: وجعلنا تلك السفينة باقية، إما عينها، كما قال قتادة أنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، أو نوعها، جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق، كيف أنجاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٤/ ١٩٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۞ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۞ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

وقال ههنا: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ﴾ أي: وجعلنا نوعها رجوماً، فإن التي يرمي بها ليست هي زينة للسماء، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ولهذا نظائر كثيرة، وقال ابن جرير: لو قيل: إن الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد إلى العقوبة، لكان وجهاً، والله أعلم.

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨) ﴾

١٦- يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الحنفاء، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر، فإنه المشكور على النعم، لا مُسْديَ لها غيره، فقال لقومه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إذا فعلتم ذلك، حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة.

١٧- ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها، لا تضر ولا تنفع، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة، وإنما هي مخلوقة مثلكم. هكذا رواه العوفي عن ابن عباس، وقال مجاهد والسدي، وروى الوالبي عن ابن عباس: وتصنعون إفكاً، أي: تنحتونها أصناماً. وبه قال مجاهد في رواية وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم، واختاره ابن جرير رحمه الله.

وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ وهذا أبلغ في الحصر، كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ ولهذا قال: ﴿فَابْتَغُوا﴾ أي: فاطلبوا ﴿عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي: لا عند غيره، فإن غيره لا يملك شيئاً ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: كلوا من رزقه واعبدوه وحده، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله.

١٨- وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي: فبلغكم ما حل بهم، من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ يعني: إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ قال: يعزي نبيه ﷺ. وهذا من قتادة يقتضي أنه قد انقطع الكلام الأول، واعترض بهذا إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً. والظاهر من السياق: أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام، يحتج عليهم لإثبات المعاد، لقوله بعد

هذا كله ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)﴾

١٩- يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة، من خلق الله الأشياء، السموات وما فيها من الكواكب النيرة، الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون، ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

٢٠- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وكقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾.

٢١- وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: هو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون، فله الخلق والأمر، مهما فعل فعدلٌ، لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: «إنَّ الله لو عذَّبَ أهلَ سمواتِه، وأهلَ أرضه، لعذَّبهم وهو غيرُ ظالم لهم».

ولهذا قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي: ترجعون يوم القيامة.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: لا يُعجزه أحدٌ من أهل سمواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، فكل شيء خائف منه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ أي: جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي﴾ أي: لا نصيب لهم فيها ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع شديد في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥)﴾

٢٤- يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم، في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل، أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه، المشتملة على الهدى والبيان ﴿إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، وحَوَّطوا لها، ثم أضرموا فيها النار، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء، ولم توقد نار قط أعظم منها، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق، ثم قذفوه فيها، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً، فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسخا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي: سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢٥- ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقول لقومه مقرعاً لهم، وموبخاً على سوء صنيعهم، في عبادتهم للأوثان: إنما اتخذتم هذه، لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا، صداقة وألفة منكم، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا، وهذا على قراءة من نصب ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾ على أنه مفعول له، وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتخاذكم هذا، لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط، ثم يوم القيامة ينعكس هذا الحال، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضاً وشنآناً ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: تتجاحدون ما كان بينكم ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ وقال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ وقال ههنا: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ الآية، أي: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، ومالكم من ناصر ينصركم، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله، وهذا حال الكافرين، وأما المؤمنون فبخلاف ذلك.

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾

٢٦- يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه آمن له لوط، يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، يقولون: هو لوط بن هاران ابن آزر، يعني: ولم يؤمن به من قومه سواه، وسارة امرأة إبراهيم الخليل، لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين الحديث الوارد في الصحيح: أن إبراهيم حين مرَّ على ذلك الجبار، فسأل إبراهيمَ عن سارة: ما هي منه؟ فقال: أختي، ثم جاء إليها فقال لها: إني قد قلت له إنك أختي، فلا تُكذّبيني، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك، فأنت أختي في الدين. وكأن المراد من هذا ـ والله أعلم ـ أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطاً ﷺ آمن من قومه، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أُرسل في حياة الخليل إلى أهل «سدوم»، وأقام بها، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ يحتمل عود الضمير في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ على لوط، لأنه هو أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى إبراهيم. قاله ابن عباس والضحاك وهو المكنى عنه بقوله:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ أي: من قومه، ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين به، الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية. وقال قتادة: هاجرا جميعاً من «كوثى» وهي من سواد الكوفة إلى الشام.

٢٧- وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾ أي: أنه لما فارق قومه، أقرَّ الله عينه بوجود ولد صالح نبي، ووُلد له ولدٌ صالح نبي في حياة جده، وكذلك قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ نافلة، أي: زيادة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: يولد لهذا الولد ولد في حياتكما، تقر به أعينكما، وكون يعقوب ولد إسحاق، نص عليه القرآن، وثبتت به السنة النبوية، قال الله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ الآية، وفي الصحيحين: «إن الكريمَ ابنَ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام».

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ هذه خِلعة سَنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله للناس إماماً، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبيٌّ بعد إبراهيم ﷺ، إلا وهو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام في مثلهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي، خاتم الرسل على الإطلاق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: جمع الله له بين سعادة الدنيا، الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني، والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، وكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ أي: قام بجميع ما أُمِر، وكمَّل طاعة ربِّه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ❁ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ❁ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) ﴾

٢٨- يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط ﷺ، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحدٌ من بني آدم قبلهم، وكانوا مع هذا يكفُرون بالله، ويكذبون رسوله، ويخالفون ويقطعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس، يقتلونهم

ويأخذون أموالهم ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ أي: يفعلون مالا يليق من الأقوال والأفعال، في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملإ، قاله مجاهد، ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون، قالته عائشة رضي الله عنها والقاسم، ومن قائل: كانوا يناطحون بين الكباش، ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك كان يصدر عنهم، وكانوا شراً من ذلك. وروى ابن أبي حاتم: عن مجاهد ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ قال: الصفير، ولعب الحمام، والجلاهق[1]، والسؤال في المجلس، وحَلّ أزرار القباء.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم، ولهذا استنصر عليهم نبي الله، فقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) ﴾

٣١- لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة، فمروا على إبراهيم عليه السلام في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام، نكرهم وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة، وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر، فلما جاءت إبراهيم البشرى، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يُدافع لعلهم ينظرون، لعل الله أن يهديهم.

٣٢- ولما قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: من الهالكين، لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم.

٣٣- ثم ساروا من عنده، فدخلوا على لوط في صورة شُبَّان حسان، فلما رآهم كذلك ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: اغتم بأمرهم، إنْ هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإنْ لم يضفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

٣٤- ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبَها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك، وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد.

٣٥- ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي: واضحة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ كما قال تعالى:

---

(١) الجلاهق: البندق الذي يرمى به (القاموس).

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۞ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

٣٦- يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام، أنه أنذر قومه «أهل مدين» فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ قال ابن جرير: قال بعضهم: معناه واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾. وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها، والبغي على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله.

فأهلكهم الله برجفة عظيمة، زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة، الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم، وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف وهود والشعراء، وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ قال قتادة: ميتين. وقال غيره: قد أُلقي بعضهم على بعض.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

٣٨، ٣٩- يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل، كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، وأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود عليه السلام، كانوا يسكنون «الأحقاف» وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن؛ وثمود قوم صالح، كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمر عليها كثيراً، وقارون صاحب الأموال الجزيلة، ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمان موسى، ووزيره هامان، القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله ﷺ.

٤٠- ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ وهم: عاد، وذلك أنهم قالوا من أشد منا قوة، فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جداً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم، وتقتلعهم من الأرض، فترفع الرجل منهم من الأرض، إلى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه، فيبقى بدناً بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهم: ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا، بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه،

وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ وهو: قارون، الذي طغى وبغى، وعتا وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحاً وفرح ومرح، وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته فخسف الله به وبداره الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهو: فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم، أغرقوا في صبيحة واحدة، فلم ينج منهم مخبر ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: فيما فعل بهم ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم، وهذا الذي ذكرناه ظاهر سياق الآية، وهو من باب اللف والنشر، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة، ثم قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ أي: من هؤلاء المذكورين.

وقال قتادة ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ قال: قوم لوط ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾: قوم شعيب. وهذا بعيد أيضاً لما تقدم، والله أعلم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

٤١، ٤٢- هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين، في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم، إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدى عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال، لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها، ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به، أنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال، ويعلم ما يشركون به من الأنداد، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم.

٤٣- ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أي: وما يفهمها ويتدبرها، إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه.

وروى ابن أبي حاتم: عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها، إلا أحزنني، لأني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

٤٤- يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة، أنه خلق السموات والأرض بالحق، يعني: لا على وجه العبث واللعب ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لدلالة واضحة، على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية.

٤٥ – ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ يعني: أن الصلاة تشتمل على شيئين: على ترك الفواحش والمنكرات، أي: مواظبتها تحمل على ترك ذلك.

(ذكر الآثار الواردة في ذلك)

قال سفيان ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ قال: أي والله، تأمره وتنهاه. وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: قيل لعبد الله: إن فلاناً يطيل الصلاة، قال: إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها. وروى ابن جرير: عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن صلى صلاةً لم تنهه عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد بها من الله إلا بعداً». والأصح في هذا كله الموقوفات، عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم، والله أعلم[1].

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق! فقال: «إنه سينهاه ما تقول».

وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم من الأول ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي: يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم. وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال، فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله: القرآن يأمره وينهاه، وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر، والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر.

وقال حماد بن أبي سليمان ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ يعني: ما دمت فيها.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ يقول: ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه، من ذكرهم إياه. وكذا روى غير واحد عن ابن عباس وبه قال مجاهد وغيره. وروى ابن أبي حاتم: عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ قال: لها وجهان، قال: ذكر الله عندما حرمه، قال: وذكر الله إياكم، أعظم من ذكركم إياه.

وروى ابن جرير: عن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عباس هل تدري ما قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾؟ قال: قلت: نعم، قال: فما هو؟ قلت: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك، قال: لقد قلت قولاً عجيباً، وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه، أكبر من ذكركم إياه. وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس، وروى أيضاً عن ابن مسعود وأبي الدرداء وسلمان الفارسي وغيرهم، واختاره ابن جرير.

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾

---

(١) وهو كما قال الحافظ، صح عن ابن مسعود رضي الله عنه والحسن وغيرهما، لكن مرفوعاً لا يثبت، كما أن فيه نظراً من جهة معناه، راجع إن شئت ما كتبه العلامة الألباني في الضعيفة (٢).

٤٦ - قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام، أو الجزية، أو السيف. وقال آخرون: بل هي باقية محكمة، لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الآية. وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ وهذا القول اختاره ابن جرير، وحكاه عن ابن زيد.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم، قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف. قال مجاهد ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم من أداء الجزية.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه، لأنه قد يكون حقاً، ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً، معلقاً على شرط، وهو أن يكون منزلاً لا مبدلاً، ولا مؤولاً.

روى البخاري رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهْلَ الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون» وهذا الحديث تفرد به البخاري.

وروى الإمام أحمد: أن أبا نملة الأنصاري أخبره: أنه بينا هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود، فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم» قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «إذا حدَّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنَّا بالله وكتبه ورسله، فإنْ كان حقاً لم تكذبوهم، وإنْ كان باطلاً لم تصدِّقوهم».

ثم ليُعلم أن أكثر ما يتحدَّثون به غالبه كذبٌ وبهتان، لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل، وما أقل الصدق فيه، ثم ما أقل فائدة كثير منه، لو كان صحيحاً.

وروى البخاري: عن ابن عباس قال: كيف تسألوا أهل الكتاب عن شيء؟ وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث، تقرءونه محضاً لم يُشب، وقد حدَّثكم أن أهل الكتاب بدَّلوا وغيَّروا. وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم.

روى البخاري: عن حميد ابن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة، وذكر كعب الأحبار، فقال: إنْ كان من أصدق هؤلاء المحدثين، الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإنْ كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب. قلت: معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد، لأنه يحدث عن صُحُف هو يحسن بها الظن، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة، لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون، كهذه الأمة العظيمة، ومع ذلك وقرب العهد، وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة، لا يعلمها إلا الله عز وجل، ومَن منحه الله تعالى علماً

بذلك، كلٌّ بحسبه، ولله الحمد والمنة.

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) ﴾

٤٧- قال ابن جرير: يقول الله تعالى: كما أنزلنا الكتاب على من قبلك يا محمد من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب. وهذا الذي قاله حسن، ومناسبته وارتباطه جيد، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته، من أحبارهم العلماء الأذكياء، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ هَؤُلاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يعني العرب من قريش وغيرهم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ﴾ أي: ما يكذب بها ويجحد حقها، إلا من يستر الحق بالباطل، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل، وهيهات.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ أي: قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن، عمراً لا تقرأ كتاباً، ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم، يعرف أنك رجل أمي، لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ الآية.

وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين، لا يُحسن الكتابة ولا يخط سطراً ولا حرفاً بيده، بل كان له كُتَّاب يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم من متأخري الفقهاء، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه، أنه ﷺ كتب يوم الحديبية: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري: ثم أخذ فكتب. وهذه محمولة على الرواية الأخرى: ثم أمر فكتب. ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي، وتبرؤا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالاً وخطبوا به في محافلهم.

وإنما أراد الرجل ـ أعني الباجي ـ فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يحسن الكتابة، كما قال رسول الله ﷺ إخباراً عن الدجال: «مكتوب بين عينيه كافر» وفي رواية: ك ف ر، يقرؤها كل مؤمن». وما أورده بعضهم من الحديث: أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو﴾ أي: تقرأ ﴿مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾ لتأكيد النفي ﴿وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ تأكيد أيضاً، وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: ﴿وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت تحسنها، لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول: إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق، أمراً ونهياً

وخبراً، يحفظه العلماء، يسّره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِن نبيٍّ إلاَّ وَقَدْ أُعطِيَ مِن الآيات، مَا آمن على مثله البشَر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»[1].

وفي حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم: يقول الله تعالى: «إنِّي مبتليك ومبتلٍ بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرأه نائماً ويقظاناً». أي: لو غسل الماء المحل المكتوب فيه، لما احتيج إلى ذلك المحل، لأنه قد جاء في الحديث الآخر: «لو كان القرآن في إهاب ما أحرقته النار» لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجز لفظاً ومعنى، ولهذا جاء في الكتب المقدسة صفة هذه الأمة: أناجيلهم في صدورهم. واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً، ولا تخطه بيمينك، آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، ونقله عن قتادة وابن جريج، وحكى الأول عن الحسن البصري فقط. قلت: وهو الذي رواه العوفي عن ابن عباس، وقاله الضحاك، وهو الأظهر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي: ما يكذب بها، ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون، أي: المعتدون المكابرون، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢)﴾

٥٠- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في تعنتهم وطلبهم آيات ـ يعنون ـ ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله، كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون، لأجابكم إلى سؤالكم، لأن هذا سهل عليه، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ * وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾. وقوله: ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما بعثت نذيراً لكم، بيِّن النذارة، فعليَّ أن أبلغكم رسالة الله تعالى ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

٥١- ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم، وسخافة عقلهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة عشر سور من مثله، بل عن معارضة

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٩/ ٣) والاعتصام (١٣/ ٢٤٧) ومسلم في الإيمان (١/ ١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وسيورده الحافظ من رواية الإمام أحمد.

سورة منه، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: أولم يكفهم آية، أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي هو فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجلٌ أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي، إلا قد أُعطي من الآيات، ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» أخرجاه.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في هذا القرآن لرحمة، أي: بياناً للحق وإزاحة للباطل، وذكرى بما فيه حلول النقمات، ونزولُ العقاب بالمكذبين والعاصين، لقوم يؤمنون.

٥٢- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه، بأنه أرسلني، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات، والدلائل القاطعات.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا تخفى عليه خافية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا، ويقابلهم على ما صنعوا، في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذَّبوا برسل الله، مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك، إنه حكيم عليم.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾

٥٣- يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين، في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقال فيهما ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: لولا ما حتَّم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة، لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه. ثم قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٥٤- ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: يستعجلون العذاب، وهو واقع بهم لا محالة. عن عكرمة قال في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ قال: البحر.

٥٥- ثم قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ الآية، فالنار تغشاهم من سائر

جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي. وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ، وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)﴾

٥٦ - هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين، بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾. ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين هناك «أصحمة» النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى، فآواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم سيوما ببلاده، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة.

٥٧ - ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: أينما كنتم يدرككم الموت، فكونوا في طاعة الله، وحيث أمركم الله فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء، ووافاه أتم الثواب.

٥٨ - ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً، لا يبغون عنها حولاً ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ نعمت هذه الغرف على أعمال المؤمنين.

٥٩ - ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على دينهم، وهاجروا إلى الله، ونابذوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء، ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده. روى ابن أبي حاتم رحمه الله: عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ حدثه: «أن في الجنة غُرفاً يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، أعدَّها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام».

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم.

٦٠ - ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا، وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا، أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل، صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تطيق جمعه وتحصيله، ولا تدخر شيئاً لغد ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق

من الرزق ما يصلحه، حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء، والحيتان في الماء. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾

٦١- ٦٣- يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره، معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض، والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم، فتفاوت بينهم فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلاً منهم، ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المنفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك، فلم يُعبد غيره؟ ولم يُتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه، فليكن الواحد في عبادته.

وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية، بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك! تملكه وما ملك!

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) ﴾

٦٤- يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الدائمة الحق، الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة آبد الآباد، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى.

٦٥- ثم أخبر تعالى عن المشركين، أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائماً ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق: عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة، ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي ههنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره، اللهم لك عليَّ عهد لئن خرجت، لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رءوفاً رحيماً، فكان كذلك.

٦٦- وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول «لام العاقبة» لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى

تقدير الله عليهم ذلك، وتقييضه إياهم لذلك، فهي لام التعليل، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾

٦٧- يقول تعالى ممتناً على قريش، فيما أحلَّهم من حَرَمه الذي جعله للناس، سواء العاكفُ فيه والباد، ومن دخله كان آمناً، فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضُهم بعضاً، ويَقتل بعضُهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ إلى آخر السورة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة، أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد ﴿بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ فكفروا بنبي الله وعبده ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله وأن لا يشركوا به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه فقاتلوه، فأخرجوه من بين أظهرهم، ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدر، ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم آنافهم، وأذل رقابهم.

٦٨- ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: لا أحدَ أشد عقوبة ممن كذب على الله، فقال: إن اللهَ أوحى إليه، ولم يوح إليه شيء. ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر، والثاني مكذب. ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾.

٦٩- ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ يعني الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: لنُبصرنَّهم سُبلنا، أي: طرقنا في الدنيا والآخرة.

روى ابن أبي حاتم: عن أحمد بن أبي الحواري أخبرنا عباس الهمداني أبو أحمد ـ من أهل عكا ـ في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال: الذين يعملون بما يعلمون، يهديهم الله لما لا يعلمون. قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت به أبا سليمان يعني الداراني فأعجبه، وقال: ليس ينبغي لمن أُلهم شيئاً من الخير، أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر، فإذا سمعه في الأثر عمل به، وحمِدَ الله حين وافق ما في قلبه.

آخر تفسير سورة العنكبوت

****

ترتيبها ٣٠ | سورة الروم ـ مكية | آياتها ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

١ ، ٢- نزلت هذه الآيات حين غلب «سابور» ملك الفرس، على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، فاضطر «هرقل» ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي.

وروى الإمام أحمد: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿الم ❁ غُلِبَتِ الرُّومُ ❁ فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ قال: غُلبت وَغَلَبت، قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم، لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل الكتاب، فَذُكِر ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون» فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «ألا جعلتها إلى دون» ـ أراه قال ـ «العشر». قال سعيد بن جبير: البضع ما دون العشر، ثم ظهرت الروم بعد. قال: فذلك قوله: ﴿الم ❁ غُلِبَتِ الرُّومُ ❁ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ❁ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ❁ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ هكذا رواه الترمذي والنسائي.

(حديث آخر): عن مسروق قال: قال عبد الله: خمسٌ قد مضين: الدخان واللزام والبطشة، والقمر والروم. أخرجاه. وقد روى نحو هذا مرسلاً، عن جماعة من التابعين، مثل: عكرمة والشعبي ومجاهد وقتادة والسدي والزهري وغيرهم.

ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمات، فقوله تعالى: ﴿الم ❁ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ وقد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، في أول سورة البقرة.

وأما «الروم» فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم: بنو الأصفر، وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك، وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويقال لها: المتحيرة، ويصلون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها،

وفيه محاريب إلى جهة الشمال، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة، وكان من مَلَك منهم الشام مع الجزيرة يقال له: قيصر، فكان أول من دخل في دين النصارى من ملوك الروم: قسطنطين ابن قسطس، وأمه مريم الهيلانية الغندقانية من أرض حران، كانت قد تنصرت قبله فدعته إلى دينها، وكان قبل ذلك فيلسوفاً فتابعها، يقال: تقية، واجتمعت به النصارى، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس، واختلفوا اختلافاً كثيراً منتشراً متشتتاً لا ينضبط، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً، فوضعوا لقسطنطين العقيدة، وهي التي يسمونها: الأمانة الكبيرة، وإنما هي الخيانة الحقيرة، ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل، وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وغيروا دين المسيحﷺ، وزادوا فيه ونقصوا منه فصلوا إلى المشرق، واعتاضوا عن السبت بالأحد، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير، واتخذوا أعياد أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس، وغير ذلك من البواعيث والشعانين، وجعلوا له الباب، وهو كبيرهم ثم البتاركة ثم المطارنة ثم الأساقفة والقساقسة ثم الشمامسة، وابتدعوا الرهبانية، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي: القسطنطينية، يقال: إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة، وبنى بيت لحم بثلاث محاريب، وبنت أمه «القمامة» وهؤلاء هم الملكية، يعنون الذين هم على دين الملك، ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف، ثم النسطورية أصحاب نسطورا، وهم فرق وطوائف كثيرة، كما قال رسول اللهﷺ: «إنهم افترقوا على اثنين وسبعين فرقة».

والغرض أنهم استمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده، حتى كان آخرهم هرقل، وكان من عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم، وأبعدهم غوراً وأقصاهم رأياً، فتملك عليهم في رياسة عظيمة وأبهة كثيرة، فناوأه كسرى ملك الفرس، ومَلَك البلاد كالعراق وخراسان والري وجميع بلاد العجم، وهو سابور ذو الأكتاف وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وله رياسة العجم وحماقة الفرس، وكانوا مجوساً يعبدون النار. فتقدم عن عكرمة أنه قال: بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور: أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، وكانت النصارى تعظمه تعظيماً زائداً، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ولا أمكنه ذلك لحصانتها، لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك، فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة، ورأى في نفسه خديعة، فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مال يصالحه عليه، ويشترط عليه ما شاء فأجابه إلى ذلك، وطلب منه أموالاً عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة، فطاوعه قيصر وأوهمه أن عنده جميع ما طلب واستقل عقله لما طلب منه ما طلب، ولو اجتمع هو وإياه، لعجزت قدرتهما عن جمع عُشره، وسأل من كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته، ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه، فأطلق سراحه فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية، جمع أهل ملته، وقال: إني خارج في أمر قد أبرمته، في جند قد عينته من جيشي، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار، إن شئتم استمررتم على بيعتي، وإن شئتم وليتم عليكم غيري، فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حياً، ولو غبت عشرة أعوام، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط، هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره

ليرجع، فركب قيصر من فوره وسار مسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس، فعاث في بلادهم قتلاً لرجالها، ومن بها من المقاتلة أولاً فأولاً، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن، وهي كرسي مملكة كسرى، فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله، وأسر نساءه وحريمه، وحلق رأسه ولده وركّبه على حمار، وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة، وكتب إلى كسرى يقول: هذا ما طلبت فخذه، فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله تعالى، واشتد حنقه على البلد، فجدَّ في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون، التي لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية ألا منها، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التي معه عند فم المخاضة، وركب في بعض الجيش وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه، وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعداً. ثم أمر بإلقاء تلك الأحمال في النهر فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك، فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده، ودخلوا القسطنطينية، فكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصارى، وبقي كسرى وجيوشه لا يدرون ماذا يصنعون، لم يحصلوا على بلاد قيصر، وبلادهم قد خربتها الروم، وأخذوا حواصلهم وسبوا ذراريهم ونساءهم، فكان هذا من غلب الروم لفارس، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم، وكانت الوقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم، بين أذرعات وبصرى، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز، وقال مجاهد: كان ذلك في الجزيرة، وهي أقرب بلاد الروم من فارس، فالله أعلم.

ثم كان غلب الروم لفارس بعض بضع سنين، وهي: تسع، فإن البضع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع. وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وغيرهما: عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر في مُنَاحَبَة ﴿الم ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ الآية «ألا احتطت يا أبا بكر فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع؟». وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو أنه قال ذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ أي: من قبل ذلك ومن بعده، فبنى على الضم لما قطع المضاف، وهو قوله: ﴿قَبل﴾ عن الإضافة ونُويت. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ أي: للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى وهم المجوس، وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر، في قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثوري والسدي وغيرهم. وقال الآخرون: بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية. قاله عكرمة والزهري وقتادة وغير واحد، ووجه بعضهم هذا القول: بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى، ليمشينَّ من حمص إلى إيليا وهو بيت المقدس، شكراً لله تعالى ففعل، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ الذي بعثه مع دحية بن خليفة، فأعطاه دحية لعظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر، فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز، فأُحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من كبار قريش وكانوا بغزة، فجيء بهم إليه فجلسوا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: أنا، فقال لأصحابه وأجلسهم خلفه: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذب فكذّبوه، فقال أبو سفيان: فوالله لو لا أن يأثروا عليَّ الكذب لكذبت، فسأله

هرقل عن نسبه وصفته فكان فيما سأله أن قال: فهل يغدر؟ قال: قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها، يعني بذلك: الهدنة التي كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش عام الحديبية، على وضع الحرب بينهم عشر سنين، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية، لأن قيصر إنما وفّى بنذره بعد الحديبية، والله أعلم.

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا: بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغي له إصلاحه، وتفقد بلاده، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره، والله أعلم.

والأمر في هذا سهل قريب، إلا أنه لما انتصر فارس على الروم، ساء ذلك المؤمنين، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك، لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، كما قال تعالى: ﴿لتجدنّ أشدّ النّاس عداوة للّذين آمنوا اليهود و الذين أشركوا و لتجدنّ أقربهم مودّة للّذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسّيسين و رهباناً و أنّهم لا يستكبرون ۞ و إذا سمعوا ما أنزل إلى الرّسول ترى أعينهم تفيض من الدّمع ممّا عرفوا من الحقّ يقولون ربّنا آمنّا فاكتبنا مع الشّاهدين﴾.

وقال تعالى ههنا: ﴿ويومئذٍ يفرح المؤمنون ۞ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرّحيم﴾.

وقوله تعالى: ﴿وهو العزيز﴾ أي: في انتصاره وانتقامه من أعدائه ﴿الرّحيم﴾ بعباده المؤمنين.

٦- وقوله تعالى: ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به يا محمد، من أنا سننصر الروم على فارس، وعدٌ من الله حق، وخبر صدق لا يخلف، ولا بد من كونه ووقوعه، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق، ويجعل لها العاقبة ﴿ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾ أي: بحكم الله في كونه، وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل.

٧- وقوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً مّن الحياة الدّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ أي: أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا، وأكسابها وشؤونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء، في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون في أمور الدين، وما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة، قال الحسن البصري: والله ليبلغ من أحدهم بدنياه، أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه، وما يحسن أن يصلي.

وقال ابن عباس: يعني: الكفار، يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال.

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ﴾

٨- يقول تعالى منبهاً على التفكر في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال: ﴿أولم يتفكّروا في أنفسهم﴾ يعني به: النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء، من العالم

العلوي والسفلي وما بينهما، من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلاً، بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

٩- ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات، من إهلاك من كَفَر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي: بأفهامهم وعقولهم، ونظرهم وسماعهم أخبار الماضين، ولهذا قال: ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: كانت الأمم الماضية، والقرون السالفة، أشد منكم قوة أيها المبعوث إليهم محمدﷺ، وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكَّنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعماراً طوالاً، فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة.

وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: إنما أوتوا من أنفسهم، حيث كذبوا بآيات الله، واستهزءوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة، وتكذيبهم المتقدم.

١٠- ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ وعلى هذا تكون «السوآى» منصوبة مفعولاً لأساءوا. وقيل: بل المعنى في ذلك ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى﴾ أي: كانت السوآى عاقبتهم، لأنهم كذبوا بآيات الله، وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون «السوآى» منصوبة خبر كان، هذا توجيه ابن جرير، و نقله عن ابن عباس وقتادة، ورواه ابن أبي حاتم عنهما، وعن الضحاك بن مزاحم، وهو الظاهر، والله أعلم لقوله: ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)﴾

١١- يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: كما هو قادر على بداءته، فهو قادر على إعادته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.

١٢- ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قال ابن عباس: ييأس المجرمون، وقال مجاهد: يفتضح المجرمون. وفي رواية: يكتئب المجرمون.

١٣- ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ أي: ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، وكفروا بهم، وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم.

١٤- ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ قال قتادة: هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها، يعني: أنه إذا رفع هذا إلى عليين، وخفض هذا إلى أسفل سافلين، فذلك آخر العهد بينهما.

١٥- ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: ينعمون. وقال يحيى بن أبي كثير: يعني سماع الغناء. والحبرة أعم من هذا كله[1].

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)﴾

١٧- هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده، في هذه الأوقات المتعاقبة، الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، عند المساء وهو: إقبال الليل بظلامه، وعند الصباح وهو: إسفار النهار بضيائه.

١٨- ثم اعترض بحمده مناسبة التسبيح، وهو التحميد، فقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض، ثم قال تعالى: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ فالعشاء: هو شدة الظلام، والإظهار: قوة الضياء، فسبحان خالق هذا وهذا، فالق الإصباح، وجاعل الليل سكناً، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ وقال تعالى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ والآيات في هذا كثيرة.

١٩- وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ هو ما نحن فيه، من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة، كلها من هذا النمط، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها، ، ليدل خلقه على كمال قدرته، فمن ذلك إخراج النبات من الحَب، والحب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

(١) لم يتعرض الحافظ إلى تفسير الآية (١٦) ونقل عن مجاهد وقتادة في تفسير ﴿الْمُحْضَرِينَ﴾: المعذبين، في سورة القصص، الآية (٦١) وقد مضت، فراجعها إن شئت.

أنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾

٢٠- يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته، أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصور فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظاماً شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته، حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض، ويكتسب ويجمع الأموال، وله فكرة وغور، ودهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة، كل بحسبه فسبحان من أقدرهم وسيرهم، وسخرهم وصرفهم، في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾.

وروى الإمام أحمد: عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خَلَق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك» ورواه أبو داود والترمذي.

٢١- وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: خلق لكم من جنسكم إناثاً، تكون لكم أزواجاً، ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ يعني بذلك حواء، خلقها الله من آدم، من ضلعه الأقصر الأيسر. ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً، وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم، إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس، ثم من تمام رحمته ببني آدم، أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة، وهي: المحبة، ورحمة وهي: الرأفة، فإن الرجل يُمسك المرأة إما لمحبته لها أو لرحمته بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، أو غير ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣)﴾

٢٢- يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، وشفوف أجرامها، وزهارة كواكبها ونجومها، الثوابت والسيارات، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها، وما فيها من جبال وأودية، وبحار وقفار، وحيوان وأشجار.

وقوله تعالى: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعني: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم إفرنج، ، وهؤلاء بربر، وهؤلاء تكرور، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم، وهؤلاء صقالبة، وهؤلاء خزر، وهؤلاء أرمن، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى، من اختلاف لغات بني آدم واختلاف ألوانهم، وهي حُلاهم، فجميع أهل الأرض، بل أهل الدنيا منذ خلق الله

آدم إلى قيام الساعة، كل له عينان وحاجبان، وأنف وجبين، وفم وخدان، وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام، ظاهراً كان أو خفياً، يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه أخرى، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح، لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾.

٢٣- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: ومن الآيات: ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار، فيه تحصل الراحة، وسكون الحركة، ، وذهاب الكلال والتعب، وجعل لكم الانتشار، والسعي في الأسباب والأسفار في النهار، وهذا ضد النوم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يعون.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

٢٤- يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: تارة تخافون مما يحدث بعده، من أمطار مزعجة، وصواعق متلفة، وتارة ترجون وميضه، وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد ما كانت هامدة، لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الماء اهتزت وربت ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ وفي ذلك عبرة ودلالة واضحة، على المعاد وقيام الساعة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٢٥- ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين قال: والذي تقوم السماء والأرض بأمره. أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها، وتسخيره إياها، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض، والسموات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى، ودعائه إياهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: من الأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

٢٦- يقول تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ملكه وعبيده ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ أي: خاضعون خاشعون، طوعاً وكرهاً.

٢٧- وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني: أيسر عليه، وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هينة، وكذا قال عكرمة وغيره.

وروى البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: كذَّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتَمَني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي: فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمدُ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» انفرد بإخراجه البخاري، وقد رواه الإمام أحمد منفرداً به بنحوه أو مثله.

وقال آخرون: كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء. وقال العوفي عن ابن عباس: كلٌّ عليه هين. وكذا قاله الربيع بن خيثم، ومال إليه ابن جرير، وذكر عليه شواهد كثيرة قال: ويحتمل أن يعود الضمير في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ إلى الخلق، أي: وهو أهون على الخلق.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. وقال قتادة: مَثَله أنه لا إله إلا هو، ولا رب غيره، وقال مثل هذا ابن جرير. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد غلب كل شيء، قهر كل شيء بقدرته وسلطانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، شرعاً وقدراً. وعن محمد بن المنكدر في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ قال: لا إله إلا الله.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾

٢٨- هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به، العابدين معه غيره، الجاعلين له شركاء، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد، عبيدٌ له، ملك له، كما كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿هَل لَّكُم مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله، وهو فيه على السواء؟ ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تخافون أن يقاسموكم الأموال. قال أبو مجلز: إن مملوكك لا تخاف إن يقاسمك مالك، وليس له ذلك، كذلك الله لا شريك له.

والمعنى: أن أحدكم يأنف من ذلك، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي: من البنات، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله! وقد كان أحدهم إذا بُشِّر بالأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ هم يأنفون من البنات، وجعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم، فهذا أغلظ الكفر.

وهكذا في هذا المقام، جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه، وأحدهم يأبى غاية الإباء، ويأنف غاية الأنفة من ذلك، أن يكون عبده شريكه في ماله، يساويه فيه، ولو شاء لقاسمه عليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل، على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك، بطريق الأولى والأحرى، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٢٩- ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين، إنما عبدوا غيره سفهاً من أنفسهم وجهلاً ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

أي: المشركون ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: في عبادتهم الأنداد بغير علم ﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم من قدرة الله منقذ، ولا مجير ولا محيد لهم عنه، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)﴾

٣٠- يقول تعالى: فسدّد وجهك، واستمر على الدين الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكمّلها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ وفي الحديث: «إنّي خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم»(١). وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه: لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبراً بمعنى الطلب، كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾.

وهو معنى حسن صحيح، وقال آخرون: هو خبر على بابه، ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة، على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحدٌ إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك.

ولهذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وابن زيد في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لدين الله.

وقال البخاري: قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ لدين الله، خلق الأولين: دين الأولين، الدين والفطرة: الإسلام. (ثم روى) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصرانه أويُمجسانه، كما تُنتج البهيمة بهيمةً جَمْعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء» ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ورواه مسلم.

وفي معنى هذا الحديث، قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة. فمنهم الأسود بن سريع التميمي: روى الإمام أحمد: عن الأسود بن سريع قال: أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه، فأصبت ظفراً، فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم، حتى قتلوا الذرية؟!» فقال رجل: يا رسول الله، أما هم أبناء المشركين! فقال: «لا، إنما خياركم أبناء المشركين، ثم قال: لا تقتلوا ذريةً، لا تقتلوا ذرية» وقال: «كل نسمة تولد على الفطرة، حتى يُعْرب عنها لسانها، فأبواها يهودانها أو ينصرانها». ورواه النسائي في كتاب السير.

ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمي: روى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول

(١) رواه مسلم، وقد مضى تخريجه.

الله ﷺ سُئل عن أولاد المشركين، فقال: «اللهُ أعلم بما كانوا عاملين إذْ خلقهم» أخرجاه في الصحيحين.

وقد روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: أتى عليَّ زمان وأنا أقول: أولاد المسلمين مع المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين، حتى حدثني فلان عن فلان أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» قال: فلقيت الرجل فأخبرني، فأمسكت عن قولي.

ومنهم عياض بن حمار المجاشعي: روى الإمام أحمد: عن عياض بن حمار: أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «إنَّ ربِّي عز وجل أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل ما نحلته عبادي حلال، وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان، ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً، فقلت: رب إذاً يَثْلَغُوا رأسي فيدعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغزك. وأنفق فسنُنفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب، لكل ذي قربى ومسلم، ورجل عفيف متعفف ذو عيال، قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْر له، الذين هم فيكم تبعاً، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يَخفى له طمعٌ وإنْ دقَّ إلا خانه، ورجلٌ لا يصبح ولا يمسي، إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخيل، والكذاب، والشِّنْظير الفَحَّاش» انفرد بإخراجه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: التمسك بالشريعة، والفطرة السليمة، هو الدين القيم المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية.

٣١- وقوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ قال ابن زيد وابن جريج: أي: راجعين إليه ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أي: خافوه وراقبوه، وأقيموا الصلاة، وهي الطاعة العظيمة ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: بل كونوا من الموحدين، المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه.

٣٢- وقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: لا تكونوا من المشركين، الذين قد فرقوا دينهم، أي: بدلوه وغيروه، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وقرأ بعضهم: ﴿فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾ أي: تركوه وراء ظهورهم. وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان، وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء.

وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل، كلها ضلالة إلا واحدة، وهم: أهل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، من قديم الدهر وحديثه، كما رواه الحاكم في مستدركه: أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم، فقال: «مَن كان على

ما أنا عليه اليومَ وأصحابي».

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) ﴾

٣٣- يقول تعالى مخبراً عن الناس، أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم، إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله، ويعبدون معه غيره.

٣٤- وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك، ثم توعَّدهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال بعضهم: والله لو توعدني حارس درب لخفت منه، فكيف والمتوعد ههنا: هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون.

٣٥- ثم قال تعالى منكراً على المشركين، فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره، بلا دليل ولا حجة ولا برهان: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ أي: ينطق ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك.

٣٦- ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله ووفقه، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر، وقال: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: يفرح في نفسه، ويفخر على غيره، وإذا أصابه شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صبروا في الضراء، وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إنْ أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

٣٧- وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: هو المتصرف الفاعل لذلك، بحكمته وعدله، فيوسع على قوم، ويضيق على آخرين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾

٣٨- يقول تعالى آمراً بإعطاء ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ أي: من البر والصلة ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه، أو له شيء لا يقوم بكفايته ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة، وما يحتاج إليه في سفره

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: النظر إليه يوم القيامة، وهو الغاية القصوى ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

٣٩- ثم قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ أي: مَن أعطى عطية، يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله، بهذا فسَّره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب والشعبي، وهذا الصنيع مباح، وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نهي عنه رسول الله ﷺ خاصة؛ قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: لا تعط العطاء تريد أكثر منه. وقال ابن عباس: الربا رباءان: فربا لا يصح؛ يعني: ربا البيع، وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾.

وإنما الثواب عند الله في الزكاة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء، كما جاء في الصحيح: «وما تصدَّق أحدٌ بعدل تمرة من كسب طيب، إلا أخذَها الرحمن بيمينه، فيُرَبِّيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فَلُوَّه أو فَصيله، حتى تصير التمرة أعظم من أُحُد».

٤٠- وقوله عزوجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي: هو الخالق الرازق، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً، لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك، والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي: بعد هذه الحياة ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم﴾ أي: الذين تعبدونهم من دون الله ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك، بل الله سبحانه وتعالى وهو المستقل بالخلق والرزق، والإحياء والإماتة، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة، ولهذا قال بعد هذا كله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تعالى وتقدَّس وتنزه وتعاظم وجل وعز، عن أن يكون له شريكٌ أو نظير أو مساوٍ أو ولد أو والد، بل هو الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢)﴾

٤١- قال ابن عباس وعكرمة والضحاك والسدي وغيرهم، المراد بالبر ههنا: الفيافي، وبالبحر: الأمصار والقرى، وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة: البحر الأمصار، والقرى: ما كان منهما على جانب نهر.

وقال آخرون: بل المراد بالبر هو البر المعروف، وبالبحر هو البحر المعروف. وقال زيد بن رفيع ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾ يعني: انقطاع المطر عن البر، يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه. رواه ابن أبي حاتم. وروي عن مجاهد ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال: فساد البر قتل ابن آدم، وفساد البحر أخذ السفينة غصباً.

والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون، ويؤيده ما قاله محمد بن إسحاق في السيرة: أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة، وكتب إليه ببحره، يعني: ببلده.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: بان النقص في الزروع والثمار، بسبب المعاصي.

وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة. ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: «لَحَدٌّ يُقام في الأرض، أحبُّ إلى أهلها من أن يُمطروا أربعين صباحاً». والسبب في هذا: أن الحدود إذا أقيمت، انكفَّ الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض.

ولهذا إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان، ويحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت، من قتل الخنزير، وكسر الصليب، ووضع الجزية وهو تركها، فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه، ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض: أخرجي بركتك، فيأكل من الرمانة الفئام من الناس، ويستظلون بقحفها، ويكفى لبن اللقحة الجماعة من الناس، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير. ولهذا ثبت في الصحيحين: «أن الفاجر إذا مات، يستريح منه العباد والبلاد، والشجر والدواب».

وروى مالك: عن زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ههنا: الشرك. وفيه نظر.

وقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ الآية، أي: يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات، اختباراً منه لهم، ومجازاة على صنيعهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

٤٢ - ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلكم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي: فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل، وكفر النعم.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) ﴾

٤٣، ٤٤ - يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته، والمبادرة إلى الخيرات ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة، إذا أراد كونه فلا راد له ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون، ففريق في الجنة، وفريق في السعير، ولهذا قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

٤٥ - ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ أي: يجازيهم مجازاة الفضل، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم، الذي لا يجور.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن

فَضْلِه وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

٤٦- يذكر تعالى نعمه على خلقه، في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته، بمجيء الغيث عقبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: المطر الذي ينزله، فيحيي به العباد والبلاد ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: في البحر، وإنما سيرها بالريح ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: في التجارات والمعايش، والسير من إقليم إلى إقليم، وقطر إلى قطر ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون الله على ما أنعم به عليكم، من النعم الظاهرة والباطنة، التي لا تعد ولا تحصى.

٤٧- ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ هذه تسلية من الله تعالى، لعبده ورسوله محمدﷺ، بأنه وإنْ كذبه كثيرٌ من قومه ومن الناس، فقد كُذِّبت الرسل المتقدمون، مع ما جاءوا أممهم به من الدلائل الواضحات. ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم، وأنجى المؤمنين بهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو حق أوجبه على نفسه الكريمة، تكرماً وتفضلاً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. وروى ابن أبي حاتم: عن أم الدرداءعن أبي الدرداءرضي الله عنه قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «ما من امرئ مسلم يردُّ عن عِرْضِ أخيه، إلا كان حقاً على الله أن يردَّ عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

٤٨- يبين تعالى كيف يخلق السحاب، الذي ينزل منه الماء، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ إما من البحر، كما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله عز وجل ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: يمده فيكثره وينميه، ويجعل من القليل كثيراً، ينشىء سحابة تُرى في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر، ثقالاً مملوءةً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وكذلك قال ههنا: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ قال مجاهد وأبو عمرو بن العلاء ومطر الوراق وقتادة: يعني: قطعاً. وقال غيره: متراكماً، كما قاله الضحاك، وقال غيره: المسود من كثرة الماء، تراه مدلهماً ثقيلاً قريباً من الأرض، وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِۦ﴾ أي: فترى المطر، وهو القطر، يخرج من بين ذلك السحاب ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: لحاجتهم إليه، يفرحون بنزوله عليهم، ووصوله إليهم.

٤٩- وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ معنى الكلام: أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر، كانوا قانطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعاً عظيماً، وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ فقال ابن جرير هو تأكيد، وحكاه عن بعض أهل العربية. وقال آخرون: من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبله، أي: الإنزال لمبلسين، ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس، ويكون معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله أيضاً قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقت، فترقبوه في إبانه فتأخر، ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة، أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

٥٠- ولهذا قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ يعني: المطر ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: إنَّ الذي فعل ذلك، لقادر على إحياء الأموات ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٥١- ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ يقول تعالى: ولئن أرسلنا ريحاً يابسة على الزرع الذي زرعوه، ونبت وشب واستوى على سوقه، فرأوه مصفراً، أي: قد اصفر وشرع في الفساد، لظلوا من بعده، أي: بعد هذا الحال يكفرون، أي: يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣)﴾

٥٢- يقول تعالى، كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين يسمعون، وهم مع ذلك مدبرون عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله، فإنه تعالى بقدرته يُسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ على توهيم عبد الله بن عمر، في روايته مخاطبة النبيﷺ القتلى، الذين ألقُوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله، ما تخاطب من قوم قد جيَّفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون» وتأولته عائشة على أنه قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنتُ أقول لهم حق» وقال قتادة: أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته، تقريعاً وتوبيخاً ونقمة.

والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة، من

أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم، كان يَعرفه في الدنيا، فيسلم عليه، إلا ردَّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام».

وثبت عنه ﷺ لأمته إذا سلَّموا على أهل القبور، أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه، فيقول المسلِّم: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب، لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا. وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يَعرف بزيارة الحي له ويستبشر.

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة، وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول: اللهم إني أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة. كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله.

وقد شرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يَشعر ولا يعلم بالمسلم محال. وقد علَّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية. فهذا السلام والخطاب والنداء، لموجود يسمع ويُخاطب ويعقل ويرد، وإنْ لم يَسمع المسلِّم الرد، والله أعلم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)﴾

٥٤- ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق، حالاً بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ثم يصير عظاماً، ثم تكسى العظام لحماً، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً، واهن القوى، ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً ثم مراهقاً ثم شاباً، وهو القوة بعد الضعف، ثم يَشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللمة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يفعل ما يشاء، ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾

٥٥- يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه: إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم يُنظَروا حتى يعذر إليهم. قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.

٥٦- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي: فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في كتاب الأعمال إلى يوم البعث، أي: من يوم خلقتم إلى أن بُعثتم ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٧- قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: اعتذارهم عما فعلوا ﴿وَهُمْ لَا يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولاهم يرجعون إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾

٥٨، ٥٩- يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: قد بينا لهم الحق ووضحناه لهم، وضربنا لهم فيه الأمثال، ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: لو رأوا أي آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أو غيره، لايؤمنون بها، ويعتقدون أنها سحر وباطل، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ❁ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٦٠- ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبر على مخالفتهم وعنادهم، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك، من نصره إياك عليهم، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: بل اثبت على ما بعثك الله به، فإنه الحق الذي لا مرية فيه، ولا تعدل عنه، وليس فيما سواه هدى يتبع، بل الحق كله منحصر فيه.

عن قتادة: نادى رجل من الخوارج علياً رضي الله عنه، وهو في صلاة الغداة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فأنصت له عليّ حتى فهم ما قال، فأجابه وهو في الصلاة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(ما روي في فضل هذه السورة الشريفة واستحباب قراءتها في الفجر)

روى الإمام أحمد: عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ صلّى بهم الصبح، فقرأ فيها «الروم» فأوهم، فلما انصرف قال: «إنه يَلْبِسُ علينا القرآنَ، فإن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد منكم الصلاة معنا، فليحسن الوضوء» وهذا إسناد حسن، ومتن حسن، وفيه سرٌّ عجيب، ونبأ غريب، وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من ائتم به، فدلّ ذلك على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام.

آخر تفسير سورة الروم

****

ترتيبها ٣١ — سورة لقمان ـ مكية — آياتها ٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾

١ - ٤ - تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة، وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة، فأقاموا الصلاة المفروضة، بحدودها وأوقاتها، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها، ووصلوا أرحامهم وقراباتهم، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك، لم يراءوا به، ولا أرادوا جزاءً من الناس ولا شكوراً.

٥ - فمن فعل ذلك كذلك، فهو من الذين قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: على بصيرة وبينة، ومنهج واضح جلي ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾

٦ - لما ذكر تعالى حال السعداء، وهم الذين يهتدون بكتاب الله، وينتفعون بسماعه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية. عطف بذكر حال الأشقياء، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء، بالألحان وآلات الطرب، كما قال ابن مسعود. وروى ابن جرير: عن أبي الصهباء البكري: أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال عبد الله بن مسعود: الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات. وكذا قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومكحول وعمرو بن شعيب وعلي بن بذيمة. وقال الحسن البصري: نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير. وقال قتادة: قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والله لعله لا ينفق فيه مالاً ولكن شراؤه استحبابه، بحسب المرء من الضلالة، أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضر على ما ينفع. وقيل: أراد بقوله: ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ اشتراء المغنيات من الجواري.

وقال الضحاك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال: يعني: الشرك. وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. واختار ابن جرير: أنه كل كلام يصد عن آيات الله، واتباع سبيله.

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله. وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة، أو تعليلاً للأمر القدري، أي: قيضوا لذلك ليكونوا كذلك، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال مجاهد: ويتخذ سبيل الله هزواً يستهزئ بها، وقال قتادة: يعني: ويتخذ آيات الله هزواً. وقول مجاهد أولى، وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: استهانوا بآيات الله وسبيله، أهينوا يوم القيامة، في العذاب الدائم المستمر.

٧- ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولَّى عنها وأعرض وأدبر، أي: وتصامم وما به من صمم، كأنه ما سمعها، لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها، ولا أرب له فيها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة يؤلمه، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)﴾

٨- هذا ذكر مآل الأبرار، من السعداء في الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة، التابعة لشريعة الله ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي: يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار، من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمراكب والنساء، والنضرة والسماع، الذي لم يخطر ببال أحد، وهم في ذلك مقيمون دائماً فيها، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولاً.

٩- وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي: هذا كائن لا محالة، لأنه من وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، لأنه الكريم المنان، الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، الذي جعل القرآن هدًى للمؤمنين ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ الآية. وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١)﴾

١٠- بيَّن سبحانه بهذا قدرته العظيمة، على خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية. وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد: لها عمد لا ترونها.

وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة الرعد، بما أغنى عن إعادته.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ يعني: الجبال أرست الأرض وثقلتها، لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء،

ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لئلا تميد بكم. وقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: وذرأ فيها من أصناف الحيوانات، مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها، إلا الذي خلقها، ولما قرّر سبحانه أنه الخالق، نبه على أنه الرازق بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: من كل زوج من النبات كريم، أي: حسن المنظر، وقال الشعبي: والناس أيضاً من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

١٠- وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي ذكره تعالى، من خلق السموات والأرض وما بينهما، صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره، وحده لا شريك له في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي: مما تعبدون وتدعون، من الأصنام والأنداد ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ أي: في جهل وعمى ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: ظاهر واضح لا خفاء به.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾

١٢- اختلف السلف في لقمان، هل كان نبياً، أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين: الأكثرون على الثاني. وعن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر ذو مشافر، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة. وعن عبد الرحمن بن حرملة قال: جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله، فقال له سعيد بن المسيب: لا تحزن من أجل أنك أسود، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجَع مولى عمر بن الخطاب، ولقمان الحكيم، كان أسود نوبيا ذا مشافر.

وعن مجاهد: كان لقمان عبدا صالحاً ولم يكن نبياً، وقال: كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً غليظ الشفتين، مُصفَّح القدمين، قاضياً على بني إسرائيل. وذكر غيره: أنه كان قاضياً على بني إسرائيل، في زمان داود عليه السلام.

وروى ابن أبي حاتم: عن جابر قال: إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك، فقال له: ألست عبد بني فلان، الذي كنت ترعى بالأمس؟ قال: بلى، قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: قدر الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وتركي ما لا يعنيني.

فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه بنفي كونه نبياً، ومنها ما هو مشعر بذلك، لأن كونه عبداً قد مسه الرق ينافي كونه نبياً، لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها، ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة إن صح السند إليه، فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن جابر عن عكرمة، وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم.

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أي: الفقه في الإسلام، ولم يكن نبياً ولم يوح إليه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أي: الفهم والعلم والتعبير ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أمرناه ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي: أمرناه أن يشكر الله عز وجل، على ما آتاه الله ومنحه ووهبه، من الفضل الذي خصصه به عمن سواه، من أبناء جنسه وأهل زمانه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: غني عن العباد، لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً، فإنه الغني عمن سواه، فلا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه.

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) ﴾

١٣ - يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وهو لقمان بن عنقاء بن سدون، واسم ابنه: ثاران، في قول حكاه السهيلي. وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، وأنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه، وأحبهم إليه، فهو حقيقٌ أن يمنحه أفضل ما يعرف، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً. ثم قال محذراً له: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: هو أعظم الظلم.

روى البخاري: عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذلك، ألا تسمع لقول لقمان ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» ورواه مسلم.

١٤ - ثم قرن بوصيته إياه بعبادة الله وحده، البر بالوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن؛ وقال ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ قال مجاهد: مشقة وهن الولد. وقال قتادة: جهداً على جهد. وقال عطاء الخراساني: ضعفاً على ضعف، وقوله: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾.

ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة، أن أقل مدة الحمل: ستة أشهر، لأنه قال في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾ وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة، وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً، ليذكّر الولد بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ ولهذا قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء.

روى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن وهب قال: قدم علينا معاذ بن جبل، وكان بعثه النبي ﷺ، فقام وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تطيعوني لا آلوكم خيراً، وأن المصير إلى الله، وإلى الجنة، أو إلى النار، إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت.

١٥ - وقوله: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: إنْ حَرِصا عليك كل الحرص، على أن تتابعهما على دينهما، فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً، أي: محسناً إليهما ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يعني: المؤمنين ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

روى الطبراني في «كتاب العشرة»: أن سعد بن مالك قال: أُنزلت فيَّ هذه الآية ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ الآية، قال: كنت رجلاً براً بأمي، فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا، أو لا آكل ولاأشرب حتى أموت فتعيّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي، فأكلت.

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

١٦ ـ هذه وصايا نافعة، قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم، ليمتثلها الناس، ويقتدوا بها، فقال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: إن المظلمة أوالخطيئة، لو كانت مثقال حبة خردل. وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله: «إنها» ضمير الشأن والقصة، وجوز على هذا رفع «مثقال» والأول أولى.

وقوله عز وجل: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أي: أحضرها الله يوم القيامة، حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة، في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات والأرض، فإن الله يأتي بها، لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء، وإن دقت ولطفت وتضاءلت ﴿خَبِيرٌ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم. وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع، وذكره السدي بإسناده ذلك المطروق، عن ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة إن صح ذلك، ويروى هذا عن عطية العوفي وأبي مالك والثوري والمنهال بن عمرو وغيرهم، وهذا ـ والله أعلم ـ كأنه متلقى من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب.

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد: أن هذه الحبة في حقارتها، لو كانت داخل صخرة، فإن الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه.

١٧ ـ ثم قال: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي: بحسب طاقتك وجهدك ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ علم أن الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر،

لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر. وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: إن الصبر على أذى الناس، لمن عزم الأمور.

١٨ - وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس، إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم، ولكن ألن جانبك، وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة، والمخيلة لا يحبها الله»[١].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تتكبر فتحتقر عباد الله، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك. وكذا روى العوفي وعكرمة عنه، وقال مالك عن زيد بن أسلم ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تتكلم وأنت معرض. وكذا روي عن مجاهد وعكرمة ويزيد بن الأصم وأبي الجوزاء وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد وغيرهم. وقال إبراهيم النخعي: يعني بذلك: التشديق في الكلام. والصواب القول الأول. قال ابن جرير: وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها، حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها، فشبه به الرجل المتكبر.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: خيلاء متكبراً، جباراً عنيداً، لا تفعل ذلك يبغضك الله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال معجب في نفسه، فخور، أي: على غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه.

١٩ - وقوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش مشياً مقتصداً، ليس بالبطيئ المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين. وقوله: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ وقال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات، لصوت الحمير، أي: غاية من رفعَ صوته، أنه يُشبّه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله، وهذا التشبيه في هذا بالحمير، يقتضي تحريمه، وذمه غاية الذم، لأن رسول الله ﷺ قال: «ليس لنا مَثَل السوء، العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه»[٢].

وروى النسائي عند تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم صياحَ الديكة، فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير، فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً» وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجة. وفي بعض الألفاظ «بالليل» فالله أعلم.

فهذه وصايا نافعة جداً، وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم، وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة. فلنذكر منها أنموذجاً ودستوراً إلى ذلك. روى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: أخبرنا رسول الله ﷺ قال: «إن لقمان الحكيم كان يقول: إنَّ الله إذا استُودع شيئاً حفظه».

(فصل في الخمول والتواضع) وذلك متعلق بوصية لقمان عليه السلام لابنه، وقد جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً، ونحن نذكر منه مقاصده: روي عن أنس بن مالك سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٦٥) (٥/ ٦٣، ٦٤، ٣٧٧-٣٧٨) وأبو داود (٤٠٨٤) من حديث أبي جري جابر بن سليم رضي الله عنه الطويل.

(٢) رواه البخاري في الهبة (٥/ ٢٣٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

«رُبَّ أشعثَ ذي طمرين، يُصفح عن أبواب الناس، إذا أقسم على الله لأبرَّه». وزاد (في رواية): منهم البراء بن مالك. وروى أيضاً: عن ابن عمر رضي الله عنه أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ، فقال له: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «إنَّ اليسيرَ من الرياء شرك، وإنَّ الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة».

قال الفضيل: إن استطعت أن لا تُعرف فافعل، وما عليك أن لا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس، محبوباً عند الله. وكان ابن محيريز يقول: اللهم إني أسألك ذكراً خاملاً. وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهمَّ اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك، وعند الناس من أوسط خلقك.

ثم قال: (**باب ما جاء في الشهرة**): قيل للحسن أنه يشار إليك بالأصابع! فقال: إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة، وفي دنياه بالفسق. وعن علي رضي الله عنه قال: لا تبدأ لأن تشتهر، ولا ترفع شخصك لتذكر وتعلم، واكتم واصمت تسلم، تَسر الأبرار وتغيظ الفجار. وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما صدق الله من أحب الشهرة، وقال أيوب: ما صدق الله عبد، إلا سره أن لا يشعر بمكانه، وقال محمد بن العلاء: من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس. وقال سماك بن سلمة: إياك وكثرة الأخلاء، وقال أبان بن عثمان: إن أحببت أن يسلم إليك دينك فأقل من المعارف، كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم. وروي عن أبي رجاء قال: رأى طلحة قوماً يمشون معه، فقال: ذباب طمع وفراش النار. وقال حماد بن زيد: كنا إذا مررنا على المجلس ومعنا أيوب فسلم، ردوا رداً شديداً فكان ذلك يغمه. وقال عبد الرزاق عن معمر: كان أيوب يطيل قميصه، فقيل له في ذلك، فقال: إن الشهرة فيما مضى كانت في طول القميص، واليوم في تشميره، واصطنع مرة نعلين على حذو نعلي النبي ﷺ، فلبسهما أياماً ثم خلعهما، وقال: لم أر الناس يلبسونهما. وقال إبراهيم النخعي: لا تلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء، ولا ما يزدريك السفهاء، وقال الثوري: كانوا يكرهون من الثياب الجياد التي يشتهر بها ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم، والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ويستذل دينه. وقال الحسن رحمه الله: إن قوماً جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه، ما لهم تفاقدوا. وفي بعض الأخبار: أن موسى عليه السلام قال لبني إسرائيل: مالكم تأتوني عليكم ثياب الرهبان، وقلوبكم قلوب الذئاب، البسوا ثياب الملوك، وألينوا قلوبكم بالخشية.

(**فصل في حسن الخلق**): قال أبو التياح عن أنس رضي الله عنه: كان رسول الله من أحسن الناس خلقاً.

وعن ابن عمر: قيل: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً»(١).

وعن عائشة مرفوعاً: «إن العبدَ ليبلغُ بحسنِ خلقه، درجة قائم الليل صائم النهار»(٢).

وروى ابن أبي الدنيا: عن أبي هريرة رضي الله عنه سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تقوى الله، وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الأجوفان: الفم والفرج».

---

(١) رواه ابن ماجة (٤٢٥٩) والبزار والحاكم والبيهقي في الزهد. انظر صحيح الترغيب (٣٣٣٥).

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٤٧٩٨) بلفظ: «إن المؤمن ليدرك...».

وقال أسامة بن شريك: كنت عند رسول الله ﷺ فجاءته الأعراب من كل مكان، فقالوا: يا رسول الله، ما خير ما أعطى الإنسان؟ قال: «حسن الخلق»(١).

وعن أم الدرداء عن أبي الدرداء يبلغ به قال: «ما من شيء أثقلُ في الميزان، من خلقٍ حسن»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»(٣).

وعن أبي ثعلبة مرفوعاً: «إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً، أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني منزلاً في الجنة، مساويكم أخلاقاً، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون»(٤).

وقال محمد بن سيرين: حسن الخلق عون على الدِّين.

(فصل في ذم الكبر): عن ابن مسعود رفعه: «لا يدخل الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ مِّن كِبْر، ولا يدخل النارَ من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»(٥).

وعن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر، أكبَّه الله على وجهه في النار»(٦).

وقال الشعبي: من قتل اثنين فهو جبار، ثم تلا: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ﴾. وقال الحسن: عجباً لابن آدم، يغسل الخرء بيده في اليوم مرتين، ثم يتكبر يعارض جبار السموات.

وعن أبي قال: إن مطعم ابن آدم ضرب مثلاً للدنيا وإن قزَّحه وملَّحه(٧).

وقال محمد بن الحسين بن علي رضي الله عنه: ما دخل قلبَ رجلٍ شيءٌ من الكبر، إلا نقص من عقله بقدر ذلك. وقال يونس بن عبيد: ليس مع السجود كبر، ولا مع التوحيد نفاق.

(فصل في الاختيال): عن ابن بريدة عن أبيه مرفوعاً: «مَن جرَّ ثوبه خيلاء، لم ينظر الله إليه» وعن ابن عمر مرفوعاً مثله(٨).

وعن أبي هريرة مرفوعاً: «لا ينظرُ اللهُ يوم القيامة إلى من جر إزاره»(٩).

«وبينما رجلٌ يتبختر في بُرديه أعجبته نفسُه، خَسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»(١٠).

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٧٨) وابن حبان (٤٧٨، ٤٨٦) والطبراني في الكبير (٤٧٠) وغيرهم.

(٢) رواه الترمذي (٢٠٨٧، ٢٠٨٨).

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه أحمد (٤/ ١٩٣، ١٩٤) وغيره. وله شاهد من حديث جابر عند الترمذي (٢١٠٤).

(٥) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٩٣) وأحمد (١/ ٤١٢) واللفظ له.

(٦) رواه أحمد (٢/ ٢١٥).

(٧) وقد روى مرفوعاً، كما في صحيح ابن حبان (٧٠٢) وغيره.

(٨) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، فرواه البخاري في اللباس (١٠/ ٢٥٢) ومسلم في اللباس (٣/ ١٦٥٢).

(٩) رواه البخاري في اللباس (١٠/ ٢٥٧- ٢٥٨) وأحمد (٢/ ٣٨٦) ومواضع أخر، وعندهما: «إزاره بطراً».

(١٠) رواه البخاري في الموضع السابق ومسلم في اللباس أيضاً (٣/ ١٦٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) ﴾

٢٠- يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السموات، من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما خلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفاً محفوظاً، وما خلق لهم في الأرض من قرار، وأنهار وأشجار، وزروع وثمار، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وإزاحة الشبه والعلل.

ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم ﴿مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: في توحيده، وإرساله الرسل، ومجادلته في ذلك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: مبين مضيء.

٢١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم، أنهم كانوا على ضلالة، وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٢٢) وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) ﴾

٢٢- يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله، أي: أخلص له العمل، وانقاد لأمره واتبع شرعه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله: باتباع ما به أُمر، وترك ما عنه زجر ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أي: فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

٢٣- ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾ أي: لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله، وبما جئت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، وإلى الله مرجعهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: فيجزيهم عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافية.

٢٤- ثم قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ أي: في الدنيا ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: نلجئهم ﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: فظيع صعب، مشق على النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ❊ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) ﴾

٢٥- يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به، أنهم يعرفون أن الله خالق السموات، وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء، يعترفون أنها خلقٌ له وملك له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٢٦- ثم قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو خلقه وملكه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، الحميد في جميع ما خلق، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع، وهو المحمود في الأمور كلها.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾

٢٧- يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لا أُحْصِي ثَناءً عليك، أنتَ كما أثنيت على نفسك»[1]. فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جُعلت أقلاماً، وجُعل البحر مداداً، وأمده سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله، الدالة على عظمته وصفاته وجلاله، لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ولم يرد الحصر، ولا أن ثمَّ سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم، كما يقوله من تلقاه من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب[2]، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ فليس المراد بقوله: ﴿بِمِثْلِهِ﴾ آخر فقط، بل بمثله ثم بمثله، ثم بمثله، ثم هلم جراً، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته.

قال الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مداداً، وقال الله: إن من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ماء البحور، وتكسرت الأقلام، وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ أي: لو كان شجر الأرض أقلاماً، ومع البحر سبعة أبحر، ما كان لينفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه. وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله، كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيز قد عز كل شيء، وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد، ولا مخالف ولا معقب لحكمه، حكيم في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه وجميع شئونه.

٢٨- وقوله تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد، بالنسبة إلى قدرته، إلا كنسبة خلق نفس واحدة، الجميع هين عليه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ

---

(١) رواه مسلم في الصلاة (١/ ٣٥٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأوله: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك...».

(٢) قلت: قد استقر الآن العلم بأن في العالم سبعة بحار محيطة، فهذه الآية لها مدخل - والله أعلم - بالإعجاز العلمي لنصلها على أعدادها، فتأمل.

﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ـ ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ أي: لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكيده ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: كما هو سميع لأقوالهم، بصير بأفعالهم، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الآية.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)﴾

٢٩- يخبر تبارك وتعالى أنه: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ يعني: يأخذ منه في النهار فيطول ذلك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف، يطول النهار إلى الغاية، ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون في زمن الشتاء ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ قيل: إلى غاية محدودة. وقيل: إلى يوم القيامة. وكلا المعنيين صحيح، ويستشهد للقول الأول: بحديث أبي ذر رضي الله عنه الذي في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهبُ فتسجدُ تحت العرش، ثم تستأذن ربها، فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت».

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس أنه قال: الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت بالليل في فلكها تحت الأرض، حتى تطلع من مشرقها. قال: وكذلك القمر. إسناد صحيح.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ومعنى هذا: أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الآية.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي: إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق، أي: الموجود الحق، الإله الحق، وأن كل ما سواه باطل، فإنه الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، لأن كل ما في السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾

٣١- يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت، ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾ أي: من قدرته ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء، شكور في الرخاء.

٣٢- ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي: كالجبال والغمام ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ الآية. ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ قال مجاهد: أي: كافر. كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وقال ابن زيد: هو المتوسط في العمل. وهذا الذي قاله ابن زيد، هو المراد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ الآية، فالمقتصد ههنا: هو المتوسط في العمل، ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال، والأمور العظام، والآيات الباهرات في البحر، ثم بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ فالختار: هو الغدار، قاله مجاهد والحسن وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده، والخَتْر: أتم الغدر وأبلغه.

وقوله: ﴿كَفُورٍ﴾ أي: جحود للنعم، لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)﴾

٣٣- يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد، وآمراً لهم بتقواه، والخوف منه والخشية من يوم القيامة، حيث ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ أي: لو أراد أن يفديه بنفسه لما قُبل منه، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه، ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يعني: الشيطان. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة، فإنه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه، وليس من ذلك شيء، بل كان كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾

٣٤- هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحدٌ إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل، ولا ملك مقرب ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به، علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى، أو شقياً أو سعيداً، علم الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه، وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها، وما تدري ﴿نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك، وهذه شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب.

روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن بريدة: سمعت أبي بريدة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمسٌ

لا يعلمهن إلا الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجوه.

(حديث ابن عمر): رواه الإمام أحمد (بنحوه) وانفرد بإخراجه البخاري.

(حديث ابن مسعود) رضي الله عنه: رواه الإمام أحمد: عن عبد الله بن سلمة قال: قال عبد الله أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

(حديث أبي هريرة): روى البخاري عند تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس، إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر» قال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان» قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: «الإحسان أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت الأمةُ ربَّتها، فذاك من أشراطها، وإذا كان الحُفاة العُراة رؤوس الناس، فذاك من أشراطها، في خَمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ الآية، ثم انصرف الرجل، فقال: «ردّوه عليَّ»، فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئاً، فقال: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» ورواه البخاري أيضاً في كتاب الإيمان ومسلم.

(حديث رجل من عامر): روى الإمام أحمد: عن ربعي بن حراش عن رجل من بني عامر: أنه استأذن على النبي ﷺ فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرجي إليه، فإنه لا يحسن الاستئذان، فقولي له فليقل: السلام عليكم، أأدخل» قال: فسمعته يقول ذلك، فقلت: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن لي، فدخلت، فقلت: بم أتيتنا؟ قال: «لم آتكم إلا بخير، أتيتكم بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تدَعوا اللات والعزى، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات، وأن تصوموا من السنة شهراً، وأن تحجوا البيت، وأن تأخذوا الزكاة من أغنيائكم، فتردّوها على فقرائكم» قال: فقال: فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ قال: «قد علَّمني الله عز وجل خيراً، وأن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل: الخمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ الآية. وهذا إسناد صحيح.

وعن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من حدَّثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قال قتادة: أشياء استأثر الله بهن، فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة، أو في أي شهر، أو ليل أو نهار ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلاً أو نهاراً ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فلا يعلم أحدٌ ما في الأرحام، أذكر أم أنثى، أحمر أو أسود وما هو ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ

---

(١) رواه مسلم في الإيمان.

﴿غَدًا﴾ أخير أم شر، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت، لعلك الميت غداً، لعلك المصاب غداً، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بر، أو سهل أو جبل.

وقد جاء في الحديث «إِذَا أَرَادَ اللهُ قَبْضَ عَبْدٍ بأرضٍ، جعلَ له إليها حاجة» فروى الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما جعل اللهُ منيةَ عبدٍ بأرض، إلا جعلَ له فيها حاجة».

وروى عبد الله بن الإمام أحمد: عن مطر بن عُكَامِس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قضَى الله متيةَ عبدٍ بأرض، جعل له إليها حاجة» وهكذا رواه الترمذي في القدر.

وروى الإمام أحمد عن أبي عزة مرفوعاً نحوه.

آخر تفسير سورة لقمان

****

ترتيبها ٣٢ — سورة السجدة ـ مكية — آياتها ٣٠

روى البخاري في كتاب الجمعة: عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة و ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ﴾ ورواه مسلم أيضاً.

وروى الإمام أحمد: عن جابر قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ تفرد به أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

١ - قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا.

٢ - وقوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه، ولا مرية أنه منزل ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٣ - ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: اختلقه من تلقاء نفسه ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: يتبعون الحق.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦﴾

٤ - يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، وقد تقدم الكلام على ذلك.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ﴾ أي: بل هو المالك لأزمَّة الأمور، الخالق لكل شيء، المدبر لكل شيء، القادر على كل شيء، فلا ولي لخلقه سواه، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أيها العابدون غيره، المتوكلون على من عداه، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير أو نديد أو عديل، لا إله إلا هو ولا رب سواه، وقد أورد النسائي ههنا حديثاً: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال: «إنَّ اللهَ خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش في اليوم السابع، فخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد العصر، وخَلَقه من أديم الأرض، أحمرها وأسودها، وطيبها وخبيثها، من أجل ذلك جعل الله من بني آدم الطيب والخبيث».

هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتناً، وقد أخرج مسلم والنسائي أيضاً: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحو

من هذا السياق. وقد علّله البخاري في كتاب التاريخ الكبير فقال: وقال بعضهم أبو هريرة عن كعب الأحبار، وهو أصح. وكذا علله غير واحد من الحفاظ، والله أعلم.

٥- وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: يتنزل أمره من أعلى السموات، إلى أقصى تُخوم الأرض السابعة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ الآية، وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة، وسمك السماء خمسمائة سنة.

وقال مجاهد وقتادة والضحاك: النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام، وصعوده في مسيرة خمسمائة عام ولكنه يقطعها في طرفة عين، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

٦- ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: المدبر لهذه الأمور، الذي هو شهيد على أعمال عباده يرفع إليه جليلها وحقيرها، وصغيرها وكبيرها، هو ﴿الْعَزِيزُ﴾: الذي قد عزَّ كل شيء فقهره وغلبه، ودانت له العباد والرقاب، ﴿الرَّحِيمُ﴾: بعباده المؤمنين، فهو عزيز في رحمته، رحيم في عزته، وهذا هو الكمال، العزة مع الرحمة، والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (٩)﴾

٧- يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء، وأتقنها وأحكمها، وقال مالك عن زيد بن أسلم ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ قال: أحسن خلق كل شيء، كأنه جعله من المقدم والمؤخر، ثم لما ذكر تعالى خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ يعني: خلق أبا البشر آدم من طين.

٨- ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ أي يتناسلون كذلك، من نطفة تخرج من بين صلب الرجل، وترائب المرأة.

٩- ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ يعني: آدم لما خلقه من تراب، خلقه سوياً مستقيماً ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ يعني: العقول ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه عز وجل.

﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)﴾

١٠- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في استبعادهم المعاد، حيث قالوا ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: تمزقت أجسامنا، وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أئنا لنعود بعد تلك الحال؟ يستبعدون ذلك، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة، لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً، أن يقول له: كن فيكون. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾.

١١ - ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ الظاهر من هذه الآية: أن ملك الموت شخص معين من الملائكة، كما هو المتبادر من حديث البراء، المتقدم ذكره في سورة إبراهيم، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل، وهو المشهور. قاله قتادة وغير واحد[1] وله أعوان، وهكذا ورد في الحديث: أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت، قال مجاهد: حُوِيت له الأرض فجعلت مثل الطست، يتناول منها متى يشاء. وقاله ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم معادكم، وقيامكم من قبوركم لجزائكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

١٢ - يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالهم، حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله عز وجل حقيرين ذليلين، ناكسي رؤوسهم، أي: من الحياء والخجل يقولون ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: نحن الآن نسمع قولك، ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة، إذا دخلوا النار بقولهم ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وهكذا هؤلاء يقولون ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ أي: إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: قد أيقنا وتحققنا فيها، أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم، أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا، لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون بآيات الله، ويخالفون رسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

١٣ - وقال ههنا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: من الصنفين، فدارهم النار لا محيد لهم عنها، ولا محيص لهم منها، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك.

١٤ - ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبهم به، واستبعادكم وقوعه، وتناسيكم له، إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي: سنعاملكم معاملة الناسي، لأنه تعالى لا ينسى شيئاً، ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب كفركم وتكذيبكم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۞ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۞ جَزَاءً وِفَاقًا ۞ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۞ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۞ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۞ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

---

(١) لم يثبت تسميته بذلك في حديث صحيح، وإنما ورد في بعض آثار أهل الكتاب.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾

١٥- يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي: إنما يصدق بها ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي: استمعوا لها، وأطاعوها قولاً وفعلاً ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن اتباعها والانقياد لها، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

١٦- ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ يعني بذلك: قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة، قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ يعني: بذلك قيام الليل، وعن أنس وعكرمة ومحمد بن المنكدر وأبي حازم وقتادة: هو الصلاة بين العشائين. وعن أنس أيضاً: هو انتظار صلاة العتمة. رواه ابن جرير بإسناد جيد، وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة وصلاة الغداة جماعة. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ أي: خوفا من وبال عقابه، وطمعا في جزيل ثوابه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

وَفينا رَسولُ اللهِ يتلُو كِتابه ... إذا انشقَّ معروفٌ من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وروى الإمام أحمد: عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «عَجِبَ ربُّنا من رجلين: رجل ثار من وطائه ولحافه، من بين حبه وأهله إلى صلاته، فيقول ربُّنا: أيا ملائكتي، انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطائه ومن بين حبه وأهله إلى صلاته، رغبةً فيما عندي، وشفقة مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله تعالى، فانهزموا فعلم ما عليه من الفرار، وماله في الرجوع، فرجع حتى أهريق دمه، رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي، فيقول الله عز وجل للملائكة: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه» وهكذا رواه أبو داود في الجهاد.

وروى الإمام أحمد: عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسَّره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»، ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل ـ ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ـ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾»، ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» فقلت: بلى يا رسول الله، فقال: «رأسُ الأمرِ الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله» ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» فقلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، ثم قال: «كُفَّ عليك هذا»، فقلت: يا رسول الله، إنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمُّكَ يا

معاذ، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم ـ أو قال: على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم؟» ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير.

١٧ - وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية، أي: فلا يعلم أحدٌ عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات، من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفوا أعمالهم، كذلك أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقاً، فإن الجزاء من جنس العمل، قال الحسن البصري: أخفى قومٌ عملهم، فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر. رواه ابن أبي حاتم.

قال البخاري: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين، مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

(وفي رواية) عن أبي هريرة قال: قال الله مثله، قيل لسفيان: روايةً؟ قال: فأي شيء؟ ورواه مسلم والترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال حماد: أحسبه: ـ عن النبي ﷺ قال: «مَن يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» رواه مسلم.

وروى الإمام أحمد: عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول: شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وَصَفَ فيه الجنة، حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولاخطر على قلب بشر» ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾. وأخرجه مسلم.

وروى مسلم أيضاً: عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجلٌ يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب، كيف وقد أخذ الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثلُ مُلك مَلِك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ رب، فيقول: لك ذلك، ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك، وعشرة أمثاله معه، ولك ما اشتهتْ نفسُك، ولذَّت عينك، فيقول: رضيت رب، قال: رب فأعلاهم منزلة، قال: أولئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عينٌ، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه من كتاب الله عز وجل ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية، ورواه الترمذي.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾

١٨- يخبر تعالى عن عدله وكرمه، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة، من كان مؤمناً بآياته، متبعاً لرسله، بمن كان فاسقاً، أي: خارجاً عن طاعة ربه، مكذباً لرسل الله إليه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ أي: عند الله يوم القيامة.

١٩- ولهذا فصل حكمهم فقال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: صدقت قلوبهم بآيات الله، وعملوا بمقتضاها، وهي الصالحات ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: التي فيها المساكن والدور، والغرف العالية ﴿نُزُلًا﴾ أي: ضيافة وكرامة ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٢٠- ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي: خرجوا عن الطاعة، فمأواهم النار، كلما أرادوا أن يخرجوا منها، أعيدوا فيها، كقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية، قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثقه، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم، والملائكة تقمعهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

٢١- وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال ابن عباس: يعني: بالعذاب الأدنى: مصائب الدنيا، وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها، مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه.

وروي مثله عن أبي بن كعب وأبي العالية والحسن وإبراهيم النخعي والضحاك وعلقمة وعطية ومجاهد وقتادة وعبد الكريم الجزري وخصيف، وقال ابن عباس في رواية عنه: يعني به إقامة الحدود عليهم. وقال البراء ابن عازب ومجاهد وأبو عبيدة: يعني به عذاب القبر.

وروى النسائي: عن عبد الله ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: سنون أصابتهم.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد: عن أبي بن كعب في هذه الآية ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: المصيبات والدخان قد مضيا، والبطشة واللزام. ورواه مسلم موقوفاً نحوه. وعند البخاري عن ابن مسعود نحوه، وقال عبد الله بن مسعود أيضاً في رواية عنه: العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسبى يوم بدر، وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم. قال السدي وغيره: لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم، أو أسير، فأصيبوا أو هزموا، ومنهم من جُمع له الأمران.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أظلم ممن ذكره الله بآياته، وبينها له ووضحها، ثم بعد ذلك تركها وجحدها، وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها.

قال قتادة: إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره، فقد اغتر أكبر الغرة، وأعوز أشد العوز، وعظم من أعظم الذنوب. ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي: سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا

مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾

٢٣- يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ قال قتادة: يعني به ليلة الإسراء. ثم روى عن أبي العالية الرياحي قال: حدثني ابن عم نبيكم يعني ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أريت ليلة أُسري بي موسى بن عمران، رجلاً آدم طُوالاً جعداً، كأنه من رجال شَنُوأة، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازن النار، والدجال» في آيات أراهن الله إياه ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾. أنه قد رأى موسى، ولقي موسى ليلة أسري به(١).

وروى الطبراني: عن أبي العالية عن ابن عباس: عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: جُعل موسى هدًى لبني إسرائيل، وفي قوله: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ قال: من لقاء موسى ربه عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتيناه ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لما كانوا صابرين على أوامر الله، وترك زواجره، وتصديق رسله، واتباعهم فيما جاءوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم لما بدّلوا وحرفوا وأولوا، سُلبوا ذلك المقام، وصارت قلوبهم قاسية، يحرفون الكلم عن مواضعه، فلا عمل صالحاً، ولا اعتقاداً صحيحاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ قال قتادة وسفيان: لما صبروا عن الدنيا. وكذلك قال الحسن بن صالح.

قال سفيان: هكذا كان هؤلاء، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به، حتى يتحامى عن الدنيا.

وسئل سفيان عن قول علي رضي الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألم تسمع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ قال: لما أخذوا برأس الأمر، صاروا رؤوساً. قال بعض العلماء: بالصبر واليقين، تنال الإمامة في الدين. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۞ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ الآية.

٢٥- كما قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: من الاعتقادات والأعمال.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٦/ ٣١٤) ومسلم في الإيمان (١/ ١٥٢) وغيرهما. وقوله في آخر الحديث: أنه قد رأى موسى . . . من تفسير قتادة، كما في مسلم.

وأنفسهم أفلا يبصرون (٢٧) ﴾

٢٦- يقول تعالى: أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل، ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من قويم السبل، فلم يبق منهم باقية، ولا عين ولا أثر ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ ولهذا قال: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي: وهؤلاء المكذبون، يمشون في مساكن أولئك المكذبين، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كما قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم، وما حلَّ بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متناظرة ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم.

٢٧- وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه، وإحسانه إليهم، في إرساله الماء، إما من السماء أو من السيح، وهو ما تحمله الأنهار، ويتحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ وهي التي لا نبات فيها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي: يبساً لا تنبت شيئاً، وليس المراد من قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أرض مصر فقط، بل هي بعض المقصود، وإن مثَّل بها كثير من المفسرين، فليست هي المقصودة وحدها، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية، فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة، تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً، لتهدمت أبنيتها، فيسوق الله تعالى إليها النيل، بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة، وفيه طين أحمر، فيغشى أرض مصر وهي أرض سبخة مرملة، محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً، لينبت الزرع فيه، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم، وطين جديد من غير أرضهم، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبداً.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

وعن ابن عباس ومجاهد: هي أرض باليمن، وقال الحسن رحمه الله: هي قرى فيما بين اليمن والشام.

وقال عكرمة والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد: الأرض الجرز التي لا نبات فيها، وهي مغبرة.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ الآيتين.

﴿ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين (٢٨) قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون (٢٩) فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون (٣٠) ﴾

٢٨- يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ﴾ أي: متى تُنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال

علينا، وينتقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين!

٢٩- قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: إذا حلَّ بكم بأس الله، وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة ﴿لاَ ينفعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ الآيتين.

ومن زعم أن المراد من هذا الفتح: فتح مكة، فقد أبعد النجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد: فتح مكة، لما قبلَ إسلامهم، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ ينفعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وإنما المراد: الفتح الذي هو القضاء والفصل، كقوله: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾ الآية، وكقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وقال تعالى ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾.

٣٠- ثم قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي: أعرض عن هؤلاء المشركين، وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ الآية، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك، إنه لا يخلف الميعاد.

وقوله: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي: أنت منتظر وهم منتظرون، ويتربصون بكم الدوائر ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم، وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك، وسيجدون غبَّ ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك، من وبيل عقاب الله لهم، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

آخر تفسير سورة السجدة

****

ترتيبها ٣٣ — سورة الأحزاب - مدنية — آياتها ٧٣

روى الإمام أحمد: عن زر قال: قال لي أبيّ بن كعب: كأين تقرأ سورة الأحزاب، أو كأين تعدها؟ قال: قلت: ثلاثاً وسبعين آية، فقال: قط! لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم) ورواه النسائي، وهذا إسناد حسن.

وهو يقتضي: أنه قد كان فيها قرآن، ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣) ﴾

١ - هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى، وقد قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: لا تسمع منهم، ولا تستشرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله.

٢ - ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: من قرآن وسنة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية.

٣ - ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في جميع أمورك وأحوالك ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ أي: وكفى به وكيلاً، لمن توكل عليه، وأناب إليه.

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٥) ﴾

٤ - يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي، أمراً معروفاً حسياً، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله: أنت عليّ كظهر أمي، أماً له، كذلك لا يصير الدَّعي ولداً للرجل، إذا تبناه فدعاه ابناً له، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ كقوله عز وجل: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ الآية. وقوله

تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ هذا هو المقصود بالنفي، فإنها نزلت في شأن «زيد بن حارثة رضي الله عنه» مولى النبي ﷺ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة، فكان يقال له: زيد بن محمد، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق، وهذه النسبة، بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ كما قال تعالى في أثناء السورة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ وقال ههنا: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يعني: تبنيكم لهم، قولٌ لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر، فما يمكن أن يكون له أبوان، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ قال سعيد بن جبير ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي: العدل، وقال قتادة ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي: الصراط المستقيم.

وقد ذكر غير واحد: أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش، كان يقال: له ذو القلبين، وأنه كان يزعم أن له قلبين، كل منهما بعقل وافر، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليه. هكذا روى العوفي عن ابن عباس، وقاله مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة، واختاره ابن جرير.

٥- وقوله عز وجل: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام، من جواز ادعاء الأبناء الأجانب، وهم الأدعياء، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة، وأن هذا هو العدل والقسط والبر. روى البخاري رحمه الله: عن عبد الله بن عمر قال: إن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ، ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي.

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه، في الخلوة بالمحارم وغير ذلك، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة رضي الله عنهما: يا رسول الله، إنا كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل عليَّ، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً، فقال ﷺ: «أرضعيه تحرمي عليه» الحديث[١].

ولهذا لما نسخ هذا الحكم، أباح تبارك وتعالى زوجة الدعي، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقال عز وجل: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ وقال تبارك وتعالى في آية التحريم ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ احترازاً عن زوجة الدعي، فإنه ليس من الصلب، فأما الابن من الرضاعة، فمنزل منزلة ابن الصلب شرعاً، بقوله ﷺ في الصحيحين: «يحرم من الرضاعة، ما يحرم من النسب».

فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحبيب، فليس مما نهي عنه في هذه الآية، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذي: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بني عبد المطلب، على حمرات لنا من جمع، فجعل يَلطخُ أفخاذنا ويقول: «أُبَيْنِيَّ لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس» قال أبو عبيدة وغيره: أُبينيَّ تصغير بني. وهذا ظاهر الدلالة، فإن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر.

٥- وقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان. وأيضاً ففي صحيح مسلم: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني» ورواه أبو داود والترمذي.

---

(١) الحديث رواه مسلم في الرضاع (٢/ ١٠٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقوله عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إنْ عُرفوا، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم، أي: عوضاً عما فاتهم من النسب، ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء، وتبعتهم ابنة حمزة رضي الله عنها تنادي: يا عم يا عم، فأخذها علي رضي الله عنه وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك، فاحتملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر رضي الله عنهم في أيهم يكفلها، فكل أدلى بحجة، فقال علي رضي الله عنه: أنا أحق بها، وهي ابنة عمي، وقال زيد: ابنة أخي، وقال جعفر بن أبي طالب: ابنة عمي، وخالتها تحتي، يعني أسماء بنت عميس، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم» وقال لعلي رضي الله عنه: «أنت مني وأنا منك» وقال لجعفر رضي الله عنه: «أشبهتَ خلقي وخُلقي» وقال لزيد رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا»[١].

ففي هذا الحديث أحكام كثيرة، من أحسنها: أنه ﷺ حكم بالحق، وأرضى كلا من المتنازعين. وقال لزيد رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا» كما قال تعالى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

وروى ابن جرير: عن عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه قال: قال أبو بكرة رضي الله عنه: قال الله عز وجل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ فأنا ممن لا يعرف أبوه، فأنا من إخوانكم في الدين، قال أبي: والله إني لأظنه أنه لو علم أن أباه كان حماراً لانتمى إليه.

وقد جاء في الحديث: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر»[٢]، وهذا تشديد وتهديد، ووعيد أكيد، في التبري من النسب المعلوم، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي: إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ، ورفع إثمه، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى، آمراً عباده أن يقولوا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: قد فعلت».

وفي صحيح البخاري: عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر». وفي الحديث الآخر: «إن الله تعالى رفع عن أمتي الخطأ والنسيان والأمر الذي يكرهون عليه»[٣].

وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: وإنما الإثم على من تعمد الباطل، كما قال عز وجل: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ الآية. وفي الحديث المتقدم: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه، إلا كفر».

وفي القرآن المنسوخ: (فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم).

روى الإمام أحمد: عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل

---

(١) رواه البخاري في الصلح (٥/ ٣٠٣- ٣٠٤) من حديث البراء رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن ماجة (٢٠٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «إنَّ الله وضع عن أمتي..».

معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرَجَم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، ثم قال: قد كنا نقرأ (وَلا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم)...

ورواه في الحديث الآخر: «ثلاثٌ في النَّاس كفر: الطعنُ في النسب، والنِّياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم»(١).

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦)﴾

٦ - قد علم الله تعالى شفقة رسول الله ﷺ على أمته، ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده، لا يُؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه، من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»(٢).

وفي الصحيح أيضاً: أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، والله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء، إلا من نفسي، فقال ﷺ: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: يا رسول الله، والله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء، حتى من نفسي، فقال ﷺ: «الآن يا عمر»(٣).

ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وروى البخاري عند هذه الآية الكريمة: عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به، في الدنيا والآخرة؛ اقرءوا إن شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً، فليرثه عصبته من كانوا، وإنْ ترك ديناً أو ضياعاً، فليأتني فأنا مولاه» تفرد به البخاري، ورواه أيضاً في الاستقراض.

وقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهنَّ وأخواتهنَّ بالإجماع، وإن سمَّى بعض العلماء بناتهنَّ أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشافعي رضي الله عنه في المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة، لا إثبات الحكم، وهل يقال لمعاوية وأمثاله خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء رضي الله عنهم، ونص الشافعي رضي الله عنه: على أنه يقال ذلك، وهل يقال له ﷺ أبو المؤمنين، فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليباً؟ فيه قولان، صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لا يقال ذلك، وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي رضي الله عنه.

وقد روي عن أبي بن كعب وابن عباس رضي الله عنهم: أنهما قرآ: (النَّبِيُّ أَولَى بالمؤمنين من أنفُسهِمْ وَأَزْواجهُ أُمَّهاتُهُمْ وهو أبٌ لهم) وروي نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن، وهو أحد الوجهين في

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٦٢) من حديث أبي هريرة بلفظ: «ثلاث من عمل أهل الجاهلية...» لكن فيه: «ودعوى الجاهلية...».

ورواه من حديث أبي مالك الأشعري (٥/ ٣٤٤) ومسلم في الجنائز (٢/ ٦٤٤) بلفظ: «أربع في أمتي من الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب...».

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري في الأيمان والنذور (١١/ ٥٢٣).

مذهب الشافعي رضي الله عنه. حكاه البغوي وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط، فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه» وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرمة. وأخرجه النسائي وابن ماجة.

والوجه الثاني: أنه لا يقال ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة، التي كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أي: ذهب الميراث، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية، وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: هذا الحكم، وهو: أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، حُكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول، الذي لا يبدل ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد، وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي، وقضائه القدري الشرعي، والله أعلم.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ⑦ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ⑧ ﴾

٧- يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة، وبقية الأنبياء، أنه أخذ عليهم العهد والميثاق، في إقامة دين الله تعالى، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ فذكر الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم ومن بينهما على الترتيب، فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فبدأ في هذه الآية بالخاتم، لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم.

وقد قيل: إن المراد بهذا الميثاق: الذي أُخذ منهم حين أُخرجوا في صورة الذَّر من صلب آدم عليه الصلاة والسلام، كما روي عن أبي بن كعب. وهذا قول مجاهد أيضاً، وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ: العهد.

٨- وقوله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل، وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: من أممهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: موجعاً. فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات

ربهم، ونصحوا الأمم، وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلي، الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء، وإنْ كذَّبهم من الجهلة والمعاندين، والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال، كما يقول أهل الجنة ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)﴾

٩ - يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين، في صرفه أعداءهم، وهزمه إياهم، عام تألبوا عليهم وتحزبوا، وذلك عام الخندق، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة، على الصحيح المشهور، وقال موسى بن عقبة وغيره: كان في سنة أربع، وكان سبب قدوم الأحزاب: أن نفراً من أشراف يهود بني النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام ابن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش، وألبوهم على حرب النبي ﷺ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة، فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان: عيينة بن حصن ابن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم، أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر، وكان في حفره ذلك آيات، ودلائل واضحات. وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾.

وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، فأسندوا ظهورهم إلى «سَلع» ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والذرارى في آطام المدينة، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل، فذهب إليهم حُيي بن أخطب النضري فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، فعظم الخطب، واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامري، وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية، ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه، فيقال: إنه لم يبرز إليه أحد، فأمر علياً رضي الله عنه فخرج إليه، فتجاولا ساعة ثم قتله علي رضي الله عنه، فكان علامة على النصر.

ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء، ولا توقد لهم نار، ولا يقر لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً﴾ قال مجاهد: وهي «الصَّبا» ويؤيده الحديث الآخر: «نُصرتُ بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدَّبور»(١). وروى ابن جرير: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أرسلني خالي عثمان بن مظعون رضي الله عنه ليلة الخندق، في برد شديد وريح إلى المدينة، فقال: ائتنا بطعام ولحاف، قال: فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي، وقال: «مَنْ أتيتَ من أصحابي، فمرهم يرجعوا» قال: فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ، قال: فما يلوي أحد منهم عنقه، قال: وكان معي ترس لي، فكانت الريح تضربه عليَّ، وكان فيه حديد، قال: فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي، فأنفذها إلى الأرض.

وقوله: ﴿وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة، زلزلتهم و ألقت في قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بني فلان إلي، فيجتمعون إليه، فيقول: النَّجاء النَّجاء، لما ألقى الله عز وجل في قلوبهم الرعب.

وقد روى مسلم في صحيحه: عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان رضي الله عنه فقال له رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت، فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، في ليلة ذات ريح شديدة وقرّ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتي بخبر القوم، يكون معي يوم القيامة» فلم يُجبه منا أحد، ثم الثانية ثم الثالثة مثله، ثم قال ﷺ: «يا حذيفة قم فائتنا بخبر من القوم» فلم أجد بُدّاً إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: «ائتني بخبر القوم، ولا تَذْعرهم عليَّ» قال: فمضيت كأنما أمشي في حمَّام، حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يُصلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تَذْعرهم عليَّ، ولو رميته لأصبته» قال: فرجعت كأنما أمشي في حمَّام، فأتيت رسول الله ﷺ، ثم أصابني البرد حين فرغتُ وقُررت، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قُمْ يَا نَوْمَان».

وأخرج أبو داود في سننه منه: كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صلى.

١٠ - وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ تقدم عن حذيفة رضي الله عنه: أنهم بنو قريظة. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي: من شدة الخوف والفزع. ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ قال ابن جرير: ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ، أن الدائرة على المؤمنين، وأن الله سيفعل ذلك، وقال محمد بن إسحاق: ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق، حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط! وقال الحسن: ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله، ولو كره المشركون.

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا

---

(١) رواه البخاري في الاستسقاء وغيره (٢/ ٥٢٠) ومسلم في الاستسقاء أيضاً (٢/ ٦١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
والصبا: الريح التي مهبها من مشرق الشمس، وضدها الدبور.

وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾

١١ ، ١٢- يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ، أنهم ابتلوا واختبروا ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ، فحينئذ ظهر النفاق ، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ أما المنافق فنجم نفاقه ، والذي في قلبه شبهة ، أو حسكة لضعف حاله ، فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه ، لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال .

١٣- وقوم آخرون : قالوا كما قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يعني : المدينة ، كما جاء في الصحيح : «أُريتُ في المنام دار هجرتكم ، أرضٌ بين حرَّتين ، فذهب وَهْلي أنها هَجر ، فإذا هي يثرب» وفي لفظ : «المدينة» .

وقوله : ﴿لاَ مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي : ههنا ، يعنون : عند النبي ﷺ في المقام المرابطة ﴿فَارْجِعُوا﴾ أي : إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ﴾ قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما : هم بنو حارثة ، قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق ، وكذا قال غير واحد ؛ وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك هو : أوس بن قيظي ، يعني : اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة ، أي : ليس دونها ما يحجبها من العدو ، فهم يخشون عليها منهم ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ أي : ليست كما يزعمون ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ أي : هرباً من الزحف .

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

١٤- يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة ، وقطر من أقطارها ، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ ، وهي : الدخول في الكفر ، لكفروا سريعاً ، وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع . هكذا فسره قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير ، وهذا ذم لهم في غاية الذم .

١٥- ثم قال تعالى يُذكِّرُهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف ، أن لا يولوا الأدبار ، ولا يفرون من الزحف ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾ أي : وإن الله تعالى سيسألهم عن ذلك العهد ، لا بد من ذلك .

١٦- ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ، ولا يطول أعمارهم ، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي : بعد هربكم وفراركم ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ .

١٧- ثم قال تعالى : ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي : يمنعكم ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ

رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ليس لهم ولا لغيرهم من الله مجير ولا مغيث.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩)﴾

١٨- يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب، والقائلين لإخوانهم، أي: أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: إلى ما نحن فيه، من الإقامة في الظلال والثمار، وهم مع ذلك ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

١٩- ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاء بالمودة والشفقة عليكم، وقال السدي ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الغنائم ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: فإذا كان الأمن تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية، في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿سَلَقُوكُم﴾ أي: استقبلوكم، وقال قتادة: أما عند الغنيمة، فأشح قوم وأسوأه مقاسمة، أعطونا أعطونا، قد شهدنا معكم، وأما عند البأس، فأجبن قوم وأخذله للحق، وهم مع ذلك ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: ليس فيهم خير، قد جمعوا الجبن والكذب، وقلة الخير، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلاً هيناً عنده.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)﴾

٢٠- وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة، في الجبن والخور والخوف ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ بل هم قريب منهم، وأن لهم عودة إليهم ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أي: ويودون إذا جاءت الأحزاب، أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة، بل في البادية يسألون عن أخباركم، وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً، لكثرة جبنهم وذلتهم، وضعف يقينهم، والله سبحانه وتعالى العالم بهم.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾

٢١- هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته، ومرابطته ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربه عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا،

وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: هلا اقتديتم به، وتأسيتم بشمائله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

٢٢- ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين، المصدقين بموعود الله لهم، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: يعنون قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته، بالنسبة إلى الناس وأحوالهم، كما قال جمهور الأئمة: إنه يزيد وينقص، وقد قررنا ذلك في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

ومعنى قوله جلت عظمته: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي: ذلك الحال والضيق والشدة ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ بالله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أي: انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤)﴾

٢٣- لما ذكر عز وجل عن المنافقين، أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار، وصف المؤمنين أنهم استمروا على العهد والميثاق و ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ قال بعضهم: أجله. وقال البخاري: عهده وهو يرجع إلى الأول ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ أي: وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه، روى البخاري: عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال: لما نسخنا المصحف، فقدت آية من سورة الأحزاب، كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها، لم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ تفرد به البخاري ومسلم، وأخرجه أحمد في مسنده، والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما.

وروى البخاري أيضاً: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية، انفرد به البخاري من هذا الوجه، ولكن له شواهد من طرق أخر. روى الإمام أحمد: عن أنس: عمي أنس بن النضر رضي الله عنه سميت به، لم يشهد مع رسول الله يوم بدر، فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ، ليَرَينَّ الله عز وجل ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال له أنس رضي الله عنه: يا أبا عمرو، أين؟ واهاً لريح الجنة، إني أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قُتل رضي الله عنه، قال: فوُجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع ابنة النضر: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه، قال: فنزلت

هذه الآية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه، وفي أصحابه رضي الله عنهم. ورواه مسلم والترمذي والنسائي.

وروى ابن أبي حاتم: عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة رضي الله عنه قال: لما أن رجع رسول الله ﷺ من أُحد صعد المنبر، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وعزَّى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ الآية كلها، فقام إليه رجل من المسلمين فقال: يا رسول الله من هولاء؟ فأقبلت وعليَّ ثوبان أخضران حضرميان، فقال: «أيها السائل هذا منهم» وكذا رواه ابن جرير، وأخرجه الترمذي في التفسير والمناقب أيضاً.

وعن موسى بن طلحة قال: دخلت على معاوية رضي الله عنه، فلما خرجت دعاني، فقال: ألا أضع عندك يا ابن أخي حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ؟ أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «طلحة ممن قضى نحبه» رواه ابن جرير.

ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ يعني: عهده ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قال: يوماً فيه القتال، فيصدق في اللقاء، وقال الحسن ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ﴾ يعني: موته على الصدق والوفاء، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك، ومنهم من لم يبدل تبديلاً. وكذا قال قتادة وابن زيد، وقال بعضهم ﴿نَحْبَهُ﴾ نذره. وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ أي: وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه، وما نقضوه كفعل المنافقين، الذين قالوا ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ۞ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال، ليميز الخبيث من الطيب، فيظهر أمر هذا بالفعل، وأمر هذا بالفعل، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم، حتى يعملوا بما يعلمه منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ فهذا علم بالشيء بعد كونه، وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده. وكذا قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾.

ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به ومحافظتهم عليه ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ وهم الناقضون لعهد الله، المخالفون لأوامره، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا، إن شاء استمر بهم على ما فعلوا، حتى يلقوه فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم، بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان، والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان.

ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هي الغالبة، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً (٢٥)﴾

٢٥- يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب، لما أجلاهم عن المدينة، بما أرسل عليهم من الريح والجنود

الإلهية ، ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين ، لكانت هذه الريح عليهم ، أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد ، ولكن قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم ، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم ، لم ينالوا خيراً ، لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا في الآخرة ، بما تحملوه من الآثام ، في مبارزة الرسول ﷺ بالعداوة ، وهمهم بقتله واستئصال جيشه ، ومن هم بشيء وصدق همه بفعله ، فهو في الحقيقة كفاعله .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي : لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم ، حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : «لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده» أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي الصحيحين : عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : «اللهمَّ مُنزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهمَّ اهزمهم وزلزلهم» .

وفي قوله عز وجل : ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون في بلادهم ، كما روى الإمام أحمد : عن سليمان بن صرد رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : «الآن نغزوهم ولا يغزونا» وهكذا رواه البخاري في صحيحه .

وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي : بحوله وقوته ردهم خائبين ، لم ينالوا خيراً ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴾

٢٦ - قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة ، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، وكان ذلك بسفارة حيي بن أخطب النضري لعنه الله ، دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال : ويحك قد جئتك بعز الدهر ، أتيتك بقريش وأحابيشها وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه ، فقال له كعب : بل والله أتيتني بذل الدهر ، ويحك يا حيي ، إنك مشئوم فدعنا منك ، فلم يزل يفتل في الذِّروة والغارب حتى أجابه ، واشترط حيي : إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء ، أن يدخل معهم في الحصن ، فيكون له أسوتهم ، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول ﷺ ، ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جداً ، فلما أيده الله تعالى ونصره وكبت الأعداء ، وردهم خائبين بأخسر صفقة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً ، ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها ، إذ تبدَّى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجراً بعمامة من استبرق ، على بغلة عليها قطيفة من ديباج ، فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله؟ قال ﷺ :

«نعم» قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة، وفي رواية: فقال له عُذيرك من مقاتل، أوضعتم السلاح؟ قال: «نعم» قال: لكنا لم نضع أسلحتنا بعد، انهض إلى هؤلاء، قال ﷺ: «أين؟» قال: بني قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال ﷺ: «لا يصلينَّ أحدٌ منكم العصر إلا في بني قريظة» فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق، فصلى بعضهم في الطريق، وقالوا: لم يُرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير، وقال آخرون: لا نصليها إلا في بني قريظة، فلم يُعَنِّف واحداً من الفريقين، وتبعهم رسول الله ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه، لأنهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك، كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول في مواليه بني قينقاع، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبي في أولئك، ولم يعلموا أن سعداً رضي الله عنه كان قد أصابه سهم في أكحله أيام الخندق، فكواه رسول الله ﷺ في أكحله، وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب، وقال سعد رضي الله عنه فيما دعا به: اللهمَّ إن كنتَ أبقيت من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها؛ وإن كنتَ وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة. فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدَّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم، طلباً من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطؤوا له عليه، جعل الأوس يلوذون به ويقولون: يا سعد، إنهم مواليك فأحسن فيهم، ويرققونه عليهم ويعطفونه، وهو ساكت لا يرد عليهم، فلما أكثروا عليه قال رضي الله عنه: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فعرفوا أنه غير مستبقيهم، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم» فقام إليه المسلمون فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له، في محل ولايته، ليكون أنفذ لحكمه فيهم، فلما جلس قال له رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء ـ وأشار إليهم ـ قد نزلوا على حكمك، فاحكم فيهم بما شئت» فقال رضي الله عنه: وحكمي نافذ عليهم؟ قال ﷺ: «نعم» قال: وعلى من في هذه الخيمة؟ قال: «نعم» قال: وعلى من ههنا ـ وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً ـ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم» فقال رضي الله عنه: إني أحكم أن تُقتل مقاتلتهم، وتسبي ذريتهم وأموالهم، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمتَ بحكم الله تعالى، من فوق سبعة أرقعة». وفي رواية: «لقد حكمت بحكم الملك» ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فخدت في الأرض، وجيء بهم مكتفين، فضرب أعناقهم، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة، وسبى من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه، في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً، ولله الحمد والمنة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ أي: عاونوا الأحزاب، وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني قريظة من اليهود، من بعض أسباط بني إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً، طمعاً في اتباع النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ فعليهم لعنة الله، وقوله تعالى: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يعني: حصونهم. كذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والسدي وغيرهم من السلف، ومنه: سمى صياصي البقر، وهي قرونها لأنها أعلى شيء فيها.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وهو الخوف ، لأنهم كانوا مالؤا المشركين على حرب النبيﷺ ، وليس من يعلم كمن لا يعلم ، وأخافوا المسلمين ، وراموا قتلهم ليعزوا في الدنيا ، فانعكس عليهم الحال ، وانقلب إليهم القتال ، انشمر المشركون ، ففازوا بصفقة المغبون ، فكما راموا العز ذلوا ، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة ، فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء .

وروى الإمام أحمد : عن عطية القرظي قال : عُرضت على النبيﷺ يوم قريظة ، فشكُّوا فيَّ ، فأمر النبيﷺ أن ينظروا : هل أنبتُّ بعد؟ فنظروني فلم يجدوني أنبت ، فخلى عني وألحقني بالسبي . وكذا رواه أهل السنن كلهم .

وقوله تعالى : ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي : جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ قيل : خيبر ، وقيل : مكة . رواه مالك عن زيد بن أسلم ، وقيل : فارس والروم ، وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً . ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾

٢٨ ، ٢٩- هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسولهﷺ بأن يخيِّر نساءه ، بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ، ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن : الله ورسوله الدار الآخرة ، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة . روى البخاري : عن عائشة رضي الله عنها زوج النبيﷺ أن رسول الله جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه ، قالت : فبدأ بي رسول اللهﷺ فقال : «إني ذاكرٌ لك أمراً ، فلا عليك أن لا تستعجلي ، حتى تستأمري أبويك» وقد علمَ أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت : ثم قال : «إن اللهَ تعالى قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

وروى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت عائشة رضي الله عنها : أنزلت آية التخيير ، فبدأ بي أول امرأة من نسائه ، فقالﷺ : «إنِّي ذاكرٌ لك أمراً ، فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك» قالت : وقد علم أن أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت : ثم قال : «إن الله تبارك وتعالى قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ الآيتين ، قالت عائشة رضي الله عنها فقلت : أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، ثم خير نساءه كلهن ، فقلن مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهن . وأخرجه البخاري ومسلم .

وروى الإمام أحمد : عن عائشة رضي الله عنها قالت : خيرنا رسول اللهﷺ فاخترناه ، فلم يعدها علينا شيئاً[1] أخرجاه .

---

(١) أي : لم يعدها طلاقاً . انظر الفتح (٩/٣٦٨).

وروى الإمام أحمد: عن جابر رضي الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس، والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فدخلا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ﷺ ساكت، فقال عمر رضي الله عنه: لأكلمنَّ النبي ﷺ لعله يضحك، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتني النفقة آنفاً، فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: «هن حولي يسألنني النفقة» فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده! فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، قال: وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة رضي الله عنها، فقال: «إني أذكر لك أمراً، ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك» قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ الآية، قالت عائشة رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله تعالى ورسوله، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت، فقال ﷺ: «إنَّ الله تعالى لم يبعثني معنِّفاً، ولكن بعثني معلِّماً ميسِّراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترتِ، إلا أخبرتُها» انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، فرواه هو والنسائي.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد: عن علي رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خيَّر نساءه الدنيا والآخرة، ولم يخيرهن الطلاق. وهذا منقطع. وقد روي عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك، وهو خلاف الظاهر من الآية، فإنه قال: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ أي: أعطيكن حقوقكن، وأطلق سراحكن، وقد اختلف العلماء في جواز تزوج غيره لهن لو طلقهن، على قولين، أصحهما: نعم لو وقع، ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم.

قال عكرمة: وكان تحته ﷺ يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضي الله عنهن، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النضيرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين.

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾

٣٠- يقول تعالى واعظاً نساء النبي ﷺ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ، فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهو النشوز وسوء الخلق - وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فلما كانت محلتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع، ولهذا قال تعالى: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم: في الدنيا والآخرة. وعن ابن أبي نجيح عن

مجاهد مثله ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: سهلاً هيناً.

٣١- ثم ذكر عدله وفضله في قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: يطع الله ورسوله ويستجب ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي: في الجنة، فإنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة، التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾

٣٢- هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، فقال تعالى مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن، فإنه لا يشبههن أحد من النساء، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة. ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ قال السدي وغيره: يعني بذلك: ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، ولهذا قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: دغل ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً، معروفاً في الخير، ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب، كما تخاطب زوجها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية: الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن تفلات». وفي رواية: «وبيوتهن خير لهن». وروى البزار: عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة عورة، إذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون بروحة ربها وهي في قعر بيتها» ورواه الترمذي نحوه.

وروى البزار بإسناده المتقدم وأبو داود أيضاً: عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها» وهذا إسناد جيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية. وقال قتادة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ يقول: إذا خرجتن من بيوتكن، وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج، فنهى الله تعالى عن ذلك، وقال مقاتل بن حيان: والتبرج: أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نهاهن أولاً عن الشر، ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا، لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما

وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح. وروى ابن أبي حاتم: عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة.

وقال عكرمة: من شاء باهلته، أنها نزلت في شأن نساء النبي ﷺ. فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن، فصحيح، وإن أُريد أنهن المراد فقط، دون غيرهن، ففي هذا نظر، فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك.

(الحديث الأول): روى الإمام أحمد: عن شداد بن عمار قال: دخلت على واثلة بن الأسقع رضي الله عنه وعنده قوم فذكروا علياً رضي الله عنه فشتموه، فشتمته معهم، فلما قاموا قال لي: شتمت هذا الرجل؟ قلت: قد شتموه فشتمته معهم! ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله؟ قلت: بلى، قال: أتيت فاطمة رضي الله عنها أسألها عن علي رضي الله عنه، فقالت: توجه إلى رسول الله ﷺ فجلست أنتظره، حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين رضي الله عنهم، آخذ كل واحد منهما بيده، حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة رضي الله عنهما وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً رضي الله عنهما كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه ـ أو قال: كساءه ـ ثم تلا ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق». وقد رواه أبو جعفر بن جرير نحوه، زاد في آخره: قال واثلة رضي الله عنه فقلت: وأنا يا رسول الله ﷺ من أهلك؟ قال ﷺ: «وأنتَ مِن أهلي»[1] قال واثلة رضي الله عنه: وإنها من أرجى ما ارتجى.

(طريق أخرى): روى ابن جرير: عن حكيم بن سعد قال: ذكرنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند أم سلمة رضي الله عنها، فقالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قالت أم سلمة: جاء رسول الله ﷺ إلى بيتي، فقال: «لا تأذني لأحد» فجاءت فاطمة رضي الله عنها، فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها، ثم جاء الحسن رضي الله عنه، فلم أستطع أن أمنعه عن جده وأمه، وجاء الحسين، فلم أستطع أن أحجبه عن جده ﷺ وأمه رضي الله عنها، ثم جاء علي رضي الله عنه فلم أستطع أن أحجبه، فاجتمعوا فجلَّلهم رسول الله بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط، قالت: فقلت: يا رسول الله وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم، وقال: «إنك إلى خير».

(حديث آخر): روى ابن جرير: عن عائشة رضي الله عنها: خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحّل من شعر أسود، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة رضي الله عنها فأدخلها معه، ثم جاء علي رضي الله عنه فأدخله معه، ثم قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ رواه مسلم. وروى مسلم في صحيحه: عن يزيد بن حبان قال: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلمة إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد

---

(١) قال الطحاوي في مشكل الآثار: (٢/ ٢٤٦): وواثلة أبعد منه ﷺ من أم سلمة منه، لأنه إنما هو رجل من بني ليث ليس من قريش، وأم سلمة موضعها من قريش موضعها الذي هي به منه، فكان قوله لواثلة: «وأنت من أهلي» على معنى: لاتباعك إياي، وإيمانك بي، فدخلت بذلك في جملتي. قال: وقد وجدنا الله ذكر في كتابه ما يدل على هذا المعنى بقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فأجابه في ذلك بأن قال له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ . . .

ما سمعت من رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخي، والله لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا، ومالا فلا تكلفوا فيه، ثم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماءٍ يدعى خُمّاً بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثَقلين: أولهما كتاب الله تعالى، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله عز وجل ورغّب فيه ثم قال: «وأهل بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثاً» فقال له حصين: وَمَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم، قال: كل هؤلاء حُرِم الصدقة بعده؟ قال: نعم.

ثم رواه بنحو ما تقدم، وفيه: فقلت له: من أهل بيته نساؤه؟ قال: لا، وأيم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده. هكذا وقع في هذه الرواية، والأُولى أولى، والأخذ بها أحرى. وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه، إنما المراد بهم آله الذين حرموا الصدقة، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله، وهذا الاحتمال أرجح، جمعاً بينها وبين الرواية التي قبلها، وجمعاً أيضاً بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت، فإن في بعض أسانيدها نظراً، والله أعلم[1].

ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن، أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: واعملن بما يُنَزِّل الله تبارك وتعالى، على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة وغير واحد. واذكرن هذه النعمة التي خصصتنَّ بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه. قال بعض العلماء رحمه الله: لأنه لم يتزوج بكراً سواها، لم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ، ورضي عنها، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية، كما تقدم في الحديث: «وأهل بيتي أحق».

وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال: «هو مسجدي هذا». فهذا من هذا القبيل، فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء، كما ورد في الأحاديث الأخر، ولكن إذا كان ذاك أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ أي: بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته بكن وإنكن أهل لذلك، أعطاكن ذلك وخصكن بذلك، قال ابن جرير رحمه الله: واذكرن نعمة الله عليكن، بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ أي: ذا لطف

---

(١) قد حذفنا الضعيف منها ههنا.

بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله. والحكمة: هي السنة. خبيراً بكن، إذ اختاركن لرسوله أزواجاً. وقال قتادة ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: يمتنُّ عليهن بذلك، رواه ابن جرير. وقال عطية العوفي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ يعني: لطيفاً باستخراجها، خبيراً بموضعها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روي عن الربيع بن أنس عن قتادة.

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥) ﴾

٣٥- روى الإمام أحمد: عن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبيﷺ تقول: قلت للنبيﷺ: ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال؟ قالت: فلم يرُعني منه ذات يوم، إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرح شعري، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة من حجر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيها الناس، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى آخر الآية.

وهكذا رواه النسائي وابن جرير.

(طريق أخرى): وقد رواه ابن جرير: عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أيذكر الرجال في كل شيء ولا نُذكر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه، لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وفي الصحيحين: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فيسلبه الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه، كما قررناه في أول شرح البخاري.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ القنوت: هو الطاعة في سكون ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها، وهو الإيمان، ثم القنوت ناشئ عنهما.

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ هذا في الأقوال، فإن الصدقة خصلة محمودة، ولهذا كان بعض الصحابة رضي الله عنهم لم تجرب عليه كذبة، لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا «عليكم بالصِّدق فإنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة، وإيَّاكُم وَالكَذِبَ، فَإنَّ الكَذب يَهدي إلَى الفُجُور، وإنَّ الفُجُورَ يَهدي إلَى النَّار، ولاَ يزَالُ الرَّجلُ يَصدُقُ وَيتحرَّى الصِّدْقَ، حتَّى يُكتَبَ عندَ اللهِ صِدِّيقاً، ولاَ يزَالُ الرَّجُلُ يَكذِبُ ويَتحرَّى الكَذِبَ، حتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ كَذَّاباً»[1]. والأحاديث فيه كثيرة جداً.

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٤/ ٢٠١٣) من حديث عبد الله رضي الله عنه بنحوه.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ هذه سجية الأثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدر كائن لا محالة، وتلقى ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها.

﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ الخشوع: السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته، كما في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ الصدقة: هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كسب لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال، طاعة لله وإحساناً إلى خلقه. وقد ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظِلَّ ظله» ـ فذكر منهم ـ «ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلمَ شِمالُه ما تنفق يمينه».

وفي الحديث الآخر: «والصَّدقةُ تُطفئُ الْخَطيئة، كما يُطفئُ الماء النار»(١).

والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً، له موضع بذاته.

﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ قال سعيد بن جبير: من صام رمضان، وثلاثة أيام من كل شهر، دخل في قوله تعالى: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾. ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة، كما قال رسول الله ﷺ: «يا مَعْشَرَ الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» ناسب أن يذكر بعده: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ أي: عن المحارم والمآثم، إلا عن المباح، كما قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ روى ابن أبي حاتم: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا أيقظ الرجلُ امرأته من الليل، فصليا ركعتين، كُتِبا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذَّاكِرات» وقد رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ بمثله.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فأتى على جُمدان فقال: «هذا جُمدان(٢)، سيروا فقد سبق المفردون» قالوا: وما المفردون؟ قال ﷺ: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»، ورواه مسلم.

وروى الإمام أحمد: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عمل آدميٌّ عملاً قط، أنجى له من عذاب الله تعالى، من ذكر الله عز وجل». وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة، ومن أن تلقوا عدوكم غداً، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «ذكر الله عز وجل».

---

(١) رواه الترمذي (٢٧٦٢) وابن ماجة (٣٩٧٣) عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: «لقد سألتني عن عظيم، إنه ليسير على من يسَّره عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة...» الحديث بطوله.

(٢) اسم جبل في طريق مكة بين ينبع والعيص على ليلة من المدينة (معجم البلدان).

وسنذكر إن شاء الله تعالى بقية الأحاديث الواردة في كثرة الذكر، عند قوله تعالى في هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ الآية إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ خبرٌ عن هؤلاء المذكورين كلهم، أي: أن الله تعالى قد أعد لهم، أي: هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم، وأجراً عظيماً وهو الجنة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً (٣٦)﴾

٣٦- **(روي)** عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضي الله عنه، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسباً، وكانت امرأة فيها حدَّة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية كلها. وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان أنها نزلت في زينب بنت جحش رضي الله عنها حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فامتنعت ثم أجابت.

وروى الإمام أحمد: عن أبي برزة الأسلمي قال: إن جليبيباً كان امرءاً يدخل على النساء يمرُّ بهن ويلاعبهن، فقلت لامرأتي: لا تدخلن عليكن جليبيباً، فإنه إنْ دخل عليكن لأفعلن ولأفعلن، قالت: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم، لم يزوجها حتى يَعلم: هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا، فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار: «زوجني ابنتك» قال: نعم، وكرامة يا رسول الله ونعمة عين، فقال ﷺ: «إني لستُ أريدها لنفسي» قال: فلمن يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لجليبيب» فقال: يا رسول الله، أشاور أمها، فأتى أمها فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتك، فقالت: نعم ونعمة عين، فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب، فقالت: أجليبيب إنيه أجليبيب إنيه؟ لا، لعمر الله لا نزوجه، فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمها، قالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ ادفعوني إليه، فإنه لن يضيعني، فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: شأنك بها فزوجها جليبيباً، قال: فخرج رسول الله ﷺ في غزوة له، فلما أفاء الله عليه، قال لأصحابه رضي الله عنهم: «هل تفقدون من أحد» قالوا: نفقد فلاناً ونفقد فلاناً، قال ﷺ: «انظروا هل تفقدون من أحد» قالوا: لا، قال ﷺ: «لكنني أفقد جليبيباً» قال ﷺ: «فاطلبوه في القتلى» فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه، فقالوا: يا رسول الله، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه، فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه، فقال: «قتل سبعة وقتلوه، هذا مني وأنا منه» مرتين أو ثلاثاً، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه، وحَفر له، ما له سرير إلا ساعد النبي ﷺ، ثم وضعه في قبره، ولم يذكر أنه غسله رضي الله عنه. قال ثابت رضي الله عنه: فما كان في الأنصار أيمٌ أنفق منها. وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتاً، قال: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ، فقال: قال: «اللهمَّ صُبَّ عليها صبّاً، ولا تجعل عيشها كدّاً» وكذا كان، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها. هكذا أورده الإمام أحمد بطوله، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله.

وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في «الاستيعاب» أن الجارية لما قالت في خدرها: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ نزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته، ولا

اختيار لأحد ههنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)﴾

٣٧- يقول تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ، أنه قال لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهو الذي أنعم الله عليه، أي: بالإسلام ومتابعة الرسول ﷺ ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: بالعتق من الرق، وكان سيداً كبير الشأن، جليل القدر، حبيباً إلى النبي ﷺ يقال له: الحِبّ. ويقال لابنه أسامة: الحب ابن الحب، قالت عائشة رضي الله عنها: ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمّره عليهم، ولو عاش بعده لاستخلفه، رواه الإمام أحمد.

وكان رسول الله ﷺ قد زوّجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها، وأمها أميمة بنت عبد المطلب، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهماً، وخماراً ومِلحفة ودرعاً، وخمسين مُدّاً من طعام وعشرة أمداد من تمر، قاله مقاتل بن حيان، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك واتّق الله» قال الله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾. ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها.

وقد روى الإمام أحمد ههنا أيضاً حديثاً عن أنس رضي الله عنه، فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً. وقد روى البخاري أيضاً بعضه مختصراً عنه قال: إن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رضي الله عنهما. وهكذا روي عن السدي أنه قال نحو ذلك.

وروى ابن جرير: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ الوطر: هو الحاجة والأرب، أي: لما فرغ منها وفارقها زوجناكها، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله عز وجل، بمعنى أنه أوحى أن يدخل عليها، بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر.

وروى الإمام أحمد: عن أنس رضي الله عنه قال: لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها، قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة: «اذهب فاذكرها عليَّ» فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي عز وجل، فقامت إلى مسجدها،

(١) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٦٠) بنحوه.

ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ، أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل ﷺ يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا، أو أُخبر فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووُعظ القوم بما وعظوا به: ﴿لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الآية كلها. ورواه مسلم والنسائي.

وقد روى البخاري رحمه الله: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زَوَّجَكُنَّ أهاليكن، وزوَّجَني الله تعالى من فوق سبع سموات.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾ أي: إنما أبحنا لك تزويجها، وفعلنا ذلك، لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة رضي الله عنه، فكان يقال: زيد بن محمد، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ﴾ ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً، بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها، لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه، ولهذا قال تعالى في آية التحريم: ﴿وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ﴾ ليحترز من الابن الدَّعي، فإن ذلك كان كثيراً فيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ أي: وكان هذا الأمر الذي وقع، قد قدَّره الله تعالى وحتمه، وهو كائن لا محالة، كانت زينب رضي الله عنها في علم الله، ستصير من أزواج النبي ﷺ.

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) ﴾

٣٨- يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ﴾ أي: فيما أحلَّ له وأمره به، من تزويج زينب رضي الله عنها، التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه. وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أي: هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشيء، وعليهم في ذلك حرج. وهذا ردٌّ على من توهم ـ من المنافقين ـ نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه، ودعيه الذي كان قد تبناه ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ أي: وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ وَلَكِن رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠) ﴾

٣٩- يمدح تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ﴾ أي: إلى خلقه، ويؤدونها بأماناتها ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾ أي: يخافونه ولا يخافون أحداً سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﴿وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾ أي: وكفى بالله ناصراً ومعيناً، وسيد الناس في هذا المقام ـ بل وفي كل مقام ـ محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة، وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بني آدم، وأظهر الله تعالى

كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة، وأما هوﷺ فإنه بُعث إلى جميع الخلق، عربهم وعجمهم ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾.

ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، في ليله ونهاره، وحضره وسفره، وسره وعلانيته، فرضي الله عنهم وأرضاهم. ثم ورثه كلُّ خلف عن سلفهم، إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدي المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون، فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم.

روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدريرَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللهﷺ: «لا يَحقرنَّ أحدكم نفسه، أن يرى أمراً لله فيه مقال ثم لا يقوله، فيقول الله: ما يمنعك أن تقول فيه؟ فيقول رب خشيت الناس، فيقول: فأنا أحق أن يخشى» ورواه ابن ماجة.

٤٠ - وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ نهى أن يقال بعد هذا: زيد بن محمد، أي: لم يكن أباه، وإن كان قد تبناه فإنهﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم، فإنهﷺ وُلد له: القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضي الله عنها فماتوا صغاراً، وولد لهﷺ إبراهيم من مارية القبطية، فمات أيضاً رضيعاً، وكان لهﷺ من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين، فمات في حياتهﷺ ثلاث، وتأخرت فاطمة رضي الله عنها حتى أصيبت بهﷺ، ثم ماتت بعده لستة أشهر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ كقوله عز وجل: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده، فلا رسول بالطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإنَّ كل رسول نبي ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول اللهﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

روى الإمام أحمد: عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيهرَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عن النبيﷺ قال: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة» ورواه الترمذي.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالكرَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي» قال: فشق ذلك على الناس، فقال: «ولكن المبشرات» قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم، وهي جزءٌ من أجزاء النبوة» وهكذا رواه الترمذي.

(حديث آخر): قال أبو داود الطيالسي: عن جابر بن عبد اللهرَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللهﷺ: «مثلي ومثل الأنبياء، كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها، إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها، قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، فأنا موضع اللبنة، ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام» ورواه البخاري ومسلم والترمذي.

(حديث آخر): عن أبي هريرةرَضِيَ اللهُ عَنْهُ رواه الإمام مسلم عنه: أن رسول اللهﷺ قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بست: أُعطيت جوامع الكلم، ونُصِرتُ بالرعب، وأُحِلَّت لي الغنائم، وجُعلتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون» ورواه الترمذي وابن ماجة.

(حديث آخر) : عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنَّ لي أسماء : أنا محمد وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقبُ الذي ليس بعده نبي» أخرجاه في الصحيحين .

والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد ، إرسال محمد ﷺ إليهم ، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له . وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب ، أفاك دجال ، ضال مضل ، ولو تحرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات ، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب ، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة ، والأقوال الباردة ، ما علم كل ذي لب وفهم وحجًى أنهما كاذبان ضالان ، لعنهما الله .

وكذلك كل مُدَّعٍ لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين ، يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ، إلا على سبيل الاتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم ، كما قال تعالى : **﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾** الآية .

وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم في غاية البر والصدق ، والرشد والاستقامة والعدل ، فيما يقولونه ويأمرون به وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات ، والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ، ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) ﴾

٤١ – يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين ، بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى ، المنعم عليهم بأنواع النعم ، وصنوف المنن ، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب . روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخيرٍ لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم ، فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم» قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال ﷺ : «ذكر الله عز وجل» وهكذا رواه الترمذي وابن ماجة . وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى : **﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾** في مسند الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ بنحوه ، فالله أعلم .

وروى الإمام أحمد : عن عبد الله بن بسر يقول : جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال ﷺ : «مَن طال عمره ، وحسن عمله» وقال الآخر : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فمرني بأمر أتشبث به ، قال ﷺ : «لا يزال لسانك رَطْباً بذكر الله تعالى» وروى الترمذي وابن

ماجة منه الفصل الثاني.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه، إلا رأوه حسرة يوم القيامة».

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة، إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر فإن الله تعالى لم يجعل له حداً ينتهى إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، إلا مغلوباً على تركه، فقال: ﴿اذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال، وقال عز وجل: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي: عند الصباح والمساء، كقوله عز وجل: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

٤٣- وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾ هذا تهييج إلى الذكر، أي: أنه سبحانه يذكركم، فاذكروه أنتم، كقوله عز وجل: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۞ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾.

وقال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: مَن ذكرني في نفسه، ذكرتُه في نفسي، ومَن ذكرني في ملإ، ذكرته في ملإٍ خيرٍ منه»(١). والصلاة من الله تعالى: ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية، وقال غيره: الصلاة من الله عز وجل الرحمة! وقد يقال لا منافاة بين القولين، والله أعلم.

وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار، كقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: بسبب رحمته بكم، وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال، إلى نور الهدى واليقين ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصَّرهم الطريق الذي ضلَّ عنه وحاد عنه مَن سواهم، من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم من الطغام، وأما رحمته بهم في الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة، والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم، ورأفته بهم.

وروى الإمام أحمد: عن أنس رضي الله عنه قال: مرَّ رسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه رضي الله عنهم وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم، خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، قال فخفَّضهم رسول الله ﷺ وقال: «ولا الله لا يلقي حبيبه في النار». إسناده على شرط الصحيحين، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة،

(١) رواه البخاري في التوحيد (١٣/ ٣٨٤) وغيره ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٤/ ٢٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولكن في صحيح الإمام البخاري: عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها، فألصقته إلى صدرها وأرضعته، فقال ﷺ: «أترون هذه تلقي ولدها في النار، وهي تقدر على ذلك؟» قالوا: لا، قال ﷺ: «فوالله، للهُ أرحمُ بعباده، من هذه بولدها».

٤٤- وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ الظاهر أن المراد ـ والله أعلم ـ تحيتهم، أي: من الله تعالى يوم يلقونه سلام، أي: يوم يسلم عليهم، كما قال الله عز وجل: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ وزعم قتادة أن المراد: أنهم يحيون بعضهم بعضاً بالسلام، يوم يلقون الله في الدار الآخرة، واختاره ابن جرير.

قلت: وقد يستدل له بقوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً﴾: يعني: الجنة وما فيها من المآكل والمشارب، والملابس والمساكن، والمناكح والملاذ والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٤٨)﴾

٤٥- روى الإمام أحمد: عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة، ببعض صفته في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وحرزاً للأميين، فأنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عُمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غُلْفاً.

وقد رواه البخاري في البيوع[1] وفي التفسير.

فقوله تعالى: ﴿شَاهِداً﴾ أي: لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ كقوله: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾. وقوله عز وجل: ﴿وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ أي: بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب.

٤٦- وقوله جلت عظمته: ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي: داعياً للخلق إلى عبادة ربهم، عن أمره لك بذلك ﴿وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ أي: وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند.

٤٧- وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي: لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي: اصفح وتجاوز عنهم، وكِلْ أمرهم إلى الله تعالى، فإن فيه كفاية لهم.

ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾.

---

(١) البيوع (٤/٣٤٢- ٣٤٣).

﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا إذا نكحتمُ المؤمنات ثمَّ طلَّقتموهنَّ من قبلِ أن تمسُّوهنَّ فما لكُم عليهنَّ من عدَّةٍ تعتدُّونها فمتِّعوهنَّ وسرِّحوهنَّ سراحًا جميلاً (٤٩)﴾

٤٩ - هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة، منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها، وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقة في العقد وحده، أو في الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده، إلا في هذه الآية، فإنه استعمل في العقد وحده، لقوله تبارك وتعالى: ﴿إذا نكحتمُ المؤمناتِ ثمَّ طلَّقتموهنَّ من قبلِ أن تمسُّوهنَّ﴾. وفيها: دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها. وقوله تعالى: ﴿المؤمناتِ﴾ خرج مخرج الغالب، إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن المسيب والحسن البصري وعلي بن الحسين زين العابدين وجماعة من السلف بهذه الآية، على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح، لأن الله تعالى قال: ﴿إذا نكحتمُ المؤمناتِ ثمَّ طلَّقتموهنَّ﴾ فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله، وهذا مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى، وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح، فيما إذا قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق، فعندهما متى تزوجها طلقت منه، واختلفا فيما إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة، وقال أبو حنيفة رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه. فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية، روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: إذا قال: كل امرأة أتزوجها فهي طالق، قال: ليس بشيء، من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا إذا نكحتمُ المؤمناتِ ثمَّ طلَّقتموهنَّ﴾ الآية. وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة.

وهكذا روى ابن ماجة: عن علي والمِسْوَر بن مَخرمة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا طلاق قبل النكاح».

وقوله عز وجل: ﴿فما لكُم عليهنَّ من عدَّةٍ تعتدُّونها﴾ هذا أمرٌ مجمع عليه بين العلماء، أن المرأة إذا طُلِّقت قبل الدخول بها، لا عدة عليها، فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿فمتِّعوهنَّ وسرِّحوهنَّ سراحاً جميلاً﴾ المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى، والمتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها. قال الله تعالى: ﴿وإن طلَّقتموهنَّ من قبلِ أن تمسُّوهنَّ وقد فرضتم لهنَّ فريضةً فنصفُ ما فرضتم﴾ وقال عز وجل: ﴿لا جناحَ عليكم إن طلَّقتمُ النساءَ ما لم تمسُّوهنَّ أو تفرضوا لهنَّ فريضةً ومتِّعوهنَّ على الموسعِ قدرُهُ وعلى المقترِ قدرُهُ متاعاً بالمعروفِ حقاً على المحسنين﴾.

وفي صحيح البخاري: عن سهل بن سعد وأبي أسيد رضي الله عنهما قالا: إن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها، ويكسوها ثوبين رازقيين.

قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنْ كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف، وإن لم يكن سمى لها صداقاً، أمتعها على قدر عسره ويسره، وهو السراح الجميل.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)﴾

٥٠ - يقول تعالى مخاطباً نبيهﷺ، بأنه قد أحلَّ له من النساء أزواجه، اللاتي أعطاهن مهورهن، وهي الأجور ههنا، كما قاله مجاهد وغير واحد. وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشاً وهو نصف أوقية، فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار، وإلا صفية بنت حيي، فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها ـ رضي الله عنهن أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام، وكانتا من السراري رضي الله عنهما. وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ الآية، هذا عدل وسط، بين الإفراط والتفريط، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة، إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى، فأباح بنت العم والعمة، وبنت الخال والخالة، وتحريم ما فرطت فيه اليهود، من إباحة بنت الأخ والأخت، وهذا شنيع فظيع، وإنما قال: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ فوحد لفظ الذكر لشرفه وجمع الإناث لنقصهن كقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾. وله نظائر كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قال أبو رزين وقتادة: أن المراد من هاجر معه إلى المدينة. وفي رواية عن قتادة: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي: أسلمن، وقال الضحاك: قرأ ابن مسعود: ﴿اللَّائِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ﴾ الآية، أي: ويحل لك أيها النبي: المرأة المؤمنة إنْ وهبت نفسها لك، أن تتزوجها بغير مهر، إن شئتَ ذلك. وهذه الآية توالى فيها شرطان، كقوله تعالى إخباراً عن نوحﷺ أنه قال لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وكقول موسىﷺ ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ وقال ههنا: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ الآية.

وقد روى الإمام أحمد: عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول اللهﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إني قد وهبتُ نفسي لك، فقامت قياماً طويلاً، فقام رجل فقال: يا رسول الله، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة، فقال رسول اللهﷺ: «هل عندك من شيء تصدقها إياه؟» فقال: ما عندي إلا إزاري هذا، فقال رسول

الله ﷺ: «إنْ أعطيتها إزارَكَ جلستَ لا إزارَ لك، فالتمس شيئاً» فقال: «لا أجد شيئاً، فقال: «التمس ولو خاتماً من حديد» فالتمس فلم يجد شيئاً، فقال له النبي ﷺ: «هل معك من القرآن شيء؟» قال: نعم، سورة كذا وسورة كذا ـ لسور يسميها ـ فقال له النبي ﷺ: «زوجتكها بما معك من القرآن» أخرجاه من حديث مالك.

وروى الإمام أحمد: عن ثابت قال: كنت مع أنس جالساً، وعنده ابنة له، فقال أنس: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت: يا نبي الله، هل لك فيَّ حاجة؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها! فقال: «هي خيرٌ منك»، رغبت في النبي فعرضت عليه نفسها» انفرد بإخراجه البخاري.

وروى أحمد أيضاً: عن أنس بن مالك: أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ابنة لي كذا وكذا ـ فذكرت من حسنها وجمالها ـ فآثرتك بها، فقال: «قد قبلتُها» فلم تزل تمدحها حتى ذكرتْ أنها لم تُصَدَّع، ولم تَشْتَكِ شيئاً قط، فقال: «لا حاجة لي في ابنتك». لم يخرجوه.

وروى ابن أبي حاتم: عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ: خولة بنت حكيم. وروى ابن وهب عن هشام بن عروة عن أبيه: أن خولة بنت حكيم بن الأوقص من بني سليم، كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وفي رواية: كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت لرسول الله ﷺ، وكانت امرأة صالحة. فيحتمل أن أم سليم هي: خولة بنت حكيم، أو هي: امرأة أخرى.

وعن قتادة عن ابن عباس: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ قال: هي ميمونة بنت الحارث. فيه انقطاع، هذا مرسل. والمشهور أن زينب التي كانت تدعى «أم المساكين» هي زينب بنت خزيمة الأنصارية، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته، فالله أعلم.

والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير، كما روى البخاري: عن عائشة قالت: كنتُ أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، وأقول: أتهبُ المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرى ربَّك إلا يسارع في هواك.

وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال عكرمة: أي: لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل، لم تحل له حتى يعطيها شيئاً. وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما.

أي: إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وَجَب عليه لها مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ في بروع بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها، لما توفي عنها زوجها، والموت والدخول سواء في تقرير المهر، وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ، فأما هو عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء، ولو دخل بها، لأن له أن يتزوج بغير صداق، ولا ولي ولا شهود، كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها، ولهذا قال قتادة في قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل، بغير ولي ولا مهر، إلا للنبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال أبي بن كعب ومجاهد والحسن وقتادة وابن جرير: أي: من حصرهم في أربع نسوة حرائر، وما شاءوا من الإماء، واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة، وقد رخصنا لك في ذلك، فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) ﴾

٥١- روى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت تغير من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحيي المرأة أن تَعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ الآية، قالت: إني أرى ربَّك يُسارع لك في هواك. وقد تقدم أن البخاري رواه.

فدل هذا على أن المراد بقوله: ﴿تُرْجِي﴾ أي: تُؤخر ﴿مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: من الواهبات ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ أي: مَن شئت قبلتها، ومن شئت رددتها، ومَن رددتها، أنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن شئت عدت فيها فأويتها، ولهذا قال: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾. قال عامر الشعبي في قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ الآية: كن نساءاً وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، فدخل ببعضهن، وأرجأ بعضهن، لم يُنكحن بعده، منهن أم شريك. وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ الآية، أي: من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القسم لهن، فتقدم من شئت وتؤخر من شئت، وتجامع من شئت، وتترك من شئت. هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأبي رزين وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم، إلى أنه لم يكن القَسم واجباً عليه ﷺ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة.

وروى البخاري: عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا، بعد أن نزلت هذه الآية: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ فقالت: كنت أقول: إن كان ذاك إليَّ، فإني لا أريد يا رسول الله أن أُوثر عليك أحداً.

فهذا الحديث عنها: يدل على أن المراد من ذلك عدم وجود القسم، وحديثها الأول يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات، ومن ههنا اختار ابن جرير أن الآية عامة، في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده، أنه مخير فيهن، إنْ شاءَ قسمَ، وإن شاء لم يقسم، وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي، وفيه جمع بين الأحاديث، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت، ثم مع هذا إن تقسم لهن اختياراً منك، لا أنه على سبيل الوجوب، فرحن بذلك واستبشرن به، وحملن جميلتك في ذلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن، وتسويتك بينهن، وإنصافك لهن وعدلك فيهن.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه، كما روى الإمام أحمد: عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهمَّ هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» ورواه أهل السنن الأربعة، وزاد أبو داود بعد قوله: «فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني: القلب. وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات.

ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي: بضمائر السرائر ﴿حَلِيمًا﴾ أي: يحلم ويغفر.

﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾

٥٢- ذكر غير واحد من العلماء: كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم، أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ، ورضا عنهن على حسن صنيعهن، في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية، فلما اخترن رسول الله ﷺ، كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن، وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسَّراري، فلا حرج عليه فيهن، ثم إنه تعالى رَفع عنه الحرج في ذلك، ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج، لتكون المنة لرسوله ﷺ عليهن.

روى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلَّ الله له النساء. ورواه الترمذي والنسائي في سننيهما. فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة، كآيتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها، والله أعلم. وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك، من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات، والخال والخالات، والواهبة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك، وهذا مروي عن أبيّ بن كعب ومجاهد في رواية عنه، وعكرمة والضحاك في رواية وأبي رزين في رواية عنه، وأبي صالح والحسن وقتادة في رواية، والسدي وغيرهم. وقال مجاهد: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد ما سمى لك، لا مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة، وقال عكرمة ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: التي سمى الله.

واختار ابن جرير رحمه الله: أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفي النساء اللواتي في عصمته، وكن تسعاً. وهذا الذي قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف، فإن كثيراً منهم رُوي عنه هذا وهذا ولا منافاة، والله أعلم.

ثم أورد ابن جرير على نفسه، ما روي أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها، وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ الآية، وهذا الذي قاله، من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح، ولكن لا يحتاج إلى ذلك، فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته، وأنه لا يستبدل بهنَّ غيرهنَّ، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهنَّ من غير استبدال، فالله أعلم.

فأما قضية سودة: ففي الصحيح عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها، وهي سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ الآية.

وأما قضية حفصة: فروى أبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه: عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله ﷺ طلق حفصة، ثم راجعها. وهذا إسناد قوي.

وروى الحافظ أبو يعلى: عن ابن عمر قال: دخل عمر على حفصة وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك، إنه كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى، لا أكلمك أبداً. ورجاله على شرط الشيخين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ فنهاه عن الزيادة عليهن إن طلق واحدة منهن، واستبدال غيرها بها، إلا ما ملكت يمينه.

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما (٥٣) إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما (٥٤) ﴾

٥٣ - هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه: أنه قال: وافقت ربي عز وجل في ثلاث: قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب، وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ﴾ فنزلت كذلك. وفي رواية لمسلم: ذكر أسارى بدر. وهي قضية رابعة.

وقد روى البخاري: عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب. وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، التي تولى الله تعالى تزويجها بنفسه، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة، في قول قتادة والواقدي وغيرهما، وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث، فالله أعلم.

روى البخاري: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقوا فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ الآية. وقد رواه أيضاً في موضع آخر ومسلم والنسائي.

ثم روى عن أنس بن مالك قال: بُني على النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلتُ على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا رسول الله، ما أجد أحداً أدعوه، قال: «ارفعوا طعامكم» وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، وخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها، فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته» قالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك يا رسول الله؟ بارك الله لك، فتقرّى حجر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أم أُخبر، أن القوم خرجوا، فرجع حتى إذا وضع رجله في أُسكُفّة الباب داخله، والأخرى خارجه أرخى الستر بيني وبينه،

وأنزلت آية الحجاب. انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب الستة، سوى النسائي في اليوم والليلة.

وروى الإمام أحمد: عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله لزيد: «اذهب فاذكرها عليّ» قال: فانطلق زيد حتى أتاها ـ وهي تخمر عجينها ـ فلما رأيتها عظمت في صدري؛ وذكر تمام الحديث كما قدمناه عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ وزاد في آخره بعد قوله: ووعظ القوم بما وعظوا به، قال هاشم في حديثه ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الآية. وقد أخرجه مسلم والنسائي. وروى ابن جرير: عن عائشة قالت: إن أزواج رسول الله ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع ـ وهو صعيد أفيح ـ وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل؛ فخرجت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة! حرصاً على أن ينزل الحجاب، قالت: فأنزل الله الحجاب.

هكذا وقع في هذه الرواية، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب، كما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين؟ قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عَرْق، فدخلت فقلت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر كذا وكذا؛ قالت: فأوحى الله إليه، ثم رفع عنه وإن العَرق في يده ما وضعه، فقال: «إنه قد أذن لكنَّ أن تخرجن لحاجتكنَّ» لفظ البخاري.

فقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إياكم والدخول على النساء» الحديث (١).

ثم استثنى من ذلك فقال تعالى: ﴿إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أي: غير متحينين نضجه واستواه، أي: لا ترقبوا الطعام إذا طبخ، حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه، وهذا دليل على تحريم التطفُّل، وهو الذي تسميه العرب: الضيفن، وقد صنف الخطيب البغدادي في ذلك كتاباً في «ذم الطفيليين» وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ وفي صحيح مسلم: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب، عرساً كان أو غيره» وأصله في الصحيحين.

وفي الصحيح أيضاً: عن رسول الله ﷺ: «لو دُعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أُهدي إليَّ كُراع لقبلت، فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه، فخفِّفوا عن أهل المنزل، وانتشروا في الأرض»(٢).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: كما وقع لأولئك النفر الثلاثة، الذين استرسل بهم

---

(١) رواه البخاري في النكاح (٩/ ٣٣٠) ومسلم في السلام (٤/ ١٧١١) وتمامه، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت».

(٢) هو في البخاري في الهبة (٥/ ١٩٩) وفي النكاح (٩/ ٢٤٥) إلى قوله: «ولو أهدي إلي كراع لقبلت» وهكذا رواه أحمد (٢/ ٤٢٤، ٤٧٩، ٤٨١، ٥١٢) والترمذي (١٣٣٨) وغيرهم.

الحديث، ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾. وقيل: المراد إن دخولكم منزله بغير إذنه، كان يشق عليه، ويتأذى به، ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك، من شدة حيائه ﷺ، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن، فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب. وروى ابن أبي حاتم: عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ حَيْساً في قَعْب، فمر عمر فدعاه فأكل، فأصابت إصبعه إصبعي، فقال: حَس، أو أوه، لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزل الحجاب.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: هذا الذي أمرتكم به، وشرعته لكم من الحجاب، أطهر وأطيب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال: نزلت في رجل همَّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده. قال رجل لسفيان: أهي عائشة؟ قال قد ذكروا ذلك[1].

وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه، أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة، وأمهات المؤمنين كما تقدم. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته: هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلّها لغيره والحالة هذه نزاعاً، والله أعلم.

وروى ابن جرير: عن عامر أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قيلة ابنة الأشعث ـ يعني ابن قيس ـ فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك، فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله، إنها ليست من نسائه، إنها لم يخيرها رسول الله ﷺ ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها، قال: فاطمأن أبو بكر رضي الله عنه وسكن.

وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: مهما تكنه ضمائركم، وتنطوي عليه سرائركم؛ فإن الله يعلمه، فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)﴾

٥٥ ـ لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ

(١) وفي سنده لين، فيه مهران بن أبي عمر الرازي، ضعفه غير واحد، ووثقه بعضهم.

﴿التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ وفيها زيادات على هذه. وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقد سأل بعض السلف فقال: لم لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين؟ فأجاب عكرمة والشعبي: بأنهما لم يذكرا لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما. روى ابن جرير: عن الشعبي وعكرمة في قوله تعالى: ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ﴾ الآية، قلت: ما شأن العم والخال لم يذكرا؟ قال: لأنهما ينعتانها لأبنائهما، وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعني به أرقاءهن من الذكور والإناث، كما تقدم التنبيه عليه، وإيراد الحديث فيه، قال سعيد ابن المسيب: إنما يعني به الإماء فقط، رواه ابن أبي حاتم. وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ أي: واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا يخفى عليه خافية، فراقبن الرقيب.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦)﴾

٥٦- روى البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى، ثناؤه عليه عند الملائكة، صلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس ﴿يُصَلُّونَ﴾ يبرِّكون. هكذا علقه البخاري عنهما، وروي مثله عن الربيع أيضاً، وروى عن علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس كما قاله سواء، رواهما ابن أبي حاتم، وقال أبو عيسى الترمذي: وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار، ثم روى ابن أبي حاتم: عن الأعمش عن عمرو بن مرة ـ قال الأعمش: أراه ـ عن عطاء بن أبي رباح ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال: صلاته تبارك وتعالى: سبوح قدوس، سبقت رحمتي غضبي.

والمقصود من هذه الآية، أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه.

ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً. وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصلي على عباده المؤمنين، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الآية، وفي الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف»[(١)].

وفي الحديث الآخر: «اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر، وقد سألته أن يصلي عليها وعلى زوجها: «صلَّى الله عليك وعلى زوجك»[(٣)].

---

(١) رواه أبو داود (٦٧٦) وابن ماجة (١٠٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسنده حسن، لكن أخطأ بعض رواته في المتن حيث قال: «على ميامن الصفوف»! وصوابه كما رواه جماعة من الثقات بلفظ: «على الذين يَصلون الصفوف» وقال البيهقي: إنه المحفوظ، وبهذا اللفظ أخرجه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما... انظر صحيح سنن أبي داود (٣/ ٢٥٥) للعلامة الألباني رحمه الله.

(٢) رواه البخاري في مواضع؛ أولها في الزكاة (٣/ ٣٦١) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد (٣/ ٣٩٨) وأبو داود (١٣٧٢) وابن حبان (١٩٥٠، ١٩٥٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه، وكيفية الصلاة عليه، ونحن نذكر منها إن شاء الله ما تيسر، والله المستعان: روى البخاري عند تفسير هذه الآية: عن كعب بن عجرة قال: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: قولوا: «اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهمَّ بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم من طرق متعددة. ومعنى قولهم: «أما السلام عليك فقد عرفناه» هو الذي في التشهد الذي كان يعلمهم إياه، كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وفيه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

(حديث آخر): روى البخاري: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله، هذا السلام فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ عبدكَ ورسولك، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم».

(حديث آخر): روى الإمام أحمد عن أبي حميد الساعدي: أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وقد أخرجه بقية الجماعة سوى الترمذي.

(حديث آخر): روى مسلم: عن أبي مسعود الأنصاري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد ابن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم؛ وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم(١)» وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير.

ورواه الشافعي رحمه الله في مسنده عن أبي هريرة بمثله، ومن ههنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير، فإن تركه لم تصح صلاته، وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم، يشنِّع على الإمام الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة، ويزعم أنه قد تفرد بذلك، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبري والطحاوي والخطابي وغيرهم، فيما نقله القاضي عياض عنهم، وقد تعسف هذا القائل في رده على الشافعي، وتكلف في دعواه الإجماع في ذلك، وقال مالم يحط به علماً، فإنا قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة، كما هو ظاهر الآية، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة، منهم ابن مسعود وأبو مسعود البدري وجابر بن عبد الله، ومن التابعين الشعبي وأبو جعفر الباقر ومقاتل بن حيان، وإليه ذهب الشافعي، لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيراً، فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي به، وبه قال إسحاق بن راهويه، والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكي رحمهم الله تعالى، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في الصلاة عليه: صلى الله عليه وسلم، كما علمهم أن يقولوا لما سألوه، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب

---

(١) «كما قد علمتم» أي: السلام كما علمتم في التشهد، وهو قولهم: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وقد أمركم الله تعالى بالصلاة وهذه صفتها.

الصلاة على «آله»، ممن حكاه البندنيجي وسليم الرازي وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسي، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالي قولاً عن الشافعي. والصحيح أنه وجه، على أن الجمهور على خلافه، وحكوا الإجماع على خلافه، والقول بوجوبه ظاهر الحديث، والله أعلم. والغرض أن الشافعي رحمه الله لقوله بوجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة، سلف وخلف كما تقدم، ولله الحمد والمنة، فلا إجماع على خلافه في هذه المسألة، لا قديماً ولا حديثاً، والله أعلم.

ومما يؤيد ذلك الحديث الآخر: الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما: عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، لم يمجد الله ولم يصلِّ على النبي، فقال رسول الله ﷺ: «عجل هذا» ثم دعاه، فقال له أو لغيره: «إذا صلَّى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله عز وجل والثناء عليه، ثم ليصل على النبي، ثم ليدع بعد بما شاء».

(حديث آخر): روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَن صلَّى عليَّ صلاةً، لم تزل الملائكة تُصلي عليه ما صلَّى عليَّ، فليُقِلَّ عبدٌ من ذلك أو ليكثر» ورواه ابن ماجة.

(حديث آخر): روى إسماعيل القاضي: عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يخرج في جوف الليل فيقول: «جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه» فقال أبي: يا رسول الله، إني أصلِّي من الليل، فأجعل لك ثلث صلاتي؟ قال رسول الله ﷺ: «الشطر» قال: أفأجعل لك شطر صلاتي؟ قال رسول الله ﷺ: «الثلثان» قال: أفأجعل لك صلاتي كلها، قال: «إذن يغفر الله ذنبك كله».

وقد رواه الترمذي: عن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام، فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه» قال أبي: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئتَ» قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: فالنصف؟ قال: «ماشئتَ، فإنْ زدتَ فهو خير لك» قلت: فالثلثين؟ قال: «ماشئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن تُكفى همّك. ويغفر لك ذنبك».

(حديث آخر): قال الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ﷺ فأتبعته، حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود، حتى خفت أو خشيت أن يكون قد توفاه الله أو قبضه. قال: فجئت أنظر فرفع رأسه، فقال: «مالك يا عبد الرحمن؟» قال: فذكرت ذلك له، فقال: «إن جبريل عليه السلام قال لي: ألا أبشرك! إن الله عز وجل يقول: مَن صلَّ عليك صليت عليه، ومن سلَّم عليك سلّمت عليه».

(حديث آخر): روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «مَن صلَّى عليَّ صلاةً واحِدةً، صلَّى الله عليه بها عشراً».

وفي الباب: عن عبد الرحمن بن عوف وعامر بن ربيعة وعمار وأبي طلحة وأنس وأبي بن كعب.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «مَن صلَّى عليَّ صلاة واحدة، صلَّى الله عليه عشر صلوات، وحطَّ عنه عشر خطيئات».

(حديث آخر): روى الإمام أحمد: عن علي بن الحسين عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «البخيلُ مَن ذُكرتُ عنده، ثم لم يصل عليَّ» وقا أبو سعيد: «فلم يُصلِّ عليَّ» ورواه الترمذي.

(حديث آخر): روى الترمذي: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ، ورغِمَ أنفُ رجلٍ دخل عليه شهر رمضان، ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة». قلت: وقد رواه البخاري في الأدب. وقد ذكرت طرق هذا الحديث في أول كتاب الصيام، وعند قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾.

وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة على النبي ﷺ كلما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي. وذهب آخرون: إلى أنه تجب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة، ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس، بل تستحب، نقله الترمذي عن بعضهم، ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما جلسَ قومٌ مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم، إلا كان عليهم تِرةً يوم القيامة، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم» تفرد به الترمذي من هذا الوجه، ورواه الإمام أحمد.

وحكى عن بعضهم: أنه إنما تجب الصلاة عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في العمر مرة واحدة، امتثالاً لأمر الآية، ثم هي مستحبة في كل حال. وهذا هو الذي نصره القاضي عياض، بعد ما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة. قال: وقد حكى الطبري أن محمل الآية على الندب، وادعى فيه الإجماع. قال: ولعله فيما زاد على المرة والواجب فيه مرة، كالشهادة بالنبوة، وما زاد على ذلك فمندوب ومرغّب فيه من سنن الإسلام، وشعار أهله. قلت: وهذا قول غريب، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجب، ومنها مستحب على ما نبينه. فمنه بعد النداء للصلاة، للحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن عبد الله ابن عمرو بن العاص يقول: إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم مؤذناً، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة، صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حَلّت عليه الشفاعة» وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

(أثر حسن): روى إسماعيل القاضي: عن ابن عباس يقول: اللهمَّ تقبَّل شفاعة محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وأعطه سؤله في الآخرة والأولى، كما آتيت إبراهيم وموسى عليهما السلام. إسناد جيد قوي صحيح.

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه، للحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد، صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحمتِك» وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وافْتَحْ لِي أبواب فَضْلِكَ».

وأما الصلاة عليه ﷺ في الصلاة: فقد قدمنا الكلام عليها في التشهد الأخير، ومن ذهب إلى ذلك من العلماء، منهم الشافعي رحمه الله وأكرمه وأحمد، وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولا واحداً، وهل تستحب؟ على قولين للشافعي. ومن ذلك الصلاة عليه ﷺ في صلاة الجنازة، فإن السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة

الكتاب، وفي الثانية أن يصلي على النبيﷺ، وفي الثالثة يدعو للميت، وفي الرابعة يقول: اللهمَّ لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده(١).

وروى الشافعي رحمه الله: عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: أنه أخبره رجل من أصحاب النبيﷺ: أن السنة في الصلاة على الجنازة، أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سراً في نفسه، ثم يصلي على النبيﷺ، ويخلص الدعاء للجنازة، وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها، ثم يسلم سراً في نفسه. ورواه النسائي عن أبي أمامة نفسه، أنه قال: من السنة فذكره، وهذا من الصحابي في المرفوع على الصحيح. ورواه إسماعيل القاضي عن سعيد بن المسيب، هكذا روي عن أبي هريرة وابن عمر والشعبي.

ومن ذلك في صلاة العيد: روى إسماعيل القاضي: عن ابن مسعود وأبي موسى وحذيفة: خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل صلاة العيد، فقال لهم: إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه؟ قال عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربك وتصلي على النبيﷺ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبيﷺ، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تركع. فقال حذيفة وأبو موسى: صدق أبو عبد الرحمن، إسناد صحيح.

ومن ذلك: أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليهﷺ. روى الترمذي: عن عمر بن الخطاب قال: الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد منه شيء، حتى تصلي على نبيك(٢).

ومن آكد ذلك: دعاء القنوت، لما رواه أحمد وأهل السنن وابن خزيمة وابن حبان والحاكم: عن الحسن ابن علي رضي الله عنهما قال: علَّمني رسول اللهﷺ كلماتٍ أقولهنَّ في الوتر: اللهمَّ اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولَّني فيمن تولَّيت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت. وزاد النسائي في سننه بعد هذا: وصلى الله على محمد.

ومن ذلك: أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة، وليلة الجمعة. روى الإمام أحمد: عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلق آدم وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ» قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أَرِمتَ؟ يعني: وقد بليت، قال: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجة، وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والنووي في الأذكار، وهكذا يجب على الخطيب أن يصلي على النبيﷺ يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك، لأنها عبادة، وذكر الله شرط فيها، فوجب ذكر الرسولﷺ فيها، كالأذان والصلاة، هذا مذهب الشافعي وأحمد رحمهما الله.

---

(١) كذا قال الحافظ ههنا! مع أن الحديث الذي وردت فيه هذه العبارة، ليس فيه تخصيص ذلك بالتكبيرة الرابعة! انظر سنن ابن ماجة (١٤٩٨) باب ما جاء في الدعاء في الصلاة على الجنازة، وأوله: «اللهمَّ اغفر لحيِّنا وميِّتنا، وشاهدنا وغائبنا...».

(٢) قال العلامة الألباني: وهو في حكم المرفوع، لأن مثله لا يقال بالرأي كما قال السخاوي في «القول البديع في الصلاة على الشفيع» (صـ٢٢٣)، وحكاه عن أئمة الحديث والأصول. «الصحيحة (٥/ ٥٥)».

ومن ذلك: أنه يستحب الصلاة والسلام عليه، عند زيارة قبرهﷺ. روى أبو داود: عن أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال: «ما منكم من أحدٍ يُسلِّم عليَّ، إلا ردَّ الله عليَّ روحي، حتى أردَّ عليه السلام» تفرد به أبوداود، وصححه النووي في الأذكار.

ثم روى أبو داود: عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم» تفرد به أبو داود أيضاً، وقد رواه الإمام أحمد، وصححه النووي أيضاً. وقد روي من وجه آخر عن عليﷺ. وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود: أن رسول اللهﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض، يُبلِّغُوني عن أمتي السّلام» وهكذا رواه النسائي.

قال أصحابنا: ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تلبيته، أن يصلي على النبيﷺ لما روى إسماعيل القاضي: عن عمر الخطابﷺ قال: إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً، وصلوا عند المقام ركعتين، ثم ائتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت، فكبروا سبع مرات، تكبيراً بين حمد الله وثناء عليه، وصلاة على النبيﷺ ومسئلة لنفسك، وعلى المروة مثل ذلك. إسناد جيد قوي.

قالوا: ويستحب الصلاة على النبيﷺ مع ذكر الله عند الذبح، واستأنسوا بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال بعض المفسرين: يقول الله تعالى: لا أذكر إلا ذكرت معي. وخالفهم في ذلك الجمهور وقالوا: هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى، كما عند الأكل والدخول والوقاع، وغير ذلك مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبيﷺ.

(مسئلة): وقد استحب أهل الكتابة، أن يكرر الكاتب الصلاة على النبيﷺ كلما كتبه، وقد ورد في الحديث، ولا يصح من ذلك شيء، والله أعلم. وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه ـ الجامع لآداب الراوي والسامع ـ قال: رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيراً ما يكتب اسم النبيﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة، قال: وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظاً.

(فصل): وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث: «اللهمَّ صلِّ على محمد وآله وأزواجه وذريته»، فهذا جائز بالإجماع، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم، فقال قائلون: يجوز ذلك، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ وبقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وبقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. وبحديث عبد الله ابن أبي أوفى قال: كان رسول اللهﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهمَّ صلِّ عليهم» فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى» أخرجاه في الصحيحين. وبحديث جابر: أن امرأته قالت: يا رسول الله صلِّ عليَّ وعلى زوجي، فقال: «صلَّى الله عليك وعلى زوجك».

قال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال: قال أبو بكر صلى الله عليه، وقال علي صلى الله عليه، وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: قال محمد عز وجل، وإن كان عزيزاً جليلاً، لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل، وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة، على الدعاء لهم، ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى ولا لجابر وامرأته، وهذا مسلك حسن.

وقال آخرون: لا يجوز ذلك، لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم، فلا يقتدى بهم في ذلك، والله أعلم.

ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو الكراهة التنزيهية، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاه الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار. ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثرون: أنه مكروه كراهة تنزيه، لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم، والمكروه: هو ما ورد فيه نهي مقصود. قال أصحابنا: والمعتمد في ذلك: أن الصلاة صارت مخصوصة في لسان السلف بالأنبياء، كما أن قولنا عز وجل مخصوص بالله تعالى، فكما لا يقال محمد عز وجل، وإن كان عزيزاً جليلاً، لا يقال أبو بكر أو علي صلى الله عليه. هذا لفظه بحروفه، قال: وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا: هو في معنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب، ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: علي عليه السلام، وسواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيخاطب به، فيقال: سلام عليك، والسلام عليك أو عليكم، وهذا مجمع عليه. انتهى ما ذكره.

(قلت): وقد غلب هذا في عبارة كثير من النسّاخ للكتب، أن يفرد علي رضي الله عنه، بأن يقال: عليه السلام من دون سائر الصحابة، أو كرم الله وجهه، وهذا وإن كان معناه صحيحاً، ولكن ينبغي أن يسوى بين الصحابة في ذلك، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه، رضي الله عنهم أجمعين. روى إسماعيل القاضي: عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة. وروى أيضاً: عن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أما بعد: فإن ناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم، عدل الصلاة على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين، ودعاؤهم للمسلمين عامة، ويدَعوا ما سوى ذلك. أثر حسن.

(فرع): قال النووي: إذا صلى على النبي ﷺ، فليجمع بين الصلاة والتسليم، فلا يقتصر على أحدهما، فلا يقول صلى الله عليه فقط، ولا عليه السلام فقط، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة، وهي قوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾** فالأولى أن يقال: صلى الله عليه وسلم تسليماً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨)﴾

٥٧ - يقول تعالى متهدداً ومتوعداً من آذاه، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره، وإصراره على ذلك، وإيذاء رسوله بعيب أو بنقص ـ عياذاً بالله من ذلك ـ قال عكرمة في قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** نزلت في المصورين. وفي الصحيحين: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره». ومعنى هذا: أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا، فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل، فنهى عن ذلك. هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء رحمهم الله.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب. والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومن آذاه فقد آذى الله، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله.

٥٨- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: ينسبون إليهم ما هم برآء منه، لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وهذا هو البهت الكبير، أن يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم، فإن الله عز وجل قد أخبر أنه قد رضي المهاجرين والأنصار ومدحهم، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً، فهم في الحقيقة منكسو القلوب، يذمون الممدوحين، ويمدحون المذمومين، وروى أبو داود: عن أبي هريرة أنه قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبْته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتَّه» وهكذا رواه الترمذي ثم قال: حسن صحيح.

وقد روى ابن أبي حاتم: عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيُّ الرِّبا أربى عند الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أربى الربا عند الله: استحلال عرض امرئ مسلم» ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٦٢) ﴾

٥٩- يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ تسليماً أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات ـ خاصة أزواجه وبناته لشرفهن ـ بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء، والجلباب: هو الرداء فوق الخمار. قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وعطاء الخراساني وغير واحد، وهو بمنزلة الإزار اليوم. قال الجوهري: الجلباب الملحفة، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً لها:

تمشي النسورُ إليه وهي لاهيةٌ مشي العذارى عليهنَّ الجلابيبُ

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة، أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عيناً واحدة. وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه، وأبرز عينه اليسرى. وقال عكرمة: تغطي ثغرة نحرها بجلبابها، تدنيه عليها.

وروى ابن أبي حاتم: عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها، وروى: عن يونس بن زيد قال:

وسألناه يعني الزهري: هل على الوليدة خمار، متزوجة أو غير متزوجة؟ قال: عليها الخمار إن كانت متزوجة، وتنهى عن الجلباب، لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات. وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي: إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر؛ لسن بإماء ولا عواهر؛ قال السدي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ قال: كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة يتعرضون للنساء، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب، قالوا: هذه حرَّة فكفوا عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب، قالوا: هذه أمة فوثبوا عليها. وقال مجاهد: يتجلببن فيعلم أنهن حرائر، فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لما سلف في أيام الجاهلية، حيث لم يكن عندهنّ علم بذلك.

٦٠- ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال عكرمة وغيره: هم الزناة ههنا ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يعني: الذين يقولون جاء الأعداء، وجاءت الحروب، وهو كذب وافتراء، لئن لم ينتهوا عن ذلك، ويرجعوا إلى الحق ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: لنسلطنك عليهم، وقال قتادة: لنحرشنك بهم، وقال السدي: لنعلمنك بهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا﴾ أي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

٦١- ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة، مطرودين مبعدين ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ أي: وجدوا ﴿أُخِذُوا﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾.

٦٢- ثم قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أي: هذه سنته في المنافقين، إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم، ولم يرجعوا عما هم فيه، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: وسنة الله في ذلك لا تُبدَّل ولا تغير.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾

٦٣- يقول تعالى مخبراً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، أنه لا علم له بالساعة، وإن سأله الناس عن ذلك، وأرشده أن يرد علمها إلى الله عز وجل، كما قال الله تعالى في سورة الأعراف، وهي مكية وهذه مدنية، فاستمر الحال في رد علمها إلى الذي يقيمها، لكن أخبره أنها قريبة بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

٦٤- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً﴾ أي: في الدار الآخرة.

٦٥- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ أي: ماكثين مستمرين، فلا خروج لهم منها، ولا زوال لهم عنها ﴿لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً﴾ أي: وليس لهم مغيث ولا معين، ينقذهم مما هم فيه.

٦٦- ثم قال: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ﴾ وهم كذلك ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ﴾ أي: يسحبون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ وقال تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه، أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله، وأطاعوا الرسول في الدنيا.

٦٧- ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾ وقال طاوس: ﴿سَادَتَنَا﴾ يعني: الأشراف، ﴿وَكُبَرَاءَنَا﴾ يعني: العلماء، رواه ابن أبي حاتم. أي: اتبعنا السادة، وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا الرسل، واعتقدنا أن عندهم شيئاً، وأنهم على شيء، فإذا هم ليسوا على شيء.

٦٨- ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ قرأ بعض القراء: بالباء الموحدة، وقرأ آخرون: بالثاء المثلثة، وهما قريبا المعنى، كما في حديث عبد الله بن عمرو: أن أبابكر قال: يا رسول الله، علمني دعاءً أدعو به في صلاتي، قال: قل: اللهمَّ إنِّي ظلمتُ نَفسِي ظُلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم» أخرجاه في الصحيحين، يروى: كثيراً وكبيراً، وكلاهما بمعنى صحيح. واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه، وفي ذلك نظر! بل الأولى أن يقول هذا تارة، وهذا تارة، كما أن القارئ مخير بين القراءتين، أيتهما قرأ فحسن، وليس له الجمع بينهما، والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩)﴾

٦٩- روى البخاري عند تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حيياً، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً﴾ هكذا أورد هذا الحديث ههنا مختصراً جداً، وقد رواه في أحاديث الأنبياء بهذا السند بعينه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً ستيراً، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر، إلا من عيب في جلده، إما برص وإما أُدرة وإما آفة، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام، فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عَدَا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَر، ثوبي حَجَر، حتى انتهى إلى ملإ من بني إسرائيل، فرأوه عُرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل، وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحَجَر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً» قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا

﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾. وهذا سياق حسن مطول، وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم في قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ قال: صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون ﷺ، فقال بنو إسرائيل لموسى ﷺ: أنت قتلته، كان ألين لنا منك، وأشد حياء، فآذوه من ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته، فمروا على مجالس بني إسرائيل، فتكلمت بموته، فما عرف موضع قبره إلا الرَّخَم، وإن الله جعله أصم أبكم. وهكذا رواه ابن جرير، ثم قال: وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى، وجائز أن يكون الأول هذا المراد، فلا قول أولى من قول الله عز وجل. قلت: يحتمل أن يكون الكل مراداً، وأن يكون معه غيره، والله أعلم. روى الإمام أحمد: عن عبد الله قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله! قال: فقلت: يا عدو الله، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمرَّ وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى، فقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر» أخرجاه في الصحيحين.

(طريق أخرى): روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا يُبلِّغني أحدٌ عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحبُّ أن أخرجَ إليكم وأنا سليم الصدر» فأتى رسول الله ﷺ مال فقسمه، قال: فمررت برجلين، وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله، ولا الدار الآخرة! قال: فتَثَبَّتُ حتى سمعت ما قالا، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنك قلت لنا: لا يبلغني أحد عن أصحابي شيئاً، وإني مررت بفلان وفلان، وهما يقولان كذا وكذا، فاحمرَّ وجه رسول الله ﷺ وشقَّ عليه، ثم قال: «دعنا منك، لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر». وقد رواه أبو داود والترمذي مختصراً.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ أي: له وجاهة وجاه عند ربه عز وجل. قال الحسن البصري: كان مستجاب الدعوة عند الله. وقال غيره من السلف: لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولكن مُنع الرؤية لما يشاء الله عز وجل. وقال بعضهم: من وجاهته العظيمة عند الله، أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه، فأجاب الله سؤاله فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾

٧٠، ٧١- يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا ﴿قَوْلاً سَدِيداً﴾ أي: مستقيماً، لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه، بأن يصلح لهم أعمالهم، أي: يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها. ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ وذلك أنه يجار من نار الجحيم، ويصير إلى النعيم المقيم. (وروي): عن ابن عباس موقوفاً: مَن سرَّه أن يكون أكرم الناس، فليتق الله.

قال عكرمة: القول السديد، لا إله إلا الله. وقال غيره: السديد الصدق. وقال مجاهد: هو السداد. وقال غيره: هو الصواب. والكل حق.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) ﴾

٧٢- قال العوفي عن ابن عباس: يعني بالأمانة: الطاعة، عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها، فقال لآدم: إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها، فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال: إن أحسنت جُزيت، وإن أسأت عوقبت، فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الأمانة الفرائض، عرضها الله على السموات والأرض والجبال، إنْ أدوها أثابهم، وإنْ ضيعوها عذبهم، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيماً لدين الله أن لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها، وهو قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ أي: غراً بأمر الله.

وروى ابن جرير: عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: عُرِضت على آدم، فقال: خذها بما فيها، فإن أطعت غفرت لك، وإن عصيت عذبتك، قال: قبلت، فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم، حتى أصاب الخطيئة، وقد روى الضحاك عن ابن عباس قريباً من هذا، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصري وغير واحد: إن الأمانة هي الفرائض. وقال آخرون: هي الطاعة. وقال أبي ابن كعب: من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها، وقال قتادة: الأمانة الدين والفرائض والحدود. وقال بعضهم: الغسل من الجنابة، وقال مالك عن زيد بن أسلم قال: الأمانة ثلاثة: الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة.

وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا من وفق الله، وبالله المستعان.

روى ابن جرير: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَمسٌ مَن جاء بهن يوم القيامة مع إيمان دخل الجنة: مَن حافظ على الصلوات الخمس، على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وأعطى الزكاة من ماله طيِّب النفس بها - وكان يقول - وأيم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأدى الأمانة» قالوا: يا أبا الدرداء، وما أداء الأمانة؟ قال رضي الله عنه: الغسل من الجنابة، فإنَّ الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيره. وهكذا رواه أبو داود.

ومما يتعلق بالأمانة، الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعَلِموا من القرآن، وعَلِموا من السنة. ثم حدثنا عن رفع الأمانة، فقال: ينام الرجل النومة فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل (أثر الوكت فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل) [1] أثر المجل، كجمر دحرجته على

(١) ما بين القوسين سقط من التفسير، واستدركناه من المسند (٥/ ٣٨٣).

رجلك تراه مُنتبراً وليس فيه شيء» ـ قال: ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله قال ـ : «فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل ما أجلدَه وأظرَفَه وأعقله، ومَا في قلبه حبة خردل من إيمان، ولقد أتى علي زمانٌ وما أبالي أيكم بايعت، إن كان مسلماً ليردنه علي دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه، فأما اليوم فما كنتُ أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً». وأخرجاه في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «أربعٌ إذا كن فيك، فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حِفْظُ أمانة، وصِدقُ حديثٍ، وحُسن خَليقة، وعفة طعمة».

وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة: ورد في ذلك حديث مرفوع، روى أبو داود: عن ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حلف بالأمانة فليس منا» تفرد به أبو داود رحمه الله.

٧٣- وقوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي: إنما حمل بني آدم الأمانة، وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله، ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله، ومخالفة رسله ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: وليرحم المؤمنين من الخلق، الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، العاملين بطاعته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

آخر تفسير سورة الأحزاب

****

ترتيبها ٣٤ | سورة سبأ - مكية | آياتها ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)﴾

١- يخبر تعالى عن نفسه الكريمة، أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة، لأنه المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده، وتحت تصرفه وقهره، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾ فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء. وقال مالك عن الزهري: خبير بخلقه، حكيم بأمره.

٢- ولهذا قال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبذور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك، عدده وكيفيته وصفاته ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من قطر ورزق، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي: الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب التائبين إليه، المتوكلين عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)﴾

٣- هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن، مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يُقسم بربه العظيم على وقوع المعاد، لمّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فإحداهن في سورة يونس عليه السلام، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ والثانية هذه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ والثالثة في سورة التغابن، وهي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ قال مجاهد وقتادة: لا يعزب عنه: لا يغيب عنه، أي: الجميع مندرج تحت علمه، فلا يخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم.

٤- ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة، بقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٥- ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أي: سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى، وتكذيب رسله، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أي: لينعم السعداء من المؤمنين، ويعذب الأشقياء من الكافرين، كما قال عز وجل: ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾.

٦- وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ هذه حكمة أخرى، معطوفة على التي قبلها، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل، إذا شاهدوا قيام الساعة، ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا، رأوه حينئذ عين اليقين، ويقولون يومئذ أيضاً: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ ويقال أيضاً: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ العزيز: هو المنيع الجناب، الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء وغلبه، الحميد: في جميع أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وهو المحمود في ذلك كله جل وعلا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩)﴾

٧- هذا إخبار من الله عز وجل عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: تفرقت أجسادكم في الأرض، وذهبت فيها كل مذهب، وتمزقت كل ممزق، ﴿إِنَّكُمْ﴾ أي: بعد هذا الحال ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك! وهو في هذا الإخبار، لا يخلو أمره من قسمين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى، أنه قد أوحي إليه ذلك، أو أنه لم يتعمد، لكن لُبِس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون.

٨- ولهذا قالوا: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ قال الله عز وجل راداً عليهم ﴿بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد، الذي جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ أي: الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا.

٩- ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته في خلق السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: حيثما توجهوا وذهبوا، فالسماء مظلة عليهم، والأرض تحتهم، كما قال عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾. روى عبد بن حميد: عن قتادة ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: إنك إن نظرت عن يمينك، أو عن شمالك، أو من بين يديك، أو من خلفك، رأيت السماء والأرض.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا. ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ قال قتادة ﴿مُّنِيبٍ﴾: تائب، وقال أيضاً: المنيب المقبل إلى الله تعالى. أي: إن في النظر إلى خلق السموات والأرض، لدلالة لكل عبد فطن لبيب، رجّاع إلى الله، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد، ووقوع المعاد، لأن مَن قَدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها، وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام، ونشر الرميم من العظام، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) ﴾

١٠- يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة و السلام، مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العَدد والعُدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذاسبَّح به، تسبح معه الجبال الراسيات، الصم الشامخات، وتقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته، ثم قال ﷺ: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود». وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صَنج ولا بَربَط ولا وتر، أحسن من صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوِّبِي﴾ أي: سبحي. قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد. وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى: سبحي، بلسان الحبشة، وفي هذا نظر، فإن التأويب في اللغة هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها. وقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ قال الحسن البصري وقتادة والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله ناراً، ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط.

١١- ولهذا قال تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ وهي: الدروع. قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح. ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام، في تعليمه صنعة الدروع، قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ لا تدق المسمار فيَقلق في الحلقة، ولا تغلظه فيقصمها، واجعله بقدر، وقال الحكم بن عيينة: لا تغلظه فيقصم ولا تدقه فيقلق، وهكذا روي عن قتادة وغير واحد. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السرد: هو حلق الحديد، وقال بعضهم: يقال درع مسرودة إذا كانت مسمورة الحلق.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي: في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: مراقب لكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عليَّ من ذلك شيء.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)﴾

١٢ – لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام، من تسخير الريح له، تحمل بساطه، غدوها شهر ورواحها شهر، قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر، يتغدى بها، ويذهب رائحاً من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع. وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني وقتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد: القطر: النحاس. قال قتادة: وكانت باليمن، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه، أي: بقدره، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وهو الحريق. وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً: فروى عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «الجنُّ على ثلاثة أصناف: صنفٌ لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنفٌ حيات وكلاب، وصنفٌ يحلُّون ويظعنون» رفعه غريب جداً[1].

وروي عن الحسن قال: الجن ولد إبليس، والإنس ولد آدم، ومن هؤلاء مؤمنون، ومن هؤلاء مؤمنون، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً، فهو ولي الله تعالى، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان.

١٣ – وقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ أما المحاريب: فهي البناء الحسن، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره. وقال مجاهد: المحاريب بنيان دون القصور. وقال الضحاك: هي المساجد. وقال قتادة: هي القصور والمساجد. وقال ابن زيد: هي المساكن. وأما التماثيل: فقال عطية العوفي والضحاك والسدي: التماثيل: الصور. قال مجاهد: وكانت من نحاس. وقال قتادة: من طين وزجاج. وقوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ الجواب: جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿كَالْجَوَابِ﴾ أي: كالجوبة من الأرض. وقال العوفي عنه: كالحياض. وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم. والقدور الراسيات: أي: الثابتات في أماكنها، لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها. كذا قال مجاهد والضحاك وغيرهما، وقال عكرمة: أثافيها منها.

وقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ أي: وقلنا لهم اعملوا شكراً، على ما أنعم به عليكم في الدين

---

(١) وإسناده صحيح، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في المشكاة (٤١٤٨) وفي صحيح الجامع (٣١١٥) وعزاه للطبراني والحاكم والبيهقي في الأسماء والصفات.

والدنيا، وشكراً: مصدر من غير الفعل، أو أنه مفعول له، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل، كما يكون بالقول والنية، كما قال الشاعر:

أفادتكم النَّعْماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضمير المحجَّبا

قال أبو عبد الرحمن السلمي: الصلاة شكر، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر، وأفضل الشكر: الحمد. رواه ابن جرير. وروى هو وابن أبي حاتم: عن محمد بن كعب القرظي قال: الشكر تقوى الله تعالى، والعمل الصالح، وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى، قولاً وعملاً. روى ابن أبي حاتم: عن ثابت البناني قال: كان داود ﷺ قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار، إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، فغمرتهم هذه الآية: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

وفي الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ أحبَّ الصلاةِ إلى اللهِ تعالى صلاةُ داود، كان ينام نصفَ الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحبَّ الصيام إلى الله تعالى صيامُ داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفرُّ إذا لاقى». وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ إخبار عن الواقع.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾

١٤ - يذكر تعالى كيفية موت سليمان ﷺ، وكيف عمَّى الله موته، على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه، وهي منسأته، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد، مدة طويلة نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهي الأَرَضة، ضعفت وسقط إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، تبينت الجن والإنس أيضاً: إن الجن لا يعلمون الغيب، كما كانوا يتوهمون، ويوهمون الناس ذلك. قال أصبغ: بلغني أنها قامت سنة تأكل منها، قبل أن يخر، وذكر غير واحد من السلف: نحواً من هذا، والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧)﴾

١٥ - كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ، شذر مذر، كما سيأتي إن شاء الله تعالى بتفصيله وبيانه قريباً، وبه الثق. روى الإمام أحمد رحمه الله: عن ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبإ ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: «بل هو رجل وَلَد عشرة، فسكن اليمن منهم

ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فمَذْحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحِميَر . وأما الشامية : فلخْم وجُذام وعاملة وغسَّان» ورواه عبد ، وهذا إسناد حسن ولم يخرجوه . ورواه الترمذي في جامعه .

قال علماء النسب ـ منهم محمد بن إسحاق ـ اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ في العرب ، وكان يقال له : الرائش ، لأنه أول من غنم في الغزو ، فأعطى قومه فسمي الرائش ، والعرب تسمي المال : ريشاً ورياشاً . وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم وقال في ذلك شعراً . . . ذكر ذلك الهمذاني في كتاب «الإكليل» .

واختلفوا في «قحطان» على ثلاثة أقوال : **(أحدها)** : أنه من سلالة أرم بن سام بن نوح ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه على ثلاث طرائق **(والثاني)** أنه من سلالة عَابر ـ وهو هود عليه الصلاة والسلام ، واختلفوا أيضاً في كيفية اتصال نسبه على ثلاث طرائق أيضاً ، **(والثالث)** : أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضاً . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ : أبو عمر بن عبد البر النمري رحمة الله تعالى عليه ، في كتابه المسمى «الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواه» .

ومعنى قوله ﷺ : «كان رجلاً من العرب» يعني العرب العاربة ، الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام ، من سلالة سام بن نوح ، وعلى القول الثالث ، كان من سلالة الخليل ﷺ ، وليس هذا بالمشهور عندهم ، والله أعلم . ولكن في صحيح البخاري : أن رسول الله ﷺ مر بنفر من أسلم يتنضلون ، فقال : «ارموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان رامياً» ، فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان ، من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد ، حين بعث الله عز وجل عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل لهم غسان ، بماء نزلوا عليه ، قيل : باليمن ، وقيل : إنه قريب من المُشلَّل ، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

أما سألت فأنا معشرٌ نُجُبٌ الأَزْدُ نسبتُنا والماء غسَّانُ

ومعنى قوله ﷺ : «ولَد عشرة من العرب» أي : كان من نسله هؤلاء العشرة ، الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة ، والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب . ومعنى قوله ﷺ : «فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة»[1] أي : بعد ما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها .

وكان من أمر السد أنه كان محكماً ، حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار ، واستغلوا الثمار ، في غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ـ وهو الذي تخترف فيه الثمار ـ فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه ، من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف ، لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب ، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب . وذكر آخرون : أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ، ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شيء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء ، وصحة المزاج ، وعناية الله

(١) وهي رواية الترمذي (٣٤٥٢) .

بهم ليوحدوه ويعبدوه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾ ثم فسرها بقوله عز وجل ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: من ناحيتي الجبلين، والبلدة بين ذلك ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

١٦- وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن توحيد الله، وعبادته وشكره، على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله، كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ المراد: بالعرم المياه، وقيل: الوادي، وقيل: الجرذ، وقيل: الماء الغزير، فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته، مثل مسجد الجامع، وسعيد كُرز، حكى ذلك السهيلي.

وذكر غير واحد منهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك: أن الله عز وجل لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها: الجرذ: نقبته. وقال قتادة وغيره: الجرذ هو الخلد، نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووهي، وجاءت أيام السيول، صدم الماء البناء فسقط، فانساب الماء في أسفل الوادي، وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني والحسن وقتادة والسدي: وهو الأراك، وأكلة البَرير ﴿وَأَثْلٍ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: هو الطرفاء. وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء، وقيل: هو السمر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر، قال: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء، والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل؛ وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل.

١٧- ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أي: عاقبناهم بكفرهم. قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور. وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم، لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور. وقال طاوس: لا يناقش إلا الكفور. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن خيرة وكان من أصحاب علي رضي الله عنه قال: جزاء المعصية: الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة. قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلال، إلا جاءه من يُنغصه إياها[1].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ

---

(١) في سنده من لم أعرفه، وأبقيته لحسن معناه.

﴿فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾

١٨ - يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد المرضية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث أن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وَجدَ ماء وثمراً، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ قال وهب بن منبه: هي قرى بصنعاء، وكذا قال أبو مالك، وقال مجاهد والحسن وسعيد بن جبير ومالك عن زيد بن أسلم وقتادة والضحاك والسدي وابن زيد وغيرهم: يعني قرى الشام. يعنون: أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام، في قرى ظاهرة متواصلة، وقال العوفي عن ابن عباس: القرى التي باركنا فيها بيت المقدس، وقال العوفي عنه أيضاً: هي قرى عربية بين المدينة والشام ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي: بينة واضحة يعرفها المسافرون يقيلون في واحدة، ويبيتون في أخرى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾. وقرأ آخرون: ﴿بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وذلك أنهم بطروا هذه النعمة، كما قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد، وأحبوا مفاوز ومهامه، يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل، والسير في الحَرور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش رغيد، في منٍّ وسلوى، وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة، ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

وقال تعالى في حق هؤلاء: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: بكفرهم ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: جعلناهم حديثاً للناس، وسمراً يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرّق شملهم بعد الاجتماع والألفة، والعيش الهنيء، تفرقوا في البلاد ههنا وههنا. ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ، وأيادي سبأ، و تفرقوا شذر مذر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في هذا الذي حلَّ بهؤلاء، من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية، عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام، لعبرة ودلالة، لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم. روى الإمام أحمد: عن عمر بن سعد عن أبيه هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن، إن أصابه خيرٌ حمِد ربَّه وشكر، وإن أصابته مصيبةٌ حَمِدَ ربَّه وصبر، يُؤْجر المؤمنُ في كلِّ شيء، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته». وقد رواه النسائي في اليوم والليلة.

وهو حديث عزيز من رواية عمر بن سعد عن أبيه، ولكن له شاهد في الصحيحين: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له؛

وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

روى عبد: عن قتادة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ قال: كان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور، الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)﴾

٢٠- لما ذكر تعالى قصة سبإ، وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم، ممن اتبع إبليس والهوى، وخالف الرشاد والهدى، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس، حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام، ثم قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ والآيات في هذا كثيرة، وقال الحسن البصري: لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما، وقال: إذا أصبت من الأبوين ما أصبت، فالذرية أضعف وأضعف، وكان ذلك ظناً من إبليس فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال عند ذلك إبليس: لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح، أعده وأمنيه وأخدعه، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي، لا أحجب عنه التوبة ما لم يغرغر بالموت، ولا يدعوني إلا أجبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفرني إلا غفرت له. ورواه ابن أبي حاتم.

٢١- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: من حجة. وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصا، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأماني، دعاهم إليها فأجابوه. وقوله عز وجل: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي: إنما سلطانه عليهم، ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة، وقيامها والحساب فيها والجزاء، فيحسن عبادة ربه عز وجل في الدنيا، ممن هو منها في شك. وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: ومع حفظه، ضل من ضل من اتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته، سَلِمَ من سلم من المؤمنين أتباع الرسل.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)﴾

٢٢- بين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض، فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الآلهة التي عبدت من دونه ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: لا يملكون شيئاً استقلالاً، ولا على سبيل الشركة ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: وليس لله من هذه الأنداد من ظهير

يستظهر به في الأمور، بل الخلق كلهم فقراء إليه، عبيدٌ لديه. قال قتادة في قوله عز وجل: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾: من عون يعينه بشيء.

٢٣- ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي: لعظمته وجلاله وكبريائه، لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء، إلا بعد إذنه له في الشفاعة، كما قال عز وجل: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقال جل وعلا: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

ولهذا ثبت في الصحيحين: من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأكبر شفيع عند الله تعالى، أنه حين يقوم المقام المحمود، ليشفع في الخلق كلهم، أن يأتي ربهم لفصل القضاء، قال: «فأسجد لله تعالى، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ويفتح عليَّ بمحامدَ لا أحصيها الآن، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقُل يسمع، وسلْ تُعطه، واشفع تُشفَّع» الحديث بتمامه.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي، فسمع أهل السموات كلامه، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي. قاله ابن مسعود رضي الله عنه ومسروق وغيرهما ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال الفزع عنها، قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي وإبراهيم النخعي والضحاك والحسن وقتادة في قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ يقول: جلّى عن قلوبهم، وقرأ بعض السلف، وجاء مرفوعاً «إذا فرغ» بالغين المعجمة، ويرجع إلى الأول، فإذا كان كذلك، سأل بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم، حتى ينتهي الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أي: أخبروا بما قال، من غير زيادة ولا نقصان ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

وقال آخرون: بل معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يعني المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة، إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة في الدنيا، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة، قالوا: ماذا قال ربكم؟ فقيل لهم: الحق، وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا. قال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ كشف عنها الغطاء يوم القيامة. وقال الحسن: يعني: ما فيها من الشك والتكذيب.

و(بنحوه) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقد اختار ابن جرير القول الأول: أن الضمير عائد على الملائكة، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه، لصحة الأحاديث فيه والآثار، ولنذكر منها طرفاً يدل على غيره، روى البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه: عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مُسترق السمع، ومُسترق السمع هكذا: بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة

كذبة. فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء» انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم من هذا الوجه، وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة، والله أعلم.

(حديث آخر): روى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه ـ قال عبد الرزاق: من الأنصار ـ فرمي بنجم فاستنار فقال ﷺ: «ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟» قالوا: كنا نقول: يولد عظيم، أو يموت عظيم. قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، ولقد غُلِّظت حين بعث النبي ﷺ قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنها لا يرمى بها لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً، سبَّح حملةُ العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع فيرمون، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون» هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم في صحيحه.

وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن قتادة: أنهما فسَّرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله تعالى إلى محمد ﷺ، بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام، ولا شك أن هذا أولى ما دخل في هذه الآية.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾

٢٤- يقول تعالى مقرراً تفرده بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضاً، فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض، أي: بما ينزل من المطر، وينبت من الزرع، إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره. وقوله تعالى: **﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾** هذا من باب اللف والنشر، أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى، ولهذا قال: **﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾**.

قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين: والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد. وقال عكرمة وزياد بن أبي مريم: معناها: إنا نحن لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين.

٢٥- وقوله تعالى: **﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** معناه: التبري منهم، أي: لستم منا، ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله تعالى، وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن برآء منكم، وأنتم برآء منا، كما قال تعالى: **﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾**. وقال عز وجل: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾**.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزى كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وستعملون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ❁ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ❁ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم العادل، العالم بحقائق الأمور.

٢٧- وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: أروني هذه الآلهة التي جعلتموها لله أنداداً، وصيرتموها عدلاً ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس له نظير ولا نديد، ولا شريك ولا عديل.

ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ أي: الواحد الأحد، الذي لا شريك له ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: ذو العزة، الذي قد قهر بها كل شيء، وغلبت كل شيء، الحكيم: في أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره، تبارك وتعالى وتقدَّس عما يقولون علواً كبيراً، والله أعلم.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾

٢٨- يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: تبشر من أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال محمد بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ يعني: إلى الناس عامة، وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عز وجل.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء. قالوا: يا ابن عباس، فيم فضله الله على الأنبياء؟ قال رضي الله عنه: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ وقال للنبي ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس.

وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما قد ثبت في الصحيحين رفعه: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليُصلِّ، وأُحلت لي الغنائم ولم تُحلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة.

وفي الصحيح أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ إلى الأسود والأحمر» قال مجاهد: يعني الجن والإنس. وقال غيره: يعني: العرب والعجم. والكل صحيح.

٢٩- ثم قال عز وجل مخبراً عن الكفار، في استبعادهم قيام الساعة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

صادقين﴾ وهذه الآية، كقوله عز وجل: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ الآية.

٣٠- ثم قال تعالى: ﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ أي: لكم ميعاد مؤجل معدود محرّر، لا يزاد ولا ينقص، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم، كما قال تعالى: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾ وقال عز وجل: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود * يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)﴾

٣١- يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم، وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن، وبما أخبر به من أمر المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ قال الله عز وجل متهدداً لهم ومتوعداً، ومخبراً عن مواقفهم الذليلة بين يديه، في حال تخاصمهم وتحاجهم ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا﴾ وهم الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ منهم، وهم: قادتهم وسادتهم ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ أي: لولا أنتم تصدونا، لكنا اتبعنا الرسل، وآمنا بما جاءونا به.

٣٢- فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾ أي: نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا، من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج، التي جاءت بها الرسل، لشهوتكم واختياركم، لذلك ولهذا قالوا: ﴿بل كنتم مجرمين﴾.

٣٣- ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار﴾ أي: بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً، وتغرونا وتمنونا وتخبرونا أنا على هدى، وأنا على شيء، فإذا جميع ذلك باطل، وكذب ومين.

قال قتادة وابن زيد ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ يقول: بل مكركم بالليل والنهار، وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم: مكركم بالليل والنهار ﴿إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ أي: نظراء وآلهة معه، وتقيموا لنا شبهاً، وأشياء من المحال تضلونا بها ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي: الجميع من السادة والأتباع، كلٌّ ندم على ما سلف منه ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ وهي: السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي: إنما نجازيكم بأعمالكم، كلٌّ بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً

وأولاداً وما نحن بمعذَّبين ﴿٣٥﴾ قل إنَّ ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون ﴿٣٦﴾ وما أموالكم ولا أولادكم بالَّتي تقربكم عندنا زلفى إلاَّ من آمن وعمل صالحًا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴿٣٧﴾ والَّذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون ﴿٣٨﴾ قل إنَّ ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرَّازقين ﴿٣٩﴾ ﴾

٣٤- يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ، وآمراً له بالتأسي بمن قبله من الرسل، ومخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية، إلاَّ كذَّبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤهم، كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ ﴿وما نراك اتبعك إلاَّ الَّذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ وقال الكبراء من قوم صالح ﴿للَّذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أنَّ صالحاً مرسلٌ من ربِّه قالوا إنَّا بما أرسل به مؤمنون* قال الَّذين استكبروا إنَّا بالَّذي آمنتم به كافرون﴾ وقال عز وجل: ﴿وكذلك فتنَّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ وقال جل وعلا: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾. وقال جل وعلا ههنا: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير﴾ أي: نبي أو رسول ﴿إلاَّ قال مترفوها﴾ وهم أولوا النعمة والحشمة، والثروة والرياسة، قال قتادة: هم جبابرتهم وقادتهم، ورءوسهم في الشر ﴿إنَّا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي: لا نؤمن به ولا نتبعه.

روى ابن أبي حاتم: عن عاصم عن أبي رزين قال: كان رجلان شريكان، خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بُعث النبي ﷺ، كتب إلى صاحبه يسأله: ما فعل؟ فكتب إليه: أنه لم يتبعه أحد من قريش، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم، قال: فترك تجارته ثم أتى صاحبه، فقال: دلني عليه، قال: وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب، قال: فأتى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى كذا وكذا» قال: أشهد أنك رسول الله، قال ﷺ: «وما علمك بذلك؟» قال: إنه لم يُبعث نبيٌّ إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم، قال: فنزلت هذه الآية ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلاَّ قال مترفوها إنَّا بما أرسلتم به كافرون﴾ الآية، قال: فأرسل إليه النبي ﷺ: «إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت».

وهكذا قال هرقل لأبي سفيان، حين سأله عن تلك المسائل، قال فيها: وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم؟ فزعمت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل.

٣٥- وقوله تبارك وتعالى إخباراً عن المترفين المكذبين: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذَّبين﴾ أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم، واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة! وهيهات لهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أيحسبون أنَّما نمدهم به من مال وبنين* نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنَّما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ وقال عز وجل: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً* وجعلت له مالاً ممدوداً* وبنين شهوداً* ومهدت له تمهيداً* ثم يطمع أن أزيد* كلاَّ إنَّه كان لآياتنا عنيداً* سأرهقه صعوداً﴾ وقد أخبر الله عز وجل عن صاحب تينك الجنتين، أنه كان ذا مال وثمر وولد، ثم لم يغن عنه شيئاً، بل سُلب ذلك كله في الدنيا والآخرة.

٣٦- ولهذا قال عز وجل ههنا: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يُعطي المال لمن يحب ومن لا يحب، فيفقر من يشاء ويغني من يشاء، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٣٧- ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى﴾ أي: ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم. روى الإمام أحمد رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ورواه مسلم وابن ماجة.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى، الإيمان والعمل الصالح ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ أي: في منازل الجنة العالية آمنون، من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه.

روى ابن أبي حاتم: عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في الجنة لغرفاً، تُرى ظُهورها من بطونها، وبُطونها من ظهورها» فقال أعرابي: لمن هي؟ قال ﷺ: «لمن طيَّب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام».

٣٨- ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ أي: يسعون في الصد عن سبيل الله، واتباع رسله، والتصديق بآياته ﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم.

٣٩- وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: بحسب ماله في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال كثيراً، ويضيق على هذا، ويقتر على هذا رزقه جداً، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: كما هم متفاوتون في الدنيا، هذا فقير مدقع، وهذا غني موسع عليه، فكذلك هم في الآخرة، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات، وأطيب الناس في الدنيا، كما قال ﷺ: «قد أفلحَ مَن أسلمَ ورُزق كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه» رواه مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به، وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: «يقول الله تعالى: أنفقْ أُنفق عليك». وفي الحديث: «أن ملكين يصبحان كل يوم، يقول أحدهما: اللهمَّ أعط ممسكاً تلفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ أعط منفقاً خلفاً»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «أنفق بلالاً، ولا تَخش من ذي العرش إقلالاً»(٢).

وروى سفيان الثوري عن مجاهد: لا يتأولن أحدكم هذه الآية: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه، فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

---

(١) رواه البخاري في الزكاة (٣/ ٣٠٤) ومسلم في الزكاة أيضاً (٢/ ٧٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح لطرقه، رواه الطبراني في الكبير (١/ ٣٤٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ورواه أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه (١/ ٣٤١، ٣٤٢) والبزار وأبو يعلى (١٠/ ٤٢٩، ٤٣٠).

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

٤٠ - يخبر تعالى أنه يُقَرِّع المشركين يوم القيامة، على رءوس الخلائق، فيسأل الملائكة، الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد، التي على صورهم، ليقربوهم إلى الله زلفى، فيقول الملائكة ﴿أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ وكما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

٤١ - وهكذا تقول الملائكة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: نحن عبيدك، ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ يعنون: الشياطين، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وأضلوهم ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ۞ لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾.

٤٢ - قال الله عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ أي: لا يقع لكم نفع، ممن كنتم ترجون نفعه اليوم، من الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم: المشركون ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

٤٣ - يخبر تعالى عن الكفار، أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب، لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات، يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله ﷺ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ يعنون: أن دين آبائهم هو الحق، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل، عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ يعنون: القرآن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٤٤ - قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي: ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ، وقد كانوا يودون ذلك، ويقولون: لو جاءنا نذير، أو أنزل علينا كتاب، لكنا أهدى من غيرنا، فلما منَّ الله عليهم بذلك، كذّبوه وجحدوه وعاندوه.

٤٥ - ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ قال

ابن عباس رضي الله عنهما: أي: من القوة في الدنيا، وكذا قال قتادة والسدي وابن زيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله، ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان عقابي ونكالي، وانتصاري لرسلي؟

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾

٤٦- يقول تبارك وتعالى: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين، الزاعمين أنك مجنون ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: إنما آمركم بواحدة، وهي ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل، من غير هوى ولا عصبية، فيسأل بعضكم بعضاً: هل بمحمد من جنون؟ فينصح بعضكم بعضاً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ أي: ينظر الرجل لنفسه في أمر محمدﷺ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه. إن أشكل عليه، ويتفكر في ذلك. ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ هذا معنى ما ذكره مجاهد ومحمد بن كعب والسدي وقتادة وغيرهم، وهذا هو المراد من الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ روى البخاري عندها: عن ابن عباس رضي الله عنهما: صعد النبيﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: مالك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصبِّحكم أو يمسِّيكم أما كنتم تصدقوني؟» قالوا: بلى! قالﷺ: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن بريدة عن أبيهرضي الله عنه قال: خرج إلينا رسول اللهﷺ يوماً فنادى ثلاث مرات فقال: «أيها الناس، أتدرون ما مَثَلي ومثلكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قالﷺ: «إنما مثلي ومثلكم، مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم، فبينما هو كذلك أبصر العدو، فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس أوتيتم، أيها الناس أوتيتم» ثلاث مرات.

وبهذا الإسناد قال: قال رسول اللهﷺ: «بُعثت أنا والساعة جميعاً، إنْ كادت لتسبقني» تفرد به الإمام أحمد في مسنده.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)﴾

٤٧- يقول تعالى آمراً رسولهﷺ أن يقول للمشركين ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: لا أريد منكم

جعلاً ولا عطاء، على أداء رسالة الله عز وجل إليكم، ونصحي إياكم، وأمركم بعبادة الله ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: عالم بجميع الأمور بما أنا عليه، من إخباري عنه بإرساله إياي لكم، وما أنتم عليه.

٤٨ - وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يرسل المَلَك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض، وهو علام الغيوب، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض.

٤٩ - وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: جاء الحق من الله، الشرع العظيم، وذهب الباطل، وزهق واضمحل، كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة، جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه، ويقرأ ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وحده عند هذه الآية، كلهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. أي: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة، وزعم قتادة والسدي: أن المراد بالباطل ههنا: إبليس، أي: أنه لا يخلق أحداً ولا يعيده، ولا يقدر على ذلك، وهذا وإن كان حقاً، ولكن ليس هو المراد ههنا، والله أعلم.

٥٠ - وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أي: الخير كله من عند الله، وفيما أنزله الله عز وجل من الوحي والحق المبين، فيه الهدى والبيان والرشاد، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة: أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: سميع لأقوال عباده، قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وقد روى النسائي ههنا: حديث أبي موسى الذي في الصحيحين: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً».

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

٥١ - يقول تبارك وتعالى، ولو ترى يا محمد، إذ فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: فلا مفر لهم، ولا وزر لهم ولا ملجأ ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لم يمكنوا أن يمنعوا في الهرب، بل أخذوا من أول وهلة. وقال الحسن البصري: حين خرجوا من قبورهم. وقال مجاهد وعطية العوفي وقتادة: من تحت أقدامهم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك: يعني: عذابهم في الدنيا، وقال عبد الرحمن بن زيد: يعني: قتلهم يوم بدر. والصحيح: أن المراد بذلك يوم القيامة، وهو الطامة العظمى، وإن كان ما ذكر متصلاً بذلك، وحكى ابن جرير عن بعضهم قال: إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس

رضي الله عنهم. ثم أورد في ذلك حديثاً موضوعاًبالكلية! ثم لم ينبه على ذلك، وهذا أمر عجيب غريب منه!

٥٢ـ ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي: يوم القيامة يقولون: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: كيف لهم تعاطي الإيمان؟ وقد بعدوا عن محل قبوله منهم، وصاروا إلى الدار الآخرة، وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء، فلو كانوا آمنوا في الدنيا، لكان ذلك نافعهم، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة، لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد. قال مجاهد ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ قال: التناول لذلك. وقال الزهري: التناوش: تناولهم الإيمان وهم في الآخرة، وقد انقطعت عنهم الدنيا، وقال الحسن البصري: أما أنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه، وليس بحين رجعة ولا توبة، وكذا قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله.

٥٣ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالحق في الدنيا، وكذبوا الرسل ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: بالظن. قلت: كما قال تعالى: ﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ فتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: كاهن، وتارة يقولون: ساحر، وتارة يقولون: مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد ﴿وَيَقُولُونَ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ قال قتادة ومجاهد: يرجمون بالظن، لا بعث ولا جنة ولا نار.

٥٤ـ وقوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما: يعني الإيمان. وقال السدي ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وهي: التوبة. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله.

وقال مجاهد ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من هذه الدنيا، من مال وزهرة وأهل، وروي نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع بن أنس رضي الله عنهم، هو قول البخاري وجماعة. والصحيح: أنه لا منافاة بين القولين، فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا، وبين ما طلبوه في الآخرة، فمنعوا منه.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل، لما جاءهم بأس الله، تمنوا أن لو آمنوا، فلم يقبل منهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي: كانوا في الدنيا في شك وريبة، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب. قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإن من مات على شكٍّ بُعث عليه، ومن مات على يقين بعث عليه.

آخر تفسير سورة سبأ

****

ترتيبها ٣٥ — سورة فاطر ـ مكية — آياتها ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾

١- روى سفيان الثوري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أي: بدأتها(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: بديع السموات والأرض، وقال الضحاك: كل شيء في القرآن ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فهو خالق السموات والأرض. وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ أي: بينه وبين أنبيائه ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ أي: يطيرون بها، ليبلّغوا ما أمروا به سريعاً ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء، وله ستمائة جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب.

ولهذا قال جل وعلا: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال السدي: يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء. وقال الزهري وابن جريج: يعني: حسن الصوت. رواه البخاري عن الزهري في الأدب وابن أبي حاتم في تفسيره. وقُرئ في الشاذ (يَزِيدُ فِي الْحَلْقِ) بالحاء المهملة، والله أعلم.

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾

٢- يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، روى الإمام أحمد: عن وَرَّاد كاتب المغيرة بن شعبة قال: إن معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة: اكتب لي بما سمعت من رسول الله ﷺ، فدعاني المغيرة فكتبت إليه: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولامعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» وسمعته ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال. وعن وأد البنات، وعقوق الأمهات ومنع وهات، وأخرجاه.

وثبت في صحيح مسلم: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع، يقول: «سَمِعَ اللهُ لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، مِلْءَ السمواتِ والأرض، وملء ما شئتَ من شيء

---

(١) الأثر حسن إن شاء الله تعالى، انظر النهج الأسمى (٢/ ٣١٩) لكاتبه.

بعد، اللهمَّ أهل الثناء والمجد، أحقُّ ما قال العبدُ، وكلنا لك عبدٌ، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ».

وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ ولها نظائر كثيرة. وقال الإمام مالك رحمة الله عليه كان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مطروا يقول: مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ هذه الآية ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ورواه ابن أبي حاتم.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾

٣- ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده، في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره، من الأصنام والأنداد والأوثان، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان، والله أعلم.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾

٤- يقول تبارك وتعالى، وإن يكذبوك يا محمد - هؤلاء المشركون بالله - ويخالفونك فيما جئتهم به من التوحيد، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة، فإنهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات، وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء.

٥- ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: المعاد كائن لا محالة ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: العيشة الدنيئة، بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله، من الخير العظيم فلا تلهوا عن ذلك الباقي، بهذه الزهرة الفانية ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وهو: الشيطان. قاله ابن عباس رضي الله عنهما، أي: لا يفتننكم الشيطان، ويصرفنكم عن اتباع رسل الله، وتصديق كلماته، فإنه غرار كذاب أفاك.

وهذه الآية كالآية التي في آخر لقمان ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾. وقال مالك عن زيد بن أسلم: هو الشيطان. كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة، حين يضرب ﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

٦- ثم بيَّن تعالى عداوة إبليس لابن آدم، فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: هو مبارز لكم بالعداوة، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: إنما يقصد أن يضلكم، حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير، فهذا هو العدو المبين، نسأل الله

القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاقتداء بطريق رسوله، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.

﴿الَّذينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)﴾

٧- لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد، لأنهم أطاعوا الشيطان، وعصوا الرحمن، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لما كان منهم من ذنب ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير.

٨- ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعني: كالكفار والفجار، يعملون أعمالاً سيئة، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أي: أفمن كان هكذا قد أضله الله، ألك فيه حيلة؟ لا حيلة لك فيه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: بقدره كان ذلك ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ أي: لا تأسف على ذلك، فإن الله حكيم في قدره، إنما يضل من يضل، ويهدي من يهدي، لما له في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وروى ابن أبي حاتم عند هذه الآية: عن عبد الله بن الديلمي قال: أتيت عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما وهو في حائط بالطائف، يقال له: الوهط، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى خَلَقَ خَلْقه في ظُلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضلَّ، فلذلك أقول: جفَّ القلمُ على ما علِم الله عز وجل».

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾

٩- كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد، بإحيائه الأرض بعد موتها، كما في أول سورة الحج، ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء، وأنزله عليها ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ كذلك الأجساد، إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها، أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً، ونبتت الأجساد في قبورها، كما تنبت الحبة في الأرض، ولهذا جاء في الصحيح: «كلُّ ابن آدم يَبْلَى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خُلق ومنه يُركَّب». ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾.

وتقدم في الحج: حديث أبي رزين قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خَلْقه؟

قال ﷺ: «يا أبا رزين، أما مررت بوادي قومك مُمحلاً، ثم مررت به يهتز خضراً؟» قلت: بلى، قال ﷺ: «فكذلك يحيي الله الموتى».

١٠ - وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ أي: من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة، فليلزم طاعة الله تعالى، فإنه يحصل له مقصوده، لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعاً، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ وقال عز وجل: ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ وقال جل جلاله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

قال مجاهد ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ بعبادة الأوثان ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾. وقال قتادة ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ أي: فليعتزز بطاعة الله عز وجل. وقيل: من كان يريد علم العزة لمن هي ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ وحكاه ابن جرير.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ يعني: الذكر والتلاوة والدعاء، قاله غير واحد من السلف.

روى الإمام أحمد: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الذين يذكرون من جلال الله من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يتعاطفن حول العرش، لهن دويٌّ كدويِّ النَّحل، يُذكّرن بصاحبهن، ألا يُحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيءٌ يذكر به»(١). وهكذا رواه ابن ماجة.

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: الكلم الطيب: ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عز وجل، والعمل الصالح: أداء الفريضة، فمن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه، حمل عمله ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عز وجل، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه، رد كلامه على عمله، فكان أولى به. وكذا قال مجاهد: العمل الصالح، يرفعه الكلام الطيب. وكذا قال أبو العالية وعكرمة وإبراهيم النخعي والضحاك والسدي والربيع بن أنس وشهر بن حوشب وغير واحد، وقال إياس بن معاوية القاضي: لولا العمل الصالح، لم يرفع الكلام. وقال الحسن وقتادة: لا يقبل قول إلا بعمل.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب: هم المراءون بأعمالهم، يعني: يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى، وهم بغضاء إلى الله عز وجل، يراءون بأعمالهم ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المشركون.

والصحيح أنها عامة، والمشركون داخلون بطريق الأولى، ولهذا قال تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: يفسد ويبطل، ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهى، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وما أسرَّ أحدٌ سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على غبي، أما المؤمنون المتفرسون، فلا يروج ذلك عليهم بل ينكشف لهم عن قريب، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية.

---

(١) المسند (٤/ ٢٦٨). قوله: «من جلال الله» لأجل الله تعالى. «يتعاطفن حول العرش» أي: يتعاطف تسبيحهم وتحميدهم حول العرش، ويحتف به.

١١ – وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي ذكراً وأنثى، لطفاً منه ورحمة، أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم، لتسكنوا إليها. وقوله عز وجل: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: هو عالم بذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء، بل ﴿مَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۞ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين، لأن الطويل العمر في الكتاب، وفي علم الله تعالى، لاينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس. قال ابن جرير: وهذا كقولهم عندي ثوب ونصفه، أي: ونصف ثوب آخر، وروي من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة، إلا هو بالغ ما قدرت له من العمر، وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة، ببالغ العمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يقول: كل ذلك في كتاب عنده. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ قال: ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام، وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا. وقال قتادة: والذي ينقص من عمره، فالذي يموت قبل ستين سنة، وقال مجاهد ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي: في بطن أمه يكتب له ذلك، لم يَخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر هو أنقص من عمره، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ.

وقال بعضهم: بل معناه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي: ما يكتب من الأجل ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً، الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله تعالى في كتابه. نقله ابن جرير عن أبي مالك، وإليه ذهب السدي وعطاء الخراساني، واختار ابن جرير الأول، وهو كما قال، وروى النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن سرَّه أن يُبسَطَ له في رزقه، ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه» وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل عليه، يسير لديه، علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل للجميع، لا يخفى عليه شيء منها.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾

١٢ – يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة، في خلقه الأشياء المختلفة، خلق البحرين: العذب الزلال،

وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس، من كبار وصغار، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبراري والقفار، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مرٌّ، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار، وإنما تكون مالحة زعافاً مرة، ولهذا قال: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مر. ثم قال تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كما قال عز وجل: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقوله جل وعلا: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي: تمخره وتشقه بحيزومها، وهو مقدَّمها المُسَنَّم، الذي يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره، وقال مجاهد: تمخر الريح السفن، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام، وقوله جل وعلا: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي: بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر. وأقليم إلى أقليم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم، وهو البحر تتصرفون فيه كيف شئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيء منه، بل بقدرته قد سخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض، الجميع من فضله ورحمته.

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾

١٣- وهذا أيضاً من قدرته التامة، وسلطانه العظيم، في تسخيره الليل بظلامه، والنهار بضيائه، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا، فيعتدلان، ثم يأخذ من هذا في هذا، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاءً ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: والنجوم السيارات، والثوابت الثاقبات، بأضوائهن أجرام السموات، الجميع يسيرون بمقدار معين. وعلى منهاج مقنن محرر، تقديراً من عزيز عليم. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى يوم القيامة.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي فعل هذا هو الرب العظيم، الذي لا إله غيره ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفي والحسن وقتادة وغيرهم. القطمير: هو اللِّفافة التي تكون على نواة التمرة، أي: لا يملكون من السموات والأرض شيئاً، ولا بمقدار هذا القطمير.

١٤- ثم قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ يعني: الآلهة التي تدعونها من دون الله، لا تسمع دعاءكم، لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يتبرءون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها، وما تصير إليه مثل خبير بها، قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) ﴾

١٥- يخبر تعالى بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بالغني، وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله، ويقدره ويشرعه.

١٦- وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: لو شاء لأذهبكم أيها الناس، وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع.

١٧- ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

١٨- وقوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا﴾ أي: وإن تدع نفسٌ مثقلة بأوزارها، إلى أن تساعد على حمل ما عليها، من الأوزار أو بعضه ﴿لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: وإن كان قريباً إليها، حتى ولو كان أباها أو ابنها، كل مشغول بنفسه وحاله.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ أي: إنما يتعظ بما جئت به، أولوا البصائر والنهى، الخائفون من ربهم، الفاعلون ما أمرهم به ﴿وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي: ومن عمل صالحاً، فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: وإليه المرجع والمآب، وهو سريع الحساب، وسيجزي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) ﴾

١٩- يقول تعالى كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة، كالأعمى والبصير، لا يستويان، بل بينهما فرق وبون كثير، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء، وللكافرين وهم الأموات، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وقال عز وجل: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾. فالمؤمن بصير سميع، في نور يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى

وأصم، في ظلمات يمشي لا خروج له منها، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة، حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يهديهم إلى سماع الحجة، وقبولها والانقياد لها ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم، وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار، بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون، الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم.

٢٣- ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، والله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء.

٢٤- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: وما من أمة خلت من بني آدم، إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ الآية. والآيات في هذا كثيرة.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي المعجزات الباهرات، والأدلة القاطعات ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ وهي: الكتب ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: الواضح البين.

٢٦- ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بالعقاب والنكال ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف رأيت إنكاري عليهم، عظيماً شديداً بليغاً، والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾

٢٧- يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته، في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة، من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزله من السماء، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض، إلى غير ذلك من ألوان الثمار، كما هو مشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي: وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر، وفي بعضها طرائق، وهي: الجدد، جمع جدة مُختلفة الألوان أيضاً. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجدد الطرائق، وكذا قال أبو مالك وعطاء الخراساني وقتادةوالسدي. ومنها: ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ﴾ قال عكرمة: الغرابيب الجبال الطوال السود، وكذا قال ابو مالك وعطاء الخراساني وقتادة، وقال ابن جرير: والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد، قالوا: أسود غربيب. ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية: هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: سود غرابيب، وفيما قاله نظر.

٢٨- وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي: كذلك الحيوانات من

الناس والدواب، وهو كل ما دب على القوائم. ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كذلك هي مختلفة أيضاً، فالناس منهم بربر وحبوش وطماطم في غاية السواد، وصقالبة وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، حتى في الجنس الواحد، بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان، بل الحيوان الواحد يكون أبلق، فيه من هذا اللون وهذا اللون، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولهذا قال تعالى بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: إنما يخشاه حق خشيته، العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم، الموصوف بصفات الكمال، المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. روي عن عكرمة عن ابن عباس قال: العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك شيئاً، وأحل حلاله وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه، ومحاسب بعمله. وقال سعيد بن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل. وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية.

وقال أحمد بن صالح المصري عن ابن وهب عن مالك قال: إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب. قال أحمد بن صالح المصري: معناه: أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية، وإنما العلم الذي فرض الله عز وجل أن يتبع، فإنما هو الكتاب والسنة، وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم، ومن بعدهم من أئمة المسلمين، فهذا لا يدرك إلا بالرواية، ويكون تأويل قوله: «نور» يريد به فهم العلم، ومعرفة معانية.

وروى سفيان الثوري: عن رجل قال: كان يقال العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله؛ فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى، ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود والفرائض، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله عز وجل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)﴾

٢٩، ٣٠- يخبر تعالى عن عباده المؤمنين، الذين يتلون كتابه ويؤمنون به، ويعلمون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله تعالى، في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: يرجون ثواباً عند الله، لا بد من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: ليوفيهم ثواب ما عملوه، ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ أي: لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم. قال قتادة: كان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء.

﴿ والَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾

٣١- يقول تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد من الكتاب، وهو القرآن ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة بصدقها، كما شهدت هي له بالتنويه، وأنه منزل من رب العالمين ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: هو خبير بهم، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمدﷺ فوق جميعهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾

٣٢- يقول تعالى، ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وهو المفرِّط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ هو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال: هم أمة محمدﷺ، ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب. وروى أبو القاسم الطبراني: عن ابن عباس عن رسول اللهﷺ أنه قال ذات يوم: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمدﷺ. وكذا روي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين، على ما فيه من عوج وتقصير.

وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة، ولا من المصطفين الوارثين للكتاب.

روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ قال: هو الكافر. وكذا روى عنه عكرمة، وبه قال عكرمة أيضاً فيما رواه ابن جرير، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ قال: هم أصحاب المشأمة، وقال مالك عن زيد بن أسلم والحسن وقتادة: هو المنافق. ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة: وهذه الأقسام الثلاثة، كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها.

والصحيح: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة، وهذا اختيار ابن جرير، كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول اللهﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً، ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ما تيسر (١).

عن كعب الأحبار رحمة الله عليه قال: إن الظالم لنفسه من هذه الأمة، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ إلى قوله عز وجل:

(١) لم يصح منها شيء، وحكم المؤلف على بعضها بالغرابة، وقد صح فيها بعض الآثار عن الصحابة، وقد ذكرها المؤلف ههنا، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ قال: فهؤلاء أهل النار. رواه ابن جرير من طرق.

ثم روى: عن ابن عباس رضي الله عنهما سأل كعباً عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال: تماست مناكبهم ورب كعب، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم.

وقال أبو الجارود: سألت محمد بن علي ـ يعني الباقر ـ عن قول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ فقال: هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام.

وإذا تقرر هذا، فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما روى الإمام أحمد رحمه الله: عن قيس بن كثير قال: قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم، قال رضي الله عنه: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سَلَكَ طريقاً يطلب فيها علماً، سلك الله تعالى به طريقاً إلى الجنة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذَ به أخذ بحظٍّ وافر». وأخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة. وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه في «شرح كتاب العلم» من صحيح البخاري، ولله الحمد والمنة.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)﴾

٣٣- يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين، يوم القيامة مأواهم جنات عدن، أي: جنات الإقامة، يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عز وجل: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ كما ثبت في الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تبلغُ الحِلْيَة من المؤمن، حيث يبلغ الوضوء».

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا، فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة، وثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَبِسَ الحرير في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة» وقال: «هي لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة».

٣٤- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وهو الخوف من المحذور أزاحه عنا، وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره، من هموم الدنيا والآخرة. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: غفر لهم الكثير من السيئات، وشكر لهم اليسير من الحسنات.

٣٥- ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ يقول: الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام، من فضله ومنّه ورحمته، لم تكن أعمالنا تساوي ذلك، كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «لن يُدخلَ أحداً منكم

عملُهُ الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدني الله تعالى برحمةٍ منه وفضل».

﴿لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء، والنصب واللغوب: كل منهما يستعمل في التعب، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم، أنهم لا تعب على أبدانهم، ولا أرواحهم، والله أعلم، فمن ذلك: أنهم كانوا يدئبون أنفسهم في العبادة في الدنيا، فسقط عنهم التكليف بدخولها، وصاروا في راحة دائمة مستمرة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾

٣٦- لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء، شرع في بيان مآل الأشقياء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ كما قال تعالى: ﴿لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾ وثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أهل النار، الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون». وقال عز وجل: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ فهم في حالهم ذلك، يرون موتهم راحة لهم، ولكن لا سبيل إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وقال جل وعلا: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه، وكذب الحق.

٣٧- وقوله جلت عظمته: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: ينادون فيها، يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردَّهم إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون، فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم، كما قال تعالى مخبراً عنهم في قولهم ﴿فَهَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ * ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي: لا يجيبكم إلى ذلك، لأنكم كنتم كذلك، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه، ولذا قال ههنا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي: أوما عشتم في الدنيا أعماراً، لو كنتم ممن ينتفع بالحق، لانتفعتم به في مدة عمركم؟

وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا، فروى عن علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنهما أنه قال: مقدار سبع عشرة سنة. وقال قتادة: اعلموا أن طول العمر حجة، فنعوذ بالله أن نغتر بطول العمر، قد نزلت هذه الآية ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ وإن فيهم لابن ثماني عشرة سنة. وكذا قال أبو غالب الشيباني. وروى ابن جرير: عن مجاهد: قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أربعون سنة. وهذا القول هو اختيار ابن جرير؛ ثم روى عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ ستون سنة. فهذه الرواية أصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي

الصحيحة في نفس الأمر أيضاً، لما ثبت في ذلك من الحديث كما سنورده، لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يصح في ذلك، لأن في إسناده من يجب التثبت في أمره.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد أعذرَ الله تعالى إلى عبدٍ أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله تعالى إليه، لقد أعذر الله تعالى إليه» وهكذا رواه الإمام البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه: «أعذر الله عز وجل إلى امرئٍ، أخَّر عمره حتى بلغ ستين سنة». ورواه البزار. (وزاد): يعني: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾.

فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق، فلو لم يكن إلا الطريق التي ارتضاها أبو عبد الله البخاري، شيخ هذه الصناعة لكفت. وقول ابن جرير أن في رجاله بعض من يجب التثبت في أمره! لا يلتفت إليه مع تصحيح البخاري، والله أعلم.

وذكر بعضهم: أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة، فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين، ثم يشرع بعد هذا في النقص والهرم، كما قال الشاعر:

إذا بلغ الفتى ستين عاماً فقد ذهب المسرَّة والفتَاء

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به، ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة، كما ورد بذلك الحديث، روى الحسن بن عرفة رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمارُ أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلُّهم من يجوز ذلك» وهكذا رواه الترمذي وابن ماجة جميعاً في كتاب الزهد.

وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة. وقيل: ستين، وقيل: خمساً وستين، والمشهور الأول، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وأبي جعفر الباقر رضي الله عنه وقتادة وسفيان بن عيينة أنهم قالوا: يعني: الشيب وقال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني به رسوله ﷺ. وقرأ ابن زيد ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ وهذا هو الصحيح عن قتادة، فيما رواه شيبان عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل، وهذا اختيار ابن جرير، وهو الأظهر لقوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ۞ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أي: لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل، فأبيتم وخالفتم، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ۞ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: فذوقوا عذاب النار، جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه، من العذاب والنكال والأغلال.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ

كفرُهُمْ إلاَّ خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾

٣٨- يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض، وأنه يعلم ما تكنه السرائر، وما تنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله.

٣٩- ثم قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يخلف قوم لآخرين قبلهم، وجيل لجيل قبلهم. كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾. ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: فإنما يعود وبال ذلك على نفسه، دون غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: كلما استمروا على كفرهم، أبغضهم الله تعالى، وكلما استمروا فيه، خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله، ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة، وزاد أجره، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

٤٠- يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَزْعُمُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير. وقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم، وأمانيهم التي تمونها لأنفسهم، وهي غرور وباطل وزور.

٤١- ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة، التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي: أن تضطربا عن أماكنهما، كما قال عز وجل: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾. ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ أي: لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو، وهو مع ذلك حليم غفور، أن يرى عباده وهم يكفرون به، ويعصونه، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل، ويستر آخرين ويغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وقد أورد ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً بل منكراً. والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع، بل من الإسرايليات المنكرة، فإن موسى عليه الصلاة والسلام أجل من أن يجوز على الله سبحانه وتعالى النوم، وقد أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز بأنه ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وثبت في الصحيحين: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، ويُرفع إليه عملُ الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه».

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) ﴾

٤٢- يخبر تعالى عن قريش والعرب، أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم، لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم، أي: من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل. قاله الضحاك وغيره، كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ۞ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۞ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۞ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم.

٤٣- ثم بين ذلك بقوله: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي: وما يعود وبال ذلك، إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم.

وقوله عز وجل: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني: عقوبة الله لهم، على تكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا تغير ولا تبدل، بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم، ويحوله عنهم أحد، والله أعلم.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾

٤٤- يقول تعالى، قل يا محمد لهؤلاء المكذبين، بما جئتهم به من الرسالة: سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمَّر الله عليهم؟ وللكافرين أمثالها، فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة، وكثرة العدد والعُدَد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئاً، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك، لأنه تعالى لا يعجزه شيء، إذا أراد كونه في السموات والأرض ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي: عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها.

٤٥- ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾. أي: لو آخذهم بجميع ذنوبهم، لأهلك جميع أهل السموات والأرض، وما يملكونه من دواب وأرزاق. روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله قال: كاد الجعل أن يعذَّب في جحره بذنب ابن آدم، ثم قرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا

تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾. وقال سعيد بن جبير والسدي في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أي: لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة، فيحاسبهم يومئذ، ويوفي كل عامل بعمله، فيجازي بالثواب أهل الطاعة، وبالعقاب أهل المعصية. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾.

آخر تفسير سورة فاطر

****

ترتيبها ٣٦ — سورة يس ـ مكية — آياتها ٨٣

قال بعض العلماء: من خصائص هذه السورة: أنها لا تقرأ عند أمر عسير، إلا يسره الله تعالى، وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة، وليسهل عليه خروج الروح، والله تعالى أعلم[١]. روى الإمام أحمد رحمه الله: عن صفوان قال: كان المشيخة يقولون: إذا قُرئت ـ يعني: يس ـ عند الميت خفف الله عنه بها[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) ﴾

١ - قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة، في أول سورة البقرة، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة والضحاك والحسن وسفيان بن عيينة: أن يس بمعنى: يا إنسان، وقال سعيد بن جبير: هو كذلك في لغة الحبشة.

٢ - ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ أي: المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٣، ٤ - ﴿إِنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: على منهج ودين قويم، وشرع مستقيم.

٥ - ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي: هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به، تنزيل من رب العزة، الرحيم بعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

٦ - وقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ يعني بهم: العرب، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله، وذِكْرهم وحدهم، لا ينفي مَنْ عداهم، كما أن ذِكْر بعض الأفراد لا ينفي العموم، وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة، في عموم بعثته ﷺ، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

٧ - وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ قال ابن جرير: لقد وجب العذاب على أكثرهم، بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب، أنهم لا يؤمنون ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله، ولا يصدقون رسله.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ

(١) ولم يثبت في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، انظر الإرواء (٦٨٨).
(٢) صفوان هو ابن عمرو السكسكي أبو عمرو، تابعي ثقة، يروى ذلك عن جماعة من التابعين وربما فيهم بعض الصحابة.

لايُؤمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

٨- يقول تعالى: إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء، نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى، كنسبة من جعل في عنقه غل، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه، فارتفع رأسه فصار مقمحاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ والمقمح: هو الرافع رأسه، كما قالت أم زرع في كلامها: وأشرب فأتقمح؛ أي: أشرب فأروى، وأرفع رأسي تهنيئاً وترويّاً، واكتفى بذكر الغل في العنق، عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين، وهذا لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق، اكتفى بذكر العنق عن اليدين، قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو كقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ يعني بذلك: أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير. وقال مجاهد ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ قال: رافعي رؤوسهم وأيديهم موضوعة على أفواههم، فهم مغلولون عن كل خير.

٩- وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ قال مجاهد: عن الحق ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال: عن الحق فهم مترددون. وقال قتادة: في الضلالات. وقوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي: أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: لا ينتفعون بخير، ولا يهتدون إليه، قال ابن جرير: وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ ﴿فَأَعْشَيْنَاهُمْ﴾ بالعين المهملة، من العَشَا وهو داء في العين، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان، فهم لا يخلصون إليه، وقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ثم قال: من منعه الله تعالى لا يستطيع.

وقال عكرمة: قال أبو جهل لئن رأيت محمداً لأفعلنّ ولأفعلنّ، فأنزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قال وكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو أين هو؟ لا يبصره، رواه ابن جرير(١).

١٠- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: قد ختم الله عليهم بالضلالة، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به، وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة، وكما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

١١- ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: حيث لا يراه أحدٌ إلا الله تبارك وتعالى، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعل ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ أي: لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: كثير واسع حسن جميل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

١٢- ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) وهو مرسل صحيح، وله شاهد من مرسل محمد بن كعب، وإسناده حسن، عند ابن إسحاق.

وقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي: من الأعمال، وفي قوله تعالى: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ قولان: **(أحدهما)**: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي آثروها من بعدهم، فنجزيهم على ذلك أيضاً، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، كقوله ﷺ: «مَن سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنة، كان له أجرُها، وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنَّةً سيئةً، كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» رواه مسلم، عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، وفيه قصة مُجتابي النِّمار المُضريين، ورواه ابن أبي حاتم: فذكر الحديث بطوله، ثم تلا هذه الآية ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ماتَ ابن آدم، انقطع عمله إلا من ثلاث: من علمٍ ينتفع به، أو ولد صالحٍ يدعو له، أو صدقة جارية من بعده».

وهذا القول هو اختيار البغوي.

(والقول الثاني): أن المراد بذلك: آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية، قال ابن أبي نجيح وغيره عن مجاهد ﴿وَمَا قَدَّمُوا﴾ أعمالهم ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ قال: خطاهم بأرجلهم، وكذا قال الحسن وقتادة ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ يعني: خطاهم. وقال قتادة: لو كان الله عز وجل مُغْفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم، أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل. وقد أوردت في هذا المعنى أحاديث:

(الحديث الأول): روى الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سَلِمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إني بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد» قالوا: نعم، يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال ﷺ: «يا بني سَلِمة دياركم تُكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم» وهكذا رواه مسلم.

(الحديث الثاني): روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: توفي رجلٌ بالمدينة فصلى عليه النبي ﷺ، وقال: «يا ليته مات في غير مولده» فقال رجل من الناس: ولم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا تُوُفِّي في غير مولده، قِيسَ له من مولده، إلى منقطع أثره في الجنة» ورواه النسائي وابن ماجة.

وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى، فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب، فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم، من خير أو شر، بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي: وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط، في لوح محفوظ، والإمام المبين ههنا: هو أم الكتاب، قاله مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وكذا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: بكتاب أعمالهم، الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر، كما قال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿ واضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قالُوا ما أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنا وَما أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾

١٣ - يقول تعالى: واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه: أنها مدينة أنطاكية.

وهكذا روي عن بريدة بن الخصيب وعكرمة وقتادة والزهري أنها: أنطاكية، وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية، بما سنذكره بعد تمام القصة إن شاء الله تعالى.

١٤ - وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: بادروهما بالتكذيب ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: قويناهما، وشددنا أزرهما برسول ثالث. ﴿فَقَالُوا﴾ أي: لأهل تلك القرية ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي: من ربكم الذي خلقكم، يأمركم بعبادته وحده لا شريك له، قاله أبو العالية، وزعم قتادة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية.

١٥ - ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر، فلم لا أوحى إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة، وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: استعجبوا من ذلك وأنكروه، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وقوله تعالى حكاية عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾ ولهذا قال هؤلاء ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾.

١٦، ١٧ - ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ أي: أجابتهم رسلهم الثلاثة، قائلين: الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كَذَبةً عليه، لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار، كقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والأخرى، وإن لم تجيبوا فستعلمون غِبَّ ذلك، والله أعلم.

﴿ قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قالُوا طائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

١٨ - فعند ذلك قال لهم أهل القرية ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا.

وقال قتادة: يقولون: إنْ أصابنا شر، فإنما هو من أجلكم. وقال مجاهد: يقولون: لم يدخل مثلكم إلى قرية، إلا عذب أهلها ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قال قتادة: بالحجارة، وقال مجاهد: بالشتم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: عقوبة شديدة.

١٩ - فقالت لهم رسلهم ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: مردود عليكم، كقوله تعالى في قوم فرعون: ﴿فَإِذَا

جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله﴾ وقال قوم صالح ﴿اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله﴾ وقال قتادة ووهب بن منبه: أي: أعمالكم معكم. وقال عز وجل: ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي: من أجل أنا ذكرناكم، وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له، قابلتمونا بهذا الكلام، وتوعدتمونا وتهددتمونا، بل أنتم قوم مسرفون.

وقال قتادة: أي: إنْ ذكرناكم بالله تطيرتم منا، بل أنتم قوم مسرفون.

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) ﴾

٢٠- قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه: أن أهل القرية هموا بقتل رسلهم، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى، أي: لينصرهم من قومه، قالوا: وهو «حبيب» وكان يعمل الجرير وهو الحبال، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة، يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة. وقال قتادة: كان يتعبد في غار هناك ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم.

٢١، ٢٢- ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجرا﴾ أي: على إبلاغ الرسالة ﴿وهم مهتدون﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾ أي: وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿وإليه ترجعون﴾ أي: يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٢٣- ﴿أأتخذ من دونه آلهة﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون﴾ أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه، لا يملكون من الأمر شيئاً، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿فلا كاشف له إلا هو﴾ وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه، ولا ينقذونني مما أنا فيه.

٢٤- ﴿إني إذاً لفي ضلال مبين﴾ أي: إن اتخذتها آلهة من دون الله، وقوله تعالى: ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب ووهب يقول لقومه: ﴿إني آمنت بربكم﴾ أي: الذي كفرتم به فاسمعون، أي: فاسمعوا قولي، ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله: ﴿إني آمنت بربكم﴾ أي: الذي أرسلكم ﴿فاسمعون﴾ أي: فاشهدوا لي بذلك عنده. وقد حكاه ابن جرير فقال: وقال آخرون: بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم: اسمعوا قولي، لتشهدوا لي بما أقول لكم عند ربي، إني آمنت بربكم واتبعتكم. وهذا القول الذي حكاه عن هؤلاء أظهر في المعنى، والله أعلم.

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب ووهب رضي الله عنهم: فلما قال ذلك

وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه، وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به حتى أقعصوه، وهو يقول كذلك، فقتلوه رحمه الله.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩)﴾

٢٦، ٢٧- قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه: عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبه من دبره، وقال الله له، ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾، فدخلها فهو يرزق فيها، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها. قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً لا تلقاه غاشاً، لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ تمنى على الله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله، وما هجم عليه. وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته في قوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ رواه ابن أبي حاتم. وروى سفيان الثوري: عن أبي مجلز ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بإيماني بربي وتصديق المرسلين.

ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من الثواب والجزاء، والنعيم المقيم، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه، فلقد كان حريصاً على هداية قومه.

وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الملك بن عمير قال: قال عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه للنبي ﷺ: ابعثني إلى قومي، أدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إني أخاف أن يقتلوك» فقال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني، فقال له رسول الله ﷺ: «انطلق» فانطلق فمر على اللات والعزى، فقال: لأصبحنَّك غداً بما يسوءك، فغضبت ثقيف، فقال: يا معشر ثقيف إنَّ اللاتَ لا لات، وإن العُزَّى لا عزى، أسلموا تسلموا، يا معشر الأحلاف، إن العزى لا عزى، وإن اللات لا لات، أسلموا تسلموا، قال ذلك ثلاث مرات، فرماه رجلٌ فأصاب أكحله فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «هذا مَثَلُه كَمَثَلِ صاحبِ يس» ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[1].

٢٨- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم، إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم، لأنهم كذبوا رسله، وقتلوا وليه، ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم، وما احتاج في إهلاكه إياهم، إلى إنزال جند من الملائكة عليهم، بل الأمر كان أيسر من ذلك.

٢٩- ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ قال: فأهلك الله تعالى ذلك الملك وأهل أنطاكية، فبادوا عن وجه الأرض، فلم يبق منهم باقية، وقيل ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي: وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم، بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم. وقيل: المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من رسالة أخرى إليهم، قاله مجاهد وقتادة. قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد

(١) الحديث مرسل، لكنه يتقوى بمرسل عن عروة، رواه الطبراني (٣٧٤)، والحاكم (٣/ ٦١٥) وفيه ابن لهيعة. ومرسل آخر عن الزهري، رواه الطبراني أيضاً (٣٧٥)، وحسنهما الهيثمي (٩/ ٣٨٦)، فالحديث حسن أو صحيح.

قتله ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ قال ابن جرير: والأول أصح، لأن الرسالة لا تسمى جنداً.
قال المفسرون: بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام فأخذ بعضادتي باب بلدهم، ثم صاح فيهم صيحة واحدة، فإذا هم خامدون عن آخرهم، لم يبق فيهم روح تتردد في جسد، وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، كما نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره!

وفي ذلك نظر من وجوه: **(أحدها)**: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل، لا من جهة المسيح عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ إلى أن قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۞ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ ولو كان هؤلاء من الحواريين، لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام، والله تعالى أعلم.

ثم لو كانوا رسل المسيح عليه السلام لما قالوا لهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

(الثاني): أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتاركة، وهن: القدس، لأنها بلد المسيح، وأنطاكية، لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والأسكندرية، لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأسقافة والقساوسة والشمامسة والرهابين. ثم رومية، لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأطده، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم، كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين. فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت، فأهل هذه القرية، وذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم، والله أعلم.

(الثالث): أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من السلف، أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة، لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾.

فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن، قرية أخرى غير أنطاكية، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة، مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت، لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾

٣٠- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ أي: يا ويل العباد.
وقال قتادة أي: يا حسرة العباد على أنفسهم، على ما ضيعت من أمر الله، وفرطت في جنب الله، وفي بعض القراءات: (يَا حَسْرَةَ العِبَادِ عَلَى أَنفُسِهَا). ومعنى هذا: يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة، إذا عاينوا العذاب، كيف كذبوا رسل الله، وخالفوا أمر الله، فإنهم كانوا في الدار الدنيا، المكذبون منهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ

﴿كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: يكذبونه ويستهزئون به، ويجحدون ما أرسل به من الحق.

٣١- ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل، كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم، من قولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وهم القائلون بالدور من الدهرية، وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم، أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها، فرد الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

٣٢- وقوله عز وجل: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: وأن جميع الأمم الماضية والآتية، ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا، فيجازيهم بأعمالهم كلها، خيرها وشرها، ومعنى هذه كقوله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾. وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف، فمنهم من قرأ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَا﴾ بالتخفيف، فعنده أن «إن» للإثبات. ومنهم من شدد ﴿لَّمَّا﴾ وجعل «إنْ» نافية، ولما بمعنى: إلا، تقديره: وما كل إلا جميع لدينا محضرون، ومعنى القراءتين واحد، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾

٣٣- يقول تبارك وتعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ أي: دلالة لهم على وجود الصانع، وقدرته التامة، وإحيائه الموتى ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ أي: إذا كانت ميتة هامدة، لا شيء فيها من النبات، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء، اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، ولهذا قال تعالى: ﴿أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: جعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم.

٣٤- ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي: جعلنا فيها أنهاراً، سارحة في أمكنة يحتاجون إليها.

٣٥- ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ لما امتنَّ على خلقه بإيجاد الزروع لهم، عَطَف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها، وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم، لا بسعيهم ولا كدِّهم، ولا بحولهم وقوتهم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة. ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم، من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، واختار ابن جرير ـ بل جزم به، ولم يحك غيره إلا احتمالاً ـ أن «ما» في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ بمعنى «الذي» تقديره: ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم، أي: غرسوه ونصبوه، قال: وهي كذلك في قراءة ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمِمَّا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

٣٦- ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ أي: من زروع وثمار ونبات ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال جلت عظمته ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

٣٧- يقول تعالى: ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة: خلق الليل والنهار، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وجعلهما يتعاقبان، يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ ولهذا قال عز وجل ههنا: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي: نصرمه منه فيذهب فيقبل الليل، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ كما جاء في الحديث: «إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا، وغربت الشمس، فقد أفطر الصائم» هذا هو الظاهر من الآية، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وقد ضعَّف ابن جرير قول قتادة ههنا، وقال: إن معنى «الإيلاج» الأخذ من هذا في هذا، وليس هذا مراداً في هذه الآية، وهذا الذي قاله ابن جرير حق.

٣٨- وقوله جل جلاله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ في معنى قوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قولان: أحدهما: أن المراد مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض في ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش، وجميع المخلوقات لأنه سقفها، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق العالم مما يلي رءوس الناس، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك وقت الظهيرة، تكون أقرب ما تكون إلى العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام وهو وقت نصف الليل، صارت أبعد ما تكون من العرش، فحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع، كما جاءت بذلك الأحاديث:

روى البخاري: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال ﷺ: «يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾».

(وروى أيضاً): عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال ﷺ: «مستقرها تحت العرش». هكذا أورده ههنا، وقد أخرجه في أماكن متعددة. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها» فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾»[1].

وقيل: المراد بمستقرها: هو انتهاء سيرها، وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف، وهو أوجها، ثم غاية انخفاضها في الشتاء، وهو الحضيض.

(والقول الثاني): أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها، وهو يوم القيامة، يبطل سيرها، وتسكن حركتها

---

(١) رواه البخاري في مواضع أولها (٦/ ٢٩٧).

وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته وهذا هو مستقرها الزماني، قال قتادة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي: لوقتها ولأجل لا تعدوه، وقيل: المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها، ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لاَ مُسْتَقَرَّ لَهَا) أي: لا قرار لها ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تفتر ولا تقف، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ أي: لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ أي: الذي لا يخالف ولا يمانع ﴿الْعَلِيمِ﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدَّر ذلك ووقَّته، على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس، كما قال عز وجل: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وهكذا ختم آية حم السجدة بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

٣٩- ثم قال جل وعلا: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ أي: جعلناه يسير سيراً آخر، يستدل به على مضيّ الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار، كما قال عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ الآية، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ فجعل الشمس لها ضوء يخصها، والقمر له نور يخصه، وفاوت بين سير هذه وهذا، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره، على ضوء واحد ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها، صيفاً وشتاءً، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وجعل سلطانها بالنهار، فهي كوكب نهاري.

وأما القمر فقدَّره منازل، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية، ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً، وإن كان مقتبساً من الشمس، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالعرجون القديم. قال ابن عباس رضي الله عنهما وهو أصل العذق. وقال مجاهد ﴿الْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أي: العذق اليابس. يعني ابن عباس رضي الله عنهما أصل العنقود من الرطب، إذا عتق ويبس وانحنى، وكذا قال غيرهما. ثم بعد هذا، يبديه الله تعالى جديداً في أول الشهر الآخر، والعرب تسمي كل ثلاث ليال من الشهر باسم، باعتبار القمر، فيسمون الثلاث الأول: غرر، واللواتي بعدها: نُفَل، واللواتي بعدها: تُسع، لأن أخراهن التاسعة، واللواتي بعدها: عشر، لأن أولاهن العاشرة، واللواتي بعدها: البيض، لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن، واللواتي بعدهن: دُرَع، جمع درعاء، لأن أولهن أسود لتأخر القمر في أولهن منه، ومنه الشاة الدرعاء، وهي التي رأسها أسود، وبعدهن ثلاث: ظُلَم، ثم ثلاث حَنَادس، وثلاث دآدئ، وثلاث محاق، لانمحاق القمر أو الشهر فيهن، وكان أبو عبيدة رضي الله عنه ينكر التسع والعشر. كذا قال في كتاب غريب المصنف.

٤٠- وقوله تبارك وتعالى: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا، وروى عبد

الرزاق: عن الحسن في قوله تعالى: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قال ذلك ليلة الهلال. وروى الثوري: عن أبي صالح: لا يدرك هذا ضوء هذا، ولا هذا ضوء هذا. وقال عكرمة يعني: أن لكل منهما سلطاناً، فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل. وقوله تعالى: ﴿وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يقول: لا ينبغي إذا كان الليل، أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقال الضحاك: لا يذهب الليل من ههنا، حتى يجيء النهار من ههنا، وأومأ بيده إلى المشرق، وقال مجاهد ﴿وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يطَّلبان حثيثين، يسلخ أحدهما من الآخر. والمعنى في هذا: أنه لا فترة بين الليل والنهار، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ، لأنهما مسخران دائبين، يتطالبان طلباً حثيثاً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني: الليل والنهار والشمس والقمر، كلهم يسبحون، أي: يدورون في فلك السماء. قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة وعطاء الخراساني، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد من السلف: في فَلْكة كفلكة المغزل، وقال مجاهد: الفلك كحديدة الرحى، أو كفلكة المغزل، لا يدور المغزل إلا بها، ولا تدور إلا به.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)﴾

٤١ - يقول تبارك وتعالى: ودلالة لهم أيضاً على قدرته تبارك وتعالى، تسخير البحر ليحمل السفن، فمن ذلك بل أوله سفينة نوح ﷺ، التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: آباءهم ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي: في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات، التي أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين. قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿الْمَشْحُونِ﴾ الموقر، وكذا قال سعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدي، وقال الضحاك وقتادة وابن زيد: وهي سفينة نوح عليه الصلاة والسلام.

٤٢ - وقوله جل وعلا: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: بذلك: الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها، وكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن وقتادة في رواية عبد الله بن شداد وغيرهم، وقال السدي في رواية: هي الأنعام. وروى ابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتدرون ما قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾؟ قلنا: لا، قال: هي السفن، جعلت من بعد سفينة نوح عليه الصلاة والسلام على مثلها. وكذا قال أبو مالك والضحاك وقتادة وأبو صالح والسدي أيضاً، ويقوى هذا المذهب في المعنى، قوله جل وعلا: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۞ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

٤٣، ٤٤ - وقوله عز وجل: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ يعني: الذين في السفن ﴿فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي: مما أصابهم ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ وهذا استثناء منقطع، تقديره ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر، ونسلمكم إلى أجل مسمى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى وقت معلوم عند الله عز وجل.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

٤٥- يقول تعالى مخبراً: عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال مجاهد: من الذنوب. وقال غيره بالعكس ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم، ويؤمنكم من عذابه. وتقدير الكلام: أنهم لا يجيبون إلى ذلك، بل يعرضون عنه، واكتفى عن ذلك بقوله تعالى:

٤٦- ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: على التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها.

٤٧- وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: عن الذين آمنوا من الفقراء، أي: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق، محاجِّين لهم فيما أمروهم به ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ أي: هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم، لو شاء الله لأغناهم، ولأطعمهم من رزقه، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في أمركم لنا بذلك، قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون من قول الله عز وجل للكفار، حين ناظروا المؤمنين، وردوا عليهم فقال لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وفي هذا نظر، والله أعلم.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

٤٨- يخبر تعالى: عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة، في قولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾؟ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾.

٤٩- قال الله عز وجل: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، وهذه ـ والله أعلم ـ نفخة الفزع، ينفخ في الصور نفخة الفزع، والناس في أسواقهم ومعايشهم، يختصمون ويتشاجرون على عادتهم، فبينما هم كذلك، إذ أمر الله عز وجل إسرافيل، فنفخ في الصور نفخة يُطَوِّلها ويمدها، فلا يبقى أحدٌ على وجه الأرض، إلا أصغى لَيتاً ورفع ليتاً، وهي: صفحة العنق، يَتَسمَّع الصوت من قبل السماء، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة، بالنار تحيط بهم من جوانبهم.

٥٠- ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: على ما يملكونه، الأمر أهم من ذلك ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾. وقد وردت ههنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر، ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق، التي تموت بها الأحياء كلهم، ما عدا الحي القيوم، ثم بعد ذلك نفخة البعث.

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا

مُحضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

٥١- هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور، للقيام من الأجداث والقبور، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والنَّسلان: هو المشي السريع، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾.

٥٢- ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؟ يعنون: قبورهم، التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. وقال أبي بن كعب رضي الله عنه ومجاهد والحسن وقتادة: ينامون نومة قبل البعث. قال قتادة: وذلك بين النفختين، فلذلك يقولون: من بعثنا من مرقدنا، فإذا قالوا ذلك، أجابهم المؤمنون، قاله غير واحد من السلف ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ وقال الحسن: إنما يجيبهم بذلك الملائكة.

ولا منافاة إذ الجمع ممكن، والله سبحانه وتعالى أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد: الجميع من قول الكفار ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ نقله ابن جرير، واختار الأول، وهو أصح، وذلك كقوله تبارك وتعالى في الصافات ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ۞ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وقال الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

٥٣، ٥٤- وقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ وقال جلت عظمته: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وقال جل جلاله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي: إنما نأمرهم أمراً واحداً، فإذا الجميع محضرون ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: من عملها ﴿وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

٥٥- يخبر تعالى: عن أهل الجنة، أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات، فنزلوا في روضات الجنات، أنهم في شغل عن غيرهم، بما هم فيه من النعيم المقيم، والفوز العظيم، قال الحسن البصري وإسماعيل ابن أبي خالد: في شغل عما فيه أهل النار من العذاب، وقال مجاهد ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ أي: في نعيم معجبون، أي: به، وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَاكِهُونَ﴾ أي: فرحون، قال عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن المسيب وعكرمة والحسن وقتادة والأعمش وسليمان التيمي والأوزاعي في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ قالوا: شغلهم افتضاض الأبكار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ أي: بسماع الأوتار، وقال أبو

حاتم: لعله غلط من المستمع وإنما هو افتضاض الأبكار.

٥٦- وقوله عز وجل: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ قال مجاهد: وحلائلهم ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ أي: في ظلال الأشجار ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والسدي وخصيف ﴿الْأَرَائِكِ﴾ هي: السرر تحت الحجال. قلت: نظيره في الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

٥٧- وقوله عز وجل: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أي: من جميع أنواعها ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ.

٥٨- وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ قال ابن جريج قال ابن عباس رضي الله عنهما: فإن الله تعالى نفسه سلامٌ على أهل الجنة. وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾.

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾

٥٩- يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة، من أمره لهم أن يمتازوا، بمعنى: يميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يصيرون صدعين فرقتين ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.

٦٠- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدوٌّ لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم.

٦١- ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان، وأمرتكم بعبادتي، وهذا هو الصراط المستقيم، فسلكتم غير ذلك، واتبعتم الشيطان فيما أمركم به.

٦٢- ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ يقال: جبلاً بكسر الجيم وتشديد اللام، ويقال جُبُلاً بضم الجيم والباء وتخفيف اللام، ومنهم من يسكن الباء، والمراد بذلك: الخلق الكثير، قاله مجاهد وقتادة والسدي وسفيان بن عيينة. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعُدُولكم إلى اتباع الشيطان.

﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا

﴿يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

٦٣- يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة، وقد برزت الجحيم لهم، تقريعاً وتوبيخاً ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم.

٦٤- ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾.

٦٥- وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا، ويحلفون ما فعلوه، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم بما عملت، روى ابن أبي حاتم: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال ﷺ: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز علي إلا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيختم على فيه، ويقال لأركانه انطقي بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول بُعداً لكُنَّ وسُحقاً، فعنكنَّ كنتُ أناضل» وقد رواه مسلم والنسائي.

وروى عبد الرزاق: عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «إنكم تدعون مُفدَّماً على أفواهكم بالفِدام[1] فأول من يُسئل عن أحدكم: فخذه وكتفه» رواه النسائي[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل قال فيه: «ثم يلقى الثالث فيقول: ما أنت؟ فيقول: أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك، وصمت وصليت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، قال: فيقال له ألا نبعث عليك شاهدنا؟ قال: فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليه، فيختم على فيه، ويقال لفخذه انطقي، قال: فينطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل، وذلك المنافق، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك الذي يسخط الله تعالى عليه» ورواه مسلم وأبو داود.

ثم روى ابن أبي حاتم رحمه الله: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن أول عَظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه، فخذه من الرجل اليسرى» وروى ابن جرير مثله. وقد جود إسناده الإمام أحمد رحمه الله[3].

وروى ابن جرير عن أبي بردة: قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة، فيَعرض عليه ربُّه عمله فيما بينه وبينه، فيعترف فيقول: نعم، أي رب عملتُ عملت عملت، قال: فيغفر الله تعالى له ذنوبه، ويستره منها. قال: فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئاً، وتبدو حسناته، فودَّ أن الناس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربُّه عمله فيجحد، ويقول: أي رب، وعزتك لقد كتب علي هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك، أي رب، ما عملته، فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه، قال أبو موسى

---

(١) الفدام: ما يشد على فم الإبريق من خرقة ونحوها لتصفية الشراب الذي فيه، أي: أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم (نهاية).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (١١٣٦٧) مطولاً، وكذا أحمد (٤/ ٤٤٧، ٤٤٩).

(٣) المسند (٤/ ١٥١) والحديث حسن لغيره، دون قوله: «من الرجل الشمال». وله شاهد: من حديث معاوية بن حيدة، رواه أحمد (٥/ ٤، ٥).

الأشعري رضي الله عنه: فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى ثم تلا: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

٦٦- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: يقول ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، فكيف يهتدون؟ وقال مرة: أعميناهم. وقال الحسن البصري: لو شاء الله لطمس على أعينهم، فجعلهم عمياً يترددون. وقال السدي: يقول: ولو نشاء أعمينا أبصارهم. وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والسدي ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ يعني: الطريق. وقال ابن زيد: يعني: بالصراط ههنا: الحق، فأنى يبصرون وقد طمسنا على أعينهم. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ لا يبصرون الحق.

٦٧- وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أهلكناهم. وقال السدي: يعني: لغيَّرنا خلقهم. وقال أبو صالح: لجعلناهم حجارة، وقال الحسن البصري وقتادة: لأقعدهم على أرجلهم. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً﴾ أي: إلى أمام ﴿وَلاَ يَرْجِعُونَ﴾ إلى وراء، بل يلزمون حالاً واحداً، لا يتقدمون ولا يتأخرون.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)﴾

٦٨- يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره، رد إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط، كما قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ والمراد من هذا ـ والله أعلم ـ الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واستقرار، ولهذا قال عز وجل: ﴿أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم، ثم صيرورتهم إلى سن الشبيبة، ثم إلى الشيخوخة، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى، لا زوال لها ولا انتقال منها، ولا محيد عنها، وهي الدار الآخرة.

٦٩- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ يقول عز وجل: مخبراً عن نبيه محمد ﷺ، أنه ما علمه الشعر ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أي: ما هو في طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جبلته، ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم، بل إن أنشده زحفه أو لم يتمه. وروى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا استراث الخبر، تمثَّل فيه ببيت طرفة:

ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد.

وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة، ورواه الترمذي والنسائي أيضاً.

وثبت في الصحيح: أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق، بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ولكن تبعاً لقول أصحابه رضي الله عنهم، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون:

لا هُمَّ لَوْلاَ أنتَ ما اهتَدَيْنا ... ولا تَصَدَّقْنا ولا صَلَّيْنا
فأنزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وثَبِّتِ الأقدامَ إنْ لاَقَيْنا

إنَّ الأُولَى[1] قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَـةً أَبَيْنَـا

ويرفع ﷺ صوته بقوله: «أبينا» ويمدها. وقد روى هذا بزحاف في الصحيحين أيضاً.

وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين، وهو راكب البغلة، يقدم بها في نحور العدو:

أنا النبيُّ لا كذب أنا ابنُ عبد المطلب

لكن قالوا: هذا وقع اتفاقاً، من غير قصد لوزن شعر، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه.

وكذلك ما ثبت في الصحيحين: عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غارٍ فنكبت إصبعه، فقال ﷺ:

هل أنتِ إلاَّ أصبع دَميت وفي سبيل الله ما لقيت

وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ إنشاده:

إن تَغفِرِ اللهمَّ تغفر جَمّا وأيُّ عبدٍ لك ما ألمّا

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم شعراً، ولا ينبغي له، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ﴿الَّذِي لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وليس هو بشعرٍ، كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش، ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر، كما تنوعت فيه أقوال الضلال، وآراء الجهال، وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً.

وروى الإمام أحمد رحمه الله: عن أبي نوفل قال: سألت عائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يُتسامع عنده الشعر؟ فقالت: كان أبغض الحديث إليه، وقال عن عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك.

وروى أبو داود: عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ: «لأنْ يَمتلئَ جَوفُ أحدكم قيحاً، خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً» انفرد به من هذا الوجه، وإسناده على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت رضي الله عنه، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وأمثالهم وأضرابهم رضي الله عنهم أجمعين، ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية، ومنهم أمية بن أبي الصلت، وقد أنشد بعض الصحابة رضي الله عنهم منه للنبي ﷺ مائة بيت، يقول ﷺ عقب كل بيت: «هيه» يعني: يستطعمه فيزيده من ذلك[2].

وقد روى أبو داود من حديث أبي بن كعب وبريدة بن الحصيب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من البيان سِحْراً، وإن من الشِّعر حكماً».

ولهذا قال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ يعني: محمداً ﷺ ما علمه الله الشعر ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أي: وما يصلح له ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي علمناه ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيّن واضح جلي، لمن

---

(١) قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٢٢٣): الألى بهمزة مضموماً غير ممدودة، واللام بعدها مفتوحة، وهي بمعنى «الذين» وإنما يتّزن بلفظ: الذين، فكأن أحد الرواة ذكرها بالمعنى. . .

(٢) رواه مسلم في الشعر (٤/ ١٧٦٧) من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه رضي الله عنه.

تأمله وتدبره.

٧٠- ولهذا قال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: لينذر هذا القرآن المبين، كل حي على وجه الأرض، كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ وقال جل وعلا: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب، مستنير البصيرة، كما قال قتادة: حي القلب، حي البصر. وقال الضحاك: يعني: عاقلاً ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: هو رحمة للمؤمنين، وحجة على الكافرين.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾

٧١- يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه، من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ قال قتادة: مطيقون، أي: جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم، لا تمتنع منهم، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، وذاك ذليل منقاد معه، وكذا لو كان القطار مائة بعيراً أو أكثر، لسار الجميع بسير الصغير.

٧٢- وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي: منها ما يركبون في الأسفار، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ إذا شاءوا نحروا واجتزروا.

٧٣- ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أي: من أصوافها وأوبارها وأشعارها، أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿وَمَشَارِبُ﴾ أي: من ألبانها وأبوالها، لمن يتداوي ونحو ذلك ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره، ولا يشركون به غيره؟

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾

٧٤- يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة، وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى.

٧٥- قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: لا تقدر الآلهة على نصر عابديها، بل هي أضعف من ذلك، وأقل وأذل، وأحقر وأدحر، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ قال مجاهد: يعني: عند الحساب. يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة، محضرة عند حساب عابديها، ليكون ذلك أبلغ في حزنهم، وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم.

وقال قتادة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ يعني: الآلهة، ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا، وهي لا تسوق إليهم خيراً، ولا تدفع عنهم شراً، إنما هي أصنام. وهكذا قال الحسن البصري، وهذا القول حسن، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى.

٧٦- وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: تكذيبهم لك، وكفرهم بالله ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: نحن نعلم جميع ما هم فيه، وسنجزيهم وصفهم، ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً، ولا صغيراً ولا كبيراً، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

٧٧- قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم، وهو يفته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «نعم يميتك الله تعالى، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات من آخر «يس»: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخرهن.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتَّه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم» قال: ونزلت الآيات من آخر «يس»، ورواه ابن جرير.

وعلى كل تقدير، سواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما، فهي عامة في كل من أنكر البعث، والألف واللام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أولم يستدل من أنكر البعث، بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين، كما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ* فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ* إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة، أليس بقادر على إعادته بعد موته.

كما روى الإمام أحمد في مسنده: عن بسر بن جحَّاش قال: إن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه، ثم قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يا بني آدم أنى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سَوَّيتك وعَدَلتك، مشيتَ بين بُرديك وللأرض منكَ وئيد، فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغت التراقي، قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة؟» ورواه ابن ماجة.

٧٨- ولهذا قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: استبعد إعادة الله تعالى ـ ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض ـ للأجساد والعظام الرميمة، ونسي نفسه وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده.

٧٩- ولهذا قال عز وجل: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها، أين ذهبت؟ وأين تفرقت وتمزقت؟

وروى الإمام أحمد: قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضي الله عنهما: ألا تحدِّثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ، فقال: سمعته ﷺ يقول: «إنَّ رجلاً حَضَرَه الموت، فلما يئس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا مت، فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً، ثم أوقدوا فيه ناراً، حتى إذا أكلت لحمي، وخلصت إلى عظمي فامتُحشت، فخذوها فدقوها فذروها في اليم، ففعلوا، فجمعه الله تعالى إليه، ثم قال له: لم فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك، فغفر الله عز وجل له» فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك، وكان نبَّاشاً.

وقد أخرجاه في الصحيحين بألفاظ كثيرة منها: «أنه أمر بنيه أن يحرقوه، ثم يسحقوه، ثم يَذْروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، في يوم رائح، أي: كثير الهواء، ففعلوا ذلك، فأمر الله تعالى البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال له: كن، فإذا هو رجل قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: مخافتك، وأنت أعلم؛ فما تلافاه أن غفر له».

٨٠- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي: الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء، حتى صار خضراً نضراً، فأثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً، توقد به النار، كذلك هو فعال لما يشاء، قادر على ما يريد، لا يمنعه شيء، قال قتادة: الذي أخرج هذه النار من الشجر، قادر على أن يبعثه، ، وقيل المراد بذلك: شجر المرخ والعفار، ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، ويقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما، كالزناد سواء.

وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي المثل: لكل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار، وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا الغاب.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾

٨١- يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة، في خلق السموات السبع، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت، و الأرضين السبع، وما فيها من جبال ورمال، وبحار وقفار وما بين ذلك، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد، بخلق هذه الأشياء العظيمة، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقال عز وجل ههنا: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: مثل البشر، فيعيدهم كما بدأهم، قاله ابن جرير، وهذه الآية الكريمة كقوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

٨٢- ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً، لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد.

٨٣- وقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء، للحي القيوم، الذي بيده مقاليد السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله، وله الخلق والأمر، وإليه يرجع العباد يوم المعاد، فيجازي كل عامل بعمله، وهو العادل المنعم المتفضل.

ومعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كقوله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ فالملك والملكوت واحد في المعنى، كرحمة ورحموت، ورهبة ورهبوت، وجبر وجبروت، ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجسام، والملكوت هو عالم الأرواح، والصحيح الأول، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم.

وقد روى أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي: من حديث حذيفة رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي من الليل، وكان يقول: «الله أكبر ـ ثلاثاً ـ ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة» ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه، وكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» ثم رفع رأسه من الركوع فكان قيامه نحواً من ركوعه، وكان يقول في قيامه: «لربي الحمد» ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه، وكان يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى» ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من سجوده، وكان يقول: «رب اغفر لي رب اغفر لي» فصلى أربع ركعات فقرأ فيهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام ـ شك شعبة ـ هذا لفظ أبي داود.

وروى أبو داود: عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمةٍ إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة» ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة، ورواه الترمذي في الشمائل والنسائي.

تم بحمد الله تعالى الجزء الثالث
ويليه الجزء الرابع
وأوله سورة «الصافات»

فهرس الكتاب

فهرست الكتاب

حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

مهذب ومختصر وتحقيق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي

المتوفى سنة ٧٧٤هـ

تهذيب واختصار وتحقيق

محمد الحمود النجدي

الجزء الرابع

غراس

للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان

جمعية إحياء التراث الإسلامي

حسن التحرير

في تهذيب

تفسير ابن كثير

مهذب ومختصر ومحقق لتفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

تهذيب واختصار وتحقيق
محمد الحمود النجدي

الجزء الرابع

غراس للنشر والتوزيع والدعاية والإعلان

جمعية إحياء التراث الإسلامي

طبعت هذه النسخة :
على نفقة فاعلة خير
آجرها الله تعالى فيما أعطتْ
وبارك لها فيما أبقت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله و كفى،

وسلام على عباده الذين

اصطفى،

أما بعد،،،

فإيماناً من اللجنة العلمية و الثقافية بما للكتاب الإسلامي من أثر فعّال في نشر العلم الشرعي بين المسلمين، و تجديد نصوص القرآن و السنة في حياتهم اليومية، وإحياء القدوة الصالحة من سلفنا الكرام - رضي الله عنهم - لتكون ماثلة أمامهم في واقعهم العلمي.

رأت اللجنة تبني إصدار هذا الكتاب المبارك في تفسير كتاب الله تعالى، وهومن الكتب التي لا يخفى على المسلمين مكانها في المكتبة الإسلامية، لاسيما الجهد المبذول في إخراجه بهذه الصورة الميسّرة المحققة، والتي نرجو أن يعم بها النفع لإخواننا المسلمين، و أن يكتب الأجر لكل من ساهم في هذا العمل الصالح. وفق الله الجميع لما يحبه و يرضاه،

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

جمعية إحياء التراث الإسلامي

فرع ضاحية صباح الناصر

بسم الله الرحمن الرحيم

ويه نستعين

مقدمة

الحمد لله العزيز الوهاب، ملك الملوك ورب الأرباب، أنزل على عبده الكتاب، هدىً وذكرى لأولي الألباب.

والصلاة والسلام على نبنيا وحبيبنا محمد، الذي أظهر الله على يديه الحق وأوضح الصواب، وانقشعت برسالته ظلمات الشك والشرك والارتياب، وعلى آله أولي الأحساب، وأصحابه أئمة الفضل والهدى، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الحساب.

وبعد:

فقد منَّ الله تعالى شأنه علينا بالانتهاء من هذا الكتاب المبارك «حسن التحرير في تهذيب تفسير ابن كثير» وإتمامه بهذا الجزء الرابع الذي بين يديك أخي القارئ الكريم، وقد سرنا فيه على ما تقدم من المجلدات الثلاث السابقة.

نسأل الله تعالى أن يجعله ذخراً لنا يوم نلقاه، وأن يكتب الأجر والثواب لكل من ساهم معنا فيه، بمراجعة أو تصحيح أو طباعة أو نشر أو توزيع.

ولعلنا أن نجمع هذا التفسير في مجلدين أو مجلد كبير، ليسهل تناوله، والله الموفق لكل خير، إنه سميع الدعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

و كتبه/

محمد الحمود النجدي الأثري

الكويت - لعشر مضين من شوال ١٤٢٨هـ

ترتيبها ٣٧ | سورة الصافات ـ مكية | آياتها ١٨٢

روى النسائي: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. تفرد به النسائي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)﴾

١- روى سفيان الثوري: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ وهي الملائكة ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ هي: الملائكة ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هي: الملائكة، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومسروق وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي وقتادة والربيع بن أنس. قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء. روى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعل لنا ترابها طهوراً، إذا لم نجد الماء».

وقد روى مسلم أيضاً وأبو داود والنسائي وابن ماجة: عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال ﷺ: «يتمون الصفوف المتقدمة، ويتراصون في الصف».

٢- وقال السدي وغيره: معنى قوله تعالى: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ أنها: تزجر السحاب. وقال الربيع بن أنس ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ ما زجر الله تعالى عنه في القرآن، وكذا روى مالك عن زيد بن أسلم.

٣- ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ قال السدي: الملائكة، يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

٤، ٥- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هذا هو المقسم عليه، أنه تعالى لا إله إلا هو، رب السموات والأرض، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره، بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات، تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب، لدلالتها عليه، وقد صرح بذلك في قوله عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ وقال تعالى في الآية الأخرى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعني: في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى

الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾

٦- يخبر تعالى: أنه زين السماء الدنيا، للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت، يثقب ضوؤها جرم السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

٧- فقوله جل وعلا ههنا: ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ يعني: المتمرد العاتي، إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه.

٨- ولهذا قال جل جلاله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ لئلا يصلوا إلى الملإ الأعلى، وهي السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى، ، بما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك، في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: يرمون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها.

٩- ﴿دُحُورًا﴾ أي: رجماً يدحرون به، ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ويرجمون ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم، موجع مستمر، كما قال جلت عظمته ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾.

١٠- وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذي تحته، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم في الحديث، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: مستنير.

روى ابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان للشياطين مقاعد في السماء، قال: فكانوا يستمعون الوحي، قال: وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا تُرمى، قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض فزادوا في الكلمة تسعاً، قال: فلما بُعث رسول الله ﷺ جعل الشيطان إذا قصد مقعده، جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه، قال: فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله، فقال: ما هو إلا من أمر حدث، قال: فبعث جنوده فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جبلي نخلة ـ قال وكيع: يعني: بطن نخلة ـ قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه فقال: هذا الذي حدث.

وستأتي إن شاء الله تعالى الأحاديث الواردة مع الآثار في هذا المعنى، عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

١١ - يقول تعالى: فسل هؤلاء المنكرين للبعث: أيما أشد خلقاً، هم أم السموات والأرض وما بينهما، من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿أم من عددنا﴾ فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك، فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا؟ كما قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾. ثم بين أنهم خُلقوا من شيء ضعيف، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك: هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة: هو اللزج الجيد، وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد.

١٢ - وقوله عز وجل: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي: بل عجبت يا محمد، من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى، من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم، ويسخرون مما تقول لهم من ذلك. قال قتادة: عجب محمد ﷺ، وسَخِر ضُلَّال بني آدم.

١٤ - ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أي: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: يستهزئون.

١٥ - ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إن هذا الذي جئت به، إلا سحر مبين.

١٦، ١٧ - ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ يستبعدون ذلك، ويكذبون به.

١٨ - ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة، بعد ما تصيرون تراباً وعظاماً ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: حقيرون، تحت القدرة العظيمة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

١٩ - ثم قال جلت عظمته: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: فإنما هو أمر واحد من الله عز وجل، يدعوهم دعوة واحدة، أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه ينظرون، إلى أهوال يوم القيامة، والله تعالى أعلم.

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

٢٠ - يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة، أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة، ندموا كل الندم، حيث لا ينفعهم الندم ﴿وَقَالُوا يَا

﴿وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ .

٢١- فتقول لهم الملائكة والمؤمنون ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين ، في الموقف في محشرهم ومنشرهم .

٢٢- ولهذا قال تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال النعمان بن بشير رضي الله عنه : يعني بأزواجهم أشباههم وأمثالهم ، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي وأبو صالح وأبو العالية وزيد بن أسلم . وعن النعمان قال : سمعت عمر يقول : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال : أشباههم ، قال : يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر . وعن مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما : أزواجهم : نساءهم . وهذا غريب ، والمعروف عنه الأول ، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبير عنه : أزواجهم : قرناءهم ، وما كانوا يعبدون من دون الله أي : من الأصنام والأنداد تحشر معهم في أماكنهم .

٢٣- وقوله تعالى : ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي : ارشدوهم إلى طريق جهنم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ .

٢٤- وقوله تعالى : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾ أي : قفوهم حتى يسئلوا عن أعمالهم وأقوالهم ، التي صدرت عنهم في الدار الدنيا ، كما قال الضحاك عن ابن عباس يعني : احبسوهم إنهم محاسبون . وقال عبد الله ابن المبارك سمعت عثمان بن زائدة (1) يقول : إن أول ما يسئل عنه الرجل جلساؤه .

٢٥- ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ﴾ أي : كما زعمتم أنكم جميع منتصر .

٢٦- ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي : ينقادون لأمر الله ، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه ، والله أعلم .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) ﴾

٢٧- يذكر تعالى : أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة ، كما يتخاصمون في دركات النار ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ وقال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا

(١) عثمان بن زائدة المقرئ ، أبو محمد الكوفي العابد ، الثقة الزاهد ، من رجال مسلم .

أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

٢٨- وهكذا قالوا لهم ههنا: ﴿**إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ**﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا، لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء. وقال مجاهد: يعني: عن الحق، والكفار تقوله للشياطين. وقال قتادة: قالت الإنس للجن: إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين، قال: من قبل الخير، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه، وقال السدي: تأتوننا من قبل الحق، وتزينوا لنا الباطل، وتصدونا عن الحق، وقال الحسن: أي والله، يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه، وقال ابن زيد: معناه: تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان، والعمل بالخير الذي أمرنا به، وقال عكرمة: ﴿**عَنِ الْيَمِينِ**﴾ قال: من حيث نأمنكم.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿**قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان.

٣٠- ﴿**وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ**﴾ أي: من حجه على صحة ما دعوناكم إليه ﴿**بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ**﴾ أي: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق، فلهذا استجبتم لنا، وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به فخالفتموهم.

٣١، ٣٢- ﴿**فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ**﴾ يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله، إنا من الأشقياء، الذائقين للعذاب يوم القيامة ﴿**فَأَغْوَيْنَاكُمْ**﴾ أي: دعوناكم إلى الضلالة ﴿**إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ**﴾ أي: فدعوناكم إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا.

٣٣- قال الله تبارك وتعالى: ﴿**فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ أي: الجميع في النار، كل بحسبه.

٣٤، ٣٥- ﴿**إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا**﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿**إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ أي: يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون. روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل» وأنزل الله تعالى في كتابه العزيز، وذكر قوماً استكبروا، فقال تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾.

٣٦- ﴿**وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ**﴾ أي: أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا، عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ.

٣٧- قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم ﴿**بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ**﴾ يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق، في جميع شرعة الله تعالى له، من الأخبار والطلب ﴿**وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ أي: صدقهم فيما أخبروا عنه، من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره، كما أخبروا ﴿**مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ**﴾ الآية.

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ

﴿٤٤﴾ يُطافُ عليهِم بكأسٍ من معينٍ ﴿٤٥﴾ بيضاءَ لذَّةٍ للشاربين ﴿٤٦﴾ لا فيها غولٌ ولا هُم عنها ينزفون ﴿٤٧﴾ وعندهُم قاصراتُ الطرفِ عينٌ ﴿٤٨﴾ كأنَّهُنَّ بيضٌ مكنونٌ ﴿٤٩﴾

٣٨ ، ٣٩- يقول تعالى مخاطباً للناس ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾ وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾.

٤٠- ولهذا قال جل وعلا ههنا: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون في الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله تعالى من التضعيف.

٤١- وقوله جل وعلا: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ قال قتادة والسدي: يعني: الجنة.

٤٢- ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَاكِهُ﴾ أي: متنوعة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أي: يخدمون ويرفهون وينعمون.

٤٣ ، ٤٤- ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

٤٥ - ٤٧- وقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ﴾ نزّه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة، عن الآفات التي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن - وهو الغول - وذهابها بالعقل جملة، فقال تعالى ههنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها.

قال مالك عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء، أي: لونها مشرق حسن بهي، لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله عز وجل: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طعم الريح، بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك. وقوله تعالى: ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعني: لا تؤثر فيهم غولاً، وهو وجع البطن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وابن زيد، كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه، لكثرة مائيتها، وقيل: المراد بالغول ههنا: صداع الرأس. وروي هكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال قتادة: هو صداع الرأس ووجع البطن. وعنه وعن السدي: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زالت الكأس تغتالنا وتذهب بالأوّل الأوّل

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى، والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم. وكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب والحسن وعطاء ابن أبي مسلم الخراساني والسدي وغيرهم.

٤٨- وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي: عفيفات، لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وزيد بن أسلم وقتادة والسدي وغيرهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿عِينٌ﴾

أي: حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهي النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا في يوسف ﷺ حين جمّلته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمنه وأكبرنه، وظنن أنه ملك من الملائكة، لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: هو مع هذا الجمال، عفيف تقي نقي، وهكذا الحور العين ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾.

٤٩- وقوله جل جلاله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ وصفهن بترافة الأبدان، بأحسن الألوان. قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون. وقال الحسن ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يعني: محصون لم تمسه الأيدي. وقال السدي: البيض في عشه مكنون. وقال سعيد بن جبير: يعني: بطن البيض. وقال السدي: يقول: بياض البيض حين ينزع قشرته. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿مَّكْنُونٌ﴾ قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدي، بخلاف داخلها، والله أعلم.

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾

٥٠- يخبر تعالى: عن أهل الجنة، أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أي: عن أحوالهم، وكيف كانوا في الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها، وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم في تنادمهم، ومعاشرتهم في مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم يسعون، ويجيئون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

٥١- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهد: يعني: شيطاناً. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا، ولا تنافي بين كلام مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما: فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان، وكلاهما يتعاونان، قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وكل منهما يوسوس، كما قال الله عز وجل: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾.

٥٢- ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أي: أأنت تصدق بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، يعني: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد.

٥٣- ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ قال مجاهد والسدي: لمحاسبون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومحمد بن كعب القرظي: لمجزيون بأعمالنا. وكلاهما صحيح.

٥٤- قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: مشرفون، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة.

٥٥- ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وخليد العصري وقتادة والسدي وعطاء الخراساني: يعني: في وسط الجحيم، وقال الحسن البصري: في وسط الجحيم، كأنه شهاب يتقد، وقال قتادة: ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي.

٥٦- ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ يقول المؤمن مخاطباً للكافر: والله إن كِدتَّ لتهلكني لو أطعتك.

٥٧- ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي: ولولا فضل الله عليَّ لكنت مثلك في سواء الجحيم، حيث أنت، محضر معك في العذاب، ولكنه تفضل عليَّ ورحمني، فهداني للإيمان، وأرشدني إلى توحيده ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

٥٨، ٥٩- وقوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾. هذا من كلام المؤمن، مغبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى، من الخلد في الجنة، والإقامة في دار الكرامة، بلا موت فيها ولا عذاب.

٦٠- ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قوله عز وجل: ﴿هَنِيئًا﴾ أي: لا يموتون فيها، فعندها قالوا ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

وقال الحسن البصري: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ قيل: لا، ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

٦١- وقوله جل جلاله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة، وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه لمثل هذا النعيم، وهذا الفوز، فليعمل العاملون في الدنيا، ليصيروا إليه في الآخرة.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

٦٢- يقول الله تعالى: أهذا الذي ذكره من الجنة، وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح، وغير ذلك من الملاذ، خير ضيافة وعطاء ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ أي: التي في جهنم، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم: إنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم، كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة، إلا وفيها منها غصن، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك، جنس شجر يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ يعني: الزيتونة، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾.

٦٣- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ قال أبو جهل لعنه الله: إنما الزقوم التمر والزبد

أتزقمه. قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم، اختباراً نختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾.

٦٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي: أصل منبتها في قرار النار.

٦٥- ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ تبشيع لها وتكريه لذكرها. قال وهب بن منبه شعور الشياطين قائمة إلى السماء، وإنما شبهها برءوس الشياطين، وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين، لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر، وقيل: المراد: بذلك ضرب من الحيات، رءوسها بشعة المنظر، وقيل: جنس من النبات طلعه في غاية الفحاشة. وفي هذين الاحتمال نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى وأولى، والله أعلم.

٦٦- وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة، التي لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها، مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما هو في معناها، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ * لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾.

وروى ابن أبي حاتم رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أنَّ قطرةً من الزقوم قَطَرت في بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟» ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

٦٧- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: شرب الحميم على الزقوم، وقال في رواية عنه: شرباً من حميم، مزجاً من حميم، وقال غيره: يعني: يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.

٦٨- وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل، لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ هكذا تلا قتادة هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي، وقال السدي: في قراءة عبد الله رضي الله عنه ﴿ثُمَّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ وكان عبد الله رضي الله عنه يقول: والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة، حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، ثم قرأ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾. قلت: على هذا التفسير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر.

٦٩- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أي: إنما جازيناهم بذلك، لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة، فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان.

٧٠- ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال مجاهد: شبيهة بالهرولة، وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾

٧١- يخبر تعالى عن الأمم الماضية، أن أكثرهم كانوا ضالين، يجعلون مع الله آلهة أخرى.

٧٢- وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم.

٧٣، ٧٤- ولهذا قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٨٢) ﴾

٧٥- لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين، أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً عليه السلام، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل، مع طول المدة لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك، واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي: فلنعم المجيبون له.

٧٦- ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهو التكذيب والأذى.

٧٧- ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام. وعن قتادة قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام.

٧٨- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يذكر بخير. وقال مجاهد: يعني لسان صدق للأنبياء كلهم، وقال قتادة والسدي: أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين. وقال الضحاك: السلام والثناء الحسن.

٧٩- وقوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل، والثناء الحسن، أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم.

٨٠- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده، بحسب مرتبته في ذلك.

٨١- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدقين الموحدين الموقنين.

٨٢- ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ أي: أهلكناهم فلم يبق منهم عين تطرف، ولا ذكر ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) ﴾

٨٣- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: من أهل دينه، وقال مجاهد: على منهاجه وسنته.

٨٤- ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني : شهادة أن لا إله إلا الله . وروى ابن أبي حاتم : عن عوف : قلت لمحمد بن سيرين : ما القلب السليم؟ قال : يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . وقال الحسن : سليم من الشرك ، وقال عروة : لا يكون لعاناً .

٨٥- وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد .

٨٦ ، ٨٧- ولهذا قال عز وجل : ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال قتادة : يعني : ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه ، وقد عبدتم معه غيره؟

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨)﴾

٨٨- إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ، ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاماً ما هو حق في نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم ، على مقتضى ما يعتقدونه ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر في النجوم . يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به .

٨٩- فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي : ضعيف ، فأما الحديث الذي رواه ابن جرير ههنا : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات : ثنتين في ذات الله تعالى ، قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقوله في سارة : هي أختي» فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي ، الذي يذم فاعله ، حاشا وكلا ولما ، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً ، وإنما هو من المعاريض في الكلام ، لمقصد شرعي ديني ، كما جاء في الحديث «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»(١) . قال سفيان في قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعني طعين ، وكانوا يفرون من المطعون ، فأراد أن يخلو بآلهتهم ، وكذا قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال قتادة عن سعيد بن المسيب رأى نجماً فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كابد نبي الله عن دينه ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ . وقال آخرون ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل ، يعني : مرض الموت ، وقيل : أراد ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي : مريض القلب ، من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى ، وقال الحسن البصري : خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم ، فأرادوه على الخروج فاضطجع على ظهره ، وقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وجعل ينظر في السماء ، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها ، ورواه ابن أبي حاتم .

٩٠- ولهذا قال تعالى : ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أي : ذهب إليها بعد ما خرجوا ، في سرعة واختفاء .

٩١ ، ٩٢- ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً ، لتبارك لهم فيه . قال السدي : دخل إبراهيم عليه السلام إلى بيت الآلهة ، فإذا هم في بهو عظيم ، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٥٧) عن عمران بن حصين موقوفاً ، ولا يصح مرفوعاً للنبي ﷺ ، انظر «الضعيفة» (١٠٩٤) .

أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاماً ووضعوه بين أيدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع، وقد باركت الآلهة في طعامنا، أكلناه، فلما نظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۞ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾.

٩٣- وقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ قال الفراء: معناه: مال عليهم ضرباً باليمين. وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضرباً باليمين، وإنما ضربهم باليمين، لأنها أشد وأنكى، ولهذا تركهم جذاذاً، إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك.

٩٤- وقوله تعالى ههنا: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ قال مجاهد: وغير واحد أي: يسرعون، وهذه القصة ههنا مختصرة، وفي سورة الأنبياء مبسوطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك، حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم عليه السلام هو الذي فعل ذلك.

٩٥- فلما جاءوا ليعاتبوه، أخذ في تأنيبهم وعيبهم، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي: أتعبدون من دون الله من الأصنام، ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم.

٩٦- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية فيكون تقدير الكلام: خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» تقديره: والله خلقكم والذي تعملونه، وكلا القولين متلازم، والأول أظهر، لما رواه البخاري في «كتاب أفعال العباد» عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال: «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته».

وقرأ بعضهم ﴿وَاللَّهُ خَلَقكُّمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[١]. فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة، عدلوا إلى أخذه باليد والقهر،

٩٧- فقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونجاه الله من النار، وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها.

٩٨- ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)
فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا
تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ
(١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ
بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
(١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ
إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾

---

(١) أي: بإدغام القاف في الكاف. انظر النشر في القراءات العشر (١/ ٢٨٦).

٩٩- يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إنه بعد ما نصره الله تعالى على قومه، وأيس من إيمانهم، بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

١٠٠- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: أولاداً مطيعين يكونون، عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم.

١٠١- قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بُشِّر به إبراهيم عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم: إن إسماعيل عليه السلام وُلد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة أخرى: بِكْره، فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً «إسحاق» ولا يجوز هذا، لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم فزادوا ذلك، وحرفوا وحيدك بمعنى الذي ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة، وهو تأويل وتحريف باطل! فإنه لا يقال: وحيدك، إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزَّة ماليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً، وليس ذلك في كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل، وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير، لأن الله تعالى قد عدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل فكيف يمكن بعد هذا ألا يؤمر بذبحه صغيراً وإسماعيل وصف ههنا بالحليم بأنه مناسب لهذا المقام.

١٠٢- وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، وقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد فاران، وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك، والله أعلم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني وزيد بن أسلم وغيرهم ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ بمعنى: شب وارتحل، وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي، ثم تلا هذه الآية ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾.

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره، على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۞ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾.

١٠٣- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: فلما تشهدا وذكرا الله تعالى، إبراهيم على الذبح، والولد على شهادة الموت. وقيل: أسلما، يعني: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمر الله تعالى، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وابن إسحاق وغيرهم. ومعنى «تله للجبين» أي: صرعه على وجهه، ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: أكبه على وجهه.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ثم ذهب به جبريل عليه الصلاة والسلام إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات، وثَمَّ تله للجبين، وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض، فقال له يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره، فاخلعه حتي تكفنني فيه، فعالجه ليخلعه، فنودي من خلفه ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين، قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش، وذكر هشام الحديث في المناسك بطوله.

١٠٤، ١٠٥- وقوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أي: قد حصل المقصود من رؤياك، وإضجاعك ولدك للذبح. وذكر السدي وغيره: أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفحة من نحاس، ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ذلك ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نصرف عمن أطاعنا، المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾.

وقد استدل بهذه الآية والقصة، جماعة من علماء الأصول: على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافاً لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً، إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده، وعزمه على ذلك.

١٠٦- ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ﴾ أي: الاختبار الواضح الجلي، حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى، منقاداً لطاعته، ولهذا قال تعالى ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾.

١٠٧- وقوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ روى الثوري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كبش قد رعا في الجنة أربعين خريفاً. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الصخرة التي بمنى بأصل ثبير، هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن، له ثغاء فذبحه، وهو الكبش الذي قرَّبه ابن آدم فتقبل منه، فكان مخزوناً حتى فدى به إسحاق. وقال مجاهد: وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل، ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشاً، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

والصحيح الذي عليه الأكثرون: أنه فُدي بكبش.

وقد روى الإمام أحمد: عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ولّدت عامة أهل دارنا: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه، وقالت مرة: إنها سألت عثمان لم دعاك النبي ﷺ؟ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إني كنتُ رأيتُ قرنَي الكبش حين دخلت، فنسيتُ أن آمرك أن تُخمّرهما، فخمّرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيءٌ يَشغل المصلي».

قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت، حتى احترق البيت فاحترقا.

وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، فإن قريشاً توارثوا قرني الكبش الذي فَدى به إبراهيم خلفاً عن سلف، وجيلاً بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

(فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو؟)

(ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام)

عن أبي الأحوص قال: افتخر رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: أنا فلان ابن فلان ابن الأشياخ الكرام، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله.

وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه، وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق، وعن أبيه العباس وعن علي بن أبي طالب مثل ذلك، وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق، وعن أبيه العباس وعن علي بن أبي طالب مثل ذلك، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله ابن شقيق والزهري والقاسم بن أبي برزة ومكحول وعثمان بن أبي حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط، وهذا اختيار ابن جرير، وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق.

وهذه الأقوال ـ والله أعلم ـ كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم في الدولة العمرية، جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديماً، فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة ـ والله أعلم ـ حاجة إلى حرف واحد مما عنده.

وقد ورد في ذلك حديث، لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين، ولكن لم يصح سنده.

(ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به)

قد تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام، والله تعالى أعلم.

وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام. وقال ابن جرير: عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود. وعن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: الذبيح إسماعيل. وكذا قال مجاهد ويوسف بن مهران، وقال الشعبي: هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة. وقال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول: إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه: إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ويقول الله

تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ يقول: بابن، وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل. قال ابن إسحاق: سمعته يقول ذلك كثيراً.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: سألت أبي عن الذبيح: هل هو إسماعيل، أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره في كتاب الزهد. وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام. قال: وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل. وقال البغوي في تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي، وهو رواية عن ابن عباس، وحكاه أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء.

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق، على قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ فجعل هذه البشارة، هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وأجاب عن البشارة بيعقوب، بأنه قد كان بلغ معه السعي، أي: العمل، ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد، مع يعقوب أيضاً. قال: وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة، فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان، قال: وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك، هذا ما اعتمد عليه في تفسيره، وليس ماذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جداً، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم.

١١٢- وقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبيح، وهو إسماعيل، عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتي هود والحجر، قوله تعالى: ﴿نَبِيّاً﴾ حال مقدرة، أي: سيصير منه نبي صالح. عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بعد ما كان من أمره لما جاد لله تعالى بنفسه.

١١٣- وقال الله عز وجل: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) ﴾

١١٤، ١١٥- يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة، والنجاة بمن آمن معهما، من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء.

١١٦- ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم، وما

كانوا جمعوه طول حياتهم.

١١٧، ١١٨- ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم، الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ وقال عز وجل ههنا: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: في الأقوال والأفعال.

١١٩- ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ﴾ أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً، وثناءً حسناً.

١٢٠، ١٢١- ثم فسره بقوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾

١٢٣- قال قتادة ومحمد بن إسحاق: يقال: إلياس هو إدريس، وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إلياس هو إدريس، وكذلك قال الضحاك. وقال وهب بن منبه: هو إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، بعثه الله تعالى في بني إسرائيل بعد حزقيل عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له «بعل» فدعاهم إلى الله تعالى، ونهاهم عن عبادة ما سواه..

١٢٤- ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون الله عز وجل، في عبادتكم غيره ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدي: بعلاً يعني رباً. قال عكرمة وقتادة: وهي لغة أهل اليمن، وفي رواية عن قتادة قال: وهي لغة أزد شنوءة. وقال ابن إسحاق: أخبرني بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها «بعلبك» غربي دمشق، وقال الضحاك هو صنم كانوا يعبدونه.

١٢٥- وقوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ أي: أتعبدون صنماً؟ ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

١٢٦- ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

١٢٧- قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: للعذاب يوم الحساب.

١٢٨- ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الموحدين منهم. وهذا استثناء منقطع من مثبت.

١٢٩- وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ أي: ثناء جميلاً.

١٣٠- ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ﴾ كما يقال في إسماعيل: إسماعين، وهي لغة بني أسد. ويقال: ميكال وميكائيل وميكائين، وإبراهيم وإبراهام، وإسرائيل وإسرائين، وطور سيناء وطور سينين وهو موضع واحد وكل هذا سائغ. وقرأ آخرون: ﴿سَلامٌ عَلَى إِدْرَاسِينَ﴾ وهي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه، وقرأ آخرون ﴿سَلامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ يعني: آل محمد ﷺ.

١٣١، ١٣٢- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد تقدم تفسيره،

والله تعالى أعلم.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾

١٣٣ - ١٣٦ - يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم، هو وأهله إلا امرأته، فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة، قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم، يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً.

١٣٧، ١٣٨ - ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۞ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾

١٣٩ - قد تقدمت قصة يونس عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء، وفي الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبدٍ أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أمه. وفي رواية: إلى أبيه.

١٤٠ - وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الموقر، أي المملوء بالأمتعة.

١٤١ - ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: قارع ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: من المغلوبين، وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث مرات، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه، وهم يأبون عليه ذلك، وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام، فلا يهشم له لحماً ولا يكسر له عظماً، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس عليه السلام نفسه، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها، ولما استقر يونس في بطن الحوت، حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي، فقام فصلى في بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس. واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت فقيل: ثلاثة أيام، قاله قتادة، وقيل: سبعة قاله جعفر الصادق رضي الله عنه، وقيل: أربعين يوماً، قاله أبومالك، وقال مجاهد عن الشعبي: التقمه ضحىً ولفظه عشية، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك.

١٤٣، ١٤٤ - وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قيل: لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء. قاله الضحاك بن قيس وأبو العالية ووهب بن منبه وقتادة وغير واحد، واختاره

ابن جرير، وقد ورد في الحديث الذي سنورده إن شاء الله تعالى ما يدل على ذلك إن صح الخبر، وفي حديث ابن عباس «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة». وقال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك وعطاء بن السائب والسدي والحسن وقتادة ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ يعني: المصلين، وصرح بعضهم بأنه: كان من المصلين قبل ذلك، وقيل: المراد ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ هو قوله عز وجل: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قاله سعيد بن جبير وغيره.

١٤٥- ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أي: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء، قيل: على جانب دجلة، وقيل: بأرض اليمن، فالله أعلم ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: ضعيف البدن، قاله ابن مسعودرضي الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال السدي: كهيئة الصبي حين يولد وهو المنفوس، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، وابن زيد أيضاً.

١٤٦- ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاوس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو: القرع. وذكر بعضهم في القرع فوائد: منها سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً وقشره أيضاً، وقد ثبت: أن رسول اللهﷺ كان يحب الدباء ويتتبعه من نواحي الصحفة.

١٤٧- وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (رُوي) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنما كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام، بعد ما نبذه الحوت، رواه ابن جرير. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت.

قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً، أُمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به، وحكى البغوي: أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعة وأربعين ألفاً، والله أعلم.

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك معناه: إلى المائة الألف، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم. وهكذا سلك ابن جرير ههنا، ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ المراد: ليس أنقص من ذلك، بل أزيد.

١٤٨- وقوله تعالى: ﴿فَآمَنُوا﴾ أي: فآمن هؤلاء القوم، الذين أرسل إليهم يونسعليه السلام جميعهم ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى وقت آجالهم، كقوله جلت عظمته ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُم

مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

١٤٩ - يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين، في جعلهم لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون، أي: من الذكور، أي: يودون لأنفسهم الجيد ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين، يقول عز وجل: فكيف نسبوا إلى الله تعالى، القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سلهم على سبيل الإنكار عليهم ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾.

١٥٠ - وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أي: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث، وما شاهدوا خلقهم، كقوله جل وعلا: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ أي: يسئلون عن ذلك يوم القيامة.

١٥١، ١٥٢ - وقوله جلت عظمته: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي: من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ﴾ أي: صدر منه الولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال، في غاية الكفر والكذب، فأولاً: جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً تعالى وتقدس، وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس، وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم.

١٥٣ - ثم قال تعالى منكراً عليهم ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ أي: أي شيء يحمله عن أن يختار البنات دون البنين، كقوله عز وجل ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

١٥٤ - ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: مالكم عقول تتدبرون بها ما تقولون.

١٥٥، ١٥٦ - ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: حجة على ما تقولونه؟.

١٥٧ - ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: هاتوا برهاناً على ذلك، يكون مستنداً إلى كتاب منزل من السماء عن الله تعالى، أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوزه العقل بالكلية.

١٥٨ - وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى، فقال أبو بكر رضي الله عنه فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن. وكذا قال قتادة وابن زيد، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أي: الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: إن الذين قالوا ذلك، لمحضرون في العذاب يوم الحساب، لكذبهم في ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم.

١٥٩ - وقوله جلت عظمته: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه، عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون، علواً كبيراً.

١٦٠- وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت إلا أن يكون الضمير قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائد إلى الناس جميعهم، ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل، وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ وفي هذا الذي قاله نظر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠)﴾

١٦١ - ١٦٣- يقول تعالى مخاطباً للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أي: إنما ينقاد لمقالتكم، وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة، من هو أضل منكم ممن ذُرئَ للنار ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ فهذا الضرب من الناس، هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

١٦٤- ثم قال تبارك وتعالى منزهاً للملائكة مما نسبوا إليهم من الكفر بهم، والكذب عليهم، أنهم بنات الله ﴿وَمَا لَنَا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: له موضع مخصوص في السموات، ومقامات العبادات، لا يتجاوزه ولا يتعداه.

وروى ابن عساكر بسنده: إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد عن أبيه: وكان ممن بايع يوم الفتح أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه: «أَطَّت السما وحق لها أن تئط، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد» ثم قرأ ﷺ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾.

وروى الضحاك في تفسيره عن عائشة رضي الله عنها (مرفوعاً نحوه).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن في السموات لسماء، ما فيها موضع شبر، إلا عليه جبهة ملك أو قدماه، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ وكذا قال سعيد بن جبير.

١٦٥- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ أي: نقف صفوفاً في الطاعة، كما تقدم عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾. وفي صحيح مسلم: عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهوراً» الحديث.

١٦٦- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي: نصطف فنسبح الرب ونمجده، ونقدسه وننزه عن النقائص، فنحن عبيد له فقراء إليه، خاضعون لديه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ الملائكة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ الملائكة تسبح الله عز وجل. وقال قتادة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ يعني: المصلون يثبتون بمكانهم من العبادة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

خَلْفَهُمْ وَلاَيَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ .

١٦٧ - ١٦٩ - وقوله جل وعلا ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد، لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال جل جلاله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾ وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ .

١٧٠ - ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ أكيد، وتهديد شديد، على كفرهم بربهم عز وجل، وتكذيبهم رسولهﷺ.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾

١٧١ ، ١٧٢ - يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: تقدم في الكتاب الأول، أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وقال عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، كيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين.

١٧٣ - ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي: تكون لهم العاقبة.

١٧٤ - وقوله جل وعلا: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ أي: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر، ولهذا قال بعضهم نسأ ذلك إلى يوم بدر، وما بعدها أيضاً في معناها.

١٧٥ - وقوله جلت عظمته: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أي: أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال، بمخالفتك وتكذيبك، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

١٧٦ - ثم قال عز وجل: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك، فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم، يستعجلون العذاب والعقوبة.

١٧٧ - قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: فإذا نزل العذاب

بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم، وقال السدي: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعني بدارهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: فبئس ما يتصبحون، أي: بئس الصباح صباحهم. ولهذا ثبت في الصحيحين: من حديث عن أنس رضي الله عنه قال: صبح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم، ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون: محمد والله محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: لما صبح رسول الله ﷺ خيبر وقد أخذوا مساحيهم، وغدوا إلى حروثهم وأرضيهم، فلما رأوا النبي ﷺ نكصوا مدبرين، فقال نبي الله ﷺ: «إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين» لم يخرجوه من هذا الوجه وهو صحيح على شرط الشيخين.

١٧٨، ١٧٩- وقوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾

١٨٠- ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدسها ويبرئها، عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون، تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ أي: ذي العزة التي لا ترام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين.

١٨١- ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه في ربهم، وصحته وحقيته.

١٨٢- ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص، قرن بينهما في هذا الموضع، وفي مواضع كثيرة من القرآن، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»(١) وقد أفردت لها جزءاً على حدة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

آخر تفسير سورة الصافات

****

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي (٣٦٧٤) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وله طرق أخرى كثيرة.

ترتيبها ٣٨ — سورة ص ـ مكية — آياتها ٨٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾

١- أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته ههنا. وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم، في المعاش والمعاد. قال الضحاك في قوله تعالى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: تذكيركم. وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير. وقال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وإسماعيل بن أبي خالد وابن عيينة وأبو حصين وأبو صالح والسدي ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ ذي الشرف، أي: ذي الشأن والمكانة، ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف، مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار. واختلفوا في جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم. وقال قتادة: جوابه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ واختاره ابن جرير.

٢- وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي: إن في هذا القرآن لذكر لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، وإنما لم ينتفع به الكافرون، لأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أي: استكبار عنه وحمية ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أي: ومخالفة له ومعاندة ومفارقة.

٣- ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم، بسبب مخالفتهم للرسل، وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء، فقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمة مكذبة ﴿فَنَادَوا﴾ أي: حين جاءهم العذاب، استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى، وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً، كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يهربون ﴿لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ روى أبو داود الطيالسي: عن التميمي قال: سألت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قال: ليس بحين نداء ولا نزو ولا فرار. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس بحين مغاث. وقال عكرمة عن ابن عباس: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد: ❖ تذكر ليلى لات حين تذكر ❖ وقال محمد بن كعب: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم، وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة في غير حين النداء، وقال مجاهد: ليس بحين فرار ولا إجابة. وقد روي نحو هذا عن كرمة وسعيد بن جبير وأبي مالك والضحاك وزيد بن أسلم والحسن وقتادة، وعن مالك عن زيد بن أسلم ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ولا نداء في غير حين النداء.

وهذه الكلمة وهي «لات» هي «لا» التي للنفي، زيدت معها التاء كما تزاد في ثم، فيقولون: ثمت، ورب فيقولون: ربت، وهي مفصولة والوقف عليها، ومنهم من حكى عن المصحف الإمام، فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة «بحين» و«لا تحين مناص»، والمشهور الأول، ثم قرأ الجمهور بنصب حين، تقديره: وليس الحين حين مناص، ومنهم من جوز النصب بها.

وأهل اللغة يقولون: النوص التأخر، والبوص التقدم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ (١١) ﴾

٤- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً، كما قال عز وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الكافِرونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ وقال جل وعلا ههنا: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: بشر مثلهم، وقال الكافرون ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

٥- ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي: أزعم أن المعبود واحد، لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك - قبحهم الله تعالى - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان، وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

٦- ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم، قائلين: امشوا، أي: استمروا على دينكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ قال ابن جرير: إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد، لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء، وأن يكون له منكم اتباع، ولسنا نجيبه إليه.

(ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات)

روى أبو جعفر بن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهطٌ من قريش فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشي أبو جهل لعنه الله إن جلس إلى جنب أبي طالب، أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول

الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، مال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية» ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة، نعم وأبيك عشراً، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ قال ﷺ: «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾. وهكذا رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير.

٧- وقولهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد من التوحيد، في الملة الآخرة. قال مجاهد وقتادة وأبو زيد: يعنون دين قريش. وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب والسدي. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقاً، أخبرتنا به النصارى. ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ قال مجاهد وقتادة: كذب. وقال ابن عباس: تخرص.

٨- وقولهم ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ يعني: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه، من بينهم كلهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ ولهذا لما قالوا هذا الذي دل على جهلهم وقلة عقلهم، في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم.

قال الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي: إنما يقولون هذا، لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك، عذاب الله تعالى ونقمته، سيعلمون غِب ما قالوا وما كذبوا به، يوم يُدعُّون إلى نار جهنم دعا.

٩- ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه، الفعال لما يشاء، الذي يعطي من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحدٌ من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر، وليس إليهم من التصرف في الملك، ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير.

ولهذا قال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أي: العزيز الذي لا يرام جنابه، الوهاب الذي يعطى ما يريد لمن يريد، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۞ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۞ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ وذلك بعد الحكاية عن الكفار، أنهم أنكروا بعثة الرسول البشري ﷺ، وكما أخبر عز وجل عن قوم صالح عليه السلام، حين قالوا: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ۞ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾.

١٠- وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أي: إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: يعني:

طرق السماء. وقال الضحاك رحمه الله تعالى: فليصعدوا إلى السماء السابعة.

١١- ثم قال عز وجل: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: هؤلاء الجند المكذبون، الذين هم في عزة وشقاق، سيهزمون ويغلبون، ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين. وهذه الآية كقوله جلت عظمته ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ* سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ وكان ذلك يوم بدر ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾

١٢- يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال والنقمات، في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة.

١٣- وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي: كانوا أكثر منكم، وأشد قوة، وأكثر أموالاً وأولاداً، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك.

١٤- ولهذا قال عز وجل ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ فجعل علة إهلاكهم، هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

١٥- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم: أي ليس لها مثنوية، أي: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة، فقد جاء أشراطها، أي: فقد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع، التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله عز وجل.

١٦- وقوله جل جلاله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين، في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن «القط» هو الكتاب. وقيل: هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والضحاك والحسن وغير واحد: سألوا تعجيل العذاب، زاد قتادة كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة، إن كانت موجودة، ليلقوا ذاك في الدنيا، وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب. وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر في الدنيا، وهذا الذي قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبي خالد، والله أعلم.

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

١٧- يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام، أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة في العلم

والعمل. قال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي وابن زيد: الأيدي القوة، وقرأ ابن زيد: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وقال مجاهد: الأيد: القوة في الطاعة. وقال قتادة: أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة، وفقهاً في الإسلام، وقد ذكر لنا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر، وهذا ثابت في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: أحبُّ الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى، وإنه كان أوّاباً». وهو الرجاع إلى الله عز وجل في جميع أموره وشئونه.

١٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أي: أنه تعالى سخَّر الجبال تسبح معه، عند إشراق الشمس، وآخر النهار، كما قال عز وجل: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ وكذلك كانت الطير، تسبح بتسبيحه وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء، فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا يستطيع الذهاب بل يقف في الهواء ويسبح معه، وتجيبه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعاً له.

روى ابن جرير: عن عبيد الله بن الحارث بن نوفل: أن ابن عباس رضي الله عنهما كان لا يصلي الضحى، قال: فأدخلته على أم هانئ رضي الله عنها، فقلت: أخبري هذا ما أخبرتني، فقالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيتي، ثم أمر بماء صبَّ في قصعة، ثم أمر بثوب، فأخذ بيني وبينه فاغتسل، ثم رشَّ ناحية البيت فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى، قيامهنَّ وركوعهنَّ وسجودهنَّ وجلوسهنَّ سواء، قريب بعضهنَّ من بعض، فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين، ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وكنت أقول: أين صلاة الإشراق؟ وكان بعد يقول: صلاة الإشراق[(١)].

١٩- ولهذا قال عز وجل: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: محبوسة في الهواء ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع يسبح تبعاً له، قال سعيد بن جبير وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع.

٢٠- وقوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي: جعلنا له ملكاً كاملاً، من جميع ما يحتاج إليه الملوك، قال ابن أبي نجيح عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً.

وقوله جل وعلا: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: يعني: الفهم والعقل، وقال مرة: الحكمة والعدل، وقال مرة: الصواب، وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه، وقال السدي ﴿الْحِكْمَةَ﴾ النبوة، وقوله جل جلاله: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال شريح القاضي والشعبي: فصل الخطاب الشهود والأيمان. قال قتادة: شاهدان على المدعي، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل، أو قال: المؤمنون والصالحون، وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة. وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي، وقال مجاهد والسدي: هو إصابة القضاء وفهم ذلك. وقال مجاهد أيضاً: هو الفصل في الكلام وفي الحكم. وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ

(١) يشهد له ما رواه البخاري في المغازي (٨/ ١٩) بنحوه.

خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)﴾

٢١- قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من إسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد - وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسوَّرا عليه المحراب، أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما.

٢٣- وقوله عز وجل: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني، يقال: عزَّ يعزُّ، إذا قهر وغلب.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي: اختبرناه. وقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: ساجداً ﴿وَأَنَابَ﴾ ويحتمل أنه ركع أولاً، ثم سجد بعد ذلك.

٢٥- ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار، سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة في سجدة «ص» هل هي من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعي رحمه الله: أنها ليست من عزائم السجود، بل هي سجدة شكر. والدليل على ذلك: ما رواه الإمام أحمد: عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال في السجود في «ص» ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها، ورواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي في تفسيره.

وروى النسائي أيضاً: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ سجد في «ص» وقال: «سجدها داود عليه السلام توبة، ونسجدها شكراً» تفرد بروايته النسائي.

وقد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي (بسنده): عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة فسجدت، فسجدت الشجرة بسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع بها عني وزراً، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة، ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل من كلام الشجرة، رواه الترمذي وابن ماجة.

وروى البخاري عند تفسيرها أيضاً: عن العوام قال: سألت مجاهداً عن سجدة «ص» فقال: سألت ابن

عباس رضي الله عنهما : من أين سجدت؟ فقال : أو ما تقرأ : ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به ، فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فسجدها رسول الله ﷺ .

وروى أبو داود : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص» فلما بلغ السجدة نزل فسجد ، وسجد الناس معه ، فلما كان يوم آخر قرأها ، فلما بلغ السجدة تشزَّن[1] الناس للسجود ، فقال ﷺ : «إنما هي توبةُ نبيٍ ، ولكني رأيتكم تَشَزَّنتم» فنزل وسجد . تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيحين .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي : وإن له يوم القيامة ، لقربة يقربه الله عز وجل بها ، وحسن مرجع ، وهو الدرجات العالية في الجنة ، لنبوته وعدله التام في ملكه ، كما جاء في الصحيح : «المقسطون على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا» .

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾

٢٦- هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور ، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعَّد تبارك وتعالى من ضلَّ عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم أبي زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة؟ فإنك قد قرأت الكتاب الأول ، وقرأت القرآن وفقهت ، فقلت : يا أمير المؤمنين أقول؟ قال : قل في أمان الله ، قلت : يا أمير المؤمنين ، أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ، ثم توعَّده في كتابه ، فقال تعالى : ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية .

وقال عكرمة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ هذا من المقدم المؤخر ، لهم عذاب شديد يوم الحساب ، بما نسوا . وقال السدي : لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب . وهذا القول أمشى على ظاهر الآية ، والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩)﴾

٢٧- يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه ، ثم يجمعهم يوم الجمع ، فيثيب المطيع ، ويعذب الكافر ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي : الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً ، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي :

---

(١) التشزن : التأهب والتهيؤ للشيء والاستعداد له .

ويل لهم، يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

٢٨- ثم بين تعالى أنه عز وجل من عدله وحكمته، لا يساوي بين المؤمنين والكافرين، فقال تعالى: **﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾** أي: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر، وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة، على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغي، يزداد ماله وولده ونعيمه، ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم، العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة.

٢٩- ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة، والمآخذ العقلية الصريحة، قال تعالى: **﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾** أي: ذوو العقول، وهي الألباب جمع لب، وهو العقل، قال الحسن البصري: والله ما تدبُّره بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل. رواه ابن أبي حاتم.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾

٣٠- يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان، أي: نبياً، كما قال عز وجل: **﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾** أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله تعالى: **﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** ثناءٌ على سليمان، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

٣١- وقوله تعالى: **﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾** أي: إذ عُرض على سليمان عليه الصلاة والسلام، في حال مملكته وسلطانه، الخيل الصافنات. قال مجاهد: وهي التي تقف على ثلاث، وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف. وروى أبو داود: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر، وفي سَهْوتها ستر، فهبَّت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة رضي الله عنها لعب، فقال ﷺ: «ما هذا يا عائشة؟» قالت رضي الله عنها: بناتي، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع، فقال ﷺ: «ما هذا الذي أرى وسطهنَّ؟» قالت رضي الله عنها: فرس، قال رسول الله ﷺ: «ما هذا الذي عليه؟» قالت رضي الله عنها: جناحان، قال رسول الله ﷺ: «فرسٌ له جناحان؟» قالت رضي الله عنها: أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لها أجنحة، قالت رضي الله عنها: فضحك صلى الله عليه وآله وسلم حتى رأيت نواجذه.

٣٢- وقوله تبارك وتعالى: **﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾** ذكر غير واحد من السلف والمفسرين: أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً، بل نسياناً، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر، حتى صلاها بعد الغروب، وذلك

ثابت في الصحيحين من غير وجه ، من ذلك : عن جابر رضي الله عنه قال : جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشمس ، فجعل يسب كفار قريش ، ويقول : يا رسول الله ، والله ما كدت أصلي العصر ، حتى كادت الشمس تغرب ، فقال رسول الله ﷺ : «والله ما صليتها» فقال : فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة ، وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب .

ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال ، والخيل تراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء : أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة ، حيث لا تمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود ، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح تستر ، وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما ، والأول أقرب ، لأنه قال بعده :

٣٣- ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قال الحسن البصري : قال : لا والله ، لا تشغليني عن عبادة ربي ، آخر ما عليك ، ثم أمر بها فعقرت . وكذا قال قتادة وقال السدي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها ، حباً لها . وهذا القول اختاره ابن جرير ، قال : لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب ، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ، ولا ذنب لها .

وهذا الذي رجح به ابن جرير ، فيه نظر ! لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى ، بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ، ولهذا لما خرج عنها لله تعالى ، عوَّضه الله عز وجل ما هو خير منها ، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ، ورواحها شهر ، فهذا أسرع وخير من الخيل .

روى الإمام أحمد : عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت - قالا : أتينا على رجل من أهل البادية ، فقال لنا البدوي : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل ، وقال : «إنك لا تَدَع شيئاً اتقاء لله تعالى ، إلا أعطاك الله عز وجل خيراً منه» .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

٣٤- يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي : اختبرناه بأن سلبناه الملك ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ . قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم : يعني : شيطاناً ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أي : رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته . قال ابن جرير : وكان اسم ذلك الشيطان صخراً ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد ذكروا هذه القصة مبسوطة ومختصرة ، وأرى هذه كلها من الإسرائيليات .

٣٥- ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ قال بعضهم : معناه : لا ينبغي لأحد من بعدي ، أي : لا يصلح لأحد أن يسلبنيه بعدي ، كما كان من قضية الجسد ، الذي ألقى

على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس . والصحيح : أنه سأل من الله تعالى مُلكاً، لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة، من طرق عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري عند تفسير هذه الآية : عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن النبي ﷺ قال : «إن عِفريتاً من الجن تفلّت علي البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع علي الصلاة، فأمكنني الله تبارك وتعالى منه، وأردتُ أن أربطه إلى سارية من سَواري المسجد، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ قال روح : فرده خاسئاً . وكذا رواه مسلم والنسائي .

وروى مسلم في صحيحه : عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول : «أعوذُ بالله منك، ثم قال : ألعنك بلعنة الله» ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة، قلنا : يا رسول الله، سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك! ورأيناك بسطت يدك، قال ﷺ : «إنَّ عدو الله إبليس، جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت : أعوذ بالله منك، ثلاث مرات، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يتأخر ثلاث مرات، ثم أردتُ أن آخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان، لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة» .

وروى الإمام أحمد : عن أبي عبيد قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردني، ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال : «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان، لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم أن لا يَحُول بينه وبين القبلة أحدٌ، فليفعل» .

وقد روى أبو داود منه : «مَن استطاعَ منكم أن لا يَحولَ بينه وبين القبلة أحد فليفعل» .

وروى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : سمعت ﷺ يقول : «إن سليمان عليه السلام سأل الله تعالى ثلاثاً، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة، سأله حُكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل قد أعطانا إياها» وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجة من طرق .

٣٦- وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ قال الحسن البصري رحمه الله : لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضباً لله عز وجل، عوَّضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع، الريح التي غدوّها شهر، ورواحها شهر . وقوله جل وعلا ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي : حيث أراد من البلاد .

٣٧- وقوله جل جلاله : ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي : منهم من هو مستعمل في الأبنية الهائلة، من محاريب وتماثيل، وجفان كالجواب، وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة، التي لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون في البحار، يستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة، التي لا توجد إلا فيها .

٣٨- ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي: موثقون في الأغلال والأكبال، ممن قد تمرد وعصى، وامتنع من العمل وأبى. أو قد أساء في صنيعه واعتدى.

٣٩- وقوله عز وجل: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: هذا الذي أعطيناك من الملك التام، والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت، واحرم من شئت، لا حساب عليك، أي: مهما فعلت فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب. وقد ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما خُيِّر بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبياً ملكاً، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، بلا حساب ولا جناح: اختار المنزلة الأولى، بعد ما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام فقال له: تواضع، فاختار المنزلة الأولى، لأنها أرفع قدراً عند الله عز وجل، وأعلى منزلة في المعاد، وإن كانت المنزلة الثانية - وهي النبوة مع الملك - عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة.

٤٠- ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا، نبه تعالى على أنه ذو حظ عظيم، عند الله يوم القيامة أيضاً، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

٤١- يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر، في جسده وماله وولده، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه. ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه، وما هو فيه، غير أن زوجته، حفظت ودَّه لإيمانها بالله تعالى ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه، نحواً من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل، وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فسلب جميع ذلك، حتى آل به الحال إلى أن ألقي على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته رضي الله عنها، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساء، إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريباً. فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر، وتم الأجل المقدر، تضرع لرب العالمين، وإله المرسلين، فقال: ﴿إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وفي هذه الآية الكريمة قال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ قيل: بنصب في بدني، وعذاب في مالي وولدي، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله، ففعل، فأنبع الله تعالى عيناً، وأمره أن يغتسل منها، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر، فأنبع له عيناً أخرى، وأمره أن يشرب منها، فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً.

٤٢- ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ روى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث

به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين كان من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين! قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة، لم يرحمه الله تعالى فيكشف ما به، فلما راحا إليه، لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام: لا أدري ما تقول، غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله تعالى، فأرجع إلى بيتي فأكفِّر عنهما، كراهية أن يُذكر الله تعالى إلا في حق، قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته فتلقته تنظر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ فوالله على ذلك، ما رأيت رجلاً أشبه به منك، إذْ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو، قال: وكان له أندران: أندر للقمح[1]، وأندر للشعير، فبعث الله تعالى سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير رحمه الله.

وروى الإمام أحمد: عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عرياناً، خرَّ عليه جَرادٌ من ذهب، فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه، فناداه ربه عز وجل: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال عليه الصلاة والسلام: بلى يا رب، ولكن لا غني بي عن بركتك» انفرد بإخراجه البخاري.

٤٣- ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ قال الحسن وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم، وزادهم مثلهم معهم. وقوله عز وجل: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: به على صبره وثباته، وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: لذوي العقول، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة.

٤٤- وقوله جلت عظمته: ﴿خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته، ووجد عليها في أمر فعلته، قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إنْ شفاه الله تعالى ليضربنَّها مائة جلدة، وقيل: لغير ذلك من الأسباب، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة، والرحمة والشفقة والإحسان، أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثاً - وهو الشمراخ - فيه مائة قضيب، فيضربها به ضربة واحدة، وقد برَّت يمينه، وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى، وأناب إليه.

ولهذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجاع منيب، ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ واستدل كثير من

(١) الأندر: هو البيدر، وهو الموضع الذي يُداس فيه الطعام (القمح) بلغة الشام (نهاية).

الفقهاء بهذه الآية الكريمة، على مسائل في الأيمان وغيرها، وقد أخذوها بمقتضاها، والله أعلم بالصواب.

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾

٤٥- يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين، وأنبيائه العابدين ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ يعني بذلك: العمل الصالح، والعلم النافع، والقوة في العبادة، والبصيرة النافذة. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ يقول: أولي القوة ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ يقول: الفقه في الدين. وقال مجاهد ﴿أُولِي الْأَيْدِي﴾ يعني: القوة في طاعة الله تعالى، ﴿وَالْأَبْصَارِ﴾ يعني: البصر في الحق، وقال قتادة والسدي: أعطوا قوة في العبادة، وبصراً في الدين.

٤٦- وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قال مجاهد: أي: جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم هم غيرها. وكذا قال السدي: ذكرهم للآخرة، وعملهم لها، وقال مالك بن دينار: نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها، وكذا قال عطاء الخراساني.

وقال سعيد بن جبير: يعني بالدار «الجنة» يقول: أخلصناها لهم، بذكرهم لها، وقال في رواية أخرى: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ عقبى الدار، وقال قتادة: كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها، وقال ابن زيد: جعل لهم خاصة أفضل شيء في الدار الآخرة.

٤٧- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ أي: لمن المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون.

٤٨- وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة، في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بما أغنى عن إعادته ههنا.

٤٩- وقوله عز وجل: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا فضل فيه ذكر لمن يتذكر، وقال السدي: يعني القرآن العظيم.

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) ﴾

٤٩- يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب، وهو المرجع والمنقلب.

٥٠- ثم فسره بقوله تعالى ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب، و«الألف واللام» ههنا بمعنى الإضافة، كأنه يقول: مفتحة لهم أبوابها، أي: إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها. وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية، أحاديث كثيرة من وجوه عديدة.

٥١- وقوله عز وجل: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ قيل: متربعين على سرر تحت الحجال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: مهما طلبوا وجدوا، وأحضر كما أرادوا ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي: من أي أنواعه شاءوا، أتتهم به الخدام ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

٥٢- ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿أَتْرَابٌ﴾ أي: متساويات في السن والعمر، هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والسدي.

٥٣- ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: هذا الذي ذكرنا من صفة الجنة، هي التي وعدها لعباده المتقين، التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم، وسلامتهم من النار.

٥٤- ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة، أنه لا فراغ لها ولا زوال، ولا انقضاء ولا انتهاء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ كقوله عز وجل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ وكقوله جل وعلا: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، وكقوله عز وجل: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ والآيات في هذا كثيرة جدا.

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤)﴾

٥٥- لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء، ثنى بذكر حال الأشقياء، ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم، فقال عز وجل: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل، المخالفون لرسل الله صلى الله عليهم وسلم ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أي: لسوء منقلب ومرجع.

٥٦- ثم فسره بقوله جل وعلا ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

٥٧- ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغساق: فهو ضده، وهو البارد الذي لا يستطاع، من شدة برده المؤلم.

٥٨- ولهذا قال عز وجل: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أي: وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يعاقبون بها. وقال الحسن البصري: ألوان من العذاب، وقال غيره: كالزمهرير والسموم وشراب الحميم، وأكل الزقوم والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

٥٩- وقوله عز وجل: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار، بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ يعني: بدل السلام،

يتلاعنون ويتكاذبون، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ أي: داخل ﴿مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي: لأنهم من أهل جهنم.

٦٠- ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ﴾ أي: فيقول لهم الداخلون ﴿بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أي: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي: فبئس المنزل والمستقر والمصير.

٦١- ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾ كما قال عز وجل: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لكل منكم عذاب بحسبه.

٦٢، ٦٣- ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ هذا إخبار عن الكفار في النار، أنهم يفتقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون في زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار؟ قال مجاهد: هذا قول أبي جهل، يقول: مالي لا أرى بلالاً وعماراً وصهيباً، وفلاناً وفلاناً! وهذا ضرب مثل، وإلا فكل الكفار هذا حالهم، يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار، افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا ﴿مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ يسلون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله عز وجل: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ - إلى قوله - ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

٦٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

٦٥- يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله، المشركين به، المكذبين لرسوله ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ لست كما تزعمون ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه.

٦٦- ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: هو مالك جميع ذلك، ومتصرف فيه ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي: غفار مع عظمته وعزته.

٦٧- ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: خبر عظيم، وشأن بليغ، وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم.

٦٨- ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي: غافلون، قال مجاهد وشريح القاضي والسدي في قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: القرآن.

٦٩- وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: لولا الوحي، من أين كنت أدري باختلاف الملإ الأعلى؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام، وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن معاذ رضي الله عنه قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس، فخرج ﷺ سريعاً فثوب بالصلاة، فصلى وتجوز في صلاته، فلما سلم قال ﷺ: «كما أنتم» ثم أقبل إلينا، فقال: «إني قمت من الليل فصليت ما قدّر لي، فنعست في صلاتي، حتى استيقظت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب - أعادها ثلاثاً - فرأيته وضع كفه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله بين صدري، فتجلى لي كل شيء، وعرفت، فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات؟ قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام، قال: سل، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك. وقال رسول الله ﷺ - إنها حق فادرسوها وتعلموها».

فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو في السنن من طرق، وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وليس هذا الاختصام، هو الاختصام المذكور في القرآن، فإن هذا قد فسر، وأما الاختصام الذي في القرآن، فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

٧١- ٨١- هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة، وفي أول سورة الأعراف، وفي سورة الحجر وسبحان والكهف، وههنا، وهي: أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر: متى فرغ من خلقه وتسويته، فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً، وامتثالاً لأمر الله عز وجل، فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنساً، كان من الجن، فخانه طبعه وجبلته أحوج إليه، فاستنكف عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى أنه خير من آدم، فإنه مخلوق من نار وآدم خق من طين، والنار خير من الطين في زعمه، وقد أخطأ في ذلك، وخالف أمر الله تعالى، وكفر بذلك، فأبعده الله عز وجل، وأرغم أنفه، وطرده عن باب رحمته، ومحل أنسه،

وحضرة قدسه، وسماه «إبليس» إعلاماً له بأنه قد أبلس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه.

٨٢، ٨٣- فلما أمن الهلاك إلى القيامة تمرد وطغى، وقال ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

٨٤، ٨٥- وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قرأ ذلك جماعة، منهم مجاهد برفع الحق الأول، وفسره مجاهد: بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول. وفي رواية عنه: الحق مني، وأقول الحق، وقرأ آخرون بنصبهما، قال السدي: هو قسمٌ أقسم الله به. (قلت): وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾

٨٦- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين، ما أسألكم على هذا البلاغ، وهذا النصح، أجراً تعطونيه، من عرض الحياة الدنيا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به، ولا أبتغي زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته، لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عزوجل والدار الآخرة، روى سفيان الثوري: عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: يا أيها الناس، من علمَ شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني القرآن، ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الجن والإنس، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.

٨٧- وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: عن قريب. قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين، فإنَّ من مات فقد دخل في حكم القيامة، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ قال الحسن: يا ابن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

آخر تفسير سورة ص

****

ترتيبها ٣٩ سورة الزمر ـ مكية آياتها ٧٥

روى النسائي: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)﴾

١ - يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب، وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وقال جل وعلا ههنا: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ أي: المنيع الجناب ﴿الْحَكِيمِ﴾ أي: في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

٢ - ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أي: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد.

٣ - ولهذا قال تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: لا يقبل من العمل، إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له.

وقال قتادة في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله.

ثم أخبر عز وجل عن عباد الأصنام من المشركين، أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم، أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم، فعبدوا تلك الصور، تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة، ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له، كافرين به. قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد ﴿إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا

حجوا في جاهليتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ! تملكه وما ملك .

وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه ، وجاءتهم الرسل صلوات الله عليه وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها ، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم ، لم يأذن الله فيه ، ولا رضي به ، بل أبغضه ونهى عنه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وأخبر أن الملائكة التي في السموات ، من الملائكة المقربين وغيرهم ، كلهم عبيد خاضعون لله ، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى ، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم ، يشفعون عندهم بغير إذنهم ، فيما أحبه الملوك وأبوه ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلهِ الأَمْثَالَ﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي : يوم القيامة ﴿فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي : سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزى كل عامل بعمله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ❁ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي : لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى ، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه .

٤ - ثم بين تعالى أنه لا ولد له ، كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى ، فقال تبارك وتعالى : ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي : لكان الأمر على خلاف ما يزعمون ، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه ، كما قال عز وجل : ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل ، لمقصد المتكلم .

وقوله تعالى : ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي : تعالى وتنزه وتقدس ، عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي كل شيء عبدٌ لديه ، فقير إليه وهو الغني عما سواه ، الذي قد قهر الأشياء ، فدانت له وذلَّت وخضعت ، تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦) ﴾

٥ - يخبر تعالى أنه الخالق لما في السماوا والأرض ، وما بين ذلك من الأشياء ، وبأنه مالك الملك المتصرف فيه ، يقلب ليله ونهاره ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي : سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران ، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ هذا معنى ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والسدي وغيرهم . وقوله عز وجل : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

﴿وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم ينقضي يوم القيامة ﴿أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي: مع عزته وعظمته وكبريائه، هو غفار لمن عصاه، ثم تاب وأناب إليه.

٦- وقوله جلت عظمته: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم، من نفس واحدة، وهو آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي: حوّاء عليها السلام، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهي المذكورة في سورة الأنعام: ثمانية أزواج: من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين. وقوله عز وجل: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: قدركم في بطون أمهاتكم ﴿خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ يكون أحدكم أولاً نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ﴾ يعني: في ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد، وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وأبو مالك والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد.

وقوله جل جلاله: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلقكم وخلق آبائكم، هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يذهب بعقولكم؟!

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨)﴾

٧- يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه تبارك وتعالى: أنه الغني عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وفي صحيح مسلم: «يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكُم وجنَّكم، كانوا على أفجرِ قلب رجلٍ منكم، ما نَقصَ ذلك من ملكي شيئاً».

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ أي: لا يحبه ولا يأمر به ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يحبه لكم ويزدكم من فضله ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: لا تحمل نفس شيئاً، بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: فلا تخفى عليه خافية.

٨- وقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ﴾ أي: عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله

وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً﴾ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال جل جلاله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له أنداداً ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلاً، وهو تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وقوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٩)﴾

٩- يقول عز وجل: أمن هذه صفته، كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه، ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو: الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون. روى الثوري: عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: القانت: المطيع لله عز وجل ولرسوله ﷺ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن والسدي وابن زيد ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ جوف الليل، وقال الحسن وقتادة: آناء الليل أوله وأوسطه وآخره.

وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي: في حال عبادته خائف راج، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب، ولهذا قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ فإذا كان عند الاحتضار، فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما روى الإمام عبد بن حميد في مسنده: عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت، فقال له: «كيف تجدك؟» فقال: أرجو وأخاف، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو، وأمنه الذي يخافه». ورواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجة.

وروى الإمام أحمد: عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ بمائة آية في ليلة، كُتب له قنوت ليلة» وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: هل يستوي هذا، والذي قبله، ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا، من له لب وهو العقل، والله أعلم.

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ

لأن أكون أول المسلمين (١٢)﴾

١٠ - يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، بالاستمرار على طاعته وتقواه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة، في دنياهم وأخراهم، وقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا واعتزلوا الأوثان، وقال عطاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: إذا دعيتم إلى معصيته فاهربوا، ثم قرأ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال الأوزاعي: ليس يوزن لهم، ولا يكال لهم، إنما يغرف لهم غرفاً، وقال ابن جريج: بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون على ذلك، وقال السدي ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يعني: في الجنة.

١١ - وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أي: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله، وحده لا شريك له.

١٢ - ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال السدي: يعني: من أمته ﷺ.

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦)﴾

١٣ - يقول تعالى: قل يا محمد، وأنت رسول الله ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وهذا شرط، ومعناه التعريض بغيره، بطريق الأولى والأحرى.

١٤، ١٥ - ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ وهذا أيضاً تهديد وتبرٌّ منهم ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: إنما الخاسرون كل الخسران ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً، وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة، وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع اسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح.

١٦ - ثم وصف حالهم في النار، فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ كما قال عز وجل: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وقوله جل جلاله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أي: إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة، ليخوِّف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم.

وقوله: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي: اخشوا بأسي وسطوتي، وعذابي ونقمتي.

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)﴾

١٧- قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهم. والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن، فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ثم قال عز وجل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

١٨- ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي: يفهمونه ويعملون بما فيه، كقوله تبارك وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام، حين آتاه التوراة ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة، هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: ذوو العقول الصحيحة، والفطر المستقيمة.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠)﴾

١٩- يقول تعالى أفمن كتب الله أنه شقي، تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي: لا يهديه أحد من بعد الله، لأنه من يضلل الله فلا هادي له، ومن يهده فلا مضل له.

٢٠- ثم أخبر عز وجل عن عباده السعداء، أن لهم غرفاً في الجنة، وهي القصور، أي: الشاهقة ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ طباق فوق طباق، مبنيات محكمات مزخرفات عاليات. روى عبد الله بن الإمام أحمد: عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً، يُرَى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها» فقال أعرابي: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن أطابَ الكلام، وأطعمَ الطعام، وصلَّى لله بالليل والناسُ نيام» ورواه الترمذي، ورواه الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

وروى الإمام أحمد: عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغُرفة في الجنة، كما تراءون الكوكب في أفق السماء» قال: فحدَّثت بذلك النعمان بن أبي عياش فقال: سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: «كما تراءون الكوكب الذي في الأفق الشرقي أو الغربي» أخرجاه في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغُرَف، كما تراءون الكوكب الدُّري الغَارب في الأفق الطالع، في تفاضل أهل الدرجات» فقالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ فقال ﷺ: «بلى، والذي نفسي بيده، وأقوام آمنوا بالله، وصدَّقوا الرسل» ورواه الترمذي.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قلنا يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقَّت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد، قال ﷺ: «لو أنكم تكونون على كل حالٍ على الحال التي أنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله عز وجل بقوم يذنبون كي يغفر لهم». وروى الترمذي وابن ماجة بعضه.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تسلك الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاءوا، وأين أرادوا ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي ذكرناه، وعد وعده الله عباده المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ

يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴿٢١﴾ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ﴿٢٢﴾﴾

٢١- يخبر تعالى: أن أصل الماء في الأرض من السماء، كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء، وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾. قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي: أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء، وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج. يعني: أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن في قرارها، فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ أي: ثم يخرج بالماء النازل من السماء، والنابع من الأرض، زرعاً مختلفاً ألوانه، أي: أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: بعد نضارته وشبابه يكتهل، فتراه مصفراً قد خالطه اليبس ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً﴾ أي: ثم يعود يابساً يتحطم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون، إلى أن الدنيا هكذا تكون، خضرة نضرة حسناء، ثم تعود عجوزاً شوهاء. والشاب يعود شيخاً هرماً كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعد إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا، بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعاً وثماراً، ثم يكون بعد ذلك حطاماً، كما قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾.

٢٢- وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: هل يستوي هذا، ومن هو قاسي القلب، بعيد من الحق، كقوله عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴿٢٣﴾﴾

٢٣- هذا مدحٌ من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم، المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ﴾ قال مجاهد: يعني القرآن كله متشابه مثاني، وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف. وقال الضحاك ﴿مَّثَانِيَ﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى. وقال عكرمة والحسن: ثنى الله فيه القضاء. زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفي السورة الأخرى آية تشبهها، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿مَّثَانِيَ﴾: مُردَّد، رُدِّدَ موسى في القرآن، وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿مَّثَانِيَ﴾ قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً، ويُرد بعضه على بعض.

وقال بعض العلماء: ويروى عن سفيان بن عيينة: معنى قوله تعالى: ﴿مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾: إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ وكقوله عز وجل: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ إلى أن قال: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ إلى أن قال: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من المثاني، أي: في معنيين اثنين.

وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد، يشبه بعضه بعضاً، فهو المتشابه، وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ ذاك معنى آخر.

وقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ أي: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه **(أحدها)**: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات الأبيات، من أصوات القينات **(الثاني)**: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها، فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها، عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

(الثالث): أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى، من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية، ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة. روى عبد الرزاق عن معمر قال: تلا قتادة رحمه الله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله عز وجل بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السدي ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ أي: إلى وعد الله، وقوله: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ

الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾

٢٤- يقول تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويُقرَّع فيقال له ولأمثاله من الظالمين ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كمن يأتي آمنا يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقال جل وعلا: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، كقول الشاعر:

فما أدري إذا يَممتُ أرضاً ... أريدُ الخيرَ أيهما يليني

يعني: الخير أو الشر.

٢٥- وقوله جلت عظمته: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: القرون الماضية المكذبة للرسل، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

٢٦- وقوله جل وعلا: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بما أنزل بهم من العذاب والنكال، وتشفي المؤمنين منهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياءﷺ، والذي أعده الله جل جلاله لهم في الآخرة من العذاب الشديد، أعظم مما أصابهم في الدنيا، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ﴾

٢٧- يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: تعلمونه من أنفسكم، وقال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.

٢٨- وقوله جل وعلا: ﴿قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد.

٢٩- ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي: يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ﴿وَرَجُلاً سَلَماً﴾ أي: سالماً ﴿لِرَجُلٍ﴾ أي: خالصاً لا يملكه أحد غيره ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ أي: لا يستوي هذا وهذا، كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص، الذي لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد: هذه الآية ضُربت مثلاً للمشرك

والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على إقامة الحجة عليهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا يشركون بالله.

٣٠- وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ هذه الآية، من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول ﷺ، حتى تحقق الناس موته مع قوله عز وجل ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ومعنى هذه الآية: أنكم ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك، بين يدي الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين. ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة، فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة.

٣١- روى ابن أبي حاتم رحمه الله: عن ابن الزبير رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير رضي الله عنه: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ قال ﷺ: «نعم» قال رضي الله عنه: إن الأمر إذن لشديد. وكذا رواه الإمام أحمد: وعنده زيادة: ولما نزلت ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال الزبير رضي الله عنه: أي رسول الله، أي نعيم نُسئل عنه، وإنما نعيمنا الأسودان: التمر والماء؟ قال ﷺ: «أما إن ذلك سيكون» وقد روى هذه الزيادة الترمذي وابن ماجة.

وروى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول خصمين يوم القيامة جاران» تفرد به أحمد. وفي المسند عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدري فيم ينتطحان يا أباذر؟» قلت: لا، قال ﷺ: «لكن الله يدري، وسيحكم بينهما».

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ يقول: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر.

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية، وما نعلم في أي شيء نزلت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال: قلنا من نخاصم؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة، فمن نخاصم؟ حتى وقعت الفتنة، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: هذا الذي وعدنا ربنا عز وجل نختصم فيه. ورواه النسائي.

وقال أبو العالية في قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال يعني أهل القبلة، وقال ابن زيد: يعني أهل الإسلام وأهل الكفر. وقد قدمنا أن الصحيح العموم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا

يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾

٣٢- يقول عز وجل مخاطباً للمشركين، الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولداً، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم، على ألسنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ أي: لا أحد أظلم من هذا، لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب على الله، وكذب رسول الله ﷺ، قالوا الباطل وردوا الحق، ولهذا قال جلت عظمته متوعداً لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وهم الجاحدون المكذبون.

٣٣- ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد: الذي جاء بالصدق، هو: رسول الله ﷺ، وقال السدي: هو جبريل عليه السلام. ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: محمداً ﷺ. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قال: من جاء بلا إله إلا الله ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ يعني: رسول الله ﷺ. وقرأ الربيع بن أنس ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ﴾ يعني: الأنبياء ﴿وَصَدَّقُوا بِهِ﴾ يعني: الأتباع. وعن مجاهد ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة، فيقولون: هذا ما أعطيتمونا، فعملنا فيه بما أمرتمونا. وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين، فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول في هذه الآية - على هذا التفسير - فإنه جاء بالصدق وصدق المرسلين، وآمن بما أنزل إليه من ربه، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو: رسول الله ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: المسلمون. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: اتقوا الشرك.

٣٤- ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: في الجنة، مهما طلبوا وجدوا ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٣٥- ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠)﴾

٣٦- يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وقرأ بعضهم ﴿عِبَادَهُ﴾ يعني: أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه. وقال ابن أبي حاتم ههنا: عن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أفلح مَنْ هُدِيَ إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع به» ورواه الترمذي والنسائي. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾

يعني: المشركين يخوفون الرسولﷺ، ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم، التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

٣٧- ﴿وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ أي: منيع الجناب، لا يضام من استند إلى جنابه، ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك، وعاند رسولهﷺ.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ يعني المشركين، كانوا يعترفون أن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ أي: لا تستطيع شيئاً من الأمر.

وذكر ابن أبي حاتم ههنا: حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفَرَج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً».

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ﴾ أي: الله كافيَّ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كما قال هودعليه السلام حين قال قومه ﴿إن نَّقُولُ إلاَّ اعتَراكَ بعضُ آلهتِنا بسوءٍ قالَ إنِّي أُشهدُ اللهَ و اشْهَدُوا أنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشركُونَ ❁ مِن دُونِهِ فكيدُونِي جميعاً ثم لا تُنظرونِ ❁ إني توكَّلت على اللهِ ربِّي و ربِّكمْ ما مِن دابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخذٌ بناصِيَتِها إنَّ رَبِّي عَلَى صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٣٩- وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعيد ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي: على طريقتي ومنهجي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ستعلمون غب ذلك ووباله.

٤٠- ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: دائم مستمر، لا محيد عنه، وذلك يوم القيامة، أعاذنا الله منها.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

٤١- يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداًﷺ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: لجميع الخلق من الإنس والجن، لتنذرهم به ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: بموكل أن يهتدوا ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

٤٢- ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة، بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفَّى الأنفس الوفاة

الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ فذكر الوفاتين: الصغرى ثم الكبرى، وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملإ الأعلى، كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذي رواه ابن منده وغيره.

وفي صحيحي البخاري ومسلم: من حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خَلَفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربِّي وَضَعتُ جَنبي وَبِكَ أرفعُه، إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحمها، وَإن أرسَلْتَها فاحْفَظْهَا بما تَحفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحِين».

وقال بعض السلف: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، أرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التي قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. قال السدي: إلى بقية أجلها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾

٤٣- يقول تعالى ذاماً للمشركين، في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم، بلا دليل ولا برهان حداهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تتعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير.

٤٤- ثم قال: قل: زي يا محمد، لهؤلاء الزاعمين إن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله، إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزي كلاً بعمله.

٤٥- ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضاً ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا قيل لا إله إلا الله وحده ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: اشمأزت: انقبضت. وقال السدي: نفرت. وقال قتادة: كفرت واستكبرت. وقال مالك عن زيد بن أسلم: استكبرت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن المعاتبة والانقياد لها، فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر، ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، قاله مجاهد ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون ويسرون.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾

٤٦- يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم في حبهم الشرك، ونفرتهم عن التوحيد ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذي خلق السموات والأرض وفطرها، أي: جعلها على غير مثال سبق ﴿عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: السر والعلانية ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: في دنياهم، سنفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم.

روى مسلم: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تَحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن أبي راشد الحبراني قال: أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يديَّ صحيفة، فقال: هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ، فنظرت فيها، فإذا فيها: إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله، علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل اللهم فاطرَ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت ربَّ كل شيء ومليكه، أعوذُ بك من شرِّ نفسي، وشرِّ الشيطان وشركه، وأقترف على نفسي سوءاً، أو أجره إلى مسلم» ورواه الترمذي.

وروى الإمام أحمد: عن أبي بكر الصديق: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول: إذا أصبحت وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعي من الليل: «اللهمَّ فاطر السموات والأرض . . . إلخ».

٤٧- وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم: المشركون ﴿مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي: ولو أن جميع ما في الأرض، وضعفه معه ﴿لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أي: الذي أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء، ولو كان ملء الأرض ذهباً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم، ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم.

٤٨- ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا، من المحارم والمآثم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم من العذاب والنكال، ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

٤٩- يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان، أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوّله نعمة منه، بغى وطغى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له، ولولا أني عند الله خصيص، لما خوّلني هذا، قال قتادة ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾: على خبر عندي. قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة، لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي، مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة، أي: اختبار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون، ويدّعون ما يدعون.

٥٠- ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد قال هذه المقالة، وزعم هذا الزعم، وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم، وما كانوا يكسبون.

٥١- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: من المخاطبين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي: كما أصاب أولئك ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارون، أنه قال له قومه ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

٥٢- وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسعه على قوم، ويضيقه على آخرين ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعبراً وحججاً.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

٥٣- هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم، إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها، ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل

زيد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة، لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه. روى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من أهل الشرك، كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إنَّ الذي تقول وتدعو إليه لحَسَنٌ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ﴾ ونزل ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ﴾ وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

والمراد من الآية الأولى قوله تعالى: ﴿إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ وَعَمَلاً صَالِحاً﴾ الآية.

وروى الإمام أحمد: عن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير يدَّعم على عصاً له، فقال: يا رسول الله، إن لي غدرات وفجرات، فهل يُغفر لي؟ قال ﷺ: «ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟» قال: بلى، وأشهد أنك رسول الله، فقال ﷺ: «قد غُفر لك غدراتك وفجراتك» تفرد به أحمد.

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن عبدٌ من رحمة الله، وإنْ عظمت ذنوبه وكثرت، فإنَّ بابَ الرحمة والتوبة واسعٌ، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ وقال جل وعـلا في حق المنافـقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ۝ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ وقال جل جلاله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم قال جلت عظمته: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ قال الحسن البصري رحمة الله عليه: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

والآيات في هذا كثيرة جداً.

وفي الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم ندم، وسأل عابداً من عباد بني إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله وأكمل به مائة، ثم سأل عالماً من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها، فأتاه الموت في أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله عز وجل أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة، وذكر أنه نأى بصدره عند الموت، وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد، هذا معنى الحديث وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم دعا إلى التوبة مَن هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: أنا ربكم الأعلى، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من آيس عباد الله من التوبة بعد

هذا، فقد جحد كتاب الله عز وجل، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وروى الطبراني: عن شُتير بن شكل قال: سمعت عن ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وإنّ أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ وإن أكثر آية في القرآن فرحاً في سورة الغرف ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ﴾ وإن أشد آية في كتاب الله تفويضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ فقال له مسروق: صدقت.

(ذكر أحاديث فيها نفي القنوط)

روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله تعالى، لغفر لكم، والذي نفس محمد ﷺ بيده، لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يُخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم» تفرد به أحمد.

وروى الإمام أحمد: عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تُذنبون، لخلق الله عز وجل قوماً يذنبون فيغفر لهم» هكذا رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي.

روى محمد بن إسحاق: عن عبد الله بن عمرعن عمر رضي الله عنهما في حديثه قال: وكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم، قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، قال: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ قال عمر رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص رضي الله عنه قال: فقال هشام: لما أتتني جعلت أقرأها بذي طوى أصعد بها فيه وأصوت ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم أفهمنيها، قال: فألقى الله عز وجل في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

٥٤- ثم استحثّ تبارك وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا﴾ إلخ: أي: ارجعوا إلى الله، واستسلموا ﴿لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ أي: بادروا بالتوبة، والعمل الصالح، قبل حلول النقمة.

٥٥- ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

٥٦- ثم قال عز وجل: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ﴾ أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ، غير موقن مصدق.

٥٧، ٥٨- ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً

﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: تود لو أُعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أخبر الله سبحانه وتعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأخبر الله عز وجل: أن لو ردوا لما قدروا على الهدى، فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقد روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أَهلِ النَّارِ يَرَى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني؟! فتكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، قال: فيكون له الشكر» ورواه النسائي.

ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله، واتباع رسله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه، آياتي في الدار الدنيا، وقامت حججي عليك، فكذَّبت بها، واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾

٦٠- يخبر تعالى عن يوم القيامة، أنه تسودُّ فيه وجوه وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى ههنا: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في دعواهم له شريكاً وولداً ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ أي: بكذبهم وافترائهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: أليست جهنم كافية لهم سجناً وموئلاً، لهم فيها الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبرهم، وإبائهم عن الانقياد للحق.

روى ابن أبي حاتم: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذَّر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجناً من النار، في واد يقال له «بولس» من نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار، ومن طينة الخَبَال».

٦١- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزحون عن كل شر، نائلون كل خير.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ

وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) ﴾

٦٢- يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها ، وربها ومليكها والمتصرف فيها ، وكلٌ تحت تدبيره وقهره وكلاءته .

٦٣- وقوله عز وجل : ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قال مجاهد : المقاليد ، هي : المفاتيح بالفارسية ، وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة ، وقال السدي ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي : خزائن السموات والأرض . والمعنى على كلا القولين : أن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ أي : حججه وبراهينه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ .

٦٤-وقوله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره : عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ، ويعبدوا معه إلهه ، فنزلت : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۞ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

وهذه كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

٦٦- وقوله عز وجل : ﴿بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي : أخلص العبادة لله وحده لا شريك له ، أنت ومن اتبعك وصدَّقك .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) ﴾

٦٧- يقول تبارك وتعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي : ما قدر المشركون الله حق قدره ، حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته ، قال مجاهد : نزلت في قريش . وقال السدي : ما عظموه حق تعظيمه ، وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ، ما كذبوه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف . قال البخاري : قوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ : عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية . ورواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع من صحيحه والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي .

ثم روى البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَقْبِضُ اللهُ تعالى الأرضَ، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول أنا الملك، أين الملوك؟» تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر.

وقد رواه الإمام أحمد: من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها، يُقْبل بها ويدبر: «يُمجِّد الربُّ نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم» فرجف برسول الله ﷺ المنبر، حتى قلنا ليخرَّنَّ به. وقد رواه مسلم والنسائي وابن ماجة.

ولفظ مسلم في هذا الحديث: أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي النبي ﷺ قال: يأخذ الله تبارك وتعالى سمواته وأرضه بيده ويقول: أنا الملك - ويقبض أصابعه ويبسطها - أنا الملك، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقطٌ هو برسول الله ﷺ؟.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)﴾

٦٨- يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة، والزلازل الهائلة، فقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور(١) ثم يقبض أرواح الباقين، حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم، الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً، بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أنا الذي كنت وحدي، وقد قهرت كل شيء، وحكمتُ بالفناء على كل شيء ثم يُحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره، أن ينفخ في الصور أخرى، وهي النفخة الثالثة نفخة البعث. قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ أي: أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ وقال جل وعلا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

روى الإمام أحمد: أن رجلاً قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا، قال: لقد هممت ألا أحدثكم شيئاً، إنما قلت سترون بعد قليل أمراً عظيماً. ثم قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين - لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً أو أربعين ليلة - فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة

(١) والحديث فيه ضعف، وقد مضى التنبيه عليه في سورة «طه».

ابن مسعود الثقفي، فيظهر فيهلكه الله تعالى، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قِبل الشام، فلا يبقى أحدٌ في قلبه مثقالُ ذرةٍ من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل، لدخلت عليه» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شِرارُ الناس، في خِفَّة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون، فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارَّةٌ أرزاقهم، حسنٌ عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يَسمعه أحدٌ إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، وأول من يسمعه رجلٌ يَلُوطُ حوضه فيَصعق، ثم لا يبقى أحدٌ إلا صعق، ثم يُرسل الله تعالى أو ينزل الله عز وجل مطراً كأنه الطل - أو الظل شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس، ثم يُنفخ فيه أخرى فإذاهم قيام ينظرون، ثم يقال أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ قال: ثم يقال: أخرجوا بَعَث النار، قال: فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعين، فيومئذ تبعث الولدان شيباً، يومئذ يُكشف عن ساق» انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه.

(حديث أبي هريرة رضي الله عنه): روى البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال: «بين النفختين أربعون» قالوا يا أبا هريرة: أربعون يوماً؟ قال رضي الله عنه: أبيتُ، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتُ، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ، ويَبْلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنبه، فيه يركب الخلق».

٦٩- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت يوم القيامة، إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يشهدون على الأمم، بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أي: الشهداء من الملائكة: الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٧٠- ولهذا قال عز وجل: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير أو شر ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢)﴾

٧١- يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار، كيف يساقون إلى النار، وإنما يساقون سوقاً عنيفاً، بزجر وتهديد ووعيد، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي: يدفعون إليها دفعاً، وهذا وهم عطاش ظماء، كما قال جل وعلا في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ وهم في تلك الحال، صم وبكم وعمي، منهم من يمشي على وجهه ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ وقوله تبارك وتعالى:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: بمجرد وصولهم إليها، فُتحت لهم أبوابها سريعاً، لتعجل لهم العقوبة.

ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية، الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جنسكم، تتمكنون من مخاطبتهم الأخذ عنهم ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يقيمون عليكم الحجج والبراهين، على صحة ما دعوكم إليه ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: ويحذرونكم من شر هذا اليوم؟ فيقول الكفار لهم ﴿بَلَى﴾ أي: قد جاؤونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها، حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما قال عز وجل مخبراً عنهم في الآية الأخرى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: بُعداً لهم وخساراً.

٧٢- وقوله تبارك وتعالى ههنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: كل من رآهم وعلم حالهم، يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به، ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها، لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبئس المصير، وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم في الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذي صيَّركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) ﴾

٧٣- وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين، حين يُساقون على النجائب وفداً إلى الجنة ﴿زُمَرًا﴾ أي: جماعة بعد جماعة، المقربون ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضاً ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حُبِسُوا على قَنطرةٍ بين الجنة والنار، فاقتصَّ لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة.

وقد ثبت في صحيح مسلم: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة».

وفي لفظ لمسلم: «وأنا أول من يَقرع باب الجنة».

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة أستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، قال: فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك» ورواه مسلم.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ زُمرَةٍ تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يَبصقون فيها ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الأُلوة، ورَشحهم المِسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مُخُّ ساقهما من وراء اللحم من الحُسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبِّحون الله تعالى بكرة وعشياً» ورواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يدخلُ الجنةَ من أمتي زُمرة هم سبعون ألفاً، تُضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر» فقام عُكَّاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «اللهم اجعله منهم» ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يجعلني منهم، فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة» أخرجاه. وقد روى هذا الحديث - في السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب - البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين وابن مسعود ورفاعة بن عرابة الجهني وأم قيس بنت محصن رضي الله عنهم.

ولهما: عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلنَّ الجنة من أمتي سبعون ألفاً، أو سبعمائة ألف، آخذٌ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولُهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر».

وروى أبوبكر بن أبي شيبة: عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وعدَني ربِّي عز وجل أن يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً، مع كلِّ ألفٍ سبعون ألفاً، لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاثُ حثيات من حثيات ربي عز وجل» ورواه الطبراني وله شواهد عن وجوه كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ لم يذكر الجواب ههنا، وتقديره: حتى إذا جاءوها، وكانت هذه الأمور، من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سعدوا وطابوا، وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم، وإذا حذف الجواب ههنا، ذَهَب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل؛ ومن زعم أن «الواو» في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أنفقَ زوجين من ماله في سبيل الله تعالى، دُعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان أهل الصيام دُعي من باب الرَّيان» فقال أبوبكر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما على أحدٍ من ضرورة دُعي من أيها دُعي، فهل يُدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال ﷺ: «نعم وأرجو أن تكون منهم» رواه البخاري ومسلم.

وفيهما: عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الرَّيَّان، لا يدخله إلا الصائمون».

وفي صحيح مسلم: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء، ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدْخل من أيها شاء.

(ذِكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها)

في الصحيحين: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل: «فيقول الله تعالى: يا محمد، أدْخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاءُ الناس في الأبواب الأخر، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المِصْراعين من مَصاريع الجنة - ما بين عضادتي الباب - لَكَما بين مكة وهجر - أو هجر ومكة» وفي رواية «مكة وبصرى».

وفي صحيح مسلم: عن عتبة بن غزوان: أنه خطبهم خطبة فقال فيها: ولقد ذُكر لنا: أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يومٌ وهو كَظيظٌ من الزحام.

وفي المسند: عن حكيم بن معاوية عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ مثله.

وقوله تبارك وتعالى: **﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾** أي: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم، وطاب جزاؤكم، كما أمَرَ رسول الله ﷺ أن يُنادى بين المسلمين في بعض الغزوات: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة - وفي رواية - مؤمنة».

وقوله: **﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾** أي: ماكثين فيها أبداً، لا يبغون عنها حِولاً.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا في الدنيا **﴿رَبَّنَا آتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾** وقالوا **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾** وقالوا **﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾**.

وقولهم **﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾** قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدي وابن زيد: أي: أرض الجنة. فهذه الآية كقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾** ولهذا قالوا **﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾** أي: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفي الصحيحين: من حديث أنس رضي الله عنه في قصة المعراج: قال النبي ﷺ: «أُدخلتُ الجنة، فإذا فيها جَنَابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك».

وروى عبد بن حميد: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة، فقال: دَرْمَكة بيضاء، مسكٌ خالص، فقال رسول الله ﷺ «صدق» وكذا رواه مسلم.

وروى ابن أبي حاتم: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾** قال: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم تغير أبشارهم بعدها أبداً، ولم تشعث أشعارهم أبداً بعدها، كأنما دهنوا بالدهان، ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها فشربوا منها، فأذهبت ما كان في بطونهم

من أذى أو قذى، وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنة ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ وتلقى كل غلمان صاحبهم، يطوفون به فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة، أبشر قد أعدَّ الله لك من الكرامة كذا وكذا، وقد أعدَّ الله لك من الكرامة كذا وكذا، قال: وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين، فيقول: هذا فلان باسمه في الدنيا، فيقلن: أنت رأيته؟ فيقول: نعم، فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أسكُفَّة الباب، قال: فيجيء فإذا هو بنمارق مصفوفة، وأكواب موضوعة، وزرابي مبثوثة. قال: ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ، بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، ومن كل لون، ثم يرفع طرفه إلى سقفه، فلولا أن الله تعالى قدر له، لألم أن يذهب ببصره، إنه لمثل البرق، ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين، ثم يتكئ على أريكة من أرائكه، ثم يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾

٧٥- لما ذكر تعالى الحكمة في أهل الجنة والنار، وأنه نزَّل كلاً في المحل الذي يليق به ويصلح له، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور، أخبر عن ملائكته أنهم مُحْدقون من حول العرش المجيد، يسبحون بحمد ربهم، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور، وقد فصل القضية وقضي الأمر، وحكم بالعدل، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾.

ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: نطق الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه، لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد.

قال قتادة: افتتح الخلق بالحمد في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

آخر تفسير سورة الزمر

****

سورة المؤمن ـ مكية

ترتيبها ٤٠ — آياتها ٨٥

قد كره بعض السلف منهم محمد بن سيرين أن يقال: «الحواميم» وإنما يقال: آل حم.

وروى حميد بن زنجويه: عن عبد الله رضي الله عنه قال: إن مثل القرآن، كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً، فمر بأثر غيث فبينما هو يسير فيه، ويتعجب منه، إذ هبط على روضات دَمثات، فقال: عجبت من الغيث الأول، فهذا أعجب وأعجب، فقيل له: إن مثل الغيث الأول، مثل عِظم القرآن، وإنَّ مثل هؤلاء الروضات الدمثات، مثل آل حم في القرآن. أورده البغوي.

وروى أبو عبيد: عن مسعر هو ابن كدام عمن حدثه: أن رجلاً رأى أبا الدرداء رضي الله عنه يبني مسجداً فقال له: ما هذا؟ فقال: أبنيه من أجل حم[1]. وقد يكون هذا المسجد الذي بناه أبو الدرداء رضي الله عنه، هو المسجد المنسوب له داخل قلعة دمشق، وقد يكون صيانتها حفظها ببركته وبركة ما وضع له، فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء، كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه في بعض الغزوات: «إنْ بيِّتُم الليلة فقولوا: حم لا ينصرون - وفي رواية: لا تنصرون»[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ تنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾

١- أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا. وقد قيل: إن ﴿حم﴾ اسمٌ من أسماء الله عز وجل وأنشدوا في ذلك بيتاً:

يُذكِّرني حم والرُّمح شاجرٌ فهلا تَلا حم قبل التقدم

وقد ورد في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي: من حديث المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنْ بيِّتم الليلةَ فقولوا: حم لا ينصرون» وهذا إسناد صحيح، واختار أبو عبيد أن يروي: «فقولوا حم لا ينصرون» أي: إن قلتم ذلك لا ينصروا، جعله جزاء لقوله: فقولوا.

٢- وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: تنزيل هذا الكتاب، وهو القرآن، من الله ذي العزة والعلم، فلا يرام جنابه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه.

٣- وقوله عز وجل: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلَ التَّوْبِ﴾ أي: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه، وخضع لديه، وقوله جل وعلا: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن تمرد وطغى، وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى، وهذه كقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ

---

(١) الأثر ضعيف، فيه رجل لم يسم.

(٢) حديث صحيح، رواه أحمد (٤/ ٦٥) (٥/ ٢٧٧) وأبو داود (٢٥٩٧) والترمذي (١٧٤٩) من حديث المهلب بن أبي صفرة عمن سمع النبي ﷺ يقول . . . فذكره.

﴿الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ يقرن هذين الوصفين كثيراً، في مواضع متعددة من القرآن، ليبقى العبد من الرجاء والخوف. وقوله تعالى: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني السَّعة والغنى، وهكذا قال مجاهد وقتادة، وقال يزيد الأصم ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ يعني: الخير الكثير، وقال عكرمة ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ ذي المنّ، وقال قتادة: ذي النعم والفواضل، والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام، التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ الآية. وقوله جلت عظمته: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: لا نظير له في جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب، فيجازي كل عامل بعمله ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففقده عمر، فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، تتابع في هذا الشراب، قال فدعا عمر كاتبه فقال: اكتب، من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب قابل التوب، شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير. ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه، ويتوب الله عليه، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذَّرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي.

ورواه الحافظ أبو نعيم وزاد: فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زلَّ زلة، فسددوه ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾

٤- يقول تعالى ما يدفع الحق، ويجادل فيه بعد البيان، وظهور البرهان ﴿إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الجاحدون لآيات الله، وحججه وبراهينه ﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ﴾ أي: في أموالها ونعيمها وزهرتها، كما قال جل وعلا: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وقال عز وجل: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٥- ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذَّبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنه قد كذَّبهم أممهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو أول رسول بعثه الله، ينهى عن عبادة الأوثان ﴿وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: من كل أمة ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: حرَّصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي: ماحَلوا بالشبهة، ليردوا الحق الواضح الجلي.

وقوله جلت عظمته: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أهلكتهم، على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف بلغك عذابي لهم، ونكالي بهم؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً، قال قتادة: كان

شديداً والله .

٦- وقوله جل جلاله : ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي : كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة ، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء ، الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى ، لأن من كذَّبك فلا وثوق له بتصديق غيرك ، والله أعلم .

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾

٧- يخبر تعالى عن الملائكة المقربين ، من حملة العرش الأربعة ، ومن حوله من الملائكة الكروبيين[(١)] بأنهم يسبحون بحمد ربهم ، أي : يقتربون بين التسبيح الدال على نفي النقائص ، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي : خاشعون له أذلاء بين يديه وأنهم ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : من أهل الأرض ، ممن آمن بالغيب ، فقيَّض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب ، ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام ، كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب ، كما ثبت في صحيح مسلم : «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك : آمين ، ولك بمثله» .

وقد روى الإمام أحمد : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «صدَقَ أُميَّةُ بن أبي الصلت في شيءٍ من شعره» فقال :

رجلٌ وثَور تحتَ رِجل يمينه ... والنَّسْرُ للأُخرى وليثٌ مُرْصَد

فقال رسول الله ﷺ «صدق» . فقال :

وَالشَّمس تطلُع كل آخر ليلةٍ ... حمراءُ يُصبح لونها يتوَرَّدُ

تأبى فما تَطلعُ لنا في رِسلها ... إلاَّ معذَّبة وإلاَّ تُجْلَدُ

وقال رسول الله ﷺ : «صدق» . وهذا إسناد جيد ، وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية ، كما قال تعالى : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ .

ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي : رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم ، وحركاتهم وسكناتهم ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أي : فاصفح عن المسيئين ، إذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه ، واتبعوا ما أمرتهم به ، من فعل الخيرات ، وترك المنكرات ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي : وزحزحهم عن عذاب الجحيم ، وهو العذاب الموجع الأليم .

٨- ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي : اجمع

---

(١) لم يصح الحديث بتسمية الملائكة الكروبيين ، والله أعلم .

بينهم وبينهم ، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي : ساوينا بين الكل في المنزلة ، لتقرَّ أعينهم ، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني ، بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل ، تفضلاً منا ومنَّة .

وقال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة ، سأل عن أبيه وابنه وأخيه ، أين هم؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك في العمل ، فيقول : إني إنما عملت لي ولهم ، فيلحقون به في الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية : ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ . قال مطرف بن عبد الله بن الشخير : أنصح عباد الله للمؤمنين : الملائكة ، ثم تلا هذه الآية : ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ الآية ، وأغش عباده للمؤمنين : الشياطين .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي : الذي لا يمانع ولا يغالب ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الحكيم في أقوالك وأفعالك ، من شرعك وقدرك .

٩ - ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي : فعلها أو وبالها ممن وقعت منه ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي : يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أي : لطفت به ، ونجيته من العقوبة ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤)﴾

١٠ - يقول تعالى مخبراً عن الكفار : أنهم يُنادَون يوم القيامة وهم في غَمَراتِ النيران يتلظون ، وذلك عند ما باشروا مُرَّ عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم ، وأبغضوها غاية البغض ، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة ، التي كانت سبب دخولهم إلى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً ، نادوهم نداء : بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا ، حين كان يُعرض عليهم الإيمان فيكفرون ، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم ، في هذه الحالة . قال قتادة : لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه ، وأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة ، وهكذا قال الحسن البصري ومجاهد والسدي وذر بن عبيد الله الهمداني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وابن جرير الطبري ، رحمة الله عليهم أجمعين .

١١ - وقوله : ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال الثوري عن ابن مسعود رضي الله عنه : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك ، وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية .

والمقصود من هذا كله : أن الكفار يسألون الرجعة ، وهم وقوف بين يدي الله عز وجل في عرصات

القيامة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ فلا يجابون، ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بآياتِ ربِّنا و نَكونَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فإذا دخلوا النار، وذاقوا مسها وحسيسها، ومقامعها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾.

وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهي قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ أي: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا، فإنك قادر على ذلك، لنعمل غير الذي كنا نعمل، فإنْ عُدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون، فأجيبوا: أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا.

١٢- ثم علل المنع من ذلك، بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه، بل تمجه وتنفيه، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي: أنتم هكذا تكونون، وإنْ رددتم إلى الدار الدنيا، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وقوله جل وعلا: ﴿فَالْحُكْمُ للهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي: هو الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يجور، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو.

١٣- وقوله جل جلاله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يظهر قدرته لخلقه، بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي، من الآيات العظيمة، الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً﴾ وهو المطر، الذي يخرج به من الزروع والثمار، ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعومه وروائحه وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾ أي: من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى.

١٤- وقوله عز وجل: ﴿فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم. روى الإمام أحمد: عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن مدرس المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول: في دُبر كل صلاة حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النِّعمَةُ وَلَه الفضلُ وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون؛ قال: وكان رسول الله ﷺ يهلِّل بهن دُبر كل صلاة. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء قلب غافل لاه».

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧)﴾

١٥- يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم، العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، في قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله، وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء، اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة.

وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ كقوله جلت عظمته: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «يوم التلاق» اسم من أسماء يوم القيامة، حذَّر الله منه عباده، وقال ابن جريج قال ابن عباس رضي الله عنهما: يلتقي فيه آدم وآخر ولده. وقال ابن زيد: يلتقي فيه العباد. وقال قتادة والسدي وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق، وقال ميمون ابن مهران: يلتقي الظالم والمظلوم، وقد يقال إن يوم التلاق يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر، كما قاله آخرون.

١٦- وقوله جل جلاله: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: الجميع في علمه على السواء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «أنه تعالى يطوي السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

١٧- وقوله جلت عظمته: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا ظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم: عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» إلى أن قال: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى، ومَن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه».

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال جل وعلا: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وقال جل جلاله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) ﴾

١٨- يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ ۞ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ وقال عز وجل: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وقال جل وعلا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وقال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقال جل جلاله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد، ومعنى ﴿كَاظِمِينَ﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ وقال ابن جريج ﴿كَاظِمِينَ﴾ أي: باكين.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله، من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

١٩- وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ يخبر عز وجل عن علمه التام، المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، وأنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ وإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله تعالى من قلبه، أنه ودَّ أن لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم.

وقال الضحاك ﴿خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ هو الغمز، وقول الرجل رأيت و لم ير. أو لم أر وقد رأى. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يعلم الله تعالى من العين في نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها، هل تزني بها أم لا؟ وقال السدي ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾: أي: من الوسوسة.

٢٠- وقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكم بالعدل، قال ابن عباس: قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، كقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ أي: لا يملكون شيئاً، ولا يحكمون بشيء ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: سميع لأقوال خلقه، بصيرٌ بهم، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) ﴾

٢١- يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ما حلَّ بهم من العذاب والنكال، مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿وَآثَارًا فِي الأَرْضِ﴾ أي: أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات، مالا يقدر هؤلاء عليه، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: ومع هذه القوة العظيمة، والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهي كفرهم برسلهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا ردَّه عنهم رادٌّ، ولا وقاهم واق.

٢٢- ثم ذكر علة أخذه إياهم، وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات ﴿فَكَفَرُوا﴾ أي: مع هذا البيان والبرهان، كفروا وجحدوا ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ تعالى، أي: أهلكهم ودمر عليهم، وللكافرين أمثالها ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: ذو قوة عظيمة، وبطش شديد ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: عقابه أليم شديد وجيع، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) ﴾

٢٣- يقول تعالى مسلياً لنبيه محمدﷺ في تكذيب من كذَّبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمرانعليه السلام، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، ولهذا قال تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان.

٢٤- ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿وَهَامَانَ﴾ وهو وزيره في مملكته ﴿وَقَارُونَ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً، مموهاً كذاباً، في أن الله أرسله، وهذه كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

٢٥- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع، الدال على أن الله عز وجل أرسله إليهم

﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب، وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني: فللعلة الثانية، ولإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام، ولهذا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ قال قتادة: هذا أمر بعد أمر، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ﴾ أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك في ضلال.

٢٦- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ وهذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى عليه السلام، أي: قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: لا أبالي منه، وهذا في غاية الجحد والتجهرم والعناد، وقوله قبحه الله ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ يعني: موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس، ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مُذكراً، يعني واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام. وقرأ الأكثرون: ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وقرأ الآخرون: ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿يَظْهَرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادُ﴾ بالضم.

٢٧- ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: لما بلغه قول فرعون ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ قال موسى عليه السلام: استجرتُ بالله، وعذت به، من شره وشر أمثاله، ولهذا قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أيها المخاطبون ﴿مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: عن الحق مجرم ﴿لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ولهذا جاء في الحديث: عن أبي موسى رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِن شُرُورِهِمْ، وَنَدْرأُ بِكَ فِي نُحُورِهِمْ»(١).

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) ﴾

٢٨- المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون، قال السدي: كان ابن عم فرعون، يقال إنه الذي نجا مع موسى عليه السلام، واختاره ابن جرير، ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً، لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه، وكف عن قتل موسى عليه السلام، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم. وقال ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل، وامرأة فرعون، والذي قال: ﴿يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ رواه ابن أبي حاتم. وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤١٤) وأبو داود (١٥٣٧) والطيالسي (٥٢٤) وغيرهم، لكنه عندهم بلفظ: «اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم».

القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم ، حين قال فرعون ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل. وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ، كما ثبت بذلك الحديث ، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون ، وهي قوله : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾ اللهم إلا ما رواه البخاري في صحيحه : عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ ، قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة ، إذْ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ، ثم قال : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ انفرد به البخاري.

وروى ابن أبي حاتم : عن عمرو بن العاص رضي الله عنه : أنه سُئل ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال : مر ﷺ بهم ذات يوم ، فقالوا له : أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال : «أنا ذاك» فقاموا إليه فأخذوا بمجامع ثيابه ، فرأيت أبابكر رضي الله عنه محتضنه من ورائه ، وهو يصيح بأعلى صوته ، وإن عينيه ليسيلان ، وهو يقول : يا قوم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها. وهكذا رواه النسائي فجعله من مسند عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي : كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول : ربي الله ، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة ، فقال : ﴿وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ يعني : إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ، فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه ، فإن يك كاذباً فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم ، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً ، فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له ، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه. وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام ، أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة ، في قوله : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ◆ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ◆ وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ◆ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ◆ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش ، أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى عباد الله. ولا يمسوه بسوء ، ويصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته ، قال الله عز وجل : ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي : أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة ، فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس. وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحاً مبيناً. وقوله جل وعلا : ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي : لو كان هذا الذي يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون ، لكان أمره بينا يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله ، فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب ، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً ، ولو كان من المسرفين الكذابين ، لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله.

٢٩- ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم ، وحلول نقمة الله بهم ، ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ أي : قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض ، بالكلمة النافذة والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى ، وتصديق رسوله ﷺ ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِن

بأس الله إن جاءنا﴾ أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء ﴿قال فرعون﴾ لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد، الذي كان أحق بالملك من فرعون ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ أي: ما أقول لكم وأشير عليكم، إلا ما أراه لنفسي، وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة ﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ وقال الله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾.

فقوله: ﴿ما أريكم إلا ما أرى﴾ كذَبَ فيه وافترى، وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ورعيته، فغشهم وما نصحهم، وكذا قوله: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد، وقد كذب أيضاً في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾ وقال جلت عظمته: ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾ وفي الحديث: «ما من إمام يموتُ يوم يموت وها غاشٌ لرعيته، إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»[(1)]. والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) ﴾

٣٠- هذا إخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون، أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال: ﴿يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾ أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حلَّ بهم بأس الله، وما ردَّه عنهم رادٌّ، ولا صده عنهم صاد ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ أي: إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم، وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، فأنفذ فيهم قدره.

٣٢- ثم قال: ﴿ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾ يعني: يوم القيامة، وسمي بذلك: قال: بعضهم منهم الضحاك: ذلك إذا جيء بجهنم، ذهب الناس هراباً منها، فتتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر، وهو قوله تعالى: ﴿والملك على أرجائها﴾ وقوله: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن والضحاك أنهم

---

(١) رواه البخاري في الأحكام (١٣/ ١٢٦، ١٢٧) ومسلم في الإيمان (١/ ١٢٥) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه، وليس فيه: «وإن ريحها من مسيرة خمسمائة عام».

قرأوا ﴿يَوْمَ التَّنَادِّ﴾ بتشديد الدال من: ندَّ البعير، إذا تردَّى وذهب. وقيل: لأن الميزان عنده ملك إذا وزن عمل العبد فرجح، ونادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإنْ خفَّ عمله نادى ألا قد شقي فلان بن فلان، وقال قتادة: ينادى كل قوم بأعمالهم، ينادي أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار، وقيل: سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ﴾ ومناداة أهل النار أهل الجنة ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، كما هو مذكور في سورة الأعراف.

واختار البغوي وغيره أنه سمي بذلك لمجموع ذلك، وهو قول حسن جيد، والله أعلم.

٣٣- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي: ذاهبين هاربين ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ◆ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: ما لكم من مانع، يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: من أضله الله فلا هادي له غيره.

٣٤- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر، وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط، فما أطاعوه تلك الطاعة، إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ أي: يئستم فقلتم طامعين ﴿لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: كحالكم هذا يكون حال من يضله الله، لإسرافه في أفعاله، وارتياب قلبه.

٣٥- ثم قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت، ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفاته، فإن من كانت هذه صفته، يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً، ولا ينكر منكراً.

ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾ روى ابن أبي حاتم: عن عكرمة - وحكى عن الشعبي - أنهما قالا: لا يكون الإنسان جباراً، حتى يقتل نفسين. وقال أبو عمران الجوني وقتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق، والله تعالى أعلم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)﴾

٣٦، ٣٧- يقول تعالى مخبراً عن فرعون، وعتوه وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه السلام، أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً، وهو القصر العالي المنيف الشاهق، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً﴾ ولهذا قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون البناء بالآجر وأن يجعلوه في قبورهم، رواه ابن أبي حاتم، وقوله: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ◆ أَسْبَابَ

السَّمَوَاتِ﴾ إلخ، قال سعيد بن جبير وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله عز وجل أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: بصنعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية، أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني: إلا في خسار.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)﴾

٣٨- يقول المؤمن لقومه، ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

٣٩- ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى، وصدَّتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي: قليلة زائلة فانية، عن قريب تذهب وتضمحل ﴿وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها، ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم.

٤٠- ولهذا قال جلت عظمته: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ أي: واحدة مثلها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا يتقدر بجزاء، بل يثيبه الله عز وجل ثواباً كثيراً، لا انقضاء له ولا نفاد، والله تعالى الموفق للصواب.

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾

٤١، ٤٢- يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وتصديق رسوله ﷺ الذي بعثه ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۝ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: على جهل بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أي: هو في عزته وكبريائه، يغفر ذنب من تاب إليه.

٤٣- ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يقول: حقاً. قال السدي وابن جريج: معنى قوله: ﴿لاَ جَرَمَ﴾ حقاً. وقال الضحاك ﴿لاَ جَرَمَ﴾: لا كذب. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿لاَ جَرَمَ﴾ يقول: بلى، إن

الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: الوثن ليس له شيء. وقال قتادة: يعني: الوثن لا ينفع ولا يضر. وقال السدي: لا يجيب داعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، فيجازي كل بعمله، ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله عز وجل.

٤٤- ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: هو بصير بهم تعالى وتقدس، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

٤٥- وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وأما في الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تُعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده ألماً، وأعظمه نكالاً، وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

ولكن هنا سؤال وهو: أنه لا شك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر في البرزخ، وقد روى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية كانت تخدمها فلا تصنع عائشة رضي الله عنها إليها شيئاً من المعروف، إلا قالت لها اليهودية: وقاكِ اللهُ عَذابَ القبر، قالت عائشة رضي الله عنها: فدخل رسول الله ﷺ عليَّ فقلت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال ﷺ: «لا، من زعم ذلك؟» قالت: هذه اليهودية، لا أصنع إليها شيئاً من المعروف إلا قالت: وقاك الله عذاب القبر، قال ﷺ: «كذبت يهودية، وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة» ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: «أظلَّتكم الفتن، كقطع الليل المظلم، أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم، لبكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً، أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق» وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم لم يخرجاه.

وروى أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتها امرأةٌ يهودية فأعطتها، فقالت: وقاكِ اللهُ من عذاب القبر، فأنكرت عائشة رضي الله عنها، فلما رأت النبي ﷺ قالت له، فقال ﷺ: «لا» قالت عائشة رضي الله عنها: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وإنه أوحي إليَّ أنكم تُفتنون في قبوركم» وهذا أيضاً على شرطهما.

فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدلالة على عذاب البرزخ؟

والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار، غدواً وعشياً في البرزخ، وليس فيها دلالة على

اتصال تألمها بأجسادها في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصاً بالروح، فأما حصول ذلك للجسد في البرزخ وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة في الأحاديث المرضية الآتي ذكرها.

وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن في قبره بذنب، ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهي تقول: أشعرت أنكم تفتنون في قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود» قالت عائشة رضي الله عنها: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ: «ألا إنكم تفتنون في القبور» وقالت عائشة رضي الله عنها: فكان رسول الله ﷺ بعدُ يستعيذ من عذاب القبر. وهكذا رواه مسلم.

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح في البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل في الأجساد في قبورها، فلما أوحي إلي النبي ﷺ في ذلك بخصوصه استعاذ منه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد روى البخاري: من حديث عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال ﷺ: «نعم عذاب القبر حق» قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاةً إلا تعوذ من عذاب القبر.

فهذا يدل على أنه بادر ﷺ إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر، وقرَّر عليه، وفي الأخبار المتقدمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي، فلعلهما قضيتان، والله سبحانه أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ صباحاً ومساءً ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم. وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يغدى بهم ويراح، إلى أن تقوم الساعة. وقال الهزيل بن شرحبيل: أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود، تغدو على جهنم وتروح عليها، فذلك عرضها. رواه الثوري، وكذلك قال السدي.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشي، إنْ كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة» أخرجاه في الصحيحين.

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

٤٧- يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم، فيقول الضعفاء، وهم الأتباع: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم: القادة والسادة والكبراء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا، من الكفر والضلال ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: قسطاً تتحملونه عنا.

٤٨- ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من

العذاب والنكال ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أي: قسم بيننا العذاب، بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

٤٩ ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ﴾ لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم، ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ سألوا الخزنة وهم كالسجّانين لأهل النار - أن يدعوا لهم الله تعالى، في أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب.

٥٠ ـ فقالت لهم الخزنة رادّين عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أوما قامت عليكم الحجج في الدنيا، على ألسنة الرسل ﴿قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم، ولا نسمع منكم، ولا نود خلاصكم، ونحن منكم براء، ثم نخبركم أنه: سواء دعوتم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم، ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: إلا في ذهاب، لا يقبل ولا يستجاب.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾

٥١ ـ قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالاً فقال: قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية، كيحيى وزكريا وشعياء، ومنهم من خرج من بين أظهرهم، إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين: **(أحدهما)**: أن يكون الخبر خرج عاماً، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ في اللغة. **(الثاني)**: أن يكون المراد بالنصر: الانتصار لهم ممن اذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو غيبتهم أو بعد موتهم، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعياء سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود، فسلّط الله عليهم الروم، فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، إماماً عادلاً، وحكماً مقسطاً، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام، وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه، أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم.

ففي صحيح البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى: مَن عادى لي ولياً، فقد بَارَزَني بالحرب».

ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباههم

وأضرابهم، ممن كذب الرسل وخالف الحق، وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحداً، وعذّب الكافرين، فلم يفلت منهم أحداً. وقال السدي: لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا، وهم منصورون فيها.

وهكذا نصر الله نبيه محمداً ﷺ وأصحابه، على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم، وخذلهم وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم منّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرّت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك، وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكمالها ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله عز وجل، ودعوا عباد الله تعالى جل وعلا، وفتحوا البلاد والرساتيق، والأقاليم والمدائن، والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل، قال مجاهد ﴿**الْأَشْهَادُ**﴾ الملائكة.

٥٢- وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ**﴾ بدل من قوله: ﴿**وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ وقرأ آخرون يوم بالرفع، كأنه فسره به ﴿**وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ**﴾ وهم المشركون ﴿**مَعْذِرَتُهُمْ**﴾ أي: لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿**وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ**﴾ أي: الإبعاد والطرد من الرحمة ﴿**وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ وهي: النار، قاله السدي، بئس المنزل والمقيل. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿**وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ أي: سوء العاقبة.

٥٣- وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى**﴾ وهو ما بعثه الله عز وجل به من الهدى والنور ﴿**وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ**﴾ أي: جعلنا لهم العاقبة، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله، وحواصله وأرضه، بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى، واتباع رسوله موسى عليه الصلاة والسلام، وفي الكتاب الذي أورثوه هو التوراة.

٥٤- ﴿**هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ وهي: العقول الصحيحة السليمة.

٥٥- وقوله عز وجل: ﴿**فَاصْبِرْ**﴾ أي: يا محمد ﴿**إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**﴾ أي: وعدناك أنا سنُعلي كلمتك، ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك ﴿**وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾ وهذا الذي أخبرناك به، حقٌّ لا مرية فيه ولا شك. وقوله تبارك وتعالى: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ**﴾ هذا تهييج للأمة على الاستغفار ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ**﴾ أي: في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿**وَالْإِبْكَارِ**﴾ وهي: أوائل النهار، وأواخر الليل.

٥٦- وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ**﴾ أي: يدفعون الحق بالباطل، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة، بلا برهان ولا حجة من الله ﴿**إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ**﴾

أي: ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم، بل الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: من حال مثل هؤلاء ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان، هذا تفسير ابن جرير.

وقال كعب وأبو العالية: نزلت هذه الآية في اليهود ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ قال أبو العالية: وذلك أنهم ادَّعوا أن الدجال منهم، وأنهم يملكون به الأرض، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ آمراً له أن يستعيذ من فتنة الدجال، ولهذا قال عز وجل: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وهذا قول غريب، وفيه تعسف بعيد، وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩)﴾

٥٧- يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه، بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس، بدأة وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ ﴿أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال ههنا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً وعناداً، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

٥٨- ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار، والكفرة الفجار ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس.

٥٩- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ أي: لكائنة وواقعة ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها. روى ابن أبي حاتم: عن مالك عن شيخ قديم من أهل اليمن - قدم من ثم - قال: سمعت أن الساعة إذا دنت، اشتد البلاء على الناس، واشتد حر الشمس، والله أعلم.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾

٦٠- هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه، أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا من أحب عباده إليه مَن سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يا رب. رواه ابن أبي حاتم. وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

اللهُ يغضَبُ إن تركتَ سُؤاله وبَنِيُّ آدمَ حِينَ يُسئَلُ يغْضَبُ

وروى الإمام أحمد: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وهكذا رواه أصحاب السنن الترمذي والنسائي وابن ماجة وابن أبي حاتم وابن جرير. وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لَم يَدع اللهَ عز وجل، غَضبَ عليه» تفرد به أحمد، وهذا إسناد لا بأس به.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي وتوحيدي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين حقيرين، كما روى الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذَّر، في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصَّغار، حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له: «بولس» تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخَبال: عصارة أهل النار».

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) ﴾

٦١- يقول تعالى ممتناً على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه، ويستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار، وجعل النهار مبصراً، أي: مضيئاً ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الأقطار، والتمكن من الصناعات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم.

٦٢- ثم قال عز وجل: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء الذي لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون غيره من الأصنام، التي لا تخلق شيئاً بل هي مخلوقة منحوتة؟!

٦٣- وقوله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته.

٦٤- وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً﴾ أي: جعلها لكم مستقراً، بساطاً مهاداً، تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون في مناكبها، وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي: سقفاً للعالم محفوظاً ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: فخلقكم في أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور في أحسن تقويم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المآكل والمشارب في الدنيا فذكر أنه خلق الدار والسكان والأرزاق، فهو الخالق الرازق، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وقال تعالى ههنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: فتعالى وتقدس، وتنزه رب العالمين كلهم.

٦٥- ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: هو الحي أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: لا نظير له ولا عديل له ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: موحدين له، مقرين بأنه لا إله إلا هو الحمد لله رب العالمين. قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: لا إله إلا الله، أن يتبعها: بالحمد لله رب العالمين، عملاً بهذه الآية. ثم روى عن مجاهد عن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا الله، فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين، وذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وروى أبو أسامة وغيره عن سعيد بن جبير (نحوه).

روى الإمام أحمد: عن أبي الزبير المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول في دُبُر كل صلاة حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النِّعْمَةُ وَلَه الفضلُ وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون؛ قال: وكان رسول الله ﷺ يهلّ بهن دُبر كل صلاة. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٦٨)﴾

٦٦- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله عز وجل ينهى أن يُعبد أحدٌ سواه من الأصنام والأنداد والأوثان، وقد بيَّن تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمته:

٦٧- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً﴾ أي: هو الذي يُقلّبكم في هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أن يوجد، ويخرج إلى هذا العالم بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفَّى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقال عز وجل ههنا: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال ابن جريج: تتذكرون البعث.

٦٨- ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: لا يخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان لا محالة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ

يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦)﴾

٦٩- يقول تعالى: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله، ويجادلون في الحق بالباطل، كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال؟

٧٠- ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ أي: من الهدى والبيان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٧١، ٧٢- وقوله عز وجل: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾ أي: متصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم، ولهذا قال تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ ◆ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ كما قال تبارك وتعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ◆ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ وقال تعالى بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ◆ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ◆ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ◆ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ - إلى أن قال: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ◆ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ◆ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ◆ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ◆ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ◆ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وقال عز وجل: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ◆ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ◆ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ◆ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ◆ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ◆ إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتحقير والتصغير، والتهكم والاستهزاء بهم.

٧٣، ٧٤- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: قيل لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله، هل ينصرونكم اليوم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعونا ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: جحدوا عبادتهم، كقوله جلت عظمته: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ولهذا قال عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

٧٥- وقوله: ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي: تقول لهم الملائكة: هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق، ومرحكم وأشركم وبطركم.

٧٦- ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: فبئس المنزل والمقيل، الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله، واتباع دلائله وحججه، والله أعلم.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨)﴾

٧٧- يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر، على تكذيب من كذبه من قومه، فإن الله تعالى سينجز لك ما

وعدك، من النصر والظفر على قومك، وجَعْل العاقبة لك ولمن اتبعك، في الدنيا والآخرة ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: في الدنيا، وكذلك وقع، فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أبيدوا في يوم بدر، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ.

وقوله عز وجل: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة.

٧٨- ثم قال تعالى مسلياً له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال جل وعلا في سورة النساء سواء، أي: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله له في ذلك، فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فينجي المؤمنين، ويهلك الكافرين، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (٨١) ﴾

٧٩، ٨٠- يقول تعالى ممتناً على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة، والبقر تؤكل ويشرب لبنها ويحرث عليها الأرض، والغنم تؤكل ويُشرب لبنها، والجميع تجزُّ أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة، كما فصَّل وبيَّن في أماكن تقدم ذكرها في سورة الأنعام وسورة النحل وغير ذلك، ولذا قال عز وجل ههنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

٨١- وقوله جل وعلا: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته، إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾

٨٢- يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر، وماذا حلَّ بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً، ولا ردَّ عنهم ذرة من بأس الله،

وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب. وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم.

٨٣- فأتاهم من بأس الله تعالى مالا قبل لهم به. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: يكذبون ويستبعدون وقوعه.

٨٤- ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ أي: وحدوا الله عز وجل، وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات، ولاتنفع المعذرة، وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: فلم يقبل الله منه، لأنه قد استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه عليه، حين قال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

٨٥- وهكذا قال تعالى ههنا: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب، أنه لا يقبل، ولهذا جاء في الحديث: «إنَّ اللهَ تعالى يَقبلُ توبةَ العبدِ ما لمْ يُغَرْغِرْ»[1].

أي: فإذا غرغر، وبلغت الروح الحنجرة، وعاين المَلَكَ، فلا توبة حينئذ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

آخر تفسير سورة المؤمن

****

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجة (٤٢٥٣) وأحمد (٢/ ١٣٢، ١٥٣) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

ترتيبها ٤١ — سورة فصلت ـ مكية — آياتها ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ⑤﴾

١ ، ٢- يقول تعالى: ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يعني: القرآن منزل من الرحمن الرحيم كقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

٣- وقوله تبارك وتعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: بُيِّنَتْ معانيه، وأُحكمت أحكامه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: في حال كونه قرآناً عربياً بيناً واضحاً، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما يعرف هذا البيان والوضوح، العلماء الراسخون.

٤ ، ٥- ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي: في غلف مغطاة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: صَمَمٌ عما جئتنا به ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا يصل إلينا شيء مما تقول ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ أي: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

وقد أورد الإمام محمد بن إسحاق بين يسار في «كتاب السيرة»: عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت، من البسطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. قال فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع» قال: يا ابن أخي إن كنتَ إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تريد به

شرفاً، سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً، ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الأطباء، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاستمع مني» قال: أفعل. قال: **﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ◆ حم ◆ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ◆ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ◆ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾** ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه، فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك» فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكُه ملككم، وعزُّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؟ قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم(1). وهذا السياق أشبه من الذي قبله(2)، والله أعلم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

٦- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ، أنما إلهكم إله واحد، لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد **﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾** أي: أخلصوا له العبادة، على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل **﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾** أي: لسالف الذنوب **﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾** أي: دمار لهم وهلاك عليهم.

٧- **﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة، وهذا كقوله تبارك وتعالى: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ◆ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾** وكقوله جلت عظمته **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ◆ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾** وقوله عز وجل: **﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾** والمراد بالزكاة ههنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك: طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة، لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته، وكثرة نفعه، وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات، وقال السدي **﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ◆ الَّذِي لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾** أي: لا يدينون بالزكاة. وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة. وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم.

---

(١) حديث حسن، وقد أورد الحافظ ابن كثير ههنا طريقاً له مسنداً من حديث جابر رضي الله عنه، رواه عبد بن حميد وأبو يعلى (٣/ ١٨١٨) والبغوي في تفسيره (٧/ ١٦٧) وغيرهم، وحسن الألباني الحديث في فقه السيرة (ص ١٠٨).

(٢) وقد حذفناه لضعفه.

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير، وفيه نظر، لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأموراً به في ابتداء البعثة، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ فأما الزكاة ذات النصب والمقادير، فإنما بين أمرها بالمدينة ويكون هذا جمعاً بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجباً، قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس وفصَّل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئاً فشيئاً، والله أعلم.

٨- ثم قال جل جلاله بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال مجاهد وغيره: غير مقطوع ولا مجبوب، كقوله تعالى: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ وكقوله عز وجل: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ وقال السدي: غير ممنون عليهم. وقد رد عليه هذا التفسير بعض الأئمة، فإن المنة لله تعالى على أهل الجنة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنداداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾

٩- هذا إنكار من الله تعالى على المشركين، الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقتدر على كل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً﴾ أي: نظراء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً، لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ الآية.

فأما قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا◆ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا◆ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا◆ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا◆ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا◆ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا◆ مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ ففي هذه الآية: أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحو هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنهما، فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه فإنه قال: عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ، قال: ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾. ﴿وَأَقْبَلَ

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ - ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾ - ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقد كتموا في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ - إلى قوله - ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ - إلى قوله- ﴿طَائِعِينَ﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء قال: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ - ﴿عَزِيزاً حَكِيماً﴾ - ﴿سَمِيعاً بَصِيراً﴾ فكأنه كان ثم مضى. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ في النفخة الأولى ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك، ولا يتساءلون بينهم في النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وأما قوله: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾ فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فيقول المشركون: تعالوا نقول لم نكن مشركين، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتم حديثاً، وعنده ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحيها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام ومابينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾ وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلق السموات في يومين.

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ سمى نفسه بذلك، وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك، فإن الله تعالى لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلاً من عند الله عز وجل.

وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعني: يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي: جعلها مباركة، قابلة للخير والبذر والغراس ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق، والأماكن التي تزرع وتغرس، يعني يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة، ولهذا قال: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه. وقال عكرمة ومجاهد في قوله عز وجل: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: وجعل في كل أرض مالا يصلح في غيرها، ومنه العصب باليمن، والسابوري بالسابور، والطيالسة بالري. وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك. وقال ابن زيد: معناه: على وفق مراده، من له حاجة إلى رزق، فإن الله تعالى قدَّر له ما هو محتاج إليه. وهذا القول يشبه ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ والله أعلم.

١١- وقوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وهي بخار الماء المتصاعد منه، حين خلقت الأرض، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ أي: استجيبا لأمري، وانفعلا لفعلي، طائعتين أو مكرهتين. روى الثوري: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ قال: قال الله تبارك وتعالى للسموات: اطلعي شمسي وقمري ونجومي، وقال للأرض: شقي أنهارك وأخرجي ثمارك ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. واختاره ابن جرير رحمه الله.

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعاً مطيعين لك، حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل تنزيلاً لهن معاملة من يعقل بكلامهما! وقال الحسن البصري: لو أبيا عليه أمره، لعذَّبهما عذاباً يجدان ألمه. ورواه ابن أبي حاتم.

١٢ـ ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين، أي: آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: ورتّب مقرراً في كل سماء ما تحتاج إليه، من الملائكة، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿وَحِفْظاً﴾ أي: حرساً من الشياطين، أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: العزيز: الذي قد عزَّ كل شيء فغلبه وقهره، العليم: بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلقَ الشَّجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخَلَق النُّور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدَّواب يوم الخميس، وخلقَ آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل» رواه مسلم والنسائي في كتابيهما، وهو من غرائب الصحيح وقد علَّله البخاري في التاريخ، فقال: رواه بعضهم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار، وهو الأصح[1].

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) ﴾

١٣ـ يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين، المكذبين بما جئتهم به من الحق، إنْ أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى، فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلَّت بالأمم الماضين، من المكذبين بالمرسلين ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما.

١٤ـ ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: في القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحلَّ الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ أي: لو أرسل الله رسلاً، لكانوا ملائكة من عنده ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أي: أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ أي: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا.

١٥ـ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا

(١) قد مضى التعليق عليه (٢/ ١٩٨)، وأنه حديث صحيح، والله أعلم.

﴿قُوَّةً﴾ أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء، وركّب فيها قواها الحاملة لها، وأن بطشه شديد، كما قال عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته، وعصوا رسله.

١٦- فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت. والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية، لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جداً، كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرا» لقوة صوت جريه.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ أي: متتابعات ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ وكقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ أي: ابتدأوا بهذا العذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة. ولهذا قال: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أي: أشد خزياً لهم ﴿وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ أي: في الأخرى، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب، ويدرأ عنهم النكال.

١٧- وقوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبو العالية وسعيد بن جبير وقتادة والسدي وابن زيد: بينّا لهم، وقال الثوري: دعوناهم ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أي: بصّرناهم وبينّا لهم، ووضّحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله تعالى، التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة، وذلاً وهواناً، وعذاباً ونكالاً ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من التكذيب والجحود.

١٨- ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام، بإيمانهم وتقواهم لله عز وجل.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ
وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ
وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا
جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ
فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

١٩- يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: اذكر لهؤلاء المشركين، يوم يحشرون إلى النار ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ أي: عطاشاً.

٢٠- وقوله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أي: وقفوا عليها ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ

﴿وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بأعمالهم مما قدَّموه وأخروه، لا يُكتم منه حرف.

٢١- ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ أي: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون. روى الحافظ أبو بكر البزار: عن الشعبي عن أنس بن مالكﷺ قال: ضحك رسول اللهﷺ ذات يوم أو تبسم، فقالﷺ: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أي شيء ضحكت؟ قالﷺ: «عجبتُ من مُجادلة العبد ربَّه يوم القيامة، يقول: أي ربِّ، أليس وعدتني ألا تظلمني؟ قال: بلى، فيقول: فإني لا أقبل عليَّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول الله تبارك وتعالى: أوليس كفى بي شهيداً، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيردد هذا الكلام مراراً، قال: فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعْداً لكنَّ وسُحقاً، عنكنَّ كنتُ أجادلُ» وقد أخرجه مسلم والنسائي جميعاً.

وقد تقدم أحاديث كثيرة وآثار عند قوله تعالى في سورة يس ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بما أغنى عن إعادته ههنا، وروى ابن أبي حاتم: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما رجعت إلى رسول اللهﷺ مهاجرة البحر قال: «ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينما نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرَّت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرَّت على ركبتيها فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه، فقالت: سوف تعلم يا غدر، إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً؟ قال: يقول رسول اللهﷺ: «صدقت صدقت، كيف يُقدِّس اللهُ قوماً لا يُؤْخذ لضعيفهم من شديدهم» هذا حديث غريب من هذا الوجه، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأهوال.

٢٢، ٢٣- وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: تقول لهم الأعضاء والجلود، حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون منه في زعمكم، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه لا يعلم جميع أفعالكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أي: هذا الظن الفاسد - وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون - هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم.

روى الإمام أحمد: عن عبد اللهﷺ قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وختناه ثقفيان - أو ثقفي وختناه قرشيان - كثيرٌ شحم بطونهم، قليلٌ فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهما: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفع لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كله - قال - فذكرت ذلك للنبيﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي.

وروى عبد الرزاق: عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: عن النبيﷺ في قوله تعالى: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ

سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ﴾ قال: إنكم تدعون يوم القيامة مُفدّماً على أفواهكم بالفِدام، فأول شيء يبين عن أحدكم فخذه وكفه» قال معمر: وتلا الحسن: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى أنا مع عبدي عند ظنه بي، وأنا معه إذا دعاني» ثم افترَّ الحسن ينظر في هذا فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه، فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق، فأساءا الظن بالله فأساءا العمل، ثم قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ الآية.

وروى الإمام أحمد: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتنَّ أحدٌ منكم إلا وهو يحسن بالله الظن».

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي: سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً، فما لهم أعذار، ولا تقال لهم عثرات.

قال ابن جرير: ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلاجواب لهم. قال: وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ❁ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ❁ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾.

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾

٢٥- يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم في أفعاله، بما قيض لهم من القرناء، من شياطين الإنس والجن ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: حسنوا لهم أعمالهم في الماضي، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ❁ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: كلمة العذاب، كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: استووا هم وإياهم في الخسار والدمار.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ولا ينقادوا لأوامره ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي: إذا تلي لا تسمعوا له، كما قال مجاهد ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ يعني: بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق، على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله. وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ عيبوه، وقال قتادة: اجحدوا به وأنكروه وعادوه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذا حال هؤلاء

الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم، عند سماع القرآن، وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بخلاف ذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٢٧- ثم قال عز وجل منتصراً للقرآن، ومنتقماً ممن عاداه من أهل الكفر ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً﴾ أي: مقابلة ما اعتمدوه في القرآن وعند سماعه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بشر أعمالهم، وسيء أفعالهم.

٢٨، ٢٩- ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ روى سفيان الثوري: عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ قال: إبليس، وابن آدم الذي قتل أخاه. وهكذا روى العرني عن علي رضي الله عنه مثل ذلك. وقال السدي عن علي رضي الله عنه: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول، كما في الحديث: «ما قتلت نفسٌ ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها»(١). لأنه أول من سن القتل.

وقولهم ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: أسفل منا في العذاب، ليكونا أشد عذاباً منا، ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي: في الدرك الأسفل من النار، كما تقدم في الأعراف، في سؤال الأتباع من الله تعالى أن يعذِّب قادتهم أضعاف عذابهم ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنه تعالى قد أعطى كلاً منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾

٣٠- يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.

روى ابن جرير: عن سعيد بن عمران قال: قرأت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً. ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ما تقولون في هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال: فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ من ذنب. فقال: لقد حملتموها على غير المحمل، قالوا ربنا الله ثم استقاموا، فلم يلتفتوا إلى إله غيره. وكذا قال مجاهد وعكرمة والسدي وغير واحد. وقال الزهري: تلا عمر رضي الله عنه هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا - والله - لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على أداء فرائضه، وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهمَّ

---

(١) الحديث في البخاري في الديات (١٢/ ١٩١) ومسلم في القسامة (٣/ ١٣٠٣، ١٣٠٤) بلفظ: «لا تقتل نفسٌ ظلماً....».

(١) ليس عند مسلم (١/ ٦٥): «قلت: فما أتقي...» إلخ.

أنتَ ربنا فارزقنا الاستقامة، وقال أبو العالية ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أخلصوا له الدين والعمل.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن سفيان الثقفي عن أبيه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، مُرْني بأمرٍ في الإسلام، لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال ﷺ: «قُل آمنتُ بالله ثمَّ استَقِمْ» قلت: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه. ورواه النسائي. وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي، وذكر تمام الحديث[٢].

وقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه: يعني عند الموت، قائلين ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم: أي: مما تقدمون عليه عمل الآخرة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر، وحصول الخير. وهذا كما في حديث البراء رضي الله عنه قال: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجي أيتها الروح الطيبة، في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى رَوحٍ وريحان، وربٍّ غير غضبان». وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم، حكاه ابن جرير عن ابن عباس والسدي.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبي حاتم.

وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جداً، وهو الواقع.

٣١- وقوله تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوزكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس، وتقربه العيون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم كما اخترتم.

٣٢- ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: ضيافة وعطاء وإنعاماً، من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفَرَ وستر ورحم ولطف. روى الإمام أحمد: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَن كَرِهَ لقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَه» قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت! قال ﷺ: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِر، جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائرٌ إليه، فليس شيءٌ أحبَّ إليه من أن يكون قد لقي الله تعالى، فأحبَّ الله لقاءه، قال: وإنَّ الفاجر أو الكافر إذا حُضر، جاءه بما هو صائر إليه من الشر، أو ما يلقى من الشر، فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه» وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾

٣٣- يقول عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ﴾ أي: دعا عباد الله إليه ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير، ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء، كما ثبت في صحيح مسلم: «المؤذنون أطولُ الناسِ أعناقاً يوم القيامة».

وفي السنن مرفوعاً: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة وغفر للمؤذنين».

وروى ابن أبي حاتم: عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ولهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قالت: فهو المؤذن إذا قال: حي على الصلاة، فقد دعا إلى الله. وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما وعكرمة إنها نزلت في المؤذنين. وقد ذكر البغوي: عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أنه قال في قوله عز وجل: ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ يعني: صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة. ثم أورد البغوي: حديث عبد الله ابن المغفل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة» ثم قال في الثالثة: «لمن شاء» وقد أخرجه الجماعة في كتبهم من حديث عبد الله بن بريدة عنه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قد رفعه إلى النبي ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة» ورواه أبو داود والترمذي والنسائي في اليوم والليلة.

والصحيح: أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية، لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، حين أُريه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري رضي الله عنه في منامه، فقصَّه على رسول الله ﷺ فأمره أن يُلقيه على بلال رضي الله عنه، فإنه أندى صوتاً، كما هو مقرر في موضعه.

فالصحيح إذن: أنها عامة، كما روى عبد الرزاق: عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فقال: هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال إنني من المسلمين، وهذا خليفة الله.

٣٤- وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ﴾ أي: فرق عظيم بين هذه وهذه ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر رضي الله عنه: ما عاقبت من عصى الله فيك، بمثل أن تطيع الله فيه. وقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق، أي: إذا أحسنت إلى من أساء إليك، قادته تلك الحسنة إليه، إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك، حتى يصير كأنه وليٌّ حميم أي: قريب إليك، من الشفقة عليك، والإحسان إليك.

٣٥- ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها، إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب

والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم، كأنه ولي حميم.

٣٦- وقوله تعالى: **﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾** أي: أن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس، إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلَّطه عليك، فإذا استعذت بالله، والتجأت إليه، كفَّه عنك وردَّ كيده، وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من هَمْزِه ونَفْخه ونَفْثه». وقد قدمنا أن هذا المقام لانظير له في القرآن، إلا في سورة الأعراف عند قوله تعالى: **﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۞ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** وفي سورة المؤمنين عند قوله: **﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۞ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾**.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾

٣٧- يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء قادر **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾** أي: أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياؤه، وتقدير منازله في فلكه واختلاف سيره في سمائه، ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس، مقادير الليل والنهار، والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات.

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبَّه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: **﴿لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** أي: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به.

٣٨- ولهذا قال تعالى: **﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾** أي: عن إفراد العبادة له، وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره **﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾** يعني: الملائكة **﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ﴾** كقوله عز وجل: **﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾**.

٣٩- وقوله: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾** أي: على قدرته على إعادته الموتى **﴿أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾** أي: هامدة لا نبات فيها، بل هي ميتة **﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾** أي: أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار **﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾

٤٠- قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال ابن عباس: «الإلحاد» وضع الكلام على غير مواضعه. وقال قتادة وغيره: هو الكفر والعناد، وقوله عز وجل: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: أيستوي هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال عز وجل تهديداً للكفرة ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وعيد، أي: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٤١- ثم قال جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك والسدي وقتادة: وهو القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع الجناب لا يرام، أن يأتي أحد بمثله.

٤٢- ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: ليس للبطلان إليه سبيل، لأنه منزلٌ من رب العالمين. ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أي: في جميع ما يأمر به وينهى عنه، الجميع محمودة عواقبه وغاياته.

٤٣- ثم قال عز وجل: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة والسدي وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب، كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما كذبت كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير، ولم يحك هو ولا ابن أبي حاتم غيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي: لمن تاب إليه ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لمن استمر على كفره وطغيانه، وعناده وشقاقه ومخالفته.

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

٤٤- لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه في لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كفر عنادٍ وتعنت، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: لولا فصّلت آياته، أعجمي وعربي، أي: لقالوا: هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب، ولأنكروا ذلك، فقالوا: أعجمي وعربي؟ أي: كيف ينزل كلام أعجمي، على مخاطب عربي لا يفهمه؟ هكذا روي هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم.

وقيل: المراد: بقولهم لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي، أي: هل أنزل بعضها بالأعجمي وبعضها

بالعربي؟ هذا قول الحسن البصري، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله: ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ وهو رواية عن سعيد ابن جبير، وهو في التعنت والعناد أبلغ.

ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ أي: قل يا محمد، هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: لا يفهمون ما فيه ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال مجاهد: يعني: بعيد من قلوبهم. قال ابن جرير: معناه: كأن مَنْ يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

٤٥- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: كُذِّبَ وأوذي ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعجَّل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكِّين فيما قالوا، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) ﴾

٤٦- يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يعاقب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

٤٧- ثم قال جل وعلا: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحدٌ سواه، كما قال محمد ﷺ وهو سيد البشر - لجبريل عليه الصلاة والسلام - وهو من سادات الملائكة - حين سأله عن الساعة فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

وكما قال عز وجل: ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ وقال جل جلاله: ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ وقال جلت عظمته: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾.

وقوله جل وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي: يوم القيامة، ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق أين شركائي الذين عبدتموهم معي ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أي: أعلمناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحدٌ منا

يشهد اليوم أن معك شريكاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم من عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) ﴾

٤٩- يقول تعالى، لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير، وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك، وإنْ مَسَّه الشر، وهو البلاء أو الفقر ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير.

٥٠- ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: إذا أصابه خيرٌ ورزق، بعد ما كان في شده، ليقولن هذا لي، إني كنت أستحقه عند ربي ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: بكفرهم بقيام الساعة، أي: لأجل أنه خول نعمة يبطر ويفخر ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ◆ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ أي: ولئن كان ثمَّ معاد، فليحسنن إلي ربي كما أحسن إلي في هذه الدار، يتمنى على الله عز وجل مع إساءته العمل، وعدم اليقين. قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده، بالعقاب والنكال.

٥١- ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل، كقوله جل جلاله: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: الشدة ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: يطيل المسئلة في الشيء الواحد، فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز عكسه، وهو ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ الآية.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) ﴾

٥٢- يقول تعالى، قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله، ثم كفرتم به؟ أي: كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله؟ ولهذا قال عز وجل: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في كفر وعناد، ومشاقة للحق، ومسلك بعيد من الهدى.

٥٣- ثم قال جل جلاله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: سنظهر لهم دلالتنا وحججنا، على كون القرآن حقاً، منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ، بدلائل خارجية ﴿فِي الآفَاقِ﴾ من الفتوحات،

وظهور الإسلام على الأقاليم، وسائر الأديان.

قال مجاهد والحسن والسدي: ودلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بدر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حلَّت بهم نصر الله فيها محمداًﷺ وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه.

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك: ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه، من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح، الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى، وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حسن وقبح، وغير ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره، أن يجوزها ولا يتعداها، كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه التفكر والاعتبار عن شيخه أبي جعفر القرشي حيث قال وأحسن المقال:

وإذا نظرتَ تُريدُ معتبراً فانظر إليك ففيك معتبرُ
أنتَ الَّذي تُمسي وتصبح في الدنيا وكل أموره عِبرُ
أنت المصرف كان في صِغر ثم استقل بشخصك الكِبرُ
أنت الذي تنعاه خلقتُه ينعاه منه الشَّعر والبشر
أنت الَّذي تُعطى وتُسلب لا ينجيه من أن يُسلبَ الحذر
أنت الذي لا شيءَ منه له وأحقُّ منه بما له القَدَرُ

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداًﷺ صادقاً فيما أخبر به عنه، كما قال: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ الآية.

٥٤- وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شك من قيام الساعة، ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَر لا يعبأون به، وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه.

ثم قال تعالى مقرراً أنه على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط، وإقامة الساعة لديه، يسير سهل عليه، تبارك وتعالى ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ أي: المخلوقات كلها تحت قهره، وفي قبضته، وتحت طي علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا إله إلا هو.

آخر تفسير سورة فصلت

****

ترتيبها ٤٢ | سورة الشورى ـ مكية | آياتها ٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾

١، ٢- قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة.

٣- وقوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ أي: في انتقامه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله.

روى الإمام مالك رحمه الله: عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإنَّ جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً. أخرجاه في الصحيحين ولفظه للبخاري.

وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحي إلى رسول الله ﷺ، في أول شرح البخاري، بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والمنة.

٤- وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع عبيدٌ له، وملك له، تحت قهره وتصريفه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ والآيات في هذا كثيرة.

٥- وقوله عز وجل: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وقتادة والسدي وكعب الأحبار: أي: فَرَقاً من العظمة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾.

وقوله جل جلاله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إعلام بذلك وتنويه به.

٦- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: المشركين ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي:

شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عداً، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي: إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ⑦ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ⑧﴾

٧- يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: واضحاً جلياً بيناً ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من سائر البلاد شرقاً وغرباً، وسميت مكة أم القرى، لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها، ومن أوجز ذلك وأدله: ما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عدي ابن الحمراء الزهري أخبره: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحَزْوَرة في سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليَّ، ولو لا أني أُخرجت منك ما خرجت» هكذا رواية الترمذي والنسائي وابن ماجة.

وقوله عز وجل: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد. وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة. وقوله جل وعلا: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي: يغبن أهل الجنة أهل النار، وكقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ◆ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ◆ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله، قال ﷺ للذي في يمينه: «هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. ثم قال ﷺ للذي في يساره: «هذا كتاب أهل النار، بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء نعمل، إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: «سددوا وقاربوا، فإنَّ صاحب الجنة يُختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل، وإن صاحب النار يُختم له بعملِ أهل النار، وإنْ عملَ أي عمل» ثم قال ﷺ بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عز وجل من العباد، ثم قال باليمني فنبذ بها، فقال: فريق في الجنة، ونبذ باليسرى وقال: فريق في السعير» وهكذا رواه الترمذي والنسائي، وساقه البغوي في تفسيره.

وروى الإمام أحمد: عن أبي نضرة قال: «إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقال له: أبو عبد الله، دخل عليه أصحابه يعني يزورونه فوجدوه يبكي، فقال له: ما يُبكيك؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ: خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقاني، قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه، ولا أبالي» فلا أدري في أي القبضتين أنا!

وأحاديث القدر في الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جداً، منها حديث علي وابن مسعود وعائشة

وجماعة جمة رضي الله عنهم أجمعين.

٨- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

٩- يقول تعالى منكراً على المشركين، في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبراً أنه هو الولي الحق، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، فإنه هو القادر على إحياء الموتى، وهو على كل شيء قدير.

١٠- ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: هو الحاكم فيه، بكتابه وسنة نبيه ﷺ، كقوله جل وعلا: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: الحاكم في كل شيء ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع في جميع الأمور.

١١- وقوله جل جلاله: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما وما بينهما ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: من جنسكم وشكلكم، منّةً عليكم وتفضلاً، جعل من جنسكم ذكراً وأنثى ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم فيه، أي: في ذلك الخلق على هذه الصفة، لا يزال يذرؤكم فيه، ذكوراً وإناثاً، خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلاً بعد نسل، من الناس والأنعام. وقال البغوي ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: في هذا الوجه من الخلقة. قال مجاهد: نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام. وقيل: «في» بمعنى الباء، أي: يذرؤكم به.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء، لأنه الفرد الصمد، الذي لا نظير له ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

١٢- وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في سورة الزمر، وحاصل ذلك: أنه المتصرف الحاكم فيهما ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن

يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١٤)﴾

١٣- يقول تعالى لهذه الأمة ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام، وهو نوح عليه السلام، وآخرهم وهو: محمد ﷺ. ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهو إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية الأحزاب عليهم، في قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾ الآية، والدِّين الذي جاءت به الرسل كلهم، هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال عز وجل: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾. وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولادُ علَّات ديننا واحد» أي: القدر المشترك بينهم، هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله جل جلاله: ﴿**اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ**﴾ أي: هو الذي يقدِّر الهداية لمن يستحقها، يكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ**﴾ أي: إنما كان مخالفتهم للحق، بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغيُ والعناد والمشاقة.

١٤- ثم قال عز وجل: ﴿**وَلَوْ لاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ أي: لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجَّل عليهم العقوبة في الدنيا سريعاً.

وقوله جلت عظمته: ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ**﴾ يعني: الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿**لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ**﴾ أي: ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم وشك مريب، وشقاق بعيد.

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥)﴾

١٥- اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التي قبلها، حُكمٌ برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضاً عشر فصول كهذه. وقوله: ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ**﴾ أي: فللذي أوحينا إليك من الدين، الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك، أصحاب الشرائع الكبار المتبعة، كأولي العزم وغيرهم، فادع الناس إليه.

وقوله عز وجل: ﴿**وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾ أي: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى، كما أمركم الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ يعني: المشركين فيما اختلقوه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان. وقوله جل وعلا: ﴿**وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ**﴾ أي: صدَّقت بجميع الكتب المنزلة من السماء

على الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم. وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في الحكم كما أمرني الله.

وقوله جلت عظمته: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو المعبود لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً، فله يسجد من في العالمين طوعاً وإجباراً.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: نحن برآء منكم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال مجاهد: أي لا خصومة. قال السدي: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا متجه، لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة.

وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: يوم القيامة، كقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾. وقوله جل وعلا: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

١٦ - يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله، من آمن به ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ أي: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: باطلة عند الله ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ أي: منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يوم القيامة.

قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد: جادلوا المؤمنين، بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطمعوا أن تعود الجاهلية. وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم، وقد كذبوا في ذلك.

١٧ - ثم قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل والإنصاف، قاله مجاهد وقتادة، وهذه كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهيد في الدنيا.

١٨ - وقوله عز وجل: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً، وكفراً وعناداً. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون وجلون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أي: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها، عاملون من أجلها.

وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح الحسان والسنن والمسانيد، وفي بعض ألفاظه: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فناداه فقال: يا محمد، فقال له رسول الله ﷺ نحواً

من صوته: «هاؤم»، فقال له: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك إنها كائنة، فما أعددت لها؟» فقال: حب الله ورسوله، فقال ﷺ: «أنت مع من أحببت». فقوله في الحديث: «المرء مع من أحب» هذا متواتر لا محالة، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يجادلون في وجودها، ويدفعون وقوعها ﴿لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في جهل بين، لأن الذي خلق السموات والأرض، قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ﴾

١٩- يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه، في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحداً منهم، سواء في رزقه للبر والفاجر، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ولها نظائر كثيرة. وقوله جل وعلا: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يوسع على من يشاء ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: لا يعجزه شيء.

٢٠- ثم قال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي: عمل الآخرة ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ﴾ أي: نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر نماءه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية، حرمه الله الآخرة والدنيا، إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه، وفاز الساعي بهذه النية، بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة، والدليل على هذا: أن هذه الآية ههنا، مقيدة بالآية التي في «سبحان» وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۞ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۞ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۞ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْأٓخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

وروى الثوري: عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بشّر هذه الأمة بالسَّناء والرفعة، والنَّصر والتمكين في الأرض، فمَن عَمِل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة من نصيب»[1].

٢١- وقوله جل وعلا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم من

(١) ورواه أحمد (٥/ ١٣٤) وصححه ابن حبان (٤٠٥).

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأموال الفاسدة.

وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة، يجر قُصبه في النار». لأنه أول من سيب السوائب، وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعوجلوا بالعقوبة، لو لا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد موجع في جهنم وبئس المصير.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي: في عَرَصات القيامة ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: الذين يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم في هذا الخوف والوجل ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فأين هذا من هذا؟ أي: أين مَن هو في العَرَصات في الذل والهوان، والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو في روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن، ومناظر ومناكح وملاذ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: الفوز العظيم، والنعمة التامة، السابغة الشاملة العامة.

﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) ﴾

٢٣- يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله تعالى لهم به.

وقوله عز وجل: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين من كفار قريش، لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما تعطونيه، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني، وتذروني أبلِّغ رسالات ربي، إنْ لم تنصروني فلا تؤذوني، بما بيني وبينكم من القرابة.

روى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد، فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش، إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. وانفرد به البخاري. وهكذا روى عامر الشعبي والضحاك وعلي بن أبي طلحة والعوفي ويوسف بن مهران وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

(وقول ثان): وهو ما حكاه البخاري وغيره: رواية عن سعيد بن جبير ما معناه: أنه قال: معنى ذلك: أن تودوني في قرابتي، أي: تحسنوا إليهم وتبروهم. وقال أبو إسحاق السبيعي: سألت عمرو بن شعيب عن قوله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ فقال: قربى النبي ﷺ، رواه ابن جرير.

والحق تفسير هذه الآية، بما فسَّرها به حَبر الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس رضي الله عنهما،

كما رواه عنه البخاري، ولا ننكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة، الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته، رضي الله عنهم أجمعين.

وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير «خُم»: «إني تارك فيكم الثَّقلين: كتاب الله وعترتي، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض»(١). وروى البخاري: عن ابن عمر رضي الله عنهما: عن أبي بكر – هو الصديق – رضي الله عنه قال: ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته. وفي الصحيح: أن الصديق رضي الله عنه قال لعلي رضي الله عنه: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إلي أن أصل من قرابتي. وقال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله تعالى عنهما: والله لا سلامك يوم أسلمت، كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب. فحال الشيخين رضي الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين.

وروى الإمام أحمد رحمه الله: عن زيد بن أرقم رضي الله عنه: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا بماء يدعى خُماً بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال ﷺ: «أما بعد، أيها الناس، إنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتيني رسولُ ربي فأُجيب، وإني تاركٌ فيكم الثقلين، أولهما: كتاب الله تعالى، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه. وقال ﷺ: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي» فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس رضي الله عنهم، قال: أكل هؤلاء حرم عليه الصدقة؟ قال: نعم، وهكذا رواه مسلم والنسائي.

وروى أبو عيسى الترمذي: عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تاركٌ فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظمُ من الآخر: كتاب الله حَبْلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، والآخر: عترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» تفرد بروايته. وفي الباب عن أبي ذر وأبي سعيد وزيد بن أرقم وحذيفة بن أسيد رضي الله عنهم. وقد أوردنا أحاديث أخر عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ بما أغنى عن إعادتها ههنا، ولله الحمد والمنة.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً﴾ أي: ومن يعمل حسنة، نزدْ له فيها حسنا، أي: أجراً وثواباً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ وقال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: يغفر الكثير من السيئات، ويكثِّر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر.

٢٤– وقوله جل وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: يطبع على قلبك، وسلبك ما كان آتاك من

(١) وسيأتي ذكره مبسوطاً.

القرآن، كقوله جل جلاله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه.

وقوله جلت عظمته: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ ليس معطوفاً على قوله: ﴿يَخْتِمْ﴾ فيكون مجزوماً، بل هو مرفوع على الابتداء. قاله ابن جرير قال: وحذفت من كلمته الواو في رسم المصحف الإمام، كما حذفت في قوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ معطوف على ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ أي: يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته، أي: بحججه وبراهينه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) ﴾

٢٥- يقول تعالى ممتناً على عباده، بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه، إنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح، ويستر ويغفر، كقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وقد ثبت في صحيح مسلم رحمة الله عليه: عن إسحاق بن أبي طلحة حدثني أنس بن مالك وهو عمه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله تعالى أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه، مِنْ أحدكم كانت راحلته، بأرض فلاة، فانفلتتْ منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح».

وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه نحوه. وقال همام بن الحارث: سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن الرجل يفجر بالمرأة، ثم يتزوجها؟ قال: لا بأس به، وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ الآية. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقوله عز وجل: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عالمٌ بجميع ما فعلتم، وصنعتم وقلتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدي: يعني يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه: يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم، ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة وأنه جعلها، كقوله عز وجل: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ أي: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ والمعنى الأول أظهر، لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي:

يستجيب دعاءهم، ويزيدهم فوق ذلك. وقال قتادة عن إبراهيم النخعي في قوله عز وجل: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: يشفعون في إخوانهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ قال: يشفعون في إخوان إخوانهم.

وقوله عز وجل: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لما ذكر المؤمنين، وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين، وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد، الموجع المؤلم، يوم معادهم وحسابهم.

٢٧- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان، من بعضهم على بعض، أشراً وبطراً. وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك، ولا يطغيك. وذكر قتادة حديث: «إنما أخاف عليكم ما يخرج الله تعالى من زهرة الحياة الدنيا». وسؤال السائل: «أيأتي الخير بالشر؟» الحديث.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره، مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر.

٢٨- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أي: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله عز وجل: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ وقوله جل جلاله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أي: يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية. ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) ﴾

٢٩- يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ أي: ذرأ فيهما، أي: في السموات والأرض ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم، ولغاتهم وطباعهم، وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرّقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا كله ﴿عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أي: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين، وسائر الخلائق في صعيد واحد يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

٣٠- وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب، فإنما عن سيئات تقدمت لكم ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ أي: من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ وفي الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده ما يُصيب المؤمن من نَصب ولا وَصب، ولا هم ولا حزن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياه، حتى الشوكة يشاكها».

ثم روى ابن أبي حاتم: عن أبي جحيفة قال: دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحدثكم بحديث

ينبغي لكل مؤمن أن يعيه؟ قال: فسألناه، فتلا هذه الآية ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ قال: ما عاقبَ الله تعالى به في الدنيا، فالله أحلم من أن يُثنّي عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا، فالله أكرم من أن يعود عفوه يوم القيامة.

وروى الإمام أحمد: عن معاوية هو ابن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يُصيب المؤمن في جسده يؤذيه، إلا كفَّر الله تعالى عنه به من سيئاته». وروى ابن أبي حاتم: عن الحسن عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: دخل عليه بعض أصحابه - وقد كان ابتلي في جسده فقال له بعضهم: إنا لنبأس لك لما نرى فيك، قال: فلا تبتئس بما ترى، فإنَّ ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾.

وروي: عن الضحاك قال: ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه، إلا بذنب، ثم قرأ الضحاك ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾. ثم يقول الضحاك: وأي مصيبةٍ أعظم من نسيان القرآن!

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) ﴾

٣٢- يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه: تسخيره البحر، لتجري فيه الفلك بأمره، وهي الجواري في البحر كالأعلام، أي: كالجبال، قاله مجاهد والحسن والسدي والضحاك. أي: هذه في البحر كالجبال في البر.

٣٣- ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أي: التي تسير في البحر بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن، بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أي: على وجه الماء ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أي: إن في تسخيره البحر، وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أي: في الشدائد ﴿شَكُورٍ﴾ أي: في الرخاء.

٣٤- وقوله عز وجل: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: ولو شاء لأهلك السفن، وأغرقها بذنوب أهلها، الذين هم راكبون فيها ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: من ذنوبهم، ولو آخذهم بجميع ذنوبهم، لأهلك كل من ركب البحر، وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال، آبقة لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد.

وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكَّن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقت وهلكت، ولكن من لطفه ورحمته، أنه يرسل بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيراً جداً، لهدم البنيان، أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها، لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم.

٣٥- وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن بأسنا

ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾

٣٦- يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني، بقوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: مهما حصلتم وجمعتم، فلا تغتروا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة، فانية زائلة لا محالة ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: ثواب الله تعالى خير من الدنيا، وهو باق سرمدي، فلا تُقدِّموا الفاني على الباقي. ولهذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات، وترك المحرمات.

٣٧- ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش في سورة الأعراف ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمات الله. وفي حديث آخر: كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «ما له تربت يمينه»[1].

وروى ابن أبي حاتم: عن إبراهيم قال: كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا، وكانوا إذا قدروا عفوا.

٣٨- وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: اتبعوا رسله، وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي أعظم العبادات لله عز وجل ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم، في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الآية، ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم، وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فاجتمع رأي الصحابة كلهم رضي الله عنهم على تقديم عثمان عليهم، رضي الله عنهم.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

٣٩- وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين، الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم منَّ عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه ﷺ

(١) رواه البخاري في الأدب (١٠/ ٤٥٢، ٤٦٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

عن غورث بن الحارث، الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ ﷺ وهو في يده صلتاً، فانتهره فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف في يده، ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره، وأمر هذا الرجل، وعفا عنه.

وكذلك عفا ﷺ عن لبيد بن الأعصم الذي سحره ﷺ، ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية - وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري، الذي قتله محمود بن سلمة - التي سمَّت الذراع يوم خيبر - فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال ﷺ: «ما حملك على ذلك؟» قالت: أردت إن كنتَ نبياً لم يضرك، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك، فأطلقها عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء رضي الله عنه قتلها به، والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾

٤٠- قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وكقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ الآية، فشرع العدل، وهو القصاص، ونَدَب إلى الفضل، وهو العفو، كقوله جل وعلا: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا يضيع ذلك عند الله، كما صح ذلك في الحديث، وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة.

٤١- ثم قال جل وعلا: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم. كما روى النسائي وابن ماجة: من حديث عروة قال: قالت عائشة رضي الله عنها: ما علمت حين دخلت علي زينب بغير إذن، وهي غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قَلبتْ لك ابنة أبي بكر ذُريعتها، ثم أقبلت علي فأعرضتُ عنها، حتى قال النبي ﷺ: «دونك فانتصري» فأقبلت عليها، حتى رأيتها وقد يبس ريقها في فمها، ما تردُّ علي شيئاً، فرأيت النبي ﷺ يتهلّل وجهه. وهذا لفظ النسائي.

٤٢- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي: إنما الحرج والعنت ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: يبدءون الناس بالظلم، كما جاء في الحديث الصحيح: «المستبان ما قالا، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم» ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: شديد موجع.

٤٣- ثم إن الله تعالى لما ذم الظلم وأهله، وشرع القصاص، قال نادباً إلى العفو والصفح ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أي: صبر على الأذى، وستر السيئة ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني لمن حق الأمور التي أمر الله تعالى بها، أي: لمن الأمور المشكورة، والأفعال الحميدة، التي عليها ثواب جزيل، وثناء جميل. وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رجلاً شتم أبابكر رضي الله عنه والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم، فلما أكثر ردَّ عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا

رسول الله ، إنه كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ، قال : «إنه كان معك ملكٌ يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان ، ثم قال : «يا أبا بكر ثلاثٌ كلهنَّ حقٌ : ما من عبد ظُلم بمظلمة فيغضي عنها لله ، إلا أعزَّه الله تعالى بها ونصره ، وما فَتح رجل باب عطيةٍ يريد بها صلة ، إلا زاده الله بها كثرةً ، وما فَتح رجل باب مسئلة يريد بها كثرة ، إلا زاده الله عز وجل بها قِلَّة» وكذا رواه أبو داود .

وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى ، وهو مناسب للصدِّيق رضي الله عنه .

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) ﴾

٤٤- يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة ، إنه ما شاء كان ، ولا راد له ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، كما قال عز وجل : **﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾** . ثم قال عز وجل مخبراً عن الظالمين وهم المشركون بالله **﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾** أي : يوم القيامة ، تمنوا الرجعة إلى الدنيا **﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ؟﴾** كما قال جل وعلا : **﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** .

٤٥- وقوله عز وجل : **﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾** أي : على النار **﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾** أي : الذل قد اعتراهم ، بما أسلفوا من عصيان الله تعالى **﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾** قال مجاهد : يعني ذليل ، أي : ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها ، والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة ، وما هو أعظم بما في نفوسهم ، أجارنا الله من ذلك **﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** أي : يقولون يوم القيامة **﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾** أي : الخسار الأكبر **﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** أي : ذهب بهم إلى النار ، فعدموا لذتهم في دار الأبد ، وخسروا أنفسهم ، وفرق بينهم وبين أحبابهم ، وأصحابهم وأهاليهم وقراباتهم ، فخسروهم **﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾** أي : دائم سرمدي أبدي ، لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها .

٤٦- وقوله تعالى : **﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾** أي : ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال **﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾** أي : ليس له خلاص .

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾

٤٧- لما ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال، والأمور العظام الهائلة، حذَّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: إذا أمر بكونه، فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع. وقوله عز وجل: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم حصن تتحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم، بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۞ كَلَّا لَا وَزَرَ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾.

٤٨- وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعني: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: لست عليهم بمصيطر، وقال عز وجل: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وقال جل وعلا ههنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: إنا كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أي: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ يعني: الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾ أي: جدب ونقمة وبلاء وشدة ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: يجحد ما تقدم من النعم، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإنْ أصابته نعمةٌ أشر وبطر، وإن أصابته محنة يئس وقنط، كما قال رسول الله ﷺ للنساء: «يا معشر النساء، تصدَّقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: ولم يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «لأنكنَّ تُكثرن الشكاية، وتكْفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوماً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط».

وهذا حال أكثر النساء، إلا من هداه الله تعالى وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالمؤمن كما قال ﷺ: «إن أصابته سرَّاء شكَر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

٤٩- يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض، ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ أي: يرزقه البنات فقط. قال البغوي: ومنهم لوط ﷺ ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أي: يرزقه البنين فقط. قال البغوي: كإبراهيم الخليل ﷺ، لم يولد له أنثى.

٥٠- ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ أي: ويعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى، أي: من هذا وهذا. قال البغوي: كمحمد ﷺ ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أي: لا يولد له. قال البغوي: كيحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكوراً وإناثاً، ومنهم يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيماً لا نسل له، ولا ولد له ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿قَدِيرٌ﴾ أي: على ما يشاء من تفاوت الناس وفي ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: دلالة

لهم على قدرته تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام: فآدم عليه الصلاة والسلام مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى، وعيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر، فتمَّت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ (٥٣)﴾

٥١- هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في رُوع النبي ﷺ شيئاً، لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن رُوح القُدس نَفَثَ في رُوعِي، أن نفساً لن تموتَ حتى تستكملَ رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطَّلب».

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكلم، فحجب عنها.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «ما كلَّم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً». كذا جاء الحديث، وكان قد قُتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا.

وقوله عز وجل: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل جبريل عليه السلام، وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ فهو علي عليم، خبير حكيم.

٥٢- وقوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني: القرآن ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الحق القويم.

٥٣- ثم فسره بقوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ أي: شرعه الذي أمر به الله ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: ربهما ومالكهما، والمتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ أي: ترجع الأمور فيفصلها، ويحكم فيها سبحانه وتعالى، عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

آخر تفسير سورة الشورى

****

ترتيبها ٤٣ — سورة الزخرف ـ مكية — آياتها ٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ④ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ⑤ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑦ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ⑧﴾

١ ، ٢- يقول تعالى: ﴿حم ❁ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: البين الواضح الجلي، المعاني والألفاظ، لأنه نزل بلغة العرب، التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس.

٣- ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أي أنزلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب فصيحاً واضحاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال عز وجل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ بين شرفه في الملإ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي: اللوح المحفوظ. قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا قاله قتادة وغيره ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: محكم، بريء من اللبس والزيغ. وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ❁ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ❁ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ❁ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ❁ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ❁ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ❁ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ❁ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ❁ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

ولهذا استنبط العلماء رضي الله عنهم من هاتين الآيتين: أن المحدث لا يمس المصحف، كما ورد به الحديث إن صح، لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملإ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

٥- وقوله عز وجل: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ اختلف المفسرون في معناها، فقيل معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم، ولم تفعلوا ما أمرتم به. قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو صالح ومجاهد والسدي واختاره ابن جرير، وقال قتادة: والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله تعالى عاد بعائدته ورحمته، فكرَّره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك. وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أن يقول في معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإلى الذكر الحكيم - وهو القرآن - وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي من

قدَّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

٦- ثم قال جل وعلا مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذَّبه من قومه، وآمراً له بالصبر عليهم ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ أي: في شيع الأولين.

٧- ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: يكذبونه ويسخرون به.

٨- وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً﴾ أي: فأهلكنا المكذبين بالرسل، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد، كقوله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ والآيات في ذلك كثيرة جداً.

وقوله جل جلاله: ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال مجاهد: سنتهم، وقال قتادة: عقوبتهم، وقال غيرهما: عبرتهم، أي: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين، أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ وكقوله جلت عظمته: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)﴾

٩- يقول تعالى: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله، العابدين معه غيره ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أي: ليعترفنَّ بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد.

١٠- ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾ أي: فراشاً قراراً ثابتة تسيرون عليها، وتقومون وتنامون وتنصرفون، مع أنها مخلوقة علي تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال، لئلا تميد هكذا ولا هكذا ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ أي: طرقاً بين الجبال والأودية ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: في سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم.

١١- ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم، وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً﴾ أي: أرضاً ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، ثم نبه تعالى بإحياء الأرض، على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

١٢- ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ

﴿الْفُلْكِ﴾ أي: السفن ﴿وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ذللها لكم، وسخَّرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها، وركوبكم ظهورها.

١٣، ١٤- ولهذا قال جل وعلا: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: لتستووا متمكنين مرتفعين ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي: على ظهور هذا الجنس ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أي: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مقاومين ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي وابن زيد ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وباللباس الدنيوي على الأخروي، في قوله تعالى: ﴿وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾.

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة

﴿حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه﴾: روى الإمام أحمد: عن علي بن ربيعة قال: رأيت علياً رضي الله عنه أُتي بدابة، فلما وَضَع رجله في الرِّكاب قال: بسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ ثم حمد الله تعالى ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسي فاغفر لي، ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «يَعْجَبُ الرَّبُّ تبارك وتعالى من عبده إذا قال: رب اغفر لي، ويقول: عَلِمَ عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري» وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

(حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما): روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ ثم يقول: «اللهم إنِّي أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا السفر، واطو لنا البعيد، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهلنا» وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله عابدون، لربنا حامدون» وهكذا رواه مسلم وأبو داو والنسائي.

(حديث آخر في معناه): روى الإمام أحمد: عن أبي لاس الخزاعي قال: حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج، فقلنا: يا رسول الله، ما نرى أن تحملنا هذه، فقال ﷺ: «ما من بعير إلا في ذُروته شيطانٌ، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما أمركم، ثم امتهنوها لأنفسكم، فإنما يَحمل الله عز وجل».

أبو لاس اسمه محمد بن الأسود بن خلف.

(حديث آخر في معناه): روى أحمد: عن محمد بن حمزة أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كلِّ بعيرٍ شيطانٌ، فإذا ركبتموها فسمُّوا الله عز وجل، ثم لا تُقصِّروا عن حاجاتكم».

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم

بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

١٥- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، فيما افتروه وكذبوه، في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم، وبعضها لله تعالى، كما ذكر الله عز وجل عنهم في سورة الأنعام، في قوله تبارك وتعالى: **﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنبن أخسهما وأردأهما، وهو البنات، كما قال تعالى: **﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ۞ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾** وقال جل وعلا ههنا: **﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾**.

١٦- ثم قال جل وعلا: **﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾** وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار.

١٧- ثم ذكر تمام الإنكار فقال جلت عظمته: **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾** أي: إذا بشِّر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات، يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تبارك وتعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل؟

١٨- ثم قال سبحانه وتعالى: **﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾** أي: المرأة ناقصة، يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عيية، أومن يكون هكذا، ينسب إلى جناب الله العظيم؟ فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي، وما في معناه، ليجبر ما فيها من نقص. كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الحلي إلا زينةٌ من نقيصةٍ ... يتمِّم من حسنٍ إذا الحسنُ قصَّرا
وأمَّا إذا كان الجمالُ موفَّراً ... كحسنكِ لم يحتج إلى أن يزوَّرا

وأما نقص معناها: فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همَّة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرها سرقة.

١٩- وقوله تبارك وتعالى: **﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾** أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: **﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾** أي: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثاً **﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾** أي: بذلك **﴿وَيُسْأَلُونَ﴾** عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

٢٠- **﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾** أي: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة الأصنام، التي هي على صورة الملائكة، التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك، وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ: **(أحدها)**: جعلهم لله تعالى ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً **(الثاني)**: دعواهم أنه اصطفى

البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً. **(الثالث)**: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط في الجاهلية الجهلاء **(الرابع)**: احتجاجهم بتقريرهم على ذلك قدراً، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل، وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾** وقال عز وجل: **﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾**.

وقال جل وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حجتهم هذه **﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾** أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به **﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾** أي: يكذبون ويتقوّلون. وقال مجاهد في قوله تعالى: **﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾** يعني: ما يعلمون قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾

٢١- يقول تعالى منكراً على المشركين، في عبادتهم غير الله، بلا برهان ولا دليل ولا حجة **﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ﴾** أي: من قبل شركهم **﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾** أي: فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، كقوله عز وجل: **﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾** أي: لم يكن ذلك.

٢٢- ثم قال تعالى: **﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾** أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك، سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها «الدِّين» ههنا وفي قوله تبارك وتعالى: **﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾**.

وقولهم: **﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم﴾** أي: ورائهم **﴿مُّهْتَدُونَ﴾** دعوى منهم بلا دليل.

٢٣- ثم بيّن جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم، من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالتهم **﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾** وهكذا قال ههنا: **﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾**.

٢٤- ثم قال عز وجل: **﴿قُلْ﴾** أي: يا محمد لهؤلاء المشركين **﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾** أي: لو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به، لما انقادوا لذلك، لسوء قصدهم، ومكابرتهم للحق وأهله.

٢٥- قال الله تعالى: **﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾** أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصّله تبارك وتعالى في قصصهم **﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾** أي: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجّى الله المؤمنين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

٢٦ ، ٢٧- يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله، إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها، أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۞ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي لا إله إلا الله، أي: جعلها دائمة في ذريته، يقتدي به فيها من هداه الله تعالى، من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها.

٢٨- وقال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذريته من يقولها. وروي نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال ابن زيد: كلمة الإسلام، وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

٢٩- ثم قال جل وعلا: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: المشركين ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ أي: فتطاول عليهم العمر في ضلالهم ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين الرسالة والنذارة.

٣٠- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: كابروه وعاندوه، ودفعوا بالصدور والرواح، كفراً وحسداً وبغياً.

٣١- ﴿وَقَالُوا﴾ أي: كالمعترضين على الذي أنزله، تعالى وتقدس ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: هلا كان إنزال هذا القرآن، على رجلٍ عظيم كبير في أعينهم من القريتين؟ يعنون: مكة والطائف. قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وابن زيد، وقد ذكر غير واحد منهم قتادة: أنهم أرادوا بذلك: الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، وقال مالك عن زيد ابن أسلم والضحاك والسدي: يعنون: الوليد بن المغيرة ومسعود بن عروة الثقفي، وعن مجاهد: يعنون عمير ابن عمرو بن مسعود الثقفي، وعنه أيضاً أنهم يعنون: عتبة بن ربيعة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: جباراً من جبابرة قريش. وعنه رضي الله عنهما أنهم يعنون الوليد بن المغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وعن مجاهد يعنون: عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبد ياليل بالطائف، وقال السدي: عنوا بذلك الوليد بن المغيرة وكنانة

ابن عبد عمرو بن عمير الثقفي.

والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان.

٣٢- قال الله تبارك وتعالى راداً عليهم في هذا الاعتراض: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً. ثم قال عز وجل مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم، من الأموال والأرزاق، والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية. وقوله جلت عظمته: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾ قيل: معناه: ليسخِّر بعضُهم بعضاً في الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا. قاله السدي وغيره، وقال قتادة والضحاك: ليملك بعضُهم بعضاً، وهو راجع إلى الأول. ثم قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا.

٣٣- ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة، أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال، هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وغيرهم ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: سلالم ودرجاً من فضة. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد وغيرهم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: يصعدون.

٣٤- ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً﴾ أي: إغلاقاً على أبوابهم ﴿وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ أي: جميع ذلك يكون فضة.

٣٥- ﴿وَزُخْرُفاً﴾ أي: وذهباً، قاله ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى، أي: يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح.

وورد في حديث آخر: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافراً شربة ماء» أسنده البغوي عن سهل بن سعد رضي الله عنه، ورواه الطبراني[1].

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هي لهم خاصة، لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى ﷺ من نسائه، فرآه على رمال حصير قد أثَّر بجنبه، فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه! وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، وقال: «أو في شكٍ أنت، يا ابن الخطاب؟» ثم قال ﷺ: «أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا».

وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟».

وفي الصحيحين أيضاً وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة». وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها.

---

(١) ورواه الترمذي (٢٤٣٦). وكذا ابن ماجة (٤١١٠) بزيادة.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

٣٦- يقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يتعامى ويتغافل ويعرض ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها، والمراد ههنا: عشا البصيرة ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ الآية، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وكقوله جل جلاله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الآية.

٣٧- ٣٨- ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي: هذا الذي تغافل عن الهدى، نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط الجحيم، فإذا وافى الله عز وجل يوم القيامة، يتبرأ من الشيطان الذي وكِّل به ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾. وقرأ بعضهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانَا﴾ يعني: القرين والمقارن. روى عبد الرزاق: عن سعيد الجريري قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة، شفع بيده شيطان فلم يفارقه حتى يصيرهما الله تبارك وتعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾.

والمراد بالمشرقين ههنا: هو ما بين المشرق والمغرب، وإنما استعمل ههنا تغليباً، كما يقال: القمران والعمران والأبوان. قاله ابن جرير وغيره.

٣٩- ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار، واشتراككم في العذاب الأليم.

٤٠- وقوله جلت عظمته: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل في ذلك.

٤١- ثم قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أي: لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي: نحن قادرون على هذا وعلى هذا، ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقرَّ عينه من أعدائه، وحكَّمه في نواصيهم، وملَّكه ما تضمنته صياصيهم، هذا معنى قول السدي، واختاره ابن جرير. وروى ابن جرير: عن معمر قال: تلا قتادة: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾

فقال ذهب النبيﷺ وبقيت النقمة، ولم ير الله تبارك وتعالى نبيهﷺ في أمته شيئاً يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكمﷺ. ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضاً.

وفي الحديث: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون».

٤٣- ثم قال عز وجل: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق، المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

٤٤- ثم قال جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل معناه: لشرف لك ولقومك. قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد، واختاره ابن جرير ولم يحك سواه.

وأورد الترمذي ههنا: حديث معاويةرضي الله عنه قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش، لا ينازعهم فيه أحدٌ إلا أكبَّه الله تعالى على وجهه، ما أقاموا الدين» رواه البخاري.

ومعناه: أنه شرف لهم، من حيث أنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به، وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم، من الخلص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم، وقيل معناه ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ وكقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له.

٤٥- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله جلت عظمته: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعودرضي الله عنه (وَاسْأَلِ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلَنَا) وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي وابن مسعودرضي الله عنه، وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جُمعوا له، واختار ابن جرير الأول، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (٥٠) ﴾

٤٦، ٤٧- يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه، من الأمراء والوزراء، والقادة والأتباع، والرعايا من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاماً، كيده وعصاه، وما أرسل معه من

الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذّبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها.

٤٨- ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخيالهم.

٤٩- وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات، يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام، ويتلطفون له في العبارة بقولهم ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ أي: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السحرة، ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه، لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيمٌ في زعمهم.

٥٠- ففي كل مرة يَعدون موسى ﷺ إن كشف عنهم هذا، أن يؤمنوا به، ويرسلوا معه بني إسرائيل، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ ♦ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ♦ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦) ﴾

٥١- يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه، وكفره وعناده، أنه جمع قومه فنادى فيهم، متبجحاً مفتخراً بملك مصر، وتصرفه فيها ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ قال قتادة: قد كانت لهم جنات وأنهار ماء ﴿أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ♦ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ♦ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾.

٥٢- وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال السدي: يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة إن «أم» ههنا بمعنى بل، ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها ﴿أَمَا أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة، لكان معناها صحيحاً واضحاً، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤا ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ على الاستفهام **(قلت)**: وعلى كل تقدير، فإنما يعني فرعون لعنه الله بذلك: أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ويعني بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة والسدي: يعني ضعيف، وقال ابن جرير: يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني لا

يكاد يفصح عن كلامه، فهو غبي حصر. قال السدي ﴿لاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لا يكاد يفهم. وقال قتادة والسدي وابن جرير: يعني: عي اللسان. وقال سفيان: يعني: في لسانه شيء من الجمرة، حين وضعها في فمه وهو صغير.

وهذا قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى عليه السلام بعين كافرة شقية، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء، في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب، وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خِلْقَةً وخُلقاً وديناً، وموسى هو الشريف الرئيس، الصادق البار الراشد، وقوله: ﴿وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضاً، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله عز وجل أن يحل عقدة من لسانه، ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك، في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد، لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل، فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء.

٥٣- وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ وهي ما يُجعل في الأيدي من الحلي، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وغير واحد ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: يكتنفونه خدمة له، ويشهدون بتصديقه نظراً إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يفهم.

٥٤- ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾.

٥٥- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿آسَفُونَا﴾ أسخطونا. وقال الضحاك: أغضبونا. وهكذا قال ابن عباس أيضاً ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وغيرهم من المفسرين.

وروى ابن أبي حاتم: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتَ الله تبارك وتعالى يُعطي العبد ما يشاء، وهو مقيمٌ على معاصيه، فإنما ذلك استدراجٌ منه له» ثم تلا ﷺ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: وجدت النقمة مع الغفلة، يعني قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

٥٦- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ قال أبو مجلز: سلفاً لمثل من عمل بعملهم. وقال هو ومجاهد ﴿وَمَثَلاً﴾: أي: عبرة لمن بعدهم. والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ

نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

٥٧- يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم، وتعمدهم العناد والجدل ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال غير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة والسدي والضحاك: يضحكون، أي: أعجبوا بذلك. وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يعرضون. وكأن السبب في ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لقد علمتُ آية من القرآن ما سألني عنها رجلٌ قط، ولا أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها فيسألوا عنها؟ قال: ثم طَفِقَ يحدثنا فلما قام تلاومنا أن لا نكون سألناه عنها، فقلت: أنا لها إذا راح غداً، فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرتَ أمس أن آية من القرآن، لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها، قال رضي الله عنه: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش إنه ليس أحدٌ يعبد من دون الله فيه خير» وقد علمت قريش أن النصارى تعبدُ عيسى ابن مريم عليه السلام، وما تقول في محمد ﷺ، فقالوا: يا محمد، ألستَ تزعم أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، فإن كنتَ صادقاً، فإن آلهتهم لكما تقولون، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قلت: ما يصدون؟ قال: يضحكون ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قبل يوم القيامة. وروى ابن أبي حاتم نحوه.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده، كما عبد قوم عيسى عيسى عليه السلام، ونحو هذا قال قتادة.

٥٨- وقوله: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ قال قتادة يقولون: آلهتنا خير منه، وقال قتادة: قرأ ابن مسعود رضي الله عنه: (وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا) يعنون محمداً ﷺ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً﴾ أي: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية، لأنها لما لا يعقل، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم، ليسوا يعتقدون صحتها.

وقد روى الإمام أحمد رحمه الله: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه، إلا أُورثُوا الجَدل» ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ وقد رواه الترمذي وابن ماجة وابن جرير.

٥٩- وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: عيسى عليه الصلاة والسلام، ما هو إلا عبدٌ من

عباد الله عز وجل، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء.

٦٠- وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أي: بدلكم ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ قال السدي: يخلفونكم فيها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: يخلف بعضهم بعضاً كما يخلف بعضكم بعضاً. وهذا القول يستلزم الأول، وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم.

٦١- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ تقدم تفسير ابن إسحاق، أن المراد من ذلك ما بعث به عيسى عليه الصلاة والسلام من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام، وفي هذا نظر. وأبعد منه ما حكاه قتادة عن الحسن البصري وسعيد بن جبير أن الضمير في ﴿وَإِنَّهُ﴾ عائد على القرآن.

بل الصحيح أنه عائد على عيسى ﷺ، فإن السياق في ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: أمارة ودليل على وقوع الساعة. قال مجاهد ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: آية للساعة، خروج عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قبل يوم القيامة. وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى ﷺ قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكوا فيها إنها واقعة وكائنة لا محالة ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ أي: فيما أخبركم به ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۞ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: عن اتباع الحق ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ أي: بالنبوة ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال ابن جرير: يعني: من الأمور الدينية لا الدنيوية. وهذا الذي قاله حسن جيد، ثم ردَّ قول من زعم أن ﴿بَعْضَ﴾ ههنا بمعنى «كل» واستشهد بقول لبيد الشاعر:

تَرَّاكُ أمْكنةٍ إذا لم أرضَها أو يعْتَلق بعضَ النفوسِ حِمامها

وأوّلوه على أنه أراد جميع النفوس، قاله ابن جرير: وإنما أراد نفسه فقط، وعبر بالبعض عنها. وهذا الذي قاله محتمل. وقوله عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما جئتكم به.

٦٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: أنا وأنتم عبيدٌ له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جل وعلا وحده.

٦٥- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلفت الفرق، وصاروا شيعاً فيه منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله، وهو الحق، ومنهم من يدعي أنه ولد الله، ومنهم يقول: إنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ

إلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

٦٦- يقول تعالى، هل ينتظر هؤلاء المشركون، المكذبون للرسل ﴿إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أي: فإنها كائنة لا محالة وواقعة وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم، ولا يدفع عنهم.

٦٧- وقوله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كل صداقة وصحابة لغير الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه.

وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة: صارت كلُّ خلة عدواة يوم القيامة، إلا المتقين.

٦٨- وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

٦٩- ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم. قال المعتمر بن سليمان عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحدٌ منهم إلا فزع، فينادي منادٍ ﴿يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيرجوها الناس كلهم قال فيتبعها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين.

٧٠- ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أي: يُقال لهم ادخلوا الجنة ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: نظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تتنعمون وتعدون، وقد تقدم تفسيرها في سورة الروم.

٧١- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: زبادي آنية الطعام ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهي آنية الشراب، أي: من ذهب، لا خراطيم لها ولا عرى (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنفُسُ) وقرأ بعضهم: ﴿تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ﴾.

﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ أي: طيب الطعم والريح، وحسن المنظر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ أي: لا تخرجون منها، ولا تبغون عنها حولاً.

٧٢- ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات. روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أهل النار يَرى منزله من الجنة حسرة، فيقول ﴿لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ وكلُّ أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ فيكون له شكراً».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحدٍ إلا وله منزلٌ في الجنة، ومنزل في النار، فالكافرُ يرثُ المؤمنَ منزله

من النار، والمؤمنُ يرث الكافرَ منزله من الجنة» وذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٧٣- وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي: من جميع الأنواع ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة، لتتم النعمة والغبطة، والله تعالى أعلم.

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) ﴾

٧٤، ٧٥- لما ذكر تعالى حال السعداء، ثنّى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۞ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير.

٧٦- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بأعمالهم السيئة، بعد قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجُوزوا بذلك جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

٧٧- ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وهو خازن النار، روى البخاري: عن صفوان بن يعلى عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

أي: يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ وقال عز وجل: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۞ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۞ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ فلما سألوا أن يموتوا، أجابهم مالك ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ رواه ابن أبي حاتم. أي: لا خروج لكم منها، ولا محيد لكم عنها.

٧٨- ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بيَّناه لكم ووضَّحناه وفسرناه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أي: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله، ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، وأندموا حيث لا تنفعكم الندامة.

٧٩- ثم قال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ قال مجاهد: أرادوا كيد شرهم فكدناهم. وهذا الذي قاله مجاهد، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل، بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله تعالى، وردَّ وبال ذلك عليهم.

٨٠- ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ أي: سرهم وعلانيتهم ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي

السَّماءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾

٨١- يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: لو فُرِض هذا لعبدته على ذلك، لأني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء من عبادته، فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع، ولا الجواز أيضاً، كما قال عز وجل: ﴿لَوْ أَرَادَ اللهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: الآنفين. ومنهم سفيان الثوري، والبخاري حكاه فقال: ويقال ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الجاحدين، من عبد يعبد. وهذا القول فيه نظر! لأنه كيف يلتئم مع الشرط، فيكون تقديره: إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر فليتأمل.

اللهم إلا أن يقال: أن «إن» ليست شرطاً وإنما هي نافية، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد، فأنا أول الشاهدين. وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: إن ذلك لم يكن فلا ينبغي، وقال أبو صخر ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: أول من عبده ووحده وكذبكم، وقال البخاري: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الآنفين، وهما لغتان، رجل عابد وعبد.

والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع، وقال السدي ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يقول: لو كان له ولد، كنتُ أول من عبده بأن له ولد، ولكن لا ولد له. وهو اختيار ابن جرير، ورد قول من زعم أن «إن» نافية.

٨٢- ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء، عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له، ولا كفء له، فلا ولد له.

٨٣- وقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ أي: في جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة، أي: فسوف يعلمون، كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم؟

٨٤- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أي: هو إله من في السماء، وإله من في الأرض، يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: هو المدعو «الله» في السموات والأرض.

٨٥- ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالقهما ومالكهما، والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك أي: استقر له السلامة من العيوب والنقائص، لأنه الربُّ العلي العظيم، المالك للأشياء، الذي بيده أزمة الأمور نقضاً وإبراماً ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يجليها لوقتها إلا هو ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: فيجازي كلاً بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

٨٦- ثم قال تعالى: ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ أي: لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

٨٧- ثم قال عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله، العابدين معه غيره ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ أي: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له في ذلك. ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئاً ولا يقدر على شيء، فهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة، وسخافة العقل، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

٨٨- وقوله جل وعلا: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وقال محمدﷺ قيله، أي: شكى إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ وهذا الذي قلناه، هو قول ابن مسعودرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومجاهد وقتادة، وعليه فسر ابن جرير، قال البخاري: وقرأ عبد الله يعني ابن مسعودرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ قال: فأبرَّ الله عز وجل قول محمدﷺ. وقال قتادة: هو قول نبيكمﷺ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل.

ثم حكى ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾ قراءتين إحداهما: النصب، ولها توجيهان: أحدهما: أنه معطوف على قوله تبارك وتعالى: ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾. والثاني: أن يقدر فعل، وقال: قيله. والثانية: الخفض، وقيله عطفاً على قوله: ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ تقديره: وعلم قيله.

٨٩- وقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿وَقُلْ سَلاَمٌ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء، ولكن تألفهم واصفح عنهم، فعلاً وقولاً ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم، ولهذا أحلَّ بهم بأسه الذي لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الزخرف

****

ترتيبها ٤٤ — سورة الدخان ـ مكية — آياتها ٥٩

في مسند البزار: من رواية زيد بن حارثة: أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني قد خبَّأت خبأً فما هو» وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان، فقال: هو الدخ، فقال: «اخسأ، ما شاء الله كان» ثم انصرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

١ - ٣- يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم، أنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته.

ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان! كما روي عن عكرمة فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أي: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده.

٤- وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السَّنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد من السلف. وقوله جل وعلا: ﴿حَكِيمٍ﴾ أي: محكم لا يبدل ولا يغير.

٥- ولهذا قال جل جلاله: ﴿أَمْراً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى، وما يوحيه، فبأمره وإذنه وعلمه ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: إلى الناس رسولاً، يتلو عليهم آيات الله مبينات فإن الحاجة كانت ماسة إليه.

٦، ٧- ولهذا قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الذي أنزل القرآن، هو رب السموات والأرض، وخالقهما ومالكهما وما فيهما ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم متحققين.

٨- ثم قال تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ وهذه الآية، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ الآية.

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

٩- يقول تعالى، بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون، أي: قد جاءهم الحق اليقين، وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به.

١٠- ثم قال عز وجل متوعداً لهم ومهدداً ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾. عن مسروق قال: دخلنا - يعني مسجد الكوفة - عند أبواب كندة فإذا رجل يقص على أصحابه ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام، قال: فأتينا ابن مسعودﷺ، فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعاً ففزع فقعد، وقال: إن الله عز وجل قال لنبيكمﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: اللهُ أعلم، سأحدثكم عن ذلك: إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام، واستعصت على رسول اللهﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع، حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان - وفي رواية: فجعل الرجلُ ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد - قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۞ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فأتي رسول اللهﷺ فقيل له: يا رسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت، فاستسقىﷺ فسقوا، فنزلت: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قال ابن مسعودﷺ: فيكشفُ عنهم العذاب يوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ قال: يعني: يوم بدر. قال ابن مسعودﷺ: فقد مضى خمسة: الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام.

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين. ورواه الإمام أحمد في مسنده، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيريهما، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة، وقد وافق ابن مسعودﷺ على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعةٌ من السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير.

وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما تقدم من حديث أبي سريحة حذيفة ابن أسيد بن أسيد الغفاريﷺ قال: أشرف علينا رسول اللهﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقالﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونارٌ تخرج من قعر عدن، تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبيت معهم حيث باتوا، وتَقيل معهم حيث قالوا» تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه.

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد: «إني خبأت لك خبأ» قال: هو الدُّخ فقال ﷺ له: «اخسأ فلن تعدو قدرك» قال: وخبأ له رسول الله ﷺ ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾. وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يقرظون العبارة، ولهذا قال هو الدخ، يعني: هو الدخان، فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته، وأنها شيطانية، فقال ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك».

ثم روى ابن جرير: عن عبد الله بن أبي مليكة قال: غدوت على ابن عباس رضي الله عنهما ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت، وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما، حَبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة، على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بين واضح يراه كل أحد، وعلى ما فسَّر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم، من شدة الجوع والجهد.

١١- وهكذا قوله تعالى: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أي: يتغشاهم ويعميهم، ولو كان خالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾، وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، كقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

١٢- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه، سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله جلت عظمته: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكذا قوله جل وعلا: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

١٣، ١٤- وهكذا قال جل وعلا ههنا: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۞ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة، ومع هذا تولوا عنه، وما وافقوه بل كذبوه، وقالوا ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ وهذا كقوله جلت عظمته: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ الآية، وكقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۞ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إلى آخر السورة.

١٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أنه يقول تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب، ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وكقوله جلت عظمته: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلاً، بعد

انعقاد أسبابه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ ولم يكن العذاب باشرهم، واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب عليه السلام، أنه قال لقومه حين قالوا ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ◆ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا﴾ وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم. وقال قتادة: إنكم عائدون إلى عذاب الله.

١٦- وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه: بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضي الله عنه وجماعة عنه، على تفسير الدخان بما تقدم. وروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية العوفي عنه، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو محتمل والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً.

وروى ابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة. وهذا إسناد صحيح عنه. وبه يقول الحسن البصري، وعكرمة في أصح الروايتين عنه، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ (٣٣) ﴾

١٧- يقول تعالى ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين، قوم فرعون، وهم قبط مصر ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني موسى كليمه عليه الصلاة والسلام.

١٨- ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ﴾ كقوله عز وجل: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ وقوله جل وعلا: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: مأمون على ما أبلغكموه.

١٩- وقوله تعالى: ﴿وَأَن لاَ تَعْلُوا عَلَى اللهِ﴾ أي: لا تستكبروا عن اتباع آياته، والانقياد لحججه، والإيمان ببراهينه، كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ﴿إِنِّي آتِيكُم

﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة ظاهرة واضحة، وهي ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات، والأدلة القاطعات.

٢٠- ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم، وقال قتادة: الرجم بالحجارة. أي: أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم، من أن تصلوا إليَّ بسوء من قول أو فعل.

٢١- ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي: فلا تتعرضوا لي، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة، إلى أن يقضي الله بيننا، فلما طال مقامهﷺ بين أظهرهم، وأقام حجج الله تعالى عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، ودعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ - إلى قوله - قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾.

٢٢- وهكذا قال ههنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بني إسرائيل من بين أظهرهم، من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه.

٢٣- ولهذا قال جل جلاله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى﴾.

٢٤- وقوله عز وجل ههنا: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه، حتى يعود كما كان ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً، وبشَّره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى. قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً﴾ كهيئته وامضه.

وقال مجاهد ﴿رَهْواً﴾: طريقاً يبساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة والربيع بن أنس والضحاك وقتادة وابن زيد وكعب الأحبار وسماك بن حرب وغير واحد.

٢٥، ٢٦- ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ﴾ وهي: البساتين ﴿وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهي المساكن الأنيقة، والأماكن الحسنة. وقال مجاهد وسعيد بن جبير ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ المنابر.

٢٧- ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها، فيأكلون ما شاءوا، ويلبسون ما أحبوا، مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا، وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية، وتلك الحواصل الفرعونية، والممالك القبطية، بنو إسرائيل.

٢٨- كما قال تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ وقال عز وجل ههنا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾ وهم بنو إسرائيل كما تقدم.

٢٩- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء، فتبكي على فقدهم، ولا هم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم، فلهذا استحقوا أن

لا يُنظروا ولا يؤخروا، لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم. عن سعيد بن جبير قال: أتى ابن عباس رضي الله عنهما رجل فقال: يا أبا العباس، أرأيت قول الله تعالى: **﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾** فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال رضي الله عنه: نعم، إنه ليس أحدٌ من الخلائق، إلا وله بابٌ في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، ففقده بكى عليه، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله عز وجل فيها، بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله عز وجل منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض. وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما نحو هذا.

وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، قال: فقلت له: أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبدٍ كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبدٍ كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل.

وقال قتادة: كانوا أهون على الله عز وجل من أن تبكي عليهم السماء والأرض.

وذكروا في مقتل الحسين رضي الله عنه، أنه ما قُلب حجرٌ يومئذ إلا وجد تحته دمٌ عبيط! وأنه كسفت الشمس واحمر الأفق، وسقطت حجارة! وفي كل من ذلك نظر، والظاهر أنه من سخف الشيعة وكذبهم، ليعظموا الأمر، ولا شك أنه عظيم ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين رضي الله عنه، ولم يقع شيء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو أفضل منه بالإجماع، ولم يقع شيء من ذلك، وعثمان بن عفان رضي الله عنه قتل محصوراً مظلوماً، ولم يكن شيء من ذلك، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل في المحراب في صلاة الصبح، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن شيء من ذلك، وهذا رسول الله ﷺ وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة، يوم مات لم يكن شيء مما ذكروه، ويوم مات إبراهيم بن النبي ﷺ خسفت الشمس، فقال الناس: خسفت لموت إبراهيم فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف وخطبهم، وبيَّن لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته.

٣٠، ٣١- وقوله تبارك وتعالى: **﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾** يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه، من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة. وقوله تعالى: **﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً﴾** أي: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله عز وجل: **﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ﴾**، وقوله جلت عظمته: **﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾** من المسرفين، أي: مسرف في أمره، سخيف الرأي على نفسه.

٣٢- وقوله جل جلاله: **﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** قال مجاهد **﴿اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**: على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمان عالماً، وهذا كقوله تعالى: **﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾** أي: أهل زمانه ذلك، كقوله عز وجل لمريم عليها السلام **﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾** أي: في زمانها، فإن خديجة رضي الله عنها إما أفضل منها أو مساوية لها في الفضل، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وفضل عائشة رضي الله عنها على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام.

٣٣- وقوله جل جلاله: ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ﴾ أي: الحجج والبراهين، وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ أي: اختبار ظاهر جلي، لمن اهتدى به.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

٣٤، ٣٥- يقول تعالى منكراً على المشركين، في إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور، ويحتجون بآبائهم الماضين، الذين ذهبوا فلم يرجعوا.

٣٦- فإن كان البعث حقاً ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه حجة باطلة، وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا في الدار الدنيا، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً.

٣٧- ثم قال تعالى متهدداً لهم، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد، كما حلَّ بأشباههم ونظرائهم، من المشركين المنكرين للبعث، كقوم تبع وهم سبأ، حيث أهلكهم الله عز وجل، وخرب بلادهم وشردهم في البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك في سورة سبأ، وهي مصدرة بإنكار المشركين للمعاد، وكذلك ههنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عرباً من قحطان، كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير - وهم سبأ - كلما ملك فيهم رجل سموه: تُبعاً، كما يقال كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس.

ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن، وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه، وهو الذي مصَّر الحيرة، فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية، وذلك في أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار، وجعلوا يقرونه بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم واستصحب معه حبرين من أحبار اليهود، كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة، فإنها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة، فنهياه عن ذلك أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه السلام، وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان، فعظمها وطاف بها وكساها الملاء والوصائل والحبر، ثم كرَّ راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام، فتهود معه عامة أهل اليمن.

وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة، وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا ومما لم نذكر، وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صفَّت له من دمشق إلى اليمن، ثم ساق من طريق عبد الرزاق: عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «ما أدري الحدود طهارةٌ لأهلها أم لا؟ ولا أدري أتبع كان لعيناً أم لا؟ ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم ملكاً - وقال غيره: عزير أكان نبياً أم لا» وكذا رواه ابن أبي حاتم.

ثم أورد ما جاء في النهي عن سبه ولعنته، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وكأنه - والله أعلم - كان كافراً ثم أسلم، وتابع دين الكليم، على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان، على الحق، قبل بعثة

المسيح عليه السلام، وحج البيت في زمن الجرهميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر، ونحر عنده ستة آلاف بدنة، وعظمه وأكرمه، ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة، مطولة مبسوطة عن أبي بن كعب، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وكعب الأحبار، وإليه المرجع في ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً، وهو أثبت وأكبر وأعلم، وكذا روى قصته وهب بن منبه، ومحمد بن إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة تبع هذا، بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن تبعاً هذا المشار إليه في القرآن، أسلم قومه على يديه، ثم لما توفي عادوا بعده إلى عبادة النيران والأصنام، فعاقبهم الله تعالى، كما ذكره في سورة سبأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك، ولله الحمد والمنة. وروى ابن أبي حاتم: عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تبعاً، فإنه قد كان أسلم» رواه الإمام أحمد والطبراني.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢)﴾

٣٨، ٣٩- يقول تعالى مخبراً عن عدله، وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ◆ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾.

٤٠- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهو يوم القيامة، يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين. وقوله عز وجل: ﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: يجمعهم كلهم، أولهم وآخرهم.

٤١- ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلاً عَن مَّوْلاً شَيْئاً﴾ أي: لا ينفع قريب قريباً، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وكقوله جلت عظمته: ﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ◆ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: لا يسأل أخا له عن حاله، وهو يراه عياناً. وقوله جل وعلا: ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج.

٤٢- ثم قال: ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللهُ﴾ أي: لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله عز وجل بخلقه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)﴾

٤٣، ٤٤- يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ◆ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ والأثيم أي: في قوله وفعله، وهو الكافر، وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك في دخوله في هذه الآية، ولكن

ليست خاصة به. روى ابن جرير: عن همام بن الحارث: أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ۞ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء ﷺ: قل: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ طعام الفاجر.

أي: ليس له طعام من غيرها، قال مجاهد: ولو وقعت قطرة منها إلى الأرض، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم. وقد تقدم نحوه مرفوعاً.

٤٥، ٤٦- وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قالوا: كعكر الزيت ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ۞ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ أي: من حرارتها ورداءتها.

٤٧- وقوله: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: خذوه، ، ابتدروه سبعون ألفاً منهم، وقوله: ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: سوقوه سحباً، ودفعاً في ظهره، قال مجاهد ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ أي: خذوه فادفعوه ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي: وسطها.

٤٨- ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كقوله عز وجل: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ۞ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ وقد تقدم أن المَلَك يضربه بمقمعة من حديد، فتفتح دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل في بدنه فيسلت ما في بطنه من أمعائه، حتى تمرق من كعبيه، أعاذنا الله تعالى من ذلك.

٤٩- وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي: قولوا له ذلك، على وجه التهكم والتوبيخ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي: لست بعزيز ولا كريم.

٥٠- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا۞ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ۞ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) ﴾

٥١- لما ذكر تعالى حال الأشقياء، عطف بذكر السعداء، ولهذا سمى القرآن مثاني، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: لله في الدنيا ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: في الآخرة، وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع، وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده وسائر الآفات والمصائب.

٥٢- ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه، من شجرة الزقوم، وشرب الحميم.

٥٣- وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ وهو رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان، وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالي القماش ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي: على السرر، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

٥٤- وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات، الحور العين الحسان، اللاتي ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ﴿هَلْ جَزَاءُ

﴿الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ .

٥٥- وقوله عز وجل: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أي: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا.

٥٦- وقوله: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾ هذا استثناء يؤكد النفي، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «يُؤتَى بِالْمَوْتِ فِي صورة كبشٍ أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يُذبح ثم يقال: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت» وقد تقدم الحديث في سورة مريم عليها الصلاة والسلام.

وروى عبد الرزاق: عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنة: إنَّ لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً، وإنَّ لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً» رواه مسلم.

وروى أبو بكر بن أبي داود السجستاني: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة، يَنعَم فيها ولا ييأس، ويحيا فيها ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه».

وروى أبو القاسم الطبراني: عن جابر رضي الله عنه قال: سُئل نبي الله ﷺ أينام أهل الجنة؟ فقال ﷺ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون» وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره.

وقوله تعالى: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: مع هذا النعيم العظيم المقيم، قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم، في دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب.

٥٧- ولهذا قال عز وجل: ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: إنما كان هذا بفضله عليهم، وإحسانه إليهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أنَّ أحداً لن يدخله عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

٥٨- وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: إنما يسرنا هذا القرآن، الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً، بلسانك الذي هو أفصح اللغات، وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتفهمون ويعملون.

٥٩- ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان، من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له، وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي: انتظر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: فسيعلمون لمن تكون النصرة، والظفر وعلو الكلمة، في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد، ولإخوانك من النبيين والمرسلين، ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ❁ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

آخر تفسير سورة الدخان

****

ترتيبها ٤٥ — سورة الجاثية ـ مكية — آياتها ٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) تنزيلُ الْكتاب منَ اللَّه الْعَزيز الْحكيم (٢) إنَّ في السَّمٰوات وَالأَرْض لآيَات لِّلْمُؤْمنين (٣) وَفي خلْقكُمْ وَمَا يَبُثُّ من دَابَّة آيَاتٌ لِّقَوْم يُوقنُونَ (٤) وَاخْتلاف اللَّيْل وَالنَّهار وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ منَ السَّمَاء من رِّزْق فَأَحْيَا به الأَرْضَ بَعْدَ موْتهَا وَتَصْريف الرِّيَاح آيَاتٌ لِّقَوْم يَعْقلُونَ (٥) ﴾

١ - ٥- يرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض، وما فيها من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب، من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً لأن به يحصل الرزق ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بعد ما كانت هامدة، لا نبات فيها ولا شيء.

وقوله عز وجل: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ أي: جنوباً وشمالاً ودبوراً وصبا، برية وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج.

وقال سبحانه وتعالى أولاً: ﴿لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم يوقنون، ثم يعقلون، وهو ترق من حال شريف، إلى ما هو أشرف منه وأعلى، وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿ تلْكَ آيَاتُ اللَّه نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالْحَقّ فَبأَيّ حَديث بَعْدَ اللَّه وَآيَاته يُؤْمنُونَ (٦) وَيْلٌ لّكُلّ أَفَّاك أَثيم (٧) يَسْمَعُ آيَات اللَّه تُتْلَىٰ عَلَيْه ثُمَّ يُصرُّ مُسْتَكْبرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشّرْهُ بعَذَاب أَليم (٨) وَإذَا عَلمَ منْ آيَاتنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَئكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهينٌ (٩) من وَرَائهمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْني عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا من دُون اللَّه أَوْليَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى وَالَّذينَ كَفَرُوا بآيَات رَبّهمْ لَهُمْ عَذَابٌ مّن رّجْز أَليمٌ (١١) ﴾

٦- يقول تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ﴾ يعني: القرآن، بما فيه من الحجج والبينات ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها، ولا ينقادون لها، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟

٧- ثم قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: أفاك في قوله، كذاب، حلاف مهين، أثيم في فعله وقلبه، كافر بآيات الله.

٨- ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أي: على كفره وجحوده، استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: كأنه ما سمعها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة، عذاباً أليماً موجعاً.

٩- ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً﴾ أي: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به، واتخذه سخرياً وهزواً ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن، واستهزأ به، ولهذا روى مسلم في صحيحه: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى رسول اللهﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافةَ أن يناله العدو.

١٠- ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده، فقال: ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: كل من اتصف بذلك، سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً﴾ أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

١١- ثم قال تبارك وتعالى: ﴿هَذَا هُدًى﴾ يعني: القرآن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وهو المؤلم الموجع، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) ﴾

١٢- يذكر تعالى نعمه على عبيده، فيما سخَّر لهم من البحر ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ وهي: السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أي: في المتاجر والمكاسب ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: على حصول المنافع المجلوبة إليكم، من الأقاليم النائية، والآفاق القاصية.

١٣- ثم قال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به أي: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه، ولهذا قال: ﴿جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

١٤- وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ أي: ليصفحوا عنهم، ويتحملوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصروا على العناد، شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. هكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة، وقال مجاهد ﴿لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾ لا ينالون نعم الله تعالى، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله عز وجل مجازيهم بأعمالهم السيئة في

الآخرة.

١٥- ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تعودون إليه يوم القيامة، فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)﴾

١٦- يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل، من إنزال الكتب عليهم، وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المآكل والمشارب ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: في زمانهم ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: حججاً وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة، وإنما كان ذلك بغياً منهم على بعضهم بعضاً ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم.

١٨- ولهذا قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اتبع ما أوحي إليك من ربك، لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال جل جلاله ههنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٩- ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم بعضاً، فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً، ودماراً وهلاكاً ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

٢٠- ثم قال عز وجل: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣)﴾

٢١- يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وقال تبارك وتعالى ههنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوها وكسبوها ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي: نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا، أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار

الآخرة، وفي هذه الدار.

روى الحافظ أبو يعلى: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «كما أنه لا يُجتنى مِن الشَّوك العِنب، كذلك لا ينال الفجارُ منازلَ الأبرار» هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقد روى الطبراني: عن مسروق: أن تميماً الداري قام ليلة حتى أصبح، يردد هذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

٢٢- وقال عز وجل: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٢٣- ثم قال جل وعلا: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسناً فعله، ومهما رآه قبيحاً تركه، وهذا قد يستدل به على المعتزلة في قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين. وعن مالك فيما روي عنه من التفسير: لا يهوى شيئاً إلا عبده. وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ يحتمل قولين: أحدهما: وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه. والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ أي: فلا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئاً يهتدى به، ولا يرى حجة يستضيء بها. ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) ﴾

٢٤- يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة. وهذا يقوله مشركو العرب، المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة، والإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة، يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول، وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يتوهمون ويتخيلون.

فأما الحديث الذي أخرجه صاحب الصحيح وأبو داود والنسائي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهرَ وأنا الدهر، بيدي الأمر، أُقلِّب ليله ونهاره».

وفي رواية «لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر».

قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»:

كانت العرب في جاهليتها، إذا أصابهم شدةٌ أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال.

هذا أحسن ما قيل في تفسيره، وهو المراد، والله أعلم، وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية، في عدِّهم «الدهر» من الأسماء الحسنى، أخذاً من هذا الحديث.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: إذا استدل عليهم، وبيَّن لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان، بعد فنائها وتفرقها ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً.

٢٦- قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: الذي قدَر على البداءة، قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: إنما يجمعكم إلى يوم القيامة، لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ❁ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ وقال ههنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ❁ وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ أي: يرون وقوعه بعيداً، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾

٢٧- يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وهم الكافرون بالله، الجاحدون بما أنزله على رسله، من الآيات البينات، والدلائل الواضحات.

٢٨- ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على رُكَبها من الشدة والعظمة. ويقال: إن هذا إذا جيء بجهنم، فإنها تزفر زفرة، لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، حتى إبراهيم الخليل عليه السلام، ويقول: نفسي نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى أن عيسى عليه السلام ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك مريم التي ولدتني. قال مجاهد وكعب الأحبار والحسن البصري ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على الركب.

وقال عكرمة: جاثية متميزة على ناحيتها، وليس على الركب. والأول أولى.

وقوله عز وجل: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ يعني: كتاب أعمالها، كقوله جل جلاله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله عز وجل: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ❁ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ❁﴾

﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾.

٢٩- ولهذا قال جلت عظمته: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: يستحضر جميع أعمالكم، من غير زيادة ولا نقص، كقوله جل جلاله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾.

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنا كنا نأمر الحفظة، أن تكتب أعمالكم عليكم. قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال، على ما بأيدي الكتبة، مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القدم على العباد، قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)﴾

٣٠- يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وهي: الجنة، كما ثبت في الصحيح: «أن الله تعالى قال للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»(١).

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي: البين الواضح.

٣١- ثم قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً: أما قرئت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عن سماعها، وكنتم قوماً مجرمين في أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب.

٣٢- ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ أي: لا نعرفها ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً﴾ أي: إن نتوهم وقوعها إلا توهما، أي: مرجوحاً، ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: بمتحققين، قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: من العذاب والنكال.

٣٤- ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أي: نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٨/ ٥٩٥) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٤/ ٢١٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأوله: «تحاجت الجنة والنار...».

هَذَا﴾ أي: فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به **﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾**.

وقد ثبت في الصحيح: أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوِّجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخِّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني».

٣٥- قال الله تعالى: **﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً﴾** أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء، لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرياً، تسخرون وتستهزئون بها **﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾** أي: خدعتكم فاطمأننتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين.

ولهذا قال عز وجل: **﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾** أي: من النار **﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾** أي: يطلب منهم العتبى، بل يعذَّبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة، بغير عذاب ولا حساب.

٣٦- ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين، قال: **﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** أي: المالك لهما وما فيهما، ولهذا قال: **﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.

٣٧- ثم قال جل وعلا: **﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** قال مجاهد: يعني: السلطان. أي: هو العظيم الممجد، الذي كل شيء خاضع لديه، فقير إليه.

وقد ورد في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: العظمةُ إزاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما، أسكنته ناري» رواه مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ بنحوه.

وقوله تعالى: **﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾** أي: الذي لا يغالب ولا يمانع **﴿الْحَكِيمُ﴾** في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس لا إله إلا هو.

آخر تفسير سورة الجاثية

****

ترتيبها ٤٦ — سورة الأحقاف ـ مكية — آياتها ٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢) ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلاَّ بالحق وأجل مسمًّى والذين كفروا عمَّا أنذروا معرضون (٣) قل أرأيتم مَّا تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب مِّن قبل هذا أو أثارة مِّن علم إن كنتم صادقين (٤) ومن أضل ممَّن يدعو من دون الله من لاَّ يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون (٥) وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٦) ﴾

١ ، ٢- يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال.

٣- ثم قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي: لا على وجه العبث والباطل ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وإلى مدة معينة مضروبة، لا تزيد ولا تنقص. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتاباً، وأرسل إليهم رسولاً، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غب ذلك.

٤- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المشركين، العابدين مع الله غيره ﴿أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض، وما يملكون من قطمير، إنْ الملك والتصرف كله إلا لله عز وجل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟! من أرشدكم إلى هذا؟ من دعائكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ أي: هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: دليل بيِّن على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: لا دليل لكم، لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك، ولهذا قرأ آخرون: ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: علم صحيح تؤثرون عن أحد ممن قبلكم، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أو أحد يأثر علماً، وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أو بينة من الأمر.

روى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: عن النبي ﷺ: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قال: «الخط».

وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصري: أو أثارة شيء يستخرجه فيثيره.

وكل هذه الأقوال متقاربة، وهي راجعة إلى ما قلناه، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وأكرمه وأحسن مثواه.

٥- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن

﴿دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ أي: لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناما، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة، وهي غافلة عما يقول، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش، لأنها جماد حجارة صم.

٦- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ كقوله عز وجل: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ◆ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) ﴾

٧- يقول عز وجل مخبراً عن المشركين، في كفرهم وعنادهم، أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله بينات، أي: في حال بيانها ووضوحها وجلائها، يقولون ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا.

٨- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ يعنون محمداً ﷺ. قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لو كذبت عليه، وزعمت أنه أرسلني وليس كذلك، لعاقبني أشد العقوبة، ولم يقدر أحدٌ من أهل الأرض، لا أنتم ولا غيركم أن يجيرني منه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ◆ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ◆ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ◆ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ◆ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ هذا تهديد لهم، ووعيد أكيد، وترهيب شديد.

وقوله جل وعلا: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة، أي: ومع هذا كله، إن رجعتم وتبتم تاب عليكم، وعفا عنكم، وغفر ورحم، وهذه الآية كقوله عز وجل في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ◆ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٩- وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول رسول طرق العالم، بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له، حتى تستنكروني وتستبعدون بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ ما أنا بأول رسول، ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما في هذه الآية: نزل بعدها: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. وهكذا قال عكرمة والحسن وقتادة: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا: ولما نزلت هذه الآية، قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله تعالى ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هكذا قال، والذي هو ثابت في الصحيح: أن المؤمنين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية.

وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: ما أدري بماذا أومر وبماذا أنهى بعد هذا؟ وقال أبوبكر الهذلي عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ قال: أما في الآخرة فمعاذ الله وقد علم أنه في الجنة، ولكن قال: «لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟ وهذا القول هو الذي عوَّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق بهﷺ، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة، هو ومن اتبعه، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره، وأمر مشركي قريش، إلى ماذا؟ أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم.

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن أم العلاء - وهي امرأة من نسائهم - أخبرته وكانت بايعت رسول اللهﷺ، قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين، عثمان بن مظعونرضي الله عنه، فاشتكى عثمانرضي الله عنه عندنا فمرَّضناه، حتى إذا توفى أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول اللهﷺ: «وما يدريك أن الله تعالى أكرمه؟» فقلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي، فقال رسول اللهﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت: فقلت: والله لا أزكي أحداً بعده أبداً، وأحزنني ذلك، فنمت فرأيت لعثمانرضي الله عنه عيناً تجري، فجئت إلى رسول اللهﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول اللهﷺ: «ذاك عمله» فقد انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم.

وفي لفظ له: «ما أدري وأنا رسول اللهﷺ ما يفعل به» وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فأحزنني ذلك» وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة، إلا الذي نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسراقة وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: إنما أتبع ما ينزله الله عليَّ من الوحي ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّن النذارة، أمري ظاهر لكل ذي لب وعقل، والله أعلم.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ

ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)﴾

١٠- يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: أرأيتم إن كان هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ أي: ما ظنكم أن الله صانع بكم، إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به، قد أنزله عليَّ لأبلغكموه، وقد كفرتم به وكذبتموه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ أي: وقد شهد بصدقه وصحته، الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به. وقوله عز وجل: ﴿فَآمَنَ﴾ أي: هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن اتباعه، وقال مسروق: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا الشاهد اسم جنس، يعم عبد الله بن سلام رضي الله عنه وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وهذه كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ قال مسروق والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم واختاره ابن جرير.

وروى مالك: عن عامر بن سعد عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض، إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: وفيه نزلت: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ رواه البخاري ومسلم والنسائي، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ويوسف بن عبد الله بن سلام وهلال بن يساف والسدي والثوري ومالك بن أنس وابن زيد أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

١١- وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن، لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون: بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً، رضي الله عنهم، وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة، وله بهم عناية، وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً، وأخطأوا خطأً بيناً، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ أي: يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا، ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾.

وأما أهل السنة والجماعة، فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضي الله عنهم هو بدعة، لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير، إلا وقد بادروا إليها. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: كذب قديم، أي: مأثور عن الناس الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ: «بَطر الحق، وغَمْط الناس».

١٢- ثم قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ وهو: التوراة ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني: القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: لما قبله من الكتب ﴿لِّسَاناً عَرَبِيّاً﴾ أي: فصيحاً بيناً واضحاً ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى

﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: مشتمل على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين.

١٣ - وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ تقدم تفسيرها في سورة حم السجدة، وقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلون ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا.

١٤ - ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم، وسبوغها عليهم، والله أعلم.

﴿ ووَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾

١٥ - لما ذكر تعالى في الآية الأولى التوحيد له، وإخلاص العبادة والاستقامة إليه، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن، كقوله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وقال جل جلاله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. وقال عز وجل ههنا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي: أمرناه بالإحسان إليهما، والحنو عليهما.

وروى أبو داود الطيالسي: عن سعد رضي الله عنه قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله تعالى، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ الآية، ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجة بإسناد نحوه وأطول منه.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أي: قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً، من وحم وغثيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بمشقة أيضاً، من الطلق وشدته ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي صحيح، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم (١).

روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر، كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر، كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾.

---

(١) أورد ابن كثير الرواية عن عثمان وفيها: بَعْجة بن عبد الله الجهني، ذكره ابن أبي حاتم في كتابه (٢/ ٤٣٧) ولم يحك فيه شيئاً.
وفي الدر المنثور (١٣/ ٣٢٣) ط هجر، ومصنف عبد الرزاق (١٣٤٤٤) رواية أخرى عن عمر وعلي رضي الله عنهما، وإسنادها صحيح.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: قوي وشب وارتجل ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تناهى عقله، وكمل فهمه وحلمه، ويقال: إنه لا يتغير غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين. عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متى يؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: إذا بلغت الأربعين، فخذ حذرك. وقد قال الحجاج بن عبد الله الحليمي - أحد أمراء بني أمية بدمشق -: تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياءً من الناس، ثم تركتها حياءً من الله عز وجل. وما أحسن قول الشاعر:

صبا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسه   فلما علاهُ قال للباطل: ابعد

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ أي: في المستقبل ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: نسلي وعقبي ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهذا فيه إرشادٌ لمن بلغ الأربعين، أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، ويعزم عليها.

١٦- قال الله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ أي: هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ونتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل، من أصحاب الجنة، أي: هم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله، كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأناب. ولهذا قال تعالى: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

روى ابن أبي حاتم: عن يوسف بن سعد عن محمد بن حاطب قال - ونزل في داري حيث ظهر علي رضي الله عنه على أهل البصرة - فقال لي يوماً: لقد شهدت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه، وعنده عمار وصعصعة والأشتر ومحمد ابن أبي بكر رضي الله عنهم، فذكروا عثمان رضي الله عنه فنالوا منه، فكان علي رضي الله عنه على السرير ومعه عود في يده، فقال قائل منهم: إن عندكم من يفصل بينكم فسألوه، فقال علي رضي الله عنه: كان عثمان رضي الله عنه من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ قال: والله عثمان، وأصحاب عثمان رضي الله عنهم، قالها ثلاثاً. قال يوسف: فقلت لمحمد بن حاطب: آلله لسمعت هذا من علي رضي الله عنه؟ قال: آلله لسمعت هذا من علي رضي الله عنه.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾

١٧- لما ذكر تعالى حال الداعين، البارين بهما، وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء، العاقين للوالدين، فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، فقوله ضعيف، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم

بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه، وإنما هذا عام كل من عق والديه، وكذب بالحق، فقال لوالديه: أف لكما عقهما.

وقد روى البخاري: عن يوسف بن ماهك قال: كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة رضي الله عنها، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ فقالت عائشة رضي الله عنها من وراء الحجاب: ما أنزل الله عز وجل فينا شيئاً من القرآن، إلا أن الله تعالى أنزل عذري.

وقوله: ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أي: أبعث ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ أي: قد مضى الناس، فلم يرجع منهم مخبر ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ أي: يسألان الله فيه أن يهديه، ويقولان لولدهما ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

١٨- قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أي: دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم، من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه، من أنه جنس يعم كل من كان كذلك.

وقال الحسن وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث.

١٩- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أي: لكل عذاب بحسب عمله ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفالاً، ودرجات الجنة تذهب علواً.

وقوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتنزه عنها، ويقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم، وبخهم وقرعهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

وقوله عز وجل: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجوزوا من جنس عملهم، فكما نعموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي، والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المفظعة، أجارنا الله سبحانه وتعالى من ذلك كله.

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾

٢١- يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ، في تكذيب من كذَّبه من قومه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود عليه السلام، بعثه الله عز وجل إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف، جمع حقف وهو: الجبل من الرمل قاله ابن زيد، وقال عكرمة الأحقاف الجبل والغار، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الأحقاف» واد بحضرموت يدعى «بُرهوت» تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذُكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن، أهل رمل مشرفين على البحر، بأرض يقال لها: الشِّحر.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني: وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين، كقوله عز وجل: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ وكقوله جل وعلا ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: قال لهم هود ذلك.

٢٢- فأجابه قومه قائلين ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ أي: لتصدنا عن آلهتنا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله جلت عظمته ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾.

٢٣- ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: الله أعلم بكم، إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب، فسيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ أي: لا تعقلون ولا تفهمون.

٢٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ أي: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارضُ مطر، ففرحوا واستبشروا به، وقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هو العذاب الذي قلتم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

٢٥- ﴿تُدَمِّرُ﴾ أي: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: بإذن الله لها في ذلك، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء البالي. ولهذا قال عز وجل ﴿فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ أي: قد بادوا كلهم عن آخرهم، ولم تبق لهم باقية ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا حكمنا فيمن كذَّب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث في قصتهم، وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده: رواه الإمام أحمد(1).

وروى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: مارأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً، حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم، وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا، رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذِّب قومٌ بالريح، وقد رأى قوم العذاب وقالوا: هذا عارض ممطرنا» وأخرجاه.

(طريق أخرى): روى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا رأى ناشئاً في أفق من آفاق السماء، ترك عمله وإن كان في صلاته، ثم يقول: «اللهم إني أعوذبك من شر ما فيه، فإن

---

(1) المسند (٣/ ٤٨٢) وقد مضى ذكره في تفسير الأعراف (٢/ ٢٠٤، ٢٠٥) وإسناده حسن، فراجعه إن شئت.

كشفه الله تعالى حمد الله عز وجل، وإن أمطرت قال: «اللهم صيِّباً نافعاً».

(طريق أخرى): روى مسلم في صحيحه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح، قال: «اللهم إني أسألك خيرَها، وخيرَ ما فيها، وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشر ما أرسلت به» قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرِّي عنه، فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها فسألته: فقال رسول الله ﷺ: «لعله يا عائشة كما قال قومُ عاد ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾».

وقد ذكرنا قصة هلاك «قوم عاد» في سورة الأعراف وهود، بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله تعالى الحمد والمنة.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾

٢٦- يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا، من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريباً منه، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة **﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به، ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

٢٧- وقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى﴾** يعني: أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضاً، وقوله عز وجل: **﴿وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ﴾** أي: بيناها وأوضحناها **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**.

٢٨- **﴿فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ قُرْبَاناً آلِهَةً﴾** أي: فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم؟ **﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾** أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم **﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾** أي: كذبهم **﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها، والله أعلم.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٢) ﴾

٢٩- روى الإمام أحمد: عن الزبير ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ قال: بنخلة ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ قال سفيان ألبد بعضهم على بعض، كاللبد بعضه على بعض. تفرد به أحمد، وسيأتي من رواية ابن جرير: عن ابن عباس: أنهم سبعة من جن نصيبين.

وروى الإمام أحمد والإمام الشهير الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه «دلائل النبوة». عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق «عكاظ» وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشُّهُب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب! قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة، إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن، رواه البخاري ومسلم.

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشراً، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده، إلا رُمي بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمرٍ قد حدث، فبثَّ جنوده فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض، ورواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننيهما.

وهكذا قال الحسن البصري: إنه ﷺ ما شعر بأمرهم، حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم.

وروى أبو بكر بن أبي شيبة: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، قال: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إلى ﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضي الله عنهما يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً، قوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج، كما ستأتي بذلك الأخبار في موضعها والآثار، مما سنوردها ههنا إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعاً: عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي يقول: سألت مسروقاً: مَنْ آذن النبي ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني ابن مسعود رضي الله عنه -: أنه آذنته بهم شجرة. فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى، ويكون إثباتاً مقدماً على نفي ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يكون في المرة الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم، حتى آذنته بهم الشجرة، أي: أعلمته باجتماعهم، والله أعلم. ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات.

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما ، إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله ، وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم ، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليه القرآن ودعاهم إلى الله عز وجل كما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(ذكر الروايات عنه بذلك)

روى الإمام أحمد : عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه : هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحدٌ؟ فقال : ما صاحبه منا أحدٌ، ولكنَّا فقدناه ذات ليلة بمكة ، فقلنا : اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال : فبتنا بشر ليلةٍ بات بها قوم ، فلما كان في وجه الصبح - أو قال : في السحر - إذا نحن به يجيء من قبل حراء ، فقلنا : يا رسول الله ، فذكروا له الذي كانوا فيه ، فقال : «إنه أتاني داعي الجن ، فأتيتهم فقرأت عليهم» قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، قال : وقال الشعبي سألوه الزاد ، قال عامر : سألوه بمكة ، وكانوا من جن الجزيرة ، فقال : «كل عظمٍ ذُكر اسم الله عليه ، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بَعْرة أو روثة عَلَف لدوابكم ، قال : فلا تستنجوا بهما ، فإنهما زاد إخوانكم من الجن» وهكذا رواه مسلم في صحيحه .

فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصداً ، فتلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وشرع الله تعالى لهم على لسانه ، ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت . وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن ، لم يشعر بهم ، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، ثم بعد ذلك وفدوا إليه ، كما رواه ابن مسعود رضي الله عنه .

وأما ابن مسعود رضي الله عنه فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته الجن ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيداً منه ، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحدٌ سواه ، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة ، هذه طريقة البيهقي . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم ، لم يكن معه ﷺ ابن مسعود رضي الله عنه ولا غيره ، كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد وهي عند مسلم ، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى - والله أعلم - كما روى ابن أبي حاتم في تفسير ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عمر : أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى ، وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين . وتأوله البيهقي على أنه يقول : «فبتنا بشر ليلة بات بها قوم» على غير ابن مسعود رضي الله عنه ، ممن لم يعلم بخروجه ﷺ إلى الجن ، وهو محتمل على بعد ، والله أعلم .

وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي : عن سعيد بن عمرو قال : كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته ، فأدركه يوماً فقال : «من هذا؟» قال : أنا أبو هريرة ، قال ﷺ : «ائتني بأحجار أستنج بها ، ولا تأتني بعظم ولا روثة» فأتيته بأحجار في ثوبي فوضعتها إلى جنبه ، حتى إذا فرغ وقام اتبعته ، فقلت : يا رسول الله ، ما بال العظم والروثة؟ قال ﷺ : «أتاني وفد جن نصيبين ، فسألوني الزاد ، فدعوت الله تعالى لهم أن لا يمروا بروثة ولا عظم ، إلا وجدوه طعاماً» أخرجه البخاري في صحيحه بإسناده قريباً منه ، فهذا يدل - مع ما تقدم - على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك . وسنذكر إن شاء الله تعالى ما يدل على تكرار ذلك . وعن ابن مسعود رضي الله عنه : كانوا تسعة أحدهم زوبعة ، أتوه من أصل نخلة .

ومما يدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه : عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط : إني لأظنه هكذا ، إلا كان كما يظن ، بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس ، إذْ مر به

رجلٌ جميل، فقال: لقد أخطأ ظني أو أنَّ هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم، عليَّ بالرجل، فدُعي له فقال له ذلك، فقال: ما رأيت كاليوم استقبل به رجلٌ مسلم، قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنتُ كاهنهم في الجاهلية، قال: فما أعجب ما جاءتك به جنّيتك؟ قال: بينما أنا يوماً في السوق، جاءتني أعرف فيها الفزع فقالت:

ألم تر الجنَّ وإبلاسَها ويأسها من بعد إنكاسها ولحُوقها بالقلاص وأَحلاسها

قال عمر رضي الله عنه: صدق، بينما أنا نائم عند آلهتهم، إذْ جاء رجل بعجل فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول: يا جليح، أمرٌ نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله، قال: فوثب القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادى: يا جليح، أمرٌ نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله، فقمت، فما نشبنا أن قيل هذا نبي. هذا سياق البخاري.

وقد رواه البيهقي بنحوه: ثم قال: وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر رضي الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذُبح، وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر رضي الله عنه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه، والله أعلم. وهذا الذي قاله البيهقي هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد ابن قارب، وقد ذكرتُ هذا مستقصى في سيرة عمر رضي الله عنه، فمن أراده فليأخذه من ثم، ولله الحمد والمنة.

وقوله تبارك وتعالى: **﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ﴾** أي: طائفة من الجن **﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾** أي: استمعوا، وهذا أدب منهم. وقد روى الحافظ البيهقي: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، ثم قال: «ما لي أراكم سكوتاً؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نُكذِّب، فلك الحمد» ورواه الترمذي في التفسير.

وقوله عز وجل: **﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾** أي: فرغ، كقوله تعالى: **﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾** **﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾** **﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾**. **﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾** أي: رجعوا إلى قومهم، فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله جل وعلا: **﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾** وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نُذُر، وليس فيهم رسلٌ، ولا شك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً، كقوله تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾** وقال عز وجل: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾** وقال عن إبراهيم الخليل عليه السلام: **﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾** فكل نبي بعثه الله تعالى بعد إبراهيم، فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام: **﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾** فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: **﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾** أي: أحدهما.

٣٠- ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم، فقال مخبراً عنهم **﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾** ولم يذكروا عيسى، لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات، وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة، فلهذا قالوا أنزل من بعد موسى، وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه الصلاة والسلام أول مرة، فقال: بخ بخ، هذا

الناموس الذي كان يأتي موسى ، يا ليتني أكون فيها جذعاً .

﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي : من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ، وقولهم ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أي : في الاعتقاد والأخبار ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في الأعمال ، فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب ، فخبره صدق وطلبه عدل كما قال تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ فالهدى : هو العلم النافع ، ودين الحق : هو العمل الصالح ، وهكذا قالت الجن ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ في الاعتقادات ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي : في العمليات .

٣١- ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس ، حيث دعاهم إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ، ووعدهم ووعيدهم ، وهي سورة الرحمن ، ولهذا قال : ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ وقوله تعالى : ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ قيل : إن «من» ههنا زائدة ، وفيه نظر ! لأن زيادتها في الإثبات قليل ، وقيل : إنها على بابها للتبعيض ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي : ويقيكم من عذابه الأليم .

وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة ! وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة . ولهذا قالوا هذا في هذا المقام ، وهو مقام تبجح ومبالغة ، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا ، لأوشك أن يذكروه . والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنس يدخلون الجنة ، كما هو مذهب جماعة من السلف ، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله عز وجل : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ وفي هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة ، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس ، فقالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد ، فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم . وأيضاً : فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار ، وهو مقام عدل ، فلأن يجازى مؤمنهم بالجنة وهو مقام فضل ، بطريق الأولى والأحرى .

ومما يدل أيضاً على ذلك : عموم قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ وما أشبه ذلك من الآيات . وقد أفردت هذه المسئلة في جزء على حدة ، ولله الحمد والمنة .

وهذه الجنة لا يزال فيها فضل ، حتى ينشئ الله تعالى لها خلقاً ، أفلا يسكنها من آمن به وعمل صالحاً ! ! وما ذكروه ههنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب ، والإجارة من العذاب الأليم ، هو يستلزم دخول الجنة ، لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار ، فمن أجير من النار دخل الجنة لا محالة ، ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع ، أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة ، وإن أجيروا من النار ، ولو صح لقلنا به ، والله أعلم .

وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه : ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولا خلاف أن مؤمني قومه في الجنة ، فكذلك هؤلاء .

٣٢ - ثم قال مخبراً عنهم : ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾ أي : بل قدرة الله شاملة له ، ومحيطة به ﴿وَلَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي : لا يجيرهم منه أحد ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب ، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ، ولهذا نجع في كثير منهم ، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً

وفوداً، كما تقدم بيانه، ولله الحمد والمنة، والله أعلم.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾

٣٣- يقول تعالى: أولم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد، أن الله الذي خلق السموات والأرض ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: ولم يكرثه خلقهن، بل قال لها: كوني، فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة، خائفة وجلة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٣٤- ثم قال جل جلاله مهدِّداً ومتوعداً من كفر به ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقال لهم: أما هذا حق؟ ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ أي: لا يسعهم إلا الاعتراف ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

٣٥- ثم قال تبارك وتعالى آمراً رسولهﷺ على تكذيب من كذَّبه من قومه ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا في تعداد أولى العزم على أقوال، وأشهرها أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمدﷺ، قد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرسل، فتكون ﴿مِنَ﴾ في قوله من الرسل لبيان الجنس، والله أعلم.

﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم، كقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ وكقوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ وكقوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

وقوله جل وعلا: ﴿بَلاغٌ﴾ قال ابن جرير: يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لبث بلاغ. والآخر: أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ. وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله عز وجل، أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الأحقاف

****

ترتيبها ٤٧ | سورة محمد ـ مدنية | آياتها ٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣)﴾

١ ـ يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بآيات الله ﴿وَصَدُّوا﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾.

٢ ـ ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم، وبواطنهم وظواهرهم ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان، بعد بعثته ﷺ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة حسنة، ولهذا قال جل جلاله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب.

وقد جاء في حديث تشميت العاطس: «يهديكم الله ويصلح بالكم».

٣ ـ ثم قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ أي: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤنهم، لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أي: اختاروا الباطل على الحق ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه في معادهم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩)﴾

٤ ـ يقول تعالى مرشداً للمؤمنين، إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أهلكتموهم قتلاً ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب، وانفصال المعركة، مخيرون في

أمرهم، إنْ شئتم مَنَنتم عليهم فأطلقتم أُساراهم مجاناً، وإن شئتم فاديتموهم بمالٍ تأخذونه منهم، وتشارطونهم عليه، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، فإن الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ، ليأخذوا منهم الفداء، والتقليل من القتل يومئذ، فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قد ادعى بعض العلماء، أن هذه الآية المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه، منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ الآية، رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقاله قتادة والضحاك والسدي وابن جريج. وقال الآخرون - وهم الأكثرون -: ليست بمنسوخة.

ثم قال بعضهم: إنما الإمام مخير بين المن على الأسير ومفاداته فقط، ولا يجوز له قتله. وقال الآخرون منهم: بل له أن يقتله إن شاء، لحديث قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط من أسارى بدر، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال إن تقتل تَقتل ذا دم، وإنْ تمنن تمنْ على شاكر، وإن كنتَ تُريد المال، فاسأل تعط منه ما شئت. وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال: الإمام مخير بين قتله أو المن عليه، أو مفاداته، أو استرقاقه أيضاً، وهذه المسألة محررة في علم الفروع، وقد دللنا على ذلك في كتابنا الأحكام، ولله سبحانه وتعالى الحمد والمنة.

وقوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وكأنه أخذه من قوله ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق، حتى يقاتل آخرهم الدجال».

وروى الإمام أحمد: عن جبير بن نفيل قال: إن سلمة بن نفيل أخبرهم: أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: إني سيَّبت الخيل، وألقيتُ السلاح، ووضعتِ الحربُ أوزارها، وقلت: لا قتال، فقال له النبي ﷺ: «الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس، يُزيغ الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم، ويرزقهم الله منهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. ألا أن عُقر دار المؤمنين الشامُ، والخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» وهكذا رواه النسائي.

وهذا يقوي القول بعدم النسخ، كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب. وقال قتادة ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: حتى لا يبقى شرك، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ ثم قال بعضهم ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: أوزار المحاربين، وهم المشركون، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل. وقيل: أوزار أهلها، بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله تعالى.

وقوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين، بعقوبة ونكال من عنده، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ولكن شرع لكم الجهاد، وقتال الأعداء، ليختبركم وليبلو أخباركم، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة، في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقال تبارك وتعالى في سورة براءة ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۞ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: لن يذهبها، بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجري عليه عمله طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده: عن المقدام بن معديكرب الكنديرضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ستَ خصال: أن يغفر له في أول دَفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلّى حلَّة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منهُ خيرٌ من الدنيا، وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجةً من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه» وقد أخرجه الترمذي وصححه ابن ماجة.

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن أبي قتادةرضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُغفر للشهيد كل شيء، إلا الدَّين» ورُوي من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جداً.

٥- وقوله تبارك وتعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. وقوله عز وجل: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أي: أمرهم وحالهم.

٦- ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: عرّفهم بها، وهداهم إليها. قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً، وروى مالك عن زيد بن أسلم نحو هذا.

وقال محمد بن كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة.

وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضاً: رواه البخاري: عن أبي سعيد الخدريرضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار، حُبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يَتقاصُّون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا، أُذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده، إنَّ أحدَهم بمنزله في الجنة، أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا».

٧- ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ كقوله عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

٨- ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين، الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ، وقد ثبت في الحديث: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعسَ عَبدُ الدِّينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبدُ القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انتقش» أي: فلا شفاه الله عز وجل.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أحبطها وأبطلها.

٩- ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ أي: لا يريدونه ولا يحبونه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾

١٠- يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعني: المشركين المكذبين لرسوله ﴿فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أي: ونجى المؤمنين من بين أظهرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

١١- ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ ولهذا لما قال أبو سفيان صخر ابن حرب، رئيس المشركين يوم أحد، حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله تعالى لك ما يسوؤك، وإنَّ الذين عددت لأحياء، فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مُثْله لم آمر بها، ولم تسؤني ثم ذهب يرتجز ويقول ثم: اعل هُبل، اعل هُبل، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» فقالوا يا رسول الله، وما نقول: قال ﷺ: قولوا: «الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

١٢- ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ﴾ أي: في دنياهم يتمتعون بها، ويأكلون منها كأكل الأنعام خضماً وقضماً، وليس لهم همة إلا في ذلك. ولهذا ثبت في الصحيح: «المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». ثم قال تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: يوم جزائهم.

١٣- وقوله عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يعني: مكة ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لأهل مكة، في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وهو سيد الرسل، وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى، فإنه رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا، لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: الذين أخرجوك من بين أظهرهم. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: فالتفت إلى مكة وقال: «أنتِ أحبُّ بلادِ الله إلى الله، وأنتِ أحبُّ بلاد اللهِ إليَّ، ولولا أن المشركين أخرجوني، لم أخرجْ منك».

فأعدى الأعداء، من عدا على الله تعالى في حَرَمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بدخول الجاهلية، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ

الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾

١٤- يقول تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: على بصيرة، ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ أي: ليس هذا كهذا، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

١٥- ثم قال عز وجل: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي: نعتها ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتادة: يعني: غير متغير. وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني: غير منتن. والعرب تقول: أَسِنَ الماء، إذا تغير ريحه. روى ابن أبي حاتم: عن عبدالله رضي الله عنه قال: أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ أي: بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة. ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أي: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي: وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح. وروى الإمام أحمد: عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بَحْرُ اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد» رواه الترمذي في صفة الجنة.

وفي الصحيح: إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس، فإنه أوسطُ الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تفجّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن». وروى أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجري في أخدود في الأرض؟! والله إنها لتجري سائحةً على وجه الأرض، حافاتها قباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر. وقد رواه أبو بكر ابن مردويه مرفوعاً[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ كقوله عز وجل: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: مع ذلك كله. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة، كمن هو خالد في النار؟ لي هؤلاء كهؤلاء، وليس من هو في الدرجات، كمن هو في الدركات ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي: حاراً، شديد الحر لا يستطاع ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي: قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء - عياذاً بالله تعالى من ذلك.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾

---

(١) وقد صح مرفوعاً أيضاً، انظر الصحيحة (٢٥١٣).

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)﴾

١٦- يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه، فلا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أي: الساعة، لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له، قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح.

١٧- ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي: والذين قصدوا الهداية، وفقهم الله تعالى لها، فهداهم إليها، وثبتهم عليها، وزادهم منها ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي: ألهمهم رشدهم.

١٨- وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: وهم غافلون عنها ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أمارات اقترابها، كقوله تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ❁ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ وكقوله جلت عظمته: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وقوله جل وعلا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة، لأنه خاتم الرسل، الذي أكمل الله تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يُؤته نبي قبله، كما هو مبسوط في موضعه.

وقال الحسن البصري: بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة، وهو كما قال، ولهذا جاء في أسمائه ﷺ أنه: نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبي.

وروى البخاري: عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا: بالوسطى والتي تليها «بعثت أنا والساعة كهاتين».

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أي: فكيف للكافرين بالتذكر، إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك؟ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

١٩- وقوله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هذا إخبار بأنه: لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه آمراً بعلم ذلك، ولهذا عطف عليه بقوله عز وجل: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفرْ لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي».

وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة: «اللهم اغفر لي ما قدمتُ وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت».

وفي الصحيح أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وروى الإمام أحمد: عن عاصم الأحول قال: سمعت عبد الله بن سَرجس قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فأكلتُ معه من طعامه، فقلت: غفرَ الله لك يا رسول الله، فقال ﷺ: «ولكَ»، فقلت: أستغفرَ لك؟ فقال:

«نعم، ولكم» وقرأ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ثم نظرت إلى نغص كتفه الأيمن - أو كتفه الأيسر، شعبة الذي شك - فإذا هو كهيئة الجمع[1] عليه الثآليل. ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم.

وفي الأثر المروي «قال إبليس: وعزتك وجلالك، لا أزال أُغويهم ما دامت أرواحُهم في أجسادهم»، فقال الله عز وجل: «وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»[2].

والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جدا.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: يعلم تصرفكم في نهاركم، ومستقركم في ليلكم، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا القول ذهب إليه ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في الآخرة، وقال السدي: متقلبكم في الدنيا، ومثواكم في قبوركم. والأول أولى وأظهر، والله أعلم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣)﴾

٢٠- يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين، أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عز وجل عز وجل وأمر به نكل عنه كثير من الناس، كقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

وقال عز وجل ههنا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: مشتملة على حكم القتال، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء.

٢١- ثم قال مشجعاً لهم: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: وكان الأولى بهم، أن يسمعوا ويطيعوا، أي: في الحالة الراهنة ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي: جد الحال، وحضر القتال ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له النية ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

٢٢- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، وتقطعون الأرحام.

---

(١) أي: كجمع الكف، أي: صورتها بعد أن تجمع الأصابع وتضمها.

(٢) حديث حسن، رواه أحمد (٣/ ٢٩) وأبو يعلى (١٣٩٩) من طريقين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٢٣- ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً، وعن قطع الأرحام خصوصاً، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض، وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال، وبذل الأموال، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة، ووجوه كثيرة.

روى البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ تعالى الخلق فلما فرغَ منه قامت الرحِم، فأخذت بحقو الرحمن عز وجل فقال: مه! فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضين أن أصِل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك. قال أبو هريرة رضي الله عنه اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

ثم رواه البخاري من طريقين آخرين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾» ورواه مسلم.

وروى الإمام أحمد: عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يُعجِّل الله تعالى عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البَغي وقطيعة الرحم» ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجة.

وروى الإمام أحمد: عن ثوبان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من سرَّه النَّسأ في الأجل، والزيادة في الرزق، فليصل رحمه» تفرد به أحمد، وله شاهد في الصحيح.

وقال أحمد أيضاً: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي ذوي أرحام، أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكافئهم؟ قال ﷺ: «لا، إذن تُتركون جميعاً، ولكن جُدْ بالفضل وصلهم، فإنه لن يزال معك ظهير من الله عز وجل، ما كنتَ على ذلك» تفرد به أحمد من هذا الوجه، وله شاهد من وجه آخر.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرَّحِم معلقةٌ بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رَحِمه وصَلها» رواه البخاري.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يبلغ به النبي ﷺ قال: «الرَّاحِمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يَرحمكم أهل السماء، والرحم شُجْنةٌ من الرحمن، مَن وصَلها وصلته، ومن قطعها بتته» وقد رواه أبو داود والترمذي.

وروى الإمام أحمد: عن إبراهيم بن عبد الله بن فارض أن أباه حدثه: أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو مريض فقال له عبد الرحمن رضي الله عنه: وصلتك رحمٌ، إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته - أو قال - من بتَّها أبته» تفرد به أحمد من هذا الوجه، ورواه أبو داود والترمذي، والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ

سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

٢٤- يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه.

٢٥- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ أي: فارقوا الإيمان، ورجعوا إلى الكفر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زيَّن لهم ذلك وحسَّنه ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ أي: غرهم وخدعهم.

٢٦- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: مالؤهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: ما يسرون وما يخفون، والله مطلع عليه وعالم به، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾.

٢٧- ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعاصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٢٨- ولهذا قال ههنا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾

٢٩- يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أي: أيعتقد المنافقون، أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين، بل سيوضح أمرهم ويجليه، حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة، فبين فيها فضائحهم، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولهذا كانت تسمى الفاضحة. والأضغان جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله، القائمين بنصره.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول عز وجل: ولو نشاء يا محمد، لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عياناً، ولكن لم يفعل تعالى في جميع المنافقين، ستراً منه على خلقه، وحملاً للأمور على ظاهر السلامة، ورداً للسرائر إلى إلى عالمها ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: فيما يبدو من كلامهم، الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو، بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من ﴿لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة، إلا أبداها الله على صفحات وجهه،

وفلتات لسانه.

٣١- وقوله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ وليس في تقدم علم الله تعالى بما هو كائن سيكون، شكٌّ ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه، ولهذا يقول ابن عباس رضي الله عنهما في مثل هذا «إلا لنعلم» أي: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

٣٢- يخبر تعالى عمن كفر وصدَّ عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى، أنه لن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله، فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله، الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكليه، كما أن الحسنات يذهبن السيئات.

وقد روى الإمام محمد بن نصر المروزي في «كتاب الصلاة»: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى: أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول، حتى نزلت: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش، ونرجو لمن لم يصبها.

٣٣- ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين، بطاعته وطاعة رسوله، التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد، الذي هو مبطلٌ للأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: بالردة.

٣٤- ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الآية.

٣٥- ثم قال جل وعلا لعباده المؤمنين ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن الأعداء ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار، في حال قوتكم، وكثرة عَددكم وعُددكم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: في حال علوكم على عدوكم.

فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك.

وقوله جلت عظمته: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر، والظفر على الأعداء ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً، والله أعلم.

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (٣٨) ﴾

٣٦- يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا، وتهويناً لشأنها ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: حاصلها ذلك، إلا ما كان منها لله عز وجل. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: هو غني عنكم، لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال، مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم.

٣٧- ثم قال جل جلاله: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾ أي: يحوجكم تبخلوا ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال، إخراج الأضغان.

وصدق قتادة، فإنَّ المال محبوب، ولا يُصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ أي: لا يجيب إلى ذلك ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كل ما سواه، وكل شيء فقير إليه دائماً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ أي: بالذات إليه، فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخَلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكون عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾ أي: عن طاعته واتباع شرعه ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: ولكن يكونون سامعين، مطيعين له ولأوامره.

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ قالوا: يا رسول الله، مَن هؤلاء الذين إن تولينا، استبدل بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه، ثم قال: «هذا وقومه، ولو كان الدِّين عند الثريا، لتناوله رجالٌ من الفرس»(١).

آخر تفسير سورة محمد

****

(١) وهو صحيح بطرقه، ورواه الترمذي (٣٤٩٠، ٣٤٩١) وابن ماجة. وانظر الصحيحة (١٠١٧).

ترتيبها ٤٨ — سورة الفتح ـ مدنية — آياتها ٢٩

روى الإمام أحمد: عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره «سورة الفتح» على راحلته، فرجَّع فيها. قال معاوية: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا، لحكيت قراءته، أخرجاه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾

١ ـ نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، فيقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما سيأتي تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله عز وجل هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً، باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية.

وعن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية.

وروى البخاري: عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بئر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا ثم صبَّه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا.

وروى الإمام أحمد: عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات، فلم يرد عليَّ، قال: فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزرت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فحركت بعيري فتقدمت مخافة أن يكون نزل فيَّ شيء، قال: فإذا أنا بمنادٍ ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعتُ وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «نزلت عليَّ البارحة سورة، هي أحب إلي من الدنيا وما فيها: **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ◆ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾**» ورواه البخاري والترمذي والنسائي.

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزلت على النبي ﷺ: **﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾** مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت علي الليلة آية، أحب إلي مما على الأرض» ثم

قرأها عليهم النبيﷺ، فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، لقد بيَّن الله عز وجل ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليهﷺ: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ - حتى بلغ - فَوْزاً عَظِيماً﴾ أخرجاه في الصحيحين. وروى الإمام أحمد: عن المغيرة بن شعبة يقول: كان النبيﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس قد غَفَر اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ فقالﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود، ورواه الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللهﷺ إذا صلى قام حتى تنفطر رجلاه . . . أخرجه مسلم.

فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ أي: بينا ظاهراً، والمراد به: صلح الحديبية، فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.

٢- وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا من خصائصهﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح، في ثواب الأعمال كغيره «غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» وهذا فيه تشريف عظيم لرسول اللهﷺ، وهوﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة، التي لم ينلها بشرٌ سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهوﷺ أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة.

ولما كان أطوع خلق الله تعالى، وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه، قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل» ثم قالﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله، إلا أجبتهم إليها، فلما أطاع الله في ذلك، وأجاب إلى الصلح، قال الله تعالى له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾ أي: بما يشرعه لك من الشرع العظيم، والدين القويم.

٣- ﴿وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ أي: بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل، يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله عز وجل، إلا رفعه الله تعالى»(١).

وعن عمر بن الخطابرضي الله عنه أنه قال: ما عاقبت أحداً عصى الله تعالى فيك، بمثل أن تطيع الله تبارك وتعالى فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴿٧﴾﴾

٤- يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أي: جعل الطمأنينة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما،

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٤/ ٢٠٠١) من حديث أبي هريرةرضي الله عنه.

وعنه: الرحمة، وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين، وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت، زادهم إيماناً مع إيمانهم. وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة، على تفاضل الإيمان في القلوب.

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ولو أرسل عليهم مَلَكاً واحداً، لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة، ولهذا قال جلت عظمته: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

٥- ثم قال عز وجل: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ قد تقدم حديث أنس رضي الله عنه، حين قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح، ويغفر ويستر، ويرحم ويشكر ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾ كقوله جل وعلا: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ الآية.

٦- وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أي: يتهمون الله تعالى في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يقتلوا، ويذهبوا بالكلية. ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾.

٧- ثم قال عز وجل مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء، أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠)﴾

٨- يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ أي: على الخلق ﴿وَمُبَشِّراً﴾ أي: للمؤمنين ﴿وَنَذِيراً﴾ أي: للكافرين. وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب.

٩- ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد: تعظموه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ من التوقير، وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحون الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي: أول النهار وآخره.

١٠- ثم قال عز وجل لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ وكقوله جل وعلا: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ

﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وقد روى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في الحَجَر: «والله ليبعثنه الله عز وجل يوم القيامة، له عينان ينظر بهما، ولسانٌ ينطق به، ويشهد على من استلمه بالحق، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني عنه ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ أي: ثواباً جزيلاً. وهذه البيعة هي بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُر بالحديبية، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ، قيل: ألفاً وثلثمائة، وقيل: وأربعمائة، وقيل: وخمسمائة، والأوسط أصح.

ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

روى البخاري: عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، ورواه مسلم.

وأخرجاه أيضاً عنه قال: كنا يومئذ ألفاً وأربعمائة، ووضع يده في ذلك الماء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، حتى رووا كلهم. وهذا مختصر من سياق آخر، حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهماً من كنانته فوضعوه في بئر الحديبية فجاشت بالماء، حتى كفتهم، فقيل لجابر رضي الله عنه: كم كنتم يومئذ؟ قال: كنا ألفاً وأربعمائة، ولو كنا مائة ألف لكفانا.

وفي رواية في الصحيحين: عن جابر رضي الله عنه: أنهم كانوا خمس عشرة مائة.

وروى البخاري: من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، قلت: فإن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال رحمه الله: وهم، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة. قال البيهقي: هذه الرواية تدل على أنه كان في القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة. والمشهور الذي رواه عنه غير واحد: أربع عشرة مائة. وكذلك هو الذي في رواية سلمة بن الأكوع ومعقل بن يسار والبراء بن عازب رضي الله عنهم. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير، وقد أخرج صاحبا الصحيح: من حديث عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه يقول: كان أصحاب الشجرة ألفاً وأربعمائة، وكانت «أسلم» يومئذ ثمن المهاجرين.

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي ابن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني: عثمان بن عفان رضي الله عنه، تبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته، فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثم أجاره، حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا: لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ

إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قُتل.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال - حين بلغه أن عثمان قد قتل - لا نبرح حتى نُناجز القوم، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفر، فبايع الناس ولم يتخلف أحدٌ من المسلمين حضرها، إلا الجد ابن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر رضي الله عنه يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته، قد ضبأ إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل.

وروى البخاري: عن نافع رضي الله عنه قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر رضي الله عنهما أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر رضي الله عنه يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتي به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة وعمر رضي الله عنه لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله رضي الله عنه ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر رضي الله عنه، وعمر رضي الله عنه يستلئم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يُبايع تحت الشجرة، فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهي الي يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر رضي الله عنهما.

وعن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة فبايعناه، وعمر رضي الله عنه آخذ بيده تحت الشجرة وهي سمرة، وقال: بايعناه على أن لا نفر، ولم نبايعه على الموت، رواه مسلم.

وروى: عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: لقد رأيتني يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على أن لا نفر.

وروى البخاري: عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ثم تنحيتُ، فقال ﷺ: «يا سلمة ألا تبايع؟» قلت: قد بايعت، قال ﷺ: «أقبل فبايع» فدنوتُ فبايعته، قلت: علام بايعته يا سلمة؟ قال على الموت. وأخرجه مسلم.

وكذا روى البخاري: عن عباد بن تميم: أنهم بايعوه على الموت.

وروى البيهقي: عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جباها - يعني الركي - فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت فسقينا واستقينا، قال: ثم أن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة في أصل الشجرة فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع حتى إذا كان في وسط الناس، قال ﷺ: «بايعني يا سلمة» قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك في أول الناس، قال ﷺ: «وأيضاً» قال: ورآني رسول الله ﷺ عزلاً فأعطاني حجفة أو درقة، ثم بايع حتى إذا كان في آخر الناس، قال ﷺ: «ألا تبايع يا سلمة؟» قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك في أول الناس وأوسطهم، قال ﷺ: «وأيضاً» فبايعته الثالثة، فقال رسول الله ﷺ: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التي أعطيتك؟» قال: قلت: يا رسول الله، لقيني عامر عزلاً فأعطيتها إياه، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذي قال الأول: اللهم ابغني حبيباً، هو أحب إلي من نفسي، قال: ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح، حتى مشى بعضنا في بعض فاصطلحنا، قال: وكنت خادماً لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، أسقي فرسه وأحسه وآكل من طعامه،

وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا في بعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها، ثم اضطجعت في أصلها في ظلها، فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى، فعلَّقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك، إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين، قُتل ابن زنيم، فاخترطت سيفي فشددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضغثاً في يدي، ثم قلت: والذي كرم وجه محمد ﷺ، لا يرفع أحد منكم رأسه، إلا ضربت الذي فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله، قال: وجاء عمي عامر برجل من العَبَلات يقال له: مكرز من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ، وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه» فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. وهكذا رواه مسلم بسنده نحوه أو قريباً منه.

وثبت في الصحيحين: عن سعيد بن المسيب قال: كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفي علينا مكانها، فإنْ كان بُيِّنت لكم فأنتم أعلم!

وروى أبو بكر الحميدي: عن جابر رضي الله عنه قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلاً منا يقال له: الجد بن قيس، مختبئاً تحت إبط بعيره، رواه مسلم.

وروى الحميدي أيضاً: عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خيرُ أهلِ الأرض اليوم» قال جابر رضي الله عنه: لو كنتُ أبصر لأريتكم موضع الشجرة، قال سفيان: إنهم اختلفوا في موضعها. أخرجاه.

وروى عبد الله بن أحمد: عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن يصعدُ الثَّنيَّة ثنية المُرار، فإنه يُحطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل» فكان أول من صعد خيل من الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال النبي ﷺ: «كلكم مغفورٌ له إلا صاحب الجمل الأحمر» فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ، فقال: والله لأن أجدَ ضالتي أحبُّ إلي من أن يستغفر لي صاحبكم!! فإذا هو رجل ينشد ضالة، رواه مسلم.

وعن جابر رضي الله عنه قال: أخبرتني أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها: «لا يدخل النارَ - إن شاء الله تعالى - من أصحاب الشَّجرة الذين بايعوا تحتها أحدٌ» قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة رضي الله عنها: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ فقال النبي ﷺ: «قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾» رواه مسلم.

وفيه أيضاً: عن جابر رضي الله عنه قال: إن عبدَ حاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله، ليدخلنَّ حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبتَ، لا يدخلها، فإنه قد شهد بدراً والحديبية».

ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ كما قال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) ﴾

١١ - يقول تعالى مخبراً رسولهﷺ بما يعتذر به المخلَّفون من الأعراب، الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول اللهﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسولﷺ، وذلك قولٌ منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر أحدٌ أن يرد ما أراده الله فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسرائركم وضمائركم، وإن صانعتمونا ونافقتمونا، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

١٢ - ثم قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: هلكى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد، وقال قتادة: فاسدين، وقيل: هي لغة عمان.

١٣ - ثم قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر.

١٤ - ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك، المتصرف في أهل السموات والأرض، فقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: لمن تاب إليه، وأناب وخضع لديه.

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) ﴾

١٥ - يقول تعالى مخبراً عن الأعراب، الذين تخلفوا عن رسول اللهﷺ في عمرة الحديبية، إذْ ذهب النبيﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها، أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء، ومجالدتهم ومصابرتهم، فأمر الله تعالى رسولهﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً، ولهذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ قال مجاهد وقتادة وجويبر: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية. واختاره ابن جرير.

وقال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا

﴿مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر! لأن هذه الآية التي في براءة نزلت في غزوة تبوك، وهي متأخرة عن عمرة الحديبية، وقال ابن جريج ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني: بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: وعد الله أهل الحديبية، قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: أن نشرككم في المغانم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي: ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً (١٦) لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً (١٧) ﴾

١٦- اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال: أحدها: أنهم هوازن، عن سعيد بن جبير وعكرمة، وبه يقول قتادة في رواية عنه. الثاني: ثقيف، قاله الضحاك. الثالث: بنو حنيفة، قاله جويبر، ورواه محمد بن إسحاق عن الزهري، وروي مثله عن سعيد وعكرمة. الرابع: هم أهل فارس، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه يقول عطاء ومجاهد وعكرمة في إحدى الروايات عنه، وقال كعب الأحبار: هم الروم، وعن ابن أبي ليلى وعطاء والحسن وقتادة: هم فارس والروم، وعن مجاهد: هم أهل الأوثان، وعنه أيضاً: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة، وبه يقول ابن جريج، وهو اختيار ابن جرير. وروى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: هم البارزون.

وروي أيضاً: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تُقاتلوا قوماً صغار الأعين، ذُلف الأنوف، كأن وجوههم المجانُّ المُطرَّقة» قال سفيان: هم الترك[1].

وقوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ يعني: شرع لكم جهادكم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم، لكم النصرة عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار. ثم قال عز وجل: ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ أي: تستجيبوا وتنفروا في الجهاد، وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعني: زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

١٧- ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد، فمنها لازم: كالعمى والعرج المستمر، وعارض: كالمرض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه، ملحقٌ بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

ثم قال تبارك وتعالى مرغباً في الجهاد، وطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار، والله تعالى أعلم.

---

(١) الحديث رواه البخاري في مواضع أولها: في الجهاد (٦/ ١٠٤) ومسلم في الفتن (٤/ ٢٢٣٣، ٢٢٣٤) وزادا: «ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نِعالهم الشعر».

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)﴾

١٩- يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت «سمرة» بأرض الحديبية.

روى البخاري: عن طارق بن عبد الرحمن رضي الله عنه قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها، وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم!

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الصدق والوفاء، السمع والطاعة ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وهي: الطمأنينة ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم، من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر، المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العزّ والنصر والرفعة، في الدنيا والآخرة.

١٩- ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)﴾

٢٠- قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي: جميع المغانم إلى اليوم ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: فتح خيبر. وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني: صلح الحديبية ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: لم ينلكم سوءٌ، مما كان أعداؤكم أضمروه لكم، من المحاربة والقتال، وكذلك كفّ أيديَ الناس عنكم - الذين خلفتموهم وراء ظهوركم - عن عيالكم وحريمكم ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء، مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم، أنه العالم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين، وإن كرهوه في الظاهر، كما قال عز وجل: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: بسبب انقيادكم لأمره، واتباعكم طاعته، وموافقتكم رسوله ﷺ.

٢١- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي: وغنيمة أخرى، وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسّرها الله عليكم، وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له، من حيث لا يحتسبون.

وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة: ما المراد بها؟ فقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي خيبر، وهذا على قوله في قوله عز وجل: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أنها: صلح الحديبية، وقاله الضحاك وابن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال قتادة: هي مكة، واختاره ابن جرير، وقال ابن أبي ليلى والحسن البصري: هي فارس والروم، وقال مجاهد: هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة.

وروى أبو داود الطيالسي: عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يقول عز وجل مبشراً لعباده المؤمنين، بأنه لو ناجزهم المشركون، لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفر فاراً مدْبراً، لا يجدون وليّاً ولا نصيراً، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين.

٢٣- ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: هذه سُنّة الله وعادته في خلقه: ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فَيْصلٍ، إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وعددهم، وكثرة المشركين وعددهم.

٢٤- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين، حين كَفَّ أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين، وعافية في الدنيا والآخرة.

وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، حين جاءوا بأولئك السبعين الأسارى، فأوثقوهم بين يدي رسول الله ﷺ فنظر إليهم، فقال: «أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثِنَاه» قال: وفي ذلك أنزل الله عز وجل ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية.

وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم الحديبية، هبطَ على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح، من قِبل جبل التنعيم يريدون غِرَّة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا. قال عفان: فعفا عنهم ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ورواه مسلم وأبو داود في سننه والترمذي والنسائي في التفسير.

وروى أحمد أيضاً: عن عبد الله بن مغفل المدني رضي الله عنهما قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وسهيل بن عمر بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحيم» فأخذ سهيل بيده، وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم! اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: «اكتب باسمك اللهم» وكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ أهل مكة. فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنتَ رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذَ الله تعالى

بأسماعهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: لا، فخلى سبيلهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، رواه النسائي.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾

٢٥- يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب، من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: هم الكفار دون غيرهم ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: وأنتم أحق به، وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي: وصدوا الهدي أن يصل محله، وهذا من بغيهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ أي: بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويُخفيه منهم، خفيةً على أنفسهم من قومهم، لكنا سلطانكم عليهم فقتلتموهم، وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال تعالى: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ﴾ أي: إثم وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يؤخر عقوبتهم ليخلِّص مَن بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: لو تميَّز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي: لسلطناكم عليهم، فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً.

٢٦- وقوله عز وجل: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ ﴿فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ وهي: قول لا إله إلا الله، كما روى ابن جرير وعبد الله بن الإمام أحمد: عن الطفيل يعني: ابن أبي بن كعب عن أبيه رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: «لا إله إلا الله» وكذا رواه الترمذي.

وقال مجاهد ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ الإخلاص، وقال عطاء بن أبي رباح: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي رأس كل تقوى. وقال سعيد بن جبير ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، والجهاد في سبيله، وقال عطاء الخراساني: هي لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقال قتادة ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ كان

---

(١) وهو صحيح بطرقه، ورواه الترمذي (٣٤٩٠، ٣٤٩١) وابن ماجة. وانظر الصحيحة (١٠١٧).

المسلمون أحق بها ، وكانوا أهلها .

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ أي : هو عليم بمن يستحق الخير ، ممن يستحق الشر . وقد روى النسائي : عن أبي بن كعب رضي الله عنه : أنه كان يقرأ ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ولو حميتم كما حموا ، لفسد المسجد الحرام ، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فأغلظ له ، فقال : إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله ﷺ ، فيعلمني مما علمه الله تعالى ، فقال عمر رضي الله عنه : بل أنت رجلٌ عندك علم وقرآن ، فاقرأ وعلِّم مما علمك الله تعالى ورسوله .

(وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح)

روى البخاري رحمه الله في كتاب الشروط من صحيحه : عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدِّق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا : خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه ، فلما أتى ذا الحليفة قلَّد الهدي وأشعره ، وأحرم منها بعمرة ، وبعث عيناً له من خزاعة ، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط ، أتاه عينه فقال : إن قريشاً قد جمعوا لك جموعاً ، وقد جمعوا لك الأحاشيش ، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك ، فقال ﷺ : «أشيروا أيها الناس علي ، أترون أن نميل على عيالهم ، وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت» وفي لفظ : «أترون أن نميل على ذراري هؤلاء الذين أعانوهم ، فإن يأتونا كان الله قد قطع عنقاً من المشركين ، وإلا تركناهم محزونين» . وفي لفظ : «فإنْ قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزونين ، وإنْ نجوا يكن عنقاً قطعها الله عز وجل أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه» .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قَتل أحدٍ ولا حرباً ، فتوجّه له ، فمن صدَّنا عنه قاتلناه ، وفي لفظ : فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله ورسوله أعلم ، إنما جئنا معتمرين ، ولم نجئ لقتال أحد ، ولكن مَن حال بيننا وبين البيت قاتلناه ، فقال النبي ﷺ : «فروِّحوا إذن» وفي لفظ : «فامضوا على اسم الله تعالى» حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي ﷺ : «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين ، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش ، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها ، بركت به راحلته فقال الناس : حل حل ، فألحت فقالوا : خلأَت القصواء ، خلأت القصواء ، فقال النبي ﷺ : «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حَبَسها حابس الفيل ، ثم قال ﷺ : «والذي نفسي بيده ، لا يسألوني خُطة يعظمون فيها حرمات الله تعالى ، إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية ، على ثَمدٍ قليل الماء يتربضه الناس تربضاً ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه ، فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة ، فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العُوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ، فقال النبي ﷺ : «إنا لم نجئ لقتال أحدٍ ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا ، وإنْ هم أبوا ، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا ، حتى تنفرد سَالفتي ، أو لينفذن الله أمره» . قال بديل : سأبلغهم ما تقول ،

فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول: كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خُطةَ رشدٍ فاقبلوها، ودعوني آته، قالوا: ائته.

فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة: عند ذلك: أي محمد، أرأيت إن استأصلت قومك، هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى، فإني والله لأرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس، خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات، أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يدٌ لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، قال: وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف، وعليه المغفر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروة رأسه، وقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، قال: أي، غدر، ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلستُ منه في شيء» ثم إنَّ عروة جعلَ يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخَّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تلكم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ﷺ.

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفَدت على الملوك، وفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إنْ رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إنْ تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عَرض عليكم خُطة رشد فاقبلوها، فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، قال للنبي ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له» فبعثت له واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلِّدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته، فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز، وهو رجلٌ فاجر» فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. وقال معمر: أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل ابن عمرو قال النبي ﷺ: «قد سُهِّل لكم من أمركم». قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات أكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه، وقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهمَّ، كما كنت تكتب، فقال

المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبيﷺ: «اكتب باسمك اللهمَّ» ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صَددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبيﷺ: «والله إني لرسول الله، وإن كذبتموني، اكتب محمد ابن عبد الله» قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألوني خطة يعظِّمون فيها حُرُمات الله تعالى، إلا أعطيتهم إياها» فقال النبيﷺ: «على أنْ تخلو بيننا وبين البيت فنطوف به» فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجلٌ وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه، أن تردّه إليَّ، فقال النبيﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد» قال: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبيﷺ: «فأجزه لي» قال: ما أنا بمجيز ذلك، قال: «بلى فافعل» قال: ما أنا لك بفاعل، قال مكرز: بلى قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله عز وجل. قال عمرؓ: فأتيت نبي اللهﷺ فقلت: ألستَ نبي الله حقاً؟ قالﷺ: «بلى» قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قالﷺ: «بلى» قلت: فلم نُعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قالﷺ: «إني رسول الله، ولستَ أعصيه، وهو ناصري» قلت: أولستَ كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قالﷺ: «بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا، قالﷺ: فإنك آتيه ومطوف به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبابكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق، قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

قال الزهري: قال عمرؓ: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول اللهﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا، ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ، حتى قالﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخلﷺ على أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدَنَك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج رسول اللهﷺ فلم يكلِّم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بيده ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ فطلق عمرؓ يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع النبيﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به، حتى إذا بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمرلهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل، والله، إنه لجيد لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى بَرَد، وفَرَّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل

المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعْراً» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه، مُعسرُ حرب، لو كان معه أحد» فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله عز وجل: **﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾** - حتى بلغ - **﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾** وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت. وهكذا ساقه البخاري ههنا، وقد أخرجه في التفسير، و في عمرة الحديبية، وفي الحج وغير ذلك.

وروى البخاري في التفسير: عن حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: نعم، فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعني الصُّلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين - ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر رضي الله عنه فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال ﷺ: «يا ابن الخطاب، إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً» فرجع متغيظاً، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح. وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع أخر ومسلم والنسائي.

وفي بعض ألفاظه: يا أيها الناس، اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أقدر على أن أردّ على رسول الله ﷺ لرددته، وفي رواية: فنزلت سورة الفتح فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأها عليه.

روى أحمد: عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما خرجت الحرورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي رضي الله عنه: «اكتبْ يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله ﷺ: «امح يا علي، اللهم إنك تعلم أني رسولك، امح يا علي، واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله» والله لرسول الله خير من علي، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يمحاه من النبوة. أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم، ورواه أبو داود.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)﴾

٢٧- كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام: أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية، لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، فلما وقع من قضية

الصلح ، ورجعوا عامهم ذلك ، على أن يعودوا من قابل ، وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء ، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك ، فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ، ونطوف به؟ قال : «بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال : لا ، قال النبي ﷺ : «فإنك آتيه ومُطوف به» وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه حذو القذة بالقذة ، ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده ، وليس هذا من الاستثناء في شيء .

وقوله عز وجل : ﴿آمِنِينَ﴾ أي : في حال دخولكم ، وقوله : ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حال مقدرة ، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين ، وإنما كان هذا في ثاني الحال ، كان منهم من حلق رأسه ، ومنهم من قصَّره ، وثبت في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : «رحِم اللهُ المحلِّقين» قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال ﷺ : «رحِم اللهُ المحلِّقين» قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال ﷺ : «رحِم اللهُ المحلِّقين» قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال ﷺ : «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة في المعنى ، فأثبت لهم الأمن حال الدخول ، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد ، لا يخافون من أحد ، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة ، رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه ، بعضها عنوة وبعضها صلحاً ، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر ، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحدٌ غيرهم ، إلا الذين قدموا من الحبشة : جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وأبو موسى الأشعري وأصحابه رضي الله عنهم ، ولم يغب منهم أحد ، قال ابن زيد : إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه ثم رجع إلى المدينة .

فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع ، خرج ﷺ إلى مكة معتمراً ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذي الحليفة ، وساق معه الهدي ، قيل : كان ستين بدنة ، فلبى وسار أصحابه يلبون ، فلما كان ﷺ قريباً من مرِّ الظَّهران ، بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة ، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها كما شارطهم عليه ، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص ، فقال : يا محمد ، ما عرفناك تنقض العهد ، فقال ﷺ : «وما ذاك؟» قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح ، فقال عليه الصلاة والسلام : «لم يكن ذلك ، وقد بعثنا به إلى يأجج؟» فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء . وخرجت رؤوسُ الكفار من مكة ، لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً ، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان ، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى ، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها ، وهو يقول :

باسم الذي لا دين إلا دينُه ... باسم الذي محمد رسوله ... خلُّوا بني الكفار عن سبيله

اليوم نضربكم على تأويله كما ضربناكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويُذهل الخليل عن خليله قد أنزل الرحمنُ في تنزيله في صحفٍ تُتلى على رسوله
بأن خيرَ القتل في سبيله يا ربّ إني مؤمنٌ بقيله

فهذا مجموع من روايات متفرقه.

روى الإمام أحمد: عن أبي الطفيل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ لما نزل مرَّ الظهران في عمرته بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشاً تقول ما يتباعثون من العجف فقال أصحابه: لو انتحرنا من ظَهْرنا فأكلنا من لحمه وحسونا من مرقه، أصبحنا غداً حين تدخل على القوم وبنا جَمامة، قال ﷺ: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لي من أزوادكم» فجمعوا له وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تولوا، وحشَا كل واحد منهم في جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحِجر، فاضطبع ﷺ بردائه، ثم قال: «لا يرى القوم فيكم غَميزة» فاستلم الركن ثم رمل، حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما يرضون بالمشي، أما إنهم لينقزون نقز الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط فكانت سُنَّة، قال أبو الطفيل: فأخبرني ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع.

وروى أحمد أيضاً: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة وقد وهنتهم حُمَّى يثرب، ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قومٌ قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شراً، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحِجر، فأطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط وأمرهم أن يمشوا بين الركنين، حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها، إلا إبقاءً عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحُمى قد وهنتهم! هؤلاء أجلد من كذا وكذا. أخرجاه في الصحيحين.

وروى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما سعى النبي ﷺ بالبيت، وبالصفا والمروة، ليرى المشركون قوته. ورواه في مواضع أخر ومسلم.

وروى أيضاً: عن ابن أبي أوفى يقول: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم، أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخاري دون مسلم.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾ أي: فعلم الله عز وجل من الخِيرة والمصلحة في صَرفكم عن مكة، ودخولكم إليها عامكم ذلك، ما لم تعلموا أنتم ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل دخولكم الذي وُعدتم بِه في رؤيا النبي ﷺ ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

٢٨- ثم قال تبارك وتعالى مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه، وعلى سائر أهل الأرض ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: بالعلم النافع، والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم وعمل، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعي مقبول، فإخباراتها حق، وإنشاآتها عدل ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على أهل جميع الأديان، من سائر أهل الأرض، من عربٍ وعجم، ومسلمين ومشركين ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ أي: أنه رسوله، وهو ناصره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾

٢٩- يخبر تعالى عن محمدﷺ أنه رسوله حقاً، بلا شك ولا ريب، فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل. ثم ثنَّى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ كما قال عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهذه صفة المؤمنين، أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً برّاً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وقال النبيﷺ: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عُضوٌ، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وقالﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضه بعضاً» وشبَّكﷺ بين أصابعه. كلا الحديثين في الصحيح.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل، ، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم، وهو أكبر من الأول، كما قال جل وعلا: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾.

وقوله جل جلاله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ يعني: السمت الحسن. وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع. وروى ابن أبي حاتم: عن مجاهد: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال: الخشوع، قلت: ما كنتُ أراه إلا هذا الأثر في الوجه، فقال: ربما كان بين عيني مَنْ هو أقسى قلباً من فرعون. وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلاتُه بالليل، حَسُن وجهه بالنهار، وقد أسنده ابن ماجة في سننه، والصحيح أنه موقوف.

وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس. كما روي عن عمر بن الخطابرضي الله عنه أنه قال: مَن أصلح سريرته، أصلح الله تعالى علانيته.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيﷺ قال: «إن الهديَ الصَّالح، والسَّمت الصالح، والاقتصاد جزءٌ من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة، ورواه أبو داود.

فالصحابة رضي الله عنهم خَلُصت نياتهم، وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم

وهديهم. وقال مالك رضي الله عنه: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خيرٌ من الحواريين فيما بلغنا. وصَدقوا في ذلك، فإنَّ هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوّه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة، والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: فراخه ﴿فَآزَرَهُ﴾ أي: شده ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي: شبَّ وطال ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أي: فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطءِ مع الزرع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ ومن هذه الآية، انتزع الإمام مالك رحمة الله عليه – في رواية عنه – بتكفير الروافض، الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك، والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم، والنهي عن التعرض بمساويهم كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿مَّغْفِرَةً﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً، ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولايبدل. وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحدٌ من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل.

روى مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسُبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنَّ أحدكم أنفق مِثل أُحدٍ ذَهَباً، ما أدرك مُدَّ أحدِهم ولا نصيفه».

آخر تفسير سورة الفتح

****

ترتيبها ٤٩ — سورة الحجرات ـ مدنية — آياتها ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) ﴾

١ – هذه آداب أدَّب الله تعالى عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسولﷺ من التوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تُسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور، حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعي: حديث معاذرضي الله عنه حيث قال له النبيﷺ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله تعالى، قالﷺ: «فإن لم تجد؟» قال: بسنة رسول اللهﷺ، قالﷺ: «فإن لم تجد؟» قالرضي الله عنه: أجتهد رأيي، فضرب في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفَّق رسول رسول اللهﷺ لما يرضي رسول اللهﷺ» وقد رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة[1].

فالغرض منه أنه أخَّر رأيه ونظره واجتهاده، إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدَّمه قبل البحث عنهما، لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وقال العوفي عنه: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه، وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول اللهﷺ بشيء، حتى يقضي الله تعالى على لسانه. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله، من شرائع دينكم. وقال سفيان الثوري ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: بقول ولا فعل، وقال الحسن البصري ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: لا تدعوا قبل الإمام. وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون لو أنزل فيَّ كذا وكذا لو صح كذا فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

٢ – وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ هذا أدبٌ ثانٍ أدَّب الله تعالى به المؤمنين، أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبيﷺ فوق صوته، وقد روي أنها نزلت في الشيخين أبي بكر

---

(١) وهو حديث ضعيف، ضعفه البخاري بقوله: لا يصح، ولا يعرف إلا مرسلاً، وقال الترمذي: ليس إسناده عندي بمتصل، وضعفه ابن حزم في الإحكام وغيرهم، وذكره الألباني في الضعيفة (٨٨١).

وعمر رضي الله عنهما. روى البخاري: عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيِّران أن يهلكا؛ أبوبكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس رضي الله عنه أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر[١] قال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، فقال: ما أردتُ خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ قال ابن الزبير رضي الله عنه: فما كان عمر رضي الله عنه يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه - يعني أبا بكر رضي الله عنه. انفرد به البخاري دون مسلم.

وروى البخاري: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله، فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال: كذا وكذا، قال: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: «اذهبْ إليه، فقل له: إنك لستَ من أهل النار، ولكنَّك من أهل الجنة» تفرد به البخاري من هذا الوجه، ورواه مسلم. ورواه الإمام أحمد (وزاد): قال أنس رضي الله عنه: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلمُ أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة، كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت ابن قيس بن شماس وقد تحنَّط ولبس كفنه، فقال: بئسما تُعوِّدون أقرانكم، فقاتلهم حتى قُتل رضي الله عنه.

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين. كذلك فقد نهى الله عز وجل عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه سَمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة، لأوجعتكما ضرباً.

وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام، لأنه محترمٌ حياً وفي قبره ﷺ دائماً، ثم نهى عن الجهر له بالقول، كما كان يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

وقوله عز وجل: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده، خشيةَ أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عملُ مَن أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح: «إن الرجل ليتكلَّم بالكلمةِ من رضوان الله تعالى، لا يُلقي لها بالاً، يُكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض»[٢].

٣- ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده، وحثَّ على ذلك، وأرشد إليه ورغب فيه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أي: أخلصها لها، وجعلها أهلاً ومحلاً ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. وقد روى الإمام أحمد في كتاب الزهد: عن مجاهد: قال:

---

(١) وسماه في الرواية الأخرى عند البخاري بـ: القعقاع بن معبد.

(٢) متفق عليه.

كُتب إلى عمر، يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية، ولا يعمل بها أفضل، أم رجلٌ يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذي يشتهون المعصية، ولا يعملون بها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

٥- ثم إنه تبارك وتعالى ذمَّ الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك.

فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة، في الدنيا والآخرة. ثم قال جل ثناؤه داعياً لهم إلى التوبة والإنابة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه، فيما أورده غير واحد.

روى الإمام أحمد: عن الأقرع بن حابس رضي الله عنه: أنه نادى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد يا محمد، وفي رواية: يا رسول الله، فلم يجبه، فقال: يا رسول الله، إنَّ حَمدي لزين، وإنَّ ذمي لشين، فقال: «ذاك الله عز وجل». ورواه ابن جرير عن البراء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

٦- يأمر تعالى بالتَّثبُّت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يُحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال، لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقَبلها آخرون، لأنا أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق، لأنه مجهول الحال، وقد قررنا هذه المسئلة في كتاب العلم من شرح البخاري، ولله تعالى الحمد والمنة.

وقد ذكر كثير من المفسرين: أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، وقد روي ذلك من طرق، ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق وهو الحارث بن ضرار بن أبي ضرار رضي الله عنه، والد ميمونة بنت الحارث أم المومنين رضي الله عنها يقول: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم، فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي دفعت زكاته، وتُرسل إليَّ يا رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا، ليأتيك بما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبّان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول ولم يأته، وظنَّ الحارث

أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا بسَروات قومه فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقَّت لي وقتاً يُرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سَخْطة ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ ، وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق - أي خاف - فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن الحارث قد منعني الزكاة ، وأراد قتلي ، فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه ، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفَصل عن المدينة ، لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم : إلى مَن بُعثتم؟ قالوا : إليك ، قال : ولم؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله ، قال رضي الله عنه : لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ، ما رأيته بتة ولا أتاني ، فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : «منعتَ الزكاة ، وأردت قتل رسولي؟» قال : لا ، والذي بعثك بالحق ، ما رأيته ولا أتاني ، وما أقبلتُ إلا حين احتبس عليَّ رسول الله ﷺ خشيت أن يكون كانت سَخطة من الله تعالى ورسوله ، قال : فنزلت الحجرات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ورواه ابن أبي حاتم والطبراني .

قال قتادة : فكان رسول الله ﷺ يقول : «التثبت من الله ، والعجلة من الشيطان»[(١)] .

وكذا ذكر غير واحد من السلف ، منهم ابن أبي ليلى ويزيد بن رومان والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم في هذه الآية : أنها نزلت في الوليد بن عقبة ، والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي : اعلموا أن بين أظهركم رسول الله ، فعظموه ووقروه ، وتأدبوا معه ، وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ . ثم بين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم ، فقال : ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي : لو أطاعكم في جميع ما تختارونه ، لأدَّى ذلك إلى عنتكم وحرجكم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي : حبَّبه إلى نفوسكم ، وحسنه في قلوبكم .

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي : وبغَّض إليكم الكفر ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ وهي : الذنوب الكبار ، ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ وهي : جميع المعاصي ، وهذا تدريج لكمال النعمة ؛ وقوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي : المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون ، الذين قد آتاهم الله رشدهم .

روى الإمام أحمد : عن أبي رفاعة الزرقي عن أبيه قال : لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون ، قال رسول

---

(١) قد ثبت الحديث مرفوعاً بلفظ : «التأني من الله ، والعجلة من الشيطان» رواه أبو يعلى (٤٢٥٦) والبيهقي (١٠/ ١٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه ، وهو حديث حسن ، وانظر الصحيحة (١٧٩٥) .

اللهﷺ: «استووا حتى أُثني على ربي عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً، فقالﷺ: «اللهم لك الحمدُ كلُّه، اللهم لا قابض لما بسطتَ، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضلَّ لمن هديت، ولا مُعطيَ لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرِّب لما باعدت، ولا مباعد لما قرَّبت، اللهمَّ ابْسُط علينا من بركاتك ورحمتك، وفضلك ورزقك، اللهم إنِّي أسألك النَّعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إنِّي أسألك النعيم يوم العَيْلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إنِّي عائذٌ بك من شرِّ ما أعطيتنا، ومن شرِّ ما منعتنا، اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتلِ الكفرة الذين يُكذِّبون رُسلك، ويَصُدُّون عن سبيلك، واجعل عليهم رجْزك وعذابك، اللهم قاتلِ الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إلهَ الحق» ورواه النسائي.

وفي الحديث المرفوع: «من سرَّته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن»(١).

ثم قال: ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: هذا العطاء الذي منحكموه، هو فضلٌ منه عليكم، ونعمة من لدنه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾

٩- يقول تعالى آمراً بالإصلاح، بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره، على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم.

وهكذا ثبت في صحيح البخاري: عن أبي بكرةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول اللهﷺ خطب يوماً، ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى، ويقول: «إن ابني هذا سيدٌ، ولعلَّ الله تعالى أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

فكان كما قالﷺ، أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت في الصحيح: عن أنسرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللهﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قالﷺ: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرك إياه».

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٨) والترمذي (٢٢٦٨) من حديث عمررَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأوله: «أوصيكم بأصحابي . . . .».

وروى الإمام أحمد: عن أنس رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة، فلما انطلق النبي ﷺ، قال: «إليك عني، فوالله لقد آذاني ريح حمارك!» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك، قال: فغضب لعبد الله رجالٌ من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضربٌ بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ورواه البخاري في الصلح ومسلم في المغازي.

وقوله عز وجل: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط، وهو العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن عز وجل، بما أقسطوا في الدنيا» ورواه النسائي، وهذا إسناد جيد قوي، رجاله على شرط الصحيح.

وروى أيضاً: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «المُقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابرَ من نور، على يمين العرش، الذين يَعدلون في حُكمهم وأهاليهم وما وَلُوا» ورواه مسلم والنسائي.

١٠- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه». وفي الصحيح: «والله في عون العبد، ما كان العبدُ في عون أخيه».

وفي الصحيح أيضاً: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهرِ الغيب، قال الملك: آمين، ولك بمثله» والأحاديث في هذا كثيرة.

وفي الصحيح: «مَثَل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وفي الصحيح أيضاً: «المؤمن للمؤمن كالبُنيان، يشدُّ بعضه بعضاً» وشبَّك بين أصابعه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعني: الفئتين المقتتلتين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة، لمن اتقاه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) ﴾

١١- ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكبر بطر الحق، وغمص الناس» ويروى: «وغمط الناس». والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه، المحتقر له، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ

﴿عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ فنص على نهي الرجال، وعطف بنهي النساء.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تلمزوا الناس، والهمّاز اللماز من الرجال، مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ والهمز بالفعل، واللمز بالقول، كما قال عز وجل: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أي: يحتقر الناس ويهمزهم، طاغياً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة، وهي اللمز بالمقال، ولهذا قال ههنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل بن حيان ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا تداعوا بالألقاب، وهي التي يسوء الشخص سماعها.

روى الإمام أحمد: عن الشعبي قال: حدثني أبو جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ ورواه أبو داود.

وقوله جل وعلا: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو التنابز بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أي: من هذا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾

١٢ - يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً فليجتنب كثير منه احتياطاً. وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً، وأنت تجد لها في الخير محملاً.

وروى مالك: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً» رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا ولا تدابروا، ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام» ورواه مسلم والترمذي وصححه.

وروى أبو داود: عن زيد رضي الله عنه قال: أتي ابن مسعود رضي الله عنه برجل فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله رضي الله عنه: إنا قد نُهينا عن التجسس، ولكن إنْ يظهر لنا شيء نأخذ به. سمّاه ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنك إن اتبعتَ عورات الناس أفسدتهم، أو كدت تفسدهم» فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كلمة سمعها معاوية رضي الله عنه من رسول الله ﷺ، نفعه الله تعالى بها. رواه أبوداود منفرداً به.

وروى أبو داود أيضاً: عن جبير بن نفير وكثير بن مرة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معديكرب وأبي أمامة رضي الله عنهم: عن النبيﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم».

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: على بعضكم بعضاً، والتجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير، كما قال عز وجل إخباراً عن يعقوب أنه قال ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشر، كما ثبت في الصحيح: أن رسول اللهﷺ قال: «لا تجسسوا ولا تحسسوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

وقال الأوزاعي: التجسس: البحث عن الشيء، والتحسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم، والتدابر: الصَّرم. رواه ابن أبي حاتم عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ فيه نهي عن الغيبة، وقد فسرها الشارع، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قالﷺ: «ذِكْرُكَ أخاك بِمَا يَكره» قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ قالﷺ: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه» ورواه الترمذي وابن جرير. وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما ومسروق وقتادة وأبو إسحاق ومعاوية بن قرة.

وروى أبو داود: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبيﷺ: حَسبك من صفية كذا وكذا، قال غير مسدد: تعني قصيرة، فقالﷺ: «لقد قلتِ كلمةً لو مُزجت بماء البحر لمزجته» قالت: وحكيت له إنساناً، فقالﷺ: «ما أحبُّ أني حكيت إنساناً، وأن لي كذا وكذا» ورواه الترمذي.

وروى ابن جرير: عن حسان بن المخارق: إن امرأة دخلت على عائشة رضي الله عنها، فلما قامت لتخرج، أشارت عائشة رضي الله عنها بيدها إلى النبيﷺ – أي: أنها قصيرة – فقال النبيﷺ: «اغتبتيها».

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحة، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقولهﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له، وبئس أخو العشيرة».

وكقولهﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها، وقد خَطَبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصُعلوك، وأما أبو الجهم فلا يَضع عصاه عن عاتقه» وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال عز وجل: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كما تكرهون هذا طبعاً، فاكرهوا ذاك شرعاً، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها، والتحذير منه، كما قالﷺ في العائد في هبته: «كالكلب يقيء، ثم يرجع في قيئه» وقد قال: «ليس لنا مَثَل السوء».

وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه: أنه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: «إنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ، كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا».

وروى أبو داود: عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ، ماله وعِرْضه ودمه، حَسبُ امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» ورواه الترمذي.

وعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول اللهﷺ: «يا معشر مَن آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه مَن يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومَن يتبع الله عورته يفضحه في

بيته» تفرد به أبو داود، وقد روي من حديث البراء بن عازب.

طريق أخرى: عن ابن عمر: روى أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنه وزاد: قال: ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة، فقال: ما أعظمك، وأعظم حرمتك! وَلَلْمؤمنُ أعظم حرمةً عند الله منك.

وروى أبو داود: عن المستورد: عن النبي ﷺ قال: «مَن أكل برجل مسلم أكلةً، فإن الله يُطعمه مثلها في جهنم، ومن كُسي ثوباً برجل مسلم، فإن الله يكسوه مثله في جهنم؛ ومن قام برجل مقام سمعة ورياء، فإن الله تعالى يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة» تفرد به أبو داود.

وروى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بي مررتُ بقوم لهم أظفار من نُحاسٍ يَخمشون وجوههم وصدورهم» قلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلونَ لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم. تفرد به أبو داود، وهكذا رواه الإمام أحمد.

وروى الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ، فارتفعت ريح جيفةٍ منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريحُ الذين يغتابون الناس».

وقوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه في ذلك، واخشوا منه ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي: تواب على من تاب إليه، رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه. قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته، أن يقلع عن ذلك، ويعزم على أن لا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذي اغتابه.

وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله، فإنه إذا أعلمه بذلك، ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذن أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، لتكون تلك بتلك، كما روى الإمام أحمد: عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «مَن حَمى مؤمناً من منافقٍ يغتابه، بَعث الله تعالى إليه ملكاً يَحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومَن رمى مؤمناً بشيءٍ يريد شَيْنه به، حَبسه الله تعالى على جِسر جهنم، حتى يخرج مما قال» وكذا رواه أبو داود.

وروى أبو داود أيضاً: عن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري رضي الله عنهما يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ما من امرئ يَخذلُ امرءاً مسلماً في موضع تُنتهك فيه حُرمته، ويُنتقص فيه من عِرضه، إلا خَذله الله تعالى في مواطن يحب فيها نُصرته، وما من امرئ يَنصر امرأً مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله عز وجل في مواطن يحب فيها نصرته» تفرد به أبو داود.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾

١٣- يقول تعالى مخبراً للناس: أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوباً، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر، كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك، وقيل المراد بالشعوب: بطون العجم، وبالقبائل بطون العرب، كما أن الأسباط بطون بني إسرائيل، وقد

لخصت هذا في مقدمة مفردة، جمعتها من كتاب الأشباه لأبي عمر بن عبد البر، ومن كتاب (القصد والأمم في معرفة أنساب العرب والعجم) فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسولهﷺ.

ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة، واحتقار بعض الناس بعضاً، منبهاً على تساويهم في البشرية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أي: ليحصل التعارف بينهم، كل يرجع إلى قبيلته، وقال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أي: من قبيلة كذا وكذا، وقال سفيان الثوري: كانت حمير ينتسبون إلى مخاليفها، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها، وقد روى أبو عيسى الترمذي: عن أبي هريرةرضي الله عنه عن النبيﷺ قال: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرَّحم محبةٌ في الأهل، مَثْراةٌ في المال، مَنسأةٌ في الأثَر».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي: إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى، لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول اللهﷺ.

روى البخاري: عن أبي هريرة قال: سُئل رسول اللهﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف، نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» وقد رواه البخاري في غير موضع.

حديث آخر: روى مسلم رحمه الله: عن أبي هريرةرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ورواه ابن ماجة.

حديث آخر: روى الإمام أحمد: عن أبي ذررضي الله عنه قال: إن النبيﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخيرٍ من أحمر ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله» تفرد به أحمد رحمه الله.

حديث آخر: روى أبو بكر البزار في مسنده: عن حذيفةرضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: «كلكم بنو آدم، وآدم خُلق من تراب، ولينتهين قومٌ يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجِعلان».

حديث آخر: روى ابن أبي حاتم: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: طاف رسول اللهﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء، يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخاً في المسجد حتى نزلﷺ على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت، ثم إن رسول اللهﷺ خطبهم على راحلته، فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: «يا أيها الناس، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجلٌ برٌّ تقي كريم على الله تعالى، ورجلٌ فاجرٌ شقيٌّ هين على الله تعالى، إن الله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، ثم قالﷺ: «أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم». هكذا رواه عبد بن حميد.

حديث آخر: روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر رضي الله عنهما قال: إن رسول اللهﷺ قال: «إنَّ أنسابكم هذه ليست بمسبَّةٍ على أحدٍ، كلكم بنو آدم طفُّ الصاع لم يملؤه، ليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ إلا بدين وتقوى، وكفى بالرجل أن يكونَ بذياً بخيلاً فاحشاً». وقد رواه ابن جرير، وليس هو في شيء من الكتب الستة

من هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة، وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى، مذكورة في كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في «كتاب الأحكام» ولله الحمد والمنة.

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾

١٤- يقول تعالى منكراً على الأعراب، الذين أول ما دخلوا في الإسلام، ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقد استفيد من هذه الآية الكريمة، أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه. وروى الإمام أحمد: عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضي الله عنهما قال: أعطى رسول الله ﷺ رجالاً، ولم يعط رجلاً منهم شيئاً فقال سعد رضي الله عنهما: يا رسول الله، أعطيتَ فلاناً وفلاناً وفلاناً، ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن! فقال النبي ﷺ: «أو مسلم؟» حتى أعادها سعد رضي الله عنه ثلاثاً، والنبي ﷺ يقول: «أو مسلم؟» ثم قال النبي ﷺ: «إني لأعطي رجالاً، وأدع من هو أحب إليَّ منهم فلم أعطه شيئاً، مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم» أخرجاه في الصحيحين.

فقد فرق النبي ﷺ بين المؤمن والمسلم، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام، وقد قررنا ذلك بأدلته في أول شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري، ولله الحمد والمنة.

ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً، لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية، ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما وإبراهيم النخعي وقتادة، واختاره ابن جرير.

وإنما قلنا هذا لأن البخاري رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين، يظهرون الإيمان وليسوا كذلك.

وقال قتادة: نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ.

والصحيح الأول: أنهم قومٌ ادَّعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأُدِّبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا، كما ذكر المنافقين في سورة براءة، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئاً، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب.

١٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يَشكُّوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: وبذلوا مهجهم، ونفائس أموالهم، في طاعة الله ورضوانه ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: في قولهم إذا قالوا: إنهم مؤمنون، لا كبعض الأعراب، الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرونه بما في ضمائركم ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: لا يخفى عليه مثقالُ ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

١٧- ثم قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ﴾ يعني: الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ، يقول الله تعالى رداً عليهم ﴿قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ﴾ فإنَّ نفعَ ذلك إنما يعود عليكم، ولله المنة عليكم فيه ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في دعواكم ذلك، كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلاَّلاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ وكنتم عالةً فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن.

وروى الحافظ أبو بكر البزار: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا وقاتلتك العرب، ولم نقاتلك. فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم. ونزلت هذه الآية: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

آخر تفسير سورة الحجرات

****

ترتيبها ٥٠ — سورة ق ـ مكية — آياتها ٤٥

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العوام إنه من **(عم)** فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء رضي الله عنهم المعتبرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل، ما رواه أبو داود في سننه «باب تحزيب القرآن»: عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن جده أوس ابن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قُبة له - قال مسدد: وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف - قال: كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء، يحدثنا - قال أبو سعيد -: قائماً على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام، فأكثر ما يحدثنا ﷺ ما لقي من قومه قريش، ثم يقول ﷺ: «لا سواء كنا مستضعفين مستذلين - قال مسدد بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحربُ سِجالاً بيننا وبينهم، نُدالُ عليهم ويُدالون علينا» فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة! قال ﷺ: «إنه طرأ علي حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمه».

قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يُحزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثَلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة، وحزبُ المفصل وحده. ورواه ابن ماجة والإمام أحمد.

إذا علم هذا، فإذا عددت ثمانياً وأربعين سورة، فالتي بعدهن سورة ق. بيانه ثلاث: البقرة وآل عمران والنساء، وخمس: المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة، وسبعٌ: يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل، وتسع: سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان، وأحد عشرة: الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والم السجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس، وثلاث عشرة: الصافات وص والزمر وغافر وحم السجدة وحم عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات، ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة رضي الله عنهم، فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذي قلناه، ولله الحمد والمنة.

روى الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب: سأل أبا واقدٍ الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف واقتربت. ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة.

حديث آخر: وروى أحمد: عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت **﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾** إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل يوم جمعةٍ على المنبر، إذا خطب الناس. رواه مسلم.

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار، كالعيد والجُمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ (٥) ﴾

١ - ﴿ق﴾ حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، كقوله تعالى: ﴿ص﴾ و﴿ن﴾ و﴿الم﴾ و﴿حم﴾ و﴿طس﴾ ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره، وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته. وقد روي عن بعض السلف أنهم قالوا: ق جبلٌ محيط بجميع الأرض، يقال له: جبل قاف! وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل، التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم، مما لا يصدق ولا يكذب، وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبّسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قِدم، فكيف بأمة بني إسرائيل، مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول، ويحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل، والله أعلم.

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم - ولله الحمد والمنة - حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي رحمة الله عليه، أورد ههنا أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أي: الكريم العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ واختلفوا في جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة: أنه قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ وفي هذا نظر! بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن، كما تقدم في قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۞ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾

٢ - ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر، كقوله جل وعلا: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ أي: وليس هذا بعجيب، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

٣- ثم قال عز وجل مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد، واستبعادهم لوقوعه ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: يقولون: أئذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟! ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: بعيد الوقوع، والمعنى أنهم يعتقدون استحالته، وعدم إمكانه.

٤- قال الله تعالى راداً عليهم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك، ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت، وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة. قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم.

٥- ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم، واستبعادهم ما ليس ببعيد، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل، والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۞ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾

٦- يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة، التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي: بالمصابيح ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ قال مجاهد: يعني من شقوق، وقال غيره: فتوق، وقال غيره: صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تبارك تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل عن أن يرى عيباً أو نقصاً.

٧- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: وسعناها وفرشناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهي الجبال، لئلا تميد بأهلها وتضطرب، فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أي: حسن المنظر.

٨- ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: ومشاهدة خلق السموات والأرض، وما جعل فيها من الآيات العظيمة، تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أي: خاضع خائف وجل، رجَّاع إلى الله عز وجل.

٩- وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي: نافعاً ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أي: حدائق من بساتين ونحوها ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو الزرع الذي يراد لحبه وادخاره.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي: طوال شاهقات. قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وغيرهم: الباسقات الطوال ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي: منضود.

١٠ - ﴿رِزْقاً لِّلْعِبَادِ﴾ أي : للخلق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس، أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾

١٢، ١٣ - يقول تعالى متهدداً لكفار قريش، بما أحلَّه بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا، كقوم نوح وما عذَّبهم الله تعالى به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس، وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان: ﴿وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ وهم أمته الذي بعث إليهم من أهل سدوم، ومعاملتها من الغرور، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة، بكفرهم وطغيانهم، ومخالفتهم الحق.

١٤ - ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو اليماني، وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان ما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والشكر.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي: كل من هذه الأمم، وهؤلاء القرون، كذبت رسولهم، ومن كذَّب رسولاً، فكأنما كذَّب جميع الرسل، كقوله جل وعلا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: حق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب، من العذاب والنكال، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم قد كذَّبوا رسولهم كما كذب أولئك.

١٥ - وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ أي: أفأعجزنا ابتداء الخلق، حتى هم في شك من الإعادة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل منه، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقال الله جل جلاله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. وقد تقدم في الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته»[1].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٦/ ٢٨٧) وفي التفسير (٨/ ٧٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾

١٦- يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان، بأنه خالقه، وعلمه محيطٌ بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر، وقد ثبت في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدَّثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل». وقوله عز وجل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم، فإنما فرَّ لئلا يلزم حُلولٌ أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ يعني: ملائكته، وكما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فالملائكة نزلت بالذكر، وهو القرآن بإذن الله عز وجل، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، باقتدار الله جل وعلا لهم على ذلك، فللْمَلَك لَـمَّة من الإنسان، كما أن للشيطان لمة، وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق.

١٧- ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: مترصد ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أي: ابن آدم ﴿مِن قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: إلا ولها من يرقبها، معد لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وقد اختلف العلماء: هل يكتب المَلَك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب، كما هو قول ابن عباس رضي الله عنهما؟ على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقد روى الإمام أحمد: عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، ما يظنُّ أن تبلغَ ما بلغت، يكتبُ الله عز وجل بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله تعالى، ما يظنُّ أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه» قال: فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة، وله شاهد في الصحيح.

وقال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمين على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها، رواه ابن أبي حاتم.

وقال الحسن البصري وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ يا ابن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخرعن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا متَّ طويت صحيفتك،

وجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً ❁ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ ثم يقول: عَدَل والله فيك، من جعلك حسيب نفسك.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يُكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله أكلت شربت، ذهبت جئت رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس، عُرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقى سائره، وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾. وذكر عن الإمام أحمد: أنه كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتبُ المَلَك كلَّ شيء حتى الأنين، فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله.

١٩ - وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ يقول عز وجل: وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق، أي: كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: هذا هو الذي كنتَ تفرُّ منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

وقد اختلف المفسرون في المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو، وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك.

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا: عن البهي قال: لما ثقل أبو بكر رضي الله عنه، جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثَّلت بهذا البيت:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فكشف عن وجهه وقال رضي الله عنه: ليسَ كذلك، ولكن قولي ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وقد أوردت لهذا الأثر طرقاً كثيرة في سيرة الصديق رضي الله عنه عند ذكر وفاته.

وقد ثبت في الصحيح: عن النبي ﷺ أنه لما تغشاه الموت، جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله إن للموت لسكرات».

وفي قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ قولان: أحدهما: أن «ما» ههنا موصولة، أي: الذي كنت منه تحيد، بمعنى تبتعد وتتناءى وتفرّ، قد حلَّ بك ونزل بساحتك.

والقول الثاني: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه، ولا الحيد عنه.

٢٠ - وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ قد تقدم الكلام على حديث النفخ في الصور، والفزع والصعق والبعث وذلك يوم القيامة. وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أَنعم؟! وَصَاحبُ القَرن قد التقم القرن، وحَنى جبهته، وانتظر أن يُؤذن له» قالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال ﷺ: «قولوا: حَسبُنا اللهُ ونِعمَ الْوكِيل» فقال القوم: حَسبُنا اللهُ ونِعمَ الْوكِيل.

٢١ - ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله، هذا هو الظاهر من الآية الكريمة، وهو اختيار ابن جرير. ثم روى عن يحيى بن رافع مولى لثقيف قال: سمعت عثمان بن عفان رضي الله عنه يخطب فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فقال: سائق يسوقها إلى الله تعالى، وشاهد يَشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد. (وروى) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال

السائق الملك والشهيد والعمل. وكذا قال الضحاك والسدي. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: السائق من الملائكة، والشهيد الإنسان نفسه يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضاً.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أحدها: أن المراد بذلك الكافر، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان. والثاني: أن المراد بذلك كل أحد، من بر وفاجر، لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة، والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس، والثالث: أن المخاطب بذلك النبي ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم وابنه، والمعنى على قولهما: لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد.

والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يعني: من هذا اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قوي، لأن كلَّ أحد يوم القيامة يكون مستبصراً، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) ﴾

٢٣- يقول تعالى مخبراً عن المَلَك الموكَّل بعمل ابن آدم، أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: معتد محضر، بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق، يقول: هذا ابن آدم الذي وكَّلتني به قد أحضرته، وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة.

٢٤- فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل، فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وقد اختلف النُّحاة في قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ فقال بعضهم: هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية.

وقيل: بل هي نون التأكيد، سهلت إلى الألف، وهذا بعيد، لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرضه الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم، وبئس المصير ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحق، معارض له بالباطل، مع علمه بذلك.

٢٥- ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا برَّ فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: معتد في منطقه وسيره وأمره ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاك في أمره، مريب لمن نظر في أمره.

٢٦- ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي: أشرك بالله، فعبدَ معه غيره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ وقد

تقدم في الحديث: «أن عُنُقاً من النار يَبرز للخلائق، فينادى بصوتٍ يسمع الخلائق: إني وُكلت بثلاثة: بكل جبَّار عنيد، وَمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين ثم تنطوى عليهم»(١).

٢٧- ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وغيرهم: هو الشيطانُ الذي وكل به ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي: يقول عن الإنسان قد وَافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي: ما أضللته ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل، معانداً للحق، كما أخبر سبحانه وتعالى في الآية الأخرى، في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وعدَكمْ وعْدَ الحقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ و ما كانَ لِيَ عليكمْ من سُلطانٍ إلاَّ أن دَعَوتُكُمْ فاسْتَجَبْتُمْ لي فلا تلُومُوني و لُومُوا أنفسكم ما أنا بمُصرِخكمْ و ما أنتمْ بمُصرِخيَّ إنِّي كَفَرْتُ بما أشرَكتُمونِ مِن قبلُ إنَّ الظالِمِينَ لهمْ عذابٌ أليمٌ﴾.

٢٨- وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ﴾ يقول الرب عز وجل للإنسي وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى، فيقول الإنسي: يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: عن منهج الحق فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ﴾ أي: عندي ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ قال مجاهد: يعني: قد قضيت ما أنا قاض ﴿وَمَآ أَنَا بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لستُ أعذِّبُ أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴾

٣٠- يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك لأنه تبارك وتعالى وعدها أن سيملؤها من الجِنّة والناس أجمعين، فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهي تقول ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث. روى البخاري عند تفسير هذه الآية: عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُلقى في النار، وتقول: هل مِن مزيد؟ حتى يَضَع قَدَمه فيها فتقول قط قط».

وروى الإمام أحمد: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع ربُّ العزة قدَمه فيها، فينزوي بعضُها إلى بعض وتقول: قط قط، وعزّتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضلٌ، حتى يُنشئُ اللهُ لها خَلقاً آخر، فيسكنهم الله تعالى في فُضول الجنة» ثم رواه مسلم.

طريق أخرى: روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجَّت الجنةُ والنار، فقالت النار: أورثتُ بالمُتكبرين والمتجبِّرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاءُ الناس وسقطهم، قال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك مَن أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذِّبُ بك مَن أشاء

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي (٢٧١٣) وأحمد (٢/ ٣٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من عبادي، ولكل واحدةٍ منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضعُ رجله فيها، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ، وينزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خَلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله عز وجل يُنشئ لها خلقاً آخر» (ورواه مسلم بنحوه عن أبي سعيد رضي الله عنه). وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وعن عكرمة ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ وهل فيَّ مدخل واحد، قد امتلأت، وعن يزيد بن أبي مريم أنه سمع مجاهداً يقول: لا يزال يُقذف فيها حتى تقول: قد امتلأت، فتقول: هل فيَّ من مزيد، وعن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم نحو هذا. فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلِ امْتَلأْتِ﴾ إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه، فتنزوي وتقول حينئذ: هل بقي فيَّ مزيد يسع شيئاً؟ قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة، والله أعلم.

٣١- وقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قال قتادة وأبو مالك والسدي ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أدنيت وقربت من المتقين ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد، لأنه واقعٌ لا محالة، وكل ما هو آتٍ قريب.

٣٢- ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي: رجَّاع تائب مُقلع ﴿حَفِيظٍ﴾ أي: يحفظ العهد، فلا ينقضه ولا ينكثه، وقال عبيد بن عمير: الأوَّاب الحفيظ: الذي لا يجلس مجلساً فيقوم، حتى يستغفر الله عز وجل.

٣٣- ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: من خاف الله في سره، حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل، كقوله ﷺ: «ورجلٌ ذكَرَ الله تعالى خالياً، ففاضت عيناه».

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: ولقي الله عز وجل يوم القيامة، بقلب منيب سليم إليه، خاضع لديه.

٣٤- ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أي: الجنة ﴿بِسَلَامٍ﴾ قال قتادة: سلموا من عذاب الله عز وجل، وسلَّم عليهم ملائكة الله. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي: يخلدون في الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبغون عنها حولاً.

٣٥- وقوله جلت عظمته: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي: مهما اختاروا وجدوا، من أي أصناف الملاذ طلبوا، أُحضر لهم. وروى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمنُ الولد في الجنة، كان حمله ووَضعه وسِنُّه في ساعةٍ واحدة» ورواه الترمذي وابن ماجة، وزاد الترمذي: «كما اشتهى».

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ وقد تقدم في صحيح مسلم: عن صهيب بن سنان الرومي: أنها النظر إلى وجه الله الكريم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

٣٦- يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن

مَّحِيصٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أثروا فيها. وقال مجاهد ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ خرَّبوا في الأرض.

وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي: ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب، أكثر مما تخاطفتم أنتم بها. ويقال لمن طوف في البلاد: نقَّب فيها، قال امرؤ القيس:

لقد نقَّبت في الآفاق حتى رضيتُ من الغنيمة بالإياب

وقوله تعالى: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه، ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم، ولا محيد ولا مناص ولا محيص.

٣٧- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي: لعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: لبٌّ يعي به، وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بعقله، وتفهمه بلبه، وقال مجاهد ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ يعني: لا يحدث نفسه في هذا بغيره، وقال الضحاك: العرب تقول ألقى فلان سمعه، إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب. وهكذا قال الثوري وغير واحد.

٣٨- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ فيه تقرير للمعاد لأن مَن قَدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادرٌ على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى، وقال قتادة: قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع! وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي: من إعياء ولا تعب ولا نصب، كما قال تبارك وتعالى في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾.

٣٩- وقوله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعني: المكذبين، اصبر عليهم، واهجرهم هجراً جميلاً ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتان: قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر؛ وقيام الليل كان واجباً على النبيﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وقد روى الإمام أحمد: عن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا جلوساً عند النبيﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستُعرضون على ربكم، فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا» ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة.

٤٠- وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: فَصَلِّ له، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: هو التسبيح بعد الصلاة. ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرةرضي الله عنه أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال النبيﷺ: «وما

ذاك؟» قالوا: يصلون كما نُصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، قال ﷺ: «أفلا أعلِّمكم شيئاً إذا فعلتموه سَبَقتم من بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضل منكم، إلا مَنْ فعل مثل ما فعلتم؟ تُسبحون وتحمدون وتكبرون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال ﷺ: «ذَلكَ فَضل الله يؤتيه من يشاء».

والقول الثاني: أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ هما الركعتان بعد المغرب، وروي ذلك عن عمر وعلي وابنه الحسن وابن عباس وأبي هريرة وأبي أمامة رضي الله عنهم، وبه يقول مجاهد وعكرمة والشعبي والنخعي والحسن وقتادة وغيرهم.

روى الإمام أحمد: عن علي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين، إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة، ورواه أبو داود والنسائي.

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ من مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾

٤١- يقول تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

٤٢- ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: النفخة في الصور، التي تأتي بالحق، الذي كان أكثرهم فيه يمترون ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي: من الأجداث ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي: هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازي كلاً بعمله، إنْ خيراً فخير، وإن شرا فشر.

٤٤- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً﴾ وذلك أن الله عز وجل ينزل مطراً من السماء، يُنبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها، كما ينبت الحبَّ في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد، أمرَ الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور، وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي، لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ، وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله عز وجل ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وفي صحيح مسلم: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشقُّ عنه الأرض».

وقوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: تلك إعادةٌ سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال جل جلاله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

٤٥- وقوله جل وعلا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: نحن علمنا محيطٌ بما يقول لك المشركون من التكذيب، فلا يهولنك ذلك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ◆ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كُلِّفت به، وقال مجاهد وقتادة والضحاك ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: لا تتجبر عليهم. والقول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه، لقال ولا تكن جباراً عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان، إنما أنت مبلغ. قال الفراء: سمعت العرب تقول: جبر فلان فلاناً على كذا، بمعنى أجبره.

ثم قال عز وجل: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده، ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ وقوله جل جلاله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ◆ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار يا رحيم.

آخر تفسير سورة ق

****

ترتيبها ٥١ | سورة الذاريات ـ مكية | آياتها ٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ② فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ④ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ⑥ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ⑦ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ⑧ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ⑨ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ⑩ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ⑪ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ⑫ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ⑬ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ⑭﴾

١ - ٤- ثبت من غير وجه: عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى، ولا عن سنة رسول الله ﷺ، إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾؟ قال علي رضي الله عنه: الريح، قال ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾؟ قال رضي الله عنه: السحاب، قال ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾؟ قال رضي الله عنه: السفن، قال ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾؟ قال رضي الله عنه: الملائكة.

وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد، ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك. وقد قيل: إن المراد بالذاريات الريح كما تقدم، وبالحاملات وقرا السحاب كما تقدم، لأنها تحمل الماء.

فأما ﴿الْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ فالمشهور عن الجمهور كما تقدم، أنها السفن تجري ميسرة في الماء، جرياً سهلاً. وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك تقريباً من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمراً الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية.

٥، ٦- وهذا قسمٌ من الله عز وجل على وقوع المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ أي: لخبر صدق ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ وهو الحساب ﴿لَوَاقِعٌ﴾ أي: لكائن لا محالة.

٧- ثم قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذات الجمال والبهاء، والحُسن والاستواء. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو صالح والسدي وقتادة وعطية العوفي والربيع بن أنس وغيرهم، وقال الضحاك والمنهال بن عمرو وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضاً، طرائق طرائق، فذلك الحبك.

روى ابن جرير: عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ من ورائكم الكذاب المضل، وإن رأسه من ورائه حُبكاً حُبكاً». يعني بالحبك: الجعودة.

وعن أبي صالح ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ الشدة. وقال خصيف: ذات الصفاقة، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: حبكت بالنجوم.

وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة، صفيقة شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي: إنكم المشركون المكذبون للرسل، لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع. وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف، ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به.

٩- ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: إنما يروج على من هو ضال في نفسه، لأنه قول باطل، إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه، من هو مأفوكٌ ضال غمر، لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: يؤفن عنه من أفن، وقال الحسن البصري: يصرف عن هذا القرآن من كذَّب به.

١٠- وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ قال مجاهد: الكذابون، قال: وهي مثل التي في عبس ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ والخراصون الذين يقولون: لا نبعث، ولا يوقنون. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أي: لعن المرتابون. وهكذا كان معاذ رضي الله عنه يقول في خطبته: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون.

١١- وقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغير واحد: في الكفر والشك، غافلون لاهون.

١٢- ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً، وشكاً واستبعاداً.

١٣- قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾. قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد: يفتنون: يعذبون كما يفتن الذهب على النار، وقال جماعة آخرون، كمجاهد أيضاً وعكرمة وإبراهيم النخعي وزيد بن أسلم وسفيان الثوري: يفتنون: يحرقون.

١٤- ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وتحقيراً وتصغيراً، والله أعلم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾

١٥- يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله عز وجل، أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه، من العذاب والنكال، والحريق والأغلال.

١٦- وقوله تعالى: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قال ابن جرير: أي: عاملين بما آتاهم الله من الفرائض

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: قبل أن يفرض عليهم الفرائض، كانوا محسنين في الأعمال أيضاً.

والذي فسره ابن جرير فيه نظر! لأن قوله تبارك وتعالى: ﴿آخِذِينَ﴾ حال من قوله ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذين ما آتاهم ربهم، أي: من النعيم والسرور والغبطة، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ كقوله جل جلاله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

١٧- ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال جل وعلا: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ اختلف المفسرون في ذلك على قولين: أحدهما أن «ما» نافية تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم تكن تمضي عليهم ليلة، إلا يأخذون منها ولو شيئاً. وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة لا تأتي عليهم، إلا يصلون فيها لله عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك رضي الله عنه وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقر: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

والقول الثاني: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم، واختاره ابن جرير. وقال الحسن البصري: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة، صفةٌ لا أجدها فينا، ذكر الله تعالى قوماً فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم، فقال له أبي رضي الله عنه: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ.

وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيتُ وجهه ﷺ عرفتُ أن وجهه ليس بوجه رجلٍ كذاب، فكان أول ما سمعته ﷺ يقول: «يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»(١).

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّةِ غُرَفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها» فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لمن هي يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائماً، والناس نيام».

١٨- وقوله عز وجل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخَّروا الاستغفار إلى الأسحار، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الله تعالى ينزلُ كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائبٍ فأتوب عليه، هل من مستغفرٍ فأغفر له، هل من سائل فيعطى سوله؟ حتى يطلع الفجر».

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قالوا: أخَّرهم إلى وقت السحر.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ٤٥١) والترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجة (١٣٣٤) وغيرهم.

١٩- وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ لما وصفهم بالصلاة، ثنّى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ أي: جزءٌ مقسوم، قد أفرزوه للسائل والمحروم. أما السائل فمعروف، وهو الذي يبتدئ بالسؤال وله حق. وأما المحروم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد: هو المحارف، الذي ليس له في الإسلام سهم، يعني: لا سهم له في بيت المال، ولا كسب له ولا حِرفة يتقوت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال الضحاك: هو الذي لا يكون له مال، إلا ذهب، قضى الله تعالى ذلك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي ونافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما وعطاء بن أبي رباح: المحروم المحارف. وقال قتادة والزهري: المحروم الذي لا يسأل الناس شيئاً.

قال الزهري: وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطوّاف، الذي تردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غِنًى يغنيه، ولا يُفطن له فيتصدق عليه» وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما.

واختار ابن جرير: أن المحروم الذي لا مال له، بأي سببٍ كان قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هَلَك ماله أو نحوه بآفة أو نحوها.

٢٠- وقوله عز وجل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها، وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم، في المحل الذي هو محتاج إليه فيه.

٢١- ولهذا قال عز وجل: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة: من تفكَّر في خلق نفسه، عَرف أنه إنما خُلق ولينت مفاصله للعبادة.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعني: المطر ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني: الجنة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وغير واحد.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة، أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائنٌ لا محالة، وهو حقٌّ لا مرية فيه، فلا تشكُّوا فيه، كما لا تشكُّوا في نُطقكم حين تنطقون، وكان معاذ رضي الله عنه: إذا حدَّث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحقٌّ كما أنك ههنا.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ

---

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ٤٥١) والترمذي (٢٤٨٥) وابن ماجة (١٣٣٤) وغيرهم.

عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)﴾

٢٤- هذه القصة قد تقدمت في سورة هود والحجر أيضاً، فقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ أي: الذين أرصد لهم الكرامة، وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ الرفع أقوى وأثبت من النصب، فردُّه أفضل من التسليم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ فالخليل اختار الأفضل، وقوله تعالى: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل - قدموا عليه في صورة شبان حسان، عليهم مهابة عظيمة، ولهذا قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

٢٦- وقوله عز وجل: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي: انسل خفية في سرعة ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أي: من خيار ماله، وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: مشوي على الرضف.

٢٧- ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أدناه منهم ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تلطف في العبارة، وعرضٌ حسن، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً فقال: نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقرَّبه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغةِ الجزم، بل قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل.

٢٨- وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ هذا محال على ما تقدم في القصة في السورة الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿فلمَّا رَأى أيديَهم لا تَصِلُ إليهمْ نكرَهمْ و أوجَسَ منهم خيفةً قَالُوا لا تَخفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ أي: استبشرت بهلاكهم، لتمردهم وعتوهم على الله تعالى، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ فالبشارة له، هي بشارة لها، لأن الولد منها فكل منهما بشر به.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أي: في صرخة عظيمة ورنَّة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد وعكرمة وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم والثوري والسدي، وهي قولها ﴿يَا وَيْلَتَا﴾. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: ضربت بيدها على جبينها، قاله مجاهد وابن سابط، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لطمت، أي تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: كيف ألد وأنا عجوز، وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل؟

٣٠- ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم في أقواله وأفعاله.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا

فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾

٣١- قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه السلام ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ۝ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ وقال ههنا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: ما شأنكم، وفيم جئتم؟

٣٢- ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط.

٣٣، ٣٤- ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً﴾ أي: معلَّمة ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجَر عليه اسم صاحبه، فقال في سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

٣٥- وقال تعالى ههنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم لوط وأهل بيته، إلا امرأته.

٣٦- ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ احتج بهذه من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين، وهذا الاستدلال ضعيف، لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم، ولا ينعكس، فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال.

٣٧- وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: جعلناها عبرة، بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال، وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

٣٨- يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بدليل باهر، وحجة قاطعة.

٣٩- ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أي: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين، استكباراً وعناداً، وقال مجاهد: تعزز بأصحابه، وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه، وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ أي: بجموعه التي معه، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ والمعنى الأول قوي، كقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: معرض عن الحق مستكبر ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: لا يخلو أمرك فيما جئتني به، من أن تكون ساحراً، أو مجنوناً.

٤٠- قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ أي: ألقيناهم ﴿فِي الْيَمِّ﴾ وهو البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: وهو ملوم كافر، جاحد فاجر معاند.

٤١- ثم قال عز وجل: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: المفسدة التي لا تنتج شيئاً. قاله

الضحاك وقتادة وغيرهما.

٤٢- ولهذا قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: مما تفسده الريح ﴿إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهالك البالي.

وقد ثبت في الصحيح: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرت بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدبور».

٤٣، ٤٤- ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ﴾ قال ابن جرير: يعني إلى وقت فناء آجالكم، والظاهر أن هذه كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ۞ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام، فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار.

٤٥- ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي: من هرب ولا نهوض ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه.

٤٦- وقوله عز وجل: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح، من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطة، في أماكن كثيرة من سور متعددة، والله تعالى أعلم.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾

٤٧- يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوي والسفلي ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ﴿بِأَيْدٍ﴾ أي: بقوة. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: قد وسَّعنا أرجاءها، ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي.

٤٨- ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: جعلناها فراشاً للمخلوقات ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي: وجعلناها مهداً لأهلها.

٤٩- ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: جميع المخلوقات أزواج، سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له.

٥٠- ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: الجأوا إليه، واعتمدوا في أموركم عليه ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

٥١- ﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ أي: لا تشركوا به شيئاً ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)﴾

٥٢- يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ، وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذبون الأولون لرسلهم ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

٥٣- قال الله عز وجل: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم.

٥٤- قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: فأعرض عنهم يا محمد ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني: فما نلومك على ذلك.

٥٥- ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنما ينتفع بها القلوب المؤمنة.

٥٦- ثم قال جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا ليقروا بعبادتي، طوعاً أو كرهاً، وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن جريج: إلا ليعرفون. وقال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون.

٥٧- وقوله تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أقرأني رسول الله ﷺ ﴿إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ورواه أبو داود والترمذي والنسائي [(١)]. ومعنى الآية: أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه، وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذَّبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاجٍ إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ- يعني قال الله تعالى -: «يا ابن آدم تفرّغ لعبادتي، أملأ صدرك غِنىً، وأسدُّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك» ورواه الترمذي وابن ماجة.

وقد ورد في بعض الكتب الإلهية: يقول الله تعالى: ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلاتتعب، فاطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء.

٥٩- وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ أي: نصيباً من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا يستعجلون ذلك، فإنه واقعٌ لا محالة.

٦٠- ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يعني: يوم القيامة.

آخر تفسير سورة الذاريات

****

(١) قراءة ابن مسعود رضي الله عنه هذه شاذة، لمخالفتها رسم المصحف، وإن صح سندها، لكن يستفاد منها الأحكام، دون أن يقرأ بها في الصلوات وغيرها، كما قرره أهل العلم.

ترتيبها ٥٢ | سورة الطور ـ مكية | آياتها ٤٩

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه. أخرجاه.

وروى البخاري: عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي فقال: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

١ - يقسم تعالى بمخلوقاته، الدالة على قدرته العظيمة، أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم، فالطور: هو الجبل الذي يكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، ومالم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً، إنما يقال له: جبل.

٢ - ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة، التي تقرأ على الناس جهاراً.

٣، ٤ - ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «ثم رُفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً، لا يعودون إليه آخر ما عليهم» يعني يتعبدون فيه، ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة، والله أعلم.

ثم روى ابن جرير: عن علي بن ربيعة قال: سأل ابن الكواء علياً عن البيت المعمور، قال: مسجد في السماء يقال له: الضُّراح، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون فيه أبداً. ورواه من حديث أبي الطفيل عن علي بمثله، وقال العوفي عن ابن عباس: هو بيت حذاء العرش تعمره الملائكة، يصلي فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون إليه، وكذا قال عكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف.

٥- وقوله تعالى: ﴿والسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ روى سفيان الثوري: عن علي: ﴿والسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعني: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وابن جريج وابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعني أنه سقف لجميع المخلوقات. وله اتجاه، وهو مراد مع غيره، كما قاله الجمهور.

٦- وقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال الربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العرش، الذي ينزل الله منه المطر الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر، واختلف في معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾ فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً، كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: أضرمت فتصير ناراً تتأجج، محيطة بأهل الموقف. ورواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب، وروي عن ابن عباس، وبه يقول سعيد بن جبير ومجاهد وعبيد الله بن عمير وغيرهم.

وعن سعيد بن جبير ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعني: المرسل، وقال قتادة: المسجور المملوء، واختاره ابن جرير، ووجهه بأنه ليس موقداً اليوم، فهو مملوء. وقيل: المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض، لئلا يغمرها فيغرق أهلها. قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه يقول السدي وغيره.

٧، ٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: لواقع بالكافرين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ أي: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك. وروى الإمام أبو عبيد في فضائل القرآن: عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ فربا لها ربوة، عيد منها عشرين يوماً[١].

٩- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً﴾ قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكاً، وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دوراً، وقال الضحاك: استدارتها وتحركها لأمر الله، وموج بعضها في بعض، وهذا اختيار ابن جرير: أنه التحرك في استدارة.

١٠- ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً﴾ أي: تذهب فتصير هباء منبثاً، وتنسف نسفاً.

١١- ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويلٌ لهم ذلك اليوم، من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابه لهم.

١٢- ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: هم في الدنيا يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً.

١٣- ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أي: يدفعون ويساقون ﴿إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً﴾ وقال مجاهد والشعبي ومحمد بن كعب والضحاك والسدي والثوري: يُدفعون فيها دفعاً.

١٤- ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تقول لهم الزبانية ذلك، تقريعاً وتوبيخاً.

١٥، ١٦- ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ اصْلَوْهَا﴾ أي: ادخلوها دخول مَن تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سواء صبرتم على عذابها ونكالها، أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها، ولا خلاص لكم منها، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ولا يظلم الله أحداً بل يجازي كلاً بعمله.

---

(١) وفي سماع الحسن من عمر رضي الله عنه نظر.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) ﴾

١٧- أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال.

١٨- ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن ومراكب، وغير ذلك ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها، مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

١٩- وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي: هذا بذاك تفضلاً منه وإحساناً.

٢٠- وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ روى الثوري: عن ابن عباس: السُّرر في الحجال. ومعنى ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: وجعلنا لهم قرينات صالحات، وزوجات حسان من الحور العين، وقال مجاهد: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن في غير موضع، بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) ﴾

٢١- يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه، ولطفه بخلقه وإحسانه، أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان، يُلحقهم بآبائهم في المنزلة، وإنْ لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ روى الثوري: عن ابن عباس: قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقرَّ بهم عينه، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وهكذا يقول الشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة وأبو صالح والربيع بن أنس والضحاك وابن زيد، وهو اختيار ابن جرير، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك» إسناده صحيح، ولم يخرجوه من

هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له».

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء، من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد، فقال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرتهن بعمله، لا يُحمل عليه ذنبُ غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ◆ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ◆ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ◆ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

٢٢- وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى.

٢٣- وقوله: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً﴾ أي: يتعاطون فيها كأساً، أي: من الخمر. قاله الضحاك ﴿لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ أي: لا يتكلمون فيها بكلام لاغ، أي: هذيان، ولا إثم، أي: فحش، كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا، قال ابن عباس: اللغو الباطل، والتأثيم الكذب. وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون.

وقال قتادة: كان ذلك في الدنيا مع الشيطان، فنزَّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها - كما تقدم - فنفى عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيء الفارغ عن الفائدة، المتضمن هذياناً وفحشاً، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها، فقال: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ◆ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ وقال: ﴿لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ﴾ وقال هنا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة، كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون، في حسنهم وبهائهم، ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ◆ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: أقبلوا يتحادثون، ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وهذا كما يتحدث أهل الشراب على شرابهم، إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم.

٢٦- ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: كنا في الدار الدنيا - ونحن بين أهلينا - خائفين من ربنا، مشفقين من عذابه وعقابه.

٢٧- ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أي: فتصدَّق علينا، وأجارنا مما نخاف.

٢٨- ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نتضرع إليه فاستجاب لنا، وأعطانا سؤالنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن عائشة أنها قرأت هذه الآية ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ◆ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ فقالت: اللهم مُنَّ علينا وقِنا عذابَ السَّموم، إنك أنت البَرُّ الرَّحيم. قيل للأعمش: في الصلاة؟ قال: نعم.

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ

﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

٢٩- يقول تعالى آمراً رسولهﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور، فقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أي: لست بحمد الله بكاهن، كما تقول الجهلة من كفار قريش، والكاهن: الذي يأتيه الرَّئي من الجان، بالكلمة يتلقاها من خبر السماء ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس.

٣٠- ثم قال تعالى منكراً عليهم في قولهم في الرسولﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أي: قوارع الدهر، والمنون: الموت، يقولون: ننتظره ونصبر عليه، حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه.

٣١- قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: انتظروا فإني منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة، في الدنيا والآخرة.

٣٢- ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا﴾ أي: عقولهم تأمرهم بهذا، الذي يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة، التي يعلمون في أنفسهم أنها كذبٌ وزور ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: ولكن هم قوم طاغون، ضلالٌ معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك.

٣٣- وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي: اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون: القرآن، قال الله تعالى: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة.

٣٤- ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أي: إن كانوا صادقين في قولهم «تقوله» وافتراه، فليأتوا بمثل ما جاء به محمدﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاءوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

٣٥- هذا المقام في إثبات الربوبية، وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم، أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. روى البخاري: عن جبير بن مطعم قال: سمعت النبيﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۞ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير.

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبيﷺ بعد وقعة بدر في فداء

الأسارى، وكان إذْ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة، من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك.

٣٦- ثم قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾ أي: أهم خلقوا السموات والأرض؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له، ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك.

٣٧- ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: أهم يتصرفون في الملك، وبيدهم مفاتيح الخزائن ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ المحاسبون للخلائق؟ ليس الأمر كذلك، بل الله عز وجل هو المالك المتصرف، الفعال لما يريد.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: مرقاة إلى الملإ الأعلى ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة، على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أي: ليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شيء، ولا لهم دليل.

٣٩- ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثاً، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدوهم مع الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

٤٠- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً﴾ أي: أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أي: لست تسألهم على ذلك شيئاً ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: فهم من أدنى شيء يتبرمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم.

٤١- ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم مِن أهل السموات والأرض الغيب إلا الله.

٤٢- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يقول تعالى: أم يريدُ هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين، غرور الناس، وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون.

٤٣- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا إنكارٌ شديد على المشركين، في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله.

ثم نزَّه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

٤٤- يقول تعالى مخبراً عن المشركين، بالعناد والمكابرة للمحسوس ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً﴾ أي: عليهم يعذبون به لما صدقوا ولما أيقنوا، بل يقولون: هذا سحاب مركوم، أي: متراكم، وهذا كقوله

تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ◆ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾.

٤٥- وقال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: دعهم يا محمد ﴿حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وذلك يوم القيامة.

٤٦- ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم، الذي استعملوه في الدنيا، لا يجزي عنهم يوم القيامة شيئاً ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: قبل ذلك في الدار الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: نعذبهم في الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا خُلِّي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوإ ما كانوا عليه، وفي الأثر الإلهي: «كم أعصيك ولا تعاقبني؟ قال الله تعالى، يا عبدي كم أعاقبك وأنت لا تدري؟»(١).

٤٨- وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس. وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال الضحاك: أي: إلى الصلاة: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك».

وقد روي مثله عن الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما، وروى مسلم في صحيحه: عن عمر: أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة. ورواه أحمد وأهل السنن: عن أبي سعيد وغيره عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك.

وقال أبو الجوزاء ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: من نومك من فراشك، واختاره ابن جرير، ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد: عن عبادة بن الصامت: عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال رب اغفر لي - أو قال: ثم دعا - استجيب له، فإنْ عزم فتوضأ، ثم صلى قُبلت صلاته». وأخرجه البخاري في صحيحه وأهل السنن.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: من كل مجلس، وروى الثوري: عن أبي الأحوص قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه، قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وقد وردت أحاديث مسندة، من طرق يقوي بعضها بعضاً بذلك، فمن ذلك حديث أبي هريرة: عن النبي ﷺ أنه قال: «من جَلَس في مجلس فكثُر فيه لغطُه، فقال قبل أن يقومَ من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك» رواه الترمذي وهذا لفظه، والنسائي في اليوم والليلة، وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: إسناده على شرط مسلم.

(١) من أخبار بني إسرائيل

وقد أفردت لذلك جزءاً على حدة، بذكر طرقه وألفاظه وعلله وما يتعلق بها، ولله الحمد والمنة.

٤٩- وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي: اذكره واعبده بالتلاوة، والصلاة في الليل، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ قد تقدم في حديث ابن عباس أنهما: الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أي: عند جنوحهما للغيبوبة.

وقد ثبت في الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر، وفي لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها».

آخر تفسير سورة الطور

****

ترتيبها ٥٣ | سورة النجم ـ مكية | آياتها ٦٢

روى البخاري: عن عبد الله قال: أول سورة أُنزلت فيها سجدة ﴿وَالنَّجْمِ﴾ قال: فسجد النبيﷺ وسَجد مَن خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه! فرأيته بعد ذلك قُتل كافراً، وهو أمية بن خلف، وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع ومسلم وأبو داود والنسائي.

وقوله في الممتنع أنه: أمية بن خلف، في هذه الرواية مشكل، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه: عتبة ابن ربيعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾

١- قال الشعبي وغيره: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق، رواه ابن أبي حاتم. واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ فقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: يعني: بالنجم، الثريا إذا سقطت مع الفجر، وكذا روي عن ابن عباس وسفيان الثوري، واختاره ابن جرير، وزعم السدي أنها: الزهرة. وقال الضحاك ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ إذا رُمي به الشياطين، وهذا القول له اتجاه.

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ يعني: القرآن إذا نزل، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ◆ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ◆ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ◆ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ◆ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ◆ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٢- وقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسولﷺ بأنه راشد، تابع للحق، ليس بضال، وهو: الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوي: هو العالم بالحق، العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال، كالنصارى وطرائق اليهود، وهي علم الشيء وكتمانه، والعمل بخلافه، بل هو - صلاة الله وسلامه عليه - وما بعثه الله به من الشرع العظيم، في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد.

٣- ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ أي: ما يقول قولاً عن هوى وغرض.

٤- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ أي: إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً، من غير زيادة ولا نقصان، كما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو قال: كنتُ أكتبُ كل شيء أسمعه من رسول اللهﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول اللهﷺ، ورسول اللهﷺ بشرٌ يتكلم في الغضب، فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول اللهﷺ فقال: «اكتب، فوالذي نفسي بيده، ما خرج مني إلا الحق» ورواه أبو داود.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أقول إلا حقاً» قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقاً».

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾

٥- يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ، أنه علّمه الذي جاء به إلى الناس ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ وهو: جبريل عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ◆ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ◆ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾.

٦- وقال ههنا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو قوة، قاله مجاهد والحسن وابن زيد. وقال ابن عباس: ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن، ولا منافاة بين القولين، فإنه عليه السلام ذو منظر حسن، وقوة شديدة، وقد ورد في الحديث الصحيح: من رواية ابن عمر وأبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «لا تحلُّ الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي». وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ يعني: جبريل عليه السلام. قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس.

٧، ٨- ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ يعني: جبريل استوى في الأفق الأعلى. قاله عكرمة وغير واحد.

قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذي يأتي منه الصبح. وقال مجاهد: هو مطلع الشمس. وقال قتادة: هو الذي يأتي منه النهار. وكذا قال ابن زيد وغيرهم.

وقد قال ابن جرير ههنا قولاً لم أره لغيره، ولا حكاه هو عن أحد، وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي: هذا الشديد القوي ذو المرة، هو ومحمد ﷺ بالأفق الأعلى، أي: استويا جميعاً بالأفق الأعلى، وذلك ليلة الإسراء. كذا قال! ولم يوافقه أحدٌ على ذلك.

وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك، فإنَّ هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدلى إليه، فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة، فأوحى الله إليه صدر سورة اقرأ، ثم فتر الوحي فترة، حتى تبدى له جبريل ورسول الله ﷺ بالأبطح، في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، قد سدَّ عِظَمُ خلقه الأفق، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمر به، فعرف عند ذلك عظمة المَلَك الذي جاء بالرسالة، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله أنه قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، وله ستمائة جناح كل جناح منها، قد سدَّ الأفق، يسقط من جناحه من التَّهَاويل[1] والدُّر والياقوت، ما الله به عليم. انفرد به أحمد.

٩- وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين، أي: بقدرهما إذا مُدّا. قاله مجاهد وقتادة، وقد قيل: إن

---

(١) التهاويل: الأشياء المختلفة الألوان، ومنه يقال لما يخرج في الرياض من ألوان الزهر: التهاويل (النهاية)

المراد بذلك بُعد ما بين وَتَر القوس إلى كبدها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة، لإثبات المخبر عنه، ونفي ما زاد عليه، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها، أو تزيد عليها في الشدة والقسوة، وكذا قوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي: ليسوا أقل منها، بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها.

فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد، فإن هذا ممتنع ههنا وهكذا هذه الآية ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾.

وهذا الذي قلناه من أن هذا المقترب الداني، الذي صار بينه وبين محمد ﷺ إنما هو جبريل عليه السلام، وهو قول أم المؤمنين عائشة وابن مسعود وأبي ذر وأبي هريرة، كما سنورد أحاديثهم قريباً إن شاء الله تعالى.

وروى ابن جرير: عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ جبريل له ستمائة جناح» (وروى البخاري نحوه).

وروى ابن جرير: عن عبد الله ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حُلتا رفرف، قد ملأ ما بين السماء والأرض.

١٠ - فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل، وكلا المعنيين صحيح.

١١، ١٢- وقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ روى مسلم: عن أبي العالية عن ابن عباس ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين. وكذا قال أبو صالح والسدي وغيرهما: إنه رآه بفؤاده مرتين أو مرة، وقد خالفه ابن مسعود وغيره، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية، وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد، ومن روي عنه بالبصر فقد أغرب، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم، وقول البغوي في تفسيره: وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه، وهو قول أنس والحسن وعكرمة، فيه نظر! والله أعلم.

وروى النسائي: عن عكرمة عن ابن عباس قال: أتعجبون أن تكون الخُلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد عليهم السلام.

وفي صحيح مسلم: عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيتَ ربك؟ فقال: «نوراني أُراه» وفي رواية: «رأيتُ نوراً».

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي عز وجل» فإنه حديث إسناده على شرط الصحيح، لكنه مختصر من حديث المنام، كما رواه الإمام أحمد أيضاً: عن أبي قلابة عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال يا محمد، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا، فوضع يده بين كتفي، حتى وجدتُ بَردها بين ثديي - أو قال نحري - فعلمت ما في السموات وما في الأرض، ثم قال: يا

محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: نعم، يختصمون في الكفارات والدرجات، قال: وما الكفارات؟ قال: قلت: المُكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإبلاغ الوضوء في المكاره، من فعل ذلك عاش بخير، ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه، وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحبَّ المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة، أن تقبضني إليك غير مفتون، قال: والدرجات: بذل الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام» وقد تقدم في آخر سورة ص عن معاذ نحوه. وقد رواه ابن جرير.

١٣ - ١٥ - وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۞ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ هذه هي المرة الثانية، التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خَلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها، في أول سورة سبحان، بما أغنى عن إعادته ههنا. وتقدم أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء، ويستشهد بهذه الآية، وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وغيرهم. وروى الإمام أحمد: عن ابن مسعود في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ قال: قال رسول الله ﷺ «رأيت جبريل وله ستمائة جناح، ينتثر من ريشه التَّهاويل، من الدُّر والياقوت» وهذا إسناد جيد قوي.

وروى أحمد: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام في خضر، معلقٌ به الدُّر» إسناد جيد أيضاً.

وروى الإمام أحمد: عن عامر قال: أتى مسروق عائشة فقال: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ قالت: سبحان الله، لقد قفَّ شعري لما قلت، أين أنت من ثلاث، من حدَّثكهن فقد كذب: من حدَّثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ الآية، ومن أخبرك أن محمداً قد كتم فقد كذب، ثم قرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين.

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن مسروق قال: كنت عند عائشة، فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عنها، فقال: «إنما ذاك جبريل، لم يره في صورته التي خُلِق عليها إلا مرتين، رآه منهبطاً من السماء إلى الأرض، ساداً عِظَمَ خلقه ما بين السماء والأرض» أخرجاه في الصحيحين.

رواية أبي ذر: روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته، قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله هل رأى ربه عز وجل؟ فقال: إني قد سألته، فقال: «قد رأيته نوراً أنى أراه» هكذا وقع في رواية الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم.

وروى النسائي: عن أبي ذر قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه، ولم يره ببصره. وقد ثبت في صحيح مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رأى جبريل عليه السلام.

وقال مجاهد في قوله ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين، وكذا قال

قتادة والربيع بن أنس وغيرهم.

١٦- وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قد تقدم في أحاديث الإسراء: أنه غشيتها ألوان ما أدري ما هي؟ وروى الإمام أحمد: عن عبد الله هو بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراشٌ من ذهب. قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: «أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحمات» انفرد به مسلم.

١٧- وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذهب يميناً ولا شمالاً ﴿وَمَا طَغَى﴾ ما جاوز ما أمر به وهذه صفةٌ عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى، وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جنةَ المأوى وما فوقَها ولو رأى غيرُه ما قد رآه لتاها

١٨- وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ كقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ أي: الدالة على قدرتنا وعظمتنا، وبهاتين الآيتين، استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع، لأنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ولو كان رأى ربه، لأخبر بذلك، ولقال ذلك للناس؛ وقد تقدم تقرير ذلك في سورة سبحان.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦)﴾

١٩، ٢٠- يقول تعالى مقرعاً للمشركين، في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت، مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ﴾ وكانت اللات: صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، حوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم «الله» فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وحكي عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس: أنهم قرءوا «اللاتّ» بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلاً يلتُّ للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

وروى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿اللاتَ وَالْعُزَّى﴾ قال: كان اللات رجلاً يلتُّ السويق، سويق الحاج.

قال ابن جرير: وكذا «العزى» من العزيز، وكانت شجرةً عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا الله مولانا، ولا مولى لكم».

وروى البخاري: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه تعالَ أقامرك، فليتصدَّق». فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية.

وأما مناة فكانت بالمُشلَّل - عند قديد بين مكة والمدينة - وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويهلون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخاري: عن عائشة نحوه، وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر، تعظِّمها العرب كتعظيم الكعبة، غير هذه الثلاثة التي نصَّ عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذِّكر لأنها أشهر من غيرها.

روى النسائي: عن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، بعث خالد بن الوليد إلى نخلة، وكانت بها العزى فأتاها خالد وكانت على ثلاث سمرات، فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ارجع، فإنك لم تصنع شيئاً» فرجع خالد فلما أبصرته السدنة وهم حجبتها، أمعنوا في الجبل وهم يقولون: يا عزى يا عزى، فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها، تحفن التراب على رأسها فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «تلك العزى».

قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجابها بني معتب. قلت: وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها، وجعلا مكانها مسجداً بالطائف.

قال ابن إسحاق: وكانت مناة للأوس والخزرج، ومن دان بدينهم من أهل يثرب، على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد، فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان صخر بن حرب فهدمها، ويقال: علي بن أبي طالب، قال: وكانت ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة، ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة، قلت: وكان يقال لها: الكعبة اليمانية، والكعبة التي بمكة الكعبة الشامية، فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدمه. قال: وكانت «قَلْس» لطي ومن يليها بجبل طي بين سلمى وأجا.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾.

٢١، ٢٢- ثم قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾ أي: أتجعلون له ولداً، وتجعلون ولده أنثى؟ وتختارون لأنفسكم الذكور! فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ أي: جوراً باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة، التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً؟

٢٣- ثم قال تعالى منكراً عليهم، فيما ابتدعوه وأحدثوه، من الكذب والافتراء والكفر، من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: من تلقاء أنفسكم ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾ أي: ليس له مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم، وتعظيم آبائهم الأقدمين.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أي: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير، والحجة القاطعة، ومع

هذا ما اتبعوا ما جاءوهم به، ولا انقادوا له.

٢٤- ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أي: ليس كل من تمنى خيراً حصل له ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ودَّ شيئاً يحصل له.

٢٥- وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ أي: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف في الدنيا والآخرة، فهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله؟ وهو تعالى لم يَشرع عبادتها، ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟!

﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠)﴾

٢٧- يقول تعالى منكراً على المشركين، في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله، تعالى الله عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾.

٢٨- ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ليس لهم علم صحيح بصدق ما قالوه، بل هو كذبٌ وزور وافتراء، وكفر شنيع ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ أي: لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق. وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث».

٢٩- وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: أعرض عن الذي أعرض عن الحق وهجره. وقوله: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: وإنما أكثر همه، ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه.

٣٠- ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي: طلب الدنيا والسعي لها، هو غاية ما وصلوا إليه. وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا»(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ أي: هو الخالق لجميع المخلوقات، والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذي لا يجور أبداً، لا في شرعه، ولا في قدره.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢)﴾

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٤٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلا الكلمات لأصحابه: «اللهمَّ اقسِمْ لنا من خَشيتِكَ، ما يحول بيننا وبين معصيتك، . . . . » الحديث.

٣١- يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أي: يجازي كلاً بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٣٢- ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أي: لا يتعاطون المحرمات الكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر، فإنه يغفر لهم ويستر عليهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ وقال ههنا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ وهذا استثناء منقطع، لأن اللمم من صغائر الذنوب، ومحقرات الأعمال.

روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم، مما قال أبو هريرة عن النبيﷺ قال: «إنَّ الله تعالى كتبَ على ابن آدمَ حظَّه من الزنا، أدرك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النُّطق، والنَّفس تمنَّى وتشتهي، والفرج يُصدِّق ذلك أو يكذِّبه» أخرجاه في الصحيحين.

وروى ابن جرير: عن ابن مسعود قال: زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي، ويُصدِّق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدَّم بفرجه كان زانياً، وإلا فهو اللمم. وكذا قال مسروق والشعبي. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ إلا ما سلف، كذا قال زيد بن أسلم. وروى ابن جرير: عن مجاهد: أنه قال في هذه الآية ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: الذي يلم بالذنب ثم يدعه.

روى ابن جرير: عن ابن عباس ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب. وقال: قال رسول اللهﷺ:

إنْ تغفر اللهمَّ تَغفر جمّاً ... وأيُّ عبدٍ لك ما ألما؟

وهكذا رواه الترمذي.

ثم روى ابن جرير: عن الحسن: عن أبي هريرةرضي الله عنه أراه رفعه في ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود، واللمم من السرقة ثم يتوب ولا يعود، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود، قال: فذلك الإلمام. وروى سفيان الثوري: عن ابن الزبير: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: ما بين الحدين حد الزنا وعذاب الآخرة، وكذا رواه شعبة عن الحكم عن ابن عباس مثله سواء. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ كل شيء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة، تكفره الصلوات، فهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا: فكل حدٍّ فرض الله عقوبته في الدنيا، وأما حد الآخرة: فكل شيء ختمه الله بالنار، وأخَّر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي: رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها، لمن تاب منها، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ أي: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم، وأفعالكم وأقوالكم التي ستصدر عنكم، وتقع منكم، حين أنشأ أباكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر، ثم قسمهم فريقين: فريقاً للجنة وفريقاً للسعير. وكذا قوله: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قد كتب

الملَك الذي يوكل به رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد؟ قال مكحول: كنا أجنة في بطون أمهاتنا، فسقط منا من سقط، وكنا فيمن بقي، ثم كنا مراضيع، فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي، ثم صرنا يفعة، فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي، ثم صرنا شباناً، فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي، ثم صرنا شيوخاً، لا أبالك فماذا بعد هذا تنتظر؟ رواه ابن أبي حاتم عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: تمدحوها وتشكروها، وتمنوا بأعمالكم ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾. وروى مسلم في صحيحه: عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسُمِّيتُ برة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُزكُّوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم» فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب».

وقد ثبت أيضاً في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: مدح رجلٌ رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ويلك قطعتَ عُنُقَ صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالةَ، فليقل: أحسبُ فلاناً - واللهُ حسيبه ولا أزكي على الله أحداً - أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك» وكذا رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجة.

وروى الإمام أحمد: عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأثنى عليه في وجهه، قال: فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب، ويقول: أَمَرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين، أن نحثو في وجوههم التراب. ورواه مسلم وأبو داود.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ (٣٤) أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١)﴾

٣٣- يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله، فلا صدَّق ولا صلى، ولكن كذَّب وتولى.

٣٤- ﴿وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه. وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد. قال عكرمة وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً، فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: أكدينا، ويتركون العمل.

٣٥- وقوله تعالى: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ أي: أعند هذا الذي قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عياناً؟ أي: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة، بُخلاً وشُحّاً وهلعاً، ولهذا جاء في الحديث: «أنفق بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»[1].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

٣٦، ٣٧- وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ◆ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال سعيد بن جبير

---

(١) تقدم تخريجه في الجزء الأول (ص ١٧٦).

والثوري: أي: بلَّغ جميع ما أمر به، وقال ابن عباس ﴿وَفَّى﴾ لله بالبلاغ. وقال سعيد بن جبير ﴿وَفَّى﴾ ما أمر به، وقال قتادة ﴿وَفَّى﴾ طاعة الله، وأدَّى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذي قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً، يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

٣٨- ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى، فقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب، فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد، كما قال: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

٣٩- ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يَحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه: أن القراءة لا يَصِل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته، ولا حثَّهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة، فذاك مجمعٌ على وصولهما، ومنصوص من الشارع عليهما.

وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولدٍ صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به».

فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: «إن أطيب ما أكلَ الرجلُ من كسبه، وإنَّ ولده من كسبه»[(١)]. والصدقة الجارية كالوقف ونحوه، هي من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ الآية. والعلم الذي نشره في الناس، فاقتدى به الناس بعده، هو أيضاً من سعيه وعمله، وثبت في الصحيح: «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً».

٤٠- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ أي: يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم به ويجزيكم عليه أتم الجزاء، إنْ خيراً فخير، وإن شرا فشر.

٤١- وهكذا قال ههنا: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ أي: الأوفر.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ

(١) رواه أبو داود (٣٥٢٨) والترمذي (١٣٥٨) والنسائي (٧/ ٢٤١) وابن ماجة (٢٢٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

٤٢- يقول تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ أي: المعاد يوم القيامة.

وفي الصحيح: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَن خَلَق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: مَن خلق ربك؟! فإذا بَلغ أحدُكم ذلك فليستعذ بالله، ولينته».

٤٣- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أي: خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما، وهما مختلفان.

٤٤- ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾.

٤٥، ٤٦- ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ كقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۞ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾.

٤٧- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ أي: كما خلق البداءة، هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة.

٤٨- ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي: ملَّك عباده المال، وجعله لهم قنية مقيماً عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح وابن جرير وغيرهما.

وعن مجاهد ﴿أَغْنَىٰ﴾ موّل ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أخدم. وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً: ﴿أَغْنَىٰ﴾ أعطى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ رَضّى.

٤٩- وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم: هو هذا النجم الوقّاد، الذي يقال له: مِرزَم الجوزاء، كانت طائفة من العرب يعبدونه.

٥٠- ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ وهم قوم هود، ويقال لهم: عاد ابن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم، على الله تعالى وعلى رسوله، فأهلكهم الله ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: متتابعة.

٥١- وقوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ أي: دمَّرهم فلم يبق منهم أحداً.

٥٢- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي: أشد تمرداً من الذين من بعدهم.

٥٣- ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ يعني: مدائن قوم لوط قَلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود.

٥٤- ولهذا قال: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ يعني: من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾.

٥٥- ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري؟ قاله قتادة، وقال ابن جريج. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ يا محمد، والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا

الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ ﴾

٥٦- ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ أي: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾.

٥٧- ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أي: اقتربت القريبة، وهي القيامة.

٥٨- ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: لا يدفعها إذاً من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه. والنذير الحذر لما يُعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، كما قال: ﴿إِنِّي نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾. وفي الحديث: «أنا النذير العريان» أي: الذي أعجله شدةُ ما عاين من الشر، عن أن يلبس عليه شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عرياناً مسرعاً، وهو مناسب لقوله: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ أي: اقتربت القريبة، يعني: يوم القيامة، كما قال في أول السورة التي بعدها ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾.

وروى الإمام أحمد: عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومُحقَّرات الذنوب، فإنما مثلُ محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا ببطن وادٍ، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه».

وقال رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومَثَل الساعة كهاتين» وفرّق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام، ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثل فرسي رهان» ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثل رجلٍ بعثه قومه طليعةً، فلما خشي أن يُسبق، ألاح بثوبه: أُتيتم أُتيتم» ثم يقول رسول الله ﷺ: «أنا ذلك». وله شواهد من وجوه أخر من صحاح وحسان.

٥٩، ٦٠- ثم قال تعالى منكراً على المشركين، في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم ﴿تَعْجَبُونَ﴾ من أن يكون صحيحاً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي: كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾.

٦١- وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ رُوي عن ابن عباس قال: الغناء، هي يمانية، اسمد لنا: غن لنا. وكذا قال عكرمة، وفي رواية عن ابن عباس ﴿سَامِدُونَ﴾ معرضون، وكذا قال مجاهد وعكرمة. وقال الحسن: غافلون، وهو رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وفي رواية عن ابن عباس: تستكبرون، وبه يقول السدي.

٦٢- ثم قال تعالى آمراً لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي: فاخضعوا له، وأخلصوا ووحدوه.

روى البخاري: عن ابن عباس قال: سَجَد النبي ﷺ بالنَّجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. انفرد به دون مسلم.

وروى الإمام أحمد: عن جعفر بن المطلب بن أبي وداعة عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد وسجد من عنده، فرفعتُ رأسي فأبيت أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب، فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرؤها إلا سجد معه. وقد رواه النسائي في الصلاة.

آخر تفسير سورة النجم

****

ترتيبها ٥٤ — سورة القمر ـ مكية — آياتها ٥٥

قد تقدم في حديث أبي واقد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة، في الأضحى والفطر. وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالها على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾

١ - يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: **﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾** وقال: **﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾** وقد وردت الأحاديث بذلك.

روى الحافظ أبو بكر البزار: عن أنس: أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا شِفٌّ يسير، فقال: «والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى منها، إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه» وما نرى من الشمس إلا يسيراً.

(حديث آخر يعضد الذي قبله ويفسره): روى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمس على قعيقعان بعد العصر، فقال: «ما أعماركم في أعمار من مضى، إلا كما بقي من النهار فيما مضى».

وروى الإمام أحمد: عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بعثت أنا والساعة هكذا» وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى. أخرجاه.

وروى الإمام أحمد: عن إسماعيل بن عبيد الله قال: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك فسأله: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنتم والساعة كهاتين» تفرد به أحمد رحمه الله.

وشاهد ذلك أيضاً في الصحيح: في أسماء رسول الله ﷺ أنه: الحاشر، الذي يُحشر الناس على قدميه.

وروى الإمام أحمد: عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غزوان - قال بهز: وقال قبل هذه المرة: خطبنا رسول الله ﷺ - قال: فحمد الله تعالى وأثنى عليه. ثم قال: «أما بعد، فإنَّ الدنيا قد آذنت بصرْم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذُكر لنا: أن الحجر يُلقى من شَفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاماً ما يُدرك لها قعراً، والله لتملؤنه أفعجبتم! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتينَّ

عليه يومٌ وهو كظيظ الزحام» وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح: عن ابن مسعود أنه قال: «خمسٌ قد مضين: الروم والدخان واللزام والبطشة والقمر» وهذا أمر متفق عليه بين العلماء، أي: انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

(ذكر الأحاديث الواردة في ذلك)

رواية أنس بن مالك: روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ورواه مسلم.

ورواه البخاري: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما.

رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: روى البخاري: عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان النبي ﷺ. ورواه البخاري أيضاً ومسلم. وروى ابن جرير: عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شِقيه. وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا.

رواية عبد الله بن عمر: روى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن مجاهد: عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقتين: فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد» وهكذا رواه مسلم والترمذي.

رواية عبد الله بن مسعود: روى الإمام أحمد: عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ «اشهدوا» وهكذا رواه البخاري ومسلم.

وروى أبوداود الطيالسي: عن عبد الله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سِحر ابن أبي كبشة! قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السُّفَّار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السُّفَّار فقالوا ذلك.

٢- وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً﴾ أي: دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿يُعْرِضُوا﴾ أي: لا ينقادوا له، بل يعرضون عنه، ويتركونه وراء ظهورهم ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج، سِحْرٌ سحرنا به. ومعنى ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهب، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، أي: باطل مضمحل، لا دوام له.

٣- ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمَرتهم به آراؤهم وأهواؤهم، من جهلهم وسخافة عقلهم. وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ قال قتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر، وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: يوم القيامة. وقال السدي: مستقر أي: واقع.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ أي: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسل، وما حلَّ بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ما فيه واعظٌ لهم عن

الشرك، والتمادي على التكذيب.

٥- وقوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أي: في هدايته تعالى لمن هداه، وإضلاله لمن أضله ﴿فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ﴾ يعني: أي شيء تغني النذر، عمن كَتَبَ الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكذا قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) ﴾

٦- يقول تعالى: فتول يا محمد، عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا، ويقولوا: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء والزلازل والأهوال.

٧- ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: ذليلة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ وهي: القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي: كأنهم في انتشارهم، وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي، جراد منتشر في الآفاق.

٨- ولهذا قال: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: يوم شديد الهول، عبوس قمطرير ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾

٩- يقول تعالى: كذبت قبل قومك يا محمد، قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي: صرحوا له بالتكذيب، واتهموه بالجنون ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ قال مجاهد ﴿وَازْدُجِرَ﴾: أي: استطير جنوناً، وقيل: وازدجر، أي: انتهروه وزجروه وتواعدوه، لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن.

١٠- ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ أي: إني ضعيفٌ عن هؤلاء، وعن مقاومتهم، فانتصر أنت لدينك.

١١- قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ قال السدي: وهو الكثير.

١٢- ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً﴾ أي: نَبعت جميع أرجاء الأرض، حتى التنانير التي هي محالُّ النيران، نبعت عيوناً ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي: من السماء والأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: أمر مقدَّر. وروى ابن أبي حاتم: أن ابن الكواء سأل علياً عن المجرة، فقال: هي شَرَجُ[1] السماء، ومنها فُتحت السماء بماء منهمر.

١٣- ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والقرظي وقتادة وابن زيد: هي

(١) الشرج: مسيل الماء، وجمعه شراج.

المسامير. واختاره ابن جرير قال: وواحدها دسار، ويقال: دسير، كما يقال: حبيك وحباك، والجمع حُبُك، وقال: مجاهد: الدسر أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج، وقال الضحاك: الدسر طرفاها وأصلها.

١٤- وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بأمرنا بمرأى منا، وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: جزاء لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح عليه السلام.

١٥- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك: جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۞ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۞ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾. ولهذا قال ههنا ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من يتذكر ويتعظ. روى الإمام أحمد: عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: وهكذا رواه البخاري.

ورواه عن أبي إسحاق: أنه سمع رجلاً سأل الأسود: فهل من مذكر أو مدكر؟ قال: سمعت عبد الله يقرأ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. وقال سمعت رسول الله يقرؤها: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ دالاً، وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجة.

١٦- وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي، وكذَّب رسلي؟ ولم يتعظ بما جاءت به نذري؟ وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر؟

١٧- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه، لمن أراده ليتذكر الناس، كما قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ قال مجاهد ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني: هوَّنَّا قراءته. وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن. وقال الضحاك عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل.

قلت: ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن، ، ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه، بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من متذكر بهذا القرآن، الذي قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد ابن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟

روى ابن أبي حاتم: عن مطر هو الوراق في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هل من طالب علم فيُعان عليه. وكذا علقه البخاري بصيغة الجزم عن مطر الوراق، ورواه ابن جرير، وروى عن قتادة مثله.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) ﴾

١٨، ١٩- يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم هود، أنهم كذبوا رسولهم أيضاً، كما صنع قوم نوح، وأنه

تعالى أرسل ﴿عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ وهي: الباردة الشديدة البرد ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي: عليهم، قاله الضحاك وقتادة والسدي ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ عليهم نحسه ودماره، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي.

٢٠ - ٢٢- وقوله تعالى: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض فتثلغ رأسه، فيبقى جثة بلا رأس، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۞ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢) ﴾

٢٣- وهذا إخبار عن ثمود، أنهم كذبوا رسولهم صالحاً.

٢٤- ﴿فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ يقولون: لقد خبنا وخسرنا، إنْ سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا.

٢٥- ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: متجاوز في حد الكذب.

٢٦- قال الله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ وهذا تهديد لهم شديدٌ، ووعيد أكيد.

٢٧- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختباراً لهم، أخرج الله تعالى لهم ناقة عظيمة عشراء، من صخرة صماء، طبقَ ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم، في تصديق صالح ﷺ فيما جاءهم به. ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله صالح ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أي: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة لك والنصر في الدنيا والآخرة.

٢٨- ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يوم لهم ويوم للناقة، كقوله: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن.

٢٩، ٣٠- ثم قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه: قُدار بن سالف، وكان أشقى قومه، كقوله: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ أي: خسر ﴿فَعَقَرَ ۞ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: فعاقبتهم، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي؟ وتكذيبهم رسولي؟

٣١، ٣٢- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أي: فبادوا عن آخرهم، لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا، كما يهمد يبيس الزروع والنبات، قاله غير واحد من المفسرين، والمحتظر: قال السدي: هو المرعى بالصحراء، حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح. وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظاراً

على الإبل والمواشي من يبيس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) ﴾

٣٣- يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط، كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمةً من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، واتبعت بحجارة من سجيل منضود.

٣٤- ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهي: الحجارة ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد، ولا رجلٌ واحد، حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم، سالماً لم يمسسه سوء.

٣٥- ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾.

٣٦- ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ أي: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم، قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكُّوا فيه وتماروا به.

٣٧- ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، في صور شباب مُردٍ حسان، محنة من الله بهم، فأضافهم لوط عليه السلام، وبعثتْ امرأته العجوز السوء إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب - وذلك عشية - ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني: نساءهم ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ليس لنا فيهن أرب ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

فلما اشتد الحال، وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم، يقال: إنها غارت من وجوههم. وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسَّسون بالحيطان، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح.

٣٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: لا محيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه.

٣٩، ٤٠- ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾

٤١، ٤٢- يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه، أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة

إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة، وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أي: فأبادهم الله، ولم يبق منهم مخبرٌ ولا عين ولا أثر.

٤٣- ثم قال تعالى: **﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾** أي: أيها المشركون من كفار قريش **﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾** يعني: من الذين تقدم ذكرهم، ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب أأنتم خير أم أولئكم؟ **﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾** أي: أم معكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال.

٤٤- ثم قال تعالى مخبراً عنهم: **﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾** أي: يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضاً، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء.

٤٥، ٤٦- قال الله تعالى: **﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾** أي: سيفترق شملهم ويغلبون.

روى البخاري: عن ابن عباس: أن النبيﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئتَ لم تُعبد بعد اليوم في الأرض أبداً» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، فخرج وهو يثب في الدرع، وهو يقول: **﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾** وكذا رواه البخاري والنسائي.

وروى البخاري: عن يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين، فقالت: نزل على محمدﷺ بمكة، وإني لجارية ألعب **﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾** هكذا رواه ههنا مختصراً، ورواه في فضائل القرآن مطولاً، ولم يخرجه مسلم.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾

٤٧- يخبر تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق، وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك، من كافر ومبتدع من سائر الفرق.

٤٨- ثم قال تعالى: **﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾** أي: كما كانوا في سعر وشك وتردد، وأورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم، ولا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً **﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾**.

٤٩- وقوله تعالى: **﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾** كقوله: **﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾** وكقوله تعالى: **﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾** أي: قدَّر قدراً، وهدى الخلائق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة: على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل تبرمها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات، على الفرقة القدرية، الذين نَبَغُوا في أواخر عصر الصحابة، وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلاً، وما ورد فيه من الأحاديث في شرح كتاب الإيمان من «صحيح البخاري» رحمه الله، ولنذكر ههنا الأحاديث المتعلقة

بهذه الآية الكريمة :

روى أحمد : عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبيﷺ يخاصمونه في القدر ، فنزلت : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۞ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وهكذا رواه مسلم والترمذي وابن ماجة .

وروى الإمام أحمد : عن نافع قال : كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه ، فكتب إليه عبد الله بن عمر : إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر ، فإياك أن تكتب إليَّ ، فإني سمعت رسول اللهﷺ يقول : «سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر» ورواه أبو داود .

وروى أحمد : عن عبد الله بن عمر أن رسول اللهﷺ قال : «لكل أمةٍ مجوس ، ومجوس أمتي الذين يقولون : لا قَدَر ، إنْ مرضوا فلا تعُودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم» لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة .

وروى الإمام أحمد : عن ابن عمر قال : قال رسول اللهﷺ : «كل شيء بقَدَر ، حتى العَجز ، والكَيس» ورواه مسلم .

وفي الحديث الصحيح : «استعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك أمرٌ فقل : قدَّر الله وما شاء فعل ، ولا تقل : لو أني فعلت لكان كذا ، فإن لو تفتح عمل الشيطان» .

وفي حديث ابن عباس : أن رسول اللهﷺ قال له : «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء ، لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، جفَّت الأقلام ، وطويت الصحف» .

وروى الإمام أحمد : عن عبادة بن الوليد بن عبادة حدثني أبي قال : دخلت على عبادة وهو مريض أتخايَلُ فيه الموت ، فقلت : يا أبتاه أوصني واجتهد لي ، فقال : أجلسوني ، فلما أجلسوه قال : يا بنيَّ إنك لم تطعم طعم الإيمان ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله ، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، قلت يا أبتاه ، وكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدرِ وشره؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليُصيبك ، وما أصابكَ لم يكن ليخطئك ، يا بني ، إني سمعت رسولَ اللهﷺ يقول : «إنَّ أوَّل ما خلق الله القلم ، ثم قال له : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يا بني ، إنْ متَّ ولستَ على ذلك ، دخلت النار . ورواه الترمذي .

وقد ثبت في صحيح مسلم : عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول اللهﷺ : «إنَّ الله كتبَ مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب : «وكان عرشه على الماء» ورواه الترمذي .

٥٠ - وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ وهو إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه ، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم .

فقال : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أي : إنما نأمر بالشيء مرة واحدة ، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر ، لا يتأخر طرفة عين ، وما أحسن ما قال بعض الشعراء :

إذا ما أراد اللهُ أمراً فإنما ... يقول له : كن قولةً فيكون

٥١ - وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني : أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة ، المكذبين

بالرسل ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدَّر لهم من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

٥٢- وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: مكتوب عليهم في الكتب، التي بأيدي الملائكة عليهم السلام.

٥٣- ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أي: من أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد روى الإمام أحمد: عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشةُ، إياك ومُحقَّرات الذنوب، فإنَّ لها من الله عز وجل طالباً» ورواه النسائي وابن ماجة.

وقد قال بعضهم:

لا تحقِرَنَّ مِن الذُّنوب صَغيراً ... إنَّ الصَّغِيرَ غَداً يعودُ كَبيراً
إنَّ الصَّغِيرَ وَلو تقادم عَهده ... عند الإله مسطراً تسطيراً
فازجُرْ هواكَ عن البطالة لا تكن ... صعب القياد وشمِّرن تشميراً
إن المحب إذا أحب إلهه ... طار الفؤاد وألهم التفكيرا
فاسأل هدايتك الإله بنيَّةٍ ... فكفى بربك هادياً ونصيراً

٥٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد.

٥٥- وقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في دار كرامة الله ورضوانه، وفضله وامتنانه، وجوده وإحسانه ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: عند الملك العظيم، الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون.

وقد روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال: «المُقسطون عند اللهِ على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يَعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» انفرد بإخراجه مسلم والنسائي.

آخر تفسير سورة القمر

****

ترتيبها ٥٥ — سورة الرحمن ـ مكية — آياتها ٧٨

روى الإمام أحمد: عن زر أن رجلاً قال: كيف تعرف هذا الحرف ﴿مِن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أو: أسن؟ فقال: كل القرآن قد قرأت، قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة واحدة! فقال: أهذاً كهذِّ الشعر لا أبا لك؟ قد علمتُ قرائن النبيﷺ التي كان يقرن قرينتين قرينتين، من أول المفصل. وكان أول مفصل ابن مسعود (الرحمن).

وروى أبو عيسى الترمذي: عن جابر قال: خرج رسول اللهﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن، من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتُها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسنَ مردوداً منكم، كنتُ كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيءٍ من نعمك ربَّنا نكذِّب، فلك الحمد». ورواه الحافظ أبو بكر البزار.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾

١ - ٤ - يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه، أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على مَن رحمه، فقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ قال الحسن: يعني النطق، وقال الضحاك وقتادة وغيرهما: يعني: الخير والشر. وقول الحسن ههنا أحسن وأقوى، لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها، من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها.

٥ - وقوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: يجريان متعاقبين، بحساب مقنن، لا يختلف ولا يضطرب ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

٦ - وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروي عن ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض. يعني: من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير والسدي وسفيان الثوري، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله تعالى. وقال مجاهد: النجم الذي في السماء، وكذا قال الحسن وقتادة، وهذا القول هو الأظهر - والله أعلم - لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي

﴿الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ الآية.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ يعني: العدل، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

٨- وهكذا قال ههنا: ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل.

٩- ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾.

١٠- وقوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم، في سائر أقطارها وأرجائها.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: الأنام الخلق ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أي: مختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾ أفرده بالذكر لشرفه ونفعه، رطباً ويابساً و﴿الأَكْمَامِ﴾ قال ابن جريج عن ابن عباس: هي أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذي يطلع فيه العنقود، ثم ينشق عن العنقود فيكون بُسْراً ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهى نفعه واستواؤه.

وقيل: الأكمام: رفاتها وهو الليف الذي على عنق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة.

١٢- ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ يعني: التبن. وقال العوفي عن ابن عباس: العصفُ ورقُ الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس. وكذا قال قتادة والضحاك وأبو مالك: عصفه: تبنه، وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني: الورق. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: والريحان: خضر الزرع، ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما، له في حال نباته عصف، وهو ما على السنبلة، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها.

وقيل: العصف الورق أول ما ينبت الزرع بقلاً، والريحان والورق، يعني: إذا أدجن وانعقد فيه الحب.

١٣- وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فبأي الآلاء - يا معشر الثقلين من الإنس والجن - تكذبان؟ قاله مجاهد وغير واحد، ويدل عليه السياق بعده. أي: النعم ظاهرة عليكم، وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به: اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب؛ فلك الحمد. وكان ابن عباس يقول: لا بأيها يا رب. أي: لا نكذب بشيء منها.

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) فَبِأَيِّ

آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

١٤ ، ١٥ - يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلقه الجان من مارج من نار ، وهو طرف لهبها ، قاله الضحاك عن ابن عباس ، وبه يقول عكرمة ومجاهد والحسن وابن زيد . وقال العوفي عن ابن عباس ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ من لهب النار من أحسنها . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : من خالص النار . وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم . وروى الإمام أحمد : عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «خُلقت الملائكة من نور ، وخُلق الجان من مارج من نار ، وخُلق آدم مما وُصف لكم» ورواه مسلم .

١٦ - وقوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدم تفسيره .

١٧ ، ١٨ - ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعني : مشرقي الصيف والشتاء ، ومغربي الصيف والشتاء ، وقال في الآية الأخرى : ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ وذلك باختلاف مطالع الشمس ، وتنقلها في كل يوم ، وبروزها منه إلى الناس ، وقال في الآية الأخرى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب ، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق ، من الجن والإنس ، قال : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

١٩ - ٢١ وقوله تعالى : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ قال ابن عباس : أي : أرسلهما ، وقوله : ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ قال ابن زيد ، أي : منعهما أن يلتقيا ، بما جعل بينهما من البرزخ ، الحاجز الفاصل بينهما ، والمراد بقوله : ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ الملح والحلو ، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة الفرقان ، عند قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً﴾ .

٢٢ - وقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي : من مجموعهما ، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى ، كما قال تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن ، وقد صح هذا الإطلاق . واللؤلؤ معروف ، وأما المرجان : فقيل : هو صغار اللؤلؤ . قاله مجاهد وقتادة وأبو رزين والضحاك ، وروي عن علي ، وقيل : كباره وجيده ، حكاه ابن جرير عن بعض السلف . ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس . وروي مثله عن علي ، ومجاهد أيضاً ومرة الهمداني . وقيل : هو نوع من الجواهر أحمر اللون . روى السدي : عن عبد الله قال : المرجان الخرز الأحمر .

وأما قوله : ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فاللحم من كل من الأجاج والعذب ، والحلية إنما هي من المالح دون العذب . قال ابن عباس : ما سقطت قطرة من السماء في البحر فوقعت في صدفة ، إلا صار منها لؤلوة . وكذا قال عكرمة ، وزاد : فإذا لم تقع في صَدَفة ، نبتت بها عنبرة . وروي من غير وجه عن ابن عباس نحوه .

وقد روى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس قال : إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها ، فما وقع فيها - يعني من قطر - فهو اللؤلؤ . إسناده صحيح .

٢٣ - ولما كان اتخاذ هذه الحلية ، نعمة على أهل الأرض ، امتن بها عليهم فقال : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

٢٤- وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ يعني: السفن التي تجري ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ قال مجاهد: ما رفعَ قلعه من السفن فهي منشآت، وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت. وقال قتادة: المنشآت يعني: المخلوقات، وقال غيره: المنشآت بكسر الشين يعني: البادئات ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أي: كالجبال في كِبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة، من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، بما فيه صلاحٌ للناس في جلب ما يحتاجون إليه، من سائر أنواع البضائع.

٢٥- ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) ﴾

٢٦- ٢٨- يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله، ولا يبقى أحدٌ سوى وجهه الكريم، فإن الرب تعالى وتقدس لايموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبداً. قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فان.

قال الشعبي: إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة: بأنه ذو الجلال والإكرام، أي: هو أهلٌ أن يُجلَّ فلا يُعْصى، وأن يُطاع فلا يُخالف، كقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وكقوله إخباراً عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: ذو الجلال والإكرام، ذو العظمة والكبرياء، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل، قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٢٩، ٣٠- وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن. عن عبيد بن عمير ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: من شأنه أن يُجيب داعياً، أو يُعطي سائلاً، أو يفكَّ عانياً، أو يشفي سقيماً. وقال قتادة: لا يستغني عنه أهل السموات والأرض، يُحيي حياً ويُميت ميتاً، ويربي صغيراً، ويفك أسيراً، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم، ومنتهى شكواهم.

وقال ابن أبي حاتم: سويد بن جبلة هو الفزاري قال: إنَّ ربكم كل يوم في شأن، فَيُعتق رقاباً، ويعطي رغاباً، ويقحم عقاباً.

وروى ابن أبي حاتم: عن أم الدرداء: عن النبيﷺ قال: «قال الله عز وجل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال: من شأنه أن يغفر ذنباً، ويُفرِّج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين». وقد رواه ابن عساكر من طرق متعددة.

(قلت): وقد روي موقوفاً، كما علقه البخاري بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبي الدرداء، فالله أعلم.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾

٣١، ٣٢- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾: وعيدٌ من الله تعالى للعباد، وليس بالله شغلٌ وهو فارغ. وكذا قال الضحاك: هذا وعيد. وقال قتادة: قد دنا من الله فراغٌ لخلقه، وقال ابن جريج ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي: سنقضي لكم. وقال البخاري: سنحاسبكم، لا يشغله شيءٌ عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: لأتفرغن لك، وما به شغلٌ، يقول لآخذنك على غرتك.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾: الإنس والجن، كما جاء في الصحيح: «يسمعه كلُّ شيء إلا الثقلين» وفي رواية: «إلا الإنس والجن». ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٣٣، ٣٤- ثم قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيطٌ بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر؛ الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ أي: إلا بأمر الله ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۞ كَلاَّ لا وَزَرَ ۞ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٣٥، ٣٦- ولهذا قال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الشواظ: هو لهب النار، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: الشواظ: الدخان.

وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع، وقال أبو صالح: الشواظ هو اللهب الذي فوق النار ودون الدخان، وقال الضحاك ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾: سيل من نار.

وقوله تعالى: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَنُحَاسٌ﴾: دخان النار، وروي مثله عن أبي صالح وسعيد بن جبير وأبي سنان، وقال ابن جرير: والعرب تسمى الدخان نحاساً، بضم النون وكسرها، والقراءة مجمعة على الضم.

وقال مجاهد: النحاس الصفر المذاب، فيصب على رؤوسهم. وكذا قال قتادة وقال الضحاك ﴿وَنُحَاسٌ﴾: سيل من نحاس. والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة، لردتكم الملائكة والزبانية، بإرسال اللهب من النار، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا، ولهذا قال: ﴿فَلا تَنتَصِرَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ
عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ
بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣)
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾

٣٧ ، ٣٨- يقول تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة ، كما دلت عليه هذه الآية ، مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها ، كقوله: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ◆ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ . وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي: تذوب كما يذوب الدُّرْدي والفضة في السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء ، وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر ، وهول يوم القيامة العظيم . وقال الحسن البصري: تكون ألواناً . وقال مجاهد ﴿كَالدِّهَانِ﴾ كألوان الدهان . وقال عطاء الخراساني: كلون دهن الورد في الصفرة . وقال قتادة: هي اليوم خضراء ويومئذ لونها إلى الحمرة ، يوم ذي ألوان . وقال أبو الجوزاء: في صفاء الدهن . وقال ابن جريج: تصير السماء كالدهن الذائب ، وذلك حين يصيبها حر جهنم .

٣٩ ، ٤٠- وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ◆ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فهذا في حال ، وثمَّ في حال لا يُسأل الخلائق عن جميع أعمالهم ، قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ◆ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولهذا قال قتادة ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ قال: قد كانت مسألة ، ثم ختم على أفواه القوم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، وقد قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهذا قول ثان .

وقال مجاهد في هذه الآية: لا تسأل الملائكة عن المجرم ، يُعرفون بسيماهم . وهذا قول ثالث ، وكأن هذا بعد ما يُؤمر بهم إلى النار ، فذلك الوقت لا يسئلون عن ذنوبهم ، بل يقادون إليها ويلقون فيها .

٤١ ، ٤٢- كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بعلامات تظهر عليهم .

وقال الحسن وقتادة: يعرفونهم باسوداد الوجوه ، وزُرقة العيون . قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء .

وقوله تعالى: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي: يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ، ويلقونه في النار كذلك . وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره ، وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه ، فتربط ناصيته بقدمه ، ويفتل ظهره .

٤٣- وقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً ، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً .

٤٤- وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي: تارة يعذبون في الجحيم ، وتارة يسقون من الحميم ، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب ، يقطع الأمعاء والأحشاء ، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ◆ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿آنٍ﴾ أي: حار ، قد بلغ الغاية في الحرارة ، لا يستطاع من شدة ذلك ، قال ابن عباس في قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي: قد انتهى غليه ، واشتد حره . وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن والثوري والسدي . وقال محمد بن كعب القرظي: الحميم الآن يعني: الحار ، وعن القرظي رواية أخرى ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي: حاضر ، وهو قول ابن زيد أيضاً ، والحاضر لا ينافي ما روي عن القرظي أولاً

أنه : الحار، كقوله تعالى : ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي : حاضرة، شديدة الحر لا تستطاع، وكقوله : ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ يعني : استواءه ونضجه. فقوله : ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ أي : حميم حار جداً.

٤٥- ولما كان معاقبة العصاة المجرمين، وتنعيم المتقين، من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره له عن عذابه وبأسه، مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك، قال ممتناً بذلك على بريته ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) ﴾

٤٦، ٤٧- قال ابن شوذب وعطاء الخراساني نزلت هذه الآية ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ في أبي بكر الصديق. والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول الله تعالى : ولمن خاف مقام ربه بين يدي الله عز وجل يوم القيامة، ونهى النفس عن الهوى، ولم يطع ولا آثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخاري رحمه الله : عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس بن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال : «جنَّتان من فضةٍ، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل، إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدْنٍ» وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود.

وروى ابن جرير : عن عطاء بن يسار أخبرني أبو الدرداء : أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فقلت : وإنْ زنى وإن سرق؟ فقال : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فقلت : وإنْ زنى وإن سرق؟ فقال : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال : «وإن رغم أنف أبي الدرداء» ورواه النسائي.

وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة، إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء، فقال : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ◆ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٤٨، ٤٩- ثم نعت هاتين الجنتين فقال : ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أي : أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة، أن الأفنان : أغصان الشجر يمس بعضها بعضاً. وحكى البغوي عن مجاهد وعكرمة والضحاك الكلبي : أنه الغصن المستقيم. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ : ذواتا ألوان. قال : وروى سعيد بن جبير والحسن والسدي وخصيف والنضر بن عدي وأبي سنان مثل ذلك، ومعنى هذا القول : أن فيهما فنوناً من الملاذ، واختاره ابن جرير. وقال عطاء : كل غصن يجمع فُنوناً من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ واسعتا الفناء.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم. وقال قتادة : ذواتا أفنان يعني : بسعتها وفضلها، ومزيتها على ما سواها.

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرة المنتهى فقال : «يسير في ظل الفَنن منها

الراكب مائة سنة - أو قال - يستظل في ظِلِّ الفنن منها مائة راكب، فيها فَراش الذهب، كأن ثمرها القِلال» ورواه الترمذي.

٥٠، ٥١- ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان، فتثمر من جميع الألوان ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال الحسن البصري: إحداهما يقال لها تسنيم والأخرى السلسبيل.

وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن والأخرى من خمر لذة للشاربين، ولهذا قال بعد هذا:

٥٢، ٥٣- ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي: من جميع أنواع الثمار، مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وقال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة، إلا الأسماء. يعني: أن بين ذلك بوناً عظيماً، وفرقاً بيناً في التفاضل.

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) ﴾

٥٤، ٥٥- يقول تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ يعني: أهل الجنة. والمراد بالاتكاء ههنا: الاضطجاع، ويقال: الجلوس على صفة التربيع ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ما غلظ من الديباج. قاله عكرمة والضحاك وقتادة، وقال أبو عمران الجوني: هو الديباج المزين بالذهب، فنبَّه على شرف الظهارة بشرف البطانة، فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وعن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن، فكيف لو رأيتم الظواهر؟ وقال مالك ابن دينار: بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور، وبنحوه قال سفيان الثوري أو شريك. وقال القاسم بن محمد: بطائنها من إستبرق وظواهرها من الرحمة، وقال أبو عبد الله الشامي: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحاسن، ولا يعلم ما تحت المحاسن إلا الله تعالى، ذكر ذلك كله الإمام ابن أبي حاتم رحمه الله.

﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: ثمرهما قريب إليهم، متى شاءوا تناولوا على أي صفة كانوا، كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ وقال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي: لا تمتنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٥٦، ٥٧- ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي: غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن. قاله ابن عباس وقتادة وعطاء الخراساني وابن زيد، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، ولا في الجنة شيئاً أحب إليَّ منك، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي: بل هنَّ أبكارٌ عرب أتراب، لم يطأهن أحدٌ قبل أزواجهن، من الإنس والجن.

وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة. قال أرطأة بن المنذر: سئل ضمرة بن حبيب: هل يدخل الجنُّ الجنة؟ قال: نعم وينكحون، للجن جنيات، وللإنس إنسيات، وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ

﴿قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٥٨- ثم قال ينعتهن للخُطَّاب: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم: في صفاء الياقوت، وبياض المرجان. فجعلوا المرجان ههنا: اللؤلؤ.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: «للرجل من أهلِ الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب» تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه.

وقد رواه مسلم: عن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا: الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أولم يقل أبو القاسمﷺ: «إنَّ أول زُمرةٍ تدخل الجنة، على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوء كوكبٍ دُرّيٍّ في السماء، لكل امرئٍ منهم زوجتان اثنتان، يُرى مخُّ ساقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

وروى الإمام أحمد: عن أنس أن رسول اللهﷺ قال: «لغدوةٌ في سبيل الله أو روحة، خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولقابُ قوسِ أحدكم أو موضع قده - يعني سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعتْ امرأةٌ من نساء أهل الجنة إلى الأرض، لملأتْ ما بينهما ريحاً، ولطاب ما بينهما، ولنصيفُها على رأسها، خيرٌ من الدنيا وما فيها» ورواه البخاري بنحوه.

٦٠- وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ أي: لا لمن أحسن العمل في الدنيا، إلا الإحسان إليه في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

٦١- ولما كان في الذي ذُكر نعمٌ عظيمة، لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك كله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ ما رواه الترمذي والبغوي: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ: «من خاف أدلجَ، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنَّ سلعةَ اللهِ غاليةٌ، ألا إنَّ سلعة الله الجنة».

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

٦٢، ٦٣- هاتان الجنتان، دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وقد تقدم في الحديث: «جَنَّتان مِن ذهبٍ آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما» فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين؛ قال أبو موسى. وقال ابن عباس ﴿وَمِن دُونِهِمَا

﴿جَنَّتَانِ﴾ من دونهما في الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل.

والدليل على شرف الأوليين على الأخريين وجوه: **أحدها:** أنه نعت الأوليين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني، وقال هناك ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ وهي الأغصان، أو الفنون في الملاذ.

٦٤، ٦٥- وقال ههنا: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي: سوداوان من شدة الري من الماء. قال ابن عباس: قد اسودَّتا من الخضرة، من شدة الري من الماء، وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ قال: خضراوان. وروي عن أبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن أبي أوفى وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد في إحدى الروايات، وعطاء وعطية العوفي والحسن البصري ويحيى بن رافع وسفيان الثوري نحو ذلك. وقال محمد بن كعب ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضراوان من الري ناعمتان.

ولا شك في نضارة الأغصان، على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض.

٦٥، ٦٦- وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وقال ههنا: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: فياضتان. والجري أقوى من النضج، وقال الضحاك ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: ممتلئتان ولا تنقطعان.

٦٧، ٦٨- وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وقال ههنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ولا شك أن الأولى أعم وأكثر، في الأفراد والتنويع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم، ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر، لشرفهما على غيرهما.

٧٠، ٧١- ثم قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة، قاله قتادة، وقيل: خيرات جمع خيِّرة، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق، الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة الواقعة إن شاء الله تعالى، أن الحور العين يغنين: نحن الخيراتُ الحسان، خُلقنا لأزواج كرام، ولهذا قرأ بعضهم: ﴿فِيهِنَّ خَيِّراتٌ﴾ بالتشديد ﴿حِسَانٌ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٧٢، ٧٣- ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ ولا شك أن التي قد قَصَرت طرفها بنفسها، أفضل ممن قُصرت، وإن كان الجميع مخدرات.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ روى البخاري: عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون» ورواه أيضاً، وقال: «ثلاثون ميلاً» وأخرجه مسلم.

٧٤، ٧٥- وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ قد تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

٧٦- وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الرفرف: المحابس، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم: هي المحابس، وقال العلاء بن زيد: الرفرف على السرير، كهيئة المحابس المتدلي، وقال عاصم الجحدري ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ يعني: الوسائد. وهو قول الحسن البصري في رواية عنه. وروى أبو داود الطيالسي: عن سعيد بن جبير قال: الرفرف:

رياض الجنة.

٧٦، ٧٧- وقوله تعالى: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي: العبقري: الزرابي. وقال سعيد بن جبير: هي عتاق الزرابي يعني جيادها، وقال مجاهد: العبقري الديباج، وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ فقال: هي بُسُط أهلِ الجنة لا أبا لكم، فاطلبوها، وعن الحسن رواية أنها: المرافق، وقال زيد بن أسلم: العبقري أحمر وأصفر وأخضر، وسئل العلاء بن زيد عن العبقري، فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو حرزة يعقوب بن مجاهد: العبقري من ثياب أهل الجنة، لا يعرفه أحد، وقا أبو العالية: العبقري الطنافس المخملة، إلى الرقة ما هي، وقال القتيبي: كل ثوب موشى عند العرب عبقري، وقال أبو عبيدة: هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشي، وقال الخليل بن أحمد: كل شيء نفيس من الرجال وغير ذلك، يسمى عند العرب عبقرياً، ومنه قول النبيﷺ في عمر: «فلم أر عبقرياً يفري فريه».

وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأوليين، أرفع وأعلى من هذه الصفة، فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها، اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى.

٧٨- وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان، وهو أعلى المراتب والنهايات، كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان، فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخيرتين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين.

ثم قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يُجلَّ فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، وقال ابن عباس ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذي العظمة والكبرياء.

وفي الحديث: «إنَّ من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وذي السُّلطان، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه»(١).

وروى الحافظ أبو يعلى: عن أنس أن رسول اللهﷺ قال: «أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام» وكذا رواه الترمذي. ورواه أحمد والنسائي من حديث ربيعة بن عامر به.

وقال الجوهري: ألظَّ فلانٌ بفلان إذا لزمه، وقول ابن مسعود: ألظوا بياذا الجلال والإكرام، أي: الزموا، يقال: الإلظاظ هو الإلحاح. قلت: وكلاهما قريب من الآخر - والله أعلم - وهو المداومة واللزوم والإلحاح.

وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة: من حديث عائشة قالت: كان رسول اللهﷺ إذا سلَّم لا يقعد - يعني بعد الصلاة - إلا بقدر ما يقول: «اللهمَّ أنتَ السلامُ، ومنك السلامُ، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام».

آخر تفسير سورة الرحمن

****

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٤٣) بنحوه، والبخاري في الأدب (٣٥٧) والبيهقي (٨/ ١٦٣) من حديث أبي موسى الأشعريﷺ. وله شاهد من حديث جابرﷺ، عند الطبراني في الأوسط - كما في مجمع البحرين (٢٥٤٩).

ترتيبها ٥٦ — سورة الواقعة ـ مكية — آياتها ٩٦

روى ابن عباس فقال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبت قال: «شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت» رواه الترمذي. وروى الإمام أحمد: عن جابر بن سمرة يقول: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف، كانت صلاتُه أخفَّ من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢﴾

١- الواقعة من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾. ومعنى ﴿كَاذِبَةٌ﴾ كما قال محمد بن كعب: لا بد أن تكون، وقال قتادة: ليس فيها مَثْنوية ولا ارتداد ولا رجعة، قال ابن جرير: والكاذبة مصدر كالعاقبة والعافية.

٣- وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي: تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين، إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء. هكذا قال الحسن وقتادة وغيرهما. وعن عثمان بن سراقة ابن خالة عمر بن الخطاب ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ قال: الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة. وقال محمد بن كعب: تخفض رجالاً كانوا في الدنيا مرتفعين، وترفع رجالاً كانوا في الدنيا مخفوضين. وقال السدي: خفضت المتكبرين، ورفعت المتواضعين، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أسمعت القريب والبعيد، وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى. وكذا قال الضحاك وقتادة.

٤- وقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي: حُركت تحريكاً، فاهتزت واضطربت بطولها

(١) المسند (٥/ ١٠٤) وفي بعض روايات الحديث قال: يقرأ (ق)، بدلاً من الواقعة.

وعرضها. ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد أي: زلزلت زلزالاً، وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرجِّ الغربال بما فيه. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فُتتت فتّاً، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم، وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال الله تعالى: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾.

٦- وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ روي عن علي رضي الله عنه: هباءً منبثاً كرهج الغبار، يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء. وقال العوفي عن ابن عباس: الهباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت، يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً. وقال عكرمة: المنبث الذي قد ذرته الريح وبثته. وقال قتادة ﴿هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ كيبيس الشجر الذي تذروه الرياح. وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونسفها، أي: قلعها وصيرورتها كالعهن المنفوش.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أي: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قومٌ عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين. قال السدي: وهم جمهور أهل الجنة، وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمالهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار - عياذاً بالله من صنيعهم - وطائفة سابقون بين يديه عز وجل، وهم أخصُّ وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين، الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين.

٨- ١٠- ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة، في آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه، كما تقدم بيانه.

وقال مجاهد ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ يعني: فرقاً ثلاثة. وقال ميمون بن مهران: أفواجاً ثلاثة، وقال عثمان بن سراقة ابن خالة عمر بن الخطاب: اثنان في الجنة، وواحد في النار.

وقال محمد بن كعب وأبو حزرة يعقوب بن مجاهد ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الأنبياء عليهم السلام. وقال السدي: هم أهل عليين. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن سيرين ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الذين صلوا إلى القبلتين. ورواه ابن جرير. وقال الحسن وقتادة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أي: من كل أمة. وعن عثمان بن أبي سودة أنه قرأ هذه الآية ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ثم قال: أولهم رواحاً إلى المسجد، وأولهم خروجاً في سبيل الله.

وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين، هم المبادرون إلى فعل الخيرات، كما أمروا كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فمن سابق في هذه الدنيا، وسبقَ إلى فعل الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

١١ ، ١٢- ولهذا قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ◆ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦) ﴾

١٣ ، ١٤- يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين ، أنهم ثلة ، أي : جماعة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، وقد اختلفوا في المراد بقوله : الأولين والآخرين ، فقيل : المراد بالأولين : الأمم الماضية ، وبالآخرين : هذه الأمة . هذا رواية عن مجاهد والحسن البصري ، رواها عنهما ابن أبي حاتم ، وهو اختيار ابن جرير ، واستأنس بقوله ﷺ : «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة» ولم يحك غيره ، ولا عزاه إلى أحد .

وقد وردت طرق كثيرة متعددة ، بقوله ﷺ : «إني لأرجو أن تكونوا رُبع أهل الجنة» الحديث بتمامه ، وهو مفرد في صفة الجنة ، ولله الحمد والمنة ، وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر ! بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم ، فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ﴾ أي : من صدر هذه الأمة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ أي : من هذه الأمة . روى ابن أبي حاتم : عن الحسن أتى على هذه الآية ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ◆ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فقال : أما السابقون فقد مضوا ، ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين . ثم روى عنه فقال : قرأ الحسن ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ﴾ قال : ثلةٌ ممن مضى من هذه الأمة . وروي عن : محمد بن سيرين أنه قال في هذه الآية : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ◆ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ قال : كانوا يقولون أو يرجون ، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة .

فهذا قول الحسن وابن سيرين ، أن الجميع من هذه الأمة ، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم ، كل أمةٍ بحسبها ، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه : أن رسول الله ﷺ قال : «خيرُ القرون قرني[1] ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» الحديث بتمامه .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : «مثلُ أُمَّتي مَثَلُ الْمَطَرِ ، لاَ يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أم آخِرُهُ»[2] . فهذا الحديث بعد الحكم بصحة إسناده ، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم ، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها ، وتثبيت للناس على السنة ورواياتها ، وإظهارها والفضل للمتقدم ، وكذلك الزرع هو محتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني ، ولكن العمدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه آكد ، فإنه لولاه ما نبت في الأرض ، ولا تعلق أساسه فيها ، ولهذا قال ﷺ : «لا تَزَال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرُّهم من خذلهم ولا مَن خالفهم ، إلى

---

(١) سبق التنبيه على أن الحديث في الصحيحين وغيرهما بلفظ : «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي . . . .» انظر الجزء الثاني (ص ٢٨٧) .

(٢) رواه الترمذي (٣٠٤٢) من حديث أنس رضي الله عنه ، وصححه الألباني .

قيام الساعة» وفي لفظ: «حتى يأتي أمرُ الله تعالى وهم كذلك».

والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها، وأعلى منزلة، لشرف دينها وعظم نبيها، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر: أن في هذه الأمة سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وفي لفظ: «مع كل ألفٍ سبعون ألفاً».

١٥- وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ قال ابن عباس: أي: مرمولة بالذهب، يعني: منسوجة به. وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم وقتادة والضحاك وغيره، وقال السدي: مرمولة بالذهب واللؤلؤ. وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت، وقال ابن جرير: ومنه يُسمى وضين الناقة الذي تحت بطنها، وهو فعيل بمعنى مفعول، لأنه مظفور، وكذلك السرر في الجنة مضفورة بالذهب واللآلئ.

١٦- وقوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ أي: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحدٌ وراء أحد.

١٧- ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: مخلدون على صفة واحدة، لا يكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون.

١٨- ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أما الأكواب: فهي الكيزان، التي لا خراطيم لها ولا آذان، والأباريق: التي جمعت الوصفين، والكؤوس: الهنابات، والجميع من خمر من عينٍ جارية مَعين، ليس من أوعيةٍ تنقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة.

١٩- وقوله تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا تصدع رؤوسهم، ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المُطربة، واللذة الحاصلة. وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع والقيء والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال. وقال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطية وقتادة والسدي ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس، وقالوا في قوله: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا تَذهب بعقولهم.

٢٠- وقوله تعالى: ﴿وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها. وروى الحافظ أبو يعلى: عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه، إذا لم يكن يعرفه، فإذا أُثني عليه معروف، كان أعجبَ لرؤياه إليه، فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيت كأني أتيت فأُخْرِجْتُ من المدينة، فأدخلت الجنة، فسمعت وَجبة ارتجت لها الجنة فنظرت فإذا فلان بن فلان وفلان بن فلان، فسمَّت اثني عشر رجلاً كان النبي ﷺ قد بعثَ سرية قبل ذلك، فجيء بهم عليهم ثياب طُلسٌ، تَشْخَب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البيذخ أو البيدح، قال: فغُمسوا فيه فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فأتوا بصَحفةٍ من ذهب فيها بُسر، فأكلوا من بُسره ما شاءوا، فما يقبلونها من وجهٍ إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلتُ معهم، فجاء البشير من تلك السرية، فقال: كان من أمرنا كذا وكذا، فأُصيب فلان وفلان، حتى عدَّ اثني عشر رجلاً، فدعا رسول الله ﷺ المرأة فقال: «قُصِّي رُؤياك» فقصتها وجعلت تقول: فجيء بفلان وفلان، كما قال. هذا لفظ أبي يعلى قال الحافظ الضياء، وهذا على شرط مسلم.

٢١- ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ روى الإمام أحمد: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ طيرَ الجنة

كأمثال البُخت، يرعى في شجر الجنة» فقال أبوبكر: يا رسول الله، إنَّ هذا لطير ناعمة، فقال: «أكَلَتُها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها» انفرد به أحمد من هذا الوجه.

وروى أبو بكر بن أبي الدنيا: عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: «نهرٌ أعطانيه ربي عز وجل في الجنة، أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العَسل، فيه طيورٌ أعناقها يعني كأعناق الجُزُر» فقال عمر: إنها لناعمة، قال رسول الله ﷺ: «آكلها أنعم منها» وكذا رواه الترمذي.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرأ بعضهم بالرفع، وتقديره: ولهم فيها حور عين. وقراءة الجر تحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله، كقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ◆ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ◆ لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ◆ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ◆ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ◆ وَحُورٌ عِينٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ وكما قال تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾. والاحتمال الثاني: أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم: الحور العين، ولكن يكون ذلك في القصور لا بين بعضهم بعضاً، بل في الخيام يطوف عليهم الخدام بالحور العين، والله أعلم.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه، كما تقدم في سورة الصافات ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ وقد تقدم في سورة الرحمن وصفهن أيضاً.

٢٤- ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: هذا الذي أتحفناهم به، مجازاةً لهم على ما أحسنوا من العمل.

٢٥، ٢٦- ثم قال تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ◆ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾ أي: لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً، أي: عبثاً خالياً عن المعنى، أو مشتملاً على معنى حقير أو ضعيف، كما قال: ﴿لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً﴾ أي: كلمة لاغية ﴿وَلاَ تَأْثِيماً﴾ أي: ولا كلاماً فيه قبح ﴿إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾ أي: إلا التسليم منهم على بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾ وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ (٤٠)﴾

٢٧- لما ذكر تعالى مآل السابقين، وهم: المقربون، عطَف عليهم بذكر أصحاب اليمين، وهم الأبرار، كما قال ميمون بن مهران: أصحاب اليمين منزلتهم دون المقربين، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ إلى أي شيء أصحاب اليمين، وما حالهم وكيف مآلهم.

ثم فسر ذلك فقال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو الأحوص وقسامة ابن زهير والسفر بن قيس والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسدي وأبو حزرة وغيرهم: هو الذي لا شوك فيه، وعن ابن عباس: هو الموقر بالثمر، وهو رواية عن عكرمة ومجاهد، وكذا قال قتادة أيضاً: كنا نحدث أنه الموقر الذي لا شوك فيه، والظاهر أن المراد: هذا وهذا، فإنَّ سدر الدنيا كثير الشوك، قليل الثمر، وفي الآخرة على

العكس من هذا، لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله، كما روى الحافظ أبو بكر أحمد بن سلمان النجاد: عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يوما فقال: يا رسول الله، ذكرَ الله في الجنة شجرةً تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: «وما هي؟» قال: السدر، فإن له شوكاً مؤذياً، فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله تعالى يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خضَدَ الله شوكه، فجعل مكانَ كلِّ شوكةٍ ثمرة، فإنها لتُنبتُ ثمراً تفتَّق الثمرةُ منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام، ما فيها لونٌ يُشبه الآخر».

٢٩- وقوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح: شجرٌ عِظام يكون بأرض الحجاز، من شجر العضاه، واحدته طلحة، وهو شجر كثير الشوك.

وقال مجاهد ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: مُتراكم الثمر، يذكِّر بذلك قريشاً، لأنهم كانوا يعجبون من «وَجٍّ» وظلاله من طلح وسدر. وقال السدي: منضود: مصفود. قال ابن عباس يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل، قال الجوهري. والطلح لغة في الطلع **(قلت)** وقد روى ابن أبي حاتم: عن شيخ من همدان قال: سمعت علياً يقول: هذا الحرف في ﴿طَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال: طلع منضود. فعلى هذا يكون من صفة السدر، فكأنه وصفه بأنه مخضود، وهو الذي لا شوك له، وأن طلعه منضود، وهو كثرة ثمره، والله أعلم.

وروى ابن أبي حاتم: عن أبي سعيد ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال: الموز، قال: وروي عن ابن عباس وأبي هريرة والحسن وعكرمة وقسامة ابن زهير وأبي قتادة وأبي حزرة مثل ذلك، وبه قال مجاهد وابن زيد، وزاد فقال: أهل اليمن يسمون الموز الطلح، ولم يحكِ ابن جرير غير هذا القول.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ روى البخاري: عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنة شجرةً يسير الراكبُ في ظلِّها مائةَ عامٍ لا يقطعها، اقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾» ورواه مسلم.

أخرج البخاري ومسلم: من حديث أبي سعيد وسهل بن سعد: عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنة شجرةً، يسير الراكبُ الجوادَ الـمُضَمَّر السريع مائةَ عام، ما يقطعها» فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، بل متواترٌ مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد، لتعدد طرقه وقوة أسانيده، وثقة رجاله.

وروى الترمذي: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في الجنةِ شجرةٌ، إلا ساقها ذهبٌ».

وقال الضحاك والسدي وأبو حزرة: لا ينقطع، ليس فيها شمسٌ ولا حر، مثل قبل طلوع الفجر، وقال ابن مسعود: الجنة سَجسَج، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وقد تقدمت الآيات كقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاً ظَلِيلاً﴾ وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ وقوله: ﴿فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

٣١- وقوله تعالى: ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ قال الثوري: يجري في غير أخدود. وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية، بما أغنى عن إعادته ههنا.

٣٢، ٣٣- وقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: وعندهم من الفواكه الكثيرة، المتنوعة في الألوان، مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ أي: يشبه الشكل الشكل، ولكن الطعم غير الطعم، وفي الصحيحين: في ذكر سدرة المنتهى «فإذا ورقها كآذان الفيلة، وَنبْقها مِثل قِلال هَجَر».

وفيهما أيضاً: من حديث ابن عباس قال: خَسَفت الشمسُ فصلى رسول الله ﷺ والناس معه، فذكر الصلاة، وفيه: قالوا يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تَكَعكَعْتَ، قال: إني رأيتُ الجنة فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا».

وروى الإمام أحمد: عن عتبة بن عبد السلمي يقول: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الحوض وذكر الجنة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهة. قال: نعم، وفيها شجرة تُدعى طُوبى. قال: فذكر شيئاً لا أدري ما هو، قال: أي شجر أرضنا تُشبه؟ قال: ليست تُشبه شيئاً من شجر أرضك؟ فقال النبي ﷺ: «أتيتَ الشام؟» قال: لا، قال: تشبه شجرةً بالشام تُدعى الجَوزة، تَنبتُ على ساق واحد، ويَنفرشُ أعلاها. قال: ما عظم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع، ولا يفتر». قال: ما عِظمُ أصلها؟ قال: لو ارتحلتَ جذَعةً من إبل أهلكَ ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر تُرقوتها هَرماً. قال: فيها عنبٌ؟ قال: «نعم». قال: فما عِظم الحبة؟ قال: «هل ذبحَ أبوك تيساً من غَنمه قطُّ عظيماً؟» قال: نعم، قال: «فسلخ إهابه فأعطاه أمكَ، فقال: اتخذي لنا منه دلواً؟». قال: نعم، قال الأعرابي: فإن تلك الحبة لتُشبعني وأهلَ بيتي؟ قال: «نعم وعامة عشيرتك».

وقوله تعالى: ﴿لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: لا تنقطع شتاءً ولا صيفاً، بل أُكُلُهَا دائمٌ مستمر أبداً، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء. وقال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عُودٌ ولا شوك ولا بُعد.

٣٤- وقوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: عالية وطيئة ناعمة.

٣٥- ٣٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ◆ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ◆ عُرُباً أَتْرَاباً ◆ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ جرى الضمير على غير مذكور، لكن لما دل السياق، وهو ذكر الفرش، على النساء اللاتي يضاجعن فيها، اكتفى بذلك عن ذكرهنَّ، وعاد الضمير عليهن، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ◆ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعني: الشمس على المشهور من قول المفسرين، وقال الأخفش في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أضمرهن ولم يذكرن قبل ذلك. وقال أبو عبيدة: ذكرن في قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ◆ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ أي: أعدناهن في النشأة الأخرى، بعد ما كُنَّ عجائزَ رُمْصا صرن أبكاراً عربا، أي: بعد الثيوبة عدن أبكاراً، عرباً: متحببات إلى أزواجهن، بالحلاوة والظرافة والملاحة، وقال بعضهم: عرباً: أي: غَنجات.

وروى عبد بن حميد: عن الحسن قال: أَتت عجوز فقالت: يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة، فقال: «يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز» قال: فولَّت تبكي، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ◆ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾». وهكذا رواه الترمذي في الشمائل.

وروى عبد الله بن وهب: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال له: أنطأ في الجنة؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده دَحْماً دَحْماً، فإذا قام عنها رجعت مطهَّرة بكراً».

وروى أبو داود الطيالسي: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء» قلت: يا رسول الله، ويطيقُ ذلك؟ قال: «يُعطى قوة مائة» ورواه الترمذي.

وروى أبو القاسم الطبراني: عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، هل نصلُ إلى نسائنا في الجنة؟ قال:

«إنَّ الرجل ليصلُ في اليوم إلى مائة عذراء» قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: هذا الحديث عندي على شرط الصحيح، والله أعلم.

وقوله: ﴿عُرُبًا﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني: متحببات إلى أزواجهن، ألم تر إلى الناقة الضبعة، هي كذلك، وقال الضحاك عن ابن عباس: العُرُب: العواشق لأزواجهن، وأزواجهن لهن عاشقون. وكذا قال عبد الله بن سرجس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية ويحيى بن أبي كثير وعطية والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم، وعن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿عُرُبًا﴾ قال: هي المَلِقةُ لزوجها. وعن عكرمة: هي الغَنِجة. وعنه: هي الشَّكِلة. وقال تميم بن حذلم: هي حسن التبعل، وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن: العُرُب: حسنات الكلام.

وقوله: ﴿أَتْرَابًا﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: يعني في سن واحدة، ثلاثٍ وثلاثين سنة، وقال مجاهد: الأتراب المستويات، وفي رواية عنه: الأمثال، وقال عطية: الأقران، وقال السدي ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: في الأخلاق، المتواخيات بينهن ليس بينهن تباغض ولا تحاسد، يعني: لا كما كُنَّ ضرائرَ متعاديات.

وروى الحافظ أبو يعلى: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الحُور العين ليُغنين في الجنة، يقلن نحن خيراتٌ حسانٌ، خُبِّئنا لأزواج كرام».

وقوله تعالى: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: خلقن لأصحاب اليمين، أو ادُّخرنَ لأصحاب اليمين، أو زُوجن لأصحاب اليمين، والأظهر أنه متعلق بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۝ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ فتقديره: أنشأناهنَّ لأصحاب اليمين، وهذا توجيه ابن جرير. قلت: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ متعلقاً بما قبله، وهو قوله: ﴿أَتْرَابًا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: في أسنانهم، كما في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ زُمرةٍ يَدْخُلون الجنة عَلى صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكبٍ دُري في السماء إضاءة، لا يبُولون ولا يتغوَّطون ولا يَتْفلون ولا يتمخَّطون، أمشاطهم الذهب، ورشْحهم المسك، ومَجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، وأخلاقهم على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستُّون ذراعاً في السماء».

وروى الترمذي: من حديث معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ قال: «يدخلُ أهلُ الجنة الجنة جُرداً مُرداً مُكحَّلين، بني ثلاث وثلاثين سنة».

وروى أبوبكر بن أبي الدنيا: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل أهلُ الجنة الجنةَ على طولِ آدم، ستين ذراعاً بذراع الملك، على حُسن يوسف، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة، وعلى لسان محمد، جُرْدٌ مُردٌ مكحَّلون».

وروى أبو بكر بن أبي داود: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعثُ أهلُ الجنة على صورة آدم، في ميلاد عيسى، ثلاث وثلاثين، جُرداً مُرداً مكحلين، ثم يُذهب بهم إلى شجرةٍ في الجنة، فيُكسون منها، لا تَبلى ثيابُهم، ولا يفنى شبابهم».

وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: جماعةٌ من الأولين، وجماعة من الآخرين.

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا

بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾

٤١- لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ أي: أي شيء هم فيه أصحاب الشمال؟

٤٢- ثم فسَّر ذلك فقال: ﴿فِي سَمُومٍ﴾ وهو: الهواء الحار، ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وهو الماء الحار.

٤٣- ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ قال ابن عباس: ظل الدخان. وكذا قال مجاهد وعكرمة وأبو صالح وقتادة والسدي وغيرهم، وهذه كقوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ◆ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ◆ لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ◆ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ◆ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ◆ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ وهو: الدخان الأسود.

٤٤- ﴿لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ أي: ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر، ، كما قال الحسن وقتادة ﴿وَلا كَرِيمٍ﴾ أي: ولا كريم المنظر. وقال الضحاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم.

وقال ابن جرير: العرب تتبع هذه اللفظة في النفي، فيقولون: هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم، وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة. وكذا رواه ابن جرير من طريقين آخرين عن قتادة به نحوه.

٤٥- ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين، مقبلين على لذات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل.

٤٦- ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ أي: يقيمون ولا يتوبون توبة ﴿عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الكفر بالله، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله، قال ابن عباس: الحنث العظيم: الشرك. وكذا قال مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم. وقال الشعبي: هو اليمين الغموس.

٤٧، ٤٨- ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ◆ أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ يعني: أنهم يقولون ذلك مكذبين به، مستبعدين لوقوعه.

٤٩، ٥٠- قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ◆ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: أخبرهم يا محمد، أن الأولين والآخرين من بني آدم، سيُجمعون إلى عَرَصات القيامة، لا يغادر منهم أحداً، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ◆ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ◆ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: هو مؤقَّت بوقتٍ محدود، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص.

٥١ - ٥٣- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ◆ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ◆ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ وذلك أنهم يقبضون ويُسْجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم، حتى يملأوا منها بطونهم.

٥٤ ، ٥٥- ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ◆ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ وهي الإبل العطاش، واحدها: أهيم، والأنثى هيماء، ويقال: هائم وهائمة. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة: الهيم: الإبل العطاش الظماء، وعن عكرمة أنه قال: الهيم الإبل المراض، تمص الماء مصاً ولا تروى. وقال السدي: الهيم داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً.

وعن خالد بن معدان: أنه كان يكره أن يشرب شرب الهيم، غبّة واحدة من غير أن يتنفس ثلاثاً.

٥٦- ثم قال تعالى: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: هذا الذي وصفنا، هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال تعالى في حق المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ أي: ضيافة وكرامة.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾

٥٧- يقول تعالى مقرراً للمعاد، وراداً على المكذِّبين به من أهل الزيغ والإلحاد، من الذين قالوا ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد، فقال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، أفليس الذي قدر على البداءة، بقادرٍ على الإعادة، بطريق الأولى والأحرى؟ ولهذا قال: ﴿فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ﴾ أي: فهلا تصدقون بالبعث؟

٥٨ ، ٥٩- ثم قال تعالى مستدلاً عليهم بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ◆ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ أي: أنتم تقرُّونه في الأرحام وتخلقونه فيها، أم الله الخالق لذلك؟

٦٠- ثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ أي: صرَّفناه بينكم. وقال الضحاك: ساوى فيه بين أهل السماء والأرض ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: وما نحن بعاجزين.

٦١- ﴿عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: نغير خلقكم يوم القيامة ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: من الصفات والأحوال.

٦٢- ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة - وهي البداءة - قادرٌ على النشأة الأخرى، وهي الإعادة، بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ◆ وضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ◆ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ◆ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ◆ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ◆ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ◆ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾.

﴿ أفرأيتم ما تحرثون (٦٣) أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٦٤) لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون (٦٥) إنا لمغرمون (٦٦) بل نحن محرومون (٦٧) أفرأيتم الماء الذي تشربون (٦٨) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون (٦٩) لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون (٧٠) أفرأيتم النار التي تورون (٧١) أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون (٧٢) نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين (٧٣) فسبح باسم ربك العظيم (٧٤) ﴾

٦٣- يقول تعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ وهو شق الأرض وإثارتها، والبذر فيها.

٦٤- ﴿أأنتم تزرعونه﴾ أي: تنبتونه في الأرض ﴿أم نحن الزارعون﴾ أي: بل نحن الذي نقره قراره، وننبته في الأرض.

روى ابن جرير: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولنَّ زرعتُ، ولكن قل: حرثتُ» قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ ورواه البزار.

وروى ابن أبي حاتم: عن حجر المدري: أنه كان إذا قرأ: ﴿أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ وأمثالها يقول: بل أنت يا رب.

٦٥- وقوله تعالى: ﴿لو نشاء لجعلناه حطاما﴾ أي: نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمة بكم و﴿لو نشاء لجعلناه حطاما﴾ أي: لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ﴿فظلتم تفكهون﴾.

٦٦، ٦٧- ثم فسر ذلك بقوله: ﴿إنا لمغرمون * بل نحن محرومون﴾ أي: لو جعلناه حطاماً، لظللتم تفكهون في المقالة، تنوعون كلامكم، فتقولون تارة ﴿إنا لمغرمون﴾ أي: لملقون. وقال مجاهد وعكرمة: إنا لموقع بنا. وقال قتادة: معذبون. وتارة تقولون: بل نحن محرومون، وقال مجاهد أيضاً: إنا لمغرمون: ملقون للشر. أي: بل نحن مُحارفون. قاله قتادة: أي: لا يثبت لنا مال، ولا ينتج لنا ربح. وقال مجاهد: بل نحن محرومون أي: مجدودون يعني: لا حظ لنا. قال ابن عباس ومجاهد ﴿فظلتم تفكهون﴾ تعجبون. وقال مجاهد أيضاً: تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم. وهذا يرجع إلى الأول، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في مالهم، وهذا اختيار ابن جرير. وقال عكرمة: فظلتم تفكهون: تلاومون. وقال الحسن وقتادة والسدي: فظلتم تفكهون: تندمون. ومعناه: إما على ما أنفقتم أو على ما أسلفتم من الذنوب. قال الكسائي: تفكه من الأضداد، تقول العرب: تفكهت بمعنى تنعمت، وتفكهت بمعنى حزنت.

٦٨- ٦٩- ثم قال تعالى: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن﴾ يعني: السحاب، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد ﴿أم نحن المنزلون﴾ يقول: بل نحن المنزلون.

٧٠- ﴿لو نشاء جعلناه أجاجا﴾ أي: زُعاقاً مراً، لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿فلولا تشكرون﴾ أي: فهلا تشكرون نعمة الله عليكم، في إنزاله المطر عليكم عذباً زلالاً ﴿لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾.

٧١- ثم قال: ﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾ أي: تَقْدحون من الزناد، وتستخرجونها من أصلها.

٧٢- ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ أي: بل نحن الذين جعلناها مُودعة في موضعها. وللعرب شجرتان: إحداهما: المرخ، والأخرى: العَفار، إذا أخذ منها غصنان أخضران، فحُك أحدهما بالآخر، تناثر بينهما شرر النار.

٧٣- وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ قال مجاهد وقتادة: أي: تذكر النار الكبرى.

وروى الإمام مالك عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «نارُ بني آدم التي يوقدون، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، فقال: «إنها قد فُضِّلت عليها بتسعةٍ وستين جزءاً» رواه البخاري ومسلم.

وفي لفظ: «والذي نفسي بيده، لقد فُضلت عليها بتسعةٍ وستين جزءاً، كلهُنَّ مثل حرِّها».

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والنضر بن عربي: يعني بالمقوين: المسافرين. واختاره ابن جرير، وقال: ومنه قولهم: أقوت الدار إذا رحل أهلها.

وقال غيره: القيّ والقواء: القفر الخالي البعيد من العمران. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقوي ههنا: الجائع، وابن أبي سليم عن مجاهد ﴿وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ﴾: للحاضر والمسافر، لكل طعام لا يصلحه إلا النار. وعنه: للمقوين: يعني المستمتعين من الناس أجمعين. وكذا ذكر عن عكرمة.

وهذا التفسير أعم من غيره، فإنَّ الحاضر والبادي من غنى وفقير، الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة، وغير ذلك من المنافع، ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار وخالص الحديد، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناراً، فأطبخ بها واصطلى بها واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، فلهذا أفرد المسافرون، وإنْ كان ذلك عاماً في حق الناس كلهم.

وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود: عن رجل من المهاجرين من قَرَن: أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمون شركاءُ في ثلاثة: النارُ والكلأ والماء».

٧٤- وقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة، الماء الزلال العذب البارد، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً، كالبحار المغرقة، وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزجراً لهم في المعاد.

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾

٧٥- قال جويبر عن الضحاك: إن الله تعالى لا يقسم بشيء من خلقه، ولكنه استفتاح يستفتح به كلامه! وهذا القول ضعيف، والذي عليه الجمهور أنه قسمٌ من الله تعالى، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته، ثم قال بعض المفسرين: «لا» ههنا زائدة، وتقديره: أقسم بمواقع النجوم. رواه ابن جرير عن سعيد بن جبير، ويكون جوابه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾.

وقال آخرون: ليست «لا» زائدة لا معنى لها، بل يُؤتى بها في أول القسم، إذا كان مقسماً به على منفي، كقوله عائشة رضي الله عنها: لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط.

وهكذا ههنا تقدير الكلام: لا أقسم بمواقع النجوم، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم. وقال ابن جرير: وقال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ فليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد ذلك فقيل: أقسم.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني: نجوم القرآن، فإنه نزل جُملةً ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً في السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية. وقال الضحاك عن ابن عباس: نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ، إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجَّمته السفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجَّمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة، فهو قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ نجوم القرآن، وكذا قال عكرمة ومجاهد والسدي وأبو حزرة.

وقال مجاهد أيضاً: مواقع النجوم في السماء، ويقال: مطالعها ومشارقها. وكذا قال الحسن وقتادة وهو اختيار ابن جرير، وعن قتادة: مواقعها منازلها، وعن الحسن أيضاً: أن المراد بذلك انتثارها يوم القيامة.

وقال الضحاك ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني: بذلك الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مطروا، قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا.

٧٦- وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي: وإن هذا القسم الذي أقسمتُ به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته، لعظمتم المقسم به عليه.

٧٧- ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم.

٧٨- ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي: مُعظَّم في كتاب محفوظ موقر.

٧٩- وقال العوفي عن ابن عباس ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ يعني الملائكة، وكذا قال أنس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو الشعثاء جابر بن زيد وأبو نهيك والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

روى ابن جرير: عن قتادة ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس، والمنافق الرجس، قال: وهي في قراءة ابن مسعود ﴿مَا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾.

وقال أبو العالية ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ ليس أنتم، أنتم أصحاب الذنوب. وقال ابن زيد: زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۞ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۞ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾. وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله. وقال الفراء: لا يجد طَعمه ونفعه، إلا من آمن به.

وقال آخرون ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: من الجنابة والحدث، قالوا: ولفظ الآية خبرٌ، ومعناها الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف، كما روى مسلم: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يُسافَر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو. واحتجوا في ذلك: بما رواه الإمام مالك في موطئه: عن عبد الله ابن أبي بكر بن محمد عن عمرو بن حزم: أن في الكتاب الذي كتَبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: أن «لا يمس

القرآن إلا طاهر» ورواه أبو داود في المراسيل، وهذه وجادة جيدة.

٨٠- وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس هو كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع.

٨١- ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: أي: مكذبون غير مصدقين، وكذا قال الضحاك وأبو حزرة والسدي، وقال مجاهد ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ أي: تريدون أن تمالئوهم فيه، وتركنوا إليهم.

٨٢- ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال بعضهم: معنى وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم، أنكم تكذبون، أي: تكذبون بدل الشكر، وقد روي عن علي وابن عباس أنهما قرآها: ﴿وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ كما سيأتي.

وروى الإمام أحمد: عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَتجعلون رزقكم، يقول: شكركم، أنكم تكذبون، تقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا» وهكذا رواه ابن أبي حاتم.

وروى ابن جرير: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: مَا مُطر قومٌ قط، إلا أصبح بعضهم كافراً، يقولون: مُطرنا بنوءِ كذا وكذا، وقرأ ابن عباس ﴿وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس.

وروى مالك في الموطأ: عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هَل تَدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأما مَن قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمنٌ بالكوكب» أخرجاه في الصحيحين وأبو داود والنسائي.

وروى مسلم: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أنزل اللهُ من السماء من بركةٍ، إلا أصبحَ فريقٌ من الناس بها كافرين، يُنزل الله الغيث فيقولون: بكوكب كذا وكذا» انفرد به مسلم من هذا الوجه.

وقال مجاهد ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: قولهم في الأنواء: مُطرنا بنوء كذا وبنوء كذا، يقول: قولوا: هو من عند الله، وهو رزقه. وهكذا قال الضحاك وغير واحد. وقال قتادة: أما الحسن فكان يقول: بئس ما أخذ قومٌ لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب. فمعنى قول الحسن هذا: وتجعلون حظكم من كتاب الله، أنكم تكذبون به، ولهذا قال قبله: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

٨٣- يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: الروح ﴿الْحُلْقُومَ﴾ أي: الحلق، وذلك حين الاحتضار، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۝ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۝ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾.

٨٤- ولهذا قال ههنا: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أي: إلى المحتضر، وما يكابده من سكرات الموت.

٨٥- ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي: بملائكتنا ﴿وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي: ولكن لا ترونهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۞ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

٨٦، ٨٧- وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۞ تَرْجِعُونَهَا﴾ معناه: فهلا ترجعون هذه النفس، التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرها من الجسد، إن كنتم غير مدينين، قال ابن عباس: يعني: محاسبين. وروي عن مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والسدي وأبي حزرة مثله.

وقال سعيد بن جبير والحسن البصري ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون، فردوا هذه النفس. وعن مجاهد ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ غير موقنين، وقال ميمون بن مهران: غير معذبين مقهورين.

﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾

٨٨- هذه الأحوال الثلاثة، هي أحوال الناس عند احتضارهم، إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين، وإما أن يكون من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ﴾ أي: المحتضر ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وبعض المباحات.

٨٩- ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ أي: فلهم روحٌ وريحان، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، كما تقدم في حديث البراء: «أن ملائكة الرحمة تقول: أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان». قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿فَرَوْحٌ﴾ يقول: راحة وريحان، يقول: مستراحة. وكذا قال مجاهد: إن الرَّوح الاستراحة، وقال أبو حزرة: الراحة من الدنيا، وقال سعيد بن جبير والسدي: الروح: الفرح. وعن مجاهد ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ جنة ورخاء، وقال قتادة: فروح فرحمة. وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير: وريحان: ورزق.

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإنَّ من مات مقربًا، حصل له جميع ذلك، من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور، والرزق الحسن.

﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ قال محمد بن كعب: لا يموت أحدٌ من الناس حتى يعلم من أهل الجنة هو، أم من أهل النار؟ وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ ولو كتبت ههنا لكان حسناً، وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية.

روى الإمام أحمد: عن عائشة: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ برفع الراء. وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي. وهذه القراءة هي قراءة يعقوب وحده، وخالفه الباقون فقرؤوا ﴿فَرَوْحٌ

﴿وَرَيْحَانٌ﴾ بفتح الراء.

وروى الإمام أحمد: عن أم هانئ: أنها سألت رسول الله ﷺ: أنتزاور إذا متنا، ويرى بعضنا بعضاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «يكون النَّسم طيراً يعلُق بالشجر، حتى إذا كان يوم القيامة دخلتْ كلُّ نفسٍ في جسدها» هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن، ومعنى يعلق: يأكل، ويشهد له بالصحة أيضاً: ما رواه الإمام أحمد: عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي عن الإمام مالك بن أنس عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه: عن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمةُ المؤمن طائرٌ يَعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه اللهُ إلى جسده يوم يبعثه». وهذا إسناد عظيم، ومتن قويم.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أرواح الشُّهداء في حواصل طيور خُضر، تَسْرح في رياض الجنة، حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش» الحديث.

وروى الإمام أحمد: عن عطاء بن السائب قال: كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى، رأيتُ شيخاً أبيض الرأس واللحية، على حمار هو يتبع جنازة، فسمعته يقول: حدثني فلان بن فلان: سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَن أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» قال: فأكب القوم يبكون، فقال: «ما يبكيكم؟» فقالوا: إنا نكره الموت، قال: ليس ذاك، ولكنه إذا احتضر ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ فإذا بُشِّر بذلك أحبَّ لقاء الله عز وجل، والله عز وجل للقائه أحبُّ، ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۞ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۞ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ فإذا بُشِّر بذلك، كره لقاء الله، والله تعالى للقائه أكره، هكذا رواه الإمام أحمد. وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها شاهد لمعناه.

٩٠- وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: تبشرهم الملائكة بذلك، تقول لأحدهم: سلامٌ لك، أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين. وقال قتادة وابن زيد: سلم من عذاب الله، وسلمت عليه ملائكة الله. كما قال عكرمة: تسلم عليه الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين. وهذا معنى حسن، ويكون ذلك كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

وقال البخاري ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ﴾ أي: مسلم لك، أنك من أصحاب اليمين، وألغيت «أن» وبقي معناها كما تقول أنت مصدق مسافر عن قليل، إذا كان قد قال: إني مسافر عن قليل، وقد يكون كالدعاء له، كقولك: سقيا لك من الرجال، إن رفعت «السلام» فهو من الدعاء، وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية ومال إليه، والله أعلم.

٩٢- ٩٤- وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۞ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۞ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى ﴿فَنُزُلٌ﴾ أي: فضيافة ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو المذاب، الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته.

٩٥- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: إن هذا الخبر لهو حق اليقين، الذي لا مرية فيه، ولا

محيد لأحد عنه.

٩٦- ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال: «اجْعلوها في رُكوعِكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» وكذا رواه أبو داود وابن ماجة.

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال سُبحان الله العظيم وبحمده، غُرست له نخلة في الجنة» هكذا رواه الترمذي والنسائي.

وروى البخاري في آخر كتابه: عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود.

آخر تفسير سورة الواقعة

****

ترتيبها ٥٧	سورة الحديد ـ مدنية	آياتها ٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾

١- يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض، أي: من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأخرى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي قد خضع له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره وشرعه.

٢- ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المالك المتصرف في خلقه، فيحيي ويميت، ويعطي من يشاء ما يشاء ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

٣- وقوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ وهذه الآية هي المشار إليها في حديث عرباض ابن سارية: أنها أفضل من ألف آية[1]. وروى أبو داود: عن أبي زميل قال: سألت ابن عباس فقلت: ما شيءٌ أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله لا أتكلم به، قال: فقال لي: أشيءٌ من شك؟ قال: وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية، قال: وقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو بضعة عشر قولاً. وقال البخاري: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً. وقال شيخنا الحافظ المزي: يحيى هذا، هو ابن زياد الفراء، له كتاب سماه «معاني القرآن». وقد ورد في ذلك أحاديث: فمن ذلك ما قال الإمام أحمد: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «اللهمَّ ربَّ السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شيءٍ، مُنزلَ التَّوراةِ والإنجيل والفرقان، فالق الحبِّ والنَّوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول ليس قبلك شيء، وأنت الآخر ليس بعدك شيء، وأنت الظَّاهرُ ليس فوقك شيء، وأنت الباطنُ ليس دونك شيء، اقضِ عنَّا الدَّين وأغننا من الفقر» ورواه مسلم في صحيحه.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي

(١) لم يثبت الحديث، ولذا حذفناه من هذا التهذيب

﴿اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)﴾

٤- يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها، في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته ههنا. وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ أي: يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وزرع وثمار، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يعلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَ يعلمُ ما في البَرِّ وَ البَحرِ وَ ما تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلاَّ في كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من الأمطار، والثلوج والبرد، والأقدار، والأحكام، مع الملائكة الكرام، وقد تقدم في سورة البقرة أنه ما ينزل من قطرة من السماء، إلا ومعها ملك يقررها في المكان الذي يأمر الله به حيث يشاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: من الملائكة والأعمال، كما جاء في الصحيح: «يُرفعُ إليه عمل الليل قبل النهار، وعملُ النهار قبل الليل».

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث كنتم، وأين كنتم من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو في القفار، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهم لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتغشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عليمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هوَ مُسْتخفٍ بالليلِ وَساربٌ بالنَّهارِ﴾ فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان: «أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وروى الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: عن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: زوِّدني حكمةً أعيش بها، فقال: «استحِ اللهَ، كما تستحيي رجلاً من صالحي عشيرتك لا يفارقك».

وروى أبو نعيم: من حديث عبد الله بن علوية العامري مرفوعاً: «ثلاث من فعلهن فقد طعمَ الإيمان: إن عبد الله وحده، وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا الشَّرط اللئيمة، ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم، وزكّى نفسه» وقال رجل: يا رسول الله، ما تزكية المرء نفسه؟ فقال: «يعلم أن الله معه حيث كان».

وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين:

إذا مَا خلوتَ الدَّهر يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعة ولا أن مَا تخفى عليه يغيب

٥- وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ أي: هو المالك للدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ وهو المحمود على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾ وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فجميع ما ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِ الرَّحْمَنِ عَبْداً ۞ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ

عَدّاً ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾ ولهذا قال: ﴿ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أي: إليه المرجع يوم القيامة، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، بل إن يكن عمل أحدُهم حسنة واحدة، يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾.

٦- وقوله تعالى: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أي: هو المتصرف في الخلق، يقلب الليل والنهار، ويقدرهما بحكمته، كما يشاء فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتارة يكون الفصل شتاء، ثم ربيعاً، ثم قيظاً، ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره، لما يريده بخلقه ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي: يعلم السرائر وإن دقت، وإن خفيت.

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) ﴾

٧- أمر تبارك وتعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه، أي: مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم، ثم صار إليكم، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه، وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه.

وقوله تعالى: ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان.

روى الإمام أحمد: عن مطرف يعني ابن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «ألهاكم التكاثر؛ يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت» ورواه مسلم وزاد: «وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للناس».

وقوله تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ترغيب في الإيمان، والإنفاق في الطاعة.

٨- ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان، والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ

﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ويعني بذلك: بيعة الرسول ﷺ. وزعم ابن جرير أن المراد بذلك: الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم، وهو مذهب مجاهد، فالله أعلم.

٩- وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: حججاً واضحات، ودلائل باهرات، وبراهين قاطعات ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة، إلى نور الهدى واليقين ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: في إنزاله الكتاب، وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزاحة العلل وإزالة الشبه.

١٠- ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق، ثم حثهم على الإيمان، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه، حثهم أيضاً على الإنفاق فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً، فإن الذي أنفقتم في سبيله، هو مالك السموات والأرض، وبيده مقاليدهما، وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وقال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ فمن توكل على الله أنفق، ولم يخش من ذي العرش إقلالا، وعَلِم أن الله سيُخلفه عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أي: لا يستوي هذا، ومن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ والجمهور على أن المراد بالفتح ههنا: فتح مكة، وعن الشعبي وغيره: أن المراد بالفتح ههنا صلح الحديبية، وقد يستدل لهذا القول بما رواه الإمام أحمد: عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحدٍ أو مثل الجبال ذهباً، ما بلغتم أعمالهم».

ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب، كان بين صلح الحديبية وفتح مكة، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جذيمة، الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك؛ والذي في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثلَ أُحُدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه».

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ يعني: المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهكذا الحديث الذي في الصحيح: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خيرٌ».

وإنما نبَّه بهذا، لئلا يهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر، فيتوهم متوهم ذمَّه، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول، وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق، وفي الحديث: «سبق درهم مائة ألف»(١).

ولا شك عند أهل الإيمان، أن الصديق أبابكر رضي الله عنه، له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد مَن عَمل بها من سائر أمم الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها.

١١- وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق في سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال، والصحيح: أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة، وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: جزاء جميل، ورزق باهر، وهو الجنة يوم القيامة.

روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإنَّ الله ليُريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح» قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائطي - وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها - قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي، فقد أقرضتُه ربي عز وجل. وفي رواية: أنها قالت له: ربحَ بيعك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، وإن رسول الله ﷺ قال: «كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح».

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾

١٢- يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين، أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة، بحسب أعمالهم، كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه، يتَّقد مرَّة ويطفأ مرة، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

---

(١) حديث حسن، رواه النسائي (٥/ ٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وتمامه: قالوا: وكيف؟ قال: «كان لرجل درهمان، تصدق بأحدهما، وانطلق رجلٌ إلى عُرض ماله فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدَّق بها» وحسنه الألباني في السنن (٢٣٦٧).

وقال الضحاك: ليس أحداً لا يعطى نوراً يوم القيامة، فإذا انتهوا إلى الصراط طَفِئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون، أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين، فقالوا: ربنا أتمم لنا نورنا، وقال الحسن ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: على الصراط.

وقد روى ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى: عن أبي الدرداء وأبي ذر يخبران عن النبي ﷺ قال: «أنا أولُ من يُؤذن له يوم القيامة بالسُّجود، وأولُ من يُؤذنُ له برفع رأسه، فأنظر من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، فأعرفُ أمتي من بين الأمم، فقال له رجل: يا نبي الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، ما بين نوح إلى أمتك؟ فقال: «أعرفهم محجلون من أثر الوضوء، ولا يكون لأحدٍ من الأمم غيرهم، وأعرفهم يُؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم».

وقوله: ﴿وَبِأَيْمَانِهِم﴾ قال الضحاك: أي: وبأيمانهم كتبهم، كما قال: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وقوله: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: يقال لهم بشراكم اليوم جنات، أي: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبداً ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٣- وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات، من الأهوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله، وعمل بما أمر الله به، وترك ما عنه زجر. روى ابن أبي حاتم عن سليم بن عامر قال: خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلي فلما صلى على الجنازة، وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر، وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوَحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله، فتبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً، وهو المثل الذي ضربه الله تعالى في كتابه فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن، كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين، حيث قال: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ فيرجعون إلى المكان الذي قُسم فيه النور، فلا يجدون شيئاً، فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الآية، يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغتراً، حتى يقسم النور ويميز الله بين المنافق والمؤمن.

وقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ قال الحسن وقتادة: هو حائط بين الجنة والنار، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الذي قال الله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وهكذا روي عن مجاهد رحمه الله وغير واحد، وهو الصحيح. ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: الجنة وما فيها ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي: النار. قاله قتادة وابن زيد وغيرهما.

وقول كعب الأحبار إن الباب المذكور في القرآن هو «باب الرحمة» الذي هو أحد أبواب المسجد! فهذا من إسرائيلياته وترهاته، وإنما المراد بذلك: سورٌ يضرب يوم القيامة، ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة.

١٤- ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا، نشهد معكم الجمعات، ونصلي معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى قد كنتم معنا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ قال بعض السلف: أي فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت. وقال قتادة ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالحق وأهله ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: بالبعث بعد الموت ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أي: قلتم سيغفر لنا، وقيل: غرتكم الدنيا ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي: الشيطان، قال قتادة: كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار.

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: إنكم كنتم معنا، أي: بأبدان لا نية لها، ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك، فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً. قال مجاهد كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم، وكانوا معهم أمواتاً، ويعطون النور جميعاً يوم القيامة، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور، ويماز بينهم حينئذ.

وهذا القول من المؤمنين، لا ينافي قولهم الذي أخبر الله تعالى به عنهم، حيث يقول وهو أصدق القائلين ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ◆ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ◆ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ◆ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ◆ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ◆ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ◆ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ◆ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ◆ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ◆ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ.

١٥- ثم قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ كما قال ههنا: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً، ومثله معه، ليفتدي به من عذاب الله، ما قبل منه.

وقوله تعالى: ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: هي مصيركم، وإليها منقلبكم، وقوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: هي أولى بكم، من كل منزل، على كفركم وارتيابكم، وبئس المصير.

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) ﴾

١٦- يقول تعالى أما آن للمؤمنين أن تخشعَ قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة، وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له، وتسمع له وتطيعه. روى ابن أبي حاتم ومسلم: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا، وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية، إلا أربع سنين.

وقال قتادة ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما يرفع من الناس الخشوع».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين، أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم، من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً ونبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: في الأعمال، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: فسدت قلوبهم فقست، وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور، الأصلية والفرعية.

وقد قال ابن أبي حاتم: عن الربيع بن عميلة الفزاري قال: حدثنا عبد الله بن مسعود حديثاً ما سمعت أعجب إليَّ منه، إلا شيئاً من كتاب الله أو شيئاً قاله النبي ﷺ، قال: إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم واستلذته، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم فقالوا: تعالوا ندع بني إسرائيل إلى كتابنا هذا، فمن تابعنا عليه تركناه، ومَن كره أن يتابعنا قتلناه، ففعلوا ذلك، وكان فيهم رجل فقيه، فلما رأى ما يصنعون عمد إلى ما يعرف من كتاب الله فكتبه في شيء لطيف، ثم أدرجه فجعله في قرن، ثم علق ذلك القرن في عنقه، فلما أكثروا القتل قال بعضهم لبعض: يا هؤلاء إنكم قد أفشيتم القتل في بني إسرائيل، فادعوا فلاناً فاعرضوا عليه كتابكم، فإنه إن تابعكم فسيتابعكم بقية الناس، وإن أبى فاقتلوه، فدعوا فلاناً ذلك الفقيه، فقالوا: أتؤمن بما في كتابنا هذا؟ قال: وما فيه؟ اعرضوه عليَّ، فعرضوه عليه إلى آخره، ثم قالوا: أتؤمن بهذا؟ قال: نعم آمنت بما في هذا - وأشار بيده إلى القرن - فتركوه فلما مات فتشوه فوجدوه معلقاً ذلك القرن، فوجدوا فيه ما يعرف من كتاب الله فقال بعضهم لبعض: يا هؤلاء، ما كنا نسمع هذا أصابه فتنة، فافترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين ملة، وخير مللهم ملة أصحاب ذي القرن. قال ابن مسعود: وإنكم أوشك بكم إن بقيتم، أو بقي من بقي منكم أن تروا أموراً تنكرونها، لا تستطيعون لها غِيَر، فيحسب المرء منكم أن يعلم الله من قلبه أنه لها كاره. وروى أبو جعفر الطبري نحوه.

١٧- وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيى الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة، لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) ﴾

١٨- يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم، على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: دفعوه بنية خالصة، ابتغاء مرضاة الله، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً، ولهذا قال: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أي: يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ثواب جزيل حسن، ومرجع صالح، ومآب حسن.

١٩- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ هذا تمام الجملة وصف المؤمنين بالله ورسله، بأنهم صديقون، قال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ هذه مفصولة ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ وقال أبو الضحى بنحوه، وهكذا قال مسروق والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم.

وعن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال: هم ثلاثة أصناف: يعني المصدقين والصديقين والشهداء، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

ففرق بين الصديقين والشهداء، فدل على أنهما صنفان ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد، كما رواه الإمام مالك بن أنس رحمه الله في كتابه الموطأ: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغُرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدُّريَّ الغابرَ في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» اتفق البخاري ومسلم عليه.

وقال آخرون: بل المراد من قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء، حكاه ابن جرير عن مجاهد.

وقوله تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في جنات النعيم، كما جاء في الصحيحين: «إنَّ أرواح الشّهداء في حواصل طيرٍ خُضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربك اطلاعةً، فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نحب أن تردَّنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل فيك، فنُقتل كما قُتلنا أول مرة، فقال: إني قد قَضيتُ أنهم إليها لا يرجعون».

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: لهم عند الله أجر جزيل، ونور عظيم، يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء، وبيَّن حالهم.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ

غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (٢٠) سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٢١)﴾

٢٠- يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا، ومحقراً لها ﴿**إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد**﴾ أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها، هذا كما قال تعالى: ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب**﴾. ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا، في أنها زهرة فانية، ونعمة زائلة، فقال: ﴿**كمثل غيث**﴾ وهو: المطر، الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال تعالى: ﴿**وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**أعجب الكفار نباته**﴾ أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع، الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها ﴿**ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً**﴾ أي: يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً، أي: يصير يبساً متحطماً، هكذا الحياة الدنيا، تكون أولاً شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان يكون كذلك في أول عمره، وعنفوان شبابه، غضاً طرياً لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه، ويفقد بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿**الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير**﴾.

ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا، وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة لا محالة، حذّر من أمرها، ورغب فيما فيها من الخير، فقال: ﴿**وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾ أي: وليس في الآخرة الآتية القريبة، إلا إما هذا وإما هذا: إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان.

وقوله تعالى: ﴿**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾ أي: هي متاع فانٍ غارّ، لمن ركن إليه فإنه يغترّ بها وتعجبه، حتى يعتقد أن لا دار سواها، ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة.

روى ابن جرير: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لموضع سوطٍ في الجنة، خيرٌ من الدنيا وما فيها، اقرءوا: ﴿**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾» وهذا الحديث ثابت في الصحيح بدون هذه الزيادة، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «للجنة أقربُ إلى أحدكم من شِراك نَعْله، والنار مثل ذلك» انفرد بإخراجه البخاري في الرقاق.

ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك، فلهذا حثّه الله تعالى

على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتحصل له الثواب والدرجات.

٢١- فقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والمراد جنس السماء والأرض، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقال ههنا: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: هذا الذي أهّلهم الله له، هو من فضله ومنّه عليهم، وإحسانه إليهم، كما قدمنا في الصحيح: أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهبَ أهلُ الدُّثُور بالأجور، بالدرجات العلى والنعيم المقيم، قال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، قال: «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سَبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ تسبحون وتكبرون وتحمدون، دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء».

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) ﴾

٢٢- يخبر تعالى عن قدَره السابق في خَلقه، قبل أن يبرأ البريَّة، فقال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي: في الآفاق وفي نفوسكم ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أي: من قبل أن نخلق الخليقة، ونبرأ النسمة. وقال بعضهم: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ عائد على النفوس، وقيل: عائد على المصيبة، والأحسن عوده على الخليقة والبرية، لدلالة الكلام عليها، كما روى ابن جرير: عن منصور بن عبد الرحمن قال: كنت جالساً مع الحسن فقال رجل: سله عن قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ فسألته عنها، فقال: سبحان الله، ومن يشك في هذا؟ كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله، من قبل أن يبرأ النسمة. وقال قتادة: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: هي السنون، يعني: الجدب. ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ يقول: الأوجاع والأمراض، قال: وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم، ولا خلجان عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر(١).

وهذه الآية الكريمة العظيمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق - قبحهم الله.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقوله: «قدَّر الله المقادير، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة».

ورواه مسلم وزاد: «وكان عرشه على الماء» ورواه الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها، وكتابته لها طبق ما

---

(١) وقد ورد حديثاً مرفوعاً: «ما اختلجَ عِرقٌ ولا عينٌ إلا بذنب، وما يدفعُ الله عنه أكثر» رواه الطبراني في الأوسط - كما في مجمع البحرين (١١٥٠) - والصغير (٢/ ١٠٣) من حديث البراء بن عازب، وصححه الألباني.

يوجد في حينها، سهلٌ على الله عز وجل، لأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: أعلمناكم بتقدم علمنا، وسبق كتابنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم، لأنه لو قُدِّر شيءٌ لكان ﴿وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: جاءكم، وتفسير ﴿آتَاكُمْ﴾ أي: أعطاكم، وكلاهما متلازم. أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً، تفخرون بها على الناس.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال في نفسه متكبر، فخور أي: على غيره. وقال عكرمة: ليس أحدٌ إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً، و الحزن صبراً.

٢٤- ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي: يفعلون المنكر، ويحضون الناس عليه ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عن أمر الله وطاعته ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كما قال موسى عليه السلام ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾

٢٥- يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو النقل الصدق ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة، المخالفة للآراء السقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وقال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق والعدل، وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاؤا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ أي: صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤا غُرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي: وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق، وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وبينات ودلالات، فلما قامت الحجة على من خالف، شرعَ الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهام، لمن خالف القرآن وكذب به وعانده.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود: من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعثتُ بالسيفِ بين يدي الساعة، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تَحت ظلِّ رمحي، وجل الذِّلَّة والصَّغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم».

ولهذا قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: السلاح، كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع

ونحوها ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: في معايشهم، كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والأزميل والمجرفة، والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز، وما لا قوام للناس بدونه وغيره ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسوله ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾

٢٦، ٢٧- يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً، ولا أرسل رسولاً، ولا أوحى إلى بشر من بعده، إلا وهو من سلالته، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم، الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وهم الحواريون ﴿رَأْفَةً﴾ أي: رقة وهي الخشية ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالخلق.

وقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي: ابتدعها أمة النصارى ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبير وقتادة. والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك، إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله. وقوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل.

وروى ابن جرير وأبو عبد الرحمن النسائي واللفظ له: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ملوكٌ بعد عيسى عليه السلام بدّلت التوراة والإنجيل، فكان منهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل، فقيل لملوكهم: ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتموناه هؤلاء، إنهم يقرءون ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هذه الآيات، مع ما يعيبوننا به من أعمالنا في قراءتهم، فادعهم فليقرأوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمنا، فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل، أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك، دعونا! فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا اسطوانة، ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا، فلا نرد عليكم. وقالت طائفة: دعونا نسيح في الأرض ونهيم، ونشرب كما يشرب الوحش، فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً في الفيافي، ونحتفر الآبار، ونحرث البقول، فلا نرد عليكم، ولا نمر بكم، وليس أحدٌ من القبائل إلا له حميم فيهم، ففعلوا ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً

﴿ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ والآخرون قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم، لا علم لهم بإيمان الذي اقتدوا بهم، فلما بعث الله النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا قليل، انحط منهم رجلٌ من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب الدَّير من دَيره فآمنوا به وصدقوه، فقال الله عز وجل: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾** أجرين بإيمانهم بعيسى ابن مريم عليه السلام وبالتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم، قال: **﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾** القرآن، واتباعهم النبي ﷺ، قال: **﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾** الذين يتشبهون بكم **﴿أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾**. هذا السياق فيه غرابة، وسيأتي تفسير هاتين الآيتين الأخيرتين على غير هذا، والله أعلم.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن سهل بن أبي أمامة: أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة، زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير، وهو يصلي صلاة خفيفة وقعه، كأنها صلاة مسافر أو قريباً منها، فلما سلَّم قال: يرحمك الله، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة، أم شيء تنفلته؟ قال: إنها المكتوبة، وإنها صلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه، إن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تُشدِّدُوا على أنفسكم، فيشدد الله عليكم، فإنَّ قوماً شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» ثم غدوا من الغد، فقالوا: نركب فننظر ونعتبر، قال: نعم، فركبوا جميعاً فإذا هم بديار قفر، قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا، خاوية على عروشها، فقالوا: أتعرف هذه الديار؟ قال: ما أعرفني بها وبأهلها، هؤلاء أهل الديار، أهلكهم البغي والحسد، إن الحسد يطفئ نور الحسنات، والبغي يُصدِّق ذلك أو يكذِّبه، والعين تزني والكف والقدم والجسد واللسان، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾

٢٨- قد تقدم في رواية النسائي عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية: على مؤمني أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما في الآية التي في القصص، وكما في حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ يؤتون أجرهم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب، آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبدٌ مملوكٌ، أدى حقَّ الله وحقَّ مواليه، فله أجران، ورجلٌ أدَّب أَمَتَه فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران» أخرجاه في الصحيحين.

ووافق ابن عباس على هذا التفسير: الضحاك وعتبة بن أبي حكيم وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير.

وقال سعيد بن جبير لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾** أي: ضعفين **﴿مِن رَّحْمَتِهِ﴾** وزادهم: **﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾** يعني: هدى يتبصر به من العمى والجهالة، ويغفر لكم، ففضلهم بالنور والمغفرة. رواه ابن جرير عنه، وهذه الآية كقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً**

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى، كمثل رجلٍ استعمل عمالاً، فقال: مَن يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار، على قيراط قيراط؟ ألا فعملت اليهود، ثم قال: مَن يعمل لي من صلاة الظهر إلى صلاة العصر، على قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى، ثم قال: مَن يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس، على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم، فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء! قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء» انفرد بإخراجه البخاري بمثله.

٢٩- ولهذا قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله، ولا إعطاء ما منع الله ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ قال ابن جرير ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي: ليعلم.

وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها: ﴿لِكَيْ يَعْلَمَ﴾ وكذا حطَّان بن عبد الله وسعيد بن جبير.

قال ابن جرير: لأن العرب تجعل «لا» صلة في كل كلام دخل في أوله وآخره جحد غير مصرح، فالسابق كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

آخر تفسير سورة الحديد

****

سورة المجادلة ـ مدنية

ترتيبها ٥٨ — آياتها ٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)﴾

١- روى الإمام أحمد: عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وَسِعَ سمعه الأصواتَ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلِّمه، وأنا في ناحية البيت ما أسمعُ ما تقول، فأنزل الله عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية. وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقاً.

وفي رواية لابن أبي حاتم: عن عائشة أنها قالت: تبارك الذي أوْعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله، أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ قالت: وزوجها أوس بن الصامت.

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾

٢- روى الإمام أحمد[1]: عن سلمة بن صخر الأنصاري قال: كنت امرأً قد أوتيتُ من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظهَّرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضانُ، فرَقاً من أن أصيب في ليلتي شيئاً، فأتابع في ذلك إلى أن يُدركني النهار وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء فوثبتُ عليها، فلما أصبحت غدوتُ على قومي فأخبرتهم خبري، وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمري، فقالوا: لا والله لا نفعل، نتخوف أن ينزل فينا، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنتَ فاصنع ما بدا لك، قال: فخرجت حتى أتيتُ النبيَّ ﷺ فأخبرته خبري، فقال لي: «أنت بذاك» فقلت: أنا بذاك، فقال: «أنت بذاك»، فقلت: أنا بذاك، قال: أنت بذاك» قلت: نعم، ها أنا ذا فأمض فيَّ

(١) ذكر الحافظ ابن كثير قبل هذه الرواية رواية خولة بنت ثعلبة السابقة بسند فيه ضعف، ثم قال: هذا هو الصحيح في سبب نزول هذه السورة، فأما حديث سلمة بن صخر، فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة من العتق أو الصيام أو الإطعام. ثم ذكر الحديث الآتي.

حكم الله عز وجل، فإني صابر له، قال: «أعتق رقبة» قال: فضربتُ صفحةَ رقبتي بيدي، وقلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أصبحتُ أملك غيرها، قال: «فصم شهرين متتابعين» قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام. قال: «فتصدق» فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا ليلتنا هذه وحشاً ما لنا عشاء، قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق، فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك» قال: فرجعت إلى قومي، فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السَّعة والبركة، قد أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليَّ، فدفعوها إليَّ، وهكذا رواه أبو داود وابن ماجة، واختصره الترمذي وحسنه.

وظاهر السياق أن هذه القصة، كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خويلة بنت ثعلبة، كما دل عليه سياق تلك، وهذه بعد التأمل.

فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم﴾ أصل الظهار: مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء، قياساً على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً، فأرخص الله لهذه الأمة، وجعل فيه كفارة ولم يجعله طلاقاً، كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم، هكذا قال غير واحد من السلف.

وقال سعيد بن جبير: كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية، فوقَّت الله الإيلاء أربعة أشهر، وجعل في الظهار الكفارة. رواه ابن أبي حاتم بنحوه. وقد استدل الإمام مالك: على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية، بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ فالخطاب للمؤمنين. وأجاب الجمهور: بأن هذا خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له، واستدل الجمهور عليه بقوله: ﴿مِن نِّسَائِهِمْ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها، ولا تدخل في هذا الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي: لا تصير المرأة بقول الرجل: أنت علي كأمي، أو مثل أمي، أو كظهر أمي، وما أشبه ذلك لا تصير أمه بذلك، إنما أمه التي ولدته. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً﴾ أي: كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: عما كان منكم في حال الجاهلية، وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم(١) ولو قصده لحرمت عليه، لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم، من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ فقال بعض الناس: العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره.

وهذا القول باطل، وهو اختيار ابن حزم وقول داود، وحكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير بن الأشج والفراء، وفرقة من أهل الكلام.

وقال الشافعي: هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق. وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع، أو يعزم عليه، فلا تحل له حتى يُكفِّر بهذه الكفارة، وقد حكى عن مالك أنه: العزم على الجماع أو الإمساك، وعنه: أنه الجماع، وقال أبو حنيفة: هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه، ورفع ما كان عليه

---

(١) كقول إبراهيم ﷺ للجبار لما سأله عن امرأته أنها أخته، قال: «وإنك أختي في كتاب الله» متفق عليه.

أمر الجاهلية، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة. وإليه ذهب أصحابه والليث ابن سعد.

وقال الحسن البصري: يعني الغشيان في الفرج، وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج، قبل أن يكفِّر، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ والمس: النكاح. وكذا قال عطاء والزهري وقتادة ومقاتل بن حيان. وقال الزهري: ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفِّر.

وقد روى أهل السنن: من حديث ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله إني ظاهرت من امرأتي، فوقعت عليها قبل أن أكفِّر، فقال: «ما حملك على ذلك يرحمك الله؟» قال: رأيت خَلْخَالَهَا في ضوء القمر، قال: «فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عز وجل»(١).

وقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فإعتاق رقبة كاملة، من قبل أن يتماسا، فهاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وفي القتل مقيدة بالإيمان، فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلق ههنا على ما قيد هناك، لاتحاد الموجب، وهو: عتق الرقبة، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده: عن معاوية بن الحكم السلمي في قصة الجارية السوداء، وأن رسول الله ﷺ قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» قد رواه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: تزجرون به ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: خبير بما يصلحكم، عليم بأحوالكم.

٤- وقوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ من قبل أن يتماسا ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ قد تقدمت الأحاديث الآمرة بهذا في الترتيب، كما ثبت في الصحيحين: في قصة الذي جامع امرأته في رمضان ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: شرعنا هذا لهذا.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: محارمه فلا تنتهكوها، وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: الذين لم يؤمنوا، ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء، كلا ليس الأمر كما زعموا! بل لهم عذاب أليم، أي: في الدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

٥- يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله، وعاندوا شرعه ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: أهينوا ولُعنوا وأخزوا، كما فعل بمن أشبههم ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات، لا يعاندها ولا يخالفها، إلا كافر فاجر مكابر ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله، والانقياد له،

---

(١) وفيه من الفقه: أنه لم يأمره إلا بكفارة واحدة، قاله ابن كثير وغيره.

والخضوع لديه.

٦- ثم قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ وذلك يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: فيخبرهم بالذي صنعوا، من خير وشر ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي: ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً.

٧- ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه، واطلاعه عليهم، وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم، حيث كانوا، وأين كانوا، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ﴾ أي: من سر ثلاثة ﴿إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا﴾ أي: مطلع عليهم، يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به، مع علم الله به وسمعه له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية: معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن وسمعه أيضاً مع علمه بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠)﴾

٨- قال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ قال: اليهود، وكذا قال مقاتل بن حيان.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي: يتحدثون فيما بينهم بالإثم، وهو ما يختص بهم ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول، ومخالفته يصرون عليها، ويتواصون بها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ روى ابن أبي حاتم: عن عائشة قالت: دخل على رسول الله ﷺ يهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم! فقالت عائشة: وعليكم السام، قالت: فقال

رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إنَّ الله لا يُحبُّ الفُحْشَ ولا التفحش» قلت: ألا تسمعهم يقولون: السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو ما سمعت أقول: وعليكم؟» فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾. وفي رواية في الصحيح: أنها قالت لهم عليكم السام والذام واللعنة، وأن رسول الله ﷺ قال: «إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا».

وروى ابن جرير: عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه إذْ أتى عليهم يهودي فسلَّم عليهم فردوا عليه، فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون ما قال؟» قالوا: سلم يا رسول الله، قال: «بل قال: سام عليكم» أي: تسامون دينكم، قال رسول الله ﷺ: «ردوه» فردوه عليه، فقال نبي الله: «أقلت سام عليكم» قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «إذا سلَّم عليكم أحدٌ من أهل الكتاب، فقولوا: عليك» أي: عليك ما قلت. وأصل حديث أنس مخرج في الصحيح، وهذا الحديث في الصحيح عن عائشة بنحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: يفعلون هذا، ويقولون ما يحرفون من الكلام، وإيهام السلام، وإنما هو شتم في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم: لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن، لأن الله يعلم ما نسرُّه، فلو كان هذا نبياً حقاً، لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمر: أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليكم، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول؟ فنزلت هذه الآية ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ إسناد حسن ولم يخرجوه.

٩- ثم قال الله تعالى مؤدباً عباده المؤمنين، أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب، ومن مالأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم، التي أحصاها عليكم وسيجزيكم بها.

وروى الإمام أحمد: عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عَرَض له رجل، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله يُدني المؤمن فيضع عليه كَنَفه، ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنبَ كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته؛ وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين» أخرجاه في الصحيحين.

١٠- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنما النجوى - وهي المسارّة - حيث يَتوهَّم مؤمنٌ بها سواء ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين، عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ليسوءهم، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله، ومن أحسَّ من ذلك شيئاً فليستعذ بالله، وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله.

وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن، كما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه» أخرجاه.

ورواه عبد الرزاق من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، انفرد بإخراجه مسلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾

١١- يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين، وآمراً لهم أن يُحسن بعضهم إلى بعض في المجالس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ وقُرئ ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾ ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: «من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة» وفي الحديث الآخر: «وَمن يسَّر على معسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» ولهذا أشباه كثيرة. ولهذا قال تعالى: ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

قال قتادة: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً، ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض.

وقد روى الإمام أحمد والشافعي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، ولكن تفسَّحوا وتوسعوا» وأخرجاه في الصحيحين. ورواه الإمام أحمد عن أبي هريرة بنحوه.

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء، على أقوال: فمنهم من رخَّص في ذلك محتجاً بحديث: «قوموا إلى سيدكم». ومنهم من منع من ذلك، محتجاً بحديث: «من أحبَّ أن يتمثل له الرجال قياماً، فليتبوأ مقعده من النار».

ومنهم من فصَّل، فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد ابن معاذ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة، فرآه مقبلاً، قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم» وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه، والله أعلم.

فأما اتخاذه ديدناً، فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن: أنه لم يكن شيءٌ أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك.

وفي الحديث المروي في السنن: أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس.

ولكن حيث يجلس، يكون صدر ذلك المجلس، فكان الصحابة رضي الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم، فالصدِّيق رضي الله عنه يُجلسه عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه غالباً عثمان وعلي، لأنهما كانا ممن يكتب الوحي وكان يأمرهما بذلك، كما رواه مسلم: عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «ليليني منكم أولوا الأحلام والنُّهى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

وما ذاك إلى ليعقلوا عنه ما يقوله صلوات الله وسلامه عليه. وروى الإمام أحمد: عن أبي مسعود قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: «استووا، ولا تختلفوا فَتختلفَ قلوبُكم، ليليني منكم أولوا

الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافاً ، وكذا رواه مسلم وأهل السنن إلا الترمذي .

وإذا كان هذا أمره في الصلاة ، أن يليه العقلاء منهم والعلماء ، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة .

وروى أبو داود : عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : «أقيموا الصُّفُوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسُدُّوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذَروا فُرجاتٍ للشيطان ، ومَن وصل صفاً وصله الله ، ومن قطع صفاً قطعه الله» .

ولهذا كان أبي بن كعب سيد القراء ، إذا انتهى إلى الصف الأول ، انتزع منه رجلاً يكون من أفناد الناس ، ويدخل هو في الصف المقدم ، ويحتج بهذا الحديث : «ليليني منكم أولوا الأحلام والنهى» . وأما عبد الله بن عمر ، فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه ، عملاً بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذي أوردناه ، ولنقتصر على هذا المقدار من الأنموذج المتعلق بهذه الآية ، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضع .

وفي الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ أقبل ثلاثةُ نفرٍ ، فأما أحدهم فوجد فرجةً في الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدبر الثالث ذاهباً ، فقال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بخبر الثلاثة؟ أما الأول فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرضَ فأعرض الله عنه» .

وروى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «لا يحل لرجلٍ أن يُفرق بين اثنين إلا بإذنهما» ورواه أبو داود والترمذي . وقد رُوي عن ابن عباس والحسن البصري وغيرهما أنهم قالوا في قوله تعالى : **﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾** يعني في مجالس الحرب ، قالوا ومعنى قوله : **﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾** أي : انهضوا للقتال . وقال قتادة **﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾** أي : إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا . وقال مقاتل : إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا إليها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبي ﷺ في بيته فأرادوا الانصراف ، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجاً من عنده ، فربما يشق ذلك عليه ﷺ ، وقد تكون له الحاجة ، فأمروا أنهم إذا أمروا بالانصراف أن ينصرفوا ، كقوله تعالى : **﴿وَإِذَا قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾** .

وقوله تعالى : **﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** أي : لا تعتقدوا أنه إذا أفسح أحدٌ منكم لأخيه ، إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصاً في حقه ، بل هو رفعة ورتبة عند الله ، والله تعالى لا يضيع ذلك له ، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة ، فإنَّ من تواضع لأمر الله ، رفع الله قدره ، ونشر ذكره ، ولهذا قال تعالى : **﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾** أي : خبير بمن يستحق ذلك ، وبمن لا يستحقه .

وروى الإمام أحمد : عن أبي الطفيل عامر بن واثلة : أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفتَ على أهل الوادي؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى ، رجل من موالينا ، فقال عمر : استخلفت عليهم مولى؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض قاض ، فقال عمر رضي الله عنه : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : «إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ،

ويضع به آخرين» وهكذا رواه مسلم.

وقد ذكرت فضل العلم وأهله وما ورد في ذلك من الأحاديث، مستقصاة في كتاب العلم من صحيح البخاري، ولله الحمد والمنة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾

١٢- يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ، أي: يساره فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة، تطهره وتزكيه، وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾ أي: إلا من عجز عن ذلك لفقره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فما أمر بها إلا من قَدَر عليها.

١٣- ثم قال تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم، من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم، وقد قيل: إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب، قدَّم ديناراً صدقة تصدق به، ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ، حتى شقُّوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه عليه السلام، فلما قال ذلك جَبُن كثيرٌ من المسلمين، وكفوا عن المسئلة، فأنزل الله بعد هذا: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فوسع الله عليهم ولم يضيق.

وقال عكرمة والحسن البصري في قوله تعالى: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ نسختها الآية التي بعدها ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ إلى آخرها.

وروى عبد الرزاق: عن مجاهد قال علي: ما عمل بها أحدٌ غيري حتى نسخت، وأحسبه قال: وما كانت إلا ساعة[1].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً

---

(١) قال أبو حاتم وغيره: مجاهد عن علي مرسل.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

١٤ - يقول الله تعالى منكراً على المنافقين، في موالاتهم الكفار في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ وقال ههنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن. ثم قال تعالى: ﴿مَا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ﴾ أي: هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين يوالونهم، وهم اليهود.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: المنافقين، يحلفون على الكذب، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم اللعين عياذاً بالله منه، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنَّا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا له بالله أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقاً، ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك.

١٥ - ثم قال تعالى: ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أرصد الله لهم على هذا الصنيع، العذاب الأليم على أعمالهم السيئة، وهي موالاة الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين وغشهم.

١٦ - ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، واتقوا بالأيمان الكاذبة، فظن كثيرٌ ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم، فاغترَّ بهم، فحصل بهذا صدٌّ عن سبيل الله لبعض الناس ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم، في الأيمان الكاذبة الحانثة.

١٧ - ثم قال تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً﴾ أي: لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

١٨ - ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً﴾ أي: يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم، فلا يغادر منهم أحداً، فيحلفون له كما يحلفون لكم، ويحسبون أنهم على شيء، أي: يحلفون بالله عز وجل أنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا، لأن مَن عاش على شيء مات عليه، وبعث عليه، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله، كما كان ينفعهم عند الناس، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة، ولهذا قال: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: حلفهم ذلك لربهم عز وجل.

ثم قال منكراً عليهم حسبانهم ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس: أن النبيﷺ كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين، قد كاد يقلص عنهم الظل، قال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ ينظر بعيني شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه» فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول اللهﷺ فكلمه، فقال: «علام تَشتمني أنتَ وفلان وفلان» نفر دعاهم بأسمائهم، قال:

فانطلق الرجل فدعاهم، فحلفوا له واعتذروا إليه، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وهكذا رواه الإمام أحمد بإسناد جيد، ولم يخرجوه.

وحال هؤلاء كما أخبر الله تعالى عن المشركين، حيث يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ❁ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

١٩- ثم قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾ أي: استحوذ على قلوبهم الشيطان، حتى أنساهم أن يذكروا الله عز وجل، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه. ولهذا روى أبو داود: عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بدوٍ، لا تقام فيهم الصلاة، إلا قد استحوذَ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية»، قال السائب: يعني الصلاة في الجماعة.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: الذين استحوذ عليهم الشيطان، فأنساهم ذكر الله.

ثم قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾

٢٠- يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادِّين لله ورسوله، يعني الذين هم في حد، والشرع في حد، أي: مجانبون للحق، مشاقون له، هم في ناحية، والهدى في ناحية ﴿أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾ أي: في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، الأذلين في الدنيا والآخرة.

٢١- ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول، وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل، بأن النصرة له، ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين، في الدينا والآخرة ﴿وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ❁ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ وقال ههنا: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: كتب القوي العزيز، أنه الغالب لأعدائه، وهذا قدرٌ محكم، وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين، في الدنيا والآخرة.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: لا يوادون المحادِّين، ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ نزلت في أبي عبيدة، قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ في الصديق، همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في عمر، قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، فالله أعلم.

قلت: ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر، فأشار الصدِّيق بأن يفادوا، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، وهم بنو العم والعشيرة، ولعل الله تعالى أن يهديهم، وقال عمر: لا أرى ما رأى، يا رسول الله، هل تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأقتله، وتمكن علياً من عقيل، وتمكن فلاناً من فلان، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادة للمشركين، القصة بكمالها.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: من اتصف بأنه لا يواد من حادَّ الله ورسوله، ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتبَ الله في قلبه الإيمان، أي: كتب له السعادة، وقررها في قلبه، وزيَّن الإيمان في بصيرته، قال السدي ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ جعل في قلوبهم الإيمان. وقال ابن عباس ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: قوّاهم. وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ كل هذا تقدم تفسيره غير مرة.

وفي قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ سرٌّ بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى، عوَّضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه، بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هؤلاء حزب الله، أي: عباد الله، وأهل كرامته، وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تنويهٌ بفلاحهم وسعادتهم، ونصرتهم في الدنيا والآخرة، في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان.

ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

آخر تفسير سورة المجادلة

****

ترتيبها ٥٩ — سورة الحشر ـ مدنية — آياتها ٢٤

كان ابن عباس يقول: سورة بني النضير.

وروى سعيد بن منصور: عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: أنزلت في بني النضير، ورواه البخاري ومسلم.

ورواه البخاري: عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: سورة بني النضير.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾

١ - يخبر تعالى أن جميع ما في السموات وما في الأرض من شيء يسبح له، ويمجّده ويقدّسه، ويصلي له ويوحده، كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: منيع الجناب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في قدره وشرعه.

٢ - وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: يهود بني النضير. قاله ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد: كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم، وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحلَّ الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة، التي ما طمع فيها المسلمون، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئاً، وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذَّب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا، مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم.

روى أبو داود: عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا

إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل رجعة بدر، إنكم أويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه، أو لنخرجن، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونسبي نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: «لقد بلغ وعيدُ قريش منكم المبالغَ، ما كانت تكيدكم بأكثرَ مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم» فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: أنكم أهل الحلقة[1] والحصون، وأنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء - وهي الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أجمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ليخرج منا ثلاثون حَبْراً، حتى نلتقي بمكان النصف وليسمعوا منك، فإن صدَّقوك وآمنوا بك، آمنا بك، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم، فقال لهم: «إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهدٍ تعاهدوني عليه» فأبوا أن يعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب، وتَرك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا على بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجَلاء، فَجلت بنو النضير، واحتملوا ما أقلَّت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم وخشبها، وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، أعطاه الله إياها وخصه بها، فقال تعالى: **﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾** يقول: بغير قتال، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار، وكانا ذوي حاجة، ولم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة.

ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار، وبالله المستعان.

وكان سبب ذلك: فيما ذكره أصحاب المغازي والسير: أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم، وكانوا سبعين وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة، قتل رجلين من بني عامر وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «لقد قتلت رجلين، لأدينَّهما» وكان بين بني النضير وبني عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في كتابه السيرة: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما فيما حدثني يزيد بن رومان وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين، قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فمن رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم،

---

(١) الحلقة: الدروع وقد يراد بها السلاح مطلقاً.

فقال: أنا لذلك فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم، ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض، وتعيبه على من يصنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟! وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي بن سلول، ووديعة بن مالك بن أبي قوقل، وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك ابن خرشة، ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله ﷺ قال: ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان: يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها.

قال ابن إسحاق: ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها. وهكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق بنحو ما تقدم.

فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني: بني النضير ﴿مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ أي: في مدة حصار كم لهم وقصرها، وكانت ستة أيام، مع شدة حصونهم ومنعتها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ أي: جاءهم من الله ما لم يكن لهم في بال، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: الخوف والهلع والجزع، وكيف لا يحصل لهم ذلك، وقد حاصرهم الذي نُصِرَ بالرُّعْب مسيرة شهر، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك، وهونقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم، وتحملها على الإبل. وكذا قال عروة بن الزبير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد. وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودبروها، يقول الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

٣- وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء، وهو النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند الله عذاب آخر، من القتل والسبي ونحو ذلك، قاله

الزهري عن عروة والسدي وابن زيد، لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا، مع ما أعدَّ لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم.

وقال عكرمة: الجلاء القتل. وفي رواية عنه: الفناء. وقال قتادة: الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد. وقال الضحاك: أجلاهم إلى الشام، وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء فهذا الجلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أي: حتمٌ لازم لا بد لهم منه.

ـوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: إنما فعل الله بهم ذلك، وسلط عليهم رسوله

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول:

أدام اللهُ ذلك من صنيع وحرَّق في نواحيها السعير
ستعلمُ أيُّنا منها بنُزهٍ وتعلم أيَّ أرضينا نضير

كذا رواه البخاري ولم يذكره ابن إسحاق.

وقد أورد ابن إسحاق رحمه الله ههنا أشعاراً كثيرة، فيها آداب ومواعظ وحكم، وتفاصيل للقصة تركنا باقيها اختصاراً واكتفاء بما ذكرناه، ولله الحمد والمنة. قال ابن إسحاق: كانت وقعة بني النضير بعد وقعة أحد، وبعد بئر معونة، وحكى البخاري عن الزهري عن عروة أنه قال: كانت وقعة بني النضير بعد بدر بستة أشهر.

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾

٦- يقول تعالى مبيناً ما الفيء، وما صفته وما حكمه، فالفيء: كل مال أُخذ من الكفار من غير قتال، ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي: لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم، من هيبة رسول الله ﷺ، فأفاء الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء، فردَّه على المسلمين، في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآيات.

فقال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أي: من بني النضير ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يعني: الإبل ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو قدير لا يغالب ولا يمانع، بل هو القاهر لكل شيء.

٧- ثم قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: جميع البلدان التي تفتح هكذا، فحكمها حكم أموال بني النضير، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ إلى آخرها والتي بعدها، فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه.

روى الإمام أحمد: عن عمر رضي الله عنه قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته، وقال مرة: قوت سنته، وما بقي جعله في الكُراع والسلاح في سبيل الله عز وجل. هكذا أخرجه أحمد ههنا مختصراً، وقد أخرجه الجماعة في كتبهم إلا ابن ماجة.

وروى أبو داود رحمه الله: عن مالك بن أوس قال: أرسل إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تعالى النهار، فجئته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله، فقال حين دخلت عليه: يا رمال، إنه قد دفَّ أهلُ أبيات من قومك وقد أمرت فيهم بشيء، فأقسم فيهم، قلت: لو أمرت غيري بذلك، فقال: خذه فجاءه يرفا فقال: يا أمير المؤمنين هل لك في عثمان ابن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص؟ قال:

نعم، فأذن لهم فدخلوا، ثم جاءه يرفا فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في العباس وعلي؟ قال: نعم، فأذن لهما فدخلا، فقال العباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا، يعني علياً، فقال بعضهم: أجل يا أمير المؤمنين، اقض بينهما وارحمهما، قال مالك بن أوس: خُيِّل إلي أنهما قدما أولئك النفر لذلك، فقال عمر رضي الله عنه: اتئدا، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَثُ ما تركنا صدقةٌ» قالوا: نعم، ثم أقبل على علي والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَثُ ما تركنا صدقةٌ» فقالا: نعم، فقال: فإن الله خصَّ رسوله بخاصة، لم يخص بها أحداً من الناس، فقال تعالى: ﴿**وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بني النضير، فوالله ما استأثر بها عليكم، ولا أخذها دونكم، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة، أو نفقته ونفقة أهله سنة، ويجعل ما بقي أسوة المال، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم، ثم أقبل على عليٍّ والعباس فقال: أنشدكما بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمان ذلك؟ قالا: نعم، فلما توفي رسول الله ﷺ قال أبو بكر: أنا ولي رسول الله ﷺ، فجئت أنت وهذا إلى أبي بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة» والله يعلم إنه لصادقٌ بارٌّ راشد، تابع للحق، فوليها أبو بكر، فلما توفي قلتُ: أنا ولي رسول الله ﷺ وولي أبي بكر، فوليتها ما شاء الله أن أليها، فجئتَ أنت وهذا وأنتما جميع، وأمركما واحد، فسألتمانيها فقلت: إن شئتما فأنا أدفعها إليكما، على أن عليكما عهد الله أن تليها بالذي كان رسول الله ﷺ يليها، فأخذتماها مني على ذلك، ثم جئتماني لأقضي بينكما بغير ذلك، والله لا أقضي بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فرُدَّاها إليَّ. أخرجوه.

وقد روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: إن الرجلَ كان يجعل من ماله النخلات، أو كما شاء الله، حتى فُتحت عليه قُريظة والنضير، قال: فجعل يردُّ بعد ذلك، قال: وإنَّ أهلي أمروني أن آتي النبي ﷺ فأسأله الذي كان أهله أعطوه أو بعضه، وكان نبي الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن، أو كما شاء الله، قال: فسألت النبي ﷺ فأعطانيها، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي، وجعلت تقول: كلا، والله الذي لا إله إلا هو لا يُعطيكهنَّ وقد أعطانيهنَّ، أو كما قالت، فقال نبي الله ﷺ: «لك كذا وكذا» قال: وتقول: كلا، والله، قال ويقول: «لك كذا وكذا» قال: وتقول: كلا والله، قال ويقول: «لك كذا وكذا» قال حتى أعطاها حسبت أنه قال: عشرة أمثاله، أو قال قريباً من عشرة أمثاله، أو كما قال. رواه البخاري ومسلم.

وهذه المصارف المذكورة في هذه الآية، هي المصارف المذكورة في خمس الغنيمة، وقد قدمنا الكلام عليها في سورة الأنفال بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿**كَيْلاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ**﴾ أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء، كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود قال: لعنَ اللهُ الواشمات والمستوشمات، والمُتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله عز وجل، قال: فبلغ امرأة من بني أسد في البيت يقال لها: أم يعقوب، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت: كيت وكيت، قال: مالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وفي كتاب الله تعالى، فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته، فقال: إن كنتِ قرأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ قالت: بلى! قال: فإن رسول الله ﷺ نهى عنه، قالت: إني لأظن أهلك يفعلونه، قال: اذهبي فانظري، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً، فجاءت فقالت: ما رأيت شيئاً، قال: لو كانت كذلك لم تُجامعنا. أخرجاه في الصحيحين.

وقد ثبت في الصحيحين أيضاً: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتكم بأمرٍ فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه».

وروى النسائي: عن ابن عمر وابن عباس: أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهى عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: اتقوه في امتثال أوامره، وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠)﴾

٨- يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء، أنهم ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: خرجوا من ديارهم، وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين صدَّقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين.

٩- ثم قال تعالى مادحاً للأنصار، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم، وعدم حسدهم، وإيثارهم مع الحاجة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين، وآمنوا قبل كثير منهم. قال عمر: وأوصى الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم. رواه البخاري ههنا أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: من كرمهم وشرف أنفسهم، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم. روى الإمام أحمد: عن أنس قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، مارأينا مثل قوم قدمنا عليهم،

أحسن مواساةً في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: «لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم». لم أره في الكتب من هذا الوجه.

وروى البخاري: عن أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبيﷺ الأنصار أن يُقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «إما لا، فاصبروا حتى تلقوني، فإنه سيُصيبكم أثَرة» تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وروى البخاري: عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار: اقْسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «لا» فقالوا: تَكفونا المؤْنة، ونشرككم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا. تفرد به دون مسلم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أي: ولا يجدون في أنفسهم حَسَداً للمهاجرين، فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة. قال الحسن البصري ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ يعني: الحسد ﴿مِّمَّا أُوتُوا﴾ قال قتادة: يعني فيما أُعطي إخوانهم. وكذا قال ابن زيد، ومما يستدل به على هذا المعنى: ما رواه الإمام أحمد: عن أنس قال: كنا جلوساً مع رسول اللهﷺ فقال: «يطلعُ عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة» فطلع رجلٌ من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد علَّق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد قال رسول اللهﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال رسول اللهﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام رسول اللهﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي، فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيتَ أن تُؤويني إليك حتى تمضي فعلتُ، قال: «نعم» قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعارَّ وتقلب على فراشه، ذكر الله وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الليالي الثلاث، وكدتُ أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجرة، ولكن سمعت رسول اللهﷺ يقول لك ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلعت أنت الثلاث المرات، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول اللهﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، فلما وليتُ دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غِشاً، ولا أحسدُ أحداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله فهذه التي بلغت بك، وهي التي لا تطاق، ورواه النسائي في اليوم والليلة، وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يعني: حاجة، أي: يقدِّمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم، في حال احتياجهم إلى ذلك.

وقد ثبت في الصحيح: عن رسول اللهﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة، جَهْدُ المُقل»(١).

وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ وقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ فإنَّ هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه، ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم إلى ما أنفقوه.

---

(١) الحديث ليس في الصحيح، إنما رواه أحمد (٣/ ٤١٢) وأبو داود مختصراً ومطولاً (١٣٢٥) (١٤٤٩) من حديث عبد الله بن حبشي الخثعميرضي الله عنه، وخرجه الألباني في «الصحيحة» (٥٦٦).

ومن هذا تصدَّق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك» فقال رضي الله عنه: أبقيتُ لهم الله ورسوله. وهكذا الماء الذي عُرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل، أحوج مايكون إلى الماء، فردَّه الآخر إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم، رضي الله عنهم وأرضاهم.

وروى البخاري: عن أبي هريرة قال: أتى رجل لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «ألا رجلٌ يُضيِّف هذا الليلة رحمه الله» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله عز وجل - أو ضحك - من فلان وفلانة» وأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وكذا رواه البخاري في موضع آخر ومسلم والنسائي، وفي رواية لمسلم: تسمية هذا الأنصاري بأبي طلحة رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: من سلم من الشح، فقد أفلح وأنجح. روى أحمد عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظُّلم، فإن الظلم ظُلُماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَن كَانَ قبلَكم، حَمَلهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» انفرد بإخراجه مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظُّلم، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الفُحش، فإن الله لا يحب الفحش، وإياكم والشُّح، فإنه أهلكَ من كان قبلكم أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا» ورواه أحمد وأبو داود والنسائي.

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبدٍ أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً»(١).

وروى ابن أبي حاتم: عن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلكت، فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وأنا رجل شحيح، لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً، فقال عبد الله: ليس ذلك بالشح الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشح الذي ذكر في القرآن، أن تأكل مال أخيك ظُلماً، ولكن ذاك البخل، وبئس الشيء البخل. وروى سفيان الثوري: عن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول: اللهم قني شح نفسي. لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: إني إذا وُقيت شح نفسي لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، رواه ابن جرير.

١٠ - وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث، ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان، كما قال في آية براءة ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ

(١) رواه النسائي (٦/ ١٣).

﴿الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة الداعون لهم في السر والعلانية، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ أي: قائلين ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً﴾ أي: بغضاً وحسداً ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة، أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب، لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن عائشة أنها قالت: أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم، ثم قرأت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ الآية(1).

وروى أبو داود: عن عمر رضي الله عنه ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ﴾ هذه لرسول الله ﷺ خاصة قُرى عرينة فدك وكذا وكذا ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ و ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ فاستوعبت هذه الآية الناس، فلم يبق أحدٌ من المسلمين إلا له فيها - حق، قال أيوب: أو قال: حظ - إلا بعض من تملكون من أرقائكم.

وروى ابن جرير: عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ الآية، ثم قال هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْلاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ◆ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ◆ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ◆ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة، وليس أحد إلا وله فيها حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي - وهو بسرو حمير - نصيبه فيها، لم يعرق فيها جبينه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى

(1) أخرجه مسلم بنحوه، دون ذكر الآية (٤/ ٢٣١٧).

مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

١١- يخبر تعالى عن المنافقين، كعبد الله بن أبي وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: لكاذبون فيما وعدوهم به، إما لأنهم قالوا لهم قولا، ومن نيتهم أن لا يفُوا لهم به، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه.

١٢- ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي: لا يقاتلون معهم ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ أي: قاتلوا معهم ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها.

١٣- ثم قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، كقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

١٤- ثم قال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ يعني: أنهم من جبنهم وهلعهم، لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة، بل إما في حصون، أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة. ثم قال تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: عداوتهم فيما بينهم شديدة، كما قال تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي: تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف. قال إبراهيم النخعي: يعني: أهل الكتاب والمنافقين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

١٥- ثم قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال مجاهد والسدي ومقاتل بن حيان: يعني: كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر. وقال ابن عباس: يعني: يهود بني قينقاع. وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق.

وهذا القول أشبه بالصواب، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا.

١٦- وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ يعني: مثل هؤلاء اليهود، في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، وقول المنافقين لهم لئن قوتلتم لننصرنكم، ثم لما حقَّت الحقائق، وجدَّ بهم الحصار والقتال، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة، مثالهم في هذا كمثل الشيطان، إذ سوَّل للإنسان - والعياذ بالله - الكفر، فإذا دخل فيما سوَّله له تبرأ منه وتنصل، وقال ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد ذكر بعضهم ههنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل، هي كالمثال لهذا المثل، لا أنها المرادة وحدها بالمثل،

بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها، فروى ابن جرير: عن عبد الله بن نهيك قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: إن راهباً تعبد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه، فعمد إلى امرأة فأجنَّها ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها، قال: فجاءوا بها إليه فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته، فأتاها فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعييتني، أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك، فاسجد لي سجدة، فسجد له، فلما سجد له، قال: إني بريء منك، إني أخاف الله رب العالمين، فذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. وكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك، واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو: برصيصا، فالله أعلم.

وهذه القصة مخالفة لقصة «جريج» العابد، فإن جريجاً اتهمته امرأة بغي بنفسها، وادَّعت أن حملها منه، ورفعت أمرها إلى ولي الأمر، فأمر به فأنزل من صومعته وخربت صومعته، وهو يقول: مالكم مالكم؟ قالوا: يا عدو الله، فعلت بهذه المرأة كذا وكذا، فقال جريج: اصبروا، ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً، ثم قال: يا غلام من أبوك؟ قال: أبي الراعي، وكانت قد أمكنته من نفسها، فحملت منه، فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً، وقالوا: نعيد صومعتك من ذهب، قال: لا، بل أعيدوها من طين كما كانت.

١٧- وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي: فكان عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: جزاء كل ظالم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾

١٨- روى الإمام أحمد: عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حُفاة عُراة مجتابي النِّمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، قال: فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذَّن، وأقام الصلاة فصلى، ثم خطب فقال: «يا أيها الناس، اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» إلى آخر الآية، وقرأ الآية التي في الحشر ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ تصدق رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجلٌ من الأنصار بصُرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلَّل وجهُه، كأنه مُذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنة، فله أجرُها، وأجر من عَملَ بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئةً، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» انفرد بإخراجه مسلم.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر بتقواه، وهو يشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادَّخرتم

لأنفسكم من الأعمال الصالحة، ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ تأكيد ثان ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير.

١٩- وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لا تنسوا ذكر الله تعالى، فينسيكم العمل الصالح، الذي ينفعكم في معادكم، فإن الجزاء من جنس العمل. ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

٢٠- وقوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء، في حكم الله تعالى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ في آيات أخر، دالات على أن الله تعالى يُكرم الأبرار، ويُهين الفجار، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: الناجون المسلمون من عذاب الله عز وجل.

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾

٢١- يقول تعالى معظماً لأمر القرآن، ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد الحق، والوعيد الأكيد ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم؟ وتخشع وتتصدع من خشية الله؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ قال العوفي عن ابن عباس يقول تعالى، لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه، لتصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن، أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وكذا قال قتادة وابن جرير.

وقد ثبت في الحديث المتواتر: أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وُضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي ﷺ ليخطب، فجاوز الجذع إلى نحو المنبر،

فعند ذلك حن الجذع، وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكت، لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده. ففي بعض روايات هذا الحديث: قال الحسن البصري بعد إيراده: فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع.

وهكذا هذه الآية الكريمة، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته، لخشعت وتصدعت من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهتم؟ وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ الآية. وقد تقدم أن معنى ذلك: أي: لكان هذا القرآن، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو، فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل، وأنه عالم الغيب والشهادة، أي: يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا، والغائبات عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، من جليل وحقير، وصغير وكبير، حتى الذر في الظلمات.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في أول التفسير بما أغنى عن إعادته ههنا، والمراد أنه: ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

٢٣- ثم قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ أي: المالك لجميع الأشياء، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة، وقوله تعالى: ﴿الْقُدُّوسُ﴾ قال وهب بن منبه: أي: الطاهر. وقال مجاهد وقتادة: أي: المبارك، وقال ابن جريج: تقدسه الملائكة الكرام ﴿السَّلَامُ﴾ أي: من جميع العيوب والنقائص، لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله، وقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أي: أَمِنَ خلقُه من أن يظلمهم، وقال قتادة: أمن بقوله أنه حق، وقال ابن زيد: صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به.

وقوله تعالى: ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى: هو رقيب عليهم، كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي قد عزَّ كل شيء فقهره، وغلب الأشياء، فلا ينال جنابه لعزته، وعظمته وجبروته وكبريائه. ولهذا قال تعالى: ﴿الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: الذي لا تليق الجبرية إلا له، ولا التكبر إلا لعظمته، كما تقدم في الصحيح: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذبته».

وقال قتادة: الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء. وقال ابن جرير: الجبار المُصلِّح أمور خلقه، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم، وقال قتادة: المتكبر يعني عن كل سوء. ثم قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ الخلق التقدير، والبرء هو الفري، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كلُّ من قدَّر شيئاً ورتبه، يقدر على تنفيذه وإيجاده، سوى الله عز وجل. قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنتَ تَفري ما خلقتَ وبعـــ ـــضُ القومِ يخلقُ ثم لا يَفري

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: قدرت، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد، فالخلق التقدير، والفري التنفيذ، ومنه يقال قدر الجلاد ثم فرى، أي: قطع على ما قدره بحسب ما يريده.

وقوله تعالى: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي إذا أراد شيئاً، قال له كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ولهذا قال: ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده، على الصفة التي يريدها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ قد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، ونذكر الحديث المروي في الصحيحين: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى تسعةً وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وترٌ يحب الوتر».

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: فلا يرام جنابه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في شرعه وقدره.

آخر تفسير سورة الحشر

****

ترتيبها ٦٠ — سورة الممتحنة ـ مدنية — آياتها ١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل (١) إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون (٢) لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير (٣) ﴾

١ ـ كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين، وكان من أهل بدر أيضاً، وكان له بمكة أولاد ومال، ولم يكن من قريش أنفسهم، بل كان حليفاً لعثمان، فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم، وقال: «اللهم عمِّ عليهم خبَرنا». فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم، ليتخذ بذلك عندهم يداً، فأطلع الله تعالى على ذلك رسوله ﷺ استجابة لدعائه، فبعث في إثر المرأة، فأخذ الكتاب منها. وهذا بين في هذا الحديث المتفق على صحته.

روى الإمام أحمد: عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإنَّ بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها، فانطلقنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟» قال: لا تعجل عليَّ، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنه صدقكم» فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجة، وزاد البخاري في كتاب المغازي: فأنزل الله السورة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾.

وفي رواية للصحيحين فقال ﷺ: «صدق لا تقولوا له إلا خيراً» فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه! فقال: «أليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله اطلع إلى أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو: قد غفرت لكم» فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم، هذا لفظ البخاري في «المغازي» في غزوة بدر.

وهكذا قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد: أن هذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ يعني: المشركين والكفار، الذين هم محاربون لله ورسوله وللمؤمنين، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾ وقال تعالى: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ ولهذا قبل رسول الله ﷺ عذر حاطب، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم، وعدم موالاتهم، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده، ولهذا قال تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: لم يكن لكم عندهم ذنب، إلا إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أي: إنْ كنتم كذلك، فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي، باغين لمرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم، حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم.

وقوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ أي: تفعلون ذلك، وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

٢- ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ أي: لو قدروا عليكم، لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به، بالمقال والفعال ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً، فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً.

٣- وقوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: قراباتكم لا تنفعكم عند الله، إذا أراد الله بكم سوءاً، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط

الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم، فقد خاب وخسر، وضل عمله، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء.

قال الإمام أحمد: عن أنس: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار» فلما قفَّى دعاه، فقال: «إن أبي وأباك في النار» ورواه مسلم وأبو داود.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾

٤- يقول تعالى لعباده المؤمنين، الذين أمرهم بمصارمة الكافرين، وعداوتهم ومجانبتهم، والتبري منهم **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾** أي: وأتباعه الذين آمنوا معه **﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾** أي: تبرأنا منكم **﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾** أي: بدينكم وطريقكم **﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾** يعني: وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دمتم على كفركم، فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم **﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾** أي: إلى أن تُوحِّدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد.

وقوله تعالى: **﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾** أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة، تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبيَّن له أنه عدو لله تبرأ منه، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك، ويستغفرون لهم ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله عز وجل: **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ و ما كانَ استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فلمَّا تبيَّنَ لهُ أنَّهُ عدوٌّ للهِ تبرأَ منهُ إنَّ إبراهيمَ لأوَّاهٌ حليمٌ﴾**.

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾** أي: ليس لكم في ذلك أسوة، أي: في الاستغفار للمشركين. هكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان والضحاك، وغير واحد.

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه، حين فارقوا قومهم وتبرءوا منهم، فلجأوا إلى الله، وتضرعوا إليه، فقالوا **﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾** أي: توكلنا عليك في جميع الأمور، وسلَّمنا أمورنا إليك، وفوَّضناها إليك، وإليك المصير: أي: المعاد في الدار الآخرة.

٥- ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال مجاهد: معناه لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق، ما أصابهم هذا! وكذا قال الضحاك، وقال قتادة: لا تُظهرهم علينا فيفتنونا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقٍّ هم عليه. واختاره ابن جرير، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، وقوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: واستر ذنوبنا عن غيرك، واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي لا يُضام من لاذ بجنابك ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقوالك وأفعالك، وشرعك وقدرك.

٦- ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم، ومستثنى منه ما تقدم أيضاً، لأن هذه الأسوة المثبتة ههنا، هي الأولى بعينها، وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ تهييج إلى ذلك، لكل مؤمن بالله والمعاد، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: عما أمر الله به ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الغني الذي قد كمل في غناه، وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفء، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار، والحميد: المستحمد إلى خلقه، أي: هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾

٧- يقول تعالى لعباده المؤمنين، بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أي: محبة بعد البغضة، ومودة بعد النفرة، وألفة بعد الفرقة ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: على ما يشاء، من الجمع بين الأشياء المتنافرة، والمتباينة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ الآية، وكذا قال لهم النبي ﷺ: «ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي؟»(١).

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وفي الحديث: «أحبب حبيبك هوناً مَّا، فعسى أن يكون بغيضك يوماً مَّا، وأبغض بغيضك هوناً مَّا، فعسى أن يكون حبيبك يوما مَّا»(٢).

---

(١) الحديث في الصحيح، وقد مضى.

(٢) الحديث رواه الترمذي (٢٠٨٢) وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه، وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه، من أي ذنب كان.

وقد قال مقاتل بن حيان: إن هذه الآية نزلت في أبي سفيان صخر بن حرب، فإن رسول الله ﷺ تزوج ابنته، فكانت هذه مودة ما بينه وبينه. وفي هذا الذي قاله مقاتل نظر! فإن رسول الله ﷺ تزوج بأم حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح، وأبو سفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف. وفي صحيح مسلم: عن ابن عباس: أن أبا سفيان قال: يا رسول الله، ثلاث أعطنيهن، قال: «نعم» قال: تأمرني أن أقاتل الكفار، كما كنت أقاتل المسلمين، قال: «نعم» قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال: «نعم» قال: وعندي أحسن العرب وأجمله، أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها - الحديث - وقد تقدم الكلام عليه.

٨- وقوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين، ولم يظاهروا، أي: يعاونوا على إخراجكم، كالنساء والضعفة منهم ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي: تحسنوا إليهم ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: تعدلوا ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

روى الإمام أحمد: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنَّ أمي قدِمت وهي راغبة، أَفَأصلها؟ قال: «نعم صلي أمك» أخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ قد تقدم تفسير ذلك في سورة الحجرات، وأورد الحديث الصحيح: «المقسطون على منابرَ من نور عن يمين العرش، الذين يَعدلون في حُكمهم وأهاليهم وما ولوا».

٩- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي: إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء، الذين ناصبوكم بالعداوة، فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكد الوعيد على موالاتهم، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)﴾

١٠- تقدم في سورة الفتح في ذكر صلح الحديبية، الذي وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فكان

فيه: «على أن لا يأتيك منا رجلٌ وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا، وفي رواية: على أنه لا يأتيك منا أحدٌ، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». وهذا قول عروة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد والزهري ومقاتل بن حيان والسدي. فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة، وهذا من أحسن أمثلة ذلك، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله عز وجل أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن، فإن علموهن مؤمنات، فلا يرجعوهن إلى الكفار، لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يحلون لهن.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وقال مجاهد ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾: فاسألوهن عما جاء بهن، فإن كان جاء بهن غضبٌ على أزواجهن أو سخطة أو غيره، ولم يؤمنَّ، فارجعوهن إلى أزواجهن، وقال عكرمة: يقال لها: ما جاء بك إلا حب الله ورسوله، وما جاء بك عشق رجل منا، ولا فرار من زوجك، فذلك قوله: ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾. وقال قتادة: كانت محنتهن أن يستحلفن بالله: ما أخرجكن النشوز، وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله، وحرص عليه، فإذا قلن ذلك، قُبل ذلك منهن.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً.

وقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة، ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبي ﷺ زينب رضي الله عنها، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه، فلما وقع في الأسارى يوم بدر، بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقَّة شديدة، وقال للمسلمين: «إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها فافعلوا» ففعلوا، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه، فوفَّى له بذلك وصدقه فيما وعده، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضي الله عنه، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر، وكانت سنة اثنتين، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص ابن الربيع سنة ثمان، فردها عليه بالنكاح الأول، ولم يحدث لها صداقاً، كما روى الإمام أحمد: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ ردَّ ابنته زينب على أبي العاص - وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين - على النكاح الأول، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً. ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجة. ومنهم من يقول: بعد سنتين، وهو صحيح، لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين(١).

وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين، يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه، لأن الذي عليه الأكثرون، أنها متى انقضت العدة ولم يُسلم، انفسخ نكاحها منه. وقال آخرون: بل إذا انقضت العدة هي بالخيار، إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت، وحملوا عليه حديث ابن عباس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ يعني: أزواج المشركين، ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من

---

(١) وجمع بينهما: على أن المراد بالست، ما بين هجرة زينب رضي الله عنها وإسلامه، وبالسنتين ما بين نزول الآية وبين قدومه مسلماً. (حاشية السندي مختصراً).

الأصدقة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والزهري وغير واحد. وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني: إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن، أي: تزوجوهن بشرطه، من انقضاء العدة، والولي وغير ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ تحريم من الله عز وجل على عباده المؤمنين نكاح المشركات، والاستمرار معهن.

وفي الصحيح: عن الزهري عن عروة المسور بن مروان بن الحكم: أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية، جاءه نساء من المؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين، تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية.

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال: وإنما حكم الله بينهم بذلك، لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا﴾ أي: وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم، اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في الصلح، واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله، هو حكم الله يحكم به بين خلقه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بما يصلح عباده حكيم في ذلك.

١١ - ثم قال تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ قال مجاهد وقتادة: هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها.

وروى ابن جرير: عن الزهري قال: أقرَّ المؤمنون بحكم الله، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم، من أداء نفقات المسلمين، فقال الله تعالى للمؤمنين به: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين، رد المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها، من العَقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه على المشركين، من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمنَّ وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلى منزلهم إن كان بقي لهم، والعَقب: ما كان بقي من صداق نساء الكفار، حين آمنَّ وهاجرن.

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى مثل ما أنفق من الغنيمة. وهكذا قال مجاهد ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ يعني: مهر مثلها. وهكذا قال إبراهيم ومسروق وإبراهيم وقتادة ومقاتل والضحاك وسفيان بن حسين والزهري أيضاً. وهذا لا ينافي الأول، لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى، وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار، وهذا أوسع، وهو اختيار ابن جرير، ولله الحمد والمنة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا

يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)﴾

١٢- روى البخاري: عن عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن رسول الله ﷺ كان يمتحن مَن هاجر إليه من المؤمنات، بهذه الآية: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** قال عروة: قالت عائشة: فمن أقرَّ بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة قط، ما يبايعهن إلا بقول: «قد بايعتك على ذلك» هذا لفظ البخاري.

وروى الإمام أحمد: عن أميمة بنت رقيقة قالت: أتيتُ رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه فأخذ علينا ما في القرآن، أن لا نشرك بالله شيئاً الآية، وقال: «فيما استطعتن وأطقتن» قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة» هذا إسناد صحيح، وقد رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة. وقد رواه أحمد أيضاً، وزاد: «ولم يصافح منا امرأة» وكذا رواه ابن جرير.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة بنت قدامة يعني ابن مظعون قالت: أنا مع أمي رائطة ابنة أبي سفيان الخزاعية والنبي ﷺ يبايع النسوة، ويقول: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصينني في معروف» قالت: فأطرقن، فقال لهن النبي ﷺ: «قلن نعم، فيما استطعتن» فكن يقلن وأقول معهن، وأمي تلقنني: قولي أي بُنية نعم فيما استطعت، فكنت أقول كما يقلن.

وروى البخاري: عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله ﷺ، فقرأ علينا **﴿وَلاَ تُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً﴾** ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأةٌ يدها، قالت: أسعدتني فلانة، فأريد أن أجزيها، فما قال لها رسول الله ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت فبايعها، ورواه مسلم.

وفي رواية: فما وفَّى منهن امرأة غيرها، وغير أم سليم امرأة ملحان.

وللبخاري: عن أم عطية قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة أن لا ننوح، فما وفَّت امرأة غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامرأتان، أو ابنة أبي سبرة وامرأة معاذ وامرأة أخرى.

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد، كما روى البخاري: عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة، ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يُجلِّس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾** حتى فرغ من الآية كلها، ثم

قال حين فرغ «أنتن على ذلك؟» فقالت امرأة واحدة - ولم يجبه غيرها - نعم، يا رسول الله - قال: فتصدقن، قال: وبسط بلال ثوبه، فجعلن يلقين الفَتَخ والخواتيم في ثوب بلال.

وقد روى الإمام أحمد: عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس، فقال: «تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم - قرأ الآية التي أُخذت على النساء ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ - فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعُوقب به، فهو كفَّارةٌ له، ومن أصابَ من ذلك شيئاً، فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه» أخرجاه في الصحيحين.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ أي: من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط، فبايعها ﴿عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف، ما جرت به عادة أمثالها، وإن كان من غير علمه، عملاً بحديث هند بنت عتبة: أنها قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجلٌ شحيح، لا يُعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيَّ، فهل عليَّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خُذي من ماله بالمعروف، ما يكفيك ويكفي بنيك» أخرجاه في الصحيحين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وفي حديث سمرة، ذكر عقوبة الزناة بالعذاب الأليم في نار الجحيم.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع رسول الله ﷺ، فأخذ عليها ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية، قال: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقرِّي أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: فنعم إذاً، فبايعها بالآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء، تطرح نفسها لئلا تحبل، إما لغرض فاسدٍ، أو ما أشبهه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ قال ابن عباس: يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم. وكذا قال مقاتل. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ يعني: فيما أمرتهن به من معروف، ونهيتهن عنه من منكر.

روى البخاري: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال: إنما هو شرطٌ شرطه الله للنساء. وقال ميمون بن مهران: لم يجعل الله طاعة لنبيه إلا في المعروف، والمعروف: طاعة. وقال ابن زيد: أمر الله بطاعة رسوله، وهو خيرة الله من خلقه في المعروف.

وقد قال غيره عن ابن عباس وأنس بن مالك وسالم بن أبي الجعد وأبي صالح وغير واحد: نهاهن يومئذ عن النوح، وقد تقدم حديث أم عطية في ذلك أيضاً.

وروى ابن جرير: عن أم عطية الأنصارية قالت: كان فيما اشترط علينا رسول الله ﷺ من المعروف حين بايعناه: أن لا ننوح، فقالت امرأة من بني فلان: إن بني فلان أسعدوني، فلا حتى أجزيهم، فانطلقت

فأسعدتهم، ثم جاءت فبايعت، قالت: فما وفى منهن غيرها، وغير أم سليم ابنة ملحان أم أنس بن مالك، وقد روى البخاري هذا الحديث.

وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من ضرَب الخُدود، وشقّ الجيُوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

وفي الصحيحين أيضاً: عن أبي موسى: أن رسول الله ﷺ بريئ من الصَّالقة والحالقة والشاقّة.

وروى الحافظ أبو يعلى: عن أبي موسى الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطَّعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت» وقال: «النائحةُ إذا لم تتُب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قطران، ودرعٌ من جرب» ورواه مسلم في صحيحه منفرداً به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

١٣- ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة، كما نهى عنها في أولها، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى، وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه، واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء، وقد يئسوا من الآخرة، أي: ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عزوجل.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ﴾ فيه قولان أحدهما: كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور، أن يجتمعوا بهم بعد ذلك، لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه.

وقال الحسن البصري: الكفار الأحياء، قد يئسوا من الأموات. وقال قتادة: كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا. وكذا قال الضحاك، رواهن ابن جرير.

والقول الثاني: معناه كما يئس الكفار الذين هم في القبور، من كل خير. روى الأعمش: عن ابن مسعود ﴿كَمَا يَئِسَ الكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ القُبُورِ﴾ قال: كما يئس الكافر إذا مات، وعاين ثوابه واطلع عليه. وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل وابن زيد والكلبي ومنصور، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

آخر تفسير سورة الممتحنة

****

ترتيبها ٦١ سورة الصف ـ مدنية آياتها ١٤

روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله: أي الأعمال أحبُّ إلى الله؟ فلم يقم أحدٌ منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة، يعني: سورة الصف كلها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سبح للّه ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتًا عند اللّه أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن اللّه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص (٤) ﴾

١- قد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ غير مرة بما أغنى عن إعادته.

٢- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ إنكارٌ على مَن يعد وعداً، أو يقول قولاً لا يفي به، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف: إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا. واحتجوا أيضاً من السنة، بما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدَّث كذب، وإذا اؤتمن خان». وفي الحديث الآخر في الصحيح: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلةٌ من نفاق حتى يدعها» فذكر منهن: إخلاف الوعد. وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

٣- ولهذا أكَّد الله تعالى هذا الإنكار عليهم، بقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود: عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول الله ﷺ وأنا صبيٌّ، فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله، تعال أعطيك، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردتِ أن تعطيه؟ قالت: تمراً، فقال: «أما إنك لو لم تفعلي، كُتبت عليك كذبة».

وذهب الإمام مالك رحمه الله: إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزمٌ على الموعود، وجبَ الوفاء به، كما لو قال لغيره: تزوج ولك عليَّ كل يوم كذا، فتزوج، وجب عليه أن يعطيه مادام كذلك، لأنه تعلق به حقُّ آدمي. وهو مبنيٌ على المضايقة، وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنَّوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ◆ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ

﴿الْمَوْتِ﴾ الآية .

هكذا هذه الآية ، معناها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قال : كان ناسٌ من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله عز وجل دلَّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحبَّ الأعمال إيمانٌ به لا شك فيه ، وجهادُ أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كَره ذلك ناس من المؤمنين ، وشقَّ عليهم أمره ، فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وهذا اختيار ابن جرير .

ومنهم من يقول : أنزلت في شأن القتال ، يقول الرجل : قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ولم يطعن ، وضربت ولم يضرب ، وصبرت ولم يصبر . وقال قتادة والضحاك : نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون قتلنا ضربنا طعنا وفعلنا ، ولم يكونوا فعلوا ذلك . وقال ابن زيد : نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ، ولا يفون لهم بذلك . وقال مالك عن زيد بن أسلم : الجهاد .

وروى ابن أبي حاتم : عن أبي حرب بن أبي الأسود الذيلي عن أبيه قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل ، كلهم قد قرأ القرآن ، فقال : أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم ، وقال : كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات ، فأنسيناها غير أني قد حفظت منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فتكتب شهادة في أعناقكم ، فتسألون عنها يوم القيامة .

٤- ولهذا قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ فهذا إخبار من الله تعالى بمحبته عباده المؤمنين ، إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى ، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان .

وروى ابن أبي حاتم : عن مطرف قال : كان يبلغني عن أبي ذر حديثٌ كنت أشتهي لقاءه ، فلقيته فقلت : يا أبا ذر ، كان يبلغني عنك حديث فكنت أشتهي لقاءك ، فقال : لله أبوك ، فقد لقيت فهات ، فقلت : كان يبلغني عنك أنك تزعم : أن رسول الله ﷺ حدثكم : «أن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة» قال : أجل ، فلا إخالني أكذب على خليلي ﷺ ، قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل؟ قال : «رجل غزا في سبيل الله ، خرج محتسباً مجاهداً فلقي العدو فقتل ، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ، ثم قرأ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ وذكر الحديث . هكذا أورد هذا الحديث ، من هذا الوجه بهذا السياق وهذا اللفظ واختصره ، وقد أخرجه الترمذي والنسائي .

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ أي : ملتصق بعضه ببعض من الصف في القتال . وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه ببعض ، وقال ابن عباس ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ مثبتٌ لا يزول ، ملصق بعضه ببعض .

وقال قتادة : ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه؟ فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره ، وأن الله صف المؤمنين في قتالهم ، وصفهم في صلاتهم ، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به ،

أورد ذلك كله ابن أبي حاتم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾

٥- يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، أنه قال لقومه ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: لم توصلون الأذى إليَّ، وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟! وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمرٌ له بالصبر، ولهذا قال: «رحمة الله على موسى: لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(١). وفيه نهيٌ للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ، أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

٦- وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ يعني: التوراة قد بشَّرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى عليه السلام، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملإ بني إسرائيل مبشراً بمحمد، وهو أحمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة، وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي رواه محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» ورواه مسلم.

وروى أبو داود الطيالسي: عن أبي موسى قال: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء منها ما حفظنا، فقال: «أنا محمد، وأنا أحمدُ، والحاشر، والمقفِّي، ونبي الرحمة والتوبة والملحمة» ورواه مسلم.

وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً، إلا أخذ عليه العهد: لئن بُعث محمدٌ وهو حيٌّ ليتبعنه،

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء (٦/ ٤٣٦) ومسلم في الزكاة (٢/ ٧٣٩) واللفظ له من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وأخذ عليه أن يأخذ على أمته: لئن بُعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه.

وروى محمد بن إسحاق: عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، قال: «دعوةُ أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي، كأنه خرج منها نورٌ، أضاءت له قصور بُصرى من أرض الشام» وهذا إسناد جيد، وروي له شواهد.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قال ابن جريج وابن جرير ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أحمد، أي: المبشَّر به في الأعصار المتقادمة، المنوَّه بذكره في القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات، قال الكفرة والمخالفون ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) ﴾

٧- يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلَامِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله، ويجعل له أنداداً وشركاء، وهو يُدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٨، ٩- ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومَثَلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل، كذلك ذلك مستحيل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۞ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة براءة، بما فيه كفاية، ولله الحمد والمنة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾

١٠- تقدم في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه، فأنزل الله تعالى هذه السورة، ومن جملتها هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، والتي هي محصِّلة للمقصود، ومزيلة للمحذور.

١١- فقال تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: من تجارة الدنيا والكد لها، والتصدي لها وحدها.

١٢- ثم قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي: إن فعلتم ما أمرتكم به، ودللتكم عليه، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات، والمساكن الطيبات، والدرجات العاليات. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

١٣- ثم قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: إذا قاتلتم في سبيله، ونصرتم دينه، تكفل الله بنصركم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجل، فهذه الزيادة هي خير الدنيا، موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾

١٤- يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين، أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: مَن مُعيني في الدعوة إلى الله عز وجل؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به، وموازروك على ذلك، ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام، في الإسرائيليين واليونانيين.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «مَن رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟»[1]، حتى قيض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه وآزروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر، إنْ هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه، وفَّوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سماهم الله ورسوله «الأنصار» وصار ذلك عَلماً عليهم، رضي الله عنهم أرضاهم.

وقوله تعالى: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ أي: لما بلَّغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه، ووازره من وازره وأمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وغَلبت فيه طائفةٌ ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قائل منهم: إنه ابن الله، وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، ومن قائل: إنه الله، وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي: نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي: عليهم، وذلك ببعثه محمد ﷺ، كما روى الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلاً من عين في البيت ورأسه يقطر ماء، فقال: «إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي»

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ٣٢٢) وهو أول حديث طويل من حديث جابر رضي الله عنه.

قال: ثم قال: «أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي» قال: فقام شاب من أحدثهم سناً، فقال: أنا، فقال له: «اجلس» ثم أعاد عليهم فقام الشاب، فقال: أنا، فقال له «اجلس» ثم أعاد عليهم فقام الشاب، فقال: «نعم أنت ذاك» فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى عليه السلام من روزنة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، فتفرقوا فيه ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ يعني: الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار. هذا لفظه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة، وهكذا رواه النسائي.

فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الصف

****

ترتيبها ٦٢ — سورة الجمعة ـ مدنية — آياتها ١١

عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة: بسورة الجمعة والمنافقين. رواه مسلم في صحيحه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)﴾

١ - يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض، أي: من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. ثم قال تعالى: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾ أي: هو مالك السموات والأرض، المتصرف فيها بحكمه، وهو المقدس أي: المنزّه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ تقدم تفسيرها غير مرة.

٢ - وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ الأميون: هم العرب، كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

وتخصيص الأميين بالذكر، لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به، وكذا قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ وقوله: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ وقوله تعالى إخباراً عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم، وقد قدمنا تفسير ذلك في سورة الأنعام، بالآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة.

وهذه الآية مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم حين دعا لأهل مكة، أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فبعثه الله سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، وقد مقتَ اللهُ أهلَ الأرض عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، أي: نزراً يسيراً مما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ

مُّبِينٍ﴾ وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل ﷺ. فبدّلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم، وحرفوها وغيروها وأوّلوها، فبعثَ الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم، كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم والبيان لجميع ما يحتاجون إليه، من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة، ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب، في الأصول والفروع، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين، ولا يعطيه أحداً من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

٣- وقوله تعالى: **﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** روى الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة **﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾** قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سُئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لناله رجال أو رجل من هؤلاء» ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير.

ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، لأنه فسَّر قوله تعالى: **﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾** بفارس، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوهم إلى الله عز وجل، وإلى اتباع ما جاء به، ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى: **﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾** قال: هم الأعاجم، وكل مَن صدَّق النبي ﷺ من غير العرب. وروى ابن أبي حاتم: عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي، يدخلون الجنة بغير حساب» ثم قرأ **﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾**. يعني: بقية من بقي من أمة محمد ﷺ.

وقوله تعالى: **﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** أي: ذو العزة والحكمة، في شرعه وقدره.

٤- وقوله تعالى: **﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾** يعني: ما أعطاه الله محمداً ﷺ من النبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثته ﷺ.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)﴾

٥- يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة، وحملوها للعمل بها، ثم لم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدرى ما فيها؟ فهو يحملها حملاً حسياً، ولا

يدرى ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظاً ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أوّلوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالاً من الحمير، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ وقال تعالى ههنا: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

٦، ٧- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين، أي: فيما تزعمونه قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وقد قدمنا الكلام في سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

وقد أسلفنا الكلام هناك، وبينا أن المراد أن يدعو على الضلال من أنفسهم أو خصومهم، كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ومباهلة المشركين في سورة مريم: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾.

وقد روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لعنه الله: إنْ رأيتُ محمداً عند الكعبة، لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أنَّ اليهودَ تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً» رواه البخاري والترمذي والنسائي.

٨- وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى في سورة النساء ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)﴾

٩- إنما سميت الجمعة جمعة، لأنها مشتقة من الجمع، فإنَّ أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرة، بالمعابد الكبار، وفيه كمُل جميع الخلائق، فإنه اليوم السادس من الستة التي خلقَ الله فيها السموات والأرض، وفيه خُلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ مؤمن يسأل فيها الله خيراً إلا أعطاه إياه، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح.

وقد كان يقال له في اللغة القديمة: يوم العروبة، وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فضلوا عنه، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق آدم، واختار النصارى يوم الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقة، كما أخرجه البخاري ومسلم: عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبعٌ، اليهود غداً، والنصارى بعد غد» لفظ البخاري.

وفي لفظ مسلم: «أَضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تَبَعٌ لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضي بينهم قبل الخلائق».

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: اقصدوا واعمدوا واهتموا في سيركم إليها، وليس المراد بالسعي ههنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود رضي الله عنهما يقرآنها ﴿فَامْضُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فأما المشي السريع إلى الصلاة، فقد نُهي عنه، لما أخرجاه في الصحيحين: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم الإقامة، فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوَقار، ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا» لفظ البخاري.

وعن أبي قتادة قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جَلبة رجال، فلما صلى قال: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة، قال: فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا. أخرجاه. قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع. وقال قتادة: يعني أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المشي إليها. وكان يتأول قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: المشي معه، وروي عن محمد بن كعب وزيد ابن أسلم وغيرهما نحو ذلك.

ويستحب لمن جاء إلى الجمعة: أن يغتسل قبل مجيئه إليها، لما ثبت في الصحيحين: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل».

ولهما: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غُسل يوم الجمعة واجبٌ على كل محتلم».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حقٌّ لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده» رواه مسلم، وعن جابر رضي الله عنه نحوه. رواه أحمد والنسائي وابن حبان.

وروى الإمام أحمد: عن أوس بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن غسَّل واغتسل يوم الجمعة، وبكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغُ، كان له بكل خطوةٍ أجر سنة صيامها وقيامها». وهذا الحديث له طرق وألفاظ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحسنه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «مَن اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرَّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرَّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما

قرَّب كبشاً أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرَّب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرَّب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» أخرجاه .

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ، ويتطيب ، ويتسوك ، ويتنظف ويتطهر . وروى الإمام أحمد : عن أبي أيوب الأنصاري سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من اغتسل يوم الجمعة ، ومسَّ من طيب أهله إن كان عنده ، ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع إنْ بدا له ، ولم يُؤذ أحداً ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى» .

وفي سنن أبي داود وابن ماجة : عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر : «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة ، سوى ثوبي مهنته» .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار فقال : «ما على أحدكم إنْ وَجدَ سعةً أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته» رواه ابن ماجة .

وقوله تعالى : ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ المراد بهذا النداء : هو النداء الثاني ، الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه ، فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فإنما كان هذا لكثرة الناس ، كما رواه البخاري رحمه الله : عن السائب بن يزيد قال : كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر ، على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ، فلما كان عثمان وكثر الناس ، زاد النداء الثاني على الزوراء ، يعني : يؤذن به على الدار التي تسمى الزوراء ، وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد .

وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار ، دون العبيد والنساء والصبيان ، ويعذر المسافر والمريض ، وقيم المريض ، وما أشبه ذلك من الأعذار ، كما هو مقرر في كتب الفروع .

وقوله تعالى : ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي : اسعوا إلى ذكر الله ، واتركوا البيع إذا نودي للصلاة ، ولهذا اتفق العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني ، واختلفوا : هل يصح إذا تعاطاه متعاطٍ أم لا ؟ على قولين ، وظاهر الآية عدم الصحة ، كما هو مقرر في موضعه ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي : ترككم البيع ، وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة ، خير لكم أي في الدنيا والآخرة ، إن كنتم تعلمون .

١٠- وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي : فرغ منها ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء ، وأمرهم بالاجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض ، والابتغاء من فضل الله ، كما كان عراك بن مالك رضي الله عنه ، إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقي من فضلك ، وأنت خير الرازقين . رواه ابن أبي حاتم .

وروي عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة ، بارك الله له سبعين مرة ، لقول الله تعالى : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي : حال بيعكم وشرائكم ، وأخذكم وإعطائكم ،

اذكروا الله ذكرا كثيرا، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة.

ولهذا جاء في الحديث: «من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة».

وقال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾

١١ - يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة، إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي: على المنبر تخطب، هكذا ذكره غير واحد من التابعين منهم أبو العالية والحسن وزيد بن أسلم وقتادة. وقد صح بذلك الخبر، فروى الإمام أحمد: عن جابر قال: قدمت عيرٌ المدينة ورسول الله ﷺ يخطب، فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً، فنزلت ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أخرجاه في الصحيحين.

وروى الحافظ أبو يعلى: عن جابر بن عبد الله قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عيرٌ إلى المدينة، فابتدرها أصحاب رسول الله ﷺ حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده، لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادي ناراً» ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ وقال: كان في الاثني عشر الذين تثبتوا مع رسول الله ﷺ: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ دليلٌ على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً. وقد روى مسلم في صحيحه: عن جابر بن سمرة قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما، يقرأ القرآن، ويذكر الناس.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ﴾ أي: الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: لمن توكل عليه، وطلب الرزق في وقته.

آخر تفسير سورة الجمعة

****

ترتيبها ٦٣ — سورة المنافقون ـ مدنية — آياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ① اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ② ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ③ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ④﴾

١ - يقول تعالى مخبراً عن المنافقين، أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبي ﷺ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك، بل على الضد من ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: إذا حضروا عندك، واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليس كما يقولون، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: فيما أخبروا به، وإن كان مطابقاً للخارج، لأنهم لم يكونوا يعتقدوا صحة ما يقولون ولا صدقه، ولهذا كذَّبهم بالنسبة إلى اعتقادهم.

٢ - وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة، والحلفان الآثمة، ليصدقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقد أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ولهذا كان الضحاك بن مزاحم يقرؤها ﴿اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: تصديقهم الظاهر جُنة، أي: تقية يتقون به القتل، والجمهور يقرؤها ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ جمع يمين، أي: إنما قُدِّرَ عليهم النفاق، لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

٣ - وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي.

٤ - وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: وكانوا أشكالاً حسنة، وذوي فصاحة وألسنة، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور، والهلع والجزع والجبن، ولهذا قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كلما وقع أمر، أو كائنة أو خوف، يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم، كما قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ

إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ فهم جهامات وصور بلا معاني، ولهذا قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلالة.

﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون (٥) سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين (٦) هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون (٧) يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون (٨)﴾

٥- يقول تعالى مخبراً عن المنافقين - عليهم لعائن الله - أنهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ﴾ أي: صدوا وأعرضوا عما قيل لهم، استكباراً عن ذلك، واحتقاراً لما قيل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

٦- ثم جازاهم على ذلك، فقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما قال في سورة براءة، وقد تقدم الكلام على ذلك، وإيراد الأحاديث المروية هناك.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن أبي عمر العدني قال: قال سفيان ﴿لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ﴾ قال ابن أبي عمر: حوَّل سفيان وجهه على يمينه، ونظر بعينه شزراً، ثم قال: هو ذا. وقد ذكر غير واحد من السلف، أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول، كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي: عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: «ما بال دَعْوى الجاهلية؟ دعوها فإنها مُنْتِنة» وقال عبد الله بن أبي بن سلول: وقد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعزُّ منها الأذل، قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ، ثم كثر المهاجرون بعد ذلك، فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دعْه، لا يتحدَّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» ورواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم نحوه.

٧، ٨- وروى الإمام أحمد: عن زيد بن أرقم قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال عبد الله ابن أُبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل، قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: فحلف عبد الله ابن أُبي أنه لم يكن شيء من ذلك، قال: فلامني قومي، وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ قال: فانطلقت فنمت كئيباً حزيناً، قال: فأرسل إليَّ نبي الله ﷺ فقال: «إنَّ الله قد أنزل عذرك وصدقك» قال: فنزلت هذه الآية ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وللهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ ◆ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ ورواه البخاري عند هذه الآية.

ثم روى أحمد أيضاً: عن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل! فقالوا: كذب زيد يا رسول الله، فوقع في نفسي مما قالوا، فأنزل الله تصديقي ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ قال: ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ قال: كانوا رجالاً أجمل شيء، وقد رواه البخاري ومسلم والنسائي.

وروى محمد بن إسحاق بن يسار: أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه، أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتلَ عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبر بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)﴾

٩- يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبراً لهم بأنه من التَهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له، من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

١٠- ثم حثهم على الإنفاق في طاعته، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً، ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات، كان ما كان وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه، أما الكفار فكما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

١١- ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا يُنظِر أحداً بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً في قوله وسؤاله، ممن لو رُدَّ لعاد إلى شر مما كان عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

آخر تفسير سورة المنافقون

****

ترتيبها ٦٤ سورة التغابن مدنية وقيل مكية آياتها ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)﴾

١- هذه السورة هي آخر المسبِّحات، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها، ولهذا قال تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ أي: هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلق ويقدر، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن.

٢- وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أي: هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك، فلا بدَّ من وجود مؤمن وكافر، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيدٌ على أعمال عباده، سيجزيهم بها أتم الجزاء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٣- ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والحكمة ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ◆ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ◆ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب.

٤- ثم أخبر تعالى عن علمه، بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية، فقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾

٥- يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال، في مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: خبرهم وما كان من أمرهم ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: وخيم تكذيبهم، ورديء أفعالهم، وهو ما حلَّ بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدار الآخرة، مضاف إلى هذا الدنيوي.

٦- ثم علل ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالحجج والدلائل والبراهين ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم

﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾ أي: كذبوا بالحق، ونكلوا عن العمل ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أي: عنهم ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير (٧) فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير (٨) يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم (٩) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير (١٠)﴾

٧- يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين، أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ أي: لتخبرن بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: بعثكم ومجازاتكم، وهذه هي الآية الثالثة، التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة يونس ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ والثانية في سورة سبأ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الآية، والثالثة هي هذه ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

٨- ثم قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ يعني: القرآن ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية.

٩-، ١٠- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة، سمي ذلك لأنه يُجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۞ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ قال ابن عباس: هو اسم من أسماء يوم القيامة، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار. وكذا قال قتادة ومجاهد، وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة، ويذهب بأولئك إلى النار. قلت: وقد فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة.

﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم (١١) وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين (١٢) الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٣)﴾

١١- يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: بأمر الله، يعني: عن قدره ومشيئته ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوّضه عما فاته من الدنيا هُدًى في قلبه، ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه. قال علي بن أبي

طلحة عن ابن عباس ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وقال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني: يسترجع يقول ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً للمؤمن، لا يقضي اللهُ له قضاء إلا كان خيراً له، إنْ أصابته ضراء صَبَرَ فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكرَ فكان خيراً له، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن».

١٢- وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر. ثم قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حمِّل من البلاغ، وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة، قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

١٣- ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد، الذي لا إله غيره، فقال تعالى: ﴿اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فالأول خبر عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له، وأخلصوها لديه، وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

١٤- يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد، أن منهم من هو عدُو، الزوج والولد، بمعنى أنه يلتهى به عن العمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد: يعني: على دينكم، وقال مجاهد ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ قال: يحمل الرجل على قطيعة الرحم، أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس: وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال: فهؤلاء رجالٌ أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وكذا رواه الترمذي وابن جرير والطبراني.

وروي من طريق العوفي عن ابن عباس نحوه، وهكذا قال عكرمة مولاه سواء.

١٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يقول تعالى: إنما الأموال والأولاد فتنة، أي: اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، وقوله تعالى: ﴿وَاللهُ عِندَهُ﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ

﴿الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ والتي بعدها .

وروى الإمام أحمد : عن بريدة قال : كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسنُ والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ، ثم قال : «صَدَقَ الله ورسوله ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» ورواه أهل السنن .

وروى الحافظ أبوبكر البزار عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «الولدُ ثمرةُ القلوب ، وإنهم مَجبنةٌ محزنةٌ» .

١٦ - وقوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي : جهدكم وطاقتكم ، كما ثبت في الصحيحين : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أمرتكم بأمرٍ فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه» .

وقد قال بعض المفسرين كما رواه مالك عن زيد بن أسلم : إن هذه الآية ناسخة للتي في آل عمران ، وهي قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .

وروى ابن أبي حاتم : عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ قال : لما نزلت هذه الآية ، اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فنسخت الآية الأولى .

وروي عن أبي العالية وزيد بن أسلم وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان نحو ذلك .

وقوله تعالى : ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أي : كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، ولا تتخلفوا عما به أمرتم ، ولا تركبوا ما عنه زجرتم .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنفِقُوا خَيْراً لأَنفُسِكُمْ﴾ أي : وابذلوا مما رزقكم الله ، على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات ، وأحسنوا إلى خَلق الله كما أحسن الله إليكم ، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة ، وإنْ لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ تقدم تفسيره في سورة الحشر ، وذكر الأحاديث الواردة في معنى هذه الآية بما أغنى عن إعادته ههنا ، ولله الحمد والمنة .

١٧ - وقوله تعالى : ﴿إِن تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي : مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه ، ونزَّل ذلك منزلة القرض له ، كما ثبت في الصحيحين : أن الله تعالى يقول : «مَن يُقرض غير ظلوم ولا عديم» .

ولهذا قال تعالى يضاعفه لكم كما تقدم في سورة البقرة ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ .

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي : ويكفر عنكم السيئات ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَاللهُ شَكُورٌ﴾ أي : يجزي على القليل بالكثير ﴿حَلِيمٌ﴾ أي : يصفح ويغفر ويستر ، ويتجاوز عن الذنوب والزلات ، والخطايا والسيئات .

١٨ - ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تقدم تفسيره غير مرة .

آخر تفسير سورة التغابن

****

ترتيبها ٦٥ — سورة الطلاق مدنية — آياتها ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) ﴾

١ - خوطب النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً، ثم خاطب الأمة تبعاً، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. وروى ابن أبي حاتم: عن أنس قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له: راجعها فإنها صوّامة قوّامة، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة. ورواه ابن جرير.

وقد ورد من غير وجه أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها.

وروى البخاري: أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ منه، ثم قال: «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإنْ بَدَا له أنْ يطلقها، فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل» وقد رواه في مواضع من كتابه، ومسلم ولفظه: «فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء» ورواه أصحاب الكتب والمسانيد من طرق متعددة، وألفاظ كثيرة، وموضع استقصائها كتب الأحكام.

وأمسُّ لفظٍ يورد ههنا، ما رواه مسلم في صحيحه: من طريق أبي الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن - مولى عزة - يسأل ابن عمر - وأبو الزبير يسمع: كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضاً؟ فقال: طلق ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ليُراجعها» فردها وقال: «إذا طهرت فليطلق أو يمسك» قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ في قبل عدتهن.

وعن عبد الله في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال: الطهر من غير جماع، وروي عن ابن عمر وعطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة وميمون بن مهران ومقاتل بن حيان مثل ذلك، وهو رواية عن عكرمة والضحاك. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال: الطهر من غير جماع، وروي عن ابن عمر وعطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة وميمون بن مهران ومقاتل بن حيان مثل ذلك، وهو رواية عن عكرمة والضحاك وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قال: لايطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة. وقال عكرمة ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ العدة الطهر، والقرء الحيضة، أن يطلقها حبلى مستبيناً حملها، ولا يطلقها وقد طاف عليها ولا يدري حبلى هي أم لا؟

ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقسموه إلى طلاق سنة، وطلاق بدعة، فطلاق السنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها، والبدعي هو: أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا، وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها، وتحرير الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله تعالى ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: احفظوها، واعرفوا ابتداءها وانتهاءها، لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: في ذلك. وقوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي: في مدة العدة، لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً.

وقوله تعالى ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ أي: لا يخرجن من بيوتهن، إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا، كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب والشعبي والحسن وابن سيرين ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو قلابة وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والسدي وسعيد بن أبي هلال وغيرهم، وتشمل ما إذا نشزت المرأة، أو بذت على أهل الرجل، وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: شرائعه ومحارمه ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: يفعل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي: إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة، لعل الزوج يندم على طلاقها، ويخلق الله تعالى في قلبه رجعتها، فيكون ذلك أيسر وأسهل.

عن فاطمة بنت قيس في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ قالت: هي الرجعة، وكذا قال الشعبي وعطاء وقتادة والضحاك ومقاتل بن حيان والثوري، ومن ههنا ذهب من ذهب من السلف، ومن تابعهم كالإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى، إلى أنه: لا تجب السكنى للمبتوتة، أي: المقطوعة، وكذا المتوفى عنها زوجها، واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية، حين طلقها زوجها أبو عمرو ابن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير، يعني نفقة فتسخطته، فقال: والله ليس لك علينا نفقة، فأتت رسول الله ﷺ فقال: «ليس لك عليه نفقة» ولمسلم: «ولا سكنى» وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: «تلك امرأة يَغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى، تضعين ثيابك» الحديث.

وروى أبو القاسم الطبراني: عن عامر الشعبي: أنه دخل على فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك بن قيس القرشي وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، فقالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إليَّ - وهو منطلق في جيش إلى اليمن - بطلاقي، فسألت أولياءه النفقة عليَّ والسكنى، فقالوا: ما أرسل إلينا في ذلك شيئاً، ولا أوصانا به، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أبا عمرو بن حفص أرسل إليَّ بطلاقي، فسألت أولياءه السكنى والنفقة عليَّ، فقال أولياؤه: لم يرسل إلينا في ذلك بشيء، فقال رسول الله ﷺ: «إنما السكنى والنفقة للمرأة، إذا كان لزوجها عليها رجعة، فإذا كانت لا تحلُّ له حتى تنكحَ زوجاً غيره،

فلا نفقة لها ولا سكنى» وكذا رواه النسائي .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾

٢ ، ٣- يقول تعالى فإذا بلغت المعتدات أجلهن ، أي : شارفن على انقضاء العدة ، وقارين ذلك ، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية ، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه ، والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي : محسناً إليها في صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف ، أي : من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف ، بل يطلقها على وجه جميل ، وسبيل حسن .

وقوله تعالى : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي : على الرجعة إذا عزمتم عليها ، كما رواه أبو داود وابن ماجة : عن عمران ابن حصين : أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ثم يقع بها ، ولم يشهد على طلاقها ، ولا على رجعتها ، فقال : طلقت لغير سنة ، وراجعت لغير سنة ، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ، ولا تعد .

وقال ابن جريج كان عطاء يقول : ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال : لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع ، إلا شاهدا عدل ، كما قال الله عز وجل ، إلا أن يكون من عذر . وقوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي : هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد ، وإقامة الشهادة إنما يأتمر به من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وأنه شرع هذا ، ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة ، ومن ههنا ذهب الشافعي في أحد قوليه : إلى وجوب الإشهاد في الرجعة ، كما يجب عنده في ابتداء النكاح ، وقد قال بهذا طائفة من العلماء ، ومن قال بهذا يقول : إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ، ليقع الإشهاد عليها .

وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي : ومن يتق الله فيما أمره به ، وترك ما نهاه عنه ، يجعل له من أمره مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أي : من جهة لا تخطر بباله .

وروى ابن أبي حاتم : عن عبد الله بن مسعود قال : إن أجمعَ آية في القرآن : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ وإنَّ أكبر آية في القرآن فرجاً ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ .

وفي المسند : عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «مَن أكثر من الاستغفار ، جعل الله له من كل همٍّ فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب» .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ يقول : ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ . وقال الربيع بن خثيم ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ أي : من كل شيء ضاق على الناس ، وقال عكرمة : من طلق كما أمره الله ، يجعل له مخرجاً ، وكذا روي عن ابن عباس والضحاك ، وقال ابن مسعود ومسروق ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ يعلم أن الله إن شاء أعطى وإن شاء منع ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي : من حيث لا يدري وقال قتادة ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ أي : من شبهات الأمور والكرب عند الموت ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ من حيث لا يرجو ولا يأمل ، وقال السدي

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ يُطلق للسنة، ويراجع للسنة. وروى الإمام أحمد: عن ثوبان قال: قال رسول اللهﷺ: «إن العبد ليُحرم الرزق بالذَّنب يصيبه، ولا يردُّ القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العُمر إلا البرُّ» ورواه النسائي وابن ماجة. وروى ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين قال: قال رسول اللهﷺ: «من انقطع إلى الله، كفَاه الله كلَّ مؤونة، ورَزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها».

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عباس: أنه ركب خلف رسول اللهﷺ يوماً، فقال له رسول اللهﷺ: «يا غلام، إنِّي معلِّمك كلماتٍ: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام، وجفَّت الصُّحف» وقد رواه الترمذي.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول اللهﷺ: «من نَزَل به حاجةٌ فأنزلها بالناس، كان قَمناً أن لا تسهل حاجته، ومن أنزلها بالله تعالى أتاه الله برزق عاجل، أو بموت آجل».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي: منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه، بما يريده ويشاؤه ﴿قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴿٥﴾ ﴾

٤- يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة، وهي التي قد انقطع عنها المحيض لكبرها، أنها ثلاثة أشهر، عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية البقرة، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض، أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: وهو قول طائفة من السلف، كمجاهد والزهري وابن زيد، أي: إن رأين دماً، وشككتم في كونه حيضاً أو استحاضة، وارتبتم فيه. والقول الثاني: إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه، فهو ثلاثة أشهر. وهذا مروي عن سعيد بن جبير، وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى، واحتج عليه بما رواه أبي بن كعب: يا رسول الله، إن عدداً من عدد النساء لم تُذكر في الكتاب: الصغار والكبار وأولات الأحمال؟ قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، ورواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا السياق.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ يقول تعالى: ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة، في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية، وقد روي عن علي وابن عباس رضي الله عنهم أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها، أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع، أو الأشهر، عملاً بهذه الآية، والتي في سورة البقرة.

وروى البخاري: عن أبي سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس فقال: أفتني في امرأة

ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين، قلت: أنا: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة -فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قُتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها، هكذا أورد البخاري هذا الحديث ههنا مختصراً، وقد رواه هو مسلم وأصحاب الكتب مطولاً من وجوه أخر.

وروى الإمام أحمد: عن المسور بن مخرمة: أن سبيعة الأسلمية تُوفي عنها زوجها وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلمَّا تعلَّت من نفاسها خُطبت، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح، فأذن لها أن تُنكح، فنُكحت. ورواه البخاري في صحيحه ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة.

وروى ابن جرير: عن علقمة بن قيس: أن عبد الله بن مسعود قال: من شاء لاعنته، ما نزلت ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها، فقد حلَّت، يريد بآية المتوفى عنها زوجها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ وقد رواه النسائي.

وروى ابن أبي حاتم: عن مسروق قال: بلغ ابن مسعود أن علياً رضي الله عنه يقول: آخر الأجلين، فقال: من شاء لاعنته، إن التي في النساء القصرى، نزلت بعد البقرة ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ورواه أبو داود وابن ماجة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ أي: يُسهِّل له أمره، وييسره عليه، ويجعل له فرجاً قريباً، ومخرجاً عاجلاً.

٥- ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي: حكمه وشرعه أنزله إليكم، بواسطة رسول الله ﷺ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ أي: يذهب عنه المحذور، ويجزل الثواب على العمل اليسير.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (٧)﴾

٦- يقول تعالى آمراً عباده، إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها، فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي: عندكم ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني سَعَتكم حتى قال قتادة: إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ قال مقاتل بن حيان: يعني يضاجرها لتفتدي منه بمالها، أو تخرج من مسكنه، وروى الثوري: عن أبي الضحى ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ قال: يطلقها، فإذا بقي يومان راجعها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس وطائفة من السلف وجماعات من الخلف: هذه في البائن، إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها،

قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها، سواء كانت حاملاً أو حائلاً، وقال آخرون: بل السياق كله في الرجعيات، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية، لأن الحمل تطول مدته غالباً، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق على الوضع، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة، ثم اختلف العلماء: هل النفقة لها بواسطة الحمل، أم للحمل وحده؟ على قولين منصوصين عن الشافعي وغيره، ويتفرع عليها مسائل كثيرة مذكورة في علم الفروع.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي: إذا وضعن حملهن وهنَّ طوالق، فقد بنَّ بانقضاء عدتهن، ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه ولكن بعد أن تغذيه باللبأ، وهو باكورة اللبن، الذي لا قوام للمولود غالبا إلا به، فإن أرضعت استحقت أجر مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف، من غير إضرار ولا مضارة، كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ أي: وإن اختلف الرجل والمرأة، فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيراً، ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها، فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية، فهي أحق بولدها.

٧- وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ أي: لينفق على المولود والده، ووليه، بحسب قدرته ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ وعدٌ منه تعالى، ووعده حق لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾.

﴿ وكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ ربِّهَا ورُسُله فَحَاسَبْنَاهَا حسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذين آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيكُم ذِكْرًا (١٠) رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) ﴾

٨- يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره، وكذب رسله، وسلك غير ما شرعه، ومخبراً عما حلَّ بالأمم السالفة بسبب ذلك، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي: تمردت وطغت، واستكبرت عن اتباع أمر الله، ومتابعة رسله ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً﴾ أي: منكراً فظيعاً.

٩- ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: غِبَّ مخالفتها، وندموا حيث لا ينفعهم الندم ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾.

١٠- ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: في الدار الآخرة، مع ما عجّل لهم من العذاب في الدنيا. ثم قال تعالى بعد ما قص من خبر هؤلاء ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدقوا بالله ورسله ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يعني: القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

١١- وقوله تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ قال بعضهم «رسولا» منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة، لأن الرسول هو الذي بلغ الذكر. وقال ابن جرير: الصواب أن «الرسول» ترجمة عن الذكر، يعني تفسير له. ولهذا قال تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي: في حال كونها بينة واضحة جلية ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وقال تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر والجهل، إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمّى الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً، لما يحصل به من الهدى، كما سماه روحاً، لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة، بما أغنى عن إعادته ههنا، ولله الحمد والمنة.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾

١٢- يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة، وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ كقوله تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ وقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: سبعاً أيضاً، كما ثبت في الصحيحين: «مَن ظلم قِيد شبر من الأرض، طُوّقه من سبع أرضين». وفي صحيح البخاري: «خسف به إلى سبع أرضين». وقد ذكرت طرقه وألفاظه وعزوه في أول البداية والنهاية، عند ذكر خلق الأرض ولله الحمد والمنة.

ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة، وأغرق في النزع، وخالف القرآن والحديث بلا مستند، وقد تقدم في سورة الحديد عند قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ ذكر الأرضين السبع وبعد ما بينهن، وكثافة كل واحدة منهن خمسمائة عام، وهكذا قال ابن مسعود وغيره.

آخر تفسير سورة الطلاق

****

ترتيبها ٦٦ — سورة التحريم — مدنية — آياتها ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾

١ - اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة، فقيل: نزلت في شأن مارية، وكان رسول الله ﷺ قد حرَّمها، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾ الآية.

روى أبو عبد الرحمن النسائي: عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرَّمها، فأنزل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخر الآية.

وكذا روي عن قتادة وغيره وعن الشعبي، وكذا قال غير واحد من السلف منهم الضحاك والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان. وروى العوفي عن ابن عباس القصة مطولة.

وروى الهيثم بن كليب في مسنده: عن ابن عمر عن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة: «لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم علي حرام» فقالت: أتحرِّم ما أحلَّ الله لك؟ قال: «فوالله لا أقربها» قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، قال: فأنزل الله ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾. وهذا إسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج.

وروى ابن جرير: عن سعيد بن جبير: أن ابن عباس كان يقول في الحرام: يمين تكفرها، وقال ابن عباس ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يعني: أن رسول الله ﷺ حرَّم جاريته، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ فكفَّر يمينه، فصيَّر الحرام يميناً.

ورواه البخاري: عن ابن عباس: في الحرام يمين تكفر، وقال ابن عباس ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ورواه مسلم.

وروى النسائي: عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: إني جعلت امرأتي علي حراماً، قال: كذبت ليست عليك بحرام، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ عليك أغلظ الكفارات، عتق رقبة، تفرد به النسائي.

والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل، كما روى البخاري عند هذه الآية: عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير! إني أجد منك ريح مغافير! قال: «لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً» ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ﴾ هكذا أورد هذا الحديث ههنا بهذا اللفظ.

ورواه في كتاب الأيمان والنذور: وفيه: فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً» وقال إبراهيم بن موسى عن هشام: «ولن أعود له، وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً» ثم قال: المغافير شبيه بالصمغ، يكون في الرمث فيه حلاوة، أغفر الرمث: إذا ظهر فيه، واحدها مغفور، ويقال: مغافير. وهكذا قال الجوهري، قال: وقد يكون المغفور أيضاً للعشر والثمام والسلم والطلح، قال: والرمث بالكسر مرعى من مراعي الإبل، وهو من الحمض، قال: والعرفط شجر من العضاه ينضح المغفور. وقد روى مسلم هذا الحديث في كتاب الطلاق.

ثم قال البخاري في كتاب الطلاق: عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت فسألت عن ذلك فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي ﷺ منه شربة، فقلت: أما والله لنحتالن له، فقلت لسودة بنت زمعة إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلتَ مَغَافير، فإنه سيقول لك: لا، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد، فإنه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل، فقولي: جَرست نحلُه العُرْفُط، وسأقول ذلك، وقولي له أنت يا صفية ذلك قالت: - تقول سودة - فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقاً منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: «لا» قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «سقتني حفصة شربة عسل» قالت: جرست نحله العرفط، فلما دار إلي قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: «لا حاجة لي فيه» قالت: - تقول سودة - والله لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي، هذا لفظ البخاري. وقد رواه مسلم وعنده: قالت وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح - يعني الريح الخبيثة - ولهذا قلن له: أكلت مغافير، لأن ريحها فيه شيء، فلما قال: «بل شربت عسلاً» قلن: جرست نحله العرفط، أي: رعَت نحله شجر العرفط، الذي صمغه المغافير، فلهذا ظهر ريحه في العسل الذي شربته. قال الجوهري: جرست النحل العرفط تجرس إذا أكلته، ومنه قيل للنحل: جوارس. وقال: الجورس والجِرس: الصوت الخفي، ويقال سمعت جرس الطير إذا سمعت صوت مناقيرها على شيء تأكله.

والغرض: أن هذا السياق فيه: أن حفصة هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن خالته عن عائشة، وفي طريق ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة: أن زينب بنت جحش هي التي سقته العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه، فالله أعلم.

وقد يقال: إنهما واقعتان، ولا بُعد في ذلك، ألا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم.

ومما يدل علي أن عائشة وحفصة رضي الله عنهما هما المتظاهرتان، الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق، عدل عمر وعدلت معه بالإداوة فتبرز، ثم أتاني فسكبت علي يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس - قال الزهري: كره والله ما سأله عنه، ولم يكتمه - قال: هي عائشة وحفصة، قال: ثم أخذ يسوق الحديث قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي، قال: فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، قال: فانطلقت فدخلت على حفصة، فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم، قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت، لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك إنْ كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل - وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة، قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك، قال: وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً، ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: وما ذاك أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً، حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود، فقلت: استأذن لعمر فدخل الغلام، ثم خرج إليَّ فقال: ذكرتك له فصمت، فانطلقتُ حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس، يبكي بعضهم فجلست عنده قليلاً، ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام، فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إلي، فقال: ذكرتك له فصمت، فخرجت فجلست إلى المنبر، ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليَّ فقال: قد ذكرتك فصمت، فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني، فقال: ادخل، قد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمل حصير، قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إليَّ، وقال: «لا» فقلت: الله أكبر، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبت علي امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت، فتبسم رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرَّنك أن كانت جارتك هي أوسمُ أو أحبُّ إلى رسول الله ﷺ منك، فتبسم أخرى، فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: «نعم» فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله

ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر، إلا أهَبَةٌ ثلاثة، فقلت: ادع الله يا رسول الله، أن يوسِّع على أمتك، فقد وسع علي فارس والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال: «أفي شك أنتَ يا ابن الخطّاب؟ أولئك قومٌ عجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» فقلت: استغفر لي يا رسول الله، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن، حتى عاتبه الله عز وجل. وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

وروى مسلم أيضاً: عن عبد الله بن عباس حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكثون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب، فقلت لأعلمنَّ ذلك - فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ووعظه إياهما - إلى أن قال: فدخلت فإذا أنا برسول الله ﷺ على أسكفة المشربة، فناديت فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله ﷺ - فذكر نحو ما تقدم - إلي أن قال: فقلت: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، فنزلت هذه الآية آية التخيير ﴿**عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ**﴾ ﴿**وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾ فقلت: أطلقتهنَّ؟ قال: «لا» فقمت على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر.

وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومقاتل بن حيان والضحاك وغيرهم ﴿**وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أبو بكر وعمر، زاد الحسن البصري: وعثمان.

وروى البخاري: عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن ﴿**عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ**﴾ فنزلت هذه الآية.

وقد تقدم أنه وافق القرآن في أماكن، منها في نزول الحجاب، ومنها في أساري بدر، ومنها قوله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله تعالى: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: بلغني شيئ كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ، فاستقريتهن أقول: لتكفنَّ عن رسول الله ﷺ، أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكن، حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين، فقالت: يا عمر، أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن؟ فأمسكت، فأنزل الله عز وجل ﴿**عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً**﴾.

وهذه المرأة التي ردَّته عما كان فيه من وعظ النساء، هي: أم سلمة، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري[1]. ومعنى قوله: ﴿**مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ**﴾ ظاهر. قوله تعالى: ﴿**سَائِحَاتٍ**﴾ أي: صائمات. قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب

(١) لم أجد التصريح باسم أم سلمة رضي الله عنها في البخاري، انظر الحديث في (٤٠٢، ٤٤٨٣، ٤٧٩٠، ٤٩١٦)

القرظي وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو مالك وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدي وغيرهم.

وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن ﴿سَائِحَاتٍ﴾ أي: مهاجرات، وتلا عبد الرحمن ﴿السَّائِحُونَ﴾ أي: المهاجرون، والقول الأول أولى. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾ أي: منهن ثيبات، ومنهن أبكاراً، ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإن التنوع يبسط النفس، ولهذا قال: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾

٦- روى سفيان الثوري عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ يقول: أدبوهم وعلموهم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ يقول: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، وأمروا أهليكم بالذكر ينجيكم الله من النار. وقال مجاهد ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ قال: اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله، وقال قتادة: تأمرهم بطاعة الله، وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله، وتأمرهم به، وتساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية قدعتهم عنها وزجرتهم عنها. وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حق المسلم أن يعلم أهله، من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه.

وفي معنى هذه الآية: الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي: من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها» هذا لفظ أبي داود.

وروى أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ مثل ذلك.

قال الفقهاء: وهكذا في الصوم، ليكون ذلك تمريناً له على العبادة، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة، ومجانبة المعاصي وترك المنكر، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ وقودها أي: حطبها الذي يلقى فيه جثث بني آدم ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قيل: المراد بها الأصنام التي تعبد، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وقال ابن مسعود ومجاهد وأبو جعفر الباقر والسدي هي: حجارة من كبريت. زاد مجاهد: أنتن من الجيفة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ﴾ أي: طباعهم غليظة، قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿شِدَادٌ﴾ أي: تركيبهم في غاية الشدة والكثافة، والمنظر المزعج.

وقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه، وهؤلاء هم الزبانية - عياذا بالله منهم.

٧- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتذروا، فإنه لا يقبل منكم، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم.

٨- ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أي: توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب، وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات.

روى ابن جرير: عن النعمان بن بشير قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قال: يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه، وروى الثوري: عن عمر قال: التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه، أو لا يريد أن يعود فيه. وعن عبد الله ﴿تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قال: يتوب ثم لا يعود.

ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح: هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي ردَّه إليه بطريقه.

روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مغفل قال: دخلت مع أبي على عبد الله بن مسعود فقال: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: «الندم توبة»؟ قال: نعم، وقال مرة: نعم سمعته يقول: «الندم توبة» ورواه ابن ماجة.

وروى ابن أبي حاتم: عن الحسن قال: التوبة النصوح: أن تبغض الذنب كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته.

فأما إذا جزم بالتوبة، وصمم عليها، فإنها تجبُّ ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح: «الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها»(١).

وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات؟ كما تقدم في الأثر: «ثم لا يعود فيه أبداً» أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي؟ بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك، لا يكون ضاراً في تكفير ما تقدم، لعموم قوله عليه السلام: «التوبة تجبُّ ما قبلها»؟.

وللأول: أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضاً: «مَن أحسنَ في الإسلام، لم يؤاخذْ بما عَمِل في الجاهلية، ومَن أساء في الإسلام، أخذ بالأول والآخر»(٢).

فإذا كان هذا في الإسلام، الذي هو أقوى من التوبة، فالتوبة بطريق الأولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وعسى من الله موجبة ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: ولا يخزيهم معه، يعني: يوم القيامة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ كما تقدم في سورة الحديد ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال مجاهد والضحاك والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون، حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفئ.

وروى الإمام أحمد: عن رجل من بني كنانة قال: صليت خلف رسول الله ﷺ عام الفتح فسمعته يقول:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١/ ١١٢) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١/ ١١١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

«اللهم لا تخزني يوم القيامة».

وروى محمد بن نصر المروزي: عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول مَن يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن يميني فأعرف أمتي من بين الأمم، وأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم» فقال رجل: يا رسول الله، وكيف تعرف أمتك من الأمم؟ قال: «غرٌّ محجلون من آثار الطهور، ولا يكون أحدٌ من الأمم كذلك غيرهم، وأعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم سيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم».

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾

٩- يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في الدنيا ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: في الآخرة.

١٠- ثم قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم، أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم. ثم ذكر المثل فقال: ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ أي: نبيين رسولين، عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويضاجعانهما، ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة فلم يجد ذلك كله شيئا، ولا دفع عنهما محذورا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي لكفرهما ﴿وَقِيلَ﴾ للمرأتين ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.

وليس المراد بقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة، لحرمة الأنبياء كما قدمنا في سورة النور. روى سفيان الثوري: عن ابن عباس يقول في هذه الآية ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ما زنتا، أما خيانة امرأة نوح، فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه. وقال العوفي عن ابن عباس نحوه. وقال الضحاك عن ابن عباس: ما بَغَت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين. وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء، على ضعف الحديث الذي يأثره كثير من الناس: «من أكل مع مغفور له غفر له»! وهذا الحديث لا أصل له، وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين، أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال: يا رسول الله، أنت قلت: من أكل مع مغفور له غفر له؟ قال: لا، ولكني الآن أقوله!![1].

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ

---

(١) والحديث كذب موضوع لا أصل له! كما نقله الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة (١٠٧٣) عن شيخه الحافظ ابن حجر رحمهما الله تعالى. وقال: وليس معناه صحيحاً على الإطلاق، فقد يأكل مع المسلمين الكفار والمنافقون.

مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾

١١ - وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين، أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين، إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: **﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾** قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضرَّ امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حَكَمٌ عدلٌ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه.

وروى ابن جرير: عن سليمان قال: كانت امرأة فرعون تُعذَّب في الشمس، فإذا انصرف عنها، أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.

فقولها **﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾** قالت العلماء: اختارت الجار قبل الدار، وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع. **﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾** أي: خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله **﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** وهذه المرأة هي: آسية بنت مزاحم رضي الله عنها.

وقوله تعالى: **﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾** أي: حفظته وصانته، والإحصان: هو العفاف والحرية **﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾** أي: بواسطة الملك - وهو جبريل - فإن الله بعثه إليها، فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام، ولهذا قال تعالى: **﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾** أي: بقدره وشرعه.

﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ روى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: خطَّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».

وقد ثبت في الصحيحين: من حديث عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «كمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإنَّ فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

وقد ذكرنا طرق هذه الأحاديث وألفاظها، والكلام عليها في قصة عيسى ابن مريم عليهما السلام في كتابنا «البداية والنهاية» ولله الحمد والمنة.

آخر تفسير سورة التحريم

****

ترتيبها ٦٧ — سورة الملك - مكية — آياتها ٣٠

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ سورة في القرآن، ثلاثين آية، شفعت لصاحبها حتى غفر له ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾» ورواه أهل السنن الأربعة.

وقد روى الطبراني والحافظ الضياء المقدسي: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾».

وروى الترمذي: عن جابر: أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿الم تَنزِيلُ﴾ و ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤﴾

١- يمجد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك، أي: هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٢- ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ واستدل بهذه الآية من قال: إن الموت أمرٌ وجودي، لأنه مخلوق، ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم ﴿لِيَبْلُوَهُمْ﴾ أي: يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ فسمى الحال الأول - وهو العدم - موتاً، وسمى هذه النشأة حياة، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قال: إن الله أذلَّ بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خير عملاً - كما قال محمد بن عجلان - ولم يقل أكثر عملاً. ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي: هو العزيز، العظيم المنيع الجناب، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه، وأناب بعد ما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزاً، وهو مع ذلك يغفر ويرحم، ويصفح ويتجاوز.

٣- ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي: طبقة بعد طبقة، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات، بعضهن على بعض؟ أو متفاصلات بينهن خلاء؟ فيه قولان: أصحهما الثاني، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره، وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ أي: بل هو مصطحب مستو

ليس فيه اختلاف ولا تنافر، ولا مخالفة ولا نقص، ولا عيب ولا خلل، ولهذا قال تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والثوري وغيرهم في قوله تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: شقوق.

وقال ابن عباس في رواية ﴿مِن فُطُورٍ﴾ أي: من وهاء، وقال قتادة ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: هل ترى خللاً يا ابن آدم؟

٤- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ قال قتادة مرتين ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ قال ابن عباس: ذليلاً، وقال مجاهد وقتادة: صاغراً. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ قال ابن عباس يعني: وهو كليل، وقال مجاهد وقتادة والسدي: الحسير المنقطع من الإعياء، ومعنى الآية: أنك لو كررت البصر مها كررت، لانقلب إليك، أي: لرجع إليك البصر ﴿خَاسِئًا﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر، ولا يرى نقصاً.

٥- ولما نفى عنها في خلقها النقص، بيَّن كمالها وزينتها، فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وهي الكواكب، التي وضعت فيها، من السيارات والثوابت.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ عاد الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ على جنس المصابيح، لا على عينها، لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم.

وقوله تعالى ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي: جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى، كما قال تعالى في أول الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۞ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۞ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۞ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۞ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتَدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك، فقد قال برأيه، وأخطأ حظه وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) ﴾

٦، ٧- يقول تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المآل والمنقلب ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ قال ابن جرير: يعني: الصياح ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير.

٨، ٩- وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة

عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة.

١٠- فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها، أو نسمع ما أنزله الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله، والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهمٌ نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقلٌ يرشدنا إلى اتباعهم.

١١- قال الله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. روى الإمام أحمد: عن أبي البختري الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يهلك الناسُ حتى يُعْذِروا من أنفسهم».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

١٢- يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه، فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس، فينكف عن المعاصي، ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى، بأنه له مغفرة وأجر كبير، أي: تكفر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «سبعةٌ يظلهم الله تعالى في ظلِّ عرشه، يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم رجلاً: دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

١٣- ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما يخطر في القلوب.

١٤- ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: ألا يعلم الخالق؟ وقيل: معناه: ألا يعلم الله مخلوقه؟ والأول أولى لقوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

١٥- ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارّة ساكنة، لا تميد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع، ومواضع الزروع والثمار، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها، في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً، إلا أن ييسره الله لكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ فَالسَّعْيُ في السبب، لا ينافي التوكل، كما روى الإمام أحمد: عن عمر بن الخطاب: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ولو أنكم تَتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطَّير، تغدوا خماصاً، وتروح بطاناً» رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة. فأثبت لها رواحاً وغدواً لطلب الرزق مع توكلها على الله عز وجل، وهو المسخر المسير المسبب.

﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي: المرجع يوم القيامة، قال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة: مناكبها: أطرافها

وفجاجها ونواحيها. وقال ابن عباس وقتادة أيضاً: مناكبها الجبال.

﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾

١٦- وهذا أيضاً من لطفه ورحمته، بخلقه، أنه قادرٌ على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به، وعبادتهم معه غيره، وهو مع هذا يحلم ويصفح، ويؤجل ولا يعجل، كما قال تعالى: **﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾** وقال ههنا: **﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾** أي: تذهب وتجيء وتضطرب.

١٧- **﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾** أي: ريحاً فيها حصباء تدمغكم، كما قال تعالى: **﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾** وهكذا توعدهم ههنا بقوله: **﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾** أي: كيف يكون إنذاري، وعاقبة من تخلف عنه وكذب به.

١٨- ثم قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾** أي: من الأمم السالفة والقرون الخالية **﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾** أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟ أي: عظيماً شديداً أليماً.

١٩- ثم قال تعالى: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾** أي: تارة يصففن أجنحتهنَّ في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً **﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾** أي: في الجو **﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾** أي: بما سخر لهنَّ من الهواء، من رحمته ولطفه **﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾** أي: بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، وهذه كقوله تعالى: **﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**.

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) ﴾

٢٠- يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً، منكراً عليهم فيما اعتقدوه، ومخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه، فقال تعالى: **﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾** أي: ليس لكم من دونه من ولي ولا واق، ولا ناصر لكم غيره، ولهذا قال تعالى: **﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾**.

٢١- ثم قال تعالى: **﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾** أي: من هذا الذي إذا قطع الله عنكم

رزقه ، يرزقكم بعده؟ أي : لا أحد ، يعطي ويمنع ، ويخلق ويرزق وينصر ، إلا الله عز وجل وحده لا شريك له ، أي : وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ، ولهذا قال تعالى : **﴿بَل لَّجُّوا﴾** أي : استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم **﴿فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾** أي : في معاندة واستكبار ونفور ، على إدبارهم عن الحق ، لا يسمعون له ولا يتبعونه .

٢٢- ثم قال تعالى : **﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه ، كمثل من يمشي منكباً على وجهه ، أي : يمشي منحنياً لا مستوياً **﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾** أي : لا يدري أين يسلك ، ولا كيف يذهب ، بل تائه حائر ضال ، أهذا أهدى **﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾** أي : منتصب القامة **﴿عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** أي : على طريق واضح بين ، وهو في نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة؟

هذا مثلهم في الدنيا ، وكذلك يكونون في الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم ، مفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم **﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾** الآيات ، أزواجهم أشباههم .

روى الإمام أحمد رحمه الله : عن أنس بن مالك يقول : قيل يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال : «أليس الذي أمشاهم على أرجلهم ، قادرٌ على أن يُمشيهم على وجوههم؟» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين .

٢٣- وقوله تعالى : **﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾** أي : ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً **﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾** أي : العقول والإدراك **﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾** أي : قلما تستعملون هذه القوى ، التي أنعم الله بها عليكم في طاعته ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره .

٢٤- **﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾** أي : بثّكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها ، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم **﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** أي : تجمعون بعد هذا التفرق والشتات ، يجمعكم كما فرّقكم ، ويعيدكم كما بدأكم .

٢٥- ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار ، المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه **﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** أي : متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه ، من الاجتماع بعد هذا التفرق .

٢٦- **﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾** أي : لا يعلم وقت ذلك على التعيين ، إلا الله عز وجل ، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن ، وواقع لا محالة فاحذروه **﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾** أي : وإنما عليَّ البلاغ ، وقد أديته إليكم .

٢٧- قال الله تعالى : **﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** أي : لما قامت القيامة القيامة ، أي : لما قامت القيامة ، وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريباً ، لأن كل ما هو آت آت ، وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك ، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، أي : فأحاط بهم ذلك ، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب **﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ، وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** . ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ **﴿هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾** أي : تستعجلون .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ

الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

٢٨- يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: خلصوا أنفسكم، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة، والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذَّبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم.

٢٩- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: آمنا برب العالمين، الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: منا ومنكم ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة.

٣٠- ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: ذاهباً في الأرض إلى أسفل، فلا ينال بالفؤوس الحداد، ولا السواعد الشداد، والغائر عكس النابع، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: نابع سائح جار على وجه الأرض، أي: لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، فمن فضله وكرمه، أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فلله الحمد والمنة.

آخر تفسير سورة الملك

****

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١/ ١١٢) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١/ ١١١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ترتيبها ٦٨ سورة ن - مكية آياتها ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ ﴾

١ - قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة، وأن قوله تعالى: ﴿ن﴾ كقوله: ﴿ص﴾ ﴿ق﴾ ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وتحرير القول في ذلك بما أغنى عن إعادته ههنا[١].

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به، كقوله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فهو قسمٌ منه تعالى، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم، من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة يعني: وما يكتبون. وقال السدي: وما يسطرون يعني: الملائكة وما تكتب من أعمال العباد.

وقال آخرون: بل المراد ههنا بالقلم، الذي أجراه الله بالقَدَر، حين كتب مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام، وأوردوا في ذلك الأحاديث الواردة في ذكر القلم، فروى ابن أبي حاتم: عن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: دعاني أبي حين حضره الموت فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أوّل ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يارب وما أكتب؟ قال: اكتب القدر، وما هو كائن إلى الأبد» وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد والترمذي وأبو داود في كتاب السنة من سننه.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: والقلم: يعني: الذي كتب به الذكر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: يكتبون، كما تقدم.

٢ - وقوله: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أي: ولست ولله الحمد بمجنون، كما يقوله الجهلة من قومك، المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين، فنسبوك فيه إلى الجنون.

٣ - ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: بل إن لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم، ومعنى ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، كقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع عنهم، وقال مجاهد: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير محسوب وهو يرجع إلى ما قلناه.

---

(١) وقد ذكر الحافظ ابن كثير ههنا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن (ن) هو الحوت الذي بسطت الأرض على ظهره! وهو مما تلقاه عن أهل الكتاب، ولم يثبت بشرعنا، ولذا أعرضنا عنه، والله تعالى أعلم.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: وإنك لعلي دين عظيم، وهو الإسلام، وكذلك قال مجاهد وأبو مالك والسدي والربيع بن أنس، وكذا قال الضحاك وابن زيد.

وقال عطية: لعلى أدب عظيم.

وروى عبد الرزاق: عن سعد بن هشام قال: سألت عائشة فقلت: أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: أتقرأ القرآن؟ فقلت: نعم، قالت: كان خلقه القرآن، هذا مختصر من حديث طويل، وقد رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث قتادة بطوله، وسيأتي في سورة المزمل إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

ومعنى هذا: أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً، سجية له وخلقاً تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل، كما ثبت في الصحيحين: عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شممت مِسْكاً ولا عطراً، كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ.

وروى البخاري: عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسن الناس خلقاً، ليس بالطويل ولا بالقصير. والأحاديث في هذا كثيرة، ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب الشمائل.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة قالت: ما ضرَب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط، ولا ضرب امرأةً ولا ضرب بيده شيء قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه، إلا أن تنتهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله عز وجل.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق» تفرد به.

٥، ٦- وقوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي: فستعلم يا محمد، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك، مَن المفتون الضال منك ومنهم؟ وهذه كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: ستعلم وتعلمون يوم القيامة. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي: المجنون. وكذا قال مجاهد وغيره، وقال قتادة وغيره ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي: أولى بالشيطان. ومعنى المفتون ظاهر، أي: الذي قد افتتن عن الحق، وضل عنه، وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿بِأَيِّكُم﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ وتقديره: فستعلم ويعلمون، أو فستخبر ويخبرون، بأيكم المفتون، والله أعلم.

٧- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: هو يعلم تعالى أيُّ الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضال عن الحق.

﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى

﴿عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)﴾

٨- يقول تعالى، كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم، والخلق العظيم ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

٩- ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ قال ابن عباس: لو ترخص لهم فيرخصون.

وقال مجاهد ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ تركن إلى آلهتهم، وتترك ما أنت عليه من الحق.

١٠- ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته، إنما يتقي بأيمانه الكاذبة، التي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير محلها. قال ابن عباس: المهين: الكاذب. وقال مجاهد: هو الضعيف القلب، وقال الحسن: كل حلاف مكابر، مهين ضعيف.

١١- وقوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعني: الاغتياب. ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ يعني: الذي يمشي بين الناس، ويحرش بينهم، وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهي الحالقة. وقد ثبت في الصحيحين: من حديث ابن عباس قال: مرَّ رسول اللهﷺ بقبرين، فقال: إنهما ليُعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما: فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» الحديث، وأخرجه بقية الجماعة في كتبهم.

وقال الإمام أحمد: عن حذيفة قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتّات» رواه الجماعة إلا ابن ماجة.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن غنم يبلغ به النبيﷺ: «خيارُ عبادِ الله، الذين إذا رُؤوا ذُكر الله، وشرار عباد الله المشّاءون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت».

١٢- وقوله تعالى: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿مُعْتَدٍ﴾ في تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحدَّ المشروع ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: يتناول المحرمات.

١٣- وقوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ أما العتل: فهو الفظ الغليظ، الصحيح الجموع المنوع. وروى الإمام أحمد: عن حارثة بن وهب قال: قال رسول اللهﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة: كل ضَعيفٍ متضعِّف، لو أقسم على الله لأبرَّه، ألا أنبئكم بأهل النار: كل عتلٍّ جَوّاظ مستكبر» وقال وكيع: «كل جواظ جعظري مستكبر» أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا أبا داود.

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبيﷺ قال عند ذكر أهل النار: «كلُّ جعظريٍّ جوَّاظٍ مستكبر، جمّاع منّاع» تفرد به أحمد.

قال أهل اللغة: الجعظري: الفظ الغليظ، والجواظ: الجموع المنوع.

وقال غير واحد من السلف منهم مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم: أن العُتل: هو المصحّح الخَلق، الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح وغير ذلك.

وأما الزنيم: فروى البخاري: عن مجاهد عن ابن عباس ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال: رجل من قريش، له زنمة مثل زنمة الشاة.

ومعنى هذا: أنه كان مشهوراً بالسوء، كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها، وإنما الزنيم في لغة العرب: هو الدَّعي في القوم، قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة. قال: ومنه قول حسان بن ثابت - يعني: يذم بعض كفار قريش -:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم ... كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وقال آخر:

زنيم ليس يعرف من أبوه ... بغي الأم ذو حسب لئيم

ويقال: هو الأخنس شريق الثقفي حليف بني زهرة، وزعم أناس من بني زهرة: أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهري، وليس به، وروى مجاهد عن ابن عباس: أنه زعم أن الزنيم الملحق النسب.

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن المسيب أنه قال في هذه الآية: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾: هو الملصق بالقوم ليس منهم.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: هو المريب، الذي يُعرف بالشر، وقال مجاهد: الزنيم يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة».

والأقوال في هذا كثيرة، وترجع إلى ما قلناه، وهو أن الزنيم هو المشهور بالشر، الذي يعرف به من بين الناس، وغالباً يكون دعياً ولد زنا فإنه في الغالب يتسلط الشيطان عليه، ما لا يتسلط على غيره، كما جاء في الحديث: «لا يدخل الجنة ولد زنا» (١).

وفي الحديث الآخر: «ولدُ الزنا شرُّ الثلاثة، إذا عمل بعمل أبويه» (٢).

١٤، ١٥ - وقوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ◆ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله عز وجل وأعرض عنها، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين، كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ◆ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ◆ وَبَنِينَ شُهُوداً ◆ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ◆ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ◆ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ◆ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ◆ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ◆ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ◆ ثُمَّ نَظَرَ ◆ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ◆ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ◆ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ◆ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ قال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ◆ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ◆ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ ◆ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ◆ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾.

١٦ - وقال تعالى ههنا: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ قال ابن جرير: سنبين أمره بياناً واضحاً، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم، كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم، وهكذا قال قتادة ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ شين لا يفارقه آخر ما عليه. وفي رواية عنه: سنسمه سيماً على أنفه، وكذا قال السدي. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف في القتال، وقال آخرون ﴿سَنَسِمُهُ﴾ سمة أهل النار، يعني: نسوِّد وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم. وحكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير، ومال إلى أنه: لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة، وهو متجه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلاَ يَسْتَثْنُونَ (١٨)

---

(١) رواه عبد الرزاق (٢/ ٢٠٥) والدارمي (٢٠١٨) والنسائي (٥٢٤١) وغيرهم من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) رواه أبو داود (٣٩٦٣) وأحمد (٢/ ٣١١) والطحاوي في المشكل (١/ ٣٩١) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وانظره والذي قبله في الصحيحة (٦٧٢، ٦٧٣).

فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون (١٩) فأصبحت كالصريم (٢٠) فتنادوا مصبحين (٢١) أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين (٢٢) فانطلقوا وهم يتخافتون (٢٣) أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين (٢٤) وغدوا على حرد قادرين (٢٥) فلما رأوها قالوا إنا لضالون (٢٦) بل نحن محرومون (٢٧) قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون (٢٨) قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين (٢٩) فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون (٣٠) قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين (٣١) عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون (٣٢) كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٣٣)﴾

١٧- هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش، فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال تعالى: ﴿إنا بلوناهم﴾ أي: اختبرناهم ﴿كما بلونا أصحاب الجنة﴾ وهي: البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ليجذنَّ ثمرها ليلاً، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم، ولا يتصدقوا منه بشيء.

١٨- ﴿ولا يستثنون﴾ أي: فيما حلفوا به، ولهذا حنثهم الله في أيمانهم، فقال تعالى:

١٩- ﴿فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون﴾ أي: أصابتها آفة سماوية.

٢٠-٢٢- ﴿فأصبحت كالصريم﴾ قال ابن عباس: أي: كالليل الأسود. وقال الثوري والسدي: مثل الزرع إذا حُصد، أي: هشيماً يبساً. ﴿فتنادوا مصبحين﴾ أي: لما كان وقت الصبح، نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ، أي: القطع ﴿أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾ أي: تريدون الصرام، قال مجاهد: كان حرثهم عنباً ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم.

٢٣، ٢٤- ثم فسر الله سبحانه وتعالى عالم السر والنجوى، ما كانوا يتخافتون به، فقال تعالى: ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون ◆ أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم.

٢٥- قال الله تعالى: ﴿وغدوا على حرد﴾ أي: قوة وشدة، وقال مجاهد: ﴿وغدوا على حرد﴾ أي: جد، وقال عكرمة: على غيظ، وقال الشعبي ﴿على حرد﴾ على المساكين، ﴿قادرين﴾ أي: عليها فيما يزعمون ويرومون.

٢٦- ﴿فلما رأوها قالوا إنا لضالون﴾ أي: فلما وصلوا إليها، وأشرفوا عليها، وهي الحالة التي قال الله عز وجل، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة، وكثرة الثمار، إلى أن صارت سوداء مدلهمة، لا ينتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق، ولهذا قالوا: ﴿إنا لضالون﴾ أي: قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها، قاله ابن عباس وغيره.

٢٧- ثم رجعوا عما كانوا فيه، وتيقنوا أنها هي، فقالوا: ﴿بل نحن محرومون﴾ أي: بل هي هذه، ولكن نحن لا حظَّ لنا ولا نصيب.

٢٨- ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومحمد بن كعب والربيع بن أنس والضحاك وقتادة: أي: أعدلهم وخيرهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ قال مجاهد والسدي وابن جريج ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: لولا تستثنون. قال السدي: وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحاً، وقال ابن جرير: هو قول القائل إن شاء الله، وقيل معناه: قال أوسطهم ألم أقل لكم لو لا تسبحون؟ أي: هلا تسبحون الله، وتشكرونه على ما أعطاكم، وأنعم به عليكم.

٢٩، ٣٠- ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ أي: يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه، من منع المساكين من حق الجذاذ، فما كان جواب بعضهم لبعض، إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب.

٣١- ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي: اعتدينا وبغينا، وطغينا وجاوزنا الحد، حتى أصابنا ما أصابنا.

٣٢- ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ قيل: رغبوا في بذلها لهم في الدنيا، وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة، والله أعلم.

ثم قد ذكر بعض السلف: أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن، قال سعيد بن جبير: كانوا من قرية يقال لها: ضروان، على ستة أميال من صنعاء، وقيل: كانوا من أهل الحبشة، وكان أبوهم قد خلَّف لهم هذه الجنة، وقد كانوا من أهل الكتاب، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة، فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه، ويدخر لعياله قوت سنتهم، ويتصدق بالفاضل، فلما مات وورثه بنوه، قالوا: لقد كان أبونا أحمق، إذْ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا، فلما عزموا على ذلك، عُوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية، رأس المال والربح والصدقة، فلم يبق لهم شيء.

٣٣- قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه الله، وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات، وبدل نعمة الله كفراً ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشق.

وقد ورد في حديث رواه الحافظ البيهقي: من طريق جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ نهى عن الجُداد بالليل، والحصاد بالليل[1].

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) ﴾

٣٤- لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله عز وجل،

---

(١) الجُداد: هو قطع ثمار النخل، وإنما نهي عن ذلك لأجل المساكين، حتى يحضروا في النهار فيتصدق عليهم منه، قاله ابن الأثير في النهاية.

وخالفوا أمره، بيَّن أنَّ لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم، التي لا تبيد ولا تفرغ، ولا ينقضي نعيمها.

٣٥- ثم قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء.

٣٦- ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: كيف تظنون ذلك؟

٣٧، ٣٨- ثم قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۞ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ يقول تعالى: أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه، بنقل الخلف عن السلف، متضمن حكماً مؤكداً كما تدعونه؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾.

٣٩- ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: أمعكم عهودٌ منا، ومواثيق مؤكدة؟ ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون.

٤٠- ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: قل لهم: مَن هو المتضمن المتكفل بهذا؟ قال ابن عباس: يقول أيهم بذلك كفيل.

٤١- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

٤٢- لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم، بيَّن متى ذلك كائن وواقع، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني: يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال والزلازل، والبلاء والامتحان، والأمور العظام، وقد روى البخاري ههنا: عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يَكشفُ ربُّنا عن ساقه، فيسجُد له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنة، ويبقى مَن كان يسجد في الدنيا رياءً وسُمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طَبقاً واحداً» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرهما، من طرق وله ألفاظ، وهو حديث طويل مشهور.

وعن عكرمة عن ابن عباس ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: هو يوم القيامة، يوم كرب وشدة. رواه ابن جرير[1].

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال شدة الأمر، وقال ابن عباس: هي أشد ساعة تكون في يوم القيامة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: هو الأمر الشديد الفظيع من الهول يوم القيامة. وكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس. أورد ذلك كله أبو جعفر بن جرير.

---

(١) وهذا لا ينافي الحديث السابق، فإن الكشف عن الساق يكون في ساعة شدة وكرب، وهو يوم القيامة، فليس فيه تأويل ولا ردُّ لحديث أبي سعيد رضي الله عنه، بل هو موافق ومطابق، فتأمل.

٤٣- وقوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في الدار الآخرة، بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه، مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة، إذا تجلى الرب عز وجل فيسجد له المؤمنون، ولا يستطيع أحدٌ من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعودُ ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه، عكس السجود، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون.

٤٤- ثم قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن، وهذا تهديدٌ شديد، أي: دعني وإياه مني ومنه، أنا أعلم به كيف أستدرجه، وأمده في غيه وأنظره، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

٤٥- ولهذا قال هنا: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم، وذلك من كيدي ومكري بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي.

وفي الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ اللهَ تعالى ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

٤٦، ٤٧- وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۞ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ تقدم تفسيرهما في سورة الطور، والمعنى في ذلك: أنك يا محمد تدعوهم إلى الله عز وجل، بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى، وهم يكذبون بما جئتهم به، بمجرد الجهل والكفر والعناد.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

٤٨- يقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على أذى قومك لك، وتكذيبهم، فإن الله سيحكم لك عليهم، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك، في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني: ذا النون، وهو يونس بن متى عليه السلام، حين ذهب مغاضباً على قومه، فكان من أمره ما كان، من ركوبه في البحر، والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار، وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وقال هنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والسدي: وهو مغموم، وقال عطاء

الخراساني وأبو مالك: مكروب.

٤٩، ٥٠- فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وقد روى الإمام أحمد: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متى» ورواه البخاري، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

٥١- وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ لينفذونك ﴿بِأَبْصَارِهِمْ﴾ أي: يعينونك بأبصارهم، بمعنى: يحسدونك لبغضهم إياك، لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم، وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حقٌّ بأمر الله عز وجل، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة:

(حديث بريدة بن الحصيب ﷺ): روى أبو عبد الله ابن ماجة: عن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رقية إلا من عينٍ أو حُمةٍ» وقد أخرجه مسلم في صحيحه.

(حديث أبي ذر جندب بن جنادة ﷺ): قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العينَ لتُولعُ الرجلَ بإذن الله، فيتصاعد حَالقاً، ثم يتردَّى منه[1]. إسناده غريب ولم يخرجوه.

(حديث حابس التميمي ﷺ): روى الإمام أحمد: عن حية بن حابس التميمي أن أباه أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا شيءَ في الهام، والعينُ حقٌّ، وأصدق الطِّيرةِ الفأل» وقد رواه الترمذي.

طريق أخرى: روى مسلم في صحيحه: عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابق القَدَر، سبقت العين، وإذا استُغسلتُم فاغْسلوا» انفرد به البخاري.

وروى عبد الرزاق عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول: «أُعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطانٍ وهامَّة، ومن كل عين لامةٍ» ويقول هكذا كان إبراهيم يُعوِّذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام. أخرجه البخاري وأهل السنن.

(حديث أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف ﷺ): روى ابن ماجة: عن أبي أمامة أسعد بن حنيف قال: مرَّ عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل، فقال: لم أر كاليوم، ولا جلد مخبأة، فما لبث أن لُبط به، فأتى به رسول الله ﷺ فقيل له: أدرك سهلاً صريعاً، قال: «مَن تتهمون به» قالوا: عامر بن ربيعة، قال: «علامَ يقتل أحدكم أخاه؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدعُ له بالبركة» ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ، فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه، وداخلة إزاره، وأمره أن يصب عليه قال الزهري: وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه، وقد رواه النسائي ومالك بن أنس.

(حديث أبي سعيد الخدري ﷺ): روى ابن ماجة: عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يتعوَّذ من أعين الجان، وأعين الإنس، فلما نزلت المعوذتان، أخذ بهما وترك ما سوى ذلك. ورواه الترمذي والنسائي.

(حديث آخر عنه): روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد: أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: اشتكيت يا محمد؟ قال: «نعم» قال: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شرِّ كلِّ نفسٍ وعين يشفيك، بسم الله

---

(١) فتولع: أي: تتعلق، بالرجل أو بالمرأة، فيتصاعد حالقاً أي: يصعد جبلاً عالياً، ثم يتردى أي: يسقط منه، وذلك بإذن الله تعالى.

أرقيك» ورواه مسلم وأهل السنن إلا أبا داود.

(حديث أبي هريرة رضي الله عنه): روى الإمام أحمد: عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة: عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ العينَ حقٌّ» أخرجاه.

(حديث أسماء بنت عميس رضي الله عنها): روى الإمام أحمد: عن عبيد بن رفاعة الزرقي قال: قالت أسماء: يا رسول الله، إن بني جعفر تُصيبهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: «نعم، فلو كان شيء يسبق القَدر، لسبقته العين» وكذا رواه الترمذي وابن ماجة.

(حديث عائشة رضي الله عنها): روى ابن ماجة: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقي من العين. ورواه البخاري ومسلم.

ثم روى ابن ماجة: عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله، فإن النفس حق» تفرد به.

(حديث جابر رضي الله عنه): روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرُ من يموتُ من أمتي - بعد كتاب الله، وقضائه وقدره - بالأنفس» قال البزار: يعني: العين.

روى الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر الهروي - المعروف بشكَّر - في كتاب العجائب، وهو مشتمل على فوائد جليلة وغريبة: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «قد تُدخل الرجل العينُ في القبر، وتدخل الجمل القدر». وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات، ولم يخرجوه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: يزدرونه بأعينهم، يؤذونه بألسنتهم، ويقولون: إنه لمجنون! أي: لمجيئه بالقرآن.

٥٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

آخر تفسير سورة القلم

****

ترتيبها ٦٩ | سُورَةُ الحاقة - مكية | آياتها ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)﴾

١ - ٣- الحاقة من أسماء يوم القيامة، لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد، ولهذا عظم الله أمرها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾.

٤، ٥- ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وهي: الصيحة التي أسكتتهم، والزلزلة التي أسكنتهم، هكذا قال قتادة: الطاغية: الصيحة. وهو اختيار ابن جرير، وقال مجاهد: الطاغية الذنوب، وكذا قال الربيع بن أنس وابن زيد إنها: الطغيان، وقرأ ابن زيد ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ وقال السدي: فأهلكوا بالطاغية، قال: يعني عاقر الناقة.

٦- ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي: باردة. قال قتادة والسدي والربيع بن أنس والثوري ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي: شديدة الهبوب. قال قتادة: عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم، وقال الضحاك ﴿صَرْصَرٍ﴾: باردة ﴿عَاتِيَةٍ﴾ عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة. وقال علي وغيره: عتت الخزنة فخرجت بغير حساب.

٧- ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: سلطها عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: كوامل متتابعات مشائيم. قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة والثوري وغيرهم ﴿حُسُومًا﴾ متتابعات. وعن عكرمة والربيع بن خثيم: مشائيم عليهم، كقوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ ويقال: إنها التي تسميها الناس الأعجاز، وكأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ وقيل: لأنها تكون في عجز الشتاء. قال ابن عباس ﴿خَاوِيَةٍ﴾ خربة. وقال غيره: بالية. أي: جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه، فينشدخ رأسه وتبقى جثة هامدة، كأنها قائمة النخلة إذا خرجت بلا أغصان.
وقد ثبت في الصحيحين: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نُصرتُ بالصَّبا، وأهلكت عادٌ بالدَّبور»(١).

٨- ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ أي: هل تحس منهم من أحدٍ من بقاياهم؟ أو ممن ينتسب إليهم؟ بل بادوا

(١) الصبا: الريح الشرقية، والدبور هي الريح الغربية التي تقابلها. انظر الفتح (٣٢٠٥).

عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً.

٩- ثم قال تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قِبَلَهُ﴾ قُرئَ بكسر القاف، أي: ومن عنده ممن في زمانه من أتباعه، من كفار القبط، وقرأ آخرون بفتحها، أي: ومن قبله من الأمم المشبهين له. وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ وهم الأمم المكذبون بالرسل ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ وهي: التكذيب بما أنزل الله. قال الربيع ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالمعصية، وقال مجاهد: بالخطايا.

١٠- ولهذا قال تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا جنس، أي: كلٌّ كذب رسول الله إليهم، كما قال تعالى ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ ومَن كذَّب برسول، فقد كذب بالجميع، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ - كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ - كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد، ولهذا قال ههنا: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: عظيمة شديدة أليمة، قال مجاهد ﴿رَابِيَةً﴾ شديدة، وقال السدي: مهلكة.

١١- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ أي: زاد على الحد بإذن الله، وارتفع على الوجود، وقال ابن عباس وغيره: طغا الماء: كثر. وذلك بسبب دعوة نوح ﷺ على قومه، حين كذبوه وخالفوه، فعبدوا غير الله، فاستجاب الله له، وعمَّ أهل الأرض بالطوفان، إلا من كان مع نوح في السفينة، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته.

ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء.

١٢- ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عاد الضمير على الجنس، لدلالة المعنى عليه، أي: وأبقينا لكم من جنسها، ما تركبون على تيار الماء في البحار، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ◆ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ◆ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ وقال قتادة: أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة.

والأول أظهر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي: وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية، قال ابن عباس: حافظة سامعة، وقال قتادة: ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ عقلت عن الله، فانتفعت بما سمعت من كتاب الله. وقال الضحاك ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ سمعتها أذن ووعت، أي: من له سمع صحيح، وعقل رجيح، وهذا عام في كل من فهم ووعى.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) ﴾

١٣- يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق، حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور، وهي هذه النفخة، وقد أكَّدها ههنا بأنها «واحدة» لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع، ولا يحتاج إلى تكرار ولا

تأكيد، وقال الربيع: هي النفخة الأخيرة. والظاهر ما قلناه.

١٤- ولهذا قال ههنا: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: فمدت مد الأديم العكاظي، وتبدل الأرض غير الأرض.

١٥- ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة.

١٦- ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ قال ابن جريج: هي كقوله: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ وقال ابن عباس: متخرقة، والعرش بحذائها.

١٧- ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ المَلك: اسم جنس، أي: الملائكة على أرجاء السماء، قال ابن عباس: على ما لم يهِ منها، أي: حافاتها. وكذا قال سعيد بن جبير والأوزاعي، وقال الضحاك: أطرافها. وقال الحسن البصري: أبوابها، وقال الربيع بن أنس في قوله: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ يقول: على ما استدق من السماء، ينظرون إلى أهل الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد بهذا «العرش» العرش العظيم، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب.

وروى ابن أبي حاتم: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذِنَ لِي أن أُحدِّثكم عن مَلَك من حملة العرش، بُعْد ما بين شحْمة أُذنه وعنقه بَخفق الطير، سبعمائة عام» وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات، وقد رواه أبو داود في كتاب «السنة» من سننه.

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ قال: ثمانية صفوف من الملائكة. قال، وروى عن الشعبي وعكرمة والضحاك وابن جريج مثل ذلك، وكذا روي عن ابن عباس.

١٨- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي: تعرضون على عالم السر والنجوى، الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وقد روى ابن أبي الدنيا: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخفُّ عليكم في الحساب غداً، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وقد روى ابن جرير: عن أبي وائل عن عبد الله قال: يُعرض الناسُ يوم القيامة ثلاث عرضات: عرضتان: معاذيرٌ وخُصومات، والعَرضة الثالثة، تطير الصحف في الأيدي، فآخذٌ بيمينه، وآخذ بشماله.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾

١٩- يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه، وفرحه بذلك، وأنه من شدة فرحه، يقول لكل من لقيه: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ أي: خذوا اقرءوا كتابيه، لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محصنة، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات. قال عبد الرحمن بن زيد معنى: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ أي: ها اقرءوا كتابيه، و«ؤم» زائدة. كذا قال! والظاهر أنها: بمعنى هاكم.

وقد تقدم في الصحيح: حديث ابن عمر: حين سُئل عن النَّجوى فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُدني الله العبدَ يوم القيامة، فيقرره بذنوبه كلها، حتى إذا رأى أنه قد هَلك، قال الله تعالى: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يُعطى كتاب حسناته بيمينه، وأما الكافرُ والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين».

٢٠- وقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: قد كنت موقناً في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾.

٢١- قال الله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مرضية.

٢٢- ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ قال البراء بن عازب: أي: قريبة، يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره. وكذا قال غير واحد.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي: يقال لهم ذلك، تفضلاً عليهم، وامتناناً وإنعاماً وإحساناً، وإلا فقد ثبت في الصحيح: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسدِّدوا وقاربوا، واعلموا أنَّ أحداً كم لن يُدخله عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفضل».

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) ﴾

٢٥ - ٢٧- وهذا إخبار عن حال الأشقياء، إذا أُعطي أحدُهم كتابه في العَرصات بشماله، فحينئذ يندم غاية الندم ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ قال الضحاك: يعني: موتة ولا حياة بعدها. وكذا قال محمد بن كعب والربيع والسدي، وقال قتادة: تمنى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه.

٢٨، ٢٩- ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ أي: لم يدفع عني مالي ولا جاهي، عذاب الله وبأسه، بل خلص الأمر إليَّ وحدي، فلا معين لي ولا مجير.

٣٠- فعندها يقول الله عز وجل: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: يأمر الزبانية أن تأخذه عُنفاً من المحشر، فتغله أي: تضع الأغلال في عنقه، ثم تورده إلى جهنم فتصليه إياها، أي: تغمره فيها.

٣١- ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: اغمروه فيها.

٣٢- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ قال كعب الأحبار: كل حلقة منها قدر حديد الدنيا. وقال العوفي عن ابن عباس وابن جريج: بذراع المَلَك.

وقال العوفي عن ابن عباس: يسلك في دبره حتى يخرج من منخريه، حتى لا يقوم على رجليه.

٣٣، ٣٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ۝ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يقوم بحق الله عليه، من طاعته وعبادته، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم، فإنَّ لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان، والمعاونة على البر والتقوى، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وقبض النبيﷺ وهو يقول: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم».

٣٥- ٣٧- وقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ۝ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ۝ لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ أي: ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى، لا حميم: وهو القريب، ولا شفيع يطاع، ولا طعام له ههنا إلا من غسلين. قال قتادة: هو شر طعام أهل النار. وقال الربيع والضحاك: هو شجرة في جهنم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الغسلين صديد أهل النار.

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)﴾

٣٨، ٣٩- يقول تعالى مقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته، الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم، أن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله، على عبده ورسوله الذي اصطفاه، لتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، فقال تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ۝ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾.

٤٠- ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: محمداًﷺ، أضافه إليه على معنى التبليغ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل، ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ وهذا جبريلعليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ يعني: محمداًﷺ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ يعني: أن محمداً رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها. ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أي: بمتهم ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾.

٤١، ٤٢- وهكذا قال ههنا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ۝ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فأضافه الله تارة إلى قول الرسول الملكي، وتارة إلى الرسول البشري، لأن كلا منهما مبلغ عن الله، ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه.

٤٣- ولهذا قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم

مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

٤٤- يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ أي: محمدﷺ، لو كان كما يزعمون مفترياً علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك، لعاجلناه بالعقوبة.

٤٥- ولهذا قال تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ قيل معناه: لانتقمنا منه باليمين، لأنها أشد في البطش، وقيل: لأخذنا منه بيمينه.

٤٦- ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ قال ابن عباس: وهو نياط القلب، وهو العرق الذي القلب معلق فيه، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحكم وقتادة والضحاك ومسلم البطين وأبوصخر حميد بن زياد، وقال محمد بن كعب: هو القلب ومراقه وما يليه.

٤٧- وقوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي: فما يقدر أحدٌ منكم على أن يحجز بيننا وبينه، إذا أردنا به شيئاً من ذلك، والمعنى في هذا: بل هو صادقٌ بار راشد، لأن الله عز وجل مقررٌ له ما يبلغه عنه، ومؤيدٌ له بالمعجزات الباهرات، والدلالات القاطعات.

٤٨- ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾.

٤٩- ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ أي: مع هذا البيان والوضوح، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن.

٥٠- ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة. وحكاه عن قتادة بمثله، وروى ابن أبي حاتم: عن أبي مالك ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يقول: لندامة. ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي: وإن القرآن والإيمان به، لحسرةٌ في نفس الأمر على الكافرين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۞ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾.

٥١- ولهذا قال ههنا: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: الخبر الصدق الحق، الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب.

٥٢- ثم قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: الذي أنزل هذا القرآن العظيم.

آخر تفسير سورة الحاقة

****

ترتيبها ٧٠ — سُورَةُ سأل سائل – مكية — آياتها ٤٤

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ② مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ③ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ⑤ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ⑦ ﴾

١ - ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فيه تضمين دل عليه حرف الباء كأنه مقدر استعجل سائل بعذاب واقع، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: وعذابه واقع لا محالة.

روى النسائي: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قال: النضر ابن الحارث بن كلدة. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله، وهو واقع بهم، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: دعا داع بعذاب واقع، يقع في الآخرة. قال: وهو قولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٢- وقوله تعالى: ﴿وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: مرصدٌ معد للكافرين، وقال ابن عباس: واقع جائي ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ أي: لا دافع له، إذا أراد الله كونه.

٣- ولهذا قال: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ذي المعارج يعني: العلو والفواضل. وقال مجاهد: ذي المعارج: معارج السماء، وقال قتادة: ذو الفواضل والنعم.

٤- وقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ روى عبد الرزاق عن قتادة: تعرج: تصعد. وأما الروح: فقال أبو صالح: هم خلقٌ من خلق الله، يشبهون الناس وليسوا أناساً! قلت: ويحتمل أن يكون المراد به جبريل، ويكون من باب عطف الخاص على العام، ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنها إذا قُبضت يُصعد بها إلى السماء، كما دل عليه حديث البراء.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة: عن البراء مرفوعاً: الحديث بطوله: في قبض الروح الطيبة قال فيه: «فلا يزال يُصعد بها من سماء إلى سماء، حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة».

وقد بسطنا لفظه عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين، وهو قرار الأرض السابعة، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة، هذا ارتفاع العرش عن المركز الذي في وسط الأرض السابعة، وكذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة، وأنه من ياقوتة حمراء، كما ذكره ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش (١).

---

(١) وقد طبع عام (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م) بتحقيقنا.

القول الثاني : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا ، منذ خلقَ الله هذا العالم إلى قيام الساعة . روى ابن أبي حاتم : عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال : الدنيا عمرها خمسون ألف سنة ، وذلك عمرها يوم سماها الله عز وجل يوم ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ قال : اليوم : الدنيا . وروى عبد الرزاق : عن عكرمة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال : الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة ، لا يدري أحدٌ كم مضى ، ولا كم بقي إلا الله عز وجل .

القول الثالث : أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة ، وهو قول غريب جداً .

القول الرابع : أن المراد بذلك يوم القيامة ، وروى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال : يوم القيامة . وإسناده صحيح . وكذا قال الضحاك وابن زيد ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : هو يوم القيامة ، جعله الله تعالى على الكافرين ، مقدار خمسين ألف سنة .

وقد وردت أحاديث في معنى ذلك : روى الإمام أحمد : عن أبي هريرةﷺ قال : قال رسول اللهﷺ : «ما من صاحب كنزٍ لا يُؤدي حقَّه ، إلاَّ جُعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره ، حتى يحكم الله بين عباده ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل كما تقدم ، ورواه مسلم في صحيحه بتمامه منفرداً به دون البخاري ، وموضع استقصاء طرقه وألفاظه في كتاب الزكاة ، من كتاب الأحكام .

والغرض من إيراده ههنا قوله : «حتى يحكم الله بين عباده ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» .

وقد روى ابن جرير : عن ابن أبي مليكة قال : سأل رجلٌ ابن عباس عن قوله : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال : فاتَّهمه ، فقال : إنما سألتك لتحدثني ، قال : هما يومان ذكرهما الله ، الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم .

٥- وقوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ أي : اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، واستعجالهم العذاب ، استبعاداً لوقوعه ، كقوله : ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ .

٦- ولهذا قال : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ أي : وقوع العذاب وقيام الساعة ، يراه الكفرة بعيد الوقوع ، بمعنى مستحيل الوقوع .

٧- ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ أي : المؤمنون يعتقدون كونه قريباً ، وإن كان له أمدٌ لا يعلمه إلا الله عز وجل ، لكن كل ما هو آتٍ فهو قريب ، وواقع لا محالة .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ (١٨) ﴾

٨- يقول تعالى : العذاب واقع بالكافرين ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء

وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وغير واحد: أي: كدردي الزيت.

٩- ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي: كالصوف المنفوش. قاله مجاهد وقتادة والسدي وهذه الآية، كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾.

١٠- وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۞ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: لا يسأل القريب قريبه عن حاله، وهو يراه في أسوإ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره، قال العوفي عن ابن عباس: يَعرف بعضهم بعضاً، ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول الله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

وهذه الآية الكريمة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

١١ - ١٤- وقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۞ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۞ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۞ كَلَّا﴾ أي: لا يقبل منه فداء، ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال ولو بملء الأرض ذهباً، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده، يودُّ يوم القيامة إذا رأى الأهوال، أن يفتدي من عذاب الله، ولا يقبل منه، قال مجاهد والسدي ﴿فَصِيلَتِهِ﴾: قبيلته وعشيرته، وقال عكرمة: فخذه الذي هو منهم. وقال أشهب عن مالك: فصيلته أمه.

١٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ يصف النار، وشدة حرها.

١٦- ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: جلدة الرأس، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ الجلود والهام. وقال مجاهد: ما دون العظم من اللحم. وقال سعيد بن جبير: العصب، وقال أبو صالح ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ يعني أطراف اليدين والرجلين، وقال أيضاً ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ لحم الساقين، وقال الحسن البصري وثابت البناني ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ أي: مكارم وجهه، وقال الحسن أيضاً: تحرق كل شيء فيه، ويبقى فؤاده يصيح وقال قتادة ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ أي: نزاعة لهامته، ومكارم وجهه، وخلقه وأطرافه. وقال الضحاك: تبري اللحم والجلد عن العظم، حتى لا تترك منه شيئاً.

١٧، ١٨- وقوله تعالى: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: تدعو النار إليها أبناءها، الذين خلقهم الله لها، وقدَّر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر، كما يلتقط الطير الحب، وذلك أنهم كما قال الله عز وجل كانوا ممن: أدبر وتولى، أي: كذب بقلبه، وترك العمل بجوارحه ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ أي: جمع المال بعضه على بعض فأوعاه، أي: أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات، ومن إخراج الزكاة.

وقد ورد في الحديث: «ولا توعي فيوعي الله عليك»(١).

وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كيساً ويقول: سمعت الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ وقال الحسن البصري: يا ابن آدم، سمعت وعيدَ الله، ثم أوعيت الدنيا. وقال قتادة: كان جموعاً، نموماً للحديث.

---

(١) رواه البخاري في الزكاة (٣/ ٣٠١) ومسلم في الزكاة أيضاً (٢/ ٧١٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

﴿ إنَّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإذَا مَسَّهُ الْخَيرُ مَنُوعًا (٢١) إلاَّ الْمُصَلِّين (٢٢) الَّذين هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذين فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذين يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّين (٢٦) وَالَّذينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِين (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذين هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) ﴾

١٩- يقول تعالى مخبراً عن الإنسان، وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾.

٢٠- ثم فسره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً﴾ أي: إذا أصابه الضر، فزع وجزع، وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير.

٢١- ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ أي: إذا حصلت له نعمة من الله، بخل بها على غيره، ومنع حق الله تعالى فيها. وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «شرُّ ما في رجلٍ شحٌ هالع، وجبنٌ خالع» ورواه أبو داود.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ أي: الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم، إلا من عصمه الله ووفقه، وهداه إلى الخير، ويسر له أسبابه وهم المصلون.

٢٣- ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ قيل: معناه: يحافظون على أوقاتها وواجباتها، قاله ابن مسعود ومسروق وإبراهيم النخعي. وقيل: المراد بالدوام ههنا: السكون والخشوع، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قاله عقبة بن عامر، ومنه: الماء الدائم، وهو الساكن الراكد، وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة، فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده، ليس بدائم على صلاته، لأنه لم يسكن فيها ولم يدم، بل ينقرها نقر الغراب، فلا يفلح في صلاته.

وقيل: المراد بذلك: الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه، كما جاء في الصحيح: عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» وفي لفظ: «ما داوم عليه صاحبه» قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه، وفي لفظ: أثبته.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ذُكر لنا: أن دانيال عليه السلام نعت أمة محمد ﷺ فقال: يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة، فعليكم بالصلاة، فإنها خلقٌ للمؤمنين حسن.

٢٤، ٢٥- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أي: في أموالهم نصيبٌ مقرر لذوي الحاجات، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الذاريات.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء، فهم يعملون عملَ من يرجو الثواب، ويخاف العقاب.

٢٧، ٢٨- ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: لا يأمنه أحدٌ ممن عقل عن الله أمره، إلا بأمان من الله تبارك وتعالى.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ أي: يكفونها عن الحرام، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه.

٣٠، ٣١- ولهذا قال تعالى: ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: من الإماء ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ وقد تقدم تفسير هذا في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بما أغنى عن إعادته ههنا.

٣٢- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدروا، وهذه صفات المؤمنين، وضدها صفات المنافقين، كما ورد في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». وفي رواية «إذا حدث كذب، وإذا عاهد غادر، وإذا خاصم فجر».

٣٣- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي: محافظون عليها، لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها، ولا يكتمونها ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾.

٣٤- ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: على مواقيتها وأركانها، وواجباتها ومستحباتها، فافتتح الكلام بذكر الصلاة، واختتمه بذكرها، فدل على الاعتناء بها، والتنويه بشرفها، كما تقدم في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ سواء ولهذا قال هناك: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۞ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٣٥- وقال ههنا: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: مكرمون بأنواع الملاذ والمسارّ.

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)﴾

٣٦- يقول تعالى منكراً على الكفار، الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له، ولما أرسله الله به من الهدى، وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارُّون منه، متفرقون عنه، شاردون يميناً وشمالاً، فرقاً فرقاً، وشيعاً شيعاً، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۞ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ الآية. وهذه مثلها فإنه قال تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ أي: فما لهؤلاء الكفار

الذين عندك يا محمد، مهطعين أي: مسرعين نافرين منك كما قال الحسن البصري: مهطعين، أي: منطلقين.

٣٧- ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ واحدها عزة، أي: متفرقين، وهو حال من مهطعين، أي: في حال تفرقهم واختلافهم، كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء: فهم مخالفون للكتاب، مختلفون في الكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ قال: قبلك ينظرون ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ قال: العزين: العُصب من الناس، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به.

وروى ابن جرير: عن الحسن في قوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: متفرقين يأخذون يميناً وشمالاً، يقولون ما قال هذا الرجل. وقال قتادة ﴿مُهْطِعِينَ﴾ عامدين ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: فرقاً حول النبيﷺ، لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيهﷺ.

وعن جابر بن سمرة: أن رسول اللهﷺ خرج عليهم وهم حِلق، فقال: «مالي أراكم عزين؟» رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير.

ورواه ابن جرير: عن أبي هريرةرضي الله عنه مرفوعاً.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۞ كَلَّا﴾ أي: أيطمع هؤلاء - والحالة هذه - من فرارهم عن الرسولﷺ ونفارهم عن الحق - أن يدخلوا جنات النعيم؟ كلا بل مأواهم جهنم.

٣٩- ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب بهم، الذي أنكروا كونه، واستبعدوا وجوده، مستدلاً عليهم بالبداءة، التي الإعادة أهون منها، وهم معترفون بها، فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من المني الضعيف، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۞ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۞ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۞ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

٤٠- ثم قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ أي: الذي خلق السموات والأرض، وجعل مشرقاً ومغرباً، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب من مغاربها.

وتقدير الكلام: ليس الأمر كما يزعمون، أن لا معاد ولا حساب ولا بعث ولا نشور، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة، ولهذا أتى بـ «لا» في ابتداء القسم، ليدل على أن المقسم عليه نفي، وهو مضمون الكلام، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى، ما هو أبلغ من إقامة القيامة، وهو خلق السموات والأرض، وتسخير ما فيها من المخلوقات، من الحيوانات والجمادات وسائر صنوف الموجودات، ولهذا قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

وقال ههنا: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾.

٤١- ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: يوم القيامة، نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإنَّ قدرته صالحة لذلك ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۞ بَلَىٰ قَادِرِينَ

عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ◆ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ واختار ابن جرير ﴿عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ﴾ أي: أمة تطيعنا ولا تعصينا، وجعلها كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ والمعنى الأول أظهر، لدلالة الآيات الأخر عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

٤٢- ثم قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: يا محمد ﴿يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: فسيعلمون غِب ذلك، ويذوقون وباله.

٤٣- ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: يقومون من القبور، إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب، ينهضون سراعاً كأنهم إلى نُصب يوفضون، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إلى عَلَم يسعون، وقال أبو العالية ويحيى بن أبي كثير: إلى غاية يسعون إليها، وقد قرأ الجمهور: ﴿إِلَى نَصْبٍ﴾ بفتح النون وإسكان الصاد، وهو مصدر بمعنى المنصوب.

وقرأ الحسن البصري: ﴿نُصُبٍ﴾ بضم النون والصاد، وهو: الصنم، أي: كأنهم في إسراعهم إلى الموقف، كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه، يوفضون: يبتدرون أيهم يستلمه أول. وهذا مروي عن مجاهد ويحيى بن أبي كثير ومسلم البطين وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وأبي صالح وعاصم بن أبي بهدلة وابن زيد وغيرهم.

٤٤- وقوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: خاضعة ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

آخر تفسير سورة المعارج

****

ترتيبها ٧١ سورة نوح عليه السلام ـ مكية آياتها ٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

١ - يقول تعالى مخبراً عن نوح ﷺ، أنه أرسله إلى قومه، آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢ - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بين النذارة، ظاهر الأمر واضحة.

٣ - ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: اتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

٤ - ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: إذا فعلتم ما آمركم به، وصدقتم ما أرسلت به إليكم، غفر الله لكم ذنوبكم، و «من» ههنا قيل: إنها زائدة، ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل، ومنه قول بعض العرب: قد كان من مطر، وقيل: إنها بمعنى «عن» تقديره يصفح لكم عن ذنوبكم، واختاره ابن جرير، وقيل: إنها للتبعيض، أي: يغفر لكم الذنوب العظام، التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يمد في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه، أوقعه بكم. وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم، يزاد بها في العمر حقيقة، كما ورد به الحديث: «صلة الرحم تزيد في العمر»[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك، لا يرد ولا يمانع، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دان لعزته جميع المخلوقات.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ

---

(١) حديث صحيح بشواهده، رواه أحمد وغيره. انظر الصحيحة برقم: (١٩٠٨).

سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)﴾

٥، ٦- يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة، التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما بيَّن لقومه ووضَّح لهم، ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً﴾ أي: لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، امتثالاً لأمرك وابتغاء لطاعتك ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً﴾ أي: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق، فروا منه وحادوا عنه.

٧- ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أي: سدوا آذانهم، لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه، كما أخبر تعالى عن كفار قريش ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ قال ابن جرير: عن ابن عباس: تنكروا له لئلا يعرفهم. وقال سعيد بن جبير والسدي: غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا ما يقول. ﴿وَأَصَرُّوا﴾ أي: استمروا على ما هم فيه، من الشرك والكفر العظيم الفظيع ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ أي: واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له.

٨- ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً﴾ أي: جهرة بين الناس.

٩- ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ أي: كلاماً ظاهراً بصوت عال ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾ أي: فيما بيني وبينهم، فتنوَّع عليهم الدعوة، لتكون أنجع فيهم.

١٠- ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ أي: ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه مهما كانت، في الكفر والشرك، ولهذا قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾.

١١- ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾ أي: متواصلة الأمطار، ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء، لأجل هذه الآية. وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار، وقراءة الآيات في الاستغفار، ومنها هذه الآية ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾ ثم قال: «لقد طلبتُ الغيث بمجادح السماء، التي يُستنزل بها المطر».

وقال ابن عباس وغيره: يتبع بعضه بعضاً.

١٢- وقوله تعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾ أي: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه، وأطعتموه، كثَّر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها، هذا مقام الدعوة بالترغيب.

١٣- ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب، فقال: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ أي: عظمة، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك، وقال ابن عباس: لا تعظمون الله حقَّ عظمته. أي: لا تخافون من بأسه ونقمته.

١٤- ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ قيل: معناه: من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة ويحيى بن رافع والسدي وابن زيد.

١٥- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾ أي: واحدة فوق واحدة، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس، مما علم من التيسير والكسوفات، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضاً، فأدناها القمر في السماء الدنيا، وهو يكسف ما فوقه، وعطارد في الثانية، والزهرة في الثالثة، والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة، والمشتري في السادسة، وزحل في السابعة، وأما بقية الكواكب وهي الثوابت، ففي فلك ثامن يسمونه: فلك الثوابت(١).

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً﴾.

١٦- ﴿جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾ أي: فاوت بينهما في الاستنارة، فجعل كلا منهما أنموذجاً على حدة، ليُعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها، وقدَّر للقمر منازل وبروجاً، وفاوت نوره، فتارة يزداد حتى يتناهى، ثم يشرع في النقص، حتى يستسر، ليدل على مضي الشهور والأعوام، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

١٧- وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾ هذا اسم مصدر، والإتيان به ههنا أحسن.

١٨- ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: إذا متم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ أي: يوم القيامة، يعيدكم كما بدأكم أول مرة.

١٩- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً﴾ أي: بَسَطها ومهدها، وقرَّرها وثبتها بالجبال الراسيات، الشم الشامخات.

٢٠- ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾ أي: خلقها لكم لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته، في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناء، والأرض مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد، ولا يشرك به أحد، لأنه لا نظير له، ولا عديل له، ولا ند له، ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً (٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤)﴾

٢١- يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام، أنه أنهى إليه وهو العليم، الذي لا يعزب عنه شيء، أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة، المشتملة على الترغيب تارة، والترهيب أخرى، أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غَفَل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار، لا إكرام،

---

(١) كلام الحافظ هنا حسب ما تقرر في علم الفلك عندهم في وقته، وقد تطور هذا العلم كثيراً في زماننا، فلم نشأ الاستطراد فيه فاختصرناه.

ولهذا قال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً﴾ قرئ ﴿وَوُلْدهُ﴾ بالضم وبالفتح، وكلاهما متقارب.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ قال مجاهد: كبارا أي: عظيماً، وقال ابن زيد: كبارا، أي: كبيراً، والعرب تقول: أمر عجيب وعُجَّاب، ورجل حُسَان وحُسَّان وجُمَال وجُمَّال، بالتخفيف والتشديد بمعنى واحد، والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ أي: باتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى، كما يقولون لهم يوم القيامة ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾.

ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾.

٢٣- ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ وهذه أسماء أصنامهم، التي كانوا يعبدونها من دون الله، روى البخاري: عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح، في العرب بعد: أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهُذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح ﷺ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك، ونُسخ العلم، عُبدت. وكذا روي عن عكرمة والضحاك وقتادة وابن إسحاق نحو هذا.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كانت هذه أصنام تعبد في زمن نوح.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً﴾ يعني: الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا، في العرب والعجم، وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل ﷺ في دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً﴾ دعاءٌ منه على قومه، لتمردهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه، في قوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به.

﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً (٢٨)﴾

٢٥- يقول تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ وقرئ: ﴿خطاياهم﴾ ﴿أُغْرِقُوا﴾ أي: من كثرة ذنوبهم، وعتوهم وإصرارهم على كفرهم، ومخالفتهم رسولهم ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾ أي: نقلوا من تيار البحار، إلى حرارة النار ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً﴾ أي: لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير، ينقذهم من عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾.

٢٦- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ أي: لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ولا دياراً. وهذه من صيغ تأكيد النفي، قال الضحاك: دياراً واحداً. وقال السدي: الديار الذي يسكن الدار، فاستجاب الله له، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين، حتى ولد نوح لصلبه، الذي اعتزل عن

أبيه ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ ونجى الله أصحاب السفينة، الذي آمنوا مع نوح عليه السلام، وهم الذين أمره الله بحملهم معه.

٢٧- وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ أي: إنَّك إن أبقيت منهم أحداً، أضلوا عبادك، أي: الذين تخلقهم بعدهم ﴿وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ أي: فاجراً في الأعمال، كافر القلب، وذلك لخبرته بهم، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.

٢٨- ثم قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً﴾ قال الضحاك: يعني: مسجدي.

ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن.

وقد روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تَصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي» ورواه أبو داود والترمذي.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات. ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح عليه السلام، وبما جاء في الآثار والأدعية المشهورة المشروعة.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ قال السدي: إلا هلاكاً.

وقال مجاهد: إلا خساراً، أي: في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة نوح

****

ترتيبها ٧٢ — سُورَةُ الجن - مكية — آياتها ٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) ﴾

١، ٢- يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ، أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن، فآمنوا به وصدقوه، وانقادوا له، فقال تعالى: **﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾** أي: يهدي إلى السداد والنجاح **﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾** وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: **﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾** وقد قدمنا الأحاديث الواردة في ذلك، بما أغنى عن إعادته ههنا.

٣- وقوله تعالى: **﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾** أي: فعله وأمره وقدرته. وروي عن مجاهد وعكرمة: جلال ربنا. وقال قتادة: تعالى جلاله وعظمته وأمره. وقال السدي: تعالى أمر ربنا. وعن أبي الدرداء ومجاهد أيضاً وابن جريج: تعالى ذكره. وقال سعيد ابن جبير **﴿تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾** أي: تعالى ربنا.

وقوله تعالى: **﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾** أي: تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي: قالت الجن: تنزه الرب جل جلاله - حين أسلموا وآمنوا بالقرآن - عن اتخاذ الصاحبة والولد.

٤- ثم قالوا: **﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾** قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي **﴿سَفِيهُنَا﴾** يعنون: إبليس **﴿شَطَطًا﴾** قال السدي عن أبي مالك **﴿شَطَطًا﴾** أي: جوراً. وقال ابن زيد: أي: ظلماً كبيراً. ويحتمل أن يكون المراد بقولهم **﴿سَفِيهُنَا﴾** اسم جنس، لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولداً، ولهذا قالوا **﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾** أي: قبل إسلامه **﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾** أي: باطلاً وزوراً.

٥- ولهذا قالوا: **﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾** أي: ما حسبنا أن الإنس والجن، يتمالؤون على الكذب على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك.

٦- وقوله تعالى: **﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾** أي: كنا نرى أنَّ لنا فضلاً على الإنس، لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً، أو مكاناً موحشاً، من البراري وغيرها، كما

كانت عادة العرب في جاهليتها، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان، أن يصيبهم بشيء يسوءهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته. فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم، زادوهم رهقاً أي: خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى بقوا أشد منهم مخافة، وأكثر تعوذاً بهم، كما قال قتادة ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثماً، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة. وروى الثوري: عن إبراهيم: أي: ازدادت الجن عليهم جرأة. وقال السدي: كان الرجل يخرج بأهله، فيأتي الأرض فينزلها فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن، أن أضر أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ماشيتي.

وروى ابن أبي حاتم: عن عكرمة قال: كان الجن يَفْرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد، فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن، فيقول سيد القوم: نعوذ بسيد أهل هذا الوادي، فقال الجن: نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم، فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون، فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثماً.

وقال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم ﴿رَهَقًا﴾ أي: خوفاً. وقال مجاهد: زاد الكفار طغياناً.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أي: لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً. قاله الكلبي وابن جرير.

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) ﴾

٨- يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ، وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له، أن السماء مُلئت حرساً شديداً، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها، التي كانت تقعد فيها قبل ذلك، لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط، ولا يدري من الصادق، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قال الجن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾.

٩- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم، يجد له شهابا مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه.

١٠- ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً، وهذا من أدبهم في العبارة، حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عز وجل. وقد ورد في الصحيح: «والشر ليس إليك».

وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير، بل في الأحيان بعد الأحيان، كما في حديث العباس: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ، إذ رُمي بنجم فاستنار، فقال: «ما كنتم تقولون في هذا؟» فقلنا: كنا نقول يولد عظيم يموت عظيم، فقال: «ليس كذلك، ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء» وذكر تمام الحديث، وقد أوردناه في سورة سبأ بتمامه، وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلُّب السبب في ذلك، فأخذوا

يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفظت من أجله السماء، فآمن من آمن منهم، وتمرد في طغيانه من بقي، كما تقدم حديث ابن عباس في ذلك عند قوله في سورة الأحقاف ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ الآية.

ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر، وهو كثرة الشهب في السماء والرمي بها، هال ذلك الإنس والجن، وانزعجوا له وارتاعوا لذلك، وظنوا أن ذلك لخراب العالم، كما قال السدي: لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر، فكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا، يستمعون ما يحدث في السماء من أمر، فلما بعث الله محمداً ﷺ نبياً ورسولاً، رجموا ليلة من الليالي، ففزع لذلك أهل الطائف فقالوا هلك أهل السماء، لما رأوا من شدة النار في السماء، واختلاف الشهب، فجعلوا يعتقون أرقاءهم، ويسيبون مواشيهم، فقال لهم عبد يا ليل بن عمرو بن عمير: ويحكم يا معشر أهل الطائف، أمسكوا عن مالكم، وانظروا إلى معالم النجوم، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء، إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة، يعني: محمداً ﷺ، وإن نظرتم فلم تروها، فقد هلك أهل السماء فنظروا فرأوها، فكفوا عن أموالهم، وفزعت الشياطين في تلك الليلة، فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم، فقال ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها، فأتوه فشم، فقال صاحبكم بمكة، فبعث سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا مكة، فوجدوا نبي الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصاً على القرآن، حتى كادت كلاكِلهم تصيبه، ثم أسلموا، فأنزل الله تعالى أمرهم على رسول الله ﷺ.

وقد ذكرنا هذا الفصل مستقصى في أول البعث من «كتاب السيرة» المطول، والله أعلم، ولله الحمد والمنة.

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) ﴾

١١ - يقول تعالى مخبراً عن الجن، أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم **﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾** أي: غير ذلك **﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾** أي: طرائق متعددة مختلفة، وآراء متفرقة. قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد **﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً﴾** أي: منا المؤمن، ومنا الكافر.

وروى أحمد بن سليمان النجاد في أماليه: عن أبي معاوية قال: سمعت الأعمش يقول: تروّح إلينا جني، فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال: الأرز، قال: فأتيناهم به، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً، فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم، فقلت: فما الرافضة فيكم؟ قال: شرنا. عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزني فقال: هذا إسناد صحيح إلى الأعمش.

١٢ - وقوله تعالى: **﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً﴾** أي: نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا، وأنا لا نعجزه في الأرض، ولو أمعنا في الهرب، فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا.

١٣- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾ يفتخرون بذلك، وهو مفخر لهم، وشرف رفيع، وصفة حسنة، وقولهم ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قال ابن عباس وقتادة وغيرهما: فلا يخاف أن ينقص من حسناته، أي: يحمل عليه غير سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

١٤- ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي: منا المسلم ومنا القاسط، وهو الجائر عن الحق، الناكب عنه، بخلاف المقسط: فإنه العادل ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: طلبوا لأنفسهم النجاة.

١٥- ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي: وقوداً تسعر بهم.

١٦، ١٧- وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ◆ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين: أحدهما: وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام، وعدلوا إليها، واستمروا عليها ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أي: كثيراً، والمراد بذلك سعة الرزق، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم. كما قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾ لنبتليهم من يستمر على الهداية، ممن يرتد إلى الغواية.

ذكر من قال بهذا القول: رواه العوفي عن ابن عباس ومجاهد، وكذا سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعطاء والسدي ومحمد بن كعب القرظي وقتادة. والقول الثاني: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ الضلالة ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أي: لأوسعنا عليهم الرزق استدراجاً، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ وكقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ◆ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ وهذا قول أبي مجلز لاحق بن حميد. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وحكاه البغوي عن الربيع بن أنس وزيد بن أسلم والكلبي وابن كيسان، وله اتجاه، ويتأيد بقوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: عذاباً مشقاً شديداً، موجعاً مؤلماً. قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن زيد ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: مشقة لا راحة معها، وعن ابن عباس: جبل في جهنم. وعن سعيد بن جبير: بئر فيها.

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) ﴾

١٨- يقول تعالى آمراً عباده أن يوحدوه في محال عبادته، ولا يدعى معه أحدٌ، ولا يشرك به، كما قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم، أشركوا بالله، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده.

روى سفيان عن عكرمة: نزلت في المساجد كلها، وقال سعيد بن جبير: نزلت في أعضاء السجود، أي:

هي لله فلا تسجدوا بها لغيره ، وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح : من رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرتُ أن أسجدَ على سبعةِ أعظم : على الجبهة - أشار بيده إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين» .

١٩- وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ قال العوفي عن ابن عباس يقول : لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن ، كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه فلم يعلم بهم ، حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ يستمعون القرآن ، هذا قول وهو مروي عن الزبير بن العوام رضي الله عنه .

وروى ابن جرير : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ قال : لما رأوه يصلي ، وأصحابه يركعون بركوعه ، ويسجدون بسجوده ، قال : عجبوا من طواعية أصحابه له ، قال : فقالوا لقومهم ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ وهذا قول ثان ، وهو مروي عن سعيد بن جبير أيضاً .

وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول : لا إله إلا الله ، ويدعو الناس إلى ربهم ، كادت العرب تلبد عليه جميعاً . وقال قتادة : تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه . وهذا قول ثالث ، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ، وقول ابن زيد ، وهو اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ، لقوله بعده :

٢٠- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ أي : قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه ، وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق ، واجتمعوا على عداوته ﴿إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾ أي : إنما أعبد ربي وحده لا شريك له ، وأستجير به ، وأتوكل عليه ﴿وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ .

٢١- وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً﴾ أي : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ، وعبدٌ من عباد الله ، ليس إليَّ من الأمر شيئاً في هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل .

٢٢- ثم أخبر عن نفسه أيضاً ، أنه لا يجيره من الله أحد ، أي : لو عصيته ، فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي : لا ملجأ . وقال قتادة أيضاً : أي : لا نصير ولا ملجأ ، وفي رواية : لا ولي ولا موئل .

٢٣- وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً ۞ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ۞ إِلاَّ بَلاَغاً﴾ . ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ﴾ أي : لا يجيرني منه ويخلصني ، إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عليَّ ، كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ أي : أنا أبلغكم رسالة الله ، فمن يعص بعد ذلك ، فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً ، أي : لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها .

٢٤- وقوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً﴾ أي : حتى إذا

رأى هؤلاء المشركون، من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقل عددا، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى؟ أي: بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية، وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل.

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨) ﴾

٢٥- يقول تعالى آمراً رسولهﷺ أن يقول للناس: إنه لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد **﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾** أي: مدة طويلة. وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير من الجهلة، من أنه عليه الصلاة والسلام لا يؤلف تحت الأرض! كذب لا أصل له! ولم نره في شيء من الكتب، وقد كانﷺ يسئل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها، ولما تبدى له جبريل في صورة أعرابي، كان فيما سأله أن قال: يا محمد فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهوري فقال: يا محمد، متى الساعة؟ قال: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟» قال: أما إني لم أعدَّ لها كثير صلاة ولا صيام، ولكني أحبُّ الله ورسوله، قال: «فأنت مع من أحببت» قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث.

وقد روى أبو داود في آخر كتاب الملاحم: عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول اللهﷺ: «لن يُعجزَ الله هذه الأمة من نصفِ يوم» انفرد به أبو داود.

ثم روى أبو داود: عن سعد بن أبي وقاص عن النبيﷺ أنه قال: «إني لأرجو أن لا تَعجزَ أمتي عند ربها، أن يؤخرهم نصفَ يوم» قيل لسعد: وكم نصف يوم؟ قال: «خمسمائة عام» انفرد به أبو داود[1].

٢٦، ٢٧- وقوله تعالى: **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً۝ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾** هذه كقوله تعالى: **﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾** وهكذا قال ههنا: إنه يعلم الغيب والشهادة، وأنه لا يُطلع أحداً من خلقه على شيء من علمه، إلا مما أطلعه تعالى عليه، ولهذا قال: **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً۝ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾** وهذا يعم الرسول الملكي والبشري.

ثم قال تعالى: **﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾** أي: يخصه بمزيد معقبات من الملائكة، يحفظونه من أمر الله، ويساوقونه على ما معه من وحي الله.

٢٨- ولهذا قال: **﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾** وقد اختلف المفسرون، في الضمير الذي في قوله: **﴿لِيَعْلَمَ﴾** إلى من يعود؟ فقيل: إنه عائد إلى النبيﷺ. روى عبد الرزاق عن قتادة: **﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ﴾** قال: ليعلم نبي الله، أن الرسل قد بلَّغت عن الله، وأن الملائكة حفظتها ورفعتها عن الله، وكذا رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، واختاره ابن جرير.

---

(١) أراد بأمته خصوص أغنيائها، وتأخيرهم: أن يؤخر لحاقهم الفقراء، الذين يسبقونهم إلى الجنة بنصف يوم من أيام الآخرة، وهو خمسمائة عام، قال تعالى: **﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾** (الحج: ٤٧).

وقيل غير ذلك، كما رواه العوفي عن ابن عباس قال: هي معقبات من الملائكة، يحفظون النبيﷺ من الشيطان، حتى يتبين الذين أرسل إليهم، وذلك حين يقول: ليعلم أهل الشرك، أن قد أبلغوا رسالات ربهم. وفي هذا نظر.

وقال البغوي: قرأ يعقوب ﴿ليُعلم﴾ بالضم، أي: ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا.

ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل، وهو قول حكاه ابن الجوزي في زاد المسير، ويكون المعنى في ذلك: أنه يحفظ رسله بملائكته، ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْـمُنَافِقِينَ﴾ إلى أمثال ذلك، من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها، قطعاً لا محالة.

ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾.

آخر تفسير سورة الجن

****

ترتيبها ٧٣ — سورة المزمل عليه السلام - مكية — آياتها ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ۝٧ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ۝٨ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ۝٩ ﴾

١ ، ٢- يأمر تعالى رسولهﷺ أن يترك التزمل، وهو: التغطي في الليل، وينهض إلى القيام لربه عز وجل، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وكذلك كانﷺ ممتثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجباً عليه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ وهاهنا بين له مقدار ما يقوم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ قال ابن عباس والضحاك والسدي ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ يعني: يا أيها النائم.

وقال قتادة: المزمل في ثيابه، وقال إبراهيم النخعي: نزلت وهو متزمل بقطيفة.

وعن ابن عباس ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ قال: يا محمد، زُمِّلت القرآن.

٣ ، ٤- وقوله تعالى: ﴿نِصْفَهُ﴾ بدل من الليل ﴿أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: أمرناك أن تقوم نصف اليل، بزيادة قليلة، أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: كان يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها.

وفي صحيح البخاري: عن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول اللهﷺ، فقال: كانت مداً ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم.

وعن أبي مليكة عن أم سلمة رضي الله عنها: أنها سُئلت عن قراءة رسول اللهﷺ، فقالت: كان يقطع قراءته آية آية ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن عمرو: عن النبيﷺ قال: «يُقَال لقارئ القرآن: اقرأ وارْقَ، ورتِّل كما كنتَ تُرَتِّلُ في الدنيا، فإنَّ منزلتك عند آخر آيةٍ تقرأها» ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

وقد قدمنا في أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم» [1]. و«ليس منا من لم يتغن بالقرآن» و «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود (١٤٦٨) والنسائي (٢/ ١٧٩ ، ١٨٠) وابن ماجة (١٣٤٢) من حديث البراء بن عازبرضي الله عنه.

داود» يعني أبا موسى، فقال أبو موسى: لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي، لحبرته لك تحبيراً(١).

وروى البخاري: عن أبي وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذاً كهذِّ الشِّعر! لقد عرفتُ النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المفصل، سورتين في كل ركعة.

٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ قال الحسن وقتادة: أي: العمل به. وقيل: ثقيل وقت نزوله، من عظمته، كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه: أُنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت ترض فخذي(٢).

وفي صحيح البخاري: عن عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني في مثل صَلْصة الجرس وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وُعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي المَلك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد، فيَفصم عنه وجبينه ليتفصّد عرقاً. هذا لفظه.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها. الجران هو باطن العُنق.

واختار ابن جرير: أنه ثقيل من الوجهين معاً، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما ثقل في الدنيا، ثقل يوم القيامة في الموازين.

٦- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ عن ابن عباس: نشأ: قام بالحبشية، وقال عمر وابن عباس وابن الزبير: الليل كله ناشئة، وكذا قال مجاهد وغير واحد. يقال: نشأ، إذا قام من الليل. وفي رواية عن مجاهد: بعد العشاء. وكذا قال أبو مجلز وقتادة وسالم وأبو حازم ومحمد بن المنكدر.

والغرض: أن ناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، وهي الآنات، والمقصود: أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة.

ولهذا قال تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها، من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس، ولغط الأصوات، وأوقات المعاش.

٧- ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ قال ابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبي مسلم: الفراغ والنوم، وقال أبو العالية ومجاهد وأبو مالك والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس وسفيان الثوري: فراغاً طويلاً، وقال قتادة: فراغاً وبغية ومتقلباً، وقال السدي ﴿سَبْحاً طَوِيلاً﴾ تطوعاً كثيراً.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ قال: لحوائجك، فأفرغ لدينك الليل. قال: وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة، ثم إن الله تبارك وتعالى من على عباده فخففها ووضعها وقرأ ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٨/ ٢٥٩) بنحوه.

وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ وقال تعالى: **﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾** وهذا الذي قاله كما قاله.

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد: عن سعيد بن هشام: أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقاراً له بها، ويجعله في الكراع والسلاح، ثم يجاهد الروم حتى يموت، فلقي رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة، أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال: «أليس لكم فيَّ أسوة حسنة؟» فنهاهم عن ذلك، فأشهدهم على رجعتها، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس، فسأله عن الوتر، فقال: ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: ائت عائشة فسلها، ثم ارجع إليَّ فأخبرني بردِّها عليك، فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقتُه إليها، فقال: ما أنا بقاربها إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً، فأبت فيهما إلا مُضياً، فأقسمتُ عليه فجاء معي، فدخلنا عليها فقالت: حكيم؟ وعرفته قال: نعم، قالت: من هذا معك؟ قال سعيد بن هشام، قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر، قال: فترحمت عليه وقالت: نعم المرء كان عامراً، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خُلق رسول الله ﷺ كان القرآن، فهممت أن أقوم ثم بَدَا لي قيام رسول الله ﷺ، قلت: يا أم المؤمنين أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، قالت: ألست تقرأ هذه السورة **﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾** قلت: بلى، قالت: فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً، حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة. فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ، فقلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله ﷺ، قالت: كنا نعد له سِواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ثم يتوضأثم يصلي ثمان ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو، ثم ينهض وما يسلم، ثم يقوم ليصلي التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله وحده، ثم يدعوه ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم، أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم، فتلك تسع يا بني، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا شغله عن قيام الليل نومٌ أو وجع أو مرض، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان. فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها، فقال: صدقت، أما لو كنتُ أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة. هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه، وقد أخرجه مسلم في صحيحه.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس يقول: أول ما نزل: أول المزمل، كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة. وهكذا رواه ابن جرير. وكذا قال الحسن البصري والسدي.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ❁ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾** فشق ذلك على المؤمنين، ثم خفف الله تعالى عنهم ورحمهم، فأنزل بعد هذا **﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى**

﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ فوسع الله تعالى وله الحمد ولم يضيق.

٨- وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي: أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، وما تحتاج إليه من أمور دنياك، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي: إذا فرغت من مهماتك، فانصب في طاعته وعبادته، لتكون فارغ البال. قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه.

وقال ابن عباس ومجاهد وأبو صالح وعطية والضحاك والسدي ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي: أخلص له العبادة، وقال الحسن: اجتهد وأبتل إليه نفسك. وقال ابن جرير: يقال للعابد متبتل، ومنه الحديث المروي «نهى عن التبتل»(١) يعني: الانقطاع إلى العبادة، وترك التزوج.

٩- وقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب، لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة، فأفرده بالتوكل، فاتخذه وكيلاً، كما قال في الآية الأخرى ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وآيات كثيرة في هذا المعنى، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه.

﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨)﴾

١٠- يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر، على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم هجراً جميلاً، وهو الذي لا عتاب معه.

١١- ثم قال له متهدداً لكفار قومه ومتوعداً، وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أي: دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: رويداً، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

١٢- ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا﴾ وهي: القيود، قاله ابن عباس وعكرمة وطاوس ومحمد بن كعب وعبد الله بن بريدة وأبو عمران الجوني وأبو مجلز والضحاك وحماد بن أبي سليمان وقتادة والسدي وابن المبارك والثوري وغير واحد ﴿وَجَحِيمًا﴾ وهي: السعير المضطرمة.

١٣- ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال ابن عباس: ينشب في الحلق، فلا يدخل ولا يخرج ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

١٤- ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي: تزلزل ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: تصير ككثبان

---

(١) روى البخاري في النكاح (٩/ ١١٧) ومسلم: عن سعد بن أبي وقاص قال: رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا.

الرمل، بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تُنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً، أي: وادياً ولا أمتاً، أي: رابية، ومعناه: لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع.

١٥، ١٦- ثم قال تعالى مخاطباً لكفار قريش، والمراد سائر الناس ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بأعمالكم ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ◆ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي والثوري ﴿أَخْذاً وَبِيلاً﴾ أي: شديداً، أي: فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ وأنتم أولى بالهلاك والدمار، إن كذبتم رسولكم، لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران. ويروى عن ابن عباس ومجاهد.

١٧- وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾ يحتمل أن يكون ﴿يَوْماً﴾ معمولاً لتتقون، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود: فكيف تخافون أيها الناس، يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله، ولم تصدقوا به؟ ويحتمل أن يكون معمولاً لكفرتم، فعلى الأول: كيف يحصل لكم أمان، من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم. وعلى الثاني: كيف يحصل لكم تقوى، إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه. وكلاهما معنى حسن، ولكن الأول أولى، والله أعلم.

ومعنى قوله: ﴿يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾ أي: من شدة أهواله وزلازله وبلابله، وذلك حين يقول الله تعالى لآدم: ابعث بعث النار، فيقول: مِن كم؟ فيقول: من كل ألف، تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة.

١٨- وقوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ قال الحسن وقتادة: أي: بسببه من شدته وهوله، ومنهم من يعيد الضمير على الله تعالى. وروي عن ابن عباس ومجاهد، وليس بقوي، لأنه لم يجر له ذكرٌ ههنا، وقوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ أي: كان وعد هذا اليوم مفعولاً، أي: واقعاً لا محالة، وكائناً لا محيد عنه.

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠) ﴾

١٩- يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أي: السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: يتذكر بها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي: فمن شاء الله تعالى هدايته، كما قيد في السورة الأخرى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

٢٠- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾

أي: تارة هكذا، وتارة هكذا، وذلك كله من غير قصد منكم، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل، لأنه يشق عليكم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: تارة يعتدلان، وتارة يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي: الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي: من غير تحديد بوقت، أي: ولكن قوموا من الليل ما تيسر، وعبَّر عن الصلاة بالقراءة، كما قال في سورة سبحان ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمه الله بهذه الآية، وهي قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ على أنه لا تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية أجزأه، واعتضدوا بحديث المسيء صلاته الذي في الصحيحين: «ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن».

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت. وهو في الصحيحين أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كل صلاة لا يقرأها فيها بأم القرآن، فهي خِداجٌ فهي خداج فهي خداجٌ، غير تمام».

وفي صحيح ابن خزيمة: عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا تُجزئ صلاةٌ من لم يقرأ بأم القرآن».

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل، من مرضى لا يستطيعون ذلك، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله.

وهذه الآية بل السورة كلها مكية، ولم يكن القتال شرع بعد، فهي من أكبر دلائل النبوة، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: قوموا بما تيسر عليكم منه.

روى ابن جرير: عن أبي رجاء محمد قال قلت للحسن: يا أبا سعيد، ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به، إنما يصلي المكتوبة؟ قال: يتوسد القرآن، لعن الله ذاك، قال الله تعالى للعبد الصالح ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ - ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ قلت: يا أبا سعيد: قال الله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ قال: نعم، ولو خمس آيات.

وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري، أنه كان يرى حقاً واجباً على حملة القرآن، أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل، ولهذا جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ سُئِل عن رجل نام حتى أصبح، فقال: «ذاك رجلٌ بالَ الشَّيطانُ في أُذنه» فقيل معناه: نام عن المكتوبة، وقيل: عن قيام الليل.

وفي السنن: «أوتروا يا أهل القرآن»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم، وآتوا الزكاة المفروضة، وهذا بدل لمن قال: بأن فرض الزكاة نزل بمكة، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبن إلا بالمدينة، والله أعلم.

وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نَسخت الذي

(١) رواه أبو داود (١٤١٦) والترمذي (٤٥٣) والنسائي (٣/ ٢٢٨) وابن ماجة (١١٦٩) من حديث علي رضي الله عنه، وتمامه: «فإن الله وتر يحب الوتر».

كان الله قد أوجبه على المسلمين أولا من قيام الليل، واختلفوا في المدة التي بينهما على أقوال كما تقدم، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل: «خمسُ صلواتٍ في اليوم والليلة» قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوع».

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ يعني: من الصدقات، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ أي: جميع ما تقدموه بين أيديكم، فهو لكم حاصل، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا.

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه» قالوا: يا رسول الله، ما منَّا من أحدٍ إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «اعلموا ما تقولون» قالوا: ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله، قال: «إنما مال أحدكم ما قدم، ومال وارثه ما أخر» ورواه البخاري والنسائي.

ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: أكثروا من ذكره، واستغفاره في أموركم كلها، فإنه غفور رحيم لمن استغفره.

آخر تفسير سورة المزمل

****

ترتيبها ٧٤ — سُورَةُ المدثر - مكية — آياتها ٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾

١ - ثبت في صحيح البخاري: من حديث جابر: أنه كان يقول: أول شيء نزل من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. وخالفه الجمهور، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً: قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ كما سيأتي ذلك هنالك إن شاء الله تعالى.

وروى البخاري: عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن: عن أول ما نزل من القرآن؟ فقال ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ قلت: يقولون ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، وقلت له مثل ما قلت لي، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال: «جاورتُ بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنُوديت، فنظرتُ عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت: «دثروني، وصبوا عليَّ ماء بارداً» قال: «فدثروني وصبوا عليَّ ماء بارداً» قال: «فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. هكذا ساقه من هذا الوجه.

وقد رواه مسلم: عن أبي سلمة قال: أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي، إذْ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بَصَري قِبَل السماء، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء، قاعدٌ على كرسي بين السماء والأرض، فجثيت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئيت إلى أهلي فقلت: «زملوني زملوني فدثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قال أبو سلمة: والرجز الأوثان. ثم حَمِي الوحي وتتابع» هذا لفظ البخاري.

وهذا السياق هو المحفوظ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا، لقوله: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» وهو جبريل حين أتاه بقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ ربكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ثم إنه حصل بعد هذا فترة، ثم نزل الملك بعد هذا. ووجه الجمع: أن أول شيء نزل بعد «فترة الوحي» هذه السورة، كما روى الإمام أحمد: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن يقول: أخبرني جابر بن عبد الله: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثم فترَ الوحي عني فترة، فبينا أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعتُ بَصري قِبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجثيت منه فرَقاً حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت لهم: زملوني زملوني، فزملوني،

فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ثم حمي الوحي وتتابع» أخرجاه.

٢- وقوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أي: شمِّر عن ساق العزم، وأنذر الناس، وبهذا حصل الإرسال، كما حصل بالأول النبوة.

٣- ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظم.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عن ابن عباس: أنه أتاه رجلٌ فسأله عن هذه الآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: لا تلبسها على معصية، ولا على غدرة. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن مسلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجرٍ لبستُ ولا من غَدْرةٍ أتقنَّع

وفي رواية قال: في كلام العرب: نقي الثياب، وفي رواية: فطهر من الذنوب، وكذا قال إبراهيم والشعبي وعطاء، وكذا قال إبراهيم النخعي وقال مجاهد ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ قال: نفسك ليس ثيابه، وفي رواية عنه ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: عملك فأصلح، وكذا قال أبو رزين، وقال قتادة ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهرها من المعاصي، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث، ولم يف بعهد الله: إنه لدنس الثياب، وإذا وفَّى وأصلح: إنه لمطهر الثياب، وقال عكرمة والضحاك لا تلبسها على معصية. وقال الشاعر:

إذا المرء لم يُدنِّس من اللؤم عِرْضَه فكل رداءٍ يرتديه جميل

وقال محمد بن سيرين ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: اغسلها بالماء، وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه. وهذا القول اختاره ابن جرير، وقد تشمل الآية جميع ذلك، مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه.

وقال سعيد بن جبير ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وقلبك ونيتك فطهر، وقال محمد بن كعب القرظي والحسن البصري: وخلقك فحسن.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: والرجز - وهو الأصنام - فاهجر. وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة والزهري وابن زيد: إنها الأوثان، وقال إبراهيم والضحاك ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي: اترك المعصية، وعلى كل تقدير، فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

٦- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها. وكذا قال عكرمة ومجاهد وعطاء وطاوس وأبو الأحوص وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم.

وروي عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿وَلَا تَمْنُن أن تَسْتَكْثِرَ﴾ وقال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره، وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير، وقال مجاهد: لا تضعف أن تستكثر من الخير. قال: تمنن في كلام العرب: تضعف، وقال ابن زيد: لا تمنن بالنبوة على الناس، تستكثرهم بها، تأخذ عليه عوضاً من الدنيا. فهذه أربعة أقوال، والأظهر القول الأول، والله أعلم[1].

---

(١) لعل ما اختاره ابن جرير هو الأقوى، والله أعلم.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ أي: اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل، قاله مجاهد، وقال إبراهيم النخعي: اصبر عطيتك لله عز وجل.

٨- وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والشعبي وزيد بن أسلم والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدي وابن زيد ﴿النَّاقُورِ﴾ الصور. قال مجاهد: وهو كهيئة القرن.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ فقال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعَمُ وصاحبُ القَرْن قد التقم القرن، وَحَنى جبهته، ينتظر متى يؤمر فينفخ؟» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا» وهكذا رواه الإمام أحمد وابن جرير.

٩، ١٠- وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي: شديد ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي: غير سهل عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾. وقد روينا عن زرارة بن أوفى - قاضي البصرة - أنه صلى بهم الصبح فقرأ هذه السورة، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ شهق شهقة، ثم خر ميتاً رحمه الله تعالى.

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾

١١- يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث، الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدلها كفراً وقابلها بالجحود بآيات الله، والافتراء عليها وجعلها من قول البشر، وقد عدَّد الله عليه نعمه حيث قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ أي: خرج من بطن أمه وحده، لا مال له ولا ولد.

١٢- ثم رزقه الله تعالى: ﴿مَالاً مَّمْدُوداً﴾ أي: واسعاً كثيراً، قيل: ألف دينار، وقيل: مائة ألف دينار، وقيل: أرضاً يستغلها، وقيل غير ذلك.

١٣- وجعل له ﴿بَنِينَ شُهُوداً﴾ قال مجاهد: لا يغيبون، أي: حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارات، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم، وهم قعودٌ عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم، وكانوا فيما ذكره السدي وأبو مالك وعاصم بن عمر بن قتادة: ثلاثة عشر. وقال ابن عباس ومجاهد: كانوا عشرة. وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده.

١٤- ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً﴾ أي: مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك.

١٥، ١٦- ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ أي: معاند، وهو الكفر على نعمه بعد العلم.

١٧- قال الله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ عن ابن عباس: صعوداً صخرة في جهنم، يُسحب عليها الكافر على وجهه. وقال السدي: صعوداً صخرة ملساء في جهنم، يكلف أن يصعدها. وقال مجاهد ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ أي: مشقة من العذاب. وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه، واختاره ابن جرير.

١٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي: إنما أرهقناه صعوداً - أي: قربناه من العذاب الشاق - لبعده عن الإيمان، لأنه فكر وقدر، أي: تروَّى ماذا يقول في القرآن، حين سئل عن القرآن، ففكر ماذا يختلق من المقال ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي: تروى.

١٩، ٢٠- ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ دعاءٌ عليه.

٢١- ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي: أعاد النظرة والتروي.

٢٢- ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي: قبض بين عينيه وقطب ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كلح وكره.

٢٣- وقوله: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي: صرف عن الحق، ورجع القهقرى، مستكبراً عن الانقياد للقرآن.

٢٤- ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: هذا سحر ينقله محمد عن غيره، عمن قبله ويحكيه عنهم.

٢٥- ولهذا قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ أي: ليس بكلام الله، وهذا المذكور في هذا السياق هو: الوليد ابن المغيرة المخزومي، أحد رؤساء قريش لعنه الله، وكان من خبره في هذا: ما رواه العوفي عن ابن عباس قال: دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن، فلما أخبره خرج على قريش فقال: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون، وإنَّ قوله لمن كلام الله، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا، وقالوا: والله لئن صبأ الوليد، لتصبو قريش، فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال: أنا والله أكفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل عليه بيته، فقال للوليد: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه! فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة، وما قوله إلا سحرٌ يؤثر، فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ إلى قوله ﴿لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ﴾.

وقال قتادة: زعموا أنه قال: والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وما أشك أنه سحر، فأنزل الله ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ الآية ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قبض ما بين عينيه وكلح، وقال ابن جرير نحوه.

٢٦- قال الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي: سأغمره فيها من جميع جهاته.

٢٧- ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم.

٢٨- ثم فسر ذلك بقوله تعالى: ﴿لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ﴾ أي: تأكل لحومهم، وعروقهم وعصبهم وجلودهم، ثم تبدل غير ذلك، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيون، قاله ابن بريدة وأبو سنان وغيرهما.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ قال مجاهد: أي: للجلد. وقال أبو رزين: تلفح الجلد لفحة، فتدعه أسود من الليل. وقال زيد بن أسلم: تلوح أجسادهم عليها. وقال قتادة ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي: حراقة للجلد. وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: من مُقدَّمي الزبانية، عظيمٌ خَلقهم، غليظ خُلُقهم.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١) كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) ﴾

٣١- يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾ أي: خزانها ﴿إِلاَّ مَلائِكَةً﴾ أي: زبانية غلاظاً شداداً، وذلك ردٌّ على مشركي قريش، حين ذكروا عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش، أما يستطيع كل عشرة منكم، لواحد منهم، فتغلبونهم؟! فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً﴾ أي: شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر، اختباراً منا للناس ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: يعلمون أن هذا الرسول حق، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية، المنزلة على الأنبياء قبله، وقوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي: إلى إيمانهم، بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمدﷺ ﴿وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: من المنافقين ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ أي: يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا؟ قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: من مثل هذا وأشباهه، يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزلُ عند آخرين، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم، إلا هو تعالى، لئلا يتوهَّم متوهم أنهم تسعة عشر فقط، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة، من الفلاسفة اليونانيين، ومن شايعهم من الملتين، الذين سمعوا هذه الآية، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة، والنفوس التسعة، التي اخترعوا دعواها، وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها، فأفهموا صدر هذه الآية، وقد كفروا بآخرها، وهو قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ وقد ثبت في حديث الإسراء المروي في الصحيحين وغيرهما: عن رسول اللهﷺ أنه قال في صفة «البيت المعمور» الذي في السماء السابعة: «فإذا هو يدخله في كلِّ يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم».

روى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: قال رسول اللهﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضع إصبع إلا عليه مَلَكٌ ساجد، لو علمتم ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولا تلذذتم بالنساء على الفُرشات، ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله تعالى» فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تُعضد. ورواه الترمذي وابن ماجة.

وروى محمد بن نصر: عن عباد: عن عدي بن أرطاة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال: سمعت رجلاً من أصحاب النبيﷺ عن رسول اللهﷺ قال: «إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته، ما منهم ملك

تَقْطر منه دمعةٌ من عينه، إلا وقعت على ملك يُصلي، وإنَّ منهم ملائكة سجوداً، منذ خلق الله السموات والأرض، لم يرفعوا رؤوسهم، ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، وإن منهم ملائكة ركوعاً، لم يرفعوا رؤوسهم منذ خلقَ الله السموات والأرض، ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل، قالوا: سبحانك، ما عبدناك حقَّ عبادتك» وهذا إسناد لا بأس به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ قال مجاهد وغير واحد: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: النار التي وصفت ﴿إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾.

٣٢، ٣٣- ثم قال تعالى: ﴿كَلاَّ وَالْقَمَرِ ◆ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي: ولى.

٣٤- ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي: أشرق.

٣٥- ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي: العظائم يعني: النار. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك، وغير واحد من السلف.

٣٦، ٣٧- ﴿نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ◆ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: لمن شاء أن يقبل النذارة، ويهتدي للحق، أو يتأخر عنها، ويولي ويردها.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ (٥٣) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦) ﴾

٣٨- يقول تعالى مخبراً أن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: متعلقة بعملها يوم القيامة، قاله ابن عباس وغيره.

٣٩- ٤١- ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ◆ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: يسألون المجرمين، وهم في الغُرفات، وأولئك في الدَّركات، قائلين لهم:

٤٢- ٤٤- ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ◆ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ◆ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ أي: ما عبدنا ربنا، ولا أحسنَّا إلى خلقه من جنسنا.

٤٥- ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أي: نتكلم فيما لا نعلم، وقال قتادة: كلما غوى غاوٍ غوينا معه.

٤٦، ٤٧- ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ◆ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ يعني: الموت، كقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «أما هو - يعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقينُ من ربِّه»[(١)].

٤٨- قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ أي: من كان متصفاً بمثل هذه الصفات، فإنه لا

---

(١) رواه البخاري في الجنائز (٣/ ١١٤).

تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع، لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة، فإنه له النار لا محالة، خالداً فيها.

٤٩- ثم قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي: فما لهؤلاء الكفرة الذين قِبلك، مما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين.

٥٠، ٥١- ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: كأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه، حمرٌ من حمر الوحش، إذا فرَّت ممن يريد صيدها من «أسد» قاله أبو هريرة وابن عباس في رواية عنه وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن، أو «رام»، وهو رواية عن ابن عباس، وهو قول الجمهور.

٥٢- وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً﴾ أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين، أن ينزل عليه كتاب، كما أنزل الله على النبيﷺ. قاله مجاهد وغيره، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل.

٥٣- فقوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ أي: إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها، وتكذيبهم بوقوعها.

٥٤- ثم قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: حقاً أن القرآن تذكرة.

٥٥، ٥٦- ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ كقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو أهل أن يُخاف منه، وهو أهل أن يغفر ذنبَ من تاب إليه وأناب. قاله قتادة.

آخر تفسير سورة المدثر

****

ترتيبها ٧٥ — سُورَةُ القيامة – مكية — آياتها ٤٠

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾

١ ، ٢- وقد تقدم غير مرة ، أن المقسم عليه إذا كان منتفياً ، جاز الإتيان بـ «لا» قبل القسم ، لتأكيد النفي ، والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد ، من عدم بعث الأجساد ، ولهذا قال تعالى : ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قال الحسن : أقسم بيوم القيامة ، ولم يقسم بالنفس اللوامة ، وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعاً ، هكذا حكاه ابن أبي حاتم ، وقد حكى ابن جرير : عن الحسن والأعرج أنهما قرآ ﴿لأُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهذا يوجه قول الحسن ، لأنه أثبت القسم بيوم القيامة ، ونفى القسم بالنفس اللوامة ، والصحيح : أنه أقسم بهما جميعاً معاً ، كما قاله قتادة رحمه الله ، وهو المروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير ، واختاره ابن جرير .

فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة : فعن الحسن البصري في هذه الآية : أن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ، ما أردت بأكلتي ، ما أردت بحديث نفسي؟ وأن الفاجر يمضي قُدُما ما يعاتب نفسه .

وروى ابن أبي حاتم : عن سماك أنه سأل عكرمة عن قوله : ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ قال : يلوم على الخير والشر ، لو فعلت كذا وكذا . ورواه ابن جرير . ورواه أيضاً : عن سعيد بن جبير .

ثم رواه من وجه آخر : عن سعيد أنه سأل ابن عباس عن ذلك فقال : هي النفس اللؤم . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : اللوامة المذمومة ، وقال قتادة ﴿اللَّوَّامَةِ﴾ الفاجرة ، قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل : أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات .

٣- وقوله تعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ أي : يوم القيامة ، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه ، وجمعها من أماكنها المتفرقة .

٤- ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ قال سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس : أن نجعله خفاً ، أو

حافراً، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وابن جرير، ووجهه ابن جرير: بأنه تعالى لو شاء، لجعل ذلك في الدنيا، والظاهر من الآية: أن قوله تعالى: ﴿قَادِرِينَ﴾ حال من قوله تعالى: ﴿نَجْمَعَ﴾ أي: أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها، قادرين على أن نسوي بنانه، أي: قدرتنا صالحة لجمعها، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان، فنجعل بنانه وهي أطراف أصابعه مستوية، وهذا معنى قول ابن قتيبة والزجاج.

٥- وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ قال سعيد عن ابن عباس: يعني يمضي قُدُماً، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ يعني: الأمل، يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة. ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة. وقال مجاهد ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ليمضي أمامه راكباً رأسه، وقال الحسن: لا يُلقى ابنُ آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُماً قدماً، إلا من عصمه الله تعالى. وروي عن عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وغير واحد من السلف: هو الذي يُعجل الذنوب، ويُسوِّف التوبة، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو الكافر يكذب بيوم الحساب، وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المراد.

٦- ولهذا قال بعده ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يقول: متى يكون يوم القيامة؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه، وتكذيب لوجوده، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾.

٧- وقال تعالى ههنا: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ قرأ أبو عمرو بن العلاء ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء، أي: حال، وهذا الذي قاله شبيه بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر على شيء، من شدة الرعب. وقرأ آخرون ﴿بَرَقَ﴾ بالفتح وهو قريب في المعنى من الأول.

والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة، وتخشع وتحار وتذل، من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور.

٨، ٩- وقوله تعالى: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوؤه ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ قال مجاهد: كوراً، وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ وروي عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾.

١٠- وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ أي: إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة، حينئذ يريد أن يفر، ويقول: أين المفر؟ أي: هل من ملجإ أو موئل؟

١١، ١٢- قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۞ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وسعيد ابن جبير، وغير واحد من السلف: أي: لا نجاة. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: ليس لكم مكان تنكرون فيه، وكذا قال ههنا ﴿لَا وَزَرَ﴾ أي: ليس لكم مكان تعتصمون فيه. ولهذا قال: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: المرجع والمصير.

١٣- ثم قال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: يخبر بجميع أعماله، قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وهكذا قال ههنا: .

١٤، ١٥- ﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ أي: هو شهيد على نفسه، عالم بما

فعله، ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ يقول: سمعه وبصره، ويديه ورجليه وجوارحه، وقال قتادة: شاهد على نفسه، وفي رواية قال: إذا شئت والله رأيته بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم، غافلاً عن ذنوبه، وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوباً: يا ابن آدم تُبصر القذاة في عين أخيك، وتترك الجذع في عينك لا تبصره[1].

وقال مجاهد ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ ولو جادل عنها، فهو بصير عليها، وقال قتادة: ولو اعتذر يومئذ بباطل، لا يُقبل منه، وقال السدي ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ حجته، وكذا قال ابن زيد والحسن البصري وغيرهم، واختاره ابن جرير. وعن ابن عباس ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ يقول: لو ألقى ثيابه.

والصحيح قول مجاهد وأصحابه، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ هي: الاعتذار، ألم تسمع أنه قال: ﴿لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وقال ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ وقولهم ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿ لا تُحرّكْ به لسانَكَ لتعْجَلَ به (١٦) إنَّ علَيْنا جمعَهُ وقُرْآنَهُ (١٧) فإذا قرأْناهُ فاتَّبعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إنَّ علَيْنا بيانَهُ (١٩) كلاَّ بلْ تُحبُّونَ الْعاجلَةَ (٢٠) وتذرُونَ الآخرةَ (٢١) وُجُوهٌ يوْمئذٍ نَّاضرةٌ (٢٢) إلىٰ ربِّها ناظرةٌ (٢٣) ووُجُوهٌ يوْمئذٍ باسرةٌ (٢٤) تظُنُّ أن يُفْعلَ بها فاقرةٌ (٢٥) ﴾

١٦- هذا تعليم من الله عز وجل لرسولهﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي، أن يستمع له، وتكفل الله أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له، ويفسره ويوضحه، فالحالة الأولى: جمعه في صدره. والثانية: تلاوته. والثالثة: تفسيره وإيضاح معناه. ولهذا قال تعالى: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾.

١٧- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ أي: في صدرك ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أي: أن تقرأه.

١٨- ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي: إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك.

١٩- ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي: بعد حفظه وتلاوته، نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا. وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: كان رسول اللهﷺ يُعالج من التنزيل شدة، فكان يُحرِّك شفتيه، قال: فقال لي ابن عباس: أنا أُحرِّك شفتي، كما كان رسول اللهﷺ يحرك شفتيه. وقال لي سعيد: وأنا أحرِّك شفتي كما رأيت ابن عباس يحرِّك شفتيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ قال: جمعه في صدرك، ثم تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: فاستمع له وأنصت ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل، قرأه كما أقرأه. وقد رواه البخاري ومسلم.

---

(١) قد جاء مرفوعاً من كلام نبيناﷺ وهو صحيح، رواه ابن حبان (١٨٤٨ - موارد) وغيره، انظر الصحيحة (٣٣).

ولفظ البخاري: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل.

وقال ابن عباس وعطية العوفي ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ تبيين حلاله وحرامه، وكذا قال قتادة.

٢٠، ٢١- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ أي: إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة، ومخالفة ما أنزل الله عز وجل عن رسوله ﷺ من الوحي الحق، والقرآن العظيم، إنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ من النضارة، أي: حسنة بهية مشرقة مسرورة.

٢٣- ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عياناً».

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها، لحديث أبي سعيد وأبي هريرة، وهما في الصحيحين: أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ترون ربكم كذلك».

وفي الصحيحين: عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم ترون ربكم، كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، ولا قبل غروبها، فافعلوا».

وفي الصحيحين: عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عز وجل، إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

وفي أفراد مسلم: عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخلَ أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّضْ وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم، وهي الزيادة» ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

وفي أفراد مسلم: عن جابر في حديثه: «إن الله يتجلَّى للمؤمنين يضحك» يعني: في عرصات القيامة.

ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل في العرصات، وفي روضات الجنات.

ولولا خشية الإطالة، لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها، من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ولكن ذكرنا ذلك مفرقاً في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق، وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام.

ومن تأول ذلك المراد: بـ«إلى» مُفرد الآلاء، وهي: النعم، كما قال مجاهد ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنتظر الثواب من ربها! رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد، وكذا قال أبو صالح أيضاً، فقد أبعد هذا الناظر النجعة، وأبطل فيما ذهب إليه. وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ قال الشافعي رحمه الله تعالى: ما حجب الفجار، إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل.

ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بما دلَّ عليه سياق الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا

ناظرة﴾ روى ابن جرير عن الحسن ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال: حسنة ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى الخالق، وحُقَّ لها أن تتضرع وهي تنظر إلى الخالق.

٢٤، ٢٥- وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ هذه وجوه الفجار، تكون يوم القيامة باسرة، قال قتادة: كالحة. وقال السدي: تغير ألوانها، وقال ابن زيد ﴿بَاسِرَةٌ﴾ أي: عابسة ﴿تَظُنُّ﴾ أي: تستيقن ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ قال مجاهد: داهية، وقال قتادة: شر. وقال السدي: تستيقن أنها هالكة. وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار.

وهذا المقام كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾. وكقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ۝ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ في أشباه ذلك من الآيات والسياقات.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾

٢٦- يخبر تعالى عن حالة الاحتضار، وما عندها من الأهوال - ثبتنا الله هناك بالقول الثابت - فقال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ إن جعلنا «كلا» رداعة، فمعناها: لست يا ابن آدم هناك تكذيب بما أخبرت به، بل صار ذلك عندك عياناً، وإن جعلناها بمعنى: حقاً، فظاهر أي: حقاً إذا بلغت التراقي، أي: انتزعت روحك من جسدك، وبلغت تراقيك، والتراقي: جمع ترقوة، وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ۝ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ۝ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهكذا قال ههنا: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ ويذكر ههنا حديث بشر ابن جحاش الذي تقدم في سورة يس.

٢٧، ٢٨- ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ قال عكرمة عن ابن عباس: أي: من راق يرقى. وكذا قال أبو قلابة ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي: من طبيب شاف. وكذا قال قتادة والضحاك وابن زيد.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ قال: قيل من يرقى بروحه؟ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة.

٢٩- وبهذا الإسناد عن ابن عباس في قوله ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قال التفت عليه الدنيا والآخرة، وكذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ يقول: آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من

أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة، إلا من رحمه الله. وقال عكرمة ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ الأمر العظيم، بالأمر العظيم، وقال مجاهد: بلاء ببلاء. وقال الحسن البصري: هما ساقاك إذا التفتا. وفي رواية عنه: ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليها جوالاً. وكذا قال السدي عن أبي مالك. وفي رواية عن الحسن: هو لفهما في الكفن، وقال الضحاك ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ اجتمع عليه أمران: الناس يجهزون جسده، والملائكة يجهزون روحه.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أي: المرجع والمآب. وذلك أن الروح ترفع إلى السموات، فيقول الله عز وجل، ردوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، كما ورد في حديث البراء الطويل.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ۞ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

٣١، ٣٢- وقوله جل وعلا: ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ۞ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ هذا إخبار عن الكافر، الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه، متولياً عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ۞ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

٣٣- ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أي: جذلاناً أشراً بطراً كسلاناً، لا همة له ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً ۞ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: يرجع ﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ قال الضحاك عن ابن عباس ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ أي: يختال. وقال قتادة وزيد بن أسلم: يتبختر.

٣٤، ٣٥- قال الله تعالى: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ۞ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ وهذا تهديد، ووعيدٌ أكيد، من الله تعالى للكافر به، المتبختر في مشيه، أي: يحق لك أن تمشي هكذا، وقد كفرت بخالقك وبارئك، كما يقال في المثل: هذا على سبيل التهكم والتهديد، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ وكقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ وكقوله جل وعلا: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ إلى غير ذلك. وروى أبو عبد الرحمن النسائي، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ۞ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾؟ قال: قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل، ثم أنزله الله عز وجل.

روى ابن أبي حاتم: عن قتادة قوله: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ۞ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ وعيدٌ على أثر وعيد، كما تسمعون.

٣٦- وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ قال السدي: يعني: لا يبعث. وقال مجاهد والشافعي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني: لا يؤمر ولا ينهى.

والظاهر أن الآية تعم الحالين، أي: ليس يترك في هذه الدنيا مهملاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منهي في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة، والمقصود هنا: إثبات المعاد، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد، ولهذا قال تعالى مستدلاً على الإعادة بالبداءة:

٣٧- ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى﴾ أي: أما كان الإنسان نطفة ضعيفة، من ماء مهين، ﴿يُمْنَى﴾: يراق

من الأصلاب في الأرحام.

٣٨- ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: فصار علقة ثم مضغة، ثم شكل ونفخ فيه الروح، فصار خلقاً آخر سويا سليم الأعضاء، ذكراً كان أو أنثى، بإذن الله وتقديره.

٣٩- ولهذا قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾.

٤٠- ثم قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي، من هذه النطفة الضعيفة، بقادر على أن يعيده كما بدأه؟ وتناول القدرة للإعادة، إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة، وإما مساوية، على القولين في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ والأول أشهر، كما تقدم في سورة الروم وبيانه وتقريره، والله أعلم.

روى أبو داود رحمه الله: عن موسى بن أبي عائشة قال: كان رجل يصلي فوق بيته، فكان إذا قرأ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ قال: سبحانك فبلى، فسألوه عن ذلك، فقال: سمعته من رسول الله ﷺ. تفرد به أبو داود، ولم يسم هذا الصحابي ولا يضر ذلك.

ثم روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير: عن ابن عباس أنه مرَّ بهذه الآية ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ قال: سبحانك فبلى.

آخر تفسير سورة القيامة

****

ترتيبها ٧٦ — سُورَةُ الإنسان – مكية — آياتها ٣١

قد تقدم في صحيح مسلم: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿الم تنزيل﴾ السجدة و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) ﴾

١- يقول تعالى مخبراً عن الإنسان، أنه أوجده بَعد أن لم يكن شيئاً يذكر، لحقارته وضعفه، فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾.

٢- ثم بين ذلك فقال جل جلاله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط، والمشج والمشيج: الشيء المختلط بعضه في بعض، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ يعني: ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور، وحال إلى حال، وكون إلى كون.

وهكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن والربيع بن أنس: الأمشاج هو: اختلاط ماء الرجل بماء المرأة.

وقوله تعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره، كقوله جل جلاله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ أي: جعلنا له سمعاً وبصراً، يتمكن بهما من الطاعة والمعصية.

٣- وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي: بيناه ووضحناه وبصرناه به، كقوله جل وعلا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ وكقوله جل وعلا: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي: بيَّنا له طريق الخير، وطريق الشر. وهذا قول عكرمة وعطية وابن زيد ومجاهد في المشهور عنه والجمهور.

وروي عن مجاهد وأبي صالح والضحاك والسدي، أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ يعني: خروجه من الرحم. وهذا قول غريب! والصحيح المشهور الأول.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ منصوب على الحال، من الهاء في قوله ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ تقديره: فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم: عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فبائعٌ نفسه فموبقها أو معتقها».

وروى الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ قال لكعب بن عُجرة: «أعاذك الله من إمارة السُّفهاء» قال: وما إمارة السُّفهاء؟ قال: «أمراءُ يكونون من بعدي لا يهتدون بهداي، ولا يستنون بسنتي، فمن صدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظُلمهم، فأولئك ليسوا مني، ولستُ منهم، ولا يردون عليَّ حوضي، ومن لم يُصدقهم بكذبهم، ولم يُعنهم على ظلمهم، فأولئك مني وأنا منهم، وسيردون علي حوضي، يا كعب بن عجرة: الصومُ جُنَّة، والصدقةُ تطفئ الخطيئة، والصلاة قربان - أوقال برهان - يا كعب بن عجرة: إنه لا يدخل

الجنة لحمٌ نَبتَ من سُحْتٍ، النارُ أولى به، يا كعب بن عجرة: الناس غاديان، فمبتاعٌ نفسه فمعتقها، وبائعٌ نفسه فموبقها».

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من خارج يخرجُ إلا ببابه رايتان: رايةٌ بيد مَلَك، وراية بيد شيطان، فإنْ خرج لما يحب الله اتَّبعه المَلك برايته، فلم يزلْ تحت راية الملك، حتى يرجع إلى بيته، وإنْ خرج لما يُسخط الله اتَّبعه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان، حتى يرجعَ إلى بيته».

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً (٤) إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (٥) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (١١) وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (١٢) ﴾

٤ـ يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به، من السلاسل والأغلال والسعير وهو اللهب والحريق في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِذِ الأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ◆ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾.

٥ـ ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير، قال بعده: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً﴾ وقد علم ما في الكافور من التبريد، والرائحة الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة.

قال الحسن: برد الكافور، في طيب الزنجبيل.

٦ـ ولهذا قال: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ أي: هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور، هو عينٌ يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج، ويروون بها، ولهذا ضمَّن يشرب معنى يروى، حتى عداه بالباء ونصب عيناً عن التمييز، قال بعضهم: هذا الشراب في طيبه كالكافور، وقال بعضهم: هو من عين كافور، وقال بعضهم: يجوز أن يكون منصوباً بيشرب، حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ أي: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ودورهم، ومجالسهم ومحالهم، والتفجير: هو الإنباع، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً﴾ وقال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً﴾. قال مجاهد ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ يقودونها حيث شاؤوا. وكذا قال عكرمة وقتادة. وقال الثوري: يصرفونها حيث شاؤوا.

٧ـ وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ أي: يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات، الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر.

روى الإمام مالك: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نَذر أن يُطيع الله فليطعه، ومَن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» رواه البخاري من حديث مالك.

ويتركون المحرمات التي نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذي شره مستطير،

أي: منتشر، عامّ على الناس إلا من رحم الله. قال ابن عباس: فاشياً، وقال قتادة: استطار والله شر ذلك اليوم، حتى ملأ السموات والأرض، قال ابن جرير: ومنه قولهم استطار الصدع في الزجاجة واستطال.

٨، ٩- وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ قيل: على حب الله تعالى، وجعلوا الضمير عائداً إلى الله عز وجل، لدلالة السياق عليه، والأظهر: أن الضمير عائد على الطعام، أي: ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد ومقاتل، واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وروى البيهقي: عن نافع قال: مرض ابن عمر فاشتهى عنباً - أول ما جاء العنب - فأرسلت صفية - يعني امرأته - فاشترت عنقوداً بدرهم، فاتبع الرسولَ سائلٌ، فلما دخل به قال السائل: السائل، فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه، فأرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقوداً، فاتبع الرسول السائل، فلما دخل قال السائل: السائل، فقال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه، فأرسلت صفية إلى السائل، فقالت: والله إن عُدت لا تصيب منه خيراً أبداً، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به.

وفي الصحيح: «أفضلُ الصدقة: أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر» أي: في حال محبتك للمال، وحرصك عليه وحاجتك إليه، ولهذا قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ أما المسكين واليتيم، فقد تقدم بيانهما وصفتهما، وأما الأسير: فقال سعيد بن جبير والحسن والضحاك: الأسير من أهل القبلة. وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين. ويَشهد لهذا: أن رسول الله ﷺ أمرَ أصحابه يوم بدر، أن يُكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء.

وقال عكرمة: هم العبيد. واختاره ابن جرير، لعموم الآية للمسلم والمشرك. وهكذا قال سعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة.

وقد وصَّى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث، حتى أنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول: «الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم»(١).

وقال مجاهد: هو المحبوس، أي: يطعمون الطعام لهؤلاء وهم يشتهونه ويحبونه، قائلين بلسان الحال ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أي: رجاء ثواب الله ورضاه ﴿لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾ أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها، ولا أن تشكروننا عند الناس. قال مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب.

١٠- ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ أي: إنما نفعل هذا، لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، في اليوم العبوس القمطرير. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: عبوساً: ضيقاً، ، قمطريراً: طويلاً.

وقال مجاهد ﴿عَبُوساً﴾ العابس الشفتين ﴿قَمْطَرِيراً﴾ قال: تقبض الوجه بالبسور، وقال سعيد بن جبير وقتادة: تعبس فيه الوجوه من الهول، قمطريراً: تقليص الجبين، وما بين العينين من الهول. وقال ابن زيد: العبوس: الشر، والقمطرير: الشديد.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٧٨) وأبو داود (٥١٥٦) وابن ماجة (٢٦٩٨) من حديث علي رضي الله عنه.

وأوضح العبارات وأجلاها، وأحلاها وأعلاها وأولاها، قول ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن جرير: والقمطرير: هو الشديد، يقال: هو يوم قمطرير، ويوم قماطر، ويوم عصيب وعَصبصب، وقد اقمطرَّ اليوم يقمطر اقمطراراً، وذلك أشد الأيام، وأطولها في البلاء والشدة.

١١ - قال الله تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ وهذا من باب التجانس البليغ ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ أي: آمنهم بما خافوا منه ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ أي: في وجوههم ﴿وَسُرُوراً﴾ أي: في قلوبهم. قاله الحسن البصري وقتادة وأبو العالية والربيع بن أنس، وهذه كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأنه فلقة قمر(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ مسروراً، تَبْرق أسارير وجهه» الحديث(٢).

١٢ - وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: بسبب صبرهم، أعطاهم ونوّلهم وبوّأهم جنة وحريراً، أي: منزلاً رحباً، وعيشاً رغداً، ولباساً حسناً.

وروى الحافظ ابن عساكر قال: قرئ على أبي سليمان الداراني سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ﴾ فلما بلغ القارئ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ قال: بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا.

﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً (٢٢) ﴾

١٣ - يخبر تعالى عن أهل الجنة، وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العميم، فقال تعالى: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الصافات، وذكر الخلاف في الاتكاء: هل هو الاضطجاع، أو التمرفق، أو التربع، أو التمكن في الجلوس؟ وأن الأرائك هي: السُّرر تحت الحجال.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً﴾ أي: ليس عندهم حرٌّ مزعج، ولا برد مؤلم، بل هي مزاج واحد، دائم سرمدي، لا يبغون عنها حولاً.

١٤ - ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أي: قريبة إليهم أغصانها ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ أي: متى تعاطاه دنا القطف إليه، وتدلى من أعلى غصنه، كأنه سامع طائع، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ

---

(١) حديث توبة كعب: رواه البخاري في المغازي (٨/ ١١٣ - ١١٦) ومسلم في التوبة (٤/ ٢١٢٠ - ٢١٢٨).

(٢) رواه البخاري في المناقب (٦/ ٥٦٥) ومسلم في الرضاع (٢/ ١٠٨١ - ١٠٨٢).

دَانٍ﴾ وقال جل وعلا: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ وقال مجاهد ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ إن قام ارتفعت معه بقدر، وإن قعدَ تذللت له حتى ينالها، وإن اضطجع تذللت له حتى ينالها، فذلك قوله تعالى: ﴿تَذْلِيلاً﴾.

وقال قتادة: لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بعد.

١٥- وقوله جلت عظمته: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام، وهي من فضة، وأكواب الشراب وهي: الكيزان التي لا عُرى لها ولا خراطيم.

١٦- وقوله: ﴿قَوَارِيرَا۟ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فالأول منصوب بخبر كان، أي: كانت قوارير، والثاني: منصوب إما على البداية، أو تمييز لأنه بينه بقوله جل وعلا: ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغير واحد: بياض الفضة، في صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج، فهذه الأكواب هي من فضة، وهي مع هذا شفافة يُرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ أي: على قدر ريهم، لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي معدة لذلك مقدرة بحسب ريِ صاحبها، هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبي صالح وقتادة وابن أبزى وعبد الله بن عبيد الله بن عمير وقتادة والشعبي وابن زيد، وقاله ابن جرير وغير واحد، وهذا أبلغ في الاعتناء والشرف والكرامة.

وقال العوفي عن ابن عباس ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً﴾ قُدِّرت للكف. وهكذا قال الربيع بن أنس، وقال الضحاك: على قدر كف الخادم. وهذا لا ينافي القول الأول، فإنها مقدرة في القدر والري.

١٧- وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾ أي: ويسقون - يعني الأبرار - أيضاً في هذه الأكواب ﴿كَأْساً﴾ أي: خمراً ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حار، ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة، ومن هذا تارة، ، وأما المقربون: فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً، كما قاله قتادة وغير واحد.

١٨- وقد تقدم قوله جل وعلا: ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ﴾ وقال ههنا: ﴿عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ أي: الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلا. قال عكرمة: اسم عين في الجنة. وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها، وحدّة جريها، وقال قتادة: عين سلسة مستعذب ماؤها. وحكى ابن جرير عن بعضهم: أنها سميت بذلك لسلاستها في الحلق، واختار هو: أنها تعم ذلك كله، وهو كما قال.

١٩- وقوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۞ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً﴾ أي: يطوف على أهل الجنة للخدمة، ولدانٌ من ولدان الجنة ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: على حالة واحدة مخلدون عليها لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن. ومن فسَّرهم بأنهم مُخرَّصون في آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى بذلك، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً﴾ أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، وحُسن ألوانهم وثيابهم وحُليهم، حسبتهم لؤلؤاً منثوراً، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور، على المكان الحسن. وعن عبد الله بن عمرو: ما من أهل الجنة من أحدٍ إلا يسعى عليه ألفُ خادمٍ، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه.

٢٠- وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ أي: وإذا رأيت يا محمد ﴿ثَمَّ﴾ أي: هناك، يعني: في الجنة، ونعيمها وسعتها وارتفاعها، وما فيها من الحبرة والسرور ﴿رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ أي: مملكة لله هناك عظيمة، وسلطاناً باهراً. وثبت في الصحيح: أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً إليها: «إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها».

٢١- وقوله جل جلاله: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي: لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندس، وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون، فكما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي، قال بعده: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ أي: طهّر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى. فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر، وجمالهم الباطن.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ أي: يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ أي: جزاكم الله تعالى على القليل، بالكثير.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (٢٤)
وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هَؤُلاءِ
يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا
أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) ﴾

٢٣، ٢٤- يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ، بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: كما أكرمك بما أنزل عليك، فاصبر على قضائه وقدره، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ أي: لا تطع الكافرين والمنافقين، إن أرادوا صدك عما أنزل إليك، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك، وتوكل على الله، فإن الله يعصمك من الناس، فالآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر قلبه.

٢٥- ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي: أول النهار وآخره.

٢٦- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ◆ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ◆ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ◆ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾.

٢٧- ثم قال تعالى منكراً على الكفار، ومن أشبههم في حب الدنيا، والإقبال عليها، والانصباب إليها، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ يعني: يوم القيامة.

٢٨- ثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني خلقهم ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ أي: وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم، كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾ وكقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ◆ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾.

٢٩- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ يعني: هذه السورة تذكرة ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي: طريقاً ومسلكاً، أي: من شاء اهتدى بالقرآن، كقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية.

٣٠- ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

٣١- ثم قال تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ أي: يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فمن يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

آخر تفسير سورة الإنسان

****

ترتيبها ٧٧ — سُورَةُ المرسلات – مكية — آياتها ٥٠

روى البخاري عن عبد الله – هو ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه، وإنَّ فاه لرطب بها، إذْ وَثبتْ علينا حية، فقال النبي ﷺ: «اقتلوها» فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: «وقيت شركم كما وقيتم شرها» وأخرجه مسلم أيضاً.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس عن أمه: أنها سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً.

وفي رواية عن عبيد الله عن ابن عباس: أن أم الفضل سمعته يقرأ ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فقالت: يا بني، أذْكرتني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب. أخرجاه في الصحيحين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ① فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ② وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ③ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ④ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ⑦ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ⑧ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑨ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ⑩ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ⑪ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ⑫ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ⑬ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ⑭ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑮﴾

١، ٢- روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ قال: الملائكة. قال: وروي عن مسروق وأبي الضحى ومجاهد في إحدى الروايات والسدي والربيع بن أنس مثل ذلك.

وروي عن أبي صالح أنه قال: هي الرسل. وفي رواية عنه: أنها الملائكة، وهكذا قال أبو صالح: في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات، أنها: الملائكة.

وروى الثوري: عن أبي العبيدين قال: سألت ابن مسعود عن ﴿الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ قال: الريح، وكذا قال في ﴿الْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ إنها الريح، وكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح في رواية عنه.

وتوقف ابن جرير في ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ هل هي الملائكة؟ إذا أرسلت بالعرف أو كعُرف الفرس، يتبع بعضهم بعضاً؟ أو هي الرياح إذا هبت شيئاً فشيئاً، وقطع بأن العاصفات عصفاً: الرياح، كما قاله ابن مسعود ومن تابعه، وممن قال ذلك في العاصفات عصفاً أيضاً، علي بن أبي طالب والسدي، وتوقف في الناشرات نشراً، هل هي الملائكة، أو الريح كما تقدم، وعن أبي صالح: أن الناشرات نشراً، هي المطر.

والأظهر أن المرسلات هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ وهكذا العاصفات: هي الرياح، كما يقال: عصفت الرياح إذا هبت بتصويت.

٣- وكذا الناشرات: هي الرياح، التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب عز وجل.

٤- ٦- وقوله تعالى: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ يعني: الملائكة. قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس والسدي والثوري، ولا خلاف ههنا، فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تُفرِّق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً، فيه إعذار إلى الخلق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره.

٧- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام، أي: ما وُعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إنَّ هذا كله لواقع، أي: لكائن لا محالة.

٨- ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي: ذهب ضوءها، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾.

٩- ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أي: انفطرت وانشقت، وتدلت أرجاؤها، ووهت أطرافها.

١٠- ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ أي: ذُهب بها، فلا يبقى لها عينٌ ولا أثر، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

١١- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: جُمعت. وقال ابن زيد: وهذه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ وقال مجاهد ﴿أُقِّتَتْ﴾ أجِّلت.

وروى الثوري عن إبراهيم ﴿أُقِّتَتْ﴾ أوعدت. وكأنه يجعلها كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١٢، ١٣- ثم قال تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول تعالى لأي يوم أجلت الرسل، وأرجئ أمرها، حتى تقوم الساعة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وهو يوم الفصل، كما قال تعالى: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾.

١٤، ١٥- ثم قال تعالى معظماً لشأنه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويل لهم من عذاب الله غداً. وقد قدمنا في الحديث أن «ويل واد في جهنم» ولا يصح.

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) ﴾

١٦- يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني من المكذبين للرسل، المخالفين لما جاءوهم به.

١٧- ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ أي: ممن أشبههم.

١٨ ، ١٩- ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ◆ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ قاله ابن جرير.

٢٠- ثم قال تعالى ممتناً على خلقه، ومحتجاً على الإعادة بالبداءة ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف حقير، بالنسبة إلى قدرة البارئ عز وجل، كما تقدم في سورة يس في حديث بُسر بن جحاش: «ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟».

٢١- ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني: جمعناه في الرحم، وهو قرارُ الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد لذلك، حافظ لما أودع فيه من الماء.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ يعني: إلى مدة معينة، من ستة أشهر أو تسعة أشهر.

٢٣ ، ٢٤- ولذا قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ◆ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٢٥ ، ٢٦- ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ◆ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ قال ابن عباس ﴿كِفَاتًا﴾ كنّاً، وقال مجاهد: يُكفت الميت فلا يُرى منه شيء. وقال الشعبي: بطنها لأمواتكم، وظهرها لأحيائكم. وكذا قال مجاهد وقتادة.

٢٧- ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾ يعني: الجبال رسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أي: عذباً زلالاً، من السحاب أو مما أنبعه من عيون الأرض.

٢٨- ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره.

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) ﴾

٢٩- يقول تعالى مخبراً عن الكفار، المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار، أنهم يقال لهم يوم القيامة ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

٣٠- ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يعني: لهب النار إذا ارتفع، وصعد معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب.

٣١- ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي: ظل الدخان المقابل للهب، لا ظليل هو في نفسه، ولا يغني من اللهب، يعني: ولا يقيهم حرَّ اللهب.

٣٢- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ أي: يتطاير الشرر من لهبها كالقصر. قال ابن مسعود: كالحصون، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وغيرهم: يعني: أصول الشجر.

٣٣- ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ أي: كالإبل السود. قاله مجاهد والحسن وقتادة والضحاك، واختاره ابن جرير، وعن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ﴿جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ يعني: جبال السفن، وعنه - أعني ابن عباس - ﴿جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ قطع نحاس. وروى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾

قال: كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك، فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ جبال السفن، تُجمع حتى تكون كأوساط الرجال.

٣٤- ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٣٥- ثم قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: لا يتكلمون.

٣٦- ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي: لا يقدرون على الكلام، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا، بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون، وعرصات القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة، وعن هذه الحال تارة، ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ.

٣٧- ولهذا يقول بعد كل فصلٍ من هذا الكلام ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۞ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى لعباده، يقول لهم ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ يعني: أنهم جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر.

٣٩، ٤٠- وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك، كما قال: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ وفي الحديث: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني».

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾

٤١- يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين، الذين عبدوه بأداء الواجبات، وترك المحرمات، إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون، أي: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه، من ظل اليحموم، وهو: الدخان الأسود المنتن.

٤٢- وقوله تعالى: ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: ومن سائر أنواع الثمار، مهما طلبوا وجدوا.

٤٣- ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم.

٤٤، ٤٥- ثم قال تعالى مخبراً خبراً مستأنفاً ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٤٦، ٤٧- وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين، وأمرهم أمر تهديد ووعيد، فقال تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ أي: مدة قليلة قريبة قصيرة ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ أي: ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ

إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ◆ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

٤٨، ٤٩- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ﴾ أي: إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار، أن يكونوا من المصلين مع الجماعة، امتنعوا من ذلك، واستكبروا عنه.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٥٠- ثم قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، فبأي كلام يؤمنون به؟! كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾؟

آخر تفسير سورة المرسلات

****

ترتيبها ٧٨ — سورة النبأ — مكية — آياتها ٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ② الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ③ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ④ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ⑤ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ⑥ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ⑦ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ⑧ وَجَعَلْنَا
نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ⑨ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ⑩ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ⑪ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ⑫
وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ⑬ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ⑭ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ⑮
وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ⑯﴾

١ ، ٢- يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة ، إنكاراً لوقوعها ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ◆ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ أي : عن أي شيء يتساءلون؟ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعني : الخبر الهائل ، المفظع الباهر. قال قتادة وابن زيد : النبأ العظيم : البعث بعد الموت .

وقال مجاهد : هو القرآن ، والأظهر الأول ، لقوله :

٣- ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ يعني : الناس فيه على قولين : مؤمن به وكافر .

٤ ، ٥- ثم قال تعالى متوعداً لمنكري القيامة : ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ◆ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، ثم شرع تبارك وتعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة ، والأمور العجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء ، من أمر المعاد وغيره فقال :

٦- ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أي : ممهدة للخلائق ، ذلولاً لهم ، قارة ساكنة ثابتة .

٧- ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي : جعلها لها أوتاداً ، أرساها بها ، وثبتها وقررها حتى سكنت ، ولم تضطرب بمن عليها .

٨- ثم قال تعالى : ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يعني : ذكراً وأنثى ، يتمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ، كقوله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ .

٩- وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي : قطعاً للحركة ، لتحصل الراحة من كثرة الترداد ، والسعي في المعايش في عرض النهار . وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة الفرقان .

١٠- ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي : يغشى الناس ظلامه وسواده كما قال : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ . وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي : سكناً .

١١- وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي : جعلناه مشرقاً نيراً مُضيئاً ، ليتمكّن الناس من التصرف فيه ، والذهاب والمجيء للمعاش ، والتكسب والتجارات ، وغير ذلك .

١٢- وقوله تعالى : ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ يعني : السموات السبع في اتساعها وارتفاعها ،

وإحكامها وإتقانها، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات.

١٣- ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً﴾ يعني: الشمس المنيرة على جميع العالم، التي يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم.

١٤- وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾ قال العوفي عن ابن عباس: المعصرات: الريح. وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ قال: الرياح. وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة ومقاتل والكلبي وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن: أنها الرياح.

ومعنى هذا القول: أنها تستدرُّ المطر من السحاب.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ أي: من السحاب. وكذا قال عكرمة أيضاً وأبو العالية والضحاك والحسن والربيع بن أنس والثوري، واختاره ابن جرير، وقال الفراء: هي السحاب التي تتحلب بالمطر، ولم تمطر بعد، كما يقال: امرأة معصر، إذا دنا حيضها ولم تحض.

وعن الحسن وقتادة ﴿مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ يعني: السموات. وهذا قول غريب، والأظهر أن المراد بالمعصرات: السحاب، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: من بينه.

وقوله جل وعلا: ﴿مَاءً ثَجَّاجاً﴾ قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس: ثجاجا: مُنصَبّاً، وقال الثوري: متتابعاً. وقال ابن زيد: كثيراً، قال ابن جرير: ولا يعرف في كلام العرب في صفة الكثرة الثج، وإنما الثج الصَّب المتتابع. ومنه قول النبي ﷺ: «أفضلُ الحج العجُّ الثج»[1] يعني: صب دماء البدن، هكذا قال.

قلت: وفي حديث المستحاضة: حين قال لها رسول الله ﷺ: «أنعت لك الكُرسف» يعني: أن تحتشي بالقطن، فقالت: يا رسول الله هو أكثر من ذلك، إنما أثج ثجاً[2].

وهذا فيه دلالة على استعمال الثج في الصب المتتابع الكثير، والله أعلم.

١٥، ١٦- وقوله تعالى: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً ۝ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ أي: لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿حَبّاً﴾ يدخر للأناسي ﴿وَنَبَاتاً﴾ أي: خضراً يؤكل رطباً ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين وحدائق، من ثمرات متنوعة، وألوان مختلفة، وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً. ولهذا قال: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾ قال ابن عباس وغيره: ألفافاً مجتمعة.

وهذه كقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا

---

(١) رواه الترمذي (٨٣٤) وابن ماجة (٢٩٢٤) وغيرهما من طرق.

(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٣٩) وأبو داود (٢٨٧) والترمذي (١٢٨) من حديث حمنة بنت جحش رضي الله عنها.

﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴿٣٠﴾

١٧- يخبر تعالى عن يوم الفصل، وهو يوم القيامة، أنه مؤقتٌ بأجل معدود، لا يُزاد عليه ولا ينقص منه، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾.

١٨- ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ قال مجاهد: زمراً زمراً. قال ابن جرير: يعني تأتي كلُّ أمةٍ مع رسولها، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾. وقال البخاري ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ ثم روى: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النَّفختين أربعون» قالوا: أربعون يوماً؟ قال: «أبيتُ» قالوا: أربعون شهراً؟ قال: «أبيت» قالوا: أربعون سنة؟ قال: «أبيت» قال: «ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عَظْماً واحداً، وهو عَجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة».

١٩- ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً﴾ أي: طُرقا ومسالك لنزول الملائكة.

٢٠- ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ وقال ههنا: ﴿فَكَانَتْ سَرَاباً﴾ أي: يخيل إلى الناظر أنها شيء، وليست بشيء، وبعد هذا تذهب بالكلية، فلا عين ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

٢١، ٢٢- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾ أي: مَرصدة معدَّة ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ وهم: المردة العصاة، المخالفون للرسل ﴿مَآباً﴾ أي: مرجعاً ومنقلباً، ومصيراً ونزلاً.

وقال الحسن وقتادة: يعني: أنه لا يدخل أحدٌ الجنة حتى يجتاز بالنار، فإن كان معه جواز نجا، وإلا احتبس.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿لاَّبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ أي: ماكثين فيها أحقابا، وهي جمع: حقب، وهو المدة من الزمان، وقد اختلفوا في مقداره. فروى ابن جرير: عن سالم بن أبي الجعد قال: قال علي بن أبي طالب لهلال الهجري: ما تجدون «الحقب» في كتاب الله المنزل؟ قال: نجده ثمانين سنة، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً، كل يوم ألف سنة. وهكذا روي عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وابن عباس، وسعيد بن جبير وعمرو بن ميمون والحسن وقتادة والربيع بن أنس والضحاك، وعن الحسن والسدي أيضاً: سبعون سنة كذلك، وعن عبد الله بن عمرو: الحق: أربعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون. رواهما ابن أبي حاتم.

وقال مقاتل بن حيان أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً﴾. وقال خالد ابن معدان: هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في أهل التوحيد. رواهما ابن جرير.

ثم قال: ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿لاَّبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ متعلقاً، بقوله تعالى: ﴿لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً﴾ ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذاباً، من شكل آخر ونوع آخر. ثم قال: الصحيح أنها لا انقضاء

لها، كما قال قتادة والربيع ابن أنس. وقد روى قبل ذلك: عن سالم: سمعت الحسن يسأل عن قوله تعالى: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ قال: أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود في النار، ولكن ذكروا أن الحقب سبعون سنة، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون. وعن قتادة: قال الله تعالى: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ هو ما لا انقطاع له، وكلما مضى حقب جاء حقب بعده. وقال الربيع بن أنس ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله عز وجل، ورواهما أيضاً ابن جرير.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً﴾ أي: لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم، ولا شراباً طيباً يتغذون به.

٢٥- ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً﴾ قال أبو العالية: استثنى من البرد: الحميم، ومن الشراب: الغساق. وكذا قال الربيع بن أنس، فأما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه، والغساق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار، وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من نتنه، وقد قدمنا الكلام على الغساق في سورة (ص) بما أغنى عن إعادته. أجارنا الله من ذلك بمنه وكرمه.

وروى ابن جرير: وقيل: المراد بقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً﴾ يعني: النوم. يعني: بالبرد: النعاس والنوم. هكذا ذكره ولم يعزه إلى أحد، وقد رواه ابن أبي حاتم عن مرة الطيب، ونقله عن مجاهد أيضاً، وحكاه البغوي عن أبي عبيدة والكسائي أيضاً.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقاً﴾ أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة، وفق أعمالهم الفاسدة، التي كانوا يعملونها في الدنيا. قاله مجاهد وقتادة وغير واحد.

٢٧- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً﴾ أي: لم يكونوا يعتقدون أن ثمَّ داراً يجازون فيها، ويحاسبون.

٢٨- ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً﴾ أي: وكانوا يكذبون بحجج الله، ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله صلى الله عليهم وسلم، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة. وقوله: ﴿كِذَّاباً﴾ أي: تكذيباً، وهو مصدر من غير الفعل.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً﴾ أي: وقد علمنا أعمال العباد كلهم، وكتبنا عليهم، وسنجزيهم على ذلك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٣٠- وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً﴾ أي: يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه، وآخر من شكله أزواج.

وعن عبد الله بن عمرو قال: لم ينزل على أهل النار آية، أشد من هذه الآية ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبداً.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾

٣١- يقول تعالى مخبراً عن السعداء، وما أعدَّ لهم تعالى من الكرامة، ، والنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً﴾ قال ابن عباس والضحاك: متنزهاً. وقال مجاهد وقتادة: فازوا فنجوا من النار. والأظهر

ههنا قول ابن عباس، لأنه قال بعده:

٣٢- ﴿حَدَائِقَ﴾ والحدائق البساتين، من النخيل وغيرها ﴿وَأَعْنَاباً﴾.

٣٣- ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً﴾ أي: وحوراً كواعب، قال ابن عباس ومجاهد غير واحد ﴿كَوَاعِبَ﴾ أي: نواهد، يعنون: أن ثُديهن نواهد، لم يتدلين لأنهن أبكار، عرب أتراب، ، أي: في سن واحد، كما تقدم بيانه في سورة الواقعة.

٣٤- وقوله تعالى: ﴿وَكَأْساً دِهَاقاً﴾ قال ابن عباس: مملوءة متتابعة، وقال عكرمة صافية، وقال مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد ﴿دِهَاقاً﴾: الملأى المترعة، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: هي المتتابعة.

٣٥- وقوله تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً﴾ كقوله: ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ أي: ليس فيها كلام لاغ، عارٍ عن الفائدة، ولا إثم كذب، بل هي دار السلام، وكل ما فيها سالم من النقص.

٣٦- وقوله: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾ أي: هذا الذي ذكرناه، جازاهم الله به، وأعطاهموه بفضله ومنه وإحسانه ورحمته، عطاء حساباً: أي: كافياً وافياً، سالماً كثيراً، تقول العرب: أعطاني فأحسبني، أي: كفاني، ومنه: حسبي الله، أي: الله كافيّ.

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾

٣٧- يخبر تعالى عن عظمته وجلاله، وأنه ربُّ السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما، وأنه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، وقوله تعالى: ﴿لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾ أي: لا يقدر أحدٌ على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾.

٣٨- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَ يَتَكَلَّمُونَ﴾ اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا ما هو؟ على أقوال: أحدها: ما رواه العوفي عن ابن عباس: أنهم أرواح بني آدم.

الثاني: هم بنو آدم، قاله الحسن وقتادة. وقال قتادة: هذا مما كان ابن عباس يكتمه.

الثالث: أنهم خَلْقٌ من خلق الله على صور بني آدم، وليسوا بملائكة ولا بشر! وهم يأكلون ويشربون. قاله ابن عباس ومجاهد وأبو صالح والأعمش.

الرابع: هو جبريل، قاله الشعبي وسعيد بن جبير والضحاك، ويستشهد لهذا القول بقوله عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ◆ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وقال مقاتل بن حيان: الروح هو أشرف الملائكة، وأقرب إلى الرب عز وجل، وصاحب الوحي.

الخامس: القرآن، قاله ابن زيد، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الآية.

والسادس: أنه مَلَك من الملائكة، بقدر جميع المخلوقات. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله:

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ قال: هو ملك عظيم من أعظم الملائكة خَلْقاً. وتوقف ابن جرير فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها، والأشبه عندي - والله أعلم - أنهم بنو آدم.

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ كقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ وكما ثبت في الصحيح: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل».

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَاباً﴾ أي: حقاً، ومن الحق لا إله إلا الله، كما قاله أبو صالح وعكرمة.

٣٩- وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ أي: الكائن لا محالة ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً﴾ أي: مرجعاً وطريقاً يهتدى إليه، ومنهجاً يمر به عليه.

٤٠- وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾ يعني: يو القيامة، لتأكد وقوعه صار قريباً، لأن كل ما هو آتٍ آت ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يُعرض عليه جميع أعماله، خيرها وشرها، قديمها وحديثها، كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ وكقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾ أي: يودُّ الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود، وذلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة، السفرة الكرام البررة.

وقيل: إنما يوجد ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات، التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها، قال لها: كوني تراباً، فتصير تراباً، فعند ذلك يقول الكافر ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾ أي: كنت حيواناً فأرجع إلى التراب، وقد ورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما.

آخر تفسير سورة النبأ

****

ترتيبها ٧٩ — سورة النازعات - مكية — آياتها ٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤)
فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨)
أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ
إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) ﴾

١ ، ٢- قال ابن مسعود وابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير وأبو صالح وأبو الضحى والسدي ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾: الملائكة، يعنون: حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم مَن تأخذ رُوحه بعُسر، فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة، وكأنما حلَّته من نشاط. وهو قوله: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ قاله ابن عباس. وعن ابن عباس ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾: هي أنفس الكفار، تُنزع ثم تُنشط، ثم تغرق في النار. رواه ابن أبي حاتم. وقال مجاهد ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾: الموت، وقال الحسن وقتادة ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ هي النجوم، وقال عطاء بن أبي رباح في قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ ﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾ هي: القِسيُّ في القتال. والصحيح: الأول، وعليه الأكثرون.

٣- وأما قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾: فقال ابن مسعود: هي الملائكة، وروي عن علي ومجاهد وسعيد بن جبير وأبي صالح مثل ذلك.

وعن مجاهد ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾: الموت، وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء بن أبي رباح: هي السفن.

٤- وقوله تعالى: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ روي عن علي ومسروق ومجاهد وأبي صالح والحسن البصري: يعني: الملائكة، قال الحسن: سبقت إلى الإيمان، والتصديق به. وعن مجاهد: الموت. وقال قتادة: هي النجوم، وقال عطاء: هي الخيل في سبيل الله.

٥- وقوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ قال علي ومجاهد وعطاء وأبو صالح والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي: هي الملائكة. زاد الحسن: تدبر الأمر من السماء إلى الأرض، يعني بأمر ربها عز وجل.

ولم يختلفوا في هذا، ولم يقطع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك، إلا أنه حكى في المدبرات أمراً: أنها الملائكة، ولا أثبت ولا نفى.

٦ ، ٧- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ قال ابن عباس: هما النفختان، الأولى والثانية. وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغير واحد، وعن مجاهد: أما الأولى، وهي قوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ فكقوله جلَّت عظمته: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ والثانية، وهي:

الرادفة، فهي كقوله: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾.

وقد روى الإمام أحمد: عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاءت الرَّاجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموتُ بما فيه» فقال رجل: يا رسول الله، أرأيتَ إن جعلتُ صلاتي كلها عليك؟ قال: إذاً يكفيكَ اللهُ ما أهمَّك، من دنياك وآخرتك» وقد روى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم مثله.

ولفظ الترمذي وابن أبي حاتم: كان رسول الله ﷺ إذا ذهبَ ثلثا الليل قام، فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه».

٨- وقوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ قال ابن عباس: يعني: خائفة. وكذا قال مجاهد وقتادة.

٩- ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ أي: أبصار أصحابها، وإنما أضيف إليها للملابسة، أي: ذليلة حقيرة، مما عاينت من الأهوال.

١٠- وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ يعني: مشركي قريش، ومن قال بقولهم في إنكار المعاد، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة، وهي: القبور. قاله مجاهد: وبعد تمزق أجسادهم، وتفتت عظامهم ونخورها.

١١- ولهذا قالوا: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً﴾ وقُرِئَ ﴿نَاخِرة﴾ وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: أي: بالية. قال ابن عباس: وهو العظم إذا بلي، ودخلت الريح فيه ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

وعن ابن عباس ومحمد بن كعب وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي مالك والسدي وقتادة: الحافرة الحياة بعد الموت. وقال ابن زيد: الحافرة النار، وما أكثر أسمائها، هي: النار، والجحيم، وسقر، وجهنم، والهاوية، والحافرة، ولظى، والحطمة.

١٢- وأما قولهم: ﴿تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ فقال محمد بن كعب: قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن.

١٣، ١٤- قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ • فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي: فإنما هو أمر من الله، لا مثنوية فيه ولا تأكيد، فإذا الناس قيام ينظرون، وهو أن يأمر الله تعالى إسرافيل، فينفخ في الصور نفخة البعث، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب عز وجل ينظرون، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ قال مجاهد ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: صيحة واحدة.

وقال إبراهيم التيمي: أشد ما يكون الرب عز وجل غضباً على خلقه، يوم يبعثهم. وقال الحسن البصري: زجرة من الغضب. وقال أبو مالك والربيع بن أنس: زجرة واحدة، هي: النفخة الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ قال ابن عباس: الساهرة الأرض كلها. وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وأبو صالح. وقال عكرمة والحسن والضحاك وابن زيد: الساهرة وجه الأرض، وقال مجاهد: كانوا بأسفلها، فأخرجوا إلى أعلاها. قال: والساهرة المكان المستوي، وقال الثوري: الساهرة أرض الشام، وقال عثمان بن أبي العالية: الساهرة أرض بيت المقدس.

وهذه الأقوال كلها غريبة، والصحيح: أنها الأرض وجهها الأعلى.

روى ابن أبي حاتم: عن سهل بن سعد الساعدي ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ قال: أرض بيضاء عفراء خالية، كالخبزة النقي(١).

قال الربيع بن أنس ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾: يقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ويقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ۞ فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ۞ لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ وبرزت الأرض التي عليها الجبال، وهي لا تعد من هذه الأرض، وهي أرض لم يُعمل عليها خطيئة، ولم يُهرق عليها دم.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٢٦) ﴾

١٥- يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ، عن عبده ورسوله موسى عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون، وأيده الله بالمعجزات، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وكذلك عاقبة من خالفك، وكذب بما جئت به، ولهذا قال في آخر القصة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾.

فقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أي: هل سمعت بخبره؟

١٦- ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: كلمه نداء ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ أي: المطهر ﴿طُوًى﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح، كما تقدم في سورة طه.

١٧- فقال له: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أي: تجبَّر وتمرَّد وعتى.

١٨- ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى﴾ أي: قل له: هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به، وتسلم وتطيع.

١٩- ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ أي: أدلك على عبادة ربك ﴿فَتَخْشَى﴾ أي: فيصير قلبك خاضعاً له، مطيعاً خاشعاً، بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير.

٢٠- ﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى﴾ يعني: فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق، حجة قوية، ودليلاً واضحاً، على صدق ما جاءه به من عند الله.

٢١- ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ أي: فكذب بالحق، وخالف ما أمره به من الطاعة، وحاصله أنه كفر قلبه، فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره، وعلمه بأن ما جاء به حق، لا يلزم منه أنه مؤمن به، لأن المعرفة علم القلب، والإيمان عمله، وهو الانقياد للحق والخضوع له.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ أي: في مقابلة الحق بالباطل، وهو جمعه السحرة، ليقابلوا ما جاء

(١) الحديث قد جاء مرفوعاً من طريقه! عند البخاري في كتاب الرقاق (١١/ ٣٧٢) بلفظ: «يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرضٍ بيضاء عفراء، كقُرصة النقي، ليس فيها مَعلمٌ لأحد» شبهﷺ أرض المحشر بالخبزة، في الاستواء والبياض.

به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات.

٢٣، ٢٤- ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ أي: في قومه ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون، بعد قوله: ما علمت لكم من إله غيري بأربعين سنة.

٢٥- قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ أي: انتقم الله منه انتقاماً، ، جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله، من المتمردين في الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ﴾ وهذا هو الصحيح في معنى الآية، أن المراد بقوله: ﴿نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ أي: الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بذلك كلمتيه الأولى والثانية، وقيل: كفره وعصيانه، والصحيح الذي لا شك فيه الأول.

٢٦- وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ أي: لمن يتعظ وينزجر.

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

٢٧- يقول تعالى محتجاً على منكري البعث، في إعادة الخلق بعد بدئه ﴿أَأَنتُمْ﴾ أيها الناس ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ يعني: بل السماء أشد خلقاً منكم، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾. وقوله تعالى: ﴿بَنَاهَا﴾:

٢٨- فسره بقوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أي: جعلها عالية البناء، بعيدة الفناء، مستوية الأرجاء، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء.

٢٩- وقوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي: جعل ليلها مظلماً، أسود حالكاً، ونهارها مضيئاً مشرقاً، نيراً واضحاً، قال ابن عباس: ﴿أَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾: أظلمه، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وجماعة كثيرون. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي: أنار نهارها.

٣٠، ٣١- وقوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فسره بقوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وقد تقدم في سورة (حم السجدة) أن الأرض خلقت قبل خلق السماء، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء، بمعنى: أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، وهذا معنى قول ابن عباس، وغير واحد، واختاره ابن جرير.

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿دَحَاهَا﴾: ودحيها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام، فذلك قوله ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ وقد تقدم تقرير ذلك هنالك.

٣٢- وقوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أي: قررها وأثبتها، وأكدها في أماكنها، وهو الحكيم العليم، الرؤوف بخلقه الرحيم.

٣٣- وقوله تعالى: ﴿مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ أي: دحا الأرض فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبّت جبالها لتستقر بأهلها، ويقر قرارها، كل ذلك متاعاً لخلقه، ولما يحتاجون إليه من الأنعام، التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد، وينقضي الأجل.

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾

٣٤- يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾: وهو يوم القيامة، قاله ابن عباس.

سميت بذلك: لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾.

٣٥- ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى﴾ أي: حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله، خيره وشره، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾.

٣٦- ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى﴾ أي: أظهرت للناظرين، فرآها الناس عياناً.

٣٧- ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى﴾ أي: تمرد وعتى.

٣٨- ﴿وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: قدمها على أمر دينه وأخراه.

٣٩- ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي: فإن مصيره إلى الجحيم، وإن مطعمه من الزقوم، ومشربه من الحميم.

٤٠- ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ أي: خاف القيام بين يدي الله عز وجل، وخاف حكم الله فيه، ونهى نفسه عن هواها، وردها إلى طاعة مولاها.

٤١- ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي: منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء.

٤٢- ٤٤- ثم قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ♦ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ♦ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ أي: ليس علمها إليك، ولا إلى أحد من الخلق، بل مردُّها ومرجعها إلى الله عز وجل، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ﴾.

وقال ههنا: ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

٤٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ أي: إنما بعثتك لتنذر الناس، وتحذرهم من بأس الله وعذابه، فمن خشي الله، وخاف مقامه ووعيده، اتبعك فأفلح وأنجح، والخيبة والخسار على من كذّبك

وخالفك.

٤٦- وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أي: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر، يستقصرون مدة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم، أو ضحى من يوم.

(روي) عن ابن عباس ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾: فما بين الظهر إلى غروب الشمس ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار.

وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم، حين عاينوا الآخرة.

آخر تفسير سورة النازعات

****

ترتيبها ٨٠ — سُورَةُ عبس – مكية — آياتها ٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عبس وتولّىٰ ① أن جاءه الأعمىٰ ② وما يدريك لعلّه يزكّىٰ ③ أو يذّكّر فتنفعه الذكرىٰ
④ أمّا من استغنىٰ ⑤ فأنت له تصدّىٰ ⑥ وما عليك ألاّ يزكّىٰ ⑦ وأمّا من جاءك يسعىٰ ⑧
وهو يخشىٰ ⑨ فأنت عنه تلهّىٰ ⑩ كلاّ إنّها تذكرة ⑪ فمن شاء ذكره ⑫ في صحف مكرّمة
⑬ مرفوعة مطهّرة ⑭ بأيدي سفرة ⑮ كرام بررة ⑯﴾

١ - ٣- ذكر غير واحد من المفسرين: أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه، إذ أقبل ابنُ أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله ﷺ من شيء، ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك، ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم، وأعرض عنه، وأقبل على الآخر، فأنزل الله تعالى: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ◆ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ◆ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾** أي: يحصل له زكاة وطهارة في نفسه.

٤ - **﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾** أي: يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم.

٥، ٦- **﴿وَأَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ◆ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾** أي: أما الغني، فأنت تتعرَّضُ له، لعله يهتدي.

٧- **﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾** أي: ما أنت بمطالب منه، إذا لم يحصل له زكاة.

٨، ٩- **﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ◆ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾** أي: يقصدك ويؤمك، ليهتدي بما تقول له.

١٠- **﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾** أي: تتشاغل، ومن ههنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحداً، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

روى الحافظ أبو يعلى في مسنده: عن قتادة عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾** جاء ابن أم مكتوم إلى النبي ﷺ وهو يكلم أبي بن خلف فأعرض عنه فأنزل الله عز وجل: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ◆ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾** فكان النبي ﷺ بعد ذلك يكرمه. قال قتادة: وأخبرني أنس بن مالك قال: رأيته يوم القادسية وعليه درع، ومعه راية سوداء، يعني: ابن أم مكتوم.

وروى أبو يعلى وابن جرير: عن عائشة قالت: أنزلت: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾** في ابن أم مكتوم الأعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول: أرشدني، قالت: وعد رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، قالت: فجعل النبي ﷺ يُعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً؟» فيقول: لا، ففي هذا أنزلت: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾**. وقد روى الترمذي هذا الحديث.

وروى ابن أبي حاتم: عن سالم بن عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن بلالاً يؤذن

بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم» وهو الأعمى الذي أنزل الله تعالى فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ◆ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ وكان يؤذن مع بلال، قال سالم: وكان رجلاً ضرير البصر، فلم يك يؤذِّن، حتى يقول له الناس حين ينظرون إلى بزوغ الفجر: أذِّن.

وهكذا ذكر عروة بن الزبير ومجاهد وأبو مالك وقتادة والضحاك وابن زيد وغير واحد من السلف والخلف: أنها نزلت في ابن أم مكتوم، والمشهور أن اسمه: عبد الله، ويقال: عمرو، والله أعلم.

١١- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: هذه السورة، أو الوصية بالمساواة بين الناس، في إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم. وقال قتادة والسدي ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ يعني: القرآن.

١٢- ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي: فمن شاء ذكر الله تعالى في جميع أموره.

ويحتمل عود الضمير إلى الوحي، لدلالة الكلام عليه.

١٣، ١٤- وقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ◆ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي: هذه السورة أو العظة، وكلاهما متلازم، بل جميع القرآن في صحف مكرمة، أي: معظمة موقرة ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: عالية القدر ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي: من الدنس والزيادة والنقص.

١٥- وقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وابن زيد: هي: الملائكة، وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ. وقال قتادة: هم القرّاء.

وقال ابن جرير: والصحيح أن السفرة: الملائكة، والسفرة يعني بين الله تعالى وبين خلقه. ومنه يقال: السفير، الذي يَسعى بين الناس في الصلح والخير.

وقال البخاري: سفرة الملائكة: سفرت: أصلحت بينهم، وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته، كالسفير الذي يصلح بين القوم.

١٦- وقوله تعالى: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي: خلقهم كريمٌ حسنٌ شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة، ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن يكون في أفعاله وأقواله، على السداد والرشاد.

روى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به، مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاقٌّ له أجران» أخرجه الجماعة.

﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) ﴾

١٧- يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعثَ والنشور، من بني آدم ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾: لعن الإنسان، وكذا قال أبو مالك، وهذا لجنس الإنسان المكذب، لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد، وعدم العلم، قال ابن جريج ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ أي: ما أشد كفره، وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد: أي شيء جعله كافراً، أي: ما حمله على التكذيب بالمعاد. وقد حكاه البغوي عن

مقاتل والكلبي، وقال قتادة ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾: ما ألعنه.

١٨، ١٩- ثم بين تعالى له: كيف خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادرٌ على إعادته كما بدأه، فقال تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ أي: قدر أجله ورزقه، وعمله وشقي أو سعيد.

٢٠- ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه، وكذا قال عكرمة والضحاك وأبو صالح وقتادة والسدي، واختاره ابن جرير. وقال مجاهد: هذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ أي: بيناه له وأوضحناه، وسهلنا عليه عمله، وكذا قال الحسن وابن زيد، وهذا هو الأرجح، والله أعلم.

٢١- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي: أنه بعد خلقه له، أماته فأقبره، أي: جعله ذا قبر، والعرب تقول: قبرت الرجل، إذا ولي ذلك منه، وأقبره الله، وعضبت قرن الثور، وأعضبه الله، وبترت ذنب البعير، وأبتره الله، وطردت عني فلاناً، وأطرده الله، أي: جعله طريداً.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أي: بعثه بعد موته، ومنه يقال: البعث والنشور ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً﴾.

وروى ابن أبي حاتم: أن دراجاً أبا السمح أخبره عن أبي الهيثم عن أبي سعيد: عن النبيﷺ قال: «يأكلُ الترابُ كل شيء من الإنسان، إلا عَجب ذنبه» قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه تنشأون»[(١)].

وهذا الحديث ثابت في الصحيحين: من رواية أبي هريرة بدون هذه الزيادة، ولفظه: «كلُّ ابن آدم يَبلى، إلا عَجب الذَّنَب، منه خُلق وفيه يركَّب».

٢٣- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ قال ابن جرير: يقول جل ثناؤه: كلا ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر، من أنه قد أدّى حقَّ الله عليه في نفسه وماله ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ يقول: لم يؤد ما فرض عليه عز وجل، من الفرائض لربه عز وجل.

ثم روى هو وابن أبي حاتم: من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ قال: لا يقضي أحداً أبداً كل ما افترض عليه. وحكاه البغوي عن الحسن البصري بنحو من هذا، ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا، والذي يقع لي في معنى ذلك - والله أعلم - أن المعنى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أي: بعثه ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أي: لا يفعله الآن، حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدر من بني آدم، ممن كتب الله أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدراً، فإذا تناهى ذلك عند الله، أنشر الله الخلائق، وأعادهم كما بدأهم.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة، على إحياء الأجسام، بعد ما كانت عظاماً بالية، وتراباً متمزقاً.

٢٥- ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً﴾ أي: أنزلناه من السماء على الأرض.

---

(١) وفي سنده: دراج أبو السمح، وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف.

٢٦- ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي: أسكناه فيها، فيدخل في تخومها، وتخلَّل في أجزاء الحبِّ المودع فيها، فنبت وارتفع، وظهر على وجه الأرض.

٢٧، ٢٨- ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ فالحب: كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب: هو الفِصفِصة التي تأكلها الدواب رطبة، ويقال لها: القَتُّ أيضاً، قال ذلك ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي، وقال الحسن البصري: القضب: العلف.

٢٩- ﴿وَزَيْتُونًا﴾ وهو معروف، وهو أدم وعصيره أدم، ويُستصبح به، ويدهن به ﴿وَنَخْلًا﴾ يؤكل بلحاً وبسراً ورطباً وتمراً، ونيئاً ومطبوخاً، يعتصر منه ربٌّ وخل.

٣٠- ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أي: بساتين. قال الحسن وقتادة: غُلباً: نخل غلاظ كرام، وقال ابن عباس ومجاهد: كل ما التف واجتمع. وقال أيضاً: غلباً: الشجر الذي يستظل به، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أي: طوال، وقال عكرمة: غلباً: أي: غلاظ الأوساط، وفي رواية: غلاظ الرقاب، ألم ترإلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة، قيل: والله إنه لأغلب. رواه ابن أبي حاتم.

٣١- وقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ أما الفاكهة: فكل ما يتفكه به من الثمار، قال ابن عباس: الفاكهة كلُّ ما أُكل رطباً، والأبُّ: ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب، ولا يأكله الناس، وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم. وقال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك: الأب: الكلأ. وعن مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد: الأب للبهائم، كالفاكهة لبني آدم. وعن عطاء: كل شيء نبت على وجه الأرض، فهو أبٌّ، وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة، فهو الأبّ.

وعن ابن عباس: الأب نبت الأرض مما تأكله الدواب، ولا تأكله الناس، رواه ابن جرير.

وعن سعيد بن جبير قال: غدا ابن عباس وقال: الأبُّ ما أنبتت الأرضُ للأنعام.

وقال العوفي عن ابن عباس: الأبُّ: الكلأ والمرعى، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وابن زيد وغير واحد.

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام: عن إبراهيم التيمي قال: سُئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: أي سماءٍ تظلني، وأي أرض تقلني، إن قلتُ في كتابِ الله ما لا أعلم[1].

وروى ابن جرير: عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فلما أتى على هذه الآية ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ قال: قد عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ فقال لعمرك يا ابن الخطاب، إنَّ هذا لهو التكلف. إسناد صحيح.

وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكلُّ من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾.

٣٢- وقوله تعالى: ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ أي: عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

---

(١) والأثر قد أعله الحافظ ههنا بالانقطاع، لكن له طرق أخرى يصح بها، انظر تحقيقنا لكتاب «إبطال التأويلات» (١/ ٦٧) للقاضي أبي يعلى الفراء.

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾

٣٣- قال ابن عباس: الصاخة: اسم من أسماء يوم القيامة، عظَّمه الله وحذَّره. قال ابن جرير: لعله اسمٌ للنفخة في الصور. وقال البغوي: الصاخة: يعني: صيحة يوم القيامة، سُميت بذلك لأنها تصخ الأسماع، أي: تبالغ في إسماعها، حتى تكاد تصمها.

٣٤- ٣٦- ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ◆ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ◆ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ أي: يراهم ويفر منهم، ويتبعد منهم، لأن الهول عظيم، والخطب جليل.

وفي الحديث الصحيح في أمر الشفاعة: أنه إذا طلب إلى كلٍّ من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلائق: يقول: نفسي لا أسألك إلا نفسي نفسي، حتى أن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتني.

ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ◆ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ◆ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ قال قتادة: الأحب فالأحب، والأقرب فالأقرب، من هول ذلك اليوم.

٣٧- وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: هو في شغل شاغل عن غيره.

روى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تُحشرون حُفاة عُراة مُشاة غُرلاً» قال: فقالت زوجته: يا رسول الله، ننظر أويرى بعضُنا عورةَ بعض؟ قال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾» أو قال: «ما أشغله عن النظر». وقد رواه النسائي والترمذي.

وروى النسائي: عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «يُبعث الناسُ يومَ القيامة، حُفاة عُراةً غُرلاً» فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعورات؟ فقال ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾» انفرد به النسائي من هذا الوجه.

٣٨، ٣٩- وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ◆ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: يكون الناس هنالك فريقين، وجوه مسفرة، أي: مستنيرة ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: مسرورةٌ فرحة، من السرور في قلوبهم، قد ظهر البِشر على وجوههم، وهؤلاء هم أهل الجنة.

٤٠، ٤١- ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ◆ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: يعلوها وتغشاها قَترة، أي: سواد.

وقال ابن عباس ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي: يغشاها سواد الوجوه.

٤٢- وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أي: الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

آخر تفسير سورة عبس

****

ترتيبها ٨١ — سورة التكوير - مكية — آياتها ٢٩

روى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وهكذا رواه الترمذي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⑭ ﴾

١- قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ يعني: أظلمت. وقال العوفي عنه: ذهبت. وقال مجاهد: اضمحلت وذهبت. وكذا قال الضحاك، وقال قتادة: ذهب ضوؤها. وقال سعيد بن جبير: كورت غورت. وقال الربيع بن خثيم: كورت يعني: رمي بها. وقال أبو صالح: كورت ألقيت. وعنه أيضاً: نكست. وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض.

قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك، أن التكوير: جمع الشيء بعضه على بعض، ومنه تكوير العمامة، وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله تعالى: ﴿كُوِّرَتْ﴾ جمع بعضها إلى بعض، ثم لُفَّت فرمى بها، وإذا فعل بها ذلك، ذَهَبَ ضوؤها.

روى البخاري: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «الشمس والقمر يكوران يوم القيامة» انفرد به البخاري وهذا لفظه، وإنما أخرجه في كتاب بدء الخلق، وكان جديراً أن يذكره ههنا، أو يكرره كما هي عادته في أمثاله.

وقد رواه البزار فجود إيراده: عن عبد الله الداناج قال: سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن خالد بن عبد الله القسري في هذا المسجد - مسجد الكوفة - وجاء الحسن فجلس إليه، فحدث قال: حدثنا أبو هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الشمس والقمر ثوران في النار عقيران يوم القيامة» فقال الحسن: وما ذنبهما؟ فقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتقول أحسبه قال: وما ذنبهما؟[1].

٢- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ أي: انتثرت، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ وأصل الانكدار: الانصباب. عن أبي بن كعب قال: ستُّ آياتٍ قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت

---

(١) وسنده صحيح، وانظر الصحيحة (١٢٤).

فائدة: قال الإسماعيلي: ولا يلزم من جعلهما في النار تعذيبهما، فإن لله في النار ملائكة وحجارة وغيرها، لتكون لأهل النار عذاباً، وآلة من آلات العذاب، وما شاء الله من ذلك، فلا تكون هي معذبة اهـ.

والثاني: أنهما يلقيان في النار، تبكيتاً لعبادهما. انظر المصدر السابق.

واضطربت واختلطت، ففزعت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحوش، فماجوا بعضهم في بعض ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: اختلطت ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال: أهملها أهلها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحر، فإذا هو نارٌ تتأجج، قال: فبينما هم كذلك، إذ جاءتهم الريح فأماتتهم. رواه ابن جرير وهذا لفظه، وابن أبي حاتم ببعضه.

وهكذا قال مجاهد والربيع بن خثيم والحسن البصري وأبو صالح وحماد بن أبي سليمان والضحاك في قوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ أي: تناثرت، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ أي: تغيرت.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: زالت عن أماكنها ونُسفت، فتركت الأرض قاعاً صفصفاً.

٤- وقوله: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال عكرمة ومجاهد: عشار الإبل، قال مجاهد: عطلت: تركت وسيبت، وقال أبي بن كعب والضحاك: أهملها أهلها، وقال الربيع بن خثيم: لم تُحلب ولم تُصرّ، تخلى منها أربابها وقال الضحاك: تُركت لا راعي لها. والمعنى في هذا كله متقارب.

والمقصود: أن العشار من الإبل، وهي خيارها والحوامل منها، التي قد وصلت في حملها إلى الشهر العاشر، واحدتها عشراء، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع، قد أشغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها، بعد ما كانوا أرغب شيء فيها، بما دهمهم من الأمر العظيم، المفظع الهائل، وهو أمر يوم القيامة، وانعقاد أسبابها، ووقوع مقدماتها، وقيل: بل يكون ذلك يوم القيامة، يراها أصحابها كذلك، لا سبيل لهم إليها.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جمعت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال ابن عباس: يحشر كل شيء حتى الذباب. رواه ابن أبي حاتم، وكذا قال الربيع بن خثيم والسدي وغير واحد، وكذا قال قتادة في تفسير هذه الآية: إن هذه الخلائق موافية، فيقضي الله فيها ما يشاء، وقال عكرمة: حشرها موتها.

وروى ابن جرير: عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: حَشر البهائم موتها، وحشر كل شيء الموت، غير الجن والإنس فإنهما يُوقفان يوم القيامة.

وقد تقدم عن أبي بن كعب أنه قال ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾: اختلطت.

قال ابن جرير: والأولى قول من قال: حشرت: جمعت، قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: مجموعة.

٦- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ روى ابن جرير: عن سعيد بن المسيب قال: قال علي رضي الله عنه لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر، فقال: ما أراه إلا صادقاً ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾.

وقال ابن عباس وغير واحد: يرسل الله عليها الرياح الدبور، فتسعرها وتصير ناراً تأجج. وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾. وقال مجاهد والحسن بن مسلم: سجرت: أوقدت. وقال الحسن: يبست. وقال الضحاك وقتادة: غاض ماؤها، فذهب فلم يبق فيها قطرة. وقال الضحاك أيضاً:

سجرت: فجرت، وقال السدي: فتحت وسيرت، وقال الربيع بن خثيم: سجرت: فاضت.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: جُمع كل شكلٍ إلى نظيره، كقوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾. روى ابن أبي حاتم: عن النعمان بن بشير: أن عمر بن الخطاب خطب الناس، فقرأ ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ فقال: تزوجها: أن تؤلَّف كل شيعةٍ إلى شيعتهم.

وفي رواية: هما الرجلان يعملان العمل، فيدخلان به الجنة أو النار.

وفي رواية عن النعمان قال: سُئل عمر عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: يُقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: الأمثال من الناس، جمع بينهم. وكذا قال الربيع بن خثيم والحسن وقتادة، واختاره ابن جرير، وهو الصحيح.

قول آخر: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾: (روي عن ابن عباس) وكذا قال أبو العالية وعكرمة وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: زوجت الأرواح بالأبدان. وقيل: زوج المؤمنون بالحور العين، وزوج الكافرون بالشياطين. حكاه القرطبي في التذكرة.

٨، ٩- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ هكذا قراءة الجمهور ﴿سُئِلَتْ﴾. والموؤودة: هي التي كان أهل الجاهلية يدسونها في التراب، كراهية البنات، فيوم القيامة تسئل الموؤودة، على أي ذنب قتلت؟ ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم، فما ظن الظالم إذاً؟

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ أي: سَألت. وكذا قال أبو الضحى «سألت» أي: طالبت بدمها. وعن السدي وقتادة مثله.

وقد وردت أحاديث تتعلق بالموؤودة: فروى الإمام أحمد: عن عائشة عن جُذامة بنت وهب أخت عكاشة قالت: حضرت رسول الله ﷺ في ناس، وهو يقول: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس، فإذا هم يغيلون أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً» ثم سألوه عن العزل، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الوأد الخفي، وهو الموؤودة سئلت» ورواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

وروى الإمام أحمد: عن سلمة بن يزيد الجعفي قال: انطلقت أنا وأخي إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، إن أمَّنا مليكة كانت تصل الرحم، وتقري الضيف، وتفعل، هلكت في الجاهلية، فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «لا» قلنا: فإنها كانت وأدت أختاً لنا في الجاهلية، فهل ذلك نافعها شيئاً؟ قال: «الوائدة والموؤودة في النار، إلا أن تُدرك الوائدة الإسلام، فيعفو الله عنها» ورواه النسائي(١).

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والموؤودة في النار».

---

(١) الوائدة: هي التي تدفن مولودها خوف الفقر أو العار. والموؤودة: قيل: أراد بها هنا المفعول لها ذلك برضاها، وهي أم الطفل. ولا يراد به البنت المدفونة، لأنه مشكل، إذ لا ذنب لها، والله أعلم. وانظر الفيض (٦/ ٣٧١).

وروى أحمد أيضاً: عن خنساء بنة معاوية الصريمية عن عمها قال: قلت: يا رسول الله، من في الجنة؟ قال: «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والموؤودة في الجنة».

وروى ابن أبي حاتم: عن عكرمة قال: قال ابن عباس: أطفال المشركين في الجنة، فمن زعم أنهم في النار، فقد كذب، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ قال ابن عباس: هي المدفونة.

وروى عبد الرزاق: عن النعمان بن بشير: عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ قال: جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني وأدتُ بناتٍ لي في الجاهلية، قال: «أعتق عن كلٍّ واحدة منهن رقبة، قال: يا رسول الله، إني صاحب إبل، قال: «فانحر عن كل واحدة منهن بدنة».

١٠- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قال الضحاك: أُعطي كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله. وقال قتادة: يا ابن آدم تملي فيها ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة، فلينظر رجل ماذا يملي في صحيفته.

١١- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قال مجاهد: اجتذبت. وقال السدي: كسفت. وقال الضحاك: تنكشط فتذهب.

١٢- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ قال السدي: أحميت. وقال قتادة: أوقدت. قال: وإنما يُسعِّرها غضب الله، وخطايا بني آدم.

١٣- وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قال الضحاك وأبو مالك وقتادة والربيع بن خثيم: أي: قُرِّبت إلى أهلها.

١٤- وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ هذا هو الجواب، أي: إذا وقعت هذه الأمور، حينئذ تعلم كل نفس ما عملت، وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما نزلت ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قال عمر لما بلغ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ قال: لهذا أجري الحديث.

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) ﴾

١٥، ١٦- روى مسلم في صحيحه والنسائي في تفسيره عند هذه الآية: عن عمرو بن حريث قال: صليت خلف النبي ﷺ الصبح، فسمعته يقرأ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

وروى ابن جرير: عن خالد بن عرعرة: سمعت علياً وسئل عن ﴿لَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾

فقال: هي النجوم، تخنس بالنهار، وتكنس بالليل. هذا إسناد صحيح[١].

وكذا روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وعبادة والسدي وغيرهم أنها النجوم. وروى ابن جرير: عن بكر بن عبد الله قال: هي النجوم الدراري، التي تجري تستقبل المشرق. وقال بعض الأئمة: إنما قيل للنجوم «الخنس» أي: في حال طلوعها، ثم هي جوار في فلكها، وفي حال غيبوبتها يقال لها: كنس، من قول العرب: أوى الظبي إلى كناسه: إذا تغيب فيه.

وقال عبد الله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ قال: بقر الوحش. وروى أبو داود الطيالسي: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ قال: البقر تكنس إلى الظل. وكذا قال سعيد بن جبير، وقال العوفي عن ابن عباس: هي الظباء. وكذا قال سعيد أيضاً، ومجاهد والضحاك. وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد: هي الظباء والبقر.

وتوقف ابن جرير في المراد بقوله: ﴿ٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ هل هو النجوم، أو الظباء وبقر الوحش؟ قال: ويحتمل أن يكون الجميع مراداً.

١٧- وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إقباله بظلامه، قال مجاهد: أظلم. وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ، وقال الحسن البصري: إذا غشي الناس، وكذا قال عطية العوفي، وقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ إذا أدبر، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك، وكذا قال زيد ابن أسلم وابنه عبد الرحمن ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي: إذا ذهب فتولى.

وروى أبو داود الطيالسي: عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: خرج علينا علي رضي الله عنه، حين ثوّب المثوب بصلاة الصبح، فقال: أين السائلون عن الوتر ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ هذا حين أدبر. حسن.

وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ إذا أدبر، قال: لقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: إذا أضاء.

وعندي أن المراد بقوله: ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾ إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضاً، لكن الإقبال ههنا أنسب، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ وغير ذلك من الآيات، وقال كثير من علماء الأصول: إن لفظة «عسعس» تستعمل في الإقبال والإدبار، على وجه الاشتراك، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما، والله أعلم.

١٨- وقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ قال الضحاك: إذا طلع، وقال قتادة: إذا أضاء وأقبل. وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ. وهو المروي عن علي رضي الله عنه، وقال ابن جرير: يعني ضوء النهار إذا أقبل وتبين.

١٩- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ يعني: إن هذا القرآن، لتبليغ رسول كريم، أي: مَلَك شريف، حَسَنُ الخَلق، بهي المنظر، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، قاله ابن عباس والشعبي وميمون بن مهران والحسن وقتادة والربيع بن أنس والضحاك وغيرهم.

---

(١) إنما هو صحيح لطرقه، عند ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما.

٢٠- ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ◆ ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: شديد الخلق، شديد البطش والفعل ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة عند الله عز وجل، ومنزلة رفيعة.

٢١- ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: له وجاهة، وهو مسموع القول، مطاع في الملإ الأعلى. قال قتادة ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في السموات، يعني: ليس من أفناد الملائكة، بل هو من السادة والأشراف، معتنى به، انتخب لهذه الرسالة العظيمة.

وقوله تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾ صفة لجبريل بالأمانة، وهذا عظيم جداً، أن الرب عز وجل يزكّي عبده ورسوله الملكي جبريل.

٢٢- كما زكى عبده ورسوله البشري محمداًﷺ، بقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ قال الشعبي وميمون بن مهران وأبو صالح ومن تقدم ذكرهم المراد بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ يعني: محمداًﷺ.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ يعني: ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل، على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح ﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أي: البين، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ◆ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ◆ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ◆ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ◆ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ◆ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ كما تقدم تفسير ذلك وتقريره.

والدليل عليه أن المراد بذلك جبريلعليه السلام، والظاهر - والله أعلم - أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء، لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية، وهي الأولى، وأما الثانية: وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ◆ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ◆ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ◆ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ فتلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء.

٢٤- وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ أي: وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين، أي: بمتهم. ومنهم من قرأ ذلك بالضاد، أي: ببخيل بل يبذله لكل أحد. قال سفيان بن عيينة: ظنين وضنين سواء، أي: ما هو بكاذب، وما هو بفاجر. والظنين: المتهم، والضنين: البخيل.

وقال قتادة: كان القرآن غيباً، فأنزله الله على محمد، فما ضنَّ به على الناس، بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراده. وكذا قال عكرمة وابن زيد وغير واحد. واختار ابن جرير قراءة الضاد. قلت: وكلاهما متواتر، ومعناه صحيح كما تقدم.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، أي: لا يقدر على حمله، ولا يريده ولا ينبغي له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ◆ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ◆ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

٢٦- وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن، مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه حقاً من عند الله عز وجل، كما قال الصديقرضي الله عنه لوفد بني حنيفة حين قدموا مسلمين، وأمرهم فتلوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة الكذاب، الذي هو في غاية الهذيان والركاكة، فقال: ويحكم أين تذهب عقولكم؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل. أي: من إله.

وقال قتادة ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: عن كتاب الله وعن طاعته.

٢٧- وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا القرآن ذكر لجميع الناس، يتذكرون به ويتعظون.

٢٨- ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أي: من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه.

٢٩- ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى، ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين.

آخر تفسير سورة التكوير

****

سورة الانفطار مكية
ترتيبها ٨٢ — آياتها ١٩

روى النسائي: عن جابر قال: قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول، فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت؟» وأصل الحديث مخرج في الصحيحين ولكن ذكر ﴿إذا السماء انفطرت﴾ في أفراد النسائي.

وقد تقدم من رواية عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلى القيامة رأي عين، فليقرأ ﴿إذا الشمس كورت﴾ و ﴿إذا السماء انفطرت﴾ و ﴿إذا السماء انشقت﴾»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫ ﴾

١- يقول تعالى ﴿إذا السماء انفطرت﴾ أي انشقت، كما قال تعالى ﴿السماء منفطر به﴾.

٢- ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ أي: تساقطت.

٣- ﴿وإذا البحار فجرت﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فجَّر الله بعضهم في بعض.
وقال الحسن فجر الله بعضها في بعض، فذهب ماؤها، وقال قتادة: اختلط عذبها بمالحها. وقال الكلبي: ملئت.

٤- ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ قال ابن عباس: بحثت، وقال السدي: تبعثر تحرك، فيخرج من فيها.

٥- ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ أي: إذا كان هذا حصل هذا.

٦- وقوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ هذا تهديد، لا كما يتوهمه بعض الناس، من أنه إرشاد إلى الجواب، حيث قال: الكريم، حتى يقول قائلهم: غرَّه كرمه! بل المعني في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم، أي العظيم، حتي أقدمت على معصيته، وقابلته بما لا يليق كما جاء في الحديث: «يقول الله تعالي يوم القيامة: يابن آدم ما غرك بي؟ يابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟».

روي عن ابن عمر وقرأ هذه الآية ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ قال ابن عمر: غره والله جهله. وروي عن ابن عباس والربيع ابن خثيم والحسن مثل ذلك. وقال قتادة: ﴿ما غرك بربك الكريم﴾ شيءٌ، ما غر

(١) سبق في أول سورة التكوير.

ابن آدم غير هذا العدو الشيطان .

وقال الفضيل ابن عياض : لو قال لى ما غرك بي ، لقلت ستورك المرخاة .

وقال أبو بكر الوراق : لو قال لي ما غرك بربك الكريم؟ لقلت : غرني كرم الكريم .

وقال بعض أهل الإشارة : إنما قال ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ دون سائر أسمائه وصفاته ، كأنه لقنه الإجابة . وهذا الذي تخيله هذا القائل ليس بطائل ، لأنه إنما أتى باسمه «الكريم» ليبينه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم ، بالأفعال القبيحة ، وأعمال الفجور .

٧- وقوله تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ أي : ما غرك بالرب الكريم ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ أي : جعلك سوياً مستقيماً ، معتدل القامة منتصبها ، في أحسن الهيئات والأشكال؟

روى الإمام أحمد : عن بُسر بن جحاش القرشي : أن رسول الله ﷺ بَصَق يوماً في كفه ، فوضع عليها إصبعه ، ثم قال : قال الله عز وجل : «يا ابن آدم ، أنَّى تُعْجزني ، وقد خلقتك مِن مثل هذه؟ حتى إذا سويتك وعدلتك ، مشيت بين بُردين ، وللأرض منك وئيدٌ ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي ، قلت : أتصدق! وأنى أوان الصدقة؟» وكذا رواه ابن ماجة .

٨- وقوله تعالى : ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ قال مجاهد : في أي شبَه ، أب أو أم أو خال أو عم .

وفي الصحيحين : عن أبي هريرة : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنَّ امرأتي ولدت غلاماً أسود ، قال : «هل لك من إبل؟» قال : نعم ، قال : «فما ألوانها؟» قال : حمر ، ، قال : «فهل فيها من أورق» قال : نعم ، قال : «فأنى أتاها ذلك؟» قال : عسى أن يكون نَزَعه عِرق ، قال : «وهذا عسى أن يكون نزعه عرق» .

وقد قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ إن شاء في صورة قرد ، وإن شاء في صورة خنزير . وكذا قال أبو صالح ، وقال قتادة ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ قال : قادر والله ربنا على ذلك .

ومعنى هذا القول عند هؤلاء : أن الله عز وجل قادر على خلق النطفة على شكل قبيح ، من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه ، يخلقه على شكل حسن مستقيم ، معتدل تام ، حسن المنظر والهيئة .

٩- وقوله تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أي : إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي ، تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .

١٠ - ١٢- وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يعني : وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً ، فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩) ﴾

١٣- يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ، ولم يقابلوه بالمعاصي .

١٤ ، ١٥ - ثم ذكر ما يصير إليه الفجار، من الجحيم، والعذاب المقيم، ولهذا قالوا ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: يوم الحساب والجزاء والقيامة.

١٦ - ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أي: لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة، ولو يوماً واحداً.

١٧ - وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة.

١٨ - ثم أكده بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.

١٩ - ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدر أحدٌ على نفع أحد، ولا خلاصه مما هو فيه، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ونذكر ههنا حديث: «يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار لا أملك لكم من الله شيئاً». وقد تقدم في آخر تفسير سورة الشعراء.

ولهذا قال: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ كقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وكقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ وكقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

قال قتادة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ والأمر والله اليوم لله، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد.

ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة.

آخر تفسير سورة الانفطار

****

ترتيبها ٨٣ — سورة المطففين مكية — آياتها ٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ
(٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) ﴾

١- روى النسائي وابن ماجة: عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله تعالى ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك.

والمراد بالتطفيف ههنا: البخس في المكيال والميزان، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس، وإما بالنقصان إن قضاهم.

٢- ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك، وهو الويل، بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: من الناس ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: يأخذون حقهم بالوافي والزائد.

٣- ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصون، والأحسن أن يجعل كالوا ووزنوا متعدياً، ويكون هم في محل نصب، ومنهم: من يجعلها ضميراً مؤكداً، للمستتر في قوله «كالوا» و«وزنوا»، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه، وكلاهما متقارب.

وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ وأهلك الله قوم شعيب ودمَّرهم، على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال.

٤، ٥- ثم قال تعالى متوعدا لهم ﴿أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ❁ لِيَوم عَظِيمٍ﴾ أي: أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر، في يوم عظيم الهول، كثير الفزع، جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية.

٦- وقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي يقومون حفاة عُراة غُرلا في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه.

روى الإمام مالك: عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين، حتى يَغيبَ أحدُهم في رشحه ألى أنصاف أذنيه». رواه البخاري ومسلم.

حديث آخر: روى الإمام أحمد: عن المقداد ابن الأسود الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة، أُدنيت الشمس من العباد، حتى تكون قيد ميل أو ميلين، قال: فتصهرهم الشمس، فيكونون في العَرَقِ كقَدر أعمالهم، ومنهم من يَأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنه من يأخذه إلى

حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً» رواه مسلم .

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن أبي أُمامة : أن رسول الله ﷺ قال : «تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ، ويزاد في حَرِّها كذا وكذا ، تغلي منها الهامُ كما تغلي القدور ، يَعرقون فيها على قدر خطاياهم ، منهم من يبلغ إلى كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يُلْجمه العرق» انفرد به أحمد .

وفي صحيح مسلم : عن أبي هريرة مرفوعا : «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» .

وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجة : من حديث عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل يكبّر عشرا ، ويحمد عشرا ، ويسبح عشرا ، ويستغفر عشرا ، ويقول « اللهم اغفرلي ، واهدني ، وارزقني ، وعافني ، ويتعوّذ من ضيق المقام يوم القيامة» .

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٣) كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) ﴾

٧- يقول تعالى : حقا **﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾** أي : أن مصيرهم ومأواهم لفي سجين ، فعيل من السجن ، وهو الضيق ، كما يقال : : فسيق وشريب وخمير وسكير ونحو ذلك .

٨- ولهذا عظّم أمره فقال تعالى **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾** أي هو أمر عظيم ، وسجن مقيم ، وعذاب أليم ، ثم قد قال قائلون هي تحت الأرض السابعة ، وقد تقدم في حديث البراء بن عازب في حديثه الطويل : يقول الله عز وجل في روح الكافر : اكتبوكتابه في سجين وسجين هي تحت الأرض السابعة . وقيل : صخرة تحت السابعة خضراء ، وقيل بئر في جهنم .

والصحيح أن سجين مأخوذ من : السجن ، وهو الضيق ، فإن المخلوقات كلّ ما تسافل منها ضاق ، وكلّ ما تعالى منها اتسع ، فإن الأفلاك السبعة ، كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه ، وكذلك الأرضون ، كل واحدة أوسع من التي دونها ، حتى منتهى السفول المطلق والمحل الأضيق ، أي : المركز في وسط الأرض السابعة ، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم ، وهي أسفل السافلين ، كما قال تعالى **﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ◆ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** وقال ههنا **﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ◆ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾** وهو يجمع الضيق والسفول ، كما قال تعالى **﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾** .

٩- وقوله تعالى **﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾** ليس تفسيرا لقوله **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾** وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين ، أي : مرقوم مكتوب ، مفروغ منه ، لا يزاد فيه أحد ، ولا ينقص منه أحد ، قاله محمد بن كعب القرظي .

١٠- ثم قال تعالى : **﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾** أي : إذا صاروا يوم القيامة ، إلى ما أوعدهم الله من السجن ، والعذاب المهين ، وقد تقدم الكلام على قوله **«ويل»** بما أغنى عن إعادته .

وأن المراد من ذلك : الهلاك والدمار ، كما يقال : ويل لفلان .

١١- ثم قال تعالى ، مفسرا للمكذبين الفجار الكفرة : ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي لا يصدقون بوقوعه ، ولا يعتقدون كونه ، ويستبعدون أمره عن الله تعالى .

١٢- ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي : معتد في أفعاله ، من تعاطي الحرام ، والمجاوزة في تناول المباح ، والأثيم في أقواله ، إن حدَّثَ كذب ، وإنْ وعد أخلف ، وإن خاصم فجر .

١٣- وقوله تعالى : ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءاياتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول ، يُكَذِّب به ، ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مفتعل ، مجموعٌ من كتب الأوائل ، كما قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم ماذا أَنزَلَ رَبُّكم قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ .

١٤- قال الله تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي : ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا : إنَّ هذا القرآن أساطير الأولين ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسولهﷺ ، وإنما حَجَب قلوبهم عن الإيمان به ، ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ، ولهذا قال تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ والرين يعتلي قلوب الكافرين ، والغيم : للأبرار ، والغين للمقربين .

وقد روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجة : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «إنَّ العبد إذا أذنب ذنباً ، كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها ، صُقل قلبه ، وإنْ زاد زادت ، فذلك قول الله تعالى ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .

ولفظ النسائي : « إنَّ العَبْدَ إذا أخطأ خطيئة ، نُكت في قلبه نُكتة سوداء ، فإن هو نَزَع واستغفر وتاب ، صُقل قلبه ، فإن عاد زِيدَ فيها حتي تعلوا قلبه ، فهو الران الذي قال الله تعالى ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» . رواه احمد .

وقال الحسن البصري : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب فيموت .

وكذا قال مجاهد بن جبير وقتادة وابن زيد وغيرهم .

١٥- وقوله تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أي : لهم يوم القيامة منزلٌ ونزل سجين ، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم ، قال الإمام أبو عبدالله الشافعي : وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ .

وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية ، كما دل عليه منطوق قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة ، في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة ، رؤية بالأبصار ، في عَرَصات القيامة ، وفي روضات الجنان الفاخرة .

وقد روي ابن جرير : عن عمرو بن عبيد عن الحسن في قوله تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ قال : يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون والكافرون ، ثم يحجب عنه الكافرون ، وينظر إليه المؤمنون كل يوم ، غدوة وعشية ، أو كلاما هذا معناه .

١٦- وقوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ أي : ثمَّ هُمْ مع هذا الحرمان ، عن رؤية الرحمن ، من أهل

النيران.

١٧- ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ، والتصغير والتحقير.

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)﴾

١٨- يقول تعالى: حقا إن كتاب الأبرارِ - وهم بخلاف الفجارِ - لفي عليين، أي: مصيرُهم إلي عليين، وهو بخلاف سجين.

عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر عن سجين، قال: هي الأرض السابعة، وفيها أرواح الكفار، وسأله عن عليين، فقال: هي السماء السابعة، وفيها أرواح المؤمنين. وهكذا قال غير واحد: إنها السماء السابعة، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ يعني الجنة.

وفي رواية العوفي عنه: أعمالهم في السماء عند الله، وكذا قال الضحاك.

والظاهر أن «عليين» مأخوذ من العلو، وكلما علا الشيء وارتفع، عظم واتسع.

١٩- ولهذا قال تعالى معظما أمره، ومفخما شأنه ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾.

٢٠، ٢١- ثم قال تعالى مؤكدا لما كتب لهم ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ◆ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وهم الملائكة، قاله قتادة، وقال العوفي عن ابن عباس يشهده من كل سماء مقربوها.

٢٢- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي: يوم القيامة هم في نعيم مقيم، وجنات فيها فضل عميم.

٢٣- ﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ وهي السُّرر تحتَ الحِجَال ﴿يَنظُرُونَ﴾ قيل: معناه ينظرون في ملكهم، وما أعطاهم الله من الخير والفضل، الذي لا ينقضي ولا يبيد.

وقيل معناه ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ إلي الله عز وجل، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلي الله عز وجل، وهم على سررهم وفرشهم.

٢٤- وقوله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي: تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم، أي: صفة الترافة والحشمة والسرور والدَّعة والرياسة، مما هم فيه من النعيم العظيم.

٢٥- وقوله تعالى ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ أي: يسقون من خمر من الجنة.

والرحيق: من أسماء الخمر. قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وابن زيد.

وقال ابن مسعود في قوله ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أي: خلطه مسك، وقال العوفي عن ابن عباس: طيَّب الله

لهم الخمر، فكان آخر شيء جعل فيها مسك، ختم بمسك.

وكذا قال قتادة والضحاك، وقال إبراهيم والحسن: ختامه مسك، أي عاقبته مسك.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ختامه مسك﴾ قال طيبه مسك.

٢٦- وقوله تعالى ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي وفي مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون، وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون، كقوله تعالى ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.

٢٧، ٢٨- وقوله تعالى ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي: ومزاج هذا الرحيق الموصوف، ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي: من شراب يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه، قال أبو صالح والضحاك: ولهذا قال ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يشرب بها المقربون صرفا، وتُمزج لأصحاب اليمين مزجا. قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق وقتادة وغيرهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

٢٩، ٣٠- يخبر تعالى عن المجرمين، أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين، أي: يستهزئون بهم ويحتقرونهم، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم، أي: محتقرين لهم.

٣١- ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: وإذا انقلب، أي: رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم، انقلبوا إليها فاكهين، أي: مهما طلبوا وجدوا، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحقرونهم ويحسدونهم.

٣٢- ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ أي: لكونهم على غير دينهم.

٣٣- قال الله تعالى ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون، حافظين على هؤلاء المؤمنين، ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم، ولا كلفوا بهم؟ فلم اشتغلوا بهم، وجعلوهم نصب أعينهم، كما قال تعالى ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ♦ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ♦ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ♦ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

٣٤- ولهذا قال ههنا ﴿فَالْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ أي: في مقابلة ما ضحك بهم أولئك.

٣٥- ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ أي: إلى الله عز وجل في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، وليسوا بضالين، بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته.

٣٦- وقوله تعالى ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ؟﴾ أي: هل جُوزي الكفار، على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص، أم لا؟ يعني: قد جُوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله.

آخر تفسير سورة المطففين

****

ترتيبها ٨٤ — سورة الانشقاق مكية — آياتها ٢٥

روى مالك: أن أبا هريرة قرأ بهم ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد فيها فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها. رواه مسلم والنسائي.

وروى البخاري: عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت له فقال: سجدت خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه. وأخرجه مسلم وأهل السنن.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝٦
فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩
وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ
مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۝١٥﴾

١- يقول تعالى ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ وذلك يوم القيامة.

٢- ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي استمعت لربها، وأطاعت أمره فيما أمرها به، من الإنشقاق وذلك يوم القيامة. ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحق لها أن تطيع أمره، لأنه العظيم الذي لايمانع ولايغالب، بل قد قهر كل شيء، وذلّ له كل شيء.

٣- ثم قال ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي بسطت وفرشت ووسعت.

٤- وقوله تعالى ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: ألقت ما في بطنها من الأموات، وتخلت منهم. قاله مجاهد وسعيد وقتادة.

٥- ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ كما تقدم.

٦- وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي: أنك ساع إلى ربك سعيا، وعامل عملا. ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أوشر، ويشهد لذلك: ما رواه أبو داود الطيالسي: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «قال جبريل: يامحمد، عشْ ما شئتَ فإنك ميتٌ، واحببْ من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه».

ومن الناس من يعيد الضمير على قوله «رَبِّكَ» أي: فملاق ربك، ومعناه: فيجازيك بعملك، ويكافئك على سعيك، وعلى هذا، فكلا القولين متلازم، قال العوفي عن ابن عباس ﴿أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ يقول تعمل عملا تلقى الله به، خيرا كان أو شرا، وقال قتادة ﴿أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ إن كدحك يا ابن آدم لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوة إلا بالله.

٧، ٨- ثم قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ أي سهلا بلا تعسير، أي: لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله، فإنَّ من حُوسِبَ كذلك هلك لا محالة.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «من نوقش الحساب عُذِّب» قالت فقلت: أفليس قال الله تعالى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ قال: ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العَرْض من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب» وهكذا رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير.

وروى أحمد: عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته «اللهم حاسبني حسابا يسيرا» فلما انصرف، قلت يارسول الله، ما الحساب اليسير؟ قال: أنْ يَنظر في كتابه فيتجاوز له عنه، إنه من نوقش الحسابَ يا عائشةِ يومئذ هلك» صحيح على شرط مسلم.

٩- وقوله تعالى: ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ أي: ويرجع إلى أهله في الجنة. قاله قتادة والضحاك: ﴿مَسْرُوراً﴾ أي فرحا مغتبطا بما أعطاه الله عز وجل.

١٠- وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي: بشماله، من وراء ظهره، تثنى يده إلى ورائه، يعطى كتابه بها كذلك.

١١- ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً﴾ أي: خسارا وهلاكا.

١٢، ١٣- ﴿وَيَصْلَى سَعِيراً ۞ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ أي: فرحا، لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير، الحزن الطويل.

١٤- ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله، ولا يعيده بعد موته. قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما والحَوْر: هو الرجوع.

١٥- قال الله ﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ يعني: بلى سيعيده الله كم بدأه، ويجازيه على أعماله، خيرها وشرها، فإنه كان به بصيرا، أي عليما خبيرا.

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) ﴾

١٦- روي عن علي وابن عباس وعبادة بن الصامت وأبي هريرة وشداد بن أوس وابن عمر ومحمد بن علي بن الحسين ومكحول وبكر بن عبدالله المزني وبكير بن الأشج ومالك وابن أبي ذئب وعبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون، أنهم قالوا: الشفق: الحمرة. فالشفق: هو حمرة الأفق، إما قبل طلوع الشمس -كما قاله مجاهد- وإما بعد غروبها، كما هو معروف عند أهل اللغة.

قال الخليل بن أحمد: الشفق الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة، فإذا ذهب قيل: غاب الشفق. وبنحوه قال الجوهري وعكرمة.

وفي صحيح مسلم: عن عبدالله بن عمرو: عن رسول الله ﷺ أنه قال: « وقت المغربِ مالم يَغبِ

الشفق» ففي هذا كله دليل على أن الشفق، ، هو كما قال الجوهري والخليل.

ولكن صح عن مجاهد أنه قال في هذه الآية ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ هو النهار كله.

وفي رواية عنه أيضا: أنه قال: الشفق الشمس، رواهما ابن أبي حاتم.

١٧- وإنما حمله على هذا قرنه بقوله تعالى ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: جمع كأنه أقسم بالضياء والظلام، وقال ابن جرير: أقسم الله بالنهار مدبرا، وبالليل مقبلا. وقال ابن جرير: وقال آخرون: الشفق: اسم للحمرة والبياض، وقالوا: هو من الأضداد. قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة: ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ وما جمع. قال قتادة: وما جمع من نجم ودابة.

وقد قال عكرمة ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يقول: ما ساق من ظلمة، إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه.

١٨- وقوله تعالى ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ قال ابن عباس: إذا اجتمع واستوى. وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ومسروق وأبوصالح والضحاك وابن زيد ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ إذا استوى. وقال الحسن: إذا اجتمع إذا امتلأ. وقال قتادة: إذا استدار.

ومعنى كلامهم: إنه إذا تكامل نوره وأبدر، جعله مقابلا لليل وما وسق.

١٩- وقوله تعالى ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ روى البخاري عن مجاهد قال: قال ابن عباس ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ حالا بعد حال، قال: هذا نبيكم ﷺ، هكذا رواه البخاري بهذا اللفظ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبي ﷺ، كأنه قال: سمعت هذا من نبيكم ﷺ. فيكون قوله نبيكم مرفوعا على الفاعلية من قال، وهو الأظهر - والله أعلم - كما قال أنس: لا يأتي عام ألا والذي بعده شر منه، سمعته من نبيكم ﷺ.

وروى ابن جرير: عن مجاهد أن ابن عباس كان يقول ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ قال: يعني نبيكم ﷺ يقول: حالا بعد حال. هذا لفظه، وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾: حالا بعد حال. وكذا قال عكرمة ومرة الطَّيب ومجاهد والحسن والضحاك ومسروق وأبوصالح.

ويحتمل أن يكون المراد ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ حالا بعد حال، قال: هذا يعني المراد بهذا نبيكم ﷺ فيكون مرفوعا، على أن «هذا» و«نبيكم» يكونان مبتدأ وخبرا، والله أعلم.

ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة، كما روى أبوداود الطيالسي وغندر: عن ابن عباس ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ قال: محمد ﷺ. ويؤيد هذا المعني قراءة عمر وابن مسعود وابن عباس وعامة أهل مكة والكوفة ﴿لَتَرۡكَبَنَّ﴾ بفتح التاء والباء.

روى ابن أبي حاتم: عن الشعبي قال: لتركبن يا محمد سماء بعد سماء. وهكذا روي عن ابن سعود ومسروق وأبي العالية ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ سماء بعد سماء. قلت يعنون ليلة الإسراء.

وقال السدي ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل. قلت: كأنه أراد معنى الحديث الصحيح: «لتركبن سَنَن من كان قبلكم حَذْو القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال «فمن؟» وهذا محتمل.

وعن ابن مسعود ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ قال: السماء مرة كالدهان، ومرة تنشق.

وقال عكرمة ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ حالا بعد حال، فطيما بعد ما كان رضيعا، وشيخا بعد ما كان شاباً.

وقال الحسن البصري ﴿طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ يقول: حالا بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقراً بعد غنى وصحة بعد سقم، وسقما بعد صحة.

ثم قال ابن جرير بعدما حكى أقوال الناس في هذه الآية من القراء والمفسرين: والصواب من التأويل: قول من قال: لتركبن أنت يامحمد حالا بعد حال، وأمرا بعد أمر، من الشدائد. والمراد بذلك - وإن كان الخطاب موجها إلى رسول الله ﷺ - جميع الناس، وأنهم يلقون من الشدائد يوم القيامة وأحواله أهوالا.

٢٠، ٢١- وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي: فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وما لهم إذا قُرئت عليهم آيات الله وكلامه - وهو هذا القرآن - لا يسجدون، إعظاما وإكراما واحتراما؟.

٢٢- وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أي: من سجيتهم التكذيب والعناد، والمخالفة للحق.

٢٣- ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ قال مجاهد وقتادة: يكتمون في صدورهم.

٢٤- ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فأخبرهم يا محمد، بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذابا أليما.

٢٥- وقوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذا استثناء منقطع، لكن الذين آمنوا، أي بقلوبهم، وعملوا الصالحات، أي: بجوارحهم، لهم أجر، أي: في الدار الآخرة غير ممنون. قال ابن عباس: غير منقوص، وقال مجاهد والضحاك: غير محسوب، وحاصل قولهما أنه غير مقطوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

وقال السدي: قال بعضهم: غير ممنون: غير منقوص، وقال بعضهم: غير ممنون عليهم، وهذا القول الأخير عن بعضهم، قد أنكره غير واحد، فإن الله عز وجل له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة، وإنما دخلوها بفضله ورحمته، لا بأعمالهم فله عليهم المنة دائما سرمدا، والحمد لله وحده أبدا، ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده، كما يلهمون النفس، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

آخر تفسير سورة الانشقاق

****

ترتيبها ٨٥ سُورَةُ البروج مكية آياتها ٢٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) ﴾

١ - يقسم تعالى بالسماء وبروجها، وهي: النجوم العظام، كما تقدم بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة والسدي: البروج النجوم.

وعن مجاهد أيضا: البروج التي فيها الحرس. وقال يحي بن رافع: البروج قصور في السماء، وقال المنهال بن عمرو ﴿والسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ الخلق الحسن.

واختار ابن جرير أنها منازل الشمس والقمر، وهي: اثنا عشر برجا تسير الشمس في كل واحد منها شهرا، ويسير القمر في كل واحد منها يومين وثلثا، فذلك ثمانية وعشرون منزلة، ويستتر ليلتين.

٢، ٣- وقوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۞ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ اختلف المفسرون في ذلك، وقد روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة، ﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة، وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، وفيه ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله فيها خيراً، إلا أعطاه إياه، ولا يستعيذ فيها من شر إلا أعاذه ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة» وهكذا روى هذا الحديث ابن خزيمة.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة: أنه قال في هذه الآية ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال: يعني الشاهد يوم الجمعة، ويوم مشهود: يوم القيامة. وروى أحمد أيضاً: عن أبي هريرة: أنه قال في هذه الآية ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة، والموعود: يوم القيامة، وقد روي عن أبي هريرة أنه قال: اليوم الموعود يوم القيامة. وكذلك قال الحسن وقتادة وابن زيد، ولم أرهم يختلفون في ذلك، ولله الحمد.

وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: الشاهد: ابن آدم، والمشهود يوم القيامة. وعن عكرمة أيضاً: الشاهد محمد ﷺ، والمشهود يوم الجمعة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الشاهد: الله، والمشهود: يوم القيامة.

قال ابن جرير: وقال آخرون: المشهود: يوم الجمعة. وعن سعيد بن جبير: الشاهد الله، وتلا: ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ والمشهود: نحن، حكاه البغوي. وقال الأكثرون على أن الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة.

٤- وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ أي: لُعن أصحاب الأخدود، وجمعه: أخاديد، وهي: الحفر في الأرض، وهذا خبرٌ عن قوم من الكفار، عَمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل فقهروهم، وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم، فحفروا لهم في الأرض أخدوداً، وأجّجوا فيه ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها.

٥- ٧- ولهذا قال تعالى: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ أي: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين.

٨- قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: وما كان لهم عندهم من ذنب، إلا إيمانهم بالله العزيز، الذي لا يُضام مَن لاذ بجنابه المنيع، الحميد في جميع أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وإن كان قدّر على عباده هؤلاء، هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به، فهو العزيز الحميد، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس.

٩- ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض، ولا تخفى عليه خافية.

وقد اختلف أهل التفسير في أهل هذه القصة: من هم؟ فعن علي: أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم، فامتنع عليهم علماؤهم، فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم. وعنه: أنهم كانوا قوماً باليمن، اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على كفارهم، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين، فخدوا لهم الأخاديد وأحرقوهم فيها. وعنه: أنهم كانوا من أهل الحبشة واحدهم حبشي. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ قال: ناس من بني إسرائيل خدوا أخدوداً في الأرض، ثم أوقدوا فيه ناراً، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء فعرضوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم. وقيل غير ذلك.

وقد روى الإمام أحمد: عن صهيب: أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم مَلِكٌ، وكان له ساحر، فلما كَبُر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني وحضر أجلي، فادفع إليَّ غلاماً لأعلِّمه السحر، فدفع إليه غلاماً كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك، فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر.

قال: فبينما هو ذات يوم، إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس، فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحبُّ إلى الله، أم أمر الساحر؟ قال: فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك وأرضى من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها ومضى الناس،

فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بُني، أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلَّ عليَّ.

فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس فعمي فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني ولك ما ههنا أجمع، فقال: ما أشفي أنا أحداً، إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنتَ به دعوتُ الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحوما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان، من ردَّ عليك بصرك؟ فقال: ربي، فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله، قال: ولك رب غيري؟! قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يُعذِّبه حتى دلَّ على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص، وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أنا أحداً، إنما يشفي الله عز وجل، قال: أنا؟ قال: لا، قال: أولك رب غيري؟! قال: ربي وربك الله، فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دلَّ على الراهب، فأتى بالراهب فقال: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض.

وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه، فذهبوا به فلما علوا به الجبل، قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجفت بهم الجبل فدُهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فبعث به مع نفر في قُرقور، فقال: إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى.

ثم قال للملك: إنك لستَ بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإنْ أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيدٍ واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. ففعل ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد - والله - نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: مَن رجع عن دينه فدعوه، وإلا فاقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابنٍ لها تُرضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه، فإنك على الحق».

وهكذا رواه مسلم في آخر الصحيح، ورواه النسائي.

وقد جوده الإمام أبو عيسى الترمذي: فرواه في تفسير هذه السورة: عن صهيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر هَمس - والهمس في بعض قولهم: تحريك شفتيه كأنه يتكلم - فقيل له: إنك يا رسول الله، إذا صليت العصر همست، قال: «إن نبياً من الأنبياء، كان أُعجب بأمته، فقال: من يقوم لهؤلاء؟ فأوحى الله إليه: أن خَيِّرهم بين أن أنتقم منهم، وبين أن أسلط عليهم عدوهم، فاختاروا النقمة، فسلط الله عليهم الموت، فمات منهم في يوم سبعون ألفاً» قال: وكان إذا حدَّث بهذا الحديث، حدث بهذا الحديث الآخر قال: كان ملكٌ من الملوك، وكان لذلك الملك كاهن يتكهن له، فقال الكاهن: انظروا لي غلاماً فهماً، أو قال: فطناً لقناً، فأعلمه

علمي هذا» فذكر القصة بتمامها، وقال في آخره: يقول الله عز وجل: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ۞ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ۞ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ قال: فأما الغلام فإنه دُفن، فيذكر أنه أخرج في زمان عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه، كما وضعها حين قتل [١].

وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيراً، كما روى ابن أبي حاتم: عن عبد الرحمن بن جبير قال: كانت الأخدود في اليمن زمان تبع، وفي القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتوناً وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد، وفي العراق في أرض بابل بختنصر، الذي صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباه عزريا وميشائيل، فأوقد لهم أتوناً وألقى فيها الحطب والنار، ثم ألقاهما فيه فجعلها الله تعالى عليهما برداً وسلاماً، وأنقذهما منها وألقى فيها الذين بغوا عليه، وهم تسعة رهط فأكلتهم النار.

وعن السدي في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ قال: كانت الأخدود ثلاثة: خدٌّ بالعراق وخدٌّ بالشام، وخدٌّ باليمن. رواه ابن أبي حاتم.

١٠- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: حرقوا، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن أبزى ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي: لم يقلعوا عما فعلوا، ويندموا على ما أسلفوا ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل.

قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢)﴾

١١- يخبر تعالى عن عباده المؤمنين، أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بخلاف ما أعدَّ لأعدائه، من الحريق والجحيم، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾.

١٢- ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إن بطشه وانتقامه من أعدائه - الذين كذَّبوا رسله وخالفوا أمره - لشديد عظيمٌ قوي، فإنه تعالى ذو القوة المتين، الذي ما شاء كان كما يشاء، في مثل لمح البصر أو هو أقرب.

١٣- ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: من قوته وقدرته التامة، يبدئ الخلق ويعيده كما بدأه، بلا ممانع ولا مدافع.

١٤- ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ أي: يغفر ذنب من تاب إليه، وخضع لديه، ولو كان الذنب من أي شيءٍ

---

(١) أشار الحافظ ابن كثير إلى أن السياق الأخير، لعله من كلام صهيب الرومي رضي الله عنه، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى.

كان، والودود: قال ابن عباس وغيره: هو الحبيب.

١٥ - ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العرش العظيم، العالي على جميع الخلائق، و «المجيد» فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب عز وجل، والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح.

١٦ - ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ أي: مهما أراد فعله، لا معقب لحكمه، ولا يسئل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله، كما روينا عن أبي بكر الصديق: أنه قيل له وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فما قال لك، قال: قال لي: إني فعال لما أريد.

١٧، ١٨ - وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أي: هل بلغك ما أحلَّ الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة، التي لم يردها عنهم أحد؟

وهذا تقرير لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إذا أخذ الظالم، أخذه أخذاً أليماً شديداً، أخذ عزيز مقتدر.

١٩ - وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: هم في شك وريب، وكفر وعناد.

٢٠ - ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ أي: هو قادر عليهم قاهر، لا يفوتونه ولا يعجزونه.

٢١ - ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: عظيم كريم.

٢٢ - ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ أي: هو في الملإ الأعلى، محفوظ من الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل.
وقال الحسن البصري: إنَّ هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ، ينزل منه ما يشاء، على من يشاء من خلقه.

آخر تفسير سورة البروج

****

ترتيبها ٨٦ — سُورَةُ الطارق - مكية — آياتها ١٧

روى النسائي: عن جابر قال: صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء، فقال النبيﷺ: «أفتانٌ أنت يا معاذ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها، ونحوها؟».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾

١- يقسم تبارك وتعالى بالسماء، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، ولهذا قال تعالى: **﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾**.

٢- ثم قال: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾**.

٣- ثم فسر بقوله: **﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾** قال قتادة وغيره: وإنما سمي النجم طارقاً، لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار. ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: نهى أن يَطْرُقَ الرجل أهله طروقاً. أي: يأتيهم فجأة بالليل. وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء: «إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن».

وقوله تعالى: **﴿الثَّاقِبُ﴾** قال ابن عباس: المضيء. وقال السدي: يثقب الشياطين إذا أرسل عليها. وقال عكرمة: هو مضيء، ومحرق للشيطان.

٤- وقوله تعالى: **﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾** أي: كل نفس عليها من الله حافظ، يحرسها من الآفات، كما قال تعالى: **﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾**.

٥- وقوله تعالى: **﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾** تنبيه للإنسان على ضَعف أصله الذي خُلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد، لأن مَن قدر على البداءة، فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾**.

٦- وقوله تعالى: **﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾** يعني: المني يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله عز وجل.

٧- ولهذا قال: **﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾** يعني: صلب الرجل، وترائب المرأة، وهو صدرها. وعن عكرمة عن ابن عباس قال: صلب الرجل، وترائب المرأة، أصفر رقيق لا يكون الولد إلا منهما. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم. وقال الضحاك وعطية عن ابن عباس: تريبة المرأة موضع القلادة، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الترائب بين ثدييها، وعن

مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر. وعنه أيضاً: الترائب أسفل من التراقي، وقال سفيان الثوري: فوق الثديين، وعن سعيد بن جبير: الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل، وعن قتادة: من بين صلبه ونحره.

٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ فيه قولان: أحدهما: على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه، لقادر على ذلك. قاله مجاهد وعكرمة وغيرهما.

القول الثاني: إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي: إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر، لأن مَن قدر على البداءة، قدر على الإعادة، وقد ذكر الله عز وجل هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع، وهذا القول قال به الضحاك، واختاره ابن جرير.

٩- ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي: يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أي: تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية، والمكنون مشهوراً؛ وقد ثبت في الصحيحين: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يُرفع لكل غادر لواءٌ عند استه، يقال هذه غدرة فلان بن فلان».

١٠- وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ﴾ أي: الإنسان يوم القيامة ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ أي: في نفسه ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ أي: من خارج منه، أي: لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحدٌ ذلك.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾

١١- قال ابن عباس: الرجع المطر. وعنه: هو السحاب فيه المطر. وعنه ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ تمطر ثم تمطر. وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم.

وقال ابن زيد: ترجع نجومها وشمسها وقمرها، يأتين من ههنا.

١٢- ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات. وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك والضحاك والحسن وقتادة والسدي وغير واحد.

١٣- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ قال ابن عباس: حق. وكذا قال قتادة. وقال آخر: حكم عدل.

١٤- ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي: هو جد حق.

١٥، ١٦- ثم أخبر عن الكافرين، بأنهم يكذبون ويصدون عن سبيله، فقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن.

١٧- ثم قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أنظرهم ولا تستعجل لهم ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أي: قليلاً، أي: وسترى ماذا أُحلُّ بهم، من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك، ، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

آخر تفسير سورة الطارق

****

ترتيبها ٨٧ — سُورَةُ الأعلى - مكية — آياتها ١٩

والدليل على ذلك ما رواه البخاري: عن البراء بن عازب قال: أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فجعلا يقرئاننا القرآن، ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيتُ أهلَ المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان، يقولون: هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور مثلها.

وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلا صليتَ بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى».

وروى الإمام أحمد: عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بـ «سبح اسم ربك الأعلى» و«هل أتاك حديث الغاشية» وإنْ وافق يوم الجمعة، قرأهما جميعاً. وقد رواه مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي والنسائي. ولفظ مسلم وأهل السنن: كان يقرأ في العيدين يوم الجمعة بـ «سبح اسم ربك الأعلى» و«هل أتاك حديث الغاشية»، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده: من حديث أبي بن كعب وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن أبزى وعائشة أم المؤمنين: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الوتر بـ «سبح اسم ربك الأعلى» و«قل يا أيها الكافرون» و«قل هو الله أحد». زادت عائشة: والمعوذتين.

وهكذا روي هذا الحديث من طريق جابر، وأبي أمامة صدى بن عجلان، وعبد الله بن مسعود، وعمران بن حصين، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ولولا خشية الإطالة، لأوردنا ما تيسر لنا من أسانيد ذلك ومتونه، ولكن في الإرشاد بهذا الاختصار كفاية، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣) ﴾

١ - روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر الجهني: لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم» ورواه أبو داود وابن ماجة.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال:

«سبحان ربي الأعلى» وهكذا رواه أبو داود.

وعن عبد خير قال: سمعت علياً قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ فقال: سبحان ربي الأعلى.

٢- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي: خلق الخليقة، وسوى كل مخلوق في أحسن الهيئات.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ قال مجاهد: هدى الإنسان للشقاوة والسعادة، وهدى الأنعام لمراتعها، وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى، أنه قال لفرعون ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي: قدَّر قدراً، وهدى الخلائق إليه. كما ثبت في صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله قدَّر مقاديرَ الخلائق، قبل أنْ يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

٤- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي: من جميع صنوف النباتات والزروع.

٥- ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ قال ابن عباس: هشيماً متغيراً. وعن مجاهد وقتادة وابن زيد نحوه.

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العلم بكلام العرب، يرى أن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم، وأن معنى الكلام: والذي أخرج المرعى أحوى، أي: أخضر إلى السواد، ، فجعله غثاء بعد ذلك. ثم قال ابن جرير: وهذا وإن كان محتملاً، إلا أنه غير صواب لمخالفته أقوال أهل التأويل.

٦- وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ أي: يا محمد ﴿فَلاَ تَنسَى﴾ وهذا إخبار من الله تعالى، ووعد منه له، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها.

٧- ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وهذا اختيار ابن جرير. وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً، إلا ما شاء الله. وقيل: المراد بقوله ﴿فَلاَ تَنسَى﴾ طلب، وجعل معنى الاستثناء على هذا، ما يقع من النسخ، أي: لا تنسى ما نقرئك، إلا ما يشاء الله رفعه، فلا عليك أن تتركه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أي: يعلم ما يجهر به العباد، وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء.

٨- وقوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ أي: نسهل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً، مستقيماً عدلاً، لا اعوجاج فيه، ولا حرج ولا عسر.

٩- وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أي: ذكِّر حيث تنفع التذكرة، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم: فلا يضعه عند غير أهله، كما قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: ما أنت بمحدثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان فتنة لبعضهم. وقال: حدِّث الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله؟

١٠- وقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى﴾ أي: سيتعظ بما تبلغه يا محمد مَن قلبُه يَخشى الله، ويعلم أنه ملاقيه.

١١ - ١٣- ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ◆ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ◆ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾ أي: لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة تنفعه، بل هي مضرة عليه، لأن بسببها يَشْعر ما يُعاقب به من أليم العذاب، وأنواع النكال.

روى الإمام أحمد: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، لا يموتون

ولا يحيون، وأما أناسٌ يُريد الله بهم الرحمة، فيُميتهم في النار، فيدخل عليهم الشفعاء، فيأخذ الرجل الضِّبارة فينبتهم - أو قال: ينبتون في نهر الحيا - أو قال: الحياة - أو قال: الحيوان - أو قال: نهر الجنة - فينبتون نبات الحِبَّة في حميل السيل» قال: وقال النبيﷺ: «أما ترون الشجرة تكون خضراء، ثم تكون صفراء أو قال: تكون صفراء، ثم تكون خضراء؟ قال: فقال بعضهم: كأن النبيﷺ كان بالبادية.

وروى أحمد أيضاً: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللهﷺ: «أما أهلُ النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس - أو كما قال - تصيبهم النار بذنوبهم - أو قال: بخطاياهم - فيميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً، أُذن في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضبائر، فبثُّوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل» قال: فقال رجل من القوم حينئذ: كأن رسول اللهﷺ كان بالبادية، رواه مسلم.

وقد قال الله تعالى إخباراً عن أهل النار ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

١٤- يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: طهَّر نفسه من الأخلاق الرذيلة، وتابع ما أنزل الله على الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

١٥- ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أي: أقام الصلاة في أوقاتها، ابتغاء رضوان الله، وطاعة لأمر الله، وامتثالاً لشرع الله. وكذا قال ابن عباس أن المراد بذلك الصلوات الخمس، واختاره ابن جرير.

وروى ابن جرير: عن أبي خلدة قال: دخلت على أبي العالية، فقال لي: إذا غدوت غداً إلى العيد فمرَّ بي، قال: فمررت به، فقال: هل طعمت شيئاً؟ قلت: نعم، قال: أفضت على نفسك من الماء؟ قلت: نعم، قال: فأخبرني ما فعلت بزكاتك؟ قلت: قد وجهتها، قال: إنما أردتك لهذه، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾. وقال: إنَّ أهل المدينة لا يرون صدقةً أفضل منها، ومن سقاية الماء.

قلت: وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر، ويتلو هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾.

وقال أبو الأحوص: إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة، فليقدم بين يدي صلاته زكاته، فإن الله تعالى يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾. وقال قتادة: زكَّى ماله، وأرضى خالقه.

١٦- ثم قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: تقدمونها على أمر الآخرة، وتبدونها على ما فيه نفعكم وصلاحكم، في معاشكم ومعادكم.

١٧- ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دانية فانية، والآخرة شريفة باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريباً، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد.

وروى ابن جرير: عن عرفجة الثقفي قال: استقرأت ابن مسعود ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ فلما بلغ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه، وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة. فسكت القوم، فقال: آثرنا الدنيا، لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل.

وهذا منه على وجه التواضع والهضم، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو، والله أعلم.

١٨، ١٩- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ◆ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ روى النسائي: عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال: كلها في صحف إبراهيم وموسى، ولما نزلت ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال: وفَّى إبراهيم ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يعني: أن هذه الآية كقوله تعالى في سورة النجم ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ◆ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ◆ أَن لاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ◆ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ◆ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ◆ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى ◆ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ الآيات إلى آخرهن، وهكذا قال عكرمة فيما رواه ابن جرير عنه.

وقال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف الأولى.

واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ◆ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ◆ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ◆ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: مضمون هذا الكلام ﴿لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ◆ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾.

وهذا الذي اختاره حسن قوي، وقد روي عن قتادة وابن زيد نحوه، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الأعلى

****

ترتيبها ٨٨ — سورة الغاشية – مكية — آياتها ٢٦

قد تقدم عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى، والغاشية، في صلاة العيد، ويوم الجمعة.

وروى الإمام مالك: أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: هل أتاك حديث الغاشية. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧﴾

١- الغاشية من أسماء يوم القيامة. قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد، لأنها تغشى الناس وتعمهم.

٢- وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة، قاله قتادة، وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها.

٣- وقوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي: قد عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية. روى الحافظ أبوبكر البرقاني: عن أبي عمران الجوني يقول: مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدار راهب، قال: فناداه: يا راهب، فأشرف، قال فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾ فذاك الذي أبكاني[1].

وقال البخاري: قال ابن عباس ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾: النصارى، وعن عكرمة والسدي: عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في النار بالعذاب والإهلاك.

٤- قال ابن عباس والحسن وقتادة ﴿تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾ أي: حارة شديدة الحر.

٥- ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي: قد انتهى حرُّها وغليانها، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن والسدي.

٦- وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ﴾ قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس: شجرٌ من النار. وقال سعيد بن جبير: هو الزقوم. وعنه: أنها الحجارة، وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو الجوزاء وقتادة: هو الشِّبرق، قال قتادة: قريش تسميه في الربيع: الشبرق، وفي الصيف: الضريع، قال عكرمة: وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض. وقال البخاري: قال مجاهد: الضريع نبت يقال له: الشبرق، يسميه أهل الحجاز: الضريع إذا يبس، وهو سم. وقال سعيد عن قتادة ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ﴾ من شر الطعام، وأبشعه وأخبثه.

٧- وقوله تعالى: ﴿لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ يعني: لا يحصل به مقصود، ولا يندفع به محذور.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ۝١١ فِيهَا

(١) أبو عمران الجوني، من ثقات التابعين، لكن في سماعه من عمر رضي الله عنه نظر، وإنما أبقيته لشواهده من أقوال السلف، والله أعلم.

عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَ أَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَ نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَ زَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾

٨- لما ذكر حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء فقال: **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾** أي: يوم القيامة **﴿نَاعِمَةٌ﴾** أي: يعرف النعيم فيها.

٩- وإنما حصل لها ذلك بسعيها. وقال سفيان **﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾** قد رضيت عليها.

١٠- وقوله تعالى: **﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾** أي: رفيعة بهية، في الغرفات آمنون.

١١- **﴿لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً﴾** أي: لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو، كما قال تعالى: **﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً﴾** وقال تعالى: **﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾**، وقال تعالى: **﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً ۞ إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾**.

١٢- **﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾** أي: سارحة، وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها: عيناً واحدة، وإنما هذا جنس، يعني: فيها عيون جاريات. روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهارُ الجنة تفجَّر من تحت تلال - أو من تحت جبال - المسك».

١٣- **﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾** أي: عالية ناعمة، كثيرة الفرش، مرتفعة السمك، عليها الحور العين.

قالوا: فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية، تواضعت له.

١٤- **﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾** يعني: أواني الشرب، مُعدَّة مرصدة لمن أرادوها من أربابها.

١٥- **﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾** قال ابن عباس: النمارق الوسائد. وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك والسدي والثوري وغيرهم.

١٦- وقوله تعالى: **﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾** قال ابن عباس: الزرابي: البسط. وكذا قال الضحاك وغير واحد. ومعنى مبثوثة: أي: ههنا وههنا، لمن أراد الجلوس عليها.

﴿أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)﴾

١٧- يقول تعالى آمراً عباده، بالنظر في مخلوقاته، الدالة على قدرته وعظمته **﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾** فإنها خلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها، ونبهوا بذلك، لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل. وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت؟

١٨- **﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾** أي: كيف رفعها الله عز وجل عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: **﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾**.

١٩- **﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾** أي: جعلت منصوبة، فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن.

٢٠- ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: كيف بسطت ومدت ومهدت؟ فنبه البدوي على الإستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته، على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم، الخالق المالك المتصرف، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه.

وهكذا أقسم ضمام في سؤاله على رسول الله ﷺ، كما رواه الإمام أحمد: عن أنس قال: كنا نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يُعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجلٌ من أهل البادية، فقال: يا محمد، إنه أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: «صدق» قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله» قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله»، قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله»، قال: فبالذي خلق السماء والأرض، ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: «نعم» قال: «وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: «صدق» قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم» قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا؟ قال: «صدق» قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم» قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، قال: «صدق» قال: ثم ولَّى فقال: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليهن شيئاً، ولا أنقص منهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «إن صدق ليدخلنَّ الجنة» وقد رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي.

٢١، ٢٢- وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ أي: فذكر يا محمد الناس، بما أرسلت به إليهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ولهذا قال: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: لست عليهم بجبار، أي: لست تخلق الإيمان في قلوبهم. وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان.

روى الإمام أحمد: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها، وحسابهم على الله عز وجل» ثم قرأ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾. وهكذا رواه مسلم في كتاب الإيمان والترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما بهذه الزيادة، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من رواية أبي هريرة، بدون ذكر هذه الآية.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ أي: تولى عن العمل بأركانه، وكَفَر بالحق بجنانه ولسانه، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

٢٤- ولهذا قال: ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ روى الإمام أحمد: أن أبا أمامة الباهلي مرَّ على خالد بن يزيد بن معاوية، فسأله عن ألين كلمةٍ سمعها من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا كلكم يدخل الجنة، إلا مَن شرَد على الله شراد البعير على أهله» تفرد بإخراجه الإمام أحمد.

٢٥- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي: مرجعهم ومنقلبهم.

٢٦- ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أي: نحن نحاسبهم على أعمالهم، ونجازيهم بها، إن خيراً فخير، وإن شرا فشر.

آخر تفسير سورة الغاشية

****

ترتيبها ٨٩ — سُورَةُ الفجر – مكية — آياتها ٣٠

روى النسائي: عن جابر قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه، فطوّل فصلى في ناحية المسجد، ثم انصرف فبلغ ذلك معاذاً، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى، فقال: يا رسول الله، جئتُ أصلي معه فطوّل عليَّ، فانصرفت وصليت في ناحية المسجد، فعلفت ناقتي، فقال رسول الله ﷺ: «أفتّاناً يا معاذ؟ أين أنت من ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾؟».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤)﴾

١ – أما الفجر فمعروف، وهو الصبح، قاله علي وابن عباس وعكرمة ومجاهد والسدي. وعن مسروق ومحمد بن كعب المراد به: فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر، وقيل المراد بذلك: الصلاة التي تفعل عنده، كما قاله عكرمة.

٢ – والليالي العشر: المراد بها عشر ذي الحجة، كما قاله ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف، وقد ثبت في صحيح البخاري: عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعني عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلاً خَرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء».

وقيل: المراد بذلك العشر الأول من المحرم، حكاه أبو جعفر ابن جرير ولم يعزه إلى أحد. وقد روي عن ابن عباس ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: هو العشر الأول من رمضان. والصحيح القول الأول.

٣ – وقوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قد تقدم في هذا الحديث أن «الوتر يوم عرفة» لكونه التاسع، وأن الشفع يوم النحر، لكونه العاشر، وقاله ابن عباس وعكرمة والضحاك أيضاً.

قول ثان: عن ابن الزبير: الشفع: أوسط أيام التشريق، والوتر: آخر أيام التشريق.

وفي الصحيحين: من رواية أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، مَن أحصاها دخل الجنة، وهو وترٌ يُحب الوتر».

قول ثالث: قال الحسن البصري وزيد بن أسلم: الخلق كلهم شفع ووتر، أقسم تعالى بخلقه، وهو رواية عن مجاهد، والمشهور عنه الأول، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال: الله وتر واحد، وأنتم

شفع. ويقال: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب.

قول رابع: وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ كل شيء خلقه الله شفع، السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، ونحو هذا، ونحا مجاهد في هذا ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن خالق الأزواج واحد.

قول خامس: قال قتادة عن الحسن ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ هو العدد، منه شفع ومنه وتر.

قول سادس: قال أبو العالية والربيع بن أنس وغيرهما: هي الصلاة، منها شفعٌ كالرباعية والثنائية، ومنها وتر كالمغرب فإنها ثلاث، وهي وتر النهار، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل. (وروي عن عمران بن حصين مرفوعاً) وعندي أن وقفه أشبه، والله أعلم.

ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: أي: إذا ذهب. وقال عبد الله بن الزبير ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ حتى يذهب بعضه بعضاً، وقال مجاهد وأبو العالية وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ إذا سار. وهذا يمكن حمله على ما قال ابن عباس: أي ذهب.

ويحتمل أن يكون المراد إذا سار، أي: أقبل. وقد يقال: إن هذا أنسب، لأنه في مقابلة قوله ﴿وَالْفَجْرِ﴾ فإن الفجر هو إقبال النهار، وإدبار الليل، فإذا حمل قوله ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ على إقباله، كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار، وبالعكس كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ وكذا قال الضحاك ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي: يجري، وقال عكرمة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ يعني: ليلة جمع ليلة المزدلفة. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

٥- وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي: لذي عقل ولب ودين وحجى، وإنما سمي العقل «حجراً» لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به، من الأفعال والأقوال، ومنه حجر البيت، لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامي، ومنه حجر اليمامة، وحَجَر الحاكم على فلان: إذا منعه التصرف ﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً﴾ كل هذا من قبيل واحد، ومعنى متقارب، وهذا القسم هو بأوقات العبادة وبنفس العبادة، من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب، التي يتقرب بها إليه عباده المتقون، المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لديه، الخاشعون لوجهه الكريم.

٦- ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم، قال بعده: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة، جبارين خارجين عن طاعته، مكذبين لرسله، جاحدين لكتبه، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبراً، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾.

٧- ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وهؤلاء عاد الأولى، وهم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. قاله ابن إسحاق، وهم الذين بعث الله فيهم رسولاً هوداً عليه السلام، فكذبوه وخالفوه فأنجاه الله من بين أظهرهم، ، ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۞ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون.

فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ عطف بيان، زيادة تعريف بهم. وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ لأنهم

كانوا يسكنون بيوت الشعر، التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة، وأقواهم بطشاً، ولهذا ذكَّرهم هود بتلك النعمة، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

٨- وقال ههنا: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم، لقوتهم وشدتهم، وعظم تركيبهم، قال مجاهد: إرم أمة قديمة، يعني: عاداً الأولى. قال قتادة بن دعامة والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد، وهذا قول حسن جيد قوي. وقال مجاهد وقتادة والكلبي: كانوا أهل عمد لا يقيمون. وقال العوفي عن ابن عباس: إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم، واختار الأول ابن جرير، ورد الثاني فأصاب.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أعاد ابن زيد الضمير على العماد لارتفاعها، وقال: بنوا عمداً بالأحقاف، لم يخلق مثلها في البلاد، وأما قتادة وابن جرير فأعادا الضميرَ على القبيلة، أي: لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد، يعني في زمانهم، وهذا القول هو الصواب، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف، لأنه لو كان المراد ذلك، لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

قلت: فعلى كل قول، سواء كانت العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحاً يقاتلون به، أو طول الواحد منهم، فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما ههنا، والله أعلم.

ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ مدينة إما دمشق، كما روي عن سعيد بن المسيب وعكرمة، أو اسكندرية كما روي عن القرطبي أو غيرهما، ففيه نظر! فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان؟ فإنه لا يتسق الكلام حينئذ، ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحلَّ الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أنَّ المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم. وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية، من ذكر مدينة يقال لها: «إرم ذات العماد» مبنية بلبن الذهب والفضة، قصورها ودورها وبساتينها، وإن حصباءها لآلئ وجواهر، وترابها بنادق المسك، وأنهارها سارحة، وثمارها ساقطة، ودورها لا أنيس بها، وسورها وأبوابها تصفر، ليس بها داع ولا مجيب، وإنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام، وتارة باليمن، وتارة بالعراق، وتارة بغير ذلك من البلاد، فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين، من وضع بعض زنادقتهم، ليختبروا بذلك القول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك.

وذكر الثعلبي وغيره: أن رجلاً من الأعراب - وهو عبد الله بن قلابة في زمان معاوية - ذهب في طلب أباعر له شردت، فبينما هو يتيه في ابتغائها، إذ اطَّلع على مدينة عظيمة، لها سورٌ وأبواب، فدخلها فوجد فيها قريباً مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها، وأنه رجع فأخبر الناس فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئاً!

فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي، فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه

نوع من الهوس والخبال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك، وهذا مما يقطع بعدم صحته.

وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين، من وجود مطالب تحت الأرض، فيها قناطير الذهب والفضة، وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ، والأكسير الكبير! لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء، فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير، ونحو ذلك من الهذيانات، ويطنزون بهم، والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية، وكنوزاً كثيرة، من ظفر بشيء منها أمكنه تحويله، فأما على الصفة التي زعموها، فكذب وافتراء وبهت، ولم يصح في ذلك شيء مما يقولون، إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب.

وقول ابن جرير يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ قبيلة، أو بلدة كانت عاد تسكنها، فلذلك لم تصرف. فيه نظر، لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة.

٩- ولهذا قال بعده: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ يعني: يقطعون الصخر بالوادي. قال ابن عباس: ينحتونها ويخرقونها. وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد، ومنه يقال: مجتابي النمار، إذا خرقوها، واجتاب الثوب إذا فتحه، ومنه: الجيب أيضاً، وقال الله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ﴾. وقال ابن إسحاق: كانوا عرباً، وكان منزلهم بوادي القرى.

وقد ذكرنا قصة عاد مستقصاة في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته.

١٠- وقوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: الأوتاد الجنود، الذين يشدون له أمره. ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد، يعلقهم بها. وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد، وهكذا قال سعيد بن جبير والحسن والسدي، قال السدي: كان يربط الرجل في كل قائمة من قوائمه في وتد، ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه. وعن أبي رافع: قيل لفرعون: ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾ لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت.

١١، ١٢- وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أي: تمردوا وعتوا، وعاثوا في الأرض بالإفساد، والأذية للناس.

١٣- ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: أنزل عليهم رجزاً من السماء، وأحلَّ بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين.

١٤- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ قال ابن عباس: يَسمع ويرى. يعني: يرصد خلقه فيما يعملون، ويُجازي كلاً بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيعرض الخلائق كلهم عليه، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلاً بما يستحقه، وهو المنزه عن الظلم والجور.

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾

١٥- يقول تعالى منكراً على الإنسان، في اعتقاده إذا وسَّع الله تعالى عليه في الرزق، ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له! وليس كذلك، بل هو ابتلاءٌ وامتحان، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

١٦- وكذلك في الجانب الآخر، إذا ابتلاه وامتحنه، وضيق عليه في الرزق، يعتقد أنَّ ذلك من الله إهانة له.

١٧- قال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإنَّ الله تعالى يُعطي المال مَن يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ فيه أمر بالإكرام له، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود: عن سهل يعني ابن سعد: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وقَرن بين أصابعه الوسطى والتي تلي الإبهام.

١٨- ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ يعني: لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين، ويحث بعضهم على بعضٍ في ذلك.

١٩- ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ يعني: الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: من أي جهةٍ حصل لهم، من حلال أو حرام.

٢٠- ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيراً زاد بعضهم فاحشاً.

﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾

٢١- يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة، فقال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: حقاً ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي: وطئت ومهدت وسويت الجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم.

٢٢- ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق: محمد صلوات الله وسلامه عليه، بعد ما يسألون أولي العزم من الرسل، واحداً بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم، حتى تنتهي النَّوبة إلى محمد ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها» فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء، فيشفِّعه الله تعالى في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود، كما تقدم في بيانه في سورة سبحان، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً.

٢٣- وقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ روى الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: عن عبد الله هو ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمامٍ سبعون ألف ملَك

يَجرونها» وهكذا رواه الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ﴾ أي: عمله، وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي: وكيف تنفعه الذكرى؟

٢٤- ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ يعني: يندم على كل ما سلف منه من المعاصي، إن كان عاصياً، ويود لو كان ازداد من الطاعات، إن كان طائعاً. كما روى الإمام أحمد بن حنبل: عن محمد بن أبي عميرة - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - قال: لو أنَّ عبداً خرَّ على وجهه من يوم وُلد إلى أن يموت هرَماً في طاعة الله، لحقره يوم القيامة، ولود أنه رُدَّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب.

٢٥- قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ أي: ليس أحد أشد عذاباً، من تعذيب الله من عصاه.

٢٦- ﴿وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ أي: وليس أحدٌ أشد قبضاً ووثقاً من الزبانية، لمن كفر بربهم عز وجل. وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين.

٢٧، ٢٨- فأما النفس الزكية المطمئنة، وهي الساكنة الثابتة، الدائرة مع الحق، فيقال لها ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ◆ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ أي: إلى جواره وثوابه، وما أعده لعباده في جنته ﴿رَاضِيَةً﴾ أي: في نفسها ﴿مَرْضِيَّةً﴾ أي: قد رضيت عن الله، ورضي عنها وأرضاها.

٢٩- ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: في جملتهم.

٣٠- ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره، وعند قيامه من قبره، فكذلك ههنا.

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية: فروى العوفي عن ابن عباس قال: يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ◆ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ يعني: صاحبك، وهو بدنها الذي كانت تعمره في الدنيا، راضية مرضية. وروي عنه: أنه كان يقرؤها ﴿فَادْخُلِي فِي عَبْدِي ◆ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ وكذا قال عكرمة والكلبي، واختاره ابن جرير، وهو غريب! والظاهر الأول، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾ ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ﴾ أي: إلى حكمه والوقوف بين يديه.

ثم روى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير قال: مات ابن عباس بالطائف فجاء طير لم ير على خلقته، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه فلما دفن تُليت هذه الآية على شفير القبر لا يدرى من تلاها ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ◆ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ◆ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ◆ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ ورواه الطبراني.

آخر تفسير سورة الفجر

****

ترتيبها ٩٠ — سُورَةُ البلد - مكية — آياتها ٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾

١، ٢- هذا قسمٌ من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى، في حال كون الساكن فيها حالاً، لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها. وعن عكرمة عن ابن عباس ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ يعني: مكة ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ قال: أنت يا محمد، يحل لك أن تقاتل به.

وكذا روي عن سعيد بن جبير وأبي صالح وعطية والضحاك وقتادة والسدي وابن زيد، وقال مجاهد: ما أصبت فيه فهو حلالٌ لك، وقال قتادة ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ قال: أنت به من غير حرج ولا إثم.

وقال الحسن البصري: أحلَّها الله له ساعة من نهار.

وهذا المعنى الذي قالوه، قد ورد به الحديث المتفق على صحته: «إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَد شَجره، ولا يختلى خلاه، وإنما أُحلَّت لي ساعة من نهار، وقد عادت حُرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهدُ الغائب».

وفي لفظ آخر: «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم».

٣- وقوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ روى ابن جرير: عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ الوالد الذي يلد، وما ولد: العاقر الذي لا يولد له، ورواه ابن أبي حاتم.

وقال عكرمة: الوالد العاقر، وما ولد الذي يلد. رواه ابن أبي حاتم.

وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والضحاك وسفيان الثوري وسعيد بن جبير والسدي والحسن البصري وخصيف وشرحبيل بن سعد وغيرهم يعني: بالوالد آدم وما ولد ولده. وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى، وهي أم المساكن، أقسم بعده بالساكن، وهو آدم أبو البشر وولده.

وقال أبو عمران الجوني: هو إبراهيم وذريته. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

واختار ابن جرير: أنه عام في كل والد وولده. وهو محتمل أيضاً.

٤- وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ روي عن ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد والنخعي وخيثمة والضحاك وغيرهم، يعني: منتصباً. زاد ابن عباس في رواية عنه: منتصباً في بطن أمه، والكبد: الاستواء والاستقامة. ومعنى هذا القول: لقد خلقناه سوياً مستقيماً، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ◆ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ◆ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا

﴿الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وقال ابن أبي نجيح وجريج وعطاء عن ابن عباس ﴿فِي كَبَدٍ﴾ قال: في شدة خَلْق، ألم تر إليه، وذكر مولده ونبات أسنانه. وقال مجاهد ﴿فِي كَبَدٍ﴾: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، يتكبد في الخلق. قال مجاهد: وهو كقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً﴾ وأرضعته كرها، ومعيشته كره، فهو يكابد ذلك. وقال سعيد ابن جبير ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ في شدة وطلب معيشة. وقال عكرمة: في شدة وطول. وقال قتادة: في مشقة.

وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الحميد بن جعفر: سمعت محمد بن علي أبا جعفر الباقر سأل رجلاً من الأنصار عن قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ قال: في قيامه واعتداله، فلم ينكر عليه أبو جعفر، وروي عن الحسن قرأ هذه الآية: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ قال: يكابد أمراً من أمر الدنيا، وأمراً من أمر الآخرة. وفي رواية: يكابد مضايق الدنيا، وشدائد الآخرة.

واختار ابن جرير: أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها.

٥- وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قال الحسن البصري: يعني ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾: يأخذ ماله. وقال قتادة: ابن آدم يظن أن لن يسئل عن هذا المال، من أين اكتسبه وأين أنفقه؟ وقال السدي ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قال: الله عز وجل.

٦- وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً﴾ أي: يقول ابن آدم: أنفقت مالاً لُبداً، أي: كثيراً. قاله مجاهد والحسن وقتادة والسدي وغيرهم.

٧- ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ قال مجاهد: أي: أيحسب أن لم يره الله عز وجل. وكذا قال غيره من السلف.

٨- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ أي: يبصر بهما.

٩- ﴿وَلِسَاناً﴾ أي: ينطق به، فيعبِّر عما في ضميره ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستعين بهما على الكلام، وأكل الطعام، وجمالاً لوجهه وفمه.

١٠- ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ الطريقين. روى سفيان الثوري عن عبد الله هو ابن مسعود ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ قال: الخير والشر. وكذا روي عن علي وابن عباس، ومجاهد وعكرمة وأبي وائل وأبي صالح ومحمد بن كعب والضحاك وعطاء الخراساني في آخرين. ونظير هذه الآية، قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ۞ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾.

﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾

١١ - قال الحسن البصري ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ قال: عقبة في جهنم. وقال قتادة: إنها عقبة قحمة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله تعالى.

١٢ -وقال قتادة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ (إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله) (١).

١٣ - ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ◆ أَوْ إِطْعَامٌ﴾ وقال ابن زيد: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي: أفلا سلك الطريق التي فيها النَّجاة والخير.

ثمَّ بيَّنها، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ◆ فَكُّ رَقَبَةٍ ◆ أَوْ إِطْعَامٌ﴾ قرئ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ بالإضافة. وقُرئ على أنه فعل، وفيه ضمير الفاعل، والرقبة مفعولة، وكلتا القراءتين معناهما متقارب.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أعتقَ رقبةً مؤمنة، أعتق الله بكل إرْب - أو عضو - منها إربا من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج» فقال علي بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبي هريرة؟ فقال سعيد: نعم، فقال علي بن الحسين لغلام له - أفْره غلمانه - ادع مَطرفاً، فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنتَ حرٌّ لوجه الله. وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي. وعند مسلم: أن هذا الغلام الذي أعتقه علي بن الحسين زين العابدين، كان قد أُعطي فيه عشرة آلاف درهم.

روى الإمام أحمد: عن عمرو بن عبسة أنه حدثهم أن النبي ﷺ قال: «مَن بنى مسجداً ليُذكرَ اللهُ فيه، بنى الله له بيتاً في الجنة، ومن أعتق نفساً مسلمة، كانت فديته من جهنم، ومَن شابَ شيبةً في الإسلام، كانت له نوراً يوم القيامة».

طريق أخرى: روى أحمد: عن شرحبيل بن السميط قال لعمرو بن عبسة: حدثنا حديثاً ليس فيه تزيُّدٌ ولا نسيان، قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن أعتق رقبةً مسلمةً، كانت فكاكه من النار عضواً بعضو، ومن شاب شيبةً في سبيل الله، كانت له نوراً يوم القيامة، ومن رَمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ، كان كعتق رقبةٍ».

حديث آخر: روى أحمد: عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أعتق رقبةً مسلمة، فهو فداؤه من النار».

روى الإمام أحمد: عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علِّمني عملاً يُدخلني الجنة، فقال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسئلة، أعتق النَّسَمة، وفكَّ الرَّقبة» فقال: يا رسول الله، أوليستا بواحدة؟ قال: «لا، إنَّ عِتق النَّسمة أن تنفرد بعتقها، وفكّ الرقبة أن تُعين في عتقها، والمِنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم الظالم، فإن لم تُطق ذلك فأطعم الجائع، واسق الظمآن، وأْمُر بالمعروف وانهَ عن المنكر، فإن لم تُطق ذلك، فكف لسانك إلا من الخير».

١٤ - وقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ قال ابن عباس: ذي مجاعة، وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد. والسغب: هو الجوع، وقال إبراهيم النخعي: في يوم الطعام فيه عزيز، وقال قتادة في يوم يشتهى فيه الطعام.

---

(١) ساقطة في الأصل، واستدركناها من تفسير ابن جرير

١٥- وقوله تعالى: ﴿يَتِيماً﴾ أي: أطعم في مثل هذا اليوم يتيماً ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: ذا قرابة منه، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك والسدي، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: عن سلمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصَّدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصِلة». وقد رواه الترمذي والنسائي، وهذا إسناد صحيح.

١٦- وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: فقيراً مُدقعاً لاصقاً بالتراب، وهو الدقعاء أيضاً. قال ابن عباس ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ هو المطروح في الطريق، الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب، وفي رواية: هو الذي لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة، ليس له شيء، وفي رواية عنه: هو البعيد التربة، قال ابن أبي حاتم: يعني الغريب عن وطنه، وقال عكرمة: هو الفقير المديون المحتاج، وقال سعيد بن جبير: هو الذي لا أحد له.

وقال ابن عباس وسعيد وقتادة ومقاتل بن حيان: هو ذو العيال، وكل هذه قريبة المعنى.

١٧- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة، مؤمنٌ بقلبه، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي: كان من المؤمنين العاملين صالحاً، المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم، كما جاء في الحديث الشريف: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء»(١).

وفي الحديث الآخر: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»(٢).

وروى أبو داود: عن عبد الله بن عمرو يرويه قال: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حقَّ كبيرنا، فليس منا».

١٨- وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين.

١٩، ٢٠- ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي: أصحاب الشمال ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبقةٌ عليهم، فلا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها.

قال أبو هريرة وابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب القرظي وعطية العوفي والحسن وقتادة والسدي ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبقة، قال ابن عباس: مغلقة الأبواب، وقال مجاهد: أصد الباب بلغة قريش، أي: أغلقه. وسيأتي في ذلك حديث في سورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

وقال الضحاك ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ حيط لا باب له وقال قتادة: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: مطبقة، لا ضوء فيها ولا فُرج، ولا خروج منها آخر الأبد.

آخر تفسير سورة البلد

****

(١) رواه أحمد (٢/ ١٦٠) والترمذي (١٩٢٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وتمامه: «والرحم شُجنة من الرحمن، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتته».

(٢) رواه مسلم (٢٣١٩) وغيره من حديث جرير رضي الله عنه.

ترتيبها ٩١ — سورة الشمس – مكية — آياتها ١٥

تقدم حديث جابر الذي في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلاً صليت بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾

١- قال مجاهد ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ أي: وضوئها، وقال قتادة ﴿وَضُحَاهَا﴾ النهار كله، قال ابن جرير: والصواب أن يقال: أقسم الله بالشمس ونهارها، لأن ضوء الشمس الظاهرة هو النهار.

٢- ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ قال مجاهد: تبعها، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ قال: يتلو النهار، وقال قتادة: إذا تلاها، ليلة الهلال، إذا سقطت الشمس رُؤي الهلال. وقال ابن زيد: هو يتلوها في النصف الأول من الشهر، ثم هي تتلوه، وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر.

وقال مالك عن زيد بن أسلم: إذا تلاها ليلة القدر.

٣- وقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا﴾ قال مجاهد: أضاء. وقال قتادة: إذا غشيها النهار، وقال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة، لدلالة الكلام عليها، قلت: ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا﴾ أي: البسيطة، لكان أولى ولصح تأويله في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ فكان أجود وأقوى، والله أعلم.

ولهذا قال مجاهد ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا﴾ أنه كقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾. وأما ابن جرير فاختار عود الضمير في ذلك كله على «الشمس» لجريان ذكرها.

٤-وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يعني: إذا يغشى الشمس، حين تغيب فتظلم الآفاق.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ يحتمل أن تكون «ما» ههنا مصدرية، بمعنى: والسماء وبنائها، وهو قول قتادة. ويحتمل أن تكون بمعنى: من، يعني: والسماء وبانيها، وهو قول مجاهد، وكلاهما متلازم. والبناء هو الرفع، كقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي: بقوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۞ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾.

٦- وهكذا قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ قال مجاهد: طحاها دحاها، قال العوفي عن ابن عباس ﴿وَمَا طَحَاهَا﴾ أي: خلق فيها. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: طحاها قسمها. وقال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي والثوري وأبو صالح وابن زيد ﴿طَحَاهَا﴾ بسطها. وهذا أشهر الأقوال، وعليه الأكثر

من المفسرين وهو المعروف عند أهل اللغة. قال الجوهري: طحوته مثل دحوته مثل دجوته، أي: بسطته.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أي: خلقها سويَّة مستقيمة، على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولدُ علَى الفِطرة، فأبواه يُهوِّدَانِه أو ينصِّرانه أو يُمجِّسانه، كما تُولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء؟» أخرجاه من رواية أبي هريرة.

وفي صحيح مسلم: من رواية عياض بن حماد المجاشعي عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: إني خلقتُ عبادي حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم».

٨- وقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها، أي: بيَّن ذلك لها، وهداها إلى ما قدر لها. قال ابن عباس ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بيَّن لها الخير والشر. وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك والثوري.

وقال سعيد بن جبير: ألهمها الخير والشر. وقال ابن زيد: جعل فيها فجورها وتقواها.

وروى ابن جرير: عن أبي الأسود الديلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون فيه، أشيءٌ قُضي عليهم ومضى عليهم من قدر سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت عليهم الحجة؟ قلت: بل شيء قضي عليهم، قال: فهل يكون ذلك ظلماً؟ قال: ففزعت منه فزعاً شديداً، قال: قلت له: ليس شيء إلا وهو خلقه وملك يده لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون، قال: سددك الله إنما سألتك لأخبر عقلك، إن رجلاً من مزينة أو جهينة أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون، أشيءٌ قُضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أم شيءٌ مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: «بل شيءٌ قد قُضي عليهم» قال: ففيم نعمل؟ قال: «مَن كان الله خلقه لأحد المنزلتين، يهيئه لها، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾» رواه أحمد ومسلم.

٩- وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكَّى نفسه، أي: بطاعة الله - كما قال قتادة - وطهَّرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل، ويروى نحوه عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، وكقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ۞ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾.

١٠- ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أي: دسسها، أي: أخملها، ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى، حتى ركب المعاصي، وترك طاعة الله عز وجل. وقد يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح مَن زكَّى الله نفسه، وقد خاب من دسَّى الله نفسه، كما قال العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

وروى الطبراني: عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مرَّ بهذه الآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ وقف ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وخيرُ مَن زكَّاها».

حديث آخر: روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليها ومولاها» لم يخرجوه من هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد: عن عائشة: أنها فقدت النبيﷺ من مضجعه، فلمسته بيدها، فوقعت عليه وهو ساجد، وهو يقول: «ربِّ أعطِ نفسي تقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها» تفرد به.

حديث آخر: وروى الإمام أحمد: عن زيد بن أرقم قال: كان رسول اللهﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العَجْز والكسَل، والهرم والجُبن والبُخل وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خيرُ من زكاها، أنتَ وليُّها ومولاها، اللهم إني أعوذُ بك مِن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، وعلمٍ لا ينفع، ودعوة لا يستجاب لها» قال زيد: كان رسول اللهﷺ يعلمناهن، ونحن نعلمكموهنَّ، رواه مسلم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ⑪ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ⑭ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ⑮﴾

١١- يخبر تعالى عن ثمود، أنهم كذبوا رسولهم، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي. وقال محمد ابن كعب ﴿بِطَغْوَاهَا﴾ أي: بأجمعها. والأول أولى، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم عليه الصلاة والسلام، من الهدى واليقين.

١٢- ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ أي: أشقى القبيلة، وهو قدار بن سالف، عاقر الناقة، وهو أحيمر ثمود، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ الآية. وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم شريفاً في قومه، نسيباً رئيساً مطاعاً. كما روى الإمام أحمد: عن عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول اللهﷺ فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها، فقال: «﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ انبعث لها رجلٌ عارمٌ عزيز منيعٌ في رهطه، مثل أبي زمعة» ورواه البخاري في التفسير ومسلم في صفة النار، والترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما، وكذا ابن جرير وابن أبي حاتم.

وروى ابن أبي حاتم: عن عمار بن ياسر قال: قال رسول اللهﷺ لعلي: «ألا أُحدِّثك بأشقى الناس؟» قال: بلى، قال: «رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذا - يعني قرنه - حتى تبتلَّ منه هذه» يعني: لحيته.

١٣- وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ يعني: صالحاًعليه السلام ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ أي: احذروا ناقة الله، أن تمسوها بسوء ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ أي: لا تعتدوا عليها في سقياها، فإن لها شربُ يومٍ ولكم شرب يوم معلوم.

١٤- قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي: كذَّبوه فيما جاءهم به، فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة، التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم، وحجة عليهم ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ أي: غضب عليهم فدمَّر عليهم ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي: فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء.

قال قتادة: بلغنا أن أحيمر ثمود، لم يعقر الناقة حتى بايعه صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها، دمدم الله عليهم بذنبهم فسواها.

١٥- وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ وقرئ فلا يخاف ﴿عُقْبَاهَا﴾ قال ابن عباس: لا يخاف الله من أحد تبعة. وكذا قال مجاهد والحسن وبكر بن عبد الله المزني وغيرهم. وقال الضحاك والسدي ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾: أي: لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع. والقول الأول أولى، لدلالة السياق عليه، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الشمس

****

ترتيبها ٩٢ — سورة الليل - مكية — آياتها ٢١

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «فهلا صليت بـ «سبح اسم ربك الأعلى» «والشمس وضحاها» «والليل إذا يغشى»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر والأنثى (٣) إن سعيكم لشتى (٤) فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) وما يغني عنه ماله إذا تردى (١١) ﴾

روى الإمام أحمد: عن علقمة: أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق فصلى فيه ركعتين، وقال: اللهم ارزقني جليساً صالحاً. قال فجلس إلى أبي الدرداء، فقال له أبو الدرداء: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ❁ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ قال علقمة ﴿وَالذَّكَرِ وَالأُنثَى﴾ فقال أبو الدرداء: لقد سمعتها من رسول الله ﷺ، فما زال هؤلاء حتى شككوني، ثم قال: ألم يكن فيكم صاحب الوساد، وصاحب السرّ الذي لا يعلمه أحدٌ غيره، والذي أجيرَ من الشيطان على لسان محمد ﷺ. وقد رواه البخاري ههنا ومسلم.

هكذا قرأ ذلك ابن مسعود وأبو الدرداء، ورفعه أبو الدرداء، وأما الجمهور فقرأوا ذلك كما هو المثبت في المصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾.

١ - فأقسم تعالى بالليل إذا يغشى، أي: إذا غشيَ الخليقة بظلامه.

٢ - ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ أي: بضيائه وإشراقته.

٣ - ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً﴾ وكقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة، كان المقسم عليه أيضاً متضاداً.

٤ - ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أي: أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة، فمن فاعلٍ خيراً، ومن فاعلٍ شراً.

٥ - قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ أي: أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره.

٦ - ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالمجازاة على ذلك، قاله قتادة، وقال خصيف: بالثواب. وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو صالح وزيد بن أسلم ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالخُلف. وقال أبو عبد الرحمن السلمي والضحاك ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بـ «لا إله إلا الله». وفي رواية عن عكرمة: أي: بما أنعم الله عليه، وفي رواية عن زيد بن أسلم قال: الصلاة والزكاة والصوم، وقال مرة: وصدقة الفطر.

٧ - وقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ قال ابن عباس: يعني للخير، وقال زيد بن أسلم: يعني: الجنة،

وقال بعض السلف: من ثواب الحسنةِ الحسنةُ بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها.

٨- ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ﴾ أي: بما عنده ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ قال عكرمة عن ابن عباس: أي: بخل بماله، واستغنى عن ربه عز وجل. رواه ابن أبي حاتم.

٩- ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالجزاء في الدار الآخرة.

١٠- ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ أي: لطريق الشر، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة، دالة على أن الله عز وجل يُجازي من قَصَد الخير بالتوفيق له، ومن قَصد الشر بالخذلان، وكل ذلك بقدَرٍ مقدَّر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة.

رواية علي رضي الله عنه: روى البخاري: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغَرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتب مقعدُه من الجنة، ومقعده من النار» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتَّكل؟ فقال: «اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَى﴾. وقد أخرجه بقية الجماعة من طرق.

رواية عبد الله بن عمر: روى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: قال عمر: يا رسول الله، أرأيت ما نعملُ فيه، أفي أمرٍ قد فُرغ أو مبتدأ أو مبتدع؟ قال: «فيما قد فُرغ منه، فاعْمل يا ابن الخطاب، فإنَّ كلاً ميسَّرٌ، أما من كان من أهل السعادة، فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء، فإنه يعمل للشقاء» ورواه الترمذي.

حديث آخر من رواية جابر: روى ابن جرير: عن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله، أنعمل لأمرٍ قد فُرغ منه، أو لأمرٍ نستأنفه؟ فقال: «لأمرٍ قد فُرغ منه» فقال سراقة: ففيم العمل إذاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «كلّ عامل ميسر لعمله» ورواه مسلم.

رواية أبي الدرداء: رواها الإمام أحمد بنحوه.

حديث آخر: روى ابن جرير: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان، يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعطِ مُمسكاً تلفاً» وأنزل الله في ذلك القرآن: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ ورواه ابن أبي حاتم.

قال ابن جرير: وذكر أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم روى عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق على الإسلام بمكة، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني، أراك تُعتق أناساً ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالاً جلداء يقومون معك، ويمنعونك ويدفعون عنك، فقال: أي أبت، أنما أريد - أظنه قال - ما عند الله، قال: فحدثني بعض أهل بيتي: أن هذه الآية أنزلت فيه ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾.

١١- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ قال مجاهد: أي: إذا مات.

وقال أبو صالح ومالك عن زيد بن أسلم: إذا تردى في النار.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا

الأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

١٢- قال قتادة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: نبين الحلال والحرام، وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله، وجعله كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ حكاه ابن جرير.

١٣- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ﴾ أي: الجميع ملكنا، وأنا المتصرف فيهما.

١٤- وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ﴾ قال مجاهد: أي: توهَّج. روى الإمام أحمد: عن سماك ابن حرب سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: «أنذرتكم النار» حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا. قال: حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه.

وروى الإمام أحمد: عن أبي إسحاق: سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، رجلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان، يَغلي منهما دماغه» رواه البخاري.

وروى مسلم: عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار، يَغلي منهما دماغه كما يغلي المِرجل، ما يرى أنَّ أحداً أشدُّ منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً».

١٥- وقوله تعالى: ﴿لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَىٰ﴾ أي: لا يدخلها دخولاً يحيط به من جميع جوانبه، إلا الأشقى.

١٦- ثم فسره فقال: ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ أي: بقلبه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: عن العمل بجوارحه وأركانه.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمتي تدخل الجنة يوم القيامة، إلا من أبى» قالوا: من يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» ورواه البخاري.

١٧- وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى﴾ أي: وسيزحزح عن النار، التقي النقي الأتقى.

١٨- ثم فسره بقوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ أي: يصرف ماله في طاعة ربه، ليزكي نفسه وماله، وما وهبه الله من دين ودنيا.

١٩، ٢٠- ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي: ليس بذله ماله في مكافأة مَن أسدى إليه معروفاً، فهو يعطي في مقابلة ذلك، وإنما دفعه ذلك ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ﴾ أي: طمعاً في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة، في روضات الجنات.

٢١- قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أي: ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إنَّ بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخلٌ فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ۞ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۞ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ ولكنه مقدم الأمة، وسابقهم في جميع هذه الأوصاف، وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقاً تقياً، كريماً جواداً، بذّالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن

لأحدٍ من الناس عنده مِنَّة يحتاج إلى أن يُكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل.

ولهذا قال عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف - يوم صلح الحديبية: أما والله، لولا يدٌ لك عندي لم أجزكَ بها لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظَ له في المقالة. فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفقَ زَوجين في سبيل الله، دعته خَزَنَةُ الجنة: يا عبد الله، هذا خيرٌ» فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على مَن يُدعى منها ضرورة، فهل يُدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

آخر تفسير سورة الليل

****

ترتيبها ٩٣ — سُورَةُ الضحى – مكية(١) — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④
وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ
عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪ ﴾

١- روى الإمام أحمد: عن جندب يقول: اشتكى النبيﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى ◆ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ◆ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير.

قيل: إن هذه المرأة هي: أم جميل امرأة أبي لهب.

وقد ذكر بعض السلف – منهم ابن إسحاق – أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول اللهﷺ حين تبدَّى له في صورته التي خلقه الله عليها، ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه، وهو بالأبطح ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ قال: قال له هذه ﴿وَالضُّحَى ◆ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾.

قال العوفي عن ابن عباس: لما نزل على رسول اللهﷺ القرآن، أبطأ عنه جبريل أياماً، فتغير بذلك، فقال المشركون: ودَّعه ربه وقلاه، فأنزل الله ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

هذا قسم منه تعالى بالضحى، وما جعل فيه من الضياء.

٢- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي: سكن فأظلم وادلهم. قاله مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد وغيرهم: وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ◆ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

٣- وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ أي: ما تركك ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي: وما أبغضك.

٤- ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ وللدار الآخرة، خيرٌ لك من هذه الدار، ولهذا كان رسول اللهﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأعظمهم لها إطراحاً، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولما خُيِّر عليه السلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها، ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية.

روى الإمام أحمد: عن عبد الله هو ابن مسعود قال: اضطجع رسول اللهﷺ على حصير فأثَّر في جنبه، فلما

---

(١) وقد ذكر الحافظ ابن كثير ههنا: حديث أبي بن كعب في التكبير بعد الضحى حتى خاتمة القرآن، من رواية أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي، وقد ضعفه في الحديث أبو حاتم الرازي. وقال العقيلي: هو منكر الحديث. وذكر الذهبي الحديث في ميزان الاعتدال (١/ ١٤٥) ثم قال: «هذا حديث غريب، وهو مما أنكر على البزي، قال أبو حاتم: هذا منكر».

استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: «ما لي وللدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا، كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها» ورواه الترمذي وابن ماجة.

٥- وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ أي: في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعده له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر، الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، وطينه مسك أذفر كما سيأتي. وروى الإمام أبو عمر الأوزاعي: عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال: عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوحٌ على أمته من بعده، كنزاً كنزاً فسُرَّ بذلك، فأنزل الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريقه. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف.

وقال السدي عن ابن عباس: من رضاء محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال الحسن: يعني بذلك الشفاعة. وهكذا قال أبو جعفر الباقر.

٦- ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ وذلك أن أباه تُوفي وهو حمل في بطن أمه. وقيل: بعد أن وُلد ﷺ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب، وله من العمر ست سنين، ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل يحوطه وينصره، ويرفع من قدره ويوقره، ويكف عنه أذى قومه، بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقَدَر الله، وحسن تدبيره، إلى أن تُوفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم، إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل، فلما وصل إليهم آووه ونصروه، وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية. ومنهم من قال: إن المراد بهذا: أن النبي ﷺ ضلَّ في شعاب مكة وهو صغير ثم رجع. وقيل: إنه ضلَّ وهو مع عمه في طريق الشام، حكاهما البغوي.

٨- وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ أي: كنت فقيراً ذا عيال، فأغناك الله عمن سواه، فجمع له بين مقامي الفقير الصابر، والغني الشاكر، صلوات الله وسلامه عليه.

وقال قتادة في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ قال: كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله عز وجل. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس».

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أَسلم، ورُزق كفَافاً، وقنَّعه الله بما آتاه».

٩- ثم قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: كما كنت يتيماً فآواك الله، فلا تقهر اليتيم، أي: لا تُذلّه وتنهره وتهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به، قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم.

١٠- ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: وكما كنت ضالاً فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد.

قال ابن إسحاق ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: فلا تكن جباراً ولا متكبراً، ولا فحاشاً ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله. وقال قتادة: يعني رد المشركين برحمة ولين.

١١- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أي: وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله، فحدِّث بنعمة الله عليك، كما جاء في الدعاء المأثور النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مُثنين بها عليك قابليها، وأتمها علينا»(1).

وروى ابن جرير: عن أبي نضرة قال: كان المسلمون يرون أن من شكر النعم: أن يحدث بها.

وروى عبد الله بن الإمام أحمد: عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: «مَن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدُّث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمةٌ، والفُرقة عذاب».

وفي الصحيحين: عن أنس: أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب الأنصار بالأجر كله، قال: «لا ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم».

وروى أبو داود: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» ورواه الترمذي.

وروى أبو داود: عن جابر عن النبي ﷺ قال: «مَن أُبلي بلاءً فذكره فقد شكره، وَمن كتمه فقد كفره» تفرد به أبو داود.

وروى أبو داود: عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن أُعطي عطاء فوَجدَ فليجز بِهِ، فإن لم يجد فليُثن به، فمن أثنى به فقد شكره، ومَن كتمه فقد كفره».

وقال مجاهد: يعني: النبوة التي أعطاك ربك. وفي رواية عنه: القرآن.

وعن الحسن بن علي ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ قال: ما عملت من خير فحدِّث إخوانك.

وقال محمد بن إسحاق: ما جاءك من الله من نعمةٍ وكرامة من النبوة، فحدِّث فيها واذكرها، وادع إليها، قال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سراً، إلى من يطمئن إليه من أهله، وافترضت عليه الصلاة فصلى.

آخر تفسير سورة الضحى

****

(1) سبق تخريجه.

ترتيبها ٩٤ — سورة ألم نشرح - مكية — آياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑤ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ⑥ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ⑦ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ⑧﴾

١- يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني: أما شرحنا لك صدرك، أي: نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً، كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ وكما شرح الله صدره، كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً، سهلاً لا حرج فيه، ولا إصر ولا ضيق.

وقيل: المراد بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء، كما رواه مالك بن صعصعة. وقد أورده الترمذي ههنا، وهذا وإن كان واقعاً ليلة الإسراء، كما رواه مالك بن صعصعة، ولكن لا منافاة، فإنَّ من جملة شرح صدره الذي فُعل بصدره ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضاً، فالله أعلم.

روى عبد الله بن الإمام أحمد: عن محمد عن أبي بن كعب: أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله، ما أولُ ما رأيتَ من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً، وقال: «لقد سألت يا أبا هريرة، إني في الصحراء ابنُ عشرِ سنين وأشهر، وإذا بكلامٍ فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحدٍ قط، فأقبلا إليَّ يمشيان حتى أخذَ كل واحدٍ منها بعضُدي، لا أجد لأخذهما مسّاً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا قصرٍ ولا هصرٍ، فقال أحدهما لصاحبه: افلُق صدره، فهوى أحدُهما إلى صدري فَفَلَقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغِلَّ والحَسد، فأخرج شيئاً كهيئة العَلَقَة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثلُ الذي أخرج يُشبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال اغدُ واسلم، فرجعت بها أغدو، رقة على الصغير، ورحمةً للكبير».

٢- وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ بمعنى ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

٣- ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الإنقاض: الصوت، وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقلك حمله.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال مجاهد: لا أُذكر إلا ذكرت معي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وقال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيبٌ ولا متشهِّدٌ ولا صاحبُ صلاةٍ، إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «سألتُ ربي مسئلةً وددتُ أني لم أسأله، قلت: كان قبلي أنبياء، منهم من سخَّرتَ له الريح، ومنهم من يُحيي الموتى، قال: يا محمد، ألم أجدكَ يتيماً

فآويتك؟ قلت: بلى يا رب، قال: ألم أجدك ضالاً فهديتك؟ قلت: بلى يا رب، قال: ألم أجدك عائلاً فأغنيتك؟ قلت: بلى يا رب، قال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا رب».

وحكى البغوي: عن ابن عباس ومجاهد: أن المراد بذلك: الأذان، يعني: ذكره فيه، وأورد من شعر حسان ابن ثابت:

أغرُّ عليه للنُّبوَّة خاتمٌ ... من الله من نور يلوح ويشهدُ

وضمَّ الإله اسم النَّبيِّ إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهدُ

وشقَّ له من اسمه ليُجلَّه ... فذُو العرش محمود وهذا محمد

وقال آخرون: رفع الله ذكره في الأولين والآخرين، ونوَّه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين، أن يؤمنوا به وأن يأمروا أممهم بالإيمان به، ثم شهر ذكره في أمته، فلا يذكر الله إلا ذكر معه.

وما أحسن ما قال الصرصري رحمه الله:

لا يصحُّ الأذانُ في الفرضِ إلا ... باسمه العذب في الفم المرضي

٥، ٦- وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً• إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر، ثم أكَّد هذا الخبر.

وروى ابن أبي حاتم: عن الحسن قال: كانوا يقولون: لا يغلب عسرٌ واحدٌ يسرين اثنين.

ومعنى هذا: أن العسر معرَّف في الحالين، فهو مفرد واليسر منكر، فتعدد، ولهذا قيل: لن يغلب عسر يسرين، يعني: قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً• إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ فالعسر الأول عين الثاني، واليسر تعدد.

ومما يروى عن الشافعي أنه قال:

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا ... مَن راقب اللهَ في الأمور نجا

مَن صَدق الله لم ينله أذى ... ومن رجاه يكون حيث رجا

وقال آخر:

ولرُبَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى ... ذَرْعاً وعند الله منها المخرج

كملت فلما استحكمت حلقاتها ... فُرجت وكان يظنها لا تفرج

٧، ٨- وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ• وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ أي: إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها، وقطعت علائقها، فانصب إلى العبادة، وقم إليها نشيطاً فارغ البال، وأخلص لربك النية والرغبة، ومن هذا القبيل قولهﷺ في الحديث المتفق على صحته: «لا صلاةَ بحضرة طعامٍ، ولا هو يدافعه الأخبثان». وقولهﷺ: «إذا أُقيمت الصلاةُ وحضَر العَشَاء، فابدؤا بالعشاء»(١).

قال مجاهد في هذه الآية إذا فرغت من أمر الدنيا، فقمت إلى الصلاة، فانصب لربك. وفي رواية عنه: إذا قمت الصلاة فانصب في حاجتك.

وعن ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل. وعن ابن عياض نحوه. وفي رواية عن ابن مسعود ﴿فَانصَبْ• وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس.

---

(١) رواه البخاري في الأطعمة (٩/ ٥٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها. ومن حديث أنس رضي الله عنه.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: فإذا فرغت فانصب، يعني: في الدعاء، وقال زيد بن أسلم والضحاك ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي: من الجهاد ﴿فَانصَبْ﴾ أي: في العبادة.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ قال الثوري: اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل.

آخر تفسير سورة الشرح

****

ترتيبها ٩٥ — سورة والتين والزيتون – مكية — آياتها ٨

عن البراء بن عازب: كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعتُ أحداً أحسنَ صوتاً أو قراءة منه، أخرجه الجماعة في كتبهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨ ﴾

١ – ٣– اختلف المفسرون ههنا على أقوال كثيرة، فقيل: المراد بالتين: مسجد دمشق. وقيل: هي نفسها. وقيل: الجبل الذي عندها. وقال القرطبي: هو مسجد أصحاب الكهف، وقال مجاهد: هو تينكم هذا[1].

﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ قال كعب الأحبار وقتادة وابن زيد وغيرهم: هو مسجد بيت المقدس. وقال مجاهد وعكرمة: هو هذا الزيتون الذي تعصرون[2].

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قال كعب الأحبار وغير واحد: هو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ يعني: مكة. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وإبراهيم النخعي وابن زيد وكعب الأحبار، ولا خلاف في ذلك.

وقال بعض الأئمة: هذه محالٌ ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم، أصحاب الشرائع الكبار. فالأول: محلة التين والزيتون، وهي بيت المقدس التي بعثَ الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام. والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ.

قالوا: وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء – يعني: الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران – وأشرق من ساعير – يعني: جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى – واستعلن من جبال فاران، يعني: جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ، فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي، بحسب ترتيبهم في الزمان، ولهذا أقسم بالأشرف ثم الأشرف منه، ثم بالأشرف منهما.

٤– وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل، منتصب القامة، سوي الأعضاء حسنها.

٥– ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: إلى النار. قاله مجاهد وأبو العالية والحسن وابن زيد وغيرهم، ثم

(١)، (٢) وهذا هو الصحيح، وهو ظاهر الآية.

بعد هذا الحُسن والنَّضارة مصيرهم إلى النار، إنْ لم يطع الله ويتبع الرسل.

٦- ولهذا قال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. وقال بعضهم ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: إلى أرذل العمر، روي هذا عن ابن عباس وعكرمة، حتى قال عكرمة: من جَمع القرآن، لم يُرد إلى أرذل العمر.

واختار ذلك ابن جرير، ولو كان هذا هو المراد لما حسُن استثناء المؤمنين من ذلك، لأن الهرم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ◆ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ◆ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، كما تقدم.

٧- ثم قال: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي: يا ابن آدم ﴿بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي: بالجزاء في المعاد، ولقد علمتَ البداءة، وعرفتَ أن من قَدِرَ على البداءة فهو قادرٌ على الرجعة بطريق الأولى، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد، وقد عرفت هذا؟! روى ابن أبي حاتم: عن منصور قال: قلت لمجاهد ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ عنى به النبي ﷺ قال: معاذ الله! عنى به الإنسان. وهكذا قال عكرمة.

٨- وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ أي: أما هو أحكم الحاكمين؟ الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله أن يقيم القيامة، فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه.

وقد قدمنا في حديث أبي هريرة مرفوعاً «فإذا قرأ أحدكم «والتين والزيتون» فأتى آخرها ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل وأنا على ذلك من الشاهدين»(١).

آخر تفسير سورة التين

****

(١) مضى تخريجه في آخر سورة القيامة.

ترتيبها ٩٦ — سورة اقرأ وهي أول شيء نزل من القرآن — آياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾

روى الإمام أحمد: عن عائشة قالت: أولُ ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنَّث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، ويتزوَّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة، فتزوده لمثلها، حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارئ» قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ منّي الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قال: فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة، فقال: «زملوني، زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة، «مالي؟» وأخبرها الخبر، وقال: «قد خشيتُ على نفسي» فقالت له: كلا أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصلُ الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً قد تنَصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِي، فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابنَ أخي، ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال ورقة: هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جَذعاً ليتني أكون حياً حين يُخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أومخرجي هم؟» فقال ورقة: نعم، لم يأت رجلٌ قط بما جئت به إلا عُودي، وإنْ أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن تُوفي وفترَ الوحي فترة. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

١ - ٥ - فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهنَّ أول رحمةٍ رحم الله بها العباد، وأول نعمةٍ أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأنَّ من كرمه تعالى: أن علَّم الإنسان ما لم يعلم، فشرَّفه وكرَّمه بالعلم، وهو القَدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة.

والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمها من غير عكس.

فلهذا قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وفي الأثر «قيِّدوا العلم بالكتابة»(١). وفيه أيضاً: من عمل بما علم، ورَّثه الله علم ما لم يكن يعلم.

---

(١) رواه الحاكم (١/ ١٠٦) وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. ورواه الخطيب في التاريخ (١٠/ ٤٦) وفي تقييد العلم (ص ٦٩، ٧٠) من حديث أنس رضي الله عنه، وهو صحيح بطرقه، انظر الصحيحة (٢٠٢٦).

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⑥ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ⑧ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ⑩ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ⑪ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ⑫ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑬ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ⑭ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ⑮ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑯ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ⑰ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ⑱ كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ⑲ ﴾

٦ ، ٧- يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان ، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله .

٨- ثم تهدَّده وتوعده ووعظه فقال : ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ أي : إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيم صرفته .

روى ابن أبي حاتم : عن عبد الله : منهومان لا يشبعان : صاحبُ العلم ، وصاحب الدنيا ، ولا يستويان ، فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن ، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان ، قال : ثم قرأ عبد الله ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ♦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ وقال للآخر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ .

وقد روي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ : «منهومان لا يشبعان : طالبُ علم ، وطالب دنيا»[1] .

٩ ، ١٠- ثم قال تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ♦ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ نزلت في أبي جهل لعنه الله ، توعَّد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت .

١١- فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولاً ، فقال : ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي : فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه ، على الطريق المستقيمة في فعله .

١٢- ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ بقوله ، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته[2] .

١٤- ولهذا قال : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي : أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي ، أن الله يراه؟ ويسمع كلامه؟ وسيجازيه على فعله أتم الجزاء .

١٥- ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً : ﴿كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي : لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي : لنسمنها سواداً يوم القيامة .

١٦- ثم قال : ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ يعني : ناصية أبي جهل ، كاذبة في مقالها ، خاطئة في أفعالها .

١٧- ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي : قومه وعشيرته ، أي : ليدعهم يستنصر بهم .

١٨- ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ وهم ملائكة العذاب ، حتى يعلم من يغلب : أحزبنا أو حزبه؟!

روى البخاري : عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيتُ محمداً يصلي عند الكعبة ، لأطأنَّ على عُنُقه ، فبلغ النبي ﷺ فقال : «لئن فعله لأخذته الملائكة» . وكذا رواه الترمذي والنسائي في تفسيرهما وابن جرير .

وروى أحمد والترمذي والنسائي وابن جرير ، وهذا لفظه : قال : كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام ، فمرَّ به أبو جهل بن هشام ، فقال : يا محمد ، ألم أنهك عن هذا؟ وتوعَّده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره ،

---

(١) رواه البزار (١٦٣ - زوائد) والطبراني (١١/ ١١٠٩٥) وابن عبد البر في الجامع (٥٨٣) وغيرهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما . وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه ، رواه الحاكم (١/ ٩٢) وغيره .

(٢) لم يتكلم الحافظ على آية (١٣) اكتفاء بظهور المعنى مما سبق ، والله أعلم .

فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً، فأنزل الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۞ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ وقال ابن عباس: لو دعا ناديه، لأخذته ملائكة العذاب من ساعته.

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله يُصلي عند الكعبة، لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: «لو فعَل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهودَ تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً».

وروى ابن جرير: عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفِّرُ محمدٌ وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال فقال: واللات والعُزَّى، لئن رأيته يصلي كذلك، لأطأن على رقبته، ولأعفرنَّ وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتّقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة قال: فقال رسول الله: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عُضواً عُضوا» قال: وأنزل الله لاأدري في حديث أبي هريرة أم لا ﴿كَلَّآ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾ إلى آخر السورة، وقد رواه أحمد ابن حنبل ومسلم والنسائي وابن أبي حاتم.

١٩ - وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ يعني: يا محمد لا تطعه فيما ينهاك عنه، من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلِّ حيث شئت. ولا تباله، فإنَّ الله حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾.

كما ثبت في الصحيح عند مسلم: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يسجد في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

آخر تفسير سورة العلق

****

ترتيبها ٩٧ — سُورَة القدر – مكية — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)﴾

١ - يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر، وهي الليلة المباركة التي قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ وهي ليلة القدر، وهي من شهر رمضان، كما قال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصَّلاً بحسب الوقائع، في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ.

٢، ٣- ثم قال تعالى معظماً لشأن ليلة القدر، التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها، فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

وروى ابن أبي حاتم: عن مجاهد: ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر ليس في تلك الشهور ليلة القدر. وهكذا قال قتادة بن دعامة والشافعي وغير واحد. وقال عمرو بن قيس الملائي: عملٌ فيها خيرٌ من عمل ألف شهر. وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، هو اختيار ابن جرير، وهو الصواب لا ما عداه. وهو كقوله ﷺ: «رباط ليلة في سبيل الله خيرٌ من ألف ليلة فيما سواه من المنازل» رواه أحمد.

وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة، ونية صالحة، أنه يُكتب له عمل سنة، أجر صيامها وقيامها [1] إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما حضرَ رمضان قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهرٌ مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تُفتح فيه أبواب الجنة، وتُغلق فيه أبواب الجحيم، وتُغلُّ فيه الشياطين، فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر، مَن حُرم خيرها فقد حُرم» ورواه النسائي.

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، ثبت في الصحيحين: عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه».

٤- وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: يَكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة، لكثرة بركتها، والملائكة يتنزَّلون مع تنزّل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويُحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق، تعظيماً له.

وأما الروح فقيل: المراد به ههنا: جبريل عليه السلام، فيكون من باب عطف الخاص على العام. وقيل: هم

---

(١) رواه النسائي (١٣٠٨) وابن ماجة (١٠٨٧) من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه ولفظه: «من غسَّل واغتسل، وغدا وابتكر، ودنا من الإمام ولم يلغُ، كان له بكل خطوةٍ عمل سنة، صيامُها وقيامها».

ضرب من الملائكة، كما تقدم في سورة النبأ، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قال مجاهد: سلامٌ هي من كل أمر. وروى سعيد بن منصور عنه في قوله: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ قال: سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً، أو يعمل فيها أذى. وقال قتادة وغيره: تُقضى فيها الأمور، وتقدَّر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

٥- وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ روى سعيد بن منصور: عن الشعبي قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد، حتى يطلع الفجر.

وروى ابن جرير: عن ابن عباس أنه كان يقرأ: **(من كل امرئ سلام هي حتى مطع الفجر)**.

وروى أبو داود الطيالسي: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلةُ سابعةٍ أو تاسعةٍ وعشرين، وإنَّ الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى».

وقال قتادة وابن زيد في قوله: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ يعني: هي خير كلها ليس فيها شرٌّ إلى مطلع الفجر، ويؤيد هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد: عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «ليلةُ القدر في العشر البواقي، من قامهن ابتغاء حسبتهنَّ، فإن الله يغفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، وهي ليلة وتر تسع أو سبع أو خامسةٍ أو ثالثةٍ أو آخر ليلة». وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أمارة ليلة القدر، أنها صافيةٌ بلجةٌ كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنة ساجية، لا برد فيها ولا حر ولا يحلُّ لكوكب يُرمى به حتى يصبح، وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستويةً، ليس لها شعاعٌ مثل القمر ليلة البدر، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ».

وروى أبو داود الطيالسي: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «ليلةٌ سمحةٌ طلقة، لا حارة ولا باردة، وتصبح شمسُ صبيحتها ضعيفة حمراء».

وروى ابن أبي عاصم النبيل بإسناده: عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إني رأيتُ ليلة القدر فأُنسيتها، وهي في العشر الأواخر من لياليها، طَلْقة بَلْجة، لا حارة ولا باردة، كأن فيها قمراً، لا يخرج شيطانها حتى يُضيء فجرها».

(فصل) اختلف العلماء: هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة، أو هي من خصائص هذه الأمة؟ على قولين، وقال مالك: أنه بلغه: أن رسول الله ﷺ أُري أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته، أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر[1].

وقد أسند من وجه آخر، وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر، وقد نقله صاحب العدة أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء، فالله أعلم.

وحكى الخطابي عليه الإجماع، ونقله الرافعي جازماً به عن المذهب.

(فصل) ثم قد قيل: إنها تكون في أول ليلة من شهر رمضان. وقيل: إنها تقع ليلة سبع عشرة! وقيل: ليلة تسع عشرة[2]!

---

(١) وهو بلاغ منقطع.

(٢) وهي أقوال ضعيفة، مخالفة للأحاديث الصحيحة في كونها في العشر الأواخر، كما سيأتي.

وقيل: ليلة إحدى وعشرين: لحديث أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من رمضان، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إنَّ الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: الذي تطلب أمامك. ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «مَن كان اعتكف معي فليرجع، فإني رأيتُ ليلةَ القدر، وإني أنسيتها، وإنها في العشر الأواخر في وتر، وإني رأيتُ كأني أسجدُ في طينٍ وماء» وكان سقف المسجد جريداً من النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قَزْعة فمطرنا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ، تصديق رؤياه. وفي لفظ: من صبح إحدى وعشرين، أخرجاه في الصحيحين. قال الشافعي: وهذا الحديث أصح الروايات.

وقيل: ليلة ثلاث وعشرين: لحديث عبد الله بن أنيس في صحيح مسلم: وهو قريب السياق من رواية أبي سعد، فالله أعلم.

وقيل: ليلة أربع وعشرين. روى أبو داود الطيالسي: عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «ليلةُ القدر ليلة أربع وعشرين» إسناد رجاله ثقات. وهكذا روي عن ابن مسعود وابن عباس وجابر والحسن وقتادة وعبد الله بن وهب: أنها ليلة أربع وعشرين، وقد تقدم في سورة البقرة حديث واثلة بن الأسقع مرفوعاً: «إن القرآن أنزل ليلة أربع وعشرين».

وقيل: تكونَ ليلة خمس وعشرين: لما رواه البخاري: عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى» فسَّره كثيرون بليالي الأوتار، وهو أظهر وأشهر، وحمله آخرون على الأشفاع، كما رواه مسلم: عن أبي سعيد أنه حمله على ذلك، والله أعلم.

وقيل: إنها تكون ليلة سبع وعشرين: لما رواه مسلم في صحيحه: عن أبي بن كعب: عن رسول الله ﷺ أنها ليلة سبع وعشرين. روى الإمام أحمد: عن زر سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول: من يُقم الحولَ يصب ليلة القدر، قال: يرحمه الله، لقد علم أنها في شهر رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين. ثم حلف، قلت: وكيف تعلمون ذلك؟ قال: بالعلامة، أو بالآية التي أخبرنا بها: تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها، أعني الشمس.

وقد رواه مسلم: عن أبيّ فذكره فيه: فقال: والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان، يحلف ما يستثني، ووالله إني لأعلم أي ليلة القدر، هي التي أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة سبع وعشرين، وأماراتها أن تطلع الشمس في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها. وفي الباب عن معاوية وابن عمر وابن عباس وغيرهم عن رسول الله ﷺ: أنها ليلة سبع وعشرين، وهو قول طائفة من السلف، وهو الجادة من مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وهو رواية عن أبي حنيفة أيضاً.

وقد حكي عن بعض السلف: أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن، من قوله: ﴿هِيَ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السور، فالله أعلم.

وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني: عن عكرمة قال: قال ابن عباس: دعا عمر بن الخطَاب أصحاب محمد ﷺ فسألهم عن ليلة القدر، فأجمعوا أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس: فقلت لعمر: إني لأعلم أو

إني لأظن أي ليلة القدر هي، فقال عمر: أي ليلة هي؟ فقلت: سابعة تمضي، أو سابعة تبقى، من العشر الأواخر، فقال عمر: من أين علمت ذلك؟ قال ابن عباس فقلت: خلق الله سبع سموات وسبع أرضين، وسبعة أيام. وإنَّ الشهر يدور على سبع، وخلق الإنسان من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف بالبيت سبع، ورمي الجمار سبع، لأشياء ذكرها. فقال عمر: لقد فطنت لأمر ما فطنا له. وكان قتادة يزيد عن ابن عباس في قوله: ويأكل من سبع، قال: هو قول الله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا وَعِنَبٗا﴾ الآية. وهذا إسناد جيد قوي، ومتن غريب جداً، فالله أعلم.

وقيل: إنها تكون في ليلة تسع وعشرين. وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها في ليلة سابعة، أو تاسعة وعشرين، إن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى» تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به.

وقيل: إنها تكون في آخر ليلة، لما رواه الترمذي والنسائي: عن أبي بكرة: أن رسول الله ﷺ قال: «في تسعٍ يبقين، أو سبع يبقين، أو خمس يبقين، أو ثلاثٍ، أو آخر ليلة»، يعني التمسوا ليلة القدر.

(فصل) قال الشافعي في هذه الروايات: صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل، إذا قيل له: أنلتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية؟ يقول: «نعم» وإنما ليلة القدر ليلة معينة لا تنتقل. نقله الترمذي عنه بمعناه.

وروي عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر. وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة، نص عليه مالك والثوري وأحمد ابن حنبل وإسحاق بن راهوية وأبو ثور والمزني وأبو بكر بن خزيمة وغيرهم، وهو محكي عن الشافعي، نقله القاضي عنه، وهو الأشبه، والله أعلم.

وقد يستأنس لهذا القول، بما ثبت في الصحيحين: عن عبد الله بن عمر أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام، في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رُؤياكم قد تَواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحرياً فليتحرها في السبع الأواخر».

وفيهما أيضاً: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان» ولفظه للبخاري.

ويحتج للشافعي أنها لا تنتقل، وأنها معينة من الشهر، بما رواه البخاري في صحيحه: عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتَلاحَى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجتُ لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلانٌ وفلانٌ فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

وجه الدلالة منه: أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين، لما حَصل لهم العلم بعينها في كل سنة، إذْ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلا ذلك العام فقط، اللهم إلا أن يقال إنه أنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط.

وقوله: «فتلاحى فلان وفلان فرفعت» فيه استئناسٌ لما يقال: إن المماراة تقطع الفائدة، والعلم النافع، كما جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

وقوله: «فرفعت» أي: رُفع علم تعيينها لكم، لا إنها رفعت بالكلية من الوجود، كما يقوله جهلةُ الشِّيعة، لأنه قد قال بعد هذا: «فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة».

وقوله: «وعسى أن يكون خيراً لكم» يعني: عدم تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مبهمةً اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة، بخلاف ما إذا علموا عينها، فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط، وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأخير أكثر، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل. ثم اعتكف أزواجه من بعده. أخرجاه من حديث عائشة.

ولهما: عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان.

وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر، أحيَى الليل، وأيقظ أهله، وشدّ المئزر». أخرجاه.

ولمسلم عنها: كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره. وهذا معنى قولها «وشد المئزر» وقيل: المراد بذلك اعتزال النساء، ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين، لما رواه الإمام أحمد: عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بقي عشر من رمضان شد مئزره، واعتزل نساءه. انفرد به أحمد.

وقد حكي عن مالك رحمه الله أن جميع ليالي العشر في تطلّب ليلة القدر على السواء، لا يترجح منها ليلة على أخرى. رأيته في شرح الرافعي رحمه الله.

والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات، وفي شهر رمضان أكثر، وفي العشر الأخير منه، ثم في أوتاره أكثر.

والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني، لما رواه الإمام أحمد: عن عائشة قالت: يا رسول الله، إنْ وافقتُ ليلة القدر فما أدعو؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعفُ عني» وقد رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة.

آخر تفسير سورة القدر

****

ترتيبها ٩٨ — سورة البينة – مدنية — آياتها ٨

روى الإمام أحمد: عن أبي حبة البدري وهو مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال: لما نزلت ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ إلى آخرها قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تُقرئها أُبياً، فقال النبي ﷺ لأُبي: «إن جبريل أمرني أن أُقرئك هذه السورة» قال أبي: وقد ذُكرتُ ثمَّ يا رسول الله؟ قال: «نعم» قال: فبكى أُبي.

(حديث آخر): وروى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ قال: وسمَّاني لك؟ قال: «نعم» فبكى. ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(حديث آخر): وروى أحمد: عن أبي بن كعب قال: إن رسول الله ﷺ قال لي: «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» قال: فقرأ: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾. قال: فقرأ فيها: (ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأُعطيه لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير المشركة، ولا اليهودية ولا النصرانية، ومن يفعل خيراً فلن يكفر) ورواه الترمذي.

وإنما قرأ عليه النبي ﷺ هذه السورة تثبيتاً له، وزيادة لأيمانه، فإنه كما رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي: كان قد أنكر على إنسان – وهو عبد الله بن مسعود – قراءة شيء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ، فرفعه إلى النبي ﷺ فاستقرأهما، وقال لكل منهما: «أصبت» قال أبي: فأخذني من الشك ولا إذ كنتُ في الجاهلية، فضرب رسول الله ﷺ في صدره، قال أبي: ففضتُ عرقاً، وكأنما أنظر إلى الله فرَقاً، وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه، فقال: إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على حَرف، فقلت أسأل الله معافاته ومغفرته، فقال على حرفين فلم يزل حتى قال: إن الله يأمرك أن تُقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف». كما قدمنا ذكر هذا الحديث بطرقه ولفظه في أول التفسير، فلما نزلت هذه السورة الكريمة، وفيها ﴿**رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**﴾ قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار، لا قراءة تعلم واستذكار، والله أعلم.

وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة، وكان فيما قال: أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟ قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوّف به» فلما رجعوا من الحديبية، وأنزل الله على النبي ﷺ «سورة الفتح» دعا عمر بن الخطاب فقرأها عليه، وفيها قوله: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ**﴾ الآية، كما تقدم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ③ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ④ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ⑤ ﴾

١ـ أما أهل الكتاب: فهم اليهود والنصارى، والمشركون: عبدة الأوثان والنيران، من العرب ومن العجم. وقال مجاهد: لم يكونوا ﴿مُنفَكِّينَ﴾ يعني: منتهين حتى يتبين لهم الحق. وهكذا قال قتادة ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: هذا القرآن.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

٢ـ ثم فسر البينة بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يعني: محمداً ﷺ، وما يتلوه من القرآن العظيم، الذي هو مكتتب في الملإ الأعلى، في صحف مطهرة، كقوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۞ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۞ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۞ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

٣ـ وقوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ قال ابن جرير: أي: في الصحف المطهرة كتبٌ من كتب الله ﴿قَيِّمَةٌ﴾ عادلة مستقيمة، ليس فيها خطأ، لأنها من عند الله عز وجل. قال قتادة ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يذكر القرآن بأحسن الذكر، ويثني عليه بأحسن الثناء. وقال ابن زيد ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة معتدلة.

٤ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات، تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كثيراً.

كما جاء في الحديث المروي من طرق: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقةً، وإنَّ النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقةً، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقةً، كلُّها في النار إلا واحدة» قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

٥ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ولهذا قال: ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي: مُتحنِّفين عن الشرك إلى التوحيد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقد تقدم تقرير الحنيف في سورة الأنعام، بما أغنى عن إعادته ههنا.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وهي: أشرف عبادات البدن ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهي: الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي: الملة القائمة العادلة، أو الأمة المستقيمة المعتدلة.

وقد استدل كثير من الأئمة كالزهري والشافعي بهذه الآية الكريمة، على أن الأعمال داخلة في الإيمان، ولهذا قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾

٦- يخبر تعالى عن مآل الفجار، من كفرة أهل الكتاب والمشركين، المخالفين لكتب الله المنزلة، وأنبياء الله المرسلة، أنهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها، أي: ماكثين لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي: شر الخليقة التي برأها الله وذرأها.

٧- ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بأبدانهم، بأنهم خير البرية. وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة، لقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

٨- ثم قال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ أي: بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ومقام رضاه عنهم، أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله، واتقاه حق تقواه، وعبده كأنه يراه، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه.

آخر تفسير سورة البينة

****

ترتيبها ٩٩ — سورة إذا زلزلت – مكية — آياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وقَالَ الإنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾

١- قال ابن عباس ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي: تحرَّكت من أسفلها.

٢- ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ يعني: ألقت ما فيها من الموتى. قاله غير واحد من السلف. وهذه كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وكقوله: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ◆ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ وروى مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تُلقي الأرضُ أفلاذ كبدها أمثال الأسطُوان من الذهب الفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعتُ رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطعت يدي، ثم يدَعونه فلا يأخذون منه شيئاً».

٣- وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الإِنسَانُ مَالَهَا﴾ أي: استنكر أمرها، بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة، وهو مستقر على ظهرها، أي: تقلَّبت الحالُ فصارت متحركة مضطربة، قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعدَّه لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات الأولين والآخرين، وحينئذ استنكر الناس أمرها، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار.

٤- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي: تُحدِّث بما عمل العاملون على ظهرها.

٥- وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ قال البخاري: أوحى لها، وأوحى إليها، وَوَحى لها ووحى إليها واحد. وكذا قال ابن عباس: أوحى لها، أي: أوحى إليها. والظاهر أن هذا مضمّن بمعنى: أذن لها.

وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: قال لها ربُّها: قولي، فقالت. وقال مجاهد: أوحى لها، أي: أمرها. وقال القرطبي: أمرها أن تنشقَّ عنهم.

٦- وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً﴾ أي: يرجعون عن موقف الحساب أشتاتاً، أي: أنواعاً، وأصنافاً، ما بين شقي وسعيد، ومأمور به إلى الجنة، ومأمور به إلى النار. قال ابن جريج: يتصدعون أشتاتاً، فلا يجتمعون آخر ما عليهم، وقال السدي: أشتاتاً فرقاً.

وقوله تعالى: ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ليعملوا ويجازوا بما عملوه في الدنيا، من خير وشر.

٧، ٨- ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ◆ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾. روى البخاري: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الخيلُ لثلاثةٍ: لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سِترٌ، وعلى رجلٍ وزرٌ، فأما الذي له

أجر: فرجلٌ ربطها في سبيل الله، فأطال طيلها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة، كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنَّت شرَفاً أو شرَفين، كانت آثارُها وأرواثُها حسناتٍ له، ولو أنها مرَّت بنهر فشربت منه، ولم يُرد أن يسقي به، كان ذلك حسناتٍ له، فهي لذلك الرجل أجرٌ، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينسَ حقَّ الله في رقابها ولا ظهورها، فهي له سِتْر، ورجلٌ ربطها فَخراً ورياءً ونِواءً، فهي على ذلك وزر» فسُئل رسول الله ﷺ عن الحُمر فقال: «ما أنزل الله فيها شيئاً، إلا هذه الآية الفاذَّة الجامعة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾» ورواه مسلم.

وفي صحيح البخاري: عن عدي مرفوعاً: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمةٍ طيبة».

وله أيضاً في الصحيح: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تُفرغَ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط».

وفي الصحيح أيضاً: «يا معشر نساء المؤمنات، لا تحقرنَّ جارةٌ لجارتها، ولو فِرسن شاةٍ» يعني: ظِلفها. وفي الحديث الآخر: «ردُّوا السَّائل، ولو بظلفٍ مُحرَّق»(١).

وروى الإمام أحمد: عن عائشة أخبرته أن النبي ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياكِ ومحقَّرات الذنوب، فإنَّ لها من الله طالباً» ورواه النسائي وابن ماجة.

وروى ابن جرير: عن أنس قال: كان أبو بكر يأكل مع النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ فرفع أبو بكر يده، وقال: يا رسول الله، إني أُجزى بما عملتُ من مثقال ذرة من شر؟ فقال: «يا أبا بكر، ما رأيتَ في الدنيا مما تكره، فبمثاقيل ذر الشر، ويدَّخر الله لك مثاقيل ذرِّ الخير، حتى توفاه يوم القيامة» ورواه ابن أبي حاتم.

طريق أخرى: روى ابن جرير: عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: لما نزلت: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد، فبكى حين أنزلت، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟» قال: يبكيني هذه السورة، فقال له رسول الله ﷺ: «لولا أنكم تُخطئون وتذنبون، فيغفر الله لكم، لخلق الله أمةً يُخطئون ويذنبون فيغفر لهم».

وروى ابن أبي حاتم: عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ وذلك لما نزلت هذه الآية ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه، فيجيء المسكين إلى أبوابهم، فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك، فيردونه ويقولون: ما هذا بشيء! إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه. وكان آخرون يرون أنهم لا يُلامون على الذنب اليسير، الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك، يقولون: إنما وعد الله النار على الكبائر، فرغبهم في القليل من الخير أن يعملوه، فإنه يُوشك أن يكثر، وحذَّرهم اليسيرَ من الشر، فإنه يوشك أن يكثر، فنزلت ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني: وزن أصغر النمل ﴿خَيْراً يَرَهُ﴾ يعني في كتابه، ويسره ذلك، قال: يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئةٍ سيئة واحدة، وبكل حسنةٍ عشر حسناتٍ، فإذا كان

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٨١) وأبو داود (١٦٦٧) والترمذي (٦٦٥) من حديث أم بجيد رضي الله عنها بنحوه.

يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضاً، بكل واحدٍ عشراً، ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة، دخل الجنة.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومُحقَّرات الذنوب، فإنهن يَجتمعن على الرجل حتى يُهلكنه» وأن رسول الله ﷺ ضَرب لهن مثلاً: كمثل قوم نَزلوا أرضَ فلاةٍ، فحضر صنيعُ القوم، فجعل الرجل يَنطلق فَيَجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمَعوا سواداً، وأجَّجوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها».

آخر تفسير سورة الزلزلة

****

ترتيبها ١٠٠ — سورة العاديات – مكية — آياتها ١١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)﴾

١- يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله، فَعَدت وَضَبحت، وهو الصوت الذي يُسمع من الفرس حين تَعدو.

٢- ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ يعني: اصطكاك نعالها للصخر، فتقدح منه النار.

٣- ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ يعني: الإغارة وقت الصباح، كما كان رسول الله ﷺ يُغير صباحاً، ويستمع الأذان، فإنْ سمع أذاناً وإلا أغار.

٤- وقوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ يعني: غباراً في مكان مُعترك الخيول ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أي: أوسطن ذلك المكان كلهن جمع.

روى ابن أبي حاتم: عن عبد الله ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ قال: الإبل. وقال علي: هي الإبل.

روى ابن أبي حاتم وابن جرير: عن ابن عباس حدثه قال: بينا أنا في الحِجر جالساً جاءني رجل فسألني عن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيصنعون طعامهم ويورون نارهم، فانفتل عني فذهب إلى علي رضي الله عنه وهو عند سقاية زمزم، فسأله عن ﴿الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ فقال: سألت عنها أحداً قبلي؟ قال: نعم، سألت ابن عباس فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله، قال: اذهب فادعه لي، فلما وقف على رأسه قال: أتفتي الناس بما لا علم لك؟ والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر، وما كان معنا إلا فرسان: فرس للزبير، وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحاً؟ إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى، قال ابن عباس: فنزعت عن قولي، ورجعت إلى الذي قال علي رضي الله عنه.

وقال العوفي وغيره عن ابن عباس: هي الخيل. وقد قال بقول علي: إنها الإبل، جماعة منهم إبراهيم وعبيد بن عمير، وقال بقول ابن عباس آخرون، منهم مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والضحاك، واختاره ابن جرير، وقال ابن عباس وعطاء: ما ضبحت دابةٌ قط إلا فرس أو كلب. وعن عطاء: سمعت ابن عباس يصف الضبح: أح أح، وقال أكثر هؤلاء في قوله: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ يعني: بحوافرها. وقيل: أسعرت الحرب بين ركبانهن، قاله قتادة. وقال من فسرها بالخير: هو إيقاد النار بالمزدلفة.

وقال ابن جرير: والصواب الأول: أنها الخيل حين تقدح بحوافرها.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني إغارة الخيل صُبحاً في سبيل

الله . وقال من فسَّرها بالإبل : هو الدفع صبحاً من المزدلفة إلى منى .

وقالوا كلهم في قوله : ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ وهو المكان الذي حلَّت فيه أثارت به الغبار ، إما في حج أو غزو .

٥- وقوله تعالى : ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ قال العوفي عن ابن عباس وعطاء وعكرمة وقتادة والضحاك ، يعني : جمع الكفار من العدو . ويحتمل أن يكون : فوسطن بذلك المكان جميعهُن ، ويكون ﴿جَمْعًا﴾ منصوباً على الحال المؤكدة .

٦- وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ هذا هو المُقسم عليه بمعنى : أنه بنعم ربِّه لكفورٌ جحود ، قال ابن عباس ومجاهد وإبراهيم النخعي وأبو الجوزاء وأبو العالية وأبو الضحى وسعيد بن جبير ومحمد بن قيس والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد : الكنود : الكفور .

قال الحسن : الكنود هو الذي يَعدُّ المصائب ، وينسى نعم الله عليه .

وعن أبي أمامة قال : «الكنود : الذي يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفده» رواه ابن جرير .

٧- وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ قال قتادة وسفيان الثوري : وإن الله على ذلك لشهيد . ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان ، قاله محمد بن كعب القرظي .

فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد ، أي : بلسان حاله ، أي : ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله ، كما قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ .

٨- وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي : وإنه لحب الخير ، وهو المال لشديد . وفيه مذهبان : أحدهما : أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال . والثاني : وإنه لحريص بخيل من محبة المال . وكلاهما صحيح .

٩- ثم قال تبارك وتعالى مزهداً في الدنيا ومرغباً في الآخرة ، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال ، وما يستقبله الإنسان من الأهوال ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي : أخرج ما فيها من الأموات .

١٠- ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعني أبرز وأظهر ، ما كانوا يسرون في نفوسهم .

١١- ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ أي : لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ، ولا يظلم مثقال ذرة .

آخر تفسير سورة العاديات

****

ترتيبها ١٠١ — سُورَةُ القارعة – مكية — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ③ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ⑤ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑥ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ⑩ نَارٌ حَامِيَةٌ ⑪﴾

١ ، ٢– القارعة من أسماء القيامة ، كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك .

٣– ثم قال تعالى معظماً أمرها ، ومهولاً لشأنها : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ .

٤– ثم فسر ذلك بقوله : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أي : في انتشارهم وتفرقهم ، وذهابهم ومجيئهم ، من حيرتهم مما هم فيه ، كأنهم فراش مبثوث ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ .

٥– وقوله تعالى : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ يعني : قد صارت كأنها الصوف المنفوش ، الذي قد شرع في الذهاب والتمزق ، قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والضحاك والسدي : ﴿الْعِهْنِ﴾ الصوف .

٦ ، ٧– ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم ، فقال : ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي : رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ يعني : في الجنة .

٨– ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي : رجحت سيئاته على حسناته .

٩– وقوله تعالى : ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ قيل معناه : فهو ساقطٌ هاوٍ بأم رأسه في نار جهنم . وعبَّر عنه بأمه يعني : دماغه . روي نحو هذا عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح وقتادة ، قال قتادة : يهوى في النار على رأسه . وكذا قال أبو صالح : يهوون في النار على رءوسهم .

وقيل معناه : فأمه التي يرجع إليها ، ويصير في المعاد إليها ، هاوية وهي اسم من أسماء النار .

قال ابن جرير : وإنما قيل للهاوية أمه ، لأنه لا مأوى له غيرها . وقال ابن زيد : الهاوية النار التي هي أمه ، ومأواه التي يرجع إليها ، ويأوى إليها ، وقرأ : ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ .

قال ابن أبي حاتم : وروي عن قتادة أنه قال : هي النار وهي مأواهم .

١٠– ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ❁ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ .

روى ابن جرير : عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال : إذا مات المؤمن ذُهب بروحه إلى أرواح المؤمنين ،

فيقولون: روّحوا أخاكم، فإنه كان في غم الدنيا، قال: ويسألونه: ما فعل فلان؟ فيقول: مات، أوما جاءكم؟ فيقولون: ذُهب به إلى أمه الهاوية. وقد رواه ابن مردويه: من طريق أنس بن مالك مرفوعاً بأبسط من هذا، وقد أوردناه في «كتاب صفة النار» أجارنا الله منها بمنه وكرمه.

١١- وقوله تعالى: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي: حارة شديدة الحر، قوية اللهب والسعير. روى مالك: عن أبي هريرة أن النبيﷺ قال: «نارُ بني آدم التي توقدون، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم» قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية؟ فقال: «إنها فُضِّلت عليها بتسعةٍ وستين جزءاً» ورواه البخاري ومسلم.

وفي بعض ألفاظه: «أنها فُضلت عليها بتسعةٍ وستين جزءاً، كلهن مثل حرِّها».

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة عن النبيﷺ: «إنَّ ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضُربت بالبحر مرتين، ولو ذلك ما جعل الله فيها منفعةً لأحدٍ» وهذا على شرط الصحيحين، ولم يخرجوه من هذا الوجه.

وجاء في الحديث عند الإمام أحمد: عن أنس وعن أبي هريرة عن النبيﷺ أنه قال: «إنَّ أهونَ أهل النار عذاباً من له نعلان يغلي منهما دماغه».

وثبت في الصحيحين: أن رسول اللهﷺ قال: «اشتكت النارُ إلى ربها، فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فأذِن لها بنفسين: نفسٌ في الشتاء، ونفسٌ في الصيف، فأشدّ ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرِّها».

وفي الصحيحين: «إذا اشتدَّ الحرُّ فأبردوا عن الصلاة، فإنَّ شدَّة الحرِّ من فيح جهنم».

آخر تفسير سورة القارعة

****

سورة التكاثر – مكية

ترتيبها ١٠٢ — آياتها ٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

١ ، ٢- يقول تعالى: أشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها، عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت، وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها.

وفي صحيح البخاري في الرقاق منه: عن أنس بن مالك: عن أبي بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يعني: «لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب».

وروى الإمام أحمد: عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾: «يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيتَ؟» ورواه مسلم والترمذي والنسائي.

وروى مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول العبدُ مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكلَ فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدَّق فأمضى، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

وروى البخاري: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتبع الميت ثلاثةٌ، فيرجع اثنان، ويبقى معه واحد: يتبعه أهلهُ ومالُه وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله» وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي.

وروى الإمام أحمد: عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «يهرمُ ابنُ آدم ويبقى منه اثنتان: الحرص والأمل» أخرجاه في الصحيحين.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة: الأحنف بن قيس، واسمه الضحاك أنه: رأى في يد رجل درهماً، فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي، فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر، أو ابتغاء شكر.

ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

وقال قتادة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۞ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدُّ من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم.

والصحيح أن المراد بقوله: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: صرتم إليها، ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده، فقال: «لا بأس، طهورٌ إن شاء الله» فقال: قلت طهور! بل

هي حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور، قال: «فنعم إذن».

وروى ابن أبي حاتم: عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز، فقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۞ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فلبث هنيهة، ثم قال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدٌ من أن يرجع إلى منزله. قال أبو محمد: يعني أن يرجع إلى منزله، أي: إلى جنة أو إلى نار.

وهكذا ذكر أن بعض الأعراب سمع رجلاً يتلو هذه الآية ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فقال: بُعث القوم ورب الكعبة. أي إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره.

٣، ٤- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قال الحسن البصري: هذا وعيدٌ بعد وعيد. وقال الضحاك ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: الكفار ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أيها المؤمنون.

٥- وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي: لو علمتم حقَّ العلم، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر.

٦، ٧- ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۞ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ توعَّدهم بهذا الحال، وهو رؤية أهل النار، التي إذا زَفَرت زَفرةً واحدة، خرَّ كل مَلك مقرب، ونبي مرسل على ركبتيه من المهابة والعظمة، ومعاينة الأهوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك.

٨- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي: ثم لتسئلن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته.

وروى ابن جرير: عن أبي هريرةﷺ قال: بينا أبو بكر وعمر جالسان، إذْ جاءهم النبيﷺ فقال: «ما أجلسكما ههنا؟» قالا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع، قال: «والذي بعثني بالحق، ما أخرجني غيره» فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبيﷺ: «أين فلان؟» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل قربته، فقال: مرحباً، ما زار العباد شيء أفضل من نبي زارني اليوم، فعلَّق قربته بقرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبيﷺ: «ألا كنتَ اجتنيتَ» فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم، ثم أخذ الشفرة فقال له النبيﷺ: «إياك والحَلوب» فذبح لهم يومئذ فأكلوا، فقال النبيﷺ: «لتُسئلُنَّ عن هذا يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم» ورواه مسلم، وقد رواه أهل السنن الأربعة بنحو من هذا السياق وهذه القصة.

وروى الإمام أحمد: عن محمود بن الربيع قال: لما نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قالوا: يا رسول الله، عن أي نعيم نُسئل؟ وإنما هما الأسودان: الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نُسئل؟ قال: «أما إنَّ ذلك سيكون».

روى أحمد: عن معاذ بن عبد الله بن حبيب عن أبيه عن عمه قال: كنا في مجلسٍ فطلع علينا النبيﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقلنا يا رسول الله، نراك طيب النفس قال: «أجل» قال: ثم خاض الناس في ذكر الغنى، فقال رسول اللهﷺ: «لا بأس بالغنى لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى الله خيرٌ من الغِنى، وطيبُ النفس من النعيم» ورواه ابن ماجة.

وروى الترمذي: عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال النبي ﷺ: «إنَّ أوَّل ما يُسئل عنه - يعني يوم القيامة - العبدُ من النَّعِيم أن يقال له: أم نُصحَّ لك بدنَك، ونُرْوكَ من الماء البارد» تفرد به الترمذي ورواه ابن حبان في صحيحه.

وقال سعيد بن جبير حتى عن شربة عسل. وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا، وقال الحسن البصري: من النعيم الغداء والعشاء. وقال أبو قلابة: من النعيم أكل السمن والعسل بالخبز النقي. و قول مجاهد أشمل هذه الأقوال.

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: النعيم صحةُ الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

وثبت في صحيح البخاري وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجة: من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مَغْبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفَرَاغ».

ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون.

وروى الإمام أحمد: عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا ابن آدم، حَملتُك على الخَيل، والإبل، وزوَّجتك النساء، وجعلتُك تربع وترأس، فأين شكر ذلك؟!»

آخر تفسير سورة التكاثر

****

ترتيبها ١٠٣ — سُورَةُ العصر – مكية — آياتها ٣

روى الطبراني : عن عبد الله بن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا ، لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر «سورة العصر» إلى آخرها ، ثم يُسلِّم أحدهما على الآخر.

وقال الشافعي رحمه الله : لو تدبَّر الناسُ هذه السورة لوسعتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾

١ ، ٢- العصر : الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم ، من خير وشر.

وقال مالك عن زيد بن أسلم : هو العصر.

والمشهور الأول ، فأقسم تعالى بذلك ، على أن الإنسان لفي خُسرٍ ، أي : في خسارة وهلاك.

٣- ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران : الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي : على المصائب والأقدار ، وأذى من يُؤذي ، ممن يأمرونه بالمعروف ، وينهونه عن المنكر.

آخر تفسير سورة العصر

****

ترتيبها ١٠٤ — سورة الهمزة – مكية — آياتها ٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩ ﴾

١- الهمَّاز بالقول، واللمَّاز بالفعل، يعني: يَزدري الناس وينتقص بهم، وقد تقدم بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾. قال ابن عباس: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: طعَّان معياب. وقال الربيع بن أنس: الهمزة يهمزه في وجهه، واللمزة من خلفه. وقال قتادة: الهمزة واللمزة لسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس، ويطعن عليهم. وقال مجاهد: الهمزة باليد والعين واللمزة باللسان. وهكذا قال ابن زيد. وقال مالك عن زيد بن أسلم همزة لحوم الناس، ثم قال بعضهم: المراد بذلك: الأخنس بن شريق. وقيل: غيره، وقال مجاهد: هي عامَّة.

٢- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ أي: جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده، كقوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ قاله السدي وابن جرير، وقال محمد بن كعب في قوله: ﴿جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ ألهاه ماله بالنهار، هذا إلى هذا، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة.

٣- وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي: يظن أن جمعه المال، يخلده في هذه الدار.

٤- ﴿كَلاَّ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، ولا كما حسب. ثم قال تعالى: ﴿لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي: ليلقينَّ هذا الذي جمع مالاً فعدده في الحطمة، وهي اسم طبقة من أسماء النار، لأنها تحطم من فيها.

٥- ٧- ولهذا قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۞ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ قال ثابت البناني: تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء. ثم يقول: لقد بلغ منهم العذاب، ثم يبكي.

وقال محمد بن كعب: تأكل كل شيء من جسده، حتى إذا بلغت فؤاده حذو حلقه، ترجع على جسده.

٨- وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبقة، كما تقدم تفسيره في سورة البلد.

٩- وقوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ قال عطية العوفي: عمد من حديد، وقال السدي: من نار. وعن عكرمة عن ابن عباس ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ يعني: الأبواب هي الممددة، وقال قتادة: في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ۞بعَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾. وقال العوفي عن ابن عباس: أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب. وقال قتادة: كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد في النار، واختاره ابن جرير، وقال أبو صالح ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ يعني: القيود الثقال.

آخر تفسير سورة الهمزة

****

ترتيبها ١٠٥ — سُورَةُ الفيل – مكية — آياتها ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾

١ – ٤ – هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عَزموا على هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيَّب سعيهم، وأضلَّ عملهم، وردَّهم بشرٍّ خيبةٍ، وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد، على أشهر الأقوال ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره، ببعثه النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء.

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب، قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود أن ذا نُواس – وكان آخر ملوك حمير وكان مشركاً – وهو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى وكانوا قريباً من عشرين ألفاً، فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام وكان نصرانياً، فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميرين: أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم، في جيش كثيف فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار، واستلبوا الملك من حمير، وهلك ذا نواس غريقاً في البحر، واستقلَّ الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران: أرياط وأبرهة فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجة بنا إلى اصطلام الجيشين بيننا، ولكن أبرز إلي وأبرز إليك، فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك، فأجابه إلى ذلك فتبارزا وخَلْف كل واحدٍ منهما قناة، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه، وحمل عَتودة مولى أبرهة على أرياط فقتله، ورجع أبرهة جريحاً فداوى جرحه فبرأ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن، فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجز ناصيته، فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه، ويبعث مع رسوله بهدايا وتحف، وبجراب فيه من تراب اليمن وجز ناصيته فأرسلها معه، ويقول في كتابه: ليطأ الملك على هذا الجواب فيبر قسمه، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك، فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ورضي عنه، وأقره على عمله، وأرسل أبرهة يقول للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن، لم يُبن قبلها مثلها، فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء، رفيعة البناء عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء، سمتها العرب «القُلَّيس» لارتفاعها، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك

غضباً شديداً، حتى قصدها بعضهم وتوصل إلى أن دخلها ليلاً فأحدث فيها، وكرَّ راجعاً، فلما رأى السدنة ذلك الحدث، رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة وليخربنه حجراً حجراً.

وذكر مقاتل بن سليمان: أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً وكان يوماً فيه هواء شديد فاحترقت وسقطت إلى الأرض، فتأهب أبرهة لذلك وصار في جيش كثيف عرمرم لئلا يصده أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة، لم يُر مثله، يقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك. ويقال: كان معه أيضاً ثمانية أفيال، وقيل: اثناعشر فيلاً غيره، فالله أعلم. يعني ليهدم به الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان وتوضع في عنق الفيل، ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة، فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة دون البيت، ورد من أراده بكيد، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له: «ذو نفر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله، وما يريده من هدمه وخرابه، فأجابوه وقاتلوا أبرهة فهزمهم، لما يريده الله عز وجل من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر «ذو نفر» فاستصحبه معه، ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم، اعترض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه: شهران وناهس، فقاتلوه فهزمهم أبرهة وأسر نفيل بن حبيب فأراد قتله، ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز.

فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم الذي عندهم، الذي يسمونه «اللات» فأكرمهم وبعثوا معه أبا رغال دليلاً، فلما انتهى أبرهة إلى «المُغَمس» وهو قريب من مكة، نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها فأخذوه، وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة، وكان يقال له: الأسود بن مفصود، فهجاه بعض العرب - فيما ذكره ابن إسحاق - وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشراف قريش وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت، فجاء حناطة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلي بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فاذهب معي إليه فذهب معه فلما رآه أبرهة أجلَّه، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي، أنْ يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي، فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئتُ لهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا ربُّ الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك، ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ورجع عبد المطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة والتحصن في رءوس الجبال، تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفرٌ من قريش يدعون الله، ويستنصرون على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب، وهو آخذٌ بحلقة باب

الكعبة:

لاهُمَّ إنَّ المَرءَ يمـ ❖ ـنع رحله فامنعْ رحالك

لا يغلبنَّ صليبهم ❖ ومحالُهم أبداً محالك

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب، ثم خرجوا إلى رءوس الجبال. وذكر عن ابن سليمان: أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلدة، لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق، فينتقم الله منهم، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله وكان اسمه: محموداً، وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة، أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه، ثم أخذ بأذنه، وقال: ابرك محمود، وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مراقة فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبَلَسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجرٌ في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا يصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق، هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أينَ المفرُّ والإله الطَّالبُ والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالبُ

وقال عطاء بن يسار وغيره: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون، وكان أبرهة ممن تساقط عضواً عضواً حتى مات ببلاد خثعم.

وقال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون. وذكر مقاتل بن سليمان: أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم، وما كان معهم، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة. قال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رأيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رؤي به مرائر الشجر: الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام. وهكذا روي عن عكرمة من طريق جيد.

قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمداً ﷺ كان فيما يَعد به على قريش من نعمته عليهم و فضله، ما ردَّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ◆ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ◆ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ◆ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ◆ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ◆ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ◆ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ◆ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾** أي: لئلا يغيِّر شيئاً من حالهم التي كانوا عليها، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه.

قال ابن هشام: الأبابيل: الجماعات، ولم تتكلم العرب بواحدة. قال: وأما السجيل، فأخبرني يونس

النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب: الشديد الصلب. قال وذكر بعض المفسرين: أنهما كلمتان بالفارسية، جعلتهما العرب كلمة واحدة، وإنما هو: سَنج وجل، يعني بالسنج: الحجر، والجِل: الطين، يقول: الحجارة من هذين الجنسين: الحجر والطين. قال: والعصف: ورق الزرع الذي لم يُقضب، واحدته عصفة. انتهى ما ذكره.

وعن عبد الله ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: الفرق. وقال ابن عباس والضحاك: أبابيل يتبع بعضها بعضاً. وقال الحسن البصري وقتادة: الأبابيل الكثيرة. وقال مجاهد: أبابيل شتى، متتابعة مجتمعة. وقال ابن زيد: الأبابيل المختلفة تأتي من ههنا، ومن ههنا، أتتهم من كل مكان. وقال الكسائي: سمعت بعض النحويين يقول: واحد الأبابيل إبيل.

وروى ابن جرير: عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ هي: الأقاطيع، كالإبل المؤبلة.

وروي عن ابن سيرين عن ابن عباس ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب. وروي عن عكرمة قال: كانت طيراً خضراً خرجت من البحر، لها رءوس كرءوس السباع، وروي عن عبيد بن عمير قال: هي طيور سود بحرية، في منافيرها وأظافيرها الحجارة. وهذه أسانيد صحيحة.

وروى ابن أبي حاتم: عن عبيد بن عمير قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر أمثال الخطاطيف، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار: حجرين في رجليه، وحجراً في منقاره، قال: فجاءت حتَّى صفَّت على رءوسهم، ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع حجرٌ على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر، وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة، فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً.

٥- وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني: التبن، الذي تسميه العامة هبور. وفي رواية عن سعيد: ورق الحنطة، وعنه أيضاً: العصف التبن. والمأكول: القصيل يجز للدواب. وكذلك قال الحسن البصري، وعن ابن عباس: العصف: القشرة، ، التي على الحبة كالغلاف على الحنطة.

وقال ابن زيد: العصف: ورق الزرع وورق البقل، إذا أكلته البهائم فراثته فصار دريناً.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم ودمَّرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، كما جرى لملكهم أبرهة، فإنه انصدع صدره عن قلبه، حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم ثم مات. فملك بعده ابنه يكسوم، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة. ثم خرج سيف ابن ذي يزن الحميري إلى كسرى، فاستعانه على الحبشة، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه، فردَّ الله إليهم مُلكهم، وما كان في آبائهم من الملك، وجاءته وفود العرب بالتهنئة.

وقد روى محمد بن إسحاق: عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة، أعميين مقعدين يستطعمان. ثم ذكر ابن إسحاق شيئاً من أشعار العرب، فيما كان من قصة أصحاب الفيل، فمن ذلك شعر عبد الله بن الزبعري:

تنكَّلوا عن بطن مكة إنها كانت قديماً لا يُرام حريمها
لم تُخلق الشِّعري ليالي حُرِّمت إذْ لا عزيزَ من الأنام يَرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى فلسوف يُنبي الجاهلين عليمها
ستون ألفاً لم يَؤُوبوا أرضَهم بل لم يعش بعد الإياب سَقيمها
كانت بها عادٌ وجُرهم قبلهم والله من فوق العباد يُقيمها

وقد قدمنا في تفسير سورة الفتح: أن رسول الله ﷺ لما أطلَّ يوم الحديبية على الثنية التي تهبط على قريش، بركت ناقته فزجروها فألحَّت، فقالوا: خلأت القصواء، أي: حَرنت، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليومَ خطةً يعظِّمون فيها حُرمات الله، إلا أجبتهم إليها» ثم زجرها فقامت. والحديث من أفراد البخاري.

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إنَّ الله حَبس عن مكة الفيل، وسلَّط عليها رسولَه والمؤمنين، وإنه قد عادت حُرمتها اليوم كحُرمتها بالأمس، ألا فليُبلِّغ الشاهدُ الغائبَ».

آخر تفسير سورة الفيل

****

ترتيبها ١٠٦ — سُورَةُ قريش – مكية — آياتها ٤

ذكر حديث غريب في فضلها: روى البيهقي في كتاب الخلافيات عن أم هانئ بنت أبي طالب: أن رسول الله ﷺ قال: «فضَّل اللهُ قُريشاً بسبع خلال: أني منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة، والسقاية فيهم، وأن الله نَصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عز وجل عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ♦ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ♦ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ♦ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ♦ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾

١- هذه السورة مفصولة من التي قبلها في المصحف الإمام، كتبوا بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم، وإن كانت متعلقة بما قبلها، كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، لأن المعنى عندهما: حبسنا عن مكة الفيل، وأهلكنا أهله ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ أي: لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين.

وقيل: المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم، لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكّان حرم الله، فمن عرفهم احترمهم، بل من صوفى إليهم وسار معهم أمن بهم. وهذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم.

وأما في حال إقامتهم في البلد، فكما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ♦ إِيلَافِهِمْ﴾ بدل من الأول ومفسر له.

٢- ولهذا قال تعالى: ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ وقال ابن جرير: الصواب أن اللام لام التعجب كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش، ونعمتي عليهم في ذلك، قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان.

٣- ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: فليوحدوه بالعبادة، كما جعل لهم حرَماً آمناً، وبيتاً محرماً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

٤- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: هو رب البيت، وهو الذي أطعمهم من جوع ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي: تفضّل عليهم بالأمن والرخص، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً.

ولهذا من استجاب لهذا الأمر، جَمَع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه، كما

قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۞ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ .

آخر تفسير سورة قريش

****

ترتيبها ١٠٧ — سورة الماعون – مكية — آياتها ٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أرأيتَ الَّذي يُكذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذي يَدُعُّ الْيَتيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾

١- يقول تعالى: أرأيت يا محمد، الذي يكذّب بالدين، وهو: المعاد والجزاء والثواب.

٢- ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي: هو الذي يقهر اليتيم، ويظلمه حقه، ولا يطعمه ولا يحسن إليه.

٣- ﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ◆ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ يعني: الفقير، الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته.

٤, ٥- ثم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ◆ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني: المنافقين، الذين يصلون في العلانية، ولا يصلون في السر، ولهذا قال: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ الذين هم من أهل الصلاة، وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً، فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق وأبو الضحى.

وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل في صلاتهم ساهون.

وإما عن وقتها الأول، فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل ذلك كله، ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسطٌ من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم له نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي.

كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرَ أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً».

فهذا آخر صلاة العصر، التي هي الوسطى، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب لم يطمئن ولا خشع فيها أيضاً، ولهذا قال: «لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» ولعله إنما حمله على القيام إليها، مراآة الناس، لا ابتغاء وجه الله، فهو كما إذا لم يصل بالكلية. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

٦- وقال تعالى ههنا: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾. روى الإمام أحمد: عن عمرو بن مرة قال: كنا جلوساً عند أبي عبيدة، فذكروا الرياء، فقال رجل يكنى بأبي يزيد: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سمّع الناسَ بعمله، سمّع اللهُ به سامع خلقه، وحقّره وصغّره».

ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أن من عمل عملاً لله، فاطَّلع عليه الناس فأعجبه ذلك، أنَّ هذا لا يعد رياءً، والدليل على ذلك ما رواه أبو يعلى: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت أصلي فدخل عليَّ رجل فأعجبني ذلك، فذكرته لرسول الله ﷺ فقال: «كُتبَ لك أجران: أجر السر، وأجر العلانية»(١).

قلت: وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية، ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعاً، وتأخيرها عن أول الوقت.

وكذا رواه الحافظ أبو يعلى: عن مصعب عن أبيه موقوفاً: لهواً عنها، حتى ضاع الوقت.

٧- وقوله تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به، ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات، أولى وأولى، وقد قال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال علي: الماعون الزكاة.

وكذا روي من غير وجه عن ابن عمر، وبه يقول محمد بن الحنفية وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وعطاء وعطية العوفي والزهري والحسن وقتادة والضحاك وابن زيد. وقال الحسن البصري: إنْ صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها، ويمنع زكاة ماله، وفي لفظ: صدقة ماله.

وقال زيد بن أسلم: هم المنافقون، ظهرت الصلاة فصلوها، وخفيت الزكاة فمنعوها.

وسئل عبد الله بن مسعود عن «الماعون» فقال: هو ما يتعاوره الناس بينهم، من الفأس والقدر. وروى ابن جرير: عن عبد الله قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدَّث أن «الماعون» الدلو والفأس والقدر، لا يستغنى عنهن.

وقد رواه أبو داود والنسائي بإسناده نحوه، ولفظ النسائي: عن عبد الله قال: كل معروف صدقة، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ: عارية الدلو والقدر.

وعن ابن عباس ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يعني: متاع البيت وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وأبو مالك وغير واحد، أنها العارية للأمتعة.

وقال عكرمة: رأس الماعون زكاة المال، وأدناه المنخل والدلو والإبرة. رواه ابن أبي حاتم.

وهذا الذي قاله عكرمة حسن، فإنه يشمل الأقوال كلها، وترجع كلها إلى شيء واحد، وهو: ترك المعاونة بمالٍ أو منفعة. ولهذا قال محمد بن كعب ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: المعروف.

ولهذا جاء في الحديث: «كل معروف صدقة». وروى ابن أبي حاتم عن الزهري ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ قال: بلسان قريش المال.

آخر تفسير سورة الماعون

****

---

(١) الحديث ضعيف. ويغني عنه: حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بُشرى المؤمن» رواه مسلم (٤/ ٢٠٣٤).

ترتيبها ١٠٨ — سورة الكوثر مدنية وقيل مكية — آياتها ٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ③﴾

روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة، فرفع رأسه متبسماً - إما قال لهم وإما قالوا له -: لم ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه أنزلت عليَّ آنفاً سورة» فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ◆ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ حتى ختمها فقال: «هل تدرون ما الكوثر؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة عليه خيرٌ كثير، تَرد عليه أمتي يوم القيامة، آنيتُه عَدَد الكواكب، يُخْتلجُ العبد منهم، فأقول: يا رب، إنه من أمتي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة: أنه يشخب فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر، وأن آنيته عدد نجوم السماء، وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائي.

وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة، وأنها منزلة معها.

١ - فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فقد تقدم في هذا الحديث: أنه نهر في الجنة، وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى: عن أنس أنه قرأ هذه الآية ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ الكوثر، فإذا هو نهرٌ يجري ولم يشق شقاً، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ، فضربت بيدي في تربته، فإذا مِسكٌ أذفر، وإذا حصباؤه اللؤلؤ».

وروى البخاري في صحيحه ومسلم: عن أنس بن مالك قال: لما عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء، قال: «أتيت على نهرٍ حافتاه قباب اللؤلؤ المجوَّف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر». وهو لفظ البخاري رحمه الله.

وروى ابن جرير: عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الكوثر، فقال: «هو نهرٌ أعطانيه الله تعالى في الجنة، ترابه مسكٌ، أبيضُ من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طيرٌ أعناقها مثل أعناق الجزر»، قال أبو بكر: يا رسول الله، إنها لناعمة، قال: «أكلها أنعم منها».

وروى البخاري: عن أبي عبيدة عن عائشة رضي الله عنها سألتها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قالت: نهرٌ أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئاه عليه در مجوَّف، آنيته كعدد النجوم.

ثم روى البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة، من الخير الذي أعطاه الله إياه.

وهذا التفسير يعني: النهر وغيره، لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر، كما قال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحارب بن دثار والحسن بن أبي الحسن البصري، حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: هو النبوة والقرآن وثواب الآخرة.

وقد صحَّ عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضاً: فروى ابن جرير: عن ابن جبير عن ابن عباس قال: الكوثر نهر في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج، وأحلى من العسل.

وروى ابن جرير: عن ابن عمر أنه قال: الكوثر نهرٌ في الجنة، حافتاه ذهب وفضة، يجري على الدر والياقوت، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل. وكذا رواه الترمذي.

وقد روي مرفوعاً، فروى الإمام أحمد: عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهرٌ في الجنة، حافتاه من ذهب، والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل» وهكذا رواه الترمذي وابن ماجة وابن أبي حاتم وابن جرير.

وروى ابن جرير: عن عطاء بن السائب قال: قال لي محارب بن دثار: ما قال سعيد بن جبير في الكوثر؟ قلت: حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير. فقال: صدق والله، إنه للخير الكثير، ولكن حدثنا ابن عمر قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهرٌ في الجنة، حافتاه من ذهب، يجري على الدر والياقوت».

وقد صحَّ أصل هذا، بل قد تواتر من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث، وكذلك أحاديث الحوض. وهكذا روي عن أنس وأبي العالية ومجاهد، وغير واحد من السلف: أن الكوثر نهر في الجنة، وقال عطاء: هو حوض في الجنة.

٢- وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة، ونحرك، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والحسن: يعني بذلك: نحر البدن ونحوها، وكذا قال قتادة ومحمد بن كعب القرظي والضحاك والربيع وعطاء الخراساني والحكم وسعيد بن أبي خالد، وغير واحد من السلف، وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله، والذبح علي غير اسمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الآية، وقيل المراد بقوله: ﴿وَانْحَرْ﴾ وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر! يُروى هذا عن علي ولا يصح، وعن الشعبي مثله، وعن أبي جعفر الباقر ﴿وَانْحَرْ﴾ يعني: رفع اليدين عند افتتاح الصلاة وقيل: ﴿وَانْحَرْ﴾ أي: استقبل بنحرك القبلة. ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير. وعن عطاء الخراساني ﴿وَانْحَرْ﴾ أي: ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل، وابرز نحرك، يعني به الاعتدال. رواه ابن أبي حاتم.

وكل هذه الأقوال غريبة جداً، والصحيح القول الأول، أن المراد بالنحر: ذبح المناسك، ولهذا كان

رسول الله ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه، ويقول: «من صلَّى صلاتنا، ونَسك نسكنا، فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة، فلا نسك له» فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، إني نسكت شاتي قبل الصلاة، وعرفتُ أن اليوم يومٌ يشتهى فيه اللحم، قال: «شاتك شاة لحم» قال: فإن عندي عَناقاً هي أحبُّ إلي من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: «تجزئك، ولا تجزئ أحداً بعدك».

قال أبو جعفر ابن جرير: والصواب قول من قال: إن معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك، خالصاً دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان، شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذي لا كفء له، وخصك به. وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى محمد بن كعب القرظي وعطاء.

٣- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: إن مبغضك يا محمد، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق، والبرهان الساطع، والنور المبين، هو الأبتر الأقل الأذل، المنقطع ذكره، قال ابن عباس ومجاهد وسعيد ابن جبير وقتادة: نزلت في العاص بن وائل.

وقال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة. وقال شمر بن عطية: نزلت في عقبة ابن أبي معيط، وقال ابن عباس أيضاً وعكرمة: نزلت في كعب بن الأشرف، وجماعة من كفار قريش.

وروى البزار: عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم، ألا ترى إلى هذا المصنبر المنبتر من قومه؟ يزعم أنه خيرٌ منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية، فقال: أنتم خير منه قال: فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ هكذا رواه البزار، وهو إسناد صحيح.

وعن ابن عباس: نزلت في أبي جهل. وعنه: إن شانئك: يعني عدوك، وهذا يعم جميع من اتصف بذلك، ممن ذكر وغيرهم.

وقال عكرمة: الأبتر الفرد، وقال السدي: كانوا إذا مات ذكور الرجل، قالوا: بتر، فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا: بتر، فأنزل الله ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

وهذا يرجع إلى ما قلناه، من أن الأبتر: الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره، وحاشا وكلا، بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد، وأوجبَ شَرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم المحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد.

آخر تفسير سورة الكوثر

****

ترتيبها ١٠٩ — سورة الكافرون – مكية — آياتها ٦

ثبت في صحيح مسلم: عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة، وبـ «قل هو الله أحد» في ركعتي الطواف.

وفي صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب، بضعاً وعشرين مرة، أو بضع عشرة مرة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وروى أحمد أيضاً: عن ابن عمر قال: رَمقتُ النبي ﷺ أربعاً وعشرين، أو خمساً وعشرين مرة، يقرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب، بـ «قل يا أيها الكافرون» و «قل هو الله أحد». وكذا رواه الترمذي وابن ماجة.

وقد تقدم في الحديث: أنها تعدل ربع القرآن[1].

وروى الإمام أحمد: عن فروة بن نوفل هو ابن معاوية عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال له: «هل لك في ربيبة لنا تكفلها؟» قال: أراها زينب. قال: ثم جاء فسأله النبي ﷺ عنها قال: «ما فعلت الجارية؟» قال: تركتها عند أمها، قال: «فمجيءٌ ما جاء بك» قال: جئت لتعلمني شيئاً أقوله عند منامي، قال: «اقرأ قل يا أيها الكافرون، ثم نم على خاتمتها، فإنها براءةٌ من الشِّرك». تفرد به أحمد، ورواه أبو القاسم الطبراني.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾

١ – هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش، وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة.

٢ – وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني: من الأصنام والأنداد.

٣ – ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وهو الله وحده لا شريك له فـ «ما» ههنا بمعنى «من».

٤ – ثم قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي: ولا أعبد عبادتكم، أي: لا أسلكها ولا أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه.

٥ – ولهذا قال: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي: لا تقتدون بأوامر الله، وشرعه في عبادته، بل قد

(١) رواه الترمذي (٣٠٧١) في فضائل القرآن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسولﷺ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه، ولهذا كان كلمة الإسلام: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أي: لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسولﷺ، والمشركون يعبدون غير الله، عبادةً لم يأذن بها الله.

٦- ولهذا قال لهم الرسولﷺ ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ كما قال تعالى: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ وقال: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾.

وقال البخاري: يقال ﴿لكم دينكم﴾ الكفر ﴿ولي دين﴾ الإسلام، ولم يقل ديني، لأن الآيات بالنون فحذف الياء، كما قال: ﴿فهو يهدين﴾ ﴿ويسقين﴾ وقال غيره: لا أعبد ما تعبدون الآن، ولا أجيبكم فيما بقي من عمري، ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهم الذين قال: ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ انتهى ما ذكره.

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية: أن ذلك من باب التأكيد، كقوله: ﴿فإن مع العسر يسراً ◆ إن مع العسر يسراً﴾ وكقوله: ﴿لترون الجحيم ◆ ثم لترونها عين اليقين﴾ وحكاه بعضهم كابن الجوزي وغيره عن ابن قتيبة، فالله أعلم.

فهذه ثلاثة أقوال: أولها: ما ذكرناه أولاً.

الثاني: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد ﴿لا أعبد ما تعبدون ◆ ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في الماضي ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم ◆ ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في المستقبل. الثالث: أن ذلك تأكيد محض.

وثم قول رابع: نصره أبو العباس ابن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ نفي الفعل، لأنها جملة فعلية ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية، لأن النفي بالجملة الاسمية آكد، فكأنه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك، ومعناه: نفي الوقوع، ونفي الإمكان الشرعي أيضاً، وهو قولٌ حسن أيضاً، والله أعلم.

وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة، فورث اليهود من النصارى، وبالعكس، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به، لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان.

وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه: إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس، لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول اللهﷺ: «لا يتوارث أهل ملتين شتى»[١].

آخر تفسير سورة الكافرون

****

(١) رواه أبو داود (٢٩١١) والترمذي (٢٢٠٦) وابن ماجة (٢٧٣١).

ترتيبها ١١٠ — سُورَةُ النصر – مدنية — آياتها ٣

روى النسائي: عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لي ابن عباس: يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: صدقت(١).

وروى الحافظ البيهقي: عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، وقال: «إنه قد نُعيت إليَّ نفسي» فبكت ثم ضحكت، وقالت: أخبرني أنه نُعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: «اصبري، فإنك أولُ أهلي لحاقاً بي» فضحكت. وقد رواه النسائي كما سيأتي، بدون ذكر فاطمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

١، ٢- روى البخاري: عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وَجَد في نفسه، فقال: لم تُدخل هذا معنا، ولنا أبناءٌ مثلُه، ؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليُريهم، فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا، وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. تفرد به البخاري. وروى ابن جرير مثل هذه القصة أو نحوها.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: رسول الله ﷺ: «نُعيتْ إليَّ نفسي» بأنه مقبوض في تلك السنة. تفرد به أحمد. وروى العوفي عن ابن عباس مثله. وهكذا قال مجاهد وأبو العالية والضحاك وغير واحد: أنها أجلُ رسول الله ﷺ نُعي إليه.

وروى الطبراني: عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ حتى ختم السورة، قال: نُعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت. قال: فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة. وقال رسول الله ﷺ بعد ذلك: «جاء الفتحُ ونصر الله، وجاء أهل اليمن» فقال رجل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «قومٌ رقيقةٌ قلوبهم، لينةٌ طباعهم، الإيمان يَمان، والفقه يَمان».

وروى الإمام أحمد أيضاً: عن أبي سعيد الخدري أنه قال: لما نزلت هذه السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها، فقال: «الناس حين، وأنا وأصحابي حين» وقال: «لا هجرة بعد

---

(١) قد رواه مسلم في صحيحه في التفسير (٤/ ٢٣١٨)!

الفتح، ولكن جهاد ونية» فقال له مروان: كذبت، وعنده رافع بن خديج وزيد بن ثابت قاعدان معه على السرير، فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة، فرفع مروان عليه الدرة ليضربه، فلما رأيا ذلك قالا: صدق. تفرد به أحمد.

وهذا الذي أنكره مروان على أبي سعيد، ليس بمنكر، فقد ثبت من رواية ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: يوم الفتح: «لا هجرة ولكن جهاد ونية، ولكن إذا استُنفرتم فانفروا» أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، فالذي فسَّر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين من أنه: قد أُمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون، أن نحمد الله ونشكره ونسبحه، يعني: نصلي له ونستغفره، معنى مليح صحيح.

وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثمان ركعات. فقال قائلون: هي صلاة الضحى، وأُجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها، فكيف صلاها ذلك اليوم، وقد كان مسافراً لم ينو الإقامة بمكة؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان، قريباً من تسع عشرة يوماً يقصر الصلاة، ويفطر هو وجميع الجيش، وكانوا نحواً من عشرة الاف.

قال هؤلاء: وإنما كانت صلاة الفتح. قالوا: فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلداً، أن يصلي فيه أول ما يدخله ثمان ركعات، وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص يوم فتح المدائن، ثم قال بعضهم: يصليها كلها بتسليمة واحدة، والصحيح: أنه يسلم من كل ركعتين، كما ورد في سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ كان يسلِّم يوم الفتح من كل ركعتين.

وأما ما فسَّر به ابن عباس وعمررضي الله تعالى عنهما، من أن هذه السورة نُعي فيها إلى رسول الله ﷺ روحه الكريمة، وأُعلم أنك إذا فتحت مكة - وهي قريتك التي أخرجتك - ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فقد فرغ شغلنا بك في الدنيا، فتهيأ للقدوم علينا، والوفود إلينا، فالآخرة خيرٌ لك من الدنيا، ولسوف يُعطيك ربك فترضى.

٣- ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ روى البخاري: عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذي.

وروى الإمام أحمد: عن مسروق قال: قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يُكثر في آخر أمره من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفرالله وأتوب إليه» وقال: «إنَّ ربي كان أخبرني أني سأرى علامةً في أمتي، وأمرني إذا رأيتُها أن أسبِّح بحمده وأستغفره، إنه كان تواباً، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾» ورواه مسلم.

وروى ابن جرير: عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء، إلا قال: «سبحان الله وبحمده» فقلت: يا رسول الله، رأيتك تُكثر من سبحان الله وبحمده، لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد، إلا قلت: سبحان الله وبحمده، قال: «إني أمرتُ بها، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخر السورة.

وقد كتبنا حديث كفارة المجلس من جميع طرقه وألفاظه، في جزء مفرد فيكتب ههنا.

والمراد بالفتح ههنا: فتح مكة، قولاً واحداً، فإنَّ أحياء العرب كانت تتلو بإسلامها فتح مكة، يقولون: إنْ ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتحَ الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان، حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، ولله الحمد والمنة.

وقد روى البخاري في صحيحه: عن عمرو بن سلمة قال: لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ، وكانت الأحياء تتلو بإسلامها فتح مكة يقولون: دَعُوه وقومه، فإن ظهر عليهم فهو نبي، الحديث.

وقد حررنا غزوة الفتح في كتابنا «السيرة» فمن أراد فليراجعه هناك، ولله الحمد والمنة.

آخر تفسير سورة النصر

****

ترتيبها ١١١ — سورة تبت – مكية — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤﴾

روى البخاري: عن ابن عباس: أن النبيﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تباً لك، فأنزل الله **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾** إلى آخرها.

وفي رواية: فقام ينفض يديه، وهو يقول: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾**.

الأول: دعاء عليه، والثاني: خبر عنه.

فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول اللهﷺ، واسمه عبد العزى ابن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وإنما سمي أبا لهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول اللهﷺ والبغضة له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه.

وروى الإمام أحمد: عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال: أخبرني رجل يقال له: ربيعة بن عباد، من بني الدليل – وكان جاهلياً فأسلم – قال: رأيتُ النبيﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز، وهو يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجلٌ وضيءٌ الوجه أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه، فقالوا: هذا عمه أبو لهب. قال أبو الزناد قلت لربيعة: كنت يومئذ صغيراً؟ قال: لا والله، إني يومئذ لأعقل أني أزفر القربة، تفرد به أحمد. ورواه محمد بن إسحاق بنحوه.

١- فقوله تعالى: **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾** أي: خسر وخاب، وضل عمله وسعيه **﴿وَتَبَّ﴾** أي: وقد تبَّ تحققُ خسارته وهلاكه.

٢- وقوله تعالى: **﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾** قال ابن عباس وغيره **﴿وَمَا كَسَبَ﴾** يعني: ولده، وروي عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله، وذكر عن ابن مسعود: أن رسول اللهﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: **﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾**.

٣- وقوله تعالى: **﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾** أي: ذات شرر ولهب، وإحراق شديد.

٤- **﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾** وكانت زوجته من سادات نساء قريش، وهي أم جميل، واسمها أروى

بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان، وكانت عوناً لزوجها على كفره، وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم.

ولهذا قال تعالى: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ يعني: تحمل الحطب فتلقي على زوجها، ليزداد على ما هو فيه، وهي مهيأةٌ لذلك مستعدة له.

٥- ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ قال مجاهد وعروة: من مسد النار. وعن مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والثوري والسدي: حمالة الحطب، كانت تمشي بالنميمة، واختاره ابن جرير.

وقال العوفي عن ابن عباس وعطية الجدلي والضحاك وابن زيد: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ.

قال ابن جرير: كانت تغير النبي ﷺ بالفقر وكانت تحتطب، فعيرت بذلك. كذا حكاه ولم يعزه إلى أحد، والصحيح الأول، والله أعلم.

وروى ابن جرير: عن الشعبي قال: المسد الليف. وقال عروة بن الزبير: المسد سلسلة، ذرعها سبعون ذراعاً. وعن الثوري: هو قلادة من نار، طولها سبعون ذراعاً. وقال الجوهري: المسد الليف، والمسد أيضاً: حبل من ليف أو خوص، وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارها، ومسدت الحبل أمسده مسداً، إذا أجدت فتله.

وقال مجاهد ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: طوق من حديد، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسداً؟

وروى ابن أبي حاتم: عن أسماء بنت أبي بكر قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فِهر، وهي تقول:

مُذمَّماً أبينا ودينه قَلينـا وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد معه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني» وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، إني أُخبرتُ أنَّ صاحبَك هَجاني! قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولَّت وهي تقول قد علمت قريش أني ابنة سيدها. قال: فعثرت أم جميل في مرطها، وهي تطوف بالبيت، فقالت: تعس مذمم! فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب: إني لحصانٌ فما أكلم، وثَقَاف فما أعلم، وكلتانا من بني العم، وقريش بعد أعلم. ورواه الحافظ أبو بكر البزار بنحوه.

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء، وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما، لا باطناً ولا ظاهراً، لا مُسِراً ولا مُعلناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة، على النبوة الظاهرة.

آخر تفسير سورة المسد

****

ترتيبها ١١٢ — سُورَةُ الإخلاص - مكية — آياتها ٥

(ذكر سبب نزولها وفضلها)

روى الإمام أحمد: عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ وكذا رواه الترمذي وابن جرير.

زاد ابن جرير والترمذي: قال[1] ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيءٌ يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفواً أحد، ولم يكن له شبه ولا عدل، وليس كمثله شيء. ورواه ابن أبي حاتم.

حديث آخر في معناه: روى الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن جابر رضي الله عنه: أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها. إسناد متقارب، وقد رواه ابن جرير.

حديث آخر في فضلها: روى البخاري: عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ بعثَ رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك» فسألوه فقال: لأنها صفةُ الرحمن، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبه» هكذا رواه في كتاب التوحيد.

حديث آخر: روى البخاري في كتاب الصلاة: عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعةٍ، فكلّمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك، حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إنْ أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟» قال: إني أحبها، قال: «حبُّك إياها أدخلك الجنة» هكذا رواه البخاري تعليقاً مجزوماً به.

حديث في كونها تعدل ثلث القرآن: روى البخاري: عن أبي سعيد: أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالّها، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن».

حديث آخر: روى البخاري: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدُكم أن

---

(١) هو من قول أبي العالية.

يقرأ ثُلث القرآن في ليلة؟» فشقَّ ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد، ثلث القرآن» تفرد بإخراجه البخاري.

حديث آخر: روى أبو عيسى الترمذي: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احشُدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» فحشد مَن حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: «فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال: «إني قلتُ سأقرأ عليكم ثلثَ القرآن، ألا وإنها تَعدلُ ثلث القرآن» وهكذا رواه مسلم في صحيحه.

حديث آخر: روى الإمام أحمد: عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أيعجزُ أحدُكم أن يقرأ كل يوم ثلثَ القرآن؟» قالوا: نعم يا رسول الله، نحن أضعفُ من ذلك وأعجز، قال: «فإنَّ الله جزَّأ القرآن ثلاثة أجزاء، فـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلثُ القرآن» رواه مسلم والنسائي.

حديث آخر في كون قراءتها توجب الجنة: روى الإمام مالك بن أنس: عن أبي هريرة يقول: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وجبت» قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة» ورواه الترمذي والنسائي.

حديث آخر: روى عبد الله بن الإمام أحمد: عن معاذ بن عبد الله بن حبيب عن أبيه قال: أصابنا عطشٌ وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا فخرج فأخذ بيدي، فقال: «قل» فسكت، قال: «قل» قلت: ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين، حين تُمسي وحين تصبح ثلاثاً، تكفيك كل يوم مرتين» ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

حديث آخر: روى الإمام أحمد: عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه: عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات، بنى الله له قصراً في الجنة» فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثر وأطيب» تفرد به أحمد.

حديث آخر: قال النسائي عند تفسيرها: عن عبد الله بن بريدة عن أبيه: أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلي يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، قال: «والذي نفسي بيده، لقد سأله باسمه الأعظم، الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب» وقد أخرجه بقية أصحاب السنن.

حديث آخر: في الاستشفاء بهن، روى البخاري: عن عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفَّيه، ثم نفثَ فيهما، وقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات» وهكذا رواه أهل السنن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾

١- قد تقدم ذكر سبب نزولها. وقال عكرمة: لما قالت اليهود: نحن نعبد عزير ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقالت المشركون: نحن نعبد الأوثان، أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني: هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له، ولا وزير ولا نديد، ولا شبيه ولا عديل، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات، إلا على الله عز وجل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

٢- وقوله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ قال عكرمة عن ابن عباس: يعني: الذي يَصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو السيد الذي قد كَمل في سؤدده، الشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته، لا تنبغي إلا له، ليس له كفءٌ، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار.

وعن أبي وائل ﴿الصَّمَدُ﴾ السيد الذي قد انتهى سؤدده. ورواه عن ابن مسعود. وقال مالكٌ عن زيد بن أسلم: ﴿الصَّمَدُ﴾ السيد، وقال الحسن وقتادة: هو الباقي بعد خلقه.

وقال الحسن أيضاً: الصمد الحي القيوم الذي لا زوال له.

وقال عكرمة: الصمد الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم.

وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد ولم يولد. كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهو تفسير جيد.

وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير عن أبي بن كعب في ذلك، وهو صريح فيه.

وقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله بن بريدة وعكرمة أيضاً وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وعطية العوفي والضحاك والسدي ﴿الصَّمَدُ﴾: الذي لا جوف له.

وعن مجاهد ﴿الصَّمَدُ﴾: المصمت الذي لا جوف له. وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب، وقال عبد الله بن بريدة أيضاً ﴿الصَّمَدُ﴾: نور يتلألأ، روى ذلك كله وحكاه ابن أبي حاتم والبيهقي والطبراني، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده.

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في «كتاب السنة» له بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا عز وجل، هو الذي يُصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا ويشرب، وهو الباقي بعد خلقه.

وقال البيهقي نحو ذلك.

٣، ٤- وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: ليس له ولد ولا والد، ولا صاحبة، قال مجاهد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يعني: لا صاحبة له، وهذا كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظيرٌ يساميه، أو قريبٌ يدانيه، تعالى وتقدس وتنزه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝

لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴿ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً ﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَداً ﴿ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحمنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِ الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعدَّهُمْ عَدّاً ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ﴿ سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

وفي صحيح البخاري: «لا أحد أصبرُ عَلى أذًى سمعه من الله، يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم» .

وروى البخاري: عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: كذَّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد» .

آخر تفسير سورة الإخلاص

****

﴿تفسير سورتي المعوذتين – وهما مدنيتان﴾

(ما ورد في فضل المعوذتين)

روى الإمام أحمد: عن زر بن حبيش قال: قلت لأبي بن كعب: إن ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه! فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فقلتها، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فقلتها، فنحن نقول ما قال النبي ﷺ. ورواه أبو بكر الحميدي في مسنده.

وروى البخاري: عن زر قال: سألت أبي بن كعب فقلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا، فقال: إني سألتُ النبي ﷺ، فقال: «قيل لي فقلت» فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ، ورواه أيضاً والنسائي.

وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء، أن ابنَ مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فلعله لم يسمعها من النبي ﷺ ولم يتواتر عنده، ثم قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة، فإنَّ الصحابة رضي الله عنهم أثبتوهما في المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك، ولله الحمد والمنة.

وقد روى مسلم في صحيحه: عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلتْ هذه الليلة، لم يُر مثلهن قط ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. ورواه أحمد ومسلم أيضاً والترمذي والنسائي.

طريق أخرى: روى الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر قال: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب، إذْ قال لي: «يا عقبة، ألا تركب؟ قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبتُ هُنيَّة، ثم ركب، ثم قال: «يا عُقب، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس» قلت: بلى يا رسول الله، فأقرأني ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم أقيمت الصلاة، فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مرَّ بي فقال: «كيف رأيت يا عقب؟ اقرأ بهما كلما نمتَ وكلما قمت» ورواه أبو داود والنسائي أيضاً.

طريق أخرى: روى أحمد: عن عقبة بن عامر قال: أمرَني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات، في دُبر كل صلاة. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

طريق أخرى: روى أحمد: عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ بالمعوذتين، فإنك لن تقرأ بمثلهما» تفرد به أحمد.

طريق أخرى: روى أحمد: عن عقبة بن عامر أنه قال: إن رسول الله ﷺ أهديت له بغلة شهباءُ فركبها، فأخذ عقبةُ يقودها له، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فأعادها له حتى قرأها، فعرَف أني لم أفرح بها جداً «فقال لعلك تهاونتَ بها؟ فما قمتَ تصلي بشيءٍ مثلها» ورواه النسائي.

طريق أخرى: روى النسائي: عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الناس لم يتعوذوا بمثل هذين ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

طريق أخرى: روى النسائي: عن عقبة بن عامر قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ قال: «يا عقبةُ، قل» قلت: ماذا أقول؟ فسكت عني ثم قال: «قل» قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾»

فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال رسول الله ﷺ: «قل» قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾» فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «ما سأل سائلٌ بمثلها، ولا استعاذ مستعيذٌ بمثلها».

طريق أخرى: روى النسائي: عن عقبة بن عامر: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في صلاة الصبح.

طريق أخرى: روى النسائي: عن عقبة بن عامر قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب، فوضعت يدي على قدميه، فقلت: أقرئني سورة هود، أو سورة يوسف، فقال: «لن تقرأ شيئاً أنفع عند الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾».

حديث آخر: روى النسائي: عن ابن عباس الجهني: أن النبي ﷺ قال له: «يا ابن عباس، ألا أدلك - أو ألا أخبرك - أفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: « ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هاتان السورتان».

فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث.

حديث آخر: روى النسائي: عن جابر بن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ «اقرأ يا جابر» قلت: وما أقرأ بأبي أنت وأمي؟ قال: «اقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾» فقرأ بهما، فقال: «اقرأ بهما، ولن تقرأ بمثلهما».

وتقدم حديث عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهن، وينفث في كفيه، ويمسح بهما رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده.

وروى الإمام مالك: عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنتُ أقرأ عليه بالمعوذات، وأمسح بيده عليه، رجاء بركتها. ورواه البخاري ومسلم.

وتقدم في آخر سورة ﴿ن﴾ من حديث أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ كان يتعوَّذ من أعين الجان، وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذَ بهما، وترك ما سواهما. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة.

****

ترتيبها ١١٣ | سُورَةُ الفلق – مدنية | آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾

١- روى ابن أبي حاتم: عن جابر قال: الفلق الصبح. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿الْفَلَقِ﴾ الصبح، وروي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعبد الله بن محمد بن عقيل والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظي وابن زيد ومالك عن زيد بن أسلم مثل هذا.

قال القرظي وابن زيد وابن جرير: وهي كقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿الْفَلَقِ﴾ الخلق. وكذا قال الضحاك: أمر الله نبيه أن يتعوذ من الخلق كله.

وقال كعب الأحبار ﴿الْفَلَقِ﴾: بيت في جهنم، وإذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره. ورواه ابن أبي حاتم. وكذا روي عن عمرو بن عنبسة وابن عباس والسدي وغيرهم. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع منكر. وقال أبو عبد الرحمن الحبلي ﴿الْفَلَقِ﴾ من أسماء جهنم.

قال ابن جرير: والصواب القول الأول: أنه فلق الصبح. وهذا هو الصحيح، وهو اختيار البخاري في صحيحه رحمه الله تعالى.

٢- وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: من شر جميع المخلوقات، وقال ثابت البناني والحسن البصري: جهنم وإبليس وذريته مما خلق.

٣- ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قال مجاهد: غاسق الليل إذا وقب، غروب الشمس. حكاه البخاري عنه، وكذا رواه ابن أبي نجيح عنه، وكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والضحاك وخصيف والحسن وقتادة: أنه الليل إذا أقبل بظلامه. وقال الزهري ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الشمس إذا غربت.

وعن عطية وقتادة: إذا وقب الليل: إذا ذهب، وقال أبو المهزم عن أبي هريرة ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الكوكب. وقال ابن زيد: كانت العرب تقول: الغاسق سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها، وترتفع عند طلوعها.

قال ابن جرير: وقال آخرون: هو القمر. قلت: وعمدة أصحاب هذا القول: ما رواه الإمام أحمد: عن عائشة رضي الله عنها: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فأراني القمر حين طلع، وقال «تعوَّذِي بالله من شرِّ هذا الغَاسق إذا وقب». ورواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننيهما.

ولفظ النسائي: «تعوَّذي بالله من شرِّ هذا، هذا الغاسق إذا وقب».

قال أصحاب القول الأول: وهو آية الليل إذا ولج، هذا لا ينافي قولنا، لأن القمر آية الليل، ولا يوجد له سلطان إلا فيه، وكذلك النجوم لا تضيء إلا بالليل فهو يرجع إلى ما قلناه، والله أعلم.

٤، ٥- وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك: يعني السواحر. قال مجاهد: إذا رقين ونفثن في العقد. وروى ابن جرير: عن ابن طاوس عن أبيه قال: ما من شيء أقرب إلى الشرك، من رقية الحية والمجانين.

وفي الحديث الآخر: أن جبريل جاء إلى النبيﷺ فقال: «اشتكيت يا محمد؟» فقال: «نعم» فقال: «بسم اللهِ أرقيكَ، من كل داءٍ يُؤذيك، ومن شرِّ كلِّ حاسدٍ وعين، الله يشفيك»(١).

ولعل هذا كان من شكواهﷺ حين سحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، وردَّ كيد السّحرة الحسّاد من اليهود في رءوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وفضحهم، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول اللهﷺ يوماً من الدهر، بل كفى الله وشفى وعافى.

روى الإمام أحمد: عن زيد بن أرقم قال: سَحَر النبيﷺ رجلٌ من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً، قال: فجاءه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، وعَقَد لك عُقداً في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها، فبعث رسول اللهﷺ فاستخرجها، فجاءه بها فحللها، قال: فقام رسول اللهﷺ كأنما نَشط من عقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه حتى مات، ورواه النسائي.

وروى البخاري في كتاب الطب من صحيحه: عن عائشة قالت: كان رسول اللهﷺ سُحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن – قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا – فقال: «يا عائشة، أعلمتِ أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعَدَ أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبَّه؟ قال: لبيد بن أعصم رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً، قال: وفيم؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطة، قال: وأين؟ قال: في جُفِّ طلعةِ ذَكر، تحت رعوفة في بئر ذروان» قالت: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال: «هذه البئر التي أُريتها وكأن ماءها نُقاعة الحنَّاء، وكأن نخلها رءوس الشياطين» قال: فاستخرج، فقلت: أفلا تَنَشَّرت؟ فقال: «أما اللهُ فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً» وقد رواه مسلم.

ورواه الإمام أحمد: عن عائشة قالت: لبث النبيﷺ ستة أشهر يرى أنه يأتي ولا يأتي، فأتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما باله؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، وذكر تمام الحديث.

آخر تفسير سورة الفلق

****

(١) رواه مسلم في السلام (٤/ ١٧١٨) وأحمد (٣/ ٢٨) من حديث أبي سعيد الخدريﷺ.
وقد مضى كلام المؤلف رحمه الله عن الحسد وعلاجه في آخر سورة القلم، فراجعه إن شئت.

ترتيبها ١١٤ — سُورَةُ النَّاس – مدنية — آياتها ٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَٰهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾

١ - ٣- هذه ثلاث صفاتٍ من صفات الرب عز وجل: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو ربُّ كل شيء، ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقةٌ له، مملوكة، عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات، من شر الوسواس الخناس، وهو: الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحدٍ من بني آدم، إلا وله قرينٌ يزيِّن له الفواحش، ولا يألوه جهداً في الخَبال، والمعصوم من عصمه الله.

وقد ثبت في الصحيح: أنه «ما منكم من أحدٍ إلا قد وُكل به قرينه» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، إلا أن الله أعانني عليه فأسلَم، فلا يأمرني إلا بخير».

وثبت في الصحيحين: عن أنس في قصة زيارة صفية للنبيﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً ليردَّها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبيﷺ أسرعا فقال رسول اللهﷺ: «على رسلكما، إنها صفية بنت حيي» فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال: «إن الشيطانَ يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خَشيتُ أن يقذف في قلوبكما شيئاً - أو قال: شراً -».

وروى الإمام أحمد: عن أبي تميمة يحدث: عن رديف رسول اللهﷺ قال: عثر بالنبيﷺ حماره، فقلت: تعس الشيطان فقال النبيﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب» تفرد به أحمد إسناده جيد قوي.

وفيه دلالة: على أنَّ القَلب متى ذَكرَ الله تصاغر الشيطان وغُلب، وإن لم يذكر الله تعاظم وغَلبَ.

٤- وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سَها وغَفَل وسوس، فإذا ذكرَ الله خَنسَ. وكذا قال مجاهد وقتادة. وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه: ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن، وعند الفرح، فإذا ذكر الله خنس.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿الْوَسْوَاسِ﴾ قال: هو الشيطان يأمر، فإذا أطيع خنس.

٥- وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ هل يختص هذا ببني آدم، كما هو الظاهر، أو يعم بني آدم والجن؟ فيه قولان. ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليباً.

وقال ابن جرير: وقد استعمل فيهم رجال من الجن، فلا يدع في إطلاق الناس عليهم.

٦- وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ هل هو تفصيل لقوله: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ثم بينهم فقال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وهذا يقوي القول الثاني، وقيل: قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ تفسير للذي

يوسوس في صدور الناس، من شياطين الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وكما روى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فجلست فقال: «يا أبا ذر، هل صليت؟» قلت: لا، قال: «قم فصل» قال: فقمتُ فصليتُ، ثم جلست فقال: «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن» قال: فقلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم» قال: فقلت: يا رسول الله، الصلاة؟ قال: «خير موضوع، من شاء أقل ومن شاء أكثر» قلت: يا رسول الله، فالصوم؟ قال: «فرضٌ مجزئٌ، وعند الله مزيد» قلت: يا رسول الله، فالصدقة؟ قال: «أضعاف مضاعفة» قلت: يا رسول الله، فأيها أفضل؟ قال: «جُهد من مُقل، أوسر إلى فقير» قلت: يا رسول الله، أيُّ الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله، ونبياً كان؟ قال: «نعم، نبي مكلم» قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلثمائة وبضعة عشر، جماً غفيراً» وقال مرة: «خمسة عشر» قلت: يا رسول الله، أيما أنزل عليك أعظم، قال: «آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾» ورواه النسائي.

وقد أخرج هذا الحديث مطولاً جداً: أبو حاتم بن حبان في صحيحه بطريق آخر، ولفظ آخر مطول جداً، فالله أعلم.

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني لأحدث نفسي بالشَّيء، لأن أَخرَّ من السماء أحبُّ إليَّ من أن أتكلم به، قال: فقال النبي ﷺ: «اللهُ أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردَّ كيدهُ إلى الوسوسة». ورواه أبو داود والنسائي[1].

[تم الجزء الرابع من تفسير ابن كثير، وبه تم الكتاب، ولله الحمد والمنة]

****

(١) قال العبد الفقير إلى عفو ربه الغني **محمد بن حمد الحمود النجدي**: تم تهذيب هذا التفسير المبارك «تفسير ابن كثير» بعد صلاة الظهر في اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان المبارك، لعام ١٤٢٨ هـ. فلله تعالى الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وصلى الله على عبده ونبيه محمد وآله وصحبه وسلم.

فهرست الكتاب